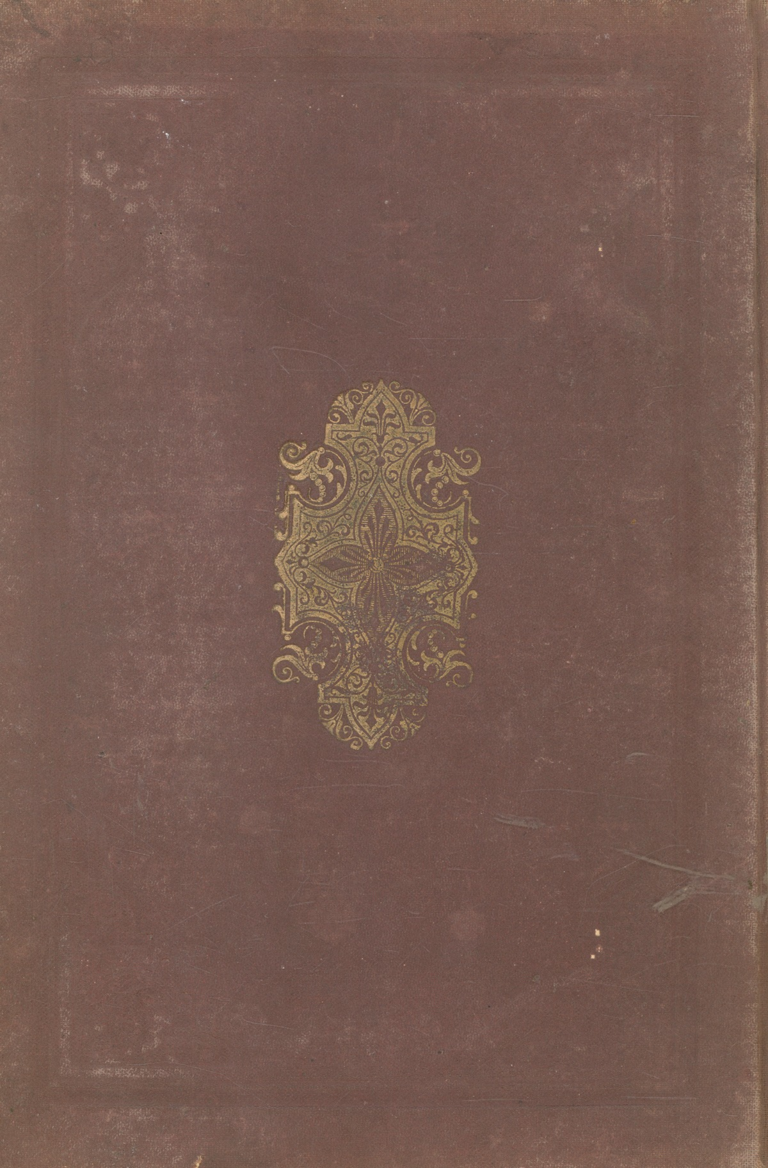


## فهرست الجزء الخامس من الفخر الرازى

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفة

صحيفه



*( تمت )*

شركت صحافية عثمانيه

# الجزء الخامس من مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير للامام محمد الرازى فخر الدين

ابن العلامة ضياء الدين عمر

المشتهر بخطيب الرى

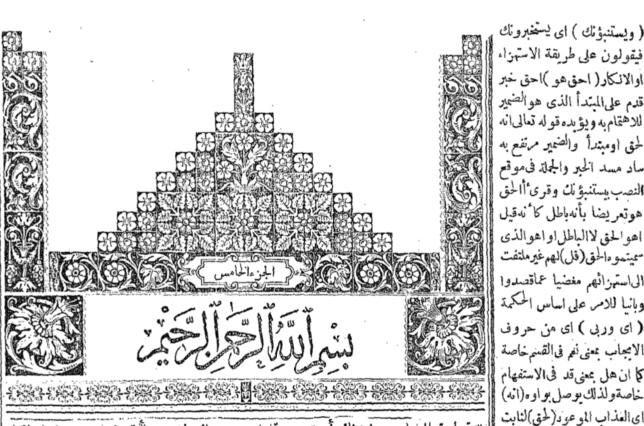
نفع الله به المسلمين

آمين

م

* ( وبهامشه تفسير العلامة أبى السعود ) *






❊قوله تعالى (ويستنبؤنك أحق هو قل اى وربى انه لحق وما أنتم بمعجزين ولو ان لكل نفس ظلمت ما فى الارض لافتدت به وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) اعلم انه سبحانه أخبر عن الكفار بقوله ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين واجاب عنه بما تقدم فحكى عنهم انهم رجعوا الى الرسول مرة أخرى فى عين هذه الواقعة وسألوه عن ذلك السؤال مرة أخرى وقالوا أحق هو واعلم ان هذا السؤال جهل محض من وجوه (أولها) انه قد تقدم هذا السؤال مع الجواب فلا يكون فى الاعادة فائدة (وثانيها) انه تقدم ذكر الدلالة العقلية على كون محمد رسولا من عند الله وهو بيان كون القرآن معجزا واذا صحت نبوته لزم القطع بصحة كل ما يخبر عن وقوعه فهذه المعانى توجب الاعراض عنهم وترك الالتفات الى سؤالهم واختلفوا فى الضمير فى قوله أحق هو قيل أحق ما جئتنا به من القرآن والنبوة والشرائع وقيل ما تعدنا من البعث والقيامة وقيل ما تعدنا من نزول العذاب علينا فى الدنيا ثم انه تعالى أمره ان يجيبهم بقوله قل اى وربى انه لحق والفائدة فيه أمور (احدها) ان يستميلهم ويتكلم معهم بالكلام المعتاد ومن الظاهر ان من أخبر عن شئ وأكده بالقسم فقد أخرجه عن الهزل وادخله فى باب الجد (وثانيها) ان الناس طبقات فمنهم من لا يقر بالشئ الا بالبرهان الحقيقى ومنهم من لا ينتفع بالبرهان الحقيقى بل ينتفع بالاشياء الاقناعية نحو القسم فان الاعرابى الذى جاء الرسول عليه السلام وسأل عن نبوته ورسالته اكتفى فى تحقيق تلك الدعوى بالقسم فكذا ههنا ثم انه تعالى اكد ذلك بقوله وما أنتم بمعجزين ولا بد فيه من تقدير محذوف فيكون المراد وما أنتم بمعجزين

(ويستنبؤنك) اى يستخبرونك فيقولون على طريقة الاستهزاء او الانكار (احق هو) احق خبر قدم على المبتدأ الذى هو الضمير للاهتمام به ويؤيده قوله تعالى انه لحق او مبتدأ والضمير مرتفع به ساد مسد الخبر والجملة فى موقع النصب بيستنبؤنك وقرئ آلحق هو تعريضا بأنه باطل كأنه قيل اهو الحق لا الباطل او اهو الذى سميتموه الحق (قل) لهم غير ملتفت الى استهزائهم مغضيا عما قصدوا وبانيا للامر على اساس الحكمة (اى وربى) اى من حروف الايجاب بمعنى نعم فى القسم خاصة كما ان هل بمعنى قد فى الاستفهام خاصة ولذلك يوصل بواوه (انه) اى العذاب الموعود (لحق) لثابت البتة اكد الجواب بأتم وجوه التأكيد حسب شدة انكارهم وقوته وقد زيد تقريرا وتحقيقا بقوله عز اسمه (وما أنتم بمعجزين) اى بفائتين العذاب بالهرب وهو لاحق بكم لا محالة وهو اما معطوف على جواب القسم او مستأنف سيق لبيان عجزهم عن الخلاص مع ما فيه من التقرير المذكور (ولو ان لكل نفس ظلمت) بالشرك او التعدى على الغير او غير ذلك من اصناف الظلم ولو مرة حسبما يفيده كون الصفة فعلا (ما فى الارض) اى ما فى الدنيا من خزائنها واموالها ومنافعها قاطبة وان كثرت (لافتدت به) اى لجعلته فدية لها من العذاب من افتداه بمعنى فداه (واسروا) اى النفوس المدلول عليها بكل نفس والعدول الى صيغة الجمع مع تحقق العموم فى صورة الافراد ايضا لافادة تهويل الخطب بكون الاسرار بطريق المعية والاجتماع وانما لم يراع ذلك فيما سبق لتحقيق

لمن وعدكم بالعذاب ان ينزله عليكم والغرض منه التنبيه على ان احدا لايجوز ان ءانع ربه ويدافعه عما أراد وقضى ثم انه تعالى بين ان هذا الجنس من الكلمات انما يجوز عليهم ماداموا في الدنيا فاما اذا احضروا محفل القيامة وعاينوا قهر الله تعالى وآثار عظمته تركوا ذلك واشتغلوا باشياء أخرى ثم انه تعالى حكى عنهم ثلاثة اشياء (أولها) قوله ولو ان لكل نفس ظلمت مافي الارض لافتدت به الا ان ذلك متعذر لانه في محفل القيامة لايملك شيئا كما قال تعالى وكلهم آتيه يوم القيامة فردا وبتقدير ان يملك خزائن الارض لاينفعه الفداء لقوله تعالى ولايؤخذ منها عدل ولاهم ينصرون وقال في صفة هذا اليوم لابيع فيه ولا خلة ولاشفاعة (وثانيها) قوله وأسروا الندامة لما رأوا العذاب واعلم ان قوله واسروا الندامة جاء على لفظ الماضي والقيامة من الامور المستقبلة الا انها لما كانت واجبة الوقوع جعل الله مستقبلها كالماضي واعلم ان الاسرار هو الاخفاء والاظهار وهو من الاضداد اما ورود هذه اللفظة بمعنى الاخفاء فظاهر وأما ورودها بمعنى الاظهار فهو من قولهم سر الشيء واسره اذا أظهره اذا عرفت هذا فنقول من الناس من قال المراد منه اخفاء تلك الندامة والسبب في هذا الاخفاء وجوه (الاول) انهم لما رأوا العذاب الشديد صاروا مبهوتين متحيرين فلم يطيقوا عنده بكاء ولاصراخا سوى اسرار الندم كالحال فيمن يذهب به ليصلب فانه يبقى مبهوتا متحيرا لاينطق بكلمة (الثاني) انهم اسروا الندامة من سفلتهم واتباعهم حياء منهم وخوفا من توبيخهم فان قيل ان مهابة ذلك الموقف تمنع الانسان عن هذا التدبير فكيف اقدموا عليه قلنا ان هذا الكتمان انما يحصل قبل الاحتراق بالنار فاذا احترقوا تركوا هذا الاخفاء واظهروه بدليل قوله تعالى قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا (الثالث) انهم اسروا تلك الندامة لانهم اخلصوا لله في تلك الندامة ومن اخلص في الدعاء اسره وفيه تهكم بهم وباخلاصهم يعني انهم لما اتوا بهذا الاخلاص في غير وقته لم ينفعهم بل كان من الواجب عليهم ان يأتوا به في دار الدنيا وقت التكليف واما من فسر الاسرار بالاظهار فقوله ظاهر لانهم انما اخفوا الندامة على الكفر والفسق في الدنيا لاجل حفظ الرياسة وفي القيامة بطل هذا الغرض فوجب الاظهار (وثالثها) قوله تعالى وقضى بينهم بالقسط وهم لايظلمون فقيل بين المؤمنين والكافرين وقيل بين الرؤساء والاتباع وقيل بين الكفار بانزال العقوبة عليهم واعلم ان الكفار وان اشتركوا في العذاب فانه لابد وان يقضي الله تعالى بينهم لانه لايمتنع ان يكون قد ظلم بعضهم بعضا في الدنيا وخانه فيكون في ذلك القضاء تخفيف من عذاب بعضهم وتثقيل لعذاب الباقين لان العدل يقتضي ان ينتصف للمظلومين من الظالمين ولاسبيل اليه الا بأن يخفف من عذاب المظلومين ويثقل في عذاب الظالمين ۞ قوله تعالى

الا ان لله مافي السموات والارض الا ان وعد الله حق ولكن اكثرهم لايعلمون هو يحيي ويميت واليه ترجعون) اعلم ان من الناس من قال ان تعلق هذه الآية بما قبلها هو انه تعالى

مايتوهم من فرض كون جميع مافي الارض ( ٣ ) لكل واحدة من النفوس وايثار صيغة جمع المذكر لحمل لفظ النفس على الشخص او لتغليب ذكور مدلوله على اناثه (الندامة) على مافعلوا من الظلم اى اخفوها ولم يظهروها لكن لا للاصطبار والتجلد هيهات ولات حين اصطبار بل لانهم بهتوا (لما رأوا العذاب) اى عند معاينتهم من فظاعة الحال وشدة الاهوال مالم يكونوا يحتسبون فلم يقدروا على ان ينطقوا بشيء فلما بمعنى حين منصوب باسروا او حرف شرط حذف جوابه لدلالة ماتقدم عليه وقيل اسرها رؤساؤهم ممن اضلوهم حياء منهم وخوفا من توبيخهم ولكن الامر اشد من ان يعتريهم هنالك شيء غير خوف العذاب وقيل اسروا الندامة اخلصوها لان اسرارها اخلاصها اولان سر الشيء خالصته حيث تخفى ويضن بها ففيه تهكم بهم وقيل اظهروا الندامة من قولهم سر الشيء واسره اذا اظهره حين عيل صبره وفني تجلده (وقضي بينهم) اى اوقع القضاء بين الظالمين من المشركين وغيرهم من اصناف اهل الظلم بان اظهر الحق سواء كان من حقوق الله سبحانه او من حقوق العباد من الباطل وعومل اهل كل منهما بمايليق به (بالقسط) بالعدل وتخصيص الظلم بالتعدي وحمل القضاء على مجرد الحكومة بين الظالمين والمظلومين من غير ان يتعرض لحال المشركين وهم اظلم الظالمين لايساعده المقام فان مقتضاه اما كون الظلم عبارة عن الشرك او عما يدخل فيه دخولا اوليا (وهم) اى الظالمون (لايظلمون) فيمافعل بهم من العذاب بل هو من مقتضيات ظلمهم ولوازمه الضرورية (الا ان لله مافي السموات والارض) اى ماوجد فيهما داخلا في حقيقتهما او خارجا عنهما متمكنا فيهما وكلمة ما لتغليب غير العقلاء على العقلاء فهو تقرير لكمال قدرته سبحانه على جميع الاشياء

قال قبل هذه الآية ولو ان لكل نفس ظلمت مافى الارض لافتدت به فلاجرم قال فى هذه الآية ليس لظالم شئ يفتدى به فأن كل الاشياء ملك الله تعالى وملكه واعلم ان هذا التوجيه حسن اما الاحسن ان يقال انا قد ذكرنا ان الناس على طبقات فنهم من يكون انتفاعه بالاقناعيات اكثر من انتفاعه بالبرهانيات اما المحققون فانهم لايلتفتون الى الاقناعيات وانما تعويلهم على الدلائل البينة والبراهين القاطعة فلما حكى الله تعالى عن الكفار انهم قالوا أحق هو أمر الرسول عليه السلام بأن يقول اى وربى وهذا جار مجرى الاقناعيات فلما ذكر ذلك أتبعه بما هو البرهان القاطع على صحته وتقريره ان القول بالنبوة والقول بصحة المعاد يتفرعان على اثبات الاله القادر الحكيم وان كل ماسواه فهو ملكه وملكه فعبر عن هذا المعنى بقوله الا ان لله مافى السموات والارض ولم يذكر الدليل على صحة هذه القضية لانه تعالى قد استقصى فى تقرير هذه الدلائل فيما سبق من هذه السورة وهو قوله ان فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والارض وقوله هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل فلما تقدم ذكر هذه الدلائل القاهرة اكتفى بذكرها وذكر ان كل مافى العالم من نبات وحيوان وجسد وروح وظلمة ونور فهو ملكه وملكه ومتى كان الامر كذلك كان قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات غنيا عن جميع الحاجات منزها عن النقائص والآفات فهو تعالى لكونه قادرا على جميع الممكنات يكون قادرا على انزال العذاب على الاعداء فى الدنيا وفى الآخرة ويكون قادرا على ايصال الرحمة الى الاولياء فى الدنيا وفى الآخرة ويكون قادرا على تأييد رسوله عليه السلام بالدلائل القاطعة والمعجزات الباهرة ويكون قادرا على اعلاء شأن رسوله واظهار دينه وتقوية شرعه ولما كان قادرا على كل ذلك فقد بطل الاستهزاء والتعجب ولما كان منزها عن النقائص والآفات كان منزها عن الخلف والكذب وكل ماوعد به فلابد وان يقع هذا اذا قلنا انه تعالى لايراعى مصالح العباد اما اذا قلنا انه تعالى يراعيها فنقول الكذب انما يصدر عن العاقل اما للعجز او للجهل او للحاجة ولما كان الحق سبحانه منزها عن الكل كان الكذب عليه محالا فلما اخبر عن نزول العذاب بهؤلاء الكفار وبحصول الحشر والنشر وجب القطع بوقوعه فثبت بهذا البيان ان قوله تعالى الا ان لله مافى السموات والارض مقدمة توجب الجزم بصحة قوله الا ان وعد الله حق ثم قال ولكن اكثرهم لايعلمون والمراد انهم غافلون عن هذه الدلائل مغرورون بظواهر الامور فلا جرم بقوا محرومين عن هذه المعارف ثم انه اكد هذه الدلائل فقال هو يحيى ويميت واليه ترجعون والمراد انه لما قدر على الاحياء فى المرة الاولى فاذا اماته وجب ان يبقى قادرا على احيائه فى المرة الثانية فظهر بما ذكرنا انه تعالى امر رسوله بأن يقول اى وربى ثم انه تعالى اتبع ذلك الكلام بذكر هذه الدلائل القاهرة واعلم ان فى قوله الا ان لله مافى السموات والارض دقيقة اخرى وهى كلمة الا وذلك لان هذه الكلمة انما تذكر عند

وبيان لاندراج الكل تحت ملكوته يتصرف فيه كيفما يشاء ايجادا واعداما واثابة وعقابا (الا ان وعد الله) اظهار الاسم الجليل لتفخيم شان الوعد والاشعار بعلة الحكم وهو اما بمعنى الموعود اى جميع ماوعد به كائنا ما كان فيندرج فيه العذاب الذى استعجلوه وماذكر فى اثناء بيان حاله اندراجا اوليا او بمعناه المصدرى اى وعده بجميع ماذكر فعنى قوله تعالى (حق) على الاول ثابت واقع لامحالة وعلى الثانى مطابق للواقع وتصدير الجملتين بحرفى التنبيه والتحقيق للتسجيل على تحقق مضمونهما المقرر لمضمون ماسلف من الآيات الكريمة والتنبيه على وجوب استحضاره والمحافظة عليه (ولكن اكثرهم) لقصور عقولهم واستيلاء الغفلة عليهم والفهم بالاحوال المحسوسة المعتادة (لايعلمون) ذلك فيقولون مايقولون ويفعلون ما يفعلون (هو يحيى ويميت) فى الدنيا من غير دخل لاحد فى ذلك (واليه ترجعون) فى الآخرة بالبعث والحشر

تنبيه الغافلين وايقاظ النائمين واهل هذا العالم مشغولون بالنظر الى الاسباب الظاهرة فيقولون البستان للامير والدار للوزير والغلام لزيد والجارية لعمرو فيضيفون كل شئ الى مالك آخر والخلق لكونهم مستغرقين فى نوم الجهل ورقدة الغفلة يظنون صحة تلك الاضافات فالحق نادى هؤلاء النائمين الغافلين بقوله الا ان لله مافى السموات والارض وذلك لانه لما ثبت بالعقل ان ماسوى الواحد الاحد الحق ممكن لذاته وثبت ان الممكن مستند الى الواجب لذاته اما ابتداء او بواسطة فثبت ان ماسواه ملكه وملكه واذا كان كذلك فليس لغيره فى الحقيقة ملك فلما كان اكثر الخلق غافلين عن معرفة هذا المعنى غير عالمين به لاجرم امر الله رسوله عليه الصلاة والسلام ان يذكر هذا النداء لعل واحدا منهم يستيقظ من نوم الجهالة ورقدة الضلالة * قوله تعالى ( يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ) فى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) اعلم ان الطريق الى اثبات نبوة الانبياء عليهم السلام امران ( الاول ) أن نقول ان هذا الشخص قد ادعى النبوة وظهرت المعجزة على يده وكل من كان كذلك فهو رسول من عند الله حقا وصدقا وهذا الطريق مما قد ذكره الله تعالى فى هذه السورة وقرره على احسن الوجوه فى قوله وما كان هذا القرآن ان يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين وقد ذكرنا فى تفسير هذه الآية مايقوى الدين ويورث اليقين ويزيل الشكوك والشبهات ويبطل الجهالات والضلالات ( واما الطريق الثانى ) فهو ان نعلم بعقولنا ان الاعتقاد الحق والعمل الصالح ماهو فكل من جاء ودعا الخلق اليه وحملهم عليه وكانت لنفسه قوة قوية فى نقل الناس من الكفر الى الايمان ومن الاعتقاد الباطل الى الاعتقاد الحق ومن الاعمال الداعية الى الدنيا الى الاعمال الداعية الى الآخرة فهو النبى الحق الصادق المصدق وتقريره ان نفوس الخلق قد استولى عليها انواع النقص والجهل وحب الدنيا ونحن نعلم بعقولنا ان سعادة الانسان لاتحصل الا بالاعتقاد الحق والعمل الصالح وحاصله يرجع الى حرف واحد وهو ان كل ماقوى نفرتك عن الدنيا ورغبتك فى الآخرة فهو العمل الصالح وكل ما كان بالضد من ذلك فهو العمل الباطل والمعصية واذا كان الامر كذلك كانوا محتاجين الى انسان كامل قوى النفس مشرق الروح علوى الطبيعة ويكون بحيث يقوى على نقل هؤلاء الناقصين من مقام النقصان الى مقام الكمال وذلك هو النبى فالحاصل ان الناس اقسام ثلاثة الناقصون والكاملون الذين لايقدرون على تكميل الناقصين والقسم الثالث هو الكامل الذى يقدر على تكميل الناقصين فالقسم الاول هو عامة الخلق والقسم الثانى هم الاولياء والقسم الثالث هم الانبياء ولما كانت القدرة على نقل الناقصين من درجة النقصان الى درجة

( يا أيها الناس ) التفات ورجوع الى استمالتهم نحو الحق واستنزالهم الى قبوله واتباعه غب تحذيرهم من غوائل الضلال بما تلى عليهم من القوارع الناعية عليهم سوء عاقبتهم وايذان بأن جميع ذلك مسوق لمصالحهم ومنافعهم (قد جاءتكم موعظة) هى والوعظ والعظة التذكير بالعواقب سواء كان بالزجر والترهيب او بالاستمالة والترغيب وكلمة من فى قوله تعالى (من ربكم) ابتدائية متعلقة بجاءتكم اوتبعيضية متعلقة بمحذوف وقع صفة لموعظة اى موعظة كائنة من مواعظ ربكم وفى التعرض لعنوان الربوبية من حسن الموقع مالايخفى ( وشفاء لمافى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين)

الكمال مراتبها مختلفة ودرجاتها متفاوتة لاجرم كانت درجات الانبياء فى قوة النبوة مختلفة ولهذا السر قال النبى صلى الله عليه وسلم علماء امتى كانبياء بنى اسرائيل اذا عرفت هذه المقدمة فنقول انه تعالى لمابين صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بطريق المعجزة ففى هذه الآية بين صحة نبوته بالطريق الثانى وهذا الطريق طريق كاشف عن حقيقة النبوة معرف لماهيتها فالاستدلال بالمعجز هو الذى تسميه المنطقيون برهان الان وهذا الطريق هو الطريق الذى يسمونه برهان اللم وهو اشرف واعلى واكمل وافضل (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى وصف القرآن فى هذه الآية بصفات اربعة (أولها) كونه موعظة من عند الله (وثانيها) كونه شفاء لما فى الصدور (وثالثها) كونه هدى (ورابعها) كونه رحمة للمؤمنين ولابد لكل واحد من هذه الصفات من فائدة مخصوصة فنقول ان الارواح لما تعلقت بالاجساد كان ذلك التعلق بسبب عشق طبيعى وحب للروح على الجسد ثم ان جوهر الروح التذ بمشتهيات هذا العالم الجسدانى وطيباته بواسطة الحواس الخمس وتمرن على ذلك والف هذه الطريقة واعتادها ومن المعلوم ان نور العقل انما يحصل فى آخر الدرجة حيث قويت العلائق الحسية والحوادث الجسدانية فصار ذلك الاستغراق سببا لحصول العقائد الباطلة والاخلاق الذميمة فى جوهر الروح وهذه الاحوال تجرى مجرى الامراض الشديدة لجوهر الروح فلابد لها من طبيب حاذق فان من وقع فى المرض الشديد فان لم يتفق له طبيب حاذق يعالجه بالعلاجات الصائبة مات لامحالة وان اتفق ان صادفه مثل هذا الطبيب وكان هذا البدن قابلا للعلاجات الصائبة فربما حصلت الصحة وزال السقم اذا عرفت هذا فنقول ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان كالطبيب الحاذق وهذا القرآن عبارة عن مجموع ادويته التى بتركيبها تعالج القلوب المريضة ثم ان الطبيب اذا وصل الى المريض فله معه مراتب اربعة (الاولى) ان ينهاه عن تناول مالا ينبغى ويأمره بالاحتراز عن تلك الاشياء التى بسببها وقع فى ذلك المرض وهذا هو الموعظة فانه لامعنى للوعظ الا الزجر عن كل مايبعد عن رضوان الله تعالى والمنع عن كل مايشغل القلب بغير الله (وثانيها) الشفاء وهو ان يسقيه أدوية تزيل عن باطنه تلك الاخلاط الفاسدة الموجبة للمرض فكذلك الانبياء عليهم السلام اذا منعوا الخلق عن فعل المحظورات صارت ظواهرهم مطهرة عن فعل مالا ينبغى فحينئذ يأمرونهم بطهارة الباطن وذلك بالمجاهدة فى ازالة الاخلاق الذميمة وتحصيل الاخلاق الحميدة واوائلها ماذكره الله تعالى فى قوله ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى وذلك لانا ذكرنا ان العقائد الفاسدة والاخلاق الذميمة جارية مجرى الامراض فاذا زالت فقد حصل الشفاء للقلب وصار جوهر الروح مطهرا عن جميع النقوش المانعة عن مطالعة عالم الملكوت (والمرتبة الثالثة) حصول الهدى وهذه المرتبة لايمكن حصولها الا بعد المرتبة الثانية لان جوهر الروح الناطقة قابل للجلايا القدسية والاضواء الالهية وفيض الرحمة

اى كتاب جامع لهذه الفوائد والمنافع فانه كاشف عن احوال الاعمال حسناتها وسيآتها مرغب فى الاولى ورادع عن الاخرى ومبين للمعارف الحقة التى هى شفاء لما فى الصدور من الادواء القلبية كالجهل والشك والشرك والنفاق وغيرها من العقائد الزائغة وهاد الى طريق الحق واليقين بالارشاد الى الاستدلال بالدلائل المنصوبة فى الآفاق والانفس وفى مجيئه رحمة للمؤمنين حيث نجوا به من ظلمات الكفر والضلال الى نور الايمان وتخلصوا من دركات النيران وارتقوا الى درجات الجنان والتنكير فى الكل للتفخيم

عام غير منقطع على ماقال عليه الصلاة والسلام ان لربكم فى ايام دهركم نفحات الافتعرضوا لها وايضا فالمنع انما يكون اماللعجز اوللجهل اوللبخل والكل فى حق الحق ممتنع فالمنع فى حقه ممتنع فعلى هذا عدم حصول هذه الاضواء الروحانية انما كان لاجل ان العقائد الفاسدة والاخلاق الذميمة طبعها طبع الظلمة وعند قيام الظلمة يمتنع حصول النور فاذا زالت تلك الاحوال فقد زال العائق فلابد وان يقع ضوء عالم القدس فى جوهر النفس القدسية ولامعنى لذلك الضوء الا الهدى فعند هذه الحالة تصير هذه النفس بحيث قد انطبع فيها نفس الملكوت وتجلى لها قدس اللاهوت واول هذه المرتبة هو قوله يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك واوسطها قوله تعالى ففروا الى الله وآخرها قوله قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ومجموعها قوله ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبدوه وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون وسيجئ تفسير هذه الآيات فى مواضعها باذن الله تعالى وهذه المرتبة هى المراد بقوله سبحانه وهدى (واما المرتبة الرابعة) فهى ان تصير النفس البالغة الى هذه الدرجات الروحانية والمعارج الربانية بحيث تفيض انوارها على ارواح الناقصين فيض النور من جوهر الشمس على اجرام هذا العالم وذلك هو المراد بقوله ورحمة للؤمنين وانما خص المؤمنين بهذا المعنى لان ارواح المعاندين لاتستضئ بأنوار ارواح الانبياء عليهم السلام لان الجسم القابل للنور عن قرص الشمس هو الذى يكون وجهه مقابلا لوجه الشمس فان لم تحصل هذه المقابلة لم يقع ضوء الشمس عليه فكذلك كل روح لم لم يتوجه الى خدمة ارواح الانبياء المطهرين لم تنتفع بأنوارهم ولم يصل اليها آثار تلك الارواح المطهرة المقدسة وكما ان الاجسام التى لاتكون مقابلة لقرص الشمس مختلفة الدرجات والمراتب فى البعد عن هذه المقابلة ولاتزال تتزايد درجات هذا البعد حتى ينتهى ذلك الجسم الى غاية بعده عن مقابلة قرص الشمس فلاجرم يبقى خالص الظلمة فكذلك تتفاوت مراتب النفوس فى قبول هذه الانوار عن ارواح الانبياء ولاتزال تتزايد حتى تنتهى الى النفس التى كثفت ظلمتها وعظمت شقاوتها وانتهت فى العقائد الفاسدة والاخلاق الذميمة الى اقصى الغايات وابعد النهايات فالحاصل ان الموعظة اشارة الى تطهير ظواهر الخلق عما لاينبغي وهو الشريعة والشفاء اشارة الى تطهير الارواح عن العقائد الفاسدة والاخلاق الذميمة وهو الطريقة والهدى وهو اشارة الى ظهور نور الحق فى قلوب الصديقين وهو الحقيقة والرحمة وهى اشارة الى كونها بالغة فى الكمال والاشراق الى حيث تصير مكملة للناقصين وهى النبوة فهذه درجات عقلية ومراتب برهانية مدلول عليها بهذه الالفاظ القرآنية لايمكن تأخير ماتقدم ذكره ولاتقديم ماتأخر ذكره ولما نبه الله تعالى فى هذه الآية على هذه الاسرار العالية الالهية قال قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون والمقصود منه الاشارة الى ماقرره حكماء الاسلام من ان السعادات الروحانية افضل من السعادات الجسمانية وقد سبق فى مواضع كثيرة

( قل ) تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأمر الناس بان يغتنموا مافى مجئ القرآن العظيم من الفضل والرحمة ( بفضل الله وبرحمته ) المراد بهما امامافى مجئ القرآن من الفضل والرحمة واما الجنس وهما داخلان فيه دخولا اوليا والباء متعلقة بمحذوف واصل الكلام ليفرحوا بفضل الله وبرحمته وتكرير الباء فى رحمته للايذان باستقلالها فى استيجاب الفرح ثم قدم الجار والمجرور على الفعل لافادة القصر ثم ادخل عليه الفاء لافادة معنى السببية فصار بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ثم قيل ( فبذلك فليفرحوا ) للتأكيد والتقرير ثم حذف الفعل الاول لدلالة الثانى عليه والفاء الاولى جزائية

من هذا الكتاب المبالغة في تقرير هذا المعنى فلا فائدة في الاعادة انتهى (المسئلة الثالثة) قوله قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا تقديره بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ثم يقول مرة اخرى فبذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد وايضا قوله فبذلك فليفرحوا يفيد الحصر يعني يجب ان لا يفرح الانسان الا بذلك واعلم ان هذا الكلام يدل على امرين (احدهما) انه يجب ان لا يفرح الانسان بشئ من الاحوال الجسمانية ويدل عليه وجوه (الاول) ان جماعة من المحققين قالوا لا معنى لهذه اللذات الجسمانية الا دفع الآلام والمعنى العدمي لا يستحق ان يفرح به (والثاني) ان بتقدير ان تكون هذه اللذات صفات ثبوتية لكنها معنوية من وجوه (الاول) ان التضرر بآلامها اقوى من الانتفاع بلذاتها الا ترى ان اقوى اللذات الجسمانية لذة الوقاع ولاشك ان الالتذاذ بها اقل مرتبة من الاستضرار بالم القولنج وسائر الآلام القوية (الثاني) ان مداخل اللذات الجسمانية قليلة فانه لا سبيل الى تحصيل اللذة الجسمانية الا بهذين الطريقين اعني لذة البطن والفرج واما الآلام فان كل جزء من اجزاء بدن الانسان معه نوع آخر من الآلام ولكل نوع منها خاصية ليست للنوع الآخر (الثالث) ان اللذات الجسمانية لا تكون خالصة البتة بل تكون ممزوجة بانواع من المكاره فلو لم يحصل في لذة الاكل والوقاع الا اتعاب النفس في مقدماتها وفي لواحقها لكفى (الرابع) ان اللذات الجسمانية لا تكون باقية فكلما كان الالتذاذ بها اكثر كانت الحسرات الحاصلة من خوف فواتها اكثر واشد ولذلك قال المعري * ان حزنا في ساعة الموت اضعا * ف سرور في ساعة الميلاد

فمن المعلوم ان الفرح الحاصل عند حدوث الولد لا يعادل الحزن الحاصل عند موته (الخامس) ان اللذات الجسمانية حال حصولها تكون ممتنعة البقاء لان لذة الاكل لا تبقى بحالها بل كما زال الم الجوع زال الالتذاذ بالاكل ولا يمكن استبقاء تلك اللذة (السادس) ان اللذات الجسمانية التذاذ باشياء خسيسة فانها التذاذ بكيفيات حاصلة في اجسام رخوة سريعة الفساد مستعدة للتغير فاما اللذات الروحانية فانها بالضد في جميع هذه الجهات فثبت ان الفرح باللذات الجسمانية فرح باطل واما الفرح الكامل فهو الفرح بالروحانيات والجواهر المقدسة وعالم الجلال ونور الكبرياء (والبحث الثاني) من مباحث هذه الآية انه اذا حصلت اللذات الروحانية فانه يجب على العاقل ان لا يفرح بها من حيث هي هي بل يجب ان يفرح بها من حيث انها من الله تعالى وبفضل الله وبرحمته فلهذا السبب قال الصديقون من فرح بنعمة الله من حيث انها تلك النعمة فهو مشرك اما من فرح بنعمة الله من حيث انها من الله كان فرحه بالله وذلك هو غاية الكمال ونهاية السعادة فقوله سبحانه قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا يعني فليفرحوا بتلك النعم لا من حيث هي هي بل من حيث انها بفضل الله وبرحمة الله فهذه اسرار عالية اشتملت عليها هذه الالفاظ التي ظهرت من عالم الوحي والتنزيل هذا ما تلخص عندنا في هذا الباب

والثانية للدلالة على السببية والاصل ان فرحوا بشئ فبذلك ليفرحوا لا بشئ آخر ثم ادخل الفاء للدلالة على السببية ثم حذف الشرط ومعنى البعد في اسم الاشارة للدلالة على بعد درجة فضل الله تعالى ورحمته ويجوز ان يراد بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا ويجوز ان يتعلق الباء بجاءتكم اى جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك اى فبمجيئها فليفرحوا وقرئ فلتفرحوا وقرأ ابى فافرحوا وعن ابى بن كعب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قل بفضل الله وبرحمته فقال بكتاب الله والاسلام وقيل فضله الاسلام ورحمته ما وعد عليه (هو) اى ما ذكر من فضل الله ورحمته (خير مما يجمعون) من حطام الدنيا وقرئ تجمعون اى فبذلك فليفرح المؤمنون هو خير مما يجمعون ايها المخاطبون

( قل أرأيتم ) اى اخبرونى ( ما انزل الله لكم من رزق ) ما منصوبة المحل بما بعدها او بما قبلها واللام للدلالة على ان المراد بالرزق ما حل لهم وجعله منزلا لانه مقدر فى السماء ( ٩ ) محصل هو او ما يتوقف عليه وجودا اوبقاء باسباب سماوية من المطر والكواكب

اما المفسرون فقالوا فضل الله الاسلام ورحمته القرآن وقال ابو سعيد الخدرى فضل الله القرآن ورحمته ان جعلكم من اهله ( المسئلة الرابعة ) قرئ فلتفرحوا بالتاء قال الفراء وقد ذكر عن زيد بن ثابت انه قرأ بالتاء وقال معناه فبذلك فلتفرحوا يا اصحاب محمد هو خير مما يجمع الكفار قال وقريب من هذه القراءة قراءة ابى فبذلك فافرحوا والاصل فى الامر للمخاطب والغائب اللام نحو لتقم يا زيد وليقم زيد وذلك لان حكم الامر فى الصورتين واحد الا ان العرب حذفوا اللام من فعل المأمور المخاطب لكثرة استعماله وحذفوا التاء ايضا وادخلوا الف الوصل نحو اضرب واقتل ليقع الابتداء به وكان الكسائى يعيب قولهم فليفرحوا لانه وجده قليلا فجعله عيبا الا ان ذلك هو الاصل وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال فى بعض المشاهد لتأخذوا مصافكم يريد به خذوا هذا كله كلام الفراء وقرئ تجمعون بالتاء ووجهه انه تعالى عنى المخاطبين والغائبين الا انه غلب المخاطب على الغائب كما يغلب التذكير على التأنيث فكأنه اراد المؤمنين هكذا قاله اهل اللغة وفيه دقيقة عقلية وهو ان الانسان حصل فيه معنى يدعوه الى خدمة الله تعالى والى الاتصال بعالم الغيب ومعارج الروحانيات وفيه معنى آخر يدعوه الى عالم الحس والجسم واللذات الجسدانية ومادام الروح متعلقا بهذا الجسد فانه لا ينفك عن حب الجسد وعن طلب اللذات الجسمانية فكأنه تعالى خاطب الصديقين العارفين وقال حصلت الخصومة بين الحوادث العقلية الالهية وبين النوازع النفسانية الجسدانية والترجيح لجانب العقل لانه يدعو الى فضل الله ورحمته والنفس تدعو الى جمع الدنيا وشهواتها وفضل الله ورحمته خير لكم مما تجمعون من الدنيا لان الآخرة خير وابقى وما كان كذلك فهو اولى بالطلب والتحصيل * قوله تعالى (قل أرأيتم ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله اذن لكم ام على الله تفترون وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ان الله لذو فضل على الناس ولكن اكثرهم لا يشكرون ) وفى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) اعلم ان الناس ذكروا فى تعلق هذه الآية بما قبلها وجوها ولا استحسن واحدا منها والذى يخطر بالبال والعلم عند الله تعالى وجهان (الاول) ان المقصود من هذا الكلام ذكر طريق ثالث فى اثبات النبوة وتقريره انه عليه الصلاة والسلام قال للقوم انكم تحكمون بحل بعض الاشياء وحرمة بعضها فهذا الحكم تقولونه على سبيل الافتراء على الله تعالى وتعلمون انه حكم حكم الله به والاول طريق باطل بالاتفاق فلم يبق الا الثانى ثم من المعلوم انه تعالى ما خاطبكم به من غير واسطة ولما بطل هذا ثبت ان هذه الاحكام انما وصلت اليكم بقول رسول ارسله الله اليكم ونبى بعثه الله اليكم وحاصل الكلام ان حكمكم بحل بعض الاشياء وحرمة بعضها مع اشتراك الكل فى الصفات المحسوسة والمنافع المحسوسة يدل على اعترافكم بصحة النبوة والرسالة واذا كان الامر كذلك فكيف يمكنكم ان تبالغوا هذه المبالغات العظيمة فى انكار

فى الانضاج والتلوين ( فجعلتم منه ) اى جعلتم بعضه (حراما) اى حكمتم بانه حرام (وحلالا) اى وجعلتم بعضه حلالا اى حكمتم بحله مع كون كله حلالا وذلك قولهم هذه انعام وحرث حجر الآية وقولهم ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا ونحو ذلك وتقديم الحرام لظهور اثر الجعل فيه ودوران التوبيخ عليه (قل) تكرير لتأكيد الامر بالاستخبار اى اخبرونى (آلله اذن لكم) فى ذلك الجعل فانتم فيه ممتثلون بامره تعالى (ام على الله تفترون) ام متصلة والاستفهام للتقرير والتبكيت لتحقق العلم بالشق الاخير قطعا كأنه قيل ام لم يأذن لكم بل تفترون عليه سبحانه فاظهر الاسم الجليل وقدم على الفعل دلالة على كمال قبح افترائهم وتأكيدا للتبكيت اثر تأكيد مع مراعاة الفواصل ويجوز ان يكون الاستفهام للانكار وام منقطعة ومعنى بل فيها الاضراب والانتقال من التوبيخ والزجر بانكار الاذن الى ما يفيده همزتها من التوبيخ على الافتراء عليه سبحانه وتقريره وتقديم الجار والمجرور على هذا يجوز ان يكون للقصر كأنه قيل بل اعلى الله تعالى خاصة تفترون (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب) كلام مسوق من قبله تعالى لبيان هول ما سيلقونه غير داخل تحت القول المأمور به والتعبير عنهم بالموصول فى موقع الاضمار لقطع احتمال الشق الاول من الترديد والتسجيل عليهم بالافتراء وزيادة الكذب مع ان الافتراء لا يكون الا كذبا لاظهار كمال قبح ما افتعلوا ( ٢ ) ( را ) ( خا ) وكونه كذبا فى اعتقادهم ايضا وكلمة ما استفهامية وقعت مبتدأ وظن خبرها ومفعولاه محذوفان وقوله عز وجل ( يوم القيامة ) ظرف لنفس الظن اى اى شئ ظنهم فى ذلك

اليوم يوم عرض الافعال والاقوال والمجازاة عليها مثقالا بمثقال والمراد تهويله وتفظيعه بهول مايتعلق به مما يصنع بهم يومئذ وقيل هو ظرف لمايتعلق به ظنهم اليوم من الامور التي ستقع يوم القيامة تنزيلاله ( ١٠ ) ولما فيه من الاحوال لكمال وضوح امره في التقرر

والتحقق منزلة المسلم عندهم اى اى شئ ظنهم لما سيقع يوم القيامة ايحسبون انهم لايسئلون عن افترائهم اولا يجازون عليه اولا يجازون جزاء يسيرا ولاجل ذلك يفعلون مايفعلون كلا انهم لفي اشد العذاب لان معصيتهم اشد المعاصي ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا وقرئ على لفظ الماضي اى ظن ظنوا يوم القيامة وايراد صيغة الماضي لانه كائن فكأنه قد كان ( ان الله لذو فضل ) اى عظيم لايكتنه كنهه (على الناس) اى جميعا حيث انعم عليهم بالعقل المميز بين الحق والباطل والحسن والقبيح ورحمهم بانزال الكتب وارسال الرسل وبين لهم الاسرار التي لاتستقل العقول في ادراكها وارشدهم الى مايهمهم من امر المعاش والمعاد (ولكن اكثرهم لايشكرون) تلك النعمة الجليلة فلا يصرفون قواهم ومشاعرهم الى ماخلقت له ولايتبعون دليل العقل فيما يستبد به ولادليل الشرع فيما لايدرك الا به وقد تفضل عليهم ببيان ماسيلقونه يوم القيامة فلا يلتفتون اليه فيقعون فيما يقعون فهو تذييل لماسبق مقرر لمضمونه (وماتكون في شأن) اى في أمر من شأنت شأنه اى قصدت قصده مصدر بمعنى المفعول ( وماتتلو منه) الضمير للشأن والظرف صفة لمصدر محذوف اى تلاوة كائنة من الشأن اذ هى معظم شؤنه عليه السلام او للتنزيل والاضمار قبل الذكر لتفخيم شأنه ومن ابتدائية اوتبعيضية او لله عزوجل ومن ابتدائية والتي في قوله تعالى

(من قرآن) مزيدة لتأكيد النفي اوابتدائية على الوجه الاول وبيانية اوتبعيضية على الثاني والثالث (ولاتعملون من عمل) تعميم للخطاب ( وهو ) اثر تخصيصه بمقتدى الكل وقد روعى في كل من المقامين مايليق به حيث ذكر اولا من الاعمال مافيه فخامة وجلالة وثانيا مايتناول الجليل

النبوة والرسالة وحمل الآية على هذا الوجه الذي ذكرته طريق حسن معقول (الطريق الثاني) في حسن تعلق هذه الآية بماقبلها هو انه عليه الصلاة والسلام لما ذكر الدلائل الكثيرة على صحة نبوة نفسه وبين فساد سؤالاتهم وشبهاتهم في انكارها اتبع ذلك ببيان فساد طريقتهم في شرائعهم واحكامهم وبين ان التمييز بين هذه الاشياء بالحل والحرمة مع انه لم يشهد بذلك لاعقل ولانقل طريق باطل ومنهج فاسد والمقصود ابطال مذاهب القوم في اديانهم وفي احكامهم وانهم ليسوا على شئ في باب من الابواب (المسئلة الثانية) المراد بالشئ الذي جعلوه حراما ماذكروه من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وايضا قوله تعالى وقالوا هذه انعام وحرث حجر الى قوله وقالوا مافي بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا وايضا قوله تعالى ثمانية ازواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين والدليل عليه ان قوله فجعلتم منه حراما اشارة الى امر تقدم منهم ولم يحك الله تعالى عنهم الا هذا فوجب توجه هذا الكلام اليه ثم لما حكى تعالى عنهم ذلك قال لرسوله عليه الصلاة والسلام قل آلله اذن لكم ام على الله تفترون وهذه القسمة صحيحة لان هذه الاحكام اما ان تكون من الله تعالى اولم تكن من الله فان كانت من الله تعالى فهو المراد بقوله آلله اذن لكم وان كانت ليست من الله فهو المراد بقوله ام على الله تفترون ثم قال تعالى وماظن الذين يفترون على الله الكذب وهذا وان كان في صورة الاستعلام فالمراد منه تعظيم وعيد من يفترى على الله وقرأ عيسى بن عمر وماظن على لفظ الفعل ومعناه اى ظن ظنوه يوم القيامة وجئ به على لفظ الماضي لما ذكرنا ان احوال القيامة وان كانت آتية الا انها لما كانت واجبة الوقوع في الحكمة لاجرم عبر الله عنها بصيغة الماضي ثم قال ان الله لذو فضل على الناس اى باعطاء العقل وارسال الرسل وانزال الكتب ولكن اكثرهم لايشكرون فلا يستعملون العقل في التأمل في دلائل الله تعالى ولايقبلون دعوة انبياء الله ولاينتفعون باستماع كتب الله ( المسئلة الثالثة ) مافي قوله تعالى قل أرأيتم ماانزل الله فيه وجهان (احدهما) بمعنى الذي فينتصب برأيتم والآخر ان يكون بمعنى اى في الاستفهام فينتصب بأنزل وهو قول الزجاج ومعنى انزل ههنا خلق وانشأ كقوله وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج وجاز ان يعبر عن الخلق بالانزال لان كل مافي الارض من رزق فمما انزل من السماء من ضرع وزرع وغيرهما فلما كان ايجاده بالانزال سمى انزالا * قوله تعالى ( وماتكون في شأن وماتتلو منه من قرآن ولاتعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولااصغر من ذلك ولااكبر الا في كتاب مبين ) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه لما اطال الكلام في امر الرسول بايراد الدلائل على فساد مذاهب الكفار وفي امره بايراد الجواب عن شبهاتهم وفي امره بتحمل اذاهم وبالرفق معهم ذكر هذا الكلام ليحصل به تمام السلوة والسرور للمطيعين وتمام الخوف والفزع للمذنبين

والحقير ( الاكنا عليكم شهودا ) استثناء مفرغ من اعم احوال المخاطبين بالافعال الثلاثة اى ماتلابسون بشئ منها فى حال من الاحوال الاحال كوننا رقباء مطلعين عليه حافظين له ( اذتفيضون فيه ) ( ١١ ) اى تخوضون وتندفعون فيه واصل الافاضة الاندفاع بكثرة او بقوة وحيث اريد بالافعال السابقة الحالة المستمرة الدائمة المقارنة للزمان الماضى ايضا اوثر فى الاستثناء صيغة الماضى وفى الظرف كلمة اذ التى تفيد المضارع معنى الماضى ( ومايعزب عن ربك ) اى لايبعد ولايغيب عن علمه الشامل وفى التعرض لعنوان الربوبية من الاشعار باللطف مالايخفى وقرئ بكسر الزاى ( من مثقال ذرة ) كلمة من مزيد لتأكيد النفى اى مايعزب عنه مايساوى فى الثقل نملة صغيرة اوهباء ( فى الارض ولافى السماء ) اى فى دائرة الوجود والامكان فان العامة لاتعرف سواهما ممكنا ليس فى احدهما اومتعلقا بهما وتقديم الارض لان الكلام فى حال اهلها والمقصود اقامة البرهان على احاطة علمه تعالى بتفاصيلها وقوله تعالى ( ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا فى كتاب مبين ) كلام برأسه مقرر لماقبله ولا نافية للجنس واصغر اسمها وفى كتاب خبرها وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر ومن عطف على لفظ مثقال ذرة وجعل الفتح بدل الكسر لامتناع الصرف اوعلى محله مع الجار جعل الاستثناء منقطعا كأنه قيل لايعزب عن ربك شئ مالكن جميع الاشياء فى كتاب مبين فكيف يعزب عنه شئ منها وقيل يجوز ان يكون الاستثناء متصلا ويعزب بمعنى يبين ويصدر والمعنى لايصدر عنه تعالى شئ الا وهو فى كتاب مبين والمراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ ( الا ان اولياء الله ) بيان على وجه التبشير والوعد لما هو نتيجة لاعمال المؤمنين وغاية لما ذكر قبله من كونه تعالى مهيمنا على نبيه عليه السلام وامته فى كل مايأتون وما يذرون واحاطة علمه سبحانه بجميع مافى السماء والاض وكون الكل مثبتا فى الكتاب المبين بعدما اشير الى فظاعة حال المفترين على الله تعالى يوم القيامة وماسيعتريهم من الهول اشارة اجمالية على طريق

وهو كونه سبحانه عالما بعمل كل واحد وبما فى قلبه من الدواعى والصوارف فان الانسان ربما اظهر من نفسه نسكا وطاعة وزهدا وتقوى ويكون باطنه مملوا من الخبث وربما كان بالعكس من ذلك فاذا كان الحق سبحانه عالما بما فى البواطن كان ذلك من اعظم انواع السرور للمطيعين ومن اعظم انواع التهديد للمذنبين ( المسئلة الثانية ) اعلم انه تعالى خصص الرسول فى اول هذه الآية بالخطاب فى امرين ثم اتبع ذلك بتعميم الخطاب مع كل المكلفين فى شئ واحد اما الامران المخصوصان بالرسول عليه الصلاة والسلام ( فالاول ) منهما قوله وماتكون فى شأن واعلم ان ماههنا جحد والشأن الخطب والجمع الشؤن تقول العرب ماشأن فلان اى ماحاله قال الاخفش وتقول ماشأنت شأنه اى ماعملت عمله وفيه وجهان قال ابن عباس وماتكون يامحمد فى شأن يريد من اعمال البر وقال الحسن فى شأن الدنيا وحوائجك فيها ( والثانى ) منهما قوله تعالى وماتتلو منه من قرآن واختلفوا فى ان الضمير فى قوله منه الى ماذا يعود وذكروا فيه ثلاثة اوجه ( الاول ) انه راجع الى الشأن لان تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو معظم شانه وعلى هذا التقدير فكان هذا داخلا تحت قوله وماتكون فى شأن الا انه خصه بالذكر تنبيها على علو مرتبته كما فى قوله تعالى وملائكته وجبريل وميكال وكما فى قوله واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم ( الثانى ) ان هذا الضمير عائد الى القرآن والتقدير وماتتلو من القرآن من قرآن وذلك لانه كما ان القرآن اسم للمجموع فكذلك هو اسم لكل جزء من اجزاء القرآن والاضمار قبل الذكر يدل على التعظيم ( الثالث ) ان يكون التقدير وماتتلو من قرآن من الله اى نازل من عند الله واقول قوله وماتكون فى شأن وماتتلو منه من قرآن امران مخصوصان بالرسول صلى الله عليه وسلم واما قوله ولاتعملون من عمل فهذا خطاب مع النبى ومع جميع الامة والسبب فى ان خص الرسول بالخطاب اولا ثم عمم الخطاب مع الكل هو ان قوله وماتكون فى شأن وماتتلو منه من قرآن وان كان بحسب الظاهر خطابا مختصا بالرسول الا ان الامة داخلون فيه ومرادون منه لانه من المعلوم انه اذا خوطب رئيس القوم كان القوم داخلين فى ذلك الخطاب والدليل عليه قوله تعالى يا أيها النبى اذا طلقتم النساء ثم انه تعالى بعد ان خص الرسول بذينك الخطابين عمم الكل بالخطاب الثالث فقال ولاتعملون من عمل فدل ذلك على كونهم داخلين فى الخطابين الاولين ثم قال تعالى الا كنا عليكم شهودا وذلك لان الله تعالى شاهد على كل شئ وعالم بكل شئ اما على اصول اهل السنة والجماعة فالامر فيه ظاهر لانه لامحدث ولاخالق ولاموجد الا الله تعالى فكل مايدخل فى الوجود من افعال العباد واعمالهم الظاهرة والباطنة فكلها حصلت بايجاد الله تعالى واحداثه والموجد للشئ لابد وان يكون عالما به فوجب كونه تعالى عالما بكل المعلومات واما على اصول المعتزلة فقد قالوا انه تعالى حى وكل من كان حيا فانه يصح ان يعلم كل واحد من المعلومات

التهديد والوعيد وصدرت الجملة بحرفى التنبيه والتحقيق لزيادة تقرير مضمونها والولى لغة القريب والمراد باولياء الله خلص المؤمنين لقربهم الروحانى منه سبحانه وتعالى كما سيفصح عنه تفسيرهم ( ١٢ ) ( لاخوف عليهم ) فى الدارين من لحوق مكروه ( ولاهم يحزنون ) من فوات مطلوب اى لايعتريهم مايوجب ذلك لاانه يعتريهم لكنهم لايخافون ولا يحزنون ولاانه لايعتريهم خوف وحزن اصلا بل يستمرون على النشاط والسرور كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصار الجد والسعى فى اقامة حقوق العبودية من خصائص الخواص والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لابيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما مر مرارا من ان النفى وان دخل على نفس المضارع يفيد الاستمرار والدوام بحسب المقام وانما لايعتريهم ذلك لان مقصدهم ليس الا طاعة الله تعالى ونيل رضوانه المستتبع للكرامة والزلفى وذلك مما لاريب فى حصوله ولا احتمال لفواته بموجب الوعد بالنسبة اليه تعالى واما ماعدا ذلك من الامور الدنيوية المترددة بين الحصول والفوات فهى بمعزل من الانتظام فى سلك مقصدهم وجودا وعدما حتى يخافوا من الحصول ضارها او يحزنوا بفوات نافعها وقوله عز وجل ( الذين آمنوا ) اى بكل ماجاء من عند الله تعالى ( وكانوا يتقون ) اى يقون انفسهم عما يحق وقايتها عنه من الافعال والتروك وقاية دائمة حسبما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل بيان وتفسير لهم واشارة الى مابه نالوا مانالوا على طريقة الاستئناف المبنى على السؤال ومحل الموصول الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف كأنه قيل من اولئك وماسبب فوزهم بتلك الكرامة فقيل هم الذين جمعوا بين الايمان والتقوى المفضيين الى كل خير المنجيين عن كل شر وقيل محله النصب والرفع على المدح اوعلى انه وصف مادح للاولياء ولايقدح فى ذلك توسيط الخبر والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منها الجامعة

والموجب لتلك العالمية هو ذاته سبحانه فنسبة ذاته الى اقتضاء حصول العالمية ببعض المعلومات كنسبة ذاته الى اقتضاء حصول العالمية بسائر المعلومات فلما اقتضت ذاته حصول العالمية ببعض المعلومات وجب ان تقتضى حصول العالمية بجميع المعلومات فثبت كونه تعالى عالما بجميع المعلومات اما قوله تعالى اذ تفيضون فيه فاعلم ان الافاضة ههنا الدخول فى العمل على جهة الانصباب اليه وهو الانبساط فى العمل يقال افاض القوم فى الحديث اذا اندفعوا فيه وقد افاضوا من عرفة اذا دفعوا منه بكثرتهم فتفرقوا فان قيل اذ ههنا بمعنى حين فيصير تقدير الكلام الا كنا عليكم شهودا حين تفيضون فيه وشهادة الله تعالى عبارة عن علمه فيلزم منه ان يقال انه تعالى ماعلم الاشياء الا عند وجودها وذلك باطل قلنا هذا السؤال بناء على ان شهادة الله تعالى عبارة عن علمه وهذا ممنوع فان الشهادة لاتكون الا عند وجود المشهود عليه واما العلم فلا يمتنع تقدمه على الشئ والدليل عليه ان الرسول عليه السلام لو اخبرنا عن زيد انه يأكل غدا كنا من قبل حصول تلك الحالة عالمين بها ولا نوصف بكوننا شاهدين لها واعلم ان حاصل هذه الكلمات انه لايخرج عن علم الله شئ ثم انه تعالى اكد هذا الكلام زيادة تأكيد فقال وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا فى كتاب مبين وفيه مسائل ( المسئلة الاولى ) اصل العزوب من البعد يقال كلأ عازب اذا كان بعيد المطلب وعزب الرجل بابله اذا ارسلها الى موضع بعيد من المنزل والرجل سمى عزبا لبعده عن الاهل وعزب الشئ عن علمى اذا بعد ( المسئلة الثانية ) قرأ الكسائى ومايعزب بكسر الزاى والباقون بالضم وفيه لغتان عزب يعزب وعزب يعزب ( المسئلة الثالثة ) قوله من مثقال ذرة اى وزن ذرة ومثقال الشئ مايساويه فى الثقل والمعنى مايساوى ذرة والذر صغار النمل واحدها ذرة وهى تكون خفيفة الوزن جدا وقوله فى الارض ولا فى السماء فالمعنى ظاهر فان قيل لم قدم الله ذكر الارض ههنا على ذكر السماء مع انه تعالى قال فى سورة سبأ عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض قلنا حق السماء ان تقدم على الارض الا انه تعالى لما ذكر فى هذه الآية شهادته على احوال اهل الارض واعمالهم ثم وصل بذلك قوله لايعزب عنه ناسب ان تقدم الارض على السماء فى هذا الموضع ثم قال ولا اصغر من ذلك ولا اكبر وفيه قراءتان قرأ حمزة ولا اصغر ولا اكبر بالرفع فيهما والباقون بالنصب واعلم ان قوله ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة تقديره ومايعزب عن ربك مثقال ذرة فلفظ مثقال عند دخول كلمة من عليه مجرور بحسب الظاهر ولكنه مرفوع فى المعنى فالمعطوف عليه ان عطف على الظاهر كان مجرورا الا ان لفظ اصغر واكبر غير منصرف فكان مفتوحا وان عطف على المحل وجب كونه مرفوعا ونظيره قوله مااتانى من احد عاقل وعاقل وكذا قوله مالكم من اله غيره وغيره وقال الشاعر * فلسنا بالجبال ولا الحديدا * هذا ماذكره النحويون قال صاحب ( الكشاف )

الكشاف لو صح هذا العطف لصار تقدير هذه الآية ومايعزب عنه شئ فى الارض ولا فى السماء الا فى كتاب وحينئذ يلزم ان يكون الشئ الذى فى الكتاب خارجا عن علم الله تعالى وانه باطل واجاب بعض المحققين عنه بوجهين (الاول) أنا بينا ان العزوب عبارة عن مطلق البعد واذا ثبت هذا فنقول الاشياء المخلوقة على قسمين قسم اوجده الله تعالى ابتداء من غير واسطة كالملائكة والسموات والارض وقسم آخر اوجده الله بواسطة القسم الاول مثل الحوادث الحادثة فى عالم الكون والفساد ولاشك ان هذا القسم الثانى قد يتباعد فى سلسلة العلية والمعلولية عن مرتبة وجود واجب الوجود فقوله ومايعزب عنه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا فى كتاب مبين اى لايبعد عن مرتبة وجوده مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء الا وهو فى كتاب مبين وهو كتاب كتبه الله تعالى واثبت صور تلك المعلومات فيه ومتى كان الامر كذلك فقد كان عالما بها محيطا بأحوالها والغرض منه الرد على من يقول انه تعالى غير عالم بالجزئيات وهو المراد من قوله انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون (والوجه الثانى) فى الجواب ان نجعل كلمة الا فى قوله الا فى كتاب مبين استثناء منقطعا بمعنى لكن هو فى كتاب مبين وذكر ابو على الجرجانى صاحب النظم عنه جوابا آخر فقال قوله ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ولا اصغر من ذلك ولا اكبر ههنا تم الكلام وانقطع ثم وقع الابتداء بكلام آخر وهو قوله الا فى كتاب مبين اى وهو ايضا فى كتاب مبين قال والعرب تضع الا موضع واو النسق كثيرا على معنى الابتداء كقوله تعالى انى لايخاف لدى المرسلون الا من ظلم يعنى ومن ظلم وقوله لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا يعنى والذين ظلموا وهذا الوجه فى غاية التعسف واجاب صاحب الكشاف بوجه رابع فقال الاشكال انما جاء اذا عطفنا قوله ولا اصغر من ذلك ولا اكبر على قوله من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء اما بحسب الظاهر او بحسب المحل لكنا لانقول ذلك بل نقول الوجه فى القراءة بالنصب فى قوله ولا اصغر من ذلك الحمل على نفى الجنس وفى القراءة بالرفع الحمل على الابتداء وخبره قوله فى كتاب مبين وهذا الوجه اختيار الزجاج * قوله تعالى

(ألا ان اولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم)

اعلم انا بينا ان قوله تعالى وماتكون فى شأن وماتتلو منه من قرآن مما يقوى قلوب المطيعين ومما يكسر قلوب الفاسقين فأتبعه الله تعالى بشرح احوال المخلصين الصادقين الصديقين وهو المذكور فى هذه الآية وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انا نحتاج فى تفسير هذه الآية الى ان نبين ان الولى من هو ثم نبين تفسير نفى الخوف والحزن عنه فنقول اما ان الولى من هو فيدل عليه القرآن والخبر والاثر والمعقول اما القرآن فهو قوله فى هذه الآية الذين آمنوا وكانوا يتقون فقوله آمنوا اشارة الى كمال القوة النظرية وقوله وكانوا يتقون

---

لما تحتها من مرتبة التوقى عن الشرك التى يفيدها الايمان ايضا ومرتبة التجنب عن كل مايؤثم من فعل وترك اعنى تنزه الانسان عن كل ما يشغل سره عن الحق والتبتل اليه بالكلية وهى (١٣) التقوى الحقيقى المأمور به فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته وبه يحصل الشهود والحضور والقرب الذى عليه يدور اطلاق الاسم عليه وهكذا كان حال كل من دخل معه عليه السلام تحت الخطاب بقوله عز وجل ولا تعملون من عمل خلا ان لهم فى شأن التبتل والتنزه درجات متفاوتة حسب تفاوت درجات استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة المبنية على الحكم الابية اقصاها ماانتهى اليه همم الانبياء عليهم السلام حتى جمعوا بذلك بين رياستى النبوة والولاية ولم يعقهم التعلق بعالم الاشباح عن الاستغراق فى عالم الارواح ولم تصدهم الملابسة بمصالح الخلق عن التبتل الى جناب الحق لكمال استعداد نفوسهم الزكية المؤيدة بالقوة القدسية فملاك امر الولاية هو التقوى المذكور فاولياء الله هم المؤمنون المتقون ويقرب منه ماقيل من انهم الذين تولى الله هدايتهم بالبرهان وتولوا القيام بحق عبودية الله تعالى والدعوة اليه ولا يخالفه ماقيل من انهم الذين يذكر الله برؤيتهم لماروى عن سعيد بن جبير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من اولياء الله فقال هم الذين يذكر الله برؤيتهم اى بسمتهم واخباتهم وسكينتهم ولا ماقيل من انهم المتحابون فى الله لماروى عن عمر رضى الله عنه انه قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول ان من عباد الله عبادا ليسوا بأنبياء ولاشهداء يغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله قالوا يا رسول الله خبرنا من هم وما اعمالهم فلعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا فى الله على غير ارحام منهم ولا اموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى منابر من نور لايخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس فان ماذكر من حسن السمت والسكينة المذكرة لله تعالى والتحاب فى الله سبحانه من الاحكام الدنيوية اللازمة للايمان

والتقوى والآثار الخاصة بهما الحقيقة بالتخصيص بالذكر لظهورها وقربها من افهام الناس قد اورد رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا من ذلك حسبما يقتضيه مقام الارشاد ( ١٤ ) والتذكير ترغيبا للسائلين اوغيرهم من الحاضرين فيما خصه بالذكر هناك من احكامهما فلعل الحاضرين اولا كانوا محتاجين الى اصلاح الحال من جهة الاقوال والافعال والملابس ونحو ذلك والحاضرين ثانيا مفتقرين الى تأليف قلوبهم وعطفها نحو المؤمنين الذين لاعلاقة بينهم وبينهم من جهة النسب والقرابة وتأكيد ما بينهم من الاخوة الدينية ببيان عظم شأنها ورفعة مكانتها وحسن عاقبتها ليراعوا حقوقها ويهجروا من لايوافقهم فى الدين من ارحامهم واما ماذكر من انه يغبطهم الانبياء فتصوير لحسن حالهم على طريقة التمثيل قال الكواشى وهذا مبالغة والمعنى لوفرض قوم بهذه الصفة لكانوا هؤلاء وقيل اولياء الله الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة وجعل قوله عزوجل الذين آمنوا وكانوا يتقون تفسيرا لتوليهم اياه تعالى وقوله عزوجل ( لهم البشرى فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة ) تفسير لتوليه تعالى اياهم ولاريب فى ان اعتبار القيد الاخير فى مفهوم الولاية غير مناسب لمقام ترغيب المؤمنين فى تحصيلها والثبات عليها وبشارتهم بآثارها ونتائجها بل مخل بذلك اذ التحصيل انما يتعلق بالمقدور والاستبشار لايحصل الابعد علم وجود سببه والقيد المذكور ليس بمقدورلهم حتى يحصلوا الولاية بتحصيله ولا بمعلوم لهم عند حصوله حتى يعرفوا حصول الولاية لهم ويستبشروا بمحاسن آثارها بل التولى بالكرامة عين نتيجة الولاية فاعتباره فى عنوان الموضوع ثم الاخبار بعدم الخوف والحزن مما لايليق بشان التنزيل الجليل فالذى يقتضيه نظمه الكريم ان الاول تفسير للاولياء حسبما شرح والثانى بيان لما اولاهم من خيرات الدارين بعد بيان انجائهم من شرورهما ومكارههما والجملة مستأنفة كما سبق كأنه قيل هل لهم وراء ذلك من نعمة وكرامة فقيل ( وحزن )

اشارة الى كمال حال القوة العملية وفيه مقام آخر وهو ان يحمل الايمان على مجموع الاعتقاد والعمل ثم نصف الولى بانه كان متقيا فى الكل اما التقوى فى موقف العلم فلأن جلال الله اعلى من ان يحيط به عقل البشر فالصديق اذا وصف الله سبحانه بصفة من صفات الجلال فهو يقدس الله عن ان يكون كماله وجلاله مقتصرا على ذلك المقدار الذى عرفه ووصفه به واذا عبدالله تعالى فهو يقدس الله تعالى عن ان تكون الخدمة اللائقة بكبريائه متقدرة بذلك المقدار فثبت انه ابدا يكون فى مقام الخوف والتقوى واما الاخبار فكثيرة روى عمر رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام بينهم ولا اموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى منابر من نور لايخافون اذا خاف الناس ولايحزنون اذا حزن الناس ثم قرأ هذه الآية وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال هم الذين يذكر الله تعالى برؤيتهم قال اهل التحقيق السبب فيه ان مشاهدتهم تذكر امر الآخرة لمايشاهد فيهم من آيات الخشوع والخضوع ولما ذكر الله تعالى سبحانه فى قوله سيماهم فى وجوههم من اثر السجود واما الاثر فقال ابوبكر الاصم اولياء الله هم الذين تولى الله تعالى هدايتهم بالبرهان وتولوا القيام بحق عبودية الله تعالى والدعوة اليه واما المعقول فنقول ظهر فى علم الاشتقاق ان تركيب الواو واللام والياء يدل على معنى القرب فولى كل شئ هو الذى يكون قريبا منه والقرب من الله تعالى بالمكان والجهة محال فالقرب منه انما يكون اذا كان القلب مستغرقا فى نور معرفة الله تعالى سبحانه فان رأى رأى دلائل قدرة الله وان سمع سمع آيات الله وان نطق نطق بالثناء على الله وان تحرك تحرك فى خدمة الله وان اجتهد اجتهد فى طاعة الله فهنالك يكون فى غاية القرب من الله فهذا الشخص يكون وليا لله تعالى واذا كان كذلك كان الله تعالى وليا له ايضا كما قال الله تعالى الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ويجب ان يكون الامر كذلك لان القرب لايحصل الا من الجانبين وقال المتكلمون ولى الله من يكون آتيا بالاعتقاد الصحيح المبنى على الدليل ويكون آتيا بالاعمال الصالحة على وفق ماوردت به الشريعة فهذا كلام مختصر فى تفسير الولى واما قوله تعالى فى صفتهم لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ففيه بحثان ( البحث الاول ) ان الخوف انما يكون فى المستقبل بمعنى انه يخاف حدوث شئ فى المستقبل من المخوف والحزن انما يكون على الماضى اما لاجل انه كان قد حصل فى الماضى ماكرهه اولانه فات شئ احبه ( البحث الثانى ) قال بعض المحققين ان نفى الحزن والخوف اما ان يحصل للاولياء حال كونهم فى الدنيا او حال انتقالهم الى الآخرة والاول باطل لوجوه ( احدها ) ان هذا لايحصل فى دار الدنيا لانها دار خوف وحزن والمؤمن خصوصا لايخلو من ذلك على ماقاله الرسول عليه الصلاة والسلام الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وعلى ماقال حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات ( وثانيها ) ان المؤمن وان صفا عيشه فى الدنيا فانه لايخلو من هم بأمر الآخرة شديد

لهم مايسرهم فى الدارين وتقديم الاول لما ان التخلية سابقة على التحلية مع مافيه من مراعاة حق المقابلة بين حسن حال المؤمنين وسوء حال المفترين وتعجيل ادخال المسرة بتبشير ( ١٥ ) الخلاص عن الاهوال وتوسيط البيان السابق بين بشارة الخلاص عن المحذور وبشارة الفوز بالمطلوب لاظهار كمال العناية بتفسير الاولياء مع الايذان بأن انتفاء الخوف والحزن لاتقائهم عما يؤدى اليهما من الاسباب والبشرى مصدر اريد به المبشر به من الخيرات العاجلة كالنصر والفتح والغنيمة وغير ذلك والآجلة الغنية عن البيان وايثار الابهام والاجمال للايذان بكونه وراء البيان والتفصيل والظرفان فى موقع الحال منه والعامل مافى الخبر من معنى الاستقرار اى لهم البشرى حال كونها فى الحياة الدنيا وحال كونها فى الآخرة اى عاجلة وآجلة اومن الضمير المجرور اى حال كونهم فى الحياة الخ ومن البشرى العاجلة الثناء الحسن والذكر الجميل ومحبة الناس * عن ابى ذر رضى الله عنه قلت يارسول الله الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال عليه السلام تلك عاجل بشرى المؤمن هذا وقيل البشرى مصدر والظرفان متعلقان به * اما البشرى فى الدنيا فهى البشارات الواقعة للمؤمنين المتقين فى غير موضع من الكتاب المبين وعن النبى صلى الله عليه وسلم هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن اوترى له وعنه عليه الصلاة والسلام ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وعن عطاء لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة قال الله تعالى تتنزل عليهم الملائكة ان لاتخافوا ولاتحزنوا وابشروا بالجنة * واما البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة اياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة وما يرون من بياض وجوههم واعطاء الصحائف بأيمانهم ومايقرؤن منها وغير ذلك من البشارات فتكون هذه بشارة بما سيقع من البشارات العاجلة والآجلة المطلوبة لغاياتها لا لذواتها ولا يخفى ان صرف البشارة الناجزة عن المقاصد بالذات الى وسائلها مما لايساعده جلالة شان التنزيل الكريم

---

وحزن على مايفوته من القيام بطاعة الله تعالى واذا بطل هذا القسم وجب حمل قوله تعالى لاخوف عليهم ولاهم يحزنون على امر الآخرة فهذا كلام محقق وقال بعض العارفين ان الولاية عبارة عن القرب فولى الله تعالى هو الذى يكون فى غاية القرب من الله تعالى وهذا التقرير قد فسرناه باستغراقه فى معرفة الله تعالى بحيث لايخطر بباله فى تلك اللحظة شئ مما سوى الله ففى هذه الساعة تحصل الولاية التامة ومتى كانت هذه الحالة حاصلة فان صاحبها لايخاف شيئا ولايحزن بسبب شئ وكيف يعقل ذلك والخوف من الشئ والحزن على الشئ لايحصل الابعد الشعور به والمستغرق فى نور جلال الله غافل عن كل ماسوى الله تعالى فيمتنع ان يكون له خوف اوحزن وهذه درجة عالية ومن لم يذ قها لم يعرفها ثم ان صاحب هذه الحالة قد تزول عنه هذه الحالة وحينئذ يحصل له الخوف والحزن والرجاء والرغبة والرهبة بسبب الاحوال الجسمانية كما يحصل لغيره وسمعت ان ابراهيم الخواص كان بالبادية ومعه واحد يصحبه فاتفق فى بعض الليالى ظهور حالة قوية وكشف تام له فجلس فى موضعه وجاءت السباع ووقفوا بالقرب منه والمريد تسلق على رأس شجرة خوفا منها والشيخ ماكان فازعا من تلك السباع فلما اصبح وزالت تلك الحالة ففى الليلة الثانية وقعت بعوضة على يده فأظهر الجزع من تلك البعوضة فقال المريد كيف تليق هذه الحالة بماقبلها فقال الشيخ انا انما تحملنا البارحة ماتحملناه بسبب قوة الوارد الغيبى فلما غاب ذلك الوارد فأنا أضعف خلق الله تعالى ( المسئلة الثانية ) قال اكثر المحققين ان اهل الثواب لايحصل لهم خوف فى محفل القيامة واحتجوا على صحة قولهم بقوله تعالى الا ان اولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون وبقوله تعالى لايحزنهم الفزع الاكبر وتتلقاهم الملائكة وايضا فالقيامة دار الجزاء فلايليق به ايصال الخوف ومنهم من قال بل يحصل فيه انواع من الخوف وذكروا فيه اخبارا تدل عليه الا ان ظاهر القرآن أولى من خبر الواحد واماقوله الذين آمنوا وكانوا يتقون ففيه ثلاثة أوجه ( الاول ) النصب بكونه صفة للاولياء (والثانى) النصب على المدح (والثالث) الرفع على الابتداء وخبره لهم البشرى واماقوله تعالى لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ففيه اقوال (الاول) المراد منه الرؤيا الصالحة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال البشرى هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أوترى له وعنه عليه الصلاة والسلام ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وعنه عليه الصلاة والسلام الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فاذا حلم احدكم حلما يخافه فليتعوذ منه وليبصق عن شماله ثلاث مرات فانه لايضره وعنه صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء من ستة واربعين جزأ من النبوة وعن ابن مسعود الرؤيا ثلاثة الهم يهم به الرجل من النهار فيراه فى الليل وحضور الشيطان والرؤيا التى هى الرؤيا الصادقة وعن ابراهيم الرؤيا ثلاثة فالمبشرة من الله جزء من سبعين جزأ من النبوة والشئ يهم به احدكم بالنهار فلعله يراه بالليل والتخويف من الشيطان فاذا رأى احدكم مايحزنه

( لاتبديل لكلمات الله ) لاتغيير لاقواله التى من جملتها مواعيده الواردة بشارة للمؤمنين المتقين فيدخل فيها البشارات الواردة ههنا دخولا اوليا ويثبت امتناع الاخلاف فيها ثبوتا قطعيا وعلى ( ١٦ ) تقدير كون المراد بالبشرى الرؤيا الصالحة فالمراد بعدم تبديل كلماته تعالى ليس عدم الخلف بينها وبين نتائجها الدنيوية والاخروية بل عدم الخلف بينها وبين مادل على ثبوتها ووقوعها فيما سيأتى بطريق الوعد من قوله تعالى لهم البشرى فتدبر ( ذلك ) اشارة الى ما ذكر من ان لهم البشرى فى الدارين ( هو الفوز العظيم ) الذى لافوز وراءه وفيه تفسير لما أبهم فيما سبق وهاتيك الجملة والتى قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم شانه وليس من شرطه ان يكون بعده كلام متصل بما قبله اوهذه تذييل والسابقة اعتراض ( ولايحزنك قولهم ) تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما كان يلقاه من جهتهم من الاذية الناشئة عن مقالاتهم الموحشة وتبشيرله عليه الصلاة والسلام بأنه عز وجل ينصره ويعزه عليهم اثر بيان ان له ولاتباعه امنا من كل محذور وفوزا بكل مطلوب وقرئ ولا يحزنك من احزنه وهو فى الحقيقة نهى له عليه السلام عن الحزن كأنه قيل لاتحزن بقولهم ولاتبال بتكذيبهم وتشاورهم فى تدبير هلاكك وابطال امرك وسائر ماينفؤهون به فى شانك مما لاخير فيه وانما وجه النهى الى قولهم للمبالغة فى نهيه عليه السلام عن الحزن لما ان النهى عن التأثير نهى عن التأثر باصله ونفى له بالمرة وقد يوجه النهى الى اللازم والمراد هو النهى عن الملزوم كما فى قولك لارينك ههنا وتخصيص النهى عن الحزن بالايراد مع شمول النفى السابق للحزن ايضا لما انه لم يكن فيه عليه السلام شائبة خوف حتى ينهى عنه وربما كان يعتريه عليه السلام فى بعض الاوقات نوع حزن فسلى عن ذلك وقوله تعالى ( ان العزة ) تعليل للنهى على طريقة الاستئناف اى الغلبة والقهر ( لله جميعا ) اى فى ملكته وسلطانه لايملك أحد شيئا منها اصلا لاهم ولاغيرهم فهو يقهرهم ويعصمك منهم وينصرك عليهم ( والكرامة )

فليقل اعوذ بما عاذت به ملائكة الله من شر رؤياى التى رأيتها ان تضرنى فى دنياى او فى آخرتى واعلم أنا اذا حملنا قوله لهم البشرى على الرؤيا الصادقة فظاهر هذا النص يقتضى ان لاتحصل هذه الحالة الالهم والعقل ايضا يدل عليه وذلك لان ولى الله هو الذى يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله ومن كان كذلك فهو عند النوم لايبقى فى روحه الامعرفة الله ومن المعلوم ان معرفة الله ونور جلال الله لايفيده الاالحق والصدق واما من يكون متوزع الفكر على احوال هذا العالم الكدر المظلم فانه اذانام يبقى كذلك فلاجرم لااعتماد على رؤياه فلهذا السبب قال لهم البشرى فى الحياة الدنيا على سبيل الحصر والتخصيص ( القول الثانى ) فى تفسير البشرى انها عبارة عن محبة الناس له وعن ذكرهم اياه بالثناء الحسن عن ابى ذر قال قلت يارسول الله ان الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال تلك عاجل بشرى المؤمن واعلم ان المباحث العقلية تقوى هذه المعنى وذلك ان الكمال محبوب لذاته لالغيره وكل من اتصف بصفة من صفات الكمال صار محبوبا لكل احد ولاكمال للعبد اعلى واشرف من كونه مستغرق القلب بمعرفة الله مستغرق اللسان بذكر الله مستغرق الجوارح والاعضاء بعبودية الله فاذا ظهر عليه امر من هذا الباب صارت الالسنة جارية بمدحه والقلوب مجبولة على حبه وكلما كانت هذه الصفات الشريفة اكثر كانت هذه المحبة اقوى وايضا فنور معرفة الله مخدوم بالذات ففى اى قلب حضر صار ذلك الانسان مخدوما بالطبع الاترى ان البهائم والسباع قد تكون اقوى من الانسان ثم انها اذا شاهدت الانسان هابته وفرت منه وماذاك الالمهابة النفس الناطقة ( والقول الثالث ) فى تفسير البشرى انها عبارة عن حصول البشرى لهم عند الموت قال تعالى تتنزل عليهم الملائكه ان لاتخافوا ولاتحزنوا وابشروا بالجنة واما البشرى فى الآخرة فسلام الملائكة عليهم كما قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم وسلام الله عليهم كما قال سلام قولا من رب رحيم ويندرج فى هذا الباب ماذكره الله فى هذا الكتاب الكريم من بياض وجوههم واعطاء الصحائف بايمانهم ومايلقون فيها من الاحوال السارة فكل ذلك من المبشرات ( والقول الرابع ) ان ذلك عبارة عما بشر الله عباده المتقين فى كتابه وعلى السنة انبيائه من جنته وكريم ثوابه ودليله قوله يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان واعلم ان لفظ البشارة مشتق من خبر سار يظهر اثره فى بشرة الوجه فكل ماكان كذلك دخل فى هذه الآية ومجموع الامور المذكورة مشتركة فى هذه الصفة فيكون الكل داخلا فيه فكل مايتعلق من هذه الوجوه بالدنيا فهو داخل تحت قوله لهم البشرى فى الحياة الدنيا وكل مايتعلق بالآخرة فهو داخل تحت قوله وفى الآخرة ثم انه تعالى لما ذكر صفة اولياء الله وشرح احوالهم قال تعالى لاتبديل لكلمات الله والمراد انه لاخلف فيها والكلمة والقول سواء ونظيره قوله مايبدل القول لدى وهذا احد مايقوى ان المراد بالبشرى وعد الله بالثواب

والكرامة لمن اطاعه بقوله يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ثم بين تعالى ان ذلك هو الفوز العظيم وهو كقوله تعالى واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ثم قال القاضى قوله لاتبديل لكلمات الله يدل على أنها قابلة للتبديل وكل ماقبل العدم امتنع ان يكون قديما ونظير هذا الاستدلال بحصول النسخ على ان حكم الله تعالى لايكون قديما وقد سبق الكلام على امثال هذه الوجوه ❊ قوله تعالى ( ولايحزنك قولهم ان العزة لله جميعا هو السميع العليم الا ان لله من فى السموات ومن فى الارض ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون ) اعلم ان القوم لما اوردوا أنواع الشبهات التى حكاها الله تعالى عنهم فيما تقدم من هذه السورة واجاب الله عنها بالاجوبة التى فسرناها وقررناها عدلوا الى طريق آخر وهو انهم هددوه وخوفوه وزعموا انا أصحاب التبع والمال فنسعى فى قهرك وفى ابطال امرك والله سبحانه أجاب عن هذا الطريق بقوله ولايحزنك قولهم ان العزة لله جميعا واعلم ان الانسان انما يحزن من وعيد الغير وتهديده ومكره وكيده لو جوز كونه مؤثرا فى حاله فاذا علم من جهة علام الغيوب ان ذلك لايؤثر خرج من ان يكون سببا لحزنه ثم انه تعالى كما أزال عن الرسول حزن الآخرة بسبب قوله الا ان اولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون فكذلك أزال حزن الدنيا بقوله ولايحزنك قولهم ان العزة لله جميعا فاذا كان الله هو الذى أرسله الى الخلق وهو الذى امره بدعوتهم الى هذا الدين كان لامحالة ناصرا له ومعينا ولما ثبت ان العزة والقهر والغلبة ليست الا له فقد حصل الا من وزال الخوف فان قيل فكيف آمنه من ذلك ولم يزل خائفا حتى احتاج الى الهجرة والهرب ثم من بعد ذلك يخاف حالا بعد حال قلنا ان الله تعالى وعده الظفر والنصرة مطلقا والوقت ما كان معينا فهو فى كل وقت كان يخاف من ان لايكون هذا الوقت المعين ذلك الوقت فحينئذ يحصل الانكسار والانهزام فى هذا الوقت واما قوله تعالى ان العزة لله جميعا ففيه ابحاث ( البحث الاول ) قال القاضى ان العزة بالالف المكسورة وفى فتحها فساد يقارب الكفر لانه يؤدى الى ان القوم كانوا يقولون ان العزة لله جميعا وان الرسول عليه الصلاة والسلام كان يحزنه ذلك اما اذا كسرت الالف كان ذلك استئنافا وهذا يدل على فضيلة علم الاعراب قال صاحب الكشاف وقرأ ابو حيوة ان العزة بالفتح على حذف لام العلة يعنى لان العزة على صريح التعليل ( البحث الثانى ) فائدة ان العزة لله فى هذا المقام امور (الاول) المراد منه ان جميع العزة والقدرة هى لله تعالى يعطى مايشاء لعباده والغرض منه انه لايعطى الكفار قدرة عليه بل يعطيه القدرة عليهم حتى يكون هو بذلك اعز منهم فآمنه الله تعالى بهذا القول من اضرار الكفار به بالقتل والايذاء ومثله قوله تعالى كتب الله لاغلبن انا ورسلى انا لننصر رسلنا ( الثانى ) قال الاصم المراد ان المشركين يتعززون بكثرة خدمهم واموالهم ويخوفونك بها وتلك الاشياء كلها لله تعالى فهو القادر

وقد كان كذلك فهى من جملة المبشرات العاجلة وقرئ بفتح ان على صريح التعليل اى لان العزة لله ( هو السميع العليم ) يسمع مايقولون فى حقك ويعلم مايعزمون عليه وهو ( ١٧ ) مكافئهم بذلك ( الا ان لله من فى السموات ومن فى الارض ) اى العقلاء من الملائكة والثقلين وتخصيصهم بالذكر للايذان بعدم الحاجة الى التصريح بغيرهم فانهم مع شرفهم وعلو طبقتهم اذا كانوا عبيدا له سبحانه مقهورين تحت قهره وملكته فاعداهم من الموجودات اولى بذلك وهو مع مافيه من التأكيد لما سبق من اختصاص العزة لله تعالى الموجب لسلوته عليه السلام وعدم مبالاته بالمشركين وبمقالاتهم تمهيد لما لحق من قوله تعالى (ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) وبرهان على بطلان ظنونهم واعمالهم المبنية عليها وما اما نافية وشركاء مفعول يتبع ومفعول يدعون محذوف لظهوره اى ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فى الحقيقة وان سموها شركاء فاقتصر على احدهما لظهور دلالته على الآخر ويجوز ان يكون المذكور مفعول يدعون ويكون مفعول يتبع محذوفا لانفهامه من قوله تعالى (ان يتبعون الا الظن) اى مايتبعون يقينا انما يتبعون ظنهم الباطل واما موصولة معطوفة على من كأنه قيل ولله مايتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء اى وله شركاؤهم وتخصيصهم بالذكر مع دخولهم فيما سبق عبارة او دلالة للمبالغة فى بيان بطلان اتباعهم وفساد مابنوه عليه من ظنهم شركاء هم معبودين مع كونهم عبيدا له سبحانه واما استفهامية اى واى شئ يتبعون اى لايتبعون شيئا مايتبعون الا الظن والخيال الباطل كقوله تعالى ماتعبدون من دونه الا اسماء سميتموها الخ وقرئ تدعون بالتاء فالاستفهام للتبكيت والتوبيخ كأنه قيل واى شئ (٣) ( را ) (خا) يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين تقريرا لكونهم متبعين لله تعالى مطيعين له وتوبيخا لهم على عدم اقتدائهم بهم فى ذلك كقوله تعالى اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة

ثم صرف الكلام عن الخطاب الى الغيبة فقيل ان يتبع هؤلاء المشركون الا الظن ولا يتبعون ما يتبعه الملائكة والنبيون من الحق (وان هم الا يخرصون) يكذبون فيما ينسبونه اليه سبحانه ويحزرون ويقدرون انهم شركاء ( ٦٨ ) تقديرا باطلا ( هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) تنبيه على تفرده تعالى بالقدرة الكاملة والنعمة الشاملة ليدلهم على توحده سبحانه باستحقاق العبادة وتقرير لما سلف من كون جميع الموجودات الممكنة تحت قدرته وملكته المفصح عن اختصاص العزة به سبحانه والجعل ان كان بمعنى الابداع والخلق فمبصرا حال والا فلكم مفعوله الثانى اوهو حال كما فى الوجه الاول والمفعول الثانى لتسكنوا فيه اوهو محذوف يدل عليه المفعول الثانى من الجملة الثانية كما ان العلة الغائية منها محذوفة اعتمادا على ما فى الاولى والتقدير هو الذى جعل لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه والنهار مبصرا لتتحركوا فيه لمصالحكم كما سيجىء نظيره فى قوله تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله الآية فحذف فى كل واحد من الجانبين ما ذكر فى الآخر اكتفاء بالمذكور عن المتروك واسناد الابصار الى النهار مجازى كالذى فى نهاره صائم (ان فى ذلك) أى فى جعل كل منهما كما وصف اوفيهما وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه وعلو رتبته (لآيات) عجيبة كثيرة أو آيات اخر غير ما ذكر (لقوم يسمعون) اى هذه الآيات المتلوة ونظائرها المنبهة على تلك الآيات التكوينية الآمرة بالتأمل فيها سماع تدبر واعتبار فيعملون بمقتضاها وتخصيص الآيات بهم مع انها منصوبة لمصلحة الكل لانهم المنتفعون بها (قالوا) شروع فى ذكر ضرب آخر من اباطيلهم وبيان بطلانه (اتخذ الله ولدا) اى تبناه (سبحانه) تنزيه وتقديس له عما نسبوا اليه وتعجيب من كلمتهم الحمقاء (هو الغنى) على الاطلاق عن كل شئ فى كل شئ وهو علة لتنزيهه سبحانه وايذان بان اتخاذ الولد من احكام الحاجة وقوله ( قول )

على ان يسلب منهم كل تلك الاشياء وان ينصرك وينقل اموالهم وديارهم اليك فان قيل قوله ان العزة لله جميعا كالمضاد لقوله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين قلنا لا مضادة لان عزة الرسول والمؤمنين كلها بالله فهى لله اما قوله هو السميع العليم اى يسمع ما يقولون ويعلم ما يعزمون عليه وهو يكافئهم بذلك واما قوله الا ان لله من فى السموات ومن فى الارض ففيه وجهان ( الاول) انه تعالى ذكر فى الآيات المتقدمة الا ان لله ما فى السموات والارض وهذا يدل على ان كل ما لا يعقل فهو ملك لله تعالى وملك له واما ههنا فكلمة من مختصة بمن يعقل فتدل على ان كل العقلاء داخلون تحت ملك الله وملكه فيكون مجموع الآيتين دالا على ان الكل ملكه وملكه ( والثانى ) ان المراد من فى السموات العقلاء المميزون وهو الملائكة والثقلان وانما خصهم بالذكر ليدل على ان هؤلاء اذا كانوا له وفى ملكه فالجمادات اولى بهذه العبودية فيكون ذلك قدحا فى جعل الاصنام شركاء لله تعالى ثم قال تعالى وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ان يتبعون الا الظن وفى كلمة ما قولان (الاول) انه نفى وجحد والمعنى انهم ما اتبعوا شريك الله تعالى انما اتبعوا شيأ ظنوه شريكا لله تعالى ومثاله ان أحدنا لو ظن ان زيدا فى الدار وما كان فيها فخاطب انسانا فى الدار ظنه زيدا فانه لا يقال انه خاطب زيدا بل يقال خاطب من ظنه زيدا ( الثانى ) ان ما استفهام كأنه قيل اى شئ يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء والمقصود تقبيح فعلهم يعنى انهم ليسوا على شئ ثم قال تعالى ان يتبعون الا الظن والمعنى انهم انما اتبعوا ظنونهم الباطلة واوهامهم الفاسدة ثم بين ان هذا الظن لا حكم له وان هم الا يخرصون وذكرنا معنى الخرص فى سورة الانعام عند قوله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون ❊ قوله تعالى (هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ) اعلم انه تعالى لما ذكر قوله ان العزة لله جميعا احتج عليه بهذه الآية والمعنى انه تعالى جعل الليل ليزول التعب والكلال بالسكون فيه وجعل النهار مبصرا اى مضيئا لتهتدوا به فى حوائجكم بالابصار والمبصر الذى يبصر والنهار يبصر فيه وانما جعله مبصرا على طريق نقل الاسم من السبب الى المسبب فان قيل ان قوله هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه يدل على انه تعالى ما خلقه الا لهذا الوجه وقوله ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون يدل على انه تعالى اراد بتخليق الليل والنهار انواعا كثيرة من الدلائل قلنا ان قوله تعالى لتسكنوا لا يدل على انه لا حكمة فيه الا ذلك بل ذلك يقتضى حصول تلك الحكمة اما قوله تعالى ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون فالمراد يتدبرون ما يسمعون ويعتبرون به ❊ قوله تعالى (قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الارض ان عندكم من سلطان بهذا اتقولون على الله ما لا تعلمون) اعلم ان هذا نوع آخر من الاباطيل التى حكاها الله تعالى عن الكفار وهى قولهم اتخذ الله ولدا ويحتمل ان يكون المراد حكاية

عز وجل ( له مافى السموات ومافى الارض ) اى من العقلاء وغيرهم تقرير لغناه وتحقيق لمالكيته تعالى لكل ماسواه وقوله تعالى ( ان عندكم من سلطان ) اى حجة ( بهذا ) اى بما ذكر ( ١٩ ) من قولهم الباطل توضيح لبطلانه بتحقيق سلامة مااقيم من البرهان الساطع

عن المعارض فمن فى قوله تعالى من سلطان زائدة لتأكيد النفى وهو مبتدأ والظرف المقدم خبره او مرتفع على انه فاعل للظرف لاعتماده على النفى وبهذا متعلق اما بسلطان لانه بمعنى الحجة والبرهان واما بمحذوف وقع صفة له واما بما فى عندكم من معنى الاستقرار كأنه قيل ان عندكم فى هذا القول من سلطان والالتفات الى الخطاب لمزيد المبالغة فى الالزام والافحام وتأكيد مافى قوله تعالى ( اتقولون على الله مالا تعلمون ) من التوبيخ والتقريع على جهلهم واختلافهم وفيه تنبيه على ان كل مقالة لادليل عليها فهى جهالة وان العقائد لابد لها من برهان قطعى وان التقليد بمعزل من الاعتداد به ( قل ) تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبين لهم سوء مغبتهم ووخامة عاقبتهم ( ان الذين يفترون على الله الكذب ) اى فى كل امر فيدخل مانحن بصدده من الافتراء بنسبة الولد والشريك اليه سبحانه دخولا اوليا ( لا يفلحون ) اى لا ينجون من مكروه ولا يفوزون بمطلوب اصلا وتخصيص عدم النجاة والفوز بما يندرج فى ذلك من عدم النجاة من النار وعدم الفوز بالجنة لايناسب مقام المبالغة فى الزجر عن الافتراء عليه سبحانه ( متاع فى الدنيا ) كلام مستأنف سيق لبيان ان مايتراءى فيهم بحسب الظاهر من نيل المطالب والفوز بالحظوظ الدنيوية على الاطلاق او فى ضمن افترائهم بمعزل من ان يكون من جنس الفلاح كأنه قيل كيف لا يفلحون وهم فى غبطة ونعيم فقيل هو متاع يسير فى الدنيا وليس بفوز بالمطلوب ثم اشير الى انتفاء النجاة عن المكروه ايضا بقوله عز وعلا ( ثم الينا مرجعهم ) اى بالموت ( ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ) فيبقون فى الشقاء المؤبد بسبب كفرهم المستمر او بكفرهم فى الدنيا فأين هم من الفلاح

قول من يقول الملائكة بنات الله ويحتمل ان يكون المراد قول من يقول الاوثان اولاد الله و يحتمل ان يكون قد كان فيهم قوم من النصارى قالوا ذلك ثم انه تعالى لما استنكر هذا القول قال بعده هو الغنى له مافى السموات ومافى الارض واعلم ان كونه تعالى غنيا مالكا لكل مافى السموات والارض يدل على انه يستحيل ان يكون له ولد وبيان ذلك من وجوه (الاول) انه سبحانه غنى مطلقا على مافى هذه الآية والعقل ايضا يدل عليه لانه لوكان محتاجا لافتقر الى صانع آخر وهو محال وكل من كان غنيا فانه لابد ان يكون فردا منزها عن الاجزاء والابعاض وكل من كان كذلك امتنع ان ينفصل عنه جزء من اجزائه والولد عبارة عن ان ينفصل جزء من اجزاء الانسان ثم يتولد عن ذلك الجزء مثله واذا كان هذا محالا ثبت ان كونه تعالى غنيا يمنع من ثبوت الولد (الحجة الثانية) انه تعالى غنى وكل من كان غنيا كان قديما أزليا باقيا سرمديا وكل من كان كذلك امتنع عليه الانقراض والانقضاء والولد انما يحصل للشئ الذى ينقضى وينقرض فيكون ولده قائما مقامه فثبت ان كونه تعالى غنيا يدل على انه يمتنع ان يكون له ولد (الحجة الثالثة) انه تعالى غنى وكل من كان غنيا فانه يمتنع ان يكون موصوفا بالشهوة واللذة واذا امتنع ذلك امتنع أن يكون له صاحبة وولد (الحجة الرابعة) انه تعالى غنى وكل من كان غنيا امتنع ان يكون له ولد لان اتخاذ الولد انما يكون فى حق من يكون محتاجا حتى يعينه ولده على المصالح الحاصلة والمتوقعة فمن كان غنيا مطلقا امتنع عليه اتخاذ الولد (الحجة الخامسة) ولد الحيوان انما يكون ولدا له بشرطين اذا كان مساويا له فى الطبيعة والحقيقة ويكون ابتداء وجوده وتكونه منه وهذا فى حق الله تعالى محال لانه تعالى غنى مطلقا وكل من كان غنيا مطلقا كان واجب الوجود لذاته فلو كان للواجب الوجود ولد لكان ولده مساويا له فيلزم ان يكون ولد واجب الوجود ايضا واجب الوجود لكن كونه واجب الوجود يمنع من تولده من غيره واذا لم يكن متولدا من غيره لم يكن ولدا فثبت ان كونه تعالى غنيا من اقوى الدلائل على انه تعالى لا ولد له وهذه الثلاثة مع الثلاثة الاول فى غاية القوة (الحجة السادسة) انه تعالى غنى وكل من كان غنيا امتنع ان يكون له اب وام وكل من تقدس عن الوالدين وجب ان يكون مقدسا عن الاولاد فان قيل يشكل هذا بالوالد الاول قلنا الوالد الاول لا يمتنع كونه ولدا لغيره لانه سبحانه وتعالى قادر على ان يخلق الوالد الاول من ابوين يقدمانه اما الحق سبحانه فانه يمتنع افتقاره الى الابوين والا لما كان غنيا مطلقا (الحجة السابعة) انه تعالى غنى مطلقا وكل من كان غنيا مطلقا امتنع ان يفتقر فى احداث الاشياء الى غيره اذا ثبت هذا فنقول هذا الولد اما ان يكون قديما او حادثا فان كان قديما فهو واجب الوجود لذاته اذ لو كان ممكن الوجود لافتقر الى المؤثر وافتقار القديم الى المؤثر يقتضى ايجاد الموجود وهو محال واذا كان واجب الوجود لذاته لم يكن ولدا للغير بل كان موجودا مستقلا بنفسه واما ان كان هذا الولد حادثا والحق

وقيل المبتدأ المحذوف حياتهم اوتقلبهم وقيل انه افتراؤهم ولايخفى ان المتاع انما يطلق على ما يكون متبوعا عند النفس مرغوبا فيه في نفسه يتمتع وينتفع به وانما عدم الاعتداد به (٢٠) لسرعة زواله ونفس الافتراء عليه سبحانه اقبح القبائح عند النفس

سبحانه غني مطلقا فكان قادرا على احداثه ابتداء من غير تشريك شيء آخر فكان هذا عبدا مطلقا ولم يكن ولدا فهذه جملة الوجوه المستنبطة من قوله هو الغني الدالة على انه يمتنع ان يكون له ولد اما قوله له ما في السموات وما في الارض فاعلم انه نظير قوله ان كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبدا وحاصله يرجع الى ان ماسوى الواحد الاحد الحق ممكن وكل ممكن محتاج وكل محتاج محدث فكل ماسوى الواحد الاحد الحق محدث والله تعالى محدثه وخالقه وموجده وذلك يدل على فساد القول باثبات الصاحبة والولد ولما بين تعالى بالدليل الواضح امتناع ما اضافوا اليه عطف عليهم بالانكار والتوبيخ فقال ان عندكم من سلطان بهذا منبها بهذا على انه لاحجة عندهم في ذلك البتة ثم بالغ في ذلك الانكار فقال أتقولون على الله مالاتعلمون وقد ذكرنا ان هذه الآية يحتج بها في ابطال التقليد في اصول الديانات ونفاة القياس واخبار الآحاد قد يحتجون بهما في ابطال هذين الاصلين وقد سبق الكلام فيه * قوله تعالى (قل ان الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون متاع في الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) اعلم انه تعالى لما بين بالدليل القاهر ان اثبات الولد لله تعالى قول باطل ثم بين انه ليس لهذا القائل دليل على صحة قوله فقد ظهر ان ذلك المذهب افتراء على الله ونسبة لما لايليق به اليه فبين ان من هذا حاله فانه لايفلح البتة الا ترى انه تعالى قال في اول سورة المؤمنون قد أفلح المؤمنون وقال في آخر هذه السورة انه لايفلح الكافرون واعلم ان قوله ان الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون يدخل فيه هذه الصورة ولكنه لايختص بهذه الصورة بل كل من قال في ذات الله تعالى وفي صفاته قولا بغير علم وبغير حجة بينة كان داخلا في هذا الوعيد ومعنى قوله لايفلح قد ذكرناه في اول سورة البقرة في قوله تعالى واولئك هم المفلحون وبالجملة فالفلاح عبارة عن الوصول الى المقصود والمطلوب فمعنى انه لايفلح هو انه لاينجح في سعيه ولا يفوز بمطلوبه بل خاب وخسر ومن الناس من اذا فاز بشيء من المطالب العاجلة والمقاصد الخسيسة ظن انه قد فاز بالمقصد الاقصى والله سبحانه ازال هذا الخيال بأن قال ان ذلك المقصود الخسيس متاع قليل في الدنيا ثم لابد من الموت وعند الموت لابد من الرجوع الى الله وعند هذا الرجوع لابد وان يذيقه الله العذاب الشديد بسبب ذلك الكفر المتقدم وهذا كلام في غاية الانتظام ونهاية الحسن والجزالة والله اعلم * قوله تعالى (واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه ياقوم ان كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا امركم وشركاءكم ثم لايكن امركم عليكم غمة ثم اقضوا الي ولاتنظرون فان توليتم فما سألتكم من اجر ان اجري الا على الله وامرت ان اكون من المسلمين) اعلم انه سبحانه لما بالغ في تقرير الدلائل والبينات وفي الجواب عن الشبه والسؤالات شرع بعد ذلك في بيان قصص الانبياء عليهم السلام لوجوه (احدها) ان الكلام اذا طال في تقرير نوع من انواع العلوم فربما حصل نوع

فضلا عن ان يكون مطبوعا عندها وعده كذلك باعتبار اجراء حكم مايؤدي اليه من رياستهم عليه عالاوجه له فالوجه ماذكر اولا وليس ببعيد ماقيل ان المحذوف هو الخبر اي لهم متاع والآية اما مسوقة من جهة الله تعالى لتحقيق عدم افلاحهم غير داخلة في الكلام المأمور به كما يقتضيه ظاهر قوله تعالى ثم الينا وقوله تعالى ثم نذيقهم واما داخلة فيه على ان النبي عليه الصلاة والسلام مأمور بنقله وحكايته عنه عزوجل (واتل عليهم) اي على المشركين من اهل مكة وغيرهم لتحقيق ماسبق من انهم لايفلحون وان مايتمتعون به على جناح الفوات وانهم مشرفون على العذاب الخالد (نبأ نوح) اي خبره الذي له شأن وخطر مع قومه الذين هم اضراب قومك في الكفر والعناد ليتدبروا مافيه من زوال ماتمتعوا به من النعيم وحلول عذاب الغرق الموصول بالعذاب المقيم لينزجروا بذلك عما هم عليه من الكفر او تنكسر شدة شكيمتهم او يعترف بعضهم بصحة نبوتك بان عرفوا ان ماتتلوه موافقا لما ثبت عندهم من غير مخالفة بينهما اصلا مع علمهم بانك لم تسمع ذلك من احد ليس الا بطريق الوحي وفيه من تقرير ماسبق من كون الكل لله سبحانه واختصاص العزة به تعالى وانتفاء الخوف والحزن عن اوليائه عز وعلا قاطبة وتشجيع النبي صلى الله عليه وسلم وحمله على عدم المبالاة بهم وباقوالهم وافعالهم مالا يخفى (اذ قال) معمول لنبأ او بدل منه بدل اشتمال وايا ما كان فالمراد بعض نبئه عليه السلام لا كل ماجرى بينه وبين قومه واللام في قوله تعالى (لقومه) للتبليغ (ياقوم ان كان كبر) اي عظم وشق (عليكم مقامي) اي نفسي كما يقال فعلته لمكان فلان اي لفلان ومنه قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه اي خاف ربه او قيامي ومكثي بين ظهرانيكم مدة (من)

من انواع الملالة فاذا انتقل الانسان من ذلك الفن من العلم الى فن آخر انشرح صدره وطاب قلبه ووجد من نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة وميلا قويا (وثانيها) ليكون للرسول عليه الصلاة والسلام ولاصحابه اسوة بمن سلف من الانبياء فان الرسول اذا سمع ان معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كانت الا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة اذا عمت خفت (وثالثها) ان الكفار اذا سمعوا هذه القصص وعلموا ان الجهال وان بالغوا فى ايذاء الانبياء المتقدمين الا ان الله تعالى اعانهم بالآخرة ونصرهم وايدهم وقهر اعداءهم كان سماع هؤلاء الكفار لأمثال هذه القصص سببا لانكسار قلوبهم ووقوع الخوف والوجل فى صدورهم وحينئذ يقللون من انواع الايذاء والسفاهة (ورابعها) انا قد دللنا على ان محمدا عليه الصلاة والسلام لما لم يتعلم علما ولم يطالع كتابا ثم ذكر هذه الاقاصيص من غير تفاوت ومن غير زيادة ومن غير نقصان دل ذلك على انه صلى الله عليه وسلم انما عرفها بالوحى والتنزيل* واعلم انه تعالى ذكر هذه السورة من قصص الانبياء عليهم السلام ثلاثة (فالقصة الاولى) قصة نوح عليه السلام وهى المذكورة فى هذه الآية وفيها وجهان من الفائدة (الاول) ان قوم نوح عليه السلام لما اصروا على الكفر والجحد عجل الله هلاكهم بالغرق فذكر الله تعالى قصتهم لتصير تلك القصة عبرة لهؤلاء الكفار وداعية الى مفارقة الجحد بالتوحيد والنبوة (والثانى) ان كفار مكة كانوا يستعجلون العذاب الذى يذكره الرسول عليه السلام لهم وكانوا يقولون له كذبت فانه ما جاءنا هذا العذاب قال الله تعالى ذكر لهم قصة نوح عليه السلام لانه عليه السلام كان يخوفهم بهذا العذاب وكانوا يكذبونه فيه ثم بالآخرة وقع كما اخبر فكذا ههنا (المسئلة الثانية) ان نوحا عليه السلام قال لقومه ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت وهذا جملة من الشرط والجزاء اما الشرط فهو مركب من قيدين (القيد الاول) قوله ان كان كبر عليكم مقامى قال الواحدى فى البسيط يقال كبر يكبر كبرا فى السن وكبر الامر والشىء اذا عظم يكبر كبرا وكبارة قال ابن عباس ثقل عليكم وشق عليكم وعظم امره عندكم والمقام بفتح الميم مصدر كالاقامة يقال اقام بين اظهرهم مقاما واقامة والمقام بضم الميم الموضع الذى يقام فيه واراد بالمقام ههنا مكثه ولبثه فيهم وبالجملة فقوله كبر عليكم مقامى جار مجرى قولهم فلان ثقيل الظل واعلم ان سبب هذا الثقل امران (احدهما) انه عليه السلام مكث فيهم الف سنة الا خمسين عاما (والثانى) ان اولئك الكفار كانوا قد الفوا تلك المذاهب الفاسدة والطرائق الباطلة والغالب ان من الف طريقة فى الدين فانه يثقل عليه ان يدعى الى خلافها ويذكر له ركاكتها فان اقترن بذلك طول مدة الدعاء كان اثقل واشد كراهية فان اقترن به ايراد الدلائل القاهرة على فساد ذلك المذهب كانت النفرة اشد فهذا هو السبب فى حصول ذلك الثقل (والقيد الثانى) هو قوله وتذكيرى بآيات الله واعلم ان الطباع المشغوفة بالدنيا الحريصة على طلب اللذات

طويلة او قيامى (وتذكيرى بآيات الله) فانهم كانوا اذا وعظوا الجماعة يقومون على ارجلهم والجماعة قعود ليظهر حالهم ويسمع مقالهم (فعلى الله توكلت) جواب للشرط (٢١) اى دمت على تخصيص التوكل به تعالى ويجوز ان يراد به احداث مرتبة مخصوصة من مراتب التوكل (فأجمعوا امركم) عطف على الجواب والفاء لترتيب الامر بالاجماع على التوكل لا لترتيب نفس الاجماع عليه او هو الجواب وما سبق جملة معترضة والاجماع العزم قيل هو متعد بنفسه وقيل فيه حذف وايصال قال السدوسى اجمعت الامر افصح من اجمعت عليه وقال ابو الهيثم أجمع امره جعله مجموعا بعدما كان متفرقا وتفرقه انه يقول مرة افعل كذا واخرى افعل كذا واذا عزم على امر واحد فقد جمعه اى جعله جميعا (وشركاءكم) بالنصب على ان الواو بمعنى مع كما يدل عليه القراءة بالرفع عطفا على الضمير المتصل تنزيلا للفصل منزلة التأكيد واسناد الاجماع الى الشركاء على طريقة التهكم وقيل انه عطف على امركم بحذف المضاف اى امر شركائكم وقيل منصوب بفعل محذوف اى وادعوا شركاءكم وقد قرئ كذلك وقرئ فاجمعوا من الجمع اى فاعزموا على امركم الذى تريدون بى من السعى فى اهلاكى واحتشدوا فيه على اى وجه يمكنكم (ثم لا يكن امركم) ذلك (عليكم غمة) اى مستورا من غمه اذا ستره بل مكشوفا مشهورا تجاهرونني به فان السر انما يصار اليه لسد باب تدارك الخلاص بالهرب او نحوه فحيث استحال ذلك فى حقى لم يكن للسر وجه وانما خاطبهم عليه السلام بذلك اظهارا لعدم المبالاة بهم وانهم لم يجدوا اليه سبيلا وثقة بالله سبحانه وبما وعده من عصمته وكلاءته فكلمة ثم للتراخى فى الرتبة واظهار الامر فى موقع الاضمار لزيادة تقرير يقتضيها مقام الامر بالاظهار الذى يستلزمه النهى عن التستر والاسرار وقيل المراد بأمرهم ما يعتريهم من جهته عليه السلام من الحال الشديدة عليهم المكروهة لديهم والغمة الغم كالكربة والكرب وثم للتراخى الزمانى والمعنى لا يكن

العاجلة تكون شديدة النفرة عن الامر بالطاعات والنهى عن المعاصى والمنكرات قوية الكراهة لسماع ذكر الموت وتقبيح صورة الدنيا ومن كان كذلك فانه يستثقل الانسان الذى يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر وفى الآية وجه آخر وهو ان يكون قوله ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله معناه انهم كانوا اذا وعظوا الجماعة قاموا على ارجلهم يعظونهم ليكون مكانهم ظاهرا وكلامهم مسموعا كما يحكى عن عيسى عليه السلام انه كان يعظ الحواريين قائما وهم قعود واعلم ان هذا هو الشرط المذكور فى هذه الآية اما الجزاء ففيه قولان ( الاول ) ان الجزاء هو قوله فعلى الله توكلت يعنى ان شدة بغضكم لى تحملكم على الاقدام على ايذائى وانا لا اقابل ذلك الشر الا بالتوكل على الله واعلم انه عليه السلام كان ابدا متوكلا على الله تعالى وهذا اللفظ يوهم انه توكل على الله فى هذه الساعة لكن المعنى انه انما توكل على الله تعالى فى دفع هذا الشر فى هذه الساعة (والقول الثانى) وهو قول الاكثرين ان جواب الشرط هو قوله فاجمعوا امركم وشركاءكم وقوله فعلى الله توكلت كلام اعترض به بين الشرط وجوابه كما تقول فى الكلام ان كنت انكرت على شيأ فالله حسبى فاعمل ما تريد واعلم ان جواب هذا الشرط مشتمل على قيود خمسة على الترتيب ( القيد الاول ) قوله فأجمعوا امركم وفيه بحثان ( البحث الاول ) قال الفراء الاجماع الاعداد والعزيمة على الامر وأنشد

يا ليت شعرى والمنى لا ينفع * هل اغدون يوما وامرى مجمع

فاذا اردت جمع المتفرق قلت جمعت القوم فهم مجموعون وقال ابو الهيثم اجمع امره اى جعله جميعا بعدما كان متفرقا قال وتفرقه اى جعل يتدبره فيقول مرة افعل كذا ومرة افعل كذا فلما عزم على امر واحد فقد جمعه اى جعله جميعا فهذا هو الاصل فى الاجماع ومنه قوله تعالى وما كنت لديهم اذ اجمعوا امرهم ثم صار بمعنى العزم حتى وصل بعلى فقيل اجمعت على الامر اى عزمت عليه والاصل اجمعت الامر ( البحث الثانى ) روى الاصمعى عن نافع فاجمعوا امركم بوصل الالف من الجمع وفيه وجهان ( الاول ) قال ابو على الفارسى فاجمعوا ذوى الامر منكم فحذف المضاف وجرى على المضاف اليه ما كان يجرى على المضاف لو ثبت ( الثانى ) قال ابن الانبارى المراد من الامر ههنا وجوه كيدهم ومكرهم فالتقدير ولا تدعوا من امركم شيأ الا احضرتموه ( والقيد الثانى ) قوله وشركائهم وفيه ابحاث ( البحث الاول ) الواو ههنا بمعنى مع والمعنى فأجمعوا امركم مع شركائكم ونظيره قولهم لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها ولو خليت نفسك والاسد لاكلك ( البحث الثانى ) يحتمل ان يكون المراد من الشركاء الاوثان التى سموها بالآلهة ويحتمل ان يكون المراد منها من كان على مثل قولهم ودينهم فان كان المراد هو الاول فانما حث الكفار على الاستعانة بالاوثان بناء على مذهبهم من انها تضر وتنفع وان كان المراد هو الثانى فوجه الاستعانة بها ظاهر ( البحث الثالث ) قرأ الحسن وجماعة من القراء

حالكم عليكم غمة وتخلصوا باهلاكى من ثقل مقامى وتذكيرى ولا يخفى انه لا يساعده قوله عز وجل (ثم اقضوا الى ولا تنظرون) اى ادوا الى اى احكموا ذلك الامر الذى تريدون بى ولا تمهلونى ( ٢٢ ) كقوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر وادوا الى ما هو حق عليكم عندكم من اهلاكى كما يقضى الرجل غريمه فان توسيط ما يحصل بعد الاهلاك بين الامر بالعزم على مباديه وبين الامر بقضائه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه وقرئ أفضوا بالفاء اى انتهوا الى بشركم اوابرزوا الى من افضى اذا خرج الى الفضاء ( فان توليتم ) الفاء لترتيب التولى على ما سبق فالمراد به اما الاستمرار عليه واما احداث التولى المخصوص اى ان اعرضتم عن نصيحتى وتذكيرى اثر ما شاهدتم منى من مخايل صحة ما اقول ودلائلها التى من جملتها دعوتى اياكم جميعا الى تحقيق ما تريدون بى من السوء غير مبال بكم وبما يأتى منكم واحجامكم من الاجابة علما منكم بأنى على الحق المبين مؤيد من عند الله العزيز ( فما سألتكم ) بمقابلة وعظى وتذكيرى ( من اجر ) تؤدونه الى حتى يؤدى ذلك الى توليكم اما لاتهامكم اياى بالطمع والسؤال واما لثقل دفع المسؤل عليكم اوحتى يضرنى توليكم المؤدى الى الحرمان فالاول لاظهار بطلان التولى ببيان عدم ما يصححه والثانى لاظهار عدم مبالاته عليه السلام بوجوده وعدمه وعلى التقديرين فالفاء الجزائية لسببية الشرط لاعلام مضمون الجزاء لا لنفسه والمعنى ان توليتم فاعلموا ان ليس فى مصحح له ولا تأثر منه وقوله عز وجل ( ان اجرى الا على الله ) ينتظم المعنيين جميعا خلا انه على الاول تأكيد وعلى الثانى تعليل لاستغنائه عليه السلام عنهم اى ما ثوابى على العظة والتذكير الا عليه تعالى يثيبنى به آمنتم او توليتم ( وأمرت ان أكون من المسلمين ) المنقادين لحكمه لا أخالف امره ولا ارجو غيره او المستسلمين لكل ما يصيبنى من البلاء فى طاعة الله تعالى ( فكذبوه ) فأصروا على ما هم عليه من التكذيب بعدما الزمهم الحجة وبين لهم المحجة وحقق ان توليهم ليس له سبب غير التمرد والعناد فلا

وشركاؤكم بالرفع عطفا على الضمير المرفوع والتقدير فأجمعوا أنتم وشركاؤكم قال الواحدى وجاز ذلك من غير تأكيد الضمير كقوله اسكن انت وزوجك الجنة لان قوله امركم فصل بين الضمير وبين المنسوق فكان كالعوض من التوكيد وكان الفراء يستقبح هذه القراءة لانها توجب ان يكتب وشركاؤكم بالواو وهذا الحرف غير موجود فى المصاحف ( القيد الثالث ) قوله ثم لايكن امركم عليكم غمة قال ابو الهيثم اى مبهما من قولهم غم علينا الهلال فهو مغموم اذا التبس قال طرفة

لعمرى ماامرى على بغمة * نهارى ولاليلى على بسرمد

وقال الليث انه لفى غمة من امره اذالم يهتدله قال الزجاج اى ليكن امركم ظاهرا منكشفا ( القيد الرابع ) قوله ثم اقضوا الى وفيه بحثان ( البحث الاول ) قال ابن الانبارى معناه ثم امضوا الى بمكروهكم وماتوعدوننى به تقول العرب قضى فلان يريدون مات ومضى وقال بعضهم قضاء الشئ احكامه وامضاؤه والفراغ منه وبه يسمى القاضى لانه اذا حكم فقد فرغ فقوله ثم اقضوا الى اى افرغوا من امركم وامضوا مافى انفسكم واقطعوا مابينى وبينكم ومنه قوله تعالى وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب اى اعلمناهم اعلاما قاطعا قال تعالى وقضينا اليه ذلك الامر قال القفال رحمه الله تعالى ومجاز دخول كلمة الى فى هذا الموضع من قولهم برئت اليك وخرجت اليك من العهد وفيه معنى الاخبار فكأنه تعالى قال ثم اقضوا الى مايستقر رأيكم عليه محكما مفروغا منه ( البحث الثانى ) قرئ ثم أفضوا الى بالفاء بمعنى ثم انتهوا الى بشركم وقيل هو من أفضى الرجل اذا خرج الى الفضاء أى اصحروا به الى وأبرزوه الى ( القيد الخامس ) قوله ولا تنظرون معناه لاتمهلون بعد اعلامكم اياى ماتفقتم عليه فهذا هو تفسير هذه الالفاظ وقد نظم القاضى هذا الكلام على احسن الوجوه فقال انه عليه السلام قال فى اول الامر فعلى الله توكلت فانى واثق بوعدالله جازم بانه لايخلف الميعاد ولاتظنوا ان تهديدكم اياى بالقتل والايذاء يمنعنى من الدعاء الى الله تعالى ثم انه عليه السلام أورد مايدل على صحة دعوته فقال فأجمعوا أمركم فكأنه يقول لهم أجمعوا كل ماتقدرون عليه من الاسباب التى توجب حصول مطلوبكم ثم لم يقتصر على ذلك بل أمرهم ان يضموا الى انفسهم شركاءهم الذين كانوا يزعمون ان حالهم يقوى بمكانهم وبالتقرب اليهم ثم لم يقتصر على هذين بل ضم اليهما ثالثا وهو قوله ثم لايكن أمركم عليكم غمة واراد ان يبلغوا فيه كل غاية فى المكاشفة والمجاهرة ثم لم يقتصر على ذلك حتى ضم اليها رابعا فقال ثم اقضوا الى والمراد ان وجهوا كل تلك الشرور الى ثم ضم الى ذلك خامسا وهو قوله ولا تنظرون اى عجلوا ذلك باشد ماتقدرون عليه من غير انظار فهذا آخر هذا الكلام ومعلوم ان مثل هذا الكلام يدل على انه عليه السلام كان قد بلغ الغاية فى التوكل على الله تعالى وانه كان قاطعا بان كيدهم لايصل اليه ومكرهم لاينفذ فيه * واما قوله تعالى فان توليتم فما سألتكم من أجر

---

بجرم حقت عليهم كلمة العذاب ( فنجيناه ومن معه فى الفلك ) من المسلمين وكانوا ثمانين ( وجعلناهم خلائف ) من الهالكين ( واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ) اى بالطوفان وتأخير ذكره عن ذكر الانجاء ( ٢٣ ) والاستخلاف حسبما وقع فى قوله عز وعلا ولما جاء امرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا واخذت الذين ظلموا الصيحة وغير ذلك من الآيات الكريمة لاظهار كمال العناية بشأن المقدم ولتعجيل المسرة للسامعين وللايذان بسبق الرحمة التى هى من مقتضيات الربوبية على الغضب الذى هو من مستتبعات جرائم المجرمين ( فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ) تهويل لماجرى عليهم وتحذير لمن كذب الرسول عليه الصلاة والسلام ( ثم بعثنا ) اى ارسلنا ( من بعده ) اى من بعد نوح عليه السلام ( رسلا ) التنكير للتفخيم ذاتا ووصفا اى رسلا كراما ذوى عدد كثير ( الى قومهم ) اى الى اقوامهم لكن لابأن ارسلنا كل رسول منهم الى اقوام الكل اوالى قوم ما اى قوم كانوا بل كل رسول الى قومه خاصة مثل هود الى عاد وصالح الى ثمود وغير ذلك ممن قص منهم ومن لم يقص ( فجاؤهم ) اى جاء كل رسول قومه المخصوصين به ( بالبينات ) اى المعجزات الواضحة الدالة على صدق ماقالوا والباء اما متعلقة بالفعل المذكور على انها للتعدية او بمحذوف وقع حالا عن ضمير جاؤا اى ملتبسين بالبينات لكن لابأن يأتى كل رسول ببينة واحدة بل ببينات كثيرة خاصة به معينة له حسب اقتضاء الحكمة فان مراعاة انقسام الآحاد الى الآحاد انما هى فيما بين ضميرى جاؤهم كما اشير اليه ( فما كانوا ليؤمنوا ) بيان لاستمرار عدم ايمانهم فى الزمان الماضى لا لعدم استمرار ايمانهم كما مر مثله فى هذه السورة الكريمة غير مرة اى فما صح وما استقام لقوم من اولئك الاقوام فى وقت من الاوقات ان يؤمنوا بل كان ذلك ممتنعا منهم لشدة شكيمتهم فى الكفر والعناد ثم ان كان المحكى آخر حال كل قوم حسبما يدل عليه حكاية قوم نوح فالمراد بعدم ايمانهم المذكور ههنا اصرارهم على ذلك بعد اللتيا والتى وبما اشير

فقال المفسرون هذا اشارة الى انه ما اخذ منهم مالا على دعوتهم الى دين الله تعالى ومتى كان الانسان فارغا عن الطمع كان قوله اقوى تأثيرا في القلب وعندي فيه وجه آخر وهو ان يقال انه عليه السلام بين انه لا يخاف منهم بوجه من الوجوه وذلك لان الخوف انما يحصل بأحد شيئين اما بايصال الشر أو بقطع المنافع فبين فيما تقدم انه لا يخاف شرهم وبين بهذه الآية انه لا يخاف منهم بسبب ان يقطعوا عنه خيرا لانه ما أخذ منهم شيئا فكان يخاف ان يقطعوا منه خيرا * ثم قال ان اجري الا على الله وامرت ان اكون من المسلمين وفيه قولان ( الاول ) انكم سواء قبلتم دين الاسلام اولم تقبلوه فانا مأمور بأن اكون على دين الاسلام ( والثاني ) اني مأمور بالاستسلام لكل ما يصل الي لاجل هذه الدعوة وهذا الوجه اليق بهذا الموضع لانه لما قال ثم اقضوا الي بين لهم انه مأمور بالاستسلام لكل ما يصل اليه في هذا الباب والله اعلم * قوله تعالى ( فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) اعلم انه تعالى لما حكى الكلمات التي جرت بين نوح وبين اولئك الكفار ذكر ما اليه رجعت عاقبة تلك الواقعة اما في حق نوح واصحابه فأمران ( احدهما ) انه تعالى نجاهم من الكفار ( الثاني ) انه جعلهم خلائف بمعنى انهم يخلفون من هلك بالغرق واما في حق الكفار فهو انه تعالى اغرقهم واهلكهم وهذه القصة اذا سمعها من صدق الرسول ومن كذب به كانت زجرا للمكلفين من حيث يخافون ان ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح وتكون داعية للمؤمنين على الثبات على الايمان ليصلوا الى مثل ما وصل اليه قوم نوح وهذه الطريقة في الترغيب والتحذير اذا جرت على سبيل الحكاية عمن تقدم كانت ابلغ من الوعيد المبتدأ وعلى هذا الوجه ذكر تعالى اقاصيص الانبياء عليهم السلام واما تفاصيل هذه القصة فهي مذكورة في سائر السور * قوله تعالى ( ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين ) اعلم ان المراد ثم بعثنا من بعد نوح رسلا ولم يسمهم وكان منهم هود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب صلوات الله عليهم اجمعين بالبينات وهي المعجزات القاهرة فاخبر تعالى عنهم انهم جروا على منهاج قوم نوح في التكذيب ولم يزجرهم ما بلغهم من اهلاك الله تعالى المكذبين من قوم نوح عن ذلك فلهذا قال فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل وليس المراد عين ما كذبوا به لان ذلك لم يحصل في زمانهم بل المراد بمثل ما كذبوا به من البينات لان البينات الظاهرة على الانبياء عليهم السلام اجمع كأنها واحدة ثم قال تعالى كذلك نطبع على قلوب المعتدين واحتج اصحابنا على ان الله تعالى قد يمنع المكلف عن الايمان بهذه الآية وتقريره ظاهر قال القاضي الطبع غير مانع من الايمان بدليل قوله تعالى بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا ولو كان هذا الطبع مانعا لما صح هذا الاستثناء ( والجواب ) ان الكلام في هذه المسئلة قد سبق على الاستقصاء في تفسير

---

اليه في قوله عز وجل ( بما كذبوا به من قبل ) تكذيبهم من حين مجيء الرسل الى زمان الاصرار والعناد وانما لم يجعل ذلك مقصودا بالذات كالاول حيث جعل صلة للموصول ايذانا بأنه بين ( ٢٤ ) بنفسه غني عن البيان وانما المحتاج الى ذلك عدم ايمانهم بعد تواتر البينات الظاهرة وتظاهر المعجزات الباهرة التي كانت تضطرهم الى القبول لو كانوا من اصحاب العقول والموصول الذي تعلق به الايمان والتكذيب سلبا وايجابا عبارة عن جميع الشرائع التي جاء بها كل رسول اصولها وفروعها وان كان المحكي جميع احوال كل قوم منهم فالمراد بما ذكر اولا كفرهم المستمر من حين مجيء الرسل الى آخره وبما اشير اليه آخرا تكذيبهم قبل مجيئهم فلا بد من كون الموصول المذكور عبارة عن اصول الشرائع التي أجمعت عليها الرسل قاطبة ودعوا أممهم اليها آثر ذي أثير لاستحالة تبدلها وتغيرها مثل ملة التوحيد ولوازمها ومعنى تكذيبهم بها قبل مجيء رسلهم انهم ما كانوا في زمن الجاهلية بحيث لم يسمعوا بكلمة التوحيد قط بل كان كل قوم من اولئك الاقوام يتسامعون بها من بقايا من قبلهم كثمود من بقايا عاد وعاد من بقايا قوم نوح عليه السلام فيكذبونها ثم كانت حالتهم بعد مجيء الرسل كحالتهم قبل ذلك كأن لم يبعث اليهم احد وتخصيص التكذيب وعدم الايمان بما ذكر من الاصول لظهور حال الباقي بدلالة النص فانهم حيث لم يؤمنوا بما اجمعت عليه كافة الرسل فلأن لا يؤمنوا بما تفرد به بعضهم اولى وعدم جعل هذا التكذيب مقصودا بالذات لما ان ما عليه يدور امر العذاب والعقاب عند اجتماع المكذبين هو التكذيب الواقع بعد الدعوة حسبما يعرب عنه قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وانما ذكر ما وقع قبلها بيانا لعراقتهم في الكفر والتكذيب وعلى التقديرين فالضمائر الثلاثة متوافقة في المرجع وقيل ( قوله ) ضمير كذبوا راجع الى قوم نوح عليه السلام والمعنى فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب بمثله قوم نوح ولا يخفى ما فيه من التعسف .

قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم فلا فائدة في الاعادة ( القصة الثانية ) قصة موسى عليه السلام ❊ قوله تعالى (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون الى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون ) اعلم ان هذا الكلام غني عن التفسير وفيه سؤال واحد وهو ان القوم لما قالوا ان هذا لسحر مبين فكيف حكى موسى عليه السلام انهم قالوا أسحر هذا على سبيل الاستفهام ( وجوابه ) ان موسى عليه السلام ما حكى عنهم انهم قالوا أسحر هذا بل قال أتقولون للحق لما جاءكم ما تقولون ثم حذف عنه مفعول أتقولون لدلالة الحال عليه ثم قال مرة اخرى أسحر هذا وهذا استفهام على سبيل الانكار ثم احتج على انه ليس بسحر وهو قوله ولا يفلح الساحرون يعني ان حاصل صنعهم تخييل وتمويه ولا يفلح الساحرون واما قلب العصا حية وفلق البحر فعلوم بالضرورة انه ليس من باب التخييل والتمويه فثبت انه ليس بسحر ❊ قوله تعالى ( قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الارض وما نحن لكما بمؤمنين وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى القوا ما انتم ملقون فلما القوا قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ) وفيه مسائل ( المسئلة الاولى ) اعلم انه تعالى حكى عن فرعون وقومه انهم لم يقبلوا دعوة موسى عليه السلام وعللوا عدم القبول بأمرين (الاول) قوله أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا قال الواحدي اللفت في اصل اللغة الصرف عن امر واصله اللي يقال لفت عنقه اذا لواها ومن هذا يقال التفت اليه اى امال وجهه اليه قال الازهري لفت الشيء وفتله اذا لواه وهذا من المقلوب واعلم ان حاصل هذا الكلام انهم قالوا لا نترك الدين الذى نحن عليه لانا وجدنا آباءنا عليه فقد تمسكوا بالتقليد ودفعوا الحجة الظاهرة بمجرد الاصرار (والسبب الثاني) في عدم القبول قوله وتكون لكما الكبرياء في الارض قال المفسرون المعنى ويكون لكما الملك والعز في ارض مصر والخطاب لموسى وهرون قال الزجاج سمى الملك كبرياء لانه اكبر ما يطلب من امر الدنيا وايضا فالنبي اذا اعترف القوم بصدقه صارت مقاليد امر امته اليه فصار اكبر القوم واعلم ان السبب الاول اشارة الى التمسك بالتقليد والسبب الثاني اشارة الى الحرص على طلب الدنيا والجد في بقاء الرياسة ولما ذكر القوم هذين السببين صرحوا بالحكم وقالوا وما نحن لكما بمؤمنين واعلم ان القوم لما ذكروا هذه المعاني حاولوا بعد ذلك وأرادوا ان يعارضوا معجزة موسى عليه السلام بأنواع من السحر ليظهروا عند الناس ان ما اتى به موسى من باب السحر فجمع فرعون السحرة واحضرهم فقال لهم موسى القوا ما انتم ملقون فان قيل كيف امرهم بالكفر والسحر

وقيل الباء للسببية اى بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل ولا يخفى ان ذلك يؤدى الى مخالفة الجمهور من جعل ما المصدرية من قبيل الاسماء كما هو رأى الاخفش وابن ( ٢٥ ) السراج ليرجع اليها الضمير وفي ارجاعه الى الحق بادعاء كونه مركوزا في الاذهان ما لا يخفى من التعسف (كذلك) اى مثل ذلك الطبع المحكم ( نطبع ) بنون العظمة وقرئ بالياء على ان الضمير لله سبحانه ( على قلوب المعتدين ) المتجاوزين عن الحدود المعهودة في الكفر والعناد المتجافين عن قبول الحق وسلوك طريق الرشاد وذلك بخذلانهم وتخليتهم وشأنهم لانهماكهم في الغي والضلال وفي امثال هذه دلالة على ان الافعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد ( ثم بعثنا ) عطف على قوله تعالى ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم عطف قصة على قصة (من بعدهم) اى من بعد أولئك الرسل عليهم السلام (موسى وهرون) خصت بعثتهما عليهما السلام بالذكر ولم يكتف باندراج خبرهما فيما اشير اليه اشارة اجمالية من اخبار الرسل عليهم السلام مع اقوامهم واوثر في ذلك ضرب تفصيل ايذانا بخطر شأن القصة وعظم وقعها كما في نبأ نوح عليه السلام (الى فرعون وملئه) اى اشراف قومه وتخصيصهم بالذكر لاصالتهم في اقامة المصالح والمهمات ومراجعة الكل اليهم في النوازل والملمات ( بآياتنا ) اى ملتبسين بها وهى الآيات المفصلات في الاعراف ( فاستكبروا ) الاستكبار ادعاء الكبر من غير استحقاق والفاء فصيحة اى فأتياهم فبلغاهم الرسالة فاستكبروا عن اتباعهما وذلك قول اللعين لموسى عليه السلام ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين الخ ( وكانوا قوما مجرمين ) اعتراض مقرر لمضمون ما قبله اى كانوا معتادين لارتكاب الذنوب (٤)(را)(خا) العظام فان الاجرام مؤذن بعظم الذنب ومنه الجرم اى الجثة فلذلك اجترؤا على ما اجترؤا عليه من الاستهانة برسالة الله تعالى وحمل الاستكبار على الامتناع عن قبول الآيات لا يساعده قوله

عز وعلا ( فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين ) فانه صريح فى ان المراد باستكبارهم ماوقع منهم قبل مجئ الحق الذى سموه سحرا اعنى العصا واليد البيضاء كما ينبئ عنه سياق ( ٢٦ ) النظم الكريم وذلك اول ماظهره عليه السلام من الآيات العظام والفاء فيه ايضا فصيحة معربة عما صرح به فى مواضع أخر كأنه قيل قال موسى قد جئتكم ببينة من ربكم الى قوله تعالى فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين فلما جاءهم الحق من عندنا وعرفوه قالوا من فرط عتوهم وعنادهم ان هذا لسحر مبين اى ظاهر كونه سحرا اوفائق فى بابه واضح فيما بين اضرابه وقرئ لساحر ( قال موسى ) استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الاذهان كأنه قيل فاذا قال لهم موسى حينئذ فقيل قال على طريقة الاستفهام الانكارى التوبيخى (أتقولون للحق) الذى هو ابعد شئ من السحر الذى هو الباطل البحت ( لما جاءكم ) اى حين مجيئه اياكم ووقوفكم عليه اومن اول الامر من غير تأمل وتدبر وكلا الحالين ممايناف القول المذكور والمفعول محذوف ثقة بدلالة ماقبله ومابعده عليه وايذانا بأنه ممالاينبغى ان يتفوه به ولو على نهج الحكاية اى أتقولون له ماتقولون من انه سحر يعنى به انه مما لايمكن ان يقوله قائل ويتكلم به متكلم او القول بمعنى العيب والطعن من قولهم فلان يخاف القالة وبين الناس تقاول اذا قال بعضهم لبعض مايسوءه ونظيره الذكر فى قوله تعالى سمعنا فتى يذكرهم الخ فيستغنى عن المفعول أى أتعيبونه وتطعنون فيه وعلى الوجهين فقوله عز وجل ( أسحر هذا ) انكار مستأنف من جهته عليه السلام لكونه سحرا وتكذيب لقولهم وتوبيخ لهم على ذلك اثر توبيخ وتجهيل بعد تجهيل اما على الاول فظاهر واما على الثانى فوجه ايثار انكار كونه سحرا على انكار كونه معيبا بأن يقال مثلا افيه عيب حسبما يقتضيه ظاهر الانكار السابق التصريح بالرد عليهم فى خصوصية ماعابوه به بعد التنبيه ( هذا )

والامر بالكفر كفر قلنا انه عليه السلام امرهم بالقاء الحبال والعصى ليظهر للخلق ان ماأتوا به عمل فاسد وسعى باطل لاعلى طريق انه عليه السلام أمرهم بالسحر فلما ألقوا حبالهم وعصيهم قال لهم موسى ماجئتم به هو السحر الباطل والغرض منه ان القوم قالوا لموسى ان ماجئت به سحر فذكر موسى عليه السلام ان ماذكرتموه باطل بل الحق ان الذى جئتم به هو السحر والتمويه الذى يظهر بطلانه ثم اخبرهم بأن الله تعالى يحق الحق ويبطل الباطل وقد اخبر الله تعالى فى سائر السور انه كيف ابطل ذلك السحر وذلك بسبب ان ذلك الثعبان قد تلقف كل تلك الحبال والعصى ( المسئلة الثانية ) قوله ماجئتم به السحر ماههنا موصولة بمعنى الذى وهى مرتفعة بالابتداء وخبرها السحر قال الفراء وانما قال السحر بالالف واللام لانه جواب كلام سبق ألا ترى انهم قالوا لما جاءهم موسى هذا سحر فقال لهم موسى بل ماجئتم به السحر فوجب دخول الالف واللام لان النكرة اذا عادت عادت معرفة يقول الرجل لغيره لقيت رجلا فيقول له من الرجل فيعيده بالالف واللام ولو قال له من رجل لم يقع فى فهمه انه سأله عن الرجل الذى ذكره له وقرأ ابو عمرو آلسحر بالاستفهام وعلى هذه القراءة مااستفهامية مرتفع بالابتداء وجئتم به فى موضع الخبر كأنه قيل اى شئ جئتم به ثم قال على وجه التوبيخ والتقريع آلسحر كقوله تعالى أأنت قلت للناس والسحر بدل من المبتدأ ولزم ان يلحقه الاستفهام ليساوى المبدل منه فى انه استفهام كما تقول كم مالك أعشرون ام ثلاثون فجعلت أعشرون بدلا من كم ولايلزم ان يضمر للسحر خبر لانك اذا ابدلته من المبتدأ صار فى موضعه وصار ماكان خبرا عن المبدل منه خبرا عنه ثم قال تعالى ان الله سيبطله اى سيهلكه ويظهر فضيحة صاحبه ان الله لايصلح عمل المفسدين اى لايقويه ولايكمله ثم قال ويحق الله الحق ومعنى احقاق الحق اظهاره وتقويته وقوله بكلماته اى بوعده موسى وقيل بماسبق من قضائه وقدره وفى كلمات الله ابحاث غامضة عميقة عالية وقد ذكرناها فى بعض مواضع من هذا الكتاب * قوله تعالى ( فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم ان يفتنهم وان فرعون لعال فى الارض وانه لمن المسرفين ) واعلم انه تعالى بين فيما تقدم ماكان من موسى عليه السلام من المعجزات العظيمة وماظهر من تلقف العصا لكل مااحضروه من آلات السحر ثم انه تعالى بين انهم مع مشاهدة المعجزات العظيمة ما آمن به منهم الا ذرية من قومه وانما ذكر تعالى ذلك تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه كان يغتم بسبب اعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر فبين ان له فى هذا الباب بسائر الانبياء اسوة لان الذى ظهر من موسى عليه السلام كان فى الاعجاز فى مرأى العين اعظم ومع ذلك فما آمن به منهم الا ذرية واختلفوا فى المراد بالذرية على وجوه (الاول) ان الذرية ههنا معناها تقليل العدد قال ابن عباس لفظ الذرية يعبر به عن القوم على وجه التحقير والتصغير ولاسبيل الى حمله على التحقير على وجه الاهانة فى

هذا الموضع فوجب حمله على التصغير بمعنى قلة العدد (الثانى) قال بعضهم المراد اولاد من دعاهم لان الآباء استمروا على الكفر امالان قلوب الاولاد ألين أو دواعيهم على الثبات على الكفر أخف ( الثالث ) ان الذرية قوم كان آباؤهم من قوم فرعون وامهاتهم بنى اسرائيل (الرابع) الذرية من آل فرعون آسية امرأة فرعون وخازنه وامرأة خازنه وماشطتها واما الضمير فى قوله من قومه فقد اختلفوا ان المراد من قوم موسى او من قوم فرعون لان ذكرهما جميعا قد تقدم والاظهر انه عائد الى موسى لانه اقرب المذكورين ولانه نقل ان الذين آمنوا به كانوا من بنى اسرائيل اما قوله على خوف من فرعون وملئهم ان يفتنهم ففيه ابحاث ( البحث الاول ) ان أولئك الذين آمنوا بموسى كانوا خائفين من فرعون جدا لانه كان شديد البطش وكان قد اظهر العداوة مع موسى فاذا علم ميل القوم الى موسى كان يبالغ فى ايذائهم فلهذا السبب كانوا خائفين منه ( البحث الثانى ) انما قال وملئهم مع ان فرعون واحد لوجوه ( الاول ) انه قد يعبر عن الواحد بلفظ الجمع والمراد التعظيم قال الله تعالى انا نحن نزلنا الذكر ( الثانى ) ان المراد بفرعون آل فرعون ( الثالث ) ان هذا من باب حذف المضاف كأنه اريد بفرعون آل فرعون ثم قال ان يفتنهم اى يصرفهم عن دينهم بتسليط انواع البلاء عليهم ثم قال وان فرعون لعال فى الارض اى لغالب فيها قاهر وانه لمن المسرفين قيل المراد انه كثير القتل كثير التعذيب لمن يخالفه فى امر من الامور والغرض منه بيان السبب فى كون أولئك المؤمنين خائفين وقيل انما كان مسرفا لانه كان من أخس العبيد فادعى الالهية ❊ قوله تعالى ( وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ) فى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) ان قوله ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين جزاء معلق على شرطين احدهما متقدم والآخر متأخر والفقهاء قالوا المتأخر يجب ان يكون متقدما والمتقدم يجب ان يكون متأخرا ومثاله ان يقول الرجل لامرأته ان دخلت الدار فأنت طالق ان كلمت زيدا وانما كان الامر كذلك لان مجموع قوله ان دخلت الدار فأنت طالق صار مشروطا بقوله ان كلمت زيدا والمشروط متأخر عن الشرط وذلك يقتضى ان يكون المتأخر فى اللفظ متقدما فى المعنى وان يكون المتقدم فى اللفظ متأخرا فى المعنى والتقدير كأنه يقول لامرأته حال ما كلمت زيدا ان دخلت الدار فأنت طالق فلو حصل هذا التعليق قبل ان كلمت زيدا لم يقع الطلاق اذا عرفت هذا فنقول قوله ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين يقتضى ان يكون كونهم مسلمين شرطا لان يصيروا مخاطبين بقوله ان كنتم بالله فعليه توكلوا فكأنه تعالى يقول للمسلم حال اسلامه ان كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل والامر كذلك لان الاسلام عبارة عن الاستسلام وهو اشارة الى الانقياد للتكاليف الصادرة عن الله تعالى واظهار الخضوع

بالانكار السابق على ان ليس فيه شائبة عيب ما وما فى هذا من معنى القرب لزيادة تعيين المشار اليه واستحضار ما فيه من الصفات الدالة على كونه آية باهرة من آيات الله المنادية ( ٢٧ ) على امتناع كونه سحرا اى اسحر هذا الذى امره واضح مكشوف وشأنه مشاهد معروف بحيث لا يرتاب فيه احد ممن له عين مبصرة وتقديم الخبر للايذان بانه مصب الانكار ولما استلزم كونه سحرا كون من اتى به ساحرا اكد الانكار السابق وما فيه من التوبيخ والتجهيل بقوله عز وجل (ولا يفلح الساحرون) وهو جملة حالية من ضمير المخاطبين والرابط هو الواو بلا ضمير كما فى قول من قال جاء الشتاء ولست املك عدة وقولك جاء زيد ولم تطلع الشمس اى اتقولون للحق انه سحر والحال انه لا يفلح فاعله اى لا يظفر بمطلوب ولا ينجو من مكروه فكيف يمكن صدوره من مثلى من المؤيدين من عند الله العزيز الحكيم الفائزين بكل مطلب الناجين من كل محذور وقوله تعالى اسحر هذا جملة معترضة بين الحال وصاحبها اكد بها الانكار السابق ببيان استحالة كونه سحرا بالنظر الى ذاته قبل بيان استحالته بالنظر الى صدوره عنه عليه السلام هذا واما تجويز ان يكون الكل مقول القول على ان المعنى اجئتما تطلبان به الفلاح ولا يفلح الساحرون فمما لا يساعده النظم الكريم اصلا اما اولا فلان ما قالوا هو الحكم بانه سحر من غير ان يكون فيه دلالة على ما تعسف فيه من المعنى بوجه من الوجوه فصرف جوابه عليه السلام عن صريح ما خاطبوه به الى ما لا يفهم منه اصلا مما يجب تنزيه النظم التنزيلى عن الحمل على امثاله واما ثانيا فلان التعرض لعدم افلاح السحرة على الاطلاق من وظائف من يتمسك بالحق المبين دون الكفرة المتشبثين باذيال بعض منهم فى معارضته عليه السلام ولو كان ذلك من كلامهم لناسب تخصيص عدم الافلاح بمن زعموه ساحرا بناء على غلبة من يأتون به من السحر واما ثالثا فلان قوله عز وجل ( قالوا اجئتنا ) الخ مسوق لبيان انه عليه السلام القمهم الحجر فانقطعوا عن

الاتيان بكلام له تعلق بكلامه عليه السلام فضلا عن الجواب الصحيح واضطروا الى التشبث بذيل التقليد الذى هو دأب كل عاجز محجوج وديدن كل معاند لجوج على انه استئناف وقع جوابا عما قبله ( ٢٨ ) من كلامه عليه السلام على طريقة قوله تعالى قال موسى الخ حسبما اشير اليه كأنه قيل فاذا قالوا لموسى عليه السلام عند ما قال لهم ما قال فقيل قالوا عاجزين عن المحاجة اجئتنا (لتلفتنا) اى لتصرفنا فان الفتل واللفت اخوان (عما وجدنا عليه آباءنا) اى من عبادة الاصنام ولا ريب فى ان ذلك انما يتسنى بكون ما ذكر من تتمة كلامه عليه السلام على الوجه الذى شرح اذ على تقدير كونه محكيا من قبلهم يكون جوابه عليه السلام خاليا عن التبكيت الملجئ لهم الى العدول عن سنن المحاجة ولا ريب فى انه لا علاقة بين قولهم اجئتنا الخ وبين انكاره عليه السلام لما حكى عنهم مصححة لكونه جوابا عنه (وتكون لكما الكبرياء) اى الملك او التكبر على الناس باستتباعهم وقرئ ويكون بالياء التحتانية وكلمة فى فى قوله تعالى (فى الارض) اى ارض مصر متعلقة بتكون او بالكبرياء او بالاستقرار فى لكما لوقوعه خبرا او بمحذوف وقع حالا من الكبرياء او من الضمير فى لكما لتحمله اياه (وما نحن لكما بمؤمنين) اى بمصدقين فيما جئتما به وتثنية الضمير فى هذين الموضعين بعد افراده فيما تقدم من المقامين باعتبار شمول الكبرياء لهما عليهما السلام واستلزام التصديق لاحدهما التصديق للآخر واما اللفت والمجئ له فحيث كانا من خصائص صاحب الشريعة اسندا الى موسى عليه السلام خاصة (وقال فرعون) توحيد الفعل لان الامر من وظائف فرعون اى قال لملئه يأمرهم بترتيب مبادى الزامهما عليهما السلام بالفعل بعد اليأس من الزامهما بالقول ( ائتونى بكل ساحر عليم ) بفنون السحر حاذق ماهر فيه وقرئ سحار ( فلما جاء السحرة ) عطف على مقدر يستدعيه المقام قد حذف ايذانا بسرعة امتثالهم لامر فرعون كما هو شأن الفاء الفصيحة فى كل مقام اى ( دين )

وترك التمرد واما الايمان فهو عبارة عن صيرورة القلب عارفا بأن واجب الوجود لذاته واحد وان ما سواه محدث مخلوق تحت تدبيره وقهره وتصرفه واذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع اموره الى الله تعالى ويحصل فى القلب نور التوكل على الله فهذه الآية من لطائف الاسرار والتوكل على الله عبارة عن تفويض الامور بالكلية الى الله تعالى والاعتماد فى كل الاحوال على الله تعالى واعلم ان من توكل على الله تعالى فى كل المهمات كفاه الله تعالى كل الملمات لقوله ومن يتوكل على الله فهو حسبه (المسئلة الثانية) ان هذا الذى امر موسى قومه به وهو التوكل على الله هو الذى حكاه الله تعالى عن نوح عليه السلام انه قال فعلى الله توكلت وعند هذا يظهر التفاوت بين الدرجتين لان نوحا عليه السلام وصف نفسه بالتوكل على الله تعالى وموسى عليه السلام امر قومه بذلك فكان نوح عليه السلام تاما وكان موسى عليه السلام فوق التمام (المسئلة الثالثة) انما قال فعليه توكلوا ولم يقل توكلوا عليه لان الاول يفيد الحصر كأنه عليه السلام امرهم بالتوكل عليه ونهاهم عن التوكل على الغير والامر كذلك لانه لما ثبت ان كل ما سواه فهو ملكه وملكه وتحت تصرفه وتسخيره وتحت حكمه وتدبيره امتنع فى العقل ان يتوكل الانسان على غيره فلهذا السبب جاءت هذه الكلمة بهذه العبارة ثم بين تعالى ان موسى عليه السلام لما امرهم بذلك قبلوا قوله وقالوا على الله توكلنا اى توكلنا عليه ولا نلتفت الى احد سواه ثم لما فعلوا ذلك اشتغلوا بالدعاء فطلبوا من الله تعالى شيئين (احدهما) ان قالوا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين وفيه وجوه (الاول) ان المراد لا تفتن بنا فرعون وقومه لانك لو سلطتهم علينا لوقع فى قلوبهم انا لو كنا على الحق لما سلطتهم علينا فيصير ذلك شبهة قوية فى اصرارهم على الكفر فيصير تسليطهم علينا فتنة لهم (الثانى) انك لو سلطتهم علينا لاستوجبوا العقاب الشديد فى الآخرة وذلك يكون فتنة لهم (الثالث) لا تجعلنا فتنة لهم اى موضع فتنة لهم اى موضع عذاب لهم (الرابع) ان يكون المراد من الفتنة المفتون لان اطلاق لفظ المصدر على المفعول جائز كالخلق بمعنى المخلوق والتكوين بمعنى المكون والمعنى لا تجعلنا مفتونين اى لا تمكنهم من ان يحملونا بالظلم والقهر على ان ننصرف عن هذا الدين الحق الذى قبلناه وهذا التأويل متأكد بما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم ان يفتنهم واما المطلوب الثانى فى هذا الدعاء فهو قوله تعالى ونجنا برحمتك من القوم الكافرين واعلم ان هذا الترتيب يدل على انه كان اهتمام هؤلاء بأمر دينهم فوق اهتمامهم بأمر دنياهم وذلك لانا ان حملنا قولهم ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين على انهم ان سلطوا على المسلمين صار ذلك شبهة لهم فى ان هذا الدين باطل فتضرعوا الى الله تعالى فى ان يصون اولئك الكفار عن هذه الشبهة وقدموا هذا الدعاء على طلب النجاة لانفسهم وذلك يدل على ان عنايتهم بمصالح

دين اعدائهم فوق عنايتهم بمصالح انفسهم وان حملناه على ان لا يمكن الله تعالى اولئك الكفار من ان يحملوهم على ترك هذا الدين كان ذلك ايضا دليلا على ان اهتمامهم بمصالح اديانهم فوق اهتمامهم بمصالح ابدانهم وعلى جميع التقديرات فهذه لطيفة شريفة ❊ قوله تعالى (واوحينا الى موسى واخيه ان تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة واقيموا الصلاة وبشر المؤمنين) اعلم انه لما شرح خوف المؤمنين من الكافرين وما ظهر منهم من التوكل على الله تعالى اتبعه بأن امر موسى وهرون باتخاذ المساجد والاقبال على الصلوات يقال تبوأ المكان اى اتخذه مبوأ كقوله توطنه اذا اتخذه وطنا والمعنى اجعلا بمصر بيوتا لقومكما ومرجعا ترجعون اليه للعبادة والصلاة ثم قال واجعلوا بيوتكم قبلة وفيه ابحاث (البحث الاول) من الناس من قال المراد من البيوت المساجد كما فى قوله تعالى فى بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه ومنهم من قال المراد مطلق البيوت اما الاولون فقد فسروا القبلة بالجانب الذى يستقبل فى الصلاة ثم قالوا والمراد من قوله واجعلوا بيوتكم قبلة اى اجعلوا بيوتكم مساجد تستقبلونها لاجل الصلاة وقال الفراء واجعلوا بيوتكم قبلة اى الى القبلة وقال ابن الانبارى واجعلوا بيوتكم قبلة اى قبلا يعنى مساجد فأطلق لفظ الوحدان والمراد الجمع واختلفوا فى ان هذه القبلة اين كانت فظاهر ان لفظ القرآن لا يدل على تعيينه الا انه نقل عن ابن عباس انه قال كانت الكعبة قبلة موسى عليه السلام وكان الحسن يقول الكعبة قبلة كل الانبياء وانما وقع العدول عنها بأمر الله تعالى فى ايام الرسول عليه السلام بعد الهجرة وقال آخرون كانت تلك القبلة جهة بيت المقدس واما القائلون بأن المراد من لفظ البيوت المذكورة فى هذه الآية مطلق البيت فهؤلاء لهم فى تفسير قوله قبلة وجهان (الاول) المراد بجعل تلك البيوت قبلة اى متقابلة والمقصود منه حصول الجمعية واعتضاد البعض بالبعض وقال آخرون المراد واجعلوا دوركم قبلة اى صلوا فى بيوتكم (البحث الثانى) انه تعالى خص موسى وهرون فى اول هذه الآية بالخطاب فقال ان تبوآ لقومكما بمصر بيوتا ثم عمم هذا الخطاب فقال واجعلوا بيوتكم قبلة والسبب فيه انه تعالى امر موسى وهرون ان يتبوآ لقومهما بيوتا للعبادة وذلك مما يفوض الى الانبياء ثم جاء الخطاب بعد ذلك عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها لان ذلك واجب على الكل ثم خص موسى عليه السلام فى آخر الكلام بالخطاب فقال وبشر المؤمنين وذلك لان الغرض الاصلى من جميع العبادات حصول هذه البشارة فخص الله تعالى موسى بها ليدل بذلك على ان الاصل فى الرسالة هو موسى عليه السلام وان هرون تبع له (البحث الثالث) ذكر المفسرون فى كيفية هذه الواقعة وجوها ثلاثة (الاول) ان موسى عليه السلام ومن معه كانوا فى اول امرهم مأمورين بأن يصلوا فى بيوتهم خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المؤمنون على هذه الحالة فى اول الاسلام

---

فاتوا به فلما جاؤا (قال لهم موسى) لكن لا فى ابتداء مجيئهم قبل بعدما قالوا له عليه السلام ما حكى عنهم فى السور الاخر من قولهم اما ان تلقى واما ان نكون نحن الملقين ونحو ذلك (القوا ما انتم ملقون) (٢٩) اى ملقون له كائنا ما كان من اصناف السحر (فلما القوا) ما القوا من العصى والحبال واسترهبوا الناس وجاؤا بسحر عظيم (قال) لهم (موسى) غير مكترث بهم وبما صنعوا (ما جئتم به السحر) ما موصولة وقعت مبتدأ والسحر خبره اى هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه من آيات الله سبحانه او هو من جنس السحر يريهم ان حاله بين لا يعبأ به كأنه قال ما جئتم به مما لا ينبغى ان يجاء به وقرئ آلسحر على الاستفهام فما استفهامية اى اى شئ جئتم به أهو السحر الذى يعرف حاله كل احد ولا يتصدى له عاقل وقرئ ما جئتم به سحر وقرئ ما أتيتم به سحر ودلالتهما على المعنى الثانى فى القراءة المشهورة اظهر (ان الله سيبطله) اى سيمحقه بالكلية بما يظهره على يدى من المعجزة فلا يبقى له اثر اصلا او سيظهر بطلانه للناس والسين للتأكيد (ان الله لا يصلح عمل المفسدين) اى عمل جنس المفسدين على الاطلاق فيدخل فيه السحر دخولا اوليا او عملكم فيكون من باب وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالافساد والاشعار بعلة الحكم وليس المراد بعدم اصلاح عملهم عدم جعل فسادهم صلاحا بل عدم اثباته واتمامه اى لا يثبته ولا يكمله ولا يديمه بل يمحقه ويهلكه ويسلط عليه الدمار والجملة تعليل لما سبق من قوله ان الله سيبطله والكل اعتراض تذييلى وفيه دليل على ان السحر افساد وتمويه لا حقيقة له (ويحق الله الحق) عطف على قوله سيبطله اى يثبته ويقويه واظهار الاسم الجليل فى المقامين الاخيرين لالقاء الروعة وتربية المهابة (بكلماته) بأوامره وقضاياه وقرئ بكلمته (ولو كره المجرمون) ذلك والمراد بهم كل من اتصف بالاجرام من السحرة وغيرهم (فما آمن لموسى) معطوف على مقدر قد فصل فى مواقع اخر اى فألقى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون الخ وانما لم يذكر تعويلا

في مكة ( الثاني ) قيل انه تعالى لما ارسل موسى اليهم أمر فرعون بتخريب مساجد بني اسرائيل ومنعهم من الصلاة فأمرهم الله تعالى ان يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا فيها خوفا من فرعون ( الثالث ) انه تعالى لما أرسل موسى اليهم واظهر فرعون تلك العداوة الشديدة امر الله تعالى موسى وهرون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الاعداء وتكفل تعالى انه يصونهم عن شر الاعداء ❊ قوله تعالى ( وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة واموالا في الحيوة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ) اعلم ان موسى لما بالغ في اظهار المعجزات الظاهرة القاهرة ورأى القوم مصرين على الجحود والعناد والانكار اخذ يدعو عليهم ومن حق من يدعو على الغير ان يذكر اولا سبب اقدامه على تلك الجرائم وكان جرمهم هو انهم لاجل حبهم الدنيا تركوا الدين فلهذا السبب قال موسى عليه السلام ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة واموالا والزينة عبارة عن الصحة والجمال واللباس والدواب واثاث البيت والمال ما يزيد على هذه الاشياء من الصامت والناطق ثم قال ليضلوا عن سبيلك وفيه مسئلتان ( المسئلة الاولى ) قرأ حمزة والكسائي وعاصم ليضلوا بضم الياء وقرأ الباقون بفتح الياء ( المسئلة الثانية ) احتج اصحابنا بهذه الآية على انه تعالى يضل الناس ويريد اضلالهم وتقريره من وجهين ( الاول ) ان اللام في قوله ليضلوا لام التعليل والمعنى ان موسى قال يارب العزة انك اعطيتهم هذه الزينة والاموال لاجل ان يضلوا فدل هذا على انه تعالى قد يريد اضلال المكلفين ( الثاني ) انه قال واشدد على قلوبهم فقال الله تعالى قد اجيبت دعوتكما وذلك ايضا يدل على المقصود قال القاضي لا يجوز ان يكون المراد من هذه الآية ما ذكرتم ويدل عليه وجوه ( الاول ) انه ثبت انه تعالى منزه عن فعل القبيح وارادة الكفر قبيحة ( والثاني ) انه لو أراد ذلك لكان الكفار مطيعين لله تعالى بسبب كفرهم لانه لا معنى للطاعة الا الاتيان بما يوافق الارادة ولو كانوا كذلك لما استحقوا الدعاء عليهم بطمس الاموال وشد القلوب ( والثالث ) انا لو جوزنا ان يريد اضلال العباد لجوزنا ان يبعث الانبياء عليهم السلام للدعاء الى الضلال ولجاز ان يقوى الكذابين الضالين المضلين باظهار المعجزات عليهم وفيه هدم الدين وابطال الثقة بالقرآن ( والرابع ) انه لا يجوز ان يقول لموسى وهرون عليهما السلام فقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشى وان يقول ولقد اخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ثم انه تعالى اراد الضلالة منهم واعطاهم النعم لكي يضلوا الا ان ذلك كالمناقضة فلا بد من حمل احدهما على موافقة الآخر ( والخامس ) انه لا يجوز ان يقال ان موسى عليه السلام دعا ربه بان يطمس على اموالهم لاجل ان لا يؤمنوا مع تشدده في ارادة الايمان واعلم انا بالغنا في تكثير هذه الوجوه في مواضع كثيرة من هذا الكتاب

على ذلك وايثارا للايجاز وايذانا بأن قوله تعالى ان الله سيبطله مما لا يحتمل الخلف اصلا وعطفه على ذلك بالفاء مع كونه عدما مستمرا من قبيل ما في قوله عز وجل فاتبعوا امر فرعون وما في قولك ( ٣٠ ) وعظته فلم يتعظ ونصحت به فلم ينزجر والسر في ذلك ان الاتيان بالشئ بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث اى فما آمن له عليه السلام بمشاهدة تلك الآيات القاهرة ( الا ذرية من قومه ) اى الا اولاد من اولاد قومه بنى اسرائيل حيث دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون واجابته طائفة من شبانهم وقيل الضمير لفرعون والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به عليه السلام او مؤمن آل فرعون وامرأته آسية وخازنه وامرأته وماشطته وهو بعيد ( على خوف ) اى كائنين على خوف عظيم ( من فرعون وملئهم ) الضمير لفرعون والجمع لما هو المعتاد في ضمائر العظماء ولا يأباه مقام بيان علوه في الفساد وغلوه في الشر والتسلط على العباد او لان المراد به آله كما يقال ربيعة ومضر او للذرية او للقوم اى على خوف من فرعون ومن اشراف بنى اسرائيل حيث كانوا يمنعون اعقابهم خوفا من فرعون عليهم وعلى انفسهم ( ان يفتنهم ) اى يعذبهم وهو بدل اشتمال او مفعول خوف فان اعمال المصدر المنكر كثير كما في قوله عز وجل او اطعام في يوم ذى مسغبة يتيما او مفعول له بعد حذف اللام واسناد الفعل الى فرعون خاصة لانه الآمر بالتعذيب ( وان فرعون لعال في الارض ) لغالب في ارض مصر ( وانه لمن المسرفين ) في الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء او في الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية واسترق اسباط الانبياء والجملتان اعتراض تذييلى مؤكد لمضمون ما سبق ( وقال موسى ) لما رأى تخوف المؤمنين منه ( ياقوم ان كنتم آمنتم بالله ) اى صدقتم به وبآياته ( فعليه توكلوا ) وبه ثقوا ولا تخافوا احدا غيره فانه كافيكم كل شر وضر ( ان كنتم مسلمين ) مستسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين فان ( واذا )

المعلق بالايمان وجوب التوكل عليه تعالى فانه المقتضى له والمشروط بالاسلام وجوده فانه لايتحقق مع التخليط ونظيره ان احسن اليك زيد فاحسن اليه ان قدرت ( فقالوا ) مجيبين ( ٣١ ) له عليه السلام من غير تلعثم فى ذلك ( على الله توكلنا ) لا نهم كانوا

واذا ثبت هذا فنقول وجب تأويل هذه الكلمة وذلك من وجوه ( الاول ) ان اللام فى قوله ليضلوا لام العاقبة كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ولما كانت عاقبة قوم فرعون هو الضلال وقد اعلمه الله تعالى لاجرم عبر عن هذا المعنى بهذا اللفظ (الثانى) ان قوله ربنا ليضلوا عن سبيلك اى لئلا يضلوا عن سبيلك فحذف لا لدلالة المعقول عليه كقوله يبين الله لكم ان تضلوا والمراد ان لاتضلوا وكقوله تعالى قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة والمراد ائلا تقولوا ومثل هذا الحذف كثير فى الكلام (الثالث) ان يكون موسى عليه السلام ذكر ذلك على سبيل التعجب المقرون بالانكار والتقدير كأنك آتيتهم ذلك لهذا الغرض فانهم لاينفقون هذه الاموال الا فيه وكأنه قال أآتيتهم زينة واموالا لاجل ان يضلوا عن سبيل الله ثم حذف حرف الاستفهام كما فى قول الشاعر

كذبتك عينك أم رأيت بواسط * غلس الظلام من الرباب خيالا

أراد أكذبتك فكذا ههنا (الرابع) قال بعضهم هذه اللام لام الدعاء وهى لام مكسورة تجزم المستقبل ويفتتح بها الكلام فيقال ليغفر الله للمؤمنين وليعذب الله الكافرين والمعنى ربنا ابتلهم بالضلال عن سبيلك ( الخامس ) ان هذه اللام لام التعليل لكن بحسب ظاهر الامر لا فى نفس الحقيقة وتقريره انه تعالى لما اعطاهم هذه الاموال وصارت تلك الاموال سببا لمزيد البغى والكفر اشبهت هذه الحالة حالة من اعطى المال لاجل الاضلال فورد هذا الكلام بلفظ التعليل لاجل هذا المعنى ( السادس ) بينا فى تفسير قوله تعالى يضل به كثيرا فى اول سورة البقرة ان الضلال قد جاء فى القرآن بمعنى الهلاك يقال ضل الماء فى اللبن اى هلك فيه اذا ثبت هذا فنقول قوله ربنا ليضلوا عن سبيلك معناه ليهلكوا ويموتوا ونظيره قوله تعالى فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا فهذا جملة ماقيل فى هذا الباب واعلم انا قد أجبنا عن هذه الوجوه مرارا كثيرة فى هذا الكتاب ولا بأس بأن نعيد بعضها فى هذا المقام فنقول الذى يدل على ان حصول الاضلال من الله تعالى وجوه (الاول) ان العبد لايقصد الا حصول الهداية فلما لم تحصل الهداية بل حصل الضلال الذى لايريده علمنا ان حصوله ليس من العبد بل من الله تعالى فان قالوا انه ظن بهذا الضلال انه هدى فلاجرم قد اوقعه وادخله فى الوجود فنقول فعلى هذا يكون اقدامه على تحصيل هذا الجهل بسبب الجهل السابق فلو كان حصول ذلك الجهل السابق بسبب جهل آخر لزم التسلسل وهو محال فثبت ان هذه الجهالات والضلالات لابد من انتهائها الى جهل اول وضلال اول وذلك لايمكن ان يكون باحداث العبد وتكوينه لانه كرهه وانما اراد ضده فوجب ان يكون من الله تعالى (الثانى) انه تعالى لما خلق الخلق بحيث يحبون المال والجاه حبا شديدا لايمكنه ازالة هذا الحب عن نفسه البتة وكان حصول هذا الحب يوجب الاعراض

مؤمنين مخلصين ثم دعوا ربهم قائلين ( ربنا لاتجعلنا فتنة ) اى موقع فتنة ( للقوم الظالمين ) اى لاتسلطهم علينا حتى يعذبونا اويفتنونا عن ديننا اويفتتنوا بنا ويقولوا لوكان هؤلاء على الحق لما اصيبوا اوقوله تعالى ( ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ) دعاء منهم بالانجاء من سوء جوارهم وشؤم مصاحبتهم بعد الانجاء من ظلمهم ولذلك عبر عنهم بالكفر بعدما وصفوا بالظلم وفى ترتيب الدعاء على التوكل تلويح بأن الداعى حقه ان يبنى دعاءه على التوكل على الله تعالى ( واوحينا الى موسى واخيه ان تبوآ ) ان مفسرة لان فى الوحى معنى القول اى اتخذا مباءة ( لقومكما بمصر بيوتا ) تسكنون فيها وترجعون اليها للعبادة ( واجعلوا ) انتما وقومكما ( بيوتكم ) تلك ( قبلة ) مصلى وقيل مساجد متوجهة نحو القبلة يعنى الكعبة فان موسى عليه السلام كان يصلى اليها ( واقيموا الصلوة ) اى فيها امروا بذلك فى اول امرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم ( وبشر المؤمنين ) بالنصرة فى الدنيا اجابة لدعوتهم والجنة فى العقبى وانما ثنى الضمير اولا لان التبوأ للقوم واتخاذ المعابد مما يتولاه رؤساء القوم بتشاور ثم جمع لان جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما يفعله كل احد ثم وحد لان بشارة الامة وظيفة صاحب الشريعة ووضع المؤمنين موضع ضمير القوم لمدحهم بالايمان وللاشعار بأنه المدار فى التبشير ( وقال موسى ربنا انك اتيت فرعون وملأه زينة ) اى مايتزين به من اللباس والمراكب ونحوها ( واموالا ) وانواعا كثيرة من المال ( فى الحيوة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ) دعاء عليهم بلفظ الامر بما علم بممارسة احوالهم انه لايكون غيره كقولك لعن الله ابليس وقيل اللام للعاقبة وهى متعلقة بآتيت

اوللعلة لان ايتاء النعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال ولانهم لما جعلوها ذريعة الى الضلال فكأنهم اوتوها ليضلوا فيكون ربنا تكريرا للاول تأكيدا اوتنبيها على ان المقصود عرض ضلالهم (٣٣) وكفرانهم تقدمة لقوله تعالى (ربنا اطمس على اموالهم)

عمن يستخدمه ويوجب التكبر عليه وترك الالتفات الى قوله وذلك يوجب الكفر فهذه الاشياء بعضها يتأدى الى البعض تأديا على سبيل اللزوم وجب ان يكون فاعل هذا الكفر هو الذي خلق الانسان مجبولا على حب المال والجاه (الثالث) وهو الحجة الكبرى ان القدرة بالنسبة الى الضدين على السوية فلايترجح احد الطرفين على الثاني الالمرجح وذلك المرجح ليس من العبد والالعاد الكلام فيه فلابد وان يكون من الله تعالى واذا كان كذلك كانت الهداية والاضلال من الله تعالى (الرابع) انه تعالى اعطى فرعون وقومه زينة واموالا وقوى حب ذلك المال والجاه في قلوبهم واودع في طباعهم نفرة شديدة عن خدمة موسى عليه السلام والانقياد له لاسيما وكان فرعون كالمنعم في حقه والمربي له والنفرة عن خدمة من هذا شأنه راسخة في القلوب وكل ذلك يوجب اعراضهم عن قبول دعوة موسى عليه السلام واصرارهم على انكار صدقه فثبت بالدليل العقلي ان اعطاء الله تعالى فرعون وقومه زينة الدنيا واموال الدنيا لابد وان يكون موجبا لضلالهم فثبت ان ما اشعر به ظاهر اللفظ فقد ثبت صحته بالعقل الصريح فكيف يمكن ترك ظاهر اللفظ في مثل هذا المقام وكيف يحسن حمل الكلام على الوجوه المتكلفة الضعيفة جدا اذا عرفت هذا فنقول (اما الوجه الاول) وهو حمل اللام على لام العاقبة فضعيف لان موسى عليه السلام ما كان عالما بالعواقب فان قالوا ان الله تعالى اخبره بذلك قلنا فلما اخبر الله عنهم انهم لايؤمنون كان صدور الايمان منهم محالا لان ذلك يستلزم انقلاب خبر الله كذبا وهو محال والمفضي الى المحال محال (واما الوجه الثاني) وهو قولهم يحمل قوله ليضلوا عن سبيلك على ان المراد لئلا يضلوا عن سبيلك فنقول ان هذا التأويل ذكره ابو علي الجبائي في تفسيره واقول انه لما شرع في تفسير قوله تعالى ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك ثم نقل عن بعض اصحابنا انه قرأ فمن نفسك على سبيل الاستفهام بمعنى الانكار ثم انه استبعد هذه القراءة وقال انها تقتضي تحريف القرآن وتغييره وتفتح باب تأويلات الباطنية وبالغ في انكار تلك القراءة وهذا الوجه الذي ذكره ههنا شر من ذلك لانه قلب النفي اثباتا والاثبات نفيا وتجويزه يفتح باب ان لايبقى الاعتماد على القرآن لافي نفيه ولا في اثباته وحينئذ يبطل القرآن بالكلية وهذا بعينه هو الجواب عن قوله المراد منه الاستفهام بمعنى الانكار فان تجويزه يوجب تجويز مثله في سائر المواطن فلعله تعالى انما قال اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة على سبيل الانكار والتعجب واما بقية الجوابات فلايخفى ضعفها ثم انه تعالى حكى عن موسى عليه السلام انه قال ربنا اطمس على اموالهم وذكرنا معنى الطمس عند قوله تعالى من قبل ان نطمس وجوها والطمس هو المسخ قال ابن عباس رضي الله عنهما بلغنا ان الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وانصافا واثلاثا وجعل سكرهم حجارة ثم قال واشدد على قلوبهم ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى لايدخلها

الطمس المحو وقرئ بضم الميم اى اهلكها (واشدد على قلوبهم) اى اجعلها قاسية واطبع عليها حتى لاتنشرح للايمان كما هو قضية شأنهم (فلايؤمنوا) جواب للدعاء اودعاء بلفظ النهي اوعطف على ليضلوا ومابينهما دعاء معترض (حتى يروا العذاب الاليم) اى يعاينوه ويوقنوا به بحيث لاينفعهم ذلك اذذاك (قال قداجيبت دعوتكما) يعني موسى وهرون عليهما السلام لانه كان يؤمن كما يشعر به اضافة الرب الى ضمير المتكلم مع الغير في المواقع الثلاثة (فاستقيما) فاثبتا على ماانتما عليه من الدعوة والزام الحجة ولاتستعجلا فان ماطلبتما كائن في وقته لامحالة روي انه مكث فيهم بعد الدعاء اربعين سنة (ولاتتبعان سبيل الذين لايعلمون) اى بعادات الله سبحانه في تعليق الامور بالحكم والمصالح اوسبيل الجهلة في الاستعجال او عدم الوثوق بوعد الله تعالى وقرئ بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين ولاتتبعان من تبع ولاتتبعان ايضا (وجاوزنا ببني اسرائيل البحر) هو من جاوز المكان اذا تخطاه وخلفه والباء للتعدية اى جعلناهم مجاوزين البحر بأن جعلناه يبسا وحفظناهم حتى بلغوا الشط وقرئ جوزنا وهو من التجويز المرادف للمجاوزة لاماهو بمعنى التنفيذ نحو ماوقع في قول الاعشى * كما جوز السكي في الباب فيتق والافيل وجوزنا بني اسرائيل في البحر وخلا النظم الكريم عن الايذان بانفصالهم عن البحر وبمقارنة العناية الالهية لهم عند الجواز كما هو المشهور في الفرق بين اذهبه وذهب به (فأتبعهم) يقال تبعته حتى اتبعته اذا كان سبقك فلحقته اى ادركهم ولحقهم (فرعون وجنوده) حتى تراءت الفئتان وكاد يجتمع الجمعان (بغيا وعدوا) ظلما واعتداء اى باغين (الايمان)

الايمان قال الواحدى وهذا دليل على ان الله تعالى يفعل ذلك بمن يشاء ولولا ذلك لما حسن من موسى عليه السلام هذا السؤال ثم قال فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم وفيه وجهان (احدهما) انه يجوز ان يكون معطوفا على قوله ليضلوا والتقدير ربنا ليضلوا عن سبيلك فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم وقوله ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم يكون اعتراضا (والثانى) يجوز ان يكون جوابا لقوله واشدد والتقدير اطبع على قلوبهم وقسها حتى لا يؤمنوا فانها تستحق ذلك ثم قال تعالى قد أجيبت دعوتكما وفيه وجهان (الاول) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان موسى كان يدعو وهرون كان يؤمن فلذلك قال قد أجيبت دعوتكما وذلك لان من يقول عند دعاء الداعى آمين فهو ايضا داع لان قوله آمين تأويله استجب فهو سائل كما ان الداعى سائل ايضا (الثانى) لا يبعد ان يكون كل واحد منهما ذكر هذا الدعاء غاية ما فى الباب أن يقال انه تعالى حكى هذا الدعاء عن موسى بقوله وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا الا ان هذا لا ينافى ان يكون هرون قد ذكر ذلك الدعاء ايضا وأما قوله فاستقيما يعنى فاستقيما على الدعوة والرسالة والزيادة فى الزام الحجة فقد لبث نوح فى قومه ألف سنة الا قليلا فلا تستعجلا قال ابن جريج ان فرعون لبث بعد هذا الدعاء اربعين سنة وأما قوله ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ففيه بحثان (البحث الاول) المعنى لا تتبعان سبيل الجاهلين الذين يظنون انه متى كان الدعاء مجابا كان المقصود حاصلا فى الحال فربما أجاب الله تعالى دعاء انسان فى مطلوبه الا انه انما يوصله اليه فى وقته المقدر والاستعجال لا يصدر الا من الجهال وهذا كما قال لنوح عليه السلام انى اعظك ان تكون من الجاهلين واعلم ان هذا النهى لا يدل على ان ذلك قد صدر من موسى عليه السلام كما ان قوله لئن اشركت ليحبطن عملك لا يدل على صدور الشرك منه (البحث الثانى) قال الزجاج قوله ولا تتبعان موضعه جزم والتقدير ولا تتبعا الا ان النون الشديدة دخلت على النهى مؤكدة وكسرت لسكونها وسكون النون التى قبلها فاختير لها الكسرة لانها بعد الالف تشبه نون التثنية وقرأ ابن عامر ولا تتبعان بتخفيف النون * قوله تعالى (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى اذا ادركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) اعلم ان تفسير اللفظ فى قوله وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر مذكور فى سورة الاعراف والمعنى انه تعالى لما اجاب دعاءهما امر بنى اسرائيل بالخروج من مصر فى الوقت المعلوم ويسر لهم اسبابه وفرعون كان غافلا عن ذلك فلما سمع انهم خرجوا وعزموا على مفارقة مملكته خرج على عقبهم وقوله فاتبعهم اى لحقهم يقال اتبعه حتى لحقه وقوله بغيا وعدوا البغى طلب الاستعلاء بغير حق والعدو الظلم روى ان موسى عليه السلام لما خرج مع قومه وصلوا الى طرف

وعادين او للبغى والعدوان وقرئ وعدوا وذلك ان موسى عليه السلام خرج ببنى اسرائيل على حين غفلة من فرعون فلما سمع به تبعهم حتى لحقهم ووصل الى الساحل وهم قد خرجوا من البحر ومسلكهم باق على حاله يبسا فسلكه بجنوده اجمعين فلما دخل آخرهم وهم اولهم بالخروج غشيهم من اليم ما غشيهم (حتى اذا ادركه الغرق) اى لحقه والجمه (قال آمنت انه) اى بانه والضمير للشأن وقرئ انه على الاستئناف بدلا من آمنت وتفسيرا له (لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل) لم يقل كما قاله السحرة آمنا برب العالمين رب موسى وهرون بل عبر عنه تعالى بالموصول وجعل صلته ايمان بنى اسرائيل به تعالى للاشعار برجوعه عن الاستعصاء وباتباعه لمن كان يستتبعهم طمعا فى القبول والانتظام معهم فى سلك النجاة (وانا من المسلمين) اى الذين اسلموا نفوسهم لله اى جعلوها سالمة خالصة له تعالى واراد بهم اما بنى اسرائيل خاصة واما الجنس وهم داخلون فيه دخولا اوليا والجملة على الاول عطف على آمنت وايثار الاسمية لادعاء الدوام او الاستمرار وعلى الثانى يحتمل الحالية ايضا من ضمير المتكلم اى آمنت مخلصا لله منتظما فى سلك الراسخين فيه ولقد كرر المعنى الواحد بثلاث عبارات حرصا على القبول المفضى الى النجاة وهيهات هيهات بعدما فات ما فات وأتى ما هو آت وقوله عز وجل (آلآن) مقول لقول مقدر معطوف على قال اى فقيل آلآن وهو

البحر وقرب فرعون مع عسكره منهم فوقعوا في خوف شديد لانهم صاروا بين بحر مغرق وجند مهلك فأنعم الله عليهم بأن أظهر لهم طريقا في البحر على ما ذكر الله تعالى هذه القصة بتمامها في سائر السور ثم ان موسى عليه السلام مع اصحابه دخلوا وخرجوا وأبقى الله تعالى ذلك الطريق يبسا ليطمع فرعون وجنوده في التمكن من العبور فلما دخل مع جمعه أغرقه الله تعالى بأن أوصل اجزاء الماء بعضها وأزال الفلق فهو معنى قوله فاتبعهم فرعون وجنوده وبين ما كان في قلوبهم من البغي وهي محبة الافراط في قتلهم وظلمهم والعدو وهو تجاوز الحد ثم ذكر تعالى انه لما أدركه الغرق اظهر كلمة الاخلاص ظنا منه أنه ينجيه من تلك الآفة وههنا سؤالان (السؤال الاول) ان الانسان اذا وقع في الغرق لا يمكنه ان يتلفظ بهذا اللفظ فكيف حكى الله تعالى عنه انه ذكر ذلك (والجواب) من وجهين (الاول) ان مذهبنا ان الكلام الحقيقي هو كلام النفس لا كلام اللسان فهو انما ذكر هذا الكلام بالنفس لا بكلام اللسان ويمكن ان يستدل بهذه الآية على اثبات كلام النفس لأنه تعالى حكى عنه انه قال هذا الكلام وثبت بالدليل انه ما قاله باللسان فوجب الاعتراف بثبوت كلام غير كلام اللسان وهو المطلوب (الثاني) ان يكون المراد من الغرق مقدماته (السؤال الثاني) انه آمن ثلاث مرات أولها قوله آمنت وثانيها قوله لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وثالثها قوله وأنا من المسلمين فما السبب في عدم القبول والله تعالى متعال عن أن يلحقه غيظ وحقد حتى يقال انه لاجل ذلك الحقد لم يقبل منه هذا الاقرار (والجواب) العلماء ذكروا فيه وجوها (الاول) انه انما آمن عند نزول العذاب والايمان في هذا الوقت غير مقبول لان عند نزول العذاب يصير الحال وقت الالجاء وفي هذا الحال لا تكون التوبة مقبولة ولهذا السبب قال تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا (الوجه الثاني) هو انه انما ذكر هذه الكلمة ليتوسل بها الى دفع تلك البلية الحاضرة والمحنة الناجزة فما كان مقصوده من هذه الكلمة الاقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف بعزة الربوبية وذلة العبودية وعلى هذا التقدير فما كان ذكر هذه الكلمة مقرونا بالاخلاص فلهذا السبب ما كان مقبولا (الوجه الثالث) هو ان ذلك الاقرار كان مبنيا على محض التقليد الا ترى انه قال لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل فكأنه اعترف بأنه لا يعرف الله الا انه سمع من بني اسرائيل ان للعالم الها فهو اقر بذلك الاله الذي سمع من بني اسرائيل انهم اقروا بوجوده فكان هذا محض التقليد فلهذا السبب لم تصر الكلمة مقبولة منه ومزيد التحقيق فيه ان فرعون على ما بيناه في سورة طه كان من الدهرية وكان من المنكرين لوجود الصانع تعالى ومثل هذا الاعتقاد الفاحش لا تزول ظلمته الا بنور الحجج القطعية والدلائل اليقينية واما بالتقليد المحض فهو لا يفيد لانه يكون ضما لظلمة التقليد الى ظلمة الجهل السابق (الوجه الرابع) رأيت في بعض الكتب ان بعض اقوام من بني اسرائيل لما جاوزوا البحر

(اشتغلوا)

---

الى قوله تعالى آية حكاية لما جرى منه سبحانه من الغضب على وجه الانكار التوبيخي على تأخيره وتقريعه بالعصيان والفساد وغير ذلك وفي حذف الفعل المذكور وابراز الخبر المحكي في صورة الانشاء من الدلالة على عظم السخط وشدة الغضب ما لا يخفى كما يفصح عنه ما روي من ان جبريل دس فاه عند ذلك بحال البحر وسده به فانه تأكيد للرد القولي بالرد الفعلي ولا ينافيه تعليله بمخافة ادراك الرحمة فيما نقل انه قال للنبي عليهما السلام فلو رأيتني يا محمد وانا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة ان تدركه الرحمة اذ المراد بها الرحمة الدنيوية اي النجاة التي هي طلبة المخذول وليس من ضرورة ادراكها صحة الايمان كما في ايمان قوم يونس عليه السلام حتى يلزم من كراهته ما لا يتصور في شأن جبريل عليه السلام من الرضا بالكفر اذ لا استحالة في ترتب هذه الرحمة على مجرد التفوه بكلمة الايمان وان كان ذلك في حالة البأس واليأس فيحمل دسه عليه السلام على سد باب الاحتمال البعيد لكمال الغيظ وشدة الحرد فتدبر والله الموفق وحق العامل في الظرف ان يقدر مؤخرا ليتوجه الانكار والتوبيخ الى تأخير الايمان الى حد يمتنع قبوله فيه اي آلآن تؤمن حين يئست من الحياة وايقنت بالممات وقوله عز وعلا (وقد عصيت قبل) حال من فاعل الفعل المقدر جيء به لتشديد التوبيخ والتقريع على تأخير الايمان الى

اشتغلوا بعبادة العجل فلما قال فرعون آمنت انه لااله الاالذى آمنت به بنو اسرائيل انصرف ذلك الى العجل الذى آمنوا بعبادته فى ذلك الوقت فكانت هذه الكلمة فى حقه سببا لزيادة الكفر ( الوجه الخامس ) ان اليهود كانت قلوبهم مائلة الى التشبيه والتجسيم ولهذا السبب اشتغلوا بعبادة العجل لظنهم انه تعالى حل فى جسد ذلك العجل ونزل فيه فلما كان الامر كذلك وقال فرعون آمنت انه لااله الاالذى آمنت به بنو اسرائيل فكأنه آمن بالاله الموصوف بالجسمية والحلول والنزول وكل من اعتقد ذلك كان كافرا فلهذا السبب ماصح ايمان فرعون ( الوجه السادس ) لعل الايمان انما كان يتم بالاقرار بوحدانية الله تعالى والاقرار بنبوة موسى عليه السلام فههنا لما أقر فرعون بالوحدانية ولم يقر بالنبوة لاجرم لم يصح ايمانه ونظيره ان الواحد من الكفار لو قال الف مرة اشهد ان لااله الاالله فانه لايصح ايمانه الااذا قال معه واشهد ان محمدا رسول الله فكذا ههنا ( الوجه السابع ) روى صاحب الكشاف ان جبريل عليه السلام أتى فرعون بفتيا فيها ماقول الامير فى عبد نشأ فى مال مولاه ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه فكتب فرعون فيها يقول ابو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج على سيده الكافر بنعمته ان يغرق فى البحر ثم ان فرعون لما غرق رفع جبريل عليه السلام فتياه اليه * اما قوله تعالى آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ففيه سؤالات ( السؤال الاول ) من القائل له آلآن وقد عصيت قبل (الجواب) الاخبار دالة على ان قائل هذا القول هو جبريل وانما ذكر قوله وكنت من المفسدين فى مقابلة قوله وانا من المسلمين ومن الناس من قال ان قائل هذا القول هو الله تعالى لانه ذكر بعده فاليوم ننجيك ببدنك الى قوله وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون وهذا الكلام ليس الا كلام الله تعالى ( السؤال الثانى ) ظاهر اللفظ يدل على انه انما لم تقبل توبته للمعصية المتقدمة والفساد السابق وصحة هذا التعليل لاتمنع من قبول التوبة ( والجواب ) مذهب اصحابنا ان قبول التوبة غير واجب عقلا واحد دلائلهم على صحة ذلك هذه الآية وايضا فالتعليل ماوقع بمجرد المعصية السابقة بل بتلك المعصية مع كونه من المفسدين ( السؤال الثالث ) هل يصح ان جبريل عليه السلام اخذ يملأ فمه من الطين لئلا يتوب غضبا عليه (والجواب) الاقرب انه لايصح لان فى تلك الحالة اما ان يقال التكليف كان ثابتا اوما كان ثابتا فان كان ثابتا لم يجز على جبريل عليه السلام ان يمنعه من التوبة بل يجب عليه ان يعينه على التوبة وعلى كل طاعة لقوله تعالى وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان وايضا فلو منعه بما ذكروه لكانت التوبة ممكنة لان الاخرس قد يتوب بأن يندم بقلبه ويعزم على ترك معاودة القبيح وحينئذ لايبقى لما فعله جبريل عليه السلام فائدة وايضا لو منعه من التوبة لكان قد رضى ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر وايضا فكيف يليق بالله تعالى ان يقول لموسى وهرون عليهما

---

هذا الآن ببيان انه لم يكن تأخيره لعدم بلوغ الدعوة اليه ولا للتأمل والتدبر فى دلائله وآياته ولا لشئ آخر مما عسى يعد عذرا فى التأخير بل كان ذلك على طريقة الرد والاستعصاء والافساد فان قوله تعالى (وكنت من المفسدين) عطف على عصيت داخل فى حيز الحال اى وكنت من الغالين فى الضلال والاضلال عن الايمان كقوله تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون فهذا عبارة عن فساده الراجع الى نفسه والسارى الى غيره من الظلم والتعدى وصد بنى اسرائيل عن الايمان والاول عن عصيانه الخاص به ( فاليوم ننجيك ) اى نخرجك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافيا وفى التعبير عنه بالتنجية تلويح بأن مراده بالايمان هو النجاة كما مر وتهكم به او نلقيك على نجوة من الارض ليراك بنو اسرائيل وقرئ ننجيك من الانجاء وننحيك بالحاء من التنحية اى نلقيك بناحية الساحل ( ببدنك ) فى موضع الحال من ضمير المخاطب اى ننجيك ملابسا ببدنك فقط لامع روحك كما هو مطلوبك فهو تخييب له وحسم لاطماعه بالمرة او عاريا عن اللباس او كاملا سويا او بدرعك وكانت له درع من الذهب يعرف بها وقرئ بأبدانك اى بأجزاء بدنك كلها كقولهم هوى بأجرامه او بدروعك كأنه كان مظاهرا بينها ( لتكون لمن خلفك آية ) لمن وراءك علامة وهم بنو اسرائيل اذ كان فى نفوسهم من عظمته

السلام فقولا له قولا لينا لعله يتذكر اويخشى ثم يأمر جبريل عليه السلام بأن يمنعه من الايمان ولو قيل انجبريل عليه السلام انما فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله تعالى فهذا يبطله قول جبريل وماتنزل الا بأمر ربك وقوله تعالى فى صفتهم وهم من خشيته مشفقون وقوله لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون واما ان قيل ان التكليف كان زائلا عن فرعون فى ذلك الوقت فحينئذ لايبقى لهذا الفعل الذى نسب جبريل اليه فائدة اصلا ثم قال تعالى فاليوم ننجيك ببدنك وفيه وجوه ( الاول ) ننجيك ببدنك اى نلقيك بنجوة من الارض وهى المكان المرتفع ( الثانى ) نخرجك من البحر ونخلصك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ولكن بعد ان تغرق وقوله ببدنك فى موضع الحال اى فى الحال التى أنت فيه حينئذ لاروح فيك ( الثالث ) ان هذا وعدله بالنجاة على سبيل التهكم كما فى قوله فبشرهم بعذاب اليم كأنه قيل له ننجيك لكن هذه النجاة انما تحصل لبدنك لالروحك ومثل هذا الكلام قد يذكر على سبيل الاستهزاء كما يقال نعتقك ولكن بعد الموت ونخلصك من السجن ولكن بعد ان تموت ( الرابع ) قرأ بعضهم ننحيك بالحاء المهملة اى نلقيك بناحية ممايلى البحر وذلك انه طرح بعد الغرق بجانب من جوانب البحر قال كعب رماء الماء الى الساحل كأنه ثور واما قوله ببدنك ففيه وجوه ( الاول ) ماذكرنا انه فى موضع الحال اى فى الحال التى كنت بدنا محضا من غير روح ( الثانى ) المراد ننجيك ببدنك كاملا سويا لم تتغير ( الثالث ) ننجيك ببدنك اى نخرجك من البحر عريانا من غير لباس ( الرابع ) ننجيك ببدنك اى بدرعك قال الليث البدن هو الدرع الذى يكون قصير الكمين فقوله ببدنك اى بدرعك وهذا منقول عن ابن عباس قال كان عليه درع من ذهب يعرف بها فأخرجه الله من الماء مع ذلك الدرع ليعرف اقول ان صح هذا فقد كان ذلك معجزة لموسى عليه السلام واما قوله لتكون لمن خلفك آية ففيه وجوه ( الاول ) ان قوما ممن اعتقدوا فيه الالهية لما لم يشاهدوا غرقه كذبوا بذلك وزعموا ان مثله لايموت فاظهر الله تعالى أمره بأن اخرجه من الماء بصورته حتى شاهدوه وزالت الشبهة عن قلوبهم وقيل كان مطرحه على ممر بنى اسرائيل ( الثانى ) لايبعد انه تعالى اراد ان يشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة بعدما سمعوا منه قوله انا ربكم الاعلى ليكون ذلك زجرا للخلق عن مثل طريقته ويعرفوا انه كان بالامس فى نهاية الجلالة والعظمة ثم آل امره الى ماير ون ( الثالث ) قرأ بعضهم لمن خلقك بالقاف اى لتكون لخالقك آية كسائر آياته ( الرابع ) انه تعالى لما أغرقه مع جميع قومه ثم انه تعالى مااخرج احدا منهم من قعر البحر بل خصه بالاخراج كان تخصيصه بهذه الحالة العجيبة دالا على كمال قدرة الله تعالى وعلى صدق موسى عليه السلام فى دعوى النبوة واما قوله وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون فالاظهر انه تعالى لما ذكر قصة موسى وفرعون وذكر حال عاقبة فرعون وختم ذلك بهذا الكلام وخاطب به محمدا عليه الصلاة والسلام فيكون ذلك زاجرا لامته

ماخيل اليهم انه لايهلك حتى روى انهم لم يصدقوا موسى عليه السلام حين اخبرهم بغرقه الى ان عاينوه مطروحا على ممرهم من الساحل اوتكون لمن يأتى بعدك من الامم اذا سمعوا مآل امرك ممن شاهدك عبرة ونكالا من الطغيان اوحجة تدلهم على ان الانسان وان بلغ الغاية القصوى من عظم الشان وعلو الكبرياء وقوة السلطان فهو مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية وقرئ لمن خلفك فعلا ماضيا اى لمن خلفك من الجبابرة وقرئ لمن خلقك بالقاف اى لتكون لخالقك آية كسائر الآيات فان افراده سبحانه اياك بالالقاء الى الساحل دليل على انه قصد منه لكشف تزويرك واماطة الشبهة فى امرك وبرهان نير على كمال علمه وقدرته وهذا الوجه محتمل على القراءة المشهورة ايضا وفى تعليل تنجيته بماذكر ايذان بانها ليست لاعزازه اولفائدة اخرى عائدة اليه بل لكمال الاستهانة به وتفضيحه على رؤس الاشهاد وزيادة تفظيع حاله كمن يقتل ثم يجر جسده فى الاسواق اويدار برأسه فى البلاد واللام الاولى متعلقة بننجيك والثانية بمحذوف وقع حالا من آية اى كائنة لمن خلفك ( وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ) لايتفكرون فيها ولايعتبرون بها وهو اعتراض تذييلى جئ به عند الحكاية تقريرا لفحوى الكلام المحكى ( ولقد بوأنا بنى اسرائيل ) كلام مستانف سيق لبيان النعم الفائضة عليهم اثر نعمة الانجاء على وجه الاجمال

عن الاعراض عن الدلائل وباعثالهم على التأمل فيها والاعتبار بها فان المقصود من ذكر هذه القصص حصول الاعتبار كما قال تعالى لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب

※ قوله تعالى ( ولقد بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ) اعلم انه تعالى لما ذكر ما وقع عليه الختم فى واقعة فرعون وجنوده ذكر ايضا فى هذه الآية ما وقع عليه الختم فى امر بنى اسرائيل وههنا بحثان ( البحث الاول ) ان قوله بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق اى أسكناهم مكان صدق اى مكانا محمودا وقوله مبوأ صدق فيه وجهان ( الاول ) يجوز ان يكون مبوأ صدق مصدرا اى بوأناهم تبوأ صدق ( الثانى ) ان يكون المعنى منزلا صالحا مرضيا وانما وصف المبوأ بكونه صدقا لان عادة العرب انها اذا مدحت شيئا اضافته الى الصدق تقول رجل صدق وقدم صدق قال تعالى وقل رب ادخلنى مدخل صدق واخرجنى مخرج صدق والسبب فيه ان ذلك الشئ اذا كان كاملا فى وقته صالحا للغرض المطلوب منه فكل ما يظن فيه من الخير فأنه لابد وان يصدق ذلك الظن ( البحث الثانى ) اختلفوا فى ان المراد ببنى اسرائيل فى هذه الآية أهم اليهود الذين كانوا فى زمن موسى عليه السلام ام الذين كانوا فى زمن محمد عليه الصلاة والسلام ( اما القول الاول ) فقد قال به قوم ودليلهم انه تعالى لما ذكر هذه الآية عقيب قصة موسى عليه السلام كان حمل هذه الآية على احوالهم اولى وعلى هذا التقدير كان المراد بقوله ولقد بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق الشام ومصر وتلك البلاد فأنها بلاد كثيرة الخصب قال تعالى سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله والمراد من قوله ورزقناهم من الطيبات تلك المنافع وايضا المراد منها انه تعالى اورث بنى اسرائيل جميع ما كان تحت ايدى قوم فرعون من الناطق والصامت والحرث والنسل كما قال واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها ثم قال تعالى فما اختلفوا حتى جاءهم العلم والمراد ان قوم موسى عليه السلام بقوا على ملة واحدة ومقالة واحدة من غير اختلاف حتى قرؤا التوراة فحينئذ تنبهوا للمسائل والمطالب ووقع الاختلاف بينهم ثم بين تعالى ان هذا النوع من الاختلاف لابد وان يبقى فى دار الدنيا وانه تعالى يقضى بينهم يوم القيامة ( واما القول الثانى ) وهو ان المراد ببنى اسرائيل فى هذه الآية اليهود الذين كانوا فى زمان محمد عليه الصلاة والسلام فهذا قال به قوم عظيم من المفسرين قال ابن عباس وهم قريظة والنضير وبنو قينقاع انزلناهم منزل صدق ما بين المدينة والشام ورزقناهم من الطيبات والمراد ما فى تلك البلاد من الرطب والتمر التى ليس مثلها طيبا فى البلاد ثم انهم بقوا على دينهم ولم يظهر فيهم الاختلاف حتى جاءهم العلم والمراد من العلم القرآن النازل على محمد عليه الصلاة والسلام وانما سماه علما لانه سبب العلم وتسمية السبب باسم المسبب مجاز مشهور

واخلالهم بشكرها واداء حقوقها اى اسكناهم وانزلناهم بعد ما انجيناهم واهلكنا اعداءهم ( مبوأ صدق ) اى منزلا صالحا مرضيا وهو الشام ومصر ملكوهما بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا فى نواحيهما حسبما نطق به قوله تعالى واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التى باركنا فيها ( ورزقناهم من الطيبات ) اى اللذائذ ( فما اختلفوا ) فى امر دينهم ( حتى جاءهم العلم ) اى الا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة وعلمهم بأحكامها او فى امر محمد عليه الصلاة والسلام الا من بعد ما علموا صدق نبوته وتظاهر معجزاته فالمراد بالمختلفين اعقابهم الذين كانوا فى عصر النبى عليه الصلاة والسلام ( ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ) فيميز بين المحق والمبطل بالاثابة والتعذيب ( فان كنت فى شك ) اى فى شك ما يسير على الفرض والتقدير فان مضمون الشرطية انما هو تعليق شئ بشئ من غير تعرض لامكان شئ منهما كيف لا وقد يكون كلاهما ممتنعا كقوله عز وجل قل ان كان للرحمن ولد فأنا اول العابدين وقوله تعالى لئن اشركت ليحبطن عملك ونظائرهما ( مما انزلنا اليك ) من القصص التى من جملتها قصة فرعون وقومه واخبار بنى اسرائيل ( فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك ) فان ذلك محقق عندهم ثابت فى كتبهم حسبما القينا اليك والمراد اظهار نبوته عليه السلام بشهادة الاخبار حسبما هو

وفي كون القرآن سببا لحدوث الاختلاف وجهان ( الاول ) ان اليهود كانوا يخبرون بمبعث محمد عليه الصلاة والسلام ويفتخرون به على سائر الناس فلما بعثه الله تعالى كذبوه حسدا وبغيا وايثارا لبقاء الرياسة وآمن به طائفة منهم فبهذا الطريق صار نزول القرآن سببا لحدوث الاختلاف فيهم ( الثاني ) ان يقال ان هذه الطائفة من بني اسرائيل كانوا قبل نزول القرآن كفارا محضا بالكلية وبقوا على هذه الحالة حتى جاءهم العلم فعند ذلك اختلفوا فآمن قوم وبقي اقوام آخرون على كفرهم واما قوله تعالى ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون فالمراد منه ان هذا النوع من الاختلاف لاحيلة في ازالته في دار الدنيا وانه تعالى في الآخرة يقضي بينهم فيتميز المحق من المبطل والصديق من الزنديق * قوله تعالى ( فان كنت في شك مما انزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم ) اعلم انه تعالى لما ذكر من قبل اختلافهم عند ماجاءهم العلم اورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية مايقوي قلبه في صحة القرآن والنبوة فقال تعالى فان كنت في شك مما انزلنا اليك وفي الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) قال الواحدي الشك في وضع اللغة ضم بعض الشئ الى بعض يقال شك الجواهر في العقد اذا ضم بعضها الى بعض ويقال شككت الصيد اذا رميته فضممت يده الى يده اورجله الى رجله والشكائك من الهوادج ماشك بعضها ببعض والشكائك البيوت المصطفة والشكائك الادعياء لانهم يشكون انفسهم الى قوم ليسوا منهم اي يضمون وشك الرجل في السلاح اذا دخل فيه وضمه الى نفسه والزمه اياها فاذا قالوا شك فلان في الامور ارادوا انه وقف نفسه بين شيئين فيجوز هذا ويجوز هذا فهو يضم الى مايتوهمه شيئا آخر خلافه ( المسئلة الثانية ) اختلف المفسرون في ان المخاطب بهذا الخطاب من هو فقيل النبي عليه الصلاة والسلام وقيل غيره اما من قال بالاول فاختلفوا على وجوه ( الاول ) ان الخطاب مع النبي عليه الصلاة والسلام في الظاهر والمراد غيره كقوله تعالى يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين وكقوله لئن اشركت ليحبطن عملك وكقوله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس ومن الامثلة المشهورة * اياك اعني واسمعي ياجاره * والذي يدل على صحة ماذكرناه وجوه (الاول) قوله تعالى في آخر السورة يا أيها الناس ان كنتم في شك من ديني فبين ان المذكور في اول الآية على سبيل الرمز هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح (الثاني) ان الرسول لو كان شاكا في نبوة نفسه لكان شك غيره في نبوته اولى وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية ( والثالث ) ان بتقدير ان يكون شاكا في نبوة نفسه فكيف يزول ذلك الشك باخبار اهل الكتاب عن نبوته مع انهم في الاكثر كفار وان حصل فيهم من كان

( مؤمنا )

المسطور في كتبهم وان لم يكن اليه حاجة اصلا اووصف اهل الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة نبوته عليه السلام اوتهييجه عليه السلام وزيادة تثبيته على ماهو عليه من اليقين لاتجويز صدور الشك منه عليه السلام ولذلك قال عليه السلام لااشك ولا اسأل وقيل المراد بالموصول مؤمنو اهل الكتاب كعبد الله بن سلام وتميم الداري وكعب واضرابهم وقيل الخطاب للنبي عليه السلام والمراد امته اولكل من يسمع اي ان كنت ايها السامع في شك مما انزلنا اليك على لسان نبينا وفيه تنبيه على ان من خالجته شبهة في الدين ينبغي ان يسارع الى حلها بالرجوع الى اهل العلم وقرئ فاسأل الذين يقرؤن الكتب (لقد جاءك الحق) الذي لامحيد عنه ولاريب في حقيته (من ربك) وظهر ذلك بالآيات القاطعة التي لايحوم حولها شائبة الارتياب وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام من التشريف مالايخفى (فلا تكونن من الممترين) التزلزل عما انت عليه من الجزم واليقين ودم على ذلك كما كنت من قبل (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله) من باب التهييج والالهاب والمراد به اعلام ان التكذيب من القبح والمحذورية بحيث ينبغي ان ينهى عنه من لايتصور امكان صدوره عنه فكيف بمن يمكن اتصافه به وفيه قطع لاطماع الكفرة (فتكون) بذلك (من الخاسرين) انفسا واعمالا (ان الذين حقت عليهم) شروع

مؤمنا الا ان قوله ليس بحجة لاسيما وقد تقرر ان مافى ايديهم من التوراة والانجيل فالكل مصحف محرف فثبت ان الحق هو ان هذا الخطاب وان كان فى الظاهر مع الرسول صلى الله عليه وسلم الا ان المراد هو الامة ومثل هذا معتاد فان السلطان الكبير اذا كان له امير وكان تحت راية ذلك الامير جمع فاذا اراد ان يأمر الرعية بأمر مخصوص فانه لايوجه خطابه عليهم بل يوجه ذلك الخطاب على ذلك الامير الذى جعله اميرا عليهم ليكون ذلك اقوى تأثيرا فى قلوبهم (الوجه الثانى) انه تعالى علم ان الرسول لم يشك فى ذلك الا ان المقصود انه متى سمع هذا الكلام فانه يصرح ويقول يارب لاشك ولااطلب الحجة من قول اهل الكتاب بل يكفينى ما انزلته على من الدلائل الظاهرة ونظيره قوله تعالى للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون والمقصود ان يصرحوا بالجواب الحق ويقولوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن وكما قال لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذونى وامى الهين من دون الله والمقصود منه ان يصرح عيسى عليه السلام بالبراءة عن ذلك فكذا ههنا (الوجه الثالث) هو ان محمدا عليه الصلاة والسلام كان من البشر وكان حصول الخواطر المشوشة والافكار المضطربة فى قلبه من الجائزات وتلك الخواطر لاتندفع الا بايراد الدلائل وتقرير البينات فهو تعالى انزل هذا النوع من التقريرات حتى ان بسببها تزول عن خاطره تلك الوساوس ونظيره قوله تعالى فلعلك تارك بعض مايوحى اليك وضائق به صدرك واقول تمام التقرير فى هذا الباب ان قوله فان كنت فى شك فافعل كذا وكذا قضية شرطية والقضية الشرطية لااشعار فيها البتة بأن الشرط وقع اولم يقع ولا بأن الجزاء وقع اولم يقع بل ليس فيها الا بيان ان ماهية ذلك الشرط مستلزمة لماهية ذلك الجزاء فقط والدليل عليه انك اذا قلت ان كانت الخمسة زوجا كانت منقسمة بمتساويين فهو كلام حق لان معناه ان كون الخمسة زوجا يستلزم كونها منقسمة بمتساويين ثم لايدل هذا الكلام على ان الخمسة زوج ولا على انها منقسمة بمتساويين فكذا ههنا هذه الآية تدل على انه لو حصل هذا الشك لكان الواجب فيه هو فعل كذا وكذا فاما ان هذا الشك وقع اولم يقع فليس فى الآية دلالة عليه والفائدة فى انزال هذه الآية على الرسول ان تكثير الدلائل وتقويتها مما يزيد فى قوة اليقين وطمانينة النفس وسكون الصدر ولهذا السبب اكثر الله فى كتابه من تقرير دلائل التوحيد والنبوة (الوجه الرابع) فى تقرير هذا المعنى ان تقول المقصود من ذكر هذا الكلام استمالة قلوب الكفار وتقريبهم من قبول الايمان وذلك لانهم طالبوه مرة بعد اخرى بمايدل على صحة نبوته وكأنهم استحيوا من تلك المعاودات والمطالبات وذلك الاستحياء صار مانعا لهم عن قبول الايمان فقال تعالى فان كنت فى شك من نبوتك فتمسك بالدلائل القلائل يعنى اولى الناس بأن لايشك فى نبوته هو نفسه ثم مع هذا ان طلب هو من نفسه دليلا على نبوة نفسه بعد ماسبق من الدلائل الباهرة والبينات القاهرة فأنه ليس فيه

فى بيان سراصرار الكفرة على ما هم عليه من الكفر والضلال اى ثبتت ووجبت بمقتضى المشيئة المبنية على الحكمة البالغة (كلمة ربك) حكمه وقضاؤه بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون فى النار كقوله تعالى ولكن حق القول منى لأملأن جهنم الى آخره (لايؤمنون) ابدا اذ لاكذب لكلامه ولاانتقاض لقضائه اى لايؤمنون ايمانا نافعا واقعا فى اوانه فيندرج فيهم المؤمنون عند معاينة العذاب مثل فرعون باقيا عند الموت فيدخل فيهم المرتدون (ولو جاءتهم كل آية) واضحة المدلول مقبولة لدى العقول لان سبب ايمانهم وهو تعلق ارادته تعالى به مفقود لكن فقد انه ليس لمنع منه سبحانه مع استحقاقهم له بل لسوء اختيارهم المتفرع على عدم استعدادهم لذلك (حتى يروا العذاب الاليم) كدأب آل فرعون واضرابهم (فلولا كانت) كلام مستأنف لتقرير ماسبق من استحالة ايمان من حقت عليهم كلمته تعالى لسوء اختيارهم مع تمكنهم من التدارك فيكون الاستثناء الآتى بيانا لكون قوم يونس عليه السلام ممن لم يحق عليه الكلمة لاهتدائهم الى التدارك فى وقته ولولا بمعنى هلا وقرئ كذلك اى فهلا كانت (قرية) من القرى المهلكة (آمنت) قبل معاينة العذاب ولم تؤخر ايمانها الى حين معاينته كما فعل فرعون وقومه (فنفعها ايمانها) بأن يقبله الله تعالى منها ويكشف بسببه العذاب عنها (الاقوم يونس) استثناء منقطع اى لكن

عيب ولا يحصل بسببه نقصان فاذا لم يستقبح منه ذلك فى حق نفسه فلان لا يستقبح من
غيره طلب الدلائل كان اولى فثبت ان المقصود بهذا الكلام استمالة القوم وازالة الحياء
عنهم فى تكثير المناظرات ( الوجه الخامس ) ان يكون التقدير انك لست شاكا البتة
ولو كنت شاكا لكان لك طرق كثيرة فى ازالة ذلك الشك كقوله تعالى لو كان فيهما آلهة
الا الله لفسدتا والمعنى انه لو فرض ذلك الممتنع واقعا لزم منه المحال الفلانى فكذا ههنا
ولو فرضنا وقوع هذا الشك فارجع الى التوراة والانجيل لتعرف بهما ان هذا الشك
زائل وهذه الشبهة باطلة ( الوجه السادس ) قال الزجاج ان الله خاطب الرسول فى قوله
فان كنت فى شك وهو شامل للخلق وهو كقوله يا أيها النبى اذا طلقتم النساء قال وهذا
أحسن الاقاويل قال القاضى هذا بعيد لانه متى كان الرسول داخلا تحت هذا
الخطاب فقد عاد السؤال سواء اريد معه غيره اولم يرد وان جاز أن يراد هو مع غيره
فما الذى يمنع ان يراد بانفراده كما يقتضيه الظاهر ثم قال ومثل هذا التأويل يدل على قلة
التحصيل ( الوجه السابع ) هو ان لفظ ان فى قوله ان كنت فى شك للنفى اى ما كنت
فى شك قبل يعنى لا نأمرك بالسؤال لانك شاك لكن لتزداد يقينا كما ازداد ابراهيم عليه
السلام بمعاينة احياء الموتى يقينا ( واما الوجه الثانى ) وهو ان يقال هذا الخطاب ليس
مع الرسول فتقريره ان الناس فى زمانه كانوا فرقا ثلاثة المصدقون به والمكذبون له
والمتوقفون فى امره الشاكون فيه فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب فقال ان كنت ايها
الانسان فى شك مما انزلنا اليك من الهدى على لسان محمد فاسأل اهل الكتاب ليدلوك
على صحة نبوته وانما وحد الله تعالى ذلك وهو يريد الجمع كما فى قوله يا أيها الانسان ماغرك
بربك الكريم الذى خلقك ويا أيها الانسان انك كادح وقوله فاذا مس الانسان ضر
ولم يرد فى جميع هذه الآيات انسانا بعينه بل المراد هو الجماعة فكذا ههنا ولما ذكر
الله تعالى لهم مايزيل ذلك الشك عنهم حذرهم من ان يلحقوا بالقسم الثانى وهم المكذبون
فقال ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ( المسئلة الثالثة )
اختلفوا فى ان المسؤل فى قوله فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من هم فقال المحققون هم
الذين آمنوا من اهل الكتاب كعبد الله بن سلام وعبد الله بن صوريا وتميم الدارى
وكعب الاحبار لانهم هم الذين يوثق بخبرهم ومنهم من قال الكل سواء كانوا من المسلمين
او من الكفار لانهم اذا بلغوا عدد التواتر ثم قرؤا آية من التوراة والانجيل وتلك
الآية دالة على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم فقد حصل الغرض فان قيل
اذا كان مذهبكم ان هذه الكتب قد دخلها التحريف والتغيير فكيف يمكن التعويل
عليها قلنا انهم انما حرفوها بسبب اخفاء الآيات الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة
والسلام فان بقيت فيها آيات دالة على نبوته كان ذلك من اقوى الدلائل على صحة نبوة محمد
عليه الصلاة والسلام لانها لما بقيت مع توفر دواعيهم على ازالتها دل ذلك على انها كانت

( فى غاية )

قوم يونس (لما آمنوا) اول مارأوا
امارة العذاب ولم يؤخروا الى
حلوله (كشفنا عنهم عذاب
الخزى فى الحيوة الدنيا ) بعد
ما اظلهم وكاد يحل بهم ويجوز
ان تكون الجملة فى معنى النفى
كما يفصح عنه حرف التحضيض
فيكون الاستثناء متصلا اذ المراد
بالقرى اهاليها كأنه قيل ما
آمنت طائفة من الامم العاصية
فنفعهم ايمانهم الا قوم يونس
عليه السلام فيكون قوله تعالى
لما آمنوا استئنافا للبيان نفع
ايمانهم ويؤيده قراءة الرفع
على البدلية ( ومتعناهم ) بمتاع
الدنيا بعد كشف العذاب عنهم
( الى حين ) مقدر لهم فى علم
الله سبحانه روى ان يونس عليه
السلام بعث الى نينوى من ارض
الموصل فكذبوه فذهب عنهم
مغاضبا فلما فقدوه خافوا نزول
العذاب فلبسوا المسوح وعجوا
اربعين ليلة وقيل قال لهم يونس
عليه السلام اجلكم اربعون ليلة
فقالوا ان رأينا اسباب الهلاك
آمنا بك فلما مضت خمس وثلاثون
اغامت السماء غيما اسود
هائلا يدخن دخانا شديدا ثم يهبط
حتى يغشى مدينتهم ويسود
سطوحهم فلبسوا المسوح وبرزوا
الى الصعيد بأنفسهم ونسائهم
وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين
النساء والصبيان وبين الدواب
واولادها فحن بعضها الى بعض
وعلت الاصوات والعجيج
واظهروا الايمان والتوبة
وتضرعوا الى الله تعالى فرحمهم
وكشف عنهم وكان ذلك يوم
عاشوراء يوم الجمعة

في غاية الظهور واما ان المقصود من ذلك السؤال معرفة اي الاشياء ففيه قولان (الاول) انه القرآن ومعرفة نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم (والثاني) انه رجع ذلك الى قوله تعالى فما اختلفوا حتى جاءهم العلم والاول أولى لانه هو الاهم والحاجة الى معرفته أتم واعلم انه تعالى لما بين هذا الطريق قال بعده لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله اي فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك وانتفاء التكذيب بآيات الله ويجوز ان يكون ذلك على طريق التهييج واظهار التشدد ولذلك قال عليه الصلاة والسلام عند نزوله لا أشك ولا أسأل بل اشهد انه الحق ثم قال ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين واعلم ان فرق المكلفين ثلاثة اما ان يكون من المصدقين بالرسول او من المتوقفين في صدقه او من المكذبين ولاشك ان امر المتوقف اسهل من امر المكذب لاجرم قدم ذكر المتوقف بقوله ولا تكونن من الممترين ثم اتبعه بذكر المكذب وبين انه من الخاسرين ثم انه تعالى لما فصل هذا التفصيل بين ان له عبادا قضى عليهم بالشقاء فلا يتغيرون وعبادا قضى لهم بالكرامة فلا يتغيرون فقال ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن عامر كلمات على الجمع وقرأ الباقون كلمة على لفظ الواحد واقول انها كلمات بحسب الكثرة النوعية او الصنفية وكلمة واحدة بحسب الوحدة الجنسية (المسئلة الثانية) المراد من هذه الكلمة حكم الله بذلك واخباره عنه وخلقه في العبد مجموع القدرة والداعية الذي هو موجب لحصول ذلك الاثر اما الحكم والاخبار والعلم فظاهر واما مجموع القدرة والداعي فظاهر ايضا لان القدرة لما كانت صالحة للطرفين لم يترجح احد الجانبين على الآخر الا لمرجح وذلك المرجح من الله تعالى قطعا للتسلسل وعند حصول هذا المجموع يجب الفعل وقد احتج اصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم في اثبات القضاء اللازم والقدر الواجب وهو حق وصدق ولا محيص عنه ثم قال تعالى ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم والمراد انهم لا يؤمنون البتة ولو جاءتهم الدلائل التي لا حد لها ولا حصر وذلك لان الدليل لا يهدى الا باعانة الله تعالى فاذا لم تحصل تلك الاعانة ضاعت تلك الدلائل (القصة الثالثة) من القصص المذكورة في هذه السورة قصة يونس عليه السلام * قوله تعالى (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين) اعلم انه تعالى لما بين من قبل ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم اتبعه بهذه الآية لانها دالة على ان قوم يونس آمنوا بعد كفرهم وانتفعوا بذلك الايمان وذلك يدل على ان الكفار فريقان منهم من حكم عليه بخاتمة الكفر ومنهم من حكم عليه بخاتمة الايمان وكل ما قضى الله به فهو واقع وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) في كلمة لولا في هذه الآية طريقان (الاولى) ان معناه النفي روى الواحدي في البسيط قال قال ابو مالك صاحب ابن عباس كل

وعن ابن مسعود رضي الله عنه بلغ من توبتهم ان ترادوا المظالم حتى ان الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه اساس بنائه فيرده الى صاحبه وقيل خرجوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى فقال لهم قولوا يا حي حين لا حي ويا حي محيي الموتى ويا حي لا اله الا انت فقالوها فكشف عنهم وعن الفضيل ابن عياض قالوا ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وانت اعظم منها واجل افعل بنا ما انت اهله ولا تفعل بنا ما نحن اهله (ولو شاء ربك لآمن من في الارض) تحقيق لدوران ايمان كافة المكلفين وجودا وعدما على قطب مشيئته تعالى مطلقا اثر بيان تبعية كفر الكفرة لكلمته ومفعول المشيئة محذوف لوجود ما يقتضيه من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء وان لا يكون في تعلقه به غرابة كما هو المشهور اي لو شاء سبحانه ايمان من في الارض من الثقلين لآمن (كلهم) بحيث لا يشذ عنهم احد (جميعا) مجتمعين على الايمان لا يختلفون فيه لكنه لا يشاؤه لكونه مخالفا للحكمة التي عليها بني اساس التكوين والتشريع وفيه دلالة على ان من شاء الله تعالى ايمانه يؤمن لا محالة (أفأنت تكره الناس) على ما لم يشأ الله منهم حسبما ينبئ عنه حرف الامتناع في الشرطية والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل اربك لا يشاء ذلك فانت تكرههم (حتى يكونوا مؤمنين) فيكون الانكار متوجها

ما في كتاب الله تعالى من ذكر لولا فمعناه هلا الاحرفين فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها معناه فما كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها وكذلك فلولا كان من القرون من قبلكم معناه فما كان من القرون فعلى هذا تقدير الآية فما كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس وانتصب قوله الا قوم يونس على انه استثناء منقطع عن الاول لان اول الكلام جرى على القرية وان كان المراد اهلها ووقع استثناء القوم من القرية فكان كقوله *ومابالربع من احد * الأواري وقرئ ايضا بالرفع على البدل (الطريق الثاني) ان لولا معناه هلا والمعنى هلا كانت قرية واحدة من القرى التي اهلكناها تابت عن الكفر واخلصت في الايمان قبل معاينة العذاب الا قوم يونس وظاهر اللفظ يقتضي استثناء قوم يونس من القرى الا ان المعنى استثناء قوم يونس من اهل القرى وهو استثناء منقطع بمعنى ولكن قوم يونس لما آمنوا فعلنا بهم كذا وكذا (المسئلة الثانية) روي ان يونس عليه السلام بعث الى نينوى من ارض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضبا فلما فقدوه خافوا نزول العقاب فلبسوا المسوح وعجوا اربعين ليلة وكان يونس قال لهم ان اجلكم اربعون ليلة فقالوا ان رأينا اسباب الهلاك آمنابك فلما مضت خمس وثلاثون ليلة ظهر في السماء غيم اسود شديد السواد فظهر منه دخان شديد وهبط ذلك الدخان حتى وقع في المدينة وسود سطوحهم فخرجوا الى الصحراء وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب واولادها فحن بعضها الى بعض فعلت الاصوات وكثرت التضرعات واظهروا الايمان والتوبة وتضرعوا الى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن ابن مسعود بلغ من توبتهم ان ردوا المظالم حتى ان الرجل كان يقلع الحجر بعد ان وضع عليه بناء اساسه فيرده الى مالكه وقيل خرجوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى فقال لهم قولوا ياحي حين لاحي وياحي يامحيي الموتى وياحي لااله الا انت فقالوا فكشف الله العذاب عنهم وعن الفضل بن عباس انهم قالوا اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وانت اعظم منها واجل افعل بنا ما انت اهله ولاتفعل بنا مانحن اهله (المسئلة الثالثة) ان قال قائل انه تعالى حكى عن فرعون انه تاب في آخر الامر ولم يقبل توبته وحكى عن قوم يونس انهم تابوا وقبل توبتهم فما الفرق (والجواب) ان فرعون انما تاب بعد ان شاهد العذاب واما قوم يونس فانهم تابوا قبل ذلك فانهم لما ظهرت لهم امارات دلت على قرب العذاب تابوا قبل ان شاهدوا فظهر الفرق * قوله تعالى (ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لايعقلون) اعلم ان هذه السورة من أولها الى هذا الموضع في بيان حكاية شبهات الكفار في انكار النبوة مع الجواب عنها وكانت احدى شبهاتهم ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يهددهم بنزول العذاب على الكافرين وبعد اتباعه ان الله ينصرهم ويعلي شانهم ويقوي جانبهم ثم ان الكفار ماراوا ذلك فجعلوا ذلك

(شبهة)

اول البيت الذي بعده اي اواخي

الى ترتيب الاكراه المذكور على عدم مشيئته تعالى ويجوز ان تكون الفاء لترتيب الافكار على عدم مشيئته تعالى بناء على ان الهمزة متأخرة في الاعتبار وانما قدمت لاقتضائها الصدارة كما هو رأي الجمهور وايا ما كان فالمشيئة على اطلاقها اذ لافائدة بل لاوجه لاعتبار عدم مشيئة الالجاء خاصة في انكار الترتيب عليه او ترتيب الانكار عليه وفي ايلاء الاسم حرف الاستفهام ايذان بان الاكراه امر ممكن لكن الشأن في المكره من هو وما هو الا هو وحده لايشارك فيه لانه القادر على ان يفعل في في قلوبهم مايضطرهم الى الايمان وذلك غير مستطاع للبشر وفيه ايذان باعتبار الالجاء في المشيئة كما اشير اليه (وما كان لنفس) بيان لتبعية ايمان النفوس المؤمنة لمشيئته تعالى وجودا بعد بيان الدوران الكلي عليها وجودا وعدما اي ماصح وما استقام لنفس من النفوس التي علم الله تعالى انها تؤمن (ان تؤمن الا باذن الله) اي بتسهيله ومنحه الالطاف وانما خصت النفس بمن ذكر ولم يجعل من قبيل قوله تعالى وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله لان الاستثناء مفرغ من اعم الاحوال اي ما كان لنفس ان تؤمن في حال من احوالها الا حال كونها ملابسة باذنه تعالى فلابد من كون الايمان مما يؤول اليه حالها كما ان الموت مآل لكل نفس بحيث لامحيص لها عنه فلابد من تخصيص النفس بمن ذكر فان النفوس التي علم الله انها لاتؤمن ليس لها حال

شبهة فى الطعن فى نبوته وكانوا يبالغون فى استعجال ذلك العذاب على سبيل السخرية ثم ان الله سبحانه وتعالى بين ان تأخير الموعود به لا يقدح فى صحة الوعد ثم ضرب لهذا امثلة وهى واقعة نوح وواقعة موسى عليهما السلام مع فرعون وامتدت هذه البيانات الى هذه المقامات ثم فى هذه الآية بين ان جدا الرسول فى دخولهم فى الايمان لا ينفع ومبالغته فى تقرير الدلائل وفى الجواب عن الشبهات لا تفيد لان الايمان لا يحصل الا بتخليق الله تعالى ومشيئته وارشاده وهدايته فاذا لم يحصل هذا المعنى لم يحصل الايمان وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج اصحابنا على صحة قولهم بان جميع الكائنات بمشيئة الله تعالى فقالوا كلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره فقوله ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا يقتضى انه ما حصلت تلك المشيئة وما حصل ايمان اهل الارض بالكلية فدل هذا على انه تعالى ما اراد ايمان الكل اجاب الجبائى والقاضى وغيرهما بأن المراد مشيئة الالجاء اى لو شاء الله ان يلجئهم الى الايمان لقدر عليه ولصح ذلك منه ولكنه ما فعل ذلك لان الايمان الصادر من العبد على سبيل الالجاء لا ينفعه ولا يفيده فائدة ثم قال الجبائى ومعنى الجاء الله تعالى اياهم الى ذلك ان يعرفهم اضطرارا انهم لو حاولوا تركه حال الله بينهم وبين ذلك وعند هذا لابد وان يفعلوا ما الجئوا اليه كما ان من علم منا انه ان حاول قتل ملك فانه يمنعه منه قهرا لم يكن تركه لذلك الفعل سببا لاستحقاق المدح والثواب فكذا ههنا واعلم ان هذا الكلام ضعيف وبيانه من وجوه (الاول) ان الكافر ان كان قادرا على الكفر فهل كان قادرا على الايمان او ما كان قادرا عليه فان قدر على الكفر ولم يقدر على الايمان فحينئذ تكون القدرة على الكفر مستلزمة للكفر فاذا كان خالق تلك القدرة هو الله تعالى لزم ان يقال انه تعالى خلق فيه قدرة مستلزمة للكفر فوجب ان يقال انه اراد منه الكفر واما ان كانت القدرة صالحة للضدين كما هو مذهب القوم فرجحان احد الطرفين على الآخر ان لم يتوقف على المرجح فقد حصل الرجحان لا لمرجح وهذا باطل وان توقف على مرجح فذلك المرجح اما ان يكون من العبد او من الله تعالى فان كان من العبد عاد التقسيم فيه ولزم التسلسل وهو محال وان كان من الله تعالى فحينئذ يكون مجموع تلك القدرة مع تلك الداعية موجبا لذلك الكفر فاذا كان خالق القدرة والداعية هو الله تعالى فحينئذ عاد الالزام (الثانى) ان قوله ولو شاء ربك لا يجوز حمله على مشيئة الالجاء لان النبى صلى الله عليه وسلم ما كان يطلب ان يحصل لهم ايمان لا يفيدهم فى الآخرة فبين تعالى انه لا قدرة للرسول على تحصيل هذا الايمان ثم قال ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا فوجب ان يكون المراد من الايمان المذكور فى هذه الآية هو هذا الايمان النافع حتى يكون الكلام منتظما فاما حمل اللفظ على مشيئة القهر والالجاء فانه لا يليق بهذا الموضع (الثالث) المراد بهذا الالجاء اما ان يكون هو ان يظهر له آيات هائلة يعظم خوفه عند رؤيتها ثم يأتى بالايمان عندها واما ان يكون المراد خلق الايمان فيهم والاول باطل لانه تعالى

---

تؤمن فيها حتى يستثنى تلك الحال من غيرها (ويجعل الرجس) اى الكفر بقرينة ما قبله عبر عنه بالرجس الذى هو عبارة عن القبيح المستقذر المستكره لكونه علما فى القبح والاستكراه وقيل هو العذاب او الخذلان لان المؤدى اليه وقرئ بنون العظمة وقرئ بالزاى اى يجعل الكفر ويبقيه (على الذين لا يعقلون) لا يستعملون عقولهم بالنظر فى الحجج والآيات او لا يعقلون دلائله واحكامه لما على قلوبهم من الطبع فلا يحصل لهم الهداية التى عبر عنها بالاذن فيبقون مغمورين بقبائح الكفر والضلال او مقهورين بالعذاب والنكال والجملة معطوفة على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم كأنه قيل فيأذن لهم بمنح الالطاف ويجعل الخ (قل) مخاطبا لاهل مكة بعث الهم على التدبر فى ملكوت السموات والارض وما فيهما من تعاجيب الآيات الانفسية والآفاقية ليتضح لك انهم من الذين لا يعقلون وحقت عليهم الكلمة (انظروا) اى تفكروا وقرئ بنقل حركة الهمزة الى لام قل (ماذا فى السموات والارض) أى اى شئ بديع فيهما من عجائب صنعه الدالة على وحدته وكمال قدرته على ان ماذا جعل بالتركيب اسما واحدا مغلبا فيه الاستفهام على اسم الاشارة فهو مبتدأ خبره الظرف ويجوز ان يكون ما مبتدأ وذا بمعنى الذى والظرف صلته والجملة خبر للمبتدأ وعلى التقديرين فالمبتدأ والخبر فى محل النصب باسقاط الخافض وفعل النظر معلق

بين فيماقبل هذه الآية ان انزال هذه الآيات لايفيد وهو قوله ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم وقال ايضا ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله وان كان المراد هو الثاني لم يكن هذا الجاء الى الايمان بل كان ذلك عبارة عن خلق الايمان فيهم ثم يقال لكنه ما خلق الايمان فيهم فدل على انه ما اراد حصول الايمان لهم وهذا عين مذهبنا واعلم انه تعالى لما ذكر هذا الكلام قال أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين والمعنى انه لاقدرة لك على التصرف في احد والمقصود منه بيان ان القدرة القاهرة والمشيئة النافذة ليست الا للحق سبحانه وتعالى (المسئلة الثانية) احتج اصحابنا على صحة قولهم انه لا حكم للاشياء قبل ورود الشرع بقوله وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله قالوا وجه الاستدلال به ان الاذن عبارة عن الاطلاق في الفعل ورفع الحرج وصريح هذه الآية يدل على انه قبل حصول هذا المعنى ليس له ان يقدم على هذا الايمان ثم قالوا والذي يدل عليه من جهة العقل وجوه (الاول) ان معرفة الله تعالى والاشتغال بشكره والثناء عليه لا يدل العقل على حصول نفع فيه فوجب ان لا يجب ذلك بحسب العقل بيان الاول ان ذلك النفع اما ان يكون عائدا الى المشكور أو الى الشاكر والاول باطل لان في الشاهد المشكور ينتفع بالشكر فيسره الشكر ويسوءه الكفران فلا جرم كان الشكر حسنا والكفران قبيحا اما الله سبحانه فانه لا يسره الشكر ولا يسوءه الكفران فلا ينتفع بهذا الشكر اصلا (والثاني) ايضا باطل لان الشاكر يتعب في الحال بذلك الشكر ويبذل الخدمة مع ان المشكور لا ينتفع به البتة ولا يمكن ان يقال ان ذلك الشكر علة الثواب لان الاستحقاق على الله تعالى محال فان الاستحقاق على الغير انما يعقل اذا كان ذلك الغير بحيث لو لم يعط لاوجب امتناعه من اعطاء ذلك الحق حصول نقصان في حقه ولما كان الحق سبحانه منزها عن النقصان والزيادة لم يعقل ذلك في حقه فثبت ان الاشتغال بالايمان وبالشكر لا يفيد نفعا بحسب العقل المحض وما كان كذلك امتنع ان يكون العقل موجبا له فثبت بهذا البرهان القاطع صحة قوله تعالى وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله قال القاضي المراد ان الايمان لا يصدر عنه الا بعلم الله او بتكليفه او باقداره عليه وجوابنا ان حمل الاذن على ما ذكرتم ترك للظاهر وذلك لا يجوز لا سيما وقد بينا ان الدليل القاطع العقلي يقوى قولنا (المسئلة الثالثة) قرأ أبو بكر عن عاصم ونجعل بالنون وقرأ الباقون بالياء كناية عن اسم الله تعالى (المسئلة الرابعة) احتج اصحابنا على صحة قولهم بان خالق الكفر والايمان هو الله تعالى بقوله تعالى ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون وتقريره ان الرجس قد يراد به العمل القبيح قال تعالى انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا والمراد من الرجس ههنا العمل القبيح سواء كان كفرا او معصية وبالتطهير نقل العبد من رجس الكفر والمعصية الى طهارة الايمان والطاعة فلما ذكر الله تعالى فيما قبل هذه الآية

(ان)

بالاستفهام (وما تغني) اى ماتنفع وقرئ بالتذكير (الآيات) وهي التي عبر عنها بقوله تعالى ماذا في السموات والارض (والنذر) جمع نذير على انه فاعل بمعنى منذر اوعلى انه مصدر اى لا تنفع الآيات والرسل المنذرون او الانذارات (عن قوم لا يؤمنون) في علم الله تعالى وحكمه فما نافية والجملة اما حالية اواعتراضية ويجوز كون ما استفهامية انكارية في موضع النصب على المصدرية أى اى اغناء تغني الخ فالجملة حينئذ اعتراضية (فهل ينتظرون) اى مشركو مكة واضرابهم (الا مثل ايام الذين خلوا) اى الا يوما مثل ايام الذين خلوا (من قبلهم) من مشركي الامم الماضية اى مثل وقائعهم ونزول بأس الله بهم اذ لا يستحقون غيره من قولهم ايام العرب لوقائعها (قل) تهديدا لهم (فانتظروا) ماهو عاقبتكم (اني معكم من المنتظرين) لذلك (ثم ننجي رسلنا) بالتشديد وقرئ بالتخفيف وهو عطف على مقدر يدل عليه قوله مثل ايام الذين خلوا وما بينهما اعتراض جيء به مسارعة الى التهديد ومبالغة في تشديد الوعيد كأنه قيل اهلكنا الامم ثم نجينا رسلنا المرسلة اليهم (والذين آمنوا) وصيغة الاستقبال لحكاية الاحوال الماضية لتهويل امرها باستحضار صورها وتأخير حكاية التنجية عن حكاية الاهلاك على عكس ما في قوله تعالى فنجيناه ومن معه في الفلك الخ ونظائره الواردة في مواقع عديدة ليتصل به قوله عز وجل (كذلك) اى مثل ذلك الانجاء (حقا علينا)

ان الايمان لايحصل الا بمشيئة الله تعالى وتخليقه ذكر بعده ان الرجس لايحصل الا بتخليقه وتكوينه والرجس الذى يقابل الايمان ليس الا الكفر فثبت دلالة هذه الآية على ان الكفر والايمان من الله تعالى اجاب ابو على الفارسى النحوى عنه فقال الرجس يحتمل وجهين آخرين (احدهما) ان يكون المراد منه العذاب فقوله ويجعل الرجس على الذين لايعقلون اى يلحق العذاب بهم كما قال ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات (والثانى) انه تعالى يحكم عليهم بانهم رجس كما قال انما المشركون نجس والمعنى ان الطهارة الثابتة للمسلمين لم تحصل لهم والجواب انا قد بينا بالدليل العقلى ان الجهل لايمكن ان يكون فعلا للعبد لانه لايريده ولايقصد الى تكوينه وانما يريد ضده وانما قصد الى تحصيل ضده فلو كان به لماحصل الا ماقصده واوردنا السؤالات على هذه الحجة وأجبنا عنها فيما سلف من هذا الكتاب واما حمل الرجس على العذاب فهو باطل لان الرجس عبارة عن الفاسد المستقذر المستكره فحمل هذا اللفظ على جهلهم وكفرهم أولى من حمله على عذاب الله مع كونه حقا صدقا صوابا واما حمل لفظ الرجس على حكم الله برجاستهم فهو فى غاية البعد لان حكم الله تعالى بذلك صفته فكيف يجوز ان يقال ان صفة الله رجس فثبت ان الحجة التى ذكرناها ظاهرة ❊ قوله تعالى (قل انظروا ماذا فى السموات والارض وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم وحمزة قل انظروا بكسر اللام لالتقاء الساكنين والاصل فيه الكسر والباقون بضمها نقلوا حركة الهمزة الى اللام (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى لما بين فى الآيات السالفة ان الايمان لايحصل الا بتخليق الله تعالى ومشيئته امر بالنظر والاستدلال فى الدلائل حتى لايتوهم ان الحق هو الجبر المحض فقال قل انظروا ماذا فى السموات والارض واعلم ان هذا يدل على مطلوبين (الاول) انه لاسبيل الى معرفة الله تعالى الا بالتدبر فى الدلائل كما قال عليه الصلاة والسلام تفكروا فى الخلق ولاتتفكروا فى الخالق (والثانى) وهو ان الدلائل اما ان تكون من عالم السموات او من عالم الارض اما الدلائل السماوية فهى حركات الافلاك ومقاديرها واوضاعها ومافيها من الشمس والقمر والكواكب ومايختص به كل واحد منها من المنافع والفوائد واما الدلائل الارضية فهى النظر فى احوال العناصر العلوية وفى احوال المعادن واحوال النبات واحوال الانسان خاصة ثم ينقسم كل واحد من هذه الاجناس الى انواع لانهاية لها ولو ان الانسان اخذ يتفكر فى كيفية حكمة الله سبحانه فى تخليق جناح بعوضة لانقطع عقله قبل ان يصل الى أقل مرتبة من مراتب تلك الحكم والفوائد ولاشك ان الله سبحانه اكثر من ذكر هذه الدلائل فى القرآن المجيد فلهذا السبب ذكر قوله قل انظروا ماذا فى السموات والارض ولم يذكر التفصيل فكأنه تعالى نبه على القاعدة الكلية حتى ان العاقل يتنبه لاقسامها وحينئذ يشرع فى تفصيل حكمة كل واحد منها بقدر القوة العقلية البشرية ثم

---

اعتراض بين العامل والمعمول اى حق ذلك حقا وقيل بدل من المحذوف الذى ناب عنه كذلك اى انجاء مثل ذلك حقا والكاف متعلقة بقوله تعالى (ننجى المؤمنين) اى من كل شدة وعذاب والجملة تذييل لماقبلها مقرر لمضمونه والمراد بالمؤمنين اما الجنس المتناول للرسل عليهم السلام والاتباع واما الاتباع فقط وانما لم يذكر انجاء الرسل ايذانا بعدم الحاجة اليه وايا ما كان ففيه تنبيه على ان مدار النجاة هو الايمان (قل) لجمهور المشركين (ياأيها الناس) اوثر الخطاب باسم الجنس مصدرا بحرف التنبيه تعميما للتبليغ واظهارا لكمال العناية بشأن مابلغ اليهم (ان كنتم فى شك من دينى) الذى اتعبد الله عز وجل به وادعوكم اليه ولم تعلموا ماهو وما صفته (فلا اعبد الذين تعبدون من دون الله) فى وقت من الاوقات (ولكن اعبد الله الذى يتوفاكم) ثم يفعل بكم مايفعل من فنون العذاب اى فاعلموا انه تخصيص العبادة به ورفض عبادة ماسواه من الاصنام وغيرها مما تعبدونه جهلا وتقديم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى لتقدم التخلية على التحلية كما فى كلمة التوحيد وللايذان بالمخالفة من اول الامر او ان كنتم فى شك من صحة دينى وسداده فاعلموا ان خلاصته اخلاص العبادة لمن بيده الايجاد والاعدام دون ماهو بمعزل منهما من الاصنام فاعرضوها على عقولكم واجيلوا فيها افكاركم وانظروا فيها بعين الانصاف لتعلموا انه حق لاريب فيه وفى تخصيص التوفى بالذكر متعلقا بهم

انه تعالى لما امر بهذا التفكر والتأمل بين بعد ذلك ان هذا التفكر والتدبر فى هذه الآيات لا ينفع فى حق من حكم الله تعالى عليه فى الازل بالشقاء والضلال فقال وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال النحويون ما فى هذا الموضع يحتمل وجهين (الاول) ان تكون نفيا بمعنى ان هذه الآيات والنذر لا تفيد الفائدة فى حق من حكم الله عليه بانه لا يؤمن كقولك ما يغنى عنك المال اذا لم تنفق (والثانى) ان تكون استفهاما كقولك اى شئ يغنى عنهم وهو استفهام بمعنى الانكار (المسئلة الثانية) الآيات هى الدلائل والنذر الرسل المنذرون أو الانذارات (المسئلة الثالثة) قرئ وما يغنى بالياء من تحت ❊ قوله تعالى (فهل ينتظرون الا مثل ايام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين) واعلم ان المعنى هل ينتظرون الا أياما مثل أيام الامم الماضية والمراد ان الانبياء المتقدمين عليهم السلام كانوا يتوعدون كفار زمانهم بمجئ أيام مشتملة على انواع العذاب وهم كانوا يكذبون بها ويستعجلونها على سبيل السخرية وكذلك الكفار الذين كانوا فى زمان الرسول عليه الصلاة والسلام هكذا كانوا يفعلون ثم انه تعالى أمره بان يقول لهم فانتظروا انى معكم من المنتظرين ثم انه تعالى قال ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الكسائى فى رواية نصير ننجى خفيفة وقرأ الباقون مشددة وهما لغتان وكذلك فى قوله ننجى المؤمنين (المسئلة الثانية) ثم حرف عطف وتقدير الكلام كانت عادتنا فيما مضى ان نهلكهم سريعا ثم ننجى رسلنا (المسئلة الثالثة) لما أمر الرسول فى الآية الاولى ان يوافق الكفار فى انتظار العذاب ذكر التفصيل فقال العذاب لا ينزل الا على الكفار واما الرسول واتباعه فهم اهل النجاة ثم قال كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف أى مثل ذلك الانجاء ننصر المؤمنين ونهلك المشركين وحقا علينا اعتراض يعنى حق ذلك علينا حقا (المسئلة الثانية) قال القاضى قوله حقا علينا المراد به الوجوب لان تخليص الرسول والمؤمنين من العذاب الى الثواب واجب ولولاه لما حسن من الله تعالى ان يلزمهم الافعال الشاقة واذا ثبت وجوبه لهذا السبب جرى مجرى قضاء الدين للسبب المتقدم والجواب انا نقول انه حق بسبب الوعد والحكم ولا نقول انه حق بسبب الاستحقاق لما ثبت ان العبد لا يستحق على خالقه شيئا ❊ قوله تعالى (قل يا أيها الناس ان كنتم فى شك من دينى فلا اعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن اعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت ان اكون من المؤمنين وان أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك اذا من الظالمين) واعلم انه تعالى لما ذكر الدلائل على اقصى الغايات وابلغ النهايات امر رسوله باظهار دينه وباظهار المباينة عن المشركين لكى تزول الشكوك والشبهات فى امره وتخرج عبادة الله من طريقة السر الى الاظهار فقال

(قل)

ما لا يخفى من التهديد والتعبير عما هم فيه بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة للايذان بأن اقصى ما يمكن عروضه للعاقل فى هذا الباب هو الشك فى صحته واما القطع بعدمها فما لا سبيل اليه اوان كنتم فى شك من ثباتى على الدين فاعلموا انى لا اتركه ابدا (وامرت ان اكون من المؤمنين) بما دل عليه العقل ونطق به الوحى وهو تصريح بأن ما هو عليه من دين التوحيد ليس بطريق العقل الصرف بل بالامداد السماوى والتوفيق الالهى وحذف حرف الجر من ان يجوز ان يكون من باب الحذف المطرد مع ان وان وان يكون خاصا بفعل الامر كما فى قوله
❊امرتك الخير فافعل ما امرت به❊
(وان اقم وجهك للدين) عطف على ان اكون خلا ان صلة ان محكية بصيغة الامر ولا ضير فى ذلك لان مناط جواز وصلها بصيغ الافعال دلالتها على المصدر وذلك لا يختلف بالخبرية والطلبية ووجوب كون الصلة خبرية فى الموصول الاسمى انما هو للتوصل الى وصف المعارف بالجمل وهى لا توصف الا بالجمل الخبرية وليس الموصول الحرفى كذلك اى وامرت بالاستقامة فى الدين والاستبداد فيه بأداء المأمور به والانتهاء عن المنهى عنه وباستقبال القبلة فى الصلاة وعدم الالتفات الى اليمين والشمال (حنيفا) حال من الدين او الوجه اى مائلا عن الاديان الباطلة (ولا تكونن من المشركين) عطف على اقم داخل تحت الامر اى لا تكونن منهم اعتقادا ولا عملا وقوله عز وعلا

قل ياأيها الناس ان كنتم فى شك من دينى واعلم ان ظاهر هذه الآية يدل على ان هؤلاء الكفار ما كانوا يعرفون دين رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى الخبر انهم كانوا يقولون فيه قد صبأ أو هو صابئ فأمر الله تعالى ان يبين لهم انه على دين ابراهيم حنيفا مسلما لقوله تعالى ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولقوله وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا ولقوله لا اعبد ما تعبدون والمعنى انكم ان كنتم لا تعرفون دينى فأنا أبينه لكم على سبيل التفصيل ثم ذكر فيه أمورا (فالقيد الاول) قوله فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله وانما وجب تقديم هذا النفى لما ذكرنا ان ازالة النقوش الفاسدة عن اللوح لابد وان تكون مقدمة على اثبات النقوش الصحيحة فى ذلك اللوح وانما وجب هذا النفى لان العبادة غاية التعظيم وهى لا تليق الا بمن حصلت له غاية الجلال والاكرام واما الاوثان فانها أحجار والانسان اشرف حالا منها وكيف يليق بالاشرف ان يشتغل بعبادة الاخس (القيد الثانى) قوله ولكن اعبد الله الذى يتوفاكم والمقصود انه لما بين انه يجب ترك عبادة غير الله بين انه يجب الاشتغال بعبادة الله فان قيل ما الحكمة فى ذكر المعبود الحق فى هذا المقام بهذه الصفة وهى قوله الذى يتوفاكم قلنا فيه وجوه (الاول) يحتمل ان يكون المراد انى اعبد الله الذى خلقكم أولا ثم يتوفاكم ثانيا ثم يعيدكم ثالثا وهذه المراتب الثلاث قد قررناها فى القرآن مرارا واطوارا فههنا اكتفى بذكر التوفى منها لكونه منبها على البواقى (الثانى) ان الموت اشد الاشياء مهابة فخص هذا الوصف بالذكر فى هذا المقام ليكون اقوى فى الزجر والردع (الثالث) انهم لما استعجلوا نزول العذاب قال تعالى فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا فهذه الآية تدل على انه تعالى يهلك اولئك الكفار ويبقى المؤمنين ويقوى دولتهم فلما كان قريب العهد بذكر هذا الكلام لا جرم قال ههنا ولكن اعبد الله الذى يتوفاكم وهو اشارة الى ما قرره وبينه فى تلك الآية كأنه يقول اعبد ذلك الذى وعدنى باهلاككم وبابقائى (والقيد الثالث) من الامور المذكورة فى هذه الآية قوله وأمرت ان اكون من المؤمنين واعلم انه لما ذكر العبادة وهى من جنس اعمال الجوارح انتقل منها الى الايمان والمعرفة وهذا يدل على انه ما لم يصر الظاهر مزينا بالاعمال الصالحة فانه لا يحصل فى القلب نور الايمان والمعرفة (والقيد الرابع) قوله وأن أقم وجهك للدين حنيفا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الواو فى قوله وأن أقم وجهك حرف عطف وفى المعطوف عليه وجهان (الاول) ان قوله وامرت ان اكون قائم مقام قوله وقيل لى كن من المؤمنين ثم عطف عليه وأن أقم وجهك (الثانى) ان قوله وأن أقم وجهك قائم مقام قوله وأمرت باقامة الوجه فصار التقدير وأمرت بأن اكون من المؤمنين وباقامة الوجه للدين حنيفا (المسئلة الثانية) اقامة الوجه كناية عن توجيه العقل بالكلية الى طلب الدين لان من يريد ان ينظر الى شئ نظرا بالاستقصاء فانه يقيم وجهه فى مقابلته بحيث

(ولا تدع) عطف على قوله تعالى قل ياأيها الناس غير داخل تحت الامر وقيل على ما قبله من النهى والوجه هو الاول لان ما بعده من الجمل الى آخر الآيتين متسقة لا يمكن فصل بعضها عن بعض كما ترى ولا وجه لادراج الكل تحت الامر وهو تأكيد للنهى المذكور وتفصيل لما اجمل فيه اظهارا لكمال العناية بالامر وكشفا عن وجه بطلان ما عليه المشركون اى لا تدع (من دون الله) استقلالا ولا اشتراكا (ما لا ينفعك) اذا دعوته بدفع مكروه اوجلب محبوب (ولا يضرك) اذا تركته بسلب المحبوب دفعا اورفعا اوبايقاع المكروه وتقديم النفع على الضرر غنى عن بيان السبب (فان فعلت) اى ما نهيت عنه من دعاء ما لا ينفع ولا يضر كنى به عنه تنويها لشأنه عليه السلام وتنبيها على رفعة مكانه من ان ينسب اليه عبادة غير الله سبحانه ولو فى ضمن الجملة الشرطية (فانك اذا من الظالمين) جزاء للشرط وجواب لسؤال من يسأل عن تبعة ما نهى عنه (وان يمسسك الله بضر) تقرير لما اورد فى حيز الصلة من سلب النفع من الاصنام وتصوير لاختصاصه به سبحانه (فلا كاشف له) عنك كائنا من كان وما كان (الا هو) وحده فيثبت عدم كشف الاصنام بالطريق البرهانى وهو بيان لعدم النفع برفع المكروه المستلزم لعدم النفع بجلب المحبوب استلزاما ظاهرا فان رفع المكروه ادنى مراتب النفع فاذا انتفى انتفى النفع بالكلية (وان يردك بخير) تحقيق لسلب الضرر الوارد

لا يصرفه عنه لا بالقليل ولا بالكثير لانه لو صرفه عنه ولو بالقليل فقد بطلت تلك المقابلة واذا بطلت تلك المقابلة فقد اختل الابصار فلهذا السبب حسن جعل اقامة الوجه للدين كناية عن صرف العقل بالكلية الى طلب الدين وقوله حنيفا أي مائلا اليه ميلا كليا معرضا عما سواه اعراضا كليا وحاصل هذا الكلام هو الاخلاص التام وترك الالتفات الى غيره فقوله أولا وأمرت ان اكون من المؤمنين اشارة الى تحصيل اصل الايمان وقوله وان أقم وجهك للدين حنيفا اشارة الى الاستغراق في نور الايمان والاعراض بالكلية عما سواه (والقيد الخامس) قوله ولا تكونن من المشركين واعلم انه لا يمكن ان يكون هذا نهيا عن عبادة الاوثان لان ذلك صار مذكورا بقوله تعالى في هذه الآية فلا اعبد الذين تعبدون من دون الله فوجب حمل هذا الكلام على فائدة زائدة وهو ان من عرف مولاه فلو التفت بعد ذلك الى غيره كان ذلك شركا وهذا هو الذي تسميه اصحاب القلوب بالشرك الخفي (والقيد السادس) قوله تعالى ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك والممكن لذاته معدوم بالنظر الى ذاته وموجود بايجاد الحق واذا كان كذلك فما سوى الحق فلا وجود له الا بايجاد الحق وعلى هذا التقدير فلا نافع الا الحق ولا ضار الا الحق فكل شيء هالك الا وجهه واذا كان كذلك فلا حكم الا لله ولا رجوع في الدارين الا الى الله ثم قال في آخر الآية فان فعلت فانك اذا من الظالمين يعني لو اشتغلت بطلب المنفعة والمضرة من غير الله فأنت من الظالمين لان الظلم عبارة عن وضع الشيء في غير موضعه فاذا كان ماسوى الحق معزولا عن التصرف كانت اضافة التصرف الى ماسوى الحق وضعا للشيء في غير موضعه فيكون ظلما فان قيل فطلب الشبع من الاكل والري من الشرب هل يقدح في ذلك الاخلاص قلنا لا لان وجود الخبز وصفاته كلها بايجاد الله وتكوينه وطلب الانتفاع بشيء خلقه الله للانتفاع به لا يكون منافيا للرجوع بالكلية الى الله الا ان شرط هذا الاخلاص ان لا يقع بصر عقله على شيء من هذه الموجودات الا ويشاهد بعين عقله انها معدومة بذواتها وموجودة بايجاد الحق وهالكة بأنفسها وباقية بابقاء الحق فحينئذ يرى ماسوى الحق عدما محضا بحسب أنفسها ويرى نور وجوده وفيض احسانه عاليا على الكل * قوله تعالى (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه سبحانه وتعالى قرر في آخر هذه السورة ان جميع الممكنات مستندة اليه وجميع الكائنات محتاجة اليه والعقول والهة فيه والرحمة والجود والوجود فائض منه واعلم ان الشيء اما ان يكون ضارا واما ان يكون نافعا واما ان يكون لا ضارا ولا نافعا وهذان القسمان مشتركان في اسم الخير ولما كان الضر أمرا وجوديا لا جرم قال فيه وان يمسسك الله بضر ولما كان الخير قد يكون وجوديا وقد يكون عدميا لا جرم لم يذكر لفظ الامساس فيه بل قال وان يردك بخير والآية دالة على ان الضر والخير واقعان بقدرة الله

(تعالى)

في حيز الصلة اى ان يردان يصيبك بخير (فلا راد لفضله) الذي من جملته ما ارادك به من الخير فهو دليل على جواب الشرط لا نفس الجواب وفيه ايذان بأن فيضان الخير منه تعالى بطريق التفضل من غير استحقاق عليه سبحانه اى لا احد يقدر على رده كائنا ما كان فيدخل فيه الاصنام دخولا اوليا وهو بيان لعدم ضرها بدفع المحبوب قبل وقوعه المستلزم لعدم ضرها برفعه او بايقاع المكروه استلزاما جليا ولعل ذكر الارادة مع الخير والمس مع الضر مع تلازم الامرين للايذان بأن الخير مراد بالذات وان الضر انما يمس من يمسه لما يوجبه من الدواعي الخارجية لا بالقصد الاولي اواريد معنى الفعلين في كل من الضر والخير وانه لاراد لما يريد منهما ولا مزيل لما يصيب به منهما فأوجز الكلام بأن ذكر في احدهما المس وفي الآخر الارادة ليدل بما ذكر في كل جانب على ماترك في الجانب الآخر على انه قد صرح بالاصابة حيث قيل (يصيب به) اظهارا لكمال العناية بجانب الخير كما ينبئ عنه ترك الاستثناء فيه اى يصيب بفضله الواسع المنتظم لما ارادك به من الخير وجعل الفضل عبارة عن ذلك الخير بعينه على ان يكون من باب وضع المظهر في موضع المضمر لما ذكر من الفائدة يأباه قوله عزوجل (من يشاء من عباده) فان ذلك ينادي بعموم الفضل وقوله عز قائلا (وهو الغفور الرحيم) تذييل لقوله تعالى يصيب به الخ مقرر لمضمونه والكل تذييل للشرطية الاخيرة محقق لمضمونها

تعالى وبقضائه فيدخل فيه الكفر والايمان والطاعة والعصيان والسرور والآفات والخيرات والآلام واللذات والراحات والجراحات فبين سبحانه وتعالى انه ان قضى لاحد شرا فلا كاشف له الا هو وان قضى لاحد خيرا فلا راد لفضله البتة ثم فى الآية دقيقة اخرى وهى انه تعالى رجح جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة اوجه (الاول) انه تعالى لما ذكر امساس الضر بين انه لا كاشف له الا هو وذلك يدل على انه تعالى يزيل المضار لان الاستثناء من النفى اثبات ولما ذكر الخير لم يقل بأنه يدفعه بل قال انه لاراد لفضله وذلك يدل على ان الخير مطلوب بالذات وان الشر مطلوب بالعرض كما قال النبى صلى الله عليه وسلم رواية عن رب العزة انه قال سبقت رحمتى غضبى (الثانى) انه تعالى قال فى صفة الخير يصيب به من يشاء من عباده وذلك يدل على ان جانب الخير والرحمة اقوى واغلب (والثالث) انه قال وهو الغفور الرحيم وهذا ايضا يدل على قوة جانب الرحمة وحاصل الكلام فى هذه الآية انه سبحانه وتعالى بين انه منفرد بالخلق والايجاد والتكوين والابداع وانه لا موجد سواه ولا معبود الا اياه ثم نبه على ان الخير مراد بالذات والشر مراد بالعرض وتحت هذا الباب اسرار عميقة فهذا مانقوله فى هذه الآية (المسئلة الثانية) قال المفسرون انه تعالى لما بين فى الآية الاولى فى صفة الاصنام انها لا تضر ولا تنفع بين فى هذه الآية انها لا تقدر ايضا على دفع الضرر الواصل من الغير وعلى دفع الخير الواصل من الغير قال ابن عباس رضى الله عنهما ان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو يعنى بمرض وفقر فلا دافع له الا هو واما قوله وان يردك بخير فقال الواحدى هو من المقلوب معناه وان يرد بك الخير ولكنه لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز ابدال كل واحد منهما بالآخر واقول التقديم فى اللفظ يدل على زيادة العناية فقوله وان يردك بخير يدل على ان المقصود هو الانسان وسائر الخيرات مخلوقة لاجله فهذه الدقيقة لا تستفاد الا من هذا التركيب

* قوله تعالى (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما انا عليكم بوكيل) واعلم انه تعالى لما قرر الدلائل المذكورة فى التوحيد والنبوة والمعاد وزين آخر هذه السورة بهذه البيانات الدالة على كونه تعالى مستبدا بالخلق والابداع والتكوين والاختراع ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية وفى تفسيرها وجهان (الاول) انه من حكم له فى الازل بالاهتداء فسيقع له ذلك ومن حكم له بالضلال فكذلك ولا حيلة فى دفعه (الثانى) وهو الكلام اللائق بالمعتزلة قال القاضى انه تعالى بين انه اكمل الشريعة وازاح العلة وقطع المعذرة فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما انا عليكم بوكيل فلا يجب على من السعى فى ايصالكم الى الثواب العظيم وفى تخليصكم من العذاب الاليم ازيد مما فعلت قال ابن عباس هذه الآية منسوخة بآية القتال ثم انه تعالى ختم هذه الخاتمة بخاتمة اخرى لطيفة فقال (واتبع مايوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) والمعنى انه تعالى امره

(قل) مخاطبا لاولئك الكفرة بعدما بلغتهم ما اوحى اليك (يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم) وهو القرآن العظيم المشتمل على محاسن الاحكام التى من جملتها ما مر آنفا من اصول الدين واطلعتم على ما فى تضاعيفه من البينات والهدى ولم يبق لكم عذر (فمن اهتدى) بالايمان به والعمل بما فى مطاويه (فانما يهتدى لنفسه) اى منفعة اهتدائه لها خاصة (ومن ضل) بالكفر به والاعراض عنه (فانما يضل عليها) اى فوبال الضلال مقصور عليها والمراد تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد اليه عليه السلام من جلب نفع او ضر كما يلوح به اسناد المجئ الى الحق من غير اشعار بكون ذلك بواسطته (وما انا عليكم بوكيل) بحفيظ موكول الى امركم وانما انا بشير ونذير (واتبع) اعتقادا وعملا وتبليغا (ما يوحى اليك) على نهج التجدد والاستمرار من الحق المذكور المتأكد يوما فيوما وفى التعبير عن بلوغه اليهم بالمجئ واليه عليه السلام بالوحى تنبيه على ما بين المرتبتين من التنائى (واصبر) على ما يعتريك من مشاق التبليغ (حتى يحكم الله) بالنصرة عليهم او بالامر بالقتال (وهو خير الحاكمين) اذ لا يمكن الخطأ فى حكمه لاطلاعه على السرائر اطلاعه على الظواهر * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة يونس اعطى له من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بيونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون والحمد لله وحده

( سورة هود عليه السلام مكية وهى مائة وثلاث وعشرون آية ) ( بسم الله الرحمن الرحيم ) ( الر ) محله الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف وقيل على انه مبتدأ والاول هو الاظهر كما اشير اليه فى سورة ( ٥٠ ) يونس او النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اذكر او اقرأ على تقدير كونه اسما للسورة على ما عليه اطباق الاكثر او لا محل له من الاعراب مسرود على نمط التعديد حسبما فصل فى اخواته وقوله تعالى ( كتاب ) خبر له على الوجه الثانى ولمبتدأ محذوف على الوجوه الباقية ( احكمت آياته ) نظمت نظما متقنا لا يعتريه خلل بوجه من الوجوه او جعلت حكيمة لانطوائها على جلائل الحكم البالغة ودقائقها او منعت من النسخ بمعنى التغيير مطلقا او ايدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند الله عز وجل او على ثبوت مدلولاتها فالمراد بالآيات جميعها او على حقيقة ما تشتمل عليه من الاحكام الشرعية فالمراد بها بعضها المشتمل عليها كما اذا فسر الاحكام بالمنع من النسخ بمعنى تبديل الحكم الشرعى خاصة واما تفسيره بالمنع من الفساد اخذا من قولهم احكمت الدابة اذ وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح ففيه ايهام ما لا يكاد يليق بشأن الآيات الكريمة من التداعى الى الفساد لولا المانع وفى اسناد الاحكام على الوجوه المذكورة الى آيات الكتاب دون نفسه لاسيما على الوجوه الشاملة لكل آية منه من حسن الموقع والدلالة على كونه فى اقصى غاية منه ما لا يخفى ( ثم فصلت ) اى جعلت فصولا من الاحكام والدلائل والمواعظ والقصص او فصل فيها مهمات العباد فى المعاش والمعاد على الاسناد المجازى والتفسير بجعلها آية آية لا يساعده المقام لان ذلك من الاوصاف الاولية لها فلا يناسب عطفه على احكامها بكلمة التراخى واما المعنيان الاولان فهما وان كانا مع الاحكام زمانا حيث لم تزل الآيات محكمة مفصلة لا انها احكمت او فصلت بعد ان لم تكن كذلك اذ الفعلان من قبيل قولهم سبحان من صغر البعوض ( الآيات )

باتباع الوحى والتنزيل فان وصل اليه بسبب ذلك الاتباع مكروه فليصبر عليه الى ان يحكم الله فيه وهو خير الحاكمين وانشد بعضهم فى الصبر شعرا فقال

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبرى * واصبر حتى يحكم الله فى امرى
سأصبر حتى يعلم الصبر اننى * صبرت على شئ امر من الصبر

ثم تفسير هذه السورة والله اعلم بمراده وباسرار كتابه بعون الله وحسن توفيقه يقول جامع هذا الكتاب ختمت تفسير هذه السورة يوم السبت من شهر الله الاصم رجب سنة احدى وستمائة وكنت ضيق الصدر كثير الحزن بسبب وفاة الولد الصالح محمد افاض الله على روحه وجسده انواء المغفرة والرحمة وانا التمس من كل من يقرأ هذا الكتاب وينتفع به من المسلمين ان يخص ذلك المسكين وهذا المسكين بالدعاء والرحمة والغفران والحمد لله رب العالمين وصلاته على خير خلقه محمد وآله وصحبه اجمعين

## سورة هود عليه السلام مائة وثلاث وعشرون آية

( بسم الله الرحمن الرحيم )

( الر كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ) فى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) اعلم ان قوله الر اسم للسورة وهو مبتدأ وقوله كتاب خبره وقوله احكمت آياته ثم فصلت صفة للكتاب قال الزجاج لا يجوز ان يقال الر مبتدأ وقوله كتاب احكمت آياته ثم فصلت خبر لان الر ليس هو الموصوف بهذه الصفة وحده وهذا الاعتراض فاسد لانه ليس من شرط كون الشئ مبتدأ ان يكون خبره محصورا فيه ولا ادرى كيف وقع للزجاج هذا السؤال ثم ان الزجاج اختار قولا آخر وهو ان يكون التقدير الر هذا كتاب احكمت آياته وعندى ان هذا القول ضعيف لوجهين ( الاول ) ان على هذا التقدير يقع قوله الر كلاما باطلا لا فائدة فيه ( والثانى ) انك اذا قلت هذا كتاب فقولك هذا يكون اشارة الى اقرب المذكورات وذلك هو قوله الر فيصير حينئذ الر مخبرا عنه بانه كتاب احكمت آياته فيلزمه على هذا القول ما لم يرض به فى القول الاول فثبت ان الصواب ما ذكرناه ( المسئلة الثانية ) فى قوله احكمت آياته وجوه ( الاول ) احكمت آياته نظمت نظما رصيفا محكما لا يقع فيه نقص ولا خلل كالبناء المحكم المرصف ( الثانى ) ان الاحكام عبارة عن منع الفساد من الشئ فقوله احكمت آياته اى لم تنسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع بها واعلم ان على هذا الوجه لا يكون كل الكتاب محكما لانه حصل فيه آيات منسوخة الا انه لما كان الغالب كذلك صح اطلاق هذا الوصف عليه اجراء للحكم الثابت فى الغالب مجرى الحكم الثابت فى الكل ( الثالث ) قال صاحب الكشاف احكمت يجوز ان يكون نقلا بالهمزة من حكم بضم الكاف اذا صار حكيما اى جعلت حكيمة كقوله آيات الكتاب الحكيم ( الرابع ) جعلت آياته محكمة فى امور ( احدها ) ان معانى هذا الكتاب هى التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وهذه المعانى لا تقبل النسخ فهى فى غاية الاحكام ( وثانيها ) ان

الآيات الواردة فيه غير متناقضة و التناقض ضد الاحكام فاذا خلت آياته عن التناقض فقد حصل الاحكام ( وثالثها ) ان الفاظ هذه الآيات بلغت في الفصاحة و الجزالة الى حيث لاتقبل المعارضة وهذا ايضا مشعر بالقوة و الاحكام (ورابعها) ان العلوم الدينية اما نظرية و اما عملية اما النظرية فهي معرفة الاله تعالى و معرفة الملائكة و الكتب و الرسل و اليوم الآخر و هذا الكتاب مشتمل على شرائف هذه العلوم و لطائفها و اما العملية فهي اما ان تكون عبارة عن تهذيب الاعمال الظاهرة و هو الفقه او عن تهذيب الاحوال الباطنة و هي علم التصفية و رياضة النفس و لانجد كتابا في العالم يساوي هذا الكتاب في هذه المطالب فثبت ان هذا الكتاب مشتمل على اشرف المطالب الروحانية و أعلى المباحث الالهية فكان كتابا محكما غير قابل للنقض و الهدم و تمام الكلام في تفسير المحكم ذكرناه في تفسير قوله تعالى هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات (المسئلة الثالثة) في قوله فصلت وجوه (احدها) ان هذا الكتاب فصل كما تفصل الدلائل بالفوائد الروحانية و هي دلائل التوحيد و النبوة و الاحكام و المواعظ و القصص ( الثاني ) انها جعلت فصولا سورة سورة و آية آية (الثالث) فصلت بمعنى انها فرقت في التنزيل و ما نزلت جملة واحدة و نظيره قوله تعالى فأرسلنا عليهم الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم آيات مفصلات و المعنى مجيء هذه الآيات متفرقة متعاقبة ( الرابع ) فصل ما يحتاج اليه العباد اي جعلت مبينة ملخصة ( الخامس ) جعلت فصولا حلالا و حراما و امثالا و ترغيبا و ترهيبا و مواعظ و أمرا و نهيا لكل معنى فيها فصل قد افرد به غير مختلط بغيره حتى تستكمل فوائد كل واحد منها و يحصل الوقوف على كل باب واحد منها على الوجه الاكمل (المسئلة الرابعة) معنى ثم في قوله ثم فصلت ليس للتراخي في الوقت لكن في الحال كما تقول هي محكمة أحسن الاحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل و كما تقول فلان كريم الاصل ثم كريم الفعل ( المسئلة الخامسة ) قال صاحب الكشاف قرئ أحكمت آياته ثم فصلت أي أحكمتها أنا ثم فصلتها و عن عكرمة و الضحاك ثم فصلت اي فرقت بين الحق و الباطل ( المسئلة السادسة ) احتج الجبائي بهذه الآية على ان القرآن محدث مخلوق من ثلاثة أوجه (الاول) قال المحكم هو الذي أتقنه فاعله و لولا ان الله تعالى يحدث هذا القرآن و الا لم يصح ذلك لان الاحكام لا يكون الا في الافعال و لا يجوز ان يقال كان موجودا غير محكم ثم جعله الله محكما لان هذا يقتضي في بعضه الذي جعله محكما ان يكون محدثا و لم يقل أحد بأن القرآن بعضه قديم و بعضه محدث (الثاني) ان قوله ثم فصلت يدل على انه حصل فيه انفصال و افتراق و يدل على ان ذلك الانفصال و الافتراق انما حصل بجعل جاعل و تكوين مكون و ذلك ايضا يدل على المطلوب (الثالث) قوله من لدن حكيم خبير و المراد من عنده و القديم لا يجوز ان يقال انه حصل من عند قديم آخر لانهما لو كانا قديمين لم يكن القول بان احدهما حصل من عند الآخر أولى من العكس أجاب اصحابنا بان هذه

وكبر الفيل الا انهما حيث كانا من صفات الآيات باعتبار نسبة بعضها الى بعض على وجه يستتبع احكاما منصوصة وآثارا معتدا بها و بملاحظة مصالح العباد ناسب ان يشار ( ٥١ ) الى التراخي رتبتهما عن رتبة الاحكام و ان حمل جعلها آية آية على معنى تفريق بعضها عن بعض يكون من هذا القبيل الا انه ليس في مثابته في استتباع ما يستتبعه من الاحكام و الآثار او فرقت في التنزيل منجمة بحسب المصالح فان اريد تنزيلها المنجم بالفعل فالتراخي زماني و ان اريد جعلها في نفسها بحيث يكون نزولها منجما حسبما تقتضيه الحكمة و المصلحة فهو رتبي لان ذلك وصف لازم لها حقيق بأن يرتب على وصف احكامها و قرئ احكمت آياته ثم فصلت على صيغة التكلم و عن عكرمة و الضحاك ثم فصلت اي فرقت بين الحق و الباطل (من لدن حكيم خبير ) صفة للكتاب وصف بها بعد ما وصف باحكام آياته و تفصيلها الدالين على علو رتبته من حيث الذات ابانة لجلالة شأنه من حيث الاضافة او خبر بعد خبر للمبتدأ المذكور او المحذوف او صلة للفعلين و في بنائهما للمفعول ثم ايراد الفاعل بعنوان الحكمة البالغة و الاحاطة بجلائلها و دقائقها منكرا بالتنكير التفخيمي و ربطهما به لا على النهج المعهود في اسناد الافاعيل الى فواعلها مع رعاية حسن الطباق من الجزالة و الدلالة على فخامتهما و كونهما على أكمل ما يكون ما لا يكتنه كنهه ( الا تعبدوا الا الله ) مفعول له حذف عنه اللام مع فقدان الشرط اعني كونه فعلا لفاعل الفعل المعلل جريا على سنن القياس المطرد في حذف الجر مع ان المصدرية كأنه قيل كتاب احكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا الا الله اي لتتركوا عبادة غير الله عز وجل و تمحضوا في عبادته فان الاحكام و التفصيل على ما فصل من المعاني مما يدعوهم الى الايمان و التوحيد و ما يتفرع عليه من الطاعات قاطبة وقيل ان مفسرة لما في التفصيل من معنى القول اي قيل لا تعبدوا الا الله ( انني لكم منه ) من جهة الله تعالى ( نذير ) انذركم عذابه ان لم تتركوا

النعوت عائدة الى هذه الحروف والاصوات ونحن معترفون بانها محدثة مخلوقة وانما الذى ندعى قدمه أمر آخر سوى هذه الحروف والاصوات ( المسئلة السابعة ) قال صاحب الكشاف قوله من لدن حكيم خبير يحتمل وجوها (الاول) أنا ذكرنا ان قوله كتاب خبر وأحكمت صفة لهذا الخبر وقوله من لدن حكيم خبير صفة ثانية والتقدير الر كتاب من لدن حكيم خبير (والثانى) ان يكون خبرا بعد خبر والتقدير الر من لدن حكيم خبير (والثالث) ان يكون ذلك صفة لقوله أحكمت وفصلت أى أحكمت وفصلت من لدن حكيم خبير وعلى هذا التقدير فقد حصل بين أول هذه الآية وبين آخرها نكتة لطيفة كأنه يقول أحكمت آياته من لدن حكيم وفصلت من لدن خبير عالم بكيفيات الامور * قوله تعالى (ألاتعبدوا الاالله اننى لكم منه نذير وبشير وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى اجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله وان تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير الى الله مرجعكم وهو على كل شئ قدير ) اعلم ان فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان فى قوله ألا تعبدوا الاالله وجوها (الاول) ان يكون مفعولا له والتقدير كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لاجل ألاتعبدوا الاالله وأقول هذا التأويل يدل على انه لامقصود من هذا الكتاب الشريف الا هذا الحرف الواحد فكل من صرف عمره الى سائر المطالب فقد خاب وخسر ( الثانى ) ان تكون ان مفسرة لان فى تفصيل الآيات معنى القول والحمل على هذا أولى لان قوله وان استغفروا معطوف على قوله ألاتعبدوا فيجب ان يكون معناه أى لاتعبدوا ليكون الامر معطوفا على النهى فان كونه بمعنى لئلا تعبدوا يمنع عطف الامر عليه ( الثالث ) ان يكون التقدير الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير لأمر الناس ان لايعبدوا الاالله ويقول لهم اننى لكم منه نذير وبشير والله اعلم ( المسئلة الثانية ) اعلم ان هذه الآية مشتملة على التكليف من وجوه (الاول) انه تعالى أمر بان لايعبدوا الاالله واذا قلنا الاستثناء من النفى اثبات كان معنى هذا الكلام النهى عن عبادة غيرالله تعالى والامر بعبادة الله تعالى وذلك هو الحق لانا بينا ان ماسوى الله فهو محدث مخلوق مربوب وانما حصل بتكوين الله وايجاده والعبادة عبارة عن اظهار الخضوع والخشوع ونهاية التواضع والتذلل وهذا لايليق الابالخالق المدبر الرحيم المحسن فثبت ان عبادة غيرالله منكرة والاعراض عن عبادة الله منكر واعلم ان عبادة الله مشروطة بتحصيل معرفة الله تعالى قبل العبادة لان من لايعرف معبوده لاينتفع بعبادته فكان الامر بعبادة الله أمرا بتحصيل المعرفة أولا ونظيره قوله تعالى فى أول سورة البقرة ياأيها الناس اعبدوا ربكم ثم أتبعه بالدلائل الدالة على وجود الصانع وهو قوله الذى خلقكم والذين من قبلكم وانما حسن ذلك لان الامر بالعبادة يتضمن الامر بتحصيل المعرفة فلاجرم ذكر مايدل على تحصيل المعرفة ثم قال اننى لكم منه نذير وبشير وفيه مباحث (الاول) ان الضمير فى قوله منه عائد الى الحكيم الخبير والمعنى

---

ماأنتم عليه من الكفر وعبادة غيرالله تعالى ( وبشير ) ابشركم بثوابه ان آمنتم به وتمحضتم فى عبادته ولماذكر شئون الكتاب من احكام آياته وتفصيلها وكون ذلك من قبل الله تعالى واورد معظم مانظم ( ٥٢ ) فى سلك الغاية والامر من التوحيد وترك الاشراك وسط بينه وبين قرينيه اعنى الاستغفار والتوبة ذكر ان من نزل عليه ذلك الكتاب مرسل من عندالله تعالى لتبليغ احكامه وترشيحها بالمؤيدات من الوعد والوعيد للايذان بان التوحيد فى اقصى مراتب الاهمية حتى افرد بالذكر وايد ايجابه بالخطاب غب الكتاب مع تلويح بانه كما لايتحقق فى نفسه الامقارنا للحكم برسالته عليه السلام كذلك فى الذكر لاينفك احدهما عن الآخر وقدروعى فى سوق الخطاب بتقديم الانذار على التبشير ماروعى فى الكتاب من تقديم النفى على الاثبات والتخلية على التحلية ليتجاوب اطراف الكلام ويجوز ان يكون قوله تعالى الاتعبدوا الاالله كلامامنقطعاعما قبله واردا على لسانه عليه السلام اغراء لهم على اختصاصه تعالى بالعبادة كأنه عليه السلام قال ترك عبادة غيرالله اى الزموه على معنى اتركوا عبادة غيرالله تركا مستمرا انى لكم من جهة الله تعالى نذير وبشير اى نذير أنذركم من عقابه على تقدير استمراركم على الكفر وبشير ابشركم بثوابه على تقدير ترككم له وتوحيدكم ولماسبق اليهم حديث التوحيد واكد ذلك بخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم على وجه الانذار والتبشير شرع فى ذكر ماهو من تتمته على وجه يتضمن تفصيل مااجمل فى وصف البشير والنذير فقيل ( وان استغفروا ربكم) وهو معطوف على ان لا تعبدوا على ماذكر من الوجهين فعلى الاول ان مصدرية لجواز كون صلتها امراونهيا كما فى قوله تعالى وان أقم وجهك للدين حنيفا لان مدار جواز كونها فعلا انما هو دلالته على المصدر وهو موجود فيهما ووجوب كونها (انى)
خبرية فى صلة الموصول الاسمى انما هو للتوصل الى وصف المعارف بالجمل وهى لاتوصف بها الا اذا كانت خبرية واما الموصول الحرفى

فليس كذلك ولما كان الخبر والانشاء في الدلالة على المصدر سواء ساغ وقوع الامر والنهى صلة حسبما ساغ وقوع الفعل فيجرد عند ذلك عن معنى الامر والنهى نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى ( ٥٣ ) المضى والاستقبال (ثم توبوا اليه) عطف على استغفروا

انني لكم نذير وبشير من جهته (البحث الثاني) ان قوله ألا تعبدوا الا الله مشتمل على المنع عن عبادة غير الله وعلى الترغيب في عبادة الله تعالى فهو عليه الصلاة والسلام نذير على الاول بالحاق العذاب الشديد لمن لم يأت بها وبشير على الثاني بالحاق الثواب العظيم لمن أتى بها واعلم انه صلى الله عليه وسلم مابعث الا لهذين الامرين وهو الانذار على فعل ما لا ينبغي والبشارة على فعل ما ينبغي (المرتبة الثانية) من الامور المذكورة في هذه الآية قوله وان استغفروا ربكم (والمرتبة الثالثة) قوله ثم توبوا اليه واختلفوا في بيان الفرق بين هاتين المرتبتين على وجوه (الاول) ان معنى قوله وان استغفروا اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ثم بين الشئ الذى يطلب به ذلك وهو التوبة فقال ثم توبوا اليه لان الداعي الى التوبة والمحرض عليها هو الاستغفار الذى هو عبارة عن طلب المغفرة وهذا يدل على انه لا سبيل الى طلب المغفرة من عند الله الا باظهار التوبة والامر في الحقيقة كذلك لان المذنب معرض عن طريق الحق والمعرض المتمادى في التباعد مالم يرجع عن ذلك الاعراض لا يمكنه التوجه الى المقصود بالذات فالمقصود بالذات هو التوجه الى المطلوب الا ان ذلك لا يمكن الا بالاعراض عما يضاده فثبت ان الاستغفار مطلوب بالذات وان التوبة مطلوبة لكونها من متممات الاستغفار وما كان آخرا في الحصول كان اولا في الطلب فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة (الثاني) في فائدة هذا الترتيب ان المراد استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا اليه في المستأنف (الثالث) وان استغفروا من الشرك والمعاصى ثم توبوا من الاعمال الباطلة (الرابع) الاستغفار طلب من الله لازالة مالا ينبغي والتوبة سعى من الانسان في ازالة مالا ينبغي فقدم الاستغفار ليدل على ان المرء يجب ان لا يطلب الشئ الا من مولاه فانه هو الذى يقدر على تحصيله ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لانها عمل يأتي به الانسان ويتوسل به الى دفع المكروه والاستعانة بفضل الله تعالى مقدمة على الاستعانة بسعى النفس واعلم انه تعالى لما ذكر هذه المراتب الثلاث ذكر بعدها مايترتب عليها من الآثار النافعة والنتائج المطلوبة ومن المعلوم ان المطالب محصورة في نوعين لانه اما ان يكون حصولها في الدنيا أو في الآخرة اما المنافع الدنيوية فهى المراد من قوله يمتعكم متاعا حسنا الى اجل مسمى وهذا يدل على ان المقبل على عبادة الله والمشتغل بها يبقى في الدنيا منتظم الحال مرفه البال وفي الآية سؤالات (الاول) أليس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وقال ايضا خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل وقال تعالى ولولا ان يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة فهذه النصوص دالة على ان نصيب المشتغل بالطاعات في الدنيا هو الشدة والبلية ومقتضى هذه الآية ان نصيب المشتغل بالطاعات الراحة في الدنيا فكيف الجمع بينهما الجواب من وجوه (الاول) المراد انه تعالى لا يعذبهم بعذاب الاستئصال كما استأصل اهل القرى

والكلام فيه كالكلام فيه والمعنى فعل مافعل من الاحكام والتفصيل لتخصوا الله تعالى بالعبادة وتطلبوا منه ستر ما فرط منكم من الشرك ثم ترجعوا اليه بالطاعة او تستمروا على ما انتم عليه من التوحيد والاستغفار او تستغفروا من الشرك وتتوبوا من المعاصى وعلى الثاني ان مفسرة اى قيل في اثناء تفصيل الآيات لا تعبدوا الا الله واستغفروه ثم توبوا اليه والتعرض لوصف الربوبية تلقين للمخاطبين وارشاد لهم الى طريق الابتهال في السؤال وترشيح لما يعقبه من التمتيع وايتاء الفضل بقوله تعالى (يمتعكم متاعا حسنا) اى تمتيعا وانتصابه على انه مصدر حذف منه الزوائد كقوله تعالى انبتكم من الارض نباتا او على انه مفعول به وهو اسم لما يتمتع به من منافع الدنيا من الاموال والبنين وغير ذلك والمعنى يعيشكم عيشا مرضيا لا يفوتكم فيه شئ مما تشتهون ولا ينغصه شئ من المكدرات (الى اجل مسمى) مقدر عند الله عز وجل وهو آخر اعماركم ولما كان ذلك غاية لا يطمع وراءها طامع جرى التمتيع اليها مجرى التأبيد عادة او لا يهلككم بعذاب الاستئصال (ويؤت كل ذى فضل) في الطاعة والعمل (فضله) جزاء فضله اما في الدنيا او في الآخرة وهذه تكملة لما اجمل من التمتيع الى اجل مسمى وتبيين لما عسى يعسر فهم حكمته من بعض ما يتفق في الدنيا من تفاوت الحال بين العاملين فرب انسان له فضل طاعة وعمل لا يمتع في الدنيا اكثر مما يتمتع آخر دونه في الفضل وربما يكون المفضول اكثر تمتيعا فقيل ويعط كل ذى فضل جزاء فضله اما في الدنيا كما يتفق في بعض المواد واما في الآخرة وذلك مما لامرد له وهذا ضرب تفصيل لما اجمل فيما سبق من البشارة ثم شرع في الانذار فقيل ( وان تولوا )

الذين كفروا (الثانى) انه تعالى يوصل اليهم الرزق كيف كان واليه الاشارة بقوله وأمر اهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسألك رزقا نحن نرزقك (الثالث) وهو الاقوى عندى ان يقال ان المشتغل بعبادة الله وبمحبة الله مشتغل بحب شئ يمتنع تغيره وزواله وفناؤه فكل من كان امعانه فى ذلك الطريق اكثر وتوغله فيه أتم كان انقطاعه عن الخلق أتم واكمل وكلما كان الكمال فى هذا الباب اكثر كان الابتهاج والسرور أتم لانه امن من تغير مطلوبه وامن من زوال محبوبه فأما من كان مشتغلا بحب غير الله كان ابدا فى الم الخوف من فوات المحبوب وزواله فكان عيشه منغصا وقلبه مضطربا ولذلك قال الله تعالى فى صفة المشتغلين بخدمته فلنحيينه حياة طيبة (السؤال الثانى) هل يدل قوله الى اجل مسمى على ان للعبد اجلين وانه يقع فى ذلك التقديم والتأخير والجواب لا ومعنى الآية انه تعالى حكم بأن هذا العبد لو اشتغل بالعبادة لكان اجله فى الوقت الفلانى ولو اعرض عنها لكان اجله فى وقت آخر لكنه تعالى عالم بأنه لو اشتغل بالعبادة ام لا فان اجله ليس الا فى ذلك الوقت المعين فثبت ان لكل انسان اجلا واحدا فقط (السؤال الثالث) لم سمى منافع الدنيا بالمتاع الجواب لاجل التنبيه على حقارتها وقلتها ونبه على كونها منقضية بقوله تعالى الى اجل مسمى فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية ثم لما بين تعالى ذلك قال ويؤت كل ذى فضل فضله والمراد منه السعادات الاخروية وفيها لطائف وفوائد (الفائدة الاولى) ان قوله ويؤت كل ذى فضل فضله معناه ويؤت كل ذى فضل موجب فضله ومعلوله والامر كذلك وذلك لان الانسان اذا كان فى نهاية البعد عن الاشتغال بغير الله وكان فى غاية الرغبة فى تحصيل اسباب معرفة الله تعالى فحينئذ يصير قلبه فصا لنقش الملكوت ومرآة يتجلى بها قدس اللاهوت الا ان العلائق الجسدانية الظلمانية تكدر تلك الانوار الروحانية فاذا زالت هذه العلائق اشرقت تلك الانوار وتلألأت تلك الاضواء وتوالت موجبات السعادات فهذا هو المراد من قوله ويؤت كل ذى فضل فضله (الفائدة الثانية) ان هذا تنبيه على ان مراتب السعادات فى الآخرة مختلفة وذلك لانها مقدرة بمقدار الدرجات الحاصلة فى الدنيا فلما كان الاعراض عن غير الحق والاقبال على عبودية الحق درجات غير متناهية فكذلك مراتب السعادات الاخروية غير متناهية فلهذا السبب قال ويؤت كل ذى فضل فضله (الفائدة الثالثة) انه تعالى قال فى منافع الدنيا يمتعكم متاعا حسنا وقال فى سعادات الآخرة ويؤت كل ذى فضل فضله وذلك يدل على ان جميع خيرات الدنيا والآخرة ليس الا منه وليس الا بايجاده وتكوينه واعطائه وجوده * وكان الشيخ الامام الوالد رحمه الله تعالى يقول لولا الاسباب لما ارتاب مرتاب فأكثر الناس عقولهم ضعيفة واشتغال عقولهم بهذه الوسائط الفانية يعميها عن مشاهدة ان الكل منه فأما الذين توغلوا فى المعارف الالهية وخاضوا فى بحار انوار الحقيقة علموا ان ما سواه ممكن لذاته موجود بايجاده فانقطع نظرهم عما سواه وعلموا انه

اى تتولوا عما القى اليكم من التوحيد والاستغفار والتوبة وانما اخر عن البشارة جريا على سنن تقدم الرحمة على الغضب اولان العذاب قد علق بالتولى عما ذكر من التوحيد والاستغفار والتوبة وذلك يستدعى (٥٤) سابقة ذكره وقرئ تولوا من ولى (فانى أخاف عليكم) بموجب الشفقة والرأفة اواتوقع (عذاب يوم كبير) هو يوم القيامة وصف بالكبر كما وصف بالعظم فى قوله تعالى ألا يظن اولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم اما لكونه كذلك فى نفسه او وصف بوصف ما يكون فيه كما وصف بالثقل فى قوله تعالى ثقلت فى السموات والارض وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بقحط أكلوا فيه الجيف واياما كان ففى اضافة العذاب اليه تهويل وتفظيع له (الى الله مرجعكم) رجوعكم بالموت ثم البعث للجزاء فى مثل ذلك اليوم لا الى غيره (وهو على كل شئ قدير) فيندرج فى تلك الكلية قدرته على اماتتكم ثم بعثكم وجزائكم فيعذبكم بأفانين العذاب وهو تقرير لما سلف من كبر اليوم وتعليل للخوف ولما القى اليهم فحوى الكتاب على لسان النبى صلى الله عليه وسلم وسيق اليهم ما ينبغى ان يساق من الترغيب والترهيب وقع فى ذهن السامع انهم بعدما سمعوا مثل هذا المقال الذى تخر له صم الجبال هل قابلوه بالاقبال ام تمادوا فيما كانوا عليه من الاعراض والضلال فقيل مصدرا بكلمة التنبيه اشعارا بأن ما يعقبها من هناتهم امر يجب ان يفهم ويتعجب منه (الا انهم يثنون صدورهم) يزورون عن الحق وينحرفون عنه اى يستمرون على ما كانوا عليه من التولى والاعراض لان من اعرض عن شئ ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه وهذا معنى جزل مناسب للسبق وقد نحا نحوه العلامة الزمخشرى ولكن حيث لم يصلح التولى سببا للاستخفاء فى قوله عز وجل (ليستخفوا منه) التجأ الى اضمار الارادة حيث قال ويريدون ليستخفوا من الله تعالى فلا يطلع رسوله والمؤمنين (سبحانه) على اعراضهم وجعله فى قود المعنى اليه من قبيل الاضمار فى قوله تعالى اضرب بعصاك البحر فانفلق اى فضرب فانفلق ولا يخفى ان

انسياق الذهن الى توسيط الارادة بين ثنى الصدور وبين الاستخفاء ليس كانسياقه الى توسيط الضرب بين الامر به وبين الانفلاق ولعل الاظهر ان معناه يعطفون صدورهم على مافيها ( ٥٥ ) من الكفر والاعراض عن الحق وعداوة النبى صلى الله عليه وسلم بحيث يكون ذلك مخفيا مستورا فيها كما تعطف الثياب على مافيها من الاشياء المستورة وانما لم يذكر ذلك استهجانا بذكره اوايماء الى ان ظهوره مغن عن ذكره اوليذهب ذهن السامع الى كل ما لاخير فيه من الامور المذكورة فيدخل فيه ما ذكر من توليهم عن الحق الذى التى اليهم دخولا اوليا فحينئذ يظهر وجه كون ذلك سببا للاستخفاء ويؤيده ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انها نزلت فى الاخنس بن شريق وكان رجلا حلو المنطق حسن السياق للحديث يظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم المحبة ويضمر فى قلبه ما يضادها وقال ابن شداد انها نزلت فى بعض المنافقين كان اذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كى لا يراه النبى صلى الله عليه وسلم فكأنه انما كان يصنع مايصنع لانه لو رآه النبى صلى الله عليه وسلم لم يمكنه التخلف عن حضور مجلسه والمصاحبة معه وربما يؤدى ذلك الى ظهور ما فى قلبه من الكفر والنفاق وقرئ يثنونى صدورهم بالياء والتاء من اثنونى افعوعل من الثنى كاحلولى من الحلاوة وهو بناء مبالغة وعن ابن عباس رضى الله رضى الله عنهما لتثنونى وقرئ تثنون

سبحانه وتعالى هو الضار والنافع والمعطى والمانع ثم انه تعالى لما بين هذه الاحوال قال وان تولوا فانى اخاف عليكم عذاب يوم كبير والامر كذلك لان من اشتغل بعبادة غير الله صار فى الدنيا اعمى ومن كان فى هذه اعمى فهو فى الآخرة اعمى واضل سبيلا والذى يبين ذلك ان من اقبل على طلب الدنيا ولذاتها وطيباتها قوى حبه لها ومال طبعه اليها وعظمت رغبته فيها فاذا مات بقى معه ذلك الحب الشديد والميل التام وصار عاجزا عن الوصول الى محبوبه فحينئذ يعظم البلاء ويتكامل الشقاء فهذا القدر المعلوم عندنا من عذاب ذلك اليوم واما تفاصيل تلك الاحوال فهى غائبة عنا مادمنا فى هذه الحياة الدنيوية ثم بين انه لابد من الرجوع الى الله تعالى بقوله الى الله مرجعكم وهو على كل شئ قدير واعلم ان قوله الى الله مرجعكم فيه دقيقة وهى ان هذا اللفظ يفيد الحصر يعنى ان مرجعنا الى الله لا الى غيره فيدل هذا على انه لا مدبر ولا متصرف هناك الا هو والامر كذلك ايضا فى هذه الحياة الدنيوية الا ان اقواما اشتغلوا بالنظر الى الوسائط فعجزوا عن الوصول الى مسبب الاسباب فظنوا انهم فى دار الدنيا قادرون على شئ واما فى دار الآخرة فهذا الحال الفاسد زائل ايضا فلهذا المعنى بين هذا الحصر بقوله الى الله مرجعكم ثم قال وهو على كل شئ قدير واقول ان هذا تهديد عظيم من بعض الوجوه وبشارة عظيمة من سائر الوجوه اما انه تهديد عظيم فلان قوله تعالى الى الله مرجعكم يدل على انه ليس مرجعنا الا اليه وقوله وهو على كل شئ قدير يدل على انه قادر على جميع المقدورات لا دافع لقضائه ولا مانع لمشيئته والرجوع الى الحاكم الموصوف بهذه الصفة مع العيوب الكثيرة والذنوب العظيمة مشكل واما انه بشارة عظيمة فلان ذلك يدل على قدرة غالبة وجلالة عظيمة لهذا الحاكم وعلى ضعف تام وعجز عظيم لهذا العبد والملك القاهر العالى الغالب اذا رأى عاجزا مشرفا على الهلاك فانه يخلصه من الهلاك ومنه المثل المشهور ملكت فاسجح * يقول مصنف هذا الكتاب قد افنيت عمرى فى خدمة العلم والمطالعة للكتب ولا رجاء لى فى شئ الا انى فى غاية الذلة والقصور والكريم اذا قدر غفر واسألك يا اكرم الاكرمين ويا ارحم الراحمين ويا ساتر عيوب المعيوبين ويا مجيب دعوة المضطرين ان تفيض سجال رحمتك على ولدى وفلذة كبدى وان تخصنا بالفضل والتجاوز والجود والكرم * قوله تعالى (الا انهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم مايسرون ومايعلنون انه عليم بذات الصدور ) اعلم انه تعالى لما قال وان تولوا يعنى عن عبادته وطاعته فانى اخاف عليكم عذاب يوم كبير بين بعده ان التولى عن ذلك باطنا كالتولى عنه ظاهرا فقال ألا انهم يعنى الكفار من قوم محمد صلى الله عليه وسلم يثنون صدورهم ليستخفوا منه واعلم انه تعالى حكى عن هؤلاء الكفار شيئين (الاول) انهم يثنون صدورهم يقال ثنيت الشئ اذا عطفته وطويته وفى الآية وجهان (الاول) روى ان طائفة من المشركين قالوا اذا اغلقنا ابوابنا وارسلنا ستورنا واستغشينا ثيابنا وثنينا

٢ واصله تثنونن من تفعوعل من الثن وهو ماهش من الكلا وضعف يريد مطاوعة صدورهم للثنى كما يثنى (من الهش)

٣ قوله وقرئ تثنون الخ افاد الشهاب انه بمثناة فوقية مفتوحة فمثلثة ساكنة فنون مفتوحة تتلوها واو مكسورة وبعدها نون مشددة واصله تثنونن على وزن تفعوعل وقوله من الثن اى بكسر المثلثة وتشديد النون كما فى القاموس * وقوله وقرئ تثنئن اى على وزن تطمئن بأن يجعل مكان الواو المكسورة فى القراءة السابقة همزة مكسورة (كما فى زاده اهـ مصححه)

صدورنا على عداوة محمد فكيف يعلم بنا وعلى هذا التقدير كان قوله يثنون صدورهم كناية عن النفاق فكأنه قيل يضمرون خلاف مايظهرون ليستخفوا من الله تعالى ثم نبه بقوله ألا حين يستغشون ثيابهم على انهم يستخفون منه حين يستغشون ثيابهم ( الوجه الثانى ) روى ان بعض الكفار كان اذا مر به رسول الله ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه والتقدير كأنه قيل انهم ينصرفون عنه ليستخفوا منه حين يستغشون ثيابهم لئلا يسمعوا كلام رسول الله وماتلو من القرآن وليقولوا فى انفسهم مايشتهون من الطعن وقوله ألا للتنبيه فنبه اولا على انهم ينصرفون عنه ليستخفوا ثم كرر كلمة الا للتنبيه على ذكر الاستخفاء لينبه على وقت استخفائهم وهو حين يستغشون ثيابهم كأنه قيل ألا انهم ينصرفون عنه ليستخفوا من الله ألا انهم يستخفون حين يستغشون ثيابهم ثم ذكر انه لافائدة لهم فى استخفائهم بقوله يعلم مايسرون ومايعلنون ❊ قوله تعالى ( ومامن دابة فى الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ) اعلم انه تعالى لما ذكر فى الآية الاولى انه يعلم مايسرون ومايعلنون اردفه بمايدل على كونه تعالى عالما بجميع المعلومات فذكر ان رزق كل حيوان انما يصل اليه من الله تعالى فلو لم يكن عالما بجميع المعلومات لما حصلت هذه المهمات وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الزجاج الدابة اسم لكل حيوان لان الدابة اسم مأخوذ من الدبيب وبنيت هذه اللفظة على هاء التأنيث واطلق على كل حيوان ذى روح ذكرا كان او انثى الا انه بحسب عرف العرب اختص بالفرس والمراد بهذا اللفظ فى هذه الآية الموضوع الاصلى اللغوى فيدخل فيه جميع الحيوانات وهذا متفق عليه بين المفسرين ولاشك ان اقسام الحيوانات وانواعها كثيرة وهى الاجناس التى تكون فى البر والبحر والجبال والله يحصيها دون غيره وهو تعالى عالم بكيفية طبائعها واعضائها واحوالها واغذيتها وسمومها ومساكنها ومايوافقها ومايخالفها فالاله المدبر لاطباق السموات والارضين وطبائع الحيوان والنبات كيف لايكون عالما باحوالها روى ان موسى عليه السلام عند نزول الوحى اليه تعلق قلبه باحوال اهله فامره الله تعالى ان يضرب بعصاه على صخرة فانشقت وخرجت صخرة ثانية ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت وخرجت صخرة ثالثة ثم ضربها بعصاه فانشقت فخرجت منها دودة كالذرة وفى فها شئ يجرى مجرى الغذاء لها ورفع الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع الدودة تقول سبحان من يرانى ويسمع كلامى ويعرف مكانى ويذكرنى ولا ينسانى (المسئلة الثانية) تعلق بعضهم بانه يجب على الله تعالى بعض الاشياء بهذه الآية وقال ان كلمة على للوجوب وهذا يدل على ان ايصال الرزق الى الدابة واجب على الله وجوابه انه واجب بحسب الوعد والفضل والاحسان ( المسئلة الثالثة ) تعلق اصحابنا بهذه الآية فى اثبات ان الرزق قد يكون حراما قالوا لانه ثبت ان ايصال الرزق الى كل حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد وبحسب الاستحقاق والله تعالى لايخل بالواجب ثم قد نرى انسانا لايأكل من الحلال طول

الثبات او اراد ضعف ايمانهم ورخاوة قلوبهم وقرئ تثنئن من اثنأن افعال منه ثم همز كماقيل ابيأضت وادهأمت وقرئ تثنوى بوزن ترعوى (ألاحين يستغشون ثيابهم) اى يتغطون بها للاستخفاء على مانقل عن ابن شداد ( ٥٦ ) اوحين يأوون الى فراشهم ويتدثرون بثيابهم فان مايقع حينئذ حديث النفس عادة وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخى ستره ويحنى ظهره ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله مافى قلبى ( يعلم مايسرون ) اى يضمرون فى قلوبهم (ومايعلنون) اى يستوى بالنسبة الى علمه المحيط سرهم وعلنهم فكيف يخفى عليه ماعسى يظهرونه وانما قدم السر على العلن نعيا عليهم من اول الامر ماصنعوا وايذانا بافتضاحهم ووقوع مايحذرونه وتحقيقا للمساواة بين العلمين على ابلغ وجه فكأن علمه بمايسرونه اقدم منه بمايعلنونه ونظيره قوله تعالى قل ان تخفوا مافى صدوركم اوتبدوه يعلمه الله حيث قدم فيه الاخفاء على الابداء على عكس ماوقع فى قوله تعالى وان تبدوا مافى انفسكم اوتخفوه يحاسبكم به الله اذ لم يتعلق باشعار ان المحاسبة بمايخفونه اولى منها بما يبدونه غرض بل الامر بالعكس واما ههنا فقد تعلق باشعار كون تعلق علمه تعالى بمايسرونه اولى منه بما يعلنونه غرض مهم مع كونهما على السوية كيف لا وعلمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول الصورة بل وجود كل شئ فى نفسه علم بالنسبة اليه تعالى وفى هذا المعنى لايختلف الحال بين الاشياء البارزة والكامنة واما قوله تعالى واعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون فحيث كان واردا بصدد الخطاب مع الملائكة عليهم السلام المنزه مقامهم عن اقتضاء التأكيد والمبالغة فى الاخبار باحاطة علمه تعالى بالظاهر والباطن لم يسلك فيه ذلك المسلك مع انه وقع الغنية عنه بماقبله من قوله عزوجل انى اعلم غيب السموات والارض ويجوز ان يكون ذلك باعتبار ان مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن اذما من شئ يعلن الا وهو اومباديه قبل ذلك مضمر فى القلب فتعلق علمه سبحانه بحالته الاولى متقدم على

( عمره )

عمره فلو لم يكن الحرام رزقا لكان الله تعالى ما اوصل رزقه اليه فيكون تعالى قد أخل بالواجب وذلك محال فعلمنا ان الحرام قد يكون رزقا واما قوله ويعلم مستقرها ومستودعها فالمستقر هو مكانه من الارض والمستودع حيث كان مودعا قبل الاستقرار فى صلب او رحم او بيضة وقال الفراء مستقرها حيث تأوى اليه ليلا او نهارا ومستودعها موضعها الذى تموت فيه وقد مضى استقصاء تفسير المستقر والمستودع فى سورة الانعام ثم قال كل فى كتاب مبين قال الزجاج المعنى ان ذلك ثابت فى علم الله تعالى ومنهم من قال فى اللوح المحفوظ وقد ذكرنا فائدة ذلك فى قوله ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين ❊ قوله تعالى ( وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين ) واعلم انه تعالى لما اثبت بالدليل المتقدم كونه عالما بالمعلومات اثبت بهذا الدليل كونه تعالى قادرا على كل المقدورات وفى الحقيقة فكل واحد من هذين الدليلين يدل على كمال علم الله وعلى كمال قدرته واعلم ان قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام قد مضى تفسيره فى سورة يونس على سبيل الاستقصاء بقى ههنا ان نذكر وكان عرشه على الماء قال كعب خلق الله تعالى ياقوتة خضراء ثم نظر اليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء قال ابو بكر الاصم معنى قوله وكان عرشه على الماء كقولهم السماء على الارض وليس ذلك على سبيل كون احدهما ملتصقا بالآخر وكيف كانت الواقعة فذلك يدل على ان العرش والماء كانا قبل السموات والارض وقالت المعتزلة فى الآية دلالة على وجود الملائكة قبل خلقهما لانه لا يجوز ان يخلق ذلك ولا أحد ينتفع بالعرش والماء لانه تعالى لما خلقهما فاما ان يكون قد خلقهما لمنفعة أو لا لمنفعة والثانى عبث فبقى الاول وهو انه خلقهما لمنفعة وتلك المنفعة اما ان تكون عائدة الى الله وهو محال لكونه متعاليا عن النفع والضرر أو الى الغير فوجب ان يكون ذلك الغير حيا لان غير الحى لا ينتفع وكل من قال بذلك قال ذلك الحى كان من جنس الملائكة واما ابو مسلم الاصفهانى فقال معنى قوله وكان عرشه على الماء اى بناؤه السموات كان على الماء وقد مضى تفسير ذلك فى سورة يونس وبين انه تعالى اذا بنى السموات على الماء كانت أبدع وأعجب فان البناء الضعيف اذا لم يؤسس على ارض صلبة لم يثبت فكيف بهذا الامر العظيم اذا بسط على الماء * وههنا سؤالات ( السؤال الاول ) ما الفائدة فى ذكر ان عرشه كان على الماء قبل خلق السموات والارض (والجواب) فيه دلالة على كمال القدرة من وجوه ( الاول ) ان العرش مع كونه اعظم من السموات والارض كان على الماء فلولا انه تعالى قادر على امساك الثقيل بغير عمد لما صح ذلك (والثانى) انه تعالى امسك الماء لا على قرار والا لزم ان يكون اقسام العالم غير متناهية

تعلقه بحالته الثانية ( انه عليم بذات الصدور ) تعليل لما سبق وتقرير له واقع موقع الكبرى من القياس وفى صيغة الفعيل وتحلية الصدور بلام الاستغراق والتعبير عن الضمائر بعنوان ( ٥٧ ) صاحبيتها من البراعة ما لا يصفه الواصفون كأنه قيل انه مبالغ فى الاحاطة بمضمرات جميع الناس واسرارهم الخفية المستكنة فى صدورهم بحيث لا تفارقها اصلا فكيف يخفى عليه ما يسرون وما يعلنون ويجوز ان يراد بذات الصدور القلوب من قوله تعالى ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور والمعنى انه عليم بالقلوب واحوالها فلا يخفى عليه سر من اسرارها (وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها) غذاؤها اللائق بها من حيث الخلق ومن حيث الايصال اليها بطريق طبيعى او ارادى لتكفله اياه تفضلا ورحمة وانما جئ به على طريق الوجوب اعتبارا لسبق الوعد وتحقيقا لوصوله اليها البتة وحملا للمكلفين على الثقة به تعالى والاعراض عن اتعاب النفس فى طلبه (ويعلم مستقرها) محل قرارها فى الاصلاب ( ومستودعها ) موضعها فى الارحام وما يجرى مجراها من البيض ونحوها وانما خص كل من الاسمين بما خص به من المحلين لان النطفة بالنسبة الى الاصلاب فى حيزها الطبيعى ومنشئها الخلقى واما بالنسبة الى الارحام وما يجرى مجراها فهى مودعة فيهما الى وقت معين او مسكنها من الارض حين وجدت بالفعل ومودعها من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة ولعل تقديم محلها باعتبار حالتها الاخيرة لرعاية المناسبة بينها وبين عنوان كونها دابة فى الارض والمعنى ما من دابة فى الارض الا يرزقها الله تعالى حيث كانت من اماكنها يسوقه اليها ويعلم موادها المتخالفة المتدرجة فى مراتب الاستعدادات المتفاوتة المتطورة فى الاطوار المتباينة ومقارها المتنوعة ويفيض عليها فى كل (٨)(را)(خا) مرتبة ما يليق بها من مبادى وجودها وكما لاتها المتفرعة عليه وقد فسر المستودع بأماكنها فى الممات ولا يلائمه مقام التكفل بأرزاقها (كل ) من الدواب ورزقها مستقرها

وذلك يدل على ماذكرناه (والثالث) ان العرش الذى هو اعظم المخلوقات قد امسكه الله تعالى فوق سبع سموات من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه وذلك يدل ايضا على ماذكرنا (السؤال الثانى) هل يصح ماروى انه قيل يارسول الله أين كان ربنا قبل خلق السموات والارض فقال كان فى عماء فوقه هواء وتحته هواء (والجواب) ان هذه الرواية ضعيفة والاولى ان يكون الخبر المشهور أولى بالقبول وهو قوله صلى الله عليه وسلم كان الله وما كان معه شئ ثم كان عرشه على الماء ( السؤال الثالث ) اللام فى قوله ليبلوكم أيكم أحسن عملا يقتضى انه تعالى خلق السموات والارض لابتلاء المكلف فكيف الحال فيه والجواب ظاهر هذا الكلام يقتضى ان الله تعالى خلق هذا العالم الكثير لمصلحة المكلفين وقد قال بهذا القول طوائف من العقلاء ولكل طائفة فيه وجه آخر سوى الوجه الذى قال به الآخرون وشرح تلك المقالات لايليق بهذا الكتاب والذين قالوا ان افعاله واحكامه غير معللة بالمصالح قالوا لام التعليل وردت على ظاهر الامر ومعناه انه تعالى فعل فعلا لوكان يفعله من تجوز عليه رعاية المصالح لمافعله الا لهذا الغرض ( السؤال الرابع ) الابتلاء انما يصح على الجاهل بعواقب الامور وذلك عليه تعالى محال فكيف يعقل حصول معنى الابتلاء فى حقه ( والجواب ) ان هذا الكلام على سبيل الاستقصاء ذكرناه فى تفسير قوله تعالى فى أول سورة البقرة لعلكم تتقون واعلم انه تعالى لما بين انه خلق هذا العالم لاجل ابتلاء المكلفين وامتحانهم فهذا يوجب القطع بحصول الحشر والنشر لان الابتلاء والامتحان يوجب تخصيص المحسن بالرحمة والثواب وتخصيص المسئ بالعقاب وذلك لايتم الامع الاعتراف بالمعاد والقيامة فعند هذا خاطب محمدا عليه الصلاة والسلام وقال ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الاسحر مبين ومعناه انهم ينكرون هذا الكلام ويحكمون بفساد القول بالبعث فان قيل الذى يمكن وصفه بأنه سحر مايكون فعلا مخصوصا وكيف يمكن وصف هذا القول بأنه سحر قلنا الجواب عنه من وجوه ( الاول ) قال القفال معناه ان هذا القول خديعة منكم وضعتموها لمنع الناس عن لذات الدنيا واحرازا لهم الى الانقياد لكم والدخول تحت طاعتكم (الثانى) ان معنى قوله ان هذا الاسحر مبين هو ان السحر امر باطل قال تعالى حاكيا عن موسى عليه السلام ماجئتم به السحر ان الله سيبطله فقوله ان هذا الاسحر مبين اى باطل مبين (الثالث) ان القرآن هو الحاكم بحصول البعث وطعنوا فى القرآن بكونه سحرا لان الطعن فى الاصل يفيد الطعن فى الفرع ( الرابع ) قرأ حمزة والكسائى ان هذا الاساحر يريدون النبى صلى الله عليه وسلم والساحر كاذب ❊ قوله تعالى ( ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة ليقولن مايحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ) اعلم انه تعالى حكى عن الكفار انهم يكذبون

ومستودعها ( فى كتاب مبين ) اى مثبت فى اللوح المحفوظ البين لمن ينظر فيه من الملائكة عليهم السلام او المظهر لما اثبت فيه للناظرين ولما انتهى الامر الى انه سبحانه محيط بجميع احوال مافى الارض ( ٥٨ ) من المخلوقات التى لاتكاد تحصى من مبدأ فطرتها الى منتهاها اقتضى الحال التعرض لمبدأ خلق السموات والارض والحكمة الداعية الى ذلك فقيل ( وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام ) السموات فى يومين والارض فى يومين وما عليها من انواع الحيوانات والنبات وغير ذلك فى يومين حسبما فصل فى سورة حم السجدة ولم يذكر خلق مافى الارض لكونه من تتمات خلقها وهو السر فى جعل زمان خلقه تتمة لزمان خلقها فى قوله تعالى فى اربعة ايام اى فى تتمة اربعة ايام والمراد بالايام الاوقات كما فى قوله تعالى ومن يولهم يومئذ دبره اى فى ستة اوقات اومقدار ستة ايام فان اليوم فى المتعارف زمان كون الشمس فوق الارض ولا يتصور ذلك حين لاارض ولاسماء وفى خلقها مدرجا مع القدرة التامة على خلقها دفعة دليل على انه قادر مختار واعتبار للنظار وحث على التأنى فى الامور واما تخصيص ذلك بالعدد المعين فامر ستأثر بعلم مايقتضيه علام الغيوب جلت حكمته وايثار صيغة الجمع فى السموات لما هو المشهور من الاشارة الى كونها اجراما مختلفة الطبائع ومتفاوتة الآثار والاحكام (وكان عرشه) قبل خلقهما ( على الماء ) ليس تحته شئ غيره سواء كان بينهما فرجة اوكان موضوعا على متنه كما ورد فى الاثر فلادلالة فيه على امكان الخلاء كيف لا ولو دل لدل على وجوده لاعلى امكانه فقط ولا على كون الماء اول ماحدث فى العالم بعد العرش وانما يدل على ان خلقهما اقدم من خلق السموات والارض من غير تعرض للنسبة بينهما ( ليبلوكم ) متعلق بخلق اى خلق السموات والارض ومافيهما من المخلوقات التى من جملتها أنتم ورتب فيهما جميع ماتحتاجون اليه من مبادى وجودكم واسباب معايشكم واودع فى تضاعيفهما من ( الرسول )

الرسول صلى الله عليه وسلم بقولهم ان هذا الا سحر مبين فحكى عنهم فى هذه الآية نوعا آخر من اباطيلهم وهو انه متى تأخر عنهم العذاب الذى توعدهم الرسول صلى الله عليه وسلم به اخذوا فى الاستهزاء ويقولون ما السبب الذى حبسه عنا فأجاب الله تعالى بأنه اذا جاء الوقت الذى عينه الله لنزول ذلك العذاب الذى كانوا يستهزؤن به لم ينصرف ذلك العذاب عنهم واحاط بهم ذلك العذاب * بقى ههنا سؤالات (السؤال الاول) المراد من هذا العذاب هو عذاب الدنيا او عذاب الآخرة (الجواب) للمفسرين فيه وجوه ( الاول ) قال الحسن معنى حكم الله فى هذه الآية انه لا يعذب احدا منهم بعذاب الاستئصال وأخر ذلك الى يوم القيامة فلما اخر الله عنهم ذلك العذاب قالوا على سبيل الاستهزاء ما الذى حبسه عنا (والثانى) ان المراد الامر بالجهاد وما نزل بهم يوم بدر وعلى هذا الوجه تأولوا قوله وحاق بهم اى نزل بهم هذا العذاب يوم بدر ( السؤال الثانى ) ما المراد بقوله الى امة معدودة (الجواب) من وجهين (الاول) ان الاصل فى الامة هم الناس والفرقة فاذا قلت جاءنى امة من الناس فالمراد طائفة مجتمعة قال تعالى وجد عليه امة من الناس يسقون وقوله وادكر بعد امة اى بعد انقضاء امة وفنائها فكذا ههنا قوله ولئن اخرنا عنهم العذاب الى امة معدودة اى الى حين تنقضى امة من الناس انقرضت بعد هذا الوعيد بالقول لقالوا ماذا يحبسه عنا وقد انقرض من الناس الذين كانوا متوعدين بهذا الوعيد وتسمية الشئ باسم ما يحصل فيه كقولك كنت عند فلان صلاة العصر اى فى ذلك الحين ( الثانى ) ان اشتقاق الامة من الأم وهو القصد كأنه يعنى الوقت المقصود بايقاع هذا الموعود فيه (السؤال الثالث) لم قال وحاق على لفظ الماضى مع ان ذلك لم يقع (والجواب) قد مر فى هذا الكتاب آيات كثيرة من هذا الجنس والضابط فيها انه تعالى اخبر عن احوال القيامة بلفظ الماضى مبالغة فى التأكيد والتقرير * قوله تعالى (ولئن اذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤس كفور ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى انه لفرح فخور الا الذين صبروا وعملوا الصالحات اولئك لهم مغفرة واجر كبير) اعلم انه تعالى لما ذكر ان عذاب اولئك الكفار وان تأخر الا انه لا بد وان يحيق بهم ذكر بعده ما يدل على كفرهم وعلى كونهم مستحقين لذلك العذاب فقال ولئن اذقنا الانسان وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لفظ الانسان فى هذه الآية فيه قولان (الاول) ان المراد منه مطلق الانسان ويدل عليه وجوه (الاول) انه تعالى استثنى منه قوله الا الذين صبروا وعملوا الصالحات والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل فثبت ان الانسان المذكور فى هذه الآية داخل فيه المؤمن والكافر وذلك يدل على ما قلناه (الثانى) ان هذه الآية موافقة على هذا التقرير لقوله تعالى والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وموافقة ايضا لقوله تعالى ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا (الثالث) ان مزاج الانسان مجبول على الضعف والعجز قال ابن جريج

---

تعاجيب الصنائع والعبر ما تستدلون به على مطالبكم الدينية ليعاملكم معاملة من يبتليكم ( ايكم احسن عملا ) فيجازيكم بالثواب والعقاب غب ما تبين المحسن من المسيء وامتازت ( ٥٩ ) درجات افراد كل من الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتبة على انظارهم فيما نصب من الحجج والدلائل والامارات والمخايل ومراتب اعمالهم المتفرعة على ذلك فان العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره عليه السلام بقوله ايكم احسن عقلا واورع عن محارم الله واسرع فى طاعة الله فان لكل من القلب والقالب عملا مخصوصا به فكما ان الاول اشرف من الثانى فكذا الحال فى عمله كيف لا ولا عمل بدون معرفة الله عز وجل الواجبة على العباد اثر ذى أثير وانما طريقها النظر والتفكر فى بدائع صنائع الملك الخلاق والتدبر فى آياته البينات المنصوبة فى الانفس والآفاق ولا طاعة بدون فهم ما فى مطاوى الكتاب الحكيم من الاوامر والنواهى وغير ذلك مما له مدخل فى الباب وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا تفضلونى على يونس بن متى فانه كان يرفع له كل يوم مثل عمل اهل الارض قالوا وانما كان ذلك التفكر فى امر الله عز وجل الذى هو عمل القلب لان احدا لا يقدر على ان يعمل فى اليوم بجوارحه مثل عمل اهل الارض وتعليق فعل البلوى اى تعقيبه بحرف الاستفهام لا التعليق المشهور الذى يقتضى عدم ايراد المفعول اصلا مع اختصاصه بافعال القلوب لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالنظر ونظائره ولذلك اجرى مجراه بطريق التمثيل او الاستعارة التبعية وايراد صيغة التفضيل مع ان الابتلاء شامل للفريقين باعتبار اعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح ايضا لا الى الحسن والاحسن فقط للايذان بأن المراد بالذات والمقصود الاصلى مما ذكر من ابداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع انما هو ظهور كمال احسان المحسنين وان ذلك لكونه على أتم الوجوه اللائقة واكمل الاساليب الرائقة يوجب العمل بموجبه بحيث لا يحيد احد عن سننه المستبين بل يهتدى

كل فرد الى مايرشد اليه من مطلق الايمان والطاعة وانما التفاوت بينهم فى مراتبهما بحسب القوة والضعف والكثرة والقلة. واما الاعراض عن ذلك والوقوع فى مهاوى الضلال فبمعزل من الاندراج ( ٦٠ ) تحت الوقوع فضلا عن أن ينظم ظهوره فى سلك العلة الغائية لذلك الصنع البديع وانما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له ولا تقريب ولايخفى مافيه من الترغيب فى الترقى الى معارج العلوم ومدارج الطاعات والزجر عن مباشرة نقائضها والله تعالى اعلم ( ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ) على مايوجبه قضية الابتلاء ليترتب عليه الجزاء المتفرع على ظهور مراتب الاعمال ( ليقولن الذين كفروا ) ان وجه الخطاب فى قوله تعالى انكم الى جميع المكلفين فالموصول مع صلته للتخصيص اى ليقولن الكافرون منهم وان وجه الى الكافرين منهم فهو وارد على طريقة الذم ( ان هذا الا سحر مبين ) اى مثله فى الخديعة او البطلان وهذا اشارة الى القول المذكور اوالى القرآن فان الاخبار عن كونهم مبعوثين وان لم يجب كونه بطريق الوحى المتلو الا انهم عند سماعهم ذلك تخلصوا الى القرآن لانبائه عنه فى كل موضع وكونه علما عندهم فى ذلك فصمدوا الى تكذيبه وتسميته سحرا تماديا منهم فى العناد وتفاديا عن سنن الرشاد وقيل هو اشارة الى نفس البعث ولايلائمه التسمية بالسحر فانه انما يطلق على شئ موجود ظاهر الاصل له فى الحقيقة ونفس البعث عندهم معدوم بحت وتعلق الآية الكريمة بماقبلها اما من حيث ان البعث كما اشير اليه من تتمات الابتلاء المذكور فكأنه قيل الامر كما ذكر ومع ذلك ان اخبرتهم بمقدمة فذة من مقدماته وقضية فردة من تتماته لايتلعثمون فى الرد ويعدون ذلك من قبيل مالاصحة له اصلا فضلا عن تصديق ماهذه من تتماته واما من حيث ان البعث خلق جديد فكأنه قيل وهو الذى خلق جميع المخلوقات ابتداء لهذه الحكمة البالغة ومع ذلك ان اخبرتهم بأنه يعيدهم تارة اخرى وهو اهون عليه يقولون

فى تفسير هذه الآية ياابن آدم اذا نزلت بك نعمة من الله فأنت كفور فاذا نزعت منك فيؤس قنوط (والقول الثانى) ان المراد منه الكافر ويدل عليه وجوه (الاول) ان الاصل فى المفرد المحلى بالالف واللام ان يحمل على المعهود السابق لولا المانع وههنا لامانع فوجب حمله عليه والمعهود السابق هو الكافر المذكور فى الآية المتقدمة (الثانى) ان الصفات المذكورة للانسان فى هذه الآية لاتليق الا بالكافر لانه وصفه بكونه يؤسا وذلك من صفات الكافر لقوله تعالى انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون ووصفه ايضا بكونه كفورا وهو تصريح بالكفر ووصفه ايضا بأنه عند وجدان الراحة يقول ذهب السيئات عنى وذلك جراءة على الله تعالى ووصفه ايضا بكونه فرحا والله لايحب الفرحين ووصفه ايضا بكونه فخورا وذلك ليس من صفات اهل الدين ثم قال الناظرون لهذا القول وجب ان يحمل الاستثناء المذكور فى هذه الآية على الاستثناء المنقطع حتى لاتلزمنا هذه المحذورات (المسئلة الثانية) لفظ الاذاقة والذوق يفيد اقل مايوجد به الطعم فكان المراد ان الانسان بوجدان اقل القليل من الخيرات العاجلة يقع فى التمرد والطغيان وبادراك اقل القليل من المحنة والبلية يقع فى اليأس والقنوط والكفران فالدنيا فى نفسها قليلة والحاصل منها للانسان الواحد قليل والاذاقة من ذلك المقدار خير قليل ثم انه فى سرعة الزوال يشبه احلام النائمين وخيالات الموسوسين فهذه الاذاقة قليل من قليل ومع ذلك فان الانسان لاطاقة له بتحملها ولاصبر له على الاتيان بالطريق الحسن معها واما النعماء فقال الواحدى انها انعام يظهر اثره على صاحبه والضراء مضرة يظهر اثرها على صاحبها لانها اخرجت مخرج الاحوال الظاهرة نحو حمراء وعوراء وهذا هو الفرق بين النعمة والنعماء والمضرة والضراء (المسئلة الثالثة) اعلم ان احوال الدنيا غير باقية بل هى ابدا فى التغير والزوال والتحول والانتقال الا ان الضابط فيه انه اما ان يتحول من النعمة الى المحنة ومن اللذات الى الآفات واما ان يكون بالعكس من ذلك وهو ان ينتقل من المكروه الى المحبوب ومن المحرمات الى الطيبات (اما القسم الاول) فهو المراد من قوله ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤس كفور وحاصل الكلام انه تعالى حكم على هذا الانسان بأنه يؤس كفور وتقريره ان يقال انه حال زوال تلك النعمة يصير يؤسا وذلك لان الكافر يعتقد ان السبب فى حصول تلك النعمة سبب اتفاقى ثم انه يستبعد حدوث ذلك الاتفاق مرة اخرى فلاجرم يستبعد عود تلك النعمة فيقع فى اليأس واما المسلم الذى يعتقد ان تلك النعمة انما حصلت من الله تعالى وفضله واحسانه وطوله فانه لايحصل له اليأس بل يقول لعله تعالى يردها الى بعد ذلك اكمل واحسن وافضل مما كانت واما حال كون تلك النعمة حاصلة فانه يكون كفورا لانه لما اعتقد ان حصولها انما كان على سبيل الاتفاق اوبسبب ان الانسان حصلها بسبب جده وجهده فحينئذ لايشتغل بشكر الله تعالى على تلك النعمة فالحاصل ان الكافر يكون عند زوال تلك

( النعمة )

مايقولون فسبحان الله عما يصفون وقرأ حمزة والكسائى الاساحر على ان الاشارة الى القائل او الى القرآن على اسلوب شعر شاعر وقرئ بالفتح على تضمين قلت معنى ذكرت او على ان انك بمعنى علك فى علك



اى ولئن قلت لعلكم مبعوثون على ان الرجاء والتوقع باعتبار

النعمة يؤوسا وعند حصولها يكون كفورا (واما القسم الثانى) وهو ان ينقل الانسان من المكروه الى المحبوب ومن المحنة الى النعمة فههنا الكافر يكون فرحا فخورا اما قوة الفرح فلان منتهى طمع الكافر هو الفوز بهذه السعادات الدنيوية وهو منكر للسعادات الاخروية الروحانية فاذا وجد الدنيا فكأنه قد فاز بغاية السعادات فلاجرم يعظم فرحه بها واما كونه فخورا فلانه لما كان الفوز بسائر المطلوب نهاية السعادة لاجرم يفتخر به فحاصل الكلام انه تعالى بين ان الكافر عند البلاء لايكون من الصابرين وعند الفوز بالنعماء لايكون من الشاكرين ثم لما قرر ذلك قال الا الذين صبروا وعملوا الصالحات والمراد منه ضد ماتقدم فقوله الا الذين صبروا المراد منه ان يكون عند البلاء من الصابرين وقوله وعملوا الصالحات المراد منه ان يكون عند الراحة والخير من الشاكرين ثم بين حالهم فقال اولئك لهم مغفرة واجر كبير فجمع لهم بين هذين المطلوبين (احدهما) زوال العقاب والخلاص منه وهو المراد من قوله لهم مغفرة (والثانى) الفوز بالثواب وهو المراد من قوله واجر كبير ومن وقف على هذا التفصيل الذى ذكرناه علم ان هذا الكتاب الكريم كما انه معجز بحسب الفاظه فهو ايضا معجز بحسب معانيه ※ قوله تعالى (فلعلك تارك بعض مايوحى اليك وضائق به صدرك ان يقولوا لولا انزل عليه كنز او جاء معه ملك انما انت نذير والله على كل شئ وكيل) اعلم ان هذا نوع آخر من كلمات الكفار والله تعالى بين ان قلب الرسول ضاق بسببه ثم انه تعالى قواه وايده بالاكرام والتأييد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان رؤساء مكة قالوا يامحمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا ان كنت رسولا وقال آخرون ائتنا بالملائكة يشهدوا بنبوتك فقال لااقدر على ذلك فنزلت هذه الآية واختلفوا فى المراد بقوله تارك بعض مايوحى اليك قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم ائتنا بكتاب ليس فيه شتم آلهتنا حتى نتبعك ونؤمن بك وقال الحسن طلبوا منه لايقول ان الساعة آتية وقال بعضهم المراد نسبتهم الى الجهل والتقليد والاصرار على الباطل (المسئلة الثانية) اجمع المسلمون على انه لايجوز على الرسول عليه الصلاة والسلام ان يخون فى الوحى والتنزيل وان يترك بعض مايوحى اليه لان تجويزه يؤدى الى الشك فى كل الشرائع والتكاليف وذلك يقدح فى النبوة وايضا فالمقصود من الرسالة تبليغ تكاليف الله تعالى واحكامه فاذا لم تحصل هذه الفائدة فقد خرجت الرسالة عن ان تفيد فائدتها المطلوبة منها واذا ثبت هذا وجب ان يكون المراد من قوله فلعلك تارك بعض مايوحى اليك شيئاً آخر سوى انه عليه السلام فعل ذلك وللناس فيه وجوه (الاول) لايمتنع ان يكون فى معلوم الله تعالى انه انما يترك التقصير فى اداء الوحى والتنزيل لسبب يرد عليه من الله تعالى امثال هذه التهديدات البليغة (الثانى) انهم كانوا لايعتقدون بالقرآن ويتهاونون به فكان يضيق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم ان يلقى اليهم

حال المخاطبين اى توقعوا ذلك ولاتبتوا القول بانكاره او على انه مجاراة معهم فى الكلام على نهج المساعدة لئلا يسارعوا الى اللجاج والعناد ثم اقرع اسماعهم بت القول بخلاف ماالفوا والفوا عليه آباءهم من انكار البعث ويكون ذلك ادعى لهم الى التأمل والتدبر وما فعلوه قاتلهم الله انى يؤفكون (ولئن اخرنا عنهم العذاب) المترتب على بعثهم او العذاب الموعود فى قوله تعالى فان تولوا فانى اخاف عليكم عذاب يوم كبير وقيل عذاب يوم بدر وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه قتل جبريل عليه السلام للمستهزئين والظاهر ان المراد به العذاب الشامل للكفرة دون مايخص ببعض منهم على انه لم يكن موعودا يستعجل منه المجرمون (الى امة معدودة) الى طائفة من الانام قليلة لان مايحصره العد قليل (ليقولن مايحبسه) اى اى شئ يمنعه من المجئ فكأنه يريده فيمنعه مانع وانما كانوا يقولونه بطريق الاستعجال استهزاء لقوله تعالى ماكانوا به يستهزؤن ومرادهم انكار المجئ والحبس رأسا لا الاعتراف به والاستفسار عن حابسه (الايوم يأتيهم) ذلك (ليس مصروفا) محبوسا (عنهم) على معنى انه لايرفعه رافع ابدا ان اريد به عذاب الآخرة اولايدفعه عنكم دافع بل هو واقع بكم ان اريد به عذاب الدنيا ويوم منصوب بخبر ليس مقدما عليه واستدل به البصريون على جواز تقديمه على ليس اذ المعمول تابع للعامل فلا يقع الا حيث يقع متبوعه ورد بأن الظرف يجوز فيه مالايجوز فى غيره توسعا وبانه قد يقدم المعمول حيث لايجال لتقدم العامل كما فى قوله تعالى فاما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا تنهر فان اليتيم والسائل مع كونهما منصوبين بالفعلين المجزومين قد تقدما على لا الناهية مع امتناع تقدم الفعلين عليها

مالا يقبلونه ويضحكون منه فهيجه الله تعالى لاداء الرسالة وطرح المبالاة بكلماتهم الفاسدة وترك الالتفات الى استهزائهم والغرض منه التنبيه على انه ان ادى ذلك الوحى وقع فى سخريتهم وسفاهتهم وان لم يؤد ذلك الوحى اليهم وقع فى ترك وحى الله تعالى وفى ايقاع الخيانة فيه فاذا لابد من تحمل احد الضررين وتحمل ضرر سفاهتهم اسهل من تحمل ايقاع الخيانة فى وحى الله تعالى والغرض من ذكر هذا الكلام التنبيه على هذه الدقيقة لان الانسان اذا علم ان كل واحد من طرفى الفعل والترك يشتمل على ضرر عظيم ثم علم ان الضرر فى جانب الترك اعظم واقوى سهل عليه ذلك الفعل وخف فالمقصود من ذكر هذا الكلام ما ذكرناه فان قيل قوله فلعلك كلمة شك فما الفائدة فيها قلنا المراد منها الزجر والعرب تقول للرجل اذا ارادوا ابعاده عن امر لعلك تقدر ان تفعل كذا مع انه لا شك فيه ويقول لولده لو امره لعلك تقصر فيما امرتك به ويريد توكيد الامر فمعناه لا تترك واما قوله وضائق به صدرك فالضائق بمعنى الضيق قال الواحدى الفرق بينهما ان الضائق يكون بضيق عارض غير لازم لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان افسح الناس صدرا ومثله قولك زيد سيد جواد تريد السيادة والجود الثابتين المستقرين فاذا اردت الحدوث قلت سائد وجائد والمعنى ضائق صدرك لاجل ان يقولوا لولا انزل عليه فان قيل الكنز كيف ينزل قلنا المراد ما يكنز وجرت العادة على انه يسمى المال الكثير بهذا الاسم فكأن القوم قالوا ان كنت صادقا فى انك رسول الاله الذى تصفه بالقدرة على كل شئ وانك عزيز عنده فهلا انزل عليك ما تستغنى به وتغنى احبابك من الكد والعناء وتستعين به على مهماتك وتعين انصارك وان كنت صادقا فهلا انزل الله معك ملكا يشهد لك على صدق قولك ويعينك على تحصيل مقصودك فتزول الشبهة فى امرك فلما لم يفعل الهك ذلك فأنت غير صادق فبين تعالى انه رسول منذر بالعقاب ومبشر بالثواب ولا قدرة له على ايجاد هذه الاشياء والذى ارسله هو القادر على ذلك فان شاء فعل وان شاء لم يفعل ولا اعتراض لاحد عليه فى فعله وفى حكمه ومعنى وكيل حفيظ اى يحفظ عليهم اعمالهم اى يجازيهم بها ونظير هذه الآية قوله تعالى تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا وقوله قالوا لن نؤمن لك الى قوله قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا ❊ قوله تعالى (ام يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) اعلم ان القوم لما طلبوا منه المعجز قال معجزى هذا القرآن ولما حصل المعجز الواحد كان طلب الزيادة بغيا وجهلا ثم قرر كونه معجزا بان تحداهم بالمعارضة وتقرير هذا الكلام بالاستقصاء قد تقدم فى سورة البقرة وفى سورة يونس وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) الضمير فى قوله افتراه عائد الى ما سبق من قوله يوحى اليك اى ان قالوا ان هذا الذى يوحى اليك مفترى فقل لهم حتى يأتوا بعشر سور مثله مفتريات وقوله مثله بمعنى امثاله حملا على كل واحد من تلك السور ولا يبعد ايضا ان يكون

قال ابو حيان وقد تتبعت جملة من دواوين العرب فلم اظفر بتقديم خبر ليس عليها ولا بتقديم معموله الا ما دل عليه ظاهر هذه الآية الكريمة وقول الشاعر فيأبى فما يزداد الا لجاجة ❊ وكنت ابيا فى الخنا لست (٦٢) اقدم (وحاق بهم) اى احاط بهم (ما كانوا به يستهزؤن) اى العذاب الذى كانوا يستعجلون به استهزاء وفى التعبير عنه بالموصول تهويل لمكانه واشعار بعلية ما ورد فى حيز الصلة من استهزائهم به لنزوله واحاطته والتعبير عنها بالماضى وارد على عادة الله تعالى فى اخباره لانها فى تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة وفى ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر وتقرير وقوع المخبر به ما لا يخفى (ولئن اذقنا الانسان منا رحمة) اى اعطيناه نعمة من صحة وامن وجدة وغيرها واوصلناها اليه بحيث يجد لذتها (ثم نزعناها منه) اى سلبناه اياها وايراد النزع للاشعار بشدة تعلقه بها وحرصه عليها (انه ليؤس) شديد القنوط من روح الله قطوع رجاءه من عود امثالها عاجلا او آجلا بفضل الله تعالى لقلة صبره وعدم توكله عليه وثقته به (كفور) عظيم الكفران لما سلف من النعم وفيه اشارة الى ان النزع انما كان بسبب كفرانهم بما كانوا يتقلبون فيه من نعم الله عز وجل وتأخيره عن وصف يأسهم مع تقدمه عليه لرعاية الفواصل على ان اليأس من فضل الله سبحانه وقطع الرجاء عن افاضة امثاله فى العاجل وايصال اجره فى الآجل من باب الكفران للنعمة السالفة ايضا (ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته) كصحة بعد سقم وجدة بعد عدم وفرج بعد شدة وفى التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن بلذتهما وكونهما مما يرغب فيه وعن ملابسة الضراء بالمس المشعر بكونها فى ادنى ما ينطلق عليه اسم الملاقاة من مراتبها واسناد الاول الى الله عز وجل دون الثانى ما لا يخفى من الجزالة والدلالة على ان مراده تعالى انما هو ايصال الخير المرغوب فيه على احسن ما يكون وانه انما يريد بعباده اليسر دون العسر وانما

(المراد)

المراد هو المجموع لان مجموع السور العشرة شئ واحد (المسئلة الثانية) قال ابن عباس هذه السورة التي وقع بها هذا التحدى معينة وهى سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف والانفال والتوبة ويونس وهود عليهما السلام وقوله فأتوا بعشر سور مثله مفتريات اشارة الى السور المتقدمة على هذه السورة وهذا فيه اشكال لان هذه السورة مكية وبعض السور المتقدمة على هذه السورة مدنية فكيف يمكن ان يكون المراد من هذه العشر سور التى مانزلت عند هذا الكلام فالاولى ان يقال التحدى وقع بمطلق السور التى يظهر فيها قوة تركيب الكلام وتأليفه واعلم ان التحدى بعشر سور لابد وان يكون سابقا على التحدى بسورة واحدة وهو مثل ان يقول الرجل لغيره اكتب عشرة اسطر مثل ما اكتب فاذا ظهر عجزه عنه قال قد اقتصرت منها على سطر واحد مثله اذا عرفت هذا فنقول التحدى بالسورة الواحدة ورد فى سورة البقرة وفى سورة يونس كما تقدم اما تقدم هذه السورة على سورة البقرة فظاهر لان هذه السورة مكية وسورة البقرة مدنية واما فى سورة يونس فالاشكال زائل ايضا لان كل واحدة من هاتين السورتين مكية والدليل الذى ذكرناه يقتضى ان تكون سورة هود متقدمة فى النزول على سورة يونس حتى يستقيم الكلام الذى ذكرناه (المسئلة الثالثة) اختلف الناس فى الوجه الذى لاجله كان القرآن معجزا فقال بعضهم هو الفصاحة وقال بعضهم هو الاسلوب وقال ثالث هو عدم التناقض وقال رابع هو اشتماله على العلوم الكثيرة وقال خامس هو الصرف وقال سادس هو اشتماله على الاخبار عن الغيوب والمختار عندى وعند الاكثرين انه معجز بسبب الفصاحة واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية لانه لو كان وجه الاعجاز هو كثرة العلوم او الاخبار عن الغيوب او عدم التناقض لم يكن لقوله مفتريات معنى اما اذا كان وجه الاعجاز هو الفصاحة صح ذلك لان فصاحة الفصيح تظهر بالكلام سواء كان الكلام صدقا او كذبا وايضا لو كان الوجه فى كونه معجزا هو الصرف لكان دلالة الكلام الركيك النازل فى الفصاحة على هذا المطلوب أوكد من دلالة الكلام العالى فى الفصاحة ثم انه تعالى لما قرر وجه التحدى قال وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين والمراد ان كنتم صادقين فى ادعاء كونه مفترى كما قال أم يقولون افتراه واعلم ان هذا الكلام يدل على انه لابد فى اثبات الدين من تقرير الدلائل والبراهين وذلك لانه تعالى أورد فى اثبات نبوة محمد عليه السلام هذا الدليل وهذا الحجة ولولا ان الدين لايتم الا بالدليل لم يكن فى ذكره فائدة ※ قوله تعالى (فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما انزل بعلم الله وان لا اله الا هو فهل انتم مسلمون) اعلم ان الآية المتقدمة اشتملت على خطابين (احدهما) خطاب الرسول وهو قوله قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات (والثانى) خطاب الكفار وهو قوله وادعوا من استطعتم من دون الله فلما اتبعه بقوله فان لم يستجيبوا لكم احتمل ان يكون المراد ان الكفار لم يستجيبوا فى المعارضة لتعذرها عليهم واحتمل ان من

ينالهم ذلك بسوء اختيارهم نيلا يسيرا كانما يلاصق البشرة من غير تأثير واما نزع الرحمة فانما صدر عنه بقضية الحكمة الداعية الى ذلك وهى كفرانهم بها كما سبق وتنكير الرحمة (٦٣) باعتبار لحوق النزع بها (ليقولن ذهب السيآت عنى) اى المصائب التى تسوءنى ولن تعتريني بعد امثالها كما هو شأن اولئك الاشرار فان الترقب لورود امثالها مما يكدر السرور وينغص العيش (انه لفرح) بطر واشر بالنعم مغتر بها (فخور) على الناس بما اوتى من النعم مشغول بذلك عن القيام بحقها واللام فى لئن فى الآيات الاربع مؤطئة للقسم وجوابه ساد مسد جواب الشرط (الا الذين صبروا) على ما اصابهم من الضراء سابقا او لاحقا ايمانا بالله واستسلاما لقضائه (وعملوا الصالحات) شكرا على آلائه السالفة والآنفة واللام فى الانسان اما لاستغراق الجنس فالاستثناء متصل او للعهد فمنقطع (اولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل اى اولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة (لهم مغفرة) عظيمة لذنوبهم وان جمت (واجر) ثواب لاعمالهم الحسنة (كبير) ووجه تعلق الآيات الثلاث بما قبلهن من حيث ان اذاقة النعماء ومساس الضراء فصل من باب الابتلاء واقع موقع التفصيل من الاجمال الواقع فى قوله تعالى ليبلوكم ايكم احسن عملا والمعنى ان كلا من اذاقة النعماء ونزعها مع كونه ابتلاء للانسان ايشكر ام يكفر لايهتدى (٢) الى سنن الصواب بل يحيد فى كلتا الحالتين عنه الى مهاوى الضلال فلا يظهر منه باحسن عمل الا من الصابرين الصالحين او من حيث ان انكارهم بالبعث واستهزاءهم العذاب بسبب بطرهم وفخرهم كأنه قيل انما فعلوا ما فعلوا لان طبيعة الانسان

٢ قوله لايهتدى الخ ظاهر العبارة خلو الجملة من رابط يربطها باسم ان لان الضمير المستتر فى يهتدى عائد على الانسان كما لايخفى فلعل الرابط محذوف والتقدير لايهتدى فيه الخ تأمل اه (مصححه)

مجبولة على ذلك ( فلعلك تارك بعض مايوحى اليك ) من البينات الدالة على حقية نبوتك المنادية بكونها من عندالله عزوجل لمن له اذن واعية ( وضائق به صدرك ) اى عارض لك ضيق صدر بتلاوته عليهم وتبليغه اليهم ( ٦٤ ) فى اثناء الدعوة والمحاجة (ان يقولوا) لان يقولوا تعاميا عن تلك البراهين التى لاتكاد تخفى صحتها على احد ممن له ادنى بصيرة وتماديا فى العناد على وجه الاقتراح (لولا انزل عليه كنز) مال خطير مخزون يدل على صدقه (او جاء معه ملك) يصدقه قيل قاله عبدالله بن امية المخزومى *وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان رؤساء مكة قالوا يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا ان كنت رسولا وقال آخرون ائتنا بالملائكة يشهدوا بنبوتك فقال لااقدر على ذلك فنزلت فكأنه عليه الصلاة والسلام لما عاين اجتراءهم على اقتراح مثل هذه العظائم غير قانعين بالبينات الباهرة التى كانت تضطرهم الى القبول لوكانوا من ارباب العقول وشاهد ركوبهم من المكابرة متن كل صعب وذلول مسارعين الى المقابلة بالتكذيب والاستهزاء وتسميتها سحرا مثل حاله عليه الصلاة والسلام بحال من يتوقع منه ان يضيق صدره بتلاوة تلك الآيات الساطعة عليهم وتبليغها اليهم فحمل على الحذر منه بمافى لعل من الاشفاق فقيل ( انما انت نذير) ليس عليك الا الانذار بما اوحى اليك غير مبال بما صدر عنهم من الرد والقبول ( والله على كل شئ وكيل ) يحفظ احوالك واحوالهم فتوكل عليه فى جميع امورك فانه فاعل بهم مايليق بحالهم والاقتصار على النذير فى اقصى غاية من اصابة المحز (أم يقولون افتراه) اضراب بام المنقطعة عن ذكر ترك اعتدادهم بما يوحى وتهاونهم به وعدم اقتناعهم بما فيه من المعجزات الظاهرة الدالة على كونه من عندالله عزوجل وعلى حقية نبوته عليه الصلاة والسلام وشروع فى ذكر ارتكابهم لما هو اشد منه واعظم ومافيها من معنى الهمزة للتوبيخ والانكار والتعجب والضمير المستكن فى افتراه للنبى صلى الله عليه وسلم

( الاصول )

يدعونه من دون الله لم يستجيبوا فلهذا السبب اختلف المفسرون على قولين فبعضهم قال هذا خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين والمراد ان الكفار ان لم يستجيبوا لكم فى الاتيان بالمعارضة فاعلموا انما انزل بعلم الله والمعنى فاثبتوا على العلم الذى انتم عليه وازدادوا يقينا وثبات قدم على انه منزل من عندالله ومعنى قوله فهل انتم مسلمون اى فهل انتم مخلصون ومنهم من قال فيه اضمار والتقدير فقولوا ايها المسلمون للكفار اعلموا انما أنزل بعلم الله والقول الثانى ان هذا خطاب مع الكفار والمعنى ان الذين تدعونهم من دون الله اذا لم يستجيبوا لكم فى الاعانة على المعارضة فاعلموا ايها الكفار ان هذا القرآن انما أنزل بعلم الله فهل انتم مسلمون بعد لزوم الحجة عليكم والقائلون بهذا القول قالوا هذا اولى من القول الاول لانكم فى القول الاول احتجتم الى ان حملتم قوله فاعلموا على الامر بالثبات او على اضمار القول وعلى هذا الاحتمال لاحاجة فيه الى اضمار فكان هذا اولى وايضا فعود الضمير الى اقرب المذكورين واجب وأقرب المذكورين فى هذه الآية هو هذا الاحتمال الثانى وايضا ان الخطاب الاول كان مع الرسول عليه الصلاة والسلام وحده بقوله قل فأتوا بعشر سور والخطاب الثانى كان مع جماعة الكفار بقوله وادعوا من استطعتم من دون الله وقوله فان لم يستجيبوا لكم خطاب مع الجماعة فكان حمله على هذا الذى قلناه اولى بقى فى الآية سؤالات ( السؤال الاول ) ما الشئ الذى لم يستجيبوا فيه ( الجواب ) المعنى فان لم يستجيبوا لكم فى معارضة القرآن وقال بعضهم فان لم يستجيبوا لكم فى جملة الايمان وهو بعيد ( السؤال الثانى ) من المشار اليه بقوله لكم والجواب ان حملنا قوله فان لم يستجيبوا لكم على المؤمنين فذلك ظاهر وان حملناه على الرسول فعنه جوابان ( الاول ) المراد فان لم يستجيبوا لك وللمؤمنين لان الرسول عليه السلام والمؤمنين كانوا يتحدونهم وقال فى وضع آخر فان لم يستجيبوا لك فاعلم ( والثانى ) يجوز ان يكون الجمع لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم ( السؤال الثالث ) اى تعلق بين الشرط المذكور فى هذه الآية وبين مافيها من الجزاء (الجواب) ان القوم ادعوا كون القرآن مفترى على الله تعالى فقال لو كان مفترى على الله لوجب ان يقدر الخلق على مثله ولما لم يقدروا عليه ثبت انه من عندالله فقوله انما انزل بعلم الله كناية عن كونه من عندالله ومن قبله كما يقول الحاكم هذا الحكم جرى بعلمى ( السؤال الرابع ) اى تعلق لقوله وان لا اله الا هو بعجزهم عن المعارضة والجواب فيه من وجوه (الاول) انه تعالى لما امر محمدا صلى الله عليه وسلم حتى يطلب من الكفار ان يستعينوا بالاصنام فى تحقيق المعارضة ثم ظهر عجزهم عنها فحينئذ ظهر انها لاتنفع ولا تضر فى شئ من المطالب البتة ومتى كان كذلك فقد بطل القول باثبات كونهم آلهة فصار عجز القوم عن المعارضة بعد الاستعانة بالاصنام مبطلا لالهية الاصنام ودليلا على ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فكان قوله وان لا اله الا هو اشارة الى ما ظهر من فساد القول بالهية الاصنام (الثانى) انه ثبت فى علم

الاصول ان القول بنفى الشريك عن الله من المسائل التى يمكن اثباتها بقول الرسول عليه السلام وعلى هذا فكأنه قيل لماثبت عجز الخصوم عن المعارضة ثبت كون القرآن حقا وثبت كون محمد صلى الله عليه وسلم صادقا فى دعوى الرسالة ثم انه كان يخبر عن انه لااله الاالله فلماثبت كونه محقا فى دعوى النبوة ثبت قوله ان لااله الاهو (الثالث) ان ذكر قوله وان لااله الاهو جار مجرى التهديد كأنه قيل لماثبت بهذا الدليل كون محمد عليه السلام صادقا فى دعوى الرسالة وعلمتم انه لااله الاالله فكونوا خائفين من قهره وعذابه واتركوا الاصرار على الكفر واقبلوا الاسلام ونظيره قوله تعالى فى سورة البقرة عند ذكر آية التحدى فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين واما قوله فهل انتم مسلمون فان قلنا انه خطاب مع المؤمنين كان معناه الترغيب فى زيادة الاخلاص وان قلنا انه خطاب مع الكفار كان معناه الترغيب فى اصل الاسلام

* قوله تعالى (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون اولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الاالنار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) اعلم ان الكفار كانوا ينازعون محمدا صلى الله عليه وسلم فى اكثر الاحوال فكانوا يظهرون من انفسهم ان محمدا مبطل ونحن محقون وانما نبالغ فى منازعته لتحقيق الحق وابطال الباطل وكانوا كاذبين فيه بل كان غرضهم محض الحسد والاستنكاف من المتابعة فأنزل الله تعالى هذه الآية لتقرير هذا المعنى ونظير هذه الآية قوله تعالى من كان يريد العاجلة عجلناله فيها مانشاء لمن نريد وقوله من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان فى الآية قولين (الاول) انها مختصة بالكفار لان قوله من كان يريد الحياة الدنيا يندرج فيه المؤمن والكافر والصديق والزنديق لان كل احد يريد التمتع بلذات الدنيا وطيباتها والانتفاع بخيراتها وشهواتها الا ان آخر الآية يدل على ان المراد من هذا العام الخاص وهو الكافر لان قوله تعالى اولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الاالنار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ماكانوا يعملون لايليق الابالكفار فصار تقدير الآية من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فقط اى تكون ارادته مقصورة على حب الدنيا وزينتها ولم يكن طالبا لسعادات الآخرة كان حكمه كذا وكذا ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فيه فمنهم من قال المراد منهم منكروا البعث فانهم ينكرون الآخرة ولايرغبون الافى سعادات الدنيا وهذا قول الاصم وكلامه ظاهر (والقول الثانى) ان الآية نزلت فى المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع الرسول عليه السلام الغنائم من دون ان يؤمنوا بالآخرة وثوابها (والقول الثالث) ان المراد اليهود والنصارى وهو منقول عن أنس (والقول الرابع) وهو الذى اختاره القاضى ان المراد من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها وعمل الخير قسمان العبادات وايصال المنفعة الى

---

والبارز لما يوحى اى بل أيقولون افتراه وليس من عندالله (قل) ان كان الامر كماتقولون (فأتوا) انتم ايضا (بعشر سور مثله) فى البلاغة وحسن النظم وهو نعت لسور (٦٥) اى امثاله وتوحيده امابعتبار مماثلة كل واحدة منها اولان المطابقة ليست بشرط حتى يوصف المثنى بالمفرد كما فى قوله تعالى أنؤمن لبشرين مثلنا اوللايماء الى ان وجه الشبه ومدار المماثلة فى الجميع شئ واحد هو البلاغة المؤدية الى مرتبة الاعجاز فكأن الجميع واحد (مفتريات) صفة اخرى لسور اخرت عن وصفها بالمماثلة لمايوحى لانها الصفة المقصودة بالتكليف اذبها يظهر عجزهم وقعودهم عن المعارضة واماوصف الافتراء فلايتعلق به غرض يدور عليه شئ فى مقام التحدى وانماذكر على نهج المساهلة وارخاء العنان ولانه لوعكس الترتيب لربماتوهم ان المراد هو المماثلة فى الافتراء والمعنى فأتوا بعشر سور مماثلة له فى البلاغة مختلقات من عند انفسكم ان صح انى اختلقته من عندى فانكم اقدر على ذلك منى لانكم عرب فصحاء بلغاء قدمارستم مبادى ذلك من الخطب والاشعار وحفظتم الوقائع والايام وزاولتم اساليب النظم والنثر (وادعوا) للاستظهار فى المعارضة (من استطعتم) دعاءه والاستعانة به من آلهتكم التى تزعمون انها ممدة لكم فى كل ماتأتون وماتذرون والكهنة ومدارهكم الذين تلجؤن الى آرائهم فى الملمات ليسعدوكم فيها (من دون الله) متعلق بأدعوا اى متجاوزين الله تعالى (ان كنتم صادقين) فى انى افتريته فان ذلك يستلزم امكان الاتيان بمثله وهو ايضا يستلزم قدرتكم عليه والجواب محذوف يدل عليه المذكور (فان لم يستجيبوا لكم) اى فان لم يفعلوا ما كلفوه من الاتيان بمثله كقوله تعالى فان لم تفعلوا والسلام على كمال امن من امره كأن امره لهم بالاتيان بمثله دعاء لهم الى امر يريد وقوعه والضمير فى لكم للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم كما فى قول من قال وانما عبر عنه بالاستجابة ايماء الى انه عليه الصلاة

(٩) (را) (خا)

* وان شئت حرمت النساء سواكم * اوله وللمؤمنين لانهم اتباع له عليه الصلاة والسلام فى الامر بالتحدى وفيه تنبيه لطيف على ان حقهم ان لا ينفكوا عنه عليه الصلاة والسلام  و يناصبوا معه المعارضة للمعارضين كما كانوا ايضا اوند فى الجهد

الحيوان ويدخل فى هذا القسم الثانى البر وصلة الرحم والصدقة وبناء القناطر وتسوية الطرق والسعى فى دفع الشرور واجراء الانهار فهذه الاشياء اذا أتى بها الكافر لاجل الثناء فى الدنيا فان بسببها تصل الخيرات والمنافع الى المحتاجين فكلها تكون من اعمال الخير فلاجرم هذه الاعمال تكون طاعات سواء صدرت من الكافر او المسلم واما العبادات فهى انما تكون طاعات بنيات مخصوصة فاذا لم يؤت بتلك النية وانما أتى فاعلها بها على طلب زينة الدنيا وتحصيل الرياء والسمعة فيها صار وجودها كعدمها فلا تكون من باب الطاعات واذا عرفت هذا فنقول قوله من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها المراد منه الطاعات التى يصح صدورها من الكافر ( القول الثانى ) وهو ان نجرى الآية على ظاهرها فى العموم ونقول انه يندرج فيه المؤمن الذى يأتى بالطاعات على سبيل الرياء والسمعة ويندرج فيه الكافر الذى هذا صفته وهذا القول مشكل لان قوله اولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار لايليق بالمؤمن الا اذا قلنا المراد اولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار بسبب هذه الاعمال الفاسدة والافعال الباطلة المقرونة بالرياء ثم القائلون بهذا القول ذكروا اخبارا كثيرة فى هذا الباب روى ان الرسول عليه السلام قال تعوذوا بالله من جب الحزن قيل وما جب الحزن قال عليه الصلاة والسلام واد فى جهنم يلقى فيه القراء المراؤن وقال عليه الصلاة والسلام اشد الناس عذابا يوم القيامة من يرى الناس ان فيه خيرا ولا خير فيه وعن ابى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اذا كان يوم القيامة يدعى برجل جمع القرآن فيقال له ما عملت فيه فيقول يارب قمت به آناء الليل والنهار فيقول الله تعالى كذبت بل أردت ان يقال فلان قارئ وقد قيل ذلك ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له ألم اوسع عليك فماذا عملت فيما آتيتك فيقول وصلت الرحم وتصدقت فيقول الله تعالى كذبت بل اردت ان يقال فلان جواد وقد قيل ذلك ويؤتى بمن قتل فى سبيل الله فيقول قاتلت فى الجهاد حتى قتلت فيقول الله تعالى كذبت بل اردت ان يقال فلان جرئ وقد قيل ذلك قال ابو هريرة رضى الله عنه ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ركبتى وقال ياأباهريرة اولئك الثلاثة اول خلق تسعر بهم النار يوم القيامة وروى أن أباهريرة رضى الله عنه ذكر هذا الحديث عند معاوية قال الراوى فبكى حتى ظننا انه هالك ثم افاق وقال صدق الله ورسوله من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها ( المسئلة الثانية ) المراد من توفية اجور تلك الاعمال هو ان كل مايستحقون بها من الثواب فانه يصل اليهم حال كونهم فى دار الدنيا فاذا خرجوا من الدنيا لم يبق معهم من تلك الاعمال أثر من آثار الخيرات بل ليس لهم منها الا النار واعلم ان العقل يدل عليه قطعا وذلك لان من أتى بالاعمال لاجل طلب الثناء فى الدنيا ولاجل الرياء فذلك لاجل انه غلب على قلبه حب الدنيا ولم يحصل فى قلبه حب الآخرة اذ لو عرف حقيقة الآخرة ومافيها من

وارشاد الى ان ذلك مما يفيد الرسوخ فى الايمان والطمأنينة فى الايقان ولذلك رتب عليه قوله عزوجل ( فاعلموا ) اى اعلموا حين ظهر لكم عجزهم عن المعارضة مع تهالكهم عليها علما يقينا متاخما لعين اليقين بحيث لامجال معه لشائبة ريب بوجه من الوجوه كأن ماعداه من مراتب العلم ليس بعلم لكن لاللاشعار بانحطاط تلك المراتب بل بارتفاع هذه المرتبة وبه يتضح سر ايراد كلمة الشك مع القطع بعدم الاستجابة فان تنزيل سائر المراتب منزلة العدم مستتبع لتنزيل الجزم بعدم الاستجابة منزلة الشك فيه او اثبتوا واستقروا على ماكنتم عليه من العلم ( انما انزل ) ملتبسا ( بعلم الله ) المخصوص به بحيث لايحوم حوله العقول والافهام مستبدا بخصائص الاعجاز من جهتى النظم الرائق والاخبار بالغيب ( وان لااله الا هو ) اى واعلموا ايضا ان لاشريك له فى الالوهية واحكامها ولا يقدر على مايقدر عليه أحد ( فهل انتم مسلمون ) اى مخلصون فى الاسلام او ثابتون عليه وهذا من باب التثبيت والترقية الى معارج اليقين ويجوز ان يكون الخطاب فى الكل للمشركين من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم داخلا تحت الامر بالتحدى والضمير فى لم يستجيبوا لمن استطعتم اى فان لم يستجب لكم آلهتكم وسائر من اليهم تجأرون فى مهماتكم وملماتكم الى المعاونة والمظاهرة فاعلموا ان ذلك خارج عن دائرة قدرة البشر وانه منزل من خالق القوى والقدر فايراد كلمة الشك حينئذ مع الجزم بعدم الاستجابة من جهة آلهتهم تهكم بهم وتسجيل عليهم بكمال سخافة العقل وترتيب الامر بالعلم على مجرد عدم الاستجابة من حيث انه مسبوق بالدعاء المسبوق بعجزهم ( السعادات )

السعادات لاعتنع ان يأتى بالخيرات لاجل الدنيا وينسى امر الآخرة فثبت ان الآتى باعمال البر لاجل الدنيا لابد وان يكون عظيم الرغبة فى الدنيا عديم الطلب للآخرة ومن كان كذلك فاذا مات فانه يفوته جميع منافع الدنيا ويبقى عاجزا عن وجدانها غير قادر على تحصيلها ومن احب شيئا ثم حيل بينه وبين المطلوب فانه لابد وان تشتعل فى قلبه نيران الحسرات فثبت بهذا البرهان العقلى ان كل من أتى بعمل من الاعمال لطلب الاحوال الدنيوية فانه يجد تلك المنفعة الدنيوية اللائقة بذلك العمل ثم اذا مات فانه لا يحصل له منه الا النار ويصير ذلك العمل فى الدار الآخرة محبطا باطلا عديم الاثر ❊ قوله تعالى (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة اولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده فلاتك فى مرية منه انه الحق من ربك ولكن اكثر الناس لايؤمنون) اعلم ان تعلق هذه الآية بما قبلها ظاهر والتقدير أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم فى الآخرة الا النار الا انه حذف الجواب لظهوره ومثله فى القرآن كثير كقوله تعالى أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء وقوله أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما وقوله قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون واعلم ان اول هذه الآية مشتمل على الفاظ اربعة كل واحد منها مجمل (فالاول) ان هذا الذى وصفه الله تعالى بأنه على بينة من ربه من هو (والثانى) انه ما المراد بهذه البينة (والثالث) ان المراد بقوله يتلوه القرآن او كونه حاصلا عقيب غيره (والرابع) ان هذا الشاهد ما هو فهذه الالفاظ الاربعة مجملة فلهذا كثر اختلاف المفسرين فى هذه الآية (اما الاول) وهو ان هذا الذى وصفه الله تعالى بانه على بينة من ربه من هو فقيل المراد به النبى عليه الصلاة والسلام وقيل المراد به من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره وهو الاظهر لقوله تعالى فى آخر الآية أولئك يؤمنون به وهذا صيغة جمع فلا يجوز رجوعه الى محمد صلى الله عليه وسلم والمراد بالبينة هو البيان والبرهان الذى عرف به صحة الدين الحق والضمير فى يتلوه يرجع الى معنى البينة وهو البيان والبرهان والمراد بالشاهد هو القرآن ومنه اى من الله ومن قبله كتاب موسى اى ويتلو ذلك البرهان من قبل مجئ القرآن كتاب موسى واعلم ان كون كتاب موسى تابعا للقرآن ليس فى الوجود بل فى دلالته على هذا المطلوب واماما نصب على الحال فالحاصل انه يقول اجتمع فى تقرير صحة هذا الدين امور ثلاثة (اولها) دلالة البينات العقلية على صحته (وثانيها) شهادة القرآن بصحته (وثالثها) شهادة التوراة بصحته فعند اجتماع هذه الثلاثة لا يبقى فى صحته شك ولا ارتياب فهذا القول احسن الاقاويل فى هذه الآية وأقربها الى مطابقة اللفظ وفيها أقوال أخر (فالقول الاول) ان الذى وصفه الله تعالى بأنه على بينة من ربه هو محمد عليه السلام والبينة هو القرآن والمراد بقوله يتلوه هو التلاوة بمعنى القراءة وعلى هذا التقدير فذكروا فى تفسير الشاهد وجوها

واضطرارهم فكأنه قيل فان لم يستجيبوا لكم عند التجائكم اليهم بعدما اضطررتم الى ذلك وضاقت عليكم الحيل وعيت بكم العلل او من حيث ان من يستمدون بهم اقوى منهم فى اعتقادهم (٦٧) فاذا ظهر عجزهم بعدم استجابتهم وان كان ذلك قبل ظهور عجز أنفسهم يكون عجزهم اظهر واوضح واعلموا ايضا ان آلهتكم بمعزل عن رتبة الشركة فى الالوهية واحكامها فهل أنتم داخلون فى الاسلام اذ لم يبق بعد شائبة شبهة فى حقيته وفى بطلان ما كنتم فيه من الشرك فيدخل فيه الاذعان لكون القرآن من عند الله تعالى دخولا اوليا او منقادون للحق الذى هو كون القرآن من عند الله تعالى وتاركون لما كنتم فيه من المكابرة والعناد وفى هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر واقناط من ان يجيرهم آلهتهم من بأس الله عز سلطانه هذا والاول انسب لماسلف من قوله تعالى وضائق به صدرك ولما سيأتى من قوله تعالى فلاتك فى مرية منه واشد ارتباطا بما يعقبه كما ستحيط به خبرا (من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها) اى ما يزينها ويحسنها من الصحة والامن والسعة فى الرزق وكثرة الاولاد والرياسة وغير ذلك والمراد بالارادة ما يحصل عند مباشرة الاعمال لا مجرد الارادة القلبية لقوله تعالى (نوف اليهم اعمالهم فيها) وادخال كان عليها للدلالة على استمرارها منهم بحيث لا يكادون يريدون الآخرة اصلا وليس المراد باعمالهم اعمال كلهم فانه لا يجد كل متمن ما يتمناه ولا كل احد ينال كل ما يهواه فان ذلك منوط بالمشيئة الجارية على قضية الحكمة كما نطق به قوله تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ولا كل اعمالهم بل بعضها الذى يترتب عليه الامور المذكورة بطريق الاجر والجزاء من اعمال البر وقد اطلقت واريد بها ثمراتها فالمعنى توصل اليهم ثمرات اعمالهم فى الحياة الدنيا كاملة وقرئ يوف على الاسناد الى الله عز وجل وتوف بالفوقانية على البناء للمفعول ورفع اعمالهم وقرئ نوفى بالتخفيف والرفع لكون الشرط ماضيا كقوله

( احدها ) انه جبريل عليه السلام والمعنى ان جبريل عليه السلام يقرأ القرآن على محمد عليه السلام ( وثانيها ) ان ذلك الشاهد هو لسان محمد عليه السلام وهو قول الحسن ورواية عن محمد بن الحنفية عن على رضى الله عنهما قال قلت لابى انت التالى قال وما معنى التالى قلت قوله ويتلوه شاهد منه قال وددت انى هو ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الانسان انما يقرأ القرآن ويتلوه بلسانه لاجرم جعل اللسان تاليا على سبيل المجاز كما يقال عين باصرة واذن سامعة ولسان ناطق (وثالثها) ان المراد هو على بن ابى طالب رضى الله عنه والمعنى انه يتلو تلك البينة وقوله منه اى هذا الشاهد من محمد وبعض منه والمراد منه تشريف هذا الشاهد بأنه بعض من محمد عليه السلام (ورابعها) ان لايكون المراد بقوله ويتلوه القرآن بل حصول هذا الشاهد عقيب تلك البينة وعلى هذا الوجه قالوا ان المراد ان صورة النبى عليه السلام ووجهه ومخايله كل ذلك يشهد بصدقه لان من نظر اليه بعقله علم انه ليس بمجنون ولا كاهن ولا ساحر ولا كذاب والمراد بكون هذا الشاهد منه كون هذه الاحوال متعلقة بذات النبى صلى الله عليه وسلم (القول الثانى) ان الذى وصفه الله تعالى بأنه على بينة هم المؤمنون وهم اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والمراد بالبينة القرآن ويتلوه اى ويتلو الكتاب الذى هو الحجة يعنى ويعقبه شاهد من الله تعالى وعلى هذا القول اختلفوا فى ذلك الشاهد فقال بعضهم انه محمد عليه السلام وقال آخرون بل ذلك الشاهد هو كون القرآن واقعا على وجه يعرف كل من نظر فيه انه معجزة وذلك الوجه هو اشتماله على الفصاحة التامة والبلاغة الكاملة وكونه بحيث لايقدر البشر على الاتيان بمثله وقوله شاهد منه اى من تلك البينة لان احوال القرآن وصفاته من القراآت متعلقة به (وثالثها) قال الفراء ويتلوه شاهد منه يعنى الانجيل يتلو القرآن وان كان قد انزل قبله والمعنى انه يتلوه فى التصديق وتقريره انه تعالى ذكر محمدا صلى الله عليه وسلم فى الانجيل وامر بالايمان به واعلم ان هذين القولين وان كانا محتملين الا ان القول الاول اقوى واتم واعلم انه تعالى وصف كتاب موسى عليه السلام بكونه اماما ورحمة ومعنى كونه اماما انه كان مقتدى العالمين واماما لهم يرجعون اليه فى معرفة الدين والشرائع واما كونه رحمة فلانه يهدى الى الحق فى الدنيا والدين وذلك سبب لحصول الرحمة والثواب فلما كان سببا للرحمة اطلق اسم الرحمة عليه اطلاقا لاسم المسبب على السبب ثم قال تعالى اولئك يؤمنون به والمعنى ان الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم فى صحة هذا الدين يؤمنون واعلم ان المطالب على قسمين منها مايعلم صحتها بالبديهة ومنها مايحتاج فى تحصيل العلم بها الى طلب واجتهاد وهذا القسم الثانى على قسمين لان طريق تحصيل المعارف اما الحجة والبرهان المستنبط بالعقل واما الاستفادة من الوحى والالهام فهذان الطريقان هما الطريقان اللذان يمكن الرجوع اليهما فى تعريف المجهولات فاذا اجتمعا واعتضد كل واحد منهما بالآخر بلغا الغاية فى القوة والوثوق

وان اتاه خليل يوم مسغبة * يقول لاغائب مالى ولاحرم (وهم فيها ) اى فى الحياة الدنيا ( لايبخسون ) اى لاينقصون وانما عبر عن ذلك بالبخس الذى هو نقص الحق مع انه ليس لهم شائبة ( ٦٨ ) حق فيما أوتوه كما عبر عن اعطائه بالتوفية التى هى اعطاء الحقوق مع ان اعمالهم بمعزل من كونها مستوجبة لذلك بناء للامر على ظاهر الحال ومحافظة على صور الاعمال ومبالغة فى نفى النقص كأن ذلك نقص لحقوقهم فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم اصلا والمعنى انهم فيها خاصة لاينقصون ثمرات اعمالهم واجورها نقصا كليا مطردا ولايحرمونها حرمانا كليا واما فى الآخرة فهم فى الحرمان المطلق واليأس المحقق كما ينطق به قوله تعالى (أولئك) الخ فانه اشارة الى المذكورين باعتبار ارادتهم الحياة الدنيا اوباعتبار توفيتهم اجورهم من من غير بخس اوباعتبارهما معا ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى سوء الحال اى أولئك المريدون للحياة الدنيا وزينتها الموفون فيها ثمرات اعمالهم من غير بخس ( الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار ) لان هممهم كانت مصروفة الى الدنيا واعمالهم مقصورة على تحصيلها وقد اجتنوا ثمرتها ولم يكونوا يريدون بها شيأ آخر فلاجرم لم يكن لهم فى الآخرة الا النار وعذابها المخلد (وحبط ماصنعوا فيها) اى ظهر فى الآخرة حبوط ماصنعوه من الاعمال التى كانت تؤدى الى الثواب لوكانت معمولة للآخرة اوحبط ماصنعوه فى الدنيا من اعمال البر اذ شرط الاعتداد بها الاخلاص (وباطل) اى فى نفسه (ماكانوا يعملون) فى أثناء تحصيل المطالب الدنيوية ولاجل ان الاول من شأنه استتباع الثواب والاجر وان عدمه لعدم مقارنته للايمان والنية الصحيحة وان الثانى ليس له جهة صالحة قط علق بالاول الحبوط المؤذن بسقوط اجره بصيغة الفعل المنبئ عن الحدوث وبالثانى البطلان المفصح عن كونه بحيث لاطائل تحته اصلا بالاسمية الدالة على كون ذلك وصفا لازما له ثابتا فيه وفى زيادة

(ثم)

ثم ان فى انبياء الله تعالى كثرة فاذا توافقت كلمات الانبياء على صحته وكان البرهان اليقينى قائما على صحته فهذه المرتبة قد بلغت فى القوة الى حيث لايمكن الزيادة عليها فقوله أفمن كان على بينة من ربه المراد بالبينة الدلائل العقلية اليقينية وقوله ويتلوه شاهد منه اشارة الى الوحى الذى حصل لمحمد عليه السلام وقوله ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة اشارة الى الوحى الذى حصل لموسى عليه السلام وعند اجتماع هذه الثلاثة قد بلغ هذا اليقين فى القوة والظهور والجلاء الى حيث لايمكن الزيادة عليه ثم قال تعالى ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده والمراد من الاحزاب اصناف الكفار فيدخل فيهم اليهود والنصارى والمجوس روى سعيد بن جبير عن ابى موسى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لايسمع بى يهودى ولا نصرانى فلا يؤمن بى الا كان من اهل النار قال ابو موسى فقلت فى نفسى ان النبى صلى الله عليه وسلم لايقول مثل هذا الا عن القرآن فوجدت الله تعالى يقول ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده وقال بعضهم لما دلت الآية على ان من يكفر به فالنار موعده دلت على ان من لايكفر به لم تكن النار موعده ثم قال تعالى فلا تك فى مرية منه انه الحق من ربك وفيه قولان (الاول) فلا تك فى مرية من صحة هذا الدين ومن كون القرآن نازلا من عند الله تعالى فكان متعلقا بما تقدم من قوله تعالى ام يقولون افتراه (الثانى) فلا تك فى مرية من ان موعد الكافر النار وقرئ مرية بضم الميم ثم قال ولكن اكثر الناس لايؤمنون والتقدير لما ظهر الحق ظهورا فى الغاية فكن انت متابعا له ولا تبال بالجهال سواء آمنوا اولم يؤمنوا والاقرب ان يكون المراد لايؤمنون بما تقدم ذكره من وصف القرآن * قوله تعالى (ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا اولئك يعرضون على ربهم ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون) اعلم ان الكفار كانت لهم عادات كثيرة وطرق مختلفة فمنها شدة حرصهم على الدنيا ورغبتهم فى تحصيلها وقد ابطل الله هذه الطريقة بقوله من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها الى آخر الآية ومنها انهم كانوا ينكرون نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ويقدحون فى معجزاته وقد ابطل الله تعالى ذلك بقوله أفمن كان على بينة من ربه ومنها انهم كانوا يزعمون فى الاصنام انها شفعاؤهم عند الله وقد ابطل الله تعالى ذلك بهذه الآية وذلك لان هذا الكلام افتراء على الله تعالى فلما بين وعيد المفترين على الله فقد دخل فيه هذا الكلام واعلم ان قوله ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا انما يورد فى معرض المبالغة وفيه دلالة على ان الافتراء على الله تعالى اعظم انواع الظلم ثم انه تعالى بين وعيد هؤلاء بقوله اولئك يعرضون على ربهم وما وصفهم بذلك لانهم مختصون بذلك العرض لان العرض عام فى كل العباد كما قال وعرضوا على ربك صفا وانما اراد به انهم يعرضون فيفتضحون بأن يقول الاشهاد عند عرضهم هؤلاء الذين كذبوا على ربهم فيحصل لهم من الخزى والنكال

كان فى الثانى دون الاول ايماء الى ان صدور اعمال البر منهم وان كان لغرض فاسد ليس فى الاستمرار والدوام كصدور الاعمال التى هى من مقدمات مطالبهم الدنية وقرئ وبطل على ( ٦٩ ) الفعل اى ظهر بطلانه حيث علم هنالك ان ذلك ومايستتبعه من الحظوظ الدنيوية مما لاطائل تحته اوانقطع اثره الدنيوى فبطل مطلقا وقرئ وباطلا ما كانوا يعملون على ان ما ابهامية اوفى معنى المصدر كقوله ولا خارجا من فى زور كلام * وعن انس رضى الله عنه ان المراد بقوله تعالى من كان يريد الخ اليهود والنصارى ان اعطوا سائلا او وصلوا رحما عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة فى الرزق وصحة فى البدن وقيل هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسهم لهم فى الغنائم وانت خبير بأن ذلك انما كان بعد الهجرة والسورة مكية وقيل هم اهل الرياء يقال للقراء منهم اردت ان يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك وهكذا لغيره ممن يعمل اعمال البر لا لوجه الله تعالى فعلى هذا لابد من تقييد قوله تعالى ليس لهم الا النار بان ليس لهم بسبب اعمالهم الريائية الا ذلك والذى تقتضيه جزالة النظم الكريم ان المراد به مطلق الكفرة بحيث يندرج فيهم القادحون فى القرآن العظيم اندراجا اوليا فانه عز وعلا لما امر نبيه عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بأن يزدادوا علما ويقينا بان القرآن منزل بعلم الله وبان لاقدرة لغيره على شئ اصلا وهيجهم على الثبات على الاسلام والرسوخ فيه عند ظهور عجز الكفرة وما يدعون من دون الله عن المعارضة وتبين انهم ليسوا على شئ اصلا اقتضى الحال ان يتعرض لبعض شؤنهم الموهمة لكونهم على شئ فى الجملة من نيلهم الحظوظ العاجلة واستيلائهم على المطالب الدنيوية وبيان ان ذلك بمعزل عن الدلالة عليه ولقد بين ذلك اى بيان ثم اعيد الترغيب فيما ذكر من الايمان بالقرآن والتوحيد والاسلام فقيل ( افمن كان على بينة من ربه ) اى برهان نير عظيم الشأن يدل على حقية ما رغب فى الثبات عليه من الاسلام وهو

القرآن وباعتباره اوبتأويل البرهان ذكر الضمير الراجع اليهما فى قوله تعالى ( ويتلوه ) اى يتبعه ( شاهد ) يشهد بكونه من عندالله تعالى وهو الاعجاز فى نظمه المطرد فى كل مقدار سورة ( ٧٠ ) منه اوماوقع فى بعض آياته من الاخبار بالغيب

مالامزيد عليه وفيه سؤالات (السؤال الاول) اذا لم يجز ان يكون الله تعالى فى مكان فكيف قال يعرضون على ربهم (والجواب) انهم يعرضون على الاماكن المعدة للحساب والسؤال ويجوز ايضا ان يكون ذلك عرضا على من شاءالله من الخلق بأمرالله من الملائكة والانبياء والمؤمنين ( السؤال الثانى ) من الاشهاد الذين اضيف اليهم هذا القول ( الجواب ) قال مجاهد هم الملائكة الذين كانوا يحفظون اعمالهم عليهم فى الدنيا وقال قتادة ومقاتل الاشهاد الناس كما يقال على رؤس الاشهاد يعنى على رؤس الناس وقال الآخرون هم الانبياء عليهم الصلاة والسلام قال الله تعالى فلنسئلن الذين ارسل اليهم ولنسئلن المرسلين والفائدة فى اعتبار قول الاشهاد المبالغة فى اظهار الفضيحة ( السؤال الثالث ) الاشهاد جمع فما واحده والجواب يجوز ان يكون جمع شاهد مثل صاحب واصحاب وناصر وانصار ويجوز ان يكون جمع شهيد مثل شريف واشراف قال ابو على الفارسى وهذا كأنه ارجح لان ماجاء من ذلك فى التنزيل جاء على فعيل كقوله ويكون الرسول عليكم شهيدا وجئنابك على هؤلاء شهيدا ثم لما اخبر عن حالهم فى عذاب القيامة اخبر عن حالهم فى الحال فقال ألا لعنة الله على الظالمين وبين انهم فى الحال الملعونون من عندالله ثم ذكر من صفاتهم انهم يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا يعنى انهم كما ظلموا انفسهم بالتزام الكفر والضلال فقد اضافوا اليه المنع من الدين الحق والقاء الشبهات وتعويج الدلائل المستقيمة لانه لايقال فى العاصى يبغى عوجا وانما يقال ذلك فيمن يعرف كيفية الاستقامة وكيفية العوج بسبب القاء الشبهات وتقرير الضلالات ثم قال وهم بالآخرة هم كافرون قال الزجاج كلمة هم كررت على جهة التوكيد شأنهم فى الكفر ❊ قوله عز وجل ( أولئك لم يكونوا معجزين فى الارض وما كان لهم من دون الله من اولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون أولئك الذين خسروا انفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون لاجرم انهم فى الآخرة هم الاخسرون ) اعلم ان الله تعالى وصف هؤلاء المنكرين الجاحدين بصفات كثيرة فى معرض الذم (الصفة الاولى) كونهم مفترين على الله وهى قوله ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا ( الصفة الثانية ) انهم يعرضون على الله فى موقف الذل والهوان والخزى والنكال وهى قوله أولئك يعرضون على ربهم ( الصفة الثالثة ) حصول الخزى والنكال والفضيحة العظيمة وهى قوله ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ( الصفة الرابعة ) كونهم ملعونين من عند الله وهى قوله ألا لعنة الله على الظالمين (الصفة الخامسة ) كونهم صادين عن سبيل الله مانعين عن متابعة الحق وهى قوله الذين يصدون عن سبيل الله ( الصفة السادسة ) سعيهم فى القاء الشبهات وتعويج الدلائل المستقيمة وهى قوله ويبغونها عوجا ( الصفة السابعة ) كونهم كافرين وهى قوله وهم بالآخرة هم كافرون ( الصفة الثامنة ) كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله وهى

وكلاهما وصف تابع له شاهد بكونه من عندالله عز وجل غير انه على التقدير الاول يكون فى الكلام اشارة الى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى تمسكهم بالقرآن عند تبين كونه منزلا بعلم الله بشهادة الاعجاز ( منه ) اى من القرآن غير خارج عنه او من جهة الله تعالى فان كلا منهما وارد من جهته تعالى للشهادة ويجوز على هذا التقدير ان يراد بالشاهد المعجزات الظاهرة على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فان ذلك ايضا من الشواهد التابعة للقرآن الواردة من جهته تعالى فالمراد بمن فى قوله تعالى افمن كل من اتصف بهذه الصفة الحميدة فيدخل فيه المخاطبون بقوله تعالى فاعلموا فهل انتم دخولا اوليا وقيل هو النبى صلى الله عليه وسلم وقيل مؤمنوا اهل الكتاب كعبدالله بن سلام واضرابه وقيل المراد بالبينة دليل العقل وبالشاهد القرآن فالضمير فى منه لله تعالى او البينة القرآن ويتلوه من التلاوة والشاهد جبريل اولسان النبى صلى الله عليه وسلم على ان الضمير له اومن التلو والشاهد ملك يحفظ والاولى هو الاول ولما كان المراد بتلو الشاهد للبرهان اقامة الشهادة بصحته وكونه من عندالله تابعا له بحيث لايفارقه فى مشهد من المشاهد فان القرآن بينة باقية على وجه الدهر مع شاهدها الذى يشهد بأمرها الى يوم القيامة عند كل مؤمن وجاحد عطف كتاب موسى فى قوله عز قائلا ( ومن قبله كتاب موسى ) على فاعله مع كونه مقدما عليه فى النزول فكأنه قيل افمن كان على بينة من ربه ويشهد به شاهد منه وشاهد آخر من قبله هو كتاب موسى وانما قدم فى الذكر المؤخر فى النزول لكونه وصفا لازما له غير مفارق عنه ولعراقته فى وصف التلو والتنكير فى بينة وشاهد للتفخيم

(قوله)

قوله اولئك لم يكونوا معجزين فى الارض قال الواحدى معنى الاعجاز المنع من تحصيل المراد يقال اعجزنى فلان اى منعنى عن مرادى ومعنى معجزين فى الارض اى لايمكنهم ان يهربوا من عذابنا فان هرب العبد من عذاب الله محال لانه سبحانه وتعالى قادر على جميع الممكنات ولاتفاوت قدرته بالبعد والقرب والقوة والضعف ( الصفة التاسعة ) انهم ليس لهم اولياء يدفعون عذاب الله عنهم والمراد منه الرد عليهم فى وصفهم الاصنام بأنها شفعاؤهم عند الله والمقصود ان قوله اولئك لم يكونوا معجزين فى الارض دل على انهم لاقدرة لهم على الفرار وقوله وماكان لهم من دون الله من اولياء هو ان احدا لايقدر على تخليصهم من ذلك العذاب فجمع تعالى بين مايرجع اليهم وبين مايرجع الى غيرهم وبين بذلك انقطاع حيلهم فى الخلاص من عذاب الدنيا والآخرة ثم اختلفوا فقال قوم المراد ان عدم نزول العذاب ليس لاجل انهم قدروا على منع الله من انزال العذاب ولالاجل ان لهم ناصرا يمنع ذلك العذاب عنهم بل انما حصل ذلك الامهال لانه تعالى امهلهم كى يتوبوا فيزولوا عن كفرهم فاذا أبوا الا الثبات عليه فلابد من مضاعفة العذاب فى الآخرة وقال بعضهم بل المراد لم يكونوا معجزين لله عما يريد انزاله عليهم من العذاب فى الآخرة او فى الدنيا ولايجدون وليا ينصرهم ويدفع ذلك عنهم ( الصفة العاشرة ) قوله تعالى يضاعف لهم العذاب قيل سبب تضعيف العذاب فى حقهم انهم كفروا بالله وبالبعث وبالنشور فكفرهم بالمبدأ والمعاد صار سببا لتضعيف العذاب والاصوب ان يقال انهم مع ضلالهم الشديد سعوا فى الاضلال ومنع الناس عن الدين الحق فلهذا المعنى حصل هذا التضعيف عليهم ( الصفة الحادية عشرة ) قوله ماكانوا يستطيعون السمع وماكانوا يبصرون والمراد ماهم عليه فى الدنيا من صمم القلب وعمى النفس واحتج اصحابنا بهذه الآية على انه تعالى قد يخلق فى المكلف مايمنعه الايمان روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه قال انه تعالى منع الكافر من الايمان فى الدنيا وفى الآخرة اما فى الدنيا ففى قوله تعالى ماكانوا يستطيعون السمع وماكانوا يبصرون واما فى الآخرة فهو قوله يدعون الى السجود فلا يستطيعون وحاصل الكلام فى هذا الاستدلال انه تعالى أخبر عنهم انهم لايستطيعون السمع فاما ان يكون المراد انهم ماكانوا يستطيعون سمع الاصوات والحروف واما ان يكون المراد كونهم عاجزين عن الوقوف على دلائل الله تعالى والقول الاول باطل لان البديهة دلت على انهم كانوا يسمعون الاصوات والحروف فوجب حمل اللفظ على الثانى أجاب الجبائى عنه بان السمع اما ان يكون عبارة عن الحاسة المخصوصة او عن معنى يخلقه الله تعالى فى صماخ الاذن وكلاهما لايقدر العبد عليه لانه لو اجتهد فى ان يفعل ذلك اويتركه لتعذر عليه واذا ثبت هذا كان اثبات الاستطاعة فيه محالا واذا كان اثباتها محالا كان نفى الاستطاعة عنه هو الحق فثبت ان ظاهر الآية لايقدح فى قولنا ثم قال المراد بقوله ماكانوا يستطيعون السمع اهمالهم له

( اماما ) اى مؤتما به فى الدين ومقتدى وفى التعرض لهذا الوصف بصدد بيان تلو الكتاب مالايخفى من تفخيم شأن المتلو ( ورحمة ) اى نعمة عظيمة على من انزل اليهم ومن بعدهم ( ٧١٠ ) الى يوم القيامة باعتبار احكامه الباقية المؤيدة بالقرآن العظيم وهما حالان من الكتاب ( اولئك ) الموصوفون بتلك الصفة الجيدة وهى الكون على بينة من الله ولما ان ذلك عبارة عن مطلق التمسك بها وقد يكون ذلك بطريق التقليد لمن سلف من عظماء الدين من غير عثور على دقائق الحقائق وصفهم بأنهم ( يؤمنون به ) اى يصدقون فى حق التصديق حسبما تشهد به الشواهد الحقة المعربة عن حقيته ( ومن يكفر به ) اى بالقرآن ولم يصدق بتلك الشواهد الحقة ( من الاحزاب ) من اهل مكة ومن تحزب معهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ( فالنار موعده ) يردها لامحالة حسبما نطق به قوله تعالى ليس لهم فى الآخرة الا النار وفى جعلها موعدا اشعار بأن له فيها مالا يوصف من أفانين العذاب ( فلا تك فى مرية منه ) اى فى شك من امر القرآن وكونه من عند الله عز وجل غبما شهدت به الشواهد المذكورة وظهر فضل من تمسك به ( انه الحق من ربك ) الذى يربيك فى دينك ودنياك ( ولكن اكثر الناس لايؤمنون ) بذلك اما لقصور انظارهم واختلال افكارهم واما لعنادهم واستكبارهم فمن فى قوله تعالى افمن كان على بينة من ربه مبتدأ حذف خبره لاغناء الحال عن ذكره وتقديره افمن كان على بينة من ربه كأولئك الذين ذكرت اعمالهم وبين مصيرهم ومآلهم يعنى ان بينهما تفاوتا عظيما بحيث لايكاد يتراءى ناراهما وايراد الفاء بعد الهمزة لانكار ترتب توهم المماثلة على ماذكر من صفاتهم وعدد من هناتهم كأنه قيل ابعد ظهور حالهم فى الدنيا والآخرة كما وصف يتوهم المماثلة بينهم وبين من كان على احسن مايكون فى العاجل والآجل كما فى قوله تعالى افاتخذتم من دونه اولياء اى ابعد ان علمتموه رب السموات والارض اتخذتم من دونه اوليا

ونفورهم عنه كما يقول القائل هذا كلام لااستطيع ان اسمعه وهذا مما يمجه سمعى وذكر
غير الجبائى عذرا آخر فقال انه تعالى نفى انيكون لهم اولياء والمراد الاصنام ثم بين نفى
كونهم اولياء بقوله ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون فكيف يصلحون
للولاية والجواب اما حمل الآية على انه لاقدرة لهم على خلق الحاسة وعلى خلق المعنى فيها
فباطل لان هذه الآية وردت فى معرض الوعيد فلابد وان يكون ذلك معنى مختصا بهم
والمعنى الذى قالوه حاصل فى الملائكة والانبياء فكيف يمكن حمل اللفظ عليه واما قوله
ان ذلك محمول على انهم كانوا يستثقلون سماع كلام الرسول صلى الله عليه وسلم وابصار
صورته فالجواب انه تعالى نفى الاستطاعة فحمله على معنى آخر خلاف الظاهر وايضا ان
حصول ذلك الاستثقال اما ان يمنع من الفهم والوصول الى الغرض اولم يمنع فان منع
فهو المقصود وان لم يمنع منه فحينئذ كان ذلك سببا اجنبيا عن المعانى المعتبرة فى الفهم
والادراك ولاتختلف احوال القلب فى العلم والمعرفة بسببه فكيف يمكن جعله ذما لهم
فى هذا المعرض وايضا قدبينا مرارا كثيرة فى هذا الكتاب ان حصول الفعل مع قيام
الصارف محال فلما بين تعالى كون هذا المعنى صارفا عن قبول الدين الحق وبين فيه انه
حصل حصولا على سبيل اللزوم بحيث لايزول البتة فى ذلك الوقت كان المكلف فى ذلك
الوقت ممنوعا عن الايمان وحينئذ يحصل المطلوب واما قوله فانا نجعل هذه الصفة من صفة
الاوثان فبعيد لانه تعالى قال يضاعف لهم العذاب ثم قال ما كانوا يستطيعون السمع
فوجب انيكون الضمير فى هذه الآية المتأخرة عائدا الى عين ماعاد اليه الضمير المذكور
فى هذه الآية الاولى واما قوله وما كانوا يبصرون فقيل المراد منه البصيرة وقيل المراد منه
انهم عدلوا عن ابصار مايكون حجة لهم (الصفة الثانية عشرة) قوله اولئك الذين خسروا
انفسهم ومعناه انهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى فكان هذا الخسران اعظم
وجوه الخسران (الصفة الثالثة عشرة) قوله وضل عنهم ما كانوا يفترون والمعنى انهم
لما باعوا الدين بالدنيا فقد خسروا لانهم اعطوا الشريف ورضوا بأخذ الخسيس وهذا
عين الخسران فى الدنيا ثم فى الآخرة فهذا الخسيس يضيع ويهلك ولايبقى منه اثر وهو
المراد بقوله وضل عنهم ما كانوا يفترون (الصفة الرابعة عشرة) قوله لاجرم انهم فى الآخرة
هم الاخسرون وتقريره ماتقدم وهو انه لما اعطى الشريف الرفيع ورضى بالخسيس
الوضيع فقد خسر فى التجارة ثم لما كان هذا الخسيس بحيث لايبقى بل لابد وان يهلك
ويفنى انقلبت تلك التجارة الى النهاية فى صفة الخسارة فلهذا قال لاجرم انهم فى الآخرة
هم الاخسرون وقوله لاجرم قال الفراء انها بمنزلة قولنا لابد ولامحالة ثم كثر استعمالها حتى
صارت بمنزلة حقا تقول العرب لاجرم انك محسن على معنى حقا انك محسن واما النحويون
فلهم فيه وجوه (الاول) لاحرف نفى وجرم اى قطع فاذا قلنا لاجرم معناه انه لاقطع قاطع
عنهم انهم فى الآخرة هم الاخسرون (الثانى) قال الزجاج ان كلمة لانفى لما ظنوا انه

وقوله تعالى افمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى (ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا) بان نسب اليه مالايليق به
كقولهم الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (٧٢) وقولهم لآلهتهم هؤلاء شفعاؤنا عندالله يعنى انهم مع كفرهم
بآيات الله تعالى مفترون عليه كذبا
وهذا التركيب وان كان سبكه
على انكار انيكون احد اظلم منهم
من غير تعرض لانكار المساواة
ونفيها ولكن المقصود به قصدا
مطردا انكار المساواة ونفيها
وافادة انهم اظلم من كل ظالم
كما ينبئ عنه ماسيتلى من قوله عز
وجل لاجرم انهم فى الآخرة هم
الاخسرون فاذا قيل من اكرم
من فلان اولاافضل منه فالمراد
منه حتما انه اكرم من كل كريم
وافضل من كل فاضل (اولئك)
الموصوفون بالظلم البالغ الذى
هو الافتراء على الله تعالى وبهذه
الاشارة حصلت الغنية عن اسناد
العرض الى اعمالهم واكتفى
باسناده اليهم حيث قيل
(يعرضون) لان عرضهم من
تلك الحيثية وبذلك العنوان عرض
لاعمالهم على وجه ابلغ فان
عرض العامل بعمله افظع من
عرض عمله مع غيبته (على ربهم)
الحق وفيه ايماء الى بطلان رأيهم
فى اتخاذهم اربابا من دون الله عز
وجل (ويقول الاشهاد) عند
العرض من الملائكة والنبيين او من
جوارحهم وهو جمع شاهد او
شهيد كأصحاب واشراف (هؤلاء
الذين كذبوا على ربهم) بالافتراء
عليه كأن ذلك امر واضح غنى عن
الشهادة بوقوعه وانما المحتاج الى
الشهادة تعيين من صدر عنه ذلك
فلذلك لايقولون هؤلاء كذبوا
على ربهم ويجوز انيكون المراد
بالاشهاد الحضار وهم جميع اهل
الموقف على ماقاله قتادة ومقاتل
ويكون قولهم هؤلاء الذين كذبوا
على ربهم ذما لهم بذلك لاشهادة
عليهم كما يشعر به قوله تعالى ويقول دون ويشهد الخ وتوطئة لما يعقبه من قوله تعالى (الا لعنة الله على الظالمين) بالافتراء (ينفعهم)
المذكور فيجوز انيكون هذا على الوجه الاول من كلام الله تعالى وفيه تهويل عظيم لما يحيق بهم من عاقبة ظلمهم اللهم انا نعوذ بك

من الخزي على رؤس الاشهاد ( الذين يصدون ) اى كل من يقدرون على صده اويفعلون الصد ( عن سبيل الله ) عن دينه القويم ( ويبغونها عوجا ) انحرافا اى يصفونها بذلك ( ٧٣ ) وهى ابعد شئ منه اويبغون اهلها ان ينحرفوا عنها يقال بغيتك خيرا اوشرا اى

ينفعهم وجرم معناه كسب ذلك الفعل والمعنى لاينفعهم ذلك وكسب ذلك الفعل لهم الخسران فى الدنيا والآخرة وذكرنا جرم بمعنى كسب فى تفسير قوله تعالى لايجرمنكم شنآن قوم قال الازهرى وهذا من احسن ماقيل فى هذا الباب (الثالث) قال سيبويه والاخفش لارد على اهل الكفر كما ذكرنا وجرم معناه حق وصحح والتأويل انه حق كفرهم وقوع العذاب والخسران بهم واحتج سيبويه بقول الشاعر

ولقد طعنت ابا عيينة طعنة * جرمت فزارة بعدها ان يغضبوا

اراد حقت الطعنة فزارة ان يغضبوا * قوله تعالى ( ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات واخبتوا الى ربهم اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون ) اعلم انه تعالى لما ذكر عقوبة الكافرين وخسرانهم اتبعه بذكر احوال المؤمنين والاخبات هو الخشوع والخضوع وهومأخوذ من الخبت وهو الارض المطمئنة وخبت ذكره اى خفى فقوله اخبت اى دخل فى الخبت كما يقال فيمن صار الى نجد انجد والى تهامة اتهم ومنه المخبت من الناس الذى اخبت الى ربه اى اطمأن اليه ولفظ الاخبات يتعدى بالى وباللام فاذا قلنا اخبت فلان الى كذا فمعناه اطمأن اليه واذا قلنا اخبت له فمعناه خشع له اذا عرفت هذا فنقول قوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اشارة الى جميع الاعمال الصالحة وقوله واخبتوا اشارة الى ان هذه الاعمال لاتنفع فى الآخرة الامع الاحوال القلبية ثم ان فسرنا الاخبات بالطمأنينة كان المراد انهم يعبدون الله وكانت قلوبهم عند اداء العبادات مطمئنة بذكر الله فارغة عن الالتفات الى ماسوى الله تعالى اويقال انما قلوبهم صارت مطمئنة الى صدق الله بكل ماوعدهم من الثواب والعقاب واما ان فسرنا الاخبات بالخشوع كان معناه انهم يأتون بالاعمال الصالحة خائفين وجلين من ان يكونوا أتوا بها مع وجود الاخلال والتقصير ثم بين ان من حصل له هذه الصفات الثلاث فهم اصحاب الجنة ويحصل لهم الخلود فى الجنة * قوله تعالى (مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون) واعلم انه تعالى لما ذكر الفريقين ذكر فيهما مثالا مطابقا ثم اختلفوا فقيل انه راجع الى من ذكر آخرا من المؤمنين والكافرين من قبل وقال آخرون بل رجع الى قوله أفمن كان على بينة من ربه ثم ذكر من بعده الكافرين ووصفهم بأنهم لايستطيعون السمع ولايبصرون والسميع والبصير هم الذين وصفهم الله بانهم على بينة من ربهم واعلم ان وجه التشبيه هو انه سبحانه خلق الانسان مركبا من الجسد ومن النفس وكما ان للجسد بصرا وسمعا فكذلك حصل لجوهر الروح سمع وبصر وكما ان الجسد اذا كان اعمى اصم بقى متحيرا لايهتدى الى شئ من المصالح بل يكون كالتائه فى حضيض الظلمات لايبصر نورا يهتدى به ولايسمع صوتا فكذلك الجاهل الضال المضل يكون اعمى واصم القلب فيبقى فى ظلمات الضلالات حائرا تائها ثم قال تعالى أفلا تذكرون منبها على انه يمكنه علاج هذا العمى وهذا الصمم واذا كان العلاج ممكنا من الضرر الحاصل بسبب

طلبت لك وهذا شامل لتكذيبهم بالقرآن وقولهم انه ليس من عند الله ( وهم بالآخرة هم كافرون ) اى يصفونها بالعوج والحال انهم كافرون بها لا انهم يؤمنون بها ويزعمون ان لها سبيلا سويا يهدون الناس اليه وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به كأن كفر غيرهم ليس بشئ عند كفرهم (أولئك) مع ماوصف من احوالهم الموجبة للتدمير ( لم يكونوا معجزين ) الله تعالى مفلتين بأنفسهم من اخذه لو اراد ذلك (فى الارض) مع سعتها وان هربوا منها كل مهرب (وما كان لهم من دون الله من اولياء) ينصرونهم من بأسه ولكن اخر ذلك لحكمة تقتضيه والجمع اما باعتبار افراد الكفرة كأنه قيل وما كان لاحد منهم من ولى اوباعتبار تعدد ماكانوا يدعون من دون الله تعالى فيكون ذلك بيانا لحال آلهتهم من سقوطها عن رتبة الولاية ( يضاعف لهم العذاب ) استئناف يتضمن حكمة تأخير المؤاخذة وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالتشديد ( ماكانوا يستطيعون السمع ) لفرط تصامهم عن الحق وبغضهم له كأنهم لايقدرون على السمع ولما كان قبح حالهم فى عدم اذعانهم للقرآن الذى طريق تلقيه السمع اشد منه فى عدم قبولهم لسائر الآيات المنوطة بالابصار بالغ فى نفى الاول عنهم حيث نفى الاستطاعة واكتفى فى الثانى بنفى الابصار فقال تعالى (وما كانوا يبصرون ) لتعاميهم عن آيات الله المبسوطة فى الانفس والآفاق وهو استئناف وقع تعليلا لمضاعفة العذاب وقيل هو بيان

لما نفى من ولاية الآلهة فان مالايسمع ولايبصر بمعزل  من الولاية وقوله تعالى يضاعف لهم العذاب اعتراض وسط بينهما نعيا عليهم من اول الامر سوء العاقبة ( أولئك ) المنعوتون بماذكر من القبائح ( الذين خسروا أنفسهم ) باشتراء عبادة الآلهة

بعبادةالله عز سلطانه ( وضل عنهم ماكانوا يفترون ) من الآلهة وشفاعتها اوخسروا مابذلوا وضاع عنهم ماحصلوا فلم يبق معهم سوى الحسرة والندامة ( لاجرم ) فيه ثلاثة اوجه الاول ان لانافية ( ٧٤ ) لماسبق وجرم فعل بمعنى حق وان مع مافي حيزه فاعله والمعنى لاينفعهم ذلك الفعل حق (انهم في الآخرة هم الاخسرون ) وهذا مذهب سيبويه والثاني جرم بمعنى كسب ومابعده مفعوله وفاعله مادل عليه الكلام اى كسب ذلك خسرانهم فالمعنى ماحصل من ذلك الا ظهور خسرانهم والثالث ان لاجرم بمعنى لابد اى لابد انهم في الآخرة هم الاخسرون واياما كان فمعناه انهم اخسر من كل خاسر فتبين انهم اظلم من كل ظالم وهذه الآيات الكريمة كماترى مقررة لماسبق من انكار المماثلة بين من كان على بينة من ربه وبين من كان يريد الحياة الدنيا ابلغ تقرير فانهم حيث كانوا اظلم من كل ظالم واخسر من كل خاسر لم يتصور مماثلة بينهم وبين احد من الظلمة الاخسرين فما ظنك بالمماثلة بينهم وبين من هو في اعلى مدارج الكمال ولما ذكر فريق الكفار واعمالهم وبين مصيرهم ومآلهم شرع في بيان حال اضدادهم اعنى فريق المؤمنين ومايؤل اليه امرهم من العواقب الحميدة تكملة لما سلف من محاسنهم المذكورة في قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه الآية ليتبين مابينهما من التباين البين حالا ومآلا فقيل ( ان الذين آمنوا ) اى بكل مايجب ان يؤمن به فيندرج تحته مانحن بصدده من الايمان بالقرآن الذى عبر عنه بالكون على بينة من الله وانما يحصل ذلك باستماع الوحى والتدبر فيه ومشاهدة مايؤدى الى ذلك في الانفس والآفاق اوفعلوا الايمان كمافي يعطى ويمنع (وعملوا الصالحات واخبتوا الى ربهم) اى اطمأنوا اليه وانقطعوا الى عبادته بالخضوع والتواضع من الخبت وهى الارض المطمئنة ومعنى اخبت دخل في الخبت كأتهم وأنجد دخل في تهامة ونجد . ( أولئك ) المنعوتون بتلك النعوت الجميلة ( اصحاب الجنة هم فيها خالدون ) دائمون وبعد بيان تباين حاليهما عقلا اريد بيان تباينهما حسا

حصول هذا العمى وهذا الصمم وجب على العاقل ان يسعى في ذلك العلاج بقدر الامكان واعلم انه قدجرت العادة بانه تعالى اذا اورد على الكافر انواع الدلائل اتبعها بالقصص ليصير ذكرها مؤكدا لتلك الدلائل على ماقررناه هذا المعنى في مواضع كثيرة وفي هذه السورة ذكر انواعا من القصص (القصة الاولى) قصة نوح عليه السلام * قوله تعالى (ولقد ارسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين ان لاتعبدوا الا الله انى اخاف عليكم عذاب يوم اليم) اعلم انه تعالى قدبدأ بذكر هذه القصة في سورة يونس وقد اعادها في هذه السورة ايضا لما فيها من زوائد الفوائد وبدائع الحكم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير وابو عمرو والكسائى انى بفتح الهمزة والمعنى ارسلنا نوحا بأنى لكم نذير مبين ومعناه ارسلناه ملتبسا بهذا الكلام وهو قوله انى لكم نذير مبين فلما اتصل به حرف الجر وهو الباء فتح كما فتح في كان واما سائر القراء فقرؤا انى بالكسر على معنى قال انى لكم نذير مبين (المسئلة الثانية) قال بعضهم المراد من النذير كونه مهددا للعصاة بالعقاب ومن المبين كونه مبينا مااعدالله للمطيعين من الثواب والاولى ان يكون المعنى انه نذير للعصاة من العقاب وانه مبين بمعنى انه بين ذلك الانذار على الطريق الاكمل والبيان الاقوى الاظهر ثم بين تعالى ان ذلك الانذار انما حصل في النهى عن عبادة غير الله وفي الامر بعبادة الله لان قوله ان لاتعبدوا الا الله استثناء من النفى وهو يوجب نفى غير المستثنى واعلم ان تقدير الآية كأنه تعالى قال ولقد ارسلنا نوحا الى قومه بهذا الكلام وهو قوله انى لكم نذير مبين ثم قال ان لاتعبدوا الا الله فقوله ان لاتعبدوا الا الله بدل من قوله انى لكم نذير ثم انه اكد ذلك بقوله انى اخاف عليكم عذاب يوم اليم والمعنى انه لما حصل الالم العظيم في ذلك اليوم اسند ذلك الالم الى اليوم كقولهم نهارك صائم وليلك قائم * قوله تعالى (فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك الا بشرا مثلنا ومانراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا بادى الرأى ومانرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين) اعلم انه تعالى لما حكى عن نوح عليه السلام انه دعا قومه الى عبادة الله تعالى حكى عنهم انهم طعنوا في نبوته بثلاثة انواع من الشبهات (فالشبهة الاولى) انه بشر مثلهم والتفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع انتهاؤه الى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة لجميع العالمين (والشبهة الثانية) كونه ماتبعه الا الاراذل من القوم كالحياكة واهل الصنائع الخسيسة قالوا ولوكنت صادقا لاتبعك الاكياس من الناس والاشراف منهم ونظيره قوله تعالى في سورة الشعراء أنؤمن لك واتبعك الارذلون (والشبهة الثالثة) قوله تعالى ومانرى لكم علينا من فضل والمعنى لانرى لكم علينا من فضل لافي العقل ولافي رعاية المصالح العاجلة ولافي قوة الجدل فاذا لم نشاهد فضلك علينا في شئ من هذه الاحوال الظاهرة فكيف نعترف بفضلك علينا في اشرف الدرجات واعلى المقامات فهذا خلاصة الكلام في تقرير هذه الشبهات واعلم ان الشبهة الاولى لاتليق الا بالبراهمة الذين ينكرون نبوة البشر على الاطلاق اما

( الشبهتان )

الشبهتان الباقيتان فيمكن ان يتمسك بهما من أقر بنبوة سائر الانبياء و فى لفظ الآية مسائل (المسئلة الاولى) الملأ الاشراف و فى اشتقاقه وجوه (الاول) انه مأخوذ من قولهم ملئ بكذا اذا كان مطيقاً له وقد ملؤا بالامر والسبب فى اطلاق هذا اللفظ عليهم انهم ملؤا بترتيب المهمات وأحسنوا فى تدبيرها (الثانى) انهم وصفوا بذلك لانهم يتمالؤون أى يتظاهرون عليه (الثالث) وصفوا بذلك لانهم يملؤون القلوب هيبة والمجالس أبهة (الرابع) وصفوا به لانهم ملؤا العقول الراجحة والآراء الصائبة ثم حكى الله تعالى عنهم الشبهة الاولى وهى قولهم ما نراك الا بشرا مثلنا وهو مثل ما حكى الله تعالى عن بعض العرب انهم قالوا لولا أنزل عليه ملك وهذا جهل لان من حق الرسول ان يباشر الامة بالدليل والبرهان والتثبت والحجة لا بالصورة والخلقة بل نقول ان الله تعالى لو بعث الى البشر ملكا لكانت الشبهة أقوى فى الطعن عليه فى رسالته لانه يخطر بالبال ان هذه المعجزات التى ظهرت لعل هذا الملك هو الذى أتى بها من عند نفسه بسبب ان قوته اكمل وقدرته أقوى فلهذه الحكمة ما بعث الله الى البشر رسولا الا من البشر ثم حكى الشبهة الثانية وهى قوله وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى والمراد منه قلة مالهم وقلة جاههم ودناءة حرفهم وصناعتهم هذا ايضا جهل لان الرفعة فى الدين لا تكون بالحسب والمال والمناصب العالية بل الفقر أهون على الدين من الغنى بل نقول الانبياء ما بعثوا الا لترك الدنيا والاقبال على الآخرة فكيف تجعل قلة المال فى الدنيا طعنا فى النبوة والرسالة ثم حكى الله تعالى الشبهة الثالثة وهى قوله وما نرى لكم علينا من فضل وهذا أيضا جهل لان الفضيلة المعتبرة عند الله ليست الا بالعلم والعمل فكيف اطلعوا على بواطن الخلق حتى عرفوا نفى هذه الفضيلة ثم قالوا بعد ذكر هذه الشبهات لنوح عليه السلام ومن اتبعه بل نظنكم كاذبين وفيه وجهان (الاول) ان يكون هذا خطابا مع نوح ومع قومه والمراد منه تكذيب نوح فى دعوى الرسالة (والثانى) ان يكون هذا خطابا مع الارذال فنسبوهم الى انهم كذبوا فى ان آمنوا به واتبعوه (المسئلة الثانية) قال الواحدى الارذل جمع رذل وهو الدون من كل شئ فى منظره وحالاته ورجل رذل الثياب والفعل والاراذل جمع الارذل كقولهم اكابر مجرميها وقوله عليه الصلاة والسلام أحاسنكم اخلاقا فعلى هذا الاراذل جمع الجمع وقال بعضهم الاصل فيه ان يقال هو ارذل من كذا ثم كثر حتى قالوا هو الارذل فصارت الالف واللام عوضا عن الاضافة وقوله بادى الرأى البادى هو الظاهر من قولك بدا الشئ اذا ظهر ومنه يقال بادية لظهورها وبروزها للناظر واختلفوا فى بادى الرأى وذكروا فيه وجوها (الاول) اتبعوك فى الظاهر وباطنهم بخلافه (والثانى) يجوز ان يكون المراد اتبعوك فى ابتداء حدوث الرأى وما احتاطوا فى ذلك الرأى وما اعطوه حقه من الفكر الصائب والتدبر الوافى (الثالث) انهم لما وصفوا القوم بالرذالة قالوا كونهم كذلك بادى الرأى امر ظاهر لكل من يراهم والرأى على هذا المعنى من رأى العين لا من رأى القلب

فقيل (مثل الفريقين) المذكورين اى حالهما العجيب لان المثل لا يطلق الا على ما فيه غرابة من الاحوال والصفات (كالاعمى والاصم والبصير والسميع) اى كحال هؤلاء فيكون ذواتهم كذواتهم (٧٥) والكلام وان امكن ان يحمل على تشبيه الفريق الاول بالاعمى وبالاصم وتشبيه الفريق الثانى بالبصير وبالسميع لكن الادخل فى المبالغة والاقرب الى ما يشير اليه لفظ المثل والانسب بما سبق من وصف الكفرة بعدم استطاعة السمع وبعدم الابصار ان يحمل على تشبيه الفريق الاول بمن جمع بين العمى والصمم وتشبيه الفريق الثانى بمن جمع بين البصر والسمع على ان تكون الواو فى قوله تعالى والاصم وفى قوله والسميع لعطف الصفة على الصفة كما فى قول من قال

الى الملك القرم وابن الهمام
وليث الكتيبة فى المزدحم

وايا ما كان فالظاهر ان المراد بالحال المدلول عليها بلفظ المثل وهى التى يدور عليها امر التشبيه ما يلائم الاحوال المذكورة المعتبرة فى جانب المشبه به من تعامى الفريق الاول عن مشاهدة آيات الله المنصوبة فى العالم والنظر اليها بعين الاعتبار وتصامهم عن استماع آيات القرآن الكريم وتلقيها بالقبول حسبما ذكر فى قوله تعالى ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون وانما لم يراع هذا الترتيب ههنا لكون الاعمى اظهر واشهر فى سوء الحال من الاصم ومن استعمال الفريق الثانى لكل من ابصارهم واسماعهم فيما ذكر كما ينبغى المدلول عليه بما سبق من الايمان والعمل الصالح والاخبات حسبما فسر به فيما مر فلا يكون التشبيه تمثيليا لا بجميع الاحوال المعدودة لكل من الفريقين مما ذكر وما يؤدى اليه من العذاب المضاعف والخسران البالغ فى احدهما ومن النعيم المقيم فى الآخر فان اعتبار ذلك ينزع الى كون التشبيه تمثيليا بان ينتزع من حال الفريق الاول فى تصامهم وتعاميهم المذكورين ووقوعهم بسبب ذلك فى العذاب المضاعف والخسران الذى لا خسران فوقه هيئة فتشبه بهيئة منتزعة ممن فقد مشعرى البصر والسمع فتخبط فى مسلكه فوقع

فى مهاوى الردى ولم يجد الى مقصده سبيلا وينتزع من حال الفريق الثانى فى استعمال مشاعرهم فى آيات الله تعالى حسبما ينبغى وفوزهم بدار الخلود هيئة فتشبه بهيئة منتزعة ممن له بصر وسمع يستعملهما فى مهماته فيهتدى الى ( ٧٦ ) سبيله وينال مرامه ( هل يستويان ) يعنى الفريقين المذكورين والاستفهام انكارى مذكر لماسبق من انكار المماثلة فى قوله عز وجل أفمن كان على بينة الآية ( مثلا ) اى حالا وصفة وهو تمييز من فاعل يستويان ( أفلا تذكرون ) اى أتشكون فى عدم الاستواء وما بينهما من التباين او أتغفلون عنه فلا تتذكرونه بالتأمل فيما ضرب لكم من المثل فيكون الانكار واردا على المعطوفين معا او أتسمعون هذا فلا تتذكرون فيكون راجعا الى عدم التذكر بعد تحقق مايوجب وجوده وهو المثل المضروب كما فى قوله تعالى أفان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم فان الفاء هناك لانكار الانقلاب بعد تحقق مايوجب عدمه من علمهم بخلو الرسل قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم او أفلا تفعلون التذكر اوافلا تعقلون ومعنى الهمزة انكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين وانه ليس مما يصح ان يقع لامن قبيل الانكار فى قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه وقوله تعالى هل يستويان فان ذلك لنفى المماثلة ونفى الاستواء * ولما بين من فاتحة السورة الكريمة الى هذا المقام انها كتاب محكم الآيات مفصلها نازل فى شأن التوحيد وترك عبادة غير الله سبحانه وان الذى انزل عليه نذير وبشير من جهته تعالى وقرر فى تضاعيف ذلك ماله مدخل فى تحقيق هذا المرام من الترغيب والترهيب والزام المعاندين بما يقارنه من الشواهد الحقة الدالة على كونه من عند الله تعالى وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما عراه من ضيق الصدر العارض له من اقتراحاتهم الشنيعة وتكذيبهم له وتسميتهم للقرآن تارة سحرا واخرى مفترى وتثبيته عليه الصلاة والسلام والمؤمنين على التمسك به والعمل بموجبه على ابلغ وجه وابدع اسلوب شرع فى تحقيق ماذكر وتقريره بذكر قصص الانبياء صلوات الله عليهم اجمعين ( ولا )

ويتأكد هذا التأويل بمانقل عن مجاهد انه كان يقرأ الا الذين هم أراذلنا بادى رأى العين (المسئلة الثالثة) قرأ ابو عمرو ونصير عن الكسائى بادئ بالهمزة والباقون بالياء غير مهموز فمن قرأ بادئ بالهمزة فالمعنى أول الرأى وابتداؤه ومن قرأ بالياء غير مهموز كان من بدا يبدو أى ظهر وبادى نصب على المصدر كقولك ضربت أول الضرب ❊ قوله تعالى ( قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم انلزمكموها وانتم لها كارهون ) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما حكى شبهات منكرى نبوة نوح عليه الصلاة والسلام حكى بعده مايكون جوابا عن تلك الشبهات ( فالشبهة الاولى ) قولهم ما أنت الا بشر مثلنا فقال نوح حصول المساواة فى البشرية لا يمنع من حصول المفارقة فى صفة النبوة والرسالة ثم ذكر الطريق الدال على امكانه فقال أرأيتم ان كنت على بينة من ربى من معرفة ذات الله وصفاته ومايجب وما يمتنع ومايجوز عليه ثم انه تعالى آتانى رحمة من عنده والمراد بتلك الرحمة اما النبوة واما المعجزة الدالة على النبوة فعميت عليكم اى صارت مظنة مشتبهة ملتبسة فى عقولكم فهل أقدر على ان اجعلكم بحيث تصلون الى معرفتها شئتم أم أبيتم والمراد انى لا أقدر على ذلك البتة وعن قتادة والله لو استطاع نبى الله لالزمها ولكنه لم يقدر عليه وحاصل الكلام انهم لما قالوا وما نرى لكم علينا من فضل ذكر نوح عليه السلام ان ذلك بسبب ان الحجة عميت عليكم واشتبهت فاما لو تركتم العناد واللجاج ونظرتم فى الدليل لظهر المقصود وتبين ان الله تعالى آتانا عليكم فضلا عظيما (المسئلة الثانية) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم فعميت عليكم بضم العين وتشديد الميم على مالم يسم فاعله بمعنى البست وشبهت والباقون بفتح العين مخففة الميم أى التبست واشتبهت واعلم ان الشئ اذا بقى مجهولا محضا اشبه المعمى لان العلم نور البصيرة الباطنة والابصار نور البصر الظاهر فحسن جعل كل واحد منهما مجازا عن الآخر وتحقيقه ان البينة توصف بالابصار قال تعالى فلما جاءتهم آياتنا مبصرة وكذلك توصف بالعمى قال تعالى فعميت عليهم الانباء وقال فى هذه الآية فعميت عليكم ( المسئلة الثالثة ) أنلزمكموها فيه ثلاث مضمرات ضمير المتكلم وضمير الغائب وضمير المخاطب واجاز الفراء اسكان الميم الاولى وروى ذلك عن ابى عمرو قال وذلك ان الحركات توالت فسكنت الميم وهى ايضا مرفوعة وقبلها كسرة والحركة التى بعدها ضمة ثقيلة قال الزجاج جميع النحويين البصريين لايجيزون اسكان حرف الاعراب الا فى ضرورة الشعر ومايروى عن ابى عمرو فلم يضبطه عنه الفراء وروى عن سيبويه انه كان يخفف الحركة ويختلسها وهذا هو الحق وانما يجوز الاسكان فى الشعر كقول امرئ القيس * فاليوم اشرب غير مستحقب ❊ قوله تعالى ( وياقوم لاأسألكم عليه أجرا ان أجرى الا على الله وما انا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون وياقوم من ينصرنى من الله ان طردتهم افلاتذكرون ولا اقول لكم عندى خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا اقول انى ملك

ولاأقول للذين تزدرى اعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله اعلم بما فى انفسهم انى اذا لمن الظالمين) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان هذا هو الجواب عن الشبهة الثانية وهى قولهم لا يتبعك الا الاراذل من الناس وتقرير هذا الجواب من وجوه (الاول) انه عليه الصلاة والسلام قال انا لا أطلب على تبليغ دعوة الرسالة مالا حتى يتفاوت الحال بسبب كون المستجيب فقيرا او غنيا وانما اجرى على هذه الطاعة الشاقة على رب العالمين واذا كان الامر كذلك فسواء كانوا فقراء او اغنياء لم يتفاوت الحال فى ذلك (الثانى) كأنه عليه الصلاة والسلام قال لهم انكم لما نظرتم الى ظواهر الامور وجدتمونى فقيرا وظننتم انى انما اشتغلت بهذه الحرفة لاتوسل بها الى اخذ اموالكم وهذا الظن منكم خطأ فانى لا أسئلكم على تبليغ الرسالة اجرا ان اجرى الا على رب العالمين فلا تحرموا انفسكم من سعادة الدين بسبب هذا الظن الفاسد (الوجه الثالث) فى تقرير هذا الجواب انهم قالوا ما نراك الا بشرا مثلنا الى قوله وما نرى لكم علينا من فضل فهو عليه السلام بين انه تعالى اعطاه انواعا كثيرة توجب فضله عليهم ولذلك لم يسع فى طلب الدنيا وانما يسعى فى طلب الدين والاعراض عن الدنيا من امهات الفضائل باتفاق الكل فلعل المراد تقرير حصول الفضيلة من هذا الوجه فاما قوله وما انا بطارد الذين آمنوا فهذا كالدليل على ان القوم سألوه طردهم رفعا لانفسهم عن مشاركة أولئك الفقراء روى ابن جريج انهم قالوا ان أحببت يا نوح ان نتبعك فاطردهم فانا لا نرضى بمشاركتهم فقال عليه الصلاة والسلام وما انا بطارد الذين آمنوا وقوله تعالى حكاية عنهم انهم قالوا وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا بادى الرأى كالدليل على انهم طلبوا منه طردهم لانه كالدليل على انهم كانوا يقولون لو اتبعك اشراف القوم لوافقناهم ثم انه تعالى حكى عنه انه ما طردهم وذكر فى بيان ما يوجب الامتناع من هذا الطرد امورا (الاول) انهم ملاقوا ربهم وهذا الكلام يحتمل وجوها* منها انهم قالوا هم منافقون فيما اظهروا فلا تغتر بهم فأجاب بأن هذا الامر ينكشف عند لقاء ربهم فى الآخرة *ومنها انه جعله علة فى الامتناع من الطرد واراد انهم ملاقوا ما وعدهم ربهم فان طردتهم استخصمونى فى الآخرة* ومنها انه نبه بذلك الامر على انا نجتمع فى الآخرة فأعاقب على طردهم فلا اجد من ينصرنى ثم بين انهم يبنون امرهم على الجهل بالعواقب والاغترار بالظواهر فقال ولكنى اراكم قوما تجهلون ثم قال بعده وياقوم من ينصرنى من الله ان طردتهم أفلا تذكرون والمعنى ان العقل والشرع تطابقا على انه لا بد من تعظيم المؤمن البر التقى ومن اهانة الفاجر الكافر فلو قلبت القصة وعكست القضية وقربت الكافر الفاجر على سبيل التعظيم وطردت المؤمن التقى على سبيل الاهانة كنت على ضد امر الله تعالى وعلى عكس حكمه وكنت فى هذا الحكم على ضد ما امر الله تعالى من ايصال الثواب الى المحقين والعقاب الى المبطلين وحينئذ أصير مستوجبا للعقاب العظيم فمن ذا الذى ينصرنى من الله تعالى ومن الذى يخلصنى من عذاب

---

المشتملة على ما اشتمل عليه فاتحة السورة الكريمة ليتأكد ذلك بطريقين احدهما ان ما امر به من التوحيد وفروعه مما اطبق عليه الانبياء قاطبة والثانى ان ذلك انما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم  بطريق الوحى فلا يبقى فى حقيته كلام اصلا وليتسلى بما يشاهد من معاناة الرسل قبله من اممهم ومقاساتهم الشدائد من جهتهم فقيل (ولقد ارسلنا نوحا الى قومه) الواو ابتدائية واللام جواب قسم محذوف وحرفه الباء لا الواو كما فى سورة الاعراف لئلا تجتمع واوان ولا يكاد تطلق هذه اللام الا مع قد لانها مظنة التوقع وان المخاطب اذا سمعها توقع وقوع ما صدر بها ونوح هو ابن لمك بن متوشلخ بن ادريس عليهما السلام وهو اول نبى بعث بعده * قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بعث عليه الصلاة والسلام على رأس اربعين من عمره ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة وكان عمره الفا وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره الفا واربعمائة وخمسين سنة (انى لكم نذير) بالكسر على ارادة القول اى فقال او قائلا وقرأ ابن كثير وابو عمرو والكسائى بالفتح على اضمار حرف الجر اى ارسلناه ملتبسا بذلك الكلام وهو انى لكم نذير بالكسر فلما اتصل به الجار فتح كما فتح فى كأن والمعنى على الكسر وهو قولك ان زيدا كالاسد واقتصر على ذكر كونه عليه الصلاة والسلام نذيرا لا لان دعوته عليه الصلاة والسلام كانت بطريق الانذار فقط ألا يرى الى قوله تعالى فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا الخ بل لانهم لم يغتنموا مغانم ابشاره عليه الصلاة والسلام (مبين) ابين لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص منه لان الانذار اعلام المحذور لا لمجرد التخويف والازعاج بل للحذر منه فيتعلق صفته بكلا وصفيه (الا تعبدوا الا الله) اى بأن لا تعبدوا على أن أن مصدرية والباء متعلقة بارسلنا

ولاناهية اى ارسلناه ملتبسا بنهيهم عن الشرك الاانه وسط بينهما بيان بعض اوصافه واحواله عليه الصلاة والسلام وهو كونه نذيرا مبينا ليكون ادخل فى القبول ولم يفعل ذلك فى صدر السورة لئلا ( ٧٨ ) يفرق بين الكتاب ومضمونه بما ليس من اوصافه واحواله

الله أفلا تذكرون فتعلمون ان ذلك لايصح ثم اكد هذا البيان بوجه ثالث فقال ولااقول لكم عندى خزائن الله اى كما لااسألكم فكذلك لاادعى انى املك مالا ولا لى غرض فى المال لااخذا ولادفعا ولااعلم الغيب حتى أصل به الى ماار يد لنفسى ولااتباعى ولااقول انى ملك حتى انعظم بذلك عليكم بل طريقى الخضوع والتواضع ومن كان هذا شانه وطريقه فانه لايستنكف عن مخالطة الفقراء والمساكين ولايطلب مجالسة الامراء والسلاطين وانما شانه طلب الدين وسيرته مخالطة الخاضعين والخاشعين فلما كانت طريقتى توجب مخالطة الفقراء فكيف جعلتم ذلك عيبا على ثم انه أكد هذا البيان بطريق رابع فقال ولاأقول للذين تزدرى اعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله اعلم بما فى انفسهم وهذا كالدلالة على انهم كانوا ينسبون اتباعه مع الفقر والذلة الى النفاق فقال انى لاأقول ذلك لانه من باب الغيب والغيب لايعلمه الاالله فربما كان باطنهم كظاهرهم فيؤتيهم الله ملك الآخرة فأكون كاذبا فيما أخبرت به فانه ان فعلت ذلك كنت من الظالمين لنفسى ومن الظالمين لهم فى وصفهم بانهم لاخير لهم مع ان الله تعالى آتاهم الخير فى الآخرة (المسئلة الثانية) احتج قوم بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الانبياء وقالوا ان الانسان اذا قال انا لاادعى كذا وكذا فهذا انما يحسن اذا كان ذلك الشئ اشرف من احوال ذلك القائل فلما كان قائل هذا القول هو نوح عليه السلام وجب ان تكون درجة الملائكة اعلى واشرف من درجات الانبياء ثم قالوا وكيف لايكون الامر كذلك والملائكة داوموا على عبادة الله تعالى طول الدنيا مذ خلقوا الى ان تقوم الساعة وتمام التقرير ان الفضائل الحقيقية الروحانية ليست الاثلاثة اشياء (اولها) الاستغناء المطلق وجرت العادة فى الدنيا ان من ملك المال الكثير فانه يوصف بكونه غنيا فقوله ولاأقول لكم عندى خزائن الله اشارة الى انى لاادعى الاستغناء المطلق (وثانيها) العلم التام واليه الاشارة بقوله ولااعلم الغيب (وثالثها) القدرة التامة الكاملة وقد تقرر فى الخواطر ان اكمل المخلوقات فى القدرة والقوة هم الملائكة واليه الاشارة بقوله ولااقول انى ملك والمقصود من ذكر هذه الامور الثلاثة بيان انه ماحصل عندى من هذه المراتب الثلاثة الامايليق بالقوة البشرية والطاقة الانسانية فاما الكمال المطلق فانا لاادعيه واذا كان الامر كذلك فقد ظهر ان قوله ولااقول انى ملك يدل على انهم اكمل من البشر وايضا يمكن جعل هذا الكلام جوابا عما ذكروه من الشبهة فانهم طعنوا فى اتباعه بالفقر فقال ولااقول لكم عندى خزائن الله حتى اجعلهم اغنياء وطعنوا فيهم ايضا بانهم منافقون فقال ولااعلم الغيب حتى اعرف كيفية باطنهم وانما اجرى الاحوال على الظواهر وطعنوا فيهم بانهم قد يأتون بافعال لاكما ينبغى فقال ولااقول انى ملك حتى اكون مبرأ عن جميع الدواعى الشهوانية والبواعث النفسانية (المسئلة الثانية) احتج قوم بهذه الآية على صدور الذنب من الانبياء فقالوا ان هذه الآية دلت على ان طرد المؤمنين لطلب مرضاة الكفار من اصول المعاصى ثم ان محمدا صلى الله عليه وسلم طرد

اومفسرة متعلقة به او بنذير اومفعول لمبين على قراءة الفتح بدل من انى لكم نذير مبين وتعيين لما يوجب وقوع المحذور وتبيين لوجه الخلاص وهو عبادة الله تعالى وقوله تعالى (انى اخاف عليكم عذاب يوم اليم) تعليل لموجب النهى وتصريح بالمحذور وتحقيق للانذار والمراد به يوم القيامة اويوم الطوفان ووصفه بالاليم على الاسناد المجازى للمبالغة كما فى نهاره صائم وهذه المقالة ومافى معناها مما قاله عليه الصلاة والسلام فى أثناء الدعوة على ماعزى اليه فى سائر السور لم تصدر عنه عليه الصلاة والسلام مرة واحدة بل كان يكررها عليهم فى تلك المدة المتطاولة على مانطق به قوله تعالى رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا الآيات عطف على فعل الارسال المقارن لها اوالقول المقدر بعده جوابهم المتعرض لاحوال المؤمنين الذين اتبعوه عليه الصلاة والسلام بعدالتيا والتى بالفاء التعقيبية فقيل (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) اى الاشراف منهم من قولهم فلان ملئ بكذا اى مطيق له لانهم ملؤا بكفايات الامور اولانهم ملؤا القلوب هيبة والمجالس ابهة اولانهم ملؤا بالاحلام والآراء الصائبة ووصفهم بالكفر لذمهم والتسجيل عليهم بذلك من اول الامر لالان بعض اشرافهم ليسوا بكفرة (مانراك الابشرا مثلنا) مرادهم ماانت الابشر مثلنا ليس فيك مزية تخصك من دوننا بما تدعيه من النبوة ولوكان كذلك لرأيناه لاأن ذلك محتمل ولكن

لانراه وكذا الحال فى قولهم (ومانراك اتبعك الاالذين هم أراذلنا بادى الرأى) فالفعلان من رؤية العين وقوله تعالى الابشرا (فقراء) مثلنا حال من المفعول وكذا قوله اتبعك فى موضع الحال منه اماعلى حاله اوبتقدير قد عند من يشترط ذلك ويجوز ان يكون من رؤية القلب

وهوالظاهر فهما المفعول الثانى وتعلق الرأى فى الاول بالمثلية لا بالبشرية فقط وانما لم يبتوا القول بذلك مع جزمهم به واصرارهم عليه اراءة بأن ذلك لم يصدر عنهم جزافا بل بعد التأمل فى الامر ( ٧٩ ) والتدبر فيه ولذلك اقتصروا على ذكر الظن فيما سيأتى وتعريضا من اول الامر برأى المتبعين فكان قولهم ومانراك جواب عما يرد عليهم من انه عليه الصلاة والسلام ليس مثلهم حيث عاين دلائل نبوته واغتنم اتباعه من له عين تبصر وقلب يدرك فزعموا ان هؤلاء اراذلنا اى اخساؤنا وادانينا جمع ارذل فانه صار بالغلبة جاريا مجرى الاسم كالاكبر والاكابر اوجمع ارذل جمع رذل كالكالب واكالب وكلب يعنون انه لاعبرة باتباعهم لك اذليس لهم رزانة عقل ولا اصالة رأى وقد كان ذلك منهم فى بادى الرأى اى ظاهره من غير تعمق من البدو اوفى اوله من البدء والياء مبدلة من الهمزة لانكسار ماقبلها وقد قرأه ابو عمرو بها وانتصابه على الظرفية على حذف المضاف اى وقت حدوث بادى الرأى والعامل فيه اتبعك وانما استرذلوهم مع كونهم اولى الالباب الراجحة لفقرهم فانهم لما لم يعلموا الا ظاهر الحياة الدنيا كان الاشرف عندهم الاكثر منها حظا والارذل من حرمها ولم يفقهوا ان ذلك لايزن عندالله جناح بعوضه وان النعيم انماهو نعيم الآخرة والاشرف من فازبه والارذل من حرمه نعوذ بالله تعالى من ذلك ( ومانرى لكم ) اى لك ولمتبعيك فغلب المخاطب على الغائبين ( علينا من فضل ) يعنون ان اتباعهم لك لايدل على نبوتك ولايجديهم فضيلة تستتبع اتباعنا لكم واقتصارهم ههنا على ذكر عدم رؤية الفضل بعد تصريحهم برذالتهم فيما سبق باعتبار حالهم السابق واللاحق ومرادهم انهم كانوا اراذل قبل اتباعهم لك ولانرى فيهم وفيك بعد الاتباع فضيلة علينا ( بل نظنكم كاذبين ) جميعا لكون كلامكم واحدا ودعواكم واحدة اواياك فى دعوى النبوة واياهم فى تصديقك واقتصارهم على الظن احترازمنهم عن نسبتهم الى المجازفة ومجاراة معه عليه الصلاة والسلام بطريق الاراءة على نهج الانصاف

فقراء المؤمنين لطلب مرضاة الكفار حتى عاتبه الله تعالى فى قوله ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه وذلك يدل على اقدام محمد صلى الله عليه وسلم على الذنب والجواب يحمل الطرد المذكور فى هذه الآية على الطرد المطلق على سبيل التأبيد والطرد المذكور فى واقعة محمد صلى الله عليه وسلم على التقليل فى اوقات معينة لرعاية المصالح ( المسئلة الرابعة ) احتج الجبائى على انه لاتجوز الشفاعة عندالله فى دفع العقاب بقول نوح عليه السلام من ينصرنى من الله ان طردتهم معناه ان كان هذا الطرد محرما فمن ذا الذى ينصرنى من الله اى من الذى يخلصنى من عقابه ولو كانت الشفاعة جائزة لكانت فى حق نوح عليه السلام ايضا جائزة وحينئذ يبطل قوله من ينصرنى من الله واعلم ان هذا الاستدلال يشبه استدلالهم فى هذه المسئلة بقوله تعالى واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا الى قوله ولاهم ينصرون والجواب المذكور هناك هوالجواب عن هذا الكلام ❊ قوله تعالى ( قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين قال انما يأتيكم به الله ان شاء وماانتم بمعجزين ولاينفعكم نصحى ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم هوربكم واليه ترجعون ) فى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) اعلم ان الكفار لما اوردوا تلك الشبهة واجاب نوح عليه السلام عنها بالجوابات الموافقة الصحيحة اورد الكفار على نوح كلامين ( الاول ) انهم وصفوه بكثرة المجادلة فقالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا وهذا يدل على انه عليه السلام كان قد اكثر فى الجدال معهم وذلك الجدال ماكان الا فى اثبات التوحيد والنبوة والمعاد وهذا يدل على ان الجدال فى تقرير الدلائل وفى ازالة الشبهات حرفة الانبياء وعلى ان التقليد والجهل والاصرار على الباطل حرفة الكفار ( والثانى ) انهم استعجلوا العذاب الذى كان يتوعدهم به فقالوا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ثم انه عليه السلام اجاب عنه بجواب صحيح فقال انما يأتيكم به الله ان شاء وماانتم بمعجزين والمعنى ان انزال العذاب ليس الى وانما هو خلق الله تعالى فيفعله ان شاء كما شاء واذا اراد انزال العذاب فان احدا لايعجزه اى لايمنعه منه والمعجز هو الذى يفعل ماعنده لتعذر مراد الغير فيوصف بانه اعجزه فقوله وماانتم بمعجزين اى لاسبيل لكم الى فعل ماعنده فلا يمتنع على الله تعالى مايشاء من العذاب ان اراد انزاله بكم وقد قيل معناه وماانتم بمانعين وقيل وماانتم بمصونين وقيل وماانتم بسابقين الى الخلاص وهذه الاقوال متقاربة واعلم ان نوحا عليه السلام لما اجاب عن شبهاتهم ختم الكلام بخاتمة قاطعة فقال ولاينفعكم نصحى ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم فانه لاينفعكم نصحى البتة واحتج اصحابنا بهذه الآية على ان الله تعالى قد يريد الكفر من العبد وانه اذا اراد منه ذلك فانه يمتنع صدور الايمان منه قالوا ان نوحا عليه السلام قال ولاينفعكم نصحى ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم والتقدير لاينفعكم نصحى ان كان الله يريد ان يغويكم ويضلكم وهذا صريح

(قال ياقوم أرأيتم) اى اخبروني وفيه ايماء الى ركاكة رأيهم المذكور (ان كنت على بينة) برهان ظاهر (من ربى) وشاهد يشهد بصحة دعواى (وآتانى رحمة من عنده) هى النبوة ويجوز ان تكون هى البينة  نفسها جئ بها ايذانا بأنها مع كونها بينة من الله تعالى رحمة ونعمة عظيمة من عنده فوجه افراد الضمير فى قوله تعالى (فعميت عليكم) حينئذ ظاهر وان اريد بها النبوة وبالبينة البرهان الدال على صحتها فالافراد لارادة كل واحدة منهما اولكون الضمير للبينة والاكتفاء بذلك لاستلزام خفائها خفاء النبوة اولتقدير فعل آخر بعد البينة ومعنى عميت اخفيت وقرئ عميت ومعناه خفيت وحقيقته ان الحجة كما تجعل مبصرة وبصيرة تجعل عمياء لان الاعمى لايهتدى ولايهدى غيره وفى قراءة ابى فعماها عليكم على الاسناد الى الله عزوجل (انلزمكموها) اى انكرهكم على الاهتداء بها وهو جواب ارأيتم وساد مسد جواب الشرط وقرأ ابوعمرو باخفاء حركة الميم وحيث اجتمع ضميران منصوبان وقد قدم اعرفهما جاز فى الثانى الوصل والفصل فوصل كما فى قوله تعالى فسيكفيكهم الله (وانتم لها كارهون) لاتختارونها ولاتتأملون فيها ومحصول الجواب اخبرونى ان كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة دعواى الاانها خافية عليكم غير مسلمة عندكم ايمكننا ان نكرهكم على قبولها وانتم معرضون عنها غير متدبرين فيها اى لايكون ذلك وظاهره مشعر بصدوره عنه عليه الصلاة والسلام بطريق اظهار اليأس عن الزامهم والقعود عن محاجتهم كقوله تعالى ولاينفعكم نصحى الخ لكنه محمول على ان مراده عليه الصلاة والسلام ردهم عن الاعراض عنها وحثهم على التدبر فيها بصرف الانكار الى الالزام حال كراهتهم لها لاالى الالزام مطلقا هذا ويجوز ان يكون المراد بالبينة دليل العقل الذى هو ملاك الفضل وبحسبه يمتاز افراد البشر بعضها من بعض وبه يناط الكرامة عند الله عز وجل والاجتباء للرسالة وبالكون عليها التمسك به والثبات عليه وبخفائها على الكفرة على ان الضمير للبينة عدم ادراكهم

فى مذهبنا اما المعتزلة فانهم قالوا ظاهر الآية يدل على ان الله تعالى ان اراد اغواء القوم لم ينتفعوا بنصح الرسول وهذا مسلم فانا نعرف ان الله تعالى لو أراد اغواء عبد فانه لاينفعه نصح الناصحين لكن لم قلتم انه تعالى اراد هذا الاغواء فان النزاع ما وقع الافيه بل نقول ان نوحا عليه السلام انما ذكر هذا الكلام ليدل على انه تعالى مااغواهم بل فوض الاختيار اليهم وبيانه من وجهين (الاول) انه عليه السلام بين انه تعالى لواراد اغواءهم لمابقى فى النصح فائدة فلو لم يكن فيه فائدة لما امره بان ينصح الكفار واجمع المسلمون على انه عليه السلام مأمور بدعوة الكفار ونصحتهم فعلمنا ان هذا النصح غير خال عن الفائدة واذا لم يكن خاليا عن الفائدة وجب القطع بأنه تعالى مااغواهم فهذا صار حجة لنا من هذا الوجه (الثانى) انه لو ثبت الحكم عليهم بأن الله تعالى اغواهم لصار هذا عذرا لهم فى عدم اتيانهم بالايمان ولصار نوح منقطعا فى مناظرتهم لانهم يقولون له انك سلمت ان الله اذا اغوانا فانه لايبقى فى نصحك ولافى جدنا واجتهادنا فائدة فاذا ادعيت بأن الله تعالى قد اغوانا فقد جعلتنا معذورين فلم يلزمنا قبول هذه الدعوة فثبت ان الامر لوكان كما قاله الخصم لصار هذا حجة للكفار على نوح عليه السلام ومعلوم ان نوحا عليه السلام لايجوز ان يذكر كلاما يصير بسببه مفحما ملزما عاجزا عن تقرير حجة الله تعالى فثبت بما ذكرنا ان هذه الآية لاتدل على قول المجبرة ثم انهم ذكروا وجوها من التأويلات (الاول) أولئك الكفار كانوا مجبرة وكانوا يقولون ان كفرهم بارادة الله تعالى فعند هذا قال نوح عليه السلام ان نصحه لاينفعهم ان كان الامر كما قالوا ومثاله ان يعاقب الرجل ولده على ذنبه فيقول الولد لااقدر على غير ما انا عليه فيقول الوالد فلن ينفعك اذا نصحى ولازجرى وليس المراد انه يصدقه على ماذكره بل على وجه الانكار لذلك (الثانى) قال الحسن معنى يغويكم اى يعذبكم والمعنى لاينفعكم نصحى اليوم اذا نزل بكم العذاب فآمنتم فى ذلك الوقت لان الايمان عند نزول العذاب لايقبل وانما ينفعكم نصحى اذا آمنتم قبل مشاهدة العذاب (الثالث) قال الجبائى الغواية هى الخيبة من الطلب بدليل قوله تعالى فسوف يلقون غيا اى خيبة من خير الآخرة قال الشاعر * ومن يغو لايعدم على الغى لائما * (الرابع) انه اذا اصر على الكفر وتمادى فيه منعه الله تعالى الالطاف وفوضه الى نفسه فهذا شبيه ما اذا اراد اغواءه فلهذا السبب حسن ان يقال ان الله تعالى اغواه هذا جملة كلمات المعتزلة فى هذا الباب والجواب عن امثال هذه الكلمات قد ذكرناه مرارا واطوارا فلافائدة فى الاعادة (المسئلة الثانية) قوله ولاينفعكم نصحى ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم جزاء معلق على شرط بعده شرط آخر وهذا يقتضى ان يكون الشرط المؤخر فى اللفظ مقدما فى الوجود وذلك لان الرجل اذا قال لامرأته انت طالق ان دخلت الدار كان المفهوم كون ذلك الطلاق من لوازم ذلك الدخول فاذا ذكر بعده شرطا آخر مثل ان يقول ان اكلت الخبز كان المعنى ان تعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الاول مشروط بحصول هذا الشرط الثانى والشرط

مقدم على المشروط في الوجود فعلى هذا ان حصل الشرط الثاني تعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الاول اما ان لم يوجد الشرط المذكور ثانيا لم يتعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الاول هذا هو التحقيق في هذا التركيب فلهذا المعنى قال الفقهاء ان الشرط المؤخر في اللفظ مقدم في المعنى والمقدم في اللفظ مؤخر في المعنى * واعلم ان نوحا عليه السلام لما قرر هذه المعاني قال هو ربكم واليه ترجعون وهذا نهاية الوعيد اى هو الهكم الذي خلقكم ورباكم ويملك التصرف في ذواتكم وفي صفاتكم قبل الموت وعند الموت وبعد الموت مرجعكم اليه وهذا يفيد نهاية التحذير ☼ قوله تعالى (أم يقولون افتراه قل ان افتريته فعلى اجرامي وانا برئ مما تجرمون) اعلم ان معنى افتراه اختلقه وافتعله وجاء به من عند نفسه والهاء ترجع الى الوحي الذي بلغه اليهم وقوله فعلى اجرامي الاجرام اقتراح المحظورات واكتسابها وهذا من باب حذف المضاف لان المعنى فعلى عقاب اجرامي وفي الآية محذوف آخر وهو ان المعنى ان كنت افتريته فعلى عقاب جرمي وان كنت صادقا وكذبتموني فعليكم عقاب ذلك التكذيب الا انه حذف هذه البقية لدلالة الكلام عليه كقوله أمن هو قانت آناء الليل ولم يذكر البقية وقوله وانا برئ مما تجرمون اى انا برئ من عقاب جرمكم واكثر المفسرين على ان هذا من بقية كلام نوح عليه السلام وهذه الآية وقعت في قصة محمد صلى الله عليه وسلم في أثناء حكاية نوح وقولهم بعيد جدا وايضا قوله قل ان افتريته فعلى اجرامي لا يدل على انه كان شاكا الا انه قول يقال على وجه الانكار عند اليأس من القبول ☼ قوله تعالى (واوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) فيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس رضى الله عنهما لما جاءه هذا من عند الله تعالى دعا على قومه فقال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وقوله فلا تبتئس اى لا تحزن قال أبو زيد ابتأس الرجل اذا بلغه شئ يكرهه وأنشد أبو عبيدة

ما يقسم الله اقبل غير مبتئس * به وأقعد كريما ناعم البال

اى غير حزين ولا كاره (المسئلة الثانية) احتج اصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم في القضاء والقدر وقالوا انه تعالى اخبر عن قومه انهم لا يؤمنون بعد ذلك فلو حصل ايمانهم لكان اما مع بقاء هذا الخبر صدقا ومع بقاء هذا العلم علما أو مع انقلاب هذا الخبر كذبا ومع انقلاب هذا العلم جهلا والاول ظاهر البطلان لان وجود الايمان مع ان يكون الاخبار عن عدم الايمان صدقا ومع كون العلم بعدم الايمان حاصلا حال وجود الايمان جمع بين النقيضين والثاني ايضا باطل لان انقلاب خبر الله كذبا وعلم الله جهلا محال ولما كان صدور الايمان منهم لابد وان يكون على هذين القسمين وثبت ان كل واحد منهما محال كان صدور الايمان منهم محالا مع انهم كانوا مأمورين به وايضا القوم كانوا مأمورين بالايمان ومن الايمان تصديق الله تعالى في كل ما أخبر عنه ومنه قوله انه

لكونه عليه الصلاة والسلام عليها وبالرحمة النبوة التي انكروا اختصاصه عليه السلام بها بين ظهرانيهم والمعنى انكم زعمتم ان عهد النبوة لا يناله الا من له فضيلة على سائر  الناس مستتبعة لاختصاصه به دونهم اخبروني ان امتزت عنكم بزيادة مزية وحيازة فضيلة من ربي وآتاني بحسبها نبوة من عنده فخفيت عليكم تلك البينة ولم تصيبوها ولم تنالوها ولم تعلموا حيازتي لها وكوني عليها الى الآن حتى زعمتم اني مثلكم وهي متحققة في نفسها انلزمكم قبول نبوتي التابعة لها والحال انكم كارهون لذلك فيكون الاستفهام للحمل على الاقرار وهو الانسب بمقام المحاجة وحينئذ يكون كلامه عليه الصلاة والسلام جوابا عن شبههم التي ادرجوها في خلال مقالهم من كونه عليه السلام بشرا قصارى امره ان يكون مثلهم من غير فضل له عليهم وقطعا لشأفة آرائهم الركيكة (ويا قوم لا اسألكم عليه) اى على ما قلته في اثناء دعوتكم (مالا) تؤدونه الى بعد ايمانكم واتباعكم لى فيكون ذلك اجرا لى في مقابلة اهتدائكم (ان اجرى الا على الله) الذي يثيبني في الآخرة وفي التعبير عنه حين نسب اليهم بالمال ما لا يخفى من المزية (وما انا بطارد الذين آمنوا) جواب عما لوحوا به بقولهم وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا من انه لو اتبعه الاشراف لوافقوهم وان اتباع الفقراء مانع لهم عن ذلك كما صرحوا به في قولهم أنؤمن لك واتبعك الارذلون فكان ذلك التماسا منهم لطردهم وتعليقا لايمانهم به عليه الصلاة والسلام بذلك انفة من الانتظام معهم في سلك واحد (انهم ملاقوا ربهم) تعليل لامتناعه عليه السلام عن طردهم اى انهم فائزون في الآخرة بلقاء الله عز وجل كأنه قيل لا اطردهم ولا ابعدهم عن مجلسي لانهم مقربون في حضرة القدس والتعرض لوصف الربوبية لتربية وجوب رعايتهم وتحتم  الامتناع عن طردهم اومصدقون في الدنيا بلقاء ربهم موقنون به عالمون انهم ملاقوه لا محالة فكيف اطردهم وحمله على معنى انهم يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من ايمان صحيح

لن يؤمن من قومك الامن قدآمن فيلزم ان يقال انهم كانوا مأمورين بأن يؤمنوا بأنهم لايؤمنون البتة وذلك تكليف بالجمع بين النقيضين وتقرير هذا الكلام قدمر في هذا الكتاب مرارا واطوارا (المسئلة الثالثة) اختلفت المعتزلة في انه هل يجوز ان ينزل الله تعالى عذاب الاستئصال على قوم كان في المعلوم ان فيهم من يؤمن اوكان في اولادهم من يؤمن فقال قوم انه لايجوز واحتجوا بما حكى الله تعالى عن نوح عليه السلام انه قال رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الافاجرا كفارا وهذا يدل على انه انما حسن منه تعالى انزال عذاب الاستئصال عليهم لاجل انه تعالى علم انه ليس فيهم من يؤمن ولا في اولادهم احد يؤمن قال القاضي وقال كثير من علمائنا ان ذلك من الله تعالى جائز وان كان منهم من يؤمن واما قول نوح عليه السلام رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا فذلك يدل على انه انما سأل ذلك من حيث انه كان في المعلوم انهم يضلون عباده ولايلدون الافاجرا كفارا وذلك يدل على ان ذلك الحكم كان قولا بمجموع هاتين العلتين وايضا فلادليل فيه على انهما لو لم يحصلا لماجاز انزال الاهلاك والاقرب ان يقال ان نوحا عليه السلام لشدة محبته لايمانهم كان سأل ربه ان يبقيهم فأعلمه انه لايؤمن منهم احد ليزول عن قلبه ماكان قد حصل فيه من تلك المحبة ولذلك قال تعالى من بعد فلاتبتئس بما كانوا يفعلون اى لاتحزن من ذلك ولاتغتم ولاتظن ان في ذلك مذلة فان الدين عزيز وان قل عدد من يتمسك به والباطل ذليل وان كثر عدد من يقول به ❊ قوله تعالى (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون) واعلم ان قوله تعالى انه لن يؤمن من قومك الا من قدآمن يقتضي تعريف نوح عليه السلام انه معذبهم ومهلكهم فكان يحتمل ان يعذبهم بوجوه التعذيب فعرفه الله تعالى انه يعذبهم بهذا الجنس الذي هو الغرق ولما كان السبيل الذي به يحصل النجاة من الغرق تكوين السفينة لاجرم امره الله تعالى باصلاح السفينة واعدادها فأوحى الله تعالى اليه ان يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر فان قيل قوله تعالى واصنع الفلك امر ايجاب اوأمر اباحة قلنا الاظهر انه امر ايجاب لانه لاسبيل له الى صون روح نفسه وارواح غيره عن الهلاك الابهذا الطريق وصون النفس عن الهلاك واجب وما لايتم الواجب الابه فهو واجب ويحتمل ان لايكون ذلك الامر امر ايجاب بل كان امر اباحة وهو بمنزلة ان يتخذ الانسان لنفسه دارا ليسكنها ويقيم بها اما قوله بأعيننا فهذا لايمكن اجراؤه على ظاهره من وجوه (احدها) انه يقتضي ان يكون لله تعالى اعين كثيرة وهذا يناقض ظاهر قوله تعالى ولتصنع على عيني (وثانيها) انه يقتضي ان يصنع نوح عليه السلام ذلك الفلك بتلك الاعين كما يقال قطعت بالسكين وكتبت بالقلم ومعلوم ان ذلك باطل (وثالثها) انه ثبت بالدلائل القطعية العقلية كونه تعالى منزها عن الاعضاء والجوارح والاجزاء والابعاض فوجب المصير فيه الى التأويل

ثابت كما ظهر لى اوعلى خلاف ذلك مما تعرفونهم به من بناء ايمانهم على بادى الرأى من غير نظر وتفكر وما على ان اشق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك منهم حتى اطردهم ان كان الامر كما تزعمون يأباه الجزم بترتب ( ٨٢ ) غضب الله عزوجل على طردهم كما سيأتى وايضا فهم انما قالوا ان اتباعهم لك انما هو بحسب بادى الرأى بلا تأمل وتفكر وهذا لايكاد يصلح مدارا للطرد في الدنيا ولا للمؤاخذة في الآخرة غايته ان لا يكونوا في مرتبة الموقنين وادعاء ان بناء الايمان على ظاهر الرأى يؤدى الى الرجوع عنه عند التأمل فكأنهم قالوا انهم اتبعوك بلا تأمل فلايثبتون على دينك بل يرتدون عنه تعسف لايخفى (ولكنى اراكم قوما تجهلون) بكل ماينبغى ان يعلم ويدخل فيه جهلهم بلقاء الله عز وجل وبمنزلتهم عنده وباستيجاب طردهم لغضب الله كما سيأتى وبركاكة رأيهم في التماس ذلك وتوقيف ايمانهم عليه انفة عن الانتظام معهم في سلك واحد وزعما منهم ان الرذالة بالفقر والشرف بالغنى وايثار صيغة الفعل للدلالة على التجدد والاستمرار او تسافهون على المؤمنين بنسبتهم الى الخساسة (وياقوم من ينصرنى من الله) بدفع حلول سخطه عنى (ان طردتهم) فان ذلك امر لامرد له لكون الطرد ظلما موجبا لحلول السخط قطعا وانما لم يصرح به اشعارا بأنه غنى عن البيان لاسيما غب ماقدم ما يلوح به من احوالهم فكأنه قيل من يدفع عنى غضب الله تعالى ان طردتهم وهم بتلك المثابة من الكرامة والزلفى كما ينبئ عنه قوله تعالى (أفلا تذكرون) اى اتستمرون على ماانتم عليه من الجهل المذكور فلاتتذكرون ماذكر من حالهم حتى تعرفوا ان ماتأتونه بمعزل عن الصواب ولكون هذه العلة مستقلة بوجه مخصوص ظاهر الدلالة على وجوب الامتناع عن الطرد افردت عن التعليل السابق وصدرت بياقوم (ولااقول لكم) حين ادعى النبوة (عندى خزائن الله) اى رزقه واءواله حتى تستدلوا بعدمها على كذبى بقولكم ومانرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين فان النبوة اعز من ان تنال (وهو)

باسباب دنيوية ودعواها بمعزل عن ادعاء المال والجاه ( ولا اعلم الغيب ) اى لا ادعى فى قولى انى لكم نذير مبين انى اخاف عليكم عذاب يوم اليم علم الغيب حتى تسارعوا الى الانكار والاستبعاد ( ٨٣ ) ( ولا اقول انى ملك ) حتى تقولوا ماتراك الا بشرا مثلنا فان

وهو من وجوه (الاول) ان معنى باعيننا اى بعين الملك الذى كان يعرفه كيف يتخذ السفينة يقال فلان عين على فلان نصب عليه ليكون متفحصا عن احواله ولا تحول عنه عينه (الثانى) ان من كان عظيم العناية بالشئ فانه يضع عينه عليه فلما كان وضع العين على الشئ سببا لمبالغة الاحتياط والعناية جعل العين كناية عن الاحتياط فلهذا قال المفسرون معناه بحفظنا اياك حفظ من يراك ويملك دفع السوء عنك وحاصل الكلام ان اقدامه على عمل السفينة مشروط بأمرين ( أحدهما ) ان لا يمنعه أعداؤه عن ذلك العمل (والثانى) ان يكون عالما بأنه كيف ينبغى تأليف السفينة وتركيبها ودفع الشر عنه وقوله ووحينا اشارة الى انه تعالى يوحى اليه انه كيف ينبغى عمل السفينة حتى يحصل منه المطلوب واما قوله ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون ففيه وجوه (الاول) يعنى لا تطلب منى تأخير العذاب عنهم فانى قد حكمت عليهم بهذا الحكم فلما علم نوح عليه السلام ذلك دعا عليهم بعد ذلك وقال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ( الثانى ) ولا تخاطبنى فى تعجيل ذلك العقاب على الذين ظلموا فانى لما قضيت انزال ذلك العذاب فى وقت معين كان تعجيله ممتنعا ( الثالث ) المراد بالذين ظلموا امرأته وابنه كنعان ❊قوله تعالى ( ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ) اما قوله تعالى ويصنع الفلك ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى قوله ويصنع الفلك قولان (الاول) انه حكاية حال ماضية اى فى ذلك الوقت كان يصدق عليه انه يصنع الفلك ( الثانى ) التقدير واقبل يصنع الفلك فاقتصر على قوله ويصنع الفلك ( المسئلة الثانية ) ذكروا فى صفة السفينة اقوالا كثيرة ( فاحدها ) ان نوحا عليه السلام اتخذ السفينة فى سنتين وقيل فى اربع سنين وكان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعا وطولها فى السماء ثلاثون ذراعا وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاث بطون فحمل فى البطن الاسفل الوحوش والسباع والهوام وفى البطن الاوسط الدواب والانعام وفى البطن الاعلى جلس هو ومن كان معه مع ما احتاجوا اليه من الزاد وحمل معه جسد آدم عليه السلام (وثانيها) قال الحسن كان طولها الفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع واعلم ان امثال هذه المباحث لا تعجبنى لانها امور لا حاجة الى معرفتها البتة ولا يتعلق بمعرفتها فائدة اصلا وكان الخوض فيها من باب الفضول لاسيما مع القطع بانه ليس ههنا ما يدل على الجانب الصحيح والذى نعلمه انه كان فى السعة بحيث يتسع للمؤمنين من قومه ولما يحتاجون اليه ولحصول زوجين من كل حيوان لان هذا القدر مذكور فى القرآن فأما غير ذلك القدر فغير مذكور اما قوله تعالى وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ففى تفسير الملأ وجهان قيل جماعة وقيل طبقة من اشرافهم وكبرائهم واختلفوا فيما لاجله كانوا يسخرون وفيه وجوه ( احدها ) انهم كانوا يقولون له يا نوح كنت تدعى

البشرية ليست من موانع النبوة بل من مباديها يعنى انكم اتخذتم فقدان هذه الامور الثلاثة ذريعة الى تكذيبى والحال أنى لا أدعى شيئا من ذلك ولا الذى أدعيه يتعلق بشئ منها وانما يتعلق بالفضائل النفسانية التى بها تتفاوت مقادير البشر ( ولا اقول ) مساعدة لكم كما تقولون (للذين تزدرى أعينكم ) اى تقتحمهم وتحتقرهم من زراه اذا عابه واسناد الازدراء الى أعينهم بالنظر الى قولهم وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا واما الاشعار بأن ذلك لقصور نظرهم ولو تدبروا فى شأنهم ما فعلوا ذلك اى لا اقول فى شأن الذين استرذلتموهم لفقرهم من المؤمنين ( لن يؤتيهم الله خيرا ) فى الدنيا او فى الآخرة فعسى الله ان يؤتيهم خيرى الدارين ان قلت هذا القول ليس مما تستنكره الكفرة ولا مما يتوهمون صدوره عنه عليه السلام أصالة أو استتباعا كادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن مما نفاه عليه الصلاة والسلام عن نفسه بطريق التبرؤ والتنزه عنه فمن أى وجه عطف نفيه على نفيها قلت من جهة ان كلا النفيين رد لقياسهم الباطل الذى تمسكوا به فيما سلف فانهم زعموا أن النبوة تستتبع الامور المذكورة وانها لا تتسنى من ليس على تلك الصفات فان العثور على مكانها واغتنام مغانمها ليس من دأب الاراذل فأجاب عليه الصلاة والسلام بنفى ذلك جميعا فكأنه قال لا اقول وجود تلك الاشياء من مواجب النبوة ولا عدم المال والجاه من موانع الخير ( الله اعلم بما فى أنفسهم ) من الايمان وانما اقتصر على نفى القول المذكور مع انه عليه الصلاة والسلام جازم بان الله سبحانه سيؤتيهم خيرا عظيما فى الدارين وانهم على يقين راسخ فى الايمان جريا على سنن الانصاف مع القوم واكتفاء بمخالفة كلامهم

رسـالة الله تعالى فصرت بعد ذلك نجارا ( وثانيها ) انهم كانوا يتولون لو كنت صادقا فى دعواك لكان الهك يغنيك عن هذا العمل الشـاق ( وثالثها ) انهم ما رأوا السفينة قبل ذلك وما عرفوا كيفية الانتفاع بها وكانوا يتعجبون منه ويسخرون ( ورابعها ) ان تلك السفينة كانت كبيرة وهو كان يصنعها فى موضع بعيد عن المـاء جدا وكانوا يقولون ليس ههنا ماء ولا يمكنك نقلها الى الانهار العظيمة والى البحار فكانوا يعدون ذلك من باب السفه والجنون ( وخامسها ) انه لما طالت مدته مع القوم وكان ينذرهم بالغرق وما شـاهدوا من ذلك المعنى خبرا ولا اثرا غلب على ظنونهم كونه كاذبا فى ذلك المقـال فلما اشتغل بعمل السفينة لاجرم سخروا منه وكل هذه الوجوه محتملة ثم انه تعالى حكى عنه انه كان يقول ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون وفيه وجوه ( الاول ) التقدير ان تسخروا منا فى هذه السـاعة فانا نسخر منكم سخرية مثـل سخريتكم اذا وقع عليكم الغرق فى الدنيا والخزى فى الآخرة ( الثانى ) ان حكمتم علينا بالجهل فيما نصنع فانا نحكم عليكم بالجهل فيمـا أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله تعالى وعذابه فأنتم أولى بالسخرية منا ( الثالث ) ان تستجهلونا فانا نستجهلكم واستجهالنا لكم أقبح واشـد لانكم لا تستجهلون الا لاجل الجهل بحقيقة الامر والاغترار بظاهر الحال كما هو عادة الاطفال والجهال فان قيل السخرية من آثار المعاصى فكيف يليق ذلك بالانبياء عليهم الصـلاة والسـلام قلنا انه تعـالى سمى المقابلة سخرية كما فى قوله تعـالى وجزاء سيئة سيئة مثلها اما قوله تعـالى فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه اى فسوف تعلمون من هو احق بالسخرية ومن هو احمد عاقبة وفى قوله من يأتيـه وجهان ( احدهما ) ان يـكون استفهاما بمعنى اى كأنه قيل فسوف تعلمون اينا يأتيه عذاب وعلى هذا الوجه فمحل من رفع بالابتداء (والثانى) ان يكون بمعنى الذى ويكون فى محل النصب وقوله تعالى ويحل عليه عذاب مقيم اى يجب عليه وينزل به * قوله تعالى (حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل) فى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) قال صاحب الكشاف حتى هى التى يبتدأ بعدها الكلام ادخلت على الجملة من الشرط والجزاء ووقعت غاية لقوله ويصنع الفلك اى فكان يصنعها الى ان جاء وقت الموعد ( المسئلة الثانية ) الامر فى قوله تعـالى حتى اذا جاء امرنا يحتمل وجهين ( الاول ) انه تعالى بين انه لا يحدث شئ الا بأمر الله تعالى كما قال انما امرنا لشئ اذا اردناه ان نقول له كن فيكون فكان المراد هذا ( والثانى ) ان يكون المراد من الامر ههنا هو العذاب الموعد به ( المسـئلة الثـالثة ) فى التنور قولان ( احدهما ) انه التنور الذى يخبز فيه (والثانى) انه غيره اما الاول وهو انه التنور الذى يخبز فيه فهو قول جماعة عظيمة من المفسرين كابن عبـاس والحسن ومجاهد وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال انه تنور لنوح عليه السـلام وقيـل كان لآدم قال الحسن كان

---

وارشادا لهم الى مسلك الهداية بان اللائق لكل احد ان لا يبت القول الا فيما يعلمه يقينا ويبنى اموره على الشواهد الظاهرة ولا يجازف فيما ليس فيه على بينة ظاهرة ( انى اذا ) اى اذا قلت ذلك ( ٨٤ ) ( لمن الظالمين ) لهم بحط مرتبتهم ونقص حقوقهم او من الظالمين لانفسهم بذلك فان وباله راجع الى أنفسهم وفيه تعريض بأنهم ظالمون فى ازدرائهم واسترذالهم وقيل اذا قلت شيئا مما ذكر من ادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن وهو بعيد لان تبعة تلك الاقوال مغنية عن التعليل بلزوم الانتظام فى زمرة الظالمين (قالوا يانوح قد جادلتنا ) خاصمتنا ( فأكثرت جدالنا ) أى أطلته أو أتيته بأنواعه فان اكثار الجدال يتحقق بعد وقوع أصله فلذلك عطف عليه بالفاء أو أردت ذلك فأكثرته كما فى قوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ولما حجهم عليه الصلاة والسلام وأبرز لهم بينات واضحة المدلول وحججا تتلقاها العقول بالقبول والقمهم الحجر برد شبههم الباطلة ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وقالوا ( فأتنا بما تعدنا ) من العذاب المعجل او العذاب الذى اشير اليـه فى قوله انى اخاف عليكم عذاب يوم اليم على تقدير ان لا يكون المراد باليوم يوم القيامة ( ان كنت من الصادقين ) فيما تقول ( قال انما يأتيكم به الله ان شاء ) يعنى ان ذلك ليس موكولا الى ولا هو مما يدخل تحت قدرتى وانما يتولاه الله الذى كفرتم به وعصيتموه يأتيكم به عاجلا او آجلا ان تعلق به مشيئته التابعة للحكمة وفيه ما لا يخفى من تهويل الموعود فكأنه قيل الاتيان به امر خارج عن دائرة القوى البشرية وانما يفعله الله عز وجل ( وما أنتم بمعجزين ) بالهرب او بالمدافعة كما تدافعوننى فى الكلام (ولا ينفعكم نصحى ) النصح كلمة جامعة لكل ما يدور عليه الخير من قول اوفعل وحقيقته امحاض ارادة الخير والدلالة عليه ونقيضه الغش وقيل هو اعلام موقع الغى ليتقى وموقع الرشـد (تنورا) ليقتفى ( ان اردت ان انصح لكم ) شرط حذف جوابه لدلالة ماسبق عليه والتقدير ان اردت ان انصح لكم لا ينفعكم نصحى وهذه الجملة

دليل على ماحذف من جواب قوله تعالى ( ان كان الله يريد ان يغويكم ) والتقدير ان كان الله يريد ان يغويكم فان اردت ان انصح لكم لاينفعكم نصحى هذا على ماذهب اليه البصريون ( ٨٥ ) من عدم تقديم الجزاء على الشرط واما على ماذهب اليه الكوفيون من جواز ه فقوله عز وعلا ولاينفعكم نصحى جزاء للشرط الاول والجملة جزاء للشرط الثانى وعلى التقديرين فالجزاء متعلق بالشرط الاول وتعلقه به معلق بالشرط الثانى وهذا الكلام متعلق بقولهم قد جادلتنا فأكثرت جدالنا صدر عنه عليه الصلاة والسلام اظهارا للعجز عن الزامهم بالحجج والبينات لتماديهم فى العناد وايذانا بأن ماسبق منه ليس بطريق الجدال والخصام بل بطريق النصيحة لهم والشفقة عليهم وبأنه لم يأل جهدا فى ارشادهم الى الحق وهدايتهم الى سبيله المستبين وامحاض النصح لهم ولكن لاينفعهم ذلك عند ارادة الله تعالى لاغوائهم وتقييد عدم نفع النصح بارادته مع انه محقق لامحالة للايذان بأن ذلك النصح منه مقارن للارادة والاهتمام به ولتحقيق المقابلة بين ذلك وبين ماوقع بازائه من ارادته تعالى لاغوائهم وانما اقتصر فى ذلك على مجرد ارادة الاغواء دون نفسه حيث لم يقل ان كان الله يغويكم مبالغة فى بيان غلبة جنابه عز وعلا حيث دل ذلك على ان نصحه المقارن للاهتمام به لايجديهم عند مجرد ارادة الله سبحانه لاغوائهم فكيف عند تحقيق ذلك وخلقه فيهم وزيادة كان الاشعار بتقدم ارادته تعالى زمانا كتقدمها رتبة وللدلالة على تجددها واستمرارها وانما قدم على هذا الكلام مايتعلق بقولهم فأتنا بما تعدنا من قوله تعالى انما يأتيكم به الله ان شاء رداعليهم من اول الامر وتسجيلا عليهم بحلول العذاب مع مافيه

تنورا من حجارة وكان لحواء حتى صار لنوح عليه السلام واختلفوا فى موضعه فقال الشعبى انه كان بناحية الكوفة وعن على رضى الله عنه انه فى مسجد الكوفة قال وقد صلى فيه سبعون نبيا وقيل بالشام بموضع يقال له عين وردان وهو قول مقاتل وقيل فار التنور بالهند وقيل ان امرأته كانت تخبز فى ذلك التنور فأخبرته بخروج الماء من ذلك التنور فاشتغل فى الحال بوضع تلك الاشياء فى السفينة ( القول الثانى ) ليس المراد من التنور تنور الخبز وعلى هذا التقدير ففيه اقوال ( الاول ) انه انفجر الماء من وجه الارض كما قال ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على امر قد قدر والعرب تسمى وجه الارض تنورا ( الثانى ) ان التنور اشرف موضع فى الارض واعلى مكان فيها وقد اخرج اليه الماء من ذلك الموضع ليكون ذلك معجزة له وايضا المعنى انه لما نبع الماء من اعالى الارض ومن الامكنة المرتفعة فشبهت لارتفاعها بالتنانير ( الثالث ) فار التنور اى طلع الصبح وهو منقول عن على رضى الله عنه ( الرابع ) فار التنور يحتمل ان يكون معناه اشتد الامر كما يقال حمى الوطيس ومعنى الآية اذا رأيت الامر يشتد والماء يكثر فانج بنفسك ومن معك الى السفينة فان قيل فالاصح من هذه الاقوال قلنا الاصل حمل الكلام على حقيقته ولفظ التنور حقيقة فى الموضع الذى يخبز فيه فوجب حمل اللفظ عليه ولا امتناع فى العقل فى ان يقال ان الماء نبع اولا من موضع معين وكان ذلك الموضع تنورا فان قيل ذكر التنور بالالف واللام وهذا انما يكون معهود سابق معين معلوم عند السامع وليس فى الارض تنور هذا شانه فوجب ان يحمل ذلك على ان المراد اذا رأيت الماء يشتد نبوعه والامر يقوى فانج بنفسك وبمن معك قلنا لايبعد أن يقال ان ذلك التنور كان معلوما لنوح عليه السلام بان كان تنور آدم أو حواء أو كان تنورا عينه الله تعالى لنوح عليه السلام وعرفه انك اذا رأيت الماء يفور فاعلم ان الامر قد وقع وعلى هذا التقدير فلا حاجة الى صرف الكلام عن ظاهره (المسئلة الرابعة ) معنى فار نبع على قوة وشدة تشبيها بغليان القدر عند قوة النار ولا شبهة فى أن نفس التنور لايفور فالمراد فار الماء من التنور والذى روى أن فور التنور كان علامة لهلاك القوم لايمتنع لان هذه واقعة عظيمة وقد وعد الله تعالى المؤمنين النجاة فلابد وأن يجعل لهم علامة بها يعرفون الوقت المعين فلا يبعد جعل هذه الحالة علامة لحدوث هذه الواقعة ( المسئلة الخامسة ) قال الليث التنور لفظة عمت بكل لسان وصاحبه تنار قال الازهرى وهذا يدل على ان الاسم قد يكون أعجميا فتعربه العرب فيصير عربيا والدليل على ذلك ان الاصل تنار ولا يعرف فى كلام العرب تنور قيل هذا ونظيره مادخل فى كلام العرب من كلام العجم الديباج والدينار والسندس والاستبرق فان العرب لما تكلموا بهذه الالفاظ صارت عربية واعلم أنه لما فار التنور فعند ذلك أمره الله تعالى بأن يحمل فى السفينة ثلاثة انواع من الاشياء ( فالاول ) قوله قلنا احمل

من اتصال الجواب بالسؤال وفيه دليل على ان ارادته تعالى يصح تعلقها بالاغواء وان خلاف مراده غير واقع وقيل معنى ان يغويكم ان يهلككم من غوى الفصيل غوى اذا بشم وهلك (هو ربكم) خالقكم ومالك امركم (واليه ترجعون) فيجازيكم على اعمالكم لامحالة

( ام يقولون افتراه ) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يعنى نوحا عليه الصلاة والسلام ومعناه بل أيقول قوم نوح ان نوحا افترى ماجاء به مسندا الى الله عزوجل ( قـل ) يانوح (ان افتريته ) ( ٨٦ ) بالفرض البحت ( فعلى اجرامى ) اثمى ووبال اجرامى وهوكسب

فيهامن كل زوجين اثنين قال الاخفش تقول الاثنان هما زوجان قال تعالى ومن كل شئ خلقنا زوجين فالسماء زوج والارض زوج والشتاء زوج والصيف زوج والنهار زوج والليل زوج وتقول للمرأة هى زوج وهوزوجها قال تعالى وخلق منها زوجها يعنى المرأة وقال وانه خلق الزوجين الذكر والانثى فثبت ان الواحد قديقال له زوج ومما يدل على ذلك قوله تعالى ثمانية ازواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين اذا عرفت هذا فنقول الزوجان عبارة عن كل شيئين يكون احدهما ذكرا والآخر أنثى والتقدير كل شيئين هما كذلك فاحمل منهما فى السفينة اثنين واحد ذكر والآخر انثى ولذلك قرأ حفص من كل بالتنوين واراد احمل من كل شئ زوجين اثنين الذكر زوج والانثى زوج لايقال عليه ان الزوجين لايكونان الااثنين فاالفائدة فى قوله زوجين اثنين لانانقول هذا على مثال قوله لاتتخذوا الهين اثنين وقوله نفخة واحدة واما على القراءة المشهورة فهذا السؤال غير وارد واختلفوا فى انه هل دخل فى قوله زوجين اثنين غير الحيوان ام لافنقول اماالحيوان فداخل لان قوله من كل زوجين اثنين يدخل فيه كل الحيوانات واما النبات فاللفظ لايدل عليه الاانه بحسب قرينة الحال لايبعد بسبب ان الناس محتاجون الى النبات بجميع اقسامه وجاء فى الروايات عن ابن مسعود رضى الله عنهما انه قال لم يستطع نوح عليه السلام ان يحمل الاسد حتى القيت عليه الحمى وذلك ان نوحا عليه السلام قال يارب فمن اين اطعم الاسد اذاحملته قال تعالى فسوف أشغله عن الطعام فسلط الله تعالى عليه الحمى وأمثال هذه الكلمات الاولى تركها فان حاجة الفيل الى الطعام أكثر وليس به حمى ( الثانى ) من الاشياء التى أمر الله نوحا عليه السلام بحملها فى السفينة قوله تعالى وأهلك الامن سبق عليه القول قالوا كانوا سبعة نوح عليه السلام وثلاثة أبناء له وهم سام وحام ويافث ولكل واحد منهم زوجة وقيل ايضا كانوا ثمانية هؤلاء وزوجة نوح عليه السلام وأماقوله الامن سبق عليه القول ايضا كانوا ثمانية هؤلاء وزوجة نوح عليه السلام وأماقوله الا من سبق عليه القول فالمراد ابنه وامرأته وكانا كافرين حكم الله تعالى عليهما بالهلاك فان قيل الانسان اشرف من جميع الحيوانات فما السبب انه وقع الابتداء بذكر الحيوانات قلنا الانسان عاقل وهو لعقله كالمضطر الى دفع أسباب الهلاك عن نفسه فلاحاجة فيه الى المبالغة فى الترغيب بخلاف السعى فى تخليص سائر الحيوانات فلهذا السبب وقع الابتداء به واعلم أن أصحابنا احتجوا بقوله الامن سبق عليه القول فى اثبات القضاء اللازم والقدر الواجب قالوا لان قوله سبق عليه القول مشعر بأن كل من سبق عليه القول فانه لايتغير عن حاله وهو كقوله عليه الصلاة والسلام السعيد من سعد فى بطن أمه والشقى من شقى فى بطن امه ( النوع الثالث ) من تلك الاشياء قوله ومن آمن قالوا كانوا ثمانين قال مقاتل فى ناحية الموصل قرية يقال لها قرية الثمانين سميت بذلك لان هؤلاء لما خرجوا من السفينة بنوها فسميت بهذا الاسم وذكروا ماهو أزيد منه وماهو أنقص منه وذلك

الـذنب وقرئ بلفظ الجمع ويـنصره ان فسره الاولون بآثامى (وأنا برئ مما تجرمون) من اجرامكم فى اسناد الافتراء الى فلا وجه لاعراضكم عنى ومعاداتكم لى وقال مقاتل يعنى محمدا عليه الصلاة والسلام ومعناه بل أيقول مشركو مكة افترى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر نوح فكأنه انما جئ به فى تضاعيف القصة عند سوق طرف منها تحقيقا لحقيتها وتأكيدا لوقوعها وتشويقا للسامعين الى استماعها لاسيما وقد قص منها طائفة متعلقة بما جرى بينه عليه السلام وبين قومه من المحاجة وبقيت طائفة مستقلة متعلقة بعذابهم (واوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك ) اى المصرين على الكفر وهواقناط له عليه السلام من ايمانهم واعلام لكونه كالمحال الذى لايصح توقعه (الا من قدآمن) الامن قدوجد منه ما كان يتوقع من ايمانه وهذا الاستثناء على طريقة قوله تعالى الاماقدسلف (فلاتبتئس بما كانوا يفعلون) اى لاتحزن حزن بائس مستكين ولا تغتم بما كانوا يتعاطونه من التكذيب والاستهزاء والايذاء فى هذه المدة الطويلة فقدانتهى افعالهم وحان وقت الانتقام منهم (واصنع الفلك) ملتبسا (بأعيننا) اى بحفظنا وكلاءتنا كأن معه من الله عزوجل حفاظا وحراسا يكلؤنه باعينهم من التعدى من الكفرة ومن الزيغ فى الصنعة (ووحينا) اليك كيف تصنعها وتعليمنا والهامنا * عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى الله تعالى اليه ان يصنعها مثل جؤجؤ الطائر والامر للوجوب اذ لاسبيل الى صيانة الروح من الغرق الا به فيجب ( مما ) كوجوبها واللام اماللعهد بأن يحمل على ان هذا مسبوق بوحى الله تعالى اليه عليه السلام انه سيهلكهم بالغرق وينجيه ومن معه بشئ

سبحانه بامره تعالى ووحيه من شأنه كيت وكيت واسمه كذا واما الجنس قيل صنعها عليه الصلاة والسلام فى سنتين وقيل فى اربعمائة
سنة وكانت من خشب الساج وجعلت ثلاثة ( ٨٧ ) بطون حمل فى البطن الاول الوحوش والسباع والهوام وفى البطن الاوسط

مما لا سبيل الى معرفته الا أن الله تعالى وصفهم بالقلة وهو قوله تعالى وما آمن معه الا قليل
فان قيل لما كان الذين آمنوا معه ودخلوا فى السفينة كانوا جماعة فلم لم يقل قليلون كما
فى قوله ان هؤلاء لشرذمة قليلون قلنا كلا اللفظين جائز والتقدير ههنا وما آمن معه الا نفر
قليل فاما الذى يروى ان ابليس دخل السفينة فبعيد لانه من الجن وهو جسم نارى
او هوائى وكيف يؤثر الغرق فيه وايضا كتاب الله تعالى لم يدل عليه وخبر صحيح ما ورد فيه
فالاولى ترك الخوض فيه * قوله تعالى ( وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ان
ربى لغفور رحيم ) اما قوله وقال يعنى نوح عليه السلام لقومه اركبوا والركوب العلو على
ظهر الشئ ومنه ركوب الدابة وركوب السفينة وركوب البحر وكل شئ علا شيئا فقد ركبه
يقال ركبه الدين قال الليث وتسمى العرب من يركب السفينة راكب السفينة واما
الركبان والركب من ركبوا الدواب والابل قال الواحدى ولفظة فى فى قوله اركبوا
فيها لا يجوز ان تكون من صلة الركوب لانه يقال ركبت السفينة ولا يقال ركبت فى
السفينة بل الوجه ان يقال مفعول اركبوا محذوف والتقدير اركبوا الماء فى السفينة
وايضا يجوز ان يكون فائدة هذه الزيادة انه امرهم ان يكونوا فى جوف الفلك لا على
ظهرها فلو قال اركبوها لتوهموا انه امرهم ان يكونوا على ظهر السفينة اما قوله تعالى
بسم الله مجريها ومرساها ففيه مسائل ( المسئلة الاولى ) قرأ حمزة والكسائى وحفص
عن عاصم مجريها بفتح الميم والباقون بضم الميم واتفقوا فى مرساها انه بضم الميم وقال
صاحب الكشاف قرأ مجاهد مجريها ومرسيها بلفظ اسم الفاعل مجرورى المحل صفتين
لله تعالى قال الواحدى المجرى مصدر كالاجراء ومثله قوله منزلا مباركا وادخلنى مدخل
صدق واخرجنى مخرج صدق واما من قرأ مجريها بفتح الميم فهو أيضا مصدر مثل الجرى
واحتج صاحب هذه القراءة بقوله وهى تجرى بهم ولو كان مجراها لكان وهى تجريهم
وحجة من ضم الميم ان جرت بهم وأجرتهم يتقاربان فى المعنى فاذا قال تجرى بهم فكأنه
قال تجريهم واما المرسى فهو ايضا مصدر كالارساء يقال رسا الشئ يرسو اذا ثبت وارساه
غيره قال تعالى والجبال ارساها قال ابن عباس يريد تجرى بسم الله وقدرته وترسو بسم الله
وقدرته وقيل كان اذا أراد ان تجرى بهم قال بسم الله مجريها فجرى واذا أراد أن ترسو
قال بسم الله مرسيها فترسو ( المسئلة الثانية ) ذكروا فى عامل الاعراب فى بسم الله وجوها
( الاول ) اركبوا بسم الله ( والثانى ) ابدؤا بسم الله ( والثالث ) بسم الله اجراؤها
وارساؤها وقيل انها سارت لاول يوم من رجب وقيل لعشر مضين من رجب فسارت
ستة اشهر واستوت يوم العاشر من المحرم على الجودى ( المسئلة الثالثة ) فى الآية
احتمالان ( الاول ) ان يكون مجموع قوله وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها
كلاما واحدا والتقدير وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها يعنى ينبغى أن يكون
الركوب مقرونا بهذا الذكر ( والاحتمال الثانى ) ان يكونا كلامين والتقدير ان نوحا

الدواب والانعام وفى البطن الاعلى جنس البشر هو ومن معه مع مايحتاجون اليه من الزاد وحمل معه جسد آدم عليه الصلاة والسلام وقيل جعل فى الاول الدواب والوحوش وفى الثانى الانس وفى الاعلى الطير قيل كان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعا وسمكها ثلاثين ذراعا وقال الحسن كان طولها الفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وقيل ان الحواريين قالوا لعيسى عليه الصلاة والسلام لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى الى كثيب من تراب فاخذ كفا من ذلك التراب فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا كعب بن حام قال فضرب بعصاه فقال قم باذن الله فاذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى عليه الصلاة والسلام اهكذا هلكت قال لا مت وانا شاب ولكنى ظننت انها الساعة فمن ثمة شبت فقال حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها الفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات طبقة للدواب والوحوش وطبقة للانس وطبقة للطير ثم قال عد باذن الله تعالى كما كنت فعاد ترابا ( ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ) اى لا تراجعنى فيهم ولا تدعنى باستدفاع العذاب عنهم وفيه من المبالغة ما ليس فيما لو قيل ولا تدعنى فيهم وحيث كان فيه ما يلوح بالسببية أكد التعليل فقيل ( انهم مغرقون ) اى محكوم عليهم بالاغراق قد مضى به القضاء وجف القلم فلا سبيل

الى الكفة ولزمهم الحجة فلم يبق الا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين ومثالا للآخرين ( ويصنع الفلك ) حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها
العجيبة وقيل تقديره واخذ يصنع الفلك او اقبل يصنعها فاقتصر على يصنع واياما كان ففيه ملازمة للاستمرار المفهوم من الجملة الواقعة

حالامن ضميره اعنى قوله تعالى (وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) استهزؤا به لعمله السفينة امالانهم ماكانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها والانتفاع بها فتعجبوا من ذلك وسخروا منه واما لانه كان يصنعها (٨٨) فى برية بهماء فى ابعد موضع من الماء وفى وقت

عليه السلام امرهم بالركوب ثم اخبرهم بان مجريها ومرساها ليس الا بسم الله وأمره وقدرته (فالمعنى الاول) يشير الى ان الانسان لا ينبغى ان يشرع فى أمر من الامور الا ويكون فى وقت الشروع فيه ذاكرا لاسم الله تعالى بالاذكار المقدسة حتى يكون ببركة ذلك الذكر سببا لتمام ذلك المقصود (والثانى) يدل على انه لما ركب السفينة اخبر القوم بأن السفينة ليست سببا لحصول النجاة بل الواجب ربط الهمة وتعليق القلب بفضل الله تعالى واخبرهم انه تعالى هو المجرى والمرسى للسفينة فاياكم ان تعولوا على السفينة بل يجب ان يكون تعويلكم على فضل الله فانه هو المجرى والمرسى لها فعلى التقدير الاول كان نوح عليه السلام وقت ركوب السفينة فى مقام الذكر وعلى التقدير الثانى كان فى مقام الفكر والبراءة عن الحول والقوة وقطع النظر عن الاسباب واستغراق القلب فى نور جلال مسبب الاسباب* واعلم ان الانسان اذا تفكر فى طلب معرفة الله تعالى بالدليل والحجة فكأنه جلس فى سفينة التفكر والتدبر وامواج الظلمات والضلالات قد علت تلك الجبال وارتفعت الى مصاعد القلال فاذا ابتدأت سفينة الفكرة والروية بالحركة وجب ان يكون هناك اعتماده على الله تعالى وتضرعه الى الله تعالى وان يكون بلسان القلب ونظر العقل يقول بسم الله مجريها ومرساها حتى تصل سفينة فكره الى ساحل النجاة وتتخلص عن امواج الضلالات واما قوله ان ربى لغفور رحيم ففيه سؤال وهو ان ذلك الوقت وقت الاهلاك واظهار القهر فكيف يليق به هذا الذكر وجوابه لعل القوم الذين ركبوا السفينة اعتقدوا فى انفسهم انا انما نجونا ببركة علمنا فالله تعالى نبههم بهذا الكلام لازالة ذلك العجب منهم فان الانسان لا ينفك عن انواع الزلات وظلمات الشهوات وفى جميع الاحوال فهو محتاج الى اعانة الله وفضله واحسانه وان يكون رحيما للعقوبة غفورا لذنوبه ❊ قوله تعالى (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) واعلم ان فى قوله وهى تجرى بهم فى موج كالجبال مسائل (المسئلة الاولى) قوله وهى تجرى بهم فى موج متعلق بمحذوف والتقدير وقال اركبوا فيها فركبوا فيها يقولون بسم الله وهى تجرى بهم فى موج كالجبال (المسئلة الثانية) الامواج العظيمة انما تحدث عند حصول الرياح القوية الشديدة العاصفة فهذا يدل على انه حصل فى ذلك الوقت رياح عاصفة شديدة والمقصود منه بيان شدة الهول والفزع (المسئلة الثالثة) الجريان فى الموج هو ان تجرى السفينة داخل الموج وذلك يوجب الغرق فالمراد ان الامواج لما احاطت بالسفينة من الجوانب شبهت تلك السفينة بما اذا جرت فى داخل تلك الامواج * ثم حكى الله تعالى عنه انه نادى ابنه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى انه هل كان ابناله وفيه اقوال (الاول) انه ابنه فى الحقيقة والدليل عليه انه تعالى

عزته عزة شديدة وكانوا يتضاحكون ويقولون يانوح صرت نجارا بعد ما كنت نبيا وقيل لانه عليه الصلاة والسلام كان ينذرهم الغرق فلما طال مكثه فيهم ولم يشاهدوا منه عينا ولا اثرا عدوه من باب المحال ثم لما رأوا اشتغاله بأسباب الخلاص من ذلك فعلوا ما فعلوا ومدار الجميع انكار ان يكون لعمله عليه الصلاة والسلام عاقبة حميدة مع ما فيه من تحمل المشاق العظيمة التى لا تكاد تطاق واستجهاله عليه السلام فى ذلك (قال ان تسخروا منا) مستجهلين لنا فيما نحن فيه (فانا نسخر منكم) اى نستجهلكم فيما انتم عليه واطلاق السخرية عليه للمشاكلة وجمع الضمير فى منا اما لان سخريتهم منه عليه الصلاة والسلام سخرية من المؤمنين ايضا او لانهم كانوا يسخرون منهم ايضا الا انه اكتفى بذكر سخريتهم منه عليه الصلاة والسلام ولذلك تعرض الجميع للمجازاة فى قوله تعالى فانا نسخر منكم الخ فتكافأ الكلام من الجانبين وتعليق استجهاله عليه الصلاة والسلام اياهم بما فعلوا من السخرية باعتبار اظهاره ومشافهته عليه الصلاة والسلام اياهم بذلك والا فعنده عليه الصلاة والسلام اياهم جاهلين فيما يأتون ويذرون امر مطرد لا تعلق له بسخريتهم منهم لكنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يتصدى لاظهاره جريا على نهج الاخلاق الحميدة وانما اظهره جزاء بما صنعوا بعد اللتيا والتى فان سخريتهم كانت مستمرة ومتجددة حسب تجدد مرورهم عليه

ولم يكن يجيبهم فى كل مرة والا لقيل ويقول ان تسخروا منا الخ بل انما اجابهم بعد بلوغ اذاهم الغاية كما يؤذن به الاستئناف فكأن سائلا سأل فقال فما صنع نوح عند بلوغهم منه هذا المبلغ فقيل قال ان تسخروا منا اى ان تنسبونا فيما نحن بصدده (نص)

من التأهب والمباشرة لاسباب الخلاص من العذاب الى الجهل وتسخروا منا لاجله فانانسبكم اليه فيما أنتم فيه من الاعراض عن استدفاعه بالايمان والطاعة ومن الاستمرار على الكفر والمعاصى ( ٨٩ ) والتعرض لاسباب حلول سخط الله تعالى التى من جملتها

نص عليه فقال ونادى نوح ابنه ونوح ايضا نص عليه فقال يابنى وصرف هذا اللفظ الى انه رباه فأطلق عليه اسم الابن لهذا السبب صرف للكلام عن حقيقته الى مجازه من غير ضرورة وانه لايجوز والذين خالفوا هذا الظاهر انما خالفوه لانهم استبعدوا ان يكون ولد الرسول المعصوم كافرا وهذا بعيد فانه ثبت ان والد رسولنا صلى الله عليه وسلم كان كافرا وولد ابراهيم عليه السلام كان كافرا بنص القرآن فكذلك ههنا ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فى انه عليه السلام لما قال رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا فكيف ناداه مع كفره فأجابوا عنه من وجوه (الاول) انه كان ينافق أباه فظن نوح انه مؤمن فلذلك ناداه ولولا ذلك لما احب نجاته (والثانى) انه عليه السلام كان يعلم انه كافر لكنه ظن انه لماشاهد الغرق والاهوال العظيمة فانه يقبل الايمان فصار قوله يابنى اركب معنا كالدلالة على انه طلب منه الايمان وتأكد هذا بقوله ولاتكن مع الكافرين اى تابعهم فى الكفر واركب معنا (والثالث) ان شفقة الابوة لعلها حملته على ذلك النداء والذى تقدم من قوله الامن سبق عليه القول كان كالمجمل فلعله عليه السلام جوز ان لايكون هو داخلا فيه (القول الثانى) انه كان ابن امرأته وهو قول محمد بن على الباقر وقول الحسن البصرى ويروى ان عليا رضى الله عنه قرأ ونادى نوح ابنها والضمير لامرأته وقرأ محمد بن على وعروة بن الزبير ابنه بفتح الهاء يريدان ابنها الاانهما اكتفيا بالفتحة عن الالف وقال قتادة سألت الحسن عنه فقال والله ماكان ابنه فقلت ان الله حكى عنه انه قال ان ابنى من اهلى وانت تقول ماكان ابناله فقال لم يقل انه منى ولكنه قال من اهلى وهذا يدل على قولى (القول الثالث) انه ولد على فراشه لغير رشدة والقائلون بهذا القول احتجوا بقوله تعالى فى امرأة نوح وامرأة لوط فخانتاهما وهذا قول خبيث يجب صون منصب الانبياء عن هذه الفضيحة لاسيما وهو على خلاف نص القرآن اماقوله تعالى فخانتاهما فليس فيه ان تلك الخيانة انما حصلت بالسبب الذى ذكروه قيل لابن عباس رضى الله عنهما ماكانت تلك الخيانة فقال كانت امرأة نوح تقول زوجى مجنون وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه اذانزلوا به ثم الدليل القاطع على فساد هذا المذهب قوله تعالى الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات وايضا قوله تعالى الزانى لاينكح الازانية اومشركة والزانية لاينكحها الازان اومشرك وحرم ذلك على المؤمنين وبالجملة فقد دللنا على ان الحق هو القول الاول واما قوله وكان فى معزل فاعلم ان المعزل فى اللغة معناه موضع منقطع عن غيره واصله من العزل وهو التنحية والابعاد تقول كنت بمعزل عن كذا اى بموضع قد عزل منه واعلم ان قوله وكان فى معزل لايدل على انه فى معزل من اى شئ فلهذا السبب ذكروا وجوها (الاول) انه كان فى معزل من السفينة لانه كان يظن ان الجبل يمنعه من الغرق (الثانى) انه كان فى معزل عن ابيه واخوته وقومه (الثالث) انه كان فى معزل من الكفار كأنه انفرد عنهم فظن نوح عليه السلام ان ذلك

استجهالكم ايانا وسخريتكم منا والتشبيه فى قوله تعالى (كما تسخرون) امافى مجرد التحقق والوقوع اوفى التجدد والتكرر حسبما صدر عن ملأ غب ملأ لافى الكيفيات والاحوال التى لاتليق بشأن النبى عليه الصلاة والسلام فكلا الامرين واقع فى الحال وقيل نسخر منكم فى المستقبل سخرية مثل سخريتكم اذا وقع عليكم الغرق فى الدنيا والحرق فى الآخرة ولعل مراده نعاملكم معاملة من يفعل ذلك لان نفس السخرية ممالا يكاد يليق بمنصب النبوة ومع ذلك لاسداد له لان حالهم اذذاك ليس مما يلائمه السخرية اومايجرى مجراها فتأمل (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) وهو عذاب الغرق (ويحل عليه) حلول الدين المؤجل (عذاب مقيم) هو عذاب النار الدائم وهو تهديد بليغ ومن عبارة عنهم وهى اما استفهامية فى حيز الرفع او موصولة فى محل النصب بتعلمون ومافى حيزها ساد مسد مفعولين اومفعول واحدان جعل العلم بمعنى المعرفة ولما كان مدار سخريتهم استجهالهم اياه عليه الصلاة والسلام فى مكابدة المشاق الفادحة لدفع مالايكاد يدخل تحت الصحة على زعمهم من الطوفان ومقاساة الشدائد فى بناء السفينة وكانوا يعدونه عذابا قيل بعد استجهالهم فسوف تعلمون من يأتيه العذاب يعنى ان ماباشره ليس فيه عذاب لاحق بى فسوف تعلمون من المعذب ولقد اصاب العلم بعد استجهالهم محزه ووصف العذاب بالاخزاء لمافى الاستهزاء والسخرية من لحوق الخزى والعار عادة (١٢) (را) (خا) والتعرض لحلول العذاب المقيم للمبالغة فى التهديد وتخصيصه بالمؤجل وايراد الاول بالاتيان فى غاية الجزالة (حتى اذا جاء امرنا) حتى هى التى يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية وهى مع

انما كان لانه احب مفارقتهم اما قوله يابنى اركب معنا ولاتكن مع الكافرين فنقول قرأ حفص عن عاصم يابنى بفتح الياء فى جميع القرآن و الباقون بالكسر قال ابو على الوجه الكسر وذلك ان اللام من ابن ياء او واو فاذا صغرت الحقت ياء التحقير فلزم ان ترد اللام المحذوفة و الازم ان تحرك ياء التحقير بحركات الاعراب لكنها لاتحرك لانها لو حركت لزم ان تنقلب كما تنقلب سائر حروف المد و اللين اذا كانت حروف اعراب نحو عصا وقفا ولو انقلبت بطلت دلالتها على التحقير ثم اذا اضفت الى نفسك اجتمعت ثلاث يا آت (الاولى) منها للتحقير (و الثانية) لام الفعل (و الثالثة) التى للاضافة تقول هذا بنى فاذا ناديته صار فيه وجهان اثبات الياء و حذفها و الاختيار حذف الياء التى للاضافة و ابقاء الكسرة دلالة عليه نحو ياغلام و من قرأ يابنى بفتح الياء فانه اراد الاضافة ايضا كما ارادها من قرأ بالكسر لكنه أبدل من الكسرة الفتحة ومن الياء الالف تخفيفا فصار يا بنيا كما قال * يا ابنة عما لاتلومى واهجعى * ثم حذف الالف للتخفيف* واعلم انه تعالى لما حكى عن نوح عليه السلام انه دعاه الى ان يركب السفينة حكى عن ابنه انه قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء و هذا يدل على ان الابن كان متماديا فى الكفر مصرا عليه مكذبا لابيه فيما اخبر عنه فعند هذا قال نوح عليه السلام لاعاصم اليوم من امر الله الا من رحم وفيه سؤال وهو ان الذى رحمه الله معصوم فكيف يحسن استثناء المعصوم من العاصم وهو قوله لاعاصم اليوم من امر الله وذكروا فى الجواب طرقا كثيرة (الاول) انه تعالى قال قبل هذه الآية وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها و مرساها ان ربى لغفور رحيم فبين انه تعالى رحيم و انه برحمته يخلص هؤلاء الذين ركبوا السفينة من آفة الغرق اذا عرفت هذا فنقول ان ابن نوح عليه السلام لما قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء قال نوح عليه السلام اخطأت لاعاصم اليوم من امر الله الا من رحم و المعنى الا ذلك الذى ذكرت انه برحمته يخلص هؤلاء من الغرق فصار تقدير الآية لاعاصم اليوم من عذاب الله الا الله الرحيم وتقديره لافرار من الله الا الى الله وهو نظير قوله عليه السلام فى دعائه واعوذ بك منك وهذا تأويل فى غاية الحسن (الوجه الثانى) فى التأويل وهو الذى ذكره صاحب حل العقد ان هذا الاستثناء وقع من مضمر هو فى حكم الملفوظ لظهور دلالة اللفظ عليه و التقدير لاعاصم اليوم لاحد من امر الله الا من رحم وهو كقولك لاتضرب اليوم الا زيدا فان تقديره لاتضرب احدا الا زيدا الا انه ترك التصريح به لدلالة اللفظ عليه فكذا ههنا (الوجه الثالث) فى التأويل ان قوله لاعاصم أى لاذا عصمة كما قالوا رامح ولابن ومعناه ذو رمح وذو لبن وقال تعالى من ماء دافق و عيشة راضية ومعناه ماذكرنا فكذا ههنا و على هذا التقدير العاصم هو ذو العصمة فيدخل فيه المعصوم و حينئذ يصح استثناء قوله الا من رحم منه (الوجه الرابع) قوله لاعاصم اليوم من أمر الله الا من رحم عنى بقوله الا من رحم نفسه لان نوحا وطائفته هم الذين خصهم الله تعالى برحمته والمراد

ذلك غاية لقوله ويصنع ومابينهما حال من الضمير فيه وسخروا منه جواب كلما وقال استئناف على تقدير سؤال سائل كما ذكرناه وقيل هو الجواب وسخروا منه بدل من مر او صفة لملأ وقد عرفت ان الحق ( ٦٠ ) هو الاول لان المقصود بيان تناهيهم فى ايذائه عليه الصلاة والسلام وتحمله لاذيتهم لا مسارعته عليه الصلاة والسلام الى جوابهم كلما وقع منهم مايؤذيه من الكلام (وفار التنور) نبع منه الماء وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها والتنور تنور الخبز وهو قول الجمهور روى انه قيل لنوح عليه الصلاة والسلام اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب ومن معك فى السفينة فلما نبع الماء اخبرته امرأته فركب وقيل كان تنور آدم عليه الصلاة والسلام وكان من حجارة فصار الى نوح وانما نبع منه وهو ابعد شئ من الماء على خرق العادة وكان فى الكوفة فى موضع مسجدها عن يمين الداخل ممايلى باب كندة وكان عمل السفينة فى ذلك الموضع او فى الهند او فى موضع بالشام يقال له عين وردة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وعكرمة والزهرى ان التنور وجه الارض وعن قتادة اشرف موضع فى الارض اى اعلاه وعن على رضى الله تعالى عنه فار التنور طلع الفجر (قلنا احمل فيها) اى فى السفينة وهو جواب اذا (من كل) اى من كل نوع لابد منه فى الارض (زوجين) الزوج ماله مشاكل من نوعه فالذكر زوج للانثى كما هى زوج له وقد يطلق على مجموعهما فيقال بل الفرد ولازالة ذلك الاحتمال قيل (اثنين) كل منهما زوج للآخر وقرئ على الاضافة وانما قدم ذلك على اهله وسائر المؤمنين لكونه عريقا فيما أمر به من الحمل لانه يحتاج الى مزاولة الاعمال منه عليه الصلاة والسلام فى تمييز بعضه من بعض وتعيين الازواج فانه روى انه عليه الصلاة والسلام قال يارب كيف احمل من كل زوجين اثنين فحشر الله تعالى اليه السباع (لاعاصم الطير وغيرها فجعل يضرب بيديه فى كل جنس فيقع الذكر فى يده اليمنى والانثى فى اليسرى فيجعلهما فى السفينة واما البشر

لاعاصم لك الا الله بمعنى ان بسببه تحصل رحمة الله كما اضيف الاحياء الى عيسى عليه السلام فى قوله واحيي الموتى لاجل ان الاحياء حصل بدعائه (الوجه الخامس) ان قوله الا من رحم استثناء منقطع والمعنى لكن من رحم الله معصوم ونظيره قوله تعالى مالهم به من علم الا اتباع الظن ثم انه تعالى بين بقوله وحال بينهما الموج اى بسبب هذه الحيلولة خرج من ان يخاطبه نوح فكان من المغرقين ❊ قوله تعالى ( وقيل ياارض ابلعي ماءك وياسماء اقلعي وغيض الماء وقضى الامر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين ) اعلم ان المقصود من هذا الكلام وصف آخر لواقعة الطوفان فكان التقدير انه لما انتهى امر الطوفان قيل كذا وكذا ياارض ابلعي ماءك يقال بلع الماء يبلعه بلعا اذا شربه وابتلع الطعام ابتلاعا اذا لم يمضغه وقال اهل اللغة الفصيح بلع بكسر اللام يبلع بفتحها وياسماء اقلعي يقال اقلع الرجل عن عمله اذا كف عنه واقلعت السماء بعد ما مطرت اذا امسكت وغيض الماء يقال غاض الماء يغيض غيضا ومغاضا اذا نقص وغضته انا وهذا من باب فعل الشئ وفعلته انا ومثله جبر العظم وجبرته وفغر الفم وفغرته ودلع اللسان ودلعته ونقص الشئ ونقصته فقوله وغيض الماء اى نقص وما بقى منه شئ واعلم ان هذه الآية مشتملة على الفاظ كثيرة كل واحد منها دال على عظمة الله تعالى وعلو كبريائه (فأولها) قوله وقيل وذلك لان هذا يدل على انه سبحانه فى الجلال والعلو والعظمة بحيث انه متى قيل قيل لم ينصرف العقل الا اليه ولم يتوجه الفكر الا الى ان ذلك القائل هو هو وهذا تنبيه من هذا الوجه على انه تقرر فى العقول انه لا حاكم فى العالمين ولا متصرف فى العالم العلوى والعالم السفلى الا هو ( وثانيها ) قوله ياارض ابلعي ماءك وياسماء اقلعي فان الحس يدل على عظمة هذه الاجسام وشدتها وقوتها فاذا شعر العقل بوجود موجود قاهر لهذه الاجسام مستول عليها متصرف فيها كيف شاء واراد صار ذلك سببا لوقوف القوة العقلية على كمال جلال الله تعالى وعلو قهره وكمال قدرته ومشيئته ( وثالثها ) ان السماء والارض من الجمادات فقوله ياارض وياسماء مشعر بحسب الظاهر على ان امره وتكليفه نافذ فى الجمادات فعند هذا يحكم الوهم بأنه لما كان الامر كذلك فلان يكون امره نافذا على العقلاء كان اولى وليس مرادى منه انه تعالى يأمر الجمادات فان ذلك باطل بل المراد ان توجيه صيغة الامر بحسب الظاهر على هذه الجمادات القوية الشديدة يقرر فى الوهم نوع عظمته وجلاله تقريرا كاملا واما قوله وقضى الامر فالمراد ان الذى قضى به وقدره فى الازل قضاء جزما حتما فقد وقع تنبيها على ان كل ما قضى الله تعالى فهو واقع فى وقته وانه لا دافع لقضائه ولا مانع من نفاذ حكمه فى ارضه وسمائه فان قيل كيف يليق بحكمة الله تعالى ان يغرق الاطفال بسبب جرم الكفار قلنا الجواب عنه من وجهين ( الاول ) ان كثيرا من المفسرين يقولون ان الله تعالى اعقم ارحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة فلم يغرق الا من بلغ سنه الى الاربعين ولقائل ان يقول لو كان الامر

فانما يدخل الفلك باختياره فيخفى فيه معنى الحمل اولانها انما تحمل بمباشرة البشر وهم انما يدخلونها بعد حملهم اياها ( واهلك عطف على زوجين اوعلى اثنين والمراد ( ٩١ ) امرأته وبنوه ونساؤهم ( الا من سبق عليه القول ) بأنه من المغرقين بسبب ظلمهم فى قوله تعالى ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا الآية والمراد به ابنه كنعان وامه واعلة فانهما كانا كافرين والاستثناء منقطع ان اريد بالاهل الاهل ايمانا وهو الظاهر كما ستعرفه اومتصل ان اريد به الاهل قرابة ويكفى فى صحة الاستثناء المعلومية عند المراجعة الى احوالهم والتفحص عن اعمالهم وجئ بعلى لكون السابق ضارا لهم كما جئ باللام فيما هو نافع لهم من قوله عز وجل ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين وقوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى (ومن آمن) من غيرهم وافراد الاهل منهم للاستثناء المذكور وايثار صيغة الافراد فى آمن محافظة على لفظ من للايذان بقلتهم كما اعرب عنه قوله عز قائلا ( وما آمن معه الا قليل )قيل كانوا ثمانية نوح عليه الصلاة والسلام واهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم وعن ابن اسحق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة وعنه ايضا انهم كانوا عشرة سوى نسائهم وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلا وامرأة واولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء واعتبار المعية فى ايمانهم للايماء الى المعية فى مقر الامان والنجاة (وقال) اى نوح عليه الصلاة والسلام لمن معه من المؤمنين كما ينبئ عنه قوله تعالى ان ربى لغفور رحيم ولو رجع الضمير الى الله تعالى لناسب ان يقال ان ربكم ولعل ذلك بعد ادخال ما امر بحمله فى الفلك من الازواج كأنه قيل فحمل الازواج اوادخلها فى الفلك وقال للمؤمنين (اركبوا فيها) كما سيأتى مثله فى قوله تعالى وهى تجرى بهم والركوب العلو على شئ متحرك ويتعدى بنفسه واستعماله ههنا بكلمة فى ليس لان المأمور به كونهم فى جوفها لا فوقها كما ظن فان اظهر الروايات انه عليه السلام جعل الوحوش ونظائرها

على ماذكرتم لكان ذلك آية عجيبة قاهرة و يبعدمع ظهورها استمرارهم على الكفر وايضا فهب انكم ذكرتم ماذكرتم فاقولكم فى اهلاك الطير والوحش معانه لاتكليف عليهما البتة والجواب الثانى وهوالحق انه لااعتراض على الله تعالى فى افعاله لايسأل عما يفعل وهم يسألون واماالمعتزلة فهم يقولون انه تعالى اغرق الاطفال والحيوانات وذلك يجرى مجرى اذنه تعالى فى ذبح هذه البهائم وفى استعمالها فى الاعمال الشاقة الشديدة واماقوله تعالى واستوت على الجودى فالمعنى واستوت السفينة على جبل بالجزيرة يقال له الجودى وكان ذلك الجبل جبلا منخفضا فكان استواء السفينة عليه دليلا على انقطاع مادة ذلك الماء وكان ذلك الاستواء يوم عاشوراء واماقوله تعالى وقيل بعدا للقوم الظالمين ففيه وجهان (الاول) انه من كلام الله تعالى قال لهم ذلك على سبيل اللعن والطرد (والثانى) ان يكون ذلك من كلام نوح عليه السلام واصحابه لان الغالب ممن يسلم من الامر الهائل بسبب اجتماع قوم من الظلمة فاذا هلكوا ونجامنهم قال مثل هذا الكلام ولانه جار مجرى الدعاء عليهم فجعله من كلام البشر أليق ❊ قوله تعالى (ونادى نوح ربه فقال رب ان بنى من اهلى وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين قال يانوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلاتسألن ماليس لك به علم انى اعظك ان تكون من الجاهلين قال رب انى اعوذبك ان اسألك ماليس لى به علم والاتغفرلى وترحمنى اكن من الخاسرين) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اعلم ان قوله رب ان ابنى من اهلى فقدذكرنا الخلاف فى انه هل كان ابناله ام لافلا نعيده ثم انه تعالى ذكر انه قال يانوح انه ليس من اهلك واعلم انه لما ثبت بالدليل انه كان ابناله وجب حمل قوله انه ليس من اهلك على احدوجهين (احدهما) ان يكون المراد انه ليس من اهل دينك (والثانى) المراد انه ليس من اهلك الذين وعدتك ان انجيهم معك والقولان متقاربان (المسئلة الثانية) هذه الآية تدل على ان العبرة بقرابة الدين لابقرابة النسب فان فى هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من اقوى الوجوه ولكن لما انتفت قرابة الدين لاجرم نفاه الله تعالى بأبلغ الالفاظ وهو قوله انه ليس من اهلك ثم قال تعالى انه عمل غير صالح قرأ الكسائى عمل على صيغة الفعل الماضى وغير بالنصب والمعنى ان ابنك عمل عملا غير صالح يعنى اشرك وكذب وكلمة غير نصب لانها نعت لمصدر محذوف وقرأ الباقون عمل بالرفع والتنوين وفيه وجهان (الاول) ان الضمير فى قوله انه عائد الى السؤال يعنى ان هذا السؤال عمل وهو قوله ان ابنى من اهلى وان وعدك الحق غير صالح لان طلب نجاة الكافر بعد ان سبق الحكم الجزم بانه لاينجى احدامنهم سؤال باطل (الثانى) ان يكون هذا الضمير عائدا الى الابن وعلى هذا التقدير ففى وصفه بكونه عملا غير صالح وجوه (الاول) ان الرجل اذا كثر عمله واحسانه يقال له انه علم وكرم وجود فكذا ههنا لما كثر اقدام ابن نوح على الاعمال الباطلة حكم عليه بأنه فى نفسه عمل باطل (الثانى) ان يكون المراد انه ذو عمل باطل فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه (الثالث) قال بعضهم

---

فى البطن الاسفل والانعام فى الاوسط وركب هو ومن معه فى الاعلى بل لرعاية جانب المحلية والمكانية فى الفلك والسر فيه ان معنى الركوب العلو على شئ له حركة اما ارادية كالحيوان اوقسرية كالسفينة (٩٢) والعجلة ونحوهما فاذا استعمل فى الاول يوفر له حظ الاصل فيقال ركبت الفرس وعليه قوله عز من قائل والخيل والبغال والحمير لتركبوها وان استعمل فى الثانى يلوح بمحلية المفعول بكلمة فى فيقال ركبت فى السفينة وعليه الآية الكريمة وقوله عز قائلا فاذا ركبوا فى الفلك وقوله تعالى فانطلقا حتى اذا ركبا فى السفينة خرقها (بسم الله) متعلق باركبوا حال من فاعله اى اركبوا مسمين الله تعالى اوقائلين بسم الله (مجريها ومرساها) نصب على الظرفية اى وقت جريها وارسائها على انهما اسما زمان اومصدران كالاجراء والارساء بحذف الوقت كقولك آتيك خفوق النجم اواسما مكان انتصبا بما فى بسم الله من معنى الفعل اوارادة القول ويجوز ان يكون بسم الله مجريها ومرساها مستقلة من مبتدأ وخبر فى موضع الحال من ضمير الفلك اى اركبوا فيها مجراة ومرساة باسم الله بمعنى التقدير كقوله تعالى ادخلوها خالدين اوجملة مقتضبة على ان نوحا امرهم بالركوب فيها ثم اخبرهم بأن اجراءها وارساءها باسم الله تعالى فيكونان كلامين له عليه الصلاة والسلام قيل كان عليه السلام اذا اراد ان يجريها يقول بسم الله فتجرى واذا اراد ان يرسيها يقول بسم الله فترسو ويجوز ان يكون الاسم مقحما كما فى قوله

الى الحول ثم اسم السلام عليكما

ويراد بالله اجراؤها وارساؤها اى بقدرته وامره وقرئ مجريها ومرسيها على صيغة الفاعل مجرورى المحل صفتين لله عز وجل ومجراها ومرساها بفتح الميم مصدرين اوزمانين اومكانين من جرى ورسا (ان ربى لغفور) للذنوب والخطايا (رحيم) لعباده ولذلك نجاكم من هذه الطامة (معنى) والداهية العامة ولولاذلك لما فعله وفيه دلالة على ان نجاتهم ليست بسبب استحقاقهم لها بل بمحض فضل الله سبحانه وغفرانه

ورحمته على ماعليه رأى أهل السنة ( وهى تجرى بهم ) متعلق بمحذوف دل عليه الامر بالركوب اى فركبوا فيها مسمين وهى تجرى ملتبسة بهم ( فى موج كالجبال ) ( ٩٣ ) وهو ماارتفع من الماء عند اضطرابه كل موجة من ذلك كجبل فى ارتفاعها وتراكمها و ماقيل من ان الماء طبق مابين السماء والارض وكانت السفينة تجرى فى جوفه كالحوت فغير ثابت والمشهور انه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعا او اربعين ذراعا ولئن صح ذلك فهذا الجريان انما هو قبل أن يتفاقم الخطب كما يدل عليه قوله تعالى ( ونادى نوح ابنه ) فان ذلك انما يتصور قبل ان تنقطع العلاقة بين السفينة والبر اذ حينئذ يمكن جريان ماجرى بين نوح عليه الصلاة والسلام وبين ابنه من المفاوضة بالاستدعاء الى السفينة والجواب بالاعتصام بالجبل وقرئ ابنها وابنه بحذف الالف على ان الضمير لامرأته وكان ربيبه ومايقال من انه كان لغير رشدة لقوله تعالى فخانتاهما فارتكاب عظيمة لايقادر قدرها فان جناب الانبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه ارفع من ان يشار اليه باصبع الطعن وانما المراد بالخيانة الخيانة فى الدين وقرئ ابناه على الندبة ولكونها حكاية سوغ حذف حرفها وأنت خبير بأنه لايلائمه الاستدعاء الى السفينة فانه صريح فى انه لم يقع فى حياته يأس بعد ( وكان فى معزل ) اى فى مكان عزل فيه نفسه عن ابيه واخوته وقومه بحيث لم يتناوله الخطاب باركبوا واحتاج الى النداء المذكور وقيل فى معزل عن الكفار قد انفرد عنهم وظن نوح انه يريد مفارقتهم ولذلك دعاه الى السفينة وقيل كان ينافق اباه فظن انه مؤمن وقيل يعلم انه كافر الى ذلك الوقت لكنه عليه الصلاة والسلام ظن انه عند مشاهدة تلك الاهوال ينزجر عما كان عليه ويقبل الايمان وقيل لم يكن الذى تقدم من قوله تعالى الامن سبق عليه القول نصا فى كون ابنه داخلا تحته بل كان كالمجمل فحملته شفقة الابوة على ذلك ( يابنى ) بفتح الياء اقتصارا عليه من الالف المبدلة من ياء الاضافة

معنى قوله انه عمل غير صالح اى انه ولد زنا وهذا القول باطل قطعا ثم انه تعالى قال لنوح عليه السلام فلا تسألن ماليس لك به علم انى اعظك ان تكون من الجاهلين وفيه مسئلتان ( المسئلة الاولى ) احتج بهذه الآية من قدح فى عصمة الانبياء عليهم السلام من وجوه (الاول) ان قراءة عمل بالرفع والتنوين قراءة متواترة فهى محكمة وهذا يقتضى عود الضمير فى قوله انه عمل غير صالح اما الى ابن نوح واما الى ذلك السؤال فالقول بأنه عائد الى ابن نوح لايتم الا باضمار وهو خلاف الظاهر ولايجوز المصير اليه الا عند الضرورة ولاضرورة ههنا لانا اذا حكمنا بعود الضمير الى السؤال المتقدم فقد استغنينا عن هذا الضمير فثبت ان هذا الضمير عائد الى هذا السؤال فكان التقدير ان هذا السؤال عمل غير صالح اى قولك ان ابنى من اهلى لطلب نجاته عمل غير صالح وذلك يدل على ان هذا السؤال كان ذنبا ومعصية (الثانى) ان قوله فلا تسألن نهى له عن السؤال والمذكور السابق هو قوله ان ابنى من اهلى فدل هذا على انه تعالى نهاه عن ذلك السؤال فكان ذلك السؤال ذنبا ومعصية (الثالث) ان قوله فلا تسألن ماليس لك به علم يدل على ان ذلك السؤال كان قد صدر لا عن العلم والقول بغير العلم ذنب لقوله تعالى وان تقولوا على الله مالا تعلمون (الرابع) ان قوله تعالى انى اعظك ان تكون من الجاهلين يدل على ان ذلك السؤال كان محض الجهل وهذا يدل على غاية التقريع ونهاية الزجر وايضا جعل الجهل كناية عن الذنب مشهور فى القرآن قال تعالى يعملون السوء بجهالة وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين (الوجه الخامس) ان نوحا عليه السلام اعترف باقدامه على الذنب والمعصية فى هذا المقام فانه قال انى اعوذ بك ان اسألك ماليس لى به علم والاتغفر لى وترحمنى اكن من الخاسرين واعترافه بذلك يدل على انه كان مذنبا ( الوجه السادس ) فى التمسك بهذه الآية ان هذه الآية تدل على ان نوحا نادى ربه لطلب تخليص ولده من الغرق والآية المتقدمة وهى قوله ونادى نوح ابنه وقال يابنى اركب معنا تدل على انه عليه السلام طلب من ابنه الموافقة فنقول اما ان يقال ان طلب هذا المعنى من الله كان سابقا على طلبه من الولد او كان بالعكس والاول باطل لان بتقدير ان يكون طلب هذا المعنى من الله تعالى سابقا على طلبه من الابن لكان قد سمع من الله انه تعالى لايخلص ذلك الابن من الغرق وانه تعالى نهاه عن ذلك الطلب وبعد هذا كيف قال له يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين واما ان قلنا ان هذا الطلب من الابن كان متقدما فكان قد سمع من الابن قوله سآوى الى جبل يعصمنى من الماء وظهر بذلك كفره فكيف طلب من الله تخليصه وايضا انه تعالى اخبر ان نوحا لما طلب ذلك منه وامتنع هو صار من المغرقين فكيف يطلب من الله تخليصه من الغرق بعد ان صار من المغرقين فهذه الآية من هذه الوجوه الستة تدل على صدور المعصية من نوح عليه السلام واعلم انه لما دلت الدلائل الكثيرة على وجوب تنزيه الله تعالى الانبياء عليهم السلام من المعاصى وجب

حمل هذه الوجوه المذكورة على ترك الافضل والاكمل وحسنات الابرار سيئات المقربين فلهذا السبب حصل هذا العتاب والامر بالاستغفار لايدل على سابقة الذنب كما قال اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله افواجا فسبح بحمد ربك واستغفره ومعلوم ان مجئ نصر الله والفتح ودخول الناس فى دين الله افواجا ليست بذنب يوجب الاستغفار وقال تعالى واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وليس جميعهم مذنبين فدل ذلك على ان الاستغفار قد يكون بسبب ترك الافضل (المسئلة الثانية) قرأ نافع برواية ورش واسمعيل بتشديد النون واثبات الياء تسألنى وقرأ ابن عامر ونافع برواية قالون بتشديد النون وكسرها من غير اثبات الياء وقرأ ابو عمرو بتخفيف النون وكسرها وحذف الياء تسألن اما التشديد فللتأكيد واما اثبات الياء فعلى الاصل واما ترك التشديد والحذف فللتخفيف من غير اخلال * واعلم انه تعالى لما نهاه عن ذلك السؤال حكى عنه انه قال رب انى اعوذبك أن أسألك ماليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين والمعنى انه تعالى لما قال له فلا تسألن ماليس لك به علم فقال عند ذلك قبلت يارب هذا التكليف ولا أعود اليه الا انى لا اقدر على الاحتراز منه الا باعانتك وهدايتك فلهذا بدأ اولا بقوله انى اعوذبك * واعلم ان قوله انى اعوذبك أن أسألك ماليس لى به علم اخبار عما فى المستقبل اى لا اعود الى هذا العمل ثم اشتغل بالاعتذار عما مضى فقال والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين وحقيقة التوبة تقتضى امرين (احدهما) فى المستقبل وهو العزم على الترك واليه الاشارة بقوله انى اعوذبك ان أسألك ماليس لى به علم (والثانى) فى الماضى وهو الندم على مامضى واليه الاشارة بقوله والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ونختم هذا الكلام بالبحث عن الزلة التى صدرت عن نوح عليه السلام فى هذا المقام فنقول ان امة نوح عليه السلام كانوا على ثلاثة اقسام كافر يظهر كفره ومؤمن يعلم ايمانه وجمع من المنافقين وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة وحكم الكافرين هو الغرق وكان ذلك معلوما واما اهل النفاق فبقى حكمهم مخفيا وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مؤمنا وكانت الشفقة المفرطة التى تكون من الأب فى حق الابن تحمله على حمل اعماله وافعاله لا على كونه كافرا بل على الوجوه الصحيحة فلما رآه بمعزل عن القوم طلب منه ان يدخل السفينة فقال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء وذلك لايدل على كفره لجواز ان يكون قد ظن ان الصعود على الجبل يجرى مجرى الركوب فى السفينة فى انه يصونه عن الغرق وقول نوح لاعاصم اليوم من امر الله الا من رحم لايدل الا على انه عليه السلام كان يقرر عند ابنه انه لاينفعه الا الايمان والعمل الصالح وهذا ايضا لايدل على انه علم من ابنه انه كان كافرا فعند هذه الحالة كان قد بقى فى قلبه ظن ان ذلك الابن مؤمن فطلب من الله تعالى تخليصه بطريق من الطرق اما بأن يمكنه من الدخول فى السفينة واما بأن يحفظه على قلة جبل فعند ذلك اخبره الله تعالى بأنه منافق وانه ليس من

---

فى قولك يابنيا وقرئ بكسر الياء اقتصارا عليه من ياء الاضافة اوسقطت الياء والالف لالتقاء الساكنين لان الراء بعدهما ساكنة (اركب معنا) قرأ ابو عمرو والكسائى وحفص بادغام (٩٤) الباء فى الميم لتقاربهما فى المخرج وانما اطلق الركوب عن ذكر الفلك لتعينها وللايذان بضيق المقام حيث حال الجريض دون القريض مع اغناء المعية عن ذلك (ولا تكن مع الكافرين) اى فى المكان وهو وجه الارض خارج الفلك لا فى الدين وان كان ذلك مما يوجبه كما يوجب ركوبه معه عليه الصلاة والسلام كونه معه فى الايمان لانه عليه الصلاة والسلام بصدد التحذير عن الهلكة فلا يلائمه النهى عن الكفر (قال سآوى الى جبل) من الجبال (يعصمنى) بارتفاعه (من الماء) زعما منه ان ذلك كسائر المياه فى ازمنة السيول المعتادة التى ربما يتقى منها بالصعود الى الربا وانى له ذلك وقد بلغ السيل الزبى وجهلا بان ذلك انما كان لاهلاك الكفرة وان لامحيص من ذلك سوى الالتجاء الى ملجأ المؤمنين فلذلك اراد عليه الصلاة والسلام ان يبين له حقيقة الحال ويصرفه عن ذلك الفكر المحال وكان مقتضى الظاهر ان يجيب بما ينطبق عليه كلامه ويتعرض لنفى ماأثبته للجبل من كونه عاصماله من الماء بأن يقول لايعصمك منه مفيدا لنفى وصف العصمة عنه فقط من غير تعرض لنفيه عن غيره ولا لنفى الموصوف اصلا لكنه عليه الصلاة والسلام حيث (قال لاعاصم اليوم من أمر الله) سلك طريقة نفى الجنس المنتظم لنفى جميع افراد العاصم ذاتا وصفة كما فى قولهم ليس فيه داع ولا مجيب اى احد من الناس للمبالغة فى نفى كون الجبل عاصما بالوجهين المذكورين وزاد اليوم للتنبيه على انه ليس كسائر الايام التى تقع فيها الوقائع وتلم فيها الملمات المعتادة التى ربما يتخلص من ذلك بالالتجاء الى بعض الاسباب العادية وعبر عن الماء فى محل (اهل) اضماره بأمر الله اى عذابه الذى اشير اليه حيث قيل حتى اذا جاء أمرنا تفخيما لشأنه وتهويلا لامره وتنبيها لابنه على

اهل دينه فالزلة الصادرة عن نوح عليه السلام هو انه لم يستقص فى تعريف مايدل على نفاقه وكفره بل اجتهد فى ذلك وكان يظن انه مؤمن مع انه اخطأ فى ذلك الاجتهاد لانه كان كافرا فلم يصدر عنه الا الخطأ فى هذا الاجتهاد كما قررنا ذلك فى ان آدم عليه السلام لم تصدر عنه تلك الزلة الا لانه اخطأ فى الاجتهاد فثبت بما ذكرنا ان الصادر عن نوح عليه السلام ماكان من باب الكبائر وانما هو من باب الخطأ فى الاجتهاد والله اعلم ❁ قوله تعالى (قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى امم ممن معك وامم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى اخبر عن السفينة انها استوت على الجودى فهنالك قد خرج نوح وقومه من السفينة لامحالة ثم انهم نزلوا من ذلك الجبل الى الارض فقوله اهبط يحتمل ان يكون امرا بالخروج من السفينة الى ارض الجبل وان يكون امرا بالهبوط من الجبل الى الارض المستوية (المسئلة الثانية) انه تعالى وعده عند الخروج بالسلامة اولا ثم بالبركة ثانيا اما الوعد بالسلامة فيحتمل وجهين (الاول) انه تعالى اخبر فى الآية المتقدمة ان نوحا عليه السلام تاب عن زلته وتضرع الى الله تعالى بقوله والا تغفرلى وترحمنى اكن من الخاسرين وهذا التضرع هو عين التضرع الذى حكاه الله تعالى عن آدم عليه السلام عند توبته من زلته وهو قوله ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين فكان نوح عليه السلام محتاجا الى ان بشره الله تعالى بالسلامة من التهديد والوعيد فلما قيل له يانوح اهبط بسلام منا حصل له الامن من جميع المكاره المتعلقة بالدين (والثانى) ان ذلك الغرق لما كان عاما فى جميع الارض فعند ماخرج نوح عليه السلام من السفينة علم انه ليس فى الارض شئ مما ينتفع به من النبات والحيوان فكان كالخائف فى انه كيف يعيش وكيف يدفع جميع الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب فلما قال الله تعالى اهبط بسلام منا زال عنه ذلك الخوف لان ذلك يدل على حصول السلامة من الآفات ولا يكون ذلك الامع الامن وسعة الرزق ثم انه تعالى لما وعده بالسلامة اردفه بان وعده بالبركة وهى عبارة عن الدوام والبقاء والثبات ونيل الامل ومنه بروك الابل ومنه البركة لثبوت الماء فيها ومنه تبارك وتعالى اى ثبت تعظيمه ثم اختلف المفسرون فى تفسير هذا الثبات والبقاء فالقول الاول انه تعالى صير نوحا ابا البشر لان جميع من بقى كانوا من نسله وعند هذا قال هذا القائل انه لما خرج نوح من السفينة مات كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل الا من ذريته فالخلق كلهم من نسله وذريته وقال آخرون لم يكن فى سفينة نوح عليه السلام الا من كان من نسله وذريته وعلى التقديرين فالخلق كلهم انما تولدوا منه ومن اولاده والدليل عليه قوله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فثبت ان نوحا عليه السلام كان آدم الاصغر فهذا هو المراد من البركات التى وعده الله بها (والقول الثانى) انه تعالى لما وعده بالسلامة من الآفات وعده بان موجبات السلامة والراحة والفراغة يكون فى التزايد والثبات والاستقرار ثم انه تعالى

خطئه فى تسميته ماء وتوهم انه كسائر المياه التى يتفصى منها بالهرب الى بعض المهارب المعهودة وتعليلا للنفى المذكور فان امر الله لايغالب وعذابه لايرد وتمهيدا (٩٥) لحصر العصمة فى جناب الله عز جاره بالاستثناء كأنه قيل لاعاصم من امر الله الا هو وانما قيل (الامن رحم) تفخيما لشأنه الجليل بالابهام ثم التفسير وبالاجمال ثم التفصيل واشعارا بعلية رحمته فى ذلك بموجب سبقها على غضبه وكل ذلك لكمال عنايته عليه الصلاة والسلام بتحقيق ماتوخاه من نجاة ابنه ببيان شأن الداهية وقطع اطماعه الفارغة وصرفه عن التعلل بما لايغنى عنه شيأ وارشاده الى العياذ بالمعاذ الحق عز جاره وقيل لامكان يعصم من امر الله الامكان من رحمه الله وهو الفلك وقيل معنى لاعاصم لاذاعصمة الامن رحمه الله تعالى (وحال بينهما الموج) اى بين نوح وبين ابنه فانقطع مابينهما من المجاوبة لابين ابنه وبين الجبل لقوله تعالى (فكان من المغرقين) اذ هو انما يتفرع على حيلولة الموج بينه عليه الصلاة والسلام وبين ابنه لابينه وبين الجبل لانه بمعزل من كونه عاصما وان لم يحل بينه وبين الملتجئ اليه موج وفيه دلالة على هلاك سائر الكفرة على ابلغ وجه فكان ذلك امرا مقرر الوقوع غير مفتقر الى البيان وفى ايراد كان دون صار مبالغة فى كونه منهم (وقيل يا ارض ابلعى) اى انشفى استعير له من ازدراد الحيوان ما يأكله للدلالة على ان ذلك ليس كالنشف المعتاد التدريجى (ماءك) اى ماعلى وجهك من ماء الطوفان دون المياه المعهودة فيها من العيون والانهار وعبر عنه بالماء بعد ماعبر عنه فيما سلف بامر الله تعالى لان المقام مقام النقص والتقليل لامقام التفخيم والتهويل (وياسماء أقلعى) اى امسكى عن ارسال المطر يقال اقلعت السماء اذا انقطع مطرها واقلعت الحمى اى كفت (وغيض الماء) اى نقص مابين السماء والارض من الماء (وقضى الامر) اى انجز ماوعد الله تعالى نوحا من اهلاك قومه وانجائه باهله اواتم الامر (واستوت) اى استقرت الفلك

لماشرفه بالسلامة والبركة شرح بعده حال اولئك الذين كانوا معه فقال وعلى امم ممن معك واختلفوا فى المراد منه على ثلاثة اقوال منهم من حمله على اولئك الاقوام الذين نجوا معه وجعلهم امما وجماعات لانه ما كان فى ذلك الوقت فى جميع الارض احد من البشر الاهم فلهذا السبب جعلهم امما ومنهم من قال بل المراد ممن معك نسلا وتولدا قالوا ودليل ذلك انه ما كان معه الا الذين آمنوا وقد حكم الله تعالى عليهم بالقلة فى قوله تعالى وما آمن معه الا قليل ومنهم من قال المراد من ذلك مجموع الحاضرين مع الذين سيولدون بعد ذلك والمختار هو القول الثانى ومن فى قوله ممن معك لابتداء الغاية والمعنى وعلى امم ناشئة من الذين معك واعلم انه تعالى جعل تلك الامم الناشئة من الذين معه على قسمين (احدهما) الذين عطفهم على نوح فى وصول سلام الله وبركاته اليهم وهم اهل الايمان (والثانى) امم وصفهم بأنه تعالى سيمتعهم مدة فى الدنيا ثم فى الآخرة يمسهم عذاب اليم فحكم تعالى بان الامم الناشئة من الذين كانوا مع نوح عليه السلام لابد وان ينقسموا الى مؤمن والى كافر قال المفسرون دخل فى تلك السلامة كل مؤمن وكل مؤمنة الى يوم القيامة ودخل فى ذلك المتاع وفى ذلك العذاب كل كافر وكافرة الى يوم القيامة ثم قال اهل التحقيق انه تعالى انما عظم شأن نوح بايصال السلامة والبركات منه اليه لانه قال بسلام منا وهذا يدل على ان الصديقين لايفرحون بالنعمة من حيث انها نعمة ولكنهم انما يفرحون بالنعمة من حيث انها من الحق وفى التحقيق يكون فرحهم بالحق وطلبهم للحق وتوجههم الى الحق وهذا مقام شريف لايعرفه الاخواص الله تعالى فان الفرح بالسلامة وبالبركة من حيث هما سلامة وبركة غير والفرح بالسلامة والبركة من حيث انهما من الحق غير والاول نصيب عامة الخلق والثانى نصيب المقربين ولهذا السبب قال بعضهم من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثانى ومن آثر العرفان لاللعرفان بل للمعروف فقد خاض لجة الوصول واما اهل العقاب فقد قال فى شرح احوالهم وامم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم فحكم بأنه تعالى يعطيهم نصيبا من متاع الدنيا فدل ذلك على خساسة الدنيا فانه تعالى لما ذكر احوال المؤمنين لم يذكر البتة انه يعطيهم الدنيا ام لا ولما ذكر احوال الكافرين ذكر انه يعطيهم الدنيا وهذا تنبيه عظيم على خساسة السعادات الجسمانية والترغيب فى المقامات الروحانية ❊ قوله تعالى (تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين) واعلم انه تعالى لما شرح قصة نوح عليه السلام على التفصيل قال تلك اى تلك الآيات التى ذكرناها وتلك التفاصيل التى شرحناها من انباء الغيب اى من الاخبار التى كانت غائبة عن الخلق فقوله تلك فى محل الرفع على الابتداء ومن انباء الغيب الخبر ونوحيها اليك خبر ثان ومابعده ايضا خبر ثالث ثم قال تعالى ما كنت تعلمها انت ولا قومك والمعنى انك ما كنت تعرف هذه القصة بل قومك ما كانوا يعرفونها ايضا ونظيره ان تقول لانسان لاتعرف هذه المسئلة لا انت ولا اهل

(على الجودى) هو جبل بالموصل او بالشام او بآمل روى انه عليه الصلاة والسلام ركب فى الفلك فى عاشر رجب ونزل عنها فى عاشر المحرم فصام ذلك اليوم شكرا فصار سنة (وقيل بعدا للقوم (٩٦) الظالمين) اى هلاكا لهم والتعرض لوصف الظلم للاشعار بعليته للهلاك ولتذكيره ماسبق من قوله تعالى ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون ولقد بلغت الآية الكريمة من مراتب الاعجاز قاصيتها وملكت من غرر المزايا ناصيتها وقد تصدى لتفصيلها المهرة المتقنون ولعمرى ان ذلك فوق مايصفه الواصفون فحرى بنا ان نوجز الكلام فى هذا الباب ونفوض الامر الى تأمل اولى الالباب والله عنده علم الكتاب (ونادى نوح ربه) اى اراد ذلك بدليل الفاء فى قوله تعالى (فقال رب ان ابنى من اهلى) وقد وعدتنى انجاءهم فى ضمن الامر بحملهم فى الفلك او النداء على الحقيقة والفاء لتفصيل مافيه من الاجمال (وان وعدك الحق) اى وعدك ذلك اوان كل وعد تعده حق لايتطرق اليه خلف فيدخل فيه الوعد المعهود دخولا اوليا (وانت احكم الحاكمين) لانك اعلمهم واعدلهم او انت اكثر حكمة من ذوى الحكم على ان الحاكم من الحكمة كالدارع من الدرع وهذا الدعاء منه عليه الصلاة والسلام على طريقة دعاء ايوب عليه الصلاة والسلام اذ نادى ربه انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين (قال يانوح) لما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام بتذكير وعده جل ذكره مبنيا على كون كنعان من اهله نفى اولا كونه منهم بقوله تعالى (انه ليس من اهلك) اى ليس منهم اصلا لان مدار الاهلية هو القرابة الدينية ولا علاقة بين المؤمن والكافر اوليس من اهلك الذين امرتك بحملهم فى الفلك لخروجه عنهم بالاستثناء وعلى التقديرين ليس هو من الذين وعد بانجائهم ثم علل عدم كونه منهم على طريقة الاستئناف التحقيقى بقوله تعالى (انه عمل غير صالح) اصله انه ذو عمل غير صالح فجعل نفس العمل مبالغة كما فى قول الخنساء ❊ فانما هى اقبال وادبار

بذلك فان قيل أليس قدكانت قصة طوفان نوح عليه السلام مشهورة عند اهل العلم قلنا تلك القصة بحسب الاجمال كانت مشهورة اما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة ثم قال فاصبر ان العاقبة للمتقين والمعنى يامحمد اصبرانت وقومك على اذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على اذى اولئك الكفار وفيه تنبيه على ان الصبر عاقبته النصر والظفر والفرح والسرور كما كان لنوح عليه السلام ولقومه فان قال قائل انه تعالى ذكر هذه القصة فى سورة يونس ثم انه اعادها ههنا مرة اخرى فما الفائدة فى هذا التكرير قلنا ان القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه ففى السورة الاولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب فذكر تعالى قصة نوح فى بيان ان قومه كانوا يكذبونه بسبب ان العذاب ما كان يظهر ثم فى العاقبة ظهر فكذا فى واقعة محمد صلى الله عليه وسلم وفى هذه السورة ذكر هذه القصة لاجل ان الكفار كانوا يبالغون فى الايحاش فذكر الله تعالى هذه القصة لبيان ان اقدام الكفار على الايذاء والايحاش كان حاصلا فى زمان نوح الا انه عليه السلام لما صبر نال الفتح والظفر فكن يامحمد كذلك لتنال المقصود ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة فى كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خاليا عن الفائدة ❊ قوله تعالى (والى عاد اخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ان انتم الا مفترون ياقوم لااسئلكم عليه اجرا ان اجرى الا على الذى فطرنى أفلا تعقلون) اعلم ان هذا هو القصة الثانية من القصص التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة واعلم ان هذا معطوف على قوله ولقد ارسلنا نوحا والتقدير ولقد ارسلنا الى عاد اخاهم هودا وقوله هودا عطف بيان واعلم انه تعالى وصف هودا بأنه اخوهم ومعلوم ان تلك الاخوة ما كانت فى الدين وانما كانت فى النسب لان هودا كان رجلا من قبيلة عاد وهذه القبيلة كانت قبيلة من العرب وكانوا بناحية اليمن ونظيره مايقال للرجل ياأخا تميم ويااخا سليم والمراد رجل منهم فان قيل انه تعالى قال فى ابن نوح انه ليس من اهلك فبين ان قرابة النسب لاتفيد اذا لم تحصل قرابة الدين وههنا اثبت هذه الاخوة مع الاختلاف فى الدين فما الفرق بينهما قلنا المراد من هذا الكلام استمالة قوم محمد صلى الله عليه وسلم لان قومه كانوا يستبعدون فى محمد مع انه واحد من قبيلتهم ان يكون رسولا اليهم من عند الله فذكر الله تعالى ان هودا كان واحدا من عاد وان صالحا كان واحدا من ثمود لازالة هذا الاستبعاد واعلم انه تعالى حكى عن هود عليه السلام انه دعا قومه الى انواع من التكاليف (فالنوع الاول) انه دعاهم الى التوحيد فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ان انتم الا مفترون وفيه سؤال وهو انه كيف دعاهم الى عبادة الله تعالى قبل ان اقام الدلالة على ثبوت الاله تعالى قلنا دلائل وجود الله تعالى ظاهرة وهى دلائل الآفاق والانفس وقلما توجد فى الدنيا طائفة ينكرون وجود الاله تعالى ولذلك قال تعالى فى صفة الكفار ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ❊ قال مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازى رحمه الله وختم له

وايثار غير صالح على فاسد اما لان الفاسد ربما يطلق على مافسد ومن شأنه الصلاح فلايكون نصا فيما هو من قبيل الفاسد المحض كالقتل والظلم واما للتلويح بان نجاة (٩٧) من نجا انما هى لصلاحه وقرأ الكسائى ويعقوب انه عمل غير صالح اى عملا غير صالح ولما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام مبنيا على ماذكر من اعتقاد كون كنعان من اهله وقد نفى ذلك وحقق ببيان علته فرع على ذلك النهى عن سؤال انجائه الا انه جئ بالنهى على وجه عام يندرج فيه ذلك اندراجا اوليا فقيل (فلاتسألنى) اى اذا وقفت على جلية الحال فلاتطلب منى (ماليس لك به علم) اى مطلبا لاتعلم يقينا ان حصوله صواب وموافق للحكمة على تقدير كون ما عبارة عن المسؤل الذى هو مفعول للسؤال او طلبا لاتعلم انه صواب على تقدير كونه عبارة عن المصدر الذى هو مفعول مطلق فيكون النهى واردا بصريحه فى كل من معلوم الفساد ومشتبه الحال ويجوز ان يكون المعنى ماليس لك علم بأنه صواب اوغير صواب فيكون النهى واردا فى مشتبه الحال ويفهم منه حال معلوم الفساد بالطريق الاولى وعلى التقديرين فهو عام يندرج تحته مانحن فيه كما ذكرناه وهذا كما ترى صريح فى ان نداءه عليه الصلاة والسلام ربه عز وعلا ليس استفسارا عن سبب عدم انجاء ابنه مع سبق وعده بانجاء اهله وهو منهم كما قيل فان النهى عن استفسار مالم يعلم غير موافق للحكمة اذ عدم العلم بالشئ داع الى الاستفسار عنه لاالى تركه بل هو دعاء منه لانجاء ابنه حين حال الموج بينهما ولم يعلم بهلاكه بعد اما بتقريبه الى الفلك بتلاطم الامواج او بتقريبها اليه وقيل او بانجائه فى قلة الجبل ويأباه تذكير الوعد فى الدعاء فانه مخصوص بالانجاء فى الفلك وقوله تعالى لاعاصم اليوم من امر الله الا من رحم وبمجرد (١٣)(را)(خا) حيلولة الموج بينهما لايستوجب هلاكه فضلا عن العلم به لظهور امكان عصمة الله تعالى اياه برحمته وقد وعد بانجاء اهله ولم يكن ابنه مجاهرا بالكفر كما ذكرناه حتى لايجوز عليه عليه السلام

بالحسنى دخلت بلاد الهند فرأيت اولئك الكفار مطبقين على الاعتراف بوجود الاله واكثر بلاد الترك ايضا كذلك وانما الشان فى عبادة الاوثان فانها آفة عمت اكثر اطراف الارض وهكذا الامر كان فى الزمان القديم اعنى زمان نوح وهود وصالح عليهم السلام فهؤلاء الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم كانوا يمنعونهم من عبادة الاصنام فكان قوله اعبدوا الله معناه لاتعبدوا غير الله والدليل عليه انه قال عقيبه مالكم من اله غيره وذلك يدل على ان المقصود من هذا الكلام منعهم عن الاشتغال بعبادة الاصنام واما قوله مالكم من اله غيره فقرئ غيره بالرفع صفة على محل الجار والمجرور وقرئ بالجر صفة على اللفظ ثم قال ان انتم الا مفترون يعنى انكم كاذبون فى قولكم ان هذه الاصنام تحسن عبادتها او فى قولكم انها تستحق العبادة وكيف لايكون هذا كذبا وافتراء وهى جمادات لاحس لها ولا ادراك والانسان هو الذى ركبها وصورها فكيف يليق بالانسان الذى صنعها ان يعبدها وان يضع الجبهة على التراب تعظيما لها ثم انه عليه الصلاة والسلام لما ارشدهم الى التوحيد ومنعهم عن عبادة الاوثان قال وياقوم لاأسألكم عليه اجرا ان اجرى الا على الذى فطرنى وهو عين ماذكره نوح عليه السلام وذلك لان الدعوة الى الله تعالى اذا كانت مطهرة عن دنس الطمع قوى تأثيرها فى القلب ثم قال أفلاتعقلون يعنى أفلاتعقلون انى مصيب فى المنع من عبادة الاصنام وذلك لان العلم بصحة هذا المنع كأنه مركوز فى بداية العقول ❊ قوله تعالى (وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولاتتولوا مجرمين) اعلم ان هذا هو النوع الثانى من التكاليف التى ذكرها هود عليه السلام لقومه وذلك لانه فى المقام الاول دعاهم الى التوحيد وفى هذا المقام دعاهم الى الاستغفار ثم الى التوبة والفرق بينهما قد تقدم فى اول هذه السورة قال ابوبكر الاصم استغفروا اى سلوه ان يغفر لكم ماتقدم من شرككم ثم توبوا من بعده بالندم على مامضى وبالعزم على ان لاتعودوا الى مثله ثم انه عليه السلام قال انكم متى فعلتم ذلك فالله تعالى يكثر النعم عندكم ويقويكم على الانتفاع بتلك النعم وهذا غاية مايراد من السعادات فان النعم ان لم تكن حاصلة تعذر الانتفاع وان كانت حاصلة الا ان الحيوان قام به المنع من الانتفاع بها لم يحصل المقصود ايضا اما اذا كثرت النعمة وحصلت القوة الكاملة على الانتفاع بها فههنا تحصل غاية السعادة والبهجة فقوله تعالى يرسل السماء عليكم مدرارا اشارة الى تكثير النعم لان مادة حصول النعم هى الامطار الموافقة وقوله ويزدكم قوة الى قوتكم اشارة الى كمال حال القوى التى بها يمكن الانتفاع بتلك النعمة ولاشك ان هذه الكلمة جامعة فى البشارة بتحصيل السعادات وان الزيادة عليها ممتنعة فى صريح العقل ويجب على العاقل ان يتأمل فى هذه اللطائف ليعرف مافى هذا الكتاب الكريم من الاسرار المخفية واما المفسرون فانهم قالوا القوم كانوا مخصوصين فى الدنيا بنوعين من الكمال (احدهما) ان بساتينهم ومزارعهم كانت فى غاية الطيب

ان يدعوه الى الفلك اويدعو به لانجائه واعتزاله عنه عليه الصلاة السلام وقصده الالتجاء الى الجبل ليس بنص فى الاصرار على الكفر لظهور جواز ان يكون ذلك لجهله بانحصار النجاة فى الفلك وزعمه ان الجبل ايضا ( ٩٨ ) يجرى مجراه اولكراهة الاحتباس فى الفلك بل قوله سآوى الى جبل يعصمنى من الماء بعدما قال له نوح عليه الصلاة والسلام ولاتكن مع الكافرين ربما يطمعه عليه السلام فى ايمانه حيث لم يقل اكون معهم اوسنأوى اويعصمنا فان افراد نفسه بنسبة الفعلين المذكورين ربما يشعر بانفراده من الكافرين واعتزاله عنهم وامتثاله ببعض ماامره به نوح عليه الصلاة والسلام الا انه عليه الصلاة والسلام لوتأمل فى شأنه حق التأمل وتفحص عن احواله فى كل مايأتى ويذر لما اشتبه عليه انه ليس بمؤمن وانه المستثنى من اهله ولذلك قيل (انى اعظك ان تكون من الجاهلين) فعبر عن ترك الاولى بذلك وقرئ فلاتسألن بغيرياء الاضافة وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء (قال رب انى اعوذبك ان اسألك) اى اطلب منك من بعد (ماليس لى به علم) اى مطلوبا لااعلم ان حصوله مقتضى الحكمة او طلبا لااعلم انه صواب سواء كان معلوم الفساد اومشتبه الحال اولااعلم انه صواب اوغير صواب على مامر وهذه توبة منه عليه السلام مما وقع منه وانما لم يقل اعوذبك منه اومن ذلك مبالغة فى التوبة واظهار الرغبة والنشاط فيها وتبركا بذكر مالقنه الله تعالى وهو ابلغ من ان يقول اتوب اليك ان اسألك لما فيه من الدلالة على كون ذلك امرا هائلا محذورا لامحيص منه الا بالعوذ بالله تعالى وان قدرته قاصرة عن النجاة من المكاره الا بذلك (والاتغفرلى) ماصدر عنى من السؤال المذكور (وترحمنى) بقبول توبتى (اكن من الخاسرين) اعمالا بسبب ذلك فان الذهول عن شكر الله تعالى لاسيما عند وصول مثل هذه النعمة الجليلة التى هى النجاة وهلاك الاعداء والاشتغال بمالايعنى خصوصا بمبادى خلاص من قيل فى شأنه انه عمل غير صالح والتضرع الى الله تعالى

فى امره معاملة غير رابحة وخسران مبين وتأخير ذكر هذا النداء عن حكاية الامر الوارد على الارض والسماء وما يتلوه من زوال الطوفان وقضاء الامر واستوء الفلك على الجودى (٩٩) والدعاء بالهلاك) على الظالمين مع ان حقه ان يذكر عقيب قوله تعالى فكان من المغرقين حسبما وقع فى الخارج اذ حينئذ يتصور الدعاء بالانجاء لابعد العلم بالهلاك ليس لما قيل من استقلاله بغرض مهم هو جعل قرابة الدين غامرة لقرابة النسب وان لايقدم فى الامور الدينية الاصولية الابعد اليقين قياسا على ما وقع فى قصة البقرة من تقديم ذكر الامر بذبحها على ذكر القتيل الذى هو اول القصة وكان حقها ان يقال واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها كما تقرر فى موضعه فان تغيير الترتيب هناك للدلالة على كمال سوء حال اليهود بتعديد جناياتهم المتنوعة وتثنية التقريع عليهم بكل نوع على حدة فقوله تعالى واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة الخ لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة الى الامتثال وما يتبع ذلك وقوله تعالى واذ قتلتم نفسا الخ للتقريع على قتل النفس المحرمة وما يتبعه من الامور العظيمة ولو قصت القصة على ترتيبها لفات الغرض الذى هو تثنية التقريع ولظن ان المجموع تقريع واحد واما ما نحن فيه فليس مما يمكن ان يراعى فيه مثل تلك النكتة اصلا وما ذكر من جعل القرابة الدينية غامرة للقرابة النسبية الخ لايفوت على تقدير سوق الكلام على ترتيب الوقوع ايضا بل لان ذكر هذا النداء كما ترى مستدع لذكر ما مر من الجواب المستدعى لذكر ما مر من توبته عليه الصلاة والسلام المؤدى ذكرها الى ذكر قبولها فى ضمن الامر الوارد بنزوله عليه الصلاة والسلام من الفلك بالسلام والبركات الفائضة عليه وعلى المؤمنين حسبما سيجئ مفصلا ولاريب فى ان هذه المعانى آخذ بعضها بحجزة بعض بحيث لايكاد يفرق الآيات الكريمة المنطوية عليها بعضها من بعض وان ذلك انما يتم بتمام القصة ولاريب أن ذلك انما يكون بتمام الطوفان فلاجرم

والبهجة والدليل عليه قوله ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد (والثانى) انهم كانوا فى غاية القوة والبطش ولذلك قالوا من اشد منا قوة ولما كان القوم مفتخرين على سائر الخلق بهذين الامرين وعدهم هود عليه السلام انهم لو تركوا عبادة الاصنام واشتغلوا بالاستغفار والتوبة فان الله تعالى يقوى حالهم فى هذين المطلوبين ويزيدهم فيهما درجات كثيرة ونقل ايضا ان الله تعالى لما بعث هودا عليه السلام اليهم وكذبوه وحبس الله عنهم المطر سنين واعقم ارحام نسائهم فقال لهم هود ان آمنتم بالله احيا الله بلادكم ورزقكم المال والولد فذلك قوله يرسل السماء عليكم مدرارا والمدرار الكثير الدر وهو من ابنية المبالغة وقوله ويزدكم قوة الى قوتكم ففسروا هذه القوة بالمال والولد والشدة فى الاعضاء لان كل ذلك مما يتقوى به الانسان فان قيل حاصل الكلام هو ان هودا عليه السلام قال لو اشتغلتم بعبادة الله تعالى لانفتحت عليكم ابواب الخيرات الدنيوية وليس الامر كذلك لانه عليه الصلاة والسلام قال خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل فكيف الجمع بينهما وايضا فقد جرت عادة القرآن بالترغيب فى الطاعات بسبب ترتيب الخيرات الدنيوية والاخروية عليها فأما الترغيب فى الطاعات لاجل ترتيب الخيرات الدنيوية عليها فذلك لايليق بالقرآن بل هو طريق مذكور فى التوراة (الجواب) انه لما كثر الترغيب فى السعادات الاخروية لم يبعد الترغيب ايضا فى خير الدنيا بقدر الكفاية واما قوله ولاتتولوا مجرمين فمعناه لاتعرضوا عنى وعما ادعوكم اليه وارغبكم فيه مجرمين اى مصرين على اجرامكم وآثامكم ❊ قوله تعالى (قالوا ياهود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال انى اشهد الله واشهدوا انى برئ مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون انى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم) اعلم انه تعالى لما حكى عن هود عليه السلام ما ذكره للقوم حكى ايضا ما ذكره القوم له وهو اشياء (اولها) قولهم ماجئتنا ببينة اى بحجة والبينة سميت بينة لانها تبين الحق من الباطل ومن المعلوم انه عليه السلام كان قد اظهر المعجزات الا ان القوم بجهلهم انكروها وزعموا انه ماجاء بشئ من المعجزات (وثانيها) قولهم وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وهذا ايضا ركيك لانهم كانوا يعترفون بأن النافع والضار هو الله تعالى وان الاصنام لاتنفع ولاتضر ومتى كان الامر كذلك فقد ظهر فى بديهة العقل انه لاتجوز عبادتها وتركهم آلهتهم لايكون عن مجرد قوله بل عن حكم نظر العقل وبديهة النفس (وثالثها) قوله وما نحن لك بمؤمنين وهذا يدل على الاصرار والتقليد والجحود (ورابعها) قولهم ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء يقال اعتراه كذا اذا غشيه واصابه والمعنى انك شتمت آلهتنا فجعلتك مجنونا وافسدت عقلك ثم انه تعالى ذكر انهم لما قالوا ذلك قال هود عليه السلام انى اشهد الله واشهدوا انى برئ مما تشركون من دونه وهو ظاهر ثم قال فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون وهذا نظير

ماقاله نوح عليه السلام لقومه فاجمعوا امركم وشركاءكم الى قوله ولا تنظرون واعلم ان هذا معجزة قاهرة وذلك ان الرجل الواحد اذا اقبل على القوم العظيم وقال لهم بالغوا في عداوتي وفي موجبات ايذائي ولا تؤجلون فانه لايقول هذا الا اذا كان واثقا من عند الله تعالى بأنه يحفظه ويصونه عن كيد الاعداء ثم قال مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها قال الازهري الناصية عند العرب منبت الشعر في مقدم الرأس ويسمى الشعر النابت هناك ناصية باسم منبته واعلم ان العرب اذا وصفوا انسانا بالذلة والخضوع قالوا ماناصية فلان الا بيد فلان اى انه مطيع له لان كل من اخذت بناصيته فقد قهرته وكانوا اذا اسروا الاسير فأرادوا اطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره فخوطبوا في القرآن بما يعرفون فقوله مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها اى مامن حيوان الا وهو تحت قهره وقدرته ومنقاد لقضائه وقدره ثم قال ان ربي على صراط مستقيم وفيه وجوه (الاول) انه تعالى لما قال مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها اشعر ذلك بقدرة عالية وقهر عظيم فأتبعه بقوله ان ربي على صراط مستقيم اى انه وان كان قادرا عليهم لكنه لايظلمهم ولا يفعل بهم الا ماهو الحق والعدل والصواب قالت المعتزلة قوله مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها يدل على التوحيد وقوله ان ربي على صراط مستقيم يدل على العدل فثبت ان الدين انما يتم بالتوحيد والعدل (الثاني) انه تعالى لما ذكر ان سلطانه قهر جميع الخلق اتبعه بقوله ان ربي على صراط مستقيم يعني انه لايخفى عليه مستتر ولا يفوته هارب فذكر الصراط المستقيم وهو يعني به الطريق الذي لايكون لاحد مسلك الا عليه كما قال ان ربك لبالمرصاد (الثالث) ان يكون المراد ان ربي يدل على الصراط المستقيم اى يحث او يحملكم بالدعاء اليه * قوله تعالى (فان تولوا فقد ابلغتكم ما ارسلت به اليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ان ربي على كل شيء حفيظ) اعلم ان قوله فان تولوا يعني فان تتولوا ثم فيه وجهان (الاول) تقدير الكلام فان تولوا لم اعاتب على تقصير في الابلاغ وكنتم محجوجين كأنه يقول انتم الذين اصررتم على التكذيب (الثاني) فان تولوا فقد ابلغتكم ما ارسلت به اليكم ثم قال ويستخلف ربي قوما غيركم يعني يخلق بعدكم من هو اطوع لله منكم وهذا اشارة الى نزول عذاب الاستئصال ولا تضرونه شيئا يعني ان اهلاككم لاينقص من ملكه شيئا ثم قال ان ربي على كل شيء حفيظ وفيه ثلاثة اوجه (الاول) حفيظ لاعمال العباد حتى يجازيهم عليها (الثاني) يحفظني من شركم ومكركم (الثالث) حفيظ على كل شيء يحفظه من الهلاك اذا شاء ويهلكه اذا شاء * قوله تعالى (ولما جاء امرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا امر كل جبار عنيد واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا ان عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود) اعلم ان قوله ولما جاء امرنا اى عذابنا وذلك هو مانزل بهم من الريح العقيم عذبهم الله بها سبع ليال وثمانية ايام

اقتضى الحال ذكرها مهما قبل هذا النداء وذلك انما يكون عند ذكر كون كنعان من المغرقين وبهذه النكتة ازداد حسن موقع الايجاز البليغ وفيه فائدة اخرى هي التصريح بهلاكه من اول الامر ( ١٠٠ ) ولو ذكر النداء الثاني عقيب قوله تعالى فكان من المغرقين لربما توهم من اول الامر الى ان يرد قوله انه ليس من اهلك انه ينجو بدعائه عليه الصلاة والسلام فنص على هلاكه من اول الامر. ثم ذكر الامر الوارد على الارض والسماء الذي هو عبارة عن تعلق الارادة الربانية الازلية بما ذكر من الغيض والاقلاع وبين بلوغ امر الله محله وجريان قضائه ونفوذ حكمه عليهم بهلاك من هلك ونجاة من نجا بتمام ذلك الطوفان واستواء الفلك على الجودي فقصت القصة الى هذه المرتبة وبين ذلك اى بيان ثم تعرض لما وقع في تضاعيف ذلك مما جرى بين نوح عليه السلام وبين رب العزة جلت حكمته فذكر بعد توبته عليه الصلاة والسلام قبولها بقوله (قيل يانوح اهبط) اى انزل من الفلك وقرئ بضم الباء (بسلام) ملتبسا بسلامة من المكاره كائنة (منا) او بسلام وتحية منا عليك كما قال سلام على نوح في العالمين (وبركات عليك) اى خيرات نامية في نسلك ومايقوم به معاشك ومعاشهم من انواع الارزاق وقرئ بركة وهذا اعلام وبشارة من الله تعالى بقبول توبته وخلاصه من الخسران بفيضان انواع الخيرات عليه في كل ماياتي ومايذر (وعلى امم) ناشئة (ممن معك) الى يوم القيامة متشعبة منهم فمن ابتدائية والمراد الامم المؤمنة المتناسلة ممن معه الى يوم القيامة (وامم سنمتعهم) اى ومنهم على انه خبر حذف لدلالة ماسبق عليه فان ايراد الامم المبارك عليهم المتشعبة منهم نكرة يدل على ان بعض من يتشعب منهم ليسوا على صفتهم يعني ليس جميع من تشعب منهم مسلما ومباركا عليه بل منهم امم ممتعون في الدنيا معذبون في الآخرة وعلى هذا لايكون الكائنون مع نوح عليه السلام مسلما ومباركا عليهم صريحا وانما يفهم ذلك من كونهم مع نوح عليه الصلاة والسلام ( تدخل )

تدخل فى مناخرهم وتخرج من ادبارهم وتصرعهم على الارض على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية فأن قيل فهذه الريح كيف تؤثر فى اهلاكهم قلنا يحتمل ان يكون ذلك لشدة حرها اولشدة بردها اولشدة قوتها فتخطف الحيوان من الارض ثم تضربه على الارض فكل ذلك محتمل واماقوله نجينا هودا فاعلم انه يجوز اتيان البلية على المؤمن وعلى الكافر معا وحينئذ تكون تلك البلية رحمة على المؤمن وعذابا على الكافر فأما العذاب النازل بمن يكذب الانبياء عليهم السلام فانه يجب فى حكمة الله تعالى ان ينجى المؤمن منه ولولا ذلك لما عرف به كونه عذابا على كفرهم فلهذا السبب قال الله تعالى ههنا نجينا هودا والذين آمنوا معه * واماقوله برحمة منافيه وجوه (الاول) اراد انه لاينجو احد وان اجتهد فى الايمان والعمل الصالح الا برحمة من الله (الثانى) المراد من الرحمة ماهداهم اليه من الايمان بالله والعمل الصالح (الثالث) انه رحمهم فى ذلك الوقت وميزهم عن الكافرين فى العقاب * واماقوله ونجيناهم من عذاب غليظ فالمراد من النجاة الاولى هى النجاة من عذاب الدنيا والنجاة الثانية من عذاب القيامة وانما وصفه بكونه غليظا تنبيها على ان العذاب الذى حصل لهم بعد موتهم بالنسبة الى العذاب الذى وقعوا فيه كان عذابا غليظا والمراد من قوله ونجيناهم اى حكمنا بأنهم لايستحقون ذلك العذاب الغليظ ولايقعون فيه * واعلم انه تعالى لماذكر قصة عاد خاطب قوم محمد صلى الله عليه وسلم فقال وتلك عاد فهو اشارة الى قبورهم وآثارهم كأنه تعالى قال سيروا فى الارض فانظروا اليها واعتبروا * ثم انه تعالى جمع اوصافهم ثم ذكر عاقبة احوالهم فى الدنيا والآخرة فاما أوصافهم فهى ثلاثة (الصفة الاولى) قوله جحدوا بآيات ربهم والمراد انهم جحدوا دلالة المعجزات على الصدق او جحدوا دلالة المحدثات على وجود الصانع الحكيم ان ثبت انهم كانوا زنادقة (الصفة الثانية) قوله وعصوا رسله والسبب فيه انهم اذا عصوا رسولا واحدا فقد عصوا جميع الرسل لقوله تعالى لانفرق بين احد من رسله وقيل لم يرسل اليهم الا هود عليه السلام (الصفة الثالثة) قوله واتبعوا امر كل جبار عنيد المعنى ان السفلة كانوا يقلدون الرؤساء فى قولهم ماهذا الا بشر مثلكم والمراد من الجبار المرتفع المتمرد والعنيد العنود والمعاند وهو المنازع المعارض * واعلم انه تعالى لماذكر اوصافهم ذكر بعد ذلك احوالهم فقال واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة اى جعل اللعن رديفا لهم ومتابعا ومصاحبا فى الدنيا وفى الآخرة ومعنى اللعنة الابعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير ثم انه تعالى بين السبب الاصلى فى نزول هذه الاحوال المكروهة بهم فقال الا ان عادا كفروا ربهم قيل اراد كفروا بربهم فحذف الباء وقيل الكفر هو الجحد فالتقدير الا ان عادا جحدوا ربهم وقيل هو من باب حذف المضاف اى كفروا نعمة ربهم ثم قال الا بعدا لعاد قوم هود وفيه سؤالان (السؤال الاول) اللعن هو البعد فلما قال واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة فالفائدة فى قوله الا بعدا لعاد (والجواب)

ومن كون ذرياتهم كذلك بدلالة النص ويجوز ان تكون من بيانية اى وعلى امم هم الذين معك وانما سموا امما لانهم امم متحزبة وجماعات متفرقة اولان جميع الامم انما تشعبت منهم (١٠١) فحينئذ يكون المراد بالامم المشار اليهم فى قوله تعالى وامم سنمتعهم بعض الامم المتشعبة منهم وهى الامم الكافرة المتناسلة منهم الى يوم القيامة ويبقى الامم المؤمنة الناشئة منهم مبهما غير متعرض له ولا مدلول عليه ومع ذلك ففى دلالة المذكور على خبره المحذوف خفاء لان من المذكورة بيانية والمحذوفة تبعيضية اوابتدائية فتأمل (ثم يمسهم) امافى الآخرة اوفى الدنيا ايضا (منا عذاب اليم) عن محمد بن كعب القرظى دخل فى ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر وعن ابن زيد هبطوا والله عنهم راض ثم اخرج منهم نسلا منهم من رحم ومنهم من عذب وقيل المراد بالامم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام وبالعذاب مانزل بهم (تلك) اشارة الى ماقص من قصة نوح عليه الصلاة والسلام امالكونها بتقضيها فى حكم البعيد اوللدلالة على بعد منزلتها وهى مبتدأ خبره (من انباء الغيب) اى من جنسها اى ليست من قبيل سائر الانباء بل هى نسيج وحدها منفردة عما عداها اوبعضها (نوحيها اليك) خبرثان والضمير لها اى موحاة اليك اوهو الخبر ومن انباء متعلق به فالتعبير بصيغة المضارع لاستحضار الصورة اوحال من انباء الغيب اى موحاة اليك (ما كنت تعلمها انت ولاقومك) خبر آخر اى مجهولة عندك وعند قومك (من قبل هذا) اى من قبل ايحائنا اليك واخبارك بها اومن قبل هذا العلم الذى كسبته بالوحى اومن قبل هذا الوقت اوحال من الهاء فى نوحيها اوالكاف فى اليك اى جاهلا انت وقومك بها وفى ذكر جهلهم تنبيه على انه عليه الصلاة والسلام لم يتعلمها اذلم يخالط غيرهم وانهم مع كثرتهم لما لم يعلموه فكيف بواحد منهم (فاصبر) متفرع على الايحاء اوالعلم المستفاد منه المدلول عليه بقوله ما كنت تعلمها انت ولاقومك من قبل

هذا اى واذقد اوحيناهـا اليك او علمتها بذلك فاصبر على مشاق تبليغ الرسالة واذية قومك كما صبر نوح على ما سمعته من انواع البلايا في هذه المدة المتطاولة وهذا ناظر الى ما سبق من قوله تعالى فلعلك ( ١٠٢ ) تارك بعض ما يوحى اليك الخ ( ان العاقبة ) بالظفر فى الدنيا وبالفوز فى الآخرة ( للمتقين ) كما شاهدته فى نوح عليه الصلاة والسلام وقومه ولك فيه اسوة حسنة فهى تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليل للامر بالصبر فان كون العاقبة الحميدة للمتقين وهو فى اقصى درجات التقوى والمؤمنون كلهم متقون مما يسليه عليه الصلاة والسلام ويهون عليه الخطوب ويذهب عنه ما عسى يعتريه من ضيق صدره وهذا على تقدير ان يراد بالتقوى الدرجة الاولى منه اعنى التوقى من العذاب المخلد بالتبرؤ من الشرك وعليه قوله تعالى والزمهم كلمة التقوى ويجوز ان يراد الدرجة الثالثة منه وهى ان يتنزه عما يشغل سره عن الحق ويتبتل اليه بشرا شره وهو التقوى الحقيقى المطلوب بقوله تعالى اتقوا الله حق تقاته فان التقوى بهذا المعنى منطو على الصبر المذكور فكأنه قيل فاصبر فان العاقبة للصابرين (والى عاد) متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى ارسلنا فى قصة نوح وهو الناصب لقوله تعالى (اخاهم) اى وارسلنا الى عاد اخاهم اى واحدا منهم فى النسب كقولهم يا اخا العرب وتقديم المجرور على المنصوب ههنا للحذار عن الاضمار قبل الذكر وقيل متعلق بالفعل المذكور فيما سبق واخاهم معطوف على نوحا وقدمر فى سورة الاعراف وقوله تعالى (هودا) عطف بيان لاخاهم وكان عليه الصلاة والسلام من جملتهم فانه هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن العوص بن ارم بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام وقيل هود بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح ابن عم ابى عاد وانما جعل منهم لانهم افهم لكلامه واعرف بحاله وارغب فى اقتفائه (قريب) ( قال ) لما كان ذكر ارساله عليه الصلاة والسلام اليهم مظنة للسؤال عما قال لهم ودعاهم اليه اجيب عنه بطريق الاستئناف فقيل

التكرير بعبارتين مختلفتين يدل على غاية التأكيد (السؤال الثانى) ما الفائدة فى قوله لعاد اقوم هود ( الجواب ) كان عادا عادين فالاولى القديمة هم قوم هود والثانية هم ارم ذات العماد فذكر ذلك لازالة الاشتباه ( والثانى ) ان المبالغة فى التنصيص تدل على مزيد التأكيد * قوله تعالى ( والى ثمود اخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره هو انشأكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربى قريب مجيب قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا اتنهانا ان نعبد ما يعبد آباؤنا واننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب ) اعلم ان هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة فى هذه السورة وهى قصة صالح مع ثمود ونظمها مثل النظم المذكور فى قصة هود الا انه ههنا لما امرهم بالتوحيد ذكر فى تقريره دليلين ( الدليل الاول ) قوله هو انشأكم من الارض وفيه وجهان (الاول) ان الكل مخلوقون من صلب آدم وهو كان مخلوقا من الارض واقول هذا صحيح لكن فيه وجه آخر وهو اقرب منه وذلك لان الانسان مخلوق من المنى ومن دم الطمث والمنى انما تولد من الدم فالانسان مخلوق من الدم والدم انما تولد من الاغذية وهذه الاغذية اما حيوانية واما نباتية والحيوانات حالها كحال الانسان فوجب انتهاء الكل الى النبات وظاهر ان تولد النبات من الارض فثبت انه تعالى انشأنا من الارض ( الوجه الثانى ) ان تكون كلمة من معناها فى والتقدير انشأكم فى الارض وهذا ضعيف لانه متى امكن حمل الكلام على ظاهره فلا حاجة الى صرفه عنه واما تقرير ان تولد الانسان من الارض كيف يدل على وجود الصانع فقد شرحناه مرارا كثيرة (الدليل الثانى) قوله واستعمركم فيها وفيه ثلاثة اوجه (الاول) جعلكم عمارها قالوا كان ملوك فارس قد اكثروا من حفر الانهار وغرس الاشجار لاجرم حصلت لهم الاعمار الطويلة فسأل نبى من انبياء زمانهم ربه ما سبب تلك الاعمار فأوحى الله تعالى اليه انهم عمروا بلادى فعاش فيها عبادى واخذ معاوية فى احياء ارض فى آخر عمره فقيل له ما حملك عليه فقال ما حملنى عليه الاقول القائل

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به * ولا يكون له فى الارض آثار

( الثانى ) انه تعالى اطال اعماركم فيها واشتقاق واستعمركم من العمر مثل استبقاكم من البقاء ( الثالث ) انه مأخوذ من العمرى اى جعلها لكم طول اعماركم فاذا متم انتقلت الى غيركم * واعلم ان فى كون الارض قابلة للعمارات النافعة للانسان وكون الانسان قادرا عليها دلالة عظيمة على وجود الصانع ويرجع حاصله الى ما ذكره الله تعالى فى آية اخرى وهى قوله والذى قدر فهدى وذلك لان حدوث الانسان مع انه حصل فى ذاته العقل الهادى والقدرة على التصرفات الموافقة يدل على وجود الصانع الحكيم وكون الارض موصوفة بصفات مطابقة للمصالح موافقة للمنافع يدل ايضا على وجود الصانع الحكيم اما قوله فاستغفروه ثم توبوا اليه فقد تقدم تفسيره * واما قوله ان ربى قريب مجيب يعنى انه

قال ( ياقوم اعبدوا الله ) اى وحده كما ينبئ عنه قوله تعالى ( مالكم من اله غيره ) فانه استئناف يجرى مجرى البيان للعبادة المأمور بها والتعليل للامر بها كأنه قيل خصوه ( ١٠٣ ) بالعبادة ولاتشركوا به شيأ اذليس لكم من اله سواه وغيره بالرفع صفة لانه

قريب بالعلم والسمع مجيب دعاء المحتاجين بفضله ورحمته ثم بين تعالى ان صالحا عليه السلام لما قرر هذه الدلائل قالوا ياصالح قدكنت فينا مرجوا قبل هذا وفيه وجوه (الاول) انه لما كان رجلا قوى العقل قوى الخاطر وكان من قبيلتهم قوى رجاؤهم فى ان ينصر دينهم ويقوى مذهبهم ويقرر طريقتهم لانه متى حدث رجل فاضل فى قوم طمعوا فيه من هذا الوجه (الثانى) قال بعضهم المراد انك كنت تعطف على فقرائنا وتعين ضعفاءنا وتعود مرضانا فقوى رجاؤنا فيك انك من الانصار والاحباب فكيف اظهرت العداوة والبغضة ثم انهم اضافوا الى هذا الكلام التعجب الشديد من قوله فقالوا أتنهانا ان نعبد مايعبد آباؤنا والمقصود من هذا الكلام التمسك بطريق التقليد ووجوب متابعة الآباء والاسلاف ونظير هذا التعجب ماحكاه الله تعالى عن كفار مكة حيث قالوا أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشئ عجاب * ثم قالوا وانا لفى شك مما تدعونا اليه مريب والشك هو ان يبقى الانسان متوقفا بين النفى والاثبات والمريب هو الذى يظن به السوء فقوله وانا لفى شك يعنى به انه لم يترجح فى اعتقادهم صحة قوله وقوله مريب يعنى انه ترجح فى اعتقادهم فساد قوله وهذا مبالغة فى تزييف كلامه * قوله تعالى ( قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله ان عصيته فاتزيدوننى غير تخسير ) اعلم ان قوله ان كنت على بينة من ربى ورد بحرف الشك وكان على يقين تام فى امره الا ان خطاب المخالف على هذا الوجه أقرب الى القبول فكأنه قال قدروا أنى على بينة من ربى وأنى نبى على الحقيقة وانظروا انى ان تابعتكم وعصيت ربى فى اوامره فمن يمنعنى من عذاب الله فا تزيدوننى على هذا التقدير غير تخسير وفى تفسير هذه الكلمة وجهان (الاول) ان على هذا التقدير تخسرون اعمالى وتبطلونها (الثانى) ان يكون التقدير فا تزيدوننى بماتقولون لى وتحملوننى عليه غيران اخسركم اى انسبكم الى الخسران واقول لكم انكم خاسرون والقول الاول اقرب لان قوله فمن ينصرنى من الله ان عصيته كالدلالة على انه اراد ان اتبعتكم فيما انتم عليه من الكفر الذى دعوتمونى اليه لم ازدد الاخسرانا فى الدين فاصير من الهالكين الخاسرين * قوله تعالى ( وياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى ارض الله ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة ايام ذلك وعد غير مكذوب ) اعلم ان العادة فيمن يدعى النبوة عند قوم يعبدون الاصنام ان يبتدئ بالدعوة الى عبادة الله ثم يتبعه بدعوى النبوة لابد وان يطلبوا منه المعجزة وامر صالح عليه السلام هكذا كان * يروى ان قومه خرجوا فى عيد لهم فسألوه ان يأتيهم بآية وان يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا اليها ناقة فدعا صالح ربه فخرجت الناقة كما سألوا واعلم ان تلك الناقة كانت معجزة من وجوه ( الاول ) انه تعالى خلقها من الصخرة (وثانيها) انه تعالى خلقها فى جوف الجبل ثم شق عنها الجبل (وثالثها) انه تعالى خلقها حاملا من غير ذكر (ورابعها) انه خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة من غير ولادة

باعتبار محله وقرئ بالجر حملا على لفظه ( ان أنتم ) ماأنتم باتخاذكم الاصنام شركاء له او بقولكم ان الله امرنا بعبادتها ( الا مفترون ) عليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا ( ياقوم لا اسألكم عليه اجرا ان اجرى الا على الذى فطرنى ) خاطب به كل نبى قومه ازاحة لما عسى يتوهمونه وامحاضا للنصيحة فانها مادامت مشوبة بالمطامع بمعزل عن التأثير وايراد الموصول للتفخيم وجعل الصلة فعل الفطرة لكونه اقدم النعم الفائضة من جناب الله تعالى المستوجبة للشكر الذى لايتأتى الا بالجريان على موجب امره الغالب معرضا عن المطالب الدنيوية التى من جملتها الاجر ( افلا تعقلون ) اى اتغفلون عن هذه القضية او لاتتفكرون فيها فلا تعقلونها او أتجهلون كل شئ فلا تعقلون شيأ أصلا فان هذا مما لاينبغى ان يخفى على احد من العقلاء ( وياقوم استغفروا ربكم ) اى اطلبوا مغفرته لما سلف منكم من الذنوب بالايمان والطاعة ( ثم توبوا اليه ) اى توسلوا اليه بالتوبة وايضا التبرؤ من الغير انما يكون بعد الايمان بالله تعالى والرغبة فيما عنده ( يرسل السماء ) اى المطر عليكم مدرارا ) اى كثير الدرور (ويزدكم قوة ) مضافة ومنضمة ( الى قوتكم ) اى يضاعفها لكم وانما رغبهم بكثرة المطر لانهم كانوا اصحاب زروع وعمارات وقيل حبس الله تعالى عنهم القطر وأعقم ارحام نسائهم ثلاث سنين فوعدهم عليه الصلاة والسلام كثرة الامطار وتضاعف القوة بالتناسل على الايمان والتوبة ( ولاتتولوا ) اى لاتعرضوا عما دعوتكم اليه (مجرمين) مصرين على ما كنتم عليه من الاجرام (قالوا ياهود ماجئتنا ببينة ) اى بحجة تدل على صحة دعواك وانما قالوه لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من البينات الفائتة للحصر ( ومانحن بتاركى آلهتنا ) اى بتاركى

عبادتها ( عن قولك ) اى صادرين عنه اى صادرا تركنا عن ذلك باسناد حال الوصف الى الموصوف ومناه التعليل على ابلغ وجه لدلالته على كونه علة فاعلية ولا يفيده الباء واللام وهذا كقولهم ( ١٠٤ ) المنقول عنهم فى سورة الاعراف أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ( وما نحن لك بمؤمنين ) اى بمصدقين فى شئ مما تأتى وتذر فيندرج تحته ما دعاهم اليه من التوحيد وترك عبادة الآلهة وفيه من الدلالة على شدة الشكيمة وتجاوز الحد فى العتو ما لا يخفى ( ان نقول الا اعتراك ) اى ما نقول الا قولنا اعتراك اى اصابك ( بعض آلهتنا بسوء ) بجنون لسبك اياها وصدك عن عبادتها وحطك لها عن رتبة الالوهية والمعبودية بما مر من قولك ما لكم من اله غيره ان أنتم الا مفترون والتنكير فى سوء للتقليل كأنهم لم يبالغوا فى السوء كما ينبئ عنه نسبة ذلك الى بعض آلهتهم دون كلها والجملة مقول القول والا لغو لان الاستثناء مفرغ وهذا الكلام مقرر لما مر من قولهم وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين فان اعتقادهم بكونه عليه الصلاة والسلام كما قالوا وحاشاه عن ذلك يوجب عدم الاعتداد بقوله وعده من قبيل الخرافات فضلا عن التصديق والعمل بمقتضاه يعنون انا لا نعد كلامك الا من قبيل ما لا يحتمل الصدق والكذب من الهذيانات الصادرة عن المجانين فكيف نصدقه ونؤمن به ونعمل بموجبه ولقد سلكوا فى طريقة المخالفة والعناد الى سبيل الترقى من الادنى الى الاعلى حيث اخبروا اولا عن عدم مجيئه بالبينة مع احتمال كون ما جاء به عليه الصلاة والسلام حجة فى نفسه وان لم تكن واضحة الدلالة على المراد وثانيا من ترك الامتثال بقوله عليه الصلاة والسلام بقولهم وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك مع امكان تحقق ذلك بتصديقهم له عليه الصلاة والسلام فى كلامه ثم نفوا تصديقهم له عليه الصلاة والسلام بقولهم وما نحن لك بمؤمنين مع كون كلامه عليه الصلاة والسلام مما يقبل التصديق ثم نفوا عنه تلك المرتبة ايضا حيث قالوا ما قالوا قاتلهم الله ( الذى )

(وخامسها) ما روى ان الناقة كانت تشرب ماء الوادى كله فى يوم (وسادسها) انه كان يحصل منها لبن كثير يكفى الخلق العظيم وكل واحد من هذه الوجوه معجز قوى وليس فى القرآن الا ان تلك الناقة كانت آية ومعجزة فاما بيان انها كانت معجزة من اى الوجوه فليس فيه بيانه * ثم قال فذروها تأكل فى ارض الله والمراد انه عليه السلام رفع عن القوم مؤنتها فصارت مع كونها آية لهم تنفعهم ولا تضرهم لانهم كانوا ينتفعون بلبنها على ما روى انه عليه السلام خاف عليها منهم لما شاهد من اصرارهم على الكفر فان الخصم لا يحب ظهور حجة خصمه بل يسعى فى اخفائها وابطالها باقصى الامكان فلهذا السبب كان يخاف من اقدامهم على قتلها فلهذا احتاط وقال ولا تمسوها بسوء وتوعدهم ان مسوها بسوء بعذاب قريب وذلك تحذير شديد لهم من الاقدام على قتلها ثم بين الله تعالى انهم مع ذلك عقروها وذبحوها ويحتمل انهم عقروها لابطال تلك الحجة وان يكون لانها ضيقت الشرب على القوم وان يكون لانهم رغبوا فى شحمها ولحمها وقوله فيأخذكم عذاب قريب يريد اليوم الثالث وهو قوله تمتعوا فى داركم * ثم بين تعالى ان القوم عقروها فعند ذلك قال لهم صالح عليه السلام تمتعوا فى داركم ثلاثة ايام ومعنى التمتع التلذذ بالمنافع والملاذ التى تدرك بالحواس ولما كان التمتع لا يحصل الا للحى عبر به عن الحياة وقوله فى داركم فيه وجهان (الاول) ان المراد من الدار البلد وتسمى البلاد بالديار لانه يدار فيها اى يتصرف يقال ديار بكر اى بلادهم (الثانى) ان المراد بالديار الدنيا * وقوله ذلك وعد غير مكذوب اى غير كذب والمصدر قد يرد بلفظ المفعول كالمجلود والمعقول وبأيكم المفتون وقيل غير مكذوب فيه قال ابن عباس رضى الله عنهما انه تعالى لما امهلهم تلك الايام الثلاثة فقد رغبهم فى الايمان وذلك لانهم لما عقروا الناقة أنذرهم صالح عليه السلام بنزول العذاب فقالوا وما علامة ذلك فقال تصير وجوهكم فى اليوم الاول مصفرة وفى الثانى محمرة وفى الثالث مسودة ثم يأتيكم العذاب فى اليوم الرابع فلما رأوا وجوههم قد اسودت أيقنوا بالعذاب فاحتاطوا واستعدوا للعذاب فصبحهم اليوم الرابع وهى الصيحة والصاعقة والعذاب فان قيل كيف يعقل ان تظهر فيهم هذه العلامات مطابقة لقول صالح عليه السلام ثم يبقون مصرين على الكفر قلنا ما دامت الامارات غير بالغة الى حد الجزم واليقين لم يمتنع بقاؤهم على الكفر واذا صارت يقينية قطعية فقد انتهى الامر الى حد الالجاء والايمان فى ذلك الوقت غير مقبول * قوله تعالى ( فلما جاء امرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ ان ربك هو القوى العزيز واخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا ان ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ) اعلم ان مثل هذه الآية قد مضى فى قصة عاد وقوله ومن خزى يومئذ فيه مسائل (المسئلة الاولى) الواو فى قوله ومن خزى واو النسق وفيه وجهان (الاول) ان يكون التقدير نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا من العذاب النازل بقومه ومن الخزى

انى يؤفكون (قال انى اشهد الله واشهدوا انى برئ مماتشركون من دونه) اى من اشراككم من دون الله اى من غير ان ينزل به سلطانا كما قال فى سورة الاعراف أتجادلوننى ( ١٠٥ ) فى اسماء سميتموها انتم وآباؤكم مانزل الله بها من سلطان اومماتشركونه من آلهة غير الله اجاب به عن مقالتهم الحمقاء المبنية على اعتقاد كون آلهتهم ممايضر اوينفع وانها بمعزل من ذلك ولما كان ماوقع اولا منه عليه الصلاة والسلام فى حق آلهتهم من كونها بمعزل عن الالوهية انما وقع فى ضمن الامر بعبادة الله تعالى واختصاصه بها وقد شق عليهم ذلك وعدوه ممايورث شينا حتى زعموا انها تصيبه عليه الصلاة والسلام بسوء مجازاة لصنيعه معها صرح عليه الصلاة والسلام بالحق وصدع به حيث اخبر ببراءته القديمة عنها بالجملة الاسمية المصدرة بان واشهد الله على ذلك وامرهم بان يسمعوا ذلك ويشهدوا به استهانة بهم ثم امرهم بالاجتماع والاحتشاد مع آلهتهم جميعا دون بعض منها حسبما يشعر به قولهم بعض آلهتنا والتعاون فى ايصال الكيد اليه عليه الصلاة والسلام ونهاهم عن الانظار والامهال فى ذلك فقال (فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون) اى ان صح مالوحتم به من كون آلهتكم ممايقدر على اضرار من ينال منها ويصد عن عبادتها ولو بطريق ضمنى فانى برئ منها فكونوا انتم معها جميعا وباشروا كيدى ثم لاتمهلونى ولا تسامحونى فى ذلك فالفاء لتفريع الامر على زعمهم فى قدرة آلهتهم على ماقالوا وعلى البراءة كليهما وهذا من اعظم المعجزات فانه عليه الصلاة والسلام كان رجلا مفردا بين الجم الغفير والجمع الكثير من عتاة عاد الغلاظ الشداد وقد خاطبهم وحقرهم وآلهتهم وهيجهم على مباشرة مبادى المضادة والمضارة وحثهم على التصدى لاسباب المعازة ( ١٤ ) ( را ) ( خا ) والمعارة فلم يقدروا على مباشرة شئ مما كلفوه وظهر عجزهم عن ذلك ظهورا بينا كيف لا وقد التجأ الى ركن منيع رفيع واعتصم بحبل متين حيث قال ( انى توكلت على الله ربى وربكم )

الذى لزمهم وبقى العار فيه مأثورا عنهم ومنسوبا اليهم لان معنى الخزى العيب الذى تظهر فضيحته ويستحيى من مثله فحذف ماحذف اعتمادا على دلالة مابقى عليه ( الثانى ) ان يكون التقدير نجينا صالحا برحمة منا ونجيناهم من خزى يومئذ ( المسئلة الثانية ) قرأ الكسائى ونافع فى رواية ورش وقالون واحدى الروايات عن الاعشى يومئذ بفتح الميم وفى المعارج عذاب يومئذ والباقون بكسر الميم فيهما فمن قرأ بالفتح فعلى ان يوم مضاف الى اذ وان اذ مبنى والمضاف الى المبنى يجوز جعله مبنيا ألاترى ان المضاف يكتسب من المضاف اليه التعريف والتنكير فكذا ههنا واما الكسر فى اذ فالسبب انه يضاف الى الجملة من المبتدأ والخبر تقول جئتك اذ الشمس طالعة فلما قطع عنه المضاف اليه نون ليدل التنوين على ذلك ثم كسرت الذال لسكونها وسكون التنوين واما القراءة بالكسر فعلى اضافة الخزى الى اليوم ولم يلزم من اضافته الى المبنى ان يكون مبنيا لان هذه الاضافة غير لازمة ( المسئلة الثالثة ) الخزى الذل العظيم حتى يبلغ حد الفضيحة ولذلك قال تعالى فى المحاربين ذلك لهم خزى فى الدنيا وانما سمى الله تعالى ذلك العذاب خزيا لانه فضيحة باقية يعتبر بها امثالهم ثم قال ان ربك هو القوى العزيز وانما حسن ذلك لانه تعالى بين انه اوصل ذلك العذاب الى الكافر وصان اهل الايمان عنه وهذا التمييز لايصح الا من القادر الذى يقدر على قهر طبائع الاشياء فيجعل الشئ الواحد بالنسبة الى انسان بلاء وعذابا وبالنسبة الى انسان آخر راحة وريحانا * ثم انه تعالى بين ذلك الامر فقال واخذ الذين ظلموا وفيه مسئلتان ( المسئلة الاولى ) انما قال اخذ ولم يقل اخذت لان الصيحة محمولة على الصياح وايضا فصل بين الفعل والاسم المؤنث بفاصل فكان الفاصل كالعوض من تاء التأنيث وقد سبق لها نظائر ( المسئلة الثانية ) ذكروا فى الصيحة وجهين قال ابن عباس رضى الله عنهما المراد الصاعقة (الثانى) الصيحة صيحة عظيمة هائلة سمعوها فماتوا اجمع منها فأصبحوا وهم موتى جاثمين فى دورهم ومساكنهم وجثومهم سقوطهم على وجوههم يقال انه تعالى امر جبريل عليه السلام ان يصيح بهم تلك الصيحة التى ماتوا بها ويجوز ان يكون الله تعالى خلقها والصياح لايكون الا الصوت الحادث فى حلق وفم وكذلك الصراخ فان كان من فعل الله تعالى فقد خلقه فى حلق حيوان وان كان فعل جبريل عليه السلام فقد حصل فى فمه وحلقه والدليل عليه ان صوت الرعد اعظم من كل صيحة ولايسمى بذلك ولا بأنه صراخ فان قيل فالسبب فى كون الصيحة موجبة للموت قلنا فيه وجوه ( احدها ) ان الصيحة العظيمة انما تحدث عند سبب قوى يوجب تموج الهواء وذلك التموج الشديد ربما يتعدى الى صماخ الانسان فيمزق غشاء الدماغ فيورث الموت ( الثانى ) انها شئ مهيب فتحدث الهيبة العظيمة عند حدوثها والاعراض النفسانية اذا قويت اوجبت الموت ( الثالث ) ان الصيحة العظيمة اذا حدثت من السحاب فلابد وان يصحبها برق شديد محرق وذلك هو الصاعقة التى ذكرها ابن عباس

يعني انكم وان بذلتم في مضارتي مجهودكم لا تقدرون على شئ مما تريدون بي فاني متوكل على الله تعالى وانما جئ بلفظ الماضي لكونه ادل على الانشاء المناسب للمقام وواثق بكلاءتي وحفظي ( ١٠٦ ) عن غوائلكم وهو مالكي ومالككم لا يصدر عنكم شئ ولا يصيبني امر الا بارادته ومشيئته ثم برهن عليه بقوله (ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها) اى الا هو مالك لها قادر عليها يصرفها كيف يشاء غير مستعصية عليه فان الاخذ بالناصية تمثيل لذلك (ان ربي على صراط مستقيم) تعليل لما يدل عليه التوكل من عدم قدرتهم على اضراره اى هو على الحق والعدل فلا يكاد يسلطكم على اذ لا يضيع عنده معتصم ولا يفتات عليه ظالم والاقتصار على اضافة الرب الى نفسه اما بطريق الاكتفاء لظهور المراد واما لان فائدة كونه تعالى مالكا لهم ايضا راجعة اليه عليه الصلاة والسلام (فان تولوا) اى تتولوا بحذف احدى التاءين اى ان تستمروا على ما كنتم عليه من التولي والاعراض ( فقد ابلغتكم ما ارسلت به اليكم) اى لم أعاتب على تفريط في الابلاغ وكنتم محجوجين بان بلغكم الحق فأبيتم الا التكذيب والجحود (ويستخلف ربي قوما غيركم) استئناف بالوعيد لهم بان الله تعالى يهلكهم ويستخلف في ديارهم واموالهم قوما آخرين او عطف على الجواب بالفاء ويؤيده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه بالجزم عطفا على الموضع كأنه قيل فان تولوا يعذرني ويهلككم ويستخلف مكانكم آخرين وفي اقتصار اضافة الرب عليه عليه السلام رمز الى اللطف به والتدمير للمخاطبين (ولا تضرونه) بتوليكم (شيئا) من الضرر لاستحالة ذلك عليه ومن جزم ويستخلف اسقط منه النون (ان ربي على كل شئ حفيظ ) اى رقيب مهيمن فلا تخفى عليه اعمالكم فيجازيكم بحسبها او حافظ مستول على كل شئ فكيف ( ان ) يضره شئ وهو الحافظ للكل ( ولما جاء امرنا ) اى نزل عذابنا وفي التعبير عنه بالامر مضافا الى ضميره جل جلاله وعن نزوله بالمجئ

رضي الله عنهما * ثم قال تعالى فأصبحوا في ديارهم جاثمين والجثوم هو السكون يقال للطير اذا باتت في اوكارها انها جثمت ثم ان العرب اطلقوا هذا اللفظ على ما لا يتحرك من الموت فوصف الله تعالى هؤلاء المهلكين بأنهم سكنوا عند الهلاك حتى كأنهم ما كانوا احياء وقوله كأن لم يغنوا فيها اى كأنهم لم يوجدوا والمغنى المقام الذي يقيم الحي به يقال غني الرجل بمكان كذا اذا اقام به * ثم قال تعالى الا ان ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود قرأ حمزة وحفص عن عاصم ألا ان ثمود غير منون في كل القرآن وقرأ الباقون ثمودا بالتنوين ولثمود كلاهما بالصرف والصرف للذهاب الى الحي او الى الاب الاكبر ومنعه للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة * قوله تعالى ( ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث ان جاء بعجل حنيذ فلما رأى ايديهم لا تصل اليه نكرهم واوجس منهم خيفة قالوا لا تخف انا ارسلنا الى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب ) اعلم ان هذا هو القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة وههنا مسائل ( المسئلة الاولى ) قال النحويون دخلت كلمة قد ههنا لان السامع لقصص الانبياء عليهم السلام يتوقع قصة بعد قصة وقد للتوقع ودخلت اللام في لقد لتأكيد الخبر ولفظ رسلنا جمع واقله ثلاثة فهذا يفيد القطع بحصول ثلاثة واما الزائد على هذا العدد فلا سبيل الى اثباته الا بدليل آخر واجمعوا على ان الاصل فيهم كان جبريل عليه السلام ثم اختلفت الروايات فقيل اتاه جبريل عليه السلام ومعه اثنا عشر ملكا على صورة الغلمان الذين يكونون في غاية الحسن وقال الضحاك كانوا تسعة وقال ابن عباس رضي الله عنهما كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام وهم الذين ذكرهم الله في سورة والذاريات في قوله هل اتاك حديث ضيف ابراهيم وفي الحجر ونبئهم عن ضيف ابراهيم ( المسئلة الثانية ) اختلفوا في المراد بالبشرى على وجهين ( الاول ) ان المراد ما بشره الله بعد ذلك بقوله فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب ( الثاني ) ان المراد منه انه بشر ابراهيم عليه السلام بسلامة لوط وباهلاك قومه * واما قوله قالوا سلاما قال سلام ففيه مسائل ( المسئلة الاولى ) قرأ حمزة والكسائي قالوا سلما قال سلم بكسر السين وسكون اللام بغير الف وفي والذاريات مثله قال الفراء لا فرق بين القراءتين كما قالوا حل وحلال وحرم وحرام لان في التفسير انهم لما جاؤا سلموا عليه قال ابو علي الفارسي ويحتمل ان يكون سلم خلاف العدو والحرب كأنهم لما امتنعوا من تناول ما قدمه اليهم نكرهم واوجس منهم خيفة قال انا سلم ولست بحرب ولا عدو فلا تمتنعوا من تناول طعامي كما يمتنع من تناول طعام العدو وهذا الوجه عندي بعيد لان على هذا التقدير ينبغي ان يكون تكلم ابراهيم عليه السلام بهذا اللفظ بعد احضار الطعام الا ان القرآن يدل على ان هذا الكلام انما وجد قبل احضار الطعام لانه تعالى قال قالوا سلاما قال سلام فما لبث ان جاء بعجل حنيذ والفاء للتعقيب فدل ذلك على

ان مجيئه بذلك العجل الحنيذ كان بعد ذكر السلام (المسئلة الثانية) قالوا سلاما تقديره سلمنا عليك سلاما قال سلام تقديره امرى سلام اى لست مريدا غير السلامة والصلح قال الواحدى ويحتمل ان يكون المراد سلام عليكم فجاء به مرفوعا حكاية لقوله كما قال وحذف عنه الخبر كما حذف من قوله فصبر جميل وانما يحسن هذا الحذف اذا كان المقصود معلوما بعد الحذف وههنا المقصود معلوم فلاجرم حسن الحذف ونظيره قوله تعالى فاصفح عنهم وقل سلام على حذف الخبر واعلم انه انما سلم بعضهم على بعض رعاية للاذن المذكور فى قوله تعالى لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها (المسئلة الثالثة) اكثر مايستعمل سلام عليكم بغير الف ولام وذلك لانه فى معنى الدعاء فهو مثل قولهم خير بين يديك فان قيل كيف جاز جعل النكرة مبتدأ قلنا النكرة اذا كانت موصوفة جاز جعلها مبتدأ فاذا قلت سلام عليكم فالتنكير فى هذا الموضع يدل على التمام والكمال فكأنه قيل سلام كامل تام عليكم ونظيره قولنا سلام عليك وقوله تعالى قال سلام عليك سأستغفر لك ربى وقوله سلام قولا من رب رحيم سلام على نوح فى العالمين والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم فأما قوله تعالى والسلام على من اتبع الهدى فهذا ايضا جائز والمراد منه الماهية والحقيقة واقول قوله سلام عليكم اكمل من قوله السلام عليكم لان التنكير فى قوله سلام عليكم يفيد الكمال والمبالغة والتمام واما لفظ السلام فانه لايفيد الا الماهية قال الاخفش من العرب من يقول سلام عليكم فيعري قوله سلام عن الالف واللام والتنوين والسبب فى ذلك ان كثرة الاستعمال أباح هذا التخفيف والله اعلم * ثم قال تعالى فمالبث ان جاء بعجل حنيذ قالوا مكث ابراهيم خمس عشرة ليلة لايأتيه ضيف فاغتم لذلك ثم جاءه الملائكة فرأى اضيافا لم ير مثلهم فعجل وجاء بعجل حنيذ فقوله فمالبث ان جاء بعجل حنيذ معناه فمالبث فى المجئ به بل عجل فيه او التقدير فمالبث مجيئه والعجل ولد البقرة اما الحنيذ فهو الذى يشوى فى حفرة من الارض بالحجارة المحماة وهو من فعل اهل البادية معروف وهو محنوذ فى الاصل كما قيل طبيخ ومطبوخ وقيل الحنيذ الذى يقطر دسمه يقال حنذت الفرس اذا القيت عليه الجل حتى تقطر عرقا ثم قال تعالى فلما رأى ايديهم لاتصل اليه اى الى العجل وقال الفراء الى الطعام وهو ذلك العجل نكرهم اى انكرهم يقال نكره وانكره واستنكره واعلم ان الاضياف انما امتنعوا من الطعام لانهم ملائكة والملائكة لايأكلون ولايشربون وانما أتوه فى صورة الاضياف ليكونوا على صفة يحبها وهو كان مشغوفا بالضيافة واما ابراهيم عليه السلام فنقول اما ان يقال انه عليه السلام ماكان يعلم انهم ملائكة بل كان يعتقد فيهم انهم من البشر او يقال انه كان عالما بأنهم من الملائكة اما على الاحتمال الاول فسبب خوفه امران (احدهما) انه كان ينزل فى طرف من الارض بعيد من الناس فلما امتنعوا من الاكل خاف ان يريدوا به مكروها (وثانيها) ان من

مالايخفى من التفخيم والتهويل اوورد امرنا بالعذاب (نجينا هودا والذين امنوا معه) وكانوا اربعة الاف (برحمة) عظيمة كائنة له (منا) وهى الايمان الذى انعمنا (١٠٧) به عليهم بالتوفيق له والهداية اليه (ونجيناهم من عذاب غليظ) اى كانت تلك التنجية تنجية من عذاب غليظ وهى السموم التى كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أدبارهم فتقطعهم اربا اربا وقيل أريد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة ولاعذاب أغلظ منه واشد وهذه التنجية وان لم تكن مقيدة بمجئ الامر لكن جئ بها تكملة للنعمة عليهم وتعريضا بأن المهلكين كما عذبوا فى الدنيا بالسموم فهم معذبون فى الآخرة بالعذاب الغليظ (وتلك عاد) أنث اسم الاشارة باعتبار القبيلة اولان الاشارة الى قبورهم وآثارهم (جحدوا بآيات ربهم) كفروا بها بعدما استيقنوها (وعصوا رسله) جمع الرسل مع انه لم يرسل اليهم غير هود عليه الصلاة والسلام تفظيعا لحالهم واظهارا لكمال كفرهم وعنادهم ببيان ان عصيانهم له عليه الصلاة والسلام عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد لانفرق بين احد من رسله فيجوز ان يراد بالآيات ماأتى به هود وغيره من الانبياء عليهم السلام وفيه زيادة ملاءمة لما تقدم من جميع الآيات وماتأخر من قوله (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) من كبرائهم ورؤسائهم الدعاة الى الضلال والى تكذيب الرسل فكأنه قيل عصوا كل رسول واتبعوا أمر كل جبار وهذا الوصف ليس كما سبق من جحود الآيات وعصيان الرسل فى الشمول لكل فرد فرد منهم لان الاتباع للامر من اوصاف الاسافل دون الرؤساء وعنيد فعيل من عند عندا وعنودا اذا طغا والمعنى عصوا من دعاهم الى الهدى واطاعوا من دعاهم الى الردى (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة) ابعادا عن الرحمة وعن كل خير اى جعلت اللعنة لازمة لهم وعبر عن ذلك بالتبعية للمبالغة فكأنها لاتفارقهم وان ذهبوا كل مذهب بل تدور معهم حيثما داروا ولوقوعه فى صحبة اتباعهم رؤساءهم يعنى انهم

لما اتبعوهم أتبعوا ذلك جزاء لصنيعهم جزاء وفاقا ( ويوم القيامة ) اى أتبعوا يوم القيامة ايضا لعنة وهى عذاب النار المخلد حذفت لدلالة الاولى عليها وللايذان بكون كل من اللعنتين نوعا برأسه ( ١٠٨ ) لم تجمعا فى قرن واحد بأن يقال وأتبعوا فى هذه الدنيا ويوم القيامة لعنة كما فى قوله تعالى واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ايذانا باختلاف نوعى الحسنتين فان المراد بالحسنة الدنيوية نحو الصحة والكفاف والتوفيق للخير وبالحسنة الاخروية الثواب والرحمة ( الا ان عادا كفروا ربهم ) اى بربهم اونعمة ربهم جلاله على نقيضه الذى هو الشكر اوجحدوه ( ألا بعدا لعاد ) دعاء عليهم بالهلاك مع كونهم هالكين اى هلاك تسجيلا عليهم باستحقاق الهلاك واستيجاب الدمار وتكرير حرف التنبيه واعادة عاد للمبالغة فى تفظيع حالهم والحث على الاعتبار بقصتهم ( قوم هود ) عطف بيان لعاد فائدته التمييز عن عاد الثانية عاد ارم والايماء الى ان استحقاقهم للبعد بسبب ماجرى بينهم وبين هود عليه الصلاة والسلام وهم قومه ( والى ثمود اخاهم صالحا ) عطف على ماسبق من قوله تعالى والى عاد اخاهم هودا وثمود قبيلة من العرب سموا بأسم أبيهم الاكبر ثمود بن عابر بن ارم بن سام وقيل انما سموا بذلك لقلة مائهم من الثمد وهو الماء القليل وصالح عليه الصلاة والسلام هو ابن عبيد بن اسف بن ماشح بن عبيد بن حادر بن ثمود ولما كان الاخبار بارساله اليهم مظنة لان يسئل ويقال ماذا قال لهم قيل جوابا عنه بطريق الاستئناف ( قال ياقوم اعبدوا الله ) اى وحده وعلل ذلك بقوله ( مالكم من اله غيره ) ثم زيد فيما يبعثهم على الايمان والتوحيد ويحثهم على زيادة الاخلاص فيه بقوله ( هو أنشأكم من الارض ) اى هو كونكم وخلقكم منها لاغيره قصر قلب اوقصر افراد فان خلق آدم عليه الصلاة والسلام منها خلق لجميع افراد البشر منها لما مر مرارا ( يعذبهم )
من ان خلقته عليه الصلاة والسلام لم تكن مقصورة على نفسه بل كانت نموذجا منطويا على خلق جميع ذرياته التى ستوجد

لايعرف اذا حضر وقدم اليه طعام فان اكل حصل الامن وان لم يأكل حصل الخوف واما الاحتمال الثانى وهو انه عرف انهم ملائكة الله تعالى فسبب خوفه على هذا التقدير ايضا امران ( احدهما ) انه خاف ان يكون نزولهم لامر انكره الله تعالى عليه (والثانى) انه خاف ان يكون نزولهم لتعذيب قومه * فان قيل فأى هذين الاحتمالين اقرب واظهر قلنا اما الذى يقول انه ماعرف انهم ملائكة الله تعالى فله ان يحتج بأمور (احدها) انه تسارع الى احضار الطعام ولو عرف كونهم من الملائكة لما فعل ذلك ( وثانيها ) انه لما رآهم ممتنعين من الاكل خافهم ولو عرف كونهم من الملائكة لما استدل بترك الاكل على حصول الشر (وثالثها) انه رآهم فى اول الامر فى صورة البشر وذلك لايدل على كونهم من الملائكة واما الذى يقول انه عرف ذلك احتج بقوله لاتخف انا ارسلنا الى قوم لوط وانما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف بأى سبب ارسلوا * ثم بين تعالى ان الملائكة ازالوا ذلك الخوف عنه فقالوا لاتخف انا ارسلنا الى قوم لوط ومعناه ارسلنا بالعذاب الى قوم لوط لانه اضمر لقيام الدليل عليه فى سورة اخرى وهو قوله انا ارسلنا الى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة * ثم قال تعالى وامرأته قائمة يعنى سارة بنت آزر بن باحورا بنت عم ابراهيم عليه السلام وقوله قائمة قيل كانت قائمة من وراء الستر تستمع الى الرسل لانها ربما خافت ايضا وقيل كانت قائمة تخدم الاضياف وابراهيم عليه السلام جالس معهم ويؤكد هذا التأويل قراءة ابن مسعود وامرأته قائمة وهو قاعد * ثم قال تعالى فضحكت فبشرناها باسحق واختلفوا فى الضحك على قولين منهم من حمله على نفس الضحك ومنهم من حمل هذا اللفظ على معنى آخر سوى الضحك اما الذين حملوه على نفس الضحك فاختلفوا فى انها لم ضحكت وذكروا وجوها (الاول) قال القاضى ان ذلك السبب لابد وان يكون سببا جرى ذكره فى هذه الآية وماذاك الا انها فرحت بزوال ذلك الخوف عن ابراهيم عليه السلام حيث قالت الملائكة لاتخف انا ارسلنا الى قوم لوط وعظم سرورها بسبب سروره بزوال خوفه وفى مثل هذه الحالة قد يضحك الانسان وبالجملة فقد كان ضحكها بسبب قول الملائكة لابراهيم عليه السلام لاتخف فكان كالبشارة فقيل لها نجعل هذه البشارة بشارتين فكما حصلت البشارة بزوال الخوف فقد حصلت البشارة ايضا بحصول الولد الذى كنتم تطلبونه من اول العمر الى هذا الوقت وهذا تأويل فى غاية الحسن (الثانى) يحتمل انها كانت عظيمة الانكار على قوم لوط لما كانوا عليه من الكفر والعمل الخبيث فلما اظهروا انهم جاؤا لاهلاكهم لحقها السرور فضحكت (الثالث) قال السدى قال ابراهيم عليه السلام لهم الا تأكلون قالوا لانأكل طعاما الا بالثمن فقال ثمنه ان تذكروا اسم الله تعالى على اوله وتحمدوه على آخره فقال جبريل لميكائيل عليهما السلام حق لمثل هذا الرجل ان يتخذه ربه خليلا فضحكت امرأته فرحا منها بهذا الكلام (الرابع) ان سارة قالت لابراهيم عليه السلام ارسل الى ابن اخيك وضمه الى نفسك فان الله تعالى لايترك قومه حتى

يعذبهم فعند تمام هذا الكلام دخل الملائكة على ابراهيم عليه السلام فلما أخبروه بأنهم انما جاؤا لاهلاك قوم لوط صار قولهم موافقا لقولها فضحكت لشدة سرورها بحصول الموافقة بين كلامها وبين كلام الملائكة (الخامس) ان الملائكة لما اخبروا ابراهيم عليه السلام انهم من الملائكة لا من البشر وانهم انما جاؤا لاهلاك قوم لوط طلب ابراهيم عليه السلام منهم معجزة دالة على انهم من الملائكة فدعوا ربهم باحياء العجل المشوى فطفر ذلك العجل المشوى من الموضع الذى كان موضوعا فيه الى مرعاه وكانت امرأة ابراهيم عليه السلام قائمة فضحكت لما رأت ذلك العجل المشوى قد طفر من موضعه (السادس) انها ضحكت تعجبا من ان قوما أتاهم العذاب وهم فى غفلة (السابع) لا يبعد ان يقال انهم بشروها بحصول مطلق الولد فضحكت اما على سبيل التعجب فانه يقال انها كانت فى ذلك الوقت بنت بضع وتسعين سنة وابراهيم عليه السلام ابن مائة سنة واما على سبيل السرور ثم لما ضحكت بشرها الله تعالى بأن ذلك الولد هو اسحق ومن وراء اسحق يعقوب (الثامن) انها ضحكت بسبب انها تعجبت من خوف ابراهيم عليه السلام من ثلاث انفس حال ما كان معه حشمه وخدمه (التاسع) ان هذا على التقديم والتأخير والتقدير وامرأته قائمة فبشرناها باسحق فضحكت سرورا بسبب تلك البشارة فقدم الضحك ومعناه التأخير (الثانى) هو ان يكون معنى فضحكت حاضت وهو منقول عن مجاهد وعكرمة قالا ضحكت اى حاضت عند فرحها بالسلامة من الخوف فلما ظهر حيضها بشرت بحصول الولد وانكر الفراء وابو عبيدة ان يكون ضحكت بمعنى حاضت قال ابو بكر الانبارى هذه اللغة ان لم يعرفها هؤلاء فقد عرفها غيرهم حكى الليث فى هذه الآية فضحكت طمثت وحكى الازهرى عن بعضهم ان اصله من ضحاك الطلعة يقال ضحكت الطلعة اذا انشقت واعلم ان هذه الوجوه كلها زوائد وانما الوجه الصحيح هو الاول ثم قال تعالى ومن وراء اسحق يعقوب وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب بالنصب والباقون بالرفع اما وجه النصب فهو ان يكون التقدير بشرناها باسحق ومن وراء اسحق وهبنا لها يعقوب واما وجه الرفع فهو ان يكون التقدير ومن وراء اسحق يعقوب مولود او موجود (المسئلة الثانية) فى لفظ وراء قولان (الاول) وهو قول الاكثرين ان معناه بعد اى بعد اسحق يعقوب وهذا هو الوجه الظاهر (والثانى) ان الوراء ولد الولد عن الشعبى انه قيل له هذا ابنك فقال نعم من الوراء وكان ولد ولده وهذا الوجه عندى شديد التعسف واللفظ كأنه ينبو عنه * قوله تعالى (قالت ياويلتى أألد وانا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشئ عجيب قالوا أتعجبين من امر الله رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت انه حميد مجيد) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الفراء اصل الويل وى وهو الخزى ويقال وى لفلان اى خزى له فقوله ويلك اى خزى لك وقال سيبويه ويح زجر لمن اشرف على الهلاك وويل لمن وقع فيه قال الخليل ولم اسمع

الى يوم القيامة انطواء اجماليا وقيل ان خلق آدم عليه الصلاة والسلام وانشاء مواد النطف التى منها خلق نسله من التراب انشاء لجميع الخلق من الارض فتدبر (واستعمركم) من العمر (١٠٩) اى عمركم واستبقاكم (فيها) او من العمارة اى اقدركم على عمارتها اوامركم بها وقيل هو من العمرى بمعنى اعمركم فيها دياركم ويرثها منكم بعد انصرام اعماركم اوجعلكم معمرين دياركم تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها لغيركم (فاستغفروه ثم توبوا اليه) فان ما فصل من فنون الاحسان داع الى الاستغفار عما وقع منهم من التفريط والتوبة عما كانوا يباشرونه من القبائح وقد زيد فى بيان ما يوجب ذلك فقيل (ان ربى قريب) اى قريب الرحمة كقوله تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين (مجيب) لمن دعاه وسأله وقد روعى فى النظم الكريم نكتة حيث قدم ذكر العلة الباعثة المتقدمة على الامر بالاستغفار والتوبة واخر عنه ذكر الغائية المتأخرة عنهما فى الوجود اعنى الاجابة (قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا) اى كنا نرجو منك لما كنا نرى منك من دلائل السداد ومخايل الرشاد ان تكون لنا سيدا او مستشارا فى الامور وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فاضلا خيرا نقدمك على جميعنا وقيل كنا نرجو ان تدخل فى ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه (قبل هذا) الذى باشرته من الدعوة الى التوحيد وترك عبادة الآلهة او قبل هذا الوقت فكأنهم لم يكونوا الى الآن على يأس من ذلك ولو بعد الدعوة الى الحق فالآن قد انصرم عنك رجاؤنا وقرأ طلحة مرجوأ بالمد والهمزة (أتنهانا ان نعبد ما يعبد آباؤنا) اى عبدوه والعدول الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية (واننا لفى شك مما تدعونا اليه) من التوحيد وترك عبادة الاوثان وغير ذلك من الاستغفار والتوبة (مريب) اى موقع فى الريبة من ارابه اى اوقعه فى الريبة اى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة او من اراب اذا كان ذا ريبة وايا ما كان فالاسناد مجازى والتنوين فيه وفى شك للتفخيم (قال ياقوم أرأيتم) اى اخبرونى (ان كنت)

في الحقيقة (على بينة) اى حجة ظاهرة وبرهان وبصيرة (من ربي) مالكي ومتولي امري (وآتاني منه) من جهته (رحمة) نبوة وهذه الامور وان كانت محققة الوقوع لكنها صدرت بكلمة الشك اعتبار الحال (١١٠) المخاطبين ورعاية لحسن المحاورة لاستنزالهم عن المكابرة (فمن ينصرني من الله) اى يجيني من عذابه والعدول الى الاظهار لزيادة التهويل والفاء لترتيب انكار النصرة على ماسبق من ايتاء النبوة وكونه على بينة من ربه على تقدير العصيان حسبما يعرب عنه قوله تعالى (ان عصيته) اى بالمساهلة في تبليغ الرسالة والمجاراة معكم فيما تأتون وتذرون فان العصيان ممن ذلك شأنه أبعد والمؤاخذة عليه الزم وانكار نصرته ادخل (فما تزيدونني) اذن باستتباعكم اياي كما ينبئ عنه قولهم قد كنت فينا مرجوا قبل هذا اى لا تفيدونني اذ لم يكن فيه اصل الخسران حتى يزيدوه (غير تخسير) اى غير ان تجعلوني خاسرا بابطال اعمالي وتعريضي لسخط الله تعالى او فما تزيدونني بما تقولون غير ان انسبكم الى الخسران واقول لكم انكم لخاسرون فالزيادة على معناه والفاء لترتيب عدم الزيادة على انتفاء الناصر المفهوم من انكاره على تقدير العصيان مع تحقق ماينفيه من كونه عليه الصلاة والسلام على بينة من ربه وايتائه النبوة (وياقوم هذه ناقة الله) الاضافة للتشريف والتنبيه على انها مفارقة لسائر ما يجانسها من حيث الخلقة ومن حيث الخلق (لكم آية) معجزة دالة على صدق نبوتي وهي حال من ناقة الله والعامل مافي هذه من معنى الفعل ولكم حال من آية متقدمة عليها لكونها نكرة ولو تأخرت لكانت صفة لها ويجوز ان يكون ناقة الله بدلا من هذه او عطف بيان ولكم خبرا وعاملا في آية (فذروها) خلوها وشأنها (تأكل في ارض الله) ترع نباتها وتشرب ماءها واضافة الارض الى الله تعالى لتربية استحقاقها لذلك وتعليل الامر بتركها وشأنها (ولا تمسوها بسوء) بولغ (من) في النهي عن التعرض لها بما يضرها حيث نهى عن المس الذي هو من مبادي الاصابة وذكر السوء اى لا تضربوها ولا تطردوها

على بنائه الاويح وويس وويك وويه وهذه الكلمات متقاربة في المعنى واما قوله ياويلتا فمنهم من قال هذه الالف الف الندبة وقال صاحب الكشاف الالف في ويلتا مبدلة من ياء الاضافة في ياويلتي وكذلك في يالهفا ويا عجبا ثم ابدل من الياء والكسرة الالف والفتحة لان الفتح والالف اخف من الياء والكسرة اما قوله أألد وانا عجوز وهذا بعلي شيخا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو آلد بهمزة ومدة والباقون بهمزتين بلا مد (المسئلة الثانية) لقائل ان يقول انها تعجبت من قدرة الله تعالى والتعجب من قدرة الله تعالى يوجب الكفر بيان المقدمة الاولى من ثلاثة اوجه (اولها) قوله تعالى حكاية عنها في معرض التعجب أألد وانا عجوز (وثانيها) قوله ان هذا لشيء عجيب (وثالثها) قول الملائكة لها أتعجبين من امر الله واما بيان ان التعجب من قدرة الله تعالى يوجب الكفر فلان هذا التعجب يدل على جهلها بقدرة الله تعالى وذلك يوجب الكفر (والجواب) انها انما تعجبت بحسب العرف والعادة لا بحسب القدرة فان الرجل المسلم لو اخبره مخبر صادق بأن الله تعالى يقلب هذا الجبل ذهبا ابريزا فلا شك انه يتعجب نظرا الى احوال العادة لا لاجل انه استنكر قدرة الله تعالى على ذلك (المسئلة الثالثة) قوله وهذا بعلي شيخا فاعلم ان شيخا منصوب على الحال قال الواحدي رحمه الله وهذا من لطائف النحو وغامضه فان كلمة هذا للاشارة فكأن قوله وهذا بعلي شيخا قائم مقام ان يقال اشير الى بعلي حال كونه شيخا والمقصود تعريف هذه الحالة المخصوصة وهي الشيخوخة (المسئلة الرابعة) قرأ بعضهم وهذا بعلي شيخ على انه خبر مبتدأ محذوف اى هذا بعلي وهو شيخ او بعلي بدل من المبتدأ وشيخ خبر او يكونان معا خبرين ثم حكى تعالى ان الملائكة قالوا أتعجبين من امر الله والمعنى انهم تعجبوا من تعجبها ثم قالوا رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت والمقصود من هذا الكلام ذكر مايزيل ذلك التعجب وتقديره ان رحمة الله عليكم متكاثرة وبركاته لديكم متوالية متعاقبة وهي النبوة والمعجزات القاهرة والتوفيق للخيرات العظيمة فاذا رأيت ان الله خرق العادات في تخصيصكم بهذه الكرامات العالية الرفيعة وفي اظهار خوارق العادات واحداث البينات والمعجزات فكيف يليق به التعجب واما قوله اهل البيت فانه مدح لهم فهو نصب على النداء او على الاختصاص ثم أكدوا ذلك بقولهم انه حميد مجيد والحميد هو المحمود وهو الذي تحمد افعاله والمجيد الماجد وهو ذو الشرف والكرم ومن محامد الافعال ايصال العبد المطيع الى مراده ومطلوبه ومن انواع الفضل والكرم ان لا يمنع الطالب عن مطلوبه فاذا كان من المعلوم انه تعالى قادر على الكل وانه حميد مجيد فكيف يبقى هذا التعجب في نفس الامر فثبت ان المقصود من ذكر هذه الكلمات ازالة التعجب * قوله تعالى (فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ان ابراهيم لحليم أواه منيب) اعلم ان هذا هو القصة الخامسة وهي قصة لوط عليه السلام واعلم ان الروع هو الخوف وهو ماأوجس

من الخيفة حين أنكر أضيافه والمعنى انه لما زال الخوف وحصل السرور بسبب مجئ البشرى بحصول الولد اخذ يجادلنا فى قوم لوط وجواب لما هو قوله اخذ الا انه حذف فى اللفظ لدلالة الكلام عليه وقيل تقديره لما ذهب عن ابراهيم الروع جادلنا واعلم ان قوله يجادلنا اى يجادل رسلنا فان قيل هذه المجادلة ان كانت مع الله تعالى فهى جراءة على الله والجراءة على الله تعالى من اعظم الذنوب ولان المقصود من هذه المجادلة ازالة ذلك الحكم وذلك يدل على انه ما كان راضيا بقضاء الله تعالى وانه كفر وان كانت هذه المجادلة مع الملائكة فهى ايضا عجيبة لان المقصود من هذه المجادلة ان يتركوا اهلاك قوم لوط فان كان قد اعتقد فيهم انهم من تلقاء انفسهم يجادلون فى هذا الاهلاك فهذا سوء ظن بهم وان اعتقد فيهم انهم بأمر الله جاؤا فهذه المجادلة تقتضى انه كان يطلب منهم مخالفة امر الله تعالى وهذا منكر (والجواب) من وجهين (الاول) وهو الجواب الاجمالى انه تعالى مدحه عقيب هذه الآية فقال ان ابراهيم لحليم أواه منيب ولو كان هذا الجدل من الذنوب لما ذكر عقيبه ما يدل على المدح العظيم ( الوجه الثانى ) وهو الجواب التفصيلى ان المراد من هذه المجادلة سعى ابراهيم فى تأخير العذاب عنهم وتقريره من وجوه (الاول) ان الملائكة قالوا انا مهلكوا اهل هذه القرية فقال ابراهيم أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا قال أرأيتم ان كان فيها رجل مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا وقد ذكر الله تعالى هذا فى سورة العنكبوت فقال ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكوا اهل هذه القرية ان اهلها كانوا ظالمين قال ان فيها لوطا قالوا نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله الا امرأته كانت من الغابرين ثم قال ولما ان جاءت رسلنا لوطا سئ بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن انا منجوك واهلك الا امرأتك فبان بهذا ان مجادلة ابراهيم عليه السلام انما كانت فى قوم لوط بسبب مقام لوط فيما بينهم (الثانى) يحتمل ان يقال انه عليه السلام كان يميل الى ان تلحقهم رحمة الله بتأخير العذاب عنهم رجاء انهم ربما اقدموا على الايمان والتوبة عن المعاصى وربما وقعت تلك المجادلات بسبب ان ابراهيم كان يقول ان امر الله ورد بايصال العذاب ومطلق الامر لا يوجب الفور بل يقبل التراخى فاصبروا مدة أخرى والملائكة كانوا يقولون ان مطلق الامر يقبل الفور وقد حصلت هناك قرائن دالة على الفور ثم اخذ كل واحد منهم يقرر مذهبه بالوجوه المعلومة فحصلت المجادلة بهذا السبب وهذا الوجه عندى هو المعتمد ( الوجه الثالث ) فى الجواب لعل ابراهيم عليه السلام سأل عن لفظ ذلك الامر وكان ذلك الامر مشروطا بشرط فاختلفوا فى ان ذلك الشرط هل حصل فى ذلك القوم أم لا فحصلت المجادلة بسببه وبالجملة نرى العلماء فى زماننا يجادل بعضهم بعضا عند التمسك بالنصوص وذلك لا يوجب القدح فى واحد منها فكذا ههنا ثم قال تعالى ان ابراهيم لحليم أواه منيب وهذا مدح عظيم

ولا تقربوها بشئ من السوء فضلا عن عقرها وقتلها ( فيأخذكم عذاب قريب ) اى قريب النزول روى انهم طلبوا منه ان يخرج من صخرة تسمى الكاثبة ناقة عشراء مخترجة جوفاء وبراء وقالوا ان فعلت ( ١١١ ) ذلك صدقناك فأخذ صالح عليه الصلاة والسلام عليهم مواثيقهم لئن فعلت ذلك لنؤمنن فقالوا نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء كما وصفوا وهم ينظرون ثم أنتجت ولدا مثلها فى العظم فآمن به جندع بن عمرو فى جماعة ومنع الباقين من الايمان دواب بن عمرو والحباب صاحب اوثانهم ورباب كاهنهم فكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد الماء غبا فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها ثم تتفحج فيحلبون ما شاؤا حتى تمتلئ اوانيهم فيشربون ويدخرون وكانت تصيف بظهر الوادى فتهرب منها انعامهم الى بطنه وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم الى ظهره فشق عليهم ذلك ( فعقروها ) قيل زينت عقرها لهم عنيزة ام غنم وصدقة بنت المختار فعقروها واقتسموا لحمها فرقى سقبها جبلا اسمه قارة فرغا ثلاثا فقال صالح لهم ادركوا الفصيل عسى ان يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه وانفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها ( فقال ) لهم صالح ( تمتعوا ) اى عيشوا ( فى داركم ) اى فى منازلكم او فى الدنيا ( ثلاثة ايام ) قيل قال لهم تصبح وجوهكم غدا مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب ( ذلك ) اشارة الى ما يدل عليه الامر بالتمتع ثلاثة ايام من نزول العذاب عقيبها والمراد بما فيه من معنى البعد تفخيمه ( وعد غير مكذوب ) اى غير مكذوب فيه فحذف الجار للاتساع المشهور كقوله

* ويوم شهدناه سليما وعامرا *

او غير مكذوب كأن الواعد قال له افى بك فان وفى به صدقه والا كذبه او وعد غير كذب على انه مصدر كالمجلود والمعقول ( فلما جاء امرنا ) اى عذابنا او امرنا بنزوله وفيه ما لا يخفى من التهويل ( نجينا صالحا والذين آمنوا معه ) متعلق بنجينا او بآمنوا ( برحمة ) بسبب رحمة عظيمة ( منا ) وهى بالنسبة الى صالح النبوة والى المؤمنين الايمان كما مر او ملتبسين

برحمة ورأفة منا (ومن خزى يومئذ) اى ونجيناهم من خزى يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة كقوله تعالى ونجيناهم من عذاب غليظ على معنى انه كانت تلك التنجية تنجية من خزى يومئذ اى من ذلته ( ١١٢ ) ومهانته اوذلهم وفضيحتهم يوم القيامة كما فسر به العذاب الغليظ فيما سبق فيكون المعنى ونجيناهم من عذاب يوم القيامة بعد تنجيتنا اياهم من عذاب الدنيا وعن نافع بالفتح على اكتساب المضاف البناء من المضاف اليه هنا وفى المعارج فى قوله تعالى من عذاب يومئذ وقرئ بالتنوين ونصب يومئذ (ان ربك) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم (هو القوى العزيز) القادر على كل شئ والغالب عليه لاغيره ولكون الاخبار بتنجية الاولياء لاسيما عند الانباء بحلول العذاب اهم ذكرها اولا ثم اخبر بهلاك الاعداء فقال (واخذ الذين ظلموا) عدل عن المضمر الى المظهر تسجيلا عليهم بالظلم واشعارا بعليته لنزول العذاب بهم (الصيحة) اى صيحة جبريل عليه الصلاة والسلام وقيل أتتهم من السماء صيحة فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شئ فى الارض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم وفى سورة الاعراف فاخذتهم الرجفة ولعلها وقعت عقيب الصيحة المستتبعة لتموج الهواء (فأصبحوا) اى صاروا (فى ديارهم) اى بلادهم اومساكنهم (جاثمين) خامدين موتى لايتحركون والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم من غير اضطراب وحركة كما يكون ذلك عند الموت المعتاد ولايخفى مافيه من الدلالة على شدة الاخذ وسرعته اللهم انا نعوذ بك من حلول غضبك قيل لما رأوا العلامات التى بينها صالح من اصفرار وجوههم واحمرارها واسودادها عمدوا الى قتله عليه الصلاة والسلام فنجاه الله تعالى الى ارض فلسطين ولما كان ضحوة اليوم الرابع وهو يوم السبت تحنطوا وتكفنوا بالانطاع فأتتهم الصيحة فتقطعت قلوبهم (ذراعا) فهلكوا (كأن لم يغنوا) اى كأنهم لم يقيموا (فيها) فى بلادهم اوفى مساكنهم وهو فى موقع الحال اى اصبحوا جاثمين مماثلين لمن لم يوجد

من الله تعالى لابراهيم اما الحليم فهو الذى لايتعجل بمكافأة غيره بل يتأنى فيه فيؤخر ويعفو ومن هذا حاله فانه يحب من غيره هذه الطريقة وهذا كالدلالة على ان جداله كان فى امر متعلق بالحلم وتأخير العقاب ثم ضم الى ذلك ماله تعلق بالحلم وهو قوله أواه منيب لان من يستعمل الحلم فى غيره فانه يتأوه اذا شاهد وصول الشدائد الى الغير فلما رأى مجئ الملائكة لاجل اهلاك قوم لوط عظم حزنه بسبب ذلك واخذ يتأوه عليه فلذلك وصفه الله تعالى بهذه الصفة ووصفه ايضا بأنه منيب لان من ظهرت فيه هذه الشفقة العظيمة على الغير فانه ينيب ويتوب ويرجع الى الله فى ازالة ذلك العذاب عنهم اويقال ان من كان لايرضى بوقوع غيره فى الشدائد فأن لايرضى بوقوع نفسه فيها كان أولى ولاطريق الى صون النفس عن الوقوع فى عذاب الله الا بالتوبة والانابة فوجب فيمن هذا شأنه ان يكون منيبا * قوله تعالى (يا ابراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء امر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود ولما جاءت رسلنا لوطا سئ بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب)

اعلم ان قوله يا ابراهيم اعرض عن هذا معناه ان الملائكة قالوا له اترك هذه المجادلة لانه قد جاء أمر ربك بايصال هذا العذاب اليهم واذا لاح وجه دلالة النص على هذا الحكم فلا سبيل الى دفعه فلذلك امروه بترك المجادلة ولماذكروا انه قد جاء امر ربك ولم يكن فى هذا اللفظ دلالة على ان هذا الامر بماذا جاء لاجرم بين الله تعالى انهم آتيهم عذاب غير مردود اى عذاب لاسبيل الى دفعه ورده ثم قال ولما جاءت رسلنا لوطا سئ بهم وضاق بهم ذرعا وهؤلاء الرسل هم الرسل الذين بشروا ابراهيم بالولد عليهم السلام قال ابن عباس رضى الله عنهما انطلقوا من عند ابراهيم الى لوط وبين القريتين اربع فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بنى آدم وكانوا فى غاية الحسن ولم يعرف لوط انهم ملائكة الله وذكروا فيه ستة اوجه (الاول) انه ظن انهم من الانس فخاف عليهم خبث قومه وان يعجزوا عن مقاومتهم (الثانى) ساءه مجيئهم لانه ما كان يجد ما ينفقه عليهم وما كان قادرا على القيام بحق ضيافتهم (الثالث) ساءه ذلك لان قومه منعوه من ادخال الضيف داره (الرابع) ساءه مجيئهم لانه عرف بالحذر انهم ملائكة وانهم انما جاؤا لاهلاك قومه والوجه الاول هو الاصح لدلالة قوله تعالى وجاءه قومه يهرعون اليه وبقى فى الآية الفاظ ثلاثة لابد من تفسيرها (اللفظ الاول) قوله سئ بهم ومعناه ساءه مجيئهم وساء يسوء فعل لازم مجاوز يقال سؤته فسئ مثل شغلته فشغل وسررته فسر قال الزجاج اصله سوئ بهم الا ان الواو سكنت ونقلت كسرتها الى السين (واللفظ الثانى) قوله وضاق بهم ذرعا قال الازهرى الذرع يوضع موضع الطاقة والاصل فيه البعير يذرع بيديه فى سيره ذرعا على قدر سعة خطوته فاذا حمل عليه اكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فضعف ومد عنقه فجعل ضيق الذرع عبارة عن قدر الوسع والطاقة فيقال مالى به ذرع ولاذراع اى مالى به طاقة والدليل على صحة ماقلناه انهم يجعلون الذراع فى موضع الذرع فيقولون ضقت بالامر

ذراعا ( واللفظ الثالث ) قوله هذا يوم عصيب اى يوم شديد وانما قيل للشديد عصيب لانه يعصب الانسان بالشر ❊ قوله تعالى ( وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيآت قال ياقوم هؤلاء بناتى هن اطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وانك لتعلم مانريد قال لوان لى بكم قوة اوآوى الى ركن شديد ) وفيه مسائل ( المسئلة الاولى ) انه لما دخلت الملائكة دار لوط عليه السلام مضت امرأته عجوز السوء فقالت لقومه دخل دارنا قوم مارأيت احسن وجوها ولا انظف ثيابا ولا اطيب رائحة منهم فجاء قومه يهرعون اليه اى يسرعون وبين تعالى ان اسراعهم ربما كان لطلب العمل الخبيث بقوله ومن قبل كانوا يعملون السيآت نقل ان القوم دخلوا دار لوط وارادوا ان يدخلوا البيت الذى كان فيه جبريل عليه السلام فوضع جبريل عليه السلام يده على الباب فلم يطيقوا فتحه حتى كسروه فمسح اعينهم بيده فعموا فقالوا يالوط قد ادخلت علينا السحرة واظهرت الفتنة ولاهل اللغة فى يهرعون قولان ( الاول ) ان هذا من باب ماجاءت صيغة الفاعل فيه على لفظ المفعول ولا يعرف له فاعل نحو اولع فلان فى الامر وارعد زيد وزهى عمرو من الزهو ( والقول الثانى ) انه لا يجوز ورود الفاعل على لفظ المفعول وهذه الافعال حذف فاعلوها فتأويل اولع زيد انه اولعه طبعه وارعد الرجل ارعده غضبه وزهى عمرو معناه جعله ماله زاهيا واهرع معناه اهرعه خوفه اوحرصه واختلفوا ايضا فقال بعضهم الاهراع هو الاسراع مع الرعدة وقال آخرون هو العدو الشديد اما قوله تعالى قال ياقوم هؤلاء بناتى هن اطهر لكم ففيه قولان قال قتادة المراد بناته لصلبه وقال مجاهد وسعيد بن جبير المراد نساء امته لانهن فى انفسهن بنات ولهن اضافة اليه بالمتابعة وقبول الدعوة قال اهل النحو يكفى فى حسن الاضافة ادنى سبب لانه كان نبيالهم فكان كالاب لهم قال تعالى وازواجه امهاتهم وهو اب لهم وهذا القول عندى هو المختار ويدل عليه وجوه ( الاول ) ان اقدام الانسان على عرض بناته على الاوباش والفجار امر متبعد لا يليق باهل المروأة فكيف باكابر الانبياء ( الثانى ) وهو انه قال هؤلاء بناتى هن اطهر لكم فبناته اللواتى من صلبه لا تكفى للجمع العظيم امانساء امته ففيهن كفاية للكل ( الثالث ) انه صحت الرواية انه كان له بنتان وهما زنتا وزعورا واطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز لما ثبت ان اقل الجمع ثلاثة فأما القائلون بالقول الاول فقد اتفقوا على انه عليه السلام مادعا القوم الى الزنا بالنسوان بل المراد انه دعاهم الى التزوج بهن وفيه قولان ( احدهما ) انه دعاهم الى التزوج بهن بشرط ان يقدموا الايمان ( والثانى ) انه كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر فى شريعته وهكذا كان فى اول الاسلام بدليل انه عليه السلام زوج ابنته زينب من ابى العاص بن الربيع وكان مشركا وزوج ابنته من عتبة بن ابى لهب ثم نسخ ذلك بقوله تعالى ولا تنكحوا المشركات

ولم يقم فى مقام قط ( الا ان ثمود ) وضع موضع الضمير لزيادة البيان ونونه ابوبكر هنا وفى النجم وقرأ حفص هنا فى الفرقان والعنكبوت بغير تنوين ( كفروا ربهم ) صرح بكفرهم ( ١١٣ ) مع كونه معلوما مماسبق من احوالهم تقبيحا لحالهم وتعليلا لاستحقاقهم بالدعاء عليهم بالبعد والهلاك فى قوله تعالى (الابعدا لثمود) وقرأ الكسائى بالتنوين (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم) وهم الملائكة عن ابن عباس رضى الله عنهما انهم جبريل وملكان وقيل هم جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن محمد بن كعب جبريل ومعه سبعة وعن السدى احد عشر على صور الغلمان الوضاء وجوههم وعن مقاتل كانوا اثنى عشر ملكا وانما اسند اليهم مطلق المجئ بالبشرى دون الارسال لانهم لم يكونوا مرسلين اليه عليه السلام بل الى قوم لوط لقوله تعالى انا ارسلنا الى قوم لوط وانما جاؤه لداعية البشرى ولما كان المقصود فى السورة الكريمة ذكر سوء صنيع الامم السالفة مع الرسل المرسلة اليهم ولحوق العذاب بهم بسبب ذلك ولم يكن جميع قوم ابراهيم عليه الصلاة والسلام ممن لحق بهم العذاب بل انما لحق بقوم لوط منهم خاصة غير الاسلوب المطرد فيماسبق من قوله تعالى والى عاد اخاهم هودا والى ثمود اخاهم صالحا ثم رجع اليه حيث قيل والى مدين اخاهم شعيبا (بالبشرى) اى ملتبسين بها قيل هى مطلق البشرى المنتظمة للبشارة بالولد من سارة لقوله تعالى فبشرناها باسحق الآية وقوله تعالى وبشرناه بغلام حليم وقوله بشروه بغلام عليم وللبشارة بعدم لحوق الضرر به لقوله تعالى فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى لظهور تفرع المجادلة على مجيئها كما سيأتى وقيل هى البشارة بهلاك قوم لوط ويأباه مجادلته عليه الصلاة والسلام فى شأنهم ( ١٥ ) (را) (خا) والاظهر انها البشارة بالولد وستعرف سر تفرع المجادلة على ذلك

ويجوز ان يكون نصبه بقالوا اى قالوا قولا ذا سلام اوذكروا سلاما ( قال سلام ) اى عليكم سلام او سلام عليكم حياهم باحسن من تحيتهم وقرى سلم كحرم فى حرام وقرأ ابن ابى عبلة قال سلاما وعنه انه ( ١١٤ ) قرأ بالرفع فيهما ( فالبث ) اى ابراهيم ( ان جاء بعجل ) اى فى المجئ به اوما لبث بمجيئه بعجل ( حنيذ ) اى مشوى بالرضف فى الاخدود وقيل سمين يقطر ودكه لقوله بعجل سمين من حنذت الفرس اذا عرقته بالجلال ( فلما رأى ايديهم لاتصل اليه ) لايمدون اليه ايديهم للاكل ( نكرهم ) اى انكرهم يقال نكره وانكره واستنكره بمعنى وانما انكرهم لانهم كانوا اذا نزل بهم ضيف ولم يأكل من طعامهم ظنوا انه لم يجئ بخير وقد روى انهم كانوا ينكتون بقداح كانت فى ايديهم فى اللحم ولاتصل اليه ايديهم وهذا الانكار منه عليه الصلاة راجع الى فعلهم المذكور واما انكاره المتعلق بأنفسهم فلا تعلق له برؤية عدم اكلهم وانما وقع ذلك عند رؤيته لهم لعدم كونهم من جنس ما كان يعهده من الناس الا يرى الى قوله تعالى فى سورة الذاريات سلام قوم منكرون ( واوجس منهم ) اى احس او اضمر من جهتهم ( خيفة ) لما ظن ان نزولهم لامر انكره الله تعالى عليه او لتعذيب قومه وانما اخر المفعول الصريح عن الظرف لان المراد الاخبار بأنه عليه الصلاة والسلام اوجس من جهتهم شيئا هو الخيفة لانه اوجس الخيفة من جهتهم لامن جهة غيرهم وتحقيقه ان تأخير ماحقه التقديم يوجب ترقب النفس اليه فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن ( قالوا لاتخف ) ماقالوه بمجرد مارأوا منه مخايل الخوف ازالة له منه بل بعد اظهاره عليه الصلاة والسلام له قال تعالى فى سورة الحجر قال انا منكم وجلون ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بذلك ( انا ارسلنا ) ظاهره انه استئناف فى معنى التعليل للنهى المذكور كان قوله تعالى انا نبشرك تعليل ( على ) لذلك فان ارسالهم الى قوم آخرين يوجب امنهم من الخوف اى ارسلنا بالعذاب ( الى قوم لوط ) خاصة الا انه ليس كذلك فان قوله

حتى يؤمن وبقوله ولاتنكحوا المشركين حتى يؤمنوا واختلفوا ايضا فقال الاكثرون كان له بنتان وعلى هذا التقدير ذكر الاثنين بلفظ الجمع كما فى قوله فان كان له اخوة فقد صغت قلوبكما وقيل انهن كن اكثر من اثنتين * اما قوله تعالى هن اطهر لكم ففيه مسئلتان ( المسئلة الاولى ) ظاهر قوله هن اطهر لكم يقتضى كون العمل الذى يطلبونه طاهرا ومعلوم انه فاسد ولانه لاطهارة فى نكاح الرجل بل هذا جار مجرى قولنا الله اكبر والمراد انه كبير ولقوله تعالى أذلك خير نزلا ام شجرة الزقوم ولاخير فيها ولما قال ابو سفيان اعل احد اواعل هبل قال النبى الله اعلى واجل ولامقاربة بين الله وبين الصنم ( المسئلة الثانية ) روى عن عبد الملك بن مروان والحسن وعيسى بن عمر انهم قرؤا هن اطهر لكم بالنصب على الحال كما ذكرنا فى قوله تعالى وهذا بعلى شيخا الان اكثر النحويين اتفقوا على انه خطأ قالوا لو قرئ هؤلاء بناتى هن اطهر كان هذا نظير قوله وهذا بعلى شيخا الان كلمة هن قد وقعت فى البين وذلك يمنع من جعل اطهر حالا وطولوا فيه * ثم قال فاتقوا الله ولاتخزون فى ضيفى وفيه مسائل ( المسئلة الاولى ) قرأ ابو عمرو ونافع ولاتخزونى باثبات الياء على الاصل والباقون بحذفها للتخفيف ودلالة الكسر عليه ( المسئلة الثانية ) فى لفظ لاتخزونى وجهان ( الاول ) قال ابن عباس رضى الله عنهما لاتفضحونى فى اضيافى يريد انهم اذا هجموا على اضيافه بالمكروه لحقته الفضيحة ( والثانى ) لاتخزونى فى ضيفى اى لاتخجلونى فيهم لان مضيف الضيف يلزمه الخجالة من كل فعل قبيح يوصل الى الضيف يقال خزى الرجل اذا استحيا ( المسئلة الثالثة ) الضيف ههنا قائم مقام الاضياف كما قام الطفل مقام الاطفال فى قوله تعالى او الطفل الذين لم يظهروا ويجوز ان يكون الضيف مصدرا فيستغنى عن جمعه كما يقال رجال صوم ثم قال أليس منكم رجل رشيد وفيه قولان ( الاول ) رشيد بمعنى مرشد اى يقول الحق ويرد هؤلاء الاوباش عن اضيافى ( والثانى ) رشيد بمعنى مرشد والمعنى أليس فيكم رجل ارشده الله تعالى الى الصلاح واسعده بالسداد والرشاد حتى يمنع عن هذا العمل القبيح والاول اولى ثم قال تعالى قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وفيه وجوه ( الاول ) مالنا فى بناتك من حاجة ولاشهوة والتقدير ان من احتاج الى شئ فكأنه حصل له فيه نوع حق فلهذا السبب جعل نفى الحق كناية عن نفى الحاجة ( الثانى ) ان نجرى اللفظ على ظاهره فنقول معناه انهن لسن لنا بازواج ولاحق لنا فيهن البتة ولايميل ايضا طبعنا اليهن فكيف قيامهن مقام العمل الذى نريده وهو اشارة الى العمل الخبيث ( الثالث ) مالنا فى بناتك من حق لانك دعوتنا الى نكاحهن بشرط الايمان ونحن لانجيبك الى ذلك فلا يكون لنا فيهن حق * ثم انه تعالى حكى عن لوط انه عند سماع هذا الكلام قال لو ان لى بكم قوة او آوى الى ركن شديد وفيه مسئلتان ( المسئلة الاولى ) جواب لو محذوف لدلالة الكلام عليه والتقدير لمنعتكم ولبالغت فى دفعكم ونظيره قوله تعالى ولو ان قرآنا سيرت به الجبال وقوله ولو ترى اذ وقفوا

تعالى قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين صريح فى انهم قالوه جوابا عن سؤاله عليه الصلاة والسلام وقد اوجز الكلام اكتفاء بذلك ( وامرأته قائمة ) وراء ( ١١٥ ) الستر بحيث تسمع محاورتهم اوعلى رؤسهم للخدمة حسبما هو

على النار قال الواحدى وحذف الجواب ههنا لان الوهم يذهب الى انواع كثيرة من المنع والدفع (المسئلة الثانية) لو ان لى بكم قوة اى لو ان لى ما أتقوى به عليكم وتسمية موجب القوة بالقوة جائز قال الله تعالى واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل والمراد السلاح وقال آخرون القدرة على دفعهم وقوله او آوى الى ركن شديد المراد منه الموضع الحصين المنيع تشبيها له بالركن الشديد من الجبل فان قيل ما الوجه ههنا فى عطف الفعل على الاسم قلنا قال صاحب الكشاف قرئ او آوى بالنصب باضمار ان كأنه قيل لو ان لى بكم قوة او آويا واعلم ان قوله لو ان لى بكم قوة او آوى الى ركن شديد لابد من حمل كل واحد من هذين الكلامين على فائدة مستقلة وفيه وجوه (الاول) المراد بقوله لو ان لى بكم قوة كونه بنفسه قادرا على الدفع وكونه متمكنا اما بنفسه واما بمعاونة غيره على قهرهم وتأديبهم والمراد بقوله او آوى الى ركن شديد هو ان لا يكون له قدرة على الدفع لكنه يقدر على التحصن بحصن ليأمن من شرهم بواسطته (الثالث) انه لما شاهد سفاهة القوم واقدامهم على سوء الادب تمنى حصول قوة قوية على الدفع ثم استدرك على نفسه وقال بل الاولى ان آوى الى ركن شديد وهو الاعتصام بعناية الله تعالى وعلى هذا التقدير فقوله او آوى الى ركن شديد كلام منفصل عما قبله ولا تعلق له به وبهذا الطريق لا يلزم عطف الفعل على الاسم ولذلك قال النبى عليه السلام رحم الله اخى لوطا كان يأوى الى ركن شديد ❊ قوله تعالى ( قالوا يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك فأسر باهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم احد الا امرأتك انه مصيبها ما اصابهم ان موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ) اعلم ان قوله تعالى مخبرا عن لوط عليه السلام انه قال لو ان لى بكم قوة او آوى الى ركن شديد يدل على انه كان فى غاية القلق والحزن بسبب اقدام اولئك الاوباش على ما يوجب الفضيحة فى حق اضيافه فلما رأت الملائكة تلك الحالة بشروه بانواع من البشارات (احدها) انهم رسل الله (وثانيها) ان الكفار لا يصلون الى ما هموا به ( وثالثها ) انه تعالى يهلكهم ( ورابعها ) انه تعالى ينجيه مع اهله من ذلك العذاب ( وخامسها ) ان ركنك شديد وان ناصرك هو الله تعالى فحصل له هذه البشارات وروى ان جبريل عليه السلام قال له ان قومك لن يصلوا اليك فافتح الباب فدخلوا فضرب جبريل عليه السلام بجناحه وجوههم فطمس اعينهم فأعماهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون الى بيوتهم وذلك قوله تعالى ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا اعينهم ومعنى قوله لن يصلوا اليك اى بسوء ومكروه فانا نحول بينهم وبين ذلك ثم قال فأسر بأهلك قرأ نافع وابن كثير فاسر موصولة والباقون بقطع الالف وهما لغتان يقال سريت بالليل واسريت وأنشد حسان * أسرت اليك ولم تكن تسرى * فجاء باللغتين فمن قرأ بقطع الالف فحجته قوله سبحانه وتعالى سبحان الذى اسرى بعبده ومن وصل فحجته قوله والليل اذا يسر والسرى السير فى الليل يقال سرى يسرى اذا سار بالليل واسرى بفلان

المعتاد والجملة حال من ضمير قالوا اى قالوه وهى قائمة تسمع مقالتهم ( فضحكت ) سرورا بزوال الخوف او بهلاك اهل الفساد اوبهما جميعا وقيل بوقوع الامر حسبما كانت تقول فيما سلف فانها كانت تقول لابراهيم اضمم اليك لوطا فانى ارى ان العذاب نازل بهؤلاء القوم وقيل ضحكت حاضت ومنه ضحكت الشجرة اذا اذا سال صمغها وهو بعيد وقرئ بفتح الحاء ( فبشرناها باسحق ) اى عقبنا سرورها بسرور اتم منه على السنة رسلنا ( ومن وراء اسحق يعقوب ) بالنصب على انه مفعول لما دل عليه قوله بشرناها اى ووهبنا لها من وراء اسحق يعقوب وقرئ بالرفع على الابتداء خبره الظرف اى من بعد اسحق يعقوب مولود او موجود وكلا الاسمين داخل فى البشارة كيحيى او واقع فى الحكاية بعد ان ولدا فسميا بذلك وتوجيه البشارة ههنا اليها مع ان الاصل فى ذلك ابراهيم عليه الصلاة والسلام وقد وجهت اليه حيث قيل وبشرناه بغلام حليم وبشروه بغلام عليم للايذان بأن ما بشر به يكون منهما ولكونها عقيمة حريصة على الولد (قالت) استئناف ورد جوابا عن سؤال من سأل وقال فما فعلت اذ ابشرت بذلك فقيل قالت ( ياويلتا ) اصل الويل الخزى ثم شاع فى كل امر فظيع والالف مبدلة من ياء الاضافة كما فى يالهفا ويا عجبا وقرأ الحسن على الاصل واما لها ابو عمرو وعاصم فى رواية ومعناه ياويلتى احضرى فهذا اوان حضورك وقيل هى الف الندبة ويوقف عليها بهاء السكت ( أألد وانا عجوز ) بنت تسعين او تسع وتسعين سنة ( وهذا ) الذى تشاهدونه (بعلى) اى زوجى واصل البعل القائم بالامر (شيخا) وكان ابن مائة وعشرين سنة ونصبه على الحال والعامل معنى الاشارة وقرئ بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف اى هو شيخ

اذا سير به بالليل والقطع من الليل بعضه وهو مثل القطعة يريد اخرجوا ليلا لتسبقوا نزول العذاب الذى موعده الصبح قال نافع بن الازرق لعبدالله بن عباس رضى الله عنهما اخبرنى عن قول الله بقطع من الليل قال هو آخر الليل سحر وقال قتادة بعد طائفة من الليل وقال آخرون هو نصف الليل فانه فى ذلك الوقت قطع بنصفين * ثم قال ولا يلتفت منكم احد نهى من معه عن الالتفات والالتفات نظر الانسان الى ماوراءه والظاهر ان المراد انه كان لهم فى البلدة اموال واقمشة واصدقاء فالملائكة امروهم بأن يخرجوا ويتركوا تلك الاشياء ولا يلتفتوا اليها البتة وكان المراد منه قطع تعلق القلب عن تلك الاشياء وقد يراد منه الانصراف ايضا كقوله تعالى قالوا أجئتنا لتلفتنا اى لتصرفنا وعلى هذا التقدير فالمراد من قوله ولا يلتفت منكم احد النهى عن التخلف * ثم قال الا امرأتك قرأ ابن كثير وابو عمرو الا امرأتك بالرفع والباقون بالنصب قال الواحدى من نصب وهو الاختيار فقد جعلها مستثناة من الاهل على معنى فأسر بأهلك الا امرأتك والذى يشهد بصحة هذه القراءة ان قراءة عبدالله فأسر بأهلك الا امرأتك فأسقط قوله ولا يلتفت منكم احد من هذا الموضع واما الذين رفعوا فالتقدير ولا يلتفت منكم احد الا امرأتك فان قيل فهذه القراءة توجب انها امرت بالالتفات لان القائل اذا قال لا يقم منكم احد الا زيد كان ذلك امرا لزيد بالقيام واجاب ابوبكر الانبارى عنه فقال معنى الا ههنا الاستثناء المنقطع على معنى لا يلتفت منكم احد لكن امرأتك تلتفت فيصيبها ما اصابهم واذا كان هذا الاستثناء منقطعا كان التفاتها معصية ويتأكد ماذكرنا بما روى عن قتادة انه قال انها كانت مع لوط حين خرج من القرية فلما سمعت هذا العذاب التفتت وقالت ياقوماه فأصابها حجر فأهلكها واعلم ان القراءة بالرفع اقوى لان القراءة بالنصب تمنع من خروجها مع اهله لكن على هذا التقدير الاستثناء يكون من الاهل كأنه امر لوطا بأن يخرج بأهله ويترك هذه المرأة فانها هالكة مع الهالكين واما القراءة بالنصب فانها اقوى من وجه آخر وذلك لان مع القراءة بالنصب يبقى الاستثناء متصلا ومع القراءة بالرفع يصير الاستثناء منقطعا * ثم بين الله تعالى انهم قالوا انه مصيبها ما اصابهم والمراد انه مصيبها ذلك العذاب الذى اصابهم ثم قالوا ان موعدهم الصبح روى انهم لما قالوا للوط عليه السلام ان موعدهم الصبح قال اريد اعجل من ذلك بل الساعة فقالوا أليس الصبح بقريب قال المفسرون ان لوطا عليه السلام لما سمع هذا الكلام خرج بأهله فى الليل ۞ قوله تعالى (فلما جاء امرنا جعلنا عاليها سافلها وامطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى الامر وجهان (الاول) ان المراد من هذا الامر ماهو ضد النهى ويدل عليه وجوه (الاول) ان لفظ الامر حقيقة فى هذا المعنى مجاز فى غيره دفعا للاشتراك (الثانى) ان الامر لا يمكن حمله ههنا على العذاب وذلك لانه تعالى قال فلما جاء امرنا جعلنا عاليها سافلها وهذا

---

اوخبر بعد خبر اوهو الخبر وبعلى بدل من اسم الاشارة اوبيان له وكلتا الجملتين وقعت حالا من الضمير فى أألد لتقرير مافيه من الاستبعاد وتعليله اى أألد وكلانا على حالة منافية لذلك وانما قدمت بيان حالها على ( ١١٦ ) بيان حاله عليه الصلاة والسلام لان مباينة حالها لما ذكر من الولادة اكثر اذ ربما يولد للشيوخ من الشواب اما العجائز داؤهن عقام ولان البشارة متوجهة اليها صريحا ولان العكس فى البيان ربما يوهم من اول الامر نسبة المانع من الولادة الى جانب ابراهيم عليه الصلاة والسلام وفيه مالا يخفى من المحذور واقتصارها لاستبعاد على ولادتها من غير تعرض لحال النافلة لانها المستبعد واما ولادة ولدها فلا يتعلق بها استبعاد (ان هذا) اى ماذكر من حصول الولد ممن هو مين مثلنا (لشئ عجيب) بالنسبة الى سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده وهذه الجملة لتعليل الاستبعاد بطريق الاستئناف التحقيقى ومقصدها استعظام نعمة الله تعالى عليها فى ضمن الاستعجاب العادى لا استبعاد ذلك بالنسبة الى قدرته سبحانه وتعالى (قالوا أتعجبين من امر الله) اى قدرته وحكمته او تكوينه او شأنه انكروا عليها تعجبها من ذلك لانها كانت ناشئة فى بيت النبوة ومهبط الوحى والآيات ومظهر المعجزات والامور الخارقة للعادات فكان حقها ان تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهى سائر النساء من امثال هذه الخوارق من الطاف الله تعالى الخفية ولطائف صنعه الفائضة على كل احد مما يتعلق بذلك مشيئته الازلية لاسيما على اهل بيت النبوة الذين ليست مراتبهم عندالله سبحانه كمراتب سائر الناس وان تسبح الله تعالى وتحمده وتمجده والى ذلك اشاروا بقوله تعالى (رحمة الله) التى وسعت كل شئ واستتبعت كل خير وانما وضع المظهر موضع المضمر لزيادة تشريفها (وبركاته) اى خيراته النامية المتكاثرة (الجعل) فى كل باب التى من جملتها هبة الاولاد وقيل الرحمة النبوة والبركات الاسباط من بنى اسرائيل لان الانبياء منهم وكلهم من ولد

الجعل هو العذاب فدلت هذه الآية على ان هذا الامر شرط و العذاب جزاء و الشرط غير الجزاء فهذا الامر غير العذاب وكل من قال بذلك قال انه هو الامر الذى هو ضد النهى (الثالث) انه تعالى قال قبل هذه الآية انا ارسلنا الى قوم لوط فدل هذا على انهم كانوا مأمورين من عند الله تعالى بالذهاب الى قوم لوط و بايصال هذا العذاب اليهم اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى امر جمعا من الملائكة بأن يخربوا تلك المدائن فى وقت معين فلما جاء ذلك الوقت اقدموا على ذلك العمل فكان قوله فلما جاء امرنا اشارة الى ذلك التكليف فان قيل لو كان الامر كذلك لوجب ان يقال فلما جاء امرنا جعلوا عاليها سافلها لان الفعل صدر عن ذلك المأمور قلنا هذا لا يلزم على مذهبنا لان فعل العبد فعل الله تعالى عندنا و ايضا ان الذى وقع منهم انما وقع بأمر الله تعالى و بقدرته فلم يبعد اضافته الى الله عز وجل لان الفعل كما تحسن اضافته الى المباشر فقد تحسن ايضا اضافته الى السبب (القول الثانى) ان يكون المراد من الامر ههنا قوله تعالى انما امرنا لشئ اذا اردناه ان نقول له كن فيكون وقد تقدم تفسير ذلك الامر (القول الثالث) ان يكون المراد من الامر العذاب وعلى هذا التقدير فيحتاج الى الاضمار و المعنى و لما جاء وقت عذابنا جعلنا عاليها سافلها (المسئلة الثانية) اعلم ان ذلك العذاب قد وصفه الله تعالى فى هذه الآية بنوعين من الوصف (فالاول) قوله جعلنا عاليها سافلها روى ان جبريل عليه السلام ادخل جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوط و قلعها و صعد بها الى السماء حتى سمع اهل السماء نهيق الحمير و نباح الكلاب و صياح الديوك ولم تنكفئ لهم جرة ولم ينكب لهم اناء ثم قلبها دفعة واحدة و ضربها على الارض واعلم ان هذا العمل كان معجزة قاهرة من وجهين (احدهما) ان قلع الارض و اصعادها الى قريب من السماء فعل خارق للعادات (والثانى) ان ضربها من ذلك البعد البعيد على الارض بحيث لم تتحرك سائر القرى المحيطة بها البتة و لم تتصل الآفة الى لوط عليه السلام و اهله مع قرب مكانهم من ذلك الموضع معجزة قاهرة ايضا (الثانى) قوله و امطرنا عليها حجارة من سجيل و اختلفوا فى السجيل على وجوه (الاول) انه فارسى معرب و اصله سنككل و انه شئ مركب من الحجر و الطين بشرط ان يكون فى غاية الصلابة قال الازهرى لما عربته العرب صار عربيا وقد عربت حروفا كثيرة كالديباج و الديوان و الاستبرق (الثانى) سجيل اى مثل السجل و هو الدلو العظيم (الثالث) سجيل اى شديد من الحجارة (الرابع) مرسلة عليهم من اسجلته اذا ارسلته وهو فعيل منه (الخامس) من اسجلته اى اعطيته تقديره مثل العطية فى الادرار وقيل كان كتب عليها اسامى المعذبين (السادس) و هو من السجل و هو الكتاب تقديره من مكتوب فى الازل اى كتب الله ان يعذبهم بها و السجيل اخذ من السجل و هو الدلو العظيمة لانه يتضمن احكاما كثيرة وقيل مأخوذ من المساجلة و هى المفاخرة (السابع) من سجيل اى من جهنم ابدلت النون لاما (الثامن) من السماء

ابراهيم عليه الصلاة والسلام (عليكم اهل البيت) نصب على المدح او الاختصاص لانهم اهل بيت خليل الرحمن وصرف الخطاب من صيغة الواحدة الى جمع المذكر لتعميم حكمه لابراهيم عليه (١١٧) الصلاة والسلام ايضا ليكون جوابهم لها جوابا له ايضا ان خطر بباله مثل ماخطر ببالها و الجملة كلام مستأنف علل به انكار تعجبها كأنه قيل ليس المقام مقام التعجب فان الله تعالى على كل شئ قدير ولستم يا اهل بيت النبوة والكرامة والزلفى كسائر الطوائف بل رحمته المستتبعة لكل خير الواسعة لكل شئ و بركاته اى خيراته النامية الفائضة منه بواسطة تلك الرحمة الواسعة لازمة لكم لاتفارقكم (انه حميد) فاعل ما يستوجب الحمد (مجيد) كثير الخير والاحسان الى عباده والجملة لتعليل ماسبق من قوله رحمة الله و بركاته عليكم (فلما ذهب عن ابراهيم الروع) اى ما اوجس منهم من الخيفة واطمأن قلبه بعرفانهم و عرفان سبب مجيئهم والفاء لربط بعض احوال ابراهيم عليه الصلاة والسلام ببعض غب انفصالها بما ليس باجنبى من كل وجه بل له مدخل تام فى السباق و السياق وتأخير الفاعل عن الظرف لانه مصب الفائدة فان بتأخير ماحقه التقديم تبقى النفس منتظرة الى وروده فيتمكن فيها عند وروده اليها فضل تمكن (وجاءته البشرى) ان فسرت البشرى بقولهم لاتخف فسببية ذهاب الخوف و مجئ السرور للمجادلة المدلول عليها بقوله تعالى (يجادلنا فى قوم لوط) اى جادل رسلنا فى شأنهم و عدل الى صيغة الاستقبال لاستحضار صورتها او طفق يجادلنا ظاهرة واما ان فسرت ببشارة الولد او بما يعمها فلعل سببيتها لها من حيث انها تفيد زيادة اطمئنان قلب بسلامته وسلامة اهله كافة و مجادلته

اياهم انه قال لهم حين قالوا له انا مهلكو اهل هذه القرية ارأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين اتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا قال ارأيتم ان كان فيها رجل مسلم اتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان

فيها لوطا قالوا نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله ان قيل المتبادر من هذا الكلام ان يكون ابراهيم عليه السلام قد علم انهم مرسلون لاهلاك
قوم لوط قبل ذهاب الروع عن نفسه ولكن لم يقدر ( ١١٨ ) على مجادلتهم فى شأنهم لاشتغاله بشأن نفسه فلما ذهب عنه الروع

الدنيا وتسمى سجيلا عن ابى زيد ( التاسع ) السجيل الطين لقوله تعالى حجارة من طين وهو قول عكرمة وقتادة قال الحسن كان اصل الحجر هو من الطين الا انه صلب بمرور الزمان ( العاشر ) سجيل موضع الحجارة وهى جبال مخصوصة ومنه قوله تعالى من جبال فيها من برد * واعلم انه تعالى وصف تلك الحجارة بصفات ( فالصفة الاولى ) كونها من سجيل وقد سبق ذكره ( الثانى ) قوله تعالى منضود قال الواحدى هو مفعول من النضد وهو وضع الشئ بعضه على بعض وفيه وجوه ( الاول ) ان تلك الحجارة كان بعضها فوق بعض فى النزول فأتى به على سبيل المبالغة ( والثانى ) ان كل حجر فان ما فيه من الاجزاء منضود بعضها ببعض وملتصق بعضها ببعض ( والثالث ) انه تعالى كان قد خلقها فى معادنها ونضد بعضها فوق بعض واعدها لاهلاك الظلمة واعلم ان قوله منضود صفة للسجيل ( الصفة الثالثة ) مسومة وهذه الصفة صفة للاحجار ومعناها المعلمة وقد مضى الكلام فيه فى تفسير قوله والخيل المسومة واختلفوا فى كيفية تلك العلامة على وجوه ( الاول ) قال الحسن والسدى كان عليها امثال الخواتيم ( الثانى ) قال ابن صالح رأيت منها عند ام هانئ حجارة فيها خطوط حمر على هيئة الجزع ( الثالث ) قال ابن جريج كان عليها سيما لا تشارك حجارة الارض وتدل على انه تعالى انما خلقها للعذاب ( الرابع ) قال الربيع مكتوب على كل حجر اسم من رمى به ثم قال تعالى عند ربك اى فى خزائنه التى لا يتصرف فيها احد الا هو ثم قال وما هى من الظالمين ببعيد يعنى به كفار مكة والمقصود انه تعالى يرميهم بها عن انس انه قال سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام عن هذا فقال يعنى عن ظالمى امتك ما من ظالم منهم الا وهو بمعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل الضمير فى قوله وما هى للقرى اى وما تلك القرى التى وقعت فيها هذه الواقعة من كفار مكة ببعيد وذلك لان تلك القرى كانت فى الشأم وهى قريب من مكة * قوله تعالى

( والى مدين اخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان انى اراكم بخير وانى اخاف عليكم عذاب يوم محيط وياقوم اوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا فى الارض مفسدين بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين وما انا عليكم بحفيظ )

اعلم ان هذا هو القصة السادسة من القصص المذكورة فى هذه السورة واعلم ان مدين اسم ابن لابراهيم عليه السلام ثم صار اسما للقبيلة وكثير من المفسرين يذهب الى ان مدين اسم مدينة بناها مدين بن ابراهيم عليه السلام والمعنى على هذا التقدير وارسلنا الى اهل مدين فحذف الاهل واعلم انا بينا ان الانبياء عليهم السلام يشرعون فى اول الامر بالدعوة الى التوحيد فلهذا قال شعيب عليه السلام مالكم من اله غيره ثم انهم بعد الدعوة الى التوحيد يشرعون فى الاهم ثم الاهم ولما كان المعتاد من اهل مدين البخس فى المكيال والميزان دعاهم الى ترك هذه العادة فقال ولا تنقصوا المكيال والميزان والنقص فيه على وجهين ( احدهما ) ان يكون

فرغ لها مع ان ذهاب الروع انما هو قبل العلم بذلك لقوله تعالى قالوا لا تخف انا ارسلنا الى قوم لوط قلنا كان لوط عليه السلام على شريعة ابراهيم عليه السلام وقومه مكلفين بها فلما رأى من الملائكة ما رأى خاف على نفسه وعلى كافة امته التى من جملتهم قوم لوط ولا ريب فى تقدم هذا الخوف على قولهم لا تخف واما الذى علمه عليه السلام بعد النهى عن الخوف فهو اختصاص قوم لوط بالهلاك لا دخولهم تحت العموم فتأمل والله الموفق ( ان ابراهيم لحليم ) غير عجول على الانتقام ممن اساء اليه ( اواه ) كثير التأوه على الذنوب والتأسف على الناس ( منيب ) راجع الى الله تعالى والمقصود بتعداد صفاته الجميلة المذكورة بيان ما حمله عليه السلام على ما صدر عنه من المجادلة ( ياابراهيم ) اى قالت الملائكة ياابراهيم ( اعرض عن هذا ) الجدال ( انه ) اى الشأن ( قد جاء امر ربك ) اى قدره الجارى على وفق قضائه الازلى الذى هو عبارة عن الارادة الازلية والعناية الالهية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص حسب تعلقها بالاشياء فى اوقاتها وهو المعبر عنه بالقدر ( وانهم آتيهم عذاب غير مردود ) لا بجدال ولا بدعاء ولا بغيرهما ( ولما جاءت رسلنا لوطا ) قال ابن عباس رضى الله عنهما انطلقوا من عند ابراهيم عليه السلام الى لوط عليه السلام وبين القريتين اربعة فراسخ ودخلوا عليه فى صور غلمان مرد
حسان الوجوه فلذلك ( سئ بهم ) اى ساءه مجيئهم لظنه انهم اناس فخاف ان يقصدهم قومه ويعجز عن مدافعتهم وقرأ نافع وابن عامر ( الايفاء )
والكسائى وابو عمرو سئ وسيئت باشمام السين الضم * روى ان الله تعالى قال للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط اربع

الايفاء من قبلهم فينقصون من قدره (والآخر) ان يكون لهم الاستيفاء فيأخذون أزيد من الواجب وذلك يوجب نقصان حق الغير وفي القسمين حصل النقصان في حق الغير ثم قال اني أراكم بخير وفيه وجهان (الاول) انه حذرهم من غلاء السعر وزوال النعمة ان لم يتوبوا فكأنه قال اتركوا هذا التطفيف والا أزال الله عنكم ماحصل عندكم من الخير والراحة (والثاني) ان يكون التقدير انه تعالى أتاكم بالخير الكثير والمال والرخص والسعة فلا حاجة بكم الى هذا التطفيف ثم قال واني أخاف عليكم عذاب يوم محيط وفيه ابحاث (البحث الاول) قال ابن عباس رضي الله عنهما أخاف اي اعلم حصول عذاب يوم محيط وقال آخرون بل المراد هو الخوف لانه يجوز ان يتركوا ذلك العمل خشية ان يحصل لهم العذاب ولما كان هذا التخويف قائما فالحاصل هو الظن لا العلم (البحث الثاني) انه تعالى توعدهم بعذاب يحيط بهم بحيث لايخرج منه احد والمحيط من صفة اليوم في الظاهر وفي المعنى من صفة العذاب وذلك مجاز مشهور كقوله هذا يوم عصيب (البحث الثالث) اختلفوا في المراد بهذا العذاب فقال بعضهم هو عذاب يوم القيامة لانه اليوم الذي نصب لاحاطة العذاب بالمعذبين وقال بعضهم بل يدخل فيه عذاب الدنيا والآخرة وقال بعضهم بل المراد منه عذاب الاستئصال في الدنيا كما في حق سائر الانبياء والاقرب دخول كل عذاب فيه واحاطة العذاب بهم كاحاطة الدائرة بما في داخلها فينالهم من كل وجه وذلك مبالغة في الوعيد كقوله واحيط بثمره ثم قال وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط فان قيل وقع التكرير في هذه الآية من ثلاثة أوجه لانه قال اولا لاتنقصوا المكيال والميزان ثم قال أوفوا المكيال والميزان وهذا عين الاول ثم قال ولاتبخسوا الناس اشياءهم وهذا عين ماتقدم فما الفائدة في هذا التكرير قلنا ان فيه وجوها (الاول) ان القوم كانوا مصرين على ذلك العمل فاحتيج في المنع منه الى المبالغة والتأكيد والتكرير يفيد التأكيد وشدة العناية والاهتمام (الوجه الثاني) ان قوله ولا تنقصوا المكيال والميزان نهى عن التنقيص وقوله أوفوا المكيال والميزان أمر بايفاء العدل والنهي عن ضد الشيء مغاير للامر به وليس لقائل ان يقول النهي عن ضد الشيء امر به فكان التكرير لازما من هذا الوجه لانا نقول الجواب من وجهين (الاول) انه تعالى جمع بين الامر بالشيء وبين النهي عن ضده للمبالغة كما تقول صل قرابتك ولاتقطعهم فيدل هذا الجمع على غاية التأكيد (الثاني) ان نقول لانسلم ان الامر كما ذكرتم لانه يجوز ان ينهى عن التنقيص وينهى ايضا عن أصل المعاملة فهو تعالى منع من التنقيص وامر بايفاء الحق ليدل ذلك على انه تعالى لم يمنع عن المعاملات ولم ينه عن المبايعات وانما منع من التطفيف وذلك لان طائفة من الناس يقولون ان المبايعات لاتنفك عن التطفيف ومنع الحقوق فكانت المبايعات محرمة بالكلية فلاجل ابطال هذا الخيال منع تعالى في الآية الاولى من التطفيف وفي الآية الاخرى امر بالايفاء

شهادات فلما مشى معهم منطلقا بهم الى منزله قال لهم اما بلغكم امر هذه القرية قالوا وما امرها قال اشهد بالله انها لشر قرية في الارض عملا يقول ذلك اربع مرات فدخلوا معه منزله ولم (١١٩) يعلم بذلك احد فخرجت امرأته فاخبرت به قومها وقالت ان في بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط (وضاق بهم ذرعا) اي ضاق بمكانهم صدره اوقلبه أو وسعه وطاقته وهو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه وقيل ضاقت نفسه عن هذا الحادث وذكر الذرع مثل وهو المساحة وكأنه قدر البدن مجازا أي ان بدنه ضاق قدره من احتمال ماوقع وقيل الذراع اسم للجارحة من المرفق الى الانامل والذرع مدها ومعنى ضيق الذرع في قوله تعالى ضاق بهم ذرعا قصرها كما أن معنى سعتها وبسطها طولها ووجه التمثيل بذلك ان القصير الذراع اذا مدها ليتناول ما يتناول الطويل الذراع تقاصر عنه وعجز عن تعاطيه فضرب مثلا للذى قصرت طاقته دون بلوغ الامر (وقال هذا يوم عصيب) شديد من عصبه اذا شده (وجاءه) اي لوطا وهو في بيته مع اضيافه (قومه يهرعون اليه) اي يسرعون كأنما يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من اضيافه والجملة حال من قومه وكذا قوله تعالى (ومن قبل) اي من قبل هذا الوقت (كانوا يعملون السيآت) اي جاؤا مسرعين والحال أنهم كانوا منهمكين في عمل السيآت فضروا بها وتمرنوا فيها حتى لم يبق عندهم قباحتها ولذلك لم يستحيوا مما فعلوا من مجيئهم مهرعين مجاهرين (قال ياقوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) فتزوجوهن وكانوا يطلبونهن من قبل ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لعدم مشروعيته فان تزويج المسلمات من الكفار كان جائزا وقد زوج النبي عليه الصلاة والسلام ابنتيه من عتبة بن ابي لهب وابي العاص بن الربيع قبل الوحي وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فأراد ان يزوجهما ابنتيه وايا ما كان فقد اراد به وقاية ضيفه وذلك غاية الكرم وقيل ما كان ذلك القول منه

مجرى على الحقيقة من ارادة النكاح بل كان ذلك مبالغة في التواضع لهم واظهارا لشدة امتعاضه مما اوردوا عليه
طمعا في ان يستحيوا منه ويرقوا له اذا سمعوا ذلك فينزجروا ( ١٢٠ ) عما اقدموا عليه مع ظهور الامر والاستقرار العلم عنده
وعندهم جميعا بأن لا مناكحة بينهم وهو الانسب بقولهم لقد علمت مالنا في بناتك من حق كما ستقف عليه ( فاتقوا الله ) بترك الفواحش او بايثارهن عليهم ( ولا تخزون في ضيفي ) اي لا تفضحوني في شأنهم فان اخزاء ضيف الرجل وجاره اخزاء له او لا تجعلوني من الخزاية وهي الحياء ( أليس منكم رجل رشيد ) يهتدي الى الحق الصريح ويرعوي عن الباطل القبيح ( قالوا ) معرضين عما نصحهم به من الامر بتقوى الله والنهي عن اخزائه مجيبين عن اول كلامه (لقد علمت مالنا في بناتك من حق) مستشهدين بعلمه بذلك يعنون انك قد علمت أن لا سبيل الى المناكحة بيننا وبينك وماعرضت الاعرض سابري ولا مطمع لنا في ذلك ( وانك لتعلم مانريد ) من اتيان الذكران وما يئس عليه السلام من ارعوائهم عما هم عليه من الغي ( قال لو ان لي بكم قوة ) اي لفعلت بكم ما فعلت وصنعت ماصنعت كقوله تعالى ولو ان قرآنا سيرت به الجبال او قطعت به الارض او كلم به الموتى (اوآوي الى ركن شديد ) عطف على ان لي بكم الى آخره لما فيه من معنى الفعل اي لو قويت على دفعكم بنفسي او اويت الى ناصر عزيز قوي أتمنع به عنكم شبهه بركن الجبل في الشدة والمنعة وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم رحم الله أخي لوطا كان يأوي الى ركن شديد روى انه عليه السلام أغلق بابه دون اضيافه واخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب ( قالوا ) اي الرسل لما شاهدوا عجزه عن مدافعة قومه ( يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك ) بضرر ولا مكروه فافتح الباب ودعنا واياهم
ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه رب العزة جل جلاله في عقوبتهم فأذن له فقام في الصورة التي يكون فيها (تعالى)

واما قوله ثالثا ولا تبخسوا الناس أشياءهم فليس بتكرير لانه تعالى خص المنع في الآية السابقة بالنقصان في المكيال والميزان ثم انه تعالى عمم الحكم في جميع الاشياء فظهر بهذا البيان انها غير مكررة بل في كل واحد منها فائدة زائدة ( الوجه الثالث ) انه تعالى قال في الآية الاولى ولا تنقصوا المكيال والميزان وفي الثانية قال اوفوا المكيال والميزان والايفاء عبارة عن الاتيان به على سبيل الكمال والتمام ولا يحصل ذلك الا اذا اعطى قدرا زائدا على الحق ولهذا المعنى قال الفقهاء انه تعالى امر بغسل الوجه وذلك لا يحصل الا عند غسل جزء من اجزاء الرأس فالحاصل انه تعالى في الآية الاولى نهى عن النقصان وفي الآية الثانية امر باعطاء قدر من الزيادة ولا يحصل الجزم واليقين بأداء الواجب الا عند اداء ذلك القدر من الزيادة فكأنه تعالى نهى أولا عن سعي الانسان في ان يجعل مال غيره ناقصا لتحصل له تلك الزيادة وفي الثانية امر بالسعي في تنقيص مال نفسه ليخرج باليقين عن العهدة وقوله بالقسط يعني بالعدل ومعناه الامر بايفاء الحق بحيث يحصل معه اليقين بالخروج عن العهدة فالامر بايتاء الزيادة على ذلك غير حاصل ثم قال ولا تبخسوا الناس اشياءهم والبخس هو النقص في كل الاشياء وقد ذكرنا ان الآية الاولى دلت على المنع من النقص في المكيال والميزان وهذه الآية دلت على المنع من النقص في كل الاشياء ثم قال ولا تعثوا في الارض مفسدين فان قيل العثو الفساد التام فقوله ولا تعثوا في الارض مفسدين جار مجرى ان يقال ولا تفسدوا في الارض مفسدين قلنا فيه وجوه (الاول) ان من سعى في ايصال الضرر الى الغير فقد حمل ذلك الغير على السعي الى ايصال الضرر اليه فقوله ولا تعثوا في الارض مفسدين معناه ولا تسعوا في افساده مصالح الغير فان ذلك في الحقيقة سعي منكم في افساد مصالح انفسكم (والثاني) ان يكون المراد من قوله ولا تعثوا في الارض مفسدين مصالح دنياكم وآخرتكم ( والثالث ) ولا تعثوا في الارض مفسدين مصالح الاديان ثم قال بقية الله خير لكم قرئ تقية الله وهي تقواه ومراقبته التي تصرف عن المعاصي ثم نقول المعنى ماأبقى الله لكم من الحلال بعد ايفاء الكيل والوزن خير من البخس والتطفيف يعني المال الحلال الذي يبقى لكم خير من تلك الزيادة الحاصلة بطريق البخس والتطفيف وقال الحسن بقية الله اي طاعة الله خير لكم من ذلك القدر القليل لان ثواب الطاعة يبقى أبدا وقال قتادة حظكم من ربكم خير لكم واقول المراد من هذه البقية اما المال الذي يبقى عليه في الدنيا واما ثواب الله واما كونه تعالى راضيا عنه والكل خير من قدر التطفيف اما المال الباقي فلان الناس اذا عرفوا انسانا بالصدق والامانة والبعد عن الخيانة اعتمدوا عليه ورجعوا في كل المعاملات اليه فيفتح عليه باب الرزق واذا عرفوه بالخيانة والمكر انصرفوا عنه ولم يخالطوه البتة فتضيق ابواب الرزق عليه واما ان حملنا هذه البقية على الثواب فالامر ظاهر لان كل الدنيا تفنى وتنقرض وثواب الله باق واما ان حملناه على حصول رضا الله

فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا فضرب بجناحه وجوههم فطمس اعينهم واعماهم
كما قال عزوجل وعلا فطمسنا اعينهم  فصاروا لايعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون النجاء النجاء فان في بيت لوط قوما

تعالى فالامر فيه ظاهر فثبت بهذا البرهان ان بقية الله خير ثم قال ان كنتم مؤمنين وانما شرط الايمان في كونه خيرا لهم لانهم ان كانوا مؤمنين مقرين بالثواب والعقاب عرفوا ان السعي في تحصيل الثواب وفي الحذر من العقاب خير لهم من السعي في تحصيل ذلك القليل واعلم ان المعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فهذه الآية تدل بظاهرها على ان من لم يحترز عن هذا التطفيف فانه لايكون مؤمنا ثم قال تعالى وما انا عليكم بحفيظ وفيه وجهان (الاول) ان يكون المعنى اني نصحتكم وارشدتكم الى الخير وما انا عليكم بحفيظ اي لاقدرة لي على منعكم عن هذا العمل القبيح (الثاني) انه قد اشار فيما تقدم الى ان الاشتغال بالبخس والتطفيف يوجب زوال نعمة الله تعالى فقال وما انا عليكم بحفيظ يعني لو لم تتركوا هذا العمل القبيح لزالت نعم الله عنكم وانا لااقدر على حفظها عليكم في تلك الحالة ❊ قوله تعالى (قالوا ياشعيب اصلاتك تأمرك ان نترك مايعبد آباؤنا اوأن نفعل في أموالنا مانشاء انك لانت الحليم الرشيد) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم اصلاتك بغير واو والباقون أصلواتك على الجمع (المسئلة الثانية) اعلم ان شعيبا عليه السلام امرهم بشيئين بالتوحيد وترك البخس فالقوم انكروا عليه امره بهذين النوعين من الطاعة فقوله ان نترك مايعبد آباؤنا اشارة الى انه امرهم بالتوحيد وقوله أو ان نفعل في اموالنا مانشاء اشارة الى انه امرهم بترك البخس اما الاول فقد اشاروا فيه الى التمسك بطريقة التقليد لانهم استبعدوا منه ان يأمرهم بترك عبادة ماكان يعبد آباؤهم يعني الطريقة التي اخذناها من آبائنا واسلافنا كيف نتركها وذلك تمسك بمحض التقليد (المسئلة الثالثة) في لفظ الصلاة ههنا قولان (الاول) المراد منه الدين والايمان لان الصلاة اظهر شعار الدين فجعلوا ذكر الصلاة كناية عن الدين اونقول الصلاة اصلها من الاتباع ومنه اخذ المصلي من الخيل الذي يتلو السابق لان رأسه يكون على صلوى السابق وهما ناحيتا الفخذين والمراد دينك يأمرك بذلك (والثاني) ان المراد منه هذه الاعمال المخصوصة روي ان شعيبا كان كثير الصلاة وكان قومه اذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا فقصدوا بقولهم اصلواتك تأمرك السخرية والهزؤ وكما انك اذا رأيت معتوها يطالع كتبا ثم يذكر كلاما فاسدا فيقال له هذا من مطالعة تلك الكتب على سبيل الهزؤ والسخرية فكذا ههنا فان قيل تقدير الآية أصلواتك تأمرك ان نفعل في اموالنا مانشاء وهم انما ذكروا هذا الكلام على سبيل الانكار وهم ماكانوا ينكرون كونهم فاعلين في اموالهم مايشاؤن فكيف وجه التأويل قلنا فيه وجهان (الاول) التقدير اصلواتك تأمرك ان نترك مايعبد آباؤنا وان نترك فعل مانشاء وعلى هذا فقوله او ان نفعل معطوف على ما في قوله مايعبد آباؤنا (والثاني) ان نجعل الصلاة آمرة وناهية والتقدير اصلوتك تأمرك بأن نترك عبادة الاوثان وتنهاك ان نفعل في اموالنا مانشاء وقرأ ابن ابي عبلة اوان تفعل في اموالنا

سحرة (فأسر باهلك) بالقطع من الاسراء وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث جاء في القرآن من السرى والفاء لترتيب الامر بالاسراء على الاخبار برسالتهم المؤذنة بورود الامر والنهي من جنابه عزوجل اليه عليه السلام (بقطع من الليل) بطائفة منه (ولا يلتفت منكم) اي لايتخلف اولا ينظر الى ورائه (احد) منك ومن اهلك وانما نهوا عن ذلك ليجدوا في السير فان من يلتفت الى ماوراءه لايخلو عن ادنى وقفة اولئلا يروا ماينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم (الا امرأتك) استثناء من قوله تعالى فأسر بأهلك ويؤيده انه قرئ فأسر بأهلك بقطع من الليل الا امرأتك وقرئ بالرفع على البدل من احد فالالتفات بمعنى التخلف لابمعنى النظر الى الخلف كيلا يلزم التناقض بين القراءتين المتواترتين فان النصب يقتضي كونه عليه السلام غير مأمور بالاسراء بها والرفع كونه مأمورا بذلك والاعتذار بأن مقتضى الرفع انما هو مجرد كونها معهم وذلك لايستدعي الامر بالاسراء بها حتى يلزم المناقضة لجواز ان تسرى هي بنفسها كما روي انه عليه السلام لما اسرى باهله تبعتهم فلما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت ياقوماه فأدركها حجر فقتلها وان يسرى بها عليه السلام من غير امر بذلك اذموجب النصب انما هو عدم الامر بالاسراء بها لاالنهي عن الاسراء بها حتى يكون عليه السلام بالاسراء بها مخالفا للنهي لايجدي نفعا لان انصراف الاستثناء الى الالتفات يستدعي بقاء الاهل

على العموم فيكون الأسراء بها مأمورا به قطعا  وفي حمل الاهلية في احدى القراءتين على الاهلية
الدينية وفي الاخرى على النسبية مع ان فيه مالايخفى من التحكم والاعتساف كر على مافر منه من المناقضة فالاولى حينئذ جعل الاستثناء

ماتشاء بناء الخطاب فيهما وهو ما كان يأمرهم به من ترك التطفيف والبخس والاقتناع بالحلال القليل وانه خير من الحرام الكثير ثم قال تعالى حكاية عنهم انك لأنت الحليم الرشيد وفيه وجوه (الاول) ان يكون المعنى انك لانت السفيه الجاهل الا انهم عكسوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية به كما يقال للبخيل الخسيس لو رآك حاتم لسجد لك (الثانى) ان يكون المراد انك موصوف عند نفسك وعند قومك بالحلم والرشد (الوجه الثالث) انه عليه السلام كان مشهورا عندهم بأنه حليم رشيد فلما امرهم بمفارقة طريقتهم قالوا له انك لانت الحليم الرشيد المعروف الطريقة فى هذا الباب فكيف تنهانا عن دين الفيناه من آبائنا واسلافنا والمقصود استبعاد مثل هذا العمل ممن كان موصوفا بالحلم والرشد وهذا الوجه أصوب الوجوه * قوله تعالى (قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد ان اخالفكم الى ما أنهاكم عنه ان اريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب وياقوم لا يجرمنكم شقاقى ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح أو قوم هود او قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم ودود) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى حكى عن شعيب عليه السلام ماذكره فى الجواب عن كلماتهم فالاول قوله أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وفيه وجوه (الاول) ان قوله ان كنت على بينة من ربى اشارة الى ما آتاه الله تعالى من العلم والهداية والدين والنبوة وقوله ورزقنى منه رزقا حسنا اشارة الى ما آتاه الله من المال الحلال فانه يروى ان شعيبا عليه السلام كان كثير المال * واعلم ان جواب ان الشرطية محذوف والتقدير انه تعالى لما آتانى جميع السعادات الروحانية وهى البينة والسعادات الجسمانية وهى المال والرزق الحسن فهل يسعنى مع هذا الانعام العظيم ان اخون فى وحيه وان اخالفه فى امره ونهيه وهذا الجواب شديد المطابقة لما تقدم وذلك لانهم قالوا له انك لانت الحليم الرشيد فكيف يليق بك مع حلمك ورشدك ان تنهانا عن دين آبائنا فكأنه قال انما اقدمت على هذا العمل لان نعم الله تعالى عندى كثيرة وهو امرنى بهذا التبليغ والرسالة فكيف يليق بى مع كثرة نعم الله تعالى على ان اخالف امره وتكليفه (الثانى) ان يكون التقدير كأنه يقول لما ثبت عندى ان الاشتغال بعبادة غير الله والاشتغال بالبخس والتطفيف عمل منكر ثم أنا رجل اريد اصلاح احوالكم ولا احتاج الى اموالكم لاجل ان الله تعالى آتانى رزقا حسنا فهل يسعنى مع هذه الاحوال ان اخون فى وحى الله تعالى وفى حكمه (الثالث) قوله ان كنت على بينة من ربى اى ما حصل عنده من المعجزة وقوله ورزقنى منه رزقا حسنا المراد انه لا يسألهم اجرا ولا جعلا وهو الذى ذكره سائر الانبياء من قولهم لا اسألكم عليه اجرا ان اجرى الا على رب العالمين (المسئلة الثانية) قوله ورزقنى منه رزقا حسنا يدل على ان ذلك الرزق انما حصل من عند الله تعالى وباعانته وانه لا مدخل

على القراءتين من قوله لا يلتفت مثل الذى فى قوله تعالى ما فعلوه الا قليل منهم فان ابن عامر قرأه بالنصب وان كان الافصح الرفع على البدل ولا بعد فى كون اكثر القراء على غير الافصح ولا يلزم من ذلك (١٢٢) امرها بالالتفات بل عدم نهيها عنه بطريق الاستصلاح ولذلك علله على طريقة الاستئناف بقوله (انه مصيبها ما اصابهم) من العذاب وهو امطار الاحجار وان لم يصبها الخسف والضمير فى انه للشأن وقوله تعالى مصيبها خبر وقوله ما اصابهم مبتدأ والجملة خبر لان الذى اسمه ضمير الشأن وفيه مالا يخفى من تفخيم شأن ما اصابهم ولا يحسن جعل الاستثناء منقطعا على قراءة الرفع (ان موعدهم الصبح) اى موعد عذابهم وهلاكهم تعليل للامر بالاسراء والنهى عن الالتفات المشعر بالحث على الاسراع (أليس الصبح بقريب) تأكيد للتعليل فان قرب الصبح داع الى الاسراع فى الاسراء للتباعد عن مواقع العذاب وروى انه قال للملائكة متى موعد هلاكهم قالوا الصبح قال اريد اسرع من ذلك فقالوا ذلك وانما جعل ميقات هلاكهم الصبح لانه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ افظع ولانه انسب بكون ذلك عبرة للناظرين (فلما جاء امرنا) اى وقت عذابنا وموعده وهو الصبح (جعلنا عاليها) اى عالى قرى قوم لوط وهى التى عبر عنها بالمؤتفكات وهى خمس مدائن فيها اربعمائة الف الف (سافلها) اى قلبناها على تلك الهيئة وجعل عاليها مفعولا اولا للجعل وسافلها مفعولا ثانيا له وان تحقق القلب بالعكس ايضا لتهويل الامر وتفظيع الخطب لان جعل عاليها الذى هو مقارهم ومساكنهم سافلها اشد عليهم واشق من جعل سافلها عاليها وان كان مستلزما له * روى انه جعل جبريل عليه السلام جناحه فى اسفلها ثم رفعها الى السماء حتى سمع اهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها عليهم واسناد الجعل والامطار الى ضميره سبحانه باعتبار انه المسبب لتفخيم الامر وتهويل الخطب (وامطرنا عليها) على اهل المدائن او شذاذهم (للكسب)

للكسب فيه وفيه تنبيه على ان الاعزاز من الله تعالى والاذلال من الله تعالى واذا كان الكل من الله تعالى فأنا لاأبالى بمخالفتكم ولا افرح بموافقتكم وانما أكون على تقرير دين الله تعالى وايضاح شرائع الله تعالى (واما الوجه الثانى) من الاجوبة التى ذكرها شعيب عليه السلام فقوله وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه قال صاحب الكشاف يقال خالفنى فلان الى كذا اذا قصده وانت مول عنه وخالفنى عنه اذا ولى عنه وانت قاصده ويلقاك الرجل صادرا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول خالفنى الى الماء يريد انه قد ذهب اليه واردا وانا ذاهب عنه صادرا ومنه قوله وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه يعنى ان اسبقكم الى شهواتكم التى نهيتكم عنها لاستبد بها دونكم فهذا بيان اللغة وتحقيق الكلام فيه ان القوم اعترفوا بأنه حليم رشيد وذلك يدل على كمال العقل وكمال العقل يحمل صاحبه على اختيار الطريق الاصوب الاصلح فكأنه عليه السلام قال لهم لما اعترفتم بكمال عقلى فاعلموا ان الذى اختاره عقلى لنفسى لابد وان يكون اصوب الطرق واصلحها والدعوة الى توحيد الله وترك البخس والنقصان يرجع حاصلهما الى جزأين التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى وانا مواظب عليهما غير تارك لهما فى شئ من الاحوال البتة فلما اعترفتم لى بالحلم والرشد وترون انى لااترك هذه الطريقة فاعلموا ان هذه الطريقة خير الطرق واشرف الاديان والشرائع (واما الوجه الثالث من الوجوه التى ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله ان اريد الا الاصلاح ما استطعت والمعنى ما أريد الأن أصلحكم بموعظتى ونصيحتى وقوله ما استطعت فيه وجوه (الاول) أنه ظرف والتقدير مدة استطاعتى للاصلاح وما دمت متمكنا منه لا آلوفيه جهدا (والثانى) انه بدل من الاصلاح أى المقدار الذى استطعت منه (والثالث) أن يكون مفعولا له أى ما أريد الا أن أصلح ما استطعت اصلاحه * واعلم أن المقصود من هذا الكلام أن القوم كانوا قد أقروا بأنه حليم رشيد وانما أقروا له بذلك لانه كان مشهورا فيما بين الخلق بهذه الصفة فكأنه عليه السلام قال لهم انكم تعرفون من حالى انى لاأسعى الا فى الاصلاح وازالة الفساد والخصومة فلما أمرتكم بالتوحيد وترك ايذاء الناس فاعلموا أنه دين حق وانه ليس غرضى منه ايقاع الخصومة واثارة الفتنة فانكم تعرفون أنى أبغض ذلك الطريق ولا أدور الا على ما يوجب الصلح والصلاح بقدر طاقتى وذلك هو الابلاغ والانذار وأما الاجبار على الطاعة فلا أقدر عليه ثم انه عليه السلام أكد ذلك بقوله وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه انيب وبين بهذا أن توكله واعتماده فى تنفيذ كل الاعمال الصالحة على توفيق الله تعالى وهدايته واعلم ان قوله عليه السلام توكلت اشارة الى محض التوحيد لان قوله عليه السلام توكلت يفيد الحصر وهو أنه لا ينبغى للانسان أن يتوكل على احد الا على الله تعالى وكيف وكل ما سوى الحق سبحانه ممكن لذاته فان بذاته ولا يحصل الا بايجاده وتكوينه واذا كان كذلك لم يجز التوكل الا على الله

(حجارة من سجيل) من طين متحجر كقوله حجارة من طين واصله سنك كل فعرب وقيل هو من اسجله اذا ارسله اوأدر عطيته والمعنى من مثل الشئ المرسل اومثل العطية فى الادرار (١٢٣) اومن السجل اى مما كتب الله تعالى ان يعذبهم به وقيل اصله من سجين اى من جهنم فأبدلت نونه لاما (منضود) نضد فى السماء نضدا معدا للعذاب وقيل يرسل بعضه اثر بعض كقطار الامطار (مسومة) معلمة للعذاب وقيل معلمة ببياض وحمرة اوبسيما تميز به عن حجارة الارض اوباسم من ترمى به (عند ربك) فى خزائنه التى لايتصرف فيها غيره عز وجل (وماهى) اى الحجارة الموصوفة (من الظالمين) من كل ظالم (ببعيد) فانهم بسبب ظلمهم مستحقون لها وملابسون بها وفيه وعيد شديد لاهل الظلم كافة * وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سأل جبريل عليه السلام فقال يعنى ظالمى امتك مامن ظالم منهم الاوهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل الضمير للقرى اى هى قريبة من ظالمى مكة يمرون بها فى مسايرهم واسفارهم الى الشأم وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر اواجرائه على موصوف مذكر اى بشئ بعيد اوبمكان بعيد فانها وان كانت فى السماء وهى فى غاية البعد من الارض الا انها حين هوت منها فهى اسرع شئ لحوقا بهم بمكان قريب منهم اولانه على زنة المصدر كالزفير والصهيل والمصادر يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث (والى مدين) اى اولاد مدين بن ابراهيم عليه السلام اوجعل اسما للقبيلة بالغلبة او اهل مدين وهو بلد بناه مدين فسمى باسمه (اخاهم) اى نسيبهم (شعيبا) وهو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين وكان يقال له خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه والجملة معطوفة على قوله تعالى والى ثمود اخاهم صالحا اى وارسلنا الى مدين اخاهم شعيبا (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن صدر الكلام فكأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال كما قال من قبله من الرسل عليهم السلام (ياقوم اعبدوا الله) وحده ولاتشركوا به شيئا (مالكم من الله

تعالى واعظم مراتب معرفة المبدأ هو الذى ذكرناه واما قوله واليه أنيب فهو اشارة الى معرفة المعاد وهو ايضا يفيد الحصر لان قوله واليه أنيب يدل على انه لامرجع للخلق الا الى الله تعالى وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان اذا ذكر شعيب عليه السلام قال ذاك خطيب الانبياء لحسن مراجعته فى كلامه بين قومه ( واما الوجه الرابع ) من الوجوه التى ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله ويا قوم لايجرمنكم شقاقى ان يصيبكم قال صاحب الكشاف جرم مثل كسب فى تعديته تارة الى مفعول واحد واخرى الى مفعولين يقال جرم ذنبا وكسبه وجرمه ذنبا وكسبه اياه ومنه قوله تعالى لايجرمنكم شقاقى ان يصيبكم اى لايكسبنكم شقاقى اصابة العذاب وقرأ ابن كثير يجرمنكم بضم الياء من اجرمته ذنبا اذا جعلته جارما له اى كاسبا له وهو منقول من جرم المتعدى الى مفعول واحد وعلى هذا فلا فرق بين جرمته ذنبا واجرمته اياه والقراءتان مستويتان فى المعنى لاتفاوت بينهما الا ان المشهورة افصح لفظا كما ان كسبه مالا افصح من اكسبه اذا عرفت هذا فنقول المراد من الآية لاتكسبنكم معاداتكم اياى ان يصيبكم عذاب الاستئصال فى الدنيا مثل ماحصل لقوم نوح عليه السلام من الغرق ولقوم هود من الريح العقيم ولقوم صالح من الرجفة ولقوم لوط من الخسف واما قوله وماقوم لوط منكم ببعيد ففيه وجهان (الاول) ان المراد نفى البعد فى المكان لان بلاد قوم لوط عليه السلام قريبة من مدين (والثانى) ان المراد نفى البعد فى الزمان لان اهلاك قوم لوط عليه السلام اقرب الاهلاكات التى عرفها الناس فى زمان شعيب عليه السلام وعلى هذين التقديرين فان القرب فى المكان وفى الزمان يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف على الاحوال فكأنه يقول اعتبروا بأحوالهم واحذروا من مخالفة الله تعالى ومنازعته حتى لاينزل بكم مثل ذلك العذاب فان قيل لم قال وماقوم لوط منكم ببعيد وكان الواجب أن يقال ببعيدين أجاب عنه صاحب الكشاف من وجهين ( الاول) أن يكون التقدير ما اهلاكهم شئ ببعيد (الثانى) أنه يجوز أن يسوى فى قريب وبعيد وكثير وقليل بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التى هى الصهيل والنهيق ونحوهما (وأما الوجه الخامس) من الوجوه التى ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله واستغفروا ربكم عن عبادة الاوثان ثم توبوا اليه عن البخس والنقصان ان ربى رحيم بأوليائه ودود قال أبو بكر الانبارى الودود فى أسماء الله تعالى المحب لعباده من قولهم وددت الرجل أوده وقال الازهرى فى كتاب شرح اسماء الله تعالى ويجوز ان يكون ودود فعولا بمعنى مفعول كركوب وحلوب ومعناه ان عباده الصالحين يودونه ويحبونه لكثرة افضاله واحسانه على الخلق واعلم أن هذا الترتيب الذى راعاه شعيب عليه السلام فى ذكر هذه الوجوه الخمسة ترتيب لطيف وذلك لانه بين اولا أن ظهور البينة له وكثرة انعام الله تعالى عليه فى الظاهر والباطن يمنعه عن الخيانة فى وحى الله تعالى ويصده عن التهاون فى تكاليفه ثم بين ثانيا أنه مواظب على العمل بهذه

غيره ) تحقيق للتوحيد وتعليل للامر به وبعدما امرهم بما هو ملاك امر الدين واول مايجب على المكلفين نهاهم عن ترتيب مبادى مااعتادوه من البخس والتطفيف عادة مستمرة فقال ( ١٢٤ ) ( ولاتنقصوا المكيال والميزان ) كى تتوسلوا بذلك الى بخس حقوق الناس (انى اراكم بخير) اى ملتبسين بثروة وسعة تغنيكم عن ذلك او بنعمة من الله تعالى حقها ان تقابل بغير ماتأتونه من المسامحة والتفضل على الناس شكرا عليها او اراكم بخير فلا تزيلوه بما انتم عليه من الشر وهو على كل حال علة للنهى عقبت بعلة اخرى اعنى قوله عز وجل (وانى اخاف عليكم) ان لم تنتهوا عن ذلك ( عذاب يوم محيط ) لايشذ منه شاذ منكم وقيل عذاب يوم مهلك من قوله تعالى واحيط بثمره واصله من احاطة العدو والمراد عذاب يوم القيامة او عذاب الاستئصال ووصف اليوم بالاحاطة وهى حال العذاب على الاسناد المجازى وفيه من المبالغة مالا يخفى فان اليوم زمان يشتمل على ماوقع فيه من الحوادث فاذا احاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما اذا احاط بنعيمه ويجوز ان يكون هذا تعليلا للامر والنهى جميعا ( ويا قوم اوفوا المكيال والميزان بالقسط) اى بالعدل من غير زيادة ولانقصان فان الزيادة فى الكيل والوزن وان كان تفضلا مندوبا اليه لكنها فى الآلة محظورة كالنقص فلعل الزائد للاستعمال عند الاكتيال والناقص للاستعمال وقت الكيل وانما امر بتسويتهما او تعديلهما صريحا بعد النهى عن نقصهما مبالغة فى الحمل على الايفاء والمنع من البخس وتنبيها على انه لايكفيهم مجرد الكف عن النقص والبخس بل يجب عليهم اصلاح ما افسدوه وجعلوه معيارا لظلمهم وقانونا لعدوانهم (ولاتبخسوا الناس) بسبب نقصهما وعدم اعتدالهما ( اشياءهم ) التى يشترونها بهما وقد صرح بالنهى عن البخس بعدما علم ( الدعوة ) ذلك فى ضمن النهى عن نقص المعيار والامر بايفائه اهتماما بشأنه وترغيبا فى ابقاء الحقوق بعد الترهيب والزجر عن نقصها ويجوز ان

يكون المراد بالامر بايفاء المكيال والميزان الامر بايفاء المكيلات والموزونات ويكون النهى عن البخس عاما للنقص فى المقدار وغيره تعميما بعد التخصيص كما فى قوله تعالى ( ١٢٥ ) ( ولاتعثوا فى الارض مفسدين ) فان العثى يعم نقص الحقوق وغيره من انواع الفساد وقيل البخس المكس كاخذ العشور فى المعاملات قال زهير بن ابى سلمى أ فى كل اسواق العراق اتاوة * وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم والعثى فى الارض السرقة وقطع الطريق والغارة وفائدة الحال اخراج مايقصد به الاصلاح كما فعله الخضر عليه السلام من خرق السفينة وقتل الغلام وقيل معناه ولاتعثوا فى الارض مفسدين أمر آخرتكم ومصالح دينكم (بقية الله) اى ماابقاه لكم من الحلال بعد التنزه عن تعاطى المحرمات ( خير لكم ) عما تجمعون بالبخس والتطفيف فان ذلك هباء منثور بل شر محض وان زعمتم ان فيه خيرا كما قال تعالى يمحق الله الربوا ويربى الصدقات ( ان كنتم مؤمنين ) بشرط ان تؤمنوا فان خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالايمان لامحالة او ان كنتم مصدقين لى فى مقالاتى لكم وقيل البقية الطاعة كقوله عز وجل والباقيات الصالحات خير عند ربك وقرئ تقية الله بالفوقانية وهى تقواه عن المعاصى ( وما انا عليكم بحفيظ ) احفظكم من القبائح او احفظ عليكم اعمالكم فأجازيكم وانما انا ناصح مبلغ وقد اعذرت اذ انذرت ولم آل فى ذلك جهدا او ما انا بحافظ ومستبق عليكم نعم الله تعالى ان لم تتركوا ما انتم عليه من سوء الصنيع ( قالوا ياشعيب اصلاتك تأمرك ان نترك مايعبد آباؤنا ) من الاوثان اجابوا بذلك امره عليه السلام اياهم بعبادة الله وحده المتضمن لنهيهم عن عبادة الاصنام ولقد بالغوا فى ذلك وبلغوا أقصى مراتب الخلاعة والمجون والضلال حيث لم يكتفوا بانكار الوحى الآمر بذلك حتى ادعوا ان لاآمر به من العقل والاب أصلا وأنه من احكام الوسوسة والجنون وعلى ذلك بنوا استفهامهم وقالوا بطريق الاستهزاء أصلاتك التى هى من نتائج

---

الدعوة لوكانت باطلة لما اشتغل هو بها مع اعترافكم بكونه حليما رشيدا ثم بين صحته بطريق آخر وهو انه كان معروفا بتحصيل موجبات الصلاح واخفاء موجبات الفتن فلو كانت هذه الدعوة باطلة لما اشتغل بها ثم لما بين صحة طريقته أشار الى نفى المعارض وقال لاينبغى أن تحملكم عداوتى على مذهب ودين تقعون بسببه فى العذاب الشديد من الله تعالى كما وقع فيه اقوام الانبياء المتقدمين ثم انه لما صحح مذهب نفسه بهذه الدلائل عاد الى تقرير ماذكره اولا وهو التوحيد والمنع من البخس بقوله ثم توبوا اليه ثم بين لهم ان سبق الكفر والمعصية منهم لاينبغى ان يمنعهم من الايمان والطاعة لانه تعالى رحيم ودود يقبل الايمان والتوبة من الكافر والفاسق لان رحمته لعباده وحبه لهم يوجب ذلك وهذا التقرير فى غاية الكمال * قوله تعالى ( قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ) اعلم انه عليه السلام لما بالغ فى التقرير والبيان أجابوه بكلمات فاسدة فالاول قولهم ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول وفيه مسائل ( المسئلة الاولى ) لقائل ان يقول انه عليه السلام كان يخاطبهم بلسانهم فلم قالوا مانفقه والعلماء ذكروا عنه انواعا من الجوابات ( فالاول ) أن المراد مانفهم كثيرا مما تقول لانهم كانوا لايلقون اليه افهامهم لشدة نفرتهم عن كلامه وهو كقوله وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ( الثانى ) انهم فهموه بقلوبهم ولكنهم ما اقاموا له وزنا فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة كما يقول الرجل لصاحبه اذا لم يعبأ بحديثه ماادرى ماتقول ( الثالث ) ان هذه الدلائل التى ذكرها ماأقنعتهم فى صحة التوحيد والنبوة والبعث ومايجب من ترك الظلم والسرقة فقولهم مانفقه اى لم نعرف صحة الدلائل التى ذكرتها على صحة هذه المطالب ( المسئلة الثانية ) من الناس من قال الفقه اسم لعلم مخصوص وهو معرفة غرض المتكلم من كلامه واحتجوا بهذه الآية وهى قوله مانفقه كثيرا مما تقول فاضاف الفقه الى القول ثم صار اسما لنوع معين من علوم الدين ومنهم من قال انه اسم لمطلق الفهم يقال اوتى فلان فقها فى الدين اى فهما وقال النبى صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين اى يفهمه تأويله (والنوع الثانى) من الاشياء التى ذكروها قولهم وانا لنراك فينا ضعيفا وفيه وجهان (الاول) انه الضعيف الذى يتعذر عليه منع القوم عن نفسه (والثانى) ان الضعيف هو الاعمى بلغة حمير واعلم ان هذا القول ضعيف لوجوه ( الاول ) انه ترك للظاهر من غير دليل (الثانى) ان قوله فينا يبطل هذا الوجه الاترى انه لو قال انا لنراك اعمى فينا كان فاسدا لان الاعمى اعمى فيهم وفى غيرهم (الثالث) انهم قالوا بعده ذلك ولولا رهطك لرجمناك فنفوا عنه القوة التى اثبتوها فى رهطه ولما كان المراد بالقوة التى أثبتوها للرهط هى النصرة وجب ان تكون القوة التى نفوها عنه هى النصرة والذين حملوا اللفظ على ضعف البصر لعلهم انما حملوه عليه لانه سبب للضعف واعلم ان اصحابنا يجوزون العمى على الانبياء الا ان هذا اللفظ لايحسن

الوسوسة وأفاعيل الجانين تأمرك بأن نترك عبادة الأوثان التي توارثناها أبا عن جد وانما جعلوه عليه السلام مامورا مع ان الصادر عنه انما هو الامر بعبادة الله تعالى وغير ذلك من  الشرائع لانه عليه السلام لم يكن يأمرهم بذلك من تلقاء

الاستدلال به في اثبات هذا المعنى لما بيناه وأما المعتزلة فقد اختلفوا فيه فمنهم من قال انه لا يجوز لكونه متعبدا فانه لا يمكنه الاحتراز عن النجاسات ولانه يخل بجواز كونه حاكما وشاهدا فلان يمنع من النبوة كان اولى والكلام فيه لا يليق بهذه الآية لانا بينا أن الآية لادلالة فيها على هذا المعنى ( النوع الثالث ) من الاشياء التي ذكروها قولهم ولولا رهطك لرجمناك وفيه مسئلتان ( المسئلة الاولى ) قال صاحب الكشاف الرهط من الثلاثة الى العشرة وقيل الى السبعة وقد كان رهطه على ملتهم قالوا لولا حرمة رهطك عندنا بسبب كونهم على ملتنا لرجمناك والمقصود من هذا الكلام أنهم بينوا أنه لاحرمة له عندهم ولا وقع له في صدورهم وأنهم انما لم يقتلوه لاجل احترامهم رهطه ( المسئلة الثانية ) الرجم في اللغة عبارة عن الرمي وذلك قد يكون بالحجارة عند قصد القتل ولما كان هذا الرجم سببا للقتل لاجرم سموا القتل رجما وقد يكون بالقول الذي هو القذف كقوله رجما بالغيب وقوله ويقذفون بالغيب من مكان بعيد وقد يكون بالشتم واللعن ومنه قوله الشيطان الرجيم وقد يكون بالطرد كقوله رجوما للشياطين اذا عرفت هذا ففي الآية وجهان (الاول) لرجمناك لقتلناك ( الثاني ) لشتمناك وطردناك ( النوع الرابع ) من الاشياء التي ذكروها قولهم وما انت علينا بعزيز ومعناه انك لما لم تكن علينا عزيزا سهل علينا الاقدام على قتلك وايذائك واعلم ان كل هذه الوجوه التي ذكروها ليست دافعا لما قرره شعيب عليه السلام من الدلائل والبينات بل هي جارية مجرى مقابلة الدليل والحجة بالشتم والسفاهة * قوله تعالى ( قال ياقوم ارهطي اعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ان ربي بما تعملون محيط وياقوم اعملوا على مكانتكم اني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا اني معكم رقيب ) اعلم ان الكفار لما خوفوا شعيبا عليه السلام بالقتل والايذاء حكى الله تعالى عنه ماذكره في هذا المقام وهو نوعان من الكلام ( فالنوع الاول ) قوله ياقوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ان ربي بما تعملون محيط والمعنى ان القوم زعموا أنهم تركوا ايذاءه رعاية لجانب قومه فقال انتم تزعمون انكم تتركون قتلي اكراما لرهطي والله تعالى اولى ان يتبع امره فكأنه يقول حفظكم اياي رعاية لامر الله تعالى اولى حفظكم اياي رعاية لحق رهطي واما قوله واتخذتموه وراءكم ظهريا فالمعنى انكم نسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لايعبأ به قال صاحب الكشاف والظهري منسوب الى الظهر والكسر من تغييرات النسب ونظيره قولهم في النسبة الى الامس امسي بكسر الهمزة وقوله ان ربي بما تعملون محيط يعني انه عالم باحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها ( النوع الثاني ) قوله وياقوم اعملوا على مكانتكم اني عامل والمكانة الحالة يتمكن بها صاحبها من عمله والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة وكل مافي وسعكم وطاقتكم من ايصال الشرور الى فاني ايضا عامل بقدر ماآتاني الله تعالى من

نفسه بل من جهة الوحي وانه كان يعلمهم بأنه مأمور بتبليغه اليهم وتخصيصهم باسناد الامر الى الصلاة من بين سائر احكام النبوة لانه عليه الصلاة والسلام كان كثير الصلاة معروفا بذلك وكانوا اذا رأوه يصلي يتغامزون ويتضاحكون فكانت هي من بين سائر شعائر الدين ضحكة لهم وقرئ اصلواتك ( اوان نفعل في اموالنا مانشاء ) جواب عن امره عليه الصلاة والسلام بايفاء الحقوق ونهيه عن البخس والنقص معطوف على ما اى اوان نترك ان نفعل في اموالنا مانشاء من الاخذ والاعطاء والزيادة والنقص وقرئ بالتاء في الفعلين عطفا على مفعول تأمرك اى اصلاتك تأمرك ان تفعل انت في اموالنا ماتشاء وتجويز العطف على ماقيل يستدعي ان يراد بالترك معنيان مختلفان والمراد بفعله عليه السلام ايجاب الايفاء والعدل في معاملاتهم لانفس الايفاء فان ذلك ليس من افعاله عليه السلام بل من افعالهم وانما لم نقل عطفا على ان نترك لان الترك ليس مأمورا به على الحقيقة بل المأمور به تكليفه عليه السلام اياهم وامره بذلك والمعنى اصلاتك تأمرك ان تكلفنا ان نترك مايعبد آباؤنا وحمله على معنى اصلاتك تأمرك بما ليس في وسعك وعهدتك من أفاعيل غيرك ليكون ذلك تعريضا منهم بركاكة رأيه عليه السلام واستهزاء به من تلك الجهة يأباه دخول الهمزة على الصلاة دون الامر ويستدعي ان يصدر عنه عليه السلام في اثناء الدعوة مايدل على ذلك او يوهمه وأنى ذلك فتأمل وقرئ بالنون في الاول والتاء في الثاني عطفا على ان نترك أى اوان نفعل نحن في اموالنا عند المعاملة ماتشاء ( القدرة ) أنت من التسوية والايفاء ( انك لانت الحليم الرشيد ) وصفوه عليه السلام بالوصفين على طريقة التهكم وانما أرادوا بذلك

القدرة ثم قال سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وفيه مسئلتان ( المسئلة الاولى ) لقائل ان يقول لم لم يقل فسوف تعلمون والجواب ادخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل واما بحذف الفاء فأنه يجعله جوابا عن سؤال مقدر والتقدير انه لما قال وياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل فكأنهم قالوا فماذا يكون بعد ذلك فقال سوف تعلمون فظهر ان حذف حرف الفاء ههنا أكمل فى باب الفظاعة والتهويل ثم قال وارتقبوا انى معكم رقيب والمعنى فانتظروا العاقبة انى معكم رقيب اى منتظر والرقيب بمعنى الرقب من رقبه كالضريب والصريم بمعنى الضارب والصارم او بمعنى المراقب كالعشير والنديم او بمعنى المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع

❊ قوله تعالى (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) روى الكلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لم يعذب الله تعالى امتين بعذاب واحد الاقوم شعيب وقوم صالح فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم وقوم شعيب اخذتهم من فوقهم وقوله ولما جاء امرنا يحتمل ان يكون المراد منه ولما جاء وقت امرنا ملكا من الملائكة بتلك الصيحة ويحتمل ان يكون المراد من الامر العقاب وعلى التقديرين فأخبر الله انه نجى شعيبا ومن معه من المؤمنين برحمة منه وفيه وجهان (الاول) انه تعالى انما خلصه من ذلك العذاب لمحض رحمته تنبيها على ان كل مايصل الى العبد فليس الا بفضل الله ورحمته (والثانى) ان يكون المراد من الرحمة الايمان والطاعة وسائر الاعمال الصالحة وهى أيضا ماحصلت الا بتوفيق الله تعالى ثم وصف كيفية ذلك العذاب فقال واخذت الذين ظلموا الصيحة وانما ذكر الصيحة بالالف واللام اشارة الى المعهود السابق وهى صيحة جبريل عليه السلام فاصبحوا فى ديارهم جاثمين والجاثم الملازم لمكانه الذى لايتحول عنه يعنى ان جبريل عليه السلام لما صاح بهم تلك الصيحة زهق روح كل واحد منهم بحيث يقع فى مكانه ميتا كأن لم يغنوا فيها اى كأن لم يقيموا فى ديارهم احياء متصرفين مترددين ثم قال تعالى الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود وقد تقدم تفسير هذه اللفظة وانما قاس حالهم على ثمود لما ذكرنا انه تعالى عذبهم مثل عذاب ثمود

❊ قوله تعالى (ولقد ارسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وملائه فاتبعوا امر فرعون وما امر فرعون برشيد يقدم قومه يوم القيمة فأوردهم النار وبئس الورد المورود واتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيمة بئس الرفد المرفود) واعلم ان هذه هى القصة السابعة من القصص التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة وهى آخر القصص من هذه السورة اما قوله بآياتنا وسلطان مبين ففيه وجوه (الاول) ان المراد من الآيات التوراة مع مافيها من الشرائع والاحكام ومن السلطان المبين المعجزات القاهرة الباهرة والتقدير ولقد ارسلنا موسى بشرائع واحكام وتكاليف وايدناه بمعجزات قاهرة وبينات باهرة (الثانى) ان الآيات

وصفه بضديهما كقول الخزنة ذق انك أنت العزيز الكريم ويجوز ان يكون تعليلا لما سبق من استبعاد ماذكروه على معنى انك لانت الحليم الرشيد على زعمك واما وصفه بهما على الحقيقة فيأباه ( ١٢٧ ) مقام الاستهزاء اللهم الا أن يراد بالصلاة الدين كما قيل

( قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة) أى حجة واضحة وبرهان نير عبر بها عما آتاه الله تعالى من النبوة والحكمة ردا على مقالتهم الشنعاء فى جعلهم أمره ونهيه غير مستند الى سند ( من ربى ) ومالك أمورى وايراد حرف الشرط مع جزمه عليه السلام بكونه على ماهو عليه من البينات والحجج لاعتبار حال المخاطبين ومراعاة حسن المحاورة معهم كما ذكرنا فى نظائره ( ورزقنى منه ) اى من لدنه ( رزقا حسنا ) هو النبوة والحكمة ايضا عبر عنهما بذلك تنبيها على انهما مع كونهما بينة رزق حسن كيف لا وذلك مناط الحياة الابدية له ولامته وجواب الشرط محذوف يدل عليه فحوى الكلام اى اتقولون فى شأنى ماتقولون والمعنى انكم نظمتمونى فى سلك السفهاء والغواة وعددتم ماصدر عنى من الاوامر والنواهى من قبيل مالا يصح ان يتفوه به عاقل وجعلتموه من احكام الوسوسة والجنون واستهزأتم بى وبأفعالى حتى قلتم ان ماامرتكم به من التوحيد وترك عبادة الاصنام والاجتناب عن البخس والتطفيف ليس مما يأمر به آمر العقل ويقضى به قاضى الفطنة وانما يأمر به صلاتك التى هى من احكام الوسوسة والجنون فأخبرونى ان كنت من جهة ربى ومالك امورى ثابتا على النبوة والحكمة التى ليس وراءها غاية للكمال ولامطمح لطامح ورزقنى بذلك رزقا حسنا أتقولون فى شأنى وشأن افعالى ماتقولون مما لاخير فيه ولاشر وراءه هذا هو الجواب الذى يستدعيه السباق والسياق ويساعده النظم الكريم واما ماقيل من ان المحذوف أيصح لى ان لاآمركم بترك عبادة الاوثان والكف عن المعاصى اوهل يسع لى مع هذا الانعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية أن أخون فى وحيه وأخالفه فى أمره

هي المعجزات والبينات وهو كقوله ان عندكم من سلطان بهذا وقوله ما أنزل الله بها من سلطان وعلى هذا التقدير ففي الآية وجهان (الاول) ان هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوته (الثاني) ان يراد بالسلطان المبين العصا لانه اشهرها وذلك لانه تعالى اعطى موسى تسع آيات بينات وهي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص من الثمرات والانفس ومنهم من ابدل نقص الثمرات والانفس باظلال الجبل وفلق البحر واختلفوا في ان الحجة لم سميت بالسلطان فقال بعض المحققين لان صاحب الحجة يقهر من لا حجة معه عند النظر كما يقهر السلطان غيره فلهذا توصف الحجة بانها سلطان وقال الزجاج السلطان هو الحجة والسلطان سمي سلطانا لانه حجة الله في ارضه واشتقاقه من السليط والسليط ما يضاء به ومن هذا قيل للزيت السليط وفيه قول ثالث وهو ان السلطان مشتق من التسليط والعلماء سلاطين بسبب كمالهم في القوة العلمية والملوك سلاطين بسبب ما معهم من القدرة والمكنة الا ان سلطنة العلماء اكمل واقوى من سلطنة الملوك لان سلطنة العلماء لا تقبل النسخ والعزل وسلطنة الملوك تقبلهما ولان سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلماء وسلطنة العلماء من جنس سلطنة الانبياء وسلطنة الملوك من جنس سلطنة الفراعنة فأن قيل اذا حملتم الآيات المذكورة في قوله بآياتنا على المعجزات والسلطان ايضا على الدلائل والمبين ايضا معناه كونه سببا للظهور فما الفرق بين هذه المراتب الثلاثة قلنا الآيات اسم للقدر المشترك بين العلامات التي تفيد الظن وبين الدلائل التي تفيد اليقين واما السلطان فهو اسم لما يفيد القطع واليقين الا انه اسم للقدر المشترك بين الدلائل التي تؤكد بالحس وبين الدلائل التي لم تتأكد بالحس واما الدليل القاطع الذي تأكد بالحس فهو السلطان المبين ولما كانت معجزات موسى عليه السلام هكذا لا جرم وصفها الله بأنها سلطان مبين ثم قال الى فرعون وملائه يعني وارسلنا موسى بآياتنا بمثل هذه الآيات الى فرعون وملائه اى جماعته ثم قال فاتبعوا امر فرعون ويحتمل ان يكون المراد امره اياهم بالكفر بموسى ومعجزاته ويحتمل ان يكون المراد من الامر الطريق والشان ثم قال تعالى وما امر فرعون برشيد اى بمرشد الى خير وقيل رشيد اى ذي رشد واعلم ان بعد طريق فرعون عن الرشد كان ظاهرا لانه كان دهريا نافيا للصانع والمعاد وكان يقول لا اله للعالم وانما يجب على اهل كل بلد ان يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية لمصلحة العالم وانكر ان يكون الرشد في عبادة الله ومعرفته فلما كان هو نافيا لهذين الامرين كان خاليا عن الرشد بالكلية ثم انه تعالى ذكر صفته وصفة قومه فقال يقدم قومه يوم القيمة فأوردهم النار وفيه بحثان (البحث الاول) من حيث اللغة يقال قدم فلان فلانا بمعنى تقدمه ومنه قادمة الرجل كما يقال قدمه بمعنى تقدمه ومنه مقدمة الجيش (البحث الثاني) من حيث المعنى وهو ان فرعون كان قدوة لقومه في الضلال حال ما كانوا في الدنيا وكذلك مقدمهم الى النار

ونهيه فبمعزل من ذلك وانما يناسب تقديره ان حمل كلامهم على الحقيقة واريد بالصلاة الدين على معنى أدينك يأمرك أن تكلفنا بترك عبادة آلهتنا القديمة وترك التصرف المطلق في اموالنا وتخالفنا (١٢٨) في ذلك وتشق عصانا وهذا مما لا ينبغي ان يصدر عنك فانك أنت المشهور بالحلم الفاضل والرشد الكامل فيما بيننا كما كان قول قوم صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا مسرودا على ذلك النمط فأجيبوا بما أجيبوا به وعلى هذا الوجه يكون المراد بالرزق الحسن الحلال الذي آتاه الله تعالى والمعنى حينئذ أخبروني ان كنت نبيا من عند الله تعالى ورزقني مالا حلالا أستغني به عن العالمين أيصح أن اخالف أمره واوافقكم فيما تأتون وما تذرون (وما أريد) بنهيي اياكم عما انهاكم عنه من البخس والتطفيف (ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه) اى أقصده بعدما وليتم عنه واستبد به دونكم يقال خالفت زيدا الى كذا اذا قصدته وهو مول عنه وخالفته عن كذا اذا كان الامر على العكس (ان أريد) أى ما أريد بما أباشره من الامر والنهي (الا الاصلاح) الا أن أصلحكم بالنصيحة والموعظة (ما استطعت) أى مقدار ما استطعته من الاصلاح والتقييد به للاحتراز عن الاكتفاء بالاصلاح في الجملة لا عن ارادة ما ليس في وسعه منه (وما توفيقي) أى كوني موفقا لتحقيق ما أنتحيه من اصلاحكم (الا بالله) اى بتأييده ومعونته بل الاصلاح من حيث الخلق مستند اليه سبحانه وانما أنا من مباديه الظاهرة قاله عليه السلام تحقيقا للحق وازاحة لما عسى يوهمه اسناد الاستطاعة اليه بارادته من استبداده بذلك (عليه توكلت) في ذلك معرضا عما عداه فانه القادر على كل مقدور وما عداه عاجز محض في حد ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار بمعزل عن مرتبة الاستمداد به والاستظهار (واليه أنيب) اى أرجع فيما انا بصدده ويجوز (وهم) ان يكون المراد وما كوني موفقا لاصابة الحق والصواب في كل ما آتي وأذر الا بهدايته ومعونته عليه توكلت وهو اشارة الى محض

التوحيد الذاتى والفعلى واليه انيب اى عليه اقبل بشر اشر نفسى فى مجامع امورى وايثار صيغة الاستقبال على الماضى الا نسب للتقرر والتحقق كما فى التوكل لاستحضار الصورة والدلالة ( ١٢٩ ) على الاستمرار ولايخفى مافى جوابه عليه السلام من مراعاة

وهم يتبعونه او يقال كما تقدم قومه فى الدنيا فأدخلهم فى البحر واغرقهم فكذلك يتقدمهم يوم القيامة فيدخلهم النار ويحرقهم ويجوز ايضا ان يريد بقوله وما امر فرعون برشيد اى وما امره بصالح حميد العاقبة ويكون قوله يقدم قومه تفسيرا لذلك وايضاحا له اى كيف يكون امره رشيدا مع ان عاقبته هكذا فان قيل لم لم يقل يقدم قومه فيوردهم النار بل قال يقدم قومه فأوردهم النار بلفظ الماضى قلنا لان الماضى قدوقع ودخل فى الوجود فلاسبيل البتة الى دفعه فاذا عبر عن المستقبل بلفظ الماضى دل على غاية المبالغة ثم قال وبئس الورد المورود وفيه بحثان (البحث الاول) لفظ النار مؤنث فكان ينبغى ان يقال وبئست الورد المورود الا ان لفظ الورد مذكر فكان التذكير والتأنيث جائزين كما تقول نعم المنزل دارك ونعمت المنزل دارك فمن ذكر غلب المنزل ومن أنث بنى على تأنيث الدار هكذا قاله الواحدى (البحث الثانى) الورد قديكون بمعنى الورود فيكون مصدرا وقديكون بمعنى الوارد قال تعالى ونسوق المجرمين الى جهنم وردا وقديكون بمعنى المورود عليه كالماء الذى يورد عليه قال صاحب الكشاف الورد المورود الذى حصل وروده فشبه الله تعالى فرعون بمن يتقدم الواردة الى الماء وشبه اتباعه بالواردين الى الماء ثم قال بئس الورد الذى يوردونه النار لان الورد انما يراد لتسكين العطش وتبريد الاكباد والنار ضده ثم قال واتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة والمعنى انهم اتبعوا فى هذه الدنيا لعنة وفى يوم القيامة ايضا ومعناه ان اللعن من الله ومن الملائكة والانبياء ملتصق بهم فى الدنيا وفى الآخرة لايزول عنهم ونظيره قوله فى سورة القصص واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ثم قال بئس الرفد المرفود والرفد هو العطية واصله الذى يعين على المطلوب سأل نافع بن الازرق ابن عباس رضى الله عنهما عن قوله بئس الرفد المرفود قال هو اللعنة بعد اللعنة قال قتادة ترادفت عليهم لعنتان من الله تعالى لعنة فى الدنيا ولعنة فى الآخرة وكل شئ جعلته عونا لشئ فقد رفدته به * قوله تعالى (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شئ لما جاء امر ربك وما زادوهم غير تتبيب) اعلم انه تعالى لما ذكر قصص الاولين قال ذلك من أنباء القرى نقصه عليك والفائدة فى ذكرها امور (اولها) ان الانتفاع بالدليل العقلى المحض انما يحصل للانسان الكامل وذلك انما يكون فى غاية الندرة فاما اذا ذكرت الدلائل ثم اكدت بأقاصيص الاولين صار ذكر هذه الاقاصيص كالموصل لتلك الدلائل العقلية الى العقول ( الوجه الثانى ) انه تعالى خلط بهذه الاقاصيص انواع الدلائل التى كان الانبياء عليهم السلام يتمسكون بها ويذكر مدافعات الكفار لتلك الدلائل وشبهاتهم فى دفعها ثم يذكر عقيبها أجوبة الانبياء عنها ثم يذكر عقيبها انهم لما اصروا واستكبروا وقعوا فى عذاب الدنيا وبقى عليهم اللعن والعقاب فى الدنيا وفى الآخرة فكان ذكر هذه القصص سببا لايصال الدلائل والجوابات

لطف المراجعة ورفق الاستنزال والمحافظة على قواعد حسن المجاراة والمحاورة وتمهيد معاقد الحق بطلب التوفيق من جناب الله تعالى والاستعانة به فى اموره وحسم اطماع الكفار واظهار الفراغ عنهم وعدم المبالاة بعاداتهم واماتهديدهم بالرجوع الى الله تعالى للجزاء كما قيل فلالان الانابة انما هى الرجوع الاختيارى بالفعل الى الله تعالى لا الرجوع الاضطرارى للجزاء اوما يعمه ( وياقوم لايجرمنكم ) اى لا يكسبنكم من جرمته ذنبا مثل كسبته مالا ( شقاقى ) معاداتى واصلهما ان احد المتعاديين يكون فى عدوة وشق والآخر فى آخر (ان يصيبكم) مفعول ثان ليجرمنكم اى لايكسبنكم معاداتكم لى ان يصيبكم (مثل ما اصاب قوم نوح) من الغرق ( اوقوم هود ) من الريح ( اوقوم صالح ) من الصيحة والرجفة وقرأ ابن كثير بضم الياء من اجرمته ذنبا اذا جعلته جارماله اى كاسبا وهو منقول من جرم المتعدى الى مفعول واحد كما نقل اكسبه المال من كسب المال فكما لافرق بين كسبته مالا واكسبته اياه لافرق بين جرمته ذنبا واجرمته اياه فى المعنى الا ان الاول اصح وادور على السنة الفصحاء وقرأ ابو حيوة مثل ما اصاب بالفتح لاضافته الى غير متمكن كقوله

لم يمنع الشرب منها غير ان نطقت

* حمامة فى غصون ذات اوقال

وهذا وان كان بحسب الظاهر نهيا للشقاق عن كسب اصابة العذاب لكنه فى الحقيقة نهى للكفرة عن مشاقته (١٧) (را) (خا) عليه السلام على الطف اسلوب وابدعه كما مر فى سورة المائدة عند قوله تعالى ولايجرمنكم شنآن قوم الآية (وماقوم لوط منكم ببعيد) زمانا اومكانا فان لم تعتبروا بمن قبلهم من الامم المعدودة فاعتبروا بهم

فكأنه انما غير اسلوب التحذير بهم ولم يصرح بما اصابهم بل اكتفى بذكر قربهم ايذانا بان ذلك مغن عن ذكره لشهرة كونه منظوما في سمط ماذكر من دواهي الامم الموقومة اوليسوا ببعيد منكم في الكفر ( ١٣٠ ) والمعاصي فلايبعد ان يصيبكم مثل مااصابهم وافراد البعيد

عن الشبهات الى قلوب المنكرين وسببا لازالة القوة والغلظة عن قلوبهم فثبت ان احسن الطرق في الدعوة الى الله تعالى ماذكرناه ( الفائدة الثالثة ) انه عليه السلام كان يذكر هذه القصص من غير مطالعة كتب ولا تلمذ لاحد وذلك معجزة عظيمة تدل على النبوة كما قررناه ( الفائدة الرابعة ) ان الذين يسمعون هذه القصص يتقرر عندهم ان عاقبة الصديق والزنديق والموافق والمنافق الى ترك الدنيا والخروج عنها الا ان المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة والكافر يخرج من الدنيا مع اللعن في الدنيا والعقاب في الآخرة فاذا تكررت هذه الاقاصيص على السمع فلابد وان يلين القلب وتخضع النفس وتزول العداوة ويحصل في القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال فهذا كلام جليل في فوائد ذكر هذه القصص اما قوله ذلك انباء القرى ففيه ابحاث (البحث الاول) ان قوله ذلك اشارة الى الغائب والمراد منه ههنا الاشارة الى هذه القصص التي تقدمت وهي حاضرة الا ان الجواب عنه ماتقدم في قوله ذلك الكتاب لاريب فيه (الثاني) ان لفظ ذلك يشار به الى الواحد والاثنين والجماعة لقوله تعالى لافارض ولابكر عوان بين ذلك وايضا يحتمل ان يكون المراد ذلك الذي ذكرناه هو كذا وكذا (البحث الثالث) قال صاحب الكشاف ذلك مبتدأ من انباء القرى خبر نقصه عليك خبر بعد خبر اي ذلك المذكور بعض انباء القرى مقصوص عليك ثم قال منها قائم وحصيد والضمير في قوله منها يعود الى القرى شبه مابقي من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه وماعفا منها وبطل بالحصيد والمعنى ان تلك القرى بعضها بقي منه شيء وبعضها هلك ومابقي منه اثر البتة ثم قال تعالى وماظلمناهم ولكن ظلموا انفسهم وفيه وجوه (الاول) وماظلمناهم بالعذاب والاهلاك ولكن ظلموا انفسهم بالكفر والمعصية ( الثاني ) ان الذي نزل بالقوم ليس بظلم من الله بل هو عدل وحكمة لاجل ان القوم اولا ظلموا انفسهم بسبب اقدامهم على الكفر والمعاصي فاستوجبوا لاجل تلك الاعمال من الله ذلك العذاب (الثالث) قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد ومانقصناهم من النعيم في الدنيا والرزق ولكن نقصوا حظ انفسهم حيث استخفوا بحقوق الله تعالى ثم قال فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء اي مانفعتهم تلك الآلهة في شيء البتة ثم قال ومازادوهم غير تتبيب قال ابن عباس رضي الله عنهما غير تخسير يقال تب اذا خسر وتببه غيره اذا اوقعه في الخسران والمعنى ان الكفار كانوا يعتقدون في الاصنام انها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضار ثم انه تعالى اخبر انهم عند مساس الحاجة الى المعين ماوجدوا منها شيئا لاجلب نفع ولادفع ضر ثم كما لم يجدوا ذلك فقد وجدوا ضده وهو ان ذلك الاعتقاد زال عنهم به منافع الدنيا والآخرة وجلب اليهم مضار الدنيا والآخرة فكان ذلك من اعظم موجبات الخسران ❁ قوله تعالى (وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ان اخذه أليم شديد ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم

مع تذكيره لان المراد وما اهلاكهم على نية المضاف اووماهم بشيء بعيد لان المقصود افادة عدم بعدهم على الاطلاق لامن حيث خصوصية كونهم قوما اوماهم في زمان بعيد اومكان بعيد ولا يبعد ان يكون ذلك لكونه على زنة المصادر كالنهيق والشهيق ولما انذرهم عليه السلام بسوء عاقبة صنيعهم عقبه طمعا في ارعوائهم عما كانوا فيه يعمهون من طغيانهم بالحمل على الاستغفار والتوبة فقال( واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه) مر تفسير مثله في اول السورة ( ان ربي رحيم ) عظيم الرحمة للتائبين (ودود) مبالغ في فعل مايفعل البليغ المودة بمن بوده من اللطف والاحسان وهذا تعليل للامر بالاستغفار والتوبة وحث عليهما (قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ) الفقه معرفة غرض المتكلم من كلامه اي مانفهم مرادك وانما قالوه بعدما سمعوا منه دلائل الحق المبين على احسن وجه وابلغه وضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل فلم يجدوا الى محاورته سبيلا سوى الصدود عن منهاج الحق والسلوك الى سبيل الشقاء كما هو ديدن المفحم المحجوج يقابل البينات بالسب والابراق والارعاد فجعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ وانواع العلوم والمعارف من قبيل مالا يفهم معناه ولايدرك فحواه وادمجوا في ضمن ذلك ان في تضاعيفه ما يستوجب اقصى مايكون من المؤاخذة والعقاب ولعل ذلك مافيه من التحذير من عواقب الامم السالفة ولذلك قالوا(وانا لنراك فينا ) فيما بيننا (ضعيفا) لاقوة لك ولاقدرة على شيء من الضر والنفع والايقاع والدفع(ولولا رهطك)لولا مراعاة جانبهم لالولاهم يمانعوننا ويدافعوننا (لرجمناك) فان ممانعة الرهط وهو اسم للثلاثة الى السبعة اوالى العشرة لهم وهم الوف مؤلفة ( مشهود )

مشهود ومانؤخره الا لاجل معدود ) وفى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) قرأ عاصم والجحدرى اذ اخذ القرى بألف واحدة وقرأ الباقون بألفين (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى لما اخبر الرسول عليه السلام فى كتابه بما فعل بأمم من تقدم من الانبياء لما خالفوا الرسل وردوا عليهم من عذاب الاستئصال وبين انهم ظلموا انفسهم فحل بهم العذاب فى الدنيا قال بعده وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهى ظالمة فبين ان عذابه ليس بمقتصر على من تقدم بل الحال فى اخذ كل الظالمين يكون كذلك وقوله وهى ظالمة الضمير فيه عائد الى القرى وهو فى الحقيقة عائد الى اهلها ونظيره قوله وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وقوله وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها واعلم انه تعالى لما بين كيفية اخذ الامم المتقدمة ثم بين انه انما يأخذ جميع الظالمين على ذلك الوجه اتبعه بما يزيده تأكيدا وتقوية فقال ان اخذه اليم شديد فوصف ذلك العذاب بالايلام وبالشدة ولامنغصة فى الدنيا الا الالم ولاتشديد فى الدنيا وفى الآخرة وفى الوهم والعقل الاتشديد الالم واعلم ان هذه الآية تدل على ان من اقدم على ظلم فانه يجب عليه ان يتدارك ذلك بالتوبة والانابة لئلا يقع فى الاخذ الذى وصفه الله تعالى بانه اليم شديد ولا ينبغى ان يظن ان هذه الاحكام مختصة بأولئك المتقدمين لانه تعالى لما حكى احوال المتقدمين قال وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهى ظالمة فبين ان كل من شارك اولئك المتقدمين فى فعل مالا ينبغى فلابد وان يشاركهم فى ذلك الاخذ الاليم الشديد ثم قال تعالى ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة قال القفال تقرير هذا الكلام ان يقال ان هؤلاء انما عذبوا فى الدنيا لاجل تكذيبهم الانبياء واشراكهم بالله فاذا عذبوا فى الدنيا على ذلك وهى دار العمل فلان يعذبوا عليه فى الآخرة التى هى دار الجزاء كان اولى واعلم ان كثيرا ممن تنبه لهذا البحث من المفسرين عولوا على هذا الوجه بل هو ضعيف وذلك لان على هذا الوجه الذى ذكره القفال يكون ظهور عذاب الاستئصال فى الدنيا دليلا على ان القول بالقيامة والبعث والنشر حق وصدق وظاهر الآية يقتضى ان العلم بان القيامة حق كالشرط فى حصول الاعتبار بظهور عذاب الاستئصال وهذا المعنى كالمضاد لما ذكره القفال لان القفال يجعل العلم بعذاب الاستئصال اصلا للعلم بان القيامة حق فبطل ماذكره القفال والاصوب عندى ان يقال العلم بان القيامة حق موقوف على العلم بان المدبر لوجود هذه السموات والارضين فاعل مختار لاموجب بالذات ومالم يعرف الانسان ان اله العالم فاعل مختار وقادر على كل الممكنات وان جميع الحوادث الواقعة فى السموات والارضين لاتحصل الابتكوينه وقضائه لايمكنه ان يعتبر بعذاب الاستئصال وذلك لان الذين يزعمون ان المؤثر فى وجود هذا العالم موجب بالذات لافاعل مختار يزعمون ان هذه الاحوال التى ظهرت فى ايام الانبياء مثل الغرق والحرق والخسف والمسخ والصيحة كلها انما حدثت بسبب قرانات الكواكب واتصال بعضها ببعض واذا كان الامر كذلك فحينئذ لايكون

بمالايكادبشوهم وقدايدذلك بقوله عز وجل ( ومالنت علينا بعزيز ) مكرم محترم حتى نمتنع من رجمك وانمانكف عنه للمحافظة على حرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا ( ١٣١ ) ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا وايلاء الضمير حرف النفى وان لم يكن الخبر فعليا غير خال عن الدلالة على رجوع النفى الى الفاعل دون الفعل لاسيما مع قرينة قوله ولولا رهطك كأنه قيل وما انت علينا بعزيز بل رهطك هم الاعزة علينا وحيث كان غرضهم من عظيمتهم هذه عائدا الى نفى مافيه عليه السلام من القوة والعزة الربانيتين حسبما يوجبه كونه على بينة من ربه مؤيدا من عنده ويقتضيه قضية طلب التوفيق منه والتوكل عليه والانابة اليه والى اسقاط ذلك كله عن درجة الاعتداد به والاعتبار (قال) عليه السلام فى جوابهم (ياقوم أرهطى اعز عليكم من الله) فان الاستهانة بمن لايتعزز الا به عز وجل استهانة بجنابه العزيز وانما انكر عليهم اعزية رهطه منه تعالى مع ان ماأثبتوه انما هو مطلق عزة رهطه لا اعزيتهم منه عز وجل مع الاشتراك فى اصل العزة لتثنية التقريع وتكرير التوبيخ حيث انكر عليهم اولا ترجيح جنبة الرهط على جنبة الله تعالى وثانيا بنفى العزة بالمرة والمعنى ارهطى اعز عليكم من الله فانه مما لايكاد يصح والحال انكم لم تجعلوا له تعالى حظا من العزة اصلا (واتخذتموه) بسبب عدم اعتدادكم بمن لايرد ولايصدر الا بأمره (وراءكم ظهريا) اى شيئا منبوذا وراء الظهر منسيا لايبالى به منسوب الى الظهر والكسر لتغيير النسب كالامسى فى النسبة الى الامس (ان ربى بما تعملون) من الاعمال السيئة التى من جملتها عدم مراعاتكم لجانبه (محيط) لايخفى عليه منها خافية وان جعلتموه منسيا فيجازيكم عليها ويحتمل ان يكون الانكار للرد والتكذيب فانهم لما ادعوا انهم لايكفون عن رجمه عليه السلام لقوته وعزته بل لمراعاة جانب رهطه رد عليهم ذلك بأنكم ماقدرتم الله حق قدره العزيز ولم تراعوا جنابه القوى فكيف تراعون جانب رهطى الاذلة (وياقوم اعملوا) لما رأى عليه السلام اصرارهم على الكفر وانهم لايرعوون

عما هم عليه من المعاصى حتى اجترؤا على العظيمة التى هى الاستهانة به والعزيمة على رجمه لولاحرمة رهطه قال لهم على طريقة التهديد اعملوا ( على مكانتكم ) اى على غاية تمكنكم واستطا ( ١٣٢ ) عنكم يقال مكن مكانة اذا تمكن ابلغ التمكن وانما قاله عليه السلام ردا لما ادعوا انهم اقوياء قادرون على رجمه وانه ضعيف فيما بينهم لاعزة له اوعلى ناحيتكم وجهتكم التى انتم عليها من قولهم مكان ومكانة كمقام ومقامة والمعنى اثبتوا على ما انتم عليه من الكفر والمشاقة لى وسائر ما انتم عليه مما لاخير فيه وابذلوا جهدكم فى مضارتى وايقاع ما فى نيتكم واخراج ما فى امنيتكم من القوة الى الفعل (انى عامل) على مكانتى حسبما يؤيدنى الله ويوفقنى بأنواع التأييد والتوفيق ( سوف تعلمون ) لما هددهم عليه السلام بقوله اعملوا على مكانتكم انى عامل كان مظنة ان يسأل منهم سائل فيقول فاذا يكون بعد ذلك فقيل سوف تعلمون (من يأتيه عذاب يخزيه) وصف العذاب بالاخزاء تعريضا بما اوعدوه عليه السلام به من الرجم فانه مع كونه عذابا فيه خزى ظاهر حيث لايكون الا بجناية عظيمة توجبه (ومن هو كاذب) عطف على من يأتيه لا على انه قسيمه بل حيث اوعدوه بالرجم وكذبوه قيل سوف تعلمون من المعذب ومن الكاذب وفيه تعريض بكذبهم فى ادعائهم القوة والقدرة على رجمه عليه السلام وفى نسبته الى الضعف والهوان وفى ادعائهم الابقاء عليه لرعاية جانب الرهط والاختلاف بين المعطوفين بالفعلية والاسمية لان كذب الكاذب ليس بمترقب كاتيان العذاب بل انما المترقب ظهور الكذب السابق المستمر ومن اما استفهامية معلقة للعلم عن العمل كأنه قيل سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه واينا

حصولها دليلا على صدق الانبياء فأما الذى يؤمن بالقيامة فلايتم ذلك الايمان الا اذا اعتقد ان اله العالم فاعل مختار وانه عالم بجميع الجزئيات واذا كان الامر كذلك لزم القطع بان حدوث هذه الحوادث الهائلة والوقائع العظيمة انما كان بسبب ان اله العالم خلقها واوجدها وانها ليست بسبب طوالع الكواكب وقراناتها وحينئذ ينتفع بسماع هذه القصص ويستدل بها على صدق الانبياء فثبت بهذا صحة قوله ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ثم قال تعالى ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود واعلم انه تعالى لما ذكر الآخرة وصف ذلك اليوم بوصفين (احدهما) انه يوم مجموع له الناس والمعنى ان خلق الاولين والآخرين كلهم يحشرون فى ذلك اليوم ويجمعون ( والثانى ) انه يوم مشهود قال ابن عباس رضى الله عنهما يشهده البر والفاجر وقال آخرون يشهده اهل السماء واهل الارض والمراد من الشهود الحضور والمقصود من ذكره انه ربما وقع فى قلب انسان انهم لما جمعوا فى ذلك الوقت لم يعرف كل احد الا واقعة نفسه فبين تعالى ان تلك الوقائع تصير معلومة للكل بسبب المحاسبة والمساءلة ثم قال تعالى وما نؤخره الا لاجل معدود والمعنى ان تأخير الآخرة وافناء الدنيا موقوف على اجل معدود وكل ماله عدد فهو متناه وكل ما كان متناهيا فانه لابد وان يفنى فيلزم ان يقال ان تأخير الآخرة سينتهى الى وقت لابد وان يقيم الله القيامة فيه وان تخرب الدنيا فيه وكل ما هو آت قريب ❊قوله تعالى (يوم يأتى لاتكلم نفس الا باذنه فمنهم شقى وسعيد فاما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والارض الاماشاء ربك ان ربك فعال لما يريد واما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الاماشاء ربك عطاء غير مجذوذ ) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابو عمرو وعاصم وحمزة يأت بحذف الياء والباقون باثبات الياء قال صاحب الكشاف وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير فى لغة هذيل ونحوه قولهم لاادر حكاه الخليل وسيبويه ( المسئلة الثانية ) قال صاحب الكشاف فاعل يأتى هو الله تعالى كقوله هل ينظرون الا ان يأتيهم الله وقوله او يأتى ربك ويعضده قراءة من قرأ وما يؤخره بالياء اقول لايعجبنى هذا التأويل لان قوله هل ينظرون الا ان يأتيهم الله حكاه الله تعالى عن اقوام والظاهر انهم هم اليهود وذلك ليس فيه حجة وكذا قوله او يأتى ربك اما ههنا فهو صريح كلام الله تعالى واسناد فعل الاتيان اليه مشكل فان قالوا فاقولك فى قوله تعالى وجاء ربك قلنا هناك تأويلات وايضا فهو صريح فلا يمكن دفعه فوجب المصير الى التأويل اما ههنا فليس اللفظ صريحا فى اسناد الاتيان الى الله تعالى فوجب الامتناع منه بل الواجب ان يقال المراد منه يوم يأتى الشىء المهيب الهائل المستعظم فحذف الله تعالى ذكره بتعيينه ليكون اقوى فى التخويف ( المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف العامل فى انتصاب الظرف هو قوله لاتكلم او اضمار اذكر اما قوله لاتكلم نفس الا باذنه ففيه حذف والتقدير لاتكلم نفس فيه الا باذن الله تعالى فان

كاذب واما موصولة اى سوف تعرفون الذى يأتيه عذاب والذى هو كاذب (وارتقبوا) وانتظروا مآل ما اقول (قيل) ( انى معكم رقيب ) منتظر فعيل بمعنى الراقب كالصريم او المراقب كالعشير او المرتقب كالرفيع وفى زيادة معكم اظهار منه

عليه السلام لكمال الوثوق بامره (ولما جاء امرنا) اى عذابنا كما ينبئ عنه قوله تعالى سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه او وقته فان الارتقاب مؤذن بذلك (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا) (١٣٣) وهى الايمان الذى وفقناهم له او برحمة كائنة منا لهم وانما

قيل كيف الجمع بين هذه الآية وبين سائر الآيات التى توهم كونها مناقضة لهذه الآية منها قوله تعالى يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ومنها انهم يكذبون ويحلفون بالله عليه وهو قولهم والله ربنا ما كنا مشركين ومنها قوله تعالى وقفوهم انهم مسؤلون ومنها قوله هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون والجواب من وجهين (الاول) انه حيث ورد المنع من الكلام فهو محمول على ذكر الاعذار الكاذبة الباطلة وحيث ورد الاذن فى الكلام فهو محمول على الجوابات الحقية الصحيحة (الثانى) ان ذلك اليوم يوم طويل وله مواقف ففى بعضها يجادلون عن انفسهم وفى بعضها يكفون عن الكلام وفى بعضها يؤذن لهم فيتكلمون وفى بعضها يختم على افواههم وتتكلم ايديهم وتشهد ارجلهم اما قوله فنهم شقى وسعيد ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الضمير فى قوله فنهم لاهل الموقف ولم يذكر لانه معلوم ولان قوله لا تكلم نفس الا باذنه يدل عليه لانه قد مر ذكر الناس فى قوله مجموع له الناس (المسئلة الثانية) قوله فنهم شقى وسعيد يدل ظاهره على ان أهل الموقف لا يخرجون عن هذين القسمين فان قيل أليس فى الناس مجانين واطفال وهم خارجون عن هذين القسمين قلنا المراد من يحشر ممن اطلق للحساب وهم لا يخرجون عن هذين القسمين فان قيل قد احتج القاضى بهذه الآية على فساد ما يقال ان اهل الاعراف لا فى الجنة ولا فى النار فا قولكم فيه قلنا لما سلم ان الاطفال والمجانين خارجون عن هذين القسمين لانهم لا يحاسبون فلم لا يجوز ايضا ان يقال ان اصحاب الاعراف خارجون عنه لانهم ايضا لا يحاسبون لان الله تعالى علم من حالهم ان ثوابهم يساوى عذابهم فلا فائدة فى حسابهم فان قيل القاضى استدل بهذه الآية ايضا على ان كل من حضر عرصة القيامة فانه لابد وان يكون ثوابه زائدا او يكون عقابه زائدا فأما من كان ثوابه مساويا لعقابه فانه وان كان جائزا فى العقل الا ان هذا النص دل على انه غير موجود قلنا الكلام فيه ما سبق من ان السعيد هو الذى يكون من اهل الثواب والشقى هو الذى يكون من اهل العقاب وتخصيص هذين القسمين بالذكر لا يدل على نفى القسم الثالث والدليل على ذلك ان اكثر الآيات مشتملة على ذكر المؤمن والكافر فقط وليس فيه ذكر ثالث لا يكون لا مؤمنا ولا كافرا مع ان القاضى اثبته فاذا لم يلزم من عدم ذكر ذلك الثالث عدمه فكذلك لا يلزم من ذكر هذا الثالث عدمه (المسئلة الثالثة) اعلم انه تعالى حكم الآن على بعض اهل القيامة بانه سعيد وعلى بعضهم بانه شقى ومن حكم الله عليه بحكم وعلم منه ذلك الامر امتنع كونه بخلافه والا لزم ان يصير خبر الله تعالى كذبا وعلمه جهلا وذلك محال فثبت ان السعيد لا ينقلب شقيا وان الشقى لا ينقلب سعيدا وتقرير هذا الدليل مر فى هذا الكتاب مرارا لا تحصى وروى عن عمر رضى الله عنه انه قال لما نزل قوله تعالى فنهم شقى وسعيد قلت يا رسول الله فعلى ماذا نعمل على شئ قد فرغ منه ام على شئ لم يفرغ منه فقال على شئ قد فرغ منه يا عمر وجفت به الاقلام وجرت به الاقدار ولكن كل ميسر لما خلق له وقالت المعتزلة نقل عن الحسن انه

ذكر بالواو كما فى قصة عاد لما انه لم يسبقه فيها ذكر وعد يجرى مجرى السبب المقتضى لدخول الفاء فى معلوله كما فى قصتى صالح ولوط فانه قد سبق هنالك سابقة الوعد بقوله ذلك وعد غير مكذوب وقوله ان موعدهم الصبح (وأخذت الذين ظلموا) عدل اليه عن الضمير تسجيلا عليهم بالظلم واشعارا بأن ما اخذهم انما اخذهم بسبب ظلمهم الذى فصل فيما سبق فنونه (الصيحة) قيل صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا وفى سورة الاعراف فأخذتهم الرجفة وفى سورة العنكبوت فاخذتهم الرجفة اى الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء المفضى اليها كما مر فيما قبل (فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) ميتين لازمين لاماكنهم لا براح لهم منها ولما لم يجعل متعلق العلم فى قوله تعالى سوف تعلمون من يأتيه عذاب الخ نفس مجئ العذاب بل من يجيئه ذلك جعل مجيئه بعد ذلك امرا مسلم الوقوع غنيا عن الاخبار به حيث جعل شرطا وجعل تنجية شعيب عليه السلام واهلاك الكفرة جوابا له ومقصود الافادة وانما تقدم تنجيته اهتماما بشأنها وايذانا بسبق الرحمة التى هى مقتضى الربوبية على الغضب الذى يظهر اثره بموجب جرائرهم وجرائمهم (كأن لم يغنوا) اى لم يقيموا (فيها) متصرفين فى اطرافها متقلبين فى اكنافها (الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) العدول عن الاضمار الى الاظهار ليكون ادل على طغيانهم الذى اداهم الى هذه المرتبة وليكون انسب بمن شبه هلاكهم بهلاكهم اعنى ثمود وانما شبه هلاكهم بهلاكهم لانهما اهلكتا بنوع من العذاب وهو الصيحة غير ان هؤلاء صيح بهم من فوقهم واولئك من تحتهم وقرئ بعدت بالضم على الاصل فان الكسر تغيير لتخصيص معنى البعد بما يكون سبب الهلاك والبعد مصدر لهما والبعد مصدر للمكسور (ولقد ارسلنا موسى بآياتنا)

وهى الآيات التسع المفصلات التى هى العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات والانفس
ومنهم من جعلهما آية واحدة وعدمنها اظلال الجبل وليس ( ١٣٤ ) كذلك فانه لقبول احكام التوراة حين اباها بنو اسرائيل والباء

قال فمنهم شقى بعمله وسعيد بعمله قلنا الدليل القاطع لا يدفع بهذه الروايات وايضا فلا نزاع انه انما شقى بعمله وانما سعد بعمله ولكن لما كان ذلك العمل حاصلا بقضاء الله وقدره كان الدليل الذى ذكرناه باقيا واعلم انه تعالى لما قسم اهل القيامة الى هذين القسمين شرح حال كل واحد منهما فقال فاما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا فى الفرق بين الزفير والشهيق وجوها (الاول) قال الليث الزفير أن يملأ الرجل صدره حال كونه فى الغم الشديد من النفس ولم يخرجه والشهيق ان يخرج ذلك النفس وقال الفراء يقال للفرس انه عظيم الزفرة اى عظيم البطن واقول ان الانسان اذا عظم غمه انحصر روح قلبه فى داخل القلب فاذا انحصر الروح قويت الحرارة وعظمت وعند ذلك يحتاج الانسان الى النفس القوى لاجل ان يستدخل هواء كثيرا باردا حتى يقوى على ترويح تلك الحرارة فلهذا السبب يعظم فى ذلك الوقت استدخال الهواء فى داخل البدن وحينئذ يرتفع صدره وينتفخ جنباه ولما كانت الحرارة الغريزية والروح الحيوانى محصورا فى داخل القلب استولت البرودة على الاعضاء الخارجة فربما عجزت آلات النفس عن دفع ذلك الهواء الكثير المستنشق فيبقى ذلك الهواء الكثير منحصرا فى الصدر ويقرب من أن يختنق الانسان منه وحينئذ تجتهد الطبيعة فى اخراج ذلك الهواء فعلى قياس قول الاطباء الزفير هو استدخال الهواء الكثير لترويح الحرارة الحاصلة فى القلب بسبب انحصار الروح فيه والشهيق هو اخراج ذلك الهواء عند مجاهدة الطبيعة فى اخراجه وكل واحدة من هاتين الحالتين تدل على كرب شديد وغم عظيم (الوجه الثانى) فى الفرق بين الزفير والشهيق قال بعضهم الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار بالنهيق واما الشهيق فهو بمنزلة آخر صوت الحمار (الوجه الثالث) قال الحسن قد ذكرنا ان الزفير عبارة على الارتفاع فنقول الزفير لهيب جهنم يرفعهم بقوته حتى اذا وصلوا الى اعلى درجات جهنم وطمعوا فى ان يخرجوا منها ضربتهم الملائكة بمقامع من حديد ويردونهم الى الدرك الاسفل من جهنم وذلك قوله تعالى كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها فارتفاعهم فى النار هو الزفير وانحطاطهم مرة اخرى هو الشهيق (الوجه الرابع) قال ابو مسلم الزفير ما يجتمع فى الصدر من النفس عند البكاء الشديد فينقطع النفس والشهيق هو الصوت الذى يظهر عند اشتداد الكربة والحزن وربما تبعتهما الغشية وربما حصل عقيبه الموت (الوجه الخامس) قال ابو العالية الزفير فى الحلق والشهيق فى الصدر (الوجه السادس) قال قوم الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف (الوجه السابع) قال ابن عباس رضى الله عنهما لهم فيها زفير وشهيق يريد ندامة ونفسا عاليا وبكاء لا ينقطع وحزنا لا يندفع (الوجه الثامن) الزفير مشعر بالقوة والشهيق بالضعف على ما قررناه بحسب اللغة اذا عرفت هذا فنقول لم يبعد ان يكون المراد من الزفير قوة ميلهم الى عالم الدنيا والى اللذات الجسمانية والمراد من الشهيق ضعفهم عن الاستسعاد

متعلقة بمحذوف وقع حالا من مفعول ارسلنا او نعتا لمصدره المؤكد اى ارسلناه حال كونه ملتبسا بآياتنا او ارسلناه ارسالا ملتبسا بها (وسلطان مبين) هو المعجزات الباهرة منها او هو العصا والافراد بالذكر لاظهار شرفها لكونها ابهرها او المراد بالآيات ماعداها او هما عبارتان عن شئ واحد اى ارسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وبين كونه سلطانا له على نبوته واضحا فى نفسه او موضحا اياها من ابان لازما ومتعديا او هو الغلبة والاستيلاء كقوله تعالى ونجعل لكما سلطانا ويجوز ان يكون المراد ما بينه عليه السلام فى تضاعيف دعوته حين قال له فرعون من ربكما فما بال القرون الاولى من الحقائق الرائقة والدقائق اللائقة وجعله عبارة عن التوراة وادراجها فى جملة الآيات يرده قوله عز وجل (الى فرعون وملئه) فان نزولها انما كان بعد مهلك فرعون وقومه قاطبة ليعمل بها بنو اسرائيل فيما يأتون وما يذرون واما فرعون وقومه فانما كانوا مأمورين بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة الشنعاء التى كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية وبارسال بنى اسرائيل من الاسر والقسر وتخصيص ملئه بالذكر مع عموم رسالته عليه السلام لقومه كافة لاصالتهم فى الرأى وتدبير الامور واتباع غيرهم لهم فى الورود والصدور وانما لم يصرح بكفر فرعون بآيات الله تعالى وانهماكه فيما كان عليه من الضلال والاضلال بل اقتصر على ذكر شأن ملئه فقيل (فاتبعوا امر فرعون) اى امره بالكفر بما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين للايذان بوضوح حاله فكأن كفره وامر ملئه بذلك امر محقق الوجود (بعالم) غير محتاج الى الذكر صريحا وانما المحتاج الى ذلك شأن ملئه المترددين بين هاد الى الحق وداع الى الضلال فنعى عليهم سوء اختيارهم

وايراد الفاء فى اتباعهم المترتب على امر فرعون المبنى على كفره المسبوق بتبليغ الرسالة للاشعار بمفاجأتهم فى الاتباع ومسارعة فرعون الى الكفر وامرهم به وكان ذلك كله لم يتراخ عن الارسال ( ١٣٥ ) والتبليغ بل وقع جميع ذلك فى وقت واحد فوقع اثر ذلك اتباعهم ويجوز ان يراد بامر فرعون شأنه المشهور وطريقته الزائغة فيكون معنى فاتبعوا فاستمروا على الاتباع والفاء مثل مافى قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر فان الاتيان بالشئ بعد ورود مايوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث فتأمل وترك الاضمار لدفع توهم الرجوع الى موسى عليه السلام من اول الامر ولزيادة تقبيح حال المتبعين فان فرعون علم فى الفساد والافساد والضلال والاضلال فاتباعه لفرط الجهالة وعدم الاستبصار وكذا الحال فى قوله تعالى (وما امر فرعون برشيد ) الرشد ضد الغى وقد يراد به محمودية العاقبة وعلى الاول بمعنى المرشد او ذى الرشد حقيقة لغوية والاسناد مجازى وعلى الثانى مجاز والاسناد حقيقى ( يقدم قومه ) جميعا من الاشراف وغيرهم ( يوم القيامة ) اى يتقدمهم من قدمه بمعنى تقدمه وهو استئناف لبيان حاله فى الآخرة اى كما كان قدوة لهم فى الضلال كذلك يتقدمهم الى النار وهم يتبعونه اولتوضيح عدم صلاح مآل امره وسوء عاقبته ( فاوردهم النار ) اى يوردهم وايثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع لامحالة شبه فرعون بالفارط الذى يتقدم الواردة الى الماء واتباعه بالواردة والنار بالماء الذى يردونه ثم قيل ( وبئس الورد المورود ) اى بئس الورد الذى يردونه النار لان الورد انما يراد لتسكين العطش وتبريد الاكباد والنار على ضد ذلك ( واتبعوا ) اى الملأ الذين اتبعوا امر فرعون (فى هذه) اى فى الدنيا (لعنة) عظيمة حيث يلعنهم من بعدهم من الامم الى يوم القيامة ( ويوم القيامة ) ايضا حيث يلعنهم اهل الموقف قاطبة فهى تابعة لهم حيثما ساروا دائرة معهم اينما داروا فى الموقف

بعالم الروحانية والاستكمال بالانوار الالهية والمعارج القدسية ثم قال تعالى خالدين فيها مادامت السموات والارض الاماشاء ربك وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال قوم ان عذاب الكفار منقطع وله نهاية واحتجوا بالقرآن والمعقول أما القرآن فآيات منها هذه الآية والاستدلال بها من وجهين ( الاول ) انه تعالى قال مادامت السموات والارض دل هذا النص على ان مدة عقابهم مساوية لمدة بقاء السموات والارض ثم توافقنا على ان مدة بقاء السموات والارض متناهية فلزم ان تكون مدة عقاب الكفار منقطعة (الثانى) ان قوله الاماشاء ربك استثناء من مدة عقابهم وذلك يدل على زوال ذلك العذاب فى وقت هذا الاستثناء ومما تمسكوا به ايضا قوله تعالى فى سورة عم يتساءلون لابثين فيها أحقابا بين تعالى ان لبثهم فى ذلك العذاب لايكون الاأحقابا معدودة وأما العقل فوجهان (الاول) ان معصية الكافر متناهية ومقابلة الجرم المتناهى بعقاب لانهاية له ظلم وانه لايجوز (الثانى) ان ذلك العقاب ضرر خال عن النفع فيكون قبيحا بيان خلوه عن النفع ان ذلك النفع لايرجع الى الله تعالى لكونه متعاليا عن النفع والضرر ولاالى ذلك المعاقب لانه فى حقه ضرر محض ولاالى غيره لان اهل الجنة مشغولون بلذاتهم فلافائدة لهم فى الالتذاذ بالعذاب الدائم فى حق غيرهم فثبت ان ذلك العذاب ضرر خال عن جميع جهات النفع فوجب ان لايجوز واما الجمهور الاعظم من الامة فقد اتفقوا على ان عذاب الكافر دائم وعند هذا احتاجوا الى الجواب عن التمسك بهذه الآية اما قوله خالدين فيها مادامت السموات فذكروا عنه جوابين ( الاول ) قالوا المراد سموات الآخرة وأرضها قالوا والدليل على ان فى الآخرة سماء وارضا قوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وقوله وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وايضا لابد لاهل الآخرة ممايقلهم و يظلهم وذلك هو الارض والسموات ولقائل ان يقول التشبيه انما يحسن ويجوز اذا كان حال المشبه به معلوما مقررا فيشبه به غيره تأكيدا لثبوت الحكم فى المشبه ووجود السموات والارض فى الآخرة غير معلوم وبتقدير ان يكون وجوده معلوما الاان بقاءها على وجه لايفنى البتة غير معلوم فاذا كان أصل وجودهما مجهولا لاكثر الخلق ودوامها ايضا مجهولا للاكثر كان تشبيه عقاب الاشقياء به فى الدوام كلاما عديم الفائدة أقصى مافى الباب ان يقال لما ثبت بالقرآن وجود سموات وأرض فى الآخرة وثبت دوامهما وجب الاعتراف به وحينئذ يحسن التشبيه الاأنا نقول لما كان الطريق فى اثبات دوام سموات اهل الآخرة ودوام أرضهم هو السمع ثم السمع دل على دوام عقاب الكافر فحينئذ الدليل الذى دل على ثبوت الحكم فى الاصل حاصل بعينه فى الفرع وفى هذه الصورة اجمعوا على ان القياس ضائع والتشبيه باطل فكذا ههنا (والوجه الثانى) فى الجواب قالوا ان العرب يعبرون عن الدوام والابد بقولهم مادامت السموات والارض ونظيره أيضا قولهم مااختلف الليل والنهار وماطما البحر وماأقام

الجبل وانه تعالى خاطب العرب على عرفهم فى كلامهم فلما ذكروا هذه الاشياء بناء على اعتقادهم انها باقية ابد الآباد علمنا ان هذه الالفاظ بحسب عرفهم تفيد الابد والدوام الخالى عن الانقطاع ولقائل ان يقول هل تسلمون ان قول القائل خالدين فيها مادامت السموات والارض يمنع من بقائها موجودة بعد فناء السموات او تقولون انه لايدل على هذا المعنى فان كان الاول فالاشكال لازم لان النص لما دل على انه يجب ان تكون مدة كونهم فى النار مساوية لمدة بقاء السموات ويمنع من حصول بقائهم فى النار بعد فناء السموات ثم ثبت انه لابد من فناء السموات فعندها يلزمكم القول بانقطاع ذلك العقاب واما ان قلتم هذا الكلام لايمنع بقاء كونهم فى النار بعد فناء السموات والارض فلا حاجة بكم الى هذا الجواب البتة فثبت ان هذا الجواب على كلا التقديرين ضائع واعلم ان الجواب الحق عندى فى هذا الباب شئ آخر وهو ان المعهود من الآيه انه متى كانت السموات والارض دائمتين كان كونهم فى النار باقيا فهذا يقتضى ان كلما حصل الشرط حصل المشروط ولا يقتضى انه اذا عدم الشرط يعدم المشروط الاترى انا نقول ان كان هذا انسانا فهو حيوان فان قلنا لكنه انسان فانه ينتج انه حيوان اما اذا قلنا لكنه ليس بانسان لم ينتج انه ليس بحيوان لانه ثبت فى علم المنطق ان استثناء نقيض المقدم لاينتج شيئا فكذا ههنا اذا قلنا متى دامت السموات دام عقابهم فاذا قلنا لكن السموات دائمة لزم ان يكون عقابهم حاصلا اما اذا قلنا لكنه مابقيت السموات لم يلزم عدم دوام عقابهم فان قالوا فاذا كان العقاب حاصلا سواء بقيت السموات اولم تبق لم يبق لهذا التشبيه فائدة قلنا بل فيه اعظم الفوائد وهو انه يدل على نفاذ ذلك العذاب دهرا داهرا وزمانا لايحيط العقل بطوله وامتداده فاما انه هل يحصل له آخر ام لا فذلك يستفاد من دلائل اخر وهذا الجواب الذى قررته جواب حق ولكنه انما يفهمه انسان الف شيئا من المعقولات (واما الشبهة الثانية) وهى التمسك بقوله تعالى الا ماشاء ربك فقد ذكروا فيه انواعا من الاجوبة (الوجه الاول) فى الجواب وهو الذى ذكره ابن قتيبة وابن الانبارى والفراء قالوا هذا استثناء استثناه الله تعالى ولا يفعله البتة كقولك والله لاضربنك الا ان ارى غير ذلك مع ان عزيمتك تكون على ضربه فكذا ههنا وطولوا فى تقرير هذا الجواب وفى ضرب الامثلة فيه وحاصله ماذكرناه ولقائل ان يقول هذا ضعيف لانه اذا قال لاضربنك الا ان ارى غير ذلك معناه لاضربنك الا اذا رأيت ان الاولى ترك الضرب وهذا لايدل البتة على ان هذه الرؤية قد حصلت ام لا بخلاف قوله خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك فان معناه الحكم بخلودهم فيها الا المدة التى شاء ربك فههنا اللفظ يدل على ان هذه المشيئة قد حصلت جزما فكيف يحصل قياس هذا الكلام على ذلك الكلام ( الوجه الثانى ) فى الجواب ان يقال ان كلمة الا ههنا وردت بمعنى سوى والمعنى انه تعالى لما قال خالدين فيها مادامت السموات والارض فهم منه انهم يكونون فى النار فى جميع مدة بقاء السموات

فكما اتبعوا فرعون اتبعتهم اللعنة فى الدارين جزاء وفاقا واكتفى ببيان حالهم الفظيع وشانهم الشنيع عن بيان حال فرعون اذ حين كان حالهم هكذا فما ظنك بحال من اغواهم والقاهم فى هذا ( ١٣٦ ) الضلال البعيد وحيث كان شأن الاتباع ان يكونوا اعوانا للمتبوع جعلت اللعنة وفدا لهم على طريقة التهكم فقيل ( بئس الرفد المرفود ) اى بئس العون المعان وقد فسر الرفد بالعطاء ولا يلائمه المقام وأصله مايضاف الى غيره ليعمده والمخصوص بالذم محذوف اى رفدهم وهى اللعنة فى الدارين وكونه مرفودا من حيث ان كل لعنة منها معينة وممدة لصاحبتها ومؤيدة لها ( ذلك ) اشارة الى ماقص من انباء الامم وبعده باعتبار تقضيه فى الذكر والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره ( من انباء القرى ) المهلكة بماجنته أيدى أهلها ( نقصه عليك ) خبر بعد خبر اى ذلك النبأ بعض انباء القرى مقصوص عليك ( منها ) اى من تلك القرى ( قائم وحصيد ) اى ومنها حصيد حذف لدلالة الاول عليه شبه مابقى منها بالزرع القائم على ساقه وماعفا وبطل بالحصيد والجملة مستأنفة لامحل لها من الاعراب ( وماظلمناهم ) بأن اهلكناهم ( ولكن ظلموا أنفسهم ) بأن جعلوها عرضة للهلاك باقتراف مايوجبه ( فما اغنت عنهم ) فما نفعتهم ولا دفعت بأس الله تعالى عنهم ( آلهتهم التى يدعون ) اى يعبدونها ( من دون الله ) اوثر صيغة المضارع حكاية للحال الماضية او دلالة على استمرار عبادتهم لها ( من شئ ) فى موضع المصدر اى شيأ من الاغناء ( لما جاء امر ربك ) اى حين مجئ عذابه وهو منصوب بأغنت وقرئ آلهتهم اللاتى ويدعون على البناء للمجهول ( وما زادوهم غير تتبيب ) اى اهلاك وتخسير فانهم انما هلكوا وخسروا بسبب عبادتهم لها ( وكذلك ) اى ومثل ذلك الاخذ الذى مر بيانه وهو رفع على الابتداء وخبره قوله ( أخذ ربك ) وقرئ أخذ ربك فمحل الكاف النصب على انه مصدر مؤكد ( اذا أخذ القرى ) اى اهلها وانما اسند اليها للاشعار بسريان أثره اليها (والارض)

حسبما ذكر وقرئ اذاخذ (وهى ظالمة) حال من القرى وهى في الحقيقة لاهلها لكنها لما اقيمت مقامهم في الاخذ اجريت الحال عليها وفائدتها الاشعار بأنهم انما اخذوا بظلمهم ليكون (١٣٧) ذلك عبرة لكل ظالم (ان اخذه اليم شديد) وجيع صعب على المأخوذ

والارض في الدنيا ثم قال سوى مايتجاوز ذلك من الخلود الدائم فذكر أولا في خلودهم ماليس عند العرب أطول منه ثم زاد عليه الدوام الذى لاآخرله بقوله الاماشاء ربك والمعنى الاماشاء ربك من الزيادة التى لاآخرلها (الوجه الثالث) في الجواب وهوان المراد من هذه الاستثناء زمان وقوفهم في الموقف فكأنه تعالى قال فأما الذين شقوا ففي النار الاوقت وقوفهم للمحاسبة فانهم في ذلك لايكونون في النار وقال ابوبكر الاصم المراد الاماشاء ربك وهو حال كونهم في القبر أو المراد الاماشاء ربك حال عمرهم في الدنيا وهذه الاقوال الثلاث متقاربة والمعنى خالدين فيها بمقدار مكثهم في الدنيا أو في البرزخ أومقدار وقوفهم للحساب ثم يصيرون الى النار (الوجه الرابع) في الجواب قالوا الاستثناء يرجع الى قوله لهم فيها زفير وشهيق وتقريره ان نقول قوله لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها يفيد حصول الزفير والشهيق مع الخلود فاذا دخل الاستثناء عليه وجب ان يحصل وقت لايحصل فيه هذا المجموع لكنه ثبت في المعقولات انه كما ينتفى المجموع بانتفاء جميع أجزائه فكذلك ينتفى بانتفاء فرد واحد من اجزائه فاذا انتهوا آخر الامر الى ان يصيروا ساكنين هامدين خامدين فحينئذ لم يبق لهم زفير وشهيق فانتفى احد اجزاء ذلك المجموع فحينئذ يصح ذلك الاستثناء من غير حاجة الى الحكم بانقطاع كونهم في النار (الوجه الخامس) في الجواب ان يحمل هذا الاستثناء على ان اهل العذاب لايكونون ابدا في النار بل قد ينقلون الى البرد والزمهرير وسائر انواع العذاب وذلك يكفى في صحة هذا الاستثناء (الوجه السادس) في الجواب قال قوم هذا الاستثناء يفيد اخراج أهل التوحيد من النار لان قوله فاما الذين شقوا ففي النار يفيد ان جملة الاشقياء محكوم عليهم بهذا الحكم ثم قوله الاماشاء ربك يوجب أن لايبقى ذلك الحكم على ذلك المجموع ويكفى في زوال حكم الخلود عن المجموع زواله عن بعضهم فوجب ان لايبقى حكم الخلود لبعض الاشقياء ولما ثبت ان الخلود واجب للكفار وجب ان يقال الذين زال حكم الخلود عنهم هم الفساق من اهل الصلاة وهذا كلام قوى في هذا الباب فان قيل فهذا الوجه انما تعين اذا فسدت سائر الوجوه التى ذكرتموها فالدليل على فسادها وايضا فمثل هذا الاستثناء مذكور في جانب السعداء فانه تعالى قال واما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الاماشاء ربك عطاء غير مجذوذ قلنا انا بهذا الوجه بينا ان هذه الآية لاتدل على انقطاع وعيد الكفار ثم اذا أردنا الاستدلال بهذه الآية على صحة قولنا في أنه تعالى يخرج الفساق من اهل الصلاة من النار قلنا أما حمل كلمة الا على سوى فهو عدول عن الظاهر واما حمل الاستثناء على حال عمر الدنيا والبرزخ والموقف فبعيد ايضا لان الاستثناء وقع عن الخلود في النار ومن المعلوم ان الخلود في النار كيفية من كيفيات الحصول في النار فقبل الحصول في النار امتنع حصول الخلود في النار واذا لم يحصل الخلود لم يحصل المستثنى منه وامتنع حصول الاستثناء واما قوله الاستثناء عائد الى الزفير

لا يرجى منه الخلاص وفيه ما لا يخفى من التهديد والتحذير (ان في ذلك) اى في اخذه تعالى للامم المهلكة او في قصصهم (لآية) لعبرة (لمن خاف عذاب الآخرة) فانه المعتبر به حيث يستدل بما حاق بهم من العذاب الشديد بسبب ما عملوا من السيآت على احوال عذاب الآخرة واما من انكر الآخرة واحال فناء العالم وزعم ان ليس هو ولاشئ من احواله مستندا الى الفاعل المختار وان مايقع فيه من الحوادث فانما يقع لاسباب تقتضيه من اوضاع فلكية تتفق في بعض الاوقات لا لما ذكر من المعاصى التى يقترفها الامم الهالكة فهو بمعزل من هذا الاعتبار تبالهم ولمالهم من الافكار (ذلك) اشارة الى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة (يوم مجموع له الناس) اى يجمع له الناس للمحاسبة والجزاء والتغيير للدلالة على ثبات معنى الجمع وتحقق وقوعه لامحالة وعدم انفكاك الناس عنه فهو ابلغ من قوله تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع (وذلك) اى يوم القيامة مع ملاحظة عنوان جمع الناس له (يوم مشهود) اى مشهود فيه حيث يشهد فيه اهل السموات والارضين فاتسع فيه باجراء الظرف مجرى المفعول به كما في قوله ٢ في محفل من نواصى الناس مشهود اى كثير شاهدوه ولو جعل نفس اليوم مشهودا لفات ماهو الغرض من تعظيم اليوم وتهويله وتمييزه عن غيره فان سائر الايام ايضا كذلك (ومانؤخره) اى ذلك اليوم الملحوظ بعنوانى الجمع والشهود (الا لاجل معدود) الا لانقضاء مدة قليلة

مضروبة حسبما تقتضيه الحكمة (يوم يأت) (١٨) (را) (خا) اى حين يأتى ذلك اليوم المؤخر بانقضاء اجله كقوله تعالى ان تأتيهم الساعة ٢ قوله في محفل الخ صدره* ومشهد قد كفيت الغائبين به * اى ورب مشهد تكلمت فيه ونبت عن الغائبين عنه اه

وقيل يوم يأتى الجزاء الواقع فيه وقيل اى الله عزوجل فان المقام مقـام تفخيم شأن اليوم وقرئ باثبات الياء على الاصل (لاتكلم نفس) اى لاتتكلم بما ينفع وينجى من جواب اوشفاعة  وهو العامل فى الظرف او الانتهاء المحذوف فى قوله

و الشهيق فهذا ايضا ترك للظاهر فلم يبق للآية محمل صحيح الاهذا الذى ذكرناه و اماقوله المراد من الاسـتثناء نقله من النار الى الزمهرير فنقول لوكان الامر كذلك لوجب ان لايحصل العذاب بالزمهرير الابعد انقضاء مدة السموات والارض والاخبار الصحيحة دلت على ان النقل من النار الى الزمهرير وبالعكس يحصل فى كل يوم مرارا فبطل هذا الوجه و اماقوله ان مثل هذا الاستثناء حاصل فى جانب السعداء فنقول أجمعت الامة على انه يمتنع ان يقال ان احدا يدخل الجنة ثم يخرج منها الى النار فلاجل هذا الاجماع افتقرنا فيه الى حمل ذلك الاستثناء على احد تلك التأويلات اما فى هذه الآية لم يحصل هذا الاجماع فوجب اجراؤها على ظاهرها فهذا تمام الكلام فى هذه الآية واعلم انه تعـالى لماذكر هذا الاستثناء قال ان ربك فعـال لما يريد وهذا يحسن انطباقه على هذه الآية اذا حملنا الاستثناء على اخراج الفساق من النار كأنه تعالى يقول اظهرت القهر و القدرة ثم اظهرت المغفرة و الرحمة لانى فعال لما اريد وليس لاحد على حكم البتة ثم قال و اما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات و الارض الاماشاء ربك وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ حمزة و الكسائى وحفص عن عاصم سعدوا بضم السين و الباقون بفتحها وانما جاز ضم السين لانه على حذف الزيادة من اسعد ولان سعد لايتعدى واسعد يتعدى وسعد واسعد بمعنى ومنه المسعود من اسماء الرجال (المسئلة الثانية) الاستثنـاء فى باب السعداء يجب حمله على احد الوجوه المذكورة فيما تقدم وههنا وجه آخر وهو انه ربما اتفق لبعضهم ان يرفع من الجنة الى العرش والى المنازل الرفيعة التى لايعلمها الا الله تعالى قال تعالى وعد الله المؤمنين و المؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيهـا ومسـاكن طيبة فى جنـات عدن ورضوان من الله اكبر وقوله عطاء غير مجذوذ فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) جذه يجذه جذا اذا قطعه وجذ الله دابرهم فقوله غير مجذوذ اى غير مقطوع ونظيره قوله تعالى فى صفة نعيم الجنة لامقطوعة ولاممنوعة (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى لماصرح فى هذه الآية انه ليس المراد من هذا الاستثناء كون هذه الحـالة منقطعة فلما خص هذا الوضع بهذا البيان ولم يذكر ذلك فى جانب الاشقياء دل ذلك على ان المراد من ذلك الاسـتثناء هو الانقطاع فهذا تمام الكلام فى هذه الآية ❊ قوله تعـالى (فلاتك فى مرية مما يعبد هؤلاء مايعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) اعلم انه تعالى لماشرح اقاصيص عبدة الاوثان ثم اتبعه باحوال الاشقيـاء واحوال السعداء شرح للرسول عليه الصلاة والسلام احوال الكفار من قومه فقال فلاتك فى مرية والمعنى فلاتكن الاانه حذف النون لكثرة الاستعمال ولان النون اذا وقع على طرف الكلام لم يبق عند التلفظ به الامجرد الغنة فلاجرم اسـقطوه والمعنى فلاتك فى شك من حال مايعبدون فى انها لاتضر ولاتنفع ثم قال مايعبدون الاكما يعبد آباؤهم من قبل والمراد انهم اشبهوا آباءهم فى لزوم الجهل و التقليد ثم قال وانا لموفوهم

تعالى الالاجل معدود اى ينتهى الاجل يوم يأتى اوالمضمر المعهود اعـنى اذكر (الا باذنه) عن سلطانه فى التكلم كقوله تعالى لايتكلمون الامن اذن له الرحمن وهذا فى موطن من مواطن ذلك اليوم وقوله عز وجل هذا يوم لاينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون فى موقف آخر من مواقفه كما ان قوله سبحانه يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها فى آخر منهـا اوالمأذون فيـه الجوابات الحقة والممنوع عنه الاعذار الباطلة نعم قد يؤذن فيها ايضا لاظهار بطلانها كما فى قول الكفرة والله ربنا ماكنا مشركين ونظائره (فمنهم شقى) وجبت له النار بموجب الوعيد (وسعيد) اى ومنهم سعيد حذف الخبر لدلالة الاول عليه وهو من وجبت له الجنة بمقتضى الوعد والضمير لاهل الموقف المدلول عليهم بقوله لاتكلم نفس اوللناس وتقديم الشقى على السعيد لان المقام مقام التحذير والانذار (فأما الذين شقوا) اى سبقت لهم الشقاوة (ففى النار) اى مسـتقرون فيها (لهم فيها زفير وشهيق) الزفير اخراج النفس والشهيق رده واستعمالهما فى اول النهيق وآخره قال الشماخ يصف حمار الوحش

بعيد مدى التطريب اول صوته
زفير ويتلوه شهيق محشرج

والمراد بهما وصف شدة كربهم وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة وانحصر فيه روحه اوتشبيه صراخهم بأصوات الحمير وقرئ شقوا بالضم والجملة مستأنفة كأن سائلا قال ماشأنهم فيها فقيل لهم فيها كذا وكذا اومنصوبة المحل على الحالية من النار اومن الضمير فى الجار والمجرور كقوله عز اسمه (خالدين فيها) خلا انه ان اريد حدوث كونهم فى النار فالحال مقدرة (مادامت السموات

(نصيبهم)

نصيبهم غير منقوص فيحتمل ان يكون المراد انا موفوهم نصيبهم اى ما يخصهم من العذاب ويحتمل ان يكون المراد انهم وان كفروا واعرضوا عن الحق فانا موفوهم نصيبهم من الرزق والخيرات الدنيوية ويحتمل ايضا ان يكون المراد انا موفوهم نصيبهم من ازالة العذر وازاحة العلل واظهار الدلائل وارسال الرسل وانزال الكتب ويحتمل ايضا ان يكون الكل مرادا ※ قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وانهم لفي شك منه مريب وان كلا لما ليوفينهم ربك اعمالهم انه بما يعملون خبير) اعلم انه تعالى لما بين فى الآية الاولى اصرار كفار مكة على انكار التوحيد بين ايضا اصرارهم على انكار نبوته عليه السلام وتكذيبهم بكتابه وبين تعالى ان هؤلاء الكفار كانوا على هذه السيرة الفاسدة مع كل الانبياء عليهم السلام وضرب لذلك مثلا وهو انه لما انزل التوراة على موسى عليه السلام اختلفوا فيه فقبله بعضهم وانكره آخرون وذلك يدل على ان عادة الخلق هكذا ثم قال تعالى ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وفيه وجوه (الاول) ان المراد ولولا ما تقدم من حكم الله تعالى بتأخير عذاب هذه الامة الى يوم القيامة لكان الذى يستحقه هؤلاء الكفار عند عظيم كفرهم انزال عذاب الاستئصال عليهم لكن المتقدم من قضائه اخر ذلك عنهم فى دنياهم (الثانى) لولا كلمة سبقت من ربك وهى ان الله تعالى انما يحكم بين المختلفين يوم القيامة والا لكان من الواجب تمييز المحق عن المبطل فى دار الدنيا (الثالث) ولولا كلمة سبقت من ربك وهى ان رحمته سبقت غضبه وان احسانه راجح على قهره والا لقضى بينهم ولما قرر تعالى هذا المعنى قال وانهم لفي شك منه مريب يعنى ان كفار قومك لفي شك من هذا القرآن مريب ثم قال تعالى وان كلا لما ليوفينهم ربك اعمالهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المعنى ان من عجلت عقوبته ومن اخرت ومن صدق الرسل ومن كذب فحالهم سواء فى انه تعالى يوفيهم جزاء اعمالهم فى الآخرة فجمعت الآية الوعد والوعيد فان توفية جزاء الطاعات وعد عظيم وتوفية جزاء المعاصى وعيد عظيم وقوله تعالى انه بما يعملون خبير توكيد للوعد والوعيد فانه لما كان عالما بجميع المعلومات كان عالما بمقادير الطاعات والمعاصى فكان عالما بالقدر اللائق بكل عمل من الجزاء فحينئذ لا يضيع شئ من الحقوق والاجزية وذلك نهاية البيان (المسئلة الثانية) قرأ ابو عمرو والكسائى وان مشددة النون لما خفيفة قال ابو على اللام فى لما هى التى تقتضيه ان وذلك لان حرف ان يقتضى ان يدخل على خبرها او اسمها لام كقوله ان الله لغفور رحيم وقوله ان فى ذلك لآية واللام الثانية هى التى تجئ بعد القسم كقولك والله لتفعلن ولما اجتمع لامان دخلت ما لتفصل بينهما فكلمة ما على هذا التقدير زائدة وقال الفراء ما موصولة بمعنى من وبقية التقرير كما تقدم ومثله وان منكم لمن ليبطئن (والقراءة الثانية) فى هذه الآية قرأ ابن كثير ونافع وابو بكر عن عاصم وان كلا لما مخففتان والسبب فيه انهم اعملوا ان مخففة كما تعمل مشددة لان كلمة ان تشبه

والارض) اى مدة دوامهما وهذا التوقيت عبارة عن التأبيد ونفى الانقطاع بناء على منهاج قول العرب ما دام تعار وما أقام ثبير وما لاح كوكب وما اختلف الليل والنهار وما طما البحر (١٣٩) وغير ذلك من كلمات التأبيد لا لتعليق قرارهم فيها بدوام هذه السموات والارض فان النصوص القاطعة دالة على تأبيد قرارهم فيها وانقطاع دوامهما وان اريد التعليق فالمراد سموات الآخرة وارضها كما يدل على ذلك النصوص كقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وقوله تعالى واورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وجزم كل احد بأن اهل الآخرة لابد لهم من مظلة ومقلة دائمين يكفى فى تعليق دوام قرارهم فيها بدوامهما ولا حاجة الى الوقوف على تفاصيل احوالهما وكيفياتهما (الا ما شاء ربك) استثناء من الخلود على طريقة قوله تعالى لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى وقوله ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف وقوله تعالى حتى يلج الجمل فى سم الخياط غير ان استحالة الامور المذكورة معلومة بحكم العقل واستحالة تعلق المشيئة بعدم الخلود معلومة بحكم النقل يعنى انهم مستقرون فى النار فى جميع الازمنة الا فى زمان مشيئة الله تعالى لعدم قرارهم فيها واذ لا امكان لتلك المشيئة ولا لزمانها بحكم النصوص القاطعة الموجبة للخلود فلا امكان لانتهاء مدة قرارهم فيها ولدفع ما عسى يتوهم من كون استحالة تعلق مشيئة الله تعالى بعدم الخلود بطريق الوجوب على الله تعالى قال (ان ربك فعال لما يريد) يعنى انه فى تخليد الاشقياء فى النار بحيث يستحيل وقوع خلافه فعال بموجب ارادته قاض بمقتضى مشيئته الجارية على سنن حكمته الداعية الى ترتيب الاجزية على افعال العباد والعدول من الاضمار الى الاظهار لتربية المهابة وزيادة التقرير وقيل هو استثناء من الخلود فى عذاب النار فانهم لا يخلدون فيه بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع أخر من العذاب وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله تعالى عليهم وخسؤهم واهانته

الفعل فكمايجوز اعمال الفعل تاما ومحذوفا فى قولك لم يكن زيد قائما ولم يك زيد قائما فكذلك ان وان (والقراءة الثالثة) قرأ حمزة وابن عامر وحفص وان كلا لما مشددتان قالوا واحسن ماقيل فيه ان اصل لما لما بالتنوين كقوله اكلا لما والمعنى ان كلا ملومين اى مجموعين كأنه قيل وان كلا جميعا (المسئلة الثالثة) سمعت بعض الافاضل قال انه تعالى لما اخبر عن توفية الاجزية على المستحقين فى هذه الآية ذكر فيها سبعة انواع من التوكيدات (اولها) كلمة ان وهى للتأكيد (وثانيها) كلمة كل وهى ايضا للتأكيد (وثالثها) اللام الداخلة على خبر ان وهى تفيد التأكيد ايضا (ورابعها) حرف ما اذا جعلناه على قول الفراء موصولا (وخامسها) القسم المضمر فان تقدير الكلام وان جميعهم والله ليوفينهم (وسادسها) اللام الثانية الداخلة على جواب القسم (وسابعها) النون المؤكدة فى قوله ليوفينهم فجميع هذه الالفاظ السبعة الدالة على التوكيد فى هذه الكلمة الواحدة تدل على ان امر الربوبية والعبودية لايتم الا بالبعث والقيامة وامر الحشر والنشر ثم اردفه بقوله انه بما يعملون خبير وهو من اعظم المؤكدات ۞ قوله تعالى (فاستقم كما امرت ومن تاب معك ولاتطغوا انه بما تعملون بصير ولاتركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من اولياء ثم لاتنصرون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما اطنب فى شرح الوعد والوعيد قال لرسوله فاستقم كما امرت وهذه الكلمة كلمة جامعة فى كل مايتعلق بالعقائد والاعمال سواء كان مختصا به او كان متعلقا بتبليغ الوحى وبيان الشرائع ولاشك ان البقاء على الاستقامة الحقيقية مشكل جدا وأنا اضرب لذلك مثالا يقرب صعوبة هذا المعنى الى العقل السليم وهو ان الخط المستقيم الذى يفصل بين الظل وبين الضوء جزء واحد لايقبل القسمة فى العرض الا ان عين ذلك الخط مما لايتميز فى الحس عن طرفيه فانه اذا قرب طرف الظل من طرف الضوء اشتبه البعض بالبعض فى الحس فلم يقع الحس على ادراك ذلك الخط بعينه بحيث يتميز عن كل ماسواه اذا عرفت هذا فى المثال فاعرف مثاله فى جميع ابواب العبودية (فأولها) معرفة الله تعالى وتحصيل هذه المعرفة على وجه يبقى العبد مصونا فى طرف الاثبات عن التشبيه وفى طرف النفى عن التعطيل فى غاية الصعوبة واعتبر سائر مقامات المعرفة من نفسك وايضا فالقوة الغضبية والقوة الشهوانية حصل لكل واحدة منهما طرفا افراط وتفريط وهما مذمومان والفاضل هو المتوسط بينهما بحيث لايميل الى احد الجانبين والوقوف عليه صعب ثم العمل به اصعب فثبت ان معرفة الصراط المستقيم فى غاية الصعوبة وبتقدير معرفته فالبقاء عليه والعمل به اصعب ولما كان هذا المقام فى غاية الصعوبة لاجرم قال ابن عباس مانزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع القرآن آية اشد ولا اشق عليه من هذه الآية ولهذا قال عليه الصلاة والسلام شيبتنى هود واخواتها وعن بعضهم قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت له روى عنك انك قلت

اياهم وأنت تدرى انا وان سلمنا ان المراد بالنار ليس مطلق دار العذاب المشتملة على انواع العذاب بل نفس النار فلا خلا عذاب الزمهرير من تلك الانواع مقارن لعذاب النار فلا (١٤٠) مصداق فى ذلك للاستثناء ولك ان تقول انهم ليسوا بمخلدين فى العذاب الجسمانى الذى هو عذاب النار بل لهم من أفانين العذاب مالايعلمه الا الله سبحانه وهو العقوبات والآلام الروحانية التى لانقف عليها فى هذه الحياة الدنيا المنغمسون فى احكام الطبيعة المقصور ادراكهم على ماألفوا من الاحوال الجسمانية وليس لهم استعداد لتلقى ماوراء ذلك من الاحوال الروحانية اذا ألقى اليهم ولذلك لم يتعرض لبيانه واكتفى بهذه المرتبة الاجمالية المنبئة عن التهويل وهذه العقوبات وان كانت تعتريهم وهم فى النار لكنهم ينسون بها عذاب النار ولا يحسون به وهذه المرتبة كافية فى تحقيق معنى الاستثناء هذا وقد قيل الا بمعنى سوى وهو اوفق بما ذكر وقيل ما بمعنى من على ارادة معنى الوصفية فالمعنى ان الذين شقوا فى النار مقدرين الخلود فيها الا الذين شاء الله عدم خلودهم فيها وهم عصاة المؤمنين (واما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض) الكلام فيه كالكلام فيما سبق خلا انه لم يذكر ههنا ان لهم فيها بهجة وسرورا كما ذكر فى أهل النار من ان لهم فيها زفير وشهيق لان المقام مقام التحذير والانذار (الا ماشاء ربك) ان حمل على طريقة التعليق بالمحال فقوله سبحانه (عطاء غير مجذوذ) نصب على المصدرية من معنى الجملة لان قوله ففى الجنة خالدين فيها يقتضى اعطاء وانعاما فكأنه قيل يعطيهم عطاء وهو اما اسم مصدر هو الاعطاء او مصدر بحذف الزوائد كقوله تعالى أنبتكم من الارض نباتا وان حمل على مااعد الله لعباده الصالحين من النعيم الروحانى الذى عبر عنه بمالاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر فهو نصب على (شيبتنى) الحالية من المفعول المقدر للمشيئة او تمييز فان نسبة مشيئة الخروج الى الله تعالى يحتمل ان تكون على جهة عطاء مجذوذ وعلى جهة

عطاء غير مجذوذ فهو رافع للابهام عن النسبة قال ابن زيد اخبرنا الله تعالى بالذى يشاء لاهل الجنة فقال عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذى يشاء لاهل النار ويجوز ( ١٤١ ) ان يتعلق بكلا النعيين او بالاول دفعا لما يتوهم من ظاهر الاستثناء من انقطاعه

شيبتنى هود واخواتها فقال نعم فقلت وباى آية فقال بقوله فاستقم كما أمرت ( المسئلة الثانية ) اعلم ان هذه الآية اصل عظيم فى الشريعة وذلك لان القرآن لما ورد بالامر باعمال الوضوء مرتبة فى اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها لقوله فاستقم كما امرت ولما ورد الامر فى الزكاة باداء الابل من الابل والبقر من البقر وجب اعتبارها وكذا القول فى كل ما ورد امر الله تعالى به وعندى انه لا يجوز تخصيص النص بالقياس لانه لما دل عموم النص على حكم وجب الحكم بمقتضاه لقوله فاستقم كما امرت والعمل بالقياس انحراف عنه ثم قال ومن تاب معك وفيه مسائل ( المسئلة الاولى ) قال الواحدى من فى محل الرفع من وجوه (الاول) ان يكون عطفا على الضمير المستتر فى قوله فاستقم واغنى الوصل بالجار عن تأكيده بضمير المتصل فى صحة العطف اى فاستقم انت وهم (والثانى) ان يكون عطفا على الضمير فى أمرت ( والثالث ) ان يكون ابتداء على تقدير ومن تاب معك فليستقم ( المسئله الثانية ) ان الكافر والفاسق يجب عليهما الرجوع عن الكفر والفسق ففى تلك الحالة لا يصح اشتغالهما بالاستقامة واما التائب عن الكفر والفسق فانه يصح منه الاشتغال بالاستقامة على مناهج دين الله تعالى والبقاء على طريق عبودية الله تعالى ثم قال ولا تطغوا ومعنى الطغيان ان يجاوز المقدار قال ابن عباس يريد تواضعوا لله تعالى ولا تتكبروا على احد وقيل ولا تطغوا فى القرآن فتحلوا حرامه وتحرموا حلاله وقيل لا تتجاوزوا ما أمرتم به وحد لكم وقيل ولا تعدلوا عن طريق شكره والتواضع له عند عظم نعمه عليكم والاولى دخول الكل فيه ثم قال ولا تركنوا الى الذين ظلموا والركون هو السكون الى الشئ والميل اليه بالمحبة ونقيضه النفور عنه وقرأ العامة بفتح التاء والكاف والماضى من هذا ركن كعلم وفيه لغة أخرى ركن يركن قال الازهرى وليست بفصيحة قال المحققون الركون المنهى عنه هو الرضا بما عليه الظلمة من الظلم وتحسين تلك الطريقة وتزيينها عندهم وعند غيرهم ومشاركتهم فى شئ من تلك الابواب فأما مداخلتهم لدفع ضرر او اجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل فى الركون ومعنى قوله فتمسكم النار اى انكم ان ركنتم اليهم فهذه عاقبة الركون ثم قال ومالكم من دون الله من أولياء اى ليس لكم أولياء يخلصونكم من عذاب الله ثم قال ثم لا تنصرون والمراد لا تجدون من ينصركم من تلك الواقعة واعلم ان الله تعالى حكم بان من ركن الى الظلمة لابد وان تمسه النار واذا كان كذلك فكيف يكون حال الظالم فى نفسه ❊ قوله تعالى (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيآت ذلك ذكرى للذاكرين واصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين) اعلم انه تعالى لما امره بالاستقامة أردفه بالامر بالصلاة وذلك يدل على ان اعظم العبادات بعد الايمان بالله هو الصلاة وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) رأيت فى بعض كتب القاضى ابى بكر الباقلانى ان الخوارج تمسكوا بهذه الآية فى اثبات ان الواجب ليس الا الفجر والعشاء من وجهين (الاول) انهما واقعان على طرفى

(فلاتك فى مرية) اى فى شك والفاء لترتيب النهى على ماقص من القصص وبين فى تضاعيفها من العواقب الدنيوية والاخروية (مما يعبد هؤلاء) اى من جهة عبادة هؤلاء المشركين وسوء عاقبتها او من حال ما يعبدونه من الاوثان من عدم نفعه لهم ولما كان مساق النظم الكريم قبيل الشروع فى القصص لبيان غاية سوء حال الكفرة وكمال حسن حال المؤمنين وقد ضرب لهم مثل فقيل مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون وقد قص عقيب ذلك من انباء الامم السالفة مع رسلهم المبعوثة اليهم ما يتذكر به المتذكر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كونه فى شك من مصير امر هؤلاء المشركين فى العاجل والآجل ثم علل ذلك بطريق الاستئناف فقيل ( ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم) الذين قصت عليك قصصهم (من قبل) اى هم وآباؤهم سواء فى الشرك ما يعبدون عبادة الا كعبادتهم او ما يعبدون شيئا الا مثل ما عبدوه من الاوثان والعدول الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها او مثل ما كانوا يعبدونه فحذف كان لدلالة قوله من قبل عليه ولقد بلغك ما لحق بآبائهم فسيلحقهم مثل ذلك فان تماثل الاسباب يقتضى تماثل المسببات (وانا لموفوهم) اى هؤلاء الكفرة (نصيبهم) اى حظهم المعين لهم حسب جرائمهم وجرائرهم من العذاب عاجلا وآجلا كما وفينا آباءهم انصباءهم المقدرة لهم اومن الرزق المقسوم لهم فيكون بيانا لوجه تأخر العذاب عنهم مع تحقق مايوجبه ( غير منقوص ) حال مؤكدة من النصيب كقوله تعالى ثم وليتم مدبرين وفائدته دفع توهم التجوز وجعلها مقيدة له لدفع احتمال كونه منقوصا فى حد نفسه

النهار والله تعالى اوجب اقامة الصلاة طرفى النهار فوجب ان يكون هذا القدر كافيا فان قيل قوله وزلفا من الليل يوجب صلوات أخرى قلنا لانسلم فان طرفى النهار موصوفان بكونهما زلفا من الليل فان مالايكون نهارا يكون ليلا غاية ما فى الباب ان هذا يقتضى عطف الصفة على الموصوف الا ان ذلك كثير فى القرآن والشعر (الوجه الثانى) انه تعالى قال ان الحسنات يذهبن السيآت وهذا يشعر بأن من صلى طرفى النهار كان اقامتهما كفارة لكل ذنب سواهما فبتقدير ان يقال ان سائر الصلوات واجبة الا ان اقامتهما يجب ان تكون كفارة لترك سائر الصلوات واعلم ان هذا القول باطل باجماع الامة فلا يلتفت اليه (المسئلة الثانية) كثرت المذاهب فى تفسير طرفى النهار والاقرب ان الصلاة التى تقام فى طرفى النهار هى الفجر والعصر وذلك لان احد طرفى النهار طلوع الشمس والطرف الثانى منه غروب الشمس فالطرف الاول هو صلاة الفجر والطرف الثانى لايجوز ان يكون صلاة المغرب لانها داخلة تحت قوله وزلفا من الليل فوجب حمل الطرف الثانى على صلاة العصر اذا عرفت هذا كانت الآية دليلا على قول ابى حنيفة رحمه الله فى ان التنوير بالفجر افضل وفى ان تأخير العصر افضل وذلك لان ظاهر هذه الآية يدل على وجوب اقامة الصلاة فى طرفى النهار وبينا ان طرفى النهار هما الزمان الاول لطلوع الشمس والزمان الثانى لغروبها واجمعت الامة على ان اقامة الصلاة فى ذلك الوقت من غير ضرورة غير مشروعة فقد تعذر العمل بظاهر هذه الآية فوجب حمله على المجاز وهو ان يكون المراد أقم الصلاة فى الوقت الذى يقرب من طرفى النهار لان مايقرب من الشئ يجوز ان يطلق عليه اسمه واذا كان كذلك فكل وقت كان أقرب الى طلوع الشمس والى غروبها كان أقرب الى ظاهر اللفظ واقامة صلاة الفجر عند التنوير أقرب الى وقت الطلوع من اقامتها عند التغليس وكذلك اقامة صلاة العصر عندما يصير ظل كل شئ مثليه أقرب الى وقت الغروب من اقامتها عندما يصير ظل كل شئ مثله والمجاز كلما كان أقرب الى الحقيقة كان حمل اللفظ عليه اولى فثبت ان ظاهر هذه الآية يقوى قول أبى حنيفة فى هاتين المسئلتين واما قوله وزلفا من الليل فهو يقتضى الامر باقامة الصلاة فى ثلاث زلف من الليل لان أقل الجمع ثلاثة وللمغرب والعشاء وقتان فيجب الحكم بوجوب الوتر حتى يحصل زلف ثلاثة يجب ايقاع الصلاة فيها واذا ثبت وجوب الوتر فى حق النبى صلى الله عليه وسلم وجب فى حق غيره لقوله تعالى واتبعوه ونظير هذه الآية بعينها قوله سبحانه وتعالى وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فالذى هو قبل طلوع الشمس هو صلاة الفجر والذى هو قبل غروبها هو صلاة العصر ثم قال تعالى ومن آناء الليل فسبح وهو نظير قوله وزلفا من الليل (المسئلة الثالثة) قال المفسرون نزلت هذه الآية فى رجل أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ماتقول فى رجل أصاب من أمرأة محرمة كما يصيبه الرجل من امرأته غير الجماع فقال عليه الصلاة والسلام ليتوضأ وضوأ

---

مبنى على الذهول عن كون العامل هو التوفية فتأمل (ولقد آتينا موسى الكتاب) اى التوراة (فاختلف فيه) اى فى شأنه وكونه من عند الله تعالى فآمن به قوم وكفر به آخرون فلا تبال باختلاف قومك فيما (١٤٢) آتيناك من القرآن وقولهم لولا انزل عليه كنز او جاء معه ملك وزعمهم انك افتريته (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهى كلمة القضاء بانظارهم الى يوم القيامة على حسب الحكمة الداعية الى ذلك (لقضى بينهم) اى لأوقع القضاء بين المختلفين من قومك بانزال العذاب الذى يستحقه المبطلون ليتميزوا به عن المحقين وقيل بين قوم موسى وليس بذاك (وانهم) اى وان كفار قومك اريد به بعض من رجع اليهم ضمير بينهم للامن من الالباس (لفى شك) عظيم (منه) اى من القرآن وان لم يجر له ذكر فان ذكر ايتاء كتاب موسى ووقوع الاختلاف فيه لاسيما بصدد التسلية يناديه نداء غير خفى (مريب) موقع فى الريبة (وان كلا) التنوين عوض عن المضاف اليه اى وان كل المختلفين فيه المؤمنين منهم والكافرين وقرأ ابن كثير ونافع وابو بكر بالتخفيف مع الاعمال اعتبارا للاصل (لما ليوفينهم ربك اعمالهم) اى اجزية اعمالهم واللام الاولى موطئة للقسم والثانية جواب للقسم المحذوف ولما مركبة من من الجارة وما الموصولة او الموصوفة واصلها لمن ما فقلبت النون ميما للادغام فاجتمع ثلاث ميمات فحذفت اولاهن والمعنى لمن الذى اولمن خلق او لمن فريق والله ليوفينهم ربك وقرئ لما بالتخفيف على ان ما مزيدة للفصل بين اللامين والمعنى وان جميعهم والله ليوفينهم الآية وقرئ لما بالتنوين اى جميعا كقوله سبحانه اكلا لما وقرأ أبى وان كل لما ليوفينهم على ان ان نافية ولما بمعنى الا وقد قرئ به (انه بما يعملون) اى بما يعمله كل فرد من المختلفين من الخير والشر (خبير) بحيث لايخفى عليه شئ من جلائله ودقائقه وهو تعليل لما سبق من توفية اجزية اعمالهم فان الاحاطة بتفاصيل اعمال الفريقين ومايستوجبه كل عمل بمقتضى الحكمة من الجزاء

(حسنا)

حسنا ثم ليقم وليصل فانزل الله تعالى هذه الآية فقيل للنبى عليه الصلوة والسلا هذا له خاصة فقال بل هو للناس عامة وقوله وزلفا من الليل قال الليث زلفة من اول الليل طائفة والجمع الزلف قال الواحدى واصل الكلمة من الزلفى والزلفى هى القربى يقال ازلفته فازدلف اى قربته فاقترب (المسئلة الرابعة) قال صاحب الكشاف قرئ زلفا بضمتين وزلفا باسكان اللام وزلفى بوزن قربى فازلف جمع زلفة كظلم جمع ظلمة والزلف بالسكون نحو بسرة وبسر والزلف بضمتين نحو يسر فى يسر والزلفى بمعنى الزلفة كما ان القربى بمعنى القربة وهو مايقرب من آخر النهار من الليل وقيل فى تفسير قوله وزلفا من الليل وقربا من الليل ثم قال ان الحسنات يذهبن السيئات وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى تفسير الحسنات قولان (الاول) قال ابن عباس المعنى ان الصلوات الخمس كفارات لسائر الذنوب بشرط الاجتناب عن الكبائر (والثانى) روى عن مجاهد ان الحسنات هى قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر (المسئلة الثانية) احتج من قال ان المعصية لاتضر مع الايمان بهذه الآية وذلك لان الايمان اشرف الحسنات واجلها وافضلها ودلت الآية على ان الحسنات يذهبن السيآت فالايمان الذى هو اعلى الحسنات درجة يذهب الكفر الذى هو اعلى درجة فى العصيان فلأن يقوى على المعصية التى هى اقل السيآت درجة كان اولى فان لم يفد ازالة العقاب بالكلية فلا اقل من ان يفيد ازالة العذاب الدائم المؤبد ثم قال تعالى ذلك ذكرى للذاكرين فقوله ذلك اشارة الى قوله فاستقم كما امرت الى آخرها ذكرى للذاكرين عظة للمتعظين وارشاد للمسترشدين ثم قال واصبر فان الله لايضيع اجر المحسنين قيل على الصلاة وهو كقوله وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها * قوله تعالى (فلولا كان من القرون من قبلكم اولو بقية ينهون عن الفساد فى الارض الا قليلا ممن انجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين) اعلم انه تعالى لما بين ان الامم المتقدمين حل بهم عذاب الاستئصال بين ان السبب فيه امران (السبب الاول) انه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد فى الارض فقال تعالى فلولا كان من القرون والمعنى فهلا كان وحكى عن الخليل انه قال كل ما كان فى القرآن من كلمة لولا فمعناه هلا الا التى فى الصافات قال صاحب الكشاف وما صحت هذه الرواية عنه بدليل قوله تعالى فى غير الصافات لولا ان تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء ولولا رجال مؤمنون ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا وقوله اولو بقية فالمعنى اولو فضل وخير وسمى الفضل والجود بقية لان الرجل يستبقى مما يخرجه اجوده وافضله فصار هذا اللفظ مثلا فى الجودة يقال فلان من بقية القوم اى من خيارهم ومنه قولهم فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا ويجوز ان تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى اى فهلا كان منهم ذو بقاء على انفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وقرئ اولو بقية بوزن لقية من بقاه يبقيه اذا راقبه وانتظره والبقية المرة من مصدره والمعنى فلولا كان منهم اولو

المخصوص توجب توفية كل ذى حق حقه ان خيرا فخير وان شرا فشر (فاستقم كما امرت) لما بين فى تضاعيف القصص الحكية عن الامم الماضية سوء عاقبة الكفر وعصيان الرسل (١٤٣) واشير الى ان حال هؤلاء الكفرة فى الكفر والضلال واستحقاق العذاب مثل اولئك المعذبين وان نصيبهم من العذاب واصل اليهم من غير نقص وان تكذيبهم للقرآن مثل تكذيب قوم موسى عليه السلام للتوراة وانه لو لم تسبق كلمة القضاء بتأخير عقوبتهم العامة ومؤاخذتهم التامة الى يوم القيامة لفعل بهم مافعل بآبائهم من قبل وانهم يوفون نصيبهم غير منقوص وان كل واحد من المؤمنين والكافرين يوفى جزاء عمله امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستقامة كما امر به فى العقائد والاعمال المشتركة بينه وبين سائر المؤمنين ولاسيما الاعمال الخاصة به عليه السلام من تبليغ الاحكام الشرعية والقيام بوظائف النبوة وتحمل اعباء الرسالة بحيث يدخل تحته ما امر به فيما سبق من قوله تعالى فلعلك تارك بعض مايوحى اليك وضائق به صدرك الآية وبالجملة فهذا الامر منتظم لجميع محاسن الاحكام الاصلية والفرعية والكمالات النظرية والعملية والخروج عن عهدته فى غاية مايكون من الصعوبة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شيبتنى سورة هود (ومن تاب معك) اى تاب من الشرك والكفر وشاركك فى الايمان وهو المعنى بالمعية وهو معطوف على المستكن فى قوله فاستقم وحسن من غير تأكيد لمكان الفاصل القائم مقامه وفى الحقيقة هو من عطف الجملة على الجملة اذ المعنى وليستقم من تاب معك وقيل هو منصوب على انه مفعول معه كما قاله ابو البقاء والمعنى استقم مصاحبا لمن تاب معك (ولا تطغوا) ولاتنحرفوا عما حد لكم بافراط اوتفريط فان كلا طرفى قصد الامور ذميم وانما سمى ذلك طغيانا وهو تجاوز الحد تغليظا او تغليبا لحال سائر المؤمنين على حاله عليه السلام (انه بما تعملون بصير) فيجازيكم على ذلك وهو تعليل للامر والنهى وفى

الآية دلالة على وجوب اتباع المنصوص عليه من غير انحراف بمجرد الرأى فانه طغيان وضلال واما العمل بمقتضى الاجتهاد التابع لعلل النصوص فذلك من باب الاستقامة كما امر على (١٤٤) موجب النصوص الآمرة بالاجتهاد (ولا تركنوا) اى لا تميلوا ادنى ميل (الى الذين ظلموا) اى الى الذين وجد منهم الظلم فى الجملة ومدار النهى هو الظلم والجمع باعتبار جمعية المخاطبين وماقيل من ان ذلك للمبالغة فى النهى من حيث ان كونهم جماعة مظنة الرخصة فى مداهنتهم انما يتم ان لو كان المراد النهى عن الركون اليهم من حيث انهم جماعة وليس كذلك (فتمسكم) بسبب ذلك (النار) واذا كان حال الميل فى الجملة الى من وجد منه ظلم ما فى الافضاء الى مساس النار هكذا فما ظنك بمن يميل الى الراسخين فى الظلم والعدوان ميلا عظيما ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتهم ويلقى شراشره على مؤانستهم ومعاشرتهم ويبتهج بالتزيى بزيهم ويمد عينيه الى زهرتهم الفانية ويغبطهم بما اوتوا من القطوف الدانية وهو فى الحقيقة من الحبة طفيف ومن جناح البعوض خفيف بمعزل عن ان تميل اليه القلوب ضعف الطالب والمطلوب والآية ابلغ ما يتصور فى النهى عن الظلم والتهديد عليه وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين للتثبيت على الاستقامة التى هى العدل فان الميل الى احد طرفى الافراط والتفريط ظلم على نفسه او على غيره وقرئ تركنوا على لغة تميم وتركنوا على صيغة البناء للمفعول من اركنه (وما لكم من دون الله من اولياء) اى من انصار ينقذونكم من النار والجملة نصب على الحالية من قوله فتمسكم النار ونفى الاولياء ليس بطريق نفى ان يكون لكل واحد منهم اولياء حتى يتصدق ان يكون له ولى بل المكان لكم بطريق انقسام الآحاد على الآحاد لكن لا على معنى نفى استقلال كل منهم بنصير بل على معنى نفى ان يكون لواحد منهم نصير بقرينة المقام (ثم لا تنصرون) من جهة الله سبحانه اذ قد سبق فى حكمه ان يعذبكم بركونكم اليهم

مراقبة وخشية من انتقام الله تعالى ثم قال الا قليلا ولا يمكن جعله استثناء متصلا لانه على هذا التقدير يكون ذلك ترغيبا لأولى البقية فى النهى عن الفساد الا القليل من الناجين منهم كما تقول هلا قرأ قومك القرآن الا الصلحاء منهم تريد استثناء الصلحاء من المرغبين فى قراءة القرآن واذا ثبت هذا قلنا انه استثناء منقطع والتقدير لكن قليلا ممن انجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهى (والسبب الثانى) لنزول عذاب الاستئصال قوله واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه والترفة النعمة وصبى مترف اذا كان منعم البدن والمترف الذى أبطرته النعمة وسعة المعيشة واراد بالذين ظلموا تاركى النهى عن المنكرات اى لم يهتموا بما هو ركن عظيم من اركان الدين وهو الامر بالمعروف والنهى عن المنكر واتبعوا طلب الشهوات واللذات واشتغلوا بتحصيل الرياسات وقرأ ابو عمرو فى رواية الجعفى واتبع الذين ظلموا ما أترفوا اى واتبعوا حراما أترفوا فيه ثم قال وكانوا مجرمين ومعناه ظاهر * قوله تعالى (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين) اعلم انه تعالى بين انه ما اهلك اهل القرى الا بظلم وفيه وجوه (الاول) ان المراد من الظلم ههنا الشرك قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم والمعنى انه تعالى لا يهلك اهل القرى بمجرد كونهم مشركين اذا كانوا مصلحين فى المعاملات فيما بينهم الحاصل ان عذاب الاستئصال لا ينزل لاجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر بل انما ينزل ذلك العذاب اذا أساؤا فى المعاملات وسعوا فى الايذاء والظلم ولهذا قال الفقهاء ان حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح ويقال فى الاثر الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم فمعنى الآية وما كان ربك ليهلك القرى بظلم أى لا يهلكهم بمجرد شركهم اذا كانوا مصلحين يعامل بعضهم بعضا على الصلاح والسداد وهذا تأويل اهل السنة لهذه الآية قالوا والدليل عليه ان قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب انما نزل عليهم عذاب الاستئصال لما حكى الله تعالى عنهم من ايذاء الناس وظلم الخلق (الوجه الثانى) فى التأويل وهو الذى تختاره المعتزلة هو انه تعالى لو اهلكهم حال كونهم مصلحين لما كان متعاليا عن الظلم فلا جرم لا يفعل ذلك بل انما يهلكهم لاجل سوء افعالهم ثم قال تعالى ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة والمعتزلة يحملون هذه الآية على مشيئة الالجاء والاجبار وقد سبق الكلام عليه ثم قال ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك والمراد افتراق الناس فى الاديان والاخلاق والافعال واعلم انه لا سبيل الى استقصاء مذاهب العالم فى هذا الموضع ومن اراد ذلك فليطالع كتابنا الذى سميناه بالرياض المونقة الا انا نذكر ههنا تقسيما جامعا للمذاهب فنقول الناس فريقان منهم من أقر بالعلوم الحسية كعلمنا بان النار حارة والشمس مضيئة والعلوم البديهية كعلمنا بأن النفى والاثبات لا يجتمعان ومنهم من

ولا يبقى عليكم وثم للتراخى رتبة كونهم غير منصورين من جهة الله بعد ما اوعدهم بالعذاب واوجبه عليهم ويجوز ان يكون منزلا منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد فانه لما بين ان الله تعالى ( ١٤٥ ) معذبهم وان غيره لاينقذهم انتج انهم لاينصرون اصلا ( واقم الصلوة طرفى النهار) اى غدوة وعشية وانتصابه على الظرفية لكونه مضافا الى الوقت (وزلفا من الليل) اى ساعات منه قريبة من النهار فانه من ازلفه اذا قربه جمع زلفة عطف على طرفى النهار والمراد بصلاتهما صلاة الغداة والعصر وقيل الظهر موضع العصر لان ما بعد الزوال عشى وبصلاة الزلف المغرب والعشاء وقرئ زلفا بضمتين وضمة وسكون كبسر وبسر وزلفى بمعنى زلفة كقربى بمعنى قربة (ان الحسنات) اى الذى من جملتها بل عمدتها ما امرت به من الصلوات (يذهبن السيئات) التى قلما يخلو منها البشر اى يكفرنها وفى الحديث ان الصلاة الى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنب الكبائر وقيل نزلت فى ابى اليسر الانصارى اذ قبل امرأة ثم ندم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما فعل فقال عليه السلام انتظر امر ربى فلما صلى صلاة العصر نزلت قال عليه السلام نعم اذهب فانها كفارة لما عملت او يمنعن من اقترافها كقوله تعالى ان الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر (ذلك) اشارة الى قوله تعالى فاستقم فما بعده وقيل الى القرآن ( ذكرى للذاكرين ) اى عظة للمتعظين (واصبر) على مشاق ما أمرت به فى تضاعيف الاوامر السابقة واما ما نهى عنه من الطغيان والركون الى الذين ظلموا فليس فى الانتهاء عنه مشقة فلا وجه لتعميم الصبر له اللهم الا ان يراد به ما لا يمكن عادة خلو البشر عنه من ادنى ميل بحكم الطبيعة عن الاستقامة المأمور بها ومن يسير ميل بحكم البشرية الى من

انكرهما والمنكرون هم السوفسطائية والمقرون هم الجمهور الاعظم من اهل العالم وهم فريقان منهم من سلم انه يمكن تركيب تلك العلوم البديهية بحيث يستنتج منها نتائج علمية نظرية ومنهم من انكره وهم الذين ينكرون ايضا النظر الى العلوم وهم قليلون والاولون هم الجمهور الاعظم من اهل العالم وهم فريقان منهم من لا يثبت لهذا العالم الجسمانى مبدأ اصلا وهم الاقلون ومنهم من يثبت له مبدأ وهؤلاء فريقان منهم من يقول ذلك المبدأ موجب بالذات وهم جمهور الفلاسفة فى هذا الزمان ومنهم من يقول انه فاعل مختار وهم اكثر اهل العالم ثم هؤلاء فريقان منهم من يقول انه ما ارسل رسولا الى العباد ومنهم من يقول انه ارسل الرسول فالاولون هم البراهمة والقسم الثانى ارباب الشرائع والاديان وهم المسلمون والنصارى واليهود والمجوس وفى كل واحد من هذه الطوائف اختلافات لا حد لها ولا حصر والعقول مضطربة والمطالب غامضة ومنازعات الوهم والخيال غير منقطعة ولما حسن من ابقراط ان يقول فى صناعة الطب *العمر قصير والصناعة طويلة والقضاء عسر والتجربة خطر فلان يحسن ذكره فى هذا المطالب العالية والمباحث الغامضة كان ذلك اولى *فان قيل انكم حملتم قوله تعالى ولا يزالون مختلفين على الاختلاف فى الاديان فما الدليل عليه ولم لا يجوز ان يحمل على الاختلاف فى الالوان والالسنة والارزاق والاعمال قلنا الدليل عليه ان ما قبل هذه الآية هو قوله ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة فيجب حمل هذا الاختلاف على ما يخرجهم من ان يكونوا امة واحدة وما بعد هذه الآية هو قوله الا من رحم ربك فيجب حمل هذا الاختلاف على معنى يصح ان يستثنى منه قوله الا من رحم ربك وذلك ليس الا ما قلنا ثم قال تعالى الا من رحم ربك احتج اصحابنا بهذه الآية على ان الهداية والايمان لا تحصل الا بتخليق الله تعالى وذلك لان هذه الآية تدل على ان زوال الاختلاف فى الدين لا يحصل الا لمن خصه الله برحمته وتلك الرحمة ليست عبارة عن اعطاء القدرة والعقل وارسال الرسل وانزال الكتب وازاحة العذر فان كل ذلك حاصل فى حق الكفار فلم يبق الا ان يقال تلك الرحمة هو انه سبحانه خلق فيه تلك الهداية والمعرفة قال القاضى معناه الا من رحم ربك بأن يصير من اهل الجنة والثواب فيرحمه الله بالثواب ويحتمل الا من رحمه الله بألطافه فصار مؤمنا بألطافه وتسهيله وهذان الجوابان فى غاية الضعف ( اما الاول ) فلان قوله ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك يفيد ان ذلك الاختلاف انما زال بسبب هذه الرحمة فوجب ان تكون هذه الرحمة جارية مجرى السبب المتقدم على زوال هذا الاختلاف والثواب شئ متأخر عن زوال هذا الاختلاف فالاختلاف جار مجرى المسبب له ومجرى المعلول فحمل هذه الرحمة على الثواب بعيد (واما الثانى) وهو حمل هذه الرحمة على الالطاف فنقول جميع الالطاف التى فعلها فى حق المؤمن فهو مفعولة ايضا فى حق الكافر وهذه الرحمة امر اختص به المؤمن فوجب ان يكون شيئا زائدا على تلك

وجد منه ظلم ما فان فى الاحتراز عن امثاله من المشقة ( ١٩ ) ( را ) ( خا ) ما لا يخفى ( فان الله لا يضيع اجر المحسنين ) اى يوفيهم اجور اعمالهم من غير بخس اصلا وانما عبر عن ذلك بنفى الاضاعة مع ان عدم اعطاء الاجر ليس باضاعة حقيقة كيف لا والاعمال غير

الالطاف وايضا فحصول تلك الالطاف هل يوجب رجحان وجود الايمان على عدمه اولا يوجبه فان لم يوجبه كان وجود تلك الالطاف وعدمها بالنسبة الى حصول هذا المقصود سيان فلم يك لطفا فيه وان اوجب الرجحان فقد بينا فى الكتب العقلية انه متى حصل الرجحان فقد وجب وحينئذ يكون حصول الايمان من الله ومما يدل على ان حصول الايمان لا يكون الا بتخليق الله انه ما لم يتميز الايمان عن الكفر والعلم عن الجهل امتنع القصد الى تكوين الايمان والعلم وانما يحصل هذا الامتياز اذا علم كون احدهذين الاعتقادين مطابقا للمعتقد وكون الآخر ليس كذلك وانما يصح حصول هذا العلم ان لو عرف ان ذلك المعتقد فى نفسه كيف يكون وهذا يوجب انه لا يصح من العبد القصد الى تكوين العلم بالشئ الا بعد ان كان عالما وذلك يقتضى تكوين الكائن وتحصيل الحاصل وهو محال فثبت ان زوال الاختلاف فى الدين وحصول العلم والهداية لا يحصل الا بتخلق الله تعالى وهو المطلوب ثم قال تعالى ولذلك خلقهم وفيه ثلاثة اقوال (القول الاول) قال ابن عباس وللرحمة خلقهم وهذا اختيار جمهور المعتزلة قالوا ولا يجوز ان يقال وللاختلاف خلقهم ويدل عليه وجوه (الاول) ان عود الضمير الى اقرب المذكورين اولى من عوده الى ابعدهما واقرب المذكورين ههنا هو الرحمة والاختلاف ابعدهما (الثانى) انه تعالى لو خلقهم للاختلاف واراد منهم ذلك الايمان لكان لا يجوز ان يعذبهم عليه اذ كانوا مطيعين له بذلك الاختلاف (الثالث) اذا فسرنا الآية بهذا المعنى كان مطابقا لقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون فان قيل لو كان المراد وللرحمة خلقهم لقال ولتلك خلقهم ولم يقل ولذلك خلقهم قلنا ان تأنيث الرحمة ليس تأنيثا حقيقيا فكان محمولا على الفضل والغفران كقوله هذا رحمة من ربى وقوله ان رحمة الله قريب من المحسنين (والقول الثانى) ان المراد وللاختلاف خلقهم (والقول الثالث) وهو المختار انه خلق اهل الرحمة للرحمة واهل الاختلاف للاختلاف روى ابو صالح عن ابن عباس انه قال خلق الله اهل الرحمة لئلا يختلفوا واهل العذاب لان يختلفوا وخلق الجنة وخلق لها اهلا وخلق النار وخلق لها اهلا والذى يدل على صحة هذا التأويل وجوه (الاول) الدلائل القاطعة الدالة على ان العلم والجهل لا يمكن حصولهما فى العبد الا بتخليق الله تعالى (الثانى) ان يقال انه تعالى لما حكم على البعض بكونهم مختلفين وعلى الآخرين بأنهم من اهل الرحمة وعلم ذلك امتنع انقلاب ذلك والا لزم انقلاب العلم جهلا وهو محال (الثالث) انه تعالى قال بعده وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين وهذا تصريح بانه تعالى خلق اقواما للهداية والجنة واقواما آخرين للضلالة والنار وذلك يقوى هذا التأويل ❋ قوله تعالى (وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) اعلم انه تعالى لما ذكر القصص الكثيرة فى هذه السورة ذكر فى هذه الآية نوعين

موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها البيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه من القبائح وابراز الاثابة فى معرض الامور الواجبة عليه وانما عدل ( ١٤٦ ) عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع افادة فائدة عامة لكل من يتصف به وهو تعليل للامر بالصبر وفيه ايماء الى ان الصبر على ما ذكر من باب الاحسان (فلولا كان) فهلا كان (من القرون) الكائنة (من قبلكم) على رأى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته اوكائنة من قبلكم (اولو بقية) من الرأى والعقل او اولو فضل وخير وسميا بها لان الرجل انما يستبقى مما يخرجه عادة اجوده وافضله فصار مثلا فى الجودة والفضل ويقال فلان من بقية القوم اى من خيارهم ومنه ما قيل فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا ويجوز ان تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية من التقوى اى فهلا كان منهم ذوو ابقاء على انفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وعقابه ويؤيده انه قرئ اولو بقية وهى المرة من مصدر بقاه يبقيه اذا راقبه وانتظره اى اولو مراقبة وخشية من عذاب الله تعالى كأنهم ينتظرون نزوله لاشفاقهم (ينهون عن الفساد فى الارض) الواقع منهم حسب ما حكى عنهم (الا قليلا ممن انجينا منهم) استثناء منقطع اى لكن قليلا منهم انجيناهم لكونهم على تلك الصفة على ان من للبيان لا للتبعيض لان جميع الناجين ناهون ولا صحة للاتصال على ظاهر الكلام لانه يكون تحضيضا لاولى البقية على النهى المذكور الا القليل من الناجين منهم كما اذا قلت هلا قرأ قومك القرآن الا الصلحاء منهم مريدا لاستثناء الصلحاء من المحضضين على القراءة نعم يصح ذلك ان جعل استثناء من النفى اللازم للتحضيض فكأنه قيل ما كان من القرون اولو بقية الا قليلا منهم لكن الرفع هو الافصح حينئذ على البدلية (واتبع الذين ظلموا) بمباشرة الفساد وترك النهى عنه (ما اترفوا فيه) اى انعموا من الشهوات واهتموا ( من )

من الفائدة (أولهما) تثبيت الفؤاد على اداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الاذى وذلك لان الانسان اذا ابتلى بمحنة وبلية فاذا رأى له فيه مشاركا خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة اذا عمت خفت فاذا سمع الرسول هذه القصص وعلم ان حال جميع الانبياء صلوات الله عليهم مع اتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الاذى من قومه وأمكنه الصبر عليه (والفائدة الثانية) قوله وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين وفى قوله فى هذه وجوه (احدها) فى هذه السورة (وثانيها) فى هذه الآية (وثالثها) فى هذه الدنيا وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع واعلم انه لا يلزم من تخصيص هذه السورة بمجئ الحق فيها ان يكون حال سائر السور بخلاف ذلك الاحتمال ان يكون الحق المذكور فى هذه السورة اكمل حالا مما ذكر فى سائر السور ولو لم يكن فيها الا قوله فاستقم كما امرت لكان الامر كما ذكرنا ثم انه تعالى بين انه جاء فى هذه السورة امور ثلاثة الحق والموعظة والذكرى (اما الحق) فهو اشارة الى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة (واما الذكرى) فهى اشارة الى الارشاد الى اعمال الباقية الصالحة (واما الموعظة) فهى اشارة الى التنفير عن الدنيا وتقبيح احوالها فى الدار الآخرة والمذكرة لما هنالك من السعادة والشقاوة وذلك لان الروح انما جاء من ذلك العالم الا انه لاستغراقه فى محبة الجسد فى هذا العالم نسى أحوال ذلك العالم فالكلام الالهى يذكره احوال ذلك العالم فلهذا السبب صح اطلاق لفظ الذكر عليه (ثم ههنا دقيقة أخرى عجيبة) وهى ان المعارف الالهية لابد لها من قابل ومن موجب وقابلها هو القلب والقلب ما لم يكن كامل الاستعداد لقبول تلك المعارف الالهية والتجليات القدسية لم يحصل الانتفاع بسماع الدلائل فلهذا السبب قدم الله تعالى ذكر اصلاح القلب وهو تثبيت الفؤاد ثم لما ذكر صلاح حال القابل أردفه بذكر الموجب وهو مجئ هذه السورة المشتملة على الحق والموعظة والذكرى وهذا الترتيب فى غاية الشرف والجلالة ۞ قوله تعالى (وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون وانتظروا انا منتظرون ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون) اعلم انه تعالى لما بلغ الغاية فى الاعذار والانذار والترغيب والترهيب اتبع ذلك بأن قال للرسول وقل للذين لا يؤمنون ولم تؤثر فيهم هذه البيانات البالغة اعملوا على مكانتكم انا عاملون وهذا عين ما حكاه الله تعالى عن شعيب عليه السلام انه قال لقومه والمعنى افعلوا كل ما تقدرون عليه فى حقى من الشر فنحن ايضا عاملون وقوله اعملوا وان كانت صيغته صيغة الامر الا ان المراد منها التهديد كقوله تعالى لابليس واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وكقوله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وانتظروا ما يعدكم الشيطان من الخذلان فانا منتظرون ما وعدنا الرحمن من انواع الغفران والاحسان قال ابن عباس رضى الله عنهما وانتظروا الهلاك فانا منتظرون لكم

بتحصيلها اما المباشرون فظاهر واما المساهلون فلما لهم فى ذلك من نيل حظوظهم الفاسدة وقيل المراد بهم تاركو النهى وانت خبير بأنه يلزم منه عدم دخول مباشرى الفساد فى الظلم والاجرام عبارة (١٤٧) (وكانوا مجرمين) اى كافرين فهو بيان لسبب استئصال الامم المهلكة وهو فشو الظلم واتباع الهوى فيهم وشيوع ترك النهى عن المنكرات مع الكفر وقوله واتبع عطف على مضمر دل عليه الكلام اى لم ينهوا واتبع الخ فيكون العدول الى المظهر لادراج المباشرين معهم فى الحكم والتسجيل عليهم بالظلم وللاشعار بعلية ذلك لما حاق بهم من العذاب اوعلى استئناف يترتب على قوله الا قليلا اى الا قليلا ممن انجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا من مباشرى الفساد وتاركى النهى عنه فيكون الاظهار مقتضى الظاهر وقوله وكانوا مجرمين عطف على اترفوا اى اتبعوا الاتراف وكونهم مجرمين لان تابع الشهوات مغمور بالآثام اواريد بالاجرام اغفالهم للشكر اوعلى اتبع اى اتبعوا شهواتهم وكانوا بذلك الاتباع مجرمين ويجوز ان يكون اعتراضا وتسجيلا عليهم بأنهم قوم مجرمون وقرئ واتبع اى اتبعوا جزاء ما اترفوا فتكون الواو للحال ويجوز ان يفسر به المشهورة ويعضده تقدم الانجاء (وما كان ربك ليهلك القرى) اى ما صح وما استقام بل استحال فى الحكمة ان يهلك القرى التى اهلكها حسبما بلغك انباؤها ويعلم من ذلك حال باقيها من القرى الظالمة واللام لتأكيد النفى وقوله (بظلم) اى ملتبسا به قيل هو حال من الفاعل اى ظالما لها والتنكير للتفخيم والايذان بأن اهلاك المصلحين ظلم عظيم والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلية بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى والا فلا ظلم فيما فعله الله تعالى بعباده كائنا ما كان لما تقرر من قاعدة اهل السنة وقد مر تفصيله فى سورة آل عمران عند قوله تعالى وان الله ليس بظلام للعبيد وقوله تعالى (واهلها مصلحون) حال من المفعول والعامل عامله ولكن لا باعتبار تقييده بما وقع حالا من فاعله اعنى بظلم

لدلالته على تقييد نفي الاهلاك ظلما بحال كون اهلها مصلحين ولاريب في فساده بل مطلقا عن ذلك وقيل المراد بالظلم الشرك والباء للسببية اى لا يهلك القرى بسبب اشراك اهلها ( ١٤٨ ) وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون الى شركهم فسادا آخر وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه تعالى ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوق العباد الفقراء على حقوق الله تعالى الغني الحميد وقيل الملك يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم وانت تدرى ان مقام النهي عن المنكرات التي اقبحها الاشراك بالله لا يلائمه فان الشرك داخل في الفساد في الارض دخولا اوليا ولذلك كان ينهى كل من الرسل الذين قصت انباؤهم امته اولا عن الاشراك ثم عن سائر المعاصي التي كانوا يتعاطونها فالوجه حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل للشرك وغيره من اصناف المعاصي وحمل الاصلاح على اصلاحه والاقلاع عنه يكون بعضهم متصدين للنهي عنه وبعضهم متوجهين الى الاتعاظ غير مصرين على ما هم عليه من الشرك وغيره من انواع الفساد (ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة) مجتمعة على الحق ودين الاسلام بحيث لا يكاد يختلف فيه احد ولكن لم يشأ ذلك فلم يكونوا متفقين على الحق (ولا يزالون مختلفين) في الحق اى مخالفين له كقوله تعالى وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم (الا من رحم ربك) الا قوما قد هداهم الله تعالى بفضله الى الحق فاتفقوا عليه ولم يختلفوا فيه اى لم يخالفوه وحمله على مطلق الاختلاف الشامل لما يصدر من المحق والمبطل يأباه الاستثناء المذكور (ولذلك) اى ولما ذكر من الاختلاف (خلقهم) اى الذين بقوا بعد الثنيا وهم المختلفون فاللام للعاقبة اوللترحم فالضمير لمن واللام في معناها اولهما معا فالضمير للناس كافة واللام بمعنى ( هذه ) مجازي عام لكلا المعنيين ( وتمت كلمة ربك ) اى وعيده اوقوله للملائكة ( لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين ) اى من عصاتهما

العذاب * ثم انه تعالى ذكر خاتمة شريفة عالية جامعة لكل المطالب الشريفة المقدسة فقال ولله غيب السموات والارض واعلم ان مجموع ما يحتاج الانسان الى معرفته أمور ثلاثة وهي الماضي والحاضر والمستقبل اما الماضي فهو ان يعرف الموجود الذي كان موجودا قبله وذلك الموجود المتقدم عليه هو الذي نقله من العدم الى الوجود وذلك هو الاله تعالى وتقدس واعلم ان حقيقة ذات الاله وكنه هويته غير معلومة للبشر البتة وانما المعلوم للبشر صفاته ثم ان صفاته قسمان صفات الجلال وصفات الاكرام اما صفات الجلال فهي سلوب كقولنا انه ليس بجوهر ولا جسم ولا كذا ولا كذا وهذه السلوب في الحقيقة ليست صفات الكمال لان السلوب عدم والعدم المحض والنفي الصرف لا كمال فيه فقولنا لا تأخذه سنة ولا نوم افاد الكمال لدلالته على العلم المحيط الدائم المبرأ عن التغير ولولا ذلك كان عدم النوم ليس يدل على كمال اصلا ألا ترى ان الميت والجماد لا تأخذه سنة ولا نوم وقوله وهو يطعم ولا يطعم انما أفاد الجلال والكمال والكبرياء لان قوله ولا يطعم يفيد كونه واجب الوجود لذاته غنيا عن الطعام والشراب بل عن كل ما سواه فثبت ان صفات الكمال والعز والعلو هي الصفات الثبوتية وأشرف الصفات الثبوتية الدالة على الكمال والجلال صفتان العلم والقدرة فلهذا السبب وصف الله تعالى ذاته في هذه الآية بهما في معرض التعظيم والثناء والمدح اما صفة العلم فقوله ولله غيب السموات والارض والمراد ان علمه نافذ في جميع الكليات والجزئيات والمعدومات والموجودات والحاضرات والغائبات وتمام البيان والشرح في دلالة هذا اللفظ على نهاية الكمال ما ذكرناه في تفسير قوله سبحانه وتعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو واما صفة القدرة فقوله واليه يرجع الامر كله والمراد ان مرجع الكل اليه وانما يكون كذلك لو كان مصدر الكل ومبدأ الكل هو هو والذي يكون مبدأ لجميع الممكنات واليه يكون مرجع كل المحدثات والكائنات كان عظيم القدرة نافذ المشيئة قهارا للعدم بالوجود والتحصيل جبارا له بالقوة والفعل والتكميل فهذان الوصفان هما المذكوران في شرح جلال المبدأ ونعت كبريائه ( والمرتبة الثانية ) من المراتب التي يجب على الانسان كونه عالما بها ان يعرف ما هو مهم له في زمان حياته في الدنيا وما ذاك الا تكميل النفس بالمعارف الروحانية والجلايا القدسية وهذه المرتبة لها بداية ونهاية اما بدايتها فالاشتغال بالعبادات الجسدانية والروحانية اما العبادات الجسدانية فأفضل الحركات الصلاة واكمل السكنات الصيام وأنفع البر الصدقة واما العبادة الروحانية فهي الفكر والتأمل في عجائب صنع الله تعالى في ملكوت السموات والارض كما قال تعالى ويتفكرون في خلق السموات والارض واما نهاية هذه المرتبة فالانتهاء من الاسباب الى مسببها وقطع النظر عن كل الممكنات والمبدعات وتوجيه حدقة العقل الى نور عالم الجلال واستغراق الروح في اضواء عالم الكبرياء ومن وصل الى

هذه الدرجة رأى كل ماسواه مهر ولا تائها فى ساحة كبريائه هالكا فانيا فى فناء سناء اسمائه وحاصل الكلام ان اول درجات السير الى الله تعالى هو عبودية الله وآخرها التوكل على الله فلهذا السبب قال فاعبده وتوكل عليه ( والمرتبة الثالثة ) من المراتب المهمة لكل عامل معرفة المستقبل وهو انه يعرف كيف يصير حاله بعد انقضاء هذه الحياة الجسمانية وهل لاعماله اثر فى السعادة والشقاوة واليه الاشارة بقوله تعالى ومار بك بغافل عما تعملون والمقصود انه لايضيع طاعات المطيعين ولايهمل احوال المتمردين الجاحدين وذلك بأن يحضروا فى موقف القيامة ويحاسبوا على النقير والقطمير ويعاتبوا فى الصغير والكبير ثم يحصل عاقبة الامر فريق فى الجنة وفريق فى السعير فظهر ان هذه الآية وافية بالارشاد الى جميع المطالب العلوية والمقاصد القدسية وانه ليس وراءها للعقول مرتقى ولا للخواطر منتهى والله الهادى للصواب تمت السورة بحمد الله وعونه وقد وجد بخط المصنف رضى الله عنه فى النسخة المنتقل منها تم تفسير هذه السورة قبل طلوع الصبح ليلة الاثنين من شهر رجب ختمه الله بالخير والبركة سنة احدى وستمائة وقد كان لى ولد صالح حسن السيرة فتوفى فى الغربة فى عنفوان شبابه وكان قلبى كالمحترق لذلك السبب فانا انشد الله اخوانى فى الدين وشركائى فى طلب اليقين وكل من نظر فى هذا الكتاب وانتفع به ان يذكر ذلك الشاب بالرحمة والمغفرة وان يذكر هذا المسكين بالدعاء وهو يقول ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم

## ( سورة يوسف مائة واحدى عشرة آية مكية )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

( الر تلك آيات الكتاب المبين انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ) وقد ذكرنا فى اول سورة يونس تفسير الر تلك آيات الكتاب الحكيم فقوله تلك اشارة الى آيات هذه السورة اى تلك الآيات التى انزلت اليك فى هذه السورة المسماة الر هى آيات الكتاب المبين وهو القرآن وانما وصف القرآن بكونه مبينا لوجوه (الاول) ان القرآن معجزة قاهرة وآية بينة لمحمد صلى الله عليه وسلم ( الثانى) انه بين فيه الهدى والرشد والحلال والحرام ولما بينت هذه الاشياء فيه كان الكتاب مبينا لهذه الاشياء ( الثالث ) انه بينت فيه قصص الاولين وشرحت فيه احوال المتقدمين ثم قال انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) روى ان علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين سلوا محمدا لم انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر وعن كيفية قصة يوسف فأنزل الله تعالى هذه الآية وذكر فيها انه تعالى عبر عن هذه القصة بألفاظ عربية ليتمكنوا من فهمها ويقدروا على تحصيل المعرفة بها والتقدير انا انزلنا هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف فى حال كونه قرآنا عربيا وسمى بعض القرآن قرآنا لان القرآن اسم جنس يقع على الكل

---

اجمعين اومنهما اجمعين لامن احدهما ( وكلا ) اى وكل نبأ فالتنوين عوض عن المضاف اليه ( نقص عليك ) نخبرك به وقوله تعالى ( من انباء الرسل ) بيان لكلا وقوله تعالى ( ١٤٩ )( مانثبت به فؤادك ) بدل منه والاظهر ان يكون المضاف اليه المحذوف فى كلا المفعول المطلق لنقص اى كل اقتصاص اى كل اسلوب من اساليبه نقص عليك من انباء الرسل وقوله تعالى مانثبت به فؤادك مفعول نقص وفائدته التنبيه على ان المقصود بالاقتصاص زيادة يقينه عليه السلام وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على اداء الرسالة واحتمال أذية الكفار بالوقوف على تفاصيل احوال الامم السالفة فى تماديهم فى الضلال ومالقى الرسل من جهتهم من مكابدة المشاق (وجاءك فى هذه) السورة اوالانباء المقصوصة عليك (الحق) الذى لامحيد عنه ( وموعظة وذكرى للمؤمنين ) اى الجامع بين كونه حقا فى نفسه وكونه موعظة وذكرى للمؤمنين ولكون الوصف الاول حالا له فى نفسه حلى باللام دون ماهو وصف له بالقياس الى غيره وتقديم الظرف اعنى فى هذه على الفاعل لان المقصود بيان منافع السورة اوالانباء المقصوصة فيها واشتمالها على ماذكر من المنافع المفصلة لابيان كون ذلك فيها لا فى غيرها ولان عند تأخير ماحقه التقديم تبقى النفس مترقبة اليه فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن ولان فى المؤخر نوع طول يخل تقديمه بتجاوب اطراف النظم الكريم ( وقل للذين لايؤمنون ) بهذا الحق ولايتعظون به ولايتذكرون (اعملوا على مكانتكم) على حالكم وجهتكم التى هى عدم الايمان (انا عاملون) على حالنا وهو الايمان به والاتعاظ والتذكر به ( وانتظروا ) بنا الدوائر (انا منتظرون) ان ينزل بكم نحو مانزل بأمثالكم من الكفرة (ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله) فيرجع لامحالة امرك وأمرهم اليه وقرئ على البناء للفاعل من رجع رجوعا ( فاعبده وتوكل عليه ) فانه كافيك والفاء لترتيب الامر بالعبادة والتوكل على كون مرجع الامور كلها الى

الله تعالى وفي تأخير الامر بالتوكل عن الامر بالعبادة اشعار بانه لا ينفع دونها (وما ربك بغافل عما يعملون) فيجازيهم بموجبه وقرئ تعملون على تغليب المخاطب اى انت وهم فيجازى كلا منك (١٥٠) ومنهم بموجب الاستحقاق * عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من قرأ سورة هود اعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق كل واحد من الانبياء المعدودين فيها عليهم الصلاة والسلام وبعدد من كذبهم وكان يوم القيامة من السعداء بفضل الله سبحانه وتعالى

* (سورة يوسف عليه السلام) *

* (وهى مائة واحدى عشرة آية) *

*(بسم الله الرحمن الرحيم)*

(الر) الكلام فيه وفي محله وفيما اريد بالاشارة والآيات والكتاب في قوله تعالى (تلك آيات الكتاب) عين ما سلف في مطلع سورة يونس (المبين) من ابان بمعنى بان اى الظاهر امره في كونه من عند الله تعالى وفي اعجازه بنوعيه لاسيما الاخبار عن الغيب او الواضح معانيه للعرب بحيث لا يشتبه عليهم حقائقه ولا يلتبس لديهم دقائقه لنزوله على لغتهم او بمعنى بين اى المبين لما فيه من الاحكام والشرائع وخفايا الملك والملكوت واسرار النشأتين في الدارين وغير ذلك من الحكم والمعارف والقصص وعلى تقدير كون الكتاب عبارة عن السورة فابانته انباؤه عن قصة يوسف عليه السلام فانه قد روى ان احبار اليهود قالوا لرؤساء المشركين سلوا محمدا صلى الله عليه وسلم لماذا انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام ففعلوا ذلك فيكون وصف الكتاب بالابانة من قبيل براعة الاستهلال لما سيأتى ولما وصف الكتاب بما يدل على الشرف الذاتى عقب ذلك بما يدل على الشرف الاضافى فقيل (انا انزلناه) اى الكتاب المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة فان كان عبارة عن الكل وهو الاظهر الانسب بقوله (من) تعالى (قرآنا عربيا) اذ هو المشهور بهذا الاسم المعروف بهذا النعت المتسارع الى الفهم عند اطلاقهما فالامر ظاهر وان جعل

---

و البعض (المسئلة الثانية) احتج الجبائى بهذه الآية على كون القرآن مخلوقا من ثلاثة اوجه (الاول) ان قوله انا انزلناه يدل عليه فان القديم لا يجوز تنزيله وانزاله وتحويله من حال الى حال (الثانى) انه تعالى وصفه بكونه عربيا والقديم لا يكون عربيا ولا فارسيا (الثالث) انه لما قال انا انزلناه قرآنا عربيا دل على انه تعالى كان قادرا على ان ينزله لا عربيا وذلك يدل على حدوثه (الرابع) ان قوله تلك آيات الكتاب يدل على انه مركب من الآيات والكلمات وكل ما كان مركبا كان محدثا (والجواب) عن هذه الوجوه بأسرها ان نقول انها تدل على ان المركب من الحروف والكلمات والالفاظ والعبارات محدث وذلك لا نزاع فيه انما الذى ندعى قدمه شئ آخر فسقط هذا الاستدلال (المسئلة الثالثة) احتج الجبائى بقوله لعلكم تعقلون فقال كلمة لعل يجب حملها على الجزم والتقدير انا انزلناه قرآنا عربيا لتعقلوا معانيه فى امر الدين اذ لا يجوز ان يراد بلعلكم تعقلون الشك لانه على الله محال فثبت ان المراد انه انزله لارادة ان يعرفوا دلائله وذلك يدل على انه تعالى اراد من كل العباد ان يعقلوا توحيده وامر دينه من عرف منهم ومن لم يعرف بخلاف قول المجبرة (والجواب) هب ان الامر على ماذكرتم الا انه يدل على انه تعالى انزل هذه السورة واراد منهم معرفة كيفية هذه القصة ولكن لم قلتم انها تدل على انه تعالى اراد من الكل الايمان والعمل الصالح ❊ قوله تعالى (نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) روى سعيد بن جبير انه تعالى لما انزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يتلوه على قومه فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه السورة فتلاها عليهم فقالوا لو حدثتنا فنزل الله نزل احسن الحديث كتابا فقالوا لو ذكرتنا فنزل ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله (المسئلة الثانية) القصص اتباع الخبر بعضه بعضا واصله فى اللغة المتابعة قال تعالى وقالت لاخته قصيه اى اتبعى اثره وقال تعالى فارتدا على آثارهما قصصا اى اتباعا وانما سميت الحكاية قصصا لان الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئا فشيئا كما يقال تلا القرآن اذا قرأه لانه يتلو اى يتبع ما حفظ منه آية بعد آية والقصص فى هذه الآية يحتمل ان يكون مصدرا بمعنى الاقتصاص يقال قص الحديث يقصه قصا وقصصا اذا طرده وساقه كما يقال ارسله يرسله ارسالا ويجوز ان يكون من باب تسمية المفعول بالمصدر كقولك هذا قدرة الله تعالى اى مقدوره وهذا الكتاب علم فلان اى معلومه وهذا رجاؤنا اى مرجونا فان حملناه على المصدر كان المعنى نقص عليك احسن الاقتصاص وعلى هذا التقدير فالحسن يعود الى حسن البيان لا الى القصة والمراد من هذا الحسن كون هذه الالفاظ فصيحة بالغة فى الفصاحة الى حد الاعجاز ألا ترى ان هذه القصة مذكورة فى كتب التواريخ مع ان شيئا منها لا يشابه هذه السورة فى الفصاحة والبلاغة وان حملناه على المفعول كان معنى كونه احسن القصص لما فيه

عبارة عن السورة فاسميتها قرآناً لما عرفته فيما سلف والسر فى ذلك انه اسم جنس فى الاصل يقع على الكل والبعض كالكتاب اولانه
مصدر بمعنى المفعول اى انزلناه حال كونه مقروا بلغتكم ( ١٥١ ) ( لعلكم تعقلون ) اى لكى تفهموا معانيه طرا وتحيطوا بما فيه
من البدائع خبرا وتطلعوا على
انه خارج عن طوق البشر منزل
من عند خلاق القوى والقدر
( نحن نقص عليك ) اى نخبرك
ونحدثك واشتقاقه من قص
أثره اذا اتبعه لان من يقص
الحديث يتبع ماحفظ منه شيأ
فشيأ كما يقال تلا القرآن لانه
يتبع ماحفظ منه آية بعد آية
( أحسن القصص ) اى احسن
الاقتصاص فنصبه على المصدرية
وفيه مع بيان الواقع ايهام لمافى
اقتصاص اهل الكتاب من القبح
والخلل وترك المفعول امالاعتماد
على انفهامه من قوله عزوجل
( بما اوحينا ) اى بايحائنا ( اليك
هذا القرآن ) اى هذه السورة
فان كونها موحاة منبئ عن
كون مافى ضمنها مقصوصا
والتعرض لعنوان قرآنيتها
لتحقيق ان الاقتصاص ليس
بطريق الالهام اوالوحى غير
المتلو واما لظهوره من سؤال
المشركين بتلقين علماء اليهود
واحسنيته لانه قد اقتص على
ابدع الطرائق الرائعة الرائقة
واعجب الاساليب الفائقة اللائقة كما
لايكاد يخفى على من طالع القصة
من كتب الاولين والآخرين
وان كان لايميز الغث من السمين
ولايفرق بين الشمال واليمين
وفى كلمة هذا ايماء الى مغايرة هذا
القرآن لما فى قوله تعالى قرآنا
عربيا بأن يكون المراد بذلك
المجموع فتأمل اونقص عليك
احسن مانقص من الانباء وهو
قصة آل يعقوب عليه السلام
على ان القصص فعل بمعنى المفعول
كالنبأ والخبر اومصدر سمى به
المفعول كالخلق والصيد ونصب
احسن على المفعولية واحسنيتها
لتضمنها من الحكم والعبر مالايخفى كمال حسنه ( وان كنت ) ان مخففة من الثقيلة وضمير الشان الواقع اسما لها محذوف واللام فارقة والجملة
خبر والمعنى وان الشأن كنت ( من قبله ) من قبل ايحائنا اليك هذه السورة ( لمن الغافلين ) عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك

من العبر والنكت والحكم والعجائب التى ليست فى غيرها فان احدى الفوائد التى فى هذه القصة انه لادافع لقضاء الله تعالى ولا مانع من قدر الله تعالى وانه تعالى اذا قضى للانسان بخير ومكرمة فلوان اهل العالم اجتمعوا عليه لم يقدروا على دفعه ( والفائدة الثانية ) دلالتها على ان الحسد سبب للخذلان والنقصان ( والفائدة الثالثة ) ان الصبر مفتاح الفرج كما فى حق يعقوب عليه السلام فانه لما صبر فاز بمقصوده وكذلك فى حق يوسف عليه السلام فأما قوله بما اوحينا اليك هذا القرآن فالمعنى بوحينا اليك هذا القرآن وهذا التقدير ان جعلنا مامع الفعل بمنزلة المصدر ثم قال وان كنت من قبله يريد من قبل ان نوحى اليك لمن الغافلين عن قصة يوسف واخوته لانه عليه السلام انما علم ذلك بالوحى ومنهم من قال المراد انه كان من الغافلين عن الدين والشريعة قبل ذلك كما قال تعالى ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ❊ قوله تعالى ( اذ قال يوسف لابيه ياابت انى رأيت احدعشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ) وفيه مسائل ( المسئلة الاولى ) تقدير الآية اذكر اذ قال يوسف قال صاحب الكشاف الصحيح انه اسم عبرانى لانه لوكان عربيا لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف وقرأ بعضهم يوسف بكسر السين ويوسف بفتحها وايضا روى فى يونس هذه اللغات الثلاث وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا قيل من الكريم فقولوا الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام ( المسئلة الثانية ) قرأ ابن عامر ياابت بفتح التاء فى جميع القرآن والباقون بكسر التاء اما الفتح فوجهه انه كان فى الاصل ياابتاه على سبيل الندبة فحذفت الالف والهاء واما الكسر فأصله ياابى فحذفت الياء واكتفى بالكسرة عنها ثم ادخل هاء الوقف فقال ياابت ثم كثر استعماله حتى صار كأنه من نفس الكلمة فادخلوا عليه الاضافة وهذا قول ثعلب وابن الانبارى واعلم ان النحويين طولوا فى هذه المسئلة ومن اراد كلامهم فليطالع كتبهم ( المسئلة الثالثة ) ان يوسف عليه السلام رأى فى المنام ان احدعشر كوكبا والشمس والقمر سجدت له وكان له احد عشر نفرا من الاخوة ففسر الكواكب بالاخوة والشمس والقمر بالاب والام والسجود بتواضعهم له ودخولهم تحت امره وانما حملنا قوله انى رأيت احدعشر كوكبا على الرؤيا لوجهين ( الاول ) ان الكواكب لاتسجد فى الحقيقة فوجب حمل هذا الكلام على الرؤيا ( والثانى ) قول يعقوب عليه السلام لاتقصص رؤياك على اخوتك وفى الآية سؤالات ( السؤال الاول ) قوله رأيتهم لى ساجدين فقوله ساجدين لايليق الا بالعقلاء والكواكب جمادات فكيف جازت اللفظة المخصوصة بالعقلاء فى حق الجمادات قلنا ان جماعة من الفلاسفة الذين يزعمون ان الكواكب احياء ناطقة احتجوا بهذه الآية وكذلك احتجوا بقوله تعالى وكل فى فلك يسبحون والجمع بالواو والنون مختص بالعقلاء وقال الواحدى انه تعالى لما وصفها بالسجود صارت كأنها تعقل فاخبر عنها كما يخبر

قط وهو تعليل لكونه موحى والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لاجلال شان النبي عليه السلام وان غفل عنه بعض الغافلين ( اذ قال يوسف )
نصب باضمار اذكر وشروع في القصة انجازا للوعد بأحسن ( ١٥٢ ) الاقتصاص او بدل من احسن القصص على تقدير
كونه مفعولا بدل اشتمال فان اقتصاص الوقت المشتمل على المقصوص من حيث اشتماله عليه اقتصاص للمقصوص ويوسف اسم عبري لاعربي لخلوه عن سبب آخر غير التعريف وفتح السين وكسرها على بعض القراآت بناء على التلعب به لاعلى انه مضارع بني للمفعول او الفاعل من آسف لشهادة المشهورة بعجمته ( لابيه ) يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام وقد روى عنه عليه السلام ان الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ( يا ابت ) اصله يا ابي فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة فلذلك قلبت هاء في الوقف على قراءة ابن كثير وابي عمرو ويعقوب وكسرتها لانها عوض عن حرف يناسبها وفتحها ابن عامر في كل القرآن لانها حركة اصلها اولان الاصل يا ابتا فحذف الالف وبقي الفتحة وانما لم يجمع يا ابتي لانه جمع بين العوض والمعوض وقرئ بالضم اجراء لها مجرى الالفاظ المؤنثة بالتاء من غير اعتبار التعويض وعدم تسكينها كاصلها لانها حرف صحيح منزل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب ( انى رأيت ) من الرؤيا لامن الرؤية لقوله لاتقصص رؤياك هذا تأويل رؤياى ولان الظاهر ان وقوع مثل هذه الامور البديعة في عالم الشهادة لايختص برؤية راء دون راء فيكون طامة كبرى لايخفى على احد من الناس ( احد عشر كوكبا والشمس والقمر ) روى عن جابر رضي الله عنه ان
يهوديا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهن يوسف عليه السلام فسكت النبي عليه (قال)
السلام فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك فقال عليه السلام اذا أخبرتك بذلك هل تسلم فقال نعم قال عليه السلام جريان والطارق

ممن يعقل كما قال في صفة الاصنام وتراهم ينظرون اليك وهم لايبصرون وكما في قوله يا ايها
النمل ادخلوا مساكنكم ( السؤال الثاني ) قال اني رأيت احد عشر كوكبا والشمس
والقمر ثم اعاد لفظ الرؤيا مرة ثانية وقال رأيتهم لي ساجدين فما الفائدة في هذا التكرير
( الجواب ) قال القفال رحمه الله ذكر الرؤية الاولى لتدل على انه شاهد الكواكب
والشمس والقمر والثانية لتدل على مشاهدة كونها ساجدة له وقال بعضهم انه لما قال
اني رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر فكأنه قيل له كيف رأيت فقال رأيتهم
لي ساجدين وقال آخرون يجوز ان يكون احدهما من الرؤية والآخر من الرؤيا وهذا
القائل لم يبين ان ايهما يحمل على الرؤية وايهما على الرؤيا فذكر قولا مجملا غير مبين
( السؤال الثالث ) لم اخر الشمس والقمر قلنا أخرهما لفضلهما على الكواكب لان
التخصيص بالذكر يدل على مزيد الشرف كما في قوله وملائكته ورسله وجبريل وميكال
( السؤال الرابع ) المراد بالسجود نفس السجود او التواضع كما في قوله
ترى الاكم فيه سجدا للحوافر * قلنا كلاهما محتمل والاصل في الكلام حمله على حقيقته
ولا مانع ان يرى في المنام ان الشمس والقمر والكواكب سجدت له (السؤال الخامس)
متى رأى يوسف عليه السلام هذه الرؤيا قلنا لاشك انه رآها حال الصغر فاما ذلك الزمان
بعينه فلا يعلم الا بالاخبار قال وهب رأى يوسف عليه السلام وهو ابن سبع سنين ان احدى
عشرة عصا طوالا كانت مركوزة في الارض كهيئة الدائرة واذا عصا صغيرة وثبت عليها
حتى ابتلعتها فذكر ذلك لابيه فقال اياك ان تذكر هذا لاخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة
سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على ابيه فقال لا تذكرها لهم فيكيدوا لك
كيدا وقيل كان بين رؤيا يوسف ومصير اخوته اليه اربعون سنة وقيل ثمانون سنة
واعلم ان الحكماء يقولون ان الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب والرؤيا الجيدة انما
يظهر تعبيرها بعد حين قالوا والسبب في ذلك ان رحمة الله تقتضي ان لا يحصل الاعلام
بوصول الشر الا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم اقل واما الاعلام بالخير فانه
يحصل متقدما على ظهوره بزمان طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حصول
ذلك الخير اكثر واتم ( السؤال السادس ) قال بعضهم المراد من الشمس والقمر ابوه
وخالته فالسبب فيه قلنا انما قالوا ذلك من حيث ورد في الخبر ان والدته توفيت وما دخلت
عليه حال ما كان بمصر قالوا ولو كان المراد من الشمس والقمر أباه وامه لما ماتت لان
رؤيا الانبياء عليهم السلام لابد وان تكون وحيا وهذه الحجة غير قوية لان يوسف عليه
السلام ما كان في ذلك الوقت من الانبياء ( السؤال السابع ) وما تلك الكواكب
قلنا روى صاحب الكشاف ان يهوديا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد
اخبرني عن النجوم التي رآهن يوسف فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل
عليه السلام واخبره بذلك فقال عليه الصلاة والسلام لليهودي ان اخبرتك هل تسلم

قال نعم قال جربان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلت من السماء وسجدت له فقال اليهودي اي والله انها لاسماؤها واعلم ان كثيرا من هذه الاسماء غير مذكور في الكتب المصنفة في صورة الكواكب والله اعلم بحقيقة الحال * قوله تعالى ( قال يابني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما اتمها على ابويك من قبل ابراهيم واسحق ان ربك عليم حكيم) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حفص يابني بفتح الياء والباقون بالكسر (المسئلة الثانية) ان يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف واخيه فحسده اخوته لهذا السبب وظهر ذلك المعنى ليعقوب عليه السلام بالامارات الكثيرة فلما ذكر يوسف عليه السلام هذه الرؤيا وكان تأويلها ان اخوته وابويه يخضعون له فقال لا تخبرهم برؤياك فانهم يعرفون تأويلها فيكيدوا لك كيدا (المسئلة الثالثة) قال الواحدي الرؤيا مصدر كالبشرى والسقيا والبقيا والشورى الا انه لما صار اسما لهذا المتخيل في المنام جرى مجرى الاسماء قال صاحب الكشاف الرؤيا بمعنى الرؤية الا انها مختصة بما كان منها في المنام دون اليقظة فلا جرم فرق بينهما بحرفي التأنيث كما قيل القربة والقربى وقرئ روياك بقلب الهمزة واوا وسمع الكسائي يقرأ رياك ورياك بالادغام وضم الراء وكسرها وهي ضعيفة ثم قال تعالى فيكيدوا لك كيدا وهو منصوب باضمار ان والمعنى ان قصصتها عليهم كادوك فان قيل فلم لم يقل فيكيدوك كما قال فكيدوني قلنا هذه اللام تأكيد للصلة كقوله للرؤيا تعبرون وكقولك نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك وقيل هي من صلة الكيد على معنى فيكيدوا كيدا لك قال اهل التحقيق وهذا يدل على انه قد كان لهم علم بتعبير الرؤيا والا لم يعلموا من هذه الرؤيا ما يوجب حقدا وغضبا ثم قال ان الشيطان للانسان عدو مبين والسبب في هذا الكلام انهم لو اقدموا على الكيد لكان ذلك مضافا الى الشيطان ونظيره قول موسى عليه السلام هذا من عمل الشيطان ثم ان يعقوب عليه السلام قصد بهذه النصيحة تعبير تلك الرؤيا وذكر امورا (اولها) قوله وكذلك يجتبيك ربك يعني وكما اجتباك بمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبر شان كذلك يجتبيك لامور عظام قال الزجاج الاجتباء مشتق من جبيت الشئ اذا خلصته لنفسك ومنه جبيت الماء في الحوض واختلفوا في المراد بهذا الاجتباء فقال الحسن يجتبيك ربك بالنبوة وقال آخرون المراد منه اعلاء الدرجة وتعظيم المرتبة فاما تعيين النبوة فلا دلالة في اللفظ عليه (وثانيها) قوله ويعلمك من تأويل الاحاديث وفيه وجوه (الاول) المراد منه تعبير الرؤيا سماه تأويلا لانه يؤل امره الى ما رآه في المنام يعني تأويل احاديث الناس فيما يرونه في منامهم قالوا انه عليه السلام كان في علم التعبير غاية

والقمر نزلن من السماء وسجدن له فقال اليهودي اي والله انها لاسماؤها وقيل الشمس والقمر ابواه وقيل أبوه وخالته والكواكب اخوته وانما أخر الشمس والقمر عن الكواكب لاظهار مزيتهما وشرفهما على سائر الطوالع بعطفهما عليها كما في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة عليهم السلام وقد يجوز ان تكون الواو بمعنى مع اي رأيت الكواكب مع الشمس والقمر ولا يبعد ان يكون ذلك اشارة الى تأخر ملاقاته عليه السلام لهما عن ملاقاته لاخوته وعن وهب ان يوسف عليه السلام رأى وهو ابن سبع سنين ان احدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة في الارض كهيئة الدائرة واذا عصا صغيرة تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها فوصف ذلك لابيه فقال اياك ان تذكر هذا لاخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال لا تقصها عليهم فيبغوا لك الغوائل وقيل كان بين رؤيا يوسف ومصير اخوته اليه اربعون سنة وقيل ثمانون (رأيتهم لي ساجدين) استئناف ببيان حالهم التي رآهم عليها كأن سائلا سأل فقال كيف رأيتهم فأجاب بذلك وانما أجريت مجرى العقلاء في الضمير لوصفها بوصف العقلاء أعني السجود وتقديم الجار والمجرور لاظهار العناية والاهتمام بما هو الاهم مع ما في ضمنه من رعاية الفاصلة (قال يابني) صغره للشفقة اولها واصغر السن وهو ايضا

( والثانى ) تأويل الاحاديث فى كتب الله تعالى والاخبار المروية عن الانبياء المتقدمين كما ان الواحد من علماء زماننا يشتغل بتفسير القرآن وتأويله وتأويل الاحاديث المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم (والثالث) الاحاديث جمع حديث والحديث هو الحادث وتأويلها مآلها ومآل الحوادث الى قدرة الله تعالى وتكوينه وحكمته والمراد من تأويل الاحاديث كيفية الاستدلال بأصناف المخلوقات الروحانية والجسمانية على قدرة الله تعالى وحكمته وجلالته (وثالثها) قوله ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب واعلم ان من فسر الاجتباء بالنبوة لايمكنه ان يفسر اتمام النعمة ههنا بالنبوة ايضا والالزم التكرار بل يفسر اتمام النعمة ههنا بسعادات الدنيا وسعادات الآخرة اما سعادات الدنيا فالاكثار من الاولاد والخدم والاتباع والتوسع فى المال والجاه والحشم واجلاله فى قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد وأما سعادات الآخرة فالعلوم الكثيرة والاخلاق الفاضلة والاستغراق فى معرفة الله تعالى واما من فسر الاجتباء بنيل الدرجات العالية فههنا يفسر اتمام النعمة بالنبوة ويتأكد هذا بامور ( الاول ) ان اتمام النعمة عبارة عما به تصير النعمة تامة كاملة خالية عن جهات النقصان وماذاك فى حق البشر الا بالنبوة فان جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة ناقص بالنسبة الى كمال النبوة فالكمال المطلق والتمام المطلق فى حق البشر ليس الا النبوة ( والثانى ) قوله كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق ومعلوم ان النعمة التامة التى بها حصل امتياز ابراهيم واسحق عن سائر البشر ليس الا النبوة فوجب ان يكون المراد باتمام النعمة هو النبوة واعلم انا لما فسرنا هذه الآية بالنبوة لزم الحكم بأن اولاد يعقوب كلهم كانوا أنبياء وذلك لانه قال ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب وهذا يقتضى حصول تمام النعمة لآل يعقوب فلما كان المراد من اتمام النعمة هو النبوة لزم حصولها لآل يعقوب ترك العمل به فى حق من عدا ابناءه فوجب ان يبقى معمولا به فى حق أولاده وايضا ان يوسف عليه السلام قال انى رأيت أحد عشر كوكبا وكان تأويله احد عشر نفسا لهم فضل وكمال ويستضىء بعلمهم ودينهم اهل الارض لانه لاشىء أضوأ من الكواكب وبها يهتدى وذلك يقتضى ان يكون جملة اولاد يعقوب انبياء ورسلا فان قيل كيف يجوز ان يكونوا انبياء وقد اقدموا على مااقدموا عليه فى حق يوسف عليه السلام قلنا ذاك وقع قبل النبوة وعندنا العصمة انما تعتبر فى وقت النبوة لاقبلها (القول الثانى) ان المراد من قوله ويتم نعمته عليك خلاصه من المحن ويكون وجه التشبيه فى ذلك بابراهيم واسحق عليهما السلام هو انعام الله تعالى على ابراهيم بانجائه من النار وعلى ابنه اسحق بتخليصه من الذبح ( القول الثالث ) ان اتمام النعمة هو وصل نعمة الله عليه فى الدنيا بنعمة الآخرة بان جعلهم فى الدنيا انبياء وملوكا ونقلهم عنها الى الدرجات العلى فى الجنة واعلم ان القول الصحيح هو الاول لان النعمة التامة فى حق البشر ليست الا النبوة وكل ماسواها فهى ناقصة بالنسبة اليها ثم انه

هذه الرؤيا ان يوسف يبلغه الله تعالى مبلغا جليلا من الحكمة ويصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه الكرام فخاف عليه حسد الاخوة وبغيهم فقال صيانة لهم من ذلك وله من معاناة المشاق ومقاساة الاحزان وان كان واثقا بأن الله تعالى سيحقق ذلك لامحالة وطامعا فى حصوله بلامشقة ( لاتقصص رؤياك ) هى ما فى المنام كما ان الرؤية ما فى اليقظة فرق بينهما بحرفى التأنيث كما فى القربى والقربة وحقيقتها ارتسام الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة الى الحس المشترك والصادقة منها انما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ فتتصور بما فيها مما يليق من المعانى الحاصلة هناك ثم ان المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها الى الحس المشترك فتصير مشاهدة ثم اذا كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لايكون التفاوت الا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير والا احتاجت اليه ( على اخوتك فيكيدوا ) نصب باضمار أن أى فيفعلوا ( لك ) اى لاجلك ولاهلاكك ( كيدا ) متينا راسخا لاتقدر على التفصى عنه او خفيا عن فهمك لاتتصدى لمدافعته وهذا أوفق بمقام التحذير وان كان يعقوب عليه السلام يعلم انهم ليسوا بقادرين على تحويل مادلت الرؤيا على وقوعه وهذا الاسلوب آكد من ان يقال فيكيدوك كيدا اذ ليس فيه دلالة على كون نفس الفعل مقصودا الايقاع وقد قيل انما جىء باللام لتضمنه معنى الاحتيال المتعدى باللام ليفيد معنى الفعلين والمضمن فيه للتأكيد اى فيحتالوا لك ولاهلاكك حيلة وكيدا والمراد باخوته ههنا الذين يخشى غوائلهم ومكايدهم (عليه)

عليه السلام لما وعده بهذه الدرجات الثلاث ختم الكلام بقوله ان ربك عليم حكيم فقوله عليم اشارة الى قوله الله اعلم حيث يجعل رسالاته وقوله حكيم اشارة الى ان الله تعالى مقدس عن السفه والعبث لايضع النبوة الا فى نفس قدسية وجوهرة مشرقة علوية فان قيل هذه البشارات التى ذكرها يعقوب عليه السلام هل كان قاطعا بصحتها ام لا فان كان قاطعا بصحتها فكيف حزن على يوسف عليه السلام وكيف جاز ان يشتبه عليه ان الذئب اكله وكيف خاف عليه من اخوته ان يهلكوه وكيف قال لاخوته وأخاف ان يأكله الذئب وانتم عنه غافلون مع علمه بأن الله سبحانه سيجتبيه ويجعله رسولا واما اذا قلنا انه عليه السلام ما كان عالما بصحة هذه الاحوال فكيف قطع بها وكيف حكم بوقوعها حكما جازما من غير تردد قلنا لايبعد ان يكون قوله وكذلك يجتبيك ربك مشروطا بأن لايكيدوه لان ذكر ذلك قد تقدم وايضا فبتقدير ان يقال انه عليه السلام كان قاطعا بأن يوسف عليه السلام سيصل الى هذه المناصب الا انه لايمتنع ان يقع فى المضايق الشديدة ثم يتخلص منها ويصل الى تلك المناصب فكان خوفه لهذا السبب ويكون معنى قوله وأخاف ان يأكله الذئب الزجر عن التهاون فى حفظه وان كان يعلم ان الذئب لايصل اليه ❊ قوله تعالى (لقد كان فى يوسف واخوته آيات للسائلين اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى ابينا منا ونحن عصبة ان أبانا لفى ضلال مبين) فى هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) ذكر صاحب الكشاف اسماء اخوة يوسف يهودا روبيل شمعون لاوى ربالون يشجر دينة دان نفتالى جاد آشر ثم قال السبعة الاولون من ليا بنت خالة يعقوب والاربعة الآخرون من سريتين زلفة وبلهة فلما توفيت ليا تزوج يعقوب اختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف (المسئلة الثانية) قوله آيات للسائلين قرأ ابن كثير آية بغير الف جعله على شان يوسف والباقون آيات على الجمع لان امور يوسف كانت كثيرة وكل واحد منها آية بنفسه (المسئلة الثالثة) ذكروا فى تفسير قوله تعالى آيات للسائلين وجوها (الاول) قال ابن عباس دخل حبر من اليهود على النبى صلى الله عليه وسلم فسمع منه قراءة يوسف فعاد الى اليهود فأعلمهم انه سمعها منه كما هى فى التوراة فانطلق نفر منهم فسمعوا كما سمع فقالوا له من علمك هذه القصة فقال الله علمنى فنزل لقد كان فى يوسف واخوته آيات للسائلين وهذا الوجه عندى بعيد لان المفهوم من الآية ان فى واقعة يوسف آيات للسائلين وعلى هذا الوجه الذى نقلناه ما كانت الآيات فى قصة يوسف بل كانت الآيات فى اخبار محمد صلى الله عليه وسلم عنها من غير سبق تعلم ولا مطالعة وبين الكلامين فرق ظاهر (الثانى) ان اهل مكة اكثرهم كانوا أقارب الرسول عليه الصلاة والسلام وكانوا ينكرون نبوته ويظهرون العداوة الشديدة معه بسبب الحسد فذكر الله تعالى هذه القصة وبين ان اخوة يوسف بالغوا فى ايذائه لاجل الحسد وبالآخرة فان الله تعالى نصره وقواه وجعلهم تحت يده ورايته ومثل هذه الواقعة اذا سمعها العاقل كانت زاجرة له عن الاقدام على الحسد

بنو علاته الاحد عشر وهم يهوذا وروبيل وشمعون ولاوى وربالون ويشجر ودينة بنو يعقوب من ليا بنت خالته ودان ونفتالى وجاد وآشر بنوه من سريتين زلفة وبلهة [illegible] هم المشار اليهم بالكواكب الاحد عشر واما بنيامين الذى هو شقيق يوسف عليه السلام وامهما راحيل التى [illegible] يعقوب عليه السلام بعد وفاة اختها ليا او فى حياتها اذ لم يكن جمع الاختين اذ ذاك [illegible] فليس بداخل تحت هذا [illegible] اذ لايتوهم مضرته ولا [illegible] معرته ولم يكن معدودا [illegible] فى الرؤيا اذ لم يكن معهم فى السجود ليوسف والمراد [illegible] الرؤيا عليهم كلا او [illegible] ان الشيطان للانسان عدو مبين ظاهر العداوة فلا يألو جهدا فى اغواء اخوتك واضلالهم وحملهم على ما لاخير فيه وهو استئناف كأن يوسف عليه السلام قال كيف يصدر ذلك عن اخوتى الناشئين فى بيت النبوة فقيل ان الشيطان يحملهم على ذلك ولما نبه عليهما السلام على ان لرؤياه شأنا عظيما يستتبع منافع و[illegible] اشاعتها المؤدية الى ان يحول [illegible] بينها وبين ظهور آثارها و[illegible] اويوعروا سبيل وصولها شرع فى تعبيرها وتأويلها [illegible] اجمالى فقال (وكذلك) اى ومثل ذلك الاجتباء البديع الذى شاهدت آثاره فى عالم المثال من سجود تلك الاجرام العلوية النيرة لك وبحسبه وعلى وفقه (يجتبيك ربك) يختارك [illegible] كبريائه ويستنبؤك [illegible] من جباه اذا جمعه ويصطفيك على اشراف الخلائق وسراة الناس قاطبة ويبرز مصداق تلك الرؤيا فى عالم الشهادة حسبما [illegible] من غير قصور والمراد بالتشبيه بيان المضاهاة المحققة بين الصور المرئية فى عالم المثال وبين ماوقعت هى صورا واشباحا له من

( الثالث ) ان يعقوب لما عبر رؤيا يوسف وقع ذلك التعبير ودخل فى الوجود بعد ثمانين سنة فكذلك ان الله تعالى لما وعد محمدا عليه الصلاة والسلام بالنصر والظفر على الاعداء فاذا تأخر ذلك الموعود مدة من الزمان لم يدل ذلك على كون محمد عليه الصلاة والسلام كاذبا فيه فذكر هذه القصة نافع من هذا الوجه (الرابع) ان اخوة يوسف بالغوا فى ابطال امره ولكن الله تعالى لما وعده بالنصر والظفر كان الامر كما قدره الله تعالى لا كما سعى فيه الاعداء فكذلك واقعة محمد صلى الله عليه وسلم فان الله لما ضمن له اعلاء الدرجة لم يضره سعى الكفار فى ابطال أمره واما قوله للسائلين فاعلم ان هذه القصة فيها آيات كثيرة لمن سأل عنها ولمن لم يسأل عنها وهو كقوله تعالى فى اربعة ايام سواء للسائلين ثم قال تعالى اذ قالوا ليوسف واخوه احب الى أبينا منا ونحن عصبة وفيه مسئلتان ( المسئلة الاولى ) قوله ليوسف اللام لام الابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة ارادوا ان زيادة محبته لهما امر ثابت لا شبهة فيه وأخوه هو بنيامين وانما قالوا أخوه وهم جميعا اخوة لان امهما كانت واحدة والعصبة والعصابة العشرة فصاعدا وقيل الى الاربعين سموا بذلك لانهم جماعة تعصب بهم الامور ونقل عن على عليه السلام انه قرأ ونحن عصبة بالنصب قيل معناه ونحن نجتمع عصبة ( المسئلة الثانية ) المراد منه بيان السبب الذى لاجله قصدوا ايذاء يوسف وذلك ان يعقوب كان يفضل يوسف وأخاه على سائر الاولاد فى الحب وانهم تأذوا منه لوجوه ( الاول ) انهم كانوا اكبر سنا منهما ( وثانيها ) انهم كانوا اكثر قوة واكثر قياما بمصالح الاب منهما ( وثالثها ) انهم قالوا انا نحن القائمون بدفع المفاسد والآفات والمشتغلون بتحصيل المنافع والخيرات اذا ثبت ماذكرناه من كونهم متقدمين على يوسف واخيه فى هذه الفضائل ثم انه عليه السلام كان يفضل يوسف واخاه عليهم لا جرم قالوا ان ابانا لفى ضلال مبين يعنى هذا حيف ظاهر وضلال بين وههنا سؤالات ( الاول ) ان من الامور المعلومة ان تفضيل بعض الاولاد على بعض يورث الحقد والحسد ويورث الآفات فلما كان يعقوب عليه السلام عالما بذلك فلم اقدم على هذا التفضيل وايضا الاسن والاعلم والانفع افضل فلم قلب هذه القضية ( والجواب ) انه عليه السلام ما فضلهما على سائر الاولاد الا فى المحبة والمحبة ليست فى وسع البشر فكان معذورا فيه ولا يلحقه بسبب ذلك لوم ( السؤال الثانى ) ان اولاد يعقوب عليه السلام ان كانوا قد آمنوا بكونه رسولا حقا من عند الله تعالى فكيف اعترضوا عليه وكيف زيفوا طريقته وطعنوا فى فعله وان كانوا مكذبين لنبوته فهذا يوجب كفرهم ( الجواب ) انهم كانوا مؤمنين بنبوة ابيهم مقرين بكونه رسولا حقا من عند الله تعالى الا انهم لعلهم جوزوا من الانبياء عليهم السلام ان يفعلوا افعالا مخصوصة بمجرد الاجتهاد ثم ان اجتهادهم ادى الى تخطئة ابيهم فى ذلك الاجتهاد وذلك لانهم كانوا يقولون هما صبيان ما بلغا العقل الكامل ونحن متقدمون عليهما فى السن والعقل والكفاية والمنفعة وكثرة الخدمة والقيام بالمهمات واصراره على

لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة ومراده بيان اطاعة ابويه واخوته له لكنه انما لم يصرح به حذرا من اذاعته ( ويجتبيك ) كلام مبتدأ غير داخل تحت التشبيه اراد به عليه السلام تأكيد مقالته وتحقيقها وتوطين نفس يوسف عليه السلام بما اخبر به على طريقة التعبير والتأويل كأنه قال وهو يعلمك ( من تأويل الاحاديث ) اى ذلك الجنس من العلوم اوطرفا صالحا منه فتطلع على حقية ما اقول ولا يخفى ما فيه من تأكيد ما سبق والبعث على تلقى ما سيأتى بالقبول والمراد بتأويل الاحاديث تعبير الرؤيا اذ هى احاديث الملك ان كانت صادقة او احاديث النفس او الشيطان ان لم تكن كذلك والاحاديث اسم جمع للحديث كالاباطيل اسم جمع للباطل لا جمع احدوثة وقيل كأنهم جمعوا حديثا على احدثة ثم جمعوا الجمع على احاديث كقطيع واقطعة واقاطيع وقيل هو تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الانبياء عليهم السلام والاول هو الاظهر وتسمية التعبير تأويلا لانه جعل المرئى آئلا الى ما يذكره المعبر بصدد التعبير ورجعه اليه فكأنه عليه الصلاة والسلام اشار بذلك الى ما سيقع من يوسف عليه السلام من تعبيره لرؤيا صاحبى السجن ورؤيا الملك وكون ذلك ذريعة الى ما يبلغه الله تعالى اليه من من الرياسة العظمى التى عبر عنها باتمام النعمة وانما عرف يعقوب عليه السلام ذلك منه من جهة الوحى اواراد كون هذه الخصلة سببا لظهور امره عليه السلام على الاطلاق فيجوز حينئذ ان

تقديم يوسف علينا يخالف هذا الدليل واما يعقوب عليه السلام فلعله كان يقول زيادة المحبة ليست في الوسع والطاقة فليس لله علي فيه تكليف واما تخصيصهما بمزيد البر فيحتمل انه كان لوجوه (احدها) ان امهما ماتت وهما صغار (وثانيها) لانه كان يرى فيه من آثار الرشد والنجابة مالم يجد في سائر الاولاد (وثالثها) لعله عليه السلام وان كان صغيرا الا انه كان يخدم اباه بأنواع من الخدم اشرف واعلى مما كان يصدر عن سائر الاولاد والحاصل ان هذه المسئلة كانت اجتهادية وكانت مخلوطة بميل النفس وموجبات الفطرة فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن احد الخصمين في دين الآخر او في عرضه (السؤال الثالث) انهم نسبوا اباهم الى الضلال المبين وذلك مبالغة في الذم والطعن ومن بالغ في الطعن في الرسول كفر لاسيما اذا كان الطاعن ولدا فان حق الابوة يوجب مزيد التعظيم (والجواب) المراد منه الضلال عن رعاية المصالح في الدنيا لا البعد عن طريق الرشد والصواب (السؤال الرابع) ان قولهم ليوسف واخوه احب الى ابينا منا محض الحسد والحسد من امهات الكبائر لاسيما وقد اقدموا على الكذب بسبب ذلك الحسد وعلى تضييع ذلك الاخ الصالح والقائه في ذل العبودية وتبعيده عن الاب المشفق والقوا اباهم في الحزن الدائم والاسف العظيم واقدموا على الكذب فما بقيت خصلة مذمومة ولا طريقة في الشر والفساد الا وقد أتوابها وكل ذلك يقدح في العصمة والنبوة (والجواب) الامر كما ذكرتم الا ان المعتبر عندنا عصمة الانبياء عليهم والسلام في وقت حصول النبوة واما قبلها فذلك غير واجب والله اعلم ❊ قوله تعالى (اقتلوا يوسف او اطرحوه ارضا يخل لكم وجه ابيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف والقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين) واعلم انه لما قوي الحسد وبلغ النهاية قالوا لابد من تبعيد يوسف عن ابيه وذلك لايحصل الا بأحد طريقين القتل او التغريب الى ارض يحصل اليأس من اجتماعه مع ابيه ولا وجه في الشر يبلغه الحاسد اعظم من ذلك ثم ذكروا العلة فيه وهي قولهم يخل لكم وجه ابيكم والمعنى ان يوسف شغله عنا وصرف وجهه اليه فاذا فقده اقبل علينا بالميل والمحبة وتكونوا من بعده قوما صالحين وفيه وجوه (الاول) انهم علموا ان ذلك الذي عزموا عليه من الكبائر فقالوا اذا فعلنا ذلك تبنا الى الله ونصير من القوم الصالحين (الثاني) انه ليس المقصود ههنا صلاح الدين بل المعنى يصلح شأنكم عند ابيكم ويصير ابوكم محبا لكم مشتغلا بشأنكم (الثالث) المراد انكم بسبب هذه الوحشة صرتم مشوشين لاتتفرغون لاصلاح مهم فاذا زالت هذه الوحشة تفرغتم لاصلاح مهماتكم واختلفوا في ان هذا القائل الذي امر بالقتل من كان على قولين (احدهما) ان بعض اخوته قال هذا (والثاني) انهم شاوروا اجنبيا فأشار عليهم بقتله ولم يقل ذلك احد من اخوته فأما من قال بالاول فقد اختلفوا فقال وهب انه شمعون وقال مقاتل روبيل فان قيل كيف يليق هذا بهم وهم انبياء قلنا من

الله تعالى لمثل هذه الرؤيا لابد من توفيقه لتعبيرها وتأويل امثالها وتمييز ماهو آفاقي منها مما هو انفسي كيف لا وهي تدل على كمال تمكن نفسه عليه السلام في عالم المثال وقوة تصرفاتها فيه فيكون اقبل لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم وبما يحاكيه من الامور الواقعة بحسبها في عالم الشهادة واقوى وقوفا على النسب الواقعة بين الصور المعاينة في احد ذينك العالمين وبين الكائنات الظاهرة على وفقها في العالم الآخر وان هذا الشأن البديع لابد ان يكون نموذجا لظهور امر من اتصف به ومدارا لجريان احكامه فان لكل نبي من الانبياء عليهم الصلاة والسلام معجزة بها تظهر آثاره وتجرى احكامه (ويتم نعمته عليك) بأن يضم الى النبوة المستفادة من الاجتباء الملك ويجعله تتمة لها وتوسيط ذكر التعليم المذكور بينهما لكونه من لوازم النبوة والاجتباء ولرعاية ترتيب الوجود الخارجي ولما اشرنا اليه من كون اثره وسيلة الى تمام النعمة ويجوز ان يعد نفس الرؤيا من نعم الله تعالى عليه فيكون جميع النعم الواصلة اليه بحسبها مصداقا لها تماما لتلك النعمة (وعلى آل يعقوب) وهم اهله من بنيه وغيرهم فان رؤية يوسف عليه السلام اخوته كواكب يهتدى بأنوارها من نعم الله تعالى عليهم لدلالتها على مصير امرهم الى النبوة فيقع كل ما يخرج من القوة الى الفعل من كمالاتهم بحسب ذلك تماما لتلك النعمة لامحالة واما اذا اريد بتمام تلك النعمة الملك فكونه كذلك بالنسبة اليهم باعتبار انهم

الناس من اجاب عنه بأنهم كانوا فى هذا الوقت مراهقين وما كانوا بالغين وهذا ضعيف لانه يبعد من مثل نبى الله تعالى يعقوب عليه السلام ان يبعث جماعة من الصبيان من غير ان يكون معهم انسان عاقل يمنعهم عن القبائح وايضا انهم قالوا وتكونوا من بعده قوما صالحين وهذا يدل على انهم قبل التوبة لايكونون صالحين وذلك ينافى كونهم من الصبيان ومنهم من اجاب بأن هذا من باب الصغائر وهذا ايضا بعيد لان ايذاء الاب الذى هو نبى معصوم والكذب معه والسعى فى اهلاك الاخ الصغير كل واحد من ذلك من امهات الكبائر بل الجواب الصحيح ان يقال انهم ماكانوا انبياء وان كانوا انبياء الا ان هذه الواقعة انما اقدموا عليها قبل النبوة * ثم انه تعالى حكى ان قائلا قال لاتقتلوا يوسف قيل انه كان روبيل وكان ابن خالة يوسف وكان احسنهم رأيا فيه فنعهم عن القتل وقيل يهودا وكان اقدمهم فى الرأى والفضل والسن * ثم قال والقوه فى غيابة الجب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع فى غيابات الجب على الجمع فى الحرفين هذا والذى بعده والباقون غيابة على الواحد فى الحرفين اما وجه الغيابات فهو ان للجب اقطارا ونواحى فيكون فيها غيابات ومن وحد قال المقصود موضع واحد من الجب يغيب فيه يوسف فالتوحيد اخص وادل على المعنى المطلوب وقرأ الجحدرى فى غيبة الجب (المسئلة الثانية) قال اهل اللغة الغيابة كل ماغيب شيئا وستره فغيابة الجب غوره وماغاب منه عن عين الناظر واظلم من اسفله والجب البئر التى ليست بمطوية سميت جبا لانها قطعت قطعا ولم يحصل فيها غير القطع من طى او ماشبهه وانما ذكرت الغيابة مع الجب دلالة على ان المشير اشار بطرحه فى موضع مظلم من الجب لايلحقه نظر الناظرين فأفاد ذكر الغيابة هذا المعنى اذ كان يحتمل ان يلق فى موضع من الجب لايحول بينه وبين الناظرين (المسئلة الثالثة) الالف واللام فى الجب تقتضى المعهود السابق واختلفوا فى ذلك الجب فقال قتادة هو بئر ببيت المقدس وقال وهب هو بأرض الاردن وقال مقاتل هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وانما عينوا ذلك الجب للعلة التى ذكروها وهى قولهم يلتقطه بعض السيارة وذلك لان تلك البئر كانت معروفة وكانوا يردون عليها كثيرا وكان يعلم انه اذا طرح فيها يكون الى السلامة اقرب لان السيارة اذا جازوا وردوها واذا وردوها شاهدوا ذلك الانسان فيها واذا شاهدوه اخرجوه وذهبوا به فكان القاؤه فيها ابعد عن الهلاك (المسئلة الرابعة) الالتقاط تناول الشئ من الطريق ومنه اللقطة واللقيط وقرأ الحسن تلتقطه بالتاء على المعنى لان بعض السيارة ايضا سيارة والسيارة الجماعة الذين يسيرون فى الطريق للسفر قال ابن عباس يريد المارة وقوله ان كنتم فاعلين فيه اشارة الى ان الاولى ان لاتفعلوا شيئا من ذلك واما ان كان ولابد فاقتصروا على هذا القدر ونظيره قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به يعنى الاولى ان لاتفعلوا ذلك ※ قوله تعالى (قالوا ياابانا مالك لاتأمنا على يوسف وانا له لناصحون ارسله معنا غدا يرتع ويلعب وانا له لحافظون) اعلم ان هذا الكلام يدل على ان

يغتنمون آثاره من العز والجاه والمال (كما اتمها على ابويك) ( ١٥٨ ) نصب على المصدرية اى ويتم نعمته عليك اتماما كائنا كاتمام نعمته على ابويك وهى نعمة الرسالة والنبوة واتمامها على ابراهيم عليه السلام باتخاذه خليلا وانجائه من النار ومن ذبح الولد وعلى اسحق بانجائه من الذبح وفدائه بذبح عظيم وباخراج يعقوب والاسباط من صلبه وكل ذلك نعم جليلة وقعت تتمة لنعمة النبوة ولايجب فى تحقق التشبيه كون ذلك فى جانب المشبه به مثل ماوقع فى جانب المشبه من كل وجه (من قبل) اى من قبل هذا الوقت اومن قبلك (ابراهيم واسحق) عطف بيان لابويك والتعبير عنهما بالاب مع كونهما اباجده وابا ابيه للاشعار بكمال ارتباطه بالانبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام وتذكير معنى الولد سر أبيه ليطمئن قلبه بما اخبر به فى ضمن التعبير الاجمالى لرؤياه والاقتصار فى المشبه به على ذكر اتمام النعمة من غير تعرض للاجتباء من باب الاكتفاء فان اتمام النعمة يقتضى سابقة النعمة المستدعية للاجتباء لامحالة (ان ربك) استئناف لتحقيق مضمون الجمل المذكورة اى يفعل ماذكر لانه (عليم) بكل شئ فيعلم من يستحق الاجتباء ومايتفرع عليه من التعليم المذكور واتمام النعمة العامة على الوجه المذكور (حكيم) فاعل لكل شئ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فيفعل مايفعل كمايفعل جريا على سنن علمه وحكمته والتعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين لتربية تحقق وقوع ماذكر من الافاعيل هذا وقد قيل فى تفسير الآية الكريمة اى وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف وعز وكمال نفس يجتبيك ربك

يعقوب عليه السلام كان يخافهم على يوسف ولولا ذلك والا لما قالوا هذا القول واعلم انهم لما احكموا العزم ذكروا هذا الكلام واظهروا عند أبيهم انهم في غاية المحبة ليوسف وفي غاية الشفقة عليه وكانت عادتهم ان يغيبوا عنه مدة الى الرعى فسألوه ان يرسله معهم وقد كان عليه السلام يحب تطييب قلب يوسف فاغتر بقولهم وارسله معهم وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف لاتأمنا قرئ باظهار النونين وبالادغام باشمام وبغير اشمام والمعنى لم تخافنا عليه ونحن نحبه ونريد الخير به (المسئلة الثانية) في يرتع ويلعب خمس قراآت (الاولى) قرأ ابن كثير بالنون وبكسر عين نرتع من الارتعاء ويلعب بالياء والارتعاء افتعال من رعيت يقال رعت الماشية الكلأ ترعاه رعيا اذا اكلته وقوله نرتع الارتعاء للابل والمواشي وقد اضافوه الى انفسهم لان المعنى نرتع ابلنا ثم نسبوه الى انفسهم لانهم هم السبب في ذلك الرعي والحاصل انهم اضافوا الارتعاء والقيام بحفظ المال الى انفسهم لانهم بالغون كاملون واضافوا اللعب الى يوسف لصغره (القراءة الثانية) قرأ نافع كلاهما بالياء وكسر العين من يرتع اضاف الارتعاء الى يوسف بمعنى انه يباشر رعي الابل ليتدرب بذلك فمرة يرتع ومرة يلعب كفعل الصبيان (القراءة الثالثة) قرأ ابو عمرو وابن عامر نرتع بالنون وجزم العين ومثله نلعب قال ابن الاعرابي الرتع الاكل بشره وقيل انه الخصب وقيل المراد من اللعب الاقدام على المباحات وهذا يوصف به الانسان واما نلعب فروى انه قيل لابي عمرو كيف يقولون نلعب وهم انبياء فقال لم يكونوا يومئذ انبياء وايضا جاز ان يكون المراد من اللعب الاقدام على المباحات لاجل انشراح الصدر كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لجابر فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك وايضا كان لعبهم الاستباق والغرض منه تعلم المحاربة والمقاتلة مع الكفار والدليل عليه قولهم انا ذهبنا نستبق وانما سموه لعبا لانه في صورته (القراءة الرابعة) قرأ اهل الكوفة كليهما بالياء وسكون العين ومعناه اسناد الرتع واللعب الى يوسف عليه السلام (القراءة الخامسة) يرتع بالياء ونلعب بالنون وهذا بعيد لانهم انما سألوا ارسال يوسف معهم ليفرح هو باللعب لا ليفرحوا باللعب والله اعلم ❊ قوله تعالى (قال انى ليحزننى ان تذهبوا به وأخاف ان يأكله الذئب وانتم عنه غافلون قالوا لئن اكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون) اعلم انهم لما طلبوا منه ان يرسل يوسف معهم اعتذر اليهم بشيئين (احدهما) ان ذهابهم به ومفارقتهم اياه مما يحزنه لانه كان لايصبر عنه ساعة (والثاني) خوفه عليه من الذئب اذا غفلوا عنه برعيهم اولعبهم لقلة اهتمامهم به قيل انه رأى في النوم ان الذئب شد على يوسف فكان يحذره فمن هذا ذكر ذلك وكأنه لقنهم الحجة وفي امثالهم البلاء موكل بالمنطق وقيل الذئاب كانت في اراضيهم كثيرة وقرئ الذئب بالهمز على الاصل وبالتخفيف وقيل اشتقاقه من تذاءبت الريح اذا أتت من كل جهة فلما ذكر يعقوب عليه السلام هذا الكلام اجابوا بقولهم لئن اكله الذئب ونحن عصبة انا اذا

للنبوة والملك اولامور عظام ويتم نعمته عليك  بالنبوة اوبان يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة حيث جعلهم في الدنيا انبياء وملوكا ونقلهم عنها الى الدرجات العلا في الجنة كما أتمها على ابويك بالرسالة فتأمل والله الهادى (لقد كان في يوسف واخوته) اى في قصتهم والمراد بهم ههنا اما جميعهم فان لبنيامين ايضا حصة من القصة اوبنو علاته المعدودون فيما سلف اذ عليهم يدور رحاها (آيات) علامات عظيمة الشأن دالة على قدرة الله تعالى القاهرة وحكمته الباهرة (للسائلين) لكل من سأل عن قصتهم وعرفها اوالطالبين للآيات المعتبرين بها فانهم الواقفون عليها والمنتفعون بها دون من عداهم ممن اندرج تحت قوله تعالى وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون فالمراد بالقصة نفس المقصوص اوعلى نبوته عليه السلام لمن سأله من المشركين اواليهود عن قصتهم فاخبرهم بذلك على ماهى عليه من غير سماع من احد ولاممارسة شئ من الكتب فالمراد بها اقتصاصها وجمع الآيات حينئذ للاشعار بأن اقتصاص كل طائفة من القصة آية بينة كافية في الدلالة على نبوته عليه السلام على نحو ماذكر في قوله تعالى مقام ابراهيم على تقدير كونه عطف بيان لقوله تعالى آيات بينات لا لما قيل من انه لتعدد جهة الاعجاز لفظا ومعنى وقرأ ابن كثير آية وفي بعض المصاحف عبرة وقيل انما قص الله تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم خبر يوسف وبغي اخوته عليه لما رأى من بغي قومه عليه ليتأسى به (اذقالوا ليوسف واخوه) اى شقيقه بنيامين وانما لم يذكر

لخاسرون وفيه سؤالات ( السؤال الاول ) مافائدة اللام فى قوله لئن اكله الذئب (والجواب) من وجهين (الاول) ان كلمة ان تفيد كون الشرط مستلزما للجزاء اى ان وقعت هذه الواقعة فنحن خاسرون فهذه اللام دخلت لتأكيد هذا الاستلزام (الثانى) قال صاحب الكشاف هذه اللام تدل على اضمار القسم تقديره والله لئن اكله الذئب لكنا خاسرين (السؤال الثانى) مافائدة الواو فى قوله ونحن عصبة (الجواب) انها واو الحال حلفوا لئن حصل ماخافه من خطف الذئب أخاهم من بينهم وحالهم انهم عشرة رجال بمثلهم تعصب الامور وتكفى الخطوب انهم اذا لقوم خاسرون (السؤال الثالث) ما المراد من قولهم انا اذا لخاسرون (الجواب فيه وجوه الاول) خاسرون اى هالكون ضعفا وعجزا ونظيره قوله تعالى لئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون اى لعاجزون (الثانى) انهم يكونون مستحقين لان يدعى عليهم بالخسارة والدمار وان يقال خسرهم الله تعالى ودمرهم حين اكل الذئب أخاهم وهم حاضرون (الثالث) المعنى انا ان لم نقدر على حفظ اخينا فقد هلكت مواشينا وخسرناها (الرابع) انهم كانوا قد اتعبوا انفسهم فى خدمة أبيهم واجتهدوا فى القيام بمهماته وانما تحملوا تلك المتاعب ليفوزوا منه بالدعاء والثناء فقالوا لو قصرنا فى هذه الخدمة فقد احبطنا كل تلك الاعمال وخسرنا كل ماصدر منا من انواع الخدمة (السؤال الرابع) ان يعقوب عليه السلام اعتذر بعذرين فلم اجابوا عن احدهما دون الآخر (والجواب) ان حقدهم وغيظهم كان بسبب العذر الاول وهو شدة حبه له فلما سمعوا ذكر ذلك المعنى تغافلوا عنه ❊ قوله تعالى ( فلما ذهبوا به واجمعوا ان يجعلوه فى غيابة الجب واوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون ) اعلم انه لابد من الاضمار فى هذه الآية فى موضعين (الاول) ان تقدير الآية قالوا لئن اكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون فأذن له وارسله معهم ثم يتصل به قوله فلما ذهبوا به (والثانى) انه لابد لقوله فلما ذهبوا به واجمعوا ان يجعلوه فى غيابة الجب من جواب اذ جواب لما غير مذكور وتقديره فجعلوه فيها وحذف الجواب فى القرآن كثير بشرط ان يكون المذكور دليلا عليه وههنا كذلك قال السدى ان يوسف عليه السلام لما برز مع اخوته اظهروا له العداوة الشديدة وجعل هذا الاخ يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ولايرى فيهم رحيما فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يقول يايعقوب لو تعلم مايصنع بابنك فقال يهودا أليس قد اعطيتمونى موثقا ان لاتقتلوه فانطلقوا به الى الجب يدلونه فيه وهو متعلق بشفير البئر فنزعوا قميصه وكان غرضهم ان يلطخوه بالدم ويعرضوه على يعقوب فقال لهم ردوا على قميصى لأتوارى به فقالوا ادع الشمس والقمر والاحد عشر كوكبا لتؤنسك ثم دلوه فى البئر حتى اذا بلغ نصفها القوه ليموت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم آوى الى صخرة فقام بها وهو يبكى فنادوه فظن انه رحمة ادركتهم فأجابهم فأرادوا ان يرضخوه بصخرة فقام يهودا فمنعهم وكان يهودا يأتيه بالطعام وروى انه عليه السلام لما ألقى فى الجب قال ياشاهدا غير

باسمه تلويحا بان مدار المحبة اخوته ليوسف من الطرفين الايرى الى انهم كيف اكتفوا باخراج يوسف من البين من غير تعرض له حيث قالوا اقتلوا يوسف (احب الى ابينا منا) وحد الخبر مع تعدد المبتدأ لان افعل من كذا لايفرق فيه بين الواحد ومافوقه ولا بين المذكر والمؤنث نعم اذا عرف وجب الفرق واذا اضيف جاز الامران وفائدة لام الابتداء فى يوسف تحقيق مضمون الجملة وتأكيده (ونحن عصبة) اى والحال انا جماعة قادرون على الحل والعقد احقاء بالمحبة والعصبة والعصابة العشرة من الرجال فصاعدا سموا بذلك لان الامور تعصب بهم (ان ابانا) فى ترجيحهما علينا فى المحبة مع فضلنا عليهما وكونهما بمعزل من كفاية الامور بالصغر والقلة (لفى ضلال) اى ذهاب عن طريق التعديل اللائق وتنزيل كل منا منزلته (مبين) ظاهر الحال*روى انه كان احب اليه لمايرى فيه من مخايل الخير وكانت اخوته يحسدونه فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبر عنه فتضاعف حسدهم حتى حملهم على مباشرة ماقص عنهم ( اقتلوا يوسف او اطرحوه ارضا ) من جملة ماحكى بعد قوله اذ قالوا وقد قاله بعض منهم مخاطبا للباقين بقضية الصيغة فكأنهم رضوا بذلك كما يروى ان القائل شمعون او دان والباقون كانوا راضين الامن قال لاتقتلوا الخ فجعلوا كأنهم القائلون وادرجوا تحت القول المسند الى الجميع اوقاله كل واحد منهم مخاطبا للبقية وهو ادل على مسارعتهم الى ذلك القول وتنكير ارضا واخلاؤها من الوصف للابهام اى ارضا منكورة مجهولة بعيدة من العمران ولذلك نصبت نصب الظروف المبهمة ( يخل ) بالجزم جواب للامر (غائب)

غائب ويا قريبا غير بعيد ويا غالبا غير مغلوب اجعل لى من امرى فرجا ومخرجا وروى ان ابراهيم عليه السلام لما القى فى النار جرد عن ثيابه فجاءه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة والبسه اياه فدفعه ابراهيم الى اسحق واسحق الى يعقوب فجعله يعقوب فى تميمة وعلقها فى عنق يوسف عليه السلام فجاء جبريل عليه السلام فأخرجه والبسه اياه ثم قال تعالى واوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون وفيه مسائل ( المسئلة الاولى ) فى قوله وأوحينا اليه قولان ( احدهما ) ان المراد منه الوحى والنبوة والرسالة وهذا قول طائفة عظيمة من المحققين ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فى انه عليه السلام هل كان فى ذلك الوقت بالغا او كان صبيا فقال بعضهم انه كان فى ذلك الوقت بالغا وكان سنه سبع عشرة سنة وقال آخرون انه كان صغيرا الا ان الله تعالى اكمل عقله وجعله صالحا لقبول الوحى والنبوة كما فى حق عيسى عليه السلام (والقول الثانى) ان المراد من هذا الوحى الالهام كما فى قوله تعالى واوحينا الى ام موسى وقوله واوحى ربك الى النحل (والاول) اولى لان الظاهر من الوحى ذلك فان قيل كيف يجعله نبيا فى ذلك الوقت وليس هناك احد يبلغه الرسالة قلنا لا يمتنع ان يشرفه بالوحى والتنزيل ويأمره بتبليغ الرسالة بعد اوقات ويكون فائدة تقديم الوحى تأنيسه وتسكين نفسه وازالة الغم والوحشة عن قلبه ( المسئلة الثانية ) فى قوله وهم لايشعرون قولان (الاول) المراد ان الله تعالى اوحى الى يوسف انك لتخبرن اخوتك بصنيعهم بعد هذا اليوم وهم لايشعرون فى ذلك الوقت بانك يوسف والمقصود تقوية قلبه بأنه سيحصل له الخلاص عن هذه المحنة ويصير مستوليا عليهم ويصيرون تحت قهره وقدرته وروى انهم حين دخلوا عليه لطلب الحنطة وعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرنى هذا الجام انه كان لكم اخ من ابيكم يقال له يوسف فطرحتموه فى البئر وقلتم لابيكم اكله الذئب (والثانى) ان المراد انا اوحينا الى يوسف عليه السلام فى البئر بأنك تنبئ اخوتك بهذه الاعمال وهم ما كانوا يشعرون بنزول الوحى عليه والفائدة فى اخفاء نزول ذلك الوحى عنهم انهم لو عرفوه فربما ازداد حسدهم فكانوا يقصدون قتله (المسئلة الثالثة) اذا حملنا قوله وهم لايشعرون على التفسير الاول كان هذا امرا من الله تعالى نحو يوسف فى ان يستر نفسه عن ابيه وان لا يخبره بأحوال نفسه فلهذا السبب كتم اخبار نفسه عن ابيه طول تلك المدة مع علمه بوجد ابيه به خوفا من مخالفة امر الله تعالى وصبر على تجرع تلك المرارة فكان الله سبحانه وتعالى قد قضى على يعقوب عليه السلام ان يوصل اليه تلك الغموم الشديدة والهموم العظيمة ليكثر رجوعه الى الله تعالى وينقطع تعلق فكره عن الدنيا فيصل الى درجة عالية فى العبودية لا يمكن الوصول اليها الا بتحمل المحن الشديدة والله اعلم ❁ قوله تعالى (وجاؤا أباهم عشاء يبكون قالوا يا ابانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما انت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين وجاؤا على

اقباله عليهم (وتكونوا) بالجزم عطفا على يخل او بالنصب على اضمار ان والواو بمعنى مع مثل قوله وتكتموا الحق وايثار الخطاب فى لكم ومابعده للمبالغة فى حملهم على القبول فان اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامه بتحصيل منافعه أتم وأكمل (من بعده) من بعد يوسف اى من بعد الفراغ من أمره او قتله او طرحه ( قوما صالحين ) تائبين الى الله تعالى عما جنيتم او صالحين مع أبيكم باصلاح ما بينكم وبينه بعذر تمهدونه او صالحين فى امور دنياكم بانتظامها بعده بخلو وجه أبيكم (قال قائل منهم) هو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأيا وهو الذى قال فلن أبرح الارض الخ وقيل روبيل وهو استئناف مبنى على سؤال من سأل وقال أ اتفقوا على ماعرض عليهم من خصلتى الضيع أم خالفهم فى ذلك احد فقيل قال قائل منهم ( لا تقتلوا يوسف ) اظهره فى مقام الاضمار استجلابا لشفقتهم عليه او استعظاما لقتله وهو هو فانه يروى انه قال لهم القتل عظيم ولم يصرح بنهيهم عن الخصلة الاخرى واحاله على اولوية ماعرضه عليهم بقوله (والقوه فى غيابة الجب) أى فى قعره وغوره سمى بها لغيبته عن عين الناظر والجب البئر التى لم تطو بعد لانها ارض جبت جبا من غير ان يزاد على ذلك شئ وقرأ نافع فى غيابات الجب فى الموضعين كأن لتلك الجب غيابات او اراد بالجب الجنس اى فى بعض غيابات الجب وقرئ غيابات وغيبة (يلتقطه) يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف فان الالتقاط أخذ شئ مشرف على الضياع (بعض السيارة) اى بعض طائفة تسير فى الارض واللام فى السيارة

قيصه بدم كذب قال بل سولت لكم انفسكم امرا فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون ) اعلم انهم لماطرحوا يوسف فى الجب رجعوا الى ابيهم وقت العشاء باكين ورواه ابن جنى عشابضم العين والقصر وقال عشوا من البكاء فعند ذلك فزع يعقوب وقال هل اصابكم فى غنمكم شئ قالوا لاقال فافعل يوسف قالوا اذهبنانستبق وتركنايوسف عندمتا عنا فأكله الذئب فبكى وصاح وقال اين القميص فطرحه على وجهه حتى تخضب وجهه من دم القميص *وروى ان امرأة تحاكمت الى شريح فبكت فقال الشعبى ياابا امية ماتراها تبكى قال قدجاء اخوة يوسف يبكون وهم ظلمة كذبة لاينبغى للانسان ان يقضى الا بالحق واختلفوا فى معنى الاستباق قال الزجاج يسابق بعضهم بعضا فى الرمى ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لاسبق الا فى خف اونصل او حافر يعنى بالنصل الرمى واصل السبق فى الرمى بالسهم هو ان يرمى اثنان ليتبين ايهما يكون اسبق سهما وابعد غلوة ثم يوصف المتراميان بذلك فيقال استبقا وتسابقا اذا فعلا ذلك ليتبين ايهما اسبق سهما ويدل على صحة هذا التفسير ماروى ان فى قراءة عبدالله انا ذهبنا ننتضل (والقول الثانى) فى تفسير الاستبقاق ماقاله السدى ومقاتل نستبق نشتد ونعدو ليتبين اينا اسرع عدوا فان قيل كيف جاز ان يستبقوا وهم رجال بالغون وهذا من فعل الصبيان قلنا الاستباق منهم كان مثل الاستباق فى الخيل وكانوا يجربون بذلك انفسهم ويدربونها على العدو ولانه كالآلة لهم فى محاربة العدو ومدافعة الذئب اذا اختلس الشاة وقوله فأكله الذئب قيل اكل الذئب يوسف وقيل عرضوا وارادوا اكل الذئب المتاع والوجه هو الاول ثم قالوا وماانت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ليس المعنى ان يعقوب عليه السلام لايصدق من يعلم انه صادق بل المعنى لو كنا عندك من اهل الثقة والصدق لاتهمتنا فى يوسف لشدة محبتك اياه ولظننت انا قد كذبنا والحاصل انا وان كنا صادقين لكنك لاتصدقنا لانك تتهمنا وقيل المعنى انا وان كنا صادقين فانك لاتصدقنا لانه لم تظهر عندك امارة تدل على صدقنا (المسئلة الثانية) احتج اصحابنا بهذه الآية على ان الايمان فى اصل اللغة عبارة عن التصديق لان المراد من قوله وماانت بمؤمن لنا اى بمصدق واذا ثبت ان الامر كذلك فى اصل اللغة وجب ان يبقى فى عرف الشرع كذلك وقد سبق الاستقصاء فيه فى اول سورة البقرة فى تفسير قوله الذين يؤمنون بالغيب ثم قال تعالى وجاؤا على قيصه بدم كذب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انما جاؤا بهذا القميص الملطخ بالدم ليوهم كونهم صادقين فى مقالتهم قيل ذبحوا جديا ولطخوا ذلك القميص بدمه قال القاضى ولعل غرضهم فى نزع قيصه عند القائه فى غيابة الجب ان يفعلوا هذا توكيدا لصدقهم لانه يبعد ان يفعلوا ذلك طمعا فى نفس القميص ولابد فى المعصية من ان يقرن بها الخذ لان فلو خرقوه مع لطخه بالدم لكان الايهام اقوى فلماشاهد يعقوب القميص صحيحا علم كذبهم (المسئلة الثانية) قوله وجاؤا على قيصه اى وجاؤا فوق قيصه بدم كما يقال جاؤا على جمالهم

كمافى الجب ومافيهما وفى البعض من الابهام لتحقيق مايتوخاه من ترويج  كلامه بموافقته لغرضهم الذى هوتنائى يوسف عنهم بحيث لايدرى اثره ولايروى خبره وقرى تلتقطه على التأنيث لان بعض السيارة سيارة كقوله* كما شرقت صدره القناة من الدم *ومنه قطعت بعض أصابعه (ان كنتم فاعلين) بمشورتى لم يبت القول عليهم بل انما عرض عليهم ذلك تأليفا لقلبهم وتوجيها لهم الى رأيه وحذرا من نسبتهم له الى التحكم والافتيات او ان كنتم فاعلين ماأزمعتم عليه من ازالته من عند أبيه لامحالة ولما كان هذا مظنة لسؤال سائل يقول فا فعلوا بعد ذلك هل قبلوا ذلك منه اولا اجيب بطريق الاستئناف على وجه ادرج فى تضاعيفه قبولهم له بماسيجئ من قوله واجمعوا ان يجعلوه فى غيابة الجب فقيل (قالوا ياابانا) خاطبوه بذلك تحريكا لسلسلة النسب بينه وبينهم وتذكيرا لرابطة الاخوة بينهم وبين يوسف عليه الصلاة والسلام ليتسببوا بذلك الى استنزاله عليه السلام من رأيه فى حفظه منهم لما احس منهم بأمارات الحسد والبغى فكأنهم قالوا (مالك) اى اى شئ لك (لاتأمنا) اى لاتجعلنا امناء (على يوسف) مع انك أبونا ونحن بنوك وهو أخونا (وانا له لناصحون) مريدون له الخير ومشفقون عليه ليس فينا مايخل بالنصيحة والمقة قط وقراءة المشهورة بالادغام والاشمام وعن نافع رضى الله عنه ترك الاشمام ومن الشواذ ترك الادغام (ارسله معنا غدا) الى الصحراء (يرتع) اى يتسع فى اكل الفواكه ونحوها فان الرتع هو الاتساع فى الملاذ (ويلعب) بالاستباق والتناضل ونظائرهمما مما يعد من باب التأهب للغزو وانما عبروا عن ذلك باللعب لكونه على هيئته تحقيقا لما راموه من استصحاب يوسف عليه السلام بتصويرهم له (بإجمال)

باحوال ( المسئلة الثالثة ) قال اصحاب العربية وهم الفراء والمبرد والزجاج وابن الانبارى بدم كذب اى مكذوب فيه الا انه وصف بالمصدر على تقدير دم ذى كذب ولكنه جعل نفسه كذبا للمبالغة قالوا والمفعول والفاعل يسميان بالمصدر كما يقال ماء سكب اى مسكوب ودرهم ضرب الامير وثوب نسج اليمن والفاعل كقوله ان اصبح ماؤكم غورا ورجل عدل وصوم ونساء نوح ولما سميا بالمصدر سمى المصدر ايضا بهما فقالوا للعقل المعقول وللجلد المجلود ومنه قوله تعالى بايكم المفتون وقوله اذا مزقتم كل ممزق قال الشعبي قصة يوسف كلها في قميصه وذلك لانهم لما القوه في الجب نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على أبيه ولما شهد الشاهد قال ان كان قميصه قد من قبل ولما أتى بقميصه الى يعقوب عليه السلام فالقى على وجهه ارتد بصيرا ثم ذكر تعالى ان اخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم قال يعقوب عليه السلام بل سولت لكم انفسكم امرا قال ابن عباس معناه بل زينت لكم انفسكم امرا والتسويل تقدير معنى في النفس مع الطمع في اتمامه قال الازهرى كان التسويل تفعيل من سؤل الانسان وهو امنيته التى يطلبها فتزين لطالبها الباطل وغيره واصله مهموز غير ان العرب استثقلوا فيه الهمز وقال صاحب الكشاف سولت سهلت من السول وهو الاسترخاء اذا عرفت هذا فنقول قوله بل رد لقولهم اكله الذئب كأنه قال ليس كما تقولون بل سولت لكم انفسكم في شأنه امرا اى زينت لكم انفسكم امرا غير ما تصفون واختلفوا في السبب الذى به عرف كونهم كاذبين على وجوه (الاول) انه عرف ذلك بسبب انه كان يعرف الحسد الشديد في قلوبهم ( الثانى ) انه كان عالما بأنه حى لانه عليه الصلاة والسلام قال ليوسف وكذلك يجتبيك ربك وذلك دليل قاطع على انهم كاذبون في ذلك ( الثالث ) قال سعيد بن جبير لما جاؤا على قميصه بدم كذب وما كان متخرقا قال كذبتم لو أكله الذئب لخرق قميصه وعن السدى انه قال ان يعقوب عليه السلام قال ان هذا الذئب كان رحيما فكيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه وقيل انه عليه السلام لما قال ذلك قال بعضهم بل قتله اللصوص فقال كيف قتلوه وتركوا قميصه وهم الى قميصه احوج منه الى قتله فلما اختلفت أقوالهم عرف بسبب ذلك كذبهم ثم قال يعقوب عليه السلام فصبر جميل وفيه مسائل ( المسئلة الاولى ) منهم من قال انه مرفوع بالابتداء وخبره محذوف والتقدير فصبر جميل اولى من الجزع ومنهم من اضمر المبتدأ قال الخليل الذى افعله صبر جميل وقال قطرب معناه فصبرى صبر جميل وقال الفراء فهو صبر جميل ( المسئلة الثانية ) كان يعقوب عليه السلام قد سقط حاجباه وكان يرفعهما بخرقة فقيل له ما هذا فقال طول الزمان وكثرة الاحزان فاوحى الله تعالى اليه يا يعقوب اتشكونى فقال يارب خطيئة اخطأتها فاغفرها لى وروى عن عائشة رضى الله عنها في قصة الافك انها قالت والله لئن حلفت لا تصدقونى وان اعتذرت لا تعذرونى فمثلى ومثلكم كمثل يعقوب وولده فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون

يرتع من ارتع ماشيته ويرتع بكسر العين ويلعب بالرفع على الابتداء (وانا له لحافظون) من ان يناله مكروه اكدوا مقالتهم بأصناف التأكيد من ايراد الجملة اسمية وتحليتها بأن واللام واسناد الحفظ الى كلهم وتقديم له على الخبر احتيالا في تحصيل مقصدهم (قال) استئناف مبنى على سؤال من يقول فماذا قال يعقوب عليه السلام فقيل قال ( انى ليحزننى ) اللام للابتداء كما في قوله عز وجل ان ربك ليحكم بينهم (ان تذهبوا به) لشدة مفارقته على وقلة صبرى عنه ( و ) مع ذلك (اخاف ان يأكله الذئب) لان الارض كانت مذأبة والحزن الم القلب بفوت المحبوب والخوف انزعاج النفس لنزول المكروه ولذلك اسند الاول الى الذهاب به المفوت لاستمرار مصاحبته ومواصلته ليوسف والثانى الى ما يتوقع نزوله من اكل الذئب وقيل رأى في المنام ان الذئب قد شد على يوسف عليه السلام وكان يحذره فقال ذلك وقد لقنهم العلة ان البلاء موكل بالمنطق وقرأ ابن كثير ونافع في رواية اليزى بالهمز على الاصل وابو عمرو به وقفا وعاصم وابن عامر وحمزة درجا وقيل اشتقاقه من تداءبت الريح اذا هاجت من كل جانب وقال الاصمعى الامر بالعكس وهو اظهر لفظا ومعنى (وانتم عنه غافلون) لاشتغالكم بالرتع واللعب اولقلة اهتمامكم بحفظه (قالوا لئن اكله الذئب ونحن عصبة) اى والحال انا جماعة كثيرة جديرة بأن يعصب بنا الامور العظام وتكفى الخطوب بآرائنا وتدبيراتنا واللام الداخلة على الشرط موطئة للقسم

وقوله (انا اذا لخاسرون) جواب مجزئ عن الجزاء اى لها لكون ضعفا وخورا وعجزا او مستحقون للهلاك اذلا غناء

فانزل الله عز وجل فى عذرها ما انزل ( المسئلة الثالثة ) عن الحسن انه سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن قوله فصبر جميل فقال صبر لاشكوى فيه فمن بث لم يصبر ويدل عليه من القرآن قوله تعالى انما اشكو بثى وحزنى الى الله وقال مجاهد فصبر جميل اى من غير جزع وقال الثورى من الصبر ان لاتحدث بوجعك ولا بمصيبتك ولا تزكى نفسك وههنا بحث وهو ان الصبر على قضاء الله تعالى واجب فاما الصبر على ظلم الظالمين ومكر الماكرين فغير واجب بل الواجب ازالته لاسيما فى الضرر العائد الى الغير وههنا ان اخوة يوسف لما ظهر كذبهم وخيانتهم فلم صبر يعقوب على ذلك ولم لم يبالغ فى التفتيش والبحث سعيا منه فى تخليص يوسف عليه السلام عن البلية والشدة ان كان فى الاحياء وفى اقامة القصاص ان صح أنهم قتلوه فثبت ان الصبر فى هذا المقام مذموم ومما يقوى هذا السؤال انه عليه الصلاة والسلام كان عالما بأنه حى سليم لانه قال له وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث والظاهر انه انما قال هذا الكلام من الوحى واذا كان عالما بأنه حى سليم فكان من الواجب ان يسعى فى طلبه وايضا ان يعقوب عليه السلام كان رجلا عظيم القدر فى نفسه وكان من بيت عظيم شريف واهل العالم كانوا يعرفونه ويعتقدون فيه ويعظمونه فلو بالغ فى الطلب والتفحص لظهر ذلك واشتهر ولزال وجه التلبيس فالسبب فى انه عليه السلام مع شدة رغبته فى حضور يوسف عليه السلام ونهاية حبه له لم يطلبه مع ان طلبه كان من الواجبات فثبت ان هذا الصبر فى هذا المقام مذموم عقلا وشرعا ( والجواب ) عنه ان نقول لا جواب عنه الا ان يقال انه سبحانه وتعالى منعه عن الطلب تشديدا للمحنة عليه وتغليظا للامر عليه وايضا لعله عرف بقرائن الاحوال ان اولاده اقوياء وانهم لا يمكنونه من الطلب والتفحص وانه لو بالغ فى البحث فربما اقدموا على ايذائه وقتله وايضا لعله عليه السلام علم ان الله تعالى يصون يوسف عن البلاء والمحنة وان امره سيعظم بالآخرة ثم لم يرد هتك استار سرائر اولاده وما رضى بالقائهم فى ألسنة الناس وذلك لان احد الولدين اذا ظلم الآخر وقع الاب فى العذاب الشديد لانه ان لم ينتقم يحترق قلبه على الولد المظلوم وان انتقم فانه يحترق قلبه على الولد الذى ينتقم منه فلما وقع يعقوب عليه السلام فى هذه البلية رأى ان الاصوب الصبر والسكوت وتفويض الامر الى الله تعالى بالكلية ( المسئلة الرابعة ) قوله فصبر جميل يدل على ان الصبر على قسمين منه ما قد يكون جميلا وما قد يكون غير جميل فالصبر الجميل هو ان يعرف ان منزل ذلك البلاء هو الله تعالى ثم يعلم ان الله سبحانه مالك الملك ولا اعتراض على المالك فى ان يتصرف فى ملك نفسه فيصير استغراق قلبه فى هذا المقام مانعا له من اظهار الشكاية ( الوجه الثانى ) انه يعلم ان منزل هذا البلاء حكيم لا يجهل وعالم لا يغفل عليم لا ينسى رحيم لا يطغى واذا كان كذلك فكان كل ما صدر عنه حكمة وصوابا فعند ذلك يسكت ولا يعترض ( الوجه الثالث ) انه ينكشف له ان هذا البلاء من الحق فاستغراقه فى شهود نور المبلى يمنعه من الاشتغال

عندنا ولا جدوى فى حياتنا او مستحقون لأن يدعى علينا بالخسار والدمار ويقال خسرهم الله تعالى ودمرهم حيث اكل الذئب بعضهم وهم حضور وقيل ان لم نقدر على حفظه وهو اعز شئ عندنا فقد هلكت مواشينا اذن وخسرناها وانما اقتصروا على جواب خوف يعقوب عليه السلام من اكل الذئب لانه السبب القوى فى المنع دون الحزن لقصر مدته بناء على انهم يأتون به عن قريب (فلما ذهبوا به واجمعوا) اى ازمعوا ( ان يجعلوه ) مفعول لاجمعوا يقال اجمع الامر ومنه فأجمعوا امركم ولا يستعمل ذلك الا فى الافعال التى قويت الدواعى الى فعلها ( فى غيابة الجب ) قيل هى بئر بأرض الاردن وقيل بين مصر ومدين وقيل على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام بكنعان التى هى من نواحى الاردن كان مدين كذلك واما ما يقال من انها بئر بيت المقدس فيرده التعليل بالتقاط السيارة ومجيئهم اباهم عشاء ذلك اليوم فان بين منزل يعقوب عليه السلام وبين بيت المقدس مراحل وجواب لما محذوف ايذانا بظهوره واشعارا بأن تفصيله مما لا يحويه فلك العبارة وبجمله فعلوا به من الاذية ما فعلوا يروى انهم لما برزوا الى الصحراء اخذوا يؤذونه ويضربونه حتى كادوا يقتلونه فجعل يصيح ويستغيث فقال يهوذا أما عاهدتمونى ان لا تقتلوه فأتوا به الى البئر فتعلق بثيابهم فنزعوها من يديه فدلوه فيها فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه لما عزموا عليه من تلطيخه بالدم احتيالا لابيه فقال يا اخوتاه ردوا على قميصى لأتوارى به فقالوا ادع الشمس والقمر والاحد عشر كوكبا تؤنسك فدلوه فيها فلما بلغ نصفها القوه ليموت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم اوى الى صخرة فقام عليها وهو يبكى فنادوه (بالشكاية)

وظن انها رجة ادركتهم فاجابهم فاذادوا ان يرضخوه منهم  يهوذا وكان يأتيه بالطعام كل يوم ويروى ان ابراهيم عليه السلام

بالشكاية عن البلاء ولذلك قيل المحبة التامة لاتزداد بالوفاء ولاتنقص بالجفاء لانها لو ازدادت بالوفاء لكان المحبوب هو النصيب والحظ وموصل النصيب لايكون محبوبا بالذات بل بالعرض فهذا هو الصبر الجميل اما اذا كان الصبر لا لاجل الرضا بقضاء الحق سبحانه بل كان لسائر الاغراض فذلك الصبر لايكون جميلا والضابط في جميع الافعال والاقوال والاعتقادات ان كل ما كان لطلب عبودية الله تعالى كان حسنا والا فلا وههنا يظهر صدق ماروى في الاثر استفت قلبك ولو أفتاك المفتون فليتأمل الرجل تأملا شافيا ان الذي أتى به هل الحامل والباعث عليه طلب العبودية أم لا فان اهل العلم لو أفتونا بالشئ مع انه لايكون في نفسه كذلك لم يظهر منه نفع البتة ولما ذكر يعقوب قوله فصبر جميل قال والله المستعان على ماتصفون والمعنى ان اقدامه على الصبر لايمكن الا بمعونة الله تعالى لان الدواعي النفسانية تدعوه الى اظهار الجزع وهي قوية والدواعي الروحانية تدعوه الى الصبر والرضا فكأنه وقعت المحاربة بين الصنفين فالم تحصل اعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة فقوله فصبر جميل يجري مجرى قوله اياك نعبد وقوله والله المستعان على ماتصفون يجري مجرى قوله واياك نستعين * قوله تعالى ( وجاءت سيارة فارسلوا واردهم فادلى دلوه قال يابشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ) اعلم انه تعالى بين كيف سهل السبيل في خلاص يوسف من تلك المحنة فقال وجاءت سيارة يعني رفقة تسير للسفر قال ابن عباس جاءت سيارة اي قوم يسيرون من مدين الى مصر فاخطؤا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق فهبطوا على أرض فيها جب يوسف عليه السلام وكان الجب في قفرة بعيدة عن العمران لم يكن الا للرعاة وقيل كان ماؤه ملحا فعذب حين ألقي فيه يوسف عليه السلام فارسلوا رجلا يقال له مالك بن ذعر الخزاعي ليطلب لهم الماء والوارد الذي يرد الماء ليستقي للقوم فادلى دلوه ونقل الواحدي عن عامة اهل اللغة انه يقال أدلى دلوه اذا أرسلها في البئر ودلاها اذا نزعها من البئر يقال أدلى يدلي ادلاء اذا ارسل ودلا يدلو دلوا اذا جذب وأخرج والدلو معروف والجمع دلاء * قال يابشرى هذا غلام وههنا محذوف والتقدير فظهر يوسف قال المفسرون لما أدلى الوارد دلوه وكان يوسف في ناحية من قعر البئر تعلق بالحبل فنظر الوارد اليه ورأى حسنه نادى فقال يابشرى وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ عاصم وحمزة والكسائي يابشرى بغير الالف وبسكون الياء والباقون يابشراى بالالف وفتح الياء على الاضافة (المسئلة الثانية) في قوله يابشرى قولان (الاول) انها كلمة تذكر عند البشارة ونظيره قولهم ياعجبا من كذا وقوله ياأسفا على يوسف وعلى هذا القول ففي تفسير النداء وجهان (الاول) قال الزجاج معنى النداء في هذه الاشياء التي لاتجيب تنبيه المخاطبين وتوكيد القصة فاذا قلت ياعجباه فكأنك قلت اعجبوا (الثاني) قال ابو علي كأنه يقول يا أيتها البشرى هذا الوقت وقتك ولو كنت ممن يخاطب لخوطبت

حين ألقي في النار وجرد عن ثيابه اتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فالبسه اياه فدفعه ابراهيم الى اسحق واسحق الى يعقوب فجعله يعقوب في تميمة وعلقها في عنق يوسف فجاءه جبريل عليه السلام فأخرجه من التميمة فالبسه اياه ( واوحينا اليه ) عند ذلك تبشيرا له بما يؤول اليه امره وازالة لوحشته وايناسا له قيل كان ذلك قبل ادراكه كما اوحي الى يحيى وعيسى وقيل كان اذ ذاك مدركا قال الحسن رضي الله عنه كان له سبع عشرة سنة ( لتنبئنهم بأمرهم هذا ) اي لتتخلصن مما انت فيه من سوء الحال وضيق المجال ولتحدثن اخوتك بما فعلوا بك ( وهم لايشعرون ) بأنك يوسف لتباين حاليك هذا وحالك يومئذ لعلو شأنك وكبرياء سلطانك وبعد حالك عن اوهامهم وقيل لبعد العهد المبدل للهيآت المغير للاشكال والاول ادخل في التسلية روي انهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرني هذا الجام انه كان لكم اخ من ابيكم يقال له يوسف وكان يدنيه دونكم وانكم انطلقتم به والقيتموه في غيابة الجب وقلتم لابيكم اكله الذئب وبعتموه بثمن بخس ويجوز ان يتعلق وهم لايشعرون بالايحاء على معنى انا آنسناه بالوحي وازلنا عن قلبه الوحشة التي اورثوه وهم لايشعرون بذلك ويحسبون انه مرهق ومستوحش لاانيس له وقرئ لننبئنهم بالنون على انه وعيد لهم فقوله تعالى وهم لايشعرون متعلق بأوحينا لاغير (وجاؤا اباهم عشاء) آخر النهار وقرئ عشيا وهو تصغير عشي وعشي بالضم والقصر جمع اعشى

اى عشوا من البكاء (يبكون) متباكين روى انه لما سمع يعقوب عليه السلام  بكاءهم فزع وقال مالكم يابنى واين يوسف (قالوا يا ابانا انا ذهبنا نستبق) اى متسابقين فى العدو والرمى وقد يشترك الافتعال والتفاعل كالانتضال والتناضل ونظائرهما (وتركنا يوسف عند متاعنا) اى ما نتمتع به من الثياب والازواد وغيرهما (فأكله الذئب) عقيب ذلك من غير مضى زمان يعتاد فيه التفقد والتعهد وحيث لايكاد يطرح المتاع عادة الا فى مقام يؤمن فيه الغوائل لم يعد تركه عليه السلام عنده من باب الغفلة وترك الحفظ الملتزم لاسيما اذا لم يبرحوه ولم يغيبوا عنه فكأنهم قالوا انا لم نقصر فى محافظته ولم نغفل عن مراقبته بل تركناه فى مأمننا و مجمعنا بمرأى منا الا ان ميدان السباق لايكون عادة الابحيث يتراءى غايتاه ومافارقناه الاساعة يسيرة بيننا وبينه مسافة قصيرة فكان ما كان (وما انت بمؤمن لنا) بمصدق لنا فى هذه المقالة الدالة على عدم تقصيرنا فى امره (ولو كنا) عندك وفى اعتقادك (صادقين) موصوفين بالصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف فكيف وانت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا وكلمة لو فى امثال هذه المواقع لبيان تحقق مايفيده الكلام السابق من الحكم الموجب او المنفى على كل حال مفروض من الاحوال المقارنة له على الاجمال باد خالها على ابعدها منه واشدها منافاة له ليظهر بثبوته او انتفائه معه ثبوته او انتفاؤه مع غيره من الاحوال بطريق الاولوية لما ان الشيء متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره اولى ولذلك لايذكر معه شيء من سائر الاحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الاحوال المغايرة لها عند تعددها وقد مر تفصيله (يوسف)

الآن ولامرت بالحضور واعلم ان سبب البشارة هو انهم وجدوا غلاما فى غاية الحسن وقالوا نبيعه بثمن عظيم ويصير ذلك سببا لحصول الغنى (والقول الثانى) وهو الذى ذكره السدى ان الذى نادى صاحبه وكان اسمه بشرى فقال يابشرى كما تقول يازيد وعن الاعمش انه قال دعا امرأة اسمها بشرى يابشرى قال أبو على الفارسى ان جعلنا البشرى اسما للبشارة وهو الوجه جاز ان يكون فى محل الرفع كما قيل يارجل لاختصاصه بالنداء وجاز ان يكون فى موضع النصب على تقدير انه جعل ذلك النداء شائعا فى جنس البشرى ولم يخص كما تقول يارجلا وياحسرة على العباد * واما قوله تعالى وأسروه بضاعة ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الضمير فى وأسروه الى من يعود فيه قولان (الاول) انه عائد الى الوارد واصحابه اخفوا من الرفقة انهم وجدوه فى الجب وذلك لانهم قالوا ان قلنا للسيارة التقطناه شاركونا فيه وان قلنا اشتريناه سألونا الشركة فالاصوب ان نقول ان اهل الماء جعلوه بضاعة عندنا على ان نبيعه لهم بمصر (والثانى) نقل عن ابن عباس انه قال واسروه يعنى اخوة يوسف اسروا شأنه والمعنى انهم أخفوا كونه أخالهم بل قالوا انه عبد لنا أبق منا وتابعهم على ذلك يوسف لانهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية والاول أولى لان قوله وأسروه بضاعة يدل على ان المراد انهم اسروه حال ماحكموا بانه بضاعة وذلك انما يليق بالوارد لاباخوة يوسف (المسئلة الثانية) البضاعة القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت اللحم اذا قطعته قال الزجاج وبضاعة منصوبة على الحال كأنه قال واسروه حال ماجعلوه بضاعة * قال تعالى والله عليم بما يعملون والمراد منه ان يوسف عليه السلام لما رأى الكواكب والشمس والقمر فى النوم سجدت له وذكر ذلك حسده اخوته عليه واحتالوا فى ابطال ذلك الامر عليه فأوقعوه فى البلاء الشديد حتى لايتيسر له ذلك المقصود وانه تعالى جعل وقوعه فى ذلك البلاء سببا الى وصوله الى مصر ثم تمادت وقائعه وتتابع الامر الى ان صار ملك مصر وحصل ذلك الذى رآه فى النوم فكان العمل الذى عمله الاعداء فى دفعه عن ذلك المطلوب صيره الله تعالى سببا لحصول ذلك المطلوب فلهذا المعنى قال والله عليم بما يعملون * ثم قال تعالى وشروه بثمن بخس دراهم معدودة اما قوله وشروه ففيه قولان (الاول) المراد من الشراء هو البيع وعلى هذا التقدير ففى ذلك البائع قولان (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان اخوة يوسف لما طرحوا يوسف فى الجب ورجعوا عادوا بعد ثلاث يتعرفون خبره فلما لم يروه فى الجب ورأوا آثار السيارة طلبوهم فلما رأوا يوسف قالوا هذا عبدنا أبق منا فقالوا لهم فبيعوه منا فباعوه منهم والمراد من قوله وشروه اى باعوه يقال شريت الشيء اذا بعته وانما وجب حمل هذا الشراء على البيع لان الضمير فى قوله وشروه وفى قوله وكانوا فيه من الزاهدين عائد الى شيء واحد لكن الضمير فى قوله وكانوا فيه من الزاهدين عائد الى الاخوة فكذا فى قوله وشروه يجب ان يكون عائدا الى الاخوة واذا كان كذلك فهم باعوه فوجب حمل هذا الشراء على البيع (والقول الثانى) ان بائع

يوسف هم الذين استخرجوه من البئر وقال محمد بن اسحق ربك اعلم أاخوته باعوه أم السيارة وههنا قول آخر وهو انه يحتمل ان يقال المراد من الشراء نفس الشراء والمعنى أن القوم اشتروه وكانوا فيه من الزاهدين لانهم علموا بقرائن الحال ان اخوة يوسف كذابون فى قولهم انه عبدنا وربما عرفوا ايضا انه ولد يعقوب فكرهوا اشتراءه خوفا من الله تعالى ومن ظهور تلك الواقعة الا انهم مع ذلك اشتروه بالآخرة لانهم اشتروه بثمن قليل مع انهم اظهروا من انفسهم كونهم فيه من الزاهدين وغرضهم ان يتوصلوا بذلك الى تقليل الثمن ويحتمل ايضا ان يقال ان الاخوة لما قالوا انه عبدنا ابق صار المشترى عديم الرغبة فيه قال مجاهد وكانوا يقولون استوثقوا منه لئلا يأبق * ثم اعلم انه تعالى وصف ذلك الثمن بصفات ثلاث (الصفة الاولى) كونه بخسا قال ابن عباس يريد حراما لان ثمن الحر حرام وقال كل بخس فى كتاب الله نقصان الا هذا فانه حرام قال الواحدى سموا الحرام بخسا لانه ناقص البركة وقال قتادة بخس ظلم والظلم نقصان يقال ظلمه اى نقصه وقال عكرمة والشعبى قليل وقيل ناقص عن القيمة نقصانا ظاهرا وقيل كانت الدراهم زيوفا ناقصة العيار قال الواحدى رحمه الله تعالى وعلى الاقوال كلها فالبخس مصدر وضع موضع الاسم والمعنى بثمن مبخوس (الصفة الثانية) قوله دراهم معدودة قيل تعد عدا ولا توزن لانهم كانوا لا يزنون الا اذا بلغ اوقية وهى الاربعون ويعدون مادونها فقيل للقليل معدود لان الكثيرة يمتنع من عدها لكثرتها وعن ابن عباس كانت عشرين درهما وعن السدى اثنين وعشرين درهما قالوا والاخوة كانوا احد عشر فكل واحد منهم اخذ درهمين الا يهوذا لم يأخذ شيئا (الصفة الثالثة) قوله وكانوا فيه من الزاهدين ومعنى الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان فى كذا اذا لم يرغب فيه واصله القلة يقال رجل زهيد اذا كان قليل الطمع وفيه وجوه (احدها) ان اخوة يوسف باعوه لانهم كانوا فيه من الزاهدين (والثانى) ان السيارة الذين باعوه كانوا فيه من الزاهدين لانهم التقطوه والملتقط للشئ متهاون به لا يبالى بأى شئ يبيعه او لانهم خافوا ان يظهر المستحق فينزعه من يدهم فلا جرم باعوه بأوكس الاثمان (والثالث) ان الذين اشتروه كانوا فيه من الزاهدين وقد سبق توجيه هذه الاقوال فيما تقدم والضمير فى قوله فيه يحتمل ان يكون عائدا الى يوسف عليه السلام ويحتمل ان يكون عائدا الى الثمن البخس والله اعلم * قوله تعالى (وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته اكرمى مثواه عسى ان ينفعنا او نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف فى الارض ولنعلمه من تأويل الاحاديث والله غالب على امره ولكن اكثر الناس لا يعلمون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه ثبت فى الاخبار ان الذى اشتراه اما من الاخوة او من الواردين على الماء ذهب به الى مصر وباعه هنالك وقيل ان الذى اشتراه قطفيرا واطفير وهو العزيز الذى كان يلى خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق وقد آمن بيوسف ومات فى حياة يوسف عليه السلام فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف الى

فى سورة البقرة عند قوله تعالى اولوكان ( ١٦٧ ) آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون وفى سورة الاعراف عند قوله تعالى اولوكنا كارهين (وجاؤا على قميصه) محله النصب على الظرفية من قوله (بدم) اى جاؤا فوق قميصه بدم كما تقول جاء على جماله بأحمال او على الحالية منه والخلاف فى تقدم الحال على المجرور فيما اذا لم يكن الحال ظرفا (كذب) مصدر وصف به الدم مبالغة او مصدر بمعنى المفعول اى مكذوب فيه او بمعنى ذى كذب اى ملابس لكذب وقرئ كذبا على انه حال من الضمير اى جاؤا كاذبين او مفعول له وقرأت عائشة رضى الله تعالى عنها بغير المعجمة أى كدر وقيل طرى قال ابن جنى اصله من الكدب وهو الفوق البياض الذى يخرج على اظفار الاحداث كأنه دم قد اثر فى قميصه روى انهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها وزل عنهم ان يمزقوه فلما سمع يعقوب بخبر يوسف عليهما السلام صاح بأعلى صوته وقال اين القميص فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله مارأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه وقيل كان فى قميص يوسف عليه السلام ثلاث آيات كان دليلا ليعقوب على كذبهم والقاه على وجهه فارتد بصيرا ودليلا على براءة يوسف عليه السلام حين قد من دبر (قال) استئناف مبنى على سؤال فكأنه قيل ماقال يعقوب هل صدقهم فيما قالوا ام لا فقيل قال لم يكن ذلك (بل سولت لكم انفسكم) اى زينت وسهلت قاله ابن عباس رضى الله عنهما والتسويل تقدير شئ فى النفس مع الطمع فى اتمامه قال الازهرى كأن التسويل تفعيل من سؤل الانسان وهو امنيته التى يطلبها فتزين لطالبها الباطل وغيره واصله مهموز

وقيل من السول وهو الاسترخاء ( أمرا ) من الامور منكرا لايوصف ولايعرف ( ١٦٨ ) ( فصبر جميل ) اى فأمرى صبر جميل

اوفصبر جميل أجمل أوأمثل وفى الحديث الصبر الجميل الذى لاشكوى فيه اى الى الخلق والافقد قال يعقوب عليه السلام انما اشكو بثى وحزنى الى الله وقيل سقط حاجباه على عينيه فكان يرفعهما بعصابة فقيل له ماهذا قال طول الزمان وكثرة الأحزان فأوحى الله عز وجل اليه يايعقوب اتشكونى قال يارب خطيئة فاغفرها لى وقرأ أبى فصبرا جميلا ( والله المستعان ) اى المطلوب منه العون وهو انشاء منه عليه السلام للاستعانة المستمرة ( على ما تصفون ) على اظهار حال ماتصفون وبيان كونه كذبا واظهار سلامته فانه علم فى الكذب قال سبحانه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وهو الاليق بماسيجيئ من قوله تعالى فصبر جميل عسى الله ان يأتينى بهم جميعا وتفسير المستعان عليه باحتمال مايصفون من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه يأباه تكذيبه عليه السلام لهم فى ذلك ولاتساعده الصيغة فانها قد غلبت فى وصف الشئ بماليس فيه كما اشير اليه (وجاءت) شروع فى بيان ماجرى على يوسف فى الجب بعد الفراغ من ذكر ماوقع بين اخوته وبين ابيه والتعبير بالمجئ ليس بالنسبة الى مكانهم فان كنعان ليس بالجانب المصرى من مدين بل الى مكان يوسف وفى ايثاره على المرور اوالاتيان اونحوهما ايماء الى كونه عليه السلام فى الكرامة والزلفى عند مليك مقتدر

والظاهر ان الجب كان فى ام المثناء فان المتبادر من اسناد المجئ الى السيارة مطلقا فى قوله عز وجل وجاءت (سيارة) (من)

الاسلام فأبى واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام فى منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الملك والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة وقيل كان الملك فى ايامه فرعون موسى عاش اربعمائة سنة بدليل قوله تعالى ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وقيل فرعون موسى من اولاد فرعون يوسف وقيل اشتراه العزيز بعشرين دينارا وقيل ادخلوه السوق يعرضونه فترا فعوا فى ثمنه حتى بلغ ثمنه مايساويه فى الوزن من المسك والورق والحرير فابتاعه قطفير بذلك الثمن وقالوا اسم تلك المرأة زليخا وقيل راعيل * واعلم ان شيئا من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن ولم يثبت ايضا فى خبر صحيح وتفسير كتاب الله تعالى لايتوقف على شئ من هذه الروايات فالاليق بالعاقل ان يحترز من ذكرها (المسئلة الثانية) قوله اكرمى مثواه اى منزله ومقامه عندك من قولك ثويت بالمكان اذا اقمت به ومصدره الثواء والمعنى اجعلى منزله عندك كريما حسنا مرضيا بدليل قوله انه ربى احسن مثواى وقال المحققون امر العزيز امرأته باكرام مثواه دون اكرام نفسه يدل على انه كان ينظر اليه على سبيل الاجلال والتعظيم وهو كما يقال سلام الله على المجلس العالى ولما أمرها باكرام مثواه علل ذلك بان قال عسى ان ينفعنا او نتخذه ولدا أى يقوم باصلاح مهماتنا او نتخذه ولدا لانه كان لايولد له ولد وكان حصورا * ثم قال تعالى وكذلك مكنا ليوسف فى الارض اى كما أنعمنا عليه بالسلامة من الجب مكناه بان عطفنا عليه قلب العزيز حتى توصل بذلك الى ان صار متمكنا من الامر والنهى فى ارض مصر واعلم ان الكمالات الحقيقية ليست الا القدرة والعلم وانه سبحانه لما حاول اعلاء شأن يوسف ذكره بهذين الوصفين اما تكميله فى صفة القدرة والمكنة فاليه الاشارة بقوله مكنا ليوسف فى الارض واما تكميله فى صفة العلم فاليه الاشارة بقوله ولنعلمه من تأويل الاحاديث وقد تقدم تفسير هذه الكلمة * واعلم انا ذكرنا انه عليه السلام لما القى فى الجب قال تعالى واوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وذلك يدل ظاهرا على انه تعالى اوحى اليه فى ذلك الوقت وعندنا الارهاص جائز فلا يبعد ان يقال ان ذلك الوحى اليه فى ذلك الوقت ماكان لاجل بعثته الى الخلق بل لاجل تقوية قلبه وازالة الحزن عن صدره ولاجل ان يستأنس بحضور جبريل عليه السلام ثم انه تعالى قال ههنا ولنعلمه من تأويل الاحاديث والمراد منه ارساله الى الخلق بتبليغ التكاليف ودعوة الخلق الى الدين الحق ويحتمل ايضا ان يقال ان ذلك الوحى الاول كان لاجل الرسالة والنبوة ويحمل قوله ولنعلمه من تأويل الاحاديث على انه تعالى اوحى اليه بزيادات ودرجات يصير بها كل يوم اعلى حالا مما كان قبله * وقال ابن مسعود اشد الناس فراسة ثلاثة العزيز حين تفرس فى يوسف فقال لامرأته اكرمى مثواه عسى ان ينفعنا والمرأة لما رأت موسى فقالت ياأبت استأجره وابو بكر حين استخلف عمر ثم قال تعالى والله غالب على امره وفيه وجهان (الاول) غالب على امر نفسه لانه فعال لما يريد لادافع لقضائه ولامانع

عن حكمه فى ارضه وسمائه (والثانى) والله غالب على امر يوسف يعنى ان انتظام اموره كان الهيا وما كان بسعيه واخوته ارادوا به كل سوء ومكروه والله اراد به الخير فكان كما اراد الله تعالى ودبر ولكن اكثر الناس لا يعلمون ان الامر كله بيد الله واعلم ان من تأمل فى احوال الدنيا وعجائب احوالها عرف وتيقن ان الامر كله لله وان قضاء الله غالب

❊ قوله تعالى (ولما بلغ اشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) وجه النظم ان يقال بين تعالى ان اخوته لما أساؤا اليه ثم انه صبر على تلك الشدائد والمحن مكنه الله تعالى فى الارض ثم لما بلغ اشده آتاه الله الحكم والعلم والمقصود بيان ان جميع ما فاز به من النعم كان كالجزاء على صبره على تلك المحن ومن الناس من قال ان النبوة جزاء على الاعمال الحسنة ومنهم من قال ان من اجتهد وصبر على بلاء الله تعالى وشكر نعماء الله تعالى وجد منصب الرسالة واحتجوا على صحة قولهم بأنه تعالى لما ذكر صبر يوسف على تلك المحن ذكر انه اعطاه النبوة والرسالة ثم قال وكذلك نجزى المحسنين وهذا يدل على ان كل من اتى بالطاعات الحسنة التى اتى بها يوسف فان الله يعطيه تلك المناصب وهذا بعيد لاتفاق العلماء على ان النبوة غير مكتسبة واعلم ان من الناس من قال ان يوسف ما كان رسولا ولا نبيا البتة وانما كان عبدا اطاع الله تعالى فأحسن الله اليه وهذا القول باطل بالاجماع وقال الحسن انه كان نبيا من الوقت الذى قال الله تعالى فى حقه واوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وما كان رسولا ثم انه صار رسولا من هذا الوقت أعنى قوله ولما بلغ اشده آتيناه حكما وعلما ومنهم من قال انه كان رسولا من الوقت الذى ألقى فى غيابة الجب (المسئلة الثانية) قال أبو عبيدة تقول العرب بلغ فلان اشده اذا انتهى منتهاه فى شبابه وقوته قبل أن يأخذ فى النقصان وهذا اللفظ يستعمل فى الواحد والجمع يقال بلغ اشده وبلغوا أشدهم وقد ذكرنا تفسير الاشد فى سورة الانعام عند قوله حتى يبلغ أشده واما التفسير فروى ابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس ولما بلغ أشده قال ثلاثا وثلاثين سنة وأقول هذه الرواية شديدة الانطباق على القوانين الطبية وذلك لان الاطباء قالوا ان الانسان يحدث فى اول الامر ويتزايد كل يوم شيئا فشيئا الى أن ينتهى الى غاية الكمال ثم يأخذ فى التراجع والانتقاص الى ان لا يبقى منه شئ فكانت حالته شبيهة بحال القمر فانه يظهر هلالا ضعيفا ثم لا يزال يزداد الى ان يصير بدرا تاما ثم يتراجع الى أن ينتهى الى العدم والمحاق اذا عرفت هذا فنقول مدة دور القمر ثمانية وعشرون يوما وكسر فاذا جعلت هذه الدورة أربعة أقسام كان كل قسم منها سبعة أيام فلا جرم رتبوا أحوال الابدان على الاسابيع فالانسان اذا ولد كان ضعيف الخلقة نحيف التركيب الى ان يتم له سبع سنين ثم اذا دخل فى السبعة الثانية حصل فيه آثار الفهم والذكاء والقوة ثم لا يزال فى الترقى الى ان يتم له اربع عشرة سنة فاذا دخل فى السنة الخامسة عشرة دخل فى الاسبوع الثالث وهناك يكمل العقل ويبلغ الى حد التكليف

اى رفقة تسير من جهة مدين الى مصر ( ١٦٩ ) وقوعه باعتبار سيرهم المعتاد وهو الذى يقتضيه قوله تعالى فيما سلف يلتقطه بعض السيارة وقيل قد انه كان فى قفرة بعيدة من العمران لم تكن الا للرعاة فأخطؤا الطريق فنزلوا قريبا منه وقيل كان ماؤه ملحا فعذب حين القى فيه عليه السلام (فارسلوا واردهم) الذى يرد الماء ويستقى لهم وكان ذلك مالك بن ذعر الخزاعى وانما لم يذكر منتهى الارسال كما لم يذكر منتهى المجئ أعنى الجب للايذان بأن ذلك معهود لا يضرب عنه الذكر صفحا (فأدلى دلوه) اى ارسلها الى الجب والحذف لما عرفته فتدلى بها يوسف فخرج (قال) استئناف مبنى على سؤال يقتضيه الحال (يابشرى هذا غلام) كأنه نادى البشرى وقال تعالى فهذا أوانك حيث فاز بنعمة باردة واى نعمة مكان ما يوجد مباحا من الماء وقيل اسم صاحب له ناداه ليعينه على اخراجه وقرأ غير الكوفيين يابشراى وأمال فتحة الراء حمزة والكسائى وقرأ ورش بين اللفظين وقرئ يابشرى بالادغام وهى لغة وبشراى على قصد الوقف (وأسروه) اى اخفاه الوارد واصحابه عن بقية الرفقة وقيل اخفوا امره ووجدانهم له فى الجب وقالوا لهم دفعه الينا اهل الماء لنبيعه لهم بمصر وقيل الضمير لاخوة يوسف وذلك ان يهوذا كان يأتيه كل يوم بطعام فأتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر اخوته فأتوا الرفقة وقالوا هذا غلامنا أبق منا فاشتروه منهم وسكت يوسف مخافة ان يقتلوه ولا يخفى ما فيه من البعد (بضاعة) نصب على الحالية اى اخفوه حال كونه بضاعة اى متاع التجارة فانها قطعة من المال بضعت عنه اى قطعت للتجارة (والله عليم بما يعملون) وعيد لهم على ( ٢٢ ) ( را ) ( خا ) ماصنعوا من جعلهم مثل يوسف وهو عرضة للابتذال

وتحرك فيه الشهوة ثم لايزال يرتقى على هذه الحالة الى أن يتم السنة الحادية والعشرين وهناك يتم الاسبوع الثالث ويدخل فى السنة الثانية والعشرين وهذا الاسبوع آخر أسابيع النشو والنماء فاذا تمت السنة الثامنة والعشرون فقدتمت مدة النشو والنماء وينتقل الانسان منه الى زمان الوقوف وهو الزمان الذى يبلغ الانسان فيه أشده وبتمام هذا الاسبوع الخامس يحصل للانسان خمسة وثلاثون سنة ثم ان هذه المراتب مختلفة فى الزيادة والنقصان فهذا الا سبوع الخامس الذى هو اسبوع الشدة والكمال يبتدأ من السنة التاسعة والعشرين الى الثالثة والثلاثين وقد يمتد الى الخامسة والثلاثين فهذا هو الطريق المعقول فى هذا الباب والله أعلم بحقائق الاشياء ( المسئلة الثالثة ) فى تفسير الحكم والعلم وفيه أقوال ( الاول ) ان الحكم والحكمة اصلهما حبس النفس عن هواها ومنعها مما يشينها فالمراد من الحكم الحكمة العملية والمراد من العلم الحكمة النظرية وانما قدم الحكمة العملية هنا على العلمية لان أصحاب الرياضات يشتغلون بالحكمة العملية ثم يترقون منها الى الحكمة النظرية وأما اصحاب الافكار العقلية والانظار الروحانية فانهم يصلون الى الحكمة النظرية أولا ثم ينزلون منها الى الحكمة العملية وطريقة يوسف عليه السلام هو الاول لانه صبر على البلاء والمحنة ففتح الله تعالى عليه ابواب المكاشفات فلهذا السبب قال آتيناه حكما وعلما ( القول الثانى ) الحكم هو النبوة لان النبى يكون حاكما على الخلق والعلم علم الدين ( القول الثالث ) يحتمل ان يكون المراد من الحكم صيرورة نفسه المطمئنة حاكمة على نفسه الامارة بالسوء مستعلية عليها قاهرة لها ومتى صارت القوة الشهوانية والغضبية مقهورة ضعيفة فاضت الانوار القدسية والاضواء الالهية من عالم القدس على جوهر النفس وتحقيق القول فى هذا الباب ان جوهر النفس الناطقة خلقت قابلة للمعارف الكلية والانوار العقلية الا انه قد ثبت عندنا بحسب البراهين العقلية وبحسب المكاشفات العلوية ان جواهر الارواح البشرية مختلفة بالماهيات فنها ذكية وبليدة ومنها حرة ونذلة ومنها شريفة وخسيسة ومنها عظيمة الميل الى عالم الروحانيات وعظيمة الرغبة فى الجسمانيات فهذه الاقسام كثيرة وكل واحد من هذه المقامات قابل للاشد والاضعف والا كمل والا نقص فاذا اتفق ان كان جوهر النفس الناطقة جوهرا مشرقا شريفا شديد الاستعداد لقبول الاضواء العقلية واللوائح الالهية فهذه النفس فى حال الصغر لايظهر منها هذه الاحوال لان النفس الناطقة انما تقوى على افعالها بواسطة استعمال الآلات الجسدانية وهذه الآلات فى حال الصغر تكون الرطوبات مستولية عليها فاذا كبر الانسان واستولت الحرارة الغريزية على البدن نضجت تلك الرطوبات وقلت واعتدلت فصارت تلك الآلات البدنية صالحة لان تستعملها النفس الانسانية واذا كانت النفس فى اصل جوهرها شريفة فعند كمال الآلات البدنية تكمل معارفها وتقوى انوارها ويعظم

---

بالبيع والشراء ومادبروا فى ذلك من الحيل (وشروه) اى باعوه والضمير للوارد واصحابه (بثمن بخس) زيف ناقص العيار (دراهم) بدل من ثمن أى لا دنانير (معدودة) اى غير موزونة فهو بيان لقلته ونقصانه مقدارا بعد بيان نقصانه فى نفسه اذ المعتاد فيما لايبلغ اربعين العدد دون الوزن فعن ابن عباس رضى الله عنهما انها كانت عشرين درهما وعن السدى رضى الله عنه انها كانت اثنين وعشرين درهما (وكانوا) اى البائعون (فيه) فى يوسف (من الزاهدين) من الذين لايرغبون فيما بأيديهم فلذلك باعوه بماذكر من الثمن البخس وسبب ذلك انهم التقطوه والملتقط للشئ متهاون به اوغير واثق بأمره يخاف ان يظهر له مستحق فينتزعه منه فيبيعه من اول مساوم بأوكس ثمن ويجوز ان يكون معنى شروه اشتروه من اخوته على ماحكى وهم غير راغبين فى شرائه خشية ذهاب مالهم لما ظن فى آذانهم من الاباق والعدول عن صيغة الافتعال المنبئة عن الاتخاذ لما مر من ان اخذهم انما كان بطريق البضاعة دون الاجتباء والاقتناء وفيه متعلق بالزاهدين ان جعل اللام للتعريف وبيان لما زهدوا فيه ان جعلت موصولة كأنه قيل فى اى شئ زهدوا فقيل زهدوا فيه لان مايتعلق بالصلة لايتقدم على الموصول ( وقال الذى اشتراه من مصر ) وهو العزيز الذى كان على خزائنه واسمه قطفير أواطفير وبيان كونه من مصر لتربية مايتفرع عليه من الامور مع الاشعار بكونه غير من اشتراه من الملتقطين بماذكر من الثمن البخس وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد العمليقى ومات فى حياة يوسف عليه السلام بعد أن آمن به فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه الى الاسلام فأبى وقيل كان الملك فى ايامه فرعون موسى عليه السلام عاش اربعمائة (لمان)

لمعان الاضواء فيها فقوله ولما بلغ اشده اشارة الى اعتدال الآلات البدنية وقوله آتيناه حكما وعلما اشارة الى استكمال النفس فى قوتها العملية والنظرية والله اعلم ✻ قوله تعالى (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ الله انه ربى احسن مثواى انه لايفلح الظالمون) اعلم ان يوسف عليه السلام كان فى غاية الجمال والحسن فلما رأته المرأة طمعت فيه ويقال ايضا ان زوجها كان عاجزا يقال راود فلان جاريته عن نفسها وراودته هى عن نفسه اذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع وغلقت الابواب والسبب ان ذلك العمل لايؤتى به الا فى المواضع المستورة لاسيما اذا كان حراما ومع قيام الخوف الشديد وقوله وغلقت الابواب اى اغلقتها قال الواحدى واصل هذا من قولهم فى كل شئ تشبث فى شئ فلزمه قد غلق يقال غلق فى الباطل وغلق فى غضبه ومنه غلق الرهن ثم يعدى بالالف فيقال اغلق الباب اذا جعله بحيث يعسر فتحه قال المفسرون وانما جاء غلقت على التكثير لانها غلقت سبعة ابواب ثم دعته الى نفسها ثم قال تعالى وقالت هيت لك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدى هيت لك اسم للفعل نحو رويدا وصه ومه ومعناه هلم فى قول جميع اهل اللغة وقال الاخفش هيت لك مفتوحة الهاء والتاء ويجوز ايضا كسر التاء ورفعها قال الواحدى قال ابو الفضل المنذرى افادنى ابن التبريزى عن ابى زيد قال هيت لك بالعبرانية هيالج اى تعال عربه القرآن وقال الفراء انها لغة لاهل حوران سقطت الى بكة فتكلموا بها قال ابن الانبارى وهذا وفاق بين لغة قريش واهل حوران كما اتفقت لغة العرب والروم فى القسطاس ولغة العرب والفرس فى السجيل ولغة العرب والترك فى الغساق ولغة العرب والحبشة فى ناشئة الليل (المسئلة الثانية) قرأ نافع وابن عامر فى رواية ابن ذكوان هيت بكسر الهاء وفتح التاء وقرأ ابن كثير هيت لك مثل حيث وقرأ هشام بن عمار عن ابى عامر هئت لك بكسر الهاء وهمز الياء وضم التاء مثل جئت من تهيأت لك والباقون بفتح الهاء واسكان الياء وفتح التاء ثم انه تعالى قال ان المرأة لما ذكرت هذا الكلام قال يوسف عليه السلام معاذ الله انه ربى احسن مثواى فقوله معاذ الله اى اعوذ بالله معاذا والضمير فى قوله انه للشان والحديث ربى احسن مثواى اى ربى وسيدى ومالكى احسن مثواى حين قال لك اكرمى مثواه فلايليق بالعقل ان اجازيه على ذلك الاحسان بهذه الخيانة القبيحة انه لايفلح الظالمون الذين يجازون الاحسان بالاساءة وقيل اراد الزناة لانهم ظالمون انفسهم اولان عملهم يقتضى وضع الشئ فى غير موضعه وههنا سؤالات (السؤال الاول) ان يوسف عليه السلام كان حرا وما كان عبدا لاحد فقوله انه ربى يكون كذبا وذلك ذنب وكبيرة (والجواب) انه عليه السلام أجرى هذا الكلام بحسب الظاهر وعلى وفق ما كانوا يعتقدون فيه من كونه عبداله وايضا انه رباه وانعم عليه بالوجوه الكثيرة فعنى بكونه رباله كونه مربياله وهذا من باب المعاريض الحسنة فان اهل الظاهر يحملونه على

سنة لقوله عزوجل ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وقيل فرعون موسى من اولاد فرعون يوسف والآية من قبيل خطاب الاولاد بأحوال الآباء واختلف فى مقدار ما اشتراه به العزيز فقيل بعشرين دينارا وزوجى نعل وثوبين ابيضين وقيل ادخلوه فى السوق يعرضونه فترافعوا فى ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه مسكا ووزنه ورقا ووزنه حريرا فاشتراه قطفير بذلك المبلغ وكان سنه اذ ذاك سبع عشرة سنة واقام فى منزله مع ما مر عليه من مدة لبثه فى السجن ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة (لامرأته) راعيل او زليخا وقيل اسمها هو الاول والثانى لقبها واللام متعلقة بقال لا باشتراه (اكرمى مثواه) اجعلى محل اقامته كريما مرضيا والمعنى احسنى تعهده (عسى ان ينفعنا) فى ضياعنا واموالنا ونستظهر به فى مصالحنا (او نتخذه ولدا) اى نتبناه وكان ذلك لما تفرس فيه من مخايل الرشد والنجابة ولذلك قيل افرس الناس ثلاثة عزيز مصر وابنة شعيب التى قالت ياأبت استأجره وابو بكر حين استخلف عمر رضى الله عنهما (وكذلك) نصب على المصدرية وذلك اشارة الى ما يفهم من كلام العزيز وما فيه من معنى البعد لتفخيمه اى مثل ذلك التمكين البديع (مكنا ليوسف فى الارض) اى جعلناله فيها مكانا يقال مكنه فيه اى اثبته فيه ومكن له فيه اى جعل له فيه مكانا ولتقاربهما وتلازمهما يستعمل كل منهما فى محل الآخر قال عزوجل وكم اهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الارض ما لم نمكن لكم اى ما لم نمكنكم فيها او مكنا لهم فى الارض الخ والمعنى كما جعلناله مثوى كريما فى منزل العزيز او مكانا عليا فى قلبه حتى

كونه رباله وهوكان يعنى به انه كان مربياله ومنعما عليه (السؤال الثانى) هل يدل قول يوسف عليه السلام معاذالله على صحة مذهبنا فى القضاء والقدر (والجواب) انه يدل عليه دلالة ظاهرة لان قوله عليه السلام اعوذ بالله معاذا طلب من الله ان يعيذه من ذلك العمل وتلك الاعاذة ليست عبارة عن اعطاء القدرة والعقل والآلة وازاحة الاعذار وازالة الموانع وفعل الالطاف لان كل ماكان فى مقدور الله تعالى من هذا الباب فقد فعله فيكون ذلك اماطلبا لتحصيل الحاصل او طلبا لتحصيل الممتنع وانه محال فعلمنا ان تلك الاعاذة التى طلبها يوسف من الله تعالى لامعنى لها الاان يخلق فيه داعية جازمة فى جانب الطاعة وان يزيل عن قلبه داعية المعصية وذلك هو المطلوب والدليل على ان المراد ماذكرناه مانقل ان النبى صلى الله عليه وسلم لماوقع بصره على زينب قال يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك وكان المراد منه تقوية داعية الطاعة وازالة داعية المعصية فكذا ههنا وكذا قوله عليه السلام قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن فالمراد من الاصبعين داعية الفعل وداعية الترك وهاتان الداعيتان لايحصلان الابخلق الله تعالى والا لافتقرت الى داعية اخرى ولزم التسلسل فثبت ان قول يوسف عليه السلام معاذالله من أدل الدلائل على قولنا والله اعلم (السؤال الثالث) ذكر يوسف عليه السلام فى الجواب عن كلامها ثلاثة اشياء (احدها) قوله معاذالله (والثانى) قوله تعالى عنه انه ربى احسن مثواى (والثالث) قوله انه لايفلح الظالمون فاوجه تعلق بعض هذا الجواب ببعض (والجواب) هذا الترتيب فى غاية الحسن وذلك لان الانقياد لامر الله تعالى وتكليفه اهم الاشياء لكثرة انعامه وألطافه فى حق العبد فقوله معاذالله اشارة الى ان حق الله تعالى يمنع عن هذا العمل وايضا حقوق الخلق واجبة الرعاية فلما كان هذا الرجل قد انعم فى حقى يقبح مقابلة انعامه واحسانه بالاساءة وايضا صون النفس عن الضرر واجب وهذه اللذة لذة قليلة ويتبعها خزى فى الدنيا وعذاب شديد فى الآخرة واللذة القليلة اذا لزمها ضرر شديد فالعقل يقتضى تركها والاحتراز عنها فقوله انه لايفلح الظالمون اشارة اليه فثبت ان هذه الجوابات الثلاثة مرتبة على احسن وجوه الترتيب ❊ قوله تعالى (ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين) اعلم ان هذه الآية من المهمات التى يجب الاعتناء بالبحث عنها وفى هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى انه عليه السلام هل صدر عنه ذنب املا وفى هذه المسئلة قولان (الاول) ان يوسف عليه السلام هم بالفاحشة قال الواحدى فى كتاب البسيط قال المفسرون الموثوق بعلمهم المرجوع الى روايتهم هم يوسف ايضا بهذه المرأة هما صحيحا وجلس منها مجلس الرجل من المرأة فلما رأى البرهان من ربه زالت كل شهوة عنه قال جعفر الصادق رضى الله عنه باسناده عن على عليه السلام انه قال طمعت فيه وطمع فيها فكان طمعه فيها انه هم ان يحل التكة وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال حل الهميان

فى قلوبهم كافة كما فى قلب العزيز لانه الذى يؤدى الى الغاية المذكورة فى قوله تعالى (ولنعلمه من تأويل الاحاديث) اى نوفقه لتعبير بعض المنامات التى عمدتها رؤيا الملك وصاحبى السجن لقوله تعالى ذلكما مما علمنى ربى سواء جعلناه معطوفا على غاية مقدرة ينساق اليها الكلام ويستدعيها النظام كأنه قيل ومثل ذلك التمكين مكنا ليوسف فى الارض وجعلنا قلوب اهلها كافة محبة له ليترتب عليه ماترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز ولنعلمه بعض تأويل الاحاديث وهو تأويل الرؤيا المذكورة فيؤدى ذلك الى الرياسة العظمى ولعل ترك المعطوف عليه للاشعار بعدم كونه مرادا بالذات او جعلناه علة لمعلل محذوف كأنه قيل ولهذه الحكمة البالغة فعلنا ذلك التمكين دون غيرها مما ليس له عاقبة حميدة هذا ولايخفى عليك ان الذى عليه تدور هذه الامور انما هو التمكين فى جانب العزيز واما التمكين فى جانب الناس كافة فتأديته الى ذلك انما هى باعتبار اشتماله على ذلك التمكين فاذن الحق ان يكون ذلك اشارة الى مصدر قوله تعالى مكنا ليوسف على ان يكون هو عبارة عن التمكين فى قلب العزيز او فى منزله وكون ذلك تمكينا فى الارض بملابسة انه عزيز فيها لاعن تمكين آخر يشبه به كما فى قوله تعالى وكذلك جعلناكم امة وسطا من ان ذلك اشارة الى مصدر الفعل المذكور بعده لاالى جعل آخر يقصد تشبيه هذا الجعل به فالكاف مقحم للدلالة على فخامة شأن المشار اليه اقحاما لايكاد يترك فى لغة العرب ولاغيرها ومن ذلك قولهم مثلك لايبخل وهكذا ينبغى ان يحقق المقام واما ( وجلس )

وجلس منها مجلس الخائن وعنه انها استلقت له وجلس بين رجليها ينزع ثيابه ثم ان الواحدى طول فى كلمات عديمة الفائدة فى هذا الباب وما ذكر آية يحتج بها ولا حديثا صحيحا يعول عليه فى تصحيح هذه المقالة وما أمعن النظر فى تلك الكلمات العارية عن الفائدة روى ان يوسف عليه السلام لما قال ذلك ليعلم انى لم أخنه بالغيب قال له جبريل عليه السلام ولا حين هممت يا يوسف فقال يوسف عند ذلك وما أبرئ نفسى ثم قال والذين اثبتوا هذا العمل ليوسف كانوا اعرف بحقوق الانبياء عليهم السلام وارتفاع منازلهم عند الله تعالى من الذين نفوا الهم عنه فهذا خلاصة كلامه فى هذا الباب ( والقول الثانى ) ان يوسف عليه السلام كان بريأ عن العمل الباطل والهم المحرم وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين وبه نقول وعنه نذب * واعلم ان الدلائل الدالة على وجوب عصمة الانبياء عليهم السلام كثيرة ولقد استقصيناها فى سورة البقرة فى قصة آدم عليه السلام فلا نعيدها الا انا نزيد ههنا وجوها ( فالحجة الاولى ) ان الزنا من منكرات الكبائر والخيانة فى معرض الامانة ايضا من منكرات الذنوب * وايضا مقابلة الاحسان العظيم بالاساءة الموجبة للفضيحة التامة والعار الشديد ايضا من منكرات الذنوب * وايضا الصبى اذا تربى فى حجر انسان وبقى مكفى المؤنة مصون العرض من أول صباه الى زمان شبابه وكمال قوته فاقدام هذا الصبى على ايصال اقبح انواع الاساءة الى ذلك المنعم المعظم من منكرات الاعمال اذا ثبت هذا فنقول ان هذه المعصية التى نسبوها الى يوسف عليه السلام كانت موصوفة بجميع هذه الجهات الاربع ومثل هذه المعصية لو نسبت الى افسق خلق الله تعالى وابعدهم عن كل خير لاستنكف منه فكيف يجوز اسنادها الى الرسول عليه الصلاة والسلام المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة ثم انه تعالى قال فى غير هذه الواقعة كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء وذلك يدل على ان ماهية السوء والفحشاء مصروفة عنه ولا شك ان المعصية التى نسبوها اليه اعظم انواع السوء والفحش اقسام الفحشاء فكيف يليق برب العالمين ان يشهد فى عين هذه الواقعة بكونه بريئا من السوء مع انه كان قد أتى باعظم انواع السوء والفحشاء * وايضا فالآية تدل على قولنا من وجه آخر وذلك لانا نقول هب ان هذه الآية لا تدل على نفى هذه المعصية عنه الا انه لا شك انها تفيد المدح العظيم والثناء البالغ فلا يليق بحكمة الله تعالى ان يحكى عن انسان اقدامه على معصية عظيمة ثم انه يمدحه ويثنى عليه باعظم المدائح والاثنية عقيب ان حكى عنه ذلك الذنب العظيم فان مثاله ما اذا حكى السلطان عن بعض عبيده اقبح الذنوب والفحش الاعمال ثم انه يذكره بالمدح العظيم والثناء البالغ عقيبه فان ذلك يستنكر جدا فكذا ههنا والله اعلم (الثالث) ان الانبياء عليهم السلام متى صدرت منهم زلة او هفوة استعظموا ذلك واتبعوها باظهار الندامة والتوبة والتواضع ولو كان يوسف عليه السلام اقدم ههنا على هذه الكبيرة المنكرة لكان من المحال ان لا يتبعها بالتوبة والاستغفار ولو اتى

التمكين بمعنى جعله ملكا يتصرف فى ارض مصر بالامر  والنهى فهو من آثار ذلك التعليم ونتائجه المتفرعة عليه كما عرفته لا من مباديه المؤدية اليه فلا سبيل الى جعله غاية له ولم يعهد منه عليه السلام فى تضاعيف قضاياه العمل بموجب المنامات المنبهة على الحوادث قبل وقوعها عهدا مصححا لجعله غاية لولايته وما وقع من التدارك فى امر السنين فانما هو عمل بموجب الرؤيا السابقة المعهودة اللهم الا ان يراد بتعليم تأويل الاحاديث ما سبق من تفهيم غوامض اسرار الكتب الالهية ودقائق سنن الانبياء عليهم السلام فيكون المعنى حينئذ مكناله فى ارض مصر ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه معانى كتب الله واحكامها ودقائق سنن الانبياء عليهم السلام فيقضى بها فيما بين اهلها والتعليم الاجمالى لتلك المعانى والاحكام وان كان غير متأخر عن تمكينه بذلك المعنى الا ان تعليم كل معنى شخصى يتفق فى ضمن الحوادث والارشاد الى الحق فى كل نازلة من النوازل متأخر عن ذلك صالح لان يكون غاية له (والله غالب على امره ) لا يستعصى عليه امر ولا يمانعه شئ بل انما امره لشئ اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون فيدخل فى ذلك شؤنه المتعلقة بيوسف دخولا اوليا او متول على امر يوسف لا يكله الى غيره وقد اريد به من الفتنة ما اريد مرة غب مرة فلم يكن الا ما اراد الله له من العاقبة الحميدة ( ولكن اكثر الناس لا يعلمون ) ان الامر كذلك فيأتون ويذرون زعما منهم ان لهم من الامر شيئا وانى لهم ذلك وان الامر كله لله عز وجل أو لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا فضله (ولما بلغ اشده) اى منتهى اشتداد جسمه وقوته وهو سن الوقوف ما بين الثلاثين الى اربعين وقيل سن الشباب ومبدأ بلوغ الحلم والاول هو الاظهر

بالتوبة لحكى الله تعالى عنه اتيانه بها كما فى سائر المواضع وحيث لم يوجد شئ من ذلك علمنا انه ماصدر عنه فى هذه الواقعة ذنب ولا معصية *(الرابع) ان كل من كان له تعلق بتلك الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام من المعصية واعلم ان الذين لهم تعلق بهذه الواقعة يوسف عليه السلام وتلك المرأة وزوجها والنسوة والشهود ورب العالمين شهد ببراءته عن الذنب وابليس اقر أيضا ببراءته عن المعصية واذا كان الامر كذلك فحينئذ لم يبق للمسلم توقف فى هذا الباب *اما بيان ان يوسف عليه السلام ادعى البراءة عن الذنب فهو قوله عليه السلام هى راودتنى عن نفسى وقوله عليه السلام رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه *واما بيان ان المرأة اعترفت بذلك فلانها قالت للنسوة ولقد راودته عن نفسه فاستعصم وايضا قالت الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين* واما بيان ان زوج المرأة اقر بذلك فهو قوله انه من كيدكن ان كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك* واما الشهود فقوله تعالى وشهد شاهد من اهلها ان كان قيصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين* واما شهادة الله تعالى بذلك فقوله كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين فقد شهد الله تعالى فى هذه الآية على طهارته اربع مرات (أولها) قوله لنصرف عنه السوء واللام للتأكيد والمبالغة (والثانى) قوله والفحشاء اى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء (والثالث) قوله انه من عبادنا مع انه تعالى قال وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (والرابع) قوله المخلصين وفيه قراءتان تارة باسم الفاعل وأخرى باسم المفعول فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتيا بالطاعات والقربات مع صفة الاخلاص وورده باسم المفعول يدل على ان الله تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته وعلى كلا الوجهين فانه من ادل الالفاظ على كونه منزها عما أضافوه اليه *واما بيان ان ابليس اقر بطهارته فلانه قال فبعزتك لاغوينهم اجمعين الاعبادك منهم المخلصين فاقر بانه لا يمكنه اغواء المخلصين ويوسف من المخلصين لقوله تعالى انه من عبادنا المخلصين فكان هذا اقرارا من ابليس بانه ما اغواه وما أضله عن طريقة الهدى وعند هذا نقول هؤلاء الجهال الذين نسبوا الى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة ان كانوا من اتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته وان كانوا من اتباع ابليس وجنوده فليقبلوا شهادة ابليس على طهارته ولعلهم يقولون كنا فى اول الامر تلامذة ابليس الى ان تخرجنا عليه فزدنا عليه فى السفاهة كما قال الخوارزمى

وكنت امرأ من جند ابليس فارتقى * بى الدهر حتى صار ابليس من جندى

فلو مات قبلى كنت أحسن بعده * طرائق فسق ليس يحسنها بعدى

فثبت بهذه الدلائل ان يوسف عليه السلام برئ عما يقوله هؤلاء الجهال واذا عرفت هذا فنقول الكلام على ظاهر هذه الآية يقع فى مقامين (المقام الاول) ان نقول لانسلم ان

لقوله تعالى (آتيناه حكما) حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل او حكما بين الناس وفقها او نبوة (وعلما) اى تفقها فى الدين وتنكيرهما للتفخيم اى حكما وعلما لا يكتنه كنههما ولا يقادر قدرهما فهما ما آتاه الله تعالى عند تكامل قواه سواء كانا عبارة عن النبوة والحكم بين الناس او غيرهما كيف لا وقد جعل ايتاؤهما جزاء لعمله عليه السلام حيث قيل (وكذلك) اى مثل ذلك الجزاء العجيب (نجزى المحسنين) اى كل من يحسن فى عمله فيجب ان يكون ذلك بعد انقضاء اعماله الحسنة التى من جملتها معاناة الاحزان والشدائد وقد فسر العلم بعلم تأويل الاحاديث ولا صحة له الا ان يخص بعلم تأويل رؤيا الملك فان ذلك حيث كان عند تناهى ايام البلاء صح ان يعد ايتاؤه من جملة الجزاء واما رؤيا صاحبى السجن فقد لبث عليه السلام بعد تعبيرها فى السجن بضع سنين وفى تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين اشعار بعلية الاحسان له وتنبيه على انه سبحانه انما آتاه لكونه محسنا فى اعماله متقيا فى عنفوان امره هل جزاء الاحسان الا الاحسان (وراودته التى هو فى بيتها) رجوع الى شرح ماجرى عليه فى منزل العزيز بعد ما امر امرأته باكرام مثواه وقوله تعالى وكذلك مكنا ليوسف الى هنا اعتراض جئ به انموذجا للقصة ليعلم السامع من اول الامر ان مالقيه عليه السلام من الفتن التى ستحكى بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة وانه عليه السلام محسن فى جميع اعماله لم يصدر عنه فى حالتى السراء والضراء ما يخل بنزاهته ولا يخفى ان مدار حسن التخلص الى هذا الاعتراض قبل تمام الآية الكريمة انما هو التمكين البالغ المفهوم من كلام العزيز فادراج الانجاء السابق تحت الاشارة بذلك فى قوله تعالى وكذلك

يوسف عليه السلام هم بها والدليل عليه انه تعالى قال وهم بهالولا ان رأى برهان ربه وجواب لولا ههنا مقدم وهو كما يقال قد كنت من الهالكين لولا ان فلانا خلصك وطعن الزجاج فى هذا الجواب من وجهين (الاول) ان تقديم جواب لو شاذ وغير موجود فى الكلام الفصيح (الثانى) ان لولا يجاب جوابها باللام فلو كان الامر على ماذكرتم لقال ولقد همت ولهم بها لولا وذكر غير الزجاج سؤالا ثالثا وهو انه لو لم يوجد الهم لما كان لقوله لولا ان رأى برهان ربه فائدة واعلم ان ماذكره الزجاج بعيد لانا نسلم ان تأخير جواب لولا حسن جائز الا ان جوازه لايمنع من جواز تقديم هذا الجواب وكيف ونقل عن سيبويه انه قال انهم يقدمون الاهم فالاهم والذى هم بشانه اعنى فكان الامر فى جواز التقديم والتأخير مربوطا بشدة الاهتمام واما تعيين بعض الالفاظ بالمنع فذلك مما لايليق بالحكمة وايضا ذكر جواب لولا باللام جائز اما هذا لايدل على ان ذكره بغير اللام لايجوز ثم انا نذكر آية اخرى تدل على فساد قول الزجاج فى هذين السؤالين وهو قوله تعالى ان كادت لتبدى به لولا ان ربطنا على قلبها (واما السؤال الثالث) وهو انه لو لم يوجد الهم لم يبق لقوله لولا ان رأى برهان ربه فائدة فنقول بل فيه اعظم الفوائد وهو بيان ان ترك الهم بها ماكان لعدم رغبته فى النساء وعدم قدرته عليهن بل لاجل ان دلائل دين الله منعته عن ذلك العمل ثم نقول ان الذى يدل على ان جواب لولا ماذكرناه ان لولا تستدعى جوابا وهذا المذكور يصلح جوابا له فوجب الحكم بكونه جوابا له لايقال انا نضمر له جوابا وترك الجواب كثير فى القرآن لانا نقول لانزاع انه كثير فى القرآن الا ان الاصل ان لايكون محذوفا وايضا فالجواب انما يحسن تركه وحذفه اذا حصل فى اللفظ مايدل على تعينه وههنا بتقدير ان يكون الجواب محذوفا فليس فى اللفظ مايدل على تعين ذلك الجواب فان ههنا انواعا من الاضمارات يحسن اضمار كل واحد منها وليس اضمار بعضها اولى من اضمار الباقى فظهر الفرق والله اعلم (المقام الثانى) فى الكلام على هذه الآية ان نقول سلمنا ان الهم قد حصل الا انا نقول ان قوله وهم بها لايمكن حمله على ظاهره لان تعليق الهم بذات المرأة محال لان الهم من جنس القصد والقصد لايتعلق بالذوات الباقية فثبت انه لابد من اضمار فعل مخصوص يجعل متعلق ذلك الهم وذلك الفعل غير مذكور فهم زعموا ان ذلك المضمر هو ايقاع الفاحشة بها ونحن نضمر شيئا آخر يغاير ماذكروه وبيانه من وجوه (الاول) المراد انه عليه السلام هم بدفعها عن نفسه ومنعها عن ذلك القبيح لان الهم هو القصد فوجب ان يحمل فى حق كل احد على القصد الذى يليق به فاللائق بالمرأة القصد الى تحصيل اللذة والتنعم والتمتع واللائق بالرسول المبعوث الى الخلق القصد الى زجر العاصى عن معصيته والى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر يقال هممت بفلان اى بضربه ودفعه فان قالوا فعلى هذا التقدير لايبق لقوله لولا ان رأى برهان ربه فائدة قلنا بل فيه اعظم الفوائد وبيانه من وجهين (الاول) انه تعالى اعلم يوسف عليه السلام انه لو هم بدفعها

مكنا كافعله الجمهور ناء من التقريب فتأمل والمراودة  المطالبة من راد يرود اذاجاء وذهب لطلب شئ ومنه الرائد

لطالب الماء والكلاء وهى مفاعلة من واحد نحو مطالبة الدائن ومماطلة المديون ومداواة الطبيب ونظائرها مما يكون من احد الجانبين الفعل ومن الآخر سببه فان هذه الافعال وان كانت صادرة عن احد الجانبين لكن لما كانت اسبابها صادرة عن الجانب الآخر جعلت كأنها صادرة عنهما وهذا باب لطيف المسلك مبنى على اعتبار دقيق تحقيقه أن سبب الشئ يقام مقامه ويطلق عليه اسمه كما فى قولهم كما تدين تدان اى كما تجزى تجزى فان فعل البادئ وان لم يكن جزاء لكنه لكونه سببا للجزاء اطلق عليه اسمه وكذلك ارادة القيام الى الصلاة وارادة قراءة القرآن كانتا سببا للقيام والقراءة عبر عنهما بهما فقيل اذا قمتم الى الصلاة فاذا قرأت القرآن وهذه قاعدة مطردة مستمرة ولما كانت اسباب الافعال المذكورة فيما نحن فيه صادرة عن الجانب المقابل لجانب فاعلها فان مطالبة الدائن للمماطلة التى هى من جانب الغريم وهى منه للمطالبة التى هى من جانب الدائن وكذا مداواة الطبيب للمرض الذى هو من جانب المريض وكذلك مراودتها فيما نحن فيه لجمال يوسف عليه السلام نزل صدورها عن محالها بمنزلة صدور مسبباتها التى هى تلك الافعال فبنى الصيغة على ذلك وروعى جانب الحقيقة بان اسند الفعل الى الفاعل واوقع على صاحب السبب فتأمل ويجوز ان يراد بصيغة المبالغة مجرد المبالغة وقيل الصيغة على بابها بمعنى انها طلبت منه الفعل وهو منها الترك

ويجوز ان يكون من الرويد وهو الرفق والتحمل وتعديتها بعن لتضمنها معنى المخادعة فالمعنى خادعته ( عن نفسه ) اى فعلت مايفعل

لقتلته اولكانت تأمر الحاضرين بقتله فاعلمه الله تعالى ان الامتناع من ضربها اولى
صونا للنفس عن الهلاك (والثانى) انه عليه السلام لواشتغل بدفعها عن نفسه فربما
تعلقت به فكان يتمزق ثوبه من قدام وكان فى علم الله تعالى ان الشاهد يشهد بأن ثوبه
لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن ولو كان ثوبه ممزقا من خلف لكانت المرأة هى
الخائنة فالله تعالى اعلمه بهذا المعنى فلاجرم لم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولى هاربا عنها
حتى صارت شهادة الشاهد حجة له على براءته عن المعصية (الوجه الثانى) فى الجواب ان
يفسر الهم بالشهوة وهذا مستعمل فى اللغة الشائعة يقول القائل فيما لايشتهيه مايهمنى
هذا وفيما يشتهيه هذا اهم الاشياء الى فسمى الله تعالى شهوة يوسف عليه السلام هما
فمعنى الآية ولقد اشتهته واشتهاها ولولا ان رأى برهان ربه لدخل ذلك العمل فى الوجود
(الثالث) ان يفسر الهم بحديث النفس وذلك لان المرأة الفائقة فى الحسن والجمال اذا
تزينت وتهيأت للرجل الشاب القوى فلابد وان يقع هناك بين الحكمة والشهوة
الطبيعية وبين النفس والعقل مجاذبات ومنازعات فتارة تقوى داعية الطبيعة والشهوة
وتارة تقوى داعية العقل والحكمة فالهم عبارة عن جواذب الطبيعة ورؤية البرهان
عبارة عن جواذب العبودية ومثال ذلك ان الرجل الصالح الصائم فى الصيف الصائف
اذا رأى الجلاب المبرد بالثلج فان طبيعته تحمله على شربه الا ان دينه وهداه يمنعه منه
فهذا لايدل على حصول الذنب بل كلما كانت هذه الحالة اشد كانت القوة فى القيام
بلوازم العبودية اكمل فقد ظهر بحمد الله تعالى صحة هذا القول الذى ذهبنا اليه ولم يبق
فى يد الواحدى الا مجرد التصلف وتعديد اسماء المفسرين ولو كان قد ذكر فى تقرير ذلك
القول شبهة لاجبنا عنها الا انه مازاد على الرواية عن بعض المفسرين * واعلم ان بعض
الحشوية روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما كذب ابراهيم عليه السلام
الاثلاث كذبات فقلت الاولى ان لاتقبل مثل هذه الاخبار فقال على طريق الاستنكار
فان لم نقبله لزمنا تكذيب الرواة فقلت له يامسكين ان قبلناه لزمنا الحكم بتكذيب
ابراهيم عليه السلام وان رددناه لزمنا الحكم بتكذيب الرواة ولاشك ان صون ابراهيم
عليه السلام عن الكذب اولى من صون طائفة من المجاهيل عن الكذب اذا عرفت هذا
الاصل فنقول للواحدى ومن الذى يضمن لنا ان الذين نقلوا هذا القول عن هؤلاء
المفسرين كانوا صادقين ام كاذبين والله اعلم (المسئلة الثانية) فى ان المراد بذلك البرهان
ماهو اما المحققون المثبتون للعصمة فقد فسروا رؤية البرهان بوجوه (الاول) انه حجة الله
تعالى فى تحريم الزنا والعلم بما على الزانى من العقاب (والثانى) ان الله تعالى طهر نفوس
الانبياء عليهم السلام عن الاخلاق الذميمة بل نقول انه تعالى طهر نفوس المتصلين به عنها
كما قال انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا فالمراد برؤية
البرهان هو حصول تلك الاخلاق وتذكير الاحوال الرادعة لهم عن الاقدام على

---

المخادع لصاحبه عن شئ لايريد اخراجه من يده وهو يحتال ان يأخذه منه وهى عبارة عن التمحل فى مواقعته اياها والعدول
عن التصريح باسمها للمحافظة على
السر او للاستهجان بذكره وايراد
الموصول لتقرير المراودة فان
كونه فى بيتها مما يدعو الى ذلك
قيل لواحدة ما حملك على ما أنت
عليه مما لاخير فيه قالت قرب
الوساد وطول السواد ولاظهار
كمال نزاهته عليه السلام فان عدم
ميله اليها مع دوام مشاهدته
لمحاسنها واستعصائه عليها مع كونه
تحت ملكتها ينادى بكونه عليه
السلام فى اعلى معارج العفة
والنزاهة (وغلقت الابواب)
قيل كانت سبعة ولذلك جاء الفعل
بصيغة التفعيل دون الافعال
وقيل للمبالغة فى الايثاق
والاحكام (وقالت هيت لك) قرئ
بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء
وبنائه كبناء أين وعيط وهيت
كجير وهيت كحيث اسم فعل معناه
أقبل وبادر واللام للبيان اى لك
أقول هذا كما فى هلم لك وقرئ
هئت لك على صيغة الفعل بمعنى
تهيأت يقال هاء يهيء كجاء
يجيء اذا تهيأ وهيئت لك واللام
صلة للفعل (قال معاذ الله) اى
أعوذ بالله معاذا مما تدعيننى اليه
وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه
واشارة الى التعليل بأنه منكر هائل
يجب ان يعاذ بالله تعالى للخلاص
منه وما ذاك الا لانه عليه السلام
قد شاهده بما اراه الله تعالى من
البرهان النير على ما هو عليه
فى حد ذاته من غاية القبح ونهاية
السوء وقوله عز وجل (انه ربى
أحسن مثواى) تعليل للامتناع
ببعض الاسباب الخارجية مما عسى
يكون مؤثرا عندها وداعيا لها الى
اعتباره بعد التنبيه على سببه
الذاتى الذى لايكاد تقبله لما
سولته لها نفسها والضمير للشان
ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصدير الجملة به الايذان بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة (المنكرات)

المنكرات (والثالث) انه رأى مكتوبا فى سقف البيت ولاتقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا (والرابع) انه النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش والدليل عليه ان الانبياء عليهم السلام بعثوا لمنع الخلق عن القبائح والفضائح فلو انهم منعوا الناس عنها ثم اقدموا على اقبح انواعها وافحش اقسامها لدخلوا تحت قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالاتفعلون كبر مقتا عند الله ان تقولوا مالاتفعلون وايضا ان الله تعالى عير اليهود بقوله أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم ومايكون عيبا فى حق اليهود كيف ينسب الى الرسول المؤيد بالمعجزات * واما الذين نسبوا المعصية الى يوسف عليه السلام فقد ذكروا فى تفسير ذلك البرهان امورا (الاول) قالوا ان المرأة قامت الى صنم مكلل بالدر والياقوت فى زاوية البيت فسترته بثوب فقال يوسف لم فعلت ذلك قالت استحى من الهى هذا أن يرانى على معصية فقال يوسف أتستحين من صنم لايعقل ولايسمع ولااستحى من الهى القائم على كل نفس بما كسبت فوالله لاافعل ذلك ابدا قالوا فهذا هو البرهان (الثانى) نقلوا عن ابن عباس رضى الله عنهما انه تمثل له يعقوب فرآه عاضا على اصابعه ويقول له أتعمل عمل الفجار وانت مكتوب فى زمرة الانبياء فاستحى منه قال وهو قول عكرمة ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك ومقاتل وابن سيرين قال سعيد بن جبير تمثل له يعقوب فضرب فى صدره فخرجت شهوته من انامله (والثالث) قالوا انه سمع فى الهواء قائلا يقول يا ابن يعقوب لاتكن كالطير يكون له ريش فاذا زنا ذهب ريشه (والرابع) نقلوا عن ابن عباس رضى الله عنهما ان يوسف عليه السلام لم ينزجر برؤية صورة يعقوب حتى ركضه جبريل عليه السلام فلم يبق فيه شئ من الشهوة الاخرج ولما نقل الواحدى هذه الروايات تصلف وقال هذا الذى ذكرناه قول ائمة التفسير الذين أخذوا التأويل عمن شاهد التنزيل فيقال له انك لاتأتينا البتة الابهذه التصلفات التى لافائدة فيها فأين هذا من الحجة والدليل وايضا فان ترادف الدلائل على الشئ الواحد جائز وانه عليه الصلاة والسلام كان ممتنعا عن الزنا بحسب الدلائل الاصلية فلما انضاف اليها هذه الزواجر قوى الانزجار وكمل الاحتراز والعجب أنهم نقلوا ان جروا دخل حجرة النبى صلى الله عليه وسلم وبقى هنالك بغير علمه قالوا فامتنع جبريل عليه السلام من الدخول عليه اربعين يوما وههنا زعموا أن يوسف عليه السلام حال اشتغاله بالفاحشة ذهب اليه جبريل عليه السلام والعجب أيضا انهم زعموا انه لم يمتنع عن ذلك العمل بسبب حضور جبريل عليه السلام ولو ان افسق الخلق وأكفرهم كان مشتغلا بفاحشة فاذا دخل عليه رجل على زى الصالحين استحيى منه وفر وترك ذلك العمل وههنا انه رأى يعقوب عليه السلام عض على انامله فلم يلتفت اليه ثم ان جبريل عليه السلا على جلالة قدره دخل عليه فلم يمتنع أيضا عن ذلك القبيح بسبب حضوره حتى احتاج جبريل عليه السلام الى ان يركضه على ظهره فنسأل الله ان يصوننا عن الغى

تقريره فى الذهن فان الضمير لايفهم منه من اول الامر الاشأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن فكأنه قيل ان الشان الخطير هذا وهو ربى اى سيدى العزيز احسن مثواى أى احسن تعهدى حيث امرك باكرامى فكيف يمكن ان اسيئ اليه بالخيانة فى حرمه وفيه ارشاد لها الى رعاية حق العزيز بألطف وجه وقيل الضمير لله عزوجل وربى خبران واحسن مثواى خبر ثان او هو الخبر والاول بدل من الضمير والمعنى ان الحال هكذا فكيف اعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة وفيه تحذير لها من عقاب الله عزوجل وعلى التقديرين ففى الاقتصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض لاقتضائها الامتناع عمادعته اليه ايذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية فى الدلالة على استحالته وكونه مما لايدخل تحت الوقوع اصلا وقوله تعالى (انه لايفلح الظالمون) تعليل للامتناع المذكور غب تعليل والفلاح الظفر وقيل البقاء فى الخير ومعنى افلح دخل فيه كأصبح وأخواته والمراد بالظالمين كل من ظلم كائنا من كان فيدخل فى ذلك المجازون للاحسان بالاساءة والعصاة لامر الله تعالى دخولا اوليا وقيل الزناة لانهم ظالمون لانفسهم وللمزنى باهله (ولقد همت به) بمخالطته اذ الهم لايتعلق بالاعيان اى قصدتها وعزمت عليها عزما جازما لايلويها عنه صارف بعدما باشرت مباديها وفعلت مافعلت من المراودة وتغليق الابواب ودعوته عليه السلام الى نفسها بقولها هيت لك ولعلها تصدت هنالك لافعال اخر من بسط يدها اليه وقصد المعانقة وغير ذلك مما يضطره عليه السلام الى الهرب نحو الباب والتأكيد لدفع ماعسى يتوهم من

فى الدين والخذلان فى طلب اليقين فهذا هو الكلام الملخص فى هذه المسئلة والله اعلم ( المسئلة الثالثة ) فى الفرق بين السوء والفحشاء وفيه وجوه ( الاول ) ان السوء جناية اليد والفحشاء هو الزنا ( الثانى ) السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة والفحشاء هو الزنا * اما قوله انه من عبادنا المخلصين اى الذين اخلصوا دينهم لله تعالى ومن فتح اللام اراد الذين خلصهم الله من الاسواء ويحتمل ان يكون المراد انه من ذرية ابراهيم عليه السلام الذين قال الله فيهم انا اخلصناهم بخالصة ( المسئلة الرابعة ) قرأ ابن كثير وابن عامر وابو عمرو المخلصين بكسر اللام فى جميع القرآن والباقون بفتح اللام * قوله تعالى ( واستبقا الباب وقدت قيصه من دبر والفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من اراد بأهلك سوأ الا ان يسجن او عذاب اليم قال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهد من اهلها ان كان قيصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قيصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قيصه قد من دبر قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم يوسف اعرض عن هذا واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين ) اعلم انه تعالى لما حكى عنها انها همت اتبعه بكيفية طلبها وهربه فقال واستبقا الباب والمراد انه هرب منها وحاول الخروج من الباب وعدت المرأة خلفه لتجذبه الى نفسها والاستباق طلب السبق الى الشئ ومعناه تبادرا الى الباب يجتهد كل واحد منهما ان يسبق صاحبه فان سبق يوسف فتح الباب وخرج وان سبقت المرأة امسكت الباب لئلا يخرج وقوله استبقا الباب اى استبقا الى الباب كقوله واختار موسى قومه سبعين رجلا اى من قومه واعلم ان يوسف عليه السلام سبقها الى الباب واراد الخروج والمرأة تعدو خلفه فلم تصل الا الى دبر القميص فقدته اى قطعته طولا وفى ذلك الوقت حضر زوجها وهو المراد من قوله والفيا سيدها لدى الباب اى صادفا بعلها تقول المرأة لبعلها سيدى وانما لم يقل سيدهما لان يوسف عليه السلام ما كان مملوكا لذلك الرجل فى الحقيقة فعند ذلك خافت المرأة من التهمة فبادرت الى ان رمت يوسف بالفعل القبيح وقالت ما جزاء من اراد بأهلك سوأ الا ان يسجن او عذاب اليم والمعنى ظاهر * وفى الآية لطائف ( احداها ) ان ما يحتمل ان تكون نافية اى ليس جزاؤه الا السجن ويجوز ايضا ان تكون استفهامية يعنى اى شئ جزاؤه الا ان يسجن كما تقول من فى الدار الا زيد ( وثانيها ) ان حبها الشديد ليوسف حملها على رعاية دقيقتين فى هذا الموضع وذلك لانها بدأت بذكر السجن واخرت ذكر العذاب لان المحب لا يسعى فى ايلام المحبوب وايضا انها لم تذكر ان يوسف يجب ان يعامل بأحد هذين الامرين بل ذكرت ذلك ذكرا كليا صونا للمحبوب عن الذكر بالسوء والالم وايضا قالت الا ان يسجن والمراد ان يسجن يوما او اقل على سبيل التخفيف فأما الحبس الدائم فانه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال يجب ان يجعل من المسجونين ألا ترى ان فرعون هكذا قال حين تهدد موسى عليه السلام فى قوله لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من



البشرية وشهوة الشباب وقرمه ميلا جبليا لا يكاد يدخل تحت التكليف لانه قصدها قصدا اختياريا ألا يرى الى ما سبق من استعصامه المنبئ عن كمال كراهيته له ونفرته عنه وحكمه بعدم افلاح الظالمين وهل هو الا تسجيل باستحالة صدور الهم منه عليه السلام تسجيلا محكما وانما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه فى صحبة همها فى الذكر بطريق المشاكلة لا لشبهه به كما قيل ولقد اشير الى تباينهما حيث لم يلزا فى قرن واحد من التعبير بان قيل ولقد هما بالمخالطة او هم كل منهما بالآخر وصدر الاول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمى وعقب الثانى بما يعفو اثره من قوله عز وجل ( لولا ان رأى برهان ربه ) اى حجته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنا وسوء سبيله والمراد برؤيته لها كمال ايقانه بها ومشاهدته لها مشاهدة واصلة الى مرتبة عين اليقين الذى تتجلى هناك حقائق الاشياء بصورها الحقيقية وتنخلع عن صورها المستعارة التى بها تظهر فى هذه النشأة على ما نطق به قوله عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنا بموجب ذلك البرهان النير على ما هو عليه فى حد ذاته اقبح ما يكون واوجب ما يجب ان يحذر منه ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام والحكم بعدم افلاح من يرتكبه وجواب لولا محذوف يدل عليه الكلام اى لولا مشاهدته برهان ربه فى شأن الزنا لجرى على موجب ميله الجبلى ولكنه حيث كان مشاهدا له من قبل استمر على ما هو عليه من قضية البرهان وفائدة هذه الشرطية بيان ان امتناعه

المسجونين (وثالثها) انها لماشاهدت من يوسف عليه السلام انه استعصم منهامع انه كان في عنفوان العمر وكمال القوة ونهاية الشهوة عظم اعتقادها في طهارته ونزاهته فاستحيت ان تقول ان يوسف عليه السلام قصدني بالسوء وماوجدت من نفسها ان ترميه بهذا الكذب على سبيل التصريح بل اكتفت بهذا التعريض فانظر الى تلك المرأة ماوجدت من نفسها ان ترميه بهذا الكذب وان هؤلاء الحشوية يرمونه بعد قريب من اربعة آلاف سنة بهذا الذنب القبيح (ورابعها) ان يوسف عليه السلام اراد ان يضربها ويدفعها عن نفسه وكان ذلك بالنسبة اليها جاريا مجرى السوء فقولها ما جزاء من اراد بأهلك سوأ جار مجرى التعريض فلعلها بقلبها كانت تريد اقدامه على دفعها ومنعها وفي ظاهر الامر كانت توهم انه قصدني بمالا ينبغي واعلم ان المرأة لما ذكرت هذا الكلام ولطخت عرض يوسف عليه السلام احتاج يوسف الى ازالة هذه التهمة فقال هي راودتني عن نفسي وان يوسف عليه السلام ماهتك سترها في اول الامر الا انه لما خاف على النفس وعلى العرض اظهر الامر * واعلم ان العلامات الكثيرة كانت دالة على ان يوسف عليه السلام هو الصادق (فالاول) ان يوسف عليه السلام في ظاهر الامر كان عبدا لهم والعبد لا يمكنه ان يتسلط على مولاه الى هذا الحد (الثاني) انهم شاهدوا ان يوسف عليه السلام كان يعدو عدوا شديدا ليخرج والرجل الطالب للمرأة لا يخرج من الدار على هذا الوجه (الثالث) انهم رأوا ان المرأة زينت نفسها على اكمل الوجوه واما يوسف عليه السلام فما كان عليه اثر من آثار تزيين النفس فكان الحاق هذه الفتنة بالمرأة اولى (الرابع) انهم كانوا قد شاهدوا احوال يوسف عليه السلام في المدة الطويلة فما رأوا عليه حالة تناسب اقدامه على مثل هذا الفعل المنكر وذلك ايضا مما يقوي الظن (الخامس) ان المرأة ما نسبته الى طلب الفاحشة على سبيل التصريح بل ذكرت كلاما مجملا مبهما واما يوسف عليه السلام فانه صرح بالامر ولو انه كان متهما لما قدر على التصريح باللفظ الصريح فان الخائن خائف (السادس) قيل ان زوج المرأة كان عاجزا وآثار طلب الشهوة في حق المرأة كانت متكاملة فالحاق هذه الفتنة بها اولى فلما حصلت هذه الامارات الكثيرة الدالة على ان مبدأ هذه الفتنة كان من المرأة استحيي الزوج وتوقف وسكت لعلمه بأن يوسف صادق والمرأة كاذبة ثم انه تعالى اظهر ليوسف عليه السلام دليلا آخر يقوي تلك الدلائل المذكورة ويدل على انه بريء عن الذنب وان المرأة هي المذنبة وهو قوله وشهد شاهد من اهلها وفي هذا الشاهد ثلاثة اقوال (الاول) انه كان لها ابن عم وكان رجلا حكيما واتفق في ذلك الوقت انه كان مع الملك يريد ان يدخل عليها فقال قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشق القميص الا انا لا ندري أيكما قدام صاحبه فان كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة والرجل كاذب وان كان من خلفه فالرجل صادق وانت كاذبة فلما نظروا الى القميص ورأوا الشق من خلفه قال ابن عمها انه من

عليه السلام لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة بل لمحض العفة والنزاهة مع وفور الدواعي الداخلية وترتب المقدمات الخارجية الموجبة لظهور الاحكام الطبيعية هذا وقد نص أئمة الصناعة على ان لولا في امثال هذه المواقع جار من حيث المعنى لامن حيث الصيغة مجرى التقييد للحكم المطلق كما في مثل قوله تعالى ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها فلا يتحقق هناك هم اصلا وقد جوز ان يكون وهم بها جواب لولا جريا على قاعدة الكوفيين في جواز التقديم فالهم حينئذ على معناه الحقيقي فالمعنى لولا انه قد شاهد برهان ربه لهم بها كما همت به ولكن حيث انتفى عدم المشاهدة بدليل استعصامه ومايتفرع عليه انتفى الهم رأسا هذا وقد فسر همه عليه السلام بأنه عليه السلام حل الهميان وجلس مجلس الختان وبأنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها ورؤيته للبرهان بأنه سمع صوتا اياك واياها فلم يكترث ثم وثم الى ان تمثل له يعقوب عليه السلام عاضا على انملته وقيل ضرب على صدره فخرجت شهوته من انامله وقيل بدت كف فيما بينهما ليس فيها عضد ولا معصم مكتوب فيها وان عليكم لحافظين كراما كاتبين فلم ينصرف ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا فلم ينته ثم رأى فيها واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فلم ينجع فقال الله عز وجل لجبريل ادرك عبدي قبل ان يصيب الخطيئة فانحط جبريل عليه السلام وهو يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وانت مكتوب في ديوان الانبياء وقيل رأى تمثال العزيز وقيل وقيل ان كل ذلك الاخرافات واباطيل تمجها الآذان وتردها العقول والاذهان ويل لمن لاكها ولفقها اوسمعها وصدقها (كذلك) الكاف منصوب المحل

كيدكن ان كيدكن عظيم اى من عملكن ثم قال ليوسف اعرض عن هذا واكتمه وقال لها استغفرى لذنبك وهذا قول طائفة عظيمة من المفسرين ( والثانى ) وهو ايضا منقول عن ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير والضحاك ان ذلك الشاهد كان صبيا انطقه الله تعالى فى المهد فقال ابن عباس تكلم فى المهد أربعة صغار شاهد يوسف وابن ماشطة بنت فرعون وعيسى بن مريم وصاحب جريج الراهب قال الجبائى والقول الاول أولى لوجوه (الاول) انه تعالى لو أنطق الطفل بهذا الكلام لكان مجرد قوله انها كاذبة كافيا وبرهانا قاطعا لانه من البراهين القاطعة القاهرة والاستدلال بتمزيق القميص من قبل ومن دبر دليل ظنى ضعيف والعدول عن الحجة القاطعة حال حضورها وحصولها الى الدلالة الظنية لا يجوز ( الثانى ) انه تعالى قال وشهد شاهد من اهلها وانما قال من اهلها ليكون أولى بالقبول فى حق المرأة لان الظاهر من حال من يكون من أقرباء المرأة من اهلها ان لا يقصدها بالسوء والاضرار فالمقصود بذكر كون ذلك الرجل من اهلها تقوية قول ذلك الرجل وهذه الترجيحات انما يصار اليها عند كون الدلالة ظنية ولو كان هذا القول صادرا عن الصبى الذى فى المهد لكان قوله حجة قاطعة ولا يتفاوت الحال بين ان يكون من اهلها وبين ان لا يكون من اهلها وحينئذ لا يبقى لهذا القيد اثر ( الثالث ) ان لفظ الشاهد لا يقع فى العرف الا على من تقدمت له معرفة بالواقعة واحاطة بها ( والقول الثالث ) ان ذلك الشاهد هو القميص قال مجاهد الشاهد كون قميصه مشقوقا من دبر وهذا فى غاية الضعف لان القميص لا يوصف بهذا ولا ينسب الى الاهل واعلم ان القول الاول عليه ايضا اشكال وذلك لان العلامة المذكورة لا تدل قطعا على براءة يوسف عليه السلام عن المعصية لان من المحتمل ان الرجل قصد المرأة لطلب الزنا فالمرأة غضبت عليه فهرب الرجل فعدت المرأة خلف الرجل وجذبته لقصد ان تضربه ضربا وجيعا فعلى هذا الوجه يكون القميص متخرقا من دبر مع ان المرأة تكون بريئة عن الذنب والرجل يكون مذنبا (وجوابه) انا بينا ان علامات كذب المرأة كانت كثيرة بالغة مبلغ اليقين فضموا اليها هذه العلامة الاخرى لا لاجل ان يعولوا فى الحكم عليها بل لاجل ان يكون ذلك جاريا مجرى المقويات والمرجحات ثم انه تعالى اخبر وقال فلما رأى قميصه وذلك يحتمل السيد الذى هو زوجها ويحتمل الشاهد فلذلك اختلفوا فيه قال انه من كيدكن اى ان قولك ما جزاء من أراد بأهلك سوأ من كيدكن ان كيدكن عظيم فان قيل انه تعالى قال خلق الانسان ضعيفا فكيف وصف كيد المرأة بالعظم وايضا فكيد الرجال قد يزيد على كيد النساء ( والجواب ) عن الاول ان خلقة الانسان بالنسبة الى خلقة الملائكة والسموات والكواكب خلقة ضعيفة وكيد النسوان بالنسبة الى كيد البشر عظيم ولا منافاة بين القولين وايضا فالنساء لهن فى هذا الباب من المكر والحيل ما لا يكون للرجال ولان كيدهن فى هذا الباب يورث من العار ما لا يورثه كيد الرجال واعلم



وذلك اشارة الى الاراءة المدلول عليها بقوله تعالى لولا ان رأى برهان ربه اى مثل ذلك التبصير والتعريف عرفناه برهاننا فيما قبل اوالى التثبيت اللازم له اى مثل ذلك التثبيت ثبتناه ( لنصرف عنه السوء) على الاطلاق فيدخل فيه خيانة السيد دخولا اوليا ( والفحشاء ) والزنا لانه مفرط فى القبح وفيه آية بينة وحجة قاطعة على انه عليه السلام لم يقع منه هم بالمعصية ولا توجه اليها قط والا لقيل لنصرفه عن السوء والفحشاء وانما توجه اليه ذلك من خارج فصرفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة والعصمة فتأمل وقرئ ليصرف على اسناد الصرف الى ضمير الرب ( انه من عبادنا المخلصين ) تعليل لما سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق والمخلصون هم الذين اخلصهم الله تعالى لطاعته بأن عصمهم عما هو قادح فيها وقرئ على صيغة الفاعل وهم الذين اخلصوا دينهم لله سبحانه وعلى كلا المعنيين فهو منتظم فى سلكهم داخل فى زمرتهم من اول امره بقضية الجملة الاسمية لا ان ذلك حدث له بعد ان لم يكن كذلك فانحسم مادة احتمال صدور الهم بالسوء منه عليه السلام بالكلية (واستبقا الباب) متصل بقوله ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه وقوله كذلك الى آخره اعتراض جيء به بين المعطوفين تقريرا لنزاهته عليه السلام كقوله تعالى وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض والمعنى لقد همت به وأبى هو واستبقا الباب اى تسابقا الى الباب البرانى الذى هو المخلص ولذلك وحد بعد الجمع فيما سلف وحذف حرف الجر واوصل الفعل الى المجرور نحو واذا كالوا هم اوضمن الاستباق معنى الابتدار واسناد السبق فى ضمن الاستباق اليهما مع ان مرادها مجرد منع يوسف وذا لا يوجب ( انه )

انه لما ظهر للقوم براءة يوسف عليه السلام عن ذلك الفعل المنكر حكى تعالى عنه انه قال يوسف اعرض عن هذا فقيل ان هذا من قول العزيز وقيل انه من قول الشاهد ومعناه اعرض عن ذكر هذه الواقعة حتى لا ينتشر خبرها ولا يحصل العار العظيم بسببها وكما امر يوسف بكتمان هذه الواقعة امر المرأة بالاستغفار فقال واستغفري لذنبك وظاهر ذلك طلب المغفرة ويحتمل ان يكون المراد من الزوج ويكون معنى المغفرة العفو والصفح وعلى هذا التقدير فالاقرب ان قائل هذا القول هو الشاهد ويحتمل ان يكون المراد بالاستغفار من الله لان اولئك الاقوام كانوا يثبتون الصانع الا انهم مع ذلك كانوا يعبدون الاوثان بدليل ان يوسف عليه السلام قال أأرباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار وعلى هذا التقدير فيجوز ان يكون القائل هو الزوج وقوله انك كنت من الخاطئين نسبة لها الى انها كانت كثيرة الخطأ فيما تقدم وهذا احد ما يدل على ان الزوج عرف في اول الامر ان الذنب للمرأة لا ليوسف لانه كان يعرف منها اقدامها على ما لا ينبغي وقال ابو بكر الاصم ان ذلك الزوج كان قليل الغيرة فاكتفى منها بالاستغفار قال صاحب الكشاف وانما قال من الخاطئين بلفظ التذكير تغليبا للذكور على الاناث ويحتمل ان يقال المراد انك من نسل الخاطئين فمن ذلك النسل سرى هذا العرق الخبيث فيك والله اعلم * قوله تعالى (وقال نسوة في المدينة امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا انا لنراها في ضلال مبين فلما سمعت بمكرهن ارسلت اليهن واعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه اكبرنه وقطعن ايديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) لم لم يقل وقالت نسوة قلنا لوجهين (الاول) ان النسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي فلذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث (الثاني) قال الواحدي تقديم الفعل يدعو الى اسقاط علامة التأنيث على قياس اسقاط علامة التثنية والجمع (المسئلة الثانية) قال الكلبي هن اربع امرأة ساقي العزيز وامرأة خبازه وامرأة صاحب سجنه وامرأة صاحب دوابه وزاد مقاتل وامرأة الحاجب والاشبه ان تلك الواقعة شاعت في البلد واشتهرت وتحدث بها النساء * وامرأة العزيز هي هذه المرأة المعلومة تراود فتاها عن نفسه الفتى الحدث الشاب والفتاة الجارية الشابة * قد شغفها حبا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ان الشغاف فيه وجوه (الاول) ان الشغاف جلدة محيطة بالقلب يقال لها غلاف القلب يقال شغفت فلانا اذا اصبت شغافه كما تقول كبدته اذا اصبت كبده فقوله شغفها حبا اي دخل الحب الجلد حتى اصاب القلب (والثاني) ان حبه احاط بقلبها مثل احاطة الشغاف بالقلب ومعنى احاطة ذلك الحب بقلبها هو ان اشتغالها بحبه صار حجابا بينها وبين كل ما سوى هذه المحبة فلا تعقل سواه ولا يخطر ببالها الا اياه (والثالث) قال الزجاج الشغاف حبة القلب وسويداء القلب والمعنى انه وصل حبه الى سويداء قلبها

الانتهاء الى الباب لانها لما رأته يسرع الى الباب ليتخلص ( ١٨١ ) منها اسرعت هي ايضا لتسبقه اليه وتمنعه عن الفتح والخروج او عبر عن اسراعها اثره بذلك مبالغة (وقدت قميصه من دبر) اجتذبته من ورائه فانشق طولا وهو القد كما ان الشق عرضا هو القط وقد قيل في وصف علي رضي الله عنه انه كان اذا اعتلى قد واذا اعترض قط واسناد القد اليها خاصة مع ان لقوة يوسف ايضا دخلا فيه اما لانها الجزء الاخير للعلة التامة واما للايذان بمبالغتها في منعه عن الخروج وبذل مجهودها في ذلك لفوت المحبوب او لخوف الافتضاح (والفيا سيدها) اي صادفا زوجها واذ لم يكن ملكه ليوسف عليه السلام صحيحا لم يقل سيدهما قيل الفياه مقبلا وقيل كان جالسا مع ابن عم المرأة (لدى الباب) اي البراني كما روى كعب رضي الله عنه انه لما هرب يوسف عليه السلام جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الابواب (قالت) استئناف مبني على سؤال سائل يقول فماذا كان حين الفيا العزيز عند الباب فقيل قالت (ما جزاء من اراد بأهلك سوأ) من الزنا ونحوه (الا ان يسجن او عذاب اليم) ما نافية اي ليس جزاؤه الا السجن او العذاب الاليم قيل المراد به الضرب بالسياط او استفهامية اي اي شئ جزاؤه غير ذلك او ذلك ولقد اتت في تلك الحالة التي تدهش فيها الفطن حيث شاهدها العزيز على تلك الهيئة المريبة بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر الحال واستنزال يوسف عن رأيه في استعصائه عليها وعدم مواتاته على مرادها بالقاء الرعب في قلبه من مكرها طمعا في مواقعته لها كرها عند يأسها عن ذلك اختيارا كما قالت ولئن لم يفعل ما آمره

وبالجملة فهذا كناية عن الحب الشديد والعشق العظيم ( المسئلة الثانية ) قرأ جماعة من الصحابة والتابعين شعفها بالعين قال ابن السكيت يقال شعفه الهوى اذا بلغ الى حد الاحتراق وشعف الهناء البعير اذا بلغ منه الالم الى حد الاحتراق وكشف ابو عبيدة عن هذا المعنى فقال الشعف بالعين احراق الحب القلب مع لذة يجدها كما ان البعير اذا هنئ بالقطران يبلغ منه مثل ذلك ثم يستروح اليه وقال ابن الانبارى الشعف رؤس الجبال ومعنى شعف بفلان اذا ارتفع حبه الى اعلى المواضع من قلبه (المسئلة الثالثة) قوله حبا نصب على التمييز ثم قال انا لنراها فى ضلال مبين اى فى ضلال عن طريق الرشد بسبب حبها اياه كقوله ان ابانا لفى ضلال مبين ثم قال تعالى فلما سمعت بمكرهن ارسلت اليهن واعتدت لهن متكأ وفى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) المراد من قوله فلما سمعت بمكرهن انها سمعت قولهن وانما سمى قولهن مكرا لوجوه (الاول) ان النسوة انما ذكرن ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر الى وجهه لانهن عرفن انهن اذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن ( الثانى ) ان امرأة العزيز اسرت اليهن حبها ليوسف وطلبت منهن كتمان هذا السر فلما اظهرن السر كان ذلك غدرا ومكرا ( الثالث ) انهن وقعن فى غيبتها والغيبة انما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر ( المسئلة الثانية ) انها لما سمعت انهن يلمنها على تلك المحبة المفرطة ارادت ابداء عذرها فاتخذت مائدة ودعت جماعة من اكابرهن واعتدت لهن متكأ وفى تفسيره وجوه ( الاول) المتكأ النمرق الذى يتكأ عليه ( والثانى ) ان المتكأ هو الطعام قال العتبى والاصل فيه ان من دعوته ليطعم عندك فقد اعددت له وسادة فسمى الطعام متكأ على الاستعارة (والثالث) متكأ اترجا وهو قول وهب وانكر ابو عبيد ذلك ولكنه محمول على انها وضعت عندهن انواع الفاكهة فى ذلك المجلس ( والرابع ) متكأ طعاما يحتاج الى ان يقطع بالسكين لان الطعام متى كان كذلك احتاج الانسان الى ان يتكأ عليه عند القطع ثم نقول حاصل ذلك انها دعت اولئك النسوة واعتدت لكل واحدة منهن مجلسا معينا وآتت كل واحدة منهن سكينا اى لاجل اكل الفاكهة او لاجل قطع اللحم ثم انها امرت يوسف عليه السلام بأن يخرج اليهن ويعبر عليهن وانه عليه السلام ماقدر على مخالفتها خوفا منها فلما رأينه اكبرنه وقطعن ايديهن ههنا مسائل ( المسئلة الاولى ) فى اكبرنه قولان ( الاول ) اعظمنه ( والثانى ) اكبرن بمعنى حضن قال الازهرى والهاء للسكت يقال اكبرت المرأة اذا حاضت وحقيقته دخلت فى الكبر لانها بالحيض تخرج من حد الصغر الى حد الكبر وفيه وجه آخر وهو ان المرأة اذا خافت وفزعت فربما اسقطت ولدها فحاضت فان صح تفسير الاكبار بالحيض فالسبب فيه ما ذكرناه وقوله وقطعن ايديهن كناية عن دهشتهن وحيرتهن والسبب فى حسن هذه الكناية انها لما دهشت فكانت تظن انها تقطع الفاكهة وكانت تقطع يدها نفسها او يقال انها لما دهشت صارت

---

ليسجنن وليكونا من الصاغرين ثم انها جعلت صدور الارادة المذكورة عن يوسف عليه السلام امرا محققا مفروغا عنه غنيا عن الاخبار بوقوعه وان ماهى عليه من الافاعيل لاجل تحقيق جزائها فهى تريد ايقاعه حسبما يقتضيه قانون الايالة وفى ابهام المريد تهويل لشأن الجزاء المذكور بكونه قانونا مطردا فى حق كل احد كائنا من كان وفى ذكر نفسها بعنوان اهلية العزيز اعظام للخطب واغراء له على تحقيق ما تتوخاه بحكم الغضب والحمية (قال) استئناف وجواب عما يقال فاذا قال يوسف حينئذ فقيل قال ( هى راودتنى عن نفسى ) اى طالبتنى للمواتاة لانى اردت بها سوأ كما قالت وانما قاله عليه السلام لتنزيه نفسه عما اسندته اليه من الخيانة وعدم معرفة حق السيد ودفع ما عرضته له من الامرين الامرين وفى التعبير عنها بضمير الغيبة دون الخطاب واسم الاشارة مراعاة لحسن الادب مع الايماء الى الاعراض عنها (وشهد شاهد من اهلها ) قيل هو ابن عمها وقيل هو الذى كان جالسا مع زوجها لدى الباب وقيل كان حكيما يرجع اليه الملك ويستشيره وقد يجوز ان يكون بعض اهلها قد بصر بها من حيث لا تشعر فأغضبه الله تعالى ليوسف عليه السلام بالشهادة له والقيام بالحق وانما القى الله سبحانه الشهادة الى من هو من اهلها ليكون ادل على نزاهته عليه السلام وانفى للتهمة وقيل كان الشاهد ابن خال لها صبيا فى المهد انطقه الله تعالى ببراءته وهو الاظهر فانه روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال تكلم اربعة وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى عليه السلام رواه الحاكم عن ابى

( بحيث )

بحيث لاتميز نصا بها من حديدها وكانت تأخذ الجانب الحاد من ذلك السكين بكفها فكان يحصل الجراحة فى كفها ( المسئلة الثانية ) اتفق الاكثرون على انهن انما أكبرنه بحسب الجمال الفائق والحسن الكامل قيل كان فضل يوسف على الناس فى الفضل والحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال مررت بيوسف عليه السلام ليلة عرج بى الى السماء فقلت لجبريل عليه السلام من هذا فقال هذا يوسف فقيل يا رسول الله كيف رأيته قال كالقمر ليلة البدر وقيل كان يوسف اذا سار فى أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من السماء عليها وقيل كان يشبه آدم يوم خلقه ربه وهذا القول هو الذى اتفقوا عليه وعندى انه يحتمل وجها آخر وهو أنهن انما أكبرنه لانهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والاحتشام وشاهدن منه مهابة النبوة وهيئة الملكية وهى عدم الالتفات الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان الجمال العظيم مقرونا بتلك الهيبة والهيئة فتعجبن من تلك الحالة فلاجرم أكبرنه وعظمنه ووقع الرعب والمهابة منه فى قلوبهن وعندى أن حمل الآية على هذا الوجه أولى فان قيل فاذا كان الامر كذلك فكيف ينطبق على هذا التأويل قولها فذلكن الذى لمتننى فيه وكيف تصير هذه الحالة عذرا لها فى قوة العشق وافراط المحبة قلنا قد تقرر ان الممنوع متبوع فكأنها قالت لهن مع هذا الخلق العجيب وهذه السيرة الملكية الطاهرة المطهرة فحسنه يوجب الحب الشديد وسيرته الملكية توجب اليأس عن الوصول اليه فلهذا السبب وقعت فى المحبة والحسرة والارق والقلق وهذا الوجه فى تأويل الآية أحسن والله أعلم ( المسئلة الثالثه ) قرأ أبو عمرو وقلن حاشا لله باثبات الالف بعد الشين وهى رواية الاصمعى عن نافع وهى الاصل لانها من المحاشاة وهى التنحية والتبعيد والباقون بحذف الالف للتخفيف وكثرة دورها على الالسن اتباعا للمصحف وحاشا كلمة تفيد معنى التنزيه والمعنى ههنا تنزيه الله تعالى من العجز حيث قدر على خلق جميل مثله واما قوله حاش لله ما علمنا عليه من سوء فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله ( المسئلة الرابعة ) قوله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم فيه وجهان ( الاول ) وهو المشهور ان المقصود منه اثبات الحسن العظيم له قالوا لانه تعالى ركز فى الطباع أن لاحى أحسن من الملك كما ركز فيها أن لاحى أقبح من الشيطان ولذلك قال تعالى فى صفة جهنم طلعها كأنه رؤس الشياطين وذلك لما ذكرنا انه تقرر فى الطباع أن أقبح الاشياء هو الشيطان فكذا ههنا تقرر فى الطباع أن أحسن الاحياء هو الملك فلما أرادت النسوة المبالغة فى وصف يوسف عليه السلام بالحسن لاجرم شبهنه بالملك ( والوجه الثانى ) وهو الاقرب عندى ان المشهور عند الجمهور ان الملائكة مطهرون عن بواعث الشهوة وجواذب الغضب ونوازع الوهم والخيال فطعامهم توحيد الله تعالى وشرابهم الثناء على الله تعالى ثم ان النسوة لما رأين يوسف عليه السلام لم يلتفت اليهن البتة ورأين عليه

---

هريرة رضى الله عنه وقال صحيح على شرط الشيخين وذكر كونه من اهلها لبيان الواقع اذ لايختلف الحال فى هذه الصورة بين كون الشاهد من اهلها او من غيرهم ( ان كان قميصه قد من قبل ) اى ان علم انه قد من قبل من قبل ونظيره ان احسنت الى فقد أحسنت اليك فيما قبل فان معناه ان تعتد باحسانك الى فاعتد باحسانى السابق اليك ( فصدقت ) بتقدير قد لانها تقرب الماضى الى الحال اى فقد صدقت وكذا الحال فى قوله فكذبت وهى وان لم تصرح بأنه عليه السلام اراد بها سوأ الا أن كلامها حيث كان واضح الدلالة عليه اسند اليها الصدق والكذب بذلك الاعتبار فانهما كما يعرضان للكلام باعتبار منطوقه يعرضان له باعتبار مايستلزمه وبذلك الاعتبار يعترضان للانشاآت ( وهو من الكاذبين ) وهذه الشرطية حيث لاملازمة عقلية ولاعادية بين مقدمها وتاليها ليست من الشهادة فى شئ وانما ذكرت توسيعا للدائرة وارخاء للعنان الى جانب المرأة باجراء ماعسى يحتمله الحال فى الجملة بأن يقع القد من قبل بمدافعتها له عليه السلام عن نفسها عند ارادته المخالطة والتكشف مجرى الظاهر الغالب الوقوع تقريبا لما هو المقصود باقامة الشهادة اعنى مضمون الشرطية الثانية التى هى قوله عزوجل ( وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ) الى التسليم والقبول عند السامع لكونه أقرب الى الوقوع وادل على المطلوب وان لم يكن بين طرفيها ايضا ملازمة وحكاية الشرطية بعد فعل الشهادة لكونها من قبيل الاقوال او بتقدير القول اى شهد قائلا الخ وتسميتها شهادة مع انه لاحكم فيها بالفعل بالصدق والكذب لتأديتها مؤداها بل لانها شهادة على الحقيقة وحكم

هيئة النبوة وهيئة الرسالة وسيما الطهارة قلن انا ما رأينا فيه أثرا من أثر الشهوة ولا شيئا من البشرية ولا صفة من الانسانية فهذا قد تطهر عن جميع الصفات المغروزة في البشر وقد ترقى عن حد الانسانية ودخل في الملكية فان قالوا فان كان المراد ما ذكرتم فكيف تمهد عذر تلك المرأة عند النسوة فالجواب قد سبق والله اعلم ( المسئلة الخامسة ) القائلون بأن الملك أفضل من البشر احتجوا بهذه الآية فقالوا لاشك أنهن انما ذكرن هذا الكلام في معرض تعظيم يوسف عليه السلام فوجب أن يكون اخراجه من البشرية وادخاله في الملكية سبب التعظيم شأنه واعلاء مرتبته وانما يكون الامر كذلك لو كان الملك أعلى حالا من البشر ثم نقول لا يخلو اما أن يكون المقصود بيان كمال حاله في الحسن الذي هو الخلق الظاهر أو كمال حاله في الحسن الذي هو الخلق الباطن والاول باطل لوجهين ( الاول ) انهم وصفوه بكونه كريما وانما يكون كريما بسبب الاخلاق الباطنة لا بسبب الخلقة الظاهرة ( والثاني ) انا نعلم بالضرورة ان وجه الانسان لا يشبه وجوه الملائكة البتة اما كونه بعيدا عن الشهوة والغضب معرضا عن اللذات الجسمانية متوجها الى عبودية الله تعالى مستغرق القلب والروح فيه فهو أمر مشترك فيه بين الانسان الكامل وبين الملائكة واذا ثبت هذا فنقول تشبيه الانسان بالملك في الامر الذي حصلت المشابهة فيه على سبيل الحقيقة أولى من تشبيهه بالملك فيما لم تحصل المشابهة فيه البتة فثبت أن تشبيه يوسف عليه السلام بالملك في هذه الآية انما وقع في الخلق الباطن لا في الصورة الظاهرة وثبت أنه متى كان الامر كذلك وجب أن يكون الملك أعلى حالا من الانسان في هذه الفضائل فثبت ان الملك أفضل من البشر والله أعلم (المسئلة السادسة) لغة أهل الحجاز اعمال ما عمل ليس وبها ورد قوله ماهذا بشرا ومنها قوله ماهن أمهاتهم ومن قرأ على لغة بني تميم قرأ ماهذا بشر وهي قراءة ابن مسعود وقرئ ماهذا بشرا أي ماهو بعبد مملوك للبشر ان هذا الا ملك كريم ثم تقول ماهذا بشرا أي حاصل بشرا بمعنى هذا مشترى وتقول هذا لك بشرا أم بكرا والقراءة المعتبرة هي الاولى لموافقتها المصحف ولمقابلة البشر للملك * قوله تعالى ( قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ) اعلم أن النسوة لما قلن في امرأة العزيز قد شغفها حبا انا لنراها في ضلال مبين عظم ذلك عليها فجمعتهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن فعند ذلك ذكرت انهن باللوم أحق لانهن بنظرة واحدة لحقهن أعظم مما نالها مع انه طال مكثه عندها فان قيل فلم قالت فذلكن مع ان يوسف عليه السلام كان حاضرا ( والجواب ) عنه من وجوه ( الاول ) قال ابن الانباري أشارت بصيغة ذلكن الى يوسف بعد انصرافه من المجلس ( والثاني ) وهو الذي ذكره صاحب الكشاف وهو أحسن ماقيل ان النسوة كن يقلن انها عشقت عبدها الكنعاني فلما رأينه ووقعن في تلك الدهشة قالت هذا الذي رأيتنه هو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتنني

---

بصدقه وكذبها اما على تقدير كون الشاهد هو الصبي فظاهر  اذ هو اخبار بهما من قبل علام الغيوب والتصوير بصورة الشرطية للايذان بأن ذلك ظاهر من العلائم ايضا واما على تقدير كونه غيره فلأن الظاهر ان صورة الحال معلومة له على ماهي عليه اما مشاهدة او اخبارا فهو متيقن بعدم مقدم الشرطية الاولى وبوجود مقدم الشرطية الثانية ومن ضرورته الجزم بانتفاء تالي الاولى وبوقوع تالي الثانية فاذن هو اخبار بكذبها وصدقه عليه السلام لكنه ساق شهادته مساقا مأمونا من الجرح والطعن حيث صورها بصورة الشرطية المترددة ظاهرا بين نفعها ونفعه واما حقيقة فلا تردد فيها قطعا لان الشرطية الاولى تعليق لصدقها بما يستحيل وجوده من قد القميص من قبل فيكون محالا لا محالة ومن ضرورة تقرر كذبها والثانية تعليق لصدقه عليه السلام بأمر محقق الوجود وهو القد من دبر فيكون محققا البتة وهذا كما قيل فيمن قال لامرأة تزوجيني نفسك فقالت لي زوج فكذبها في ذلك فقالت ان لم يكن لي زوج فقد زوجتك نفسي فقبل الرجل فاذا لا زوج لها فهو نكاح اذ تعليق الشئ بأمر مقرر تنجيز له وقرئ من قبل ومن دبر بالضم لانهما قطعا عن الاضافة كقبل وبعد وبالفتح كأنهما جعلا علمين للجهتين فمنعا الصرف للتأنيث والعلمية وقرئ بسكون العين (فلما رأى قميصه قد من دبر) كأنه لم يكن رأى ذلك بعد أو لم يتدبره فلما تنبه له وعلم حقيقة الحال ( قال انه ) اى الامر الذي وقع فيه التشاجر وهو عبارة عن ارادة السوء التي أسندت الى يوسف وتدبير عقوبته بقولها ماجزاء من اراد بأهلك سوأ الى آخره لكن لامن حيث ( فيه )

فيه يعنى انكن لم تصورنه حق تصوره ولو حصلت فى خيالكن صورته لتركتن هذه الملامة واعلم انها لما أظهرت عذرها عند النسوة فى شدة محبتها له كشفت عن حقيقة الحال فقالت ولقد راودته عن نفسه فاستعصم واعلم ان هذا تصريح بأنه عليه السلام كان بريئا عن تلك التهمة وعن السدى أنه قال فاستعصم بعد حل السراويل وما الذى يحمله على الحاق هذه الزيادة الفاسدة الباطلة بنص الكتاب ثم قال ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين والمراد يوسف عليه السلام ان لم يوافقها على مرادها يوقع فى السجن وفى الصغار ومعلوم ان التوعد بالصغار له تأثير عظيم فى حق من كان رفيع النفس عظيم الخطر مثل يوسف عليه السلام وقوله وليكونا كان حمزة والكسائى يقفان على وليكونا بالالف وكذلك قوله لنسفعا والله أعلم ❊ قوله تعالى (قال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم) واعلم ان المرأة لما قالت ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين وسائر النسوة سمعهن هذا التهديد فالظاهر انهن اجتمعن على يوسف عليه السلام وقلن لا مصلحة لك فى مخالفة أمرها والا وقعت فى السجن وفى الصغار فعند ذلك اجتمع فى حق يوسف عليه السلام أنواع من الوسوسة (أحدها) ان زليخا كانت فى غاية الحسن (والثانى) انها كانت ذات مال وثروة وكانت على عزم ان تبذل الكل ليوسف بتقدير ان يساعدها على مطلوبها (والثالث) ان النسوة اجتمعن عليه وكل واحدة منهن كانت ترغبه ويخوفه بطريق آخر ومكر النساء فى هذا الباب شديد (والرابع) انه عليه السلام كان خائفا من شرها واقدامها على قتله واهلاكه فاجتمع فى حق يوسف جميع جهات الترغيب على موافقتها وجميع جهات التخويف على مخالفتها فخاف عليه السلام ان تؤثر هذه الاسباب القوية الكثيرة فيه واعلم ان القوة البشرية والطاقة الانسانية لا تفى بحصول هذه العصمة القوية فعند هذا التجأ الى الله تعالى وقال رب السجن احب الى مما يدعوننى اليه وقرئ السجن بالفتح على المصدر وفيه سؤالان (السؤال الاول) السجن فى غاية المكروهية وما دعونه اليه فى غاية المطلوبية فكيف قال المشقة احب الى من اللذة (والجواب) ان تلك اللذة كانت تستعقب آلاما عظيمة وهى الذم فى الدنيا والعقاب فى الآخرة وذلك المكروه وهو اختيار السجن كان يستعقب سعادات عظيمة وهى المدح فى الدنيا والثواب الدائم فى الآخرة فلهذا السبب قال السجن احب الى مما يدعوننى اليه (السؤال الثانى) ان حبسهم له معصية كما ان الزنا معصية فكيف يجوز ان يحب السجن مع انه معصية (والجواب) تقدير الكلام انه اذا كان لا بد من التزام احد الامرين اعنى الزنا والسجن فهذا اولى لانه متى وجب التزام احد شيئين كل واحد منهما شر فاخفهما اولاهما بالتحمل ثم قال والا تصرف عنى كيدهن اصب اليهن وأكن من الجاهلين اصب اليهن امل اليهن يقال صبا الى اللهو يصبو صبوا اذا مال واحتج اصحابنا

صدور تلك الارادة والاسناد عنها ( ١٨٥ ) بل مع قطع النظر عن ذلك لئلا يخلو قوله تعالى (من كيدكن) اى من جنس حيلتكن ومكركن أيتها النساء لا من غيركن عن الافادة وتدبير العقوبة وان لم يمكن تجريده عن الاضافة اليها الا انها لما صورته بصورة الحق افاد الحكم بكونه من كيدهن افادة ظاهرة فتأمل وتعميم الخطاب للتنبيه على ان ذلك خلق لهن عريق

ولا تحسبا هندا لها الغدر وحدها
سجية نفس كل غانية هند

ورجع الضمير الى قولها ما جزاء من اراد بأهلك سوأ فقط عدول عن البحث عن اصل ما وقع فيه النزاع من ان ارادة السوء ممن هى الى البحث عن شعبة من شعبه وجعله للسوء او للامر المعبر به عن طمعها فى يوسف عليه السلام يأباه الخبر فان الكيد يستدعى ان يعتبر مع ذلك هنات أخر من قبلها كما اشرنا اليه (ان كيدكن عظيم) فانه الطف وأعلق بالقلب واشد تأثيرا فى النفس وعن بعض العلماء انى اخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان فانه تعالى يقول ان كيد الشيطان كان ضعيفا وقال للنساء ان كيدكن عظيم ولان الشيطان يوسوس مسارقة وهن يواجهن به الرجال (يوسف) حذف منه حرف النداء لقربه وكمال تفطنه للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله (اعرض عن هذا) اى عن هذا الامر وعن التحديث به واكتمه فقد ظهر صدقك ونزاهتك (واستغفرى) انت يا هذه (لذنبك) الذى صدر عنك وثبت عليك (انك كنت) بسبب ذلك (من الخاطئين) من جملة القوم المتعمدين للذنب او من جنسهم يقال خطئ اذا اذنب عمدا وهو تعليل للامر بالاستغفار والتذكير لتغليب الذكور على الاناث وكان العزيز رجلا حليما ( ٢٤ ) ( را ) ( خا ) فاكتفى بهذا القدر من مؤاخذتها وقيل كان قليل

بهذه الآية على ان الانسان لا ينصرف عن المعصية الا اذا صرفه الله تعالى عنها قالوا لان هذه الآية تدل على انه تعالى ان لم يصرفه عن ذلك القبيح وقع فيه وتقريره ان القدرة والداعى الى الفعل والترك ان استويا امتنع الفعل لان الفعل رجحان لاحد الطرفين ومرجوحية للطرف الآخر وحصولهما حال استواء الطرفين جمع بين النقيضين وهو محال وان حصل الرجحان فى أحد الطرفين فذلك الرجحان ليس من العبد والالذهبت المراتب الى غير النهاية بل هو من الله تعالى فالصرف عبارة عن جعله مرجوحا لانه متى صار مرجوحا صار ممتنع الوقوع لان الوقوع رجحان فلو وقع حال المرجوحية لحصل الرجحان حال حصول المرجوحية وهو يقتضى حصول الجمع بين النقيضين وهو محال فثبت بهذا ان انصراف العبد عن القبيح ليس الا من الله تعالى وتوجهه الى الطاعة ليس الا من الله تعالى ويمكن تقرير هذا الكلام من وجه آخر وهو انه كان قد حصل فى حق يوسف عليه السلام جميع الاسباب المرغبة فى تلك المعصية وهو الانتفاع بالمال والجاه والتمتع بالمنكوح والمطعوم وحصل فى الاعراض عنها جميع الاسباب المنفرة ومتى كان الامر كذلك فقد قويت الدواعى فى الفعل وضعفت الدواعى فى الترك فطلب من الله سبحانه وتعالى ان يحدث فى قلبه انواعا من الدواعى المعارضة النافية لدواعى المعصية اذ لو لم يحصل هذا المعارض لحصل المرجح للوقوع فى المعصية خاليا عما يعارضه وذلك يوجب وقوع الفعل وهو المراد بقوله اصب اليهن واكن من الجاهلين ❊ قوله تعالى ( ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ودخل معه السجن فتيان قال احدهما انى ارانى اعصر خمرا وقال الآخر انى أرانى احمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان زوج المرأة لما ظهر له براءة ساحة يوسف عليه السلام فلا جرم لم يتعرض له فاحتالت المرأة بعد ذلك بجميع الحيل حتى تحمل يوسف عليه السلام على موافقتها على مرادها فلم يلتفت يوسف اليها فلما أيست منه احتالت فى طريق آخر وقالت لزوجها ان هذا العبد العبرانى فضحنى فى الناس يقول لهم انى راودته عن نفسه وأنا لا اقدر على اظهار عذرى فأما ان تأذن لى فأخرج واعتذر واما ان تحبسه كما حبستنى فعند ذلك وقع فى قلب العزيز ان الاصلح حبسه حتى يسقط عن السنة الناس ذكر هذا الحديث وحتى تقل الفضيحة فهذا هو المراد من قوله ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين لان البداء عبارة عن تغير الرأى عما كان عليه فى الاول والمراد من الآيات براءته بقد القميص من دبر وخمش الوجه والزام الحكيم اياها بقوله انه من كيدكن ان كيدكن عظيم وذكرنا انه ظهرت هناك انواع اخر من الآيات بلغت مبلغ القطع ولكن القوم سكتوا عنها سعيا فى اخفاء الفضيحة ( المسئلة الثانية ) قوله بدا لهم فعل وفاعله فى هذا الموضع قوله ليسجننه وظاهر هذا الكلام يقتضى اسناد الفعل الى فعل آخر الا ان النحويين اتفقوا على ان اسناد الفعل الى الفعل لا يجوز فاذا قلت خرج ضرب

صاحب السجن وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقى كتأنيث اللمة وهى لجماعة النساء والثبة وهى اسم لجماعة الرجال ولذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث ( فى المدينة ) ظرف لقال اى اشعن الامر فى مصر اوصفة لنسوة (امرأة العزيز) اى الملك يردن قطفير واضافتهن لها اليه بذلك العنوان دون ان يصرحن باسمها واسمه ليست الا لقصد المبالغة فى اشاعة الخبر بحكم ان النفوس الى سماع اخبار ذوى الاخطار اميل كما قيل اذ ليس مرادهن تفضيح العزيز بل هى لقصد الاشباع فى لومها بقولهن (تراود فتاها) اى تطالبه بمواقعته لها وتتمحل فى ذلك وتخادعه (عن نفسه) وقيل تطلب منه الفاحشة وايثارهن لصيغة المضارع للدلالة على دوام المراودة والفتى من الناس الشاب واصله فتى لقولهم فتيان والفتوة شاذة وجمعه فتية وفتيان ويستعار للمملوك وهو المراد ههنا وفى الحديث لا يقل احدكم عبدى وامتى وليقل فتاى وفتاتى وتعبيرهن عن يوسف عليه السلام بذلك مضافا اليها لا الى العزيز الذى لا تستلزم الاضافة اليه الهوان بل ربما يشعر بنوع عزة لابانة ما بينهما من التباين البين الناشى عن المالكية والمملوكية وكل ذلك لتربية ما مر من المبالغة والاشباع فى اللوم فان من لازوج لها من النساء اولها زوج دنى قد تعذر فى مراودة الاخدان لا سيما اذا كان فيهم علو الجناب واما التى لها زوج واى زوج عزيز مصر فرا ودتها لغيره لا سيما لعبدها الذى لا كفاءة بينها وبينه اصلا وتماديها فى ذلك غاية الغى ونهاية الضلال (قد شغفها حبا) اى شق حبه شغاف قلبها وهو حجابه ( لم يفد )

لم يفد البتة فعند هذا قالوا تقدير الكلام ثم بدا لهم سجنه الا انه اقيم هذا الفعل مقام ذلك الاسم واقول الذوق يشهد بان جعل الفعل مخبرا عنه لا يجوز وليس لاحد ان يقول الفعل خبر فجعل الخبر مخبرا عنه لا يجوز لانا نقول الاسم قد يكون خبرا كقولك زيد قائم فقائم اسم وخبر فعلمنا ان كون الشئ خبرا لا ينافي كونه مخبرا عنه بل نقول في هذا المقام شكوك ( احدها ) انا اذا قلنا ضرب فعل فالمخبر عنه بانه فعل هو ضرب فالفعل صار مخبرا عنه فأن قالوا المخبر عنه هو هذه الصيغة وهي اسم فنقول فعلى هذا التقدير يلزم ان يكون المخبر عنه بأنه فعل اسم لا فعل وذلك كذب وباطل بل نقول المخبر عنه بانه فعل ان كان فعلا فقد ثبت ان الفعل يصح الاخبار عنه وان كان اسما كان معناه انا أخبرنا عن الاسم بانه فعل ومعلوم انه باطل وفي هذا الباب مباحث عميقة ذكرناها في كتب المعقولات ( المسئلة الثالثة ) قال اهل اللغة الحين وقت من الزمان غير محدود يقع على القصير منه وعلى الطويل وقال ابن عباس يريد الى انقطاع المقالة وماشاع في المدينة من الفاحشة ثم قيل الحين ههنا خمس سنين وقيل بل سبع سنين وقال مقاتل بن سليمان حبس يوسف اثنتي عشرة سنة والصحيح ان هذه المقادير غير معلومة وانما القدر المعلوم انه بقي محبوسا مدة طويلة لقوله تعالى وادكر بعد امة اما قوله تعالى ودخل معه السجن فتيان فههنا محذوف والتقدير لما ارادوا حبسه حبسوه وحذف ذلك لدلالة قوله ودخل معه السجن فتيان عليه قيل هما غلامان كانا للملك الاكبر بمصر احدهما صاحب طعامه والآخر صاحب شرابه رفع اليه ان صاحب طعامه يريد ان يسمه وظن ان الآخر يساعده عليه فأمر بحبسهما بقي في الآية سؤالات ( الاول ) كيف عرفا انه عليه السلام عالم بالتعبير ( والجواب ) لعله عليه السلام سألهما عن حزنهما وغمهما فذكرا انا رأينا في المنام هذه الرؤيا ويحتمل انهما رأياه وقد اظهر معرفته بامور منها تعبير الرؤيا فعند هاذكرا له ذلك ( السؤال الثاني ) كيف عرف انهما كانا عبدين للملك ( والجواب ) لقوله فيسقي ربه خمرا اي مولاه ولقوله اذكرني عند ربك ( السؤال الثالث ) كيف عرف ان احدهما كان صاحب شراب الملك والآخر صاحب طعامه ( والجواب ) رؤيا كل واحد منهما تناسب حرفته لان احدهما رأى انه يعصر الخمر والآخر كأنه يحمل فوق رأسه خبزا ( السؤال الرابع ) كيف وقعت رؤية المنام ( والجواب ) فيه قولان ( الاول ) ان يوسف عليه السلام لما دخل السجن قال لاهله اني أعبر الاحلام فقال احد الفتيين هلم فلنختبر هذا العبد العبراني برؤيا نخترعها له فسألاه من غير ان يكونا رأيا شيئا قال ابن مسعود ما كانا رأيا شيئا وانما تحالما ليختبرا علمه ( والقول الثاني ) قال مجاهد كانا قد رأيا حين دخلا السجن رؤيا فأتيا يوسف عليه السلام فسألاه عنها فقال الساقي ايها العالم اني رأيت كأني في بستان فاذا بأصل عنبة حسنة فيها ثلاثة اغصان عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وكان كأس الملك بيدي فعصرتها فيه وسقيتها الملك فشربه فذلك قوله اني أراني اعصر خمرا وقال صاحب الطعام اني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها خبز وألوان الاطعمة

اوجلدة رقيقة يقال لها لسان القلب حتى وصل الى فؤادها وقرئ شعفها بالعين من شعف البعير اذا هنأه فأحرقه بالقطران وعن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما الشغف الحب القاتل والشعف حب دون ذلك وكان الشعبي يقول الشغف حب والشعف جنون والجملة خبر ثان او حال من فاعل تراود او من مفعوله واياما كان فهو تكرير للوم وتأكيد للعذل ببيان اختلال احوالها القلبية كاحوالها القالبية وجعلها تعليل لدوام المراودة من حيث الانية مصير الى الاستدلال على الاجلى بالاخفى ومن حيث اللمية ميل الى تمهيد العذر من قبلها ولسن بذلك المقام وانتصاب حبا على التمييز لنقله عن الفاعلية اذ الاصل قد شغفها حبه كما اشير اليه ( انا لنراها ) اى نعلمها علما متاخما للمشاهدة والعيان فيما صنعت من المراودة والمحبة المفرطة مستقرة ( في ضلال ) عن طريق الرشد والصواب او عن سنن العقل ( مبين ) واضح لا يخفى كونه ضلالا على احد او مظهر لامرها بين الناس فالجملة مقررة لمضمون الجملتين السابقتين المسوقتين للوم والتشنيع وتسجيل عليها بأنها في امرها على خطأ عظيم وانما لم يقلن انها لفي ضلال مبين اشعارا بأن ذلك الحكم غير صادر عنهن مجازفة بل عن علم ورأي مع التلويح بأنهن متنزهات عن امثال ماهي عليه ( فلما سمعت بمكرهن ) باغتيابهن وسوء قالتهن وقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني وهو مقتها وتسميته مكرا لكونه خفية منها كمكر الماكر وان كان ظاهرا لغيرها وقيل استكتمتهن سرها فأفشينه عليها وقيل انما قلن ذلك لتريهن يوسف عليه السلام ( ارسلت اليهن ) تدعوهن قيل دعت اربعين امرأة منهن الخمس المذكورات ( واعتدت ) اى احضرت وهيأت ( لهن متكأ ) اى ما يتكئن

و اذا سباع الطير تنهش منه فذلك قوله تعالى وقال الآخر انى أرانى احمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه ( السؤال الخامس ) كيف عرف يوسف عليه السلام ان المراد من قوله انى ارانى أعصر خمرا رؤيا المنام (الجواب) لوجوه (الاول) انه لو لم يقصد النوم كان ذكر قوله اعصر يغنيه عن ذكر قوله ارانى ( والثانى) دل عليه قوله نبئنا بتأويله (السؤال السادس ) كيف يعقل عصر الخمر (الجواب) فيه ثلاثة أقوال (احدها) ان يكون المعنى اعصر عنب خمر أى العنب الذى يكون عصيره خمرا فحذف المضاف ( الثانى) ان العرب تسمى الشىء باسم مايؤل اليه اذا انكشف المعنى ولم يلتبس يقولون فلان يطبخ دبسا وهو يطبخ عصيرا ( والثالث ) قال ابو صالح اهل عمان يسمون العنب بالخمر فوقعت هذه اللفظة الى اهل مكة فنطقوا بها قال الضحاك نزل القرآن بألسنة جميع العرب ( السؤال السابع ) مامعنى التأويل فى قوله نبئنا بتأويله ( الجواب) تأويل الشىء مايرجع اليه وهو الذى يؤل اليه آخر ذلك الامر ( السؤال الثامن ) ماالمراد من قوله انا نراك من المحسنين (الجواب) من وجوه ( الاول ) معناه انا نراك تؤثر الاحسان وتأتى بمكارم الاخلاق وجميع الافعال الحميدة قيل انه كان يعود مرضاهم ويؤنس حزينهم فقالوا انك من المحسنين اى فى حق الشركاء والاصحاب وقيل انه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة فقالوا انك من المحسنين فى امر الدين ومن كان كذلك فانه يوثق بما يقوله فى تعبير الرؤيا وفى سائر الامور وقيل المراد انا نراك من المحسنين فى علم التعبير وذلك لانه متى عبر لم يخط كما قال وعلمتنى من تأويل الاحاديث ( السؤال التاسع ) ما حقيقة علم التعبير ( الجواب ) القرآن والبرهان يدلان على صحته اما القرآن فهو هذه الآية واما البرهان فهو انه قد ثبت انه سبحانه خلق جوهر النفس الناطقة بحيث يمكنها الصعود الى عالم الافلاك ومطالعة اللوح المحفوظ والمانع لها من ذلك اشتغالها بتدبير البدن وفى وقت النوم يقل هذا التشاغل فتقوى على هذه المطالعة فاذا وقعت الروح على حالة من الاحوال تركت آثارا مخصوصة مناسبة لذلك الادراك الروحانى الى عالم الخيال فالمعبر يستدل بتلك الآثار الخيالية على تلك الادراكات العقلية فهذا كلام مجمل وتفصيله مذكور فى الكتب العقلية والشريعة مؤكدة له روى عن النبى عليه السلام انه قال الرؤيا ثلاثة رؤيا مايحدث به الرجل نفسه ورؤيا تحدث من الشيطان ورؤيا التى هى الرؤيا الصادقة حقة وهذا تقسيم صحيح فى العلوم العقلية وقال عليه السلام رؤيا الرجل الصالح جزء من ستة واربعين جزأ من النبوة ❁ قوله عز وجل (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب ما كان لنا ان نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون ) فى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) اعلم ان المذكور فى هذه الآية ليس بجواب لما سألاه عنه فلا بد ههنا من بيان الوجه الذى لاجله عدل عن ذكر الجواب الى هذا

الرجل ان يأكل متكئا وقيل متكأ طعاما من قولهم اتكأنا عند فلان اى طعمنا قال جميل
فظللنا بنعمة واتكأنا
وشربنا الحلال من قلله
وعن مجاهد متكأ طعاما يحز حزا كأن المعنى يعتمد بالسكين عند القطع لان القاطع يتكئ على المقطوع بالسكين وقرئ بغير همز وقرئ بالمد باشباع حركة الكاف كمنتزاح فى منتزح وينباع فى ينبع وقرئ متكا وهو الاترج وانشدوا * واهدت متكة لبنى أبيها
تخب بها العثمثمة الوقاح
اوما يقطع من متك الشىء اذا بتكه ومتكأ من تكى اذا اتكى (وآتت كل واحدة منهن سكينا ) لتستعمله فى قطع مايعهد قطعه مما قدم بين ايديهن وقرب اليهن من اللحوم والفواكه ونحوها وهن متكئات وغرضها من ذلك ماسيقع من تقطيع ايديهن ( وقالت ) ليوسف وهن مشغولات بمعالجة السكاكين واعمالها فيما بأيديهن من الفواكه واضرابها والعطف بالواو ربما يشير الى ان قولها (اخرج عليهن) اى ابرز لهن لم يكن عقيب ترتيب امور هن ليتم غرضها من استغفالهن ( فلما رأينه ) عطف على مقدر يستدعيه الامر بالخروج وينسحب عليه الكلام اى فخرج عليهن فرأينه وانما حذف تحقيقا لمفاجأة رؤيتهن كأنها فوت عند ذكر خروجه عليهن كما حذف لتحقيق السرعة فى قوله عز وجل فلما رآه مستقرا عنده بعد قوله انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك وفيه ايذان بسرعة امتثاله عليه السلام بامرها
فيما لا يشاهد بحضرته من الافاضيل ( اكبرنه ) عظمنه وهبن حسنه الفائق وجماله الرائع الرائق فان فضل جماله على جمال كل جميل ( الكلام )

الكلام والعلماء ذكروا فيه وجوها (الاول) انه لما كان جواب احد السائلين انه يصلب ولاشك انه متى سمع ذلك عظم حزنه وتشدد نفرته عن سماع هذا الكلام فرأى ان الصلاح ان يقدم قبل ذلك مايؤثر معه بعلمه وكلامه حتى اذا جاء بهما من بعد ذلك خرج جوابه عن ان يكون بسبب تهمة وعداوة (الثانى) لعله عليه السلام اراد ان يبين ان درجته فى العلم اعلى واعظم مما اعتقدوا فيه وذلك لانهم طلبوا منه علم التعبير ولاشك ان هذا العلم مبنى على الظن والتخمين فبين لهما انه يمكنه الاخبار عن الغيوب على سبيل القطع واليقين مع عجز كل الخلق عنه واذا كان الامر كذلك فبأن يكون فائقا على كل الناس فى علم التعبير كان اولى فكان المقصود من ذكر تلك المقدمة تقرير كونه فائقا فى علم التعبير واصلا فيه الى مالم يصل غيره (الثالث) قال السدى لايأتيكما طعام ترزقانه فى النوم بين بذلك ان علمه بتأويل الرؤيا ليس بمقصور على شئ دون غيره ولذلك قال الانبأتكما بتأويله (الرابع) لعله عليه السلام لما علم انهما اعتقدا فيه وقبلا قوله فاورد عليهما مادل على كونه رسولا من عند الله تعالى فان الاشتغال باصلاح مهمات الدين اولى من الاشتغال بمهمات الدنيا (الخامس) لعله عليه السلام لما علم ان ذلك الرجل سيصلب اجتهد فى ان يدخله فى الاسلام حتى لايموت على الكفر ولايستوجب العقاب الشديد وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة (السادس) قوله لايأتيكما طعام ترزقانه الانبأتكما بتأويله محمول على اليقظة والمعنى انه لايأتيكما طعام ترزقانه الا اخبرتكما اى طعام هو واى لون هو وكم هو وكيف يكون عاقبته اى اذا اكله الانسان فهو يفيد الصحة او السقم وفيه وجه آخر قيل كان الملك اذا اراد قتل انسان صنع له طعاما مسموما فارسله اليه فقال يوسف لايأتيكما طعام الا اخبرتكما ان فيه سما ام لا هذا هو المراد من قوله لايأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله وحاصله راجع الى انه ادعى الاخبار عن الغيب وهو يجرى مجرى قول عيسى عليه السلام وأنبئكم بما تأكلون وماتدخرون فى بيوتكم فالوجوه الثلاثة الاول لتقرير كونه فائقا فى علم التعبير والوجوه الثلاثة الاخر لتقرير كونه نبيا صادقا من عند الله تعالى فان قيل كيف يجوز حمل الآية على ادعاء المعجزة مع انه لم يتقدم ادعاء النبوة قلنا انه وان لم يذكر ذلك لكن يعلم انه لابد وان يقال انه كان قد ذكره وايضا ففى قوله ذلكما مما علمنى ربى وفى قوله واتبعت ملة ابائى مايدل على ذلك قال تعالى ذلكما مما علمنى ربى اى لست اخبركما على جهة الكهانة والنجوم وانما اخبرتكما بوحى من الله وعلم حصل بتعليم الله ثم قال انى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لقائل ان يقول فى قوله انى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله توهم انه عليه السلام كان فى هذه الملة فنقول جوابه من وجوه (الاول) ان الترك عبارة عن عدم التعرض للشئ وليس من شرطه ان يكون قد كان خائضا فيه (والثانى) وهو الاصح ان يقال انه عليه السلام كان عبدالهم بحسب زعمهم واعتقادهم الفاسد ولعله قبل ذلك كان لايظهر التوحيد والايمان خوفا منهم على سبيل التقية ثم انه اظهره فى هذا الوقت

كان كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب * (١٨٩٠) عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر وقيل كان يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس على الماء وقيل معنى اكبرن حضن والهاء للسكت اوضمير راجع الى يوسف عليه السلام على حذف اللام اى حضن له من شدة الشبق كما قال المتنبى
خف الله واستر ذا الجمال ببرقع
فان لحت حاضت فى الخدور العواتق
(وقطعن ايديهن) اى جرحنها بما فى ايديهن من السكاكين لفرط دهشتهن وخروج حركات جوارحهن عن منهاج الاختيار والاعتياد حتى لم يعلمن مافعلن وفى التعبير عن الجرح بالقطع مالايخفى من الدلالة على كثرة جرحهن ومع ذلك لم يبالين بذلك ولم يشعرن به (وقلن حاش لله) تنزيها له سبحانه عن صفات النقص والعجز وتعجبا من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع واصله حاشا كما قرأه ابو عمرو فى الدرج فحذفت الفه الاخيرة تخفيفا وهو حرف جر يفيد معنى التنزيه فى باب الاستثناء فلايستثنى به الامايكون موجبا للتنزيه فوضع موضعه فمعنى حاشا الله تنزيه الله وبراءة الله وهى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه واللام لبيان المنزه والمبرأ كما فى سقيالك والدليل على وضعه موضع المصدر قراءة ابى السماء حاشا بالتنوين وقراءة ابى عمرو بحذف الالف الاخيرة وقراءة الاعمش بحذف الاولى فان التصرف من خصائص الاسم فيدل على تنزيله منزلته وعدم التنوين لمراعاة اصله كما فى قولك جلست من عن يمينه وقوله غدت من عليه منقلب الالف الى الياء مع الضمير وقرئ حاش لله بسكون الشين اتباعا للفتحة الالف فى الاسقاط وحاش الاله وقيل حاشا فاعل من الحشا الذى هو الناحية وفاعله ضمير يوسف

اى صار فى ناحية من ان يقارف مارمته به لله اى لطاعته او لمكانه او جانب المعصية  لاجل الله ( ماهذا بشرا ) على اعمال ما يعنى

فكان هذا جاريا مجرى ترك ملة اولئك الكفرة بحسب الظاهر (المسئلة الثانية) تكرير لفظ هم فى قوله وهم بالآخرة هم كافرون لبيان اختصاصهم بالكفر ولعل انكارهم للمعاد كان اشد من انكارهم للمبدأ فلاجل مبالغتهم فى انكار المعاد كرر هذا اللفظ للتأكيد * واعلم ان قوله انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله اشارة الى علم المبدأ وقوله وهم بالآخرة هم كافرون اشارة الى علم المعاد ومن تأمل فى القرآن المجيد وتفكر فى كيفية دعوة الانبياء عليهم السلام علم ان المقصود من ارسال الرسل وانزال الكتب صرف الخلق الى الاقرار بالتوحيد وبالمبدأ والمعاد وان ماوراء ذلك عبث ثم قال تعالى واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحاق ويعقوب وفيه سؤالات (السؤال الاول) ما الفائدة فى ذكر هذا الكلام (الجواب) انه عليه السلام لما ادعى النبوة وتحدى بالمعجزة وهو علم الغيب قرن به كونه من اهل بيت النبوة وان اباه وجده وجد أبيه كانوا انبياء الله ورسله فان الانسان متى ادعى حرفة ابيه وجده لم يستبعد ذلك منه وايضا فكما ان درجة ابراهيم عليه السلام واسحق ويعقوب كان امرا مشهورا فى الدنيا فاذا ظهر انه ولدهم عظموه ونظروا اليه بعين الاجلال فكان انقيادهم له اتم وتأثر قلوبهم بكلامه اكمل (السؤال الثانى) لما كان نبيا فكيف قال انى اتبعت ملة آبائى والنبى لابد وان يكون مختصا بشريعة نفسه قلنا لعل مراده التوحيد الذى لم يتغير وايضا لعله كان رسولا من عند الله الا انه كان على شريعة ابراهيم عليه السلام (السؤال الثالث) لم قال ما كان لنا ان نشرك بالله من شئ وحال كل المكلفين كذلك (والجواب) ليس المراد بقوله ما كان لنا انه حرم ذلك عليهم بل المراد انه تعالى طهر آباءه عن الكفر ونظيره قوله ما كان لله ان يتخذ من ولد (السؤال الرابع) ما الفائدة فى قوله من شئ (الجواب) ان اصناف الشرك كثيرة فمنهم من يعبد الاصنام ومنهم من يعبد النار ومنهم من يعبد الكواكب ومنهم من يعبد العقل والنفس والطبيعة فقوله ما كان لنا ان نشرك بالله من شئ رد على كل هؤلاء الطوائف والفرق وارشاد الى الدين الحق وهو انه لا موجد الا الله ولا خالق الا الله ولا رازق الا الله ثم قال ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس وفيه مسئلة وهى انه قال ما كان لنا ان نشرك بالله من شئ ثم قال ذلك من فضل الله فقوله ذلك اشارة الى ما تقدم من عدم الاشراك فهذا يدل على ان عدم الاشراك وحصول الايمان من الله ثم بين ان الامر كذلك فى حقه بعينه وفى حق الناس ثم بين ان اكثر الناس لا يشكرون ويجب ان يكون المراد انهم لا يشكرون الله على نعمة الايمان حكى ان واحدا من اهل السنة دخل على بشر بن المعتمر وقال هل تشكر الله على الايمان ام لا فان قلت لا فقد خالفت الاجماع وان شكرته فكيف تشكره على ماليس فعلاله فقال له بشر انا نشكره على انه تعالى اعطانا القدرة والعقل والآلة فيجب علينا ان نشكره على اعطاء القدرة والآلة فاما ان نشكره على الايمان مع ان الايمان ليس فعلاله فذلك باطل وصعب الكلام على بشر فدخل عليهم ثمامة بن الاشرس وقال انا لا نشكر الله على الايمان بل الله يشكرنا

ليس وهى لغة اهل الحجاز لمشاركتهما فى نفى الحال وقرئ بشر على لغة تميم وبشرى اى بعبد مشترى لئيم نفين عنه البشرية لما شاهدن فيه من الجمال العبقرى الذى لم يعهد مثاله فى البشر وقصر على الملكية بقولهن (ان هذا الا ملك كريم) بناء على ماركز فى العقول من ان لا حى احسن من الملك كما ركب فيها ان لا اقبح من الشيطان ولذلك لا يزال يشبه بهما كل متناه فى الحسن والقبح وغرضهن وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال ( قالت فذلكن ) الفاء فصيحة والخطاب للنسوة والاشارة الى يوسف بالعنوان الذى وصفنه به الآن من الخروج فى الحسن والجمال عن المراتب البشرية والاقتصار على الملكية فاسم الاشارة مبتدأ والموصول خبره والمعنى ان كان الامر كما قلتن فذلكن الملك الكريم النائى عن المراتب البشرية هو (الذى لمتننى فيه) اى عيرتننى فى الافتتان به حيث ربأن بمحلى بنسبتى الى العزيز ووضعتن قدره بكونه من المماليك اوبالعنوان الذى وصفنه به فيما سبق بقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانى فهو خبر لمبتدأ محذوف اى فهو ذلك العبد الكنعانى الذى صورتن فى انفسكن وقلتن فيه وفى ما قلتن فالآن قد علمتن من هو وما قولكن فينا واما ما يقال تعنى انكن لم تصورنه بحق صورته ولو صورتنه بما عاينتن لعذرتننى فى الافتتان به فلا يلائم المقام فان مرادها بدعوتهن وتمهيد ما مهدته لهن تبكيتهن وتنديمهن على ما صدر عنهن من اللوم وقد فعلت ذلك بما لا مزيد عليه وما ذكر من المقال لحق المعتذر قبل ظهور معذرته وقد قيل فى تعليل الملكية ان الجمع بين الجمال الرائق

عليه كما قال فأولئك كان سعيهم مشكورا فقال بشر لما صعب الكلام سهل* واعلم ان الذى الزمه ثمامة باطل بنص هذه الآية وذلك لانه تعالى بين ان عدم الاشراك من فضل الله ثم بين ان اكثر الناس لايشكرون هذه النعمة وانما ذكره على سبيل الذم فدل هذا على انه يجب على كل مؤمن ان يشكر الله تعالى على نعمة الايمان وحينئذ تقوى الحجة وتكمل الدلالة قال القاضى قوله ذلك ان جعلناه اشارة الى التمسك بالتوحيد فهو من فضل الله تعالى لانه انما حصل بألطافه وتسهيله ويحتمل ان يكون اشارة الى النبوة (والجواب) ان ذلك اشارة الى المذكور السابق وذاك هو ترك الاشراك فوجب ان يكون ترك الاشراك من فضل الله تعالى والقاضى يصرفه الى الالطاف والتسهيل فكان هذا تركا للظاهر واما صرفه الى النبوة فبعيد لان اللفظ الدال على الاشارة يجب صرفه الى اقرب المذكورات وهو ههنا عدم الاشراك * قوله تعالى ( ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ماتعبدون من دونه الا اسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله امر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لايعلمون ) فى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) قوله ياصاحبى السجن يريد ياصاحبى فى السجن ويحتمل ايضا انه لما حصلت مرافقتهما فى السجن مدة قليلة أضيفا اليه واذا كانت المرافقة القليلة كافية فى كونه صاحبا فمن عرف الله وأحبه طول عمره أولى بان يبقى عليه اسم المؤمن العارف المحب ( المسئلة الثانية ) اعلم أنه عليه السلام لما ادعى النبوة فى الآية الاولى وكان اثبات النبوة مبنيا على اثبات الالهيات لاجرم شرع فى هذه الآية فى تقرير الالهيات ولما كان أكثر الخلق مقرين بوجود الاله العالم القادر وانما الشأن فى انهم يتخذون أصناما على صورة الارواح الفلكية ويعبدونها ويتوقعون حصول النفع والضر منها لاجرم كان سعى أكثر الانبياء فى المنع من عبادة الاوثان فكان الامر على هذا القانون فى زمان يوسف عليه السلام فلهذا السبب شرع ههنا فى ذكر مايدل على فساد القول بعبادة الاصنام وذكر أنواعا من الدلائل والحجج (الحجة الاولى) قوله أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار وتقرير هذه الحجة أن نقول ان الله تعالى بين أن كثرة الآلهة توجب الخلل والفساد فى هذا العالم وهو قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فكثرة الآلهة توجب الفساد والخلل وكون الاله واحدا يقتضى حصول النظام وحسن الترتيب فلما قرر هذا المعنى فى سائر الآيات قال ههنا أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار والمراد منه الاستفهام على سبيل الانكار ( الحجة الثانية ) ان هذه الاصنام معمولة لاعاملة ومقهورة لاقاهرة فان الانسان اذا أراد كسرها وابطالها قدر عليها فهى مقهورة لاتأثير لها ولا يتوقع حصول منفعة ولا مضرة من جهتها واله العالم فعال قهار قادر يقدر على ايصال الخيرات ودفع الشرور والآفات فكان المراد أن عبادة الآلهة المقهورة الذليلة خير أم عبادة الله الواحد القهار فقوله أأرباب اشارة الى الكثرة فجعل

والكمال الفائق والعصمة البالغة من الخواص الملكية وهو  ايضا لا يلائم قولها فذلكن الذى لمتننى فيه فان عنوان العصمة مما ينافى تمشية مرامها ثم بعد ماأقامت عليهن الحجة واوضحت لديهن عذرها وقد اصابهن من قبله عليه السلام مااصابها باحت لهن ببقية سرها فقالت ( ولقد راودته عن نفسه ) حسبما قلتن وسمعتن ( فاستعصم ) امتنع طالبا للعصمة وهو بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه فى عصمة وهو يجتهد فى الاستزادة منها كما فى استمسك واستجمع الرأى وفيه برهان نير على انه لم يصدر عنه عليه السلام شئ مخل باستعصامه بقوله معاذ الله من الهم وغيره اعترفت لهن اولا بما كن يسمعنه من مراودتها له وأكدته اظهارا للابتهاج بها بذلك ثم زادت على ذلك انه اعرض عنها على ابلغ مايكون ولم يمل اليها قط ثم زادت عليه ايضا انها مستمرة على ما كانت عليه غير مرعوية عنه لابلوم العواذل ولا باعراض الحبيب فقالت ( ولئن لم يفعل ماآمره ) اى آمر به فيما سيأتى كما لم يفعل فيما مضى فحذف الجار واوصل الفعل الى الضمير كما فى أمرتك الخير فما لضمير للموصول اوامرى اياه اى موجب امرى ومقتضاه فما مصدرية والضمير ليوسف وعبرت عن مراودتها بالامر اظهارا لجريان حكومتها عليه واقتضاء للامتثال بأمرها ( ليسجنن ) بالنون المثقلة آثرت بناء الفعل للمفعول جريا على رسم الملوك اوايهاما لسرعة ترتب ذلك على عدم امتثاله لامرها كأنه لايدخل بينهما فعل فاعل (وليكونا) بالمخففة (من الصاغرين) اى الاذلاء فى السجن وقد قرئ الفعلان بالتثقيل ولكن المشهورة اولى لان النون كتبت فى المصحف الفا على حكم الوقف واللام الداخلة على حرف الشرط

فى مقابلته كونه تعالى واحدا وقوله متفرقون اشارة الى كونها مختلفة فى الكبر والصغر واللون والشكل وكل ذلك انما حصل بسبب ان الناحت والصانع يجعله على تلك الصورة فقوله متفرقون اشارة الى كونها مقهورة عاجزة وجعل فى مقابلته كونه تعالى قهارا فبهذا الطريق الذى شرحناه اشتملت هذه الآية على هذين النوعين الظاهرين ( الحجة الثالثة ) ان كونه تعالى واحدا يوجب عبادته لانه لو كان له ثان لم نعلم من الذى خلقنا ورزقنا ودفع الشرور والآفات عنا فيقع الشك فى أنا نعبد هذا أم ذاك وفيه اشارة الى مايدل على فساد القول بعبادة الاوثان وذلك لان بتقدير ان تحصل المساعدة على كونها نافعة ضارة الا انها كثيرة فحينئذ لانعلم ان نفعنا ودفع الضرر عنا حصل من هذا الصنم او من ذلك الآخر او حصل بمشاركتهما ومعاونتهما وحينئذ يقع الشك فى ان المستحق للعبادة هو هذا أم ذاك اما اذا كان المعبود واحدا ارتفع هذا الشك وحصل اليقين فى انه لا يستحق العبادة الا هو ولا معبود للمخلوقات والكائنات الا هو فهذا ايضا وجه لطيف مستنبط من هذه الآية ( الحجة الرابعة ) ان بتقدير ان يساعد على ان هذه الاصنام تنفع وتضر على مايقوله اصحاب الطلسمات الا انه لا نزاع فى انها تنفع فى أوقات مخصوصة وبحسب آثار مخصوصة والاله تعالى قادر على جميع المقدورات فهو قهار على الاطلاق نافذ المشيئة والقدرة فى كل الممكنات على الاطلاق فكان الاشتغال بعبادته أولى ( الحجة الخامسة ) وهى شريفة عالية وذلك لان شرط القهار أن لا يقهره أحد سواه وأن يكون هو قهارا لكل ماسواه وهذا يقتضى أن يكون الاله واجب الوجود لذاته اذ لو كان ممكنا لكان مقهورا لاقاهرا ويجب أن يكون واحدا اذ لو حصل فى الوجود واجبان لما كان قاهر الكل ماسواه فالاله لا يكون قهارا الا اذا كان واجبا لذاته وكان واحدا واذا كان المعبود يجب أن يكون كذلك فهذا يقتضى أن يكون الاله شيئا غير الفلك وغير الكواكب وغير النور والظلمة وغير العقل والنفس فأما من تمسك بالكواكب فهى أرباب متفرقون وهى ليست موصوفة بانها قهارة وكذا القول فى الطبائع والارواح والعقول والنفوس فهذا الحرف الواحد كاف فى اثبات هذا التوحيد المطلق وانه مقام عال فهذا مجموع الدلائل المستنبطة من هذه الآية بقى فيها سؤالان ( السؤال الاول ) لم سماها أربابا وليست كذلك ( والجواب ) لاعتقادهم فيها انها كذلك وايضا الكلام خرج على سبيل الفرض والتقدير والمعنى انها ان كانت اربابا فهى خير أم الله الواحد القهار ( السؤال الثانى ) هل يجوز التفاضل بين الاصنام وبين الله تعالى حتى يقال انها خير أم الله الواحد القهار ( والجواب ) انه خرج على سبيل الفرض والمعنى لو سلمنا انه حصل منها مايوجب الخير فهى خير أم الله الواحد القهار ثم قال ما تعبدون من دونه الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان وفيه سؤال وهو انه تعالى قال فيما قبل هذه الآية أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار وذلك يدل على وجود هذه المسميات ثم قال عقيب تلك الآية ما تعبدون من دونه الا اسماء

انها ليست فى امرها على خفية ولا خيفة من احد فتضيق عليه الحيل وتعيا به العلل وينصحن له ويرشدنه الى موافقتها ولما كان هذا الابراق والارعاد منها مظنة لسؤال سائل يقول فما صنع يوسف حينئذ قيل ( قال ) مناجيا لربه عز سلطانه ( رب السجن ) الذى او عدتنى بالالقاء فيه وقرأ يعقوب بالفتح على المصدر ( أحب الى ) اى آثر عندى لانه مشقة قليلة نافذة اثرها راحات جليلة ابدية ( مما يدعوننى اليه ) من مواتاتها التى تؤدى الى الشقاء والعذاب الاليم وهذا الكلام منه عليه السلام مبنى على مامر من انكشاف الحقائق لديه وبروز كل منها بصورتها اللائقة بها فصيغة التفضيل ليست على بابها اذ ليس له شائبة محبة لما دعته اليه وانما هو والسجن شران اهونهما واقربهما الى الايثار السجن والتعبير عن الايثار بالمحبة لحسم مادة طمعها عن المساعدة خوفا من الحبس والاقتصار على ذكر السجن من حيث ان الصغار من فروعه ومستتبعاته واسناد الدعوة اليهن جميعا لان النسوة رغبنه فى مطاوعتها وخوفنه من مخالفتها وقيل دعونه الى أنفسهن وقيل انما ابتلى عليه السلام بالسجن لقوله هذا وكان الاولى به ان يسأل الله تعالى العافية ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الصبر ( والا تصرف ) اى ان لم تصرف ( عنى كيدهن ) فى تحبيب ذلك الى وتحسينه لدى بان تثبتنى على ما انا عليه من العصمة والعفة ( أصب اليهن ) أى أمل الى اجابتهن او الى أنفسهن على قضية الطبيعة وحكم القوة الشهوية وهذا فزع منه عليه السلام الى الطاف الله تعالى جريا ( سميتموها )

على سنن الانبياء والصالحين فى قصرنيل  الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله عز وجل وسلب القوى والقدر

سميتموها وهذا يدل على ان المسمى غير حاصل وبينهما تناقض ( الجواب ) ان الذات موجودة حاصلة الا ان المسمى بالاله غير حاصل وبيانه من وجهين ( الاول ) ان ذوات الاصنام وان كانت موجودة الا انها غير موصوفة بصفات الالهية واذا كان كذلك كان الشئ الذى هو مسمى بالاله فى الحقيقة غير موجود ولا حاصل ( الثانى ) روى ان عبدة الاوثان مشبهة فاعتقدوا ان الاله هو النور الاعظم وان الملائكة انوار صغيرة ووضعوا على صورة تلك الانوار هذه الاوثان ومعبودهم فى الحقيقة هو تلك الانوار السماوية وهذا قول المشبهة فانهم تصوروا جسما كبيرا مستقرا على العرش ويعبدونه وهذا المتخيل غير موجود البتة فصح انهم لايعبدون الا مجرد الاسماء واعلم ان جماعة ممن يعبدون الاصنام قالوا نحن لانقول ان هذه الاصنام آلهة للعالم بمعنى انها هى التى خلقت العالم الا انا نطلق عليها اسم الاله ونعبدها ونعظمها لاعتقادنا ان الله امرنا بذلك فاجاب الله تعالى عنه فقال اما تسميتها بالآلهة فما امر الله تعالى بذلك وما انزل فى حصول هذه التسمية حجة ولا برهانا ولا دليلا ولا سلطانا وليس لغير الله حكم واجب القبول ولا امر واجب الالتزام بل الحكم والامر والتكليف ليس الا له ثم انه امر ان لاتعبدوا الا اياه وذلك لان العبادة نهاية التعظيم والاجلال فلا تليق الا بمن حصل منه نهاية الانعام وهو الاله تعالى لان منه الخلق والاحياء والعقل والرزق والهداية ونعم الله كثيرة وجهات احسانه الى الخلق غير متناهية ثم انه تعالى لما بين هذه الاشياء قال ولكن اكثر الناس لايعلمون وتفسيره ان اكثر الخلق يسندون حدوث الحوادث الارضية الى الاتصالات الفلكية والمناسبات الكوكبية لاجل انه تقرر فى العقول ان الحادث لابد له من سبب فاذا رأوا ان تغير احوال هذا العالم فى الحر والبرد والفصول الاربعة انما يحصل عند تغير احوال الشمس فى ارباع الفلك ربطوا الفصول الاربعة بحركة الشمس ثم لما شاهدوا ان احوال النبات والحيوان مختلفة بحسب اختلاف الفصول الاربعة ربطوا حدوث النبات وتغير احوال الحيوان باختلاف الفصول الاربعة فهذا الطريق غلب على طباع اكثر الخلق ان المدبر لحدوث الحوادث فى هذا العالم هو الشمس والقمر وسائر الكواكب ثم انه تعالى اذا وفق انسانا حتى ترقى من هذه الدرجة وعرف انها فى ذواتها وصفاتها مفتقرة الى موجد ومبدع قاهر قادر عليهم حكيم فذلك الشخص يكون فى غاية الندرة فلهذا قال ولكن اكثر الناس لايعلمون * قوله عز وجل ( ياصاحبى السجن اما احدكما فيسقى ربه خمرا واما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الامر الذى فيه تستفتيان ) اعلم انه عليه السلام لما قرر امر التوحيد والنبوة عاد الى الجواب عن سؤال الذى ذكراه والمعنى ظاهر وذلك لان الساقى لما قص رؤياه على يوسف وقد ذكرنا كيف قص عليه قال له يوسف ما احسن مارأيت اما حسن العنبة فهو حسن حالك واما الاغصان الثلاثة فثلاثة ايام يوجه اليك الملك عند انقضائهن فيردك الى عملك فتصير كما كنت بل احسن وقال للخباز لما قص عليه بئسما رأيت

عن انفسهم ومبالغة فى استدعاء لطفه فى صرف كيدهن باظهار ان لاطاقة له بالمدافعة كقول المستغيث ادركنى والا هلكت لانه يطلب الاخبار والالجاء الى العصمة والعفة وفى نفسه داعية تدعوه الى هواهن والصبوة الميل الى الهوى ومنه الصبا لان النفوس تصبو اليها لطيب نسيمها وروحها وقرئ اصب اليهن من الصبابة وهى رقة الشوق ( واكن من الجاهلين ) الذين لايعملون بما يعلمون لان من لاجدوى لعلمه فهو والجاهل سواء اومن السفهاء بارتكاب مايدعوننى اليه من القبائح لان الحكيم لايفعل القبيح ( فاستجاب له ربه ) دعاءه الذى تضمنه قوله والا تصرف عنى كيدهن الخ فان فيه استدعاء لصرف كيدهن على ابلغ وجه والطفه كما مر وفى اسناد الاستجابة الى الرب مضافا اليه عليه السلام مالايخفى من اظهار اللطف ( فصرف عنه كيدهن ) حسب دعائه وثبته على العصمة والعفة ( انه هو السميع العليم ) لدعاء المتضرعين اليه ( العليم ) بأحوالهم ومايصلحهم ( ثم بدا لهم ) اى ظهر للعزيز واصحابه المتصدين للحل والعقد ريثما اكتفوا بامر يوسف بالكتمان والاعراض ذلك ( من بعد مارأوا الآيات ) الصارفة لهم عن ذلك البداء وهى الشواهد الدالة على براءته عليه السلام وفاعل بدا اما مصدره اوالرأى المفهوم من السياق اوالمصدر المدلول عليه بقوله ( ليسجننه ) والمعنى بدا لهم اورأى اوسجنه المحتوم قائلين والله ليسجننه فالقسم المحذوف وجوابه معمول للقول

المقدر حالا من ضميرهم وماكان ذلك البداء  الاباستنزال المرأة لزوجها وفتلها منه فى الذروة والغارب

السلال الثلاث ثلاثة ايام يوجه اليك الملك عند انقضائهن فيصلبك وتأكل الطير من رأسك ثم نقل في التفسير انهما قالا ماراًينا شيئا فقال قضى الامر الذى فيه تستفتيان واختلف فيما لاجله قالا مارأينا شيئا فقيل انهما وضعا هذا الكلام ليختبرا علمه بالتعبير مع انهما مارأيا شيئا وقيل انهما لماكرها ذلك الجواب قالا مارأينا شيئا فان قيل هذا الجواب الذى ذكره يوسف عليه السلام ذكره بناء على الوحى من قبل الله تعالى او بناء على علم التعبير والاول باطل لان ابن عباس رضى الله عنهما نقل انه انما ذكره على سبيل التعبير وايضا قال تعالى وقال الذى ظن انه ناج منهما ولو كان ذلك التعبير مبنيا على الوحى لكان الحاصل منه القطع واليقين لا الظن والتخمين (والثانى) ايضا باطل لان علم التعبير مبنى على الظن والحسبان والقضاء هو الالزام بالجزم والحكم البتة فكيف بنى الجزم والقطع على الظن والحسبان (الجواب) لا يبعد ان يقال انهما لما سألاه عن ذلك المنام صدقا فيه او كذبا فان الله تعالى اوحى اليه ان عاقبة كل واحد منهما تكون على وجه المخصوص فلما نزل الوحى بذلك الغيب عند ذلك السؤال وقع فى الظن انه ذكره على سبيل التعبير ولا يبعد ايضا ان يقال انه بنى ذلك الجواب على علم التعبير وقوله قضى الامر الذى فيه تستفتيان ما عنى به ان الذى ذكره واقع لا محالة بل عنى به انه حكمه فى تعبير ما سألاه عنه ذلك الذى ذكره ❊ قوله عز وجل (وقال للذى ظن انه ناج منهما اذكرنى عند ربك فانساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين) فيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى ان الموصوف بالظن هو يوسف عليه السلام او الناجى فعلى الاول كان المعنى وقال الرجل الذى ظن يوسف عليه السلام كونه ناجيا وعلى هذا القول ففيه وجهان (الاول) ان نحمل هذا الظن على العلم واليقين وهذا اذا قلنا بأنه عليه السلام انما ذكر ذلك التعبير بناء على الوحى قال هذا القائل وورود لفظ الظن بمعنى اليقين كثير فى القرآن قال تعالى الذين يظنون انهم ملاقو ربهم وقال انى ظننت انى ملاق حسابيه (والثانى) ان نحمل هذا الظن على حقيقة الظن وهذا اذا قلنا انه عليه السلام ذكر ذلك التعبير لا بناء على الوحى بل على الاصول المذكورة فى ذلك العلم وهى لا تفيد الا الظن والحسبان (والقول الثانى) ان هذا الظن صفة الناجى فان الرجلين السائلين ما كانا مؤمنين بنبوة يوسف ورسالته ولكنهما كانا حسنى الاعتقاد فيه فكان قوله لا يفيد فى حقهما الا مجرد الظن (المسئلة الثانية) قال يوسف عليه السلام لذلك الرجل الذى حكم بأنه يخرج من الحبس ويرجع الى خدمة الملك اذكرنى عند ربك اى عند الملك والمعنى اذكر عنده انه مظلوم من جهة اخوته لما اخرجوه وباعوه ثم انه مظلوم فى هذه الواقعة التى لاجلها حبس فهذا هو المراد من الذكر ثم قال تعالى فانساه الشيطان ذكر ربه وفيه قولان (الاول) انه راجع الى يوسف والمعنى ان الشيطان انسى يوسف ان يذكر ربه وعلى هذا القول ففيه وجهان (احدهما) ان تمسكه بغير الله كان مستدركا عليه وتقريره من وجوه (الاول) ان مصلحته كانت فى ان لا يرجع

وكان مطاوعة لها تقوده حيث شاءت قال السدى انها قالت للعزيز ان هذا ( ١٩٤ ) العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس يخبرهم بأنى راودته عن نفسه فاما ان تأذن لى فأخرج فأعتذر الى الناس واما ان تحبسه فحبسه ولقد ارادت بذلك تحقيق وعيدها لتلين به عريكته وتنقاد لها قرونته لما انصرمت حبال رجائها عن استتباعه بعرض الجمال والترغيب بنفسها وباعوانها وقرئ لتسجننه على صيغة الخطاب بان خاطب بعضهم العزيز ومن يليه أو العزيز وحده على وجه التعظيم او خاطب به العزيز ومن عنده من اصحاب الرأى المباشرين للسجن والحبس (حتى حين) الى حين انقطاع قالة الناس وهذا بادى الرأى عند العزيز وذويه واما عندها فحتى يذلله السجن ويسخره لها ويحسب الناس انه المجرم وقرئ عتى حين بلغة هذيل (ودخل معه) اى فى صحبته (السجن فتيان) من فتيان الملك ومماليكه احدهما شرابيه والآخر خبازه روى ان جماعة من اهل مصر ضمنوا لهما مالا ليسما الملك فى طعامه وشرابه فأجاباهم الى ذلك ثم ان الساقى نكل عن ذلك ومضى عليه الخباز فسم الخبز فلما احضر الطعام قال الساقى لا تأكل أيها الملك فان الخبز مسموم وقال الخباز لا تشرب ايها الملك فان الشراب مسموم فقال الملك للساقى اشربه فشربه فلم يضره وقال للخباز كله فأبى فجرب بدابة فهلكت فأمر بحبسهما فاتفق ان ادخلاه معه وتأخير الفاعل عن المفعول لما مر غير مرة من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر ليتمكن عند النفس حين وروده عليها فضل تمكن ونظيره تقديم الظرف على المفعول الصريح فى قوله تعالى فاوجس فى نفسه خيفة وتأخير السجن عن الظرف لايهام العكس ان يكون الظرف خبرا مقدما على المبتدأ

فى تلك الواقعة الى احد من المخلوقين وان لايعرض حاجته على احد سوى الله وان يقتدى بجده ابراهيم عليه السلام فانه حين وضع فى المنجنيق ليرمى الى النار جاءه جبريل عليه السلام وقال هل من حاجة فقال أما اليك فلا فلما رجع يوسف الى المخلوق لاجرم وصف الله ذلك بأن الشيطان انساه ذلك التفويض وذلك التوحيد ودعاه الى عرض الحاجة الى المخلوقين ثم لما وصفه بذلك ذكر انه بقى لذلك السبب فى السجن بضع سنين والمعنى انه لما عدل عن الانقطاع الى ربه الى هذا المخلوق عوقب بأن لبث فى السجن بضع سنين وحاصل الأمر ان رجوع يوسف الى المخلوق صار سببا لامرين (احدهما) انه صار سببا لاستيلاء الشيطان عليه حتى أنساه ذكر ربه (الثانى) انه صار سببا لبقاء المحنة عليه مدة طويلة (الوجه الثانى) ان يوسف عليه السلام قال فى ابطال عبادة الاوثان أأرباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار ثم انه ههنا اثبت ربا غيره حيث قال اذكرنى عند ربك ومعاذ الله ان يقال انه حكم عليه بكونه ربا بمعنى كونه الها بل حكم عليه بالربوبية كما يقال رب الدار ورب الثوب على ان اطلاق لفظ الرب عليه بحسب الظاهر يناقض نفى الأرباب (الوجه الثالث) انه قال فى تلك الآية ما كان لنا ان نشرك بالله من شئ وذلك نفى للشرك على الاطلاق وتفويض الامور بالكلية الى الله تعالى فههنا الرجوع الى غير الله تعالى كالمناقض لذلك التوحيد واعلم ان الاستعانة بالناس فى دفع الظلم جائزة فى الشريعة الا ان حسنات الابرار سيئات المقربين فهذا وان كان جائزا لعامة الخلق الا ان الاولى بالصديقين ان يقطعوا نظرهم عن الاسباب بالكلية وان لايشتغلوا الا بمسبب الاسباب (الوجه الثانى) فى تأويل الآية ان يقال هب انه تمسك بغير الله وطلب من ذلك الساقى ان يشرح حاله عند ذلك الملك الا انه كان من الواجب عليه ان لايخلى ذلك الكلام من ذكر الله مثل ان يقول ان شاء الله او قدر الله فلما اخلاه عن هذا الذكر وقع هذا الاستدراك (القول الثانى) ان يقال ان قوله فأنساه الشيطان ذكر ربه راجع الى الناجى والمعنى ان الشيطان انسى ذلك الفتى ان يذكر يوسف للملك حتى طال الامر فلبث فى السجن بضع سنين بهذا السبب ومن الناس من قال القول الاول اولى لما روى عنه عليه السلام قال رحم الله يوسف لو لم يقل اذكرنى عند ربك مالبث فى السجن وعن قتادة ان يوسف عليه السلام عوقب بسبب رجوعه الى غير الله وعن ابراهيم التيمى انه لما انتهى الى باب السجن قال له صاحبه ماحاجتك قال ان تذكرنى عند رب سوى الرب الذى قال يوسف وعن مالك لما قال يوسف للساقى اذكرنى عند ربك قيل يايوسف اتخذت من دونى وكيلا لاطيلن حبسك فبكى يوسف وقال طول البلاء أنسانى ذكر المولى فقلت هذه الكلمة فويل لاخوتى * قال مصنف الكتاب فخر الدين الرازى رحمه الله والذى جربته من اول عمرى الى آخره ان الانسان كلما عول فى امر من الامور على غير الله صار ذلك سببا الى البلاء والمحنة والشدة والرزية واذا عول العبد على الله ولم يرجع الى احد من الخلق حصل ذلك المطلوب على احسن الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لى من

وتكون الجملة حالا من فاعل دخل فتأمل (قال احدهما)  استئناف مبنى على سؤال من يقول ماصنعا بعدما دخلا معه السجن فاجيب بانه قال احدهما وهو الشرابى (انى ارانى) اى رأيتنى والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة الماضية (اعصر خمرا) اى عنبا سماه بما يؤول اليه لكونه المقصود من العصر وقيل الخمر بلغة عمان اسم للعنب وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه اعصر عنبا (وقال الآخر) وهو الخباز (انى ارانى احمل فوق رأسى خبزا) تأخير المفعول عن الظرف لما مر آنفا وقوله (تأكل الطير منه) اى تنهس منه صفة للخبز او استئناف مبنى على السؤال (نبئنا بتأويله) بتأويل ماذكر من الرؤيين او ماروى باجراء الضمير مجرى ذلك بطريق الاستعارة فان اسم الاشارة يشار به الى متعدد كما فى قوله

فيها خطوط من سواد وبلق
كأنه فى الجلد توليع البهق

اى كأن ذلك والسر فى المصير الى اجراء الضمير مجرى اسم الاشارة مع انه لاحاجة اليه بعد تأويل المرجع بماذكر او بما رؤى ان الضمير انما يتعرض لنفس المرجع من حيث هو من غير تعرض لحال من احواله فلا يتسنى تأويله باحد الاعتبارين الا باجرائه مجرى اسم الاشارة الذى يدل على المشار اليه بالاعتبار الذى جرى عليه فى الكلام فتأمل هذا اذا قالاه معا او قاله احدهما من جهتهما معا واما اذا قاله كل منهما اثر ماقص مارآه فالخطاب المذكور ليس عبارتهما ولا عبارة احدهما من جهتهما ليتعدد المرجع بل عبارة كل منهما نبئنى بتأويله مستفسرا لما رآه وصيغة المتكلم مع الغير واقعة فى الحكاية دون المحكى على طريقة قوله عز وجل ياأيها الرسل كلوا من الطيبات فانهم لم يخاطبوا بذلك دفعة بل خوطب كل منهم فى زمانه بصيغة

اول عمرى الى هذا الوقت الذى بلغت فيه الى السابع والخمسين فعند هذا استقر قلبى على انه لا مصلحة للانسان فى التعويل على شئ سوى فضل الله تعالى واحسانه ومن الناس من رجح القول الثانى لان صرف وسوسة الشيطان الى ذلك الرجل اولى من صرفها الى يوسف الصديق ولان الاستعانة بالعباد فى التخلص من الظلم جائزة واعلم ان الحق هو القول الاول وماذكره هذا القائل الثانى تمسك بظاهر الشريعة وماقرره القائل الاول تمسك بأسرار الحقيقة ومكارم الشريعة ومن كان له ذوق فى مقام العبودية وشرب من مشرب التوحيد عرف ان الامر كما ذكرناه وايضا فى لفظ الآية مايدل على ان هذا القول ضعيف لانه لو كان المراد ذلك لقال فأنساه الشيطان ذكره لربه (المسئلة الثالثة) الاستعانة بغير الله فى دفع الظلم جائزة فى الشريعة لا انكار عليه الا انه لما كان ذلك مستدركا من المحققين المتوغلين فى بحار العبودية لا جرم صار يوسف عليه السلام مؤاخذا به وعند هذا نقول الذى يصير مؤاخذا بهذا القدر لان يصير مؤاخذا بالاقدام على طلب الزنا ومكافأة الاحسان بالاساءة كان اولى فلما رأينا الله تعالى آخذه بهذا القدر ولم يؤاخذه فى تلك القضية البتة وما عابه بل ذكره بأعظم وجوه المدح والثناء علمنا انه عليه السلام كان مبرأ مما نسبه الجهال والحشوية اليه (المسئلة الرابعة) الشيطان يمكنه القاء الوسوسة واما النسيان فلا لانه عبارة عن ازالة العلم عن القلب والشيطان لا قدرة له عليه والا لكان قد أزال معرفة الله تعالى عن قلوب بنى آدم (وجوابه) انه يمكنه من حيث انه بوسوسته يدعو الى سائر الاعمال واشتغال الانسان بسائر الاعمال يمنعه عن استحضار ذلك العلم وتلك المعرفة (المسئلة الخامسة) قوله فلبث فى السجن بضع سنين فيه بحثان (الاول) بحسب اللغة قال الزجاج اشتقاقه من بضعت بمعنى قطعت ومعناه القطعة من العدد قال الفراء ولا يذكر البضع الا مع عشرة او عشرين الى التسعين وذلك يقتضى ان يكون مخصوصا بما بين الثلاثة الى التسعة وقال هكذا رأيت العرب يقولون ومارأيتهم يقولون بضع ومائة وروى الشعبى ان النبى عليه الصلاة والسلام قال لاصحابه كم البضع قالوا الله ورسوله اعلم قال مادون العشرة واتفق الاكثرون على ان المراد ههنا بضع سنين سبع سنين قالوا ان يوسف عليه السلام حين قال لذلك الرجل اذكرنى عند ربك كان قد بقى فى السجن خمس سنين ثم بقى بعد ذلك سبع سنين قال ابن عباس رضى الله عنهما لما تضرع يوسف عليه السلام الى ذلك الرجل كان قد اقترب وقت خروجه فلما ذكر ذلك لبث فى السجن بعده سبع سنين وروى ان الحسن روى قوله صلوات الله عليه وسلامه رحم الله يوسف لولا الكلمة التى قالها ما لبث فى السجن هذه المدة الطويلة ثم بكى الحسن وقال نحن اذا نزل بنا امر تضرعنا الى الناس ❊ قوله تعالى (وقال الملك انى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات ياايها الملاء افتونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون قالوا اضغاث احلام ومانحن بتأويل الاحلام بعالمين) اعلم انه تعالى اذا أراد شيئا

مفردة خاصة به (انا نراك) تعليل لعرض رؤياهما عليه ( ١٩٦ ) واستفسارها منه عليه السلام (من المحسنين) من الذين يجيدون عبارة الرؤيا لما رأياه يقص عليه بعض اهل السجن رؤياه فيؤولها له تأويلا حسنا او من العلماء لما سمعاه يذكر للناس مايدل على علمه وفضله او من المحسنين الى اهل السجن اى فأحسن الينا بكشف غمتنا ان كنت قادرا على ذلك روى انه عليه السلام كان اذا مرض منهم رجل قام عليه واذا ضاق مكانه اوسع له واذا احتاج جمع له وعن قتادة رضى الله عنه كان فى السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول ابشروا واصبروا تؤجروا فقالوا بارك الله عليك ما احسن وجهك وما احسن خلقك لقد بورك لنا فى جوارك فمن انت يافتى فقال انا يوسف بن صفى الله يعقوب بن ذبيح الله اسحق بن خليل الله ابراهيم فقال له عامل السجن لو استطعت خليت سبيلك ولكنى احسن جوارك فكن فى اى بيوت السجن شئت وعن الشعبى انهما تحالما له ليمتحناه فقال الشرابى أرانى فى بستان فاذا بأصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطعتها وعصرتها فى كأس الملك وسقيته وقال الخباز انى ارانى وفوق رأسى ثلاث سلال فيها انواع الاطعمة واذا سباع الطير تنهس منها (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه) فى مقامكما هذا حسب عادتكما المطردة (الا نبأتكما بتأويله) استثناء مفرغ من اعم الاحوال اى لا يأتيكما طعام فى حال من الاحوال الا حال ما نبأتكما به بان بينت لكما ماهيته وكيفيته وسائر احواله (قبل ان يأتيكما) واطلاق التأويل عليه اما بطريق الاستعارة فان ذلك بالنسبة الى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل بالنظر الى مارؤى فى المنام وشبيه له واما بطريق المشاكلة حسبما وقع فى عبارتهما (هياله)

هيأله اسبابا ولما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر فى النوم سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعا اخر يابسات فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فجمع الكهنة وذكرها لهم وهو المراد من قوله ياأيها الملاء افتونى فى رؤياى فقال القوم هذه الرؤيا مختلطة فلانقدر على تأويلها وتعبيرها فهذا ظاهر الكلام وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الليث العجف ذهاب السمن والفعل عجف يعجف والذكر أعجف والانثى عجفاء والجمع عجاف فى الذكران والاناث وليس فى كلام العرب افعل وفعلاء جمعا على فعال غير العجف وعجاف وهى شاذة حملوها على لفظ سمان فقالوا سمان وعجاف لانهما نقيضان ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض واللام فى قوله للرؤيا تعبرون على قول البعض زائدة لتقدم المفعول على الفعل وقال صاحب الكشاف يجوز ان تكون الرؤيا خبر كان كما تقول كان فلان لهذا الامر اذا كان مستقلا به متمكنا منه وتعبرون خبرا آخر او حالا ويقال عبرت الرؤيا اعبرها عبارة وعبرتها تعبيرا اذا فسرتها وحكى الازهرى ان هذا مأخوذ من العبر وهو جانب النهر ومعنى عبرت النهر والطريق قطعته الى الجانب الآخر فقيل لعابر الرؤيا عابر لانه يتأمل جانبى الرؤيا فيتفكر فى اطرافها وينتقل من احد الطرفين الى الآخر والاضغاث جمع الضغث وهو الحزمة من انواع النبت والحشيش بشرط ان يكون مما قام على ساق واستطال قال تعالى وخذ بيدك ضغثا اذا عرفت هذا فنقول الرؤيا ان كانت مخلوطة من اشياء غير متناسبة كانت شبيهة بالضغث (المسئلة الثانية) انه تعالى جعل هذه الرؤيا سببا لخلاص يوسف عليه السلام من السجن وذلك لان الملك لما رآه قلق واضطرب بسببه لانه شاهد ان الناقص الضعيف استولى على الكامل القوى فشهدت فطرته بأن هذا ليس بجيد وانه منذر بنوع من انواع الشر الا انه ماعرف كيفية الحال فيه والشئ اذا صار معلوما من وجه وبقى مجهولا من وجه آخر عظم تشوق الناس الى تكميل تلك المعرفة وقويت الرغبة فى اتمام الناقص لاسيما اذا كان الانسان عظيم الشان واسع المملكة وكان ذلك الشئ دالا على الشر من بعض الوجوه فبهذا الطريق قوى الله داعية ذلك الملك فى تحصيل العلم بتعبير هذه الرؤيا ثم انه تعالى اعجز المعبرين الذين حضروا عند ذلك الملك عن جواب هذه المسئلة وعماه عليهم ليصير ذلك سببا لخلاص يوسف من تلك المحنة واعلم ان القوم مانفوا عن انفسهم كونهم عالمين بعلم التعبير بل قالوا ان علم التعبير على قسمين منه ماتكون الرؤيا فيه منتسقة منتظمة فيسهل الانتقال من الامور المتخيلة الى الحقائق العقلية الروحانية ومنه ماتكون فيه مختلطة مضطربة ولايكون فيها ترتيب معلوم وهو المسمى بالاضغاث والقوم قالوا ان رؤيا الملك من قسم الاضغاث ثم أخبروا انهم غير عالمين بتعبير هذا القسم وكأنهم قالوا هذه الرؤيا مختلطة من اشياء كثيرة وما كان كذلك فنحن لانهتدى اليها ولايحيط عقلنا بها وفيه ايهام ان الكامل فى هذا العلم والمتبحر

من قولهما نبئنا بتأويله ولايبعد ان يراد بالتأويل الشئ الآيل لاالمآل فانه فى الاصل جعل شئ آيلا الى شئ آخر فكما يجوز ان يراد به الثانى يجوز ان يراد به الاول فالمعنى الانبأتكما بمايؤول اليه من الكلام والخبر المطابق للواقع وكان عليه السلام يقول لهما اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيجدانه كذلك ومراده عليه السلام بذلك بيان كل مايهمهما من الامور المترقبة قبل وقوعها وانما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقا فى ذلك بحسب الحال مع مافيه من مراعاة حسن التخلص اليه مما استعبراه من الرؤيين المتعلقتين بالشراب والطعام وقد جعل الضمير لماقصا من الرؤيين على معنى لايأتيكما طعام ترزقانه حسب عادتكما الااخبرتكما بتأويل ماقصصتما على قبل ان يأتيكما ذلك الطعام الموقت مرادا به الاخبار بالاستعجال فى التنبئة وانت خبير بأن النظم الكريم ظاهر فى تعدد اتيان الطعام والاخبار بالتأويل وتجددهما وان المقام مقام اظهار فضله فى فنون العلوم بحيث يدخل فى ذلك تأويل رؤياهما دخولا اوليا وانما لم يكتف عليه السلام بمجرد تأويل رؤياهما مع ان فيه دلالة على فضله لانهما لمانعتاه عليه السلام بالانتظام فى سمط المحسنين وانهما قد علما ذلك حيث قالا انا نراك من المحسنين توسم عليه السلام فيهما خيرا وتوجها الى قبول الحق فاراد ان يخرج آثر ذى اثير عما فى عهدته من دعوة الخلق الى الحق فمهد قبل الخوض فى ذلك مقدمة تزيدهما علما بعظيم شأنه وثقة بامره ووقوفا على علو طبقته فى بدايع العلوم توسلا بذلك الى تحقيق مايتوخاه وقد تخلص اليها من كلامهما فكأنه قال تأويل ماقصصتماه على فى طرف

فيه قد يهتدي اليها فعند هذه المقالة تذكر ذلك الشرابي واقعة يوسف فانه كان يعتقد فيه كونه متبحرا في هذا العلم * قوله تعالى ( وقال الذي نجا منهما وادكر بعد امة انا أنبئكم بتأويله فأرسلون يوسف ايها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي ارجع الى الناس لعلهم يعلمون ) اعلم ان الملك لما سأل الملأ عن الرؤيا واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب قال الشرابي ان في الحبس رجلا فاضلا صالحا كثير العلم كثير الطاعة قصصت انا والخباز عليه منامين فذكر تأويلهما فصدق في الكل وما أخطأ في حرف فان أذنت مضيت اليه وجئتك بالجواب فهذا هو قوله وقال الذي نجا منهما واما قوله وادكر بعد امة فنقول سيجيء ادكر في تفسير قوله تعالى فهل من مدكر في سورة القمر قال صاحب الكشاف وادكر بالدال هو الفصيح عن الحسن واذكر بالذال اي تذكر واما الامة ففيه وجوه (الاول) بعد امة اي بعد حين وذلك لان الحين انما يحصل عند اجتماع الايام الكثيرة كما ان الامة انما تحصل عند اجتماع الجمع العظيم فالحين كأن أمة من الايام والساعات ( والثاني ) قرأ الاشهب العقيلي بعد امة بكسر الهمزة والامة النعمة قال عدي

ثم بعد الفلاح والملك والامة وارتهم هناك القبور

والمعنى بعد ما انعم عليه بالنجاة (الثالث) قرئ بعد امه اي بعد نسيان يقال أمه يأمه أمها اذا نسي والصحيح انها بفتح الميم وذكره ابو عبيدة بسكون الميم وحاصل الكلام انه اما ان يكون المراد وادكر بعد مضي الاوقات الكثيرة من الوقت الذي أوصاه يوسف عليه السلام بذكره عند الملك او المراد وادكره بعد وجدان النعمة عند ذلك الملك او المراد وادكر بعد النسيان فان قيل قوله وادكر بعد امة يدل على ان الناسي هو الشرابي وانتم تقولون الناسي هو يوسف عليه السلام قلنا قال ابن الانباري ادكر بمعنى ذكر واخبر وهذا لا يدل على سبق النسيان فلعل الساقي انما لم يذكره للملك خوفا من ان يكون ذلك اذكارا لذنبه الذي من اجله حبسه فيزداد الشر ويحتمل ايضا ان يقال حصل النسيان ليوسف عليه السلام وحصل ايضا لذلك الشرابي واما قوله فارسلون خطاب اما للملك والجمع أو للملك وحده على سبيل التعظيم اما قوله يوسف ايها الصديق ففيه محذوف والتقدير فارسل وأتاه وقال ايها الصديق والصديق هو البالغ في الصدق وصفه بهذه الصفة لانه لم يجرب عليه كذبا وقيل لانه صدق في تعبير رؤياه وهذا يدل على ان من اراد ان يتعلم من رجل شيئا فانه يجب عليه ان يعظمه وان يخاطبه بالالفاظ المشعرة بالاجلال ثم انه أعاد السؤال بعين اللفظ الذي ذكره الملك ونعم ما فعل فان تعبير الرؤيا قد يختلف بسبب اختلاف اللفظ كما هو مذكور في ذلك العلم اما قوله تعالى لعلي ارجع الى الناس لعلهم يعلمون فالمراد لعلي ارجع الى الناس بفتواك لعلهم يعلمون فضلك وعلمك وانما قال لعلي أرجع الى الناس بفتواك لانه رأى عجز سائر المعبرين عن جواب هذه المسألة فخاف ان يعجز هو ايضا عنه

التمام حيث رأيتما مثاله في المنام واني ابين لكما كل جليل ودقيق من الامور  المستقبلة وان لم يكن هناك مقدمة المنام حتى ان الطعام الموظف الذي يأتيكما كل يوم ابينه لكما قبل اتيانه ثم اخبرهما بأن علمه ذلك ليس من قبيل علوم الكهنة والعرافين بل هو فضل الهي يؤتيه من يشاء ممن يصطفيه للنبوة فقال (ذلكما) أي ذلك التأويل والاخبار بالمغيبات ومعنى البعد في ذلك للاشارة الى علو درجته وبعد منزلته ( مما علمني ربي ) بالوحي والالهام اي بعض منه اومن ذلك الجنس الذي لا يحوم حول ادراكه العقول ولقد دلهما بذلك على ان له علوما جمة ما سمعاه قطعة من جملتها وشعبة من دوحتها ثم بين ان نيل تلك الكرامة بسبب اتباعه ملة آبائه الانبياء العظام وامتناعه عن الشرك فقال ( اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ) وهو استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من قوله ذلكما مما علمني ربي وتعليلا له لا للتعليم الواقع صلة للموصول لتأديته الى معنى انه مما علمني ربي لهذا السبب دون غيره ولا لمضمون الجملة الخبرية لان ما ذكر بصدد التعليل ليس بعلة لكون التأويل المذكور بعضا مما علمه ربه اولكونه من جنسه بل لنفس تعليم ما علمه فكأنه قيل لماذا علمك ربك تلك العلوم البديعة فقيل لاني تركت ملة الكفرة اي دينهم الذي اجتمعوا عليه من الشرك وعبادة الاوثان والمراد بتركها الامتناع عنها رأسا كما يفصح عنه قوله ما كان لنا ان نشرك بالله من شيء لا تركها بعد ملابستها وانما عبر عنه بذلك لكونه ادخل بحسب الظاهر في اقتدائهما به عليه السلام والتعبير عن كفرهم بالله تعالى بسلب الايمان به للتنصيص على ان عبادتهم له تعالى مع عبادة الاوثان ليست بايمان به تعالى كما هو زعمهم الباطل على ما مر في قوله تعالى انه عمل غير صالح (فلهذا)

فلهذا السبب قال لعلي أرجع الى الناس ※ قوله عزوجل ( قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصد تم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تأكلون ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون ثم ياتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون)

اعلم انه عليه السلام ذكر تعبير تلك الرؤيا فقال تزرعون وهو خبر بمعنى الامر كقوله والمطلقات يتربصن والوالدات يرضعن وانما يخرج الخبر بمعنى الامر ويخرج الامر فى صورة الخبر للمبالغة فى الايجاب فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه والدليل على كونه فى معنى الامر قوله فذوره فى سنبله وقوله دأبا قال اهل اللغة الدأب استمرار الشئ على حالة واحدة وهو دائب بفعل كذا اذا استمر فى فعله وقد دأب يدأب دأبا ودأبا أى زراعة متوالية فى هذه السنين قال أبو على الفارسى الاكثرون فى دأب الاسكان ولعل الفتحة لغة فيكون كشمع وشمع ونهر ونهر قال الزجاج وانتصب دأبا على معنى تدأبون دأبا وقيل انه مصدر وضع فى موضع الحال وتقديره تزرعون دائبين فاحصدتم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تأكلون كل ما أردتم اكله فدوسوه ودعوا الباقى فى سنبله حتى لا يفسد ولا يقع السوس فيه لان ابقاء الحبة فى سنبلها يوجب بقاءها على الصلاح ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد اى سبع سنين مجدبات والشداد الصعاب التى تشتد على الناس وقوله يأكلن ماقدمتم لهن هذا مجاز فان السنة لا تأكل فيجعل اكل اهل تلك السنين مسندا الى السنين وقوله الا قليلا مما تحصنون الاحصان الاحراز وهو القاء الشئ فى الحصن يقال احصنه احصانا اذا جعله فى حرز والمراد الا قليلا مما تحرزون اى تدخرون وكلها الفاظ ابن عباس رضى الله عنهما وقوله ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس قال المفسرون السبعة المتقدمة سنوا الخصب وكثرة النعم والسبعة الثانية سنوا القحط والقلة وهى معلومة من الرؤيا واما حال هذه السنة فما حصل فى ذلك المنام شئ يدل عليه بل حصل ذلك من الوحى فكأنه عليه السلام ذكر انه يحصل بعد السبعة المخصبة والسبعة المجدبة سنة مباركة كثيرة الخير والنعم وعن قتادة زاده الله علم سنة فان قيل لما كانت العجاف سبعا دل ذلك على ان السنين المجدبة لا تزيد على هذا العدد ومن المعلوم ان الحاصل بعد انقضاء القحط هو الخصب وكان هذا ايضا من مدلولات المنام فلم قلتم انه حصل بالوحى والالهام قلنا هب ان تبدل القحط بالخصب معلوم من المنام اما تفصيل الحال فيه وهو قوله فيه يغاث الناس وفيه يعصرون لا يعلم الا بالوحى قال ابن السكيت يقال غاث الله البلاد يغيثها غيثا اذا انزل فيها الغيث وقد غيثت الارض تغاث وقوله يغاث الناس معناه يمطرون ويجوز ان يكون من قولهم اغاثه الله اذا انقذه من كرب اوغم ومعناه ينقذ الناس فيه من كرب الجدب وقوله وفيه يعصرون اى يعصرون السمسم دهنا والعنب خمرا والزيتون زيتا وهذا يدل على ذهاب الجدب وحصول الخصب والخير وقيل يحلبون الضروع وقرئ يعصرون من عصره اذا نجاه وقيل معناه يمطرون من اعصرت السحابة اذا اعصرت بالمطر ومنه قوله وانزلنا

( وهم بالآخرة ) وما فيها من الجزاء ( هم كافرون ) ( ١٩٩ ) على الخصوص دون غيرهم لافراطهم فى الكفر ( واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب) يعنى انه انما حاز هذه الكمالات وفاز بتلك الكرامات بسبب انه اتبع ملة آبائه الكرام ولم يتبع ملة قوم كفروا بالمبدأ والمعاد وانما قاله عليه السلام ترغيبا لصاحبيه فى الايمان والتوحيد وتنفيرا لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه لأن التخلية متقدمة على التحلية ( ما كان ) اى ما صح وما استقام فضلا عن الوقوع (لنا) معاشر الانبياء لقوة نفوسنا ووفور علومنا ( ان نشرك بالله من شئ ) اى شئ كان من ملك اوجنى اوانسى فضلا عن الجماد البحت ( ذلك ) اى التوحيد المدلول عليه بقوله ماكان لنا ان نشرك بالله من شئ ( من فضل الله علينا ) اى ناشئ من تأييده لنا بالنبوة وترشيحه ايانا لقيادة الامة وهدايتهم الى الحق وذلك مع كونه من موجبات التوحيد ودواعيه نعمة جليلة وفضل عظيم علينا بالذات (على الناس ) كافة بواسطتنا وحيث عبر عن ذلك بذلك العنوان عبر عن التوحيد الذى يوجبه بالشكر فقيل ( ولكن اكثر الناس لا يشكرون) اى لا توحدون فان التوحيد مع كونه من آثار ما ذكر من التأييد شكر لله عز وجل على تلك النعمة وانما وضع الظاهر موضع الضمير الراجع الى الناس لزيادة توضيح وبيان ولقطع توهم رجوعه الى المجموع الموهم لعدم اختصاص غير الشاكر بالناس وقيل ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث نصب لنا أدلة ننظر فيها ونستدل بها على الحق وقد نصب مثل تلك الادلة لسائر الناس ايضا ولكن اكثرهم لا ينظرون ولا يستدلون بها اتباعا لاهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين ولك ان تقول ذلك التوحيد من فضل الله

من المعصرات ماء ثجاجا * قوله تعالى ( وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسئله مابال النسوة اللاتى قطعن ايديهن ان ربى بكيدهن عليم قال ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب وان الله لا يهدى كيد الخائنين ) اعلم انه لما رجع الشرابى الى الملك وعرض عليه التعبير الذى ذكره يوسف عليه السلام استحسنه الملك فقال ائتونى به وهذا يدل على فضيلة العلم فانه سبحانه جعل علمه سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية فكيف لا يكون العلم سببا للخلاص من المحن الاخروية فعاد الشرابى الى يوسف عليه السلام قال اجب الملك فأبى يوسف عليه السلام ان يخرج من السجن الا بعد ان ينكشف امره وتزول التهمة بالكلية عنه وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه لما اخبرتهم حتى اشترطت ان يخرجونى ولقد عجبت منه حين اتاه الرسول فقال ارجع الى ربك ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن مالبث لاسرعت الاجابة وبادرتهم الى الباب ولما ابتغيت العذر انه كان حليما ذا أناة واعلم ان الذى فعله يوسف من الصبر والتوقف الى ان تفحص الملك عن حاله هو اللائق بالحزم والعقل وبيانه من وجوه (الاول) انه لو خرج فى الحال فربما كان يبقى فى قلب الملك من تلك التهمة اثرها فلما التمس من الملك ان يتفحص عن حال تلك الواقعة دل ذلك على براءته من تلك التهمة فبعد خروجه لا يقدر احد ان يلطخه بتلك الرذيلة وان يتوسل بها الى الطعن فيه (الثانى) ان الانسان الذى بقى فى السجن اثنتى عشرة سنة اذا طلبه الملك وامر باخراجه الظاهر انه يبادر بالخروج فحيث لم يخرج عرف منه كونه فى نهاية العقل والصبر والثبات وذلك يصير سببا لان يعتقد فيه بالبراءة عن جميع انواع التهم ولأن يحكم بان كل ماقيل فيه كان كذبا وبهتانا (الثالث) ان التماسه من الملك ان يتفحص عن حاله من تلك النسوة يدل ايضا على شدة طهارته اذ لو كان ملوثا بوجه ما لكان خائفا ان يذكر ماسبق (الرابع) انه حين قال للشرابى اذكرنى عند ربك فبقى بسبب هذه الكلمة فى السجن بضع سنين وههنا طلبه الملك فلم يلتفت اليه ولم يقم لطلبه وزنا واشتغل باظهار براءته عن التهمة ولعله كان غرضه عليه السلام من ذلك ان لا يبقى فى قلبه التفات الى رد الملك وقبوله وكان هذا العمل جاريا مجرى التلافى لما صدر منه من التوسل اليه فى قوله اذكرنى عند ربك ليظهر ايضا هذا المعنى لذلك الشرابى فانه هو الذى كان واسطة فى الحالتين معا اما قوله فاسئله مابال النسوة اللاتى قطعن ايديهن ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير والكسائى فسله بغير همز والباقون فاسئله بالهمز وقرأ عاصم برواية ابى بكر عنه النسوة بضم النون والباقون بكسر النون وهما لغتان (المسئلة الثانية) اعلم ان هذه الآية فيها انواع من اللطائف (اولها) ان معنى الآية فسل الملك بان يسأل ماشأن تلك النسوة

ايضا مثلها ولكن اكثرهم لا يشكرون اى لا يصرفون تلك القوى والمشاعر الى ماخلقت هى له ولا يستعملونها فيما ذكر من ادلة التوحيد الآفاقية والانفسية والعقلية والنقلية (ياصاحبى السجن) اى ياصاحبى فى السجن كما تقول ياسارق الليلة ناداهما بعنوان الصحبة فى مدار الاشجان ودار الاحزان التى تصفو فيها المودة وتخلص النصيحة ليقبلا عليه ويقبلا مقالته وقد ضرب لهما مثلا يتضح به الحق عندهما حق اتضاح فقال ( أأرباب متفرقون ) لاارتباط بينهم ولا اتفاق يستعبد كما كل منهم حسبما أراد غير مراقب للآخرين مع عدم استقلاله (خير) لكم ( ام الله ) المعبود بالحق (الواحد) المتفرد بالالوهية ( القهار ) الغالب الذى لا يغالبه احد وبعدما نبههما على فساد تعدد الارباب بين لهما سقوط آلهتهما عن درجة الاعتبار رأسا فضلا عن الالوهية فقال معمما للخطاب لهما ولمن على دينهما ( ماتعبدون من دونه ) اى من دون الله شيئا (الا أسماء) فارغة لا مطابق لها فى الخارج لان ماليس فيه مصداق اطلاق الاسم عليه لاوجود له اصلا فكانت عبادتهم لتلك الاسماء فقط ( سميتموها) جعلتموها أسماء وانما لم يذكر المسميات تربية لما يقتضيه المقام من اسقاطها عن مرتبة الوجود وايذانا بان تسميتهم فى البطلان حيث كانت بلا مسمى كعبادتهم حيث كانت بلا معبود (أنتم وآباؤكم ) بمحض جهلكم وضلالتكم ( ماأنزل الله بها ) اى بتلك التسمية المستتبعة للعبادة (من سلطان) من حجة تدل على صحتها (ان الحكم) فى امر العبادة المتفرعة على تلك التسمية ( الا لله ) عز سلطانه لانه المستحق (وما حالهن)

وماحالهن ليعلم براءتى عن تلك التهمة الاانه اقتصر على ان يسأل الملك عن تلك الواقعة
لئلا يشتمل اللفظ على مايجرى مجرى امر الملك بعمل أوفعل ( وثانيهـا ) انه لم يذكر
سيدته مع انها هى التى سعت فى القائه فى السجن الطويل بل اقتصر على ذكر سائر
النسوة ( وثالثها ) ان الظاهر أن أولئك النسوة نسبنه الى عمل قبيح وفعل شنيع عند
الملك فاقتصر يوسف عليه السلام على مجرد قوله مابال النسوة اللاتى قطعن ايديهن
وماشكا منهن على سبيل التعيين والتفصيل ثم قال يوسف عليه السـلام بعد ذلك
ان ربى بكيدهن عليم وفى المراد من قوله ان ربى وجهان ( الاول ) انه هو الله تعالى
لانه تعالى هو العالم بخفيات الامور (والثانى) ان المراد به الملك وجعله ربا لنفسه
لكونه مربياله وفيه اشارة الى كون ذلك الملك عالما بكيدهن ومكرهن واعلم ان
كيدهن فى حقه يحتمل وجوها (احدها) ان كل واحدة منهن ربما طمعت فيه فلما
لم تجد المطلوب اخذت تطعن فيه وتنسبه الى القبيح (وثانيها) لعل كل واحدة منهن بالغت
فى ترغيب يوسف فى موافقة سيدته على مرادها ويوسف علم ان مثل هذه الخيانة فى حق
السيد المنعم لاتجوز فأشار بقوله ان ربى بكيدهن عليم الى مبالغتهن فى الترغيب فى تلك
الخيانه (وثالثها) انه استخرج منهن وجوها من المكر والحيل فى تقبيح صورة يوسف عليه
السـلام عند الملك فكان المراد من هذا اللفظ ذلك ثم انه تعالى حكى عن يوسف عليه
السلام انه لما التمس ذلك امر الملك باحضارهن وقال لهن ماخطبكن اذ راودتن يوسف
عن نفسه وفيه وجهان (الاول) ان قوله اذ راودتن يوسف عن نفسه وان كانت صيغة
الجمع فالمراد منها الواحدة كقوله تعالى الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم
(والثانى) ان المراد منه خطاب الجماعة ثم ههنا وجهان (الاول) ان كل واحدة منهن
راودت يوسف عن نفسها (والثانى) ان كل واحدة منهن راودت يوسف لاجل امرأة
العزيز فاللفظ محتمل لكل هذه الوجوه وعند هذا السؤال قلن حاش لله ماعلمنا عليه من
سوء وهذا كالتأكيد لما ذكرن فى اول الامر فى حقه وهو قولهن ماهذا بشرا ان هذا
الاملك كريم واعلم ان امرأة العزيز كانت حاضرة وكانت تعلم ان هذه المناظرات
والتفحصات انما وقعت بسببها ولاجلها فكشفت عن الغطاء وصرحت بالقول الحق
وقالت الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين وفيه مسائل (المسئلة
الاولى) هذه شهادة جازمة من تلك المرأة بأن يوسف صلوات الله عليه كان مبرأ عن كل
الذنوب مطهرا عن جميع العيوب وههنا دقيقة وهى ان يوسف عليه السلام راعى جانب
امرأة العزيز حيث قال مابال النسوة اللاتى قطعن ايديهن فذكرهن ولم يذكر تلك المرأة
البتة فعرفت المرأة انه انما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيما لجانبها واخفاء للامر عليها
فأرادت ان تكافئه على هذا الفعل الحسن فلاجرم ازالت الغطاء والوطاء واعترفت بأن
الذنب كله كان من جانبها وان يوسف عليه السلام كان مبرأ عن الكل ورأيت فى بعض

لها بالذات اذ هو الواجب بالذات الموجد للكل والمالك  لامره (أمر) استئناف مبنى على سؤال ناشئ من قوله ان الحكم
الالله فكأنه قيل فاذا حكم الله
فى هذا الشأن فقيل أمر على السنة
الانبياء عليهم السـلام ( ألا
تعبدوا ) أى بأن لاتعبدوا (الا
اياه ) حسبما تقضى به قضية
العقل ايضا ( ذلك ) اى تخصيصه
تعالى بالعبادة ( الدين القيم )
الثابت المستقيم الذى تعاضدت
عليه البراهين عقلا ونقلا (ولكن
أكثر الناس لايعلمون ) ان ذلك
هو الـدين القيم لجهلهم بتلك
البراهين اولايعلمون شيأ أصلا
فيعبدون أسماء سموها من تلقاء
أنفسهم معرضين عن البرهان
العقلى والسلطان النقلى وبعد
تحقيق الحق ودعوتهما اليه
وبيانه لهما مقداره الرفيع
ومرتبة علمه الواسع شرع فى
تفسير مااستفسراه ولكونه بحثا
مغايرا لما سبق فصله عنه
بتكرير الخطاب فقال (ياصاحبى
السجن أما احدكما )وهو
الشرابى وانما لم يعينه ثقة بدلالة
التعبير وتوسلا بذلك الى ابهام
امر صاحبه حذار مشافهته بما
يسوءه ( فيسقى ربه ) اى سيده
(خمرا) روى انه عليه السلام قال
له مارأيت من الكرمة وحسنها
الملك وحسن حالك عنده واما
القضبان الثلاثة فثلاثة ايام
تمضى فى السجن ثم تخرج وتعود
الى ماكنت عليه وقرأ عكرمة
فيسقى ربه على البنـاء للمفعول
أى يسـقى مايروى به ( واما
الآخر ) وهو الخباز (فيصلب
فتأكل الطير من رأسه )روى
انه عليه السلام قال له مارأيت
من السلال الثلاث ثلاثة ايام
تمر ثم تخرج فتقتل ( قضى )
أى أتم واحكم ( الامر الذى فيه تستفتيان )  وهو مارأياه من الرؤيين قطعا لامآله الذى هو عبارة عن

الكتب ان امرأة جاءت بزوجها الى القاضى وادعت عليه المهر فأمر القاضى بأن يكشف عن وجهها حتى تتمكن الشهود من اقامة الشهادة فقال الزوج لا حاجة الى ذلك فانى مقر بصدقها فى دعواها فقالت المرأة لما اكرمتنى الى هذا الحد فاشهدوا انى أبرأت ذمتك من كل حق لى عليك (المسئلة الثانية) قال اهل اللغة حصحص الحق معناه وضح وانكشف وتمكن فى القلوب والنفوس من قولهم حصحص البعير فى بروكه اذا تمكن واستقر فى الارض قال الزجاج اشتقاقه فى اللغة من الحصة اى بانت حصة الحق من حصة الباطل (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى ان قوله ذلك ليعلم انى لم أخنه بالغيب كلام من وفيه اقوال (الاول) وهو قول الاكثرين انه قول يوسف عليه السلام قال الفراء ولا يبعد وصل كلام انسان بكلام انسان آخر اذا دلت القرينة عليه ومثاله قوله تعالى ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وهذا كلام بلقيس ثم انه تعالى قال وكذلك يفعلون وايضا قوله تعالى ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه كلام الداعى ثم قال ان الله لا يخلف الميعاد بقى على هذا القول سؤالات (السؤال الاول) قوله ذلك اشارة الى الغائب والمراد ههنا الاشارة الى تلك الحادثة الحاضرة (والجواب) اجبنا عنه فى قوله ذلك الكتاب وقيل ذلك اشارة الى ما فعله من رد الرسول كأنه يقول ذلك الذى فعلت من ردى الرسول انما كان ليعلم الملك انى لم أخنه بالغيب (السؤال الثانى) متى قال يوسف عليه السلام هذا القول (الجواب) روى عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما ان يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال ذلك ليعلم وانما ذكره على لفظ الغيبة تعظيما للملك عن الخطاب والاولى انه عليه السلام انما قال ذلك عند عود الرسول اليه لان ذكر هذا الكلام فى حضرة الملك سوء أدب (السؤال الثالث) هذه الخيانة وقعت فى حق العزيز فكيف يقول ذلك ليعلم انى لم أخنه بالغيب (والجواب) قيل المراد ليعلم الملك انى لم أخن العزيز بالغيبة وقيل انه اذا خان وزيره فقد خانه من بعض الوجوه وقيل ان الشرابى لما رجع الى يوسف عليه السلام وهو فى السجن قال ذلك ليعلم العزيز انى لم أخنه بالغيب ثم ختم الكلام بقوله وان الله لا يهدى كيد الخائنين ولعل المراد منه انى لو كنت خائنا لما خلصنى الله تعالى من هذه الورطة وحيث خلصنى منها ظهر انى كنت مبرأ عما نسبونى اليه (والقول الثانى) ان قوله ذلك ليعلم انى لم أخنه بالغيب كلام امرأة العزيز والمعنى انى وان أحلت الذنب عليه عند حضوره لكنى ما أحلت الذنب عليه عند غيبته اى لم أقل فيه وهو فى السجن خلاف الحق ثم انها بالغت فى تأكيد الحق بهذا القول وقالت وان الله لا يهدى كيد الخائنين يعنى انى لما أقدمت على الكيد والمكر لا جرم افتضحت وانه لما كان بريئا عن الذنب لا جرم طهره الله تعالى عنه قال صاحب هذا القول والذى يدل على صحته ان يوسف عليه السلام ما كان حاضرا فى ذلك المجلس حتى يقال لما ذكرت المرأة قولها الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ففى تلك الحالة يقول يوسف ذلك ليعلم انى أخنه

نجاة احدهما وهلاك الآخر كما يوهمه اسناد القضاء اليه اذ الاستفتاء انما يكون ( ٣٠٢ ) فى الحادثة لا فى حكمها يقال استفتى الفقيه فى الحادثة أى طلب منه بيان حكمها ولا يقال استفتاه فى حكمها وكذا الافتاء فانه يقال أفتى فلان فى الواقعة الفلانية بكذا ولا يقال أفتى فى حكمها او جوابها بكذا او مما هو علم فى ذلك قوله تعالى يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى ومعنى استفتائهما فيه طلبهما لتأويله بقولهما نبئنا بتأويله وانما عبر عن ذلك بالامر وعن طلب تأويله بالاستفتاء تهويلا لامره وتفخيما لشأنه اذ الاستفتاء انما يكون فى النوازل المشكلة الحكم المبهمة الجواب وايثار صيغة الاستقبال مع سبق استفتائهما فى ذلك لما انهما بصدده الى ان يقضى عليه السلام من الجواب وطره واسناد القضاء اليه مع انه من احوال مآله لانه فى الحقيقة عين ذلك المآل وقد ظهر فى عالم المثال بتلك الصورة واما توحيده مع تعدد رؤياهما فوارد على حسب ما وحداه فى قولهما نبئنا بتأويله لا لان الامر ما اتهما به وسجنا لاجله من سم الملك فانهما لم يستفتياه فيه ولا فيما هو صورته بل فيما هو صورة لمآله وعاقبته فتأمل وانما اخبرهما عليه السلام بذلك تحقيقا لتعبيره وتأكيدا له وقيل لما عبر رؤياهما جحدا وقالا ما رأينا شيئا فاخبرهما ان ذلك كائن صدقتما او كذبتما ولعل الجحود من الخباز اذ لا داعى الى جحود الشرابى الا ان يكون ذلك لمراعاة جانبه ( وقال ) اى يوسف عليه السلام ( للذى ظن انه ناج ) أوثر على صيغة المضارع مبالغة فى الدلالة على تحقق النجاة حسبما يفيده قوله تعالى قضى الامر الذى فيه تستفتيان وهو السر فى ايثار ما عليه النظم الكريم على ان يقال للذى ظنه

( بالغيب )

بالغيب بل يحتاج فيه الى ان يرجع الرسول من ذلك المجلس الى السجن ويذكر له تلك الحكاية ثم ان يوسف يقول ابتداء ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب ومثل هذا الوصل بين الكلامين الاجنبيين ماجاء البتة فى نثر ولا نظم فعلمنا ان هذا من تمام كلام المرأة (المسئلة الرابعة) هذه الآية دالة على طهارة يوسف عليه السلام من الذنب من وجوه كثيرة (الاول) ان الملك لما ارسل الى يوسف عليه السلام وطلبه فلو كان يوسف متهما بفعل قبيح وقد كان صدر منه ذنب وفحش لاستحال بحسب العرف والعادة ان يطلب من الملك ان يتفحص عن تلك الواقعة لانه لو كان قد اقدم على الذنب ثم انه يطلب من الملك ان يتفحص عن تلك الواقعة كان ذلك سعيا منه فى فضيحة نفسه وفى تجديد العيوب التى صارت مندرسة مخفية والعاقل لا يفعل ذلك وهب انه وقع الشك لبعضهم فى عصمته او فى نبوته الا انه لاشك انه كان عاقلا والعاقل يمتنع ان يسعى فى فضيحة نفسه وفى حمل الاعداء على ان يبالغوا فى اظهار عيوبه (والثانى) ان النسوة شهدن فى المرة الاولى بطهارته ونزاهته حيث قلن حاش لله ماهذا بشرا ان هذا الا ملك كريم وفى المرة الثانية حيث قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء (والثالث) ان امرأة العزيز اقرت فى المرة الاولى بطهارته حيث قالت ولقد راودته عن نفسه فاستعصم وفى المرة الثانية فى هذه الآية واعلم ان هذه الآية دالة على طهارته من وجوه (اولها) قول المرأة انا راودته عن نفسه (وثانيها) قولها وانه لمن الصادقين وهو اشارة الى انه صادق فى قوله هى راودتنى عن نفسى (وثالثها) قول يوسف عليه السلام ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب والحشوية يذكرون انه لما قال يوسف هذا الكلام قال جبريل عليه السلام ولا حين هممت وهذا من رواياتهم الخبيثة وما صحت هذه الرواية فى كتاب معتمد بل هم يلحقونها بهذا الموضع سعيا منهم فى تحريف ظاهر القرآن (ورابعها) قوله وان الله لا يهدى كيد الخائنين يعنى ان صاحب الخيانة لابد وان يفتضح فلو كنت خائنا لوجب ان افتضح وحيث لم افتضح وخلصنى الله تعالى من هذه الورطة فكل ذلك يدل على انى ما كنت من الخائنين وههنا وجه آخر وهو اقوى من الكل وهو ان فى هذا الوقت تلك الواقعة صارت مندرسة وتلك المحنة صارت منتهية فاقدامه على قوله ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب مع انه خانه باعظم وجوه الخيانة اقدام على وقاحة عظيمة وعلى كذب عظيم من غير ان يتعلق به مصلحة بوجه ما والاقدام على مثل هذه الوقاحة من غير فائدة اصلا لا يليق باحد من العقلاء فكيف يليق اسناده الى سيد العقلاء وقدوة الاصفياء فثبت ان هذه الآية تدل دلالة قاطعة على براءته مما يقوله الجهال والحشوية * قوله تعالى

(وما ابرئ نفسى ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربى ان ربى غفور رحيم) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان تفسير هذه الآية يختلف بحسب اختلاف ما قبلها لانا ان قلنا ان قوله ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب كلام يوسف كان هذا ايضا من كلام يوسف وان قلنا ان ذلك من تمام كلام المرأة كان هذا ايضا كذلك ونحن نفسر هذه الآية

ناجيا (منهما) من صاحبيه وانما ذكر بوصف النجاة (٢٠٣) تمهيدا لمناط التوصية بالذكر عند الملك وعنوان التقرب المفهوم من التعبير المذكور وان كان ادخل فى ذلك وادعى الى تحقيق ماوصاه به لكنه ليس بوصف فارق يدور عليه الامتياز بينه وبين صاحبه المذكور بوصف الهلاك والظان هو يوسف عليه السلام لا صاحبه لان التوصية المذكورة لا تدور على ظن الناجى بل على ظن يوسف وهو بمعنى اليقين كما فى قوله تعالى ظننت انى ملاق حسابيه فالتعبير بالوحى كما ينبئ عنه قوله تعالى قضى الامر الخ وقيل هو بمعناه والتعبير بالاجتهاد والحكم بقضاء الامر ايضا اجتهادى (اذكرنى) بما انا عليه من الحال والصفة (عند ربك) سيدك وصفنى له بصفتى التى شاهدتها (فانساه الشيطان) اى انسى الشرابى بوسوسته والقائه فى قلبه اشغالا تعوقه عن الذكر والا فالانساء فى الحقيقة لله عز وجل والفاء للسببية فان توصيته عليه السلام المتضمنة للاستعانة بغيره سبحانه كانت باعثة لما ذكر من الانساء (ذكر ربه) اى ذكر الشرابى له عليه السلام عند الملك والاضافة لادنى ملابسة او ذكر اخبار ربه (فلبث) اى يوسف عليه السلام بسبب ذلك الانساء او القول (فى السجن بضع سنين) البضع ما بين الثلاث الى التسع من البضع وهو القطع واكثر الاقاويل انه لبث فيه سبع سنين وروى عن النبى عليه السلام رحم الله اخى يوسف لو لم يقل اذكرنى عند ربك لما لبث فى السجن سبعا بعد الخمس والاستعانة بالعباد وان كانت مرخصة لكن اللائق بمناصب الانبياء عليهم السلام الاخذ بالعزائم (وقال الملك) اى الريان (انى ارى) اى رأيت وايثار

على كلا التقديرين اما اذا قلنا ان هذا من كلام يوسف عليه السلام فالحشوية تمسكوا به وقالوا انه عليه السلام لما قال ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب قال جبريل عليه السلام ولا حين هممت بفك سراويلك فعند ذلك قال يوسف وما ابرئ نفسى ان النفس لامارة بالسوء اى بالزنا الا ما رحم ربى اى عصم ربى ان ربى غفور للهم الذى هممت به رحيم اى لو فعلته لتاب على واعلم ان هذا الكلام ضعيف فانا بينا ان الآية المتقدمة برهان قاطع على براءته عن الذنب بقى ان يقال فاجوابكم عن هذه الآية فنقول فيه وجهان (الاول) انه عليه السلام لما قال ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب كان ذلك جاريا مجرى مدح النفس وتزكيتها وقال تعالى فلا تزكوا انفسكم فاستدرك ذلك على نفسه بقوله وما ابرئ نفسى والمعنى وما ازكى نفسى ان النفس لامارة بالسوء ميالة الى القبائح راغبة فى المعصية (والوجه الثانى) فى الجواب ان الآية لا تدل البتة على شئ مما ذكروه وذلك لان يوسف عليه السلام لما قال انى لم اخنه بالغيب بين ان ترك الخيانة ما كان لعدم الرغبة ولعدم ميل النفس والطبيعة لان النفس امارة بالسوء والطبيعة توافة الى اللذات فبين بهذا الكلام ان الترك ما كان لعدم الرغبة بل لقيام الخوف من الله تعالى اما اذا قلنا ان هذا الكلام من بقية كلام المرأة ففيه وجهان (الاول) وما ابرئ نفسى عن مراودته ومقصودها تصديق يوسف عليه السلام فى قوله هى راودتنى عن نفسى (الثانى) انها لما قالت ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب قالت وما ابرئ نفسى عن الخيانة مطلقا فانى قد خنته حين قد احلت الذنب عليه وقلت ما جزاء من اراد بأهلك سوأ الا ان يسجن او عذاب اليم واودعته السجن كأنها ارادت الاعتذار مما كان فان قيل جعل هذا الكلام كلاما ليوسف اولى ام جعله كلاما للمرأة قلنا جعله كلاما ليوسف مشكل لان قوله قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق كلام موصول بعضه ببعض الى آخره فالقول بأن بعضه كلام المرأة والبعض كلام يوسف مع تخلل الفواصل الكثيرة بين القولين وبين المجلسين بعيد وايضا جعله كلاما للمرأة مشكل ايضا لان قوله وما ابرئ نفسى ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربى كلام لا يحسن صدوره الا ممن احترز عن المعاصى ثم يذكر هذا الكلام على سبيل كسر النفس وذلك لا يليق بالمرأة التى استفرغت جهدها فى المعصية (المسئلة الثانية) قالوا ما فى قوله الا ما رحم ربى بمعنى من والتقدير الا من رحم ربى وما ومن كل واحد منهما يقوم مقام الآخر كقوله تعالى فانكحوا ما طاب لكم من النساء وقال ومنهم من يمشى على اربع وقوله الا ما رحم ربى استثناء متصل او منقطع فيه وجهان (الاول) انه متصل وفى تقريره وجهان (الاول) ان يكون قوله الا ما رحم ربى اى الا البعض الذى رحمه ربى بالعصمة كالملائكة (الثانى) الا ما رحم ربى اى الا وقت رحمة ربى يعنى انها امارة بالسوء فى كل وقت الا فى وقت العصمة (والقول الثانى) انه استثناء منقطع اى ولكن رحمة ربى هى التى تصرف الاساءة كقوله ولا هم ينصرون الا رحمة منا (المسئلة الثالثة) اختلف

صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية (سبع بقرات سمان) جمع سمين وسمينة ككرام فى جمع كريم وكريمة يقال رجال كرام ونسوة كرام (يأكلهن) اى أكلن والعدول الى المضارع لاستحضار الصورة تعجيبا والجملة حال من البقرات اوصفة لها (سبع عجاف) اى سبع بقرات عجاف وهى جمع عجفاء والقياس عجف لان فعلاء وافعل لا يجمع على فعال ولكن عدل به عن القياس حملا لاحد النقيضين على الآخر وانما لم يقل سبع عجاف بالاضافة لان التمييز موضوع لبيان الجنس والصفة ليست بصالحة لذلك فلا يقال ثلاثة ضخام واربعة غلاظ واما قولك ثلاثة فرسان وخمسة ركبان فلجريان الفارس والراكب مجرى الاسماء روى انه رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وخرج عقيبهن سبع بقرات عجاف فى غاية الهزال فابتلعت العجاف السمان (وسبع سنبلات خضر) قد انعقد حبها (واخر يابسات) اى وسبعا اخر يابسات قد ادركت والتوت على الخضر حتى غلبتا على ما روى ولعل عدم التعرض لذكره للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات (يا أيها الملأ) خطاب للاشراف من العلماء والحكماء (افتونى فى رؤياى) هذه اى عبروها وبينوا حكمها وما تؤول اليه من العاقبة والتعبير عن التعبير بالافتاء لتشريفهم وتفخيم امر رؤياه (ان كنتم للرؤيا تعبرون) اى تعلمون عبارة جنس الرؤيا علما مستمرا وهى الانتقال من الصور الخيالية المشاهدة فى المنام الى ما هى صور وامثلة لها من الامور الآفاقية او الانفسية الواقعة فى الخارج من العبور وهو المجاوزة تقول عبرت النهر اذا قطعته وجاوزته ونحوه اولتها اى ذكرت مآلها وعبرت

( الحكماء )

الحكماء فى ان النفس الامارة بالسوء ماهى والمحققون قالوا ان النفس الانسانية شئ واحد ولها صفات كثيرة فاذا مالت الى العالم الالهى كانت نفسا مطمئنة واذا مالت الى الشهوة والغضب كانت امارة بالسوء وكونها امارة بالسوء يفيد المبالغة والسبب فيه ان النفس من اول حدوثها قد ألفت المحسوسات والتذت بها وعشقتها فاما شعورها بعالم المجردات وميلها اليه فذلك لا يحصل الا نادرا فى حق الواحد فالواحد وذلك الواحد فانما يحصل له ذلك التجرد والانكشاف طول عمره فى الاوقات النادرة فلما كان الغالب هو انجذابها الى العالم الجسدانى وكان ميلها الى الصعود الى العالم الاعلى نادرا لا جرم حكم عليها بكونها امارة بالسوء ومن الناس من زعم ان النفس المطمئنة هى النفس العقلية النطقية واما النفس الشهوانية والغضبية فهما مغايرتان للنفس العقلية والكلام فى تحقيق الحق فى هذا الباب مذكور فى المعقولات (المسئلة الرابعة) تمسك اصحابنا فى ان الطاعة والايمان لا يحصلان الا من الله بقوله الا ما رحم ربى قالوا دلت الآية على ان انصراف النفس من الشر لا يكون الا برحمته ولفظ الآية مشعر بأنه متى حصلت تلك الرحمة حصل ذلك الانصراف فنقول لا يمكن تفسير هذه الرحمة باعطاء العقل والقدرة والالطاف كما قاله القاضى لان كل ذلك مشترك بين الكافر والمؤمن فوجب تفسيرها بشئ آخر وهو ترجيح داعية الطاعة على داعية المعصية وقد اثبتنا ذلك ايضا بالبرهان القاطع وحينئذ يحصل منه المطلوب ❊ قوله تعالى (وقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين امين قال اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى هذا الملك فمنهم من قال هو العزيز ومنهم من قال بل هو الريان الذى هو الملك الاكبر وهذا هو الاظهر لوجهين (الاول) ان قول يوسف اجعلنى على خزائن الارض يدل عليه (الثانى) ان قوله استخلصه لنفسى يدل على انه قبل ذلك ما كان خالصا له وقد كان يوسف عليه السلام قبل ذلك خالصا للعزيز فدل هذا على ان هذا الملك هو الملك الاكبر (المسئلة الثانية) ذكروا ان جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام وهو فى الحبس وقال قل اللهم اجعل لى من عندك فرجا ومخرجا وارزقنى من حيث لا احتسب فقبل الله دعاءه واظهر هذا السبب فى تخليصه من السجن وتقرير الكلام ان الملك عظم اعتقاده فى يوسف لوجوه (احدها) انه عظم اعتقاده فى علمه وذلك لانه لما عجز القوم عن الجواب وقدر هو على الجواب الموافق الذى يشهد العقل بصحته مال الطبع اليه (وثانيها) انه عظم اعتقاده فى صبره وثباته وذلك لانه بعد ان بقى فى السجن بضع سنين لما اذن له فى الخروج ما اسرع الى الخروج بل صبر وتوقف وطلب اولا ما يدل على براءة حاله عن جميع التهم (وثالثها) انه عظم اعتقاده فى حسن ادبه وذلك لانه اقتصر على قوله ما بال النسوة اللاتى قطعن ايديهن وان كان غرضه ذكر امرأة العزيز فستر ذكرها وتعرض لامر سائر النسوة مع انه وصل اليه من جهتها انواع عظيمة من البلاء وهذا من الادب

الرؤيا عبارة اثبت من عبرتها تعبير اوالجمع بين الماضى والمستقبل ( ٢٠٥ ) للدلالة على الاستمرار كما اشير اليه واللام للبيان اولتقوية العامل المؤخر لرعاية الفواصل اولتضمين تعبرون معنى فعل متعد باللام كأنه قيل ان كنتم تنتدبون لعبارتها ويجوز ان يكون للرؤيا خبر كان كما يقال فلان لهذا الامر اذا كان مستقلا به متمكنا منه وتعبرون خبر آخر (قالوا) استئناف مبنى على السوال كأنه قيل فاذا قال الملاء للملك فقيل قالوا هى (اضغاث احلام) اى تخاليطها جمع ضغث وهو فى الاصل ما جمع من اخلاط النبات وحزم ثم استعير لما تجمعه القوة المتخيلة من احاديث النفس ووساوس الشيطان وتريها فى المنام والاحلام جمع حلم وهى الرؤيا الكاذبة التى لا حقيقة لها والاضافة بمعنى من اى هى أضغاث من احلام اخرجوها من جنس الرؤيا التى لها عاقبة تؤل اليها ويعتنى بأمرها وجمعوها وهى رؤيا واحدة مبالغة فى وصفها بالبطلان كما فى قولهم فلان يركب الخيل ويلبس العمائم لمن لا يملك الا فرسا واحدا وعمامة فردة او لتضمنها أشياء مختلفة من البقرات السبع السمان والسبع العجاف والسنابل السبع الخضر والاخر اليابسات فتأمل حسن موقع الاضغاث مع السنابل فلله در شأن التنزيل (وما نحن بتأويل الاحلام) اى المنامات الباطلة التى لا أصل لها (بعالمين) لا لان لها تأويلا ولكن لا نعلمه بل لانه لا تأويل لها وانما التأويل للمنامات الصادقة ويجوز ان يكون ذلك اعترافا منهم بقصور علمهم وانهم ليسوا بنحارير فى تأويل الاحلام مع ان لها تأويلا كما يشعر به عدولهم عما وقع فى كلام الملك من العبارة المعربة عن مجرد الانتقال من الدال

العجيب (ورابعها) براءة حاله عن جميع انواع التهم فان الخصم اقرله بالطهارة والنزاهة والبراءة عن الجرم (وخامسها) ان الشرابى وصف له جده فى الطاعات واجتهاده فى الاحسان الى الذين كانوا فى السجن (وسادسها) انه بقى فى السجن بضع سنين وهذه الامور كل واحد منها يوجب حسن الاعتقاد فى الانسان فكيف مجموعها فلهذا السبب حسن اعتقاد الملك فيه واذا اراد الله شيئا جمع اسبابه وقواها اذا عرفت هذا فنقول لما ظهر للملك هذه الاحوال من يوسف عليه السلام رغب ان يتخذه لنفسه فقال ائتونى به استخلصه لنفسى روى ان الرسول قال ليوسف عليه السلام قم الى الملك متنظفا من درن السجن بالثياب النظيفة والهيئة الحسنة فكتب على باب السجن هذه منازل البلوى وقبور الاحياء وشماتة الاعداء وتجربة الاصدقاء ولما دخل عليه قال اللهم انى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم دخل عليه وسلم ودعا له بالعبرانية والاستخلاص طلب خلوص الشئ من شوائب الاشتراك وهذا الملك طلب ان يكون يوسف له وحده وانه لايشاركه فيه غيره لان عادة الملوك ان ينفردوا بالاشياء النفيسة الرفيعة فلما علم الملك انه وحيد زمانه وفريد اقرانه اراد ان ينفرد به روى ان الملك قال ليوسف عليه السلام مامن شئ الا واحب ان تشركنى فيه الا فى اهلى وفى ان تأكل معى فقال يوسف عليه السلام اماترى ان آكل معك وانا يوسف بن يعقوب بن اسحق الذبيح ابن ابراهيم الخليل عليهم السلام ثم قال فلما كلمه وفيه قولان (احدهما) ان المراد فلما كلم الملك يوسف عليه السلام قالوا لان فى مجالس الملوك لايحسن لاحد ان يبتدئ بالكلام وانما الذى يبتدئ به هو الملك (والثانى) ان المراد فلما كلم يوسف الملك قيل لما صار يوسف الى الملك وكان فى ذلك الوقت ابن ثلاثين سنة فلما رآه الملك حدثا شابا قال للشرابى هذا هو الذى علم تأويل رؤياى مع ان السحرة والكهنة ماعلموها قال نعم فاقبل على يوسف وقال انى احب ان اسمع تأويل الرؤيا منك شفاها فاجاب بذلك الجواب شفاها وشهد قلبه بصحته فعند ذلك قال له الملك انك اليوم لدينا مكين امين يقال فلان مكين عند فلان بين المكانة اى المنزلة وهى حالة يتمكن بها صاحبها مما يريد وقوله امين اى قد عرفنا امانتك وبراءتك مما نسبت اليه واعلم ان قوله مكين امين كلمة جامعة لكل مايحتاج اليه من الفضائل والمناقب وذلك لانه لابد فى كونه مكينا من القدرة والعلم اما القدرة فلان بها يحصل المكنة واما العلم فلان كونه متمكنا من افعال الخير لايحصل الا به اذ لو لم يكن عالما بما ينبغى وبما لاينبغى لايمكنه تخصيص ماينبغى بالفعل وتخصيص مالاينبغى بالترك فثبت ان كونه مكينا لايحصل الا بالقدرة والعلم اما كونه امينا فهو عبارة عن كونه حكيما لايفعل الفعل لداعى الشهوة بل انما يفعله لداعى الحكمة فثبت ان كونه مكينا امينا يدل على كونه قادرا وعلى كونه عالما بمواقع الخير والشر والصلاح والفساد وعلى كونه بحيث يفعل لداعى الحكمة لالداعية الشهوة وكل من كان كذلك فانه لايصدر عنه فعل الشر والسفه فلهذا

من البعد ويؤيده قوله عزوجل انا أنبئكم بتأويله (وقال الذى نجا منهما) اى من صاحبى يوسف وهو الشرابى (وادكر) بغير المعجمة وهو الفصيح وعن الحسن بالمعجمة اى تذكر يوسف عليه السلام وشؤنه التى شاهدها ووصيته بتقريب رؤيا الملك واشكال تأويلها على الملاء (بعد امة) اى مدة طويلة وقرئ امة بالكسر وهى النعمة اى بعد ماانعم عليه بالنجاة وامه اى نسيان والجملة حال من الموصول او من ضميره فى الصلة وقيل معطوفة على نجا وليس بذاك لان حق كل من الصفة والصلة ان تكون معلومة الانتساب الى الموصوف والموصول عند المخاطب كما عند المتكلم ولذلك قيل ان الصفات قبل العلم بها اخبار والاخبار بعد العلم بها صفات وانت تدرى ان تذكره بعد امة انما علم بهذه الجملة فلا مجال لنظمه مع نجاته المعلومة قبل فى سلك الصلة (انا انبئكم بتأويله) اى اخبركم به بالتلقى عمن عنده علمه لامن تلقاء نفسى ولذلك لم يقل انا أفتيكم فيها وعقبه بقوله (فارسلون) اى الى يوسف وانما لم يذكره ثقة بما سبق من التذكر وما لحق من قوله (يوسف أيها الصديق) اى ارسلن اليه فأتاه فقال يا يوسف ووصفه بالمبالغة فى الصدق حسبما شاهده وذاق احواله وجربها لكونه بصدد اغتنام آثاره واقتباس انواره فهو من باب براعة الاستهلال (أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات) اى فى رؤيا ذلك وانما لم يصرح به لوضوح مرامه بقرينة ماسبق من معاملتهما ولدلالة مضمون الحادثة (المعنى)

المعنى لماحاولت المعتزلة اثبات انه تعالى لايفعل القبيح قالوا انه تعالى لايفعل القبيح لانه تعالى عالم بقبح القبيح عالم بكونه غنيا عنه وكل من كان كذلك لم يفعل القبيح قالوا وانما يكون غنيا عن القبيح اذا كان قادرا واذا كان منزها عن داعية السفه فثبت ان وصفه بكونه مكينا امينا نهاية مايمكن ذكره فى هذا الباب ثم حكى تعالى ان يوسف عليه السلام قال فى هذا المقام اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال المفسرون لماعبر يوسف عليه السلام رؤيا الملك بين يديه قال له الملك فاترى ايها الصديق قال أرى ان تزرع فى هذه السنين المخصبة زرعا كثيرا وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام فاذاجاءت السنون المجدبة بعنا الغلات فيحصل بهذا الطريق مال عظيم فقال الملك ومن لى بهذا الشغل فقال يوسف اجعلنى على خزائن الارض اى على خزائن ارض مصر وادخل الالف واللام على الارض والمراد منه المعهود السابق روى ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية انه قال رحم الله اخى يوسف لولم يقل اجعلنى على خزائن الارض لاستعمله من ساعته لكنه لماقال ذلك اخره عنه سنة واقول هذا من العجائب لانه لماتأبى عن الخروج من السجن سهل الله عليه ذلك على احسن الوجوه ولماتسارع فى ذكر الالتماس اخر الله تعالى ذلك المطلوب عنه وهذا يدل على ان ترك التصرف والتفويض بالكلية الى الله تعالى اولى (المسئلة الثانية) لقائل ان يقول لم طلب يوسف الامارة والنبى عليه الصلاة السلام قال لعبد الرحمن بن سمرة لاتسأل الامارة وايضا فكيف طلب الامارة من سلطان كافر وايضا لم لم يصبر مدة ولم اظهر الرغبة فى طلب الامارة فى الحال وايضا لم طلب امر الخزائن فى اول الامر مع ان هذا يورث نوع تهمة وايضا كيف جوز من نفسه مدح نفسه بقوله انى حفيظ عليم مع انه تعالى يقول فلاتزكوا انفسكم وايضا فما الفائدة فى قوله انى حفيظ عليم وايضا لم ترك الاستثناء فى هذا فان الاحسن ان يقول انى حفيظ عليم ان شاء الله بدليل قوله تعالى ولاتقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله فهذه اسئلة سبعة لابد من جوابها فنقول الاصل فى جواب هذه المسائل ان التصرف فى امور الخلق كان واجبا عليه فجازله ان يتوصل اليه بأى طريق كان انما قلنا ان ذلك التصرف كان واجبا عليه لوجوه (الاول) انه كان رسولا حقا من الله تعالى الى الخلق والرسول يجب عليه رعاية مصالح الامة بقدر الامكان (والثانى) وهو انه عليه السلام علم بالوحى انه سيحصل القحط والضيق الشديد الذى ربما افضى الى هلاك الخلق العظيم فلعله تعالى امره بان يدبر فى ذلك ويأتى بطريق لاجله يقل ضرر ذلك القحط فى حق الخلق (والثالث) ان السعى فى ايصال النفع الى المستحقين ودفع الضرر عنهم امر مستحسن فى العقول واذا ثبت هذا فنقول انه عليه السلام كان مكلفا برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه وما كان يمكنه رعايتها الابهذا الطريق ومالايتم الواجب الابه فهو واجب فكان هذا الطريق واجبا عليه ولما كان واجبا سقطت الاسئلة

عليه حيث لاامكان لوقوعه فى عالم الشهادة اى بين لنا ماآلها (٢٠٧) وحكمها وحيث عاين علو رتبته عليه السلام فى الفضل عبر عن ذلك بالافتاء ولم يقل كما قال هو وصاحبه اولا نبئنا بتأويله وفى قوله افتنا مع انه المستفتى وحده اشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة وانه فى ذلك معبر وسفير كما آذن بذلك حيث قال (لعلى ارجع الى الناس) اى الى الملك ومن عنده اوالى اهل البلدان كان السجن فى الخارج كما قيل فأنبئهم بذلك (لعلهم يعلمون) ذلك ويعملون بمقتضاه اويعلمون فضلك ومكانك مع ماانت فيه من الحال فتتخلص منه وانما لم يبت القول فى ذلك مجاراة معه على نهج الادب واحترازا عن المجازفة اذ لم يكن على يقين من الرجوع فربما اخترم دونه

*لعل المنايا دون ماتعدانى *

ولا من علمهم بذلك فربما لم يعلموه (قال) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال يوسف عليه السلام فى التأويل فقيل قال (تزرعون سبع سنين دأبا) قرئ بفتح الهمزة وسكونها وكلاهما مصدر دأب فى العمل اذاجد فيه وتعب وانتصابه على الحالية من فاعل تزرعون اى دائبين او تدأبون دأبا على انه مصدر مؤكد لفعل هو الحال اول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب والعجاف واليابسات بسنين مجدبة فأخبرهم بأنهم يواظبون سبع سنين على الزراعة ويبالغون فيها اذ بذلك يتحقق الخصب الذى هو مصداق البقرات السمان وتأويلها ودلهم فى تضاعيف ذلك على امر نافع لهم فقال (فاحصدتم) اى فى كل سنة (فذروه فى سنبله) ولاتذروه كيلا يأكله السوس كما هو شأن غلال مصر ونواحيها ولعله عليه السلام استدل على ذلك

بالكلية واما ترك الاستثناء فقال الواحدى كان ذلك من خطيئة اوجبت عقوبة وهى انه تعالى اخر عنه حصول ذلك المقصود سنة واقول لعل السبب فيه انه لو ذكر هذا الاستثناء لاعتقد فيه الملك انما ذكره لعلمه بأنه لاقدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغى فلاجل هذا المعنى ترك الاستثناء واما قوله لم مدح نفسه فجوابه من وجوه (الاول) لانسلم انه مدح نفسه لكنه بين كونه موصوفا بهاتين الصفتين النافعتين فى حصول هذا المطلوب وبين البابين فرق وكأنه قد غلب على ظنه انه يحتاج الى ذكر هذا الوصف لان الملك وان علم كماله فى علوم الدين لكنه ما كان عالما بأنه يفى بهذا الامر ثم نقول هب انه مدح نفسه الا ان مدح النفس انما يكون مذموما اذا قصد الرجل به التطاول والتفاخر والتوصل الى غير ما يحل فأما على غير هذا الوجه فلا نسلم انه محرم فقوله تعالى فلا تزكوا انفسكم المراد منه تزكية النفس حال ما يعلم كونها غير متزكية والدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية هو اعلم بمن اتقى اما اذا كان الانسان عالما بأنه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه والله اعلم قوله ما الفائدة فى وصفه نفسه بأنه حفيظ عليم قلنا انه جار مجرى ان يقول حفيظ بجميع الوجوه التى منها يمكن تحصيل الدخل والمال عليم بالجهات التى تصلح لان يصرف المال اليها ويقال حفيظ بجميع مصالح الناس عليم بجهات حاجاتهم اويقال حفيظ لوجوه اياديك وكرمك عليم بوجوب مقابلتها بالطاعة والخضوع وهذا باب واسع يمكن تكثيره لمن اراده ❊ قوله تعالى (وكذلك مكنا ليوسف فى الارض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع اجر المحسنين ولاجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) فيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان يوسف عليه السلام لما التمس من الملك ان يجعله على خزائن الارض لم يحك الله عن الملك انه قال قد فعلت بل الله سبحانه قال وكذلك مكنا ليوسف فى الارض فههنا المفسرون قالوا فى الكلام محذوف وتقديره قال الملك قد فعلت الا ان تمكين الله له فى الارض يدل على ان الملك قد اجابه الى ما سأل واقول ما قالوه حسن الا ان ههنا ما هو احسن منه وهو ان اجابة الملك له سبب فى عالم الظاهر واما المؤثر الحقيقى فليس الا انه تعالى مكنه فى الارض وذلك لان ذلك الملك كان متمكنا من القبول ومن الرد فنسبة قدرته الى القبول والى الرد على التساوى ومادام يبقى هذا التساوى امتنع حصول القبول فلابد وان يترجح القبول على الرد فى خاطر ذلك الملك وذلك الترجح لايكون الا بمرجح يخلقه الله تعالى واذا خلق الله تعالى ذلك المرجح حصل القبول لامحالة فالتمكن ليوسف فى الارض ليس الا من خلق الله تعالى فى قلب ذلك الملك بمجموع القدرة والداعية الجازمة اللتين عند حصولهما يجب الاثر فلهذا السبب ترك الله تعالى ذكر اجابة الملك واقتصر على ذكر التمكين الالهى لان المؤثر الحقيقى ليس الا هو (المسئلة الثانية) روى ان الملك توجه وأخرج خاتم الملك وجعله فى اصبعه وقلده بسيفه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت فقال يوسف عليه السلام اما السرير فاشد به ملكك واما الخاتم

الوقوع وتأويلا للرؤيا مصداقا لما فيها من البقرات السمان (الاقليلا مما تأكلون) فى تلك السنين وفيه ارشاد منه عليه السلام لهم الى التقليل فى الاكل والاقتصار على الاستثناء المأكول دون البذر لكون ذلك معلوما من قوله تزرعون سبع سنين وبعد اتمام ما أمرهم به شرع فى بيان بقية التأويل التى يظهر منها حكمة الامر المذكور فقال (ثم يأتى) وهو عطف على تزرعون فلا وجه لجعله بمعنى الامر حثا لهم على الجد والمبالغة فى الزراعة على انه يحصل بالاخبار بذلك ايضا (من بعد ذلك) اى من بعد السنين السبع المذكورات وانما لم يقل من بعدهن قصدا الى الاشارة الى وصفهن فان الضمير ساكت عن اوصاف المرجع بالكلية (سبع شداد) اى سبع سنين صعاب على الناس (يأكلن ما قدمتم لهن) من الحبوب المتروكة فى سنابلها وفيه تنبيه على ان امره عليه السلام بذلك كان لوقت الضرورة واسناد الاكل اليهن مع انه حال الناس فيهن مجازى كما فى نهاره صائم وفيه تلويح بأنه تأويل لاكل العجاف السمان واللام فى لهن ترشيح لذلك فكأن ما ادخر فى السنابل من الحبوب شئ قد هيئ وقدم لهن كالذى يقدم للنازل والا فهو فى الحقيقة مقدم للناس فيهن (الاقليلا مما تحصنون) تحرزون لمبذور الزراعة (ثم يأتى من بعد ذلك) اى من بعد السنين الموصوفة بما ذكر من الشدة واكل الغلال المدخرة (عام) لم يعبر عنه بالسنة تحاشيا

عن المدلول الاصلى لها من عام القحط وتنبيها من اول الامر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق (فيه يغاث الناس) (فادبر)

فأدبر به امرك واما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائى وجلس على السرير ودانت له القوم وعزل الملك قطفير زوج المرأة المعلومة ومات بعد ذلك وزوجه الملك امرأته فلما دخل عليها قال أليس هذا خيرا مما طلبت فوجدها عذراء فولدت له ولدين افرايم وميشا واقام العدل بمصر واحبته الرجال والنساء واسلم على يده الملك وكثير من الناس وباع من اهل مصر فى سنى القحط الطعام بالدراهم والدنانير فى السنة الاولى ثم بالحلى والجواهر فى السنة الثانية ثم بالدواب ثم بالضياع والعقار ثم برقابهم حتى استرقهم سنين فقالوا والله ما رأينا ملكا اعظم شأنا من هذا الملك حتى صار كل الخلق عبيداله فلما سمع ذلك قال انى اشهد الله انى اعتقت اهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم املاكهم وكان لا يبيع لاحد ممن يطلب الطعام اكثر من حمل البعير لئلا يضيق الطعام على الباقين هكذا رواه صاحب الكشاف والله اعلم ( المسئلة الثالثة ) قوله وكذلك الكاف منصوبة بالتمكين وذلك اشارة الى ما تقدم يعنى به ومثل ذلك الانعام الذى انعمنا عليه فى تقريبنا اياه من قلب الملك وانجائنا اياه من غم الحبس وقوله مكنا ليوسف فى الارض اى اقدرناه على ما يريد برفع الموانع وقوله يتبوأ منها حيث يشاء يتبوأ فى موضع نصب على الحال تقديره مكناه متبوأ وقرأ ابن كثير نشاء بالنون مضافا الى الله تعالى والباقون بالياء مضافا الى يوسف واعلم ان قوله يتبوأ منها حيث يشاء يدل على انه صار فى الملك بحيث لا يدافعه احد ولا ينازعه منازع بل صار مستقلا بكل ماشاء واراد ثم بين تعالى ما يؤكد ان ذلك من قبله فقال نصيب برحمتنا من نشاء واعلم انه تعالى ذكر اولا ان ذلك التمكين كان من الله لا من احد سواه وهو قوله وكذلك مكنا ليوسف فى الارض ثم اكد ذلك ثانيا بقوله نصيب برحمتنا من نشاء وفيه فائدتان ( الفائدة الاولى ) ان هذا يدل على ان الكل من الله تعالى قال القاضى تلك المملكة لما لم تتم الا بامور فعلها الله تعالى صارت كأنها حصلت من قبله تعالى وجوابه انا ندعى ان نفس تلك المملكة انما حصلت من قبل الله تعالى لان لفظ القرآن يدل على قولنا والبرهان القاطع الذى ذكرناه يقوى قولنا فصرف هذا اللفظ الى المجاز لا سبيل اليه ( الفائدة الثانية ) انه اتاه ذلك الملك بمحض المشيئة الالهية والقدرة النافذة قال القاضى هذه الآية تدل على انه تعالى يجرى امر نعمه على ما يقتضيه الصلاح قلنا الآية تدل على ان الامور معلقة بالمشيئة الالهية والقدرة المحضة فاما رعاية قيد الصلاح فامر اعتبرته انت من نفسك مع ان اللفظ لا يدل عليه ثم قال تعالى ولا نضيع اجر المحسنين وذلك لان اضاعة الاجر اما ان يكون للعجز أو للجهل او للبخل والكل ممتنع فى حق الله تعالى فكانت الاضاعة ممتنعة واعلم ان هذا شهادة من الله تعالى على ان يوسف عليه السلام كان من المحسنين ولو صدق القول بانه جلس بين شعبها الاربع لامتنع ان يقال انه كان من المحسنين فههنا لزم اما تكذيب الله فى حكمه على يوسف بأنه كان من المحسنين وهو عين الكفر اولزم تكذيب الحشوى فيما رواه وهو عين الايمان والحق

المكاره حين أظلتنا ( وفيه يعصرون ) اى ما من شأنه ان يعصر من العنب والقصب والزيتون والسمسم ونحوها من الفواكه لكثرتها والتعرض لذكر العصر مع جواز الاكتفاء عنه بذكر الغيث المستلزم له عادة كما اكتفى به عن ذكر تصرفهم فى الحبوب اما لان استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب اذ المذكورات يتوقف صلاحها على مباد اخرى غير المطر واما لمراعاة جانب المستفتى باعتبار حالته الخاصة به بشارة له وهى التى يدور عليها حسن موقع تغليبه على الناس فى القراءة بالفوقانية وقيل معنى يعصرون يحلبون الضروع وتكرير فيه اما للاشعار باختلاف اوقات مايقع فيه من الغيث والعصر زمانا وهو ظاهر وعنوانا فان الغيث والغوث من فضل الله تعالى والعصر من فعل الناس واما لان المقام مقام تعداد منافع ذلك العام ولاجله قدم فى الموضعين على الفعلين فان المقصود الاصلى بيان انه يقع فى ذلك العام هذا النفع وذلك النفع لا بيان انهما يقعان فى ذلك العام كما يفيده التأخير ويجوز ان يكون التقديم للقصر على معنى ان غيثهم وعصرهم فى سائر السنين بمنزلة العدم بالنسبة الى عامهم ذلك وان يكون ذلك فى الاخير لمراعاة الفواصل وفى الاول لرعاية حاله وقرئ يعصرون على البناء للمفعول من عصره اذا انجاه وهو المناسب للاغاثة ويجوز ان يكون المبنى للفاعل ايضا منه كأنه قيل

ثم قال تعالى ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في تفسير هذه الآية قولان (الاول) المراد منه ان يوسف عليه السلام وان كان قد وصل الى المنازل العالية والدرجات الرفيعة في الدنيا الا ان الثواب الذى اعده الله له في الآخرة خير وافضل واكمل ووجهات الترجيح قد ذكرناها في هذا الكتاب مرارا واطوارا وحاصل تلك الوجوه ان الخير المطلق هو الذى يكون نفعا خالصا دائما مقرونا بالتعظيم وكل هذه القيود الاربعة حاصلة في خيرات الآخرة ومفقودة في خيرات الدنيا (القول الثانى) ان لفظ الخير قد يستعمل لكون احد الخيرين افضل من الآخر كما يقال الجلاب خير من الماء وقد يستعمل لبيان كونه في نفسه خيرا من غير ان يكون المراد منه بيان التفضيل كما يقال الثريد خير من الله يعنى الثريد خير من الخيرات حصل باحسان من الله اذا ثبت هذا فقوله ولأجر الآخرة خير ان حملناه على الوجه الاول لزم ان تكون ملاذ الدنيا موصوفة بالخيرية ايضا وان حملناه على الوجه الثانى لزم ان يقال ان منافع الدنيا ايضا خيرات بل لعله يفيد ان خير الآخرة هو الخير واما ماسواه فعبث (المسئلة الثانية) لاشك ان المراد من قوله ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون شرح حال يوسف عليه السلام فوجب ان يصدق في حقه انه من الذين آمنوا وكانوا يتقون وهذا تنصيص من الله عز وجل على انه كان في الزمان السابق من المتقين وليس ههنا زمان سابق ليوسف عليه السلام يحتاج الى بيان انه كان فيه من المتقين الا ذلك الوقت الذى قال الله فيه ولقد همت به وهم بها فكان هذا شهادة من الله تعالى على انه عليه السلام كان في ذلك الوقت من المتقين وايضا قوله ولا نضيع اجر المحسنين شهادة من الله تعالى على انه عليه السلام كان من المحسنين وقوله انه من عبادنا المخلصين شهادة من الله تعالى على انه من المخلصين فثبت ان الله تعالى شهد بأن يوسف عليه السلام كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين والجاهل الحشوى يقول انه كان من الاخسرين المذنبين ولاشك ان من لم يقل بقول الله سبحانه وتعالى مع هذه التأكيدات كان من الاخسرين (المسئلة الثالثة) قال القاضى قوله تعالى ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون يدل على بطلان قول المرجئة الذين يزعمون ان الثواب يحصل في الآخرة لمن لم يتق الكبائر قلنا هذا ضعيف لانا ان حملنا لفظ خير على افعل التفضيل لزم ان يكون الثواب الحاصل للمتقين افضل ولا يلزم ان لا يحصل لغيرهم اصلا وان حملناه على اصل معنى الخيرية فهذا يدل على حصول هذا الخير للمتقين ولا يدل على ان غيرهم لا يحصل لهم هذا الخير ❊ قوله تعالى (وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون انى اوف الكيل وأنا خير المنزلين فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون قالوا سنراود عنه أباه وانا لفاعلون) اعلم انه لما عم القحط في البلاد ووصل ايضا الى البلدة التى كان يسكنها يعقوب عليه السلام

اما بتضمين اعصرت معنى مطرت وتعديته واما بحذف الجار وايصال (٢١٠) الفعل على ان الاصل اعصرت عليهم واحكام هذا العام المبارك ليست مستنبطة من رؤيا الملك وانما تلقاها عليه السلام من جهة الوحى فبشرهم بها بعدما اول الرؤيا بما اول وامرهم بالتدبير اللائق في شأنه ابانة لعلو كعبه ورسوخ قدمه في الفضل وانه محيط بما لم يخطر ببال احد فضلا عما يرى صورته في المنام على نحو قوله لصاحبيه عند استفتائهما في منامهما لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله واتماما للنعمة عليهم حيث لم يشاركه عليه السلام في العلم بوقوعها احد ولو برؤية مايدل عليها في المنام (وقال الملك) بعدما جاءه السفير بالتعبير وسمع منه ماسمع من نقير وقطمير (ائتونى به) لما علم من علمه وفضله (فلما جاءه) اى يوسف (الرسول) واستدعاه الى الملك (قال ارجع الى ربك) اى سيدك (فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن ايديهن) اى ففتشه عن شأنهن وانما لم يقل فاسأله ان يفتش عن ذلك حثا للملك على الجد في التفتيش ليتبين براءته ويتضح نزاهته اذ السؤال مما يهيج الانسان على الاهتمام في البحث للتقصى عما توجه اليه واما الطلب فمما قد يتسامح ويتساهل فيه ولا يبالى به وانما لم يتعرض لامرأة العزيز مع مالقى منها مالقى من مقاساة الاحزان ومعاناة الاشجان محافظة على مواجب الحقوق واحترازا عن مكرها حيث اعتقدها مقيمة في عدوة العداوة واما النسوة فقد كان يطمع في صدعهن بالحق وشهادتهن باقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الايدى ولم يصرح بمراودتهن له وقولهن اطع مولاتك واكتفى بالايماء الى ذلك

(وصعب)

وصعب الزمان عليهم فقال لبنيه ان بمصر رجلا صالحا يمير الناس فاذهبوا اليه بدراهمكم وخذوا الطعام فخرجوا اليه وهم عشرة ودخلوا على يوسف عليه السلام وصارت هذه الواقعة كالسبب فى اجتماع يوسف عليه السلام مع اخوته وظهور صدق ما اخبر الله تعالى عنه فى قوله ليوسف عليه السلام حال ما القوه فى الجب لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون واخبر تعالى ان يوسف عرفهم وهم ماعرفوه البتة اما انه عرفهم فلانه تعالى كان قد اخبره فى قوله لتنبئنهم بأمرهم بأنهم يصلون اليه ويدخلون عليه وايضا الرؤيا التى رآها كانت دليلا على انهم يصلون اليه فلهذا السبب كان يوسف عليه السلام مترصدا لذلك الامر وكان كل من وصل الى بابه من البلاد البعيدة يتفحص عنهم ويتعرف احوالهم ليعرف ان هؤلاء الواصلين هل هم اخوته ام لا فلما وصل اخوة يوسف الى باب داره تفحص عن احوالهم تفحصا ظهر له انهم اخوته واما انهم ما عرفوه فلوجوه (الاول) انه عليه السلام امر حجابه بأن يوقفوهم من البعد وما كان يتكلم معهم الا بالواسطة ومتى كان الامر كذلك لاجرم انهم لم يعرفوه لاسيما مهابة الملك وشدة الحاجة يوجبان كثرة الخوف وكل ذلك مما يمنع من التأمل التام الذى عنده يحصل العرفان (والثانى) هو انهم حين القوه فى الجب كان صغيرا ثم انهم رأوه بعد وفور اللحية وتغير الزى والهيئة فانهم رأوه جالسا على سريره وعليه ثياب الحرير وفى عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج من ذهب والقوم ايضا نسوا واقعة يوسف عليه السلام لطول المدة فيقال ان وقت ما القوه فى الجب الى هذا الوقت كان قد مضى اربعون سنة وكل واحد من هذه الاسباب يمنع من حصول المعرفة لاسيما عند اجتماعها (والثالث) ان حصول العرفان والتذكير بخلق الله تعالى فلعله تعالى ما خلق ذلك العرفان والتذكير فى قلوبهم تحقيقا لما اخبره عنه بقوله لتنبئنهم بامرهم هذا وهم لا يشعرون وكان ذلك من معجزات يوسف عليه السلام ثم قال تعالى ولما جهزهم بجهازهم قال الليث جهزت القوم تجهيزا اذا تكلفت لهم جهازهم للسفر وكذلك جهاز العروس والميت وهو ما يحتاج اليه فى وجهه قال وسمعت اهل البصرة يقولون الجهاز بالكسر قال الازهرى القراء كلهم على فتح الجيم والكسر لغة ليست بجيدة قال المفسرون حمل لكل رجل منهم بعيرا واكرمهم ايضا بالنزول واعطاهم ما احتاجوا اليه فى السفر فذلك قوله جهزهم بجهازهم ثم بين تعالى انه لما جهزهم بجهازهم قال لهم ائتونى بأخ لكم من ابيكم واعلم انه لابد من كلام سابق حتى يصير ذلك الكلام سببا لسؤال يوسف عن حال اخيهم وذكروا فيه وجوها (الاول) وهو احسنها ان عادة يوسف عليه السلام مع الكل ان يعطيه حمل بعير لا ازيد عليه ولا انقص واخوة يوسف الذين ذهبوا اليه كانوا عشرة فأعطاهم عشرة احمال فقالوا ان لنا ابا شيخا كبيرا واخا آخر بقى معه وذكروا ان اباهم لاجل سنه وشدة حزنه لم يحضر وان اخاهم بقى فى خدمة ابيه ولابد لهما ايضا من شىء من الطعام فجهز لهما ايضا بعيرين آخرين من

بقوله (ان ربى بكيدهن عليم) بجاملة معهن واحترازا  عن سوء قالتهن عندالملك وانتصابهن للخصومة مدافعة عن أنفسهن متى سمعن بنسبته لهن الى الفساد (قال) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال الملك اثر مابلغه الرسول الخبر وأحضرهن (ما خطبكن) اى شانكن وهو الامر الذى يحق لعظمه ان يخاطب المرء فيه صاحبه (اذ راودتن يوسف) وخادعتنه (عن نفسه) ورغبتنه فى اطاعة مولاته هل وجدتن فيه شيئا من سوء وريبة (قلن حاش لله) تنزيها له وتعجبا من نزاهته وعفته (ماعلمنا عليه من سوء) بالغن فى نفى جنس السوء عنه بالتنكير وزيادة من (قالت امرأت العزيز) وكانت حاضرة فى المجلس وقيل أقبلت النسوة عليها يقررنها وقيل خافت ان يشهدن عليها بما قالت لهن ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين فأقرت قائلة (الآن حصحص الحق) اى ثبت واستقر او تبين وظهر بعد خفاء قاله الخليل وقيل هو مأخوذ من الحصة وهى القطعة من الجملة اى تبين حصة الحق من حصة الباطل كما تتبين حصص الاراضى وغيرها وقيل بان وظهر من حص شعره اذا استأصله بحيث ظهرت بشرة رأسه وقرئ على البناء للمفعول من حصحص البعير مباركه اى القاها فى الارض للاناخة قال

فحصحص فى صم الصفا ثفناته * وناء بسلمى نوأة ثم صمما * والمعنى أقر الحق فى مقره ووضع فى موضعه ولم ترد بذلك مجرد ظهور ماظهر بشهادتهن من مطلق نزاهته عليه السلام فيما احاط به علمهن من غير تعرض لنزاهته فى سائر المواطن خصوصا فيما وقع فيه

الطعام فلماذا كروا ذلك قال يوسف فهذا يدل على ان حب ابيكم له ازيد من حبه لكم وهذا
شيء عجيب لانكم مع جمالكم وعقلكم وادبكم اذا كانت محبة ابيكم لذلك الاخ اكثر من
محبته لكم دل هذا على ان ذلك اعجوبة في العقل وفي الفضل والادب فجيئوني به حتى أراه
فهذا السبب محتمل مناسب ( والوجه الثاني ) انهم لما دخلوا عليه عليه السلام واعطاهم
الطعام قال لهم من انتم قالوا نحن قوم رعاة من اهل الشام اصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال
لعلكم جئتم عيونا فقالوا معاذ الله نحن اخوة بنو أب واحد شيخ صديق نبي اسمه يعقوب
قال كم انتم قالوا كنا اثنى عشر فهلك منا واحد وبقي واحد مع الاب يتسلى به عن ذلك الذي
هلك ونحن عشرة وقد جئناك قال فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخ لكم من
ابيكم ليبلغ الى رسالة ابيكم فعند هذا اقرعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان
احسنهم رأيا في يوسف فخلفوه عنده (والوجه الثالث ) لعلهم لما ذكروا اباهم قال يوسف
فلم تركتموه وحيدا فريدا قالوا ما تركناه وحيدا بل بقي عنده واحد فقال لهم لم استخلصه
لنفسه ولم خصه بهذا المعنى لاجل نقص في جسده فقالوا لا بل لاجل انه يحبه اكثر من
محبته لسائر الاولاد فعند هذا قال يوسف لما ذكرتم ان اباكم رجل عالم حكيم بعيد عن
المجازفة ثم انه خصه بمزيد المحبة وجب ان يكون زائدا عليكم في الفضل وصفات الكمال
مع اني أراكم فضلاء علماء حكماء فاشتاقت نفسي الى رؤية ذلك الاخ فائتوني به والسبب
الثاني ذكره المفسرون والاول والثالث محتمل والله اعلم * ثم انه تعالى حكى عنه انه قال
ألا ترون اني اوف الكيل اي اتمه ولا ابخسه وازيدكم حمل بعير آخر لاجل اخيكم وانا خير
المنزلين اي خير المضيفين لانه حين انزلهم احسن ضيافتهم واقول هذا الكلام يضعف
الوجه الثاني وهو الذي نقلناه عن المفسرين لان مدار ذلك الوجه على انه اتهمهم ونسبهم
الى انهم جواسيس ولو شافههم بذلك الكلام فلا يليق به ان يقول لهم ألا ترون اني اوف
الكيل وانا خير المنزلين وايضا يبعد من يوسف عليه السلام مع كونه صديقا ان يقول لهم
انتم جواسيس وعيون مع انه يعرف براءتهم عن هذه التهمة لان البهتان لا يليق بحال
الصديق ثم قال فأن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون واعلم انه عليه السلام
لما طلب منهم احضار ذلك الاخ جمع بين الترغيب والترهيب اما الترغيب فهو قوله
ألا ترون اني اوف الكيل وانا خير المنزلين واما الترهيب فهو قوله فان لم تأتوني به فلا كيل
لكم عندي ولا تقربون وذلك لانهم كانوا في نهاية الحاجة الى تحصيل الطعام وما كان
يمكنهم تحصيله الا من عنده فاذا منعهم من الحضور عنده كان ذلك نهاية الترهيب
والتخويف ثم انهم لما سمعوا هذا الكلام من يوسف قالوا سنراود عنه اباه وانا لفاعلون
اي سنجتهد ونحتال على ان ننزعه من يده وانا لفاعلون هذه المراودة والغرض من التكرير
التأكيد ويحتمل ان يكون وانا لفاعلون ان نجيئك به ويحتمل وانا لفاعلون كل
ما في وسعنا من هذا الباب * قوله تعالى ( وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم

التشاجر بمحضر العزيز ولا بحث عن حال نفسها وما صنعت  في ذلك بل ارادت ظهور ما هو محقق في نفس الامر وثبوته من
نزاهته عليه السلام في محل
النزاع وخيانتها فقالت ( أنا
راودته عن نفسه ) لأنه راودني
عن نفسي ( وانه لمن الصادقين )
اي في قوله حين افتريت عليه
هي راودتني عن نفسي وارادت
بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام
لازمان شهادتهن فتأمل ايها
المنصف هل ترى فوق هذه
المرتبة نزاهة حيث لم تتمالك
الخصماء من الشهادة بها
والفضل ماشهدت به الخصماء
وانما تصدى عليه السلام لتمهيد
هذه المقدمة قبل الخروج ليظهر
براءة ساحته مما قذف به لاسيما
عند العزيز قبل ان يحل ما عقده
كما يعرب عنه قوله عليه السلام
لما رجع اليه الرسول واخبره
بكلامهن ( ذلك ) اي ذلك التثبيت
المؤدي الى ظهور حقيقة الحال
( ليعلم ) اي العزيز ( اني لم أخنه )
في حرمته كما زعمه لا علما مطلقا
فان ذلك لا يستدعي تقديم
التفتيش على الخروج من السجن
بل قبل ماذكر من نقض ماأبرمه
ولعله لمراعاة حقوق السيادة لان
المباشرة للخروج من حبسه قبل
ظهور بطلان ما جعله سببا له وان
كان ذلك بأمر الملك مما يوهم
الافتيات على رأيه واما ان يكون
ذلك لئلا يتمكن من تقبيح أمره
عند الملك تمحلا لامضاء ماقضاه
فلا يليق بشأنه عليه السلام
في الوثوق بأمره والتوكل على
ربه جل جلاله ( بالغيب ) اي
بظهر الغيب وهو حال من الفاعل
اوالمفعول اي لم اخنه وانا غائب
عنه او وهو غائب عني او ظرف اي
بمكان الغيب وراء الاستار والابواب
المغلقة وايا ما كان فالمقصود بيان كمال نزاهته عن الخيانة وغاية اجتنابه عنها عند تعاضد اسبابها ( وان الله ) اي

( لعلهم )

لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا الى اهلهم لعلهم يرجعون فلما رجعوا الى ابيهم قالوا ياأبانا منع منا الكيل فارسل معنا أخانا نكتل وانا له لحافظون قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو ارحم الراحمين ) فى الآية مسائل

( المسئلة الاولى ) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم لفتيانه بالالف والنون والباقون لفتيته بالتاء من غير الف وهما لغتان كالصبيان والصبية والاخوان والاخوة قال ابو على الفارسى الفتية جمع فتى فى العدد القليل والفتيان للكثير فوجه البناء الذى للعدد القليل ان الذين يحيطون بما يجعلون بضاعتهم فيه من رحالهم يكونون قليلين لان هذا من باب الاسرار فوجب صونه الا عن العدد القليل ووجه الجمع الكثير انه قال اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم والرحال تفيد العدد الكثير فوجب ان يكون الذين يباشرون ذلك العمل كثيرين ( المسئلة الثانية ) اتفق الاكثرون على ان اخوة يوسف ماكانوا عالمين بجعل البضاعة فى رحالهم ومنهم من قال انهم كانوا عارفين به وهو ضعيف لان قوله لعلهم يعرفونها يبطل ذلك ثم اختلفوا فى السبب الذى لاجله امر يوسف بوضع بضاعتهم فى رحالهم على وجوه (الاول) انهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه علموا ان ذلك كان كرما من يوسف وسخاء محضا فيبعثهم ذلك على العود اليه والحرص على معاملته (الثانى) خاف ان لايكون عند أبيه من الورق مايرجعون به مرة أخرى (الثالث) اراد به التوسعة على ابيه لان الزمان كان زمان القحط ( الرابع ) رأى ان أخذ ثمن الطعام من ابيه واخوته مع شدة حاجتهم الى الطعام لؤم ( الخامس ) قال الفراء انهم متى شاهدوا بضاعتهم فى رحالهم وقع فى قلوبهم انهم وضعوا تلك البضاعة فى رحالهم على سبيل السهو وهم انبياء واولاد الانبياء فرجوا ليعرفوا السبب فيه اورجعوا ليردوا المال الى مالكه (السادس) اراد ان يحسن اليهم على وجه لايلحقهم به عيب ولا منة (السابع) مقصوده ان يعرفوا انه لايطلب ذلك الاخ لاجل الايذاء والظلم ولا لطلب زيادة فى الثمن (الثامن) اراد ان يعرف ابوه انه اكرمهم وطلبه له لمزيد الاكرام فلا يثقل على أبيه ارسال اخيه (التاسع) اراد ان يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق فوضع تلك الدراهم فى رحالهم حتى تبقى مخفية الى ان يصلوا الى ابيهم (العاشر) اراد ان يقابل مبالغتهم فى الاساءة بمبالغته فى الاحسان اليهم ثم انه تعالى حكى عنهم انهم لما رجعوا الى ابيهم قالوا ياأبانا منع منا الكيل وفيه قولان ( الاول ) انهم لما طلبوا الطعام لابيهم وللاخ الباقى عنده منعوا منه فقولهم منع منا الكيل اشارة اليه (والثانى) انه منع الكيل فى المستقبل وهو اشارة الى قول يوسف فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى والدليل على ان المراد ذلك قولهم فأرسل معنا أخانا نكتل قرأ حمزة والكسائى يكتل بالياء والباقون بالنون والقراءة الاولى تقوى القول الاول والقراءة الثانية تقوى القول الثانى ثم قالوا وانا له لحافظون ضمنوا كونهم حافظين له فلما قالوا

وليعلم انه تعالى ( لايهدى كيد الخائنين ) ( ٢١٣ ) اى لاينفذه ولايسدده بل يبطله ويزهقه اولايهديهم فى كيدهم ايقاعا للفعل على الكيد مبالغة كما فى قوله تعالى يضاهئون قول الذين كفروا اى يضاهئونهم فى قولهم وفيه تعريض بامرأته فى خيانتها امانته وبه فى خيانته وامانة الله تعالى حين ساعدها على حبسه بعدما رأوا آيات نزاهته عليه السلام ويجوز ان يكون ذلك لتأكيد امانته وانه لوكان خائنا لما هدى الله عز وجل أمره واحسن عاقبته ( وما أبرئ نفسى) اى لاانزهها عن السوء قاله عليه السلام هضما لنفسه الكريمة البريئة عن كل سوء وربا بمكانها عن التزكية والاعجاب بحالها عند ظهور كمال نزاهتها على اسلوب قوله عليه السلام انا سيد ولد آدم ولافخر أو تحديثا بنعمة الله عز وجل عليه وابرازا لسره المكنون فى شأن افعال العباد اى لاانزهها عن السوء من حيث هى هى ولا اسند هذه الفضيلة اليها بمقتضى طبعها من غير توفيق من الله عز وعلا ( ان النفس ) البشرية التى من جملتها نفسى فى حد ذاتها (لأمارة بالسوء) مائلة الى الشهوات مستعملة للقوى والآلات فى تحصيلها بل انما ذلك بتوفيق الله تعالى وعصمته ورحمته كما يفيده قوله (الا مارحم ربى) من النفوس التى يعصمها من الوقوع فى المهالك ومن جملتها نفسى اوهى امارة بالسوء فى كل وقت الا وقت رحمة ربى وعصمته لها وقيل الاستثناء منقطع اى لكن رحمة ربى هى التى تصرف عنها السوء كما فى قوله تعالى ولا هم ينقذون الا رحمة ( ان ربى غفور رحيم ) عظيم المغفرة لما يعترى النفوس بموجب طباعها ومبالغ فى الرحمة لها بعصمتها من الجريان بمقتضى ذلك وايثار الاظهار فى مقام الاضمار

ذلك قال يعقوب عليه السلام هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على اخيه من قبل والمعنى انكم ذكرتم هذا الكلام فى يوسف وضمنتم لى حفظه حيث قلتم وانا له لحافظون ثم ههنا ذكرتم هذا اللفظ بعينه فهل يكون ههنا أمانى الا ما كان هناك يعنى لما لم يحصل الامان هناك فكذلك لا يحصل ههنا ثم قال فالله خير حافظا وهو ارحم الراحمين قرأ حمزة والكسائى حافظا بالالف على التمييز والتفسير على تقدير هو خير لكم حافظا كقولهم هو خيرهم رجلا ولله دره فارسا وقيل على الحال والباقون حفظا بغير الف على المصدر يعنى خيركم حفظا يعنى حفظ الله لبنيامين خير من حفظكم وقرأ الاعمش فالله خير حافظ وقرأ ابو هريرة رضى الله عنه خير الحافظين وهو ارحم الراحمين وقيل معناه وثقت بكم فى حفظ يوسف عليه السلام فكان ما كان فالآن اتوكل على الله فى حفظ بنيامين فان قيل لم بعثه معهم وقد شاهد ما شاهد قلنا لوجوه (احدها) انهم كبروا ومالوا الى الخير والصلاح (وثانيها) انه كان يشاهد انه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والحقد مثل ما كان بينهم وبين يوسف عليه السلام (وثالثها) ان ضرورة القحط احوجته الى ذلك (ورابعها) لعله تعالى اوحى اليه وضمن حفظه وايصاله اليه فان قيل هل يدل قوله فالله خير حافظا على انه اذن فى ذهاب ابنه بنيامين فى ذلك الوقت قلنا الاكثرون قالوا يدل عليه وقال آخرون لا يدل عليه وفيه وجهان (الاول) التقدير انه لو اذن فى خروجه معهم لكان فى حفظ الله لا فى حفظهم (الثانى) انه لما ذكر يوسف قال فالله خير حافظا اى ليوسف لانه كان يعلم انه حى ❊ قوله تعالى (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم قالوا يا ابانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير اهلنا ونحفظ اخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير) اعلم ان المتاع ما يصلح لان يستمتع به وهو عام فى كل شئ ويجوز ان يراد به ههنا الطعام الذى حملوه ويجوز ان يراد به اوعية الطعام ثم قال وجدوا بضاعتهم ردت اليهم واختلف القراء فى ردت فالاكثرون بضم الراء وقرأ علقمة بكسر الراء قال صاحب الكشاف كسرة الدال المدغمة نقلت الى الراء كما فى قيل وبيع وحكى قطرب انهم قالوا فى قولنا ضرب زيد ضرب زيد على نقل كسرة الراء فيمن سكنها الى الضاد واما قوله ما نبغى ففى كلمة ما قولان (الاول) انها النفى وعلى هذا التقدير ففيه وجوه (الاول) انهم كانوا قد وصفوا يوسف بالكرم واللطف وقالوا انا قدمنا على رجل فى غاية الكرم انزلنا واكرمنا كرامة لو كان رجلا من آل يعقوب لما فعل ذلك فقولهم ما نبغى اى بهذا الوصف الذى ذكرناه كذبا ولا ذكر شئ لم يكن (الثانى) انه بلغ فى الاكرام الى غاية ما وراءها شئ آخر فانه بعد ان بالغ فى اكرامنا امر ببضاعتنا فردت الينا (الثالث) المعنى انه رد بضاعتنا الينا فنحن لا نبغى منك عند رجوعنا اليه بضاعة اخرى فان هذه التى معنا كافية لنا (والقول الثانى) ان كلمة ما ههنا للاستفهام والمعنى لما رأوا انه رد اليهم بضاعتهم قالوا ما نبغى بعد هذا اى اعطانا الطعام ثم رد علينا ثمن الطعام على احسن الوجوه فاى شئ

مع التعرض لعنوان الربوبية التربية مبادى المغفرة والرحمة وقيل الى هنا من كلام امرأة العزيز والمعنى ذلك الذى قلت ليعلم يوسف عليه السلام انى لم اخنه ولم أكذب عليه فى حال الغيبة وجئت بما هو الحق الواقع وما أبرئ نفسى مع ذلك من الخيانة حيث قلت فى حقه ماقلت وفعلت به ما فعلت ان كل نفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى اى الا نفسا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف ان ربى غفور لمن استغفر لذنبه واعترف به رحيم له فعلى هذا يكون تأنيه عليه السلام فى الخروج من السجن لعدم رضاه عليه السلام بملاقاة الملك وامره بين بين فعل ما فعل حتى يتبين نزاهته وانه انما سجن بظلم عظيم مع ماله من الفضل ونباهة الشأن ليتلقاه الملك بما يليق به من الاعظام والاجلال وقد وقع (وقال الملك ائتونى به استخلصه) اجعله خالصا (لنفسى) وخاصا بى (فلما كلمه) اى فأتوا به فحذف للايذان بسرعة الاتيان به فكأنه لم يكن بين الامر باحضاره والخطاب معه زمان اصلا والضمير المستكن فى كلمه ليوسف والبارز للملك اى فلما كلمه يوسف اثر ما أتاه فاستنطقه وشاهد منه ما شاهد (قال انك اليوم لدينا مكين) ذو مكانة ومنزلة رفيعة (امين) مؤتمن على كل شئ واليوم ليس بمعيار لمدة المكانة والامانة بل هو آن التكلم والمراد تحديد مبدئهما احترازا عن احتمال كونهما بعد حين روى انه عليه السلام لما جاءه الرسول خرج من السجن ودعا لاهله واغتسل ولبس ثيابا جددا فلما دخل على الملك قال اللهم انى أسالك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره وشر غيره ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال ماهذا اللسان قال لسان آبائى وكان الملك يعرف سبعين لسانا فكلمه بها فاجابه (نبغى)

نبغى وراء ذلك واعلم أنا اذا جعلنا ماعلى الاستفهام صار التقدير اى شئ نبغى فوق هذا الاكرام ان الرجل رد دراهمنا الينا فاذا ذهبنا اليه نمير أهلنا ونحفظ اخانا ونزداد كيل بعير بسبب حضور اخينا قال الاصمعى يقال ماره يميره ميرا اذا اتاه بميرة اى بطعام ومنه يقال ماعنده خير ولا مير وقوله ونزداد كيل بعير معناه ان يوسف عليه السلام كان يكيل لكل رجل حمل بعير فاذا حضر اخوه فلابد وان يزداد ذلك الحمل واما اذا جعلنا كلمة ماعلى النفى كان المعنى لانبغى شيئا آخر هذه بضاعتنا ردت الينا فهى كافية لثمن الطعام فى الذهاب الثانى ثم نفعل كذا وكذا واما قوله ذلك كيل يسير ففيه وجوه (الاول) قال مقاتل ذلك كيل يسير على هذا الرجل المحسن لسخائه وحرصه على البذل وهو اختيار الزجاج (والثانى) ذلك كيل يسير اى قصير المدة ليس سبيل مثله ان تطول مدته بسبب الحبس والتأخير (والثالث) ان يكون المراد ذلك الذى يدفع الينا دون اخينا شئ يسير قليل فابعث اخانا معنا حتى نتبدل تلك القلة بالكثرة ✻ قوله تعالى (قال لن ارسله معكم حتى تؤتونى موثقا من الله لتأتننى به الا ان يحاط بكم فلما اتوه موثقهم قال الله على مانقول وكيل) اعلم ان الموثق مصدر بمعنى الثقة ومعناه العهد الذى يوثق به فهو مصدر بمعنى المفعول يقول لن أرسله معكم حتى تعطونى عهدا موثوقا به وقوله من الله اى عهدا موثوقا به بسبب تأكده باشهاد الله وبسبب القسم بالله عليه وقوله لتأتننى به دخلت اللام ههنا لاجل ان اتينا ان المراد بالموثق من الله اليمين فتقديره حتى تحلفوا بالله لتأتننى به وقوله الا ان يحاط بكم فيه بحثان (الاول) قال صاحب الكشاف هذا الاستثناء متصل فقوله الا ان يحاط بكم مفعول له والكلام المثبت الذى هو قوله لتأتننى به فى تأويل النفى فكان المعنى لاتمنعون من الاتيان به لعلة من العلل الالعلة واحدة (البحث الثانى) قال الواحدى للمفسرين فيه قولان (احدهما) ان قوله الا ان يحاط بكم معناه الهلاك قال مجاهد الا ان تموتوا كلكم فيكون ذلك عذرا عندى والعرب تقول احيط بفلان اذا قرب هلاكه قال تعالى واحيط بثمره اى اصابه ما اهلكه وقال تعالى وظنوا انهم احيط بهم واصله ان من احاط به العدو وانسدت عليه مسالك النجاة دنا هلاكه فقيل لكل من هلك قد احيط به (والقول الثانى) ماذكره قتادة الا ان يحاط بكم الا ان تصيروا مغلوبين مقهورين فلا تقدرون على الرجوع ثم قال تعالى فلما آتوه موثقهم قال الله على مانقول وكيل يريد شهيد لان الشهيد وكيل بمعنى انه موكول اليه هذا العهد فان وفيتم به جازاكم بأحسن الجزاء وان غدرتم فيه كافاكم بأعظم العقوبات ✻ قوله تعالى (وقال يابنى لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة وما اغنى عنكم من الله من شئ ان الحكم الا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المؤمنون) اعلم ان ابناء يعقوب لما عزموا على الخروج الى مصر وكانوا موصوفين بالكمال والجمال وابناء رجل واحد قال لهم لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة وفيه قولان (الاول) وهو قول

فاجلسه على السرير وفوض اليه امره وقيل توفى قطفير فى تلك الليالى فنصبه منصبه وزوجه راعيل فوجدها عذراء وولدت له افرايم وميشا ولعل ذلك انما كان بعد تعيينه عليه السلام لما عين له من امر الخزائن كما يعرب عنه قوله عز وجل (قال اجعلنى على خزائن الارض) اى ارض مصر اى ولنى امرها من الايراد والصرف (انى حفيظ) لها ممن لايستحقها (عليم) بوجوه التصرف فيها وفيه دليل على جواز طلب الولاية اذا كان الطالب ممن يقدر على اقامة العدل واجراء احكام الشريعة وان كان من يد الجائر او الكافر وعن مجاهد انه اسلم الملك على يده عليه السلام ولعل ايثاره عليه السلام لتلك الولاية خاصة انما كان للقيام بما هو أهم امور السلطنة اذ ذاك من تدبير امر السنين حسبما فصل فى التأويل لكونه من فروع تلك الولاية لا لمجرد عموم الفائدة وجوم العائدة كما قيل وانما لم يذكر اجابة الملك الى ماسأله عليه السلام من جعله على خزائن الارض ايذانا بأن ذلك امر لامرد له غنى عن التصريح به لاسيما بعد تقديم مايندرج تحته من احكام السلطنة بحذافيرها من قوله انك اليوم لدينا مكين امين وللتنبيه على ان كل ذلك من الله عز وجل وانما الملك آلة فى ذلك قيل (وكذلك) اى مثل ذلك التمكين البليغ (مكنا ليوسف) اى جعلنا له مكانا (فى الارض) اى ارض مصر روى انها كانت اربعين فرسخا فى اربعين وفى

ولايته والاشارة الى حصول ذلك من اول الامر الا انه حصل بعد ( ٢١٦ ) السؤال مالايخفى ( يتبوأ منها ) ينزل من بلادها ( حيث يشاء ) ويتخذه مباءة وهو عبارة عن كمال قدرته على التصرف فيها ودخولها تحت ملكته وسلطانه فكأنها منزله يتصرف فيها كما يتصرف الرجل فى منزله وقرأ ابن كثير بالنون روى ان الملك توجه وختمه بخاتمه ورداه بسيفه و وضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت فقال عليه السلام اما السرير فاشد به ملكك واما الخاتم فأدبر به امرك واما التاج فليس من لباسى ولا لباس آبائى فقال قد وضعته اجلالا لك واقرارا بفضلك فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوض اليه الملك امره واقام العدل بمصر واحبته الرجال والنساء وباع من اهل مصر فى سنى القحط الطعام فى السنة الاولى بالدنانير والدراهم وفى الثانية بالحلى والجواهر وفى الثالثة بالدواب ثم بالضياع والعقار ثم برقابهم حتى استرقهم جميعا فقالوا ما رأينا اليوم ملكا اجل واعظم منه ثم اعتقهم وردا اليهم اموالهم وكان لا يبيع من احد من الممتارين اكثر من حمل بعير تقسيطا بين الناس (نصيب برحمتنا) بعطائنا فى الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم ( من نشاء ) بمقتضى الحكمة الداعية الى المشيئة ( ولانضيع اجر المحسنين ) بل نوفيه بكماله وفيه اشعار بأن مدار المشيئة المذكورة احسان من نصيبه الرحمة المرقومة والهاجر له ولدفع توهم انحصار ثمرات الاحسان فيما ذكر من الاجر العاجل قيل على سبيل التوكيد (ولاجر الآخرة)

جمهور المفسرين انه خاف من العين عليهم ولناههنا مقامان ( المقام الاول ) اثبات ان العين حق والذى يدل عليه وجوه ( الاول ) اطباق المتقدمين من المفسرين على ان المراد من هذه الآية ذلك ( والثانى ) ماروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعوذ الحسن والحسين فيقول اعيذ كما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ويقول هكذا كان يعوذ ابراهيم اسمعيل واسحق صلوات الله عليهم ( والثالث ) ماروى عبادة بن الصامت قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اول النهار فرأيته شديد الوجع ثم عدت اليه آخر النهار فرأيته معافى فقال ان جبريل عليه السلام أتانى فرقانى فقال بسم الله ارقيك من كل شئ يؤذيك ومن كل عين وحاسد الله يشفيك قال فأفقت ( والرابع ) روى ان بنى جعفر بن ابى طالب كانوا غلمانا بيضا فقالت اسماء يارسول الله ان العين اليهم سريعة أفأسترقى لهم من العين فقال لها نعم ( والخامس ) دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت ام سلمة وعندها صبى يشتكى فقالوا يارسول الله اصابته العين فقال أفلا تسترقون له من العين ( والسادس ) قوله عليه السلام العين حق ولو كان شئ يسبق القدر لسبقت العين القدر ( والسابع ) قالت عائشة رضى الله عنها كان يؤمر العائن ان يتوضأ ثم يغسل منه المعين الذى اصيب بالعين ( المقام الثانى ) فى الكشف عن ماهيته فنقول ان اباعلى الجبائى انكر هذا المعنى انكارا بليغا ولم يذكر فى انكاره شبهة فضلا عن حجة واما الذين اعترفوا به واقروا بوجوده فقد ذكروا فيه وجوها ( الاول ) قال الحافظ انه يمتد من العين اجزاء فتتصل بالشخص المستحسن فتؤثر فيه وتسرى فيه كتأثير اللسع والسم والنار وان كان مخالفا فى جهة التأثير لهذه الاشياء قال القاضى وهذا ضعيف لانه لو كان الامر كما قال لوجب ان يؤثر فى الشخص الذى لايستحسن كتأثيره فى المستحسن واعلم ان هذا الاعتراض ضعيف وذلك لانه اذا استحسن شيئا فقد يحب بقاءه كما اذا استحسن ولده نفسه وبستان نفسه وقد يكره بقاءه ايضا كما اذا احس الحاسد بشئ حصل لعدوه فان كان الاول فانه يحصل له عند ذلك الاستحسان خوف شديد من زواله والخوف الشديد يوجب انحصار الروح فى داخل القلب فحينئذ يسخن القلب والروح جدا ويحصل فى الروح الباصرة كيفية قوية مسخنة وان كان الثانى فانه يحصل عند ذلك الاستحسان حسد شديد وحزن عظيم بسبب حصول تلك النعمة لعدوه والحزن ايضا يوجب انحصار الروح فى داخل القلب ويحصل فيه سخونة شديدة فثبت ان عند الاستحسان القوى تسخن الروح جدا فيسخن شعاع العين بخلاف ما اذا لم يستحسن فانه لا تحصل هذه السخونة فظهر الفرق بين الصورتين ولهذا السبب امر الرسول صلى الله عليه وسلم العائن بالوضوء ومن اصابته العين بالاغتسال ( الوجه الثانى ) قال ابو هاشم وابو القاسم البلخى انه لا يمتنع ان تكون العين حقا ويكون معناه ان صاحب العين اذا شاهد الشئ واعجب به استحسانا كان المصلحة له فى تكليفه ان يغير الله ذلك الشخص وذلك الشئ حتى

اى اجرهم فى الآخرة فالاضافة للملابسة وهو النعيم المقيم الذى لانفاد له ( خير ) لهم اى للمحسنين المذكورين وانما وضع ( لايبقى )

موضعه الموصول فقيل (للذين آمنوا وكانوا يتقون) تنبيها  على ان المراد بالاحسان انما هو الايمان والثبات على التقوى المستفاد

لايبقى قلب ذلك المكلف متعلقا به فهذا المعنى غير ممتنع ثم لايبعد ايضا انه لوذكر ربه عند تلك الحالة وعدل عن الاعجاب وسأل ربه تقية ذلك فعنده تتعين المصلحة ولما كانت هذه العادة مطردة لاجرم قيل العين حق (الوجه الثالث) وهو قول الحكماء قالوا هذا الكلام مبنى على مقدمة وهى انه ليس من شرط المؤثر ان يكون تأثيره بحسب هذه الكيفيات المحسوسة اعنى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة بل قد يكون التأثير نفسانيا محضا ولا يكون للقوى الجسمانية بها تعلق والذى يدل عليه ان اللوح الذى يكون قليل العرض اذا كان موضوعا على الارض قدر الانسان على المشى عليه ولو كان موضوعا فيما بين جدارين عاليين لعجز الانسان عن المشى عليه وما ذاك الا لان خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه فعلمنا ان التأثيرات النفسانية موجودة* وايضا ان الانسان اذا تصور كون فلان مؤذياله حصل فى قلبه غضب ويسخن مزاجه جدا فبدأ تلك السخونة ليس الا ذلك التصور النفسانى ولان مبدأ الحركات البدنية ليس الا التصورات النفسانية فلما ثبت ان تصور النفس يوجب تغيير بدنه الخاص لم يبعد ايضا ان يكون بعض النفوس بحيث تتعدى تأثيراتها الى سائر الابدان فثبت انه لايمتنع فى العقل كون النفس مؤثرة فى سائر الابدان * وايضا جواهر النفوس مختلفة بالماهية فلا يمتنع ان يكون بعض النفوس بحيث يؤثر فى تغيير بدن حيوان آخر بشرط أن يراه ويتعجب منه فثبت ان هذا المعنى أمر محتمل والتجارب من الزمن الاقدم ساعدت عليه والنفوس النبوية نطقت به فعنده لايبقى فى وقوعه شك واذا ثبت هذا ثبت ان الذى اطبق عليه المتقدمون من المفسرين فى تفسير هذه الآية بأصابة العين كلام حق لايمكن رده (القول الثانى) وهو قول ابى على الجبائى ان ابناء يعقوب اشتهروا بمصر وتحدث الناس بهم وبحسنهم وكمالهم فقال لاتدخلوا تلك المدينة من باب واحد على ماانتم عليه من العدد والهيئة فلم يأمن عليهم حسد الناس اويقال لم يأمن عليهم ان يخافهم الملك الاعظم على ملكه فيحبسهم واعلم ان هذا الوجه محتمل لاانكار فيه الا ان القول الاول قد بينا انه لاامتناع فيه بحسب العقل والمفسرون اطبقوا عليه فوجب المصير اليه ونقل عن الحسن انه قال خاف عليهم العين فقال لاتدخلوا من باب واحد ثم رجع الى علمه وقال وماأغنى عنكم من الله من شئ وعرف ان العين ليست بشئ وكان قتادة يفسر الآية بأصابة العين ويقول ليس فى قوله وماأغنى عنكم من الله من شئ ابطال له لان العين وان صح فالله قادر على دفع اثره ( القول الثالث ) انه عليه السلام كان عالما بأن ملك مصر هو ولده يوسف الا ان الله تعالى ماأذن له فى اظهار ذلك فلما بعث ابناءه اليه قال لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة وكان غرضه ان يصل بنيامين الى يوسف فى وقت الخلوة وهذا قول ابراهيم النخعى فأما قوله وماأغنى عنكم من الله من شئ فاعلم ان الانسان مأمور بأن يراعى الاسباب المعتبرة فى

من جمع صيغتى الماضى والمستقبل ( وجاء اخوة يوسف ) ممتارين لما أصاب ارض كنعان وبلاد الشام ماأصاب ارض مصر وقد كان ارسلهم يعقوب عليه السلام جميعا غير بنيامين ( فدخلوا عليه ) اى على يوسف وهو فى مجلس ولايته ( فعرفهم ) لقوة فهمه وعدم مباينة احوالهم السابقة لحالهم يومئذ لمفارقته اياهم وهم رجال وتشابه هيآتهم وزيهم فى الحالين ولكون همته معقودة بهم وبمعرفة احوالهم لاسيما فى زمن القحط وعن الحسن ماعرفهم حتى تعرفوا اليه (وهم له منكرون) اى والحال انهم منكرون له لطول العهد وتباين مابين حاليه عليه السلام فى نفسه ومنزلته وزيه ولاعتقادهم انه هلك وحيث كان انكارهم له امرا مستمرا فى حالتى المحضر والمغيب اخبر عنه بالجملة الاسمية بخلاف عرفانه عليه السلام اياهم ( ولما جهزهم بجهازهم ) اى اصلحهم بعدتهم من الزاد وما يحتاج اليه المسافر واوقر ركائبهم بما جاؤا له من الميرة وقرئ بكسر الجيم (قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم) لم يقل بأخيكم مبالغة فى اظهار عدم معرفته لهم ولعله عليه السلام انما قاله لما قيل من انهم سألوه عليه السلام حملا زائدا على المعتاد لبنيامين فأعطاهم ذلك وشرطهم ان يأتوا به لا لما قيل من انه لما رأوه وكلموه بالعبرية قال لهم من انتم فانى انكرتكم فقالوا له نحن قوم من اهل الشام رعاة اصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لهم لعلكم جئتم عيونا فقالوا معاذ الله نحن اخوة بنو اب واحد وهو شيخ كبير صديق نبى من الانبياء (٢٨) (را) (خا) اسمه يعقوب قال كم أنتم قالوا كنا اثنى عشر فهلك مناواحد فقال كم انتم ههنا

هذا العالم ومأمور ايضا بأن يعتقد ويجزم بأنه لا يصل اليه الا ما قدره الله تعالى وان الحذر لا ينجي من القدر فان الانسان مأمور بأن يحذر عن الاشياء المهلكة والاغذية الضارة ويسعى في تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الامكان ثم انه مع ذلك ينبغي ان يكون جازما بأنه لا يصل اليه الا ما قدره الله ولا يحصل في الوجود الا ما اراده الله فقوله عليه السلام لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة فهو اشارة الى رعاية الاسباب المعتبرة في هذا العالم وقوله وما اغني عنكم من الله من شيء اشارة الى عدم الالتفات الى الاسباب والى التوحيد المحض والبراءة عن كل شيء سوى الله تعالى وقول القائل كيف السبيل الى الجمع بين هذين القولين فهذا السؤال غير مختص به وذلك لانه لا نزاع في انه لا بد من اقامة الطاعات والاحتراز عن المعاصي والسيآت مع انا نعتقد ان السعيد من سعد في بطن امه وان الشقي من شقي في بطن امه فكذا ههنا نأكل ونشرب ونحترز عن السموم وعن الدخول في النار مع ان الموت والحياة لا يحصلان الا بتقدير الله تعالى فكذا ههنا فظهر ان هذا السؤال غير مختص بهذا المقام بل هو بحث عن سر مسئلة الجبر والقدر بل الحق ان العبد يجب عليه ان يسعى بأقصى الجهد والقدرة وبعد ذلك السعي البليغ والجد الجهيد فأنه يعلم ان كل ما يدخل في الوجود فلا بد وان يكون بقضاء الله تعالى ومشيئته وسابق حكمه وحكمته ثم انه تعالى اكد هذا المعنى فقال ان الحكم الا لله واعلم ان هذا من أدل الدلائل على صحة قولنا في القضاء والقدر وذلك لان الحكم عبارة عن الالزام والمنع من النقيض وسميت حكمة الدابة بهذا الاسم لانها تمنع الدابة عن الحركات الفاسدة والحكم انما سمي حكما لانه يقتضي ترجيح احد طرفي الممكن على الآخر بحيث يصير الطرف الآخر ممتنع الحصول فبين تعالى ان الحكم بهذا التفسير ليس الا لله سبحانه وتعالى وذلك يدل على ان جميع الممكنات مستندة الى قضائه وقدره ومشيئته وحكمه اما بغير واسطة واما بواسطة ثم قال عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ومعناه انه لما ثبت ان الكل من الله ثبت انه لا توكل الا على الله وان الرغبة ليست الا في رجحان وجود الممكنات على عدمها وذلك الرجحان المانع عن النقيض هو الحكم وثبت بالبرهان أنه لا حكم الا لله فلزم القطع بأن حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله وذلك يوجب انه لا توكل الا على الله فهذا مقام شريف عال ونحن قد أشرنا الى ما هو البرهان الحق فيه والشيخ أبو حامد الغزالي رحمه الله أطنب في تقرير هذا المعنى في كتاب التوكل من كتاب احياء علوم الدين فمن أراد الاستقصاء فيه فليطالع ذلك الكتاب * قوله تعالى (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء الا حاجة في نفس يعقوب قضاها وانه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون) قال المفسرون لما قال يعقوب وما أغني عنكم من الله من شيء صدقه الله في ذلك فقال وما كان ذلك التفرق يغني من الله من شيء وفيه بحثان (البحث الاول) قال ابن

قالوا عشرة قال فاين الحادى عشر قالوا هو عند ابيه يتسلى به عن الهالك  قال فمن يشهد لكم انكم لستم عيونا وان ما تقولون حق قالوا نحن ببلاد لا يعرفنا فيها احد فيشهد لنا قال فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخيكم من ابيكم وهو يحمل رسالة من ابيكم حتى اصدقكم فاقترعوا فأصاب القرعة شمعون فخلفوه عنده اذ لا يساعده وروده الامر بالاتيان به عند التجهيز ولا الحث عليه بايفاء الكيل ولا الاحسان في الانزال ولا الاقتصار على منع الكيل على تقدير عدم الاتيان به ولا جعل بضاعتهم في رحالهم لاجل رجوعهم ولا عدتهم بالاتيان به بطريق المراودة ولا تعليلهم عند ابيهم ارسال أخيهم بمنع الكيل من غير ذكر الرسالة على ان استبقاء شمعون لو وقع لكان ذلك طامة ينسى عندها كل قيل وقال (ألا ترون اني اوف الكيل) اتمه لكم وايثار صيغة الاستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجهيز للدلالة على ان ذلك عادة له مستمرة (وانا خير المنزلين) جملة حالية اي ألا ترون اني اوف الكيل لكم ايفاء مستمرا والحال اني في غاية الاحسان في انزالكم وضيافتكم وقد كان الامر كذلك وتخصيص الرؤية بالايفاء لوقوع الخطاب في اثنائه واما الاحسان في الانزال فقد كان مستمرا فيما سبق ولحق ولذلك اخبر عنه بالجملة الاسمية ولم يقله عليه السلام بطريق الامتنان بل لحثهم على تحقيق ما امرهم به والاقتصار في الكيل على ذكر الايفاء لان معاملته عليه السلام معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم في مراعاة مواجب العدل واما الضيافة فليس للناس فيها حق فخصهم في ذلك بما شاء (فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي) من بعد فضلا عن ايفائه (ولا تقربون) بدخول بلادي فضلا عن (عياس)

عباس رضى الله عنهما ذلك التفرق ما كان يرد قضاء الله ولا امرا قدره الله وقال الزجاج ان العين لو قدر ان تصيبهم لاصابتهم وهم متفرقون كما تصيبهم وهم مجتمعون وقال ابن الانبارى لو سبق فى علم الله ان العين تهلكهم عند الاجتماع لكان تفرقهم كاجتماعهم وهذه الكلمات متقاربة وحاصلها ان الحذر لا يدفع القدر (البحث الثانى) قوله من شئ يحتمل النصب بالمفعولية والرفع بالفاعلية (اما الاول) فهو كقوله ما رأيت من احد والتقدير ما رأيت احدا فكذا ههنا تقدير الآية ان تفرقهم ما كان يغنى من قضاء الله شيئا اى ذلك التفرق ما كان يخرج شيئا من تحت قضاء الله تعالى (واما الثانى) فكقولك ماجاءنى من احد وتقديره ماجاءنى احد فكذا ههنا التقدير ما كان يغنى عنهم من الله شئ مع قضائه اما قوله الا حاجة فى نفس يعقوب قضاها فقال الزجاج انه استثناء منقطع والمعنى لكن حاجة فى نفس يعقوب قضاها يعنى ان الدخول على صفة التفرق قضاء حاجة فى نفس يعقوب قضاها ثم ذكروا فى تفسير تلك الحاجة وجوها (احدها) خوفه عليهم من اصابة العين (وثانيها) خوفه عليهم من حسد اهل مصر (وثالثها) خوفه عليهم من ان يقصدهم ملك مصر بشر (ورابعها) خوفه عليهم من ان لا يرجعوا اليه وكل هذه الوجوه متقاربة واما قوله وانه لذو علم لما علمناه فقال الواحدى يحتمل ان تكون ما مصدرية والهاء عائدة الى يعقوب والتقدير وانه لذو علم من اجل تعليمنا اياه ويمكن ان تكون ما بمعنى الذى والهاء عائدة اليها والتأويل وانه لذو علم للشئ الذى علمناه يعنى انا لما علمناه شيأ حصل له العلم بذلك الشئ وفى الآية قولان آخران (الاول) ان المراد بالعلم الحفظ أى انه لذو حفظ لما علمناه ومراقبة له (والثانى) لذو علم لفوائد ما علمناه وحسن آثاره وهو اشارة الى كونه عاملا بما علمه ثم قال ولكن أكثر الناس لا يعلمون وفيه وجهان (الاول) ولكن أكثر الناس لا يعلمون مثل ما علم يعقوب (والثانى) لا يعلمون ان يعقوب بهذه الصفة والعلم والمراد بأكثر الناس المشركون فانهم لا يعلمون بأن الله كيف ارشد أولياءه الى العلوم التى تنفعهم فى الدنيا والآخرة ❊ قوله تعالى (ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه قال انى أنا اخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ثم أذن مؤذن ايتها العير انكم لسارقون قالوا واقبلوا عليهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم) اعلم انهم لما اتوه بأخيه بنيامين أكرمهم واضافهم واجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحده فبكى وقال لو كان اخى يوسف حيا لاجلسنى معه فقال يوسف بقى اخوكم وحيدا فأجلسه معه على مائدة ثم أمر ان ينزل منهم كل اثنين بيتا وقال هذا لا ثانى له فاتركوه معى فآواه اليه ولما رأى يوسف تأسفه على اخ له هلك قال له اتحب ان أكون اخاك بدل اخيك الهالك قال من يجد أخا مثلك ولكنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف عليه السلام وقام اليه وعانقه وقال انى أنا اخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون اذا عرفت هذا

الاحسان فى الانزال والضيافة وهو اما نهى اونفى معطوف على محل الجزاء وفيه دليل على انهم كانوا على نية الامتيار مرة بعد أخرى وان ذلك كان معلوما له عليه السلام (قالوا سنراود عنه اباه) اى سنخادعه عنه ونحتال فى انتزاعه من يده ونجتهد فى ذلك وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مناله (وانا لفاعلون) ذلك غير مفرطين فيه ولا متوانين او لقادرون عليه لا نتعانى به (وقال) يوسف (لفتيانه) غلمانه الكيالين جمع فتى وقرئ لفتيته وهى جمع قلة له (اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم) فانه وكل بكل رحل رجلا يعبى فيه بضاعتهم التى شروا بها الطعام وكانت نعالا وادما وانما فعله عليه السلام تفضلا عليهم وخوفا من ان لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرة أخرى وكل ذلك لتحقيق ما يتوخاه من رجوعهم بأخيه كما يؤذن به قوله (لعلهم يعرفونها) اى يعرفون حق ردها والتكرم فى ذلك اولكى يعرفوها وهو ظاهر التعلق بقوله (اذا انقلبوا الى اهلهم) فان معرفتهم لها مقيدة بالرجوع وتفريغ الاوعية قطعا واما معرفة حق التكرم فى ردها فهى وان كانت فى ذاتها غير مقيدة بذلك لكن لما كان ابتداؤها حينئذ قيدت به (لعلهم يرجعون) حسبما امرتهم به فان التفضل عليهم باعطاء البدلين ولا سيما عند اعواز البضاعة من اقوى الدواعى الى الرجوع وما قيل انما فعله عليه السلام لما لم ير من الكرم ان يأخذ من ابيه واخوته ثمنا فكلام حق فى نفسه ولكن يأباه التعليل المذكور واما ان علية الجعل المذكور للرجوع من حيث ان ديانتهم تحملهم على رد البضاعة لانهم لا يستحلون امساكها فداره حسبانهم انها بقيت فى رحالهم نسيانا وظاهر ان ذلك مما لا يخطر ببال احد اصلا فان هيئة التعبية

فنقول قوله آوى اليه اخاه اى انزله فى الموضع الذى كان يأوى اليه وقوله انى انا اخوك فيه قولان قال وهب لم يرد انه اخوه من النسب ولكن أراد به انى اقوم لك مقام اخيك فى الايناس لئلا تستوحش بالتفرد والصحيح ماعليه سائر المفسرين من انه اراد تعريف النسب لان ذلك اقوى فى ازالة الوحشة وحصول الانس ولان الاصل فى الكلام الحقيقة فلا وجه لصرفه عنها الى المجاز من غير ضرورة واما قوله فلا تبتئس فقال اهل اللغة تبتئس تفتعل من البؤس وهو الضرر والشدة والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس وقوله بما كانو يعملون فيه وجوه ( الاول ) المراد بما كانوا يعملون من اقامتهم على حسدنا والحرص على انصراف وجه ابينا عنا (الثانى) ان يوسف عليه السلام ما بقى فى قلبه شئ من العداوة وصار صافيا مع اخوته فأراد ان يجعل قلب اخيه صافيا معهم ايضا فقال فلا تبتئس بما كانوا يعملون اى لاتلتفت الى ماصنعوه فيما تقدم ولاتلتفت الى اعمالهم المنكرة التى اقدموا عليها (الثالث) انهم انما فعلوا بيوسف مافعلوه لانهم حسدوه على اقبال الاب عليه وتخصيصه بمزيد الاكرام فخاف بنيامين ان يحسدوه بسبب ان الملك خصه بمزيد الاكرام فأمنه منه وقال لاتلتفت الى ذلك فأن الله قد جمع بينى وبينك (الرابع) روى الكلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان اخوة يوسف عليه السلام كانوا يعيرون يوسف واخاه بسبب ان جدهما ابا امهما كان يعبد الاصنام وان ام يوسف امرت يوسف فسرق جونة كانت لابيها فيها اصنام رجاء ان يترك عبادتها اذا فقدها فقال له فلا تبتئس بما كانوا يعملون أى من التعيير لنا بما كان عليه جدنا والله اعلم ثم قال تعالى فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل اخيه وقد مضى الكلام فى الجهاز والرحل أما السقاية فقال صاحب الكشاف مشربة يسقى بها وهو الصواع قيل كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعا يكال به وهو بعيد لان الاناء الذى يشرب الملك الكبير منه لايصلح أن يجعل صاعا وقيل كانت الدواب تسقى بها ويكال بها أيضا وهذا أقرب ثم قال وقيل كانت من فضة مموهة بالذهب وقيل كانت من ذهب وقيل كانت مرصعة بالجواهر وهذا أيضا بعيد لان الآنية التى يسقى الدواب فيها لا تكون كذلك والاولى ان يقال كان ذلك الاناء شيئا له قيمة أما الى هذا الحد الذى ذكروه فلا ثم قال تعالى ثم أذن مؤذن أيتها العير انكم لسارقون يقال اذنه أى اعلمه وفى الفرق بين اذن وبين أذن وجهان قال ابن الانبارى أذن معناه اعلم اعلاما بعد اعلام لان فعل يوجب تكرير الفعل قال ويجوز ان يكون اعلاما واحدا من قبيل ان العرب تجعل فعل بمعنى أفعل فى كثير من المواضع وقال سيبويه أذنت وأذنت معناه أعلمت لافرق بينهما والتأذين معناه النداء والتصويت بالاعلام وأما قوله تعالى ايتها العير انكم لسارقون قال ابو الهيثم كل ماسير عليه من الابل والحمير والبغال فهو عير وقول من قال العير الابل خاصة باطل وقيل العير الابل التى عليها الاحمال لانها تعير اى تذهب وتجئ وقيل هى قافلة الحمير ثم كثر ذلك حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع

تنادى بان ذلك بطريق التفضل الايرى انهم كيف جزموا بذلك حين ( ٢٢٠ ) رأوها وجعلوا ذلك دليلا على التفضلات السابقة كما ستحيط به خبرا ( فلما رجعوا الى ابيهم قالوا ) قبل ان يشتغلوا بفتح المتاع ( ياابانا منع منا الكيل ) اي فيما بعد وفيه مالايخفى من الدلالة على كون الامتيار مرة بعد مرة معهودا فيما بينهم وبينه عليه السلام (فأرسل معنا اخانا) بنيامين الى مصر وفيه ايذان بأن مدار المنع عدم كونه معهم ( نكتل ) بسببه من الطعام مانشاء وقرأ حمزة والكسائى بالياء على اسناده الى الاخ لكونه سببا للاكتيال او يكتل لنفسه مع اكتيالنا (وانا له لحافظون) من ان يصيبه مكروه (قال هل آمنكم عليه الا كما امنتكم على اخيه ) يوسف (من قبل) وقد قلتم فى حقه ايضا ماقلتم ثم فعلتم به مافعلتم فلا أثق بكم ولا بحفظكم وانما أفوض الامر الى الله ( فالله خير حافظا ) وقرئ حفظا وانتصابهما على التمييز والحالية على القراءة الاولى توهم تقييد الخيرية بتلك الحالة (وهو ارحم الراحمين) فأرجو ان يرحمنى بحفظه ولا يجمع على مصيبتين وهذا كما ترى ميل منه عليه السلام الى الاذن والارسال لما رأى فيه من المصلحة ( ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم ) اى تفضلا وقد علموا ذلك بامارة عن دلالة الحال وقرئ بنقل حركة الدال المدغمة الى الراء كما قيل فى قيل وكيل ( قالوا ) استئناف مبنى على سؤال كأنه قيل ماذا قالوا حينئذ فقيل قالوا لابيهم ولعله كان حاضرا عند الفتح ( ياابانا مانبغى ) اذا فسر البغى بالطلب فما اما استفهامية منصوبة به فالمعنى ماذا نبتغى وراء ماوصفنا لك من احسان الملك الينا وكرمه الداعى الى امتثال امره والمراجعة اليه فى الحوائج وقد كانوا اخبروه بذلك وقالوا له انا قدمنا على خير

( عير )

عير وجمعها فعل كسقف وسقف اذا عرفت هذا فنقول ايتها العير المراد اصحاب العير كقوله ياخيل الله اركبي وقرأ ابن مسعود وجعل السقاية على حذف جواب لما كأنه قيل فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية فى رحل اخيه امهلهم حتى انطلقوا ثم اذن مؤذن ايتها العير انكم لسارقون فان قيل هل كان ذلك النداء بأمر يوسف او ما كان بأمره فان كان بامره فكيف يليق بالرسول الحق من عند الله ان يتهم اقواما وينسبهم الى السرقة كذبا وبهتانا وان كان الثانى وهو انه ما كان ذلك بأمره فهلا انكره وهلا اظهر براءتهم عن تلك التهمة قلنا العلماء ذكروا فى الجواب عنه وجوها (الاول) انه عليه السلام لما اظهر لاخيه انه يوسف قال له انى اريد ان احبسك ههنا ولا سبيل اليه الا بهذه الحيلة فان رضيت بها فالامر لك فرضى بأن يقال فى حقه ذلك وعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام فخرج عن كونه ذنبا (والثانى) ان المراد انكم لسارقون يوسف من ابيه الا انهم ما اظهروا هذا الكلام والمعاريض لاتكون الا كذلك (والثالث) ان ذلك المؤذن ربما ذكر ذلك النداء على سبيل الاستفهام وعلى هذا التقدير يخرج عن ان يكون كذبا (الرابع) ليس فى القرآن انهم نادوا بذلك النداء عن امر يوسف عليه السلام والاقرب الى ظاهر الحال انهم فعلوا ذلك من انفسهم لانهم لما طلبوا السقاية وما وجدوها وما كان هناك احد الا هم غلب على ظنونهم انهم هم الذين اخذوها ثم ان اخوة يوسف قالوا واقبلوا عليهم ماذا تفقدون وقرأ ابو عبد الرحمن السلمى تفقدون من افقدته اذا وجدته فقيدا قالوا نفقد صواع الملك قال صاحب الكشاف قرئ صواع وصاع وصوع وصوع بفتح الصاد وضمها والعين معجمة وغير معجمة قال بعضهم جمع صواع صيعان كغراب وغربان وجمع صاع اصواع كباب وابواب وقال آخرون لافرق بين الصاع والصواع والدليل عليه قراءة ابى هريرة قالوا نفقد صاع الملك وقال بعضهم الصواع اسم والسقاية وصف كقولهم كوز وسقاء فالكوز اسم والسقاء وصف ثم قال ولمن جاء به حمل بعير اى من الطعام وانا به زعيم قال مجاهد الزعيم هو المؤذن الذى أذن وتفسير زعيم كفيل قال الكلبى الزعيم الكفيل بلسان اهل اليمن روى ابو عبيدة عن الكسائى زعمت به تزعم زعما وزعامة اى كفلت به وهذه الآية تدل على ان الكفالة كانت صحيحة فى شرعهم وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله الزعيم غارم فان قيل هذه كفالة بشئ مجهول قلنا حمل بعير من الطعام كان معلوما عندهم فصحت الكفالة به الا ان هذه كفالة مال لرد سرقة وهو كفالة بما لم يجب لانه لا يحل للسارق ان يأخذ شيأ على رد السرقة ولعل مثل هذه الكفالة كانت تصح عندهم ❊ قوله تعالى (قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الارض وما كنا سارقين قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين) قال البصريون الواو فى والله بدل من التاء والتاء بدل من الواو فضعفت عن التصرف فى سائر الاسماء وجعلت فيما هو احق بالقسم وهو اسم الله

رجل انزلنا واكرمنا كرامة لو كان رجلا من آل يعقوب  ما اكرمنا كرامته وقوله تعالى ( هذه بضاعتنا ردت الينا ) جملة مستأنفة موضحة لما دل عليه الانكار من بلوغ اللطف غايته كأنهم قالوا كيف لا وهذه بضاعتنا ردها الينا تفضلا من حيث لا ندرى بعدما من علينا من المنن العظام هل من مزيد على هذا فنطلبه ولم يريدوا به الاكتفاء بذلك مطلقا او التقاعد عن طلب نظائره بل ارادوا الاكتفاء به فى استيجاب الامتثال لامره والالتجاء اليه فى استجلاب المزيد كما اشرنا اليه وقوله تعالى ردت الينا حال من بضاعتنا والعامل معنى الاشارة وايثار صيغة البناء للمفعول للايذان بكمال الاحسان الناشئ عن كمال الاخفاء المفهوم من كمال غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله وقوله عز وجل (ونمير اهلنا) اى نجلب اليهم الطعام من عند الملك معطوف على مقدر ينسحب عليه رد البضاعة اى فنستظهر بها ونمير اهلنا (ونحفظ اخانا) من المكاره حسبما وعدنا فما يصيبه من مكروه (ونزداد) اى بواسطته ولذلك وسط الاخبار بحفظه بين الاصل والمزيد (كيل بعير) اى وسق بعير زائدا على اوساق أباعرنا على قضية التقسيط (ذلك) اى مايحمله أباعرنا (كيل يسير) اى مكيل قليل لايقوم بأودنا فهو استئناف وقع تعليلا لما سبق كأنه قيل اى حاجة الى الازدياد فقيل ما قيل او ذلك الكيل الزائد شئ قليل لا يضايقنا فيه الملك اوسهل عليه لا يتعاظمه او اى مطلب نطلب من مهماتنا والجملة الواقعة بعده توضيح وبيان لما يشعر به الانكار من كونهم فائزين ببعض المطالب او متمكنين من تحصيله فكأنهم قالوا بضاعتنا حاضرة فنستظهر بها ونمير اهلنا ونحفظ اخانا فما يصيبه شئ من المكاره ونزداد بسببه غير ما نكتاله

عزوجل قال المفسرون حلفوا على امرين (احدهما) على انهم ماجاؤا لاجل الفساد فى الارض لانه ظهر من احوالهم امتناعهم من التصرف فى اموال الناس بالكلية لا بالاكل ولا بارسال الدواب فى مزارع الناس حتى روى انهم كانو قد سدوا افواه دوابهم لئلا تعبث فى زرع وكانوا مواظبين على انواع الطاعات ومن كانت هذه صفته فالفساد فى الارض لايليق به (والثانى) انهم ماكانوا سارقين وقد حصل لهم فيه شاهد قاطع وهو انهم لما وجدوا بضاعتهم فى رحالهم حملوها من بلادهم الى مصر ولم يستحلوا اخذها والسارق لايفعل ذلك البتة ثم لما بينوا براءتهم عن تلك التهمة قال اصحاب يوسف عليه السلام فما جزاؤه ان كنتم كاذبين فاجابوا وقالوا اجزاؤه من رجد فى رحله فهو جزاؤه قال ابن عباس كانوا فى ذلك الزمان يستعبدون كل سارق بسرقته وكان استعباد السارق فى شرعهم يجرى مجرى وجوب القطع فى شرعنا والمعنى جزاء هذا الجرم من وجد المسروق فى رحله اى ذلك الشخص هو جزاء ذلك الجرم والمعنى ان استعباده هو جزاء ذلك الجرم قال الزجاج وفيه وجهان (احدهما) ان يقال جزاؤه مبتداء ومن وجد فى رحله خبره والمعنى جزاء السرقة هو الانسان الذى وجد فى رحله السرقة ويكون قوله فهو جزاؤه زيادة فى البيان كما تقول جزاء السارق القطع فهو جزاؤه (الثانى) ان يقال جزاؤه مبتدأ وقوله من وجد فى رحله فهو جزاؤه جملة وهى فى موضع خبر المبتدأ والتقدير كأنه قيل جزاؤه من وجد فى رحله فهو هو الا انه اقام المظهر مقام المضمر للتأكيد والمبالغة فى البيان وانشد النحويون

لاأرى الموت يسبق الموت شئ ❊ نغص الموت الغنى والفقيرا

واما قوله كذلك نجزى الظالمين اى مثل هذا الجزاء جزاء الظالمين يريد اذا سرق استرق ثم قيل هذا من بقية كلام اخوة يوسف وقيل انهم لما قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه فقال اصحاب يوسف كذلك نجزى الظالمين ❊ قوله تعالى (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء اخيه ثم استخرجها من وعاء اخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ اخاه فى دين الملك الا ان يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم) اعلم ان اخوة يوسف لما اقروا بأن من وجد المسروق فى رحله فجزاؤه ان يسترق قال لهم المؤذن انه لابد من تفتيش امتعتكم فانصرف بهم الى يوسف فبدأ باوعيتهم قبل وعاء اخيه لازالة التهمة والاوعية جمع الوعاء وهو كل ما اذا وضع فيه شئ احاط به ثم استخرجها من وعاء اخيه وقرأ الحسن وعاء اخيه بضم الواو وهى لغة وقرأ سعيد بن جبير اعاء اخيه فقلب الواو همزة فان قيل لم ذكر ضمير الصواع مرات ثم انثه قلنا قالوا رجع ضمير المؤنث الى السقاية وضمير المذكر الى الصواع او يقال الصواع يؤنث ويذكر فكان كل واحد منهما جائزا او يقال لعل يوسف كان يسميه سقاية وعبيده صواعا فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية وفيما يتصل بهم صواعا عن قتادة انه قال كان لاينظر فى وعاء الا استغفر الله تائبا مما قذفهم به

---

لانفسنا كيل بعير فأى شئ نبتغى وراء هذه المباغى  وقرئ ماتبغى على خطاب يعقوب عليه السلام اى اى شئ تبغى وراء هذه المباغى المشتملة على سلامة اخينا وسعة ذات ايدينا او وراء ما فعل بنا الملك من الاحسان داعيا الى التوجه اليه والجملة الاستئنافية موضحة لذلك او اى شئ تبغى شاهدا على صدقنا فيما وصفنا لك من احسانه والجملة المذكورة عبارة عن الشاهد المدلول عليه بفحوى الانكار واما نافية فالمعنى ماتبغى شيئا غير ما رأينا من احسان الملك فى وجوب المراجعة اليه او ما نبغى غير هذه المباغى وقيل مانطلب منك بضاعة اخرى والجملة المستأنفة تعليل له واما اذا فسر البغى بمجاوزة الحد فما نافية فقط والمعنى مانبغى فى القول وما نتزيد فيما وصفنا لك من احسان الملك الينا وكرمه الموجب لما ذكر والجملة المستأنفة لبيان ما ادعوا من عدم البغى وقوله ونمير اهلنا عطف على مانبغى اى مانبغى فيما ذكرنا من احسانه وتحصيل امثاله من مير اهلنا وحفظ اخينا فان ذلك اهون شئ بواسطة احسانه وقد جوز ان يكون كلاما مبتدأ اى جملة اعتراضية تذييلية على معنى وينبغى ان نمير اهلنا وشبه ذلك بقولك سعيت فى حاجة فلان ويجب ان اسعى وانت خبير بأن شان الجمل التذييلية ان تكون مؤكدة لمضمون الصدر ومقررة له كما فى المثال المذكور وقولك فلان ينطق بالحق فالحق ابلج وان قوله ونمير الخ وان ساعدنا فى حمله على معنى ينبغى ان نمير اهلنا بمعزل من ذلك او ما نبغى فى الرأى وما نعدل عن الصواب فيما نشير به عليك من ارسال اخينا معنا والجمل الى آخرها تفصيل وبيان لعدم بغيهم واصابة رأيهم اى بضاعتنا حاضرة نستظهر بها ونمير اهلنا ونصنع كيت وذيت (حتى)

حتى انه لما لم يبق الا اخوه قال ما ارى هذا اخذ شيئا فقالوا لا نذهب حتى تتفحص عن حاله ايضا فلما نظروا فى متاعه استخرجوا الصواع من وعائه والقوم كانوا قد حكموا بأن من سرق يسترق فأخذوا برقبته وجروه الى دار يوسف ثم قال تعالى كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ اخاه فى دين الملك وفيه بحثان (الاول) المعنى ومثل ذلك الكيد كدنا ليوسف وذلك اشارة الى الحكم باسترقاق السارق اى مثل هذا الحكم الذى ذكره اخوة يوسف حكمنا ليوسف (الثانى) لفظ الكيد مشعر بالحيلة والخديعة وذلك فى حق الله تعالى محال الا انا ذكرنا قانونا معتبرا فى هذا الباب وهو ان امثال هذه الالفاظ تحمل على نهايات الاعراض لا على بدايات الاعراض وقررنا هذا الاصل فى تفسير قوله تعالى ان الله لا يستحيى فالكيد السعى فى الحيلة والخديعة ونهايته القاء الانسان من حيث لا يشعر فى امر مكروه ولا سبيل له الى دفعه فالكيد فى حق الله تعالى محمول على هذا المعنى ثم اختلفوا فى المراد بالكيد ههنا فقال بعضهم المراد ان اخوة يوسف سعوا فى ابطال امر يوسف والله تعالى نصره وقواه واعلى امره وقال آخرون المراد من هذا الكيد هو انه تعالى القى فى قلوب اخوته ان حكموا بأن جزاء السارق هو ان يسترق لا جرم لما ظهر الصواع فى رحله حكموا عليه بالاسترقاق وصار ذلك سببا لتمكن يوسف عليه السلام من امساك اخيه عند نفسه ثم قال تعالى ما كان ليأخذ اخاه فى دين الملك والمعنى انه كان حكم الملك فى السارق ان يضرب ويغرم ضعفى ماسرق فما كان يوسف قادرا على حبس اخيه عند نفسه بناء على دين الملك وحكمه الا انه تعالى كاد له ما جرى على لسان اخوته ان جزاء السارق هو الاسترقاق فقد بينا ان هذا الكلام توسل به الى اخذ اخيه وحبسه عند نفسه وهو معنى قوله الا ان يشاء الله ثم قال نرفع درجات من نشاء وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ حمزة وعاصم والكسائى درجات بالتنوين غير مضاف والباقون بالاضافة (المسئلة الثانية) المراد من قوله نرفع درجات من نشاء هو انه تعالى يريد وجوه الصواب فى بلوغ المراد ويخصه بانواع العلوم واقسام الفضائل والمراد ههنا هو انه تعالى رفع درجات يوسف على اخوته فى كل شئ واعلم ان هذه الآية تدل على ان العلم اشرف المقامات واعلى الدرجات لانه تعالى لما هدى يوسف الى هذه الحيلة والفكرة مدحه لاجل ذلك فقال نرفع درجات من نشاء وايضا وصف ابراهيم عليه السلام بقوله نرفع درجات من نشاء عند ايراده ذكر دلائل التوحيد والبراءة عن الهية الشمس والقمر والكواكب ووصف ههنا يوسف ايضا بقوله نرفع درجات من نشاء لما هداه الى هذه الحيلة وكم بين المرتبتين من التفاوت ثم قال تعالى وفوق كل ذى علم عليم والمعنى ان اخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء فضلاء الا ان يوسف كان زائدا عليهم فى العلم واعلم ان المعتزلة احتجوا بهذه الآية على انه تعالى عالم بذاته لا بالعلم فقالوا لو كان عالما بالعلم لكان ذا علم ولو كان كذلك لحصل فوقه عليم تمسكا بعموم هذه الآية وهذا باطل واعلم ان اصحابنا قالوا دلت سائر الآيات على اثبات العلم لله تعالى وهى قوله

فتأمل (قال لن ارسله معكم) بعدما عاينت ( ٢٢٣ ) منكم ماعاينت ( حتى تؤتون موثقا من الله ) اى ماتوثق به من جهة الله عز وجل وانما جعله موثقا منه تعالى لان تأكيد العهود به مأذون فيه من جهته تعالى فهو اذن منه عز وجل ( لتأتننى به )جواب القسم اذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتننى به (الا ان يحاط بكم) اى الا ان تغلبوا فلا تطيقوا به او الا ان تهلكوا واصله من احاطة العدو فان من احاط به العدو فقد هلك غالبا وهو استثناء من اعم الاحوال او اعم العلل على تأويل الكلام بالنفى الذى ينساق اليه اى لتأتننى به ولا تمتنعن منه فى حال من الاحوال اولعلة من العلل الا حال الاحاطة بكم اولعلة الاحاطة بكم ونظيره قولهم اقسمت عليك لما فعلت والا فعلت اى ما أريد منك الا فعلك وقد جوز الاول بلا تأويل ايضا اى لتأتننى به على كل حال الا حال الاحاطة بكم وانت تدرى انه حيث لم يكن الاتيان به من الافعال الممتدة الشاملة للاحوال على سبيل المعية كما فى قولك لالزمنك الا ان تعطينى حقى لم يكن مراده عليه السلام مقارنته على سبيل البدل لما عدا الحال المستثناة كما اذا قلت صل الا أن تكون محدثا بل مجرد تحققه ووقوعه من غير اخلال به كما فى قولك لاحجن العام الا ان احصر فان مرادك انما هو الاخبار بعدم منع ماسوى حال الاحصار عن الحج الا الاخبار بمقارنته لتلك الاحوال على سبيل البدل كما هو مرادك فى مثال الصلاة كان اعتبار الاحوال معه من حيث عدم منعها منه فآل المعنى الى التأويل المذكور ( فلما آتوه موثقهم ) عهدهم من الله حسبما اراد يعقوب عليه السلام ( قال الله على ما نقول ) اى على ماقلنا فى اثناء طلب الموثق وايتائه من الجانبين وايثار صيغة الاستقبال

ان الله عنده علم الساعة وانزله بعلمه ولا يحيطون بشئ من علمه وما تحمل من انثى ولا تضع الا بعلمه واذا وقع التعارض فنحن نحمل الآية التى تمسك الخصم بها على واقعة يوسف واخوته خاصة غاية ما فى الباب انه يوجب تخصيص العموم الا انه لابد من المصير اليه لان العالم مشتق من العلم والمشتق مركب والمشتق منه مفرد وحصول المركب بدون حصول المفرد محال فى بديهة العقل فكان الترجيح من جانبنا ❊ قوله تعالى (قالوا ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل فاسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال انتم شر مكانا والله اعلم بما تصفون) اعلم انه لما خرج الصواع من رحل اخى يوسف نكس اخوته رؤسهم وقالوا هذه الواقعة عجيبة ان راحيل ولدت ولدين لصين ثم قالوا يابنى راحيل ما اكثر البلاء علينا منكم فقال بنيامين ما اكثر البلاء علينا منكم ذهبتم بأخى وضيعتموه فى المفازة ثم تقولون لى هذا الكلام قالوا له فكيف خرج الصواع من رحلك فقال وضعه فى رحلى من وضع البضاعة فى رحالكم واعلم ان ظاهر الآية يقتضى انهم قالوا للملك ان هذا الامر ليس بغريب منه فان اخاه الذى هلك كان ايضا سارقا وكان غرضهم من هذا الكلام انا لسنا على طريقته ولا على سيرته وهو واخوه مختصان بهذه الطريقة لانهما من ام اخرى واختلفوا فى السرقة التى نسبوها الى يوسف عليه السلام على اقوال (الاول) قال سعيد بن جبير كان جده ابو امه كافرا يعبد الاوثان فأمرته امه بأن يسرق تلك الاوثان ويكسرها فلعله يترك عبادة الاوثان ففعل ذلك فهذا هو السرقة (والثانى) انه كان يسرق الطعام من مائدة ابيه ويدفعه الى الفقراء وقيل سرق عناقا من ابيه ودفعه الى مسكين وقيل دجاجة (والثالث) ان عمته كانت تحبه حبا شديدا فارادت ان تمسكه عند نفسها وكان قد بقى عندها منطقة لاسحق عليه السلام وكانوا يتبركون بها فشدتها على وسط يوسف ثم قالت بانه سرقها وكان من حكمهم بأن من سرق يسترق فتوسلت بهذه الحالة الى امساكه عند نفسها (والرابع) انهم كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم مملوءة من الغضب على يوسف بعد تلك الوقائع وبعد انقضاء تلك المدة الطويلة وهذه الواقعة تدل على ان قلب الحاسد لا يطهر عن الغل البتة ثم قال تعالى فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم واختلفوا فى ان الضمير فى قوله فاسرها يوسف الى اى شئ يعود على قولين قال الزجاج فأسرها اضمار على شريطة التفسير تفسيره انتم شر مكانا وانما انث لان قوله انتم شر مكانا جملة او كلمة لانهم يسمون الطائفة من الكلام كلمة كأنه قال فأسر الجملة او الكلمة التى هى قوله انتم شر مكانا وفى قراءة ابن مسعود فأسره بالتذكير يريد القول او الكلام وطعن ابو على الفارسى فى هذا الوجه فيما استدركه على الزجاج من وجهين (الاول) قال الاضمار على شريطة التفسير يكون على ضربين (احدهما) ان يفسر بمفرد كقولنا نعم رجلا زيد ففى نعم ضمير فاعلها ورجلا تفسير لذلك الفاعل المضمر والآخر ان يفسر بجملة وأصل هذا يقع فى الابتداء كقوله فاذا هى شاخصة ابصار الذين كفروا وقل هو الله احد والمعنى القصة شاخصة ابصار الذين كفروا

لاستحضار صورته المؤدى الى تثبتهم ومحافظتهم على تذكره ومراقبته (وكيل) مطلع رقيب يريد به عرض ثقته بالله تعالى وحثهم على مراعاة ميثاقهم (وقال) ناصحا لهم لما ازمع على ارسالهم جميعا (يابنى لاتدخلوا) مصر (من باب واحد) نهاهم عن ذلك حذارا من اصابة العين فانهم كانوا ذوى جمال وشارة حسنة وقد كانوا تجملوا فى هذه الكرة اكثر مما فى المرة الاولى وقد اشتهروا فى مصر بالكرامة والزلفى لدى الملك بخلاف النوبة الاولى فكانوا مئنة لدنو كل ناظر وطموح كل طامح واصابة العين بتقدير العزيز الحكيم ليست مما ينكر وقد ورد عنه عليه السلام ان العين حق وعنه عليه السلام ان العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر وقد كان عليه السلام يعوذ الحسنين رضى الله عنهما بقوله أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة وكان عليه السلام يقول كان ابوكما يعوذ بها اسمعيل واسحق عليهم السلام رواه البخارى فى صحيحه وقد شهدت بذلك التجارب ولما لم يكن عدم الدخول من باب واحد مستلزما للدخول من ابواب متفرقة وكان فى دخولهم من بابين او ثلاثة بعض ما فى الدخول من باب واحد من نوع اجتماع مصحح لوقوع المحذور قال (وادخلوا من ابواب متفرقة) بيانا لما هو المراد بالنهى وانما لم يكتف بهذا الامر مع كونه مستلزما له اظهارا لكمال العناية وايذانا بأنه المراد بالامر المذكور لا لتحقيق لشئ آخر (وما اغنى عنكم) اى لا انفعكم ولا ادفع عنكم بتدبيرى (من الله من شئ) اى شيئا مما قضى عليكم فان الحذر لا يمنع القدر ولم يرد به عليه السلام الغاء الحذر بالمرة كيف لا وقد قال عز قائلا ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وقال خذوا حذركم بل اراد (والامر)

والامر الله احـد ثم ان العوامل الداخلة على المبتدأ والخبر تدخل عليه ايضـا نحو ان كقوله انه من يأت ربه مجرما فانها لاتعمى الابصار اذا عرفت هذا فنقول نفس المضمر على شريطة التفسير فى كلا القسمين متصل بالجملة التى حصل منها الاضمار ولايكون خارجا عن تلك الجملة ولامباينا لها وههنا التفسير منفصل عن الجملة التى حصل منها الاضمار فوجب ان لايحسن ( والثانى ) انه تعالى قال انتم شر مكانا وذلك يدل على انه ذكر هذا الكلام ولو قلنا انه عليه السلام اضمر هذا الكلام لكان قوله انه قال ذلك كذبا واعلم ان هذا الطعن ضعيف لوجوه ( اما الاول ) فلانه لايلزم من حسن القسمين الاولين قبح قسم ثالث واما الثانى فلانا نحمل ذلك على انه عليه السلام قال ذلك على سبيل الخفية وبهذا التفسير يسقط هذا السؤال ( والوجه الثانى ) وهو ان الضمير فى قوله فاسرها عائد الى الاجابة كأنهم قالوا ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل فاسر يوسف اجابتهم فى نفسه فى ذلك الوقت ولم يبدها لهم فى تلك الحالة الى وقت ثان ويجوز ايضا ان يكون اضمار المقالة والمعنى اسر يوسف مقالتهم والمراد من المقالة متعلق تلك المقـالة كما يراد بالخلق المخلوق وبالعلم المعلوم يعنى اسر يوسف فى نفسه كيفية تلك السرقة ولم يبين لهم انها كيف وقعت وانه ليس فيها مايوجب الذم والطعن روى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال عوقب يوسف عليه السلام ثلاث مرات لاجل همه بها عوقب بالحبس وبقوله اذكرنى عند ربك عوقب بالحبس الطويل وبقوله انكم لسارقون عوقب بقولهم فقد سرق اخ له من قبل ثم حكى تعالى عن يوسف انه قال انتم شر مكانا اى انتم شر منزلة عند الله تعالى لما اقدمتم عليه من ظلم اخيكم وعقوق ابيكم فاخذتم اخاكم وطرحتموه فى الجب ثم قلتم لابيكم ان الذئب اكله وانتم كاذبون ثم بعتمـوه بعشرين درهما ثم بعد المدة الطويلة والزمان الممتد مازال الحقد والغضب عن قلوبكم فرميتموه بالسرقة ثم قال تعالى والله اعلم بمـا تصفون يريدان سرقة يوسف كانت رضا لله وبالجملة فهذه الوجوه المذكورة فى سرقته لايوجب شىء منها عود الذم واللوم اليه والمعنى والله اعلم بان هذا الذى وصفتموه به هل يوجب عود مذمة اليه ام لا ❋ قوله تعالى ( قالوا ياأيها العزيز ان له ابا شيخا كبيرا فخذ احدنا مكانه انا نراك من المحسنين قال معاذ الله ان نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده انا اذا لظالمون ) اعلم انه تعالى بين انهم بعـد الذى ذكروه من قولهم ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل احبوا موافقته والعدول الى طريقة الشفـاعة فانهم وان كانوا قد اعترفوا ان حكم الله تعـالى فى السارق ان يستعبد الا ان العفو واخذ الفداء كان ايضا جائزا فقالوا ياأيها العزيز ان له ابا شيخا كبيرا اى فى السن ويجوز ان يكون فى القدر والدين وانما ذكروا ذلك لان كونه ابن الرجل كبير القدر يوجب العفو والصفح ثم قالوا فخذ احدنا مكانه يحتمل ان يكون المراد على طريق الاستعبـاد ويحتمل ان يكون المراد على طريق الرهن حتى نوصل الفـداء اليك ثم قالوا انا نراك من المحسنين وفيه وجوه ( احدها ) انا نراك من المحسنين لو فعلت ذلك ( وثانيها )

بيان ان ماوصاهم به ليس مما يستوجب المراد  لامحالة بل هو تدبير فى الجملة وانما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير وان ذلك ليس بمدافعة للقدر بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه اليه ( ان الحكم ) مطلقا ( الا لله ) لايشاركه احد ولا يمانعه شىء ( عليه ) لا على احد سواه ( توكلت ) فى كل ما آتى وأذر وفيه دلالة على ان ترتيب الاسـباب غير مخل بالتوكل ( وعليه ) دون غيره ( فليتوكل المتوكلون ) جمع بين الحرفين فى عطف الجملة على الجملة مع تقديم الصلة للاختصـاص مفيدا بالواو عطف فعل غيره من تخصيص التوكل بالله عز وجل على فعل نفسه وبالفاء سببية فعله لكونه نبيا لفعل غيره من المقتدين به فيدخل فيهم بنوه دخولا اوليا وفيه مالايخفى من حسن هدايتهم وارشـادهم الى التوكل فيما هم بصدده على الله عز وجـل غير مغترين بما وصاهم به من التدبير ( ولما دخلوا من حيث امرهم أبوهم ) من الابواب المتفرقة من البلد قيل كانت له اربعة ابواب فدخلوا منها وانما اكتفى بذكره لاستلزامه الانتهاء عما نهوا عنه ( ماكان ) ذلك الدخول ( يغنى ) فيما سـيأتى عند وقوع ماوقع ( عنهم ) عن الداخلين لان المقصود به استدفاع الضرر عنهم والجمع بين صيغتى المـاضى والمستقبل لتحقيق المقـارنة الواجبة بين جواب لما ومدخوله فان عدم الاغناء بالفعل انما يتحقق عند نزول المحذور لا وقت الدخول وانما المحقق حينئذ ماافاده الجمع المذكور من عدم كون الدخول المذكور مغنيا فيما سيأتى فتأمل ( من الله ) من جهته ( من شىء ) اى شيئا قضاه عليهم مع كونه مظنـة لذلك فى بادى الرأى حيث وصاهم به يعقوب عليه السلام وعملوا بموجبه واثقين بجدواه من فضـل الله تعالى فليس المراد بيـان

انا نراك من المحسنين الينا حيث اكرمتنا واعطيتنا البذل الكثير وحصلت لنا مطلوبنا على احسن الوجوه ورددت الينا ثمن الطعام ( وثالثها ) نقل انه عليه السلام لما اشتد القحط على القوم ولم يجدوا شيئا يشترون به الطعام وكانوا يبيعون انفسهم منه فصار ذلك سببا لصيرورة اكثر اهل مصر عبيدا له ثم انه اعتق الكل فلعلهم قالوا انا نراك من المحسنين الى عامة الناس بالاعتاق فكن محسنا ايضا الى هذا الانسان باعتاقه من هذه المحنة فقال يوسف معاذ الله اى اعوذ بالله معاذا ان نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده اى اعوذ بالله ان آخذ بريئا بمذنب قال الزجاج موضع ان نصب والمعنى اعوذ بالله من اخذ احد بغيره فلما سقطت كلمة من انتصب الفعل عليه وقوله انا اذا لظالمون اى لقد تعديت وظلمت ان آذيت انسانا بجرم صدر عن غيره فان قيل هذه الواقعة من اولها الى آخرها تزوير وكذب فكيف يجوز من يوسف عليه السلام مع رسالته الاقدام على هذا التزوير والترويج وايذاء الناس من غير سبب لاسيما ويعلم انه اذا حبس اخاه عند نفسه بهذه التهمة فانه يعظم حزن ابيه ويشتد غمه فكيف يليق بالرسول المعصوم المبالغة في التزوير الى هذا الحد (والجواب) لعله تعالى امر بذلك تشديدا للمحنة على يعقوب ونهاه عن العفو والصفح واخذ البدل كما امر تعالى صاحب موسى بقتل من لو بقي لطغى وكفر ❊ قوله تعالى ( فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم الم تعلموا ان اباكم قد اخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن ابرح الارض حتى يأذن لي ابي او يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ) في الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) اعلم انهم لما قالوا فخذ احدنا مكانه وهو نهاية ما يمكنهم بذله فقال يوسف في جوابه معاذ الله ان نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده فانقطع طمعهم من يوسف عليه السلام في رده فعند هذا قال تعالى فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا وهو مبالغة في يأسهم من رده وخلصوا نجيا اى تفردوا عن سائر الناس يتناجون ولا شبهة ان المراد يتشاورون ويتخيلون الرأى فيما وقعوا فيه لانهم انما اخذوا بنيامين من ابيهم بعد المواثيق المؤكدة وبعد ان كانوا متهمين في حق يوسف فلو لم يعيدوه الى ابيهم لحصلت محن كثيرة ( احدها ) انه لو لم يعودوا الى ابيهم وكان شيخا كبيرا فبقاؤه وحده من غير احد من اولاده محنة عظيمة ( وثانيها ) ان اهل بيتهم كانوا محتاجين الى الطعام اشد الحاجة ( وثالثها ) ان يعقوب عليه السلام ربما كان يظن ان اولاده هلكوا بالكلية وذلك غم شديد ولو عادوا الى ابيهم بدون بنيامين لعظم حياؤهم فان ظاهر الامر يوهم انهم خانوه في هذا الابن كما انهم خانوه في الابن الاول ولكان يوهم ايضا انهم ما اقاموا لتلك المواثيق المؤكدة وزنا ولا شك ان هذا الموضع موضع فكرة وحيرة وذلك يوجب التفاوض والتشاور طلبا للاصلح الاصوب فهذا هو المراد من قوله فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا ( المسئلة الثانية ) قال الواحدى روى عن ابن كثير استياسوا وحتى اذا استياس الرسل بغير همز وفي ييئس لغتان يئس وييأس مثل حسب ويحسب ومن قال استأيس قلب العين الى

سببية الدخول المذكور لعدم الاغناء كما في قوله تعالى فلما جاءهم نذير مازادهم الا نفورا فان مجيء النذير هناك سبب لزيادة نفورهم بل بيان عدم سببيته للاغناء مع كونها متوقعة في بادي الرأى كما في قولك حلف ان يعطيني حقي عند حلول الاجل فلما حل لم يعطني شيئا فان المراد بيان عدم سببية حلول الاجل للاعطاء مع كونها مرجوة بموجب الحلف لا بيان سببيته لعدم الاعطاء فالمآل بيان عدم ترتب الغرض المقصود على التدبير المعهود مع كونه مرجو الوجود لا بيان ترتب عدمه عليه ويجوز ان يراد ذلك ايضا بناء على ماذكره عليه السلام في تضاعيف وصيته من انه لا يغني عنهم من الله شيئا فكانه قيل ولما فعلوا ما اوصاهم به لم يفد ذلك شيئا ووقع الامر حسبما قال عليه السلام فلقوا مالقوا فيكون من باب وقوع المتوقع فتأمل ( الا حاجة ) استثناء منقطع اى ولكن حاجة وحزازة كائنة ( في نفس يعقوب قضاها ) اى اظهرها ووصاهم بها دفعا للخاطرة غير معتقد ان للتدبير تأثيرا في تغيير التقدير وقد جعل ضمير الفاعل في قضاها للدخول على معنى ان ذلك الدخول قضى حاجة في نفس يعقوب وهى ارادته ان يكون دخولهم من ابواب متفرقة فالمعنى ما كان ذلك الدخول يغني عنهم من جهة الله تعالى شيئا ولكن قضى حاجة حاصلة في نفس يعقوب بوقوعه حسب ارادته فالاستثناء منقطع ايضا وعلى التقديرين لم يكن للتدبير فائدة سوى دفع الخاطرة واما اصابة العين فانما لم تقع لكونها غير مقدرة عليهم لا لانها اندفعت بذلك مع كونها مقضية عليهم (وانه لذو علم ) جليل ( لما علمناه ) لتعليمنا اياه بالوحي ونصب الادلة حيث لم يعتقد ان الحذر يدفع القدر وان التدبير له حظ من التأثير (موضع)

موضع الفاء فصار استعفل واصله استيأس ثم خففت الهمزة قال صاحب الكشاف استيأسوا يئسوا وزيادة السين والتاء للمبالغة كما فى قوله استعصم وقوله خلصوا قال الواحدى يقال خلص الشئ يخلص خلوصا اذا ذهب عنه الشائب من غيره ثم فيه وجهان (الاول) قال الزجاج خلصوا اى انفردوا وليس معهم اخوهم (والثانى) قال الباقون تميزوا عن الاجانب وهذا هو الاظهر واما قوله نجيا فقال صاحب الكشاف النجى على معنيين يكون بمعنى المناجى كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر ومنه قوله تعالى وقربناه نجيا وبمعنى المصدر الذى هو التناجى كما قيل النجوى بمعنى المتناجين فعلى هذا معنى خلصوا نجيا اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لايخالطهم سواهم نجيا اى مناجيا روى نجوى اى فوجا نجيا اى مناجيا المناجاة بعضهم بعضا واحسن الوجوه ان يقال انهم تمحضوا تناجيا لان من كمل حصول امر من الامور فيه وصف بأنه صار عين ذلك الشئ فلما اخذوا فى التناجى على غاية الجد صاروا كأنهم فى انفسهم صاروا نفس التناجى حقيقة اما قوله تعالى قال كبيرهم فقيل المراد كبيرهم فى السن وهو روبيل وقيل كبيرهم فى العقل وهو يهودا وهو الذى نهاهم عن قتل يوسف ثم حكى تعالى عن هذا الكبير انه قال ألم تعلموا ان أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال ابن عباس رضى الله عنهما لما قال يوسف عليه السلام معاذ الله ان نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده غضب يهودا وكان اذا غضب وصاح فلا تسمع صوته حامل الا وضعت ويقوم شعره على جسده فلا يسكن حتى يضع بعض آل يعقوب يده عليه فقال لبعض اخوته اكفونى اسواق اهل مصر وأنا اكفيكم الملك فقال يوسف عليه السلام لابن صغير له مسه فمسه فذهب غضبه وهم ان يصيح فركض يوسف عليه السلام رجله على الارض واخذ بملابسه وجذبه فسقط فعنده قال يا أيها العزيز فلما ايسوا من قبول الشفاعة تذاكروا وقالوا ان أبانا قد اخذ علينا موثقا عظيما من الله وايضا نحن متهمون بواقعة يوسف فكيف المخلص من هذه الورطة (المسئلة الثانية) لفظ ما فى قوله ما فرطتم فيها وجوه (الاول) ان يكون اصله من قبل هذا فرطتم فى شأن يوسف عليه السلام ولم تحفظوا عهد أبيكم (الثانى) ان تكون مصدرية ومحله الرفع على الابتداء وخبره الظرف وهو من قبل ومعناه وقع من قبل تفريطكم فى يوسف (الثالث) النصب عطفا على مفعول ألم تعلموا والتقدير ألم تعلموا اخذ ابيكم موثقكم وتفريطكم من قبل فى يوسف (الرابع) ان تكون موصولة بمعنى ومن قبل هذا ما فرطتموه اى قدمتموه فى حق يوسف من الخيانة العظيمة ومحله الرفع والنصب على الوجهين المذكورين ثم قال فلن ابرح الارض اى فلن افارق ارض مصر حتى يأذن لى ابى فى الانصراف اليه او يحكم الله لى بالخروج منها او بالانتصاف ممن اخذ اخى او بخلاصه من يده بسبب من الاسباب وهو خير الحاكمين لانه لا يحكم الا بالعدل والحق وبالجملة فالمراد ظهور عذر يزول معه حياؤه وخجله من ابيه

حتى يتبين الخلل فى رأيه عند تخلف الاثر اوحيث بت القول بأنه لايغنى عنهم من الله شيئا فكان الحال كما قال وفى تأكيد الجملة بان واللام وتنكير العلم وتعليله بالتعليم المسند الى ذاته سبحانه من الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلو مرتبة علمه وفخامته مالا يخفى (ولكن اكثر الناس لايعلمون) اسرار القدر ويزعمون انه يغنى عنه الحذر واما مايقال من ان المعنى لايعلمون ايجاب الحذر مع انه لايغنى شيئا من القدر فيأباه مقام بيان تخلف المطلوب عن المبادى (ولما دخلوا على يوسف آوى اليه اخاه) بنيامين اى ضمه اليه فى الطعام او فى المنزل او فيهما روى انهم لما دخلوا عليه قالوا له هذا اخونا قد جئناك به فقال لهم احسنتم وستجدون ذلك عندى فاكرمهم ثم اضافهم واجلسهم مثنى مثنى فبقى بنيامين وحيدا فبكى وقال لو كان اخى يوسف حيا لاجلسنى معه فقال يوسف بقى اخوكم فريدا فاجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله ثم انزل كل اثنين منهم بيتا فقال هذا لاثانى معه فيكون معى فبات يوسف يضمه اليه ويشم رائحته حتى اصبح وسأله عن ولده فقال لى عشرة بنين اشتققت اسماءهم من اسم اخ لى هلك فقال له أتحب ان اكون اخاك بدل اخيك الهالك قال من يجد اخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وقام اليه وعانقه وتعرف اليه وعند ذلك (قال انى انا أخوك) يوسف (فلا تبتئس) اى فلا تحزن (بما كانوا يعملون) بنا فيما مضى فان الله تعالى قد احسن الينا وجمعنا بخير ولا تعلمهم بما اعلمتك قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وعن وهب انه لم يتعرف اليه بل قال له انا اخوك بدل اخيك المفقود ومعنى فلا تبتئس لا تحزن بما كنت تلقى منهم من الحسد والاذى فقد أمنتهم وروى انه قال له فأنا لا أفارقك قال قد علمت باغتمام

او غيره قاله انقطاعا الى الله تعالى فى اظهار عذره بوجه من الوجوه ❊ قوله تعالى (ارجعوا الى ابيكم فقولوا ياأبانا ان ابنك سرق و ماشهدنا الا بما علمنا و ما كنا للغيب حافظين واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى اقبلنا فيها وانا لصادقون) واعلم انهم لما تفكروا فى الاصوب ماهو ظهر لهم ان الاصوب هو الرجوع وان يذكروا لابيهم كيفية الواقعة على الوجه من غير تفاوت والظاهر ان هذا القول قاله ذلك الكبير الذى قال فلن ابرح الارض حتى يأذن لى ابى قيل انه روبيل وبقى هو فى مصر وبعث سائر اخوته الى الاب فان قيل كيف حكموا عليه بأنه سرق من غير بينة لاسيما وهو قد أجاب بالجواب الشافى فقال الذى جعل الصواع فى رحلى هو الذى جعل البضاعة فى رحالكم (والجواب) عنه من وجوه (الاول) انهم شاهدوا ان الصواع كان موضوعا فى موضع ما كان يدخله احد الاهم فلما شاهدوا انهم اخرجوا الصواع من رحله غلب على ظنونهم انه هو الذى اخذ الصواع واما قوله وضع الصواع فى رحلى من وضع البضاعة فى رحالكم فالفرق ظاهر لان هناك لما رجعوا بالبضاعة اليهم اعترفوا بأنهم هم الذين وضعوها فى رحالهم واما هذا الصواع فان احدا لم يعترف بأنه هو الذى وضع الصواع فى رحله فظهر الفرق فلهذا السبب غلب على ظنونهم انه سرق فشهدوا بناء على هذا الظن ثم بينوا انهم غير قاطعين بهذا الامر بقولهم وماشهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين (الوجه الثانى) فى الجواب ان تقدير الكلام ان ابنك سرق فى قول الملك واصحابه ومثله كثير فى القرآن قال تعالى انك لانت الحليم الرشيد اى عند نفسك وقال تعالى ذق انك انت العزيز الكريم اى عند نفسك واما عندنا فلا فكذا ههنا (الوجه الثالث) فى الجواب ان ابنك ظهر عليه مايشبه السرقة ومثل هذا الشئ يسمى سرقة فان اطلاق اسم احد الشبيهين على الشبيه الآخر جائز فى القرآن قال تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها (الوجه الرابع) ان القوم ما كانوا انبياء فى ذلك الوقت فلا يبعد ان يقال انهم ذكروا هذا الكلام على سبيل المجازفة لاسيما وقد شاهدوا شيئا يوهم ذلك (الوجه الخامس) ان ابن عباس رضى الله عنهما كان يقرأ ان ابنك سرق بالتشديد اى نسب الى السرقة فهذه القراءة لاحاجة بها الى التأويل لان القوم نسبوه الى السرقة الا انا ذكرنا فى هذا الكتاب ان امثال هذه القراآت لاتدفع السؤال لان الاشكال انما يدفع اذا قلنا القراءة الاولى باطلة والقراءة الحقة هى هذه القراءة اما اذا سلمنا ان القراءة الاولى حقة كان الاشكال باقيا سواء صحت هذه القراءة الثانية اولم تصح فثبت انه لابد من الرجوع الى احد الوجوه المذكورة اما قوله وماشهدنا الا بما علمنا فمعناه ظاهر لانه يدل على ان الشهادة غير العلم بدليل قوله تعالى وماشهدنا الا بما علمنا وذلك يقتضى كون الشهادة مغايرة للعلم ولانه عليه السلام قال اذا علمت مثل الشمس فاشهد وذلك ايضا يقتضى ماذكرناه وليست الشهادة ايضا عبارة عن قوله اشهد لان قوله اشهد اخبار عن الشهادة والاخبار عن الشهادة غير الشهادة اذا ثبت هذا فنقول الشهادة عبارة عن الحكم الذهنى

والدى بى فاذا حبستك يزداد غمه ولا سبيل الى ذلك الا ان انسبك الى مالا يجمل قال  لا ابالى فافعل مابدالك قال ادس صاعى فى رحالك ثم انادى عليك بأنك سرقته ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك معهم قال افعل (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية) اى المشربة قيل كانت مشربة جعلت صاعا يكال به وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال بها الحبوب وكانت من فضة وقيل من ذهب وقيل من فضة مموهة بالذهب وقيل كانت اناء مستطيلة تشبه المكوك الفارسى الذى يلتقى طرفاه يستعمله الاعاجم وقيل كانت مرصعة بالجواهر (فى رحل اخيه) بنيامين وقرئ وجعل على حذف جواب لما تقديره امهلهم حتى انطلقوا (ثم اذن مؤذن) نادى مناد (ايتها العير) هى الابل التى عليها الاحمال لانها تعير اى تذهب وتجئ وقيل هى قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير واصلها فعل مثل سقف وسقف فعل به ما فعل ببيض وغيد والمراد اصحابها كما فى قوله عليه السلام ياخيل الله اركبى روى انهم ارتحلوا وامهلهم يوسف حتى انطلقوا منزلا وقيل خرجوا من العمارة ثم امر بهم فأدركوا ونودوا (انكم لسارقون) هذا الخطاب ان كان بأمر يوسف فلعله اريد بالسرقة اخذهم له من ابيه ودخول بنيامين فيه بطريق التغليب والا فهو من قبل المؤذن بناء على زعمه والاول هو الاظهر الاوفق للسياق وقرأ اليمانى سارقون بلا لام (قالوا) اى الاخوة (واقبلوا عليهم) جملة حالية من الضمير قالوا جئ بها للدلالة على انزعاجهم مما سمعوه لمباينته لحالهم (ماذا تفقدون) اى تعدمون تقول فقدت الشئ اذا عدمته بأن ضل عنك لابفعلك والمآل ماذا ضاع عنكم وصيغة المستقبل

( وهو )

وهو الذى يسميه المتكلمون بكلام النفس واما قوله وما كنا للغيب حافظين ففيه وجوه (الاول) انا قد رأينا انهم اخرجوا الصواع من رحله واما حقيقة الحال فغير معلومة لنا فان الغيب لا يعلمه الا الله (والثانى) قال عكرمة معناه لعل الصواع دس فى متاعه بالليل فان الغيب اسم لليل على بعض اللغات (والثالث) قال مجاهد والحسن وقتادة ما كنا نعلم ان ابنك يسرق ولو علمنا ذلك ماذهبنا به الى الملك وما اعطيناك موثقا من الله فى رده اليك (والرابع) نقل ان يعقوب عليه السلام قال لهم فهب انه سرق ولكن كيف عرف الملك ان شرع بنى اسرائيل ان من سرق يسترق بل انتم ذكرتموه له لغرض لكم فقالوا عند هذا الكلام انا قد ذكرنا له هذا الحكم قبل وقوعنا فى هذه الواقعة وما كنا نعلم ان هذه الواقعة نقع فيها فقوله وما كنا للغيب حافظين اشارة الى هذا المعنى فان قيل فهل يجوز من يعقوب عليه السلام ان يسعى فى اخفاء حكم الله تعالى على هذا القول قلنا لعله كان ذلك الحكم مخصوصا بما اذا كان المسروق منه مسلما فلهذا انكر ذكر هذا الحكم عند الملك الذى ظنه كافرا ثم حكى الله تعالى عنهم انهم قالوا واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى اقبلنا فيها واعلم انهم لما كانوا متهمين بسبب واقعة يوسف عليه السلام بالغوا فى ازالة التهمة عن انفسهم فقالوا واسأل القرية التى كنا فيها والاكثرون اتفقوا على ان المراد من هذه القرية مصر وقال قوم بل المراد منه قرية على باب مصر جرى فيها حديث السرقة والتفتيش ثم فيه قولان (الاول) المراد واسأل اهل القرية الا انه حذف المضاف للايجاز والاختصار وهذا النوع من المجاز مشهور فى لغة العرب قال ابو على الفارسى ودافع جواز هذا فى اللغة كدافع الضروريات وجاحد المحسوسات (والثانى) قال ابو بكر بن الانبارى المعنى اسأل القرية والعير والجدار والحيطان فانها تجيبك وتذكر لك صحة ما ذكرناه لانك من اكابر انبياء الله فلا يبعد ان ينطق الله هذه الجمادات معجزة لك حتى تخبر بصحة ما ذكرناه وفيه وجه ثالث وهو ان الشئ اذا ظهر ظهورا تاما كاملا فقد يقال فيه سل السماء والارض وجميع الاشياء عنه والمراد انه بلغ فى الظهور الى الغاية التى مابقى للشك فيه مجال اما قوله والعير التى اقبلنا فيها فقال المفسرون كان قد صحبهم قوم من الكنعانيين فقالوا سلهم عن هذه الواقعة ثم انهم لما بالغوا فى التأكيد والتقرير قالوا وانا لصادقون يعنى سواء نسبتنا الى التهمة اولم تنسبنا اليها فنحن صادقون وليس غرضهم ان يثبتوا صدق انفسهم بأنفسهم لان هذا يجرى مجرى اثبات الشئ بنفسه بل الانسان اذا قدم ذكر الدليل القاطع على صحة الشئ فقد يقول بعده وانا صادق فى ذلك يعنى فتأمل فيما ذكرته من الدلائل والبينات لتزول عنك الشبهة ❊ قوله تعالى (قال بل سولت لكم انفسكم امرا فصبر جميل عسى الله ان يأتينى بهم جميعا انه هو العليم الحكيم) اعلم ان يعقوب عليه السلام لما سمع من ابنائه ذلك الكلام لم يصدقهم فيما ذكروا كما فى واقعة يوسف فقال بل سولت لكم انفسكم امرا فصبر جميل فذكر هذا الكلام بعينه فى هذه الواقعة الا انه قال فى واقعة

لاستحضار الصورة وقرئ تفقدون من افقدته اذا وجدته  فقيدا وعلى التقديرين فالعدول عما يقتضيه الظاهر من قولهم ماذا سرق منكم لبيان كمال نزاهتهم باظهار انه لم يسرق منهم شئ فضلا ان يكونوا هم السارقين له وانما الممكن ان يضيع منهم شئ فيسألونهم انه ماذا وفيه ارشاد لهم الى مراعاة حسن الادب والاحتراز عن المجازفة ونسبة البرآء الى مالا خير فيه لاسيما بطريق التوكيد فلذلك غيروا كلامهم حيث (قالوا) فى جوابهم (نفقد صواع الملك) ولم يقولوا سرقتموه او سرق وقرئ صاع وصوع وصوع بفتح الصاد وضمها وباهمال العين واعجامها من الصياغة ثم قالوا تربية لما تلقوه من قبلهم واراءة لاعتقاد انه انما بقى فى رحلهم اتفاقا (ولمن جاء به) من عند نفسه مظهرا له قبل التفتيش (حمل بعير) من الطعام جعلا له لا على نية تحقيق الوعد لجزمهم بامتناع وجود الشرط وعزمهم على مالا يخفى من اخذ من وجد فى رحله (وانا به زعيم) كفيل أؤديه اليه وهو قول المؤذن (قالوا تالله) الجمهور على ان التاء بدل من الواو ولذلك لا تدخل الا على الجلالة المعظمة او الرب المضاف الى الكعبة او الرحمن فى قول ضعيف ولو قلت تالرحيم لم يجز وقيل من الباء وقيل اصل بنفسها وايا ما كان ففيه تعجب (لقد علمتم) علما جازما مطابقا للواقع (ما جئنا لنفسد فى الارض) اى لنسرق فانه من اعظم انواع الافساد او لنفسد فيها اى افساد كان مما عز او هان فضلا عما نسبتمونا اليه من السرقة ونفى المجئ للافساد وان لم يكن مستلزما لما هو مقتضى المقسام من نفى الافساد مطلقا لكنهم جعلوا المجئ الذى يترتب عليه ذلك ولو بطريق الاتفاق مجيئا لغرض الافساد مفعولا لاجله ادعاء اظهارا لكمال قبحه عندهم وتربية لاستحالة صدوره عنهم

يوسف عليه السلام والله المستعان على ماتصفون وقال ههنا عسى الله ان يأتيني بهم جميعا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال بعضهم ان قوله بل سولت لكم انفسكم امرا ليس المراد منه ههنا الكذب والاحتيال كما في قوله في واقعة يوسف عليه السلام حين قال بل سولت لكم انفسكم امرا لكنه عني سولت لكم انفسكم اخراج بنيامين عني والمصير به الى مصر طلبا للمنفعة فعاد من ذلك شر وضرر والحتم علي في ارساله معكم ولم تعلموا ان قضاء الله انما جاء على خلاف تقديركم وقيل بل المعنى سولت لكم انفسكم امرا خيلت لكم انفسكم انه سرق وما سرق (المسئلة الثانية) قيل ان روبيل لما عزم على الاقامة بمصر امره الملك ان يذهب مع اخوته فقال اتركوني والاصحت صيحة لاتبقى بمصر امرأة حامل الا وتضع حملها فقال يوسف دعوه ولما رجع القوم الى يعقوب عليه السلام واخبروه بالواقعة بكى وقال يابني لاتخرجوا من عندي مرة الا ونقص بعضكم ذهبتم مرة فنقص يوسف وفي الثانية نقص شمعون وفي هذه الثالثة نقص روبيل وبنيامين ثم بكى وقال عسى الله ان يأتيني بهم جميعا وانما حكم بهذا الحكم لوجوه (الاول) انه لما طال حزنه وبلاؤه ومحنته علم انه تعالى سيجعل له فرجا ومخرجا عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن برحمة الله (والثاني) لعله تعالى قد اخبره من بعد محنة يوسف انه حي او ظهرت له علامات ذلك وانما قال عسى الله ان يأتيني بهم جميعا لانهم حين ذهبوا بيوسف كانوا اثني عشر فضاع يوسف وبقي احد عشر ولما ارسلهم الى مصر عادوا تسعة لان بنيامين حبسه يوسف واحتبس ذلك الكبير الذي قال فلن ابرح الارض حتى يأذن لي ابي او يحكم الله لي فلما كان الغائبون ثلاثة لاجرم قال عسى الله ان يأتيني بهم جميعا ثم قال انه هو العليم الحكيم يعني هو العالم بحقائق الامور الحكيم فيها على الوجه المطابق للفضل والاحسان والرحمة والمصلحة ❊ قوله تعالى (وتولى عنهم وقال يا اسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا او تكون من الهالكين قال انما اشكو بثي وحزني الى الله واعلم من الله ما لا تعلمون يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه ولا تيأسوا من روح الله انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون) واعلم ان يعقوب عليه السلام لما سمع كلام ابنائه ضاق قلبه جدا واعرض عنهم وفارقهم ثم بالاخرة طلبهم وعاد اليهم (اما المقام الاول) انه اعرض عنهم وفر منهم فهو قوله وتولى عنهم وقال يا اسفى على يوسف واعلم انه لما ضاق صدره بسبب الكلام الذي سمعه من ابنائه في حق بنيامين عظم اسفه على يوسف عليه السلام وقال يا اسفى على يوسف وانما عظم حزنه على مفارقة يوسف عند هذه الواقعة لوجوه (الاول) ان الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن والقدح اذا وقع على القدح كان اوجع وقال متمم بن نويرة

وقد لامني عند القبور على البكا ❊ رفيقي لتذراف الدموع السوافك

فقال اتبكي كل قبر رأيته ❊ لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

مقتضى المقام من ان المنفي اذا عذبت من لايستحق التعذيب كنت ظلاما مفرطا في الظلم فكأنهم قالوا ان صدر عنا افساد كان مجيئنا لذلك مريدين به تقبيح حاله واظهار كمال نزاهتهم عنه يعنون انه قد شاع بينكم في كرتي مجيئنا ما نحن عليه وقد كانوا على غاية مايكون من الديانة والصيانة فيما يأتون ويذرون حتى روى انهم دخلوا مصر وافواه رواحلهم مكعومة لئلا تتناول زرعا وطعاما لاحد وكانوا مثابرين على فنون الطاعات وعلم بذلك انه لايصدر عنا افساد (وما كنا سارقين) اي ما كنا نوصف بالسرقة قط وانما حكموا بعلمهم ذلك لان العلم بأحوالهم الشاهدة يستلزم العلم بأحوالهم الغائبة وانما لم يكتفوا بنفي الامرين المذكورين بل استشهدوا بعلمهم بذلك الزاما للحجة عليهم وتحقيقا للتعجيب المفهوم من تاء القسم (قالوا) اي اصحاب يوسف عليه السلام (فاجزاؤه) الضمير للصواع على حذف المضاف اي فما جزاء سرقته عندكم وفي شريعتكم (ان كنتم كاذبين) لا في دعوى البراءة عن السرقة فانهم صادقون فيها بل فيما يستلزمه ذلك من نفي كون الصواع فيهم كما يؤذن به قوله عز وجل (قالوا جزؤه من وجد) اي اخذ من وجد الصواع (في رحله) حيث ذكر بعنوان الوجدان في الرحل دون عنوان السرقة وان كان ذلك مستلزما لها في اعتقادهم المبني على قواعد العادة ولذلك اجابوا بما اجابوا فان الاخذ والاسترقاق

سنة انما هو جزاء السارق دون من وجد في يده مال غيره كيفما كان فتأمل واجل كلام كل فريق على ما الايزاحم رأيه فانه اقرب (فقلت)

فقلت له ان الاسى يبعث الاسى * فدعنى فهذا كله قبر مالك

وذلك لانه رأى قبرا فتجدد حزنه على أخيه مالك فلاموه عليه فأجاب بأن الاسى يبعث الاسى وقال آخر

فلم تنسنى أوفى المصيبات بعده * ولكن نكاء القرح بالقرح أوجع

(الوجه الثانى) ان بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة وكانت المشابهة بينهما فى الصورة والصفة اكمل فكان يعقوب عليه السلام يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عليه السلام فلما وقع ماوقع زال مايوجب السلوة فعظم الالم والوجد (الوجه الثالث) ان المصيبة فى يوسف كانت اصل مصائبه التى عليها ترتب سائر المصائب والرزايا وكان الاسف عليه اسفا على الكل (الرابع) ان هذه المصائب الجديدة كانت اسبابها جارية مجرى الامور التى يمكن معرفتها والبحث عنها واما واقعة يوسف فهو عليه السلام كان يعلم كذبهم فى السبب الذى ذكروه واما السبب الحقيقى فما كان معلوما له وايضا انه عليه السلام كان يعلم ان هؤلاء فى الحياة واما يوسف فما كان يعلم انه حى اوميت فلهذه الاسباب عظم وجده على مفارقته وقويت مصيبته على الجهل بحاله (المسئلة الثانية) من الجهال من عاب يعقوب عليه السلام على قوله ياأسفى على يوسف قال لان هذا اظهار للجزع وجار مجرى الشكاية من الله وانه لايجوز والعلماء بينوا انه ليس الامر كما ظنه هذا الجاهل وتقريره انه عليه السلام لم يذكر هذه الكلمة ثم عظم بكاؤه وهو المراد من قوله وابيضت عيناه من الحزن ثم امسك لسانه عن النياحة وذكر مالاينبغى وهو المراد من قوله فهو كظيم ثم انه مااظهر الشكاية مع احد من الخلق بدليل قوله انما اشكو بثى وحزنى الى الله وكل ذلك يدل على انه لما عظمت مصيبته وقويت محنته فانه صبر وتجرع الغصة وما اظهر الشكاية فلاجرم استوجب به المدح العظيم والثناء العظيم روى ان يوسف عليه السلام سأل جبريل هل لك علم بيعقوب قال نعم قال وكيف حزنه قال حزن سبعين ثكلى وهى التى لها ولد واحد ثم يموت قال فهل له فيه اجر قال نعم اجر مائة شهيد فان قيل روى عن محمد بن على الباقر قال مر بيعقوب شيخ كبير فقال له انت ابراهيم فقال انا ابن ابنه والهموم غيرتنى وذهبت بحسنى وقوتى فأوحى الله تعالى اليه حتى متى تشكونى الى عبادى وعزتى وجلالى لولم تشكنى لابدلنك لحما خيرا من لحمك ودما خيرا من دمك فكان من بعد يقول انما اشكو بثى وحزنى الى الله وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال كان ليعقوب أخ مواخ فقال له ماالذى اذهب بصرك وقوس ظهرك فقال الذى اذهب بصرى البكاء على يوسف وقوس ظهرى الحزن على بنيامين فأوحى الله تعالى اليه أماتستحى تشكونى الى غيرى فقال انما اشكو بثى وحزنى الى الله تعالى فقال يارب أماترحم الشيخ الكبير قوست ظهرى واذهبت بصرى فاردد على ريحانتى يوسف وبنيامين فأتاه جبريل عليه السلام بالبشرى وقال لوكانا ميتين لنشرتهمالك فاصنع طعاما للمساكين فان أحب عبادى الى الانبياء والمساكين

الى معنى الكيد والبعد من الافتراء وقوله تعالى (فهو جزاؤه) تقرير لذلك الحكم اى فاخذه جزاؤه كقولك حق الضيف ان يكرم فهو حقه ويجوز ان يكون جزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية كما هى خبره على اقامة الظاهر مقام المضمر والاصل جزاؤه من وجد فى رحله فهو هو على ان الاول لمن والثانى للظاهر الذى وضع موضعه (كذلك) اى مثل ذلك الجزاء الاوفى (نجزى الظالمين) بالسرقة تأكيد للحكم المذكور غب تأكيد وبيان لقبح السرقة ولقد فعلوا ذلك ثقة بكمال براءتهم عنها وهم عما فعل بهم غافلون (فبدأ) يوسف بعد مارجعوا اليه للتفتيش (بأوعيتهم) بأوعية الاخوة العشرة اى بتفتيشها (قبل) تفتيش (وعاء اخيه) بنيامين لنفى التهمة روى انه لمابلغت النوبة الى وعائه قال ماأظن هذا اخذ شيئا فقالوا والله لانترك حتى تنظر فى رحله فانه اطيب لنفسك وانفسنا (ثم استخرجها) اى السقاية او الصواع فانه يذكر ويؤنث (من وعاء اخيه) لم يقل منه على رجع الضمير الى الوعاء اومن وعائه على رجعه الى اخيه قصدا الى زيادة كشف وبيان وقرئ بضم الواو وبقلبها همزة كما فى وشاح (كذلك) نصب على المصدرية والكاف مقحمة للدلالة على فخامة المشار اليه وكذا مافى ذلك من معنى البعد اى مثل ذلك الكيد العجيب وهو عبارة عن ارشاد الاخوة الى الافتاء المذكور باجرائه على السنتهم وبحملهم عليه بواسطة المستفتين من حيث لم يحتسبوا فمعنى قوله عز وجل (كدنا ليوسف) صنعناله ودبرنا لاجل تحصيل غرضه من المقدمات التى رتبها من دس الصواع ومايتلوه فاللام ليست كما فى قوله فيكيدوا لك كيدا فانها داخلة على المتضرر على ماهو الاستعمال الشائع وقوله تعالى (ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) استئناف

وكان يعقوب عليه السلام اذا أراد الغذاء نادى مناديه من اراد الغداء فليتغد مع يعقوب واذا كان صائما نادى مثله عند الافطار وروى انه كان يرفع حاجبيه بخرقة من الكبر فقال له رجل ماهذا الذى أراءبك قال طول الزمان وكثرة الاحزان فأوحى الله اليه تشكونى يايعقوب فقال يارب خطيئة اخطأتها فاغفرها لى قلنا اناقد دللنا على انه لم يأت الابالصبر والثبات وترك النياحة وروى ان ملك الموت دخل على يعقوب عليه السلام فقال له جئت لتقبضنى قبل ان أرى حبيبى فقال لاولكن جئت لاحزن لحزنك واشجو لشجوك واما البكاء فليس من المعاصى وروى ان النبى عليه الصلاة والسلام بكى على ولده ابراهيم عليه السلام وقال ان القلب ليحزن والعين تدمع ولانقول مايسخط الرب وانا عليك ياابراهيم لمحزونون وايضا فاستيلاء الحزن على الانسان ليس باختياره فلايكون ذلك داخلا تحت التكليف واما التأوه وارسال البكاء فقديصير بحيث لايقدر على دفعه واماما ورد فى الروايات التى ذكرتم فالمعاتبة فيها انما كانت لاجل ان حسنات الابرار سيآت المقربين وايضافيه دقيقة أخرى وهى ان الانسان اذا كان فى موضع التحير والتردد لابد وان يرجع الى الله تعالى فيعقوب عليه السلام ماكان يعلم ان يوسف بقى حيا أم صار ميتا فكان متوقفا فيه وبسبب توقفه كان يكثر الرجوع الى الله تعالى وينقطع قلبه عن الالتفات عن كل ماسوى الله تعالى الافى هذه الواقعة وكانت احواله فى هذه الواقعة مختلفة فربما صار فى بعض الاوقات مستغرق الهم بذكر الله تعالى فان عن تذكر هذه الواقعة فكان ذكرها كلاسواها فلهذا السبب صارت هذه الواقعة بالنسبة اليه جارية مجرى الالقاء فى النار للخليل عليه السلام ومجرى الذبح لابنه الذبيح فان قيل أليس ان الاولى عندنزول المصيبة الشديدة ان يقول انالله وانا اليه راجعون حتى يستوجب الثواب العظيم المذكور فى قوله أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون قلنا قال بعض المفسرين انه لم يعط الاسترجاع امة الاهذه الامة فأكرمهم الله تعالى اذا اصابتهم مصيبة وهذا عندى ضعيف لان قوله انالله اشارة الى انامملوكون لله وهو الذى خلقنا واوجدنا وقوله وانااليه راجعون اشارة الى انه لابد من الحشر والقيامة ومن المحال ان يقال ان امة من الامم لايعرفون ذلك فمن عرف عندنزول بعض المصائب به انه حصل فى اول الامر بخلق الله تعالى وانه لابد فى العاقبة من رجوعه الى الله تعالى فهناك تحصل السلوة التامة عند تلك المصيبة ومن المحال ان يكون المؤمن بالله غير عارف بذلك (المسئلة الثالثة) قوله ياأسفى على يوسف نداء الاسف وهو كقوله ياعجبا والتقدير كأنه ينادى الاسف ويقول هذا وقت حضورك وأوان مجيئك وقدقررنا هذا المعنى فى مواضع كثيرة منها فى تفسير قوله حاش لله والاسف الحزن على مافات قال الليث اذا جاءك امر فحزنت له ولم تطقه فانت أسيف اى حزين ومتأسف ايضا قال الزجاج الاصل ياأسفى الاان ياء الاضافة يجوز ابدا لها بالالف لخفة الالف والفتحة ثم قال تعالى وابيضت

وتعليل لذلك الكيد وصنعه لاتفسير وبيان له كما قيل كأنه قيل لماذا فعل ذلك فقيل لانه لم يكن ليأخذ اخاه بما فعله فى دين الملك فى امر السارق اى فى سلطانه قاله ابن عباس اوفى حكمه وقضائه قاله قتادة الابه لان جزاء السارق فى دينه انما كان ضربه وتغريمه ضعف مااخذ دون الاسترقاق والاستعباد كما هو شريعة يعقوب عليه السلام فلم يكن يتمكن بما صنعه من اخذ اخيه بالسرقة التى نسبها اليه فى حال من الاحوال (الا ان يشاء الله) اى الاحال مشيئته التى هى عبارة عن ارادته لذلك الكيد اوالاحال مشيئته للاخذ بذلك الوجه ويجوز ان يكون الكيد عبارة عنه وعن مباديه المؤدية اليه جميعا من ارشاد يوسف وقومه الى ماصدر عنهم من الافعال والاقوال حسبما شرح مرتبا لكن لاعلى ان يكون القصر المستفاد من تقديم المجرور مأخوذا بالنسبة الى غيره مطلقا على معنى مثل ذلك الكيد كدنا لا كيدا آخر اذلامعنى لتعليله بعجز يوسف عن أخذ اخيه فى دين الملك فى شأن السارق قطعا اذلا علاقة بين مطلق الكيد ودين الملك فى امر السارق اصلا بل بالنسبة الى بعضه على معنى مثل ذلك الكيد البالغ الى هذا الحد كدناله ولم نكتف ببعض من ذلك لانه لم يكن يأخذ اخاه فى دين الملك به الا حال مشيئتنا له بايجاد مايجرى مجرى الجزء الصورى من العلة التامة وهو ارشاد اخوته الى الافتاء المذكور وعلى هذا ينبغى ان يحمل القصر فى تفسير من فسر قوله تعالى كدنا ليوسف بقوله علمناه اياه واوحينا به اليه اى مثل ذلك التعليم المستتبع لما شرح مرتبا علمناه دون بعض من ذلك فقط الخ وعلى كل حال فالاستثناء من اعم الاحوال كما اشير اليه ويجوز ان يكون من اعم العلل والاسباب اى لم يكن يأخذ أخاه

( عيناه )

عيناه من الحزن وفيه وجوه (الاول) انه لما قال يااسفى على يوسف غلبه البكاء وعند غلبة البكاء يكثر الماء فى العين فتصير العين كأنها ابيضت من بياض ذلك الماء وقوله وابيضت عيناه من الحزن كناية عن غلبة البكاء والدليل على صحة هذا القول ان تأثير الحزن فى غلبة البكاء لا فى حصول العمى فلو حملنا الابيضاض على غلبة البكاء كان هذا التعليل حسنا ولو حملناه على العمى لم يحسن هذا التعليل فكان ماذكرناه اولى وهذا التفسير مع الدليل رواه الواحدى فى البسيط عن ابن عباس رضى الله عنهما ( والقول الثانى ) ان المراد هو العمى قال مقاتل لم يبصر بهما ست سنين حتى كشف الله تعالى عنه بقميص يوسف عليه السلام وهو قوله فالقوه على وجه أبى يأت بصيرا قيل ان جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام حينما كان فى السجن فقال ان بصر أبيك ذهب من الحزن عليك فوضع يده على رأسه وقال ليت أمى لم تلدنى ولم أك حزنا على ابى والقائلون بهذا التأويل قالوا الحزن الدائم يوجب البكاء الدائم وهو يوجب العمى فالحزن كان سببا للعمى بهذه الواسطة وانما كان البكاء الدائم يوجب العمى لانه يورث كدورة فى سواد العين ومنهم من قال ما عمى لكنه صار بحيث يدرك ادرا كا ضعيفا قيل ماجفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف عليه السلام الى حين لقائه وتلك المدة ثمانون عاما وما كان على وجه الارض عبد اكرم على الله تعالى من يعقوب عليه السلام اما قوله تعالى من الحزن فاعلم أنه قرئ من الحزن برفع الحاء وسكون الزاى وقرأ الحسن بفتح الحاء والزاى قال الواحدى واختلفوا فى الحزن والحزن فقال قوم الحزن البكاء والحزن ضد الفرح وقال قوم هما لغتان يقال اصابه حزن شديد وحزن شديد وهو مذهب اكثر أهل اللغة وروى يونس عن ابى عمرو قال اذا كان فى موضع النصب فتحوا الحاء والزاى كقوله ترى اعينهم تفيض من الدمع حزنا واذا كان فى موضع الخفض او الرفع ضموا الحاء كقوله من الحزن وقوله أشكو بثى وحزنى الى الله قال هو فى موضع رفع بالابتداء وأما قوله تعالى فهو كظيم فيجوز ان يكون بمعنى الكاظم وهو الممسك على حزنه فلا يظهره قال ابن قتيبة ويجوز ان يكون بمعنى المكظوم ومعناه المملوء من الحزن مع سد طريق نفسه المصدور من كظم السقاء اذا شده على ملئه ويجوز ايضا ان يكون بمعنى مملوء من الغيظ على اولاده واعلم ان اشرف اعضاء الانسان هذه الثلاثة فبين تعالى انها كانت عريقة فى الغم فاللسان كان مشغولا بقوله يااسفى والعين بالبكاء والبياض والقلب بالغم الشديد الذى يشبه الوعاء المملوء الذى شد ولا يمكن خروج الماء منه وهذا مبالغة فى وصف ذلك الغم اما قوله تعالى قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ففيه مسائل ( المسئلة الاولى ) قال ابن السكيت يقال مازلت أفعله وما فتئت أفعله وما برحت أفعله ولا يتكلم بهن الا مع الجحد قال ابن قتيبة يقال مافتيت وما فتئت لغتان فتيا وفتوأ اذا نسيته وانقطعت عنه قال النحويون وحرف النفى ههنا مضمر على معنى قالوا ما تفتؤ أولا

لعلة من العلل او بسبب من الاسباب الالهية  مشيئته تعالى او الا بسبب مشيئته تعالى وايا ما كان فهو متصل لان اخذ السارق اذا كان ممن يرى ذلك ويعتقده دينا لاسيما عند رضاه وافتائه به ليس مخالفا لدين الملك وقد قيل معنى الاستثناء الا ان يشاء الله ان يجعل ذلك الحكم حكم الملك وانت تدرى ان المراد بدينه ما عليه حينئذ فتغييره مخل بالاتصال وارادة مطلق مايتدين به اعم منه ومما يحدث تفضى الى كون الاستثناء من قبيل التعليق بالمحال اذ المقصود بيان عجز يوسف عليه السلام عن اخذ أخيه حينئذ ولم تتعلق المشيئة بالجعل المذكور اذ ذاك وارادة عجزه مطلقا تؤدى الى خلاف المراد فان استثناء حال المشيئة المذكورة من احوال عجزه عليه السلام مما يشعر بعدم الحاجة الى الكيد المذكور فتدبر وقد جوز الانقطاع اى لكن اخذه بمشيئة الله تعالى واذنه فى دين غير دين الملك ( نرفع درجات ) اى رتبا كثيرة عالية من العلم وانتصابها على المصدرية او الظرفية او على نزع الخافض اى الى درجات والمفعول قوله تعالى ( من نشاء ) اى نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة كما رفعنا يوسف وايثار صيغة الاستقبال للاشعار بأن ذلك سنة مستمرة غير مختصة بهذه المادة والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب ( وفوق كل ذى علم ) من أولئك المرفوعين ( عليم ) لاينالون شأوه واعلم انه ان جعل الكيد عبارة عن المعنيين الاولين فالمراد برفع يوسف عليه السلام مااعتبر فيه بالشرطية او الشطرية من ارشاده عليه السلام الى دس الصواع فى رحل اخيه ( ٣٠ ) ( را ) ( خا ) ومايتفرع عليه من المقدمات المرتبة لاستبقاء اخيه مما يتم من قبله

تفتؤ وجاز حذفه لانه لواريد الاثبات لكان باللام والنون نحو والله لتفعلن فلما كان بغير اللام والنون عرف ان كلمة لامضمرة وانشدوا قول امرئ القيس

* فقلت يمين الله ابرح قاعدا * والمعنى لاابرح قاعدا ومثله كثير وأما المفسرون فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة لاتزال تذكره وعن مجاهد لاتفتر من حبه كأنه جعل الفتور والفتوء أخوين ( المسئلة الثانية ) حكى الواحدى عن اهل المعانى ان اصل الحرض فساد الجسم والعقل للحزن والحب وقوله حرضت فلانا على فلان تأويله أفسدته وأحميته عليه وقال تعالى حرض المؤمنين على القتال اذا عرفت هذا فنقول وصف الرجل بأنه حرض اما ان يكون لارادة انه ذو حرض فحذف المضاف اولارادة انه لماتناهى فى الفساد والضعف فكأنه صار عين الحرض ونفس الفساد واما الحرض بكسر الراء فهو الصفة وجاءت القراءة بهما معا اذا عرفت هذا فنقول للمفسرين فيه عبارات ( أحدها ) الحرض والحارض هو الفاسد فى جسمه وعقله ( وثانيهما ) سأل نافع بن الازرق ابن عباس عن الحرض فقال الفاسد الدنف ( وثالثها ) انه الذى يكون لا كالاحياء ولا كالاموات وذكر ابوروق أن أنس بن مالك قرأ حتى تكون حرضا بضم الحاء وتسكين الراء قال يعنى مثل عود الاشنان وقوله اوتكون من الهالكين اى من الاموات ومعنى الآية انهم قالوا لابيهم انك لاتزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تصير بذلك الى مرض لاتنتفع بنفسك معه اوتموت من الغم كأنهم قالوا أنت الآن فى بلاء شديد ونخاف ان يحصل ماهو ازيد منه واقوى وأرادوا بهذا القول منعه عن كثرة البكاء والاسف فان قيل لم حلفوا على ذلك مع انهم لم يعلموا ذلك قطعا قلنا انهم بنوا هذا الامر على الظاهر فان قيل القائلون بهذا الكلام وهو قوله تالله تفتؤ من هم قلنا الاظهر ان هؤلاء ليسواهم الاخوة الذين قدتولى عنهم بل هم الجماعة الذين كانوا فى الدار من أولاد أولاده وخدمه ثم حكى الله تعالى عن يعقوب عليه السلام انه قال انما أشكو بثى وحزنى الى الله يعنى ان هذا الذى اذكره لااذكره معكم وانما اذكره فى حضرة الله تعالى والانسان اذا بث شكواه الى الله تعالى كان فى زمرة المحققين كما قال عليه الصلاة والسلام أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من غضبك وأعوذ بك منك والله هو الموفق والبث هو التفريق قال الله تعالى وبث فيها من كل دابة فالحزن اذا ستره الانسان كان هما واذا ذكره لغيره كان بثا وقالوا البث أشد الحزن والحزن اشد الهم وذلك لانه متى أمكنه ان يمسك لسانه عن ذكره لم يكن ذلك الحزن مستوليا عليه وأما اذا عظم وعجز الانسان عن ضبطه وانطلق اللسان بذكره شاء أم أبى كان ذلك بثا وذلك يدل على ان الانسان صار عاجزا عنه وهو قد استولى على الانسان فقوله بثى وحزنى الى الله اى اذكر الحزن العظيم ولا الحزن القليل الامع الله وقرأ الحسن وحزنى بفتحتين وحزنى بضمتين قيل دخل على يعقوب رجل وقال يايعقوب ضعف جسمك ونحف بدنك ومابلغت سنا عاليا فقال الذى بى لكثرة غمومى فأوحى

والمعنى أرشدنا اخوته الى الافتاء المذكور لانه لم يكن متمكنا من اخذ اخيه بدونه اوارشدنا كلا منهم ومن يوسف واصحابه الى ماصدر عنهم ولم نكتف باتمام من قبل يوسف فقط لانه لم يكن متمكنا من اخذ اخيه بذلك فقوله تعالى نرفع درجات الى قوله تعالى عليم توضيح لذلك على معنى ان الرفع المذكور لايوجب تمام مرامه اذليس ذلك بحيث لايعزب عن علمه شئ بل انما نرفع كل من نرفع حسب استعداده وفوق كل واحد منهم عليم لايقادر قدر علمه ولايكتنه كنهه يرفع كلا منهم الى مايليق به من معارج العلم ومدارجه وقد رفع يوسف الى مايليق به من الدرجات العالية وعلم ان ماحواه دائرة علمه لايفى بمرامه فارشد اخوته الافتاء المذكور فكان ماكان وكأنه عليه السلام لم يكن على يقين من صدور الافتاء المذكور عن اخوته وان كان على طمع منه فان ذلك الى الله عز وجل وجودا وعلما والتعرض لوصف العلم لتعيين جهة الفوقية وفى صيغة المبالغة مع التنكير والالتفات الى الغيبة من الدلالة على فخامة شانه عز وعلا وجلالة مقدار علمه المحيط مالايخفى واما ان جعل عبارة عن التعليم المستتبع للافتاء المذكور فالرفع عبارة عن ذلك التعليم والافتاء وان لم يكن داخلا تحت قدرته عليه السلام لكنه كان داخلا تحت علمه بواسطة الوحى والتعليم والمعنى مثل ذلك التعليم البالغ الى هذا الحد علمناه ولم نقتصر على تعليم ماعدا الافتاء الذى سيصدر عن اخوته اذلم يكن متمكنا من اخذ اخيه الابذلك فقوله نرفع درجات من نشاء توضيح لقوله كدنا وبيان لان ذلك من باب الرفع الى الدرجات العالية من العلم ومدح ليوسف برفعه اليها وقوله

وفوق كل ذى علم عليم تذييل له اى نرفع درجات ( ٣٣٥ ) عالية من العلم من نشاء رفعه وفوق كل منهم عليم هو اعلى درجة قال

الله اليه يايعقوب أتشكونى الى خلقى فقال يارب خطيئة اخطأتها فاغفرها لى فغفرها له وكان بعد ذلك اذا سئل قال انما اشكو بثى وحزنى الى الله وروى انه أوحى الله اليه انما وجدت عليكم لانكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه وان أحب خلقى الى الانبياء والمساكين فاصنع طعاما وادع اليه المساكين وقيل اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت ثم قال يعقوب عليه السلام واعلم من الله مالا تعلمون اى اعلم من رحمته واحسانه مالا تعلمون وهو انه تعالى يأتينى بالفرج من حيث لا احتسب فهو اشارة الى انه كان يتوقع وصول يوسف اليه ذكروا لسبب هذا التوقع امورا (احدها) ان ملك الموت أتاه فقال له ياملك الموت هل قبضت روح ابنى يوسف قال لا يانبى الله ثم اشار الى جانب مصر وقال اطلبه ههنا (وثانيها) انه علم ان رؤيا يوسف صادقة لان امارات الرشد والكمال كانت ظاهرة فى حق يوسف ورؤيا مثله عليه السلام لا تخطئ (وثالثها) لعله تعالى أوحى اليه انه سيوصله اليه ولكنه تعالى ما عين الوقت فلهذا بقى فى القلق (ورابعها) قال السدى لما أخبره بنوه بسيرة الملك وكمال حاله فى اقواله وافعاله طمع ان يكون هو يوسف وقال يبعد ان يظهر فى الكفار مثله (وخامسها) علم قطعا ان بنيامين لا يسرق وسمع ان الملك ما آذاه وما ضربه فغلب على ظنه ان ذلك الملك هو يوسف فهذا جملة الكلام فى المقام الاول (والمقام الثانى) انه رجع الى اولاده وتكلم معهم على سبيل اللطف وهو قوله يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه واعلم انه عليه السلام لما طمع فى وجد ان يوسف بناء على الامارات المذكورة قال لبنيه تحسسوا من يوسف والتحسس طلب الشئ بالحاسة وهو شبيه بالسمع والبصر قال ابوبكر الانبارى يقال تحسست عن فلان ولا يقال من فلان وقيل ههنا من يوسف لانه أقام من مقام عن قال ويجوز ان يقال من للتبعيض والمعنى تحسسوا خبرا من اخبار يوسف وستعلموا بعض اخبار يوسف فذكرت كلمة من لما فيها من الدلالة على التبعيض وقرئ تجسسوا بالجيم كما قرئ بهما فى الحجرات ثم قال ولا تيئسوا من روح الله قال الاصمعى الروح ما يجده الانسان من نسيم الهواء فيسكن اليه وتركيب الراء والواو والحاء يفيد الحركة والاهتزاز فكلما يهتز الانسان له ويلتذ بوجوده فهو روح وقال ابن عباس لا تيئسوا من روح الله يريد من رحمة الله وعن قتادة من فضل الله وقال ابن زيد من فرج الله وهذه الالفاظ متقاربة وقرأ الحسن وقتادة من روح الله بالضم اى من رحمته ثم قال انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون قال ابن عباس رضى الله عنهما ان المؤمن من الله على خير يرجوه فى البلاء ويحمده فى الرخاء واعلم ان اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل الا اذا اعتقد الانسان ان الاله غير قادر على الكمال اوغير عالم بجميع المعلومات اوليس بكريم بل هو بخيل وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر فاذا كان اليأس لا يحصل الا عند حصول احد هذه الثلاثة وكل واحد منها كفر ثبت ان اليأس لا يحصل الا لمن كان كافرا والله اعلم وقد بقى من مباحث هذه الآية

ابن عباس رضى الله عنهما فوق كل عالم عالم الى ان ينتهى العلم الى الله تعالى والمعنى ان اخوة يوسف كانوا علماء الا ان يوسف عليه السلام أفضل منهم وقرئ درجات من نشاء بالاضافة والاول انسب بالتذييل حيث نسب فيه الرفع الى من نسب اليه الفوقية لا الى درجته ويجوز ان يكون العليم فى هذا التفسير ايضا عبارة عن الله عز وجل اى وفوق كل من أولئك المرفوعين عليم يرفع كلا منهم الى درجته اللائقة به والله تعالى اعلم (قالوا ان يسرق) يعنون بنيامين (فقد سرق أخ له من قبل) يريدون به يوسف عليه السلام وما جرى عليه من جهة عمته على ما قيل من انها كانت تحضنه فلما شب اراد يعقوب عليه السلام انتزاعه منها وكانت لا تصبر عنه ساعة وكانت لها منطقة ورثتها من أبيها اسحق عليه السلام فاحتالت لاستبقاء يوسف عليه السلام فعمدت الى المنطقة فحزمتها عليه من تحت ثيابه ثم قالت فقدت منطقة اسحق عليه السلام فانظروا من اخذها فوجدوها محزومة على يوسف فقالت انه لى سلم افعل به ما شاء فخلاه يعقوب عليه السلام عندها حتى ماتت وقيل كان أخذ فى صباه صنما لابن امه فكسره والقاه فى الجيف وقيل دخل كنيسة فأخذ تمثالا صغيرا من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه (فأسرها يوسف) اى اكن الحزازة الحاصلة مما قالوا (فى نفسه) لانه اسرها لبعض اصحابه كما فى قوله تعالى واسررت لهم اسرارا (ولم يبدها لهم) لا قولا ولا فعلا صفحا عنهم وحلما وهو تأكيد لما سبق (قال) اى فى نفسه وهو استئناف مبنى على سؤال نشأ من الاخبار بالاسرار المذكور كأنه قيل فماذا

البرئ وقيل بدل من اسرها والضمير للمقالة المفسرة بقوله أنتم شر مكانا (والله اعلم بما تصفون) اى عالم علما بالغا الى اقصى المراتب بأن الامر ليس كما تصفون من صدور السرقة منا بل انما هو افتراء علينا فالصيغة لمجرد المبالغة لا للتفضيل عليه عز وجل على علمهم كيف لا وليس لهم بذلك من علم ( قالوا ) عند ماشاهدوا مخايل أخذ بنيامين مستعطفين ( يا أيها العزيز ان له ابا ) لم يريدوا بذلك الاخبار بأن له أبا فان ذلك معلوم مما سبق وانما ارادوا الاخبار بان له ابا (شيخا كبيرا ) فى السن لا يكاد يستطيع فراقه وهو علالة به يتعلل عن شقيقه الهالك ( فخذ احدنا مكانه ) فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة ( انا نراك من المحسنين ) الينا فأتمم احسانك بهذه التتمة او المتعودين بالاحسان فلا تغير عادتك ( قال معاذ الله ) اى نعوذ بالله معاذا من (ان نأخذ) فحذف الفعل واقيم مقامه المصدر مضافا الى المفعول به بعد حذف الجار ( الامن وجدنا متاعنا عنده) لان اخذنا له انما هو بقضية فتواكم فليس لنا الاخلال بموجبها وايثار صيغة التكلم مع الغير مع كون الخطاب من جانب اخوته على التوحيد من باب السلوك الى سنن الملوك او للاشعار بأن الاخذ والاعطاء ليس مما يستبد به بل هو منوط بآراء اولى الحل والعقد وايثار من وجدنا متاعنا عنده دون من سرق متاعنا لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب فى الكلام مع تمام المراد فانهم لا يحملون

سؤالات ( السؤال الاول ) ان بلوغ يعقوب فى حب يوسف الى هذا الحد العظيم لا يليق الا بمن كان غافلا عن الله فان من عرف الله احبه ومن احب الله لم يتفرغ قلبه لحب شئ سوى الله تعالى وايضا القلب الواحد لا يتسع للحب المستغرق لشيئين فلما كان قلبه مستغرقا فى حب ولده امتنع ان يقال انه كان مستغرقا فى حب الله تعالى ( السؤال الثانى ) ان عند استيلاء الحزن الشديد عليه كان من الواجب عليه ان يشتغل بذكر الله تعالى وبالتفويض اليه والتسليم لقضائه واما قوله يا أسفى على يوسف فذلك لا يليق باهل الدين والعلم فضلا عن أكابر الانبياء ( السؤال الثالث ) لاشك ان يعقوب كان من أكابر الانبياء وكان ابوه وجده وعمه كلهم من أكابر الانبياء المشهورين فى جميع الدنيا ومن كان كذلك ثم وقعت له واقعة هائلة صعبة فى اعز اولاده عليه لم تبق تلك الواقعة خفية بل لابد وان تبلغ فى الشهرة الى حيث يعرفها كل احد لاسيما وقد انقضت المدة الطويلة فيها وبقى يعقوب على حزنه الشديد وأسفه العظيم وكان يوسف فى مصر وكان يعقوب فى بعض بلاد الشام قريبا من مصر فمع قرب المسافة يمتنع بقاء مثل هذه الواقعة مخفية (السؤال الرابع ) لم لم يبعث يوسف عليه السلام احدا الى يعقوب ويعلمه انه فى الحياة وفى السلامة ولا يقال انه كان يخاف اخوته لانه بعد ان صار ملكا قاهرا كان يمكنه ارسال الرسول اليه واخوته ما كانوا يقدرون على دفع الرسول ( السؤال الخامس ) كيف جاز ليوسف عليه السلام ان يضع الصاع فى وعاء أخيه ثم يستخرجه منه ويلصق به تهمة السرقة مع انه كان بريئا عنها (السؤال السادس) كيف رغب فى الصاق هذه التهمة به وفى حبسه عند نفسه مع انه كان يعلم انه يزداد حزن ابيه ويقوى (والجواب عن الاول) ان مثل هذه المحنة الشديدة تزيل عن القلب كل ماسواه من الخواطر ثم ان صاحب هذه المحنة الشديدة يكون كثير الرجوع الى الله تعالى كثير الاشتغال بالدعاء والتضرع فيصير ذلك سببا لكمال الاستغراق (وعن الثانى ) ان الدواعى الانسانية لا تزول فى الحياة العاجلة فتارة كان يقول يا أسفى على يوسف وتارة كان يقول فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون واما بقية الاسئلة فالقاضى أجاب عنها بجواب كلى حسن فقال هذه الوقائع التى نقلت الينا اما ان يمكن تخريجها على الاحوال المعتادة او لا يمكن فان كان الاول فلا اشكال وان كان الثانى فنقول كان ذلك الزمان زمان الانبياء عليهم السلام وخرق العادة فى هذا الزمان غير مستبعد فلم يمتنع ان يقال ان بلدة يعقوب عليه السلام مع انها كانت قريبة من بلدة يوسف عليه السلام ولكن لم يصل خبر احدهما الى الآخر على سبيل نقض العادة ❊ قوله تعالى (فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا واهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ان الله يجزى المتصدقين قال هل علمتم مافعلتم بيوسف واخيه اذ انتم جاهلون قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين) اعلم ان المفسرين اتفقوا على ان ههنا محذوفا

في مذهبكم ومالنا ذلك وهذا المعنى هو الذى  اريد بالكلام فى اثناء الحوار وله معنى باطن هو ان الله عزوجل انما أمرني بالوحى

والتقدير ان يعقوب لماقال لبنيه اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه قبلوا من ابيهم هـذه الوصية فعادوا الى مصر ودخلوا على يوسف عليه السلام فقالوا له ياأيها العزيز فان قيل اذا كان يعقوب امرهم ان يتحسسوا امر يوسف واخيه فلماذا عدلوا الى الشكوى وطلبوا ايفاء الكيل قلنا لان المتحسسين يتوسلون الى مطلوبهم بجميع الطرق والاعتراف بالعجز وضيق اليد ورقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة مما يرقق القلب فقالوا نجربه فى ذكر هـذه الامور فان رق قلبه لنا ذكرنا له المقصود والاسكتنا فلهذا السبب قدموا ذكر هذه الواقعة وقالوا ياأيها العزيز والعزيز هو الملك القادر المنيع مسنا واهلنا الضر وهو الفقر والحاجة وكثرة العيال وقلة الطعام وعنوا باهلهم من خلفهم وجئنا ببضاعة مزجاة وفيه ابحاث ( البحث الاول ) معنى الازجاء فى اللغة الدفع قليلا قليلا ومثله التزجية يقال الريح تزجى السحاب قال الله تعالى الم تر ان الله يزجى سحابا وزجيت فلانا بالقول دافعته وفلان يزجى العيش اى يدفع الزمان بالحيلة ( البحث الثانى ) انما وصفوا تلك البضاعة بانها مزجاة اما لنقصانها او لرداءتها او لهما جميعا والمفسرون ذكروا كل هذه الاقسام قال الحسن البضاعة المزجاة القليلة وقال آخرون انها كانت رديئة واختلفوا فى تلك الرداءة فقال ابن عباس رضى الله عنهما كانت دراهم رديئة لاتقبل فى ثمن الطعام وقيل خلق الغرارة والحبل وامتعة رثة وقيل متاع الاعراب الصوف والسمن وقيل الحبة الخضراء وقيل الاقط وقيل النعال والادم وقيل سويق المقل وقيل صوف المعز وقيل ان دراهم مصر كانت تنقش فيها صورة يوسف والدراهم التى جاؤا بها ما كان فيها صورة يوسف فما كانت مقبولة عند الناس ( البحث الثالث ) فى بيان انه لم سميت البضاعة القليلة الرديئة مزجاة وفيه وجوه (الاول) قال الزجاج هى من قولهم فلان يزجى العيش اى يدفع الزمان بالقليل والمعنى انا جئنا ببضاعة مزجاة ندافع بها الزمان وليست مما ينتفع به وعلى هذا الوجه فالتقدير ببضاعة مزجاة بها الايام (الثانى) قال ابو عبيد انما قيل للدراهم الرديئة مزجاة لانها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن ينفقها قال وهى من الازجاء والازجاء عند العرب السوق والدفع (الثالث) ببضاعة مزجاة اى مؤخرة مدفوعة عن الانفاق لاينفق مثلها الا من اضطر واحتاج اليها لفقد غيرها مما هو اجود منها (الرابع) قال الكلبى مزجاة لغة العجم وقيل هى من لغة القبط قال ابو بكر الانبارى لاينبغى ان يجعل لفظ عربى معروف الاشتقاق والتصريف منسوبا الى القبط ( البحث الرابع ) قرأ حمزة والكسائى مزجاة بالامالة لان اصله الياء والباقون بالنصب والتفخيم واعلم ان حاصل الكلام فى كون البضاعة مزجاة اما قلتها او نقصانها او لمجموعهما ولما وصفوا شدة حالهم ووصفوا بضاعتهم بانها مزجاة قالوا له فأوف لنا الكيل والمراد ان يساهلهم اما بان يقيم الناقص مقام الزائد او يقيم الردئ مقام الجيد ثم قالوا وتصدق علينا والمراد المسامحة بما بين الثمنين وان يسعر لهم بالردئ كما يسعر بالجيد واختلف الناس

ان اخذ بنيامين لمصالح علمها الله فى ذلك فلو اخذت غيره كنت ظالما وعاملا بخلاف الوحى (فلما استيأسوا منه ) اى يئسوا من يوسف واجابته لهم اشد يأس بدلالة صيغة الاستفعال وانما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس لما شاهدوه من عوذه بالله مما طلبوه الدال على كون ذلك عنده فى اقصى مراتب الكراهة وانه مما يجب ان يحترز عنه ويعاذ منه بالله عزوجل ومن تسميته ظلما بقوله انا اذا الظالمون (خلصوا) اعتزلوا وانفردوا عن الناس ( نجيا ) اى ذوى نجوى على ان يكون بمعنى النجوى والتناجى اوفوجا نجيا على ان يكون بمعنى المناجى كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر ومنه قوله تعالى وقربناه نجيا ويجوز ان يقال هم نجى كما يقال هم صديق لانه بزنة المصادر من الزفير والزئير ( قال كبيرهم ) فى السن وهو روبيل او فى العقل وهو يهوذا او رئيسهم وهو شمعون ( الم تعلموا ) كأنهم اجمعوا عند التناجى على الانقلاب جملة ولم يرض به فقال منكرا عليهم الم تعلموا ( ان اباكم قد اخذ عليكم موثقا من الله ) عهدا يوثق به وهو حلفهم بالله تعالى وكونه من الله لاذنه فيه وكون الحلف باسمه الكريم ( ومن قبل ) اى ومن قبل هذا ( مافرطتم فى يوسف) قصرتم فى شأنه ولم تحفظوا عهد ابيكم وقد قلتم وانا له لناصحون وانا له لحافظون وما مزيدة او مصدرية ومحل المصدر النصب عطفا على مفعول تعلموا اى الم تعلموا اخذ ابيكم عليكم موثقا

وتفر يطكم السابق فى شأن يوسف عليه السلام ولاضير فى الفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف وقد جوز

فى انه هل كان ذلك طلبا منهم للصدقة فقال سفيان بن عيينة ان الصدقة كانت حلالا الانبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الآية وعلى هذا التقدير كأنهم طلبوا القدر الزائد على سبيل الصدقة وأنكر الباقون ذلك وقالوا حال الانبياء وحال اولاد الانبياء ينافى طلب الصدقة لانهم يأنفون من الخضوع للمخلوقين ويغلب عليهم الانقطاع الى الله تعالى والاستعانة به عمن سواه وروى عن الحسن ومجاهد انهما كرها أن يقول الرجل فى دعائه اللهم تصدق على قالو الان الله لا يتصدق انما يتصدق الذى يبتغى الثواب وانما يقول اللهم أعطنى أو تفضل فعلى هذا التصدق هو اعطاء الصدقة والمتصدق المعطى واجاز الليث ان يقال للسائل متصدق واباه الاكثرون وروى انهم لما قالوا مسنا واهلنا الضر وتضرعوا اليه اغرورقت عيناه فعند ذلك قال هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه وقيل دفعوا اليه كتاب يعقوب فيه من يعقوب اسرائيل الله ابن اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله الى عزيز مصر امابعد فأنا اهل بيت موكل بنا البلاء اما جدى فشدت يداه ورجلاه ورمى به فى النار ليحرق فنجاه الله وجعلها بردا وسلاما عليه واما ابى فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله واما انا فكان لى ابن وكان احب اولادى الى فذهب به اخوته الى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخا بالدم وقالوا قد اكله الذئب فذهبت عيناى من البكاء عليه ثم كان لى ابن وكان اخاه من امه وكنت أتسلى به فذهبوا به اليك ثم رجعوا وقالوا انه قد سرق وانك حبسته عندك وانا اهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فان رددته على والا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك فلما قرأ يوسف عليه السلام الكتاب لم يتمالك وعيل صبره وعرفهم انه يوسف ثم حكى الله تعالى عن يوسف عليه السلام فى هذا المقام انه قال هل علمتم مافعلتم بيوسف واخيه قيل انه لما قرأ كتاب ابيه يعقوب ارتعدت مفاصله واقشعر جلده ولان قلبه وكثر بكاؤه وصرح بأنه يوسف وقيل انه لما رأى اخوته تضرعوا اليه ووصفوا ماهم عليه من شدة الزمان وقلة الحيلة ادركته الرقة فصرح حينئذ بأنه يوسف وقوله هل علمتم مافعلتم بيوسف استفهام يفيد تعظيم الواقعة ومعناه ما اعظم ما ارتكبتم فى يوسف وما اقبح ما اقدمتم عليه وهو كما يقال للمذنب هل تدرى من عصيت وهل تعرف من خالفت واعلم ان هذه الآية تصديق لقوله تعالى واوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون واما قوله واخيه فالمراد مافعلوه به من تعريضه للغم بسبب افراده عن اخيه لأبيه وامه وايضا كانوا يؤذونه ومن جملة اقسام ذلك الايذاء قالوا فى حقه ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل واما قوله اذ انتم جاهلون فهو يجرى مجرى العذر كأنه قال انتم انما اقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر حال ما كنتم فى جهالة الصبا او فى جهالة الغرور يعنى والآن لستم كذلك ونظيره مايقال فى تفسير قوله تعالى ماغرك بربك الكريم قيل انما ذكر تعالى هذا الوصف المعين ليكون ذلك جاريا مجرى الجواب وهو ان يقول العبد يارب غرنى كرمك فكذا ههنا انما ذكر ذلك الكلام ازالة للخجالة

النصب عطفا على اسم ان والخبر فى يوسف اومن قبل على معنى الم تعلموا ان تفريطكم السابق وقع فى شان يوسف عليه السلام اوان تفريطكم الكائن اوكائنا فى شأن يوسف عليه السلام وقع من قبل وفيه ان مقتضى المقام انما هو الاخبار بوقوع ذلك التفريط لا بكون تفريطهم السابق واقعا فى شأن يوسف كما هو مفاد الاول ولا بكون تفريطهم الكائن شأنه واقعا من قبل كما هو مفاد الثانى على ان الظرف المقطوع عن الاضافة لا يقع خبرا ولا صفة ولا صلة ولا حالا الا عند البعض كما تقرر فى موضعه وقيل محله الرفع على الابتداء والخبر من قبل وفيه مافيه وقيل ما موصولة او موصوفة ومحلها النصب او الرفع والحق هو النصب عطفا على مفعول تعلموا اى ما فرطتموه بمعنى قدمتموه فى حقه من الخيانة واما النصب عطفا على اسم ان او الرفع على الابتداء فقد عرفت حاله ( فلن ابرح الارض ) متفرع على ما ذكره وذكره اياهم من ميثاق ابيه وقوله لتأتننى به الا ان يحاط بكم اى فلن افارق ارض مصر جريا على قضية الميثاق ( حتى يأذن لى ابى ) فى البراح بالانصراف اليه وكأن ايمانهم كانت معقودة على عدم الرجوع بغير اذن يعقوب عليه السلام ( او يحكم الله لى ) بالخروج منها على وجه لا يؤدى الى نقض الميثاق او بخلاص اخى بسبب من الاسباب روى انهم كلموا العزيز فى اطلاقه فقال روبيل ايها الملك لتردن الينا اخانا اولاصيحن صيحة لا تبقى بمصر حامل الا القت ولدها ووقفت كل شعرة فى جسده فخرجت من ثيابه وكان بنو يعقوب اذا غضبوا لا يطاقون خلا انه خلا انه اذا مس من غضب واحد منهم سكن غضبه فقال يوسف لابنه قم الى جنبه فمسه فقال روبيل من هذا ان فى هذا ( عنهم )

عنهم وتخفيفا للامر عليهم ثم ان اخوته قالوا أانك لانت يوسف قال أنا يوسف قرأ ابن كثير انك على لفظ الخبر وقرأ نافع أينك لانت يوسف بفتح الالف غير ممدودة وبالياء وابو عمرو آينك بمد الالف وهو رواية قالون عن نافع والباقون أئنك بهمزتين وكل ذلك على الاستفهام وقرأ ابى او انت يوسف فحصل من هذه القراآت ان من القراء من قرأ بالاستفهام ومنهم من قرأ بالخبر اما الاولون فقالوا ان يوسف لما قال لهم هل علمتم وتبسم فابصروا ثناياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم شبهوه بيوسف فقالوا له استفهاما أئنك لانت يوسف ويدل على صحة الاستفهام انه قال أنا يوسف وانما اجابهم عما استفهموا عنه واما من قرأ على الخبر فحجته ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان اخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه وكان فى فرقه علامة وكان ليعقوب واسحق مثلها شبه الشامة فلما رفع التاج عرفوه بتلك العلامة فقالوا انك لانت يوسف ويجوز ان يكون ابن كثير أراد الاستفهام ثم حذف حرف الاستفهام وقوله قال أنا يوسف فيه بحثان (البحث الاول) اللام لام الابتداء وانت مبتدأ ويوسف خبره والجملة خبر ان (البحث الثانى) انه انما صرح بالاسم تعظيما لما نزل به من ظلم اخوته وماعوضه الله من الظفر والنصر فكأنه قال انا الذى ظلمتمونى على اعظم الوجوه والله تعالى اوصلنى الى اعظم المناصب انا ذلك العاجز الذى قصدتم قتله والقاءه فى البئر ثم صرت كما ترون ولهذا قال وهذا اخى مع انهم كانوا يعرفونه لان مقصوده ان يقول وهذا ايضا كان مظلوما كما كنت ثم انه صار منعما عليه من قبل الله تعالى كما ترون وقوله قد من الله علينا قال ابن عباس رضى الله عنهما بكل عز فى الدنيا والآخرة وقال آخرون بالجمع بيننا بعد التفرقة وقوله انه من يتق ويصبر معناه من يتق معاصى الله ويصبر على اذى الناس فان الله لايضيع اجر المحسنين والمعنى انه من يتق ويصبر فان الله لايضيع اجرهم فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اعلم ان يوسف عليه السلام وصف نفسه فى هذا المقام الشريف بكونه متقيا ولو انه اقدم على مايقوله الحشوية فى حق زليخا لكان هذا القول كذبا منه وذكر الكذب فى مثل هذا المقام الذى يؤمن فيه الكافر ويتوب فيه العاصى لايليق بالعقلاء (المسئلة الثانية) قال الواحدى روى عن ابن كثير فى طريق قنبل انه من يتقى باثبات الياء فى الحالين ووجهه ان يجعل من بمنزلة الذى فلا يوجب الجزم ويجوز على هذا الوجه ان يكون قوله ويصبر فى موضع الرفع الا انه حذف الرفع طلبا للتخفيف كما يخفف فى عضد وشمع والباقون بحذف الياء فى الحالين ❊ قوله تعالى (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين قال لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه ابى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم اجمعين) اعلم ان يوسف عليه السلام لما ذكر لاخوته ان الله تعالى من عليه وان من يتق المعاصى ويصبر على اذى الناس فانه لايضيعه الله صدقوه فيه واعترفوا له بالفضل والمزية قالوا تالله

سرق) على ظاهر الحال وقرئ سرق اى نسب الى السرقة (وما شهدنا) عليه (الا بما علمنا) وشاهدنا ان الصواع استخرجت من وعائه (وما كنا للغيب) اى باطن الحال (حافظين) فما ندرى ان حقيقة الامر كما شاهدنا ام بخلافه اووما كنا عالمين حين اعطيناك الموثق انه سيسرق اوانا نلاقى هذا الامر اوانك تصاب به كما اصبت بيوسف (واسأل القرية التى كنا فيها) اى مصر اوقرية بقربها لحقهم المنادى عندها اى ارسل الى اهلها واسألهم عن القصة (والعير التى اقبلنا فيها) اى اصحابها فان القصة معروفة فيما بينهم وكانوا قوما من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام وقيل من صنعاء (وانا لصادقون) تأكيد فى محل القسم (قال) اى يعقوب عليه السلام وهو استئناف مبنى على سؤال نشأ مما سبق فكأنه قيل فاذا كان عند قول المتوقف لاخوته ماقال فقيل قال يعقوب عند مارجعوا اليه فقالوا له ماقالوا وانما حذف للايذان بأن مسارعتهم الى قبوله ورجوعهم به الى ابيهم امر مسلم غنى عن البيان وانما المحتاج اليه جواب ابيهم (بل سولت) اى زينت وسهلت وهو اضراب لاعن صريح كلامهم فانهم صادقون فى ذلك بل عما يتضمنه من ادعاء البراءة عن التسبب فيما نزل به وانه لم يصدر عنهم مايؤدى الى ذلك من قول اوفعل كأنه قيل لم يكن الامر كذلك بل زينت (لكم انفسكم امرا) من الامور فأتيتموه يريد بذلك فتياهم بأخذ السارق

بسرقته (فصبر جميل) اى فأمرى صبر جميل اوفصبر جميل اجمل (عسى الله ان يأتينى بهم جميعا) بيوسف واخيه والمتوقف بمصر

لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين قال الاصمعى يقال آثرك ايثارا اى فضلك الله وفلان آثر عند فلان اذا كان يؤثره بفضله وصلته والمعنى لقد فضلك الله علينا بالعلم والحلم والعقل والفضل والحسن والملك واحتج بعضهم بهذه الآية على ان اخوته ما كانوا انبياء لان جميع المناصب التى تكون مغايرة لمنصب النبوة كالعدم بالنسبة اليه فلو شاركوه فى منصب النبوة لما قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وبهذا التقدير يذهب سؤال من يقول لعل المراد كونه زائدا عليهم فى الملك واحوال الدنيا وان شاركوه فى النبوة لانا بينا ان احوال الدنيا لا يعبأ بها فى جنب منصب النبوة واما قوله وان كنا لخاطئين قيل الخاطئ هو الذى أتى بالخطيئة عمدا وفرق بين الخاطئ والمخطئ فلهذا الفرق يقال لمن يجتهد فى الاحكام فلا يصيب انه مخطئ ولا يقال انه خاطئ واكثر المفسرين على ان الذى اعتذروا منه هو اقدامهم على القائه فى الجب وبيعه وتبعيده عن البيت والاب وقال ابو على الجبائى انهم لم يعتذروا اليه من ذلك لان ذلك وقع منهم قبل البلوغ فلا يكون ذنبا فلا يعتذر منه وانما اعتذروا من حيث انهم اخطؤا بعد ذلك بأن لم يظهروا لابيهم مافعلوه ليعلم انه حى وان الذئب لم يأ كله وهذا الكلام ضعيف من وجوه (الاول) انا بينا انه لا يجوز ان يقال انهم اقدموا على تلك الاعمال فى زمن الصبا لانه من البعيد فى مثل يعقوب ان يبعث جمعا من الصبيان غير البالغين من غير ان يبعث معهم رجلا عاقلا يمنعهم عما لا ينبغى ويحملهم على ما ينبغى (والثانى) هب ان الامر على ماذكره الجبائى الا انا نقول غاية ما فى الباب انه لا يجب عليهم الاعتذار عن ذلك الا انه يمكن ان يقال انه يحسن الاعتذار عنه والدليل عليه ان المذنب اذا تاب زال عقابه ثم قد يعيد التوبة والاعتذار مرة اخرى فعلمنا ان الانسان ايضا قد يتوب عند ما لا تكون التوبة واجبة عليه واعلم انهم لما اعترفوا بفضله عليهم وبكونهم مجرمين خاطئين قال يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وفيه بحثان (البحث الاول) التثريب التوبيخ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام اذا زنت امة احدكم فليضربها الحد ولا يثربها اى ولا يعيرها بالزنا فقوله لا تثريب اى لا توبيخ ولا عيب واصل التثريب من الثرب وهو الشحم الذى هو غاشية الكرش ومعناه ازالة الثرب كما ان التجليد ازالة الجلد قال عطاء الخرسانى طلب الحوائج الى الشباب اسهل منها الى الشيوخ ألا ترى الى قول يوسف عليه السلام لاخوته لا تثريب عليكم وقول يعقوب سوف استغفر لكم ربى (البحث الثانى) ان قوله اليوم متعلق بماذا وفيه قولان (الاول) انه متعلق بقوله لا تثريب اى لا اثربكم اليوم وهو اليوم الذى هو مظنة التثريب فما ظنكم بسائر الايام وفيه احتمال آخر وهو انى حكمت فى هذا اليوم بأن لا تثريب مطلقا لان قوله لا تثريب نفى للماهية ونفى الماهية يقتضى انتفاء جميع افراد الماهية فكان ذلك مفيدا للنفى المتناول لكل الاوقات والاحوال فتقدير الكلام اليوم حكمت بهذا الحكم العام المتناول لكل الاوقات والاحوال ثم انه لما بين لهم انه أزال عنهم

( انه هو العليم ) بحالى وحالهم (الحكيم) الذى لم يبتلنى ( ٢٤٠ ) الا لحكمة بالغة (وتولى) اى اعرض (عنهم) كراهة لما سمع منهم (وقال يا اسفا على يوسف) الاسف اشد الحزن والحسرة اضافه الى نفسه والالف بدل من الياء فناداه اى يا اسفى تعال فهذا اوانك وانما تأسف على يوسف مع ان الحادث مصيبة اخويه لان رزأه كان قاعدة الارزاء غضا عنده وان تقادم عهده آخذا بمجامع قلبه لا ينساه ولانه كان واثقا بحياتهما عالما بمكانهما طامعا فى ايابهما واما يوسف فلم يكن فى شأنه ما يحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله تعالى وفضله وفى الخبر لم تعط امة من الامم انا لله وانا اليه راجعون الا امة محمد عليه الصلاة والسلام الا يرى الى يعقوب حين اصابه ما اصابه لم يسترجع بل قال ما قال والتجانس بين لفظى الاسف ويوسف مما يزيد النظم الكريم بهجة كما فى قوله عز وجل وهم ينهون عنه وينأون عنه وقوله اثاقلتم الى الارض ارضيتم وقوله ثم كلى من كل الثمرات وجئتك من سبأ بنبأ يقين ونظائرها (وابيضت عيناه من الحزن) الموجب للبكاء فان العبرة اذا كثرت محقت سواد العين وقلبته الى بياض كدر قيل قد عمى بصره وقيل كان يدرك ادراكا ضعيفا روى انه ماجفت عينا يعقوب من يوم فراق يوسف الى حين لقائه ثمانين عاما وما على وجه الارض اكرم على الله عز وجل من يعقوب عليه السلام. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سأل جبريل عليه السلام ما بلغ من وجد يعقوب عليه السلام على يوسف قال وجد سبعين ثكلى قال فما كان له من الاجر قال اجر مائة شهيد وما ساء ظنه بالله ساعة قط وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند النوائب فان الكف عن ذلك مما يدخل تحت التكليف فانه قل من يملك نفسه عند الشدائد ( ملامة ).

ليكون ذريعة الى اسعاف مرامهم ببعث الشفقة وهز العطف ( ٦٤٣ ) والرأفة وتحريك سلسلة المرحمة ثم قالوا ( فأوف لنا الكيل ) اى اتممه لنا ( وتصدق علينا ) برد اخينا الينا قاله الضحاك وابن جريج وهو الانسب بحالهم نظرا الى امر ابيهم او بالايفاء او بالمسامحة وقبول المزجاة او بالزيادة على مايساويها تفضلا وانما سموه تصدقا تواضعا او أرادوا التصدق فوق مايعطيهم بالثمن بناء على اختصاص حرمة الصدقة بنبينا عليه الصلاة والسلام وانما لم يبدؤا بما امروا به استجلابا للرأفة والشفقة ليبعثوا بما اقدموا من رقة الحال رقة القلب والحنو على ان ماساقوه كلام ذو وجهين فان قولهم وتصدق علينا ( ان الله يجزى المتصدقين ) يحتمل الحمل على المحملين فلعله عليه السلام حمله على المحمل الاول ولذلك ( قال ) مجيبا عما عرضوا به وضمنوه كلامهم من طلب رد اخيهم ( هل علمتم مافعلتم بيوسف واخيه ) وكان الظاهر ان يتعرض لما فعلوا بأخيه فقط وانما تعرض لما فعلوا بيوسف لاشتراكهما فى وقوع الفعل عليهما فان المراد بذلك افرادهم له عن يوسف واذلاله بذلك حتى كان لايستطيع ان يكلمهم الا بعجز وذلة اى هل تبتم عن ذلك بعد علمكم بقبحه فهو سؤال عن الملزوم والمراد لازمه ( اذ انتم جاهلون ) بقبحه فلذلك اقدمتم على ذلك او جاهلون عاقبته وانما قاله نصحا لهم وتحريضا على التوبة وشفقة عليهم لما رأى عجزهم وتمسكنهم لا معاتبة وتثريبا ويجوز ان يكون هذا الكلام منه عليه السلام منقطعا عن كلامهم وتنبيها لهم على ماهو حقهم ووظيفتهم من الاعراض عن جميع المطالب والتمحض فى طلب بنيامين بل يجوز ان يقف عليه السلام بطريق الوحى او الالهام

يقولوها النبى الله وقال الحسن انما خاطبوه بذلك لاعتقادهم ان يوسف قدمات وقدكان يعقوب فى ولوعه بذكره ذاهبا عن الرشد والصواب وقوله فلما ان جاء البشير فى ان قولان ( الاول ) انه لاموضع لها من الاعراب وقد تذكر تارة كما ههنا وقد تحذف كقوله فلما ذهب عن ابراهيم الروع والمذهبان جميعا موجودان فى اشعار العرب ( والثانى ) قال البصريون هى مع مافى موضع رفع بالفعل المضمر تقديره فلما ظهر ان جاء البشير أى ظهر مجئ البشير فاضمر الرافع قال جمهور المفسرين البشير هو يهودا قال أنا ذهبت بالقميص الملطخ بالدم وقلت ان يوسف اكله الذئب فاذهب اليوم بالقميص فافرحه كما احزنته قوله القاه على وجهه اى طرح البشير القميص على وجه يعقوب او يقال القاه يعقوب على وجه نفسه فارتد بصيرا اى رجع بصيرا ومعنى الارتداد انقلاب الشئ الى حالة قدكان عليها وقوله فارتد بصيرا اى صيره الله بصيرا كما يقال طالت النخلة والله تعالى اطالها واختلفوا فيه فقال بعضهم انه كان قدعمى بالكلية فالله تعالى جعله بصيرا فى هذا الوقت وقال آخرون بل كان قدضعف بصره من كثرة البكاء وكثرة الاحزان فلما القوا القميص على وجهه وبشر بحياة يوسف عليه السلام عظم فرحه وانشرح صدره وزالت احزانه فعند ذلك قوى بصره وزال النقصان عنه فعند هذا قال ألم اقل لكم انى اعلم من الله مالاتعلمون والمراد علمه بحياة يوسف من جهة الرؤيا لان هذا المعنى هو الذى له تعلق بما تقدم وهو اشارة الى ماتقدم من قوله انما اشكو بثى وحزنى الى الله واعلم من الله مالاتعلمون روى انه سأل البشير وقال كيف يوسف قال هو ملك مصر قال ماصنع بالملك على اى دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة ثم ان اولاد يعقوب اخذوا يتعذرون اليه وقالوا ياابانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين قال سوف استغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم وظاهر الكلام انه لم يستغفر لهم فى الحال بل وعدهم بانه يستغفر لهم بعد ذلك واختلفوا فى سبب هذا المعنى على وجوه ( الاول ) قال ابن عباس رضى الله عنهما والاكثرون اراد ان يستغفر لهم فى وقت السحر لان هذا الوقت اوفق الاوقات لرجاء الاجابة ( الثانى ) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية اخرى اخر الاستغفار الى ليلة الجمعة لانها اوفق الاوقات للاجابة ( الثالث ) اراد ان يعرف انهم هل تابوا فى الحقيقة ام لا وهل حصلت توبتهم مقرونة بالاخلاص التام ام لا ( الرابع ) استغفر لهم فى الحال وقوله سأستغفر لكم معناه انى اداوم على هذا الاستغفار فى الزمان المستقبل فقد روى انه كان يستغفر لهم فى كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين سنة وقيل قام الى الصلاة فى وقت السحر فلما فرغ رفع يده الى السماء وقال اللهم اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عليه واغفر لاولادى مافعلوه فى حق يوسف عليه السلام فاوحى الله تعالى اليه قد غفرت لك ولهم اجمعين وروى ان ابناء يعقوب عليه السلام قالوا ليعقوب وقد غلبهم الخوف والبكاء مايغنى عنا ان لم يغفر لنا فاستقبل الشيخ القبلة قائما يدعو وقام

يوسف خلفه يؤمن وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى قل صبرهم فظنوا انها الهلكة فنزل جبريل عليه السلام وقال ان الله تعالى اجاب دعوتك في ولدك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة وقد اختلف الناس في نبوتهم وهو مشهور ❊ قوله تعالى ( فلما دخلوا على يوسف آوى اليه ابويه وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا وقال ياابت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد احسن بى اذ اخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد ان نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى ان ربى لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم ) اعلم انه روى ان يوسف عليه السلام وجه الى ابيه جهازا ومائتى راحلة ليتجهز اليه بمن معه وخرج يوسف عليه السلام والملك في اربعة آلاف من الجند والعظماء واهل مصر بأجمعهم تلقوا يعقوب عليه السلام وهو يمشى يتوكأ على يهودا فنظر الى الخيل والناس فقال يايهودا هذا فرعون مصر قال لا هذا ولدك يوسف فذهب يوسف يبدأ بالسلام فمنع من ذلك فقال يعقوب عليه السلام السلام عليك وقيل ان يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون مابين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى والمقاتلون منهم ستمائة الف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا سوى الصبيان والشيوخ اما قوله آوى اليه ابويه ففيه بحثان (البحث الاول) في المراد بقوله ابويه قولان (الاول) المراد ابوه وامه وعلى هذا القول فقيل ان امه كانت باقية حية الى ذلك الوقت وقيل انها كانت قد ماتت الا ان الله تعالى احياها وانشرها من قبرها حتى سجدت له تحقيقا لرؤيا يوسف عليه السلام ( والقول الثانى ) ان المراد ابوه وخالته لان امه ماتت في النفاس بأخيه بنيامين وقيل بنيامين بالعبرانية ابن الوجع ولما ماتت امه تزوج ابوه بخالته فسماها الله تعالى بأحد الابوين لان الرابة تدعى اما لقيامها مقام الام اولان الخالة ام كما ان العم أب ومنه قوله تعالى واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق ( البحث الثانى ) آوى اليه ابويه ضمهما اليه واعتنقهما فان قيل مامعنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر قلنا كأنه حين استقبلهم نزل بهم في بيت هنالك اوخيمة فدخلوا عليه وضم اليه ابويه وقال لهم ادخلوا مصر اما قوله ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين ففيه ابحاث (البحث الاول) قال السدى انه قال هذا القول قبل دخولهم مصر لانه كان قد استقبلهم وهذا هو الذى قررناه وعن ابن عباس رضى الله عنهما المراد بقوله ادخلوا مصر اى اقيموا بها آمنين سمى الاقامة دخولا لاقتران احدهما بالآخر (البحث الثانى) الاستثناء وهو قول ان شاء الله فيه قولان ( الاول ) انه عائد الى الامن لا الى الدخول والمعنى ادخلوا مصر آمنين ان شاء الله ونظيره قوله تعالى لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين وقيل انه عائد الى الدخول على القول الذى ذكرناه انه قال لهم هذا الكلام قبل ان دخلوا مصر ( البحث الثالث ) معنى قوله آمنين يعنى على انفسكم واموالكم واهليكم لاتخافون احدا وكانوا فيما سلف يخافون ملوك

عليه السلام وقد كتب فيه كتاب من يعقوب اسرائيل الله بن اسحق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله الى عزيز مصر امابعد فانا اهل بيت موكل بنا البلاء اما جدى فشدت يداه ورجلاه فرمى به في النار فنجاه الله تعالى وجعلت النار له بردا وسلاما واما أبى فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله تعالى واما انا فكان لى ابن وكان احب اولادى الى فذهب به اخوته الى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخا بالدم فقالوا قد اكله الذئب فذهبت عيناى من بكائى عليه ثم كان لى ابن وكان اخاه من امه وكنت اتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا انه سرق وانك حبسته وانا اهل بيت لانسرق ولانلد سارقا فان رددته على والا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام فلما قرأه لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ماقال وقيل لما قرأه بكى وكتب الجواب اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا (قالوا أئنك لانت يوسف) استفهام تقرير ولذلك اكدوه بأن واللام قالوه استغرابا وتعجبا وقرئ انك بالايجاب قيل عرفوه بروائه وشمائله حين كلمهم به وقيل تبسم فعرفوه بثناياه وقيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارة ويعقوب مثلها وقرئ أئنك اوانت يوسف على معنى أئنك يوسف اوانت يوسف فحذف الاول لدلالة الثانى عليه وفيه زيادة استغراب ( قال انا يوسف ) جوابا عن مسئلتهم وقد زاد عليه قوله ( وهذا اخى ) اى من ابوى مبالغة في تعريف نفسه وتفخيما لشأن اخيه وتكملة لما افاده قوله هل علمتم مافعلتم ( مصر )

ملامة الدنيا طلب من الله ان يزيل عنهم عقاب الآخرة فقال يغفر الله لكم والمراد منه الدعاء (والقول الثانى) ان قوله اليوم متعلق بقوله يغفر الله لكم كأنه لمانفى التثريب مطلقا بشرهم بان الله غفر ذنبهم فى هذا اليوم وذلك لانهم لماانكسروا وخجلوا واعترفوا وتابوا فالله قبل توبتهم وغفر لهم ذنبهم فلذلك قال اليوم يغفر الله لكم روى ان الرسول عليه الصلاة والسلام اخذ بعضادتى باب الكعبة يوم الفتح وقال لقريش ماترونى فاعلا بكم فقالوا نظن خيرا أخ كريم وابن أخ كريم وقدقدرت فقال اقول ماقال اخى يوسف لاتثريب عليكم اليوم وروى ان أباسفيان لماجاء ليسلم قال له العباس اذا أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتل عليه قال لاتثريب عليكم اليوم ففعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك ولمن علمك وروى ان اخوة يوسف لماعرفوه ارسلوا اليه انك تحضرنا فى مائدتك بكرة وعشيا ونحن نستحى منك لماصدر منامن الاساءة اليك فقال يوسف عليه السلام ان اهل مصر وان ملكت فيهم فانهم ينظرونى بالعين الاولى ويقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما مابلغ ولقدشرفت الآن باتيانكم وعظمت فى العيون لماجئتم وعلم الناس انكم اخوتى وانى من حفدة ابراهيم عليه السلام ثم قال يوسف عليه السلام اذهبوا بقميصى هذا فالقوه على وجه ابى يأت بصيرا قال المفسرون لماعرفهم يوسف سألهم عن ابيه فقالوا ذهبت عيناه فأعطاهم قميصه قال المحققون انما عرف ان القاء ذلك القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحى من الله تعالى ولولا الوحى لماعرف ذلك لان العقل لايدل عليه ويمكن ان يقال لعل يوسف عليه السلام علم ان أباه ماصار اعمى الا انه من كثرة البكاء وضيق القلب ضعف بصره فاذا القى عليه قميصه فلابدأن ينشرح صدره وان يحصل فى قلبه الفرح الشديد وذلك يقوى الروح ويزيل الضعف عن القوى فحينئذ يقوى بصره ويزول عنه ذلك النقصان فهذا القدر ممايمكن معرفته بالقلب فان القوانين الطبية تدل على صحة هذا المعنى وقوله يأت بصيرا اى يصير بصيرا ويشهد له فارتد بصيرا ويقال المراد يأت الى وهو بصير وانما افرده بالذكر تعظيماله وقال فى الباقين وأتونى باهلكم اجمعين قال الكلبى كان اهله نحوا من سبعين انسانا وقال مسروق دخل قوم يوسف عليه السلام مصر وهم ثلاثة وتسعون من بين رجل وامرأة وروى ان يهوذا حامل الكتاب وقال انا احزنته بحمل القميص الملطخ بالدم اليه فافرحه كما احزنته وقيل حمله وهو حاف وحاسر من مصر الى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخا ※ قوله تعالى (ولما فصلت العير قال ابوهم انى لأجد ريح يوسف لولا ان تفندون قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم فلما ان جاء البشير القاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم اقل لكم انى اعلم من الله مالاتعلمون قالوا ياابانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين قال سوف استغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم) يقال فصل فلان من عند فلان فصولا اذا خرج من عنده وفصل منى اليه كتابا اذا انفذه اليه وفصل يكون لازما ومتعديا واذا كان لازما فمصدره الفصول

ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم  على ولده ابراهيم وقال القلب يحزن والعين تدمع ولانقول مايسخط الرب وانا عليك ياابراهيم لمحزونون وانما الذى لايجوز مايفعله الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الخدود والصدور وشق الجيوب وتمزيق الثياب وعن النبى عليه السلام انه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه فقيل يارسول الله تبكى وقد نهيتنا عن البكاء فقال مانهيتكم عن البكاء وانمانهيتكم عن صوتين احمقين صوت عند الفرح وصوت عند الترح (فهو كظيم) مملوء من الغيظ على اولاده ممسك له فى قلبه لايظهره فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله تعالى وهو مكظوم من كظم السقاء اذاشده على ملئه اوبمعنى فاعل كقوله والكاظمين الغيظ من كظم الغيظ اذا اجترعه واصله كظم البعير جرته اذاردها فى جوفه (قالوا تالله تفتؤ) اى لاتفتؤ ولاتزال (تذكر يوسف) تفجعا عليه فحذف حرف النفى كما فى قوله * فقلت يمين الله ابرح قاعدا * لعدم الالتباس بالاثبات فان القسم اذا لم يكن معه علامة الاثبات يكون على النفى البتة (حتى تكون حرضا) مريضا مشفيا على الهلاك وقيل الحرض من اذابه هم اومرض وهو فى الاصل مصدر ولذلك لايؤنث ولايثنى ولايجمع والنعت منه بالكسر كدنف وقد قرئ به وبضمتين كجنب وغرب (اوتكون من الهالكين) اى الميتين (قال انما اشكو بثى) البث اصعب الهم الذى لايصبر عليه صاحبه فيبثه الى الناس اى ينشره فكأنهم قالوا له ماقالوا بطريق التسلية والاشكاء فقال لهم انى لااشكو مابى اليكم اوالى غيركم  حتى تتصدوا لتسليتى وانما اشكو همى (وحزنى الى

فأرجو ان يرحمنى ويلطف بى ولايخيب رجائى اواعلم وحيا اوالهاما من جهته مالاتعلمون من حياة يوسف قيل رأى ملك الموت فى المنام فسأله عنه فقال هوحى وقيل علم من رؤيا يوسف عليه السلام انه يسجد له ابواه واخوته سجدا (يابنى اذهبوا فتحسسوا) اى تعرفوا وهو تفعل من الحس وقرئ بالجيم من الجس وهو الطلب اى تطلبوا ( من يوسف واخيه ) اى من خبرهما ولم يذكر الثالث لان غيبته اختيارية لايعسر ازالتها ( ولا تيأسوا من روح الله) لاتقنطوا من فرجه وتنفيسه وقرئ بضم الراء اى من رحمته التى يحيى بها العباد وهذا ارشاد لهم الى بعض ماأبهم فى قوله واعلم من الله مالاتعلمون ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه بقوله ( انه لاييأس من روح الله الاالقوم الكافرين) لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته فان العارف لايقنط فى حال من الاحوال ( فلما دخلوا عليه) اى على يوسف بعد مارجعوا الى مصر بموجب امر أبيهم وانما لم يذكر ذلك ايذانا بمسارعتهم الى ما امروا به واشعارا بان ذلك امر محقق لايفتقر الى الذكر والبيان (قالوا ياأيها العزيز ) اى الملك القادر المتمنع (مسنا واهلنا الضر) الهزال من شدة الجوع (وجئنا ببضاعة مزجاة) مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارا لها من ازجيته اذا دفعته وطردته والريح تزجى السحاب قيل كانت بضاعتهم من متاع الاعراب صوفا وسمنا

واذا كان متعديا فمصدره الفصل قال المفسرون لما خرجت العير من مصر متوجهة الى كنعان قال يعقوب عليه السلام لمن حضر عنده من اهله وقرابته وولد ولده انى لأجد ريح يوسف لولا ان تفندون ولم يكن هذا القول مع اولاده لانهم كانوا غائبين بدليل انه عليه السلام قال لهم اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه واختلفوا فى قدر المسافة فقيل مسيرة ثمانية ايام وقيل عشرة ايام وقيل ثمانون فرسخا واختلفوا فى كيفية وصول تلك الرائحة اليه فقال مجاهد هبت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة فى الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة فعلم عليه السلام انه ليس فى الدنيا من ريح الجنة الا ما كان من ذلك القميص فمن ثم قال انى لأجد ريح يوسف وروى الواحدى باسناده عن انس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اماقوله اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه ابى يأت بصيرا فان نمروذا الجبار لما القى ابراهيم فى النار نزل عليه جبريل عليه السلام بقميص من الجنة وطنفسة من الجنة فالبسه القميص واجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه فكسا ابراهيم عليه السلام ذلك القميص اسحق وكساه اسحق يعقوب وكساه يعقوب يوسف فجعله فى قصبة من فضة وعلقها فى عنقه فألقى فى الجب والقميص فى عنقه فذلك قوله اذهبوا بقميصى هذا والتحقيق ان يقال انه تعالى اوصل تلك الرائحة اليه على سبيل اظهار المعجزات لان وصول الرائحة اليه من هذه المسافة البعيدة امر مناقض للعادة فيكون معجزة ولابد من كونها معجزة لاحدهما والاقرب انه ليعقوب عليه السلام حين اخبر عنه ونسبوه فى هذا الكلام الى ما لاينبغى فظهر ان الامر كما ذكر فكان معجزة له قال اهل المعانى ان الله تعالى اوصل اليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة ومجئ وقت الروح والفرح من المكان البعيد ومنع من وصول خبره اليه مع قرب احدى البلدتين من الاخرى فى مدة ثمانين سنة وذلك يدل على ان كل سهل فهو فى زمان المحنة صعب وكل صعب فهو فى زمان الاقبال سهل ومعنى لأجد ريح يوسف اشم وعبر عنه بالوجود لانه وجدان له بحاسة الشم وقوله لولا ان تفندون قال ابو بكر بن الانبارى افند الرجل اذا خرف وتغير عقله وفند اذا جهل ونسب ذلك اليه وعن الاصمعى اذا كثر كلام الرجل من خرف فهو المفند قال صاحب الكشاف يقال شيخ مفند ولايقال عجوز مفندة لانها لم تكن فى شبيبتها ذات رأى حتى تفند فى كبرها فقوله لولا ان تفندون اى لولا ان تنسبونى الى الخرف ولما ذكر يعقوب ذلك قال الحاضرون عنده تالله انك لفى ضلالك القديم وفى الضلال ههنا وجوه ( الاول ) قال مقاتل يعنى بالضلال ههنا الشقاء يعنى شقاء الدنيا والمعنى انك لفى شقائك القديم بما تكابد من الاحزان على يوسف واحتج مقاتل بقوله انا اذن لفى ضلال وسعر يعنون لفى شقاء دنيانا وقال قتادة لفى ضلالك القديم اى لفى حبك القديم لاتنساه ولاتذهل عنه وهو كقولهم ان ابانا لفى ضلال مبين ثم قال قتادة قد قالوا كلمة غليظة ولم يكن يجوز ان

وقيل الصنوبر وحبة الخضراء وقيل سويق المقل والاقط وقيل دراهم زيوفا لاتؤخذ الابوضيعة وانما قدموا ذلك (بقولوها)

فكان الامر بذلك السجود من تمام التشديد والله اعلم بحقائق الامور ( البحث الثانى ) اختلفوا في مقدار المدة بين هذا الوقت وبين الرؤيا فقيل ثمانون سنة وقيل سبعون وقيل اربعون وهو قول الاكثرين ولذلك يقولون ان تأويل الرؤيا انما صحت بعد اربعين سنة وقيل ثماني عشرة سنة وعن الحسن انه ألقى في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وبقى في العبودية والسجن ثمانين سنة ثم وصل الى ابيه وأقاربه وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة فكان عمره مائة وعشرين سنة والله اعلم بحقائق الامور ثم قال وقد احسن بي اى الى يقال احسن به واليه قال كثير

أسيئي بنا او احسني لاملومة * لدينا ولا مقلية ان تقلت

اذ أخرجني من السجن ولم يذكر اخراجه من البئر لوجوه ( الاول ) انه قال لاخوته لاتثريب عليكم اليوم ولو ذكر واقعة البئر لكان ذلك تثريبا لهم فكان اهماله جاريا مجرى الكرم ( الثانى ) انه لما خرج من البئر لم يصر ملكا بل صيروه عبدا اما لما خرج من السجن صيروه ملكا فكان هذا الاخراج اقرب من ان يكون انعاما كاملا ( الثالث ) انه لما أخرج من البئر وقع في المضار الحاصلة بسبب تهمة المرأة فلما أخرج من السجن وصل الى أبيه واخوته وزالت التهمة فكان هذا أقرب الى المنفعة ( الرابع ) قال الواحدى النعمة في اخراجه من السجن اعظم لان دخوله في السجن كان بسبب ذنب همه به وهذا ينبغى ان يحمل على ميل الطبع ورغبة النفس وهذا وان كان في محل العفو في حق غيره الا انه ربما كان سببا للمؤاخذة في حقه لان حسنات الابرار سيآت المقربين ثم قال وجاء بكم من البدو وفيه مسئلتان ( المسئلة الاولى ) في الآية قولان ( الاول ) جاء بكم من البدو اى من البادية وقال الواحدى البدو بسيط من الارض يظهر فيه الشخص من بعيد واصله من بدا يبدو بدوا ثم سمى المكان باسم المصدر فيقال بدو وحضر وكان يعقوب وولده بأرض كنعان اهل مواش وبرية (والقول الثانى) قال ابن عباس رضى الله عنهما كان يعقوب قد تحول الى بدا وسكنها ومنها قدم على يوسف وله بها مسجد تحت جبلها قال ابن الانبارى بدا اسم موضع معروف يقال هو بين شعب وبدا وهما موضعان ذكرهما جميعا كثير فقال

وانت التى حببت شعبا الى بدا * الى واوطاني بلاد سواهما

فالبدو على هذا القول معناه قصد هذا الموضع الذى يقال له بدا يقال بدا القوم يبدون بدوا اذا أتوا بدا كما يقال غار القوم غورا اذا أتوا الغور فكان معنى الآية وجاء بكم من قصد بدا وعلى هذا القول كان يعقوب وولده حضريين لان البدو لم يرد به البادية لكن عنى به قصد بدا الى ههنا كلام قاله الواحدى في البسيط (المسئلة الثانية) تمسك اصحابنا بهذه الآية على ان فعل العبد خلق الله تعالى لان خروج العبد من السجن اضافه الى نفسه بقوله اذ أخرجنى من السجن ومجيئهم من البدو اضافه الى نفسه سبحانه بقوله وجاء

فتفند في كبرها وجواب لولا محذوف اى لصدقتموني ( قالوا ) اى  الحاضرون عنده (تالله انك لفي ضلالك القديم )لفي ذهابك عن الصواب قدما في افراط محبتك ليوسف ولهجك بذكره ورجائك للقائه وكان عندهم انه قدمات (فلما ان جاء البشير) وهو يهوذا(القاه)اى ألقى البشير القميص( على وجهه )اى وجه يعقوب او القاه يعقوب على وجه نفسه(فارتد)عاد(بصيرا) لما انتعش فيه من القوة(قال ألم أقل لكم )يعنى قوله انى لاجد ريح يوسف فالخطاب لمن كان عنده بكنعان او قوله ولا تيأسوا من روح الله فالخطاب لبنيه وهو الانسب بقوله( انى اعلم من الله مالا تعلمون ) فان مدار النهى المذكور انما هو العلم الذى أوتى يعقوب من جهة الله سبحانه وعلى هذا يجوز ان يكون هذا مقول القول اى ألم أقل لكم حين أرسلتكم الى مصر وأمرتكم بالتحسس ونهيتكم عن اليأس من روح الله تعالى واعلم من الله مالا تعلمون من حياة يوسف عليه الصلاة والسلام روى انه سأل البشير كيف يوسف فقال هو ملك مصر قال ما اصنع بالملك على اى دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة ( قالوا يا ابانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين ) ومن حق من اعترف بذنبه ان يصفح عنه ويستغفر له فكأنهم كانوا على ثقة من عفوه عليه الصلاة والسلام ولذلك اقتصروا على استدعاء الاستغفار وادرجوا ذلك في الاستغفار ( قال سوف استغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم )وهذا مشعر بعفوه وقيل أخر الاستغفار الى وقت السحر وقيل الى ليلة الجمعة ليتحرى به وقت الاجابة وقيل أخره الى ان يستحل لهم من يوسف عليه الصلاة والسلام اويعلم انه قد عفا عنهم فان عفو المظلوم

بكم من البدو وهذا صريح فى ان فعل العبد بعينه فعل الله تعالى وحمل هذا على ان المراد ان ذلك انما حصل باقدار الله تعالى وتيسيره عدول عن الظاهر ثم قال من بعد ان نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى قال صاحب الكشاف نزغ أفسد بيننا وأغوى واصله من نزغ الراكض الدابة وحملها على الجرى يقال نزغه ونسغه اذا نخسه واعلم ان الجبائى والكعبى والقاضى احتجوا بهذه الآية على بطلان الجبر قالوا لانه تعالى أخبر عن يوسف عليه السلام انه أضاف الاحسان الى الله وأضاف النزغ الى الشيطان ولو كان ذلك ايضا من الرحمن لوجب ان لا ينسب الا اليه كما فى النعم (والجواب) ان اضافته هذا الفعل الى الشيطان مجاز لان عندكم الشيطان لا يتمكن من الكلام الخفى وقد أخبر الله عنه فقال وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى فثبت ان ظاهر القرآن يقتضى اضافة هذا الفعل الى الشيطان مع انه ليس كذلك وايضا فان كان اقدام المرء على المعصية بسبب الشيطان فاقدام الشيطان على المعصية ان كان بسبب شيطان آخر لزم التسلسل وهو محال وان لم يكن بسبب شيطان آخر فليقل مثله فى حق الانسان فثبت ان اقدام المرء على الجهل والفسق ليس بسبب الشيطان وليس ايضا بسبب نفسه لان احدا لا يميل طبعه الى اختيار الجهل والفسق الذى يوجب وقوعه فى ذم الدنيا وعقاب الآخرة ولما كان وقوعه فى الكفر والفسق لا بدله من موقع وقد بطل القسمان لم يبق الا ان يقال ذلك من الله تعالى ثم الذى يؤكد ذلك ان الآية المتقدمة على هذه الآية وهى قوله اذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو صريح فى ان الكل من الله تعالى ثم قال ان ربى لطيف لما يشاء والمعنى ان حصول الاجتماع بين يوسف وبين أبيه وأخوته مع الالفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال كان فى غاية البعد عن العقول الا انه تعالى لطيف فاذا أراد حصول شئ سهل اسبابه فحصل وان كان فى غاية البعد عن الحصول ثم قال انه هو العليم الحكيم اعنى ان كونه لطيفا فى افعاله انما كان لاجل انه عليم بجميع الاعتبارات الممكنة التى لا نهاية لها فيكون عالما بالوجه الذى يسهل تحصيل ذلك الصعب وحكيم اى محكم فى فعله حاكم فى قضائه حكيم فى افعاله مبرأ عن العبث والباطل والله اعلم ❊ قوله تعالى (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض انت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما والحقنى بالصالحين) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) روى ان يوسف عليه السلام أخذ بيد يعقوب وطاف به فى خزائنه فادخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الحلى وخزائن الثياب وخزائن السلاح فلما ادخله خزائن القراطيس قال يا بنى ما اغفلك عندك هذه القراطيس وما كتبت الى على ثمان مراحل قال نهانى جبريل عليه السلام عنه قال سله عن السبب قال انت ابسط اليه فسأله فقال جبريل عليه السلام امرنى الله بذلك لقولك وأخاف ان يأكله الذئب فهلا خفتنى وروى ان يعقوب عليه السلام أقام معه اربعا وعشرين سنة ولما قربت وفاته أوصى اليه ان يدفنه

---

شرط المغفرة ويعضده انه روى عنه انه استقبل القبلة قائما يدعو وقام يوسف خلفه يؤمن وقاموا خلفهما اذلة خاشعين عشرين سنة حتى بلغ جهدهم وظنوا انها الهلكة نزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال ان الله قد اجاب دعوتك فى ولدك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة فان صح ثبتت نبوتهم وان ماصدر عنهم انما صدر قبل الاستنباء وقيل المراد الاستمرار على الدعاء فقد روى انه كان يستغفر كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين سنة وقيل اقام الى الصلاة فى وقت السحر فلما فرغ رفع يديه فقال اللهم اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عنه واغفر لولدى ما اتوا الى اخيهم فاوحى الله اليه ان الله قد غفر لك ولهم اجمعين (فلما دخلوا على يوسف) روى انه وجه يوسف الى ابيه جهازا ومائتى راحلة ليتجهز اليه بمن معه فاستقبله يوسف والملك فى اربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم فتلقوا يعقوب عليه الصلاة والسلام وهو يمشى متوكئا على يهوذا فنظر الى الخيل والناس فقال يا يهوذا أهذا فرعون مصر قال لا بل ولدك فلما لقيه قال عليه الصلاة والسلام السلام عليك يا مذهب الاحزان وقيل قال له يوسف يا ابت بكيت على حتى ذهب بصرك الم تعلم ان القيامة تجمعنا فقال بلى ولكنى خشيت ان يسلب دينك فيحال بينى وبينك وقيل ان يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وكانوا حين خرجوا مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلا سوى الذرية والهرمى وكانت الذرية ألف ألف ومائتى ألف (آوى اليه ابويه) اى اباه وخالته وتنزيلها منزلة الام كتنزيل العم منزلة الاب (بالشام)

بيوسف واخيه حسبما يفيده قوله (قد من الله علينا) فكأنه قال هل علمتم مافعلتم بنا من التفريق والاذلال فأنا يوسف وهذا اخي

مصر وقيل آمنين من القحط والشدة والفاقة وقيل آمنين من ان يضرهم يوسف بالجرم السالف اما قوله ورفع ابويه على العرش قال اهل اللغة العرش السرير الرفيع قال تعالى ولها عرش عظيم والمراد بالعرش ههنا السرير الذي كان يجلس عليه يوسف واما قوله وخروا له سجدا ففيه اشكال وذلك لان يعقوب عليه السلام كان ابا يوسف وحق الابوة عظيم قال تعالى وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا فقرن حق الوالدين بحق نفسه وايضا انه كان شيخا والشاب يجب عليه تعظيم الشيخ (والثالث) انه كان من اكابر الانبياء ويوسف وان كان نبيا الا ان يعقوب كان اعلى حالا منه (والرابع) ان جد يعقوب واجتهاده في تكثير الطاعات اكثر من جد يوسف ولما اجتمعت هذه الجهات الكثيرة فهذا يوجب ان يبالغ يوسف في خدمة يعقوب فكيف استجاز يوسف ان يسجد له يعقوب هذا تقرير السؤال (والجواب) عنه من وجوه (الاول) وهو قول ابن عباس في رواية عطاء ان المراد بهذه الآية انهم خروا له اي لاجل وجدانه سجدا لله تعالى وحاصل الكلام ان ذلك السجود كان سجودا للشكر فالمسجود له هو الله الا ان ذلك السجود انما كان لاجله والدليل على صحة هذا التأويل ان قوله ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا مشعر بأنهم صعدوا ذلك السرير ثم سجدوا له ولو انهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير لان ذلك أدخل في التواضع فان قالوا فهذا التأويل لا يطابق قوله ياابت هذا تأويل رؤياي من قبل والمراد منه قوله اني رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين قلنا بل هذا مطابق ويكون المراد من قوله والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين لاجلي اي انها سجدت لله لطلب مصلحتي والسعي في اعلاء منصبي واذا كان هذا محتملا سقط السؤال وعندي ان هذا التأويل متعين لانه لا يستبعد من عقل يوسف ودينه أن يرضى بان يسجد له أبوه مع سابقته في حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكمال النبوة (الوجه الثاني) في الجواب ان يقال انهم جعلوا يوسف كالقبلة وسجدوا لله شكرا لنعمة وجدانه وهذا التأويل حسن فانه يقال صليت للكعبة كما يقال صليت الى الكعبة قال حسان شعرا

ماكنت أعرف أن الامر منصرف * عن هاشم ثم منها عن ابي حسن
أليس اول من صلى لقبلتكم * واعرف الناس بالقرآن والسنن

وهذا يدل على انه يجوز ان يقال فلان صلى للقبلة وكذلك يجوز ان يقال سجد للقبلة وقوله وخروا له سجدا اي جعلوه كالقبلة ثم سجدوا لله شكرا لنعمة وجدانه (الوجه الثالث) في الجواب قد يسمى التواضع سجودا كقوله * ترى الاكم فيها سجدا للحوافر * وكان المراد ههنا التواضع الا ان هذا مشكل لانه تعالى قال وخروا له سجدا والخرور الى السجدة مشعر بالاتيان بالسجدة على اكمل الوجوه وأجيب عنه بان الخرور قد يعني به المرور فقط قال تعالى لم يخروا عليها صما وعميانا يعني لم يمروا (الوجه الرابع) في الجواب

قد من الله علينا بالخلاص عما ابتلينا به والاجتماع بعد الفرقة والعزة بعد الذلة والانس بعد الوحشة ولا يبعد ان يكون فيه اشارة الى الجواب عن طلبهم لرد بنيامين بأنه اخي لا أخوكم فلا وجه لطلبكم ثم علل ذلك بطريق الاستئناف التعليلي بقوله (انه من يتق) اي يفعل التقوى في جميع احواله او يق نفسه عما يوجب سخط الله تعالى وعذابه (ويصبر) على المحن او على مشقة الطاعات او عن المعاصي التي تستلذها النفس (فان الله لا يضيع اجر المحسنين) اي اجرهم وانما وضع المظهر موضع المضمر تنبيها على ان المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالاحسان (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) اختارك وفضلك علينا بما ذكرت من النعوت الجليلة (وان كنا) وان الشان كنا (لخاطئين) لمتعمدين للذنب اذ فعلنا بك مافعلنا ولذلك اعزك واذلنا وفيه اشعار بالتوبة والاستغفار ولذلك (قال لاتثريب) اي لاعتب ولاتأنيب (عليكم) وهو تفعيل من الثرب وهو الشحم الغاشي للكرش ومعناه ازالته كما ان التجليد ازالة الجلد والتقريع ازالة القرع لانه اذا ذهب كان ذلك غاية الهزال فضرب مثلا للتقريع الذي يذهب بماء الوجوه وقوله عز وعلا (اليوم) منصوب بالتثريب او بالمقدر خبرا للا اي لاأثربكم اولا تثريب مستقر عليكم اليوم الذي هو مظنة له فما ظنكم بسائر الايام او بقوله (يغفر الله لكم) لانه حينئذ صفح عن جريمتهم وعفا عن جريرتهم بما فعلوا من التوبة (وهو ارحم الراحمين) يغفر الصغائر والكبائر

ان نقول الضمير في قوله وخروا له غير عائد الى الابوين لامحالة والا لقال وخروا له ساجدين بل الضمير عائد الى اخوته والى سائر من كان يدخل عليه لاجل التهنئة والتقدير ورفع ابويه على العرش مبالغة في تعظيمهما واما الاخوة وسائر الداخلين فخروا له ساجدين فان قالوا فهذا لايلائم قوله يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قلنا ان تعبير الرؤيا لايجب ان يكون مطابقا للرؤيا بحسب الصورة والصفة من كل الوجوه فسجود الكواكب والشمس والقمر تعبير عن تعظيم الاكابر من الناس له ولاشك ان ذهاب يعقوب مع اولاده من كنعان الى مصر لاجله في نهاية التعظيم له فكفى هذا القدر في صحة الرؤيا فاما ان يكون التعبير مساويا لاصل الرؤيا في الصفة والصورة فلم يوجبه احد من العقلاء (الوجه الخامس) في الجواب لعل الفعل الدال على التحية والاكرام في ذلك الوقت هو السجود وكان مقصودهم من السجود تعظيمه وهذا في غاية البعد لان المبالغة في التعظيم كانت اليق بيوسف منها بيعقوب فلو كان الامر كما قلتم لكان من الواجب ان يسجد يوسف ليعقوب عليه السلام (الوجه السادس) فيه ان يقال لعل اخوته حملتهم الانفة والاستعلاء على ان لايسجدوا له على سبيل التواضع وعلم يعقوب عليه السلام انهم لو لم يفعلوا ذلك لصار ذلك سببا لثوران الفتن ولظهور الاحقاد القديمة بعد كونها فهو عليه السلام مع جلالة قدره وعظم حقه بسبب الابوة والشيخوخة والتقدم في الدين والنبوة والعلم فعل ذلك السجود حتى تصير مشاهدتهم لذلك سببا لزوال الانفة والنفرة عن قلوبهم ألا ترى ان السلطان الكبير اذا نصب محتسبا فاذا اراد ترتيبه مكنه في اقامة الحسبة عليه ليصير ذلك سببا في ان لايبقى في قلب احد منازعة ذلك المحتسب في اقامة الحسبة فكذا ههنا (الوجه السابع) لعل الله تعالى امر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية لايعرفها الا هو كما انه امر الملائكة بالسجود لآدم لحكمة لايعرفها الا هو ويوسف ما كان راضيا بذلك في قلبه الا انه لما علم ان الله امره بذلك سكت ثم حكى تعالى ان يوسف لما رأى هذه الحالة قال ياابت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وفيه بحثان (الاول) قال ابن عباس رضي الله عنهما انه لما رأى سجود ابويه واخوته هاله ذلك واقشعر جلده منه وقال ليعقوب هذا تأويل رؤياي من قبل واقول هذا يقوي الجواب السابع كأنه يقول يا ابت لايليق بمثلك على جلالتك في العلم والدين والنبوة ان تسجد لولدك الا ان هذا امر امرت به وتكليف كلفت به فان رؤيا الانبياء حق كما ان رؤيا ابراهيم ذبح ولده صار سببا لوجوب ذلك الذبح عليه في اليقظة فكذلك صارت هذه الرؤيا التي رآها يوسف وحكاها ليعقوب سببا لوجوب ذلك السجود فلهذا السبب حكى ابن عباس رضي الله عنهما ان يوسف عليه السلام لما رأى ذلك هاله واقشعر جلده ولكنه لم يقل شيئا واقول لايبعد ان يكون ذلك من تمام تشديد الله تعالى على يعقوب كأنه قيل له انك كنت دائم الرغبة في وصاله ودائم الحزن بسبب فراقه فاذا وجدته فاسجد له

نستحي منك بما فرط منا فيك فقال عليه الصلاة والسلام ان اهل مصر وأن ملكت فيهم كانوا ينظرون الى بالعين الاولى ويقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما مابلغ ولقد شرفت بكم الآن وعظمت في العيون حيث علم الناس انكم اخوتي واني من حفدة ابراهيم عليه الصلاة والسلام (اذهبوا بقميصي هذا) قيل هو الذي كان عليه حينئذ وقيل هو القميص المتوارث الذي كان في التعويذ أمره جبريل بارساله اليه واوحى اليه ان فيه ريح الجنة لايقع على مبتلى الاعوفي (فألقوه على وجه ابي يأت بصيرا) يكن بصيرا او يأت الي بصيرا وينصره قوله (واتوني بأهلكم اجمعين) اي بأبي وغيره ممن ينتظمه لفظ الاهل جميعا من النساء والذراري قيل انما حمل القميص يهوذا وقال انا احزنته بحمل القميص ملطخا بالدم اليه فأفرحه كما احزنته وقيل حمله وهو حاف حاسر من مصر الى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخا (ولما فصلت العير) خرجت من عريش مصر يقال فصل من البلد فصولا اذا انفصل منه وجاوز حيطانه وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انفصل العير (قال ابوهم) يعقوب عليه الصلاة والسلام لمن عنده (اني لأجد ريح يوسف) اوجده الله سبحانه ماعبق بالقميص من ريح يوسف من ثمانين فرسخا حين اقبل به يهوذا (لولا ان تفندون) اي تنسبوني الى الفند وهو الخرف وانكار العقل وفساد الرأي من هرم يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة اذ لم تكن في شبيبتها ذات رأي (فكان)

بالشام الى جنب أبيه اسحق فضى بنفسه ودفنه ثم عاد الى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثا وعشرين سنة فعند ذلك تمنى ملك الآخرة فتمنى الموت وقيل ماتمناه نبي قبله ولا بعده فتوفاه الله طيبا طاهرا فتخاصم أهل مصر فى دفنه كل احد يحب ان يدفن فى محلتهم حتى هموا بالقتال فرأوا ان الاصلح ان يعملوا له صندوقا من مرمر ويجعلوه فيه ويدفنوه فى النيل بمكان يمر الماء عليه ثم يصل الى مصر لتصل بركته الى كل احد وولد له افرائيم وميشا وولد لافرائيم نون ولنون يوشع فتى موسى ثم دفن يوسف هناك الى ان بعث الله موسى فأخرج عظامه من مصر ودفنها عند قبر أبيه ( المسئلة الثانية ) من فى قوله من الملك ومن تأويل الاحاديث للتبعيض لانه لم يؤت الا بعض ملك الدنيا او بعض ملك مصر وبعض التأويل قال الاصم انما قال من الملك لانه كان دون ملك فوقه واعلم ان مراتب الموجودات ثلاثة المؤثر الذى لا يتأثر وهو الاله تعالى وتقدس والمتأثر الذى لا يؤثر وهو عالم الاجسام فانها قابلة للتشكيل والتصوير والصفات المختلفة والاعراض المتضادة فلا يكون لها تأثير فى شئ اصلا وهذان القسمان متباعدان جدا ويتوسطهما قسم ثالث وهو الذى يؤثر ويتأثر وهو عالم الارواح فخاصية جوهر الارواح انها تقبل الاثر والتصرف عن عالم نور جلال الله ثم انها اذا اقبلت على عالم الاجسام تصرفت فيه وأثرت فيه فتعلق الروح بعالم الاجسام بالتصرف والتدبير فيه وتعلقه بعالم الالهيات بالعلم والمعرفة وقوله قد آتيتنى من الملك اشارة الى تعلق النفس بعالم الاجسام وقوله وعلمتنى من تأويل الاحاديث اشارة الى تعلقها بحضرة جلال الله ولما كان لا نهاية لدرجات هذين النوعين فى الكمال والنقصان والقوة والضعف والجلاء والخفاء امتنع ان يحصل منهما للانسان الا مقدار متناه فكان الحاصل فى الحقيقة بعضا من ابعاض الملك وبعضا من ابعاض العلم فلهذا السبب ذكر فيه كلمة من لانها دالة على التبعيض ثم قال فاطر السموات والارض وفيه أبحاث ( البحث الاول ) فى تفسير لفظ الفاطر بحسب اللغة قال ابن عباس رضى الله عنهما ماكنت ادرى معنى الفاطر حتى احتكم الى اعرابيان فى بئر فقال احدهما انا فطرتها وانا ابتدأت حفرها قال اهل اللغة اصل الفطر فى اللغة الشق يقال فطر ناب البعير اذا بدأ وفطرت الشئ فانفطر اى شققته فانشق وتفطر الارض بالنبات والشجر بالورق اذا تصدعت هذا اصله فى اللغة ثم صار عبارة عن الايجاد لان ذلك الشئ حال عدمه كأنه فى ظلمة وخفاء فلما دخل فى الوجود صار كأنه انشق عن العدم وخرج ذلك الشئ منه ( البحث الثانى ) ان لفظ الفاطر قد يظن انه عبارة عن تكوين الشئ عن العدم المحض بدليل الاشتقاق الذى ذكرناه الا ان الحق انه لا يدل عليه ويدل عليه وجوه ( أحدها ) انه قال الحمد لله فاطر السموات والارض ثم بين تعالى انه انما خلقها من الدخان حيث قال ثم استوى الى السماء وهى دخان فدل على ان لفظ الفاطر لا يفيد انه أحدث ذلك الشئ من العدم المحض ( وثانيها ) انه تعالى قال فطرة

فى قوله عز وجل واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق اولان يعقوب عليه الصلاة والسلام تزوجها بعد أمه وقال الحسن وابن اسحق كانت أمه فى الحياة فلا حاجة الى التأويل ومعنى اوى اليه ضمهما اليه واعتنقهما وكأنه عليه الصلاة والسلام ضرب فى الملتقى مضربا فنزل به فدخلوا عليه فآواهما اليه ( وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين ) من الشدائد والمكاره قاطبة والمشيئة متعلقة بالدخول على الامن ( ورفع ابويه ) عند نزولهم بمصر ( على العرش ) على السرير تكرمة لهما فوق مافعله لاخوته ( وخروا له ) اى ابواه واخوته ( سجدا ) تحية له فانه كان السجود عندهم جاريا مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها من عادات الناس الفاشية فى التعظيم والتوقير وقيل ماكان ذلك الا انحناء دون تعفير الجباه ويأباه الخرور وقيل خروا لاجله سجدا لله شكرا ويرده قوله تعالى ( وقال ياأبت هذا تأويل رؤياى ) التى رأيتها وقصصتها عليك ( من قبل ) فى زمن الصبا ( قد جعلها ربى حقا ) صدقا واقعا بعينه والاعتذار بجعل يوسف بمنزلة القبلة وجعل اللام كما فى قوله

أليس اول من صلى لقبلتكم

تعسف لا يخفى وتأخيره عن الرفع على العرش ليس بنص فى ذلك لان الترتيب الذكرى لا يجب كونه على وفق الترتيب الوقوعى فلعل تأخيره عنه ليصل به ذكر كونه تعبير الرؤيا وما يتصل به من قوله

الله التى فطر الناس عليها مع انه تعالى انما خلق الناس من التراب قال تعالى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى (وثالثها) ان الشئ انما يكون حاصلا عند حصول مادته وصورته مثل الكوز فانه انما يكون موجودا اذا صارت المادة المخصوصة موصوفة بالصفة المخصوصة فعند عدم الصورة ماكان ذلك المجموع موجودا وبايجاد تلك الصورة صار موجدا لذلك الكوز فعلمنا ان كونه موجد الكوز لايقتضى كونه موجد المادة الكوز فثبت ان لفظ الفاطر لايفيد كونه تعالى موجد للاجزاء التى منها تركبت السموات والارض وانما صار الينا كونه تعالى موجدا لهما بحسب الدلائل العقلية لابحسب لفظ القرآن واعلم ان قوله فاطر السموات والارض يوهم ان تخليق السموات مقدم على تخليق الارض عند من يقول الواو تفيد الترتيب ثم العقل يؤكده ايضا وذلك لان تعين المحيط يوجب تعين المركز اما حصول المركز وتعينه فانه لايوجب تعين المحيط لانه يمكن ان يحيط بالمركز الواحد محيطات لانهاية لها اما لايمكن ان يحصل للمحيط الواحد الامركز واحد بعينه وايضا اللفظ يفيد ان السماء كثيرة والارض واحدة ووجه الحكمة فيه قد ذكرناه فى قوله الحمد لله الذى خلق السموات والارض (البحث الثالث) قال الزجاج نصبه من وجهين (احدهما) على الصفة لقوله رب وهو نداء مضاف فى موضع النصب (والثانى) يجوز ان ينصب على نداء ثان ثم قال انت ولى فى الدنيا والآخرة والمعنى انت الذى تتولى اصلاح جميع مهماتى فى الدنيا والآخرة فوصل الملك الفانى بالملك الباقى وهذا يدل على ان الايمان والطاعة كله من الله تعالى اذ لو كان ذلك من العبد لكان المتولى لمصالحه هو هو وحينئذ يبطل عموم قوله انت ولى فى الدنيا والآخرة ثم قال توفنى مسلما والحقنى بالصالحين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان النبى عليه الصلاة والسلام حكى عن جبريل عليه السلام عن رب العزة انه قال من شغله ذكرى عن مسئلتى اعطيته افضل ما اعطى السائلين فلهذا المعنى من اراد الدعاء فلابد وأن يقدم عليه ذكر الثناء على الله فههنا يوسف عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء قدم عليه الثناء وهو قوله رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض ثم ذكر عقيبه الدعاء وهو قوله توفنى مسلما والحقنى بالصالحين ونظيره مافعله الخليل صلوات الله عليه فى قوله الذى خلقنى فهو يهدين فمن هنا الى قوله رب هب لى حكما ثناء على الله ثم قوله رب هب لى الى آخر الكلام دعاء فكذا ههنا (المسئلة الثانية) اختلفوا فى ان قوله توفنى مسلما هل هو طلب منه للوفاة أم لا فقال قتادة سأل ربه اللحوق به ولم يتمن نبى قط الموت قبله وكثير من المفسرين على هذا القول وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء يريد اذا توفيتنى فتوفنى على دين الاسلام فهذا طلب لان يجعل الله وفاته على الاسلام وليس فيه مايدل على انه طلب الوفات واعلم ان اللفظ صالح للامرين ولا يبعد فى الرجل العاقل اذا كمل عقله ان يتمنى الموت ويعظم رغبته فيه لوجوه كثيرة منها ان كمال النفس

(وقد أحسن بى) المشهور استعمال الاحسان بالى وقد يستعمل بالباء ايضا كما فى قوله عز اسمه وبالوالدين احسانا وقيل هذا بتضمين لطف وهو الاحسان الخفى كما يؤذن به قوله تعالى ان ربى لطيف لما يشاء وفيه فائدة لاتخفى اى لطف بى محسنا الى غير هذا الاحسان (اذ اخرجنى من السجن) بعد ما ابتليت به ولم يصرح بقصة الجب حذارا من تثريب اخوته لان الظاهر حضورهم لوقوع الكلام عقيب خرورهم سجدا واكتفاء بما يتضمنه قوله تعالى (وجاء بكم من البدو) اى البادية (من بعد ان نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى) اى افسد بيننا بالاغواء واصله من نخس الرائض الدابة وحملها على الجرى يقال نزغه ونسغه اذا نخسه ولقد بالغ عليه الصلاة والسلام فى الاحسان حيث اسند ذلك الى الشيطان (ان ربى لطيف لما يشاء) اى لطيف التدبير لاجله رفيق حتى يجئ على وجه الحكمة والصواب مامن صعب الاوهو بالنسبة الى تدبيره سهل (انه هو العليم) بوجوه المصالح (الحكيم) الذى يفعل كل شئ على قضية الحكمة روى ان يوسف أخذ بيد يعقوب عليهما الصلاة والسلام فطاف به فى خزائنه فأدخله فى خزائن الورق والذهب وخزائن الحلى وخزائن الثياب وخزائن السلاح وغير ذلك فلما ادخله خزائن القراطيس قال يابنى ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت الى على ثمانى مراحل قال امرنى جبريل قال او ماتسأله

الانسانية على مابيناه في ان يكون عالما بالالهيات وفي ان يكون ملكا ومالكا متصرفا في الجسمانيات وذكرنا ان مراتب التفاوت في هذين النوعين غير متناهية والكمال المطلق فيهما ليس الا الله وكل مادون ذلك فهو ناقص والناقص اذا حصل له شعور بنقصانه وذاق لذة الكمال المطلق بقي في القلق وألم الطلب واذا كان الكمال المطلق ليس الا الله وما كان حصوله للانسان ممتنعا لزم ان يبقى الانسان ابدا في قلق الطلب والم التعب فاذا عرف الانسان هذه الحالة عرف انه لاسبيل له الى دفع هذا التعب عن النفس الا بالموت فحينئذ يتمنى الموت (والسبب الثاني) لتمني الموت ان الخطباء والبلغاء وان أطنبوا في مذمة الدنيا الا ان حاصل كلامهم يرجع الى امور ثلاثة (احدها) ان هذه السعادات سريعة الزوال مشرفة على الفناء والالم الحاصل عند زوالها اشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها (وثانيها) انها غير خالصة بل هي ممزوجة بالمنغصات والمكدرات (وثالثها) ان الاراذل من الخلق يشاركون الافاضل فيها بل ربما كان حصة الارذال اعظم بكثير من حصة الافاضل فهذه الجهات الثلاثة منفرة عن هذه اللذات ولما عرف العاقل انه لاسبيل الى تحصيل هذه اللذات الا مع هذه الجهات الثلاثة المنفرة لاجرم يتمنى الموت ليتخلص عن هذه الآفات (والسبب الثالث) وهو الاقوى عند المحققين رحمهم الله اجمعين ان هذه اللذات الجسمانية لاحقيقة لها وانما حاصلها دفع الآلام فلذة الاكل عبارة عن دفع ألم الجوع ولذة الوقاع عبارة عن دفع الالم الحاصل بسبب الدغدغة المتولدة من حصول المني في أوعية المني ولذة الامارة والرياسة عبارة عن دفع الالم الحاصل بسبب شهوة الانتقام وطلب الرياسة واذا كان حاصل هذه اللذات ليس الا دفع الالم لاجرم صارت عند العقلاء حقيرة خسيسة نازلة ناقصة وحينئذ يتمنى الانسان الموت ليتخلص عن الاحتياج الى هذه الاحوال الخسيسة (والسبب الرابع) ان مداخل اللذات الدنيوية قليلة وهي ثلاثة انواع لذة الاكل ولذة الوقاع ولذة الرياسة ولكل واحدة منها عيوب كثيرة اما لذة الاكل ففيها عيوب (احدها) ان هذه اللذات ليست قوية فان الشعور بألم القولنج الشديد والعياذ بالله منه اشد من الشعور باللذة الحاصلة عند أكل الطعام (وثانيها) ان هذه اللذة لايمكن بقاؤها فان الانسان اذا أكل شبع واذا شبع لم يبق شوقه للالتذاذ بالاكل فهذه اللذة ضعيفة ومع ضعفها غير باقية (وثالثها) انها في نفسها خسيسة فان الاكل عبارة عن ترطيب ذلك الطعام بالبزاق المجتمع في الفم ولاشك انه شئ منفر مستقذر ثم لما يصل الى المعدة تظهر فيه الاستحالة الى الفساد والنتن والعفونة وذلك ايضا منفر (ورابعها) ان جميع الحيوانات الخسيسة مشاركة فيها فان الروث في مذاق الجعل كاللوزنيج في مذاق الانسان وكما ان الانسان يكره تناول غذاء الجعل فكذلك الجعل يكره تناول غذاء الانسان واما اللذة فمشتركة فيما بين الناس (وخامسها) ان الاكل انما يطيب عند اشتداد الجوع وتلك حاجة شديدة والحاجة نقص وافر (وسادسها) ان الاكل يستحقر عند

قال انت ابسط اليه مني فسأله قال جبريل الله تعالى أمرني بذلك لقولك اخاف ان يأكله الذئب قال فهلا خفتني وروى ان يعقوب عليه الصلاة والسلام اقام معه اربعا وعشرين سنة ثم مات واوصى بدفنه بالشام الى جنب ابيه اسحق فمضى بنفسه ودفنه ثمه ثم عاد الى مصر وعاش بعد ابيه ثلاثا وعشرين سنة فلما تم امره وعلم انه لايدوم له تاقت نفسه الى الملك الدائم الخالد فتمنى الموت فقال (رب قد آتيتني من الملك) اي بعضا منه عظيما وهو ملك مصر (وعلمتني من تأويل الاحاديث) اي بعضا من ذلك كذلك ان اريد بتعليم تأويل الاحاديث تفهيم غوامض اسرار الكتب الالهية ودقائق سنن الانبياء عليهم الصلاة والسلام فالترتيب ظاهر واما ان اريد به تعليم تعبير الرؤيا كما هو الظاهر فلعل تقديم ايتاء الملك عليه في الذكر لانه بمقام تعداد النعم الفائضة عليه من الله سبحانه والملك اعرق في كونه نعمة من التعليم المذكور وان كان ذلك ايضا نعمة جليلة في نفسه ولا يمكن تمشية هذا الاعتذار فيما سبق لان التعليم هناك وارد على نهج العلة الغائية للتمكين فان حمل على معنى التمليك لزم تأخره عنه واما الواقع ههنا فمجرد التأخير في الذكر والعطف بحرف الواو ولا يستدعي ذلك الترتيب في الوجود (فاطر السموات والارض) مبدعهما وخالقهما نصب على انه صفة للمنادى او منادى آخر وصفه تعالى به بعد وصفه بالربوبية مبالغة في ترتيب مبادي مايعقبه من قوله (انت وليي) مالك اموري

العقلاء قيل من كانت همته مايدخل في بطنه فقيمته مايخرج من بطنه فهذا هو الاشارة
المختصرة في معايب الاكل واما لذة النكاح فكل ماذكرناه في الاكل حاصل ههنا مع
اشياء اخرى وهي ان النكاح سبب لحصول الولد وحينئذ تكثر الاشخاص فتكثر الحاجة
الى المال فيحتاج الانسان بسببها الى الاحتيال في طلب المال بطرق لانهاية لها وربما صار
هالكا بسبب طلب المال واما لذة الرياسة فعيوبها كثيرة والذي نذكره ههنا سبب واحد
وهو ان كل احد يكره بالطبع ان يكون خادما مأمورا ويحب ان يكون مخدوما آمرا فاذا
سعى الانسان في ان يصير رئيسا آمرا كان ذلك دالا على مخالفة كل ماسواه فكأنه
ينازع كل الخلق في ذلك وهو يحاول تحصيل تلك الرياسة وجميع اهل الشرق والغرب
يحاولون ابطاله ودفعه ولاشك ان كثرة الاسباب توجب قوة حصول الاثر واذا كان كذلك
كان حصول هذه الرياسة كالمتعذر ولو حصل فانه يكون على شرف الزوال في كل حين
وأوان بكل سبب من الاسباب وكان صاحبها عند حصولها في الخوف الشديد من الزوال
وعند زوالها في الاسف العظيم والحزن الشديد بسبب ذلك الزوال واعلم ان العاقل
اذا تأمل هذه المعاني علم قطعا انه لاصلاح له في طلب هذه اللذات والسعي في هذه الخيرات
البتة ثم ان النفس خلقت مجبولة على طلبها والعشق الشديد عليها والرغبة التامة
في الوصول اليها وحينئذ ينعقد ههنا قياس وهو ان الانسان مادام يكون في هذه الحياة
الجسمانية فانه يكون طالبا لهذه اللذات ومادام يطلبها كان في عين الآفات وفي لجة
الحسرات وهذا اللازم مكروه فالملزوم ايضا مكروه فحينئذ يتمنى زوال هذه الحياة
الجسمانية والسبب في الامور المرغبة في الموت ان موجبات هذه اللذة الجسمانية
متكررة ولايمكن الزيادة عليها والتكرير يوجب الملالة اما سعادات الآخرة فهي انواع
كثيرة غير متناهية (قال الامام فخر الدين الرازي رحمة الله عليه) وهو مصنف هذا الكتاب
أنار الله برهانه انا صاحب هذه الحالة والمتوغل فيها ولو فتحت الباب وبالغت في عيوب
هذه اللذات الجسمانية فربما كتبت المجلدات وماوصلت الى القليل منها فلهذا السبب
صرت مواظبا في اكثر الاوقات على ذكر هذا الذي ذكره يوسف عليه السلام وهو قوله
رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض انت وليي
في الدنيا والآخرة توفني مسلما والحقني بالصالحين (المسئلة الثالثة) تمسك اصحابنا في بيان
ان الايمان من الله تعالى بقوله توفني مسلما وتقريره ان تحصيل الاسلام وابقاءه اذا كان
من العبد كان طلبه من الله فاسدا وتقريره كأنه يقول افعل يا من لايفعل والمعتزلة ابدا
يشنعون علينا ويقولون اذا كان الفعل من الله فكيف يجوز ان يقال للعبد افعل مع
انك لست فاعلاله فنحن نقول ههنا ايضا اذا كان تحصيل الايمان وابقاؤه من العبد لا
من الله تعالى فكيف يطلب ذلك من الله قال الجبائي والكعبي معناه اطلب الفعل اللطف لي
في الاقامة على الاسلام الى ان اموت عليه فهذا الجواب ضعيف لان السؤال وقع على

(الاسلام)

(في الدنيا والآخرة) او الذي
يتولاني بالنعمة فيهما واذ قد
اتممت على نعمة الدنيا (توفني)
اقبضني (مسلما والحقني بالصالحين)
من آبائي او بعامة الصالحين في
الرتبة والكرامة فانما تتم النعمة
بذلك قيل لما دعا توفاه الله عز
وجل طيبا طاهرا فتخاصم اهل
مصر في دفنه وتشاحوا في ذلك
حتى هموا بالقتال فرأوا ان
يصنعوا له تابوتا من مرمر فجعلوه
فيه ودفنوه في النيل ليمر عليه
ثم يصل الى مصر ليكونوا شرعا
واحدا في التبرك به وولد له
افرائيم وميشا ولافرائيم نون
ولنون يوشع فتى موسى عليه
الصلاة والسلام ولقد
توارثت الفراعنة من العمالقة
بعده مصر ولم يزل بنو اسرائيل
تحت ايديهم على بقايا دين يوسف
وآبائه الى ان بعث الله تعالى
موسى عليه الصلاة والسلام
(ذلك) اشارة الى ماسبق من
نبأ يوسف ومافيه من معنى البعد
لما مر مرارا من الدلالة على بعد
منزلته او كونه بالانقضاء في حكم
البعيد والخطاب للرسول
صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ
خبره (من انباء الغيب) الذي
لايحوم حوله احد وقوله (نوحيه
اليك) خبر بعد خبر او حال من
الضمير في الخبر ويجوز ان يكون
ذلك اسما موصولا ومن انباء
الغيب صلته ويكون الخبر نوحيه
اليك (وماكنت لديهم) يريد
اخوة يوسف عليه الصلاة
والسلام (اذ اجمعوا أمرهم)
وهو جعلهم اياه في غيابت
الجب (وهم يمكرون) به ويبغون
له الغوائل حتى تقف على ظواهر
اسرارهم

الاسلام فحمله على اللطف عدول عن الظاهر وايضا كل ما في المقدور من الالطاف فقد فعله فكان طلبه من الله محالا (المسئلة الرابعة) لقائل ان يقول الانبياء عليهم السلام يعلمون انهم يموتون لا محالة على الاسلام فكان هذا الدعاء حاصله طلب تحصيل الحاصل وانه لا يجوز (والجواب) احسن ما قيل فيه ان كمال حال المسلم ان يستسلم لحكم الله تعالى على وجه يستقر قلبه على ذلك الاستسلام ويرضى بقضاء الله وقدره ويكون مطمئن النفس منشرح الصدر منفسح القلب في هذا الباب وهذه الحالة زائدة على الاسلام الذي هو ضد الكفر فالمطلوب ههنا هو الاسلام بهذا المعنى (المسئلة الخامسة) ان يوسف عليه السلام كان من اكابر الانبياء عليهم السلام والصلاح اول درجات المؤمنين فالواصل الى الغاية كيف يليق به ان يطلب البداية قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من المفسرين يعني بآبائه ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والمعنى الحقني بهم في ثوابهم ومراتبهم ودرجاتهم وههنا مقام آخر من تفسير هذه الآية على لسان اصحاب المكاشفات وهو ان النفوس المفارقة اذا اشرقت بالانوار الالهية واللوامع القدسية فاذا كانت متناسبة متشاكلة انعكس النور الذي في كل واحدة منها الى الاخرى بسبب تلك الملازمة والمجانسة فتعظم تلك الانوار وتقوى تلك الاضواء ومثال تلك الاحوال المرآة الصقيلة الصافية اذا وضعت وضعا متى اشرقت الشمس عليها انعكس الضوء من كل واحدة منها الى الاخرى فهناك يقوى الضوء ويكمل النور وينتهي في الاشراق والبريق واللمعان الى حد لا تطيقه العيون والابصار الضعيفة فكذا ههنا ۞ قوله تعالى (ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ أجمعوا امرهم وهم يمكرون) اعلم ان قوله ذلك رفع بالابتداء وخبره من انباء الغيب ونوحيه اليك خبر ثان وما كنت لديهم اي ما كنت عند اخوة يوسف اذ أجمعوا امرهم اي عزموا على امرهم وذكرنا الكلام في هذا اللفظ عند قوله فأجمعوا امركم وقوله وهم يمكرون اي بيوسف واعلم ان المقصد من هذا اخبار عن الغيب فيكون معجزا بيان انه اخبار عن الغيب ان محمدا صلى الله عليه وسلم ما طالع الكتب ولم يتلمذ لاحد وما كانت البلدة بلدة العلماء فأتيانه بهذه القصة الطويلة على وجه لم يقع فيه تحريف ولا غلط من غير مطالعة ولا تعلم ومن غير ان يقال انه كان حاضرا معهم لابد وان يكون معجزا وكيف لا يكون معجزا وقد سبق تقرير هذه المقدمة في هذا الكتاب مرارا وقوله وما كنت لديهم اي وما كنت هناك ذكر على سبيل التهكم بهم لان كل احد يعلم ان محمدا صلى الله عليه وسلم ما كان معهم ۞ قوله تعالى (وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وما تسألهم عليه من اجر ان هو الا ذكر للعالمين وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون افأمنوا ان تأتيهم غاشية من عذاب الله او تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون) اعلم ان وجه اتصال هذه الآية بما قبلها ان كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة

---

وبواطنها وتطلع على سرائرهم طرا وتحيط بما لديهم خبرا وليس المراد مجرد نفي حضوره عليه الصلاة السلام في مشهد اجماعهم ومكرهم فقط بل في سائر المشاهد ايضا وانما تخصيصه بالذكر لكونه مطلع القصة واخفى احوالها كما ينبئ عنه قوله وهم يمكرون والخطاب وان كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم لكن المراد الزام المكذبين والمعنى ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك اذ لا سبيل الى معرفتك اياه سوى ذلك اذ عدم سماعك ذلك من الغير وعدم مطالعتك للكتب امر لا يشك فيه المكذبون ايضا ولم تكن بين ظهرانيهم عند وقوع الامر حتى تعرفه كما هو فتبلغه اليهم وفيه تهكم بالكفار فكأنهم يشكون في ذلك فيدفع شكهم وفيه ايضا ايذان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع وما ينقله اهل الكتاب ليس على ما هو عليه يعني ان مثل هذا التحقيق بلا وحي لا يتصور الا بالحضور والمشاهدة واذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي ومثله قوله تعالى وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم وقوله وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر (وما اكثر الناس) يريد به العموم او اهل مكة (ولو حرصت) اي على ايمانهم وبالغت في اظهار الآيات القاطعة الدالة على صدقك (بمؤمنين) لتصميمهم على الكفر واصرارهم على العناد روي ان اليهود وقريشا لما سألوا عن قصة يوسف وعدوا ان يسلموا فلما اخبرهم بها على موافقة التوراة فلم يسلموا حزن النبي

صلى الله عليه وسلم فقيل له ذلك (وماتسألهم عليهم) اى على الانبياء او على القرآن (من اجر) من جعل كما يفعله حملة الاخبار ( ان هو الا ذكر )عظة من الله تعالى ( للعالمين ) كافة لان ذلك مختص بهم (وكأين من آية ) اى كأى عدد شئت من الآيات والعلامات الدالة على وجود الصانع و وحدته وكمال علمه وقدرته وحكمته غير هذه الآية التى جئت بها (فى السموات والارض ) اى كائنة فيهما من الاجرام الفلكية وما فيها من النجوم وتغير احوالها و من الجبال والبحار وسائر ما فى الارض من العجائب الفائتة للحصر ( يمرون عليها ) اى يشاهدونها ولا يعبؤن بها وقرئ برفع الارض على الابتداء ويمرون خبره وقرئ بنصبها على معنى ويطؤن الارض يمرون عليها وفى مصحف عبدالله والارض يمشون عليها والمراد ما يرون فيها من آثار الامم الهالكة وغير ذلك من الآيات والعبر ( وهم عنها معرضون ) غير ناظرين اليها ولا متفكرين فيها (ومايؤمن اكثرهم بالله) فى اقرارهم بوجوده وخالقيته (الا وهم مشركون) بعبادتهم لغيره او باتخاذهم الاحبار والرهبان اربابا او بقولهم باتخاذه تعالى ولدا سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا او بالنور والظلمة وهى جملة حالية اى لايؤمن اكثرهم الا فى حال شركهم قيل نزلت الآية فى اهل مكة وقيل فى المنافقين وقيل فى اهل الكتاب (افأمنوا ان تأتيهم غاشية من عذاب الله) اى عقوبة

من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التعنت واعتقد رسول الله صلى الله عليه وسلم انه اذا ذكرها فربما آمنوا فلما ذكرها اصروا على كفرهم فنزلت هذه الآية وكأنه اشارة الى ماذكره الله تعالى فى قوله انك لاتهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء قال ابو بكر بن الانبارى جواب لو محذوف لان جواب لو لايكون مقدما عليها فلا يجوز ان يقال قمت لو قمت وقال الفراء فى المصادر يقال حرص يحرص حرصا ولغة اخرى شاذة حرص يحرص حريصا ومعنى الحرص طلب الشئ بأقصى ما يمكن من الاجتهاد وقوله وماتسألهم عليه من اجر معناه ظاهر وقوله ان هو الا ذكر للعالمين اى هو تذكرة لهم فى دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد والقصص والتكاليف والعبادات ومعناه ان هذا القرآن يشتمل على هذه المنافع العظيمة ثم لاتطلب منهم مالا ولا جعلا فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمردوا وقوله تعالى وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون يعنى انه لاعجب اذا لم يتأملوا فى الدلائل الدالة على نبوتك فان العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ثم انهم يمرون عليها ولا يلتفتون اليها* واعلم ان دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة لابد وان تكون من امور محسوسة وهى اما الاجرام الفلكية واما الاجرام العنصرية اما الاجرام الفلكية فهى قسمان اما الافلاك واما الكواكب اما الافلاك فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض او تحته وقد يستدل باحوال حركاتها اما بسبب ان حركاتها مسبوقة بالعدم فلابد من محرك قادر واما بسبب كيفية حركاتها فى سرعتها وبطئها واما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات واما الاجرام الكوكبية فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها واحيازها وحركاتها وتارة بألوانها واضوائها وتارة بتأثيراتها فى حصول الاضواء والاظلال والظلمات والنور واما الدلائل المأخوذة من الاجرام العنصرية فاما ان تكون مأخوذة من بسائط وهى عجائب البر والبحر واما من المواليد وهى اقسام ( احدها ) الآثار العلوية كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثلج والهواء وقوس قزح ( وثانيها ) المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها ( وثالثها ) النبات وخاصية الخشب والورق والثمر واختصاص كل واحد منها بطبع خاص وطعم خاص وخاصية مخصوصة ( ورابعها ) اختلاف احوال الحيوانات فى اشكالها وطبائعها واصواتها وخلقتها ( وخامسها ) تشريح ابدان الناس وتشريح القوى الانسانية وبيان المنفعة الحاصلة فيها فهذه مجامع الدلائل ومن هذا الباب ايضا قصص الاولين وحكايات الاقدمين وان الملوك الذين استولوا على الارض وخربوا البلاد وقهروا العباد ماتوا ولم يبق منهم فى الدنيا خبر ولا اثر ثم بقى الوزر والعقاب عليهم هذا ضبط انواع هذه الدلائل والكتاب المحتوى على شرح هذه الدلائل هو شرح جملة العالم الاعلى والعالم الاسفل والعقل البشرى لايفى بالاحاطة به فلهذا السبب ذكره الله تعالى على سبيل الابهام قال صاحب الكشاف قرئ

( والارض )

والارض بالرفع على انه مبتدأ ويمرون عليها خبره وقرأ السدى والارض بالنصب على تقدير ان يفسر قوله يمرون عليها بقولنا يطوفونها وفى مصحف عبد الله والارض يمشون عليها برفع الارض اما قوله وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون فالمعنى انهم كانوا مقرين بوجود الاله بدليل قوله ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله الا انهم كانوا يثبتون له شريكا فى المعبودية وعن ابن عباس رضى الله عنهما هم الذين يشبهون الله بخلقه وعنه ايضا انه قال نزلت هذه الآية فى تلبية مشركى العرب لانهم كانوا يقولون لبيك لاشريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك وعنه ايضا ان اهل مكة قالوا الله ربنا وحده لاشريك له والملائكة بناته فلم يوحدوا بل اشركوا وقال عبدة الاصنام ربنا الله وحده والاصنام شفعاؤنا عنده وقالت اليهود ربنا الله وحده وعزير ابن الله وقالت النصارى ربنا الله وحده لاشريك له والمسيح ابن الله وقال عبدة الشمس والقمر ربنا الله وحده وهؤلاء اربابنا وقال المهاجرون والانصار ربنا الله وحده ولاشريك معه واحتجت الكرامية بهذه الآية على ان الايمان عبارة عن الاقرار باللسان فقط لانه تعالى حكم بكونهم مؤمنين مع انهم مشركون وذلك يدل على ان الايمان عبارة عن مجرد الاقرار باللسان وجوابه معلوم اما قوله افأمنوا ان تأتيهم غاشية من عذاب الله اى عقوبة تغشاهم وتنبسط عليهم وتغمرهم او تأتيهم الساعة بغتة اى فجأة وبغتة نصب على الحال يقال بغتهم الامر بغتا وبغتة اذا فاجأهم من حيث لم يتوقعوا وقوله وهم لايشعرون كالتأكيد لقوله بغتة ☼ قوله تعالى

(قل هذه سبيلى ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعنى وسبحان الله وما انا من المشركين)

قال المفسرون قل يا محمد لهم هذه الدعوة التى ادعو اليها والطريقة التى انا عليها سبيلى وسنتى ومنهاجى وسمى الدين سبيلا لانه الطريق الذى يؤدى الى الثواب ومثله قوله تعالى ادع الى سبيل ربك واعلم ان السبيل فى اصل اللغة الطريق وشبهوا المعتقدات بها لما ان الانسان يمر عليها الى الجنة ادعو الى الله على بصيرة وحجة وبرهان انا ومن اتبعنى الى سيرتى وطريقتى وسيرة اتباعى الدعوة الى الله لان كل من ذكر الحجة واجاب عن الشبهة فقد دعا بمقدار وسعه الى الله وهذا يدل على ان الدعاء الى الله تعالى انما يحسن ويجوز مع هذا الشرط وهو ان يكون على بصيرة مما يقول وعلى هدى ويقين فان لم يكن كذلك فهو محض الغرور وقال عليه الصلاة والسلام العلماء أمناء الرسل على عباد الله من حيث يحفظون لما يدعونهم اليه وقيل ايضا يجوز ان ينقطع الكلام عند قوله ادعو الى الله ثم ابتدأ وقال على بصيرة انا ومن اتبعنى وقوله وسبحان الله عطف على قوله هذه سبيلى اى قل هذه سبيلى وقل سبحان الله تنزيها لله عما يشركون وما انا من المشركين الذين اتخذوا مع الله ضدا وندا وكفؤا وولدا وهذه الآية تدل على ان حرفة الكلام وعلم الاصول حرفة الانبياء عليه السلام وان الله ما بعثهم الى الخلق الا لاجلها ☼ قوله تعالى (وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحى

اليهم من اهل القرى افلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار

تغشاهم وتشملهم (اوتأتيهم الساعة بغتة) فجأة من غير سابقة علامة (وهم لايشعرون) باتيانها غير مستعدين لها (قل هذه سبيلى) وهى الدعوة الى التوحيد والايمان بالاخلاص وفسرها بقوله (أدعو الى الله على بصيرة) بيان وحجة واضحة غير عمياء او هى حال من الضمير فى سبيلى والعامل فيها معنى الاشارة (أنا) تأكيد للمستكن فى ادعو او على بصيرة لانه حال منه او مبتدأ خبره على بصيرة (ومن اتبعنى) عطف عليه (وسبحان الله وما انا من المشركين) مؤكد لما سبق من الدعوة الى الله (وما ارسلنا من قبلك الا رجالا) رد لقولهم لو شاء الله لانزل ملائكة (نوحى اليهم) كما اوحينا اليك وقرئ بالياء (من اهل القرى) لانهم اعلم واحلم واهل البوادى فيهم الجهل والجفاء والقسوة (افلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من المكذبين بالرسل والآيات فيحذروا تكذيبك (ولدار الآخرة) اى الساعة او الحياة الآخرة (خير للذين اتقوا) الشرك والمعاصى (افلاتعقلون) فتستعملوا عقولكم لتعرفوا خيرية دار الآخرة وقرئ بالياء على انه غير داخل تحت قل (حتى اذا استيأس الرسل) غاية لمحذوف دل عليه السياق اى لايغرنهم تماديهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء فان من قبلهم قد امهلوا حتى ايس الرسل عن النصر عليهم فى الدنيا او عن ايمانهم لانهماكهم فى الكفر وتماديهم فى الطغيان

الآخرة خير للذين اتقوا افلا تعقلون) اعلم انه قرأ حفص عن عاصم نوحي بالنون والباقون بالياء افلا يعقلون قرأ نافع وابن كثير وابو عمرو ورواية حفص عن عاصم تعقلون بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغائب واعلم ان من جملة شبه منكري نبوته عليه الصلاة والسلام ان الله لو اراد ارسال رسول لبعث ملكا فقال تعالى وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم من اهل القرى فلما كان الكل هكذا فكيف تعجبوا في حقك يا محمد والآية تدل على ان الله ما بعث رسولا الى الخلق من النسوان وايضا لم يبعث رسولا من اهل البادية قال عليه الصلاة والسلام من بدا جفا ومن اتبع الصيد غفل ثم قال افلم يسيروا في الارض فينظروا الى مصارع الامم المكذبة وقوله ولدار الآخرة خير والمعنى دار الحالة الآخرة لان للناس حالتين حال الدنيا وحال الآخرة ومثله قوله صلاة الاولى اى صلاة الفريضة الاولى واما بيان ان الآخرة خير من الاولى فقد ذكرناد لائله مرارا

❋ قوله تعالى (حتى اذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) اعلم انه قرأ عاصم وحمزة والكسائي كذبوا بالتخفيف وكسر الذال والباقون بالتشديد ومعنى التخفيف من وجهين (احدهما) ان الظن واقع بالقوم اى حتى اذا استيأس الرسل من ايمان القوم فظن القوم ان الرسل كذبوا فيما وعدوا من النصر والظفر فان قيل لم يجر فيما سبق ذكر المرسل اليهم فكيف يحسن عود هذا الضمير اليهم قلنا ذكر الرسل يدل على المرسل اليهم وان شئت قلت ان ذكرهم جرى في قوله افلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم فيكون الضمير عائدا الى الذين من قبلهم من مكذبي الرسل والظن ههنا بمعنى التوهم والحسبان (والوجه الثاني) ان يكون المعنى ان الرسل ظنوا انهم قد كذبوا فيما وعدوا وهذا التأويل منقول عن ابن ابي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما قالوا وانما كان الامر كذلك لاجل ضعف البشرية الا انه بعيد لان المؤمن لا يجوز ان يظن بالله الكذب بل يخرج بذلك عن الايمان فكيف يجوز مثله على الرسل واما قراءة التشديد ففيها وجهان (الاول) ان الظن بمعنى اليقين اى وايقنوا ان الامم كذبوهم تكذيبا لا يصدر منهم الايمان بعد ذلك فحينئذ دعوا عليهم فهنالك انزل الله سبحانه عليهم عذاب الاستئصال وورود الظن بمعنى العلم كثير في القرآن قال تعالى الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم اى يتيقنون ذلك (والثاني) ان يكون الظن بمعنى الحسبان والتقدير حتى اذا استيأس الرسل من ايمان قومهم فظن الرسل ان الذين آمنوا بهم كذبوهم وهذا التأويل منقول عن عائشة رضي الله عنها وهو احسن الوجوه المذكورة في الآية روى ان ابن ابي مليكة نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال وظن الرسل انهم كذبوا لانهم كانوا بشرا الا ترى الى قوله حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله قال فذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها فانكرته وقالت ما وعد الله محمدا صلى الله عليه وسلم شيأ الا وقد علم انه سيوفيه ولكن البلاء لم يزل بالانبياء حتى خافوا

(من)

من غير وازع (وظنوا انهم قد كذبوا) كذبتهم انفسهم حين حدثتهم بانهم ينصرون عليهم اوكذبهم رجاؤهم فانه يوصف بالصدق والكذب والمعنى ان مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله تعالى قد تطاولت وتمادت حتى استشعروا القنوط وتوهموا ان لا نصر لهم في الدنيا (جاءهم نصرنا) فجأة وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وظنوا انهم قد اخلفوا ما وعدهم الله من النصر فان صح ذلك عنه فلعله اراد بالظن ما يخطر بالبال من شبه الوسوسة وحديث النفس وانما عبر عنه بالظن تهويلا للخطب واما الظن الذي هو ترجح احد الجانبين على الآخر فلا يتصور ذلك من آحاد الامة فما ظنك بالانبياء عليهم الصلاة والسلام وهم هم ومنزلتهم في معرفة شؤن الله سبحانه منزلتهم وقيل الضميران للمرسل اليهم وقيل الاول لهم والثاني للرسل وقرئ بالتشديد اى ظن الرسل ان القوم كذبوهم فيما وعدوهم وقرئ بالتخفيف على بناء الفاعل على ان الضميرين للرسل اى ظنوا انهم كذبوا عند قومهم فيما حدثوا به لما تراخى عنهم ولم يروا له اثرا او على ان الاول لقومهم (فنجي من نشاء) هم الرسل والمؤمنون بهم وقرئ فننجي على لفظ المستقبل بالتخفيف والتشديد وقرئ فنجا (ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) اذا انزل بهم وفيه بيان لمن تعلق بهم المشيئة (لقد كان في قصصهم) اى قصص

من ان يكذبهم الذين كانوا قد آمنوا بهم وهذا الرد والتأويل في غاية الحسن من عائشة
واما قوله جاءهم نصرنا اى لما بلغ الحال الى الحد المذكور جاءهم نصرنا فنجى من نشاء قرأ
عاصم وابن عامر فنجى من نشاء بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء على مالم يسم فاعله
واختاره ابو عبيدة لانه في المصحف بنون واحدة وروى عن الكسائي ادغام احدى
النونين في الاخرى وقرأ بنون واحدة وتشديد الجيم وسكون الياء قال بعضهم هذا خطأ
لان النون متحركة فلاتدغم في الساكن ولايجوز ادغام النون في الجيم والباقون بنونين
وتخفيف الجيم وسكون الياء على الاستقبال على معنى ونحن نفعل بهم ذلك واعلم ان هذا
حكاية حال الاترى ان القصة فيما مضى وانما حكى فعل الحال كما ان قوله هذا من شيعته
وهذا من عدوه اشارة الى الحاضر والقصة ماضية * قوله تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة
لاولى الالباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى
ورحمة لقوم يؤمنون) اعلم ان الاعتبار عبارة عن العبور من الطرف المعلوم الى الطرف
المجهول والمراد منه التأمل والتفكر ووجه الاعتبار بقصصهم امور (الاول) ان الذى
قدر على اعزاز يوسف بعد القائه في الجب واعلائه بعد حبسه في السجن وتمليكه مصر بعد
ان كانوا يظنون به انه عبد لهم وجمعه مع والديه واخوته على ما أحب بعد المدة الطويلة
لقادر على اعزاز محمد صلى الله عليه وسلم واعلاء كلمته (الثانى) ان الاخبار عنه جار مجرى
الاخبار عن الغيب فيكون معجزة دالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم (الثالث) انه
ذكر في اول السورة نحن نقص عليك احسن القصص ثم ذكر في آخرها لقد كان في قصصهم
عبرة لاولى الالباب تنبيها على ان حسن هذه القصة انما كان بسبب انه يحصل منها العبرة
ومعرفة الحكمة والقدرة والمراد من قصصهم قصة يوسف عليه السلام واخوته وأبيه
ومن الناس من قال المراد قصص الرسل لانه تقدم في القرآن ذكر قصص سائر الرسل الا ان
الاولى ان يكون المراد قصة يوسف عليه السلام فان قيل لم قال عبرة لاولى الالباب مع ان
قوم محمد صلى الله عليه وسلم كانوا ذوى عقول واحلام وقد كان الكثير منهم لم يعتبر بذلك
قلنا ان جميعهم كانوا متمكنين من الاعتبار والمراد من وصف هذه القصة بكونها عبرة
كونها بحيث يمكن ان يعتبر بها العاقل او نقول المراد من أولى الالباب الذين اعتبروا
وتفكروا وتأملوا فيها وانتفعوا بمعرفتها لان أولى الالباب لفظ يدل على المدح والثناء فلا
يليق الا بما ذكرناه واعلم انه تعالى وصف هذه القصة بصفات (الصفة الاولى) كونها
عبرة لاولى الالباب وقد سبق تقريره (الصفة الثانية) قوله ما كان حديثا يفترى وفيه قولان
(الاول) ان المراد الذى جاء به وهو محمد صلى الله عليه وسلم لايصح منه ان يفترى لانه لم يقرأ
الكتب ولم يتلمذ لاحد ولم يخالط العلماء فمن المحال ان يفترى هذه القصة بحيث تكون مطابقة
لما ورد في التوراة من غير تفاوت (والثانى) ان المراد انه ليس بكذب في نفسه لانه لايصح
الكذب منه ثم انه تعالى أكد كونه غير مفترى فقال ولكن تصديق الذى بين يديه وهو

الانبياء وأممهم وبنصره قراءة من
قرأ بكسر القاف او قصص يوسف
واخوته (عبرة لاولى الالباب)
لذوى العقول المبرأة عن شوائب
احكام الحس (ما كان) اى
القرآن المدلول عليه بما سبق
دلالة واضحة (حديثا يفترى
ولكن) كان (تصديق الذى بين
يديه) من الكتب السماوية
وقرئ بالرفع على انه خبر مبتدأ
محذوف اى ولكن هو تصديق
الذى بين يديه (وتفصيل كل شئ)
مما يحتاج اليه في الدين اذ ما من
امر دينى الا وهو يستند الى
القرآن بالذات او بوسط
(وهدى) من الضلالة (ورحمة)
ينال بها خير الدارين (لقوم
يؤمنون) اى يصدقونه لانهم
المنتفعون به واما من عداهم فلا
يهتدون بهداه ولا ينتفعون
بجدواه * عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم علموا أرقاءكم سورة
يوسف فانه أيما مسلم تلاها وعلمها
اهله وما ملكت يمينه هون الله
عليه سكرات الموت واعطاه القوة
ان لايحسد مسلما

اشارة الى ان هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما فى التوراة وسائر الكتب الالهية و نصب تصديقا على تقدير و لكن كان تصديق الذى بين يديه كقوله تعالى ما كان محمدا ابا احد من رجالكم و لكن رسول الله قاله الفراء و الزجاج ثم قال ويجوز رفعه فى قياس النحو على معنى ولكن هو تصديق الذى بين يديه ( الصفة الثالثة ) قوله و تفصيل كل شئ وفيه قولان (الاول) المراد و تفصيل كل شئ من واقعة يوسف عليه السلام مع أبيه و اخوته (و الثانى) انه عائد الى كل القرآن كقوله ما فرطنا فى الكتاب من شئ فان جعل هذا الوصف وصفا لكل القرآن أليق من جعله وصفا لقصة يوسف وحدها ويكون المراد ما يتضمن من الحلال و الحرام و سائر ما يتصل بالدين قال الواحدى على التفسيرين جميعا فهو من العام الذى اريد به الخاص كقوله ورحمتى وسعت كل شئ يريد كل شئ يجوز ان يدخل فيها وقوله و أوتيت من كل شئ (الصفة الرابعة و الخامسة) كونها هدى فى الدنيا و سببا لحصول الرحمة فى القيامة لقوم يؤمنون خصهم بالذكر لانهم هم الذين انتفعوا به كما قررناه فى قوله هدى للمتقين و الله اعلم بالصواب و اليه المرجع و المآب * قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى يوم الاربعاء السابع من شعبان ختم بالخير و الرضوان سنة احدى و ستمائة و قد كنت ضيق الصدر جدا بسبب وفاة الولد الصالح محمد تغمده الله بالرحمة و الغفران و خصه بدرجات الفضل و الاحسان و ذكرت هذه الابيات فى مرثيته على سبيل الايجاز

فلو كانت الاقدار منقادة لنا * فديناك من حماك بالروح و الجسم
و لو كانت الاملاك تأخذ رشوة * خضعنا لها بالرق فى الحكم و الاسم
و لكنه حكم اذا حان حينه * سرى من مقر العرش فى لجة اليم
سأبكى عليك العمر بالدم دائما * و لم انحرف عن ذاك فى الكيف و الكم
سلام على قبر دفنت بتربه * و أتحفك الرحمن بالكرم الجم
و ما صدنى عن جعل جفنى مدفنا * لجسمك الا انه أبدا يهمى
و اقسم ان مسوا رفاتى ورمتى * احسوا بنار الحزن فى مكمن العظم
حياتى و موتى واحد بعد بعدكم * بل الموت أولى من مداومة الغم
رضيت بما امضى الاله بحكمه * لعلى بأنى لا يجاوزنى حكمى

و انا أوصى من طالع كتابى و استفاد ما فيه من الفوائد النفيسة العالية ان يخص ولدى و يخصنى بقراءة الفاتحة و يدعو لمن قد مات فى غربة بعيدا عن الاخوان و الاب و الام بالرحمة و المغفرة فانى كنت ايضا كثير الدعاء لمن فعل ذلك فى حقى و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم تسليما كثيرا آمين و الحمد لله رب العالمين

* (سورة الرعد اربعون و ثلاث آيات مكية) *

سوى قوله تعالى و لا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة و قوله و من عنده علم

( الكتاب )

---

( سورة الرعد مدنية وقيل مكية الا قوله ويقول الذين كفروا الآية وآيها خمس واربعون )

*( بسم الله الرحمن الرحيم )*

(المر) اسم للسورة ومحله اما الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف اى هذه السورة مسماة بهذا الاسم وهو اظهر من الرفع على الابتداء اذ لم يسبق العلم بالتسمية كما مر مرارا وقوله تعالى (تلك) على الوجه الاول مبتدأ مستقل وعلى الوجه الثانى مبتدأ ثان او بدل من الاول اشير به اليه ايذانا بفخامته واما النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اقرأ او اذكر فتلك مبتدأ كما اذا جعل المر مسرودا على نمط التعديد او بمعنى انا الله اعلم وارى على ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما والخبر على التقادير قوله تعالى ( آيات الكتاب ) اى الكتاب العجيب الكامل الغنى عن الوصف به المعروف بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به فهو عبارة عن جميع القرآن او عن الجميع المنزل حينئذ حسبما مر فى مطلع سورة يونس اذ هو المتبادر من مطلق الكتاب المستغنى عن النعت وبه يظهر ما أريد من وصف الآيات بوصف ما اضيفت اليه من نعوت الكمال بخلاف ما اذا جعل عبارة عن السورة فانها ليست بتلك المثابة من الشهرة فى الاتصاف بذلك المغنية عن التصريح بالوصف على انها عبارة عن جميع آياتها فلا بد من جعل تلك اشارة الى كل واحدة منها وفيه ما لا يخفى من التعسف الذى مر تفصيله فى سورة يونس

(والذى

الكتاب قال الاصم هي مدنية بالاجماع سوى قوله تعالى ولو ان قرآنا سيرت به الجبال ❊( بسم الله الرحمن الرحيم* المر تلك آيات الكتاب والذى انزل اليك من ربك الحق ولكن اكثر الناس لا يؤمنون ) اعلم انا قد تكلمنا فى هذه الالفاظ قال ابن عباس رضى الله عنهما معناه انا الله اعلم وقال فى رواية عطاء انا الله الملك الرحمن وقد امالها ابو عمرو والكسائى وغيرهما وفخمها جماعة منهم عاصم وقوله تلك اشارة الى آيات السورة المسماة بالمر ثم قال انها آيات الكتاب وهذا الكتاب الذى أعطاه محمدا بأن ينزله عليه ويجعله باقيا على وجه الدهر وقوله والذى انزل اليك من ربك مبتدأ وقوله الحق خبره ومن الناس من تمسك بهذه الآية فى نفى القياس فقال الحكم المستنبط بالقياس غير نازل من عند الله والا لكان من لم يحكم به كافرا لقوله تعالى ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون وبالاجماع لا يكفر فثبت ان الحكم المثبت بالقياس غير نازل من عند الله واذا كان كذلك وجب ان لا يكون حقا لاجل ان قوله والذى انزل اليك من ربك الحق يقتضى انه لا حق الا ما انزله الله فكل ما لم ينزله الله وجب ان لا يكون حقا واذا لم يكن حقا وجب ان يكون باطلا لقوله تعالى فماذا بعد الحق الا الضلال ومثبتو القياس يجيبون عنه بأن الحكم المثبت بالقياس نازل ايضا من عند الله لانه لما امر بالعمل بالقياس كان الحكم الذى دل عليه القياس نازلا من عند الله ولما ذكر تعالى ان المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق بين ان اكثر الناس لا يؤمنون به على سبيل الزجر والتهديد ❊ قوله تعالى ( الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ) اعلم انه تعالى لما ذكر ان اكثر الناس لا يؤمنون ذكر عقيبه ما يدل على صحة التوحيد والمعاد وهو هذه الآية وفيه مسائل ( المسئلة الاولى ) قال صاحب الكشاف الله مبتدأ والذى رفع السموات خبره بدليل قوله وهو الذى مد الارض ويجوز ان يكون الذى رفع السموات صفة وقوله يدبر الامر يفصل الآيات خبرا بعد خبر وقال الواحدى العمد الاساطين وهو جمع عماد يقال عماد وعمد مثل اهاب وأهب وقال الفراء العمد والعمد جمع العمود مثل أديم وادم وادم وقضيم وقضم وقضم والعماد والعمود ما يعمد به الشيء ومنه يقال فلان عمد قومه اذا كانوا يعتمدونه فيما بينهم ( المسئلة الثانية ) اعلم انه تعالى استدل بأحوال السموات وبأحوال الشمس والقمر وبأحوال الارض وبأحوال النبات * اما الاستدلال بأحوال السموات بغير عمد ترونها فالمعنى ان هذه الاجسام العظيمة بقيت واقفة فى الجو العالى ويستحيل ان يكون بقاؤها هنالك لاعيانها ولذواتها لوجهين * الاول ان الاجسام متساوية فى تمام الماهية ولو وجب حصول جسم فى حيز معين لوجب حصول كل جسم فى ذلك الحيز * والثانى ان الخلاء لا نهاية له والاحياز المعترضة فى ذلك الخلاء الصرف غير متناهية وهى بأسرها متساوية ولو وجب حصول جسم فى حيز معين لوجب حصوله فى

---

أنزل اليك من ربك) اى الكتاب المذكور بكماله لا هذه السورة وحدها ( الحق ) الثابت المطابق للواقع فى كل ما نطق به الحقيق بأن يخص به الحقية لعراقته فيها وليس فيه ما يدل على ان ما عداه ليس بحق أصلا على ان حقيته مستتبعة لحقية سائر الكتب السماوية لكونه مصدقا لما بين يديه ومهيمنا عليه وفى التعبير عنه بالموصول واسناد الانزال اليه بصيغة المبنى للمفعول والتعرض لوصف الربوبية مضافا الى ضميره عليه السلام من الدلالة على فخامة المنزل التابعة لجلالة شأن المنزل وتشريف المنزل اليه والايماء الى وجه بناء الخبر ما لا يخفى (ولكن اكثر الناس لا يؤمنون) بذلك الحق المبين لاخلالهم بالنظر والتأمل فيه فعدم ايمانهم متعلق بعنوان حقيته لانه المرجع للتصديق والتكذيب لا بعنوان كونه منزلا كما قيل ولانه وارد على طريقة الوصف دون الاخبار ( الله الذى رفع السموات ) اى خلقهن مرتفعات على طريقة قولهم سبحان من كبر الفيل وصغر البعوض لانه رفعها بعد ان لم تكن كذلك والجملة مبتدأ وخبر كقوله وهو الذى مد الارض (بغير عمد ) اى بغير دعائم جمع عماد كاهاب واهب وهو ما يعمد به اى يسند يقال عمدت الحائط اى ادعمته وقرئ عمد على جمع عمود بمعنى عماد كرسل ورسول وايراد صيغة الجمع لجمع السموات لا لان المنفى عن كل واحدة منها عمد لا عماد ( ترونها ) استئناف استشهد به على ما ذكر من رفع

جميع الاحياز ضرورة ان الاحياز بأسرها متشابهة فثبت ان حصول الاجرام الفلكية في احيازها وجهاتها ليس امرا واجبا لذاته بل لابد من مخصص ومرجح ولا يجوز ان يقال انها بقيت بسلسلة فوقها ولا عمد تحتها والا لعاد الكلام في ذلك الحافظ ولزم المرور الى ما لا نهاية له وهو محال فثبت ان بقاء الاجرام الفلكية في احيازها العالية لاجل ان مدبر العالم تعالى وتقدس اوقفها هنالك فهذا برهان قاهر على وجود الاله القاهر القادر ويدل ايضا على ان الاله ليس بجسم ولا مختص بحيز لانه لو كان حاصلا في حيز معين لامتنع ان يكون حصوله في ذلك الحيز لذاته ولعينه لما بينا ان الاحياز بأسرها متساوية فيمتنع ان يكون حصوله في حيز معين لذاته فلا بد وأن يكون بتخصيص مخصص وكل ما حصل بالفاعل المختار فهو محدث فاختصاصه بالحيز المعين محدث وذاته لا تنفك عن ذلك الاختصاص وما لا يخلو عن الحادث فهو حادث فثبت انه لو كان حاصلا في الحيز المعين لكان حادثا وذلك محال فثبت انه تعالى متعال عن الحيز والجهة وايضا كل ما سماك فهو سماء فلو كان تعالى موجودا في جهة فوق جهة لكان من جملة السموات فدخل تحت قوله الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها فكل ما كان مختصا بجهة فوق جهة فهو محتاج الى حفظ الاله بحكم هذه الآية فوجب أن يكون الاله منزها عن جهة فوق اما قوله ترونها ففيه أقوال (الاول) انه كلام مستأنف والمعنى رفع السموات بغير عمد ثم قال ترونها أي وأنتم ترونها اي مرفوعة بلا عماد (الثاني) قال الحسن في تقرير الاية تقديم وتأخير تقديره رفع السموات ترونها بغير عمد واعلم انه اذا أمكن حمل الكلام على ظاهره كان المصير الى التقديم والتأخير غير جائز (الثالث) ان قوله ترونها صفة للعمد والمعنى بغير عمد مرئية أي للسموات عمد ولكننا لا نراها قالوا ولها عمد على جبل قاف وهو جبل من زبرجد محيط بالدنيا ولكنكم لا ترونها وهذا التأويل في غاية السقوط لانه تعالى انما ذكر هذا الكلام ليكون حجة على وجود الاله القادر ولو كان المراد ما ذكروه لما ثبتت الحجة لانه يقال ان السموات لما كانت مستقرة على جبل قاف فأي دلالة لثبوتها على وجود الاله وعندي فيه وجه آخر أحسن من الكل وهو ان العماد ما يعتمد عليه وقد دللنا على ان هذه الاجسام انما بقيت واقفة في الجو العالي بقدرة الله تعالى وحينئذ يكون عمدها هو قدرة الله تعالى فنتج ان يقال انه رفع السماء بغير عمد ترونها اي لها عمد في الحقيقة الا ان تلك العمد هي قدرة الله تعالى وحفظه وتدبيره وابقاؤه اياها في الجو العالي وانهم لا يرون ذلك التدبير ولا يعرفون كيفية ذلك الامساك * واما قوله ثم استوى على العرش فاعلم انه ليس المراد منه كونه مستقرا على العرش لان المقصود من هذه الآية ذكر ما يدل على وجود الصانع ويجب ان يكون ذلك الشيء مشاهدا معلوما وان احدا ما رأى انه تعالى استقر على العرش فكيف يمكن الاستدلال به عليه وايضا بتقدير ان يشاهد كونه مستقرا على العرش الا ان ذلك لا يشعر بكمال حاله وغاية جلاله بل يدل على احتياجه الى المكان والحيز وأيضا فهذا

(يدل)

السموات بغير عمد وقيل صفة لعمد جيء بها ايهاما لان لها عمدا غير مرئية هي قدرة الله تعالى (ثم استوى) اى استولى (على العرش) بالحفظ والتدبير اواستوى امره وعن اصحابنا ان الاستواء على العرش صفة لله عز وجل بلا كيف وايا ما كان فليس المراد به القصد الى ايجاد العرش وخلقه فلا حاجة الى جعل كلمة ثم للتراخي في الرتبة (وسخر الشمس والقمر) ذللهما وجعلهما طائعين لما اريد منهما من الحركات وغيرها (كل) من الشمس والقمر (يجري) حسبما اريد منهما (لأجل مسمى) لمدة معينة فيها تتم دورته كالسنة للشمس والشهر للقمر فان كلا منهما يجري كل يوم على مدار معين من المدارات اليومية او لمدة ينتهي فيها حركاتهما ويخرج جميع ما اريد منهما من القوة الى الفعل اولغاية يتم عندها ذلك والجملة بيان لحكم تسخيرهما (يدبر) بما صنع من الرفع والاستواء والتسخير اى يقضى ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة (الامر) امر الخلق كله وأمر ملكوته وربوبيته (يفصل الآيات) الدالة على كمال قدرته وبالغ حكمته اى يأتي بها مفصلة وهي ما ذكر من الافعال العجيبة وما يتلوها من الاوضاع الفلكية الحادثة شيئا فشيئا المستتبعة للآثار الغريبة في السفليات على موجب التدبير والتقدير فالجملتان اما حالان من ضمير استوى وقوله وسخر الشمس والقمر من تتمة الاستواء واما مفسرتان له اوالاولى حال منه والثانية من الضمير اوكلاهما من ضمائر

يدل على انه ما كان بهذه الحالة ثم صار بهذه الحالة وذلك يوجب التغير وايضا الاستواء ضد الاعوجاج فظاهر الآية يدل على انه كان معوجا مضطربا ثم صار مستويا وكل ذلك على الله محال فثبت ان المراد استواؤه على عالم الاجسام بالقهر والقدرة والتدبير والحفظ يعني انه من فوق العرش الى ماتحت الثرى في حفظه وفي تدبيره وفي الاحتياج اليه * واما الاستدلال بأحوال الشمس والقمر فهو قوله سبحانه وتعالى وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى * واعلم ان هذا الكلام اشتمل على نوعين من الدلالة (الاول) قوله وسخر الشمس والقمر وحاصله يرجع الى الاستدلال على وجود الصانع القادر القاهر بحركات هذه الاجرام وذلك لان الاجسام متماثلة فهذه الاجرام قابلة للحركة والسكون فاختصاصها بالحركة الدائمة دون السكون لابد له من مخصص وايضا ان كل واحدة من تلك الحركات مختصة بكيفية معينة من البطء والسرعة فلابد ايضا من مخصص لاسيما عند من يقول الحركة البطيئة معناها حركات مخلوطة بسكنات وهذا يوجب الاعتراف بأنها تتحرك في بعض الاحياز وتسكن في البعض فحصول الحركة في ذلك الحيز المعين والسكون في الحيز الآخر لابد فيه ايضا من مرجح (الوجه الثالث) وهو ان تقدير تلك الحركات والسكنات بمقادير مخصوصة على وجه تحصل عوداتها وادوارها متساوية بحسب المدة حالة عجيبة فلابد من مقدر (الوجه الرابع) ان بعض تلك الحركات مشرقية وبعضها مغربية وبعضها مائلة الى الشمال وبعضها مائلة الى الجنوب وهذا ايضا لايتم الا بتدبير كامل وحكمة بالغة * النوع الثاني من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله كل يجرى لاجل مسمى وفيه قولان (الاول) قال ابن عباس للشمس مائة وثمانون منزلا كل يوم لها منزل وذلك يتم في ستة اشهر ثم انها تعود مرة اخرى الى واحد منها في ستة اشهر اخرى وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلا فالمراد بقوله كل يجرى لاجل مسمى هذا * وتحقيقه انه تعالى قدر لكل واحد من هذه الكواكب سيرا خاصا الى جهة خاصة بمقدار خاص من السرعة والبطء ومتى كان الامر كذلك لزم ان يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حالة اخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك (القول الثاني) ان المراد كونهما متحركين الى يوم القيامة وعند مجيء ذلك اليوم تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك السيرات كما وصف الله تعالى ذلك في قوله اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت واذا السماء انشقت واذا السماء انفطرت وجمع الشمس والقمر وهو كقوله سبحانه وتعالى ثم قضى اجلا واجل مسمى عنده ثم انه تعالى لما ذكر هذه الدلائل قال يدبر الامر وكل واحد من المفسرين حمل هذا على تدبير نوع آخر من احوال العالم والاولى حمله على الكل فهو يدبرهم بالايجاد والاعدام وبالاحياء والاماتة والاغناء والافقار ويدخل فيه انزال الوحي وبعثة الرسل وتكاليف العباد وفيه دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة وذلك لان هذا العالم المعلوم من اعلى العرش الى ماتحت الثرى انواع واجناس لايحيط بها الا الله تعالى والدليل المذكور دل على ان اختصاص كل واحد منها

الافعال المذكورة وقوله كل يجرى لاجل مسمى من تتمة التسخير او خبران عن قوله الله خبر بعد خبر والموصول صفة للمبتدأ جئ به للدلالة على تحقيق الخبر وتعظيم شأنه كما في قول الفرزدق ان الذي سمك السماء بنى لنا

بيتا دعائمه أعز واطول

(لعلكم) عند معاينتكم لها او عثوركم على تفاصيلها (بلقاء ربكم) بملاقاته للجزاء (توقنون) فان من تدبرها حق التدبر ايقن ان من قدر على ابداع هذه الصنائع البديعة على كل شئ قدير وان لهذه التدبيرات المتينة عواقب وغايات لابد من وصولها وقد بينت على ألسنة الانبياء عليهم السلام ان ذلك ابتلاء المكلفين ثم جزاؤهم حسب اعمالهم فاذن لابد من الايقان بالجزاء ولما قرر الشواهد العلوية اردفها بذكر الدلائل السفلية فقال (وهو الذي مد الارض) اى بسطها طولا وعرضا قال الاصم المد هو البسط الى مالا يدرك منتهاه ففيه دلالة على بعد مداها وسعة اقطارها (وجعل فيها رواسى) اى جبالا ثوابت في احيازها من الرسو وهو ثبات الاجسام الثقيلة ولم يذكر الموصوف لاغناء غلبة الوصف بها عن ذلك وانحصار مجئ فواعل جمعا لفاعل في فوارس وهوالك ونواكس انما هو في صفات العقلاء واما في غيرهم فلا يراعى ذلك اصلا كما في قوله تعالى اياما معدودات وقوله الحج اشهر معلومات الى غير ذلك فلا حاجة الى ان يجعل مفردها صفة لجمع القلة اعنى اجبالا ويعتبر في جمع

بوضعه وموضعه وصفته وطبعته وحليته ليس الامن الله تعـالى ومن المعلوم ان كل من اشتغل بتدبير شئ فانه لا يمكنه تدبير شئ آخر الا البارى سبحانه وتعالى فانه لا يشغله شأن عن شأن اما العاقل فانه اذا تأمل فى هذه الآية علم انه تعالى يدبر عالم الاجسام وعالم الارواح ويدبر الكبير كما يدبر الصغير فلا يشغله شأن عن شأن ولا يمنعه تدبير عن تدبير وذلك يدل على انه تعالى فى ذاته وصفاته وعلمه وقدرته غير مشابه للمحدثات والممكنات ثم قال يفصل الآيات وفيه قولان (الاول) انه تعالى بين الآيات الدالة على الهيته وعلمه وحكمته (والثانى) ان الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمـان احدهمـا الموجودات الباقية الدائمة كالافلاك والشمس والقمر والكواكب وهذا النوع من الدلائل هو الذى تقدم ذكره والثانى الموجودات الحادثة المتغيرة وهى الموت بعد الحياة والفقر بعد الغنى والهرم بعد الصحة وكون الاحمق فى أهنأ العيش والعاقل الذكى فى اشد الاحوال فهذا النوع من الموجودات والاحوال دلالتها على وجود الصانع الحكيم ظاهرة باهرة * وقوله يفصل الآيات اشارة الى انه يحدث بعضها عقيب بعض على سبيل التمييز والتفصيل ثم قال لعلكم بلقاء ربكم توقنون واعلم ان الدلائل المذكورة كما تدل على وجود الصانع الحكيم فهى ايضا تدل على صحة القول بالحشر والنشر لان من قدر على خلق هذه الاشياء وتدبيرها على عظمتها وكثرتها فلأن يقدر على الحشر والنشر كان اولى يروى ان رجلا قال لعلى بن ابى طالب رضوان الله عليه انه تعالى كيف يحاسب الخلق دفعة واحدة فقال كما يرزقهم الآن دفعة واحدة وكما يسمع نداءهم ويجيب دعاءهم الآن دفعة واحدة وحاصل الكلام انه تعالى كما قدر على ابقاء الاجرام الفلكية والنيرات الكوكبية فى الجو العالى وان كان الخلق عاجزين عنه وكما يمكنه ان يدبر من فوق العرش الى ما تحت الثرى بحيث لا يشغله شأن عن شأن فكذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله شأن عن شأن ومن الاصحاب من تمسك بلفظ اللقاء على رؤية الله تعالى وقدمر تقريره فى هذا الكتاب مرارا واطوارا

❊ قوله تعالى (وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) اعلم انه تعالى لما قرر الدلائل السماوية اردفها بتقرير الدلائل الارضية فقال وهو الذى مد الارض واعلم ان الاستدلال بخلقه الارض واحوالها من وجوه (الاول) ان الشئ اذا تزايد حجمه ومقداره صار كأن ذلك الحجم وذلك المقدار يمتد فقوله وهو الذى مد الارض اشارة الى ان الله سبحانه هو الذى جعل الارض مختصة بذلك المقدار المعين الحاصل له لا ازيد ولا انقص والدليل عليه ان كون الارض ازيد مقدارا مما هو الآن وانقص منه امر جائز ممكن فى نفسه فاختصاصه بذلك المقدار المعين لا بد ان يكون بتخصيص وتقدير مقدر (الثانى) قال ابو بكر الاصم المد هو البسط الى ما لا يدرك منتهاه فقوله وهو الذى مد الارض يشعر بأنه تعالى جعل حجم الارض حجما عظيما لا يقع البصر على منتهاه لان الارض لو كانت



الكثرة اعنى جبالا انتظامهـا لطائفة من جموع القلة وتنزيل كل منها منزلة مفردها كما قيل على انه لا مجال لذلك فان جمعية كل من صيغتى الجمعين انمـا هى باعتبـار الافراد التى تحتهـا لا باعتبار انتظام جمع القلة للافراد وجمع الكثرة لجموع القلة فكل منهما جمع جبل لان جبالا جمع اجبل كما ان طوائف جمع طائفة ولا الى ان يلتجأ الى جعل الوصف المذكور بالغلبة فى عداد الاسماء التى تجمع على فواعل كما ظن على انه لا وجه له لما ان الغلبة انما هى فى الجمع دون المفرد والتعبير عن الحال بهذا العنوان لبيـان تفرع قرار الارض على ثباتها (وانهارا) مجارى واسعة والمراد ما يجرى فيها من المياه وفى نظمها مع الجبال فى معمولية فعل واحد اشارة الى ان الجبال منشأ للانهار وبيان لفائدة اخرى للجبـال غير كونها حافظة للارض عن الاضطراب المخل بثبات الاقدام وتقلب الحيوان متفرعـة على تمكنه وتقلبه وهى تعيشه بالماء والكلا (ومن كل الثمرات) متعلق بجعل فى قوله تعـالى (جعل فيهـا زوجين اثنين) اى اثنينية حقيقية وهما الفردان اللذان كل منهما زوج الآخر واكد به الزوجين لئلا يفهم ان المراد بذلك الشفعان اذ يطلق الزوج على المجموع ولكن اثنينية ذلك اثنينية اعتبارية اى جعل من كل نوع من انواع الثمرات الموجودة فى الدنيا ضربين وصنفين اما فى اللون كالابيض والاسود اوفى الطعم كالحلو والحـامض اوفى القدر كالصغير والكبير اوفى الكيفية

اصغر حجما مما هي الآن عليه لما كمل الانتفاع به (الثالث) قال قوم كانت الارض مدورة فدها ودحاها من مكة من تحت البيت فذهبت كذا وكذا وقال آخرون كانت مجتمعة عند البيت المقدس فقال لها اذهبي كذا وكذا اعلم ان هذا القول انما يتم اذا قلنا الارض مسطحة لا كرة واصحاب هذا القول احتجوا عليه بقوله والارض بعد ذلك دحاها وهذا القول مشكل من وجهين الاول انه ثبت بالدلائل ان الارض كرة فكيف يمكن المكابرة فيه فان قالوا وقوله مد الارض ينافي كونها كرة فكيف يمكن مدها قلنا لا نسلم ان الارض جسم عظيم والكرة اذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح والتفاوت الحاصل بينه وبين السطح لا يحصل الا في علم الله ألا ترى انه قال والجبال اوتادا فجعلها اوتادا مع ان العالم من الناس يستقرون عليها فكذلك ههنا والثاني ان هذه الآية انما ذكرت ليستدل بها على وجود الصانع والشرط فيه ان يكون ذلك امرا مشاهدا معلوما حتى يصح الاستدلال به على وجود الصانع وكونها مجتمعة تحت البيت امر غير مشاهد ولا محسوس فلا يمكن الاستدلال به على وجود الصانع فثبت ان التأويل الحق هو ماذكرناه والنوع الثاني من الدلائل الاستدلال باحوال الجبال واليه الاشارة بقوله وجعل فيها رواسي من فوقها ثابتة باقية في احيازها غير منتقلة عن اماكنها يقال رسا هذا الوتد وارسيته والمراد ماذكرنا* واعلم ان الاستدلال بوجود الجبال على وجود الصانع القادر الحكيم من وجوه (الاول) ان طبيعة الارض واحدة فحصول الجبل في بعض جوانبها دون البعض لابدوان يكون بتخليق القادر الحكيم قالت الفلاسفة هذه الجبال انما تولدت لان البحار كانت في هذا الجانب من العالم فكانت تتولد في البحر طينا لزجا ثم يقوى تأثير الشمس فيها فينقلب حجرا كما يشاهد في كوز الفقاع ثم ان الماء كان يغور ويقل فيتحجر البقية فلهذا السبب تولدت هذه الجبال قالوا وانما كانت البحار حاصلة في هذا الجانب من العالم لان اوج الشمس وحضيضها متحركان ففي الدهر الاقدم كان حضيض الشمس في جانب الشمال والشمس متى كانت في حضيضها كانت اقرب الى الارض فكان التسخين اقوى وشدة السخونة توجب انجذاب الرطوبات فحين كان الحضيض في جانب الشمال كانت البحار في جانب الشمال والآن لما انتقل الاوج الى جانب الشمال والحضيض الى جانب الجنوب انتقلت البحار الى جانب الجنوب فبقيت هذه الجبال في جانب الشمال هذا حاصل كلام القوم في هذا الباب وهو ضعيف من وجوه (الاول) ان حصول الطين في البحر امر عام ووقوع الشمس عليها امر عام فلم حصل هذا الجبل في بعض الجوانب دون البعض (والثاني) وهو انا نشاهد في بعض الجبال كأن تلك الاحجار موضوعة سافا فسافا فكأن البناء لبنات كثيرة موضوع بعضها على بعض وبعد حصول مثل هذا التركيب من السبب الذي ذكروه (والثالث) ان اوج الشمس الآن قريب من اول السرطان فعلى هذا من الوقت الذي انتقل اوج الشمس الى الجانب

كالحار والبارد وما اشبه ذلك ويجوز ان يتعلق بجعل الاول ويكون الثاني استئنافا لبيان كيفية ذلك الجعل (يغشي الليل النهار) استعارة تبعية تمثيلية مبنية على تشبيه ازالة نور الجو بالظلمة بتغطية الاشياء الظاهرة بالاغطية اى يستر النهار بالليل والتركيب وان احتمل العكس ايضا بالحمل على تقديم المفعول الثاني على الاول فان ضوء النهار ايضا ساتر لظلمة الليل الا ان الانسب بالليل ان يكون هو الغاشي وعد هذا في تضاعيف الآيات السفلية وان كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهرا باعتبار ان ظهوره في الارض فان الليل انما هو ظلها وفيما فوق موقع ظلها لا ليل اصلا ولان الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والانضاج على انهما ايضا زوجان متقابلان مثلها وقرئ يغشى من التغشية (ان في ذلك) اى فيما ذكر من مد الارض وايتادها بالرواسي واجراء الانهار وخلق الثمرات واغشاء الليل النهار وفي الاشارة بذلك تنبيه على عظم شأن المشار اليه في بابه (لآيات) باهرة وهي آثار تلك الافاعيل البديعة جلت حكمة صانعها ففي على معناها فان تلك الآثار مستقرة في تلك الافاعيل منوطة بها ويجوز ان يشار بذلك الى تلك الآثار المدلول عليها بتلك الافاعيل ففي تجريدية (لقوم يتفكرون) فان التفكر فيها يؤدي الى الحكم بأن تكوين كل من ذلك على هذا النمط الرائق والاسلوب اللائق لا بد له من مكون قادر حكيم يفعل مايشاء ويختار

الشمالى مضى قريب من تسعة آلاف سنة وبهذا التقدير ان الجبال فى هذه المدة الطويلة كانت فى التفتت فوجب ان لايبقى من الاحجار شئ لكن ليس الامر كذلك فعلمنا ان السبب الذى ذكروه ضعيف (الوجه الثانى) من الاستدلال باحوال الجبال على وجود الصانع ذى الجلال مايحصل فيهامن معادن الفلزات السبعة ومواضع الجواهر النفيسة وقد يحصل فيها معادن الزاجات والاملاح وقد يحصل فيها معادن النفط والقير والكبريت فكون الارض واحدة فى الطبيعة وكون الجبل واحدا فى الطبع وكون تأثير الشمس واحدا فى الكل يدل دليلا ظاهرا على ان الكل بتقدير قادر قاهر متعال عن مشابهة المحدثات والممكنات (الوجه الثالث) من الاستدلال باحوال الجبال ان بسببها تتولد الانهار على وجه الارض وذلك ان الحجر جسم صلب فاذا تصاعدت الابخرة من قعر الارض ووصلت الى الجبل احتبست هناك فلا تزال تتكامل فيحصل تحت الجبل مياه عظيمة ثم انها لكثرتها وقوتها تثقب وتخرج وتسيل على وجه الارض فنفعة الجبال فى تولد الانهار هو من هذا الوجه ولهذا السبب ففى اكثر الامر اينما ذكر الله الجبال قرن بها ذكر الانهار مثل ما فى هذه الآية ومثل قوله وجعلنا فيها رواسى شامخات واسقيناكم ماء فراتا (والنوع الثالث) من الدلائل المذكورة فى هذه الآية الاستدلال بعجائب خلقة النبات واليه الاشارة بقوله ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان الحبة اذا وضعت فى الارض واثرت فيها نداوة الارض ربت وكبرت وبسبب ذلك ينشق اعلاها واسفلها فيخرج من الشق الاعلى الشجرة الصاعدة فى الهواء ويخرج من الشق الاسفل العروق الغائصة فى اسفل الارض وهذا من العجائب لان طبيعة تلك الحبة واحدة وتأثير الطبائع والافلاك والكواكب فيها واحد ثم انه خرج من الجانب الاعلى من تلك الحبة جرم صاعد الى الهواء ومن الجانب الاسفل منه جرم غائص فى الارض ومن المحال ان يتولد من الطبيعة الواحدة طبيعتان متضادتان فعلمنا ان ذلك انما كانت بسبب تدبير المدبر الحكيم والمقدر القديم لا بسبب الطبع والخاصية ثم ان الشجرة النابتة من تلك الحبة بعضها يكون خشبا وبعضها يكون نورا وبعضها يكون ثمرة ثم ان تلك الثمرة ايضا يحصل فيها اجسام مختلفة الطبائع فالجوز له اربعة انواع من القشور فالقشر الاعلى وتحته القشرة الخشبة وتحته القشرة المحيطة باللبة وتحت تلك القشرة قشرة أخرى فى غاية الرقة تمتاز عما فوقها حال كون الجوز رطبا وايضا فقد يحصل فى الثمرة الواحدة الطباع المختلفة فالاترج قشره حار يابس ولحمه حار رطب وحماضه بارد يابس وبزره حار يابس ونوره حار يابس وكذلك العنب قشره وعجمه باردان يابسان ولحمه وماؤه حاران رطبان فتولد هذه الطبائع المختلفة من الحبة الواحدة مع تساوى تأثيرات الطبائع وتأثيرات الانجم والافلاك لابد وان يكون لاجل تدبير الحكيم القادر القديم (المسئلة الثانية) المراد بزوجين اثنين صنفين اثنين والاختلاف اما من حيث الطعم كالحلو

(والحامض)

مايريد لامعقب لحكمه وهو الحميد المجيد (وفى الارض قطع) جملة مستأنفة مشتملة على طائفة اخرى من الآيات اى بقاع كثيرة مختلفة فى الاوصاف فمن طيبة الى سبخة وكريمة الى زهيدة وصلبة الى رخوة الى غير ذلك (متجاورات) اى متلاصقات وفى بعض المصاحف قطعا متجاورات اى جعل فى الارض قطعا (وجنات من اعناب) اى بساتين كثيرة منها (وزرع) من كل نوع من انواع الحبوب وافراده لمراعاة اصله ولعل تقديم ذكر الجنات عليه مع كونه عمود المعاش لظهور حالها فى اختلافها ومباينتها لسائرها ورسوخ ذلك فيها وتأخير قوله تعالى (ونخيل) لئلا يقع بينها وبين صفتها وهى قوله تعالى (صنوان وغير صنوان) فاصلة والصنوان جمع صنو كقنوان وقنو وهى النخلة التى لها رأسان واصلها واحد وقرئ بضم الصاد على لغة بنى تميم وقيس وقرئ جنات بالنصب عطفا على زوجين وبالجر على كل الثمرات فلعل عدم نظم قوله تعالى وفى الارض قطع متجاورات فى هذا السلك مع ان اختصاص كل من تلك القطع بما لها من الاحوال والصفات بمحض جعل الخالق الحكيم جلت قدرته حين مد الارض ودحاها للايماء الى كون تلك الاحوال صفات راسخة لتلك القطع وقرئ وزرع ونخيل بالجر عطفا على اعناب او جنات (يسقى) اى ما ذكر من القطع والجنات والزرع والنخيل وقرئ بالتأنيث مراعاة للفظ والاول اوفق بمقام

والحامض اوالطبيعة كالحار والبارد اواللون كالابيض والاسود فان قيل الزوجان لابد وان يكونا اثنين فاالفائدة فى قوله زوجين اثنين قلناقيل انه تعالى اول ماخلق العالم وخلق فيه الاشجار خلق من كل نوع من الانواع اثنين فقط فلوقال خلق زوجين لم يعلم ان المراد النوع او الشخص اما لماقال اثنين علمنا ان الله تعالى اول ماخلق من كل زوجين اثنين لااقل ولاازيد والحاصل ان الناس فيهم الآن كثرة الاانهم لماابتدؤا من زوجين اثنين بالشخص هما آدم وحواء فكذلك القول فى جميع الاشجار والزرع والله اعلم * النوع الرابع من الدلائل المذكورة فى هذه الآية الاستدلال بأحوال الليل والنهار واليه الاشارة بقوله يغشى الليل النهار والمقصود ان الانعام لايكمل الا بالليل والنهار وتعاقبهما كما قال فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ومنه قوله يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا وقد سبق الاستقصاء فى تقريره فيما سلف من هذا الكتاب قرأ حمزة والكسائى وابوبكر عن عاصم يغشى بالتشديد وفتح الغين والباقون بالتخفيف ثم انه تعالى لماذكر هذه الدلائل النيرة والقواطع القاهرة قال ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون واعلم انه تعالى فى اكثر الامر حيث يذكر الدلائل الموجودة فى العالم السفلى يذكر عقبها ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون اومايقرب منه بحسب المعنى والسبب فيه ان الفلاسفة يسندون حوادث العالم السفلى الى الاختلافات الواقعة فى الاشكال الكوكبية فالم تقم الدلالة على دفع هذا السؤال لايتم المقصود فلهذا المعنى قال ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون كأنه تعالى يقول مجال الفكر باق بعد ولابد بعد هذا المقام من التفكر والتأمل ليتم الاستدلال * واعلم ان الجواب عن هذا السؤال من وجهين الاول ان نقول هب انكم اسندتم حوادث العالم السفلى الى الاحوال الفلكية والاتصالات الكوكبية الا انا اقمنا الدليل القاطع على ان اختصاص كل واحد من الاجرام الفلكية وطبعه ووضعه وخاصيته لابد ان يكون بتخصيص المقدر القديم والمدبر الحكيم فقد سقط هذا السؤال وهذا الجواب قد قرره الله تعالى فى هذا المقام لانه تعالى ابتدأ بذكر الدلائل السماوية وقد بينا انها كيف تدل على وجود الصانع ثم انه تعالى اتبعها بالدلائل الارضية فان قال قائل لم لايجوز ان تكون هذه الحوادث الارضية لاجل الاحوال الفلكية كان جوابنا ان نقول فهب ان الامر كذلك الا اناد للنا فيما تقدم على افتقار الاجرام الفلكية الى الصانع الحكيم فحينئذ لايكون هذا السؤال قادحا فى غرضنا والوجه الثانى من الجواب ان نقيم الدلالة على انه لايجوز ان يكون حدوث الحوادث السفلية لاجل الاتصالات الفلكية وذلك هو المذكور فى الآية التى تأتى بعد هذه الآية ومن تأمل فى هذه اللطائف ووقف عليها علم ان هذا الكتاب اشتمل على علوم الاولين والآخرين

❊ قوله تعالى (وفى الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ان فى ذلك لآيات لقوم

بيان اتحاد الكل فى حالة السقى (بماء واحد) لااختلاف فى طبعه سواء كان السقى بماء الامطار اوبماء الانهار (ونفضل) مع تأخذ اسباب التشابه بمحض قدرتنا واختيارنا (بعضها على بعض) آخر منها (فى الاكل) فيما يحصل منها من الثمر والطعم وقرئ بالياء على بناء الفاعل ردا على يدبر ويفصل ويغشى وعلى بناء المفعول وفيه مالايخفى من الفخامة والدلالة على ان عدم احتمال استناد الفعل الى فاعل آخر مغن عن بناء الفعل للفاعل (ان فى ذلك) الذى فصل من احوال القطع والجنات (لآيات) كثيرة عظيمة ظاهرة (لقوم يعقلون) يعملون على قضية عقولهم فان من عقل هذه الاحوال العجيبة لايتلعثم فى الجزم بأن من قدر على ابداع هذه البدائع وخلق تلك الثمار المختلفة فى الاشكال والالوان والطعوم والروائح فى تلك القطع المتباينة المتجاورة وجعلها حدائق ذات بهجة قادر على اعادة ما ابداه بل هى اهون فى القياس وهذه الاحوال وان كانت هى الآيات انفسها الاانها فيها الاانه قد جردت عنها امثالها مبالغة فى كونها آية ففى تجريدية مثلها فى قوله تعالى لهم فيها دار الخلد اوالمشار اليه الاحوال الكلية والآيات افرادها الحادثة شيئا فشيئا فى الازمنة وآحادها الواقعة فى الاقطار والامكنة المشاهدة لاهلها ففى على معناها . وحيث كانت دلالة هذه الاحوال على مدلولاتها

يعقلون) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان المقصود من هذه الآية اقامة الدلالة على انه لايجوز ان يكون حدوث الحوادث في هذا العالم لاجل الاتصالات الفلكية والحركات الكوكبية وتقريره من وجهين الاول انه حصل في الارض قطع مختلفة بالطبيعة والماهية وهي مع ذلك متجاورة فبعضها تكون سبخية وبعضها تكون رخوة وبعضها تكون صلبة وبعضها تكون منبتة وبعضها تكون حجرية اورملية وبعضها يكون طينا لزجا ثم انها متجاورة وتأثير الشمس وسائر الكواكب في تلك القطع على السوية فدل هذا على ان اختلافها في صفاتها بتقدير العليم القدير والثاني ان القطعة الواحدة من الارض تسقى بماء واحد فيكون تأثير الشمس فيها متساويا ثم ان تلك الثمار تجيء مختلفة في الطعم واللون والطبيعة والخاصية حتى انك قد تأخذ عنقودا من العنب فيكون جميع حباته حلوة نضيجة الاحبة واحدة فانها بقيت حامضة يابسة ونحن نعلم بالضرورة ان نسبة الطباع والافلاك للكل على السوية بل نقول ههنا ماهو اعجب منه وهو انه يوجد في بعض انواع الورد مايكون احد وجهيه في غاية الحمرة والوجه الثاني في غاية السواد مع ان ذلك الورد يكون في غاية الرقة والنعومة فيستحيل ان يقال وصل تأثير الشمس الى احد طرفيه دون الثاني وهذا يدل دلالة قطعية على ان الكل بتدبير الفاعل المختار لابسبب الاتصالات الفلكية وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل فهذا تمام الكلام في تقرير هذه الحجة وتفسيرها وبيانها واعلم ان يذكر هذا الجواب قد تمت الحجة فان هذه الحوادث السفلية لابدلها من مؤثر وبينا ان ذلك المؤثر ليس هو الكواكب والافلاك والطبائع فعندهذا يجب القطع بأنه لابد من فاعل آخر سوى هذه الاشياء وعندها يتم الدليل ولايبقى بعده للفكر مقام البتة فلهذا السبب قال ههنا ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون لانه لادافع لهذه الحجة الا ان يقال ان هذه الحوادث السفلية حدثت لالمؤثر البتة وذلك يقدح في كمال العقل لان العلم بافتقار الحادث الى المحدث لما كان علما ضروريا كان عدم حصول هذا العلم قادحا في كمال العقل فلهذا قال ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون وقال في الآية المتقدمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون فهذه اللطائف نفيسة من اسرار علم القرآن ونسأل الله العظيم ان يجعل الوقوف عليها سببا للفوز بالرحمة والغفران (المسئلة الثانية) قوله وفي الارض قطع متجاورات قال ابوبكر الاصم ارض قريبة من ارض اخرى واحدة طيبة واخرى سبخة واخرى حرة واخرى رملة واخرى تكون حصباء واخرى تكون حمراء واخرى تكون سوداء وبالجملة فاختلاف بقاع الارض في الارتفاع والانخفاض والطباع والخاصية امر معلوم وفي بعض المصاحف قطعا متجاورات والتقدير وجعل فيها رواسي وجعل في الارض قطعا متجاورات واماقوله وجنات من اعناب وزرع ونخيل فنقول الجنة البستان الذي يحصل فيه النخل والكرم والزرع وتحفه تلك الاشجار

اظهر ماسبق على كونها آيات بمحض التعقل ولذلك لم يتعرض لغير تفضيل بعضها على بعض في الاكل الظاهر لكل عاقل مع تحقق ذلك في الخواص والكيفيات ممايتوقف العثور عليه على نوع تأمل وتفكر كأنه لاحاجة في ذلك الى التفكر ايضا وفيه تعريض بأن المشركين غير عاقلين (وان تعجب) يامحمد من شيء (فعجب) لاأعجب منه حقيق بان يقصر عليه التعجب (قولهم) بعد مشاهدة ماعدذلك من الآيات الشاهدة بأنه تعالى على كل شيء قدير (أئذا كنا ترابا) على طريقة الاستفهام الانكاري المفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار وهو في محل الرفع على البدلية من قولهم على انه بمعنى المقول او في محل النصب على المفعولية منه على انه مصدر فالعجب على الاول كلامهم وعلى الثاني تكلمهم بذلك والعامل في اذا مادل عليه قوله (أئنا لفي خلق جديد) وهونبعث اونعاد وتقديم الظرف لتقوية الانكار بالبعث بتوجيهه اليه في حالة منافية له وتكرير الهمزة في قولهم أئنا لتأكيد الانكار وليس مدار انكارهم كونهم ثابتين في الخلق الجديد بالفعل عند كونهم ترابا بل كونهم بعرضية ذلك واستعدادهم له وفيه من الدلالة على عتوهم وتماديهم في النكير مالا يخفى وقيل وان تعجب من قولهم في انكار البعث فعجب قولهم والمآل وان تعجب فقد تعجبت في موضع التعجب وقيل وان تعجب من انكارهم البعث فعجب

والدليل عليه قوله تعالى جعلنا لاحدهما جنتين من اعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا قرأ ابن كثير وابو عمرو وحفص عن عاصم وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان كلها بالرفع عطفا على قوله وجنات والباقون بالجر عطفا على الاعناب وقرأ حفص عن عاصم في رواية القواس صنوان بضم الصاد والباقون بكسر الصاد وهما لغتان والصنوان جمع صنو مثل قنوان وقنو ويجمع على اصناء مثل اسم واسماء فاذا كثرت فهو الصنى والصنى بكسر الصاد وفتحها والصنوان يكون الاصل واحدا وتنبت فيه النخلتان والثلاثة فأكثر فكل واحدة صنو وذكر ثعلب عن ابن الاعرابي الصنو المثل ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ألا ان عم الرجل صنو ابيه اى مثله اذا عرفت هذا فنقول اذا فسرنا الصنو بالتفسير الاول كان المعنى ان النخيل منها ما ينبت من اصل واحد شجرتان واكثر ومنها مالا يكون كذلك واذا فسرناه بالتفسير الثاني كان المعنى ان اشجار النخيل قد تكون متماثلة متشابهة وقد لا تكون كذلك ثم قال تعالى تسقى بماء واحد قرأ عاصم وابن عامر يسقى بالياء على تقدير يسقى كله او لتغليب المذكر على المؤنث والباقون بالتاء لقوله جنات قال ابو عمرو ومما يشهد للتأنيث قوله تعالى ونفضل بعضها على بعض في الاكل قرأ حمزة والكسائي يفضل بالياء عطفا على قوله يدبر ويفصل ويغشى والباقون بالنون على تقدير ونحن نفضل وفي الاكل قولان حكاهما الواحدي حكى عن الزجاج ان الاكل الثمر الذي يؤكل وحكى عن غيره ان الاكل المهيأ للاكل واقول هذا اولى لقوله تعالى في صفة الجنة اكلها دائم وهو عام في جميع المطعومات وابن كثير ونافع يقرآن الاكل ساكنة الكاف في جميع القرآن والباقون بضم الكاف وهما لغتان ❊ قوله تعالى (وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الاغلال في اعناقهم وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون) فيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما ذكر الدلائل القاهرة على ما يحتاج اليه في معرفة المبدأ ذكر بعده مسئلة المعاد فقال وان تعجب فعجب قولهم وفيه اقوال الاول قال ابن عباس رضي الله عنهما ان تعجب من تكذيبهم اياك بعد ما كانوا قد حكموا عليك انك من الصادقين فهذا عجب والثاني ان تعجب يا محمد من عبادتهم ما لا يملك لهم نفعا ولا ضرا بعد ما عرفوا الدلائل الدالة على التوحيد فهذا عجب والثالث تقدير الكلام ان تعجب يا محمد فقد عجبت في موضع العجب لانهم لما اعترفوا بأنه تعالى مدبر السموات والارض وخالق الخلائق اجمعين وانه هو الذي رفع السموات بغير عمد وهو الذي سخر الشمس والقمر على وفق مصالح العباد وهو الذي اظهر في العالم انواع العجائب والغرائب فمن كانت قدرته وافية بهذه الاشياء العظيمة كيف لا تكون وافية باعادة الانسان بعد موته لان القادر على الاقوى الاكمل فأن يكون قادرا على الاقل الاضعف اولى فهذا تقرير موضع التعجب ثم انه تعالى لما حكى هذا الكلام حكم عليهم بثلاثة اشياء اولها قوله أولئك الذين كفروا

قولهم الدال عليه فتأمل وقد جوز كون الخطاب لكل من يصلح له اى ان تعجب يا من ينظر في هذه الآيات من قدرة من هذه افعاله فازدد تعجبا ممن ينكر مع هذه الدلائل قدرته تعالى على البعث وهو اهون من هذه والانسب بقوله ويستعجلونك بالسيئة هو الاول وقوله تعالى فعجب خبر قدم على المبتدأ للقصر والتسجيل من اول الامر بكون قولهم ذاك امرا عجيبا ويجوز ان يكون مبتدأ لكونه موصوفا بالوصف المقدر كما اشير اليه فالمعنى وان تعجب فالعجب الذي لا عجب وراءه قولهم هذا فاعجب منه وعلى الاول وان تعجب فقولهم هذا عجب لا عجب فوقه (اولئك) مبتدأ والموصول خبره اى اولئك المنكرون لقدرته تعالى على البعث ريثما عاينوا ما فصل من الآيات الباهرة الملجئة لهم الى الايمان لو كانوا يبصرون (الذين كفروا بربهم) وتمادوا في ذلك فان انكارهم لقدرته عز وجل كفر به واى كفر (واولئك) مبتدأ خبره قوله (الاغلال في اعناقهم) اى مقيدون بقيود الضلال لا يرجى خلاصهم او مغلولون يوم القيامة (واولئك) الموصوفون بما ذكر من الصفات (اصحاب النار هم فيها خالدون) لا ينفكون عنها وتوسيط ضمير الفصل ليس لتخصيص الخلود بمنكري البعث خاصة بل بالجميع المدلول عليه بقوله تعالى اولئك الذين كفروا بربهم (ويستعجلونك بالسيئة) بالعقوبة التي انذروها وذلك حين سألوا رسول الله صلى الله عليه

بربهم وهـذا يدل على ان كل من انكر البعث والقيامة فهو كافر وانما لزم من انكار البعث الكفر بربهم من حيث ان انكار البعث لايتم الابانكار القدرة والعلم والصدق اما انكار القدرة فكما اذاقيل ان اله العالم موجب بالذات لافاعل بالاختيار فلايقدر على الاعادة اوقيل انه وان كان قادرا لكنه ليس تام القدرة فلايمكنه ايجاد الحيوان الابواسطة الابوين وتأثيرات الطبائع والافلاك واما انكار العلم فكما اذاقيل انه تعالى غير عالم بالجزئيات فلايمكنه تمييز هذا المطيع عن العاصى واما انكار الصدق فكما اذاقيل انه وان اخبر عنه لكنه لايفعل لان الكذب جائز عليه ولما كان كل هذه الاشياء كفرا ثبت ان انكار البعث كفر بالله * الصفة الثانية قوله واولئك الاغلال فى اعناقهم وفيه قولان الاول قال ابوبكر الاصم المراد بالاغلال كفرهم وذلتهم وانقيادهم للاصنام ونظيره قوله تعالى انا جعلنا فى اعناقهم اغلالا قال الشاعر * لهم عن الرشد اغلال واقياد * ويقال للرجل هذا غل فى عنقك للعمل الردئ معناه انه لازم لك وانك مجازى عليه بالعذاب قال القاضى هذا وان كان محتملا الا ان حمل الكلام على الحقيقة اولى واقول يمكن نصرة قول الاصم بأن ظاهر الآية يقتضى حصول الاغلال فى اعناقهم فى الحال وذلك غير حاصل وانتم تحملون اللفظ على انه سيحصل هذا المعنى ونحن نحمله على انه حاصل فى الحال الا ان المراد بالاغلال ماذكرناه فكل واحد منا تارك للحقيقة من بعض الوجوه فلم كان قولكم اولى من قولنا والقول الثانى المراد انه تعالى يجعل الاغلال فى اعناقهم يوم القيامة والدليل عليه قوله تعالى اذ الاغلال فى اعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون والصفة الثالثة قوله تعالى واولئك اصحاب النار هم فيها خالدون والمراد منه التهديد بالعذاب المخلد المؤبد واحتج اصحابنا رحمهم الله تعالى على ان العذاب المخلد ليس الا للكفار بهذه الآية فقالوا اقوله هم فيها خالدون يفيد انهم هم الموصوفون بالخلود لاغيرهم وذلك يدل على ان اهل الكبائر لايخلدون فى النار (المسئلة الثانية) قال المتكلمون العجب هو الذى لايعرف سببه وذلك فى حق الله تعالى محال فكان المراد وان تعجب فعجب عندك ولقائل ان يقول قرأ بعضهم فى الآية الاخرى باضافة العجب الى نفسه تعالى فحينئذ يجب تأويله وقد بينا ان امثال هذه الالفاظ يجب تنزيهها عن مبادى الاعراض ويجب حملها على نهايات الاعراض فان الانسان اذا تعجب من الشئ انكره فكان هـذا محمولا على الانكار (المسئلة الثالثة) اختلف القراء فى قوله أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد وامثاله اذا كان على صورة الاستفهام فى الاول والثانى فمنهم من يجمع بين الاستفهامين فى الحرفين وهم ابن كثير وابو عمرو وعاصم وحمزة ثم اختلف هؤلاء فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة الا انه لايمد وابو عمرو يستفهم بهمزة مطولة يمد فيها وحمزة وعاصم بهمزتين فى كل القرآن ومنهم من لايجمع بين الاستفهامين ثم اختلفوا فنافع وابن عامر والكسائى يستفهم فى الاول ويقرأ على الخبر فى الثانى وابن عامر على

(الخبر)

وسلم ان يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بانذاره (قبل الحسنة) اى العافية والاحسان اليهم بالامهال (وقد خلت من قبلهم المثلات) اى عقوبات امثالهم من المكذبين فالهم لايعتبرون بها ولايحترزون حلول مثلها بهم والجملة الحالية لبيان ركاكة رأيهم فى الاستعجال بطريق الاستهزاء اى يستعجلونك بها مستهزئين بانذارك منكرين لوقوع ما انذرتهم اياه والحال انه قد مضت العقوبات النازلة على امثالهم من المكذبين والمستهزئين والمثلة بوزن السمرة العقوبة سميت بها لما بينها وبين المعاقب عليه من المماثلة ومنه المثال للقصاص وقرئ المثلات بضمتين باتباع الفاء العين والمثلات بفتح الميم وسكون الثاء كما يقال الثمرة والمثلات بضم الميم وسكون الثاء تخفيف المثلات جمع مثلة كركبة وركبات (وان ربك لذو مغفرة) عظيمة (للناس على ظلمهم) انفسهم بالذنوب والمعاصى ومحله النصب على الحالية اى ظالمين والعامل فيه المغفرة والمعنى ان ربك لغفور للناس لا يعجل لهم العقوبة وان كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها (وان ربك لشديد العقاب) يعاقب من يشاء منهم حين يشاء فتأخير ما استعجلوه ليس للاهمال وعنه عليه الصلاة والسلام لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لاحد العيش ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل احد (ويقول الذين كفروا) وهم المستعجلون ايضا وانما عدل عن الاضمار الى الموصول ذما لهم ونعيا عليهم

الخبر في الاول والاستفهام في الثاني ثم اختلف هؤلاء من وجه آخر فنافع بهمزة غير مطولة وابن عامر والكسائي بهمزتين اما نافع فكذلك الا في الصافات وكذلك ابن عامر الا في الواقعة وكذلك الكسائي الا في العنكبوت والصافات (المسئلة الرابعة) قال الزجاج العامل في أئذا كنا ترابا محذوف تقديره أئذا كنا ترابا نبعث ودل مابعده على المحذوف * قوله تعالى (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وان ربك لشديد العقاب) اعلم انه صلى الله عليه وسلم كان يهددهم تارة بعذاب القيامة وتارة بعذاب الدنيا والقوم كلما هددهم بعذاب القيامة انكروا القيامة والبعث والحشر والنشر وهو الذي تقدم ذكره في الآية الاولى وكلما هددهم بعذاب الدنيا قالوا له فجئنا بهذا العذاب وطلبوا منه اظهاره وانزاله على سبيل الطعن فيه واظهار ان الذي يقوله كلام لا اصل له فلهذا السبب حكى الله عنهم انهم يستعجلون الرسول بالسيئة قبل الحسنة والمراد بالسيئة ههنا نزول العذاب عليهم كما قال الله تعالى عنهم في قوله فأمطر علينا حجارة وفي قوله لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الى قوله اوتسقط السماء كما زعمت علينا كسفا وانما قالوا ذلك طعنا منهم فيما ذكره الرسول وكان صلى الله عليه وسلم يعدهم على الايمان بالثواب في الآخرة وبحصول النصر والظفر في الدنيا فالقوم طلبوا منه نزول العذاب ولم يطلبوا منه حصول النصر والظفر فهذا هو المراد بقوله ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ومنهم من فسر الحسنة ههنا بالامهال والتأخير وانما سموا العذاب سيئة لانه يسوءهم ويؤذيهم * اما قوله وقد خلت من قبلهم المثلات فاعلم ان العرب يقولون العقوبة مثلة ومثلة مثل صدقة وصدقة فالاولى لغة الحجاز والثانية لغة تميم فمن قال مثلة فجمعه مثلات ومن قال مثلة فجمعه مثلات ومثلات باسكان الثاء هكذا حكاه الواحدي عن الفراء والزجاج وقال ابن الانباري رحمه الله المثلة العقوبة المبينة في المعاقب شيئا وهو تغيير تبقى الصورة معه قبيحة وهو من قولهم مثل فلان بفلان اذا قبح صورته اما بقطع اذنه او انفه او سمل عينيه او بقر بطنه فهذا هو الاصل ثم يقال للعار الباقي والخزي اللازم مثلة قال الواحدي واصل هذا الحرف من المثل الذي هو الشبه ولما كان الاصل ان يكون العقاب مشابها للمعاقب ومماثلا له لاجرم سمي بهذا الاسم قال صاحب الكشاف قرئ المثلات بضمتين لاتباع الفاء العين والمثلات بفتح الميم وسكون الثاء كما يقال السمرة والمثلات بضم الميم وسكون الثاء تخفيف المثلات بضمتين والمثلات جمع مثلة كركبة وركبات اذا عرفت هذا فنقول معنى الآية ويستعجلونك بالعذاب الذي لم نعاجلهم به وقد علموا ما نزل من عقوباتنا بالامم الخالية فلم يعتبروا بها وكان ينبغي ان يردعهم خوف ذلك عن الكفر اعتبارا بحال من سلف * اما قوله وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم فاعلم ان اصحابنا تمسكوا بهذه الآية على انه تعالى قد يعفو عن صاحب الكبيرة قبل التوبة ووجه الاستدلال به ان قوله

---

كفرهم بآيات الله تعالى التي تخر لها صم الجبال حيث لم يرفعوا لها رأسا ولم يعدوها من جنس الآيات وقالوا (لولا أنزل عليه آية من ربه) مثل آيات موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام عنادا ومكابرة والا ففي أدنى آية أنزلت عليه عليه الصلاة والسلام غنية وعبرة لاولى الالباب (انما أنت منذر) مرسل للانذار من سوء عاقبة ما يأتون ويذرون كدأب من قبلك من الرسل وليس عليك الا الاتيان بما يعلم به نبوتك وقد حصل ذلك بما لا مزيد عليه ولا حاجة الى الزامهم والقامهم الحجر بالاتيان بما اقترحوا من الآيات (ولكل قوم هاد) معين لا بالذات بل بعنوان الهداية يعني لكل قوم نبي مخصوص له هداية مخصوصة يقتضي اختصاص كل منهم بما يختص به حكم لا يعلمها الا الله او لكل قوم هاد عظيم الشان قادر على ذلك هو الله سبحانه وما عليك الا انذارهم فلا يهمنك عنادهم وانكارهم للآيات المنزلة عليك وازدراؤهم بها ثم عقبه بما يدل على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقدره المبنيين على الحكم والمصالح تنبيها على ان تخصيص كل قوم بنبي وكل نبي بجنس معين من الآيات انما هو للحكم الداعية الى ذلك اظهارا لكمال قدرته على هدايتهم لكن لا يهدي الا من تعلق بهدايته مشيئته التابعة لحكم استأثر بعلمها فقال (الله يعلم ما تحمل كل انثى) اي تحمله فما موصولة اريد بها ما في بطنها من حين العلوق الى زمن الولادة لا بعد تكامل

لذو مغفرة للناس على ظلمهم اى حال اشتغالهم بالظلم كما انه يقال رأيت الامير على اكله
اى حال اشتغاله بالاكل فهذا يقتضى كونه تعالى غافر الناس حال اشتغالهم بالظلم ومعلوم
ان حال اشتغال الانسان بالظلم لايكون تائبا فدل هذا على انه تعالى قد يغفر الذنب قبل
الاشتغال بالتوبة ثم نقول ترك العمل بهذا الدليل فى حق الكفر فوجب ان يبقى معمولا به
فى حق اهل الكبيرة وهو المطلوب اونقول انه تعالى لم يقتصر على قوله وان ربك
لذو مغفرة للناس على ظلمهم بل ذكر معه قوله وان ربك لشديد العقاب فوجب ان يحمل
الاول على اصحاب الكبائر وان يحمل الثانى على احوال الكفار فان قيل لم لايجوز ان
يكون المراد لذو مغفرة لاهل الصغائر لاجل ان عقوبتهم مكفرة ثم نقول لم لايجوز ان
يكون المراد ان ربك لذو مغفرة اذا تابوا وانه تعالى انما لايعجل العقاب امهالا لهم
فى الاتيان بالتوبة فان تابوا فهو ذو مغفرة لهم ويكون من هذه المغفرة تأخير العقاب الى
الآخرة بل نقول يجب حمل اللفظ عليه لان القوم لما طلبوا تعجيل العقاب فالجواب
المذكور فيه يجب ان يكون محمولا على تأخير العقاب حتى ينطبق الجواب على السؤال ثم
نقول لم لايجوز ان يكون المراد وان ربك لذو مغفرة انه تعالى انما لايعجل العقوبة امهالا
لهم فى الاتيان بالتوبة فان تابوا فهو ذو مغفرة وان عظم ظلمهم ولم يتوبوا فهو شديد
العقاب والجواب عن الاول ان تأخير العقاب لايسمى مغفرة والا لوجب ان يقال
الكفار كلهم مغفور لهم لاجل ان الله تعالى اخر عقابهم الى الآخرة وعن الثانى انه
تعالى تمدح بهذا والتمدح انما يحصل بالتفضل اما بأداء الواجب فلا تمدح فيه وعندكم
يجب غفران الصغائر وعن الثالث انا بينا ان ظاهر الآية يقتضى حصول المغفرة حال
الظلم وبينا ان حال حصول الظلم يمنع حصول التوبة فسقطت هذه الاسئلة وصح ماذكرناه
* قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من ربه انما انت منذر ولكل قوم
هاد) اعلم انه تعالى حكى عن الكفار انهم طعنوا فى نبوته بسبب طعنهم فى الحشر والنشر
اولا ثم طعنوا فى نبوته بسبب طعنهم فى صحة ماينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال ثانيا
ثم طعنوا فى نبوته بأن طلبوا منه المعجزة والبينة ثالثا وهو المذكور فى هذه الآية واعلم
ان السبب فيه انهم انكروا كون القرآن من جنس المعجزات وقالوا هذا كتاب مثل سائر
الكتب واتيان الانسان بتصنيف معين وكتاب معين لايكون معجزا البتة وانما المعجز
مايكون مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام واعلم ان من الناس من زعم انه
لم يظهر معجز فى صدق محمد عليه الصلاة والسلام سوى القرآن قالوا ان هذا الكلام
انما يصح اذا طعنوا فى كون القرآن معجزا مع انه ماظهر عليه نوع آخر من المعجزات لان
بتقدير ان يكون قد ظهر على يده نوع آخر من المعجزات لامتنع ان يقولوا لولا انزل عليه آية
من ربه فهذا يدل على انه عليه السلام ما كان له معجز سوى القرآن واعلم ان الجواب عنه
من وجهين الاول لعل المراد منه طلب معجزات سوى المعجزات التى شاهدوها منه صلى الله

(عليه)

الخلق فقط والعلم متعد الى واحد
اواى شئ تحمل وعلى اى
حال هو من الاحوال المتواردة
عليه طورا فطورا فهى استفهامية
معلقة للعلم اوجلها فهى مصدرية
(وما تغيض الارحام وما تزداد) اى
تنقصه وتزداده فى الجثة كالخديج
والتام وفى المدة كالمولود فى اقل
مدة الحمل والمولود فى اكثرها
وفيما بينهما قيل ان الضحاك ولد
فى سنتين وهرم بن حيان فى اربع
ومن ذلك سمى هرما وفى العدد
كالواحد فافوقه يروى ان شريكا
كان رابع اربعة او يعلم نقصها
وازديادها لما فيها فالفعلان
متعديان كما فى قوله تعالى وغيض
الماء وقوله تعالى وازدادوا تسعا
وقوله ونزداد كيل بعير اولازمان
قد اسندا الى الارحام مجازا
وهما لما فيها (وكل شئ) من
الاشياء (عنده بمقدار) بقدر
لايمكن تجاوزه عنه كقوله انا كل
شئ خلقناه بقدر فان كل حادث
من الاعيان والاعراض له فى كل
مرتبة من مراتب التكوين
ومباديها وقت معين وحال
مخصوص لايكاد يجاوزه والمراد
بالعندية الحضور العلمى بل العلم
الحضورى فان تحقق الاشياء
فى انفسها فى اى مرتبة كانت من
مراتب الوجود والاستعداد
لذلك علم له بالنسبة الى الله عز
وجل (عالم الغيب) اى الغائب
عن الحس (والشهادة) اى
الحاضر له عبر عنهما بهما مبالغة
وقيل اريد بالغيب المعدوم
وبالشهادة الموجود وهو خبر
مبتدأ محذوف اوخبر بعد خبر
وقرئ بالنصب

عليه وسلم كحنين الجذع ونبوع الماء من بين اصابعه واشباع الخلق الكثير من الطعام القليل فطلبوا منه معجزات قاهرة غير هذه الامور مثل فلق البحر وقلب العصا ثعبانا فان قيل فاالسبب فى ان الله تعالى منعهم وما أعطاهم قلنا انه تعالى لما أظهر المعجزة الواحدة فقد تم الغرض فيكون طلب الباقى تحكما وظهور القرآن معجزة فما كان مع ذلك حاجة الى سائر المعجزات وايضا فلعله تعالى علم انهم يصرون على العناد بعد ظهور تلك المعجزات الملتمسة وكانوا يصيرون حينئذ مستوجبين لعذاب الاستئصال فلهذا السبب ما أعطاهم الله تعالى مطلوبهم وقد بين الله تعالى ذلك بقوله ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون بين انه لم يعطهم مطلوبهم لعلمه تعالى انهم لا ينتفعون به وايضا ففتح هذا الباب يفضى الى ما لا نهاية له وهو انه كلما أتى بمعجزة جاء واحد آخر فطلب منه معجزة أخرى وذلك يوجب سقوط دعوة الانبياء عليهم السلام وانه باطل الوجه الثانى فى الجواب لعل الكفار ذكروا هذا الكلام قبل مشاهدة سائر المعجزات * ثم انه تعالى لما حكى عن الكفار ذلك قال انما انت منذر ولكل قوم هاد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اتفق القراء على التنوين فى قوله هاد وحذف الياء فى الوصل واختلفوا فى الوقف فقرأ ابن كثير بالوقف على الياء والباقون بغير الياء وهو رواية ابن فليح عن ابن كثير للتخفيف (المسئلة الثانية) فى تفسير هذه الآية وجوه الاول المراد ان الرسول عليه السلام منذر لقومه مبين لهم ولكل قوم من قبله هاد ومنذر وداع وانه تعالى سوى بين الكل فى اظهار المعجزة الا انه كان لكل قوم طريق مخصوص لاجله استحق التخصيص بتلك المعجزة المخصوصة فلما كان الغالب فى زمان موسى عليه السلام هو السحر جعل معجزته ما هو أقرب الى طريقتهم ولما كان الغالب فى أيام عيسى عليه السلام الطب جعل معجزته ما كان جنس تلك الطريقة وهو احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص ولما كان الغالب فى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم الفصاحة والبلاغة جعل معجزته ما كان لائقا بذلك الزمان وهو فصاحة القرآن فلما كان العرب لم يؤمنوا بهذه المعجزة مع كونها أليق بطباعهم فبأن لا يؤمنوا عند اظهار سائر المعجزات أولى فهذا هو الذى قرره القاضى وهو الوجه الصحيح الذى يبقى الكلام معه منتظما والوجه الثانى وهو ان المعنى انهم لا يجحدون كون القرآن معجزا فلا يضيق قلبك بسببه انما انت منذر فما عليك الا ان تنذر الى ان يحصل الايمان فى صدورهم ولست بقادر عليهم ولكل قوم هاد قادر على هدايتهم بالتخليق وهو الله سبحانه وتعالى فيكون المعنى ليس لك الا الانذار واما الهداية فمن الله تعالى واعلم ان اهل الظاهر من المفسرين ذكروا ههنا اقوالا الاول المنذر والهادى شئ واحد والتقدير انما انت منذر ولكل قوم منذر على حدة ومعجزة كل واحد منهم غير معجزة الآخر الثانى المنذر محمد صلى الله عليه وسلم والهادى هو الله تعالى روى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير ومجاهد والضحاك والثالث

على المدح وهذا كالدليل على ماقبله من قوله تعالى الله يعلم الخ (الكبير) العظيم الشأن الذى كل شئ دونه (المتعال) المستعلى على كل شئ بقدرته والمنزه عن نعوت المخلوقات وبعد ما بين سبحانه انه عالم بجميع احوال الانسان فى مراتب فطرته ومحيط بعالمى الغيب والشهادة بين انه تعالى عالم بجميع ما يأتون وما يذرون من الافعال والاقوال وانه لا فرق بالنسبة اليه بين السر والعلن فقال (سواء منكم) من اسر القول) فى نفسه (ومن جهر به) اظهره لغيره (ومن هو مستخف) مبالغ فى الاختفاء كأنه مختف (بالليل) وطالب للزيادة (وسارب) بارز يراه كل احد (بالنهار) من سرب سروبا اى برز وهو عطف على من هو مستخف او على مستخف ومن عبارة عن الاثنين كما فى قوله *تعال فان عاهدتنى لا تخوننى* *نكن مثل من ياذئب يصطحبان* كأنه قيل سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار والاستواء وان اسند الى من اسر ومن جهر والى المستخفى والسارب لكنه فى الحقيقة مسند الى ما اسره وما جهر به او الى الفاعل من حيث هو فاعل كما فى الاخيرين وتقديم الاسرار والاستخفاء لاظهار كمال علمه تعالى فكأنه فى التعلق بالخفيات اقدم منه بالظواهر والا فنسبته الى الكل سواء لما عرفته آنفا (له) اى لكل ممن اسر او جهر والمستخفى او السارب (معقبات) ملائكة تعتقب فى حفظه جمع معقبة من عقبه مبالغة عقبه اذا

المنذر النبي والهادي علي قال ابن عباس رضي الله عنهما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره فقال انا المنذر ثم أومأ الى منكب علي رضي الله عنه وقال انت الهادي ياعلي بك يهتدي المهتدون من بعدي ❊ قوله تعالى ( الله يعلم ماتحمل كل أنثى وماتغيض الارحام وماتزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ) في الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) في وجه النظم وجوه الاول انه تعالى لما حكى عنهم انهم طلبوا آيات أخرى غير ماأتى به الرسول صلى الله عليه وسلم بين انه تعالى عالم بجميع المعلومات فيعلم من حالهم انهم هل طلبوا الآية الاخرى للاسترشاد وطلب البيان اولاجل التعنت والعناد وهل ينتفعون بظهور تلك الآيات اويزداد اصرارهم واستكبارهم فلو علم تعالى انهم طلبوا ذلك لاجل الاسترشاد وطلب البيان ومزيد الفائدة لاظهره الله تعالى ومامنعهم عنه لكنه تعالى لما علم انهم لم يقولوا ذلك الالاجل محض العناد لاجرم انه تعالى منعهم عن ذلك وهو كقوله تعالى يقولون لولا انزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا وقوله قل انما الآيات عند الله والثاني ان وجه النظم انه تعالى لما قال وان تعجب فعجب قولهم في انكار البعث وذلك لانهم انكروا البعث بسبب ان اجزاء ابدان الحيوانات عند تفرقها وتفتتها يختلط بعضها ببعض ولايبقى الامتياز فبين تعالى انه انما لايبقى الامتياز في حق من لايكون عالما بجميع المعلومات امافي حق من كان عالما بجميع المعلومات فانه يبقى تلك الاجزاء بحيث يمتاز بعضها عن البعض ثم احتج على كونه تعالى عالما بجميع المعلومات بأنه يعلم ماتحمل كل انثى وماتغيض الارحام الثالث ان هذا متصل بقوله ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة والمعنى انه تعالى عالم بجميع المعلومات فهو تعالى انماينزل العذاب بحسب مايعلم كونه فيه مصلحة والله اعلم ( المسئلة الثانية ) لفظ ما في قوله ماتحمل كل انثى وماتغيض الارحام وماتزداد اما ان تكون موصولة واما ان تكون مصدرية فان كانت موصولة فالمعنى انه يعلم ماتحمله من الولد انه من اي الاقسام أهو ذكر أم أنثى وتام اوناقص وحسن او قبيح وطويل أو قصير وغير ذلك من الاحوال الحاضرة والمترقبة فيه ثم قال وماتغيض الارحام والغيض هو النقصان سواء كان لازما اومتعديا يقال غاض الماء وغضته انا ومنه قوله تعالى وغيض الماء والمراد من الآية وماتغيضه الارحام الا انه حذف الضمير الراجع وقوله وماتزداد اي تأخذه زيادة تقول أخذت منه حقي وازددت منه كذا ومنه قوله تعالى وازدادوا تسعا ثم اختلفوا فيما تغيضه الرحم وتزداده على وجوه الاول عدد الولد فان الرحم قديشتمل على واحد واثنين وعلى ثلاثة واربعة يروى ان شريكا كان رابع اربعة في بطن امه الثاني الولد قديكون مخدجا وقديكون تاما الثالث مدة ولادته قدتكون تسعة اشهر وازيد عليها الى سنتين عند ابي حنيفة رحمه الله تعالى والى

جاء على عقبه كأن بعضهم يعقب بعضا اولانهم يعقبون اقواله وافعاله فيكتبونه او اعتقب فادغمت التاء في القاف والتاء للمبالغة اوالمراد بالمعقبات الجماعات وقرئ معاقيب جمع معقب اومعقبة على تعويض الياء من احدى القافين ( من بين يديه ومن خلفه ) من جميع جوانبه اومن الاعمال ماقدم واخر ( يحفظونه من امر الله ) من بأسه حين اذنب بالاستمهال والاستغفار له او يحفظونه من المضار او يراقبون احواله من اجل امر الله تعالى وقد قرئ به وقيل من بمعنى الباء وقيل من امر الله صفة ثانية لمعقبات وقيل المعقبات الحراس والجلاوزة حول السلطان يحفظونه في توهمه من قضاء الله تعالى ( ان الله لايغير مابقوم ) من النعمة والعافية ( حتى يغيروا ما بأنفسهم ) من الاعمال الصالحة او ملكاتها التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها الى اضدادها ( واذا أراد الله بقوم سوأ ) لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك ( فلامرد له ) فلارد له والعامل في اذامادل عليه الجواب ( ومالهم من دونه من وال ) يلي امرهم ويدفع عنهم السوء الذي اراده الله بهم بما قدمت ايديهم من تغيير مابهم وفيه دلالة على ان تخلف مراده تعالى محال وايذان بأنهم بما باشروه من انكار البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية قد غيروا مابأنفسهم من الفطرة واستحقوا لذلك حلول غضب الله تعالى وعذابه ( هو الذي يريكم البرق خوفا ) من الصاعقة ( وطمعا )

اربعة عند الشافعي والى خمس عند مالك وقيل ان الضحاك ولد لسنتين وهرم بن حيان
بقي في بطن امه اربع سنين ولذلك سمي هرما (الرابع) الدم فانه تارة يقل وتارة يكثر (الخامس)
ما ينقص بالسقط من غير ان يتم وما يزداد بالتمام (السادس) ما ينقص بظهور دم الحيض
وذلك لانه اذا سال الدم في وقت الحمل ضعف الولد ونقص وبمقدار حصول ذلك النقصان
يزداد أيام الحمل لتصير هذه الزيادة جابرة لذلك النقصان قال ابن عباس رضي الله عنهما
كلما سال الحيض في وقت الحمل يوما زاد في مدة الحمل يوما ليحصل به الجبر ويعتدل الامر
(السابع) ان دم الحيض فضلة تجتمع في بطن المرأة فاذا امتلأت عروقها من تلك
الفضلات فاضت وخرجت وسالت من دواخل تلك العروق ثم اذا سالت تلك المواد
امتلأت تلك العروق مرة اخرى هذا كله اذا قلنا ان كلمة ما موصولة أما اذا قلنا انها
مصدرية فالمعنى انه تعالى يعلم حمل كل أنثى ويعلم غيض الارحام وازديادها لا يخفى عليه شيء
من ذلك ولا من اوقاته واحواله واما قوله تعالى وكل شيء عنده بمقدار فمعناه بقدر وحد
لا يجاوزه ولا ينقص عنه كقوله انا كل شيء خلقناه بقدر وقوله في اول الفرقان وخلق كل
شيء فقدره تقديرا واعلم ان قوله كل شيء عنده بمقدار يحتمل ان يكون المراد من العندية
العلم ومعناه انه تعالى يعلم كمية كل شيء وكيفيته على الوجه المفصل المبين ومتى كان
الامر كذلك امتنع وقوع التغيير في تلك المعلومات ويحتمل ان يكون المراد من العندية
انه تعالى خصص كل حادث بوقت معين وحالة معينة بمشيئته الازلية وارادته السرمدية
وعند حكماء الاسلام انه تعالى وضع اشياء كلية وأودع فيها قوى وخواص وحركها
بحيث يلزم من حركاتها المقدرة بالمقادير المخصوصة احوال جزئية معينة ومناسبات
مخصوصة مقدرة ويدخل في هذه الآية افعال العباد واحوالهم وخواطرهم وهو من
أدل الدلائل على بطلان قول المعتزلة ثم قال تعالى عالم الغيب والشهادة قال ابن عباس
رضي الله عنهما يريد علم ما غاب عن خلقه وما شهدوه قال الواحدي فعلى هذا الغيب مصدر
يريد به الغائب والشهادة أراد بها الشاهد واختلفوا في المراد بالغائب والشاهد قال
بعضهم الغائب هو المعلوم والشاهد هو الموجود وقال آخرون الغائب ما غاب عن الحس
والشاهد ما حضر وقال آخرون الغائب ما لا يعرفه الخلق والشاهد ما يعرفه الخلق ونقول
المعلومات قسمان المعدومات والموجودات والمعدومات منها معدومات يمتنع وجودها
ومنها معدومات لا يمتنع وجودها والموجودات أيضا قسمان موجودات يمتنع عدمها
وموجودات لا يمتنع عدمها وكل واحد من هذه الاقسام الاربعة له احكام وخواص
والكل معلوم لله تعالى وحكى الشيخ الامام الوالد عن أبي القاسم الانصاري عن امام
الحرمين رحمهم الله تعالى انه كان يقول لله تعالى معلومات لا نهاية لها وله في كل واحد
من تلك المعلومات معلومات أخرى لا نهاية لها لان الجوهر الفرد يعلم الله تعالى من حاله انه
يمكن وقوعه في احياز لا نهاية لها على البدل وموصوفا بصفات لا نهاية لها على البدل وهو

في المطر فوجه تقديم الخوف على
الطمع ظاهر لما ان المخوف عليه
النفس او الرزق العتيد والمطموع
فيه الرزق المترقب وقيل الخوف
ايضا من المطر لكن الخائف منه
غير الطامع فيه كالخزاف والحراث
ويأباه الترتيب اللهم الا ان يتكلف
ما اشير اليه من ان المخوف عتيد
والمطموع فيه مترقب وانتصابهما
اما على المصدرية اى فتخافون
خوفا وتطمعون طمعا او على
الحالية من البرق او المخاطبين
باضمار ذوى او بجعل المصدر
بمعنى المفعول او الفاعل مبالغة
او على العلية بتقدير المضاف اى
ارادة خوف وطمع او بتأويل
الاخافة والاطماع ليتحد فاعل
العلة والفعل المعلل واما جعل
المعلل هى الرؤية التى تتضمنها
الاراءة على طريقة قول النابغة
وحلت بيوتى فى يفاع ممنع
تخال به راعى الحمولة طائرا
حذارا على ان لا ينال معاونى
ولا نسوتى حتى يمتن حرائرا
اى احللت بيوتى حذارا فلا سبيل
اليه لان ما وقع فى معرض العلة
الغائية لا سيما الخوف لا يصلح علة
لرؤيتهم (وينشئ السحاب)
الغمام المنسحب فى الجو (الثقال)
بالماء وهى جمع ثقيلة وصف بها
السحاب لكونها اسم جنس فى
معنى الجمع والواحدة سحابة يقال
سحابة ثقيلة وسحاب ثقال كما
يقال امرأة كريمة ونسوة كرام
(ويسبح الرعد) اى سامعوه من
العباد الراجين للمطر ملتبسين
(بحمده) اى يضجون بسبحان الله
والحمد لله واسناده الى الرعد لحمله

تعالى عالم بكل الاحوال على التفصيل وكل هذه الاقسام داخل تحت قوله تعالى عالم الغيب والشهادة ثم انه تعالى ذكر عقيبه قوله الكبير وهو تعالى يمتنع أن يكون كبيرا بحسب الجثة والحجم والمقدار فوجب ان يكون كبيرا بحسب القدرة والمقادير الالهية ثم وصف تعالى نفسه بأنه المتعال وهو المنزه عن كل مالا يجوز عليه وذلك يدل على كونه منزها في ذاته وصفاته وافعاله فهذه الآية دالة على كونه تعالى موصوفا بالعلم الكامل والقدرة التامة ومنزها عن كل مالا ينبغي وذلك يدل على كونه تعالى قادرا على البعث الذى انكروه وعلى الآيات التى اقترحوها وعلى العذاب الذى استعجلوه وانه انما يؤخر ذلك بحسب المشيئة الالهية عند قوم وبحسب المصلحة عند آخرين وقرأ ابن كثير المتعالى باثبات الياء في الوقف والوصل على الاصل والباقون بحذف الياء في الحالتين للتخفيف ثم انه تعالى اكد بيان كونه عالما بكل المعلومات فقال سواء منكم من اسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لفظ سواء يطلب اثنين تقول سواء زيد وعمرو ثم فيه وجهان الاول ان سواء مصدر والمعنى ذو سواء كما تقول عدل زيد وعمرو أي ذوا عدل الثانى ان يكون سواء بمعنى مستو وعلى هذا التقدير فلا حاجة الى الاضمار الأ ان سيبويه يستقبح ان يقول مستو زيد وعمرو لان اسماء الفاعلين اذا كانت نكرات لا يبدأ بها ولقائل ان يقول بل هذا الوجه اولى لان حمل الكلام عليه يغنى عن التزام الاضمار الذى هو خلاف الاصل (المسئلة الثانية) فى المستخفى والسارب قولان (الاول) يقال اخفيت الشئ اخفيه اخفاء فخفى واستخفى فلان من فلان أي توارى واستتر وقوله وسارب بالنهار قال الفراء والزجاج ظاهر بالنهار فى سربه أي طريقه يقال خلاله سربه أي طريقه وقال الازهرى تقول العرب سربت الابل تسرب سربا أي مضت فى الارض ظاهرة حيث شاءت فاذا عرفت ذلك فمعنى الآية سواء كان الانسان مستخفيا فى الظلمات أو كان ظاهرا فى الطرقات فعلم الله تعالى محيط بالكل قال ابن عباس رضى الله عنهما سواء ما أضمرته القلوب واظهرته الألسنة وقال مجاهد سواء من يقدم على القبائح فى ظلمات الليالى ومن يأتى بها فى النهار الظاهر على سبيل التوالى (والقول الثانى) نقله الواحدى عن الاخفش وقطرب انه قال المستخفى الظاهر والسارب المتوارى ومنه يقال خفيت الشئ واخفيته أي اظهرته واختفيت الشئ استخرجته ويسمى النباش المستخفى والسارب المتوارى ومنه يقال للداخل سربا وانسرب الوحش اذا دخل فى السرب اى فى كناسه قال الواحدى وهذا الوجه صحيح فى اللغة الأ ان الاختيار هو الوجه الاول لاطباق اكثر المفسرين عليه وايضا فالليل يدل على الاستتار والنهار على الظهور والانتشار * قوله تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا اراد الله بقوم سوأ فلا مرد له ومالهم من دونه من وال) اعلم ان الضمير فى له عائد الى من فى قوله

(سواء)

لهم على ذلك او يسبح الرعد نفسه على ان تسبيحه عبارة عن دلالته على وحدانيته تعالى وفضله المستوجب لحمده وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان يقول سبحان من يسبح الرعد بحمده واذا اشتد يقول اللهم لاتقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك وعن على رضى الله عنه سبحان من سبحت له وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان اليهود سألت النبى عليه الصلاة والسلام عن الرعد فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب وعن الحسن خلق من خلق الله تعالى ليس بملك (والملائكة) اى يسبح الملائكة (من خيفته) من هيبته واجلاله جل جلاله وقيل الضمير للرعد (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) فيهلكه بذلك (وهم) اى الكفرة المخاطبون فى قوله تعالى هو الذى يريكم البرق وقد التفت الى الغيبة ايذانا باسقاطهم عن درجة الخطاب واعراضا عنهم وتعديدا لجناياتهم لدى كل من يستحق الخطاب كأنه قيل هو الذى يفعل امثال هذه الافاعيل العجيبة من اراءة البرق وانشاء السحاب الثقال وارسال الصواعق الدالة على كمال علمه وقدرته ويعقلها من يعقلها من المؤمنين اوالرعد نفسه اوالملك الموكل به والملائكة ويعملون بموجب ذلك من التسبيح والحمد والخوف من هيبته تعالى وهم اى الكفرة الذين حكيت هناتهم مع ذلهم وهوانهم وحقارة شأنهم (يجادلون فى الله)

سواء منكم من اسر القول ومن جهر به وقيل على اسم الله فى عالم الغيب والشهادة والمعنى لله معقبات واما المعقبات فيجوز ان يكون اصل هذه الكلمة معتقبات فأدغمت التاء فى القاف كقوله وجاء المعذرون من الاعراب والمراد المعتذرون ويجوز ان يكون من عقبه اذا جاء على عقبه فاسم المعقب من كل شئ ماخلف يعقب ماقبله والمعنى فى كلا الوجهين واحد اذا عرفت هذا فنقول فى المراد بالمعقبات قولان الاول وهو المشهور الذى عليه الجمهور ان المراد منه الملائكة الحفظة وانما صح وصفهم بالمعقبات اما لاجل ان ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار وبالعكس واما لاجل انهم يتعقبون اعمال العباد ويتبعونها بالحفظ والكتب وكل من عمل عملا ثم عاد اليه فقد عقب فعلى هذا المراد من المعقبات ملائكة الليل وملائكة النهار روى عن عثمان رضى الله عنه انه قال يارسول الله اخبرنى عن العبد كم معه من ملك فقال عليه السلام ملك عن يمينك يكتب الحسنات وهو امين على الذى على الشمال فاذا عملت حسنة كتبت عشرا واذا عملت سيئة قال الذى على الشمال لصاحب اليمين اكتب فيقول لا لعله يتوب فاذا قال ثلاثا قال نعم اكتب أراحنا الله منه فبئس القرين ماأقل مراقبته لله تعالى واستحياءه منا وملكان من بين يديك ومن خلفك فهو قوله تعالى له معقبات من بين يديه ومن خلفه وملك قابض على ناصيتك فاذا تواضعت لربك رفعك وان تجبرت قصمك وملكان على شفتك يحفظان عليك الصلاة على وملك على فيك لايدع ان تدخل الحية فى فيك وملكان على عينيك فهؤلاء عشرة املاك على كل آدمى تبدل ملائكة الليل بملائكة النهار فهم عشرون ملكا على كل آدمى وعنه صلى الله عليه وسلم يتعاقب فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر وهو المراد من قوله وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا قيل تصعد ملائكة الليل وهى عشرة وتنزل ملائكة النهار وقال ابن جريج هو مثل قوله تعالى عن اليمين وعن الشمال قعيد صاحب اليمين يكتب الحسنات والذى عن يساره يكتب السيآت وقال مجاهد مامن عبد الا وله ملك يحفظه من الجن والانس والهوام فى نومه ويقظته وفى الآية سؤالات (السؤال الاول) الملائكة ذكور فلم ذكر فى جمعها جمع الاناث وهو المعقبات والجواب فيه قولان الاول قال الفراء المعقبات ذكر ان جمع ملائكة معقبة ثم جمعت معقبة بمعقبات كما قيل ابناوات سعد ورجالات بكر جمع رجال والذى يدل على التذكير قوله يحفظونه والثانى وهو قول الاخفش انما أنثت لكثرة ذلك منها نحو نسابة وعلامة وهو ذكر (السؤال الثانى) ما المراد من كون اولئك المعقبات من بين يديه ومن خلفه والجواب ان المستخفى بالليل والسارب بالنهار قد احاط به هؤلاء المعقبات فيعدون عليه اعماله واقواله بتمامها ولا يشذ من تلك الاعمال والاقوال من حفظهم شئ اصلا وقال بعضهم بل المراد يحفظونه من جميع المهالك من بين يديه ومن خلفه لان السارب بالنهار اذا سعى فى مهماته فانما يحذر من بين

اى فى شأنه تعالى حيث يفعلون مايفعلون من انكار البعث واستعجال العذاب استهزاء واقتراح الآيات فالواو لعطف الجملة على ماقبلها من قوله تعالى هو الذى يريكم البرق الخ او على قوله الله يعلم ماتحمل الخ واما العطف على قوله تعالى ويقول الذين كفروا كما قيل فلا مجال له لان قوله تعالى الله يعلم الخ استئناف لبيان بطلان قولهم ذلك ونظائره من استعجال العذاب وانكار البعث قاطع لعطف مابعده على ماقبله وقيل للحال اى فيصيب بالصواعق من يشاء وهم فى الجدال وقد أريد به ما اصاب اربد بن ربيعة أخا لبيد فانه أقبل مع عامر بن الطفيل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبغيانه الغوائل فدخلا المسجد وهو عليه الصلاة والسلام جالس فى نفر من الاصحاب رضى الله عنهم فاستشرفوا لجمال عامر وكان من أجمل الناس وقد كان اوصى الى اربد انه اذا رأيتنى اكلم محمدا عليه الصلاة والسلام فدر من خلفه واضربه بالسيف فجعل يكلمه عليه الصلاة والسلام فدار أربد من خلفه عليه الصلاة والسلام فاخترط من سيفه شبرا فحبسه الله تعالى فلم يقدر على سله وجعل عامر يومئ اليه فرأى النبى عليه الصلاة والسلام الحال فقال اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله عز وجل على اربد صاعقة فى يوم صحو صائف فاحرقته وولى عامر هاربا فنزل فى بيت امرأة سلولية فلما أصبح ضم عليه سلاحه وتغير لونه وركب فرسه فجعل يركض فى الصحراء ويقول ابرز ياملك الموت ويقول

يديه ومن خلقه (السؤال الثالث) ما المراد من قوله من امر الله والجواب ذكر الفراء فيه قولين الاول انه على التقديم والتأخير والتقدير له معقبات من امر الله يحفظونه والثاني ان فيه اضمارا اي ذلك الحفظ من امر الله اي مما امر الله به فحذف الاسم وابقى خبره كما يكتب على الكيس الفان والمراد الذي فيه الفان والقول الثالث ذكره ابن الانباري ان كلمة من معناها الباء والتقدير يحفظونه بأمر الله وباعانته والدليل على انه لابد من المصير اليه انه لاقدرة للملائكة ولا لاحد من الخلق على ان يحفظوا احدا من امر الله ومما قضاه عليه (السؤال الرابع) ما الفائدة في جعل هؤلاء الملائكة موكلين علينا والجواب ان هذا الكلام غير مستبعد وذلك لان المنجمين اتفقوا على ان التدبير في كل يوم لكوكب على حدة وكذا القول في كل ليلة ولاشك ان تلك الكواكب لها ارواح عندهم فتلك التدبيرات المختلفة في الحقيقة لتلك الارواح وكذا القول في تدبير القمر والهيلاج والكد خدا على مايقوله المنجمون واما اصحاب الطلسمات فهذا الكلام مشهور في السنتهم ولذلك تراهم يقولون اخبرني الطباعي التام ومرادهم بالطباعي التام ان لكل انسان روحا فلكية يتولى اصلاح مهماته ودفع بلياته وآفاته واذا كان هذا متفقا عليه بين قدماء الفلاسفة واصحاب الاحكام فكيف يستبعد مجيئه من الشرع وتمام التحقيق فيه ان الارواح البشرية مختلفة في جواهرها وطبائعها فبعضها خيرة وبعضها شريرة وبعضها معزة وبعضها مذلة وبعضها قوية القهر والسلطان وبعضها ضعيفة سخيفة وكما ان الامر في الارواح البشرية كذلك فكذا القول في الارواح الفلكية ولاشك ان الارواح الفلكية في كل باب وكل صفة اقوى من الارواح البشرية وكل طائفة من الارواح البشرية تكون متشاركة في طبيعة خاصة وصفة مخصوصة لما انها تكون في تربية روح من الارواح الفلكية مشاكلة لها في الطبيعة والخاصية وتكون تلك الارواح البشرية كأنها اولاد لذلك الروح الفلكي ومتى كان الامر كذلك كان ذلك الروح الفلكي معينا لها على مهماتها ومرشدا لها الى مصالحها وعاصما لها عن صنوف الآفات فهذا كلام ذكره محققو الفلاسفة واذا كان الامر كذلك علمنا ان الذي وردت به الشريعة امر مقبول عند الكل فكيف يمكن استنكاره من الشريعة * ثم في اختصاص هؤلاء الملائكة وتسلطهم على بني آدم فوائد كثيرة سوى التي مر ذكرها من قبل (الاول) ان الشياطين يدعون الى الشرور والمعاصي وهؤلاء الملائكة يدعون الى الخيرات والطاعات (الثاني) قال مجاهد مامن عبد الا ومعه ملك يحفظه من الجن والانس والهوام في نومه ويقظته (الثالث) انا نرى ان الانسان قد يقع في قلبه داع قوي من غير سبب ثم يظهر بالآخرة ان وقوع تلك الداعية في قلبه كان سببا من اسباب مصالحه وخيراته وقد ينكشف ايضا بالآخرة انه كان سببا لوقوعه في آفة او في معصية فيظهر ان الداعي الى الامر الاول كان مريد الخير والراحة والى الامر الثاني كان مريد الفساد والمحنة والاول هو الملك

الشعر ويقول واللات لئن أصحر لي محمد وصاحبه يعني ملك الموت لانفذتهما برمحي فأرسل الله تعالى ملكا فلطمه بجناحه فأرداه في التراب فخرجت على ركبته في الوقت غدة عظيمة فعاد الى بيت السلولية وهو يقول غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية ثم دعا بفرسه فركبه فأجراه حتى مات على ظهره وقيل اريد به ماروي عن الحسن انه كان رجل من طواغيت العرب فبعث النبي عليه الصلاة والسلام نفرا من اصحابه يدعونه الى الله عز وجل فقال لهم أخبروني عما تدعونني اليه ماهو ومم هو من ذهب أم من فضة أم من نحاس أم من حديد أم من در فاستعظموا مقالته فرجعوا الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا مارأينا رجلا أكفر قلبا ولا اعتى على الله منه فقال عليه الصلاة والسلام ارجعوا اليه فرجعوا اليه فمازاد الا مقالته الاولى واخبث فرجعوا اليه عليه الصلاة والسلام وأخبروه بما صنع فقال عليه الصلاة والسلام ارجعوا اليه فرجعوا اليه فبينما هم عنده ينازعونه اذ ارتفعت سحابة ورعدت وبرقت ورمت بصاعقة فاحترق الكافر فجاؤا يسعون ليخبروه عليه الصلاة والسلام بالخبر فاستقبلهم الاصحاب فقالوا احترق صاحبكم قالوا من اين علمتم قالوا اوحي الى النبي صلى الله عليه وسلم (وهو شديد المحال) اي والحال انه شديد المماحلة والمكايدة والمماكرة لاعدائه من محله اذا كاده وعرضه للهلاك ومنه تمحل

الهادى والثانى هو الشيطان المغوى (الرابع) ان الانسان اذا علم ان الملائكة تحصى عليه اعماله كان الى الحذر من المعاصى اقرب لان من آمن يعتقد جلالة الملائكة وعلو مراتبهم فاذا حاول الاقدام على معصية واعتقد انهم يشاهدونها زجره الحياء منهم عن الاقدام عليها كما يزجره عنها اذا حضر من يعظمه من البشر واذا علم ان الملائكة تحصى عليه تلك الاعمال كان ذلك ايضا رادعا له عنها واذا علم ان الملائكة يكتبونها كان الردع اكمل (السؤال الخامس) ما الفائدة فى كتبة اعمال العباد قلنا ههنا مقامات الاول ان تفسير الكتبة بالمعنى المشهور من الكتبة قال المتكلمون الفائدة فى تلك الصحف وزنها ليعرف رجحان احدى الكفتين على الاخرى فانه اذا رجحت كفة الطاعات ظهر للخلائق انه من اهل الجنة وان كان بالضد فبالضد قال القاضى هذا بعيد لان الادلة قد دلت على ان كل واحد قبل مماته عند المعاينة يعلم انه من السعداء او من الاشقياء فلا يتوقف حصول تلك المعرفة على الميزان ثم اجاب القاضى عن هذا الكلام وقال يمتنع ايضا ماروينا لامر يرجع الى حصول سروره عند الخلق العظيم انه من اولياء الله فى الجنة وبالضد من ذلك فى اعداء الله والمقام الثانى وهو قول حكماء الاسلام ان الكتابة عبارة عن نقوش مخصوصة وضعت بالاصطلاح لتعريف المعانى المخصوصة فلو قدرنا كون تلك النقوش دالة على تلك المعانى لاعيانها وذواتها كانت تلك الكتبة اقوى واكمل اذا ثبت هذا فنقول ان الانسان اذا اتى بعمل من الاعمال مرات وكرات كثيرة متوالية حصل فى نفسه بسبب تكررها ملكة قوية راسخة فان كانت تلك الملكة ملكة سارة بالاعمال النافعة فى السعادات الروحانية عظم ابتهاجه بها بعد الموت وان كانت تلك الملكة ملكة ضارة فى الاحوال الروحانية عظم تضرره بها بعد الموت اذا ثبت هذا فنقول ان التكرير الكثير لما كان سببا لحصول تلك الملكة الراسخة كان لكل واحد من الاعمال المتكررة اثر فى حصول تلك الملكة الراسخة وذلك الاثر وان كان غير محسوس الا انه حاصل فى الحقيقة واذا عرفت هذا ظهر انه لا يحصل للانسان لمحة ولا حركة ولا سكون الا ويحصل منه فى جوهر نفسه اثر من آثار السعادة او آثار الشقاوة قل او كثر فهذا هو المراد من كتبة الاعمال عند هؤلاء والله اعلم بحقائق الامور هذا كله اذا فسرنا قوله تعالى له معقبات من بين يديه ومن خلفه بالملائكة * القول الثانى وهو ايضا منقول عن ابن عباس رضى الله عنهما واختاره ابو مسلم الاصفهانى المراد انه يستوى فى علم الله تعالى السر والجهر والمستخفى بظلمة الليل والسارب بالنهار المستظهر بالمعاونين والانصار وهم الملوك والامراء فمن لجا الى الليل فلن يفوت الله امره ومن سار نهارا بالمعقبات وهم الاحراس والاعوان الذين يحفظونه لم ينجه احراسه من الله تعالى والمعقب العون لانه اذا ابصر هذا ذاك فلابد ان يبصر ذاك هذا فتصير بصيرة كل واحد منهم معاقبة لبصيرة الآخر فهذه المعقبات لا تخلص من قضاء الله ومن قدره وهم وان ظنوا انهم يخلصون

اذا تكلف استعمال الحيل وقيل هو محال من المحل بمعنى القوة وقيل محول من الحول او الحيلة اعل على غير قياس ويعضده انه قرئ بفتح الميم على انه مفعل من حال يحول اذا احتال ويجوز ان يكون بمعنى الفقار فيكون مثلا فى القوة والقدرة كقولهم فساعد الله اشد وموساه احد (له دعوة الحق) اى الدعوة الثابتة الواقعة فى محلها المجابة عند وقوعها والاضافة للايذان بملابستها للحق واختصاصها به وكونه بمعزل من شائبة البطلان والضياع والضلال كما يقال كلمة الحق وقيل له دعوة الله سبحانه اى الدعوة اللائقة بحضرته كما فى قوله عليه الصلاة والسلام فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله والتعرض لوصف الحقية لتربية معنى الاستجابة والاولى هو الاول لقوله تعالى وما دعاء الكافرين الا فى ضلال وتعلق الجملتين بما قبلهما من حيث ان اهلاك اربد وعامر محال من الله تعالى واجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما ان كانت الآية نزلت فى شانهما او من حيث انه وعيد للكفرة على مجادلة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم وتحذير لهم باجابة دعوته عليهم (والذين يدعون) اى الاصنام الذين يدعوهم المشركون فحذف العائد (من دونه) من دون الله عز وجل (لا يستجيبون لهم بشئ) من طلباتهم (الا كباسط كفيه الى الماء) اى الا استجابة كائنة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه من بعيد فالاستجابة مصدر من

مخذو مهم من امر الله و من قضائه فانهم لايقدرون على ذلك البتة والمقصود من هذا الكلام بعث السلاطين والامراء والكبراء على ان يطلبوا الخلاص من المكاره عن حفظ الله و عصمته ولايعولوا فى دفعها على الاعوان والانصار ولذلك قال تعالى بعده واذا اراد الله بقوم سوأ فلا مرد له ومالهم من دونه من وال * اما قوله تعالى ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فكلام جميع المفسرين يدل على ان المراد لايغير ماهم فيه من النعم بانزال الانتقام الا بأن يكون منهم المعاصى والفساد قال القاضى والظاهر لايحتمل الاهذا المعنى لانه لاشئ مما يفعله تعالى سوى العقاب الاوقد يبتدئ به فى الدنيا من دون تغيير يصدر من العبد فيما تقدم لانه تعالى ابتدأ بالنعم دينا ودنيا ويفضل فى ذلك من شاء على من يشاء فالمراد مما ذكره الله تعالى التغيير بالهلاك والعقاب ثم اختلفوا فبعضهم قال هذا الكلام راجع الى قوله ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة فبين تعالى انه لاينزل بهم عذاب الاستئصال الا والمعلوم منهم الاصرار على الكفر والمعصية حتى قالوا اذا كان المعلوم ان فيهم من يؤمن او فى عقبه من يؤمن فانه تعالى لاينزل عليهم عذاب الاستئصال وقال بعضهم بل الكلام يجرى على اطلاقه والمراد منه ان كل قوم بالغوا فى الفساد وغيروا طريقتهم فى اظهار عبودية الله تعالى فان الله يزيل عنهم النعم وينزل عليهم انواعا من العذاب وبعضهم ان المؤمن الذى يكون مختلطا بأولئك الاقوام فربما دخل فى ذلك العذاب روى عن ابى بكر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه يوشك ان يعمهم الله تعالى بعقاب واحتج ابو على الجبائى والقاضى بهذه الآية فى مسئلتين (المسئلة الاولى) انه تعالى لايعاقب اطفال المشركين بذنوب آبائهم لانهم لم يغيروا ما بأنفسهم من نعمة فيغير الله حالهم من النعمة الى العذاب (المسئلة الثانية) قالوا الآية تدل على بطلان قول المجبرة انه تعالى يبتدئ العبد بالضلال والخذلان اول مايبلغ وذلك اعظم من العقاب مع انه ماكان منه تغيير والجواب ان ظاهر هذه الآية يدل على ان فعل الله فى التغيير مؤخر عن فعل العبد الا ان قوله تعالى وماتشاؤن الا ان يشاء الله يدل على ان فعل العبد مؤخر عن فعل الله تعالى فوقع التعارض واما قوله واذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له فقد احتج اصحابنا به على ان العبد غير مستقل فى الفعل قالوا وذلك لانه اذا كفر العبد فلاشك انه تعالى يحكم بكونه مستحقا للذم فى الدنيا والعقاب فى الآخرة فلو كان العبد مستقلا بتحصيل الايمان لكان قادرا على رد ماأراده الله تعالى وحينئذ يبطل قوله واذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له فثبت ان الآية السابقة وان اشعرت بمذهبهم الا ان هذه الآية من اقوى الدلائل على مذهبنا قال الضحاك عن ابن عباس لم تغن المعقبات شيئا وقال عطاء عنه لاراد لعذابى ولاناقض لحكمى ومالهم من دونه من وال اى ليس لهم من دون الله من يتولاهم ويمنع قضاء الله عنهم والمعنى مالهم من وال يلى امرهم ويمنع العذاب عنهم * قوله

(تعالى)

المبنى للفاعل على مايقتضيه الفعل الظاهر اعنى لايستجيبون ويجوز ان يكون من المبنى للمفعول ويضاف الى الباسط بناء على استلزام المصدر من المبنى للفاعل للمصدر من المبنى للمفعول وجودا وعدما فكأنه قيل لايستجيبون لهم بشئ فلا يستجاب لهم الا استجابة كائنة كاستجابة من بسط كفيه الى الماء كما فى قوله

وعضة دهر ياابن مروان لم تدع
من المال الامسحت اومجلف

اى لم تدع فلم يبق الامسحت اومجلف (ليبلغ) اى الماء بنفسه من غير ان يؤخذ بشئ من اناء ونحوه (فاه وماهو) اى الماء (ببالغه) ببالغ فيه ابدا لكونه جادا لايشعر بعطشه ولا يبسط يده اليه فضلا عن الاستطاعة لما اراده من البلوغ الى فيه شبه حال المشركين فى عدم حصولهم فى دعاء آلهتهم على شئ اصلا وركاكة رأيهم فى ذلك بحال عطشان هائم لايدرى مايفعل قد بسط كفيه من بعيد الى الماء يبغى وصوله الى فيه من غير ملاحظة التشبيه فى جميع مفردات الاطراف فان الماء فى نفسه شئ نافع بخلاف آلهتهم والمراد نفى الاستجابة رأسا الا انه قد اخرج الكلام مخرج التهكم بهم فقيل لايستجيبون لهم شيئا من الاستجابة الا استجابة كائنة فى هذه الصورة التى ليست فيها شائبة الاستجابة قطعا فهو فى الحقيقة من باب التعليق بالمحال وقرئ تدعون بالتاء وكباسط بالتنوين (ومادعاء الكافرين الا فى ضلال)

تعالى (هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال) اعلم انه تعالى لما خوف العباد بانزال ما لا مرد له اتبعه بذكر هذه الآيات وهى مشتملة على امور ثلاثة وذلك لانها دلائل على قدرة الله تعالى وحكمته وانها تشبه النعم والاحسان من بعض الوجوه وتشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه واعلم انه تعالى ذكرهمنا امورا اربعة الاول البرق وهو قوله تعالى يريكم البرق خوفا وطمعا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف فى انتصاب قوله خوفا وطمعا وجوه الاول لا يصح ان يكونا مفعولا لهما لانهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلل الاعلى تقدير حذف المضاف اى ارادة خوف وطمع او على معنى اخافة واطماعا الثانى يجوز ان يكونا منتصبين على الحال من البرق كأنه فى نفسه خوف وطمع والتقدير ذا خوف وذا طمع او على معنى اخافا واطماعا الثالث ان يكونا حالا من المخاطبين اى خائفين وطامعين (المسئلة الثانية) فى كون البرق خوفا وطمعا وجوه الاول ان عند لمعان البرق يخاف وقوع الصواعق ويطمع فى نزول الغيث قال المتنبى

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى * يرجى الحيا منها ويخشى الصواعق

الثانى انه يخاف المطر من له فيه ضرر كالمسافر وكمن فى جرابه التمر والزبيب ويطمع فيه من له فيه نفع الثالث ان كل شئ يحصل فى الدنيا فهو خير بالنسبة الى قوم وشر بالنسبة الى آخرين فكذلك المطر خير فى حق من يحتاج اليه فى أوانه وشر فى حق من يضره ذلك اما بحسب المكان او بحسب الزمان (المسئلة الثالثة) اعلم ان حدوث البرق دليل عجيب على قدرة الله تعالى وبيانه ان السحاب لاشك انه جسم مركب من اجزاء رطبة مائية ومن اجزاء هوائية ونارية ولاشك ان الغالب عليه الاجزاء المائية والماء جسم بارد رطب والنار جسم حار يابس وظهور الضد من الضد التام على خلاف العقل فلابد من صانع مختار يظهر الضد من الضد فان قيل لم لا يجوز ان يقال ان الريح احتقن فى داخل جرم السحاب واستولى البرد على ظاهره فانجمد السطح الظاهر منه ثم ان ذلك الريح يمزقه تمزيقا عنيفا فيتولد من ذلك التمزيق الشديد حركة عنيفة والحركة العنيفة موجبة للسخونة وهى البرق والجواب ان كل ما ذكرتموه على خلاف المعقول وبيانه من وجوه* الاول انه لو كان الامر كذلك لوجب ان يقال انما يحصل البرق فلابد وان يحصل الرعد وهو الصوت الحادث من تمزق السحاب ومعلوم انه ليس الامر كذلك فانه كثيرا ما يحدث البرق القوى من غير حدوث الرعد* الثانى ان السخونة الحاصلة بسبب قوة الحركة مقابلة للطبيعة المائية الموجبة للبرد وعند حصول هذا العارض القوى كيف تحدث النارية بل نقول النيران العظيمة تنطفئ بصب الماء عليها والسحاب كله ماء فكيف يمكن ان يحدث فيه شعلة ضعيفة نارية * الثالث من مذهبكم ان النار الصرفة لا لون

اى ذهاب وضياع وخسار (ولله) وحده (يسجد) يخضع وينقاد لا لشئ غيره استقلالا ولا اشتراكا فالقصر ينتظم القلب والافراد (من فى السموات والارض) من الملائكة والثقلين (طوعا وكرها) اى طائعين وكارهين اوانقياد طوع وكره او حال طوع وكره فان خضوع الكل لعظمة الله عز وجل وانقيادهم لاحداث ما اراده فيهم من احكام التكوين والاعدام شاؤا اوابوا وعدم مداخلة حكم غيره بل غير حكمه تعالى فى تلك الشؤون مما لا يخفى على احد (وظلالهم) اى وتنقاد له تعالى ظلال من له ظل منهم اعنى الانس حيث تتصرف على مشيئته وتتأتى لارادته فى الامتداد والتقلص والفئ هو الزوال (بالغدو والآصال) ظرف للسجود المقدر او حال من الظلال وتخصيص الوقتين بالذكر مع ان انقيادها متحقق فى جميع اوقات وجودها لظهور ذلك فيهما والغدو جمع غداة كفتى فى جمع فتاة والآصال جمع اصيل وقيل جمع آصل وهو جمع اصيل وهو ما بين العصر والمغرب وقيل الغدو مصدر ويؤيده انه قرئ والايصال اى الدخول فى الاصيل هذا وقيل ان المراد حقيقة السجود فان الكفرة حال الاضطرار وهو المعنى بقوله تعالى وكرها يخصون السجود به سبحانه قال تعالى فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ولا يبعد ان يخلق الله تعالى فى الظلال افهاما وعقولا بها تسجد لله سبحانه كما خلقها للجبال حتى اشتغلت بالتسبيح وظهر

لها البتة فهب انه حصلت النارية بسبب قوة المحاكة الحاصلة بأجزاء السحاب لكن من
اين حدث ذلك اللون الاحمر فثبت ان السبب الذى ذكروه ضعيف وان حدوث النار
الحاصلة فى جرم السحاب مع كونه ماء خالصا لا يمكن الا بقدرة القادر الحكيم ( النوع
الثانى ) من الدلائل المذكورة فى هذه الآية قوله تعالى وينشئ السحاب الثقال قال
صاحب الكشاف السحاب اسم جنس والواحدة سحابة والثقال جمع ثقيلة لانك تقول
سحابة ثقيلة وسحاب ثقال كما تقول امرأة كريمة ونساء كرام وهى الثقال بالماء واعلم
ان هذا ايضا من دلائل القدرة والحكمة وذلك لان هذه الاجزاء المائية اما ان يقال
انها حدثت فى جو الهواء او يقال انها تصاعدت من وجه الارض فان كان الاول وجب
ان يكون حدوثها باحداث محدث حكيم قادر وهو المطلوب وان كان الثانى وهو ان يقال
ان تلك الاجزاء تصاعدت من الارض فلما وصلت الى الطبقة الباردة من الهواء بردت
فثقلت فرجعت الى الارض فنقول هذا باطل وذلك لان الامطار مختلفة فتارة تكون
القطرات كبيرة وتارة تكون صغيرة وتارة تكون متقاربة واخرى تكون متباعدة وتارة
تدوم مدة نزول المطر زمانا طويلا وتارة قليلا فاختلاف الامطار فى هذه الصفات مع ان
طبيعة الارض واحدة وطبيعة الشمس المسخنة للبخارات واحدة لابد وان يكون
بتخصيص الفاعل المختار وايضا فالتجربة دلت على ان الدعاء والتضرع فى نزول الغيث اثرا
عظيما ولذلك كانت صلاة الاستسقاء مشروعة فعلمنا ان المؤثر فيه هو قدرة الفاعل
لا الطبيعة والخاصية (النوع الثالث) من الدلائل المذكورة فى هذه الآية الرعد وهو
قوله ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وفيه اقوال (الاول) ان الرعد اسم ملك
من الملائكة وهذا الصوت المسموع هو صوت ذلك الملك بالتسبيح والتهليل عن ابن عباس
رضى الله عنهما ان اليهود سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن الرعد ماهو فقال ملك من
الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله قالوا فما
الصوت الذى نسمع قال زجره السحاب وعن الحسن انه خلق من خلق الله ليس بملك فعلى
هذا القول الرعد هو الملك الموكل بالسحاب وصوته تسبيح لله تعالى وذلك الصوت ايضا
يسمى بالرعد ويؤكد هذا ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما كان اذا سمع الرعد قال
سبحان الذى سبحت له وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله ينشئ السحاب الثقال
فينطق احسن النطق ويضحك احسن الضحك فنطقه الرعد وضحكه البرق واعلم ان هذا
القول غير مستبعد وذلك لان عند اهل السنة البنية ليست شرطا لحصول الحياة فلا يبعد
من الله تعالى ان يخلق الحياة والعلم والقدرة والنطق فى اجزاء السحاب فيكون هذا
الصوت المسموع فعلا له وكيف يستبعد ذلك ونحن نرى ان السمندل يتولد فى النار
والضفادع تتولد فى الماء البارد والدودة العظيمة ربما تولد فى الثلوج القديمة وايضا
فاذا لم يبعد تسبيح الجبال فى زمن داود عليه السلام ولا تسبيح الحصى فى زمان محمد صلى

( الله )

فيها آثار التجلى كما قاله ابن الانبارى
ويجوز ان يراد بسجودها
مايشاهد فيها من هيئة السجود
تبعا لاصحابها وانت خبير بأن
اختصاص سجود الكافر حالة
الضرورة والشدة بالله سبحانه
لايجدى فان سجودهم لاصنامهم
حالة الرخاء مخل بالقصر المستفاد
من تقديم الجار والمجرور فالوجه
حمل السجود على الانقياد ولان
تحقيق انقياد الكل فى الابداع
والاعدام له تعالى ادخل فى التوبيخ
على اتخاذ اولياء من دونه من
تحقيق سجودهم له تعالى
وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر
مع كون غيرهم ايضا كذلك لانهم
العمدة وانقيادهم دليل انقياد
غيرهم على انه بين ذلك بقوله عز
وجل ( قل من رب السموات
والارض ) فانه لتحقيق ان
خالقهما ومتولى امرهما مع ما
فيهما على الاطلاق هو الله سبحانه
وقوله تعالى (قل الله) امر بالجواب
من قبله عليه الصلاة اشعارا بأنه
متعين للجوابية فهو والخصم فى
تقريره سواء او امر بحكاية
اعترافهم ايذانا بأنه امر لابد لهم
من ذلك كأنه قيل احك اعترافهم
فبكتهم بما يلزمهم من الحجة
والقمهم الحجر او أمر بتلقينهم
ذلك ان تلعثموا فى الجواب حذرا
من الالزام فانهم لايتمالكون اذ
ذاك ولا يقدرون على انكاره
(قل) الزاما لهم وتبكيتا (أفاتخذتم)
لانفسكم والهمزة لانكار الواقع
كما فى قولك أضربت اباك لا لانكار
الوقوع كما فى قولك اضربت ابى
والفاء للعطف على مقدر بعد
الهمزة اى اعلمتم ان ربهما هو الله
الذى ينقاد لامره من فيهما كافة

الله عليه وسلم فكيف يستبعد تسبيح السحاب وعلى هذا القول فهذا الشئ المسمى بالرعد ملك او ليس بملك فيه قولان احدهما انه ليس بملك لانه عطف عليه الملائكة فقال والملائكة من خيفته والمعطوف عليه مغاير للمعطوف والثانى وهو انه لا يبعد ان يكون من جنس الملائكة وانما حسن افراده بالذكر على سبيل التشريف كما فى قوله وملائكته ورسله وجبريل وميكال وفى قوله واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح (القول الثانى) ان الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص ومع ذلك فان الرعد يسبح الله سبحانه لان التسبيح والتقديس وما يجرى مجراهما ليس الا وجود لفظ يدل على حصول التنزيه والتقديس لله سبحانه وتعالى فلما كان حدوث هذا الصوت دليلا على وجود موجود متعال عن النقص والامكان كان ذلك فى الحقيقة تسبيحا وهو معنى قوله تعالى وان من شئ الا يسبح بحمده (القول الثالث) ان المراد من كون الرعد مسبحا ان من يسمع الرعد فانه يسبح الله تعالى فلهذا المعنى اضيف هذا التسبيح اليه (القول الرابع) من كلمات الصوفية الرعد صعقات الملائكة والبرق زفرات افئدتهم والمطر بكاؤهم فان قيل وما حقيقة الرعد قلنا استقصينا القول فيه فى سورة البقرة فى قوله فيه ظلمات ورعد وبرق اما قوله والملائكة من خيفته فاعلم ان من المفسرين من يقول عنى بهؤلاء الملائكة أعوان الرعد فانه سبحانه جعل له أعوانا ومعنى قوله والملائكة من خيفته اى وتسبح الملائكة من خيفة الله تعالى وخشيته. قال ابن عباس رضى الله عنهما انهم خائفون من الله لا كخوف ابن آدم فان احدهم لا يعرف من على يمينه ومن على يساره ولا يشغله عن عبادة الله طعام ولا شراب ولا شئ واعلم ان المحققين من الحكماء يذكرون ان هذه الآثار العلوية انما تتم بقوى روحانية فلكية فللسحاب روح معين من الارواح الفلكية يدبره وكذا القول فى الرياح وفى سائر الآثار العلوية وهذا عين مانقلناه من ان الرعد اسم ملك من الملائكة يسبح الله فهذا الذى قاله المفسرون بهذه العبارة هو عين ماذكره المحققون من الحكماء فكيف يليق بالعاقل الانكار (النوع الرابع) من الدلائل المذكورة فى هذه الآية قوله ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء واعلم انا قد ذكرنا معنى الصواعق فى سورة البقرة قال المفسرون نزلت هذه الآية فى عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة اخى لبيد بن ربيعة أتيا النبى صلى الله عليه وسلم يخاصمانه ويجادلانه ويريدان الفتك به فقال أربد بن ربيعة اخو لبيد بن ربيعة أخبرنا عن ربنا امن نحاس هو ام من حديد ثم انه لما رجع اربد ارسل الله عليه صاعقة فاحرقته ورمى عامرا بغدة كغدة البعير ومات فى بيت سلولية واعلم ان امر الصاعقة عجيب جدا وذلك لانها نار تتولد من السحاب واذا نزلت من السحاب فربما غاصت فى البحر واحرقت الحيتان فى لجة البحر والحكماء بالغوا فى وصف قوتها ووجه الاستدلال ان النار حارة يابسة وطبيعتها ضد طبيعة السحاب فوجب ان تكون طبيعتها فى الحرارة واليبوسة أضعف من طبيعة النيران الحادثة عندنا على

فاتخذتم عقيبه (من دونه اولياء) عاجزين (لا يملكون لانفسهم نفعا) يستجلبونه (ولا ضرا) يدفعونه عن أنفسهم فضلا عن القدرة على جلب النفع لغيره ودفع الضرر عنه لا على ان يكون الانكار متوجها الى المعطوفين معا كما فى قوله تعالى أفلا تعقلون اذا قدر المعطوف عليه الاتسمعون بل الى ترتب الثانى على الاول مع وجوب ان يترتب عليه نقيضه كما اذا قدر أتسمعون والمعنى أبعد ان علمتم ان ربهما هو الله جل جلاله اتخذتم من دونه اولياء عجزة والحال ان قضية العلم بذلك انما هو الاقتصار على توليه فعكستم الامر كما فى قوله تعالى كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته اولياء من دونى ووصف الاولياء ههنا بعدم المالكية للنفع والضر فى توشيح الانكار وتأكيده كتقييد الاتخاذ هناك بالجملة الحالية أعنى قوله تعالى وهم لكم عدو فان كلا منهما مما ينفى الاتخاذ المذكور ويؤكد انكاره (قل) تصويرا لآرائهم الركيكة بصورة المحسوس (هل يستوى الاعمى) الذى هو المشرك الجاهل بالعبادة ومستحقها (والبصير) الذى هو الموحد العالم بذلك او الاول عبارة عن المعبود الغافل والثانى اشارة الى المعبود العالم بكل شئ (أم هل تستوى الظلمات) التى هى عبارة عن الكفر والضلال (والنور) الذى هو عبارة عن التوحيد والايمان وقرئ بالياء ولما دل النظم الكريم على ان

العادة لكنه ليس الامر كذلك فانها أقوى نيران هذا العالم فثبت ان اختصاصها بمزيد تلك القوة لابد وان يكون بسبب تخصيص الفاعل المختار واعلم انه تعالى لماذكر هذه الدلائل الاربعة قال وهم يجادلون فى الله والمراد انه تعالى بين دلائل كمال علمه فى قوله يعلم ماتحمل كل انثى وبين دلائل كمال القدرة فى هذه الآيات ثم قال وهم يجادلون فى الله يعنى هؤلاء الكفار مع ظهور هذه الدلائل يجادلون فى الله وهو يحتمل وجوها احدها ان يكون المراد الرد على الكافر الذى قال اخبرنا عن ربنا أمن نحاس أم من حديد وثانيها ان يكون المراد الرد على جدالهم فى انكار البعث وابطال الحشر والنشر وثالثها ان يكون المراد الرد عليهم فى طلب سائر المعجزات ورابعها ان يكون المراد الرد عليهم فى استنزال عذاب الاستئصال وفى هذه الواو قولان الاول انها للحال والمعنى فيصيب بالصاعقة من يشاء فى حال جداله فى الله وذلك ان اربد لما جادل فى الله احرقته الصاعقة والثانى انها واو الاستئناف كأنه تعالى لما تم ذكر هذه الدلائل قال بعد ذلك وهم يجادلون فى الله ثم قال تعالى وهو شديد المحال وفى لفظ المحال أقوال قال ابن قتيبة الميم زائدة وهو من الحول ونحوه ميم مكان وقال الازهرى هذا غلط فان الكلمة اذا كانت على مثال فعال اوله ميم مكسورة فهى اصلية نحو مهاد وملاك ومداس ومداد واختلفوا مم اخذ على وجوه الاول قيل من قولهم محل فلان بفلان اذا سعى به الى السلطان وعرضه للهلاك وتمحل لكذا اذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه فكان المعنى انه سبحانه شديد المكر لاعدائه يهلكهم بطريق لايتوقعونه الثانى ان المحال عبارة عن الشدة ومنه تسمى السنة الصعبة سنة المحل وماحلت فلانا محالا اى قاومته اينا اشد قال ابو مسلم ومحال فعال من المحل وهو الشدة ولفظ فعال يقع على المجازاة والمقابلة فكأن المعنى انه تعالى شديد المغالبة وللمفسرين ههنا عبارات فقال مجاهد وقتادة شديد القوة وقال ابو عبيدة شديد العقوبة وقال الحسن شديد النقمة وقال ابن عباس شديد الحول الثالث قال ابن عرفة يقال ماحل عن امره اى جادل فقوله شديد المحال اى شديد الجدال الرابع روى عن بعضهم شديد المحال اى شديد الحقد قالوا هذا لايصح لان الحقد لايمكن فى حق الله تعالى الا انا قد ذكرنا فى هذا الكتاب ان امثال هذه الالفاظ اذا وردت فى حق الله تعالى فانها تحمل على نهايات الاعراض لاعلى مبادى الاعراض فالمراد بالحقد ههنا هو انه تعالى يريد ايصال الشر اليه مع انه يخفى عنه تلك الارادة ❊ قوله تعالى ( له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشئ الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وماهو ببالغه وما دعاء الكافرين الا فى ضلال ) اعلم ان قوله له دعوة الحق اى لله دعوة الحق وفيه بحثان ( البحث الاول ) فى اقوال المفسرين وهى امور احدها ماروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال دعوة الحق قول لااله الا الله وثانيها قول الحسن ان الله هو الحق فدعاؤه هو الحق كأنه يومئ الى ان الانقطاع اليه فى الدعاء هو الحق وثالثها ان عبادته هى

( الحق )

الكفرة فيما فعلوا من اتخاذ الاصنام اولياء من دون الله سبحانه فى الضلال المحض والخطاء البحت بحيث لا يخفى بطلانه على احد وانهم فى ذلك كالاعمى الذى لايهتدى الى شئ أصلا وليس لهم فى ذلك شبهة تصلح ان تكون منشأ لغلطهم وخطئهم فضلا عن الحجة أكذلك فقيل ( أم جعلوا لله ) اى بل أجعلوا له (شركاء خلقوا كخلقه) سبحانه والهمزة لانكار الوقوع لا لانكار الواقع مع وقوعه وقوله خلقوا كخلقه هو الذى يتوجه اليه الانكار واما نفس الجعل فهو واقع لايتعلق به الانكار بهذا المعنى والمعنى انهم لم يجعلوا لله تعالى شركاء خلقوا كخلقه ( فتشابه الخلق عليهم) بسبب ذلك وقالوا هؤلاء خلقوا كخلقه تعالى فاستحقوا بذلك العبادة كما استحقها ليكون ذلك منشأ لخطئهم بل انما جعلوا له شركاء ماهو بمعزل من ذلك بالمرة وفيه مالايخفى من التعريض بركاكة رأيهم والتهكم بهم ( قل ) تحقيقا للحق وارشادا لهم اليه (الله خالق كل شئ ) كافة لا خالق سواه فيشاركه فى استحقاق العبادة (وهو الواحد ) المتوحد بالالوهية المتفرد بالربوبية (القهار) لكل ماسواه فكيف يتوهم ان يكون له شريك وبعدما مثل المشرك والشرك بالاعمى والظلمات والموحد والتوحيد بالبصير والنور مثل الحق الذى هو القرآن العظيم فى فيضانه من جناب القدس على قلوب خالية عنه متفاوتة الاستعداد وفى جريانه عليها

الحق والصدق واعلم ان الحق هو الموجود والموجود قسمان قسم يقبل العدم وهو حق يمكن ان يصير باطلا وقسم لايقبل العدم فلا يمكن ان يصير باطلا وذلك هو الحق الحقيقي واذا كان واجب الوجود لذاته موجودا لايقبل العدم كان أحق الموجودات بأن يكون حقا هو هو وكان احق الاعتقادات واحق الاذكار بأن يكون حقا هو اعتقاد ثبوته وذكر وجوده فثبت بهذا ان وجوده هو الحق في الموجودات واعتقاد وجوده هو الحق في الاعتقادات وذكره بالثناء والالهية والكمال هو الحق في الاذكار فلهذا قال له دعوة الحق (البحث الثاني) قال صاحب الكشاف دعوة الحق فيه وجهان احدهما ان تضاف الدعوة الى الحق الذي هو نقيض الباطل كما تضاف اليه الكلمة في قوله كلمة الحق والمقصود منه الدلالة على كون هذه الدعوة مختصة بكونها حقة وكونها خالية عن امارات كونه باطلا وهذا من باب اضافة الشيء الى صفته والثاني ان تضاف الى الحق الذي هو الله سبحانه على معنى دعوة المدعو الحق الذي يسمع فيجيب وعن الحسن الحق هو الله وكل دعاء اليه فهو دعوة الحق ثم قال تعالى والذين يدعون من دونه يعني الآلهة الذين يدعونهم الكفار من دون الله لايستجيبون لهم بشيء مما يطلبونه الا استجابة كاستجابة باسط كفيه الى الماء والماء جماد لايشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته اليه ولايقدر ان يجيب دعاءه ويبلغ فاه وكذلك مايدعونه جماد لايحس بدعائهم ولا يستطيع اجابتهم ولايقدر على نفعهم وقيل شبهوا في قلة فائدة دعائهم لآلهتهم بمن اراد ان يغرف الماء بيديه ليشربه فيبسطهما ناشرا اصابعه ولم تصل كفاه الى ذلك الماء ولم يبلغ مطلوبه من شربه وقرئ تدعون بالتاء كباسط كفيه بالتنوين ثم قال ومادعاء الكافرين الا في ضلال اى الا في ضياع لامنفعة فيه لانهم ان دعوا الله لم يجبهم وان دعوا الآلهة لم تستطع اجابتهم * قوله تعالى (ولله يسجد من في السموات والارض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال) اعلم ان في المراد بهذا السجود قولين (الاول) ان المراد منه السجود بمعنى وضع الجبهة على الارض وعلى هذا الوجه ففيه وجهان احدهما ان اللفظ وان كان عاما الا أن المراد به الخصوص وهم المؤمنون فبعض المؤمنين يسجدون لله طوعا بسهولة ونشاط ومن المسلمين من يسجد لله كرها لصعوبة ذلك عليه مع انه يحمل نفسه على اداء تلك الطاعة شاء أم أبى والثاني ان اللفظ عام والمراد منه ايضا العام وعلى هذا ففي الآية اشكال لانه ليس كل من في السموات والارض يسجد لله بل الملائكة يسجدون لله والمؤمنون من الجن والانس يسجدون لله تعالى واما الكافرون فلا يسجدون والجواب عنه من وجهين الاول ان المراد من قوله ولله يسجد من في السموات والارض أي ويجب على كل من في السموات والارض ان يسجد لله فعبر عن الوجوب بالوقوع والحصول والثاني وهو ان المراد من السجود التعظيم والاعتراف بالعبودية وكل من في السموات ومن في الارض يعترفون بعبودية الله تعالى على ماقال ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن

ملاحظة وحفظا وعلى الالسنة مذاكرة وتلاوة وفى ثباته فيها مع كونه ممدا لحياتها الروحانية ومايتلوها من الملكات السنية والاعمال المرضية بالماء النازل من السماء السائل في اودية يابسة لم تجر عادتها بذلك سيلا نامقدرا بمقدار اقتضته الحكمة في احياء الارض وما عليها الباقي فيها حسبما يدور عليه منافع الناس وفي كونه حلية تتحلى به النفوس وتصل الى البهجة الابدية ومتاعا يتمتع به في المعاش والمعاد بالذهب والفضة وسائر الفلزات التي يتخذ منها انواع الآلات والادوات وتبقى منتفعا بها مدة طويلة ومثل الباطل الذي ابتلى به الكفرة لقصور نظرهم بمايظهر فيهما من غير مداخلة له فيهما واخلال بصفائهما من الزبد الرابي فوقهما المضمحل سريعا فقيل (انزل من السماء) اى من جهتها (ماء) اى كثيرا او نوعا منه وهو ماء المطر (فسالت) بذلك (اودية) واقعة في مواقعه لا جميع الاودية اذ الامطار لاتستوعب الاقطار وهو جمع واد وهو مفرج بين جبال اوتلال او آكام على الشذوذ كناد واندية وناج وانجية قالوا وجهه ان فاعلا يجيء بمعنى فعيل كناصر ونصير وشاهد وشهيد وعالم وعليم وحيث جمع فعيل على افعلة كجريب واجربة جمع فاعل ايضا على افعلة فان اريد بها مايسيل فيها مجازا فاسناد السيلان اليها حقيقي وان اريد معناها الحقيقي فالاسناد مجازي كما في جرى النهر وايثار التمثيل بها

على

الله ( واما القول الثانى فى تفسير الآية ) فهو ان السجود عبارة عن الانقياد والخضوع وعدم الامتناع وكل من فى السموات والارض ساجد لله بهذا المعنى لان قدرته ومشيئته نافذة فى الكل وتحقيق القول فيه ان ماسواه ممكن لذاته والممكن لذاته هو الذى تكون ماهيته قابلة للعدم والوجود على السوية وكل من كان كذلك امتنع رجحان وجوده على عدمه او بالعكس الا بتأثير موجد ومؤثر فيكون وجود كل ماسوى الحق سبحانه بايجاده وعدم كل ماسواه باعدامه فتأثيره نافذ فى جميع الممكنات فى طرفى الايجاد والاعدام وذلك هو السجود وهو التواضع والخضوع والانقياد ونظير هذه الآية قوله بل له ما فى السموات والارض كل له قانتون وقوله وله اسلم من فى السموات والارض واما قوله تعالى طوعا وكرها فالمراد ان بعض الحوادث مما يميل الطبع الى حصوله كالحياة والغنى وبعضها مما ينفر الطبع عنه كالموت والفقر والعمى والحزن والزمانة وجميع اصناف المكروهات والكل حاصل بقضائه وقدره وتكوينه وايجاده ولاقدرة لاحد على الامتناع والمدافعة ثم قال تعالى وظلالهم بالغدو والآصال وفيه قولان الاول قال المفسرون كل شخص سواء كان مؤمنا او كافرا فان ظله يسجد لله قال مجاهد ظل المؤمن يسجد لله طوعا وهو طائع وظل الكافر يسجد لله كرها وهو كاره وقال الزجاج جاء فى التفسير ان الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله وعند هذا قال ابن الانبارى لايبعد ان يخلق الله تعالى للظلال عقولا وافهاما تسجد بها وتخشع كما جعل الله للجبال افهاما حتى اشتغلت بتسبيح الله تعالى وحتى ظهر اثر التجلى فيها كما قال فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا والقول الثانى وهو ان المراد من سجود الظلال ميلانها من جانب الى جانب وطولها بسبب انحطاط الشمس وقصرها بسبب ارتفاع الشمس فهى منقادة مستسلمة فى طولها وقصرها وميلها من جانب الى جانب وانما خص الغدو والآصال بالذكر لان الظلال انما تعظم وتكثر فى هذين الوقتين * قوله تعالى ( قل من رب السموات والارض قل الله قل افاتخذتم من دونه اولياء لايملكون لانفسهم نفعا ولاضرا قل هل يستوى الاعمى والبصير ام هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شئ وهو الواحد القهار ) اعلم انه تعالى لما بين ان كل من فى السموات والارض ساجد لله بمعنى كونه خاضعا له عاد الى الرد على عبدة الاصنام فقال قل من رب السموات والارض قل الله ولما كان هذا الجواب جوابا يقر به المسؤل ويعترف به ولاينكره امره صلى الله عليه وسلم ان يكون هو الذاكر لهذا الجواب تنبيها على انهم لاينكرونه البتة ولما بين انه سبحانه هو الرب لكل الكائنات قال قل لهم فلم اتخذتم من دون الله اولياء وهى جمادات وهى لاتملك لانفسها نفعا ولاضرا ولما كانت عاجزة عن تحصيل المنفعة لانفسها ودفع المضرة عن انفسها فبأن تكون عاجزة عن تحصيل المنفعة لغيرها ودفع المضرة عن غيرها كان ذلك اولى فاذا لم تكن قادرة على ذلك كانت عبادتها

الانهار المستمرة الجريان لوضوح المماثلة بين شأنها وشأن مامثل بها كما اشير اليه (بقدرها) اى سالت ملتبسة بمقدارها الذى عينه الله تعالى واقتضته حكمته فى نفع الناس او بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة بحسب تفاوت محالها صغرا وكبرا لابكونها مالئة لهما منطبقة عليها بل بمجرد قلتها بصغرها المستلزم لقلة موارد الماء وكثرتها بكبرها المستدعى لكثرة الموارد فان مورد السيل الجارى فى الوادى الصغير اقل من مورد السيل الجارى فى الوادى الكبير هذا ان اريد بالاودية مايسيل فيها اما ان اريد بها معناها الحقيقى فالمعنى سالت مياهها بقدرها لكن الاودية على نحو ماعرفته آنفا اويراد بضميرها مياهها بطريق الاستخدام ويراد بقدرها ماذكر اولا من المعنيين (فاحتمل السيل) الجارى فى تلك الاودية اى حمل معه (زبدا) اى غثاء ورغوة وانما وصف ذلك بقوله تعالى (رابيا) اى عاليا منتفخا فوقه بيانا لما اريد بالاحتمال المحتمل لكون المحمول غير طاف كالاشجار الثقيلة وانما لم يدفع ذلك الاحتمال بأن يقال فاحتمل السيل فوقه للايذان بأن تلك الفوقية مقتضى شأن الزبد لا من جهة المحتمل تحقيقا للمماثلة بينه وبين مامثل به من الباطل الذى شأنه الظهور فى بادى الرأى من غير مداخلة فى الحق (ومما يوقدون عليه فى النار) اى يفعلون الايقاد عليه كائنا فى النار والضمير للناس أضمر مع عدم

محض العبث والسفه ولماذكر هذه الحجة الظاهرة بين ان الجاهل بمثل هذه الحجة يكون كالاعمى والعالم بها كالبصير والجهل بمثل هذه الحجة كالظلمات والعلم بها كالنور وكما ان كل احد يعلم بالضرورة ان الاعمى لايساوى البصير والظلمة لاتساوى النور كذلك كل احد يعلم بالضرورة ان الجاهل بهذه الحجة لايساوى العالم بها قرأ حمزة والكسائى وابوبكر وعمرو عن عاصم يستوى الظلمات والنور بالياء لانها مقدمة على اسم الجمع والباقون بالتاء واختاره ابوعبيدة ثم اكد هذا البيان فقال ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم يعنى هذه الاشياء التى زعموا انها شركاء لله ليس لها خلق يشبه خلق الله حتى يقولوا انها تشارك الله فى الخالقية فوجب ان نشاركه فى الالهية بل هؤلاء المشركون يعلمون بالضرورة ان هذه الاصنام لم يصدر عنها فعل البتة ولاخلق ولااثر واذا كان الامر كذلك كان حكمهم بكونها شركاء لله فى الالهية محض السفه والجهل وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان اصحابنا استدلوا بهذه الآية فى مسئلة خلق الافعال من وجوه الاول ان المعتزلة زعموا ان الحيوانات تخلق حركات وسكنات مثل الحركات والسكنات التى يخلقها الله تعالى وعلى هذا التقدير فقد جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ومعلوم ان الله تعالى انما ذكر هذه الآية فى معرض الذم والانكار فدلت هذه الآية على ان العبد لايخلق فعل نفسه قال القاضى نحن وان قلنا ان العبد يفعل ويحدث الا انا لانطلق القول بأنه يخلق ولو اطلقناه لم نقل انه يخلق كخلق الله لان احدنا يفعل بقدرة الله وانما يفعل لجلب منفعة ودفع مضرة والله تعالى منزه عن ذلك كله فثبت ان بتقدير كون العبد خالقا الا انه لايكون خلقه كخلق الله تعالى وايضا فهذا الالزام لازم للمجبرة لانهم يقولون عين ماهو خلق الله تعالى فهو كسب العبد وفعل له وهذا عين الشرك لان الاله والعبد فى خلق تلك الافعال بمنزلة الشريكين اللذين لامال لاحدهما الا وللآخر فيه حق وايضا فهو تعالى انما ذكر هذا الكلام عيبا للكفار وذما لطريقتهم ولو كان فعل العبد خلقا لله تعالى لمابقى لهذا الذم فائدة لان للكفار ان يقولوا على هذا التقدير ان الله سبحانه وتعالى لماخلق هذا الكفر فينا فلم يذمنا عليه ولم ينسبنا الى الجهل والتقصير مع انه قد حصل فينا لابفعلنا ولاباختيارنا والجواب عن السؤال الاول ان لفظ الخالق اما ان يكون عبارة عن الاخراج من العدم الى الوجود او يكون عبارة عن التقدير وعلى الوجهين فبتقدير ان يكون العبد محدثا فانه لابد وان يكون حادثا اما قوله والعبد وان كان خالقا الا انه ليس خلقه كخلق الله قلنا الخلق عبارة عن الايجاد والتكوين والاخراج من العدم الى الوجود ومعلوم ان الحركة الواقعة بقدرة العبد لما كانت مثلا للحركة الواقعة بقدرة الله تعالى كان احد المخلوقين مثلا للمخلوق الثانى وحينئذ يصح ان يقال ان هذا الذى هو مخلوق العبد مثل لماهو مخلوق لله تعالى بل لاشك فى حصول المخالفة فى سائر الاعتبارات الا ان حصول المخالفة فى سائر الوجوه لايقدح فى حصول المماثلة

سبق الذكر لظهوره وقرئ بالخطاب (ابتغاء حلية اومتاع) اى لطلب اتخاذ حلية وهى مايتزين ويتجمل به كالحلى المتخذة من الذهب والفضة او اتخاذ متاع وهو مايتمتع به من الأوانى والآلات المتخذة من الرصاص والحديد وغير ذلك من الفلزات (زبد) خبث (مثله) مثل ماذكر من زبد الماء فى كونه رابيا فوقه فقوله زبد مبتدأ خبره الظرف المقدم ومن ابتدائية دالة على مجرد كونه مبتدأ وناشئا منه لاتبعيضية معربة عن كونه بعضا منه كماقيل لا خلال ذلك بالتمثيل وفى التعبير عن ذلك بالموصول والتعرض لمافى حيز الصلة من ايقاد النار عليه جرى على سنن الكبرياء باظهار التهاون به كمافى قوله تعالى فأوقد لى ياهامان على الطين واشارة الى كيفية حصول الزبد منه بذوبانه وفى زيادة فى النار اشعار بالمبالغة فى الاعتمال للاذابة وحصول الزبد كماشير اليه وعدم التعرض لاخراجه من الارض لعدم دخل ذلك العنوان فى التمثيل كما ان لعنوان انزال الماء من السماء دخلا فيه حسبما فصل فيماسلف بل له اخلال بذلك (كذلك) اى مثل ذلك الضرب البديع المشتمل على نكت رائقة (يضرب الله الحق والباطل) اى مثل الحق ومثل الباطل والحذف للانباء عن كمال التماثل بين الممثل والممثل به كان المثل المضروب عين الحق والباطل وبعد تحقيق التمثيل مع الايماء فى تضاعيف ذلك الى وجوه المماثلة على ابدع وجوه وآنقها حسبما اشير اليه فى مواقعها بين عاقبة كل من

من هذا الوجه وهذا القدر يكفي في الاستدلال واما قوله هذا لازم على الجبرة حيث قالوا ان فعل العبد مخلوق لله تعالى فنقول هذا غير لازم لان هذه الآية دالة على انه لايجوز ان يكون خلق العبد مثلا لخلق الله تعالى ونحن لانثبت للعبد خلقا البتة فكيف يلزمنا ذلك واما قوله لو كان فعل العبد خلقا لله تعالى لماحسن ذم الكفار على هذا المذهب قلنا حاصله يرجع الى انه لماحصل المدح والذم وجب ان يكون العبد مستقلا بالفعل وهو منقوض لانه تعالى ذم أبالهب على كفره مع انه عالم منه انه يموت على الكفر وقد ذكرنا ان خلاف المعلوم محال الوقوع فهذا تقرير هذا الوجه في هذه الآية واما الوجه الثاني في التمسك بهذه الآية قوله قل الله خالق كل شيء ولاشك ان فعل العبد شيء فوجب ان يكون خالقه هو الله وسؤالهم عليه ماتقدم والوجه الثالث في التمسك بهذه الآية قوله وهو الواحد القهار وليس يقال فيه انه تعالى واحد في اى المعانى ولما كان المذكور السابق هو الخالقية وجب ان يكون المراد هو الواحد في الخالقية القهار لكل ماسواه وحينئذ يكون دليلا ايضا على صحة قولنا (المسئلة الثانية) زعم جهم ان الله تعالى لايقع عليه اسم الشيء اعلم ان هذا النزاع ليس الا في اللفظ وهو ان هذا الاسم هل يقع عليه املا وزعم انه لايقع هذا الاسم على الله تعالى واحتج عليه بأنه لوكان شيئا لوجب كونه خالقا لنفسه لقوله تعالى الله خالق كل شيء ولما كان ذلك محالا وجب ان لايقع عليه اسم الشيء ولايقال هذا عام دخله التخصيص لان العام المخصوص انمايحسن اذا كان المخصوص اقل من الباقى واخس منه كما اذا قال أكلت هذه الرمانة مع انه سقطت منها حبات ماأكلها وههنا ذات الله تعالى اعلى الموجودات واشرفها فكيف يمكن ذكر اللفظ العام الذي يتناوله مع كون الحكم مخصوصا في حقه والحجة الثانية تمسك بقوله تعالى ليس كمثله شيء والمعنى ليس مثل مثله شيء ومعلوم ان كل حقيقة فانها مثل مثل نفسها فالبارى تعالى مثل مثل نفسه مع انه تعالى نبه على ان مثل مثله ليس بشيء فهذا تنصيص على انه تعالى غير مسمى باسم الشيء والحجة الثالثة قوله تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها دلت هذه الآية على انه لايجوز ان يدعى الله الا بالاسماء الحسنى ولفظ الشيء يتناول اخس الموجودات فلايكون هذا اللفظ مشعرا بمعنى حسن فوجب ان لايكون هذا اللفظ من الاسماء الحسنى فوجب ان لايجوز دعاء الله تعالى بهذا اللفظ والاصحاب تمسكوا في اطلاق هذا الاسم عليه تعالى بقوله قل اى شيء اكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم واجاب الخصم عنه بأن قوله قل اى شيء اكبر شهادة سؤال متروك الجواب وقوله قل الله شهيد بيني وبينكم كلام مبتدأ مستقل بنفسه لاتعلق له بماقبله (المسئلة الثالثة) تمسك المعتزلة بهذه الآية في انه تعالى عالم لذاته لابالعلم وقادر لذاته لابالقدرة قالوا لانه لوحصل لله تعالى علم وقدرة وحياة لكانت هذه الصفات امان تحصل بخلق الله اولا بخلقه والاول باطل والا لزم التسلسل والثانى باطل لان قوله الله خالق كل شيء يتناول الذات والصفات

المتلين على وجه التمثيل مع التصريح ببعض مابه المماثلة من الذهاب والبقاء تتمة للغرض من التمثيل من الحث على اتباع الحق الثابت والردع عن الباطل الزائد فقيل (فأما الزبد) من كل منهما (فيذهب جفاء) اى مرميا به وقرئ جفالا والمعنى واحد (واما ماينفع الناس) منهما كالماء الصافي والفلز الخالص (فيمكث في الارض) اما الماء فيثبت بعضه في مناقعه ويسلك بعضه في عروق الارض الى العيون والقنى والآبار واما الفلز فيصاغ من بعضه انواع الحلى ويتخذ من بعضه اصناف الآلات والادوات فينتفع بكل من ذلك انواع الانتفاعات مدة طويلة فالمراد بالمكث في الارض ماهو اعم من المكث في نفسها ومن البقاء في ايدى المتقلبين فيها وتغيير ترتيب اللف الواقع في التمثيل لمراعاة الملاءمة بين حالتى الذهاب والبقاء وبين ذكر يهما فان المعتبر انما هو بقاء الباقى بعد ذهاب الذاهب لاقبله (كذلك يضرب الله) اى مثل ذلك الضرب العجيب يضرب الله (الامثال) في كل باب اظهارا لكمال اللطف والعناية في الارشاد والهداية وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله كذلك يضرب الله الحق والباطل امابا عتبار ابتناء هذا على التمثيل الاول او بجعل ذلك اشارة اليهما جميعا وبعد ماابين شأن كل من الحق والباطل حالا ومآلا اكمل بيان شرع

حكمنا بدخول التخصيص فيه في حق ذات الله تعالى فوجب ان يبقى فيما سوى الذات على الاصل وهو ان يكون تعالى خالقا لكل شئ سوى ذاته تعالى فلو كان لله علم وقدرة لوجب كونه تعالى خالقا لهما وهو محال وايضا تمسكوا بهذه الآية في خلق القرآن قالوا الآية دالة على انه تعالى خالق لكل الاشياء والقرآن ليس هو الله تعالى فوجب ان يكون مخلوقا وان يكون داخلا تحت هذا العموم والجواب اقصى ما في الباب ان الصيغة عامة الا انا نخصصها في حق صفات الله تعالى بسبب الدلائل العقلية * قوله تعالى (انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما توقدون عليه في النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض كذلك يضرب الله الامثال للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو ان لهم ما في الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به اولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد * افمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى انما يتذكر اولوا الالباب) اعلم انه تعالى لما شبه المؤمن والكافر والايمان والكفر بالاعمى والبصير والظلمات والنور ضرب للايمان والكفر مثلا آخر فقال انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها ومن حق الماء ان يستقر في الاودية المنخفضة عن الجبال والتلال بمقدار سعة تلك الاودية وصغرها ومن حق الماء اذا زاد على قدر الاودية ان ينبسط على الارض ومن حق الزبد الذي يحتمله الماء فيطفو ويربو عليه ان يتبدد في الاطراف ويبطل سواء كان ذلك الزبد ما يجري مجرى الغليان من البياض او ما يختلط بالماء من الاجسام الخفيفة ولما ذكر تعالى هذا الزبد الذي لا يظهر الا عند اشتداد جري الماء ذكر الزبد الذي لا يظهر الا بالنار وذلك لان كل واحد من الاجساد السبعة اذا اذيب بالنار لابتغاء حلية او متاع آخر من الامتعة التي يحتاج اليها في مصالح البيت فانه ينفصل عنها نوع من الزبد والخبث ولا ينتفع به بل يضيع ويبطل ويبقى الخالص فالحاصل ان الوادي اذا جرى طفا عليه زبد وذلك الزبد يبطل ويبقى الماء والاجساد السبعة اذا اذيبت لاجل اتخاذ الحلي اولاجل اتخاذ سائر الامتعة انفصل عنها خبث وزبد فيبطل ويبقى ذلك الجوهر المنتفع به فكذا ههنا انزل من سماء الكبرياء والجلالة والاحسان ماء وهو القرآن والاودية قلوب العباد وشبه القلوب بالاودية لان القلوب تستقر فيها انوار علوم القرآن كما ان الاودية تستقر فيها المياه النازلة من السماء وكما ان كل واحد فانما يحصل فيه من مياه الامطار ما يليق بسعته او ضيقه فكذلك ههنا كل قلب انما يحصل فيه من انوار علوم القرآن ما يليق بذلك القلب من طهارته وخبثه وقوة فهمه وقصور فهمه وكما ان الماء يعلوه زبد الاجساد السبعة المذابة يخالطها خبث ثم ان ذلك الزبد والخبث يذهب ويضيع ويبقى جوهر الماء وجوهر الاجساد السبعة كذا ههنا بيانات القرآن تختلط بها شكوك وشبهات ثم انها بالآخرة تزول وتضيع ويبقى

في بيان حال اهل كل منهما مآلا تكميلا للدعوة ترغيبا وترهيبا فقيل (للذين استجابوا لربهم) اذ دعاهم الى الحق بفنون الدعوة التي من جملتها ضرب الامثال فانه الطف ذريعة الى تفهيم القلوب الغبية واقوى وسيلة الى تسخير النفوس الآبية كيف لا وهو تصوير للمعقول بصورة المحسوس وابراز لاوابد المعاني في هيئة المأنوس فأي دعوة اولى منه بالاستجابة والقبول (الحسنى) اي المثوبة الحسنى وهي الجنة (والذين لم يستجيبوا له) وعاندوا الحق الجلي (لو ان لهم ما في الارض) من اصناف الاموال (جميعا) بحيث لم يشذ منه شاذ في اقطارها او مجموعا غير متفرق بحسب الازمان (ومثله معه لافتدوا به) اي بما في الارض ومثله معه جميعا ليتخلصوا عما بهم وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا يحيط به البيان فالموصول مبتدأ والشرطية كما هي خبره لكن لا على انها وضعت موضع السوأى فوقعت في مقابلة الحسنى الواقعة في القرينة الاولى لمراعاة حسن المقابلة فصار كأنه قيل وللذين لم يستجيبوا له السوأى كما توهم فان الشرطية وان دلت على كمال سوء حالهم لكنها بمعزل من القيام مقام لفظ السوأى مصحوبا باللام الداخلة على الموصول او ضميره وعليه يدور حصول المرام وانما الواقع في تلك المقابلة سوء الحساب في قوله تعالى (أولئك لهم سوء الحساب) وحيث كان اسم الاشارة الواقع مبتدأ في هذه الجملة عبارة عن الموصول

العلم والدين والحكمة والمكاشفة في العاقبة فهذا هو تقرير هذا المثل ووجه انطباق المثل على الممثل به واكثر المفسرين سكتوا عن بيان كيفية التمثيل والتشبيه ( المسئلة الثانية ) في المباحث اللفظية التي في هذه الآية في لفظ الاودية ابحاث ( البحث الاول ) الاودية جمع واد وفي الوادي قولان الاول انه عبارة عن الفضاء المنخفض عن الجبال والتلال الذي يجري فيه السيل هذا قول عامة اهل اللغة والقول الثاني قال السهروردي يسمى الماء واديا اذا سال قال ومنه سمي الودي وديا لخروجه وسيلانه وعلى هذا القول فالوادي اسم للماء السائل كالمسيل والاول هو القول المشهور الان على هذا التقدير يكون قوله سالت اودية مجازا فكان التقدير سالت مياه الاودية الا انه حذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه ( البحث الثاني ) قال ابو علي الفارسي رحمه الله الاودية جمع واد ولا نعلم فاعلا جمع على افعلة قال ويشبه ان يكون ذلك لتعاقب فاعل وفعيل على الشيء الواحد كعالم وعليم وشاهد وشهيد وناصر ونصير ثم ان وزن فاعل يجمع على افعال كصاحب واصحاب وطائر واطيار ووزن فعيل يجمع على افعلة كجريب واجربة ثم لما حصلت المناسبة المذكورة بين فاعل وفعيل لا جرم يجمع الفاعل جمع الفعيل فيقال واد واودية ويجمع الفعيل على جمع الفاعل فيقال يتيم وايتام وشريف واشراف هذا ماقاله ابو علي الفارسي رحمه الله وقال غيره نظيره واد واودية ناد واندية للمجالس (البحث الثالث) انما ذكر لفظ اودية على سبيل التنكير لان المطر لا يأتي الا على طريق المناوبة بين البقاع فتسيل بعض اودية الارض دون بعض * اما قوله تعالى بقدرها ففيه بحثان (الاول) قال الواحدي القدر والقدر مبلغ الشيء يقال كم قدر هذه الدراهم وكم قدرها ومقدارها اي كم تبلغ في الوزن فما يكون مساويا لها في الوزن فهو قدرها (البحث الثاني) سالت اودية بقدرها اي من الماء فان صغر الوادي قل الماء وان اتسع الوادي كثر الماء * اما قوله فاحتمل السيل زبدا رابيا ففيه بحثان (البحث الاول) قال الفراء يقال ازبد الوادي ازبادا والزبد الاسم وقوله رابيا قال الزجاج طافيا عاليا فوق الماء وقال غيره زائدا بسبب انتفاخه يقال ربا يربو اذا زاد * اما قوله تعالى ومما توقدون عليه في النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله فاعلم انه تعالى لما ضرب المثل بالزبد الحاصل من الماء اتبعه بضرب المثل بالزبد الحاصل من النار وفيه مباحث (البحث الاول) قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم يوقدون بالياء واختاره ابو عبيدة لقوله ينفع الناس وايضا فليس ههنا مخاطب والباقون بالتاء على الخطاب وعلى هذا التقدير ففيه وجهان الاول انه خطاب للمذكورين في قوله قل افاتخذتم من دونه اولياء والثاني انه يجوز ان يكون خطابا عاما يراد به الكافة كأنه قال ومما توقدون عليه في النار ايها الموقدون ( البحث الثاني ) الايقاد على الشيء على قسمين احدهما ان لا يكون ذلك الشيء في النار وهو كقوله تعالى فأوقد لي ياهامان على الطين والثاني ان يوقد على الشيء ويكون ذلك الشيء في النار فان من اراد تذويب الاجساد

الواقع مبتدأ في الجملة السابقة كان خبرها اعني الجملة الظرفية خبرا عن الموصول في الحقيقة ومبينا لابهام مضمون الشرطية الواقعة خبرا عنه اولا ولذلك ترك العطف فصار كأنه قيل والذين لم يستجيبوا له لهم سوء الحساب وذلك في قوة ان يقال وللذين لم يستجيبوا له سوء الحساب مع زيادة تأكيد فقدم حسن المقابلة على ابلغ وجه وآكده ثم بين مؤدى ذلك فقيل (ومأواهم) اي مرجعهم ( جهنم ) وفيه نوع تأكيد لتفسير الحسنى بالجنة ( وبئس المهاد ) اي المستقر والمخصوص بالذم محذوف وقيل اللام في قوله تعالى للذين استجابوا لربهم متعلقة بقوله يضرب الله الامثال اي الامثال السالفة وقوله الحسنى صفة لمصدر اي استجابوا الاستجابة الحسنى وقوله والذين لم يستجيبوا له معطوف على الموصول الاول وقوله لو ان لهم الخ كلام مستأنف مسوق لبيان ما أعد لغير المستجيبين من العذاب والمعنى كذلك يضرب الله الامثال للمؤمنين المستجيبين والكافرين المعاندين اي هما مثلا الفريقين وانت خبير بأن عنوان الاستجابة وعدمها لامناسبة بينه وبين مايدور عليه امر التمثيل وان الاستعمال المستفيض دخول اللام على من يقصد تذكيره بالمثل نعم قد يستعمل في هذا المعنى ايضا كما في قوله سبحانه ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ونظائره على ان بعض الامثال المضروبة لاسيما

السبعة جعلها في النار فلهذا السبب قال ههنا ومما توقدون عليه في النار (البحث الثالث) في قوله ابتغاء حلية قال اهل المعاني الذي يوقد عليه لابتغاء الحلية الذهب والفضة والذي يوقد عليه لابتغاء الامتعة الحديد والنحاس والرصاص والاسرب يتخذ منها الاواني والاشياء التي ينتفع بها والمتاع كل ما يتمتع به وقوله زبد مثله اي زبد مثل زبد الماء الذي يحمله السيل ثم قال تعالى كذلك يضرب الله الحق والباطل والمعنى كذلك يضرب الله الامثال للحق والباطل ثم قال اما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس قال الفراء الجفاء الرمي والاطراح يقال جفا الوادي غثاءه يجفوه جفاء اذا رماه والجفاء اسم للمجتمع منه المنضم بعضه الى بعض وموضع جفاء نصب على الحال والمعنى ان الزبد قد يعلو على وجه الماء ويربو وينتفخ الا انه بالآخرة يضمحل ويبقى الجوهر الصافي من الماء ومن الاجساد السبعة فكذلك الشبهات والخيالات قد تقوى وتعظم الا انها بالآخرة تبطل وتضمحل وتزول ويبقى الحق ظاهرا لا يشوبه شيء من الشبهات وفي قراءة رؤبة بن العجاج جفالا وعن أبي حاتم لا يقرأ بقراءة رؤبة لانه كان يأكل الفار اما قوله تعالى للذين استجابوا لربهم الحسنى ففيه وجهان الاول انه تم الكلام عند قوله كذلك يضرب الله الامثال ثم استأنف الكلام بقوله للذين استجابوا لربهم الحسنى ومحله الرفع بالابتداء والذين خبره وتقديره لهم الخصلة الحسنى والحالة الحسنى الثاني انه متصل بما قبله والتقدير كأنه قال الذي يبقى هو مثل المستجيب والذي يذهب جفاء مثل من لا يستجيب ثم بين الوجه في كونه مثلا وهو انه لمن يستجيب الحسنى وهو الجنة ولمن لا يستجيب انواع الحسرة والعقوبة وفيه وجه آخر وهو ان يكون التقدير كذلك يضرب الله الامثال للذين استجابوا لربهم الاستجابة الحسنى فيكون الحسنى صفة لمصدر محذوف واعلم انه تعالى ذكر ههنا احوال السعداء واحوال الاشقياء اما احوال السعداء فهي قوله للذين استجابوا لربهم الحسنى والمعنى ان الذين اجابوه الى ما دعاهم اليه من التوحيد والعدل والنبوة وبعث الرسل والتزام الشرائع الواردة على لسان رسوله فلهم الحسنى قال ابن عباس الجنة وقال اهل المعاني الحسنى هي المنفعة العظمى في الحسن وهي المنفعة الخالصة عن شوائب المضرة الدائمة الخالية عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم والاجلال ولم يذكر الزيادة ههنا لانه تعالى قد ذكرها في سورة أخرى وهو قوله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة واما احوال الاشقياء فهي قوله والذين لم يستجيبوا له فلهم انواع اربعة من العذاب والعقوبة (فالنوع الاول) قوله لو ان لهم ما في الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به والافتداء جعل احد الشيئين بدلا من الآخر ومفعول لافتدوا به محذوف تقديره لافتدوا به انفسهم اي جعلوه فداء انفسهم من العذاب والكناية في به عائد الى ما في قوله ما في الارض واعلم ان هذا المعنى حق لان المحبوب بالذات لكل انسان هو ذاته وكل ما سواه فانما يحبه لكونه وسيلة الى مصالح ذاته فاذا كانت النفس في الضرر والالم

المثل الاخير الموصول بالكلام ليس مثل الفريقين بل مثل للحق والباطل ولامساغ لجعل الفريقين مضروبا لهم ايضا بأن يجعل في حكم ان يقال كذلك يضرب الله الامثال للناس اذلا وجه حينئذ لتنويعهم الى المستجيبين وغير المستجيبين فتأمل (أفمن يعلم ان ما انزل اليك من ربك) من القرآن الذي مثل بالماء المنزل من السماء والابريز الخالص في المنفعة والجدوى (الحق) الذي لا حق وراءه او الحق الذي اشير اليه بالامثال المضروبة فيستجيب له (كمن هو أعمى) عمي القلب لا يشاهده وهو نار على علم ولا يقدر قدره وهو في اقصى مراتب العلو والعظم فيبقى حائرا في ظلمات الجهل وغياهب الضلال او لا يتذكر بما ضرب من الامثال اي كمن لا يعلم ذلك الا انه اريد زيادة تقبيح حاله فعبر عنه بالاعمى وايراد الفاء بعد الهمزة لتوجيه الانكار الى ترتب توهم المماثلة على ظهور حال كل منهما بما ضرب من الامثال وبين المصير والمآل كأنه قيل أبعد ما بين حال كل من الفريقين ومآلهما يتوهم المماثلة بينهما ثم استؤنف فقيل (انما يتذكر) بما ذكر من المذكرات فيقف على ما بينهما من التفاوت والتنائي (أولو الالباب) اي العقول الخالصة المبرأة من مشايعة الالف ومعارضة الوهم (الذين يوفون بعهد الله) بما عقدوا على انفسهم من الاعتراف بربوبيته تعالى حين قالوا بلى او ما عهد الله عليهم في كتبه (ولا ينقضون

والتعب وكان مالكا لما يساوي عالم الاجساد والارواح فانه يرضى بأن يجعله فداء لنفسه لان المحبوب بالعرض لابد وان يكون فداء لما يكون محبوبا بالذات (النوع الثاني) من انواع العذاب الذي اعده الله لهم هو قوله أولئك لهم سوء الحساب قال الزجاج ذلك لان كفرهم أحبط اعمالهم وأقول ههنا حالتان فكل ماشغلك بالله وعبوديته ومحبته فهي الحالة السعيدة الشريفة العلوية القدسية وكل ماشغلك بغير الله فهي الحالة الضارة المؤذية الخسيسة ولاشك ان هاتين الحالتين يقبلان الاشد والاضعف والاقل والازيد ولاشك ان المواظبة على الاعمال المناسبة لهذه الاحوال توجب قوتها ورسوخها لما ثبت في المعقولات ان كثرة الافعال توجب حصول الملكات الراسخة ولاشك انه لما كانت كثرة الافعال توجب حصول تلك الملكات الراسخة وكل واحدة من تلك الافعال حتى اللمحة واللحظة والخطور بالبال والالتفات الضعيف فانه يوجب اثرا ما في حصول تلك الحالة في النفس فهذا هو الحساب وعند التأمل في هذه الفصول يتبين للانسان صدق قوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره اذا ثبت هذا فالسعداء هم الذين استجابوا لربهم في الاعراض عما سوى الله وفي الاقبال بالكلية على عبودية الله تعالى ولاجرم حصل لهم الحسنى * واما الاشقياء فهم الذين لم يستجيبوا لربهم فلهذا السبب وجب ان يحصل لهم سوء الحساب والمراد بسوء الحساب انهم احبوا الدنيا واعرضوا عن المولى فلما ماتوا بقوا محرومين عن معشوقهم الذي هو الدنيا وبقوا محرومين عن الفوز بخدمة حضرة المولى (النوع الثالث) قوله تعالى ومأواهم جهنم وذلك لانهم كانوا غافلين عن الاستسعاد بخدمة حضرة المولى عاكفين على لذات الدنيا فاذا ماتوا فارقوا معشوقهم فيحترقون على مفارقتها وليس عندهم شئ آخر يجبر هذه المصيبة فلذلك قال مأواهم جهنم ثم انه تعالى وصف هذا المأوى فقال وبئس المهاد ولاشك ان الامر كذلك * ثم قال تعالى أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى فهذا اشارة الى المثل المتقدم ذكره وهو ان العالم بالشئ كالبصير والجاهل به كالاعمى وليس احدهما كالآخر لان الاعمى اذا أخذ يمشي من غير قائد فالظاهر انه يقع في البئر وفي المهالك وربما افسد ما كان على طريقه من الامتعة النافعة اما البصير فانه يكون آمنا من الهلاك والاهلاك ثم قال انما يتذكر اولوا الالباب والمراد انه لاينتفع بهذه الامثلة الا ارباب الالباب الذين يطلبون من كل صورة معناها ويأخذون من كل قشرة لبابها ويعبرون بظاهر كل حديث الى سره ولبابه * قوله عزوجل (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤن بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) اعلم ان هذه الآية هل هي متعلقة بما

(قبلها)

الميثاق) ما وثقوه على انفسهم وقبلوه من الايمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد وهو تعميم بعد تخصيص وفيه تأكيد للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل (والذين يصلون ما أمر الله به ان يوصل) من الرحم وموالاة المؤمنين والايمان بجميع الانبياء اجمعين على الحق من غير تفريق بين احد منهم ويندرج فيه مراعاة جميع حقوق الناس بل حقوق كل ما يتعلق بهم من الهر والدجاج (ويخشون ربهم) خشية جلال وهيبة ورهبة فلا يعصونه فيما امر به (ويخافون سوء الحساب) فيحاسبون انفسهم قبل ان يحاسبوا وفيه دلالة على كمال فظاعته حسبما ذكر فيما قبل (والذين صبروا) على كل ما تكرهه النفس من الافعال والتروك (ابتغاء وجه ربهم) طلبا لرضاه خاصة من غير ان ينظروا الى جانب الخلق رياء وسمعة ولا الى جانب النفس زينة وعجبا وحيث كان الصبر على الوجه المذكور ملاك الامر في كل ما ذكر من الصلات السابقة واللاحقة اورد على صيغة الماضي اعتناء بشأنه ودلالة على وجوب تحققه فان ذلك مما لابد منه اما في انفس الصلات كما فيما عدا الاولى والرابعة والخامسة او في اظهار احكامها كما في الصلات الثلاث المذكورات فانها وان استغنت عن الصبر في انفسها حيث لامشقة على النفس في الاعتراف بالربوبية والخشية والخوف لكن اظهار احكامها والجري على موجبها

قبلها ام لافيه قولان الاول انها متعلقة بماقبلها وعلى هذا التقدير ففيه وجهان الاول انه يجوز ان يكون قوله الذين يوفون بعهدالله صفة لاولى الالباب والثانى ان يكون ذلك صفة لقوله أفمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق والقول الثانى ان يكون قوله الذين يوفون بعهدالله مبتدأ واولئك لهم عقبى الدار خبره كقوله والذين ينقضون عهدالله اولئك لهم اللعنة واعلم ان هذه الآية من اولها الى آخرها جملة واحدة شرط وجزاء وشرطها مشتمل على قيود وجزاؤها يشتمل ايضا على قيود اما القيود المعتبرة فى الشرط فهى تسعة (القيد الاول) قوله الذين يوفون بعهدالله وفيه وجوه الاول قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد الذى عاهدهم عليه حين كانوا فى صلب آدم واشهدهم على انفسهم ألست بربكم قالوا بلى والثانى ان المراد بعهدالله كل امر قام الدليل على صحته وهو من وجهين احدهما الاشياء التى اقام الله عليها دلائل عقلية قاطعة لاتقبل النسخ والتغيير والآخر التى اقام الله عليها الدلائل السمعية وبين لهم تلك الاحكام والحاصل انه دخل تحت قوله يوفون بعهدالله كل ماقام الدليل عليه ويصح اطلاق لفظ العهد على الحجة بل الحق انه لاعهد اوكد من الحجة والدلالة على ذلك ان من حلف على الشئ فانما يلزمه الوفاء به اذا ثبت بالدليل وجوبه لابمجرد اليمين ولذلك ربما يلزمه ان يحنث نفسه اذا كان ذلك خيرا له فلاعهد اوكد من الزام الله تعالى اياه ذلك بدليل العقل او بدليل السمع ولايكون العبد موفيا للعهد الا بأن يأتى بكل تلك الاشياء كما ان الحالف على اشياء كثيرة لايكون بارا فى يمينه الا اذا فعل الكل ويدخل فيه الاتيان بجميع المأمورات والانتهاء عن كل المنهيات ويدخل فيه الوفاء بالعقود فى المعاملات ويدخل فيه اداء الامانات وهذا القول هو المختار الصحيح فى تأويل الآية (القيد الثانى) قوله ولاينقضون الميثاق وفيه اقوال الاول وهو قول الاكثرين ان هذا الكلام قريب من الوفاء بالعهد فان الوفاء بالعهد قريب من عدم نقض الميثاق والعهد وهذا مثل ان يقول انه لما وجب وجوده لزم ان يمتنع عدمه فهذان المفهومان متغايران الا انهما متلازمان فكذلك الوفاء بالعهد يلزمه ان لاينقض الميثاق واعلم ان الوفاء بالعهد من اجل مراتب السعادة قال عليه السلام لاايمان لمن لاامانة له ولادين لمن لاعهد له والآيات الواردة فى هذا الباب كثيرة فى القرآن والقول الثانى ان الميثاق ماوثقه المكلف على نفسه فالحاصل ان قوله الذين يوفون بعهدالله اشارة الى ماكلف الله العبد به ابتداء وقوله ولاينقضون الميثاق اشارة الى ماالتزمه العبد من انواع الطاعات بحسب اختيار نفسه كالنذر بالطاعات والخيرات والقول الثالث ان المراد بالوفاء بالعهد عهد الربوبية والعبودية والمراد بالميثاق المواثيق المذكورة فى التوراة والانجيل وسائر الكتب الالهية على وجوب الايمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم عند ظهوره واعلم ان الوفاء بالعهد امر مستحسن فى العقول والشرائع قال عليه السلام من عاهد الله فغدر كانت فيه خصلة من النفاق وعنه عليه السلام ثلاثة

غير خال عن الاحتياج اليه (وأقاموا الصلوة) المفروضة (وأنفقوا مما رزقناهم) اى بعضه الذى يجب عليهم انفاقه (سرا) لمن لم يعرف بالمال اولمن لايتهم بترك الزكاة اوعند انفاقه واعطائه من تمنعه المروءة من اخذه ظاهرا (وعلانية) لمن لم يكن كذلك او الاول فى التطوع والثانى فى الفرض (ويدرؤن بالحسنة السيئة) اى يجازون الاساءة بالاحسان اويتبعون الحسنة السيئة فتمحوها عن ابن عباس رضى الله عنهما يدفعون بالحسن من الكلام مايرد عليهم من سيئ غيرهم وعن الحسن اذا حرموا اعطوا واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا وعن ابن كيسان اذا اذنبوا تابوا وقيل اذا رأوا منكرا أمروا بتغييره وتقديم المجرور على المنصوب لاظهار كمال العناية بالحسنة (اولئك) المنعوتون بالنعوت الجليلة والملكات الجميلة وهو مبتدأ خبره الجملة الظرفية اعنى قوله تعالى (لهم عقبى الدار) اى عاقبة الدنيا وماينبغى ان يكون مآل امر اهلها وهى الجنة وقيل الجار والمجرور خبر لأولئك وعقبى الدار فاعل الاستقرار وايا ما كان فليس فيه قصر حتى يرد ان بعض مافى حيز الصلة ليس من العزائم التى يخل اخلالها بالوصول الى حسن العاقبة والجملة خبر للموصولات المتعاطفة اواستئناف لبيان ما استوجبوه بتلك الصفات ان جعلت الموصولات المتعاطفة صفات لأولى الالباب على طريقة المدح من غير ان يقصد

انا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته رجل اعطى عهدا ثم غدر ورجل استأجر اجيرا استوفى عمله وظلمه اجره ورجل باع حرا فاسترق الحر واكل ثمنه وقيل كان بين معاوية وملك الروم عهد فأراد ان يذهب اليهم وينقض العهد فاذا رجل على فرس يقول وفاء بالعهد لاغدر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كان بينه وبين قوم عهد فلا ينبذن اليهم عهده ولا يحلها حتى ينقضي الامد وينبذ اليهم على سواء قال من هذا قالوا عمرو بن عيينة فرجع معاوية (القيد الثالث) والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل وههنا سؤال وهو ان الوفاء بالعهد وترك نقض الميثاق اشتمل على وجوب الاتيان بجميع المأمورات والاحتراز عن كل المنهيات فالفائدة في ذكر هذه القيود المذكورة بعدهما والجواب من وجهين الاول انه ذكر لئلا يظن ظان ان ذلك فيما بينه وبين الله تعالى فلاجرم افرد ما بينه وبين العباد بالذكر والثاني انه تأكيد اذا عرفت هذا فنقول ذكروا في تفسيره وجوها الاول ان المراد منه صلة الرحم قال عليه السلام ثلاث يأتين يوم القيامة لها ذلق الرحم تقول اى رب قطعت والامانة تقول اى رب تركت والنعمة تقول اى رب كفرت والقول الثاني ان المراد صلة محمد صلى الله عليه وسلم ومؤازرته ونصرته في الجهاد والقول الثالث رعاية جميع الحقوق الواجبة للعباد فيدخل فيه صلة الرحم وصلة القرابة الثابتة بسبب اخوة الايمان كما قال انما المؤمنون اخوة ويدخل في هذه الصلة امدادهم بايصال الخيرات ودفع الآفات بقدر الامكان وعيادة المريض وشهود الجنائز وافشاء السلام على الناس والتبسم في وجوههم وكف الاذى عنهم ويدخل فيه كل حيوان حتى الهرة والدجاجة وعن الفضيل بن عياض رحمه الله ان جماعة دخلوا عليه بمكة فقال من اين انتم قالوا من خراسان فقال اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم واعلموا ان العبد لو احسن كل الاحسان وكان له دجاجة فأساء اليها لم يكن من المحسنين واقول حاصل الكلام ان قوله الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق اشارة الى التعظيم لامر الله وقوله والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل اشارة الى الشفقة على خلق الله (القيد الرابع) قوله ويخشون ربهم والمعنى انه وان اتى بكل ما قدر عليه في تعظيم امر الله وفي الشفقة على خلق الله الا انه لابد وان تكون الخشية من الله والخوف منه مستوليا على قلبه وهذه الخشية نوعان احدهما ان يكون خائفا من ان يقع زيادة او نقصان او خلل في عباداته وطاعاته بحيث يوجب فساد العبادة او يوجب نقصان ثوابها والثاني وهو خوف الجلال وذلك لان العبد اذا حضر عند السلطان المهيب القاهر فانه وان كان في عين طاعته الا انه لا يزول عن قلبه مهابة الجلالة والرفعة والعظمة (القيد الخامس) قوله ويخافون سوء الحساب اعلم ان القيد الرابع اشارة الى الخشية من الله وهذا القيد الخامس اشارة الى الخوف والخشية وسوء الحساب وهذا يدل على ان المراد من الخشية من الله ما ذكرناه من خوف الجلال والمهابة والعظمة والالزم

(التكرار)

ان يكون للصلات المذكورة مدخل في التذكر (جنات عدن) بدل من عقبى الدار او مبتدأ خبره (يدخلونها) والعدن الاقامة ثم صار علما لجنة من الجنات اى جنات يقيمون فيها وقيل هو بطنان الجنة (ومن صلح من آبائهم) جمع ابوى كل واحد منهم فكأنه قيل من آبائهم وامهاتهم (وازواجهم وذرياتهم) وهو عطف على المرفوع في يدخلون وانما ساغ ذلك للفصل بالضمير الآخر او مفعول معه والمعنى انه يلحق بهم من صلح من اهلهم وان لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعا لهم تعظيما لشأنهم وهو دليل على ان الدرجة تعلو بالشفاعة وان الموصوف بتلك الصفات يقرن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة في دخول الجنة زيادة في انسهم وفي التقييد بالصلاح قطع للاطماع الفارغة لمن تمسك بمجرد حبل الانساب (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) من ابواب المنازل او من ابواب الفتوح والتحف قائلين (سلام عليكم) بشارة لهم بدوام السلامة (بما صبرتم) متعلق بعليكم او بمحذوف اى هذه الكرامة العظمى بما صبرتم اى بسبب صبركم او بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه والمعنى لئن تعبتم في الدنيا لقد استرحتم الساعة وتخصيص الصبر بما ذكر من بين الصلات السابقة لما قدمناه من ان له دخلا في كل منها ومزية زائدة من حيث انه ملاك الامر في كل منها وان شيئا منها لا يعتد به الا

التكرار (القيد السادس) قوله تعالى والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم فيدخل فيه الصبر على فعل العبادات والصبر على ثقل الامراض والمضار والغموم والاحزان والصبر على ترك المشتهيات وبالجملة الصبر على ترك المعاصي وعلى اداء الطاعات ثم ان الانسان قد يقدم على الصبر لوجوه احدها ان يصبر يقال ما اكمل صبره واشد قوته على تحمل النوازل وثانيها ان يصبر لئلا يعاب بسبب الجزع وثالثها ان يصبر لئلا تحصل شماتة الاعداء ورابعها ان يصبر لعلمه بأن لا فائدة في الجزع فالانسان اذا اتى بالصبر لاحد هذه الوجوه لم يكن ذلك داخلا في كمال النفس وسعادة القلب اما اذا صبر على البلاء لعلمه بأن ذلك البلاء قسمة حكم بها القسام العلام المنزه عن العيب والباطل والسفه بل لابد ان تكون تلك القسمة مشتملة على حكمة بالغة ومصلحة راجحة ورضى بذلك لانه تصرف المالك في ملكه ولا اعتراض على المالك في ان يتصرف في ملكه او يصبر لانه صار مستغرقا في مشاهدة المبلي فكان استغراقه في تجلي نور المبلي اذهله عن التألم بالبلاء وهذا اعلى مقامات الصديقين فهذه الوجوه الثلاثة هي التي يصدق عليها انه صبر ابتغاء وجه ربه ومعناه انه صبر لمجرد ثوابه وطلب رضا الله تعالى واعلم ان قوله ابتغاء وجه ربهم فيه دقيقة وهي ان العاشق اذا ضربه معشوقه فربما نظر العاشق لذلك الضارب وفرح به فقوله ابتغاء وجه ربهم محمول على هذا المجاز يعني كأن العاشق يرضى بذلك الضرب لالتذاذه بالنظر الى وجه معشوقه فكذلك العبد يصبر على البلاء والمحنة ويرضى به لاستغراقه في معرفة نور الحق وهذه دقيقة لطيفة (القيد السابع) قوله واقاموا الصلاة واعلم ان الصلاة والزكاة وان كانتا داخلتين في الجملة الاولى الا انه تعالى افردها بالذكر تنبيها على كونها اشرف من سائر العبادات وقد سبق في هذا الكتاب تفسير اقامة الصلاة ولا يمتنع ادخال النوافل فيه ايضا (القيد الثامن) قوله تعالى وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال الحسن المراد الزكاة المفروضة فان لم يتهم بترك اداء الزكاة فالاولى اداؤها سرا وان اتهم بترك الزكاة فالاولى اداؤها في العلانية وقيل السر مايؤديه بنفسه والعلانية مايؤديه الى الامام وقال آخرون بل المراد الزكاة الواجبة والصدقة التي يؤتى بها على صفة التطوع فقوله سرا يرجع الى التطوع وقوله علانية يرجع الى الزكاة الواجبة (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة انه تعالى رغب في الانفاق من كل ما كان رزقا وذلك يدل على انه لارزق الا الحلال اذ لو كان الحرام رزقا لكان قد رغب تعالى في انفاق الحرام وانه لايجوز (القيد التاسع) قوله ويدرؤن بالحسنة السيئة وفيه وجهان الاول انهم اذا أتوا بمعصية درؤها ودفعوها بالتوبة كما روى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل اذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها والثاني ان المراد انهم لايقابلون الشر بالشر بل يقابلون الشر بالخير كما قال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما وعن ابن عمر رضي الله عنهما ليس الوصول من وصل ثم وصل تلك المجازاة

---

بان يكون لابتغاء وجه الرب تعالى وتقدس (فنعم عقبى الدار) اى فنعم عقبى الدار الجنة وقرئ بفتح النون والاصل نعم فسكن العين بنقل حركتها الى النون تارة وبدونه اخرى وعن النبي عليه السلام انه كان يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وكذا عن الخلفاء الاربعة رضوان الله عليهم أجمعين (والذين ينقضون عهد الله) أريد بهم من يقابل الاولين ويعاندهم في الاتصاف بنقائض صفاتهم (من بعد ميثاقه) من بعد ما اوثقوه من الاعتراف والقبول (ويقطعون ما أمر الله به ان يوصل) من الايمان بجميع الانبياء المجمعين على الحق حيث يؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعضهم ومن حقوق الارحام وموالاة المؤمنين وغير ذلك مما لايراعون حقوقه من الامور المعدودة فيما سلف وانما لم يتعرض لنفي الخشية والخوف عنهم صريحا لدلالة النقض والقطع على ذلك واما عدم التعرض لنفي الصبر المذكور فلانه انما اعتبر تحققه في ضمن الحسنات المعدودة ليقعن معتدا بهن فلا وجه لنفيه عمن بينه وبين الحسنات بعد المشرقين كما لاوجه لنفي الصلاة والزكاة ممن لايحوم حول اصل الايمان بالله تعالى فضلا عن فروع الشرائع وان اريد بالانفاق التطوع فنفيه مندرج تحت قطع ما امر الله تعالى بوصله واما درء السيئة بالحسنة فانتفاؤه عنهم ظاهر مما سبق ولحق

لكنه من قطع ثم وصل وعطف على من لم يصله وليس الحليم من ظلم ثم حلم حتى اذا هيجه قوم اهتاج لكن الحليم من قدر ثم عفا وعن الحسن هم الذين اذا حرموا اعطوا واذا ظلموا عفوا ويروى ان شقيق بن ابراهيم البلخي دخل على عبدالله بن المبارك متنكرا فقال من أين انت فقال من بلخ فقال وهل تعرف شقيقا قال نعم فقال وكيف طريقة اصحابه فقال اذا منعوا صبروا وان أعطوا شكروا فقال عبدالله طريقة كلابنا هكذا فقال وكيف ينبغي ان يكون فقال الكاملون هم الذين اذا منعوا شكروا واذا أعطوا آثروا * واعلم ان جملة هذه القيود التسعة هي القيود المذكورة في الشرط اما القيود المذكورة في الجزاء فهي اربعة ( القيد الاول ) قوله أولئك لهم عقبى الدار أي عاقبة الدار وهي الجنة لانها هي التي أراد الله ان تكون عاقبة الدنيا ومرجع اهلها قال الواحدي العقبى كالعاقبة ويجوز ان تكون مصدرا كالشورى والقربى والرجعى وقد يجيء مثل هذا ايضا على فعلى كالنجوى والدعوى وعلى فعلى كالذكرى والضيزى ويجوز ان يكون اسما وهو ههنا مصدر مضاف الى الفاعل والمعنى اولئك لهم ان تعقب اعمالهم الدار التي هي الجنة ( القيد الثاني ) قوله جنات عدن يدخلونها وفيه مسئلتان ( المسئلة الاولى ) قال الزجاج جنات عدن بدل من عقبى والكلام في جنات عدن ذكرناه مستقصى عند قوله تعالى ومساكن طيبة في جنات عدن وذكرنا هناك مذهب المفسرين ومذهب اهل اللغة ( المسئلة الثانية ) قرأ ابن كثير وابو عمرو يدخلونها بضم الياء وفتح الخاء على مالم يسم فاعله والباقون بفتح الياء وضم الخاء على اسناد الدخول اليهم ( القيد الثالث ) قوله ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم وفيه مسائل ( المسئلة الاولى ) قرأ ابن علية صلح بضم اللام قال صاحب الكشاف والفتح أفصح ( المسئلة الثانية ) قال الزجاج موضع من رفع لاجل العطف على الواو في قوله يدخلونها ويجوز ان يكون نصبا كما تقول قد دخلوا وزيدا أي مع زيد ( المسئلة الثالثة ) في قوله ومن صلح قولان الاول قال ابن عباس يريد من صدق بما صدقوا به وان لم يعمل مثل اعمالهم وقال الزجاج بين تعالى ان الانساب لا تنفع اذا لم يحصل معها اعمال صالحة بل الآباء والازواج والذريات لا يدخلون الجنة الا بالاعمال الصالحة قال الواحدي والصحيح ماقال ابن عباس لان الله تعالى جعل من ثواب المطيع سروره بحضور اهله معه في الجنة وذلك يدل على انهم يدخلونها كرامة للمطيع الآتي بالاعمال الصالحة ولو دخلوها بأعمالهم الصالحة لم يكن في ذلك كرامة للمطيع ولا فائدة في الوعد به اذ كل من كان مصلحا في عمله فهو يدخل الجنة واعلم ان هذه الحجة ضعيفة لان المقصود بشارة المطيع بكل مايزيده سرورا وبهجة فاذا بشر الله المكلف بانه اذا دخل الجنة فانه يحضر معه آباؤه وازواجه واولاده فلاشك انه يعظم سرور المكلف بذلك وتقوى بهجته به ويقال ان من اعظم موجبات سرورهم ان يجتمعوا فيتذاكروا احوالهم في الدنيا ثم يشكرون الله على الخلاص منها والفوز بالجنة ولذلك قال تعالى

فان من يجازى احسانه عزوجل بنقض العهد ومخالفة الامر ويباشر الفساد بدأ حسبما يحكيه قوله عز وعلا ( ويفسدون في الارض ) اى بالظلم وتهييج الفتن كيف يتصور منه مجازاة الاساءة بالاحسان على ان ذلك يشعر بان له دخلا في الافضاء الى العقوبة التي ينبئ عنها قوله تعالى ( أولئك ) الخ اى أولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح ( لهم ) بسبب ذلك ( اللعنة ) اى الابعاد من رحمة الله تعالى ( ولهم ) مع ذلك ( سوء الدار ) اى سوء عاقبة الدنيا اوعذاب جهنم فانها دارهم لان ترتيب الحكم على الموصول مشعر بعلية الصلة له ولا يخفى انه لادخل له في ذلك على اكثر التفاسير فان مجازاة السيئة بمثلها مأذون فيها ودفع الكلام السيئ بالحسن وكذا الاعطاء عند المنع والعفو عند الظلم والوصل عند القطع ليس مما يورث تركه تبعة واما ما اعتبر اندراجه تحت الصلة الثانية من الاخلال ببعض الحقوق المندوبة فلا ضير في ذلك لان اعتباره من حيث انه من مستتبعات الاخلال بالعزائم بالكفر ببعض الانبياء وعقوق الوالدين وترك سائر الحقوق الواجبة وتكرير لهم للتأكيد والايذان باختلافهما واستقلال كل منهما في الثبوت ( الله يبسط الرزق ) اى يوسعه ( لمن يشاء ) من عباده ( ويقدر ) اى يضيقه على من يشاء حسبما تقتضيه الحكمة من غير ان يكون لاحد مدخل في ذلك ولاشعور بحكمته فربما

( في صفة )

في صفة اهل الجنة انهم يقولون ياليت قومي يعلمون بما غفرلي ربي وجعلني من المكرمين (المسئلة الرابعة) قوله وازواجهم ليس فيه مايدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل الاولى من مات عنها او ماتت عنه وماروى عن سودة انه لماهم الرسول صلى الله عليه وسلم بطلاقها قالت دعني يارسول الله احشر في زمرة نسائك كالدليل على ماذكرناه (القيد الرابع) قوله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس لهم خيمة من درة مجوفة طولها فرسخ وعرضها فرسخ لها الف باب مصاريعها من ذهب يدخلون عليهم الملائكة من كل باب يقولون سلام عليكم بما صبرتم على امر الله وقال ابوبكر الاصم من كل باب من ابواب البر كباب الصلاة وباب الزكاة وباب الصبر ويقولون ونعم ماأعقبكم الله بعد الدار الاولى واعلم ان دخول الملائكة ان حملناه على الوجه الاول فهو مرتبة عظيمة وذلك لان الله تعالى اخبر عن هؤلاء المطيعين انهم يدخلون جنة الخلد ويجتمعون بآبائهم وازواجهم وذرياتهم على احسن وجه ثم ان الملائكة مع جلالة مراتبهم يدخلون عليهم لاجل التحية والاكرام عند الدخول عليهم يكرمونهم بالتحية والسلام ويبشرونهم بقولهم فنعم عقبى الدار ولاشك ان هذا غير مايذكره المتكلمون من ان الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالاجلال والتعظيم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يأتي قبور الشهداء رأس كل حول فيقول السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار والخلفاء الاربعة هكذا كانوا يفعلون واما ان حملناه على الوجه الثاني فتفسير الآية ان الملائكة طوائف منهم روحانيون ومنهم كروبيون فالعبد اذا راض نفسه بأنواع الرياضات كالصبر والشكر والمراقبة والمحاسبة ولكل مرتبة من هذه المراتب جوهر قدسي وروح علوي يختص بتلك الصفة مزيد اختصاص فعند الموت اذا اشرقت تلك الجواهر القدسية تجلت فيها من كل روح من الارواح السماوية مايناسبها من الصفة المخصوصة بها فيفيض عليها من ملائكة الصبر كمالات مخصوصة نفسانية لاتظهر الا في مقام الصبر ومن ملائكة الشكر كمالات روحانية لاتتجلى الا من مقام الشكر وهكذا القول في جميع المراتب (المسئلة الثانية) تمسك بعضهم بهذه الآية على ان الملك افضل من البشر فقال انه سبحانه ختم مراتب سعادات البشر بدخول الملائكة عليهم على سبيل التحية والاكرام والتعظيم فكانوا به اجل مرتبة من البشر ولو كانوا اقل مرتبة من البشر لما كان دخولهم عليهم لاجل السلام والتحية موجبا علو درجاتهم وشرف مراتبهم ألا ترى ان من عاد من سفره الى بيته فاذا قيل في معرض كمال مرتبته انه يزوره الامير والوزير والقاضي والمفتي فهذا يدل على ان درجة ذلك المزور اقل وادنى من درجات الزائرين فكذلك ههنا (المسئلة الثالثة) قال الزجاج ههنا محذوف تقديره الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ويقولون سلام عليكم فأضمر القول ههنا لان في الكلام دليلا عليه واما قوله بما صبرتم

يبسطه للكافر املاء واستدراجا وربما يضيقه على المؤمن زيادة لاجره فلايغتر بسطه الكافر كما لايقنط بقدره المؤمن (وفرحوا) اى اهل مكة فرح اشر وبطر لا فرح سرور بفضل الله تعالى (بالحيوة الدنيا) ومابسط لهم فيها من نعيمها (وما الحياة الدنيا) وما يتبعها من النعيم (في الآخرة) اى في جنب نعيم الآخرة (الامتاع) الاشئ نزر يتمتع به كعجالة الراكب وزاد الراعي والمعنى انهم رضوا بحظ الدنيا معرضين عن نعيم الآخرة والحال انما اشروا به في جنب ما اعرضوا عنه شئ قليل النفع سريع النفاد (ويقول الذين كفروا) اى اهل مكة وايثار هذه الطريقة على الاضمار مع ظهور ارادتهم عقيب ذكر فرحهم بالحياة الدنيا لذمهم والتسجيل عليهم بالكفر فيما حكى عنهم من قولهم (لولا انزل عليه آية من ربه) فان ذلك في اقصى مراتب المكابرة والعناد كأن ما انزل عليه عليه السلام من الآيات العظام الباهرة ليس بآية حتى اقترحوا مالا تقتضيه الحكمة من الآيات المحسوسة التي لايبقى لاحد بعد ذلك طاقة بعدم القبول ولذلك امر في الجواب بقوله تعالى (قل ان الله يضل من يشاء) اضلاله مشيئة تابعة للحكمة الداعية اليها اى يخلق فيه الضلال لصرفه اختياره الى تحصيله ويدعه منهمكا فيه لعلمه بأنه لاينجع فيه اللطف ولاينفعه الارشاد لكن كان على صفتكم في المكابرة والعناد وشدة الشكيمة والغلو في الفساد فلا سبيل له الى الاهتداء

فنعم عقبى الدار ففيه وجهان احدهما انه متعلق بالسلام والمعنى انه انما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم على الطاعات وترك المحرمات والثانى انه متعلق بمحذوف والتقدير انهذه الكرامات التى ترونها وهذه الخيرات التى تشاهدونها انما حصلت بواسطة ذلك الصبر ❊ قوله تعالى (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ماامر الله به ان يوصل ويفسدون فى الارض اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) اعلم انه تعالى لما ذكر صفات السعداء وذكر ماترتب عليها من الاحوال الشريفة العالية اتبعها بذكر حال الاشقياء وذكر مايترتب عليها من الاحوال الخزية المكروهة واتبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب ليكون البيان كاملا فقال والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه وقد بينا ان عهد الله ماالزم عباده بواسطة الدلائل العقلية والسمعية لانها اوكد من كل عهد وكل يمين اذالايمان انما تفيد التوكيد بواسطة الدلائل الدالة على انها توجب الوفاء بمقتضاها والمراد من نقض هذه العهود ان لاينظر المرء فى الادلة اصلا فحينئذ لايمكنه العمل بموجبها اوبأن ينظر فيها ويعلم صحتها ثم يعاند فلايعمل بعلمه اوبأن ينظر فى الشبهة فيعتقد خلاف الحق والمراد من قوله من بعد ميثاقه اى من بعد ان وثق الله تلك الادلة واحكمها لانه لاشئ اقوى مما دل الله على وجوبه فى انه ينفع فعله ويضر تركه فان قيل اذا كان العهد لايكون الا مع الميثاق فافائدة اشتراطه تعالى بقوله من بعد ميثاقه قلنا لايمتنع ان يكون المراد بالعهد هو ماكلف الله العبد به والمراد بالميثاق الادلة المؤكدة لانه تعالى قد يؤكد ذلك العهد بدلائل اخرى سواء كانت تلك المؤكدات دلائل عقلية اوسمعية ثم قال تعالى ويقطعون ماأمر الله به ان يوصل وذلك فى مقابلة قوله والذين يصلون ماأمر الله به ان يوصل فجعل من صفات هؤلاء القطع بالضد من ذلك الوصل والمراد به قطع كل مااوجب الله وصله ويدخل فيه وصل الرسول بالموالاة والمعاونة ووصل المؤمنين ووصل الارحام ووصل سائر من له حق ثم قال ويفسدون فى الارض وذلك الفساد هو الدعاء الى غير دين الله وقد يكون بالظلم فى النفوس والاموال وتخريب البلاد ثم انه تعالى بعد ذكر هذه الصفات قال اولئك لهم اللعنة واللعنة من الله الابعاد من خيرى الدنيا والآخرة الى ضدهما من عذاب ونقمة ولهم سوء الدار لان المراد جهنم وليس فيها الامايسوء الصائر اليها ❊ قوله تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وماالحياة الدنيا فى الآخرة الامتاع) اعلم انه تعالى لما حكم على من نقض عهد الله فى قبول التوحيد والنبوة بأنهم ملعونون فى الدنيا ومعذبون فى الآخرة فكأنه قيل لوكانوا اعداء الله لما فتح الله عليهم ابواب النعم واللذات فى الدنيا فأجاب الله تعالى عنه بهذه الآية وهو انه يبسط الرزق على البعض ويضيقه على البعض ولاتعلق له بالكفر والايمان فقد يوجد الكافر موسعا عليه دون المؤمن ويوجد المؤمن مضيقا عليه دون الكافر فالدنيا دار امتحان قال الواحدى معنى القدر فى اللغة قطع الشئ على مساواة

ولوجاءته كل آية (ويهدى اليه) اى الى جنابه العلى الكبير هداية موصلة اليه لادلالة مطلقة على مايوصل اليه فان ذلك غير مختص بالمهتدين وفيه من تشريفهم مالايوصف (من اناب) اقبل الى الحق وتأمل فى تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة وحقيقة الانابة الدخول فى نوبة الخير وايثار ايرادها فى الصلة على ايراد المشيئة كما فى الصلة الاولى للتنبيه على الداعى الى الهداية بل الى مشيئتها والاشعار بما دعا الى المشيئة الاولى من المكابرة وفيه حث للكفرة على الاقلاع عما هم عليه من العتو والعناد وايثار صيغة الماضى للايماء الى استدعاء الهداية لسابقة الانابة كما ان ايثار صيغة المضارع فى الصلة الاولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم (الذين آمنوا) بدل ممن اناب فان اريد بالهداية الهداية المستمرة فالامر ظاهر لظهور كون الايمان مؤديا اليها وان اريد احداثها فالمراد بالذين آمنوا الذين صار امرهم الى الايمان كما فى قوله تعالى هدى للمتقين اى الصائرين الى التقوى والا فالايمان لايؤدى الى الهداية نفسها اوخبر مبتدأ محذوف اى هم الذين آمنوا او منصوب على المدح (وتطمئن قلوبهم) اى تستقر وتسكن (بذكر الله) بكلامه المعجز الذى لاريب فيه كقوله تعالى وهذا ذكر مبارك انزلناه وقوله انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ويعلمون ان لا آية اعظم منه فيقترحوها

غـيره من غـير زيادة ولا نقصان وقال المفسرون معنى يقدر ههنا يضـيق ومثـله قوله تعـالى ومن قدر عليـه رزقه اى ضيق ومعنـاه انه يعطيه بقدر كفايته لا يفضل عنـه شيء واما قوله وفرحوا بالحياة الدنيا فهو راجع الى من بسط الله له رزقه وبين تعالى ان ذلك لا يوجب الفرح لان الحيـاة العاجلة بالنسبة الى الآخرة كالحقير القليل بالنسبة الى ما لا نهاية له ❁ قوله تعـالى ( ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل ان الله يضل من يشاء ويهدى اليـه من اناب الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ) اعلم ان الكفـار قالوا يا محمد ان كنت رسولا فأتنا بآية ومعجزة قاهرة ظاهرة مثـل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام فأجاب عن هذا السؤال بقوله قل ان الله يضل من يشـاء ويهدى اليـه من أناب وبيان كيفية هذا الجواب من وجوه ( احدها ) كأنه تعـالى يقول ان الله انزل عليه آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة ولكن الاضلال والهداية من الله فأضلكم عن تلك الآيات القـاهرة الباهرة وهدى أقواما آخرين اليها حتى عرفوا بهـا صدق محمد صلى الله عليه وسلم فى دعوى النبوة واذا كان كذلك فلا فائدة فى تكثير الآيات والمعجزات ( وثانيها ) انه كلام يجرى مجرى التعجب من قولهم وذلك لان الآيات الباهرة المتكاثرة التى ظهرت على رسول الله صـلى الله عليـه وسلم كانت اكثر من ان تصـير مشتبهة على العاقل فلما طلبوا بعدها آيات أخرى كان موضعا للتعجب والاستنكار فكأنه قيل لهم ما اعظم عنادكم ان الله يضل من يشاء من كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة على الكفر فلا سبيل الى اهتدائكم وان انزلت كل آية ويهدى من كان عـلى خلاف صفتكم ( وثالثها ) انهم لما طلبوا سـائر الآيات والمعجزات فكأنه قيل لهم لا فائدة فى ظهور الآيات والمعجزات فان الاضلال والهداية من الله فلو حصلت الآيات الكثيرة ولم تحصل الهداية فانه لم يحصل الانتفاع بها ولو حصلت آية واحدة فقط وحصلت الهداية من الله فانه يحصل الانتفاع بها فلا تشتغلوا بطلب الآيات ولكن تضرعوا الى الله فى طلب الهدايات ( ورابعها ) قال ابو على الجبائى المعنى ان الله يضل من يشاء عن رحمته وثوابه عقوبة له على كفره فلستم ممن يجيبه الله تعالى الى ما يسأل لاستحقاقكم العـذاب والاضلال عن الثواب ويهـدى اليـه من أناب اى يهدى الى جنته من تاب وآمن قال وهذا يبين ان الهدى هو الثواب من حيث انه عقبه بقوله من أناب اى تاب والهدى الذى يفعله بالمؤمن هو الثواب لانه يستحقه على ايمانه وذلك يدل على انه تعالى انما يضل عن الثواب بالعقاب لا عن الدين بالكفر على ما ذهب اليه من خالفنا هذا تمام كلام ابى على وقوله أناب اى اقبل ألى الحق وحقيقته دخل فى نوبة الخير ❁ قوله تعالى ( الذين آمنو وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ) اعلم ان قوله الذين آمنوا بدل من قوله من أناب قال ابن عباس يريد اذا سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنت فان قيل أليس انه

والعدول الى صيغة المضارع لافادة دوام الاطمئنان وتجدده حسب تجدد الآيات وتعددها ( ألا بذكر الله ) وحده (تطمئن القلوب )دون غيره من الامور التى تميل اليها النفوس من الدنياويات وهذا ظاهر واما سائر المعجزات فالقصر من حيث انها ليست فى افادة الطمأنينة بالنسبة الى من لم يشـاهدها بمثـابة القرآن المجيد فانه معجزة باقية الى يوم القيامة يشاهدها كل احد وتطمئن به القلوب كافة وفيه اشعار بأن الكفرة ليست لهم قلوب وأفئدتهم هواء حيث لم يطمئنوا بذكر الله تعالى ولم يعدوه آية وهو اظهر الآيات وابهرها وقيل تطمئن قلوبهم بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته كقوله تعالى ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله او بذكر دلائله الدالة على وحدانيته او بذكره جل وعلا انسابه وتبتلا اليه فالمراد بالهداية دوامهـا واستمرارها (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) بدل من القلوب على حذف المضاف بدل الكل حسبما رمز اليه اى قلوب الذين آمنوا وفيه ايمـاء الى ان الانسان انما هو القلب اومبتدأ خبره الجملة الدعائية على التأويل اعنى قوله ( طوبى لهم ) او خبر مبتـدأ مضمر او نصـب على المـدح فطوبى لهم حال عاملها الفعلان وطوبى مصدر من طاب كبشرى وزلفى والواو منقلبة من الياء كموقن وموسر وقرأ مكوزة الاعرابى طيبى لتسـلم اليـاء والمعنى اصـابوا خيرا ومحلها النصـب كسلاما لك اوالرفع

تعالى قال في سورة الانفال انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والوجل ضد الاطمئنان فكيف وصفهم ههنا بالاطمئنان والجواب من وجوه (الاول) انهم اذا ذكروا العقوبات ولم يأمنوا من ان يقدموا على المعاصي فهناك وصفهم بالوجل واذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت قلوبهم الى ذلك وأحد الامرين لا ينافي الآخر لان الوجل هو بذكر العقاب والطمأنينة بذكر الثواب ويوجد الوجل في حال فكرهم في المعاصي وتوجد الطمأنينة عند اشتغالهم بالطاعات (الثاني) ان المراد ان علمهم بكون القرآن معجزا يوجب حصول الطمأنينة لهم في كون محمد صلى الله عليه وسلم نبيا حقا من عند الله اما شكهم في انهم أتوا بالطاعات على سبيل التمام والكمال فيوجب حصول الوجل في قلوبهم (الثالث) انه حصلت في قلوبهم الطمأنينة في ان الله تعالى صادق في وعده ووعيده وان محمدا صلى الله عليه وسلم صادق في كل ما اخبر عنه الا انه حصل الوجل والخوف في قلوبهم انهم هل أتوا بالطاعة الموجبة للثواب ام لا وهل احترزوا عن المعصية الموجبة للعقاب أم لا واعلم ان لنا في قوله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ابحاثا دقيقة غامضة وهي من وجوه (الاول) ان الموجودات على ثلاثة اقسام مؤثر لا يتأثر ومتأثر لا يؤثر وموجود يؤثر في شئ ويتأثر عن شئ فالمؤثر الذي لا يتأثر هو الله سبحانه وتعالى والمتأثر الذي لا يؤثر هو الجسم فانه ذات قابلة للصفات المختلفة والآثار المتنافية وليس له خاصية الا القبول فقط واما الموجود الذي يؤثر تارة ويتأثر اخرى فهي الموجودات الروحانية وذلك لانها اذا توجهت الى الحضرة الالهية صارت قابلة للآثار الفائضة عن مشيئة الله تعالى وقدرته وتكوينه وايجاده واذا توجهت الى عالم الاجسام اشتاقت الى التصرف فيها لان عالم الارواح مدبر لعالم الاجسام واذا عرفت هذا فالقلب كلما توجه الى مطالعة عالم الاجسام حصل فيه الاضطراب والقلق والميل الشديد الى الاستيلاء عليها والتصرف فيها اما اذا توجه القلب الى مطالعة الحضرة الالهية حصل فيه انوار الصمدية والاضواء الالهية فهناك يكون ساكنا فلهذا السبب قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب (الثاني) ان القلب كلما وصل الى شئ فانه يطلب الانتقال منه الى حالة اخرى اشرف منها لانه لا سعادة في عالم الاجسام الا وفوقها مرتبة اخرى في اللذة والغبطة اما اذا انتهى القلب والعقل الى الاستسعاد بالمعارف الالهية والاضواء الصمدية بقي واستقر فلم يقدر على الانتقال منه البتة لانه ليس هناك درجة اخرى في السعادة اعلى منها واكمل فلهذا المعنى قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب (الوجه الثالث) في تفسير هذه الكلمة ان الاكسير اذا وقعت منه ذرة على الجسم النحاسي انقلب ذهبا باقيا على كر الدهور والازمان صابرا على الذوبان الحاصل بالنار فاكسير جلال الله تعالى اذا وقع في القلب اولى ان يقلبه جوهرا باقيا صافيا نورانيا لا يقبل التغير والتبدل فلهذا قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب ثم قال تعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في تفسير كلمة

(طوبى)

على الابتداء وان كانت نكرة لكونها في معنى الدعاء كسلام عليك يدل على ذلك القراءة في قوله تعالى (وحسن مآب) بالنصب والرفع واللام في لهم للبيان مثلها في سقيا لك (كذلك) مثل ذلك الارسال العظيم الشأن المصحوب بهذه المعجزة الباهرة (ارسلناك في أمة قد خلت) اى مضت (من قبلها أمم) كثيرة قد ارسل اليهم رسل (لتتلو) لتقرأ (عليهم الذي اوحينا اليك) من الكتاب العظيم الشأن وتهديهم الى الحق رحمة لهم وتقديم المجرور على المنصوب من قبيل الابهام ثم البيان كما في قوله تعالى ووضعنا عنك وزرك وفيه مالا يخفى من ترقب النفس الى ما سيرد وحسن قبولها له عند وروده عليها (وهم) اى والحال انهم (يكفرون بالرحمن) بالبليغ الرحمة الذي وسعت كل شئ رحمته واحاطت به نعمته والعدول الى المظهر المتعرض لوصف الرحمة من حيث ان الارسال ناشئ منها كما قال تعالى وما ارسلناك الا رحمة للعالمين فلم يقدروا قدره ولم يشكروا نعمه لاسيما ما انعم به عليهم بارسال مثلك اليهم وانزال القرآن الذي هو مدار المنافع الدينية والدنياوية عليهم وقيل نزلت في مشركي مكة حين امروا بالسجود فقالوا وما الرحمن (قل هو) اى الرحمن الذي كفرتم به وانكرتم معرفته (ربي) الرب في الاصل بمعنى التربية وهي تبليغ الشئ الى كماله شيئا فشيئا ثم وصف به مبالغة كالصوم والعدل وقيل هو نعت اى خالق ومبلغي الى مراتب الكمال وايراده قبل قوله

طوبى ثلاثة اقوال الاول انها اسم شجرة فى الجنة روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال طوبى شجرة فى الجنة غرسها الله بيده تنبت الحلى والحلل وان اغصانها لترى من وراء سور الجنة وحكى ابو بكر الاصم رضى الله عنه ان اصل هذه الشجرة فى دار النبى صلى الله عليه وسلم وفى دار كل مؤمن منها غصن والقول الثانى وهو قول اهل اللغة ان طوبى مصدر من طاب كبشرى وزلفى ومعنى طوبى لك اصبت طيبا ثم اختلفوا على وجوه فقيل فرح وقرة عين لهم عن ابن عباس رضى الله عنهما وقيل نعم مالهم عن عكرمة وقيل غبطة لهم عن الضحاك وقيل حسنى لهم عن قتادة وقيل خير وكرامة عن ابى بكر الاصم وقيل العيش الطيب لهم عن الزجاج واعلم ان المعانى متقاربة والتفاوت يقرب من ان يكون فى اللفظ والحاصل انه مبالغة فى نيل الطيبات ويدخل فيه جميع اللذات وتفسيره ان أطيب الاشياء فى كل الامور حاصل لهم والقول الثالث ان هذه اللفظة ليست عربية ثم اختلفوا فقال بعضهم طوبى اسم الجنة بالحبشية وقيل اسم الجنة بالهندية وقيل البستان بالهندية وهذا القول ضعيف لانه ليس فى القرآن الا العرابى لاسيما واشتقاق هذا اللفظ من اللغة العربية ظاهر (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف الذين آمنوا مبتدأ وطوبى لهم خبره ومعنى طوبى لك اى اصبت طيبا ومحلها النصب أو الرفع كقولك طيبا لك وطيب لك وسلاما لك وسلام لك والقراءة فى قوله وحسن مآب بالرفع والنصب تدلك على محلها وقرأ مكوزة الاعرابى طيبى لهم اما قوله وحسن مآب فالمراد حسن المرجع والمقر وكل ذلك وعد من الله بأعظم النعيم ترغيبا فى طاعته وتحذيرا عن المعصية ❊ قوله تعالى (كذلك ارسلناك فى أمة قدخلت من قبلها امم لتتلو عليهم الذى أوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب) اعلم ان الكاف فى كذلك للتشبيه فقيل وجه التشبيه ارسلناك كما ارسلنا الانبياء قبلك فى امة قدخلت من قبلها أمم وهو قول ابن عباس والحسن وقتادة وقيل كما ارسلنا الى أمم واعطيناهم كتبا تتلى عليهم كذلك اعطيناك هذا الكتاب وانت تتلوه عليهم فلماذا اقترحوا غيره وقال صاحب الكشاف كذلك ارسلناك اى مثل ذلك الارسال ارسلناك يعنى ارسلناك ارسالا له شان وفضل على سائر الارسالات ثم فسر كيف ارسله فقال فى امة قدخلت من قبلها امم اى ارسلناك فى امة قدتقدمتها امم فهى آخر الامم وانت آخر الانبياء اما قوله لتتلو عليهم الذى أوحينا اليك فالمراد لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذى أوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن اى وحال هؤلاء انهم يكفرون بالرحمن الذى رحمته وسعت كل شئ وما بهم من نعمة فنه وكفروا بنعمته فى ارسال مثلك اليهم وانزال هذا القرآن المعجز عليهم قل هو ربى الواحد المتعالى عن الشركاء لا اله الا هو عليه توكلت فى نصرتى عليكم واليه متاب فيعيننى على مصابرتكم ومجاهدتكم قيل نزل قوله وهم يكفرون بالرحمن فى عبد الله بن امية المخزومى وكان يقول اما الله فنعرفه واما الرحمن فلا نعرفه الا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة

(لا اله الا هو) اى لا مستحق للعبادة سواه تنبيه على ان استحقاق العبادة منوط بالربوبية وقيل ان اباجهل سمع النبى عليه السلام يقول يا الله يا رحمن فرجع الى المشركين فقال ان محمدا يدعو الهين فنزلت ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله اوادعوا الرحمن الآية (عليه توكلت) فى جميع امورى لاسيما فى النصرة عليكم لا على احد سواه (واليه) خاصة (متاب) اى توبتى كقوله تعالى واستغفر لذنبك أمر عليه السلام بذلك ابانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى وانها صفة الانبياء وبعثا للكفرة على الرجوع عماهم عليه بأبلغ وجه والطفه فانه عليه السلام حيث امر بها وهو منزه عن شائبة اقتراف مايوجبها من الذنب وان قل فتوبتهم وهم عاكفون على انواع الكفر والمعاصى مما لابد منه اصلا وقد فسر المتاب بمطلق الرجوع فقيل مرجعى ومرجعكم وزيد فيحكم بينى وبينكم وقد قيل فيثيبنى على مصابرتكم فتأمل (ولو ان قرآنا) اى قرآنا ما وهو اسم ان والخبر قوله تعالى (سيرت به الجبال) وجواب لو محذوف لانسياق الكلام اليه بحيث يتلقفه السامع من التالى والمقصود اما بيان عظم شأن القرآن العظيم وفساد رأى الكفرة حيث لم يقدروا قدره العلى ولم يعدوه من قبيل الآيات فاقترحوا غيره مما اوتى موسى وعيسى عليهما السلام واما بيان غلوهم فى المكابرة والعناد وتماديهم فى الضلال والفساد فالمعنى على الاول لو ان قرآنا سيرت به الجبال اى بانزاله او بتلاوته عليها وزعزعت عن مقارها

الكذاب فقال تعالى قل ادعوا الله اوادعوا الرحمن اياماتدعوا فله الاسماء الحسنى وكقوله واذاقيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وماالرحمن وقيل انه عليه السلام حين صالح قريشا من الحديبية كتب هذا ماصالح عليه محمد رسول الله فقال المشركون ان كنت رسول الله وقدقاتلناك فقدظلمنا ولكن اكتب هذا ماصالح عليه محمدبن عبدالله فكتب كذلك ولما كتب فى الكتاب بسم الرحمن الرحيم قالوا اماالرحمن فلا نعرفه وكانوا يكتبون باسمك اللهم فقال عليه السلام اكتبوا كماتريدون واعلم انقوله وهم يكفرون بالرحمن اذاحملناه على هاتين الروايتين كان معناه انهم كفروا باطلاق هذا الاسم على الله تعالى لاانهم كفروا بالله تعالى وقال آخرون بل كفروا بالله اماجحداله واماالاثباتهم الشركاء معه قال القاضى وهذاالقول أليق بالظاهر لانقوله تعالى وهم يكفرون بالرحمن يقتضى انهم كفروا بالله وهو المفهوم من الرحمن وليس المفهوم منه الاسم كما لوقال قائل كفروا بمحمد وكذبوابه لكان المفهوم هودون اسمه * قوله تعالى (ولوان قرآنا سيرت به الجبال اوقطعت به الارض اوكلم به الموتى بل لله الامر جميعا أفلم ييأس الذين آمنوا ان لويشاء الله لهدى الناس جميعا ولايزال الذين كفروا تصيبهم بماصنعوا قارعة اوتحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعدالله ان الله لايخلف الميعاد) اعلم انه روى ان اهل مكة قعدوا فى فناء مكة فأتاهم الرسول صلى الله عليه وسلم وعرض الاسلام عليهم فقال له عبدالله بن امية المخزومى سيرلنا جبال مكة حتى ينفسح المكان علينا واجعل لنا فيها انهارا نزرع فيها اوأحى لنا بعض اموا تنا لنسألهم احق ماتقول اوباطل فقدكان عيسى يحيى الموتى اوسخر لنا الريح حتى نوكبها ونسير فى البلاد فقدكانت الريح مسخرة لسليمان فلست بأهون على ربك من سليمان فنزل قوله ولوان قرآنا سيرت به الجبال اى من اماكنها اوقطعت به الارض اى شققت فجعلت انهارا وعيونا اوكلم به الموتى لكان هوهذا القرآن الذى انزلناه عليك وحذف جواب لولكونه معلوما وقال الزجاج المحذوف هوانه لوان قرآنا سيرت به الجبال وكذاوكذا لماآمنوا به كقوله ولوانانزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى ثم قال تعالى بل لله الامر جميعا يعنى انشاء فعل وان يشأ لم يفعل وليس لاحد ان يتحكم عليه فى افعاله واحكامه ثم قال تعالى أفلم ييأس الذين آمنوا ان لويشاء الله لهدى الناس جميعا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى قوله أفلم ييأس قولان احدهما أفلم يعلموا وعلى هذا التقدير ففيه وجهان الاول ييأس يعلم فى لغة النخع وهذاقول اكثر المفسرين مثل مجاهد والحسن وقتادة واحتجوا عليه بقول الشاعر

ألم ييأس الاقوام انى انا ابنه * وان كنت عن ارض العشيرة نائيا

وأنشد أبو عبيدة

اقول لهم بالشعب اذ يأسروننى * ألم تيأسوا انى ابن فارس زهدم

أى ألم تعلموا وقال الكسائى ماوجدت العرب تقول يئست بمعنى علمت البتة والوجه



كمافعل ذلك بالطور لموسى عليه الصلاة والسلام (اوقطعت به الارض) اى شققت وجعلت انهارا وعيونا كمافعل بالحجر حين ضربه عليه السلام بعصاه اوجعلت قطعامتصدعة (اوكلم به الموتى) اى بعد ان احيى بقراءته عليها كما احييت لعيسى عليه السلام لكان ذلك هذا القرآن لكونه الغاية القصوى فى الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى وهيبته عزوجل كقوله تعالى لوانزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله لافى الاعجاز اذلامدخل له فى هذه الآثار ولا فى التذكير والانذار والتخويف لاختصاصها بالعقلاء مع انه لاعلاقة لها بتكليم الموتى واعتبار فيض العقول اليها مخل بالمبالغة المقصودة وتقديم المجرور فى المواضع الثلاثة على المرفوع لمامر غير مرة من قصد الابهام ثم التفسير لزيادة التقرير لان بتقديم ماحقه التأخير تبقى النفس مستشرفة ومترقبة الى المؤخر أنه ماذا فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن وكلمة او فى الموضعين لمنع الخلو لا لمنع الجمع واقتراحهم وان كان متعلقا بمجرد ظهور مثل هذه الافاعيل العجيبة على يده عليه السلام لابظهورها بواسطة القرآن لكن ذلك حيث كان مبنيا على عدم اشتماله فى زعمهم على الخوارق نيط ظهورها به مبالغة فى بيان اشتماله عليها وانه حقيق بأن يكون مصدر الكل خارق وابانة لركاكة رأيهم فى شأنه الرفيع كأنه قيل لوان ظهور أمثال ما اقترحوه من مقتضيات الحكمة لكان مظهرها هذا القرآن الذى

الثانى ماروى انعليا وابن عباس كانايقرآن أفلم يأس الذين آمنوا فقيل لابن عباس أفلم
يأس فقال اظن ان الكاتب كتبها وهو ناعس انه كان فى الخط يأس فزاد الكاتب سنة
واحدة فصار ييأس فقرئ ييأس وهذا القول بعيد جدا لانه يقتضى كون القرآن محلا
للتحريف والتصحيف وذلك يخرجه عن كونه حجة قال صاحب الكشاف ماهذا القول
والله الافرية بلامرية والقول الثانى قال الزجاج المعنى أويئس الذين آمنوا من ايمان
هؤلاء لان الله لوشاء لهدى الناس جميعا وتقريره ان العلم بأن الشئ لايكون يوجب اليأس
من كونه والملازمة توجب حسن المجاز فلهذا السبب حسن اطلاق لفظ اليأس لارادة
العلم (المسئلة الثانية) احتج اصحابنا بقوله ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا وكلمة
لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره والمعنى انه تعالى ماشاء هداية جميع الناس والمعتزلة تارة
يحملون هذه المشيئة على مشيئة الالجاء وتارة يحملون الهداية على الهداية الى طريق
الجنة وفيهم من يجرى الكلام على الظاهر ويقول انه تعالى ماشاء هداية جميع الناس
لانه ماشاء هداية الاطفال والمجانين فلا يكون شائيا لهداية جميع الناس والكلام فى هذه
المسئله قدسبق مرارا اماقوله تعالى ولايزال الذين كفروا تصيبهم بماصنعوا قارعة او تحل
قريبا من دارهم ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله الذين كفروا فيه قولان قيل اراد به
جميع الكفار لان الوقائع الشديدة التى وقعت لبعض الكفار من القتل والسبى اوجب
حصول الغم فى قلب الكل وقيل اراد بعض الكفار وهم جماعة معينون والالف واللام
فى لفظ الكفار للمعهود السابق وهو ذلك الجمع المعين (المسئلة الثانية) فى الآية وجهان
الاول ولايزال الذين كفروا تصيبهم بماصنعوا من كفرهم وسوء اعمالهم قارعة داهية
تقرعهم بمايحل الله بهم فى كل وقت من صنوف البلايا والمصائب فى نفوسهم واولادهم
واموالهم او تحل القارعة قريبا منهم فيفزعون ويضطربون ويتطاير اليهم شرارها
ويتعدى اليهم شرورها حتى يأتى وعد الله وهو موتهم او القيامة والقول الثانى ولايزال
كفار مكة تصيبهم بماصنعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم من العداوة والتكذيب قارعة
لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لايزال يبعث السرايا فتغير حول مكة وتختطف
منهم وتصيب من مواشيهم او تحل انت يامحمد قريبا من دارهم بجيشك كما حل بالحديبية
حتى يأتى وعد الله وهو فتح مكة وكان الله قد وعده ذلك ثم قال ان الله لايخلف الميعاد
والغرض منه تقوية قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وازالة الحزن عنه قال القاضى وهذا
يدل على بطلان قول من يجوز الخلف على الله تعالى فى ميعاده وهذه الآية وان كانت
واردة فى حق الكفار الا ان العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب اذ بعمومه يتناول
كل وعيد ورد فى حق الفساق وجوابنا ان الخلف غير وتخصيص العموم غير ونحن لانقول
بالخلف ولكنا نخصص عمومات الوعيد بالآيات الدالة على العفو ❊ قوله تعالى (ولقد

استهزئ برسل من قبلك فامليت للذين كفروا ثم اخذتهم فكيف كان عقاب افمن هو قائم

لم يعدوه آية وفيه من تفخيم
شأنه العزيز ووصفهم بركاكة
العقل مالايخفى (بل لله الامر
جميعا) اى له الامر الذى عليه
يدور فلك الاكوان وجودا
وعدما يفعل مايشاء ويحكم ما
يريد لمايدعو اليه من الحكم البالغة
وهو اضراب عما تضمنته الشرطية
من معنى النفى لابحسب منطوقه
بل باعتبار موجبه ومؤداه اى
لو ان قرآنا فعل به ماذكر لكان
ذلك هذا القرآن ولكن لم يفعل
بل فعل ماعليه الشأن الآن لان
الامر كله له وحده فالاضراب
ليس بمتوجه الى كون الامر لله
سبحانه بل الى مايؤدى اليه ذلك
من كون الشأن على ماكان لما
تقتضيه الحكمة من بناء التكليف
على الاختيار (أفلم ييأس الذين
آمنوا) اى افلم يعلموا على لغة
هوازن او قوم من النخع او على
استعمال اليأس فى معنى العلم
لتضمنه له ويؤيده قراءة على
وابن عباس وجماعة من الصحابة
والتابعين رضى الله عنهم افلم
يتبين بطريق التفسير والفاء
للعطف على مقدر اى أغفلوا عن
كون الامر جميعا لله تعالى فلم يعلموا
(ان لو يشاء الله) على حذف
ضمير الشأن وتخفيف ان (لهدى
الناس جميعا) باظهار امثال
تلك الآثار العظيمة فالانكار
متوجه الى المعطوفين جميعا او
أعلموا كون الامر جميعا لله فلم
يعلموا مايوجبه ذلك العلم مماذكر
فهو متوجه الى ترتب المعطوف
على المعطوف عليه اى تخلف
العلم الثانى عن العلم الاول وعلى
التقديرين فالانكار انكار الوقوع
كما فى قوله تعالى الم يعدكم ربكم
وعدا حسنا لاانكار الواقع

على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم ام تنبؤنه بما لا يعلم فى الارض ام
بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فاله من
هادلهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة اشق ومالهم من الله من واق ) اعلم ان
القوم لما طلبوا سائر المعجزات من الرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والسخرية
وكان ذلك يشق على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يتأذى من تلك الكلمات فالله
تعالى انزل هذه الآية تسلية له وتصبيرا له على سفاهة قومه فقال له ان اقوام سائر الانبياء
استهزؤا بهم كما ان قومك يستهزؤن بك فأمليت للذين كفروا اى اطلت لهم المدة بتأخير
العقوبة ثم اخذتهم فكيف كان عقابى لهم واعلم انى سأنتقم من هؤلاء الكفار كما
انتقمت من اولئك المتقدمين والاملاء الامهال وان يتركوا مدة من الزمان فى خفض
وامن كالبهيمة يملى لها فى المرعى وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول
الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء ثم انه تعالى اورد على المشركين ما يجرى مجرى
الحجاج ويكون توبيخا لهم وتعجيبا من عقولهم فقال أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت
والمعنى انه تعالى قادر على كل الممكنات عالم بجميع المعلومات من الجزئيات والكليات واذا
كان كذلك كان عالما بجميع احوال النفوس وقادرا على تحصيل مطالبها من تحصيل
المنافع ودفع المضار ومن ايصال الثواب اليها على كل الطاعات وايصال العقاب اليها على
كل المعاصى وهذا هو المراد من قوله قائم على كل نفس بما كسبت وماذاك الا الحق سبحانه
ونظيره قوله تعالى قائما بالقسط واعلم انه لابد لهذا الكلام من جواب واختلفوا فيه على
وجوه (الاول) التقدير أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كمن ليس بهذه الصفة وهى
الاصنام التى لاتنفع ولاتضر وهذا الجواب مضمر فى قوله تعالى وجعلوا لله شركاء
والتقدير أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم التى لاتضر ولاتنفع ونظيره قوله
تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وما جاء جوابه لانه مضمر فى قوله
فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله فكذا ههنا قال صاحب الكشاف يجوز ان يقدر
ما يقع خبرا للمبتدأ ويعطف عليه قوله وجعلوا والتقدير أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه ولم
يمجدوه وجعلوا له شركاء (والوجه الثانى) وهو الذى ذكره السيد صاحب حل العقد فقال
نجعل الواو فى قوله وجعلوا واو الحال ونضمر للمبتدأ خبرا يكون المبتدأ معه جملة مقررة
لامكان ما يقارنها من الحال والتقدير أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت موجود والحال
انهم جعلوا له شركاء ثم اقيم الظاهر وهو قوله لله مقام المضمر تقريرا للالهية وتصريحا بها
وهذا كما تقول جواد يعطى الناس ويغنيهم موجود ويحرم مثلى واعلم انه تعالى لما قرر هذه
الحجة زاد فى الحجاج فقال قل سموهم وانما يقال ذلك فى الامر المستحقر الذى بلغ فى الحقارة
الى ان لايذكر ولايوضع له اسم فعند ذلك يقال سمه ان شئت يعنى انه اخس من ان يسمى
ويذكر ولكنك ان شئت ان تضع له اسما فافعل فكأنه تعالى قال سموهم بالآلهة على سبيل

كما فى قولك الم تخف الله حتى
عصيته ثم ان مناط الانكار ليس
عدم علمهم بمضمون الشرطية
فقط بل مع عدم علمهم بعدم
تحقق مقدمها كأنه قيل الم يعلموا
ان الله تعالى لو شاء هدايتهم
لهداهم وانه لم يشأها وذلك لانهم
كانوا يودون ان يظهر ما اقترحوا
من الآيات ليجتمعوا على الايمان
وعلى الثانى لو ان قرآنا فعل به
ما فصل من التعاجيب لما آمنوا به
كقوله تعالى ولو اننا نزلنا اليهم
الملائكة وكلمهم الموتى الآية
فالاضراب حينئذ متوجه الى
ما سلف من اقتراحهم مع كونهم فى
العناد على ما شرح اى فليس لهم
ذلك بل لله الامر جميعا ان شاء اتى
بما اقترحوا وان شاء لم يأت به حسبما
تستدعيه داعية الحكمة من غير
ان يكون لاحد عليه تحكم او
اقتراح واليأس بمعنى القنوط اى
الم يعلم الذين آمنوا حالهم هذه فلم
يقنطوا من ايمانهم حتى احبوا
ظهور مقترحاتهم فالانكار متوجه
الى المعطوفين او اعلموا ذلك فلم
يقنطوا من ايمانهم فهو متوجه
الى وقوع المعطوف بعد المعطوف
عليه اى الى تخلف القنوط عن
العلم المذكور والانكار على
التقديرين انكار الواقع كما فى
قوله تعالى افلا تتقون ونظائره
لا لانكار الوقوع فان عدم
قنوطهم منه مما لا مرد له وقوله
تعالى ان لو يشاء الله الخ متعلق
بمحذوف اى افلم ييأسوا من ايمانهم
علما منهم او عالمين بأنه لو يشاء الله
لهدى الناس جميعا وانه لم يشأ
ذلك او بآمنوا اى افلم يقنط الذين
آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى
الناس جميعا على معنى

التهديدو المعنى سواء سميتموهم بهذا الاسم اولم تسموهم به فانها فى الحقارة بحيث لاتستحق ان يلتفت العاقل اليها ثم زاد فى الحجاج فقال ام تنبؤنه بما لايعلم فى الارض و المراد أتقدرون على ان تخبروه و تعلموه بأمر تعلمونه و هو لايعلمه و انما خص الارض بنفى الشريك عنها و ان لم يكن شريك البتة لانهم ادعوا ان له شركاء فى الارض لا فى غيرها ام بظاهر من القول يعنى تموهون باظهار قول لا حقيقة له و هو كقوله تعالى ذلك قولهم بأفواههم ثم انه تعالى بين بعد هذا الحجاج سوء طريقتهم فقال على وجه التحقير لما هم عليه بل زين للذين كفروا مكرهم قال الواحدى معنى بل ههنا كأنه يقول دع ذكر ما كنا فيه زين لهم مكرهم و ذلك لانه تعالى لما ذكر الدلائل على فساد قولهم فكأنه يقول دع ذكر الدليل فانه لافائدة فيه لانه زين لهم كفرهم و مكرهم فلا ينتفعون بذكر هذه الدلائل قال القاضى لاشبهة فى انه تعالى انما ذكر ذلك لاجل ان يذمهم به و اذا كان كذلك امتنع ان يكون ذلك المزين هو الله بل لابد و ان يكون اما شياطين الانس و اما شياطين الجن و اعلم ان هذا التأويل ضعيف لوجوه الاول انه لو كان المزين احد شياطين الجن او الانس فالمزين فى قلب ذلك الشيطان ان كان شيطانا آخر لزم التسلسل و ان كان هو الله فقد زال السؤال و الثانى ان يقال القلوب لايقدر عليها الا الله و الثالث انا قد دللنا على ان ترجيح الداعى لايحصل الا من الله تعالى و عند حصوله يجب الفعل اما قوله و صدوا عن السبيل فاعلم انه قرأ عاصم و حمزة و الكسائى و صدوا بضم الصاد و فى حم المؤمن و صدوا عن السبيل على ما لم يسم فاعله بمعنى ان الكفار صدهم غيرهم و عند اهل السنة ان الله صدهم و للمعتزلة فيه وجهان قيل الشيطان و قيل انفسهم و بعضهم لبعض كما يقال فلان معجب و ان لم يكن ثمة غيره و هو قول ابى مسلم و الباقون و صدوا بفتح الصاد فى السورتين يعنى ان الكفار صدوا عن سبيل الله اى اعرضوا و قيل صرفوا غيرهم و هو لازم و متعد و وجه القراءة الاولى مشاكلتها لما قبلها من بناء الفعل للمفعول و وجه القراءة الثانية قوله الذين كفروا و صدوا عن سبيل الله * ثم قال و من يضلل الله فما له من هاد اعلم ان اصحابنا تمسكوا بهذه الآية من وجوه (اولها) قوله بل زين للذين كفروا مكرهم و قد بينا بالدليل ان ذلك المزين هو الله (و ثانيها) قوله و صدوا عن السبيل بضم الصاد و قد بينا ان ذلك الصاد هو الله (و ثالثها) قوله و من يضلل الله فما له من هاد و هو صريح فى المقصود و تصريح بأن ذلك المزين و ذلك الصاد ليس الا الله (و رابعها) قوله تعالى لهم عذاب فى الحياة الدنيا و لعذاب الآخرة اشق اخبر عنهم انهم سيقعون فى عقاب الآخرة و اخبار الله ممتنع التغير و اذا امتنع وقوع التغير فى هذا الخبر امتنع صدور الايمان منه و كل هذه الوجوه قد لخصناها فى هذا الكتاب مرارا قال القاضى من يضلل الله اى عن ثواب الجنة لكفره و قوله فما له من هاد منبئ بذلك ان الثواب لاينال الا بالطاعة خاصة فمن زاغ عنها لم يجد اليها سبيلا و قيل المراد بذلك من حكم بانه ضال و سماه ضالا و قيل المراد من يضله الله عن الايمان بان يجده كذلك ثم قال و الوجه الاول اقوى و اعلم ان

افلم ييأس من ايمانهم المؤمنون بمضمون الشرطية و بعدم تحقق مقدمها المنفهم من مكابرتهم حسبما تحكيه كلمة لو فالوصف المذكور من دواعى انكار يأسهم و قيل ان اباجهل و اضرابه قالوا للرسول الله صلى الله عليه و سلم ان كنت نبيا فسير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا و نتخذ فيها البساتين و القطائع و قد سخرت لداود عليه السلام فلست بأهون على الله منه ان كنت نبيا كما زعمت او سخر لنا به الريح كما سخرت لسليمان عليه السلام لنتجر عليها الى الشام فقد شق علينا قطع الشقة البعيدة او ابعث لنا به رجلين او ثلاثة ممن مات من آبائنا فنزلت فمعنى تقطيع الارض حينئذ قطعها بالسير و لا حاجة حينئذ الى الاعتذار فى اسناد الافاعيل المذكورة الى القرآن كما احتيج اليه فى الوجهين الاولين و عن الفراء انه متعلق بما قبله من قوله و هم يكفرون بالرحمن و ما بينهما اعتراض و هو بالحقيقة دال على الجواب و التقدير و لو ان قرآنا سيرت به الجبال او قطعت به الارض او كلم به الموتى لكفروا بالرحمن و التذكير فى كلم به الموتى لتغليب المذكر من الموتى على غيره (و لا يزال الذين كفروا) من اهل مكة (تصيبهم بما صنعوا) اى بسبب ما صنعوه من الكفر و التمادى فيه و عدم بيانه اما للقصد الى تهويله او استهجانه و هو تصريح بما اشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة له مع ما فى صيغة الصنع من الايذان برسوخهم فى ذلك (قارعة) داهية تقرعهم و تقلقهم و هو ما كان يصيبهم من انواع البلايا و المصائب من القتل

الوجه الاول ضعيف جدا لان الكلام انما وقع في شرح ايمانهم وكفرهم في الدنيا ولم يجر ذكر ذهابهم الى الجنة البتة فصرف الكلام عن المذكور الى غير المذكور بعيد وايضا فهب انا نساعد على ان الامر كما ذكروه الا انه تعالى لما اخبر انهم لا يدخلون الجنة فقد حصل المقصود لان خلاف معلوم الله ومخبره محال ممتنع الوقوع واعلم انه تعالى لما اخبر عنهم بتلك الامور المذكورة بين انه جمع لهم بين عذاب الدنيا وبين عذاب الآخرة الذي هو اشق وانه لا دافع لهم عنه لا في الدنيا ولا في الآخرة اما عذاب الدنيا فبالقتل والقتال واللعن والذم والاهانة وهل يدخل المصائب والامراض في ذلك ام لا اختلفوا فيه قال بعضهم انها تدخل فيه وقال بعضهم انها لا تكون عقابا لان كل احد نزلت به مصيبة فانه مأمور بالصبر عليها ولو كان عقابا لم يجب ذلك فالمراد على هذا القول من الآية القتل والسبي واغتنام الاموال واللعن وانما قال ولعذاب الآخرة اشق لانه ازيد ان شئت بسبب القوة والشدة وان شئت بسبب كثرة الانواع وان شئت بسبب انه لا يختلط بها شئ من موجبات الراحة وان شئت بسبب الدوام وعدم الانقطاع ثم بين بقوله وما لهم من الله من واق اى ان احدا لا يقيهم ما نزل بهم من عذاب الله قال الواحدى اكثر القراء وقفوا على القاف من غير اثبات ياء في قوله واق وكذلك في قوله ومن يضلل الله فاله من هاد وكذلك في قوله وال وهو الوجه لانك تقول في الوصل هذا هاد ووال وواق فتحذف الياء لسكونها والتقائها مع التنوين فاذا وقفت انحذف التنوين في الوقف في الرفع والجر والياء كانت انحذفت في الوصل فيصادف الوقف الحركة التي هي كسرة في غير فاعل فتحذفها كما تحذف سائر الحركات التي تقف عليها فيصير هاد ووال وواق وكان ابن كثير يقف بالياء في هادي ووالي وواقي ووجهه ما حكى سيبويه ان بعض من يوثق به من العرب يقول هذا داعي فيقفون بالياء * قوله تعالى (مثل الجنة التي وعد المتقون تجرى من تحتها الانهار اكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما ذكر عذاب الكفار في الدنيا والآخرة اتبعه بذكر ثواب المتقين وفي قوله مثل الجنة اقوال الاول قال سيبويه مثل الجنة مبتدأ وخبره محذوف والتقدير فيما قصصنا عليكم مثل الجنة والثاني قال الزجاج مثل الجنة جنة من صفتها كذا وكذا والثالث مثل الجنة مبتدأ وخبره تجرى من تحتها الانهار كما تقول صفة زيد اسم والرابع الخبر هو قوله اكلها دائم لانه الخارج عن العادة كأنه قال مثل الجنة التي وعد المتقون تجرى من تحتها الانهار كما تعلمون من حال جناتكم الا ان هذه اكلها دائم (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى وصف الجنة بصفات ثلاث اولها تجرى من تحتها الانهار وثانيها ان اكلها دائم والمعنى ان جنات الدنيا لا يدوم ورقها وثمرها ومنافعها اما جنات الآخرة فثمارها دائمة غير منقطعة وثالثها ان ظلها دائم ايضا والمراد انه ليس هنالك حر ولا برد ولا شمس ولا قمر ولا ظلمة ونظيره قوله تعالى لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ثم

(انه)

---

والاسر والنهب والسلب وتقديم المجرور على الفاعل لما مر مرارا من ارادة التفسير اثر الابهام لزيادة التقرير والاحكام مع ما فيه من بيان ان مدار الاصابة من جهتهم اثر ذي اثير (او تحل) تلك القارعة (قريبا) اى مكانا قريبا (من دارهم) فيفزعون منها ويتطاير اليهم شرارها شبهت القارعة بالعدو المتوجه اليهم فاسند اليها الاصابة تارة والحلول اخرى ففيه استعارة بالكناية وتخييل وترشيح (حتى يأتي وعد الله) اى موتهم او القيامة فان كلا منهما وعد محتوم لا مرد له وفيه دلالة على ان ما يصيبهم عند ذلك من العذاب في غاية الشدة وان ما ذكر سابقة نفحة يسيرة بالنسبة اليه ثم حقق ذلك بقوله تعالى (ان الله لا يخلف الميعاد) اى الوعد كالميلاد والميثاق بمعنى الولادة والتوثقة لاستحالة ذلك على الله سبحانه وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما اراد بالقارعة السرايا التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها وكانوا بين اغارة واختطاف وتخويف بالهجوم عليهم في ديارهم فالاصابة والحلول حينئذ من احوالهم ويجوز على هذا ان يكون قوله تعالى او تحل قريبا من دارهم خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم مرادا به حلوله الحديبية والمراد بوعد الله ما وعد به من فتح مكة (ولقد استهزئ برسل) كثيرة خلت (من قبلك فامليت للذين كفروا) اى تركتهم ملاوة من الزمان في امن ودعة كما يملى للبهيمة في المرعى وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم

عما لقى

انه تعالى لما وصف الجنة بهذه الصفات الثلاث بين ان ذلك عقبى الذين اتقوا يعنى عاقبة اهل التقوى هى الجنة وعاقبة الكافرين النار وحاصل الكلام من هذه الآية ان ثواب المتقين منافع خالصة عن الشوائب موصوفة بصفة الدوام واعلم ان قوله اكلها دائم فيه مسائل ثلاث ( المسئلة الاولى ) انه يدل على ان اكل الجنة لا تفنى كما يحكى عن جهم واتباعه ( المسئلة الثانية ) انه يدل على ان حركات اهل الجنة لا تنتهى الى سكون دائم كما يقوله ابو الهذيل واتباعه ( المسئلة الثالثة ) قال القاضى هذه الآية تدل على ان الجنة لم تخلق بعد لانها لو كانت مخلوقة لوجب ان تفنى وان ينقطع اكلها لقوله تعالى كل من عليها فان وكل شئ هالك الا وجهه لكن لا ينقطع اكلها لقوله تعالى اكلها دائم فوجب ان لا تكون الجنة مخلوقة ثم قال فلا ننكر ان يحصل الآن فى السموات جنات كثيرة يتمتع بها الملائكة ومن يعد حيا من الانبياء والشهداء وغيرهم على ما روى فى ذلك الا ان الذى نذهب اليه ان جنة الخلد خاصة انما تخلق بعد الاعادة والجواب ان دليلهم مركب من آيتين احداهما قوله كل شئ هالك الا وجهه والاخرى قوله اكلها دائم وظلها فاذا ادخلنا التخصيص فى احد هذين العمومين سقط دليلهم فنحن نخصص احد هذين العمومين بالدلائل الدالة على ان الجنة مخلوقة وهو قوله تعالى وجنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين * قوله تعالى ( والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك ومن الاحزاب من ينكر بعضه قل انما امرت ان اعبد الله ولا اشرك به اليه ادعو واليه مآب ) اعلم ان فى المراد بالكتاب قولين الاول انه القرآن والمراد ان اهل القرآن يفرحون بما انزل على محمد من انواع التوحيد والعدل والنبوة والبعث والاحكام والقصص ومن الاحزاب الجماعات من اليهود والنصارى وسائر الكفار من ينكر بعضه وهو قول الحسن وقتادة فان قيل الاحزاب ينكرون كل القرآن قلنا الاحزاب لا ينكرون كل ما فى القرآن لانه ورد فيه اثبات الله تعالى واثبات علمه وقدرته وحكمته واقاصيص الانبياء والاحزاب ما كانوا ينكرون كل هذه الاشياء والقول الثانى ان المراد بالكتاب التوراة والانجيل وعلى هذا التقدير ففى الآية قولان الاول قال ابن عباس الذين آتيناهم الكتاب هم الذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم من اهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب واصحابهما ومن اسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا اربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بأرض الحبشة وفرحوا بالقرآن لانهم آمنوا به وصدقوه والاحزاب بقية اهل الكتاب وسائر المشركين قال القاضى وهذا الوجه اولى من الاول لانه لا شبهة فى ان من اوتى القرآن فانهم يفرحون بالقرآن اما اذا حملناه على هذا الوجه ظهرت الفائدة ويمكن ان يقال ان الذين اوتوا القرآن يزداد فرحهم به لما رأوا فيه من العلوم الكثيرة والفوائد العظيمة فلهذا السبب حكى الله تعالى فرحهم به والثانى والذين آتيناهم الكتاب اليهود اعطوا التوراة والنصارى اعطوا الانجيل يفرحون بما انزل فى هذا القرآن لانه مصدق

من المشركين من التكذيب والاقتراح على طريقة  الاستهزاء به ووعيد لهم والمعنى ان ذلك ليس مختصا بك بل هو امر مطرد قد فعل ذلك برسل كثيرة كائنة من قبلك فامهلت الذين فعلوه بهم والعدول فى الصلة الى وصف الكفر ليس لان المملى لهم غير المستهزئين بل لارادة الجمع بين بين الوصفين اى فأملت للذين كفروا مع استهزائهم لا باستهزائهم فقط ( ثم اخذتهم فكيف كان عقاب ) اى عقابى اياهم وفيه من الدلالة على تناهى كيفيته فى الشدة والفظاعة ما لا يخفى (افمن هو قائم) اى رقيب مهيمن ( على كل نفس ) كائنة من كانت ( بما كسبت ) من خير اوشر لا يخفى عليه شئ من ذلك بل يجازى كلا بعمله وهو الله تعالى والخبر محذوف اى كمن ليس كذلك انكارا لذلك وادخال الفاء لتوجيه الانكار الى توهم المماثلة غب ما علم مما فعل تعالى بالمستهزئين من الاملاء المديد والاخذ الشديد ومن كون الامر كله لله تعالى وكون هداية الناس جميعا منوطة بمشيئته تعالى ومن تواتر القوارع على الكفرة الى ان يأتى وعد الله كأنه قيل أالامر كذلك فمن هذا شأنه كما ليس فى عداد الاشياء حتى تشركوه به فالانكار متوجه الى ترتب المعطوف اعنى توهم المماثلة على المعطوف عليه المقدر اعنى كون الامر كما ذكر كما فى قولك أتعلم الحق فلا تعمل به لا الى المعطوفين جميعا كما اذا قلت الا تعلمه فلا تعمل به وقوله تعالى وجعلوا لله شركاء) جملة مستقلة جئ بها للدلالة على الخبر اوحالية اى افمن هذه صفاته كما ليس كذلك وقد جعلوا له شركاء لا شريكا واحدا اومعطوفة على الخبر ان قدر ما يصلح لذلك اى افمن هذا شأنه لم يوحدوه وجعلوا له شركاء ووضع المظهر موضع المضمر للتنصيص على وحدانيته ذاتا واسما والتنبيه على اختصاصه

لما معهم ومن الاحزاب من سائر الكفار من ينكر بعضه وهو قول مجاهد قال القاضي وهذا لا يصح لان قوله يفرحون بما انزل اليك يعم جميع ما انزل اليه ومعلوم انهم لا يفرحون بكل ما انزل اليه ويمكن ان يجاب فيقال ان قوله بما انزل اليك لا يفيد العموم بدليل جواز ادخال لفظتي الكل والبعض عليه ولو كانت كلمة ما للعموم لكان ادخال لفظ الكل عليه تكريرا وادخال لفظ البعض عليه نقصا ثم انه تعالى لما بين هذا جمع كل ما يحتاج المرء اليه في معرفة المبدأ والمعاد في الفاظ قليلة منه فقال قل انما امرت ان اعبد الله ولا اشرك به اليه ادعو واليه مآب وهذا الكلام جامع لكل ما ورد التكليف به وفيه فوائد (اولها) ان كلمة انما للحصر ومعناه اني ما أمرت الا بعبادة الله تعالى وذلك يدل على انه لا تكليف ولا امر ولا نهي الا بذلك (وثانيها) ان العبادة غاية التعظيم وذلك يدل على ان المرء مكلف بذلك (وثالثها) ان عبادة الله تعالى لا تمكن الا بعد معرفته ولا سبيل الى معرفته الا بالدليل فهذا يدل على ان المرء مكلف بالنظر والاستدلال في معرفة ذات الصانع وصفاته وما يجب ويجوز ويستحيل عليه (ورابعها) ان عبادة الله واجبة وهو يبطل قول نفاة التكليف ويبطل القول بالجبر المحض (وخامسها) قوله ولا اشرك به وهذا يدل على نفي الشركاء والانداد والاضداد بالكلية ويدخل فيه ابطال قول كل من اثبت معبودا سوى الله تعالى سواء قال ان ذلك المعبود هو الشمس أو القمر أو الكواكب أو الاصنام والاوثان والارواح العلوية او يزدان واهرمن على ما يقوله المجوس أو النور والظلمة على ما يقوله الثنوية (وسادسها) قوله اليه ادعو والمراد منه انه كما وجب عليه الاتيان بهذه العبادة فكذلك يجب عليه الدعوة الى عبودية الله تعالى وهو اشارة الى نبوته (وسابعها) قوله واليه مآب وهو اشارة الى الحشر والنشر والبعث والقيامة فاذا تأمل الانسان في هذه الالفاظ القليلة ووقف عليها عرف انها محتوية على جميع المطالب المعتبرة في الدين ❊ قوله تعالى (وكذلك انزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت اهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا واق) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى شبه انزاله حكما عربيا بما انزل الى من تقدم من الانبياء اي كما انزلنا الكتب على الانبياء بلسانهم كذلك انزلنا عليك القرآن والكناية في قوله انزلناه تعود الى ما في قوله يفرحون بما انزل اليك يعني القرآن (المسئلة الثانية) قوله انزلناه حكما عربيا فيه وجوه الاول حكمة عربية مترجمة بلسان العرب الثاني القرآن مشتمل على جميع اقسام التكاليف فالحكم لا يمكن الا بالقرآن فلما كان القرآن سببا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة الثالث انه تعالى حكم على جميع المكلفين بقبول القرآن والعمل به فلما حكم على الخلق بوجوب قبوله جعله حكما واعلم ان قوله حكما عربيا نصب على الحال والمعنى انزلناه حال كونه حكما عربيا (المسئلة الثالثة) قالت المعتزلة الآية دالة على حدوث القرآن من وجوه الاول انه تعالى وصفه بكونه منزلا وذلك لا يليق الا بالمحدث

اثر تبكيت اي سموهم من هم وماذا اسماؤهم اوصفوهم وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة (ام تنبؤنه) اي بل اتنبؤن الله (بما لا يعلم في الارض) اي بشركاء مستحقين للعبادة لا يعلمهم الله تعالى ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والارض وقرئ بالتخفيف (ام بظاهر من القول) اي بل اتسمونهم بشركاء بظاهر من القول من غير ان يكون له معنى وحقيقة كتسمية الزنجي كافورا كقوله تعالى ذلك قولهم بأفواههم وهاتيك الاساليب البديعة التي ورد عليها الآية الكريمة منادية على انها خارجة عن قدرة البشر من كلام خلاق القوى والقدر فتبارك الله رب العالمين (بل زين للذين كفروا) وضع الموصول موضع المضمر ذما لهم وتسجيلا عليهم بالكفر (مكرهم) تمويههم الاباطيل اوكيدهم للاسلام بشركهم (وصدوا عن السبيل) اي سبيل الحق من صده صدا وقرئ بكسر الصاد على نقل حركة الدال اليها وقرئ بفتحها اي صدوا الناس اومن صد صدودا (ومن يضلل الله) اي يخلق فيه الضلال بسوء اختياره او يخذله (فماله من هاد) يوفقه للهدى (لهم عذاب) شاق (في الحياة الدنيا) بالقتل والاسر وسائر ما يصيبهم من المصائب فانها انما تصيبهم عقوبة على كفرهم (ولعذاب الآخرة اشق) من ذلك بالشدة والمدة (ومالهم من الله) من عذابه المذكور (من واق) من حافظ يعصمهم من ذلك فمن الاولى صلة للوقاية

الثاني انه وصفه بكونه عربيا والعربي هو الذي حصل بوضع العرب واصلاحهم وما كان كذلك كان محدثا الثالث ان الآية دالة على انه انما كان حكما عربيا لان الله تعالى جعله كذلك ووصفه بهذه الصفة وكل ما كان كذلك فهو محدث والجواب ان كل هذه الوجوه دالة على ان المركب من الحروف والاصوات محدث ولا نزاع فيه والله اعلم (المسئلة الرابعة) روى ان المشركين كانوا يدعونه الى ملة آبائه فتوعده الله تعالى على متابعتهم في تلك المذاهب مثل ان يصلى الى قبلتهم بعد ان حوله الله عنها قال ابن عباس الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد امته وقيل بل الغرض منه حث الرسول عليه السلام على القيام بحق الرسالة وتحذيره من خلافها ويتضمن ذلك ايضا تحذير جميع المكلفين لان من هو ارفع منزلة اذا حذر هذا التحذير فهم احق بذلك واولى * قوله تعالى (ولقد ارسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم ازواجا وذرية وما كان لرسول ان يأتي بآية الا باذن الله لكل اجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب) اعلم ان القوم كانوا يذكرون انواعا من الشبهات في ابطال نبوته (فالشبهة الاولى) قولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق وهذه الشبهة انما ذكرها الله تعالى في سورة اخرى (والشبهة الثانية) قولهم الرسول الذي يرسله الله الى الخلق لابد وان يكون من جنس الملائكة كما حكى الله عنهم في قوله لوما تأتينا بالملائكة وقوله لولا انزل عليه ملك فأجاب الله تعالى عنه ههنا بقوله ولقد ارسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم ازواجا وذرية يعني ان الانبياء الذين كانوا قبله كانوا من جنس البشر لا من جنس الملائكة فاذا جاز ذلك في حقهم فلم لا يجوز ايضا مثله في حقه (الشبهة الثالثة) عابوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثرة الزوجات وقالوا لو كان رسولا من عند الله لما كان مشتغلا بأمر النساء بل كان معرضا عنهن مشتغلا بالنسك والزهد فأجاب الله تعالى عنه بقوله ولقد ارسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم ازواجا وذرية وبالجملة فهذا الكلام يصلح ان يكون جوابا عن الشبهة المتقدمة ويصلح ان يكون جوابا عن هذه الشبهة فقد كان لسليمان عليه السلام ثلثمائة امرأة مهيرة وسبعمائة سرية ولداود مائة امرأة (والشبهة الرابعة) قالوا لو كان رسولا من عند الله لكان اى شئ طلبنا منه من المعجزات أتى به ولم يتوقف ولما لم يكن الامر كذلك علمنا انه ليس برسول فأجاب الله عنه بقوله وما كان لرسول ان يأتي بآية الا باذن الله وتقريره ان المعجزة الواحدة كافية في ازالة العذر والعلة وفي اظهار الحجة والبينة فأما الزائد عليها فهو مفوض الى مشيئة الله تعالى ان شاء اظهرها وان شاء لم يظهرها ولا اعتراض لاحد عليه في ذلك (الشبهة الخامسة) انه عليه السلام كان يخوفهم بنزول العذاب وظهور النصرة له ولقومه ثم ان ذلك الموعود كان يتأخر فلما لم يشاهدوا تلك الامور احتجوا بها على الطعن في نبوته وقالوا لو كان نبيا صادقا لما ظهر كذبه فأجاب الله عنه بقوله لكل اجل كتاب يعني نزول العذاب على الكفار وظهور الفتح والنصرة للاولياء

تفسير لذلك المثل على انه حال من الضمير المحذوف من الصلة العائد الى الجنة اى وعدها وهو الخبر عند غيره كقولك شأن زيد يأتيه الناس ويعظمونه اوعلى حذف موصوف اى مثل الجنة جنة تجرى الخ (أكلها) ثمرها (دائم) لا ينقطع (وظلها) ايضا كذلك لا تنسخه الشمس كما تنسخ ظلال الدنيا (تلك) الجنة المنعوتة بما ذكر (عقبى الذين اتقوا) الكفر والمعاصي اى مآلهم ومنتهى امرهم (وعقبى الكافرين النار) لا غير وفيه مالا يخفى من اطماع المتقين واقناط الكافرين (والذين آتيناهم الكتاب) هم المسلمون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب واضرابهما ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلا اربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة (يفرحون بما أنزل اليك) اذ هو الكتاب الموعود في التوراة والانجيل (ومن الاحزاب) اى من احزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة نحو كعب بن الاشرف والسيد والعاقب اسقفي نجران واتباعهما (من ينكر بعضه) وهو الشرائع الحادثة انشاء اونسخا لا ما يوافق ما حرفوه والا لنعى عليهم من اول الامر ان مدار ذلك انما هو جنايات ايديهم واما ما يوافق كتبهم فلم ينكروه وان لم يفرحوا به وقيل يجوز ان يراد بالموصول الاول عامتهم فانهم ايضا يفرحون به لكونه مصداقا لكتبهم في الجملة فحينئذ يكون قوله

تعالى ومن الاحزاب الخ تتمة بمنزلة ان يقال ومنهم من ينكر بعضه (قل) الزاما لهم وردا لانكارهم (انما أمرت ان اعبد الله

قضى الله بحصولها فى اوقات معينة مخصوصة ولكل حادث وقت معين ولكل اجل كتاب فقبل حضور ذلك الوقت لايحدث ذلك الحادث فتأخر تلك المواعيد لايدل على كونه كاذبا (الشبهة السادسة) قالوا لوكان فى دعوى الرسالة محقا لمانسخ الاحكام التى نص الله تعالى على ثبوتها فى الشرائع المتقدمة نحو التوراة والانجيل لكنه نسخها وحرفها نحو تحريف القبلة ونسخ اكثر احكام التوراة والانجيل فوجب ان لايكون نبيا حقا فأجاب الله سبحانه وتعالى عنه بقوله يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده ام الكتاب ويمكن ايضا ان يكون قوله لكل اجل كتاب كالمقدمة لتقرير هذا الجواب وذلك لانا نشاهد انه تعالى يخلق حيوانا عجيب الخلقة بديع الفطرة من قطرة من النطفة ثم يبقيه مدة مخصوصة ثم يميته ويفرق اجزاءه وابعاضه فلما لم يمتنع ان يحيي اولا ثم يميت ثانيا فكيف يمتنع ان يشرع الحكم فى بعض الاوقات ثم ينسخه فى سائر الاوقات فكان المراد من قوله لكل اجل كتاب ماذكرناه ثم انه تعالى لماقرر تلك المقدمة قال يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده ام الكتاب والمعنى انه يوجد تارة ويعدم اخرى ويحيي تارة ويميت اخرى ويغني تارة ويفقر اخرى فكذلك لايبعد ان يشرع الحكم تارة ثم ينسخه اخرى بحسب ما اقتضته المشيئة الالهية عند اهل السنة او بحسب ما اقتضته رعاية المصالح عند المعتزلة فهذا تمام التحقيق فى تفسير هذه الآية ثم ههنا مسائل ( المسئلة الاولى ) قوله تعالى لكل اجل كتاب فيه اقوال الاول ان لكل شئ وقتا مقدرا فالآيات التى سألوها لها وقت معين حكم الله به وكتبه فى اللوح المحفوظ فلايتغير عن ذلك الحكم بسبب تحكماتهم الفاسدة ولو ان الله اعطاهم ماالتمسوا لكان فيه اعظم الفساد الثانى ان لكل حادث وقتا معينا قضى الله حصوله فيه كالحياة والموت والغنى والفقر والسعادة والشقاوة ولايتغير البتة عن ذلك الوقت والثالث ان هذا من المقلوب والمعنى ان لكل كتاب منزل من السماء اجلا ينزله فيه اى لكل كتاب وقت يعمل به فوقت العمل بالتوراة والانجيل قد انقضى ووقت العمل بالقرآن قد أتى وحضر والرابع لكل اجل معين كتاب عند الملائكة الحفظة فللانسان احوال اولها نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم يصير شابا ثم شيخا وكذا القول فى جميع الاحوال من الايمان والكفر والسعادة والشقاوة والحسن والقبح الخامس كل وقت معين مشتمل على مصلحة خفية ومنفعة لايعلمها الا الله تعالى فاذا جاء ذلك الوقت حدث ذلك الحادث ولايجوز حدوثه فى غيره واعلم ان هذه الآية صريحة فى ان الكل بقضاء الله وبقدره وان الامور مرهونة بأوقاتها لان قوله لكل اجل كتاب معناه ان تحت كل اجل حادث معين ويستحيل ان يكون ذلك التعيين لاجل خاصية الوقت فان ذلك محال لان الاجزاء المفروضة فى الاوقات المتعاقبة متساوية فوجب ان يكون اختصاص كل وقت بالحادث الذى يحدث فيه بفعل الله تعالى واختياره وذلك يدل على ان الكل من الله تعالى وهو نظير قوله عليه السلام جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة ( المسئلة الثانية ) يمحو الله

ولااشرك به ) اى شيا من الاشياء اولا افعل الاشراك به والمراد قصر الامر بالعبادة على الله تعالى لاقصر الامر مطلقا على عبادته تعالى خاصة اى قل لهم انما امرت فيما انزل الى بعبادة الله وتوحيده وظاهر ان لا سبيل لكم الى انكاره لاطباق جميع الانبياء والكتب على ذلك كقوله تعالى قل يااهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الانعبد الاالله ولانشرك به شيأ فالكم تشركون به عزيرا والمسيح وقرئ ولااشرك به بالرفع على الاستئناف اى وانا لااشرك به ( اليه ) الى الله تعالى خاصة على النهج المذكور من التوحيد او الى ما امرت به من التوحيد ( ادعو ) الناس لاالى غيره اولا الى شئ آخر مما لم يطبق عليه الكتب الالهية والانبياء عليهم الصلاة والسلام فاوجه انكاركم ( واليه ) الى الله تعالى وحده ( مآب ) مرجعى للجزاء وحيث كانت هذه الحجة الباهرة لازمة لهم لايجدون عنها محيصا امر عليه الصلاة والسلام بأن يخاطبهم بذلك الزاما وتبكيتا لهم ثم شرع فى رد انكارهم لفروع الشرائع الواردة ابتداء او بدلا من الشرائع المنسوخة ببيان الحكمة فى ذلك فقيل ( وكذلك انزلناه ) اى ماانزل اليك وذلك اشارة الى مصدر انزلناه او انزل اليك ومحله النصب على المصدرية اى مثل ذلك الانزال البديع المنتظم لاصول مجمع عليها وفروع متشعبة الى موافقة ومخالفة حسبما تقتضيه قضية الحكمة والمصلحة انزلناه ( حكما ) حاكما يحكم فى القضايا والواقعات بالحق او يحكم به كذلك والتعرض لذلك العنوان مع ان بعضه ليس بحكم لتربية وجوب مراعاته وتحتم المحافظة عليه ( عربيا ) مترجما بلسان العرب والتعرض لذلك للاشارة الى ان ذلك احدى مواد المخالفة ( مايشاء )

ما يشاء ويثبت قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويثبت ساكنة الثاء خفيفة الباء من اثبت يثبت والباقون بفتح الثاء وتشديد الباء من التثبت وحجة من خفف ان ضد المحو الاثبات لا التثبيت ولان التشديد للتكثير وليس القصد بالمحو التكثير فكذلك ما يكون فى مقابلته ومن شدد احتج بقوله واشد تثبيتا وقوله فثبتوا (المسئلة الثالثة) المحو ذهاب اثر الكتابة يقال محاه يمحوه محوا اذا اذهب اثره وقوله ويثبت قال النحويون اراد ويثبته الا انه استغنى بتعدية الفعل الاول عن تعدية الثانى وهو كقوله تعالى والحافظين فروجهم والحافظات (المسئلة الرابعة) فى هذه الآية قولان الاول انها عامة فى كل شئ كما يقتضيه ظاهر اللفظ قالوا ان الله يمحو من الرزق ويزيد فيه وكذا القول فى الاجل والسعادة والشقاوة والايمان والكفر وهو مذهب عمر وابن مسعود والقائلون بهذا القول كانوا يدعون ويتضرعون الى الله تعالى فى ان يجعلهم سعداء لا اشقياء وهذا التأويل رواه جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والقول الثانى ان هذه الآية خاصة فى بعض الاشياء دون البعض وعلى هذا التقرير ففى الآية وجوه (الاول) المراد من المحو والاثبات نسخ الحكم المتقدم واثبات حكم آخر بدلا عن الاول (الثانى) انه تعالى يمحوا من ديوان الحفظة ما ليس بحسنة ولا سيئة لانهم مأمورون بكتابة كل قول وفعل ويثبت غيره وطعن ابو بكر الاصم فيه فقال انه تعالى وصف الكتاب بقوله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها وقال ايضا فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره اجاب القاضى عنه بأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الذنوب والمباح لا صغيرة ولا كبيرة وللاصم ان يجيب عن هذا الجواب فيقول انكم باصطلاحكم خصصتم الصغيرة بالذنب الصغير والكبيرة بالذنب الكبير وهذا مجرد اصطلاح المتكلمين اما فى اصل اللغة فالصغير والكبير يتناولان كل فعل وعرض لانه ان كان حقيرا فهو صغير وان كان غير ذلك فهو كبير وعلى هذا التقرير فقوله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها يتناول المباحات ايضا (الثالث) انه تعالى اراد بالمحو ان من اذنب اثبت ذلك الذنب فى ديوانه فاذا تاب عنه محى من ديوانه (الرابع) يمحو الله ما يشاء وهو من جاء اجله ويدع من لم يجئ اجله ويثبته (الخامس) انه تعالى يثبت فى اول السنة حكم تلك السنة فاذا مضت السنة محيت واثبت كتاب آخر للمستقبل (السادس) يمحو نور القمر ويثبت نور الشمس (السابع) يمحو الدنيا ويثبت الآخرة (الثامن) انه فى الارزاق والمحن والمصائب يثبتها فى الكتاب ثم يزيلها بالدعاء والصدقة وفيه حث على الانقطاع الى الله تعالى (التاسع) تغير احوال العبد فما مضى منها فهو المحو وما حصل وحضر فهو الاثبات (العاشر) يزيل ما يشاء ويثبت ما يشاء من حكمه لا يطلع على غيبه احدا فهو المنفرد بالحكم كما شاء وهو المستقل بالايجاد والاعدام والاحياء والاماتة والاغناء والافقار بحيث لا يطلع على تلك الغيوب احد من خلقه واعلم ان هذا الباب فيه مجال عظيم فان قال قائل ألستم تزعمون ان المقادير سابقة قد جف بها القلم



للكتب السابقة ان ذلك مقتضى الحكمة اذ بذلك يسهل فهمه وادراك مجازه والاقتصار على اشتمال الانزال على اصول الديانات المجمع عليها حسبما يفيده قوله تعالى قل انما امرت ان اعبد الله الخ يأباه التعرض لاتباع اهوائهم وحديث المحو والاثبات وان لكل اجل كتاب فان المجمع عليه لا يتصور فيه الاستتباع والاتباع (ولئن اتبعت اهواءهم) التى يدعونك اليها من تقرير الامور المخالفة لما انزل اليك من الحق كالصلاة الى بيت المقدس بعد التحويل (بعد ما جاءك من العلم) العظيم الشأن الفائض من ذلك الحكم العربى او العلم بمضمونه (مالك من الله) من جنابه العزيز والالتفات من التكلم الى الغيبة وايراد الاسم الجليل لتربية المهابة قال الازهرى لا يكون الها حتى يكون معبودا وحتى يكون خالقا ورازقا ومدبرا (من ولى) يلى امرك وينصرك على من يبغيك الغوائل (ولا واق) يقيك من مصارع السوء وحيث لم يستلزم نفى الناصر على العدو نفى الواقى من نكايته ادخل على المعطوف حرف النفى للتأكيد كقولك مالى دينار ولا درهم او مالك من بأس الله من ناصر وواق لاتباعك اهواءهم وامثال هاتيك القوارع انما هى لقطع اطماع الكفرة وتهييج المؤمنين على الثبات فى الدين واللام فى لئن موطئة وما لك ساد مسد جوابى الشرط والقسم (ولقد ارسلنا رسلا) كثيرة كائنة (من قبلك وجعلنا لهم ازواجا وذرية) نساء واولادا كما جعلناها لك وهو رد لما كانوا يعيبونه صلى الله عليه وسلم بالزواج والولاد كما كانوا يقولون مال هذا الرسول يأكل الطعام الخ (وما كان لرسول) منهم اى ما صح وما استقام ولم يكن فى وسعه (ان يأتى بآية) مما اقترح عليه وحكم مما التمس منه (الا باذن الله) ومشيئته المبنية على

الحكم والمصالح التي عليها يدور امر الكائنات لاسيما مثل هذه  الامور العظام والالتفات لما قدمناه ولتحقيق مضمون الجملة

وليس الامر بأنف فكيف يستقيم مع هذا المعنى المحو والاثبات قلنا ذلك المحو والاثبات ايضا مما جف به القلم فلا يمحو الا ما سبق في علمه وقضائه محوه ( المسئلة الخامسة ) قالت الرافضة البداء جائز على الله تعالى وهو ان يعتقد شيئا ثم يظهر له ان الامر بخلاف ما اعتقده وتمسكوا فيه بقوله يمحو الله ما يشاء ويثبت واعلم ان هذا باطل لان علم الله من لوازم ذاته المخصوصة وما كان كذلك كان دخول التغير والتبدل فيه محالا (المسئلة السادسة) اما ام الكتاب فالمراد اصل الكتاب والعرب تسمي كل ما يجري مجرى الاصل للشيء اماله ومنه ام الرأس للدماغ وام القرى لمكة وكل مدينة فهي أم لما حولها من القرى فكذلك ام الكتاب هو الذي يكون اصلا لجميع الكتب وفيه قولان (الاول) ان ام الكتاب هو اللوح المحفوظ وجميع حوادث العالم العلوي والعالم السفلي ثبت فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كان الله ولا شيء معه ثم خلق اللوح واثبت فيه احوال جميع الخلق الى قيام الساعة قال المتكلمون الحكمة فيه ان يظهر للملائكة كونه تعالى عالما بجميع المعلومات على سبيل التفصيل وعلى هذا التقدير فعند الله كتابان احدهما الكتاب الذي يكتبه الملائكة على الخلق وذلك الكتاب محل المحو والاثبات والكتاب الثاني هو اللوح المحفوظ وهو الكتاب المشتمل على تعين جميع الاحوال العلوية والسفلية وهو الباقي روى ابو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه وتعالى في ثلاث ساعات بقين من الليل ينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه احد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء وللحكماء في تفسير هذين الكتابين كلمات عجيبة واسرار غامضة (والقول الثاني) ان ام الكتاب هو علم الله تعالى فانه تعالى عالم بجميع المعلومات من الموجودات والمعدومات وان تغيرت الا ان علم الله تعالى بها باق منزه عن التغير فالمراد بأم الكتاب هو ذلك والله اعلم * قوله تعالى ( واما نرينك بعض الذي نعدهم او نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب ) اعلم ان المعنى واما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب او نتوفينك قبل ذلك والمعنى سواء اريناك ذلك او توفيناك قبل ظهوره فالواجب عليك تبليغ احكام الله تعالى واداء امانته ورسالته وعلينا الحساب والبلاغ اسم اقيم مقام التبليغ كالسراح والاداء * قوله تعالى ( أولم يروا انا نأتي الارض ننقصها من اطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار) اعلم انه تعالى لما وعد رسوله بان يريه بعض ما وعدوه او يتوفاه قبل ذلك بين في هذه الآية ان آثار حصول تلك المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقويت وقوله أولم يروا انا نأتي الارض ننقصها من اطرافها فيه اقوال (الاول) المراد انا نأتي ارض الكفرة ننقصها من اطرافها وذلك لان المسلمين يستولون على اطراف مكة ويأخذونها من الكفرة قهرا وجبرا فانتقاص احوال الكفرة وازدياد قوة المسلمين من أقوى العلامات والامارات على أن الله تعالى ينجز وعده

بالايماء الى العلة ( لكل اجل ) اي لكل مدة ووقت من المدد والاوقات (كتاب ) حكم معين يكتب على العباد حسبما تقتضيه الحكمة فان الشرائع كلها لاصلاح احوالهم في المبدأ والمعاد ومن قضية ذلك انه يختلف حسب اختلاف احوالهم المتغيرة حسب تغير الاوقات كاختلاف العلاج حسب اختلاف احوال المرضى بحسب الاوقات (يمحو الله ما يشاء) اي ينسخ ما يشاء نسخه من الاحكام لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت ( ويثبت ) بدله ما فيه المصلحة او يبقيه على حاله غير منسوخ او يثبت ما شاء اثباته مطلقا اعم منهما ومن الانشاء ابتداء او يمحو من ديوان الحفظة الذين ديدنهم كتب كل قول وعمل ما لا يتعلق به الجزاء ويثبت الباقي او يمحو سيآت التائب ويثبت مكانها الحسنة او يمحو قرنا ويثبت آخرين او يمحو الفاسدات من العالم الجسماني ويثبت الكائنات او يمحو الرزق ويزيد فيه او يمحو الاجل والسعادة والشقاوة وبه قال ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهم والقائلون به يتضرعون الى الله تعالى ان يجعلهم سعداء وهذا رواه جابر عن النبي عليه الصلاة والسلام والانسب تعميم كل من المحو والاثبات ليشمل الكل ويدخل في ذلك مواد الانكار دخولا اوليا وقرئ بالتشديد ( وعنده ام الكتاب ) اي أصله وهو اللوح المحفوظ اذ ما من شيء من الذاهب والثابت الا وهو مكتوب فيه كما هو ( واما نرينك) أصله ان نرك

وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ومن ثمه الحقت النون بالفعل ( بعض الذي نعدهم ) اي وعدناهم من انزال العذاب عليهم (ونظيره)

ونظيره قوله تعالى أفلا يرون انا نأتي الارض ننقصها من اطرافها أفهم الغالبون وقوله سنريهم آياتنا في الآفاق (والقول الثاني) وهو ايضا منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما انقوله ننقصها من اطرافها المراد موت اشرافها وكبرائها وعلمائها وذهاب الصلحاء والاخيار وقال الواحدي وهذا القول وان احتمله اللفظ الا ان اللائق بهذا الموضع هو الوجه الاول ويمكن ان يقال هذا الوجه ايضا لا يليق بهذا الموضع وتقريره ان يقال أولم يروا ما يحدث في الدنيا من الاختلافات خراب بعد عمارة وموت بعد حياة وذل بعد عز ونقص بعد كمال واذا كانت هذه التغيرات مشاهدة محسوسة فما الذي يؤمنهم من ان يقلب الامر على هؤلاء الكفرة فيجعلهم ذليلين بعد ان كانوا عزيزين ويجعلهم مقهورين بعد ان كانوا قاهرين وعلى هذا الوجه فيحسن اتصال هذا الكلام بما قبله وقيل ننقصها من اطرافها بموت اهلها وتخريب ديارهم وبلادهم فهؤلاء الكفرة كيف أمنوا من ان يحدث فيهم امثال هذه الوقائع ثم قال تعالى مؤكدا لهذا المعنى والله يحكم لا معقب لحكمه معناه لا راد لحكمه والمعقب هو الذي يعقبه بالرد والابطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لانه يعقب غريمه بالاقتضاء والطلب فان قيل ما محل قوله لا معقب لحكمه قلنا هو جملة محلها النصب على الحال كأنه قيل والله يحكم نافذا حكمه خاليا عن المدافع والمعارض والمنازع ثم قال وهو سريع الحساب قال ابن عباس يريد سريع الانتقام يعني ان حسابه للمجازاة بالخير والشر يكون سريعا قريبا لا يدفعه دافع اما قوله وقد مكر الذين من قبلهم يعني ان كفار الامم الماضية قد مكروا برسلهم وانبيائهم مثل نمروذ مكر بابراهيم وفرعون مكر بموسى واليهود مكروا بعيسى ثم قال فلله المكر جميعا قال الواحدي معناه ان مكر جميع الماكرين له ومنه اي هو حاصل بتخليقه وارادته لانه ثبت ان الله تعالى هو الخالق لجميع اعمال العباد وايضا فذلك المكر لا يضر الا باذن الله تعالى ولا يؤثر الا بتقديره وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وامان له من مكرهم كأنه قيل له اذا كان حدوث المكر من الله وتأثيره في الممكور به ايضا من الله وجب ان لا يكون الخوف الا من الله تعالى وان لا يكون الرجاء الا من الله تعالى وذهب بعض الناس الى ان المعنى فلله جزاء المكر وذلك لانهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله تعالى انه يجازيهم على مكرهم قال الواحدي والاول اظهر القولين بدليل قوله يعلم ما تكسب كل نفس يريد ان اكساب العباد بأسرها معلومة لله تعالى وخلاف المعلوم ممتنع الوقوع واذا كان كذلك فكل ما علم الله وقوعه فهو واجب الوقوع وكل ما علم عدمه كان ممتنع الوقوع واذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك فكان الكل من الله تعالى قالت المعتزلة الآية الاولى ان دلت على قولكم فالآية الثانية وهي قوله يعلم ما تكسب كل نفس دلت على قولنا لان الكسب هو الفعل المشتمل على دفع مضرة او جلب منفعة ولو كان حدوث الفعل بخلق الله تعالى لم يكن لقدرة العبد فيه اثر فوجب ان لا يكون للعبد كسب وجوابه ان مذهبنا ان مجموع

البعض رمز الى اراءة بعض الموعود (او نتوفينك) قبل ذلك ( فانما عليك البلاغ ) اي تبليغ احكام الرسالة بتمامها لا تحقيق مضمون ما بلغته من الوعيد الذي هو من جملتها ( وعلينا ) لا عليك (الحساب) محاسبة اعمالهم السيئة والمؤاخذة بها اي كيفما دارت الحال اريناك بعض ماوعدناهم من العذاب الدنيوي اولم نركه فعلينا ذلك وما عليك الا تبليغ الرسالة فلا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتم ما وعدناك من الظفر ولا يضجرك تأخره فان ذلك لما نعلم من المصالح الخفية ثم طيب نفسه عليه الصلاة والسلام بطلوع تباشيره فقال ( اولم يروا) استفهام انكاري والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام اي أأنكروا نزول ما وعدناهم اوشكوا اولم ينظروا في ذلك ولم يروا ( انا نأتي الارض ) اي ارض الكفر ( ننقصها من اطرافها ) بأن نفتحها على المسلمين شيئا فشيئا ونلحقها بدار الاسلام ونذهب منها اهلها بالقتل والاسر والاجلاء أليس هذا من ذلك ومثله قوله عز سلطانه أفلا يرون أنا نأتي الارض ننقصها من اطرافها أفهم الغالبون وقوله ننقصها حال من فاعل نأتي اومن مفعوله وقرئ ننقصها بالتشديد وفي لفظ الاتيان المؤذن بالاستواء المحتوم والاستيلاء العظيم من الفخامة ما لا يخفى كما في قوله عز وجل وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا (والله يحكم ) ما يشاء كما يشاء وقد حكم للاسلام بالعزة والاقبال وعلى الكفر بالذلة والادبار حسبما يشاهد من المخايل والآثار وفي الالتفات من التكلم الى الغيبة و بناء الحكم

القدرة مع الداعى مستلزم للفعل وعلى هذا التقدير فالكسب حاصل للعبد ثم انه تعالى اكد ذلك التهديد فقال وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن كثير وابو عمرو وسيعلم الكافر على لفظ المفرد والباقون على الجمع قال صاحب الكشاف قرئ الكفار والكافرون والذين كفروا والكفر اى اهله وقرأ جناح بن حبيش وسيعلم الكافر من اعلمه اى سيخبر (المسئلة الثانية) المراد بالكافر الجنس كقوله تعالى ان الانسان لفى خسر والمعنى انهم وان كانوا جهالا بالعواقب فسيعلمون لمن العاقبة الحميدة وذلك كالزجر والتهديد والقول الثانى وهو قول عطاء يريد المستهزئين وهم خمسة والمقتسمين وهم ثمانية وعشرون والقول الثالث وهو قول ابن عباس يريد اباجهل والقول الاول هو الصواب ❊ قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب) اعلم انه تعالى حكى عن القوم انهم انكروا كونه رسولا من عندالله ثم انه تعالى احتج عليهم بأمرين الاول شهادة الله على نبوته والمراد من تلك الشهادة انه تعالى اظهر المعجزات الدالة على كونه صادقا فى ادعاء الرسالة وهذا اعلى مراتب الشهادة لان الشهادة قول يفيد غلبة الظن بأن الامر كذلك اما المعجز فانه فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولا من عندالله تعالى فكان اظهار المعجزة اعظم مراتب الشهادة والثانى قوله ومن عنده علم الكتاب وفيه قراءتان احداهما القراءة المشهورة ومن عنده يعنى والذى عنده علم الكتاب والثانية ومن عنده علم الكتاب وكلة من ههنا لابتداء الغاية اى ومن عندالله حصل علم الكتاب اما على القراءة الاولى ففى تفسير الآية وجوه (الاول) ان المراد شهادة اهل الكتاب من الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وهم عبدالله بن سلام وسلمان الفارسى وتميم الدارى ويروى عن سعيد بن جبير انه كان يبطل هذا الوجه ويقول السورة مكية فلا يجوز ان يراد به ابن سلام واصحابه لانهم آمنوا فى المدينة بعد الهجرة واجيب عن هذا السؤال بأن قيل هذه السورة وان كانت مكية الا ان هذه الآية مدنية وايضا فاثبات النبوة بقول الواحد والاثنين مع كونهما غير معصومين عن الكذب لايجوز وهذا السؤال واقع (القول الثانى) اراد بالكتاب القرآن اى ان الكتاب الذى جئتكم به معجز قاهر وبرهان باهر الا انه لايحصل العلم بكونه معجزا الا لمن علم ما فى هذا الكتاب من الفصاحة والبلاغة واشتماله على الغيوب وعلى العلوم الكثيرة فمن عرف هذا الكتاب على هذا الوجه علم كونه معجزا فقوله ومن عنده علم الكتاب اى ومن عنده علم القرآن وهو قول الاصم (القول الثالث) ومن عنده علم الكتاب المراد به الذى حصل عنده علم التوراة والانجيل يعنى ان كل من كان عالما بهذين الكتابين علم اشتمالهما على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم فاذا انصف ذلك العالم ولم يكذب كان شاهدا على ان محمدا صلى الله عليه وسلم رسول حق من عندالله (القول الرابع) ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى وهو قول الحسن وسعيد بن جبير والزجاج قال الحسن

يجئ بها لتأكيد فحوى ماتقدمها وقوله تعالى (لامعقب لحكمه) اعتراض فى اعتراض لبيان علو شأن حكمه جل جلاله وقيل نصب على الحالية كأنه قيل والله يحكم نافذا حكمه كما تقول جاء زيد لاعمامة على رأسه اى حاسرا والمعقب من يكر على الشئ فيبطله وحقيقته من يعقبه ويقفيه بالرد والابطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لانه يقفى غريمه بالاقتضاء والطلب (وهو سريع الحساب) فعما قليل يحاسبهم ويجازيهم فى الآخرة بأفانين العذاب غب ماعذبهم بالقتل والاسر والاجلاء حسبما يرى وقال ابن عباس رضى الله عنهما سريع الانتقام (وقد مكر) الكفار (الذين) خلوا (من قبلهم) من قبل كفار مكة بأنبيائهم والمؤمنين كما مكر هؤلاء وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لاعبرة بمكرهم ولا تأثير بل لاوجود له فى الحقيقة ولم يصرح بذلك اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من تعليله اعنى قوله تعالى (فلله المكر) اى جنس المكر (جميعا) لاوجود لمكرهم اصلا اذ هو عبارة عن ايصال المكروه الى الغير من حيث لايشعر به وحيث كان جميع ما يأتون وما يذرون بعلم الله تعالى وقدرته وانما لهم مجرد الكسب من غير فعل ولا تأثير حسبما يبينه قوله عزوجل (يعلم ماتكسب كل نفس) ومن قضيته عصمة اوليائه وعقاب الماكرين بهم توفية لكل نفس جزاء ماتكسبه ظهر أن ليس لمكرهم بالنسبة الى من مكروا بهم عين ولا أثر وان المكر كله لله تعالى حيث يؤاخذهم بما كسبوا من فنون المعاصى التى من جملتها مكرهم من حيث ( لاوالله )

لايحتسبون اوالله المكر الذى باشروه جميعا لالهم على معنى ان ذلك ليس مكرا منهم بالانبياء بل هو بعينه مكر من الله تعالى بهم وهم لايشعرون حيث لايحيق المكر السيئ ( ٣١٣ ) الا باهله ( وسيعلم الكفار ) حين يقتضى بمقتضى علمه فيوفى كل نفس جزاء ماتكسبه

لا والله مايعنى الا الله والمعنى كفى بالذى يستحق العبادة وبالذى لايعلم علم مافى اللوح الا هو شهيدا بينى وبينكم وقال الزجاج الاشبه ان الله تعالى لايستشهد على صحة حكمه بغيره وهذا القول مشكل لان عطف الصفة على الموصوف وان كان جائزا فى الجملة الا انه خلاف الاصل لايقال شهد بهذا زيد والفقيه بل يقال شهد به زيد الفقيه واما قوله ان الله تعالى لايستشهد بغيره على صدق حكمه فبعيد لانه لما جاز ان يقسم الله تعالى على صدق قوله بقوله والتين والزيتون فأى امتناع فيما ذكره الزجاج واما القراءة الثانية وهى قوله ومن عنده علم الكتاب على من الجارة فالمعنى ومن لدنه علم الكتاب لان احدا لايعلم الكتاب الا من فضله واحسانه وتعليمه ثم على هذه القراءة ففيه ايضا قراء تان ومن عنده علم الكتاب والمراد العلم الذى هو ضد الجهل اى هذا العلم انما حصل من عند الله والقراءة الثانية ومن عنده علم الكتاب بضم العين وبكسر اللام وفتح الميم على مالم يسم فاعله والمعنى انه تعالى لما امر نبيه ان يحتج عليهم بشهادة الله تعالى على ماذكرناه وكان لامعنى لشهادة الله تعالى على نبوته الا اظهار القرآن على وفق دعواه ولايعلم كون القرآن معجزا الا بعد الاحاطة بما فى القرآن واسراره بين تعالى ان هذا العلم لايحصل الا من عند الله والمعنى ان الوقوف على كون القرآن معجزا لايحصل الا اذا شرف الله تعالى ذلك العبد بان يعلمه علم القرآن والله تعالى اعلم بالصواب * تم تفسير هذه السورة يوم الاحد الثامن عشر من شعبان سنة احدى وستمائة وانا التمس من كل من نظر فى كتابى هذا وانتفع به ان يخص ولدى محمدا بالرحمة والغفران وان يذكرنى بالدعاء واقول فى مرثية ذلك الولد شعرا

أرى معالم هذا العالم الفانى * ممزوجة بمخافات وأحزان

خيراته مثل احلام مفزعة * وشره فى البرايا دائم دانى

*( سورة ابراهيم عليه السلام خمسون وآيتان مكية )*

*( بسم الله الرحمن الرحيم )*

(الر كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد ) اعلم ان الكلام فى ان هذه السورة مكية اومدنية طريقه الآحاد ومتى لم يكن فى السورة مايتصل بالاحكام الشرعية فنزولها بمكة والمدينة سواء وانما يختلف الغرض فى ذلك اذا حصل فيه ناسخ ومنسوخ فيكون فيه فائدة عظيمة وقوله الر كتاب معناه ان السورة المسماة بالر كتاب انزلناه اليك لغرض كذا وكذا فقوله الر مبتدأ وقوله كتاب خبره وقوله انزلناه اليك صفة لذلك الخبر وفيه مسائل ( المسئلة الاولى ) دلت هذه الآية على ان القرآن موصوف بكونه منزلا من عند الله تعالى قالت المعتزلة النازل والمنزل لايكون قديما وجوابنا ان الموصوف بالنازل والمنزل هو هذه الحروف وهى محدثة بلا نزاع ( المسئلة الثانية ) قالت المعتزلة اللام فى قوله لتخرج الناس لام الغرض والحكمة وهذا يدل على انه تعالى

(لمن عقبى الدار) اى العاقبة الحميدة من الفريقين وان جهلوا ذلك يومئذ وقيل السين لتأكيد وقوع ذلك وعلمهم به حينئذ وقرئ سيعلم الكافر على ارادة الجنس والكافرون والكفر اى اهله والذين كفروا وسيعلم على صيغة المجهول من الاعلام اى سيخبر ( ويقول الذين كفروا لست مرسلا ) قيل قاله رؤساء اليهود وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاء تعجيبا منها او للدلالة على تجدد ذلك واستمراره منهم ( قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ) فانه قد اظهر على رسالتى من الحجج القاطعة والبينات الساطعة مافيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر ( ومن عنده علم الكتاب ) اى علم القرآن وما عليه من النظم المعجز أو من هو من علماء اهل الكتاب الذين اسلموا لانهم يشهدون بنعته عليه الصلاة والسلام فى كتبهم والآية مدنية بالاتفاق او من عنده علم اللوح المحفوظ وهو الله سبحانه اى كفى به شاهدا بيننا بالذى يستحق العبادة فانه قد شحن كتابه بالدعوة الى عبادته وايدنى بانواع التأييد وبالذى يختص بعلم مافى اللوح من الاشياء الكائنة الثابتة التى من جملتها رسالتى وقرئ من عنده بالكسر وعلم الكتاب على الاول مرتفع بالظرف المعتمد على الموصول او مبتدأ خبره الظرف وهو متعين على الثانى ومن عنده علم الكتاب بالكسر وبناء المفعول ورفع الكتاب * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الرعد اعطى من الاجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون الى يوم القيامة

وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله عزوجل والله ( ٤٠ )( را )( خا ) اعلم بالصواب * سورة ابراهيم عليه السلام مكية * وهى احدى وخمسون آية ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ( الر ) مر الكلام فيه وفى محله غير مرة وقوله تعالى ( كتاب ) خبر له على تقدير كون الر مبتدأ

انما انزل هذا الكتاب لهذ الغرض وذلك يدل على ان افعال الله تعالى واحكامه معللة برعاية المصالح اجاب اصحابنا عنه بأن من فعل فعلا لاجل شئ آخر فهذا انما يفعله لو كان عاجزا عن تحصيل هذا المقصود الا بهذه الواسطه وذلك في حق الله تعالى محال واذا ثبت بالدليل انه يمتنع تعليل افعال الله تعالى واحكامه بالعلل ثبت ان كل ظاهر اشعر به فانه مؤول محمول على معنى آخر (المسئلة الثالثة) انما شبه الكفر بالظلمات لانه نهاية ما يتحير الرجل فيه عن طريق الهداية وشبه الايمان بالنور لانه نهاية ما ينجلي به طريق هدايته (المسئلة الرابعة) قال القاضي هذه الآية فيها دلالة على ابطال القول بالجبر من جهات احدها انه تعالى لو كان يخلق الكفر في الكافر فكيف يصح اخراجه منه بالكتاب وثانيها انه تعالى اضاف الاخراج من الظلمات الى النور الى الرسول صلى الله عليه وسلم فان كان خالق ذلك الكفر هو الله تعالى فكيف يصح من الرسول عليه الصلاة والسلام اخراجهم منه وكان للكافر ان يقول انك تقول ان الله خلق الكفر فينا فكيف يصح منك ان تخرجنا منه فان قال لهم انا اخرجكم من الظلمات التي هي كفر مستقبل لا واقع فلهم ان يقولوا ان كان تعالى سيخلقه فينا لم يصح ذلك الاخراج وان لم يخلقه فنحن خارجون منه بلا اخراج وثالثها انه صلى الله عليه وسلم انما يخرجهم من الكفر بالكتاب بان يتلوه عليهم ليتدبروه وينظروا فيه فيعلموا بالنظر والاستدلال كونه تعالى عالما قادرا حكيما ويعلموا بكون القرآن معجزة صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وحينئذ يقبلوا منه كل ما اداه اليهم من الشرائع وذلك لا يصح الا اذا كان الفعل لهم ويقع باختيارهم ويصح منهم ان يقدموا عليه ويتصرفوا فيه والجواب عن الكل ان نقول الفعل الصادر من العبد اما ان يصدر عنه حال استواء الداعي الى الفعل والترك او حال رجحان احد الطرفين على الآخر والاول باطل لان صدور الفعل رجحان لجانب الوجود على جانب العدم وحصول الرجحان حال حصول الاستواء محال والثاني عين قولنا لانه يمتنع صدور الفعل عنه الا بعد حصول الرجحان فان كان ذلك الرجحان منه عاد السؤال وان لم يكن منه بل من الله تعالى فحينئذ يكون المؤثر الاول هو الله تعالى وذلك هو المطلوب والله اعلم (المسئلة الخامسة) احتج اصحابنا على صحة قولهم في ان فعل العبد مخلوق لله تعالى بقوله تعالى باذن ربهم فان معنى الآية ان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكنه اخراج الناس من الظلمات الى النور الا باذن ربهم والمراد بهذا الاذن اما الامر واما العلم واما المشيئة والخلق وحمل الاذن على الامر محال لان الاخراج من الجهل الى العلم لا يتوقف على الامر فانه سواء حصل الامر او لم يحصل فان الجهل متميز عن العلم والباطل متميز عن الحق وايضا حمل الاذن على العلم محال لان العلم يتبع المعلوم على ما هو عليه فالعلم بالخروج من الظلمات الى النور تابع لذلك الخروج ويمتنع ان يقال ان حصول ذلك الخروج تابع للعلم بحصول ذلك الخروج ولما بطل هذان القسمان لم يبق الا ان يكون المراد من الاذن المشيئة والتخليق وذلك يدل على ان الرسول صلى الله

---

او لمبتدأ مضمر على تقدير كونه خبرا لمبتدأ محذوف او مسرودا على نمط التعديد ويجوز ان يكون خبرا ثانيا لهذا المبتدأ المحذوف وقوله تعالى (انزلناه اليك) صفة له وقوله تعالى (لتخرج الناس) متعلق بانزلناه اى لتخرجهم كافة عما في تضاعيفه من البينات الواضحة المفصحة عن كونه من عند الله عز وجل الكاشفة عن العقائد الحقة وقرئ ليخرج الناس (من الظلمات) اى ليخرج به الناس من عقائد الكفر والضلال التي كلها ظلمات محضة وجهالات صرفة (الى النور) الى الحق الذي هو نور بحت لكن لا كيفما كان فانك لا تهدي من احببت بل (باذن ربهم) اى بتيسيره وتوفيقه وللانباء عن كون ذلك منوطا باقبالهم الى الحق كما يفصح عنه قوله تعالى ويهدى اليه من أناب استعير له الاذن الذي هو عبارة عن تسهيل الحجاب لمن يقصد الورود وأضيف الى ضميرهم اسم الرب المفصح عن التربية التي هي عبارة عن تبليغ الشئ الى كماله المتوجه اليه وشمول الاذن بهذا المعنى للكل واضح وعليه يدور كون الانزال لاخراجهم جميعا وعدم تحقق الاذن بالفعل في بعضهم لعدم تحقق شرطه المستند الى سوء اختيارهم غير مخل بذلك والباء متعلقة بتخرج او بمضمر وقع حالا من مفعوله اى ملتبسين باذن ربهم وجعله حالا من فاعله يأباه اضافة الرب اليهم لا اليه وحيث كان الحق مع وضوحه في نفسه وايضاحه لغيره موصلا الى الله عز وجل استعير له النور تارة والصراط أخرى فقيل (الى صراط العزيز الحميد) على وجه الابدال بتكرير العامل كما في قوله تعالى للذين استضعفوا لمن آمن منهم واخلال البدل والبيان بالاستعارة انما هو في الحقيقة لا في المجاز كما في قوله سبحانه حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر وقيل هو استئناف مبني على سؤال كأنه قيل الى

عليه وسلم لايمكنه اخراج الناس من الظلمات الى النور الابمشيئة الله وتخليقه فان قيل لم لايجوز ان يكون المراد من الاذن الالطاف قلنا لفظ اللطف لفظ مجمل ونحن نفصل القول فيه فنقول المراد بالاذن اما ان يكون امرا يقتضى ترجيح جانب الوجود على جانب العدم اولا يقتضى ذلك فان كان الثانى لم يكن فيه امر البتة فامتنع ان يقال انه ما حصل بسببه ولاجله فبقى الاول وهو ان المراد من الاذن معنى يقتضى ترجيح جانب الوجود على جانب العدم وقد دللنا فى الكتب العقلية على انه متى حصل الرجحان فقد حصل الوجوب ولا معنى لذلك الا الداعية الموجبة وهو عين قولنا والله اعلم (المسئلة السادسة) القائلون بان معرفة الله تعالى لايمكن تحصيلها الا من تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم والامام احتجوا عليه بهذه الآية وقالوا انه تعالى صرح فى هذه الآية بأن الرسول هو الذى يخرجهم من ظلمات الكفر الى نور الايمان وذلك يدل على ان معرفة الله تعالى لاتحصل الا من طريق التعليم وجوابنا ان الرسول صلى الله عليه وسلم يكون كالمنبه واما المعرفة فهى انما تحصل بالدليل والله اعلم (المسئلة السابعة) الآية دالة على ان طرق الكفر والبدعة كثيرة وان طريق الخير ليس الا الواحد لانه تعالى قال ليخرج الناس من الظلمات الى النور فعبر عن الجهل والكفر بالظلمات وهى صيغة جمع وعبر عن الايمان والهداية بالنور وهو لفظ مفرد وذلك يدل على ان طرق الجهل كثيرة واما طريق العلم والايمان فليس الا الواحد (المسئلة الثامنة) فى قوله تعالى الى صراط العزيز الحميد وجهان (الاول) انه بدل من قوله الى النور بتكرير العامل كقوله للذين استضعفوا لمن آمن منهم الثانى يجوز ان يكون على وجه الاستئناف كأنه قيل الى اى نور فقيل الى صراط العزيز الحميد (المسئلة التاسعة) قالت المعتزلة الفاعل انما يكون آتيا بالصواب والصلاح تاركا للقبيح والعبث اذا كان قادرا على كل المقدورات عالما بجميع المعلومات غنيا عن كل الحاجات فانه ان لم يكن قادرا على الكل فربما فعل القبيح بسبب العجز وان لم يكن عالما بكل المعلومات فربما فعل القبيح بسبب الجهل وان لم يكن غنيا عن كل الحاجات فربما فعل القبيح بسبب الحاجة اما اذا كان قادرا على الكل عالما الكل غنيا عن الكل امتنع منه الاقدام على فعل القبيح فقوله العزيز اشارة الى كمال القدرة وقوله الحميد اشارة الى كونه مستحقا للحمد فى كل افعاله وذلك انما يحصل اذا كان عالما بالكل غنيا عن الكل فثبت بما ذكرنا ان صراط الله انما كان موصوفا بكونه شريفا رفيعا عاليا لكونه صراطا مستقيما للاله الموصوف بكونه عزيزا حميدا فلهذا المعنى وصف الله نفسه بهذين الوصفين فى هذا المقام (المسئلة العاشرة) انما قدم ذكر العزيز على ذكر الحميد لان الصحيح ان اول العلم بالله العلم بكونه تعالى قادرا ثم بعد ذلك العلم بكونه عالما ثم بعد ذلك العلم بكونه غنيا عن الحاجات والعزيز هو القادر والحميد هو العالم الغنى فلما كان العلم بكونه تعالى قادرا متقدما على العلم بكونه عالما بالكل غنيا عن الكل لاجرم قدم الله ذكر العزيز على ذكر الحميد والله اعلم ❊ قوله تعالى (الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض وويل للكافرين من عذاب شديد الذين يستحبون الحيوة الدنيا

فى سلوكه ببيان ما فيه من الامن والعاقبة الحميدة (الله) بالجر عطف بيان للعزيز الحميد لجريانه مجرى الاعلام الغالبة بالاختصاص بالمعبود بالحق كالنجم فى الثريا وقرئ بالرفع على هو الله اى العزيز الحميد الذى اضيف اليه الصراط الله (الذى له) ملكا وملكا (ما فى السموات وما فى الارض) اى ما وجد فيهما داخلا فيهما خارجا عنهما متمكنا فيهما كما مر فى آية الكرسى ففيه على القراءتين بيان لكمال فخامة شأن الصراط واظهار لتحتم سلوكه على الناس قاطبة وتجويز الرفع على الابتداء بجعل الموصول خبرا مبناه الغفول عن هذه النكتة وقوله عز وجل (وويل للكافرين) وعيد لمن كفر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات الى النور بالويل وهو نقيض الوال وهو النجاة وأصله النصب كسائر المصادر ثم رفع رفعها للدلالة على الثبات كسلام عليك (من عذاب شديد) متعلق بويل على معنى يولولون ويضجون منه قائلين ياويلاه كقوله تعالى دعوا هنالك ثبورا (الذين يستحبون الحيوة الدنيا) أى يؤثرونها استفعال من المحبة فان المؤثر للشئ على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب اليها وأفضل عندها من غيره (على الآخرة) أى الحياة الآخرة الأبدية (ويصدون) الناس (عن سبيل الله) التى بين شأنها والاقتصار على الاضافة الى الاسم الجليل المنطوى على كل وصف جميل لزوم الاختصار وهو من صده صدا وقرئ يصدون من اصد المنقول من صد صدودا اذا نكب وهو غير فصيح كاوقف فان فى صده ووقفه لمندوحة عن تكلف النقل (ويبغونها) اى يبغون لها فحذف الجار واوصل الفعل الى الضمير

على الآخرة و يصدون عن سبيل الله و يبغونها عوجا أولئك فى ضلال بعيد) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأنافع و ابن عامر الله مرفوعا بالابتداء وخبره مابعده وقيل التقدير هو الله و الباقون بالجر عطفا على قوله العزيز الحميد(و ههنا بحث)وهو ان جماعة من المحققين ذهبوا الى ان قولنا الله جار مجرى الاسم العلم لذات الله تعالى و ذهب قوم آخرون الى انه لفظ مشتق و الحق عندنا هو الاول*ويدل عليه وجوه(الاول)ان الاسم المشتق عبارة عن شئ ماحصل له المشتق منه فالاسود مفهومه شئ ماحصل له السواد و الناطق مفهومه شئ ماحصل له النطق فلوكان قولنا الله اسما مشتقا من معنى لكان المفهوم منه انه شئ حصل له ذلك المشتق منه و هذا المفهوم كلى لايمتنع من حيث هو هو عن وقوع الشركة فيه فلوكان قولنا الله لفظا مشتقا لكان مفهومه صالحا لوقوع الشركة فيه و لوكان الامر كذلك لما كان قولنا لااله الاالله موجبا للتوحيد لان المستثنى هو قولنا الله وهو غيرمانع من وقوع الشركة فيه و لما اجتمعت الامة على ان قولنا لااله الاالله يوجب التوحيد المحض علمنا ان قولنا الله جار مجرى الاسم العلم(الثانى)انه كلما اردنا ان نذكر سائر الصفات و الاسماء ذكرنا اولا قولنا الله ثم وصفناه بسائر الصفات كقولنا هو الله الذى لااله الاهو الرحمن الرحيم الملك القدوس ولايمكننا ان نعكس الامر فنقول الرحمن الرحيم الله فعلمنا ان الله هو اسم علم للذات المخصوصة وسائر الالفاظ دالة على الصفات و النعوت (الثالث) ان ماسوى قولنا الله كلها دالة اما على الصفات السلبية كقولنا القدوس السلام او على الصفات الاضافية كقولنا الخالق الرازق او على الصفات الحقيقية كقولنا العالم القادر او على مايتركب من هذه الثلاثة فلو لم يكن قولنا الله اسما للذات المخصوصة لكان جميع اسماء الله تعالى الفاظا دالة على صفاته و لم يحصل فيها مايدل على ذاته المخصوصة و ذلك بعيد لانه يبعد ان لايكون له من حيث انه هو اسم مخصوص( الرابع )قوله تعالى هل تعلم له سميا و المراد هل تعلم من اسمه الله غيرالله و ذلك يدل على ان قولنا الله اسم لذاته المخصوصة و اذا ظهرت هذه المقدمة فالترتيب الحسن ان يذكر الاسم ثم تذكر عقيبه الصفات كقوله تعالى هو الله الخالق البارئ المصور فامان يعكس فيقال هو الخالق المصور البارئ الله فذلك غيرجائز و اذاثبت هذافنقول الذين قرؤا الله الذى له مافى السموات بالرفع ارادوا ان يجعلوا قوله الله مبتدأ و يجعلوا مابعده خبرا عنه وهذا هو الحق الصحيح فأما الذين قرؤا الله بالجر عطفا على العزيز الحميد فهو مشكل لما بينا ان الترتيب الحسن ان يقال الله الخالق و امان يقال الخالق الله فهذا لايحسن*وعند هذا اختلفوا فى الجواب على وجوه(الاول)قال ابوعمرو ابن العلاء القراءة بالخفض على التقديم و التأخير و التقدير صراط الله العزيز الحميد الذى له مافى السموات(و الثانى)انه لايبعدان يذكر الصفة اولا ثم يذكر الاسم ثم يذكر الصفة مرة أخرى كما يقال مررت بالامام الاجل محمد الفقيه وهو بعينه نظير قوله صراط العزيز الحميد الله الذى له مافى السموات و تحقيق القول فيه انا بينا ان الصراط انمايكون ممدوحا محمودا

اى يطلبون لها(عوجا)اى زيغا واعوجاجا وهى ابعد شئ من ذلك اى يقولون  لمن يريدون صده واضلاله انها سبيل ناكبة وزائغة غير مستقيمة ومحل موصول هذه الصلات الجر على انه بدل من الكافرين اوصفة له فيعتبر كل وصف من او صافهم بازاء مايناسبه من المعانى المعتبرة فى الصراط فالكفر المنبئ عن الستر بازاء كونه نورا واستحباب الحياة الدنيا الفانية المفصحة عن وخامة العاقبة بمقابلة كون سلوكه محمود العاقبة والصد عنه بازاء كونه مأمونا وفيه من الدلالة على تماديهم فى الغى مالا يخفى او النصب على الذم اوالرفع على الابتداء والخبر قوله تعالى ( اولئك فى ضلال بعيد ) وعلى الاول جملة مستأنفة وقعت معللة لما سبق من لحوق الويل بهم تأكيدا لما اشعر به بناء الحكم على الموصول اى اولئك الموصوفون بالقبائح المذكورة من استحباب الحياة الدنيا على الآخرة وصد الناس عن سبيل الله المستقيمة ووصفها بالاعوجاج وهى منه بنزه فى ضلال عن طريق الحق بعيد بالغ فى ذلك غاية الغايات القاصية والبعد وان كان من احوال الضال الاانه قد وصف به وصفه مجاز للمبالغة كجد جده وداهية دهياء ويجوز ان يكون المعنى فى ضلال ذى بعد اوفيه بعد فان الضال قد يضل عن الطريق مكانا قريبا وقد يضل بعيدا وفى جعل الضلال محيطا بهم احاطة الظرف بما فيه مالا يخفى من المبالغة ( وما ارسلنا ) اى فى الامم الخالية من قبلك كما سيذكر اجمالا ( من رسول الا ) ملتبسا (بلسان قومه ) متكلما بلغة من ارسل اليهم من الامم المتفقة على لغة سواء بعث فيهم اولا وقرئ بلسن وهو لغة فيه كريش ورياش وبلسن بضمتين وضمة وسكون كعمد وعمد( ليبين لهم ) ما امروا به فيتلقوه منه بيسر وسرعة ويعملوا بموجبه من غير حاجة الى الترجمة ( اذا )

اذا كان صراط العالم القادر الغنى والله تعالى عبر عن هذه الامور الثلاثة بقوله العزيز الحميد ثم لما ذكر هذا المعنى وقعت الشبهة فى ان ذلك العزيز من هو فعطف عليها قوله الله الذى له مافى السموات ومافى الارض ازالة لتلك الشبهة ( الثالث ) قال صاحب الكشاف الله عطف بيان للعزيز الحميد وتحقيق هذا القول ماقررناه فيما تقدم (الرابع) قد ذكرنا فى اول هذا الكتاب ان قولنا الله فى اصل الوضع مشتق الا انه بالعرف صار جاريا مجرى الاسم العلم فحيث يبدأ بذكره ويعطف عليه سائر الصفات فذلك لاجل انه جعل اسم علم واما فى هذه الآية حيث جعل وصفا للعزيز الحميد فذاك لاجل انه حمل على كونه لفظا مشتقا فلا جرم بقى صفة (الخامس) ان الكفار ربما وصفوا الوثن بكونه عزيزا حميدا فلما قال لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد بقى فى خاطر عبدة الاوثان انه ربما كان ذلك العزيز الحميد هو الوثن فأزال الله تعالى هذه الشبهة وقال الله الذى له مافى السموات وما فى الارض اى المراد من ذلك العزيز الحميد هو الله الذى له مافى السموات وما فى الاض ( المسئلة الثانية ) قوله الله الذى له مافى السموات وما فى الارض يدل على انه تعالى غير مختص بجهة العلو البتة وذلك لان كل ماسماك وعلاك فهو سماء فلو حصل ذات الله تعالى فى جهة فوق لكان حاصلا فى السماء وهذه الآية دالة على ان كل ما فى السموات فهو ملكه فلزم كونه ملكا لنفسه وهو محال فدلت هذه الآية على انه منزه عن الحصول فى جهة فوق ( المسئلة الثالثة ) احتج اصحابنا بهذه الآية على انه تعالى خالق لاعمال العباد لانه قال له مافى السموات ومافى الارض واعمال العباد حاصلة فى السموات والارض فوجب القول بأن افعال العباد له بمعنى كونها مملوكة له والملك عبارة عن القدرة فوجب كونها مقدورة لله تعالى واذا ثبت انها مقدورة لله تعالى وجب وقوعها بقدرة الله تعالى والا لكان العبد قد منع الله تعالى من ايقاع مقدوره وذلك محال واعلم ان قوله تعالى له مافى السموات ومافى الارض يفيد الحصر والمعنى ان مافى السموات ومافى الارض له لا لغيره وذلك يدل على انه لا مالك الا الله ولا حاكم الا الله ثم انه تعالى لما ذكر ذلك عطف على الكفار بالوعيد فقال وويل للكافرين من عذاب شديد والمعنى انهم لما تركوا عبادة الله تعالى الذى هو المالك للسموات والارض ولكل مافيهما الى عبادة مالا يملك ضرا ولا نفعا ويخلق ولا يخلق ولا ادراك لها ولا فعل فالويل ثم الويل لمن كان كذلك وانما خص هؤلاء بالويل لان المعنى يولولون من عذاب شديد ويصيحون منه ويقولون ياويلاه ونظيره قوله تعالى دعوا هنالك ثبورا ثم بين تعالى صفة هؤلاء الكافرين الذين توعدهم بالويل الذى يفيد اعظم العذاب وذكر من صفاتهم ثلاثة انواع (الاول) قوله الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة وفيه مسائل ( المسئلة الاولى ) ان شئت جعلت الذين صفة الكافرين فى الآية المتقدمة وان شئت جعلته مبتدأ وجعلت الخبر قوله اولئك وان شئت نصبته على الذم (المسئلة الثانية) الاستحباب طلب محبة الشئ واقول ان الانسان قد يحب

ممن لم يؤمر به وحيث لم يكن مراعاة هذه  القاعدة فى شأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم اجمعين لعموم بعثته الثقلين كافة على اختلاف لغاتهم وكان تعدد نظم الكتاب المنزل اليه حسب تعدد ألسنة الامم ادعى الى التنازع واختلاف الكلمة وتطرق ايدى التحريف مع ان استقلال بعض من ذلك بالاعجاز دون غيره مئنة لقدح القادحين واتفاق الجميع فيه امر قريب من الالجاء وحصر البيان بالترجمة والتفسير اقتضت الحكمة اتحاد النظم المنبئ عن العزة وجلالة الشأن المستتبع لفوائد غنية عن البيان على ان الحاجة الى الترجمة تتضاعف عند التعدد اذ لابد لكل أمة من معرفة توافق الكل وتحاذيه حذو القذة بالقذة من غير مخالفة ولو فى خصلة فذة وانما يتم ذلك بمن يترجم عن الكل واحدا او متعددا وفيه من التعذر مايتاخم الامتناع ثم لما كان اشرف الاقوام واولاهم بدعوته عليه الصلاة والسلام قومه الذين بعث فيهم ولغتهم أفضل اللغات نزل الكتاب المتين بلسان عربى مبين وانتشرت احكامه فيما بين الامم اجمعين وقيل الضمير فى قومه لمحمد صلى الله عليه وسلم فانه تعالى انزل الكتب كلها عربية ثم ترجمها جبريل عليه الصلاة والسلام او كل من نزل عليه من الانبياء عليهم السلام بلغة من نزل عليهم ويرده قوله تعالى ليبين لهم فانه ضمير القوم وظاهر ان جميع الكتب لم ينزل لتبيين العرب وفى رجعه الى قوم كل نبى كأنه قيل وما ارسلنا من رسول الا بلسان قوم محمد عليه الصلاة والسلام ليبين الرسول لقومه الذين ارسل اليهم مالا يخفى من التكلف (فيضل الله من يشاء) اضلاله اى يخلق فيه الضلال لمباشرة اسبابه المؤدية اليه او يخذله ولا يلطف به لما يعلم انه لا ينجع فيه الالطاف ( ويهدى ) بالتوفيق ومنح الالطاف ( من يشاء )

الشيء ولكنه لا يحب كونه محبا لذلك الشيء مثل من يميل طبعه الى الفسق والفجور ولكنه يكره كونه محبا لهما اما اذا احب الشيء وطلب كونه محبا له وأحب تلك المحبة فهذا هو نهاية المحبة فقوله الذين يستحبون الحياة الدنيا يدل على كونهم فى نهاية المحبة للحياة الدنيوية ولا يكون الانسان كذلك الا اذا كان غافلا عن الحياة الاخروية وعن معايب هذه الحياة العاجلة ومن كان كذلك كان فى نهاية الصفات المذمومة وذلك لان هذه الحياة موصوفة بأنواع كثيرة من العيوب فأحدها ان بسبب هذه الحياة انفتحت ابواب الآلام والاسقام والغموم والهموم والمخاوف والاحزان وثانيها ان هذه اللذات فى الحقيقة لا حاصل لها الا دفع الآلام بخلاف اللذات الروحانية فانها فى انفسها لذات وسعادات وثالثها ان سعادات هذه الحيات منغصة بسبب الانقطاع والانقراض والانقضاء ورابعها انها حقيرة قليلة وبالجملة فلا يحب هذه الحياة الا من كان غافلا عن معايبها وكان غافلا عن فضائل الحياة الروحانية الاخروية ولذلك قال تعالى والآخرة خير وابقى فهذه الكلمة جامعة لكل ماذكرناه ( المسئلة الثالثة ) انما قال يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة لان فيه اضمار والتقدير يستحبون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الآخرة فجمع تعالى بين هذين الوصفين ليبين بذلك ان الاستحباب للدنيا وحده لا يكون مذموما الا بعد ان يضاف اليه ايثارها على الآخرة فأما من أحبها ليصل بها الى منافع النفس والى خيرات الآخرة فان ذلك لا يكون مذموما حتى اذا آثرها على آخرته بأن اختار منها ما يضره فى آخرته فهذه المحبة هى المحبة المذمومة ( النوع الثانى ) من الصفات التى وصف الله الكفار بها قوله تعالى ويصدون عن سبيل الله واعلم ان من كان موصوفا باستحباب الدنيا فهو ضال ومن منع الغير من الوصول الى سبيل الله ودينه فهو مضل فالمرتبة الاولى اشارة الى كونهم ضالين وهذه المرتبة الثانية وهى كونهم صادين عن سبيل الله اشارة الى كونهم مضلين ( النوع الثالث ) من تلك الصفات قوله ويبغونها عوجا واعلم ان الاضلال على مرتبتين المرتبة الاولى انه يسعى فى صد الغير ومنعه من الوصول الى المنهج القويم والصراط المستقيم والمرتبة الثانية ان يسعى فى القاء الشكوك والشبهات فى المذهب الحق ويحاول تقبيح صفته بكل ما يقدر عليه من الحيل وهذا هو النهاية فى الضلال والاضلال واليه الاشارة بقوله ويبغونها عوجا قال صاحب الكشاف الاصل فى الكلام ان يقال ويبغون لها عوجا فحذف الجار واوصل الفعل ولما ذكر الله تعالى هذه المراتب الثلاثة لاحوال هؤلاء الكفار قال فى صفتهم اولئك فى ضلال بعيد وانما وصف هذا الضلال بالبعد لوجوه الاول انا بينا ان اقصى مراتب الضلال هو الذى وصفه الله تعالى فى هذه المرتبة فهذه المرتبة فى غاية البعد عن طريق الحق فان شرط الضدين ان يكونا فى غاية التباعد مثل السواد والبياض فكذا ههنا الضلال الذى يكون واقعا على هذا الوجه يكون فى غاية البعد عن الحق فانه لا يعقل ضلال اقوى واكمل من هذا الضلال ( والوجه الثانى ) ان يكون

وترشيح مناط كل منهما والفاء فصيحة مثلها فى قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق كأنه قيل فبينوا لهم فاضل الله منهم من شاء اضلاله لما لا يليق الا به وهدى من شاء هدايته لاستحقاقه لها والحذف للايذان بأن مسارعة كل رسول الى ما أمر به وجريان كل من أهل الخذلان والهداية على سنته أمر محقق غنى عن الذكر والبيان والعدول الى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة او للدلالة على التجدد والاستمرار حسب تجدد البيان من الرسل المتعاقبة عليهم السلام وتقديم الاضلال على الهداية اما لانه ابقاء ما كان على ما كان والهداية انشاء ما لم يكن او للمبالغة فى بيان ان لا تأثير للتبيين والتذكير من قبل الرسل وان مدار الامر انما هو مشيئته تعالى بايهام ان ترتب الضلالة على ذلك اسرع من ترتب الاهتداء وهذا محقق لما سلف من تقييد الاخراج من الظلمات الى النور بأذن الله تعالى ( وهو العزيز ) فلا يغالب فى مشيئته ( الحكيم ) الذى لا يفعل شيئا من الاضلال والهداية الا لحكمة بالغة وفيه ان ما فوض الى الرسل انما هو تبليغ الرسالة وتبيين طريق الحق واما الهداية والارشاد اليه فذلك بيد الله سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ( ولقد ارسلنا موسى ) شروع فى تفصيل ما أجمل فى قوله عز وجل وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم الآية ( بآياتنا ) اى ملتبسا بها وهى معجزاته التى اظهرها لبنى اسرائيل ( ان اخرج قومك ) بمعنى اى اخرج لان الارسال فيه معنى القول او بأن اخرج كما فى قوله تعالى وان اقم وجهك فان صيغ الافعال فى الدلالة على المصدر ( المراد )

المراد انه يبعدردهم عن طريقة الضلال الى الهدى لانه قدتمكن ذلك فى نفوسهم (والوجه الثالث) ان يكون المراد من الضلال الهلاك والتقدير اولئك فى هلاك يطول عليهم فلا ينقطع واراد بالبعد امتداده وزوال انقطاعه ❊ قوله تعالى ( وماارسلنا من رسولا الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما ذكر فى اول السورة كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور كان هذا انعاما على الرسول من حيث انه فوض اليه هذا المنصب العظيم وانعاما ايضا على الخلق من حيث انه ارسل اليهم من خلصهم من ظلمات الكفر وارشدهم الى نور الايمان فذكر فى هذه الآية ماجرى مجرى تكميل النعمة والاحسان فى الوجهين اما بالنسبة الى الرسول عليه الصلاة والسلام فلانه تعالى بين ان سائر الانبياء كانوا مبعوثين الى قومهم خاصة واماانت يامحمد فبعوث الى عامة الخلق فكان هذا الانعام فى حقك افضل واكل واما بالنسبة الى عامة الخلق فهو انه تعالى ذكر انه مابعث رسولا الى قوم الا بلسان اولئك القوم فانه متى كان الامر كذلك كان فهمهم لاسرار تلك الشريعة ووقوفهم على حقائقها اسهل وعن الغلط والخطأ أبعد فهذا هو وجه النظم (المسئلة الثانية) احتج بعض الناس بهذه الآية على ان اللغات اصطلاحية لاتوقيفية قال لان التوقيف لايحصل الابارسال الرسل وقددلت هذه الآية على ان ارسال جميع الرسل لايكون الابلغة قومهم وذلك يقتضى تقدم حصول اللغات على ارسال الرسل واذا كان كذلك امتنع حصول تلك اللغات بالتوقيف فوجب حصولها بالاصطلاح (المسئلة الثالثة) زعم طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية ان محمدا رسول الله لكن الى العرب لاالى سائر الطوائف وتمسكوا بهذه الآية من وجهين (الاول) ان القرآن لما كان نازلا بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب مافيه من الفصاحة الا العرب وحينئذ لايكون القرآن حجة الا على العرب ومن لايكون عربيا لم يكن القرآن حجة عليه (الثانى) قالوا ان قوله وماارسلنا من رسول الا بلسان قومه المراد بذلك اللسان لسان العرب وذلك يقتضى ان يقال انه ليس له قوم سوى العرب وذلك يدل على انه مبعوث الى العرب فقط والجواب لم لايجوز ان يكون المراد من قومه اهل بلده وليس المراد من قومه اهل دعوته والدليل على عموم الدعوة قوله تعالى قل ياأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا بل الى الثقلين لان التحدى كما وقع مع الانس فقد وقع مع الجن بدليل قوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (المسئلة الرابعة) تمسك اصحابنا بقوله تعالى فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء على ان الضلال والهداية من الله تعالى والآية صريحة فى هذا المعنى قال الاصحاب ومما يؤكد هذا المعنى ماروى ان ابابكر وعمر اقبلا فى جماعة من الناس وقدارتفعت اصواتهما فقال عليه السلام ماهذا فقال بعضهم يارسول الله يقول ابو بكر الحسنات من الله والسيآت

ادتهم الى ان يقولوا ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة (الى النور) الى الايمان بالله وتوحيده وسائر ماامروا به ( وذكرهم بايام الله ) اى بنعمائه وبلائه كما ينبئ عنه قوله اذكروا نعمة الله عليكم لكن لابماجرى عليهم فقط بل عليهم وعلى من قبلهم من الامم فى الايام الخالية حسبما ينبئ عنه قوله تعالى الم يأتكم نبأ الذين من قبلكم الآيات او بأيامه المنطوية على ذلك كما يلوح به قوله تعالى اذ انجاكم والالتفات من التكلم الى الغيبة باضافة الايام الى الاسم الجليل للايذان بفخامة شأنها والاشعار بعدم اختصاص مافيها من المعاملة بالمخاطب وقومه كما توهمه الاضافة الى ضمير المتكلم اى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد وقيل ايام الله وقائعه التى وقعت على الامم قبلهم وايام العرب وقائعها وحروبها وملاحمها اى انذرهم وقائعه التى دهمت الامم الدارجة ويرده ماتصدى له عليه الصلاة والسلام بصدد الامتثال من التذكير بكل من السراء والضراء مما جرى عليهم وعلى غيرهم حسبما يتلى عليك ( ان فى ذلك ) اى فى التذكير بها اوفى مجموع تلك النعماء والبلاء اوفى ايامها (لآيات) عظيمة او كثيرة دالة على وحدانية الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته فهى على الاول عبارة عن الايام سواء اريد بها انفسها اومافيها من النعماء والبلاء ومعنى ظرفية التذكير لها كونه مناطا لظهورها وعلى الثالث عن تلك النعماء والبلاء ومعنى الظرفية ظاهر واما على الثانى

وهو كونه اشارة الى مجموع النعماء فعن كل واحدة من تلك النعماء والبلاء والمشار اليه المجموع المشتمل عليها من حيث هو مجموع

من انفسنا ويقول عمر كلاهما من الله وتبع بعضهم ابابكر وبعضهم عمر فتعرف الرسول صلى الله عليه وسلم ماقاله ابوبكر واعرض عنه حتى عرف ذلك فى وجهه ثم اقبل على عمر فتعرف ماقاله وعرف البشر فى وجهه ثم قال اقضى بينكما كما قضى به اسرافيل بين جبريل وميكائيل قال جبريل مثل مقالتك ياعمر وقال ميكائيل مثل مقالتك ياابابكر فقضاء اسرافيل ان القدر كله خيره وشره من الله تعالى وهذا قضائى بينكما قالت المعتزلة هذه الآية لايمكن اجراؤها على ظاهرها وبيانه من وجوه (الاول) انه تعالى قال وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم والمعنى انا انما ارسلنا كل رسول بلسان قومه ليبين لهم تلك التكاليف بلسانهم فيكون ادراكهم لذلك البيان اسهل ووقوفهم على المقصود والغرض اكمل وهذا الكلام انما يصح لوكان مقصود الله تعالى من ارسال الرسل حصول الايمان للمكلفين فأما لوكان مقصوده الاضلال وخلق الكفر فيهم لم يكن ذلك الكلام ملائما لهذا المقصود (الثانى) انه عليه السلام اذا قال لهم ان الله يخلق الكفر والضلال فيكم فلهم ان يقولوا له فما الفائدة فى بيانك وما المقصود من ارسالك وهل يمكننا ان نزيل كفرا خلقه الله تعالى فينا عن انفسنا وحينئذ تبطل دعوة النبوة وتفسد بعثة الرسل (الثالث) انه اذا كان الكفر حاصلا بتخليق الله تعالى ومشيئته وجب ان يكون الرضابه واجبا لان الرضا بقضاء الله تعالى واجب وذلك لايقوله عاقل (الرابع) انا قد دللنا على ان مقدمة هذه الآية وهى قوله لتخرج الناس من الظلمات الى النور يدل على مذهب العدل وايضا مؤخرة الآية يدل عليه وهو قوله وهو العزيز الحكيم فكيف يكون حكيما من كان خالقا للكفر والقبائح ومريدا لها فثبت بهذه الوجوه انه لايمكن حمل قوله فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء على انه تعالى يخلق الكفر فى العبد فوجب المصير الى التأويل وقد استقصينا مافى هذه التأويلات فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ولا بأس باعادة بعضها فالاول ان المراد بالاضلال هو الحكم بكونه كافرا ضالا كما يقال فلان يكفر فلانا ويضلله اى يحكم بكونه كافرا ضالا والثانى ان يكون الاضلال عبارة عن الذهاب بهم عن طريق الجنة الى النار والهداية عبارة عن ارشادهم الى طريق الجنة والثالث انه تعالى لما ترك الضال على اضلاله ولم يتعرض له صار كأنه اضله والمهتدى لما اعانه بالالطاف صار كأنه هو الذى هداه قال صاحب الكشاف المراد بالاضلال التخلية ومنع الالطاف وبالهداية التوفيق واللطف والجواب عن قولهم اولا ان قوله تعالى ليبين لهم لايليق به ان يضلهم قلنا قال الفراء اذا ذكر فعل وبعده فعل آخر فان كان الفعل الثانى مشاكلا للاول نسقته عليه وان لم يكن مشاكلا له استأنفته ورفعته ونظيره قوله تعالى يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله فقوله ويأبى الله فى موضع رفع لايجوز الا ذلك لانه لايحسن ان يقال يريدون ان يأبى الله فلما لم يمكن وضع الثانى موضع الاول بطل العطف ونظيره ايضا قوله لنبين لكم ونقر فى الارحام ومن ذلك قولهم اردت ان ازورك فيمنعنى المطر بالرفع غير منسوق على ماقبله لما ذكرناه ومثله قول الشاعر * يريد ان يعربه فيعجمه * اذا عرفت هذا

بذلك للاشعار بان الصبر والشكر عنوان المؤمن اى لكل من يليق بكمال الصبر والشكر او الايمان ويصير امره اليهما لالمن اتصف بهما بالفعل لانه تعليل للامر بالتذكير المذكور السابق على التذكر المؤدى الى تلك المرتبة فان من تذكر ما فاض اونزل عليه اوعلى قبله من النعماء والبلاء وتنبه لعاقبة الشكر والصبر والايمان لايكاد يفارقها وتخصيص الآيات بهم لانهم المنتفعون بها لا لانها خافية عن غيرهم فان التبيين حاصل بالنسبة الى الكل وتقديم الصبار على الشكور لتقدم متعلق الصبر اعنى البلاء على متعلق الشكر اعنى النعماء وكون الشكر عاقبة الصبر (واذقال موسى لقومه) شروع فى بيان تصديه عليه الصلاة والسلام لما امر به من التذكير للاخراج المذكور واذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام وتعليق الذكر بالوقت مع ان المقصود تذكير ماوقع فيه من الحوادث قدمر سره غير مرة اى اذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام لقومه (اذكروا نعمة الله عليكم) بدأ عليه الصلاة والسلام بالترغيب لانه عند النفس اقبل وهو اليه اميل والظرف متعلق بنفس النعمة ان جعلت مصدرا او بمحذوف وقع حالا منها ان جعلت اسما اى اذكروا انعامه عليكم او اذكروا نعمته كائنة عليكم وكذلك كلمة اذ فى قوله تعالى ( اذ انجاكم من آل فرعون ) اى اذكروا انعامه عليكم وقت انجائه اياكم من آل فرعون او اذكروا نعمة الله مستقرة عليكم وقت انجائه اياكم منهم او بدل اشتمال من نعمة الله مرادا بها الانعام او العطية ( فنقول )

فنقول ههنا قال تعالى ليبين لهم ثم قال فيضل الله من يشاء ذكر فيضل بالرفع فدل على انه
مذكور على سبيل الاستئناف وانه غير معطوف على ماقبله واقول تقرير هذا الكلام
من حيث المعنى كأنه تعالى قال وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليكون بيانه لهم تلك
الشرائع بلسانهم الذى الفوه واعتادوه ثم قال ومع ان الامر كذلك فانه تعالى يضل من
يشاء ويهدى من يشاء والغرض منه التنبيه على ان تقوية البيان لاتوجب حصول
الهداية فربما قوى البيان ولاتحصل الهداية وربما ضعف البيان وحصلت الهداية وانما
كان الامر كذلك لاجل ان الهداية والضلال لايحصلان الا من الله تعالى اما قوله ثانيا
لولا كان الضلال حاصلا بخلق الله تعالى لكان للكافر ان يقول له ماالفائدة فى بيانك
ودعوتك فنقول يعارضه ان الخصم يسلم ان هذه الآيات اخبار عن كونه ضالا فيقول
له الكافر لما اخبر الهك عن كونى كافرا فان آمنت صار الهك كاذبا فهل اقدر على جعل
الهك كاذبا وهل اقدر على جعل علمه جهلا واذالم اقدر عليه فكيف يأمرنى بهذا الايمان
فثبت ان هذا السؤال الذى اورده الخصم علينا هو ايضا وارد عليه واما قوله ثالثا يلزم
ان يكون الرضا بالكفر واجبا لان الرضا بقضاء الله تعالى واجب ومالايتم الواجب الا به فهو
واجب قلنا ويلزمك ايضا على مذهبك انه يجب على العبد السعى فى تكذيب الله وفى
تجهيله وهذا اشد استحالة مما الزمته علينا لانه تعالى لما اخبر عن كفره وعلم كفره فازالة
الكفر عنه يستلزم قلب علمه جهلا وخبره الصدق كذبا واما قوله رابعا ان مقدمة الآية
وهى قوله تعالى لتخرج الناس من الظلمات الى النور يدل على صحة الاعتزال فنقول
قد ذكرنا ان قوله باذن ربهم يدل على صحة مذهب أهل السنة واما قوله خامسا انه تعالى
وصف نفسه فى آخر الآية بكونه حكيما وذلك ينافى كونه تعالى خالقا للكفر مريدا له
فنقول وقد وصف نفسه بكونه عزيزا والعزيز هو الغالب القاهر فلو أراد الايمان
من الكافر مع انه لايحصل اوأراد عمل الكفر منهم وقد حصل لمابقى عزيزا غالبا فثبت ان
الوجوه التى ذكروها ضعيفة واما التأويلات الثلاث التى ذكروها فقدمر ابطالها فى هذا
الكتاب مرارا فلافائدة فى الاعادة ☼ قوله تعالى ( ولقد ارسلنا موسى بآياتنا ان اخرج
قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور
واذقال موسى لقومه اذكروا نعمت الله عليكم اذانجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء
العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ) وفى الآية
مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لمابين انه انما أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم الى
الناس ليخرجهم من الظلمات الى النور وذكر كمال انعامه عليه وعلى قومه فى ذلك
الارسال وفى تلك البعثة اتبع ذلك بشرح بعثة سائر الانبياء الى أقوامهم وكيفية معاملة
اقوامهم معهم تصبير الرسول عليه السلام على اذى قومه وارشاداله الى كيفية مكالمتهم
ومعاملتهم فذكر تعالى على العادة المألوفة قصص بعض الانبياء عليهم السلام فبدأ بذكر

( يسومونكم ) يبغونكم من سامه خسفا اذا اولاه ( ٣٢١ ) ظلما واصل السوء الذهاب فى طلب الشئ ( سوء العذاب ) السوء
مصدر ساء يسوء والمراد به
جنس العذاب السيئ او
استعبادهم واستعمالهم فى الاعمال
الشاقة والاستهانة بهم وغير
ذلك ممالايحصر ونصبه على
انه مفعول ليسومونكم
(ويذبحون ابناءكم ) المولودين
وانما عطفه على يسومونكم
اخراجا له عن مرتبة العذاب
المعتاد وانما فعلوا ذلك لان فرعون
رأى فى المنام اوقال له الكهنة
انه سيولد منهم من يذهب بملكه
فاجتهدوا فى ذلك فلم يغن عنهم من
قضاء الله شيئا (ويستحيون نساءكم)
اى يبقونهن فى الحياة مع الذل
والصغار ولذلك عد من جملة البلاء
والجمل احوال من آل فرعون
اومن ضمير المخاطبين اومنهما
جميعا لان فيها ضمير كل منهما (وفى
ذلكم )اى فيما ذكر من افعالهم
الفظيعة ( بلاء من ربكم ) اى
ابتلاء منه لاان البلاء عين تلك
الافعال اللهم الا ان تجعل فى
تجريدية فنسبته الى الله تعالى اما
من حيث الخلق اوالاقدار
والتمكين (عظيم) لايطاق ويجوز
ان يكون المشار اليه الانجاء من
ذلك والبلاء الابتلاء بالنعمة وهو
الانسب كما يلوح به التعرض
لوصف الربوبية وعلى الاول
يكون ذلك باعتبار المآل الذى
هو الانجاء اوباعتبار ان بلاء
المؤمن تربية له (واذتأذن ربكم )
من جملة مقال موسى عليه الصلاة
والسلام لقومه معطوف على
نعمة الله اى اذكروا نعمة الله
عليكم واذكروا حين تأذن ربكم
اى آذن ايذانا بليغا لاتبقى معه
شائبة شبهة لما فى صيغة التفعل من معنى
التكلف المحمول فى حقه سبحانه على غايته التى هى الكمال ( ٤١ )( را )( خا ) وقيل هو معطوف على قوله تعالى اذانجاكم اى اذكروا نعمته تعالى

قصة موسى عليه السلام فقال ولقد ارسلنا موسى بآياتنا قال الاصم آيات موسى عليه السلام هى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر وانفجار العيون من الحجر واظلال الجبل وانزال المن والسلوى وقال الجبائى ارسل الله تعالى موسى عليه السلام الى قومه من بنى اسرائيل بآياته وهى دلالاته وكتبه المنزلة عليه وامره ان يبين لهم الدين وقال ابو مسلم الاصفهانى انه تعالى قال فى صفة محمد صلى الله عليه وسلم كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور وقال فى حق موسى عليه السلام ان أخرج قومك من الظلمات الى النور والمقصود بيان ان المقصود من البعثة واحد فى حق جميع الانبياء عليهم السلام وهو ان يسعوا فى اخراج الخلق من ظلمات الضلالات الى انوار الهدايات (المسئلة الثانية) قال الزجاج قوله ان اخرج قومك اى بأن اخرج قومك ثم قال ان ههنا تصلح ان تكون مفسرة بمعنى اى ويكون المعنى ولقد ارسلنا موسى بآياتنا اى اخرج قومك كأن المعنى قلنا له اخرج قومك ومثله قوله وانطلق الملأ منهم ان امشوا اى امشوا والتأويل قيل لهم امشوا وتصلح ايضا ان تكون المخففة التى هى للخبر والمعنى ارسلناه بأن يخرج قومه الا ان الجار حذف ووصلت ان بلفظ الامر ونظيره قولك كتبت اليه ان قم وامرته ان قم ثم ان الزجاج حكى هذين القولين عن سيبويه اما قوله وذكرهم بأيام الله فاعلم انه تعالى امر موسى عليه السلام فى هذا المقام بشيئين احدهما ان يخرجهم من ظلمات الكفر والثانى ان يذكرهم بأيام الله وفيه مسئلتان ( المسئلة الاولى ) قال الواحدى ايام جمع يوم واليوم هو مقدار المدة من طلوع الشمس الى غروبها وكانت الايام فى الاصل ايوام فاجتمعت الياء والواو وسبقت احداهما بالسكون فأدغمت احداهما فى الاخرى وغلبت الياء (المسئلة الثانية) انه يعبر بالايام عن الوقائع العظيمة التى وقعت فيها يقال فلان عالم بأيام العرب ويريد وقائعها وفى المثل من ير يوما ير به معناه من رؤى فى يوم مسرورا بمصرع غيره ير فى يوم آخر حزينا بمصرع نفسه وقال تعالى وتلك الايام نداولها بين الناس اذا عرفت هذا فالمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد فالترغيب والوعد ان يذكرهم ما انعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل فى سائر ما سلف من الايام والترهيب والوعيد ان يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل ممن سلف من الامم فيما سلف من الايام مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم من العذاب ليرغبوا فى الوعد فيصدقوا ويحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب واعلم ان ايام الله فى حق موسى عليه السلام منها ما كان ايام المحنة والبلاء وهى الايام التى كانت بنو اسرائيل فيها تحت قهر فرعون ومنها ما كان ايام الراحة والنعماء مثل انزال المن والسلوى وانفلاق البحر وتظليل الغمام ثم قال تعالى ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور والمعنى ان فى ذلك التذكير والتنبيه دلائل لمن كان صبارا شكورا لان الحال اما ان يكون حال محنة وبلية او حال منحة وعطية فان كان الاول كان المؤمن صبارا وان كان الثانى كان شكورا وهذا

فى هذين الوقتين فان هذا التأذن ايضا نعمة من الله تعالى عليهم ينالون بها خيرى الدنيا والآخرة وفى قراءة ابن مسعود رضى الله تعالى عنه واذ قال ربكم ولقد ذكرهم عليه الصلاة والسلام اولا بنعمائه تعالى عليهم صريحا وضمنه تذكير ما اصابهم قبل ذلك من الضراء ثم امرهم ثانيا بذكر ما جرى من الله سبحانه من الوعد بالزيادة على تقدير الشكر والوعيد بالعذاب على تقدير الكفر والمراد بتذكير الاوقات تذكير ما وقع فيها من الحوادث مفصلة اذ هى محيطة بذلك فاذا ذكرت ذكر ما فيها كأنه مشاهد معاين (لئن شكرتم) يابنى اسرائيل ما خولتكم من نعمة الانجاء واهلاك العدو وغير ذلك من النعم والآلاء الفائتة للحصر وقابلتموه بالايمان والطاعة (لأزيدنكم) نعمة الى نعمة ( ولئن كفرتم ) ذلك وغمطتموه (ان عذابى لشديد) فعسى يصيبكم منه ما يصيبكم ومن عادة الكرام التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد فما ظنك بأكرم الاكرمين ويجوز ان يكون المذكور تعليلا للجواب المحذوف اى لأعذبنكم واللام فى الموضعين موطئة للقسم وكل من الجوابين ساد مسد جوابى الشرط والقسم والجملة اما مفعول لتأذن لانه ضرب من القول او لقول مقدر بعده كأنه قيل واذ تأذن ربكم فقال الخ ( وقال موسى أن تكفروا ) نعمه تعالى ولم تشكروها (انتم) يابنى اسرائيل (ومن فى الارض) من الخلائق جميعا ( فان الله لغنى ) عن شكركم وشكر غيركم (حميد) مستوجب للحمد بذاته لكثرة ما يوجبه من أياديه وان لم يحمده احد او محمود يحمده الملائكة بل كل ذرة من ذرات العالم ناطقة بحمده والحمد حيث كان بمقابلة النعمة وغيرها من الفضائل (تنبيه)

كان ادل على كماله سبحانه وهو تعليل لما حذف من جواب  ان اى ان تكفروا لم يرجع وباله الا عليكم فان الله تعالى لغنى

تنبيه على ان المؤمن يجب ان لا يخلو زمانه عن أحد هذين الامرين فان جرى الوقت على مايلائم طبعه ويوافق ارادته كان مشغولا بالشكر وان جرى بمالا يلائم طبعه كان مشغولا بالصبر فان قيل ان ذلك التذكير آيات للكل فلما ذا خص الصبار الشكور بها قلنا فيه وجوه (الاول) انهم لما كانوا هم المنتفعون بتلك الآيات صارت كأنها ليست آيات لالهم كما فى قوله هدى للمتقين وقوله انما انت منذر من يخشاها ( والثانى ) لا يبعد ان يقال الانتفاع بهذا النوع من التذكير لا يمكن حصوله الالمن كان صابرا وشاكرا اما الذى لا يكون كذلك لم ينتفع بهذه الآيات واعلم انه تعالى لما ذكر انه امر موسى عليه السلام بأن يذكرهم بأيام الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام انه ذكرهم بها فقال واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ انجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب فقوله اذ أنجاكم ظرف للنعمة بمعنى الانعام اى اذكروا انعام الله عليكم فى ذلك الوقت بقى فى الآية سؤالات (الاول) ذكر فى سورة البقرة يذبحون وفى سورة الاعراف يقتلون وههنا ويذبحون مع الواو فما الفرق والجواب قال تعالى فى سورة البقرة يذبحون بغير واو لانه تفسير لقوله سوء العذاب وفى التفسير لا يحسن ذكر الواو تقول أتانى القوم زيد وعمرو لانك أردت ان تفسر القوم بهما ومثله قوله تعالى ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب فالآثام لما صار مفسرا بمضاعفة العذاب لاجرم حذف عنه الواو اما فى هذه السورة فقد ادخل الواو فيه لان المعنى انهم يعذبونهم بغير التذبيح وبالتذبيح ايضا فقوله ويذبحون نوع آخر من العذاب لانه تفسير لما قبله ( السؤال الثانى ) كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم والجواب من وجهين احدهما ان تمكين الله اياهم حتى فعلوا مافعلوا كان بلاء من الله والثانى وهو ان ذلك اشارة الى الانجاء وهو بلاء عظيم والبلاء هو الابتلاء وذلك قد يكون بالنعمة تارة وبالمحنة اخرى قال تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة وهذا الوجه اولى لانه يوافق صدر الآية وهو قوله تعالى واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم ( السؤال الثالث ) هب ان تذبيح الابناء كان بلاء اما استحياء النساء كيف يكون بلاء الجواب كانوا يستخدمونهن بالاستحياء وفى الخلاص منه نعمة وايضا ابقاؤهن منفردات عن الرجال فيه اعظم المضار * قوله تعالى (واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد ) اعلم ان قوله واذ تأذن ربكم من جملة ماقال موسى لقومه كأنه قيل واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم ومعنى تأذن اذن ربكم ونظير تأذن وآذن توعد وأوعد وتفضل وافضل ولابد فى تفعل من زيادة معنى ليس فى افعل كأنه قيل واذ آذن ربكم ايذانا بليغا ينتفى عنده الشكوك وتنزاح الشبهة والمعنى واذ تأذن ربكم فقال لئن شكرتم فأجرى تأذن مجرى قال لانه ضرب من القول وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه واذ قال ربك لئن شكرتم واعلم ان المقصود من الآية بيان ان من اشتغل بشكر نعم الله زاده الله من نعمه

عن شكر الشاكرين ولعله عليه الصلاة والسلام انما قاله عندما عاين منهم دلائل العناد ومخايل الاصرار على الكفر والفساد وتيقن انه لا ينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب اوقاله غب تذكيرهم بما ذكر من قول الله عز سلطانه تحقيقا لمضمونه وتحذيرا لهم من الكفران ثم شرع فى الترهيب بتذكير ماجرى على الامم الخالية فقال (الم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ) ليتدبروا ما أصاب كل واحد من حزبى المؤمن والكافر فيقلعوا عما هم عليه من الشر وينيبوا الى الله تعالى وقيل هو ابتداء كلام من الله تعالى خطابا للكفرة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فيختص تذكير موسى عليه الصلاة والسلام بما اختص ببنى اسرائيل من السراء والضراء والايام بالايام الجارية عليهم فقط وفيه مالا يخفى من البعد وايضا لا يظهر حينئذ وجه تخصيص تذكير الكفرة الذين فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام بما أصاب اولئك المعدودين مع ان غيرهم اسوة لهم فى الخلو قبل هؤلاء (قوم نوح ) بدل من الموصول او عطف بيان ( وعاد ) معطوف على قوم نوح ( وثمود والذين من بعدهم ) اى من بعد هؤلاء المذكورين عطف عام على قوم نوح وما عطف عليه وقوله تعالى ( لا يعلمهم الا الله ) اعتراض او الموصول مبتدأ ولا يعلمهم الى آخره خبره والجملة اعتراض والمعنى انهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم الا الله سبحانه وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما

بين عدنان واسمعيل ثلاثون أبا لا يعرفون وكان ابن مسعود رضى الله تعالى عنه اذا قرأ هذه الآية قال كذب النسابون يعنى انهم

يدعون علم الانساب وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد (جاءتهم رسلهم)  استئناف لبيان نبئهم (بالبينات) بالمعجزات الظاهرة والبينات الباهرة فبين كل رسول لامته طريق الحق وهداهم اليه ليخرجهم من الظلمات الى النور (فردوا ايديهم فى افواههم) مشيرين بذلك الى ألسنتهم وما يصدر عنها من المقالة اعتناء منهم بشأنها وتنبيها للرسل على تلقيها والمحافظة عليها واقناطا لهم عن التصديق والايمان باعلام ان لا جواب لهم سواه (وقالوا انا كفرنا بما ارسلتم به) اى على زعمكم وهى البينات التى أظهروها حجة على صحة رسالتهم كقوله تعالى ولقد ارسلنا موسى بآياتنا ومرادهم بالكفر بها الكفر بدلالتها على صحة رسالاتهم اوفعضوها غيظا وضجرا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى عضوا عليكم الانامل من الغيظ اووضعوها عليها تعجبا منه واستهزاء به كمن غلبه الضحك او اسكاتا للانبياء عليهم السلام وامرا لهم باطباق الافواه او ردها فى افواه الانبياء عليهم الصلاة والسلام يمنعونهم من التكلم تحقيقا اوتمثيلا اوجعلوا ايدى الانبياء فى افواههم تعجبا من عتوهم وعنادهم كما ينبئ عنه تعجبهم بقوله أفى الله شك الخ وقيل الايدى بمعنى الايادى عبر بها عن مواعظهم ونصائحهم وشرائعهم التى هى مدار النعم الدينية والدنيوية لانهم لما كذبوها فلم يقبلوها فكأنهم ردوها الى حيث جاءت منه (وانا لفى شك) عظيم (مما تدعوننا اليه) من الايمان بالله والتوحيد فلا ينافى شكهم فى ذلك كفرهم القطعى بما ارسل به الرسل من البينات فانهم كفروا بها قطعا حيث لم يعتدوا بها ولم يجعلوها من جنس المعجزات ولذلك قالوا فأتونا بسلطان مبين وقرئ تدعونا بالادغام (مريب) موقع فى الريبة من أرابه (الكفران)

ولابد ههنا من معرفة حقيقة الشكر ومن البحث عن تلك النعم الزائدة الحاصلة عند الاشتغال بالشكر اما الشكر فهو عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة واما الزيادة فى النعم فهى اقسام منها النعم الروحانية ومنها النعم الجسمانية اما النعم الروحانية فهى ان الشاكر يكون ابدا فى مطالعة اقسام نعم الله تعالى وانواع فضله وكرمه ومن كثر احسانه الى الرجل احبه الرجل لا محالة فشغل النفس بمطالعة انواع فضل الله واحسانه يوجب تأكد محبة العبد لله تعالى ومقام المحبة اعلى مقامات الصديقين ثم قد يترقى العبد من تلك الحالة الى ان يصير حبه للمنعم شاغلا له عن الالتفات الى النعمة ولا شك ان منبع السعادات وعنوان كل الخيرات محبة الله تعالى ومعرفته فثبت ان الاشتغال بالشكر يوجب مزيد النعم الروحانية واما مزيد النعم الجسمانية فلان الاستقراء دل على ان كل من كان اشتغاله بشكر نعم الله اكثر كان وصول نعم الله اليه اكثر وبالجملة فالشكر انما حسن موقعه لانه اشتغال بمعرفة المعبود وكل مقام حرك العبد من عالم الغرور الى عالم القدس فهو المقام الشريف العالى الذى يوجب السعادة فى الدين والدنيا واما قوله ولئن كفرتم ان عذابى لشديد فالمراد منه الكفران لا الكفر لان الكفر المذكور فى مقابلة الشكر ليس الا الكفران والسبب فيه ان كفران النعمة لا يحصل الا عند الجهل بكون تلك النعمة نعمة من الله والجاهل بها جاهل بالله والجهل بالله من اعظم انواع العقاب والعذاب وايضا فههنا دقيقة اخرى وهى ان ماسوى الواحد الاحد الحق ممكن لذاته وكل ممكن لذاته فوجوده انما يحصل بايجاد الواجب لذاته وعدمه انما يحصل باعدام الواجب لذاته واذا كان كذلك فكل ماسوى الحق فهو منقاد للحق مطواع له واذا كانت الممكنات بأسرها منقادة للحق سبحانه فكل قلب حضر فيه نور معرفة الحق وشرف جلاله انقاد لصاحب ذلك القلب ماسواه لان حضور ذلك النور فى قلبه يستخدم كل ماسواه بالطبع واذا خلا القلب عن ذلك النور ضعف وصار خسيسا فيستخدمه كل ماسواه ويستحقره كل مايغايره فبهذا الطريق الذوقى يحصل العلم بأن الاشتغال بمعرفة الحق يوجب انفتاح ابواب الخيرات فى الدنيا والآخرة واما الاعراض عن معرفة الحق بالاشتغال بمجرد الجسمانيات يوجب انفتاح ابواب الآفات والمخافات فى الدنيا والآخرة ❊ قوله تعالى (وقال موسى ان تكفروا انتم ومن فى الارض جميعا فان الله لغنى حميد الم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا ايديهم فى افواههم وقالوا انا كفرنا بما ارسلتم به وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب) اعلم ان موسى عليه السلام لما بين ان الاشتغال بالشكر يوجب تزايد الخيرات فى الدنيا وفى الآخرة والاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد وحصول الآفات فى الدنيا والآخرة بين بعده ان منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود الا الى صاحب الشكر وصاحب

الكفران اماالمعبود والمشكور فانه متعال عن ان ينتفع بالشكر او يستضر بالكفران
فلاجرم قال تعالى وقال موسى ان تكفروا انتم ومن فى الارض جميعا فان الله لغنى حميد
والغرض منه بيان انه تعالى انما امر بهذه الطاعات لمنافع عائدة الى العابد لا لمنافع عائدة
الى المعبود والذى يدل على ان الامر كذلك ماذكره الله فى قوله ان الله لغنى وتفسيره انه
واجب الوجود لذاته واجب الوجود بحسب جميع صفاته واعتباراته فانه لو لم يكن
واجب الوجود لذاته لافتقر رجحان وجوده على عدمه الى مرجح فلم يكن غنيا وقد
فرضناه غنيا هذا خلف فثبت ان كونه غنيا يوجب كونه واجب الوجود فى ذاته
واذاثبت انه واجب الوجود لذاته كان ايضا واجب الوجود بحسب جميع كمالاته اذ لو لم تكن
ذاته كافية فى حصول ذلك الكمال لافتقر فى حصول ذلك الكمال الى سبب منفصل فحينئذ
لايكون غنيا وقد فرضناه غنيا هذا خلف فثبت ان ذاته كافية فى حصول جميع كمالاته
واذا كان الامر كذلك كان حميدا لذاته لانه لا معنى للحميد الا الذى استحق الحمد فثبت
بهذا التقرير الذى ذكرناه ان كونه غنيا حميدا يقتضى ان لايزداد بشكر الشاكرين
ولا ينتقص بكفران الكافرين فلهذا المعنى قال ان تكفروا انتم ومن فى الارض جميعا
فان الله لغنى حميد وهذه المعانى من لطائف الاسرار واعلم ان قوله ان تكفروا انتم
ومن فى الارض جميعا سواء حمل على الكفر الذى يقابل الايمان او على الكفران الذى
يقابل الشكر فالمعنى لايتفاوت البتة فانه تعالى غنى عن العالمين فى كمالاته وفى جميع
نعوت كبريائه وجلاله ثم انه تعالى قال ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود
وذكر ابو مسلم الاصفهانى انه يحتمل ان يكون ذلك خطابا من موسى عليه السلام لقومه
والمقصود منه انه عليه السلام كان يخوفهم بمثل هلاك من تقدم ويجوز ان يكون
مخاطبة من الله تعالى على لسان موسى لقومه يذكرهم امر القرون الاولى والمقصود
انما هو حصول العبرة بأحوال المتقدمين وهذا المقصود حاصل على التقديرين الا ان
الاكثرين ذهبوا الى انه ابتداء مخاطبة لقوم الرسول صلى الله عليه وسلم واعلم انه تعالى
ذكر اقواما ثلاثة وهم قوم نوح وعاد وثمود ثم قال تعالى والذين من بعدهم لايعلمهم الا الله
وذكر صاحب الكشاف ان فيه احتمالين الاول ان يكون قوله والذين من بعدهم لايعلمهم الا الله
جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضا والثانى ان يقال قوله والذين من بعدهم
معطوف على قوم نوح وعاد وثمود وقوله لايعلمهم الا الله فيه قولان الاول ان يكون المراد
لايعلم كنه مقاديرهم الا الله لان المذكور فى القرآن جملة فأما ذكر العدد والعمر
والكيفية والكمية فغير حاصل والقول الثانى ان المراد ذكر اقوام مابلغنا اخبارهم
اصلا كذبوا رسلا لم نعرفهم اصلا ولايعلمهم الا الله والقائلون بهذا القول الثانى طعنوا
فى قول من يصل الانساب الى آدم عليه السلام كان ابن مسعود اذا قرأ هذه الآية يقول
كذب النسابون يعنى انهم يدعون علم الانساب وقد نفى الله علمها عن العباد وعن ابن



اوذى ريبة من اراب الرجل وهى قلق النفس وعدم اطمئنانها بالشئ ( قالت رسلهم ) استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه
المقال كأنه قيل فاذا قالت لهم
رسلهم فأجيب بأنهم قالوا منكرين
عليهم ومتعجبين من مقالتهم
الحمقاء ( أفى الله شك ) بادخال
الهمزة على الظرف للايذان بأن
مدار الانكار ليس نفس الشك
بل وقوعه فيما لايكاد يتوهم
فيه الشك اصلا متفادين
عن تطبيق الجواب على كلام
الكفرة بأن يقولوا أأنتم فى شك
مريب من الله تعالى مبالغة فى
تنزيه ساحة السبحان عن شائبة
الشك وتسجيلا عليهم بسخافة
العقول اى أفى شانه سبحانه من
وجوده ووحدته ووجوب
الايمان به وحده شك ما وهو
اظهر من كل ظاهر واجلى من كل
جلى حتى تكونوا من قبله فى شك
مريب وحيث كان مقصدهم
الاقصى الدعوة الى الايمان
والتوحيد وكان اظهار البينات
وسيلة الى ذلك لم يتعرضوا للجواب
عن قول الكفرة انا كفرنا بما
أرسلتم به واقتصروا على بيان
ماهو الغاية القصوى ثم عقبوا
ذلك الانكار بما يوجبه من
الشواهد الدالة على انتفاء المنكر
فقالوا ( فاطر السموات والارض )
اى مبدعهما وما فيهما من
المصنوعات على نظام انيق شاهد
بتحقق ما انتم منه فى شك وهو
صفة للاسم الجليل او بدل منه
وشك مرتفع بالظرف لاعتماده
على الاستفهام وجعله مبتدأ على
ان الظرف خبره يفضى الى الفصل
بين الموصوف والصفة بالاجنبى
اعنى المبتدأ والفاعل ليس باجنبى
من رافعه وقد جوز ذلك ايضا
( يدعوكم ) الى الايمان
بارساله ايانا لا انا ندعوكم اليه
من تلقاء انفسنا كما يوهمه قولكم مما تدعوننا اليه ( ليغفر لكم ) بسببه او يدعوكم لاجل المغفرة كقولك دعوته ليأكل معى ( من

عباس بين عدنان و بين اسمعيل ثلاثون أبا لايعرفون و نظير هذه الآية قوله تعالى و قرونا بين ذلك كثيرا و قوله منهم من قصصنا عليك و منهم من لم نقصص عليك و عن النبى صلى الله عليه و سلم انه كان فى انتسابه لايجاوز معد بن عدنان بن ادد و قال تعلوا من انسابكم ماتصلون به ارحامكم و تعلموا من النجوم ماتستدلون به على الطريق قال القاضى و على هذا الوجه لايمكن القطع على مقدار السنين من لدن آدم عليه السلام الى هذا الوقت لانه ان امكن ذلك لم يبعد ايضا تحصيل العلم بالانساب الموصولة فان قيل اى القولين اولى قلنا القول الثانى عندى اقرب لان قوله تعالى لايعلمهم الا الله نفى العلم بهم و ذلك يقتضى نفى العلم بذواتهم اذ لو كانت ذواتهم معلومة و كان المجهول هو مدد اعمارهم و كيفية صفاتهم لما صح نفى العلم بذواتهم و لما كان ظاهر الآية دليلا على نفى العلم بذواتهم لاجرم كان الاقرب هو القول الثانى ثم انه تعالى حكى عن هؤلاء الاقوام الذين تقدم ذكرهم انه لما جاءتهم رسلهم بالبينات و المعجزات أتوا بأمور اولها قوله فردوا ايديهم فى افواههم و فى معناه قولان الاول ان المراد باليد و الفم الجارحتان المعلومتان و الثانى ان المراد بهما شئ غير هاتين الجارحتين و انما ذكرهما مجازا و توسعا اما من قال بالقول الاول ففيه ثلاثة اوجه (احدها) ان يكون الضمير فى ايديهم و افواههم عائدا الى الكفار و على هذا التقدير ففيه احتمالات الاول ان الكفار ردوا ايديهم فى افواههم فعضوها من الغيظ و الضجر من شدة نفرتهم عن رؤية الرسل و استماع كلامهم و نظيره قوله تعالى عضوا عليكم الانامل من الغيظ و هذا القول مروى عن ابن عباس و ابن مسعود رحمهما الله تعالى و هو اختيار القاضى و الثانى انهم لما سمعوا كلام الانبياء عجبوا منه و ضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا ايديهم فى افواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فوضع يده على فيه و الثالث انهم وضعوا ايديهم على افواههم مشيرين بذلك الى الانبياء ان كفوا عن هذا الكلام و اسكتوا عن ذكر هذا الحديث و هذا مروى عن الكلبى و الرابع انهم اشاروا بأيديهم الى ألسنتهم و الى ماتكلموا به من قولهم انا كفرنا بما ارسلتم به اى هذا هو الجواب عندنا عما ذكرتموه و ليس عندنا غيره اقناطا لهم من التصديق ألا ترى الى قوله فردوا ايديهم فى افواههم و قالوا انا كفرنا بما ارسلتم به ( الوجه الثانى ) ان يكون الضميران راجعين الى الرسل عليهم السلام و فيه وجهان الاول ان الكفار اخذوا ايدى الرسل و وضعوها على افواههم ليسكتوهم و يقطعوا كلامهم الثانى ان الرسل لما أيسوا منهم سكتوا و وضعوا ايدى انفسهم على افواه انفسهم فان من ذكر كلاما عند قوم و انكروه و خافهم فذلك المتكلم ربما وضع يد نفسه على فم نفسه و غرضه ان يعرفهم انه لايعود الى ذلك الكلام البتة ( الوجه الثالث ) ان يكون الضمير فى ايديهم يرجع الى الكفار و فى الافواه الى الرسل و فيه وجهان الاول ان الكفار لما سمعوا وعظ الانبياء عليهم السلام و نصائحهم و كلامهم اشاروا بأيديهم الى افواه الرسل تكذيبا لهم و ردا

ذنوبكم )اى بعضها وهو ماعدا المظالم مما بينهم وبينه تعالى فان الاسلام  يجبه قيل هكذا وقع فى جميع القرآن فى وعد الكفرة دون وعد المؤمنين تفرقة بين الوعدين ولعل ذلك لما ان المغفرة حيث جاءت فى خطاب الكفرة مرتبة على محض الايمان وفى شان المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنب عن المعاصى ونحو ذلك فيتناول الخروج من المظالم وقيل المعنى ليغفر لكم بدلا من ذنوبكم ( ويؤخركم الى اجل مسمى) الى وقت سماه الله تعالى وجعله منتهى اعماركم على تقدير الايمان ( قالوا ) استئناف كما سبق (ان أنتم ) اى ما أنتم ( الابشر مثلنا ) من غير فضل يؤهلكم لما تدعونه من النبوة ( تريدون ) صفة ثانية لبشر حملا على المعنى كقوله تعالى أبشر يهدوننا او كلام مستأنف اى تريدون بما تتصدون له من الدعوة والارشاد (ان تصدونا) بتخصيص العبادة بالله سبحانه ( عما كان يعبد آباؤنا ) اى عن عبادة مااستمر آباؤنا على عبادته من غير شئ يوجبه والا (فأتونا) اى وان لم يكن الامر كما قلنا بل كنتم رسلا من جهة الله تعالى كما تدعونه فأتونا (بسلطان مبين) يدل على فضلكم واستحقاقكم لتلك الرتبة او على صحة ماتدعونه من النبوة حتى نترك مالم نزل نعبده ابا عن جد ولقد كانوا آتوهم من الآيات الظاهرة والبينات الباهرة ماتخر له صم الجبال ولكنهم انما يقولون ما يقولون من العظائم مكابرة وعنادا واراءة لمن وراءهم ان ذلك ليس من جنس ما ينطلق عليه السلطان المبين ( قالت لهم رسلهم ) مجاراة معهم فى اول مقالتهم وانما قيل لهم لاختصاص الكلام بهم حيث اريد الزامهم بخلاف ماسلف من انكار وقوع الشك فى الله سبحانه فان ذلك عام وان اختص بهم مايعقبه (ان نحن الابشر مثلكم) كما تقولون (عليهم)

(ولكن الله يمن) بالنبوة (على من يشاء ( ٣٢٧ ) من عباده) يعنون ان ذلك عطية من الله تعالى يعطيها من يشاء من عباده بمحض الفضل

عليهم و الثانى ان الكفار وضعوا ايديهم على افواه الانبياء عليهم السلام منعالهم من الكلام و من بالغ فى منع غيره من الكلام فقد يفعل به ذلك اما على القول الثانى وهو ان ذكر اليد والفم توسع ومجاز ففيه وجوه الاول قال ابو مسلم الاصفهانى المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج وذلك لان اسماع الحجة انعام عظيم والانعام يسمى يدا يقال لفلان عندى يد اذا اولاه معروفا وقد يذكر اليد والمراد منها صفقة البيع والعقد كقوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق ايديهم فالبينات التى كان الانبياء عليهم السلام يذكرونها ويقررونها نعم واياد وايضا العهود التى كانوا يأتون بها مع القوم ايادى وجمع اليد فى العدد القليل هو الايدى وفى العدد الكثير هو الايادى فثبت ان بيانات الانبياء عليهم السلام وعهودهم صح تسميتها بالايدى واذا كانت النصائح والعهود انما تظهر من الفم فاذا لم تقبل صارت مردودة الى حيث جاءت ونظيره قوله تعالى اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم فلما كان القبول تلقيا بالافواه عن الافواه كان الدفع ردا فى الافواه فهذا تمام كلام ابى مسلم فى تقرير هذا الوجه (الوجه الثانى) نقل محمد بن جرير عن بعضهم ان معنى قوله فردوا ايديهم فى افواههم انهم سكتوا عن الجواب يقال للرجل اذا امسك عن الجواب رد يده فى فيه وتقول العرب كلمت فلانا فى حاجة فرد يده فى فيه اذا سكت عنه فلم يجب ثم انه زيف هذا الوجه وقال انهم اجابوا بالتكذيب لانهم قالوا انا كفرنا بما ارسلتم به (الوجه الثالث) المراد من الايدى نعم الله تعالى على ظاهرهم وباطنهم ولما كذبوا الانبياء فقد عرضوا تلك النعم للازالة والابطال فقوله ردوا ايديهم فى افواههم اى ردوا نعم الله تعالى عن أنفسهم بالكلمات التى صدرت عن افواههم ولا يبعد حمل فى على معنى الباء لان حروف الجر لا يمتنع اقامة بعضها مقام بعض (النوع الثانى) من الاشياء التى حكاها الله تعالى عن الكفار قولهم انا كفرنا بما ارسلتم به والمعنى انا كفرنا بما زعمتم ان الله ارسلكم فيه لانهم ما اقروا بأنهم ارسلوا واعلم ان المرتبة الاولى هو انهم سكتوا عن قبول قول الانبياء عليهم السلام وحاولوا اسكات الانبياء عن تلك الدعوى وهذه المرتبة الثانية انهم صرحوا بكونهم كافرين بتلك البعثة (والنوع الثالث) قولهم وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب قال صاحب الكشاف وقرئ تدعونا بادغام النون مريب موقع فى الريبة او ذى ريبة من ارابه والريبة قلق النفس وان لا تطمئن الى الامر فان قيل لما ذكروا فى المرتبة الثانية انهم كافرون برسالتهم كيف ذكروا بعد ذلك كونهم شاكين مرتابين فى صحة قولهم قلنا كأنهم قالوا اما ان نكون كافرين برسالتكم او ان لم ندع هذا الجزم واليقين فلا اقل من ان نكون شاكين مرتابين فى صحة نبوتكم وعلى التقديرين فلا سبيل الى الاعتراف بنبوتكم والله اعلم ❊ قوله تعالى (قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والارض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى اجل مسمى قالوا ان انتم الا بشر مثلنا

والامتنان من غير داعية توجيه قالوه تواضعا وهضما للنفس اوما نحن من الملائكة بل نحن بشر مثلكم فى الصورة او فى الدخول تحت الجنس ولكن الله يمن بالفضائل والكمالات والاستعدادات على من يشاء المن بها وما يشاء ذلك الا لعلمه باستحقاقه لها وتلك الفضائل والكمالات والاستعدادات هى التى يدور عليها فلك الاصطفاء للنبوة (وما كان) وما صح وما استقام (لنا ان نأتيكم بسلطان) اى بحجة من الحجج فضلا عن السلطان المبين بشئ من الاشياء وسبب من الاسباب (الا باذن الله) فانه امر يتعلق بمشيئته تعالى ان شاء كان والا فلا (وعلى الله) وحده دون ما عداه مطلقا (فليتوكل المؤمنون) أمر منهم للمؤمنين بالتوكل ومقصودهم حمل انفسهم عليه أثرذى أثير ألا يرى الى قوله عز وجل (ومالنا) اى اى عذر لنا (ان لا نتوكل على الله) اى فى ان لا نتوكل عليه والاظهار لاظهار النشاط بالتوكل عليه والاستلذاذ بذكر اسمه تعالى وتعليل التوكل (وقد هدانا) اى والحال انه قد فعل بنا ما يوجبه ويستدعيه حيث هدانا (سبلنا) اى ارشد كلا منا سبيله ومنهاجه الذى شرع له واوجب عليه سلوكه فى الدين وحيث كانت اذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح فى التوكل قالوا على سبيل التوكيد القسمى مظهرين لكمال العزيمة (ولنصبرن على ما آذيتمونا) بالعناد واقتراح الآيات وغير ذلك مما لا خير فيه (وعلى الله) خاصة (فليتوكل المتوكلون) اى فليثبت المتوكلون على ما احدثوه من التوكل والمراد هو المراد بما سبق من ايجاب التوكل على انفسهم والمراد بالمتوكلين المؤمنون

والتعبير عنهم بذلك لسبق ذكر اتصافهم به ويجوز ان يرادوعليه فليتوكل من يتوكل ( ٣٢٨ ) دون غيره (وقال الذين كفروا) لعل هؤلاء

تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ) اعلم ان اولئك الكفار لما قالوا للرسل وانالفى شك مماتدعوننااليه مريب قالت رسلهم وهل تشكون فى الله وفى كونه فاطر السموات والارض وفاطرا لانفسنا وارواحنا وارزاقنا وجميع مصالحنا واناالاندعوكم الاالى عبادة هذا الاله المنع ولانمنعكم الاعن عبادة غيره وهذه المعانى يشهدصريح العقل بصحتها فكيف قلتم واناالفى شك مماتدعوننااليه مريب وهذا النظم فى غاية الحسن وفى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) قوله أفى الله شك استفهام على سبيل الانكار فلما ذكرهذا المعنى اردفه بالدلالة على وجود الصانع المختار وهوقوله فاطر السموات والارض وقد ذكرنافى هذا الكتاب ان وجودالسموات والارض كيف يدل على احتياجه الى الصانع المختار الحكيم مراراواطوارا فلانعيده ههنا ( المسئلة الثانية ) قال صاحب الكشاف ادخلت همزة الانكار على الظرف لان الكلام ليس فى الشك انما هوفى ان وجودالله تعالى لايحتمل الشك واقول من الناس من ذهب الى انه قبل الوقوف على الدلائل الدقيقة فالفطرة شاهدة بوجود الصانع المختار ويدل على ان الفطرة الاولية شاهدة بذلك وجوه ( الاول ) قال بعض العقلاء ان من لطم على وجه صبى لطمة فتلك اللطمة تدل على وجود الصانع المختار وعلى حصول التكليف وعلى وجوب دار الجزاء وعلى وجود النبى امادلالتها على وجود الصانع المختار فلان الصبى العاقل اذاوقعت اللطمة على وجهه يصيح ويقول من الذى ضربنى وماذاك الاان شهادة فطرته تدل على ان اللطمة لماحدثت بعد عدمها وجب ان يكون حدوثها لاجل فاعل فعلها ولاجل مختار ادخلها فى الوجود فلماشهدت الفطرة الاصلية بافتقار ذلك الحادث مع قلته وحقارته الى الفاعل فبأن تشهد بافتقار جميع حوادث العالم الى الفاعل كان اولى وامادلالتها على وجوب التكليف فلأن ذلك الصبى ينادى ويصيح ويقول لم ضربنى ذلك الضارب وهذا يدل على ان فطرته شهدت بان الافعال الانسانية داخلة تحت الامر والنهى ومندرجة تحت التكليف وان الانسان ماخلق حتى يفعل اى فعل شاء واشتهى وامادلالتها على وجوب حصول دارالجزاء فهوان ذلك الصبى يطلب الجزاء على تلك اللطمة ومادام يمكنه طلب ذلك الجزاء فانه لايتركه فلما شهدت الفطرة الاصلية بوجوب الجزاء على ذلك العمل القليل فبأن تشهد على وجوب الجزاء على جميع الاعمال كان اولى وامادلالتها على وجوب النبوة فلانهم يحتاجون الى انسان يبين لهم ان العقوبة الواجبة على ذلك القدر من الجناية كم هى ولامعنى للنبى الاالانسان الذى يقدر هذه الامور ويبين لهم هذه الاحكام فثبت ان فطرة العقل حاكمة بأن الانسان لابدله من هذه الامور الاربعة ( الوجه الثانى ) فى التنبيه على ان الاقرار بوجود الصانع بديهى هو ان الفطرة شاهدة بأن حدوث دار منقوشة بالنقوش العجيبة مبنية على التركيبات اللطيفة الموافقة للحكم والمصلحة يستحيل الاعند وجود نقاش عالم وبان حكيم ومعلوم

القائلين بعض المتمردين العاتين الغالين فى الكفر من أولئك الامم الكافرة التى نقلت مقالاتهم الشنيعة دون جميعهم كقوم شعيب واضرابهم ولذلك لم يقل وقالوا (لرسلهم لنخرجنكم من ارضنا اولتعودن فى ملتنا ) لم يقنعوا بعصيانهم الرسل ومعاندتهم الحق بعد مارأوا البينات الفائتة للحصر حتى اجترؤا على مثل هاتيك العظيمة التى لايكاد يحيط بها دائرة الامكان فحلفوا على ان يكون احد الحالين والعود اما بمعنى مطلق الصيرورة اوباعتبار تغليب المؤمنين على الرسل وقد مر فى الاعراف وسيأتى فى الكهف ( فاوحى اليهم ) اى الى الرسل ( ربهم ) مالك امرهم عند تناهى كفر الكفرة وبلوغهم من العتو الى غاية لامطمع بعدها فى ايمانهم ( لنهلكن الظالمين ) على اضمار القول اوعلى اجراء الايحاء مجراه لكونه ضربا منه ( ولنسكننكم الارض) اى ارضهم وديارهم عقوبة لهم بقولهم لنخرجكم من ارضنا كقوله تعالى واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها (من بعدهم ) أى من بعد اهلاكهم وقرئ ليهلكن وليسكننكم بالياء اعتبارا لاوحى كقولهم حلف زيد ليخرجن غدا (ذلك) اشارة الى الموحى به وهو اهلاك الظالمين واسكان المؤمنين ديارهم اى ذلك الامر محقق ثابت ( لمن خاف مقامى) موقفى وهو الموقف الذى يقف فيه العباد يوم يقوم الناس لرب العالمين اوقيامى عليه وحفظى لاعماله وقيل لفظ المقام مقحم ( وخاف وعيد ) وعيدى بالعذاب اوعذابى

( ان )

ان آثار الحكمة فى العالم العلوى والسفلى أكثر من آثار الحكمة فى تلك الدار المختصرة فلما شهدت الفطرة الاصلية بافتقار النقش الى النقاش والبناء الى البانى فبأن تشهد بافتقار كل هذا العالم الى الفاعل المختار الحكيم كان اولى ( الوجه الثالث ) ان الانسان اذا وقع فى محنة شديدة وبلية قوية لا يبقى فى ظنه رجاء المعاونة من احد فكأنه بأصل خلقته ومقتضى جبلته يتضرع الى من يخلصه منها ويخرجه عن علائقها وحبائلها وماذاك الا شهادة الفطرة بالافتقار الى الصانع المدبر ( الوجه الرابع ) ان الموجود اما ان يكون غنيا عن المؤثر اولا يكون فان كان غنيا عن المؤثر فهو الموجود الواجب لذاته فانه لا معنى للواجب لذاته الا الموجود الذى لا حاجة به الى غيره وان لم يكن غنيا عن المؤثر فهو محتاج والمحتاج لابد له من المحتاج اليه وذلك هو الصانع المختار ( الوجه الخامس ) ان الاعتراف بوجود الاله المختار المكلف وبوجود المعاد أحوط فوجب المصير اليه فهذه مراتب اربعة اولها ان الاقرار بوجود الاله احوط لانه لو لم يكن موجودا فلا ضرر فى الاقرار بوجوده وان كان موجودا ففى انكاره اعظم المضار وثانيها الاقرار بكونه فاعلا مختارا لانه لو كان موجبا فلا ضرر فى الاقرار بكونه مختارا اما لو كان مختارا ففى انكار كونه مختارا اعظم المضار وثالثها الاقرار بأنه كلف عباده لانه لو لم يكلف احدا من عبيده شيئا فلا ضرر فى اعتقاد انه كلف العباد اما انه لو كلف ففى انكار تلك التكاليف اعظم المضار ورابعها الاقرار بوجود المعاد فانه ان كان الحق انه لا معاد فلا ضرر فى الاقرار بوجوده لانه لا يفوت الا هذه اللذات الجسمانية وهى حقيرة ومنقوصة وان كان الحق هو وجوب المعاد ففى انكاره اعظم المضار فظهر ان الاقرار بهذه المقامات احوط فوجب المصير اليه لان بديهة العقل حاكمة بأنه يجب دفع الضرر عن النفس بقدر الامكان ( المسئلة الثانية ) لما اقام الدلالة على وجود الاله بدليل كونه فاطر السموات والارض وصفه بكمال الرحمة والكرم والجود وبين ذلك من وجهين (الاول) قوله يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم قال صاحب الكشاف لو قال قائل ما معنى التبعيض فى قوله من ذنوبكم ثم أجاب فقال ما جاء هكذا الا فى خطاب الكافرين كقوله ان اعبدوا الله واتقوه واطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم وقال فى خطاب المؤمنين هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم الى ان قال يغفر لكم ذنوبكم قال والاستقراء يدل على صحة ماذكرناه ثم قال وكأن ذلك للتفرقة بين الخطابين ولئلا يسوى بين الفريقين فى المعاد وقيل انه اراد انه يغفر لهم ما بينهم وبين الله تعالى بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم هذا كلام هذا الرجل *وقال الواحدى فى البسيط قال ابو عبيدة من زائدة وانكر سيبويه زيادتها فى الواجب واذا قلنا انها ليست زائدة فههنا وجهان احدهما انه ذكر البعض ههنا وأريد به الجميع توسعا والثانى ان من ههنا للبدل والمعنى لتكون المغفرة بدلا من الذنوب فدخلت من لتضمن المغفرة معنى البدل من

ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح او استحكموا وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهى الحكومة كقوله تعالى ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق فالضمير للرسل وقيل للكفرة وقيل للفريقين فانهم سألوا ان ينصر المحق ويهلك المبطل وهو معطوف على اوحى اليهم وقرئ بلفظ الامر عطفا على لنهلكن الظالمين اى اوحى اليهم ربهم لنهلكن وقال لهم استفتحوا (وخاب) اى خسر وهلك (كل جبار عنيد) متصف بضد ما اتصف به المتقون اى فنصروا عند استفتاحهم وظفروا بما سألوا وافلحوا وخاب كل جبار عنيد وهم قومهم المعاندون فالخيبة بمعنى مطلق الحرمان دون الحرمان عن المطلوب اوذلك باعتبار انهم كانوا يزعمون انهم على الحق او استفتح الكفار على الرسل وخابوا ولم يفلحوا وانما قيل وخاب كل جبار عنيد ذما لهم وتسجيلا عليهم بالتجبر والعناد لأن بعضهم ليسوا كذلك وانه لم يصبهم الخيبة اواستفتحوا جميعا فنصر الرسل وانجز لهم الوعد وخاب كل عات متمرد فالخيبة بمعنى الحرمان غب الطلب وفى اسناد الخيبة الى كل منهم ما لا يخفى من المبالغة ( من ورائه جهنم ) اى بين يديه فانه مرصد لها واقف على شفيرها فى الدنيا مبعوث اليها فى الآخرة وقيل من وراء حياته وحقيقته ما توارى عنك (ويسقى) معطوف على مقدر جوابا عن سؤال سائل كأنه قيل فاذا يكون اذن فقيل يلقى فيها ويسقى ( من ماء ) مخصوص لا كالمياه المعهودة ( صديد ) وهو قيح اودم

بالصديد تهويلا لامره وتخصيصه بالذكر من بين عذابها يدل (٣٣٠) على انه من اشد انواعه ( يتجرعه ) قيل هو صفة لماء او حال منه
والاظهر انه استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا يفعل به فقيل يتجرعه اي يتكلف جرعه مرة بعد اخرى لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه ( ولا يكاد يسيغه ) اي لا يقارب ان يسيغه فضلا عن الاساغة بل يغص به فيشربه بعد اللتيا والتي جرعة غب جرعة فيطول عذابه تارة بالحرارة والعطش واخرى بشربه على تلك الحال فان السوغ انحدار الشراب في الحلق بسهولة وقبول نفس ونفيه لا يوجب نفي ماذكر جميعا وقيل لا يكاد يدخله في جوفه وعبر عنه بالاساغة لما انها المعهودة في الاشربة وهو حال من فاعل يتجرعه او من مفعوله او منهما جميعا (ويأتيه الموت) اي اسبابه من الشدائد ( من كل مكان ) ويحيط به من جميع الجهات او من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وابهام رجله (وما هو بميت) اي والحال انه ليس بميت حقيقة كما هو الظاهر من مجيء أسبابه لاسيما من جميع الجهات حتى لا يتألم بما غشيه من اصناف الموبقات (ومن ورائه) من بين يديه (عذاب غليظ) يستقبل كل وقت عذابا اشد واشق مما كان قبله ففيه دفع مايتوهم من الخفة بحسب الاعتياد كما في عذاب الدنيا وقيل هو الخلود في النار وقيل هو حبس الانفاس وقيل المراد بالاستفتاح والخيبة استسقاء اهل مكة في سنيهم التي ارسلها الله تعالى عليهم بدعوته عليه الصلاة والسلام وخيبتهم في ذلك وقد وعد لهم بدل ذلك صديد اهل النار (مثل الذين كفروا بربهم) اي صفتهم وحالهم العجيبة الشان التي هي كالمثل في الغرابة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بحقيقة)

السيئة وقال القاضي ذكر الاصم ان كلمة من ههنا تفيد التبعيض والمعنى انكم اذا آمنتم فانه يغفر لكم الذنوب التي هي من الكبائر فأما التي تكون من باب الصغائر فلا حاجة الى غفرانها لانها في انفسها مغفورة قال القاضي وقد أبعد في هذه التأويل لان الكفار صغائرهم ككبائرهم في انها لا تغفر الا بالتوبة وانما تكون الصغيرة مغفورة من المؤمنين الموحدين من حيث يزيد ثوابهم على عقابهم فأما من لا ثواب له اصلا فلا يكون شيء من ذنوبه صغيرا ولا يكون شيء منها مغفورا ثم قال وفيه وجه آخر وهو ان الكافر قد ينسى بعض ذنوبه في حال توبته وانابته فلا يكون المغفور منها الا ما ذكره وتاب منه فهذا جملة أقوال الناس في هذه الكلمة ( المسئلة الرابعة ) أقول هذه الآية تدل على انه تعالى قد يغفر الذنوب من غير توبة في حق اهل الايمان والدليل عليه انه قال يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم وعد بغفران بعض الذنوب مطلقا من غير اشتراط التوبة فوجب ان يغفر بعض الذنوب مطلقا من غير التوبة وذلك البعض ليس هو الكفر لانعقاد الاجماع على انه تعالى لا يغفر الكفر الا بالتوبة عنه والدخول في الايمان فوجب ان يكون البعض الذي يغفر له من غير التوبة هو ما عدا الكفر من الذنوب فان قيل لم لا يجوز ان يقال كلمة من صلة على ما قاله ابو عبيدة او نقول المراد من البعض ههنا هو الكل على ما قاله الواحدي او نقول المراد منها ابدال السيئة بالحسنة على ما قاله الواحدي ايضا او نقول المراد منه تمييز المؤمن عن الكافر في الخطاب على ما قاله صاحب الكشاف او نقول المراد منه تخصيص هذا الغفران بالكبائر على ما قاله الاصم او نقول المراد منه الذنوب التي يذكرها الكافر عند الدخول في الايمان على ما قاله القاضي فنقول هذه الوجوه بأسرها ضعيفة اما قوله انها صلة فمعناه الحكم على كلمة من كلام الله تعالى بأنها حشو ضائع فاسد والعاقل لا يجوز المصير اليه من غير ضرورة فأما قول الواحدي المراد من كلمة من ههنا هو الكل فهو عين ما قاله ابو عبيدة لان حاصله ان قوله نغفر لكم من ذنوبكم هو انه يغفر لكم ذنوبكم وهذا عين ما نقله عن ابي عبيدة وحكي عن سيبويه انكاره واما قوله المراد منه ابدال السيئة بالحسنة فليس في اللغة ان كلمة من تفيد الابدال واما قول صاحب الكشاف المراد تمييز خطاب المؤمن عن خطاب الكافر بمزيد التشريف فهو من باب الطامات لان هذا التبعيض ان حصل فلا حاجة الى ذكر هذا الجواب وان لم يحصل كان هذا الجواب فاسدا واما قول الاصم فقد سبق ابطاله وأما قول القاضي فجوابه ان الكافر اذا اسلم صارت ذنوبه بأسرها مغفورة لقوله عليه السلام التائب من الذنب كمن لا ذنب له فثبت ان جميع ما ذكروه من التأويلات تعسف ساقط بل المراد ما ذكرناه انه تعالى يغفر بعض ذنوبه من غير توبة وهو ما عدا الكفر واما الكفر فهو ايضا من الذنوب وانه تعالى لا يغفره الا بالتوبة واذا ثبت انه تعالى يغفر كبائر كافر من غير توبة بشرط ان يأتي بالايمان فبأن تحصل هذه الحالة للمؤمن كان اولى هذا ما خطر بالبال على سبيل الارتجال والله اعلم

بحقيقة الحال (النوع الثانى) مما وعدالله تعالى به فى هذه الآية قوله ويؤخركم الى اجل مسمى وفيه وجهان ( الاول ) المعنى انكم ان آمنتم اخر الله موتكم الى اجل مسمى والاعاجلكم بعذاب الاستئصال (الثانى) قال ابن عباس المعنى يمتعكم فى الدنيا بالطيبات واللذات الى الموت فان قيل أليس انه تعالى قال فاذاجاء اجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون فكيف قال ههنا ويؤخركم الى اجل مسمى قلنا قد تكلمنا فى هذه المسئلة فى سورة الانعام فى قوله ثم قضى اجلا واجل مسمى عنده ثم حكى تعالى ان الرسل لماذكروا هذه الاشياء لأولئك الكفار قالوا ان انتم الابشر مثلنا تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين واعلم ان هذا الكلام مشتمل على ثلاثة انواع من الشبه ( فالشبهة الاولى ) ان الاشخاص الانسانية متساوية فى تمام الماهية فيمتنع ان يبلغ التفاوت بين تلك الاشخاص الى هذا الحد وهو ان يكون الواحد منهم رسولا من عندالله مطلعا على الغيب مخالطا لزمرة الملائكة والباقون يكونون غافلين عن كل هذه الاحوال وايضا كانوا يقولون ان كنت قد فارقتنا فى هذه الاحوال العالية الالهية الشريفة وجب ان تفارقنا فى الاحوال الخسيسة وهى الحاجة الى الاكل والشرب والحدث والوقاع وهذه الشبهة هى المراد من قولهم ان انتم الابشر مثلنا (والشبهة الثانية) التمسك بطريقة التقليد وهى انهم وجدوا آباءهم وعلماءهم وكبراءهم مطبقين متفقين على عبادة الاوثان قالوا ويبعد ان يقال ان أولئك القدماء على كثرتهم وقوة خواطرهم لم يعرفوا ابطلان هذا الدين وان الرجل الواحد عرف فساده ووقف على بطلانه والعوام ربما زادوا فى هذا الباب كلاما آخر وذلك ان الرجل العالم اذا بين ضعف كلام بعض المتقدمين قالوا له ان كلامك انما يظهر صحته لو كان المتقدمون حاضرين اما المناظرة مع الميت فسهلة فهذا كلام يذكره الحمقى والرعاع واولئك الكفار ايضا ذكروه وهذه الشبهة هى المراد من قوله تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ( والشبهة الثالثة ) ان قالوا المعجز لايدل على الصدق اصلا وان كانوا سلموا على ان المعجز يدل على الصدق الا ان الذى جاء به اولئك الرسل طعنوا فيه وزعموا انها امور معتادة وانها ليست من باب المعجزات الخارجة عن قدرة البشر والى هذا النوع من الشبهة الاشارة بقوله فأتونا بسلطان مبين فهذا تفسير هذه الآية بحسب الوسع والله اعلم ۞ قوله تعالى ( قالت لهم رسلهم ان نحن الابشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا ان نأتيكم بسلطان الاباذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ومالنا ان لانتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ) اعلم انه تعالى لما حكى عن الكفار شبهاتهم فى الطعن فى النبوة حكى عن الانبياء عليهم السلام جوابهم عنها ( اما الشبهة الاولى ) وهى قولهم ان انتم الابشر مثلنا فجوابه ان الانبياء سلموا ان الامر كذلك لكنهم بينوا ان التماثل فى البشرية والانسانية لايمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة لان هذا المنصب

---

( اعمالهم كرماد ) كقولك صفة زيد عرضه مهتوك وماله  منهوب وهو استئناف مبنى على سؤال من قال مابال اعمالهم التى عملوها فى وجوه البر من صلة الارحام واعتاق الرقاب وفداء الاسارى واغاثة الملهوفين وقرى الاضياف وغير ذلك مما هو من باب المكارم حتى آل امرهم الى هذا المآل فأجيب بأن ذلك كرماد ( اشتدت به الريح ) حملته واسرعت الذهاب به (فى يوم عاصف ) العصف اشتداد الريح وصف به زمانها مبالغة كقولك ليلة ساكرة وانما السكور لريحها شبهت صنائعهم المعدودة لابتنائها على غير أساس من معرفة الله تعالى والايمان به والتوجه بها اليه تعالى برماد طيرته الريح العاصفة او استئناف مسوق لبيان اعمالهم للاصنام اومبتدأ خبره محذوف كما هو رأى سيبويه اى فيمايتلى عليك مثلهم وقوله اعمالهم جملة مستأنفة مبنية على سؤال من يقول كيف مثلهم فقيل اعمالهم كيت وكيت سواء اريد بها صنائعهم او اعمالهم لاصنامهم وقيل اعمالهم بدل من مثل الذين وقوله كرماد خبره (لايقدرون) اى يوم القيامة ( مما كسبوا ) من تلك الاعمال (على شئ ) ما اى لايرون له اثرا من ثواب او تخفيف عذاب كدأب الرماد المذكور وهو فذلكة التمثيل والاكتفاء ببيان عدم رؤية الأثر لاعمالهم للاصنام مع ان لها عقوبات هائلة للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم انها شفعاء لهم عندالله تعالى وفيه تهكم بهم ( ذلك ) اى مادل عليه التمثيل دلالة واضحة من ضلالهم مع حسبانهم انهم على شئ (هو الضلال البعيد) عن طريق الحق والصواب اوعن نيل الثواب

(الم تر ) خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد به امته وقيل لكل احد من الكفرة لقوله تعالى يذهبكم والرؤية رؤية القلب

منصب يمن الله به على من يشاء من عباده فاذا كان الامر كذلك فقد سقطت هذه الشبهة واعلم ان هذا المقام فيه بحث شريف دقيق وهو ان جماعة من حكماء الاسلام قالوا ان الانسان مالم يكن فى نفسه وبدنه مخصوصا بخواص شريفة علوية قدسية فانه يمتنع عقلا حصول صفة النبوة له واما الظاهريون من اهل السنة والجماعة فقد زعموا ان حصول النبوة عطية من الله تعالى يهبها لكل من يشاء من عباده ولا يتوقف حصولها على امتياز ذلك الانسان عن سائر الناس بمزيد اشراق نفسانى وقوة قدسية وهؤلاء تمسكوا بهذه الآية فانه تعالى بين ان حصول النبوة ليس الا بمحض المنة من الله تعالى والعطية منه والكلام فى هذا الباب غامض غائص دقيق والاولون اجابوا عنه بأنهم لم يذكروا فضائلهم النفسانية والجسدانية تواضعا منهم واقتصروا على قولهم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده بالنبوة لانه قد علم انه تعالى لا يخصصهم بتلك الكرامات الا وهم موصوفون بالفضائل التى لاجلها استوجبوا ذلك التخصيص كما قال تعالى الله اعلم حيث يجعل رسالته (واما الشبهة الثانية) وهى قولهم اطباق السلف على ذلك الدين يدل على كونه حقا لانه يبعد ان يظهر للرجل الواحد مالم يظهر للخلق العظيم فجوابه عين الجواب المذكور عن الشبهة الاولى لان التمييز بين الحق والباطل والصدق والكذب عطية من الله تعالى وفضل منه ولا يبعد ان يخص بعض عبيده بهذه العطية وان يحرم الجمع العظيم منها (واما الشبهة الثالثة) وهى قولهم انا لا نرضى بهذه المعجزات التى اتيتم بها وانما نريد معجزات قاهرة قوية فالجواب عنها قوله تعالى وما كان لنا ان نأتيكم بسلطان الا باذن الله وشرح هذا الجواب ان المعجزة التى جئنا بها وتمسكنا بها حجة قاطعة وبينة قاهرة ودليل تام فأما الاشياء التى طلبتموها فهى امور زائدة والحكم فيها لله تعالى فان خلقها واظهرها فله الفضل وان لم يخلقها فله العدل ولا يحكم عليه بعد ظهور قدر الكفاية ثم انه تعالى حكى عن الانبياء والرسل عليهم السلام انهم قالوا بعد ذلك وعلى الله فليتوكل المؤمنون والظاهر ان الانبياء لما اجابوا عن شبهاتهم بذلك الجواب فالقوم اخذوا فى السفاهة والتخويف والوعيد وعند هذا قالت الانبياء عليهم السلام لا نخاف من تخويفكم ولا نلتفت الى تهديدكم فان توكلنا على الله واعتمادنا على فضل الله ولعل الله سبحانه كان قد اوحى اليهم ان اولئك الكفرة لا يقدرون على ايصال الشر والآفة اليهم وان لم يكن حصل هذا الوحى فلا يبعد منهم ان لا يلتفتوا الى سفاهتهم لما ان ارواحهم كانت مشرقة بالمعارف الالهية مشرقة بأضواء عالم الغيب والروح متى كانت موصوفة بهذه الصفات فقلما يبالى بالاحوال الجسمانية وقلما يقيم لها وزنا فى حالتى السراء والضراء وطورى الشدة والرخاء فلهذا السبب توكلوا على الله وعولوا على فضل الله وقطعوا اطماعهم عما سوى الله والذى يدل على ان المراد ماذكرناه قوله تعالى حكاية عنهم ومالنا ان لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا يعنى انه تعالى لما خصنا

وقوله تعالى (ان الله خلق السموات والارض) ساد مسد ( ٣٣٢ ) مفعوليها اى الم تعلم انه تعالى خلقهما (بالحق) ملتبسة بالحكمة والوجه الصحيح الذى يحق ان تخلق عليه وقرئ خالق السموات والارض (ان يشأ يذهبكم) يعدمكم بالمرة (ويأت بخلق جديد) اى يخلق بدلكم خلقا آخر مستأنفا لا علاقة بينكم وبينهم رتب قدرته تعالى على ذلك على قدرته تعالى على خلق السموات والارض على هذا النمط البديع ارشادا الى طريق الاستدلال فان من قدر على خلق مثل هاتيك الاجرام العظيمة كان على تبديل خلق آخر بهم اقدر ولذلك قال (وماذلك) اى اذهابكم والاتيان بخلق جديد مكانكم (على الله بعزيز) بمتعذر أو متعسر فانه قادر لذاته على جميع الممكنات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ومن هذا شأنه حقيق بأن يؤمن به ويرجى ثوابه ويخشى عقابه (وبرزوا لله جميعا) اى يبرزون يوم القيامة وايثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوعه كما فى قوله سبحانه ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار اولانه لا مضى ولا استقبال بالنسبة اليه سبحانه والمراد بروزهم من قبورهم لأمر الله تعالى ومحاسبته اولله على ظنهم فانهم كانوا يظنون عند ارتكابهم الفواحش سرا انها تخفى على الله سبحانه فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند انفسهم (فقال الضعفوء) الاتباع جمع ضعيف والمراد ضعف الرأى وانما كتب بالواو على لفظ من يفخم الالف قبل الهمزة (للذين استكبروا) لرؤسائهم الذين استتبعوهم واستغووهم (انا كنا) فى الدنيا لكم تبعا فى تكذيب الرسل عليهم السلام والاعراض عن نصائحهم وهو جمع تابع كغيب فى جمع غائب اومصدر نعت به (بهذه)

بهذه الدرجات الروحانية والمعارف الالهية الربانية فكيف يليق بنا ان لانتوكل على الله بل اللائق بنا ان لانتوكل الاعليه ولانعول فى تحصيل المهمات الاعليه فان من فاز بشرف العبودية ووصل الى مقام الاخلاص والمكاشفة يقبح به ان يرجع فى امر من الامور الى غير الحق سواء كان ملكا له او ملكا او روحا او جسما وهذه الآية دالة على انه تعالى يعصم اولياءه المخلصين فى عبوديته من كيد اعدائهم ومكرهم ثم قالوا ولنصبرن على ما آذيتمونا فان الصبر مفتاح الفرج ومطلع الخيرات والحق لابد وان يصير غالبا قاهرا والباطل لابد وان يصير مغلوبا مقهورا ثم اعادوا قولهم وعلى الله فليتوكل المتوكلون والفائدة فيه انهم امروا انفسهم بالتوكل على الله فى قوله ومالنا ان لانتوكل على الله ثم لما فرغوا من انفسهم امروا اتباعهم بذلك وقالوا وعلى الله فليتوكل المتوكلون وذلك يدل على ان الآمر بالخير لايؤثر قوله الا اذا اتى بذلك الخير اولا ورأيت فى كلام الشيخ ابى حامد الغزالى رحمه الله فصلا حسنا وحاصله ان الانسان اما ان يكون ناقصا اوكاملا او خاليا عن الوصفين اما الناقص فاما ان يكون ناقصا فى ذاته ولكنه لايسعى فى تنقيص حال غيره واما ان يكون ناقصا ويكون مع ذلك ساعيا فى تنقيص حال الغير فالاول هو الضال والثانى هو الضال المضل واما الكامل فاما ان يكون كاملا ولايقدر على تكميل الغير وهم الاولياء واما ان يكون كاملا ويقدر على تكميل الناقصين وهم الانبياء ولذلك قال عليه السلام علماء امتى كانبياء بنى اسرائيل ولما كانت مراتب النقصان والكمال ومراتب الاكمال والاضلال غير متناهية بحسب الكمية والكيفية لاجرم كانت مراتب الولاية والحياة غير متناهية بحسب الكمال والنقصان فالولى هو الانسان الكامل الذى لايقوى على التكميل والنبى هو الانسان الكامل المكمل ثم قد تكون قوته الروحانية النفسانية وافية بتكميل انسانين ناقصين وقد تكون اقوى من ذلك فيفى بتكميل عشرة ومائة وقد تكون تلك القوة قاهرة قوية تؤثر تأثير الشمس فى العالم فيقلب ارواح اكثر اهل العالم من مقام الجهل الى مقام المعرفة ومن طلب الدنيا الى طلب الآخرة وذلك مثل روح محمد صلى الله عليه وسلم فان وقت ظهوره كان العالم مملوا من اليهود واكثرهم كانوا مشبهة ومن النصارى وهم حلولية ومن المجوس وقبح مذاهبهم ظاهر ومن عبدة الاوثان وسخف دينهم اظهر من ان يحتاج الى بيان فلما ظهرت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم سرت قوة روحه فى الارواح فقلب اكثر اهل العالم من الشرك الى التوحيد ومن التجسيم الى التنزيه ومن الاستغراق فى طلب الدنيا الى التوجه الى عالم الآخرة فمن هذا المقام ينكشف للانسان مقام النبوة والرسالة اذا عرفت هذا فنقول قوله ومالنا ان لانتوكل على الله اشارة الى ما كانت حاصلة لهم من كمالات نفوسهم وقولهم فى آخر الامر وعلى الله فليتوكل المتوكلون اشارة الى تأثير ارواحهم الكاملة فى تكميل الارواح الناقصة فهذه اسرار عالية مخزونة فى الفاظ القرآن فمن نظر فى علم القرآن وكان غافلا عنها كان محروما من اسرار علوم القرآن والله

والعتاب والتقريع والتبكيت ( من عذاب الله من شئ ) من الاولى للبيان واقعة موقع الحال والثانية للتبعيض واقعة موقع المفعول اى بعض الشئ الذى هو عذاب الله تعالى ويجوز كونهما للتبعيض اى بعض شئ هو بعض عذاب الله والاعراب كما سبق ويجوز ان تكون الاولى مفعولا والثانية مصدرا اى فهل انتم مغنون عنا بعض العذاب بعض الاغناء ويعضد الاول قوله تعالى فهل انتم مغنون عنا نصيبا من النار (قالوا) اى المستكبرون جوابا عن معاتبة الاتباع واعتذارا عما فعلوا بهم ( لو هدانا الله ) اى للايمان ووفقنا له (لهديناكم ) ولكن ضللنا فأضللناكم اى اخترنا لكم ما اخترناه لانفسنا اولو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم واغنينا عنكم كما عرضناكم له ولكن سد دوننا طريق الخلاص ولات حين مناص ( سواء علينا اجزعنا ) مما لقينا ( ام صبرنا ) على ذلك اى مستو علينا الجزع والصبر فى عدم الانجاء والهمزة وام لتأكيد التسوية كما فى قوله تعالى سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم وانما اسندوهما ونسبوا استواءهما الى ضمير المتكلم المنتظم للمخاطبين ايضا مبالغة فى النهى عن التوبيخ باعلام انهم شركاء لهم فيما ابتلوا به وتسلية لهم ويجوز ان يكون قوله سواء علينا الخ من كلام الفريقين على منوال قوله تعالى ليعلم انى لم اخنه ويؤيده ما روى انهم يقولون تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون كذلك فلا ينفعهم فعند ذلك يقولون ذلك ولما كان عتاب الاتباع من باب الجزع ذيلوا

اعلم وفى الآية وجه آخر وهو ان قوله وما كان لنا ان نأتيكم بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون المراد منه ان الذين يطلبون سائر المعجزات وجب عليهم ان يتوكلوا فى حصولها على الله تعالى لا عليها فان شاء اظهرها وان شاء لم يظهرها واما قوله فى آخر الآية ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون المراد منه الامر بالتوكل على الله فى دفع شر الناس الكفار وسفاهتهم وعلى هذا التقدير فالتكرار غير حاصل لان قوله وعلى الله فليتوكل وارد فى موضعين مختلفين بحسب مقصودين متغايرين وقيل ايضا الاول ذكر لاستحداث التوكل والثانى للسعى فى ابقائه وادامته والله اعلم ※ قوله تعالى (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من ارضنا او لتعودن فى ملتنا فاوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الارض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت ومن ورائه عذاب غليظ) اعلم انه تعالى لما حكى عن الانبياء عليهم السلام انهم اكتفوا فى دفع شرور اعدائهم بالتوكل عليه والاعتماد على حفظه وحياطته حكى عن الكفار انهم بالغوا فى السفاهة وقالوا لنخرجنكم من ارضنا او لتعودن فى ملتنا والمعنى ليكونن احد الامرين لا محالة اما اخراجكم واما عودكم الى ملتنا والسبب فيه ان اهل الحق فى كل زمان يكونون قليلين واهل الباطل يكونون كثيرين والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين فلهذه الاسباب قدروا على هذه السفاهة فان قيل هذا يوهم انهم كانوا على ملتهم فى اول الامر حتى يعودوا فيها قلنا الجواب من وجوه (الاول) ان اولئك الانبياء عليهم السلام انما نشؤا فى تلك البلاد وكانوا من تلك القبائل وفى اول الامر ما اظهروا المخالفة مع اولئك الكفار بل كانوا فى ظاهر الامر معهم من غير اظهار مخالفة فالقوم ظنوا لهذا السبب انهم كانوا فى اول الامر على دينهم فلهذا السبب قالوا او لتعودن فى ملتنا (الوجه الثانى) ان هذا حكاية كلام الكفار ولا يجب فى كل ما قالوه ان يكونوا صادقين فيه فلعلهم توهموا ذلك مع انه ما كان الامر كما توهموه (والثالث) لعل الخطاب وان كان فى الظاهر مع الرسل الا ان المقصود بهذا الخطاب اتباعهم واصحابهم ولا بأس ان يقال انهم كانوا قبل ذلك الوقت على دين اولئك الكفار (الرابع) قال صاحب الكشاف العود بمعنى الصيرورة كثير فى كلام العرب (الخامس) لعل اولئك الانبياء كانوا قبل ارسالهم على ملة من الملل ثم انه تعالى اوحى اليهم بنسخ تلك الملة وامرهم بشريعة اخرى وبقى الاقوام على تلك الشريعة التى صارت منسوخة مصرين على سبيل الكفر وعلى هذا التقدير فلا يبعد ان يطلبوا من الانبياء ان يعودوا الى تلك الملة (السادس) لا يبعد ان يكون المعنى او لتعودن فى ملتنا اى الى ما كنتم عليه قبل ادعاء الرسالة من السكوت عن ذكر معايب ديننا وعدم التعرض له بالطعن والقدح وعلى جميع هذه الوجوه فالسؤال زائل والله اعلم واعلم ان الكفار

---

بجوابهم ببيان ان لا جدوى فى ذلك فقالوا (مالنا من محيص) من منجى ومهرب من العذاب من حاص الحمار اذا عدل بالفرار وهو اما اسم مكان كالمبيت والمصيف او مصدر كالمغيب والمشيب وهى جملة مفسرة لاجمال ما فيه الاستواء فلا محل لها من الاعراب او حال مؤكدة او بدل منه (وقال الشيطان) الذى اضل كلا الفريقين واستتبعهما عندما عتباه بما قاله الاتباع للمستكبرين (لما قضى الامر) اى احكم وفرغ منه وهو الحساب ودخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار خطيبا فى محفل الاشقياء من الثقلين (ان الله وعدكم وعد الحق) اى وعدا من حقه ان ينجز فانجزه او وعدا انجزه وهو الوعد بالبعث والجزاء (ووعدتكم) اى وعد الباطل وهو ان لا بعث ولا جزاء ولئن كان فالاصنام شفعاؤكم ولم يصرح ببطلانه لما دل عليه قوله (فاخلفتكم) اى موعدى على حذف المفعول الثانى اى نقضته جعل خلف وعده كالاخلاف منه كأنه كان قادرا على انجازه وانى له ذلك (وما كان لى عليكم من سلطان) اى تسلط او حجة تدل على صدقى (الا ان دعوتكم) الا دعائى اياكم اليه وتسويله وهو وان لم يكن من باب السلطان لكنه ابرزه فى معرض على طريقة

تحية بينهم ضرب وجيع

مبالغة فى نفى السلطان عن نفسه كأنه قال انما يكون لى عليكم سلطان اذا كان مجرد الدعاء من بابه ويجوز كون الاستثناء منقطعا (فاستجبتم لى) فاسرعتم اجابتى (فلا تلومونى) بوعدى اياكم حيث لم يكن ذلك على طريقة القسر والالجاء كما يدل عليه الفاء وقرئ بالياء على وجه الالتفات كما فى قوله تعالى حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم (ولوموا انفسكم) حيث استجبتم لى باختياركم حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل (ذكروا)

ذكروا هذا الكلام قال تعالى فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الارض من بعدهم قال صاحب الكشاف لنهلكن الظالمين حكاية تقتضي اضمار القول او اجراء الايحاء مجرى القول لانه ضرب منه وقرأ ابوحيوة ليهلكن الظالمين وليسكننكم بالياء اعتبار الأوحى فان هذا اللفظ لفظ الغيبة ونظيره قولك اقسم زيد ليخرجن ولاخرجن والمراد بالارض ارض الظالمين وديارهم ونظيره قوله واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها واورثكم ارضهم وديارهم وعن النبي صلى الله عليه وسلم من آذى جاره اورثه الله داره واعلم ان هذه الآية تدل على ان من توكل على ربه في دفع عدوه كفاه الله امر عدوه ثم قال تعالى ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد فقوله ذلك اشارة الى ان ماقضى الله تعالى به من اهلاك الظالمين واسكان المؤمنين ديارهم اثر ذلك الامر حق لمن خاف مقامي وفيه وجوه (الاول) المراد موقفي وهو موقف الحساب لان ذلك الموقف موقف الله تعالى الذي يقف فيه عباده يوم القيامة ونظيره قوله واما من خاف مقام ربه وقوله ولمن خاف مقام ربه جنتان (الثاني) ان المقام مصدر كالقيام يقال قام قياما ومقاما قال الفراء ذلك لمن خاف قيامي عليه ومراقبتي اياه كقوله أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت (الثالث) ذلك لمن خاف مقامي اي اقامتي على العدل والصواب فانه تعالى لايقضي الا بالحق ولايحكم الا بالعدل وهو تعالى مقيم على العدل لايميل عنه ولا ينحرف البتة (الرابع) ذلك لمن خاف مقامي اي مقام العائذ عندي وهو من باب اضافة المصدر الى المفعول (الخامس) ذلك لمن خاف مقامي اي لمن خافني وذكر المقام ههنا مثل مايقال سلام الله على المجلس الفلاني العالي والمراد سلام الله على فلان فكذا ههنا ثم قال تعالى وخاف وعيد قال الواحدي الوعيد اسم من اوعد ايعادا وهو التهديد قال ابن عباس خاف مااوعدت من العذاب واعلم انه تعالى ذكر اولا قوله ذلك لمن خاف مقامي ثم عطف عليه قوله وخاف وعيد فهذا يقتضي ان يكون الخوف من الله تعالى مغايرا للخوف من وعيد الله ونظيره ان حب الله تعالى مغاير لحب ثواب الله وهذا مقام شريف عال في اسرار الحكمة والتصديق ثم قال تعالى واستفتحوا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) للاستفتاح ههنا معنيان احدهما طلب الفتح بالنصرة فقوله واستفتحوا اي واستنصروا الله على اعدائهم فهو كقوله ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح والثاني الفتح الحكم والقضاء فقول ربنا واستفتحوا اي واستحكموا الله وسألوه القضاء بينهم وهو مأخوذ من الفتاحة وهي الحكومة كقوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق اذا عرفت هذا فنقول كلا القولين ذكره المفسرون اما على القول الاول فالمستفتحون هم الرسل وذلك لانهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب لما ايسوا من ايمانهم قال نوح رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا وقال موسى ربنا اطمس الآية وقال لوط رب انصرني على القوم المفسدين واما على القول الثاني وهو طلب الحكومة والقضاء

اليه بالمرة بل بيان انهم احق بها منه وليس فيه دلالة على استقلال العبد في افعاله كما زعمت المعتزلة بل يكفي في ذلك ان يكون لقدرته الكاسبة التي عليها يدور فلك التكليف مدخل فيه فانه سبحانه انما يخلق افعاله حسبما يختاره وعليه تترتب السعادة والشقاوة وما قيل من انه يستدعي ان يقال فلا تلوموني ولا أنفسكم فان الله قضى عليكم الكفر واجبركم عليه مبني على عدم الفرق بين مذهب اهل الحق وبين مسلك الجبرية ( ماانا بمصرخكم ) اي بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب (وماأنتم بمصرخي) مما انا فيه وانما تعرض لذلك مع انه لم يكن في حيز الاحتمال مبالغة في بيان عدم اصراخه اياهم وايذانا بانه ايضا مبتلى بمثل ماابتلوا به ومحتاج الى الاصراخ فكيف من اصراخ الغير ولذلك آثر الجملة الاسمية فكأنه مامضى كان جوابا منه عن توبيخهم وتقريعهم وهذا جواب عن استغاثتهم واستعانتهم به في استدفاع مادهمهم من العذاب وقرئ بكسر الياء (اني كفرت) اليوم (بما اشركتموني من قبل) اي باشراككم اياي بمعنى تبرأت منه واستنكرته كقوله تعالى ويوم القيامة يكفرون بشرككم يعني ان اشراككم لي بالله سبحانه هو الذي يطمعكم في نصرتي لكم بأن كان لكم علي حق حيث جعلتموني معبودا وكنت اود ذلك وارغب فيه فاليوم كفرت بذلك ولم احمده ولم اقبله منكم بل تبرأت منه ومنكم فلم يبق بيني وبينكم علاقة او كفرت من قبل حين ابيت السجود لآدم

بالذي اشركتمونيه وهو الله تعالى كما في قوله *سبحان ماسخركن لنا* فيكون تعليلا لعدم اصراخه فان الكافر

فالاولى ان يكون المستفتحون هم الامم وذلك انهم قالوا اللهم ان كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا ومنه قول كفار قريش اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء وكقول آخرين ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قوله واستفتحوا معطوف على قوله اوحى عليهم وقرئ واستفتحوا بلفظ الامر وعطفه على قوله لنهلكن اى اوحى اليهم ربهم وقال لهم لنهلكن وقال لهم استفتحوا ثم قال تعالى وخاب كل جبار عنيد وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ان قلنا المستفتحون هم الرسل كان المعنى ان الرسل استفتحوا فانصروا وظفروا بمقصودهم وفازوا وخاب كل جبار عنيد وهم قومهم وان قلنا المستفتحون هم الكفرة فكان المعنى ان الكفار استفتحوا على الرسل ظنا منهم انهم على الحق والرسل على الباطل وخاب كل جبار عنيد منهم وما افلح بسبب استفتاحه على الرسل (المسئلة الثانية) الجبار ههنا المتكبر على طاعة الله تعالى وعبادته ومنه قوله تعالى ولم يكن جبارا عصيا قال ابو عبيدة عن الاحمر يقال فيه جبرية وجبروة وجبروت وجبورة وحكى الزجاج الجبرية والجبر بكسر الجيم والباء والتجبار والجبرياء قال الواحدى فهى ثمان لغات فى مصدر الجبار وفى الحديث ان امرأة حضرت النبى صلى الله عليه وسلم فأمرها امرا فأبت عليه فقال دعوها فانها جبارة اى مستكبرة واما العنيد فقد اختلف اهل اللغة فى اشتقاقه قال النضر بن شميل العنود الخلاف والتباعد والترك وقال غيره اصله من العند وهو الناحية يقال فلان يمشى عندا اى ناحية فعنى عاند وعند اخذ فى ناحية معرضا وعاند فلان فلانا اذا جانبه وكان منه على ناحية اذا عرفت هذا فنقول كونه جبارا متكبرا اشارة الى الخلق النفسانى وكونه عنيدا اشارة الى الاثر الصادر عن ذلك الخلق وهو كونه مجانبا عن الحق منحرفا منه ولا شك ان الانسان الذى يكون خلقه هو التجبر والتكبر وفعله هو العنود وهو الانحراف عن الحق والصدق كان خائبا عن كل الخيرات خاسرا عن جميع اقسام السعادات واعلم انه تعالى لما حكم عليه بالخيبة ووصفه بكونه جبارا عنيدا وصف كيفية عذابه بأمور الاول قوله من ورائه جهنم وفيه اشكال وهو ان المراد امامه جهنم فكيف اطلق لفظ الوراء على القدام والامام واجابوا عنه من وجوه (الاول) ان لفظ وراء اسم لما توارى عنك وقدام وخلف متوار عنك فصح اطلاق لفظ وراء على كل واحد منهما قال الشاعر

عسى الكرب الذى امسيت فيه * يكون وراءه فرج قريب

ويقال ايضا الموت وراء كل احد الثانى قال ابو عبيدة وابن السكيت الوراء من الاضداد يقع على الخلف والقدام والسبب فيه ان كل ما كان خلفا فانه يجوز ان ينقلب قداما وبالعكس فلاجرم جاز وقوع لفظ الوراء على القدام ومنه قوله تعالى وكان وراءهم ملك يأخذ اى امامهم ويقال الموت من وراء الانسان (الثانى) قال ابن الانبارى وراء بمعنى بعد قال الشاعر * وليس وراء الله للمرء مذهب * اى وليس بعد الله مذهب اذا

اذ لا احتمال له حتى يحتاج الى التعليل ولان تعليل عدم اصراخهم بكفره يوهم انهم بسبيل من ذلك لولا المانع من جهته (ان الظالمين لهم عذاب اليم) تتمة كلامه او ابتداء كلام من جهة الله عز وجل وفى حكاية امثاله لطف للسامعين وايقاظ لهم حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم (وادخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها باذن ربهم) اى بأمره او بتوفيقه وهدايته وفى التعرض لوصفه الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم اظهار مزيد اللطف بهم والمدخلون هم الملائكة عليهم السلام وقرئ على صيغة التكلم فيكون قوله تعالى باذن ربهم متعلقا بقوله تعالى (تحيتهم فيها سلام) اى يحييهم الملائكة بالسلام باذن ربهم (الم تر) الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وقد علق بما بعده من قوله تعالى (كيف ضرب الله مثلا) اى كيف اعتمده ووضعه فى موضعه اللائق به (كلمة طيبة) منصوب بمضمر اى جعل كلمة طيبة هى كلمة التوحيد او كل كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة (كشجرة طيبة) اى حكم بانها مثلها لانه تعالى صيرها مثلها فى الخارج وهو تفسير لقوله ضرب الله مثلا كقولك شرف الامير زيدا كساه حلة وحمله على فرس ويجوز ان يكون كلمة بدلا من مثلا وكشجرة صفتها اوخبر مبتدأ محذوف اى هى كشجرة وان يكون اول مفعولى ضرب اجراءله مجرى جعل قد أخر

عن ثانيهما اعنى مثلا لئلا يبعد عن صفته التى هى كشجرة وقد قرئت بالرفع على الابتداء (اصلها ثابت) (ثبت)

ثبت هذا فنقول انه تعالى حكم عليه بالخيبة في قوله وخاب كل جبار عنيد ثم قال من ورائه جهنم اى ومن بعد هذه الخيبة يدخل جهنم ( النوع الثاني) مما ذكره الله تعالى من احوال هذا الكافر قوله ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه وفيه سؤالات ( السؤال الاول ) علام عطف ويسقى الجواب على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ويسقى من ماء صديد ( السؤال الثاني) عذاب اهل النار من وجوه كثيرة فلم خص هذه الحالة بالذكر الجواب يشبه ان تكون هذه الحالة اشد انواع العذاب فخصص بالذكر مع قوله ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت (السؤال الثالث) ماوجه قوله من ماء صديد الجواب انه عطف بيان والتقدير انه لما قال ويسقى من ماء فكأنه قيل وما ذلك الماء فقال صديد والصديد ما يسيل من جلود اهل النار وقيل التقدير ويسقى من ماء كالصديد وذلك بأن يخلق الله تعالى في جهنم ما يشبه الصديد في النتن والغلظ والقذارة وهو ايضا يكون في نفسه صديدا لان كراهته تصد عن تناوله وهو كقوله وسقوا ماء حميما فقطع امعاءهم وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب (السؤال الرابع) مامعنى يتجرعه ولا يكاد يسيغه الجواب التجرع تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار ويقال ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغا واساغه اساغة واعلم ان يكاد فيه قولان (احدهما) ان نفيه اثبات واثباته نفي فقوله ولا يكاد يسيغه اى ويسيغه بعد ابطاء لان العرب تقول ما كدت اقوم اى قمت بعد ابطاء قال تعالى فذبحوها وما كادوا يفعلون يعني فعلوا بعد ابطاء والدليل على حصول الاساغة قوله تعالى يصهر به ما في بطونهم والجلود ولا يحصل الصهر الا بعد الاساغة وايضا فان قوله يتجرعه يدل على انهم اساغوا الشيء بعد الشيء فكيف يصح ان يقال بعده انه لا يسيغه البتة ( والقول الثاني) ان كاد للمقاربة فقوله لا يكاد لنفي المقاربة يعني ولم يقارب ان يسيغه فكيف يحصل الاساغة كقوله تعالى لم يكد يراها اى لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها فان قيل فقد ذكرتم الدليل على حصول الاساغة فكيف الجمع بينه وبين هذا الوجه قلنا عنه جوابان احدهما ان المعنى ولا يسيغ جميعه كأنه يجرع البعض وما ساغ الجميع * الثاني ان الدليل الذي ذكرتم انما دل على وصول بعض ذلك الشراب الى جوف الكافر الا ان ذلك ليس باساغة لان الاساغة في اللغة اجراء الشراب في الحلق بقبول النفس واستطابة المشروب والكافر يتجرع ذلك الشراب على كراهية ولا يسيغه اى لا يستطيبه ولا يشربه شربا بمرة واحدة وعلى هذين الوجهين يصح حمل لا يكاد على نفي المقاربة والله اعلم (النوع الثالث) مما ذكره الله تعالى في وعيد هذا الكافر قوله ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت والمعنى ان موجبات الموت احاطت به من جميع الجهات ومع ذلك فانه لا يموت وقيل من كل جزء من اجزاء جسده (النوع الرابع) قوله ومن ورائه عذاب غليظ وفيه وجهان الاول ان المراد من العذاب الغليظ كونه دائما غير منقطع الثاني انه في كل وقت

اى ضارب بعروقه في الارض وقرأ انس بن مالك رضي الله  عنه كشجرة طيبة ثابت اصلها وقراءة الجماعة اقوى سبكا وانسب

بقرينته اعني قوله تعالى (وفرعها) اى اعلاها ( في السماء) في جهة العلو ويجوز ان يراد وفروعها على الاكتفاء بلفظ الجنس عن الجمع (تؤتى أكلها) تعطى ثمرها (كل حين) وقته الله تعالى لاثمارها ( باذن ربها ) بارادة خالقها والمراد بالشجرة المنعوتة اما النخلة كما روى مرفوعا او شجرة في الجنة ( ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون ) لان في ضربها زيادة افهام وتذكير فانه تصوير للمعاني بصور المحسوسات ( ومثل كلمة خبيثة ) هي كلمة الكفر والدعاء اليه او تكذيب الحق او مايعم الكل او كل كلمة قبيحة ( كشجرة خبيثة ) اى كمثل شجرة خبيثة قيل هي كل شجرة لايطيب ثمرها كالحنظل والكشوث ونحوهما وتغيير الاسلوب للايذان بأن ذلك غير مقصود الضرب والبيان وانما ذلك امر ظاهر يعرفه كل واحد ( اجتثت ) استؤصلت واخذت جثتها بالكلية (من فوق الارض) لكون عروقها قريبة منه (مالها من قرار) استقرار عليها ( يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) الذي ثبت بالحجة عندهم وتمكن في قلوبهم وهو الكلمة الطيبة التي ذكرت صفتها العجيبة ( في الحياة الدنيا) فلا يزالون عنه اذا افتتنوا في دينهم كزكريا ويحيي وجرجيس وشمسون والذين فتنهم اصحاب الاخدود ( وفي الآخرة ) فلا يتلعثمون اذا سئلوا عن معتقدهم في الموقف ولا تدهشهم اهوال القيامة اوعند سؤال القبر* روى

انه عليه الصلاة والسلام ذكر قبض  روح المؤمن فقال ثم يعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه

يستقبله يتلقى عذابا اشد مما قبله قال المفضل هو قطع الانفاس وحبسها في الاجساد والله اعلم * قوله تعالى ( مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد الم تر ان الله خلق السموات والارض بالحق ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ) اعلم انه تعالى لما ذكر انواع عذابهم في الآية المتقدمة بين في هذه الآية ان اعمالهم بأسرها تصير ضائعة باطلة لا ينتفعون بشيء منها وعند هذا يظهر كمال خسرانهم لانهم لا يجدون في القيامة الا العقاب الشديد وكل ما عملوه في الدنيا وجدوه ضائعا باطلا وذلك هو الخسران الشديد وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) في ارتفاع قوله مثل الذين وجوه ( الاول ) قال سيبويه التقدير وفيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا أو مثل الذين كفروا فيما يتلى عليكم وقوله كرماد جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقيل اعمالهم كرماد ( الثاني ) قال الفراء التقدير مثل اعمال الذين كفروا بربهم كرماد فحذف المضاف اعتمادا على ذكره بعد المضاف اليه وهو قوله اعمالهم ومثله قوله تعالى الذي احسن كل شيء خلقه اي خلق كل شيء وكذا قوله ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة المعنى ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة ( الثالث ) ان يكون التقدير صفة الذين كفروا اعمالهم كرماد كقولك صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول ( الرابع ) ان تكون اعمالهم بدلا من قوله مثل الذين كفروا والتقدير مثل اعمالهم وقوله كرماد هو الخبر ( الخامس ) ان يكون المثل صلة وتقديره الذين كفروا اعمالهم ( المسئلة الثانية ) اعلم ان وجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الاعمال هو ان الريح العاصف تطير الرماد وتفرق اجزاءه بحيث لا يبقى لذلك الرماد اثر ولا خبر فكذا ههنا ان كفرهم ابطل اعمالهم واحبطها بحيث لم يبق من تلك الاعمال معهم خبر ولا اثر ثم اختلفوا في المراد بهذه الاعمال على وجوه ( الاول ) ان المراد منها ما عملوه من اعمال البر كالصدقة وصلة الرحم وبر الوالدين واطعام الجائع وذلك لانها تصير محبطة باطلة بسبب كفرهم بالله والوجه في خسرانهم انهم صيروها محبطة باطلة بسبب كفرهم ولولا كفرهم لانتفعوا بها (والقول الثاني) ان المراد من تلك الاعمال عبادتهم للاصنام وما تكلفوه من كفرهم الذي ظنوه ايمانا وطريقا الى الخلاص والوجه في خسرانهم انهم اتعبوا ابدانهم فيها الدهر الطويل لكي ينتفعوا بها فصارت وبالا عليهم (والقول الثالث) ان المراد من هذه الاعمال كلا القسمين لانهم اذا رأوا الاعمال التي كانت في انفسها خيرات قد بطلت والاعمال التي ظنوها خيرات وافنوا فيها اعمارهم قد بطلت ايضا وصارت من اعظم الموجبات لعذابهم فلا شك انه تعظم حسرتهم وندامتهم فلذلك قال تعالى ذلك هو الضلال البعيد ( المسئلة الثالثة ) قرئ الرياح في يوم عاصف جعل العصف لليوم وهو لما فيه وهو الريح او الرياح كقولك يوم ماطر وليلة ساكرة

---

في قبره فيقولان من ربك ومادينك ومن نبيك فيقول ربي  الله وديني الاسلام ونبيي محمد عليه الصلاة والسلام فينادي مناد من السماء انه صدق عبدي فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت وهذا مثال ايتاء الشجرة المذكورة أكلها كل حين قال الثعلبي في تفسيره اخبرني ابو القاسم بن حبيب في سنة ست وثمانين وثلثمائة قال سمعت ابا الطيب محمد بن علي الخياط يقول سمعت سهل بن عمار العملي يقول رأيت يزيد ابن هرون في منامي بعد موته فقلت ما فعل الله بك قال أتاني في قبري ملكان فظان فقالا من ربك وما دينك ومن نبيك فأخذت بلحيتي البيضاء فقلت لهما ألمثلي يقال هذا وقد علمت الناس جوابكما ثمانين سنة فذهبا ( ويضل الله الظالمين ) اي يخلق فيهم الضلال عن الحق الذي ثبت المؤمنين عليه حسب ارادتهم واختيارهم والمراد بهم الكفرة بدليل ما يقابله ووصفهم بالظلم اما باعتبار وضعهم للشيء في غير موضعه واما باعتبار ظلمهم لانفسهم حيث بدلوا فطرة الله التي فطر الناس عليها فلم يهتدوا الى القول الثابت او كل من ظلم نفسه بالاقتصار على التقليد والاعراض عن البينات الواضحة فلا يثبت في مواقف الفتن ولا يهتدي الى الحق فالمراد بالذين آمنوا حينئذ المخلصون في الايمان الراسخون في الايقان كما ينبئ عنه التثبيت لكنه يوهم كون كلمة التوحيد اذا كانت لا عن ايقان داخلة تحت مالا قرار له من الشجرة المضروبة مثلا (ويفعل الله ما يشاء ) من تثبيت بعض واضلال آخرين حسبما توجبه مشيئته التابعة للحكم البالغة المقتضية لذلك وفي اظهار الاسم الجليل في الموضعين من الفخامة وتربية المهابة ما لا يخفى مع ما فيه من

( وانما )

وانما السكور لريحها قال الفراء وان شئت قلت في يوم ذى عصوف وان شئت قلت
في يوم عاصف الريح فحذف ذكر الريح لكونه مذكورا قبل ذلك وقرئ في يوم عاصف
بالاضافة (المسئلة الرابعة) قوله لايقدرون مما كسبوا على شئ اى لايقدرون مما كسبوا
على شئ منتفع به لافي الدنيا ولافي الآخرة وذلك لانه ضاع بالكلية وفسد وهذه الآية
دالة على كون العبد مكتسبا لافعاله واعلم انه تعالى لما تمم هذا المثال قال ألم تر ان الله خلق
السموات والارض بالحق وفيه مسائل (المسئلة الاولى) وجه النظم انه تعالى لما بين ان
اعمالهم تصير باطلة ضائعة بين ان ذلك البطلان والاحباط انما جاء بسبب صدر منهم وهو
كفرهم واعراضهم عن العبودية فان الله تعالى لايبطل اعمال المخلصين ابتداء وكيف
يليق بحكمته ان يفعل ذلك وانه تعالى ماخلق كل هذا العالم الا لداعية الحكمة
والصواب (المسئلة الثانية) قرأ حمزة والكسائى خالق السموات والارض على اسم
الفاعل على انه خبر ان والسموات والارض على الاضافة كقوله فاطر السموات
والارض فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا والباقون خلق على فعل الماضى السموات
والارض بالنصب لانه مفعول (المسئلة الثالثة) قوله بالحق نظير لقوله في سورة يونس
ماخلق الله ذلك الا بالحق ولقوله في آل عمران ربنا ماخلقت هذا باطلا ولقوله في ص
وماخلقنا السماء والارض ومابينهما باطلا اما اهل السنة فيقولون الا بالحق وهو
دلالتهما على وجود الصانع وعلمه وقدرته واما المعتزلة فيقولون الا بالحق اى لم يخلق ذلك
عبثا بل لغرض صحيح ثم قال تعالى ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد والمعنى ان من كان
قادرا على خلق السموات والارض بالحق فبأن يقدر على افناء قوم واماتتهم وعلى ايجاد
آخرين واحيائهم كان أولى لان القادر على الاصعب الاعظم بأن يكون قادرا على
الاسهل الاضعف أولى قال ابن عباس هذا الخطاب مع كفار مكة يريد اميتكم يامعشر
الكفار واخلق قوما خيرا منكم واطوع منكم ثم قال وماذلك على الله بعزيز اى ممتنع
لما ذكرنا ان القادر على افناء كل العالم وايجاده بأن يكون قادرا على افناء اشخاص
مخصوصين وايجاد امثالهم اولى واحرى والله اعلم * قوله تعالى (وبرزوا لله جميعا فقال
الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل انتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ قالوا
لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص) اعلم انه تعالى لما ذكر
اصناف عذاب هؤلاء الكفار ثم ذكر عقيبه ان اعمالهم تصير محبطة باطلة ذكر في هذه
الآية كيفية خجالتهم عند تمسك اتباعهم بهم وكيفية افتضاحهم عندهم وهذا اشارة
الى العذاب الروحانى الحاصل بسبب الفضيحة والخجالة وفيه مسائل (المسئلة الاولى)
برز معناه في اللغة ظهر بعد الخفاء ومنه يقال للمكان الواسع البراز لظهوره وقيل في قوله
وترى الارض بارزة اى ظاهرة لايسترها شئ وامرأة برزة اذا كانت تظهر للناس ويقال
برز فلان على اقرانه اذا فاقهم وسبقهم واصله في الخيل اذا سبق احدها قيل برز عليها كأنه

الايذان بالتفاوت في مبدأ التثبيت والاضلال فان مبدأ ( ٣٣٩ ) صدور كل منهما عنه سبحانه وتعالى من صفاته العلا غير ماهو مبدأ
صدور الآخر (ألم تر) تعجيب
لرسول الله صلى الله عليه وسلم
اولكل احد مما صنع الكفرة من
الاباطيل التى لاتكاد تصدر عمن
له ادنى ادراك اى ألم تنظر (الى
الذين بدلوا نعمة الله) اى شكر
نعمته تعالى بأن وضعوا موضعه
(كفرا) عظيما وغمطا لها او بدلوا
نفس النعمة كفرا فانهم لما كفروها
سلبوها فصاروا مستبدلين بها
كفرا كأهل مكة حيث خلقهم الله
سبحانه واسكنهم حرمه الآمن
الذى يجبى اليه ثمرات كل شئ
وجعلهم قوام بيته وشرفهم
بمحمد عليه الصلاة والسلام
فكفروا ذلك فقحطوا سبع سنين
وقتلوا واسروا يوم بدر فصاروا
اذلاء مسلوبى النعمة باقين بالكفر
بدلها وعن عمر وعلى رضى الله
عنهما هم الافجران من قريش
بنو المغيرة وبنو امية اما بنو المغيرة
فكفيتموهم يوم بدر واما بنو امية
فتمتعوا الى حين كأنهما يتأولان
ماسيتلى من قوله عزوجل قل
تمتعوا الآية (وأحلوا) اى
انزلوا (قومهم) بارشادهم اياهم
الى طريقة الشرك والضلال وعدم
التعرض لحلولهم لدلالة الاحلال
عليه اذ هو فرع الحلول كقوله
تعالى يقدم قومه يوم القيامة
فأوردهم النار (دار البوار)
دار الهلاك الذى لاهلاك وراءه
(جهنم) عطف بيان لها وفى
الابهام ثم البيان مالا يخفى من
التهويل (يصلونها) حال منها او
من قومهم اى داخلين فيها مقاسين
لحرها او استئناف لبيان كيفية
الحلول او مفسر لفعل يقدر
ناصبا لجهنم فالمراد بالاحلال
المذكور حينئذ تعريضهم للهلاك بالقتل والاسر لكن قوله تعالى قل تمتعوا فان مصيركم الى النار أنسب بالتفسير الاول

وجه الدوام والاستمرار (وجعلوا) عطف على احلوا وماعطف عليه داخل معهما فى حيز الصلة وحكم التعجيب اى جعلوا فى اعتقادهم وحكمهم ( لله ) الفرد الصمد الذى ليس كمثله شئ وهو الواحد القهار ( اندادا ) اشباها فى التسمية او فى العبادة (ليضلوا) قومهم الذين يشايعونهم حسبما ضلوا ( عن سبيله) القويم الذى هو التوحيد ويوقعوهم فى ورطة الكفر والضلال ولعل تغيير الترتيب مع ان مقتضى ظاهر النظم ان يذكر كفرانهم نعمة الله تعالى ثم كفرهم بذاته تعالى باتخاذ الانداد ثم اضلالهم لقومهم المؤدى الى احلالهم دار البوار لتثنية التعجيب وتكريره والايذان بأن كل واحد من وضع الكفر موضع الشكر واحلال القوم دار البوار واتخاذ الانداد للاضلال امر يقتضى منه العجب ولو سيق النظم على نسق الوجود لربما فهم التعجيب من مجموع الهنات الثلاث كما فى قصة البقرة وقرئ ليضلوا بالفتح واياما كان فليس ذلك غرضا حقيقيا لهم من اتخاذ الانداد لكن لما كان ذلك نتيجة له شبه بالغرض وادخل عليه اللام بطريق الاستعارة التبعية (قل) تهديدا لاولئك الضالين المضلين ونعيا عليهم وايذانا بأنهم لشدة اباءهم قبول الحق وفرط انهماكهم فى الباطل وعدم ارعوائهم عن ذلك بحال احقاء بأن يضرب عنهم صفحا ويعطف عنهم عنان العظة ويخلوا وشأنهم ولاينهوا عنه بل يؤمروا بمباشرته مبالغة فى التخلية والخذلان ومسارعة الى بيان عاقبته الوخيمة ويقال لهم ( تمتعوا ) بما انتم عليه من الشهوات التى من جملتها ( الله )

خرج من عمارها فظهر اذا عرفت هذا فنقول ههنا ابحاث (البحث الاول) قوله وبرزوا ورد بلفظ الماضى وان كان معناه الاستقبال لان كل ما اخبر الله تعالى عنه فهو صدق وحق فصار كأنه قد حصل ودخل فى الوجود ونظيره قوله ونادى اصحاب النار اصحاب الجنة (البحث الثانى) قد ذكرنا ان البروز فى اللغة عبارة عن الظهور بعد الاستتار وهذا فى حق الله تعالى محال فلابد فيه من التأويل وهو من وجوه (الاول) انهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون ان ذلك خاف على الله تعالى فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله تعالى عند انفسهم وعلموا ان الله لايخفى عليه خافية (الثانى) انهم خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه (الثالث) وهو تأويل الحكماء ان النفس اذا فارقت الجسد فكأنه زال الغطاء والوطاء وبقيت متجردة بذاتها عارية عن كل ماسواها وذلك هو البروز لله (البحث الثالث) قال ابو بكر الاصم قوله وبرزوا لله هو المراد من قوله فى الآية السابقة ومن ورائه عذاب غليظ واعلم ان قوله وبرزوا لله قريب من قوله يوم تبلى السرائر فاله من قوة ولاناصر وذلك لان البواطن تظهر فى ذلك اليوم والاحوال الكامنة ينكشف فان كانوا من السعداء برزوا للحاكم الحكيم بصفاتهم القدسية واحوالهم العلوية ووجوههم المشرقة وارواحهم الصافية المستنيرة فيتجلى لها نور الجلال ويعظم فيها اشراق عالم القدس فاجل تلك الاحوال وان كانوا من الاشقياء برزوا لموقف العظمة ومنازل الكبرياء ذليلين مهينين خاضعين خاشعين واقعين فى خزى الخجالة ومذلة الفضيحة وموقف المهانة والفزع نعوذ بالله منها ثم حكى الله تعالى ان الضعفاء يقولون للرؤساء هل تقدرون على دفع عذاب الله عنا والمعنى انه انما اتبعناكم لهذا اليوم ثم ان الرؤساء يعترفون بالخزى والعجز والذل قالوا سواء علينا اجزعنا ام صبرنا مالنا من عذاب الله من محيص ومن المعلوم ان اعتراف الرؤساء والسادة والمتبوعين بمثل هذا العجز والخزى والنكال يوجب الخجالة العظيمة والخزى الكامل التام فكان المقصود من ذكر هذه الآية استيلاء عذاب الفضيحة والخجالة والخزى عليهم مع ماتقدم ذكره من سائر وجوه انواع العذاب والعقاب نعوذ بالله منها والله اعلم (المسئلة الثانية) كتبوا الضعفاء بواو قبل الهمزة فى بعض المصاحف والسبب فيه انه كتب على لفظ من يفخم الالف قبل الهمزة فيميلها الى الواو ونظيره علماء بنى اسرائيل (المسئلة الثالثة) الضعفاء الاتباع والعوام والذين استكبروا هم السادة والكبراء قال ابن عباس المراد اكابرهم الذين استكبروا عن عبادة الله تعالى انا كنا لكم تبعا اى فى الدنيا قال الفراء واكثر اهل اللغة التبع جمع تابع مثل خادم وخدم وباقر وبقر وحارس وحرس وراصد ورصد قال الزجاج وجائز ان يكون مصدرا سمى به اى كنا ذوى تبع واعلم ان هذه التبعية يحتمل ان يقال المراد منها التبعية فى الكفر ويحتمل ان يكون المراد منها التبعية فى احوال الدنيا فهل انتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ اى هل يمكنكم دفع عذاب

الله عنا فان قيل فاالفرق بين من فى قوله من عذاب الله و بينه فى قوله من شئ قلنا كلاهما للتبعيض بمعنى هل انتم مغنون عنا بعض شئ هو عذاب الله اى بعض عذاب الله وعند هذا حكى الله تعالى عن الذين استكبروا انهم قالوا لو هدانا الله لهدينا كم وفيه وجوه (الاول) قال ابن عباس معناه لو ارشدنا الله لارشدنا كم قال الواحدى معناه انهم انما دعوهم الى الضلال لان الله تعالى اضلهم ولم يهدهم فدعوا اتباعهم الى الضلال ولو هداهم لدعوهم الى الهدى قال صاحب الكشاف لعلهم قالوا ذلك مع انهم كذبوا فيه ويدل عليه قوله تعالى حكاية عن المنافقين يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم واعلم ان المعتزلة لايجوزون صدور الكذب عن اهل القيامة فكان هذا القول منه مخالفا لاصول مشايخه فلا يقبل منه ( الثانى ) قال صاحب الكشاف يجوز ان يكون المعنى لو كنا من اهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا لهدينا كم الى الايمان وذكر القاضى هذا الوجه وزيفه بان قال لايجوز حمل هذا على اللطف لان ذلك قد فعله الله تعالى ( الثالث ) ان يكون المعنى لو خلصنا الله من العقاب وهدانا الى طريق الجنة لهدينا كم والدليل على ان المراد من الهدى هذا الذى ذكرناه ان هذا هو الذى التمسوه وطلبوه فوجب ان يكون المراد من الهداية هذا المعنى ثم قال سواء علينا اجزعنا ام صبرنا اى مستو علينا الجزع والصبر والهمزة وام للتسوية ونظيره اصبروا او لاتصبروا سواء عليكم ثم قالوا مالنا من محيص اى منجى ومهرب والمحيص قد يكون مصدرا كالمغيب والمثيب ومكانا كالمبيت والمضيق ويقال حاص عنه وحاض بمعنى واحد والله اعلم * قوله تعالى ( وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا انفسكم ما انا بمصرخكم وما انتم بمصرخى انى كفرت بما اشركتمونى من قبل ان الظالمين لهم عذاب اليم ) اعلم انه تعالى لما ذكر المناظرة التى وقعت بين الرؤساء والاتباع من كفرة الانس ارد فها بالمناظرة التى وقعت بين الشيطان وبين اتباعه من الانس فقال تعالى وقال الشيطان لما قضى الامر وفى المراد بقوله لما قضى الامر وجوه ( الاول ) قال المفسرون اذا استقر اهل الجنة فى الجنة واهل النار فى النار اخذ اهل النار فى لوم ابليس وتقريعه فيقوم فى النار فيما بينهم خطيبا ويقول مااخبر الله عنه بقوله وقال الشيطان لما قضى الامر (الثانى) ان المراد من قوله قضى الامر لما انقضت المحاسبة والقول الاول اولى لان آخر امر اهل القيامة استقرار المطيعين فى الجنة واستقرار الكافرين فى النار ثم يدوم الامر بعد ذلك ( القول الثالث ) وهو ان مذهبنا ان الفساق من اهل الصلاة يخرجون من النار ويدخلون الجنة فلا يبعد ان يكون المراد من قوله لما قضى الامر ذلك الوقت لان فى ذلك الوقت تنقطع الاحوال المعتبرة ولايحصل بعده الادوام ما حصل قبل ذلك واما الشيطان فالمراد به ابليس لان لفظ الشيطان لفظ مفرد فيتناول الواحد وابليس

كفران النعم العظام واستتباع الناس فى عبادة الاصنام ( فان مصيركم الى النار ) ليس الافلابد لكم من تعاطى مايوجب ذلك ويقتضيه من احوالكم بل هى فى الحقيقة صورة لدخولها ومثال له حسبما يلوح به قوله سبحانه واحلوا قومهم دار البوار الخ فهو تعليل للامر المأمور وفيه من التهديد الشديد والوعيد الاكيد مالا يوصف او قل لهم تصويرا لحالهم وتعبيرا عما يلجئهم الى ذلك تمتعوا ايذانا بأنهم لفرط انغماسهم فى التمتع بما هم فيه من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم مأمورون بذلك من قبل آمر الشهوة مذعنون لحكمه منقادون لامره كدأب مأمور ساع فى خدمة آمر مطاع فليس قوله تعالى فان مصيركم الى النار حينئذ تعليلا للامر بل هو جواب شرط ينسحب عليه الكلام كأنه قيل هذه حالكم فان دمتم عليه فان مصيركم الى النار وفيه التهديد والوعيد لا فى الامر ( قل لعبادى الذين آمنوا ) خصهم بالاضافة اليه تنويها لهم وتنبيها على انهم المقيمون لوظائف العبودية الموفون بحقوقها وترك العاطف بين الامرين للايذان بتباين حالهما باعتبار المقول تهديدا وتشريفا والمقول ههنا محذوف دل عليه الجواب اى قل لهم اقيموا وانفقوا ( يقيموا الصلوة وينفقوا مما رزقناهم ) اى يداوموا على ذلك وفيه ايذان بكمال مطاوعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم وغاية مسارعتهم الى الامتثال بأوامره وقد جوزوا ان يكون المقول يقيموا وينفقوا بحذف لام الامر عنهما وانما حسن ذلك دون الحذف فى قوله

محمد تفد نفسك كل نفس * اذا ماخفت من امر تبالا * لدلالة قل عليه وقيل هما جوابا أقيموا وانفقوا قد اقيما مقامهما وليس

رأس الشياطين ورئيسهم فحمل اللفظ عليه اولى لاسيما وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جمع الله الخلق وقضى بينهم يقول الكافر قد وجد المسلمون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ماهو الا ابليس هو الذى اضلنا فيأتونه ويسألونه فعند ذلك يقول هذا القول اما قوله ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ففيه مباحث (الاول) المراد ان الله تعالى وعدكم وعد الحق وهو البعث والجزاء على الاعمال فوفى لكم بما وعدكم ووعدتكم خلاف ذلك فأخلفتكم وتقرير الكلام ان النفس تدعو الى هذه الاحوال الدنيوية ولاتتصور كيفية السعادات الاخروية والكمالات النفسانية والله يدعو اليها ويرغب فيها كما قال والآخرة خير وابقى (البحث الثانى) قوله وعد الحق من باب اضافة الشئ الى نفسه كقوله حب الحصيد ومسجد الجامع على قول الكوفيين والمعنى وعدكم الوعد الحق وعلى مذهب البصريين يكون التقدير وعد اليوم الحق او الامر الحق او يكون التقدير وعدكم الحق ثم ذكر المصدر تأكيدا (البحث الثالث) فى الآية اضمار من وجهين (الاول) ان التقدير ان الله وعدكم وعد الحق فصدقكم ووعدتكم فأخلفتكم وحذف ذلك لدلالة تلك الحالة على صدق ذلك الوعد لانهم كانوا يشاهدونها وليس وراء العيان بيان ولانه ذكر فى وعد الشيطان الاخلاف فدل ذلك على الصدق فى وعد الله تعالى (الثانى) ان قوله ووعدتكم فأخلفتكم الوعد يقتضى مفعولا ثانيا وحذف ههنا للعلم به والتقدير ووعدتكم ان لاجنة ولانار ولاحشر ولاحساب اما قوله وما كان لى عليكم من سلطان اى قدرة ومكنة وتسلط وقهر فاقهركم على الكفر والمعاصى والجئكم اليها الا ان دعوتكم اى الادعائى اياكم الى الضلالة بوسوستى وتزيينى قال النحويون ليس الدعاء من جنس السلطان فقوله الا ان دعوتكم من جنس قولهم ما تحيتهم الا الضرب وقال الواحدى انه استثناء منقطع اى لكن دعوتكم وعندى انه يمكن ان يقال كلمة الا ههنا استثناء حقيقى لان قدرة الانسان على حمل الغير على عمل من الاعمال تارة يكون بالقهر والقسر وتارة يكون بتقوية الداعية فى قلبه بالقاء الوساوس اليه فهذا نوع من انواع التسلط ثم ان ظاهر هذه الآية يدل على ان الشيطان لاقدرة له على تصريع الانسان وعلى تعويج اعضائه وجوارحه وعلى ازالة العقل عنه كما يقوله العوام والحشوية ثم قال فلا تلومونى ولوموا انفسكم يعنى ما كان منى الا الدعاء والوسوسة وكنتم سمعتم دلائل الله وشاهدتم مجئ انبياء الله تعالى فكان من الواجب عليكم ان لاتغتروا بقولى ولاتلتفتوا الى فلما رجحتم قولى على الدلائل الظاهرة كان اللوم عليكم لاعلى فى هذا الباب وفى الآية مسئلتان (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة هذه الآية تدل على اشياء (الاول) انه لو كان الكفر والمعصية من الله تعالى لوجب ان يقال فلا تلومونى ولا انفسكم فان الله قضى عليكم الكفر واجبركم عليه (الثانى) ظاهر هذه الآية يدل على ان الشيطان لاقدرة له على تصريع الانسان وعلى تعويج اعضائه وعلى

بذاك ( سرا وعلانية ) منتصبان على المصدرية من الامر المقدر ( ٣٤٢ ) لامن جواب الامر المذكور اى انفقوا انفاق سر وعلانية والاحب فى الانفاق اخفاء المتطوع به واعلان الواجب والمراد حث المؤمنين على الشكر لنعم الله سبحانه بالعبادة البدنية والمالية وترك التمتع بمتاع الدنيا والركون اليها كما هو صنيع الكفرة ( من قبل ان يأتى يوم لابيع فيه ) فيبتاع المقصر مايتلافى به تقصيره او يفتدى به نفسه والمقصود نفى عقد المعاوضة بالمرة وتخصيص البيع بالذكر للايجاز مع المبالغة فى نفى العقد اذ انتفاء البيع يستلزم انتفاء الشراء على ابلغ وجه وانتفاؤه ربما يتصور مع تحقق الايجاب من قبل البائع ( ولاخلال ) ولا مخالة فيشفع له خليل او يسامحه بمال يفتدى به نفسه او من قبل ان يأتى يوم لااثر فيه لما لهجوا بتعاطيه من البيع والمخالة ولا انتفاع بذلك وانما الانتفاع والارتفاق فيه بالانفاق لوجه الله سبحانه والظاهر ان من متعلقة بانفقوا وتذكير اتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه كما فى سورة البقرة من حيث ان كلا من فقدان الشفاعة ومايتدارك به التقصير معاوضة وتبرعا وانقطاع آثار البيع والخلال الواقعين فى الدنيا وعدم الانتفاع بهما من اقوى الدواعى الى الاتيان بما تبقى عوائده وتدوم فوائده من الانفاق فى سبيل الله عز وجل اومن حيث ان ادخاره المال وترك انفاقه انما يقع غالبا للتجارات والمهاداة فحيث لايمكن ذلك فى الآخرة فلا وجه لادخاره الى وقت الموت وتخصيص التأكيد بذلك لميل الطباع الى المال وكونها مجبولة على حبه والضنة به ولايبعد ان يكون تأكيدا لمضمون الامر باقامة الصلاة ايضا من حيث ان تركها كثيرا مايكون (ازالة)

ازالة العقل عنه كما تقول الحشوية والعوام (الثالث) ان هذه الآية تدل على ان الانسان لايجوز ذمه ولومه وعقابه بسبب فعل الغير وعند هذا يظهر انه لايجوز عقاب اولاد الكفار بسبب كفر آبائهم اجاب بعض الاصحاب عن هذه الوجوه بأن هذا قول الشيطان فلايجوز التمسك به واجاب الخصم عنه بانه لو كان هذا القول منه باطلا لبين الله بطلانه واظهر انكاره وايضا فلا فائدة في ذلك اليوم في ذكر هذا الكلام الباطل والقول الفاسد ألا ترى ان قوله ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم كلام حق وقوله وما كان لي عليكم من سلطان قول حق بدليل قوله تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين (المسئلة الثانية) هذه الآية تدل على ان الشيطان الاصلي هو النفس وذلك لان الشيطان بين انه ما أتى الا بالوسوسة فلولا الميل الحاصل بسبب الشهوة والغضب والهم والخيال لم يكن لوسوسته تأثير البتة فدل هذا على ان الشيطان الاصلي هو النفس فان قال قائل بينوا لنا حقيقة الوسوسة قلنا الفعل انما يصدر عن الانسان عند حصول امور اربعة يترتب بعضها على البعض ترتيبا لازما طبيعيا وبيانه ان اعضاء الانسان بحكم السلامة الاصلية والصلاحية الطبيعية صالحة للفعل والترك والاقدام والاحجام فما لم يحصل في القلب ميل الى ترجيح الفعل على الترك اوبالعكس فانه يمتنع صدور الفعل وذلك الميل هو الارادة الجازمة والقصد الجازم ثم ان تلك الارادة الجازمة لاتحصل الا عند حصول علم او اعتقاد او ظن بأن ذلك الفعل سبب للنفع اوسبب للضرر فان لم يحصل فيه هذا الاعتقاد لم يحصل الميل لا الى الفعل ولا الى الترك فالحاصل ان الانسان اذا احس بشيء ترتب عليه شعوره بكونه ملائماله او بكونه منافراله او بكونه غير ملائم ولا منافر فان حصل الشعور بكونه ملائماله ترتب عليه الميل الجازم الى الفعل وان حصل الشعور بكونه منافراله ترتب عليه الميل الجازم الى الترك وان لم يحصل لا هذا ولا ذاك لم يحصل الميل لا الى ذلك الشيء ولا الى ضده بل بقي الانسان كما كان وعند حصول ذلك الميل الجازم تصير القدرة مع ذلك الميل موجبة للفعل اذا عرفت هذا فنقول صدور الفعل عن مجموع القدرة والداعي الحاصل امر واجب فلايكون للشيطان فيه مدخل وحصول تصور كونه خيرا او تصور كونه شرا امر واجب فلايكون للشيطان فيه مدخل وحصول تصور كونه خيرا او تصور كونه شرا عن مطلق الشعور بذاته امر لازم فلامدخل للشيطان فيه فلم يبق للشيطان مدخل في شيء من هذه المقامات الا في ان يذكره شيئا بأن يلقى اليه حديثه مثل ان الانسان كان غافلا عن صورة امرأة فيلقى الشيطان حديثها في خاطره فالشيطان لاقدرة له الا في هذا المقام وهو عين ما حكى الله تعالى عنه انه قال وما كان عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلاتلوموني يعني ما كان مني الا مجرد هذه الدعوة فاما بقية المراتب فاصدرت مني وما كان لي فيها اثر البتة * بقي في هذا المقام سؤالان (السؤال الاول)

بالاشتغال بالمبايعات والمخالات كما في قوله (٣٤٣) تعالى واذا رأوا تجارة اولهوا انفضوا اليها وقرئ بالفتح فيهما على ارادة النفي العام ودلالة الرفع على ذلك باعتبار خطابي هو وقوعه في جواب هل فيه بيع او خلال (الله) مبتدأ خبره (الذي خلق السموات) وما فيها من الاجرام العلوية (والارض) ومافيها من انواع المخلوقات لما ذكر احوال الكافرين لنعم الله تعالى وامر المؤمنين بأقامة مراسم الطاعة شكرا لنعمه شرع في تفصيل مايستوجب على كافة الانام المثابرة على الشكر والطاعة من النعم العظام والمنن الجسام حثا للمؤمنين عليها وتقريعا للكفرة المخلين بها الواضعين موضعها الكفر والمعاصي وفي جعل المبتدأ الاسم الجليل والخبر الاسم الموصول بتلك الافاعيل العظيمة من خلق هذه الاجرام العظام وانزال الامطار واخراج الثمرات ومايتلوها من الآثار العجيبة ما لا يخفى من تربية المهابة والدلالة على قوة السلطان (وانزل من السماء) اي السحاب فان كل ماعلاك سماء اومن الفلك فان المطر منه يبتدئ الى السحاب ومنه الى الارض على مادلت عليه ظواهر النصوص اومن اسباب سماوية تثير الاجزاء الرطبة من اعماق الارض الى الجو فينعقد سحابا ماطرا وايا ما كان فمن ابتدائية (ماء) اي نوعا منه هو المطر وتقديم المجرور على المنصوب اما باعتبار كونه مبدأ للنزول او لشرفه كما في قولك اعطاه السلطان من خزانته مالا او لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر (فاخرج به) بذلك الماء (من الثمرات) الفائتة للحصر اما لان صيغ الجموع يتعاور بعضها موضع بعض واما لانه اريد بمفردها جماعة الثمرة التي في قولك ادركت ثمرة بستان فلان (رزقا لكم) تعيشون به وهو بمعنى

المرزوق شامل للمطعوم والملبوس مفعول لاخرج ومن للتبيين كقولك انفقت  من الدراهم الفا ويجوز ان يكون من الثمرات

كيف يعقل تمكن الشيطان من النفوذ في داخل اعضاء الانسان والقاء الوسوسة اليه والجواب للناس في الملائكة والشياطين قولان ( القول الاول ) ان ماسوى الله بحسب القسمة العقلية على اقسام ثلاثة المتحيز والحال في المتحيز والذي لايكون متحيزا ولا حالا فيه وهذا القسم الثالث لم يقم الدليل البتة على فساد القول به بل الدلائل الكثيرة قامت على صحة القول به وهذا هو المسمى بالارواح فهذه الارواح ان كانت طاهرة مقدسة من عالم الروحانيات القدسية فهم الملائكة وان كانت خبيثة داعية الى الشرور وعالم الاجساد ومنازل الظلمات فهم الشياطين اذا عرفت هذا فنقول فعلى هذا التقدير الشيطان لايكون جسما يحتاج الى الولوج في داخل البدن بل هو جوهر روحاني خبيث الفعل مجبور على الشر والنفس الانسانية ايضا كذلك فلا يبعد على هذا التقدير في ان يلقي شيء من تلك الارواح انواعا من الوساوس والاباطيل الى جوهر النفس الانسانية وذكر بعض العلماء في هذا الباب احتمالا ثانيا وهو ان النفس الناطقة البشرية مختلفة بالنوع فهي طوائف وكل طائفة منها في تدبير روح من الارواح السماوية بعينها فنوع من النفوس البشرية تكون حسنة الاخلاق كريمة الافعال موصوفة بالفرح والبشر وسهولة الامر وهي تكون منتسبة الى روح معين من الارواح السماوية وطائفة أخرى منها تكون موصوفة بالحدة والقوة والغلظة وعدم المبالاة بامر من الامور وهي تكون منتسبة الى روح آخر من الارواح السماوية وهذه الارواح البشرية كالاولاد لذلك الروح السماوي وكالنتائج الحاصلة وكالفروع المتفرعة عليها وذلك الروح السماوي هو الذي يتولى ارشادها الى مصالحها وهو الذي يخصها بالالهامات حالتي النوم واليقظة والقدماء كانوا يسمون ذلك الروح السماوي بالطباع التام ولاشك ان لذلك الروح السماوي الذي هو الاصل والينبوع شعبا كثيرة ونتائج كثيرة وهي بأسرها تكون من جنس روح هذا الانسان وهي لاجل مشاكلتها ومجانستها يعين بعضها بعضا على الاعمال اللائقة بها والافعال المناسبة لطبائعها ثم انها ان كانت خيرة طاهرة طيبة كانت ملائكة وكانت تلك الاعانة مسماة بالالهام وان كانت شريرة خبيثة قبيحة الاعمال كانت شياطين وكانت تلك الاعانة مسماة بالوسوسة وذكر بعض العلماء ايضا فيه احتمالا ثالثا وهو ان النفوس البشرية والارواح الانسانية اذا فارقت ابدانها قويت في تلك الصفات التي اكتسبتها في تلك الابدان وكملت فيها فاذا حدثت نفس اخرى مشاكلة لتلك النفس المفارقة في بدن مشاكل لبدن تلك النفس المفارقة حدث بين تلك النفس المفارقة وبين هذا البدن نوع تعلق بسبب المشاكلة الحاصلة بين هذا البدن وبين ما كان بدنا لتلك النفس المفارقة فيصير لتلك النفس المفارقة تعلق شديد بهذا البدن وتصير تلك النفس المفارقة معاونة لهذه النفس المتعلقة بهذا البدن ومعاضدة لها على افعالها واحوالها بسبب هذه المشاكلة ثم ان كان هذا المعنى في ابواب الخير والبركات كان ذلك الهاما وان

مفعولا ورزقا حالا منه او مصدرا من اخرج بمعنى رزق او للتبعيض بدليل قوله تعالى فأخرجنا به ثمرات كأنه قيل انزل من السماء بعض الماء فأخرج به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم اذ لم ينزل من السماء كل الماء ولا أخرج بالمطر كل الثمار ولا جعل كل الرزق ثمرا وخروج الثمرات وان كان بمشيئته عزوجل وقدرته لكن جرت عادته تعالى بافاضة صورها وكيفياتها على المواد الممتزجة من الماء والتراب او اودع في الماء قوة فاعلة وفي الارض قوة قابلة يتولد من اجتماعهما انواع الثمار وهو قادر على ايجاد الاشياء بلا اسباب ومواد كما ابدع نفوس الاسباب كذلك لما ان له تعالى في انشائها مدرجا من طور الى طور صنائع وحكما يجدد فيها لاولي الابصار عبرا وسكونا الى عظيم قدرته ليس ذلك في ابداعها دفعة وقوله لكم صفة لقوله رزقا ان اريد به المرزوق ومفعول به ان اريد به المصدر كأنه قيل رزقا اياكم (وسخر لكم الفلك) بان اقدركم على صنعتها واستعمالها بما الهمكم كيفية ذلك (لتجري في البحر) جريا تابعا لارادتكم (بأمره) بمشيئته التي نيط بها كل شيء وتخصيصه بالذكر للتنصيص على ان ذلك ليس بمزاولة الاعمال واستعمال الآلات كما يتراءى من ظاهر الحال ( وسخر لكم الانهار) ان اريد بها المياه العظيمة الجارية في الانهار العظام كما يومئ اليه ذكرها عند البحر فتسخيرها جعلها معدة لانتفاع الناس حيث يتخذون منها جداول يسقون بها زروعهم وجنانهم وماشبه ذلك وان اريد بها نفس الانهار فتسخيرها تيسيرها لهم ( وسخر لكم

(كان)

كان فى باب الشر كان وسوسة فهذه وجوه محتملة تقريعا على القول باثبات جواهر قدسية مبرأة عن الجسمية والتحيز والقول بالارواح الطاهرة والخبيثة كلام مشهور عند قدماء الفلاسفة فليس لهم ان ينكروا اثباتها على صاحب شريعتنا محمد صلى الله عليه وسلم واما القول الثانى وهو ان الملائكة والشياطين لابد وان تكون اجساما فنقول ان على هذا التقدير يمتنع ان يقال انها اجسام كثيفة بل لابد من القول بأنها اجسام لطيفة والله سبحانه ركبها تركيبا عجيبا وهى ان تكون مع لطافتها لا تقبل التفرق والتمزق والفساد والبطلان ونفوذ الاجرام اللطيفة فى عمق الاجرام الكثيفة غير مستبعد ألا ترى ان الروح الانسانية جسم لطيف ثم انه نفذ فى داخل عمق البدن فاذا عقل ذلك فكيف يستبعد نفوذ انواع كثيرة من الاجسام اللطيفة فى داخل هذا البدن أليس ان جرم النار يسرى فى جرم الفحم وماء الورد يسرى فى ورق الورد ودهن السمسم يجرى فى جسم السمسم فكذا ههنا فظهر بما قررنا ان القول باثبات الجن والشياطين امر لا تحيله العقول ولا تبطله الدلائل وان الاصرار على الانكار ليس الا من نتيجة الجهل وقلة الفطنة ولما ثبت ان القول بالشياطين ممكن فى الجملة فنقول الاحق والاولى ان يقال الملائكة على هذا القول مخلوقون من النور والشياطين مخلوقون من الدخان واللهب كما قال الله تعالى والجان خلقناه من قبل من نار السموم وهذا الكلام من المشهورات عند قدماء الفلاسفة فكيف يليق بالعاقل ان يستبعده من صاحب شريعتنا صلى الله عليه وسلم (السؤال الثانى) لم قال الشيطان فلا تلومونى ولوموا انفسكم وهو ايضا ملوم بسبب اقدامه على تلك الوسوسة الباطلة والجواب اراد بذلك فلا تلومونى على ما فعلتم ولوموا انفسكم عليه لانكم عدلتم عما توجبه هداية الله تعالى لكم ثم قال الله تعالى حكاية عن الشيطان انه قال ما انا بمصرخكم وما انتم بمصرخى وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال ابن عباس يريد بمغيثكم ولا منقذكم قال ابن الاعرابى الصارخ المستغيث والمصرخ المغيث يقال صرخ فلان اذا استغاث وقال واغوثاه واصرخته اغثته (المسئلة الثانية) قرأ حمزة بمصرخى بكسر الياء قال الواحدى وهى قراءة الاعمش ويحيى بن وثاب قال الفراء ولعلها من وهم القراء فانه قل من سلم منهم عن الوهم ولعله ظن ان الباء فى قوله بمصرخى خافضة لجملة هذه الكلمة وهذا خطأ لان الياء من المتكلم خارجة من ذلك قال ومما نرى انهم وهموا فيه قوله نوله ما تولى ونصله جهنم بجزم الهاء ظنوا والله اعلم ان الجزم فى الهاء وهو خطأ لان الهاء فى موضع نصب وقد انجزم الفعل قبلها بسقوط الياء منه ومن النحويين من تكلف فى ذكر وجه لصحته الا ان الاكثرين قالوا انه لحن والله اعلم ثم قال تعالى حكاية عنه انى كفرت بما اشركتمونى من قبل وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما فى قوله انى كفرت بما اشركتمونى من قبل فيه قولان (الاول) انها مصدرية والمعنى كفرت باشراككم اياى مع الله تعالى فى الطاعة والمعنى

الشمس والقمر دائبين ) يدأبان فى سيرهما وانارتهما اصالة  وخلافة واصلاحهما ما نيط بهما صلاحه من المكونات (وسخر لكم الليل والنهار ) يتعاقبان خلفة لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وانضاجها ذكر سبحانه وتعالى انواع النعم الفائضة عليهم وابرز كل واحدة منها فى جملة مستقلة تنويها لشأنها وتنبيها على رفعة مكانها وتنصيصا على كون كل منها نعمة جليلة مستوجبة للشكر وفى التعبير عن التصريف المتعلق بما ذكر من الفلك والانهار والشمس والقمر والليل والنهار بالتسخير من الاشعار بما فيها من صعوبة المأخذ وعزة المنال والدلالة على عظم السلطان وشدة المحال ما لا يخفى وتأخير تسخير الشمس والقمر عن تسخير ما تقدمه من الامور المعدودة مع ما بينه وبين خلق السموات من المناسبة الظاهرة لاستتباع ذكرها الذكر الارض المستدعى لذكر انزال الماء منها اليها الموجب لذكر اخراج الرزق الذى من جملته ما يحصل بواسطة الفلك والانهار اوللتفادى عن توهم كون الكل اعنى خلق السموات والارض وتسخير الشمس والقمر نعمة واحدة كما مر فى قصة البقرة ( وآتاكم من كل ما سألتموه ) اى اعطاكم بعض جميع ما سألتموه حسبما تقتضيه مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة كقوله سبحانه من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد اوآتاكم من كل ذلك ما احتجتم اليه ونيط به انتظام احوالكم على الوجه المقدر فكأنكم سألتموه اوكل ما طلبتموه بلسان الاستعداد اوكل ما سألتموه على ان من للبيان وكلمة كل للتكثير كقولك فلان يعلم كل شئ واتاه كل الناس وعليه قوله عز وجل فتحنا  عليهم ابواب كل شئ وقيل الاصل وآتاكم من كل

انه جحد ما كان يعتقده اولئك الاتباع من كون ابليس شريكالله تعالى فى تدبير هذا العالم وكفربه اويكون المعنى انهم كانوا يطيعون الشيطان فى اعمال الشر كما كانوا قديطيعون الله فى اعمال الخير وهذا هو المراد بالاشراك (والثانى) وهو قول الفراء ان المعنى ان ابليس قال انى كفرت بالله الذى اشركتمونى به من قبل كفركم والمعنى انه كان كفره قبل كفر أولئك الاتباع ويكون المراد بقوله مافى هذا الموضع من والقول هو الاول لان الكلام انما ينتظم بالتفسير الاول ويمكن ان يقال ايضا الكلام منتظم على التفسير الثانى والتقدير كأنه يقول لاتأثير لوسوستى فى كفركم بدليل انى كفرت قبل ان وقعتم فى الكفر وما كان كفرى بسبب وسوسة اخرى والالزم التسلسل فثبت بهذا ان سبب الوقوع فى الكفر شئ آخر سوى الوسوسة وعلى هذا التقدير ينتظم الكلام اما قوله ان الظالمين لهم عذاب اليم فالاظهر انه كلام الله عز وجل وان كلام ابليس تم قبل هذا الكلام ولا يبعد ايضا ان يكون ذلك من بقية كلام ابليس قطعا لاطماع اولئك الكفار عن الاعانة والاغاثة والله اعلم

☼ قوله تعالى ( وادخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها باذن ربهم تحيتهم فيها سلام ) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما بالغ فى شرح احوال الاشقياء من الوجوه الكثيرة شرح احوال السعداء وقد عرفت ان الثواب يجب ان يكون منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم فالمنفعة الخالصة اليها الاشارة بقوله تعالى وادخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار وكونها دائمة اشير اليه بقوله خالدين فيها والتعظيم حصل من وجهين احدهما ان تلك المنافع انما حصلت باذن الله تعالى وامره والثانى قوله تحيتهم فيها سلام لان بعضهم يحيى بعضا بهذه الكلمة والملائكة يحيونهم بها كما قال والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم والرب الرحيم يحييهم ايضا بهذه الكلمة كما قال سلام قولا من رب رحيم واعلم ان السلام مشتق من السلامة والاظهر ان المراد انهم سلموا من آفات الدنيا وحسراتها وفنون آلامها واسقامها وانواع غمومها وهمومها وماصدق ماقالوا فان السلامة من محن عالم الاجسام الكائنة الفاسدة من اعظم النعم لاسيما اذا حصل بعض الخلاص منها الفوز بالبهجة الروحانية والسعادة الملكية (المسئلة الثانية) قرأ الحسن وادخل الذين آمنوا على معنى وادخلهم انا وعلى هذه القراءة فقوله باذن ربهم متعلق بما بعده اى تحيتهم فيها سلام باذن ربهم يعنى ان الملائكة يحيونهم باذن ربهم

☼ قوله تعالى ( الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى اكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار ) اعلم انه تعالى لما شرح أحوال الاشقياء واحوال السعداء ذكر مثالا يبين الحال فى حكم هذين القسمين وهو هذا المثل وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى ذكر شجرة موصوفة بصفات اربعة ثم شبه الكلمة الطيبة

ماسألتموه ومالم تسألوه فحذف الثانى لدلالة ماابقى على ماالقى وقرئ بتنوين كل على ان مانافية ومحل ماسألتموه النصب على الحالية اى آتاكم من كل غير سائليه ( وان تعدوا نعمة الله ) التى انعم بها عليكم (لاتحصوها) لا تطيقوا بحصرها ولو اجمالا فانها غير متناهية واصل الاحصاء ان الحاسب اذا بلغ عقدا معينا من عقود الاعداد وضع حصاة ليحفظ بها ففيه ايذان بعدم بلوغ مرتبة معتد بها من مراتبها فضلا عن بلوغ غايتها كيف لاوما من فرد من افراد الناس وان كان فى اقصى مراتب الفقر والافلاس ممنوا بأصناف العنايا مبتلى بانواع الرزايا فهو بحيث لو تأملته ألفيته متقلبا فى نعم لاتحد ولا تحصى ولاتعد كأنه قداعطى كل ساعة وآن من النعماء ماحواه حيطة الامكان وان كنت فى ريب من ذلك فقدر أنه ملك ملك اقطار العالم ودانت له كافة الامم واذعنت لطاعته السراة وخضعت لهيبته رقاب العتاة وفاز بكل مرام ونال كل منال وحاز جميع مافى الدنيا من اصناف الاموال من غير ند يزاحمه ولا شريك يساهمه بل قدر ان جميع مافيها من حجر ومدر يواقيت غالية ونفائس درر ثم قدر انه قد وقع من فقد مشروب اومطعوم فى حالة بلغت نفسه الحلقوم فهل يشترى وهو فى تلك الحال بجميع ماله من الملك والمال لقمة تنجيه عن رواه اوشربة ترويه من ظمأه أم يختار الهلاك فتذهب الاموال والاملاك بغير بدل يبقى عليه ولانفع يعود اليه كلا بل يبذل لذلك كل ما تحويه اليدان كائنا ما كان وليس فى صفقته شائبة الخسران فاذن تلك اللقمة والشربة خير مما فى الدنيا بألف رتبة مع انهما فى طرف الثمام ينالهما متى شاء

( بهـا )

بها (فالصفة الاولى) لتلك الشجرة كونها طيبة وذلك يحتمل امورا احدها كونها طيبة المنظر والصورة والشكل وثانيها كونها طيبة الرائحة وثالثها كونها طيبة الثمرة يعنى ان الفواكه المتولدة منها تكون لذيذة مستطابة ورابعها كونها طيبة بحسب المنفعة يعنى انها كما يستلذ بأكلها فكذلك يعظم الانتفاع بها ويجب حمل قوله شجرة طيبة على مجموع هذه الوجوه لان اجتماعها يحصل كمال الطيب (والصفة الثانية) قوله اصلها ثابت اى راسخ باق آمن من الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء وذلك لان الشئ الطيب اذا كان فى معرض الانقراض والانقضاء فهو وان كان يحصل الفرح بسبب وجدانه الا انه اعظم الحزن بسبب الخوف من زواله و انقضائه امااذا علم من حاله انه باق دائم لايزول ولاينقضى فانه يعظم الفرح بوجدانه ويكمل السرور بسبب الفوز به (والصفة الثالثة) قوله وفرعها فى السماء وهذا الوصف يدل على كمال حال تلك الشجرة من وجهين الاول ان ارتفاع الاغصان وقوتها فى التصاعد يدل على ثبات الاصل ورسوخ العروق والثانى انها متى كانت متصاعدة مرتفعة كانت بعيدة عن عفونات الارض وقاذورات الابنية فكانت ثمراتها نقية طاهرة طيبة عن جميع الشوائب (والصفة الرابعة) قوله تؤتى اكلها كل حين باذن ربها والمراد ان الشجرة المذكورة كانت موصوفة بهذه الصفة وهى ان ثمراتها لابد ان تكون حاضرة دائمة فى كل الاوقات ولاتكون مثل الاشجار التى يكون ثمارها حاضرا فى بعض الاوقات دون بعض فهذا شرح هذه الشجرة التى ذكرها الله تعالى فى هذا الكتاب الكريم ومن المعلوم بالضرورة ان الرغبة فى تحصيل مثل هذا الشجرة يجب ان تكون عظيمة وان العاقل متى امكنه تحصيلها وتملكها فانه لايجوز له ان يتغافل عنها وان يتساهل فى الفوز بها اذا عرفت هذا فنقول معرفة الله تعالى والاستغراق فى محبته وفى خدمته وطاعته تشبه هذه الشجرة فى هذه الصفات الاربع اما الصفة الاولى وهى كونها طيبة فهى حاصلة بل نقول لاطيب ولالذيذ فى الحقيقة الا هذه المعرفة وذلك لان اللذة الحاصلة بتناول الفاكهة المعينة انما حصلت لان ادراك تلك الفاكهة امر ملائم لمزاج البدن فلاجل حصول تلك الملائمة والمناسبة حصلت تلك اللذة العظيمة وههنا الملائم لجوهر النفس النطقية والروح القدسية ليس الا معرفة الله تعالى ومحبته والاستغراق فى الابتهاج به فوجب ان تكون هذه المعرفة لذيذة جدا بل نقول اللذة الحاصلة من ادراك الفاكهة يجب ان تكون اقل حالا من اللذة الحاصلة بسبب اشراق جوهر النفس بمعرفة الله وبيان هذا التفاوت من وجوه (احدها) ان المدركات المحسوسة انما تصير مدركة بسبب ان سطح الحاس يلاقى سطح المحسوس فقط فامان يقال ان جوهر المحسوس نفذ فى جوهر الحاس فليس الامر كذلك لان الاجسام يمتنع تداخلها اما ههنا فمعرفة الله تعالى وذلك النور وذلك الاشراق صار ساريا فى جوهر النفس متحدا به وكأن النفس عند حصول ذلك الاشراق تصير غير النفس التى كانت قبل حصول ذلك

---

من الليالى والايام اوقدر انه قداحتبس عليه النفس فلادخل (٣٤٧) منه ماخرج ولاخرج منه ماولج والحين فدحان واتاه الموت من كل مكان اما يعطى ذلك كله عقابلة نفس واحد بل يعطيه وهو لرأيه حامد فاذن هو خير من اموال الدنيا بجملتها ومطالبها برمتها مع انه قد اتيح له كل آن من آنات الليالى والايام حال اليقظة والمنام هذا من الظهور والجلاء بحيث لايكاد يخفى على احد من العقلاء وان رمت العثور على حقيقة الحق والوقوف على كل ماحل من السرودق فاعلم ان الانسان بمقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتبعه من الكمالات اللائقة والملكات الرائقة بحيث لوانقطع ما بينه وبين العناية الالهية من العلاقة لما استقر له القرار ولا اطمأنت به الدار الاقى مطمورة العدم والبوار ومهاوى الهلاك والدمار لكن يفيض عليه من الجناب الا قدس تعالى شأنه وتقدس فى كل زمان يمضى وكل آن يمر وينقضى من انواع الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وسائر صفاته الروحانية والنفسانية والجسمانية مالا يحيط به نطاق التعبير ولايعلمه الا العليم الخبير وتوضيحه انه كما لايستحق الوجود ابتداء لا يستحقه بقاء وانما ذلك من جناب المبدئ الاول عز وجل فكما لايتصور وجوده ابتداء مالم ينسد عليه جميع انحاء عدمه الاصلى لايتصور بقاؤه على الوجود بعد تحققه بعلته مالم ينسد عليه جميع انحاء عدمه الطارئ لان الاستقرار والدوام من خصائص الوجود الواجبى وانت خبير بأن ما يتوقف عليه وجوده من الامور الوجودية التى هى علله وشرائطه وان وجب كونها متناهية لوجوب تناهى مادخل تحت الوجود لكن الامور العدمية التى لها دخل فى وجوده ليست

الاشراق فهذا فرق عظيم بين البابين ( الوجه الثانى ) فى الفرق ان فى الالتذاذ بالفاكهة المدرك هو القوة الذائقة والمحسوس هو الطعم المخصوص وههنا المدرك هو جوهر النفس القدسية والمعلوم والمشعور به هو ذات الحق جل جلاله وصفات جلاله واكرامه فوجب ان تكون نسبة احدى اللذتين الى الاخرى كنسبة احد المدركين الى الآخر ( الوجه الثالث ) فى الفرق ان اللذات الحاصلة بتناول الفاكهة الطيبة كما حصلت زالت فى الحال لانها كيفية سريعة الاستحالة شديدة التغير اما كمال الحق وجلاله فانه ممتنع التغير والتبدل واستعداد جوهر النفس لقبول تلك السعادة ايضا ممتنع التغير فظهر الفرق العظيم من هذا الوجه واعلم ان الفرق بين النوعين يقرب ان يكون من وجوه غير متناهية فليكتف بهذه الوجوه الثلاثة تنبيها للعقل السليم على سائرها واما الصفة الثانية وهى كون هذه الشجرة ثابتة الاصل فهذه الصفة فى شجرة معرفة الله تعالى اقوى واكمل وذلك لان عروق هذه الشجرة راسخة فى جوهر النفس القدسية وهذا الجوهر جوهر مجرد عن الكون والفساد بعيد عن التغير والفناء وايضا مدد هذا الرسوخ انما هو من تجلى جلال الله تعالى وهذا التجلى من لوازم كونه سبحانه فى ذاته نور النور ومبدأ الظهور وذلك مما يمتنع عقلا زواله لانه سبحانه واجب الوجود لذاته وواجب الوجود فى جميع صفاته والتغير والفناء والتبدل والزوال والبخل والمنع محال فى حقه فثبت ان الشجرة الموصوفة بكونها ثابتة الاصل ليست الا هذه الشجرة ( الصفة الثالثة ) لهذه الشجرة كونها بحيث يكون فرعها فى السماء واعلم ان شجرة المعرفة لها اغصان صاعدة فى هواء العالم الالهى واغصان صاعدة فى هواء العالم الجسمانى اما النوع الاول فهى اقسام كثيرة ويجمعها قوله عليه السلام التعظيم لامر الله ويدخل فيه التأمل فى دلائل معرفة الله تعالى فى عالم الارواح وفى عالم الاجسام وفى احوال عالم الافلاك والكواكب وفى احوال العالم السفلى ويدخل فيه محبة الله تعالى والشوق الى الله تعالى والمواظبة على ذكر الله تعالى والاعتماد بالكلية على الله تعالى والانقطاع بالكلية عما سوى الله تعالى والاستقصاء فى ذكر هذه الاقسام غير مطموع فيه لانها احوال غير متناهية واما النوع الثانى فهى اقسام كثيرة ويجمعها قوله عليه السلام والشفقة على خلق الله ويدخل فيه الرحمة والرأفة والصفح والتجاوز عن الذنوب والسعى فى ايصال الخير اليهم ودفع الشر عنهم ومقابلة الاساءة بالاحسان وهذه الاقسام ايضا غير متناهية وهى فروع ثابتة من شجرة معرفة الله تعالى فان الانسان كلما كان اكثر توغلا فى معرفة الله تعالى كانت هذه الاحوال عنده اكمل واقوى وافضل ( واما الصفة الرابعة ) فهى قوله تعالى تؤتى أكلها كل حين باذن ربها فهذه الشجرة أولى بهذه الصفة من الاشجار الجسمانية لان شجرة المعرفة موجبة لهذه الاحوال ومؤثرة فى حصولها والسبب لا ينفك عن المسبب فأثر رسوخ شجرة المعرفة فى ارض القلب ان يكون نظره بالعبرة كما قال فاعتبروا يا أولى ( الابصار )

لا تتناهى اعنى بقاءها على العدم مع امكان وجودها فى انفسها فى كل آن من آنات وجوده نعم غير متناهية حقيقة لا ادعاء وكذلك الحال فى وجودات علله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداء وبقاء وكذا فى كمالاته التابعة لوجوده فاتضح انه يفيض عليه كل آن نعما لا تتناهى من وجوه شتى فسبحانك سبحانك ما اعظم سلطانك لا تلاحظك العيون بأنظارها ولا تطالعك العقول بأفكارها شأنك لا يضاهى واحسانك لا يتناهى ونحن فى معرفتك حائرون وفى اقامة مراسم شكرك قاصرون نسألك الهداية الى مناهج معرفتك والتوفيق لاداء حقوق نعمتك لا نحصى ثناء عليك لا اله الا انت نستغفرك ونتوب اليك ( ان الانسان لظلوم ) يظلم النعمة باغفال شكرها اوبوضعه اياها فى غير موضعها او يظلم نفسه بتعريضها للحرمان ( كفار ) شديد الكفران وقيل ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع كفار فى النعمة يجمع ويمنع واللام فى الانسان للجنس ومصداق الحكم بالظلم والكفران بعض من وجدا فيه من افراده ويدخل فى ذلك الذين بدلوا نعمة الله كفرا الخ دخولا اوليا ( واذ قال ابراهيم ) اى واذكر وقت قوله عليه الصلاة والسلام والمقصود من تذكيره تذكير ماوقع فيه من مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل والمراد به تأكيد ما سلف من تعجيبه عليه السلام ببيان فن آخر من جناياتهم حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم بعدما كفروا بالنعم العامة وعصوا اباهم ابراهيم عليه السلام حيث اسكنهم بمكة شرفها الله تعالى لاقامة الصلاة

الابصار وان يكون سماعه بالحكمة كما قال الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه ونطقه بالصدق والصواب كما قال كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم وقال عليه السلام قولوا الحق ولو على انفسكم وهذا الانسان كلما كان رسوخ شجرة المعرفة فى ارض قلبه اقوى واكمل كان ظهور هذه الآثار عنده اكثر وربما توغل فى هذا الباب فيصير بحيث كلما لاحظ شيئا لاحظ الحق فيه وربما عظم ترقيه فيه فيصير لا يرى شيئا الا وقد كان قد رأى الله تعالى قبله فهذا هو المراد من قوله سبحانه وتعالى تؤتى أكلها كل حين باذن ربها وايضا فما ذكرناه اشارة الى الالهامات النفسانية والملكات الروحانية التى تحصل فى جواهر الارواح ثم لا يزال يصعد منها فى كل حين ولحظة ولمحة كلام طيب وعمل صالح وخضوع وخشوع وبكاء وتذلل كثمرة هذه الشجرة واما قوله باذن ربها ففيه دقيقة عجيبة وذلك لان عند حصول هذه الاحوال السنية والدرجات العالية قد يفرح الانسان بها من حيث هى هى وقد يترقى فلا يفرح بها من حيث هى هى وانما يفرح بها من حيث انها من المولى وعند ذلك فيكون فرحه فى الحقيقة بالمولى لا بهذه الاحوال ولذلك قال بعض المحققين من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالفانى ومن آثر العرفان لا للعرفان بل للمعروف فقد خاض لجة الوصول فقد ظهر بهذا التقرير الذى شرحناه والبيان الذى فصلناه ان هذا المثال الذى ذكره الله تعالى فى هذا الكتاب مثال هاد الى عالم القدس وحضرة الجلال وسرادقات الكبرياء فنسأل الله تعالى مزيد الاهتداء والرحمة انه سميع مجيب وذكر بعضهم فى تقرير هذا المثال كلاما لا بأس به فقال انما مثل الله سبحانه وتعالى الايمان بالشجرة لان الشجرة لا تستحق ان تسمى شجرة الا بثلاثة اشياء عرق راسخ واصل قائم واغصان عالية كذلك الايمان لا يتم الا بثلاثة اشياء معرفة فى القلب وقول باللسان وعمل بالابدان والله اعلم (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف فى نصب قوله كلمة طيبة وجهان (الاول) انه منصوب بمضمر والتقدير جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة وهو تفسير لقوله ضرب الله مثلا (الثانى) قال ويجوز ان ينتصب مثلا وكلمة بضرب اى ضرب كلمة طيبة مثلا بمعنى جعلها مثلا وقوله كشجرة طيبة خبر مبتدأ محذوف والتقدير هى كشجرة طيبة (الثالث) قال صاحب حل العقد أظن ان الاوجه ان يجعل قوله كلمة عطف بيان والكاف فى قوله كشجرة فى محل النصب بمعنى مثل شجرة طيبة (المسئلة الثالثة) قال ابن عباس الكلمة الطيبة هى قول لا اله الا الله والشجرة الطيبة هى النخلة فى قول الاكثرين وقال صاحب الكشاف انها كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين والعنب والرمان وأراد بشجرة طيبة الثمرة الا انه لم يذكرها لدلالة الكلام عليها اصلها اى اصل هذه الشجرة الطيبة ثابت وفرعها اى اعلاها فى السماء والمراد الهواء لان كل ما سماك وعلاك فهو سماء تؤتى اى هذه الشجرة اكلها اى ثمرها وما يؤكل منها كل حين واختلفوا فى تفسير هذا الحين فقال ابن عباس ستة اشهر لان بين حملها الى صرامها ستة اشهر جاء

اليهم من كل اوب سحيق فاستجاب الله تعالى دعاءه وجعله حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شئ فكفروا بتلك النعم العظام واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار وجعلوا لله اندادا وفعلوا ما فعلوا (رب اجعل هذا البلد) يعنى مكة شرفها الله سبحانه (آمنا) اى ذا أمن أو آمنا اهله بحيث لا يخاف فيه على ما مر فى سورة البقرة والفرق بينه وبين ما فيها من قوله رب اجعل هذا بلدا آمنا ان المسؤل هناك البلدية والأمن معا وههنا الامن فقط حيث جعل هو المفعول الثانى للجعل وجعل البلد صفة للمفعول الاول فان حمل على تعدد السؤال فلعله عليه السلام سأل اولا كلا الامرين فاستجيب له فى احدهما وتأخر الآخر الى وقته المقدر لما يقتضيه من الحكمة الداعية اليه ثم كرر السؤال كما هو المعتاد فى الدعاء والابتهال اوكان المسؤل اولا مجرد الامن المصحح للسكنى كما فى سائر البلاد وقد أجيب اليه وثانيا الأمن المعهود اوكان هو المسؤل فيهما وقد أجيب اليه ايضا لكن السؤال الثانى للاستدامة والاقتصار على ذلك لانه المقصود الاصلى اولان المعتاد فى البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الأمن وان حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر فالظاهر ان المسؤل كلا الامرين وقد حكى اولا واقتصر ههنا على حكاية سؤال الأمن لا لمجرد ان نعمة الامن أدخل فى استيجاب الشكر فذكره انسب بمقام تقريع الكفرة على اغفاله كما قيل بل لان سؤال البلدية قد حكى بقوله تعالى فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم اذ المسؤل هويتها اليهم للمساكنة معهم لا للحج فقط وهو عين سؤال البلدية

رجل الى ابن عباس فقال نذرت ان لا اكلم اخى حتى حين فقال الحين ستة اشهر وتلا قوله تعالى تؤتى اكلها كل حين وقال مجاهد وابن زيد سنة لان الشجرة من العام الى العام تحمل الثمرة وقال سعيد بن المسيب شهران لان مدة اطعام النخلة شهران وقال الزجاج جميع من شهدنا من اهل اللغة يذهبون الى ان الحين اسم كالوقت يصلح لجميع الازمان كلها طالت ام قصرت والمراد من قوله تؤتى اكلها كل حين انه ينتفع بها فى كل وقت وفى كل ساعة ليلا او نهارا او شتاء او صيفا قالوا والسبب فيه ان النخلة اذا تركوا عليها الثمر من السنة الى السنة انتفعوا بها فى جميع اوقات السنة واقول هؤلاء وان اصابوا فى البحث عن مفردات الفاظ الآية الا انهم بعدوا عن ادراك المقصود لانه تعالى وصف هذه الشجرة بالصفات المذكورة ولا حاجة بنا الى ان تلك الشجرة هى النخلة ام غيرها فانا نعلم بالضرورة ان الشجرة الموصوفة بالصفات الاربع المذكورة شجرة شريفة ينبغى لكل عاقل ان يسعى فى تحصيلها وتملكها وادخارها لنفسه سواء كان لها وجود فى الدنيا اولم يكن لان هذه الصفة امر مطلوب التحصيل واختلافهم فى تفسير الحين ايضا من هذا الباب والله اعلم بالامور ثم قال ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون والمعنى ان فى ضرب الامثال زيادة افهام وتذكير وتصوير للمعانى وذلك لان المعانى العقلية المحضة لا يقبلها الحس والخيال والوهم فاذا ذكر ما يساويها من المحسوسات ترك الحس والخيال والوهم تلك المنازعة وانطبق المعقول على المحسوس وحصل به الفهم التام والوصول الى المطلوب واما قوله تعالى ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار فاعلم ان الشجرة الخبيثة هى الجهل بالله فانه اول الآفات وعنوان المخافات ورأس الشقاوات ثم انه تعالى شبهها بشجرة موصوفة بصفات ثلاث (اوليها) انها تكون خبيثة فنهم من قال انها الثوم لانه صلى الله عليه وسلم وصف الثوم بأنها شجرة خبيثة وقيل انها الكراث وقيل انها شجرة الحنظل لكثرة مافيها من المضار وقيل انها شجرة الشوك واعلم ان هذا التفصيل لا حاجة اليه فان الشجرة قد تكون خبيثة بحسب الرائحة وقد تكون بحسب الطعم وقد تكون بحسب الصورة والمنظر وقد تكون بحسب اشتمالها على المضار الكثيرة والشجرة الجامعة لكل هذه الصفات وان لم تكن موجودة الا انها لما كانت معلومة الصفة كان التشبيه بها نافعا فى المطلوب (والصفة الثانية) قوله اجتثت من فوق الارض وهذه الصفة فى مقابلة قوله اصلها ثابت ومعنى اجتثت استؤصلت وحقيقة الاجتثاث اخذ الجثة كلها وقوله من فوق الارض معناه ليس لها اصل ولا عرق فكذلك الشرك بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة (والصفة الثالثة) قوله مالها من قرار وهذه الصفة كالمتممة للصفة الثانية والمعنى انه ليس لها استقرار يقال قر الشئ قرارا كقولك ثبت ثباتا شبه بها القول الذى لم يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت واعلم ان هذا المثال فى صفة الكلمة الخبيثة فى غاية الكمال وذلك لانه

قد حكى بعبارة اخرى وكان ذلك اول ماقدم عليه السلام مكة كما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما انه عليه الصلاة والسلام لما اسكن اسمعيل وهاجر هناك وعاد متوجها الى الشام تبعته هاجر وجعلت تقول الى من تكلنا فى هذا البلقع وهو لا يرد عليها جوابا حتى قالت آلله امرك بهذا فقال نعم قالت اذا لا يضيعنا فرضيت ومضى حتى استوى على ثنية كداء اقبل على الوادى فقال ربنا انى اسكنت الآية وانما فصل مابينهما تثنية للامتنان وايذانا بأن كلا منهما نعمة جليلة مستتبعة لشكر كثير كما فى قصة البقرة ( واجنبنى وبنى ) بعدنى واياهم ( ان نعبد الاصنام ) واجعلنا منها فى جانب بعيد اى ثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد وملة الاسلام والبعد عن عبادة الاصنام وقرى وأجنبنى من الافعال وهما لغة اهل نجد يقولون جنبنى شره وأجنبنى شره واما اهل الحجاز فيقولون جنبنى شره وفيه دليل على ان عصمة الانبياء عليهم السلام بتوفيق الله تعالى والظاهر ان المراد ببنيه اولاده الصلبية فلا احتجاج به لابن عيينة رضى الله عنه على ان احدا من اولاد اسمعيل عليه السلام لم يعبد الصنم وانما كان لكل قوم حجر نصبوه وقالوا هو حجر والبيت حجر فكانوا يدورون به ويسمونه الدوار فاستحب ان يقال طاف بالبيت ولا يقال دار بالبيت وليت شعرى كيف ذهب عليه ما فى القرآن العظيم من قوارع تنعى على قريش عبادة الاصنام على ان فيما ذكره كرا على مافر منه ( رب انهن ) اى الاصنام ( أضللن كثيرا من الناس ) اى تسببن له كقوله تعالى وغرتهم الحياة الدنيا وهو تعليل لدعائه وانما صدره بالنداء اظهارا لاعتنائه به ورغبة فى استجابته ( فمن تبعنى ) منهم فيما ادعو اليه من

( تعالى )

تعالى بين كونها موصوفة بالمضار الكثيرة وخالية عن كل المنافع اما كونها موصوفة بالمضار فاليه الاشارة بقوله خبيثة واما كونها خالية عن كل المنافع فاليه الاشارة بقوله اجتثت من فوق الارض مالها من قرار والله اعلم ❊ قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء) اعلم انه تعالى لما بين ان صفة الكلمة الطيبة ان يكون اصلها ثابتا وصفة الكلمة الخبيثة ان لايكون لها اصل ثابت بل تكون منقطعة ولايكون لها قرار ذكر ان ذلك القول الثابت الصادر عنهم في الحياة الدنيا يوجب ثبات كرامة الله لهم وثبات ثوابه عليهم والمقصود بيان ان الثبات في المعرفة والطاعة يوجب الثبات في الثواب والكرامة من الله تعالى فقوله يثبت الله اي على الثواب والكرامة وقوله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة اي بالقول الثابت الذي كان يصدر عنهم حال ما كانوا في الحياة الدنيا ثم قال ويضل الله الظالمين يعني كما ان الكلمة الخبيثة ما كان لها اصل ثابت ولا فرع باسق فكذلك اصحاب الكلمة الخبيثة وهم الظالمون يضلهم الله عن كراماته ويمنعهم عن الفوز بثوابه وفي الآية قول آخر وهو القول المشهور ان هذه الآية وردت في سؤال الملكين في القبر وتلقين الله المؤمن كلمة الحق في القبر عند السؤال وتثبيته اياه على الحق وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة قال حين يقال له في القبر من ربك وما دينك ومن نبيك فيقول ربي الله وديني الاسلام ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم والمراد من الباء في قوله بالقول الثابت هو ان الله تعالى انما ثبتهم في القبر بسبب مواظبتهم في الحياة الدنيا على هذا القول ولهذا الكلام تقرير عقلي وهو انه كلما كانت المواظبة على الفعل اكثر كان رسوخ تلك الحالة في العقل والقلب اقوى فكلما كانت مواظبة العبد على ذكر لا اله الا الله وعلى التأمل في حقائقها ودقائقها اكمل واتم كان رسوخ هذه المعرفة في عقله وقلبه بعد الموت اقوى واكمل قال ابن عباس من داوم على الشهادة في الحياة الدنيا يثبته الله عليها في قبره ويلقنه اياها وانما فسر الآخرة ههنا بالقبر لان الميت انقطع بالموت عن احكام الدنيا ودخل في احكام الآخرة وقوله ويضل الله الظالمين يعني ان الكفار اذا سئلوا في قبورهم قالوا لا ندري وانما قال ذلك لان الله اضله وقوله ويفعل الله مايشاء يعني ان شاء اضل ولا اعتراض عليه في فعله البتة ❊ قوله تعالى (ألم تر الى الذين بدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار وجعلوا لله اندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فان مصيركم الى النار) اعلم انه تعالى عاد الى وصف احوال الكفار في هذه الآية فقال ألم تر الى الذين بدلوا نعمت الله كفرا نزل في اهل مكة حيث اسكنهم الله تعالى حرمه الآمن وجعل عيشهم في السعة وبعث فيهم محمدا صلى الله عليه وسلم فلم يعرفوا قدر هذه النعمة ثم انه تعالى حكى عنهم انواعا من الاعمال القبيحة (النوع الاول) قوله بدلوا نعمة الله كفرا وفيه



التوحيد وملة الاسلام (فانه مني) اي بعضي قاله عليه السلام مبالغة في بيان اختصاصه به اومتصل بي لاينفك عني في امر الدين (ومن عصاني) اي لم يتبعني والتعبير عنه بالعصيان للايذان بأنه عليه السلام مستمر على الدعوة وأن عدم اتباع من لم يتبعه انما هو لعصيانه لا لانه لم يبلغه الدعوة (فانك غفور رحيم) قادر على أن تغفر له وترحمه ابتداء أو بعد توبته وفيه ان كل ذنب فلله تعالى أن يغفره حتى الشرك خلا ان الوعيد قضى بالفرق بينه وبين غيره (ربنا) آثر عليه السلام ضمير الجماعة لا لما قيل من تقدم ذكره وذكر بنيه والا لراعاه في قوله رب انهن الخ بل لان الدعاء المصدر به وما أورده بصدد تمهيد مبادي اجابته من قوله (اني أسكنت) الآية متعلق بذريته فالتعرض لوصف ربوبيته تعالى لهم ادخل في القبول واجابة المسؤل (من ذريتي) اي بعضهم اوذرية من ذريتي فحذف المفعول وهو اسمعيل عليه السلام وما سيولد له فان اسكانه حيث كان على وجه الاطمئنان متضمن لاسكانهم روى أن هاجر أم اسمعيل عليه السلام كانت لسارة فوهبتها من ابراهيم عليه السلام فلما ولدت له اسمعيل عليه السلام غارت عليهما فناشدته ان يخرجهما من عندها فأخرجهما الى أرض مكة فأظهر الله تعالى عين زمزم (بواد غير ذي زرع) لايكون فيه زرع أصلا وهو وادي مكة شرفها الله تعالى (عند بيتك) ظرف لأسكنت كقولك صليت بمكة عند الركن لانه صفة لواد أو بدل منه اذ المقصود اظهار كون ذلك الاسكان مع فقدان مباديه بالمرة لمحض التقرب الى الله تعالى والالتجاء الى جواره الكريم كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الحرمة المؤذن بعزة الملتجا وعصمته عن المكاره في قوله تعالى (المحرم) حيث حرم التعرض له والتهاون به اولم

وجوه (الاول) يجوز ان يكون بدلوا اشكر نعمة الله كفرا لانه لما وجب عليهم الشكر بسبب تلك النعم أتوا بالكفر فكأنهم غيروا الشكر الى الكفر وبدلوه تبديلا (الثانى) انهم بدلوا نفس نعمة الله كفرا لانهم لما كفروا سلب الله تلك النعمة عنهم فبقى الكفر معهم بدلا من النعمة (الثالث) انه تعالى انعم عليهم بالرسول والقرآن فاختاروا الكفر على الايمان (النوع الثانى) ماحكى الله تعالى عنهم قوله واحلوا قومهم دار البوار وهو الهلاك يقال رجل بائر وقوم بور ومنه قوله تعالى وكنتم قوما بورا وأراد بدار البوار جهنم بدليل انه فسرها بجهنم فقال جهنم يصلونها وبئس القرار اى المقر وهو مصدر سمى به (النوع الثالث) من اعمالهم القبيحة قوله وجعلوا لله اندادا ليضلوا عن سبيله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى لما حكى عنهم انهم بدلوا نعمة الله كفرا ذكر انهم بعد ان كفروا بالله جعلوا له اندادا والمراد من هذا الجعل الحكم والاعتقاد والقول والمراد من الانداد الاشباه والشركاء وهذا الشريك يحتمل وجوها احدها انهم جعلوا للاصنام حظا فيما انعم الله به عليهم نحو قولهم هذا لله وهذا لشركائنا وثانيها انهم شركوا بين الاصنام وبين خالق العالم فى المعبودية وثالثها انهم كانوا يصرحون باثبات الشركاء لله وهو قولهم فى الحج لبيك لاشريك لك الاشريك هو لك تملكه وماملك (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وابو عمرو ليضلوا بفتح الياء من ضل يضل والباقون بضم الياء من اضل غيره يضل (المسئلة الثالثة) اللام فى قوله ليضلوا عن سبيله لام العاقبة لان عبادة الاوثان سبب يؤدى الى الضلال ويحتمل ان تكون لام كى اى الذين اتخذوا الاوثان كى يضلوا غيرهم هذا اذا قرئ بالضم فانه يحتمل الوجهين واذا قرئ بالنصب فلا يحتمل الا لام العاقبة لانهم لم يريدوا ضلال انفسهم وتحقيق القول فى لام العاقبة ان المقصود من الشئ لا يحصل الا فى آخر المراتب كما قيل اول الفكر آخر العمل وكل ماحصل فى العاقبة كان شبيها بالامر المقصود فى هذا المعنى والمشابهة احد الامور المصححة لحسن المجاز فلهذا السبب حسن ذكر اللام فى العاقبة ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الانواع الثلاثة من الاعمال القبيحة قال قل تمتعوا فان مصيركم الى النار والمراد ان حال الكافر فى الدنيا كيف كانت فانها بالنسبة الى ماسيصل اليه من العقاب فى الآخرة تمتع ونعيم فلهذا المعنى قال قل تمتعوا فان مصيركم الى النار وايضا ان هذا الخطاب مع الذين حكى الله عنهم انهم بدلوا نعمة الله كفرا فأولئك كانوا فى الدنيا فى نعم كثيرة فلاجرم حسن قوله تعالى قل تمتعوا فان مصيركم الى النار وهذا الامر يسمى امر التهديد ونظيره قوله تعالى اعملوا ماشئتم وكقوله قل تمتع بكفرك قليلا انك من اصحاب النار ✽ قوله تعالى (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل ان يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال) اعلم انه تعالى لما امر الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتع بنعيم الدنيا امر المؤمنين فى هذه الآية بترك التمتع بالدنيا والمبالغة فى المجاهدة بالنفس والمال وفيه مسائل

بناء وانما كان نشزا مثل الرابية تأتيه السيول فتأخذ ذات اليمين وذات الشمال ليست باعتبار ماسيؤل اليه الامر من بنائه عليه السلام فانه ينزع الى اعتبار عنوان الحرمة ايضا كذلك بل انما هى باعتبار ما كان من قبل فان تعدد بناء الكعبة المعظمة مما لاريب فيه وانما الاختلاف فى كمية عدده وقد ذكرناها فى سورة البقرة بفضل الله تعالى (ربنا ليقيموا الصلاة) متوجهين اليه متبركين به وهو متعلق بأسكنت وتخصيصها بالذكر من بين سائر شعائر الدين لفضلها وتكرير النداء وتوسيطه لاظهار كمال العناية باقامة الصلاة والاهتمام بعرض ان الغرض من اسكانهم بذلك الوادى البلقع ذلك المقصد الاقصى والمطلب الاسنى وكل ذلك لتمهيد مبادى اجابة دعائه واعطاء مسؤله الذى لا يتسنى ذلك المرام الابه ولذلك ادخل عليه الفاء فقال (فاجعل أفئدة من الناس) أى أفئدة من أفئدتهم فمن للتبعيض ولذلك قيل لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليهم فارس والروم وأما مازيد عليه من قولهم وحجت اليهود والنصارى فغير مناسب للمقام اذ المسؤل توجيه القلوب اليهم للمساكنة معهم لاتوجيهها الى البيت للحج والا لقيل تهوى اليه فانه عين الدعاء بالبلدية قد حكى بعبارة أخرى كما مر أو لابتداء الغاية كقولك القلب منى سقيم أى أفئدة ناس وقرئ آفدة على القلب كآدر فى أدؤر أو على انه اسم فاعل من افدت الرحلة أى عجلت اى جماعة من الناس وأفدة بطرح الهمزة من الافئدة أو على النعت من أفد (تهوى اليهم) تسرع اليهم شوقا وودادا وقرئ

(المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى لعبادى بسكون الياء والباقون بفتح الياء لالتقاء الساكنين فحرك الى النصب (المسئلة الثانية) فى قوله يقيموا وجهان الاول يجوز ان يكون جوابا لامر محذوف هو المقول تقديره قل لعبادى الذين آمنوا اقيموا الصلاة وانفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا الثانى يجوز ان يكون هو امرا مقولا محذوفا منه لام الامر اى ليقيموا كقولك قل لزيد ليضرب عمرا وانما جاز حذف اللام لان قوله قل عوض منه ولو قيل ابتداء يقيموا الصلاة لم يجز (المسئلة الثالثة) ان الانسان بعد الفراغ عن الايمان لاقدرة له على التصرف فى شئ الا فى نفسه أو فى ماله اما النفس فيجب شغلها بخدمة المعبود فى الصلاة واما المال فيجب صرفه الى البذل فى طاعة الله تعالى فهذه الثلاثة هى الطاعات المعتبرة وهى الايمان والصلاة والزكاة وتمام ما يجب ان يقال فى هذه الامور الثلاثة ذكرناه فى قوله تعالى الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة الآية تدل على ان الرزق لا يكون حراما لان الآية دلت على ان الانفاق من الرزق ممدوح ولا شئ من الانفاق من الحرام بممدوح فينتج ان الرزق ليس بحرام وقد مر تقرير هذا الكلام مرارا (المسئلة الخامسة) فى انتصاب قوله سرا وعلانية وجوه احدها ان يكون على الحال اى ذوى سر وعلانية بمعنى مسرين ومعلنين وثانيها على الظرف اى وقت سر وعلانية وثالثها على المصدر اى انفاق سر وانفاق علانية والمراد اخفاء التطوع واعلان الواجب واعلم انه تعالى لما امر باقامة الصلاة وايتاء الزكاة قال من قبل ان يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال قال ابو عبيدة البيع ههنا الفداء والخلال المخالة وهو مصدر من خالت خلالا ومخالة وهى المصادقة قال مقاتل انما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة فكأنه تعالى يقول انفقوا اموالكم فى الدنيا حتى تجدوا ثواب ذلك الانفاق فى مثل هذا اليوم الذى لا تحصل فيه مبايعة ولا مخالة ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة البقرة لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة فان قيل كيف نفى المخالة فى هاتين الآيتين مع انه تعالى اثبتها فى قوله الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين قلنا الآية الدالة على نفى المخالة محمولة على نفى المخالة بسبب ميل الطبيعة ورغبة النفس والآية الدالة على ثبوت المخالة محمولة على حصول المخالة الحاصلة بسبب عبودية الله تعالى ومحبة الله تعالى والله اعلم * قوله تعالى (الله الذى خلق السموات والارض وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار) اعلم انه لما اطال الكلام فى وصف احوال السعداء واحوال الاشقياء وكانت العمدة العظمى والمنزلة الكبرى فى حصول السعادات معرفة الله تعالى بذاته وبصفاته وفى حصول الشقاوة فقدان هذه المعرفة لاجرم ختم الله تعالى وصف احوال السعداء

الدعوة ما روى انه مرت رفقة من جرهم تريد الشام فرأوا الطير تحوم على الجبل فقالوا ان هذا الطائر لعائف على الماء فأشرفوا فاذا هم بهاجر فقالوا لها ان شئت كنا معك وآنسناك والماء ماؤك فأذنت لهم وكانوا معها الى ان شب اسمعيل عليه السلام وماتت هاجر فتزوج اسمعيل منهم كما هو المشهور (وارزقهم) اى ذريتى الذين اسكنتهم هناك او مع من ينحاز اليهم من الناس وانما لم يخص الدعاء بالمؤمنين منهم كما فى قوله وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر اكتفاء بذكر اقامة الصلاة (من الثمرات) من انواعها بأن يجعل بقرب منه قرى يحصل فيها ذلك او يجبى اليه من الاقطار الشاسعة وقد حصل كلاهما حتى انه يجتمع فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد * روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان الطائف كانت من ارض فلسطين فلما دعا ابراهيم عليه السلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى ووضعها حيث وضعها رزقا للحرم وعن الزهرى رضى الله عنه انه تعالى نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة ابراهيم عليه السلام (لعلهم يشكرون) تلك النعمة باقامة الصلاة واداء سائر مراسم العبودية وقيل اللام فى ليقيموا لام الامر والمراد امرهم باقامة الصلاة والدعاء من الله تعالى بتوفيقهم لها ولا يناسبه الفاء فى قوله تعالى فاجعل الخ وفى دعائه عليه السلام من مراعاة حسن الادب

والمحافظة على قوانين الضراعة وعرض الحاجة واستنزال الرحمة واستجلاب الرأفة ما لا يخفى فانه عليه السلام بذكر كون

و الاشقياء بالدلائل الدالة على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته وذكرههنا عشرة انواع من الدلائل اولها خلق السموات وثانيها خلق الارض واليهما الاشارة بقوله تعالى الله الذى خلق السموات والارض وثالثها قوله وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقالكم ورابعها قوله وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وخامسها قوله وسخر لكم الانهار وسادسها وسابعها قوله وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وثامنها وتاسعها قوله وسخر لكم الليل والنهار وعاشرها قوله وآتاكم من كل ماسألتموه وهذه الدلائل العشرة قدمر ذكرها فى هذا الكتاب وتقريرها وتفسيرها مرارا واطوارا ولابأس بأن نذكر ههنا بعض الفوائد فاعلم ان قوله تعالى الله مبتدأ وقوله الذى خلق خبره ثم انه تعالى بدأ بذكر خلق السموات والارض وقدذكرنا فى هذا الكتاب ان السماء والارض من كم وجه تدل على وجود الصانع الحكيم وانمابدأ بذكرهما ههنا لانهما هما الاصلان اللذان يتفرع عليهما سائر الادلة المذكورة بعدذلك فانه قال بعده وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقالكم وفيه مباحث (الاول) لولا السماء لم يصح انزال الماء منها ولولا الارض لم يوجد مايستقر الماء فيه فظهر انه لابد من وجودهما حتى يحصل هذا المقصود وهذا المطلوب ( البحث الثانى ) قوله وانزل من السماء ماء وفيه قولان ( الاول ) ان الماء نزل من السحاب وسمى السحاب سماء اشتقاقا من السمو وهو الارتفاع والثانى انه تعالى انزله من نفس السماء وهذا بعيد لان الانسان ربما كان واقفا على قلة جبل عال ويرى الغيم اسفل منه فاذانزل من ذلك الجبل يرى ذلك الغيم ماطرا عليهم واذاكان هذا امرا مشاهدا بالبصر كان النزاع فيه باطلا ( البحث الثالث ) قال قوم انه تعالى اخرج هذه الثمرات بواسطة هذا الماء المنزل من السماء على سبيل العادة وذلك لان فى هذا المعنى مصلحة للمكلفين لانهم اذا علموا ان هذه المنافع القليلة يجب ان تتحمل فى تحصيلها المشاق والمتاعب فالمنافع العظيمة الدائمة فى الدار الآخرة أولى ان تتحمل المشاق فى طلبها واذاكان المرء يترك الراحة واللذة طلبا لهذه الخيرات الحقيرة فبأن يترك اللذات الدنيوية ليفوز بثواب الله تعالى ويتخلص عن عقابه أولى ولهذا السبب لمازال التكاليف فى الآخرة انال الله تعالى كل نفس مشتهاها من غير تعب ولانصب هذا قول المتكلمين وقال قوم آخرون انه تعالى يحدث الثمار والزروع بواسطة هذا الماء النازل من السماء والمسئلة كلامية محضة وقد ذكرناها فى سورة البقرة ( البحث الرابع ) قال ابومسلم لفظ الثمرات يقع فى الاغلب على مايحصل على الاشجار ويقع ايضا على الزروع والنبات كقوله تعالى كلوا من ثمره اذا اثمر وآتوا حقه يوم حصاده (البحث الخامس) قال تعالى فأخرج به من الثمرات رزقالكم والمراد انه تعالى انماأخرج هذه الثمرات لاجل ان تكون رزقالنا والمقصود انه تعالى قصد بتخليق هذه الثمرات ايصال الخير والمنفعة الى المكلفين لان الاحسان لايكون احسانا الااذا قصد المحسن بفعله ايصال النفع الى

الوادى غير ذى زرع بين كمال افتقارهم الى المسؤل وبذكر  كون اسكانهم عندالبيت المحرم اشار الى ان جوار الكريم يستوجب افاضة النعيم وبعرض كون ذلك الاسكان مع كمال اعواز مرافق المعاش لحسن اقامة الصلاة واداء حقوق البيت مهد جميع مبادى اجابة السؤال ولذلك قرنت دعوته عليه السلام بحسن القبول ( ربنا انك تعلم ماتخفى ومانعلن ) من الحاجات وغيرها والمراد ما نخفى مايقابل مانعلن سواء تعلق به الاخفاء اولا اى تعلم مانظهره ومالا نظهره فان علمه تعالى متعلق بما لايخطر بباله مما فيه من الاحوال الخفية فضلا عن اخفائه وتقديم ما نخفى على مانعلن لتحقيق المساواة بينهما فى تعلق العلم بهما على ابلغ وجه فكأن تعلقه بما يخفى اقدم منه بمايعلن اولان مرتبة السر والخفاء متقدمة على مرتبة العلن اذما من شئ يعلن الا وهو قبل ذلك خفى فتعلق علمه سبحانه بحالته الاولى اقدم من تعلقه بحالته الثانية وقصده عليه السلام ان اظهار هذه الحاجات وماهو من مباديها وتتماتها ليس لكونها غير معلومة لك بل انما هو لاظهار العبودية والتخشع لعظمتك والتذلل لعزتك وعرض الافتقار الى ما عندك والاستعجال لنيل اياديك وتكرير النداء للمبالغة فى الضراعة والابتهال وضمير الجماعة لان المراد ليس مجرد علمه تعالى بسره وعلنه بل بجميع خفايا الملك والملكوت وقد حققه بقوله على وجه الاعتراض ( وما يخفى على الله من شئ فى الارض ولا فى السماء ) لما انه العالم بالذات فما من امر يدخل تحت الوجود كائنا ماكان فى زمان من الازمان الاووجوده فى ذاته علم بالنسبة اليه سبحانه وانما قال وما يخفى على الله الخ دون ان يقول ويعلم مافى

(المحسن)

المحسن اليه (البحث السادس) قال صاحب الكشاف قوله من الثمرات بيان للرزق اى اخرج به رزقا هو ثمرات ويجوز ان يكون من الثمرات مفعول اخرج ورزقا حال من المفعول اونصبا على المصدر من اخرج لانه فى معنى رزق والتقدير ورزق من الثمرات رزقا لكم (فأما الحجة الرابعة) وهى قوله وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ونظيره قوله تعالى ومن آياته الجوار فى البحر كالاعلام ففيها مباحث (البحث الاول) ان الانتفاع بما ينبت من الارض انما يكمل بوجود الفلك الجارى فى البحر وذلك لانه تعالى خص كل طرف من اطراف الارض بنوع آخر من انعمه حتى ان نعمة هذا الطرف اذا نقلت الى الجانب الآخر من الارض وبالعكس كثر الربح فى التجارات ثم ان هذا النقل لا يمكن الا بسفن البر وهى الجمال او بسفن البحر وهى الفلك المذكورة فى هذه الآية فان قيل مامعنى وسخر لكم الفلك مع ان تركيب السفينة من اعمال العباد قلنا اما على قولنا ان فعل العبد خلق الله تعالى فلاسؤال واما على مذهب المعتزلة فقد اجاب القاضى عنه فقال لولا انه تعالى خلق الاشجار الصلبة التى منها يمكن تركيب السفن ولولا خلقه للحديد وسائر الآلات ولولا تعريفه العباد كيف يتخذوه ولولا انه تعالى خلق الماء على صفة السيلان التى باعتبارها يصح جرى السفينة ولولا خلقه تعالى الرياح وخلق الحركات القوية فيها ولولا انه وسع الانهار وجعل فيها من العمق مايجوز جرى السفن فيها لماوقع الانتفاع بالسفن فصار لاجل انه تعالى هو الخالق لهذه الاحوال وهو المدبر لهذه الامور والمسخر لها حسنت اضافة السفن اليه (البحث الثانى) انه تعالى اضاف ذلك التسخير الى امره لان الملك العظيم قلما يوصف بأنه فعل وانما يقال فيه انه امر بكذا تعظيما لشأنه ومنهم من حمله على ظاهر قوله انما امرنا لشئ اذا اردناه ان نقول له كن فيكون وتحقيق هذا الوجه راجع الى ماذكرناه (البحث الثالث) الفلك من الجمادات فتسخيرها مجاز والمعنى انه لما كان يجرى على وجه الماء كما يشتهيه الملاح صار كأنه حيوان مسخر له (الحجة الخامسة) قوله تعالى وسخر لكم الانهار واعلم ان ماء البحر قلما ينتفع به فى الزراعات لاجرم ذكر تعالى انعامه على الخلق بتفجير الانهار والعيون حتى ينبعث الماء منها الى مواضع الزرع والنبات وايضا ماء البحر لايصلح للشرب والصالح لهذا المهم هو مياه الانهار (الحجة السادسة والسابعة) قوله وسخر لكم الشمس والقمر دائبين واعلم ان الانتفاع بالشمس والقمر عظيم وقد ذكره الله تعالى فى آيات منها قوله وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ومنها قوله الشمس والقمر بحسبان ومنها قوله وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ومنها قوله هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقوله دائبين معنى الدؤب فى اللغة مرور الشئ فى العمل على عادة مطردة يقال دأب يدأب دأبا ودؤبا وقد ذكرنا هذا فى قوله قال تزرعون سبع سنين دأبا قال المفسرون قوله دائبين معناه يدأبان فى سيرهما وانارتهما وتأثيرهما فى ازالة الظلمة وفى اصلاح النبات والحيوان فان الشمس سلطان النهار والقمر

السموات والارض تحقيقا لما عناه بقوله  تعلم مالايخفى من ان علمه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبة خفاء بالنسبة الى علمه تعالى كما يكون ذلك بالنسبة الى علوم المخلوقات وكلمة فى متعلقة بمحذوف وقع صفة لشئ اى من شئ كائن فيهما اعم من ان يكون ذلك على وجه الاستقرار فيهما او على وجه الجزئية منهما اويخفى وتقديم الارض على السماء مع توسيط لا بينهما باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة الى علو منا والالتفات من الخطاب الى اسم الذات المستجمعة للصفات لتربية المهابة والاشعار بعلة الحكم على نهج قوله تعالى ألايعلم من خلق وهو اللطيف الخبير والايذان بعمومه لانه ليس بشأن يختص به او بمن يتعلق به بل شامل لجميع الاشياء فالمناسب ذكره تعالى بعنوان مصحح لمبدأ الكل وقيل هو من كلام الله عز وجل وارد بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلام كقوله سبحانه وكذلك يفعلون ومن للاستغراق على الوجهين (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر) اى مع كبرى ويأسى عن الولد قيد الهبة به استعظاما للنعمة واظهارا لشكرها (اسمعيل واسحق) روى انه ولد له اسمعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة اومائة وسبع عشرة سنة (ان ربى) ومالك امرى (لسميع الدعاء) لمجيبه من قولهم سمع الملك كلامه اذا اعتدبه وهى من ابنية المبالغة العاملة عمل الفعل اضيف الى مفعوله اوفاعله باسناد السماع الى دعاء الله تعالى مجازا وهو مع كونه من تتمة الحمد والشكر اذ هو وصف له تعالى بأن ذلك الجميل سنته المستمرة تعليل على طريقة التذييل للهبة المذكورة وفيه ايذان بتضاعف النعمة فيها حيث وقعت بعد الدعاء بقوله

سلطان الليل ولولا الشمس لما حصلت الفصول الاربعة ولولاها الاختلت مصالح العالم بالكلية وقد ذكرنا منافع الشمس والقمر بالاستقصاء فى اول هذا الكتاب (الحجة الثامنة والتاسعة) قوله وسخر لكم الليل والنهار واعلم ان منافعهما مذكورة فى القرآن كقوله تعالى وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وقوله وهو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا قال المتكلمون تسخير الليل والنهار مجاز لانهما عرضان والاعراض لاتسخر (الحجة العاشرة) قوله وآتاكم من كل ما سألتموه ثم انه تعالى لما ذكر تلك النعمة العظيمة بين بعد ذلك انه لم يقتصر عليها بل اعطى عباده من المنافع والمرادات ما لا يأتى على بعضها التعديد والاحصاء فقال وآتاكم من كل ما سألتموه والمفعول محذوف تقديره من كل مسؤل شيئا وقرئ من كل بالتنوين وما سألتموه نفى ومحله نصب على الحال اى آتاكم من جميع ذلك غير سائليه ويجوز ان تكون ما موصولة والتقدير آتاكم من كل ذلك ما احتجتم اليه ولم تصلح احوالكم ومعايشكم الا به فكأنكم سألتموه او طلبتموه بلسان الحال ثم انه تعالى لما ذكر هذه النعم ختم الكلام بقوله وان تعدوا نعمت الله لاتحصوها قال الواحدى النعمة ههنا اسم اقيم مقام المصدر يقال انعم الله عليه ينعم انعاما ونعمة اقيم الاسم مقام الانعام كقوله انفقت عليه انفاقا ونفقة بمعنى واحد ولذلك لم يجمع لانه فى معنى المصدر ومعنى قوله لاتحصوها اى لاتقدرون على تعديد جميعها لكثرتها واعلم ان الانسان اذا أراد ان يعرف ان الوقوف على اقسام نعم الله ممتنع فعليه ان يتأمل فى شئ واحد ليعرف عجز نفسه عنه ونحن نذكر منه مثالين (المثال الاول) ان الاطباء ذكروا ان الاعصاب قسمان منها دماغية ومنها نخاعية اما الدماغية فانها سبعة ثم اتعبوا انفسهم فى معرفة الحكم الناشئة من كل واحد من تلك الازواج السبعة ثم مما لاشك فيه ان كل واحد من الازواج السبعة تنقسم الى شعب كثيرة وكل واحد من تلك الشعب ايضا الى شعب دقيقة ادق من الشعر ولكل واحد منها ممر الى الاعضاء ولو ان شعبة واحدة اختلت اما بسبب الكمية او بسبب الكيفية او بسبب الوضع لاختلت مصالح البنية ثم ان تلك الشعب الدقيقة تكون كثيرة العدد جدا ولكل واحدة منها حكمة مخصوصة فاذا نظر الانسان فى هذا المعنى عرف ان لله تعالى بحسب كل شظية من تلك الشظايا العصبية على العبد نعمة عظيمة لو فاتت لعظم الضرر عليه وعرف قطعا انه لاسبيل له الى الوقوف عليها والاطلاع على احوالها وعند هذا يقطع بصحة قوله تعالى وان تعدوا نعمت الله لاتحصوها وكما اعتبرت هذا فى الشظايا العصبية فاعتبر فى الشرايين والاوردة وفى كل واحد من الاعضاء البسيطة والمركبة بحسب الكمية والكيفية والوضع والفعل والانفعال حتى ترى اقسام هذا الباب بحرا لاساحل له واذا اعتبرت هذا فى بدن الانسان الواحد فاعرف اقسام نعم الله تعالى فى نفسه وروحه فان عجائب عالم الارواح اكثر من عجائب عالم الاجساد ثم لما اعتبرت حالة الحيوان الواحد فعند ذلك اعتبر احوال عالم الافلاك (والكواكب)

فائتة عليه خاصة وهما من النعم لامن المنعم عليهم ( رب اجعلنى مقيم الصلوة ) مثابرا عليها معدلا لها وتوحيد ضمير المتكلم مع شمول دعوته لذريته ايضا حيث قال (ومن ذريتى) اى بعضهم من المذكورين ومن يسير سيرتهما من اولادهما للاشعار بأنه المقتدى فى ذلك وذريته اتباع له وان ذكرهم بطريق الاستطراد لا كما فى قوله ربنا انى اسكنت الخ فان اسكانه مع عدم تحققه بلا ملابسة لمن اسكنه انما هو مذكور بطريق التمهيد للدعاء الذى هو مخصوص بذريته وانما خص هذا الدعاء ببعض ذريته لعله من جهة الله تعالى ان بعضا منهم لايكون مقيم الصلاة كقوله تعالى ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك ( ربنا وتقبل دعاء ) اى دعائى هذا المتعلق بجعلى وجعل بعض ذريتى مقيمى الصلاة ثابتين على ذلك مجتنبين عن عبادة الاصنام ولذلك جئ بضمير الجماعة (ربنا اغفرلى) اى ما فرط منى من ترك الاولى فى باب الدين وغير ذلك مما لايسلم منه البشر (ولوالدى) وقرئ بالتوحيد ولأبوى وهذا الاستغفار منه عليه السلام انما كان قبل تبين الامر له عليه السلام وقيل أراد بوالديه آدم وحواء وقيل بشرط الاسلام ويرده قوله تعالى الا قول ابراهيم الآية وقد مر فى سورة التوبة نوع تحقيق للمقام وسيأتى تمامه فى سورة مريم بفضل الله تعالى (وللمؤمنين) كافة من ذريته وغيرهم وللايذان باشتراك الكل فى الدعاء بالمغفرة جئ بضمير الجماعة ( يوم يقوم الحساب ) اى يثبت ويتحقق محاسبة اعمال المكلفين على وجه

والكواكب وطبقات العناصر وعجائب البر والبحر والنبات والحيوان وعند هذا تعرف ان عقول جميع الخلائق لو ركبت وجعلت عقلا واحدا ثم بذلك العقل يتأمل الانسان في عجائب حكمة الله تعالى في اقل الاشياء لما ادرك منها الا القليل فسبحانه تقدس عن اوهام المتوهمين (المثال الثاني) انك اذا اخذت اللقمة الواحدة لتضعها في الفم فانظر الى ما قبلها والى ما بعدها اما الامور التي قبلها فاعرف ان تلك اللقمة من الخبز لا تتم ولا تكمل الا اذا كان هذا العالم بكليته قائما على الوجه الاصوب لان الحنطة لابد منها وانها لا تنبت الا بمعونة الفصول الاربعة وتركيب الطبائع وظهور الرياح والامطار ولا يحصل شئ منها الا بعد دوران الافلاك واتصال بعض الكواكب ببعض على وجوه مخصوصة في الحركات وفي كيفيتها في الجهة والسرعة والبطء ثم بعد ان تكون الحنطة لابد من آلات الطحن والخبز وهي لا تحصل الا عند تولد الحديد في ارحام الجبال ثم ان الآلات الحديدية لا يمكن اصلاحها الا بآلات اخرى حديدية سابقة عليها ولابد من انتهائها الى آلة حديدية هي اول هذه الآلات فتأمل انها كيف تكونت على الاشكال المخصوصة ثم اذا حصلت تلك الآلات فانظر انه لابد من اجتماع العناصر الاربعة وهي الارض والماء والهواء والنار حتى يمكن طبخ الخبز من ذلك الدقيق فهذا هو النظر فيما تقدم على حصول هذه اللقمة واما النظر فيما بعد حصولها فتأمل في تركيب بدن الحيوان وهو انه تعالى كيف خلق هذه الابدان حتى يمكنها الانتفاع بتلك اللقمة وانه كيف يتضرر الحيوان بالاكل وفي اي الاعضاء تحدث تلك المضار ولا يمكنك ان تعرف القليل من هذه الاشياء الا بمعرفة علم التشريح وعلم الطب بالكلية فظهر بما ذكرنا ان الانتفاع باللقمة الواحدة لا يمكن معرفته الا بمعرفة جملة هذه الامور والعقول قاصرة عن ادراك ذرة من هذه المباحث فظهر بهذا البرهان القاهر صحة قوله تعالى وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها * ثم انه تعالى قال ان الانسان لظلوم كفار قيل يظلم النعمة باغفال شكرها كفار شديد الكفران لها وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع والمراد من الانسان ههنا الجنس يعني ان عادة هذا الجنس هو هذا الذي ذكرناه وههنا بحثان (البحث الاول) ان الانسان مجبول على النسيان وعلى الملالة فاذا وجد نعمة نسيها في الحال وظلمها بترك شكرها وان لم ينسها فانه في الحال يملها فيقع في كفران النعمة وايضا ان نعم الله كثيرة فتى حاول التأمل في بعضها غفل عن الباقي (البحث الثاني) انه تعالى قال في هذا الموضع ان الانسان لظلوم كفار وقال في سورة النحل ان الله لغفور رحيم ولما تأملت فيه لاح لي فيه دقيقة كأنه يقول اذا حصلت النعم الكثيرة فأنت الذي اخذتها وانا الذي اعطيتها فحصل لك عند اخذها وصفان وهما كونك ظلوما كفارا ولي وصفان عند اعطائها وهما كوني غفورا رحيما والمقصود كأنه يقول ان كنت ظلوما فانا غفور وان كنت كفارا فانا رحيم اعلم عجزك وقصورك فلا اقابل تقصيرك

مجازا او حذف المضاف كما في واسأل القرية واعلم ان ما حكى عنه عليه السلام من الادعية والاذكار وما يتعلق بها ليس بصادر عنه على الترتيب المحكي ولا على وجه المعية بل صدر عنه في ازمنة متفرقة حكي مرتبا للدلالة على سوء حال الكفرة بعد ظهور امره في الملة وارشاد الناس اليها والتضرع الى الله تعالى لمصالحهم الدينية والدنياوية (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد تثبيته على ما كان عليه من عدم حسبانه عز وجل كذلك نحو قوله ولا تكونن من المشركين ونظائره مع ما فيه من الايذان بكونه واجب الاحتراز عنه في الغاية حتى نهي عنه من لا يمكن تعاطيه اونهيه عليه السلام عن حسبانه تعالى تاركا لعقابهم على طريقة العفو والتعبير عنه بذلك للمبالغة في النهي والايذان بأن ذلك الحسبان بمنزلة حسبانه تعالى غافلا عن اعمالهم اذ العلم بذلك مستوجب لعقابهم لامحالة فتركه لو كان لكان للغفلة عما يوجبه من اعمالهم الخبيثة وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووعد له اكيد ووعيد للكفرة وسائر الظالمين شديدا او لكل احد ممن يستعجل عذابهم او يتوهم اهمالهم للجهل بصفاته تعالى والاغترار بامهاله وقيل معناه لا تحسبنه تعالى يعاملهم معاملة الغافل عما عملوا بل معاملة من يحافظ على اعمالهم ويجازيهم بذلك نقيرا وقطميرا والمراد بالظالمين اهل مكة ممن عدت مساويهم من تبديل نعمة الله تعالى كفرا واحلال قومهم دار البوار واتخاذ الانداد كما يؤذن به التعرض لحكمة التأخير المنبئ

الا بالتوفير ولا اجازي جفاء الا بالوفاء ونسأل الله حسن العاقبة والرحمة ❊ قوله تعالى ( واذقال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني ان نعبد الاصنام رب انهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم ) اعلم انه تعالى لما بين بالدلائل المتقدمة انه لا معبود الا الله سبحانه وانه لا يجوز عبادة غيره تعالى البتة حكى عن ابراهيم عليه السلام مبالغته في انكار عبادة الاوثان واعلم انه تعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام انه طلب من الله اشياء ( احدها ) قوله رب اجعل هذا البلد آمنا والمراد مكة آمنا ذا امن فأن قيل اى فرق بين قوله اجعل هذا بلدا آمنا وبين قوله اجعل هذا البلد آمنا قلنا سأل في الاول ان يجعله من جملة البلاد التي يأمن اهلها فلا يخافون وفي الثاني ان يزيل عنها الصفة التي كانت حاصلة لها وهي الخوف ويحصل لها ضد تلك الصفة وهو الامن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا وقد تقدم تفسيره في سورة البقرة ( وثانيها ) قوله واجنبني وبني ان نعبد الاصنام وفيه مسائل ( المسئلة الاولى ) قرئ واجنبني وفيه ثلاث لغات جنبه واجنبه وجنبه قال الفراء اهل الحجاز يقول جنبني يجنبني بالتخفيف واهل نجد يقولون جنبني شره واجنبني شره واصله جعل الشيء عن غيره على جانب وناحية ( المسئلة الثانية ) لقائل ان يقول الاشكال على هذه الآية من وجوه ( احدها ) ان ابراهيم عليه السلام دعا ربه ان يجعل مكة آمنا وما قبل الله دعاءه لان جماعة خربوا الكعبة واغاروا على مكة ( وثانيها ) ان الانبياء عليهم السلام لا يعبدون الوثن البتة واذا كان كذلك فما الفائدة في قوله اجنبني عن عبادة الاصنام ( وثالثها ) انه طلب من الله تعالى ان لا يجعل ابناءه من عبدة الاصنام والله تعالى لم يقبل دعاءه لان كفار قريش كانوا من اولاده مع انهم كانوا يعبدون الاصنام فأن قالوا انهم ما كانوا ابناء ابراهيم وانما كانوا ابناء ابنائه والدعاء مخصوص بالابناء فنقول فاذا كان المراد من اولئك الابناء ابناءه من صلبه وهم ما كانوا الا اسمعيل واسحق وهما كانا من اكابر الانبيا وقد علم ان الانبياء لا يعبدون الصنم فقد عاد السؤال في انه ما الفائدة في ذلك الدعاء والجواب عن السؤال الاول من وجهين ( الاول ) انه نقل انه عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة ذكر هذا الدعاء والمراد منه جعل تلك البلدة آمنة من الخراب والثاني ان المراد جعل اهلها آمنين كقوله واسئل القرية اى اهل القرية وهذا الوجه عليه اكثر المفسرين وعلى هذا التقدير فالجواب من وجهين ( احدهما ) ما اختصت به مكة من حصول مزيد في الأمن وهو ان الخائف كان اذا التجأ الى مكة امن وكان الناس مع شدة العداوة بينهم يتلاقون بمكة فلا يخاف بعضهم بعضا ومن ذلك امن الوحش فانهم يقربون من الناس اذا كانوا بمكة ويكونون مستوحشين عن الناس خارج مكة فهذا النوع من الامن حاصل في مكة فوجب حمل الدعاء عليه ( والوجه الثاني ) ان يكون المراد من قوله اجعل هذا البلد آمنا اى بالامر والحكم بجعله آمنا وذلك الامر والحكم

( حاصل )

الدنياوية ولا يعجل عقوبتهم حسبما يشاهد وهو استئناف وقع تعليلا للنهي السابق اى دم على ما كنت عليه من عدم حسبانه تعالى غافلا عن اعمالهم ولا تحزن بتأخير ما تستوجبه من العذاب الاليم اذ تأخيره للتشديد والتغليظ اولا تحسبنه تعالى تاركا لعقوبتهم لما ترى من تاخيرها انما ذلك لاجل هذا اولا تحسبنه تعالى يعاملهم معاملة الغافل ولا يؤاخذهم بما عملوا لما ترى من التأخير انما هو لهذه الحكمة وقرئ بالنون وايقاع التأخير عليهم مع ان المؤخر انما هو عذابهم لتهويل الخطب وتفظيع الحال ببيان انهم متوجهون الى العذاب مرصدون لامر ما لا انهم باقون باختيارهم وللدلالة على ان حقهم من العذاب هو الاستئصال بالمرة وان لا يبقى منهم في الوجود عين ولا اثر وللايذان بأن المؤخر له من جملة العذاب وعنوانه ولو قيل انما يؤخر عذابهم الخ لما فهم ذلك ( ليوم ) هائل ( تشخص فيه الابصار ) ترتفع ابصار اهل الموقف فيدخل في زمرتهم الكفرة المعهودون دخولا اوليا اى تبقى مفتوحة لا تحرك اجفانهم من هول ما يرونه واعتبار عدم قرارها في اماكنها اما باعتبار الارتفاع الحسي في جرم العين واما بجعل الصيغة من شخص من بلد الى بلد وسار في ارتفاع ( مهطعين ) مسرعين الى الداعي مقبلين عليه بالخوف والذل والخشوع او مقبلين بابصارهم عليه لا يقلعون عنه ولا يطرفون هيبة وخوفا وحيث كان ادامة النظر ههنا بالنظر الى الداعي قيل ( مقنعي رؤسهم ) اى رافعيها مع ادامة النظر من غير التفات الى

حاصل لامحالة والجواب عن السؤال الثانى قال الزجاج معناه ثبتنى على اجتناب عبادتها كما قال واجعلنا مسلمين لك اى ثبتنا على الاسلام ولقائل أن يقول السؤال باق لانه لما كان من المعلوم انه تعالى يثبت الانبياء عليهم السلام على الاجتناب من عبادة الاصنام فما الفائدة فى هذا السؤال والصحيح عندى فى الجواب وجهان (الاول) انه عليه السلام وان كان يعلم انه تعالى يعصمه من عبادة الاصنام الا انه ذكر ذلك هضما للنفس واظهارا للحاجة والفاقة الى فضل الله فى كل المطالب (والثانى) ان الصوفية يقولون ان الشرك نوعان شرك جلى وهو الذى يقول به المشركون وشرك خفى وهو تعليق القلب بالوسايط وبالاسباب الظاهرة والتوحيد المحض هو ان ينقطع نظره عن الوسايط ولا يرى متصرفا سوى الحق سبحانه وتعالى فيحتمل ان يكون قوله واجنبنى وبنى ان نعبد الاصنام المراد منه انه يعصمه عن هذا الشرك الخفى والله اعلم بمراده والجواب عن السؤال الثالث من وجوه (الاول) قال صاحب الكشاف قوله وبنى اراد بنيه من صلبه والفائدة فى هذا الدعاء عين الفائدة التى ذكرناها فى قوله واجنبنى (الثانى) قال بعضهم اراد من اولاده واولاد اولاده كل من كانوا موجودين حال الدعاء ولا شبهة ان دعوته مجابة فيهم (الثالث) قال مجاهد لم يعبد احد من ولد ابراهيم عليه السلام صنما والصنم هو التمثال المصور وما ليس بمصور فهو وثن وكفار قريش ما عبدوا التمثال وانما كانوا يعبدون احجارا مخصوصة واشجارا مخصوصة وهذا الجواب ليس بقوى لانه عليه السلام لا يجوز ان يريد بهذا الدعاء الا عبادة غير الله تعالى والحجر كالصنم فى ذلك (الرابع) ان هذا الدعاء مختص بالمؤمنين من اولاده والدليل عليه انه قال فى آخر الآية فمن تبعنى فانه منى وذلك يفيد ان من لم يتبعه على دينه فانه ليس منه ونظيره قوله تعالى لنوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح (الخامس) لعله وان كان عمم فى الدعاء الا ان الله تعالى اجاب دعاءه فى حق البعض دون البعض وذلك لا يوجب تحقير الانبياء عليهم السلام ونظيره قوله تعالى فى حق ابراهيم عليه السلام قال انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين (المسئلة الثالثة) احتج اصحابنا بقوله واجنبنى وبنى ان نعبد الاصنام على ان الكفر والايمان من الله تعالى وتقرير الدليل ان ابراهيم عليه السلام طلب من الله ان يجنبه ويجنب اولاده من الكفر فدل ذلك على ان التبعيد من الكفر والتقريب من الايمان ليس الا من الله تعالى وقول المعتزلة انه محمول على الالطاف فاسد لانه عدول عن الظاهر ولانا قد ذكرنا وجوها كثيرة فى افساد هذا التأويل ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام انه قال رب انهن اضللن كثيرا من الناس واتفق كل الفرق على ان قوله اضللن مجاز لانها جمادات والجماد لا يفعل شيئا البتة الا انه لما حصل الاضلال عند عبادتها اضيف اليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم اى افتتنوا بها واغتروا بسببها ثم قال فمن تبعنى فانه منى يعنى من تبعنى فى دينى واعتقادى فانه منى اى جار مجرى بعضى لفرط اختصاصه بى وقربه

شئ قاله العتبى وابن عرفة اوناكسيها ويقال اقنع (٣٥٩) رأسه اى طأطأها ونكسها فهو من الاضداد وهما حالان مما دل عليه الابصار من اصحابها او الثانى حال متداخلة من الضمير فى الاول واضافته غير حقيقية فلا ينافى الحالية (لا يرتد اليهم طرفهم) اى لا يرجع اليهم تحريك اجفانهم حسبما كان يرجع اليهم كل لحظة بل تبقى اعينهم مفتوحة لا تطرف اولا ترجع اليهم اجفانهم التى هى آلة الطرف فيكون اسناد الرجوع الى الطرف مجازيا او هو نفس الجفن قال الفيروز ابادى الطرف العين لا يجمع لانه مصدر فى الاصل او اسم جامع للعين اولا يرجع نظرهم الى انفسهم فضلا عن ان يرجع الى شئ آخر فيبقون مبهوتين وهو ايضا حال او بدل من مقنعى الخ او استئناف والمعنى لا يزول ما اعتراهم من شخوص الابصار وتأخيره عما هو من تتمته من الاهطاع والاقناع مع ما بينه وبين الشخوص المذكور من المناسبة لتربية هذا المعنى (وافئدتهم هواء) خالية من العقل والفهم لفرط الحيرة والدهش كأنها نفس الهواء الخالى من كل شاغل ومنه قيل للجبان والاحمق قلبه هواء اى لا قوة ولا رأى فيه واعتبار خلوها عن كل خير لا يناسب المقام وهو اما حال عاملها لا يرتد مفيدة لكون شخوص ابصارهم وعدم ارتداد طرفهم بلا فهم ولا اختيار او جملة مستقلة (وانذر الناس) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد اعلامه ان تأخيرهم لماذا وامر له بانذارهم وتخويفهم منه والمراد بالناس الكفار المعبر عنهم بالظالمين كما يقتضيه ظاهر اتيان العذاب والعدول اليه من الاضمار للاشعار بأن المراد بالانذار هو الزجر عما هم عليه من الظلم شفقة عليهم لا التخويف للازعاج والايذاء

بنى ومن عصانى فى غير الدين فانك غفور رحيم واحتج اصحابنا بهذه الآية على ان ابراهيم عليه السلام ذكر هذا الكلام والغرض منه الشفاعة فى حق اصحاب الكبائر من امته والدليل عليه ان قوله ومن عصانى فانك غفور رحيم صريح فى طلب المغفرة والرحمة لأولئك العصاة فنقول أولئك العصاة اما ان يكونوا من الكفار اولا يكونوا كذلك والاول باطل من وجهين (الاول) انه عليه السلام بين فى مقدمة هذه الآية انه مبرأ عن الكفار وهو قوله واجنبنى وبنى ان نعبد الاصنام وايضا قوله فمن تبعنى فانه منى يدل بمفهومه على ان من لم يتبعه على دينه فانه ليس منه ولا يهتم باصلاح مهماته (والثانى) ان الامة مجمعة على ان الشفاعة فى اسقاط عقاب الكفر غير جائزة ولما بطل هذا ثبت ان قوله ومن عصانى فانك غفور رحيم شفاعة فى العصاة الذين لا يكونون من الكفار واذا ثبت هذا فنقول تلك المعصية اما ان تكون من الصغائر او من الكبائر بعد التوبة او من الكبائر قبل التوبة والاول والثانى باطلان لان قوله ومن عصانى اللفظ فيه مطلق فتخصيصه بالصغيرة عدول عن الظاهر وايضا فالصغائر والكبائر بعد التوبة واجبة الغفران عند الخصوم فلا يمكن حمل اللفظ عليه وثبت ان هذه الآية شفاعة فى اسقاط العقاب عن اهل الكبائر قبل التوبة واذا ثبت حصول هذه الشفاعة فى حق ابراهيم عليه السلام ثبت حصولها فى حق محمد صلى الله عليه وسلم لوجوه الاول انه لا قائل بالفرق والثانى وهو ان هذا المنصب اعلى المناصب فلو حصل لابراهيم عليه السلام مع انه غير حاصل لمحمد صلى الله عليه وسلم لكان ذلك نقصانا فى حق محمد عليه السلام والثالث ان محمدا صلى الله عليه وسلم مأمور بالاقتداء بابراهيم عليه السلام لقوله تعالى اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده وقوله ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا فهذا وجه قريب فى اثبات الشفاعة لمحمد صلى الله عليه وسلم وفى اسقاط العقاب عن اصحاب الكبائر والله اعلم اذا عرفت هذا فلنذكر اقوال المفسرين قال السدى معناه ومن عصانى ثم تاب وقيل ان هذا الدعاء انما كان قبل ان يعلم ان الله تعالى لا يغفر الشرك وقيل من عصانى باقامته على الكفر فانك غفور رحيم يعنى انك قادر على ان تغفر له وترحمه بأن تنقله عن الكفر الى الاسلام وقيل المراد من هذه المغفرة ان لا يعاجلهم بالعقاب بل يمهلهم حتى يتوبوا او يكون المراد ان لا تعجل اخترامهم فتفوتهم التوبة واعلم ان هذه الوجوه ضعيفة اما الاول وهو حمل هذه الشفاعة على المعصية بشرط التوبة فقد ابطلناه واما الثانى وهو قوله ان هذه الشفاعة انما كانت قبل ان يعلم ان الله لا يغفر الشرك فنقول هذا ايضا بعيد لانا بينا ان مقدمة هذه الآية تدل على انه لا يجوز ان يكون مراد ابراهيم عليه السلام من هذا الدعاء هو الشفاعة فى اسقاط عقاب الكفر واما الثالث وهو قوله المراد من كونه غفورا رحيما ان ينقله من الكفر الى الايمان فهو ايضا بعيد لان المغفرة والرحمة مشعرة باسقاط العقاب ولا اشعار فيهما بالنقل من صفة الكفر الى صفة الايمان والله اعلم واما الرابع وهو ان

---

فالمناسب عدم ذكرهم بعنوان الظلم اوالناس جميعا فان الانذار عام للفريقين كقوله تعالى انما تنذر من اتبع الذكر والاتيان يعمهما من حيث كونهما فى الموقف وان كان لحوقه بالكفار خاصة اى انذرهم وخوفهم (يوم يأتيهم العذاب) المعهود وهو اليوم الذى وصف بما لا يوصف من الاوصاف الهائلة اعنى يوم القيامة وقيل هو يوم موتهم معذبين بالسكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى او يوم هلاكهم بالعذاب العاجل ويأباه القصر السابق (فيقول الذين ظلموا) اى فيقولون والعدول عنه الى ما عليه النظم الكريم للتسجيل عليهم بالظلم وللاشعار بان مالقوه من الشدة انما هو لظلمهم وايثاره على صيغة الفاعل حسبما ذكر اولا للايذان بأن الظلم فى الجملة كاف فى الافضاء الى ما ذكر من الاهوال من غير حاجة الى الاستمرار عليه كما ينبئ عنه صيغة الفاعل وعلى تقدير كون المراد بالناس من يعم المسلمين ايضا فالمعنى الذين ظلموا منهم وهم الكفار اويقول كل من ظلم بالشرك والتكذيب من المنذرين وغيرهم من الامم الخالية فان اتيان العذاب يعمهم كما يشعر بذلك وعدهم باتباع الرسل (ربنا اخرنا) ردنا الى الدنيا وامهلنا (الى اجل قريب) الى امد وحد من الزمان قريب (نجب دعوتك) اى الدعوة اليك والى توحيدك او دعوتك لنا على ألسنة الرسل ففيه ايماء الى انهم صدقوهم فى انهم مرسلون من عند الله تعالى (ونتبع الرسل) فيما جاؤنا به اى نتدارك ما فرطنا فيه من اجابة الدعوة واتباع الرسل والجمع اما باعتبار اتفاق الجميع على التوحيد وكون عصيانهم للرسول صلى الله عليه وسلم عصيانا لهم جميعا واما باعتبار ان المحكى كلام ظالمى الامم جميعا والمقصود بيان وعد كل (تحمل)

تحمل المغفرة والرحمة على ترك تعجيل العقاب او ترك تعجيل الاماتة فنقول هذا باطل لان كفار زماننا هذا اكثر منهم ولم يعاجلهم الله تعالى بالعقاب ولا بالموت مع ان اهل الاسلام متفقون على انهم ليسوا مغفورين ولا مرحومين فبطل تفسير المغفرة والرحمة على ترك تعجيل العقاب بهذا الوجه وظهر بما ذكرنا صحة ما قررناه من الدليل والله اعلم ❊ قوله تعالى (ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شئ فى الارض ولا فى السماء الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق ان ربى لسميع الدعاء رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) اعلم انه سبحانه وتعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام فى هذا الموضع انه طلب فى دعائه امورا سبعة (الاول) طلب من الله نعمة الامان وهو قوله رب اجعل هذا البلد آمنا والابتداء بطلب نعمة الامن فى هذا الدعاء يدل على انه اعظم انواع النعم والخيرات وانه لا يتم شئ من مصالح الدين والدنيا الا به وسئل بعض العلماء آلامن افضل ام الصحة فقال الأمن افضل والدليل عليه ان شاة لو انكسرت رجلها فانها تصح بعد زمان ثم انها تقبل على الرعى والاكل ولو انها ربطت فى موضع وربط بالقرب منها ذئب فانها تمسك عن العلف ولا تتناوله الى ان تموت وذلك يدل على ان الضرر الحاصل من الخوف اشد من الضرر الحاصل من الم الجسد (والمطلوب الثانى) ان يرزقه الله التوحيد ويصونه عن الشرك وهو قوله واجنبنى وبنى ان نعبد الاصنام (والمطلوب الثالث) قوله ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم فقوله من ذريتى اى بعض ذريتى وهو اسمعيل ومن ولد منه بواد هو وادى مكة غير ذى زرع اى ليس فيه شئ من زرع كقوله قرآنا عربيا غير ذى عوج بمعنى لا يحصل فيه اعوجاج عند بيتك المحرم وذكروا فى تسميته بالمحرم وجوها (الاول) ان الله حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرما لمكانه (الثانى) انه كان لم يزل ممتنعا عزيزا يهابه كل جبار كالشئ المحرم الذى حقه ان يجتنب (الثالث) سمى محرما لانه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه (الرابع) انه حرم على الطوفان اى منع منه كما سمى عتيقا لانه اعتق منه فلم يستعل عليه (الخامس) امر السائرين اليه ان يحرموا على انفسهم اشياء كانت تحل لهم من قبل (السادس) حرم موضع البيت حين خلق السموات والارض وحفه بسبعة من الملائكة وهو مثل البيت المعمور الذى بناه آدم فرفع الى السماء السابعة (السابع) حرم على عباده ان يقربوه بالدماء والاقذار وغيرها روى ان هاجر كانت امة لسارة فوهبتها لابراهيم عليه السلام فولدت اسمعيل عليه السلام فقالت سارة كنت ارجو ان يهب الله لى ولدا من خليله فمنعنيه ورزقه خادمتى وقالت لابراهيم بعدهما منى فنقلهما الى مكة واسمعيل رضيع ثم رجع فقالت هاجر الى من تكلنا فقال الى الله ثم دعا الله تعالى بقوله ربنا

---

امة باتباع رسولها (اولم تكونوا اقسمتم من قبل) على اضمار القول معطوفا على فيقول اى فيقال لهم توبيخا وتبكيتا الم تؤخروا فى الدنيا اولم تكونوا أقسمتم اذ ذاك بألسنتكم بطرا واشرا وجهلا وسفها (مالكم من زوال) مما انتم عليه من التمتع بالحظوظ الدنيوية او بألسنة الحال حيث بنيتم مشيدا وأملتم بعيدا ولم تحدثوا انفسكم بالانتقال منها الى هذه الحالة وفيه اشعار بامتداد زمان التأخير وبعد مداه اومالكم من زوال من هذه الدار الى دار اخرى للجزاء كقوله تعالى واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت وصيغة الخطاب فى جواب القسم لمراعاة حال الخطاب فى اقسمتم كما فى قوله حلف بالله لتخرجن وهو ادخل فى التوبيخ من ان يقال مالنا مراعاة الحال المقسم ذكر البيهقى عن محمد بن كعب القرظى انه قال لاهل النار خمس دعوات يجيبهم الله تعالى فى اربع منها فاذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها ابدا يقولون ربنا امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل فيجيبهم الله تعالى ذلكم بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير ثم يقولون ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون فيجيبهم الله تعالى فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا الآية ثم يقولون ربنا اخرنا الى اجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل فيجيبهم الله تعالى أولم تكونوا اقسمتم الآية ثم يقولون ربنا اخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل فيجيبهم الله تعالى أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ( ٤٦ ) (را) (خا) فيجيبهم الله تعالى اخسؤا فيها ولا تكلمون فلا يتكلمون بعدها

انى اسكنت من ذريتى بوادالى آخرالآية ثم انها عطشت وعطش الصبى فانتهت بالصبى الى موضع زمزم فضرب بقدمه ففارت عينافقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله ام اسمعيل لولا انها عجلت لكانت زمزم عينامعيناثم ان ابراهيم عليه السلام عاد بعد كبر اسمعيل واشتغل هو مع اسمعيل برفع قواعدالبيت قال القاضى اكثر الامور المذكورة فى هذه الحكاية بعيدة لانه لايجوز لابراهيم عليه السلام ان ينقل ولده الى حيث لاطعام ولاماء مع انه كان يمكنه ان ينقلهما الى بلدة اخرى من بلادالشام لاجل قول سارة الااذا قلنا ان الله اعلمه انه يحصل هناك ماء وطعام واقول اماظهور ماء زمزم فيحتمل ان يكون ارهاصالاسمعيل عليه السلام لان ذلك عندنا جائز خلافا للمعتزلة وعندالمعتزلة انه معجزة لابراهيم عليه السلام ثم قال ربناليقيموا الصلاة واللام متعلقة بأسكنت اى اسكنت قوما من ذريتى وهم اسمعيل واولاده بهذاالوادى الذى لازرع فيه ليقيموا الصلاة ثم قال واجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وفيه مباحث ( البحث الاول) قال الاصمعى هوى يهوى هويا بالفتح اذاسقط من علو الى سفل وقيل تهوى اليهم تريدهم وقيل تسرع اليهم وقيل تنحط اليهم وتنحدر اليهم وتنزل يقال هوى الحجر من رأس الجبل يهوى اذا انحدر وانصب وهوى الرجل اذا انحدر من رأس الجبل (البحث الثانى) ان هذا الدعاء جامع للدين والدنيا أما الدين فلانه يدخل فيه ميل الناس الى الذهاب الى تلك البلدة بسبب النسك والطاعة لله تعالى واماالدنيا فلانه يدخل فيه ميل الناس الى نقل المعاشات اليهم بسبب التجارات فلاجل هذاالميل يتسع عيشهم ويكثر طعامهم ولباسهم (البحث الثالث ) كلمة من فى قوله فاجعل افئدة من النــاس تهوى اليهم تفيد التبعيض والمعنى فاجعل افئــدة بعض النــاس مائلة اليهم قال مجاهد لو قال افئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهنــد وقال سعيد بن جبير لو قال افئدة الناس لحجت اليهود والنصارى والمجوس ولكنه قال افئدة من الناس فهم المسلمون ثم قال وارزقهم من الثمرات وفيه بحثان ( البحث الاول ) انه لم يقل وارزقهم الثمرات بل قال وارزقهم من الثمرات وذلك يدل على ان المطلوب بالدعاء اتصال بعض الثمرات اليهم ( البحث الثانى) يحتمل ان يكون المراد بايصال الثمرات اليهم ايصالها اليهم على سبيل التجارات وانمايكون المراد عمارة القرى بالقرب منها لتحصيل تلك الثمار منها ثم قال لعلهم يشكرون وذلك يدل على ان المقصود للعاقل من منافع الدنيا ان يتفرغ لأداء العبادات واقامة الطاعات فان ابراهيم عليه السلام بين انه انما طلب تيسير المنافع على اولاده لاجل ان يتفرغوا لاقامة الصلاة واداء الواجبات( المطلوب الرابع ) قوله ربنا انك تعلم مانخفى ومانعلن واعلم انه عليه السلام لما طلب من الله تيسيــر المنافع لاولاده وتسهيلها عليهم ذكر انه لايعلم عواقب الاحوال ونهايات الامور فى المستقبل وانه تعالى هو العالم بهـا والمحيط بأسرارها فقال ربنا انك تعلم مانخفى ومانعلن والمعنى انك اعلم بأحوالنا ومصالحنا ومفاسدنا منا قيل مانخفى من الوجد بسبب حصول الفرقة بينى وبين

ايذان ان هو الازفير وشهيق وعندذلك انقطع رجاؤهم واقبل بعضهم ينبح ( ٣٦٢ ) فى وجه بعض واطبقت عليهم جهنم اللهم انا نعوذ بكنفك

نلوذ عن جارك وجل ثناؤك ولا اله غيرك (وسكنتم) من السكنى بمعنى التبوؤ والايطان وانما استعمل بكلمة فى حيث قيل (فى مساكن الذين ظلموا انفسهم) جريا على الاصل لانه منقول عن مطلق السكون الذى حقه التعدية بها اومن السكون واللبث اى قررتم فى مساكنهم مطمئنين سائرين سيرتهم فى الظلم بالكفر والمعاصى غير محدثين لانفسكم بما لقوا بسبب مااجترحوا من الموبقات وفى ايقــاع الظلم على انفسهم بعد اطلاقه فيما سلف ايذان بأن غائلة الظلم آيلة الى صاحبه والمراد بهم اما جميع من تقدم من الامم المهلكة على تقدير اختصاص الاستمهال والخطاب الســابق بالمنذرين واما اوائلهم من قوم نوح وهود على تقدير عمومهما للكل وهذا الخطاب ومايتلوه باعتبار حال اواخرهم (وتبين لكم) بمشاهدة الآثار وتواتر الاخبار (كيف فعلنا بهم) من الاهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد وكيف منصوب بما بعده من الفعل وليس الجملة فاعلا لتبين كما قاله بعض الكوفيين بل فاعله مادلت هى عليه دلالة واضحة اى فعلنا العجيب بهم وفيه من المبــالغة ماليس فى ان يقال مافعلنا بهم كما فى قوله تعالى ليسجننه وقرئ وبين (وضربنا لكم الامثال ) اى بينــا لكم فى القرآن العظيم عــلى تقدير اختصاص الخطاب بالمنذرين او على ألسنة الانبياء عليهم السلام على تقدير عمومه لجميع الظالمين صــفات مافعلوا وما فعل بهم من الامور التى هى فى الغرابة كالامثــال المضروبة لكل ظالم لتعتبروا بها وتقيسوا أعمالكم على اعمالهم ومآلكم على مآلهم وتنتقلوا من حلول العذاب العاجل الى حلول العذاب (اسمعيل)

اسمعيل و مانعلن من البكاء وقيل مانخفي من الحزن المتمكن في القلب و مانعلن يريد ماجرى
بينه وبين هاجر حيث قالت له عند الوداع الى من تكلنا فقال الى الله اكلكم قالت آلله
امرك بهذا قال نعم قالت اذن لانخشى ثم قال ومايخفى على الله من شئ في الارض ولا في
السماء وفيه قولان (احدهما) انه كلام الله عز وجل تصديقا لابراهيم عليه السلام
كقوله وكذلك يفعلون (والثاني) انه من كلام ابراهيم عليه السلام يعني ومايخفى على
الذي هو عالم الغيب من شئ في كل مكان ولفظ من يفيد الاستغراق كأنه قيل ومايخفى
عليه شئ ما ثم قال الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسمعيل واسحق وفيه مباحث (البحث
الاول) اعلم ان القرآن يدل على انه تعالى انما اعطى ابراهيم عليه السلام هذين الولدين
اعني اسمعيل واسحق على الكبر والشيخوخة فأما مقدار ذلك السن فغير معلوم من
القرآن وانما يرجع فيه الى الروايات فقيل لما ولد اسمعيل كان سن ابراهيم تسعا وتسعين
سنة ولما ولد اسحق كان سنه مائة واثنتي عشرة سنة وقيل ولد له اسمعيل لاربع وستين
سنة وولد اسحق لتسعين سنة وعن سعيد بن جبير لم يولد لابراهيم الا بعد مائة وسبع عشرة
سنة وانما ذكر قوله على الكبر لان المنة بهبة الولد في هذا السن اعظم من حيث ان هذا
الزمان زمان وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة في وقت اليأس من اعظم النعم
ولان الولادة في تلك السن العالية كانت آية لابراهيم * فان قيل ان ابراهيم عليه السلام
انما ذكر هذا الدعاء عندما اسكن اسمعيل وهاجر امه في ذلك الوادي وفي ذلك الوقت ماولد له
اسحق فكيف يمكنه ان يقول الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسمعيل واسحق * قلنا قال
القاضي هذا الدليل يقتضي ان ابراهيم عليه السلام انما ذكر هذا الكلام في زمان آخر
لاعقيب ماتقدم من الدعاء ويمكن ايضا ان يقال انه عليه السلام انما ذكر هذا الدعاء بعد
كبر اسمعيل وظهور اسحق وان كان ظاهر الروايات بخلافه (البحث الثاني) على في قوله
على الكبر بمعنى مع كقول الشاعر

اني على ماترين من كبري * اعلم من حيث يؤكل الكتف

وهو في موضع الحال ومعناه وهب لي في حال الكبر (البحث الثالث) في المناسبة بين قوله
ربنا انك تعلم مانخفي ومانعلن ومايخفى على الله من شئ في الارض ولا في السماء وبين قوله
الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسمعيل واسحق وذلك هو كأنه كان في قلبه ان يطلب
من الله اعانتهما واعانة ذريتهما بعد موته ولكنه لم يصرح بهذا المطلوب بل قال ربنا انك
تعلم مانخفي ومانعلن اي انك تعلم مافي قلوبنا وضمائرنا ثم قال الحمد لله الذي وهب لي على
الكبر اسمعيل واسحق وذلك يدل ظاهرا على انهما يبقيان بعد موته وانه مشغول القلب
بسببهما فكان هذا دعاء لهما بالخير والمعونة بعد موته على سبيل الرمز والتعريض وذلك
يدل على ان الاشتغال بالثناء عند الحاجة الى الدعاء افضل من الدعاء قال عليه السلام حاكيا
عن ربه انه قال من شغله ذكري عن مسألتي اعطيته افضل ما اعطي السائلين ثم قال ان ربي

الاجل فترتدعوا عما كنتم فيه من الكفر والمعاصي  او بينا لكم انكم مثلهم في الكفر واستحقاق العذاب والجمل الثلاث
في موقع الحال من ضمير اقسمتم اي
اقسمتم بالخلود والحال انكم سكنتم في
مساكن المهلكين بظلمهم وتبين
لكم فعلنا العجيب بهم ونبهنا كم
على جلية الحال بضرب الامثال
وقوله عز وجل (وقد مكروا
مكرهم) حال من الضمير الاول
في فعلنا بهم او من الثاني او منهما
جميعا وانما قدم عليه قوله تعالى
وضربنا لكم الامثال لشدة ارتباطه
بما قبله اي فعلنا بهم مافعلنا والحال
انهم قد مكروا في ابطال الحق
وتقرير الباطل مكرهم العظيم
الذي استفرغوا في عمله المجهود
وجاوزوا فيه كل حد معهود
بحيث لايقدر عليه غيرهم فالمراد
بيان تناهيهم في استحقاق مافعل
بهم او قد مكروا مكرهم المذكور
في ترتيب مبادي البقاء ومدافعة
اسباب الزوال فالمقصود اظهار
عجزهم واضمحلال قدرتهم
وحقارتها عند قدرة الله تعالى
(وعند الله مكرهم) اي جزاء
مكرهم الذي فعلوه على ان
المكر مضاف الى فاعله او اخذه
تعالى بهم على انه مضاف الى
مفعوله وتسميته مكرا لكونه
بمقابلة مكرهم وجودا وذكرا
او لكونه في صورة المكر في الاتيان
من حيث لايشعرون وعلى
التقديرين فالمراد به ما افاده قوله
عز وجل كيف فعلنا بهم لا أنه
وعيد مستأنف والجملة حال من
الضمير في مكروا اي مكروا مكرهم
وعند الله جزاؤه اوماهو اعظم
منه والمقصود بيان فساد رأيهم
حيث باشروا فعلا مع تحقق
مايوجب تركه (وان كان مكرهم)
في العظم والشدة (لتزول منه
الجبال) اي وان كان مكرهم في غاية
المتانة والشدة وعبر عن ذلك بكونه مسوى ومعدا لازالة الجبال عن مقارها لكونه مثلا في ذلك والجملة المصدرة بان الوصلية معطوفة على

لسميع الدعاء واعلم انه لماذكر الدعاء على سبيل الرمز والتعريض لاعلى وجه الايضاح والتصريح قال ان ربى لسميع الدعاء اى هو عالم بالمقصود سواء صرحت به اولم اصرح وقوله سميع الدعاء من قولك سمع الملك كلام فلان اذا اعتد به وقبله ومنه سمع الله لمن حمده (المطلوب الخامس) قوله رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج اصحابنا بهذه الآية على ان افعال العبد مخلوقة لله تعالى فقالوا ان قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام اجنبنى وبنى ان نعبد الاصنام يدل على ان ترك المنهيات لايحصل الامن الله وقوله رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى يدل على ان فعل المأمورات لايحصل الامن الله وذلك تصريح بأن ابراهيم عليه السلام كان مصرا على ان الكل من الله (المسئلة الثانية) تقدير الآية رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى اى واجعل بعض ذريتى كذلك لان كلمة من فى قوله ومن ذريتى للتبعيض وانما ذكر هذا التبعيض لانه علم باعلام الله تعالى انه يكون فى ذريته جمع من الكفار وذلك قوله لاينال عهدى الظالمين (المطلوب السادس) انه عليه السلام لمادعا الله فى المطالب المذكورة دعا الله تعالى فى ان يقبل دعاءه فقال ربنا وتقبل دعاء وقال ابن عباس يريد عبادتى بدليل قوله تعالى واعتزلكم وماتدعون من دون الله (المطلوب السابع) قوله ربنا اغفرلى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لقائل ان يقول طلب المغفرة انما يكون بعد سابقة الذنب فهذا يدل على انه كان قد صدر الذنب عنه وانه كان قاطعا بأن الله يغفرله فكيف طلب تحصيل ماكان قاطعا بحصوله والجواب المقصود منه الالتجاء الى الله تعالى وقطع الطمع الامن فضله وكرمه ورحمته (المسئلة الثانية) ان قال قائل كيف جاز ان يستغفر لأبويه وكانا كافرين فالجواب عنه من وجوه (الاول) ان المنع منه لايعلم الا التوقيف فلعله لم يجد منه منعا فظن كونه جائزا (الثانى) اراد بوالديه آدم وحواء (الثالث) كان ذلك بشرط الاسلام ولقائل ان يقول لو كان الامر كذلك لما كان ذلك الاستغفار باطلا ولولم يكن باطلا لبطل قوله تعالى الاقول ابراهيم لأبيه لاستغفرن لك وقال بعضهم كانت امه مؤمنة ولهذا السبب خص أباه بالذكر فى قوله تعالى فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه والله اعلم وفى قوله يوم يقوم الحساب قولان (الاول) يقوم اى يثبت وهو مستعار من قيام القائم على الرجل والدليل عليه قولهم قامت الحرب على ساقها ونظيره قوله ترجلت الشمس اى اشرقت وثبت ضوءها كأنها قامت على رجل (الثانى) ان يسند الى الحسنات قيام اهله على سبيل المجاز مثل قوله واسأل القرية اى اهلها والله اعلم ❊ قوله تعالى

(ولاتحسبن الله غافلا عمايعمل الظالمون انمايؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار مهطعين مقنعى رؤسهم لايرتد اليهم طرفهم وافئدتهم هواء) اعلم انه لمابين دلائل التوحيد ثم حكى عن ابراهيم عليه السلام انه طلب من الله ان يصونه عن الشرك وطلب منه ان يوفقه للاعمال الصالحة وان يخصه بالرحمة والمغفرة فى يوم القيامة ذكر بعد ذلك مايدل على وجود

جملة مقدرة والمعنى وعندالله جزاء مكرهم اوالمكر الذى يحيق بهم ان لم يكن مكرهم لتزول منه الجبال وان كان الخ وقد حذف ذلك حذفا مطردا لدلالة المذكور عليه دلالة واضحة فان الشئ اذا تحقق عند وجود المانع القوى فلأن يتحقق عند عدمه اولى وعلى هذه النكتة يدور مافى ان الوصلية من التأكيد المعنوى والجواب محذوف دل عليه ماسبق وهو قوله تعالى وعندالله مكرهم وقيل ان نافية واللام لتأكيدها كما فى قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وينصره قراءة ابن مسعود رضى الله عنه وما كان مكرهم فالجملة حينئذ حال من الضمير فى مكروا لامن قوله تعالى وعندالله مكرهم اى مكروا مكرهم والحال ان مكرهم لم يكن لتزول منه الجبال على انها عبارة عن آيات الله تعالى وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على ايدى الرسل السالفة عليهم السلام التى هى بمنزلة الجبال الراسيات فى الرسوخ واما كونها عبارة عن امر النبى صلى الله عليه وسلم وامر القرآن العظيم كما قيل فلا مجال له اذ الماكرون هم المهلكون لاالساكنون فى مساكنهم من المخاطبين وان خص الخطاب بالمنذرين وقيل هى مخففة من ان والمعنى انه كان مكرهم ليزول منه ماهو كالجبال فى الثبات مما ذكر من الآيات والشرائع والمعجزات والجملة كما هى حال من ضمير مكروا اى مكروا مكرهم المعهود وان الشان كان مكرهم لازالة الآيات والشرائع على معنى انه لم يكن يصح ان يكون منهم مكر كذلك وكان شأن الآيات والشرائع مانعا من مباشرة المكر لازالته وقد قرأ الكسائى لتزول بفتح اللام على انها الفارقة والمعنى تعظيم مكرهم فالجملة حال من قوله تعالى وعندالله مكرهم اى عنده تعالى جزاء مكرهم اوالمكر بهم والحال ان مكرهم بحيث تزول منه الجبال (يوم)

يوم القيامة ومايدل على صفة يوم القيامة اما الذى يدل على وجود القيامة فهو قوله ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون فالمقصود منه التنبيه على انه تعالى لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم لزم ان يكون اما غافلا عن ذلك الظالم او عاجزا عن الانتقام او كان راضيا بذلك الظلم ولما كانت الغفلة والعجز والرضا بالظلم محالا على الله امتنع ان لا ينتقم للمظلوم من الظالم فان قيل كيف يليق بالرسول صلى الله عليه وسلم ان يحسب الله موصوفا بالغفلة والجواب من وجوه (الاول) المراد به التثبيت على ما كان عليه من انه لا يحسب الله غافلا كقوله ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله الها آخر وكقوله يا ايها الذين آمنوا آمنوا (الثانى) ان المقصود منه بيان انه لو لم ينتقم لكان عدم الانتقام لاجل غفلته عن ذلك الظلم ولما كان امتناع هذه الغفلة معلوما لكل احد لاجرم كان عدم الانتقام محالا (الثالث) ان المراد ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون ولكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقير والقطمير (الرابع) ان يكون هذا الكلام وان كان خطابا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الظاهر الا انه يكون فى الحقيقة خطابا مع الامة وعن سفيان بن عيينة انه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم ثم بين تعالى انه انما يؤخر عقاب هؤلاء الظالمين ليوم موصوف بصفات (الصفة الاولى) انه تشخص فيه الابصار يقال شخص بصر الرجل اذا بقيت عينه مفتوحة لا يطرفها وشخوص البصر يدل على الحيرة والدهشة وسقوط القوة (الصفة الثانية) قوله مهطعين وفى تفسير الاهطاع اقوال اربعة (احدها) قال ابو عبيدة هو الاسراع يقال اهطع البعير فى سيره واستهطع اذا اسرع وعلى هذا الوجه فالمعنى ان الغالب من حال من يبقى بصره شاخصا من شدة الخوف ان يبقى واقفا فبين الله تعالى ان حالهم بخلاف هذا المعتاد فانهم مع شخوص ابصارهم يكونون مهطعين اى مسرعين نحو ذلك البلاء (القول الثانى) فى الاهطاع قال احمد بن يحيى المهطع الذى ينظر فى ذل وخشوع (الثالث) المهطع الساكت (الرابع) قال الليث يقال للرجل اذا قر وذل اهطع (الصفة الثالثة) قوله مقنعى رؤسهم والاقناع رفع الرأس والنظر فى ذل وخشوع فقوله مقنعى رؤسهم اى رافعى رؤسهم والمعنى ان المعتاد فيمن يشاهد البلاء انه يطرق رأسه عنه لكى لا يراه فبين تعالى ان حالهم بخلاف هذا المعتاد وانهم يرفعون رؤسهم (الصفة الرابعة) قوله لا يرتد اليهم طرفهم والمراد من هذه الصفة دوام ذلك الشخوص فقوله تشخص فيه الابصار لا يفيد كون هذا الشخوص دائما وقوله لا يرتد اليهم طرفهم يفيد دوام هذا الشخوص وذلك يدل على دوام تلك الحيرة والدهشة فى قلوبهم (الصفة الخامسة) قوله وافئدتهم هواء الهواء الخلاء الذى لم تشغله الاجرام ثم جعل وصفا فقيل قلب فلان هواء اذا كان خاليا لا قوة فيه والمراد بيان ان قلوب الكفار خالية يوم القيامة عن جميع الخواطر والافكار لعظم ما ينالهم من الحيرة ومن كل رجاء وامل لما تحققوه من العقاب ومن كل سرور لكثرة ما فيه من الحزن اذا عرفت هذه الصفات الخمسة فقد اختلفوا

اى فى غاية الشدة وقرئ بالفتح والنصب على لغة من يفتح لام كى وان كاد مكرهم هذا هو الذى يقتضيه النظم الكريم وينساق اليه الطبع السليم وقد قيل ان الضمير فى مكروا للمنذرين والمراد بمكرهم ما افاده قوله عز وجل واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك الآية وغيره من انواع مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ولعل الوجه حينئذ ان يكون قوله تعالى وقد مكروا الخ حالا من القول المقدر اى فيقال لهم مايقال والحال انهم مع مافعلوا من الاقسام المذكور مع ماينافيه من السكون فى مساكن المهلكين وتبين احوالهم وضرب الامثال قد مكروا مكرهم العظيم اى لم يكن الصادر عنهم مجرد الاقسام الذى ونحوا به بل اجترؤا على مثل هذه العظيمة وقوله تعالى وعند الله مكرهم حال من ضمير مكروا حسبما ذكرنا من قبل وقوله تعالى وان كان مكرهم لتزول منه الجبال مسوق لبيان عدم تفاوت الحال فى تحقيق الجزاء بين كون مكرهم قويا او ضعيفا كما مر هناك وعلى تقدير كون ان نافية فهو حال من ضمير مكروا والجبال عبارة عن امر النبى صلى الله عليه وسلم اى وقد مكروا والحال ان مكرهم ما كان لتزول منه هاتيك الشرائع والآيات التى هى فى القوة كالجبال وعلى تقدير كونها مخففة من الثقيلة واللام مكسورة يكون حالا منه ايضا على معنى ان ذلك المكر العظيم منهم كان لهذا الغرض على معنى انه لم يكن يصح ان يكون منهم مكر كذلك لما ان شان الشرائع اعظم من ان يمكر بها ماكر وعلى تقدير فتح اللام فهو حال من قوله تعالى وعند الله مكرهم كما ذكرنا من قبل فليتأمل (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) لم يرد به والله سبحانه اعلم ماوعده بقوله تعالى انا لننصر رسلنا الآية وقوله كتب الله لاغلبن انا ورسلى كما قيل

في وقت حصولها فقيل انها عند المحاسبة بدليل انه تعالى انما ذكر هذه الصفات عقيب وصف ذلك اليوم بأنه يوم يقوم الحساب وقيل انها تحصل عند ما يتميز فريق عن فريق والسعداء يذهبون الى الجنة والاشقياء الى النار وقيل بل يحصل عند اجابة الداعي والقيام من القبور والاول اولى للدليل الذى ذكرناه والله اعلم ❋ قوله تعالى (وانذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا اخرنا الى اجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا اقسمتم من قبل مالكم من زوال وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا انفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال) اعلم ان قوله يوم يأتيهم العذاب فيه ابحاث (البحث الاول) قال صاحب الكشاف يوم يأتيهم العذاب مفعول ثان لقوله وانذر وهو يوم القيامة (البحث الثانى) الالف واللام فى لفظ العذاب للمعهود السابق يعنى وانذر الناس يوم يأتيهم العذاب الذى تقدم ذكره وهو شخوص ابصارهم وكونهم مهطعين مقنعى رؤسهم (البحث الثالث) الانذار هو التخويف بذكر المضار والمفسرون مجموعون على ان قوله يوم يأتيهم العذاب هو يوم القيامة وحمله ابو مسلم على انه حال المعاينة والظاهر يشهد بخلافه لانه تعالى وصف اليوم بأن عذابهم يأتى فيه وانهم يسألون الرجعة ويقال لهم أولم تكونوا اقسمتم من قبل مالكم من زوال ولا يليق ذلك الا بيوم القيامة وحجة ابى مسلم ان هذه الآية شبيهة بقوله تعالى وانفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتى احدكم الموت فيقول رب لولا اخرتنى الى اجل قريب فأصدق ثم حكى الله سبحانه ما يقول الكفار فى ذلك اليوم فقال فيقول الذين ظلموا ربنا اخرنا الى اجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل واختلفوا فى المراد بقوله اخرنا الى اجل قريب فقال بعضهم طلبوا الرجعة الى الدنيا ليتلافوا ما فرطوا فيه وقال بعضهم بل طلبوا الرجوع الى حال التكليف بدليل قولهم نجب دعوتك ونتبع الرسل واما على قول ابى مسلم فتأويل هذه الآية ظاهر فقال تعالى مجيبا لهم أولم تكونوا اقسمتم من قبل مالكم من زوال ومعناه ماذكره الله تعالى فى آية اخرى وهو قوله تعالى واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت الى غير ذلك مما كانوا يذكرونه من انكار المعاد فقرعهم الله تعالى بهذا القول لان التقريع بهذا الجنس اقوى ومعنى مالكم من زوال لاشبهة فى انهم كانوا يقولون لازوال لنا من هذه الحياة الى حياة اخرى ومن هذه الدار الى دار المجازاة لانهم كانوا ينكرون ان يزولوا عن حياة الى موت او عن شباب الى هرم او عن فقر الى غنى ثم انه تعالى زادهم تقريعا آخر بقوله وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا انفسهم يعنى سكنتم فى مساكن الذين كفروا قبلكم وهم قوم نوح وعاد وثمود وظلموا انفسهم بالكفر والمعصية لان من شاهد هذه الاحوال وجب عليه ان يعتبر فاذا لم يعتبر كان مستوجبا للذم والتقريع ثم قال وتبين لكم كيف فعلنا بهم وظهر لكم ان عاقبتهم عادت الى الوبال والخزى والنكال فان قيل ولماذا قيل وتبين لكم كيف فعلنا بهم ولم يكن القوم يقرون بأنه تعالى اهلكهم لاجل تكذيبهم قلنا انهم علموا ان اولئك المتقدمين

عنه الفاء الداخلة على النهى الذى اريد به تثبيته عليه الصلاة والسلام على ما كان عليه من الثقة بالله تعالى والتيقن بانجاز وعده المذكور المقرون بالامر بانذارهم يوم اتيان العذاب المتضمن لذكر تعذيب الامم السالفة بسبب كفرهم وعصيانهم رسلهم بعدما وعدهم بذلك كما فصلت قصة كل منهم فى القرآن العظيم فكأنه قيل واذقد وعدناك بعذاب الظالمين يوم القيامة واخبرناك بما يلقونه من الشدائد وبما يسألونه من الرد الى الدنيا وبما اجبناهم به وقرعناهم بعدم تأملهم فى احوال من سبقهم من الامم الذين اهلكناهم بظلمهم بعد ماوعدنا رسلهم باهلاكهم فدم على ما كنت عليه من اليقين بعدم اخلافنا رسلنا وعدنا (ان الله عزيز) غالب لا يماكر قادر لا يقادر (ذوانتقام) لاوليائه من اعدائه والجملة تعليل للنهى المذكور وتذييل له وحيث كان الوعد عبارة عما ذكرنا من تعذيبهم خاصة لم يذيل بأن يقال ان الله لا يخلف الميعاد بل تعرض لوصف العزة والانتقام المشعرين بذلك والمراد بالانتقام ما اشير اليه بالفعل وعبر عنه بالمكر (يوم تبدل الارض غير الارض) ظرف لمضمر مستأنف ينسحب عليه النهى المذكور اى ينجزه يوم الخ او معطوف عليه نحو وارتقب يوم تبدل الارض غير الارض ولانتقام وهو يوم يأتيهم العذاب بعينه ولكن له احوال جمة يذكر كل مرة بعنوان مخصوص والتقييد به مع عموم انتقامه للاوقات كلها للافصاح عما

هو المقصود من تعذيب الكفرة المؤخر الى ذلك اليوم بموجب الحكمة الداعية اليه وقيل بدل من يوم يأتيهم العذاب او نصب باذكر (كانوا)

كانوا طالبين للدنيا ثم انهم فنوا و انقرضوا فعند هذا يعلمون انه لافائدة فى طلب الدنيا و الواجب الجد و الاجتهاد فى طلب الدين و الواجب على من عرف هذا ان يكون خائفا وجلا فيكون ذلك زجرا له هذا اذا قرئ بالتاء اما اذا قرئ بالنون فلاشبهة فيه لان التقدير كأنه تعالى قال اولم نبين لكم كيف فعلنا بهم و ليس كل مابين لهم تبينوه اما قوله وضربنا لكم الامثال فالمراد ما اورده الله فى القرآن مايعلم به انه قادر على الاعادة كما قدر على الابتداء و قادر على التعذيب المؤجل كما يفعل الهلاك المعجل و ذلك فى كتاب الله كثير والله اعلم

☼قوله تعالى (و قدمكروا مكرهم و عندالله مكرهم و ان كان مكرهم لتزول منه الجبال) اعلم انه تعالى لما ذكر صفة عقابهم اتبعها بذكر كيفية مكرهم فقال و قدمكروا مكرهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى ان الضمير فى قوله وقدمكروا الى ماذا يعود على وجوه (الاول) ان يكون الضمير عائدا الى الذين سكنوا فى مساكن الذين ظلموا انفسهم و هذا القول الصحيح لان الضمير يجب عوده الى اقرب المذكورات (الثانى) ان يكون المراد به قوم محمد صلى الله عليه وسلم و الدليل عليه قوله و انذر الناس يا محمد و قد مكر قومك مكرهم و ذلك المكر هو الذى ذكره الله تعالى فى قوله و اذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك و قوله مكرهم اى مكرهم العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم (الثالث) ان المراد من هذا المكر ما نقل ان نمروذ حاول الصعود الى السماء فاتخذ لنفسه تابوتا و ربط قوائمه الاربع بأربعة نسور وكان قدجوعها و رفع فوق الجوانب الاربعة من التابوت عصيا اربعا و علق على كل واحدة منهن قطعة لحم ثم انه جلس مع حاجبه فى ذلك التابوت فلما ابصرت النسور تلك اللحوم تصاعدت فى جو الهواء ثلاثة ايام و غابت الدنيا عن عين نمروذ ورأى السماء بحالها فنكس تلك العصى التى علق عليها اللحم فسفلت النسور و هبطت الى الارض فهذا هو المراد من مكرهم قال القاضى و هذا بعيد جدا لان الخطر فيه عظيم و لايكاد العاقل يقدم عليه و ماجاء فيه خبر صحيح معتمد و لاحجة فى تأويل الآية البتة ( المسئلة الثانية ) قوله و عندالله مكرهم فيه وجهان (الاول) ان يكون المكر مضافا الى الفاعل كالاول و المعنى و مكتوب عندالله مكرهم فهو يجازيهم عليه بمكر هو اعظم منه (و الثانى) ان يكون المكر مضافا الى المفعول و المعنى و عندالله مكرهم الذى يمكره بهم و هو عذابهم الذى يستحقونه يأتيهم به من حيث لايشعرون و لايحتسبون اما قوله تعالى و ان كان مكرهم لتزول منه الجبال فاعلم انه قرأ الكسائى وحده لتزول بفتح اللام الاولى ورفع اللام الاخرى منه و الباقون بكسر الاولى و نصب الثانية اما القراءة الاولى فمعناها ان مكرهم كان معدا لأن تزول منه الجبال و ليس المقصود من هذا الكلام الاخبار عن وقوعه بل التعظيم و التهويل و هو كقوله تكاد السموات يتفطرن منه و اما القراءة الثانية فالمعنى ان لفظة ان فى قوله و ان كان مكرهم بمعنى ما و اللام المكسورة بعدها يعنى بها الجحد و من سبيلها نصب الفعل المستقبل و النحويون يسمونها لام الجحد و مثله قوله تعالى و ما كان الله

---

او باضمار لايخاف وعده يوم تبدل الخ وفيه ايضا ما فى الوجه الثالث  من الحاجة الى الاعتذار ولايجوز ان ينتصب بقوله مخلف وعده لان ماقبل ان لايعمل فيما بعده وقيل هو غير مانع لان قوله تعالى ان الله عزيز ذو انتقام جملة اعتراضية فلايبالى بها فاصلا واعلم ان التبديل قد يكون فى الذات كما فى بدلت الدراهم دنانير وعليه قوله عز وجل بدلناهم جلودا غيرها وقد يكون فى الصفات كما فى قولك بدلت الحلقة خاتما اذا غيرت شكلها ومنه قوله تعالى يبدل الله سيئاتهم حسنات على بعض الاقوال والآية الكريمة ليست بنص فى احد الوجهين فعن على رضى الله عنه تبدل ارضا من فضة وسموات من ذهب وعن ابن مسعود رضى الله عنه تبدل الارض بأرض كالفضة بيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل عليها خطيئة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى تلك الارض وانما تغير صفاتها وانشد

وما الناس بالناس الذين عهدتهم
وما الدار بالدار التى كنت تعلم

وتبدل السموات بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها ابوابا ويدل عليه ماروى ابو هريرة رضى الله عنه انه عليه الصلاة والسلام قال تبدل الارض غير الارض فتبسط وتمد مد الاديم العكاظى لاترى فيها عوجا ولا امتا (والسموات) اى وتبدل السموات غير السموات حسبما مر من التفصيل وتقديم تبديل الارض لقربها منا ولكون تبديلها اعظم اثرا بالنسبة الينا (وبرزوا) اى الخلائق او الظالمون المدلول عليهم بمعونة السباق والمراد بروزهم من اجداثهم التى فى بطون الارض او ظهورهم بأعمالهم التى كانوا يعملونها سرا ويزعمون انها لاتظهر او يعملون عمل من يزعم ذلك ولعل اسناد البروز اليهم مع انه لأعمالهم للايذان بتشكلهم بأشكال تناسبها

ليطلعكم على الغيب ما كان الله ليذر المؤمنين و الجبال ههنا مثل لامر النبي صلى الله عليه وسلم ولامر دين الاسلام واعلامه ودلالته على معنى ان ثبوتها كثبوت الجبال الراسية لان الله تعالى وعد نبيه اظهار دينه على كل الاديان ويدل على صحة هذا المعنى قوله تعالى بعد هذه الآية فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله اى قد وعدك الظهور عليهم و الغلبة لهم والمعنى وما كان مكرهم لتزول منه الجبال اى وكان مكرهم اوهن واضعف من ان تزول منه الجبال الراسيات التى هى دين محمد صلى الله عليه وسلم ودلائل شريعته وقرأ على وعمرو ان كان مكرهم ❁ قوله تعالى (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ان الله عزيز ذو انتقام) اعلم انه تعالى قال فى الآية الاولى ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون وقال فى هذه الآية فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله والمقصود منه التنبيه على انه تعالى لو لم يقم القيامة ولم ينتقم للمظلومين من الظالمين لزم اما كونه غافلا واما كونه مخلفا فى الوعد ولما تقرر فى العقول السليمة ان كل ذلك محال كان القول بأنه لا يقيم القيامة باطلا وقوله مخلف وعده رسله يعنى قوله انا لننصر رسلنا وقوله كتب الله لأغلبن انا ورسلى فان قيل هلا قيل مخلف رسله وعده ولم قدم المفعول الثانى على الاول قلنا ليعلم انه لا تخلف الوعد اصلا ان الله لا يخلف الميعاد ثم قال رسله ليدل به على انه تعالى لما لم يخلف وعده احدا وليس من شأنه اخلاف المواعيد فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته وقرئ مخلف وعده رسله بجر الرسل ونصب الوعد والتقدير مخلف رسله وعده وهذه القراءة فى الضعف كمن قرأ قتل اولادهم شركائهم ثم قال ان الله عزيز اى غالب لا يماكر ذو انتقام لأوليائه ❁ قوله تعالى (يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الاصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ما كسبت ان الله سريع الحساب هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو اله واحد وليذكر أولو الالباب) اعلم ان الله تعالى لما قال عزيز ذو انتقام بين وقت انتقامه فقال يوم تبدل الارض غير الارض وعظم من حال ذلك اليوم لانه لا امر اعظم فى العقول والنفوس من تغير السموات والارض وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ذكر الزجاج فى نصب يوم وجهين اما على الظرف لانتقام او على البدل من قوله يوم يأتيهم العذاب (المسئلة الاولى) اعلم ان التبديل يحتمل وجهين احدهما ان تكون الذات باقية وتتبدل صفتها بصفة اخرى والثانى ان تفنى الذات الاولى وتحدث ذات اخرى والدليل على ان ذكر لفظ التبدل لارادة التغير فى الصفة جائز انه يقال بدلت الحلقة خاتما اذا اذبتها وسويتها خاتما فنقلتها من شكل الى شكل ومنه قوله تعالى فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ويقال بدلت قميصى جبة اى نقلت العين من صفة الى صفة اخرى ويقال تبدل زيد اذا تغيرت احواله واما ذكر لفظ التبديل عند وقوع التبدل فى الذوات فكقولك بدلت الدراهم دنانير ومنه قوله بدلناهم جلودا غيرها وقوله بدلناهم بجنتيهم جنتين اذا

وهو معطوف على تبدل والعدول الى صيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوعه اوحال من الارض بتقدير قد والرابط بينها وبين صاحبها الواو (لله الواحد القهار) للحساب والجزاء والتعرض للوصفين لتهويل الخطب وتربية المهابة واظهار بطلان الشرك وتحقيق الانتقام فى ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفا له وتحقيق اتيان العذاب الموعود على تقدير كونه بدلا من يوم يأتيهم العذاب فان الامر اذا كان لواحد غلاب لا يعار وقادر لا ينار ولا يغار كان فى غاية ما يكون من الشدة والصعوبة (وترى المجرمين) عطف على برزوا والعدول الى صيغة المضارع لاستحضار الصورة او للدلالة على الاستمرار واما البروز فهو دفعى لا استمرار فيه وعلى تقدير حالية برزوا فهو معطوف على تبدل ويجوز عطفه على عامل الظرف المقدم على تقدير كونه ينجزه (يومئذ) يوم اذ برزوا له عزوجل او يوم اذ تبدل الارض او يوم اذ ينجز وعده (مقرنين) قرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم فى الجرائم والجرائر او قرنوا مع الشياطين الذين اغووهم او قرنوا مع ما اقترفوا من العقائد الزائغة والملكات الردية والاعمال السيئة غب تصور كل منها وتشكلها بما يناسبها من الصورة الموحشة والاشكال الهائلة او قرنت ايديهم وارجلهم الى رقابهم وهو حال من المجرمين (فى الاصفاد) فى القيود او الاغلال وهو اما متعلق بقوله تعالى مقرنين او حال من ضميره اى مصفدين (سرابيلهم) اى قمصانهم (من قطران) جملة من مبتدأ وخبر محلها النصب على الحالية من المجرمين او من ضميرهم فى مقرنين رابطتها الضمير فقط كما فى كلته فوه الى فى او مستأنفة والقطران ما يتحلب من الابهل فيطبخ فتهنأ به الابل الجربى فيحرق الجرب بما فيه من الحدة الشديدة وقد تصل حرارته

عرفت ان اللفظ محتمل لكل واحد من هذين المفهومين ففى الآية قولان ( الاول ) ان
المراد تبديل الصفة لا تبديل الذات قال ابن عباس رضى الله عنهما هى تلك الارض
الا انها تغيرت فى صفاتها فتسير عن الارض جبالها وتفجر بحارها وتسوى فلا ترى فيها
عوج ولا امت وروى ابو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يبدل
الله الارض غير الارض فيبسطها ويمدها مد الاديم العكاظى فلا ترى فيها عوجا ولا امتا
وقوله والسموات اى تبدل السموات غير السموات وهو كقوله عليه السلام لا يقتل مؤمن
بكافر ولا ذو عهد فى عهده والمعنى ولا ذو عهد فى عهده بكافر وتبديل السموات بانتثار
كواكبها وانفطارها وتكوير شمسها وخسوف قمرها وكونها ابوابا وانها تارة تكون
كالمهل وتارة تكون كالدهان ( والقول الثانى ) ان المراد تبديل الذات قال ابن مسعود
تبدل بارض كالفضة البيضاء النقية لم يسفك عليها دم ولم تعمل عليها خطيئة فهذا شرح
هذين القولين ومن الناس من رجح القول الاول قال لان قوله يوم تبدل الارض المراد
هذه الارض والتبدل صفة مضافة اليها وعند حصول الصفة لابد وان يكون الموصوف
موجودا فلما كان الموصوف بالتبدل هو هذه الارض وجب كون هذه الارض باقية
عند حصول ذلك التبدل ولا يمكن ان تكون هذه الارض باقية مع صفاتها عند حصول
ذلك التبدل والا امتنع حصول التبدل فوجب ان يكون الباقى هو الذات فثبت ان هذه
الآية تقتضى كون الذات باقية والقائلون بهذا القول هم الذين يقولون ان عند قيام
القيامة لا يعدم الله الذوات والاجسام وانما يعدم صفاتها واحوالها واعلم انه لا يبعد ان
يقال المراد من تبديل الارض والسموات هو انه تعالى يجعل الارض جهنم ويجعل
السموات الجنة والدليل عليه قوله تعالى كلا ان كتاب الابرار لفى عليين وقوله كلا ان
كتاب الفجار لفى سجين والله اعلم اما قوله تعالى وبرزوا لله الواحد القهار فنقول اما البروز
لله فقد فسرناه فى قوله تعالى وبرزوا لله جميعا وانما ذكر الواحد القهار ههنا لان الملك اذا
كان لمالك واحد غلاب لا يغالب قهار لا يقهر فلا مستغاث لاحد الى غيره فكان الامر فى
غاية الصعوبة ونظيره قوله لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ولما وصف نفسه سبحانه
بكونه قهارا بين عجزهم وذلتهم فقال وترى المجرمين يومئذ واعلم انه تعالى ذكر من صفات
عجزهم وذلتهم امورا ( فالصفة الاولى ) كونهم مقرنين فى الاصفاد يقال قرنت الشئ بالشئ
اذا شددته به ووصلته والقران اسم للحبل الذى يشد به شيئان وجاء ههنا على التكثير لكثرة
اولئك القوم والاصفاد جمع صفد وهو القيد اذا عرفت هذا فنقول فى قوله مقرنين ثلاثة
اوجه ( احدها ) قال الكلبى مقرنين كل كافر مع شيطان فى غل وقال عطاء هو معنى قوله
واذا النفوس زوجت اى قرنت فيقرن الله تعالى نفوس المؤمنين بالحور العين ونفوس
الكافرين بقرنائهم من الشياطين واقول حظ البحث العقلى منه ان الانسان اذا فارق
الدنيا فاما ان يكون قد راض نفسه وهذبها ودعاها الى معرفة الله تعالى وطاعته ومحبته

الى الجوف وهو اسود منتن
يسرع فيه اشتعال النار يطلى به
جلود اهل النار حتى يعود طلاؤه
لهم كالسرابيل ليجتمع عليهم
الالوان الاربعة من العذاب
لذعه وحرقته واسراع النار فى
جلودهم واللون الموحش والنتن
على ان التفاوت بينه وبين ما
نشاهده وبين النارين لا يكاد
يقادر قدره فكأن ما نشاهده
منهما اسماء مسمياتها فى الآخرة
فبكرمه العميم نعوذ وبكنفه
الواسع نلوذ ويحتمل ان يكون
ذلك تمثيلا لما يحيط بجوهر النفس
من الملكات الردية والهيئات
الوحشية فتجلب اليها الآلام
والغموم بل وان يكون القطران
المذكور عين ما لابسوه فى هذه
النشأة وجعلوه شعارا لهم من
العقائد الباطلة والاعمال السيئة
المستجلبة لفنون العذاب قد
تجسدت فى النشأة الآخرة بتلك
الصورة المستتبعة لاشتداد
العذاب عصمنا الله سبحانه عن
ذلك بمنه ولطفه وقرئ من
قطر آن اى نحاس مذاب متناه
حره (وتغشى وجوههم النار) اى
تعلوها وتحيط بها النار التى تمس
جسدهم المسربل بالقطران
وتخصيص الوجوه بالحكم
المذكور مع عمومه لسائر اعضائهم
لكونها اعز الاعضاء الظاهرة
واشرفها كقوله تعالى افمن يتقى
بوجهه سوء العذاب الخ ولكونها
مجمع المشاعر والحواس

او مافعـل ذلك بل تركها متوغلة فى اللذات الجسدانية مقبـلة على الاحوال الوهمية والخيالية فان كان الاول فتلك النفس تفارق مع تلك البهجة بالحضرة الالهية والسعادة بالعناية الصمدانية وان كان الثانى فتلك النفس تفارق مع الاسف والحزن والبلاء الشديد بسبب الميل الى عالم الجسم وهذا هو المراد بقوله واذا النفوس زوجت وشيطان النفس الكافرة هى الملكات الباطلة والحوادث الفاسدة وهو المراد من قول عطاء ان كل كافر مع شيطانه يكون مقرونا فى الاصفاد (والقول الثانى) فى تفسير قوله مقرنين فى الاصفاد هو قرن بعض الكفـار ببعض والمراد ان تلك النفوس الشقية والارواح المكدرة الظلمانية لكونها متجانسـة متشاكلة ينضم بعضها الى بعض وتنادى ظلمـة كل واحـدة منها الى الاخرى فانحدار كل واحدة منها الى الاخرى فى تلك الظلمات والخسارات هى المراد بقوله مقرنين فى الاصفاد (والقول الثالث) قال زيد بن ارقم قرنت ايديهم وارجلهم الى رقابهم بالاغلال وحظ العقل من ذلك ان الملكات الحاصلة فى جوهر النفس انما تحصل بتكرير الافعـال الصادرة من الجوارح والاعضاء فاذا كانت تلك الملكات ظلمانية كدرة صارت فى المثال كأن ايديها وارجلها قرنت وغلت فى رقابها واما قوله فى الاصفاد ففيه وجهان احدهما ان يكون ذلك متعلقا بمقرنين والمعنى يقرنون بالاصفاد والثانى ان لا يكون متعلقا به والمعنى انهم مقرنون مقيدون وحظ العقل معلوم مما سلفت الاشـارة اليه (الصفة الثانية) قوله تعالى سرابيلهم من قطران السرابيل جمع سربال وهو القميص والقطران فيه ثلاث لغات قطران وقطران وقطران بفتح القاف وكسر هامع سكون الطاء وبفتح القاف وكسر الطاء وهو شئ يتحلب من شجر يسمى الابهل فيطبخ ويطلى به الابل الجرب فيحرق الجرب بحرارته وحدته وقد تصل حرارته الى داخل الجوف ومن شانه ان يتسارع فيه اشـتعال النار وهو اسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود اهل النار حتى يصير ذلك الطلى كالسرابيل وهى القمص فيحصل بسببها اربعـة انواع من العذاب لذع القطران وحرقته واسراع النار فى جلودهم واللون الوحش ونتن الريح وايضا التفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين واقول حظ العقـل من هذا ان جوهر الروح جوهر مشرق لامع من عالم القدس وغيبة الجلال وهذا البدن جار مجرى السربال والقميص له وكل ما يحصل للنفس من الآلام والغموم فانمـا يحصـل بسبب هذا البدن فلهذا البدن لذع وحرقة فى جوهر النفس لان الشهوة والحرص والغضب انما تسارع الى جوهر الروح بسببه وكونه للكثافة والكدورة والظلمة هو الذى يخفى لمعان الروح وضوءه وهو سبب لحصول النتن والعفونة فشبه هذا الجسد بسرابيـل من القطران والقطر وقرأ بعضهم من قطرآن والقطر النحاس أو الصفر المذاب والآنى المتنـاهى حره قال ابو بكر بن الانبـارى وتلك النـار لا تبطـل ذلك القطران ولا تفنيه كالانهلاك النـار أجسادهم والاغلال التى كانت عليهم (الصفة الثـالثة) قوله تعـالى

التى خلقت لادراك الحق وقـد اعرضوا عنه ولم يستعملوهـا فى تدبره كما ان الفؤاد اشرف الاعضاء الباطنة ومحل المعرفة وقد ملؤها بالجهالات ولذلك قيل تطلع على الافئدة او لخلوها عن الفطران المغنى عن ذكر غشيان النـار لها ولعل تخليتها عنـه ليتعارفوا عند انكشاف اللهب احيانا ويتضاعف عذابهم بالخزى على رؤس الاشـهاد وقرئ تغشى اى تتغشى بحذف احدى التاءين والجملة نصب على الحالية لا على ان الواو حالية لانه مضارع مثبت بل على انها معطوفة على الحال قاله ابو البقاء (ليجزى الله) متعلق بمضمر اى يفعل بهم ذلك ليجزى (كل نفس) مجرمة (ما كسبت) من انواع الكفر والمعاصى جزاء موافقا لعملها وفيه ايذان بأن جزاءهم مناسب لاعمـالهم او بقوله برزوا عـلى تقدير كونه معطوفا على تبدل والضمير للخلق وقوله وترى المجرمين الخ اعتراض بين المتعلق والمتعلق به اى بروزا للحسـاب ليجزى الله كل نفس مطيعة او عاصية ما كسبت من خير او شر وقد اكتفى بذكر عقاب العصاة تعويلا على شهادة الحال لاسيـا مع ملاحظة سبق الرحمة الواسعة (ان الله سريع الحساب) اذ لا يشغله شأن عن شأن فيتمه فى اعجل مايكون من الزمان فيوفى الجزاء بحسبه او سريع المجئ يتأتى عن

(وتغشى)

وتغشى وجوههم النار ونظيره قوله تعالى افمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقوله يوم يسحبون فى النار على وجوههم واعلم ان موضع المعرفة والنكرة والعلم والجهل هو القلب وموضع الفكر والوهم والخيال هو الرأس واثر هذه الاحوال انما تظهر فى الوجه فلهذا السبب خص الله تعالى هذين العضوين بظهور آثار العقاب فيهما فقال فى القلب نار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة وقال فى الوجه وتغشى وجوههم النار بمعنى تتغشى ولما ذكر تعالى هذه الصفات الثلاثة قال ليجزى الله كل نفس ما كسبت قال الواحدى المراد منه انفس الكفار لان ماسبق ذكره لا يليق ان يكون جزاء لاهل الايمان واقول يمكن اجراء اللفظ على عمومه لان لفظ الآية يدل على انه تعالى يجزى كل شخص بما يليق بعمله وكسبه ولما كان كسب هؤلاء الكفار الكفر والمعصية كان جزاؤهم هو هذا العقاب المذكور ولما كان كسب المؤمنين الايمان والطاعة كان اللائق بهم هو الثواب وايضا انه تعالى لما عاقب المجرمين بجرمهم فلأن يثيب المطيعين على طاعتهم كان اولى ثم قال تعالى ان الله سريع الحساب والمراد انه تعالى لا يظلمهم ولا يزيد على عقابهم الذى يستحقونه وحظ العقل منه ان الاخلاق الظلمانية هى المبادى لحصول الآلام الروحانية وحصول تلك الاخلاق فى النفس على قدر صدور تلك الاعمال منهم فى الحياة الدنيا فان الملكات النفسانية انما تحصل فى جوهر النفس بسبب الافعال المتكررة وعلى هذا التقدير فتلك الآلام تتفاوت بحسب تلك الافعال فى كثرتها وقلتها وشدتها وضعفها وذلك يشبه الحساب ثم قال تعالى هذا بلاغ للناس اى هذا التذكير والموعظة بلاغ للناس اى كفاية فى الموعظة ثم اختلفوا فقيل ان قوله هذا اشارة الى كل القرآن وقيل بل اشارة الى كل هذه السورة وقيل بل اشارة الى المذكور من قوله ولا تحسبن الى قوله سريع الحساب واما قوله ولينذروا به فهو معطوف على محذوف اى لينتصحوا ولينذروا به اى بهذا البلاغ ثم قال وليعلموا انما هو اله واحد وليذكر اولوا الالباب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قد ذكرنا فى هذا الكتاب مرارا ان النفس الانسانية لها شعبتان القوة النظرية وكمال حالها فى معرفة الموجودات فأقسامها واجناسها وانواعها حتى تصير النفس كالمرآة التى يتجلى فيها قدس الملكوت ويظهر فيها جلال اللاهوت ورئيس هذه المعارف والجلاء معرفة توحيد الله بحسب ذاته وصفاته وافعاله والشعبة الثانية القوة العملية وسعادتها فى أن تصير موصوفة بالاخلاق الفاضلة التى تصير مبادى لصدور الافعال الكاملة عنها ورئيس سعادات هذه القوة طاعة الله وخدمته اذا عرفت هذا فنقول قوله وليعلموا انما هو اله واحد اشارة الى ما يجرى مجرى الرئيس لكمال حال القوة النظرية وقوله وليذكر اولوا الالباب اشارة الى ما يجرى مجرى الرئيس لكمال حال القوة العملية فان الفائدة فى هذا التذكر انما هو الاعراض عن الاعمال الباطلة والاقبال على الاعمال الصالحة وهذه الخاتمة كالدليل القاطع فى انه

---

قريب او سريع الانتقام كما قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى وهو سريع الحساب (هذا) اى ما ذكر من قوله سبحانه ولا تحسبن الله غافلا الى قوله سريع الحساب (بلاغ) كفاية فى العظة والتذكير من غير حاجة الى ما انطوى عليه السورة الكريمة اوكل القرآن المجيد من فنون العظات والقوارع (للناس) للكفار خاصة على تقدير اختصاص الانذار بهم فى قوله تعالى وانذر الناس اولهم وللمؤمنين كافة على تقدير شموله لهم ايضا وان كان ما شرح مختصا بالظالمين (ولينذروا به) عطف على مقدر واللام متعلقة بالبلاغ اى كفاية لهم فى ان ينصحوا وينذروا به او هذا بلاغ لهم ليفهموه ولينذروا به على ان البلاغ بمعنى الابلاغ كما فى قوله تعالى ما على الرسول الا البلاغ اومتعلقة بمحذوف اى ولينذروا به انزل اوتلى وقرئ لينذروا به من نذر بالشئ اذا علمه وحذره واستعد له (وليعلموا) بالتأمل فيما فيه من الدلائل الواضحة التى هى اهلاك الامم واسكان آخرين مساكنهم وغيرهما مما سبق ولحق (انما هو اله واحد) لا شريك له وتقديم الانذار لانه الداعى الى التأمل المؤدى الى ما هو غاية له من العلم المذكور والتذكر فى قوله تعالى (وليذكر اولوا الالباب) اى ليتذكروا ما كانوا يعلمونه

لاسعادة للانسان الامن هاتين الجهتين ( المسئلة الثانية ) هذه الآيات مشعرة بأن التذكير بهذه المواعظ والنصائح يوجب الوقوف على التوحيد والاقبال على العمل الصالح والوجه فيه ان المرء اذا سمع هذه التخويفات والتحذيرات عظم خوفه واشتغل بالنظر والتأمل فوصل الى معرفة التوحيد والنبوة واشتغل بالاعمال الصالحة ( المسئلة الثالثة ) قال القاضى اول هذه السورة وآخرها يدل على ان العبد مستقل بفعله ان شاء اطاع وان شاء عصى اما اول السورة فهو قوله تعالى لتخرج الناس من الظلمات الى النور فانا قد ذكرنا هنالك ان هذا يدل على ان المقصود من انزال الكتاب ارشاد الخلق كلهم الى الدين والتقوى ومنعهم عن الكفر والمعصية واما آخر السورة فلان قوله وليذكر اولوا الالباب يدل على انه تعالى انما انزل هذه السورة وانما ذكر هذه النصائح والمواعظ لاجل ان ينتفع الخلق بها فيصيروا مؤمنين مطيعين ويتركوا الكفر والمعصية فظهر ان اول هذه السورة وآخرها متطابقان فى افادة هذا المعنى واعلم ان الجواب المستقصى عنه مذكور فى اول السورة فلا فائدة فى الاعادة ( المسئلة الرابعة ) هذه الاية دالة على انه لافضيلة للانسان ولامنقبة له الا بسبب عقله لانه تعالى بين انه انما انزل هذه الكتب وانما بعث الرسل لتذكير اولى الالباب فلولا الشرف العظيم والمرتبة العالية لأولى الالباب لما كان الامر كذلك * قال المصنف رحمه الله تعالى ورضى عنه تم تفسير هذه السورة يوم الجمعة فى اواخر شعبان سنة احدى وستمائة ختم بالخير والغفران فى صحراء بغداد ونسأل الله الخلاص من الغموم والاحزان والفوز بدرجات الجنان والخلاص من دركات النيران انه الملك المنان الرحيم الديان بحمد الله وحسن توفيقه وصلاته وسلامه على خاتم النبيين محمد وآله وسلم

( سورة الحجر تسعون وتسع آيات مكية )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

( الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون) اعلم ان قوله تلك اشارة الى ما تضمنته السورة من الآيات والمراد بالكتاب والقرآن المبين الكتاب الذى وعد الله تعالى به محمدا صلى الله عليه وسلم وتنكير القرآن للتفخيم والمعنى تلك الآيات آيات ذلك الكتاب الكامل فى كونه كتابا وفى كونه قرآنا مفيدا للبيان اما قوله ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وعاصم ربما خفيفة الباء والباقون مشددة قال ابو حاتم اهل الحجاز يخففون ربما وقيس وبكر يثقلونها واقول فى هذه اللفظة لغات وذلك لان الراء من رب وردت مضمومة ومفتوحة اما اذا كانت مضمومة فالباء قد وردت مشددة ومخففة وساكنة وعلى كل التقديرات تارة مع حرف ما وتارة بدونها وايضا تارة مع التاء وتارة بدونها وانشدوا

من قبل من التوحيد وغيره من شؤن الله عز وجل ومعاملته مع عباده فيرتدعوا عما يرديهم من الصفات التى يتصف بها الكفار ويتدرعوا بما يحظيهم من العقائد الحقة والاعمال الصالحة وفى تخصيص التذكر بأولى الالباب تلويح باختصاص العلم بالكفار ودلالة على ان المشار اليه بهذا ماذكرنا من القوارع المسوقة لشأنهم لا كل السورة المشتملة عليها وعلى ما سيق للمؤمنين ايضا فان فيه مايفيدهم فائدة جديدة وحيث كان مايفيده البلاغ من التوحيد ومايترتب عليه من الاحكام بالنسبة الى الكفرة امرا حادثا وبالنسبة الى اولى الالباب الثبات على ذلك حسبما اشير اليه عبر عن الاول بالعلم وعن الثانى بالتذكر وروعى ترتيب الوجود مع مافيه من الختم بالحسنى والله سبحانه اعلم ختم الله لنا بالسعادة والحسنى ورزقنا الفوز برضاته فى الأولى والعقبى آمين * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة ابراهيم اعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من عبد الاصنام ومن لم يعبد والحمد لله وحده

* (سورة الحجر مكية وهى) *
* (تسع وتسعون آية) *

*(بسم الله الرحمن الرحيم)*

(الر) قدمر الكلام فيه وفى محله فى مطلع سورة الرعد واخواتها (تلك) اشارة اليه اى تلك السورة العظيمة الشان ( آيات الكتاب) الكامل المعهود الغنى عن الوصف به المشهور بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به

اسمى مايدريك ان رب فتية * باكرت لذتهم بأذكر مسرع

ورب بتسكين الباء وانشدوا بيت الهذلى

ازهير ان يشب القذال فانني * رب هيضل مرس كففت بهيضل

والهيضل جماعة متسلحة وايضا هذه الكلمة قد تجئ حالتى تشديد الباء وتخفيفها مع حرف ما كقولك ربما وربما وتارة مع التاء وحرف ما كقولك ربتما وربتما هذا كله اذا كانت الراء من رب مضمومة وقد تكون مفتوحة فيقال رب وربما وربتما حكاه قطرب قال ابوعلى من الحروف مادخل عليه حرف التأنيث نحو ثم وثمت ورب وربت ولا ولات فهذه اللغات بأسرها رواها الواحدى فى البسيط (المسئلة الثانية) رب حرف جر عند سيبويه ويلحقها ما على وجهين احدهما ان تكون نكرة بمعنى شئ وذلك كقوله

رب ماتكره النفوس من الامر * له فرجة كحل العقال

فما فى هذا البيت اسم والدليل عليه عود الضمير اليه من الصفة فان المعنى رب شئ تكرهه النفوس واذا عاد الضمير اليه كان اسما ولم يكن حرفا كما ان قوله تعالى أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين لما عاد الضمير اليه علمنا بذلك انه اسم ومما يدل على ان ما قد يكون اسما اذا وقعت بعد رب وقوع من بعدها فى قول الشاعر

يارب من ينقص أزوادنا * رحن على نقصانه واغتدين

فكما دخلت رب على كلمة من وكانت نكرة فكذلك تدخل على كلمة ما فهذا ضرب والضرب الآخر ان تدخل ما كافة كما فى هذه الآية والنحويون يسمون ما هذه الكافة يريدون انها بدخولها كفت الحرف عن العمل الذى كان له واذا حصل هذا الكف فحينئذ تهيأ للدخول على مالم تكن تدخل عليه ألا ترى ان رب انما تدخل على الاسم المفرد نحو رب رجل يقول ذاك ولا تدخل على الفعل فلما دخلت ما عليها هيأتها للدخول على الفعل كهذه الآية والله اعلم (المسئلة الثالثة) اتفقوا على ان رب موضوعة للتقليل وهى فى التقليل نظيرة كم فى التكثير فاذا قال الرجل ربما زارنا فلان دل ربما على تقليله الزيارة قال الزجاج ومن قال ان رب يعنى بها الكثرة فهو ضد مايعرفه اهل اللغة وعلى هذا التقدير فههنا سؤال وهو ان تمنى الكافر الاسلام مقطوع به وكلمة رب تفيد الظن وايضا ان ذلك التمنى يكثر ويتصل فلا يليق به لفظة ربما مع انها تفيد التقليل والجواب عنه من وجوه (الاول) ان من عادة العرب انهم اذا أرادوا التكثير ذكروا لفظا وضع للتقليل واذا أرادوا اليقين ذكروا لفظا وضع للشك والمقصود منه اظهار التوقع والاستغناء عن التصريح بالغرض فيقولون ربما ندمت على مافعلت ولعلك تندم على فعلك وان كان العلم حاصلا بكثرة الندم ووجوده بغير شك ومنه قول القائل * قد اترك القرن مصفرا أنامله * (والوجه الثانى) فى الجواب ان هذا التقليل ابلغ فى التهديد ومعناه انه يكفيك قليل الندم فى كونه زاجرا لك عن هذا العمل فكيف كثيره

على الاطلاق اى بعض منه مترجم مستقل باسم خاص فهو عبارة عن جميع القرآن او عن الجميع المنزل اذ ذاك اذ هو المتسارع الى الفهم حينئذ عند الاطلاق وعليه يترتب فائدة وصف الآيات بنعت ما اضيفت اليه من نعوت الكمال لا على جعله عبارة عن السورة اذ هى فى الاتصاف بذلك ليست بتلك المرتبة من الشهرة حتى يستغنى عن التصريح بالوصف على انها عبارة عن جميع آياتها فلابد من جعل تلك اشارة الى كل واحدة منها وفيه من التكلف مالا يخفى كما ذكر فى سورة الرعد (وقرآن) اى قرآن عظيم الشأن (مبين) مظهر لما فى تضاعيفه من الحكم والاحكام او لسبيل الرشد والغى او فارق بين الحق والباطل والحلال والحرام ولقد فخم شأنه العظيم مع ما جمع فيه من وصفى الكتابية والقرآنية على طريقتين احداهما اشتماله على صفات كمال جنس الكتب الالهية فكأنه كلها والثانية طريقة كونه ممتازا عن غيره نسيج وحده بديعا فى بابه خارجا عن دائرة البيان واخرت الطريقة الثانية لما ان الاشارة الى امتيازه عن سائر الكتب بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيره من الكتب ادخل فى المدح كى لا يتوهم من اول الامر ان امتيازه عن غيره لاستقلاله بأوصاف خاصة به من غير اشتمال على نعوت كمال سائر الكتب الكريمة وهكذا الكلام فى فاتحة سورة النمل خلا انه قدم فيها القرآن على الكتاب لما سيذكر هناك ولما بين كون السورة الكريمة

( والوجه الثالث ) في الجواب انه يشغلهم العذاب عن تمنى ذلك الا في القليل ( المسئلة الرابعة ) اتفقوا على ان كلمة رب مختصة بالدخول على الماضى كما يقال ربما قصدنى عبد الله ولا يكاد يستعمل المستقبل بعدها وقال بعضهم ليس الامر كذلك والدليل عليه قول الشاعر ربما تكره النفوس من الامر وهذا الاستدلال ضعيف لانا بينا ان كلمة رب في هذا البيت داخلة على الاسم وكلامنا في انها اذا دخلت على الفعل وجب كون ذلك الفعل ماضيا فأين احدهما من الآخر الا انى اقول قول هؤلاء الادباء انه لا يجوز دخول هذه الكلمة على الفعل المستقبل لا يمكن تصحيحه بالدليل العقلى وانما الرجوع فيه الى النقل والاستعمال ولو انهم وجدوا بيتا مشتملا على هذا الاستعمال لقالوا انه جائز صحيح وكلام الله اقوى واجل واشرف فلم لم يتمسكوا بوروده في هذه الآية على جوازه وصحته ثم نقول ان الادباء اجابوا عن هذا السؤال من وجهين ( الاول ) قالوا ان المترقب في اخبار الله تعالى بمنزلة الماضى المقطوع به في تحققه فكأنه قيل ربما ودوا ( الثانى ) ان كلمة ما في قوله ربما يود الذين كفروا اسم ويود صفة له والتقدير رب شئ يوده الذين كفروا قال الزجاج ومن زعم ان الآية على اضمار كان وتقديره ربما كان يود الذين كفروا فقد خرج بذلك عن قول سيبويه ألا ترى ان كان لا تضمر عنده ولم يجز عبد الله المقبول وأنت تريد كان عبد الله المقبول ( المسئلة الخامسة ) في تفسير الآية وجوه على مذهب المفسرين فان كل احد حمل قوله ربما يود الذين كفروا على محمل آخر والاصح ما قاله الزجاج فانه قال الكافر كلما رأى حالا من احوال العذاب ورأى حالا من احوال المسلم ود لو كان مسلما وهذا الوجه هو الاصح واما المتقدمون فقد ذكروا وجوها قال الضحاك المراد منه ما يكون عند الموت فان الكافر اذا شاهد علامات العقاب ود لو كان مسلما وقيل ان هذه الحالة تحصل اذا اسودت وجوههم وقيل بل عند دخولهم النار ونزول العذاب فانهم يقولون اخرنا الى اجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل وروى ابو موسى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا كان يوم القيامة واجتمع اهل النار في النار ومعهم من شاء الله من اهل القبلة قال الكفار لهم ألستم مسلمين قالوا بلى قالوا فما اغنى عنكم اسلامكم وقد صرتم معنا في النار فيتفضل الله تعالى بفضل رحمته فيأمر باخراج كل من كان من اهل القبلة من النار فيخرجون منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية وعلى هذا القول اكثر المفسرين وروى مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ما يزال الله يرحم المؤمنين ويخرجهم من النار ويدخلهم الجنة بشفاعة الانبياء والملائكة حتى انه تعالى في آخر الامر يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنة قال فهنالك يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين قال القاضى هذه الروايات مبنية على انه تعالى يخرج اصحاب الكبائر من النار وعلى ان شفاعة الرسول مقبولة في اسقاط العقاب وهذان الاصلان عنده مردودان فعند هذا حمل هذا الخبر على

بعضا من الكتاب والقرآن لتوجيه المخاطبين الى حسن تلقى ما فيهما من الاحكام والقصص والمواعظ شرع في بيان ما تتضمنه فقيل ( ربما ) بضم الراء وتخفيف الباء المفتوحة وقرئ بالتشديد وبفتح الراء مخففا وبزيادة التاء مشددا وفيه ثمانى لغات فتح الراء وضمها مشددا ومخففا وبزيادة التاء ايضا مشددا ومخففا ورب حرف جر لا يدخل الا على الاسم وما كافة مصححة لدخوله على الفعل وحقه الدخول على الماضى ودخوله على قوله تعالى ( يود الذين كفروا ) لما ان المترقب في اخباره تعالى كالماضى المقطوع في تحقق الوقوع فكأنه قيل ربما ود الذين كفروا والمراد كفرهم بالكتاب والقرآن وبكونه من عند الله تعالى ( لو كانوا مسلمين ) منقادين لحكمه ومذعنين لامره وفيه ايذان بأن كفرهم انما كان بالجحود بعد ما علموا كونه من عند الله تعالى وتلك الودادة يوم القيامة او عند موتهم او عند معاينة حالهم وحال المسلمين او عند رؤيتهم خروج عصاة المسلمين من النار روى ابو موسى الاشعرى رضى الله عنه انه قال قال النبى صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة واجتمع اهل النار في النار ومعهم من شاء الله تعالى من اهل القبلة قال لهم الكفار ألستم مسلمين قالوا بلى قالوا فما اغنى عنكم اسلامكم وقد صرتم معنا الى النار قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغضب الله سبحانه لهم بفضل رحمته فيأمر بكل من كان من اهل القبلة في النار فيخرجون

وجه يطابق قوله ويوافق مذهبه وهو انه تعالى يؤخر ادخال طائفة من المؤمنين الجنة بحيث يغلب على ظن هؤلاء الكفرة انه تعالى لا يدخلهم الجنة ثم انه تعالى يدخلهم الجنة فيزداد غم الكفرة وحسرتهم وهنالك يودون لو كانوا مسلمين قال فبهذه الطريق تصحح هذه الاخبار والله اعلم فان قيل اذا كان اهل القيامة قد يتمنون امثال هذه الاحوال وجب ان يتمنى المؤمن الذى يقل ثوابه درجة المؤمن الذى يكثر ثوابه والمتمنى لما لم يجده يكون فى الغصة وتألم القلب وهذا يقتضى ان يكون اكثر المؤمنين فى الغصة وتألم القلب قلنا احوال اهل الآخرة لا تقاس بأحوال اهل الدنيا فالله سبحانه ارضى كل احد بما فيه ونزع عن قلوبهم طلب الزيادات كما قال ونزعنا ما فى صدورهم من غل والله اعلم * اما قوله تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) المعنى دع الكفار يأخذوا حظوظهم من دنياهم فتلك اخلاقهم ولا خلاق لهم فى الآخرة وقوله ويلههم الامل يقال لهيت عن الشئ الهى الهيا وجاء فى الحديث ان ابن الزبير كان اذا سمع صوت الرعد لهى عن حديثه قال الكسائى والاصمعى كل شئ تركته فقد لهيت عنه وأنشد

صرمت حبالك فاله عنها زينب * ولقد اطلت عتابها لو تعتب

فقوله فاله عنها اى اتركها واعرض عنها قال المفسرون شغلهم الامل عند الاخذ بحظهم عن الايمان والطاعة فسوف يعلمون (المسئلة الثانية) احتج اصحابنا بهذه الآية على انه تعالى قد يصد عن الايمان ويفعل بالمكلف ما يكون له مفسدة فى الدين والدليل عليه انه تعالى قال لرسوله ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فحكم بأن اقبالهم على التمتع واستغراقهم فى طول الامل يلهيهم عن الايمان والطاعة ثم انه تعالى اذن لهم فيها وذلك يدل على المقصود قالت المعتزلة ليس هذا اذنا وتجويزا بل هذا تهديد ووعيد قلنا ظاهر قوله ذرهم اذن اقصى ما فى الباب انه تعالى نبه على ان اقبالهم على هذه الاعمال يضرهم فى دينهم وهذا عين ما ذكرناه من انه تعالى اذن فى شئ مع انه نص على كون ذلك الشئ مفسدة لهم فى الدين (المسئلة الثالثة) دلت الآية على ان ايثار التلذذ والتنعم وما يؤدى اليه طول الامل ليس من اخلاق المؤمنين وعن بعضهم التمرغ فى الدنيا من اخلاق الهالكين والاخبار فى ذم الامل كثيرة فنها ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يهرم ابن آدم ويشب فيه اثنان الحرص على المال وطول الامل وعنه صلى الله عليه وسلم انه نقط ثلاث نقط وقال هذا ابن آدم وهذا الامل وهذا الاجل ودون الامل تسع وتسعون منية فان اخذته احداهن والا فالهرم من ورائه وعن على عليه السلام انه قال انما اخشى عليكم اثنين طول الامل واتباع الهوى فان طول الامل ينسى الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق والله اعلم * قوله تعالى (وما اهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم ما تسبق من امة اجلها وما يستأخرون) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم

منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وروى مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال لا يزال الرب يرحم ويشفع اليه حتى يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنة فعند ذلك يتمنون الاسلام والحق ان ذلك محمول على شدة ودادتهم واما نفس الودادة فليست بمختصة بوقت دون وقت بل هى مقررة مستمرة فى كل آن يمر عليهم وان المراد بيان ذلك على ما هو عليه من الكثرة وانما جئ بصيغة التقليل جريا على سنن العرب فيما يقصدون به الافراط فيما يعكسون عنه تقول لبعض قواد العساكر كم عندك من الفرسان فيقول رب فارس عندى اولا تعدم عندى فارسا وعنده مقانب جمة من الكتائب وقصده فى ذلك التمادى فى تكثير فرسانه ولكنه يريد اظهار براءته من التزيد وابراز انه ممن يقلل لعلو الهمة كثير ما عنده فضلا عن تكثير القليل وهذه طريقة انما تسلك اذا كان الامر من الوضوح بحيث لا يحوم حوله شائبة ريب فيصار اليه هضما للحق فدل النظم الكريم على ودادة الكافرين للاسلام فى كل آن من آنات اليوم الآخر وان ذلك من الظهور بحيث لا يشتبه على احد ولو جئ بكلام يدل على ضده وعلى ان تلك الودادة مع كثرتها فى نفسها مما يستقل بالنسبة الى جناب الكبرياء وهذا هو الموافق لمقام بيان حقارة شأن الكفار وعدم الاعتداد بما هم فيه من الكفر والتكذيب كما ينطق به قوله تعالى ذرهم يأكلوا الآية

انه تعالى لما توعد من قبل من كذب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون اتبعه بما يؤكد الزجر وهو قوله تعالى وما اهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم فى الهلاك والعذاب وانما يقع فيه التقدم والتأخير فالذين تقدموا كان وقت هلاكهم فى الكتاب معجلا والذين تأخروا كان وقت هلاكهم فى الكتاب مؤخرا وذلك نهاية فى الزجر والتحذير (المسئلة الثانية) قال قوم المراد بهذا الهلاك عذاب الاستئصال الذى كان الله ينزله بالمكذبين المعاندين كما بينه فى قوم نوح وقوم هود وغيرهم وقال آخرون المراد بهذا الهلاك الموت قال القاضى والاقرب ماتقدم لانه فى الزجر ابلغ فبين تعالى ان هذا الامهال لا ينبغى ان يغتر به العاقل لان العذاب مدخر فان لكل امة وقتا معينا فى نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر وقال قوم آخرون المراد بهذا الهلاك مجموع الامرين وهو نزول عذاب الاستئصال ونزول الموت لان كل واحد منهما يشارك الآخر فى كونه هلاكا فوجب حمل اللفظ على القدر المشترك الذى يدخل فيه القسمان معا (المسئلة الثالثة) قال الفراء لو لم تكن الواو مذكورة فى قوله ولها كتاب كان صوابا كما فى آية أخرى وهى قوله وما اهلكنا من قرية الا لها منذرون وهو كما تقول مارأيت احدا الا وعليه ثياب وان شئت قلت الا عليه ثياب * اما قوله ماتسبق من امة اجلها ومايستأخرون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدى من فى قوله من امة زائدة مؤكدة كقولك ماجاءنى من احد وقال آخرون انها ليست بزائدة لانها تفيد التبعيض اى هذا الحكم لم يحصل فى بعض من ابعاض هذه الحقيقة فيكون ذلك فى افادة عموم النفى آكد (المسئلة الثانية) قال صاحب النظم معنى سبق اذا كان واقعا على شخص كان معناه انه جازو خلف كقولك سبق زيد عمرا اى جازه وخلفه وراءه ومعناه انه قصر عنه ومابلغه واذا كان واقعا على زمان كان بالعكس فى ذلك كقولك سبق فلان عام كذا معناه مضى قبل اتيانه ولم يبلغه فقوله ماتسبق من امة اجلها ومايستأخرون معناه انه لا يحصل ذلك الاجل قبل ذلك الوقت ولا بعده بل انما يحصل فى ذلك الوقت بعينه والسبب فيه ان اختصاص كل حادث بوقته المعين دون الوقت الذى قبله او بعده ليس على سبيل الاتفاق الواقع لا عن مرجح ولا عن مخصص فان رجحان احد طرفى الممكن على الآخر لا لمرجح محال وانما اختص حدوثه بذلك الوقت المعين لان اله العالم خصصه به بعينه واذا كان كذلك فقدرة الاله وارادته اقتضتا ذلك التخصيص وعلمه وحكمته تعلقا بذلك الاختصاص بعينه ولما كان تغير صفات الله تعالى اعنى القدرة والارادة والعلم والحكمة ممتنعا كان تغير ذلك الاختصاص ممتنعا اذا عرفت هذا فنقول هذا الدليل بعينه قائم فى افعال العباد اعنى ان الصادر من زيد هو الايمان والطاعة ومن عمرو هو الكفر والمعصية فوجب ان يمتنع دخول التغير فيهما فان قالوا هذا انما يلزم لو كان المقتضى لحدوث الكفر والايمان من زيد وعمرو هو قدرة الله تعالى ومشيئته اما اذا قلنا

وذهابا الى الاشعار بأن من شأن العاقل اذا عن له امر يكون مظنون الحمد او قليلا مايكون كذلك ان لا يفارقه ولا يقارف ضده فكيف اذا كان متيقن الحمد كما فى قولهم لعلك ستندم على ما فعلت وربما ندم الانسان على مافعل فان المقصود ليس بيان كون الندم مرجو الوجود بلا تيقن به او قليل الوقوع بل التنبيه على ان العاقل لا يباشر مايرجى فيه الندم او يقل وقوعه فيه فكيف بقطعى الوقوع وانه يكفى قليل الندم فى كونه حاجزا عن ذلك الفعل فكيف كثيره والمقصود من سلوك هذه الطريقة اظهار الترفع والاستغناء عن التصريح بالغرض بناء على ادعاء ظهوره فالمعنى لو كانوا يودون الاسلام مرة واحدة لوجب عليهم ان لا يفارقوه فكيف وهم يودونه كل آن وهذا اوفق بمقام استنزالهم عما هم عليه من الكفر وهذان طريقان متمايزان ذاتا ومقاما فمن ظنهما واحدا فقد نأى عن توزيع المقام حقه (ذرهم) دعهم عن النهى عما هم عليه بالتذكرة والنصيحة اذ لا سبيل الى ارعوائهم عن ذلك وبالغ فى تخليتهم وشأنهم بل مرهم بتعاطى مايتعاطونه (يأكلوا ويتمتعوا) بدنياهم وفى تقديم الاكل ايذان بأن تمتعهم انما هو من قبيل تمتع البهائم بالمآكل والمشارب والمراد دوامهم على ذلك لا احداثه فانهم كانوا كذلك اوتمتعهم بلا استماع مايتنغص عيشهم من القوارع والزواجر فان التمتع على ذلك الوجه

المقتضى لذلك هو قدرة زيد وعمرو ومشيئتهما سقط ذلك قلنا قدرة زيد وعمرو ومشيئتهما ان كانتا موجبتين لذلك الفعل المعين فخالق تلك القدرة والمشيئة الموجبتين لذلك الفعل هو الذى قدر ذلك الفعل بعينه فيعود الالزام وان لم تكونا موجبتين لذلك الفعل بل كانتا صالحتين له ولضده كان رجحان احد الطرفين على الآخر لم يكن لمرجح فقد عاد الامر الى انه حصل ذلك الاختصاص لا لمخصص وهو باطل وان كان لمخصص فذلك المخصص ان كان هو العبد عاد البحث ولزم التسلسل وان كان هو الله تعالى فحينئذ يعود البحث الى ان فعل العبد انما تعين وتقدر بتخصيص الله تعالى وحينئذ يعود الالزام (المسئلة الثالثة) دلت الآية على ان كل من مات او قتل فانما مات بأجله وان من قال يجوز ان يموت قبل اجله فخطئ فان قالوا هذا الاستدلال انما يتم اذا حملنا قوله وما اهلكنا على الموت اما اذا حملناه على عذاب الاستئصال فكيف يلزم قلنا قوله وما اهلكنا اما ان يدخل تحته الموت او لا يدخل فان دخل فالاستدلال ظاهر لازم وان لم يدخل فنقول ان ما لاجله وجب فى عذاب الاستئصال ان لا يتقدم ولا يتأخر عن وقته المعين قائم فى الموت فوجب ان يكون الحكم ههنا كذلك والله اعلم ❊ قوله تعالى (وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين ما ننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا اذا منظرين انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) اعلم انه تعالى لما بالغ فى تهديد الكفار ذكر بعده شبههم فى انكار نبوته (فالشبهة الاولى) انهم كانوا يحكمون عليه بالجنون وفيه احتمالان (الاول) انه عليه السلام كان يظهر عليه عند نزول الوحى حالة شبيهة بالغشى فظنوا انها جنون والدليل عليه قوله ويقولون انه لمجنون وما هو الا ذكر للعالمين وايضا قوله أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة (والثانى) انهم كانوا يستبعدون كونه رسولا حقا من عند الله تعالى فالرجل اذا سمع كلاما مستبعدا من غيره فربما قال له هذا جنون وانت مجنون لبعد ما يذكره من طريقة العقل وقوله انك لمجنون فى هذه الآية يحتمل الوجهين اما قوله يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون ففيه وجهان الاول انهم ذكروه على سبيل الاستهزاء كما قال فرعون ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون وكما قال قوم شعيب انك لأنت الحليم الرشيد وكما قال تعالى فبشرهم بعذاب اليم لان البشارة بالعذاب ممتنعة والثانى يا أيها الذى نزل عليه الذكر فى زعمه واعتقاده وعند اصحابه واتباعه ثم حكى عنهم انهم قالوا فى تقرير شبههم لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين وفيه مسئلتان (الاولى) المراد لو كنت صادقا فى ادعاء النبوة لأتيتنا بالملائكة يشهدون عندنا بصدقك فيما تدعيه من الرسالة لان المرسل الحكيم اذا حاول تحصيل امر وله طريق يفضى الى تحصيل ذلك المقصود قطعا وطريق آخر قد يفضى وقد لا يفضى ويكون فى محل الشكوك والشبهات فان كان ذلك الحكيم اراد تحصيل ذلك المقصود فانه يحاول تحصيله بالطريق الاول لا بالطريق الثانى وانزال الملائكة الذين يصدقونك ويقرون قولك طريق يفضى الى حصول هذا المقصود قطعا

اوعن الايمان والطاعة فان الاكل والتمتع يفضيان الى ذلك (الامل) والتوقع لطول الاعمار وبلوغ الاوطار واستقامة الاحوال وان لا يلقوا فى العاقبة والمآل الاخيرا فالافعال الثلاثة مجزومة على الجوابية للامر حسبما عرفت من تضمن الامر بالترك الامر بها على طريقة المجاز او على ان يكون المراد بالافعال المرقومة مباشرتهم لها غافلين عن وخامة عاقبتها غير سامعين لسوء مغبتها اصلا ولا ريب فى ترتب ذلك على الامر بالترك فان النهى عما هم عليه من ارتكاب القبائح مما يشوش عليهم تمتعهم وينغص عليهم عيشهم فأمر عليه السلام بتركه ليتمرغوا فيما هم فيه من حظوظهم فيدهمهم ما يدهمهم وهم عنه غافلون (فسوف يعلمون) سوء صنيعهم اوو خامة عاقبته او حقيقة الحال التى الجأتهم الى التمنى المذكور حيث لم يعلموا ذلك من جهتك وهو مع كونه وعيدا ايما وعيد وتهديد اغب تهديد تعليل للامر بالترك فان علمهم ذلك علة لترك النهى والنصيحة لهم وفيه الزام للحجة ومبالغة فى الانذار اذ لا يتحقق الامر بالضد الابعد تكرر الانذار وتقرر الجحود والانكار وكذلك ما ترتب عليه من الاكل والتمتع والالهاء (وما اهلكنا) شروع فى بيان سر تأخير عذابهم الى يوم القيامة وعدم نظمهم فى سلك الامم الدارجة فى تعجيل العذاب اى ما اهلكنا (من قرية) من القرى بالخسف بها وبأهلها كما فعل ببعضها او باخلائها

و الطريق الذى تقرر به صحة نبوتك طريق فى محل الشكوك و الشبهات فلو كنت صادقا فى ادعاء النبوة لوجب فى حكمة الله تعالى انزال الملائكة الذين يصرحون بتصديقك و حيث لم تفعل ذلك علمنا انك لست من النبوة فى شئ فهذا تقرير هذه الشبهة و نظيرها قوله تعالى فى سورة الانعام و قالوا لولا انزل عليه ملك و لو انزلنا ملكا لقضى الامر و فيه احتمال آخر و هو ان النبى صلى الله عليه و سلم كان يخوفهم بنزول العذاب ان لم يؤمنوا به فالقوم طالبوه بنزول ذلك العذاب و قالوا له لوما تأتينا بالملائكة الذين ينزلون عليك ينزلون علينا بذلك العذاب الموعود و هذا هو المراد بقوله تعالى و يستعجلونك بالعذاب و لولا اجل مسمى لجاءهم العذاب ثم انه تعالى اجاب عن هذه الشبهة بقوله ما ننزل الملائكة الا بالحق و ما كانوا اذا منظرين فنقول ان كان المراد من قولهم لوما تأتينا بالملائكة هو الوجه الاول كان تقرير هذا الجواب ان انزال الملائكة لايكون الا بالحق و عند حصول الفائدة و قد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفار انه لو انزل عليهم الملائكة لبقوا مصرين على كفرهم و على هذا التقرير فيصير انزالهم عبثا باطلا و لايكون حقا فلهذا السبب ما انزلهم الله تعالى و قال المفسرون المراد بالحق ههنا الموت و المعنى انهم لاينزلون الا بالموت و الا بعذاب الاستئصال و لم يبق بعد نزولهم انظار و لا امهال و نحن لا نريد عذاب الاستئصال بهذه الامة فلهذا السبب ما انزلنا الملائكة و اما ان كان المراد من قوله تعالى لوما تأتينا بالملائكة استعجالهم فى نزول العذاب الذى كان الرسول عليه السلام يتوعدهم به فتقرير الجواب ان الملائكة لاتنزل الا بعذاب الاستئصال و حكمنا فى امة محمد صلى الله عليه و سلم ان لانفعل بهم ذلك و ان نمهلهم لما علمنا من ايمان بعضهم و من ايمان اولاد الباقين ( المسئلة الثانية ) قال الفراء و الزجاج لولا و لوما لغتان معناهما هلا و يستعملان فى الخبر و الاستفهام فالخبر مثل قولك لولا انت لفعلت كذا و منه قوله تعالى لولا انتم لكنا مؤمنين و الاستفهام كقولهم لولا انزل عليه ملك و كهذه الآية و قال الفراء لوما الميم فيه بدل عن اللام فى لولا و مثله استولى على الشئ و استومى عليه و حكى الاصمعى خالته و خالمته اذا صادقته و هو خلى و خلمى اى صديق (المسئلة الثالثة) قوله ما ننزل الملائكة الا بالحق قرأ حمزة و الكسائى و حفص عن عاصم ما ننزل بالنون و بكسر الزاى و التشديد و الملائكة بالنصب لوقوع الانزال عليها و المنزل هو الله تعالى و قرأ ابو بكر عن عاصم ما تنزل على فعل ما لم يسم فاعله و الملائكة بالرفع و الباقون ما تنزل الملائكة على اسناد فعل النزول الى الملائكة و الله اعلم (المسئلة الرابعة) قوله و ما كانوا اذا منظرين يعنى لو نزلت الملائكة لم ينظروا اى لم يمهلوا فان التكليف يزول عند نزول الملائكة قال صاحب النظم لفظ اذن مركبة من كلمتين من اذ و هو اسم بمنزلة حين ألا ترى انك تقول اتيتك اذ جئتنى اى حين جئتنى ثم ضم اليها ان فصار اذأن ثم استثقلوا الهمزة فحذفوها فصار اذن و مجئ لفظة اذن دليل على اضمار فعل بعدها و التقرير و ما كانوا منظرين اذ كان ما طلبوا و هذا تأويل حسن ثم قال تعالى

واجب المراعاة بحيث لايمكن تبديله لوقوعه حسب الحكمة المقتضية له ( ٣٧٨ ) ( معلوم ) لاينسى ولايغفل عنه حتى يتصور التخلف عنه بالتقدم والتأخر فكتاب مبتدأ خبره الظرف والجملة حال من قرية فانها لعمومها لاسيما بعد تأكده بكلمة من فى حكم الموصوفة كما أشير اليه والمعنى ما أهلكنا قرية من القرى فى حال من الاحوال الاحال ان يكون لها كتاب اى اجل موقت لمهلكها قد كتبناه لانهلكها قبل بلوغه معلوم لايغفل عنه حتى يمكن مخالفته بالتقدم والتأخر او مرتفع بالظرف والجملة كما هى حال اى ما اهلكنا قرية من القرى فى حال من الاحوال الا وقد كان لها فى حق هلاكها كتاب اى اجل مقدر مكتوب فى اللوح معلوم لا يغفل عنه او صفة لا للقرية المذكورة بل للمقدرة التى هى بدل من المذكورة على المختار فيكون بمنزلة كونه صفة للمذكورة اى ما اهلكنا قرية من القرى الا قرية لها كتاب معلوم كما فى قوله تعالى ليس لهم طعام الا من ضريع لايسمن فان قوله تعالى لايسمن صفة لكن لا للطعام المذكور لانه انما يدل على انحصار طعامهم الذى لايسمن فى الضريع وليس المراد ذلك بل للطعام المقدر بعد الا اى ليس لهم طعام من شئ من الاشياء الا طعام لايسمن فليس فيه فصل بين الموصوف والصفة بكلمة الا كما توهم واما توسيط الواو بينهما وان كان القياس عدمه فللايذان بكمال الالصاق بينهما من حيث ان الواو شأنها الجمع والربط فان ما نحن فيه من الصفة اقوى لصوقا بالموصوف منها به فى قوله تعالى وما اهلكنا من قرية الا لها منذرون فان امتناع انفكاك الاهلاك عن الاجل المقدر عقلى وعن الانذار عادى جرى عليه السنة الالهية ولما بين ان الامم المهلكة كان

انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان القوم انما قالوا يا ايها الذى نزل عليه الذكر لاجل انهم سمعوا النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول ان الله تعالى نزل الذكر على ثم انه تعالى حقق قوله فى هذه الآية فقال انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون فأما قوله انا نحن نزلنا الذكر فهذه الصيغة وان كانت للجمع الا ان هذا من كلام الملوك عند اظهار التعظيم فان الواحد منهم اذا فعل فعلا او قال قولا قال انا فعلنا كذا وقلنا كذا فكذا ههنا (المسئلة الثانية) الضمير فى قوله له لحافظون الى ماذا يعود فيه قولان (الاول) انه عائد الى الذكر يعنى وانا نحفظ ذلك الذكر من التحريف والزيادة والنقصان ونظيره قوله تعالى فى صفة القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقال ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فان قيل فلم اشتغلت الصحابة بجمع القرآن فى المصحف وقد وعد الله تعالى بحفظه وما حفظه الله فلا خوف عليه والجواب ان جمعهم للقرآن كان من اسباب حفظ الله تعالى اياه فانه تعالى لما أن حفظه قيضهم لذلك قال اصحابنا وفى هذه الآية دلالة قوية على كون التسمية آية من اول كل سورة لان الله تعالى قد وعد بحفظ القرآن والحفظ لا معنى له الا ان يبقى مصونا من الزيادة والنقصان فلو لم تكن التسمية من القرآن لما كان القرآن مصونا عن التغيير ولما كان محفوظا عن الزيادة ولو جاز ان يظن بالصحابة انهم زادوا لجاز ايضا ان يظن بهم النقصان وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة (والقول الثانى) ان الكناية فى قوله له راجعة الى محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى وانا لمحمد لحافظون وهو قول الفراء وقوى ابن الانبارى هذا القول فقال لما ذكر الله الانزال والمنزل دل ذلك على المنزل عليه فحسنت الكناية عنه لكونه امرا معلوما كما فى قوله تعالى انا انزلناه فى ليلة القدر فان هذه الكناية عائدة الى القرآن مع انه لم يتقدم ذكره وانما حسنت الكناية للسبب المعلوم فكذا ههنا الا ان القول الاول ارجح القولين واحسنهما مشابهة لظاهر التنزيل والله اعلم (المسئلة الثالثة) اذا قلنا الكناية عائدة الى القرآن فاختلفوا فى انه تعالى كيف يحفظ القرآن قال بعضهم حفظه بأن جعله معجزا مباينا لكلام البشر فعجز الخلق عن الزيادة فيه والنقصان عنه لانهم لو زادوا فيه او نقصوا عنه لتغير نظم القرآن فيظهر لكل العقلاء ان هذا ليس من القرآن فصار كونه معجزا كاحاطة السور بالمدينة لانه يحصنها ويحفظها وقال آخرون انه تعالى صانه وحفظه من ان يقدر احد من الخلق على معارضته وقال آخرون اعجز الخلق عن ابطاله وافساده بان قيض جماعة يحفظونه ويدرسونه ويشهرونه فيما بين الخلق الى آخر بقاء التكليف وقال آخرون المراد بالحفظ هو ان احدا لو حاول تغييره بحرف او نقطة لقال له اهل الدنيا هذا كذب وتغيير لكلام الله تعالى حتى ان الشيخ المهيب لو اتفق له لحن او هفوة فى حرف من كتاب الله تعالى لقال له كل الصبيان اخطأت ايها الشيخ وصوابه كذا وكذا فهذا هو المراد من قوله وانا له لحافظون واعلم انه لم يتفق لشئ من الكتب مثل هذا الحفظ فانه لا كتاب الا وقد دخله التصحيف

---

لكل منهم وقت معين لهلاكهم وان هلاكهم لم يكن الا حسبما كان مكتوبا فى الالواح بين ان كل امة من الامم منهم ومن غيرهم لها كتاب لا يمكن التقدم عليه ولا التأخر عنه فقيل (ما تسبق من أمة) من الامم المهلكة وغيرهم (أجلها) المكتوب فى كتابها اى لا يجئ هلاكها قبل مجئ كتابها اولا تمضى أمة قبل مضى أجلها فان السبق اذا كان واقعا على زمانى فمعناه المجاوزة والتخليف فاذا قلت سبق زيد عمرا فمعناه انه جاوزه وخلفه وراءه واذا كان واقعا على زمان كان الامر بالعكس والسر فى ذلك ان الزمان يعتبر فيه الحركة والتوجه الى المتكلم فما سبقه يتحقق قبل تحققه واما الزمانى فانما يعتبر فيه الحركة والتوجه الى ما سيأتى من الزمان فالسابق ما تقدم الى المقصد وايراده بعنوان الاجل باعتبار ما يقتضيه من السبق كما ان ايراده بعنوان الكتاب المعلوم باعتبار ما يوجبه من الاهلاك (وما يستأخرون) اى وما يتأخرون وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له وايثار صيغة المضارع فى الفعلين بعدما ذكر نفى الاهلاك بصيغة الماضى لان المقصود بيان دوامهما واستمرارهما فيما بين الامم الماضية والباقية واسنادهما الى الامة بعد اسناد الاهلاك الى القرية لما ان السبق والاستئخار حال الامة دون القرية مع ما فى الامة من العموم لاهل تلك القرى وغيرهم ممن اخرت عقوباتهم الى الآخرة وتأخير ذكر عدم تأخرهم عن ذكر عدم سبقهم مع كون المقام مقام المبالغة فى بيان تحقق عذابهم اما باعتبار تقدم السبق فى الوجود واما باعتبار ان المراد بيان سر تأخير عذابهم مع استحقاقهم لذلك وايراد الفعل على صيغة جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب ولرعاية

والتحريف والتغيير اما فى الكثير منه او فى القليل وبقاء هذا الكتاب مصونا عن جميع جهات التحريف مع ان دواعى الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على ابطاله وافساده من اعظم المعجزات وايضا اخبر الله تعالى عن بقائه محفوظا عن التغيير والتحريف وانقضى الآن قريبا من ستمائة سنة فكان هذا اخبارا عن الغيب فكان ذلك ايضا معجزا قاهرا (المسئلة الرابعة) احتج القاضى بقوله انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون على فساد قول بعض الامامية فى ان القرآن قد دخله التغيير والزيادة والنقصان قال لانه لو كان الامر كذلك لما بقى القرآن محفوظا وهذا الاستدلال ضعيف لانه يجرى مجرى اثبات الشئ بنفسه فالامامية الذين يقولون ان القرآن قد دخله التغيير والزيادة والنقصان لعلهم يقولون ان هذه الآية من جملة الزوائد التى الحقت بالقرآن فثبت ان اثبات هذا المطلوب بهذه الآية يجرى مجرى اثبات الشئ بنفسه وانه باطل والله اعلم * قوله تعالى ( ولقد ارسلنا من قبلك فى شيع الاولين وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الاولين ) اعلم ان القوم لما اساؤا فى الادب وخاطبوه بالسفاهة وقالوا انك لمجنون فالله تعالى ذكر ان عادة هؤلاء الجهال مع جميع الانبياء هكذا كانت ولك اسوة فى الصبر على سفاهتهم وجهالتهم بجميع الانبياء عليهم السلام فهذا هو الكلام فى نظم الآية وفيه مسائل ( المسئلة الاولى ) فى الآية محذوف والتقدير ولقد ارسلنا من قبلك رسلا الا انه حذف ذكر الرسل لدلالة الارسال عليه وقوله فى شيع الاولين اى فى امم الاولين واتباعهم قال الفراء الشيع الاتباع واحدهم شيعة وشيعة الرجل اتباعه والشيعة الامة سموا بذلك لان بعضهم شايع بعضا وشاكله وذكرنا الكلام فى هذا الحرف عند قوله او يلبسكم شيعا قال الفراء وقوله فى شيع الاولين من اضافة الصفة الى الموصوف كقوله حق اليقين وقوله بجانب الغربى وقوله وذلك دين القيمة اما قوله وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن اى عادة هؤلاء الجهال مع جميع الانبياء والرسل ذلك الاستهزاء بهم كما فعلوا بك ذكره تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم واعلم ان السبب الذى يحمل هؤلاء الجهال على هذه العادة الخبيثة امور ( الاول ) انهم يستثقلون التزام الطاعات والعبادات والاحتراز عن الطيبات واللذات (والثانى) ان الرسول يدعوهم الى ترك ما الفوه من اديانهم الخبيثة ومذاهبهم الباطلة وذلك شاق شديد على الطباع (والثالث) ان الرسول متبوع مخدوم والاقوام يجب عليهم طاعته وخدمته وذلك ايضا فى غاية المشقة ( والرابع ) ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد يكون فقيرا ولا يكون له اعوان وانصار ولا مال ولا جاه فالمتنعمون والرؤساء يثقل عليهم خدمة من يكون بهذه الصفة ( والخامس ) خذلان الله لهم والقاء دواعى الكفر والجهل فى قلوبهم وهذا هو السبب الاصلى فلهذه الاسباب وما يشبهها تقع الجهال والضلال مع اكابر الانبياء عليهم السلام فى هذه الاعمال القبيحة والافعال المنكرة اما قوله تعالى كذلك نسلكه فى قلوب (المجرمين)

---

ودادتهم للاسلام اذ ذاك وبالامر بتركهم وشأنهم الى ان يعلموا حقيقة الحال انما هو لتأخر اجلهم المقدر لما يقتضيه من الحكم البالغة ومن جلتها ما علم الله تعالى من ايمان بعض من يخرج منهم الى يوم القيامة (وقالوا) شروع فى بيان كفرهم بمن انزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب وما يؤول اليه حالهم والقائلون مشركو مكة لغاية تماديهم فى العتو والغى ( يا أيها الذى نزل عليه الذكر ) خاطبوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسليما لذلك واعتقادا له بل استهزاء به عليه الصلاة والسلام واشعارا بعلة حكمهم الباطل فى قولهم (انك لمجنون) كدأب فرعون اذ قال ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون يعنون يا من يدعى مثل هذا الامر البديع الخارق للعادات انك بسبب تلك الدعوى او بشهادة ما يعتريك عند ما تدعى انه ينزل عليك لمجنون وتقديم الجار والمجرور على القائم مقام الفاعل لان انكارهم متوجه الى كون النازل ذكرا من الله تعالى لا الى كون المنزل عليه رسول الله بعد تسليم كون النازل منه تعالى كما فى قوله تعالى لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم فان الانكار هناك متوجه الى كون المنزل عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وايراد الفعل على صيغة المجهول لايهام ان ذلك ليس بفعل له فاعل او لتوجيه الانكار الى كون التنزيل عليه لا الى استناده الى الفاعل ( لوما تأتينا ) كلمة لو عند تركبها مع ما تفيد ما تفيده عند تركبها مع لا من معنى امتناع الشئ لوجود غيره ومعنى التحضيض خلا انه عند ارادته لا يليها

المجرمين ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) السلك ادخال الشئ في الشئ كادخال الخيط في المخيط والرمح في المطعون وقيل في قوله ماسلككم في سقر اى ادخلكم في جهنم وذكر ابو عبيدة وابو عبيد سلكته واسلكته بمعنى واحد ( المسئلة الثانية ) احتج اصحابنا بهذه الآية على انه تعالى يخلق الباطل في قلوب الكفار فقالوا قوله كذلك نسلكه اى كذلك نسلك الباطل والضلال في قلوب المجرمين قالت المعتزلة لم يجر للضلال والكفر ذكر فيما قبل هذا اللفظ فلا يمكن ان يكون الضمير عائدا اليه لا يقال انه تعالى قال وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن وقوله يستهزؤن يدل على الاستهزاء فالضمير في قوله كذلك نسلكه عائد اليه والاستهزاء بالانبياء كفر وضلال فثبت صحة قولنا المراد من قوله كذلك نسلكه في قلوب المجرمين هو انه كذلك نسلك الكفر والضلال والاستهزاء بأنبياء الله تعالى ورسله في قلوب المجرمين لانا نقول ان كان الضمير في قوله كذلك نسلكه عائدا الى الاستهزاء وجب ان يكون الضمير في قوله لا يؤمنون به عائدا ايضا الى الاستهزاء لانهما ضميران تعاقبا وتلاصقا فوجب عودهما الى شئ واحد فوجب ان لا يكونوا مؤمنين بذلك الاستهزاء وذلك يوجب التناقض لان الكافر لا بد وان يكون مؤمنا بكفره والذى لا يكون كذلك هو المسلم العالم ببطلان الكفر فلا يصدق به وايضا فلو كان تعالى هو الذى يسلك الكفر في قلب الكافر ويخلقه فيه فاحد اولى بالعذر من هؤلاء الكفار ولكان على هذا التقدير يمتنع ان يذمهم في الدنيا وان يعاقبهم في الآخرة عليه فثبت انه لا يمكن حمل هذه الآية على هذا الوجه فنقول التأويل الصحيح ان الضمير في قوله تعالى كذلك نسلكه عائد الى الذكر الذى هو القرآن فانه تعالى قال قبل هذه الآية انا نحن نزلنا الذكر وقال بعده كذلك نسلكه اى هكذا نسلك القرآن في قلوب المجرمين والمراد من هذا السلك هو انه تعالى يسمعهم هذا القرآن ويخلق في قلوبهم حفظ هذا القرآن ويخلق فيها العلم بمعانيه ويبين انهم لجهلهم واصرارهم لا يؤمنون به مع هذه الاحوال عنادا وجهلا فكان هذا موجبا للحوق الذم الشديد بهم ويدل على صحة هذا التأويل وجهان (الاول) ان الضمير في قوله لا يؤمنون به عائد الى القرآن بالاجماع فوجب ان يكون الضمير في قوله كذلك نسلكه عائدا اليه ايضا لانهما ضميران متعاقبان فيجب عودهما الى شئ واحد (والثاني) ان قوله كذلك معناه مثل ما عملنا كذا وكذا نعمل هذا السلك فيكون هذا تشبيها لهذا السلك بعمل آخر ذكره الله تعالى قبل هذه الآية من اعمال نفسه ولم يجر لعمل من اعمال الله ذكر في سابقة هذه الآية الا قوله انا نحن نزلنا الذكر فوجب ان يكون هذا معطوفا عليه ومشبها به ومتى كان الامر كذلك كان الضمير في قوله نسلكه عائدا الى الذكر وهذا تمام تقرير كلام القوم * والجواب لا يجوز ان يكون الضمير في قوله نسلكه عائدا الى الذكر ويدل عليه وجوه (الاول) ان قوله كذلك نسلكه مذكور بحرف النون والمراد منه اظهار نهاية التعظيم والجلالة ومثل هذا التعظيم انما يحسن ذكره اذا فعل فعلا يظهر له اثر قوى كامل بحيث صار المنازع والمدافع

الافعل ظاهر اوضمير وعند ارادة الاول لا يليها الاسم ظاهر اومقدر عند البصريين والمراد ههنا هو الثاني اى هلا تأتينا ( بالملائكة ) يشهدون بصحة نبوتك ويعضدونك في الانذار كقوله تعالى لولا انزل عليه ملك فيكون معه نذيرا اويعاقبوننا على التكذيب كما تأتى الامم المكذبة لرسلهم ( ان كنت من الصادقين ) في دعواك فان قدرة الله تعالى على ذلك مما لا ريب فيه وكذا احتيا جاك اليه في تمشية امرك فانا لا نصدقك بدون ذلك اوان كنت من جملة تلك الرسل الصادقين الذين عذبت اممهم المكذبة لهم ( ما ننزل الملائكة ) بالنون على بناء الفعل لضمير الجلالة من التنزيل وقرئ من الانزال وقرئ تنزل مضارعا من التنزيل على صيغة البناء للمفعول ومن التنزل بحذف احدى التاءين وماضيا منه ومن التنزيل ومن الثلاثى وهو كلام مسوق الى النبى صلى الله عليه وسلم جوابا لهم عن مقالتهم المحكية ورد الاقتراحهم الباطل ولشدة استدعاء ذلك للجواب قدم رده على ما هو جواب عن اولها اعنى قوله انا نحن نزلنا الذكر الآية كما فعل في قوله تعالى قال انما يأتيكم به الله فانه مع كونه جوابا عن قولهم فائتنا بما تعدنا قدم على قوله ولا ينفعكم نصحى الآية مع كونه جوابا عن اول كلامهم الذى هو قولهم يا نوح قد جادلتنا لما ذكر من شدة اقتضائه للجواب وليكون احد الجوابين متصلا بالسؤال وفي العكس يلزم انفصال كل من الجوابين عن سؤاله والعدول عن تطبيقه لظاهر كلامهم بصدد الاقتراح وهو ان يقال ما تأتيهم بهم للايذان بأنهم قد اخطؤا في التعبير حسبما اخطؤا في الاقتراح وان الملائكة لعلو رتبتهم اعلى من ان ينسب اليهم مطلق الاتيان الشامل للانتقال من احد الامكنة

له مغلوبا مقهورا فأما اذا فعل فعلا ولم يظهر له اثر البتة صار المنازع والمدافع غالبا قاهرا فان ذكر اللفظ المشعر بنهاية العظمة والجلالة يكون مستقبحا في هذا المقام والامر ههنا كذلك لانه تعالى سلك اسماع القرآن وتحفيظه وتعليمه في قلب الكافر لاجل ان يؤمن به ثم انه لم يلتفت اليه ولم يؤمن به فصار فعل الله تعالى كالهدر الضائع وصار الكافر والشيطان كالغالب الدافع واذا كان كذلك كان ذكر النون المشعر بالعظمة والجلالة في قوله نسلكه غير لائق بهذا المقام فثبت بهذا الوجه ان التأويل الذي ذكروه فاسد (الوجه الثاني) انه لو كان المراد ماذكروه لوجب ان يقال كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ولا يؤمنون به اي ومع هذا السعي العظيم في تحصيل ايمانهم لا يؤمنون اما لما لم يذكر الواو فعلمنا ان قوله لا يؤمنون به كالتفسير والبيان لقوله نسلكه في قلوب المجرمين وهذا انما يصح اذا كان المراد انا نسلك الكفر والضلال في قلوبهم (الوجه الثالث) ان قوله انا نحن نزلنا الذكر بعيد وقوله يستهزؤن قريب وعود الضمير الى اقرب المذكورات هو الواجب اما قوله لو كان الضمير في قوله نسلكه عائدا الى الاستهزاء لكان في قوله لا يؤمنون به عائدا اليه وحينئذ يلزم التناقض قلنا الجواب عنه من وجوه (الاول) ان مقتضى الدليل عود الضمير الى اقرب المذكورات ولا مانع من اعتبار هذا الدليل في الضمير الاول وحصل المانع من اعتباره في الضمير الثاني فلا جرم قلنا الضمير الاول عائد الى الاستهزاء والضمير الثاني عائد الى الذكر وتفريق الضمائر المتعاقبة على الاشياء المختلفة ليس بقليل في القرآن أليس ان الجبائي والكعبي والقاضي قالوا في قوله تعالى هو الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما اثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون فقالوا هذه الضمائر من اول الآية الى قوله جعلا له شركاء عائدة الى آدم وحواء واما في قوله جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون عائدة الى غيرهما فهذا ما اتفقوا عليه في تفاسيرهم واذا ثبت هذا ظهر انه لا يلزم من تعاقب الضمائر عودها الى شيء واحد بل الامر فيه موقوف على الدليل فكذا ههنا والله اعلم (والوجه الثاني) في الجواب قال بعض الادباء من اصحابنا قوله لا يؤمنون به تفسير للكناية في قوله نسلكه والتقدير كذلك نسلك في قلوب المجرمين ان لا يؤمنوا به والمعنى نجعل في قلوبهم ان لا يؤمنوا به (والوجه الثالث) وهو انا بينا بالبراهين العقلية القاهرة ان حصول الايمان والكفر يمتنع ان يكون بالعبد وذلك لان كل احد انما يريد الايمان والصدق والعلم والحق وان احدا لا يقصد تحصيل الكفر والجهل والكذب فلما كان كل احد لا يقصد الا الايمان والحق ثم انه لا يحصل ذلك وانما يحصل الكفر والباطل علمنا ان حصول ذلك الكفر ليس منه فان قالوا انما حصل ذلك الكفر لانه ظن انه هو الايمان فنقول فعلى هذا التقدير انما رضي بتحصيل ذلك الجهل لاجل جهل آخر سابق عليه فينقل

المتساوية الى الآخر منها بل من الاسفل الى الاعلى وان يكون ( ٣٨٢ ) مقصد حركاتهم اولئك الكفرة وان يدخلوا تحت ملكوت احد من البشر وانما الذي يليق بشأنهم النزول من مقامهم العالي وكون ذلك بطريق التنزيل من جناب الرب الجليل (الا بالحق) اي ملتبسا بالوجه الذي يحق ملابسة التنزيل به مما تقتضيه الحكمة وتجري به السنة الالهية كقوله سبحانه وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق والذي اقترحوه من التنزيل لاجل الشهادة لديهم وهم هم ومنزلتهم في الحقارة والهوان منزلتهم مما لا يكاد يدخل تحت الصحة والحكمة اصلا فان ذلك من باب التنزيل بالوحي الذي لا يكاد يفتح على غير الانبياء الكرام من افراد كل المؤمنين فكيف على امثال اولئك الكفرة اللئام وانما الذي يدخل في حقهم تحت الحكمة في الجملة هو التنزيل للتعذيب والاستئصال كما فعل بأضرابهم من الامم السالفة ولو فعل ذلك لاستؤصلوا بالمرة (وما كانوا اذا منظرين) جزاء الشرط مقدر وفيه ايذان بانتاج مقدماتهم لنقيض مطلوبهم كما في قوله تعالى واذا لا يلبثون خلافك الا قليلا قال صاحب النظم لفظة اذن مركبة من اذ وهو اسم بمعنى الحين تقول أتيتك اذ جئتني اي حين جئتني ثم ضم اليه ان فصار اذأن ثم استثقلوا الهمزة فحذفوها فمجيء لفظة ان دليل على اضمار فعل بعدها والتقدير وما كانوا اذأن كان ماطلبوه منظرين والمعنى لو نزلناهم ما كانوا مؤخرين كدأب سائر الامم المكذبة المستهزئة ومع استحقاقهم لذلك قد جرى قلم القضاء بتأخير عذابهم الى يوم القيامة حسبما أجل في قوله تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل الخ وحال حائل الحكمة بينهم (الكلام)

الى الزام الى ذلك الجهل السابق فان كان ذلك لاجل جهل آخر لزم التسلسل وهو محال والواجب انتهاء كل الجهالات الى جهل اول سابق حصل فى قلبه لا بتحصيله بل بتخليق الله تعالى وذلك هو الذى قلناه ان المراد من قوله كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به والمعنى نجعل فى قلوبهم ان لا يؤمنوا به وهو انه تعالى يخلق الكفر والضلال فيها وايضا قدماء المفسرين مثل ابن عباس وتلامذته اطبقوا على تفسير هذه الآية بأنه تعالى يخلق الكفر والضلال فيها والتأويل الذى ذكره المعتزلة تأويل مستحدث لم يقل به احد من المتقدمين فكان مردودا وروى القاضى عن عكرمة ان المراد كذلك نسلك القسوة فى قلوب المجرمين ثم قال القاضى ان القسوة لا تحصل الا من قبل الكافر بأن يستمر على كفره ويعاند فلا يصح اضافته الى الله تعالى فيقال للقاضى ان هذا يجرى مجرى المكابرة وذلك لان الكافر يجد من نفسه نفرة شديدة عن قبول قول الرسول ونبوة عظيمة عنه حتى انه كلما رآه تغير لونه واصفر وجهه وربما ارتعدت اعضاؤه ولا يقدر على الالتفات اليه والاصغاء لقوله فحصول هذه الاحوال فى قلبه امر اضطرارى لا يمكنه دفعها عن نفسه فكيف يقال انها حصلت بفعله واختياره فان قالوا انه يمكنه ترك هذه الاحوال والرجوع الى الانقياد والقبول فنقول هذا مغالطة محضة لانك ان أردت انه مع حصول هذه النفرة الشديدة فى القلب والنبوة العظيمة فى النفس يمكنه ان يعود الى الانقياد والقبول والطاعة والرضا فهذا مكابرة وان أردت ان عند زوال هذه الاحوال النفسانية يمكنه العود الى القبول والتسليم فهذا حق الا انه لا يمكنه ازالة هذه الدواعى والصوارف عن القلب فانه ان كان الفاعل لها هو الانسان لافتقر فى تحصيل هذه الدواعى والصوارف الى دواعى سابقة عليها ولزم الذهاب الى ما لا نهاية له وذلك محال وان كان الفاعل لها هو الله تعالى فحينئذ يصح انه تعالى هو الذى يسلك هذه الدواعى والصوارف فى القلوب وذلك عين ما ذكرناه والله اعلم * اما قوله تعالى وقد خلت سنة الاولين ففيه قولان (الاول) انه تهديد لكفار مكة يقول قد مضت سنة الله باهلاك من كذب الرسل فى القرون الماضية (الثانى) وهو قول الزجاج وقد مضت سنة الله فى الاولين بأن يسلك الكفر والضلال فى قلوبهم وهذا أليق بظاهر اللفظ

※ قوله تعالى (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون) اعلم ان هذا الكلام هو المذكور فى سورة الانعام فى قوله ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين والحاصل ان القوم لما طلبوا نزول ملائكة يصرحون بتصديق الرسول عليه السلام فى كونه رسولا من عند الله تعالى بين الله تعالى فى هذه الآية ان بتقدير ان يحصل هذا المعنى لقال الذين كفروا هذا من باب السحر وهؤلاء الذين يظن انا نراهم فنحن فى الحقيقة لا نراهم والحاصل انه لما علم الله تعالى انه لا فائدة فى نزول الملائكة فلهذا السبب ما انزلهم فان قيل كيف يجوز من الجماعة العظيمة ان يصيروا شاكين فى وجود ما يشاهدونه بالعين السليمة فى النهار

وبين استئصالهم لتعلق العلم والارادة بازديادهم عذابا ( ٢٧٣ ) وبايمان بعض ذراريهم واما نظم ايمان بعضهم فى سمط الحكمة فيأباه مقام بيان تماديهم فى الكفر والفساد ولجاجهم فى المكابرة والعناد هذا هو الذى يستدعيه اعجاز التنزيل الجليل واما ما قيل فى تعليل عدم موافقة التنزيل للحكمة من انهم حينئذ يكونون مصدقين عن اضطرار اوانه لا حكمة فى ان تأتيكم بصور تشاهدونها فانه لا يزيدكم الا لبسا اوان انزال الملائكة لا يكون الا بالحق وحصول الفائدة بانزالهم وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفار انه لو انزل اليهم الملائكة لبقوا مصرين على كفرهم فيصير انزالهم عبثا باطلا ولا يكون حقا فمع اخلال كل من ذلك بقطعية الباقى لا يلزم من فرض وقوع شئ من ذلك تعجيل العذاب الذى يفيده قوله تعالى وما كانوا اذا منظرين هذا على تقدير كون اقتراحهم لاتيان الملائكة لاجل الشهادة اما على تقدير كون ذلك لتعذيبهم فالمعنى انا ما ننزل الملائكة للتعذيب الا تنزيلا ملتبسا بالحق الذى تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة حتما بحيث لا محيد عنه ولو نزلناهم حسبما اقترحوا ما كان ذلك التنزيل ملتبسا بمقتضى الحكمة الموجبة لتأخير عذابهم الى يوم القيامة لا رفقا بهم بل تشديدا عليهم كما مر من قبل وحيث كان فى نسبة تنزيلهم للتعذيب الى عدم موافقته الحكمة نوع ايهام لعدم استحقاقهم التعذيب عدل عما يقتضيه الظاهر الى ما عليه النظم الكريم فكأنه قيل لو نزلناهم ما كانوا منظرين وذلك غير موافق للحكمة الموجبة لتأخير عذابهم لتشديد عقابهم وقيل المراد بالحق الوحى وقيل العذاب فتدبر ( انا نحن نزلنا الذكر ) رد لانكارهم التنزيل واستهزائهم برسول الله صلى الله عليه

الواضح ولو جاز حصول الشك فى ذلك كانت السفسطة لازمة ولا يبقى حينئذ اعتماد على الحس والمشاهدة اجاب القاضى عنه بأنه تعالى ما وصفهم بالشك فيما يبصرون وانما وصفهم بأنهم يقولون هذا القول وقد يجوز ان يقدم الانسان على الكذب على سبيل العناد والمكابرة ثم سأل نفسه وقال أفيصح من الجمع العظيم ان يظهروا الشك فى المشاهدات واجاب بأنه يصح ذلك اذا جمعهم عليه غرض صحيح معتبر من مواطأة على دفع حجة او غلبة خصم وايضا فهذه الحكاية انما وقعت عن قوم مخصوصين سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم انزال الملائكة وهذا السؤال ما كان الا من رؤساء القوم وكانوا قليلى العدد واقدام العدد القليل على ما يجرى مجرى المكابرة جائز (المسئلة الثانية) قوله تعالى فظلوا فيه يعرجون يقال ظل فلان نهاره يفعل كذا اذا فعله بالنهار ولا تقول العرب ظل يظل الا لكل عمل عمل بالنهار كما لا يقولون بات يبيت الا بالليل والمصدر الظلول وقوله فيه يعرجون يقال عرج يعرج عروجا ومنه المعارج وهى المصاعد التى يصعد فيها وللمفسرين فى هذه الآية قولان (احدهما) ان قوله فظلوا فيه يعرجون من صفة المشركين قال ابن عباس رضى الله عنهما لو ظل المشركون يصعدون فى تلك المعارج وينظرون الى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه والى عبادة الملائكة الذين هم من خشيته مشفقون لشكوا فى تلك الرؤية وبقوا مصرين على كفرهم وجهلهم كما جحدوا سائر المعجزات من انشقاق القمر وما خص به النبى صلى الله عليه وسلم من القرآن المعجز الذى لا يستطيع الجن والانس ان يأتوا بمثله (القول الثانى) ان هذا العروج للملائكة والمعنى انه تعالى لو جعل هؤلاء الكفار بحيث يروا ابوابا من السماء مفتوحة وتصعد منها الملائكة وتنزل لصرفوا ذلك عن وجهه ولقالوا ان السحرة سحرونا وجعلونا بحيث نشاهد هذه الاباطيل التى لا حقيقة لها وقوله لقالوا انما سكرت ابصارنا فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير سكرت بالتخفيف والباقون مشددة الكاف قال الواحدى سكرت غشيت ومددت بالسحر هذا قول اهل اللغة قالوا واصله من السكر وهو سد الشق لئلا ينفجر الماء فكأن هذه الابصار منعت من النظر كما يمنع السكر الماء من الجرى والتشديد يوجب زيادة وتكثيرا وقال ابو عمرو بن العلاء هو مأخوذ من سكر الشراب يعنى ان الابصار حارت ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع بالرجل السكران من تغير العقل فاذا كان هذا معنى التخفيف فسكرت بالتشديد يراد به وقوع هذا الامر مرة بعد اخرى وقال ابو عبيدة سكرت ابصارنا اى غشيت ابصارنا فوجب سكونها وبطلانها على هذا القول اصله من السكون يقال سكرت الريح سكرا اذا سكنت وسكر الحر يسكر وليلة ساكرة لا ريح فيها وقال أوس

جذلت على ليلة ساهره*فليست بطلق ولا ساكره

ويقال سكرت عينه سكرا اذا تحيرت وسكنت عن النظر وعلى هذا معنى سكرت ابصارنا اى سكنت عن النظر وهذا القول اختيار الزجاج وقال ابو على الفارسى سكرت صارت

وسلم بذلك وتسلية له اى نحن بعظم شاننا وعلو جنابنا نزلنا  ذلك الذكر الذى انكروه وانكروا نزوله عليك ونسبوك بذلك الى الجنون وعموا منزله حيث بنوا الفعل للمفعول ايماء الى انه امر لا مصدر له وفعل لا فاعل له ( وانا له لحافظون ) من كل ما لا يليق به فيدخل فيه تكذيبهم له واستهزاؤهم به دخولا اوليا فيكون وعيدا للمستهزئين واما الحفظ عن مجرد التحريف والزيادة والنقص وامثالها فليس بمقتضى المقام فالوجه الحمل على الحفظ من جميع ما يقدح فيه من الطعن فيه والمجادلة فى حقيته ويجوز ان يراد حفظه بالاعجاز دليلا على التنزيل من عنده تعالى اذ لو كان من عند غير الله لتطرق عليه الزيادة والنقص والاختلاف وفى سباك الجملتين من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة وعلى فخامة شأن التنزيل ما لا يخفى وفى ايراد الثانية بالجملة الاسمية دلالة على دوام الحفظ والله سبحانه اعلم وقيل الضمير المجرور للرسول صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى والله يعصمك من الناس وتأخير هذا الكلام وان كان جوابا عن اول كلامهم الباطل رداله لما ذكر آنفا ولارتباطه بما يعقبه من قوله تعالى (ولقد ارسلنا ) اى رسلا وانما لم يذكر لدلالة ما بعده عليه ( من قبلك ) متعلق بأرسلنا او بمحذوف هو نعت للمفعول المحذوف اى رسلا كائنة من قبلك ( فى شيع الاولين ) اى فرقهم واحزابهم جمع شيعة وهى الفرقة المتفقة على طريقة ومذهب من شاعه اذا تبعه واضافته الى الاولين من اضافة الموصوف الى صفته عند الفراء ومن حذف الموصوف عند البصريين اى شيع الامم الاولين 

بحيث لا ينفذ نورها ولا تدرك الاشياء على حقائقها وكان معنى السكر قطع الشئ عن سننه الجارى فمن ذلك تسكير الماء وهو رده عن سننه فى الجرية والسكر فى الشراب هو ان ينقطع عما كان عليه من المضاء فى حال الصحو فلا ينفذ رأيه على حد نفاذه فى الصحو فهذه اقوال اربعة فى تفسير سكرت وهى فى الحقيقة متقاربة والله اعلم (المسئلة الثانية) قال الجبائى من جوز قدرة السحرة على ان يأخذوا بأعين الناس حتى يروهم الشئ على خلاف ما هو عليه لم يصح ايمانه بالانبياء والرسل وذلك لانهم اذا جوزوا ذلك فلعل هذا الذى يرى انه محمد بن عبد الله ليس هو ذلك الرجل وانما هو شيطان ولعل هذه المعجزات التى نشاهدها ليس لها حقائق بل هى تكون من باب الاراءة الباطلة من ذلك الساحر واذا حصل هذا التجويز بطل الكل والله اعلم ❊ قوله تعالى (ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم الا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) اعلم انه تعالى لما اجاب عن شبهة منكرى النبوة وكان قد ثبت ان القول بالنبوة مفرع على القول بالتوحيد أتبعه تعالى بدلائل التوحيد ولما كانت دلائل التوحيد منها سماوية ومنها ارضية بدأ منها بذكر الدلائل السماوية فقال ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين قال الليث البرج واحد من بروج الفلك والبروج جمع وهى اثنا عشر برجا ونظيره قوله تعالى تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وقال والسماء ذات البروج ووجه دلالتها على وجود الصانع المختار هو ان طبائع هذه البروج مختلفة على ما هو متفق عليه بين ارباب الاحكام واذا كان الامر كذلك فالفلك مركب من هذه الاجزاء المختلفة فى الماهية والابعاض المختلفة فى الحقيقة وكل مركب فلا بد له من مركب يركب تلك الاجزاء والابعاض بحسب الاختيار والحكمة فثبت ان كون السماء مركبة من البروج يدل على وجود الفاعل المختار وهو المطلوب واما قوله وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم الا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين فقد استقصينا الكلام فيه فى سورة الملك فى تفسير قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين فلا نعيد ههنا الا القدر الذى لا بد منه قوله وزيناها اى بالشمس والقمر والنجوم للناظرين اى للمعتبرين بها والمستدلين بها على توحيد صانعها وقوله وحفظناها من كل شيطان رجيم فان قيل ما معنى وحفظناها من كل شيطان رجيم والشيطان لا قدرة له على هدم السماء فأى حاجة الى حفظ السماء منه قلنا لما منعه من القرب منها فقد حفظ السماء من مقاربة الشيطان فحفظ الله السماء منهم كما قد يحفظ منازلنا عن متجسس يخشى منه الفساد ثم نقول معنى الرجم فى اللغة الرمى بالحجارة ثم قيل للقتل رجم تشبيها له بالرجم بالحجارة والرجم ايضا السب والشتم لانه رمى بالقول القبيح ومنه قوله لأرجمنك اى لاسبنك والرجم اسم لكل ما يرمى به ومنه قوله وجعلناها رجوما للشياطين اى مرامى لهم والرجم القول بالظن ومنه قوله رجما بالغيب لانه يرميه بذلك

ومعنى ارسالهم فيهم جعل كل منهم رسولا فيها بين طائفة منهم ليتبابعوه فى كل ما يأتى ويذر من امور الدين (وما يأتيهم من رسول) المراد نفى اتيان كل رسول لشيعته الخاصة به لا نفى اتيان كل رسول لكل واحدة من تلك الشيع جميعا او على سبيل البدل وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة على طريقة حكاية الحال الماضية فان ما لا تدخل فى الاغلب على مضارع الا وهو فى معنى الحال ولا على ماض الا وهو قريب من الحال اى ما أتى شيعة من تلك الشيع رسول خاص بها (الا كانوا به يستهزؤن) كما يفعله هؤلاء الكفرة والجملة فى محل النصب على انها حال مقدرة من ضمير المفعول فى يأتيهم اذا كان المراد بالاتيان حدوثه او فى محل الرفع على انها صفة رسول فان محله الرفع على الفاعلية اى الا رسول كانوا به يستهزؤن واما الجر على انها صفة باعتبار لفظه فيفضى الى زيادة من الاستغراقية فى الاثبات ويجوز ان يكون منصوبا على الوصفية بأن يقدر الموصوف منصوبا على الاستثناء وان كان المختار الرفع على البدلية وهذا كما ترى تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن هذه عادة الجهال مع الانبياء عليهم السلام وحيث كان الرسول مصحوبا بكتاب من عند الله تعالى تضمن ذكر استهزائهم بالرسول استهزاءهم بالكتاب ولذلك قيل (كذلك) اشارة الى ما دل عليه الكلام السابق من القاء الوحى مقرونا بالاستهزاء اى مثل ذلك السلك الذى سلكناه فى قلوب اولئك المستهزئين برسلهم وبما جاؤا به من الكتب (نسلكه) اى الذكر (فى قلوب المجرمين) اى اهل مكة او جنس المجرمين ( ٤٩ ) ( را ) ( خا ) فيدخلون فيه دخولا اوليا او محله النصب على انه نعت لمصدر محذوف او

الظن والرجم ايضا اللعن والطرد وقوله الشيطان الرجيم قدفسر وبكل هذه الوجوه
قال ابن عباس رضي الله عنهما كانت الشياطين لاتحجب عن السموات فكانوا يدخلونها
ويسمعون اخبار الغيوب من الملائكة فيلقونها الى الكهنة فلما ولد عيسى عليه السلام
منعوا من ثلاث سموات فلما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها
فكل واحد منهم اذا أراد استراق السمع رمي بشهاب وقوله الا من استرق السمع لايمكن
حمل لفظة الا ههنا على الاستثناء بدليل ان اقدامهم على استراق السمع لايخرج السماء
من ان تكون محفوظة منهم الا انهم ممنوعون من دخولها وانما يحاولون القرب منها
فلا يصح ان يكون استثناء على التحقيق فوجب ان يكون معناه لكن من استرق السمع
قال الزجاج موضع من نصب على هذا التقدير قال وجائز ان يكون في موضع خفض
والتقدير الا ممن قال ابن عباس في قوله الا من استرق السمع يريد الخطفة اليسيرة وذلك
لان المارد من الشياطين يعلو فيرمى بالشهاب فيحرقه ولايقتله ومنهم من يخبله فيصير
غولا يضل الناس في البرارى وقوله فأتبعه ذكرنا معناه في سورة الاعراف في قصة بلعم بن
باعورا في قوله فأتبعه الشيطان معناه لحقه والشهاب شعلة نار ساطع ثم يسمى الكواكب
شهابا والسنان شهابا لاجل انهما لما فيهما من البريق يشبهان النار واعلم ان في هذا
الموضع ابحاثا دقيقة ذكرناها في سورة الملك وفي سورة الجن ونذكر منها ههنا اشكالا
واحدا وهو ان لقائل ان يقول اذا جوزتم في الجملة ان يصعد الشيطان الى السموات
ويختلط بالملائكة ويسمع اخبار الغيوب عنهم ثم انها تنزل وتلقى تلك الغيوب على
الكهنة فعلى هذا التقدير وجب ان يخرج الاخبار عن المغيبات عن كونه معجزا لان
كل غيب يخبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم قام فيه هذا الاحتمال وحينئذ يخرج عن
كونه معجزا دليلا على الصدق لايقال ان الله تعالى اخبر انهم عجزوا عن ذلك بعد
مولد النبي صلى الله عليه وسلم لانا نقول هذا العجز لايمكن اثباته الابعد القطع بكون
محمد رسولا وكون القرآن حقا والقطع بهذا لايمكن الابواسطة المعجز وكون الاخبار
عن الغيب معجزا لايثبت الابعد ابطال هذا الاحتمال وحينئذ يلزم الدور وهو باطل محال
ويمكن ان يجاب عنه بأنا نثبت كون محمد صلى الله عليه وسلم رسولا بسائر المعجزات
ثم بعد العلم بنبوته نقطع بان الله تعالى اعجز الشياطين عن تلقف الغيب بهذا الطريق
وعند ذلك يصير الاخبار عن الغيوب معجزا وبهذا الطريق يندفع الدور والله اعلم

※ قوله تعالى ( والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل شئ موزون
وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ) اعلم انه تعالى لما شرح الدلائل السماوية
في تقرير التوحيد اتبعها بذكر الدلائل الارضية وهى انواع ( النوع الاول ) قوله
تعالى والارض مددناها قال ابن عباس بسطناها على وجه الماء وفيه احتمال آخر وذلك
لان الارض جسم والجسم هو الذي يكون ممتدا في الجهات الثلاث وهى الطول

حال منه اى نسلكه سلكا مثل ذلك السلك اونسلك ( ٣٨٦ ) السلك حال كونه مثله اى مقرونا بالاستهزاء غير مقبول لما تقتضيه الحكمة
فانهم من اهل الخذلان ليس
لهم استحقاق لقبول الحق
وصيغة المضارع لكون المشبه به
مقدما في الوجود وهو السلك
الواقع في الامم السالفة اوللدلالة
على استحضار الصورة والسلك
ادخال الشئ في آخر يقال سلكت
الخيط في الابرة والرمح في المطعون
(لايؤمنون به)اى بالذكر حال
من ضمير نسلكه اى غير مؤمن به
اوبيان للجملة السابقة فلا محل
لها وقد جعل الضمير للاستهزاء
فيتعين البيانية الا ان يجعل
الضمير المجرور ايضا له على ان الباء
للملابسة اى نسلك الاستهزاء
في قلوبهم حال كونهم غير مؤمنين
بملابسته والحال اما مقدرة او
مقارنة للايذان بأن كفرهم
مقارن للالقاء كما في قوله تعالى
فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به
( وقد خلت سنة الاولين )اى قد
مضت طريقتهم التى سنها الله
تعالى في اهلاكهم حين فعلوا
ما فعلوا من التكذيب
والاستهزاء وهو استئناف جئ به
تكملة للتسلية وتصريحا بالوعيد
والتهديد(ولو فتحنا عليهم)اى على
هؤلاء المقترحين المعاندين ( بابا
من السماء ) اى بابا مالا بابا من
ابوابها المعهودة كما قيل ويسرنا
لهم الرقى والصعود اليه(فظلوا
فيه)في ذلك الباب (يعرجون)
بآلة اوبغيرها ويرون مافيها من
العجائب عيانا كما يفيده الظلول
اوفظل الملائكة الذين اقترحوا
اتيانهم يعرجون في ذلك الباب
وهم يرونه عيانا مستوضحين
طول نهارهم ( لقالوا )
لفرط عنادهم وغلوهم في
المكابرة وتفاديهم عن قبول
الحق ( انما سكرت ابصارنا )اى سدت من الاحساس من السكر كما يدل عليه القراءة بالتخفيف او حيرت كما يعضده قراءة من ( والعرض )

والعرض والثخن واذا كان كذلك فتمدد جسم الارض فى هذه الجهات الثلاث مختص بمقدار معين لما ثبت ان كل جسم فانه يجب ان يكون متناهيا واذا كان كذلك كان تمدد جسم الارض مختصا بمقدار معين مع ان الازدياد عليه معقول والانتقاص عنه ايضا معقول واذا كان كذلك كان اختصاص ذلك التمدد بذلك القدر المقدر مع جواز حصول الازيد والانقص اختصاصا بأمر جائز وذلك يجب ان يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر وهو الله سبحانه وتعالى * فان قيل هل يدل قوله والارض مددناها على انها بسيطة * قلنا نعم لان الارض بتقدير كونها كرة فهى كرة فى غاية العظمة والكرة العظيمة يكون كل قطعة صغيرة منها اذا نظر اليها فانها ترى كالسطح المستوى واذا كان كذلك زال ماذكروه من الاشكال والدليل عليه قوله تعالى والجبال اوتادا سماها اوتادا مع انه قد يحصل عليها سطوح عظيمة مستوية فكذا ههنا ( النوع الثانى ) من الدلائل المذكورة فى هذه الآية قوله تعالى والقينا فيها رواسى وهى الجبال الثوابت واحدها راسى والجمع راسية وجمع الجمع رواسى وهو كقوله تعالى والقى فى الارض رواسى ان تميد بكم وفى تفسيره وجهان (الاول) قال ابن عباس لما بسط الله تعالى الارض على الماء مالت بأهلها كالسفينة فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال لكيلا تميل بأهلها فان قيل أتقولون انه تعالى خلق الارض بدون الجبال فالت بأهلها فخلق فيها الجبال بعد ذلك او تقولون ان الله خلق الارض والجبال معا قلنا كلا الوجهين محتمل ( الوجه الثانى ) فى تفسير قوله والقينا فيها رواسى يجوز ان يكون المراد انه تعالى خلقها لتكون دلالة للناس على طرق الارض ونواحيها لانها كالاعلام فلا تميل الناس عن الجادة المستقيمة ولا يقعون فى الضلال وهذا الوجه ظاهر الاحتمال ( النوع الثالث ) من الدلائل المذكورة فى هذه الآية قوله تعالى وانبتنا فيها من كل شئ موزون وفيه بحثان ( الاول ) ان الضمير فى قوله وانبتنا فيها يحتمل ان يكون راجعا الى الارض وان يكون راجعا الى الجبال الرواسى الا ان رجوعه الى الارض اولى لان انواع النبات المنتفع بها انما تتولد فى الاراضى فأما الفواكه الجبلية فقليلة النفع ومنهم من قال رجوع ذلك الضمير الى الجبال اولى لان المعادن انما تتولد فى الجبال والاشياء الموزونة فى العرف والعادة هى المعادن لا النبات ( البحث الثانى ) اختلفوا فى المراد بالموزون وفيه وجوه ( الاول ) ان يكون المراد انه متقدر بقدر الحاجة قال القاضى وهذا الوجه اقرب لانه تعالى يعلم المقدار الذى يحتاج اليه الناس وينتفعون به فينبت تعالى فى الارض ذلك المقدار ولذلك اتبعه بقوله وجعلنا لكم فيها معايش لان ذلك الرزق الذى يظهر بالنبات يكون معيشة لهم من وجهين (الاول) بحسب الاكل والانتفاع بعينه (والثانى) ان ينتفع بالتجارة فيه والقائلون بهذا القول قالوا الوزن انما يراد لمعرفة المقدار فكان اطلاق لفظ الوزن لارادة معرفة المقدار من باب اطلاق اسم السبب على

الآيات الباهرة وفى كلتى الحصر والاضراب دلالة على انهم يبتون القول بذلك وان ما يرونه لا حقيقة له وانما هو امر خيل اليهم بالسحر وفى اسمية الجملة الثانية دلالة على دوام مضمونها وايرادها بعد تسكير الابصار لبيان انكارهم لغير ما يرونه فان عروج كل منهم الى السماء وان كان مرئيا لغيره فهو معلوم بطريق الوجدان مع قطع النظر عن الابصار فهم يدعون ان ذلك نوع آخر من السحر غير تسكير الابصار ( ولقد جعلنا فى السماء بروجا ) قصورا ينزلها السيارات وهى البروج الاثنا عشر المشهورة المختلفة الهيآت والخواص حسبما يدل عليه الرصد والتجربة مع ما اتفق عليه الجمهور من بساطة السماء والجعل ان جعل بمعنى الخلق والابداع وهو الظاهر فالجار متعلق به وان جعل بمعنى التصيير فهو مفعول ثان له متعلق بمحذوف اى جعلنا بروجا كائنة فى السماء ( وزيناها ) اى السماء بتلك البروج المختلفة الاشكال والكواكب سيارات كانت او ثوابت ( للناظرين ) اليها فمعنى التزيين ظاهر او للمتفكرين المعتبرين المستدلين بذلك على قدرة مقدرها وحكمة مدبرها فتزيينها ترتيبها على نظام بديع مستتبع للآثار الحسنة ( وحفظناها من كل شيطان رجيم ) مرمى بالنجوم فلا يقدر ان يصعد اليها ويوسوس فى اهلها ويتصرف فيها ويقف على احوالها ( الا من استرق السمع ) محله النصب على الاستثناء المتصل ان فسر الحفظ بمنع الشياطين عن التعرض لها على الاطلاق والوقوف على ما فيها فى الجملة او المنقطع ان فسر ذلك بالمنع عن دخولها والتصرف فيها

المسبب قالوا و يتأكد ذلك ايضا بقوله تعالى وكل شئ عنده بمقدار وقوله وان من شئ الاعندنا خزائنه ومانتزله الابقدر معلوم ( الوجه الثانى ) فى تفسير هذا اللفظ ان هذا العالم عالم الاسباب والله تعالى انما يخلق المعادن والنبات والحيوان بواسطة تركيب طبائع هذا العالم فلابد وان يحصل من الارض قدر مخصوص ومن الماء والهواء كذلك ومن تأثير الشمس والكواكب فى الحر والبرد مقدار مخصوص ولو قدرنا حصول الزيادة على ذلك القدر المخصوص او النقصان عنه لم تتولد المعادن والنبات والحيوان فالله سبحانه وتعالى قدرها على وجه مخصوص بقدرته وعلمه وحكمته فكأنه تعالى وزنها بميزان الحكمة حتى حصلت هذه الانواع ( الوجه الثالث ) فى تفسير هذا اللفظ ان اهل العرف يقولون فلان موزون الحركات اى حركاته حركات متناسبة حسنة مطابقة للحكمة وهذا الكلام كلام موزون اذا كان متناسبا حسنا بعيدا عن اللغو والسخف فكان المراد منه انه موزون بميزان الحكمة والعقل وبالجملة فقد جعلوا لفظ الموزون كناية عن الحسن والتناسب فقوله وانبتنا فيها من كل شئ موزون اى متناسب محكوم عليه عند العقول السليمة بالحسن واللطافة ومطابقة المصلحة (الوجه الرابع) فى تفسير هذا اللفظ ان الشئ الذى ينبت من الارض نوعان المعادن والنبات اما المعادن فهى بأسرها موزونة وهى الاجساد السبعة والاحجار والاملاح والزاجات وغيرها واما النبات فيرجع عاقبتها الى الوزن لان الحبوب توزن وكذلك الفواكه فى الاكثر والله اعلم وقوله تعالى وجعلنا لكم فيها معايش فيه مسئلتان ( المسئلة الاولى ) ذكرنا الكلام فى المعايش فى سورة الاعراف وقوله ومن لستم له برازقين فيه قولان ( القول الاول ) انه معطوف على محل لكم والتقدير وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ( والقول الثانى ) انه عطف على قوله معايش والتقدير وجعلنا لكم معايش ومن لستم له برازقين وعلى هذا القول ففيه احتمالات ثلاثة ( الاول ) ان كلمة من مختصة بالعقلاء فوجب ان يكون المراد من قوله ومن لستم له برازقين العقلاء وهم العيال والمماليك والخدم والعبيد وتقرير الكلام ان الناس يظنون فى اكثر الامر انهم الذين يرزقون العيال والخدم والعبيد وذلك خطأ فان الله هو الرزاق يرزق الخادم والمخدوم والمملوك والمالك فانه لولا انه تعالى خلق الاطعمة والاشربة واعطى القوة الغاذية والهاضمة والا لم يحصل لاحد رزق ( والاحتمال الثانى ) وهو قول الكلبى قال المراد بقوله ومن لستم له برازقين الوحش والطير فان قيل كيف يصح هذا التأويل مع ان صيغة من مختصة بمن يعقل قلنا الجواب عنه من وجهين (الاول) ان صيغة من قد ورت فى غير العقلاء والدليل عليه قوله تعالى والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على اربع (والثانى) انه تعالى اثبت لجميع الدواب رزقا على الله حيث قال وما من دابة فى الارض الاعلى الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها فكأنها عند الحاجة تطلب ارزاقها من

* عن ابن عباس رضى الله عنهما انهم كانوا لايحجبون عن السموات فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات ولما ولد النبى صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها واستراق السمع اختلاسه سرا شبه به خطفتهم اليسيرة من قطان السموات بما بينهم من المناسبة فى الجوهر اوبالاستدلال من الاوضاع ( فاتبعه ) اى تبعه ولحقه ( شهاب ) لهب محرق وهو شعلة نار ساطعة وقد يطلق على الكواكب والسنان لما فيهما من البريق (مبين) ظاهر امره للمبصرين قال معمر قلت لابن شهاب الزهرى اكان يرمى بالنجوم فى الجاهلية قال نعم وان النجم ينقض ويرمى به الشيطان فيقتله او يخبله لئلا يعود الى استراق السمع ثم يعود الى مكانه قال افرأيت قوله تعالى وانا كنا نقعد منها مقاعد الآية قال غلظت وشدد امرها حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن قتيبة ان الرجم كان قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام ولكن لم يكن فى شدة الحراسة كما بعد مبعثه عليه الصلاة والسلام قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان الشياطين يركب بعضهم بعضا الى السماء الدنيا يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب فلا يخطئ ابدا فنهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه وجنبه ويده حيث يشاء الله تعالى ومنهم من يخبله فيصير غولا فيضل الناس فى البوادى قال القرطبى اختلفوا فى ان الشهاب هل يقتل ام لا قال ابن عباس رضى الله عنهما يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل وقال الحسن وطائفة يقتل قال والاول اصح ( والارض مددناها ) بسطناها وهو بالنصب على الحذف على شريطة التفسير ولم نقرأ بالرفع ( خالقها )

خالقها فصارت شبيهة بمن يعقل من هذه الجهة فلم يبعد ذكرها بصيغة من يعقل الاترى انه قال ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم فذكرها بصيغة جمع العقلاء وقال فى الاصنام فانهم عدولى وقال كل فى فلك يسبحون فكذا ههنا لايبعد اطلاق اللفظة المختصة بالعقلاء على الوحش والطير لكونها شبيهة بالعقلاء من هذه الجهة وسمعت فى بعض الحكايات انه قلت المياه فى الاودية والجبال واشتد الحر فى عام من الاعوام فحكى عن بعضهم انه رأى بعض الوحش رافعا رأسه الى السماء عند اشتداد عطشه قال فرأيت الغيوم قد اقبلت وامطرت بحيث امتلأت الاودية منها (والاحتمال الثالث) انانحمل قوله ومن لستم له برازقين على الاماء والعبيد وعلى الوحش والطير وانما اطلق عليها صيغة من تغليبا لجانب العقلاء على غيرهم (المسئلة الثانية) قوله ومن لستم له برازقين لايجوز ان يكون مجرورا عطفا على الضمير المجرور فى لكم لانه لايعطف على الضمير المجرور لايقال اخذت منك وزيد الاباعادة الخافض كقوله تعالى واذاخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح واعلم ان هذا المعنى جائز على قراءة من قرأ تساءلون به والارحام بالخفض وقد ذكرناهذه المسئلة هنالك والله اعلم ☼ قوله تعالى (وان من شئ الاعندنا خزائنه ومانترله الابقدر معلوم وارسلنا الرياح لواقح فانزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما انتم له بخازنين) اعلم انه تعالى لمابين انه انبت فى الارض كل شئ موزون وجعل فيها معايش اتبعه بذكر ماهو كالسبب لذلك فقال وان من شئ الاعندنا خزائنه (وهذا هو النوع الرابع) من الدلائل المذكورة فى هذه السورة على تقرير التوحيد وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدى رحمه الله الخزائن جمع الخزانة وهى اسم المكان الذى يخزن فيه الشئ اى يحفظ والخزانة ايضا عمل الخازن ويقال خزن الشئ يخزنه اذا احرزه فى خزانة وعامة المفسرين على ان المراد بقوله وان من شئ الاعندنا خزائنه هو المطر وذلك لانه هو السبب للارزاق ولمعايش بنى آدم وغيرهم من الطيور والوحوش فلماذكر تعالى انه يعطيهم المعايش بين ان خزائن المطر الذى هو سبب المعايش عنده اى فى امره وحكمه وتدبيره وقوله ومانتزله الابقدر معلوم قال ابن عباس رحمهماالله يريد قدر الكفاية وقال الحكم مامن عام بأكثر مطرا من عام آخر ولكنه يمطر قوم ويحرم قوم آخرون وربما كان فى البحر يعنى ان الله تعالى ينزل المطر كل عام بقدر معلوم غيرانه يصرفه الى من يشاء حيث شاء كماشاء ولقائل ان يقول لفظ الآية لايدل على هذا المعنى فان قوله تعالى ومانتزله الابقدر معلوم لايدل على انه تعالى ينزله فى جميع الاعوام على قدر واحد واذاكان كذلك كان تفسير الآية بهذا المعنى تحكما من غير دليل واقول ايضا تخصيص قوله تعالى وان من شئ الاعندنا خزائنه بالمطر تحكم محض لان قوله وان من شئ يتناول جميع الاشياء الاماخصه الدليل وهو الموجود القديم الواجب لذاته وقوله الا عندنا خزائنه اشارة الى كون تلك الاشياء مقدورة له تعالى وحاصل الامر فيه ان

لرجحان النصب للعطف على الجملة الفعلية اعنى (٣٨٩) قوله تعالى ولقد جعلنا الخ وليوافق مابعده أعنى قوله تعالى (والقينا فيها رواسى) اى جبالا ثوابت وقد مر بيانه فى اول الرعد (وانبتنا فيها) اى فى الارض اوفيها وفى رواسيها (من كل شئ موزون) بميزان الحكمة ذاتا وصفة ومقدرا وقيل مايوزن من الذهب والفضة وغيرهما اومن كل شئ مستحسن مناسب اوما يوزن ويقدر من ابواب النعمة (وجعلنا لكم فيها معايش) ماتعيشون به من المطاعم والملابس وغيرهما مما يتعلق به البقاء وهى بياء صريحة وقرئ بالهمزة تشبيها له بالشمائل (ومن لستم له برازقين) عطف على معايش اوعلى محل لكم كأنه قيل جعلنا لكم معايش وجعلنا لكم من لستم برازقيه من العيال والمماليك والخدم والدواب وماشبهها على طريقة التغليب وذكرهم بهذا العنوان لرد حسبانهم انهم يكفون مؤناتهم ولتحقيق ان الله تعالى هو الذى يرزقهم واياهم او وجعلنا لكم فيها معايش ولمن لستم له برازقين (وان من شئ) ان للنفى ومن مزيدة للتأكيد وشئ فى محل الرفع على الابتداء اى مامن شئ من الاشياء الممكنة فيدخل فيه ماذكر دخولا اوليا (الاعندنا خزائنه) الظرف خبر للمبتدأ وخزائنه مرتفع به على انه فاعله لاعتماده اوخبر له والجملة خبر للمبتدأ الاول والخزائن جمع الخزانة وهى مايحفظ فيه نفائس الاموال لاغير غلب فى العرف على ماللملوك والسلاطين من خزائن ارزاق الناس شبهت مقدوراته تعالى الفائتة للحصر المندرجة تحت قدرته الشاملة فى كونها مستورة عن علوم العالمين ومصونة عن وصول ايديهم مع كمال افتقارهم اليها ورغبتهم فيها وكونها مهيأة

المراد ان جميع الممكنات مقدورة له ومملوكة يخرجها من العدم الى الوجود كيف شاء الا انه تعالى وان كانت مقدوراته غير متناهية الا ان الذى يخرجه منها الى الوجود يجب ان يكون متناهيا لان دخول مالانهاية له فى الوجود محال فقوله وان من شئ الا عندنا خزائنه اشارة الى كون مقدوراته غير متناهية وقوله وماننزله الا بقدر معلوم اشارة الى ان كل مايدخل منها فى الوجود فهو متناه ومتى كان الخارج منها الى الوجود متناهيا كان لامحالة مختصا فى الحدوث بوقت مقدر مع جواز حصوله قبل ذلك الوقت او بعده بدلا عنه وكان مختصا بحيز معين مع جواز حصوله فى سائر الاحياز بدلا عن ذلك الحيز وكان مختصا بصفات معينة مع انه كان يجوز فى العقل حصول سائر الصفات بدلا عن تلك الصفات واذا كان كذلك كان اختصاص تلك الاشياء المتناهية بذلك الوقت المعين والحيز المعين والصفات المعينة بدلا عن اضدادها لابد وان يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر وهذا هو المراد من قوله وماننزله الا بقدر معلوم والمعنى انه لولا القادر المختار الذى خصص تلك الاشياء بتلك الاحوال الجائزة لامتنع اختصاصها بتلك الصفات الجائزة والمراد من الانزال الاحداث والانشاء والابداع كقوله تعالى وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج وقوله وانزلنا الحديد والله اعلم (المسئلة الثانية) تمسك بعض المعتزلة بهذه الآية فى اثبات ان المعدوم شئ قال لان قوله تعالى وان من شئ الا عندنا خزائنه يقتضى ان يكون لجميع الاشياء خزائن وان تكون تلك الخزائن حاصلة عندالله تعالى ولا جائز ان يكون المراد من تلك الخزائن الموجودة عندالله تعالى هى تلك الموجودات من حيث انها موجودة لانا بينا ان المراد من قوله تعالى وماننزله الا بقدر معلوم الاحداث والابداع والانشاء والتكوين وهذا يقتضى ان يكون حصول تلك الخزائن عندالله متقدما على حدوثها ودخولها فى الوجود واذا بطل هذا وجب ان يكون المراد ان تلك الذوات والحقائق والماهيات كانت متقررة عند الله تعالى بمعنى انها كانت ثابتة من حيث انها حقائق وماهيات ثم انه تعالى انزل بعضها اى اخرج بعضها من العدم الى الوجود ولقائل ان يجيب عن ذلك بقوله لاشك ان لفظ الخزائن انما ورد ههنا على سبيل التمثيل والتخييل فلم لايجوز ان يكون المراد منه مجرد كونه تعالى قادرا على ايجاد تلك الاشياء وتكوينها واخراجها من العدم الى الوجود وعلى هذا التقدير يسقط الاستدلال والمباحث الدقيقة باقية والله اعلم اما قوله تعالى وارسلنا الرياح لواقح فاعلم ان هذا هو النوع الخامس من دلائل التوحيد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى وصف الرياح بانها لواقح اقوال (الاول) قال ابن عباس الرياح لواقح للشجر وللسحاب وهو قول الحسن وقتادة والضحاك واصل هذا من قولهم لقحت الناقة والقحها الفحل اذا القى الماء فيها فحملت فكذلك الرياح جارية مجرى الفحل للسحاب قال ابن مسعود فى تفسير هذه الآية يبعث الله الرياح لتلقح السحاب فتحمل

---

متأتية لايجاده وتكوينه بحيث متى تعلقت الارادة بوجودها وجدت بلاتأخر بنفائس الاموال المخزونة فى الخزائن السلطانية فذكر الخزائن على طريقة الاستعارة التخييلية (وماننزله) اى مانوجد وما نكون شيئا من تلك الاشياء ملتبسا بشئ من الاشياء (الا بقدر معلوم) اى الا ملتبسا بمقدار معين تقتضيه الحكمة وتستدعيه المشيئة التابعة لها لابما تقتضيه القدرة فان ذلك غير متناه فان تخصيص كل شئ بصفة معينة وقدر معين ووقت محدود دون ماعدا ذلك مع استواء الكل فى الامكان واستحقاق تعلق القدرة به لابدله من حكمة تقتضى اختصاص كل من ذلك بما اختص به وهذا البيان سر عدم تكوين الاشياء على وجه الكثرة حسبما هو فى خزائن القدرة وهو اما عطف على مقدر اى ننزله وماننزله الخ اوحال مما سبق اى عندنا خزائن كل شئ والحال انا ماننزله الا بقدر معلوم فالاول لبيان سعة القدرة والثانى لبيان بالغ الحكمة وحيث كان انشاء ذلك بطريق التفضل من العالم العلوى الى العالم السفلى كما فى قوله تعالى وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج وكان ذلك بطريق التدريج عبر عنه بالتنزيل وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار (وارسلنا الرياح) عطف على جعلنا لكم فيها معايش ومابينهما اعتراض لتحقيق ماسبق وترشيح مالحق اى ارسلنا الرياح (لواقح) اى حوامل شبهت الريح التى تجئ بالخير من انشاء سحاب ماطر بالحامل كما شبه بالعقيم مالا يكون كذلك او ملقحات بالشجر والسحاب ونظيره الطوائح بمعنى المطيحات فى قوله * ومختبط مما تطيح الطوائح * اى المهلكات وقرئ وارسلنا

(الماء)

الماء وتمجه فى السحاب ثم انه يعصر السحاب ويدره كما تدر اللقحة فهذا هو تفسير القاحها السحاب واما تفسير القاحها للشجر فما ذكروه فان قيل كيف قال لواقح وهى ملقحة والجواب ماذهب اليه ابو عبيدة ان لواقح ههنا بمعنى ملاقح جمع ملقحة وانشد لسهيل يرثى اخاه

ليبك يزيد يائس ذوضراعة ❊ واشعث مما طوحته الطوائح

اراد المطوحات وقرر ابن الانبارى ذلك فقال تقول العرب ابقل النبت فهو باقل يريدون فهو مبقل وهذا يدل على جواز ورود لاقح عبارة عن ملقح (والوجه الثانى) فى الجواب قال الزجاج يجوز ان يقال لها لواقح وان القحت غيرها لان معناها النسبة وهو كما يقال درهم وازن اى ذو وزن ورامح وسائف اى ذو رمح وذو سيف قال الواحدى هذا الجواب ليس بمغن لانه كان يجب ان يصح اللاقح بمعنى ذات اللقاح وهذا ليس بشئ لان اللاقح هو المنسوب الى اللقحة ومن افاد غيره اللقحة فله نسبة الى اللقحة فصح هذا الجواب والله اعلم (والوجه الثالث) فى الجواب ان الريح فى نفسها لاقح وتقريره بطريقين (الاول) ان الريح حاملة للسحاب والدليل عليه قوله سبحانه وهو الذى يرسل الرياح نشرا بين يدى رحمته حتى اذا اقلت سحابا ثقالا اى حملت فعلى هذا المعنى تكون الريح لاقحة بمعنى انها حاملة تحمل السحاب والماء (والطريق الثانى) قال الزجاج يجوز ان يقال للريح لقحت اذا اتت بالخير كما قيل لها عقيم اذا لم تأت بالخير وهذا كما تقول العرب قد لقحت الحرب وقد نتجت ولدا انكد يشبهون ماتشتمل عليه من ضروب الشر بما تحمله الناقة فكذا ههنا والله اعلم (المسئلة الثانية) الريح هواء متحرك وحركة الهواء بعد ان لم يكن متحركا لابد له من سبب وذلك السبب ليس نفس كونه هواء ولا شيئا من لوازم ذاته والا لدامت حركة الهواء بدوام ذاته وذلك محال فلم يبق الا ان يقال انه يتحرك بتحريك الفاعل المختار والاحوال التى تذكرها الفلاسفة فى سبب حركة الهواء عند حدوث الريح قد حكيناها فى هذا الكتاب مرارا فأبطلناها وبينا انه لا يمكن ان يكون شئ منها سببا لحدوث الرياح فبقى ان يكون محركها هو الله سبحانه واما قوله وانزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما انتم له بخازنين ففيه مباحث (الاول) ان ماء المطر هل ينزل من السماء او ينزل من ماء السحاب وبتقدير ان يقال انه ينزل من السحاب كيف اطلق الله على السحاب لفظ السماء (وثانيها) انه ليس السبب فى حدوث المطر مايذكره الفلاسفة بل السبب فيه ان الفاعل المختار ينزله من السحاب الى الارض لغرض الاحسان الى العباد كما قال ههنا فأسقيناكموه قال الازهرى تقول العرب لكل ماكان فى بطون الانعام ومن السماء اونهر يجرى اسقيته اى جعلته شربا له وجعلت له منها مسقى فاذا كانت السقيا لسقيه قالوا سقاه ولم يقولوا اسقاه والذى يؤكد هذا اختلاف القراء فى قوله نسقيكم مما فى بطونه فقرؤا باللغتين ولم يختلفوا فى قوله وسقاهم ربهم شرابا طهورا

الريح على ارادة الجنس (فانزلنا  من السماء) بعد ما انشأنا بتلك الرياح سحابا ماطرا (ماء فاسقيناكموه) اى جعلناه لكم سقيا وهو أبلغ من سقيناكموه لما فيه من الدلالة على جعل الماء معدا لهم ينتفعون به متى شاؤا (وما انتم له بخازنين) نفى عنهم ما اثبته لجنابه بقوله وان من شئ الا عندنا خزائنه كأنه قيل نحن القادرون على ايجاده وخزنه فى السحاب وانزاله وما انتم على ذلك بقادرين وقيل ما انتم بخازنين له بعد ما أنزلناه فى الغدران والآبار والعيون بل نحن نخزنه فيها لنجعلها سقيا لكم مع ان طبيعة الماء تقتضى الغور (وانا لنحن نحيي) بايجاد الحياة فى بعض الاجسام القابلة لها (ونميت) بازالتها عنها وقد يعمم الاحياء والاماتة لما يشمل الحيوان والنبات وتقديم الضمير للحصر وهو اما تأكيد للاول او مبتدأ خبره الفعل والجملة خبر لانا ولا يجوز كونه ضمير الفصل لا لان اللام مانعة من ذلك كما قيل فان النحاة جوزوا دخول لام التأكيد على ضمير الفصل كما فى قوله تعالى ان هذا لهو القصص الحق بل لانه لم يقع بين اسمين (ونحن الوارثون) اى الباقون بعد فناء الخلق قاطبة المالكون للملك عند انقضاء زمان الملك المجازى الحاكمون فى الكل اولا وآخرا وليس لهم الا التصرف الصورى والملك المجازى وفيه تنبيه على ان المتأخر ليس بوارث للمتقدم كما يتراءى من ظاهر الحال (ولقد علمنا المستقدمين منكم) من تقدم منكم ولادة وموتا (ولقد علمنا المستأخرين) من تأخر ولادة وموتا او من خرج من اصلاب الآباء ومن لم يخرج بعد او من تقدم فى الاسلام والجهاد وسبق الى الطاعة ومن تأخر فى ذلك لا يخفى علينا شئ من احوالكم وهو بيان

و فى قوله و الذى هو يطعمنى و يسقين قال ابو على سقيته حتى روى و اسقيته نهرا اى جعلته شربا له و قوله فأسقيناكموه اى جعلناه سقيا لكم و ربما قالوا فى اسقى سقى كقول لبيد يصف سحابا

اقول و صوبه منى بعيد * يحط السيب من قلل الجبال
سقى قومى بنى مجد و اسقى * نميرا و القبائل من هلال

فقوله سقى قومى ليس يريد به ما يروى عطاشهم و لكن يريد رزقهم سقيا لبلادهم يخصبون بها و بعيد ان يسأل لقومه ما يروى العطاش و لغيرهم ما يخصبون به و اما سقيا السقية فلا يقال فيها اسقاه و اما قول ذى الرمة

و اسقيه حتى كاد مما ابثه * تكلمنى احجاره و ملاعبه

فمعنى اسقيه ادعو له بالسقاء و اقول سقاه الله و قوله و ما انتم له بخازنين يعنى به ذلك الماء المنزل من السماء يعنى لستم له بحافظين * قوله تعالى ( و انا لنحن نحيى و نميت و نحن الوارثون و لقد علمنا المستقدمين منكم و لقد علمنا المستأخرين و ان ربك هو يحشرهم انه حكيم عليم ) اعلم ان هذا هو ( النوع السادس ) من دلائل التوحيد و هو الاستدلال بحصول الاحياء و الاماتة لهذه الحيوانات على وجود الاله القادر المختار اما قوله و انا لنحن نحيى و نميت ففيه قولان منهم من حمله على القدر المشترك بين احياء النبات و الحيوان و منهم من يقول وصف النبات بالاحياء مجاز فوجب تخصيصه باحياء الحيوان و لما ثبت بالدلائل العقلية انه لا قدرة على خلق الحياة الا للحق سبحانه كان حصول الحياة للحيوان دليلا قاطعا على وجود الاله الفاعل المختار و قوله و انا لنحن نحيى و نميت يفيد الحصر اى لا قدرة على الاحياء و لا على الاماتة الا لنا و قوله و نحن الوارثون معناه انه اذا مات جميع الخلائق فحينئذ يزول ملك كل احد عند موته و يكون الله هو الباقى الحق المالك لكل المملوكات وحده فكان هذا شبيها بالارث فكان وارثا من هذا الوجه و اما قوله و لقد علمنا المستقدمين منكم و لقد علمنا المستأخرين ففيه وجوه (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء المستقدمين يريد اهل طاعة الله تعالى و المستأخرين يريد المتخلفين عن طاعة الله ( الثانى ) أراد بالمستقدمين الصف الاول من اهل الصلاة و بالمستأخرين الصف الآخر روى انه صلى الله عليه وسلم رغب فى الصف الاول فى الصلاة فازدحم الناس عليه فأنزل الله تعالى هذه الآية و المعنى انا نجزيهم على قدر نياتهم ( الثالث ) قال الضحاك و مقاتل يعنى فى صف القتال (الرابع) قال ابن عباس فى رواية ابى الجوزاء كانت امرأة حسناء تصلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم و كان قوم يتقدمون الى الصف الاول لئلا يروها و آخرون يتخلفون و يتأخرون ليروها و اذا ركعوا جافوا ايديهم لينظروا من تحت آباطهم فأنزل الله تعالى هذه الآية (الخامس) قيل المستقدمون هم الاموات و المستأخرون هم الاحياء و قيل المستقدمون هم الامم

---

لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته فان ما يدل عليها دليل عليه ( ٣٩٢ ) و فى تكرير قوله تعالى و لقد علمنا ما لا يخفى من الدلالة على كمال التأكيد و قيل رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصف الاول فازدحموا عليه فنزلت و قيل ان امرأة حسناء كانت تصلى خلف رسول الله عليه الصلاة و السلام فتقدم بعض الناس لئلا يراها و تأخر آخرون ليروهـا فنزلت و الاول هو المناسب لما سبق و ما لحق من قوله تعالى (و ان ربك هو يحشرهم) اى للجزاء و توسيط ضمير العظمة للدلالة على انه هو القادر على حشرهم و المتولى له لا غير لانهم كانوا يستبعدون ذلك و يستنكرونه و يقول من يحيى العظام وهى رميم اى هو يحشرهم لا غير و فى الالتفات و التعرض لعنوان الربوبية اشعار بعلة الحكم و فى الاضافة الى ضميره عليه الصلاة و السلام دلالة على اللطف به عليه الصلاة و السلام ( انه حكيم ) بالغ الحكمة متقن فى افعاله فانها عبارة عن العلم بحقائق الاشياء على ما هى عليه و الاتيان بالافعال على ما ينبغى ( عليم )وسع علمه كل شئ و لعل تقديم صفة الحكمة للايذان باقتضائها للحشر و الجزاء (و لقد خلقنا الانسان) اى هذا النوع بأن خلقنا اصله و اول فرد من افراده خلقا بديعا منطويا على خلق سائر افراده انطواء اجماليا كما مر تحقيقه فى سورة الانعام (من صلصال) من طين يابس غير مطبوخ يصلصل اى يصوت عند نقره قيل اذا توهمت فى صوته مدا فهو صليل و ان توهمت فيه ترجيعا فهو صلصلة و قيل هو تضعيف صل اذا أنتن (من حمأ) من طين تغير و اسود بطول مجاورة الماء و هو صفة لصلصال اى من صلصال كائن من حمأ ( السالفة )

السالفة والمستأخرون هم امة محمد صلى الله عليه وسلم وقال عكرمة المستقدمون من خلق والمستأخرون من لم يخلق واعلم انه تعالى لما قال وانا لنحن نحيي ونميت أتبعه بقوله ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين تنبيها على انه لا يخفى على الله شئ من احوالهم فيدخل فيه علمه تعالى بتقدمهم وتأخرهم فى الحدوث والوجود وبتقدمهم وتأخرهم فى انواع الطاعات والخيرات ولا ينبغى ان نخص الآية بحالة دون حالة واما قوله وان ربك هو يحشرهم فالمراد منه التنبيه على ان الحشر والنشر والبعث والقيامة امر واجب وقوله انه حكيم عليم معناه ان الحكمة تقتضى وجوب الحشر والنشر على ما قررناه بالدلائل الكثيرة فى اول سورة يونس عليه السلام ☼ قوله تعالى ( ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم ) وفى الآية مسائل

( المسئلة الاولى ) اعلم ان هذا هو النوع السابع من دلائل التوحيد فانه تعالى لما استدل بتخليق الحيوانات على صحة التوحيد فى الآية المتقدمة أردفه بالاستدلال بتخليق الانسان على هذا المطلوب ( المسئلة الثانية ) ثبت بالدلائل القاطعة انه يمتنع القول بوجود حوادث لا أول لها واذا ثبت هذا ظهر وجوب انتهاء الحوادث الى حادث اول هو اول الحوادث واذا كان كذلك فلابد من انتهاء الناس الى انسان هو اول الناس واذا كان كذلك فذلك الانسان الاول غير مخلوق من الابوين فيكون مخلوقا لا محالة بقدرة الله تعالى فقوله ولقد خلقنا الانسان اشارة الى ذلك الانسان الاول والمفسرون اجمعوا على ان المراد منه هو آدم عليه السلام ونقل فى كتب الشيعة عن محمد بن على الباقر عليه السلام انه قال قد انقضى قبل آدم الذى هو ابونا ألف الف آدم او اكثر واقول هذا لا يقدح فى حدوث العالم بل الامر كيف كان فلابد من الانتهاء الى انسان اول هو اول الناس واما ان ذلك الانسان هو ابونا آدم فلا طريق الى اثباته الا من جهة السمع واعلم ان الجسم محدث فوجب القطع بأن آدم عليه السلام وغيره من الاجسام يكون مخلوقا عن عدم محض وايضا دل قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب على ان آدم مخلوق من تراب ودلت آية أخرى على انه مخلوق من الطين وهى قوله انى خالق بشرا من طين وجاء فى هذه الآية ان آدم عليه السلام مخلوق من صلصال من حمأ مسنون والاقرب انه تعالى خلقه اولا من تراب ثم من طين ثم من حمأ مسنون ثم من صلصال كالفخار ولا شك انه تعالى قادر على خلقه من أى جنس من الاجسام كان بل هو قادر على خلقه ابتداء وانما خلقه على هذا الوجه اما لمحض المشيئة او لما فيه من دلالة الملائكة ومصلحتهم ومصلحة الجن لان خلق الانسان من هذه الامور أعجب من خلق الشئ من شكله وجنسه ( المسئلة الثالثة ) فى الصلصال قولان قيل الصلصال الطين اليابس الذى يصلصل وهو غير مطبوخ واذا طبخ فهو فخار قالوا اذا توهمت فى صوته مدا فهو صليل واذا توهمت فيه ترجيعا فهو صلصلة قال المفسرون خلق الله تعالى آدم عليه السلام من طين فصوره وتركه

(مسنون) اى مصور من سنة الوجه وهى صورته ( ٣٩٣ ) او مصبوب من سن الماء صبه اى مفرغ على هيئة الانسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذابة فى القوالب وقيل منتن فهو صفة لحما وعلى الاولين حقه ان يكون صفة لصلصال وانما اخر عن حمأ تنبيها على ان ابتداء مسنونيته ليس فى حال كونه صلصالا بل فى حال كونه حمأ كأنه سبحانه افرغ الحمأ فصور من ذلك تمثال انسان اجوف فيبس حتى اذا نقر صوت ثم غيره الى جوهر آخر فتبارك الله احسن الخالقين ( والجان ) ابا الجن وقيل ابليس ويجوز ان يراد به الجنس كما هو الظاهر من الانسان لان تشعب الجنس لما كان من فرد واحد مخلوق من مادة واحدة كان الجنس بأسره مخلوقا منها وقرئ بالهمزة وانتصابه بفعل يفسره (خلقناه) وهو اقوى من الرفع للعطف على الجملة الفعلية (من قبل) من قبل خلق الانسان ومن هذا يظهر جواز كون المراد بالمستقدمين احد الثقلين وبالمستأخرين الآخر والخطاب بقوله منكم للكل ( من نار السموم ) من نار الحر الشديد النافذ فى المسام ولا امتناع من خلق الحياة فى الاجرام البسيطة كما لا امتناع من خلقها فى الجواهر المجردة فضلا عن الاجساد المؤلفة التى غالب اجزائها الجزء النارى فانها أقبل لها من التى غالب اجزائها الجزء الارضى وقوله تعالى من نار باعتبار الغالب كقوله تعالى خلقكم من تراب ومساق الآية الكريمة كما هو للدلالة على كمال قدرة الله تعالى وبيان بدء خلق الثقلين فهو للتنبيه على المقدمة الثانية التى يتوقف عليها امكان الحشر وهو قبول المواد للجمع ( ٥٠ ) ( را ) ( خا ) والاحياء (واذ قال ربك) نصب باضمار اذكر وتذكير الوقت لما مر مرارا من

في الشمس اربعين سنة فصار صلصالا كالخزف ولا يدرى احد ما يراد به ولم يروا شيئا من الصور يشبهه الى ان نفخ فيه الروح وحقيقة الكلام انه تعالى خلق آدم من طين على صورة الانسان فجف فكانت الريح اذا مرت به سمع له صلصلة فلذلك سماه الله تعالى صلصالا ( والقول الثاني ) الصلصال هو المنتن من قولهم صل اللحم واصل اذا أنتن وتغير وهذا القول عندي ضعيف لانه تعالى قال من صلصال من حمأ مسنون وكونه حمأ مسنونا يدل على النتن والتغير وظاهر الآية يدل على ان هذا الصلصال انما تولد من الحمأ المسنون فوجب ان يكون كونه صلصالا مغايرا لكونه حمأ مسنونا ولو كان كونه صلصالا عبارة عن النتن والتغير لم يبق بين كونه صلصالا وبين كونه حمأ مسنونا تفاوت واما الحمأ فقال الليث الحمأة بوزن فعلة والجمع الحمأ وهو الطين الاسود المنتن وقال ابو عبيدة والاكثرون حمأة بوزن كمأة وقوله مسنون فيه أقوال ( الاول ) قال ابن السكيت سمعت أباعمرو يقول في قوله مسنون اى متغير قال ابو الهيثم يقال سن الماء فهو مسنون اى تغير والدليل عليه قوله تعالى لم يتسنه أي لم يتغير ( الثاني ) المسنون المحكوك وهو مأخوذ من سننت الحجر على الحجر اذا حككته عليه والذي يخرج من بينهما يقال له السنن وسمي المسن مسنا لان الحديد يسن عليه ( الثالث ) قال الزجاج هذا اللفظ مأخوذ من انه موضوع على سنن الطريق لانه متى كان كذلك فقد تغير ( الرابع ) قال ابو عبيدة المسنون المصبوب والسن الصب يقال سن الماء على وجهه سنا ( الخامس ) قال سيبويه المسنون المصور على صورة ومثال من سنة الوجه وهي صورته ( السادس ) روى عن ابن عباس انه قال المسنون الطين الرطب وهذا يعود الى قول ابي عبيدة لانه اذا كان رطبا يسيل وينبسط على الارض فيكون مسنونا بمعنى انه مصبوب اما قوله تعالى والجان خلقناه فاختلفوا في ان الجان من هو فقال عطاء عن ابن عباس يريد ابليس وهو قول الحسن ومقاتل وقتادة وقال ابن عباس في رواية أخرى الجان هو أبو الجن وهو قول الاكثرين وسمي جانا لتواريه عن الاعين كما سمي الجنين جنينا لهذا السبب والجنين متوار في بطن أمه ومعنى الجان في اللغة الساتر من قولك جن الشئ اذا ستره فالجان المذكور ههنا يحتمل انه سمي جانا لانه يستر نفسه عن أعين بني آدم او يكون من باب الفاعل الذي يراد به المفعول كما يقال في لابن وتامر وماء دافق وعيشة راضية واختلفوا في الجن فقال بعضهم انهم جنس غير الشياطين والاصح ان الشياطين قسم من الجن فكل من كان منهم مؤمنا فانه لا يسمى بالشياطين وكل من كان منهم كافرا يسمى بهذا الاسم والدليل على صحة ذلك ان لفظ الجن مشتق من الاستتار فكل من كان كذلك كان من الجن وقوله تعالى خلقناه من قبل قال ابن عباس يريد من قبل خلق آدم وقوله من نار السموم معنى السموم في اللغة الريح الحرة تكون بالنهار وقد تكون بالليل وعلى هذا فالريح الحارة فيها نار ولها لفح وأوار على ما ورد في الخبر انها لفح جهنم قيل سميت سموما لانها بلطفها تدخل في مسام البدن وهي الخروق

مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام اشعار بعلة الحكم وتشريف له عليه الصلاة والسلام اى اذكر وقت قوله تعالى (للملائكة انى خالق) فيما سيأتى وفيه ماليس فى صيغة المضارع من الدلالة على انه تعالى فاعل له البتة من غير صارف يثنيه ولا عاطف يلويه (بشرا) اى انسانا قيل ليس هذا عين العبارة الجارية وقت الخطاب بل الظاهر ان يكون قد قيل لهم انى خالق خلقا من صفته كيت وكيت ولكن اقتصر عند الحكاية على الاسم وقيل جسما كثيفا يلاقى ويباشر وقيل خلقا بادى البشرة بلاصوف ولاشعر (من صلصال) متعلق بخالق او بمحذوف وقع صفة لمفعوله اى بشرا كائنا من صلصال كائن (من حمأ مسنون) تقدم تفسيره ولا ينافى هذا ما فى قوله تعالى فى سورة ص من قوله بشرا من طين فان عدم التعرض عند الحكاية لوصف الطين من التغير والاسوداد ولما ورد عليه من آثار التكوين لا يستلزم عدم التعرض لذلك عند وقوع المحكى غايته انه لم يتعرض له هناك اكتفاء بما شرح ههنا (فاذا سويته) اى صورته بالصورة الانسانية والخلقة البشرية او سويت اجزاء بدنه بتعديل طبائعه (ونفخت فيه من روحى) النفخ اجراء الريح الى تجويف جسم صالح لامساكها والامتلاء بها وليس ثمة نفخ ولا منفوخ وانما هو تمثيل لافاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها اى فاذا كملت استعداده وافضت عليه ما يحيا به من الروح التى هى من امرى ( فقعوا له ) امر من وقع يقع وفيه دليل على ان ليس المأمور به مجرد ( التحية )

الخفية التى تكون فى جلدالانسان يبرز منها عرقه وبخارباطنه قال ابن مسعود هذه السموم جزء من سبعين جزأ من السموم التى خلق الله منها الجان وتلا هذه الآية فان قيل كيف يعقل خلق الجان من النار قلنا هذا على مذهبنا ظاهر لان البنية عندنا ليست شرطا لامكان حصول الحياة فالله تعالى قادر على خلق الحياة والعلم فى الجوهر الفرد فكذلك يكون قادرا على خلق الحياة والعقل فى الجسم الحار واستدل بعضهم على ان الكواكب يمتنع حصول الحياة فيها قال لان الشمس فى غاية الحرارة وما كان كذلك امتنع حصول الحياة فيه فنتقضه عليه بقوله تعالى والجان خلقناه من قبل من نار السموم بل المعتمد فى نفى الحياة عن الكواكب الاجماع ❁ قوله تعالى (واذقال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم اجمعون الا ابليس أبى ان يكون مع الساجدين قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين قال لم اكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون قال فاخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين ) اعلم انه تعالى لما ذكر حدوث الانسان الاول واستدل بذكره على وجود الاله القادر المختار ذكر بعده واقعته وهو انه تعالى امر الملائكة بالسجود له فأطاعوه الا ابليس فانه ابى وتمرد وفى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) ماتفسير كونه بشرا فالمراد منه كونه جسما كثيفا يباشر ويلاقى والملائكة والجن لايباشرون للطف اجسامهم عن اجسام البشر والبشرة ظاهر الجلد من كل حيوان واما كونه صلصالا من حمأ مسنون فقد تقدم ذكره واما قوله فاذا سويته ففيه قولان ( الاول ) فاذا سويت شكله بالصورة الانسانية والخلقة البشرية ( والثانى ) فاذا سويت اجزاء بدنه باعتدال الطبائع وتناسب الامشاج كما قال تعالى انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج واما قوله ونفخت فيه من روحى ففيه مباحث ( الاول ) ان النفخ اجراء الريح فى تجاويف جسم آخر وظاهر هذا اللفظ يشعر بان الروح هى الريح والا لما صح وصفها بالنفخ الا ان البحث الكامل فى حقيقة الروح سيجىء فى قوله تعالى قل الروح من امر ربى وانما اضاف الله سبحانه روح آدم الى نفسه تشريفا له وتكريما وقوله فقعوا له ساجدين فيه مباحث ( احدها ) ان ذلك السجود كان لآدم فى الحقيقة اوكان آدم كالقبلة لذلك السجود وهذا البحث قد تقدم ذكره فى سورة البقرة ( وثانيها ) ان المأمورين بالسجود لآدم عليه السلام هم كل ملائكة السموات او بعضهم او ملائكة الارض من الناس من لايجوز ان يقال ان اكابر الملائكة كانوا مأمورين بالسجود لآدم عليه السلام والدليل عليه قوله تعالى فى آخر سورة الاعراف فى صفة الملائكة ان الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون فقوله وله يسجدون يفيد الحصر وذلك يدل على انهم لايسجدون الا لله تعالى وذلك ينافى كونهم ساجدين لآدم عليه السلام او لاحد غير الله تعالى اقصى مافى الباب ان يقال ان قوله

الانحناء كما قيل اى اسقطوا له ( ساجدين ) ( ٣٩٥ ) تحية له وتعظيما اواسجدوا لله تعالى على انه عليه الصلاة والسلام بمنزلة القبلة حيث ظهر فيه تعاجيب آثار قدرته تعالى وحكمته كقول حسان رضى الله عنه

اليس اول من صلى لقبلتكم
واعلم الناس بالقرآن والسنن

( فسجد الملائكة ) اى فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد الملائكة ( كلهم ) بحيث لم يشذ منهم احد ( اجمعون ) بحيث لم يتأخر فى ذلك احد منهم عن احد ولا اختصاص لافادة هذا المعنى بالحالية بل يفيده التأكيد ايضا فان الاشتقاق الواضح يرشد الى ان فيه معنى الجمع والمعية بحسب الوضع والاصل فى الخطاب التنزيل على اكمل احوال الشئ ولا ريب فى ان السجود معا اكمل اصناف السجود لكن شاع استعماله تأكيدا واقيم مقام كل فى افادة معنى الاحاطة من غير نظر الى الكمال فاذا فهمت الاحاطة من لفظ آخر لم يكن بد من مراعاة الاصل صونا للكلام عن الالغاء وقيل اكد بتأكيدين مبالغة فى التعميم هذا واما ان سجودهم هذا هل ترتب على ماحكى من الامر التعليقى كما تقتضيه هذه الآية الكريمة والتى فى سورة ص او على الامر التنجيزى كما يستدعيه مافى غيرهما فقد خرجنا بفضل الله عزوجل عن عهدة تحقيقه فى تفسير سورة البقرة (الا ابليس) استثناء متصل اما لانه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف من الملائكة فعد منهم تغليبا واما لان من الملائكة جنسا يتوالدون وهو منهم وقوله تعالى ( ابى ان يكون مع الساجدين) استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء فان مطلق عدم السجود قد يكون مع التردد وبه علم انه مع الاباء والاستكبار اومنقطع فيتصل به مابعده اى لكن ابليس ابى ان

تعالى فقعوا له ساجدين يفيد العموم الا ان الخاص مقدم على العام (وثالثها) ان ظاهر الآية يدل على انه تعالى كما نفخ الروح فى آدم عليه السلام وجب على الملائكة ان يسجدوا له لان قوله فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين مذكور بفاء التعقيب وذلك يمنع من التراخى وقوله فسجد الملائكة كلهم اجمعون قال الخليل وسيبويه قوله كلهم اجمعون توكيد بعد توكيد وسئل المبرد عن هذه الآية فقال لو قال فسجد الملائكة احتمل ان يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم زال هذا الاحتمال فظهر انهم بأسرهم سجدوا ثم بعد هذا بقى احتمال آخر وهو انهم سجدوا دفعة واحدة او سجد كل واحد منهم فى وقت آخر فلما قال اجمعون ظهر ان الكل سجدوا دفعة واحدة ولما حكى الزجاج هذا القول عن المبرد قال وقول الخليل وسيبويه اجود لان اجمعين معرفة فلا يكون حالا وقوله الا ابليس اجمعوا على ان ابليس كان مأمورا بالسجود لآدم واختلفوا فى انه هل كان من الملائكة ام لا وقد سبقت هذه المسئلة بالاستقصاء فى سورة البقرة وقوله ابى ان يكون مع الساجدين استئناف وتقديره ان قائلا قال هلا سجد فقيل ابى ذلك واستكبر عنه اما قوله قال ياابليس مالك ألا تكون مع الساجدين فاعلم انهم اجمعوا على ان المراد من قوله قال يا ابليس اى قال الله تعالى له يا ابليس وهذا يقتضى انه تعالى تكلم معه فعند هذا قال بعض المتكلمين انه تعالى اوصل هذا الخطاب الى ابليس على لسان بعض رسله الا ان هذا ضعيف لان ابليس قال فى الجواب لم اكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال فقوله خلقته خطاب الحضور لا خطاب الغيبة وظاهره يقتضى ان الله تعالى تكلم مع ابليس بغير واسطة وان ابليس تكلم مع الله تعالى بغير واسطة وكيف يعقل هذا مع ان مكالمة الله تعالى بغير واسطة من اعظم المناصب واشرف المراتب فكيف يعقل حصوله لرأس الكفرة ورئيسهم ولعل الجواب عنه ان مكالمة الله تعالى انما تكون منصبا عاليا اذا كان على سبيل الاكرام والاعظام فأما اذا كان على سبيل الاهانة والاذلال فلا وقوله لم اكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ففيه بحثان (الاول) اللام فى قوله لاسجد لتأكيد النفى ومعناه لا يصح منى ان اسجد لبشر (البحث الثانى) معنى هذا الكلام ان كونه بشرا يشعر بكونه جسما كثيفا وهو كان روحانيا لطيفا فالتفرقة حاصلة بينهما فى الحال من هذا الوجه كأنه يقول البشر جسمانى كثيف له بشرة وانا روحانى لطيف والجسمانى الكثيف ادون حالا من الروحانى اللطيف والادون كيف يكون مسجودا للاعلى وايضا ان آدم مخلوق من صلصال تولد من حمأ مسنون فهذا الاصل فى غاية الدناءة واصل ابليس هو النار وهى اشرف العناصر فكان اصل ابليس اشرف من اصل آدم فوجب ان يكون ابليس اشرف من آدم والاشرف يقبح ان يؤمر بالسجود للادون فالكلام الاول اشارة الى الفرق الحاصل بسبب البشرية والروحانية وهو فرق حاصل فى الحال والكلام الثانى اشارة الى الفرق الحاصل بحسب العنصر والاصل فهذا

تحقير آدم عليه الصلاة والسلام ومفارقة الجماعة والاباء عن الانتظام فى سلك اولئك المقربين الكرام (قال) استئناف مبنى على سؤال من قال فاذا قال تعالى عند ذلك فقيل قال (ياابليس مالك) اى اى سبب لك لاأى غرض لك كما قيل لقوله تعالى مامنعك (ألاتكون) فى ان لاتكون (مع الساجدين) لآدم مع انهم هم ومنزلتهم فى الشرف منزلتهم وما كان التوبيخ عند وقوعه لمجرد تخلفه عنهم بل لكل من المعاصى الثلاث المذكورة قال تعالى فى سورة الاعراف قال مامنعك ألا تسجد اذ أمرتك وفى سورة ص قال ياابليس مامنعك ان تسجد لما خلقت بيدى ولكن اقتصر عند الحكاية فى كل موطن على ماذكر فيه اجتزاء بما ذكر فى موطن آخر واشعارا بأن كل واحدة من تلك المعاصى الثلاث كافية فى التوبيخ واظهار بطلان ما ارتكبه وقد تركت حكاية التوبيخ رأسا فى سورة بقرة وسورة بنى اسرائيل وسورة الكهف وسورة طه ( قال ) اى ابليس وهو ايضا استئناف مبنى على السؤال الذى ينساق اليه الكلام (لم أكن لاسجد) اللام لتأكيد النفى اى ينافى حالى ولايستقيم منى لانى مخلوق من اشرف العناصر واعلاها ان اسجد (لبشر) اى جسم كثيف (خلقته من صلصال من حمأ مسنون) اقتصر ههنا على الاشارة الاجمالية الى ادعاء الخيرية وشرف المادة اكتفاء بما صرح به حين قال انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ولم يكتف اللعين بمجرد ذكر كونه عليه الصلاة والسلام من التراب الذى هو اخس العناصر واسفلها

مجموع شبهة ابليس وقوله تعالى قال فاخرج منها فانك رجيم فهذا ليس جوابا عن تلك الشبهة على سبيل التصريح ولكنه جواب عنها على سبيل التنبيه وتقريره ان الذى قاله الله تعالى نص والذى قاله ابليس قياس ومن عارض النص بالقياس كان رجيما ملعونا وتمام الكلام فى هذا المعنى ذكرناه مستقصى فى سورة الاعراف وقوله فاخرج منها قيل المراد من جنة عدن وقيل من السموات وقيل من زمرة الملائكة وتمام هذا الكلام مع تفسير الرجيم قد سبق ذكره فى سورة الاعراف وقوله وان عليك اللعنة الى يوم الدين قال ابن عباس يريد يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم مثل قوله مالك يوم الدين فان قيل كلمة الى تفيد انتهاء الغاية فهذا يشعر بأن اللعن لا يحصل الا الى يوم القيامة وعند قيام القيامة يزول اللعن اجابوا عنه من وجوه (الاول) المراد منه التأبيد وذكر القيامة ابعد غاية يذكرها الناس فى كلامهم كقولهم مادامت السموات والارض فى التأبيد (والثانى) انك مذموم مدعو عليك باللعنة فى السموات والارض الى يوم الدين من غير ان يعذب فاذا جاء ذلك اليوم عذب عذابا ينسى اللعن معه فيصير اللعن حينئذ كالزائل بسبب ان شدة العذاب تذهل عنه * قوله تعالى (قال رب فانظرنى الى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم قال رب بما اغويتنى لازينن لهم فى الارض ولاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين قال هذا صراط على مستقيم) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله فانظرنى متعلق بما تقدم والتقدير اذا جعلتنى رجيما ملعونا الى يوم الدين فانظرنى فطلب الابقاء من الله تعالى عند اليأس من الآخرة الى وقت قيام القيامة لان قوله الى يوم يبعثون المراد منه يوم البعث والنشور وهو يوم القيامة وقوله قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم اعلم ان ابليس استنظر الى يوم البعث والقيامة وغرضه منه ان لا يموت لانه اذا كان لا يموت قبل يوم القيامة وظاهره ان بعد قيام القيامة لا يموت احد فحينئذ يلزم منه ان لا يموت البتة ثم انه تعالى منعه عن هذا المطلوب وقال انك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم واختلفوا فى المراد منه على وجوه (احدها) ان المراد من يوم الوقت المعلوم وقت النفخة الاولى حين يموت كل الخلائق وانما سمى هذا الوقت بالوقت المعلوم لان من المعلوم انه يموت كل الخلائق فيه وقيل انما سماه الله تعالى بهذا الاسم لان العالم بذلك الوقت هو الله تعالى لا غير كما قال تعالى انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو وقال ان الله عنده علم الساعة (وثانيها) ان المراد من يوم الوقت المعلوم هو الذى ذكره ابليس وهو قوله الى يوم يبعثون وانما سماه تعالى بيوم الوقت المعلوم لان ابليس لما عينه واشار اليه بعينه صار ذلك كالمعلوم فان قيل لما اجابه الله تعالى الى مطلوبه لزم ان لا يموت الى وقت قيام الساعة وبعد قيام القيامة لا يموت ايضا فيلزم ان يندفع عنه الموت بالكلية قلنا يحمل قوله الى يوم يبعثون الى ما يكون قريبا منه والوقت الذى يموت فيه كل المكلفين قريب من يوم البعث وعلى هذا الوجه فيرجع حاصل هذا الكلام الى

بل تعرض لكونه مخلوقا منه فى اخس احواله من كونه طينا  منغيرا وقد اكتفى فى سورة الاعراف وسورة ص بما حكى عنه ههنا فاقتصر على حكاية تعرضه لخلقه عليه الصلاة والسلام من طين وكذا فى سورة بنى اسرائيل حيث قيل أأسجد لمن خلقت طينا وفى جوابه دليل على ان قوله تعالى مالك ليس استفسارا عن الغرض بل هو استفسار عن السبب وفى عدوله عن تطبيق جوابه على السؤال روم للتفصى عن المناقشة وانى له ذلك كأنه قال لم امتنع عن امتثال الامر ولا عن الانتظام فى سلك الملائكة بل عما لا يليق بشانى من الخضوع للمفضول ولقد جرى خذله الله تعالى على سنن قياس عقيم وزل عنه ان مايدور عليه فلك الفضل والكمال هو التحلى بالمعارف الربانيــة والتخلى عن الملكات الردية التى افحشها التكبر والاستعصاء على امر رب العالمين جل جلاله ( قال فاخرج منها ) اى من زمرة الملائكة المعززين لا من السماء فان وسوسته لآدم عليه الصــلاة والسلام فى الجنة انما كانت بعد هذا الطرد وقوله تعالى فاهبط منها ليس نصا فى ذلك فان الخروج من بين الملاء الاعلى هبوط واى هبوط او من الجنة على ان وسوسته كانت بطريق النــداء من بابها كما روى عن الحســن البصرى او بطريق المشــافهة بعد ان احتــال فى دخولها وتوسل اليه بالحية كما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ولا ينافى هذا طرده على رؤس الاشهاد لما يقتضيه من الحكم البالغة ( فانك رجيم ) مطرود من كل خير وكرامة فان من يطرد يرجم بالحجارة او شيطان يرجم بالشــهب وهو وعيــد يتضمن الجواب عن شبهته فان من عارض النص بالقياس فهو رجيم ملعون ( وان عليك اللعنة ) الابعاد عن الرحمة وحيث

الوجه الاول (وثالثها) ان المراد بيوم الوقت المعلوم يوم لايعلم الا الله تعالى وليس المراد منه يوم القيامة فان قيل انه لايجوز ان يعلم المكلف متى يموت لان فيه اغراء بالمعاصي وذلك لايجوز على الله تعالى اجيب عنه بأن هذا الالزام انما يتوجه اذا كان وقت قيام القيامة معلوما للمكلف فاما اذا علم انه تعالى امهله الى وقت قيام القيامة الا انه تعالى ما اعلمه الوقت الذي تقوم القيامة فيه فلم يلزم منه الاغراء بالمعاصي واجيب عن هذا الجواب بأنه وان لم يعلم الوقت الذي فيه تقوم القيامة على التعيين الا انه علم في الجملة ان من وقت خلقة آدم عليه الصلاة والسلام الى وقت قيام القيامة مدة طويلة فكأنه قد علم انه لايموت في تلك المدة الطويلة اما قوله تعالى قال رب بما اغويتني لازينن لهم في الارض ولاغوينهم اجمعين ففيه بحثان (الاول) الباء في بما اغويتني للقسم وما مصدرية وجواب القسم لازينن والمعنى اقسم باغوائك اياي لازينن لهم ونظيره قوله تعالى فبعزتك لاغوينهم اجمعين الا انه في ذلك الموضع اقسم بعزة الله وهي من صفات الذات وفي قوله بما اغويتني اقسم باغواء الله وهو من صفات الافعال والفقهاء قالوا القسم بصفات الذات صحيح اما بصفات الافعال فقد اختلفوا فيه ونقل الواحدي عن قوم آخرين انهم قالوا الباء ههنا بمعنى السبب اي بسبب كوني غاويا لازينن كقول القائل اقسم فلان بمعصيته ليدخلن النار وبطاعته ليدخلن الجنة ( البحث الثاني ) اعلم ان اصحابنا قد احتجوا بهذه الآية على انه تعالى قد يريد خلق الكفر في الكافر ويصده عن الدين ويغويه عن الحق من وجوه ( الاول ) ان ابليس استمهل وطلب البقاء الى قيام القيامة مع انه صرح بأنه انما يطلب هذا الامهال والابقاء لاغواء بني آدم واضلالهم وانه تعالى امهله واجابه الى هذا المطلوب ولو كان تعالى يراعي مصالح المكلفين في الدين لما امهله هذا الزمان الطويل ولما مكنه من الاغواء والاضلال والوسوسة ( الثاني ) ان اكابر الانبياء والاولياء مجدون ومجتهدون في ارشاد الخلق الى الدين الحق وان ابليس ورهطه وشيعته مجدون ومجتهدون في الضلال والاغواء فلو كان مراد الله تعالى هو الارشاد والهداية لكان من الواجب ابقاء المرشدين والمحقين واهلاك المضلين والمغوين وحيث فعل بالضد منه علمنا انه اراد بهم الخذلان والكفر ( الثالث ) انه تعالى لما اعلمه بأنه يموت على الكفر وانه ملعون الى يوم الدين كان ذلك اغراء له بالكفر والقبيح لانه اذا أيس عن المغفرة والفوز بالجنة يجترى حينئذ على انواع المعاصي والكفر (الرابع) انه لما سأل الله تعالى هذا العمر الطويل مع انه تعالى علم منه انه لايستفيد من هذا العمر الطويل الا زيادة الكفر والمعصية وبسبب تلك الزيادة يزداد استحقاقه لانواع العذاب الشديد كان هذا الامهال سببا لمزيد عذابه وذلك يدل على انه تعالى اراد به ان يزداد عذابه وعقابه (الخامس) انه صرح بأن الله اغواه فقال رب بما اغويتني وذلك تصريح بأن الله تعالى اغواه لايقال هذا كلام ابليس وهو ليس بحجة وايضا فهو معارض بقول ابليس فبعزتك لاغوينهم اجمعين فاضاف

( الاغواء )

كان ذلك من جهة الله سبحانه وان كان جاريا على ألسنة العباد قيل في سورة ص وان عليك لعنتي (الى يوم الدين) الى يوم الجزاء والعقوبة وفيه اشعار بتأخير عقابه وجزائه اليه وان اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لفعله وانما يتحقق ذلك يومئذ وفيه من التهويل مالا يوصف وجعل ذلك انتهى امد اللعنة ليس لانها تنقطع هنالك بل لانه عند ذلك يعذب بما ينسى به اللعنة من افانين العذاب فتصير هي كالزائل وقيل انما حدث به لانه ابعد غاية يضرب بها الناس كقوله تعالى خالدين فيها مادامت السموات والارض وحيث امكن كون تأخير العقوبة مع الموت كسائر من اخرت عقوباتهم الى الآخرة من الكفرة طلب اللعين تأخير موته كما حكى عنه بقوله تعالى (قال رب فانظرني) اي امهلني واخرني ولاتمتني والفاء متعلق بمحذوف ينسحب عليه الكلام اي اذ جعلتني رجيما فامهلني (الى يوم يبعثون) اي آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وأراد بذلك ان يجد فسحة لاغوائهم ويأخذ منهم ثأره وينجو من الموت لاستحالته بعد يوم البعث ( قال فانك من المنظرين ) ورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ماسأله لآخرين على وجه يؤذن بكون السائل تبعا لهم في ذلك دليل على انه اخبار بالانظار المقدر لهم ازلا لا انشاء لانظار خاص به وقع اجابة لدعائه اي انك من جملة الذين اخرت آجالهم أزلا حسبما تقتضيه حكمة التكوين فالفاء ليست لربط نفس الانظار بالاستنظار بل لربط الاخبار المذكور به كما في قوله * فان ترحم فانت لذاك اهل * فانه لاامكان لجعل الفاء فيه لربط مافيه تعالى من الاهلية القديمة للرحمة بوقوع الرحمة الحادثة بل هي لربط الاخبار بتلك الاهلية للرحمة

الاغواء الى نفسه لانا نقول (اما الجواب عن الاول) فهو انه لما ذكر هذا الكلام فان الله تعالى ما انكره عليه وذلك يدل على انه كان صادقا فيما قال (واما الجواب عن الثانى) فهو انه قال فى هذه الآية رب بما اغويتنى لازينن لهم فالمراد ههنا من قوله لازينن لهم هو المراد من قولك فى تلك الآية لاغوينهم اجمعين الا انه بين فى هذه الآية انه انما امكنه ان يزين لهم الاباطيل لاجل ان الله تعالى اغواه قبل ذلك وعلى هذا التقدير فقد زال التناقض ويتأكد هذا بما ذكره الله تعالى حكاية عن الشياطين فى سورة القصص هؤلاء الذين اغوينا اغويناهم كما غوينا ( السؤال السادس ) انه قال رب بما اغويتنى وهذا اعتراف بان الله تعالى اغواه فنقول اما ان يقال انه كان قد عرف بأن الله تعالى اغواه او ما عرف ذلك فان كان قد عرف بأن الله تعالى اغواه امتنع كونه غاويا لانه انما يعرف ان الله تعالى اغواه اذا عرف ان الذى هو عليه جهل وباطل ومن عرف ذلك امتنع بقاؤه على الجهل والضلالة واما ان قلنا بانه ما عرف ان الله اغواه فكيف امكنه ان يقول رب بما اغويتنى فهذا مجموع السؤالات الواردة فى هذه الآية ( اما الاشكال الاول ) فللمعتزلة فيه طريقان (الاول) وهو طريق الجبائى انه تعالى انما امهل ابليس تلك المدة الطويلة لانه تعالى علم انه لا يتفاوت احوال الناس بسبب وسوسته فبتقدير ان لا يوجد ابليس ولا وسوسته فان ذلك الكافر والعاصى كان يأتى بذلك الكفر والمعصية فلما كان الامر كذلك لا جرم امهله هذه المدة (الطريق الثانى) وهو طريق ابى هاشم انه لا يبعد ان يقال انه تعالى علم ان اقواما يقعون بسبب وسوسته فى الكفر والمعصية الا ان وسوسته ما كانت موجبة لذلك الكفر والمعصية بل الكافر والعاصى بسبب اختياره اختار ذلك الكفر وتلك المعصية اقصى ما فى الباب ان يقال الاحتراز عن القبائح حال عدم الوسوسة اسهل منه حال وجودها الا ان على هذا التقدير تصير وسوسته سببا لزيادة المشقة فى اداء الطاعات وذلك لا يمنع الحكيم من فعله كما ان انزال المشاق وانزال المتشابهات صار سببا لمزيد الشبهات ومع ذلك فلم يمتنع فعله فكذا ههنا وهذان الطريقان هما بعينهما الجواب عن السؤال الثانى ( واما السؤال الثالث ) وهو ان اعلامه بأنه يموت على الكفر يحمله على الجراءة على المعاصى والاكثار منها فجوابه ان هذا انما يلزم اذا كان علم ابليس بموته على الكفر يحمله على الزيادة فى المعاصى اما اذا علم الله تعالى من حاله ان ذلك لا يوجب التفاوت البتة فالسؤال زائل وهذا بعينه هو الجواب عن السؤال الرابع ( واما السؤال الخامس ) وهو ان ابليس صرح بأن الله تعالى اغواه واضله عن الدين فقد اجابوا عنه بأنه ليس المراد ذلك بل فيه وجوه اخرى ( احدها ) المراد بما خيبتنى من رحمتك لاخيبنهم بالدعاء الى معصيتك ( وثانيها ) المراد كما اضللتنى عن طريق الجنة اضلهم انا ايضا عنه بالدعاء الى المعصية ( وثالثها ) ان يكون المراد بالاغواء الاول الخيبة وبالثانى الاضلال ( ورابعها ) ان المراد باغواء الله تعالى اياه هو انه امره بالسجود

من اخرت عقوبتهم الى الآخرة فى علم الله تعالى ممن سبق من الجن ولحق من الثقلين لا يلائم مقام الاستنظار مع الحياة ولان ذلك التأخير معلوم من اضافة اليوم الى الدين مع اضافته فى السؤال الى البعث كما عرفته وفى سورة الاعراف قال انظرنى الى يوم يبعثون قال انك من المنظرين بترك التوقيت والنداء والفاء فى الاستنظار والانظار تعويلا على ما ذكر ههنا وفى سورة ص فان ايراد كلام واحد على أساليب متعددة غير عزيز فى الكتاب العزيز واما ان كل اسلوب من اساليب النظم الكريم لابد ان يكون له مقام يقتضيه مغاير لمقام غيره وان ما حكى من اللعين انما صدر عنه مرة وكذا جوابه لم يقع الا دفعة فقام المحاورة ان اقتضى احد الأساليب المذكورة فهو المطابق لمقتضى الحال والبالغ الى طبقة الاعجاز وما عداه قاصر عن رتبة البلاغة فضلا عن الارتقاء الى معالم الاعجاز فقد مر تحقيقه بتوفيق الله تعالى فى سورة الاعراف (الى يوم الوقت المعلوم) وهو وقت النفخة الاولى التى علم انه يصعق عندها من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله تعالى ويجوز ان يكون المراد بالايام واحدا والاختلاف فى العبارات لاختلاف الاعتبارات فالتعبير بيوم البعث لان غرض اللعين به يتحقق وبيوم الدين لما ذكر من الجزاء وبيوم الوقت المعلوم لما ذكر اولا لاستئثاره تعالى بعلمه فلعل كلا من هلاك الخلق جميعا وبعثهم وجزائهم فى يوم واحد يموت اللعين فى اوله ويبعث فى اواسطه ويعاقب فى بقيته * يروى ان بين موته وبعثه اربعين سنة من سنى الدنيا مقدار ما بين النفختين

لآدم فافضى ذلك الى غيه يعنى انه حصل ذلك الغى عقيبه باختيار ابليس فأما ان يقال ان ذلك الامر صار موجبا لذاته لحصول ذلك الغى فمعلوم انه ليس الامر كذلك هذا جملة كلام القوم فى هذا الباب وكله ضعيف اما قوله انه لا يتفاوت الحال بسبب وسوسة ابليس فنقول هذا باطل ويدل عليه القرآن والبرهان اما القرآن فقوله تعالى فأزلهما الشيطان فاضاف تلك الزلة الى الشيطان وقال فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى فاضاف الاخراج اليه وقال موسى عليه السلام هذا من عمل الشيطان وكل ذلك يدل على ان لعمل الشيطان فى تلك الافعال اثرا واما البرهان فلان بداية العقول شاهدة بانه ليس حال من ابتلى بمجالسة شخص يرغبه ابدا فى القبائح وينفره عن الخيرات مثل شخص كان حاله بالضد منه والعلم بهذا التفاوت ضرورى واما قوله ان وجوده يصير سببا لزيادة المشقة فى الطاعة فنقول تأثير زيادة المشقة انما هو فى كثرة الثواب على احد التقديرين وفى الالقاء فى العذاب الشديد على التقدير الثانى وهو التقدير الاكثر الاغلب وكل من راعى المصالح فان رعاية هذا التقدير الثانى اولى عنده من رعاية التقدير الاول لان دفع الضرر العظيم اولى من السعى فى طلب النفع الزائد الذى لا حاجة الى حصوله اصلا ولما اندفع هذان الجوابان عن هذا السؤال قويت سائر الوجوه المذكورة واما قوله المراد من قوله رب بما اغويتنى الخيبة عن الرحمة او الاضلال عن طريق الجنة فنقول كل هذا بعيد لانه هو الذى خيب نفسه عن الرحمة وهو الذى اضل نفسه عن طريق الجنة لانه لما اقدم على الكفر باختياره فقد خيب نفسه عن الرحمة واضل نفسه عن طريق الجنة فكيف يحسن اضافته الى الله تعالى فثبت ان الاشكالات لازمة وان اجوبتهم ضعيفة والله اعلم * اما قوله الا عبادك منهم المخلصين ففيه مسائل (الاولى) اعلم ان ابليس استثنى المخلصين لانه علم ان كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه وذكرت فى مجلس التذكير ان الذى حمل ابليس على ذكر هذا الاستثناء ان لا يصير كاذبا فى دعواه فلما احترز ابليس عن الكذب علمنا ان الكذب فى غاية الخساسة (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وابن عامر وابو عمرو المخلصين بكسر اللام فى كل القرآن والباقون بفتح اللام وجه القراءة الاولى انهم الذين اخلصوا دينهم وعبادتهم عن كل شائب يناقض الايمان والتوحيد ومن فتح اللام فمعناه الذين اخلصهم الله بالهداية والايمان والتوفيق والعصمة وهذه القراءة تدل على ان الاخلاص والايمان ليس الا من الله تعالى (المسئلة الثالثة) الاخلاص جعل الشئ خالصا عن شائبة الغير فنقول كل من اتى بعمل فاما ان يكون قد اتى به لله فقط او لغير الله فقط او لمجموع الامرين وعلى هذا التقدير الثالث فاما ان يكون طلب رضوان الله راجحا او مرجوحا او معادلا والتقدير الرابع ان يأتى به لا لغرض اصلا وهذا محال لان الفعل بدون الداعية محال (اما الاول) فهو الاخلاص فى حق الله تعالى لان الحامل له على

ونقل عن الاحنف بن قيس رحمه الله تعالى انه قال قدمت المدينة  اريد امير المؤمنين عمر رضى الله عنه فاذا انا بحلقة عظيمة وكعب الاحبار فيها يحدث الناس وهو يقول لما حضر آدم عليه الصلاة والسلام الوفاة قال يارب سيشمت بى عدوى ابليس اذا رآنى ميتا وهو منظر الى يوم القيامة فاجيب ان ياآدم انك سترد الى الجنة ويؤخر اللعين الى النظرة ليذوق ألم الموت بعدد الاولين والآخرين ثم قال لملك الموت صف كيف تذيقه الموت فلما وصفه قال يارب حسبى فضج الناس وقالوا ياأبا اسحق كيف ذلك فأبى فالحوا فقال يقول الله سبحانه لملك الموت عقيب النفخة الاولى قد جعلت فيك قوة اهل السموات السبع واهل الارضين السبع وانى البستك اليوم اثواب السخط والغضب كلها فانزل بغضبى وسطوتى على رجيمى ابليس فأذقه الموت واحمل عليه فيه مرارة الاولين والآخرين من الثقلين أضعافا مضاعفة وليكن معك من الزبانية سبعون الفا قد امتلؤا غيظا وغضبا وليكن مع كل منهم سلسلة من سلاسل جهنم وغل من أغلالها وانزع روحه المنتن بسبعين الف كلاب من كلاليبها وناد مالكا ليفتح ابواب النيران فينزل ملك الموت بصورة لو نظر اليها اهل السموات والارضين لماتوا بغتة من هولها فينتهى الى ابليس فيقول قف لى ياخبيث لأذيقنك الموت كم من عمر أدركت وقرون اضللت وهذا هو الوقت المعلوم قال فيهرب اللعين الى المشرق فاذا هو بملك الموت بين عينيه فيهرب الى المغرب فاذا هو به بين عينيه فيغوص البحار فتنز منه البحار فلا تقبله فلا يزال يهرب فى الارض ولا محيص له ولا ملاذ ثم يقوم فى وسط الدنيا عند قبر آدم ويتمرغ فى التراب من المشرق (ذلك)

الى المغرب ومن المغرب الى المشرق حتى اذا كان فى الموضع الذى اهبط فيه آدم عليه الصلاة والسلام وقد نصبت له الزبانية الكلاليب وصارت الارض كالجمرة احتوشته الزبانية وطعنوه ( ٤٠١ ) بالكلاليب ويبقى فى النزع والعذاب الى حيث يشاء الله تعالى ويقال

ذلك الفعل طلب رضوان الله وماجعل هذه الداعية مشوبة بداعية اخرى بل بقيت خالصة عن شوائب الغير فهذا هو الاخلاص (واما الثانى) وهو الاخلاص فى حق غير الله فظاهر ان هذا لايكون اخلاصا فى حق الله تعالى ( واما الثالث )وهو ان يشتمل على الجهتين الاان جانب الله يكون راجحا فهذا يرجى ان يكون من المخلصين لان المثل يقابله المثل فيبقى القدر الزائد خالصا عن الشوب (واما الرابع والخامس) فظاهر انه ليس من المخلصين فى حق الله تعالى والحاصل ان القسم الاول اخلاص فى حق الله تعالى قطعا والقسم الثانى يرجى من فضل الله ان يجعله من قسم الاخلاص واما سائر الاقسام فهو خارج عن الاخلاص قطعا والله اعلم * اماقوله تعالى قال هذا صراط على مستقيم ففيه وجوه ( الاول ) ان ابليس لما قال الاعبادك منهم المخلصين فلفظ المخلص يدل على الاخلاص فقوله هذا عائد الى الاخلاص والمعنى ان الاخلاص طريق على والى اى انه يؤدى الى كرامتى وثوابى وقال الحسن معناه هذا صراط الى مستقيم وقال آخرون هذا صراط من مر عليه فكأنه مر على وعلى رضوانى وكرامتى وهو كما يقال طريقك على (الثانى) ان الاخلاص طريق العبودية فقوله هذا صراط على مستقيم اى هذا الطريق فى العبودية طريق على مستقيم ( الثالث ) قال بعضهم لما ذكر ابليس انه يغوى بنى آدم الامن عصمه الله بتوفيقه تضمن هذا الكلام تفويض الامور الى الله تعالى والى ارادته فقال تعالى هذا صراط على اى تفويض الامور الى ارادتى ومشيئتى طريق على مستقيم ( الربع ) معناه هذا صراط على تقريره وتأكيده وهو مستقيم حق وصدق وقرأ يعقوب صراط على بالرفع والتنوين على انه صفة لقوله صراط اى هو على بمعنى انه رفيع مستقيم لاعوج فيه قال الواحدى معناه ان طريق التفويض الى الله تعالى والايمان بقضاء الله طريق رفيع مستقيم * قوله تعالى ( ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الامن اتبعك من الغاوين وان جهنم لموعدهم اجمعين لها سبعة ابواب لكل باب منهم جزء مقسوم) اعلم ان ابليس لما قال لازينن لهم فى الارض ولاغوينهم اجمعين الاعبادك منهم المخلصين اوهم هذا الكلام ان له سلطانا على عباد الله الذين يكونون من المخلصين فبين تعالى فى هذه الآية انه ليس له سلطان على احد من عبيد الله سواء كانوا مخلصين اولم يكونوا مخلصين بل من اتبع منهم ابليس باختياره صار متبعا له ولكن حصول تلك المتابعة ايضا ليس لاجل ان ابليس يقهره على تلك المتابعة او يجبره عليها والحاصل فى هذا القول ان ابليس اوهم ان له على بعض عباد الله سلطانا فبين تعالى كذبه فيه وذكر انه ليس له على احد منهم سلطان ولاقدرة اصلا ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عن ابليس انه قال وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى وقال تعالى فى آية أخرى انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون قال الجبائى هذه الآية تدل على بطلان قول من زعم ان الشيطان والجن يمكنهم صرع

لآدم وحواء اطلعا اليوم الى عدوكما كيف يذوق الموت فيطلعان فينظران الى ماهو فيه من شدة العذاب فيقولان ربنا اتممت علينا نعمتك (قال رب بما اغويتنى) الباء للقسم وما مصدرية والجواب ( لازينن لهم )اى اقسم باغوائك اياى لازينن لهم المعاصى (فى الارض) اى فى الدنيا التى هى دار الغرور كقوله تعالى اخلد الى الارض واقسامه بعزة الله المفسرة بسلطانه وقهره لاينافى اقسامه بهذا فانه فرع من فروعها واثر من آثارها فلعله اقسم بهما جميعا فحكى تارة قسمه بهذا واخرى بذاك اوللسببية وقوله لازينن جواب قسم محذوف والمعنى بسبب تسببك لاغوائى اقسم لافعلن بهم مثل مافعلت بى من التسبيب لاغوائهم بتزيين المعاصى وتسويل الاباطيل والمعتزلة اولوا الاغواء بالنسبة الى الغى اوالتسبب له بأمره اياه بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام واعتذروا عن امهال الله تعالى وتسليطه على اغواء بنى آدم بأنه تعالى قد علم منه وممن تبعه انهم يموتون على الكفر ويصيرون الى النار امهل ام لم يمهل وان فى امهاله تعريضا لمن خالفه لاستحقاق مزيد الثواب (ولاغوينهم اجمعين ) لاحملنهم على الغواية ( الا عبادك منهم المخلصين) الذين اخلصتهم لطاعتك وطهرتهم من الشوائب فلايعمل فيهم كيدى وقرئ بكسر اللام اى الذين اخلصوا نفوسهم لله تعالى ( قال هذا صراط) اى حق ( على ) ان اراعيه

( مستقيم ) لاعوج فيه والاشارة الى ماتضمنه ( ٥١ ( را ) ( خا ) الاستثناء وهو تخلص المخلصين من اغوائه اوالاخلاص على معنى انه طريق يؤدى الى الوصول الى من غير اعوجاج وضلال والاظهر ان ذلك لماوقع فى عبارة ابليس حيث قال لاقعدن لهم صراطك

الناس وازالة عقولهم كما يقوله العامة وربما نسبوا ذلك الى السحرة قال وذلك خلاف ما نص الله تعالى عليه وفى الآية قول آخر وهو ان ابليس لما قال الا عبادك منهم المخلصين فذكر انه لا يقدر على اغواء المخلصين صدقه الله فى هذا الاستثناء فقال ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين فلهذا قال الكلبى العباد المذكورون فى هذه الآية هم الذين استثناهم ابليس واعلم ان على القول الاول يمكن ان يكون قوله الا من اتبعك استثناء لان المعنى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين فان لك عليهم سلطانا بسبب كونهم منقادين لك فى الامر والنهى واما على القول الثانى فيمتنع ان يكون استثناء بل تكون لفظة الا بمعنى لكن وقوله ان جهنم لموعدهم اجمعين قال ابن عباس يريد ابليس واشياعه ومن اتبعه من الغاوين * ثم قال تعالى لها سبعة ابواب وفيه قولان (الاول) انها سبع طبقات بعضها فوق البعض وتسمى تلك الطبقات بالدركات ويدل على كونها كذلك قوله تعالى ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار (والقول الثانى) ان قرار جهنم مقسوم سبعة اقسام ولكل قسم باب معين وعن ابن جريج اولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية قال الضحاك الطبقة الاولى فيها اهل التوحيد يعذبون على قدر اعمالهم ثم يخرجون (والثانية) لليهود (والثالثة) للنصارى (والرابعة) للصابئين (والخامسة) للمجوس (والسادسة) للمشركين (والسابعة) للمنافقين وقوله لكل باب منهم جزء مقسوم فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ عاصم فى رواية ابى بكر جزء مقسوم والباقون جز بتخفيف الزاى وقرأ الزهرى جز بالتشديد كأنه حذف الهمزة وألقى حركتها على الزاى كقولك خب فى خبء ثم وقف عليه بالتشديد (المسئلة الثانية) الجزء بعض الشئ والجمع الاجزاء وجزأته جعلته اجزاء والمعنى انه تعالى يجزئ اتباع ابليس اجزاء بمعنى انه يجعلهم اقساما وفرقا ويدخل فى كل قسم من اقسام جهنم طائفة من هؤلاء الطوائف والسبب فيه ان مراتب الكفر مختلفة بالغلظ والخفة فلا جرم صارت مراتب العذاب والعقاب مختلفة بالغلظ والخفة والله اعلم

* قوله تعالى (ان المتقين فى جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين) اعلم انه تعالى لما شرح احوال اهل العقاب اتبعه بصفة اهل الصواب وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله ان المتقين قولان (الاول) قال الجبائى وجمهور المعتزلة القائلون بالوعيد المراد بالمتقين هم الذين اتقوا جميع المعاصى قالوا لانه اسم مدح فلا يتناول الا من يكون كذلك (والقول الثانى) وهو قول جمهور الصحابة والتابعين وهو المنقول عن ابن عباس ان المراد الذين اتقوا الشرك بالله تعالى والكفر به واقول هذا القول هو الحق الصحيح والذى يدل عليه هو ان المتقى هو الآتى بالتقوى مرة واحدة كما ان الضارب هو الآتى بالضرب مرة واحدة والقاتل هو الآتى بالقتل مرة واحدة فكما انه ليس من شرط صدق

المستقيم ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم الآية وقرئ على من علو الشرف (ان عبادى) وهم المشار اليهم بالمخلصين (ليس لك عليهم سلطان) تسلط وتصرف بالاغواء (الا من اتبعك من الغاوين) وفيه ( ٤٠٢ ) مع كونه تحقيقا لما قاله اللعين تفخيم لشأن المخلصين وبيان لمنزلتهم ولانقطاع مخالب الاغواء عنهم وان اغواءه للغاوين ليس بطريق السلطان بل بطريق اتباعهم له بسوء اختيارهم (وان جهنم لموعدهم) اى موعد المتبعين او الغاوين والاول انسب وادخل فى الزجر عن اتباعه وفيه دلالة على ان جهنم مكان الوعد وان الموعود مما لا يوصف فى الفظاعة (اجمعين) تأكيد للضمير او حال والعامل فيها الموعد ان جعل مصدرا على تقدير المضاف اومعنى الاضافة ان جعل اسم مكان (لها سبعة ابواب) يدخلونها لكثرتهم اوسبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم فى الغواية والمتابعة وهى جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية (لكل باب منهم) من الاتباع او الغواة (جزء مقسوم) حزب معين مفرز من غيره حسبما يقتضيه استعداده فأعلاها للموحدين والثانية لليهود والثالثة للنصارى والرابعة للصابئين والخامسة للمجوس والسادسة للمشركين والسابعة للمنافقين وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان جهنم لمن ادعى الربوبية ولظى لعبدة النار والحطمة لعبدة الاصنام وسقر لليهود والسعير للنصارى والجحيم للصابئين والهاوية للموحدين ولعل حصرها فى السبع لانحصار المهلكات فى المحسوسات بالحواس الخمس ومقتضيات القوة الشهوية والغضبية وقرئ بضم الزاى وبحذف الهمزة والقاء حركتها الى ما قبلها مع تشديدها فى الوقف والوصل ومنهم حال من جزء او من ضميره فى الظرف لا فى مقسوم لان الصفة لا تعمل فيما تقدم موصوفها (ان المتقين) من اتباعه فى الكفر والفواحش (الوصف) فان غيرها مكفر (فى جنات وعيون) اى مستقرون فيها خالدين لكل واحد منهم جنة وعين او لكل منهم عدة منهما كقوله تعالى ولمن

خاف مقام ربه جنتان وقرئ بكسر العين حيث وقع فى القرآن العظيم ( ادخلوها ) على ارادة القول امرا من الله تعالى لهم بالدخول وقرئ ادخلوها امرا منه تعالى للملائكة بادخالهم وقرأ الحسن ( ٤٠٣ ) ادخلوها مبنيا للمفعول على صيغة الماضى من الادخال

الوصف بكونه ضاربا وقاتلا كونه آتيا بجميع انواع الضرب والقتل فكذلك ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقيا كونه آتيا بجميع انواع التقوى والذى يقوى هذا الكلام ان الآتى بفرد واحد من افراد التقوى يكون آتيا بالتقوى لان كل فرد من افراد الماهية فانه يجب كونه مشتملا على تلك الماهية فالآتى بالتقوى يجب ان يكون متقيا فثبت ان الآتى بفرد واحد من افراد التقوى يصدق عليه كونه متقيا ولهذا التحقيق اتفق المفسرون على ان ظاهر الامر لا يفيد التكرار اذا ثبت هذا فنقول ظاهر قوله ان المتقين فى جنات وعيون يقتضى حصول الجنات والعيون لكل من اتقى عن شئ واحد الا ان الامة مجمعة على ان التقوى عن الكفر شرط فى حصول هذا الحكم وايضا فان هذه الآية وردت عقيب قول ابليس الا عبادك منهم المخلصين وعقيب قول الله تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان فلاجل هذه الدلائل اعتبرنا الايمان فى هذا الحكم فوجب ان لا نزيد فيه قيد آخر لان تخصيص العام لما كان بخلاف الظاهر فكلما كان التخصيص أقل كان اوفق لمقتضى الاصل والظاهر فثبت ان قوله ان المتقين فى جنات وعيون يتناول جميع القائلين بلا اله الا الله محمد رسول الله قولا واعتقادا سواء كانوا من اهل الطاعة او من اهل المعصية وهذا تقرير بين وكلام ظاهر (المسئلة الثانية) قوله تعالى فى جنات وعيون اما الجنات فأربعة لقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان ثم قال ومن دونهما جنتان فيكون المجموع اربعة وقوله ولمن خاف مقام ربه جنتان يؤكد ما قلناه لان من آمن بالله لا ينفك قلبه عن الخوف من الله تعالى وقوله ولمن خاف يكفى فى صدقه حصول هذا الخوف مرة واحدة واما العيون فيحتمل ان يكون المراد منها ما ذكر الله تعالى فى قوله مثل الجنة التى وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفى ويحتمل ان يكون المراد من هذه العيون ينابيع مغايرة لتلك الانهار فان قيل أتقولون ان كل واحد من المتقين يختص بعيون او تجرى تلك العيون من بعض الى بعض قيل لا يمتنع كل واحد من الوجهين فيجوز ان يختص كل احد بعين وينتفع به كل من فى خدمته من الحور والولدان ويكون ذلك على قدر حاجتهم وعلى حسب شهواتهم ويحتمل ان يكون يجرى من بعضهم الى بعض لانهم مطهرون عن الحقد والحسد وقوله ادخلوها بسلام آمنين يحتمل ان القائل لقوله ادخلوها هو الله تعالى وان يكون ذلك القائل بعض ملائكته وفيه سؤال لانه تعالى حكم قبل هذه الآية بأنهم فى جنات وعيون واذا كانوا فيها فكيف يمكن ان يقال لهم ادخلوها والجواب عنه من وجهين (الاول) لعل المراد به قيل لهم قبل دخولهم فيها ادخلوها بسلام (الثانى) لعل المراد لما ملكوا جنات كثيرة فكلما أرادوا ان ينتقلوا من جنة الى اخرى قيل لهم ادخلوها وقوله ادخلوها بسلام آمنين المراد ادخلوا الجنة مع السلامة من كل الآفات فى الحال ومع القطع ببقاء هذه السلامة والامن من زوالها

( بسلام ) ملتبسين بسلام اى سالمين او مسلما عليكم ( آمنين ) من الآفات والزوال ( ونزعنا ما فى صدورهم من غل ) اى حقد كان فى الدنيا وعن على رضى الله تعالى عنه ارجو ان اكون انا وعثمان وطلحة والزبير منهم رضوان الله تعالى عليهم اجمعين ( اخوانا ) حال من الضمير فى قوله تعالى فى جنات او من فاعل ادخلوها او من الضمير فى آمنين او الضمير المضاف اليه والعامل فيه معنى الاضافة وكذلك قوله تعالى ( على سرر متقابلين ) ويجوز كونهما صفتين لاخوانا او حالين من ضميره لانه بمعنى متصافين وكون الثانى حالا من المستكن فى الاول وعن مجاهد تدور بهم الاسرة حيثما داروا فهم متقابلون فى جميع احوالهم ( لا يمسهم فيها نصب ) اى تعب بأن لا يكون لهم فيها ما يوجبه من الكد فى تحصيل ما لا بد لهم منه لحصول كل ما يريدونه من غير مزاولة عمل اصلا او بأن لا يعتريهم ذلك وان باشروا الحركات العنيفة لكمال قوتهم وهو استئناف او حال بعد حال او حال من الضمير فى متقابلين ( وما هم منها بمخرجين ) ابد الآباد لان تمام النعمة بالخلود ( نبئ عبادى ) وهم الذين عبر عنهم بالمتقين ( انى انا الغفور الرحيم وان عذابى هو العذاب الاليم ) فذلكة لما سلف من الوعد والوعيد وتقرير له وفى ذكر المغفرة اشعار بأن ليس المراد بالمتقين من يتقى جميع الذنوب كبيرها وصغيرها وفى وصف ذاته تعالى بهما وبالرحمة على وجه القصر دون التعذيب ايذان بانهما مما يقتضيهما

الذات وان العذاب انما يتحقق بما يوجبه من خارج ( ونبئهم ) عطف على نبئ عبادى والمقصود اعتبارهم بما جرى على ابراهيم عليه الصلاة والسلام مع اهله من البشرى فى تضاعيف الخوف وبما حل بقوم لوط من العذاب ونجاته عليه الصلاة والسلام مع اهله

التابعين له فى ضمن الخوف وتنبيههم بحلول انتقامه تعالى من المجرمين وعلمهم بان عذاب الله هو العذاب الاليم ( عن ضيف ابراهيم ) عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انهم جبريل عليه الصلاة ( ٤٠٤ ) والسلام وملكان معه وقال محمد بن كعب وسبعة معه وقيل جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم الصلاة والسلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن السدى كانوا احد عشر على صور الغلمان الوضاء وجوههم وعن مقاتل انهم كانوا اثنى عشر ملكا وانما لم يتعرض لعنوان رسالتهم لانهم لم يكونوا مرسلين الى ابراهيم عليه الصلاة والسلام بل الى قوم لوط حسبما يأتى ذكره (اذ دخلوا عليه ) نصب بفعل مضمر معطوف على نبئ اى واذكر وقت دخولهم عليه او خبر مقدر مضاف الى ضيف اى خبر ضيف ابراهيم حين دخولهم عليه اوبنفس ضيف على انه مصدر فى الاصل ( فقالوا ) عند ذلك ( سلاما ) اى نسلم سلاما اوسلمنا او سلمت سلاما ( قال انا منكم وجلون ) اى خائفون فان الوجل اضطراب النفس لتوقع مكروه قاله عليه الصلاة والسلام حين امتنعوا من اكل ماقربه اليهم من العجل الحنيذ لما ان المعتاد عندهم انه اذانزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا انه لم يجئ بخير لاعند ابتداء دخولهم لقوله تعالى فلما رأى ايديهم لاتصل اليه نكرهم واوجس منهم خيفة فلا مجال لكون خوفه عليه الصلاة والسلام بسبب دخولهم بغير اذن ولا بغير وقت اذ لو كان كذلك لاجابوا حينئذ بما اجابوا به ولم يتصد عليه الصلاة والسلام لتقريب الطعام اليهم وانما لم يذكر ههنا اكتفاء بما بين فى غير هذا الموضع الايرى الى انه لم يذكر ههنارده عليه الصلاة والسلام لسلامهم ( قالوا لاتوجل ) لاتخف وقرئ لاتأجل ولاتوجل من

ثم قال تعالى ونزعنا مافى صدورهم من غل والغل الحقد الكامن فى القلب وهو مأخوذ من قولهم اغل فى جوفه وتغلغل اى ان كان لاحدهم فى الدنيا غل على آخر نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم وعن على عليه السلام انه قال ارجو ان اكون انا وعثمان وطلحة والزبير منهم وحكى عن الحرث بن الاعور انه كان جالسا عند على عليه السلام اذ دخل زكريا بن طلحة فقال له على مرحبا بك يا ابن اخى أما والله انى لارجو ان أكون أنا وابوك ممن قال الله تعالى فى حقهم ونزعنا مافى صدورهم من غل فقال الحرث كلا بل الله اعدل من ان يجعلك وطلحة فى مكان واحد قال عليه السلام فلمن هذه الآية لاامّ لك يا اعور وروى ان المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص لبعضهم من بعض ثم يؤمر بهم الى الجنة وقد نقى الله قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد وقوله اخوانا نصب على الحال وليس المراد الاخوة فى النسب بل المراد الاخوة فى المودة والمخالصة كما قال الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وقوله على سرر متقابلين السرير معروف والجمع اسرة وسرر قال ابو عبيدة يقال سرر وسرر بفتح الراء وكذا كل فعيل من المضاعف فان جمعه فعل وفعل نحو سرر وسرر وجدد وجدد قال المفضل بعض تميم وكلب يفتحون لانهم يستثقلون ضمتين متواليتين فى حرفين من جنس واحد وقال بعض اهل المعانى السرير مجلس رفيع مهيأ للسرور وهو مأخوذ منه لانه مجلس سرور قال الليث وسرير العيش مستقره الذى اطمأن اليه فى حال سروره وفرحه قال ابن عباس يريد على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل مابين صنعاء الى الجابية وقوله متقابلين التقابل التواجه وهو نقيض التدابر ولاشك ان المواجهة اشرف الاحوال وقوله لايمسهم فيها نصب النصب الاعياء والتعب اى لاينالهم فيها تعب وماهم منها بمخرجين والمراد به كونه خلودا بلازوال وبقاء بلافناء وكمالا بلانقصان وفوزا بلاحرمان واعلم ان للثواب اربع شرائط وهى ان تكون منافع مقرونة بالتعظيم خالصة عن الشوائب دائمة (اما القيد الاول) وهو كونها منفعة فاليه الاشارة بقوله ان المتقين فى جنات وعيون (واما القيد الثانى) وهو كونها مقرونة بالتعظيم فاليه الاشارة بقوله ادخلوها بسلام آمنين لان الله سبحانه اذا قال لعبيده هذا الكلام اشعر ذلك بنهاية التعظيم وغاية الاجلال (واما القيد الثالث) وهو كون تلك المنافع خالصة عن شوائب الضرر فاعلم ان المضار اما ان تكون روحانية واما ان تكون جسمانية اما المضار الروحانية فهى الحقد والحسد والغل والغضب واما المضار الجسمانية فكالاعياء والتعب فقوله ونزعنا مافى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين اشارة الى نفى المضار الروحانية وقوله لايمسهم فيها نصب اشارة الى نفى المضار الجسمانية (واما القيد الرابع) وهو كون تلك المنافع دائمة آمنة من الزوال فاليه الاشارة بقوله وماهم منها بمخرجين فهذا ترتيب حسن معقول بناء على القيود الاربعة المعتبرة فى ماهية الثواب ولحكماء الاسلام فى هذه الآية مقال فانهم قالوا المراد من قوله

اوجله اى اخافه ولا تواجل من واجله بمعنى اوجله ( انا نبشرك ) استئناف لتعليل النهى عن الوجل فان المبشر به لايكاد يحوم حول ساحته خوف ولاحزن كيف لاوهو بشارة ببقائه وبقاء اهله فى عافية وسلامة زمانا طويلا (بغلام) هو اسحق عليه

الصلاة والسلام لقوله تعالى فبشرناها باسحق ولم يتعرض ههنا لبشارة يعقوب عليه الصلاة والسلام اكتفاء بما ذكر فى سورة هود
( عليم ) اذا بلغ وفى موضع آخر بغلام حليم ( ٤٠٥ ) ( قال أبشرتمونى ) بذلك ( على ان مسنى الكبر ) واثر فى تعجب عليه الصلاة
والسلام من بشارتهم بالولد فى
حالة مباينة للولادة وزاد فى ذلك
فقال ( فبم تبشرون ) اى بأى
اعجوبة تبشروننى فان البشارة بما
لا يتصور وقوعه عادة بشارة
بغير شئ او بأى طريقة تبشروننى
وقرئ بتشديد النون المكسورة
على ادغام نون الجمع فى نون الوقاية
(قالوا بشرناك بالحق) اى بما يكون
لا محالة او باليقين الذى لا لبس
فيه او بطريقة هى حق وهو
امر الله تعالى وقوله ( فلا تكن
من القانطين) من الآيسين من ذلك
فان الله قادر على ان يخلق بشرا
بغير ابوين فكيف من شيخ فان
وعجوز عاقر وقرئ من القنطين
وكان مقصده عليه الصلاة
والسلام استعظام نعمته تعالى عليه
فى ضمن التعجب العادى المبنى على
سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين
عباده لا استبعاد ذلك بالنسبة الى
قدرته سبحانه كما ينبئ عنه قول
الملائكة فلا تكن من القانطين
دون ان يقولوا من الممترين او
نحوه (قال ومن يقنط ) استفهام
انكارى اى لا يقنط ( من رحمة ربه
الا الضالون ) المخطئون طريق
المعرفة والصواب فلا يعرفون
سعة رحمته وكمال علمه وقدرته
كما قال يعقوب عليه الصلاة
والسلام لا ييأس من روح الله
الا القوم الكافرون ومراده نفى
القنوط عن نفسه على ابلغ وجه
اى ليس بى قنوط من رحمته تعالى
وانما الذى اقول لبيان منافاة
حالى لفيضان تلك النعمة الجليلة
على وفى التعرض لوصف الربوبية
والرحمة مالا يخفى من الجزالة
وقرئ بضم النون و بكسرها
من قنط بالفتح ولم تكن هذه
المفاوضة من الملائكة مع ابراهيم عليه الصلاة والسلام خاصة بل مع سارة ايضا حسبما شرح فى سورة هود ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء
بما ذكر هناك كما انه لم يذكر هذه هناك اكتفاء بما ذكر ههنا (قال) اى ابراهيم عليه الصلاة والسلام وتوسيطه بين قوله السابق وبين قوله

ونزعنا مافى صدورهم من غل اشارة الى ان الارواح القدسية النطقية نقية مطهرة عن
علائق القوى الشهوانية والغضبية مبرأة عن حوادث الوهم والخيال وقوله اخوانا على
سرر متقابلين معناه ان تلك النفوس لما صارت صافية عن كدورات عالم الاجسام
ونوازع الخيال والاوهام ووقع عليها انوار عالم الكبرياء والجلال فأشرقت بتلك الانوار
الالهية وتلألأت بتلك الاضواء الصمدية فكل نور فاض على واحد منها انعكس منه
على الآخر مثل المرايا المتقابلة المتحاذية فلكونها بهذه الصفة وقع التعبير عنها بقوله
اخوانا على سرر متقابلين والله اعلم * قوله تعالى ( نبئ عبادى انى انا الغفور الرحيم وان
عذابى هو العذاب الاليم ) فى الآية مسئلتان (المسئلة الاولى ) اثبتت الهمزة الساكنة
فى نبئ صورة وما اثبتت فى قوله دفء وجزء لان ماقبلها ساكن فهى تحذف كثيرا وتلقى
حركتها على الساكن قبلها فنبئ فى الخط على تحقيق الهمزة وليس قبل همزة نبئ ساكن
فأجروها على قياس الاصل ( المسئلة الثانية ) اعلم ان عباد الله قسمان منهم من يكون
متقيا ومنهم من لا يكون كذلك فلما ذكر الله تعالى احوال المتقين فى الآية المتقدمة ذكر
احوال غير المتقين فى هذه الآية فقال نبئ عبادى واعلم انه ثبت فى اصول الفقه ان
ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بكون ذلك الوصف علة لذلك الحكم فههنا
وصفهم بكونهم عباداله ثم اثبت عقيب ذكر هذا الوصف الحكم بكونه غفورا رحيما
فهذا يدل على ان كل من اعترف بالعبودية ظهر فى حقه كون الله غفورا رحيما ومن
انكر ذلك كان مستوجبا للعقاب الاليم * وفى الآية لطائف ( احداها ) انه اضاف
العباد الى نفسه بقوله عبادى وهذا تشريف عظيم ألا ترى انه لما اراد ان يشرف محمدا
صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج لم يزد على قوله سبحان الذى اسرى بعبده (وثانيها ) انه لما
ذكر الرحمة والمغفرة بالغ فى التأكيد بالفاظ ثلاثة * اولها قوله انى * وثانيها قوله انا
* وثالثها ادخال حرف الالف واللام على قوله الغفور الرحيم ولما ذكر العذاب لم يقل انى
انا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال وان عذابى هو العذاب الاليم ( وثالثها ) انه امر
رسوله ان يبلغ اليهم هذا المعنى فكأنه اشهد رسوله على نفسه فى التزام المغفرة والرحمة
( ورابعها ) انه لما قال نبئ عبادى كان معناه نبئ كل من كان معترفا بعبوديتى وهذا كما
يدخل فيه المؤمن المطيع فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصى وكل ذلك يدل على تغليب
جانب الرحمة من الله تعالى وعن قتادة قال بلغنا عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لو يعلم
العبد قدر عفو الله تعالى ماتورع من حرام ولو علم قدر عقابه لبخع نفسه اى قتلها وعن
النبى صلى الله عليه وسلم انه مر بنفر من اصحابه وهم يضحكون فقال اتضحكون والنار بين
ايديكم فنزل قوله نبئ عبادى انى انا الغفور الرحيم والله اعلم * قوله ( ونبئهم عن
ضيف ابراهيم اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال انا منكم وجلون قالوا لا توجل انا نبشرك
بغلام عليم قال ابشرتمونى على ان مسنى الكبر فبم تبشرون قالوا بشرناك بالحق فلا تكن

من القانطين قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون ) فى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) اعلم انه تعالى لما بالغ فى تقرير امر النبوة ثم اردفه بذكر دلائل التوحيد ثم ذكر عقيبه احوال القيامة وصفة الاشقياء والسعداء اتبعه بذكر قصص الانبياء عليهم السلام ليكون سماعها مرغبا فى الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الانبياء ومحذرا عن المعصية لاستحقاق دركات الاشقياء فبدأ اولا بقصة ابراهيم عليه السلام والضمير فى قوله ونبئهم راجع الى قوله عبادى والتقدير ونبئ عبادى عن ضيف ابراهيم يقال انبأت القوم انباء ونبأتهم تنبئة اذا اخبرتهم وذكر تعالى فى الآية ان ضيف ابراهيم عليه السلام بشروه بالولد بعد الكبر وبانجاء المؤمنين من قوم لوط من العذاب واخبروه ايضا بأنه تعالى سيعذب الكفار من قوم لوط بعذاب الاستئصال وكل ذلك يقوى ما ذكره من انه غفور رحيم للمؤمنين وان عذابه عذاب اليم فى حق الكفار ( المسئلة الثانية ) الضيف فى الاصل مصدر ضاف يضيف اذا اتى انسانا لطلب القرى ثم سمى به ولذلك وحد فى اللفظ وهم جماعة فان قيل كيف سماهم ضيفا مع امتناعهم عن الاكل قلنا لما ظن ابراهيم انهم انما دخلوا عليه لطلب الضيافة جاز تسميتهم بذلك وقيل ايضا ان من يدخل دار الانسان ويلتجئ اليه يسمى ضيفا وان لم يأكل وقوله تعالى اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما اى نسلم عليك سلاما او سلمت سلاما فقال ابراهيم انا منكم وجلون اى خائفون وكان خوفه لامتناعهم من الاكل وقيل لانهم دخلوا عليه بغير اذن وبغير وقت وقرأ الحسن لا توجل بضم التاء من اوجله يوجله اذا اخافه وقرئ لا تأجل ولا تواجل من واجله بمعنى اوجله وهذه القصة قد مر ذكرها بالاستقصاء فى سورة هود * وقوله قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم فيه ابحاث ( الاول ) قرأ حمزة انا نبشرك بفتح النون وتخفيف الباء والباقون نبشرك بالتشديد ( البحث الثانى ) قوله انا نبشرك استئناف فى معنى التعليل للنهى عن الوجل والمعنى انك بمثابة الآمن المبشر فلا توجل ( البحث الثالث ) قوله انا نبشرك بغلام عليم بشروه بأمرين ( احدهما ) ان الولد ذكر والآخر انه يصير عليما واختلفوا فى تفسير العليم فقيل بشروه بنبوته بعده وقيل بشروه بأنه عليم بالدين ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام انه قال ابشرتمونى على ان مسنى الكبر فبم تبشرون فعلى ههنا للحال اى حالة الكبر وقوله فبم تبشرون فيه مسئلتان ( المسئلة الاولى ) لفظة ما ههنا استفهام بمعنى التعجب كأنه قال باى اعجوبة تبشرونى فان قيل فى الآية اشكالان ( الاول ) انه كيف استبعد قدرة الله تعالى على خلق الولد منه فى زمان الكبر وانكار قدرة الله تعالى فى هذا الموضع كفر ( الثانى ) كيف قال فبم تبشرون مع انهم قد بينوا ما بشروه به وما فائدة هذا الاستفهام قال القاضى احسن ما قيل فى الجواب عن ذلك انه اراد ان يعرف انه تعالى يعطيه الولد مع انه يبقيه على صفة الشيخوخة او يقلبه شابا ثم يعطيه الولد والسبب فى هذا الاستفهام ان العادة جارية بانه لا يحصل الولد حال الشيخوخة التامة وانما يحصل فى حال الشباب فان

( فاخطبكم ) اى امركم وشأنكم الخطير الذى لاجله ارسلتم سوى البشارة ( ايها المرسلون ) صريح فى ان بينهما مقالة مطوية لهم اثير به الى مكانها كما فى قوله تعالى قال أأسجد لمن خلقت طينا قال أرأيتك ( ٤٠٦ ) هذا الذى كرمت على الآية فان قوله الاخير ليس موصولا بقوله الاول بل هو مبنى على قوله تعالى فاخرج منها فانك رجيم فان توسيط قال بين قوليه للايذان بعدم اتصال الثانى بالاول وعدم ابتنائه عليه بل على غيره ثم خطابه لهم عليهم الصلاة والسلام بعنوان الرسالة بعدما كان خطابه السابق مجردا عن ذلك مع تصديره بالفاء دليل على ان مقالتهم المطوية كانت متضمنة لبيان ان مجيئهم ليس لمجرد البشارة بل لهم شأن آخر لاجله ارسلوا فكأنه قال عليه الصلاة والسلام ان لم يكن شأنكم مجرد البشارة فماذا هو فلا حاجة الى الالتجاء الى ان علمه عليه الصلاة والسلام بأن كل المقصود ليس البشارة بسبب انهم كانوا ذوى عدد والبشارة لا تحتاج الى عدد ولذلك اكتفى بالواحد فى زكريا عليه الصلاة والسلام ومريم ولا الى انهم بشروه فى تضاعيف الحال لازالة الوجل ولو كانت تمام المقصود لابتدؤا بها فتأمل ( قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين ) هم قوم لوط لكن وصفوا بالاجرام وجىء بهم بطريق التنكير ذما لهم واستهانة بهم ( الا آل لوط ) استثناء متصل من الضمير فى مجرمين اى الى قوم اجرموا جميعا الا آل لوط فالقوم والارسال شاملان للمجرمين وغيرهم والمعنى انا ارسلنا الى قوم اجرم كلهم الا آل لوط لنهلك الاولين وننجى الآخرين ويدل عليه قوله تعالى ( انا لمنجوهم ) اى لوطا وآله ( اجمعين ) اى مما يصيب القوم فانه استئناف للاخبار بنجاتهم لعدم اجرامهم او لبيان ما فهم من الاستثناء من مطلق عدم شمول العذاب لهم فان ذلك قد يكون بكون حالهم بين بين اولتعليله فان من تعلق بهم التنجية بمنجى من شمول العذاب اومنقطع ( قيل ) من قوم وقوله تعالى انا لمنجوهم متصل بآل لوط جار مجرى خبر لكن وعلى هذا فقوله تعالى ( الا امرأته ) استثناء من آل لوط اومن

قيل فاذا كان معنى الكلام ماذكرتم فلم قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين قلنا انهم بينوا ان الله تعالى بشره بالولد مع ابقائه على صفة الشيخوخة وقولهم فلا تكن من القانطين لايدل على انه كان كذلك بدليل انه صرح في جوابهم بمايدل على انه ليس كذلك فقال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون وفيه جواب آخر وهو ان الانسان اذا كان عظيم الرغبة في شيء وفاته الوقت الذي يغلب على ظنه حصول ذلك المراد فيه فاذا بشر بعد ذلك بحصوله عظم فرحه وسروره ويصير ذلك الفرح القوي كالمدهش له والمزيل لقوة فهمه وذكائه فلعله يتكلم بكلمات مضطربة من ذلك الفرح في ذلك الوقت وقيل ايضا انه يستطيب تلك البشارة فربما يعيد السؤال ليسمع تلك البشارة مرة أخرى ومرتين واكثر طلبا للالتذاذ بسماع تلك البشارة وطلبا لزيادة الطمأنينة والوثوق مثل قوله ولكن ليطمئن قلبي وقيل ايضا استفهم أبأمر الله تبشرون ام من عند انفسكم واجتهادكم (المسئلة الثانية) قرأ نافع تبشرون بكسر النون خفيفة في كل القرآن وقرأ ابن كثير بكسر النون وتشديدها والباقون بفتح النون خفيفة اما الكسر والتشديد فتقديره تبشرونني ادغمت نون الجمع في نون الاضافة واما الكسر والتخفيف فعلى حذف نون الجمع استثقالا لاجتماع المثلين وطلبا للتخفيف قال ابو حاتم حذف نافع الياء مع النون قال واسقاط الحرفين لايجوز واجيب عنه بانه اسقط حرفا واحدا وهي النون التي هي علامة للرفع وعلى ان حذف الحرفين جائز قال تعالى في موضع ولا تك وفي موضع ولا تكن فاما فتح النون فعلى غير الاضافة والنون علامة الرفع وهي مفتوحة ابدا وقوله بشرناك بالحق قال ابن عباس يريد بما قضاه الله تعالى والمعنى ان الله تعالى قضى ان يخرج من صلب ابراهيم اسحق عليه السلام ويخرج من صلب اسحق مثل ما اخرج من صلب آدم فانه تعالى بشر بانه يخرج من صلب اسحق اكثر الانبياء فقوله بالحق اشارة الى هذا المعنى وقوله فلا تكن من القانطين نهي لابراهيم عليه السلام عن القنوط وقد ذكرنا كثيرا ان نهي الانسان عن الشيء لايدل على كون المنهي فاعلا للمنهي عنه كما في قوله ولا تطع الكافرين والمنافقين ثم حكى تعالى عن ابراهيم عليه السلام انه قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) هذا الكلام حق لان القنوط من رحمة الله تعالى لايحصل الا عند الجهل بامور (احدها) ان يجهل كونه تعالى قادرا عليه (وثانيها) ان يجهل كونه تعالى عالما باحتياج ذلك العبد اليه (وثالثها) ان يجهل كونه تعالى منزها عن البخل والحاجة والجهل فكل هذه الامور سبب للضلال فلهذا المعنى قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون (المسئلة الثانية) قرأ أبو عمرو والكسائي يقنط بكسر النون ولا تقنطوا كذلك والباقون بفتح النون وهما لغتان قنط يقنط نحو ضرب يضرب وقنط يقنط نحو علم يعلم وحكى ابو عبيدة قنط يقنط بضم النون قال ابو علي الفارسي قنط يقنط بفتح النون في الماضي وكسرها في المستقبل من اعلى اللغات يدل

ضميرهم وعلى الاول من الضمير خاصة لاختلاف الحكمين اللهم الا ان يجعل انا لمنجوهم اعتراضا وقرئ بالتخفيف (قدرنا انها لمن الغابرين) الباقين مع الكفرة لتهلك (٤٠٧) معهم وقرئ قدرنا بالتخفيف وانما علق فعل التقدير مع اختصاص ذلك بأفعال القلوب لتضمنه معنى العلم ويجوز حمله على معنى قلنا لانه بمعنى القضاء قول واصله جعل الشيء على مقدار غيره واسنادهم له الى انفسهم وهو فعل الله سبحانه لمالهم من الزلفى والاختصاص (فلما جاء آل لوط المرسلون) شروع في بيان كيفية اهلاك المجرمين وتنجية آل لوط حسبما اجمل في الاستثناء ثم فصل في التعليل نوع تفصيل ووضع المظهر موضع المضمر للايذان بأن مجيئهم لتحقيق ماارسلوا به من الاهلاك والتنجية وليس المراد به ابتداء مجيئهم بل مطلق كينونتهم عند آل لوط فان ماحكي عنه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى (قال انكم قوم منكرون) انما قاله عليه الصلاة والسلام بعد اللتيا والتي حين ضاقت عليه الحيل وعيت به العلل لما لم يشاهد من المرسلين عند مقاساته الشدائد ومعاناته المكايد من قومه الذين يريدون بهم مايريدون ماهو المعهود والمعتاد من الاعانة والامداد فيما يأتي ويذر عند تجشمه في تخليصهم انكارا لخذ لانهم له وترك نصرته في مثل تلك المضايقة المعترية له بسببهم حيث لم يكونوا مباشرين معه لاسباب المدافعة والممانعة حتى الجأته الى ان قال لو ان لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد حسبما فصل في سورة هود لا انه قاله عند ابتداء ورودهم له خوفا ان يطرقوه بشر كما قيل كيف لا وهم بجوابهم المحكي بقوله تعالى (قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) اي بالعذاب الذي كنت تتوعدهم به فيمترون فيه ويكذبونك قد قشروا العصا وبينوا له عليه الصلاة والسلام جلية الامر فأنى يمكن ان يعتريه بعد ذلك المساءة وضيق الذرع وليست كلمة بل اضرابا عن موجب الخوف المذكور على معنى ماجئناك بما تنكرنا لاجله بل بما يسرك وتقربه عينك بل هي اضراب عما فهمه عليه الصلاة والسلام من ترك

على ذلك اجتماعهم في قوله من بعد ماقنطوا وحكاية ابى عبيدة تدل ايضا على ان قنط بفتح النون اكثر لان المضارع من فعل يجئ على يفعل ويفعل مثل فسق يفسق ويفسق ولا يجئ مضارع فعل على يفعل والله اعلم ❊ قوله تعالى (قال فاخطبكم ايها المرسلون قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين الا آل لوط انا لمنجوهم اجمعين الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله فاخطبكم سؤال عما لاجله ارسلهم الله تعالى والخطب والشان والامر سواء الا ان لفظ الخطب ادل على عظم الحال فان قيل ان الملائكة لما بشروه بالولد الذكر العليم فكيف قال لهم بعد ذلك فاخطبكم ايها المرسلون قلنا فيه وجوه (الاول) قال الاصم معناه ما الامر الذى توجهتم له سوى البشرى (الثانى) قال القاضى انه علم انه لو كان كمال المقصود ايصال البشارة لكان الواحد من الملائكة كافيا فلما رأى جمعا من الملائكة علم ان لهم غرضا آخر سوى ايصال البشارة فلا جرم قال فاخطبكم ايها المرسلون (الثالث) يمكن ان يقال انهم انما قالوا انا نبشرك بغلام عليم في معرض ازالة الخوف والوجل ألا ترى ان ابراهيم عليه الصلاة والسلام لما خاف قالوا له لا توجل انا نبشرك بغلام عليم ولو كان تمام المقصود من المجئ هو ذكر تلك البشارة لكانوا في اول مادخلوا عليه ذكروا تلك البشارة فلما لم يكن الامر كذلك علم ابراهيم عليه الصلاة والسلام بهذا الطريق انه ما كان مجيئهم لمجرد هذه البشارة بل كان لغرض آخر فلا جرم سألهم عن ذلك الغرض فقال فاخطبكم ايها المرسلون ثم حكى تعالى عن الملائكة انهم قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين وانما اقتصروا على هذا القدر لعلم ابراهيم عليه السلام بان الملائكة اذا ارسلوا الى المجرمين كان ذلك لاهلاكهم واستئصالهم وايضا فقولهم الا آل لوط انا لمنجوهم اجمعين يدل على ان المراد بذلك الارسال اهلاك القوم اما قوله تعالى الا آل لوط فالمراد من آل لوط اتباعه الذين كانوا على دينه فان قيل قوله الا آل لوط هل هو استثناء منقطع او متصل قلنا قال صاحب الكشاف ان كان هذا الاستثناء استثناء من قوم كان منقطعا لان القوم موصوفون بكونهم مجرمين وآل لوط ما كانوا مجرمين فاختلف الجنسان فوجب ان يكون الاستثناء منقطعا وان كان استثناء من الضمير في مجرمين كان متصلا كأنه قيل الى قوم قد اجرموا كلهم الا آل لوط وحدهم كما قال فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ثم قال صاحب الكشاف ويختلف المعنى بحسب اختلاف هذين الوجهين وذلك لان آل لوط يخرجون في المنقطع من حكم الارسال لان على هذا التقدير الملائكة ارسلوا الى القوم المجرمين خاصة وما ارسلوا الى آل لوط اصلا واما في المتصل فالملائكة ارسلوا اليهم جميعا ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء واما قوله انا لمنجوهم اجمعين فاعلم انه قرأ حمزة والكسائى منجوهم خفيفة والباقون مشددة وهما لغتان اما قوله تعالى الا امرأته قال صاحب الكشاف هذا استثناء من الضمير المجرور في قوله لمنجوهم وليس ذلك من باب الاستثناء من الاستثناء لان

---

النصرة له والمعنى ما خذلناك وما خلينا بينك وبينهم بل جئناك بما يدمرهم من العذاب الذى كانوا يكذبونك حين كنت تتوعدهم به ولعل تقديم هذه المقاولة على ماجرى بينه وبين اهل المدينة من المجادلة للمسارعة ( ٤٠٨ ) الى ذكر بشارة لوط عليه الصلاة والسلام باهلاك قومه وتنجية آله عقيب ذكر بشارة ابراهيم عليه الصلاة والسلام بهما وحيث كان ذلك مستدعيا لبيان كيفية النجاة وترتيب مباديها اشير الى ذلك اجمالا ثم ذكر ما فعل القوم وما فعل بهم ولم يبال بتغيير الترتيب الوقوعى ثقة بمراعاته فى مواقع أخر ونسبة المجئ بالعذاب اليه عليه الصلاة والسلام مع انه نازل بالقوم بطريق تفويض امره اليه لا بطريق نزوله عليه كأنهم جاؤه به وفوضوا امره اليه ليرسله عليهم حسبما كان يتوعدهم به (وأتيناك بالحق) اى باليقين الذى لا مجال فيه للامتراء والشك وهو عذابهم عبر عنه بذلك تنصيصا على نفى الامتراء عنه او المراد بالحق الاخبار بمجئ العذاب المذكور وقوله تعالى (وانا لصادقون) تأكيد له اى اتيناك فيما قلنا بالخبر الحق اى المطابق للواقع وانا لصادقون فى ذلك الخبر او فى كل كلام فيكون كالدليل على صدقهم فيه وعلى الاول تأكيد اثر تأكيد وقوله تعالى ( فأسر بأهلك ) شروع فى ترتيب مبادى النجاة اى اذهب بهم فى الليل وقرئ بالوصل وكلاهما من السرى وهو السير فى الليل وقرئ فسر من السير (بقطع من الليل) بطائفة منه او من آخره قال

افتحى الباب وانظرى فى النجوم
كم علينا من قطع ليل بهيم * وقيل

هو بعد ما مضى منه شئ صالح ( واتبع ادبارهم ) وكن على اثرهم تذودهم وتسرع بهم وتطلع على احوالهم ولعل ايثار الاتباع على السوق مع انه المقصود بالامر للمبالغة فى ذلك اذ السوق ربما يكون بالتقدم على بعض مع التأخر (الاستثناء) عن بعض ويلزمه عادة الغفلة عن حال المتأخر والالتفات المنهى عنه بقوله تعالى ( ولا يلتفت منكم ) اى منك ومنهم ( احد ) فيرى

الاستثناء من الاستثناء انما يكون فيما اتحد الحكم فيه كما لو قيل اهلكناهم الا آل لوط الا امرأته وكما لو قال المطلق لامرأته انت طالق ثلاثا الا اثنتين الا واحدة وكما اذا قال المقر لفلان على عشرة دراهم الا ثلاثة الا درهما فأما فى هذه الآية فقد اختلف الحكمان لان قوله الا آل لوط متعلق بقوله ارسلنا او بقوله مجرمين وقوله الا امرأته قد تعلق بقوله منجوهم فكيف يكون هذا استثناء من استثناء واما قوله قدرنا انها لمن الغابرين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان معنى التقدير فى اللغة جعل الشئ على مقدار غيره يقال قدر هذا الشئ بهذا اى اجعله على مقداره وقدر الله تعالى الاقوات اى جعلها على مقدار الكفاية ثم يفسر التقدير بالقضاء فيقال قضى الله عليه كذا وقدره عليه اى جعله على مقدار مايكفى فى الخير والشر وقيل فى معنى قدرنا كتبنا وقال الزجاج دبرنا وقيل قضينا والكل متقارب (المسئلة الثانية) قرأ ابوبكر عن عاصم قدرنا بتخفيف الدال ههنا وفى النمل وقرأ الباقون فيهما بالتشديد قال الواحدى يقال قدرت الشئ وقدرته ومنه قراءة ابن كثير نحن قدرنا بينكم الموت خفيفا وقراءة الكسائى والذى قدر فهدى ثم قال والمشددة فى هذا المعنى اكثر استعمالا لقوله تعالى وقدر فيها اقواتها وقوله وخلق كل شئ فقدره تقديرا (المسئلة الثالثة) لقائل ان يقول لم اسند الملائكة فعل التقدير الى انفسهم مع انه لله تعالى ولم لم يقولوا قدر الله تعالى والجواب انما ذكروا هذه العبارة لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى كما يقول خاصة الملك دبرنا كذا وامرنا بكذا والمدبر والآمر هو الملك لاهم وانما يريدون بذكر هذا الكلام اظهار مالهم من الاختصاص بذلك الملك فكذا ههنا والله اعلم (المسئلة الرابعة) قوله انها لمن الغابرين فى موضع مفعول التقدير قضينا انها تتخلف وتبقى مع من يبقى حتى تهلك كما يهلكون ولا تكون ممن يبقى مع لوط فتصل الى النجاة والله اعلم ❊ قوله تعالى (فلما جاء آل لوط المرسلون قال انكم قوم منكرون قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون واتيناك بالحق وانا لصادقون) اعلم ان الملائكة لما بشروا ابراهيم بالولد واخبروه بأنهم مرسلون لعذاب قوم مجرمين ذهبوا بعد ذلك الى لوط والى آله وان لوطا وقومه ماعرفوا انهم ملائكة الله فلهذا قال لهم انكم قوم منكرون وفى تأويله وجوه (الاول) انه انما وصفهم بأنهم منكرون لانه عليه الصلاة والسلام ماعرفهم فلما هجموا عليه استنكر منهم ذلك وخاف انهم دخلوا عليه لاجل شر يوصلونه اليه فقال هذه الكلمة (والثانى) انهم كانوا شبابا مردا حسان الوجوه فخاف ان يهجم قومه عليه بسبب طلبهم فقال هذه الكلمة (والثالث) ان النكرة ضد المعرفة فقوله انكم قوم منكرون اى لا اعرفكم ولا اعرف انكم من اى الاقوام ولاى غرض دخلتم على فعند هذه الكلمة قالت الملائكة بل جئناك بما كانوا فيه يمترون اى بالعذاب الذى كانوا يشكون فى نزوله ثم اكدوا ماذكروه بقولهم واتيناك بالحق قال الكلبى بالعذاب وقيل باليقين والامر الثابت الذى لاشك فيه وهو عذاب

---

ماوراءه من الهول فلا يطيقه او يصيبه ماأصابهم اوولا ينصرف منكم احد ولا يتخلف لغرض فيصيبه العذاب وقيل نهوا عن ذلك ليوطنوا أنفسهم على المهاجرة اوهو نهى عن ربط القلب بما  خلفوه اوهو للاسراع فى السير فان الملتفت قلما يخلو عن ادنى وقفة وعدم ذكر استثناء المرأة من الاسراء والالتفات لايستدعى عدم وقوعه فان ذلك لما عرفت مرار اللاكتفاء بما ذكر فى مواضع أخر (وامضوا حيث تؤمرون) الى حيث امركم الله تعالى بالمضى اليه وهو الشام اومصر وحذف الصلتين على الاتساع المشهور وايثار المضى الى ماذكر على الوصول اليه والحوق به للايذان بأهمية النجاة ولمراعاة المناسبة بينه وبين ماسلف من الغابرين (وقضينا) اى أوحينا (اليه) مقضيا ولذلك عدى بالى (ذلك الامر) مبهم يفسره (ان دابر هؤلاء مقطوع) على انه بدل منه وايثار اسم الاشارة على الضمير للدلالة على اتصافهم بصفاتهم القبيحة التى هى مدار ثبوت الحكم اى دابر هؤلاء المجرمين وايراد صيغة المفعول بدل صيغة المضارع لكونها ادخل فى الدلالة على الوقوع وفى لفظ القضاء والتعبير عن العذاب بالامر والاشارة اليه بذلك وتأخيره عن الجار والمجرور وابهامه اولا ثم تفسيره ثانيا من الدلالة على فخامة الامر وقطاعته مالايخفى وقرئ بالكسر على الاستئناف والمعنى انهم يستأصلون عن آخرهم حتى لايبقى منهم احد (مصبحين) داخلين فى الصبح وهو حال من هؤلاء اومن الضمير فى مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فان دابر هؤلاء بمعنى مدبرى هؤلاء (وجاء اهل المدينة) شروع فى حكاية ماصدر عن القوم عند وقوفهم على مكان الاضياف من الفعل والقول وما ترتب عليه بعد ماأشير اليه ذلك اجمالا حسبما نبه عليه اى جاء اهل سدوم  منزل لوط عليه الصلاة والسلام (يستبشرون) اى مستبشرين باضيافه عليه الصلاة والسلام طمعا فيهم (قال ان هؤلاء ضيفى) الضيف حيث كان مصدرا فى الاصل اطلق على الواحد

والمتعدد والمذكر والمؤنث واطلاقه على الملائكة بحسب اعتقاده عليه الصلاة والسلام لكونهم في زى الضيف والتأكيد ليس لانكارهم بذلك بل لتحقيق اتصافهم به واظهار اعتنائه بشأنهم وتشمره ( ٤١٠ ) لمراعاة حقوقهم وحمايتهم من السوء ولذلك قال ( فلا تفضحون ) اى عندهم بأن تتعرضوا لهم بسوء فيعلموا انه ليس لى عندكم قدر وحرمة اولا تفضحون بفضيحة ضيفى فان من أسئ الى ضيفه فقد اسئ اليه يقال فضحه فضحا وفضيحة اذا اظهر من امره مايلزمه العار ( واتقوا الله ) فى مباشرتكم لما يسوءنى ( ولا تخزون ) اى لاتذلونى ولاتهينونى بالتعرض لمن اجرتهم بمثل تلك الفعلة الخبيثة وحيث كان التعرض لهم بعد ان نهاهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك بقوله فلا تفضحون اكثر تأثيرا فى جانبه عليه الصلاة والسلام واجلب للعار اليه اذ التعرض للجار قبل شعور المجير بذلك ربما يتسامح فيه واما بعد الشعور به والمناصبة لحمايته والذب عنه فذاك اعظم العار عبر عليه الصلاة والسلام عما يعتريه من جهتهم بعد النهى المذكور بسبب لجاجهم ومجاهرتهم بمخالفته بالخزى وامرهم بتقوى الله تعالى فى ذلك وانما لم يصرح بالنهى عن نفس تلك الفاحشة لانه كان يعرف انه لا يفيدهم ذلك وقيل المراد تقوى الله تعالى فى ركوب الفاحشة ولايساعده توسيطه بين النهيين عن امرين متعلقين بنفسه عليه الصلاة والسلام وكذلك قوله تعالى ( قالوا اولم ننهك عن العالمين ) اى عن التعرض لهم بمنعهم عنا وضيافتهم والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر اى الم نتقدم اليك ولم ننهك عن ذلك فانهم كانوا يتعرضون لكل احد من الغرباء بالسوء وكان عليه الصلاة والسلام ينهاهم عن ذلك بقدر وسعه وكانوا قد نهوه عليه الصلاة والسلام عن ان يجير احدا فكأنهم قالوا ماذكرت من الفضيحة والخزى انما جاءك من قبلك لامن قبلنا اذ لولا تعرضك لما نتصدى له لما اعتراك تلك الحالة ولما رآهم لايقلعون عما هم عليه ( قال هؤلاء بناتى ) يعنى نساء القوم فان نبى كل

---

اولئك الاقوام ثم اكدوا هذا التأكيد بقولهم وانا لصادقون ❊ قوله تعالى (فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع ادبارهم ولايلتفت منكم احد وامضوا حيث تؤمرون وقضينا اليه ذلك الامر ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ) قرئ فأسر بقطع الهمزة ووصلها من اسرى وسرى وروى صاحب الكشاف عن صاحب الاقليد فسر من السير والقطع آخر الليل قال الشاعر

افتحى الباب وانظرى فى النجوم ❊ كم علينا من قطع ليل بهيم

وقوله واتبع ادبارهم معناه اتبع آثار بناتك واهلك وقوله ولايلتفت منكم احد الفائدة فيه اشياء (احدها) لئلا يتخلف منكم احد فيناله العذاب (وثانيها) لئلا يرى عظيم ماينزل بهم من البلاء (وثالثها) معناه الاسراع وترك الاهتمام لما خلف وراءه كما تقول امض لشأنك ولاتعرج على شئ (ورابعها) لو بقى منه متاع فى ذلك الموضع فلا يرجعن بسببه البتة وقوله وامضوا حيث تؤمرون قال ابن عباس يعنى الشأم قال المفضل حيث يقول لكم جبريل وذلك لان جبريل عليه السلام امرهم ان يمضوا الى قرية معينة اهلها ماعملوا مثل عمل قوم لوط وقوله وقضينا اليه عدى قضينا بالى لانه ضمن معنى اوحينا كأنه قيل واوحيناه اليه مقضيا مبتوتا ونظيره قوله تعالى وقضينا الى بنى اسرائيل وقوله ثم اقضوا الى ثم انه فسر بعد ذلك القضاء المبتوت بقوله ان دابر هؤلاء مقطوع وفى ابهامه اولا وتفسيره ثانيا تفخيم للامر وتعظيم له وقرأ الاعمش ان بالكسر على الاستئناف كأن قائلا قال اخبرنا عن ذلك الامر فقال ان دابر هؤلاء وفى قراءة ابن مسعود وقلنا ان دابر هؤلاء ودابرهم آخرهم يعنى يستأصلون عن آخرهم حتى لايبقى منهم احد وقوله مصبحين اى حال ظهور الصبح ❊ قوله تعالى (وجاء اهل المدينة يستبشرون قال ان هؤلاء ضيفى فلا تفضحون واتقوا الله ولاتخزون قالوا أولم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بناتى ان كنتم فاعلين لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وامطرنا عليهم حجارة من سجيل ان فى ذلك لآيات للمتوسمين وانها لبسبيل مقيم ان فى ذلك لآية للمؤمنين ) اعلم ان المراد بأهل المدينة قوم لوط وليس فى الآية دليل على المكان الذى جاؤه الا ان القصة تدل على انهم جاؤا دار لوط قيل ان الملائكة لما كانوا فى غاية الحسن اشتهر خبرهم حتى وصل الى قوم لوط وقيل امرأة لوط اخبرتهم بذلك وبالجملة فالقوم قالوا نزل بلوط ثلاثة من المرد مارأينا قط اصبح وجها ولا احسن شكلا منهم فذهبوا الى دار لوط طلبا منهم لأولئك المرد والاستبشار اظهار السرور فقال لهم لوط لما قصدوا اضيافه كلامين (الاول) قال ان هؤلاء ضيفى فلا تفضحون يقال فضحه يفضحه فضحا وفضيحة اذا اظهر من امره ما يلزمه به العار والمعنى ان الضيف يجب اكرامه فاذا قصدتموهم بالسوء كان ذلك اهانة بى ثم اكد ذلك بقوله واتقوا الله ولاتخزون فأجابوه بقولهم اولم ننهك عن العالمين والمعنى ألسنا قد نهيناك ان تكلمنا فى احد من الناس اذا

قصدناه بالفاحشة (والكلام الثاني) مماقاله لوط قوله هؤلاء بناتى ان كنتم فاعلين قيل المرادبناته من صلبه وقيل المراد نساءقومه لان رسول الامةيكون كالاب لهم وهو كقوله تعالى النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم وازواجه امهاتهم وفى قراءة أبي وهو اب لهم والكلام فى هذه المباحث قدمر بالاستقصاء فى سورة هود عليه السلام اماقوله لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون ففيه مسائل (المسألة الاولى) العمر والعمر واحد وسمى الرجل عمرا تفاؤلا ان يبقى ومنه قول ابن احمر * ذهب الشباب واخلق العمر * وعمر الرجل يعمر عمرا وعمرا فاذااقسموا به قالوا لعمرك وعمرك فتحوا العين لاغير قال الزجاج لان الفتح اخف عليهم وهم يكثرون القسم بلعمرى ولعمرك فالتزموا الاخف (المسألة الثانية) فى قوله لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون قولان (الاول) ان المراد ان الملائكة قالت للوط عليه السلام لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون اى فى غوايتهم يعمهون اى يتحيرون فكيف يقبلون قولك ويلتفتون الى نصيحتك (والثانى) ان الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وانه تعالى اقسم بحياته وما اقسم بحياة احد وذلك يدل على انه اكرم الخلق على الله تعالى قال النحويون ارتفع قوله لعمرك بالابتداء والخبر محذوف والمعنى لعمرك قسمى وحذف الخبر لان فى الكلام دليلا عليه وباب القسم يحذف منه الفعل نحو بالله لافعلن والمعنى احلف بالله فيحذف لعلم المخاطب بأنك حالف ثم قال تعالى فأخذتهم الصيحة اى صيحة جبريل عليه السلام قال اهل المعانى ليس فى الآية دلالة على ان تلك الصيحة صيحة جبريل عليه السلام فان ثبت ذلك بدليل قوى قيل به والا فليس فى الآية دلالة الا على انه جاءتهم صيحة عظيمة مهلكة وقوله مشرقين يقال شرق الشارق يشرق شروقا لكل ماطلع من جانب الشرق ومنه قولهم ماذر شارق اى طلع طالع فقوله مشرقين اى داخلين فى الشروق يقال اشرق الرجل اذا دخل فى الشروق وهو بزوغ الشمس واعلم ان الآية تدل على انه تعالى عذبهم بثلاثة انواع من العذاب (احدها) الصيحة الهائلة المنكرة (وثانيها) انه جعل عاليها سافلها (وثالثها) انه امطر عليهم حجارة من سجيل وكل هذه الاحوال قدمر تفسيرها فى سورة هود ثم قال تعالى ان فى ذلك لآيات للمتوسمين يقال توسمت فى فلان خيرا اى رأيت فيه اثرا منه وتفرسته فيه واختلفت عبارات المفسرين فى تفسير المتوسمين قيل المتفرسين وقيل الناظرين وقيل المتفكرين وقيل المعتبرين وقيل المتبصرين قال الزجاج حقيقة المتوسمين فى اللغة المتثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا سمة الشئ وصفته وعلامته والمتوسم الناظر فى السمة الدالة تقول توسمت فى فلان كذا اى عرفت وسم ذلك وسمته فيه ثم قال وانها لبسبيل مقيم الضمير فى قوله وانها عائد الى مدينة قوم لوط وقد سبق ذكرها فى قوله وجاء اهل المدينة وقوله لبسبيل مقيم اى هذه القرى وماظهر فيها من آثار قهر الله وغضبه لبسبيل مقيم ثابت لم يندرس ولم يخف والذين يمرون من الحجاز الى الشام يشاهدونها ثم قال ان فى ذلك لآية للمؤمنين اى

---

امة بمنزلة ابيهم اوبناته حقيقة اى فتزوجوهن وقدكانوا من قبل يطلبونهن ولايجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لالعدم مشروعية المناكحة بين المسلمات والكفار وقد فصل ذلك فى سورة هود ( ٤١١ ) (ان كنتم فاعلين) اى قضاء الوطر اوما أقول لكم (لعمرك) قسم من الله تعالى بحياة النبي عليه الصلاة والسلام او من الملائكة بحياة لوط عليه الصلاة والسلام والتقدير لعمرك قسمى وهى لغة فى العمر يختص به القسم ايثارا للخفة لكثرة دورانه على الالسنة (انهم لفى سكرتهم) غوايتهم اوشدة غلمتهم التى ازالت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ والصواب (يعمهون) يتحيرون ويتمادون فكيف يسمعون النصح وقيل الضمير لقريش والجملة اعتراض (فأخذتهم الصيحة) اى الصيحة العظيمة الهائلة وقيل صيحة جبريل عليه الصلاة والسلام (مشرقين) داخلين فى وقت شروق الشمس (فجعلنا عاليها) عالى المدينة اوعالى قراهم وهو المفعول الاول لجعلنا وقوله تعالى (سافلها) مفعول ثان له وهو ادخل فى الهول والفظاعة من العكس كما مر (وامطرنا عليهم) فى تضاعيف ذلك قبل تمام الانقلاب (حجارة) كائنة (من سجيل) من طين متحجر اوطين عليه كتاب وقد فصل ذلك فى سورة هود (ان فى ذلك) اى فيما ذكر من القصة (لآيات) لعلامات يستدل بها على حقيقة الحق (للمتوسمين) اى المتفكرين المتفرسين الذين يتثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشئ بسمته (وانها) اى المدينة اوالقرى (لبسبيل مقيم) اى طريق ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها (ان فى ذلك) فيما ذكر من المدينة اوالقرى اوفى كونها بمرأى من الناس يشاهدونها فى ذهابهم وايابهم (لآية) عظيمة (للمؤمنين) بالله ورسوله فانهم الذين يعرفون ان ماحاق بهم من العذاب الذى ترك ديارهم بلاقع انما حاق بهم لسوء صنيعهم واماغيرهم فيحملون ذلك على الاتفاق اوالاوضاع الفلكية وافراد الآية بعد جمعها فيما سبق لما ان المشاهد ههنا بقية الآثار لاكل القصة كمافيما سلف (وان كان) ان مخففة من ان وضمير الشان

كل من آمن بالله وصدق الانبياء والرسل عرف ان ذلك انما كان لاجل ان الله تعالى انتقم لانبيائه من اولئك الجهال اما الذين لايؤمنون بالله فانهم يحملونه على حوادث العالم ووقائعه وعلى حصول القرانات الكوكبية والاتصالات الفلكية والله اعلم ☼ قوله تعالى (وان كان اصحاب الايكة لظالمين فانتقمنا منهم وانهما لبأمام مبين) اعلم ان هذه هي القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة (فأولها) قصة آدم وابليس (وثانيها) قصة ابراهيم ولوط (وثالثها) هذه القصة واصحاب الايكة هم قوم شعيب عليه السلام كانوا اصحاب غياض فكذبوا شعيبا فأهلكهم الله تعالى بعذاب يوم الظلة وقد ذكر الله تعالى قصتهم في سورة الشعراء والايكة الشجرة الملتف يقال ايكة وايك كشجرة وشجر قال ابن عباس الايك هو شجر المقل وقال الكلبي الايكة الغيضة وقال الزجاج هؤلاء اهل موضع كان ذا شجر قال الواحدي ومعنى ان واللام للتوكيد وان ههنا هي المخففة من الثقيلة وقوله فانتقمنا منهم قال المفسرون اشتد الحر فيهم اياما ثم اضطرم عليهم المكان نارا فهلكوا عن آخرهم وقوله وانهما فيه قولان (الاول) المراد قرى قوم لوط عليه السلام والايكة (والقول الثاني) الضمير للايكة ومدين لان شعيبا عليه السلام كان مبعوثا اليهما فلما ذكر الايكة دل بذكرها على مدين فجاء بضميرهما وقوله لبأمام مبين اى بطريق واضح والامام اسم مايؤتم به قال الفراء والزجاج انما جعل الطريق اماما لانه يؤم ويتبع قال ابن قتيبة لان المسافر يأتم به حتى يصير الى الموضع الذي يريده وقوله مبين يحتمل انه مبين في نفسه ويحتمل انه مبين لغيره لان الطريق يهدى الى المقصد ☼ قوله تعالى (ولقد كذب اصحاب الحجر المرسلين وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين فأخذتهم الصيحة مصبحين فما اغنى عنهم ما كانوا يكسبون) هذا هو القصة الرابعة وهي قصة صالح قال المفسرون الحجر اسم واد كان يسكنه ثمود وقوله المرسلين المراد منه صالح وحده ولعل القوم كانوا براهمة منكرين لكل الرسل وقوله وآتيناهم آياتنا يريد الناقة وكان في الناقة آيات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظم خلقها وظهور نتاجها عند خروجها وكثرة لبنها واضاف الايتاء اليهم وان كانت الناقة آية لصالح لانها آيات رسولهم وقوله فكانوا عنها معرضين يدل على ان النظر والاستدلال واجب وان التقليد مذموم وقوله وكانوا ينحتون من الجبال قد ذكرنا كيفية ذلك النحت في سورة الاعراف وقوله آمنين يريد من عذاب الله وقال الفراء آمنين ان يقع سقفهم عليهم وقوله فما اغنى عنهم ما كانوا يكسبون اى ما دفع عنهم الضر والبلاء ما كانوا يعملون من نحت تلك الجبال ومن جمع تلك الاموال والله اعلم ☼ قوله تعالى (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق وان الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل ان ربك هو الخلاق العليم) اعلم انه تعالى لما ذكر انه اهلك الكفار فكأنه قيل الاهلاك والتعذيب كيف يليق بالرحيم الكريم فأجاب عنه بأني انما خلقت الخلق ليكونوا مشتغلين (بالعبادة)

الذي هو اسمها محذوف واللام هي الفارقة اى وان الشان كان (اصحاب الايكة) وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام والايكة والايكة الشجرة الملتفة المتكاثفة وكان عامة شجرهم المقل وكانوا ( ٤١٢ ) يسكنونها فبعثه الله تعالى اليهم (لظالمين) متجاوزين عن الحد (فانتقمنا منهم) بالعذاب روى ان الله تعالى سلط عليهم الحر سبعة ايام ثم بعث سحابة فالتجؤا اليها يلتمسون الروح فبعث الله تعالى عليهم منها نارا فأحرقتهم فهو عذاب يوم الظلة (وانهما) يعنى سدوم والايكة وقيل الايكة ومدين فانه عليه الصلاة والسلام كان مبعوثا اليهما فذكر احدهما منبه على الآخر (لبامام مبين) لبطريق واضح والامام اسم مايؤتم به سمى به الطريق ومطمر البناء واللوح الذي يكتب فيه لانها مما يؤتم به (ولقد كذب اصحاب الحجر) يعنى ثمود (المرسلين) اى صالحا فان من كذب واحدا من الانبياء عليهم السلام فقد كذب الجميع لاتفاقهم على التوحيد والاصول التى لاتختلف باختلاف الامم والاعصار وقيل المراد صالح ومن معه من المؤمنين كما قيل الخبيبون لخبيب بن عبدالله ابن الزبير واصحابه والحجر واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه (وآتيناهم آياتنا) وهى الآيات المنزلة على نبيهم او المعجزات من الناقة وسقيها وشربها ودرها او الادلة المنصوبة لهم (فكانوا عنها معرضين) اعراضا كليا بل كانوا معارضين لها حيث فعلوا بالناقة مافعلوا (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الاعداء لوثاقتها او من العذاب لحسبانهم ان ذلك يحميهم منه * عن جابر رضى الله تعالى عنه انه قال مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا انفسهم الا ان تكونوا باكين حذرا ان يصيبكم مثل ماأصاب هؤلاء ثم زجر رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته فأسرع حتى خلفها (فأخذتهم الصيحة مصبحين) وهكذا وقع في سورة هود وقيل صاح بهم جبريل عليه الصلاة والسلام وقيل أتتهم من السماء صيحة فيها صوت

كل صاعقة وصوت كل شئ فى الارض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم وفى سورة الاعراف فاخذتهم الرجفة اى الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء ( ٤١٣ ) تموجا شديدا يفضى اليها كما مر فى سورة هود (فما اغنى عنهم) ولم يدفع عنهم ما نزل بهم (ما كانوا يكسبون) من بناء البيوت الوثيقة والاموال الوافرة والعدد المتكاثرة وفيه تهكم بهم والفاء لترتيب عدم الاغناء الخاص بوقت نزول العذاب حسبما كانوا يرجونه لا عدم الاغناء المطلق فانه امر مستمر (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق) اى الا خلقا ملتبسا بالحق والحكمة والمصلحة بحيث لا يلائم استمرار الفساد واستقرار الشرور ولذلك اقتضت الحكمة اهلاك امثال هؤلاء دفعا لفسادهم وارشادا لمن بقى الى الصلاح او الا بسبب العدل والانصاف يوم الجزاء على الاعمال كما ينبئ عنه قوله تعالى (وان الساعة لآتية) فينتقم الله تعالى لك فيها ممن كذبك (فاصفح) اى اعرض عنهم (الصفح الجميل) اعراضا جميلا وتحمل اذيتهم ولا تعجل بالانتقام منهم وعاملهم معاملة الصفوح الحليم وقيل هى منسوخة بآية السيف (ان ربك) الذى يبلغك الى غاية الكمال (هو الخلاق) لك ولهم ولسائر الموجودات على الاطلاق (العليم) بأحوالك واحوالهم بتفاصيلها فلا يخفى عليه شئ مما جرى بينك وبينهم فهو حقيق بأن تكل جميع الامور اليه ليحكم بينكم او هو الذى خلقكم وعلم تفاصيل احوالكم وقد علم ان الصفح اليوم اصلح الى ان يكون السيف اصلح فهو تعليل للامر بالصفح على التقديرين وفى مصحف عثمان وابى رضى الله تعالى عنهما هو الخالق وهو صالح للقليل والكثير والخلاق مختص بالكثير ( ولقد آتيناك سبعا ) سبع آيات وهى الفاتحة وعليه عمر وعلى وابن مسعود وابو هريرة رضى الله تعالى عنهم والحسن وابو العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة رحمهم الله تعالى وقيل سبع سور وهى الطوال التى سابعتها الانفال والتوبة فانهما فى حكم سورة واحدة ولذلك لم يفصل بينهما بالتسمية وقيل يونس

بالعبادة والطاعة فاذا تركوها واعرضوا عنها وجب فى الحكمة اهلاكهم وتطهير وجه الارض منهم وهذا النظم حسن الا انه انما يستقيم على قول المعتزلة قال الجبائى دلت الآية على انه تعالى ما خلق السموات والارض وما بينهما الا حقا وبكون الحق لا يكون الباطل لان كل ما فعل باطلا واريد بفعله كون الباطل لا يكون حقا ولا يكون مخلوقا بالحق وفيه بطلان مذهب الجبرية الذين يزعمون ان اكثر ما خلقه الله تعالى بين السموات والارض من الكفر والمعاصى باطل واعلم ان اصحابنا قالوا هذه الآية تدل على انه سبحانه هو الخالق لجميع اعمال العباد لانها تدل على أنه سبحانه هو الخالق للسموات والارض ولكل ما بينهما ولا شك ان افعال العباد بينهما فوجب ان يكون خالقها هو الله سبحانه وفى الآية وجه آخر فى النظم وهو ان المقصود من ذكر هذه القصص تصبير الله تعالى محمدا عليه الصلاة والسلام على سفاهة قومه فانه اذا سمع ان الامم السالفة كانوا يعاملون انبياء الله تعالى بمثل هذه المعاملات الفاسدة سهل تحمل تلك السفاهات على محمد صلى الله عليه وسلم ثم انه تعالى لما بين انه انزل العذاب على الامم السالفة فعند هذا قال لمحمد صلى الله عليه وسلم وان الساعة لآتية وان الله لينتقم لك فيها من اعدائك ويجازيك واياهم على حسناتك وسيآتهم فانه ما خلق السموات والارض وما بينهما الا بالحق والعدل والانصاف فكيف يليق بحكمته اهمال امرك ثم انه تعالى لما صبره على اذى قومه رغبه بعد ذلك فى الصفح عن سيآتهم فقال فاصفح الصفح الجميل اى فأعرض عنهم واحتمل ما تلقى منهم اعراضا جميلا بحلم واغضاء وقيل هو منسوخ بآية السيف وهو بعيد لان المقصود من ذلك ان يظهر الخلق الحسن والعفو والصفح فكيف يصير منسوخا ثم قال ان ربك هو الخلاق العليم ومعناه انه خلق الخلق مع اختلاف طبائعهم وتفاوت احوالهم مع علمه بكونهم كذلك واذا كان كذلك فانما خلقهم مع هذا التفاوت ومع العلم بذلك التفاوت اما على قول اهل السنة فلمحض المشيئة والارادة واما على قول المعتزلة فلاجل المصلحة والحكمة والله اعلم * قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم لا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين) اعلم انه تعالى لما صبره على اذى قومه وامره بأن يصفح الصفح الجميل اتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التى خص الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم بها لان الانسان اذا تذكر كثرة نعم الله عليه سهل عليه الصفح والتجاوز وفى الآية مسائل ( المسألة الاولى ) اعلم ان قوله آتيناك سبعا يحتمل ان يكون سبعا من الآيات وان يكون سبعا من السور وان يكون سبعا من الفوائد وليس فى اللفظ ما يدل على التعيين واما المثانى فهو صيغة جمع واحده مثناة والمثناة كل شئ يثنى اى يجعل اثنين من قولك ثنيت الشئ اذا عطفته او ضممت اليه آخر ومنه يقال لركبتى الدابة ومرفقيها مثانى لانها تثنى بالفخذ والعضد ومثانى الوادى معاطفه اذا عرفت هذا فنقول سبعا من المثانى

مفهومه سبعة اشياء من جنس الاشياء التي تثنى ولا شك ان هذا القدر مجمل ولا سبيل الى تعيينه الا بدليل منفصل وللناس فيه أقوال (الاول) وهو قول اكثر المفسرين انه فاتحة الكتاب وهو قول عمر وعلي وابن مسعود وابي هريرة والحسن وابي العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة وروى ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ الفاتحة وقال هي السبع المثاني رواه ابو هريرة والسبب في وقوع هذا الاسم على الفاتحة انها سبع آيات واما السبب في تسميتها بالمثاني فوجوه (الاول) انها تثنى في كل صلاة بمعنى انها تقرأ في كل ركعة (الثاني) قال الزجاج سميت مثاني لانها يثنى بعدها ما يقرأ معها (الثالث) سميت آيات الفاتحة مثاني لانها قسمت قسمين اثنين والدليل عليه ماروى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين والحديث مشهور (الرابع) سميت مثاني لانها قسمان ثناء ودعاء وايضا النصف الاول منها حق الربوبية وهو الثناء والنصف الثاني حق العبودية وهو الدعاء (الخامس) سميت الفاتحة بالمثاني لانها نزلت مرتين مرة بمكة في اوائل مانزل من القرآن ومرة بالمدينة (السادس) سميت بالمثاني لان كلماتها مثناة مثل الرحمن الرحيم اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم وفي قراءة عمر غير المغضوب عليهم وغير الضالين (السابع) قال الزجاج سميت الفاتحة بالمثاني لاشتمالها على الثناء على الله تعالى وهو حمد الله وتوحيده وملكه واعلم انا اذا حملنا قوله سبعا من المثاني على سورة الفاتحة فههنا احكام (الاول) نقل القاضي عن ابي بكر الاصم انه قال كان ابن مسعود لايكتب في مصحفه فاتحة الكتاب رأى انها ليست من القرآن واقول لعل حجته فيه ان السبع المثاني لما ثبت انه هو الفاتحة ثم انه تعالى عطف السبع المثاني على القرآن والمعطوف مغاير للمعطوف عليه وجب ان يكون السبع المثاني غير القرآن الا ان هذا يشكل بقوله تعالى واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وكذلك قوله وملائكته وجبريل وميكال وللخصم ان يجيب بأنه لايبعد ان يذكر الكل ثم يعطف عليه ذكر بعض اجزائه واقسامه لكونه اشرف الاقسام اما اذا ذكر شيء ثم عطف عليه شيء آخر كان المذكور اولا مغايرا للمذكور ثانيا وههنا ذكر السبع المثاني ثم عطف عليه القرآن العظيم فوجب حصول المغايرة والجواب الصحيح ان بعض الشيء مغاير لمجموعه فلم لايكفي هذا القدر من المغايرة في حسن العطف والله اعلم (الحكم الثاني) انه لما كان المراد بقوله سبعا من المثاني هو الفاتحة دل على ان هذه السورة افضل سور القرآن من وجهين (احدهما) ان افرادها بالذكر مع كونها جزأ من اجزاء القرآن لابد وان يكون لاختصاصها بمزيد الشرف والفضيلة (والثاني) انه تعالى لما انزلها مرتين دل ذلك على زيادة فضلها وشرفها واذا ثبت هذا فنقول لما رأينا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم واظب على قراءتها في جميع الصلوات طول عمره وما اقام سورة أخرى مقامها في شيء من الصلوات دل ذلك على

---

اوالحواميم السبع وقيل الصحائف السبع وهي الاسباع (من المثاني) بيان للسبع من التثنية وهي التكرير فان كان المراد الفاتحة وهو الظاهر فتسميتها مثاني لتكرر قراءتها في الصلاة واما تكرر قراءتها ( ٤١٤ ) في غير الصلاة كما قيل فليس بحيث يكون مدارا للتسمية ولانها تثنى بمايقرأ بعدها في الصلاة واما تكرر نزولها فلا يكون وجها للتسمية لانها كانت مسماة بهذا الاسم قبل نزولها الثاني اذا لسورة مكية بالاتفاق وان كان المراد غيرها من السور فوجه كونها من المثاني ان كلا من ذلك تكرر قراءته والفاظه او قصصه ومواعظه اومن الثناء لاشتماله على ماهو ثناء على الله واحدتها مثناة او مثنية صفة للآية واما الصحائف وهي الاسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ولما فيها من الثناء على الله تعالى كأنها تثني عليه سبحانه بأفعاله وصفاته الحسنى ويجوز أن يراد بالمثاني القرآن لماذكر اولانه مثني عليه بالاعجاز او كتب الله تعالى كلها فمن للتبعيض وعلى الاول للبيان (والقرآن العظيم) ان اريد بالسبع الآيات اوالسور فمن عطف الكل على البعض اوالعام على الخاص وان اريد به الاسباع او كل القرآن فهو عطف احد الوصفين على الآخر كما في قوله الى الملك القرم وابن الهمام

وليث الكتائب في المزدحم

اي ولقد آتيناك مايقال له السبع المثاني والقرآن العظيم (لاتمدن عينيك) لاتطمح ببصرك طموح راغب ولاتدم نظرك (الى مامتعنا به) من زخارف الدنيا وزينتها ومحاسنها وزهرتها (ازواجا منهم) اصنافا من الكفرة فان ما في الدنيا من اصناف الاموال والذخائر بالنسبة الى ما اوتيته مستحقر لايعبأ به اصلا وفي حديث ابي بكر رضي الله تعالى عنه من اوتي القرآن فرأى ان احدا اوتي افضل مما اوتي فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وروى انه وافت من بصرى واذرعات سبع قوافل (انه) ليهود بني قريظة والنضير فيها انواع البز والطيب والجواهر وسائر الامتعة فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها

انه يجب على المكلف ان يقرأها فى صلاته وان لا يقيم سائر آيات القرآن مقامها وان يحترز عن هذا الابدال فان فيه خطرا عظيما والله اعلم (القول الثانى) فى تفسير قوله سبعا من المثانى انها السبع الطوال وهذا قول ابن عمر وسعيد بن جبير فى بعض الروايات ومجاهد وهى البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف والانفال والتوبة معا قالوا وسميت هذه السور مثانى لان الفرائض والحدود والامثال والعبر ثنيت فيها وانكر الربيع هذا القول وقال هذه الآية مكية واكثر هذه السور السبعة مدنية وما نزل شئ منها فى مكة فكيف يمكن حمل هذه الآية عليها واجاب قوم عن هذا الاشكال بأن الله تعالى انزل القرآن كله الى السماء الدنيا ثم انزله على نبيه منها نجوما فلما انزله الى السماء الدنيا وحكم بانزاله عليه فهو من جملة ما آتاه وان لم ينزل عليه بعد ولقائل ان يقول انه تعالى قال ولقد آتيناك سبعا من المثانى وهذا الكلام انما يصدق اذا وصل ذلك الشئ الى محمد صلى الله عليه وسلم فاما الذى انزله الى السماء الدنيا وهو لم يصل بعد الى محمد عليه السلام فهذا الكلام لا يصدق فيه واما قوله بأنه لما حكم الله تعالى بانزاله على محمد صلى الله عليه وسلم كان ذلك جاريا مجرى ما نزل عليه فهذا ايضا ضعيف لان اقامة ما لم ينزل عليه مقام النازل عليه مخالف للظاهر ( والقول الثالث ) فى تفسير السبع المثانى انها هى السور التى هى دون الطوال والمئين وفوق المفصل واختار هذا القول قوم واحتجوا عليه بما روى ثوبان ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله اعطانى السبع الطوال مكان التوراة واعطانى المئين مكان الانجيل واعطانى المثانى مكان الزبور وفضلنى ربى بالمفصل قال الواحدى والقول فى تسمية هذه السور مثانى كالقول فى تسمية الطوال مثانى واقول ان صح هذا التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا غبار عليه وان لم يصح فهذا القول مشكل لانا بينا ان المسمى بالسبع المثانى يجب ان يكون افضل من سائر السور واجمعوا على ان هذه السور التى سموها بالمثانى ليست افضل من غيرها فيمتنع حمل السبع المثانى على تلك السور ( والقول الرابع ) ان السبع المثانى هو القرآن كله وهو منقول عن ابن عباس فى بعض الروايات وقول طاوس قالوا ودليل هذا القول قوله تعالى كتابا متشابها مثانى فوصف كل القرآن بكونه مثانى ثم اختلف القائلون بهذا القول فى انه ما المراد بالسبع وما المراد بالمثانى اما السبع فذكروا فيه وجوها ( احدها ) ان القرآن سبعة اسباع ( وثانيها ) ان القرآن مشتمل على سبعة انواع من العلوم التوحيد والنبوة والمعاد والقضاء والقدر واحوال العالم والقصص والتكاليف ( وثالثها ) انه مشتمل على الامر والنهى والخبر والاستخبار والنداء والقسم والامثال واما وصف كل القرآن بالمثانى فلانه كرر فيه دلائل التوحيد والنبوة والتكاليف وهذا القول ضعيف ايضا لانه لو كان المراد بالسبع المثانى القرآن لكان قوله والقرآن العظيم عطفا للشئ على نفسه وذلك غير جائز واجيب عنه بأنه انما حسن ادخال حرف العطف فيه لاختلاف

وانفقناها فى سبيل الله فقيل لهم قد اعطيتم سبع آيات وهى خير من هذه القوافل السبع ( ولا تحزن عليهم ) حيث لم يؤمنوا ولم ينتظموا فى سلك اتباعك ليتقوى بهم ضعفاء المسلمين وقيل اوانهم ( ٤١٥ ) المتمتعون به ويأباه كلمة على فان تمتعهم به لا يكون مدارا للحزن عليهم ( واخفض جناحك للمؤمنين ) اى تواضع لهم وارفق بهم والن جانبك لهم وطب نفسا من ايمان الاغنياء ( وقل انى انا النذير المبين ) اى المنذر المظهر لنزول عذاب الله وحلوله ( كما انزلنا على المقتسمين ) قيل انه متعلق بقوله تعالى ولقد آتيناك الخ اى انزلنا عليك كما انزلنا على اهل الكتاب ( الذين جعلوا القرآن عضين ) اى قسموه الى حق وباطل حيث قالوا عنادا وعدوانا بعضه حق موافق للتوراة والانجيل وبعضه باطل مخالف لهما او اقتسموه لانفسهم استهزاء حيث كان يقول بعضهم سورة البقرة لى وبعضهم سورة آل عمران لى وهكذا او قسموا ما قرؤا من كتبهم وحرفوه فاقروا ببعضه وكذبوا ببعضه وجعل توسط قوله تعالى لا تمدن عينيك على امداد ما هو المراد بالكلام من التسلية وعقب ذلك بأنه جل المقام عن التشبيه ولقد اوتى عليه الصلاة والسلام ما لم يؤت احد قبله ولا بعده مثله وقيل انه متعلق بقوله انى انا النذير المبين فانه فى قوة الامر بالانذار كأنه قيل انذر قريشا مثل ما انزلنا على المقتسمين يعنى اليهود وهو ما جرى على بنى قريظة والنضير بأن جعل المتوقع كالواقع وقد وقع كذلك وانت خبير بأن ما يشبه به العذاب المنذر لا بد ان يكون محقق الوقوع معلوم الحال عند المنذرين اذ به تتحقق فائدة التشبيه وهى تأكيد الانذار وتشديده وعذاب بنى قريظة والنضير مع عدم وقوعه اذ ذاك لم يسبق به وعد ووعيد فهم منه فى غفلة محضة وشك مريب وتنزيل المتوقع منزلة الواقع له موقع جليل من الاعجاز لكن اذا صادف مقاما يقتضيه كما فى قوله تعالى انا فتحنا لك فتحا مبينا ونظائره على ان تخصيص الاقتسام باليهود بمجرد اختصاص العذاب المذكور بهم مع شركتهم للنصارى فى الاقتسام المتفرع على الموافقة

والمخالفة وفي الاقتسام بمعنى التحريف الشامل للكتابين بل تخصيص العذاب المذكور بهم مع كونه من نتائج الاقتسام تخصيص من غير مخصص وقد جعل الموصول مفعولا اول لانذر اى انذر المعضين ( ٤١٦ ) الذين يجزؤن القرآن الى سحر وشعر واساطير مثل ما انزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة ايام الموسم فقعد كل منهم في مدخل لينفروا الناس عن الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعضهم لاتغتروا بالخارج منا فانه ساحر ويقول الآخر شاعر والآخر كذاب فأهلكهم الله تعالى يوم بدر وقبله بآفات وفيه مع ما فيه من الاشتراك لما سبق في عدم كون العذاب الذى شبه به العذاب المنذر واقعا ولا معلوما للمنذرين ولا موعود الوقوع انه لاداعى الى تخصيص وصف التعضية بهم واخراج المقتسمين من بينهم مع كونهم اسوة لهم في ذلك فان وصفهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما وصفوا من السحر والشعر والكذب متفرع على وصفهم للقرآن بذلك وهل هو الانفس التعضية ولا الى اخراجهم من حكم الانذار على ان ما نزل بهم من العذاب لم يكن من الشدة بحيث يشبه به عذاب غيرهم ولا مخصوصا بهم بل عاما لكلا الفريقين وغيرهم مع ان بعض المنذرين كالوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والاسود بن المطلب قد هلكوا قبل مهلك اكثر المقتسمين يوم بدر ولا الى تقديم المفعول الثانى على الاول كما ترى وقيل انه وصف لمفعول النذير اقيم مقامه والمقتسمون هم القاعدون فى مداخل مكة كما حرر وفيه مع ما مران قوله تعالى كما انزلنا صريح فى انه من قول الله تعالى لامن قول الرسول عليه الصلاة والسلام والاعتذار بأن ذلك من باب ما يقوله بعض خواص الملك امرنا بكذا وان كان الآمر هو الملك حسبما سلف فى قوله تعالى قدرنا انها لمن الغابرين تعسف لايخفى وان اعمال الوصف الموصوف مما لايجوزه البصريون فلابد من الهرب الى مسلك الكوفيين او المصير الى جعله مفعولا غير صريح اى انا النذير المبين بعذاب مثل ( فيقوى )

الافظين كقول الشاعر

الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المزدحم

واعلم ان هذا وان كان جائز الاجل وروده فى هذا البيت الا انهم اجمعوا على ان الاصل خلافه ( والقول الخامس ) يجوز ان يكون المراد بالسبع الفاتحة لانها سبع آيات ويكون المراد بالمثانى كل القرآن ويكون التقدير ولقد آتيناك سبع آيات هى الفاتحة وهى من جملة المثانى الذى هو القرآن وهذا القول عين الاول والتفاوت ليس الا بقليل والله اعلم ( المسئلة الثانية ) لفظة من فى قوله سبعا من المثانى قال الزجاج فيها وجهان ( احدهما ) ان تكون للتبعيض من القرآن اى ولقد آتيناك سبع آيات من جملة الآيات التى يثنى بها على الله تعالى وآتيناك القرآن العظيم قال ويجوز ان تكون من صلة والمعنى آتيناك سبعا هى المثانى كما قال فاجتنبوا الرجس من الاوثان المعنى اجتنبوا الاوثان لاان بعضها رجس والله اعلم اما قوله تعالى لاتمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم فاعلم انه تعالى لما عرف رسوله عظم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين وهو انه آتاه سبعا من المثانى والقرآن العظيم نهاه عن الرغبة فى الدنيا فحظر عليه ان يمد عينيه اليها رغبة فيها وفى مد العين اقوال ( الاول ) كأنه قيل له انك أوتيت القرآن العظيم فلاتشغل سرك وخاطرك بالالتفات الى الدنيا ومنه الحديث ليس منا من لم يتغن بالقرآن وقال ابو بكر من أوتى القرآن فرأى ان احدا أوتى من الدنيا افضل مما أوتى فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وقيل وافت من بعض البلاد سبع قوافل ليهود بنى قريظة والنضير فيها انواع البر والطيب والجواهر وسائر الامتعة فقال المسلمون لوكانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها ولانفقناها فى سبيل الله تعالى فقال الله تعالى لهم لقد اعطيتكم سبع آيات هى خير من هذه القوافل السبع (القول الثانى) قال ابن عباس لاتمدن عينيك اى لاتتمن ما فضلنا به احدا من متاع الدنيا وقرر الواحدى هذا المعنى فقال انما يكون ماداعينيه الى الشئ اذا ادام النظر ونحوه وادامة النظر الى الشئ تدل على استحسانه وتمنيه وكان صلى الله عليه وسلم لاينظر الى ما يستحسن من متاع الدنيا وروى انه نظر الى نعم بنى المصطلق وقد عبست فى ابوالها وابعارها فتقنع فى ثوبه وقرأ هذه الآية وقوله عبست فى ابوالها وابعارها هو ان تجف ابوالها وابعارها على افخاذها اذا تركت من العمل ايام الربيع فتكثر شحومها ولحومها وهى احسن ماتكون ( والقول الثالث ) قال بعضهم ولاتمدن عينيك اى لاتحسدن احدا على ما أوتى من الدنيا قال القاضى هذا بعيد لان الحسد من كل احد قبيح لانه ارادة لزوال نعم الغير عنه وذلك يجرى مجرى الاعتراض على الله تعالى والاستقباح لحكمه وقضائه وذلك من كل احد قبيح فكيف يحسن تخصيص الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم به واما قوله تعالى ازواجا منهم قال ابن قتيبة اى اصنافا من الكفار والزوج فى اللغة الصنف ثم قال ولاتحزن عليهم ان لم يؤمنوا

فيقوى بمكانهم الاسلام وينتعش بهـم المؤمنون والحاصل ان قوله ولاتمدن عينيك الى ماتمتعنابه ازواجا منهم نهى له عن الالتفات الى اموالهم وقوله ولاتحزن عليهم نهى له عن الالتفات اليهم وان يحصل لهم فى قلبه قدر ووزن ثم قال واخفض جناحك للمؤمنين الخفض معناه فى اللغة نقيض الرفع ومنه قوله تعالى فى صفة القيامة خافضة رافعـة اى انها تخفض اهل المعاصى وترفع اهل الطاعات فالخفض معناه الوضع وجناح الانسان يده قال الليث يدا الانسان جناحاه ومنه قوله واضمم اليك جناحك من الرهب وخفض الجناح كناية عن اللين والرفق والتواضع والمقصود انه تعـالى لمـا نهاه عن الالتفات الى أولئك الاغنياء من الكفار امره بالتواضع لفقراء المسلمين ونظيره قوله تعالى أذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين وقال فى صفة اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشداء على الكفار رحماء بينهـم ❊ قوله تعـالى ( وقل انى أنا النذير المبين كما انزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين ) اعلم انه تعالى لما امر رسوله بالزهد فى الدنيا وخفض الجناح للمؤمنين امره بأن يقول للقوم انى أنا النذير المبين فيدخل تحت كونه نذيرا كونه مبلغا لجميع التكاليف لان كل ماكان واجبا ترتب على تركه عقاب وكل ماكان حراما ترتب على فعله عقاب فكان الاخبار بحصول هـذا العقاب داخلا تحت لفظ النذير ويدخل تحته ايضا كونه شارحا لمراتب الثواب والعقاب والجنة والنار ثم أردفه بكونه مبينا ومعناه كونه آتيا فى كل ذلك بالبيانات الشافية والبينات الوافيـة ثم قال بعـده كما أنزلنا على المقتسمين وفيه بحثان ( البحث الاول ) اختلفوا فى ان المقتسمين من هـم وفيه أقوال ( الاول ) قال ابن عباس هم الذين اقتسموا طرق مكة يصدون الناس عن الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ويقرب عددهم من اربعين وقال مقـاتل بن سليمـان كانوا ستة عشر رجلا بعثهم الوليد بن المغيرة ايام الموسم فاقتسموا عقبات مكة وطرقها يقولون لمن يسلكها لاتغتروا بالخارج منا والمدعى للنبوة فانه مجنون وكانوا ينفرون الناس عنه بأنه ساحر أو كاهن او شاعر فأنزل الله تعالى بهم خزيا فماتوا اشر ميتة والمعنى أنذرتكم مثل مانزل بالمقتسمين ( والقول الثـانى ) وهو قول ابن عبـاس رضى الله عنهمـا فى بعض الروايات ان المقتسمين هم اليهود والنصارى واختلفوا فى ان الله تعالى لم سماهم مقتسمين فقيل لانهم جعلوا القرآن عضين آمنوا بما وافق التوراة وكفروا بالباقى وقال عكرمة لانهم اقتسموا القرآن استهزاء به فقال بعضهم سورة كذالى وقال بعضهم سورة كذالى وقال مقاتل بن حيان اقتسموا القرآن فقال بعضهم سحر وقال بعضهم شعر وقال بعضهم كذب وقال بعضهم أساطير الاولين ( والقول الثالث ) فى تفسـير المقتسمين قال ابن زيد هم قوم صالح تقـاسموا لنبيتنه واهله فرمتهم الملائكة بالحجارة حتى قتلوهم فعـلى هـذا الاقتسـام من القسم لامن القسمة وهو اختيـار ابن قتيبـة ( البحث الثـانى ) ان قوله كما انزلنا على المقتسمين يقتضى تشبيه شئ بذلك فـاذلك الشئ والجواب عنه من وجهـين

عذاب المقتسمين وقيل المراد بالمقتسمين ( ٤١٧ ) الرهط الذين تقاسموا على ان يبيتوا صالحا عليه الصلاة والسلام فأهلكهم الله تعالى وانت تدرى ان عذابهم حيث كان متحققا ومعلوما للمنذرين حسبما نطق به القرآن العظيم صالح لان يقع مشبها به العذاب المنذر لكن الموصول المذكور عقيبه حيث لم يمكن كونه صفة للمقتسمين حينئذ فسواء جعلته مفعولا اول للنذير اولما دل هو عليه من انذر لايكون للتعرض لعنوان التعضية فى حيز الصلة ولا لعنوان الاقتسام بالمعنى المزبور فى حيز المفعول الثانى فائدة لما ان ذلك انما يكون للاشعار بعلية الصلة والصفة للحكم الثابت للموصول والموصوف فلايكون هناك وجه شبه يدور عليه تشابه عذابهم بعذابهم خاصة لعدم اشتراكهم فى السبب فان المعضين بمعزل من التقاسم على التبييت الذى هو السبب لهلاك اولئك كما ان اولئك بمعزل من التعضية التى هى السبب لهلاك هؤلاء ولا علاقة بين السببين مفهوما ولا وجودا تصحح وقوع احدهما فى جانب والآخر فى جانب واتفاق الفريقين على مطلق الاتفاق على الشر المفهوم من الاتفـاق على الشر المخصوص الذى هو التبييت المدلول عليه بالتقاسم غير مفيد اذ لا دلالة لعنوان التعضية على ذلك وانما يدل عليه اقتسـام المداخل وجعل الموصول مبتدأ على ان خبره الجملة القسمية لايليق بجزالة التنزيل وجلالة شأنه الجليل اذا عرفت هذا فاعلم ان الاقرب من الاقوال المذكورة انه متعلق بالاول وان المراد بالمقتسمين اهل الكتابين وان الموصول مع صلته صفة مبينة لكيفية اقتسامهم ومحل الكاف النصب على المصدرية وحديث

(الاول) التقدير ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم كما انزلنا على اهل الكتاب وهم المقتسمون الذين جعلوا القرآن عضين حيث قالوا بعنادهم وجهلهم بعضه حق موافق للتوراة والانجيل وبعضه باطل مخالف لهما فاقتسموه الى حق وباطل فان قيل فعلى هذا القول كيف توسط بين المشبه والمشبه به قوله ولاتمدن عينيك الى آخره قلنا لما كان ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن تكذيبهم وعداوتهم اعترض بما هو مدار لمعنى التسلية من النهى عن الالتفات الى دنياهم والتأسف على كفرهم (والوجه الثانى) ان يتعلق هذا الكلام بقوله وقل انى انا النذير المبين واعلم ان هذا الوجه لايتم الا بأحد امرين اما التزام اضمار او التزام حذف اما الاضمار فهو ان يكون التقدير انى انا النذير المبين عذابا كما انزلناه على المقتسمين وعلى هذا الوجه المفعول محذوف وهو المشبه ودل عليه المشبه به وهذا كما تقول رأيت كالقمر فى الحسن اى رأيت انسانا كالقمر فى الحسن واما الحذف فهو ان يقال الكاف زائدة محذوفة والتقدير انى انا النذير المبين ما انزلناه على المقتسمين وزيادة الكاف له نظير وهو قوله تعالى ليس كمثله شئ والتقدير ليس مثله شئ وقال بعضهم لاحاجة الى الاضمار والحذف والتقدير انى انا النذير اى انذر قريشا مثل ما انزلنا من العذاب على المقتسمين وقوله الذين جعلوا القرآن عضين فيه بحثان (البحث الاول) فى هذا اللفظ قولان الاول انه صفة للمقتسمين والثانى انه مبتدأ وخبره هو قوله لنسألنهم وهو قول ابن زيد (البحث الثانى) ذكر اهل اللغة فى واحد عضين قولين (الاول) ان واحدها عضة مثل عزة وبرة وثبة واصلها عضوة من عضيت الشئ اذا فرقته وكل قطعة عضة وهى مما نقص منها واو وهى لام الفعل والتعضية التجزئة والتفريق يقال عضيت الجزور والشاة تعضية اذا جعلتها اعضاء وقسمتها وفى الحديث لاتعضية فى ميراث الا فيما احتمل القسمة اى لا تجزئة فيما لايحتمل القسمة كالجوهرة والسيف فقوله جعلوا القرآن عضين يريد جزؤه اجزاء فقالوا سحر وشعر واساطير الاولين ومفترى (والقول الثانى) ان واحدها عضة واصلها عضهة فاستثقلوا الجمع بين هاءين فقالوا عضة كما قالوا شفة والاصل شفهة بدليل قولهم شافهت مشافهة وسنة واصلها سنهة فى بعض الاقوال وهو مأخوذ من العضه بمعنى الكذب ومنه الحديث اياكم والعضه وقال ابن السكيت العضه بأن يعضه الانسان ويقول فيه ماليس فيه وهذا قول الخليل فيما روى الليث عنه فعلى هذا القول معنى قوله تعالى جعلوا القرآن عضين اى جعلوه مفترى وجمعت العضة جمع مايعقل لما لحقها من الحذف فجعل الجمع بالواو والنون عوضا مما لحقها من الحذف ❊ قوله تعالى ( فوربك لنسألنهم اجمعين عما كانوا يعملون فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين انا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله فوربك لنسألنهم اجمعين يحتمل ان يكون راجعا الى المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين لان عود

(الضمير)

---

على اهلهما وعدم التعرض لذكر ما انزل عليهم من الكتابين لان الغرض بيان المماثلة بين الايتاءين لابين متعلقيهما والعدول عن تطبيق ما فى جانب المشبه به على ما فى جانب المشبه بان يقال كما آتينا المقتسمين حسبما وقع فى قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب الخ للتنبيه على مابين الايتاءين من التنائى فان الاول على وجه التكرمة والامتنان وشتان بينه وبين الثانى ولا يقدح ذلك فى وقوعه مشبها به فان ذلك انما هو لسلبيته عندهم وتقدم وجوده على المشبه زمانا لالمزية تعود الى ذاته كما فى الصلاة الخليلية فان التشبيه فيها ليس لكونه رحمة الله تعالى الفائضة على ابراهيم عليه الصلاة والسلام وآله اتم واكمل مما فاض على النبى عليه الصلاة والسلام وانما ذلك للتقدم فى الوجود والتنصيص عليه فى القرآن العظيم فليس فى التشبيه شائبة اشعار بأفضلية المشبه به من المشبه فضلا عن ايهام افضلية ماتعلق به الاول مما تعلق به الثانى وانما ذكروا بعنوان الاقتسام انكارا لاتصافهم به مع تحقق ماينفيه من الانزال المذكور وايذانا بأنه كان من حقهم ان يؤمنوا بكله حسب ايمانهم بما انزل عليهم بحكم الاشتراك فى العلة والاتحاد فى الحقيقة التى هى مطلق الوحى وتوسيط قوله تعالى لاتمدن الخ لكمال اتصاله بما هو المقصود من بيان حال ما أوتى النبى عليه الصلاة والسلام ولقد بين اولا علو شأنه ورفعة مكانه بحيث يستوجب اغتباطه عليه الصلاة والسلام بمكانه واستغناءه به عما سواه ثم نهى عن الالتفات الى زهرة

الضمير الى الاقرب اولى ويكون التقدير انه تعالى اقسم بنفسه ان يسأل هؤلاء المقتسمين عما كانوا يقولونه من اقتسام القرآن وعن سائر المعاصى ويحتمل ان يكون راجعا الى جميع المكلفين لان ذكرهم قد تقدم فى قوله وقل انى انا النذير المبين اى لجميع الخلق وقد تقدم ذكر المؤمنين وذكر الكافرين فيعود قوله فوربك لنسألنهم اجمعين على الكل ولا معنى لقول من يقول ان السؤال انما يكون عن الكفر او عن الايمان بل السؤال واقع عنهما وعن جميع الاعمال لان اللفظ عام فيتناول الكل فان قيل كيف الجمع بين قوله لنسألنهم اجمعين وبين قوله فيومئذ لايسئل عن ذنبه انس ولا جان اجابوا عنه من وجوه (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما لايسئلون سؤال الاستفهام لانه تعالى عالم بكل اعمالهم وانما يسئلون سؤال التقريع يقال لهم لم فعلتم كذا ولقائل ان يقول هذا الجواب ضعيف لانه لو كان المراد من قوله فيومئذ لايسئل عن ذنبه انس ولا جان سؤال الاستفهام لما كان فى تخصيص هذا النفى بقوله يومئذ فائدة لان مثل هذا السؤال على الله تعالى محال فى كل الاوقات (والوجه الثانى) فى الجواب ان يصرف النفى الى بعض الاوقات والاثبات الى وقت آخر لان يوم القيامة يوم طويل ولقائل ان يقول قوله فيومئذ لايسئل عن ذنبه انس ولا جان هذا تصريح بأنه لايحصل السؤال فى ذلك اليوم فلو حصل السؤال فى جزء من اجزاء ذلك اليوم لحصل التناقض (والوجه الثالث) ان نقول قوله فيومئذ لايسئل عن ذنبه انس ولا جان يفيد عموم النفى وقوله فوربك لنسألنهم اجمعين عائد الى المقتسمين وهذا خاص ولاشك ان الخاص مقدم على العام اما قوله فاصدع بما تؤمر فاعلم ان معنى الصدع فى اللغة الشق والفصل وانشد ابن السكيت لجرير

هذا الخليفة فارضوا ماقضى لكم * بالحق يصدع مافى قوله حيف

فقال يصدع يفصل وتصدع القوم اذا تفرقوا ومنه قوله تعالى يومئذ يصدعون قال الفراء يتفرقون والصدع فى الزجاجة الابانة اقول ولعل ألم الرأس انما سمى صداعا لان قحف الرأس عند ذلك الالم كأنه ينشق قال الازهرى وسمى الصبح صديعا كما يسمى فلقا وقد انصدع وانفلق الفجر وانفطر الصبح اذا عرفت هذا فقوله فاصدع بما تؤمر اى فرق بين الحق والباطل وقال الزجاج فاصدع أظهر ماتؤمر به يقال صدع بالحجة اذا تكلم بها جهارا كقولك صرح بها وهذا فى الحقيقة يرجع ايضا الى الشق والتفريق اما قوله بما تؤمر ففيه قولان (الاول) ان يكون ما بمعنى الذى اى بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجار كقوله * امرتك الخير فافعل ماامرت به (الثانى) ان تكون ما مصدرية اى فاصدع بأمرك وشأنك قالوا ومازال النبى صلى الله عليه وسلم مستخفيا حتى نزلت هذه الآية ثم قال تعالى واعرض عن المشركين اى لاتبال بهم ولا تلتفت الى لومهم اياك على اظهار الدعوة قال بعضهم هذا منسوخ بآية القتال وهو ضعيف لان معنى هذا الاعراض ترك المبالاة بهم فلا يكون منسوخا ثم قال انا كفيناك المستهزئين قيل كانوا خمسة نفر من المشركين

الدنيا وعبر عن ايثارها لاهلها بالتمتيع المنبئ عن وشك زوالها عنهم ثم عن الحزن بعدم ايمان المنهمكين فيها وأمر بمراعاة المؤمنين والاكتفاء بهم عن غيرهم وباظهار قيامه بمواجب الرسالة ومراسم النذارة حسبما فصل فى تضاعيف مااوتى من القرآن العظيم ثم رجع الى كيفية ايثائه على وجه ادمج فيه ما يزيح شبه المنكرين ويستنزلهم عن العناد من بيان مشاركته لما لاريب لهم فى كونه وحيا صادقا فتأمل والله عنده علم الكتاب هذا وقد قيل المعنى قل انى انا النذير المبين كما قد انزلنا فى الكتب انك ستأتى نذيرا على ان المقتسمين اهل الكتاب انتهى يريد ان ما فى كما موصولة والمراد بالمشابهة المستفادة من الكاف الموافقة وهى مع ما فى حيزها فى محل النصب على الحالية من مفعول قل اى قل هذا القول حال كونه كما انزلنا على اهل الكتابين اى موافقا لذلك فالانسب حينئذ حمل الاقتسام على التحريف ليكون وصفهم بذلك تعريضا بما فعلوا من تحريفهم وكتمانهم لنعت النبى صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى عضين جمع عضة وهى الفرقة اصلها عضوة فعلة من عضى الشاة تعضية اذا جعلها اعضاء وانما جمعت جمع السلامة جبرا للمحذوف كسنين وعزين والتعبير عن تجزئة القرآن بالتعضية التى هى تفريق الاعضاء من ذى الروح المستلزم لازالة حياته وابطال اسمه دون مطلق التجزئة والتفريق اللذين ربما يوجدان فيما لايضره التبعيض من المثليات للتنصيص على كمال قبح ما فعلوه بالقرآن العظيم وقيل هى فعلة من عضهته اذا بهته وعن عكرمة العضه السحر بلسان قريش فنقصانها على الاول واو وعلى الثانى هاء (فوربك لنسألنهم اجمعين) اى لنسألن

فيه ما ذكر من الاقتسام والنعضية دخولا اوليا ولنجزينهم بذلك جزاء موفورا وفيه من التشديد وتأكيد الوعيد مالا يخفى والفاء لترتيب الوعيد على اعمالهم التى ذكر بعضها وفى التعرض لوصف الربوبية مضافا اليه عليه الصلاة والسلام اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام ( فاصدع بما تؤمر ) فاجهر به من صدع بالحجة اذا تكلم بها جهارا او افرق بين الحق والباطل واصله الابانة والتميز وما مصدرية او موصولة والعائد محذوف اى ماتؤمر به من الشرائع المودعة فى تضاعيف ما اوتيته من المثانى السبع والقرآن العظيم ( واعرض عن المشركين ) اى لاتلتفت الى مايقولون ولا تبال بهم ولاتتصد للانتقام منهم ( انا كفيناك المستهزئين ) بقمعهم وتدميرهم قيل كانوا خمسة من اشراف قريش الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والحرث بن قيس بن الطلاطلة والاسود بن عبد يغوث والاسود بن المطلب يبالغون فى ايذاء النبى صلى الله عليه وسلم والاستهزاء به فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال قد امرت ان اكفيهم فأومأ الى ساق الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظما لاخذه فأصاب عرقا فى عقبه فقطعه فمات واومأ الى انجص العاص فدخلت فيه شوكة فقال لدغت لدغت وانتفخت رجله حتى صارت كالرحا فمات واشار الى عينى الاسود بن المطلب فعمى والى انف الحرث فامتخط قيحا فمات والى الاسود بن عبد يغوث وهو قاعد فى اصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات ( الذين

الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وعدى بن قيس والاسود بن المطلب والاسود بن عبد يغوث قال جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم امرت ان اكفيكهم فأومأ الى عقب الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظما لاخذه فأصاب عرقا فى عقبه فقطعه فمات وأومأ الى اخمص العاص بن وائل فدخلت فيها شوكة فقال لدغت لدغت وانتفخت رجله حتى صارت كالرحا ومات واشار الى عينى الاسود بن المطلب فعمى واشار الى انف عدى بن قيس فامتخط قيحا فمات واشار الى الاسود بن عبد يغوث وهو قاعد فى اصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات واعلم ان المفسرين قد اختلفوا فى عدد هؤلاء المستهزئين وفى اسمائهم وفى كيفية طريق استهزائهم ولا حاجة الى شئ منها والقدر المعلوم انهم طبقة لهم قوة وشوكة ورياسة لان امثالهم هم الذين يقدرون على اظهار مثل هذه السفاهة مع مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى علو قدره وعظم منصبه ودل القرآن على ان الله تعالى افناهم وابادهم وازال كيدهم والله اعلم

❊ قوله تعالى (ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) اعلم انه تعالى لما ذكر ان قومه يسفهون عليه ولاسيما اولئك المقتسمون واولئك المستهزؤن قال له ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون لان الجبلة البشرية والمزاج الانسانى يقتضى ذلك فعندهذا قال له فسبح بحمد ربك فأمره بأربعة اشياء بالتسبيح والتحميد والسجود والعبادة واختلف الناس فى انه كيف صار الاقبال على هذه الطاعات سببا لزوال ضيق القلب والحزن فقال العارفون المحققون اذا اشتغل الانسان بهذه الانواع من العبادات انكشفت له اضواء عالم الربوبية ومتى حصل ذلك الانكشاف صارت الدنيا بالكلية حقيرة واذا صارت حقيرة خف على القلب فقدانها ووجدانها فلايستوحش من فقدانها ولايستريح بوجدانها وعند ذلك يزول الحزن والغم وقالت المعتزلة من اعتقد تنزيه الله تعالى عن القبائح سهل عليه تحمل المشاق فانه يعلم انه عدل منزه عن انزال المشاق به من غير غرض ولا فائدة فحينئذ يطيب قلبه وقال اهل السنة اذا نزل بالعبد بعض المكاره فزع الى الطاعات كأنه يقول تجب على عبادتك سواء اعطيتنى الخيرات او القيتنى فى المكروهات وقوله واعبد ربك حتى يأتيك اليقين قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد الموت وسمى الموت باليقين لانه امر متيقن فان قيل فأى فائدة لهذا التوقيت مع ان كل احد يعلم انه اذا مات سقطت عنه العبادات قلنا المراد منه واعبد ربك فى زمان حياتك ولاتخل لحظة من لحظات الحياة عن هذه العبادة والله اعلم تم تفسير هذه السورة والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد وآله وسلم

( سورة النحل مكية غير ثلاث آيات فى آخرها وحكى الاصم عن بعضهم ان كلها مدنية )
( وقال آخرون من اولها الى قوله كن فيكون مدنى وماسواه فمكى وعن قتادة بالعكس )

( واعلم ان هذه السورة تسمى سورة النعم وهى مائة وعشرون وثمان آيات مكية )

* ( بسم الله الرحمن الرحيم ) *

( أتى امر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون ينزل الملائكة بالروح من امره على من يشاء من عباده ان انذروا انه لا اله الا أنا فاتقون ) فيه مسائل ( المسئلة الاولى ) اعلم ان معرفة تفسير هذه الآية مرتبة على سؤالات ثلاثة ( فالسؤال الاول ) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بعذاب الدنيا تارة وهو القتل والاستيلاء عليهم كما حصل في يوم بدر وتارة بعذاب يوم القيامة وهو الذى يحصل عند قيام الساعة ثم ان القوم لما لم يشاهدوا شيئا من ذلك احتجوا بذلك على تكذيبه وطلبوا منه الاتيان بذلك العذاب وقالوا له ائتنا به وروى انه لما نزل قوله تعالى اقتربت الساعة وانشق القمر قال الكفار فيما بينهم ان هذا يزعم ان القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن فلما تأخرت قالوا ما نرى شيئا مما تخوفنا به فنزل قوله اقترب للناس حسابهم فأشفقوا وانتظروا يومها فلما امتدت الايام قالوا يا محمد ما نرى شيئا مما تخوفنا به فنزل قوله أتى امر الله فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤسهم فنزل قوله فلا تستعجلوه والحاصل انه عليه السلام لما اكثر من تهديدهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ولم يروا شيئا نسبوه الى الكذب فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله أتى امر الله فلا تستعجلوه وفى تقرير هذا الجواب وجهان ( الاول ) انه وان لم يأت ذلك العذاب الا انه كان واجب الوقوع والشئ اذا كان بهذه الحالة والصفة فانه يقال فى الكلام المعتاد انه قد أتى ووقع اجراء لما يجب وقوعه بعد ذلك مجرى الواقع يقال لمن طلب الاغاثة وقرب حصولها قد جاءك الغوث فلا تجزع ( والوجه الثانى ) وهو ان يقال ان امر الله بذلك وحكمه به قد أتى وحصل ووقع فأما المحكوم به فانما لم يقع لانه تعالى حكم بوقوعه فى وقت معين فقبل مجئ ذلك الوقت لا يخرج الى الوجود والحاصل كأنه قيل امر الله وحكمه بنزول العذاب قد حصل ووجد من الازل الى الابد فصح قولنا أتى امر الله الا ان المحكوم به والمأمور به انما لم يحصل لانه تعالى خصص حصوله بوقت معين فلا تستعجلوه ولا تطلبوا حصوله قبل حضور ذلك الوقت ( السؤال الثانى ) قالت الكفار هب انا سلمنا لك يا محمد صحة ما تقول من انه تعالى حكم بانزال العذاب علينا اما فى الدنيا واما فى الآخرة الا انا نعبد هذه الاصنام فانها شفعاؤنا عند الله فهى تشفع لنا عنده فنتخلص من هذا العذاب المحكوم به بسبب شفاعة هذه الاصنام فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله سبحانه وتعالى عما يشركون فنزه نفسه عن شركة الشركاء والاضداد والانداد وان يكون لاحد من الارواح والاجسام ان يشفع عنده الا باذنه وما فى قوله عما يشركون يجوز ان تكون مصدرية والتقدير سبحانه وتعالى عن اشراكهم ويجوز ان تكون بمعنى الذى اى سبحانه وتعالى عن هذه الاصنام التى جعلوها شركاء الله لانها جمادات خسيسة فأى مناسبة بينها وبين

الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام بل اجترؤا على العظيمة التى هى الاشراك بالله سبحانه ( فسوف يعلمون ) عاقبة ما يأتون ويذرون ( ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون ) من كلمات الشرك والطعن فى القرآن والاستهزاء به وبك وتحلية الجملة بالتأكيد لافادة تحقيق ما تتضمنه من التسلية وصيغة الاستقبال لافادة استمرار العلم حسب استمرار متعلقه باستمرار ما يوجبه من اقوال الكفرة ( فسبح بحمد ربك ) فافزع الى الله تعالى فيما نابك من ضيق الصدر والحرج بالتسبيح والتقديس ملتبسا بحمده وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى من اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والاشعار بعلة الحكم اعنى الامر بالتسبيح والحمد ( وكن من الساجدين ) اى المصلين يكفك ويكشف الغم عنك اوفنزهه عما يقولون ملتبسا بحمده على ان هداك للحق المبين وعنه عليه الصلاة والسلام انه كان اذا حزبه امر فزع الى الصلاة ( واعبد ربك ) دم على ما أنت عليه من عبادته تعالى وايثار الاظهار بالعنوان السالف آنفا لتأكيد ما سبق من اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والاشعار بعلة الامر بالعبادة ( حتى يأتيك اليقين ) اى الموت فانه متيقن اللحوق بكل حى مخلوق واسناد الاتيان اليه للايذان بأنه متوجه الى الحى طالب للوصول اليه والمعنى دم على العبادة مادمت حيا من غير اخلال بها لحظة * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحجر كان له من الاجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والانصار والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم

ادون الموجودات فضلا عن ان يحكم بكونها شركاء لمدبر الارض والسموات (السؤال الثالث) هب انه تعالى قضى على بعض عبيده بالسراء وعلى آخرين بالضراء ولكن كيف يمكنك ان تعرف هذه الاسرار التى لايعلمها الا الله وكيف صرت بحيث تعرف اسرار الله واحكامه فى ملكه وملكوته فأجاب الله تعالى عنه بقوله ينزل الملائكة بالروح من امره على من يشاء من عباده ان انذروا انه لااله الا أنا فاتقون وتقرير هذا الجواب انه تعالى ينزل الملائكة على من يشاء من عبيده ويأمر ذلك العبد بأن يبلغ الى سائر الخلق ان اله العالم واحد كلفهم بمعرفة التوحيد والعبادة وبين انهم ان فعلوا ذلك فازوا بخيرى الدنيا والآخرة وان تمردوا وقعوا فى شرى الدنيا والآخرة فبهذا الطريق صار مخصوصا بهذه المعارف من دون سائر الخلق وظهر بهذا الترتيب الذى لخصناه ان هذه الآيات منتظمة على احسن الوجوه والله اعلم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائى ينزل بالياء وكسر الزاى وتشديدها والملائكة بالنصب وقرأ ابن كثير وابو عمرو ينزل بضم الياء وكسر الزاى وتخفيفها والاول من التفعيل والثانى من الافعال وهما لغتان (المسئلة الثانية) روى عن عطاء عن ابن عباس قال يريد بالملائكة جبريل وحده قال الواحدى وتسمية الواحد باسم الجمع اذا كان ذلك الواحد رئيسا مقدما جائز كقوله تعالى انا ارسلنا نوحا الى قومه وانا انزلناه وانا نحن نزلنا الذكر وفى حق الناس كقوله الذين قال لهم الناس وفيه قول آخر سيأتى شرحه بعد ذلك وقوله بالروح من امره فيه قولان (الاول) ان المراد من الروح الوحى وهو كلام الله ونظيره قوله تعالى وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا وقوله يلقى الروح من امره على من يشاء من عباده قال اهل التحقيق الجسد موات كثيف مظلم فاذا اتصل به الروح صار حيا لطيفا نورانيا فظهرت آثار النور فى الحواس الخمس ثم الروح ايضا ظلمانية جاهلة فاذا اتصل العقل بها صارت مشرقة نورانية كما قال الله تعالى والله اخرجكم من بطون امهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة ثم العقل ايضا ليس بكامل النورانية والصفاء والاشراق حتى يستكمل بمعرفة ذات الله تعالى وصفاته وافعاله ومعرفة احوال عالم الارواح والاجساد وعالم الدنيا والآخرة ثم ان هذه المعارف الشريفة الالهية لاتكمل ولاتصفو الا بنور الوحى والقرآن اذا عرفت هذا فنقول القرآن والوحى به تكمل المعارف الالهية والمكاشفات الربانية وهذه المعارف بها يشرق العقل ويصفو ويكمل والعقل به يكمل جوهر الروح والروح به يكمل حال الجسد وعند هذا يظهر ان الروح الاصلى الحقيقى هو الوحى والقرآن لان به يحصل الخلاص من رقدة الجهالة ونوم الغفلة وبه يحصل الانتقال من حضيض البهيمية الى اوج الملكية فظهر ان اطلاق لفظ الروح على الوحى فى غاية المناسبة والمشاكلة ومما يقوى ذلك انه تعالى اطلق لفظ الروح على جبريل عليه السلام فى قوله نزل به الروح الامين على قلبك وعلى عيسى عليه السلام

( اتى امر الله ) اى الساعة او ما يعمها وغيرها من العذاب الموعود للكفرة عبر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل وللايذان بأن تحققه فى نفسه واتيانه منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب واتيانه عبارة عن دنوه واقترابه على طريقة نظم المتوقع فى سلك الواقع اوعلى اتيان مباديه القريبة على نهج اسناد حال الاسباب الى المسببات وايا ما كان ففيه تنبيه على كمال قربه من الوقوع واتصاله وتكميل لحسن موقع التفريع فى قوله عز وجل (فلا تستعجلوه) فان النهى عن استعجال الشئ وان صح تفريعه على قرب وقوعه او على وقوع اسبابه القريبة لكنه ليس بمثابة تفريعه على وقوعه اذ بالوقوع يستحيل الاستعجال وأسالا بما ذكر من قرب وقوعه ووقوع مباديه والخطاب للكفرة خاصة كما تدل عليه القراءة على صيغة نهى الغائب واستعجالهم وان كان بطريق الاستهزاء لكنه حمل على الحقيقة ونهوا عنه بضرب من التهكم لامع المؤمنين سواء اريد بأمر الله ماذكر او العذاب الموعود للكفرة خاصة اما الاول فلأنه لايتصور من المؤمنين استعجال الساعة اوما يعمها وغيرها من العذاب حتى يعمهم النهى عنه واما الثانى فلأن استعجالهم له بطريق الحقيقة واستعجال الكفرة بطريق الاستهزاء كما عرفته فلا ينتظمهما صيغة واحدة والالتجاء الى ارادة معنى مجازى يعمهما معا من غير ان يكون هناك رعاية نكتة سرية تعسف لايليق بشأن التنزيل الجليل وماروى من انه لما نزلت اقتربت

فى قوله روح الله وانما حسن هذا الاطلاق لانه حصل بسبب وجودهما حياة القلب وهى الهداية والمعارف فلما حسن اطلاق اسم الروح عليهما لهذا المعنى فلان يحسن اطلاق لفظ الروح على الوحى والتنزيل كان ذلك اولى ( والقول الثانى ) فى هذه الآية وهو قول ابى عبيدة ان الروح ههنا جبريل عليه السلام والباء فى قوله بالروح بمعنى مع كقولهم خرج فلان بثيابه اى مع ثيابه وركب الامير بسلاحه اى مع سلاحه فيكون المعنى ينزل الملائكة مع الروح وهو جبريل والاول اقرب وتقرير هذا الوجه انه سبحانه وتعالى ما انزل على محمد صلى الله عليه وسلم جبريل وحده بل فى اكثر الاحوال كان ينزل مع جبريل افواجا من الملائكة ألا ترى ان فى يوم بدر وفى كثير من الغزوات كان ينزل مع جبريل عليه السلام اقوام من الملائكة وكان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم تارة ملك الجبال وتارة ملك البحار وتارة رضوان وتارة غيرهم وقوله من امره يعنى ان ذلك التنزيل والنزول لايكون الا بأمر الله تعالى ونظيره قوله تعالى وماتتنزل الا بأمر ربك وقوله لايسبقونه بالقول وهم بامره يعملون وقوله وهم من خشيته مشفقون وقوله يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون وقوله لايعصون الله ما امرهم ويفعلون مايؤمرون فكل هذه الآيات دالة على انهم لايقدمون على عمل من الاعمال الا بأمر الله تعالى واذنه وقوله على من يشاء من عباده يريد الانبياء الذين خصهم الله تعالى برسالته وقوله ان انذروا قال الزجاج ان بدل من الروح والمعنى ينزل الملائكة بأن انذروا اى اعلموا الخلائق انه لااله الا انا والانذار هو الاعلام مع التخويف ( المسئلة الثالثة ) فى الآية فوائد الفائدة الاولى ان وصول الوحى من الله تعالى الى الانبياء لايكون الا بواسطة الملائكة ومما يقوى ذلك انه تعالى قال فى آخر سورة البقرة والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله فبدأ بذكر الله سبحانه ثم اتبعه بذكر الملائكة لانهم هم الذين يتلقون الوحى من الله ابتداء من غير واسطة وذلك الوحى هو الكتب ثم ان الملائكة يوصلون ذلك الوحى الى الانبياء فلاجرم كان الترتيب الصحيح هو الابتداء بذكر الله تعالى ثم بذكر الملائكة ثم بذكر الكتب وفى الدرجة الرابعة بذكر الرسل اذا عرفت هذا فنقول اذا اوحى الله تعالى الى الملك فعلم ذلك الملك بأن ذلك الوحى وحى الله علم ضرورى او استدلالى وبتقدير ان يكون استدلاليا فكيف الطريق اليه وايضا الملك اذا بلغ ذلك الوحى الى الرسول فعلم الرسول بكونه ملكا صادقا لاشيطانا رجيما ضرورى او استدلالى فان كان استدلاليا فكيف الطريق اليه فهذه مقامات ضيقة وتمام العلم بها لايحصل الا بالبحث عن حقيقة الملك وكيفية وحى الله اليه وكيفية تبليغ الملك ذلك الوحى الى الرسول فاما اذا اجريناهذه الامور على الكلمات المألوفة صعب المرام وزال النظام وذلك لان آيات القرآن ناطقة بأن هذا الوحى والتنزيل انما حصل من الملائكة او نقول هب ان آيات القرآن لم تدل على ذلك الا ان احتمال كون الامر كذلك قائم فى بديهة العقل

الساعة قال الكفار فيما بينهم ان هذا يزعم ان القيامة  قد قربت فأمسكوا عن بعض ماتعملون حتى ننظر ماهو كائن فلما تأخرت قالوا مانرى شيئا فنزلت اقترب للناس حسابهم فأشفقوا وانتظروا قربها فلما امتدت الايام قالوا يامحمد مانرى شيئا مما تخوفنا به فنزلت أتى امر الله فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع الناس رؤسهم فلما نزل فلاتستعجلوه اطمأنوا فليس فيه دلالة على عموم الخطاب كما قيل لا لما توهم من ان التصدير بالفاء يأباه فانه بمعزل عن اباته حسبما تحققته بل لان مناط اطمئنانهم انما هو وقوفهم على ان المراد بالاتيان هو الاتيان الادعائى لاالحقيقى الموجب لاستحالة الاستعجال المستلزمة لامتناع النهى عنه لما ان النهى عن الشئ يقتضى امكانه فى الجملة ومدار ذلك الوقوف انما هو النهى عن الاستعجال المستلزم لامكانه المقتضى لعدم وقوع المستعجل بعد ولايختلف ذلك باختلاف المستعجل كائنا من كان بل فيه دلالة واضحة على عدم العموم لان المراد بامر الله انما هو الساعة وقد عرفت استحالة صدور استعجالها عن المؤمنين نعم يجوز تخصيص الخطاب بهم على تقدير كون امر الله عبارة عن العذاب الموعود للكفرة خاصة لكن الذى يقتضيه الاعجاز التنزيلى انه خاص بالكفرة كما ستقف عليه ولما كان استعجالهم ذلك من نتائج اشراكهم المستتبع لنسبة الله عزوجل الى مالايليق به من العجز والاحتياج الى الغير واعتقاد ان احدا يحجزه عن انجاز وعده وامضاء وعيده وقد قالوا فى تضاعيفه ان صح مجئ العذاب فالاصنام تخلصنا عنه

، اذا عرفت هذا فنقول لا نعلم كون جبريل عليه السلام صادقا معصوما عن الكذب والتلبيس الا بالدلائل السمعية وصحة الدلائل السمعية موقوفة على ان محمدا صلى الله عليه وسلم صادق وصدقه يتوقف على ان هذا القرآن معجز من قبل الله تعالى لا من قبل شيطان خبيث والعلم بذلك يتوقف على العلم بأن جبريل صادق محق مبرأ عن التلبيس وعن افعال الشيطان وحينئذ يلزم الدور فهذا مقام صعب اما اذا عرفنا حقيقة النبوة وعرفنا حقيقة الوحى زالت هذه الشبهة بالكلية والله اعلم ( المسئلة الرابعة ) هذه الآية تدل على ان الروح المشار اليها بقوله ينزل الملائكة بالروح من امره ليس الا المجرد قوله لا اله الا انا فاتقون وهذا كلام حق لان مراتب السعادات البشرية اربعة اولها النفسانية وثانيها البدنية وفى المرتبة الثالثة الصفات البدنية التى لا تكون من اللوازم وفى المرتبة الرابعة الامور المنفصلة عن البدن ( اما المرتبة الاولى ) وهى الكمالات النفسانية فاعلم ان النفس لها قوتان احداهما استعدادها لقبول صور الموجودات من عالم الغيب وهذه القوة هى القوة المسماة بالقوة النظرية وسعادة هذه القوة فى حصول المعارف واشرف المعارف واجلها معرفة انه لا اله الا هو واليه الاشارة بقوله ان انذروا انه لا اله الا انا والقوة الثانية للنفس استعدادها للتصرف فى اجسام هذا العالم وهذه القوة هى القوة المسماة بالقوة العملية وسعادة هذه القوة فى الاتيان بالاعمال الصالحة واشرف الاعمال الصالحة هو عبودية الله تعالى واليه الاشارة بقوله فاتقون ولما كانت القوة النظرية اشرف من القوة العملية لاجرم قدم الله تعالى كمالات القوة النظرية وهى قوله لا اله الا انا على كمالات القوة العملية وهى قوله فاتقون ( واما المرتبة الثانية ) وهى السعادات البدنية فهى ايضا قسمان الصحة الجسدانية وكمالات القوى الحيوانية اعنى القوى السبع عشرة البدنية ( واما المرتبة الثالثة ) وهى السعادات المتعلقة بالصفات العرضية البدنية فهى ايضا قسمان سعادة الاصول والفروع اعنى كمال حال الآباء وكمال حال الاولاد ( واما المرتبة الرابعة ) وهى اخس المراتب فهى السعادات الحاصلة بسبب الامور المنفصلة وهى المال والجاه فثبت ان اشرف مراتب السعادات هى الاحوال النفسانية وهى محصورة فى كمالات القوة النظرية والعملية فلهذا السبب ذكر الله ههنا اعلى حال هاتين القوتين فقال ان انذروا انه لا اله الا انا فاتقون ❊ قوله تعالى (خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون) اعلم انه تعالى لما بين فيما سبق ان معرفة الحق لذاته وهى المراد من قوله انه لا اله الا انا ومعرفة الخير لاجل العمل به وهى المراد من قوله فاتقون روح الارواح ومطلع السعادات ومنبع الخيرات والكرامات اتبعه بذكر الدلائل على وجود الصانع الاله تعالى وكمال قدرته وحكمته واعلم انا بينا ان دلائل الالهيات اما التمسك بطريقة الامكان فى الذوات او فى الصفات او التمسك بطريقة الحدوث فى الذوات او فى الصفات او بمجموع الامكان والحدوث



بشفاعتها رد ذلك فقيل بطريق الاستئناف ( سبحانه وتعالى عما يشركون ) اى تنزه وتقدس بذاته وجل عن اشراكهم المؤدى الى صدور امثال هذه الاباطيل عنهم اوعن ان يكون له شريك فيدفع ما اراد بهم بوجه من الوجوه وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد اشراكهم واستمراره والالتفات الى الغيبة للايذان باقتضاء ذكر قبائحهم للاعراض عنهم وطرحهم عن رتبة الخطاب وحكاية شنائعهم لغيرهم وعلى تقدير تخصيص الخطاب بالمؤمنين تفوت هذه النكتة كما يفوت ارتباط المنهى عنه بالمتنزه عنه وقرئ على صيغة الخطاب ( ينزل الملائكة ) بيان لتحتم التوحيد حسبما نبه عليه تنبيها اجماليا ببيان تقدس جناب الكبرياء وتعاليه عن ان يحوم حوله شائبة ان يشاركه شئ فى شئ وايذان بان دين اجمع عليه جمهور الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأمروا بدعوة الناس اليه مع الاشارة الى سر البعثة والتشريع وكيفية القاء الوحى والتنبيه على طريق علم الرسول عليه الصلاة والسلام باتيان ما اوعدهم به وباقترابه ازاحة لاستبعادهم اختصاصه عليه الصلاة والسلام بذلك واظهارا لبطلان رأيهم فى الاستعجال والتكذيب وايثار صيغة الاستقبال للاشعار بأن ذلك عادة مستمرة له سبحانه والمراد بالملائكة اما جبريل عليه السلام قال الواحدى يسمى الواحد بالجمع اذا كان رئيسا او هو ومن معه من حفظة الوحى بامر الله تعالى وقرئ ينزل من الانزال وتنزل بحذف احدى التاءين وعلى صيغة المبنى للمفعول من التنزيل ( بالروح ) اى بالوحى الذى من جملته

في الذوات او الصفات فهذه طرق ستة والطريق المذكور في كتب الله تعالى المنزلة هو
التمسك بطريقة حدوث الصفات وتغيرات الاحوال ثم هذا الطريق يقع على وجهين
(احدهما) ان يتمسك بالاظهر فالاظهر مترقيا الى الاخفى فالاخفى وهذا الطريق هو
المذكور في اول سورة البقرة فانه تعالى قال اعبدوا ربكم الذى خلقكم فجعل تعالى تغير
احوال نفس كل واحد دليلا على احتياجه الى الخالق ثم ذكر عقيبه الاستدلال بأحوال
الآباء والامهات واليه الاشارة بقوله والذين من قبلكم ثم ذكر عقيبه الاستدلال
بأحوال الارض وهى قوله الذى جعل لكم الارض فراشا لان الارض اقرب الينا من
السماء ثم ذكر في المرتبة الرابعة قوله والسماء بناء ثم ذكر في المرتبة الخامسة الاحوال
المتولدة من تركيب السماء بالارض فقال وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات
رزقا لكم (الثانى من الدلائل القرآنية) ان يحتج الله تعالى بالاشرف فالاشرف نازلا الى
الادون فالادون وهذا الطريق هو المذكور في هذه السورة وذلك لانه تعالى ابتدأ
في الاحتجاج على وجود الاله المختار بذكر الاجرام العالية الفلكية ثم ثنى بذكر الاستدلال
بأحوال الانسان ثم ثلث بذكر الاستدلال بأحوال الحيوان ثم ربع بذكر الاستدلال
بأحوال النبات ثم خمس بذكر الاستدلال بأحوال العناصر الاربعة وهذا الترتيب في غاية
الحسن اذا عرفت هذه المقدمة فنقول (النوع الاول) من الدلائل المذكورة على وجود
الاله الحكيم الاستدلال بأحوال السموات والارض فقال خلق السموات والارض
بالحق تعالى عما يشركون وقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى الحمد لله الذى خلق السموات
والارض ان لفظ الخلق من كم وجه يدل على الاحتياج الى الخالق الحكيم ولا بأس بأن
نعيد تلك الوجوه ههنا فنقول الخلق عبارة عن التقدير بمقدار مخصوص وهذا المعنى
حاصل في السموات من وجوه (الاول) ان كل جسم متناه فجسم السماء متناه وكل
ما كان متناهيا في الحجم والقدر كان اختصاصه بذلك القدر المعين دون الازيد والانقص
امرا جائزا وكل جائز فلا بد له من مقدر ومخصص وكل ما كان مفتقرا الى الغير فهو محدث
(الثانى) وهو ان الحركة الازلية ممتنعة لان الحركة تقتضى المسبوقية بالغير والازل ينافيه
فالجمع بين الحركة والازل محال اذا ثبت هذا فنقول اما ان يقال ان الاجرام والاجسام
كانت معدومة في الازل ثم حدثت او يقال انها وان كانت موجودة في الازل الا انها
كانت ساكنة ثم تحركت وعلى التقديرين فلحركتها اول لحدوث الحركة من ذلك المبدأ
دون ما قبله او ما بعده خلق وتقدير فوجب افتقاره الى مقدر وخالق ومخصص له (الثالث)
ان جسم الفلك مركب من اجزاء بعضها حصلت في عمق جرم الفلك وبعضها في سطحه
والذى حصل في العمق كان يعقل حصوله في السطح وبالعكس واذا ثبت هذا كان
اختصاص كل جزء بموضعه المعين امرا جائزا فيفتقر الى المخصص والمقدر وبقية الوجوه
مذكورة في اول سورة الانعام واعلم انه سبحانه لما احتج بالخلق والتقدير على حدوث

القرآن على نهج الاستعارة فانه
يحيي القلوب الميتة بالجهل او يقوم
في الدين مقام الروح في الجسد
والباء متعلقة بالفعل او بما هو حال
من مفعوله اى ملتبسين بالروح
(من أمره) بيان للروح الذى
اريد به الوحى فانه امر بالخير او
حال منه اى حال كونه ناشئا
ومبتدأ منه او صفة له على رأى
من جوز حذف الموصول مع
بعض صلته اى بالروح الكائن
من امره الناشئ منه او متعلق
بينزل ومن للسببية كالباء مثل
ما في قوله تعالى مما خطيئاتهم
اى ينزلهم بأمره (على من يشاء
من عباده) ان ينزلهم به عليهم
لاختصاصهم بصفات تؤهلهم
لذلك (ان انذروا) بدل من
الروح اى ينزلهم ملتبسين بأن
انذروا اى بهذا القول
والمخاطبون به الانبياء الذين
نزلت الملائكة عليهم والآمر
هو الله سبحانه والملائكة نقلة
للامر كما يشعر به الباء في
المبدل منه وان اما مخففة من
ان وضمير الشأن الذى هو اسمها
محذوف اى ينزلهم ملتبسين بأن
الشأن اقول لكم انذروا او
مفسرة على ان تنزيل الملائكة
بالوحى فيه معنى القول كأنه قيل
يقول بواسطة الملائكة لمن يشاء
من عباده انذروا فلا محل لها من
الاعراب او مصدرية لجواز
كون صلتها انشائية كما في قوله
تعالى وان اقم وجهك حسبما ذكر
في اوائل سورة هود فمحلها الجر
على البدلية ايضا والانذار
الاعلام خلا انه مختص باعلام
المحذور من نذر بالشيء اذا علمه
فحذره

السموات والارض قال بعده تعالى عما يشركون والمراد ان القائلين بقدم السموات والارض كانهم اثبتوا لله شريكا فى كونه قديما ازليا فنزه نفسه عن ذلك وبين انه لاقديم الاهو وبهذا البيان ظهران الفائدة المطلوبة من قوله سبحانه وتعالى عما يشركون فى اول السورة غير الفائدة المطلوبة من ذكر هذه الكلمة ههنا لان المطلوب هناك ابطال قول من يقول ان الاصنام تشفع للكفار فى دفع العقاب عنهم والمقصود ههنا ابطال من يقول الاجسام قديمة والسموات والارض ازلية فنزه الله سبحانه نفسه عن ان يشاركه غيره فى الازلية والقدم والله اعلم * قوله تعالى (خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين) اعلم ان اشرف الاجسام بعد الافلاك والكواكب هو الانسان فلما ذكر الله تعالى الاستدلال على وجود الاله الحكيم بأجرام الافلاك اتبعه بذكر الاستدلال على هذا المطلوب بالانسان واعلم ان الانسان مركب من بدن ونفس فقوله تعالى خلق الانسان من نطفة اشارة الى الاستدلال ببدنه على وجود الصانع الحكيم وقوله فاذا هو خصيم مبين اشارة الى الاستدلال بأحوال نفسه على وجود الصانع الحكيم اما الطريق الاول فتقريره ان نقول لاشك ان النطفة جسم متشابه الاجزاء بحسب الحس والمشاهدة الا ان من الاطباء من يقول انه مختلف الاجزاء فى الحقيقة وذلك لانه انما يتولد من فضلة الهضم الرابع فان الغذاء يحصل له فى المعدة هضم اول وفى الكبد هضم ثان وفى العروق هضم ثالث وعند وصوله الى جواهر الاعضاء هضم رابع ففى هذا الوقت وصل بعض اجزاء الغذاء الى العظم وظهر فيه اثر من الطبيعة العظمية وكذا القول فى اللحم والعصب والعروق وغيرها ثم عند استيلاء الحرارة على البدن عند هيجان الشهوة يحصل ذوبان من جملة الاعضاء وذلك هو النطفة وعلى هذا التقدير تكون النطفة جسما مختلف الاجزاء والطبائع اذا عرفت هذا فنقول النطفة فى نفسها اما ان تكون جسما متشابه الاجزاء فى الطبيعة والماهية او مختلف الاجزاء فيها فان كان الحق هو الاول لم يجز ان يكون المقتضى لتولد البدن منها هو الطبيعة الحاصلة فى جوهر النطفة ودم الطمث لان الطبيعة تأثيرها بالذات والايجاب لابالتدبير والاختيار والقوة الطبيعية اذا عملت فى مادة متشابهة الاجزاء وجب ان يكون فعلها هو الكرة وعلى هذا الحرف عولوا فى قولهم البسائط يجب ان تكون اشكالها الطبيعية فى الكرة فلو كان المقتضى لتولد الحيوان من النطفة هو الطبيعة لوجب ان تكون شكلها الكرة وحيث لم يكن الامر كذلك علمنا ان المقتضى لحدوث الابدان الحيوانية ليس هو الطبيعة بل فاعل مختار هو يخلق بالحكمة والتدبير والاختيار واما القسم الثانى وهو ان يقال النطفة جسم مركب من اجزاء مختلفة فى الطبيعة والماهية فنقول بتقدير ان يكون الامر كذلك فانه يجب ان يكون تولد البدن منها بتدبير فاعل مختار حكيم وبيانه من وجوه (الاول) ان النطفة رطوبة سريعة الاستحالة واذا كان كذلك كانت الاجزاء الموجودة فيها لاتحفظ الوضع

وانذره بالامر انذارا اى اعلمه وحذره وخوفه فى ابلاغه كذا فى القاموس اى اعلموا الناس (انه لااله الاانا) فالضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن التصريح به وفائدة تصدير الجملة به الايذان من اول الامر بفخامة مضمونها مع مافيه من زيادة تقريرله فى الذهن فان الضمير لايفهم منه ابتداء الاشأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن لديه عند وروده فضل تمكن كأنه قيل انذروا ان الشأن الخطير هذا وابناء مضمونه عن المحذور ليس لذاته بل من حيث اتصاف المنذرين بمايضاده من الاشراك وذلك كاف فى كون اعلامه انذارا وقوله سبحانه (فاتقون) خطاب للمستعجلين على طريقة الالتفات والفاء فصيحة اى اذا كان الامر كما ذكر من جريان عادته تعالى بتنزيل الملائكة على الانبياء عليهم السلام وامرهم بأن ينذروا الناس انه لاشريك له فى الالوهية فاتقون فى الاخلال بمضمونه ومباشرة ماينافيه من الاشراك وفروعه التى من جملتها الاستعجال والاستهزاء وبعد تمهيد الدليل السمعى للتوحيد شرع فى تحرير الادلة العقلية فقيل (خلق السموات والارض بالحق) اى اوجدهما على ماهما عليه من الوجه الفائق والنمط اللائق (تعالى) وتقدس بذاته لاسيما بأفعاله التى من جملتها ابداع هذين المخلوقين (عمايشركون) عن اشراكهم المعهود وعن شركة ما يشركونه به من

(والنسبة)

والنسبة فالجزء الذى هو مادة الدماغ يمكن حصوله فى الاسفل و الجزء الذى هو مادة القلب قد يحصل فى الفوق واذا كان الامر كذلك وجب ان لا تكون اعضاء الحيوان على هذا الترتيب المعين امرا دائما ولا اكثريا وحيث كان الامر كذلك علمنا ان حدوث هذه الاعضاء على هذا الترتيب الخاص ليس الا بتدبير الفاعل المختار الحكيم (والوجه الثانى) ان النطفة بتقدير انها جسم مركب من اجزاء مختلفة الطبائع الا انه يجب ان ينتهى تحليل تركيبها الى اجزاء يكون كل واحد منها فى نفسه جسما بسيطا واذا كان الامر كذلك فلو كان المدبر لها قوة طبيعية لكان كل واحد من تلك البسائط يجب ان يكون شكله هو الكرة فكان يلزم ان يكون الحيوان على شكل كرات مضموم بعضها الى بعض وحيث لم يكن الامر كذلك علمنا ان مدبر ابدان الحيوانات ليس هى الطبائع ولا تأثيرات الانجم والافلاك لان تلك التأثيرات متشابهة فعلمنا ان مدبر ابدان الحيوانات فاعل مختار حكيم وهو المطلوب هذا هو الاستدلال بأبدان الحيوانات على وجود الاله المختار وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى خلق الانسان من نطفة واما الاستدلال على وجود الصانع المختار الحكيم بأحوال النفس الانسانية فهو المراد من قوله فاذا هو خصيم مبين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى بيان وجه الاستدلال وتقريره ان النفوس الانسانية فى اول الفطرة اقل فهما وذكاء وفطنة من نفوس سائر الحيوانات ألاترى ان ولد الدجاجة كما يخرج من قشر البيضة يميز بين العدو والصديق فيهرب من الهرة ويلتجئ الى الام ويميز بين الغذاء الذى يوافقه والغذاء الذى لا يوافقه واما ولد الانسان فانه حال انفصاله عن بطن الام لا يميز البتة بين العدو والصديق ولا بين الضار والنافع فظهر ان الانسان فى اول الحدوث انقص حالا واقل فطنة من سائر الحيوانات ثم ان الانسان بعد كبره يقوى عقله ويعظم فهمه ويصير بحيث يقوى على مساحة السموات والارض ويقوى على معرفة ذات الله وصفاته وعلى معرفة اصناف المخلوقات من الارواح والاجسام والفلكيات والعنصريات ويقوى على ايراد الشبهات القوية فى دين الله تعالى والخصومات الشديدة فى كل المطالب فانتقال نفس الانسان من تلك البلادة المفرطة الى هذه الكياسة المفرطة لابد وان يكون بتدبير اله مختار حكيم ينقل الارواح من نقصانها الى كمالاتها ومن جهالاتها الى معارفها بحسب الحكمة والاختيار فهذا هو المراد من قوله سبحانه وتعالى خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين واذا عرفت هذه الدقيقة امكنك التنبيه لوجوه كثيرة (المسئلة الثانية) انه تعالى انما يخلق الانسان من النطفة بواسطة تغيرات كثيرة مذكورة فى القرآن العزيز منها قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين الا انه تعالى اختصر ههنا لاجل ان ذلك الاستقصاء مذكور فى سائر الآيات وقوله فاذا هو خصيم مبين فيه بحثان (الاول) قال الواحدى الخصيم بمعنى المخاصم قال اهل اللغة خصيمك الذى يخاصمك وفعيل بمعنى مفاعل معروف كالنسيب

الباطل الذى لا يبدئ ولا يعيد وبعد ما نبه على صنعه الكلى المنطوى على تفاصيل مخلوقاته شرع فى تعداد ما فيه من خلائقه فبدأ بفعله المتعلق بالانفس فقال (خلق الانسان) اى هذا النوع غير الفرد الاول منه (من نطفة) جماد لا حس له ولا حراك سيال لا يحفظ شكلا ولا وضعا (فاذا هو) بعد الخلق (خصيم) منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم (مبين) لحجته لقن بها وهذا أنسب بمقام الامتنان باعطاء القدرة على الاستدلال بذلك على قدرته تعالى ووحدته او مخاصم لخالقه منكر له قائل من يحيى العظام وهى رميم وهذا انسب بمقام تعداد هنات الكفرة روى ان ابى بن خلف الجمحى أتى النبى عليه السلام بعظم رميم فقال يا محمد أترى الله تعالى يحيى هذا بعد ما قد رم فنزلت (والانعام) وهى الازواج الثمانية من الابل والبقر والضأن والمعز وانتصابها بمضمر يفسره قوله تعالى (خلقها) او بالعطف على الانسان وما بعده بيان ما خلق لاجله والذى بعده تفصيل لذلك وقوله تعالى (لكم) اما متعلق بخلقها وقوله (فيها) خبر مقدم وقوله (دفء) مبتدأ وهو ما يدفأ به فيقى من البرد والجملة حال من المفعول او الظرف الاول خبر للمبتدأ المذكور وفيها حال من دفء اذ لو تأخر لكان صفة (ومنافع) هى درها وركوبها وحملها والحراثة بها وغير ذلك وانما عبر عنها بها ليتناول الكل مع انه الانسب بمقام الامتنان بالنعم وتقديم الدفء على المنافع

بمعنى المناسب والعشير بمعنى المعاشر والاكيل والشريب ويجوز ان يكون خصيم فاعلا من خصم يخصم بمعنى اختصم ومنه قراءة حمزة تأخذهم وهم يخصمون (البحث الثانى) لقوله فاذا هو خصيم مبين وجهان (احدهما) فاذا هو منطيق مجادل عن نفسه منازع للخصوم بعد ان كان نطفة قذرة وجمادا لاحس له ولا حركة والمقصود منه ان الانتقال من تلك الحالة الخسيسة الى هذه الحالة العالية الشريفة لايحصل الا بتدبير مدبر عليم حكيم (والثانى) فاذا هو خصيم لربه منكر على خالقه قائل من يحيي العظام وهى رميم والغرض منه وصف الانسان بالافراط فى الوقاحة والجهل والتمادى فى كفران النعمة والوجه الاول اوفق لان هذه الآيات مذكورة لتقرير وجه الاستدلال على وجود الصانع الحكيم لا لتقرير وقاحة الناس وتماديهم فى الكفر والكفران ❊ قوله تعالى (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤف رحيم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان اشرف الاجسام الموجودة فى العالم السفلى بعد الانسان سائر الحيوانات لاختصاصها بالقوى الشريفة وهى الحواس الظاهرة والباطنة والشهوة والغضب ثم هذه الحيوانات قسمان منها ماينتفع الانسان بها ومنها ما لا يكون كذلك والقسم الاول اشرف من الثانى لانه لما كان الانسان اشرف الحيوانات وجب فى كل حيوان يكون انتفاع الانسان به اكمل واكثر ان يكون اكمل واشرف من غيره ثم نقول والحيوان الذى ينتفع الانسان به اما ان ينتفع به فى ضروريات معيشته مثل الاكل واللبس اولا يكون كذلك وانما ينتفع به فى امور غير ضرورية مثل الزينة وغيرها والقسم الاول اشرف من الثانى وهذا القسم هو الانعام فلهذا السبب بدأ الله بذكره فى هذه الآية فقال والانعام خلقها لكم واعلم ان الانعام عبارة عن الازواج الثمانية وهى الضأن والمعز والابل والبقر وقد يقال ايضا الانعام ثلاثة الابل والبقر والغنم قال صاحب الكشاف واكثر مايقع هذا اللفظ على الابل وقوله والانعام منصوبة وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر كقوله تعالى والقمر قدرناه منازل ويجوز ان يعطف على الانسان اى خلق الانسان والانعام قال الواحدى تم الكلام عند قوله والانعام خلقها ثم ابتدأ وقال لكم فيها دفء ويجوز ايضا ان يكون تمام الكلام عند قوله لكم ثم ابتدأ وقال فيها دفء قال صاحب النظم احسن الوجهين ان يكون الوقف عند قوله خلقها والدليل عليه انه عطف عليه قوله ولكم فيها جمال والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال (المسئلة الثانية) انه تعالى لما ذكر انه خلق الانعام للمكلفين اتبعه بتعديد تلك المنافع واعلم ان منافع النعم منها ضرورية ومنها غير ضرورية والله تعالى بدأ بذكر المنافع الضرورية فالمنفعة الاولى قوله لكم فيها دفء وقد ذكر هذا المعنى فى آية اخرى فقال ومن اصوافها واوبارها واشعارها والدفء عند اهل اللغة مايستدفأ به من

(الاكسية)

لرعاية اسلوب الترقى الى الاعلى (ومنها تأكلون) اى تأكلون مايؤكل منها من اللحوم والشحوم وغير ذلك وتغيير النظم للايماء الى انها لاتبقى عند الاكل كما فى السابق واللاحق فان الدفء والمنافع والجمال يحصل منها وهى باقية على حالها ولذلك جعلت محال لها بخلاف الاكل وتقديم الظرف للايذان بأن الاكل منها هو المعتاد المعتمد فى المعاش وان الاكل مما عداها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر من قبيل التفكه مع ان فيه مرعاة للفواصل ويحتمل ان يكون معنى الاكل منها اكل مايحصل بسببها فان الحبوب والثمار المأكولة تكتسب باكراء الابل وبأثمان نتاجها والبانها وجلودها (ولكم فيها) مع مافصل من انواع المنافع الضرورية جمال اى زينة فى اعين الناس ووجاهة عندهم (حين تريحون) تردونها من مراعيها الى مراحها بالعشى (وحين تسرحون) تخرجونها بالغداة من حظائرها الى مسارحها فالمفعول محذوف من كلا الفعلين لرعاية الفواصل وتعيين الوقتين لان مايدور عليه امر الجمال من تزين الافنية والاكناف بها وتجاوب ثغائها ورغائها انما هو عند ورودها وصدورها فى ذينك الوقتين واما عند كونها فى المراعى فينقطع اضافتها الحسية الى اربابها وعند كونها فى الحظائر لايراها راء ولاينظر اليها ناظر وتقديم الاراحة على السرح لتقدم الورود على الصدور ولكونها اظهر

الاكسية قال الاصمعى ويكون الدفء السخونة يقال اقعد فى دفء هذا الحائط اى
فى كنه وقرئ دف بطرح الهمزة والقاء حركتها على الفاء والمنفعة الثانية قوله ومنافع
قالوا المراد نسلها ودرها وانما عبر الله تعالى عن نسلها ودرها بلفظ المنفعة وهو اللفظ
الدال على الوصف الاعم لان النسل والدر قد ينتفع به فى الاكل وقد ينتفع به فى البيع
بالنقود وقد ينتفع به بأن يبدل بالثياب وسائر الضروريات فعبر عن جملة هذه الاقسام
بلفظ المنافع ليتناول الكل والمنفعة الثالثة قوله ومنها تأكلون فان قيل قوله ومنها
تأكلون يفيد الحصر وليس الامر كذلك فانه قد يؤكل من غيرها وايضا منفعة الاكل
مقدمة على منفعة اللبس فلم اخر منفعته فى الذكر قلنا الجواب عن الاول ان الاكل منها
هو الاصل الذى يعتمده الناس فى معايشهم واما الاكل من غيرها كالدجاج والبط
وصيد البر والبحر فيشبه غير المعتاد وكالجارى مجرى التفكه ويحتمل ايضا ان غالب
اطعمتكم منها لانكم تحرثون بالبقر والحب والثمار التى تأكلونها منها وايضا تكتسبون
باكراء الابل وتنتفعون بألبانها ونتاجها وجلودها وتشترون بها جميع اطعمتكم والجواب
عن السؤال الثانى ان الملبوس اكثر بقاء من المطعوم فلهذا قدمه عليه فى الذكر (واعلم)
ان هذه المنافع الثلاثة هى المنافع الضرورية الحاصلة من الانعام واما المنافع الحاصلة
من الانعام التى هى ليست بضرورية فأمور (المنفعة الاولى) قوله تعالى ولكم فيها جمال
حين تريحون وحين تسرحون الاراحة رد الابل بالعشى الى مراحها حيث تأوى اليه
ليلا ويقال سرح القوم ابلهم سرحا اذا اخرجوها بالغداة الى المرعى قال اهل اللغة هذه
الاراحة اكثر ماتكون ايام الربيع اذا سقط الغيث وكثر الكلأ وخرجت العرب للنجعة
واحسن مايكون النعم فى ذلك الوقت واعلم ان وجه التجمل بها ان الراعى اذا روحها
بالعشى وسرحها بالغداة تزينت عند تلك الاراحة والتسريح الافنية وتجاوب فيها
الثغاء والرغاء وفرحت اربابها وعظم وقعهم عند الناس بسبب كونهم مالكين لها فان
قيل لم قدمت الاراحة على التسريح قلنا لان الجمال فى الاراحة اكثر لانها تقبل ملأى
البطون حافلة الضروع ثم اجتمعت فى الحظائر حاضرة لاهلها بخلاف التسريح فانها
عند خروجها الى المرعى تخرج جائعة عادمة اللبن ثم تأخذ فى التفرق والانتشار فظهر ان
الجمال فى الاراحة اكثر منه فى التسريح (والمنفعة الثانية) قوله وتحمل اثقالكم الى بلد
لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤف رحيم وفيه مسئلتان (الاولى) الاثقال
جمع ثقل وهو متاع المسافر لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس قال ابن عباس يريد من مكة
الى المدينة اوالى اليمن اوالى الشام اوالى مصر قال الواحدى هذا قوله والمراد كل بلد
لو تكلفتم بلوغه على غير ابل لشق عليكم وخص ابن عباس هذه البلاد لان متاجر اهل مكة
كانت الى هذه البلاد وقرئ بشق الانفس بكسر الشين وفتحها واكثر القراء على كسر
الشين والشق المشقة والشق نصف الشئ وحمل اللفظ ههنا على كلا المعنيين جائز فان

منه فى استتباع ماذكر من الجمال
واتم فى استجلاب الانس والبهجة
اذ فيها حضور بعد غيبة واقبال
بعد ادبار على احسن مايكون
ملأى البطون مرتفعة الضلوع
حافلة الضروع وقرئ حينا
تريحون وحينا تسرحون على
ان كلا الفعلين وصف لحينا بمعنى
تريحون فيه وتسرحون فيه
(وتحمل اثقالكم) جمع ثقل
وهو متاع المسافر وقيل اثقالكم
اجرامكم (الى بلد) قال ابن عباس
رضى الله عنهما اريد به اليمن ومصر
والشام ولعله نظر الى انها متاجر
اهل مكة وقال عكرمة اريد به
مكة ولعله نظر الى ان اثقالهم
واحمالهم عند القفول من متاجرهم
اكثر وحاجتهم الى الحمولة امس
والظاهر انه عام لكل بلد
سحيق (لم تكونوا بالغيه) واصلين
اليه بانفسكم مجردين عن الاثقال
لولا الابل (الا بشق الانفس)
فضلا عن استصحابها معكم وقرئ
بفتح الشين وهما لغتان بمعنى
الكلفة والمشقة وقيل المفتوح
مصدر من شق الامر عليه شقا
وحقيقته راجعة الى الشق الذى
هو الصدع والمكسور النصف
كأنه يذهب نصف القوة لما يناله
من الجهد فالاضافة الى الانفس
مجازية اوعلى تقدير مضاف اى
الا بشق قوى الانفس وهو استثناء
مفرغ من اعم الاشياء اى لم
تكونوا بالغيه بشئ من الاشياء
الا بشق الانفس ولعل تغيير
النظم الكريم السابق الدال على
كون الانعام مدارا للنعم السابقة
الى الجملة الفعلية المفيدة لمجرد
الحدوث للاشعار بأن هذه النعمة

جلناه على المشقة كان المعنى لم تكونوا بالغيه الا بالمشقة وان جلناه على نصف الشئ كان المعنى لم تكونوا بالغيه الا عند ذهاب النصف من قوتكم أو من بدنكم ويرجع عند التحقيق الى المشقة ومن الناس من قال المراد من قوله والانعام خلقها الابل فقط بدليل انه وصفها فى آخر الآية بقوله وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه وهذا الوصف لا يليق الا بالابل قلنا المقصود من هذه الآيات تعديد منافع الانعام فبعض تلك المنافع حاصلة فى الكل وبعضها مختص والدليل عليه ان قوله ولكم فيها جمال حاصل فى البقر والغنم مثل حصوله فى الابل والله اعلم (المسئلة الثانية) احتج منكروا كرامات الاولياء بهذه الآية فقالوا هذه الآية تدل على ان الانسان لا يمكنه الانتقال من بلد الى بلد الابشق الانفس وحمل الاثقال على الجمال ومثبتوا الكرامات يقولون ان الاولياء قد ينتقلون من بلد الى بلد آخر بعيد فى ليلة واحدة من غير تعب وتحمل مشقة فكان ذلك على خلاف هذه الآية فيكون باطلا ولما بطل القول بالكرامات فى هذه الصورة بطل القول بها فى سائر الصور لانه لا قائل بالفرق وجوابه انا نخصص عموم هذه الآية بالادلة الدالة على وقوع الكرامات والله اعلم ❊ قوله (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون) اعلم انه تعالى لما ذكر منافع الحيوانات التى ينتفع الانسان بها فى المنافع الضرورية والحاجات الاصلية ذكر بعده منافع الحيوانات التى ينتفع بها الانسان فى المنافع التى ليست بضرورية فقال والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله والخيل والبغال والحمير عطف على الانعام اى وخلق الانعام لكذا وكذا وخلق هذه الاشياء للركوب وقوله وزينة اى وخلقها زينة ونظيره قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا المعنى وحفظناها حفظا قال الزجاج نصب قوله وزينة على انه مفعول له والمعنى وخلقها للزينة (المسئلة الثانية) احتج القائلون بتحريم لحوم الخيل بهذه الآية فقالوا منفعة الاكل اعظم من منفعة الركوب فلو كان اكل لحم الخيل جائزا لكان هذا المعنى اولى بالذكر وحيث لم يذكره الله تعالى علمنا انه يحرم اكله ويمكن ايضا ان يقوى هذا الاستدلال من وجه آخر فيقال انه تعالى قال فى صفة الانعام ومنها تأكلون وهذه الكلمة تفيد الحصر فيقتضى ان لا يجوز الاكل من غير الانعام فوجب ان يحرم اكل لحم الخيل بمقتضى هذا الحصر ثم انه تعالى بعد هذا الكلام ذكر الخيل والبغال والحمير وذكر انها مخلوقة للركوب فهذا يقتضى ان منفعة الاكل مخصوصة بالانعام وغير حاصلة فى هذه الاشياء ويمكن الاستدلال بهذه الآية من وجه ثالث وهو ان قوله لتركبوها يقتضى ان تمام المقصود من خلق هذه الاشياء الثلاثة هو الركوب والزينة ولو حل اكلها لما كان تمام المقصود من خلقها هو الركوب بل كان حل اكلها ايضا مقصودا وحينئذ يخرج جواز ركوبها عن ان يكون تمام المقصود بل يصير بعض المقصود واجاب الواحدى بجواب فى غاية الحسن فقال لو دلت هذه الآية على

(تحريم)

ليست فى العموم بحسب المنشأ وبحسب المتعلق وفى الشمول للاوقات والاطراد فى الاحيان المعهودة بمثابة النعم السالفة فانها بحسب المنشأ وخاصة بالابل وبحسب المتعلق بالضاربين فى الارض المتقلبين فيها للتجارة وغيرها فى احايين غير مطردة واما سائر النعم المعدودة فموجودة فى جميع اصناف الانعام وعامة لكافة المخاطبين دائما وفى عامة الاوقات (ان ربكم لرؤف رحيم) ولذلك اسبغ عليكم هذه النعم الجليلة ويسر لكم الامور الشاقة (والخيل) هو اسم جنس للفرس لا واحد له من لفظه كالابل وهو عطف على الانعام اى خلق الخيل (والبغال والحمير لتركبوها) تعليل بمعظم منافعها والا فالانتفاع بها بالحمل ايضا مما لا ريب فى تحققه (وزينة) عطف على محل لتركبوها وتجريده عن اللام لكونه فعلا لفاعل الفعل المعلل دون الاول وتأخيره لكون الركوب اهم منه او مصدر لفعل محذوف اى وتتزينوا بها زينة وقرئ بغير واو اى خلقها زينة لتركبوها ويجوز ان يكون مصدرا واقعا موقع الحال من فاعل تركبوها او مفعوله اى متزينين بها او متزينا بها (ويخلق مالا تعلمون) اى يخلق فى الدنيا غير ما عدد من اصناف النعم فيكم ولكم مالا تعلمون كنهه وكيفية خلقه فالعدول الى صيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار والتجدد او لاستحضار الصورة او يخلق لكم فى الجنة غير ما ذكر من النعم الدنيوية مالا تعلمون اى ما ليس

تحريم اكل هذه الحيوانات لكان تحريم اكلها معلوما في مكة لاجل ان هــذه السورة مكية ولو كان الامر كذلك لكان قول عامة المفسرين والمحدثين ان لحوم الحمر الاهلية حرمت عام خيبر باطلا لان التحريم لما كان حاصلا قبل هذا اليوم لم يبق لتخصيص هذا التحريم بهذه الشبهة فائدة وهذا جواب حسن متين (المسـئلة الثالثة) القائلون بأن افعال الله تعالى معللة بالمصالح والحكم احتجوا بظاهر هذه الآية فانه يقتضي ان هــذه الحيوانات مخلوقة لاجل المنفعة الفلانية ونظيره قوله كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور وقوله وما خلقت الجن والانس الاليعبدون والكلام فيه معلوم (المسـئلة الرابعة) لقائل ان يقول لما كان معنى الآية انه تعـالى خلق الخيل والبغال والحمير لتركبوها ولتجعلها زينة لكم فلم ترك هذه العبارة وجوابه انه تعالى لو ذكر هذا الكلام بهذه العبارة لصار المعنى ان التزين بها احد الامور المعتبرة في المقصود وذلك غير جائز لان التزين بالشيء يورث العجب والتيه والتكبر وهذه اخلاق مذمومة والله تعالى نهى عنها وزجر عنها فكيف يقول اني خلقت هذه الحيوانات لتحصيل هذه المعاني بل قال خلقها لتركبوها فتد فعوا عن انفسكم بواسطتها ضرر الاعياء والمشقة واما التزين بهــا فهو حاصل في نفس الامر ولكنه غير مقصود بالذات فهذا هو الفائدة في اختيار هذه العبارة واعلم انه تعالى لما ذكر اولا احوال الحيوانات التي ينتفع الانســان بهــا انتفاعا ضروريا وثانيا احوال الحيوانات التي ينتفع الانسان بها انتفاعا غير ضروري بقي القسم الثالث من الحيوانات وهي الاشياء التي لا ينتفع الانسان بها في الغالب فذكرها على سبيل الاجمال فقال ويخلق ما لا تعلمون وذلك لان انواعها واصنافها واقسامها كثيرة خارجة عن الحد والاحصاء ولو خاض الانسان في شرح عجائب احوالهــا لكان المذكور بعد كتبة المجلدات الكثيرة كالقطرة في البحر فكان احسن الاحوال ذكرها على ســبيل الاجمال كما ذكر الله تعالى في هذه الآية وروى عطاء ومقاتل والضحاك عن ابن عباس انه قال ان على يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والارضين السبع والبحـار السبعة يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر ويغتسل فيزداد نورا الى نوره وجمالا الى جماله ثم ينتفض فيخلق الله من كل نقطة تقع من ريشه كذا وكذا الف ملك يدخل منهم كل يوم سبعون الفا البيت المعمور وفي الكعبة ايضا سبعون الفا ثم لا يعودون اليه الى ان تقوم الساعة ❊ قوله تعالى (وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم اجمعين) اعلم انه تعالى لما شرح دلائل التوحيد قال وعلى الله قصد السبيل اي انما ذكرت هذه الدلائل وشرحتها ازاحة للعذر وازالة للعلة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الواحدي القصد استقامة الطريق يقال طريق قصد وقاصد اذا اداك الى مطلوبك اذا عرفت هذا ففي الآية حذف والتقدير وعلى الله بيان قصد السبيل ثم قال ومنها جائر اي عادل مائل ومعنى الجور في اللغة الميل عن الحق

من شأنكم ان تعلموه وهو ما اشير اليه بقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله تعـالى اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ويجوز ان يكون هذا اخبارا بأنه سبحـانه يخلق من الخلائق ما لا علم لنا به دلالة على قدرته الباهرة الموجبة للتوحيد كنعمته الباطنة والظاهرة عن ابن عباس رضي الله عنهما ان عن يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والارضين السبع والبحار السـبعة يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر فيغتســل فيزداد نورا الى نور وجمــالا الى جمال وعظما الى عظم ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا الف ملك فيدخل منهم كل يوم ســبعون الف ملك البيت المعمور وســبعون الف ملك الكعبة لا يعودون اليه الى يوم القيامة (وعلى الله قصد السبيل) القصد مصدر بمعنى الفاعل يقال سبيل قصد وقاصد اي مستقيم على طريقة الاستعارة او على نهج اسناد حال سالكه اليه كأنه يقصد الوجــه الذي يؤمه الســالك لا يعدل عنه اي حق عليه سبحانه وتعالى بموجب رحمته ووعده المحتوم بيان الطريق المستقيم الموصل لمن يسلكه الى الحق الذي هو التوحيــد بنصب الادلة وارسال الرسل وانزال الكتب لدعوة الناس اليه او مصــدر بمعنى الاقامــة والتعــديل قاله ابو البقاء اي عليه عز وجــل تقويمها وتعديلها اي جعلها بحيث يصــل سالكها الى الحق لكن

والكناية في قوله ومنها جائر تعود على السبيل وهي مؤنثة في لغة الحجاز يعني ومن السبيل ماهو جائر غير قاصد للحق وهو انواع الكفر والضلال والله اعلم (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة دلت الآية على انه يجب على الله تعالى الارشاد والهداية الى الدين وازاحة العلل والاعذار لانه تعالى قال وعلى الله قصد السبيل وكلمة على للوجوب قال تعالى ولله على الناس حج البيت ودلت الآية ايضا على انه تعالى لايضل احدا ولايغويه ولايصده عنه وذلك لانه تعالى لوكان فاعلا للضلال لقال وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرها اوقال وعليه الجائر فلما لم يقل كذلك بل قال في قصد السبيل انه عليه ولم يقل في جور السبيل انه عليه بل قال ومنها جائر دل على انه تعالى لايضل عن الدين احدا اجاب اصحابنا ان المراد على الله بحسب الفضل والكرم ان يبين الدين الحق والمذهب الصحيح فاما ان يبين كيفية الاغواء والاضلال فذلك غير واجب فهذا هو المراد والله اعلم (المسئلة الثالثة) قوله ولو شاء لهداكم اجمعين يدل على انه تعالى ماشاء هداية الكفار وما اراد منهم الايمان لان كلمة لو تفيد انتفاء شيء لانتفاء شيء غيره قوله ولو شاء لهداكم معناه لو شاء هدايتكم لهداكم وذلك يفيد انه تعالى ماشاء هدايتهم فلاجرم ماهداهم وذلك يدل على المقصود واجاب الاصم عنه بأن المراد لو شاء ان يلجئكم الى الايمان لهداكم وهذا يدل على ان مشيئة الالجاء لم تحصل واجاب الجبائي بان المعنى ولو شاء لهداكم الى الجنة والى نيل الثواب لكنه لايفعل ذلك الابمن يستحقه ولم يرد به الهدى الى الايمان لانه مقدور جميع المكلفين واجاب بعضهم فقال المراد ولو شاء لهداكم الى الجنة ابتداء على سبيل التفضل الا انه تعالى عرفكم للمنزلة العظيمة بما نصب من الادلة وبين فمن تمسك بها فاز بتلك المنازل ومن عدل عنها فاتته وصار الى العذاب والله اعلم واعلم ان هذه الكلمات قد ذكرناها مرارا واطوارا مع الجواب فلافائدة في الاعادة ❊ قوله تعالى (هو الذي انزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون) اعلم ان اشرف اجسام العالم السفلي بعد الحيوان النبات فلما قرر الله تعالى الاستدلال على وجود الصانع الحكيم بعجائب احوال الحيوانات اتبعه في هذه الآية بذكر الاستدلال على وجود الصانع الحكيم بعجائب احوال النبات واعلم ان الماء المنزل من السماء هو المطر واما ان المطر نازل من السحاب او من السماء فقد ذكرناه في هذا الكتاب مرارا والحاصل ان ماء المطر قسمان احدهما هو الذي جعله الله تعالى شرابا لنا ولكل حي وهو المراد بقوله لكم منه شراب وقد بين الله تعالى في آية اخرى ان هذه النعمة جليلة فقال وجعلنا من الماء كل شيء حي فان قيل افتقولون ان شرب الخلق ليس الا من المطر أو تقولون قد يكون منه وقد يكون من غيره وهو الماء الموجود في قعر الارض اجاب القاضي بأنه تعالى بين ان المطر شرابنا ولم ينف ان نشرب من غيره ولقائل ان يقول ظاهر الآية يدل على الحصر لان قوله لكم منه

(شراب)

لايعد ماكانت في نفسها منحرفة عنه بل ابداعها ابتداء كذلك على نهج قوله سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل وحقيقته راجعة الى ماذكر من نصب الادلة وقد فعل ذلك حيث ابدع هذه البدائع التي كل واحد منها لاحب يهتدى بمناره وعلم يستضاء بناره وارسل رسلا مبشرين ومنذرين وانزل عليهم كتبا من جملتها هذا الوحي الناطق بحقيقة الحق الفاحص عن كل ماجل من الاسرار ودق الهادي الى سبيل الاستدلال بتلك الادلة المفضية الى معالم الهدى المنجية عن فيا في الضلالة ومهاوي الردى الا يرى كيف بين اولا تنزه جناب الكبرياء وتعاليه بحسب الذات عن ان يحوم حوله شائبة توهم الاشراك ثم اوضح سر القاء الوحي على الانبياء عليهم الصلاة والسلام وكيفية امرهم بانذار الناس ودعوتهم الى التوحيد ونهيهم عن الاشراك ثم ذكر على بيان تعاليه عن ذلك بحسب الافعال مرشدا الى طريقة الاستدلال فبدأ بفعله المتعلق بمحيط العالم الجسماني ومركزه بقوله تعالى خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون ثم فصل افعاله المتعلقة بما بينهما فبدأ بفعله المتعلق بأنفس المخاطبين ثم ذكر مايتعلق بما لابد لهم منه في معايشهم ثم بين قدرته على خلق مالايحيط به علم البشر بقوله ويخلق مالاتعلمون وكل ذلك كما ترى بيان لسبيل التوحيد غب بيان وتعديل له ايما تعديل فالمراد بالسبيل على الاول الجنس بدليل اضافة

شراب يفيد الحصر لان معناه منه لا من غيره اذا ثبت هذا فنقول لا يمتنع ان يكون الماء العذب تحت الارض من جملة ماء المطر يسكن هناك والدليل عليه قوله تعالى في سورة المؤمنين وانزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الارض ولا يمتنع ايضا في غير العذب وهو البحر ان يكون من جملة ماء المطر والقسم الثاني من المياه النازلة من السماء ما يجعله الله سببا لتكوين النبات واليه الاشارة بقوله ومنه شجر فيه تسيمون الى آخر الآية وفيه مباحث (البحث الاول) ظاهر هذه الآية يقتضي ان اسامة الشجر ممكنة وهذا انما يصح لو كان المراد من الشجر الكلا والعشب وههنا قولان (الاول) قال الزجاج كل ما نبت على الارض فهو شجر وأنشد

يطعمها اللحم اذا عز الشجر * يعني انهم يسقون الخيل اللبن اذا أجدبت الارض وقال ابن قتيبة في هذه الآية المراد من الشجر الكلا وفي حديث عكرمة لا تأكلوا ثمن الشجر فانه سحت يعني الكلا ولقائل ان يقول انه تعالى قال والنجم والشجر يسجدان والمراد من النجم ما ينجم من الارض مما ليس له ساق ومن الشجر ما له ساق هكذا قال المفسرون وبالجملة فلما عطف الشجر على النجم دل على التغاير بينهما ويمكن ان يجاب عنه بان عطف الجنس على النوع وبالضد مشهور وايضا فلفظ الشجر مشعر بالاختلاط يقال تشاجر القوم اذا اختلط اصوات بعضهم بالبعض وتشاجرت الرماح اذا اختلطت وقال تعالى حتى يحكموك فيما شجر بينهم ومعنى الاختلاط حاصل في العشب والكلا فوجب جواز اطلاق لفظ الشجر عليه (القول الثاني) ان الابل تقدر على رعي ورق الاشجار الكبار وعلى هذا التقدير فلا حاجة الى ما ذكرناه في القول الاول (البحث الثاني) قوله فيه تسيمون أي في الشجر ترعون مواشيكم يقال اسمت الماشية اذا خليتها ترعى وسامت هي تسوم سوما اذا رعت حيث شاءت فهي سوام وسائمة قال الزجاج أخذ ذلك من السومة وهي العلامة وتأويلها انها تؤثر في الارض برعيها علامات وقال غيره لانها تعلم للارسال في المرعى وتمام الكلام في هذا اللفظ قد ذكرناه في سورة آل عمران في قوله تعالى والخيل المسومة اما قوله تعالى ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ففيه مباحث (البحث الاول) هو ان النبات الذي ينبته الله من ماء السماء قسمان احدهما معد لرعي الانعام واسامة الحيوانات وهو المراد من قوله فيه تسيمون والثاني ما كان مخلوقا لاكل الانسان وهو المراد من قوله ينبت لكم به الزرع والزيتون فان قيل انه تعالى بدأ في هذه الآية بذكر ما يكون مرعى للحيوانات وأتبعه بذكر ما يكون غذاء للانسان وفي آية أخرى عكس هذا الترتيب فبدأ بذكر مأكول الانسان ثم بما يرعاه سائر الحيوانات فقال كلوا وارعوا انعامكم فما الفائدة فيه قلنا اما الترتيب المذكور في هذه الآية فينبه على مكارم الاخلاق وهو ان يكون اهتمام الانسان بمن يكون تحت يده اكمل من اهتمامه بحال نفسه واما الترتيب المذكور في الآية الاخرى فالمقصود منه ما هو المذكور في قوله عليه

القصد اليه وقوله تعالى (ومنها) في محل الرفع على الابتداء اما باعتبار مضمونه واما بتقدير الموصوف كما في قوله تعالى ومنا دون ذلك وقدمر في قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر الخ اي بعض السبيل او بعض من السبيل فانها تؤنث وتذكر (جائر) اي مائل عن الحق منحرف عنه لا يوصل سالكه اليه وهو طرق الضلال التي لا يكاد يحصى عددها المندرج كلها تحت الجائر وعلى الثاني نفس السبيل المستقيم والضمير في منها راجع اليها بتقدير المضاف اي ومن جنسها لما عرفت من ان تعديل السبيل وتقويمه ابداعه ابتداء على وجه الاستقامة والعدالة لا تقويمه بعد انحرافه وايا ما كان فليس في النظم الكريم تغيير الاسلوب رعاية لامر مطلوب كما قيل فان ذلك انما يكون فيما اقتضى الظاهر سبكا معينا ولكن يعدل عن ذلك لنكتة أهم منه كما في قوله سبحانه الذي يطعمني ويسقين واذا مرضت فهو يشفين فان مقتضى الظاهر ان يقال والذي يسقمني ويشفين ولكن غير الى ما عليه النظم الكريم تماديا عن اسناد ما تكرهه النفس اليه سبحانه وليس المراد ببيان قصد السبيل مجرد اعلام انه مستقيم حتى يصح اسناد انه جائر اليه تعالى فيحتاج الى الاعتذار عن عدم ذلك على انه لو اريد ذلك لم يوجد لتغيير الاسلوب نكتة وقد بين ذلك في مواضع غير معدودة بل المراد ما هو من نصب الادلة لهداية الناس اليه ولا امكان لاسناد مثله

السلام ابدأ بنفسك ثم بمن تعول (البحث الثانى) قرأ عاصم فى رواية ابى بكر ننبت بالنون على التفخيم والباقون بالياء قال الواحدى والياء اشبه بما تقدم (البحث الثالث) اعلم ان الانسان خلق محتاجا الى الغذاء والغذاء اما ان يكون من الحيوان او من النبات والغذاء الحيوانى اشرف من الغذاء النباتى لان تولد اعضاء الانسان عند اكل اعضاء الحيوان اسهل من تولدها عند اكل النبات لان المشابهة هناك اكمل واتم والغذاء الحيوانى انما يحصل من اسامة الحيوانات والسعى فى تنميتها بواسطة الرعى وهذا هو الذى ذكره الله تعالى فى الاسامة واما الغذاء النباتى فقسمان حبوب وفواكه اما الحبوب فاليها الاشارة بلفظ الزرع واما الفواكه فأشرفها الزيتون والنخيل والاعناب اما الزيتون فلانه فاكهة من وجه وادام من وجه آخر لكثرة مافيه من الدهن ومنافع الادهان كثيرة فى الاكل والطلى واشتعال السرج واما امتياز النخيل والاعناب من سائر الفواكه فظاهر معلوم وكما انه تعالى لما ذكر الحيوانات التى ينتفع الناس بها على التفصيل ثم قال فى صفة البقية ويخلق مالاتعلمون فكذلك ههنا لما ذكر الانواع المنتفع بها من النبات قال فى صفة البقية ومن كل الثمرات تنبيها على ان تفصيل القول فى اجناسها وانواعها وصفاتها ومنافعها لايمكن ذكره فى مجلدات فالاولى الاقتصار فيه على الكلام المجمل ثم قال ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون وههنا بحثان (الاول) فى شرح كون هذه الاشياء آيات دالة على وجود الله تعالى فنقول ان الحبة الواحدة تقع فى الطين فاذا مضت على هذه الحالة مقادير معينة من الوقت نفذت فى داخل تلك الحبة اجزاء من رطوبة الارض ونداوتها فتنتفخ الحبة فينشق اعلاها واسفلها فيخرج من اعلى تلك الحبة شجرة صاعدة من داخل الارض الى الهواء ومن اسفلها شجرة اخرى غائصة فى قعر الارض وهذه الغائصة هى المسماة بعروق الشجرة ثم ان تلك الشجرة لاتزال تزداد وتنمو وتقوى ثم يخرج منها الاوراق والازهار والاكمام والثمار ثم ان تلك الثمرة تشتمل على اجسام مختلفة الطبائع مثل العنب فان قشره وعجمه باردان يابسان كثيفان ولحمه وماؤه حاران رطبان لطيفان اذا عرفت هذا فنقول نسبة الطبائع السفلية الى هذا الجسم متشابهة ونسبة التأثيرات الفلكية والتحريكات الكوكبية الى الكل متشابهة ومع تشابه نسب هذه الاشياء ترى هذه الاجسام مختلفة فى الطبع والطعم واللون والرائحة والصفة فدل صريح العقل على ان ذلك ليس الالاجل فاعل قادر حكيم رحيم فهذا تقدير هذه الدلالة (البحث الثانى) انه تعالى ختم هذه الآية بقوله لقوم يتفكرون والسبب فيه انه تعالى ذكر انه انزل من السماء ماء فأنبت به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ولقائل ان يقول لانسلم انه تعالى هو الذى انبتها ولم لايجوز ان يقال ان هذه الاشياء انما حدثت وتولدت بسبب تعاقب الفصول الاربعة وتأثيرات الشمس والقمر والكواكب واذا عرفت هذا السؤال فالم يقم الدليل على فساد هذا الاحتمال لايكون هذا الدليل تاما وافيا بافادة هذا المطلوب بل

(يكون)

---

اليه تعالى بالنسبة الى الطريق الجائر بأن يقال وجائرها حتى يصرف ذلك الاسناد منه تعالى الى غيره لنكتة تستدعية ولايتوهمه متوهم حتى يقتضى الحال دفع ذلك بأن يقال لاجائرها ثم يغير سبك النظم عن ذلك لداعيه اقوى منه بل الجملة الظرفية اعتراضية جئ بها لبيان الحاجة الى البيان والتعديل واظهار جلالة قدر النعمة فى ذلك والمعنى على الله تعالى بيان الطريق المستقيم الموصل الى الحق وتعديله بما ذكر من نصب الادلة ليسلكه الناس باختيارهم ويصلوا الى المقصد وهذا هو الهداية المفسرة بالدلالة على مايوصل الى المطلوب لاالهداية المستلزمة للاهتداء البتة فان ذلك مما ليس بحق على الله تعالى لابحسب ذاته ولابحسب رحمته بل هو مخل بحكمته حيث يستدعى تسوية المحسن والمسئ والمطيع والعاصى بحسب الاستعداد واليه اشير بقوله تعالى (ولوشاء لهداكم اجمعين) اى لوشاء ان يهديكم الى ماذكر من التوحيد هداية موصلة اليه البتة مستلزمة لاهتدائكم اجمعين لفعل ذلك ولكن لم يشأه لان مشيئته تابعة للحكمة الداعية اليها ولاحكمة فى تلك المشيئة لما ان الذى عليه يدور فلك التكليف واليه ينسحب الثواب والعقاب انما هو الاختيار الجزئى الذى عليه يترتب الاعمال التى بها نيط الجزاء هذا هو الذى يقتضيه المقام ويستدعيه حسن الانتظام وقد فسر كون قصد السبيل عليه تعالى بانتهائه

يكون مقام الفكر و التأمل باقيا فلهذا السبب ختم هـذه الاية بقوله لقوم يتفكرون ☼قوله تعالى (وسخر لكم الليل و النهار و الشمس و القمر و النجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون وماذرألكم فى الارض مختلفا الوانه ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون) فى الاية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان الله تعالى اجاب فى هذه الاية عن السؤال الذى ذكرناه من وجهين (الاول) ان نقول هب ان حدوث الحوادث فى هـذا العالم السفلى مستندة الى الاتصالات الفلكية و التشكلات الكوكبية الاانه لابد لحركاتها و اتصالاتها من اسباب و اسباب تلك الحركات اماذواتها و اماامور مغايرة لهـا و الاول باطل لوجهين (الاول) ان الاجسام متماثلة فلوكان جسم علة لصفة لكان كل جسم واجب الاتصاف بتلك الصفة و هو محال (والثانى) ان ذات الجسم لوكانت علة لحصول هذا الجزء من الحركة لوجب دوام هذا الجزء من الحركة بدوام تلك الذات ولوكان كذلك لوجب بقاء الجسم على حالة واحدة من غير تغير اصلا و ذلك يوجب كونه ساكنا ويمنع من كونه متحركا فثبت ان القول بأن الجسم متحرك لذاته يوجب كونه ساكنا لذاته ومافضى ثبوته الى عدمه كان باطلا فثبت ان الجسم يمتنع ان يكون متحركا لكونه جسما فبقى ان يكون متحركا لغيره و ذلك الغير اماان يكون ساريا فيه او مباينا عنه و الاول باطل لان البحث المذكور عائد فى ان ذلك الجسم بعينه لم اختص بتلك القوة بعينها دون سائر الاجسام فثبت ان محرك اجسام الافلاك و الكواكب امور مباينة عنها و ذلك المبـاين ان كان جسما او جسمانيا عاد التقسيم الاول فيه و ان لم يكن جسما و لا جسمانيـا فاما ان يكون موجبا بالذات او فاعلا مختارا و الاول باطل لان نسبة ذلك الموجب بالذات الى جميع الاجسام على السوية فلم يكن بعض الاجسام بقبول بعض الآثار المعينة اولى من بعض و لما بطل هذا ثبت ان محرك الافلاك و الكواكب هو الفاعل المختـار القادر المنزه عن كونه جسما و جسمانيا و ذلك هو الله تعالى فالحاصل انا لو حكمنا باسناد حوادث العالم السفلى الى الحركات الفلكية و الكوكبية فهذه الحركات الكوكبية و الفلكية لا يمكن اسنادها الى افلاك اخرى و الا لزم التسلسل و هو محال فوجب ان يكون خالق هذه الحركات و مدبرها هو الله تعالى و اذا كانت الحوادث السفلية مستندة الى الحركات الفلكية وثبت ان الحركات الفلكية حادثة بتخليق الله تعالى و تقديره و تكوينه فكان هذا اعترافا بأن الكل من الله تعالى و باحداثه و تخليقه و هذا هو المراد من قوله و سخر لكم الليل و النهار و الشمس و القمر يعنى ان كانت تلك الحوادث السفلية لاجل تعاقب الليل و النهار و حركات الشمس و القمر فهذه الاشياء لابد و ان يكون حدوثها بتخليق الله تعالى و تسخيره قطعا للتسلسل و لما تم هذا الدليل فى هذا المقام لاجرم ختم هذه الآية بقوله ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون يعنى ان كل من كان عاقلا علم ان القول بالتسلسل باطل و لابد من الانتهاء فى آخر الامر الى الفاعل المختار القدير فهذا تقرير احد الجوابين و الجواب الثانى

اليه على نهج الاستقامة وايثار حرف الاستعلاء على اداة الانتهاء لتأكيد الاستقامة على وجه تمثيلى من غير ان يكون هناك استعلاء لشئ عليه سبحانه وتعالى عنه علوا كبيرا كما فى قوله تعالى هذا صراط على مستقيم فالقصد مصدر بمعنى الفاعل والمراد بالسبيل الجنس كما مر وقوله تعالى ومنها جائر معطوف على الجملة الاولى والمعنى ان قصد السبيل واصل اليه تعالى بالاستقامة وبعضها منحرف عنه ولوشاء لهداكم جميعا الى الاول وانت خبير بأن هذا حق فى نفسه ولكنه بمعزل عن نكتة موجبة لتوسيطه بين ماسبق من ادلة التوحيد وبين ما لحق ولما بين الطريق السمعى للتوحيد على وجه اجمالى وفصل بعض ادلته المتعلقة باحوال الحيوانات وعقب ذلك ببيان السر الداعى اليه بعثا للمخاطبين على التأمل فيما سبق وحثا على حسن التلقى لما لحق اتبع ذلك ذكر مايدل عليه من احوال النبات فقيل (هو الذى انزل) بقدرته القاهرة (من السماء) اى من السحاب او من جانب السماء (ماء) اى نوعا منه وهو المطر وتأخيره عن المجرور لما مر مرارا من ان المقصود هو الاخبار بأنه انزل من السماء شيئا هو الماء لا انه انزله من السماء والسر فيه ماسلف من ان عند تأخير ماحقه التقديم يبقى الذهن مترقبا له مشتاقا اليه فيتمكن لديه عند وروده عليه فضل تمكن (لكم منه شراب) اى ما تشربونه وهو اما مرتفع بالظرف الاول او مبتدأ وهو خبره والجملة صفة

عن ذلك السؤال ان نقول نحن نقيم الدلالة على انه لا يجوز ان يكون حدوث النبات
والحيوان لاجل تأثير الطباع والافلاك والانجم وذلك لان تأثير الطبائع والافلاك
والانجم والشمس والقمر بالنسبة الى الكل واحد ثم نرى انه اذا تولد العنب كان قشره على
طبع وعجمه على طبع ولحمه على طبع ثالث وماؤه على طبع رابع بل نقول انا نرى في
الورد ما يكون احد وجهي الورقة الواحدة منه في غاية الصفرة والوجه الثاني من تلك
الورقة في غاية الحمرة وتلك الورقة تكون في غاية الرقة واللطافة ونعلم بالضرورة ان نسبة
الانجم والافلاك الى وجهي تلك الورقة الرقيقة نسبة واحدة والطبيعة الواحدة في
المادة الواحدة لا تفعل الا فعلا واحدا الا ترى انهم قالوا الشكل البسيط هو الكرة لان
تأثير الطبيعة الواحدة في المادة الواحدة يجب ان يكون متشابها والشكل الذي يتشابه
جميع جوانبه هو الكرة وايضا اذا وضعنا الشمع فاذا استضاء خمسة اذرع من ذلك الشمع
من احد الجوانب وجب ان يحصل مثل هذا الاثر في جميع الجوانب لان الطبيعة المؤثرة
يجب ان تتشابه نسبتها الى كل الجوانب اذا ثبت هذا فنقول ظهر ان نسبة الشمس والقمر
والانجم والافلاك والطبائع الى وجهي تلك الورقة اللطيفة الرقيقة نسبة واحدة وثبت
ان الطبيعة المؤثرة متى كانت نسبتها واحدة كان الاثر متشابها وثبت ان الاثر غير متشابه
لان احد جانبي تلك الورقة في غاية الصفرة والجانب الثاني في غاية الحمرة فهذا يفيد القطع
بأن المؤثر في حصول هذه الصفات والالوان والاحوال ليس هو الطبيعة بل المؤثر فيها هو
الفاعل المختار الحكيم وهو الله سبحانه وتعالى وهذا هو المراد من قوله وما ذرأ لكم
في الارض مختلفا الوانه واعلم انه لما كان مدار هذه الحجة على ان المؤثر الموجب بالذات
وبالطبيعة يجب ان يكون نسبته الى الكل نسبة واحدة فلما دل الحس في هذه الاجسام
النباتية على اختلاف صفاتها وتنافر احوالها ظهر ان المؤثر فيها ليس واجبا بالذات بل
فاعلا مختارا فهذا تمام تقرير هذه الدلائل وثبت ان ختم الآية الاولى بقوله لقوم
يتفكرون والآية الثانية بقوله لقوم يعقلون والآية الثالثة بقوله لقوم يذكرون هو الذي
نبه على هذه الفوائد النفيسة والدلائل الظاهرة والحمد لله على الطافه في الدين والدنيا
( المسئلة الثانية ) قرأ ابن عامر والشمس والقمر والنجوم كلها بالرفع على الابتداء والخبر
هو قوله مسخرات وقرأ حفص عن عاصم والنجوم بالرفع على ان يكون قوله والنجوم ابتداء
وانما جعلها على هذا لئلا يتكرر لفظ التسخير اذ العرب لا تقول سخرت هذا الشيء مسخرا
فجوابه ان المعنى انه تعالى سخر لنا هذه الاشياء حال كونها مسخرة تحت قدرته وارادته
وهذا هو الكلام الصحيح والتقدير انه تعالى سخر للناس هذه الاشياء وجعلها موافقة
لمصالحهم حال كونها مسخرة تحت قدرة الله تعالى وامره واذنه وعلى هذا التقدير فالتكرير
الخالي عن الفائدة غير لازم والله اعلم بقي في الآية سؤالات (الاول) التسخير عبارة عن القهر
والقسر ولا يليق ذلك الا بمن هو قادر يجوز ان يقهر فكيف يصح ذلك في الليل والنهار وفي

الماء والظرف الثاني نصب على
الحالية من شراب ومن تبعيضية
وليس في تقديمه ايهام حصر
المشروب فيه حتى يفتقر الى
الاعتذار بأنه لا بأس به لان مياه
العيون والابيار منه لقوله تعالى
فسلكه ينابيع في الارض وقوله
تعالى فأسكناه في الارض وقيل
الظرف الاول متعلق بأنزل
والثاني خبر لشراب والجملة صفة
لماء وانت خبير بأن ما فيه من
توسيط المنصوب بين المجرورين
وتوسيط الثاني منهما بين الماء
وصفته مما لا يليق بجزالة نظم
التنزيل الجليل (ومنه شجر) من
ابتدائية اي ومنه يحصل شجر
ترعاه المواشي والمراد به ما ينبت
من الارض سواء كان له ساق او لا
او تبعيضية مجازا لانه لما كان
سقيه من الماء جعل كأنه منه
كقوله * اسنمة الآبال في ربابه
يعني به المطر الذي ينبت به الكلا
الذي تأكله الابل فتسمن اسنمتها
وفي حديث عكرمة لا تأكلوا ثمن
الشجر فانه سحت يعني الكلاء
(فيه تسيمون) ترعون من سامت
الماشية واسامها صاحبها واصلها
السومة وهي العلامة لانها تؤثر
بالرعي علامات في الارض
(ينبت) اي الله عز وجل وقرئ
بالنون (لكم به) بما انزل من السماء
( الزرع والزيتون والنخيل
والاعناب ) بيان للنعم الفائضة
عليهم من الارض بطريق
الاستئناف وايثار صيغة
الاستقبال للدلالة على التجدد
والاستمرار وانها سنته الجارية على
مر الدهور او لاستحضار
صورة الانبات وتقديم
الظرفين على المفعول

الجمادات والشمس والقمر والجواب من وجهين الاول انه تعالى لما دبر هذه الاشياء على طريقة واحدة مطابقة لمصالح العباد صارت شبيهة بالعبد المنقاد المطواع فلهذا المعنى اطلق على هذا النوع من التدبير لفظ التسخير وعن الوجه الثانى فى الجواب وهو لا يستقيم الاعلى مذهب اصحاب علم الهيئة وذلك لانهم يقولون الحركة الطبيعية للشمس والقمر هى الحركة من المغرب الى المشرق والله تعالى يحرك هذه الكواكب بواسطة حركة الفلك الاعظم من المشرق الى المغرب فكانت هذه الحركة قسرية فلهذا السبب ورد فيها لفظ التسخير (السؤال الثانى) اذا كان لا يحصل للنهار والليل وجود الا بسبب حركات الشمس كان ذكر النهار والليل مغنيا عن ذكر الشمس والجواب ان حدوث النهار والليل ليس بسبب حركة الشمس بل حدوثهما بسبب حركة الفلك الاعظم الذى دللنا على ان حركته ليست الا بتحريك الله سبحانه واما حركة الشمس فانها علة لحدوث السنة لا لحدوث اليوم (السؤال الثالث) مامعنى قوله مسخرات بأمره والمؤثر فى التسخير هو القدرة لا الامر والجواب ان هذه الآية مبنية على ان الافلاك والكواكب جمادات ام لا واكثر المسلمين على انها جمادات فلاجرم حملوا الامر فى هذه الآية على الخلق والتقدير ولفظ الامر بمعنى الشان والفعل كثير قال تعالى انما امرنا لشئ اذا اردناه ان نقول له كن فيكون ومن الناس من يقول انها ليست جمادات فههنا يحمل الامر على الاذن والتكليف والله اعلم ❁ قوله تعالى (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) اعلم انه تعالى لما احتج على اثبات الاله فى المرتبة الاولى بأجرام السموات وفى المرتبة الثانية ببدن الانسان ونفسه وفى المرتبة الثالثة بعجائب خلقة الحيوانات وفى المرتبة الرابعة بعجائب طبائع النبات ذكر فى المرتبة الخامسة الاستدلال على وجود الصانع بعجائب احوال العناصر فبدأ منها بالاستدلال بعنصر الماء واعلم ان علماء الهيئة قالوا ثلاثة ارباع كرة الارض غائصة فى الماء وذلك هو البحر المحيط وهو كلية عنصر الماء وحصل فى هذا الربع المسكون سبعة من البحار كما قال بعده والبحر يمده من بعده سبعة ابحر والبحر الذى سخره الله تعالى للناس هو هذه البحار ومعنى تسخير الله تعالى اياها للخلق جعلها بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها امابالركوب اوبالغوص واعلم ان منافع البحار كثيرة والله تعالى ذكر منها فى هذه الآية ثلاثة انواع (المنفعة الاولى) قوله تعالى لتأكلوا منه لحما طريا وفيه مسائل (الاولى) قال ابن الاعرابى لحم طرى غير مهموز وقد طرو يطرو طراوة وقال الفراء طرا يطرا طراء ممدودا وطراوة كما يقال شقى يشقى شقاء وشقاوة واعلم ان فى ذكر الطرى مزيد فائدة وذلك لانه لو كان السمك كله مالحا لما عرف به من قدرة الله تعالى مايعرف بالطرى فانه لما خرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الذى لحمه فى غاية العذوبة علم انه انما حدث لا بحسب الطبيعة بل بقدرة الله وحكمته حيث اظهر الضد من الضد

الصريح المامر آنفا مع مافى تقديم اولهما من الاهتمام به لادخال المسرة ابتداء وتقديم الزرع على ماعداه لانه اصل الاغذية وعمود المعاش وتقديم الزيتون لما فيه من الشرف من حيث انه ادام من وجه وفاكهة من وجه وتقديم النخيل على الاعناب لظهور اصالتها وبقائها وجمع الاعناب للاشارة الى ما فيها من الاشتمال على الاصناف المختلفة وتخصيص الانواع المعدودة بالذكر مع اندراجها تحت قوله تعالى (ومن كل الثمرات) للاشعار بفضلها وتقديم الشجر عليها مع كونه غذاء للانعام لحصوله بغير صنع من البشر او للارشاد الى مكارم الاخلاق فان مقتضاها ان يكون اهتمام الانسان بأمر ماتحت يده اكمل من اهتمامه بأمر نفسه اولان اكثر المخاطبين من اصحاب المواشى ليس لهم زرع ولا ثمر وقيل المراد تقديم مايسام لا تقديم غذائه فانه غذاء حيوانى للانسان وهو اشرف الاغذية وقرئ ينبت من الثلاثى مسندا الى الزرع وما عطف عليه (ان فى ذلك) اى فى انزال الماء وانبات مافصل (لآية) عظيمة دالة على تفرده تعالى بالالوهية لاشتماله على كمال العلم والقدرة والحكمة (لقوم يتفكرون) فان من تفكر فى ان الحبة او النواة تقع فى الارض وتصل اليها نداوة تنفذ فيها فينشق اسفلها فيخرج منه عروق تنبسط فى اعماق الارض وينشق اعلاها وان كانت منتكسة فى الوقوع ويخرج منه ساق فينمو ويخرج منه الاوراق والازهار والحبوب والثمار المشتملة

(المسئلة الثانية) قال ابو حنيفة رحمه الله لو حلف لا يأكل اللحم فأكل لحم السمك لا يحنث قالوا لان لحم السمك ليس بلحم وقال آخرون انه يحنث لانه تعالى نص على كونه لحما فى هذه الآية وليس فوق بيان الله بيان * روى ان ابا حنيفة رحمه الله لما قال بهذا القول وسمعه سفيان الثورى فأنكر عليه ذلك واحتج عليه بهذه الآية بعث اليه رجلا وسأله عن رجل حلف لا يصلى على البساط فصلى على الارض هل يحنث ام لا قال سفيان لا يحنث فقال السائل أليس ان الله تعالى قال والله جعل لكم الارض بساطا قال فعرف سفيان ان ذلك كان بتلقين ابى حنيفة ولقائل ان يقول هذا الكلام ليس بقوى لانّ اقصى ما فى الباب انا تركنا العمل بظاهر القرآن فى لفظ البساط للدليل الذى قام عليه فكيف يلزمنا ترك العمل بظاهر القرآن فى آية اخرى والفرق بين الصورتين من وجهين (الاول) انه لما حلف لا يصلى على البساط فلو ادخلنا الارض تحت لفظ البساط لزمنا ان نمنعه من الصلاة لانه ان صلى على الارض المفروشة بالبساط لزمه الحنث لا محالة ولو صلى على الارض التى لا تكون مفروشة لزمه الحنث ايضا على تقدير ان يدخل الارض تحت لفظ البساط فهذا يقتضى منعه من الصلاة وذلك مما لا سبيل اليه بخلاف ما اذا ادخلنا لحم السمك تحت لفظ اللحم لانه ليس فى منعه من اكل اللحم على الاطلاق محذور فظهر الفرق (الثانى) انا نعلم بالضرورة من عرف اهل اللغة ان وقوع اسم البساط على الارض الخالصة مجاز اما وقوع اسم اللحم على لحم السمك فلم يعرف انه مجاز فظهر الفرق والله اعلم وحجة ابى حنيفة رحمه الله ان مبنى الايمان على العادة وعادة الناس اذا ذكر اللحم على الاطلاق ان لا يفهم منه لحم السمك بدليل انه اذا قال الرجل لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحما فجاء بالسمك كان حقيقا بالانكار والجواب انا رأيناكم فى كتاب الايمان تارة تعتبرون اللفظ وتارة تعتبرون العرف وما رأينا لكم ذكرتم ضابطا بين القسمين والدليل عليه انه اذا قال لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحما فجاء بلحم العصفور كان حقيقا بالانكار عليه مع انكم تقولون انه يحنث باكل لحم العصفور فثبت ان العرف مضطرب والرجوع الى نص القرآن متعين والله اعلم (المنفعة الثانية) من منافع البحر قوله تعالى وتستخرجوا منه حلية تلبسونها والمراد بالحلية اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان والمراد بلبسهم لبس نسائهم لانهن من جملتهم ولان اقدامهن على التزين بها انما يكون من اجلهم فكأنها زينتهم ولباسهم ورأيت بعض اصحابنا تمسكوا فى مسئلة انه لا يجب الزكاة فى الحلى المباح بحديث عروة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا زكاة فى الحلى فقلت هذا الحديث ضعيف الرواية وبتقدير الصحة فيمكن ان يقال فيه لفظ الحلى لفظ مفرد محلى بالالف واللام وقد بينا فى اصول الفقه ان هذا اللفظ يجب حمله على المعهود السابق والحلى الذى هو المعهود السابق هو الذى ذكره الله تعالى فى كتابه فى هذه الاية وهو قوله وتستخرجون منه حلية تلبسونها فصار بتقدير صحة ذلك الخبر لا زكاة فى اللآلى وحينئذ يسقط الاستدلال به والله

(اعلم)

على اجسام مختلفة الاشكال والالوان والخواص والطبائع وعلى نواة قابلة لتوليد الامثال على النمط المحرر الى نهاية مع اتحاد المواد واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثيرات العلوية بالنسبة الى الكل علم ان من هذه افعاله وآثاره لا يمكن ان يشبهه شئ فى شئ من صفات الكمال فضلا عن ان يشاركه اخس الاشياء فى اخص صفاته التى هى الالوهية واستحقاق العبادة تعالى عن ذلك علوا كبيرا وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة الى ترتيب المقدمات الفكرية قطع الآية الكريمة بالتفكر (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان خلفة لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار ونضاجها (والشمس والقمر) بدأ بان فى سيرهما وانارتهما اصالة وخلافة واصلاحهما لما نيط بهما اصلاحه من المكونات التى من جملتها ما فصل واجمل كل ذلك لمصالحكم ومنافعكم وليس المراد بتسخيرها لهم تمكينهم من تصرفها كيف شاؤا كما فى قوله تعالى سبحان الذى سخر لنا هذا ونظائره بل هو تصريفه تعالى لها حسبما يترتب عليه منافعهم ومصالحهم كأن ذلك تسخير لهم وتصرف من قبلهم حسب ارادتهم وفى التعبير عن ذلك التصريف بالتسخير ايماء الى ما فى المسخرات من صعوبة المأخذ بالنسبة الى المخاطبين وايثار صيغة الماضى للدلالة على ان ذلك امر واحد مستمر وان تجددت آثاره (والنجوم مسخرات بأمره) مبتدأ وخبر اى سائر النجوم فى حركاتها واوضاعها

اعلم (المنفعة الثالثة) قوله تعالى وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله قال اهل اللغة مخر السفينة شقها الماء بصدرها وعن الفراء انه صوت جرى الفلك بالرياح اذا عرفت هذا فقول ابن عباس مواخر اى جوارى انما حسن التفسير به لانها لاتشق الماء الا اذا كانت جارية وقوله تعالى ولتبتغوا من فضله يعنى لتركبوه للتجارة فتطلبوا الربح من فضل الله واذا وجدتم فضل الله تعالى واحسانه فلعلكم تقدمون على شكره والله اعلم ❊ قوله تعالى (وألقى فى الارض رواسى ان تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون) اعلم ان المقصود من هذه الآية ذكر بعض النعم التى خلقها الله تعالى فى الارض (فالنعمة الاولى) قوله وألقى فى الارض رواسى ان تميد بكم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله ان تميد بكم يعنى لئلا تميد بكم على قول الكوفيين وكراهة ان تميد بكم على قول البصريين وذكرناهذا عند قوله تعالى يبين الله لكم ان تضلوا والميد الحركة والاضطراب يمينا وشمالا يقال ماد يميد ميدا (المسئلة الثانية) المشهور عن الجمهور فى تفسير هذه الآية ان قالوا ان السفينة اذا ألقيت على وجه الماء فانها تميد من جانب الى جانب وتضطرب فاذا وضعت الاجرام الثقيلة فى تلك السفينة استقرت على وجه الماء فاستوت قالوا فكذلك لما خلق الله تعالى الارض على وجه الماء اضطربت ومادت فخلق الله تعالى عليها هذه الجبال الثقال فاستقرت على وجه الماء بسبب ثقل هذه الجبال ولقائل ان يقول هذا يشكل من وجوه (الاول) ان هذا التعليل اما ان يذكر مع تسليم كون الارض والماء ثقيلة بالطبع اومع المنع من هذا الاصل ومع القول بأن حركات هذه الاجسام بطباعها اوليست بطباعها بل هى واقعة بتخليق الفاعل المختار اما على التقدير الاول فهذا التعليل مشكل لان على هذا الاصل لاشك ان الارض اثقل من الماء والاثقل من الماء يغوص فى الماء ولا يبقى طافيا عليه واذا لم يبق طافيا عليه امتنع ان يقال انها تميد وتميل وتضطرب وهذا بخلاف السفينة لانها متخذة من الخشب وفى داخل الخشب تجويفات مملوءة من الهواء فلهذا السبب تبقى الخشبة طافية على الماء فحينئذ تضطرب وتميد وتميل على وجه الماء فاذا ارسيت بالاجسام الثقيلة استقرت وسكنت فظهر الفرق واما على التقدير الثانى وهو ان يقال ليس للارض ولا للماء طبائع توجب الثقل والرسوب والارض انما تنزل لان الله تعالى اجرى عادته بجعلها كذلك وانما صار الماء محيطا بالارض لمجرد اجراء العادة وليس ههنا طبيعة للارض ولا للماء توجب حالة مخصوصة فنقول فعلى هذا التقدير علة سكون الارض هى ان الله تعالى يخلق فيها السكون وعلة كونها مائدة مضطربة هى ان الله تعالى يخلق فيها الحركة وعلى هذا التقدير فانه يفسد القول بأن الارض كانت مائدة مائلة فخلق الله الجبال وارساها عليها لتبقى ساكنة لان هذا انما يصح اذا كانت طبيعة الارض توجب الميدان وطبيعة الجبال توجب الارساء والثبات ونحن انما نتكلم الآن على تقدير نفى الطبائع الموجبة لهذه الاحوال فثبت ان هذا التعليل

من التثليث والتربيع ونحوهما مسخرات لله تعالى او لما خلقن له بارادته ومشيئته وحيث لم يكن عود منافع النجوم اليهم فى الظهور بمثابة ماقبلها من الملوين والقمرين لم ينسب تسخيرها اليهم بأداة الاختصاص بل ذكر على وجه يفيد كونها تحت ملكوته تعالى من غير دلالة على شىء آخر ولذلك عدل عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث الى الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار وقرئ برفع الشمس والقمر ايضا وقرئ بنصب النجوم على انه مفعول اول لفعل مقدر ينبئ عنه الفعل المذكور ومسخرات مفعول ثان له اى وجعل النجوم مسخرات بأمره اوعلى انه معطوف على المنصوبات المتقدمة ومسخرات حال من الكل والعامل ما فى سخر من معنى نفع اى نفعكم بها حال كونها مسخرات لله الذى خلقها ودبرها كيف شاء او لما خلقن له بايجاده وتقديره اولحكمه او مصدر ميمى جمع لاختلاف الانواع اى انواعا من التسخير وما قيل من ان فيه ايذانا بالجواب عما عسى يقال ان المؤثر فى تكوين النبات حركات الكواكب واوضاعها بأن ذلك ان سلم فلا ريب فى انها ايضا امور ممكنة الذات والصفات واقعة على بعض الوجوه الممكنة فلا بدلها من موجد مخصص مختار واجب الوجود دفعا للدور والتسلسل فبناه حسبان ماذكر ادلة على وجود الصانع تعالى وقدرته واختياره وانت تدرى ان ليس الامر كذلك فانه ليس مما ينازع فيه الخصم ولا يتلعثم فى قبوله قال تعالى ولئن سألتهم من خلق

مشكل على كل التقديرات ( السؤال الثانى ) هو ان ارساء الارض بالجبال انما يعقل لاجل ان تبقى الارض على وجه الماء من غير ان تميد و تميل من جانب الى جانب وهذا انما يعقل اذا كان الماء الذى استقرت الارض على وجهه واقفا فنقول فالمقتضى لسكون ذلك الماء و وقوفه فى حيزه المخصوص فان قلت المقتضى لسكونه فى ذلك الحيز المخصوص هو ان طبيعته المخصوصة توجب وقوفه فى ذلك الحيز المعين فلم لاتقول مثله فى الارض وهو أن الطبيعة المخصوصة التى للارض توجب وقوفها فى ذلك الحيز المعين وذلك يفسد القول بأن الارض انما وقفت بسبب ان الله تعالى ارساها بالجبال فان قلت المقتضى لسكون الماء فى حيزه المعين هو ان الله تعالى سكن الماء بقدرته فى ذلك الحيز المخصوص فلم لاتقول مثله فى سكون الارض وحينئذ يفسد هذا التعليل ايضا ( السؤال الثالث ) ان مجموع الارض جسم عظيم فبتقدير ان تميد كليته وتضطرب على وجه البحر المحيط لم تظهر تلك الحالة للناس فان قيل أليس ان الارض تحركها البخارات المحتقنة فى داخلها عند الزلازل وتظهر تلك الحركات للناس فبم تنكرون على من يقول انه لولا الجبال لتحركت الارض الا انه تعالى لما ارساها بالجبال الثقال لم تقو الرياح على تحريكها قلنا تلك البخارات انما احتقنت فى داخل قطعة صغيرة من الارض فلما حصلت الحركة فى تلك القطعة الصغيرة ظهرت تلك الحركة قال القائلون بهذا القول ان ظهور الحركة فى تلك القطعة المعينة من الارض يجرى مجرى اختلاج يحصل فى عضو معين من بدن الانسان اما لو حركت كلية الارض لم تظهر تلك الحركة الاترى ان الساكن فى السفينة لايحس بحركة كلية السفينة وان كانت واقعة على اسرع الوجوه واقواها فكذا ههنا فهذا ما فى هذا الموضع من المباحث الدقيقة العميقة والذى عندى فى هذا الموضع المشكل ان يقال ثبت بالدلائل اليقينية ان الارض كرة وثبت ان هذه الجبال على سطح هذه الكرة جارية مجرى خشونات تحصل على وجه هذه الكرة اذا ثبت هذا فنقول لو فرضنا ان هذه الخشونات ما كانت حاصلة بل كانت الارض كرة حقيقية خالية عن الخشونات والتضريسات لصارت بحيث تتحرك بالاستدارة بادنى سبب لان الجرم البسيط المستدير اما ان يجب كونه متحركا بالاستدارة على نفسه وان لم يجب ذلك عقلا الا انه بأدنى سبب يتحرك على هذا الوجه اما لما حصل على ظاهر سطح كرة الارض هذا الجبال وكانت كالخشونات الواقعة على وجه الكرة فكل واحد من هذه الجبال انما يتوجه بطبعه نحو مركز العالم وتوجه ذلك الجبل نحو مركز العالم بثقله العظيم وقوته الشديدة يكون جاريا مجرى الوتد الذى يمنع كرة الارض من الاستدارة فكان تخليق هذه الجبال على وجه الارض كالاوتاد المغروزة فى الكرة المانعة لها عن الحركة المستديرة فكانت مانعة للارض من الميد والميل والاضطراب بمعنى انها منعت الارض من الحركة المستديرة فهذا ما وصل اليه بحثى فى هذا الباب والله اعلم بمراده (النعمة الثانية) من النعم التى اظهرها الله تعالى على وجه

( الارض )

السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فانى يؤفكون وقال تعالى ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فاحيى به الارض من بعد موتها ليقولن الله الآية وانما ذلك ادلة التوحيد من حيث ان من هذا شأنه لايتوهم ان يشاركه شئ فى شئ فضلا عن ان يشاركه الجماد فى الالوهية (ان فى ذلك) اى فيما ذكر من التسخير المتعلق بما ذكر مجملا ومفصلا ( لآيات ) باهرة متكاثرة (لقوم يعقلون) وحيث كانت هذه الآثار العلوية متعددة ودلالة ما فيها من عظيم القدرة والعلم والحكمة على الوحدانية اظهر جمع الآيات وعلقت بمجرد العقل من غير حاجة الى التأمل والتفكر ويجوز ان يكون المراد لقوم يعقلون ذلك فالمشار اليه حينئذ تعاجيب الدقائق المودعة فى العلويات المدلول عليها بالتسخير التى لايتصدى لمعرفتها الا المهرة من اساطين علماء الحكمة ولاريب فى ان احتياجها الى التفكر اكثر (وماذرأ) عطف على قوله تعالى والنجوم رفعا ونصبا على انه مفعول لجعل اى وما خلق (لكم فى الارض) من حيوان ونبات حال كونه (مختلفا الوانه) اى اصنافه فان اختلافها غالبا يكون باختلاف اللون مسخر لله تعالى او لما خلق له من الخواص والاحوال والكيفيات اوجعل ذلك مختلف الالوان اى الاصناف لتمتعوا من ذلك باى صنف شئتم وقد عطف على ماقبله من المنصوبات وعقب بأن ذكر الخلق لهم

الارض هى انه تعالى اجرى الانهار على وجه الارض واعلم انه حصل ههنا بحثان (البحث الاول) ان قوله وانهارا معطوف على قوله والقى فى الارض رواسى والتقدير والقى رواسى وانهارا وخلق الانهار لايبعد ان يسمى بالالقاء فيقال القى الله فى الارض انهارا كما قال والقى فيها رواسى والالقاء معناه الجعل ألا ترى انه تعالى قال فى آية اخرى وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها والالقاء يقارب الانزال لان الالقاء يدل على طرح الشئ من الاعلى الى الاسفل الا ان المراد من هذا الالقاء الجعل والخلق قال تعالى والقيت عليك محبة منى (البحث الثانى) انه ثبت فى العلوم العقلية ان اكثر الانهار انما تتفجر منابعها فى الجبال فلهذا السبب لما ذكر الله تعالى الجبال اتبع ذكرها بتفجير العيون والانهار (النعمة الثالثة) قوله تعالى وسبلا لعلكم تهتدون وهى ايضا معطوفة على قوله والقى فى الارض رواسى والتقدير والقى فى الارض سبلا ومعناه انه تعالى اظهرها وبينها لاجل ان تهتدوا بها فى اسفاركم ونظيره قوله تعالى فى آية اخرى وسلك لكم فيها سبلا وقوله لعلكم تهتدون اى لكى تهتدوا واعلم انه تعالى لما ذكر انه اظهر فى الارض سبلا معينة ذكر انه اظهر فيها علامات مخصوصة حتى يتمكن المكلف من الاستدلال بها فيصل بواسطتها الى مقصوده فقال وعلامات وهى ايضا معطوفة على قوله فى الارض رواسى والتقدير والقى فى الارض رواسى والقى فيها انهارا وسبلا والقى فيها علامات والمراد بالعلامات معالم الطرق وهى الاشياء التى بها يهتدى وهذه العلامات هى الجبال والرياح ورأيت جماعة يشمون التراب وبواسطة ذلك الشم يتعرفون الطرق قال الاخفش تم الكلام عند قوله وعلامات وقوله وبالنجم هم يهتدون كلام منفصل عن الاول والمراد بالنجم الجنس كقولك كثر الدرهم فى ايدى الناس وعن السدى هو الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدى وقرأ الحسن وبالنجم بضمتين وبضمة فسكون وهو جمع نجم كرهن ورهن والسكون تخفيف وقيل حذف الواو من النجم تخفيفا فان قيل قوله ان تميد بكم خطاب الحاضرين وقوله وبالنجم هم يهتدون خطاب للغائبين فالسبب فيه قلنا ان قريشا كانت تكثر اسفارها لطلب المال ومن كثرت اسفاره كان علمه بالمنافع الحاصلة من الاهتداء بالنجوم اكثر وأتم فقوله وبالنجم هم يهتدون اشارة الى قريش للسبب الذى ذكرناه والله اعلم واختلف المفسرون فمنهم من قال قوله وبالنجم هم يهتدون مختص بالبحر لانه تعالى لما ذكر صفة البحر ومافيه من المنافع بين ان من يسيرون فيه يهتدون بالنجم ومنهم من قال بل هو مطلق يدخل فيه السير فى البر والبحر وهذا القول اولى لانه اعم فى كونه نعمة ولان الاهتداء بالنجم قد يحصل فى الوقتين معا ومن الفقهاء من يجعل ذلك دليلا على ان المسافر اذا عميت عليه القبلة فانه يجب عليه ان يستدل بالنجوم وبالعلامات التى فى الارض وهى الجبال والرياح وذلك صحيح لانه كما يمكن الاهتداء بهذه العلامات فى معرفة الطرق والمسالك فكذلك يمكن الاستدلال بها فى معرفة طلب القبلة واعلم ان اشتباه القبلة اما ان يكون بعلامات لائحة اولا يكون

مغن عن ذكر التسخير واعتذر بان الاول لايستلزم الثانى لزوما عقليا لجواز كون ماخلق لهم عزيز المرام صعب المنال وقيل هو منصوب بفعل مقدر اى خلق وانبت على ان قوله مختلفا الوانه حال من مفعوله (ان فى ذلك) الذى ذكر من التسخيرات ونحوها (لآية) بينة الدلالة على ان من هذا شأنه واحد لاند له ولاضد (لقوم يذكرون) فان ذلك غير محتاج الا الى تذكر ماعسى يغفل عنه من العلوم الضرورية واما مايقال من ان اختلافها فى الطباع والهيآت والمناظر ليس الابصنع صانع حكيم فداره ما لوحنا به من حسبان ماذكر دليلا على اثبات الصانع تعالى وقد عرفت حقيقة الحال فان اريد دلالته على اتصافه سبحانه بماذكر من صفات الكمال ليس بطريق الاستدلال عليه بل من حيث ان ذلك من المقدمات المسلمة جئ به للاستدلال به على مايقتضيه ضرورة من وحدانيته تعالى واستحالة ان يشاركه شئ فى الالوهية (وهو الذى سخر البحر) شروع فى تعداد النعم المتعلقة بالبحر اثر تفصيل النعم المتعلقة بالبر حيوانا ونباتا اى جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب والغوص والاصطياد (لتأكلوا منه لحما طريا) هو السمك والتعبير عنه باللحم مع كونه حيوانا للتلويح بانحصار الانتفاع به فى الاكل ووصفه بالطراوة للاشعار بلطافته والتنبيه على وجوب المسارعة الى اكله كيلا يتسارع اليه الفساد كما ينبئ عنه جعل البحر مبدأ أكله وللايذان بكمال قدرته تعالى خلقه عذبا طريا فى ماء زعاق ومن اطلاق اللحم عليه ذهب

فان كانت لائحة وجب ان يجب الاجتهاد ويتوجه الى حيث غلب على الظن انه هو القبلة فان تبين الخطأ وجب الاعادة لانه كان مقصرا فيما وجب عليه وان لم تظهر العلامات فههنا طريقان (احدهما) ان يكون مخيرا فى الصلاة الى اى جهة شاء لان الجهات لما تساوت وامتنع الترجيح لم يبق الا التخيير (والطريق الثانى) ان يصلى الى جميع الجهات فحينئذ يعلم بيقين انه خرج عن العهدة وهذا كما يقوله الفقهاء فيمن نسى صلاة لا يعرفها بعينها ان الواجب عليه فى القضاء ان يأتى بالصلوات الخمس ليكون على يقين من قضاء مالزمه ومنهم من يقول الواجب منها واحدة فقط وهذا غلط لانه لما لزمه ان يفعل الكل كان الكل واجبا وان كان سبب وجوب كل هذه الصلوات فوت الصلاة الواحدة والله اعلم

❊ قوله تعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم والله يعلم ماتسرون وماتعلنون والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون اموات غير احياء ومايشعرون ايان يبعثون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما ذكر الدلائل الدالة على وجود الاله القادر الحكيم على الترتيب الاحسن والنظام الاكمل وكانت تلك الدلائل كما انها كانت دلائل فكذلك ايضا كانت شرحا وتفصيلا لانواع نعم الله تعالى واقسام احسانه اتبعه بذكر ابطال عبادة غير الله تعالى والمقصود انه لما دلت هذه الدلائل الباهرة والبينات الزاهرة القاهرة على وجود اله قادر حكيم وثبت انه هو المولى لجميع هذه النعم والمعطى لكل هذه الخيرات فكيف يحسن فى العقول الاشتغال بعبادة موجود سواه لاسيما اذا كان ذلك الموجود جمادا لا يفهم ولا يقدر فلهذا الوجه قال بعد تلك الآيات أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون والمعنى أفمن يخلق هذه الاشياء التى ذكرناها كمن لا يخلق بل لا يقدر البتة على شئ أفلا تذكرون فان هذا القدر لا يحتاج الى تدبر وتفكر ونظر ويكفى فيه ان تتنبهوا على ما فى عقولكم من ان العبادة لا تليق الا بالمنعم الاعظم وانتم ترون فى الشاهد انسانا عاقلا فاهما ينعم بالنعمة العظيمة ومع ذلك فتعلمون انه يقبح عبادته فهذه الاصنام جمادات محضة وليس لها فهم ولا قدرة ولا اختيار فكيف تقدمون على عبادتها وكيف تجوزون الاشتغال بخدمتها وطاعتها (المسئلة الثانية) المراد بقوله من لا يخلق الاصنام وانها جمادات فلا يليق بها لفظة من لانها لأولى العلم واجيب عنه من وجوه (الاول) ان الكفار لما سموها آلهة وعبدوها لا جرم اجريت مجرى اولى العلم ألا ترى الى قوله على اثره والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون (والوجه الثانى) فى الجواب ان السبب فيه المشاكلة بينه وبين من يخلق (والثالث) ان يكون المعنى ان من يخلق ليس كمن لا يخلق من اولى العلم فكيف من لا علم عنده كقوله ألهم ارجل يمشون بها يعنى ان الآلهة التى تدعونها حالهم منحطة عن حال من لهم ارجل وايد وآذان وقلوب لان هؤلاء احياء وهم اموات فكيف يصح منهم عبادتها وليس المراد انه لو صحت لهم هذه الاعضاء لصح ان يعبدوا فان قيل

(قوله)

مالك والثورى ان من حلف لا يأكل اللحم حنث بأكله والجواب ان مبنى الايمان العرف ولاريب فى انه لا يفهم من اللحم عند الاطلاق ولذلك لو امر خادمه بشراء اللحم فجاء بالسمك لم يكن ممتثلا بالامر الا يرى الى ان الله تعالى سمى الكافر دابة حيث قال ان شر الدواب عند الله الذين كفروا ولا يحنث بركوبه من حلف لا يركب دابة (وتستخرجوا منه حلية) كاللؤلؤ والمرجان (تلبسونها) عبر فى مقام الامتنان عن لبس نسائهم بلبسهم لكونهن منهم اولكونهن لبسهن لاجلهم (وترى الفلك) السفن (مواخر فيه) جوارى فيه مقبلة ومدبرة ومعترضة بريح واحدة تشقه بحيزومها من المخر وهو شق الماء وقيل هو صوت جرى الفلك (ولتبتغوا) عطف على تستخرجوا وما عطف هو عليه وما بينهما اعتراض لتمهيد مبادى الابتغاء ودفع توهم كونه باستخراج الحلية اوعلى علة محذوفة اى لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا ذكره ابن الانبارى اومتعلقة بفعل محذوف اى وفعل ذلك لتبتغوا (من فضله) من سعة رزقه بركوبها للتجارة (ولعلكم تشكرون) اى تعرفون حقوق نعمه الجليلة فتقومون بأدائها بالطاعة والتوحيد ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث ان فيها قطعا لمسافة طويلة مع احمال ثقيلة فى مدة قليلة من غير مزاولة اسباب السفر بل من غير حركة اصلا مع انها فى تضاعيف المهالك وعدم توسيط الفوز بالمطلوب بين الابتغاء والشكر

قوله أفمن يخلق كمن لايخلق المقصود منه الزام عبدة الاوثان حيث جعلوا غير الخالق مثل الخالق فى التسمية بالاله و فى الاشتغال بعبادتها فكان حق الالزام ان يقال أفمن لايخلق كمن يخلق والجواب المراد منه ان من يخلق هذه الاشياء العظيمة ويعطى هذه المنافع الجليلة كيف يسوى بينه وبين هذه الجمادات الخسيسة فى التسمية باسم الاله وفى الاشتغال بعبادتها والاقدام على غاية تعظيمها فوقع التعبير عن هذا المعنى بقوله أفمن يخلق كمن لايخلق (المسئلة الثالثة) احتج بعض اصحابنا بهذه الآية على ان العبد غير خالق لافعال نفسه فقال انه تعالى ميز نفسه عن سائر الاشياء التى كانوا يعبدونها بصفة الخالقية لان قوله أفمن يخلق كمن لايخلق الغرض منه بيان كونه ممتازا عن الانداد بصفة الخالقية وانه انما استحق الالهية والمعبودية بسبب كونه خالقا فهذا يقتضى ان العبد لوكان خالقا لبعض الاشياء لوجب كونه الها معبودا ولما كان ذلك باطلا علمنا ان العبد لايقدر على الخلق والايجاد قالت المعتزلة الجواب عنه من وجوه (الاول) ان المراد أفمن يخلق ماتقدم ذكره من السموات والارض والانسان والحيوان والنبات والبحار والنجوم والجبال كمن لايقدر على خلق شئ اصلا فهذا يقتضى ان من كان خالقا لهذه الاشياء فانه يكون الها ولم يلزم منه ان من يقدر على افعال نفسه ان يكون الها (والثانى) ان معنى الآية ان من كان خالقا كان افضل ممن لايكون خالقا فوجب امتناع التسوية بينهما فى الالهية والمعبودية وهذا القدر لايدل على ان كل من كان خالقا فانه يجب ان يكون الها والدليل عليه قوله تعالى ألهم ارجل يمشون بها ومعناه ان الذى حصل له رجل يمشى بها يكون افضل من الذى حصل له رجل لايقدر ان يمشى بها وهذا يوجب ان يكون الانسان افضل من الصنم والافضل لايليق به عبادة الاخس فهذا هو المقصود من هذه الآية ثم انها لاتدل على ان من حصل له رجل يمشى بها ان يكون الها فكذلك ههنا المقصود من هذه الآية بيان ان الخالق افضل من غير الخالق فيمتنع التسوية بينهما فى الالهية والمعبودية ولايلزم منه ان بمجرد حصول صفة الخالقية يكون الها (والوجه الثالث) فى الجواب ان كثيرا من المعتزلة لايطلقون لفظ الخالق على العبد قال الكعبى فى تفسيره انا لانقول انا نخلق افعالنا قال ومن اطلق ذلك فقد اخطأ الا فى مواضع ذكرها الله تعالى كقوله واذ تخلق من الطين كهيئة الطير وقوله فتبارك الله احسن الخالقين واعلم ان اصحاب ابى هاشم يطلقون لفظ الخالق على العبد حتى ان اباعبدالله البصرى بالغ وقال اطلاق لفظ الخالق على العبد حقيقة وعلى الله مجاز لان الخلق عبارة عن التقدير وذلك عبارة عن الظن والحسبان وهو فى حق العبد حاصل وفى حق الله تعالى محال واعلم ان هذه الاجوبة قوية والاستدلال بهذه الآية على صحة مذهبنا ليس بقوى والله اعلم اما قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لمابين بالآية المتقدمة ان الاشتغال بعبادة غير الله باطل وخطأ بين بهذه الآية ان العبد لايمكنه الاتيان بعبادة الله تعالى وشكر نعمه والقيام

للايذان باستغنائه عن التصريح به وبمحصولهما معا (والقى فى الارض رواسى) اى جبالا ثوابت وقد مر تحقيقه فى اول سورة الرعد (ان تميد بكم) كراهة ان تميل بكم وتضطرب اولئلا تميد بكم فان الارض قبل ان تخلق فيها الجبال كانت كرة خفيفة بسيطة الطبع وكان من حقها ان تتحرك بالاستدارة كالافلاك او تتحرك بأدنى سبب محرك فلما خلقت الجبال تفاوتت حافاتها وتوجهت الجبال بثقلها نحو المركز فصارت كالاوتاد وقيل لما خلق الله تعالى الارض جعلت تمور فقالت الملائكة ما هى بمقر احد على ظهرها فأصبحت وقد ارسيت بالجبال (وانهارا) اى وجعل فيه انهارا لان فى ألقى معنى الجعل (وسبلا لعلكم تهتدون) بها الى مقاصدكم (وعلامات) معالم يستدل بها السابلة بالنهار من جبل ومنهل وريح وقد نقل ان جماعة يشمون التراب ويتعرفون به الطرقات (وبالنجم هم يهتدون) بالليل فى البرارى والبحار حيث لاعلامة غيره والمراد بالنجم الجنس وقيل هو الثريا والفرقدان وبنات النعش والجدى وقرئ بضمتين وبضمة وسكون وهو جمع كرهن ورهن وقيل الاول بطريق حذف الواو من النجوم للتخفيف ولعل الضمير لقريش فانهم كانوا كثيرى التردد للتجارة مشهورين بالاهتداء بالنجوم فى اسفارهم وصرف النظم عن سنن الخطاب وتقديم النجم واقحام الضمير للتخصيص كأنه قيل وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون فالاعتبار بذلك والشكر عليه الزم لهم واوجب عليهم

بحقوق كرمه على سبيل الكمال والتمام بل العبد وان اتعب نفسه في القيام بالطاعات والعبادات وبالغ في شكر نعمة الله تعالى فانه يكون مقصرا وذلك لان الاشتغال بشكر النعم مشروط بعلمه بتلك النعم على سبيل التفصيل والتحصيل فان مالا يكون متصورا ولا مفهوما ولا معلوما امتنع الاشتغال بشكره الا ان العلم بنعم الله تعالى على التفصيل غير حاصل للعبد لان نعم الله تعالى كثيرة واقسامها وشعبها واسعة عظيمة وعقول الخلق قاصرة عن الاحاطة بمباديها فضلا عن غاياتها فثبت انها غير معلومة على سبيل التفصيل وما كان كذلك امتنع الاشتغال بشكره على الوجه الذى يكون ذلك الشكر لائقا بتلك النعم فهذا هو المفهوم من قوله وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها يعنى انكم لا تعرفونها على سبيل التمام والكمال واذا لم تعرفوها امتنع منكم القيام بشكرها على سبيل التمام والكمال وذلك يدل على ان شكر الخلق قاصر عن نعم الحق وعلى ان طاعات الخلق قاصرة عن ربوبية الحق وعلى ان معارف الخلق قاصرة عن كنه جلال الحق ومما يدل قطعا على ان عقول الخلق قاصرة عن معرفة اقسام نعم الله تعالى ان كل جزء من اجزاء البدن الانسانى لو ظهر فيه ادنى خلل لتنغص العيش على الانسان ولتمنى ان ينفق كل الدنيا حتى يزول عنه ذلك الخلل ثم انه تعالى يدبر احوال بدن الانسان على الوجه الاكمل الاصلح مع ان الانسان لا علم له بوجود ذلك الجزء ولا بكيفية مصالحه ولا بدفع مفاسده فليكن هذا المثال حاضرا فى ذهنك ثم تأمل فى جميع ما خلق الله فى هذا العالم من المعادن والنبات والحيوان وجعلها مهيأة لانتفاعك بها حتى تعلم ان عقول الخلق تفنى فى معرفة حكمة الرحمن فى خلق الانسان فضلا عن سائر وجوه الفضل والاحسان فان قيل فلما قررتم ان الاشتغال بالشكر موقوف على حصول العلم باقسام النعم ودللتم على ان حصول العلم باقسام النعم محال او غير واقع فكيف امر الله الخلق بالقيام بشكر النعم قلنا الطريق اليه ان يشكر الله تعالى على جميع نعمه مفصلها ومجملها فهذا هو الطريق الذى به يمكن الخروج عن عهدة الشكر والله اعلم (المسئلة الثانية) قال بعضهم انه ليس لله على الكافر نعمة وقال الاكثرون لله على الكافر والمؤمن نعم كثيرة والدليل عليه ان الانعام بخلق السموات والارض والانعام بخلق الانسان من النطفة والانعام بخلق الانعام وبخلق الخيل والبغال والحمير وبخلق اصناف النعم من الزرع والزيتون والنخيل والاعناب وبتسخير البحر ليأكل الانسان منه لحما طريا ويستخرج منه حلية يلبسها كل ذلك مشترك فيه بين المؤمن والكافر ثم اكد تعالى ذلك بقوله تعالى وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها وذلك يدل على ان كل هذه الاشياء نعم من الله تعالى فى حق الكل وهذا يدل على ان نعم الله واصلة الى الكفار والله اعلم اما قوله ان الله لغفور رحيم اعلم انه تعالى قال فى سورة ابراهيم وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار وقال ههنا ان الله لغفور رحيم والمعنى انه لما بين ان الانسان لا يمكنه القيام باداء الشكر على سبيل التفصيل قال ان الله لغفور رحيم اى غفور

(افمن يخلق) هذه المصنوعات العظيمة ويفعل هاتيك الافاعيل البديعة او يخلق كل شئ (كمن لا يخلق) شيئا اصلا وهو تبكيت للكفرة وابطال لاشراكهم وعبادتهم للاصنام بانكار مايستلزمه ذلك من المشابهة بينها وبينه سبحانه وتعالى بعد تعداد مايقتضى ذلك اقتضاء ظاهرا وتعقيب الهمزة بالفاء لتوجيه الانكار الى ترتب توهم المشابهة المذكورة على ما فصل من الامور العظيمة الظاهرة الاختصاص به تعالى المعلومة كذلك فيما بينهم حسبما يؤذن به ماتلوناه من قوله تعالى ولئن سألتهم الآيتين والاقتصار على ذكر الخلق من بينها لكونه اعظمها واظهرها واستتباعه اياها ولكون كل منها خلقا مخصوصا أى ابعد ظهور اختصاصه تعالى بمبدئية هذه الشؤن الواضحة الدلالة على وحدانيته تعالى وتفرده بالالوهية واستبداده باستحقاق العبادة يتصور المشابهة بينه وبين ماهو بمعزل من ذلك بالمرة كما هو قضية اشراككم ومدارها وان كان على تشبيه غير الخالق بالخالق لكن التشبيه حيث كان نسبة تقوم بالمنتسبين اختير ما عليه النظم الكريم مراعاة لحق سبق الملكة على العدم وتفاديا عن توسيط عدمها بينها وبين جزئياتها المفصلة قبلها وتنبيها على كمال قبح مافعلوه من حيث ان ذلك ليس مجرد رفع الاصنام عن محلها بل هو حط لمنزلة الربوبية الى مرتبة الجمادات ولاريب فى انه اقبح من الاول والمراد بمن لا يخلق كل ما هذا شأنه كائنا ما كان والتعبير عنه

للتقصير الصادر عنكم فى القيام بشكر نعمه رحيم بكم حيث لم يقطع نعمه عنكم بسبب تقصيركم اما قوله والله يعلم ماتسرون وماتعلنون ففيه وجهان (الاول) ان الكفار كانوا مع اشتغالهم بعبادة غيرالله تعالى يسرون ضروبا من الكفر فى مكايد الرسول عليه السلام فجعل هذا زجرا لهم عنها (والثانى) انه تعالى زيف فى الآية الاولى عبادة الاصنام بسبب انه لاقدرة لها على الخلق والانعام وزيف فى هذه الآية ايضا عبادتها بسبب ان الاله يجب ان يكون عالما بالسر والعلانية وهذه الاصنام جمادات لامعرفة لها بشئ اصلا فكيف تحسن عبادتها اما قوله والذين يدعون من دون الله لايخلقون شيئا وهم يخلقون فاعلم انه تعالى وصف هذه الاصنام بصفات كثيرة (فالصفة الاولى) انهم لايخلقون شيئا وهم يخلقون قرأ حفص عن عاصم يسرون ويعلنون ويدعون كلها بالياء على الحكاية عن الغائب وقرأ ابوبكر عن عاصم يدعون بالياء خاصة على المغايبة وتسرون وتعلنون بالتاء على الخطاب والباقون كلها بالتاء على الخطاب عطفا على ماقبله فان قيل أليس ان قوله فى اول الآية أفمن يخلق كمن لايخلق يدل على ان هذه الاصنام لاتخلق شيئا وقوله ههنا لايخلقون شيئا يدل على نفس هذا المعنى فكان هذا محض التكرير وجوابه ان المذكور فى اول الآية انهم لايخلقون شيئا والمذكور ههنا انهم لايخلقون شيئا وانهم مخلوقون لغيرهم فكان هذا زيادة فى المعنى وكأنه تعالى بدأ بشرح نقصهم فى ذواتهم وصفاتهم فبين اولا انها لاتخلق شيئا ثم بين ثانيا انها كما لاتخلق غيرها فهى مخلوقة لغيرها (والصفة الثانية) قوله اموات غير احياء والمعنى انها لو كانت آلهة على الحقيقة لكانوا احياء غير اموات اى غير جائز عليها الموت كالحى الذى لايموت سبحانه وتعالى وامر هذه الاصنام على العكس من ذلك فان قيل لما قال اموات علم انها غير احياء فما الفائدة فى قوله غير احياء والجواب من وجهين (الاول) ان الاله هو الحى الذى لايحصل عقيب حياته موت وهذه الاصنام اموات لايحصل عقيب موتها الحياة (والثانى) ان هذا الكلام مع الكفار الذين يعبدون الاوثان وهم فى نهاية الجهالة والضلالة ومن تكلم مع الجاهل الغر الغبى فقد يحسن ان يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة وغرضه منه الاعلام بكون ذلك المخاطب فى غاية الغباوة وانه انما يعيد تلك الكلمات لكون ذلك السامع فى نهاية الجهالة وانه لايفهم المعنى المقصود بالعبارة الواحدة (الصفة الثالثة) قوله ومايشعرون ايان يبعثون والضمير فى قوله ومايشعرون عائد الى الاصنام وفى الضمير فى قوله يبعثون قولان (احدهما) انه عائد الى العابدين للاصنام يعنى ان الاصنام لايشعرون متى تبعث عبدتهم وفيه تهكم بالمشركين وان آلهتهم لايعلمون وقت بعثهم فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم (والثانى) انه عائد الى الاصنام يعنى ان هذه الاصنام لاتعرف متى يبعثها الله تعالى قال ابن عباس ان الله يبعث الاصنام ولها ارواح ومعها شياطينها فيؤمر بها الى النار فان قيل الاصنام جمادات والجمادات لاتوصف بانها اموات ولاتوصف بأنهم لايشعرون كذا وكذا والجواب عنه من وجوه

بما يختص بالعقلاء للمشاكلة او العقلاء خاصة و يعرف منه حال غيرهم بدلالة النص فان من يخلق حيث لم يكن كمن لايخلق وهو من جملة العقلاء فما ظنك بالجماد واياما كان فدخول الاصنام فى حكم عدم المماثلة والمشابهة اما بطريق الاندراج تحت الموصول العام واما بطريق الانفهام بدلالة النص على الطريقة البرهانية لابأنها هى المرادة بالموصول خاصة (افلاتذكرون) اى الاتلاحظون فلاتتذكرون ذلك فانه لوضوحه بحيث لايفتقر الى شئ سوى التذكر (وان تعدوا نعمت الله) تذكير اجمالى لنعمه تعالى بعد تعداد طائفة منها وكان الظاهر ايراده عقيبها تكملة لها على طريقة قوله تعالى ويخلق مالا تعلمون ولعل فصل مابينهما بقوله تعالى أفمن يخلق كمن لايخلق افلا تذكرون للمبادرة الى لزام الحجة والقام الحجر اثر تفصيل مافصل من الافاعيل التى هى ادلة الوحدانية مع مافيه من سر ستقف عليه ودلالتها عليها وان لم تكن مقصورة على حيثية الخلق ضرورة ظهور دلالتها عليها من حيثية الانعام ايضا لكنها حيث كانت من مستتبعات الحيثية الاولى استغنى عن التصريح بها ثم بين حالها بطريق الاجمال اى ان تعدوا نعمته الفائضة عليكم مما ذكروما لم يذكر حسبما يعرب عنه قوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا (لاتحصوها) اى لاتطيقوا حصرها وضبط عددها ولو اجمالا فضلا عن القيام بشكرها وقد خرجنا عن عهدة تحقيقه فى سورة ابراهيم بفضل الله

(الاول) ان الجماد قد يوصف بكونه ميتا قال تعالى يخرج الحى من الميت (الثانى) ان القوم لما وصفوا تلك الاصنام بالالهية و المعبودية قيل لهم ليس الامر كذلك بل هى اموات ولا يعرفون شيئا فنزلت هذه العبارات على وفق معتقدهم (الثالث) ان يكون المراد بقوله والذين يدعون من دون الله الملائكة وكان ناس من الكفار يعبدونهم فقال الله انهم اموات لابد لهم من الموت غير احياء اى غير باقية حياتهم وما يشعرون ايان يبعثون اى لا علم لهم بوقت بعثهم والله اعلم * قوله تعالى (الهكم اله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون لاجرم ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون انه لا يحب المستكبرين) اعلم انه تعالى لما زيف فيما تقدم طريقة عبدة الاوثان والاصنام وبين فساد مذهبهم بالدلائل القاهرة قال الهكم اله واحد ثم ذكر تعالى ما لاجله اصر الكفار على القول بالشرك وانكار التوحيد فقال فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون والمعنى ان الذين يؤمنون بالآخرة ويرغبون فى الفوز بالثواب الدائم ويخافون الوقوع فى العقاب الدائم اذا سمعوا الدلائل والترغيب والترهيب خافوا العقاب فتأملوا وتفكروا فيما يسمعونه فلاجرم ينتفعون بسماع الدلائل ويرجعون من الباطل الى الحق اما الذين لا يؤمنون بالآخرة وينكرونها فانهم لا يرغبون فى حصول الثواب ولا يرهبون من الوقوع فى العقاب فيبقون منكرين لكل كلام يخالف قولهم ويستكبرون عن الرجوع الى قول غيرهم فلاجرم يبقون مصرين على ما كانوا عليه من الجهل والضلال ثم قال تعالى لاجرم ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون والمعنى انه تعالى يعلم ان اصرارهم على هذه المذاهب الفاسدة ليس لاجل شبهة تصوروها او اشكال تخيلوه بل ذلك لاجل التقليد والنفرة عن الرجوع الى الحق والشغف بنصرة مذاهب الاسلاف والتكبر والنخوة فلهذا قال انه لا يحب المستكبرين وهذا الوعيد يتناول كل المتكبرين * قوله تعالى (واذا قيل لهم ماذا انزل ربكم قالوا اساطير الاولين ليحملوا اوزارهم كاملة يوم القيامة ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون) اعلم انه تعالى لما بالغ فى تقرير دلائل التوحيد واورد الدلائل القاهرة فى ابطال مذاهب عبدة الاصنام ذكر بعد ذلك شبهات منكرى النبوة مع الجواب عنها (فالشبهة الاولى) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما احتج على صحة نبوة نفسه بكون القرآن معجزة طعنوا فى القرآن وقالوا انه اساطير الاولين وليس هو من جنس المعجزات وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى ان ذلك السائل من كان قيل هو من كلام بعضهم لبعض وقيل هو قول المسلمين لهم وقيل هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سألهم وفود الحاج عما انزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم (المسئلة الثانية) لقائل ان يقول كيف يكون تنزيل ربهم اساطير الاولين وجوابه من وجوه (الاول) انه مذكور على سبيل السخرية كقوله تعالى عنهم ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون وقوله يا ايها

سبحانه (ان الله لغفور) حيث يستر ما فرطتم من كفرانها والاخلال بالقيام بحقوقها ولا يعاجلكم بالعقوبة على ذلك (رحيم) حيث يفيضها عليكم مع استحقاقكم للقطع والحرمان بما تأتون وتذرون من اصناف الكفر التى من جملتها عدم الفرق بين الخالق وغيره وكل من ذلك نعمة واىّما نعمة فالجملة تعليل للحكم بعدم الاحصاء وتقديم وصف المغفرة على نعت الرحمة لتقدم التخلية على التحلية (والله يعلم ما تسرون) تضمرونه من العقائد والاعمال (وما تعلنون) اى تظهرونه منهما وحذف العائد لمراعاة الفواصل اى يستوى بالنسبة الى علمه المحيط سركم وعلنكم وفيه من الوعيد والدلالة على اختصاصه سبحانه بنعوت الالهية ما لا يخفى وتقديم السر على العلن لما ذكرناه فى سورة البقرة وسورة هود من تحقيق المساواة بين علميه المتعلقين بهما على ابلغ وجه كأن علمه تعالى بالسر اقدم منه بالعلن اولان كل شئ يعلن فهو قبل ذلك مضمر فى القلب فتعلق علمه تعالى بحالته الاولى اقدم من تعلقه بحالته الثانية (والذين يدعون) شروع فى تحقيق كون الاصنام بمعزل من استحقاق العبادة وتوضيحه بحيث لا يبقى فيه شائبة ريب بتعديد اوصافها واحوالها المنافية لذلك منافاة ظاهرة وتلك الاحوال وان كانت غنية عن البيان لكنها شرحت للتنبيه على كمال حماقة عبدتها وانهم لا يعرفون ذلك الا بالتصريح اى والآلهة الذين يعبدهم الكفار (من دون الله) سبحانه وقرئ على صيغة المبنى

الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون وقوله ياأيها الساحر ادع لنا ربك (الثانى) ان يكون التقدير هذا الذى تذكرون انه منزل من ربكم هو اساطير الاولين (الثالث) يحتمل ان يكون المراد ان هذا القرآن بتقدير ان يكون مما انزله الله لكنه اساطير الاولين ليس فيه شئ من العلوم والفصاحة والدقائق والحقائق واعلم انه تعالى لما حكى شبههم قال ليحملوا اوزارهم كاملة يوم القيامة اللام فى ليحملوا لام العاقبة وذلك لانهم لم يصفوا القرآن بكونه اساطير الاولين لاجل ان يحملوا الاوزار ولكن لما كانت عاقبتهم ذلك حسن ذكر هذه اللام كقوله فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقوله كاملة معناه انه تعالى لا يخفف من عقابهم شيئا بل يوصل ذلك العقاب بكليته اليهم واقول هذا يدل على انه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين اذ لو كان هذا المعنى حاصلا فى حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل معنى وقوله ومن اوزار الذين يضلونهم معناه ويحصل للرؤساء مثل اوزار الاتباع والسبب فيه ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ايما داع دعا الى الهدى فاتبع كان له مثل اجر من اتبعه لا ينقص من اجورهم شئ وايما داع دعا الى ضلالة فاتبع كان عليه مثل وزر من اتبعه لا ينقص من آثامهم شئ واعلم انه ليس المراد منه انه تعالى يوصل العقاب الذى يستحقه الاتباع الى الرؤساء وذلك لان هذا لا يليق بعدل الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى وان ليس للانسان الا ما سعى وقوله ولا تزر وازرة وزر اخرى بل المعنى ان الرئيس اذا وضع سنة قبيحة عظم عقابه حتى ان ذلك العقاب يكون مساويا لكل ما يستحقه كل واحد من الاتباع قال الواحدى ولفظة من فى قوله ومن اوزار الذين يضلونهم ليست للتبعيض لانها لو كانت للتبعيض لخف عن الاتباع بعض اوزارهم وذلك غير جائز لقوله عليه السلام من غير ان ينقص من اوزارهم شئ ولكنها للجنس اى ليحملوا من جنس اوزار الاتباع وقوله بغير علم يعنى ان هؤلاء الرؤساء انما يقدمون على هذا الاضلال جهلا منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد على ذلك الاضلال ثم انه تعالى ختم الكلام بقوله ألا ساء ما يزرون والمقصود المبالغة فى الزجر فان قيل انه تعالى لما حكى عن القوم هذه الشبهة لم يجب عنها بل اقتصر على محض الوعيد فالسبب فيه قلنا السبب فيه انه تعالى بين كون القرآن معجزا بطريقين (الاول) انه صلى الله عليه وسلم تحداهم بكل القرآن وتارة بعشر سور وتارة بسورة واحدة وتارة بحديث واحد وعجزوا عن المعارضة وذلك يدل على كونه معجزا (الثانى) انه تعالى حكى الشبهة هذه بعينها فى آية اخرى وهو قوله اكتتبها فهى تملى عليه بكرة واصيلا وابطلها بقوله قل انزله الذى يعلم السر فى السموات والارض ومعناه ان القرآن مشتمل على الاخبار عن الغيوب وذلك لا يتأتى الا ممن يكون عالما باسرار السموات والارض فلما ثبت كون القرآن معجزا بهذين الطريقين وتكرر شرح هذين الطريقين مرارا كثيرة لا جرم اقتصر فى هذه الآية على مجرد الوعيد ولم يذكر ما يجرى مجرى الجواب عن هذه الشبهة والله اعلم ❊ قوله تعالى (قد مكر الذين

للمفعول وعلى الخطاب (لا يخلقون شيئا) من الاشياء اصلا اى ليس من شأنهم ذلك ولما لم يكن بين نفى الخالقية وبين المخلوقية تلازم بحسب المفهوم وان تلازما فى الصدق اثبت لهم ذلك صريحا فقيل (وهم يخلقون) اى شأنهم ومقتضى ذاتهم المخلوقية لانها ذوات ممكنة مفتقرة فى ماهياتها ووجوداتها الى الموجد وبناء الفعل للمفعول لتحقيق التضاد والمقابلة بين ما اثبت لهم وبين ما نفى عنهم من وصفى المخلوقية والخالقية وللايذان بعدم الافتقار الى بيان الفاعل لظهور اختصاص الفعل بفاعله جل جلاله ويجوز ان يجعل الخلق الثانى عبارة عن النحت والتصوير رعاية للمشاكلة بينه وبين الاول ومبالغة فى كونهم مصنوعين لعبدتهم واعجز عنهم وايذانا بكمال ركاكة عقولهم حيث اشركوا بخالقهم مخلوقهم واما جعل الاول ايضا عبارة عن ذلك كما فعل فلا وجه له اذ القدرة على مثل ذلك الخلق ليست مما يدور عليه استحقاق العبادة اصلا ولما ان اثبات المخلوقية لهم غير مستدع لنفى الحياة عنهم لما ان بعض المخلوقين احياء صرح بذلك فقيل (اموات) وهو خبر ثان للموصول لا للضمير كما قيل او خبر مبتدأ محذوف وحيث كان بعض الاموات مما يعتريه الحياة سابقا اولاحقا كاجساد الحيوان والنطف التى ينشئها الله تعالى حيوانا احترز عن ذلك فقيل (غير احياء) اى لا يعتريها الحياة اصلا فهى اموات على الاطلاق واما قوله تعالى (وما يشعرون ايان

من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم واتاهم العذاب من
حيث لايشعرون ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول اين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم قال
الذين اوتوا العلم ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى
انفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون) اعلم ان المقصود
من هذه الآية المبالغة فى وصف وعيد اولئك الكفار وفى المراد بالذين من قبلهم قولان
(الاول) وهو قول الاكثر من المفسرين ان المراد منه نمروذ بن كنعان بنى صرحا عظيما
ببابل طوله خمسة آلاف ذراع وقيل فرسخان ورام منه الصعود الى السماء ليقاتل اهلها
فالمراد بالمكر ههنا بناء الصرح لمقاتلة اهل السماء (والقول الثانى) وهو الاصح ان هذا عام
فى جميع المبطلين الذين يحاولون الحاق الضرر والمكر بالمحقين اماقوله تعالى فأتى الله
بنيانهم من القواعد ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ان الاتيان والحركة على الله
محال فالمراد انهم لما كفروا اتاهم الله بزلازل قلع بها بنيانهم من القواعد والاساس
(المسئلة الثالثة) فى قوله فأتى الله بنيانهم من القواعد قولان (الاول) ان هذا محض
التمثيل والمعنى انهم رتبوا منصوبات ليمكروا بها انبياء الله تعالى فجعل الله تعالى حالهم
فى تلك المنصوبات مثل حال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فانهدم ذلك البناء وضعفت
تلك الاساطين فسقط السقف عليهم ونظيره قولهم من حفر بئرا لاخيه اوقعه الله فيه
(والقول الثانى) ان المراد منه مادل عليه الظاهر وهو انه تعالى اسقط عليهم السقف
واماتهم تحته والاول اقرب الى المعنى اماقوله تعالى فخر عليهم السقف من فوقهم ففيه
سؤال وهو ان السقف لايخر الامن فوقهم فامعنى هذا الكلام وجوابه من وجهين
(الاول) ان يكون المقصود التأكيد (والثانى) ربما خر السقف ولا يكون تحته احد فلما
قال فخر عليهم السقف من فوقهم دل هذا الكلام على انهم كانوا تحته وحينئذ يفيد هذا
الكلام ان الابنية قد تهدمت وهم ماتوا تحتها وقوله واتاهم العذاب من حيث لايشعرون
ان حملنا هذا الكلام على محض التمثيل فالامر ظاهر والمعنى انهم اعتمدوا على منصوباتهم
ثم تولد البلاء منها باعيانها وان حملناه على الظاهر فالمعنى انه نزل ذلك السقف عليهم بغتة
لانه اذا كان كذلك كان اعظم فى الزجر لمن سلك مثل سبيلهم ثم بين تعالى ان عذابهم لايكون
مقصورا على هذا القدر بل الله تعالى يخزيهم يوم القيامة والخزى هو العذاب مع
الهوان وفسر تعالى ذلك الهوان بأنه تعالى يقول لهم اين شركائى الذين كنتم تشاقون
فيهم وفيه ابحاث (الاول) قال الزجاج قوله اين شركائى معناه اين شركائى فى زعمكم
واعتقادكم ونظيره قوله اين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون وقال ايضا وقال شركاؤهم
ما كنتم ايانا تعبدون وانما حسنت هذه الاضافة لانه يكفى فى حسن الاضافة ادنى سبب وهذا
كما يقال لمن يحمل خشبة خذ طرفك وآخذ طرفى فأضيف الطرف اليه (البحث الثانى) قوله
تشاقون فيهم اى تعادون وتخاصمون المؤمنين فى شأنهم وقيل المشاقة عبارة عن كون

(احد)

يبعثون) اى مايشعر اولئك
الآلهة ايان يبعث عبدتهم
فعلى طريقة لتهكم بهم لان شعور
الجماد بالامور الظاهرة بديهى
الاستحالة عند كل احد فكيف
بما لايعلمه الا العليم الخبير وفيه
ايذان بأن البعث من لوازم
التكليف وان معرفة وقته مما لابد
منه فى الالوهية (الهكم اله
واحد) لايشاركه شئ فى شئ
وهو تصريح بالمدعى وتمحيض
للنتيجة غب اقامة الحجة (فالذين
لايؤمنون بالآخرة) واحوالها
التى من جملتها ماذكر من البعث
ومايعقبه من الجزاء المستلزم
لعقوبتهم وذلتهم (قلوبهم منكرة)
للوحدانية جاحدة لها اوللآيات
الدالة عليها (وهم مستكبرون)
عن الاعتراف بها اوعن الآيات
الدالة عليها والفاء للايذان بأن
اصرارهم على الانكار واستمرارهم
على الاستكبار وقع موقع
النتيجة للدلائل الظاهرة
والبراهين الباهرة والمعنى انه
قد ثبت بما قرر من الحجج والبينات
اختصاص الالهية به سبحانه فكان
من نتيجة ذلك اصرارهم على
ماذكر من الانكار والاستكبار
وبناء الحكم المذكور على الموصول
للاشعار بكونه معللا بما فى حيز
الصلة فان الكفر بالآخرة وبما
فيها من البعث والجزاء المتنوع
الى الثواب على الطاعة والعقاب
على المعصية يؤدى الى قصر النظر
على العاجل والاعراض عن
الدلائل السمعية والعقلية الموجب
لانكارها وانكار مؤداها
والاستكبار عن اتباع الرسول
عليه الصلاة والسلام وتصديقه
واما الايمان بها وبما فيها

احدا لخصمين فى شق وكون الآخر فى الشق الآخر ( البحث الثالث ) قرأ نافع تشاقون بكسر النون على الاضافة والباقون بفتح النون على الجمع ثم قال تعالى قال الذين أوتوا العلم ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين وفيه بحثان ( الاول ) قال الذين أوتوا العلم قال ابن عباس يريد الملائكة وقال آخرون هم المؤمنون يقولون حين يرون خزى الكفار يوم القيامة ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين والفائدة فيه ان الكفار كانوا ينكرون على المؤمنين فى الدنيا فاذا ذكر المؤمن هذا الكلام يوم القيامة فى معرض اهانة الكافر كان وقع هذا الكلام على الكافر وتأثيره فى ايذائه أكمل وحصول الشماتة به أقوى ( البحث الثانى ) المرجئة احتجوا بهذا الآية على أن العذاب مختص بالكافر قالوا لان قوله تعالى ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين يدل على ان ماهية الخزى والسوء فى يوم القيامة مختصة بالكافر وذلك ينفى حصول هذه الماهية فى حق غيرهم وتأكد هذا بقول موسى عليه السلام انا قد اوحى الينا ان العذاب على من كذب وتولى ثم انه تعالى وصف عذاب هؤلاء الكفار من وجه آخر فقال الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قرأ حمزة يتوفاهم الملائكة بالياء لان الملائكة ذكور والباقون بالتاء للفظ ثم قال فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء وفيه قولان ( الاول ) انه تعالى حكى عنهم القاء السلم عند القرب من الموت قال ابن عباس اسلموا وأقروا لله بالعبودية عند الموت وقوله ما كنا نعمل من سوء اى قالوا ما كنا نعمل من سوء والمراد من هذا السوء الشرك فقالت الملائكة ردا عليهم وتكذيبا بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون من التكذيب والشرك ومعنى بلى رد لقولهم ما كنا نعمل من سوء وفيه قولان ( الاول ) انه تعالى حكى عنهم القاء السلم عند القرب من الموت ( والقول الثانى ) انه تم الكلام عند قوله ظالمى انفسهم ثم عاد الكلام الى حكاية كلام المشركين يوم القيامة والمعنى انهم يوم القيامة القوا السلم وقالوا ما كنا نعمل فى الدنيا من سوء ثم ههنا اختلفوا فالذين جوزوا الكذب على اهل القيامة قالوا هذا القول منهم على سبيل الكذب وانما أقدموا على هذا الكذب لغاية الخوف والذين قالوا ان الكذب لا يجوز عليهم قالوا معنى الآية ما كنا نعمل من سوء عند انفسنا او فى اعتقادنا واما بيان ان الكذب على اهل القيامة هل يجوز أم لا فقد ذكرناه فى سورة الانعام فى تفسير قوله تعالى ثم لم تكن فتنتهم الا ان قالوا والله ربنا ما كنا مشركين واعلم انه تعالى حكى عنهم انهم قالوا ما كنا نعمل من سوء قال بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون ولا يبعد ان يكون قائل هذا القول هو الله تعالى او بعض الملائكة ردا عليهم وتكذيبا لهم ومعنى بلى الرد لقولهم ما كنا نعمل من سوء وقوله ان الله عليم بما كنتم تعملون يعنى انه عالم بما كنتم عليه فى الدنيا فلا ينفعكم هذا الكذب فانه يجازيكم على الكفر الذى علمه منكم ❊ ثم صرح بذكر العقاب فقال ( فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ) وهذا يدل على تفاوت منازلهم فى العقاب فيكون عقاب بعضهم أعظم من عقاب بعض وانما صرح تعالى بذكر الخلود

فيدعو لا محالة الى التأمل فى الآيات والدلائل رغبة ورهبة فيورث ذلك يقينا بالوحدانية وخضوعا لامر الله تعالى (لا جرم) اى حقا وقد مر تحقيقه فى سورة هود ( ان الله يعلم مايسرون ) من قلوبهم ( وما يعلنون ) من استكبارهم وقولهم للقرآن اساطير الاولين وغير ذلك من قبائحهم فيجازيهم بذلك ( انه لا يحب المستكبرين ) تعليل لما تضمنه الكلام من الوعيد اى لا يحب المستكبرين عن التوحيد او عن الآيات الدالة عليها اولا يحب جنس المستكبرين فكيف بمن استكبر عما ذكر ( واذا قيل لهم ) اى لأولئك المنكرين المستكبرين وهو بيان لاضلالهم غب بيان ضلالهم (ماذا انزل ربكم) القائل الوافدون عليهم والمسلمون او بعض منهم على طريق التهكم وماذا منصوب بما بعده او مرفوع اى اى شئ انزل او ما الذى انزله (قالوا أساطير الاولين) اى ما تدعون نزوله او المنزل بطريق السخرية احاديث الاولين واباطيلهم وليس من الانزال فى شئ قيل هؤلاء القائلون هم المقتسمون الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سؤال وفود الحاج عما نزل عليه عليه السلام (ليحملوا) متعلق بقالوا اى قالوا ما قالوا ليحملوا (اوزارهم) الخاصة بهم وهى اوزار ضلالهم (كاملة) لم يكفر منها شئ بنكبة اصابتهم فى الدنيا كما يكفر بها اوزار المؤمنين ( يوم القيامة ) ظرف ليحملوا

ليكون الغم والحزن اعظم * ثم قال ( فلبئس مثوى المتكبرين ) عن قبول التوحيد وسائر ماأتت به الانبياء وتفسير التكبر قدمر فى هذا الكتاب غير مرة والله اعلم * قوله تعالى (وقيل للذين اتقوا ماذا انزل ربكم قالوا خيرا للذين احسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الانهار لهم فيها مايشاؤن كذلك يجزى الله المتقين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ) اعلم انه تعالى لما بين احوال الاقوام الذين اذا قيل لهم ماذا انزل ربكم قالوا اساطير الاولين وذكر انهم يحملون اوزارهم ومن اوزار اتباعهم وذكر ان الملائكة تتوفاهم ظالمى انفسهم وذكر انهم فى الآخرة يلقون السلم وذكر انه تعالى يقول لهم ادخلوا ابواب جهنم اتبعه بذكر وصف المؤمنين الذين اذا قيل لهم ماذا انزل ربكم قالوا خيرا وذكر ما اعده لهم فى الدنيا والآخرة من منازل الخيرات ودرجات السعادات ليكون وعد هؤلاء مذكورا مع وعيد اولئك وفى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) قال القاضى يدخل تحت التقوى ان يكون تاركا لكل المحرمات فاعلا لكل الواجبات ومن جمع بين هذين الامرين فهو مؤمن كامل الايمان وقال اصحابنا يريد الذين اتقوا الشرك وايقنوا انه لااله الاالله محمد رسول الله واقول هذا اولى مماقاله القاضى لانابينا انه يكفى فى صدق قوله فلان قاتل اوضارب كونه آتيا بقتل واحد وضرب واحد ولا يتوقف صدق هذا الكلام على كونه آتيا بجميع انواع القتل وجميع انواع الضرب فعلى هذا قوله وقيل للذين اتقوا يتناول كل من اتى بنوع واحد من انواع التقوى الا انا اجمعنا على انه لابد من التقوى عن الكفر والشرك فوجب ان لايزيد على هذا القيد لانه لما كان تقييد المطلق خلاف الاصل كان تقييد المقيد اكثر مخالفة للاصل وايضا فلانه تعالى انما ذكر هؤلاء فى مقابلة اولئك الذين كفروا واشركوا فوجب ان يكون المراد من اتقى عن ذلك الكفر والشرك والله اعلم ( المسئلة الثانية ) لقائل ان يقول انه قال فى الآية الاولى قالوا اساطير الاولين وفى هذه الآية قالوا خيرا فلم رفع الاول ونصب هذا اجاب صاحب الكشاف عنه بأن قال المقصود منه الفصل بين جواب المقر وجواب الجاحد يعنى ان هؤلاء لماسئلوا لم يتلعثموا واطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفا مفعولا للانزال فقالوا خيرا اى انزل خيرا واولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا هو اساطير الاولين وليس من الانزال فى شئ ( المسئلة الثالثة ) قال المفسرون هذا كان فى ايام الموسم يأتى الرجل مكة فيسأل المشركين عن محمد وامره فيقولون انه ساحر وكاهن وكذاب فيأتى المؤمنين ويسألهم عن محمد وماانزل الله عليه فيقولون خيرا والمعنى انزل خيرا ويحتمل ان يكون المراد الذى قالوه من الجواب موصوف بأنه خير وقولهم خير جامع لكونه حقا وصوابا ولكونهم معترفين بصحته ولزومه فهو بالضد من قول الذين لايؤمنون بالآخرة ان ذلك اساطير الاولين على وجه التكذيب ( المسئلة الرابعة ) قوله للذين

( ومن اوزار الذين يضلونهم ) وبعض اوزار من ضل باضلالهم وهو وزر الاضلال لانهما شريكان هذا يضله وهذا يطاوعه فيتحاملان الوزر واللام للتعليل فى نفس الامر من غيران يكون غرضا وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرار الاضلال اوباعتبار حال قولهم لاحال الحمل (بغير علم ) حال من الفاعل اى يضلونهم غير عالمين بأن مايدعون اليه طريق الضلال واما حمله على معنى غير عالمين بأنهم يحملون يوم القيامة اوزار الضلال والاضلال على ان يكون العامل فى الحال قالوا وتأييده بما سيأتى من قوله تعالى واتاهم العذاب من حيث لايشعرون من حيث ان حمل ماذكر من اوزار الضلال والاضلال من قبيل اتيان العذاب من حيث لايشعرون فيرده ان الحمل المذكور انما هو يوم القيامة والعذاب المذكور انما هو العذاب الدنيوى كما ستقف عليه اوحال من المفعول اى يضلون من لايعلم انهم ضلال وفائدة التقييد بها الاشعار بأن مكرهم لايروج عند ذى لب وانما يتبعهم الاغبياء والجهلة والتنبيه على ان جهلهم ذلك لايكون عذرا اذ كان يجب عليهم ان يبحثوا ويميزوا بين المحق الحقيق بالاتباع وبين المبطل ( ألاساء مايزرون ) اى بئس شيئا يزرونه ماذكر ( قد مكر الذين من قبلهم ) وعيد لهم برجوع غائلة مكرهم الى انفسهم كدأب من قبلهم من الامم الخالية الذين اصابهم مااصابهم من

احسنوا ومابعده بدل من قوله خيرا وهو حكاية لقول الذين اتقوا اى قالوا هذا القول ويجوز ايضا ان يكون قوله للذين احسنوا اخبارا عن الله والتقدير ان المتقين لما قيل لهم ماذا انزل ربكم قالوا خيرا ثم انه تعالى اكد قولهم وقال للذين احسنوا فى هذه الدنيا حسنة وفى المراد بقوله للذين احسنوا قولان اما الذين يقولون ان اهل لا اله الا الله يخرجون من النار فانهم يحملونه على قول لا اله الا الله مع الاعتقاد الحق واما المعتزلة الذين يقولون ان فساق اهل الصلاة لا يخرجون من النار يحملون قوله احسنوا على من اتى بالايمان وجميع الواجبات واحترز عن كل المحرمات واما قوله فى هذه الدنيا ففيه قولان (احدهما) انه متعلق بقوله احسنوا والتقدير للذين اتقوا بعمل الحسنة فى الدنيا فلهم فى الآخرة حسنة وتلك الحسنة هى الثواب العظيم وقيل تلك الحسنة هو ان ثوابها يضاعف بعشر مرات وبسبعمائة والى ما لا نهاية له (والقول الثانى) ان قوله فى هذه الدنيا متعلق بقوله حسنة والتقدير للذين احسنوا ان تحصل لهم الحسنة فى الدنيا وهذا القول أولى لانه قال بعده ولدار الآخرة خير وعلى هذا التقدير ففى تفسير هذه الحسنة الحاصلة فى الدنيا وجوه (الاول) يحتمل ان يكون المراد ما يستحقونه من المدح والتعظيم والثناء والرفعة وجميع ذلك جزاء على ما عملوه (والثانى) يحتمل ان يكون المراد به الظفر على اعداء الدين بالحجة وبالغلبة لهم وباستغنام اموالهم وفتح بلادهم كما جرى ببدر وعند فتح مكة وقد اجلوهم عنها واخرجوهم الى الهجرة واجلاء الوطن ومفارقة الاهل والولد وكل ذلك مما يعظم موقعه (والثالث) يحتمل ان يكون المراد انهم لما احسنوا بمعنى انهم أتوا بالطاعات فتح الله عليهم ابواب المكاشفات والمشاهدات والالطاف كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى واما قوله ولدار الآخرة خير فقد بينا فى سورة الانعام فى قوله وللدار الآخرة خير للذين يتقون بالدلائل القطعية العقلية حصول هذا الخير ثم قال ولنعم دار المتقين اى لنعم دار المتقين دار الآخرة فحذفت لسبق ذكرها هذا اذا لم تجعل هذه الآية متصلة بما بعدها فان وصلتها بما بعدها قلت ولنعم دار المتقين جنات عدن فترفع جنات على انها اسم لنعم كما تقول نعم الدار دار ينزلها زيد اما قوله جنات عدن ففيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انها ان كانت موصولة بما قبلها فقد ذكرنا وجه ارتفاعها واما ان كانت مقطوعة فقال الزجاج جنات عدن مرفوعة باضمار هى كأنك لما قلت ولنعم دار المتقين قيل اى دار هى هذه الممدوحة فقلت هى جنات عدن وان شئت قلت جنات عدن رفع بالابتداء ويدخلونها خبره وان شئت قلت نعم دار المتقين خبره والتقدير جنات عدن نعم دار المتقين (المسئلة الثانية) قوله جنات يدل على القصور والبساتين وقوله عدن يدل على الدوام وقوله تجرى من تحتها الانهار يدل على انه حصل هناك ابنية يرتفعون عليها وتكون الانهار جارية من تحتهم ثم انه تعالى قال لهم فيها ما يشاؤن وفيه بحثان (الاول) ان هذه الكلمة تدل على حصول كل الخيرات والسعادات وهذا

---

العذاب العاجل اى قد سووا منصوبات ليمكروا بها رسل الله تعالى (فأتى الله) اى امره وحكمه (بنيانهم) وقرئ بيتهم وبيوتهم (من القواعد) وهى الاساطين التى تعمده او اساسه فضعضعت اركانه (فخر عليهم السقف من فوقهم) اى سقط عليهم سقف بنيانهم اذ لا يتصور له القيام بعد تهدم القواعد شبهت حال أولئك الماكرين فى تسويتهم المكايد والمنصوبات التى ارادوا بها الايقاع برسل الله سبحانه وفى ابطاله تعالى تلك الحيل والمكايد وجعله اياها اسبابا لهلاكهم بحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فأتى ذلك من قبل اساطينه بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا وقرئ فخر عليهم السقف بضمتين (وأتاهم العذاب) اى الهلاك والدمار (من حيث لا يشعرون) باتيانه منه بل يتوقعون اتيان مقابله مما يريدون ويشتهون والمعنى ان هؤلاء الماكرين القائلين للقرآن العظيم اساطير الاولين سيأتيهم من العذاب مثل ما اتاهم وهم لا يحتسبون والمراد به العذاب العاجل لقوله سبحانه (ثم يوم القيامة يخزيهم) فانه عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام اى هذا الذى فهم من التمثيل من عذاب هؤلاء او ما هو اعم منه ومما ذكر من عذاب أولئك جزاؤهم فى الدنيا ويوم القيامة يخزيهم اى يذلهم بعذاب الخزى على رؤس الاشهاد واصل الخزى ذل يستحيى منه وثم للايماء الى ما بين الجزاءين من التفاوت مع ما يدل عليه من التراخى

ابلغ من قوله فيها ماتشتهى الانفس وتلذ الاعين لان هذين القسمين داخلان فى قوله لهم فيها مايشاؤن مع اقسام أخرى (الثانى) قوله لهم فيها مايشاؤن يعنى هذه الحالة لا تحصل الا فى الجنة لان قوله لهم فيها مايشاؤن يفيد الحصر وذلك يدل على ان الانسان لا يجد كل ما يريده فى الدنيا ثم قال تعالى كذلك يجزى الله المتقين اى هكذا يكون جزاء التقوى ثم انه تعالى عاد الى وصف المتقين فقال الذين تتوفاهم الملائكة طيبين وهذا مذكور فى مقابلة قوله الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى انفسهم وقوله الذين تتوفاهم الملائكة صفة للمتقين فى قوله كذلك يجزى الله المتقين وقوله طيبين كلمة مختصرة جامعة للمعانى الكثيرة وذلك لانه يدخل فيه اتيانهم بكل ما امروا به واجتنابهم عن كل مانهوا عنه ويدخل فيه كونهم موصوفين بالاخلاق الفاضلة مبرئين عن الاخلاق المذمومة ويدخل فيه كونهم مبرئين عن العلائق الجسمانية متوجهين الى حضرة القدس والطهارة ويدخل فيه انه طاب لهم قبض الارواح وانها لم تقبض الامع البشارة بالجنة حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها ومن هذا حاله لا يتألم بالموت واكثر المفسرين على ان هذا التوفى هو قبض الارواح وان كان الحسن يقول انه وفاة الحشر ثم بين تعالى انه يقال لهم عند هذه الحالة ادخلوا الجنة فاحتج الحسن بهذا على ان المراد بذلك التوفى وفاة الحشر لانه لا يقال عند قبض الارواح فى الدنيا ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ومن ذهب الى القول الاول وهم الاكثرون يقولون ان الملائكة لما بشروهم بالجنة صارت الجنة كأنها دارهم وكأنهم فيها فيكون المراد بقولهم ادخلوا الجنة اى هى خاصة لكم كأنكم فيها * قوله تعالى (هل ينظرون الا ان تأتيهم الملائكة او يأتى امر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا انفسهم يظلمون فأصابهم سيآت ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) اعلم ان هذا هو الشبهة الثانية لمنكرى النبوة فانهم طلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم ان ينزل الله تعالى ملكا من السماء يشهد على صدقه فى ادعاء النبوة فقال تعالى هل ينظرون فى التصديق بنبوتك الا ان تأتيهم الملائكة شاهدين بذلك ويحتمل ان يقال ان القوم لما طعنوا فى القرآن بأن قالوا انه اساطير الاولين وذكر الله تعالى انواع التهديد والوعيد لهم ثم اتبعه بذكر الوعد لمن وصف القرآن بكونه خيرا وصدقا وصوابا عاد الى بيان ان أولئك الكفار لا ينزجرون عن الكفر بسبب البيانات التى ذكرناها بل كانوا لا ينزجرون عن تلك الاقوال الباطلة الا اذا جاءتهم الملائكة بالتهديد واتاهم امر ربك وهو عذاب الاستئصال واعلم ان على كلا التقديرين فقد قال تعالى كذلك فعل الذين من قبلهم اى كلام هؤلاء وافعالهم يشبه كلام الكفار المتقدمين وافعالهم ثم قال وما ظلمهم الله ولكن كانوا انفسهم يظلمون والتقدير كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم الهلاك المعجل وما ظلمهم الله بذلك فانه انزل بهم ما استحقوه بكفرهم ولكنهم ظلموا انفسهم بأن كفروا وكذبوا الرسل فاستوجبوا ما نزل بهم ثم قال فأصابهم سيآت ما عملوا والمراد اصابهم



الزمانى وتغيير السبك بتقديم الظرف ليس لقصر الخزى على يوم القيامة كما هو المتبادر من تقديم الظرف على الفعل بل لان الاخبار بجزائهم فى الدنيا مؤذن بأن لهم جزاء اخرويا فتبقى النفس مترقبة الى وروده سائلة عنه بأنه ماذا مع تيقنها بأنه فى الآخرة فسيق الكلام على وجه يؤذن بأن المقصود بالذكر اخزاؤهم لا كونه يوم القيامة والضمير اما للمفترين فى حق القرآن الكريم اولهم ولمن مثلوا بهم من الماكرين كما اشير اليه وتخصيصه بهم يأباه السباق والسياق كما ستقف عليه (ويقول) لهم تفضيحا وتوبيخا فهو بيان للاخزاء (اين شركائى) اضافهم اليه سبحانه حكاية لاضافتهم الكاذبة ففيه توبيخ اثر توبيخ مع الاستهزاء بهم (الذين كنتم تشاقون فيهم) اى تخاصمون الانبياء والمؤمنين فى شأنهم بأنهم شركاء حقا حين بينوا لكم بطلانها والمراد بالاستفهام استحضارها للشفاعة اوالمدافعة على طريقة الاستهزاء والتبكيت والاستفسار عن مكانهم لا يوجب غيبتهم حقيقة حتى يعتذر بأنه يجوز ان يحال بينهم وبين عبدتهم حينئذ ليتفقدوها فى ساعة علقوا بها الرجاء فيها اوبأنهم لم ينفعوهم فكأنهم غيب بل يكفى فى ذلك عدم حضورهم بالعنوان الذى كانوا يزعمون انهم متصفون به من عنوان الالهية فليس هناك شركاء ولا اما كنها على ان قوله ليتفقدوها ليس بسديد فانه

عقاب سيآت ما عملوا وحاق بهم اى نزل بهم على وجه احاط بجوانبهم ما كانوا به يستهزؤن اى عقاب استهزائهم * قوله تعالى ( وقال الذين اشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شئ كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين ولقد بعثنا فى كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدى من يضل ومالهم من ناصرين ) اعلم ان هذا هو الشبهة الثالثة لمنكرى النبوة وتقريرها انهم تمسكوا بصحة القول بالجبر على الطعن فى النبوة فقالوا لو شاء الله الايمان لحصل الايمان سواء جئت اولم تجئ ولو شاء الله الكفر فانه يحصل الكفر سواء جئت اولم تجئ واذا كان الامر كذلك فالكل من الله تعالى ولا فائدة فى مجيئك وارسالك فكان القول بالنبوة باطلا وفى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) اعلم ان هذه الشبهة هى عين ما حكاه الله تعالى عنهم فى سورة الانعام فى قوله سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ كذلك كذب الذين من قبلهم واستدلال المعتزلة به مثل استدلالهم بتلك الآية والكلام فيه استدلالا واعتراضا عين ما تقدم هناك فلا فائدة فى الاعادة ولا بأس بأن نذكر منه القليل فنقول الجواب عن هذه الشبهة هى انهم قالوا لما كان الكل من الله تعالى كان بعثة الانبياء عبثا فنقول هذا اعتراض على الله تعالى فان قولهم اذا لم يكن فى بعثة الرسول مزيد فائدة فى حصول الايمان ودفع الكفر كانت بعثة الانبياء غير جائزة من الله تعالى فهذا القول جار مجرى طلب العلة فى احكام الله تعالى وفى افعاله وذلك باطل بل لله تعالى ان يحكم فى ملكه وملكوته ما يشاء ويفعل ما يريد ولا يجوز ان يقال له لم فعلت هذا ولم لم تفعل ذلك والدليل على ان الانكار انما توجه الى هذا المعنى انه تعالى صرح فى آخر هذه الآية بهذا المعنى فقال ولقد بعثنا فى كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فبين تعالى ان سنته فى عبيده ارسال الرسل اليهم وامرهم بعبادة الله ونهيهم عن عبادة الطاغوت ثم قال فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة والمعنى انه تعالى وان امر الكل بالايمان ونهى الكل عن الكفر الا انه تعالى هدى البعض واضل البعض فهذه سنة قديمة لله تعالى مع العباد وهى انه يأمر الكل بالايمان وينهاهم عن الكفر ثم يخلق الايمان فى البعض والكفر فى البعض ولما كانت سنة الله تعالى فى هذا المعنى سنة قديمة فى حق كل الانبياء وكل الامم والملل وانما يحسن منه تعالى ذلك بحكم كونه الها منزها عن اعتراضات المعترضين ومطالبات المنازعين كان ايراد هذا السؤال من هؤلاء الكفار موجبا للجهل والضلال والبعد عن الله فثبت ان الله تعالى انما حكم على هؤلاء باستحقاق الخزى واللعن لا لانهم كذبوا فى قولهم لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ بل لانهم اعتقدوا ان كون الامر كذلك يمنع من جواز بعثة الانبياء والرسل وهذا باطل فلا جرم استحقوا

حينئذ فرجعوا عن ذلك الزعم الباطل فكيف يتصور منهم التنقد وقرئ بكسر النون اى تشاقوننى على ان مشاقة الانبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين لاسيما فى شأن متعلق به سبحانه مشاقة له عزوجل (قال الذين اوتوا العلم) من اهل الموقف وهم الانبياء والمؤمنون الذين اوتوا علما بدلائل التوحيد وكانوا يدعونهم فى الدنيا الى التوحيد فيجادلونهم ويتكبرون عليهم اى يقولون توبيخا لهم واظهارا للشماتة بهم وتقريرا لما كانوا يعظونهم وتحقيقا لما اوعدوهم به وايثار صيغة الماضى للدلالة على تحققه وتحتم وقوعه حسبما هو المعتاد فى اخباره سبحانه وتعالى كقوله ونادى اصحاب الجنة ونادى اصحاب الاعراف (ان الخزى) الفضيحة والذل والهوان (اليوم) منصوب بالخزى على رأى من يرى اعمال المصدر المصدر باللام او بالاستقرار فى الظرف وفيه فصل بين العامل والمعمول بالمعطوف الا انه مغتفر فى الظروف وايراده للاشعار بأنهم كانوا قبل ذلك فى عزة وشقاق ( والسوء ) العذاب ( على الكافرين ) بالله تعالى وبآياته ورسله (الذين تتوفاهم الملائكة) بتأنيث الفعل وقرئ بتذكيره وبادغام التاء فى التاء والعدول الى صيغة المضارع لاستحضار صورة توفيهم اياهم لما فيها من الهول والموصول فى محل الجر على انه نعت للكافرين او بدل منه او فى محل النصب او الرفع على الذم وفائدته تخصيص الخزى والسوء بمن استمر كفره الى حين

الموت دون من امن منهم ولوفى آخر عمره اى على الكافرين المستمرين على الكفر الى ان يتوفاهم الملائكة ( ظالمى انفسهم ) اى حال كونهم مستمرين على الكفر فانه ظلم منهم لانفسهم واى ظلم حيث عرضوها للعذاب المخلد وبدلوا فطرة الله تبديلا (فألقوا السلم) اى فيلقون والعدول الى صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع وهو عطف على قوله تعالى ويقول اين شركائى وما بينهما جملة اعتراضية جئ بها تحقيقا لما حاق بهم من الخزى على رؤس الاشهاد أى فيسالمون ويتركون المشاقة وينزلون عما كانوا عليه فى الدنيا من الكبر وشدة الشكيمة قائلين (ما كنا نعمل) فى الدنيا (من سوء) اى من شرك قالوه منكرين لصدوره عنهم كقولهم والله ربنا ما كنا مشركين وانما عبروا عنه بالسوء اعترافا بكونه سيئا لا انكارا لكونه كذلك مع الاعتراف بصدوره عنهم ويجوز ان يكون تفسيرا للسلم على ان يكون المراد به الكلام الدال عليه وعلى التقديرين فهو جواب عن قوله سبحانه اين شركائى كما فى سورة الانعام لا عن قول اولى العلم ادعاء لعدم استحقاقهم لما دهمهم من الخزى والسوء (بلى) رد عليهم من قبل اولى العلم واثبات لما نفوه اى بلى كنتم تعملون ماتعملون ( ان الله عليم بما كنتم تعملون ) فهو يجازيكم عليه وهذا او انه (فادخلوا ابواب جهنم) اى كل صنف بابه المعدله وقيل ابوابها اصناف عذابها

على هذا الاعتقاد مزيد الذم واللعن فهذا هو الجواب الصحيح الذى يعول عليه فى هذا الباب وامامن تقدمنا من المتكلمين والمفسرين فقد ذكروا فيه وجها آخر فقالوا ان المشركين ذكروا هذا الكلام على جهة الاستهزاء كما قال قوم شعيب عليه السلام له انك لانت الحليم الرشيد ولو قالوا ذلك معتقدين لكانوا مؤمنين والله اعلم ( المسئلة الثانية ) اعلم انه تعالى لما حكى هذه الشبهة قال كذلك فعل الذين من قبلهم اى هؤلاء الكفار ابدا كانوا متمسكين بهذه الشبهة ثم قال فهل على الرسل الا البلاغ المبين اما المعتزلة فقالوا معناه ان الله تعالى مامنع احدا من الايمان وماأوقعه فى الكفر والرسل ليس عليهم الا التبليغ فلما بلغوا التكاليف وثبت انه تعالى مامنع احدا عن الحق كانت هذه الشبهة ساقطة اما اصحابنا فقالوا معناه انه تعالى امر الرسل بالتبليغ فهذا التبليغ واجب عليهم فاما ان الايمان هل يحصل ام لا يحصل فذلك لاتعلق للرسول به ولكنه تعالى يهدى من يشاء باحسانه ويضل من يشاء بخذلانه ( المسئلة الثالثة ) احتج اصحابنا فى بيان ان الهدى والضلال من الله بقوله ولقد بعثنا فى كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت وهذا يدل على انه تعالى كان ابدا فى جميع الملل والامم آمرا بالايمان وناهيا عن الكفر ثم قال فنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة يعنى فنهم من هداه الله الى الايمان والصدق والحق ومنهم من اضله عن الحق واعماه عن الصدق واوقعه فى الكفر والضلال وهذا يدل على ان امر الله تعالى لايوافق ارادته بل قد يأمر بالشئ ولا يريده وينهى عن الشئ ويريده كما هو مذهبنا والحاصل ان المعتزلة يقولون الامر والارادة متطابقان اما العلم والارادة فقد يختلفان ولفظ هذه الآية صريح فى قولنا وهو ان الامر بالايمان عام فى حق الكل اما ارادة الايمان فخاصة بالبعض دون البعض اجاب الجبائى بأن المراد فنهم من هدى الله لنيل ثوابه وجنته ومنهم من حقت عليه الضلالة اى العقاب قال وفى قوله حقت عليه دلالة على انها العذاب دون كلمة الكفر لان الكفر والمعصية لايجوز وصفهما بأنه حق وايضا قال تعالى بعده فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين وهذه العاقبة هى آثار الهلاك لمن تقدم من الامم الذين استأصلهم الله تعالى بالعذاب وذلك يدل على ان المراد بالضلال المذكور هو عذاب الاستئصال واجاب الكعبى عنه بأن قال قوله فنهم من هدى الله اى من اهتدى فكان فى حكم الله مهتديا ومنهم من حقت عليه الضلالة يريد من ظهرت ضلالته كما يقال للظالم حق ظلمك وتبين ويجوز ان يكون المراد حق عليهم من الله ان يضلهم اذا ضلوا كقوله ويضل الله الظالمين واعلم انا بينا فى آيات كثيرة بالدلائل العقلية القاطعة ان الهدى والاضلال لايكونان الا من الله تعالى فلا فائدة فى الاعادة وهذا الوجوه المتعسفة والتأويلات المستكرهة قد بينا ضعفها وسقوطها مرارا فلا حاجة الى الاعادة والله اعلم ( المسئلة الرابعة ) فى الطاغوت قولان ( احدهما ) ان المراد به اجتنبوا عبادة ماتعبدون من دون الله فسمى الكل طاغوتا

( ولا يمتنع )

ولايمتنع انيكون المراد اجتنبوا طاعة الشيطان فى دعائه لكم (المسئلة الخامسة) قوله تعالى ومنهم من حقت عليه الضلالة يدل على مذهبنا لانه تعالى لما اخبر عنه انه حقت عليه الضلالة امتنع ان لايصدر منه الضلالة والا لانقلب خبر الله الصدق كذبا وذلك محال ومستلزم المحال محال فكان عدم الضلالة منهم محالا ووجود الضلالة منهم واجبا عقلا فهذه الآية دالة على صحة مذهبنا من هذه الوجوه الكثيرة والله اعلم ونظائر هذه الآية كثيرة منها قوله فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة وقوله ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون وقوله لقد حق القول على اكثرهم فهم لايؤمنون ثم قال تعالى فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين والمعنى سيروا فى الارض معتبرين لتعرفوا ان العذاب نازل بكم كما نزل بهم ثم اكد ان من حقت عليه الضلالة فانه لايهتدى فقال ان تحرص على هداهم اى ان تطلب بجهدك ذلك فان الله لايهدى من يضل وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم وحمزة والكسائى يهدى بفتح الياء وكسر الدال والباقون لايهدى بضم الياء وفتح الدال اما القراءة الاولى ففيها وجهان (الاول) فان الله لايرشد احدا اضله وبهذا فسره ابن عباس رضى الله عنهما (والثانى) ان يهدى بمعنى يهتدى قال الفراء العرب تقول قد هدى الرجل يريدون قد اهتدى والمعنى ان الله اذا اضل احدا لم يصر ذلك مهتديا واما القراءة المشهورة فالوجه فيها ان الله لايهدى من يضل اى من يضله فالراجع الى الموصول الذى هو من محذوف مقدر وهذا كقوله من يضلل الله فلا هادى له وكقوله فمن يهديه من بعد الله اى من بعد اضلال الله اياه ثم قال تعالى وما لهم من ناصرين اى وليس لهم احد ينصرهم اى يعينهم على مطلوبهم فى الدنيا والآخرة واقول اول هذه الآيات موهم لمذهب المعتزلة وآخرها مشتمل على الوجوه الكثيرة الدالة على قولنا واكثر الآيات كذلك مشتملة على الوجهين والله اعلم ۞ قوله تعالى (واقسموا بالله جهد ايمانهم لايبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن اكثر الناس لايعلمون ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين انما قولنا لشئ اذا أردناه ان نقول له كن فيكون) وفيه مسئلتان (الاولى) اعلم ان هذا هو الشبهة الرابعة لمنكرى النبوة فقالوا القول بالبعث والحشر والنشر باطل فكان القول بالنبوة باطلا (اما المقام الاول) فتقريره ان الانسان ليس الا هذه البنية المخصوصة فاذا مات وتفرقت اجزاؤه وبطل ذلك المزاج والاعتدال امتنع عوده بعينه لان الشئ اذا عدم فقد فنى ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه فالذى يعود يجب ان يكون شيئا مغايرا للاول فلا يكون عينه (واما المقام الثانى) وهو انه لما بطل القول بالبعث بطل القول بالنبوة وتقريره من وجهين (الاول) ان محمدا كان داعيا الى تقرير القول بالمعاد فاذا بطل ذلك ثبت انه كان داعيا الى القول الباطل ومن كان كذلك لم يكن رسولا صادقا (الثانى) انه يقرر نبوة نفسه ووجوب طاعته بناء على الترغيب فى الثواب

فالدخول عبارة عن الملابسة والمقاساة (خالدين فيها) ان اريد بالدخول حدوثه فالحال مقدرة وان اريد مطلق الكون فيها فهى مقارنة (فبئس مثوى المتكبرين) عن التوحيد كما قال تعالى قلوبهم منكرة وهم مستكبرون وذكرهم بعنوان التكبر للاشعار بعليته لثوائهم فيها والمخصوص بالذم محذوف اى جهنم وتأويل قولهم ما كنا نعمل من سوء بأنا ما كنا عاملين ذلك فى اعتقادنا روما للمحافظة على ان لا كذب ثمة يرده الرد المذكور وما فى سورة الانعام من قوله تعالى انظر كيف كذبوا على انفسهم (وقيل للذين اتقوا) اى المؤمنين وصفوا بالتقوى اشعارا بأن ما صدر عنهم من الجواب ناشئ عن التقوى (ماذا انزل ربكم قالوا خيرا) سلكوا فى الجواب مسلك السؤال من غير تلعثم ولا تغيير فى الصورة والمعنى اى انزل خيرا فانه جواب مطابق للسؤال سبكا وللواقع فى نفس الامر مضمونا واما الكفرة فانهم خذلهم الله تعالى كما غيروا الجواب عن نهج الحق الواقع الذى ليس له من دافع غيروا صورته وعدلوا بها عن سنن السؤال حيث رفعوا الاساطير روما لما مر من انكار النزول روى ان احياء العرب كانوا يبعثون ايام الموسم من يأتيهم بخبر النبى عليه السلام فاذا جاء الوافد كفه المقتسمون وامروه بالانصراف وقالوا ان لم تلقه كان خيرا لك فيقول انا شر وافد ان رجعت الى قومى دون ان استطلع امر محمد وأراه فيلقى اصحاب النبى صلى

والترهيب عن العقاب واذا ابطل ذلك بطلت نبوته اذا عرفت هذا فنقول قوله واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت معناه انهم كانوا يدعون العلم الضرورى بأن الشئ اذا فنى وصار عدما محضا ونفيا صرفا فانه بعد هذا العدم الصرف لا يعود بعينه بل العائد يكون شيئا آخر غيره وهذا القسم واليمين اشارة الى انهم كانوا يدعون العلم الضرورى بأن عوده بعينه بعد عدمه محال فى بديهة العقل واقسموا بالله جهد ايمانهم على انهم يجدون من قلوبهم وعقولهم هذا العلم الضرورى واما بيان انه لما بطل القول بالبعث بطل القول بالنبوة فلم يذكروه على سبيل التصريح لانه كلام جلى متبادر الى العقول فتركوه لهذا العذر ثم انه تعالى بين ان القول بالبعث ممكن ويدل عليه وجهان (الاول) انه وعد حق على الله تعالى فوجب تحقيقه ثم بين السبب الذى لاجله كان وعدا حقا على الله تعالى وهو التمييز بين المطيع وبين العاصى وبين المحق والمبطل وبين الظالم والمظلوم وهو قوله ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين وهذه الطريقة قد بالغنا فى شرحها وتقريرها فى سورة يونس (والوجه الثانى) فى بيان امكان الحشر والنشر ان كونه تعالى موجدا للاشياء ومكونا لها لا يتوقف على سبق مادة ولا مدة ولا آلة وهو تعالى انما يكونها بمحض قدرته ومشيئته وليس لقدرته دافع ولا لمشيئته مانع فعبر تعالى عن هذا النفاذ الخالى عن المعارض بقوله انما قولنا لشئ اذا أردناه ان نقول له كن فيكون واذا كان كذلك فكما انه تعالى قدر على الايجاد فى الابتداء وجب ان يكون قادرا عليه فى الاعادة فثبت بهذين الدليلين القاطعين ان القول بالحشر والنشر والبعث والقيامة حق وصدق والقوم انما طعنوا فى صحة النبوة بناء على الطعن فى هذا الاصل فلما بطل هذا الطعن بطل ايضا طعنهم فى النبوة والله اعلم (المسئلة الثانية) قوله واقسموا بالله جهد ايمانهم حكاية عن الذين اشركوا وقوله بلى اثبات لما بعد النفى اى بلى يبعثهم وقوله وعدا عليه حقا مصدر مؤكد اى وعد بالبعث وعدا حقا لا خلف فيه لان قوله يبعثهم دل على قوله وعد بالبعث وقوله ليبين لهم الذى يختلفون فيه من امور البعث اى بلى يبعثهم ليبين لهم وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين فيما اقسموا فيه ثم قال تعالى انما قولنا لشئ اذا أردناه ان نقول له كن فيكون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لقائل ان يقول قوله كن ان كان خطابا مع المعدوم فهو محال وان كان خطابا مع الموجود كان هذا امرا بتحصيل الحاصل وهو محال والجواب ان هذا تمثيل لنفى الكلام والمعاياة وخطاب مع الخلق بما يعقلون وليس خطابا للمعدوم لان ما اراده الله تعالى فهو كائن على كل حال وعلى ما أراده من الاسراع ولو أراد خلق الدنيا والآخرة بما فيهما من السموات والارض فى قدر لمح البصر لقدر على ذلك ولكن العباد خوطبوا بذلك على قدر عقولهم (المسئلة الثانية) قوله تعالى قولنا مبتدأ وان نقول خبره وكن فيكون من كان التامة التى بمعنى الحدوث والوجود اى اذا أردنا حدوث شئ فليس الا ان نقول له

(احدث)

الله عليه وسلم ورضى عنهم فيخبرونه بحقيقة الحال فهم الذين قالوا خيرا (للذين احسنوا) اى اعمالهم اوفعلوا الاحسان (فى هذه) الدار (الدنيا حسنة) اى مثوبة حسنة مكافاة فيها (ولدار الآخرة) اى مثوبتهم فيها (خير) مما أوتوا فى الدنيا من المثوبة اوخير على الاطلاق فيجوز اسناد الخيرية الى نفس دار الآخرة (ولنعم دار المتقين) اى دار الاخرة حذف لدلالة ماسبق عليه وهذا كلام مبتدأ مدح الله تعالى به المتقين وعد جوابهم الذى حكى من جملة احسانهم ووعدهم بذلك ثوابى الدنيا والآخرة فلا محل له من الاعراب اوبدل من خيرا او تفسيرله اى انزل خيرا هو هذا الكلام الجامع قالوه ترغيبا للسائل (جنات عدن) خبر مبتدأ محذوف اومبتدأ خبره محذوف اى لهم جنات ويجوز ان يكون هو المخصوص بالمدح (يدخلونها) صفة لجنات على تقدير تنكير عدن وكذلك (تجرى من تحتها الانهار) اوكلاهما حال على تقدير علميته (لهم فيها) فى تلك الجنات (مايشاؤن) الظرف الاول خبر لما والثانى حال منه والعامل مافى الاول اومتعلق به اى حاصل لهم فيها مايشاؤن من انواع المشتهيات وتقديمه للاحتراز عن توهم تعلقه بالمشيئة اولما مرمرارا من ان تأخير ماحقه التقديم يوجب ترقب النفس اليه فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن (كذلك) مثل ذلك الجزاء الاوفى (يجزى الله المتقين) اللام

احدث فيحدث عقيب ذلك من غير توقف ( المسئلة الثالثة ) قرأ ابن عامر والكسائي فيكون بنصب النون والباقون بالرفع قال الفراء القراءة بالرفع وجهها ان يجعل قوله ان نقول له كلاما تاما ثم يخبر عنه بانه سيكون كما يقال ان زيدا يكفيه ان امر فيفعل فترفع قولك فيفعل على ان تجعله كلاما مبتدا واما القراءة بالنصب فوجهه ان تجعله عطفا على ان نقول والمعنى ان نقول كن فيكون هذا قول جميع النحويين قال الزجاج ويجوز ان يكون نصبا على جواب كن قال ابو علي لفظة كن وان كانت على لفظة الامر فليس القصد به هذا الامر انما هو والله اعلم الاخبار عن كون الشئ وحدوثه واذا كان الامر كذلك فحينئذ يبطل قوله انه نصب على جواب كن والله اعلم ( المسئلة الرابعة ) احتج بعض اصحابنا بهذه الآية على قدم القرآن فقالوا قوله تعالى انما قولنا لشئ اذا أردناه ان نقول له كن فيكون يدل على انه تعالى اذا أراد احداث شئ قال له كن فيكون فلو كان قوله كن حادثا لافتقر احداثه الى ان يقول له كن وذلك يوجب التسلسل وهو محال فثبت ان كلام الله قديم واعلم ان هذا الدليل عندي ليس في غاية القوة وبيانه من وجوه ( الاول ) ان كلمة اذا لاتفيد التكرار والدليل عليه ان الرجل اذا قال لامرأته اذا دخلت الدار فانت طالق فدخلت الدار مرة طلقت طلقة واحدة فلو دخلت ثانيا لم تطلق طلقة ثانية فعلمنا ان كلمة اذا لاتفيد التكرار واذا كان كذلك ثبت انه لايلزم في كل مايحدثه الله تعالى ان يقول له كن فلم يلزم التسلسل ( والثاني ) ان هذا الدليل ان صح لزم القول بقدم لفظة كن وهذا معلوم البطلان بالضرورة لان لفظة كن مركبة من الكاف والنون وعند حضور الكاف لم تكن النون حاضرة وعند مجيء النون تولى الكاف وذلك يدل على ان كلمة كن يمتنع كونها قديمة وانما الذي يدعي اصحابنا كونه قديما صفة مغايرة للفظة كن فالذي تدل عليه الآية لايقول به اصحابنا والذي يقولون به لاتدل عليه الآية فسقط التمسك به ( والثالث ) ان الرجل اذا قال ان فلانا لايقدم على قول ولا على فعل الا ويستعين فيه بالله تعالى فان عاقلا لايقول ان استعانته بالله فعل من افعاله فيلزم ان يكون كل استعانة مسبوقة باستعانة أخرى الى غير النهاية لان هذا الكلام بحسب العرف باطل فكذلك ماقالوه ( والوجه الرابع ) ان هذه الآية مشعرة بحدوث الكلام من وجوه ( الاول ) ان قوله تعالى انما قولنا لشئ اذا أردناه يقتضي كون القول واقعا بالارادة وما كان كذلك فهو محدث ( والثاني ) انه علق القول بكلمة اذا ولاشك ان لفظة اذا تدخل للاستقبال ( والثالث ) ان قوله ان نقول له لاخلاف ان ذلك ينبئ عن الاستقبال ( والرابع ) ان قوله كن فيكون يدل على ان حدوث الكون حاصل عقيب قوله كن فتكون كلمة كن متقدمة على حدوث الكون بزمان واحد والمتقدم على المحدث بزمان واحد يجب ان يكون محدثا ( والوجه الخامس ) انه معارض بقوله تعالى وكان امر الله مفعولا وكان امر الله قدرا مقدورا الله نزل احسن الحديث فليأتوا

الجنس اى كل من يتقي من الشرك والمعاصي ويدخل فيه المتقون المذكورون دخولا اوليا ويكون فيه بعث لغيرهم على التقوى اوللعهد فيكون فيه تحسير للكفرة (الذين تتوفاهم الملائكة ) نعت للمتقين وقوله تعالى (طيبين) اى طاهرين عن دنس الظلم لأنفسهم حال من الضمير وفائدته الايذان بأن ملاك الامر في التقوى هو الطهارة عماذكر الى وقت توفيهم ففيه حث للمؤمنين على الاستمرار على ذلك ولغيرهم على تحصيله وقيل فرحين طيبي النفوس ببشارة الملائكة اياهم بالجنة او طيبين بقبض ارواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية الى جناب القدس ( يقولون ) حال من الملائكة اى قائلين لهم ( سلام عليكم ) قال القرطبي رحمه الله اذا استدعيت نفس المؤمن جاءه ملك الموت عليه السلام فقال السلام عليك ياولي الله الله تعالى يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة (ادخلوا الجنة) اللام للعهد اى جنات عدن الخ ولذلك جردت عن النعت والمراد دخولهم لها في وقته فان ذلك بشارة عظيمة وان تراخي المبشر به لادخول القبر الذى هو روضة من رياضها اذ ليس في البشارة به ما في البشارة بدخول نفس الجنة ( بما كنتم تعملون ) بسبب ثباتكم على التقوى والطاعة او بالذى كنتم تعملونه من ذلك وقيل المراد بالتوفي التوفي للحشر لان الامر بالدخول حينئذ يتحقق ( هل ينظرون ) اى ماينتظر كفار مكة المار ذكرهم (الا ان تأتيهم الملائكة) لقبض ارواحهم

بحديث مثله ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة فان قيل فهب ان هذه الآية لاتدل على قدم الكلام ولكنكم ذكرتم انها تدل على حدوث الكلام فالجواب عنه قلنا نصرف هذه الدلائل الى الكلام المسموع الذى هو مركب من الحروف والاصوات ونحن نقول بكونه محدثا مخلوقا والله اعلم * قوله تعالى (والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولاجر الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) اعلم انه تعالى لما حكى عن الكفار انهم اقسموا بالله جهد ايمانهم على انكار البعث والقيامة دل ذلك على انهم تمادوا فى الغى والجهل والضلال وفى مثل هذه الحالة لا يبعد اقدامهم على ايذاء المسلمين وضربهم وانزال العقوبات بهم وحينئذ يلزم على المؤمنين ان يهاجروا عن تلك الديار والمساكن فذكر تعالى فى هذه الآية حكم تلك الهجرة وبين ما لهؤلاء المهاجرين من الحسنات فى الدنيا والاجر فى الآخرة من حيث هاجروا او صبروا وتوكلوا على الله وذلك ترغيب لغيرهم فى طاعة الله تعالى قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت هذه الآية فى ستة من الصحابة صهيب وبلال وعمار وخباب وعابس وجبير موليين لقريش فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الاسلام اما صهيب فقال لهم انا رجل كبير ان كنت لكم لم انفعكم وان كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله فلما رآه ابو بكر قال ربح البيع يا صهيب وقال عمر نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه وهو ثناء عظيم يريد لو لم يخلق الله النار لأطاعه فكيف ظنك به وقد خلقها واما سائرهم فقد قالوا بعض ما اراد اهل مكة من كلمة الكفر والرجوع عن الاسلام فتركوا عذابهم ثم هاجروا فنزلت هذه الآية وبين الله تعالى بهذه الآية عظم محل الهجرة ومحل المهاجرين فالوجه فيه ظاهر لان بسبب هجرتهم ظهرت قوة الاسلام كما ان بنصرة الانصار قويت شوكتهم ودل تعالى بقوله والذين هاجروا فى الله ان الهجرة اذا لم تكن لله لم يكن لها موقع وكانت بمنزلة الانتقال من بلد الى بلد وقوله من بعد ما ظلموا معناه انهم كانوا مظلومين فى أيدى الكفار لانهم كانوا يعذبونهم ثم قال لنبوئنهم فى الدنيا حسنة وفيه وجوه (الاول) ان قوله حسنة صفة للمصدر من قوله لنبوئنهم فى الدنيا والتقدير لنبوئنهم تبوئة حسنة وفى قراءة على عليه السلام لنبوئنهم ابواءة حسنة (الثانى) لننزلنهم فى الدنيا منزلة حسنة وهى الغلبة على اهل مكة الذين ظلموهم وعلى العرب قاطبة وعلى اهل المشرق والمغرب وعن عمر انه كان اذا اعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله فى الدنيا وما ذخر لك فى الآخرة اكبر (والقول الثالث) لنبوئنهم مباءة حسنة وهى المدينة حيث آواهم اهلها ونصروهم وهذا قول الحسن والشعبى وقتادة والتقدير لنبوئنهم فى الدنيا دارا حسنة او بلدة حسنة يعنى المدينة ثم قال تعالى ولاجر الآخرة اكبر واعظم وأشرف لو كانوا يعلمون والضمير الى من يعود فيه قولان (الاول) انه عائد الى الكفار اى لو علموا ان الله تعالى يجمع لهؤلاء المستضعفين فى ايديهم الدنيا والآخرة لرغبوا فى دينهم (والثانى) انه راجع الى المهاجرين اى لو كانوا يعلمون ذلك

(لزادوا)

بالعذاب جعلوا منتظرين لذلك وشتان بينهم وبين انتظاره لانه يلحقهم البتة لحوق الامر المنتظر بل لمباشرتهم لاسبابه الموجبة له المودية اليه فكأنهم يقصدون اتيانه ويترصدون لوروده وقرئ بتذكير الفعل (او يأتى امر ربك) التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة السلام اشعار بأن اتيانه لطف به عليه الصلاة والسلام وان كان عذابا عليهم والمراد بالامر العذاب الدنيوى لا القيامة لكن لا لان انتظارها يجامع انتظار اتيان الملائكة فلا يلائمه العطف بأو لانها ليست نصا فى العناد اذ يجوز ان يعتبر منع الخلو ويراد بايرادها كفاية كل واحد من الامرين فى عذابهم بل لان قوله تعالى فيما سيأتى ولكن كانوا انفسهم يظلمون فأصابهم الآية صريح فى ان المراد به ما اصابهم من العذاب الدنيوى (كذلك) اى مثل فعل هؤلاء من الشرك والظلم والتكذيب والاستهزاء (فعل الذين) خلوا (من قبلهم) من الامم (وما ظلمهم الله) بما سيحل من عذابهم (ولكن كانوا) بما كانوا مستمرين عليه من القبائح الموجبة لذلك (انفسهم يظلمون) كان الظاهر ان يقال ولكن كانواهم الظالمين كما فى سورة الزخرف لكنه اوثر ما عليه النظم الكريم لافادة ان غائلة ظلمهم آيلة اليهم وعاقبته مقصورة عليهم مع استلزام اقتصار ظلم كل احد على نفسه من حيث الوقوع اقتصاره عليه من حيث الصدور وقد مر تحقيقه فى سورة يونس

زادوا فى اجتهادهم وصبرهم ثم قال الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون وفى محل الذين وجوه (الاول) انه بدل من قوله والذين هاجروا (والثانى) ان يكون التقدير هم الذين صبروا (والثالث) ان يكون التقدير اعنى الذين صبروا وكلا الوجهين مدح والمعنى انهم صبروا على العذاب وعلى مفارقة الوطن الذى هو حرم الله وعلى المجاهدة وبذل الاموال والانفس فى سبيل الله وبالجملة فقد ذكر فيه الصبر والتوكل اما الصبر فللسعى فى قهر النفس واما التوكل فللانقطاع بالكلية من الخلق والتوجه بالكلية الى الحق (فالاول) هو مبدأ السلوك الى الله تعالى (والثانى) آخر هذا الطريق ونهايته والله اعلم * قوله تعالى

(وما ارسلنا من قبلك الا رجالا يوحى اليهم فاسئلوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون أفأمن الذين مكروا السيئات ان يخسف الله بهم الارض او يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون او يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين او يأخذهم على تخوف فان ربكم لرؤف رحيم) فى الآية مسائل

(المسئلة الاولى) اعلم ان هذا هو الشبهة الخامسة لمنكرى النبوة كانوا يقولون الله اعلى واجل من ان كون رسوله واحدا من البشر بل لو أراد بعثة رسول الينا لكان يبعث ملكا وقد ذكرنا تقرير هذه الشبهة فى سورة الانعام فلا نعيده ههنا ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عنهم وقالوا لولا انزل عليه ملك وقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقالوا ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن اطعتم بشرا مثلكم وقال أكان للناس عجبا ان اوحينا الى رجل منهم وقالوا لولا انزل عليه ملك فيكون معه نذيرا فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله وما ارسلنا من قبلك الا رجالا يوحى اليهم والمعنى ان عادة الله تعالى من اول زمان الخلق والتكليف انه لم يبعث رسولا الا من البشر فهذه العادة مستمرة لله سبحانه وتعالى وطعن هؤلاء الجهال بهذا السؤال الركيك ايضا طعن قديم فلا يلتفت اليه (المسئلة الثانية) دلت الآية على انه تعالى ما ارسل احدا من النساء ودلت ايضا على انه ما ارسل ملكا لكن ظاهر قوله جاعل الملائكة رسلا يدل على ان الملائكة رسل الله الى سائر الملائكة فكان ظاهر هذه الآية دليلا على انه ما ارسل رسولا من الملائكة الى الناس قال القاضى وزعم ابو على الجبائى انه لم يبعث الى الانبياء عليهم السلام الا من هو بصورة الرجال من الملائكة ثم قال القاضى لعله أراد ان الملك الذى يرسل الى الانبياء عليهم السلام بحضرة أممهم لانه اذا كان كذلك فلا بد من ان يكون ايضا بصورة الرجال كما روى ان جبريل عليه السلام حضر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صورة دحية الكلبى وفى صورة سراقة وانما قلنا ذلك لان المعلوم من حال الملائكة ان عند ابلاغ الرسالة من الله تعالى الى الرسول قد يبقون على صورهم الاصلية الملكية وقد روى ان النبى صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام على صورته التى هو

---

(فأصابهم) عطف على قوله تعالى فعل الذين من قبلهم وما بينهما اعتراض لبيان ان فعلهم ذلك ظلم لانفسهم (سيئات ما عملوا) اى اجزية اعمالهم السيئة على طريقة تسمية المسبب باسم سببه ايذانا بفظاعته لا على حذف المضاف فانه يوهم ان لهم اعمالا غير سيئاتهم (وحاق بهم) اى احاط بهم من الحيق الذى هو احاطة الشر وهو ابلغ من الاصابة وافظع (ما كانوا به يستهزؤن) من العذاب (وقال الذين اشركوا) اى اهل مكة وهو بيان لفن آخر من كفرهم والعدول عن الاضمار الى الموصول لتقريعهم بما فى حيز الصلة وذمهم بذلك من اول الامر (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ) اى لو شاء عدم عبادتنا لشئ غيره كما تقول لما عبدنا ذلك (نحن ولا آباؤنا) الذين نقتدى بهم فى ديننا (ولا حرمنا من دونه من شئ) من السوائب والبحائر وغيرها وانما قالوا ذلك تكذيبا للرسول عليه الصلاة والسلام وطعنا فى الرساله رأسا متمسكين بأن ما شاء الله تعالى يجب وما لم يشأ يمتنع فلو انه شاء ان نوحده ولا نشرك به شيأ ولا نحرم مما حرمنا شيئا كما يقوله الرسل وينقلونه من جهة الله عز وجل لكان الامر كما شاء من التوحيد ونفى الاشراك وما يتبعهما وحيث لم يكن كذلك ثبت انه لم يشا شيئا من ذلك وانما يقوله الرسل من تلقاء انفسهم فاجيب عنه بقوله عز وجل (كذلك) اى مثل ذلك الفعل الشنيع (فعل الذين من قبلهم) من الامم اى اشركوا بالله وحرموا حله وردوا رسله وجادلوهم بالباطل حين نبهوهم على الخطأ

عليهامرتين وعليه تأولوا قوله تعالى ولقدرآه نزلةاخرى ولماذكرالله تعالى هذا الكلام اتبعه بقوله فاسئلوا اهل الذكران كنتم لاتعلمون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى المراد بأهل الذكر وجوه (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما يريداهل التوراة والذكرهو التوراة والدليل عليه قوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر يعنى التوراة (والثانى) قال الزجاج فاسألوا اهل الكتب الذين يعرفون معانى كتب الله تعالى فانهم يعرفون ان الانبياء كلهم بشر (والثالث) اهل الذكر اهل العلم باخبار الماضين اذالعالم بالشئ يكون ذاكراله (والرابع) قال الزجاج معناه سلوا كل من يذكر بعلم وتحقيق واقول الظاهر ان هذه الشبهة وهى قولهم الله اعلى واجل من ان يكون رسوله واحدا من البشر انما تمسك بها كفار مكة ثم انهم كانوا مقرين بان اليهود والنصارى اصحاب العلوم والكتب فأمرهم الله بان يرجعوا فى هذه المسئلة الى اليهود والنصارى ليبينوا لهم ضعف هذه الشبهة وسقوطها فان اليهودى والنصرانى لابدلهما من تزييف هذه الشبهة وبيان سقوطها (المسئلة الثانية) اختلف الناس فى انه هل يجوز للمجتهد تقليد المجتهد منهم من حكم بالجواز واحتج بهذه الآية فقال لما لم يكن احد المجتهدين عالما وجب عليه الرجوع الى المجتهد الآخر الذى يكون عالما لقوله تعالى فاسئلوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون فان لم يجب فلا اقل من الجواز (المسئلة الثالثة) احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا المكلف اذا نزلت به واقعة فان كان عالما بحكمها لم يجز له القياس وان لم يكن عالما بحكمها وجب عليه سؤال من كان عالما بها لظاهر هذه الآية ولو كان القياس حجة لما وجب عليه سؤال العالم لاجل انه يمكنه استنباط ذلك الحكم بواسطة القياس فثبت ان تجويز العمل بالقياس يوجب ترك العمل بظاهر هذه الآية فوجب ان لايجوز والله اعلم وجوابه انه ثبت جواز العمل بالقياس باجماع الصحابة والاجماع اقوى من هذا الدليل والله اعلم ثم قال تعالى بالبينات والزبر وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ذكروا فى الجالب لهذه الباء وجوها (الاول) ان التقدير وما ارسلنا من قبلك بالبينات والزبر الارجالا يوحى اليهم وانكر الفراء ذلك وقال ان صلة ماقبل الا لاتتأخر الى مابعد الا والدليل عليه ان المستثنى عنه هو مجموع ماقبل الا مع صلته فما لم يصر هذا المجموع مذكورا بتمامه امتنع ادخال الاستثناء عليه (الثانى) ان التقدير وما ارسلنا من قبلك الا رجالا يوحى اليهم بالبينات والزبر وعلى هذا التقدير فقوله بالبينات والزبر متعلق بالمستثنى (الثالث) ان الجالب لهذه الباء محذوف والتقدير ارسلناهم بالبينات وهذا قول الفراء قال ونظيره مامر الا اخوك زيد مامر الا اخوك ثم يقول مر زيد (الرابع) ان يقال الذكر بمعنى العلم والتقدير فاسألوا اهل الذكر بالبينات والزبر ان كنتم لاتعلمون (الخامس) ان يكون التقدير ان كنتم لاتعلمون بالبينات والزبر فاسألوا اهل الذكر (المسئلة الثانية) قوله تعالى بالبينات والزبر لفظة جامعة لكل ماتكامل به الرسالة لان مدار امرها على المعجزات الدالة على صدق من

(يدعى)

وهدوهم الى الحق (فهل على الرسل) الذين يبلغون رسالات الله وعزائم امره ونهيه (الا البلاغ المبين) اى ليست وظيفتهم الا تبليغ الرسالة تبليغا واضحا او موضحا وابانة طريق الحق واظهار احكام الوحى الذى من جملتها تحتم تعلق مشيئة الله تعالى باهتداء من صرف قدرته واختياره الى تحصيل الحق لقوله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا واما الجاؤهم الى ذلك وتنفيذ قولهم عليهم شاؤا اوابوا كما هو مقتضى استدلالهم فليس ذلك من وظيفتهم ولا من الحكمة التى عليها يدور امر التكليف فى شئ حتى يستدل بعدم ظهور آثاره على عدم حقيقة الرسل او على عدم تعلق مشيئته تعالى بذلك فان مايترتب عليه الثواب والعقاب من افعال العباد لابد فى تعلق مشيئته تعالى بوقوعه من مباشرتهم الاختيارية له وصرف اختيارهم الجزئى الى تحصيله والا لكان الثواب والعقاب اضطراريين فالفاء للتعليل كأنه قيل كذلك فعل اسلافهم وذلك باطل فان الرسل ليس شأنهم الا تبليغ اوامر الله تعالى ونواهيه لاتحقيق مضمونهما واجراء موجبهما على الناس قسرا والجاء وايراد كلمة على للايذان بأنهم فى ذلك مأمورون اوبان ما يبلغونه حق للناس عليهم ايفاؤه وبهذا ظهر ان حمل قولهم لوشاء الله الخ على الاستهزاء لايلائم الجواب والله تعالى اعلم بالصواب (ولقد بعثنا فى كل امة رسولا) تحقيق لكيفية تعلق مشيئته تعالى بافعال العباد بعد بيان ان الالجاء ليس من وظائف

يدعى الرسالة وهى البينات وعلى التكاليف التى يبلغها الرسول من الله تعالى الى العباد وهى الزبر ثم قال تعالى وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ظاهر هذا الكلام يقتضى ان هذا الذكر مفتقر الى بيان رسول الله والمفتقر الى البيان مجمل فظاهر هذا النص يقتضى ان القرآن كله مجمل فلهذا المعنى قال بعضهم متى وقع التعارض بين القرآن وبين الخبر وجب تقديم الخبر لان القرآن مجمل والدليل عليه هذه الآية والخبر مبين له بدلالة هذه الآية والمبين مقدم على المجمل والجواب ان القرآن منه محكم ومنه متشابه والمحكم يجب كونه مبينا فثبت ان القرآن ليس كله مجملا بل فيه مايكون مجملا فقوله لتبين للناس مانزل اليهم محمول على المجملات (المسئلة الثانية) ظاهر هذه الآية يقتضى ان يكون الرسول صلى الله عليه وسلم هو المبين لكل ماانزله الله تعالى على المكلفين فعند هذا قال نفاة القياس لو كان القياس حجة لماوجب على الرسول بيان كل ماانزله الله تعالى على المكلفين من الاحكام لاحتمال ان يبين المكلف ذلك الحكم بطريقة القياس ولما دلت هذه الآية على ان المبين لكل التكاليف والاحكام هو الرسول صلى الله عليه وسلم علمنا ان القياس ليس بحجة واجيب عنه بأنه صلى الله عليه وسلم لما بين ان القياس حجة فمن رجع فى تبيين الاحكام والتكاليف الى القياس كان ذلك فى الحقيقة رجوعا الى بيان الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال تعالى افأمن الذين مكروا السيئات المكر فى اللغة عبارة عن السعى بالفساد على سبيل الاخفاء ولابدههنا من اضمار والتقدير المكرات السيآت والمراد اهل مكة ومن حول المدينة قال الكلبى المراد بهذا المكر اشتغالهم بعبادة غير الله تعالى والاقرب ان المراد سعيهم فى ايذاء الرسول صلى الله عليه وسلم واصحابه على سبيل الخفية ثم انه تعالى ذكر فى تهديدهم امورا اربعة (الاول) ان يخسف الله بهم الارض كما خسف بقارون (والثانى) ان يأتيهم العذاب من حيث لايشعرون والمراد ان يأتيهم العذاب من السماء من حيث يفجؤهم فيهلكهم بغتة كما فعل بقوم لوط (والثالث) ان يأخذهم فى تقلبهم فماهم بمعجزين وفى تفسير هذا التقلب وجوه (الاول) انه يأخذهم بالعقوبة فى اسفارهم فانه تعالى قادر على اهلاكهم فى السفر كما انه قادر على اهلاكهم فى الحضر وهم لايعجزون الله بسبب ضربهم فى البلاد البعيدة بل يدركهم الله حيث كانوا وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد (وثانيهما) تفسير هذا اللفظ بأنه يأخذهم بالليل والنهار فى احوال اقبالهم وادبارهم وذهابهم ومجيئهم وحقيقته فى حال تصرفهم فى الامور التى يتصرف فيها امثالهم (وثالثها) ان يكون المعنى اويأخذهم فى حال ماينقلبون فى قضايا افكارهم فيحول الله بينهم وبين اتمام تلك الحيل قسرا كما قال ولونشاء لطمسنا على اعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى مأخوذ من قوله وقلبوا لك الامور فانهم اذا قلبوها فقد تقلبوا فيها (والنوع الرابع) من الاشياء التى ذكرها الله تعالى فى هذه الآية

الرسالة ولامن باب المشيئة المتعلقة بما يدور عليه الثواب والعقاب من الافعال الاختيارية لهم اى بعثنا فى كل امة من الامم الخالية رسولا خاصا بهم (ان اعبدوا الله) يجوز ان تكون ان مفسرة لما فى البعث من معنى القول وان تكون مصدرية اى بعثنا بأن اعبدوا الله وحده (واجتنبوا الطاغوت) هو الشيطان وكل مايدعو الى الضلالة (فمنهم) اى من تلك الامم والفاء فصيحة اى فبلغوا امابعثوا به من الامر بعبادة الله وحده واجتناب الطاغوت فتفرقوا فمنهم (من هدى الله) الى الحق الذى هو عبادته واجتناب الطاغوت بعد صرف قدرتهم واختيارهم الجزئى الى تحصيله (ومنهم من حقت عليه الضلالة) اى وجبت وثبتت الى حين الموت لعناده واصراره عليها وعدم صرف قدرته الى تحصيل الحق وتغيير الاسلوب للاشعار بان ذلك لسوء اختيارهم كقوله تعالى واذا مرضت فهو يشفين فلم يكن كل من مشيئة الهداية وعدمها الاحسبما حصل منهم من التوجه الى الحق وعدمه الا بطريق القسر والالجاء حتى يستدل بعدمهما على عدم تعلق مشيئته تعالى بعبادتهم له تعالى وحده (فسيروا) يامعشر قريش (فى الارض فانظروا) فى اكنافها (كيف كان عاقبة المكذبين) من عاد وثمود ومن سار سيرتهم ممن حقت عليه الضلالة لعلكم تعتبرون حين تشاهدون فى منازلهم وديارهم آثار الهلاك والعذاب وترتيب الامر بالسير على مجرد الاخبار بثبوت الضلالة

على سبيل التهديد قوله تعالى اويأخذهم على تخوف وفى تفسير التخوف قولان (الاول) التخوف تفعل من الخوف يقال خفت الشئ وتخوفته والمعنى انه تعالى لايأخذهم بالعذاب اولا بل يخيفهم اولا ثم يعذبهم بعده وتلك الاخافة هو انه تعالى يهلك فرقة فتخاف التى تليها فيكون هذا اخذا ورد عليهم بعد ان يمر بهم قبل ذلك زمانا طويلا فى الخوف والوحشة (والقول الثانى) ان التخوف هو التنقص قال ابن الاعرابى يقال تخوفت الشئ وتخيفته اذا تنقصته وعن عمر انه قال على المنبر ماتقولون فى هذه الآية فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال هذه لغتنا التخوف التنقص فقال عمر هل تعرف العرب ذلك فى اشعارها قال نعم قال شاعرنا وانشد

تخوف الرحل منها تامكا قردا * كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر ايها الناس عليكم بديوانكم لاتضلوا قالوا وماديواننا قال شعر الجاهلية فيه تفسير كتابكم اذا عرفت هذا فنقول هذا التنقص يحتمل ان يكون المراد منه مايقع فى اطراف بلادهم كما قال تعالى اولا يرون انا نأتى الارض ننقصها من اطرافها والمعنى انه تعالى لايعاجلهم بالعذاب ولكن ينقص من اطراف بلادهم الى القرى التى تجاورهم حتى يخلص الامر اليهم فحينئذ يهلكهم ويحتمل ان يكون المراد انه ينقص اموالهم وانفسهم قليلا قليلا حتى يأتى الفناء على الكل فهذا تفسير هذه الامور الاربعة والحاصل انه تعالى خوفهم بخسف يحصل فى الارض او بعذاب ينزل من السماء او بآفات تحدث دفعة واحدة حال ما لا يكونون عالمين بعلاماتها ودلائلها او بآفات تحدث قليلا قليلا الى ان يأتى الهلاك على آخرهم ثم ختم الآية بقوله فان ربكم لرؤف رحيم والمعنى انه يمهل فى اكثر الامر لانه رؤف رحيم فلا يعاجل بالعذاب ❊ قوله تعالى (اولم يروا الى ماخلق الله من شئ يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ولله يسجد مافى السموات ومافى الارض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما خوف المشركين بالانواع الاربعة المذكورة من العذاب اردفه بذكر مايدل على كمال قدرته فى تدبير احوال العالم العلوى والسفلى وتدبير احوال الارواح والاجسام ليظهر لهم ان مع كمال هذه القدرة القاهرة والقوة الغير المتناهية لايعجز عن ايصال العذاب اليهم على احد تلك الاقسام الاربعة (المسئلة الثانية) قرأ حمزة والكسائى اولم تروا بالتاء على الخطاب وكذلك فى سورة العنكبوت اولم تروا ان الله يبدأ الخلق ثم يعيده بالتاء على الخطاب والباقون بالياء فيهما كناية عن الذين مكروا السيآت وايضا ان ماقبله غيبة وهو قوله ان يخسف الله بهم الارض او يأتيهم العذاب او يأخذهم فكذا قوله اولم يروا وقرأ ابو عمرو وحده تتفيؤ بالتاء والباقون بالياء وكلاهما جائز لتقدم الفعل على الجمع (المسئلة الثالثة) قوله اولم يروا الى ماخلق الله لما كانت الرؤية ههنا بمعنى النظر وصلت بألى لان المراد به الاعتبار

(والاعتبار)

---

عليهم من غير اخبار بحلول العذاب للايذان بأنه غنى عن البيان وان ليس الخبر كالعيان وترتيب النظر على السير لما انه بعده وان ملاك الامر فى تلك العاقبة هو التكذيب والتعلل بأنه لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شئ (ان تحرص) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقرئ بفتح الراء وهى لغة (على هداهم) اى ان تطلب هدايتهم بجهدك (فان الله لايهدى من يضل) اى فاعلم انه تعالى لايخلق الهداية جبرا وقسرا فيمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره والمراد به قريش وانما وضع الموصول موضع الضمير للتنصيص على انهم ممن حقت عليه الضلالة وللاشعار بعلة الحكم ويجوز ان يكون المذكور علة للجزاء المحذوف اى ان تحرص على هداهم فلست بقادر على ذلك لان الله لايهدى من يضله وهؤلاء من جملتهم وقرئ لايهدى على بناء المفعول اى لايقدر احد على هداية من يضله الله تعالى وقرئ لايهدى بفتح الهاء وادغام تاء يهتدى فى الدال ويجوز ان يكون يهدى بمعنى يهتدى وقرئ يضل بفتح الياء وقرئ لاهادى لمن يضل ولمن اضل (ومالهم من ناصرين) ينصرونهم فى الهداية او يدفعون العذاب عنهم وصيغة الجمع فى الناصرين باعتبار الجمعية فى الضمير فان مقابلة الجمع بالجمع تقتضى انقسام الآحاد الى الآحاد لالأن المراد نفى طائفة من الناصرين من كل منهم (واقسموا بالله) شروع فى بيان فن آخر من اباطيلهم وهو انكارهم البعث (جهد ايمانهم) مصدر فى موقع

والاعتبار لايكون بنفس الرؤية حتى يكون معها نظر الى الشئ وتأمل لاحواله وقوله الى ماخلق الله من شئ قال اهل المعانى اراد من شئ له ظل من جبل وشجر وبناء وجسم قائم ولفظ الآية يشعر بهذا القيد لان قوله من شئ يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل يدل على ان ذلك الشئ كثيف يقع له ظل على الارض وقوله يتفيؤ ظلاله اخبار عن قوله شئ وليس بوصف له ويتفيأ يتفعل من الفئ يقال فاء الظل يفئ فيئا اذا رجع وعاد بعد مانسخه ضياء الشمس واصل الفئ الرجوع ومنه فئ المولى وذكرنا ذلك فى قوله تعالى فان فاؤا فان الله غفور رحيم وكذلك فئ المسلمين لما يعود على المسلمين من مال من خالف دينهم ومنه قوله تعالى ماافاء الله على رسوله منهم واصل هذا كله من الرجوع اذا عرفت هذا فنقول اذا عدى فاء فانه يعدى امابزيادة الهمزة او بتضعيف العين اماالتعدية بزيادة الهمزة فكقوله ماافاء الله وامابتضعيف العين فكقوله فيأ الله الظل ففيأ وتفيأ مطاوع فيأ قال الازهرى تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار فالتفيؤ لايكون الابالعشى بعد ماانصرفت عنه الشمس والظل مايكون بالغداة وهو مالم تنله الشمس كما قال الشاعر

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه * ولا الفئ من برد العشى تذوق

قال ثعلب اخبرت عن ابى عبيدة ان رؤبة قال كل ماكانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فئ ومالم يكن عليه الشمس فهو ظل ومنهم من انكر ذلك فان اباز يد انشد للنابغة الجعدى

فسلام الاله يغدو عليهم * وفيوء الفروس ذات الظلال

فهذا الشعر قد اوقع فيه لفظ الفئ على مالم تنسخه الشمس لان ما فى الجنة من الظل ماحصل بعد ان كان زائلا بسبب نور الشمس وتقول العرب فى جمع فئ افياء وهى للعدد القليل وفيؤ للكثير كالنفوس والعيون وقوله ظلاله اضاف الظلال الى مفرد ومعناه الاضافة الى ذوى الظلال وانما حسن هذا لان الذى عاد اليه الضمير وان كان واحدا فى اللفظ وهو قوله الى ماخلق الله الا انه كثير فى المعنى ونظيره قوله تعالى لتستووا على ظهوره فاضاف الظهور وهو جمع الى ضمير مفرد لانه يعود الى واحد اريد به الكثرة وهو قوله ماتركبون هذا كله كلام الواحدى وهو بحث حسن اما قوله عن اليمين والشمائل ففيه بحثان (الاول) فى المراد باليمين والشمائل قولان (الاول) ان يمين الفلك هو المشرق وشماله هو المغرب والسبب فى تخصيص هذين الاسمين بهذين الجانبين ان اقوى جانبى الانسان يمينه ومنه تظهر الحركة القوية فلما كانت الحركة الفلكية اليومية آخذة من المشرق الى المغرب لاجرم كان المشرق يمين الفلك والمغرب شماله اذا عرفت هذا فنقول ان الشمس عند طلوعها الى وقت انتهائها الى وسط الفلك تقع الاظلال الى الجانب الغربى فاذا انحدرت الشمس من وسط الفلك الى الجانب الغربى وقع الاظلال فى الجانب الشرقى فهذا هو المراد من تفيؤ الظلال من اليمين الى الشمال وبالعكس وعلى هذا التقدير فالاظلال

---

الحال اى جاهدين فى ايمانهم (لايبعث الله من يموت) ولقد رد الله تعالى عليهم ابلغ رد بقوله الحق (بلى) اى بلى يبعثهم (وعدا) مصدر مؤكد لما دل عليه بلى فان ذلك موعد من الله سبحانه اولمحذوف اى وعد بذلك وعدا (عليه) صفة لوعدا اى وعدا ثابتا عليه انجازه لامتناع الخلف فى وعده اولان البعث من مقتضيات الحكمة (حقا) صفة اخرى له او نصب على المصدرية اى حق حقا (ولكن اكثر الناس) لجهلهم بشؤن الله عز شأنه من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال وبما يجوز عليه ومالايجوز وعدم وقوفهم على سر التكوين والغاية القصوى منه وعلى ان البعث مما يقتضيه الحكمة التى جرت عادته سبحانه بمراعاتها (لايعلمون) انه يبعثهم فيبتون القول بعدمه اوانه وعد عليه حق فيكذبونه قائلين لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الااساطير الاولين (ليبين لهم) غاية لما دل عليه بلى من البعث والضمير لمن يموت اذ التبيين يعم المؤمنين ايضا فانهم وان كانوا عالمين بذلك لكنه عند معاينة حقيقة الحال يتضح الامر فيصل علمهم الى مرتبة عين اليقين اى يبعثهم ليبين لهم بذلك وبما يحصل لهم من مشاهدة الاحوال كما هى ومعاينتها بصورها الحقيقية الشأن (الذى يختلفون فيه) من الحق المنتظم لجميع ماخالفوه مما جاء به الشرع المبين ويدخل فيه البعث دخولا اوليا (وليعلم الذين كفروا) بالله سبحانه بالاشراك وانكار البعث وتكذيب وعده الحق (انهم كانوا كاذبين) فى كل ما

في اول النهار تبتدئ من يمين الفلك على الربع الغربي من الارض ومن وقت انحدار الشمس من وسط الفلك تبتدئ الاظلال من شمال الفلك واقعة على الربع الشرقي من الارض (القول الثاني) ان البلدة التي يكون عرضها اقل من مقدار الميل فان في الصيف تحصل الشمس على يسارها وحينئذ يقع الاظلال على يمينهم فهذا هو المراد من انتقال الاظلال عن الايمان الى الشمائل وبالعكس هذا ما حصلته في هذا الباب وكلام المفسرين فيه غير ملخص (البحث الثاني) لقائل ان يقول ما السبب في ان ذكر اليمين بلفظ الواحد والشمائل بصيغة الجمع واجيب عنه باشياء (احدها) انه وحد اليمين والمراد الجمع ولكنه اقتصر في اللفظ على الواحد كقوله تعالى ويولون الدبر (وثانيها) قال الفراء كأنه اذا وحد ذهب الى واحدة من ذوات الاظلال واذا جمع ذهب الى كلها وذلك لان قوله ما خلق الله من شئ لفظه واحد ومعناه الجمع على ما بيناه فيحتمل كلا الامرين (وثالثها) ان العرب اذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن احداهما بلفظ الواحد كقوله تعالى وجعل الظلمات والنور وقوله ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم (ورابعها) انا اذا فسرنا اليمين بالمشرق كانت النقطة التي هي مشرق الشمس واحدة بعينها فكانت اليمين واحدة واما الشمائل فهي عبارة عن الانحرافات الواقعة في تلك الاظلال بعد وقوعها على الارض وهي كثيرة فلذلك عبر الله تعالى عنها بصيغة الجمع والله اعلم (المسئلة الرابعة) اما قوله سجدا لله ففيه احتمالات (الاول) ان يكون المراد من السجود الاستسلام والانقياد يقال سجد البعير اذا طأطأ رأسه ليركب وسجدت النخلة اذا مالت لكثرة الحمل ويقال اسجد لقرد السوء في زمانه اى اخضع له قال الشاعر * ترى الاكم فيها سجدا للحوافر * اى متواضعة اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى دبر النيرات الفلكية والاشخاص الكوكبية بحيث يقع اضواؤها على هذا العالم السفلي على وجوه مخصوصة ثم انا نشاهد ان تلك الاضواء وتلك الاظلال لا تقع في هذا العالم الاعلى وفق تدبير الله تعالى وتقديره فنشاهد ان الشمس اذا طلعت وقعت للاجسام الكثيفة اظلال ممتدة في الجانب الغربي من الارض ثم كلما ازدادت الشمس طلوعا وارتفاعا ازدادت تلك الاظلال تقلصا وانتقاصا الى الجانب الشرقي الى ان تصل الشمس الى وسط الفلك فاذا انحدرت الى الجانب الغربي ابتدأت الاظلال بالوقوع في الجانب الشرقي وكلما ازدادت الشمس انحدارا ازدادت الاظلال تمددا وتزايدا في الجانب الشرقي وكما انا نشاهد هذه الحالة في اليوم الواحد فكذلك نشاهد احوال الاظلال مختلفة في التيامن والتياسر في طول السنة بسبب اختلاف احوال الشمس في الحركة من الجنوب الى الشمال وبالعكس فلما شاهدنا احوال هذه الاظلال مختلفة بسبب الاختلافات اليومية الواقعة في شرق الارض وغربها وبحسب الاختلافات الواقعة في طول السنة في يمين الفلك ويساره ورأينا انها واقعة على وجه مخصوص وترتيب معين علمنا انها منقادة لقدرة الله خاضعة لتقديره وتدبيره فكانت السجدة عبارة عن هذه

(الحالة)

يقولون لا سيما في قولهم لا يبعث الله من يموت والتعبير عن الحق بالموصول للدلالة على فخامته والاشعار بعلية ما ذكر في حيز الصلة للتبيين وما عطف عليه وجعلهما غاية للبعث المشار اليه باعتبار وروده في معرض الرد على المخالفين وابطال مقالة المعاندين المستدعي للتعرض لما يردعهم عن المخالفة ويلجئهم الى الاذعان للحق فان الكفرة اذا علموا ان تحقيق البعث اذا كان لتبيين انه حق وليعلموا انهم كاذبون في انكاره كان ذلك ازجر لهم عن انكاره وادعى الى الاعتراف به ضرورة انه يدل على صدق العزيمة على تحقيقه كما تقول لمن ينكر انك تصلي لأصلين رغما لانفك واظهارا لكذبك ولان تكرر الغايات ادل على وقوع الفعل المغيا بها والا فالغاية الاصلية للبعث باعتبار ذاته انما هو الجزاء الذي هو الغاية القصوى للخلق المغيا بمعرفته عز وجل وعبادته وانما لم يذكر ذلك لتكرر ذكره في مواضع اخر وشهرته وانما لم يدرج علم الكفار بكذبهم تحت التبيين بان يقال وان الذين كفروا كانوا كاذبين بل جئ بصيغة العلم لان ذلك ليس مما تعلق به التبيين الذي هو عبارة عن اظهار ما كان مبهما قبل ذلك بان يخبر به فيختلف فيه كالبعث الذي نطق به القرآن فاختلف فيه المختلفون واما كذب الكافرين فليس من هذا القبيل فانما يتعلق به علم ضروري حاصل لهم من قبل أنفسهم وقدمر تحقيقه في سورة التوبة عند قوله تعالى حتى يتبين لك الذين صدقوا وانما خص الاسناد بهم حيث لم يقل

الحالة فان قيل لم لايجوز ان يقال اختلاف حال هذه الاظلال معلل باختلاف سير النير الاعظم الذى هو الشمس لالاجل تقدير الله تعالى وتدبيره قلنا قد دللنا على ان الجسم لايكون متحركا لذاته اذ لوكانت ذاته علة لهذا الجزء المخصوص من الحركة لبقى هذا الجزء من الحركة لبقاء ذاته ولو بقى ذلك الجزء من الحركة لامتنع حصول الجزء الآخر من الحركة ولوكان الامر كذلك لكان هذا سكونا لاحركة فالقول بان الجسم متحرك لذاته يوجب القول بكونه ساكنا لذاته وانه محال وما افضى ثبوته الى نفيه كان باطلا فعلمنا ان الجسم يمتنع كونه متحركا لذاته وايضا فقد دللنا على ان الاجسام متماثلة فى تمام الماهية فاختصاص جرم الشمس بالقوة المعينة والخاصية المعينة لابد وان يكون بتدبير الخالق المختار الحكيم اذا ثبت هذا فنقول هب ان اختلاف احوال الاظلال انما كان لاجل حركات الشمس الا انا لما دللنا على ان محرك الشمس بالحركة الخاصة ليس الا الله سبحانه كان هذا دليلا على ان اختلاف احوال الاظلال لم يقع الا بتدبير الله تعالى وتخليقه فثبت ان المراد بهذا السجود الانقياد والتواضع ونظيره قوله والنجم والشجر يسجدان وقوله وظلالهم بالغدو والآصال قد مر بيانه وشرحه (والقول الثانى) فى تفسير هذا السجود ان هذه الاظلال واقعة على الارض ملتصقة بها على هيئة الساجد قال ابو العلاء المعرى فى صفة واد

بحرف يطيل الجنح فيه سجوده * وللارض زى الراهب المتعبد

فلما كانت الاظلال تشبه بشكلها شكل الساجدين اطلق الله عليها هذا اللفظ وكان الحسن يقول أما ظلك فسجد لربك وأما انت فلا تسجد له بئسما صنعت وقال مجاهد ظل الكافر يصلى وهو لايصلى وقيل ظل كل شئ يسجد لله سواء كان ذلك ساجدا ام لا واعلم ان الوجه الاول اقرب الى الحقائق العقلية والثانى اقرب الى الشبهات الظاهرة (المسئلة الخامسة) قوله سجدا حال من الظلال وقوله وهم داخرون اى صاغرون يقال دخر يدخر دخورا اى صغر يصغر صغارا وهو الذى يفعل ما تأمره شاء ام ابى وذلك لان هذه الاشياء منقادة لقدرة الله تعالى وتدبيره وقوله وهم داخرون حال ايضا من الظلال فان قيل الظلال ليست من العقلاء فكيف جاز جمعها بالواو والنون قلنا لانه تعالى لما وصفهم بالطاعة والدخور اشبهوا العقلاء اما قوله تعالى ولله يسجد ما فى السموات وما فى الارض من دابة والملائكة ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قد ذكرنا ان السجود على نوعين سجود هو عبادة كسجود المسلمين لله تعالى وسجود هو عبارة عن الانقياد لله تعالى والخضوع ويرجع حاصل هذا السجود الى انها فى نفسها ممكنة الوجود والعدم قابلة لهما وانه لايترجح احد الطرفين على الآخر الا لمرجح اذا عرفت هذا فنقول من الناس من قال المراد بالسجود المذكور فى هذه الآية السجود بالمعنى الثانى وهو التواضع والانقياد والدليل عليه ان اللائق بالدابة ليس الا هذا السجود ومنهم من قال

وليعلموا ان الكافرين الآية لان علم المؤمنين بذلك حاصل قبل ايضا (انما قولنا) استئناف لبيان كيفية التكوين على الاطلاق ابداء واعادة بعد التنبيه على انية البعث ومنه يظهر كيفيته فما كافة وقولنا مبتدأ وقوله (لشئ) اى اى شئ كان مما عز وهان متعلق به على ان اللام للتبليغ كهى فى قولك قلت له قم فقام وجعلها الزجاج سببية اى لاجل شئ وليس بواضح والتعبير عنه بذلك باعتبار وجوده عند تعلق مشيئته تعالى به لاانه كان شيئا قبل ذلك (اذا اردناه) ظرف لقولنا اى وقت ارادتنا لوجوده (ان نقول له كن) خبر للمبتدأ (فيكون) اما عطف على مقدر يفصح عنه الفاء وينسحب عليه الكلام اى فنقول ذلك فيكون كقوله تعالى اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون واما جواب لشرط محذوف اى فاذا قلنا ذلك فهو يكون وليس هناك قول ولا مقول له ولا امر ولا مأمور حتى يقال انه يلزم منه احد المحالين اما خطاب المعدوم او تحصيل الحاصل او يقال انما يستدعيه انحصار قوله تعالى كن وليس يلزم منه انحصار اسباب التكوين فيه كما يفيده قوله تعالى انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون فان المراد بالامر هو الشأن الشامل للقول والفعل ومن ضرورة انحصاره فى كلمة كن انحصار اسبابه على الاطلاق فيه بل انما هو تمثيل لسهولة تأتى المقدورات حسب تعلق مشيئته تعالى بها

المراد بالسجود ههنا هو المعنى الاول لان اللائق بالملائكة هو السجود بهذا المعنى لان السجود بالمعنى الثانى حاصل فى كل الحيوانات والنباتات والجمادات ومنهم من قال السجود لفظ مشترك بين المعنيين وحمل اللفظ المشترك لافادة مجموع معنيته جائز فحمل لفظ السجود فى هذه الآية على الامرين معا امافى حق الدابة فبمعنى التواضع واما فى حق الملائكة فبمعنى سجود المسلمين لله تعالى وهذا القول ضعيف لانه ثبت ان استعمال اللفظ المشترك لافادة جميع مفهوماته معا غير جائز (المسئلة الثانية) قوله من دابة قال الاخفش يريد من الدواب واخبر بالواحد كما تقول ماأتانى من رجل مثله وماأتانى من الرجال مثله وقال ابن عباس يريد كل مادب على الارض (المسئلة الثالثة) لقائل ان يقول ماالوجه فى تخصيص الدواب والملائكة بالذكر فنقول فيه وجوه (الاول) انه تعالى بين فى آية الظلال ان الجمادات بأسرها منقادة لله تعالى وبين بهذه الآية ان الحيوانات بأسرها منقادة لله تعالى لان اخسها الدواب واشرفها الملائكة فلما بين فى اخسها وفى اشرفها كونها منقادة لله تعالى كان ذلك دليلا على انها بأسرها منقادة خاضعة لله تعالى (والوجه الثانى) قال حكماء الاسلام الدابة اشتقاقها من الدبيب والدبيب عبارة عن الحركة الجسمانية فالدابة اسم لكل حيوان جسمانى يتحرك ويدب فلما بين الله تعالى الملائكة عن الدابة علمنا انها ليست مما يدب بل هى ارواح محضة مجردة ويمكن الجواب عنه بأن الجناح للطيران مغاير للدبيب بدليل قوله تعالى ومامن دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه والله اعلم اما قوله تعالى وهم لايستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) المقصود من هذه الآية شرح صفات الملائكة وهى دلالة قاهرة قاطعة على عصمة الملائكة عن جميع الذنوب لان قوله وهم لايستكبرون يدل على انهم منقادون لصانعهم وخالقهم وانهم ماخالفوه فى امر من الامور ونظيره قوله تعالى وماننزل الا بأمر ربك وقوله لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون واما قوله ويفعلون مايؤمرون فهذا ايضا يدل على انهم فعلوا كل ما كانوا مأمورين به وذلك يدل على عصمتهم عن كل الذنوب فان قالوا هب ان هذه الآية تدل على انهم فعلوا كل ماامروا به فلم قلتم انها تدل على انهم تركوا كل مانهوا عنه قلنا لان كل من نهى عن شئ فقد امر بتركه وحينئذ يدخل فى اللفظ واذا ثبت بهذه الآية كون الملائكة معصومين من كل الذنوب وثبت ان ابليس ماكان معصوما من الذنوب بل كان كافرا لزم القطع بأن ابليس ماكان من الملائكة (والوجه الثانى) فى بيان هذا المقصود انه تعالى قال فى صفة الملائكة وهم لايستكبرون ثم قال لابليس أستكبرت ام كنت من العالين وقال ايضا له اخرج منها فما يكون لك ان تتكبر فيها فثبت ان الملائكة لايستكبرون وثبت ان ابليس تكبر واستكبر فوجب ان لايكون من الملائكة وايضا لما ثبت بهذه الآية وجوب عصمة الملائكة ثبت ان القصة الخبيثة التى يذكرونها فى حق



وتصوير لسرعة حدوثها بما هو علم فى ذلك من طاعة المأمور المطيع لامر الآمر المطاع فالمعنى انما ايجادنا لشئ عند تعلق مشيئتنا به ان نوجده فى اسرع ما يكون ولما عبر عنه بالامر الذى هو قول مخصوص وجب ان يعبر عن مطلق الايجاد بالقول المطلق فتأمل وفى الآية الكريمة من الفخامة والجزالة مايحار فيه العقول والالباب وقرئ بنصب يكون عطفا على نقول او تشبيها له بجواب الامر (والذين هاجروا فى الله) اى فى شأن الله تعالى ورضاه وفى حقه ولوجهه (من بعد ماظلموا) ولعلهم الذين ظلمهم اهل مكة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واخرجوهم من ديارهم فهاجروا الى الحبشة ثم بوأهم الله تعالى المدينة حسبما وعد بقوله سبحانه (لنبوئنهم فى الدنيا حسنة) اى مباءة حسنة اوتبوئة حسنة كما قال قتادة وهو الانسب بما هو المشهور من كون السورة غير ثلاث آيات من آخرها مكية واما مانقل عن ابن عباس رضى الله عنهما من انها نزلت فى صهيب وبلال وعمار وخباب وعابس وجبير وابى جندل ابن سهيل اخذهم المشركون فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الاسلام فأما صهيب فقال لهم انا رجل كبير ان كنت معكم لم انفعكم وان كنت عليكم لم اضركم فافتدى منهم بماله وهاجر فلما رآه ابو بكر رضى الله عنه قال ربح البيع ياصهيب وقال عمر رضى الله عنه نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه

هاروت وماروت كلام باطل فان الله تعالى وهو اصدق القائلين لما شهد فى هذه الآية على عصمة الملائكة وبراءتهم عن كل ذنب وجب القطع بأن تلك القصة كاذبة باطلة والله اعلم واحتج الطاعنون فى عصمة الملائكة بهذه الآية فقالوا انه تعالى وصفهم بالخوف ولولا انهم يجوزون على انفسهم الاقدام على الكبائر والذنوب والا لم يحصل الخوف والجواب من وجهين (الاول) انه تعالى حذرهم من العقاب فقال ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم وهم لهذا الخوف يتركون الذنب (والثانى) وهو الاصح ان ذلك الخوف خوف الاجلال هكذا نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما والدليل على صحته قوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وهذا يدل على انه كلما كانت معرفة الله تعالى أتم كان الخوف منه اعظم وهذا الخوف لايكون الا خوف الاجلال والكبرياء والله اعلم (المسئلة الثانية) قالت المشبهة قوله تعالى يخافون ربهم من فوقهم هذا يدل على ان الاله تعالى فوقهم بالذات واعلم انا بالغنا فى الجواب عن هذه الشبهة فى تفسير قوله تعالى وهو القاهر فوق عباده والذى نزيده ههنا ان قوله يخافون ربهم من فوقهم معناه يخافون ربهم من ان ينزل عليهم العذاب من فوقهم واذا كان اللفظ محتملا لهذا المعنى سقط قولهم وايضا يجب حمل هذه الفوقية على الفوقية بالقدرة والقهر كقوله وانا فوقهم قاهرون والذى يقوى هذا الوجه انه تعالى لما قال يخافون ربهم من فوقهم وجب ان يكون المقتضى لهذا الخوف هو كون ربهم فوقهم لما ثبت فى اصول الفقه ان الحكم المرتب على الوصف يشعر بكون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف اذا ثبت هذا فنقول هذا التعليل انما يصح لو كان المراد بالفوقية الفوقية بالقهر والقدرة لانها هى الموجبة للخوف اما الفوقية بالجهة والمكان فهى لاتوجب الخوف بدليل ان حارس البيت فوق الملك بالمكان والجهة مع انه اخس عبيده فسقطت هذه الشبهة (المسئلة الثالثة) دلت هذه الآية على ان الملائكة مكلفون من قبل الله تعالى وان الامر والنهى متوجه عليهم كسائر المكلفين ومتى كانوا كذلك وجب ان يكونوا قادرين على الخير والشر (المسئلة الرابعة) تمسك قوم بهذه الآية فى بيان ان الملك افضل من البشر من وجوه (الاول) انه تعالى قال ولله يسجد ما فى السموات وما فى الارض من دابة والملائكة وذكرنا ان تخصيص هذين النوعين بالذكر انما يحسن اذا كان احد الطرفين اخس المراتب وكان الطرف الثانى اشرفها حتى يكون ذكر هذين الطرفين منبها على الباقى واذا كان كذلك وجب ان يكون الملائكة اشرف خلق الله تعالى (الثانى) ان قوله تعالى وهم لايستكبرون يدل على انه ليس فى قلوبهم تكبر وترفع وقوله ويفعلون مايؤمرون يدل على ان اعمالهم خالية عن الذنب والمعصية فمجموع هذين الكلامين يدل على ان بواطنهم وظواهرهم مبرأة عن الاخلاق الفاسدة والافعال الباطلة واما البشر فليسوا كذلك ويدل عليه القرآن والخبر اما القرآن فقوله تعالى قتل الانسان ما اكفره وهذا الحكم عام فى الانسان واقل

فانما يناسب ماحكى عن الاصم من كون كل السورة مدنية وما نقل عن قتادة من كون هذه الآية الى آخر السورة مدنية فيحمل مانقلناه عنه من نزول الآية فى اصحاب الهجرتين على ان يكون نزولها بالمدينة بين الهجرتين واما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من جملتهم فلا يساعده نظم التنزيل ولا شأنه الجليل وقرئ لنثوينهم ومعناه اثواءة حسنة اولننزلنهم فى الدنيا منزلة حسنة وهى الغلبة على من ظلمهم من اهل مكة وعلى العرب قاطبة واهل الشرق والغرب كافة (ولأجر الآخرة) اى أجر اعمالهم المذكورة فى الآخرة (اكبر) مما يعجل لهم فى الدنيا وعن عمر رضى الله عنه انه كان اذا اعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال له خذ بارك الله تعالى لك فيه هذا ما وعدك الله تعالى فى الدنيا وما ادخر فى الآخرة افضل (لو كانوا يعلمون) الضمير للكفار اى لو علموا ان الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خيرى الدارين لوافقوهم فى الدين وقيل للمهاجرين اى لو علموا ذلك لزادوا فى الاجتهاد او لما تألموا لما اصابهم من المهاجرة وشدائدها (الذين صبروا) على الشدائد من اذية الكفار ومفارقة الاهل والوطن وغير ذلك ومحله النصب اوالرفع على المدح (وعلى ربهم) خاصة (يتوكلون) منقطعين اليه تعالى معرضين عما سواه مفوضين اليه الامر كله والجملة اما معطوفة على الصلة وتقديم الجار والمجرور للدلالة على قصر التوكل على الله تعالى وصيغة الاستقبال للدلالة على

مراتبه ان تكون طبيعة الانسان مقتضية لهذه الاحوال الذمية واما الخبر فقوله عليه السلام ما منا الا وقد عصى او هم بالمعصية غير يحيى بن زكريا ومن المعلوم بالضرورة ان المبرأ عن المعصية والهم بها افضل ممن عصى او هم بها (الوجه الثالث) انه لاشك ان الله تعالى خلق الملائكة قبل البشر بأدوار متطاولة وازمان ممتدة ثم انه وصفهم بالطاعة والخضوع والخشوع طول هذه المدة وطول العمر مع الطاعة يوجب مزيد الفضيلة لوجهين (الاول) قوله عليه السلام الشيخ في قومه كالنبي في امته فضل الشيخ على الشاب وماذاك الا لانه لما كان عمره اطول فالظاهر ان طاعته اكثر فكان افضل (والثاني) انه صلى الله عليه وسلم قال من سن سنة حسنة فله اجرها واجر من عمل بها الى يوم القيامة فلما كان شروع الملائكة في الطاعات قبل شروع البشر فيها لزم ان يقال انهم هم الذين سنوا هذه السنة الحسنة وهي طاعة الخالق القديم الرحيم والبشر انما جاؤا بعدهم واستنوا سنتهم فوجب بمقتضى هذا الخبر ان كل ما حصل للبشر من الثواب فقد حصل مثله للملائكة ولهم ثواب القدر الزائد من الطاعة فوجب كونهم افضل من غيرهم (الوجه الرابع) في دلالة الآية على هذا المعنى قوله يخافون ربهم من فوقهم وقد بينا بالدليل ان هذه الفوقية عبارة عن الفوقية بالرتبة والشرف والقدرة والقوة فظاهر الآية يدل على انه لاشئ فوقهم في الشرف والرتبة الا الله تعالى وذلك يدل على كونهم افضل المخلوقات والله اعلم

* قوله تعالى (وقال الله لاتتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد فاياي فارهبون وله ما في السموات والارض وله الدين واصبا أفغير الله تتقون وما بكم من نعمة فمن الله ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون) اعلم انه تعالى لما بين في الآية الاولى ان كل ما سوى الله سواء كان من عالم الارواح او من عالم الاجسام فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالى وكبريائه اتبعه في هذه الآية بالنهي عن الشرك وبالامر بأن كل ما سواه فهو ملكه وملكه وانه غني عن الكل فقال لاتتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) لقائل ان يقول ان الالهين لابد وان يكونا اثنين فما الفائدة من قوله الهين اثنين وجوابه من وجوه (احدها) قال صاحب النظم فيه تقديم وتأخير والتقدير لاتتخذوا اثنين الهين (وثانيها) وهو الاقرب عندي ان الشئ اذا كان مستنكرا مستقبحا فمن أراد المبالغة في التنفير عنه عبر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالي تلك العبارات سببا لوقوف العقل على ما فيه من القبح اذا عرفت هذا فالقول بوجود الالهين قول مستقبح على العقول ولهذا المعنى فان احدا من العقلاء لم يقل بوجود الهين متساويين في الوجوب والقدم وصفات الكمال فقوله لاتتخذوا الهين اثنين المقصود من تكريره تأكيد التنفير عنه وتكميل وقوف العقل على ما فيه من القبح (وثالثها) ان قوله الهين لفظ واحد يدل على امرين ثبوت الاله وثبوت التعدد فاذا قيل لاتتخذوا الهين لم يعرف من هذا اللفظ ان

دوام التوكل او حال من ضمير صبروا (وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم) وقرئ بالياء مبنيا للمفعول وهو رد لقريش حين قالوا الله اجل من ان يكون له رسول من البشر كما هو مبنى قولهم لو شاء الله ما عبدنا الخ اى جرت السنة الالهية حسبما اقتضته الحكمة بأن لايبعث للدعوة العامة الا بشرا يوحي اليهم بواسطة الملك اوامره ونواهيه ليبلغوها الناس ولما كان المقصود من الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تنبيه الكفار على مضمونه صرف الخطاب اليهم فقيل (فاسئلوا اهل الذكر) اى اهل الكتاب او علماء الاخبار او كل من يذكر بعلم وتحقيق ليعلموكم ذلك (ان كنتم لاتعلمون) حذف جوابه لدلالة ماقبله عليه وفيه دلالة على انه لم يرسل للدعوة العامة ملكا وقوله تعالى جاعل الملائكة رسلا معناه رسلا الى الملائكة او الى الرسل ولا امرأة ولا صبيا ولا ينافيه نبوة عيسى عليه الصلاة والسلام وهو في المهد لانها أعم من الرسالة واشارة الى وجوب المراجعة الى العلماء فيما لايعلم (بالبينات والزبر) بالمعجزات والكتب والباء متعلقة بمقدر وقع جوابا عن سؤال من قال بم ارسلوا فقيل ارسلوا بالبينات والزبر او بما ارسلنا داخلا تحت الاستثناء مع رجالا عند من يجوزه اى ما ارسلنا الا رجالا بالبينات كقولك ماضربت الا زيدا بالسوط وعلى نية التقديم قبل اداة الاستثناء اى ما ارسلنا من قبلك بالبينات

النهى وقع عن اثبات الاله اوعن اثبات التعدد اوعن مجموعهما فلما قال لاتتخذوا
الهين اثنين ثبت ان قوله لاتتخذوا الهين نهى عن اثبات التعدد فقط (ورابعها) ان
الاثنينية منافية للالهية وتقريره من وجوه (الاول) انا لو فرضنا موجودين يكون كل
واحد منهما واجبا لذاته لكانا مشتركين فى الوجوب الذاتى ومتباينين بالتعين وما به
المشاركة غير ما به المباينة فكل واحد منهما مركب من جزأين وكل مركب فهو ممكن
فثبت ان القول بان واجب الوجود اكثر من واحد ينفى القول بكونهما واجبى
الوجود (الثانى) انا لو فرضنا الهين وحاول احدهما تحريك جسم والآخر تسكينه
امتنع كون احدهما اولى بالفعل من الثانى لان الحركة الواحدة والسكون الواحد
لايقبل القسمة اصلا ولا التفاوت اصلا واذا كان كذلك امتنع ان تكون القدرة على
احدهما اكمل من القدرة على الثانى واذ ثبت هذا امتنع كون احدى القدرتين اولى
بالتأثير من الثانية واذا ثبت هذا فاما ان يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال
اولا يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال اولا يحصل مراد واحد منهما البتة فحينئذ
يكون كل واحد منهما عاجزا والعاجز لايكون الها فثبت ان كونهما اثنين ينفى كون كل
واحد منهما الها (الثالث) انا لو فرضنا الهين اثنين لكان اما ان يقدر احدهما على ان
يستر ملكه عن الآخر اولا يقدر فان قدر فذاك الاله والآخر ضعيف وان لم يقدر فهو
ضعيف (الرابع) وهو ان احدهما اما ان يقوى على مخالفة الآخر اولا يقوى عليه
فان لم يقو عليه فهو ضعيف وان قوى عليه فذاك الآخر ان لم يقو على الدفع فهو ضعيف
وان قوى عليه فالاول المغلوب ضعيف فثبت ان الاثنينية والالهية متضادتان فقوله
لاتتخذوا الهين اثنين المقصود منه التنبيه على حصول المنافاة والمضادة بين الالهية
وبين الاثنينية والله اعلم *واعلم انه تعالى لما ذكر هذا الكلام قال انما هو اله واحد والمعنى
انه لما دلت الدلائل السابقة على انه لابد للعالم من الاله وثبت ان القول بوجود الالهين
محال ثبت انه لااله الا الواحد الاحد الحق الصمد ثم قال بعده فاياى فارهبون وهذا رجوع
من الغيبة الى الحضور والتقدير انه لما ثبت ان الاله واحد وثبت ان المتكلم بهذا
الكلام اله فحينئذ ثبت انه لااله للعالم الا المتكلم بهذا الكلام فحينئذ يحسن منه
ان يعدل من الغيبة الى الحضور ويقول فاياى فارهبون وفيه دقيقة اخرى وهى ان قوله
فاياى فارهبون يفيد الحصر وهو ان لايرهب الخلق الا منه وان لايرغبوا الا فى فضله
واحسانه وذلك لان الموجود اما قديم واما محدث اما القديم الذى هو الاله فهو واحد
واما ما سواه فمحدث وانما حدث بتخليق ذلك القديم وبايجاده واذا كان كذلك فلا رغبة
الا اليه ولا رهبة الا منه فبفضله تندفع الحاجات وبتكوينه وبتخليقه تنقطع الضرورات
ثم قال بعده وله ما فى السموات والارض وهذا حق لانه لما كان الاله واحدا والواجب
لذاته واحدا كان كل ما سواه حاصلا بتخليقه وتكوينه وايجاده فثبت بهذا البرهان صحة

والزبر الا رجالا عند من يجوز
تأخر صلة ما قبل الا الى ما بعده
او بما وقع صفة للمستثنى اى الا
رجالا ملتبسين بالبينات او بنوحى
على المفعولية او حالية من القائم
مقام فاعل يوحى وهو اليهم على
ان قوله تعالى فاسئلوا اعتراض
او بقوله لاتعلمون على ان الشرط
للتبكيت كقول الاجير ان كنت
عملت لك فاعطنى حقى (وانزلنا
اليك الذكر) اى القرآن وانما
سمى به لانه تذكير وتنبيه للغافلين
(لتبين للناس) كافة ويدخل
فيهم اهل مكة دخولا اوليا
(ما نزل اليهم) فى ذلك الذكر
من الاحكام والشرائع وغير ذلك
من احوال القرون المهلكة
بأفانين العذاب حسب اعمالهم
الموجبة لذلك على وجه التفصيل
بيانا شافيا كما ينبئ عنه صيغة
التفعيل فى الفعلين لاسيما بعد ورود
الثانى اولا على صيغة الافعال ولما ان
التبيين اعم من التصريح بالمقصود
ومن الارشاد الى ما يدل عليه دخل
تحته القياس على الاطلاق سواء
كان فى الاحكام الشرعية او غيرها
ولعل قوله عزوجل (ولعلهم
يتفكرون) اشارة الى ذلك اى
ارادة ان يتأملوا فيتنبهوا للحقائق
وما فيه من العبر ويحترزوا عما
يؤدى الى مثل ما اصاب الاولين
من العذاب (أفأمن الذين مكروا
السيآت) هم اهل مكة الذين
مكروا برسول الله صلى الله عليه
وسلم وراموا صد أصحابه عن
الايمان عليهم الرضوان لا الذين
احتالوا لهلاك الانبياء كما قيل ولا
من يعم الفريقين لما ان المراد تحذير
هؤلاء عن اصابة مثل ما أصاب

قوله وله مافي السموات والارض واحتج اصحابنا بهذه الآية على ان افعال العباد مخلوقة لله تعالى لان افعال العباد من جملة مافي السموات والارض فوجب ان تكون افعال العباد لله تعالى وليس المراد من كونها لله تعالى انها مفعولة لاجله ولغرض طاعته لان فيها المباحات والمحظورات التي يؤتى بها لغرض الشهوة واللذة لا لغرض الطاعة فوجب ان يكون المراد من قولنا انها لله انها واقعة بتكوينه وتخليقه وهو المطلوب ثم قال بعده وله الدين واصبا الدين ههنا الطاعة والواصب الدائم يقال وصب الشئ يصب وصوبا اذا دام قال تعالى ولهم عذاب واصب ويقال واصب على الشئ وواصب عليه اذا داوم ومفازة واصبة اى بعيدة لاغاية لها ويقال للعليل واصب لكون ذلك المرض لازماله قال ابن قتيبة ليس من احد يدان له ويطاع الا انقطع ذلك بسبب في حال الحياة او بالموت الا الحق سبحانه فان طاعته واجبة ابدا واعلم ان قوله واصبا حال والعامل فيه مافي الظرف من معنى الفعل واقول الدين قد يعني به الانقياد يقال يامن دانت له الرقاب اى انقادت فقوله وله الدين واصبا اى انقياد كل ماسواه له لازم ابدا لان انقياد غيره له معلل بان غيره ممكن لذاته والممكن لذاته يلزمه ان يكون محتاجا الى السبب في طرفي الوجود والعدم والماهيات يلزمها الامكان لزوماذاتيا والامكان يلزمه الاحتياج الى المؤثر لزوما ذاتيا ينتج ان الماهيات يلزمها الاحتياج الى المؤثر لزوما ذاتيا فهذه الماهيات موصوفة بالانقياد لله تعالى اتصافا دائما واجبا لازما ممتنع التغير واقول في الآية دقيقة اخرى وهي ان العقلاء اتفقوا على ان الممكن حال حدوثه محتاج الى السبب المرجح واختلفوا في الممكن حال بقائه هل هو محتاج الى السبب قال المحققون انه محتاج لان علة الحاجة هي الامكان والامكان من لوازم الماهية فيكون حاصلا للماهية حال حدوثها وحال بقائها فتكون علة الحاجة حال حدوث الممكن وحال بقائه فوجب ان تكون الحاجة حاصلة حال حدوثها وحال بقائها اذا عرفت هذا فقوله وله مافي السموات والارض معناه ان كل ماسوى الحق فانه محتاج في انقلابه من العدم الى الوجود ومن الوجود الى العدم الى مرجح ومخصص وقوله وله الدين واصبا معناه ان هذا الانقياد وهذا الاحتياج حاصل دائما ابدا وهو اشارة الى ما ذكرناه من ان الممكن حال بقائه لايستغني عن المرجح والمخصص وهذه دقائق من اسرار العلوم الالهية مودعة في هذه الالفاظ الفائضة من عالم الوحي والنبوة ثم قال تعالى أفغير الله تتقون والمعنى انكم بعدما عرفتم ان اله العالم واحد وعرفتم ان كل ماسواه محتاج اليه في وقت حدوثه ومحتاج اليه ايضا في وقت دوامه وبقائه فبعد العلم بهذه الاصول كيف يعقل ان يكون للانسان رغبة في غير الله تعالى اورهبة عن غير الله تعالى فلهذا المعنى قال على سبيل التعجب أفغير الله تتقون ثم قال وما بكم من نعمة فمن الله وفيه مسائل ( المسئلة الاولى ) انه لما بين بالآية الاولى ان الواجب على العاقل ان لايتقي غير الله بين في هذه الآية انه يجب عليه ان لايشكر احدا

اولئك من فنون العذاب المعدودة والسيآت نعت لمصدر محذوف اى مكروا المكرات السيآت التى قصت عنهم اومفعول به للفعل المذكور على تضمينه معنى العمل اى عملوا السيآت فقوله تعالى (ان يخسف الله بهم الارض ) مفعول لامن اوالسيآت صفة لما هو المفعول اى أفأمن الماكرون العقوبات السيئة وقوله ان يخسف الخ بدل من ذلك وعلى كل حال فالفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم اى انزلنا اليك الذكر لتبين لهم مضمونه الذى من جملته أنباء الامم المهلكة بفنون العذاب ويتفكروا في ذلك الم يتفكروا فأمن الذين مكروا السيآت ان يخسف الله بهم الارض كما فعل بقارون على توجيه الانكار الى المعطوفين معا أو أتفكروا فأمنوا على توجيهه الى المعطوف على ان الامن بعد التفكر مما لايكاد يفعله أحد وقيل هو عطف على مقدر ينبئ عنه الصلة اى امكر فأمن الذين مكروا الخ (اويأتيهم العذاب من حيث لايشعرون) باتيانه اى في حالة غفلتهم اومن مأمنهم اومن حيث يرجون اتيان مايشتهون كما حكى فيما سلف مما نزل بالماكرين (أو يأخذهم في تقلبهم ) أى في حالة تقلبهم في مسايرهم ومتاجرهم ( فماهم بمعجزين ) بممتنعين او فائتين بالهرب والفرار على مايوهمه حال التقلب والسير والفاء اما لتعليل الاخذ أو لترتيب عدم الاعجاز عليه دلالة على شدته

(الا)

الا الله تعالى لان الشكر انما يلزم على النعمة وكل نعمة حصلت للانسان فهى من الله
تعالى لقوله وما بكم من نعمة فمن الله فثبت بهذا ان العاقل يجب عليه ان لا يخاف وان
لا يتقى احدا الا الله وان لا يشكر احدا الا الله تعالى (المسئلة الثانية) احتج اصحابنا بهذه
الآية على ان الايمان حصل بخلق الله تعالى فقالوا الايمان نعمة وكل نعمة فهى من الله
تعالى لقوله وما بكم من نعمة فمن الله ينتج ان الايمان من الله وانما قلنا ان الايمان نعمة
لان المسلمين مطبقون على قولهم الحمد لله على نعمة الايمان وايضا فالنعمة عبارة عن كل
ما يكون منتفعا به واعظم الاشياء فى النفع هو الايمان فثبت ان الايمان نعمة واذا ثبت
هذا فنقول وكل نعمة فهى من الله تعالى لقوله تعالى وما بكم من نعمة فمن الله وهذه اللفظة
تفيد العموم وايضا مما يدل على ان كل نعمة فهى من الله لا ان كل ما كان موجودا
فهو اما واجب لذاته واما ممكن لذاته والواجب لذاته ليس الا الله تعالى والممكن لذاته
لا يوجد الا لمرجح وذلك المرجح ان كان واجبا لذاته كان حصول ذلك الممكن بايجاد الله
تعالى وان كان ممكنا لذاته عاد التقسيم الاول فيه ولا يذهب الى التسلسل بل ينتهى الى
ايجاد الواجب لذاته فثبت بهذا البيان ان كل نعمة فهى من الله تعالى (المسئلة
الثالثة) النعم اما دينية واما دنيوية اما النعم الدينية فهى اما معرفة الحق لذاته واما معرفة
الخير لاجل العمل به واما النعم الدنيوية فهى اما نفسانية واما بدنية واما خارجية وكل
واحد من هذه الثلاثة جنس تحته انواع خارجة عن الحصر والتحديد كما قال وان تعدوا
نعمة الله لا تحصوها والاشارة الى تفصيل تلك الانواع قد ذكرناها مرارا فلا نعيدها
(المسئلة الرابعة) انما دخلت الفاء فى قوله فمن الله لان الباء فى قوله بكم متصلة بفعل
مضمر والمعنى ما يكن بكم او ما حل بكم من نعمة فمن الله ثم قال تعالى ثم اذا مسكم الضر
قال ابن عباس يريد الاسقام والامراض والحاجة فاليه تجأرون اى ترفعون اصواتكم
بالاستغاثة وتتضرعون اليه بالدعاء يقال جأر يجأر جؤارا وهو الصوت الشديد كصوت
البقرة وقال الاعشى يصف راهبا

يراوح من صلوات المليك * طورا سجودا وطورا جؤارا

والمعنى انه تعالى بين ان جميع النعم من الله تعالى ثم اذا اتفق لاحد مضرة توجب زوال
شئ من تلك النعم فالى الله يجأر اى لا يستغيث احدا الا الله تعالى لعلمه بأنه لا مفزع للخلق
الا هو فكأنه تعالى قال لهم فأين انتم عن هذه الطريقة فى حال الرخاء والسلامة ثم قال
بعده ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون فبين تعالى ان عند
كشف الضر وسلامة الاحوال يفترقون ففريق منهم يبقى على مثل ما كان عليه عند
الضر فى ان لا يفزع الا الى الله تعالى وفريق منهم عند ذلك يتغيرون فيشركون بالله غيره
وهذا جهل وضلال لانه لما شهدت فطرته الاصلية وخلقته الغريزية عند نزول البلاء
والضراء والآفات والمخافات ان لا مفزع الا الى الواحد ولا مستغاث الا الواحد فعند

وقطاعته حسبما قال عليه السلام
ان الله ليملى للظالم حتى اذا اخذه
لم يفلته وايراد الجملة الاسمية
للدلالة على دوام النفى لا لنفى
الدوام (او يأخذهم على تخوف)
اى مخافة وحذر عن الهلاك
والعذاب بأن يهلك قوما قبلهم
فيتخوفوا فيأخذهم العذاب وهم
متخوفون وحيث كانت حالتا
التقلب والتخوف مظنة للهرب
عبر عن اصابة العذاب فيهما
بالاخذ وعن اصابته حالة الغفلة
المنبئة عن السكون بالاتيان
وقيل التخوف التنقص قال قائلهم
تخوف الرحل منها تامكا قردا
كما تخوف عود النبعة السفن
اى يأخذهم على ان ينقصهم شيئا
بعد شئ فى انفسهم واموالهم حتى
يهلكوا والمراد بذكر الاحوال
الثلاث بيان قدرة الله سبحانه على
اهلاكهم باى وجه كان لا الحصر
فيها (فان ربكم لرؤف رحيم)
حيث لا يعاجلكم بالعقوبة
ويحلم عنكم مع استحقاقكم لها
(اولم يروا) استفهام انكارى
وقرئ على صيغة الخطاب والواو
للعطف على مقدر يقتضيه المقام
اى الم ينظروا ولم يروا متوجهين
(الى ما خلق الله من شئ) اى من
كل شئ (يتفيأ ظلاله) اى يرجع
شيئا فشيئا حسبما يقتضيه ارادة
الخالق تعالى فان التفيؤ مطاوع
الافاءة وقرئ بتأنيث الفعل (عن
اليمين والشمائل) اى الم يروا
الاشياء التى لها ظلال متفيئة عن
ايمانها وشمائلها اى عن جانبى كل
واحد منها استعير لهما ذلك
من يمين الانسان وشماله (سجدا لله)
حال من الظلال كقوله تعالى

زوال البلاء والضراء وجب ان يبقى على ذلك الاعتقاد فأما انه عند نزول البلاء يقر بأنه
لا مستغاث الا الله تعالى وعند زوال البلاء يثبت الاضداد والشركاء فهذا جهل عظيم
وضلال كامل ونظير هذه الآية قوله تعالى فلما نجاهم الى البر اذاهم يشركون ثم قال
تعالى ليكفروا بما آتيناهم وفي هذه اللام وجهان (الاول) انها لام كي والمعنى انهم
اشركوا بالله غيره في كشف ذلك الضر عنهم وغرضهم من ذلك الاشراك ان ينكروا
كون ذلك الانعام من الله تعالى الاترى ان العليل اذا اشتد وجعه تضرع الى الله
تعالى في ازالة ذلك الوجع فاذا زال احال زواله على الدواء الفلاني والعلاج الفلاني
وهذا اكثر احوال الخلق وقال مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازي رحمه الله في
اليوم الذي كنت اكتب هذه الاوراق وهو اليوم الاول من محرم سنة اثنتين وستمائة
حصلت زلزلة شديدة وهدة عظيمة وقت الصبح ورأيت الناس يصيحون بالدعاء والتضرع
فلما سكنت وطاب الهواء وحسن انواع الوقت نسوا في الحال تلك الزلزلة وعادوا الى
ما كانوا عليه من تلك السفاهة والجهالة وكان هذه الحالة التي شرحها الله تعالى في هذه
الآية تجري مجرى الصفة اللازمة لجوهر نفس الانسان (والقول الثاني) ان هذه اللام
لام العاقبة كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا يعني ان عاقبة تلك
التضرعات ما كانت الا هذا الكفر واعلم ان المراد بقوله بما آتيناهم فيه قولان (الاول)
انه عبارة عن كشف الضر وازالة المكروه (والثاني) قال بعضهم المراد به القرآن وما جاء به
محمد صلى الله عليه وسلم من النبوة والشرائع واعلم انه تعالى توعدهم بعد ذلك فقال فتمتعوا
وهذا اللفظ امر والمراد منه التهديد كقوله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وقوله قل آمنوا به
اولا تؤمنوا ثم قال تعالى فسوف تعلمون اي عاقبة امركم وما ينزل بكم من العذاب والله اعلم

* قوله تعالى (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون
ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا
وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون ام يدسه في التراب ألا ساء
ما يحكمون للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الاعلى وهو العزيز الحكيم)

اعلم انه تعالى لما بين بالدلائل القاهرة فساد اقوال اهل الشرك والتشبيه شرح في هذه
الآية تفاصيل اقوالهم وبين فسادها وسخافتها (فالنوع الاول) من كلماتهم الفاسدة
انهم يجعلون لما لا يعلمون نصيبا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الضمير في قوله لما لا يعلمون
الى ماذا يعود فيه قولان (الاول) انه عائد الى المشركين المذكورين في قوله اذا فريق
منكم بربهم يشركون والمعنى ان المشركين لا يعلمون (والثاني) انه عائد الى الاصنام اي
لا يعلم الاصنام ما يفعل عبادها قال بعضهم الاول اولى لوجوه (احدها) ان نفي العلم عن
الحي حقيقة وعن الجماد مجاز (وثانيها) ان الضمير في قوله ويجعلون عائد الى المشركين
فكذلك في قوله لما لا يعلمون يجب ان يكون عائدا اليهم (وثالثها) ان قوله لما لا يعلمون جمع

(بالواو)

وظلالهم بالغدو والآصال
والمراد بسجودها تصرفها على
مشيئة الله سبحانه وتأتيها
لارادته تعالى في الامتداد
والتقلص وغيرهما غير ممتنعة عليه
فيما سخرها وقوله تعالى (هم
داخرون) اي صاغرون
منقادون حال من الضمير في ظلاله
والجمع باعتبار المعنى وايراد الصيغة
الخاصة بالعقلاء لما ان الدخور
من خصائصهم والمعنى ترجع
الظلال من جانب الى جانب
بارتفاع الشمس وانحدارها او
باختلاف مشارقها ومغاربها
فانها كل يوم من ايام السنة تتحرك
على مدار معين من المدارات
اليومية بتقدير العزيز العليم
منقادة لما قدر لها من التفيؤ او
واقعة على الارض ملتصقة بها
على هيئة الساجد والحال ان
اصحابها من الاجرام داخرة
منقادة لحكمه تعالى ووصفها
بالدخور مغن عن وصف ظلالها
به او كلاهما حال من الضمير المشار
اليه والمعنى ترجع ظلال تلك
الاجرام حال كونها منقادة لله
تعالى داخرة فوصفها بهما مغن
عن وصف ظلالها بهما ولعل
المراد بالموصول الجمادات من
الجبال والاشجار والاحجار التي
لا يظهر لظلالها اثر سوى التفيؤ
بما ذكر من ارتفاع الشمس
وانحدارها واختلاف مشارقها
ومغاربها واما الحيوان فظله
يتحرك بتحركه وقيل المراد باليمين
والشمائل يمين الفلك وهو جانبه
الشرقي لان الكواكب منه
تظهر آخذة في الارتفاع
والسطوع وشماله وهو جانبه

بالواو والنون وهو بالعقلاء اليق منه بالاصنام التي هي جمادات ومنهم من قال بل القول الثاني اولى لوجوه (الاول) انا اذا قلنا انه عائد الى المشركين افتقرنا الى اضمار فان التقدير ويجعلون لما لايعلمون الها اولما لايعلمون كونه نافعا ضارا واذا قلنا انه عائد الى الاصنام لم نفتقر الى الاضمار لان التقدير ويجعلون لما لاعلم لها ولا فهم (والثاني) انه لو كان العلم مضافا الى المشركين لفسد المعنى لان من المحال ان يجعلوا نصيبا من رزقهم لما لايعلمونه فهذا ماقيل في ترجيح احدهذين القولين على الآخر واعلم انا اذا قلنا بالقول الاول افتقرنا فيه الى الاضمار وذلك يحتمل وجوها (احدها) ويجعلون لما لايعلمون له حقا ولايعلمون في طاعته نفعا ولا في الاعراض عنه ضررا قال مجاهد يعلمون ان الله خلقهم ويضرهم وينفعهم ثم يجعلون لما لايعلمون انه ينفعهم ويضرهم نصيبا (وثانيها) ويجعلون لما لايعلمون الهيتها (وثالثها) ويجعلون لما لايعلمون السبب في صيرورتها معبودة (ورابعها) المراد استحقار الاصنام حتى كأنها لقلتها لاتعلم (المسئلة الثانية) في تفسير ذلك النصيب احتمالات (الاول) المراد منه انهم جعلوا لله نصيبا من الحرث والانعام يتقربون الى الله تعالى به ونصيبا الى الاصنام يتقربون به اليها وقد شرحنا ذلك في آخر سورة الانعام (والثاني) المراد من هذا النصيب البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وهو قول الحسن (والثالث) ربما اعتقدوا في بعض الاشياء انه انما حصل باعانة بعض تلك الاصنام كما ان المنجمين يوزعون موجودات هذا العالم على الكواكب السبعة فيقولون لزحل كذا من المعادن والنبات والحيوانات وللمشتري اشياء أخرى فكذا ههنا واعلم انه تعالى لما حكى عن المشركين هذا المذهب قال تالله لتسألن وهذا في هؤلاء الاقوام خاصة بمنزلة قوله فوربك لنسئلنهم اجمعين عما كانوا يعملون وعلى التقديرين فأقسم الله تعالى بنفسه انه يسألهم وهذا تهديد منه شديد لان المراد انه يسألهم سؤال توبيخ وتهديد وفي وقت هذا السؤال احتمالان (الاول) انه يقع ذلك السؤال عند القرب من الموت ومعاينة ملائكة العذاب وقيل عند عذاب القبر (والثاني) انه يقع ذلك في الآخرة وهذا اولى لانه تعالى قد اخبر بما يجرى هناك من ضروب التوبيخ عند المسئلة فهو الى الوعيد أقرب (النوع الثاني من كلماتهم الفاسدة) انهم يجعلون لله البنات ونظيره قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا كانت خزاعة وكنانة تقول الملائكة بنات الله اقول اظن ان العرب انما اطلقوا لفظ البنات لان الملائكة لما كانوا مستترين عن العيون اشبهوا النساء في الاستتار فاطلقوا عليهم لفظ البنات وايضا قرص الشمس يجرى مجرى المستتر عن العيون بسبب ضوئه الباهر ونوره القاهر فأطلقوا عليه لفظ التأنيث فهذا مايغلب على الظن في سبب اقدامهم على هذا القول الفاسد والمذهب الباطل ولما حكى الله تعالى عنهم هذا القول قال سبحانه وفيه وجوه (الاول) ان يكون المراد تنزيه ذاته عن نسبة الولد اليه (والثاني) تعجيب الخلق من هذا الجهل القبيح وهو وصف الملائكة بالانوثة ثم نسبتها

الغربي المقابل له فان الظلال في اول النهار تبتدئ من الشرق واقعة على الربع الغربي من الارض وعند الزوال تبتدئ من الغرب واقعة على الربع الشرقي منها وبعدما بين سجود الظلال واصحابها من الاجرام السافلة الثابتة في احيازها ودخورها له سبحانه وتعالى شرع في بيان سجود المخلوقات المتحركة بالارادة سواء كانت لها ظلال اولا فقيل (ولله يسجد) اى له تعالى وحده يخضع وينقاد لا لشئ غيره استقلالا او اشتراكا فالقصر ينتظم القلب والافراد الا ان الانسب بحال المخاطبين قصر الافراد كما يؤذن به قوله تعالى وقال الله لاتتخذوا الهين اثنين (مافي السموات) قاطبة (ومافي الارض) كائنا ما كان (من دابة) بيان لما في الارض وتقديمه لقلته ولئلا يقع بين المبين والمبين فصل والافراد مع ان المراد الجمع لافادة وضوح شمول السجود لكل فرد من الدواب قال الاخفش هو كقولك ما اتاني من رجل مثله وما اتاني من الرجال مثله (والملائكة) عطف على مافي السموات عطف جبريل على الملائكة تعظيما واجلالا اوعلى ان يراد بما في السموات الخلق الذي يقال له الروح اويراد به ملائكة السموات وبقوله والملائكة ملائكة الارض من الحفظة وغيرهم (وهم) اى الملائكة مع علو شأنهم (لايستكبرون) عن عبادته عز وجل والسجود له وتقديم الضمير ليس للقصر والجملة اما حال من

بالولدية الى الله تعالى (والثالث) قيل فى التفسير معناه معاذ الله وذلك مقارب للوجه الاول ثم قال تعالى ولهم مايشتهون اجاز الفراء فى ماوجهين (الاول) ان يكون فى محل النصب على معنى ويجعلون لانفسهم مايشتهون (والثانى) ان يكون رفعا على الابتداء كأنه تم الكلام عند قوله سبحانه ثم ابتدأ فقال ولهم مايشتهون يعنى البنين وهو كقوله امله البنات ولكم البنون ثم اختار الوجه الثانى وقال لو كان نصبا لقال ولانفسهم مايشتهون لانك تقول جعلت لنفسك كذا وكذا ولاتقول جعلت لك وأبى الزجاج اجازة الوجه الاول وقال ما فى موضع رفع لاغير والتقدير ولهم الشئ الذى يشتهونه ولايجوز النصب لان العرب تقول جعل لنفسه ماتشتهى ولاتقول جعل له مايشتهى وهو يعنى نفسه ثم انه تعالى ذكر ان الواحد من هؤلاء المشركين لايرضى بالولد البنت لنفسه فالا يرتضيه لنفسه كيف ينسبه لله تعالى فقال واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) التبشير فى عرف اللغة مختص بالخبر الذى يفيد السرور الا انه بحسب اصل اللغة عبارة عن الخبر الذى يؤثر فى تغير بشرة الوجه ومعلوم ان السرور كما يوجب تغير البشرة فكذلك الحزن يوجبه فوجب ان يكون لفظة التبشير حقيقة فى القسمين ويتأكد هذا بقوله فبشرهم بعذاب اليم ومنهم من قال المراد بالتبشير ههنا الاخبار والقول الاول ادخل فى التحقيق اما قوله ظل وجهه مسودا فالمعنى انه يصير متغيرا تغير مغتم ويقال لمن لقى مكروها قد اسود وجهه غما وحزنا واقول انما جعل اسوداد الوجه كناية عن الغم وذلك لان الانسان اذا قوى فرحه انشرح صدره وانبسط روح قلبه من داخل القلب ووصل الى الاطراف ولاسيما الى الوجه لما بينهما من التعلق الشديد واذا وصل الروح الى ظاهر الوجه اشرق الوجه وتلألأ واستنار واما اذا قوى غم الانسان احتقن الروح فى باطن القلب ولم يبق منه اثر قوى فى ظاهر الوجه فلاجرم يربد الوجه ويصفر ويسود ويظهر فيه اثر الارضية والكثافة فثبت ان من لوازم الفرح استنارة الوجه واشراقه ومن لوازم الغم كودة الوجه وغبرته وسواده فلهذا السبب جعل بياض الوجه واشراقه كناية عن الفرح وغبرته وكودته وسواده كناية عن الغم والحزن والكراهية ولهذا المعنى قال ظل وجهه مسودا وهو كظيم اى ممتلئ غما وحزنا ثم قال تعالى يتوارى من القوم من سوء اى يختفى ويتغيب من سوء مابشر به قال المفسرون كان الرجل فى الجاهلية اذا ظهر آثار الطلق بامرأته توارى واختفى عن القوم الى ان يعلم مايولد له فان كان ذكرا ابتهج به وان كان انثى حزن ولم يظهر للناس اياما يدبر فيها انه ماذا يصنع بها وهو قوله ايمسكه على هون ام يدسه فى التراب والمعنى ايحبسه والامساك ههنا بمعنى الحبس كقوله امسك عليك زوجك وانما قال ايمسكه ذكره بضمير الذكران لان هذا الضمير عائد على مافى قوله مابشر به والهون الهوان قال النضر ابن شميل يقال انه اهون عليه هوانا وهوانا واهنته هونا وهوانا وذكرنا هذا فى سورة

ضمير الفاعل فى يسجد مسندا الى الملائكة او استئناف اخبر عنهم بذلك (يخافون ربهم) اى مالك امرهم وفيه تربية للمهابة واشعار بعلة الحكم (من فوقهم) اى يخافونه جل وعلا خوف هيبة واجلال وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى وهو القاهر فوق عباده او يخافون ان يرسل عليهم عذابا من فوقهم والجملة حال من الضمير فى لايستكبرون او بيان له وتقرير لان من يخاف الله سبحانه لايستكبر عن عبادته (ويفعلون ما يؤمرون) اى مايؤمرون به من الطاعات والتدبيرات وايراد الفعل مبنيا للمفعول جرى على سنن الجلالة وايذان بعدم الحاجة الى التصريح بالفاعل لاستحالة استناده الى غيره سبحانه وفيه ان الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء وبعد ما بين ان جميع الموجودات يخضعون الخضوع والانقياد الطبيعى وما يجرى مجراه من عبادة الملائكة حيث لا يتصور منهم عدم الانقياد اصلا لله عز وجل اردف ذلك بحكاية نهيه سبحانه وتعالى للمكلفين عن الاشراك فقيل (وقال الله) عطفا على قوله ولله يسجد واظهار الفاعل وتخصيص لفظة الجلالة بالذكر للايذان بأنه متعين الالوهية وانما المنهى عنه هو الاشراك به لاان المنهى عنه مطلق اتخاذ الهين بحيث يتحقق الانتهاء عنه برفض ايهما كان اى قال تعالى لجميع المكلفين (لاتتخذوا الهين اثنين) وانما ذكر العدد مع ان صيغة التثنية مغنية

الانعام عندقوله عذاب الهون وفى ان هذا الهون صفة من قولان ( الاول ) انه صفة المولودة ومعناه انه يمسكها على هون منه لها ( والثانى ) قال عطاء عن ابن عباس انه صفة للاب ومعناه انه يمسكها مع الرضا بهوان نفسه وعلى رغم أنفه ثم قال أم يدسه فى التراب والدس اخفاء الشئ فى الشئ روى ان العرب كانوا يحفرون حفيرة ويجعلونها فيها حتى تموت وروى عن قيس بن عاصم انه قال يارسول الله انى واريت ثمانى بنات فى الجاهلية فقال عليه السلام اعتق عن كل واحدة منهن رقبة فقال يانبى الله انى ذو ابل فقال اهد عن كل واحدة منهن هديا وروى ان رجلا قال يارسول الله ما اجد حلاوة الاسلام منذ اسلمت فقد كانت لى فى الجاهلية ابنة فأمرت امرأتى ان تزينها فاخرجتها الى فانتهيت بها الى واد بعيد القعر فألقيتها فيه فقالت ياابة قتلتنى فكلما ذكرت قولها لم ينفعنى شئ فقال عليه السلام ما كان فى الجاهلية فقد هدمه الاسلام وما فى الاسلام يهدمه الاستغفار واعلم انهم كانوا مختلفين فى قتل البنات فمنهم من يحفر الحفيرة ويدفنها فيها الى ان تموت ومنهم من يرميها من شاهق جبل ومنهم من يغرقها ومنهم من يذبحها وهم كانوا يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية وتارة خوفا من الفقر والفاقة ولزوم النفقة ثم انه تعالى قال الاساء مايحكمون وذلك لانهم بلغوا فى الاستنكاف من البنت الى اعظم الغايات ( فأولها ) انه يسود وجهه ( وثانيها ) انه يختفى عن القوم من شدة نفرته عن البنت ( وثالثها ) ان الولد محبوب بحسب الطبيعة ثم انه بسبب شدة نفرته عنها يقدم على قتلها وذلك يدل على ان النفرة عن البنت والاستنكاف عنها قد بلغ مبلغا لايزاد عليه اذا ثبت هذا فالشئ الذى بلغ الاستنكاف منه الى هذا الحد العظيم كيف يليق بالعاقل ان ينسبه لاله العالم المقدس العالى عن مشابهة جميع المخلوقات ونظير هذه الآية قوله تعالى الكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى ( المسئلة الثانية ) قال القاضى هذه الآية تدل على بطلان الجبر لانهم يضيفون الى الله تعالى من الظلم والفواحش ما اذا اضيف الى احدهم اجهد نفسه فى البراءة منه والتباعد عنه فحكمهم فى ذلك مشابه لحكم هؤلاء المشركين ثم قال بل اعظم لان اضافة البنات اليه اضافة قبح واحد وذلك اسهل من اضافة كل القبائح والفواحش الى الله تعالى فيقال للقاضى انه لما ثبت بالدليل استحالة الصاحبة والولد على الله تعالى اردفه الله تعالى بذكر هذا الوجه الاقناعى والافليس كل ما قبح منا فى العرف قبح من الله تعالى الاترى لوان رجلا زين اماءه وعبيده وبالغ فى تحسين صورهن ثم بالغ فى تقوية الشهوة فيهم وفيهن ثم جمع بين الكل وازال الحائل والمانع فان هذا بالاتفاق حسن من الله تعالى وقبيح من كل الخلق فعلمنا ان التعويل على هذه الوجوه المبنية على العرف انما يحسن اذا كانت مسبوقة بالدلائل القطعية اليقينية وقد ثبت بالبراهين القطعية امتناع الولد على الله فلاجرم حسنت تقويتها بهذه الوجوه الاقناعية اما افعال العباد فقد ثبت بالدلائل اليقينية القاطعة ان خالقها هو الله تعالى فكيف يمكن الحاق

عن ذلك دلالة على ان مساق النهى هى الاثنينية وانها منافية للالوهية كما ان وصف الاله بالوحدة فى قوله تعالى ( انما هو اله واحد ) للدلالة على ان المقصود اثبات الوحدانية وانها من لوازم الالهية واما الالهية فأمر مسلم الثبوت له سبحانه واليه اشير حيث اسند اليه القول وفيه التفات من التكلم الى الغيبة على رأى من اكتفى فى تحقق الالتفات بكون الاسلوب الملتفت عنه حق الكلام ولم يشترط سبق الذكر على ذلك الوجه ( فاياى فارهبون ) التفات من الغيبة الى التكلم لتربية المهابة والقاء الرهبة فى القلوب ولذلك قدم المفعول وكرر الفعل اى ان كنتم راهبين شيئا فاياى ارهبوا فارهبون لاغير فانى ذلك الواحد الذى يسجد له مافى السموات والارض ( وله مافى السموات والارض ) خلقا وملكا تقرير لعلة انقياد مافيهما له سبحانه خاصة وتحقيق لتخصيص الرهبة به تعالى وتقديم الظرف لتقوية مافى اللام من معنى الاختصاص وكذا فى قوله تعالى ( وله الدين ) اى الطاعة والانقياد ( واصبا ) اى واجبا ثابتا لازوال له لما تقرر انه الاله وحده الحقيق بأن يرهب وقيل واصبا من الوصب اى وله الدين ذا كلفة وقيل الدين الجزاء اى وله الجزاء الدائم بحيث لاينقطع ثوابه لمن آمن وعقابه لمن كفر ( أفغير الله تتقون ) الهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه السياق اى أعقيب تقرر الشؤن المذكورة من تخصيص جميع الموجودات

احد البابين بالآخر لولا شدة التعصب والله اعلم ثم قال تعالى للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الاعلى والمثل السوء عبارة عن الصفة السوء وهى احتياجهم الى الولد وكراهتهم الاناث خوف الفقر والعار ولله المثل الاعلى اى الصفة العالية المقدسة وهى كونه تعالى منزها عن الولد فان قيل كيف جاء ولله المثل الاعلى مع قوله فلا تضربوا لله الامثال قلنا المثل الذى يذكره الله حق وصدق والذى يذكره غيره فهو الباطل والله اعلم

❊ قوله تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم الى اجل مسمى فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ويجعلون لله مايكرهون وتصف السنتهم الكذب ان لهم الحسنى لاجرم ان لهم النار وانهم مفرطون تالله لقد ارسلنا الى امم من قبلك فزين لهم الشيطان اعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب اليم وماانزلنا عليك الكتاب الالتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ) اعلم انه تعالى لما حكى عن القوم عظيم كفرهم وقبيح قولهم بين انه يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة اظهارا للفضل والرحمة والكرم وفى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) احتج الطاعنون فى عصمة الانبياء عليهم السلام بقوله تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابة من وجهين ( الاول ) انه قال ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم فأضاف الظلم الى كل الناس ولاشك ان الظلم من المعاصى فهذا يقتضى كون كل انسان آتيا بالذنب والمعصية والانبياء عليهم السلام من الناس فوجب كونهم آتين بالذنب والمعصية ( والثانى ) انه تعالى قال ماترك على ظهرها من دابة وهذا يقتضى ان كل من كان على ظهر الارض فهو آت بالظلم والذنب حتى يلزم من افناء كل من كان ظالما افناء كل الناس اما اذا قلنا الانبياء عليهم السلام لم يصدر عنهم ظلم فلا يجب افناؤهم وحينئذ لا يلزم من افناء كل الظالمين افناء كل الناس وان لا يبقى على ظهر الارض دابة ولما لزم علمنا ان كل البشر ظالمون سواء كانوا من الانبياء اولم يكونوا كذلك والجواب ثبت بالدليل ان كل الناس ليسوا ظالمين لانه تعالى قال ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات اى فمن العباد من هو ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق ولو كان المقتصد والسابق ظالما لفسد ذلك التقسيم فعلمنا ان المقتصدين والسابقين ليسوا ظالمين فثبت بهذا الدليل انه لايجوز ان يقال كل الخلق ظالمون واذا ثبت هذا فنقول الناس المذكورون فى قوله ولو يؤاخذ الله الناس اما كل العصاة المستحقين للعقاب اوالذين تقدم ذكرهم من المشركين ومن الذين اثبتوا لله البنات وعلى هذا التقدير فيسقط الاستدلال والله اعلم (المسئلة الثانية ) من الناس من احتج بهذه الآية على ان الاصل فى المضار الحرمة فقال لو كان الضرر مشروعا لكان امايكون مشروعا على وجه يكون جزاء على جرم صادر منهم اولا على هذا الوجه والقسمان باطلان فوجب ان لايكون مشروعا اصلا اما بيان فساد القسم الاول فلقوله تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم

( ماترك )

---

لله بجوده تعالى وكون ذلك كله له ونهيه عن اتخاذ الانداد وكون الدين له واصبا المستدعى ذلك لتخصيص التقوى به سبحانه غير الله الذى شانه ماذكر تتقون فتطيعون ( ومابكم ) اى اى شئ يلابسكم ويصاحبكم ( من نعمة ) اية نعمة كانت ( فمن الله ) فهى من الله فما شرطية اوموصولة متضمنة لمعنى الشرط باعتبار الاخبار دون الحصول فان ملابسة النعمة بهم سبب للاخبار بأنها منه تعالى لا لكونها منه تعالى ( ثم اذا مسكم الضر ) مساسا يسيرا (فاليه تجأرون ) تتضرعون فى كشفه لا الى غيره والجؤار رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة قال الاعشى

يراوح من صلوات المليك ❊ طورا سجودا وطورا جؤارا

وقرئ تجرون بطرح الهمزة والقاء حركتها الى ماقبلها وفى ذكر المساس المنبئ عن ادنى اصابة وايراده بالجملة الفعلية المعربة عن الحدوث مع ثم الدالة على وقوعه بعد برهة من الدهر وتحلية الضر بلام الجنس المفيدة لمساس ادنى ماينطلق عليه اسم الجنس مع ايراد النعمة بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والتعبير عن ملابستها للمخاطبين بباء المصاحبة وايراد ما المعربة عن العموم مالايخفى من الجزالة والفخامة ولعل ايراد اذا دون ان للتوسل به الى تحقق وقوع الجواب ( ثم اذا كشف الضر عنكم ) وقرئ كاشف الضر وكلمة ثم ليست للدلالة على تمادى زمان مساس الضر ووقوع الكشف بعد برهة مديدة بل

ماترك على ظهرها من دابة والاستدلال به من وجهين (الاول) ان كلمة لو وضعت لانتفاء الشئ لانتفاء غيره فقوله ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك على ظهرها من دابة يقتضى انه تعالى ما آخذهم بظلمهم وانه ترك على ظهرها من دابة (والثانى) انه لما دلت الآية على ان لازمة اخذ الله الناس بظلمهم هو ان لايترك على ظهرها دابة ثم انا نشاهد انه تعالى ترك على ظهرها دواب كثيرين فوجب القطع بأنه تعالى لايؤاخذ الناس بظلمهم فثبت بهذا انه لايجوز ان تكون المضار مشروعة على وجه تقع اجزية عن الجرائم (واما القسم الثانى) وهو ان يكون مشروعا ابتداء لاعلى وجه يقع اجزية عن جرم سابق فهذا باطل بالاجماع فثبت ان مقتضى هذه الآية تحريم المضار مطلقا ويتأكد هذا ايضا بآيات أخرى كقوله تعالى ولاتفسدوا فى الارض بعد اصلاحها وكقوله وماجعل عليكم فى الدين من حرج وكقوله يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وكقوله عليه السلام لاضرر ولا ضرار فى الاسلام وكقوله ملعون من ضر مسلما فثبت بمجموع هذه الآيات والاخبار ان الاصل فى المضار الحرمة فنقول اذا وقعت حادثة مشتملة على الضرر من كل الوجوه فان وجدنا نصا خاصا يدل على كونه مشروعا قضينا به تقديما للخاص على العام والا قضينا عليه بالحرمة بناء على هذا الاصل الذى قررناه ومنهم من قال هذه القاعدة تدل على ان كل مايريده الانسان وجب ان يكون مشروعا فى حقه لان المنع منه ضرر والضرر غير مشروع بمقتضى هذا الاصل وكل مايكرهه الانسان وجب ان يحرم لان وجوده ضرر والضرر غير مشروع فثبت ان هذا الاصل يتناول جميع الوقائع الممكنة الى يوم القيامة ثم نقول القياس الذى يتمسك به فى اثبات الاحكام اما ان يكون على وفق هذه القاعدة اوعلى خلافها والاول باطل لان هذا الاصل يغنى عنه والثانى باطل لان النص راجح على القياس والله اعلم (المسئلة الثالثة) قالت المعتزلة هذه الآية دالة على ان الظلم والمعاصى ليست فعلا لله تعالى بل تكون افعالا للعباد لانه تعالى اضاف ظلم العباد اليهم وما أضافه الى نفسه فقال ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم وايضا فلو كان خلقا لله تعالى لكانت مؤاخذتهم بها ظلما من الله تعالى ولما منع الله تعالى العباد من الظلم فى هذه الآية فبأن يكون منزها عن الظلم كان اولى قالوا ويدل ايضا على ان اعمالهم مؤثرة فى وجوب الثواب والعقاب ان قوله بظلمهم الباء فيه تدل على العلية كما فى قوله ذلك بأنهم شاقوا الله واعلم ان الكلام فى هذه المسائل قد ذكرناه مرارا فلانعيده والله اعلم (المسئلة الرابعة) ظاهر الآية يدل على ان اقدام الناس على الظلم يوجب اهلاك جميع الدواب وذلك غير جائز لان الدابة لم يصدر عنها ذنب فكيف يجوز اهلاكها بسبب ظلم الناس والجواب عنه من وجهين (الاول) انا لانسلم ان قوله ماترك على ظهرها من دابة يتناول جميع الدواب واجاب ابوعلى الجبائى عنه ان المراد لو يؤاخذهم الله بما كسبوا من كفر ومعصية لعجل هلاكهم وحينئذ لايبقى لهم نسل ثم من المعلوم انه لا احد الا وفى احد آبائه من يستحق

للدلالة على تراخى رتبة مايترتب عليه من مفاجأة الاشراك المدلول عليها بقوله سبحانه (اذا فريق منكم بربهم يشركون) فان ترتبها على ذلك فى ابعد غاية من الضلال ثم ان وجه الخطاب الى الناس جميعا فمن للتبعيض والفريق فريق الكفرة وان وجه الى الكفرة فمن للبيان كأنه قيل اذا فريق كافر وهم انتم ويجوز ان يكون فيهم من اعتبر وازدجر كقوله تعالى فلما نجاهم الى البر فنهم مقتصد فمن تبعيضية ايضا والتعرض لوصف الربوبية للايذان بكمال قبح ماارتكبوه من الاشراك والكفران (ليكفروا بما آتيناهم) من نعمة الكشف عنهم كأنهم جعلوا غرضهم فى الشرك كفران النعمة وانكار كونها من الله عز وجل (فتمتعوا) امر تهديد والالتفات الى الخطاب للايذان بتناهى السخط وقرئ بالياء مبنيا للمفعول عطفا على ليكفروا على ان يكون كفران النعمة والتمتع غرضا لهم من الاشراك ويجوز ان يكون لام الامر الوارد للتهديد (فسوف تعلمون) عاقبة امركم ماينزل بكم من العذاب وفيه وعيد أكيد منبئ عن اخذ شديد حيث لم يذكر المفعول اشعارا بأنه مما لايوصف (ويجعلون) لعله عطف على ماسبق بحسب المعنى تعدادا لجناياتهم اى يفعلون مايفعلون من الجؤار الى الله تعالى عند مساس الضر ومن الاشراك به عند كشفه ويجعلون (لما لايعلمون) اى لما لايعلمون حقيقته وقدره الخسيس من الجمادات التى يتخذونها شركاء لله سبحانه جهالة

وسفاهة ويزعمون انها تنفعهم وتشفع لهم على ان ماموصولة والعائد اليها محذوف أو للاعلم له اصلا وليس من شأنه ذلك فا موصولة ايضا والعائد اليها مافى الفعل من الضمير المستكن وصيغة جمع العقلاء لكونها عبارة عن آلهتهم التى وصفوها بصفات العقلاء او مصدرية واللام للتعليل اى لعدم علمهم والمجعول له محذوف للعلم بمكانه ( نصيبا مما رزقناهم ) من الزرع والانعام وغيرهما تقربا اليها ( تالله لتسألن ) سؤال توبيخ وتقريع ( عما كنتم تفترون ) فى الدنيا بأنها آلهة حقيقة بأن يتقرب اليها وفى تصدير الجملة بالقسم وصرف الكلام من الغيبة الى الخطاب المنبئ عن كمال الغضب من شدة الوعيد مالا يخفى ( ويجعلون لله البنات ) هم خزاعة وكنانة الذين يقولون الملائكة بنات الله ( سبحانه ) تنزيه وتقديس له عز وجل عن مضمون قولهم ذلك او تعجيب من جراءتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة ( ولهم مايشتهون ) من البنين وما مرفوعة المحل على انه مبتدأ والظرف المقدم خبره والجملة حالية وسبحانه اعتراض فى حاق موقعه وجعلها منصوبة بالعطف على البنات اى يجعلون لانفسهم مايشتهون من البنين يؤدى الى جعل الجعل بمعنى يعم الزعم والاختيار ( واذا بشر احدهم بالانثى ) اى اخبر بولادتها ( ظل وجهه ) اى صار او دوام النهار كله ( مسودا ) من الكآبة والحياء

العذاب واذا هلكوا فقد بطل نسلهم فكان يلزمه ان لا يبقى فى العالم احد من الناس واذا بطلوا وجب ان لا يبقى احد من الدواب ايضا لان الدواب مخلوقة لمنافع العباد ومصالحهم فهذا وجه لطيف حسن (والوجه الثانى) ان الهلاك اذا ورد على الظلمة ورد ايضا على سائر الناس والدواب فكان ذلك الهلاك فى حق الظلمة عذابا وفى حق غيرهم امتحانا وقد وقعت هذه الواقعة فى زمان نوح عليه السلام (والوجه الثالث) انه تعالى لو آخذهم لانقطع القطر وفى انقطاعه انقطاع النبت فكان لا تبقى على ظهرها دابة وعن ابى هريرة رضى الله عنه انه سمع رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال لا والله بل ان الحبارى فى وكرها تموت بظلم الظالم وعن ابن مسعود رضى الله عنه كاد الجعل يهلك فى جحره بذنب ابن آدم فهذه الوجوه الثلاثة من الجواب مفرعة على تسليم ان لفظة الدابة يتناول جميع الدواب (والجواب الثانى) ان المراد من قوله ماترك على ظهرها من دابة اى ماترك على ظهرها من كافر فالمراد بالدابة الكافر والدليل عليه قوله تعالى اولئك كالانعام بل هم اضل والله اعلم (المسئلة الخامسة) الكناية فى قوله عليها عائدة الى الارض ولم يسبق لها ذكر الا ان ذكر الدابة يدل على الارض فان الدابة انما تدب عليها وكثيرا مايكنى عن الارض وان لم يتقدم ذكرها لانهم يقولون ماعليها مثل فلان وماعليها اكرم من فلان يعنون على الارض ثم قال تعالى ولكن يؤخرهم الى اجل مسمى ليتوالدوا وفى تفسير هذا الاجل قولان (الاول) وهو قول عطاء عن ابن عباس انه يريد اجل القيامة (والقول الثانى) ان المراد منتهى العمر وجه القول الاول ان معظم العذاب يوافيهم يوم القيامة ووجه القول الثانى ان المشركين يؤاخذون بالعقوبة اذا انقضت اعمارهم وخرجوا من الدنيا (النوع الثالث) من الاقاويل الفاسدة التى كان يذكرها الكفار وحكاها الله تعالى عنهم قوله ويجعلون لله مايكرهون واعلم ان المراد من قوله ويجعلون اى البنات التى يكرهونها لانفسهم ومعنى قوله يجعلون يصفون الله بذلك ويحكمون به له كقوله جعلت زيدا على الناس اى حكمت بهذا الحكم وذكرنا معنى الجعل عند قوله ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ثم قال تعالى وتصف السنتهم الكذب ان لهم الحسنى قال الفراء والزجاج موضع ان نصب لان قوله ان لهم الحسنى بدل من الكذب وتقدير الكلام وتصف السنتهم ان لهم الحسنى وفى تفسير الحسنى ههنا قولان (الاول) المراد منه البنون يعنى انهم قالوا لله البنات ولنا البنون (والثانى) انهم مع قولهم باثبات البنات لله تعالى يصفون انفسهم بانهم فازوا برضوان الله تعالى بسبب هذا القول وانهم على الدين الحق والمذهب الحسن (الثالث) انهم حكموا لانفسهم بالجنة والثواب من الله فان قيل كيف يحكمون بذلك وهم كانوا منكرين للقيامة قلنا كلهم ماكانوا منكرين للقيامة فقد قيل انه كان فى العرب جمع يقرون بالبعث والقيامة ولذلك فانهم كانوا يربطون البعير النفيس على قبر الميت ويتركونه الى ان يموت ويقولون ان ذلك الميت اذا حشر فانه يحشر معه مركوبه

( وايضا )

وايضا فبتقدير انهم كانوا منكرين للقيامة فلعلهم قالوا ان كان محمد صادقا فى قوله بالبعث والنشور فانه يحصل لنا الجنة والثواب بسبب هذا الدين الحق الذى نحن عليه ومن الناس من قال الاولى ان يحمل الحسنى على هذا الوجه بدليل انه تعالى قال بعده لاجرم ان لهم النار فرد عليهم قولهم واثبت لهم النار فدل هذا على انهم حكموا لانفسهم بالجنة قال الزجاج لا رد لقولهم والمعنى ليس الامر كما وصفوا جرم فعلهم اى كسب ذلك القول لهم النار فعلى هذا لفظ ان فى محل النصب بوقوع الكسب عليه وقال قطرب ان فى موضع رفع والمعنى وجب ان لهم النار وكيف كان الاعراب فالمعنى هو انه يحق لهم النار ويجب ويثبت وقوله وانهم مفرطون قرأ نافع وقتيبة عن الكسائى مفرطون بكسر الراء والباقون مفرطون بفتح الراء اما قراءة نافع فقال الفراء المعنى انهم كانوا مفرطين على انفسهم فى الذنوب وقيل افرطوا فى الافتراء على الله تعالى وقال ابو على الفارسى كأنه من افرط اى صار ذا فرط مثل اجرب اى صار ذا جرب والمعنى انهم ذوو فرط الى النار كأنهم قد ارسلوا من يهيئ لهم مواضع فيها واما قراءة قوله مفرطون بفتح الراء ففيه قولان (الاول) المعنى متروكون فى النار قال الكسائى يقال ما افرطت من القوم احدا اى ما تركت وقال الفراء تقول العرب افرطت منهم ناسا اى خلفتهم وانسيتهم (والقول الثانى) مفرطون اى معجلون قال الواحدى رحمه الله وهو الاختيار ووجهه ما قال ابو زيد وغيره فرط الرجل اصحابه يفرطهم فرطا وفروطا اذا تقدم الى الماء ليصلح الدلاء والارسان وافرط القوم الفارط وفرطوه اذا قدموه فمعنى قوله مفرطون على هذا التقدير كأنهم قدموا الى النار فهم فيها فرط للذين يدخلون بعدهم ثم بين تعالى ان مثل هذا الصنع الذى يصدر من مشركى قريش قد صدر من سائر الامم السابقين فى حق الانبياء المتقدمين عليهم السلام فقال تالله لقد ارسلنا الى امم من قبلك فزين لهم الشيطان اعمالهم وهذا يجرى مجرى التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم فيما كان يناله من الغم بسبب جهالات القوم قالت المعتزلة الآية تدل على فساد قول المجبرة من وجوه (الاول) انه اذا كان خالق اعمالهم هو الله تعالى فلا فائدة فى التزيين (والثانى) ان ذلك التزيين لما كان بخلق الله تعالى لم يجز ذم الشيطان بسببه (والثالث) ان التزيين هو الذى يدعو الانسان الى الفعل واذا كان حصول الفعل فيه بخلق الله تعالى كان ضروريا فلم يكن التزيين داعيا (والرابع) ان على قولهم الخالق لذلك العمل اجدر ان يكون وليا لهم من الداعى اليه (والخامس) انه تعالى اضاف التزيين الى الشيطان ولو كان ذلك المزين هو الله تعالى لكانت اضافته الى الشيطان كذبا وجوابه ان كان مزين القبائح فى أعين الكفار هو الشيطان فمزين تلك الوساوس فى عين الشيطان ان كان شيطانا آخر لزم التسلسل وان كان هو الله تعالى فهو المطلوب ثم قال تعالى فهو وليهم اليوم وفيه احتمالان (الاول) ان المراد منه كفار مكة وبقوله فهو وليهم اليوم اى الشيطان ويتولى

من الناس واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتشويش (وهو كظيم) ممتلئ حنقا وغيظا (يتوارى) اى يستخفى (من القوم من سوء ما بشر به) من اجل سوئه والتعبير عنها بما لاسقاطها عن درجة العقلاء (أيمسكه) اى مترددا فى امره محدثا نفسه فى شأنه أيمسكه (على هون) ذل وقرئ هوان (ام يدسه) يخفيه (فى التراب) بالوأد والتذكير باعتبار لفظ ما وقرئ بالتأنيث (ألا ساء ما يحكمون) حيث يجعلون ما هذا شأنه عندهم من الهون والحقارة لله المتعالى عن الصاحبة والولد والحال انهم يتحاشون عنه ويختارون لانفسهم البنين فدار الخطاب جعلهم ذلك لله سبحانه مع ابائهم اياه لا جعلهم البنين لانفسهم ولا عدم جعلهم له سبحانه ويجوز ان يكون مداره التعكيس لقوله تعالى تلك اذا قسمة ضيزى (للذين لا يؤمنون بالآخرة) ممن ذكرت قبائحهم (مثل السوء) صفة السوء الذى هو كالمثل فى القبح وهى الحاجة الى الولد ليقوم مقامهم عند موتهم وايثار الذكور للاستظهار بهم ووأد البنات لدفع العار وخشية الاملاق المنادى كل ذلك بالعجز والقصور والشح البالغ ووضع الموصول موضع الضمير للاشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة (ولله) سبحانه وتعالى (المثل الاعلى) اى الصفة العجيبة التى هى مثل فى العلو مطلقا وهو الوجوب الذاتى والغنى المطلق والجود الواسع والنزاهة عن صفات المخلوقين ويدخل فيه علوه تعالى عما قالوه علوا

اغواءهم وصرفهم عنك كما فعل بكفار الامم قبلك فيكون على هذا التقدير رجع عن
اخبار الامم الماضية الى الاخبار عن كفار مكة (الثانى) انه اراد باليوم يوم القيامة يقول
فهو ولى أولئك الذين كفروا يزين لهم اعمالهم يوم القيامة واطلق اسم اليوم على يوم
القيامة لشهرة ذلك اليوم والمقصود من قوله فهو وليهم اليوم هو انه لاولى لهم ذلك اليوم
ولا ناصر وذلك لانهم اذا عاينوا العذاب وقد نزل بالشيطان كنزوله بهم ورأوا انه لامخلص له
منه كما لامخلص لهم منه جاز ان يوبخوا بأن يقال لهم هذا وليكم اليوم على وجه السخرية
ثم ذكر تعالى ان مع هذا الوعيد الشديد قد اقام الله الحجة وازاح العلة فقال وما انزلنا عليك
الكتاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة وفيه مسائل (المسئلة الاولى)
المعنى انما انزلنا عليك القرآن الا لتبين لهم بواسطة بيانات هذا القرآن الاشياء التى
اختلفوا فيها والمختلفون هم اهل الملل والاهواء وما اختلفوا فيه هو الدين مثل التوحيد
والشرك والجبر والقدر واثبات المعاد ونفيه ومثل الاحكام مثل انهم حرموا اشياء تحل
كالبحيرة والسائبة وغيرهما وحللوا اشياء تحرم كالميتة (المسئلة الثانية) اللام فى قوله لتبين
تدل على ان افعال الله تعالى معللة بالاغراض ونظيره آيات كثيرة منها قوله كتاب انزلناه
اليك لتخرج الناس وقوله وماخلقت الجن والانس الاليعبدون وجوابه انه لما ثبت
بالعقل امتناع التعليل وجب صرفه الى التأويل (المسئلة الثالثة) قال صاحب
الكشاف قوله هدى ورحمة معطوفان على محل قوله لتبين الا انهما انتصبا على انه مفعول
لهما لانهما فعلا الذى انزل الكتاب ودخلت اللام فى قوله لتبين لانه فعل المخاطب
لافعل المنزل وانما ينتصب مفعولا له ما كان فعلا لذلك الفاعل (المسئلة الرابعة) قال الكلبى
وصف القرآن بكونه هدى ورحمة لقوم يؤمنون لاينفى كونه كذلك فى حق الكل كما ان
قوله تعالى فى اول سورة البقرة هدى للمتقين لاينفى كونه هدى لكل الناس كما ذكره فى
قوله هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان وانما خص المؤمنين بالذكر من حيث
انهم قبلوه فانتفعوا به كما فى قوله انما انت منذر من يخشاها لانه انما انتفع بانذاره هذا
القوم فقط والله اعلم * قوله تعالى (والله انزل من السماء ماء فأحيى به الارض بعد
موتها ان فى ذلك لآية لقوم يسمعون وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من
بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا
ورزقا حسنا ان فى ذلك لآية لقوم يعقلون) اعلم انا قد ذكرنا ان المقصود الاعظم من هذا
القرآن العظيم تقرير اصول اربعة الالهيات والنبوات والمعاد واثبات القضاء والقدر
والمقصود الاعظم من هذه الاصول الاربعة تقرير الالهيات فلهذا السبب كلما امتد
الكلام فى فصل من الفصول فى وعيد الكفار عاد الى تقرير الالهيات وقد ذكرنا فى اول
هذه السورة انه تعالى لما اراد ذكر دلائل الالهيات ابتدأ بالاجرام الفلكية وثنى
بالانسان وثلث بالحيوان وربع بالنبات وخمس بذكر احوال البحر والارض فههنا فى هذه

كبيرا (وهو العزيز) المنفرد
بكمال القدرة لاسيما على
مؤاخذتهم بذنوبهم (الحكيم)
الذى يفعل كل مايفعل بمقتضى
الحكمة البالغة وهذا ايضا من
جملة صفاته العجيبة تعالى (ولو
يؤاخذ الله الناس) الكفار
(بظلمهم) بكفرهم ومعاصيهم التى
من جملتها ماعدد من قبائحهم
وهذا تصريح بما افاده قوله تعالى
وهو العزيز الحكيم وايذان بأن
ماأتوه من القبائح قد تناهى الى
امد لاغاية وراءه (ماترك عليها)
على الارض المدلول عليها
بالناس وبقوله تعالى (من دابة)
اى ماترك عليها شيئا من دابة
قط بل اهلكها بالمرة بشؤم ظلم
الظالمين كقوله تعالى واتقوا فتنة
لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة
وعن ابى هريرة رضى الله عنه انه
سمع رجلا يقول ان الظالم لايضر
الانفسه فقال بلى والله حتى
ان الحبارى لتموت فى وكرها
بظلم الظالم وعن ابن مسعود
رضى الله عنه كاد الجعل يهلك فى
حجره بذنب ابن آدم اومن دابة
ظالمة وقيل لو اهلك الآباء لم يكن
الابناء فيلزم ان لايكون فى
الارض دابة لانها مخلوقة لمنافع
البشر لقوله سبحانه هو الذى
لكم مافى الارض جميعا (ولكن)
لايؤاخذهم بذلك بل (يؤخرهم
الى اجل مسمى) لاعمارهم او
لعذابهم كى يتوالدوا اويكثر
عذابهم (فاذا جاء اجلهم) المسمى
(لايستأخرون) عن ذلك الاجل
اى لا يتأخرون وصيغة
الاستفعال للاشعار بعجزهم
عنه مع طلبهم له (ساعة) فذة
وهى مثل فى قلة المدة

الآية لما عاد الى تقرير دلائل الالهيات بدأ اولا بذكر الفلكيات فقال والله انزل من السماء ماء فأحيا به الارض بعد موتها والمعنى انه تعالى خلق السماء على وجه ينزل منه الماء ويصير ذلك الماء سببا لحياة الارض والمراد بحياة الارض نبات الزرع والشجر والنور والثمر بعد ان كان لايثمر وينفع بعد ان كان لاينفع وتقرير هذه الدلائل قد ذكرناه مرارا كثيرة ثم قال ان فى ذلك لآية لقوم يسمعون سماع انصاف وتدبر لان من لم يسمع بقلبه فكأنه اصم لم يسمع (والنوع الثانى) من الدلائل المذكورة فى هذه الآيات الاستدلال بعجائب احوال الحيوانات وهو قوله وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه قد ذكرنا معنى العبرة فى قوله لعبرة لاولى الابصار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير وابو عمرو وحفص عن عاصم وحمزة والكسائى نسقيكم بضم النون والباقون بالفتح اما من فتح النون فحجته ظاهرة تقول سقيته حتى روى اسقيه قال تعالى وسقاهم ربهم شرابا طهورا وقال والذى هو يطعمنى ويسقين وقال وسقوا ماء حميما ومن ضم النون فهو من قولك اسقاه اذا جعل له شرابا كقوله واسقيناكم ماء فراتا وقوله فأسقيناكموه والمعنى ههنا انا جعلناه فى كثرته وادامته كالسقيا واختار ابو عبيد الضم قال لانه شرب دائم واكثر مايقال فى هذا المقام اسقيت (المسئلة الثانية) قوله مما فى بطونه الضمير عائد الى الانعام فكان الواجب ان يقال مما فى بطونها وذكر النحويون فيه وجوها (الاول) ان لفظ الانعام لفظ مفرد وضع لافادة جمع كالرهط والقوم والبقر والنعم فهو بحسب اللفظ لفظ مفرد فيكون ضميره ضمير الواحد وهو التذكير وبحسب المعنى جمع فيكون ضميره ضمير الجمع وهو التأنيث فلهذا السبب قال ههنا فى بطونه وقال فى سورة المؤمنين فى بطونها (الثانى) قوله فى بطونه اى فى بطون ماذكرنا وهذا جواب الكسائى قال المبرد هذا شائع فى القرآن قال تعالى فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى يعنى هذا الشئ الطالع ربى وقال ان هذه تذكرة فمن شاء ذكره اى ذكر هذا الشئ واعلم ان هذا انما يجوز فيما يكون تأنيثه غير حقيقى اما الذى يكون تأنيثه حقيقيا فلا يجوز فانه لايجوز فى مستقيم الكلام ان يقال جاريتك ذهب ولا غلامك ذهبت على تقدير ان نحمله على النسمة (الثالث) ان فيه اضمارا والتقدير نسقيكم مما فى بطونه اللبن اذ ليس كلها ذات لبن (المسئلة الثالثة) الفرث سرجين الكرش روى الكلبى عن ابى صالح عن ابن عباس انه قال اذا استقر العلف فى الكرش صار اسفله فرثا واعلاه دما واوسطه لبنا فيجرى الدم فى العروق واللبن فى الضرع ويبقى الفرث كما هو فذاك هو قوله تعالى من بين فرث ودم لبنا خالصا لايشوبه الدم ولا الفرث ولقائل ان يقول الدم واللبن لايتولدان البتة فى الكرش والدليل عليه الحس فان هذه الحيوانات تذبح ذبحا متواليا ومارأى احد فى كرشها لادما ولا لبنا ولو كان تولد الدم واللبن فى الكرش لوجب ان يشاهد ذلك فى بعض الاحوال والشئ الذى دلت المشاهدة على فساده لم يجز المصير اليه بل الحق ان الحيوان اذا تناول

(ولا يستقدمون) اى لايتقدمون وانما تعرض لذكره مع انه لايتصور الاستقدام عند مجئ الاجل مبالغة فى بيان عدم الاستئخار بنظمه فى سلك مايمتنع كما فى قوله تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيآت حتى اذا حضر احدهم الموت قال انى تبت الان ولا الذين يموتون وهم كفار فان من مات كافرا مع انه لاتوبة له رأسا قد نظم فى سمط من لم تقبل توبته للايذان بأنهما سيان فى ذلك وقد مر فى تفسير سورة يونس (ويجعلون لله) اى يثبتون له سبحانه وينسبون اليه فى زعمهم (مايكرهون) لانفسهم مما ذكر وهو تكرير لما سبق تثنية للتقريع وتوطئة لقوله تعالى (وتصف السنتهم الكذب) اى يجعلون له تعالى مايجعلون ومع ذلك تصف السنتهم الكذب وهو (ان لهم الحسنى) العاقبة الحسنى عند الله تعالى كقوله ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى وقرئ الكذب وهو جمع الكذوب على انه صفة الالسنة (لاجرم) رد لكلامهم ذلك واثبات لنقيضه اى حقا (ان لهم) مكان ماأملوا من الحسنى (النار) التى ليس وراء عذابها عذاب وهى علم فى السوأى (وانهم مفرطون) اى مقدمون اليها من افرطته اى قدمته فى طلب الماء وقيل منسيون من افرطت فلانا خلفى اذا خلفته ونسيته وقرئ بالتشديد وفتح الراء من فرطته فى طلب الماء وبكسر الراء المشددة من التفريط فى الطاعات

الغذاء وصل ذلك العلف الى معدته ان كان انسانا والى كرشه ان كان من الانعام وغيرها فاذا طبخ وحصل الهضم الاول فيه فما كان منه صافيا انجذب الى الكبد وما كان كثيفا نزل الى الامعاء ثم ذلك الذى يحصل منه فى الكبد ينطبخ فيها ويصير دما وذلك هو الهضم الثانى ويكون ذلك الدم مخلوطا بالصفراء والسوداء وزيادة المائية اما الصفراء فتذهب الى المرارة والسوداء الى الطحال والماء الى الكلية ومنها الى المثانة واما ذلك الدم فانه يدخل فى الاوردة وهى العروق النابتة من الكبد وهنالك يحصل الهضم الثالث وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة فينصب الدم فى تلك العروق الى الضرع والضرع لحم غددى رخو ابيض فيقلب الله تعالى الدم عند انصبابه الى ذلك اللحم الغددى الرخو الابيض من صورة الدم الى صورة اللبن فهذا هو القول الصحيح فى كيفية تولد اللبن فان قيل فهذه المعانى حاصلة فى الحيوان الذكر فلم لم يحصل منه اللبن قلنا الحكمة الالهية اقتضت تدبير كل شئ على الوجه اللائق به الموافق لمصلحته فمزاج الذكر من كل حيوان يجب ان يكون حارا يابسا ومزاج الانثى يجب ان يكون باردا رطبا والحكمة فيه ان الولد انما يتكون فى داخل بدن الانثى فوجب ان تكون الانثى مختصة بمزيد الرطوبات لوجهين (الاول) ان الولد انما يتولد من الرطوبات فوجب ان يحصل فى بدن الانثى رطوبات كثيرة لتصير مادة لتولد الولد (والثانى) ان الولد اذا كبر وجب ان يكون بدن الام قابلا للتمدد حتى يتسع لذلك الولد فاذا كانت الرطوبة غالبة على بدن الام كان بدنها قابلا للتمدد فيتسع للولد فثبت بما ذكرنا انه تعالى خص بدن الانثى من كل حيوان بمزيد الرطوبات لهذه الحكمة ثم ان الرطوبات التى كانت تصير مادة لازدياد بدن الجنين حين كان فى رحم الام فعند انفصال الجنين تنصب الى الثدى والضرع ليصير مادة لغذاء ذلك الطفل الصغير اذا عرفت هذا فاعلم ان السبب الذى لاجله يتولد اللبن من الدم فى حق الانثى غير حاصل فى حق الذكر فظهر الفرق اذا عرفت هذا التصوير فنقول المفسرون قالوا المراد من قوله من بين فرث ودم هو ان هذه الثلاث تتولد فى موضع واحد فالفرث يكون فى اسفل الكرش والدم يكون فى اعلاه واللبن يكون فى الوسط وقد دللنا على ان هذا القول على خلاف الحس والتجربة ولان الدم لو كان يتولد فى اعلى المعدة والكرش كان يجب اذا قاء ان يقئ الدم وذلك باطل قطعا واما نحن فنقول المراد من الآية هو ان اللبن انما يتولد من بعض اجزاء الدم والدم انما يتولد من الاجزاء اللطيفة التى فى الفرث وهو الاشياء المأكولة الحاصلة فى الكرش وهذا اللبن متولد من الاجزاء التى كانت حاصلة فيما بين الفرث اولا ثم كانت حاصلة فيما بين الدم ثانيا فصفاه الله تعالى عن تلك الاجزاء الكثيفة الغليظة وخلق فيها الصفات التى باعتبارها صارت لبنا موافقا لبدن الطفل فهذا ما حصلناه فى هذا المقام والله اعلم (المسئلة الرابعة) اعلم ان حدوث اللبن فى الثدى واتصافه بالصفات التى باعتبارها يكون موافقا لتغذية الصبى مشتمل على حكم عجيبة



وبكسر المخففة من الافراط فى المعاصى فلا يكونان حينئذ من احوالهم الاخروية كما عطف عليه (تالله لقد ارسلنا الى امم من قبلك) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يناله من جهالات الكفرة ووعيد لهم على ذلك اى ارسلنا اليهم رسلا فدعوهم الى الحق فلم يجيبوا الى ذلك (فزين لهم الشيطان اعمالهم) القبيحة فعكفوا عليها مصرين (فهو وليهم) اى قرينهم وبئس القرين (اليوم) اى يوم زين لهم الشيطان اعمالهم فيه على طريق حكاية الحال الماضية او فى الدنيا او يوم القيامة على طريق حكاية الحال الآتية وهى حال كونهم معذبين فى النار والولى بمعنى الناصر اى فهو ناصرهم اليوم لا ناصر لهم غيره مبالغة فى نفى الناصر عنهم ويجوز ان يكون الضمير عائدا الى مشركى قريش والمعنى زين للامم السالفة اعمالهم فهو ولى هؤلاء لانهم منهم وان يكون على حذف المضاف اى ولى امثالهم (ولهم) فى الآخرة (عذاب اليم) هو عذاب النار (وما انزلنا عليك الكتاب) اى القرآن (الا لتبين) استثناء مفرغ من اعم العلل اى ما انزلناه عليك لعلة من العلل الا لتبين (لهم) اى للناس (الذى اختلفوا فيه) من التوحيد والقدر واحكام الافعال واحوال المعاد (وهدى ورحمة) معطوفان على محل لتبين اى وللهداية والرحمة (لقوم يؤمنون) وانما انتصبا لكونهما اثرى فاعل الفعل

واسرار بديعة يشهد صريح العقل بأنها لا تحصل الا بتدبير الفاعل الحكيم والمدبر الرحيم وبيانه من وجوه (الاول) انه تعالى خلق فى اسفل المعدة منفذا يخرج منه ثفل الغذاء فاذا تناول الانسان غذاء او شربة رقيقة انطبق ذلك المنفذ انطباقا كليا لا يخرج منه شئ من ذلك المأكول والمشروب الى ان يكمل انهضامه فى المعدة وينجذب ماصفا منه الى الكبد ويبقى الثفل هناك فحينئذ ينفتح ذلك المنفذ وينزل منه ذلك الثفل وهذا من العجائب التى لا يمكن حصولها الا بتدبير الفاعل الحكيم لانه متى كانت الحاجة الى بقاء الغذاء فى المعدة حاصلة انطبق ذلك المنفذ واذا حصلت الحاجة الى خروج ذلك الجسم عن المعدة انفتح فحصول الانطباق تارة والانفتاح أخرى بحسب الحاجة وتقدير المنفعة مما لا يتأتى الا بتقدير الفاعل الحكيم (الثانى) انه تعالى اودع فى الكبد قوة تجذب الاجزاء اللطيفة الحاصلة فى ذلك المأكول او المشروب ولا تجذب الاجزاء الكثيفة وخلق فى الامعاء قوة تجذب تلك الاجزاء الكثيفة التى هى الثفل ولا تجذب الاجزاء اللطيفة البتة ولو كان الامر بالعكس لاختلفت مصلحة البدن ولفسد نظام هذا التركيب (الثالث) انه تعالى اودع فى الكبد قوة هاضمة طابخة حتى ان تلك الاجزاء اللطيفة تنطبخ فى الكبد وتنقلب دما ثم انه تعالى اودع فى المرارة قوة جاذبة للصفراء وفى الطحال قوة جاذبة للسوداء وفى الكلية قوة جاذبة لزيادة المائية حتى يبقى الدم الصافى الموافق لتغذية البدن وتخصيص كل واحد من هذه الاعضاء بتلك القوة والخاصية لا يمكن الا بتقدير الحكيم العليم (الرابع) ان فى الوقت الذى يكون الجنين فى رحم الام ينصب من ذلك الدم نصيب وافر اليه حتى يصير مادة لنمو اعضاء ذلك الولد وازدياده فاذا انفصل ذلك الجنين عن الرحم ينصب ذلك النصيب الى جانب الثدى ليتولد منه اللبن الذى يكون غذاء له فاذا كبر الولد لم ينصب ذلك النصيب لا الى الرحم ولا الى الثدى بل ينصب على مجموع بدن المتغذى فانصباب ذلك الدم فى كل وقت الى عضو آخر انصبابا موافقا للمصلحة والحكمة لا يتأتى الا بتدبير الفاعل المختار الحكيم (الخامس) ان عند تولد اللبن فى الضرع احدث تعالى فى حلمة الثدى ثقوبا صغيرة ومسام ضيقة وجعلها بحيث اذا اتصل المص او الحلب بتلك الحلمة انفصل اللبن عنها فى تلك المسام الضيقة ولما كانت تلك المسام ضيقة جدا فحينئذ لا يخرج منها الا ما كان فى غاية الصفاء واللطافة واما الاجزاء الكثيفة لا يمكنها الخروج من تلك المنافذ الضيقة فتبقى فى الداخل والحكمة فى احداث تلك الثقوب الصغيرة والمنافذ الضيقة فى رأس حلمة الثدى ان يكون ذلك كالمصفاة فكل ما كان لطيفا خرج وكل ما كان كثيفا احتبس فى الداخل ولم يخرج فبهذا الطريق يصير ذلك اللبن خالصا موافقا لبدن الصبى سائغا للشاربين (السادس) انه تعالى الهم ذلك الصبى الى المص فان الام كلما القمت حلمة الثدى فى فم الصبى فذلك الصبى فى الحال يأخذ فى المص فلولا ان الفاعل المختار الرحيم الهم ذلك الطفل الصغير ذلك

المعلل بخلاف التبيين حيث لم ينتصب لفقدان شرطه ولعل تقديمه عليهما لتقدمه فى الوجود وتخصيص كونهما هدى ورحمة بالمؤمنين لانهم المغتنمون آثاره (والله انزل من السماء) من السحاب او من جانب السماء حسبما مر وهذا تكرير لما سبق تأكيدا لمضمونه وتوطئة لما يعقبه من ادلة التوحيد (ماء) نوعا خاصا من الماء هو المطر وتقديم المجرور على المنصوب لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر (فاحيى به الارض) بما انبت به فيها من انواع النباتات (بعد موتها) اى بعد يبسها وما يفيده الفاء من التعقيب العادى لا ينافيه ما بين المعطوفين من المهلة (ان فى ذلك) اى فى انزال الماء من السماء واحياء الارض الميتة به (لآية) وأية آية دالة على وحدته سبحانه وعلمه وقدرته وحكمته (لقوم يسمعون) هذا التذكير ونظائره سماع تفكر وتدبر فكأن من ليس كذلك اصم (وان لكم فى الانعام لعبرة) واى عبرة تحار فى دركها العقول وتهيم فى فهمها البـاب الفحول (نسقيكم) استئناف لبيان ما ابهم اولا من العبرة (مما فى بطونه) اى بطون الانعام والتذكير ههنا لمراعاة جانب اللفظ فانه اسم جمع ولذلك عده سيبويه فى المفردات المبنية على افعال كاكياش واخلاق كما ان تأنيثه فى سورة المؤمنين لرعاية جانب المعنى ومن جعله جمع نعم جعل الضمير للبعض فان اللبن ليس لجميعها او له على المعنى فان المراد به الجنس

وقرئ

العمل المخصوص والا لم يحصل الانتفاع بتخليق ذلك اللبن فى الثدى (السابع) انا بينا انه تعالى انما خلق اللبن من فضلة الدم وانما خلق الدم من الغذاء الذى يتناوله الحيوان فالشاة لما تناولت العشب والماء فالله تعالى خلق الدم من لطيف تلك الاجزاء ثم خلق اللبن من بعض اجزاء ذلك الدم ثم ان اللبن حصلت فيه اجزاء ثلاثة على طبائع متضادة فما فيه من الدهن يكون حارا رطبا وما فيه من المائية يكون باردا رطبا وما فيه من الجبنية يكون باردا يابسا وهذه الطبائع ما كانت حاصلة فى ذلك العشب الذى تناولته الشاة فظهر بهذا ان هذه الاجسام لا تزال تنقلب من صفة الى صفة ومن حالة الى حالة مع انه لا يناسب بعضها بعضا ولا يشاكل بعضها بعضا وعند ذلك يظهر ان هذه الاحوال انما تحدث بتدبير فاعل حكيم رحيم يدبر احوال هذا العالم على وفق مصالح العباد فسبحان من تشهد جميع ذرات العالم الاعلى والاسفل بكمال قدرته ونهاية حكمته ورحمته له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين اما قوله سائغا للشاربين فمعناه جاريا فى حلوقهم لذيذا هنيئا يقال ساغ الشراب فى الحلق واساغه صاحبه ومنه قوله ولا يكاد يسيغه (المسئلة الخامسة) قال اهل التحقيق اعتبار حدوث اللبن كما يدل على وجود الصانع المختار سبحانه فكذلك يدل على امكان الحشر والنشر وذلك لان هذا العشب الذى يأكله الحيوان انما يتولد من الماء والارض فخالق العالم دبر تدبيرا فقلب ذلك الطين نباتا وعشبا ثم اذا اكله الحيوان دبر تدبيرا آخر فقلب ذلك العشب دما ثم دبر تدبيرا آخر فقلب ذلك الدم لبنا ثم دبر تدبيرا آخر فحدث من ذلك اللبن الدهن والجبن فهذا يدل على انه تعالى قادر على ان ينقلب هذه الاجسام من صفة الى صفة ومن حالة الى حالة فاذا كان كذلك لم يمتنع ايضا ان يكون قادرا على ان ينقلب اجزاء ابدان الاموات الى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك فهذا الاعتبار يدل من هذا الوجه على ان البعث والقيامة امر ممكن غير ممتنع والله اعلم ثم قال تعالى ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا اعلم انه تعالى لما ذكر بعض منافع الحيوانات فى الآية المتقدمة ذكر فى هذه الآية بعض منافع النبات وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فان قيل بم تعلق قوله ومن ثمرات النخيل والاعناب قلنا بمحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والاعناب اى من عصيرها وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه وقوله تتخذون منه سكرا بيان وكشف عن كنه الاسقاء (المسئلة الثانية) قال الواحدى الاعناب عطف على الثمرات لا على النخيل لانه يصير التقدير ومن ثمرات الاعناب والعنب نفسه ثمرة وليست له ثمرة اخرى (المسئلة الثالثة) فى تفسير السكر وجوه (الاول) السكر الخمر سميت بالمصدر من سكر سكرا وسكرا نحو رشد رشدا ورشدا واما الرزق الحسن فسائر ما يتخذ من النخيل والاعناب كالرب والخل والدبس والتمر والزبيب فان قيل الخمر محرمة فكيف ذكرها الله فى معرض الانعام اجابوا عنه من وجوه (الاول) ان هذه السورة مكية وتحريم الخمر نزل فى سورة المائدة فكان نزول هذه الآية

بفتح النون ههنا وفى سورة المؤمنين (من بين فرث ودم لبنا) الفرث فضالة ما يبقى من العلف فى الكرش المنهضمة بعض الانهضام وكثيف ما يبقى فى المعى وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان البهيمة اذا اعتلفت وانطبخ العلف فى كرشها كان اسفله فرثا واوسطه لبنا واعلاه دما ولعل المراد به ان اوسطه يكون مادة اللبن واعلاه مادة الدم الذى يغذو البدن لان عدم تكونهما فى الكرش مما لا ريب فيه بل الكبد تجذب صفاوة الطعام المنهضم فى الكرش ويبقى ثقله وهو الفرث ثم يمسكها ريثما يهضمها فيحدث اخلاطا اربعة معها مائية فتميز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين الصفراء والسوداء وتدفعها الى الكلية والمرارة والطحال ثم توزع الباقى على الاعضاء بحسبها فتجرى على كل حقه على ما يليق به بتقدير العزيز العليم ثم ان كان الحيوان انثى زاد اخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها فيندفع الزائد اولا لاجل الجنين الى الرحم فاذا انفصل انصب ذلك الزائد او بعضه الى الضروع فيبيض لمجاورته لحومها الغذوية البيض ويلذ طعمه فيصير لبنا ومن تدبر فى بدائع صنع الله تعالى فيما ذكر من الاخلاط والالبان واعداد مقارها ومجاريها والاسباب المولدة لها وتسخير القوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق به اضطر الى الاعتراف بكمال علمه

في الوقت الذي كانت الخمر فيه غير محرمة (الثاني) انه لا حاجة الى التزام هذا النسخ وذلك لانه تعالى ذكر ما في هذه الاشياء من المنافع وخاطب المشركين بها والخمر من اشربتهم فهي منفعة في حقهم ثم انه تعالى نبه في هذه الآية ايضا على تحريمها وذلك لانه ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر فوجب ان لا يكون السكر رزقا حسنا ولا شك انه حسن بحسب الشهوة فوجب ان يقال الرجوع عن كونه حسنا بحسب الشريعة وهذا انما يكون كذلك اذا كانت محرمة (القول الثاني) ان السكر هو النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر اذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد وهو حلال عند ابي حنيفة رحمه الله الى حد السكر ويحتج بأن هذه الآية تدل على ان السكر حلال لانه تعالى ذكره في معرض الانعام والمنة ودل الحديث على ان الخمر حرام قال عليه السلام الخمر حرام لعينها وهذا يقتضي ان يكون السكر شيئا غير خمر وكل من اثبت هذه المغايرة قال انه النبيذ المطبوخ (والقول الثالث) ان السكر هو الطعام قاله ابو عبيدة واحتج عليه بقول الشاعر * جعلت اعراض الكرام سكرا * اى جعلت ذمهم طعاما لك قال الزجاج هذا بالخمر اشبه منه بالطعام والمعنى انك جعلت تتخمر باعراض الكرام والمعنى انه جعل شغفه بغيبة الناس وتمزيق اعراضهم جاريا مجرى شرب الخمر واعلم انه تعالى لما ذكر هذه الوجوه التي هي دلائل من وجه وتعديد للنعم العظيمة من وجه آخر قال ان في ذلك لآية لقوم يعقلون والمعنى ان من كان عاقلا علم بالضرورة ان هذه الاحوال لا يقدر عليها الا الله سبحانه وتعالى فيحتج بحصولها على وجود الاله القادر الحكيم والله اعلم * قوله تعالى (واوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون) اعلم انه تعالى لما بين ان اخراج الالبان من النعم واخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والاعناب دلائل قاهرة وبينات باهرة على ان لهذا العالم الها قادرا مختارا حكيما فكذلك اخراج العسل من النحل دليل قاطع وبرهان ساطع على اثبات هذا المقصود وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله واوحى ربك الى النحل يقال وحى واوحى وهو الالهام والمراد من الالهام انه تعالى قرر في انفسها هذه الاعمال العجيبة التي تعجز عنها العقلاء من البشر وبيانه من وجوه (الاول) انها تبني البيوت المسدسة من اضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها والعقلاء من البشر لا يمكنهم بناء مثل تلك البيوت الا بآلات وادوات مثل المسطر والفرجار (والثاني) انه ثبت في الهندسة ان تلك البيوت لو كانت مشكلة باشكال سوى المسدسات فانه يبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة اما اذا كانت تلك البيوت مسدسة فانه لا يبقى فيما بينها فرج ضائعة فاهداء ذلك الحيوان الضعيف الى هذه الحكمة الخفية

---

وقدرته وحكمته وتناهي رأفته ورحمته فمن الاولى تبعيضية لما ان اللبن بعض ما في بطونه لانه مخلوق من بعض اجزاء الدم المتولد من الاجزاء اللطيفة التي في الفرث حسبما فصل والثانية ابتدائية كما في قوله سقيت من الحوض لان بين الفرث والدم مبدأ الاسقاء وهي متعلقة بنسقيكم وتقديمه على المفعول لما مر مرارا من ان تقديم ما حقه التأخير يبعث للنفس شوقا الى المؤخر موجبا لفضل تمكنه عند وروده عليها لاسيما اذا كان المقدم متضمنا لوصف مناف لوصف المؤخر كالذي نحن فيه فان بين وصفي المقدم والمؤخر تنافيا وتنائيا بحيث لا يتراءى ناراهما فان ذلك مما يزيد الشوق والاستشراف الى المؤخر كما في قوله تعالى الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا اوحال من لبنا قدم عليه لتنكيره وللتنبيه على انه موضع العبرة (خالصا) عن شائبة ما في الدم والفرث من الاوصاف ببرزخ من القدرة القاهرة الحاجزة عن بغي احدهما عليه مع كونهما مكتنفين له (سائغا للشاربين) سهل المرور في حلقهم قيل لم يغص احد باللبن وقرئ سيغا بالتشديد وبالتخفيف مثل هين وهين (ومن ثمرات النخيل والاعناب) متعلق بما يدل عليه الاسقاء من مطلق الاطعام المنتظم لاعطاء المطعوم والمشروب فان اللبن مطعوم كما انه مشروب اى ونطعمكم من ثمرات النخيل ومن الاعناب اى من عصيرهما وقوله تعالى (تتخذون منه سكرا) استئناف لبيان كنه

والدقيقة اللطيفة من الا عاجيب ( والثالث ) ان النحل يحصل فيمابينها واحد يكون كالرئيس للبقية وذلك الواحد يكون اعظم جثة من الباقي ويكون نافذ الحكم على تلك البقية وهم يخدمونه ويحملونه عند الطيران وذلك ايضا من الاعاجيب (والرابع) انها اذا نفرت من وكرها ذهبت مع الجمعية الى موضع آخر فاذا أرادوا عودها الى وكرها ضربوا الطنبور والملاهى وآلات الموسيقا وبواسطة تلك الالحان يقدرون على ردها الى وكرها وهذا ايضا حالة عجيبة فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والكياسة وكان حصول هذه الانواع من الكياسة ليس الا على سبيل الالهام وهى حالة شبيهة بالوحى لاجرم قال تعالى فى حقها واوحى ربك الى النحل واعلم ان الوحى قد ورد فى حق الانبياء لقوله تعالى وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا وفى حق الاولياء ايضا قال تعالى واذ أوحيت الى الحواريين وبمعنى الالهام فى حق البشر قال تعالى واوحينا الى ام موسى وفى حق سائر الحيوانات كما فى قوله واوحى ربك الى النحل ولكل واحد من هذه الاقسام معنى خاص والله اعلم ( المسئلة الثانية ) قال الزجاج يجوز ان يقال سمى هذا الحيوان نحلا لان الله تعالى نحل الناس العسل الذى يخرج من بطونها وقال غيره النحل يذكر ويؤنث وهى مؤنثة فى لغة الحجاز ولذلك انثها الله تعالى وكذلك كل جمع ليس بينه وبين واحده الا الهاء ثم قال تعالى ان اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون وفيه مسائل ( المسئلة الاولى ) قال صاحب الكشاف ان اتخذى هى ان المفسرة لان الايحاء فيه معنى القول وقرئ بيوتا بكسر الباء ومن الشجر ومما يعرشون اى يبنون ويسقفون وفيه لغتان قرئ بهما ضم الراء وكسرها مثل يعكفون ويعكفون واعلم ان النحل نوعان (احدهما) مايسكن فى الجبال والغياض ولايتعهدها احد من الناس ( والنوع الثانى ) التى تسكن بيوت الناس وتكون فى تعهدات الناس فالاول هو المراد بقوله ان اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر والثانى هو المراد بقوله ومما يعرشون وهو خلايا النحل فان قيل ما معنى من فى قوله ان اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون وهلا قيل فى الجبال وفى الشجر قلنا اريد به معنى البعضية وان لاتبنى بيوتها فى كل جبل وشجر بل فى مساكن توافق مصالحها وتليق بها (المسئلة الثانية) ظاهر قوله تعالى ان اتخذى من الجبال بيوتا امر وقد اختلفوا فيه فمن الناس من يقول لايبعد ان يكون لهذه الحيوانات عقول ولا يبعد ان يتوجه عليها من الله تعالى امر ونهى وقال آخرون ليس الامر كذلك بل المراد منه انه تعالى خلق فيها غرائز وطبائع توجب هذه الاحوال والكلام المستقصى فى هذه المسئلة مذكور فى تفسير قوله تعالى يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ثم قال تعالى ثم كلى من كل الثمرات لفظة من ههنا للتبعيض او لابتداء الغاية ورأيت فى كتب الطب انه تعالى دبر هذا العالم على وجه وهو انه يحدث فى الهواء طل لطيف فى الليالى ويقع ذلك الطل

الاطعام وكشفه او بقوله تتخذون منه وتكرير الظرف للتأكيد او خبر لمبتدأ محذوف صفته تتخذون اى ومن ثمرات النخيل والاعناب ثمر تتخذون منه وحذف الموصوف اذا كان فى الكلام كلمة من سائغ نحو قوله تعالى ومامنا الا له مقام معلوم وتذكير الضمير على الوجهين الاولين لانه للمضاف المحذوف اعنى العصير اولان المراد هو الجنس والسكر مصدر سمى به الخمر وقيل هو النبيذ وقيل هو الطعم ( ورزقا حسنا ) كالتمر والدبس والزبيب والخل والآية ان كانت سابقة النزول على تحريم الخمر فدالة على كراهتها والا فجامعة بين العتاب والمنة ( ان فى ذلك لآية ) باهرة ( لقوم يعقلون ) يستعملون عقولهم فى الآيات بالنظر والتأمل (واوحى ربك الى النحل ) اى الهمها وقذف فى قلوبها وعلمها بوجه لايعلمه الا العليم الخبير وقرئ بفتحتين ( ان اتخذى ) اى بأن اتخذى على ان ان مصدرية ويجوز ان تكون مفسرة لما فى الايحاء من معنى القول وتأنيث الضمير مع ان النحل مذكر للحمل على المعنى اولانه جمع نحلة والتأنيث لغة اهل الحجاز ( من الجبال بيوتا ) اى اوكارا مع مافيها من الخلايا وقرئ بيوتا بكسر الباء ( ومن الشجر ومما يعرشون) اى يعرشه الناس اى يرفعه من كرم او سقف وقيل المراد به ما يرفعه الناس ويبنونه للنحل والمعنى اتخذى لنفسك بيوتا من الجبال والشجر اذا لم يكن لك ارباب والا فاتخذى مايعرشونه

على اوراق الاشجار فقدتكون تلك الاجزاء الطلية لطيفة صغيرة متفرقة على الاوراق والازهار وقد تكون كثيرة بحيث يجتمع منها اجزاء محسوسة (اماالقسم الثانى) فهو مثل الترنجبين فانه طل ينزل من الهواء ويجتمع على اطراف الطرفاء فى بعض البلدان وذلك محسوس ( واماالقسم الاول ) فهو الذى الهم الله تعالى هذا النحل حتى انها تلتقط تلك الذرات من الازهار واوراق الاشجار بأفواهها وتأكلها وتغتذى بها فاذا شبعت التقطت بأفواهها مرة اخرى شيئا من تلك الاجزاء وذهبت بها الى بيوتها ووضعتها هناك لانها تحاول ان تدخر لنفسها غذاءها فاذا اجتمع فى بيوتها من تلك الاجزاء الطلية شئ كثير فذاك هو العسل ومن الناس من يقول ان النحل تأكل من الازهار الطيبة والاوراق العطرة اشياء ثم انه تعالى يقلب تلك الاجسام فى داخل بدنها عسلا ثم انها تقئ مرة اخرى فذاك هو العسل والقول الاول اقرب الى العقل واشد مناسبة الى الاستقراء فان طبيعة الترنجبين قريبة من العسل فى الطعم والشكل ولاشك انه طل يحدث فى الهواء ويقع على اطراف الاشجار والازهار فكذا ههنا وايضا فنحن نشاهد ان هذا النحل انما يتغذى بالعسل ولذلك فانا اذا استخرجنا العسل من بيوت النحل نترك لها بقية من ذلك لاجل ان تغتذى بها فعلمنا انها انما تغتذى بالعسل وانها انما تقع على الاشجار والازهار لانها تغتذى بتلك الاجزاء الطلية العسلية الواقعة من الهواء عليها اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى ثم كلى من كل الثمرات كلمة من ههنا تكون لابتداء الغاية ولاتكون للتبعيض على هذا القول ثم قال تعالى فاسلكى سبل ربك والمعنى ثم كلى كل ثمرة تشتهينها فاذا اكلتها فاسلكى سبل ربك فى الطرق التى الهمك وافهمك فى عمل العسل او يكون المراد فاسلكى فى طلب تلك الثمرات سبل ربك اما قوله ذللا ففيه قولان ( الاول ) انه حال من السبل لان الله تعالى ذللها لها ووطأها وسهلها كقوله هو الذى جعل لكم الارض ذلولا ( الثانى ) انه حال من الضمير فى فاسلكى اى وانت ايها النحل ذلل منقادة لما امرت به غير ممتنعة ثم قال تعالى يخرج من بطونها وفيه بحثان ( الاول ) ان هذا رجوع من الخطاب الى الغيبة والسبب فيه ان المقصود من ذكر هذه الاحوال ان يحتج الانسان المكلف به على قدرة الله تعالى وحكمته وحسن تدبيره لاحوال العالم العلوى والسفلى فكأنه تعالى لما خاطب النحل بما سبق ذكره خاطب الانسان وقال انا الهمنا هذه النحل لهذه العجائب لاجل ان يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه ( البحث الثانى ) انه قد ذكرنا ان من الناس من يقول العسل عبارة عن اجزاء طلية تحدث فى الهواء وتقع على اطراف الاشجار وعلى الاوراق والازهار فيلقطها الزنبور بفمه فاذا ذهبنا الى هذا الوجه كان المراد من قوله يخرج من بطونها اى من افواهها وكل تجويف فى داخل البدن فانه يسمى بطنا ألاترى انهم يقولون بطون الدماغ وعنوا انها تجاويف الدماغ وكذا ههنا يخرج من بطونها اى من افواهها واما على قول اهل الظاهر

لك وايراد حرف التبعيض لما انها لاتأتى فى كل جبل وكل شجر وكل عرش ولافى كل مكان منها (ثم كلى من كل الثمرات) من كل ثمرة تشتهينها حلوها ومرها ( فاسلكى ) ماا كلت منها ( سبل ربك ) اى مسالكه التى برأها بحيث يحيل فيها بقدرته القاهرة النور المرعسلا من اجوافك اوفاسلكى الطرق التى الهمك فى عمل العسل او فاسلكى راجعة الى بيوتك سبل ربك لاتتوعر عليك ولاتلتبس ( ذللا ) جمع ذلول وهو حال من السبل اى مذللة غير متوعرة ذللها الله سبحانه وسهلها لك اومن الضمير فى اسلكى اى اسلكى منقادة لما امرت به ( يخرج من بطونها ) استئناف عدل به عن خطاب النحل لبيان مايظهر منها من تعاجيب صنع الله تعالى التى هى موضع العبرة بعدما امرت بما أمرت ( شراب ) اى عسل لانه مشروب واحتج به وبقوله تعالى كلى من زعم ان النحل تأكل الازهار والاوراق العطرة فتستحيل فى بطنها عسلا ثم تقئ ادخارا للشتاء ومن زعم انها تلتقط بأفواهها اجزاء قليلة حلوة صغيرة متفرقة على الازهار والاوراق وتضعها فى بيوتها فاذا اجتمع فيها شئ كثير يكون عسلا فسر البطون بالافواه ( مختلف الوانه ) ابيض واسود واصفر واحمر حسب اختلاف سن النحل اوالفصل اوالذى اخذت منه العسل ( فيه شفاء للناس ) امابنفسه كما فى الامراض البلغمية اومع غيره كما فى سائر الامراض اذ قلما يكون

وهو ان النحلة تأكل الاوراق والثمرات ثم تقئ فذلك هو العسل فالكلام ظاهر ثم قال شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس اعلم انه تعالى وصف العسل بهذه الصفات الثلاث (فالصفة الاولى) كونه شرابا والامر كذلك لانه تارة يشرب وحده وتارة يتخذ منه الاشربة (والصفة الثانية) قوله مختلف الوانه والمعنى ان منه احمر وابيض واصفر ونظيره قوله تعالى ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود والمقصود منه ابطال القول بالطبع لان هذا الجسم مع كونه متساوى الطبيعة لما حدث على الوان مختلفة دل ذلك على ان حدوث تلك الالوان بتدبير الفاعل المختار لالاجل ايجاب الطبيعة (والصفة الثالثة) قوله فيه شفاء للناس وفيه قولان (الاول) وهو الصحيح انه صفة للعسل فان قالوا كيف يكون شفاء للناس وهو يضر بالصفراء ويهيج المرار قلنا انه تعالى لم يقل انه شفاء لكل الناس ولكل داء وفي كل حال بل لما كان شفاء للبعض ومن بعض الادواء صلح بأن يوصف بأنه فيه شفاء والذى يدل على انه شفاء في الجملة انه قل معجون من المعاجين الاوتمامه وكماله انما يحصل بالعجن بالعسل وايضا فالاشربة المتخذة منه في الامراض البلغمية عظيمة النفع (والقول الثانى) وهو قول مجاهد ان المراد ان القرآن شفاء للناس وعلى هذا التقدير فقصة تولد العسل من النحل تمت عند قوله يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه ثم ابتدأ وقال فيه شفاء للناس اى في هذه القرآن حصل ماهو شفاء للناس من الكفر والبدعة مثل هذا الذى في قصة النحل وعن ابن مسعود ان العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور واعلم ان هذا القول ضعيف ويدل عليه وجهان (الاول) ان الضمير في قوله فيه شفاء للناس يجب عوده الى اقرب المذكورات وماذاك الاقوله شراب مختلف الوانه واما الحكم بعود هذا الضمير الى القرآن مع انه غير مذكور فيماسبق فهو غير مناسب (والثانى) ماروى ابو سعيد الخدرى انه جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان اخى يشتكى بطنه فقال اسقه عسلا فذهب ثم رجع فقال قدسقيته فلم يغن عنه شيئا فقال عليه الصلاة والسلام اذهب واسقه عسلا فذهب فسقاه فكأنما نشط من عقال فقال صدق الله وكذب بطن اخيك وحملوا قوله صدق الله وكذب بطن اخيك على قوله فيه شفاء للناس وذلك انما يصح لوكان هذا صفة للعسل فان قال قائل ماالمراد بقوله عليه السلام صدق الله وكذب بطن اخيك قلنا لعله عليه السلام علم بنور الوحى ان ذلك العسل سيظهر نفعه بعد ذلك فلما لم يظهر نفعه في الحال مع انه عليه السلام كان عالما بأنه سيظهر نفعه بعد ذلك كان هذا جاريا مجرى الكذب فلهذا السبب اطلق عليه هذا اللفظ ثم انه تعالى ختم الآية بقوله ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون واعلم ان تقرير هذه الآية من وجوه (الاول) اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والمعارف الغامضة مثل بناء البيوت المسدسة وسائر الاحوال التى ذكرناها (والثانى) اهتداؤها الى جميع تلك الاجزاء العسلية من اطراف الاشجار

(والاوراق)

---

معجون لايكون فيه عسل مع ان التنكير فيه مشعر بالتبعيض ويجوز كونه للتفخيم وعن قتادة ان رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان اخى يشتكى بطنه فقال عليه الصلاة والسلام اسقه العسل فذهب ثم رجع فقال قد سقيته فما نفع فقال اذهب فاسقه عسلا فقد صدق الله وكذب بطن اخيك فسقاه فبرئ كأنما أنشط من عقال وقيل الضمير للقرآن اولما بين الله تعالى من احوال النحل وعن ابن مسعود رضى الله عنه العسل شفاء لكل داء والقرآن شفاء لما في الصدور فعليكم بالشفاءين العسل والقرآن (ان في ذلك) الذى ذكر من اعاجيب آثار قدرة الله تعالى (لآية) عظيمة (لقوم يتفكرون) فان من تفكر في اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والافعال العجيبة المشتملة على حسن الصنعة وصحة القسمة التى لايقدر عليها حذاق المهندسين الا بآلات رقيقة وادوات انيقة وانظار دقيقة جزم قطعا بأن له خالقا قادرا حكيما يلهمها ذلك ويهديها اليه جل جلاله (والله خلقكم) لما ذكر سبحانه من عجائب احوال ماذكر من الماء والنبات والانعام والنحل اشار الى بعض عجائب احوال البشر من اول عمره الى آخره وتطوراته فيما بين ذلك وقد ضبطوا مراتب العمر في اربع الاولى سن النشو والنماء والثانية سن الوقوف وهى سن الشباب والثالثة سن الانحطاط القليل .

والاوراق (والثالث) خلق الله تعالى تلك الاجزاء النافعة فى جو الهواء ثم القاؤها على اطراف الاشجار والاوراق ثم الهام النحل الى جمعها بعد تفريقها وكل ذلك امور عجيبة دالة على ان اله العالم بنى ترتيبه على رعاية الحكمة والمصلحة والله اعلم ✵ قوله تعالى

( والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا ان الله عليم قدير ) فى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) لما ذكر تعالى بعض عجائب احوال الحيوانات ذكر بعده بعض عجائب احوال الناس فمنها ماهو مذكور فى هذه الآية وهو اشارة الى مراتب عمر الانسان والعقلاء ضبطوها فى اربع مراتب اولها سن النشو والنماء وثانيها سن الوقوف وهو سن الشباب وثالثها سن الانحطاط القليل وهو سن الكهولة ورابعها سن الانحطاط الكبير وهو سن الشيخوخة فاحتج تعالى بانتقال الحيوان من بعض هذه المراتب الى بعض على ان ذلك الناقل هو الله تعالى والاطباء الطبائعيون قالوا المقتضى لهذا الانتقال هو طبيعة الانسان وانا احكى كلامهم على الوجه الملخص وابين ضعفه وفساده وحينئذ يبقى ان ذلك الناقل هو الله سبحانه وعند ذلك يصح بالدليل العقلى ماذكر الله تعالى فى هذه الآية قال الطبائعيون ان بدن الانسان مخلوق من المنى ومن دم الطمث والمنى والدم جوهران حاران رطبان والحرارة اذا عملت فى الجسم الرطب قلت رطوبته وافادته نوع يبس وهذا مشاهد معلوم قالوا فلا يزال مافى هذين الجوهرين من قوة الحرارة يقلل مافيه من الرطوبة حتى تتصلب الاعضاء ويظهر فيه الانعقاد ويحدث العظم والغضروف والعصب والوتر والرباط وسائر الاعضاء فاذا تم تكون البدن وكمل فعند ذلك ينفصل الجنين من رحم الام ومع ذلك فالرطوبات زائدة والدليل عليه انك ترى اعضاء الطفل بعد انفصاله من الام لينة لطيفة وعظامه لينة قريبة الطبع من الغضاريف ثم ان مافى البدن من الحرارة يعمل فى تلك الرطوبات ويقللها قالوا ويحصل للبدن ثلاثة احوال ( الحالة الاولى ) ان تكون رطوبة البدن زائدة على حرارته وحينئذ تكون الاعضاء قابلة للتمدد والازدياد والنماء وذلك هو سن النشو والنماء ونهايته الى ثلاثين سنة او خمس وثلاثين سنة (الحالة الثانية) ان تصير رطوبات البدن اقل ماكانت فتكون وافية بحفظ الحرارة الغريزية الاصلية الا انها لاتكون زائدة على هذا القدر وهذا هو سن الوقوف وسن الشباب وغايته خمس سنين وعند تمامه يتم الاربعون ( الحالة الثالثة ) ان تقل الرطوبات وتصير بحيث لاتكون وافية بحفظ الحرارة الغريزية وعند ذلك يظهر النقصان ثم هذا النقصان قد يكون خفيا وهو سن الكهولة وتمامه الى ستين سنة وقد يكون ظاهرا وهو سن الشيخوخة وتمامه الى مائة وعشرين سنة فهذا هو الذى حصله الاطباء فى هذا الباب وعندى ان هذا التعليل ضعيف ويدل على ضعفه وجوه (الاول) انا نقول ان فى اول ماكان المنى منيا وكان الدم دما كانت الرطوبات غالبة وكانت الحرارة الغريزية مغمورة وكانت ضعيفة بهذا السبب

وهى سن الكهولة والرابعة سن الانحطاط الكبير وهى سن الشيخوخة ( ثم يتوفاكم ) حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على حكم بالغة بآجال مختلفة اطفالا وشبابا وشيوخا ( ومنكم من يرد ) قبل توفيه اى يعاد ( الى ارذل العمر ) اى اخسه واحقره وهو خمس وسبعون سنة على ماروى عن على رضى الله عنه وتسعون سنة على مانقل عن قتادة رضى الله عنه وقيل خمس وتسعون وايثار الرد على الوصول والبلوغ ونحوهما للايذان بأن بلوغه والوصول اليه رجوع فى الحقيقة الى الضعف بعد القوة كقوله تعالى ومن نعمره ننكسه فى الخلق ولا عمر اسوأ حالا من عمر الهرم الذى يشبه الطفل فى نقصان العقل والقوة (لكيلا يعلم بعد علم ) كثير ( شيئا ) من العلم اومن المعلومات اولكيلا يعلم شيئا بعد علم بذلك الشئ وقيل لئلا يعقل بعد عقله الاول شيئا ( ان الله عليم ) بمقادير اعماركم ( قدير ) على كل شئ يميت الشاب النشيط ويبقى الهرم الفانى وفيه تنبيه على ان تفاوت الآجال ليس الا بتقدير قادر حكيم ركب ابنيتهم وعدل امزجتهم على قدر معلوم ولو كان ذلك مقتضى الطبائع لما بلغ التفاوت هذا المبلغ ( والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) اى جعلكم متفاوتين فيه فأعطاكم منه افضل مما اعطى مماليككم ( فما الذين فضلوا ) فيه على غيرهم ( برادى رزقهم ) الذى رزقهم اياه (على ماملكت ايمانهم) على مماليكهم الذين هم شركاؤهم فى المخلوقية والمرزوقية ( فهم )

ثم انها مع ضعفها قويت على تحليل اكثر تلك الرطوبات وابانتها من حد الدموية والمنوية الى ان صارت عظما وغضروفا وعصبا ورباطا وعندما تولدت الاعضاء وكمل البدن قلت الرطوبات فوجب ان تكون للحرارة الغريزية قوة ازيد مما كانت قبل ذلك فوجب ان يكون تحليل الرطوبات بعد تولد البدن وكماله ازيد من تحللها قبل تولد البدن ومعلوم انه ليس الامر كذلك لان قبل تولد البدن انتقل جسم المني والدم الى ان صار عظما وعصبا واما بعد تولد البدن فلم يحصل مثل هذا الانتقال ولاعشر عشره فلوكان تولد هذه الاعضاء بسبب تأثير الحرارة في الرطوبة لوجب ان يكون تحلل الرطوبات بعد كمال البدن اكثر من تحللها قبل تكون البدن ولما لم يكن الامر كذلك علمنا ان تولد البدن انما كان بتدبير قادر حكيم يدبر ابدان الحيوانات على وفق مصالحها وانه ما كان تولد البدن لاجل ماقالوه من تأثير الحرارة في الرطوبة (والوجه الثاني) في ابطال هذا الكلام ان نقول ان الحرارة الغريزية الحاصلة في بدن الانسان الكامل اما ان تكون هي عين ما كان حاصلا في جوهر النطفة او صارت ازيد مما كانت والاول باطل لان الحار الغريزي الحاصل في جوهر النطفة كان بمقدار جرم النطفة ولاشك ان جرم النطفة كان قليلا صغيرا فهذا البدن بعد كبره لولم يحصل فيه من الحرارة الغريزية الاذلك القدر كان في غاية القلة ولم يظهر منه في هذا البدن اثر اصلا واما الثاني ففيه تسليم ان الحرارة الغريزية تتزايد بحسب تزايد الجثة والبدن واذا تزايدت الحرارة الغريزية ساعة فساعة وثبت ان تزايدها يوجب تزايد القوة والصحة ساعة فساعة فوجب ان يبقى البدن الحيواني ابدا في التزايد والتكامل وحيث لم يكن الامر كذلك علمنا ان ازدياد حال البدن الحيواني وانتقاصه ليس بحسب الطبيعة بل بسبب تدبير الفاعل المختار (والوجه الثالث) وهو الذي اوردناه على الاطباء في كتابنا الكبير في الطب فقلنا هب ان الرطوبة الغريزية صارت معادلة للحرارة الغريزية فلم قلتم ان الحرارة الغريزية يجب ان تصير اقل مما كانت وان ينتقل الانسان من سن الشباب الى سن النقصان قالوا السبب فيه انه اذا حصل هذا الاستواء فالحرارة الغريزية بعد ذلك تؤثر في تجفيف الرطوبة الغريزية فتقل الرطوبات الغريزية حتى صارت بحيث لاتفي بحفظ الحرارة الغريزية واذا حصلت هذه الحالة ضعفت الحرارة الغريزية ايضا لان الرطوبة الغريزية كالغذاء للحرارة الغريزية فاذا قل الغذاء ضعف المغتذي فالحاصل ان الحرارة الغريزية توجب قلة الرطوبة الغريزية وقلتها توجب ضعف الحرارة الغريزية ويلزم من ضعف احدهما ضعف الاخرى الى ان تنتهي الى حيث لايبقى من الرطوبة الغريزية شيء وحينئذ تنطفئ الحرارة الغريزية ويحصل الموت هذا منتهى ماقالوه في هذا الباب وهو ضعيف لانا نقول ان الحرارة الغريزية اذا اثرت في تجفيف الرطوبة الغريزية وقلتها فلم لايجوز ان يقال ان القوة الغاذية تورد بدلها فعند هذا قالوا القوة الغاذية انما تقوى على ايراد بدلها لو كانت الحرارة الغريزية قوية فاما عند ضعفها فلا فنقول فههنا لزم الدور لان الرطوبة الغريزية انما تقل

اى الملاك والمماليك (فيه) اى في الرزق (سواء) اى لايردونه عليهم بحيث يساوونهم في التصرف ويشاركونهم في التدبير والفاء للدلالة على ترتب التساوى على الرد اى لايردونه عليهم ردا مستتبعا للتساوى وانما يردون عليهم منه شيئا يسيرا فحيث لايرضون بمساواة مماليكهم لانفسهم وهم امثالهم في البشرية والمخلوقية لله عز سلطانه في شيء لايختص بهم بل يعمهم واياهم من الرزق الذى هم أسوة لهم في استحقاقه فما بالهم يشركون بالله سبحانه وتعالى فيما لايليق الابه من الالوهية والمعبودية الخاصة بذاته تعالى لذاته بعض مخلوقاته الذى هو بمعزل من درجة الاعتبار وهذا كما ترى مثل ضرب لكمال قباحة مافعله المشركون تقريعا عليهم كقوله تعالى هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء الآية (أفبنعمة الله يجحدون) حيث يفعلون مايفعلون من الاشراك فان ذلك يقتضى ان يضيفوا نعم الله سبحانه الفائضة عليهم الى شركائهم ويجحدوا كونها من عند الله تعالى اوحيث انكروا امثال هذه الحجج البالغة بعد ماانعم الله بها عليهم والباء لتضمين الجحود معنى الكفر نحو وجحدوا بها والفاء للعطف على مقدر وهى داخلة في المعنى على الفعل اى أيشركون به فيجحدون نعمته وقرئ تجحدون على الخطاب اوليس الموالى برادى رزقهم على مماليكهم بل انا الذى ارزقهم واياهم فلا يحسبوا انهم يعطونهم شيئا وانما

(وتنقص)

وتنقص لولم تكن القوة الغاذية وافية بايراد بدلها وانما تعجز القوة الغاذية عن هذا الايراد اذا كانت الحرارة الغريزية ضعيفة وانما تكون الحرارة الغريزية ضعيفة ان لو قلت الرطوبة الغريزية وانما تحصل هذه القلة اذا عجزت الغاذية عن ايراد البدل فثبت ان على القول الذى قالوه يلزم الدور وانه باطل فثبت ان تعليل انتقال الانسان من سن الى سن بماذكروه من اعتبار الطبائع يوجب عليهم هذه المحالات المذكورة فكان القول به باطلا ولما بطل هذا القول وجب القطع باسناد هذه الاحوال الى الاله القادر المختار الحكيم الرحيم الذى يدبر ابدان الحيوانات على الوجه الموافق لمصالحها وذلك هو المطلوب وقد كنت اقرأ يوما من الايام سورة والمرسلات فلما وصلت الى قوله تعالى الم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه فى قرار مكين الى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون ويل يومئذ للمكذبين فقلت لاشك ان المراد بهؤلاء المكذبين هم الذين نسبوا تكون الابدان الحيوانية الى الطبائع وتأثير الحرارة فى الرطوبة وانا أومن من صميم قلبى يارب العزة بأن هذه التدبيرات ليست من الطبائع بل من خالق العالم الذى هو احكم الحاكمين واكرم الاكرمين اذا عرفت هذا فقد صح بالدليل العقلى صدق قوله والله خلقكم لانه ثبت ان خالق ابدان الناس وسائر الحيوانات ليس هو الطبائع بل هو الله سبحانه وتعالى وقوله ثم يتوفاكم قد بينا ان السبب الذى ذكروه فى صيرورة الموت فاسد باطل وانه يلزم عليه القول بالدور ولما بطل ذلك ثبت ان الحياة والموت انما حصلا بتخليق الله وبتقديره وقوله ومنكم من يرد الى ارذل العمر قد بينا بالدليل ان الطبائع لا يجوز ان تكون علة لانتقال الانسان من الكمال الى النقصان ومن القوة الى الضعف فلزم القطع بان انتقال الانسان من الشباب الى الشيخوخة ومن الصحة الى الهرم ومن العقل الكامل الى ان صار خرفا غافلا ليس بمقتضى الطبيعة بل بفعل الفاعل المختار واذا ثبت ماذكرنا ظهر ان الذى دل عليه لفظ القرآن قد ثبت صحته بقاطع القرآن ثم قال تعالى ان الله عليم قدير وهذا كالاصل الذى عليه تفريع كل ماذكرناه وذلك لان الطبيعة جاهلة لا تميز بين وقت المصلحة ووقت المفسدة فهذه الانفعالات فى هذا الانسان لا يمكن اسنادها اليها اما اله العالم ومدبره وخالقه فهو الكامل فى العلم الكامل فى القدرة فلاجل كمال علمه يعلم مقادير المصالح والمفاسد ولاجل كمال قدرته على تحصيل المصالح ودفع المفاسد فلاجرم امكن اسناد تخليق الحيوانات الى اله العالم فلا يمكن اسناده الى الطبائع والله اعلم (المسئلة الثانية) فى تفسير الفاظ الآية قال المفسرون والله خلقكم ولم تكونوا شيئا يتوفاكم عند انقضاء آجالكم ومنكم من يرد الى ارذل العمر وهو اردؤه واضعفه يقال رذل الشئ يرذل رذالة وارذله غيره ومنه قوله الا الذين هم اراذلنا ومنه قوله واتبعك الارذلون وقوله منكم من يرد الى ارذل العمر هل يتناول المسلم او هو مختص بالكافر فيه قولان (الاول) انه يتناوله قيل انه العمر الطويل وعلى هذا الوجه نقل عن على عليه السلام انه قال ارذل العمر خمس وسبعون سنة

هو رزق اجريه على أيديهم فهم جميعا فى ذلك سواء لا مزية لهم على مماليكهم ألا يفهمون ذلك فيجحدون نعمة الله فهو رد على زعم المفضلين او على فعلهم المؤذن بذلك اوما المفضلون برادى بعض فضلهم على ماليكهم فيتساووا فى ذلك جميعا مع ان التفضيل ليس الا ليبلوهم أيشكرون ام يكفرون ألا يعرفون ذلك فيجحدون نعمة الله تعالى كأنه قيل فلم يردوه عليهم والجملة الاسمية للدلالة على استمرارهم على عدم الرد يحكى عن ابى ذر رضى الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انما هم اخوانكم فاكسوهم مما تلبسون واطعموهم مما تطعمون فارؤى عبده بعد ذلك الا ورداؤه رداؤه وازاره ازاره من غير تفاوت ( والله جعل لكم من انفسكم ) اى من جنسكم (ازواجا) لتأنسوا بها وتقيموا بذلك جميع مصالحكم ويكون اولادكم امثالكم وقيل هو خلق حواء من ضلع آدم عليه الصلاة والسلام ( وجعل لكم من ازواجكم ) وضع الظاهر موضع المضمر للايذان بان المراد جعل لكل منكم من زوجه لا من زوج غيره (بنين) وبأن نتيجة الازواج هو التوالد ( وحفدة ) جمع حافد وهو الذى يسرع فى الخدمة والطاعة ومنه قول القانت واليك نسعى ونحفد اى جعل لكم خدما يسرعون فى خدمتكم وطاعتكم فقيل المراد بهم اولاد الاولاد وقيل البنات عبر عنهن بذلك ايذانا بوجه المنة فانهن يخدمن البيوت اتم

وقال قتاده تسعون سنة وقال السدى انه الخرف * والقول الاول أولى لان الخرف معناه زوال العقل فقوله ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا يدل على انه تعالى انما رده الى ارذل العمر لاجل ان يزيل عقله فلوكان المراد من ارذل العمر هو زوال العقل لصار الشيء عين الغاية المطلوبة منه وانه باطل والقول الثانى ان هذا ليس فى المسلمين والمسلم لا يزداد بسبب طول العمر الا كرامة على الله تعالى ولا يجوز ان يقال فى حقه انه يرد الى ارذل العمر والدليل عليه قوله تعالى ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فبين تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ما ردوا الى اسفل سافلين وقال عكرمة من قرأ القرآن لم يرد الى ارذل العمر وقوله ان الله عليم قال ابن عباس يريد بما صنع اولياؤه واعداؤه قدير على ما يريد (المسئلة الثالثة) هذه الآية كما تدل على وجود اله العالم الفاعل المختار فهى ايضا تدل على صحة البعث والقيامة وذلك لان الانسان كان عدما محضا فاوجده الله ثم اعدمه مرة ثانية فدل هذا على انه لما كان معدوما فى المرة الاولى وكان عوده الى العدم فى المرة الثانية جائزا فكذلك لما صار موجودا ثم عدم وجب ان يكون عوده الى الوجود فى المرة الثانية جائزا وايضا كان ميتا حين كان نطفة ثم صار حيا ثم مات فلما كان الموت الاول جائزا كان عود الموت جائزا فكذلك لما كانت الحياة الاولى جائزة وجب ان يكون عود الحياة جائزا فى المرة الثانية وايضا الانسان فى اول طفوليته جاهل لا يعرف شيئا ثم صار عالما عاقلا فاهما فلما بلغ ارذل العمر عاد الى ما كان عليه فى زمان الطفولية وهو عدم العقل والفهم فعدم العقل والفهم فى المرة الاولى عاد بعينه فى آخر العمر فكذلك العقل الذى حصل ثم زال وجب ان يكون جائز العود فى المرة الثانية واذا ثبت هذه الجملة ثبت ان الذى مات وعدم فانه يجوز عود وجوده وعود حياته وعود عقله مرة أخرى ومتى كان الامر كذلك ثبت ان القول بالبعث والحشر والنشر حق والله اعلم * قوله تعالى (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت ايمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون) اعلم ان هذا اعتبار حال أخرى من احوال الانسان وذلك انا نرى أكيس الناس واكثرهم عقلا وفهما يفنى عمره فى طلب القدر القليل من الدنيا ولا يتيسر له ذلك ونرى اجهل الخلق وأقلهم عقلا وفهما تنفتح عليه ابواب الدنيا وكل شيء خطر بباله ودار فى خياله فانه يحصل له فى الحال ولو كان السبب جهد الانسان وعقله لوجب ان يكون الاعقل افضل فى هذه الاحوال فلما رأينا ان الاعقل أقل نصيبا وان الاجهل الاخس اوفر نصيبا علمنا ان ذلك بسبب قسمة القسام كما قال تعالى أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا وقال الشافعى رحمه الله تعالى

ومن الدليل على القضاء وكونه * بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق

واعلم ان هذا التفاوت غير مختص بالمال بل هو حاصل فى الذكاء والبلادة والحسن والقبح والعقل والحمق والصحة والسقم والاسم الحسن والاسم القبيح وهذا بحر لا ساحل له وقد

(كنت)

---

خدمة وقيل اولاد المرأة من الزوج الاول وقيل البنون والعطف لاختلاف الوصفين وقيل الاختان على البنات وتأخير المنصوب فى الموضعين عن المجرور لما مر من التشويق وتقديم المجرور باللام على المجرور بمن للايذان من اول الامر بعود منفعة الجعل اليهم امدادا للتشويق وتقوية له اى جعل لمصلحتكم مما يناسبكم ازواجا وجعل لمنفعتكم من جهة مناسبة لكم بنين وحفدة (ورزقكم من الطيبات) من اللذائذ او من الحلالات ومن للتبعيض اذ المرزوق فى الدنيا انموذج لما فى الآخرة (أفبالباطل يؤمنون) وهو ان الاصنام تنفعهم وان البحائر ونحوها حرام والفاء فى المعنى داخلة على الفعل وهى للعطف على مقدر اى أيكفرون بالله الذى شأنه هذا فيؤمنون بالباطل او ابعد تحقق ما ذكر من نعم الله تعالى بالباطل يؤمنون دون الله سبحانه (وبنعمت الله) تعالى الفائضة عليهم مما ذكر ومما لا يحيط به دائرة البيان (هم يكفرون) حيث يضيفونها الى الاصنام وتقديم الصلة على الفعل للاهتمام اولايهام الاختصاص مبالغة او لرعاية الفواصل والالتفات الى الغيبة للايذان باستيجاب حالهم للاعراض عنهم وصرف الخطاب الى غيرهم من السامعين تعجيبا لهم مما فعلوه (ويعبدون من دون الله) لعله عطف على يكفرون داخل تحت الانكار التوبيخى اى أيكفرون بنعمة الله ويعبدون من دونه (ما لا يملك لهم رزقا من السموات

كنت مصاحبا لبعض الملوك فى بعض الاسفار وكان ذلك الملك كثير المال والجاه وكانت الجنائب الكثيرة تقاد بين يديه وما كان يمكنه ركوب واحد منها وربما حضرت الاطعمة الشهية والفواكه العطرة عنده وما كان يمكنه تناول شئ منها وكان الواحد منا صحيح المزاج قوى البنية كامل القوة وما كان يجد ملء بطنه طعاما فذلك الملك وان كان يفضل على هذا الفقير فى المال الا ان هذا الفقير كان يفضل على ذلك الملك فى الصحة والقوة وهذا باب واسع اذا اعتبره الانسان عظم تعجبه منه اما قوله فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت ايمانهم ففيه قولان (الاول) ان المراد من هذا الكلام تقرير ما سبق فى الآية المتقدمة من ان السعادة والنحوسة لا يحصلان الا من الله تعالى والمعنى ان الموالى والمماليك انا رازقهم جميعا فهم فى رزقى سواء فلا يحسبن الموالى انهم يردون على مماليكهم من عندهم شيئا من الرزق وانما ذلك رزقى أجريته اليهم على ايديهم وحاصل القول فيه ان المقصود منه بيان ان الرازق هو الله تعالى وان المالك لا يرزق العبد بل الرازق للعبد والمولى هو الله تعالى وتحقيق القول انه ربما كان العبد اكمل عقلا واقوى جسما واكثر وقوفا على المصالح والمفاسد من المولى وذلك يدل على ان ذلة ذلك العبد وعزة ذلك المولى من الله تعالى كما قال تعز من تشاء وتذل من تشاء (والقول الثانى) ان المراد من هذه الآية الرد على من اثبت شريكا لله تعالى ثم على هذا القول ففيه وجهان (الاول) ان يكون هذا ردا على عبدة الاوثان والاصنام كأنه قيل انه تعالى فضل الملوك على مماليكهم فجعل المملوك لا يقدر على ملك مع مولاه فلما لم تجعلوا عبيدكم معكم سواء فى الملك فكيف تجعلون هذه الجمادات معى سواء فى المعبودية (والثانى) قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت هذه الآية فى نصارى نجران حين قالوا ان عيسى بن مريم ابن الله فالمعنى انكم لا تشركون عبيدكم فيما ملكتم فتكونون سواء فكيف جعلتم عبدى ولدالى وشريكا فى الالهية ثم قال تعالى فهم فيه سواء معنى الفاء فى قوله فهم حتى والمعنى فما الذين فضلوا بجاعلى رزقهم لعبيدهم حتى تكون عبيدهم فيه معهم سواء فى الملك ثم قال أفبنعمة الله يجحدون وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ عاصم فى رواية ابى بكر تجحدون بالتاء على الخطاب لقوله خلقكم وفضل بعضكم والباقون بالياء لقوله فهم فيه سواء واختاره ابو عبيدة وابو حاتم لقرب الخبر عنه وايضا فظاهر الخطاب ان يكون مع المسلمين والمسلمون لا يخاطبون بجحد نعمة الله تعالى (المسئلة الثانية) لا شبهة فى ان المراد من قوله أفبنعمة الله يجحدون الانكار على المشركين الذين اورد الله تعالى هذه الحجة عليهم فان قيل كيف يصيرون جاحدين بنعمة الله عليهم بسبب عبادة الاصنام قلنا فيه وجهان (الاول) انه لما كان المعطى لكل الخيرات هو الله تعالى فمن اثبت لله شريكا فقد اضاف اليه بعض تلك الخيرات فكان جاحدا لكونها من عند الله تعالى وايضا فان اهل الطبائع واهل النجوم يضيفون اكثر هذه النعم الى الطبائع والى النجوم وذلك يوجب كونهم جاحدين لكونها من الله تعالى (والوجه الثانى) قال الزجاج المراد انه

والارض شيئا) ان جعل الرزق مصدرا فشيئا نصب على المفعولية منه اى ما لا يقدر على ان يرزقهم شيئا لا من السموات مطرا ولا من الارض نباتا وان جعل اسما للمرزوق فنصب على البدلية منه بمعنى قليلا ومن السموات والارض صفة لرزقا اى كائنا منهما ويجوز كونه تأكيدا للايملك اى لا يملك رزقا ما شيئا من الملك (ولا يستطيعون) ان يملكوه اذ لا استطاعة لهم رأسا لانها موات لا حراك بها فالضمير للآلهة ويجوز ان يكون للكفرة على معنى انهم مع كونهم احياء متصرفين فى الامور لا يستطيعون من ذلك شيئا فكيف بالجماد الذى لا حس به (فلا تضربوا لله الامثال) التفات الى الخطاب للايذان بالاهتمام بشأن النهى اى لا تشركوا به شيئا والتعبير عن ذلك بضرب المثل للقصد الى النهى عن الاشراك به تعالى فى شأن من الشؤن فان ضرب المثل مبناه تشبيه حالة بحالة وقصة بقصة اى لا تشبهوا بشأنه تعالى شأنا من الشؤن واللام مثلها فى قوله تعالى ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون لا مثلها فى قوله تعالى واضرب لهم مثلا اصحاب القرية ونظائره والفاء للدلالة على ترتب النهى على ما عدد من النعم الفائضة عليهم من جهته سبحانه وكونه ما يشركون به تعالى بمعزل من ان يملك لهم من اقطار السموات والارض شيئا من رزق فضلا عما فصل من نعمة الخلق والتفضيل فى الرزق ونعمة الازواج والاولاد (ان الله يعلم) تعليل

تعالى لما قرر هذه الدلائل وبينها واظهرها بحيث يفهمها كل عاقل كان ذلك انعاما عظيما منه على الخلق فعند هذا قال أفبنعمة الله فى تقريره هذه البيانات وايضاح هذه البينات يجحدون (المسئلة الثالثة) الباء فى قوله أفبنعمة الله يجوزان تكون زائدة لان الجحود لايعدى بالباء كما تقول خذ الخطام وبالخطام وتعلقت زيدا وبزيد ويجوزان يراد بالجحود الكفر فعدى بالباء لكونه بمعنى الكفر والله اعلم ✽ قوله تعالى (والله جعل لكم من انفسكم ازواجا وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله هم يكفرون) اعلم ان هذا نوع آخر من احوال الناس ذكره الله تعالى ليستدل به على وجود الاله المختار الحكيم وليكون ذلك تنبيها على انعام الله تعالى على عبيده بمثل هذه النعم فقوله جعل لكم من انفسكم ازواجا قال بعضهم المراد انه تعالى خلق حواء من ضلع آدم وهذا ضعيف لان قوله جعل لكم من انفسكم ازواجا خطاب مع الكل فتخصيصه بآدم وحواء خلاف الدليل بل هذا الحكم عام فى جميع الذكور والاناث والمعنى انه تعالى خلق النساء ليتزوج بهن الذكور ومعنى من انفسكم مثل قوله فاقتلوا انفسكم وقوله فسلموا على انفسكم اى بعضكم على بعض ونظير هذه الآية قوله تعالى ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا قال الاطباء واهل الطبيعة التفاوت بين الذكر والانثى انما كان لاجل ان كل من كان أسخن مزاجا فهو الذكر وكل من كان اكثر بردا ورطوبة فهو المرأة ثم قالوا المنى اذا انصب الى الخصية اليمنى من الذكر ثم انصب منه الى الجانب الايمن من الرحم كان الولد ذكرا تاما فى الذكورة وان انصب الى الخصية اليسرى من الرجل ثم انصب منها الى الجانب الايسر من الرحم كان الولد انثى تاما فى الانوثة وان انصب الى الخصية اليمنى ثم انصب منها الى الجانب الايسر من الرحم كان الولد ذكرا فى طبيعة الاناث وان انصب الى الخصية اليسرى من الرجل ثم انصب منها الى الجانب الايمن من الرحم كان هذا الولد انثى فى طبيعة الذكور واعلم ان حاصل هذا الكلام ان الذكورة علتها الحرارة واليبوسة والانوثة علتها البرودة والرطوبة وهذه العلة فى غاية الضعف فقد رأينا فى النساء من كان مزاجه فى غاية السخونة وفى الرجال من كان مزاجه فى غاية البرودة ولو كان الموجب للذكورة والانوثة ذلك لامتنع ذلك فثبت ان خالق الذكر والانثى هو الاله القديم الحكيم وظهر بالدليل الذى ذكرنا صحة قوله تعالى والله جعل لكم من انفسكم ازواجا ثم قال تعالى وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة قال الواحدى اصل الحفدة من الحفد وهو الخفة فى الخدمة والعمل يقال حفد يحفد حفدا وحفودا وحفدانا اذا أسرع ومنه فى دعاء القنوت واليك نسعى ونحفد والحفدة جمع الحافد والحافد كل من يخف فى خدمتك ويسرع فى العمل بطاعتك يقال فى جمعه الحفد بغير هاء كما يقال الرصد فمعنى الحفدة فى اللغة الاعوان والخدام ثم يجب ان يكون المراد من الحفدة فى هذه الآية الاعوان الذين حصلوا للرجل من قبل المرأة لانه تعالى قال وجعل لكم من

للنهى المذكور ووعيد على المنهى عنه اى انه تعالى يعلم كنه ماتأتون وماتذرن وانه فى غاية العظم والقبح (وانتم لاتعلمون) ذلك والالما فعلتموه اوانه تعالى يعلم كنه الاشياء وانتم لاتعلمون فدعوا رأيكم وقفوا مواقف الامتثال لماورد عليكم من الامر والنهى ويجوز ان يراد فلا تضربوا لله الامثال ان الله يعلم كيف تضرب الامثال وانتم لاتعلمون ذلك فتقعون فيما تقعون فيه من مهاوى الردى والضلال ثم علمهم كيفية ضرب الامثال فى هذا الباب فقال (ضرب الله مثلا) اى ذكر واورد شيئا يستدل به على تباين الحال بين جنابه عزوجل وبين ماشركوا به وعلى تباعد هما بحيث ينادى بفساد ما ارتكبوه نداء جليا (عبدا مملوكا لايقدر على شئ) بدل من مثلا وتفسير له والمثل فى الحقيقة حالته العارضة له من المملوكية والعجز التام وبحسبها ضرب نفسه مثلا ووصف العبد بالمملوكية للتمييز عن الحر لاشترا كهما فى كونهما عبد الله سبحانه وقد ادمج فيه ان الكل عبيد له تعالى وبعدم القدرة لتمييزه عن المكاتب والمأذون الذين لهما تصرف فى الجملة وفى ابهام المثل اولا ثم بيانه بما ذكر مالايخفى من الفخامة والجزالة (ومن رزقناه) من موصوفة معطوفة على عبدا اى رزقناه بطريق الملك والالتفات الى التكلم للاشعار باختلاف حالى ضرب المثل والرزق (منا) من جنابنا الكبير المتعالى (رزقا حسنا)

ازواجكم بنين وحفدة فالاعوان الذين لايكونون من قبل المرأة لايدخلون تحت هذه الآية اذاعرفت هذا فنقول قيل هم الاختان وقيل هم الاصهار وقيل ولدالولد والاولى دخول الكل فيه لمابينا ان اللفظ محتمل للكل بحسب المعنى المشترك الذى ذكرناه ثم قال تعالى ورزقكم من الطيبات لماذكر تعالى انعامه على عبيده بالمنكوح ومافيه من المنافع والمصالح ذكر انعامه عليهم بالمطعومات الطيبة سواء كانت من النبات وهى الثمار والحبوب والاشربة اوكانت من الحيوان ثم قال أفبالباطل يؤمنون قال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى بالاصنام وقال مقاتل يعنى بالشيطان وقال عطاء يصدقون ان لى شريكا وصاحبة وولدا وبنعمة الله هم يكفرون اى بأن يضيفوها الى غيرالله ويتركوا اضافتها الى الله تعالى وفى الآية قول آخر وهو انه تعالى لماقال ورزقكم من الطيبات قال بعده أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون والمرادمنه انهم يحرمون على انفسهم طيبات أحلهاالله لهم مثل البحيرة والسائبة والوصيلة ويبيحون لانفسهم محرمات حرمهاالله عليهم وهى الميتة والدم ولحم الخنزير وماذبح على النصب يعنى لم يحكمون بتلك الاحكام الباطلة وبانعام الله فى تحليل الطيبات وتحريم الخبيثات يجحدون ويكفرون والله اعلم

❁ قوله تعالى (ويعبدون من دون الله مالايملك لهم رزقا من السموات والارض شيئا ولايستطيعون فلاتضربوا لله الامثال ان الله يعلم وانتم لاتعلمون) اعلم انه تعالى لماشرح انواعا كثيرة فى دلائل التوحيد وتلك الانواع كمانهادلائل على صحة التوحيد فكذلك بدأ بذكر اقسام النعم الجليلة الشريفة ثم اتبعها فى هذه الآية بالرد على عبدة الاصنام فقال ويعبدون من دون الله مالايملك لهم رزقا من السموات والارض شيئا ولايستطيعون اماالرزق الذى يأتى من جانب السماء فيعنى به الغيث الذى يأتى من جهة السماء وامالذى يأتى من جانب الارض فهو النبات والثمار التى تخرج منها وقوله من السموات والارض من صفة النكرة التى هى قوله رزقا كأنه قيل لايملك لهم رزقا من الغيث والنبات وقوله شيئا قال الاخفش جعل قوله شيئا بدلا من قوله رزقا والمعنى لايملكون رزقا لاقليلا ولاكثيرا ثم قال ولايستطيعون والفائدة فى هذه اللفظة ان من لايملك شيئا قديكون موصوفا باستطاعة ان يملكه بطريق من الطرق فبين تعالى ان هذه الاصنام لاتملك وليس لها ايضا استطاعة تحصيل الملك فان قيل انه تعالى قال ويعبدون من دون الله مالايملك فعبر عن الاصنام بصيغة ما وهى لغير اولى العلم ثم قال ولايستطيعون والجمع بالواو والنون مختص بأولى العلم فكيف الجمع بين الامرين والجواب انه عبر عنها بلفظ ما اعتبارا لماهو الحقيقة فى نفس الامر وذكر الجمع بالواو والنون اعتبارا لمايعتقدون فيها انها آلهة ثم قال تعالى فلاتضربوا لله الامثال وفيه وجوه (الاول) قال المفسرون يعنى لاتشبهوه بخلقه (الثانى) قال الزجاج اى لاتجعلوا لله مثلا لانه واحد لامثل له (الثالث) اقول يحتمل ان يكون المراد ان عبدة الاوثان كانوا يقولون ان اله العالم اجل واعظم من ان يعبده الواحد

حلالا طيبا او مستحسنا عند الناس مرضيا ( فهو ينفق منه ) تفضلا واحسانا والفاء لترتيب الانفاق على الرزق كأنه قيل ومن رزقناه منا رزقا حسنا فأنفق وايثارما عليه النظم الكريم من الجملة الاسمية على الفعلية الخبر للدلالة على ثبات الانفاق واستمراره التجددى ( سرا وجهرا ) اى حال السر والجهر اوانفاق سر وانفاق جهر والمراد بيان عموم انفاقه للاوقات وشمول انعامه لمن يجتنب عن قبوله جهرا والاشارة الى اصناف نعم الله تعالى الباطنة والظاهرة وتقديم السر على الجهر للايذان بفضله عليه والعدول عن تطبيق القرينتين بأن يقال وحرا مالكا للاموال مع كونه ادل على تباين الحال بينه وبين قسيمه لتوخى تحقيق الحق بأن الاحرار ايضا تحت ربقة عبوديته سبحانه وتعالى وان مالكيتهم لما يملكونه ليست الا بأن يرزقهم الله تعالى اياه من غير ان يكون لهم مدخل فى ذلك مع محاولة المبالغة فى الدلالة على ماقصد بالمثل من تباين الحال بين المثلين فان العبد المملوك حيث لم يكن مثل العبد المالك فاظنك بالجماد ومالك الملك خلاق العالمين ( هل يستوون ) جمع الضمير للايذان بأن المراد بماذكر من اتصف بالاوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين لافردان معينان منهما اى هل يستوى العبيد والاحرار الموصوفون بما ذكر من الصفات مع ان الفريقين سيان فى البشرية والمخلوقية لله سبحانه وان ماينفقه الاحرار ليس ممالهم دخل فى ايجاده ولافى تملكه بل هو مما اعطاه الله تعالى

منا بل نحن نعبد الكواكب او نعبد هذه الاصنام ثم ان الكواكب والاصنام عبيد الاله الاكبر الاعظم والدليل عليه العرف فان اصاغر الناس يخدمون اكابر حضرة الملك واولئك الاكابر يخدمون الملك فكذا ههنا فعند هذا قال الله تعالى لهم اتركوا عبادة هذه الاصنام والكواكب ولا تضربوا لله الامثال التى ذكرتموها وكونوا مخلصين فى عبادة الاله الحكيم القدير ثم قال ان الله يعلم وانتم لا تعلمون وفيه وجهان (الاول) ان الله تعالى يعلم ماعليكم من العقاب العظيم بسبب عبادة هذه الاصنام وانتم لا تعلمون ذلك ولو علمتموه لتركتم عبادتها (الثانى) ان الله تعالى لما نهاكم عن عبادة هذه الاصنام فاتركوا عبادتها واتركوا دليلكم الذى عولتم عليه وهو قولكم الاشتغال بعبادة عبيد الملك ادخل فى التعظيم من الاشتغال بعبادة نفس الملك لان هذا قياس والقياس يجب تركه عند ورود النص فلهذا قال ان الله يعلم وانتم لا تعلمون * ثم قال تعالى (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون) اعلم انه تعالى اكد ابطال مذهب عبدة الاصنام بهذا المثال وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تفسير هذا المثل قولان (الاول) ان المراد انا لو فرضنا عبدا مملوكا لا يقدر على شئ وفرضنا حرا كريما غنيا كثيرا الانفاق سرا وجهرا فصريح العقل يشهد بأنه لا تجوز التسوية بينهما فى التعظيم والاجلال فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما فى الخلقة والصورة والبشرية فكيف يجوز للعاقل ان يسوى بين الله القادر على الرزق والافضال وبين الاصنام التى لا تملك ولا تقدر البتة (والقول الثانى) ان المراد بالعبد المملوك الذى لا يقدر على شئ هو الكافر فانه من حيث انه بقى محروما عن عبودية الله تعالى وعن طاعته صار كالعبد الذليل الفقير العاجز والمراد بقوله ومن رزقناه منا رزقا حسنا هو المؤمن فانه مشتغل بالتعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله فبين تعالى انهما لا يستويان فى المرتبة والشرف والقرب من رضوان الله تعالى واعلم ان القول الاول اقرب لان ماقبل هذه الآية ومابعدها انما ورد فى اثبات التوحيد وفى الرد على القائلين بالشرك فحمل هذه الآية على هذا المعنى اولى (المسئلة الثانية) اختلفوا فى المراد بقوله عبدا مملوكا لا يقدر على شئ فقيل المراد به الصنم لانه عبد بدليل قوله ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا واما انه مملوك ولا يقدر على شئ فظاهر والمراد بقوله ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا عابد الصنم لان الله تعالى رزقه المال وهو ينفق من ذلك المال على نفسه وعلى اتباعه سرا وجهرا اذا ثبت هذا فنقول هما لا يستويان فى بديهة العقل بل صريح العقل يشهد بأن ذلك القادر اكمل حالا وافضل مرتبة من ذلك العاجز فههنا صريح العقل يشهد بأن عابد الصنم افضل من ذلك الصنم فكيف يجوز الحكم بكونه مساويا لرب العالمين فى العبودية (والقول الثانى) ان المراد بقوله عبدا مملوكا عبد معين وقيل هو عبد لعثمان بن عفان وحملوا قوله

(ومن)

اياهم فحيث لم يستوا الفريقان فاظنكم برب العالمين حيث تشركون به ما الاذليل اذل منه وهو الاصنام (الحمد لله) اى كله له لانه مولى جميع النعم لا يستحقه احد غيره وان ظهرت على ايدى بعض الوسايط فضلا عن استحقاق العبادة وفيه ارشاد الى ماهو الحق من ان مايظهر على يد من ينفق مما ذكر راجع الى الله سبحانه كما لوح به قوله تعالى رزقناه (بل اكثرهم لا يعلمون) ماذكر فيضيفون نعمه تعالى الى غيره ويعبدونه لاجلها ونفى العلم عن اكثرهم للاشعار بأن بعضهم يعلمون ذلك وانما لا يعملون بموجبه عنادا كقوله تعالى يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها واكثرهم الكافرون (وضرب الله مثلا) اى مثلا آخر يدل على مادل عليه المثل السابق على وجه اوضح واظهر وبعد ماابهم ذلك لتتطلع النفس الى وروده وتترقبه حتى يتمكن لديها عند وروده بين فقيل (رجلين احدهما ابكم) وهو من ولد أخرس (لا يقدر على شئ) من الاشياء المتعلقة بنفسه اوبغيره بحدس اوفراسة لقلة فهمه وسوء ادراكه (وهو كل) ثقل وعيال (على مولاه) على من يعوله ويلى امره وهذا بيان لعدم قدرته على اقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شئ مطلقا وقوله تعالى (اينما يوجهه) اى حيث يرسله مولاه فى امر بيان لعدم قدرته على اقامة مصالح مولاه ولو كانت مصلحة يسيرة وقرئ على البناء للمفعول وعلى صيغة

ومن رزقناه منا رزقا حسنا على عثمان خاصة ( والقول الثالث ) انه عام فى كل عبد بهذه الصفة وفى كل حر بهذه الصفة وهذا القول هو الاظهر لانه هو الموافق لما اراده الله تعالى فى هذه الآية والله اعلم ( المسئلة الثالثة ) احتج الفقهاء بهذه الآية على ان العبد لا يملك شيئا فان قالوا ظاهر الآية يدل على ان عبدا من العبيد لا يقدر على شئ فلم قلتم ان كل عبد كذلك فنقول الذى يدل عليه وجهان ( الاول ) انه ثبت فى اصول الفقه ان الحكم المذكور عقيب الوصف المناسب يدل على كون ذلك الوصف علة لذلك الحكم وكونه عبدا وصف مشعر بالذل والمقهورية وقوله لا يقدر على شئ حكم مذكور عقيبه فهذا يقتضى ان العلة لعدم القدرة على شئ هو كونه عبدا وبهذا الطريق ثبت العموم ( الثانى ) انه تعالى قال بعده ومن رزقناه منا رزقا حسنا فميز هذا القسم الثانى عن القسم الاول وهو العبد بهذه الصفة وهو انه رزقه رزقا فوجب ان لا يحصل هذا الوصف للعبد حتى يحصل الامتياز بين القسم الثانى وبين القسم الاول ولو ملك العبد لكان الله قد آتاه رزقا حسنا لان الملك الحلال رزق حسن سواء كان قليلا او كثيرا فثبت بهذين الوجهين ان ظاهر الآية يقتضى ان العبد لا يقدر على شئ ولا يملك شيئا ثم اختلفوا فروى عن ابن عباس وغيره التشدد فى ذلك حتى قال لا يملك الطلاق ايضا واكثر الفقهاء قالوا يملك الطلاق انما لا يملك المال ولا ما له تعلق بالمال واختلفوا فى ان المالك اذا ملكه شيئا فهل يملكه أم لا وظاهر الآية ينفيه بقى فى الآية سؤالات ( الاول ) لم قال مملوكا لا يقدر على شئ وكل عبد فهو مملوك وغير قادر على التصرف قلنا اما ذكر المملوك فليحصل الامتياز بينه وبين الحر لان الحر قد يقال انه عبد الله واما قوله لا يقدر على شئ فقد يحصل الامتياز بينه وبين المكاتب وبين العبد المأذون لانهما يقدران على التصرف ( السؤال الثانى ) من فى قوله ومن رزقناه ماهى قلنا الظاهر انها موصوفة كأنه قيل وحرا رزقناه ليطابق عبدا ولا يمتنع ان تكون موصولة ( السؤال الثالث ) لم قال يستوون على الجمع قلنا معناه هل يستوى الاحرار والعبيد ثم قال الحمد لله وفيه وجوه ( الاول ) قال ابن عباس الحمد لله على ما فعل بأوليائه وأنعم عليهم بالتوحيد ( والثانى ) المعنى ان كل الحمد لله وليس شئ من الحمد للاصنام لانها لا نعمة لها على احد وقوله بل اكثرهم لا يعلمون يعنى انهم لا يعلمون ان كل الحمد لله وليس شئ منه للاصنام ( الثالث ) قال القاضى فى التفسير قال للرسول عليه الصلاة والسلام قل الحمد لله ويحتمل ان يكون خطابا لمن رزقه الله رزقا حسنا ان يقول الحمد لله على ان ميزه فى هذه القدرة عن ذلك العبد الضعيف ( الرابع ) يحتمل ان يكون المراد انه تعالى لما ذكر هذا المثل وكان هذا مثلا مطابقا للغرض كاشفا عن المقصود قال بعده الحمد لله يعنى الحمد لله على قوة هذه الحجة وظهور هذه البينة ثم قال بل اكثرهم لا يعلمون يعنى انها مع غاية ظهورها ونهاية وضوحها لا يعلمها ولا يفهمها هؤلاء الضلال والله أعلم ※ قوله تعالى (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شئ وهو كل

الماضى من التوجه (لا يأت بخير) بنجح وكفاية مهم البتة ( هل يستوى هو ) مع ما فيه من الاوصاف المذكورة ( ومن يأمر بالعدل ) اى من هو منطيق فهم ذو رأى وكفاية ورشد ينفع الناس بحثهم على العدل الجامع لجامع الفضائل (وهو) فى نفسه مع ما ذكر من نفعه العام للخاص والعام ( على صراط مستقيم ) ومقابلة الصفات المذكورة بهذين الوصفين لانهما فى حاق ما يقابلها فان محصل الصفات المذكورة عدم استحقاق المأمورية وملخص هذين استحقاق كمال الآمرية المستتبع لحيازة المحاسن بأجمعها وتغيير الاسلوب حيث لم يقل والآخر آمر بالعدل الآية لمراعاة الملاءمة بينه وبين ماهو المقصود من بيان التباين بين القرينتين واعلم ان كلا من الفعلين ليس المراد بهما حكاية الضرب الماضى بل المراد انشاؤه بما ذكر عقيبه ولا يبعد ان يقال ان الله تعالى ضرب مثلا بخلق الفريقين على ما هما عليه فكان خلقهما كذلك للاستدلال بعدم تساويهما على امتناع التساوى بينه سبحانه وبين ما يشركون فيكون كل من الفعلين حكاية للضرب الماضى ( ولله ) تعالى خاصة لا لاحد غيره استقلالا ولا اشتراكا ( غيب السموات والارض ) اى الامور الغائبة عن علوم المخلوقين قاطبة بحيث لا سبيل لهم اليها لا مشاهدة ولا استدلالا ومعنى الاضافة اليهما التعلق بهما اما باعتبار الوقوع

على مولاه اينما يوجه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ) اعلم انه تعالى ابطل قول عبدة الاوثان والاصنام بهذا المثل الثانى وتقريره انه كما تقرر فى اوائل العقول ان الابكم العاجز لا يكون مساويا فى الفضل والشرف للناطق القادر الكامل مع استوائهما فى البشرية فلأن يحكم بأن الجماد لا يكون مساويا لرب العالمين فى المعبودية كان اولى ثم نقول فى الآية مسئلتان (المسئلة الاولى) انه تعالى وصف الرجل الاول بصفات (الصفة الاولى) الابكم وفى تفسيره اقوال نقلها الواحدى (الاول) قال ابوزيد رجل ابكم وهو العيى المفحم وقد بكم بكما وبكامة وقال ايضا الابكم الاقطع اللسان وهو الذى لا يحسن الكلام (الثانى) روى ثعلب عن ابن الاعرابى الابكم الذى لا يعقل (الثالث) قال الزجاج الابكم المطبق الذى لا يسمع ولا يبصر (الصفة الثانية) قوله لا يقدر على شئ وهو اشارة الى العجز التام والنقصان الكامل (الصفة الثالثة) قوله كل على مولاه اى هذا الابكم العاجز كل على مولاه قال اهل المعانى اصله من الغلظ الذى هو نقيض الحدة يقال كل السكين اذا غلظت شفرته فلم يقطع وكل لسانه اذا غلظ فلم يقدر على الكلام وكل فلان عن الامر اذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه فقوله كل على مولاه اى غليظ وثقيل على مولاه (الصفة الرابعة) قوله اينما يوجهه لا يأت بخير اى اينما يرسله ومعنى التوجيه ان ترسل صاحبك فى وجه معين من الطريق يقال وجهته الى موضع كذا فتوجه اليه وقوله لا يأت بخير معناه لانه عاجز لا يحسن ولا يفهم ثم قال تعالى هل يستوى هو اى هذا الموصوف بهذه الصفات الاربع ومن يأمر بالعدل واعلم ان الآمر بالعدل يجب ان يكون موصوفا بالنطق والا لم يكن آمرا ويجب ان يكون قادرا لان الامر مشعر بعلو المرتبة وذلك لا يحصل الا مع كونه قادرا ويجب ان يكون عالما حتى يمكنه التمييز بين العدل وبين الجور فثبت ان وصفه بأنه يأمر بالعدل يتضمن وصفه بكونه قادرا عالما وكونه آمرا يناقض كون الاول ابكم وكونه قادرا يناقض وصف الاول بأنه لا يقدر على شئ وبأنه كل على مولاه وكونه عالما يناقض وصف الاول بأنه لا يأت بخير ثم قال وهو على صراط مستقيم معناه كونه عادلا مبرأ عن الجور والعبث اذا ثبت هذا فنقول ظاهر فى بديهة العقل ان الاول والثانى لا يستويان فكذا ههنا والله اعلم (المسئلة الثانية) فى المراد بهذا المثل اقوال كما فى المثل المتقدم (فالاول) قال مجاهد كل هذا مثل الاله الحق وما يدعى من دونه من الباطل واما الابكم فمثل الصنم لانه لا ينطق البتة وكذلك لا يقدر على شئ وايضا كل على عابديه لانه لا ينفق عليهم وهم ينفقون عليه وايضا الى اى مهم توجه الصنم لم يأت بخير واما الذى يأمر بالعدل فهو الله سبحانه (والقول الثانى) ان المراد من هذا الابكم هو عبد لعثمان بن عفان كان ذلك العبد يكره الاسلام وما كان فيه خير ومولاه وهو عثمان بن عفان كان يأمر بالعدل وكان على الدين القويم والصراط المستقيم (والقول الثالث) ان المقصود منه كل عبد موصوف بهذه الصفات المذمومة وكل حر

( موصوف )

فيهما حالا اوما لا واما باعتبار الغيبة عن اهلهما والمراد بيان الاختصاص به تعالى من حيث المعلومية حسبما ينبئ عنه عنوان الغيبية لا من حيث المخلوقية والمملوكية وان كان الامر كذلك فى نفس الامر وفيه اشعار بأن علمه سبحانه حضورى فان تحقق الغيوب فى انفسها علم بالنسبة اليه تعالى ولذلك لم يقل ولله علم غيب السموات والارض ( وما امر الساعة )التى هى اعظم ما وقع فيه المماراة من الغيوب المتعلقة بهما من حيث غيبتها عن اهلهما اوظهور آثارها فيهما عند وقوعها فان وقت وقوعها بعينه من الغيوب المختصة به سبحانه وان كان انيتها من الغيوب التى نصبت عليها الادلة اى ما شأنها فى سرعة المجئ (الا كلمح البصر) اى كرجع الطرف من اعلى الحدقة الى اسفلها (اوهو) اى بل امرها فيما ذكر (اقرب) من ذلك واسرع زمانا بأن يقع فى بعض من زمانه فان ذلك وان قصر عن حركة انية لهاهوية اتصالية منطبقة على زمان له هوية كذلك قابل للانقسام الى ابعاض هى ازمنة ايضا بل فى آن غير منقسم من ذلك الزمان وهو آن ابتداء تلك الحركة او ما امرها الا كالشئ الذى يستقرب ويقال هو كلمح البصر اوهو اقرب واياما كان فهو تمثيل لسرعة مجيئها حسبما عبر عنها فى فاتحة السورة الشريفة بالاتيان ( ان الله على كل شئ قدير ) ومن جملة الاشياء ان يجئ بها اسرع ما يكون

موصوف بتلك الصفات الحميدة وهذا القول اولى من القول الاول لان وصفه تعالى اياهما بكونهما رجلين يمنع من حمل ذلك على الوثن وكذلك بالبكم وبالكل وبالتوجه في جهات المنافع وكذلك وصف الآخر بأنه على صراط مستقيم يمنع من حمله على الله تعالى وايضا فالمقصود تشبيه صورة بصورة في امر من الامور وذلك التشبيه لايتم الا عند كون احدى الصورتين مغايرة للاخرى (واما القول الثاني) فضعيف ايضا لان المقصود ابانة التفرقة بين رجلين موصوفين بالصفات المذكورة وذلك غير مختص بشخص معين بل ايما حصل التفاوت في الصفات المذكورة حصل المقصود والله اعلم ۞ قوله تعالى (ولله غيب السموات والارض وما امر الساعة الا كلمح البصر او هو اقرب ان الله على كل شئ قدير والله أخرجكم من بطون امهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون الم يروا الى الطير مسخرات في جو السماء مايمسكهن الا الله ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) اعلم انه تعالى لما ذكر في الآية الاولى مثل الكفار بالابكم العاجز ومثل نفسه بالذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ومعلوم انه يمتنع ان يكون آمرا بالعدل وان يكون على صراط مستقيم الا اذا كان كاملا في العلم والقدرة ذكر في هذه الآية بيان كونه كاملا في العلم والقدرة اما بيان كمال العلم فهو قوله ولله غيب السموات والارض والمعنى علم الله غيب السموات والارض وايضا فقوله ولله غيب السموات والارض يفيد الحصر معناه ان العلم بهذه الغيوب ليس الا لله واما بيان كمال القدرة فقوله وما امر الساعة الا كلمح البصر او هو أقرب والساعة هي الوقت الذي تقوم فيه القيامة سميت ساعة لانها تفجأ الانسان في ساعة فيموت الخلق بصيحة واحدة وقوله الا كلمح البصر اللمح النظر بسرعة يقال لمحه ببصره لمحا ولمحانا والمعنى وما امر قيام القيامة في السرعة الا كطرف العين والمراد منه تقرير كمال القدرة وقوله او هو أقرب معناه ان لمح البصر عبارة عن انتقال الجسم المسمى بالطرف من أعلى الحدقة الى اسفلها ولاشك ان الحدقة مؤلفة من أجزاء لاتتجزأ فلمح البصر عبارة عن المرور على جملة تلك الاجزاء التي منها تألف سطح الحدقة ولاشك ان تلك الاجزاء كثيرة والزمان الذي يحصل فيه لمح البصر مركب من آنات متعاقبة والله تعالى قادر على اقامة القيامة في آن واحد من تلك الآنات فلهذا قال او هو أقرب الا انه لما كان أسرع الاحوال والحوادث في عقولنا وافكارنا هو لمح البصر لاجرم ذكره ثم قال او هو أقرب تنبيها على ماذكرناه ولاشبهة في انه ليس المراد طريقة الشك بل المراد بل هو أقرب وقال الزجاج المراد به الابهام عن المخاطبين انه تعالى يأتي بالساعة اما بقدر لمح البصر او بما هو اسرع قال القاضي هذا لايصح لان اقامة الساعة ليست حال تكليف حتى يقال انه تعالى يأتي بها في زمان بل الواجب ان يخلقها دفعة واحدة في وقت واحد ويفارق ماذكرناه في ابتداء خلق السموات والارض لان تلك الحال حال تكليف فلم يمتنع ان يخلقهما

فهو قادر على ذلك او وما امر اقامة الساعة التي كنهها وكيفيتها من الغيوب الخاصة به سبحانه وهي اماتة الاحياء واحياء الاموات من الاولين والآخرين وتبديل صور الاكوان اجمعين وقد انكرها المنكرون وجعلوها من قبيل مالايدخل تحت الامكان في سرعة الوقوع وسهولة التأتي الا كلمح البصر او هو اقرب على ما مر من الوجهين ان الله على كل شئ قدير فهو قادر على ذلك لا محالة وقيل غيب السموات والارض عبارة عن يوم القيامة بعينه لما ان علمه بخصوصه غائب عن اهلهما فوضع الساعة موضع الضمير لتقوية مضمون الجملة (والله اخرجكم من بطون امهاتكم) عطف على قوله تعالى والله جعل لكم من انفسكم ازواجا منتظم معه في سلك ادلة التوحيد من قوله تعالى والله انزل من السماء ماء وقوله تعالى والله خلقكم وقوله تعالى والله فضل بعضكم على بعض والامهات بضم الهمزة وقرئ بكسرها ايضا جمع الام زيدت الهاء فيه كما زيدت في اهراق من اراق وشذت زيادتها في الواحدة قال

امهتي خندف والياس ابي

(لاتعلمون شيئا) في موقع الحال اي غير عالمين شيئا أصلا (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة) عطف على اخرجكم وليس فيه دلالة على تأخر الجعل المذكور عن الاخراج لما ان مدلول الواو هو الجمع مطلقا لا الترتيب على ان اثر ذلك الجعل لايظهر قبل الاخراج اي جعل لكم هذه الاشياء

كذلك لما فيه من مصلحة الملائكة واعلم ان هذا الاعتراض انما يستقيم على مذهب القاضى اما على قولنا فى انه تعالى يفعل مايشاء ويحكم مايريد فليس له قوة والله اعلم ثم انه تعالى عاد الى الدلائل الدالة على وجود الصانع المختار فقال والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى أمهاتكم بكسر الهمزة والباقون بضمها (المسئلة الثانية) أمهاتكم اصله أماتكم الا انه زيد الهاء فيه كما زيد فى اراق فقيل اهراق وشذت زيادتها فى الواحدة فى قوله

* أمهتى خندف والياس أبى *

(المسئلة الثالثة) الانسان خلق فى مبدأ الفطرة خاليا عن معرفة الاشياء ثم قال وجعل لكم السمع والابصار والافئدة والمعنى ان النفس الانسانية لما كانت فى اول الخلقة خالية عن المعارف والعلوم بالله فالله تعالى اعطاه هذه الحواس ليستفيد بها المعارف والعلوم وتمام الكلام فى هذا الباب يستدعى مزيد تقرير فنقول التصورات والتصديقات اما أن تكون كسبية واما أن تكون بديهية والكسبيات انما يمكن تحصيلها بواسطة تركيبات البديهيات فلابد من سبق هذه العلوم البديهية وحينئذ لسائل ان يسأل فيقول هذه العلوم البديهية اما ان يقال انها كانت حاصلة منذ خلقنا أوما كانت حاصلة (والاول) باطل لانا بالضرورة نعلم انا حين كنا جنينا فى رحم الام ما كنا نعرف ان النفى والاثبات لايجتمعان وما كنا نعرف ان الكل أعظم من الجزء (واما القسم الثانى) فانه يقتضى ان هذه العلوم البديهية حصلت فى نفوسنا بعد انها ما كانت حاصلة فحينئذ لايمكن حصولها الا بكسب وطلب وكل ما كان كسبيا فهو مسبوق بعلوم أخرى فهذه العلوم البديهية تصير كسبية ويجب أن تكون مسبوقة بعلوم أخرى الى غير نهاية وكل ذلك محال وهذا سؤال قوى مشكل وجوابه ان نقول الحق ان هذه العلوم البديهية ما كانت حاصلة فى نفوسنا ثم انها حدثت وحصلت أما قوله فيلزم ان تكون كسبية قلنا هذه المقدمة ممنوعة بل نقول انها انما حدثت فى نفوسنا بعد عدمها بواسطة اعانة الحواس التى هى السمع والبصر وتقريره ان النفس كانت فى مبدأ الخلقة خالية عن جميع العلوم الا انه تعالى خلق السمع والبصر فاذا ابصر الطفل شيئا مرة بعد أخرى ارتسم فى خياله ماهية ذلك المبصر وكذلك اذا سمع شيئا مرة بعد أخرى ارتسم فى سمعه وخياله ماهية ذلك المسموع وكذا القول فى سائر الحواس فيصير حصول الحواس سببا لحضور ماهيات المحسوسات فى النفس والعقل ثم ان تلك الماهيات على قسمين أحد القسمين مايكون نفس حضوره موجبا تاما فى جزم الذهن باسناد بعضها الى بعض بالنفى أو الاثبات مثل انه اذا حضر فى الذهن ان الواحد ماهو وان نصف الاثنين ماهو كان حضور هذين التصورين فى الذهن علة تامة فى جزم الذهن بأن الواحد محكوم عليه بأنه نصف الاثنين وهذا القسم هو عين العلوم البديهية (والقسم الثانى) مالايكون كذلك وهو العلوم النظرية مثل انه اذا حضر فى الذهن ان الجسم ماهو وان المحدث ماهو

(فان)

آلات تحصلون بها العلم والمعرفة بأن تحسوا بمشاعركم جزئيات الاشياء وتدركوها بافئدتكم وتتنبهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرر الاحساس فيحصل لكم علوم بديهية تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية والافئدة جمع فؤاد وهو وسط القلب وهو من القلب كالقلب من الصدر وهو من جموع القلة التى جرت مجرى جموع الكثرة وتقديم المجرور على المنصوبات لما مر من الايذان من اول الامر بكون المجعول نافعا لهم وتشويق النفس الى المؤخر ليتمكن عند وروده عليها فضل تمكن (لعلكم تشكرون) كى تعرفوا ماانعم به عليكم طورا غب طور فتشكروه وتقديم السمع على البصر لما انه طريق تلقى الوحى اولان ادراكه اقدم من ادرا البصر وافراده باعتبار كونه مصدرا فى الاصل (الم يروا) وقرئ بالتاء (الى الطير) جمع طائر اى الم ينظروا اليها (مسخرات) مذللات للطيران بما خلق لها من الاجنحة والاسباب المساعدة له وفيه مبالغة من حيث ان معنى التسخير جعل الشئ منقاد الآخر يتصرف فيه كيف يشاء كتسخير البحر والفلك والدواب للانسان والواقع ههنا تسخير الهواء للطير لتطير فيه كيف تشاء فكان مقتضى طبيعة الطير السقوط فسخرها الله تعالى للطيران وفيه تنبيه على ان الطيران ليس بمقتضى طبع الطير بل ذلك بتسخير الله تعالى (فى جو السماء) اى فى الهواء المتباعد من الارض

فان مجرد هذين التصورين فى الذهن لايكفى فى جزم الذهن بأن الجسم محدث بل لابد فيه من دليل منفصل وعلوم سابقة والحاصل ان العلوم الكسبية انما يمكن اكتسابها بواسطة العلوم البديهية وحدوث هذه العلوم البديهية انما كان عند حدوث تصور موضوعاتها وتصور محمولاتها وحدوث هذه التصورات انما كان بسبب اعانة هذه الحواس على جزئياتها فظهر ان السبب الاول لحدوث هذه المعارف فى النفوس والعقول هو انه تعالى اعطى هذه الحواس فلهذا السبب قال تعالى والله أخرجكم من بطون امهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة ليصير حصول هذه الحواس سببا لانتقال نفوسكم من الجهل الى العلم بالطريق الذى ذكرناه وهذه ابحاث شريفة عقلية محضة مدرجة فى هذه الآيات وقال المفسرون وجعل لكم السمع لتسمعوا مواعظ الله والابصار لتبصروا دلائل الله والافئدة لتعقلوا عظمة الله والافئدة جمع فؤاد نحو اغربة وغراب قال الزجاج ولم يجمع فؤاد على اكثر العدد وماقيل فيه فئدان كما قيل غراب وغربان واقول لعل الفؤاد انما جمع على بناء جمع القلة تنبيها على ان السمع والبصر كثيران وان الفؤاد قليل لان الفؤاد انما خلق للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية واكثر الخلق ليسوا كذلك بل يكونون مشغولين بالافعال البهيمية والصفات السبعية فكان فؤادهم ليس بفؤاد فلهذا السبب ذكر فى جمعه صيغة جمع القلة فان قيل قوله تعالى وجعل لكم السمع والابصار عطف على قوله أخرجكم وهذا يقتضى ان يكون جعل السمع والبصر متأخرا عن الاخراج عن البطن ومعلوم انه ليس كذلك والجواب ان حرف الواو لايوجب الترتيب وايضا اذا حملنا السمع على الاستماع والابصار على الرؤية زال السؤال والله اعلم اماقوله الم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء مايمسكهن الاالله ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى ألم تروا بالتاء والباقون بالياء على الحكاية لمن تقدم ذكره من الكفار (المسئلة الثانية) هذا دليل آخر على كمال قدرة الله تعالى وحكمته فانه لولا انه تعالى خلق الطير خلقة معها يمكنه الطيران وخلق الجوا خلقة معها يمكن الطيران فيه لما امكن ذلك فانه تعالى اعطى الطير جناحا يبسطه مرة ويكسره أخرى مثل مايعمله السابح فى الماء وخلق الهوا خلقة لطيفة رقيقة يسهل بسببها خرقه والنفاذ فيه ولولا ذلك لما كان الطير ان ممكنا واماقوله تعالى مايمسكهن الاالله فالمعنى ان جسد الطير جسم ثقيل والجسم الثقيل يمتنع بقاؤه فى الجو معلقا من غير دعامة تحته ولاعلاقة فوقه فوجب ان يكون الممسك فى ذلك الجو هو الله تعالى ثم من الظاهر ان بقاؤه فى الجو معلقا فعله وحاصل باختياره فثبت ان خالق فعل العبد هو الله تعالى قال القاضى انما اضاف الله تعالى هذا الامساك الى نفسه لانه تعالى هو الذى اعطى الآلات التى لاجلها يمكن الطير من تلك الافعال فلما كان تعالى هو المسبب لذلك لاجرم صحت هذه الاضافة الى الله تعالى والجواب ان هذا ترك للظاهر بغير دليل وانه

---

والسكاك واللوح ابعد منه واضافته الى السماء لماانه فى جانبها من الناظر ولاظهار كمال القدرة (مايمسكهن) فى الجو حين قبض اجنحتهن وبسطها ووقوفهن (الاالله) عز وجل بقدرته الواسعة فان ثقل جسدها ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها ولاعلاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها وهو اماحال من الضمير المستتر فى مسخرات اومن الطير واما مستأنف (ان فى ذلك) الذى ذكر من تسخير الطير للطيران بأن خلقها خلقة تمكن بها منه بأن جعل لها اجنحة خفيفة واذنابا كذلك وجعل اجسادها من الخفة بحيث اذا بسطت اجنحتها واذنابها لايطيق ثقلها تخرق ماتحتها من الهواء الرقيق القوام وتخرق مابين يديها من الهواء لانها لاتلاقيه بحجم كبير (لآيات) ظاهرة (لقوم يؤمنون) اى من شأنهم ان يؤمنون وانما خص ذلك بهم لانهم المنتفعون به (والله جعل لكم) معطوف على مامر وتقديم لكم على ماسيأتى من المجرور والمنصوب لمامر من الايذان من اول الامر بأنه لمصلحتهم ومنفعتهم لتشويق النفس الى وروده وقوله تعالى (من بيوتكم) اى من بيوتكم المعهودة التى تبنونها من الحجر والمدر تبيين لذلك المجعول المبهم فى الجملة وتأكيد لماسبق من التشويق (سكنا) فعل بمعنى مفعول اى موضعا تسكنون فيه وقت اقامتكم او تسكنون اليه من غير ان ينتقل من مكانه اى جعل بعض بيوتكم بحيث

لايجوز لاسيما والدلائل العقلية دلت على ان افعال العباد مخلوقة لله تعالى ثم قال تعالى فى آخر الآية ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون وخص هذه الآيات بالمؤمنين لانهم هم المنتفعون بها وان كانت هذه الآيات آيات لكل العقلاء والله اعلم ❁ قوله تعالى (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن اصوافها واوبارها واشعارها اثاثا ومتاعا الى حين) اعلم ان هذا نوع آخر من دلائل التوحيد واقسام النعم والفضل والسكن المسكن انشد الفراء

جاء الشتاء ولما اتخذ سكنا * ياويح كفى من حفر القراميص

والسكن ماسكنت اليه وماسكنت فيه قال صاحب الكشاف السكن فعل بمعنى مفعول وهو مايسكن اليه وينقطع اليه من بيت اوالف واعلم ان البيوت التى يسكن الانسان فيها على قسمين احدهما البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التى بها يمكن تسقيف البيوت واليها الاشارة بقوله والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وهذا القسم من البيوت لايمكن نقله بل الانسان ينتقل اليه (والقسم الثانى) القباب والخيام والفساطيط واليها الاشارة بقوله وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم وهذا القسم من البيوت يمكن نقله وتحويله من مكان الى مكان واعلم ان المراد الانطاع وقد تعمل العرب البيوت من الادم وهى جلود الانعام اى يخف عليكم حملها فى اسفاركم قرأ نافع وابن كثير وابو عمرو يوم ظعنكم بفتح العين والباقون ساكنة العين قال الواحدى وهما لغتان كالشعر والشعر والنهر والنهر واعلم ان الظعن سير البادية لنجعة اوحضور ماء او طلب مرتع وقد يقال لكل شاخص لسفر ظاعن وهو ضد الخافض وقوله ويوم اقامتكم بمعنى لايثقل عليكم فى الحالين وقوله ومن اصوافها واوبارها واشعارها قال المفسرون واهل اللغة الاصواف للضأن والاوبار للابل والاشعار للمعز وقوله اثاثا الاثاث انواع متاع البيت من الفرش والاكسية قال الفراء ولاواحد له كما ان المتاع لاواحد له قال ولو جمعت فقلت آثثة فى القليل واثث فى الكثير لم يبعد وقال ابو زيد واحدها اثاثة قال ابن عباس فى قوله اثاثا يريد طنافس وبسطا وثيابا وكسوة قال الخليل واصله من قولهم أث النبات والشعر اذا كثر وقوله متاعا اى ماتتمتعون به وقوله الى حين يريد الى حين البلى وقيل الى حين الموت وقيل الى حين بعد الحين وقيل الى يوم القيامة فان قيل عطف المتاع على الاثاث والعطف يقتضى المغايرة وما الفرق بين الاثاث والمتاع قلنا الاقرب ان الاثاث مايكتسى به المرء ويستعمله فى الغطاء والوطاء والمتاع مايفرش فى المنازل ويزين به ❁ قوله تعالى (والله جعل لكم مماخلق ظلالا وجعل لكم من الجبال اكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها واكثرهم الكافرون) اعلم ان الانسان اما ان يكون مقيما

تسكنون اليه وتطمئنون به (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا) اى بيوتا اخر مغايرة لبيوتكم المعهودة هى الخيام والقباب والاخبية والفساطيط (تستخفونها) تجدونها خفيفة سهلة المأخذ (يوم ظعنكم) وقت ترحالكم فى النقض والحمل والنقل وقرئ بفتح العين (يوم اقامتكم) وقت نزولكم فى الضرب والبناء (ومن اصوافها واوبارها واشعارها) عطف على قوله تعالى من جلود والضمائر للانعام على وجه التنويع اى وجعل لكم من اصواف الضأن واوبار الابل واشعار المعز (أثاثا) اى متاع البيت واصله الكثرة والاجتماع ومنه شعر اثيث (ومتاعا) اى شيئا يتمتع به بفنون التمتع (الى حين) الى ان تقضوا منه اوطاركم اوالى ان يبلى ويفنى فانه فى معرض البلا والفناء وقيل الى ان تموتوا والكلام فى ترتيب المفاعيل مثل مامر من قبل (والله جعل لكم مماخلق) من غير صنع من قبلكم (ظلالا) اشياء تستظلون بها من الحر كالغمام والشجر والجبل وغيرها امتن سبحانه بذلك لان تلك الديار غالبة الحرارة (وجعل لكم من الجبال اكنانا) مواضع تستكنون فيها من الكهوف والغيران والسروب والكلام فى الترتيب الواقع بين المفاعيل كالذى مر غير مرة (وجعل لكم سرابيل) جمع سربال وهو كل مايلبس اى جعل لكم ثيابا من القطن والكتان والصوف وغيرها (تقيكم الحر) خصه بالذكر

او مسافر او المسافر اما ان يكون غنيا يمكنه استصحاب الخيام والفساطيط او لا يمكنه ذلك فهذه اقسام ثلاثة ( اما القسم الاول ) فاليه الاشارة بقوله والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ( واما القسم الثانى ) فاليه الاشارة بقوله وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا ( واما القسم الثالث ) فاليه الاشارة بقوله والله جعل لكم مما خلق ظلالا وذلك لان المسافر اذا لم يكن له خيمة يستظل بها فانه لابد وان يستظل بشئ آخر كالجدران والاشجار وقد يستظل بالغمام كما قال وظللنا عليكم الغمام ثم قال وجعل لكم من الجبال أكنانا واحد الاكنان كن على قياس احمال وحمل ولكن المراد كل شئ وقى شيأ ويقال استكن وأكن اذا صار فى كن واعلم ان بلاد العرب شديدة الحر وحاجتهم الى الظل ودفع الحر شديدة فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه المعانى فى معرض النعمة العظيمة وايضا البلاد المعتدلة والاوقات المعتدلة نادرة جدا والغالب اما غلبة الحر او غلبة البرد وعلى كل التقديرات فلابد للانسان من مسكن يأوى اليه فكان الانعام بتحصيله عظيما ولما ذكر تعالى امر المسكن ذكر بعده امر الملبوس فقال وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم السرابيل القميص واحدها سربال قال الزجاج كل ما لبسته فهو سربال من قيص اودرع اوجوشن اوغيره والذى يدل على صحة هذا القول انه جعل السرابيل على قسمين احدهما ما يكون واقيا من الحر والبرد ( والثانى ) ما يتقى به عن البأس والحروب وذلك هو الجوشن وغيره وذلك يدل على ان كل واحد من القسمين من السرابيل فان قيل لم ذكر الحر ولم يذكر البرد اجابوا عنه من وجوه (الاول) قال عطاء الخراسانى المخاطبون بهذا الكلام هم العرب وبلادهم حارة فكانت حاجتهم الى ما يدفع الحر فوق حاجتهم الى ما يدفع البرد كما قال ومن اصوافها واوبارها واشعارها وسائر انواع الثياب اشرف الا انه تعالى ذكر ذلك النوع لانه كان الفتهم بها اشد واعتيادهم للبسها اكثر ولذلك قال ونزل من السماء من جبال فيها من برد لمعرفتهم بذلك وما انزل من الثلج اعظم ولكنهم كانوا لايعرفونه (والوجه الثانى) فى الجواب قال المبرد ان ذكر احد الضدين تنبيه على الآخر قلت ثبت فى العلوم العقلية ان العلم بأحد الضدين يستلزم العلم بالضد الآخر فان الانسان متى خطر بباله الحر خطر بباله ايضا البرد وكذا القول فى النور والظلمة والسواد والبياض فلما كان الشعور بأحدهما مستتبعا للشعور بالآخر كان ذكر احدهما مغنيا عن ذكر الآخر (والوجه الثالث ) قال الزجاج ما وقى من الحر وقى من البرد فكان ذكر احدهما مغنيا عن ذكر الآخر فان قيل هذا بالضد اولى لان دفع الحر يكفى فيه السرابيل التى هى القمص من دون تكلف زيادة واما البرد فانه لايندفع الا بتكلف زائد قلنا القميص الواحد لما كان دافعا للحر كان الاستكثار من القميص دافعا للبرد فصح ما ذكرناه وقوله وسرابيل تقيكم بأسكم يعنى دروع الحديد ومعنى البأس الشدة ويريد ههنا شدة الطعن والضرب والرمى واعلم انه تعالى لما عدد اقسام نعمة الدنيا قال كذلك يتم نعمته عليكم

اكتفاء بذكر احد الضدين عن ذكر الآخر اولان وقايته هى الاهم عندهم لما مر آنفا ( وسرابيل ) من الدروع والجواشن (تقيكم بأسكم ) اى البأس الذى يصل الى بعضكم من بعض فى الحرب من الضرب والطعن ولقد من الله سبحانه علينا حيث ذكر جميع نعمه الفائضة على جميع الطوائف فبدأ بما يخص المقيمين حيث قال والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ثم بما يخص المسافرين ممن لهم قدرة على الخيام واضرابها حيث قال وجعل لكم من جلود الانعام الخ ثم بما يعم من لايقدر على ذلك ولا يأويه الا الظلال حيث قال وجعل لكم مما خلق ظلالا الخ ثم بما لابد منه لاحد حيث قال وجعل لكم سرابيل الخ ثم بما لاغنى عنه فى الحروب حيث قال وسرابيل تقيكم بأسكم ثم قال ( كذلك ) اى مثل ذلك الاتمام البالغ ( يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ) اى ارادة ان تنظروا فيما اسبغ عليكم من النعم الظاهرة والباطنة والانفسية والآفاقية فتعرفوا حق منعمها فتؤمنوا به وحده وتذروا ما كنتم به تشركون وتنقادوا لامره وافراد النعمة اما لان المراد بها المصدر او لاظهار ان ذلك بالنسبة الى جانب الكبرياء شئ قليل وقرئ تسلمون اى تسلمون من العذاب اومن الشرك وقيل من الجراح بلبس الدروع ( فان تولوا ) فعل ماض على طريقة الالتفات وصرف الخطاب عنهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلية له اى فان

اى مثل ماخلق هذه الاشياء لكم وانعم بها عليكم فانه يتم نعمة الدنيا والدين عليكم لعلكم تسلمون قال ابن عباس لعلكم يااهل مكة تخلصون لله الربوبية وتعلمون انه لايقدر على هذه الانعامات احد سواه ونقل عن ابن عباس انه قرأ لعلكم تسلمون بفتح التاء والمعنى انا اعطيناكم هذه السرابيلات لتسلموا عن بأس الحرب وقيل اعطيتكم هذه النعم لتتفكروا فيها فتؤمنوا فتسلموا من عذاب الله ثم قال تعالى فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين اى فان تولوا يامحمد وأعرضوا وآثروا لذات الدنيا ومتابعة الآباء والمعاداة في الكفر فعلى انفسهم جنوا ذلك وليس عليك الا مافعلت من التبليغ التام ثم انه تعالى ذمهم بأنهم يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وذلك نهاية في كفران النعمة فان قيل مامعنى ثم قلنا الدلالة على ان انكارهم امر يستبعد بعد حصول المعرفة لان حق من عرف النعمة ان يعترف لاان ينكر وفي المراد بهذه النعمة وجوه ( الاول ) قال القاضى المراد بها جميع ماذكره الله تعالى في آيات المتقدمة من جميع انواع النعم ومعنى انهم انكروه هو انهم ماافردوه تعالى بالشكر والعبادة بل شكروا على تلك النعم غير الله تعالى ولانهم قالوا انما حصلت هذه النعم بشفاعة هذه الاصنام ( والثانى ) ان المراد انهم عرفوا ان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حق ثم ينكرونها ونبوته نعمة عظيمة كما قال تعالى وما ارسلناك الا رحمة للعالمين ( الثالث ) يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها اى لايستعملونها في طلب رضوان الله تعالى ثم قال تعالى واكثرهم الكافرون فان قيل مامعنى قوله واكثرهم الكافرون مع انه كان كلهم كافرين قلنا الجواب من وجوه ( الاول ) انما قال واكثرهم لانه كان فيهم من لم تقم عليه الحجة ممن لم يبلغ حد التكليف اوكان ناقص العقل معتوها فأراد بالاكثر البالغين الاصحاء ( الثانى ) ان يكون المراد بالكافر الجاحد المعاند وحينئذ نقول انما قال واكثرهم لانه كان فيهم من لم يكن معاندا بل كان جاهلا بصدق الرسول عليه الصلاة والسلام وماظهر له كونه نبيا حقا من عند الله ( الثالث ) انه ذكر الاكثر والمراد الجميع لان اكثر الشئ يقوم مقام الكل فذكر الاكثر كذكر الجميع وهذا كقوله الحمد لله بل اكثرهم لايعلمون والله اعلم ❁ قوله تعالى ( ويوم نبعث من كل امة شهيدا ثم لايؤذن للذين كفروا ولاهم يستعتبون واذا رأى الذين ظلموا العذاب فلايخفف عنهم ولاهم ينظرون ) اعلم انه تعالى لما بين من حال القوم انهم عرفوا نعمة الله ثم انكروها وذكر ايضا من حالهم ان اكثرهم الكافرون اتبعه بالوعيد فذكر حال يوم القيامة فقال ويوم نبعث من كل امة شهيدا وذلك يدل على ان اولئك الشهداء يشهدون عليهم بذلك الانكار وبذلك الكفر والمراد بهؤلاء الشهداء الانبياء كما قال تعالى فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنابك على هؤلاء شهيدا وقوله ثم لايؤذن للذين كفروا فيه وجوه ( احدها ) لايؤذن لهم في الاعتذار لقوله ولايؤذن لهم فيعتذرون ( وثانيها ) لايؤذن لهم في كثرة الكلام ( وثالثها ) لايؤذن لهم في الرجوع الى دار الدنيا والى

( التكليف )

أعرضوا عن الاسلام ولم يقبلوا منك ماألقى اليهم من البينات والعبر والعظات ( فانما عليك البلاغ المبين ) اى فلا قصور من جهتك لان وظيفتك هى البلاغ الموضح او الواضح وقد فعلته بما لامزيد عليه فهو من باب وضع السبب موضع المسبب ( يعرفون نعمت الله ) استئناف لبيان ان توليهم واعراضهم عن الاسلام ليس لعدم معرفتهم بما عدد من نعم الله تعالى اصلا فانهم يعرفونها ويعترفون انها من الله تعالى ( ثم ينكرونها ) بأفعالهم حيث يعبدون غير منعمها او بقولهم انها بشفاعة آلهتنا او بسبب كذا وقيل نعمة الله تعالى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم عرفوها بالمعجزات كما يعرفون ابناءهم ثم انكروها عنادا ومعنى ثم لاستبعاد الانكار بعد المعرفة لان حق من عرف النعمة الاعتراف بها لا الانكار واسناد المعرفة والانكار المتفرع عليها الى ضمير المشركين على الاطلاق من باب اسناد حال البعض الى الكل كقولهم بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل واحد منهم فان بعضهم ليسوا كذلك لقوله سبحانه ( واكثرهم الكافرون ) اى المنكرون بقلوبهم غير المعترفين بما ذكر والحكم عليهم بمطلق الكفر المؤذن بالكمال من حيث الكمية لاينافى كمال الفرقة الاولى من حيث الكيفية هذا وقد قيل ذكر الاكثر اما لان بعضهم لم يعرفوا لنقصان العقل او التفريط فى النظر او لم يقم عليه الحجة لانه لم يبلغ حد التكليف فتدبر

التكليف ( ورابعها ) لايؤذن لهم فى حال شهادة الشهود بل يسكت أهل الجمع كلهم ليشهد الشهود ( وخامسها ) لايؤذن لهم فى كثرة الكلام ليظهر لهم كونهم آيسين من رحمة الله تعالى ثم قال ولاهم يستعتبون الاستعتاب طلب العتاب والرجل انما يطلب العتاب من خصمه اذا كان على جزم أنه اذا عاتبه رجع الى الرضا فاذا لم يطلب العتاب منه دل على انه راسخ فى غضبه وسطوته ثم انه تعالى أكد هذا الوعيد فقال واذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم والمعنى ان هؤلاء المشركين اذا رأوا العذاب ووصلوا اليه فعند ذلك لا يخفف عنهم العذاب ولاهم ايضا ينظرون أى لايؤخرون ولا يمهلون لان التوبة هناك غير موجودة وتحقيقه مايقوله المتكلمون من ان العذاب يجب ان يكون خالصا عن شوائب النفع وهو المراد من قوله لايخفف عنهم العذاب ويجب ان يكون العذاب دائما وهو المراد من قوله ولاهم ينظرون ❊ قوله تعالى ( واذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا اليهم القول انكم لكاذبون وألقوا الى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون ) اعلم ان هذا ايضا من بقية وعيد المشركين وفى الشركاء قولان ( الاول ) انه تعالى يبعث الاصنام التى كان يعبدها المشركون والمقصود من اعادتها ان المشركين يشاهدونها فى غاية الذلة والحقارة وايضا انها تكذب المشركين وكل ذلك مما يوجب زيادة الغم والحسرة فى قلوبهم وانما وصفهم الله بكونهم شركاء لوجهين ( الاول ) ان الكفار كانوا يسمونها بأنها شركاء الله ( والثانى ) ان الكفار جعلوا لهم نصيبا من اموالهم ( والقول الثانى ) ان المراد بالشركاء الشياطين الذين دعوا الكفار الى الكفر وهو قول الحسن وانما ذهب الى هذا القول لانه تعالى حكى عن أولئك الشركاء أنهم ألقوا الى الذين أشركوا انهم لكاذبون والاصنام جمادات فلا يصح منهم هذا القول فوجب ان يكون المراد من الشركاء الشياطين حتى يصح منهم هذا القول وهذا بعيد لانه تعالى قادر على خلق الحياة فى تلك الاصنام وعلى خلق العقل والنطق فيها وحينئذ يصح منها هذا القول ثم حكى تعالى عن المشركين انهم اذا رأوا تلك الشركاء قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فان قيل فما فائدتهم فى هذا القول قلنا فيه وجهان ( الاول ) قال ابو مسلم الاصفهانى مقصود المشركين احالة هذا الذنب على هذه الاصنام فظنوا ان ذلك ينجيهم من عذاب الله تعالى او ينقص من عذابهم فعند هذا تكذبهم تلك الاصنام قال القاضى هذا بعيد لان الكفار يعلمون علما ضروريا فى الآخرة ان العذاب سينزل بهم وانه لانصرة ولافدية ولاشفاعة ( والقول الثانى ) ان المشركين يقولون هذا الكلام تعجبا من حضور تلك الاصنام مع انه لاذنب لها واعترافا بأنهم كانوا مخطئين فى عبادتها ثم حكى تعالى ان الاصنام يكذبونهم فقال فألقوا اليهم القول انكم لكاذبون والمعنى انه تعالى يخلق الحياة والعقل والنطق فى تلك الاصنام حتى تقول هذا القول وقوله انكم لكاذبون بدل من القول والتقدير فالقوا اليهم انكم لكاذبون فان

( ويوم نبعث من كل امة شهيدا ) يشهد لهم بالايمان والطاعة وعليهم بالكفر والعصيان وهو نبيها ( ثم لايؤذن للذين كفروا ) فى الاعتذار اذ لاعذر لهم وثم للدلالة على ان ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبئ عن الاقناط الكلى وهو عندما يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون اشد من ابتلائهم بشهادة الانبياء عليهم السلام عليهم واتم ( ولاهم يستعتبون ) يسترضون اى لايقال لهم ارضوا ربكم اذ الآخرة دار الجزاء لادار العمل وانتصاب الظرف بمحذوف تقديره اذكر اوخوفهم يوم نبعث الخ اويوم نبعث يحيق بهم ما يحيق مما لايوصف وكذا قوله تعالى ( واذا رأى الذين ظلموا العذاب ) الذى يستوجبونه بظلمهم وهو عذاب جهنم ( فلا يخفف عنهم ) ذلك ( ولاهم ينظرون ) اى يمهلون كقوله تعالى بل تأتيهم بغتة فتبهتهم ( واذا رأى الذين اشركوا شركاءهم ) الذين كانوا يدعونهم فى الدنيا وهم الاوثان اوالشياطين الذين شاركوهم فى الكفر بالحمل عليه وقارنوهم فى الغى والضلال ( قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك ) اى نعبدهم اونطيعهم ولعلهم قالوا ذلك طمعا فى توزيع العذاب بينهم كما ينبئ عنه قوله سبحانه ( فألقوا ) اى شركاؤهم ( اليهم القول انكم لكاذبون ) فان تكذيبهم اياهم فيما قالوا ليس الا للمدافعة والتخلص عن غائلة مضمونه وانما كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم ويطيعونهم لان الاوثان ماكانوا راضين بعبادتهم لهم

قيل ان المشركين ماقالوا الا انهم لما اشاروا الى الاصنام قالوا ان هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك وقد كانوا صادقين فى كل ذلك فكيف قالت الاصنام انكم لكاذبون قلنا فيه وجوه والاصح ان يقال المراد من قولهم هؤلاء شركاؤنا هو ان هؤلاء الذين كنا نقول انهم شركاء الله فى المعبودية فالاصنام كذبوهم فى اثبات هذه الشركة وقيل المراد انكم لكاذبون فى قولكم انا نستحق العبادة ويدل عليه قوله تعالى كلا سيكفرون بعبادتهم ثم قال تعالى والقوا الى الله يومئذ السلم قال الكلبى استسلم العابد والمعبود واقروا لله بالربوبية وبالبراءة عن الشركاء والانداد وضل عنهم ما كانوا يفترون وفيه وجهان وقيل ذهب عنهم مازين لهم الشيطان من ان لله شريكا وصاحبة وولدا وقيل بطل ما كانوا يأملون من ان آلهتهم تشفع لهم عند الله تعالى ❊ قوله تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون) اعلم انه تعالى لما ذكر وعيد الذين كفروا اتبعه بوعيد من ضم الى كفره صد الغير عن سبيل الله وفى تفسير قوله وصدوا عن سبيل الله وجهان قيل معناه الصد عن المسجد الحرام والاصح انه يتناول جملة الايمان بالله والرسول وبالشرائع لان اللفظ عام فلا معنى للتخصيص وقوله زدناهم عذابا فوق العذاب فالمعنى انهم زادوا على كفرهم صد غيرهم عن الايمان فهم فى الحقيقة ازدادوا كفرا على كفر فلا جرم يزيدهم الله تعالى عذابا على عذاب وايضا اتباعهم انما اقتدوا بهم فى الكفر فوجب ان يحصل لهم مثل عقاب اتباعهم لقوله تعالى وليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم ولقوله عليه السلام من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة ومن المفسرين من ذكر تفصيل تلك الزيادة فقال ابن عباس المراد بتلك الزيادة خمسة انهار من نار تسيل من تحت العرش يعذبون بها ثلاثة بالليل واثنان بالنهار وقال بعضهم زدناهم عذابا بحيات وعقارب كأمثال البخت فيستغيثون بالهرب منها الى النار ومنهم من ذكر لكل عقرب ثلثمائة فقرة فى كل فقرة ثلثمائة قلة من سم وقيل عقارب لها انياب كالنخل الطوال ثم قال تعالى بما كانوا يفسدون اى هذه الزيادة من العذاب انما حصلت معللة بذلك الصد وهذا يدل على ان من دعا غيره الى الكفر والضلال فقد عظم عذابه فكذلك اذا دعا الى الدين واليقين فقد عظم قدره عند الله تعالى والله اعلم ❊ قوله تعالى (ويوم نبعث فى كل امة شهيدا عليهم من انفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) اعلم ان هذا نوع آخر من التهديدات المانعة للمكلفين عن المعاصى واعلم ان الامة عبارة عن القرن والجماعة اذا ثبت هذا فنقول فى الآية قولان (الاول) ان المراد ان كل نبى شاهد على امته (والثانى) ان كل جمع وقرن يحصل فى الدنيا فلا بد وان يحصل فيهم واحد يكون شهيدا عليهم اما الشهيد على الذين كانوا فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الرسول بدليل قوله تعالى وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم

(شهيدا)

فكأن عبادتهم لم تكن عبادة لهم كما قالت الملائكة عليهم السلام بل كانوا يعبدون الجن يعنون ان الجن هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لا نحن او كذبوهم فى تسميتهم شركاء وآلهة تنزيها لله سبحانه عن الشريك والشياطين وان كانوا راضين بعبادتهم لهم لكنهم لم يكونوا حاملين لهم على وجه القسر والالجاء كما قال ابليس وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى فكأنهم قالوا ما عبدتمونا حقيقة بل انما عبدتم اهواءكم (والقوا) اى الذين اشركوا (الى الله يومئذ السلم) الاستسلام والانقياد لحكمه العزيز الغالب بعد الاستكبار عنه فى الدنيا (وضل عنهم) اى ضاع وبطل (ما كانوا يفترون) من ان لله سبحانه شركاء وانهم ينصرونهم ويشفعون لهم وذلك حين كذبوهم وتبرؤا منهم (الذين كفروا) فى انفسهم (وصدوا) غيرهم (عن سبيل الله) بالمنع عن الاسلام والحمل على الكفر (زدناهم عذابا فوق العذاب) الذى كانوا يستحقونه بكفرهم قيل فى زيادة عذابهم حيات امثال البخت وعقارب امثال البغال تلسع احداهن فيجد صاحبها حمتها اربعين خريفا وقيل يخرجون من النار الى الزمهرير فيبادرون من شدة البرد الى النار (بما كانوا يفسدون) متعلق بقوله زدناهم اى زدنا عذابهم بسبب استمرارهم على الافساد وهو الصد المذكور (ويوم نبعث) تكرير لما سبق تثنية للتهديد (فى كل امة شهيدا عليهم) اى نبيا

شهيدا و ثبت ايضا انه لابد فى كل زمان بعد زمان الرسول من الشهيد فحصل من هذا ان عصرا من الاعصار لايخلو من شهيد على الناس و ذلك الشهيد لابد وان يكون غير جائز الخطأ و الالافتقر الى شهيد آخر و يمتد ذلك الى غير النهاية و ذلك باطل فثبت انه لابد فى كل عصر من اقوام تقوم الحجة بقولهم وذلك يقتضى ان يكون اجماع الامة حجة قال ابو بكر الاصم المراد بذلك الشهيد هو انه تعالى ينطق عشرة من اعضاء الانسان حتى انها تشهد عليه وهى الاذنان والعينان و الرجلان و اليدان و الجلد و اللسان قال و الدليل عليه انه قال فى صفة الشهيد انه من انفسهم وهذه الاعضاء لاشك انها من انفسهم اجاب القاضى عنه من وجوه (الاول) انه تعالى قال شهيدا عليهم اى على الامة فيجب ان يكون غيرهم (الثانى) انه قال من كل امة فيجب ان يكون ذلك الشهيد من الامة وآحاد الاعضاء لايصح وصفها بأنها من الامة واما حمل هؤلاء الشهداء على الانبياء فبعيد وذلك لان كونهم انبياء مبعوثين الى الخلق امر معلوم بالضرورة فلافائدة فى حمل هذه الآية عليه ثم قال تعالى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) وجه تعلق هذا الكلام بما قبله انه تعالى لما قال وجئنابك شهيدا على هؤلاء بين انه ازاح علتهم فيما كلفوا فلاحجة لهم ولامعذرة (المسئلة الثانية) من الناس من قال القرآن تبيان لكل شئ وذلك لان العلوم اما دينية او غير دينية اما العلوم التى ليست دينية فلاتعلق لها بهذه الآية لان من المعلوم بالضرورة ان الله تعالى انما مدح القرآن بكونه مشتملا على علوم الدين فأما مالايكون من علوم الدين فلا التفات اليه واما علوم الدين فاما الاصول واما الفروع اما علم الاصول فهو بتمامه موجود فى القرآن واما علم الفروع فالاصل براءة الذمة الاماورد على سبيل التفصيل فى هذا الكتاب وذلك يدل على انه لاتكليف من الله تعالى الاماورد فى هذا القرآن واذا كان كذلك كان القول بالقياس باطلا وكان القرآن وافيا ببيان كل الاحكام واما الفقهاء فانهم قالوا القرآن انما كان تبيانا لكل شئ لانه يدل على ان الاجماع وخبر الواحد والقياس حجة فاذا ثبت حكم من الاحكام بأحد هذه الاصول كان ذلك الحكم ثابتا بالقرآن وهذه المسئلة قدسبقت ذكرها بالاستقصاء فى سورة الاعراف والله اعلم (المسئلة الثالثة) روى الواحدى باسناده عن الزجاج انه قال تبيانا فى معنى اسم البيان ومثل التبيان التلقاء وروى ثعلب عن الكوفيين والمبرد عن البصريين انهم قالوا لم يأت من المصادر على تفعال الاحرفان تبيانا وتلقاء واذا تركت هذين اللفظين استوى لك القياس فقلت فى كل مصدر تفعال بفتح التاء مثل تسيار وتذكار وتكرار وقلت فى كل اسم تفعال بكسر التاء مثل تقصار وتمثال ❊ قوله تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) واعلم انه تعالى لما استقصى فى شرح الوعد والوعيد والترغيب والترهيب اتبعه بقوله ان الله يأمر بالعدل والاحسان فجمع فى هذه الآية مايتصل بالتكليف فرضا ونفلا ومايتصل بالاخلاق

(من انفسهم) من جنسهم قطعا لمعذرتهم وفى قوله تعالى عليهم اشعار بأن شهادة انبيائهم على الامم تكون بمحضر منهم (وجئنابك) ايثار لفظ المجئ على البعث لكمال العناية بشأنه عليه السلام وصيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع (شهيدا على هؤلاء) لامم وشهدائهم كقوله تعالى فكيف اذاجئنا من كل امة بشهيد وجئنابك على هؤلاء شهيدا وقيل على امتك والعامل فى الظرف محذوف كامر والمراد به يوم القيامة (ونزلنا عليك الكتاب) الكامل فى الكتابية الحقيق بأن يخص باسم الجنس وهو اما استئناف او حال بتقدير قد (تبيانا) بيانا بليغا (لكل شئ) يتعلق بأمور الدين ومن جملة ذلك احوال الامم مع انبيائهم عليهم السلام فيكون كالدليل على كونه عليه السلام شهيدا عليهم وكذا من جملة ما أخبر به هذه الآية الكريمة من بعث الشهداء وبعثه عليه السلام شهيدا عليهم عليهم الصلاة والسلام والتبيان كالتلقاء فى كسر اوله وكونه تبيانا لكل شئ من امور الدين باعتبار ان فيه نصا على بعضها واحالة لبعضها على السنة حيث امر باتباع النبى عليه السلام وطاعته وقيل فيه وماينطق عن الهوى وحثا على الاجماع وقد رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته باتباع اصحابه حيث قال اصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق الاجتهاد فكانت السنة والاجماع والقياس مستندة الى تبيان الكتاب ولم يضر مافى البعض من

والآداب عموماو خصوصا وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) في بيان فضائل هذه الآية روى عن ابن عباس ان عثمان بن مظعون الجمحى قال ماأسلمت اولا الاحياء من محمد عليه السلام ولم يتقرر الاسلام في قلبى فحضرته ذات يوم فبينما هو يحدثنى اذ رأيت بصره شخص الى السماء ثم خفضه عن يمينه ثم عاد لمثل ذلك فسألته فقال بينما انا احدثك اذا بجبريل نزل عن يمينى فقال يامحمد ان الله يأمر بالعدل والاحسان العدل شهادة ان لااله الا الله والاحسان القيام بالفرائض وايتاء ذى القربى اى صلة ذى القرابة وينهى عن الفحشاء الزنا والمنكر مالايعرف في شريعة ولاسنة والبغى الاستطالة قال عثمان فوقع الايمان في قلبى فأتيت اباطالب فأخبرته فقال يامعشر قريش اتبعوا ابن اخى ترشدوا ولئن كان صادقا او كاذبا فانه مايأمر كم الا بمكارم الاخلاق فلما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم من عمه اللين قال ياعماه أتأمر الناس ان يتبعونى وتدع نفسك وجهد عليه فأبى ان يسلم فنزل قوله انك لاتهدى من احببت وعن ابن مسعود رضى الله عنه ان اجمع آية في القرآن لخير وشر هذه الآية وعن قتادة ليس من خلق حسن كان في الجاهلية يعمل ويستحب الا امر الله تعالى به في هذه الآية وليس من خلق سيء الا نهى الله تعالى عنه في هذه الآية وروى القاضى في تفسيره عن ابن ماجه عن على عليه السلام انه قال أمر الله تعالى نبيه ان يعرض نفسه على قبائل العرب فخرج وانا معه وابو بكر فوقفنا على مجلس عليهم الوقار فقال ابو بكر ممن القوم فقالوا من شيبان بن ثعلبة فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الشهادتين والى ان ينصروه فان قريشا كذبوه فقال مقرون بن عمرو الام تدعونا اخا قريش فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ان الله يأمر بالعدل والاحسان الآية فقال مقرون بن عمرو دعوت والله الى مكارم الاخلاق ومحاسن الاعمال ولقد افك قوم كذبوك وظاهروا عليك وعن عكرمة ان النبى صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية على الوليد فاستعاده ثم قال ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وعن النبى صلى الله عليه وسلم ان الله كتب الاحسان على كل شيء فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد احدكم شفرته وليرح ذبيحته والله اعلم (المسئلة الثانية) في تفسير هذه الآية اكثر الناس في تفسير هذه الآية قال ابن عباس في بعض الروايات العدل شهادة ان لااله الا الله والاحسان اداء الفرائض وقال في رواية اخرى العدل خلع الانداد والاحسان ان تعبد الله كأنك تراه وان تحب للناس ماتحب لنفسك فان كان مؤمنا احببت ان يزداد ايمانا وان كان كافرا احببت ان يصير أخاك في الاسلام وقال في رواية ثالثة العدل هو التوحيد والاحسان الاخلاص فيه وقال آخرون يعنى بالعدل في الافعال والاحسان في الاقوال فلا تفعل الا ماهو عدل ولاتقل الا ماهو احسان وقوله وايتاء ذى القربى يريد صلة الرحم بالمال فان لم يكن فبالدعاء روى ابو مسلم عن ابيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان اعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم ان اهل البيت ليكونون فجارا فتنمى اموالهم ويكثر

(عددهم)

---

الخفاء في كونه تبيانا فان المبالغة باعتبار الكمية دون الكيفية كما قيل في قوله تعالى وماانا بظلام للعبيد انه من قولك فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده ومنه قوله سبحانه وما للظالمين من انصار (وهدى ورحمة) للعالمين فان حرمان الكفرة من مغانم آثاره من تفريطهم لامن جهة الكتاب (وبشرى للمسلمين) خاصة او يكون كل ذلك خاصا بهم لانهم المنتفعون بذلك (ان الله يأمر) اى فيما نزله تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين وايثار صيغة الاستقبال فيه وفيما بعده لافادة التجدد والاستمرار (بالعدل) بمراعاة التوسط بين طرفى الافراط والتفريط وهو رأس الفضائل كلها يندرج تحته فضيلة القوة العقلية الملكية من الحكمة المتوسطة بين الجربزة والبلادة وفضيلة القوة الشهوية البهيمية من العفة المتوسطة بين الخلاعة والخمود وفضيلة القوة الغضبية السبعية من الشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن فمن الحكم الاعتقادية التوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما ان العدل هو التوحيد والقول بالكسب المتوسط بين الجبر والقدر ومن الحكم العملية التعبد باداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب ومن الحكم الخلقية الجود المتوسط بين البخل والتبذير (والاحسان) اى الاتيان بما امر به على الوجه اللائق وهو اما بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل

عددهم اذا وصلوا ارحامهم وقوله وينهى عن الفحشاء قيل الزنا وقيل البخل وقيل كل الذنوب سواء كانت صغيرة اوكبيرة وسواء كانت فى القول او فى الفعل واما المنكر فقيل انه الكفر بالله تعالى وقيل المنكر ما لا يعرف فى شريعة ولا سنة واما البغى فقيل الكبر والظلم وقيل ان تبغى على اخيك واعلم ان فى المأمورات كثرة وفى المنهيات ايضا كثرة وانما حسن تفسير لفظ معين لشىء معين اذا حصل بين ذلك اللفظ وبين ذلك المعنى مناسبة اما اذا لم تحصل هذه الحالة كان ذلك التفسير فاسدا فاذا فسرنا العدل بشىء والاحسان بشىء آخر وجب أن نبين ان لفظ العدل يناسب ذلك المعنى ولفظ الاحسان يناسب هذا المعنى فلما لم نبين هذا المعنى كان ذلك مجرد التحكم ولم يكن جعل بعض تلك المعانى تفسيرا لبعض تلك الالفاظ اولى من العكس فثبت ان هذه الوجوه التى ذكرناها ليست قوية فى تفسير هذه الآية وأقول ظاهر هذه الآية يدل على انه تعالى أمر بثلاثة اشياء وهى العدل والاحسان وايتاء ذى القربى ونهى عن ثلاثة اشياء وهى الفحشاء والمنكر والبغى فوجب ان يكون العدل والاحسان وايتاء ذى القربى ثلاثة اشياء متغايرة ووجب ان تكون الفحشاء والمنكر والبغى ثلاثة اشياء متغايرة لان العطف يوجب المغايرة فنقول اما العدل فهو عبارة عن الامر المتوسط بين طرفى الافراط والتفريط وذلك أمر واجب الرعاية فى جميع الاشياء ولابد من تفصيل القول فيه فنقول الاحوال التى وقع التكليف بها اما الاعتقادات واما اعمال الجوارح اما الاعتقادات فالعدل فى كلها واجب الرعاية (فأحدها) قال ابن عباس ان المراد بالعدل هو قول لا اله الا الله وتحقيق القول فيه ان نفى الاله تعطيل محض واثبات اكثر من اله واحد تشريك وتشبيه وهما مذمومان والعدل هو اثبات الاله الواحد وهو قول لا اله الا الله (وثانيها) ان القول بأن الاله ليس بموجود ولا شىء تعطيل محض والقول بانه جسم وجوهر ومركب من الاعضاء ومختص بالمكان تشبيه محض والعدل اثبات اله موجود متحقق بشرط ان يكون منزها عن الجسمية والجوهرية والاعضاء والاجزاء والمكان (وثالثها) ان القول بان الاله غير موصوف بالصفات من العلم والقدرة تعطيل محض والقول بأن صفاته حادثة متغيرة تشبيه محض والعدل هو اثبات ان الاله عالم قادر حى مع الاعتراف بان صفاته ليست حادثة ولا متغيرة (ورابعها) ان القول بان العبد ليس له قدرة ولا اختيار جبر محض والقول بان العبد مستقل بافعاله قدر محض وهما مذمومان والعدل ان يقال ان العبد يفعل الفعل لكن بواسطة قدرة وداعية يخلقهما الله تعالى فيه (وخامسها) القول بأن الله تعالى لا يؤاخذ عبده على شىء من الذنوب مساهلة عظيمة والقول بانه تعالى يخلد فى النار عبده العارف بالمعصية الواحدة تشديد عظيم والعدل انه يخرج من النار كل من قال واعتقد انه لا اله الا الله فهذه امثلة ذكرناها فى رعاية معنى العدل فى الاعتقادات واما رعاية العدل فيما يتعلق بافعال الجوارح فنذكر ستة امثلة منها (احدها) ان قوما من نفاة التكاليف

او بحسب الكيفية كما يشير اليه قوله صلى الله عليه وسلم الاحسان ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك (وايتاء ذى القربى) اى اعطاء الاقارب مايحتاجون اليه وهو تخصيص اثر تعميم اهتماما بشأنه (وينهى عن الفحشاء) الافراط فى مشايعة القوة الشهوية كالزنا مثلا (والمنكر) ماينكر شرعا اوعقلا من الافراط فى اظهار آثار القوة الغضبية (والبغى) الاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم وهو من آثار القوة الوهمية الشيطانية التى هى حاصلة من رذيلتى القوتين المذكورتين الشهوية والغضبية وليس فى البشر شر الا وهو مندرج فى هذه الاقسام صادر عنه بواسطة هذه القوى الثلاث ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه هى اجمع آية فى القرآن للخير والشر ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة لكفت فى كونه تبيانا لكل شىء وهدى (يعظكم) بما يأمر وينهى وهو اما استئناف واما حال من الضميرين فى الفعلين (لعلكم تذكرون) طلبا لان تتعظوا بذلك (واوفوا بعهد الله) هو البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فانها مبايعة لله سبحانه لقوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله (اذا عاهدتم) اى حافظوا على حدود ما عاهدتم الله عليه وبايعتم به رسوله صلى الله عليه وسلم (ولا تنقضوا الايمان) التى تحلفون بها عند المعاهدة (بعد توكيدها) حسبما هو المعهود فى اثناء العهود لا على ان يكون النهى مقيدا بالتوكيد

يقولون لا يجب على العبد الاشتغال بشئ من الطاعات ولا يجب عليه الاحتراز عن شئ من المعاصي وليس لله عليه تكليف اصلا وقال قوم من الهند ومن المانوية انه يجب على الانسان ان يجتنب عن كل الطيبات وان يبالغ في تعذيب نفسه وان يحترز عن كل ما يميل الطبع اليه حتى ان المانوية يخصون أنفسهم ويحترزون عن التزوج ويحترزون عن اكل الطعام الطيب والهند يحرقون أنفسهم ويرمون أنفسهم من شاهق الجبل فهذان الطريقان مذمومان والوسط المعتدل هو هذا الشرع الذى جاءنا به محمد صلى الله عليه وسلم (وثانيها) ان التشديد في دين موسى عليه السلام غالب جدا والتساهل في دين عيسى عليه السلام غالب جدا والوسط العدل شريعة محمد صلى الله عليه وسلم قيل كان شرع موسى عليه السلام في القتل العمد استيفاء القصاص لا محالة وفي شرع عيسى عليه السلام العفو أما في شرعنا فان شاء استوفى القصاص على سبيل المماثلة وان شاء استوفى الدية وان شاء عفا وايضا شرع موسى يقتضي الاحتراز العظيم عن المرأة حال حيضها وشرع عيسى يقتضي حل وطء الحائض والعدل ما حكم به شرعنا وهو انه يحرم وطؤها احترازا عن التلطخ بتلك الدماء الخبيثة اما لا يجب اخراجها عن الدار (وثالثها) انه تعالى قال وكذلك جعلناكم أمة وسطا يعني متباعدين عن طرفي الافراط والتفريط في كل الامور وقال والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وقال ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ولما بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في العبادات قال تعالى طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى ولما أخذ قوم في المساهلة قال أفحسبتم انما خلقناكم عبثا والمراد من الكل رعاية العدل والوسط (ورابعها) ان شريعتنا امرت بالختان والحكمة فيه ان رأس ذلك العضو جسم شديد الحس ولاجله عظم الالتذاذ عند الوقاع فلو بقيت تلك الجلدة على ذلك العضو بقي ذلك العضو على كمال القوة وشدة الاحساس فيعظم الالتذاذ اما اذا قطعت تلك الجلدة بقي ذلك العضو عاريا فيلقى الثياب وسائر الاجسام فيتصلب ويضعف حسه ويقل شعوره فيقل الالتذاذ بالوقاع فتقل الرغبة فيه فكان الشريعة انما امرت بالختان سعيا في تقليل تلك اللذة حتى يصير ميل الانسان الى قضاء شهوة الجماع الى حد الاعتدال وان لا تصير الرغبة فيه غالبة على الطبع فالاخصاء وقطع الآلات على ما تذهب اليه المانوية مذموم لانه افراط وابقاء تلك الجلدة مبالغة في تقوية تلك اللذة والعدل الوسط هو الاتيان بالختان فظهر بهذه الامثلة ان العدل واجب الرعاية في جميع الاحوال ومن الكلمات المشهورة قولهم وبالعدل قامت السموات والارض ومعناه ان مقادير العناصر لو لم تكن متعادلة متكافئة بل كان بعضها ازيد بحسب الكمية وبحسب الكيفية من الآخر لاستولى الغالب على المغلوب وهي المغلوب وتنقلب الطبائع كلها الى طبيعة الجرم الغالب ولو كان بعد الشمس من الارض اقل مما هو الآن لعظمت السخونة في هذا العالم واحترق كل ما في هذا العالم

---

مختصابه (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) شاهدا رقيبا فان الكفيل مراع لحال المكفول به محافظ عليه (ان الله يعلم ما تفعلون) من نقض الايمان والعهود فيجازيكم على ذلك (ولا تكونوا) فيما تصنعون من النقض (كالتي نقضت غزلها) اى ما غزلته مصدر بمعنى المفعول (من بعد قوة) متعلق بنقضت اى كالمرأة التي نقضت غزلها من بعد ابرامه واحكامه (أنكاثا) طاقات نكثت فتلها جمع نكث وانتصابه على الحالية من غزلها او على انه مفعول ثان لنقضت فانه بمعنى صيرت والمراد تقبيح حال النقض بتشبيه الناقض بمثل هذه الخرقاء المعتوهة قيل هي ريطة بنت سعد بن تيم وكانت خرقاء اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل اصبع وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة الى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن (تتخذون ايمانكم دخلا بينكم) حال من الضمير في لا تكونوا او في الجار والمجرور الواقع موقع الخبر اى مشابهين لامرأة شأنها هذا حال كونكم متخذين ايمانكم مفسدة ودخلا بينكم واصل الدخل ما يدخل الشئ ولم يكن منه (ان تكون امة) بان تكون جماعة (هي اربى) اى ازيد عددا وأوفر مالا (من امة) من جماعة اخرى اى لا تغدروا بقوم لكثرتكم وقلتهم اولكثرة منابذتهم وقوتهم كقريش فانهم كانوا اذا رأوا شوكة في أعادي حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا اعداءهم (انما يبلوكم الله به)

ولوكان بعدها ازيد مما هو الآن لاستولى البرد والجمود على هذا العالم وكذا القول فى مقادير حركات الكواكب ومراتب سرعتها وبطئها فان الواحد منها لوكان ازيد مما هو الآن اوكان انقص مما هو الآن لاختلت مصالح هذا العالم فظهر بهذا السبب الذى ذكرناه صدق قولهم وبالعدل قامت السموات والارض فهذه اشارة مختصرة الى شرح حقيقة العدل واما الاحسان فاعلم ان الزيادة على العدل قد تكون احسانا وقد تكون اساءة مثاله ان العدل فى الطاعات هو اداء الواجبات اما الزيادة على الواجبات فهى ايضا طاعات وذلك من باب الاحسان وبالجملة فالمبالغة فى اداء الطاعات بحسب الكمية وبحسب الكيفية هو الاحسان والدليل عليه ان جبريل لما سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الاحسان قال الاحسان ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك فان قالوا لم سمى هذا المعنى بالاحسان قلنا كأنه بالمبالغة فى الطاعة يحسن الى نفسه ويوصل الخير والفعل الحسن الى نفسه والحاصل ان العدل عبارة عن القدر الواجب من الخيرات والاحسان عبارة عن الزيادة فى تلك الطاعات بحسب الكمية وبحسب الكيفية وبحسب الدواعى والصوارف وبحسب الاستغراق فى شهود مقامات العبودية والربوبية فهذا هو الاحسان واعلم ان الاحسان بالتفسير الذى ذكرناه دخل فيه التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله ومن الظاهر ان الشفقة على خلق الله اقسام كثيرة واشرفها واجلها صلة الرحم لاجرم انه سبحانه افرده بالذكر فقال وايتاء ذى القربى فهذا تفصيل القول فى هذه الثلاثة التى امر الله تعالى بها واما الثلاثة التى نهى الله عنها وهى الفحشاء والمنكر والبغى فنقول انه تعالى أودع فى النفس البشرية قوى اربعة وهى الشهوانية البهيمية والغضبية السبعية والوهمية الشيطانية والعقلية الملكية وهذه القوة الرابعة اعنى العقلية الملكية لايحتاج الانسان الى تأديبها وتهذيبها لانها من جواهر الملائكة ومن نتائج الارواح القدسية العلوية انما المحتاج الى التأديب والتهذيب تلك القوى الثلاث الاول اما القوة الشهوانية فهى انما ترغب فى تحصيل اللذات الشهوانية وهذا النوع مخصوص باسم الفحش ألاترى انه تعالى سمى الزنا فاحشة فقال انه كان فاحشة وساء سبيلا فقوله تعالى وينهى عن الفحشاء المراد منه المنع من تحصيل اللذات الشهوانية الخارجة عن اذن الشريعة واما القوة الغضبية السبعية فهى ابدا تسعى فى ايصال الشر والبلاء والايذاء الى سائر الناس ولاشك ان الناس ينكرون تلك الحالة فالمنكر عبارة عن الافراط الحاصل فى آثار القوة الغضبية واما القوة الوهمية الشيطانية فهى ابدا تسعى فى الاستعلاء على الناس والترفع واظهار الرياسة والتقدم وذلك هو المراد من البغى فانه لامعنى للبغى الا التطاول على الناس والترفع عليهم فظهر بما ذكرنا ان هذه الالفاظ الثلاثة منطبقة على احوال هذه القوى الثلاث ومن العجائب فى هذا الباب ان العقلاء قالوا أخس هذه القوى الثلاثة هى الشهوانية واوسطها الغضبية واعلاها الوهمية والله

اى بأن تكون امة اربى من امة اى يعاملكم بذلك معاملة من يختبركم لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله عليه السلام ام تغترون بكثرة قريش وشوكتهم وقلة المؤمنين وضعفهم بحسب ظاهر الحال (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) حين جازاكم بأعمالكم ثوابا وعقابا (ولوشاء الله) مشيئة قسر والجاء (لجعلكم امة واحدة) متفقة على الاسلام (ولكن) لايشاء ذلك لكونه مزاحا لقضية الحكمة بل (يضل من يشاء) اضلاله اى يخلق فيه الضلال حسبما يصرف اختياره الجزئى اليه (ويهدى من يشاء) هدايته حسبما يصرف اختياره الى تحصيلها (ولتسألن) جميعا يوم القيامة (عما كنتم تعملون) فى الدنيا وهذا اشارة الى ما لوح به من الكسب الذى عليه يدور أمر الهداية والضلال (ولا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم) تصريح بالنهى عنه بعد التضمين تأكيدا ومبالغة فى بيان قبح المنهى عنه وتمهيدا لقوله سبحانه (فتزل قدم) عن محجة الحق (بعد ثبوتها) عليها ورسوخها فيها بالايمان وافراد القدم وتنكيرها للايذان بأن زلل قدم واحدة اى قدم كانت عزت اوهانت محذور عظيم فكيف بأقدام كثيرة (وتذوقوا السوء) اى العذاب الدنيوى (بما صددتم) بصدودكم اوبصدكم غيركم (عن سبيل الله) الذى ينتظم الوفاء بالعهود والايمان من نقض البيعة والارتداد وجعل ذلك سنة لغيره (ولكم) فى الآخرة (عذاب عظيم

تعالى راعى هذا الترتيب فبدأ بالفحشاء التى هى نتيجة القوة الشهوانية ثم بالمنكر الذى هو نتيجة القوة الغضبية ثم بالبغى الذى هو نتيجة القوة الوهمية فهذا ماوصل اليه عقلى وخاطرى فى تفسير هذه الالفاظ فان يك صوابا فمن الرحمن وان يك خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله عنه بريئان والحمدلله على ماخصنا بهذا النوع من الفضل والاحسان انه الملك الديان ثم قال تعالى يعظكم لعلكم تذكرون والمراد بقوله تعالى يعظكم امره تعالى بتلك الثلاثة ونهيه عن هذه الثلاثة لعلكم تذكرون وفيه مسئلتان (الاولى) انه تعالى لما قال فى الآية الاولى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ اردفه بهذه الآية مشتملة على الامر بهذه الثلاثة والنهى عن هذه الثلاثة كان ذلك تنبيها على ان المراد بكون القرآن تبيانا لكل شئ هو هذه التكاليف الستة وهى فى الحقيقة كذلك لان جوهر النفس من زمرة الملائكة ومن نتائج الارواح العالية القدسية الا انه دخل فى هذا العالم خاليا عاريا عن التعلقات فتلك الثلاثة التى امر الله بها هى التى ترقيها بالمعارف الالهية والاعمال الصالحة وتلك المعارف والاعمال هى التى ترقيها الى عالم الغيب وسرادقات القدس ومجاورة الملائكة المقربين فى جوار رب العالمين وتلك الثلاثة التى نهى الله عنها هى التى تصدها عن تلك السعادات وتمنعها عن الفوز بتلك الخيرات فلما امر الله تعالى بتلك الثلاثة ونهى عن هذه الثلاثة فقد نبه على كل مايحتاج اليه المسافرون من عالم الدنيا الى مبدأ عرصة القيامة (المسئلة الثانية) قال الكعبى الآية تدل على انه تعالى لايخلق الجور والفحشاء وذلك من وجوه (الاول) انه تعالى كيف ينهاهم عما يخترعه فيهم وكيف ينهى عما يريد تحصيله فيهم ولوكان الامر كما قالوا لكان كأنه تعالى قال ان الله يأمركم ان تفعلوا خلاف ماخلقه فيكم وينهاكم عن افعال خلقها فيكم ومعلوم ان ذلك باطل فى بديهة العقل (الثانى) انه تعالى لماامر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى فلو انه تعالى امر بتلك الثلاثة ثم انه مافعلها لدخل تحت قوله أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وتحت قوله لم تقولون مالاتفعلون كبر مقتا عند الله ان تقولوا مالاتفعلون (الثالث) ان قوله لعلكم تذكرون ليس المراد منه الترجى والتمنى فان ذلك محال على الله تعالى فوجب ان يكون معناه انه تعالى يعظكم لارادة ان تتذكروا طاعته وذلك يدل على انه تعالى يريد الايمان من الكل (الرابع) انه تعالى لوصرح وقال ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ولكنه يمنع منه ويصد عنه ولايمكن العبد منه ثم قال وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ولكنه يوجد كل هذه الثلاثة فى العبد شاء ام ابى واراده منه ومنعه من تركه ومن الاحتراز عنه لحكم كل احد عليه بالركاكة وفساد النظم والتركيب وذلك يدل على كونه سبحانه متعاليا عن فعل القبائح واعلم ان هذا النوع من الاستدلال كثير وقد مر الجواب عنه والمعتمد فى دفع هذه المشاغبات التعويل على سؤال الداعى وسؤال العلم

( والله )

ولاتشتروا بعهدالله ) اى لاتأخذوا بمقابلة عهده تعالى وبيعة رسوله عليه السلام اوآياته الناطقة بايجاب المحافظة على العهود والايمان (ثمنا قليلا) اى لاتستبدلوا بها عرضا يسيرا وهوما كانت قريش يعدون ضعفة المسلمين ويشترطون لهم على الارتداد من حطام الدنيا ( ان ماعندالله ) عز وجل من النصر والتغنيم والثواب الاخروى ( هو خير لكم ) مما يعدونكم ( ان كنتم تعلمون) اى ان كنتم من اهل العلم والتمييز وهو تعليل للنهى على طريقة التحقيق كما ان قوله تعالى ( ماعندكم ) تعليل للخيرية بطريق الاستئناف اى ماتتمتعون به من نعيم الدنيا وان جل بل الدنيا ومافيها جميعا ( ينفد ) وان جم عدده وينقضى وان طال أمده ( وماعندالله ) من خزائن رحمته الدنيوية والاخروية (باق) لانفاد له اما الاخروية فظاهرة واما الدنيوية فحيث كانت موصولة بالاخروية ومستتبعة لها فقد انتظمت فى سمط الباقيات الصالحات وفى ايثار الاسم على صيغة المضارع من الدلالة على الدوام مالا يخفى وقوله تعالى (ولنجزين) بنون العظمة على طريقة الالتفات تكرير للوعد المستفاد من قوله تعالى ان ماعندالله هو خير لكم على نهج التوكيد القسمى مبالغة فى الحمل على الثبات فى الدين والالتفات عمايقتضيه ظاهر الحال من ان يقال ولنجزينكم اجركم بأحسن

والله اعلم (المسئلة الثالثة) اتفق المتكلمون من اهل السنة ومن المعتزلة على ان تذكر الاشياء من فعل الله لامن فعل العبد والدليل عليه هو ان التذكر عبارة عن طلب المتذكر فحال الطلب اما ان يكون له به شعور أو لايكون له به شعور فان كان له شعور فذلك الذكر حاصل والحاصل لايطلب تحصيله وان لم يكن له به شعور فكيف يطلبه بعينه لان توجيه الطلب اليه بعينه حال مالايكون هو بعينه متصورا محال اذا ثبت هذا فنقول قوله لعلكم تذكرون معناه ان المقصود من هذا الوعظ ان يقدموا على تحصيل ذلك التذكر فاذا لم يكن التذكر فعلا له فكيف طلب منه تحصيله وهذا هو الذى يحتج به اصحابنا على ان قوله تعالى لعلكم تذكرون لايدل على انه تعالى يريد منه ذلك والله اعلم ❊ قوله تعالى (واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولاتنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ماتفعلون ولاتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم ان تكون امة هى أربى من امة انما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) اعلم انه تعالى لما جمع كل المأمورات والمنهيات فى الآية الاولى على سبيل الاجمال ذكر فى هذه الآية بعض تلك الاقسام فبدأ تعالى بالامر بالوفاء بالعهد وفى الآية مسائل (المسئلة الاول) ذكروا فى تفسير قوله بعهد الله وجوها (الاول) قال صاحب الكشاف عهد الله هى البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام لقوله ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم أى ولاتنقضوا ايمان البيعة بعد توكيدها أى بعد توثيقها باسم الله (الثانى) ان المراد منه كل عهد يلتزمه الانسان باختياره قال ابن عباس والوعد من العهد وقال ميمون بن مهران من عاهدته وف بعهده مسلما كان أو كافرا فانما العهد لله تعالى (الثالث) قال الاصم المراد منه الجهاد ومافرض الله فى الاموال من حق (الرابع) عهد الله هو اليمين بالله وقال هذا القائل انما يجب الوفاء باليمين اذا لم يكن الصلاح فى خلافه لانه عليه السلام قال من حلف على يمين ورأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير ثم ليكفر (الخامس) قال القاضى العهد يتنا ول كل امر يجب الوفاء بمقتضاه ومعلوم ان ادلة العقل والسمع اوكد فى لزوم الوفاء بما يدلان على وجوبه من اليمين ولذلك لايصح فى هذين الدليلين التغير والاختلاف ويصح ذلك فى اليمين وربما ندب فيه خلاف الوفاء ولقائل ان يقول انه تعالى قال واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم فهذا يجب ان يكون مختصا بالعهود التى يلتزمها الانسان باختيار نفسه لان قوله اذا عاهدتم يدل على هذا المعنى وحينئذ لايبقى المعنى الذى ذكره القاضى معتبرا ولانه تعالى قال فى آخر الآية وقد جعلتم الله عليكم كفيلا وهذا يدل على ان الآية واردة فيمن آمن بالله والرسول وايضا يجب ان لايحمل هذا العهد على اليمين لانا لو حملناه عليه لكان قوله بعد ذلك ولاتنقضوا الايمان بعد توكيدها تكرارا لان الوفاء بالعهد والمنع من النقض متقاربان لان الامر بالفعل يستلزم النهى عن الترك الا اذا قيل ان الوفاء بالعهد عام

ما كنتم تعملون للتوسل الى التعرض لاعمالهم والاشعار بعليتها للجزاء اى والله لنجزين (الذين صبروا) على أذية المشركين ومشاق الاسلام التى من جملتها الوفاء بالعهود والفقر وقرئ بالياء من غير التفات (اجرهم) مفعول ثان لنجزين اى لنعطينهم اجرهم الخاص بهم بمقابلة صبرهم على مامنوا به من الامور المذكورة (بأحسن ما كانوا يعملون) اى لنجزينهم بما كانوا يعملونه من الصبر المذكور وانما اضيف اليه الاحسن للاشعار بكمال حسنه كما فى قوله سبحانه وحسن ثواب الآخرة لالافادة قصر الجزاء على الاحسن منه دون الحسن فان ذلك مما لايخطر ببال احد لاسيما بعد قوله تعالى اجرهم او لنجزينهم بحسب احسن افراد اعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الادنى من اعمالهم المذكورة مانعطيه بمقابلة الفرد الاعلى منها من الاجر الجزيل لاانا نعطى الاجر بحسب افرادها المتفاوتة فى مراتب الحسن بأن نجزى الحسن منها الاجر الحسن والاحسن بالاحسن وفيه مالايخفى من العدة الجميلة باغتفار ما عسى يعتريهم فى تضاعيف الصبر من بعض جزع ونظمه فى سلك الصبر الجميل او لنجزينهم بجزاء احسن من اعمالهم واما التفسير بما ترجح فعله من اعمالهم كالواجبات والمندوبات او بما ترجح تركه ايضا كالمحرمات والمكروهات دلالة على ان ذلك هو المدار للجزاء دون

فدخل تحته اليمين ثم انه تعالى خص اليمين بالذكر تنبيها على انه اولى انواع العهد
بوجوب الرعاية وعند هذا نقول الاولى ان يحمل هذا العهد على مايلتزمه الانسان
باختياره ويدخل فيه المبايعة على الايمان بالله وبرسوله ويدخل فيه عهد الجهاد وعهد
الوفاء بالملتزمات من المنذورات والاشياء التى اكدها بالحلف واليمين وفى قوله ولاتنقضوا
الايمان بعد توكيدها مباحث ( الاول ) قال الزجاج يقال وكدت واكدت لغتان
جيدتان والاصل الواو والهمزة بدل منها (البحث الثانى) قال اصحاب ابى حنيفة رحمه الله
يمين اللغو هى يمين الغموس والدليل عليه انه تعالى قال ولاتنقضوا الايمان بعد توكيدها
فنهى فى هذه الآية عن نقض الايمان فوجب ان يكون كل يمين قابلا للبر والحنث
ويمين الغموس غير قابلة للبر والحنث فوجب ان لاتكون من الايمان واحتج الواحدى
بهذه الآية على ان يمين اللغو هى قول العرب لا والله وبلى والله قال انما قال تعالى بعد
توكيدها للفرق بين الايمان المؤكدة بالعزم وبالعقد وبين لغو اليمين ( البحث الثالث )
قوله ولاتنقضوا الايمان بعد توكيدها عام دخله التخصيص لانا بينا ان الخبر دل على انه
متى كان الصلاح فى نقض الايمان جاز نقضها ثم قال وقد جعلتم الله عليكم كفيلا هذه واو
الحال اى لاتنقضوها وقد جعلتم الله كفيلا عليكم بالوفاء وذلك ان من حلف بالله تعالى
فكأنه قد جعل الله كفيلا بالوفاء بسبب ذلك الحلف ثم قال ان الله يعلم ماتفعلون وفيه
ترغيب وترهيب والمراد فيجازيكم على ماتفعلون ان خيرا فخير وان شرا فشر ثم انه تعالى
اكد وجوب الوفاء وتحريم النقض وقال ولاتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة
انكاثا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى المشبه به قولان ( الاول ) انها امرأة من قريش
يقال لها رايطة وقيل ريطة وقيل تلقب جعراء وكانت حمقاء تغزل الغزل هى وجواريها
فاذا غزلت وابرمت امرتهن فنقضن ماغزلن ( والقول الثانى ) ان المراد بالمثل الوصف
دون التعيين لان القصد بالامثال صرف المكلف عنه اذا كان قبيحا والدعاء اليه اذا كان
حسنا وذلك يتم به من دون التعيين (المسئلة الثانية) قوله من بعد قوة اى من بعد قوة
الغزل بابرامها وفتلها (المسئلة الثالثة) قوله انكاثا قال الازهرى واحدها نكث وهو
الغزل من الصوف والشعر يبرم وينسج فاذا احكمت النسجة قطعتها ونكثت خيوطها
المبرمة ونفشت تلك الخيوط وخلطت بالصوف ثم غزلت ثانية والنكث المصدر ومنه يقال
نكث فلان عهده اذا نقضه بعد احكامه كما ينكث خيط الصوف بعد ابرامه ( المسئلة
الرابعة) فى انتصاب قوله انكاثا وجوه (الاول) قال الزجاج انكاثا منصوب لانه بمعنى
المصدر لان معنى نكثت نقضت ومعنى نقضت نكثت وهذا غلط منه لان الانكاث جمع
نكث وهو اسم لامصدر فكيف يكون قوله انكاثا بمعنى المصدر (الثانى) قال الواحدى
انكاثا مفعول ثان كما تقول كسره اقطاعا وفرقه اجزاء على معنى جعله اقطاعا واجزاء
فكذا ههنا قوله نقضت غزلها انكاثا اى جعلت غزلها انكاثا (الثالث) ان قوله انكاثا

مايستوى فعله وتركه كالمباحات
فلا يساعده مقام الحث على الثبات
على ماهم عليه من الاعمال الحسنة
المخصوصة والترغيب فى تحصيل
ثمراتها بل التعرض لاخراج
بعض اعمالهم عن مدارية الجزاء
من قبيل تحجير الرحمة الواسعة
فى مقام توسيع حجاها ( من عمل
صالحا ) اى عملا صالحا اى عمل
كان وهذا شروع فى تحريض كافة
المؤمنين على كل عمل صالح غب
ترغيب طائفة منهم فى الثبات على
ماهم عليه من عمل صالح مخصوص
دفعا لتوهم اختصاص الاجر
الموفور بهم وبعملهم المذكور
وقوله تعالى ( من ذكر اوانثى )
مبالغة فى بيان شموله للكل (وهو
مؤمن) قيده به اذ لا اعتداد باعمال
الكفرة فى استحقاق الثواب او
تخفيف العذاب لقوله تعالى
وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه
هباء منثورا وايثار ايراده بالجملة
الاسمية الحالية على نظمه فى سلك
الصلة لافادة وجوب دوامه
ومقارنته للعمل الصالح (فلنحيينه
حياة طيبة) فى الدنيا يعيش عيشا
طيبا اما ان كان موسرا فظاهر
واما ان كان معسرا فيطيب
عيشه بالقناعة والرضا بالقسمة
وتوقع الاجر العظيم كالصائم
يطيب نهاره بملاحظة نعيم ليله
بخلاف الفاجر فانه ان كان معسرا
فظاهر وان كان موسرا فلا يدعه
الحرص وخوف الفوات ان يتهنأ
بعيشه (ولنجزينهم) فى الآخرة
(اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)
حسبما نفعل بالصابرين فليس فيه
شائبة تكرار والجمع فى الجمع
فى الضمائر العائدة

حال مؤكدة (المسألة الخامسة) قال ابن قتيبة هذه الآية متصلة بماقبلها والتقدير
واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولاتنقضوا الايمان بعد توكيدها فانكم ان فعلتم ذلك
كنتم مثل المرأة التى غزلت غزلا واحكمته فلمااستحكم نقضته فجعلته انكاثا ثم قال تعالى
تتخذون ايمانكم دخلا بينكم قال الواحدى الدخل والدغل الغش والخيانة قال الزجاج
كل مادخله عيب قيل هو مدخول وفيه دخل وقال غيره الدخل مادخل فى الشئ على
فساد ثم قال ان تكون امة هى اربى من امة اربى اى اكثر من ربا الشئ يربو اذا زاد
وهذه الزيادة قد تكون فى العدد وفى القوة وفى الشرف قال مجاهد كانوا يحالفون الحلفاء
ثم يجدون من كان اعز منهم واشرف فينقضون حلف الاولين ويحالفون هؤلاء الذين هم
اعز فنهاهم الله تعالى عن ذلك وقوله ان تكون معناه انكم تتخذون ايمانكم دخلا بينكم
بسبب ان تكون امة اربى من امة فى العدد والقوة والشرف فقوله تتخذون ايمانكم
دخلا بينكم استفهام على سبيل الانكار والمعنى أتتخذون ايمانكم دخلا بينكم بسبب
ان امة ازيد فى القوة والكثرة من امة اخرى ثم قال تعالى انما يبلوكم الله به اى بما يأمركم
وينهاكم وقد تقدم ذكر الامر والنهى وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون
فيتميز المحق من المبطل بما يظهر من درجات الثواب والعقاب والله اعلم ❊ قوله تعالى
(ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسئلن عما
كنتم تعملون) اعلم انه تعالى لما كلف القوم بالوفاء بالعهد وتحريم نقضه اتبعه ببيان انه
تعالى قادر على ان يجمعهم على هذا الوفاء وعلى سائر ابواب الايمان ولكنه سبحانه
بحكم الالهية يضل من يشاء ويهدى من يشاء اما المعتزلة فانهم حملوا ذلك على الالجاء اى
لو اراد ان يلجئهم الى الايمان او الى الكفر لقدر عليه الا ان ذلك يبطل التكليف فلاجرم
ما الجأهم اليه وفوض الامر الى اختيارهم فى هذه التكاليف واما قول اصحابنا فيه فهو
ظاهر وهذه المناظرة قد تكررت مرارا كثيرة وروى الواحدى ان عزيرا قال يارب
خلقت الخلق فتضل من تشاء وتهدى من تشاء فقال ياعزير اعرض عن هذا فأعاده ثانيا
فقال اعرض عن هذا فأعاده ثالثا فقال اعرض عن هذا والامحوت اسمك من النبوة
قالت المعتزلة ومما يدل على ان المراد من هذه المشيئة مشيئة الالجاء انه تعالى قال بعده
ولتسئلن عما كنتم تعملون فلو كانت اعمال العباد بخلق الله تعالى لكان سؤالهم عنها
عبثا والجواب عنه قد سبق مرارا والله تعالى اعلم ❊ قوله تعالى (ولاتتخذوا ايمانكم دخلا
بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم
ولاتشتروا بعهد الله ثمنا قليلا انما عند الله هو خير لكم ان كنتم تعلمون ماعندكم ينفد
وماعند الله باق ولنجزين الذين صبروا اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون من عمل صالحا
من ذكر اوانثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا
يعملون) اعلم انه تعالى لما حذر فى الآية الاولى عن نقض العهود والايمان على

---

الى الموصول لمراعاة جانب
المعنى كما ان الافراد فيما سلف
لرعاية جانب اللفظ وايثار ذلك
على العكس لما ان وقوع الجزاء
بطريق الاجتماع المناسب للجمعية
ووقوع مافى حيز الصلة ومايترتب
عليه بطريق الافتراق والتعاقب
الملائم للافراد واذ قد انتهى الامر
الى ان مدار الجزاء المذكور هو
صلاح العمل وحسنه رتب عليه
بالفاء للارشاد الى مابه يحسن العمل
الصالح ويخلص عن شوب الفساد
فقيل (فاذا قرأت القرآن) اى
اذا اردت قراءته عبر بها عن
ارادتها على طريقة اطلاق اسم
المسبب على السبب ايذانا بأن
المراد هى الارادة المتصلة بالقراءة
(فاستعذ بالله) فاسأله عز جاره
ان يعيذك (من الشيطان الرجيم)
من وساوسه وخطراته كى لا
يوسوسك عند القراءة فان له همة
بذلك قال تعالى وما ارسلنا من
قبلك من رسول ولانبى الا اذا
تمنى القى الشيطان فى امنيته الآية
وتوجيه الخطاب الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم وتخصيص
قراءة القرآن من بين الاعمال
الصالحة بالاستعاذة عند ارادتها
للتنبيه على انها لغيره عليه الصلاة
والسلام وفى سائر الاعمال الصالحة
اهم فأنه عليه السلام حيث امر
بها عند قراءة القرآن الذى
لايأتيه الباطل من بين يديه ولا
من خلفه فاظنكم بمن عداه عليه
السلام فيما عدا القراءة من
الاعمال والامر للندب وهذا
مذهب الجمهور وعند عطاء
للوجوب وقد اخذ بظاهر النظم
الكريم فاستعاذ عقيب

الاطلاق حذر فى هذه الآية فقال ولاتتخذوا ايمانكم دخلا بينكم وليس المراد منه التحذير عن نقض مطلق الايمان والالزم التكرير الخالى عن الفائدة فى موضع واحد بل المراد نهى اولئك الاقوام المخاطبين بهذا الخطاب عن نقض ايمان مخصوصة اقدموا عليها فلهذا المعنى قال المفسرون المراد من هذه الآية نهى الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نقض عهده لان هذا الوعيد وهو قوله فتزل قدم بعد ثبوتها لايليق بنقض عهد قبله وانمايليق بنقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان به وشرائعه وقوله فتزل قدم بعد ثبوتها مثل يذكر لكل من وقع فى بلاء بعد عافية ومحنة بعد نعمة فان من نقض عهد الاسلام فقد سقط عن الدرجات العالية ووقع فى مثل هذه الضلالة ويدل على هذا قوله تعالى وتذوقوا السوء اى العذاب بما صددتم اى بصدكم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم اى ذلك السوء الذى تذوقونه سوء عظيم وعقاب شديد ثم اكد هذا التحذير فقال ولاتشتروا بعهد الله ثمنا قليلا يريد عرض الدنيا وان كان كثيرا الا ان ماعندالله هو خير لكم ان كنتم تعلمون يعنى انكم وان وجدتم على نقض عهد الاسلام خيرا من خيرات الدنيا فلاتلتفتوا اليه لان الذى اعده الله تعالى على البقاء على الاسلام خير وافضل واكمل مما تجدونه فى الدنيا على نقض عهد الاسلام ان كنتم تعلمون التفاوت بين خيرات الدنيا وبين خيرات الآخرة ثم ذكر الدليل القاطع على ان ماعندالله خير مما يجدونه من طيبات الدنيا فقال ماعندكم ينفد وماعندالله باق وفيه بحثان (الاول) الحس شاهد بأن خيرات الدنيا منقطعة والعقل دل على ان خيرات الآخرة باقية والباقى خير من المنقطع والدليل عليه ان هذا المنقطع امان يقال انه كان خيرا عاليا شريفا اوكان خيرا دنيا خسيسا فان قلنا انه كان خيرا عاليا شريفا فالعلم بأنه سينقطع يجعله منغصا حال حصوله واما حال حصول ذلك الانقطاع فانها تعظم الحسرة والحزن وكون تلك النعمة العالية الشريفة كذلك ينغص فيها ويقلل مرتبتها وتفتر الرغبة فيها واما ان قلنا ان تلك النعمة المنقطعة كانت من الخيرات الخسيسة فههنا من الظاهر ان ذلك الخير الدائم وجب ان يكون افضل من ذلك الخير المنقطع فثبت بهذا ان قوله تعالى ماعندكم ينفد وماعندالله باق برهان قاطع على ان خيرات الآخرة افضل من خيرات الدنيا ( البحث الثانى) ان قوله وماعندالله باق يدل على ان نعيم اهل الجنة باق لاينقطع وقال جهم بن صفوان انه منقطع والآية حجة عليه واعلم ان المؤمن اذا آمن بالله فقد التزم شرائع الاسلام والايمان وحينئذ يجب عليه امران (احدهما) ان يصبر على ذلك الالتزام وان لايرجع عنه وان لاينقضه بعد ثبوته (والثانى) ان يأتى بكل ماهو من شرائع الاسلام ولوازمه اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى رغب المؤمنين فى القسم الاول وهو الصبر على ماالتزموه فقال ولنجزين الذين صبروا اى على ماالتزموه من شرائع الاسلام بأحسن ماكانوا يعملون اى نجزيهم على احسن اعمالهم وذلك لان المؤمن قد يأتى

القراءة ابو هريرة رضى الله تعالى عنه ومالك وابن سيرين وداود وحمزة من القراء وعن ابن مسعود رضى الله عنه قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت اعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم فقال عليه السلام قل اعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا اقرأنيه جبريل عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ (انه) الضمير للشأن او للشيطان (ليس له سلطان) تسلط وولاية (على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) اى اليه يفوضون امورهم وبه يعوذون فى كل مايأتون ومايذرون فان وسوسته لا تؤثر فيهم ودعوته غير مستجابة عندهم وايثار صيغة الماضى فى الصلة الاولى للدلالة على التحقق كما ان اختيار صيغة الاستقبال فى الثانية لافادة الاستمرار التجددى وفى التعرض لوصف الربوبية عدة كريمة باعاذة المتوكلين والجملة تعليل للامر بالاستعاذة اوالجواب المنوى اى يعذك اونحوه (انما سلطانه) اى تسلطه وولايته بدعوته المستتبعة للا ستجابة لاسلطانه بالقسر والالجاء فانه منتف عن الفريقين لقوله سبحانه حكاية عنه وما كان لى عليكم من سلطان الاان دعوتكم فاستجبتم لى وقد افصح عنه قوله تعالى (على الذين يتولونه) اى يتخذونه وليا ويستجيبون دعوته ويطيعونه فان المقسور بمعزل من ذلك (والذين هم به) سبحانه وتعالى (مشركون) اوبسبب الشيطان مشركون اذ هو الذى حملهم

بالمباحات وبالمندوبات وبالواجبات ولاشك انه على فعل المندوبات والواجبات يثاب لاعلى فعل المباحات فلهذا قال ولنجزين الذين صبروا اجرهم بأحسن ماكانوا يعملون ثم انه تعالى رغب المؤمنين فى القسم الثانى وهو الاتيان بكل ماكان من شرائع الاسلام فقال من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم بأحسن ماكانوا يعملون وفى الآية سؤالات (السؤال الاول) لفظة من فى قوله من عمل صالحا تفيد العموم فما الفائدة فى ذكر الذكر والانثى والجواب ان هذه الآية للوعد بالخيرات والمبالغة فى تقرير الوعد من اعظم دلائل الكرم والرحمة اثباتا للتأكيد وازالة لوهم التخصيص (السؤال الثانى) هل تدل هذه الآية على ان الايمان مغاير للعمل الصالح والجواب نعم لانه تعالى جعل الايمان شرطا فى كون العمل الصالح موجبا للثواب وشرط الشئ مغاير لذلك الشئ (السؤال الثالث) ظاهر الآية يقتضى ان العمل الصالح انما يفيد الاثر بشرط الايمان فظاهر قوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره يدل على ان العمل الصالح يفيد الاثر سواء كان مع الايمان اوكان مع عدمه والجواب ان افادة العمل الصالح للحياة الطيبة مشروط بالايمان اما افادته لاثر غير هذه الحياة الطيبة وهو تخفيف العقاب فانه لايتوقف على الايمان (السؤال الرابع) هذه الحياة الطيبة تحصل فى الدنيا أو فى القبر أو فى الآخرة والجواب فيه ثلاثة اقوال (الاول) قال القاضى الاقرب انها تحصل فى الدنيا بدليل انه تعالى اعقبه بقوله ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ولاشبهة فى ان المراد منه مايكون فى الآخرة ولقائل ان يقول لايبعد ان يكون المراد من الحياة الطيبة مايحصل فى الآخرة ثم انه مع ذلك وعدهم الله على انه انما يجزيهم على ماهو احسن اعمالهم فبهذا الامتناع فيه فان قيل بتقدير ان تكون هذه الحياة الطيبة انما تحصل فى الدنيا فما هى والجواب ذكروا فيه وجوها قيل هو الرزق الحلال الطيب وقيل عبادة الله مع اكل الحلال وقيل القناعة وقيل رزق يوم بيوم كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه قنعنى بما رزقتنى وعن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان يدعو اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا قال الواحدى وقول من يقول انه القناعة حسن مختار لانه لايطيب عيش احد فى الدنيا الا عيش القانع واما الحريص فانه يكون ابدا فى الكد والعناء * واعلم ان عيش المؤمن فى الدنيا اطيب من عيش الكافر لوجوه (الاول) انه لما عرف ان رزقه انما حصل بتدبير الله تعالى وعرف انه تعالى محسن كريم لايفعل الا الصواب كان راضيا بكل ماقضاه وقدره وعلم ان مصلحته فى ذلك اما الجاهل فلا يعرف هذه الاصول فكان ابدا فى الحزن والشقاء (وثانيها) ان المؤمن ابدا يستحضر فى عقله انواع المصائب والمحن ويقدر وقوعها وعلى تقدير وقوعها يرضى بها لان الرضا بقضاء الله تعالى واجب فعند وقوعها لايستعظمها بخلاف الجاهل فانه يكون غافلا عن تلك المعارف فعند وقوع المصائب يعظم تأثيرها فى قلبه (وثالثها) ان قلب المؤمن منشرح

على الاشراك بالله سبحانه وقصر سلطانه عليهم غب نفيه عن المؤمنين المتوكلين دليل على ان لاواسطة فى الخارج بين التوكل على الله تعالى وبين تولى الشيطان وان كان بينهما واسطة فى المفهوم وان من لم يتوكل عليه تعالى ينتظم فى سلك من يتولى الشيطان من حيث لايحتسب اذبه يتم التعليل ففيه مبالغة فى الحمل على التوكل والتحذير عن مقابله وايثار الجملة الفعلية الاستقبالية فى الصلة الاولى لما مر من افادة الاستمرار التجددى كما ان اختيار الجملة الاسمية فى الثانية للدلالة على الثبات وتكرير الموصول للاحتراز عن توهم كون الصلة الثانية حالية مفيدة لعدم دخول غير المشركين من اولياء الشيطان تحت سلطانه وتقديم الاولى على الثانية التى هى بمقابلة الصلة الاولى فيما سلف لرعاية المقارنة بينها وبين مايقابلها من التوكل على الله تعالى ولو روعى الترتيب السابق لانفصل كل من القرينتين عما يقابلها (واذا بدلنا آية مكان آية) اى اذا انزلنا آية من القرآن مكان آية منه وجعلناها بدلا منها بان نسخناها بها (والله اعلم بما ينزل) اولا وآخرا وبأن كلا من ذلك مانزلت حيثما نزلت الا حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فان كل وقت له مقتض غير مقتضى الآخر فكم من مصلحة فى وقت تنقلب فى وقت آخر مفسدة وبالعكس لانقلاب الامور الداعية الى ذلك وما الشرائع الا مصالح للعباد فى المعاش والمعاد تدور حسبما تدور المصالح والجملة

بنور معرفة الله تعالى والقلب اذا كان مملوأ من هذه المعارف لم يتسع للاحزان الواقعة بسبب احوال الدنيا اما قلب الجاهل فانه خال عن معرفة الله تعالى فلاجرم يصير مملوأ من الاحزان الواقعة بسبب مصائب الدنيا (ورابعها) ان المؤمن عارف بأن خيرات الحياة الجسمانية خسيسة فلا يعظم فرحه بوجدانها وغمه بفقدانها اما الجاهل فانه لا يعرف سعادة اخرى تغايرها فلاجرم يعظم فرحه بوجدانها وغمه بفقدانها (وخامسها) ان المؤمن يعلم ان خيرات الدنيا واجبة التغير سريعة التقلب فلولا تغيرها وانقلابها لم تصل من غيره اليه واعلم ان ماكان واجب التغير فانه عند وصوله اليه لاتنقلب حقيقته ولا تتبدل ماهيته فعند وصوله اليه يكون ايضا واجب التغير فعند ذلك لايطبع العاقل قلبه عليه ولايقيم له في قلبه وزنا بخلاف الجاهل فانه يكون غافلا عن هذه المعارف فيطبع قلبه عليها ويعانقها معانقة العاشق لمعشوقه فعند فوته وزواله يحترق قلبه ويعظم البلاء عنده فهذه وجوه كافية في بيان ان عيش المؤمن العارف اطيب من عيش الكافر هذا كله اذا فسرنا الحياة الطيبة بأنها في الدنيا (والقول الثاني) وهو قول السدى ان هذه الحياة الطيبة انما تحصل في القبر (والقول الثالث) وهو قول الحسن وسعيد بن جبير ان هذه الحياة الطيبة لاتحصل الا في الآخرة والدليل عليه قوله تعالى يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه فبين ان هذا الكدح باق الى ان يصل الى ربه وذلك ماقلناه واما بيان ان الحياة الطيبة في الجنة فلانها حياة بلاموت وغنى بلا فقر وصحة بلا مرض وملك بلا زوال وسعادة بلا شقاء فثبت ان الحياة الطيبة ليست الا تلك الحياة ثم انه تعالى ختم الآية بقوله ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون وقد سبق تفسيره والله اعلم

❁ قوله تعالى (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) اعلم انه تعالى لما قال قبل هذه الآية ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ارشد الى العمل الذي به تخلص اعماله عن الوساوس فقال فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) الشيطان ساع في القاء الوسوسة في القلب حتى في حق الانبياء بدليل قوله تعالى وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى القى الشيطان في امنيته والاستعاذة بالله مانعة للشيطان من القاء الوسوسة بدليل قوله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذاهم مبصرون فلهذا السبب امر الله تعالى رسوله بالاستعاذة عند القراءة حتى تبقى تلك القراءة مصونة عن الوسوسة (المسئلة الثانية) قوله فاذا قرأت القرآن خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم الا ان المراد به الكل لان الرسول لما كان محتاجا الى الاستعاذة عند القراءة فغير الرسول اولى بها (المسئلة الثالثة) الفاء في قوله فاستعذ بالله للتعقيب فظاهر هذه الآية يدل على ان الاستعاذة بعد قراءة القرآن واليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين قال الواحدى

اما معترضة لتوبيخ الكفرة والتنبيه على فساد رأيهم وفي الالتفات الى الغيبة مع اسناد الخبر الى الاسم الجليل المستجمع للصفات مالايخفى من تربية المهابة وتحقيق معنى الاعتراض اوحالية وقرئ بالتخفيف من الانزال (قالوا) اى الكفرة الجاهلون بحكمة النسخ (انما انت مفتر) اى متقول على الله تعالى تأمر بشئ ثم يبدو لك فتنهى عنه وحكاية هذا القول عنهم ههنا للايذان بأن ذلك كفرة ناشئة من نزغات الشيطان وانه وليهم (بل اكثرهم لايعلمون) اى لايعلمون شيئا اصلا اولا يعلمون ان في النسخ حكما بالغة واسناد هذا الحكم الى الاكثر لما ان منهم من يعلم ذلك وانما ينكره عنادا (قل نزله) اى القرآن المدلول عليه بالآية (روح القدس) يعنى جبريل عليه السلام اى الروح المطهر من الادناس البشرية واضافة الروح الى القدس وهو الطهر كاضافة حاتم الى الجود حيث قيل حاتم الجود للمبالغة في ذلك الوصف كأنه طبع منه وفي صيغة التفعيل في الموضعين اشعار بأن التدريج في الانزال مماتقتضيه الحكم البالغة (من ربك) في اضافة الرب الى ضميره صلى الله عليه وسلم من الدلالة على تحقيق افاضة آثار الربوبية عليه صلى الله عليه وسلم ماليس في اضافته الى ياء المتكلم المبنية على التلقين المحض (بالحق) اى ملتبسا بالحق الثابت الموافق للحكمة المقتضية له بحيث لايفارقها انشاء ونسخا وفيه دلالة على ان النسخ حق

وهو قول ابى هريرة ومالك وداود قالوا والفائدة فيه انه اذاقرأ القرآن استحق به ثوابا عظيما فان لم يأت بالاستعاذة وقعت الوسوسة فى قلبه وتلك الوسوسة تحبط ثواب القراءة امااذا استعاذ بعد القراءة اندفعت الوساوس وبقى الثواب مصونا عن الاحباط اما الاكثرون من علماء الصحابة والتابعين فقداتفقوا على ان الاستعاذة مقدمة على القراءة وقالوا معنى الآية اذا اردت ان تقرأ القرآن فاستعذ وليس معناه استعذ بعد القراءة ومثله اذا أكلت فقل بسم الله واذا سافرت فتأهب ونظيره قوله تعالى اذاقمتم الى الصلاة فاغسلوا اى اذا أردتم القيام الى الصلاة فاغسلوا وايضا لماثبت ان الشيطان القى الوسوسة فى اثناء قراءة الرسول بدليل قوله تعالى وما ارسلنامن قبلك من رسول ولانبى الااذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ومن الظاهر انه تعالى انما أمر الرسول بالاستعاذة عند القراءة لدفع تلك الوساوس فهذا المقصود انما يحصل عند تقديم الاستعاذة (المسئلة الرابعة) مذهب عطاء انه تجب الاستعاذة عندقراءة القرآن سواءكانت القراءة فى الصلاة اوغيرها وسائر الفقهاء اتفقوا على انه ليس كذلك لانه لاخلاف بينهم انه ان لم يتعوذقبل القراءة فى الصلاة فصلاه ماضية وكذلك حال القراءة فى غيرالصلاة لكن حال القراءة فى الصلاة آكد (المسئلة الخامسة) المراد بالشيطان فى هذه الآية قيل ابليس والاقرب انه للجنس لان لجميع المردة من الشياطين حظا فى الوسوسة واعلم انه تعالى لماأمر رسوله بالاستعاذة من الشيطان وكان ذلك يوهم ان للشيطان قدرة على التصرف فى ابدان الناس فأزال الله تعالى هذا الوهم وبين انه لاقدرة له البتة الا على الوسوسة فقال انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ويظهر من هذا ان الاستعاذة انما تفيد اذا حضر فى قلب الانسان كونه ضعيفا وانه لايمكنه التحفظ عن وسوسة الشيطان الابعصمة الله تعالى ولهذا المعنى قال المحققون لاحول عن معصية الله تعالى الابعصمة الله ولاقوة على طاعة الله الابتوفيق الله تعالى والتفويض الحاصل على هذا الوجه هو المراد من قوله وعلى ربهم يتوكلون ثم قال انما سلطانه على الذين يتولونه قال ابن عباس يطيعونه يقال توليته أى اطعته وتوليت عنه أى أعرضت عنه والذين هم به مشركون الضمير فى قوله به الى ماذا يعود فيه قولان (الاول) انه راجع الى ربهم (والثانى) انه راجع الى الشيطان والمعنى بسببه وهذا كما تقول للرجل اذا تكلم بكلمة مؤدية الى الكفر كفرت بهذه الكلمة اى من اجلها فكذلك قوله والذين هم به مشركون اى من اجله ومن اجل حمله اياهم على الشرك بالله صاروا مشركين ❊ قوله تعالى (واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بماينزل قالوا انما أنت مفتر بل اكثرهم لايعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) اعلم انه تعالى شرع من هذا الموضع فى حكاية شبهات منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس رضى الله عنهما كان اذانزلت آية فيهاشدة ثم نزلت آية الين منها تقول كفار قريش

(ليثبت الذين آمنوا) على الايمان بانه كلامه تعالى فانهم اذا سمعوا الناسخ وتدبروا مافيه من رعاية المصالح اللائقة بالحال رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم وقرئ ليثبت من الافعال (وهدى وبشرى للمسلمين) المنقادين لحكمه تعالى وهما معطوفان على محل ليثبت اى تثبيتا وهداية وبشارة وفيه تعريض بحصول اضدادالامور المذكورة لمن سواهم من الكفار (ولقد نعلم انهم يقولون) غيرمانقل عنهم من المقالة الشنعاء (انما يعلمه) أى القرآن (بشر) على طريق البت مع ظهور انه نزله روح القدس عليه الصلاة والسلام وتحلية الجملة بفنون التأكيد لتحقيق ما تتضمنه من الوعيد وصيغة الاستقبال لافادة استمرار العلم بحسب الاستمرار التجددى فى متعلقه فانهم مستمرون على تفوه تلك العظيمة يعنون بذلك جبرا الرومى غلام عامر بن الحضرمى وقيل جبرا ويسارا كانا يصنعان السيف بمكة ويقرآن التوراة والانجيل وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يمر عليهما ويسمع مايقرآنه وقيل عايشا غلام حويطب بن عبد العزى قداسلم وكان صاحب كتب وقيل سلمان الفارسى وانما لم يصرح باسم من زعموا انه يعلمه مع كونه ادخل فى ظهور كذبهم للايذان بأن مدار خطاهم ليس نسبته عليه السلام الى التعلم من شخص معين بل من البشر كائنا من كان مع كونه عليه السلام معدنا لعلوم الاولين والآخرين (لسان الذى

والله ما محمد الا يسخر بأصحابه اليوم يأمر بأمر وغدا ينهى عنه وانه لا يقول هذه الاشياء الا من عند نفسه فانزل الله تعالى قوله واذا بدلنا آية مكان آية ومعنى التبديل رفع الشئ مع وضع غيره مكانه وتبديل الآية رفعها بآية أخرى غيرها وهو نسخها بآية سواها وقوله والله اعلم بما ينزل اعتراض دخل في الكلام والمعنى والله اعلم بما ينزل من الناسخ والمنسوخ والتغليظ والتخفيف اى هو اعلم بجميع ذلك في مصالح العباد وهذا توبيخ للكفار على قوله انما انت مفترأى اذا كان هو اعلم بما ينزل فما بالهم ينسبون محمدا صلى الله عليه وسلم الى الافتراء لاجل التبديل والنسخ وقوله بل اكثرهم لا يعلمون اى لا يعلمون حقيقة القرآن وفائدة النسخ والتبديل وان ذلك لمصالح العباد كما ان الطبيب يأمر المريض بشربة ثم بعد مدة ينهاه عنها ويأمره بضد تلك الشربة وقوله قل نزله روح القدس من ربك تفسير روح القدس مر ذكره في سورة البقرة وقال صاحب الكشاف روح القدس جبريل عليه السلام اضيف الى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود وزيد الخير والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد وزيد الخير والمقدس المطهر من الماء ومن في قوله من ربك صلة للقرآن اى ان جبريل نزل القرآن من ربك ليثبت الذين آمنوا اى ليبلوهم بالنسخ حتى اذا قالوا فيه هو الحق من ربنا حكم لهم بثبات القدم في الدين وصحة اليقين بأن الله حكيم فلا يفعل الا ما هو حكمة وصواب وهدى وبشرى مفعول لهما معطوف على محل ليثبت والتقدير تثبيتا لهم وارشادا وبشارة وفيه تعريض بحصول اضداد هذه الصفات لغيرهم (المسئلة الثانية) قد ذكرنا ان مذهب ابى مسلم الاصفهانى ان النسخ غير واقع في هذه الشريعة فقال المراد ههنا اذا بدلنا آية مكان آية في الكتب المتقدمة مثل انه حول القبلة من بيت المقدس الى الكعبة قال المشركون انت مفتر في هذا التبديل واما سائر المفسرين فقالوا النسخ واقع في هذه الشريعة والكلام فيه على الاستقصاء مذكور في سائر السور (المسئلة الثالثة) قال الشافعى رحمه الله القرآن لا ينسخ بالسنة واحتج على صحته بقوله تعالى واذا بدلنا آية مكان آية وهذا يقتضى ان الآية لا تصير منسوخة الا بآية أخرى وهذا ضعيف لان هذه تدل على انه تعالى يبدل آية بآية أخرى ولا دلالة فيها على انه تعالى لا يبدل آية الا بآية وايضا فجبريل عليه السلام قد ينزل بالسنة كما ينزل بالآية وايضا فالسنة قد تكون مثبتة للآية وايضا فهذا حكاية كلام الكفار فكيف يصح التعلق به والله اعلم * قوله تعالى (ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه اعجمى وهذا لسان عربى مبين ان الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب اليم انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون) اعلم ان المراد من هذه الآية حكاية شبهة أخرى من شبهات منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك لانهم كانوا يقولون ان محمدا انما يذكر هذه القصص وهذه الكلمات لانه يستفيدها من انسان آخر ويتعلمها منه واختلفوا في

(هذا)

يلحدون اليه اعجمى) الالحاد الامالة من الحد القبر اذا امال حفره عن الاستقامة فحفر في شق منه ثم استعير لكل امالة عن الاستقامة فقالوا الحد فلان في قوله والحد في دينه اى لغة الرجل الذى يميلون اليه القول عن الاستقامة اعجمية غير بينة وقرئ بفتح الياء والحاء وبتعريف اللسان (وهذا) اى القرآن الكريم (لسان عربى مبين) ذو بيان وفصاحة والجملتان مستأنفتان لابطال طعنهم وتقريره ان القرآن معجز بنظمه كما انه معجز بمعناه فان زعمتم ان بشرا يعلمه معناه فكيف يعلمه هذا النظم الذى اعجز جميع اهل الدنيا والتشبث في اثناء الطعن بأذيال امثال هذه الخرافات الركيكة دليل على كمال عجزهم (ان الذين لا يؤمنون بآيات الله) اى لا يصدقون انها من عند الله بل يقولون فيها مايقولون يسمونها تارة افتراء واخرى اساطير معلمة من البشر (لا يهديهم الله) الى الحق او الى سبيل النجاة هداية موصلة الى المطلوب لما علم انهم لا يستحقون ذلك لسوء حالهم (ولهم) فى الآخرة (عذاب اليم) وهذا تهديد لهم ووعيد على ما هم عليه من الكفر بآيات الله تعالى ونسبة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الافتراء والتعلم من البشر بعد اماطة شبهتهم ورد طعنهم وقوله تعالى (انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) رد لقولهم انما انت مفتر وقلب للامر عليهم ببيان انهم هم المفترون بعد رده بتحقيق

هذا البشر الذى نسب المشركون النبى صلى الله عليه وسلم الى التعلم منه قيل هو عبد لبنى عامر بن لؤى يقال له يعيش وكان يقرأ الكتب وقيل عداس غلام عتبة بن ربيعة وقيل عبد لبنى الحضرمى صاحب كتب وكان اسمه جبرا وكانت قريش تقول عبد بنى الحضرمى يعلم خديجة وخديجة تعلم محمدا وقيل كان بمكة نصرانى اعجمى اللسان اسمه بلعام ويقال له ابو ميسرة يتكلم بالرومية وقيل سلمان الفارسى وبالجملة فلا فائدة فى تعديد هذه الاسماء والحاصل ان القوم اتهموه بأنه يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم انه يظهرها من نفسه ويزعم انه انما عرفها بالوحى وهو كاذب فيه ثم انه تعالى اجاب عنه بأن قال لسان الذى يلحدون اليه اعجمى وهذا لسان عربى مبين ومعنى الالحاد فى اللغة الميل يقال لحد والحد اذا مال عن القصد ومنه يقال للعادل عن الحق ملحد وقرأ حمزة والكسائى يلحدون بفتح الياء والحاء والباقون بضم الياء وكسر الحاء قال الواحدى والاولى ضم الياء لانه لغة القرآن والدليل عليه قوله ومن يرد فيه بالحاد بظلم والالحاد قد يكون بمعنى الامالة ومنه يقال الحدت له لحدا اذا حفرته فى جانب القبر مائلا عن الاستواء وقبر ملحد وملحود ومنه الملحد لانه امال مذهبه عن الاديان كلها لم يمله عن دين الى دين آخر وفسر الالحاد فى هذه الآية بالقولين قال الفراء يميلون من الميل وقال الزجاج يميلون من الامالة اى لسان الذى يميلون القول اليه اعجمى واما قوله اعجمى فقال ابو الفتح الموصلى تركيب ع ج م وضع فى كلام العرب للابهام والاخفاء وضد البيان والايضاح ومنه قولهم رجل اعجم وامرأة عجماء اذا كانا لا يفصحان وعجم الذنب سمى بذلك لاستتاره واختفائه والعجماء البهيمة لانها لا توضح ما فى نفسها وسموا صلاتى الظهر والعصر عجماوين لان القراءة حاصلة فيهما بالسر لا بالجهر فأما قولهم اعجمت الكتاب فمعناه ازلت عجمته وافعلت قد يأتى والمراد منه السلب كقولهم اشكيت فلانا اذا ازلت ما يشكوه فهذا هو الاصل فى هذه الكلمة ثم ان العرب تسمى كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بلسانهم اعجم وعجميا قال الفراء واحمد بن يحيى الاعجم الذى فى لسانه عجمة وان كان من العرب والاعجمى والعجمى الذى اصله من العجم قال ابو على الفارسى الاعجم الذى لا يفصح سواء كان من العرب او من العجم الا ترى انهم قالوا زياد الاعجم لانه كانت فى لسانه عجمة مع انه كان عربيا واما معنى العربى واشتقاقه فقد ذكرناه عند قوله الاعراب اشد كفرا ونفاقا وقال الفراء والزجاج فى هذه الآية يقال عرب لسانه عرابة وعروبة هذا تفسير الفاظ الآية واما تقرير وجه الجواب فاعلم انه انما يظهر اذا قلنا القرآن انما كان معجزا لما فيه من الفصاحة العائدة الى اللفظ وكأنه قيل هب انه يتعلم المعانى من ذلك الاعجمى الا ان القرآن انما كان معجزا لما فى الفاظه من الفصاحة فبتقدير ان تكونوا صادقين فى ان محمدا صلى الله عليه وسلم يتعلم تلك المعانى من ذلك الرجل الا انه لا يقدح ذلك فى المقصود اذ القرآن انما كان معجزا لفصاحته وماذكرتموه لا يقدح فى ذلك المقصود

انه منزل من عند الله بواسطة روح القدس وانما وسط بينهما  قوله تعالى ولقد نعلم الآية لايخفى من شدة اتصاله بالرد الاول

والمعنى والله تعالى اعلم ان المفترى هو الذى يكذب بآيات الله ويقول انه افتراء ومعلم من البشر اى تكذيبها على الوجه المذكور هو الافتراء على الحقيقة لان حقيقته الكذب والحكم بأن ما هو كلامه تعالى ليس بكلامه تعالى فى كونه كذبا وافتراء كالحكم بأن ما ليس بكلامه تعالى كلامه تعالى والتصريح بالكذب للمبالغة فى بيان قبحه وصيغة المضارع لرعاية المطابقة بينه وبين ما هو عبارة عنه اعنى قوله لا يؤمنون وقيل المعنى انما يفترى الكذب ويليق ذلك بمن لا يؤمن بآيات الله لانه لا يترقب عقابا عليه ليرتدع عنه واما من يؤمن بها ويخاف ما نطق به من العقاب فلا يمكن ان يصدر عنه افتراء البتة (وأولئك) الموصوفون بما ذكر من عدم الايمان بآيات الله (هم الكاذبون) على الحقيقة او الكاملون فى الكذب اذ لا كذب اعظم من تكذيب آياته تعالى والطعن فيها بامثال هاتيك الاباطيل والسر فى ذلك ان الكذب الساذج الذى هو عبارة عن الاخبار بعدم وقوع ما هو واقع فى نفس الامر بخلق الله تعالى او بوقوع ما لم يقع كذلك مدافعة لله تعالى فى فعله فقط والتكذيب مدافعة له سبحانه فى فعله وقوله المنبئ عنه معا والذين عادتهم الكذب لا يزعهم عنه وازع من دين او مروءة وقيل الكاذبون فى قولهم انما أنت مفتر (من كفر بالله) اى تلفظ بكلمة الكفر (من بعد ايمانه) به تعالى وهو ابتداء كلام

لبيان حال من كفر بآيات الله بعدما آمن بها بعد بيان (٦٦)(را)(خا) حال من لم يؤمن بها رأسا ومن موصولة ومحلها الرفع على

و لما ذكر الله تعالى هذا الجواب اردفه بالتهديد و الوعيد فقال ان الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله اما تفسير اصحابنا لهذه الآية فظاهر وقال القاضى اقوى ماقيل فى ذلك انه لا يهديهم الى طريق الجنة ولذلك قال بعده ولهم عذاب اليم و المراد انهم لما تركوا الايمان بالله لا يهديهم الله الى الجنة بل يسوقهم الى النار ثم انه تعالى بين كونهم كذا بين فى ذلك القول فقال انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون وفيه مسائل (الاولى) المقصود منه انه تعالى بين فى الآية السابقة ان الذى قالوه بتقدير ان يصح لم يقدح فى المقصود ثم انه تعالى بين فى هذه الآية ان الذى قالوه لم يصح وهم كذبوا فيه والدليل على كونهم كاذبين فى ذلك القول وجوه (الاول) انهم لا يؤمنون بآيات الله وهم كافرون ومتى كان الامر كذلك كانوا اعداء للرسول صلى الله عليه وسلم وكلام العدا ضرب من الهذيان ولا شهادة لمتهم (والثانى) ان امر التعلم لا يتأتى فى جلسة واحدة ولا يتم فى الخفية بل التعلم انما يتم اذا اختلف المعلم الى المتعلم ازمنة متطاولة ومددا متباعدة ولو كان الامر كذلك لاشتهر فيما بين الخلق ان محمدا عليه السلام يتعلم العلوم من فلان وفلان (الثالث) ان العلوم الموجودة فى القرآن كثيرة وتعلمها لا يتأتى الا اذا كان المعلم فى غاية الفضل والتحقيق فلو حصل فيهم انسان بلغ فى التعليم والتحقيق الى هذا الحد لكان مشارا اليه بالاصابع فى التحقيق والتدقيق فى الدنيا فكيف يمكن تحصيل هذه العلوم العالية والمباحث النفيسة من عند فلان وفلان واعلم ان الطعن فى نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمثال هذه الكلمات الركيكة يدل على ان الحجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانت ظاهرة باهرة فان الخصوم كانوا عاجزين عن الطعن فيها ولاجل غاية عجزهم عدلوا الى هذه الكلمات الركيكة (المسئلة الثانية) فى هذه الآية دلالة قوية على ان الكذب من اكبر الكبائر وافحش الفواحش والدليل عليه ان كلمة انما للحصر والمعنى ان الكذب والفرية لا يقدم عليها الا من كان غير مؤمن بآيات الله تعالى والا من كان كافرا وهذا تهديد فى النهاية فان قيل قوله لا يؤمنون بآيات الله فعل وقوله وأولئك هم الكاذبون اسم وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية قبيح فما السبب فى حصوله ههنا قلنا الفعل قد يكون لازما وقد يكون مفارقا والدليل عليه قوله تعالى ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ذكره بلفظ الفعل تنبيها على ان ذلك السجن لا يدوم وقال فرعون لموسى عليه السلام لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من المسجونين ذكره بصيغة الاسم تنبيها على الدوام وقال اصحابنا انه تعالى قال وعصى آدم ربه فغوى ولا يجوز ان يقال ان آدم عاص وغاو لان صيغة الفعل لا تفيد الدوام وصيغة الاسم تفيده اذا عرفت هذه المقدمة فنقول قوله انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ذكر ذلك تنبيها على ان من اقدم على الكذب فكأنه دخل فى الكفر ثم قال وأولئك هم الكاذبون تنبيها على ان صفة الكذب فيهم ثابتة راسخة دائمة وهذا كما تقول كذبت وانت كاذب فيكون

نفسه اوعلى عضو من اعضائه وهو استثناء متصل من حكم الغضب والعذاب اوالذم لان الكفر لغة يتم بالقول كما اشير اليه وقوله تعالى (وقلبه مطمئن بالايمان) حال من المستثنى والعامل هو الكفر الواقع بالاكراه لا نفس الاكراه لان مقارنة اطمئنان القلب بالايمان للاكراه لا تجدى نفعا وانما المجدى مقارنته للكفر الواقع به اى الا من كفر باكراه اوالا من اكره فكفر والحال ان قلبه مطمئن بالايمان لم يتغير عقيدته وانما لم يصرح به ايماء الى انه ليس بكفر حقيقة وفيه دليل على ان الايمان هو التصديق بالقلب (ولكن من) لم يكن كذلك بل (شرح بالكفر صدرا) اى اعتقده وطاب به نفسا (فعليهم غضب) عظيم لا يكتنه كنهه (من الله) اظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتقوية تعظيم العذاب (ولهم عذاب عظيم) اذ لا جرم اعظم من جرمهم والجمع فى الضميرين المجرورين لمراعاة جانب المعنى كما ان الافراد فى المستكن فى الصلة لرعاية جانب اللفظ روى ان قريشا اكرهوا عمارا وابويه ياسرا وسمية على الارتداد فأباه ابواه فربطوا سمية بين بعيرين ووجئت بحربة فى قبلها وقالوا انما اسلمت من اجل الرجال فقتلوها وقتلوا ياسرا وهما اول قتيلين فى الاسلام واما عمار فأعطاهم بلسانه ما اكرهوا عليه فقيل يا رسول الله ان عمارا كفر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا ان عمارا ملئ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فجعل رسول الله صلى الله

(قوله)

قولك وانت كاذب زيادة في الوصف بالكذب ومعناه ان عادتك ان تكون كاذبا ( المسئلة الثالثة ) ظاهر الآية يدل على ان الكاذب المفتري الذي لا يؤمن بآيات الله والامر كذلك لانه لا معنى للكفر الا انكار الالهية ونبوة الانبياء وهذا الانكار مشتمل على الكذب والافتراء وروى ان النبي صلى الله عليه وسلم قيل له هل يكذب المؤمن قال لا ثم قرأ هذه الآية والله اعلم ۞ قوله تعالى ( من كفر بالله من بعد ايمانه الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ذلك بانهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وان الله لا يهدي القوم الكافرين اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم واولئك هم الغافلون لا جرم انهم في الآخرة هم الخاسرون ) اعلم انه تعالى لما عظم تهديد الكافرين ذكر في هذه الآية تفصيلا في بيان من يكفر بلسانه لا بقلبه ومن يكفر بلسانه وقلبه معا وفي الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) قوله من كفر بالله من بعد ايمانه مبتدأ خبره غير مذكور فلهذا السبب اختلف المفسرون وذكروا فيه وجوها (الاول) ان يكون قوله من كفر بدلا من قوله الذين لا يؤمنون بآيات الله والتقدير انما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد ايمانه واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء وعلى هذا التقدير فقوله واولئك هم الكاذبون اعتراض وقع بين البدل والمبدل منه (والثاني) يجوز ايضا ان يكون بدلا من الخبر الذي هو الكاذبون والتقدير واولئك هم من كفر بالله من بعد ايمانه (والثالث) يجوز ان ينتصب على الذم والتقدير واولئك هم الكاذبون اعني من كفر بالله من بعد ايمانه وهو احسن الوجوه عندي وابعدها عن التعسف (والرابع) ان يكون قوله من كفر بالله من بعد ايمانه شرطا مبتدأ ويحذف جوابه لان جواب الشرط المذكور بعده يدل على جوابه كأنه قيل من كفر بالله من بعد ايمانه فعليهم غضب من الله الا من اكره ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله (المسئلة الثانية) اجمعوا على انه لا يجب عليه التكلم بالكفر يدل عليه وجوه احدها انا روينا ان بلالا صبر على ذلك العذاب وكان يقول احد احد روى ان ناسا من اهل مكة فتنوا فارتدوا عن الاسلام بعد دخولهم فيه وكان فيهم من اكره فاجرى كلمة الكفر على لسانه مع انه كان بقلبه مصرا على الايمان منهم عمار وابواه ياسر وسمية وصهيب وبلال وخباب وسالم عذبوا فأما سمية فقيل ربطت بين بعيرين ووخزت في قبلها بحربة وقالوا انك اسلمت من اجل الرجال وقتلت وقتل ياسر وهما اول قتيلين قتلا في الاسلام واما عمار فقد اعطاهم ما ارادوا بلسانه مكرها فقيل يا رسول الله ان عمارا كفر فقال كلا ان عمارا ملئ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه ويقول مالك ان عادوا لك فعد لهم بما قلت ومنهم جبر مولى الحضرمي اكرهه سيده فكفر ثم اسلم مولاه واسلم وحسن اسلامهما وهاجرا ( المسئلة الثالثة ) قوله الا من اكره ليس

الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال مالك ان عادوا لك فعد لهم بما قلت وهو دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر عند الاكراه الملجئ وان كان الافضل ان يتجنب عنه اعزازا للدين كما فعله ابواه وروى ان مسيلمة الكذاب اخذ رجلين فقال لاحدهما ما تقول في محمد قال رسول الله قال فما تقول في قال فأنت ايضا فخلاه وقال للآخر ما تقول في محمد قال رسول الله قال فما تقول في قال انا أصم فأعاد ثلاثا فأعاد جوابه فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اما الاول فقد اخذ برخصة الله واما الثاني فقد صدع بالحق ( ذلك ) اشارة الى الكفر بعد الايمان او الى الوعيد المذكور ( بأنهم ) بسبب انهم ( استحبوا الحياة الدنيا ) آثروها ( على الآخرة وان الله لا يهدي ) الى الايمان والى ما يوجب الثبات عليه هداية قسر والجاء ( القوم الكافرين ) في علمه المحيط فلا يعصمهم عن الزيغ وما يؤدي اليه من الغضب والعذاب العظيم ولولا احد الامرين اما ايثار الحياة الدنيا على الآخرة واما عدم هداية الله سبحانه للكافرين هداية قسر بان آثروا الآخرة على الدنيا او بأن هداهم الله تعالى هداية قسر لما كان ذلك الثاني مخالف للحكمة والاول مما لا يدخل تحت الوقوع واليه اشير بقوله تعالى ( اولئك ) اي اولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح ( الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم ) فأبت عن ادراك الحق والتأمل فيه ( واولئك هم الغافلون ) اي الكاملون في الغفلة اذ لا غفلة اعظم من الغفلة عن تدبر العواقب ( لا جرم انهم في الآخرة هم الخاسرون ) اذ ضيعوا اعمارهم وصرفوها الى ما لا يفضي الا الى العذاب المخلد ( ثم ان ربك للذين هاجروا ) الى دار السلام وهم

باستثناء لان المكره ليس بكافر فلا يصح استثناؤه من الكافر لكن المكره لما ظهر منه بعد الايمان ما مثله يظهر من الكافر طوعا صح هذا الاستثناء لهذه المشاكلة ( المسئلة الرابعة ) يجب ههنا بيان الاكراه الذى عنده يجوز التلفظ بكلمة الكفر وهو ان يعذبه بعذاب لا طاقة له به مثل التخويف بالقتل ومثل الضرب الشديد والايلامات القوية قال مجاهد اول من اظهر الاسلام سبعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو بكر وخباب وصهيب وبلال وعمار وسمية اما الرسول عليه الصلاة والسلام فنعه ابو طالب واما ابو بكر فنعه قومه واخذ الآخرون والبسوا ادروع الحديد ثم اجلسوا فى الشمس فبلغ منهم الجهد بحر الحديد والشمس وأتاهم ابو جهل يشتمهم ويوبخهم ويشتم سمية ثم طعن الحربة فى فرجها وقال الآخرون ما نالوا منهم غير بلال فانهم جعلوا يعذبونه فيقول احد احد حتى ملوا فتكنفوه وجعلوا فى عنقه حبلا من ليف ودفعوه الى صبيانهم يلعبون به حتى ملوه فتركوه وقال عمار كلنا تكلم بالذى ارادوا غير بلال فهانت عليه نفسه فتركوه قال خباب لقد اوقدوا لى نارا ما اطفأها الا ودك ظهرى ( المسئلة الخامسة ) اجمعوا على انه عند ذكر كلمة الكفر يجب عليه ان يبرئ قلبه من الرضا به وان يقتصر على التعريضات مثل ان يقول ان محمدا كذاب ويعنى عند الكفار اويعنى به محمدا آخر او يذكره على نية الاستفهام بمعنى الانكار وههنا بحثان ( الاول ) انه اذا أعجله من اكرهه عن احضار هذه النية اولانه لما عظم خوفه زال عن قلبه ذكر هذه النية كان ملوما وعفو الله متوقع ( البحث الثانى ) لو ضيق المكره الامر عليه وشرح له كل اقسام التعريضات وطلب منه ان يصرح بأنه ما اراد شيأ منها وما اراد الا ذلك المعنى فههنا يتعين اما التزام الكذب واما تعريض النفس للقتل فمن الناس من قال يباح له الكذب ههنا ومنهم من يقول ليس له ذلك وهو الذى اختاره القاضى قال لان الكذب انما يقبح لكونه كذبا فوجب ان يقبح على كل حال ولو جاز ان يخرج عن القبيح لرعاية بعض المصالح لم يمنع ان يفعل الله الكذب لرعاية بعض المصالح وحينئذ لا يبقى وثوق بوعد الله تعالى ولا بوعيده لاحتمال انه فعل ذلك الكذب لرعاية بعض المصالح التى لا يعرفها الا الله تعالى ( المسئلة السادسة ) اجمعوا على انه لا يجب عليه التكلم بكلمة الكفر ويدل عليه وجوه (احدها) انا روينا ان بلالا صبر على ذلك العذاب وكان يقول احد احد ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم بئس ما صنعت بل عظمه عليه فدل ذلك على انه لا يجب التكلم بكلمة الكفر ( وثانيها ) ماروى ان مسيلمة الكذاب اخذ رجلين فقال لاحدهما ما تقول فى محمد فقال رسول الله فقال ما تقول فى قال انت ايضا فخلاه وقال للآخر ما تقول فى محمد قال رسول الله قال ما تقول فى قال أنا أصم فأعاد عليه ثلاثا فأعاد جوابه فقتله فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اما الاول فقد اخذ برخصة الله واما الثانى فقد صدع بالحق فهنيئاله وجه الاستدلال بهذا الخبر من وجهين (الاول) انه سمى التلفظ بكلمة الكفر رخصة ( والثانى ) انه عظم

ان يكون خبرها محذوفا لدلالة الخبر الآتى عليه ويجوز ان يكون ذلك خبرالها وتكون ان الثانية تأكيدا للاولى ثم للدلالة على تباعد رتبة حالهم هذه عن رتبة حالهم التى يفيدها الاستثناء من مجرد الخروج عن حكم الغضب والعذاب بطريق الاشارة لاعن رتبة حال الكفرة (من بعد مافتنوا ) اى عذبوا على الارتداد وتلفظوا بما يرضيهم مع اطمئنان قلوبهم بالايمان وقرئ على بناء الفاعل اى عذبوا المؤمنين كالحضرمى اكره مولاه جبرا حتى ارتد ثم اسلما وهاجرا (ثم جاهدوا ) فى سبيل الله (وصبروا) على مشاق الجهاد ( ان ربك من بعدها ) من بعد المهاجرة والجهاد والصبر فهو تصريح بما اشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة له اومن بعد الفتنة المذكورة فهو لبيان عدم اخلال ذلك بالحكم ( لغفور ) لما فعلوا من قبل ( رحيم ) ينعم عليهم مجازاة على ما صنعوا من بعد وفى التعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين ايماء الى علة الحكم وفى اضافة الرب الى ضميره عليه السلام مع ظهور الاثر فى الطائفة المذكورة اظهار لكمال اللطف به عليه السلام واشعار بأن افاضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة بواسطته عليه السلام ولكونهم اتباعاله ( يوم تأتى كل نفس ) منصوب برحيم ومارتب عليه او باذكر وهو يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين ( تجادل عن نفسها ) عن ذاتها تسعى فى خلاصها بالاعتذار لا يهمها شأن غيرها فتقول نفسى نفسى ( وتوفى كل نفس ) اى تعطى وافيا كاملا ( ما عملت ) اى جزاء ما عملت بطريق اطلاق اسم السبب

حال من امسك عنه حتى قتل (وثالثها) ان بذل النفس فى تقرير الحق اشق فوجب ان يكون اكثر ثوابا لقوله عليه السلام افضل العبادات احزها اى اشقها (ورابعها) ان الذى امسك عن كلمة الكفر طهر قلبه ولسانه عن الكفر اما الذى تلفظ بها فهب ان قلبه طاهر عنه الا ان لسانه فى الظاهر قد تلطخ بتلك الكلمة الخبيثة فوجب ان يكون حال الاول افضل والله اعلم (المسئلة السابعة) اعلم ان للاكراه مراتب (احدها) ان يجب الفعل المكره عليه مثل ما اذا اكرهه على شرب الخمر واكل الخنزير واكل الميتة فاذا اكرهه عليه بالسيف فههنا يجب الاكل وذلك لان صون الروح عن الفوات واجب ولا سبيل اليه فى هذه الصورة الا بهذا الاكل وليس فى هذا الاكل ضرر على حيوان ولا فيه اهانة لحق الله تعالى فوجب ان يجب لقوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة (المرتبة الثانية) ان يصير ذلك الفعل مباحا ولا يصير واجبا ومثاله ما اذا اكرهه على التلفظ بكلمة الكفر فههنا يباح له ولكنه لا يجب كما قررناه (المرتبة الثالثة) ان لا يجب ولا يباح بل يحرم وهذا مثل ما اذا اكرهه انسان على قتل انسان آخر او على قطع عضو من اعضائه فههنا يبقى الفعل على الحرمة الاصلية وهل يسقط القصاص عن المكره ام لا قال الشافعى رحمه الله فى احد قوليه يجب القصاص ويدل عليه وجهان (الاول) انه قتله عمدا عدوانا فيجب عليه القصاص لقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى (والثانى) اجمعنا على ان المكره اذا قصد قتله فانه يحل له ان يدفعه عن نفسه ولو بالقتل فلما كان توهم اقدامه على القتل يوجب اهدار دمه فلأن يكون عند صدور القتل منه حقيقة يصير دمه مهدرا كان اولى والله اعلم (المسئلة الثامنة) من الافعال ما يقبل الاكراه عليه كالقتل والتكلم بكلمة الكفر ومنه ما لا يقبل الاكراه عليه قيل وهو الزنا لان الاكراه يوجب الخوف الشديد وذلك يمنع من انتشار الآلة فحيث دخل الزنا فى الوجود دعلم انه وقع بالاختيار لا على سبيل الاكراه (المسئلة التاسعة) قال الشافعى رحمه الله طلاق المكره لا يقع وقال ابو حنيفة رحمه الله يقع وحجة الشافعى رحمه الله قوله لا اكراه فى الدين ولا يمكن ان يكون المراد نفى ذاته لان ذاته موجودة فوجب حمله على نفى آثاره والمعنى انه لا اثر له ولا عبرة به وايضا قوله عليه السلام رفع عن امتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وايضا قوله عليه السلام لا طلاق فى اغلاق اى اكراه فان قالوا طلقها فيدخل تحت قوله فان طلقها فلا تحل له فالجواب لما تعارضت الدلائل وجب ان يبقى ما كان على ما هو قولنا والله اعلم (المسئلة العاشرة) قوله وقلبه مطمئن بالايمان يدل على ان محل الايمان هو القلب والذى محله القلب اما الاعتقاد واما كلام النفس فوجب ان يكون الايمان عبارة اما عن المعرفة واما عن التصديق بكلام النفس والله اعلم ثم قال تعالى ولكن من شرح بالكفر صدرا اى فتحه ووسعه لقبول الكفر وانتصب صدرا على انه مفعول لشرح والتقدير ولكن من شرح بالكفر صدره وحذف

على المسبب اشعارا بكمال الاتصال بين الاجزية والاعمال( ٥٢٥ )وايثار الاظهار على الاضمار لزيادة التقرير وللايذان باختلاف وقتى المجادلة والتوفية وان كانتا فى يوم واحد (وهم لا يظلمون) لا ينقصون اجورهم او لا يعاقبون بغير موجب ولا يزاد فى عقابهم على ذنوبهم (وضرب الله مثلا قرية) قيل ضرب المثل صنعه واعتماله وقد مر تحقيقه فى سورة البقرة ولا يتعدى الا الى مفعول واحد وانما عدى الى الاثنين لتضمينه معنى الجعل وتأخير قرية مع كونها مفعولا اول لئلا يحول المفعول الثانى بينها وبين صفتها وما يترتب عليها اذ التأخير عن الكل مخل بتجاذب اطراف النظم وتجاوبها ولان تأخير ما حقه التقديم مما يورث النفس ترقبا لوروده وتشوقا اليه لا سيما اذا كان فى المقدم ما يدعو اليه فان المثل مما يدعو الى المحافظة على تفاصيل احوال ما هو مثل له فيتمكن المؤخر عند وروده لديها فضل تمكن والقرية اما محققة فى الغابرين واما مقدرة اى جعلها مثلا لاهل مكة خاصة او لكل قوم انعم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا فبدل الله بنعمتهم نقمة ودخل فيهم اهل اهل مكة دخولا اوليا (كانت آمنة) ذات امن من كل مخوف (مطمئنة) لا يزعج اهلها مزعج (يأتيها رزقها) اقوات اهلها صفة ثانية لقرية وتغيير سبكها عن الصفة الاولى لما ان اتيان رزقها متجدد وكونها آمنة مطمئنة ثابت مستمر (رغدا) واسعا (من كل مكان) من نواحيها (فكفرت) اى كفر اهلها (بانعم الله) اى بنعمه جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وادرع او جمع نعم كبؤس وأبؤس والمراد بها نعمة الرزق والامن المستمر وايثار جمع القلة للايذان بأن كفران نعمة قليلة حيث اوجب هذا العذاب فما ظنك

الضمير لانه لايشكل بصدر غيره اذالبشر لايقدر على شرح صدر غيره فهو نكرة يراد بها المعرفة ثم قال فعليهم غضب من الله والمعنى انه تعالى حكم عليهم بالعذاب ثم وصف ذلك العذاب فقال ولهم عذاب عظيم ثم قال تعالى ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة اى رجحوا الدنيا على الآخرة والمعنى ان ذلك الارتداد وذلك الاقدام على الكفر لاجل انه تعالى ماهداهم الى الايمان وماعصمهم عن الكفر قال القاضى المراد ان الله لايهديهم الى الجنة فيقال له هذا ضعيف لان قوله وان الله لايهدى القوم الكافرين معطوف على قوله ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فوجب ان يكون قوله وان الله لايهدى القوم الكافرين علة وسببا موجبا لاقدامهم على ذلك الارتداد وعدم الهداية يوم القيامة الى الجنة ليس سببا لذلك الارتداد ولاعلة له بل مسببا عنه ومعلولا له فبطل هذا التأويل ثم اكد بيان انه تعالى صرفهم عن الايمان فقال اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم قال القاضى الطبع ليس يمنع من الايمان ويدل عليه وجوه (الاول) انه تعالى ذكر ذلك فى معرض الذم لهم ولوكانوا عاجزين عن الايمان به لما استحقوا الذم بتركه (والثانى) انه تعالى اشرك بين السمع والبصر وبين القلب فى هذا الطبع ومعلوم من حال السمع والبصر ان مع فقدهما قديصح ان يكون مؤمنا فضلا عن طبع يلحقهما فى القلب (والثالث) وصفهم بالغفلة ومن منع من الشئ لايوصف بأنه غافل عنه فثبت ان المراد بهذا الطبع السمة والعلامة التى يخلقها فى القلب وقد ذكرنا فى سورة البقرة معنى الطبع والختم واقول هذه الكلمات مع التقريرات الكثيرة ومع الجوابات القوية مذكورة فى اول سورة البقرة وفى سائر الآيات فلافائدة فى الاعادة ثم قال تعالى وأولئك هم الغافلون قال ابن عباس اى عما يراد بهم فى الآخرة ثم قال جرم انهم فى الآخرة هم الخاسرون واعلم ان الموجب لهذا الخسران هو ان الله تعالى وصفهم فى الآيات المتقدمة بصفات ستة (الصفة الاولى) انهم استوجبوا غضب الله (الصفة الثانية) انهم استحقوا العذاب الاليم (الصفة الثالثة) انهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة (الصفة الرابعة) انه تعالى حرمهم من الهداية (الصفة الخامسة) انه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وابصارهم (الصفة السادسة) انه جعلهم من الغافلين عما يراد بهم من العذاب الشديد يوم القيامة فلا جرم لايسعون فى دفعها فثبت انه حصل فى حقهم هذه الصفات الستة التى كل واحد منها من اعظم الاحوال المانعة عن الفوز بالخيرات والسعادات ومعلوم انه تعالى انما ادخل الانسان الدنيا ليكون كالتاجر الذى يشترى بطاعاته سعادات الآخرة فاذا حصلت هذه الموانع العظيمة عظم خسرانه فلهذا السبب قال لاجرم انهم فى الآخرة هم الخاسرون اى هم الخاسرون لاغيرهم والمقصود التنبيه على عظم خسرانهم والله اعلم ❁ قوله تعالى (ثم ان ربك للذين هاجروا من بعدما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم يوم تأتى كل

بكفران نعم كثيرة (فأذاقها الله) اى اذاق اهلها (لباس (٥٢٦) الجوع والخوف) شبه اثر الجوع والخوف وضررهما المحيط بهم باللباس الغاشى للابس فاستعير له اسمه واوقع عليه الاذاقة المستعارة لمطلق الايصال المنبئة عن شدة الاصابة بما فيهما من اجتماع ادراكى اللامسة والذائقة على نهج التجريد فانها لشيوع استعمالها فى ذلك وكثرة جريانها على الألسنة جرت مجرى الحقيقة كقول كثير

غمر الرداء اذاتبسم ضاحكا ❁ غلقت لضحكته رقاب المال

فان الغمر مع كونه فى الحقيقة من احوال الماء الكثير لما كان كثير الاستعمال فى المعروف المشبه بالماء الكثير جرى مجرى الحقيقة فصارت اضافته الى الرداء المستعار للمعروف تجريدا اوشبه اثرهما وضررهما من حيث الاحاطة بهم والكراهة لديهم تارة باللباس الغاشى للابس المناسب للخوف بجامع الاحاطة واللزوم تشبيه معقول بمحسوس فاستعير له اسمه استعارة تصريحية واخرى بطعم المر البشيع الملائم للجوع الناشئ من فقد الرزق بجامع الكراهة فأومئ اليه بأن اوقع عليه الاذاقة المستعارة لايصال الضار المنبئة عن شدة الاصابة بما فيها من اجتماع ادراكى اللامسة والذائقة وتقديم الجوع الناشئ مما ذكر من فقدان الرزق على الخوف المترتب على زوال الامن المقدم فيما تقدم على اتيان الرزق لكونه انسب بالاذاقة اولمراعاة المقارنة بينها وبين اتيان الرزق وقد قرئ بتقديم الخوف وبنصبه ايضا عطفا على المضاف اواقامة له مقام مضاف محذوف واصله ولباس الخوف (بما كانوا يصنعون) فيما قبل اوعلى وجه الاستمرار وهو الكفران المذكور واسند ذلك الى اهل (نفس)

نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ماعملت وهم لايظلمون ) وفى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) انه تعالى لما ذكر فى الآية المتقدمة حال من كفر بالله من بعد ايمانه وحال من اكره على الكفر فذكر بسبب الخوف كلمة الكفر وحال من لم يذكرها ذكر بعده حال من هاجر من بعد مافتن فقال ان ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا ( المسئلة الثانية ) قرأ ابن عامر فتنوا بفتح الفاء على اسناد الفعل الى الفاعل والباقون بضم الفاء على فعل مالم يسم فاعله اما وجه القراءة الاولى فأمور (الاول) ان يكون المراد ان اكابر المشركين وهم الذين آذوا فقراء المسلمين لو تابوا وهاجروا وصبروا فان الله يقبل توبتهم (والثانى) ان فتن وأفتن بمعنى واحد كما يقال مان وامان بمعنى واحد (والثالث) ان اولئك الضعفاء لما ذكروا كلمة الكفر على سبيل التقية فكأنهم فتنوا انفسهم وانما جعل ذلك فتنة لان الرخصة فى اظهار كلمة الكفر مانزلت فى ذلك الوقت واما وجه القراءة بفعل مالم يسم فاعله فظاهر لان اولئك المفتونين هم المستضعفون الذين حملهم اقوياء المشركين على الردة والرجوع عن الايمان فبين تعالى انهم اذا هاجروا وجاهدوا وصبروا فان الله تعالى يغفر لهم تكلمهم بكلمة الكفر ( المسئلة الثالثة ) قوله من بعد مافتنوا يحتمل ان يكون المراد بالفتنة هو انهم عذبوا ويحتمل ان يكون المراد هو انهم خوفوا بالتعذيب ويحتمل ان يكون المراد ان اولئك المسلمين ارتدوا قال الحسن هؤلاء الذين هاجروا من المؤمنين كانوا بمكة فعرضت لهم فتنة فارتدوا وشكوا فى الرسول صلى الله عليه وسلم ثم انهم اسلموا وهاجروا فنزلت هذه الآية فيهم وقيل نزلت فى عبدالله بن سعد بن ابى سرح ارتد فلما كان يوم الفتح امر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله فاستجار له عثمان فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انه اسلم وحسن اسلامه وهذه الرواية انما تصح لو جعلنا هذه السورة مدنية او جعلنا هذه الآية منها مدنية ويحتمل ان يكون المراد ان اولئك الضعفاء المعذبين تكلموا بكلمة الكفر على سبيل التقية فقوله من بعد مافتنوا يحتمل كل واحد من هذه الوجوه الاربعة وليس فى اللفظ مايدل على التعيين اذا عرفت هذا فنقول ان كانت هذه الآية نازلة فيمن اظهر الكفر فالمراد ان ذلك مما لااثم له فيه وان حاله اذا هاجر وجاهد وصبر كحال من لم يكره وان كانت واردة فيمن ارتد فالمراد ان التوبة والقيام بما يجب عليه يزيل ذلك العقاب ويحصل له الغفران والرحمة فالهاء فى قوله من بعدها تعود الى الاعمال المذكورة فيما قبل وهى الهجرة والجهاد والصبر اما قوله يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ففيه ابحاث (الاول) قال الزجاج يوم منصوب على وجهين (احدهما) ان يكون المعنى ان ربك من بعدها لغفور رحيم يوم تأتى يعنى انه تعالى يعطى الرحمة والغفران فى ذلك اليوم الذى يعظم احتياج الانسان فيه الى الرحمة والغفران ( والثانى ) ان يكون التقدير وذكرهم او اذكر يوم كذا وكذا لان معنى القرآن العظة والانذار والتذكير ( البحث الثانى ) لقائل ان يقول النفس لاتكون لها نفس اخرى فامعنى قوله كل نفس تجادل

التمرية تحقيقا للامر بعد اسناد الكفران اليها وايقاع الاذاقة عليها ارادة للمبالغة وفى صيغة الصنعة ايذان بأن كفران النعمة صار صنعة راسخة لهم وسنة مسلوكة (ولقد جاءهم) من تتمة المثل جئ بها لبيان ان مافعلوه من كفران النعم لم يكن مزاحمة منهم لقضية العقل فقط بل كان ذلك معارضة لحجة الله على الخلق ايضا اى ولقد جاء اهل تلك القرية (رسول منهم) اى من جنسهم يعرفونه باصله ونسبه فاخبرهم بوجوب الشكر على النعمة وانذرهم سوء عاقبة مايأتون ومايذرون (فكذبوه) فى رسالته او فيما اخبرهم به مما ذكر فالفاء فصيحة وعدم ذكره للايذان بمفاجأتهم بالتكذيب من غير تلعثم (فاخذهم العذاب) المستأصل لشأفتهم غب ماذاقوا نبذة من ذلك (وهم ظالمون) اى حال التباسهم بما هم عليه من الظلم الذى هو كفران نعم الله تعالى وتكذيب رسوله غير مقلعين عنه بما ذاقوا من مقدماته الزاجرة عنه وفيه دلالة على تماديهم فى الكفر والعناد وتجاوزهم فى ذلك كل حد معتاد وترتيب العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنة الله تعالى حسبما يرشد اليه قوله سبحانه وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وبه يتم التمثيل فان حال اهل مكة سواء ضرب المثل لهم خاصة اولمن سار سيرتهم كافة محاذية لحال اهل تلك القرية حذو القذة بالقذة من غير تفاوت بينهما ولو فى خصلة فذة كيف لا وقد كانوا فى حرم آمن ويتخطف الناس من حولهم وما يمر ببالهم طيف من الخوف وكانت تجبى اليه ثمرات كل شئ ولقد جاءهم رسول منهم واى رسول يحار فى ادراك سمو رتبته العقول صلى الله عليه وسلم ما اختلف الدبور والقبول فكفروا بأنعم الله وكذبوا رسوله عليه السلام فاذاقهم الله لباس الجوع

عن نفسها والجواب النفس قد يراد به بدن الحى وقد يراد به ذات الشئ وحقيقته فالنفس الاولى هى الجثة والبدن والثانية عينها وذاتها فكأنه قيل يوم يأتى كل انسان يجادل عن ذاته ولا يهمه شأن غيره قال تعالى لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه وعن بعضهم تزفر جهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل الاجثا على ركبتيه يقول يارب نفسى نفسى حتى ان ابراهيم الخليل عليه السلام يفعل ذلك ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها كقولهم هؤلاء اضلونا السبيلا وقولهم والله ربنا ما كنا مشركين ثم قال تعالى وتوفى كل نفس ما عملت فيه محذوف والمعنى توفى كل نفس جزاء ما عملت من غير بخس ولا نقصان وقوله وهم لا يظلمون قال الواحدى معناه لا ينقصون قال القاضى هذه الآية من اقوى ما يدل على ما نذهب اليه فى الوعيد لانها تدل على انه تعالى يوصل الى كل احد حقه من غير نقصان ولو انه تعالى ازال عقاب المذنب بسبب الشفاعة لم يصح ذلك والجواب لا نزاع ان ظواهر العمومات يدل على قولكم الا ان مذهبنا ان التمسك بظواهر العمومات لا يفيد القطع وايضا فظواهر الوعيد معارضة بظواهر الوعد ثم بينا فى سورة البقرة فى تفسير قوله بلى من كسب سيئة واحاطت به خطيئته ان جانب الوعد راجح على جانب الوعيد من وجوه كثيرة والله اعلم ❊ قوله تعالى (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بانعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما هدد الكفار بالوعيد الشديد فى الآخرة هددهم ايضا بآفات الدنيا وهو الوقوع فى الجوع والخوف كما ذكره فى هذه الآية (المسئلة الثانية) المثل قد يضرب بشئ موصوف بصفة معينة سواء كان ذلك الشئ موجودا او لم يكن وقد يضرب بشئ موجود معين فهذه القرية التى ضرب الله بها هذا المثل يحتمل ان تكون شيئا مفروضا ويحتمل ان تكون قرية معينة وعلى التقدير الثانى فتلك القرية يحتمل ان تكون مكة او غيرها والاكثرون من المفسرين على انها مكة والاقرب انها غير مكة لانها ضربت مثلا لمكة ومثل مكة يكون غير مكة (المسئلة الثالثة) ذكر الله تعالى لهذه القرية صفات (الصفة الاولى) كونها آمنة اى ذات أمن لا يغار عليهم كما قال اولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم والامر فى مكة كان كذلك لان العرب كان يغير بعضهم على بعض اما اهل مكة فانهم كانوا اهل حرم الله والعرب كانوا يحترمونهم ويخصونهم بالتعظيم والتكريم واعلم انه يجوز وصف القرية بالامن وان كان ذلك لاهلها لاجل انها مكان الامن وظرف له والظروف من الازمنة والامكنة توصف بما حلها كما يقال طيب وحار وبارد (الصفة الثانية) قوله مطمئنة قال الواحدى معناه انها قارة ساكنة فأهلها لا يحتاجون الى الانتقال عنها لخوف او ضيق اقول ان كان المراد من كونها مطمئنة انهم لا يحتاجون الى الانتقال عنها بسبب الخوف فهذا هو معنى كونها آمنة وان كان المراد انهم لا يحتاجون الى

(الانتقال)

كل شئ حتى اضطرتهم الى اكل الجيف والكلاب الميتة والعظام المحرقة والعلهز وهو الوبر المعالج بالدم وقد ضاقت عليهم الارض بما رحبت من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يغيرون على مواشيهم وعيرهم وقوافلهم ثم اخذهم يوم بدر ما اخذهم من العذاب هذا هو الذى يقتضيه المقام ويستدعيه حسن النظام واما ما اجمع عليه اكثر اهل التفسير من ان الضمير فى قوله تعالى ولقد جاءهم لاهل مكة قد ذكر حالهم صريحا بعد ما ذكر مثلهم وان المراد بالرسول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالعذاب ما اصابهم من الجدب ووقعة بدر فبمعزل من التحقيق كيف لا وقوله سبحانه (فكلوا مما رزقكم الله) مفرع على نتيجة التمثيل وصدلهم عما يؤدى الى مثل عاقبته والمعنى واذ قد استبان لكم حال من كفر بأنعم الله وكذب رسوله وما حل بهم بسبب ذلك من اللتيا والتى اولا وآخرا فانتهوا عما انتم عليه من كفران النعم وتكذيب الرسول عليه السلام كيلا يحل بكم مثل ما حل بهم واعرفوا حق نعم الله تعالى واطيعوا رسوله عليه السلام فى امره ونهيه وكلوا من رزق الله حال كونه ( حلالا طيبا ) وذروا ما تفترون من تحريم البحائر ونحوها (واشكروا نعمة الله) واعرفوا حقها ولا تقابلوها بالكفران والفاء فى المعنى داخلة على الامر بالشكر وانما ادخلت على الامر بالاكل لكون الاكل ذريعة الى الشكر فكأنه قيل فاشكروا نعمة الله غب اكلها حلالا طيبا وقد ادمج فيه النهى عن زعم الحرمة ولاريب

الانتقال عنها بسبب الضيق فهذا هومعنى قوله يأتيها رزقها رغدامن كل مكان وعلى كلا التقديرين فانه يلزم التكرار والجواب ان العقلاء قالوا

ثلاثة ليس لهانهايه * الأمن والصحة والكفايه

فقوله آمنة اشارة الى الامن وقوله مطمئنة اشارة الى الصحة لان هواء ذلك البلد لما كان ملائما لامزجتهم اطمأنوا اليه واستقروا فيه وقوله يأتيها رزقها رغدامن كل مكان اشارة الى الكفاية قال المفسرون وقوله من كل مكان السبب فيه اجابة دعوة ابراهيم عليه السلام وهو قوله فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات ثم انه تعالى لما وصف القرية بهذه الصفات الثلاث قال فكفرت بأنعم الله الانعم جمع نعمة مثل اشد وشدة اقول ههنا سؤال وهوان الانعم جمع قلة فكان المعنى ان اهل تلك القرية كفرت بأنواع قليلة من النعم فعذبهم الله وكان اللائق ان يقال انهم كفروا بنعم عظيمة لله فاستوجبوا العذاب فالسبب فى ذكر جمع القلة والجواب المقصود التنبيه بالادنى على الاعلى يعنى ان كفران النعم القليلة لما أوجب العذاب فكفران النعم الكثيرة أولى بايجاب العذاب وهذا مثل اهل مكة لانهم كانوا فى الامن والطمأنينة والخصب ثم انعم الله عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به وبالغوا فى ايذائه فلاجرم سلط الله عليهم البلاء قال المفسرون عذبهم الله بالجوع سبع سنين حتى اكلوا الجيف والعظام والعلهز والقد اما الخوف فهو ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يبعث اليهم السرايا فيغيرون عليهم ونقل ان ابن الراوندى قال لابن الاعرابى الاديب هل يذاق اللباس قال ابن الاعرابى لابأس ولا لباس يا أيها النسناس هب انك تشك ان محمدا ما كان نبيا أما كان عربيا وكان مقصود ابن الراوندى الطعن فى هذه الآية وهو ان اللباس لايذاق بل يلبس فكان الواجب ان يقال فكساهم الله لباس الجوع اويقال فأذاقهم الله طعم الجوع واقول جوابه من وجوه (الاول) ان الاحوال التى حصلت لهم عند الجوع نوعان ( احدهما ) ان المذوق هو الطعام فلما فقدوا الطعام صاروا كأنهم يذوقون الجوع (والثانى) ان ذلك الجوع كان شديدا كاملا فصار كأنه احاط بهم من كل الجهات فاشبه اللباس فالحاصل انه حصل فى ذلك الجوع حالة تشبه المذوق وحالة تشبه الملبوس فاعتبر الله تعالى كلا الاعتبارين فقال فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ( الوجه الثانى ) ان التقدير ان الله عرفها لباس الجوع والخوف الا انه تعالى عبر عن التعريف بلفظ الاذاقة واصل الذوق بالفم ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف وهو الاختبار تقول ناظر فلانا وذق ماعنده قال الشاعر

ومن يذق الدنيا فانى طعمتها * وسيق الينا عذبها وعذابها

ولباس الجوع والخوف هو ماظهر عليهم من الضمور وشحوب اللون ونهكة البدن وتغير الحال وكسوف البال فكما تقول تعرفت سوء اثر الخوف والجوع على فلان كذلك

الذى يؤمر بالاكل والشكر وجل قوله تعالى فأخذهم العذاب وهم ظالمون على الاخبار بذلك قبل الوقوع يأباه التصدى لاستصلاحهم بالامر والنهى وتوجيه خطاب الامر بالاكل الى المؤمنين مع ان ما يتلوه من خطاب النهى متوجه الى الكفار كافعله الواحدى حيث قال فكلوا أنتم يامعشر المؤمنين مما رزقكم الله من الغنائم مما لايليق بشأن التنزيل الجليل ( ان كنتم اياه تعبدون ) اى تطيعون اوان صح زعمكم انكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادته تعالى (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به) تعليل لحل ماأمرهم بأكله مما رزقهم اى انما حرم هذه الاشياء دون ماتزعمون حرمته من البحائر والسوائب ونحوها ( فمن اضطر ) بما اعتراه من الضرورة فتناول شيئا من ذلك ( غيرباغ ) اى على مضطر آخر (ولاعاد) اى متجاوز قدر الضرورة (فان ربك غفوررحيم) اى لايؤاخذه بذلك فأقيم سببه مقامه وفى التعرض لوصف الربوبية ايماء الى علة الحكم وفى الاضافة الى ضميره عليه السلام اظهار لكمال اللطف به عليه السلام وتصدير الجملة بانما لحصر المحرمات فى الاجناس الاربعة الاماضم اليه كالسباع والحمر الاهلية ثم أكد ذلك بالنهى عن التحريم والتحليل بأهوائهم فقال (ولاتقولوا لما تصف ألسنتكم) اللام صلة مثلها فى قوله تعالى ولاتقولوا لمن يقتل فى سبيل الله

وبحرم على أزواجنا من غير ترتب ذلك الوصف على ملاحظة  وفكر فضلا عن استناده الى وحي أو قياس مبني عليه ( الكذب )

يجوز ان تقول ذقت لباس الجوع والخوف على فلان (والوجه الثالث) ان يحمل لفظ اللبس على المماسة فصار التقدير فأذاقها الله مساس الجوع والخوف ثم قال تعالى بما كانوا يصنعون قال ابن عباس يريد بفعلهم بالنبي صلى الله عليه وسلم حين كذبوه واخرجوه من مكة وهموا بقتله قال الفراء ولم يقل بما صنعت ومثله في القرآن كثير ومنه قوله تعالى فجاءها بأسنا بياتا او هم قائلون ولم يقل قائلة وتحقيق الكلام انه تعالى وصف القرية بأنها مطمئنة يأتيها رزقها رغدا فكفرت بأنعم الله فكل هذه الصفات وان اجريت بحسب اللفظ على القرية الا ان المراد في الحقيقة اهلها فلاجرم قال في آخر الآية بما كانوا يصنعون والله اعلم ۞ قوله تعالى (ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمت الله ان كنتم اياه تعبدون) اعلم انه تعالى لما ذكر المثل ذكر الممثل فقال ولقد جاءهم يعني اهل مكة رسول منهم يعني من انفسهم يعرفونه بأصله ونسبه فكذبوه فأخذهم العذاب قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني الجوع الذي كان بمكة وقيل القتل يوم بدر واقول قول ابن عباس اولى لانه تعالى قال بعده فكلوا مما رزقكم الله ان كنتم اياه تعبدون يعني ان ذلك الجوع انما كان بسبب كفركم فاتركوا الكفر حتى تأكلوا فلهذا السبب قال فكلوا مما رزقكم الله قال ابن عباس رحمهما الله فكلوا يامعشر المسلمين مما رزقكم الله يريد من الغنائم وقال الكلبي ان رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جهدوا وقالوا عاديت الرجال فما بال النسوان والصبيان وكانت الميرة قد قطعت عنهم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن في حمل الطعام اليهم فحمل اليهم الطعام فقال الله تعالى فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا والقول ما قال ابن عباس رضي الله عنهما ويدل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل الآية يعني انكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا الحلال الطيب وهو الغنيمة واتركوا الخبائث وهي الميتة والدم ۞ قوله تعالى (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم) اعلم ان هذه الآية الى آخرها مذكورة في سورة البقرة مفسرة هناك ولا فائدة في الاعادة واقول انه تعالى حصر المحرمات في هذه الاشياء الاربعة في هذه السورة لان لفظة انما تفيد الحصر وحصرها ايضا في هذه الاربعة في سورة الانعام في قوله تعالى قل لا اجد فيما اوحي الي محرما على طاعم وهاتان السورتان مكيتان وحصرها ايضا في هذه الاربعة في سورة البقرة لان هذه الآية بهذه اللفظة وردت في سورة البقرة وحصرها ايضا في سورة المائدة فانه تعالى قال في اول هذه السورة احلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم فأباح الكل الا ما يتلى عليهم واجمعوا على ان المراد بقوله عليكم هو قوله تعالى في تلك السورة حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل به لغير الله فذكر تلك الاربعة المذكورة في تلك السور الثلاث ثم قال والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع

منتصب بلاتقولوا وقوله تعالى (هذا حلال وهذا حرام) بدل منه ويجوز ان يتعلق بتصف على ارادة القول أي لاتقولوا لما تصف ألسنتكم فتقول هذا حلال وهذا حرام وأن يكون القول المقدر حالا من ألسنتهم أي قائلة هذا حلال الخ ويجوز أن ينتصب الكذب بتصف ويتعلق هذا حلال الخ بلاتقولوا واللام للتعليل وما مصدرية أي لاتقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب اي لاتحلوا ولاتحرموا لمجرد وصف ألسنتكم الكذب وتصويرها له بصورة مستحسنة وتزيينها له في المسامع كأن ألسنتهم لكونها منشأ الكذب ومنبعا للزور شخص عالم بكنهه ومحيط بحقيقته يصفه للناس ويعرفه أوضح وصف وأبين تعريف على طريقة الاستعارة بالكناية كما يقال وجهه يصف الجمال وعينه تصف السحر وقرئ بالجر صفة لما مع مدخولها كأنه قيل لوصفها الكذب بمعنى الكاذب كقوله تعالى بدم كذب والمراد بالوصف وصفها البهائم بالحل والحرمة وقرئ الكذب جمع كذوب بالرفع صفة للألسنة وبالنصب على الشتم أو بمعنى الكلم الكواذب أوهو جمع الكذاب من قولهم كذب كذابا ذكره ابن جني (لتفتروا على الله الكذب) فان مدار الحل والحرمة ليس الا أمر الله تعالى فالحكم بالحل والحرمة اسناد للتحليل والتحريم الى الله سبحانه من غير أن يكون ذلك منه واللام لام العاقبة (ان الذين يفترون على الله الكذب)

في أمر من الامور (لايفلحون) لايفوزون بمطالبهم التي ارتكبوا الافتراء للفوز بها (متاع قليل) خبر مبتدأ محذوف أي منفعتهم ( الا )

فيما هم عليه من افعال الجاهلية منفعة قليلة ( ٥٣١ ) ( ولهم ) في الآخرة ( عذاب اليم ) لا يكتنه كنهه ( وعلى الذين هادوا )

الاما ذكيتم وهذه الاشياء داخلة في الميتة ثم قال وما ذبح على النصب وهو احد الاقسام الداخلة تحت قوله وما اهل به لغير الله فثبت ان هذه السور الاربع دالة على حصر المحرمات في هذه الاربع سورتان مكيتان وسورتان مدنيتان فان سورة البقرة مدنية وسورة المائدة من آخر ما انزل الله تعالى بالمدينة فمن انكر حصر التحريم في هذه الاربع الا ما خصه الاجماع والدلائل القاطعة كان في محل ان يخشى عليه لان هذه السورة دلت على ان حصر المحرمات في هذه الاربع كان شرعا ثابتا في اول امر مكة وآخرها واول المدينة وآخرها وانه تعالى اعاد هذا البيان في هذه السور الاربع قطعا للاعذار وازالة للشبهة والله اعلم ※ قوله تعالى ( ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب اليم ) وفي الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) اعلم انه تعالى لما حصر المحرمات في تلك الاربع بالغ في تأكيد ذلك الحصر وزيف طريقة الكفار في الزيادة على هذه الاربع تارة وفي النقصان عنها اخرى فانهم كانوا يحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وكانوا يقولون ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا فقد زادوا في المحرمات وزادوا ايضا في المحللات وذلك لانهم حللوا الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل به لغير الله تعالى فالله تعالى بين ان المحرمات هي هذه الاربع وبين ان الاشياء التي يقولون ان هذا حلال وهذا حرام كذب وافتراء على الله ثم ذكر الوعيد الشديد على هذا الكذب واقول انه تعالى لما بين هذا الحصر في هذه السور الاربع ثم ذكر في هذه الآية ان الزيادة عليها والنقصان عنها كذب افتراء على الله تعالى وموجب للوعيد الشديد علمنا انه لا مزيد على هذا الحصر والله اعلم ( المسئلة الثانية ) في انتصاب الكذب في قوله لما تصف السنتكم الكذب وجهان ( الاول ) قال الكسائي والزجاج ما مصدرية والتقدير ولا تقولوا لاجل وصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام نظيره ان يقال لا تقولوا لكذا كذا وكذا فان قالوا احمل الآية عليه يؤدي الى التكرار لان قوله تعالى لتفتروا على الله الكذب عين ذلك والجواب ان قوله لما تصف السنتكم الكذب ليس فيه بيان كذب على الله تعالى فأعاد قوله لتفتروا على الله الكذب ليحصل فيه هذا البيان الزائد ونظائره في القرآن كثيرة وهو انه تعالى يذكر كلاما ثم يعيده بعينه مع فائدة زائدة ( الثاني ) ان تكون ما موصولة والتقدير ولا تقولوا للذي تصف السنتكم الكذب فيه هذا حلال وهذا حرام وحذف لفظ فيه لكونه معلوما ( المسئلة الثالثة ) قوله تعالى تصف السنتكم الكذب من فصيح الكلام وبليغه كأن ماهية الكذب وحقيقته مجهولة وكلامهم الكذب يكشف حقيقة الكذب ويوضح ماهيته وهذا مبالغة في وصف كلامهم بكونه كذبا ونظيره قول ابي العلاء المعري

سرى برق المعرة بعد وهن * فبات برامة يصف الكلالا

خاصة دون غيرهم من الاولين والآخرين ( حرمنا ما قصصنا عليك ) اي بقوله تعالى حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الآية ( من قبل ) متعلق بقصصنا او بحرمنا وهو تحقيق لما سلف من حصر المحرمات فيما فصل بابطال ما يخالفه من فرية اليهود وتكذيبهم في ذلك فانهم كانوا يقولون لسنا اول من حرمت عليه وانما كانت محرمة على نوح وابراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الامر الينا ( وما ظلمناهم ) بذلك التحريم ( ولكن كانوا انفسهم يظلمون ) حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه حسبما نعى عليهم قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم الآية ولقد القمهم الحجر قوله تعالى كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين *روي انه عليه الصلاة والسلام لما قال لهم ذلك بهتوا ولم يجسروا ان يخرجوا التوراة كيف وقد بين فيها ان تحريم ما حرم عليهم من الطيبات لظلمهم وبغيهم عقوبة وتشديدا أوضح بيان وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم ( ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ) اي بسبب جهالة او ملتبسين بها ليعم الجهل بالله وبعقابه وعدم التدبر في العواقب لغلبة الشهوة والسوء يعم الافتراء على الله تعالى وغيره ( ثم تابوا من بعد ذلك ) اي من بعد ما عملوا ما عملوا والتصريح به مع دلالة ثم عليه للتأكيد والمبالغة ( واصلحوا ) اي اصلحوا أعمالهم او دخلوا في الصلاح ( ان ربك من بعدها ) من بعد

والمعنى ان سرى ذلك البرق يصف الكلال فكذا ههنا والله اعلم ثم قال تعالى لتفتروا على الله الكذب المعنى انهم كانوا ينسبون ذلك التحريم والتحليل الى الله تعالى ويقولون انه امرنا بذلك واظن ان هذا اللام ليس لام الغرض لان ذلك الافتراء ما كان غرضا لهم بل كان لام العاقبة كقوله تعالى ليكون لهم عدوا وحزنا قال الواحدى وقوله لتفتروا على الله الكذب بدل من قوله لما تصف السنتكم الكذب لان وصفهم الكذب هو افتراء على الله تعالى ففسر وصفهم الكذب بالافتراء على الله تعالى ثم اوعد المفترين وقال ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ثم بين ان ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عنهم عن قريب فقال متاع قليل قال الزجاج المعنى متاعهم متاع قليل وقال ابن عباس بل متاع كل الدنيا متاع قليل ثم يردون الى عذاب أليم وهو قوله ولهم عذاب اليم ❊ قوله تعالى ( وعلى الذين هادوا حرمنا ماقصصنا عليك من قبل وماظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون ) اعلم انه تعالى لما بين ما يحل وما يحرم لاهل الاسلام اتبعه ببيان ما خص اليهود به من المحرمات فقال وعلى الذين هادوا حرمنا ماقصصنا عليك من قبل وهو الذى سبق ذكره فى سورة الانعام ثم قال تعالى وماظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون وتفسيره هو المذكور فى قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم ❊ قوله تعالى (ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك واصلحوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم ) اعلم ان المقصود بيان ان الافتراء على الله ومخالفة امر الله لا يمنعهم من التوبة وحصول المغفرة والرحمة ولفظ السوء يتناول كل ما لا ينبغى وهو الكفر والمعاصى وكل من عمل السوء فانما يفعله بالجهالة اما الكفر فلان احدا لا يرضى به مع العلم بكونه كفرا فانه ما لم يعتقد كون ذلك المذهب حقا وصدقا فانه لا يختاره ولا يرتضيه واما المعصية فالم تصر الشهوة غالبة للعقل والعلم لم تصدر عنه تلك المعصية فثبت ان كل من عمل السوء فانما يقدم عليه بسبب الجهالة فقال تعالى انا قد بالغنا فى تهديد أولئك الكفار الذين يحللون ويحرمون بمقتضى الشهوة والفرية على الله تعالى ثم انا بعد ذلك نقول ان ربك فى حق الذين عملوا السوء بسبب الجهالة ثم تابوا من بعد ذلك اى من بعد تلك السيئة وقيل من بعد تلك الجهالة ثم انهم بعد التوبة عن تلك السيآت اصلحوا اى آمنوا واطاعوا الله ثم اعاد قوله ان ربك من بعدها على سبيل التأكيد ثم قال لغفور رحيم والمعنى انه لغفور رحيم لذلك السوء الذى صدر عنهم بسبب الجهالة وحاصل الكلام ان الانسان وان كان قد أقدم على الكفر والمعاصى دهرا دهيرا وامدا مديدا فاذا تاب عنه وآمن وأتى بالاعمال الصالحة فان الله غفور رحيم يقبل توبته ويخلصه من العذاب ❊ قوله تعالى ( ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لانعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وانه فى الآخرة لمن الصالحين

واظهار كمال العناية بانجازه والتعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام مع ظهور الاثر فى التائبين للايماء الى ان افاضة آثار الربوبية من المغفرة والرحمة عليهم بتوسطه عليه السلام وكونهم من اتباعه كما اشير اليه فيما مر ( ان ابراهيم كان امة) على حياله لحيازته من الفضائل البشرية ما لا تكاد توجد الا متفرقة فى امة جمة حسبما قيل
ليس على الله بمستنكر
ان يجمع العالم فى واحد
وهو رئيس اهل التوحيد وقدوة اصحاب التحقيق جادل اهل الشرك والقمهم الحجر ببينات باهرة لاتبقى ولاتذر وابطل مذاهبهم الزائغة بالبراهين القاطعة والحجج الدامغة أولانه عليه السلام كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار وقيل هى فعلة بمعنى مفعول كالرحلة والنخبة من امه اذا قصده او اقتدى به فان الناس كانوا يقصدونه ويقتدون بسيرته لقوله تعالى انى جاعلك للناس اماما وايراد ذكره عليه السلام عقيب تزييف مذاهب المشركين من الشرك والطعن فى النبوة وتحريم ما احله الله تعالى للايذان بأن حقية دين الاسلام وبطلان الشرك وفروعه امر ثابت لاريب فيه (قانتا لله) مطيعا له قائما بأمره (حنيفا) مائلا عن كل دين باطل الى الدين الحق غير زائل عنه بحال (ولم يك من المشركين) فى امر من امور دينهم أصلا وفرعا صرح بذلك مع ظهوره لاردا على كفار قريش فقط فى قولهم نحن على ملة ابينا ابراهيم بل عليهم وعلى اليهود المشركين بقولهم عزير ابن الله فى افترائهم وادعائهم انه عليه الصلاة والسلام كان ( ثم )

ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين ) اعلم انه تعالى لما زيف في هذه السورة مذاهب المشركين في اشياء منها قولهم باثبات الشركاء والانداد لله تعالى ومنها طعنهم في نبوة الانبياء والرسل عليهم السلام وقولهم لو أرسل الله رسولا لكان ذلك الرسول من الملائكة ومنها قولهم بتحليل اشياء حرمها الله وتحريم اشياء أباحها الله تعالى فلما بالغ في ابطال مذاهبهم في هذه الاقوال وكان ابراهيم عليه السلام رئيس الموحدين وقدوة الاصوليين وهو الذى دعا الناس الى التوحيد وابطال الشرك والى الشرائع والمشركون كانوا مفتخرين به معترفين بحسن طريقته مقرين بوجوب الاقتداء به لاجرم ذكره الله تعالى في آخر هذه السورة وحكى عنه طريقته في التوحيد ليصير ذلك حاملا لهؤلاء المشركين على الاقرار بالتوحيد والرجوع عن الشرك واعلم انه تعالى وصف ابراهيم عليه السلام بصفات ( الصفة الاولى ) انه كان امة وفي تفسيره وجوه ( الاول ) انه كان وحده امة من الامم لكماله في صفات الخير كقوله

ليس على الله بمستنكر * ان يجمع العالم في واحد

( الثانى ) قال مجاهد كان مؤمنا وحده والناس كلهم كانوا كفارا فلهذا المعنى كان وحده امة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في زيد بن عمرو بن نفيل يبعثه الله امة وحده ( الثالث ) ان يكون امة فعلة بمعنى مفعول كالرحلة والبغية فالامة هو الذى يؤتم به ودليله قوله انى جاعلك للناس اماما ( الرابع ) انه عليه السلام هو السبب الذى لاجله جعلت امته ممتازين عمن سواهم بالتوحيد والدين الحق ولما جرى مجرى السبب لحصول تلك الامة سماه الله تعالى بالامة اطلاقا لاسم المسبب على السبب وعن شهر بن حوشب لم تبق ارض الا وفيها اربعة عشر يدفع الله بهم عن اهل الارض الا زمن ابراهيم عليه السلام فانه كان وحده ( الصفة الثانية ) كونه قانتا لله والقانت هو القائم بما امره الله تعالى به قال ابن عباس رضي الله عنهما معناه كونه مطيعا لله ( الصفة الثالثة ) كونه حنيفا والحنيف المائل الى ملة الاسلام ميلا لا يزول عنه قال ابن عباس رضي الله عنهما انه اول من اختتن وأقام مناسك الحج وضحى وهذه صفة الحنيفية ( الصفة الرابعة ) قوله ولم يك من المشركين معناه انه كان من الموحدين في الصغر والكبر والذى يقرر كونه كذلك ان اكثر همته عليه السلام كان في تقرير علم الاصول فذكر دليل اثبات الصانع مع ملك زمانه وهو قوله ربي الذى يحيى ويميت ثم ابطل عبادة الاصنام والكواكب بقوله لا أحب الآفلين ثم كسر تلك الاصنام حتى آل الامر الى ان القوه في النار ثم طلب من الله ان يريه كيفية احياء الموتى ليحصل له مزيد الطمأنينة ومن وقف على علم القرآن علم ان ابراهيم عليه السلام كان غارقا في بحر التوحيد ( الصفة الخامسة ) قوله شاكرا لأنعمه روى انه عليه السلام كان لا يتغدى الا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفا فأخر غداءه فاذا هو بقوم من الملائكة في صورة البشر فدعاهم الى الطعام فاظهروا ان بهم

التحريم والسبت سابقا ولاحقا ( شاكرا لأنعمه ) صفة ثالثة لامة وانما اوثر صيغة جمع القلة للايذان بأنه عليه السلام كان لا يخل بشكر النعمة القليلة فكيف بالكثيرة وللتصريح بكونه عليه السلام على خلاف ماهم عليه من الكفران بأنعم الله تعالى حسبما بين ذلك بضرب المثل ( اجتباه ) للنبوة ( وهداه الى صراط مستقيم ) موصل اليه سبحانه وهو ملة الاسلام وليست نتيجة هذه الهداية مجرد اهتدائه عليه السلام بل مع ارشاد الخلق ايضا بمعونة قرينة الاجتباء ( وآتيناه في الدنيا حسنة ) حالة حسنة من الذكر الجميل والثناء فيما بين الناس قاطبة حتى انه ليس من اهل دين الا وهم يتولونه وقيل هى الخلة والنبوة وقيل قول المصلى منا كما صليت على ابراهيم والالتفات الى التكلم لاظهار كمال الاعتناء بشانه وتفخيم مكانه عليه الصلاة والسلام ( وانه في الآخرة لمن الصالحين ) اصحاب الدرجات العالية في الجنة حسبما سأله بقوله والحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق في الآخرين واجعلنى من ورثة جنة النعيم ( ثم اوحينا اليك ) مع علو طبقتك وسمو رتبتك ( ان اتبع ملة ابراهيم ) الملة اسم لما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الانبياء عليهم السلام من امللت الكتاب اذا امليته وهو الدين بعينه لكن باعتبار الطاعة له وتحقيقه ان الوضع الالهى مهما نسب الى من يؤديه عن الله تعالى يسمى ملة ومهما نسب الى من يقيمه و يعمل به يسمى دينا

قال الراغب الفرق بينهما ان الملة لاتضاف الا الى النبي عليه السلام ولا تكاد توجد مضافة الى الله سبحانه

علة الجذام فقال الآن يجب على مؤاكلتكم فلولا عزتكم على الله تعالى لما ابتلاكم بهذا البلاء * فان قيل لفظالأنعم جمع قلة ونعم الله تعالى على ابراهيم عليه السلام كانت كثيرة فلم قال شاكرا لأنعمه * قلنا المراد انه كان شاكرا لجميع نعم الله ان كانت قليلة فكيف الكثيرة (الصفة السادسة) قوله اجتباه اى اصطفاه للنبوة والاجتباء هو ان تأخذ الشئ بالكلية وهو افتعال من جبيت واصله جمع الماء فى الحوض والجابية هى الحوض (الصفة السابعة) قوله وهداه الى صراط مستقيم اى فى الدعوة الى الله والترغيب فى الدين الحق والتنفير عن الدين الباطل نظيره قوله تعالى وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه (الصفة الثامنة) قوله وآتيناه فى الدنيا حسنة قال قتادة ان الله حببه الى كل الخلق فكل اهل الاديان يقرون به اما المسلمون واليهود والنصارى فظاهر واما كفار قريش وسائر العرب فلا فخر لهم الا به وتحقيق الكلام ان الله اجاب دعاءه فى قوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين وقال آخرون هو قول المصلى منا كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وقيل الصدق والوفاء والعبادة (الصفة التاسعة) قوله وانه فى الآخرة لمن الصالحين فان قيل لم قال وانه فى الآخرة لمن الصالحين ولم يقل وانه فى الآخرة فى اعلى مقامات الصالحين قلنا لانه تعالى حكى عنه انه قال رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين فقال ههنا وانه فى الآخرة لمن الصالحين تنبيها على انه تعالى اجاب دعاءه ثم ان كونه من الصالحين لاينفى ان يكون فى اعلى مقامات الصالحين فان الله تعالى بين ذلك فى آية اخرى وهى قوله وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء واعلم انه تعالى لما وصف ابراهيم عليه السلام بهذه الصفات العالية الشريفة قال ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وفيه مباحث (البحث الاول) قال قوم ان النبى صلى الله عليه وسلم كان على شريعة ابراهيم عليه السلام وليس له شرع هو به منفرد بل المقصود من بعثته عليه السلام احياء شرع ابراهيم عليه السلام وعول فى اثبات مذهبه على هذه الآية وهذا القول ضعيف لانه تعالى وصف ابراهيم عليه السلام فى هذه الآية بأنه ماكان من المشركين فلما قال واتبع ملة ابراهيم كان المراد ذلك فان قيل النبى صلى الله عليه وسلم انما نفى الشرك واثبت التوحيد بناء على الدلائل القطعية واذا كان كذلك لم يكن متابعا له فيمتنع حمل قوله ان اتبع على هذا المعنى فوجب حمله على الشرائع التى يصح حصول المتابعة فيها قلنا يحتمل ان يكون المراد الامر بمتابعته فى كيفية الدعوة الى التوحيد وهو ان يدعو اليه بطريق الرفق والسهولة وايراد الدلائل مرة بعد اخرى بأنواع كثيرة على ماهو الطريقة المألوفة فى القرآن (البحث الثانى) قال صاحب الكشاف لفظة ثم فى قوله ثم اوحينا اليك تدل على تعظيم منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجلال محله والايذان بأن اشرف ماأوتى خليل الله من الكرامة واجل ماأوتى من النعمة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملته من قبل ان هذه اللفظة دلت على تباعد هذا النعت فى المرتبة عن سائر المدائح

بالصراط المستقيم ( حنيفا ) حال من المضاف اليه لما ان المضاف لشدة اتصاله به عليه السلام جرى مجرى منه البعض فعد بذلك من قبيل رأيت وجه هند قائمة والمأمور به الاتباع فى الاصول دون الشرائع المتبدلة بتبدل الاعصار وما فى ثم من التراخى فى الرتبة للايذان بأن هذه النعمة من اجل النعم الفائضة عليه عليه السلام ( وما كان من المشركين ) تكرير لما سبق لزيادة تأكيد وتقرير لنزاهته عليه السلام عماهم عليه من عقد وعمل وقوله تعالى ( انما جعل السبت ) اى فرض تعظيمه والتخلى فيه للعبادة وترك الصيد فيه تحقيق لذلك النفى الكلى وتوضيح له بابطال ماعسى يتوهم كونه قادحا فى كليته حسبما سلف فى قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا الخ فان اليهود كانوا يدعون ان السبت من شعائر الاسلام وان ابراهيم عليه السلام كان محافظا عليه اى ليس السبت من شرائع ابراهيم وشعائر ملته التى امرت باتباعها حتى يكون بينه عليه الصلاة والسلام وبين بعض المشركين علاقة فى الجملة وانما شرع ذلك لبنى اسرائيل بعد مدة طويلة وايراد الفعل مبنيا للمفعول جرى على سنن الكبرياء وايذان بعدم الحاجة الى التصريح بالفاعل لاستحالة الاسناد الى الغير وقد قرئ على البناء للفاعل وانما عبر عن ذلك بالجعل موصولا بكلمة على وعنهم بالاسم الموصول باختلافهم فقيل انما جعل السبت ( على الذين اختلفوا فيه ) للايذان بتضمنه للتشديد والابتلاء المؤدى الى العذاب و بكونه معللا باختلافهم فى شأنه قبل الوقوع

التى مدحه الله بها * قوله تعالى ( انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ) اعلم انه تعالى لما امر محمدا صلى الله عليه وسلم بمتابعة ابراهيم عليه السلام وكان محمد عليه السلام اختار يوم الجمعة فهذه المتابعة انما تحصل اذا قلنا ان ابراهيم عليه السلام كان قد اختار فى شرعه يوم الجمعة وعند هذا لسائل ان يقول فلم اختار اليهود يوم السبت فأجاب الله تعالى عنه بقوله انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وفى الآية قولان ( الاول ) روى الكلبى عن ابى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال أمرهم موسى بالجمعة وقال تفرغوا لله فى كل سبعة ايام يوما واحدا وهو يوم الجمعة لا تعملوا فيه شيئا من اعمالكم فأبوا ان يقبلوا ذلك وقالوا لا نريد الا اليوم الذى فرغ فيه من الخلق وهو يوم السبت فجعل الله تعالى السبت لهم وشدد عليهم فيه ثم جاءهم عيسى عليه السلام ايضا بالجمعة فقالت النصارى لا نريد ان يكون عيدهم بعد عيدنا واتخذوا الاحد وروى ابو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله كتب يوم الجمعة على من كان قبلنا فاختلفوا فيه وهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى على الذين اختلفوا فيه اى على نبيهم موسى حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت فاختلافهم فى السبت كان اختلافا على نبيهم فى ذلك اليوم اى لاجله وليس معنى قوله اختلفوا فيه ان اليهود اختلفوا فيه فمنهم من قال بالسبت ومنهم من لم يقل به لان اليهود اتفقوا على ذلك فلا يمكن تفسير قوله اختلفوا فيه بهذا بل الصحيح ما قدمناه فان قال قائل هل فى العقل وجه يدل على ان يوم الجمعة أفضل من يوم السبت وذلك لان اهل الملل اتفقوا على انه تعالى خلق العالم فى ستة أيام وبدأ تعالى بالخلق والتكوين من يوم الاحد وتم فى يوم الجمعة فكان يوم السبت يوم الفراغ فقالت اليهود نحن نوافق ربنا فى ترك الاعمال فعينوا السبت لهذا المعنى وقالت النصارى مبدأ الخلق والتكوين هو يوم الاحد فنجعل هذا اليوم عيدا لنا فهذان الوجهان معقولان فما الوجه فى جعل يوم الجمعة عيدا قلنا يوم الجمعة هو يوم الكمال والتمام وحصول التمام والكمال يوجب الفرح الكامل والسرور العظيم فجعل يوم الجمعة يوم العيد اولى من هذا الوجه والله اعلم ( القول الثانى ) فى اختلافهم فى السبت انهم احلوا الصيد فيه تارة وحرموه تارة وكان الواجب عليهم ان يتفقوا فى تحريمه على كلمة واحدة ثم قال تعالى وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون والمعنى انه تعالى سيحكم يوم القيامة للمحقين بالثواب وللمبطلين بالعقاب

* قوله تعالى ( ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين ) اعلم انه تعالى لما أمر محمدا صلى الله عليه وسلم باتباع ابراهيم عليه السلام بين الشئ الذى أمره بمتابعته فيه فقال ادع الى سبيل ربك بالحكمة واعلم انه تعالى امر رسوله ان يدعو الناس بأحد هذه الطرق الثلاث وهى

---

ايثاره على ما امر الله تعالى به واختيارا للعكس لكن لا باعتبار شمول العلية لطرفى الاختلاف وعموم الغائلة للفريقين بل باعتبار حال منشأ الاختلاف من الطرف المخالف للحق وذلك ان موسى عليه الصلاة والسلام امر اليهود ان يجعلوا فى الاسبوع يوما واحدا للعبادة وان يكون ذلك يوم الجمعة فأبوا عليه وقالوا نريد اليوم الذى فرغ الله تعالى فيه من خلق السموات والارض وهو السبت الا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة فأذن الله تعالى لهم فى السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه فأطاع امر الله تعالى الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون واعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله سبحانه قردة دون أولئك المطيعين (وان ربك ليحكم بينهم ) اى بين الفريقين المختلفين فيه ( يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ) اى يفصل ما بينهما من الخصومة والاختلاف فيجازى كل فريق بما يستحقه من الثواب والعقاب وفيه ايماء الى ان ما وقع فى الدنيا من مسخ احد الفريقين وانجاء الآخر بالنسبة الى ما سيقع فى الآخرة شئ لا يعتد به هذا هو الذى يستدعيه الاعجاز التنزيلى وقيل المعنى انما جعل وبال السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه اى احلوا الصيد فيه تارة وحرموه اخرى وكان حتما عليهم ان يتفقوا على تحريمه حسبما امر الله سبحانه به وفسر الحكم بينهم بالمجازاة باختلاف افعالهم بالاحلال تارة والتحريم اخرى ووجه ايراده ههنا بأنه اريد به انذار المشركين من سخط الله تعالى على العصاة والمخالفين لاوامره كضرب المثل بالقرية التى كفرت بأنعم الله تعالى ولا ريب فى ان كلمة بينهم تحكم بأن المراد بالحكم هو فصل ما بين الفريقين من الاختلاف وان توسيط حديث المسخ للانذار المذكور

الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالطريق الاحسن وقد ذكر الله تعالى هذا الجدل في آية أخرى فقال ولاتجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن ولما ذكر الله تعالى هذه الطرق الثلاث وعطف بعضها على بعض وجب ان تكون طرقا متغايرة متباينة وما رأيت للمفسرين فيه كلاما ملخصا مضبوطا واعلم ان الدعوة الى المذهب والمقالة لابد وان تكون مبنية على حجة وبينة والمقصود من ذكر الحجة اما تقرير ذلك المذهب وذلك الاعتقاد في قلوب المستمعين واما ان يكون المقصود الزام الخصم وافحامه اما القسم الاول فينقسم ايضا الى قسمين لأن تلك الحجة اما ان تكون حجة حقيقية يقينية قطعية مبرأة عن احتمال النقيض واما ان لاتكون كذلك بل تكون حجة تفيد الظن الظاهر والاقناع الكامل فظهر بهذا التقسيم انحصار الحجج في هذه الاقسام الثلاثة ( اولها ) الحجة القطعية المفيدة للعقائد اليقينية وذلك هو المسمى بالحكمة وهذه اشرف الدرجات واعلى المقامات وهي التي قال الله في صفتها ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ( وثانيها ) الامارات الظنية والدلائل الاقناعية وهي الموعظة الحسنة ( وثالثها ) الدلائل التي يكون المقصود من ذكرها الزام الخصوم وافحامهم وذلك هو الجدل ثم هذا الجدل على قسمين ( احدهما ) ان يكون دليلا مركبا من مقدمات مسلمة في المشهور عند الجمهور او من مقدمات مسلمة عند ذلك القائل وهذا الجدل هو الجدل الواقع على الوجه الاحسن ( والقسم الثاني ) ان يكون ذلك الدليل مركبا من مقدمات باطلة فاسدة الا ان قائلها يحاول ترويجها على المستمعين بالسفاهة والشغب والحيل الباطلة والطرق الفاسدة وهذا القسم لايليق بأهل الفضل انما اللائق بهم هو القسم الاول وذلك هو المراد بقوله تعالى وجادلهم بالتي هي احسن فثبت بما ذكرنا انحصار الدلائل والحجج في هذه الاقسام الثلاثة المذكورة في هذه الآية اذا عرفت هذا فنقول اهل العلم ثلاث طوائف الكاملون الطالبون للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية والمكالمة مع هؤلاء لاتمكن الا بالدلائل القطعية اليقينية وهي الحكمة والقسم الثاني الذين تغلب على طباعهم المشاغبة والمخاصمة لاطلب المعرفة الحقيقية والعلوم اليقينية والمكالمة اللائقة بهؤلاء المجادلة التي تفيد الافحام والالزام وهذان القسمان هما الطرفان فالاول هو طرف الكمال والثاني طرف النقصان واما القسم الثالث فهو الواسطة وهم الذين مابلغوا في الكمال الى حد الحكماء المحققين وفي النقصان والرذالة الى حد المشاغبين المخاصمين بل هم اقوام بقوا على الفطرة الاصلية والسلامة الخلقية ومابلغوا الى درجة الاستعداد لفهم الدلائل اليقينية والمعارف الحكمية والمكالمة مع هؤلاء لاتمكن الا بالموعظة الحسنة وادناها المجادلة واعلى مراتب الخلائق الحكماء المحققون واوسطهم عامة الخلق وهم ارباب السلامة وفيهم الكثرة والغلبة وأدنى المراتب الذين جبلوا على طبيعة المنازعة والمخاصمة فقوله تعالى ادع الى سبيل ربك

الفصل بين الشجر ولحائه فتأمل ( ادع ) اى من بعثت اليهم من الامة قاطبة فحذف المفعول للتعميم اوافعل الدعوة كما في قولهم يعطى ويمنع اى يفعل الاعطاء والمنع فحذفه للقصد الى ايجاد نفس الفعل اشعارا بأن عموم الدعوة غني عن البيان وانما المقصود الامر بايجادها على وجه مخصوص ( الى سبيل ربك ) الى الاسلام الذى عبر عنه تارة بالصراط المستقيم واخرى بملة ابراهيم عليه السلام وفي التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية وتبليغ الشئ الى كماله اللائق شيئا فشيئا مع اضافة الرب الى ضمير النبي عليه الصلاة والسلام في مقام الامر بدعوة الامة على الوجه الحكيم وتكميلهم باحكام الشريعة الشريفة من الدلالة على اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والايماء الى وجه بناء الحكم مالا يخفى ( بالحكمة ) اى بالمقالة المحكمة الصحيحة وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة ( والموعظة الحسنة ) اى الخطابيات المقنعة والعبر النافعة على وجه لايخفى عليهم انك تناصحهم وتقصد ماينفعهم فالاولى لدعوة خواص الامة الطالبين للحقائق والثانية لدعوة عوامهم ويجوز ان يكون المراد بهما القرآن المجيد فانه جامع لكلا الوصفين ( وجادلهم ) اى ناظر معانديهم ( بالتي هي احسن ) بالطريقة التي هي احسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين واختيار الوجه الايسر واستعمال المقدمات المشهورة تسكينا لشغبهم واطفاء للهيبهم كما فعله الخليل عليه السلام ( ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله ) الذى أمرك بدعوة (بالحكمة)

بالحكمة معناه ادع الاقوياء الكاملين الى الدين الحق بالحكمة وهى البراهين القطعية اليقينية وعوام الخلق بالموعظة الحسنة وهى الدلائل اليقينية الاقناعية الظنية وتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الاحسن الاكمل * ومن لطائف هذه الآية انه قال ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة فقصر الدعوة على ذكر هذين القسمين لان الدعوة ان كانت بالدلائل القطعية فهى الحكمة وان كانت بالدلائل الظنية فهى الموعظة الحسنة اما الجدل فليس من باب الدعوة بل المقصود منه غرض آخر مغاير للدعوة وهو الالزام والافحام فلهذا السبب لم يقل ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل الاحسن بل قطع الجدل عن باب الدعوة تنبيها على انه لا يحصل الدعوة وانما الغرض منه شئ آخر والله اعلم واعلم ان هذه المباحث تدل على انه تعالى أدرج فى هذه الآية هذه الاسرار العالية الشريفة مع ان اكثر الخلق كانوا غافلين عنها فظهر ان هذا الكتاب الكريم لا يهتدى الى مافيه من الاسرار الامن كان من خواص اولى الابصار ثم قال تعالى ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين والمعنى انك مكلف بالدعوة الى الله تعالى بهذه الطرق الثلاثة فاما حصول الهداية فلا يتعلق بك فهو تعالى اعلم بالضالين واعلم بالمهتدين والذى عندى فى هذا الباب ان جواهر النفوس البشرية مختلفة بالماهية فبعضها نفوس مشرقة صافية قليلة التعلق بالجسمانيات كثيرة الانجذاب الى عالم الروحانيات وبعضها مظلمة كدرة قوية التعلق بالجسمانيات عديمة الالتفات الى الروحانيات ولما كانت هذه الاستعدادات من لوازم جواهرها لا جرم يمتنع انقلابها وزوالها فلهذا قال تعالى اشتغل أنت بالدعوة ولا تطمع فى حصول الهداية للكل فانه تعالى هو العالم بضلال النفوس الضالة الجاهلة وباشراق النفوس المشرقة الصافية فلكل نفس فطرة مخصوصة وماهية مخصوصة كما قال فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله والله اعلم * قوله تعالى ( وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ) فى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) قال الواحدى هذه الآية فيها ثلاثة اقوال ( احدها ) وهو الذى عليه العامة ان النبى صلى الله عليه وسلم لما رأى حمزة وقد مثلوا به قال والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك فنزل جبريل عليه السلام بخواتيم سورة النحل فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمسك عما اراد وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء وابى بن كعب والشعبى وعلى هذا قالوا ان سورة النحل كلها مكية الا هذه الآيات الثلاث ( والقول الثانى ) ان هذا كان قبل الامر بالسيف والجهاد حين كان المسلمون قد أمروا بالقتال مع من يقاتلهم ولا يبدؤا بالقتال وهو قوله تعالى وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين وفى هذه الآية أمر الله بأن يعاقبوا بمثل مايصيبهم

لما ذكر من الامرين والمعنى والله تعالى اعلم اسلك فى الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة فانه تعالى هو أعلم بحال من لا يرعوى عن الضلال بموجب استعداده المكتسب وبحال من يصير أمره الى الاهتداء لما فيه من خير جبلى فما شرعه لك فى الدعوة هو الذى تقتضيه الحكمة فانه كاف فى هداية المهتدين وازالة عذر الضالين أوما عليك الا ما ذكر من الدعوة والمجادلة بالاحسن وأما حصول الهداية او الضلال والمجازاة عليهما فالى الله سبحانه اذ هو اعلم بمن يبقى على الضلال وبمن يهتدى اليه فيجازى كلا منهما بما يستحقه وتقديم الضالين لما أن مساق الكلام لهم وايراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث لما أنه تغيير لفطرة الله التى فطر الناس عليها واعراض عن الدعوة وذلك أمر عارض بخلاف الاهتداء الذى هو عبارة عن الثبات على الفطرة والجريان على موجب الدعوة ولذلك جئ به على صيغة الاسم المنبئ عن الثبات وتكرير هو أعلم للتأكيد والاشعار بتباين حال المعلومين وما لهما من العقاب والثواب وبعد ما أمره عليه الصلاة والسلام فيما يختص به من شأن الدعوة بما أمره به من الوجه اللائق عقبه بخطاب شامل له ولمن شايعه فيما يعم الكل فقال ( وان عاقبتم ) أى ان أردتم المعاقبة على طريقة قول الطبيب للمحتمى ان اكلت فكل قليلا ( فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ) اى بمثل ما فعل بكم وقد عبر عنه بالعقاب

من العقوبة ولا تزيدوا ( والقول الثالث ) ان المقصود من هذه الآية نهي المظلوم عن استيفاء الزيادة من الظالم وهذا قول مجاهد والنخعي وابن سيرين قال ابن سيرين ان اخذ منك رجل شيئا فخذ منه مثله واقول ان حمل هذه الآية على قصة لا تعلق لها بما قبلها يوجب حصول سوء الترتيب في كلام الله تعالى وذلك يطرق الطعن اليه وهو في غاية البعد بل الاصوب عندي ان يقال المراد انه تعالى امر محمدا صلى الله عليه وسلم ان يدعو الخلق الى الدين الحق بأحد الطرق الثلاثة وهي الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالطريق الاحسن ثم ان تلك الدعوة تتضمن امرهم بالرجوع عن دين آبائهم واسلافهم وبالاعراض عنه والحكم عليه بالكفر والضلالة وذلك مما يشوش القلوب ويوحش الصدور ويحمل اكثر المستمعين على قصد ذلك الداعي بالقتل تارة وبالضرب ثانيا وبالشتم ثالثا ثم ان ذلك المحق اذا شاهد تلك السفاهات وسمع تلك المشاغبات لا بد وان يحمله طبعه على تأديب أولئك السفهاء تارة بالقتل وتارة بالضرب فعند هذا امر المحقين في هذا المقام برعاية العدل والانصاف وترك الزيادة فهذا هو الوجه الصحيح الذي يجب حمل الآية عليه فان قيل فهل تقدحون فيما روي انه عليه السلام ترك العزم على المثلة وكفر عن يمينه بسبب هذه الآية قلنا لا حاجة الى القدح في تلك الرواية لانا نقول تلك الواقعة داخلة في عموم هذه الآية فيمكن التمسك في تلك الواقعة بعموم هذه الآية انما الذي ينازع فيه انه لا يجوز قصر هذه الآية على هذه الواقعة لان ذلك يوجب سوء الترتيب في كلام الله تعالى

( المسألة الثانية ) اعلم انه تعالى امر برعاية العدل والانصاف في هذه الآية ورتب ذلك على اربع مراتب ( المرتبة الاولى ) قوله وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به يعني ان رغبتم في استيفاء القصاص فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه فان استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه في عدل الله ورحمته وفي قوله وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به دليل على ان الاولى له ان لا يفعل كما انك اذا قلت للمريض ان كنت تأكل الفاكهة فكل التفاح كان معناه ان الاولى بك ان لا تأكله فذكر تعالى بطريق الرمز والتعريض على ان الاولى تركه ( والمرتبة الثانية ) الانتقال من التعريض الى التصريح وهو قوله ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وهذا تصريح بأن الاولى ترك ذلك الانتقام لان الرحمة افضل من القسوة والانفاع افضل من الايلام ( المرتبة الثالثة ) وهو ورود الامر بالجزم بالترك وهو قوله واصبر لانه في المرتبة الثانية ذكر ان الترك خير وأولى وفي هذه المرتبة الثالثة صرح بالامر بالصبر ولما كان الصبر في هذا المقام شاقا شديدا ذكر بعده ما يفيد سهولته فقال وما صبرك الا بالله أي بتوفيقه ومعونته وهذا هو السبب الكلي الاصلي المفيد في حصول الصبر وفي حصول جميع انواع الطاعات ولما ذكر هذا السبب الكلي الاصلي ذكر بعده ما هو السبب الجزئي القريب فقال ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون وذلك لان اقدام الانسان على الانتقام وعلى ايصال الضرر بالغير لا يكون الا عند هيجان الغضب

---

من غير تجاوز حين ما آل الجدال الى القتال وادى النزاع الى القراع  فان الدعوة المأمور بها لا تكاد تنفك عن ذلك كيف لا وهي موجبة لصرف الوجوه عن القبل المعبودة وادخال الاعناق في قلادة غير معهودة قاضية عليهم بفساد ما يأتون وما يذرون وبطلان دين استمرت عليهم آباؤهم الاولون وقد ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وسدت عليهم طرق المحاجة والمناظرة وارتجت دونهم ابواب المباحثة والمحاورة وقيل انه عليه الصلاة والسلام لما رأى حمزة رضي الله عنه يوم احد قد مثل به قال لئن اظفرني الله بهم لامثلن بسبعين مكانك فنزلت فكفر عن يمينه وكف عما اراده وقرئ وان عقبتم فعقبوا اي وان قفيتم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم غير متجاوزين عنه والامر وان دل على اباحة المماثلة في المثلة من غير تجاوز لكن في تقييده بقوله وان عاقبتم حث على العفو تعريضا وقد صرح به على الوجه الآكد فقيل (ولئن صبرتم) اي عن المعاقبة بالمثل (لهو) اي لصبركم ذلك (خير) لكم من الانتصار بالمعاقبة وانما قيل (للصابرين) مدحا لهم وثناء عليهم بالصبر او وصفا لهم بصفة تحصل لهم عند ترك المعاقبة ويجوز عود الضمير الى مطلق الصبر المدلول عليه بالفعل فيدخل فيه صبرهم كدخول انفسهم في جنس الصابرين دخولا اوليا ثم امر عليه الصلاة والسلام صريحا بما ندب اليه غيره تعريضا من الصبر لانه اولى الناس بعزائم الامور لزيادة علمه بشؤنه سبحانه ووفور وثوقه به فقيل ( واصبر ) اي على ما اصابك من جهتهم من فنون الآلام والاذية وعاينت من اعراضهم عن الحق بالكلية (وما صبرك الا بالله) استثناء مفرغ من أعم الاشياء اي ( وشدة )

وشدة الغضب لاتحصل الالاحد امرين احدهما فوات نفع كان حاصلا فى الماضى واليه الاشارة بقوله ولاتحزن عليهم قيل معناه ولاتحزن على قتلى احد ومعناه ولاتحزن بسبب فوت اولئك الاصدقاء ويرجع حاصله الى فوت النفع والسبب الثانى لشدة الغضب توقع ضرر فى المستقبل واليه الاشارة بقوله ولاتك فى ضيق مما يمكرون ومن وقف على هذه اللطائف عرف انه لايمكن كلام ادخل فى الحسن والضبط من هذا الكلام بقى فى لفظ الآية مباحث (البحث الاول) قرأ ابن كثير ولاتك فى ضيق بكسر الضاد وفى النمل مثله والباقون بفتح الضاد فى الحرفين اما الوجه فى القراءة المشهورة فأمور قال ابو عبيدة الضيق بالكسر فى قلة المعاش والمساكن وماكان فى القلب فانه الضيق وقال ابوعمرو الضيق بالكسر الشدة والضيق بفتح الضاد الغم وقال القتيبى ضيق تخفيف ضيق مثل هين وهين ولين ولين وبهذا الطريق قلنا انه تصح قراءة ابن كثير (البحث الثانى) قرئ ولاتكن فى ضيق (البحث الثالث) هذا من الكلام المقلوب لان الضيق صفة والصفة تكون حاصلة فى الموصوف ولايكون الموصوف حاصلا فى الصفة فكان المعنى فلا يكن الضيق فيك الا ان الفائدة فى قوله ولاتك فى ضيق هو ان الضيق اذا عظم وقوى صار كالشئ المحيط بالانسان من كل الجوانب وصار كالقميص المحيط به فكانت الفائدة فى ذكر هذا اللفظ هذا المعنى والله اعلم (المرتبة الرابعة) قوله ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وهذا يجرى مجرى التهديد لان فى المرتبة الاولى رغب فى ترك الانتقام على سبيل الرمز وفى المرتبة الثانية عدل عن الرمز الى التصريح وهو قوله ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وفى المرتبة الثالثة امرنا بالصبر على سبيل الجزم وفى هذه المرتبة الرابعة كأنه ذكر الوعيد فى فعل الانتقام فقال ان الله مع الذين اتقوا عن استيفاء الزيادة والذين هم محسنون فى ترك اصل الانتقام فان اردت ان اكون معك فكن من المتقين ومن المحسنين ومن وقف على هذا الترتيب عرف ان الامر بالمعروف والنهى عن المنكر يجب ان يكون على سبيل الرفق واللطف مرتبة فرتبة ولما قال الله لرسوله ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ذكر هذه المراتب الاربعة تنبيها على ان الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة يجب ان تكون واقعة على هذا الوجه وعند الوقوف على هذه اللطائف يعلم العاقل ان هذا الكتاب الكريم بحر لاساحل له (المسئلة الثالثة) قوله ان الله مع الذين اتقوا معيته بالرحمة والفضل والرتبة وقوله الذين اتقوا اشارة الى التعظيم لامر الله تعالى وقوله والذين هم محسنون اشارة الى الشفقة على خلق الله وذلك يدل على ان كمال السعادة للانسان فى هذين الامرين اعنى التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله وعبر عنه بعض المشايخ فقال كمال الطريق صدق مع الحق وخلق مع الخلق وقال الحكماء كمال الانسان فى ان يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به وعن هرم بن حيان انه قيل له عند القرب من الوفاة اوص فقال انما الوصية من المال ولامال لى ولكنى اوصيكم بخواتيم

تسليته عليه الصلاة والسلام وتهوين مشاق الصبر عليه وتشريفه بما لامزيد عليه اوالا بمشيئته المبنية على حكم بالغة مستتبعة لعواقب حميدة فالتسلية من حيث اشتماله على غايات جميلة وقيل الابتوفيقه ومعونته فهى من حيث تسهيله وتيسيره فقط ( ولاتحزن عليهم ) اى على الكافرين بوقوع اليأس من ايمانهم بك ومتابعتهم لك نحو فلاتأس على القوم الكافرين وقيل على المؤمنين ومافعل بهم والاول هو الانسب بجزالة النظم الكريم (ولاتك فى ضيق) بالفتح وقرئ بالكسر وهما لغتان كالقول والقيل اى لاتكن فى ضيق صدر وحرج ويجوز ان يكون الاول تخفيف ضيق كهين من هين اى فى امر ضيق (مما يمكرون) اى من مكرهم بك فيما يستقبل فالاول نهى عن التألم بمطلوب من قبلهم فات والثانى عن التألم بمحذور من جهتهم آت والنهى عنهما مع ان انتفاءهما من لوازم الصبر المأمور به لاسيما على الوجه الاول لزيادة التأكيد واظهار كمال العناية بشأن التسلية والافهل يخطر ببال من توجه الى الله سبحانه بشراشر نفسه متنزها عن كل ماسواه من الشواغل شئ من مطلوب فينهى عن الحزن بفواته اومحذور فيكف عن الخوف من وقوعه (ان الله مع الذين اتقوا) تعليل لماسبق من الامر والنهى والمراد بالمعية الولاية الدائمة التى لاتحوم حول صاحبها شائبة شئ من الجزع والحزن وضيق الصدر

وما يشعر به دخول كلمة مع من متبوعية المتقين انما هى من حيث انهم المباشرون للتقوى وكذا الحال فى قوله سبحانه ان الله مع

سورة النحل ( المسئلة الرابعة ) قال بعضهم ان قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين منسوخ بآية السيف وهذا فى غاية البعد لان المقصود من هذه الآية تعليم حسن الادب فى كيفية الدعوة الى الله تعالى وترك التعدى وطلب الزيادة ولاتعلق لهذه الاشياء بآية السيف واكثر المفسرين مشغوفون بتكثير القول بالنسخ ولا ارى فيه فائدة والله اعلم بالصواب قال المصنف رحمه الله تم تفسير هذه السورة ليلة الثلاثاء بعد العشاء الآخرة بزمان معتدل وقال رحمه الله الحق عزيز والطريق بعيد والمركب ضعيف والقرب بعد والوصل هجر والحقائق مصونة والمعانى فى غيب الغيب محصونة والاسرار فيما وراء العز مخزونة وبيد الخلق القيل والقال والكمال ليس الا لله ذى الاكرام والجلال والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد النبى الامى وآله وصحبه وسلم

*(سورة بنى اسرائيل عددها مائة آية وعشر آيات عن ابن عباس انها مكية غير قوله وان كادوا ليستفزونك من الارض الى قوله واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا فانها مدنيات نزلت حين جاء وفد ثقيف )*

*( بسم الله الرحمن الرحيم )*

(سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال النحويون سبحان اسم علم للتسبيح يقال سبحت الله تسبيحا وسبحانا فالتسبيح هو المصدر وسبحان اسم علم للتسبيح كقولك كفرت اليمين تكفيرا وكفرانا وتفسيره تنزيه الله تعالى من كل سوء قال صاحب النظم السبح فى اللغة التباعد يدل عليه قوله تعالى ان لك فى النهار سبحا اى تباعدا فمعنى سبح الله تعالى اى بعده ونزهه عما لا ينبغى وتمام المباحث العقلية فى لفظ التسبيح قد ذكرناها فى اول سورة الحديد وقد جاء فى لفظ التسبيح معان اخرى ( احدها ) ان التسبيح يذكر بمعنى الصلاة ومنه قوله تعالى فلولا انه كان من المسبحين اى من المصلين والسبحة الصلاة النافلة وانما قيل للمصلى مسبح لانه معظم لله بالصلاة ومنزه له عما لا ينبغى (وثانيها) ورد التسبيح بمعنى الاستثناء فى قوله تعالى قال اوسطهم الم اقل لكم لولا تسبحون اى تستثنون وتأويله ايضا يعود الى تعظيم الله تعالى فى الاستثناء بمشيئته (وثالثها) جاء فى الحديث لأحرقت سبحات وجهه ماادركت من شئ قيل معناه نور وجهه وقيل سبحات وجهه نور وجهه الذى اذا رآه الرائى قال سبحان الله وقوله اسرى قال اهل اللغة اسرى وسرى لغتان وقوله بعبده اجمع المفسرون على ان المراد محمد عليه الصلاة والسلام وسمعت الشيخ الامام الوالد عمر بن الحسين رحمه الله قال سمعت الشيخ الامام ابا القاسم سليمان الانصارى قال لما وصل محمد صلوات الله عليه الى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة فى المعارج اوحى الله تعالى اليه يامحمد بم اشرفك قال يارب بأن تنسبنى الى نفسك بالعبودية

عن كل مايؤثم من فعل وترك اعنى التنزه عن كل مايشغل سره عن الحق والتبتل اليه بشراشر نفسه وهو التقوى الحقيقى المورث لولايته تعالى المقرونة ببشارة قوله سبحانه الا ان اولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون والمعنى ان الله ولى الذين تبتلوا اليه بالكلية وتنزهوا عن كل مايشغل سرهم عنه فلم يخطر ببالهم شئ من مطلوب او محذور فضلا عن الحزن بفواته اوالخوف من وقوعه وهو المعنى بما به الصبر المأمور به حسبما اشير اليه وبه يحصل التقريب ويتم التعليل كما فى قوله تعالى فاصبر ان العاقبة للمتقين على احد التفسيرين كما حقق فى مقامه والافمجرد التوقى عن المعاصى لايكون مدارا لشئ من العزائم المرخص فى تركها فكيف بالصبر المشار اليه ورديفيه وانما مداره المعنى المذكور فكأنه قيل ان الله مع الذين صبروا وانما اوثر ماعليه النظم الكريم مبالغة فى الحث على الصبر بالتنبيه على انه من خصائص اجل النعوت الجليلة وروادفه كما ان قوله تعالى (والذين هم محسنون) للاشعار بأنه من باب الاحسان الذى يتنافس فيه المتنافسون على مافصل ذلك حيث قيل واصبر فان الله لايضيع اجر المحسنين وقد نبه على ان كلا من الصبر والتقوى من قبيل الاحسان فى قوله تعالى انه من يتق ويصبر فان الله لايضيع اجر المحسنين وحقيقة الاحسان الاتيان بالاعمال على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره عليه الصلاة والسلام بقوله ان تعبد الله كانك تراه فان لم تكن

فأنزل الله فيه سبحان الذى اسرى بعبده وقوله ليلا نصب على الظرف فان قيل الاسراء لايكون الا بالليل فامعنى ذكر الليل قلنا أراد بقوله ليلا بلفظ التنكير تقليل مدة الاسراء وانه اسرى به فى بعض الليل من مكة الى الشام مسيرة اربعين ليلة وذلك ان التنكير فيه قد دل على معنى البعضية واختلفوا فى ذلك الليل قال مقاتل كان ذلك الليل قبل الهجرة بسنة ونقل صاحب الكشاف عن انس والحسن انه كان ذلك قبل البعثة وقوله من المسجد الحرام اختلفوا فى المكان الذى اسرى به منه فقيل هو المسجد الحرام بعينه وهو الذى يدل عليه ظاهر لفظ القرآن وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال بينا أنا فى المسجد الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ أتانى جبريل بالبراق وقيل اسرى به من دار ام هانئ بنت ابى طالب والمراد على هذا القول بالمسجد الحرام الحرم لاحاطته بالمسجد والتباسه به وعن ابن عباس الحرم كله مسجد وهذا قول الاكثرين وقوله الى المسجد الاقصى اتفقوا على ان المراد منه بيت المقدس وسمى بالاقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام وقوله الذى باركنا حوله قيل بالثمار والازهار وقيل بسبب انه مقر الانبياء ومهبط الملائكة واعلم ان كلمة الى لانتهاء الغاية فدلول قوله الى المسجد الاقصى انه وصل الى حد ذلك المسجد فاما انه دخل ذلك المسجد ام لا فليس فى اللفظ دلالة عليه وقوله لنريه من آياتنا يعنى مارأى فى تلك الليلة من العجائب والآيات التى تدل على قدرة الله تعالى فان قالوا قوله لنريه من آياتنا يدل على انه تعالى ماأراه الابعض الآيات لان كلمة من تفيد التبعيض وقال فى حق ابراهيم وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض فيلزم ان يكون معراج ابراهيم عليه السلام افضل من معراج محمد صلى الله عليه وسلم قلنا الذى رآه ابراهيم ملكوت السموات والارض والذى رآه محمد صلى الله عليه وسلم بعض آيات الله تعالى ولاشك ان آيات الله افضل ثم قال انه هو السميع البصير اى ان الذى اسرى بعبده هو السميع لاقوال محمد البصير بأفعاله العالم بكونها مهذبة خالصة عن شوائب الرياء مقرونة بالصدق والصفاء فلهذا السبب خصه الله تعالى بهذه الكرامات وقيل المراد سميع لما يقولون للرسول فى هذا الامر بصير بما يعملون فى هذه الواقعة (المسئلة الثانية) اختلف فى كيفية ذلك الاسراء فالاكثرون من طوائف المسلمين اتفقوا على انه اسرى بجسد رسول الله صلى الله عليه وسلم والاقلون قالوا انه مااسرى الا بروحه حكى عن محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره عن حذيفة انه قال ذلك رؤيا وانه مافقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما اسرى بروحه وحكى هذا القول ايضا عن عائشة رضى الله عنها وعن معاوية رضى الله عنه واعلم ان الكلام فى هذا الباب يقع فى مقامين (احدهما) فى اثبات الجواز العقلى والثانى فى الوقوع (اما المقام الاول) وهو اثبات الجواز العقلى فنقول الحركة الواقعة فى السرعة الى هذا الحد ممكنة فى نفسها والله تعالى قادر على جميع الممكنات وذلك يدل على ان حصول الحركة فى هذا

---

الاولى فعلية للدلالة على الحدوث كما ان ايراد الثانية اسمية لافادة كون مضمونها شيمة راسخة لهم وتقديم التقوى على الاحسان لما ان التخلية متقدمة على التحلية والمراد بالموصولين اما جنس المتقين والمحسنين وهو عليه الصلاة والسلام داخل فى زمرتهم دخولا اوليا واما هو عليه الصلاة والسلام ومن شايعه عبر عنهم بذلك مدحا لهم وثناء عليهم بالنعتين الجميلين وفيه رمز الى ان صنيعه عليه الصلاة والسلام مستتبع لاقتداء الامة به كقول من قال لابن عباس رضى الله عنهما عند التعزية

اصبر نكن بك صابرين فانما
صبر الرعية عند صبر الرأس

عن هرم بن حيان انه قيل له حين الاحتضار اوص قال انما الوصية من المال واوصيكم بخواتيم سورة النحل * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى بما انعم عليه فى دار الدنيا وان مات فى يوم تلاها اوليلته كان له من الاجر كالذى مات واحسن الوصية والحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله اجمعين

( سورة بنى اسرائيل مائة )
( واحدى عشرة آية مكية )
( الاآيات فى آخرها )

---

* ( بسم الله الرحمن الرحيم ) *

( سبحان الذى أسرى بعبده ) سبحان علم للتسبيح كعثمان للرجل وحيث كان المسمى معنى لاعينا وجنسا لاشخصا لم تكن اضافته من قبيل مافى زيد المعارك اوحاتم طيء وانتصابه بفعل متروك الاظهار تقديره سبح الله سبحان الخ وفيه ما لايخفى من الدلالة على التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من السبح الذى هو الذهاب والابعاد فى الارض ومنه فرس

الحد من السرعة غير ممتنع فنفتقر ههنا الى بيان مقدمتين (المقدمة الاولى) فى اثبات ان الحركة الواقعة الى هذا الحد ممكنة فى نفسها ويدل عليه وجوه ( الاول ) ان الفلك الاعظم يتحرك من اول الليل الى آخره مايقرب من نصف الدور وقد ثبت فى الهندسة ان نسبة القطر الواحد الى الدور نسبة الواحد الى ثلاثة وسبع فيلزم ان تكون نسبة نصف القطر الى نصف الدور نسبة الواحد الى ثلاثة وسبع وبتقدير ان يقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتفع من مكة الى مافوق الفلك الاعظم فهو لم يتحرك الا بمقدار نصف القطر فلما حصل فى ذلك القدر من الزمان حركة نصف الدور فكان حصول الحركة بمقدار نصف القطر اولى بالامكان فهذا برهان قاطع على ان الارتقاء من مكة الى مافوق العرش فى مقدار ثلث من الليل امر ممكن فى نفسه واذا كان كذلك كان حصوله فى كل الليل اولى بالامكان والله اعلم ( الوجه الثانى ) وهو انه ثبت فى الهندسة ان قرص الشمس يساوى كرة الارض مائة وستين وكذا مرة ثم انا نشاهد ان طلوع القرص يحصل فى زمان لطيف سريع وذلك يدل على ان بلوغ الحركة فى السرعة الى الحد المذكور امر ممكن فى نفسه (الوجه الثالث) انه كما يستبعد فى العقل صعود الجسم الكثيف من مركز العالم الى مافوق العرش فكذلك يستبعد نزول الجسم اللطيف الروحانى من فوق العرش الى مركز العالم فان كان القول بمعراج محمد صلى الله عليه وسلم فى الليلة الواحدة ممتنعا فى العقول كان القول بنزول جبريل عليه الصلاة والسلام من العرش الى مكة فى اللحظة الواحدة ممتنعا ولو حكمنا بهذا الامتناع كان ذلك طعنا فى نبوة جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام والقول بثبوت المعراج فرع على تسليم جواز اصل النبوة فثبت ان القائلين بامتناع حصول حركة سريعة الى هذا الحد يلزمهم القول بامتناع نزول جبريل عليه الصلاة والسلام فى اللحظة من العرش الى مكة ولما كان ذلك باطلا كان ماذكروه ايضا باطلا فان قالوا نحن لانقول ان جبريل عليه الصلاة والسلام جسم ينتقل من مكان الى مكان وانما نقول المراد من نزول جبريل عليه السلام هو زوال الحجب الجسمانية عن روح محمد صلى الله عليه وسلم حتى يظهر فى روحه من المكاشفات والمشاهدات بعض ما كان حاضرا متجليا فى ذات جبريل عليه الصلاة والسلام قلنا تفسير الوحى بهذا الوجه هو قول الحكماء فأما جمهور المسلمين فهم مقرون بأن جبريل عليه الصلاة والسلام جسم وان نزوله عبارة عن انتقاله من عالم الافلاك الى مكة واذا كان كذلك كان الالزام المذكور قويا روى انه عليه الصلاة والسلام لما ذكر قصة المعراج كذبه الكل وذهبوا الى ابى بكر وقالوا له ان صاحبك يقول كذا وكذا فقال ابوبكر ان كان قد قال ذلك فهو صادق ثم جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الرسول له تلك التفاصيل فكلما ذكر شيئا قال ابوبكر صدقت فلما تم الكلام قال ابوبكر اشهد انك رسول الله حقا فقال له الرسول وانا اشهد انك الصديق حقا وحاصل الكلام ان ابابكر

سبوح اى واسع الجرى ومن جهة النقل الى التفعيل ومن جهة العدول من المصدر الى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما وهو علم يشير الى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة قيامه مقام المصدر مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران بمعنى التنزه ففيه مبالغة من حيث اضافة التنزه الى ذاته المقدسة ومناسبة تامة بين المحذوف وبين ماعطف عليه فى قوله تعالى سبحانه وتعالى كأنه قيل تنزه بذاته وتعالى والاسراء السير بالليل خاصة كالسرى وقوله تعالى ( ليلا ) لافادة قلة زمان الاسراء لما فيه من التنكير الدال على البعضية من حيث الاجزاء دلالته على البعضية من حيث الافراد فان قولك سرت ليلا كما يفيد بعضية زمان سيرك من الليالى يفيد بعضيته من فرد واحد منها بخلاف ما اذا قلت سرت الليل فانه يفيد استيعاب السير له جميعا فيكون معيارا للسير لاظرفا له ويؤيده قراءة من الليل اى بعضه وايثار لفظ العبد للايذان بتمحضه عليه الصلاة والسلام فى عبادته سبحانه وبلوغه فى ذلك غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية حسبما يلوح به مبدأ الاسراء ومنتهاه واضافة التنزيه او التنزه الى الموصول المذكور للاشعار بعلية مافى حيز الصلة للمضاف فان ذلك من ادلة كمال قدرته وبالغ حكمته ونهاية تنزهه عن صفات المخلوقين (من المسجد الحرام) اختلف فى مبدأ الاسراء فقيل هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر فانه روى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال بينا انا فى المسجد الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ اتانى جبريل عليه الصلاة والسلام بالبراق وقيل هو دار أم هانئ بنت ابى طالب والمراد بالمسجد الحرام الحرم لاحاطته بالمسجد والتباسه به ( رضى )

رضى الله عنه كأنه قال لما سلمت رسالته فقد صدقته فيما هو اعظم من هذا فكيف أكذبه في هذا ( الوجه الرابع ) ان اكثر ارباب الملل والنحل يسلمون وجود ابليس ويسلمون انه هو الذي يتولى القاء الوسوسة في قلوب بنى آدم ويسلمون انه يمكنه الانتقال من المشرق الى المغرب لاجل القاء الوساوس في قلوب بنى آدم فلما سلموا جواز مثل هذه الحركة السريعة في حق ابليس فلأن يسلموا جواز مثلها في حق أكابر الانبياء كان اولى وهذا الالزام قوى على من يسلم ان ابليس جسم ينتقل من مكان الى مكان اما الذين يقولون انه من الارواح الخبيثة الشريرة وانه ليس بجسم ولا جسمانى فهذا الالزام غير وارد عليهم الا ان اكثر ارباب الملل والنحل يوافقون على انه جسم لطيف متنقل فان قالوا اهب ان الملائكة والشياطين يصح في حقهم حصول مثل هذه الحركة السريعة لانهم اجسام لطيفة ولا يمتنع حصول مثل هذه الحركة السريعة في ذواتها اما الانسان فانه جسم كثيف فكيف يعقل حصول مثل هذه الحركة السريعة فيه قلنا نحن انما استدللنا بأحوال الملائكة والشياطين على ان حصول حركة منتهية في السرعة الى هذا الحد ممكن في نفس الامر واما بيان ان هذه الحركة لما كانت ممكنة الوجود في نفسها كانت ايضا ممكنة الحصول في جسم البدن الانسانى فذاك مقام آخر سيأتى تقريره ان شاء الله تعالى ( الوجه الخامس ) انه جاء في القرآن ان الرياح كانت تسير بسليمان عليه الصلاة والسلام الى المواضع البعيدة في الاوقات القليلة قال تعالى في صفة مسير سليمان عليه الصلاة والسلام غدوها شهر ورواحها شهر بل نقول الحس يدل على ان الرياح تنتقل عند شدة هبوبها من مكان الى مكان في غاية البعد في اللحظة الواحدة وذلك ايضا يدل على ان مثل هذه الحركة السريعة في نفسها ممكنة ( الوجه السادس ) ان القرآن يدل على ان الذى عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من اقصى اليمن الى اقصى الشام في مقدار لمح البصر بدليل قوله تعالى قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك واذا كان ممكنا في حق بعض الناس علمنا انه في نفسه ممكن الوجود ( الوجه السابع ) ان من الناس من يقول الحيوان انما يبصر المبصرات لاجل ان الشعاع يخرج من عينيه ويتصل بالمبصر ثم انا اذا فتحنا العين ونظرنا الى زحل رأيناه فعلى قول هؤلاء انتقل شعاع العين من ابصارنا الى زحل في تلك اللحظة اللطيفة وذلك يدل على ان الحركة الواقعة على هذا الحد من السرعة من الممكنات لا من الممتنعات فثبت بهذه الوجوه ان حصول الحركة المنتهية في السرعة الى هذا الحد امر ممكن الوجود في نفسه ( المقدمة الثانية ) في بيان ان هذه الحركة لما كانت ممكنة الوجود في نفسها وجب ان لا يكون حصولها في جسد محمد صلى الله عليه وسلم ممتنعا والذى يدل عليه انا بينا بالدلائل القطعية ان الاجسام متماثلة في تمام ماهياتها فلما صح حصول مثل هذه الحركة في حق بعض الاجسام وجب امكان حصولها في سائر الاجسام وذلك يوجب القطع بأن حصول مثل هذه الحركة في جسد محمد صلى الله

اولان الحرم كله مسجد فانه روى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه عليه الصلاة والسلام كان نائما في بيت ام هانئ بعد صلاة العشاء فكان ما كان فقصه عليها فلما قام ليخرج الى المسجد تشبثت بثوبه عليه الصلاة والسلام لتمنعه خشية ان يكذبه القوم قال عليه الصلاة والسلام وان كذبونى فلما خرج جلس اليه ابو جهل فأخبره صلى الله عليه وسلم بحديث الاسراء فقال ابو جهل يامعشر كعب بن لؤى بن غالب هلم فحدثهم فمن مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وانكارا وارتد ناس ممن كان آمن به وسعى رجال الى ابى بكر فقال ان كان قال ذلك لقد صدق قالوا أتصدقه على ذلك قال انى اصدقه على ابعد من ذلك فسمى الصديق وكان فيهم من يعرف بيت المقدس فاستنعتوه المسجد فجلى له بيت المقدس فطفق ينظر اليه وينعته لهم فقالوا اما النعت فقد أصاب فقالوا اخبرنا عن عيرنا فأخبرهم بعدد جمالها واحوالها وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل اورق فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية فقال قائل منهم هذه والله الشمس قد اشرقت فقال آخر هذه والله العير قد اقبلت يقدمها جمل اورق كما قال محمد ثم لم يؤمنوا قاتلهم الله انى يؤفكون * واختلف في وقته ايضا فقيل كان قبل الهجرة بسنة وعن انس والحسن انه كان قبل البعثة واختلف ايضا انه في اليقظة او في المنام فعن الحسن انه كان في المنام واكثر الاقاويل بخلافه والحق انه كان في المنام قبل البعثة وفي اليقظة بعدها واختلف ايضا انه كان جسمانيا او روحانيا فعن عائشة رضى الله عنها انها قالت ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه وعن معاوية انه قال انما عرج بروحه والحق انه كان

عليه وسلم امر ممكن الوجود في نفسه واذا ثبت هذا فنقول ثبت بالدليل ان خالق العالم قادر على كل الممكنات وثبت ان حصول الحركة البالغة في السرعة الى هذا الحد في جسد محمد صلى الله عليه وسلم ممكن فوجب كونه تعالى قادرا عليه وحينئذ يلزم من مجموع هذه المقدمات ان القول بثبوت هذا المعراج امر ممكن الوجود في نفسه اقصى مافي الباب انه يبقى التعجب الا ان هذا التعجب غير مخصوص بهذا المقام بل هو حاصل في جميع المعجزات فانقلاب العصا ثعبانا تبلع سبعين الف حبل من الحبال والعصى ثم تعود في الحال عصا صغيرة كما كانت امر عجيب وخروج الناقة العظيمة من الجبل الاصم واظلال الجبل العظيم في الهواء عجيب وكذا القول في جميع المعجزات فان كان مجرد التعجب يوجب الانكار والدفع لزم الجزم بفساد القول باثبات المعجزات واثبات المعجزات فرع على تسليم اصل النبوة وان كان مجرد التعجب لا يوجب الانكار والابطال فكذا ههنا فهذا تمام القول في بيان ان القول بالمعراج ممكن غير ممتنع والله اعلم ( المقام الثاني ) في البحث عن وقوع المعراج قال اهل التحقيق الذي يدل على انه تعالى اسرى بروح محمد صلى الله عليه وسلم وجسده من مكة الى المسجد الاقصى القرآن والخبر اما القرآن فهو هذه الآية وتقرير الدليل ان العبد اسم لمجموع الجسد والروح فوجب ان يكون الاسراء حاصلا لمجموع الجسد والروح واعلم ان هذا الاستدلال موقوف على ان الانسان هو الروح وحده او الجسد وحده او مجموع الجسد والروح اما القائلون بأن الانسان هو الروح وحده فقد احتجوا عليه بوجوه ( احدها ) ان الانسان شئ واحد باق من اول عمره الى آخره والاجزاء البدنية في التبدل والتغير والانتقال والباقي غير متبدل فالانسان مغاير لهذا البدن ( وثانيها ) ان الانسان قد يكون عارفا بذاته المخصوصة حال مايكون غافلا عن جميع اجزائه البدنية والمعلوم مغاير للمغفول عنه فالانسان مغاير لهذا البدن ( وثالثها ) ان الانسان يقول بمقتضى فطرته السليمة يدي ورجلي ودماغي وقلبي وكذا القول في سائر الاعضاء فيضيف كلها الى ذاته المخصوصة والمضاف غير المضاف اليه فذاته المخصوصة وجب ان تكون مغايرة لكل هذه الاعضاء فان قالوا اليس انه يضيف ذاته الى نفسه فيقول ذاتي ونفسي فيلزمكم ان تكون نفسه مغايرا لذاته وهذا محال قلنا نحن لا نتمسك بمجرد اللفظ حتى يلزمنا ماذكرتموه بل انما نتمسك بمحض العقل فان صريح العقل يدل على ان الانسان موجود واحد وذلك الشئ الواحد يأخذ بآلة اليد ويبصر بآلة العين ويسمع بآلة الاذن فالانسان شئ واحد وهذه الاعضاء آلات له في هذه الافعال وذلك يدل على ان الانسان شئ مغاير لهذه الاعضاء والآلات فثبت بهذه الوجوه ان الانسان شئ مغاير لهذه البنية ولهذا الجسد اذا ثبت هذا فنقول سبحان الذي اسرى بعبده المراد من العبد جوهر الروح وعلى هذا التقدير فلم يبق في الآية دلالة على حصول الاسراء بالجسد فان قالوا فالاسراء بالروح ليس بأمر مخالف للعادة فلايليق به

---

جسمانيا على ماينبئ عنه التصدير بالتنزيه ومافي ضمنه من التعجب فان الروحاني ليس في الاستبعاد والاستنكار وخرق العادة بهذه المثابة ولذلك تعجبت منه قريش وأحالوه ولا استحالة فيه فانه قد ثبت في الهندسة ان قطر الشمس ضعف قطر الارض مائة ونيفا وستين مرة ثم ان طرفها الاسفل يصل الى موضع طرفها الاعلى بحركة الفلك الاعظم مع معاوقة حركة فلكها لها في اقل من ثانية وقد تقرر ان الاجسام متساوية في قبول الاعراض التي من جملتها الحركة وان الله سبحانه قادر على كل مايحيط به حيطة الامكان فيقدر على ان يخلق مثل تلك الحركة بل اسرع منها في جسد النبي صلى الله عليه وسلم اوفيما يحمله ولولم يكن مستبعدا لم يكن معجزة ( الى المسجد الاقصى ) اى بيت المقدس سمي به اذ لم يكن حينئذ وراءه مسجد وفي ذلك من تربية معنى التنزيه والتعجب مالايخفى ( الذى باركنا حوله ) ببركات الدين والدنيا لانه مهبط الوحي ومتعبد الانبياء عليهم الصلاة والسلام ( لنريه ) غاية للاسراء ( من آياتنا ) العظيمة التي من جملتها ذهابه في برهة من الليل مسيرة شهر ولا يقدح في ذلك كونه قبل الوصول الى المقصد ومشاهدة بيت المقدس وتمثل الانبياء له ووقوفه على مقاماتهم العلية عليهم الصلاة والسلام والالتفات الى التكلم لتعظيم تلك البركات والآيات وقرئ ليريه بالياء ( انه هو السميع ) لاقواله عليه الصلاة والسلام بلا اذن ( البصير ) بأفعاله بلا بصر حسبما يؤذن به القصر فيكرمه ويقربه بحسب ذلك وفيه ايماء الى ان الاسراء المذكور ليس الا لتكريمه عليه الصلاة والسلام ورفع منزلته والا فالاحاطة بأقواله وافعاله حاصلة من غير حاجة الى التقريب والالتفات ( ان )

ان يقال سبحان الذى أسرى بعبده قلنا هذا ايضا بعيد لانه لا يبعد ان يقال انه حصل لروحه من انواع المكاشفات والمشاهدات مالم يحصل لغيره البتة فلاجرم كان هذا الكلام لائقا به فهذا تقرير وجه السؤال على الاستدلال بهذه الآية فى اثبات المعراج بالروح والجسد معا والجواب ان لفظ العبد لا يتناول الا مجموع الروح والجسد والدليل عليه قوله تعالى ارأيت الذى ينهى عبدا اذا صلى ولا شك ان المراد من العبد ههنا مجموع الروح والجسد وقال ايضا فى سورة الجن وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا والمراد مجموع الروح والجسد فكذا ههنا واما الخبر فهو الحديث المروى فى الصحاح وهو مشهور وهو يدل على الذهاب من مكة الى بيت المقدس ثم منه الى السموات واحتج المنكرون له بوجوه (احدها) بالوجوه العقلية وهى ثلاثة اولها ان الحركة البالغة فى السرعة الى هذا الحد غير معقولة (وثانيها) ان صعود الجرم الثقيل الى السموات غير معقول (وثالثها) ان صعوده الى السموات يوجب انخراق الافلاك وذلك محال (والشبهة الثانية) ان هذا المعنى لو صح لكان اعظم من سائر المجزات وكان يجب ان يظهر ذلك عند اجتماع الناس حتى يستدلوا به على صدقه فى ادعاء النبوة فاما ان يحصل ذلك فى وقت لا يراه احد ولا يشاهده احد فانه يكون ذلك عبثا وذلك لا يليق بالحكيم (والشبهة الثالثة) تمسكوا بقوله وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس وما تلك الرؤيا الا حديث المعراج وانما كان فتنة للناس لان كثيرا ممن آمن به لما سمع هذا الكلام كذبه وكفر به فكان حديث المعراج سبب الفتنة الناس فثبت ان ذلك رؤيا رآه فى المنام (الشبهة الرابعة) ان حديث المعراج اشتمل على اشياء بعيدة منها ما روى من شق بطنه وتطهيره بماء زمزم وهو بعيد لان الذى يمكن غسله بالماء هو النجاسات العينية ولا تأثير لذلك فى تطهير القلب عن العقائد الباطلة والاخلاق المذمومة ومنها ما روى من ركوب البراق وهو بعيد لانه تعالى لما سيره من هذا العالم الى عالم الافلاك فأى حاجة الى البراق ومنها ما روى انه تعالى أوجب خمسين صلاة ثم ان محمدا صلى الله عليه وسلم لم يزل يتردد بين الله تعالى وبين موسى الى ان عاد الخمسون الى خمس بسبب شفقة موسى عليه الصلاة والسلام قال القاضى وهذا يقتضى نسخ الحكم قبل حضوره وانه يوجب البداء وذلك على الله تعالى محال فثبت ان ذلك الحديث مشتمل على مالا يجوز قبوله فكان مردودا والجواب عن الوجوه العقلية قد سبق فلا نعيدها (والجواب عن الشبهة الثانية) ما ذكره الله تعالى وهو قوله لنريه من آياتنا وهذا كلام مجمل وفى تفصيله وشرحه وجوه (الاول) ان خيرات الجنة عظيمة واهوال النار شديدة فلو انه عليه الصلاة والسلام ما شاهدهما فى الدنيا ثم شاهدهما فى ابتداء يوم القيامة فربما رغب فى خيرات الجنة او خاف من اهوال النار اما لما شاهدهما فى الدنيا فى ليلة المعراج فحينئذ لا يعظم وقعهما فى قلبه يوم القيامة فلا يبقى مشغول القلب بهما وحينئذ يتفرغ للشفاعة (الثانى) لا يمتنع ان تكون مشاهدته ليلة المعراج للانبياء والملائكة صارت

الى الغيبة لتربية المهابة (وآتينا موسى الكتاب) اى التوراة وفيه ايماء الى دعوته عليه الصلاة والسلام الى الطور وما وقع فيه من المناجاة جمعا بين الامرين المتحدين فى المعنى ولم يذكر ههنا العروج بالنبى عليه السلام الى السماء وما كان فيه مما لا يكتنه كنهه حسبما نطقت به سورة النجم تقريبا للاسراء الى قبول السامعين اى آتيناه التوراة بعد ما سرينا به الى الطور (وجعلناه) اى ذلك الكتاب (هدى لبنى اسرائيل) يهتدون بما فى مطاويه (ان لا تتخذوا) اى لا تتخذوا نحو كتبت اليه ان افعل كذا وقرئ بالياء على ان ان مصدرية والمعنى آتينا موسى الكتاب لهداية بنى اسرائيل لئلا يتخذوا (من دونى وكيلا) اى ربا تكلون اليه اموركم والافراد لما ان فعيلا مفرد فى اللفظ جمع فى المعنى (ذرية من حملنا مع نوح) نصب على الاختصاص او النداء على قراءة النهى والمراد تأكيد الحمل على التوحيد بتذكير انعامه تعالى عليهم فى ضمن انجاء آبائهم من الغرق فى سفينة نوح عليه السلام اوعلى انه احد مفعولى لا يتخذوا على قراءة النفى ومن دونى حال من وكيلا فيكون كقوله تعالى ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا وقرئ بالرفع على انه خبر مبتدأ

سبباللتكامل مصلحته او مصلحتهم (الثالث) انه لا يبعد انه اذا صعد الفلك وشاهد احوال السموات والكرسى والعرش صارت مشاهدة احوال هذا العالم واهواله حقيرة فى عينه فيحصل له زيادة قوة فى القلب باعتبار هايكون فى شروعه فى الدعوة الى الله تعالى اكمل وقلة التفاته الى اعداء الله تعالى اقوى يبين ذلك ان من عاين قدرة الله تعالى فى هذا الباب لايكون حاله فى قوة النفس وثبات القلب على احتمال المكاره فى الجهاد وغيره الاضعاف مايكون عليه حال من لم يعاين واعلم ان قوله لنريه من آياتنا كالدلالة على ان فائدة ذلك الاسراء مختصة به وعائدة اليه على سبيل التعيين (والجواب عن الشبهة الثالثة) انا عند الانتهاء الى تفسير تلك الآية فى هذه السورة نبين ان تلك الرؤيا رؤيا عيان لا رؤيا منام (والجواب عن الشبهة الرابعة) لا اعتراض على الله تعالى فى افعاله فهو يفعل مايشاء ويحكم مايريد والله اعلم (المسئلة الرابعة) اما العروج الى السموات والى مافوق العرش فهذه الآية لاتدل عليه ومنهم من استدل عليه بأول سورة والنجم ومنهم من استدل عليه بقوله تعالى لتركبن طبقا عن طبق وتفسيرهما مذكور فى موضعه واما دلالة الحديث فكما سلف والله اعلم ❊ قوله تعالى (وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبدا شكورا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان الكلام فى الآية التى قبل هذه الآية وفيها انتقل من الغيبة الى الخطاب ومن الخطاب الى الغيبة لان قوله سبحان الذى اسرى فيه ذكر الله على سبيل الغيبة وقوله باركنا حوله لنريه من آياتنا فيه ثلاثة الفاظ دالة على الحضور وقوله انه هو السميع البصير يدل على الغيبة وقوله وآتينا موسى الكتاب الخ يدل على الحضور وانتقال الكلام من الغيبة الى الحضور وبالعكس يسمى صنعة الالتفات (المسئلة الثانية) ذكر الله تعالى فى الآية الاولى اكرامه محمدا صلى الله عليه وسلم بأن اسرى به وذكر فى هذه الآية انه اكرم موسى عليه الصلاة والسلام قبله بالكتاب الذى آتاه فقال وآتينا موسى الكتاب يعنى التوراة وجعلناه هدى اى يخرجهم بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر الى نور العلم والدين الحق وقوله ألا تتخذوا من دونى وكيلا وفيه ابحاث (البحث الاول) قرأ ابو عمرو ألا يتخذوا بالياء خبرا عن بنى اسرائيل والباقون بالتاء على الخطاب اى قلنا لهم لاتتخذوا (البحث الثانى) قال ابو على الفارسى ان قوله ألا تتخذوا فيه ثلاثة اوجه (احدها) ان تكون ان ناصبة للفعل فيكون المعنى وجعلناه هدى لئلا تتخذوا (وثانيها) ان تكون ان بمعنى اى التى للتفسير وانصرف الكلام من الغيبة الى الخطاب فى قراءة العامة كما انصرف منها الى الخطاب والامر فى قوله وانطلق الملأ منهم ان امشوا فكذلك انصرف من الغيبة الى النهى فى قوله ألا تتخذوا (وثالثها) ان تكون ان زائدة ويجعل تتخذوا على القول المضمر والتقدير وجعلناه هدى لبنى اسرائيل فقلنا لا تتخذوا من دونى وكيلا (البحث الثالث)

محذوف او بدل من واو لاتتخذوا بابدال الظاهر من ضمير المخاطب كما هو مذهب بعض البغادة وقرئ ذرية بكسر الذال (انه) اى ان نوحا عليه الصلاة والسلام (كان عبدا شكورا) كثير الشكر فى مجامع حالاته وفيه ايذان بأن انجاء من معه كان ببركة شكره عليه الصلاة والسلام وحث للذرية على الاقتداء به وزجر لهم عن الشرك الذى هو اعظم مراتب الكفر ان وقيل الضمير لموسى عليه السلام (وقضينا) اى اتممنا واحكمنا منزلين (الى بنى اسرائيل) او موحين اليهم (فى الكتاب) اى فى التوراة فان الانزال والوحى الى موسى عليه السلام انزال ووحى اليهم (لتفسدن فى الارض) جواب قسم محذوف ويجوز اجراء القضاء المحتوم مجرى القسم كأنه قيل واقسمنا لتفسدن (مرتين) مصدر والعامل فيه من غير جنسه اولاهما مخالفة حكم التوراة وقتل شعياء عليه الصلاة والسلام وحبس ارمياء حين أنذرهم سخط الله تعالى والثانية قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليهم الصلاة والسلام (ولتعلن علوا كبيرا) لتستكبرن عن طاعة الله سبحانه او لتغلبن الناس بالظلم والعدوان وتفرطن فى ذلك افراطا مجاوزا للحدود (فاذا جاء وعد اولاهما) اى اولى كرتى

قوله وكيلا اى ربا تكلون اموركم اليه اقول حاصل الكلام فى الآية انه تعالى ذكر
تشريف محمد صلى الله عليه وسلم بالاسراء ثم ذكر عقيبه تشريف موسى عليه الصلاة
والسلام بانزال التوراة عليه ثم وصف التوراة بكونها هدى ثم بين ان التوراة انما
كان هدى لاشتماله على النهى عن اتخاذ غير الله وكيلا وذلك هو التوحيد فرجع حاصل
الكلام بعد رعاية هذه المراتب انه لا معراج اعلى ولا درجة اشرف ولا منقبة اعظم من
ان يصير المرء غرقا فى بحر التوحيد وان لا يعول فى امر من الامور الا على الله فان نطق
نطق بذكر الله وان تفكر تفكر فى دلائل تنزيه الله تعالى وان طلب طلب من الله فيكون
كله لله وبالله ثم قال ذرية من حملنا مع نوح وفى نصب ذرية وجهان (الاول) ان يكون
نصبا على النداء يعنى ياذرية من حملنا مع نوح وهذا قول مجاهد لانه قال هذا نداء قال
الواحدى وانما يصح هذا على قراءة من قرأ بالتاء كأنه قيل لهم لاتتخذوا من دونى وكيلا
ياذرية من حملنا مع نوح فى السفينة قال قتادة الناس كلهم ذرية نوح لانه كان معه فى
السفينة ثلاثة بنين سام وحام ويافث فالناس كلهم من ذرية أولئك فكان قوله ياذرية من
حملنا مع نوح قائما مقام قوله ياأيها الناس (الوجه الثانى) فى نصب قوله ذرية ان
الاتخاذ فعل يتعدى الى مفعولين كقوله واتخذ الله ابراهيم خليلا والتقدير لاتتخذوا ذرية
من حملنا مع نوح من دونى وكيلا ثم انه تعالى اثنى على نوح فقال انه كان عبدا شكورا
اى كان كثير الشكر روى انه عليه الصلاة والسلام كان اذا أكل قال الحمد لله الذى
اطعمنى ولو شاء اجاعنى واذا شرب قال الحمد لله الذى اسقانى ولو شاء اظمأنى واذا
اكتسى قال الحمد لله الذى كسانى ولو شاء اعرانى واذا احتذى قال الحمد لله الذى حذانى
ولو شاء احفانى واذا قضى حاجته قال الحمد لله الذى أخرج عنى اذاه فى عافية ولو شاء
حبسه وروى انه كان اذا أراد الافطار عرض طعامه على من آمن به فان وجده محتاجا
آثره به فان قيل قوله انه كان عبدا شكورا ما وجه ملاءمته لما قبله قلنا التقدير كأنه قال
لاتتخذوا من دونى وكيلا ولا تشركوا بى لان نوحا عليه الصلاة والسلام كان عبدا شكورا
وانما يكون العبد شكورا لو كان موحدا لا يرى حصول شئ من النعم الا من فضل الله
وانتم ذرية قومه فاقتدوا بنوح عليه السلام كما ان آباءكم اقتدوا به والله اعلم * قوله
تعالى (وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الارض مرتين ولتعلن علوا كبيرا
فاذا جاء وعد اولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان
وعدا مفعولا ثم رددنا لكم الكرة عليهم وامددناكم بأموال وبنين وجعلناكم اكثر نفيرا)
اعلم انه تعالى لما ذكر انعامه على بنى اسرائيل بانزال التوراة عليهم وبانه جعل التوراة
هدى لهم بين انهم مااهتدوا بهداه بل وقعوا فى الفساد فقال وقضينا الى بنى اسرائيل فى
الكتاب لتفسدن فى الارض مرتين وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) القضاء فى اللغة
عبارة عن قطع الاشياء عن احكام ومنه قوله فقضاهن سبع سموات وقول الشاعر

الافساد اى حان وقت حلول
العقاب الموعود (بعثنا عليكم)
لمؤاخذتكم بجنايتكم (عبادا
لنا) وقرئ عبيدا لنا (اولى بأس
شديد) ذوى قوة وبطش فى
الحروب هم سنجاريب من اهل
نينوى وجنوده وقيل بختنصر
عامل لهراسب وقيل جالوت
(فجاسوا) اى ترددوا لطلبكم
بالفساد وقرئ بالحاء والمعنى
واحد وقرئ وجوسوا (خلال
الديار) فى اوساطها للقتل
والغارة وقرئ خلل الديار فقتلوا
علماءهم وكبارهم واحرقوا
التوراة وخربوا المسجد وسبوا
منهم سبعين الفا وذلك من قبيل
تولية بعض الظالمين بعضا مما
جرت به السنة الالهية (وكان)
ذلك (وعدا مفعولا) لا محالة
بحيث لا صارف عنه ولا مبدل
(ثم رددنا لكم الكرة) اى الدولة
والغلبة (عليهم) على الذين فعلوا
بكم مافعلوا بعد مائة سنة حين
تبتم ورجعتم عما كنتم عليه من
الافساد والعلو قيل هى قتل
بختنصر واستنقاذ بنى اسرائيل
اساراهم واموالهم ورجوع
الملك اليهم وذلك انه لما ورث بهمن
ابن اسفنديار الملك من جده
كشتاسف بن لهراسب القى الله
تعالى فى قلبه الشفقة عليهم فرد
اساراهم الى الشام وملك عليهم
دانيال عليه السلام فاستولوا على
من كان فيها من اتباع بختنصر

* وعليهما مسرودتان قضاهما * داود * فقوله وقضينا اى اعلمناهم واخبرناهم بذلك وأوحينا اليهم ولفظ الى صلة للايحاء لان معنى قضينا أوحينا اليهم كذا وقوله لتفسدن يريد المعاصى وخلاف احكام التوراة وقوله فى الارض يعنى ارض مصر وقوله ولتعلن علوا كبيرا يعنى انه يكون استعلاؤكم على الناس بغير الحق استعلاء عظيما لانه يقال لكل متجبر قد علا وتعظم ثم قال فاذا جاء وعد اولاهما يعنى أولى المرتين بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد والمعنى انه اذا جاء وعد الفساد فى المرة الاولى أرسلنا عليكم قوما أولى بأس شديد ونجدة وشدة والبأس القتال ومنه قوله تعالى وحين البأس ومعنى بعثنا عليكم ارسلنا عليكم وخلينا بينكم وبينهم خاذلين اياكم واختلفوا فى ان هؤلاء العباد من هم قيل ان بنى اسرائيل تعظموا وتكبروا واستحلوا المحارم وقتلوا الانبياء وسفكوا الدماء وذلك اول الفسادين فسلط الله عليهم بختنصر فقتل منهم اربعين الفا ممن يقرأ التوراة وذهب بالبقية الى ارض نفسه فبقوا هناك فى الذل الى ان قيض الله ملكا آخر غزا اهل بابل واتفق ان تزوج بامرأة من بنى اسرائيل فطلبت تلك المرأة من ذلك الملك ان يرد بنى اسرائيل الى بيت المقدس ففعل وبعد مدة قامت فيهم الانبياء ورجعوا الى احسن ما كانوا فهو قوله ثم رددنا لكم الكرة عليهم (والقول الثانى) ان المراد من قوله بعثنا عليكم عبادا لنا ان الله تعالى سلط عليهم جالوت حتى اهلكهم وأبادهم وقوله ثم رددنا لكم الكرة هو انه تعالى قوى طالوت حتى حارب جالوت ونصر داود حتى قتل جالوت فذاك هو عود الكرة (والقول الثالث) ان قوله بعثنا عليكم عبادا لنا هو انه تعالى ألقى الرعب من بنى اسرائيل فى قلوب المجوس فلما كثرت المعاصى فيهم أزال ذلك الرعب عن قلوب المجوس فقصدوهم وبالغوا فى قتلهم وافنائهم واهلاكهم واعلم انه لا يتعلق كثير غرض فى معرفة أولئك الاقوام باعيانهم بل المقصود هو انهم لما اكثروا من المعاصى سلط عليهم اقواما قتلوهم وافنوهم ثم قال تعالى فجاسوا خلال الديار قال الليث الجوس والجوسان التردد خلال الديار والبيوت فى الفساد والخلال هو الانفراج بين الشيئين والديار ديار بيت المقدس واختلفت عبارات المفسرين فى تفسير جاسوا فعن ابن عباس فتشوا وقال ابو عبيدة طلبوا من فيها وقال ابن قتيبة عاثوا وافسدوا وقال الزجاج طافوا خلال الديار هل بقى احد لم يقتلوه قال الواحدى الجوس هو التردد والطلب وذلك محتمل لكل ماقالوه ثم قال تعالى وكان وعدا مفعولا اى كان قضاء الله بذلك قضاء جزما حتما لا يقبل النقض والنسخ ثم قال تعالى ثم رددنا لكم الكرة اى اهلكنا اعداءكم ورددنا الدولة والقوة عليكم وجعلناكم اكثر نفيرا النفير العدد من الرجال واصله من نفر مع الرجل من عشيرته وقومه والنفير والنافر واحد كالقدير والقادر وذكرنا معنى نفر عند قوله فلولا نفر من كل فرقة وقوله انفروا خفافا (المسئلة الثانية) احتج اصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم فى مسئلة القضاء والقدر من وجوه (الاول) انه تعالى قال وقضينا الى بنى اسرائيل

وقيل هى قتل داود عليه السلام لجالوت (وامددناكم بأموال) كثيرة بعد مانهبت اموالكم (وبنين) بعدماسبيت اولادكم (وجعلناكم اكثر نفيرا) مما كنتم من قبل اومن عدوكم والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وقيل جمع نفر وهم القوم المجتمعون للذهاب الى العدو كالعبيد والمعنى (ان احسنتم) اعمالكم سواء كانت لازمة لانفسكم او متعدية الى الغير اى عملتموها على الوجه اللائق ولايتصور ذلك الابعد ان تكون الاعمال حسنة فى انفسها اوان فعلتم الاحسان (احسنتم لانفسكم) لان ثوابها لها (وان اسأتم) اعمالكم بأن عملتموها لاعلى الوجه اللائق ويلزمه السوء الذاتى اوفعلتم الاساءة (فلها) اذ عليها وبالها وعن على كرم الله وجهه ما احسنت الى احد ولااسأت اليه وتلاها (فاذا جاء وعد الآخرة) حان وقت ماوعد من عقوبة المرة الآخرة (ليسوؤا وجوهكم) متعلق بفعل حذف لدلالة ماسبق عليه اى بعثناهم ليسوؤا ومعنى ليسوؤا وجوهكم ليجعلوا آثار المساءة والكآبة بادية فى وجوهكم كقوله تعالى سيئت وجوه الذين كفروا وقرئ ليسوء على ان الضمير لله تعالى اوللوعد او للبعث وللسوء بنون العظمة وفى قراءة

فى الكتاب لتفسدن فى الارض مرتين ولتعلن علوا كبيرا وهذا القضاء أقل احتمالاته الحكم الجزم والخبر الحتم فثبت انه تعالى أخبر عنهم انهم سيقدمون على الفساد والمعاصى خبرا جزما حتما لايقبل النسخ لان القضاء معناه الحكم الجزم على ماشرحناه ثم انه تعالى أكد ذلك القضاء مزيد تأكيد فقال وكان وعدا مفعولا اذا ثبت هذا فنقول عدم وقوع ذلك الفساد عنهم يستلزم انقلاب خبر الله تعالى الصدق كذبا وانقلاب حكمه الجازم باطلا وانقلاب علمه الحق جهلا وكل ذلك محال فكان عدم اقدامهم على ذلك الفساد محالا فكان اقدامهم عليه واجبا ضروريا لايقبل النسخ والرفع مع انهم كلفوا بتركه ولعنوا على فعله وذلك يدل على قولنا ان الله قد يأمر بشئ ويصد عنه وقد ينهى عن شئ ويقضى بتحصيله فهذا احد وجوه الاستدلال بهذه الآية (الوجه الثانى) فى الاستدلال بهذه الآية قوله تعالى بعثنا عليكم عبادا لنا اولى بأس شديد والمراد أولئك الذين تسلطوا على بنى اسرائيل بالقتل والنهب والاسر فبين تعالى انه هو الذى بعثهم على بنى اسرائيل ولاشك ان قتل بنى اسرائيل ونهب اموالهم واسر اولادهم كان مشتملا على الظلم الكثير والمعاصى العظيمة ثم انه تعالى اضاف كل ذلك الى نفسه بقوله ثم بعثنا عليكم وذلك يدل على ان الخير والشر والطاعة والمعصية من الله تعالى أجاب الجبائى عنه من وجهين (الاول) المراد من بعثنا عليكم هو انه تعالى امر اولئك الاقوام بغزو بنى اسرائيل لما ظهر فيهم من الفساد فاضيف ذلك الفعل الى الله تعالى من حيث الامر (والثانى) ان يكون المراد خلينا بينهم وبين بنى اسرائيل وماالقينا الخوف من بنى اسرائيل فى قلوبهم وحاصل الكلام ان المراد من هذا البعث التخلية وعدم المنع واعلم ان الجواب الاول ضعيف لان الذين قصدوا تخريب بيت المقدس واحراق التوراة وقتل حفاظ التوراة لايجوز ان يقال انهم فعلوا ذلك بأمر الله تعالى والجواب الثانى ايضا ضعيف لان البعث على الفعل عبارة عن التقوية عليه والقاء الدواعى القوية فى القلب واما التخلية فعبارة عن عدم المنع والاول فعل والثانى ترك فتفسير البعث بالتخلية تفسير لاحد الضدين بالآخر وانه لايجوز فثبت صحة ماذكرناه والله اعلم ❊ قوله تعالى (ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها فاذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه اول مرة وليتبروا ماعلوا تتبيرا عسى ربكم ان يرحمكم وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى حكى عنهم انهم لما عصوا سلط عليهم اقواما قصدوهم بالقتل والنهب والسبى ولما تابوا أزال عنهم تلك المحنة واعاد عليهم الدولة فعند ذلك ظهر انهم ان اطاعوا فقد احسنوا الى انفسهم وان أصروا على المعصية فقد أساؤا الى انفسهم وقد تقرر فى العقول ان الاحسان الى النفس حسن مطلوب وان الاساءة اليها قبيحة فلهذا المعنى قال تعالى ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها (المسئلة الثانية) قال الواحدى لابد ههنا من اضمار

على رضى الله عنه لنسوأن على أنه جواب اذا وقرئ لنسوأن بالنون الخفيفة وليسوأن واللام فى قوله عز وجل (وليدخلوا المسجد) عطف على ليسوؤا متعلق بما تعلق هو به (كما دخلوه اول مرة) اى فى اول مرة (وليتبروا) اى يهلكوا (ماعلوا) ماغلبوه واستولوا عليه او مدة علوهم (تتبيرا) فظيعا لايوصف بأن سلط الله عز سلطانه عليهم الفرس فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه جودرد وقيل جردوس وقيل دخل صاحب الجيش مذبح قربانهم فوجد فيه دما يغلى فسألهم عنه فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال لم تصدقونى فقتل على ذلك ألوفا فلم يهدأ الدم ثم قال ان لم تصدقونى ما تركت منكم احدا فقالوا انه دم يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام فقال لمثل هذا ينتقم منكم ربكم ثم قال يايحيى قد علم ربى وربك ماأصاب قومك من اجلك فاهدأ باذن الله تعالى قبل ان لاابقى منهم أحدا فهدأ (عسى ربكم ان يرحمكم) بعد المرة الآخرة ان تبتم توبة اخرى وانزجرتم عما كنتم عليه من المعاصى (وان عدتم) الى ماكنتم فيه من الفساد مرة أخرى (عدنا) الى عقوبتكم ولقد عادوا فاعاد الله سبحانه عليهم النقمة بأن سلط عليهم الاكاسرة ففعلوا بهم

والتقدير وقلنا ان احسنتم احسنتم لانفسكم والمعنى ان احسنتم بفعل الطاعات فقد احسنتم الى انفسكم من حيث ان بيركة تلك الطاعات يفتح الله عليكم ابواب الخيرات والبركات وان أسأتم بفعل المحرمات أسأتم الى انفسكم من حيث ان بشؤم تلك المعاصي يفتح الله عليكم ابواب العقوبات (المسئلة الثالثة) قال النحويون انما قال وان أسأتم فلها للتقابل والمعنى فاليها او فعليها مع ان حروف الاضافة يقوم بعضها مقام بعض كقوله تعالى يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها اى اليها (المسئلة الرابعة) قال اهل الاشارات هذه الآية تدل على ان رحمة الله تعالى غالبة على غضبه بدليل انه لما حكى عنهم الاحسان اعاده مرتين فقال ان احسنتم احسنتم لانفسكم ولما حكى عنهم الاساءة اقتصر على ذكرها مرة واحدة فقال وان أسأتم فلها ولولا ان جانب الرحمة غالب والا لما كان كذلك ثم قال تعالى فاذا جاء وعد الآخرة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال المفسرون معناه وعد المرة الاخيرة وهذه المرة الاخيرة هي اقدامهم على قتل زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام قال الواحدي فبعث الله تعالى عليهم بختنصر البابلي المجوسي ابغض خلقه اليه فسبى بني اسرائيل وقتل وخرب بيت المقدس اقول التواريخ تشهد بأن بختنصر كان قبل وقت عيسى عليه الصلاة والسلام ويحيى وزكريا عليهما الصلاة والسلام بسنين متطاولة ومعلوم ان الملك الذي انتقم من اليهود بسبب هؤلاء ملك من الروم يقال له قسطنطين الملك والله اعلم بأحوالهم ولا يتعلق غرض من اغراض تفسير القرآن بمعرفة اعيان هؤلاء الاقوام (المسئلة الثانية) جواب قوله فاذا جاء محذوف تقديره فاذا جاء وعد الآخرة بعثناهم ليسوؤا وجوهكم وانما حسن هذا الحذف لدلالة ما تقدم عليه من قوله بعثنا عليكم عبادا لنا ثم قال ليسوؤا وجوهكم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) يقال ساءه يسوءه اى أحزنه وانما عزا الاساءة الى الوجوه لان آثار الاعراض النفسانية الحاصلة في القلب انما تظهر على الوجه فان حصل الفرح في القلب ظهرت النضرة والاشراق والاسفار في الوجه وان حصل الحزن والخوف في القلب ظهرت الكلوح والغبرة والسواد في الوجه فلهذا السبب عزيت الاساءة الى الوجوه في هذه الآية ونظير هذا المعنى كثير في القرآن (المسئلة الثانية) قرأ العامة ليسوؤا على صيغة المغايبة قال الواحدي وهي موافقة للمعنى وللفظ اما المعنى فهو ان المبعوثين هم الذين يسوؤنهم في الحقيقة لانهم هم الذين يقتلون ويأسرون واما اللفظ فلانه يوافق قوله وليدخلوا المسجد وقرأ ابن عامر وابو بكر عن عاصم وحمزة ليسوء على اسناد الفعل الى الواحد وذلك الواحد يحتمل ان يكون احد اشياء ثلاثة اما اسم الله سبحانه لان الذي تقدم هو قوله ثم رددنا وامددنا وكل ذلك ضمير عائد الى الله تعالى واما ان يكون ذلك الواحد هو البعث ودل عليه قوله بعثنا والفعل المتقدم يدل على المصدر كقوله تعالى ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم وقال الزجاج ليسوء الوعد وجوهكم وقرأ الكسائي بالنون وهذا على اسناد

(الفعل)

---

ما فعلوا من ضرب الاتاوة ونحو ذلك وعن الحسن عادوا فبعث الله تعالى محمدا عليه الصلاة والسلام فهم يعطون الجزية عن يدوهم صاغرون وعن قتادة مثله (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) اى محبسا لا يستطيعون الخروج منها أبد الآبدين وقيل بساطا كما يبسط الحصير وانما عدل عن ان يقال وجعلنا جهنم لكم تسجيلا على كفرهم بالعود وذما لهم بذلك واشعارا بعلة الحكم (ان هذا القرآن) الذي آتيناكه (يهدى) اى الناس كافة لا لفرقة مخصوصة منه كدأب الكتاب الذي آتيناه موسى (للتي) للطريقة التي (هي اقوم) اى اقوم الطرائق واسدها اعني ملة الاسلام والتوحيد وترك ذكرها ليس لقصد التعميم لها وللحالة والخصلة ونحوها مما يعبر به عن المقصد المذكور بل للايذان بالغنى عن التصريح بها لغاية ظهورها لاسيما بعد ذكر الهداية التي هي من روادفها والمراد بهدايته لها كونه بحيث يهتدى اليها من يتمسك به لا تحصيل الاهتداء بالفعل فانه مخصوص بالمؤمنين حينئذ (ويبشر المؤمنين) بما في تضاعيفه من الاحكام والشرائع وقرئ بالتخفيف (الذين يعملون الصالحات) التي شرحت فيه (ان لهم) اى بان لهم بمقابلة تلك الاعمال (اجرا

الفعل الى الله تعالى كقوله بعثنا عليكم وامددنا ثم قال تعالى وليتبروا ماعلوا تتبيرا يقال
تبر الشيء تبرا اذاهلك وتبره اهلكه قال الزجاج كل شيء جعلته مكسرا ومفتتافقدتبرته
ومنه قيل تبرالزجاج وتبر الذهب لمكسره ومنه قوله تعالى ان هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل
ماكانوا يعملون وقوله ولاتزد الظالمين الاتبارا وقوله ماعلوا يحتمل ماغلبوا عليه
وظفروا به ويحتمل ويتبروا مادامواغالبين اى مادام سلطانهم جاريا على بنى اسرائيل
وقوله تتبيرا ذكر للمصدر على معنى تحقيق الخبر وازالة الشك فى صدقه كقوله وكلم الله
موسى تكليما اى حقا والمعنى وليدمروا ويخربوا ماغلبوا عليه ثم قال تعالى عسى ربكم
ان يرحمكم والمعنى لعل ربكم ان يرحمكم ويعفو عنكم بعد انتقامه منكم يابنى اسرائيل
ثم قال وان عدتم عدنا يعنى ان بعثنا عليكم من بعثنافعلوا بكم مافعلوا عقوبة لكم وعظة
لتنتفعوا به وتنزجروا به عن ارتكاب المعاصى ثم رحمكم فأزال هذا العذاب عنكم فان
عدتم مرة اخرى الى المعصية عدنا الى صب البلاء عليكم فى الدنيا مرة اخرى قال القفال
وانما حملنا هذه الآية على عذاب الدنيا لقوله تعالى فى سورة الاعراف خبرا عن بنى
اسرائيل واذتأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ثم قال
وان عدتم عدنا اى وانهم قدعادوا الى فعل مالاينبغى وهو التكذيب لمحمد صلى الله عليه
وسلم وكتمان ماورد فى التوراة والانجيل فعادالله عليهم بالتعذيب على ايدى العرب
فجرى على بنى النضير وقريظة وبنى قينقاع ويهود خيبر ماجرى من القتل والجلاء ثم
الباقون منهم مقهورون بالجزية لاملك لهم ولا سلطان ثم قال تعالى وجعلنا جهنم
للكافرين حصيرا والحصير فعيل فيحتمل ان يكون بمعنى الفاعل اى وجعلنا جهنم حاصرة
لهم ويحتمل ان يكون بمعنى مفعول اى جعلناها موضعا محصورا لهم والمعنى ان عذاب
الدنيا وان كان شديدا قويا الا انه قد تفلت بعض الناس عنه والذى يقع فى ذلك العذاب
يتخلص عنه اما بالموت واما بطريق آخر واما عذاب الآخرة فانه يكون حاصرا للانسان
محيطا به لارجاء فى الخلاص عنه فهؤلاء الاقوام لهم من عذاب الدنيا ماوصفناه ويكون
لهم بعد ذلك من عذاب الآخرة مايكون محيطا بهم من جميع الجهات ولايتخلصون منه
ابدا ❊ قوله تعالى (ان هذا القرآن يهدى للتى هى اقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون
الصالحات ان لهم اجرا كبيرا وان الذين لايؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذابا اليما ) اعلم
انه تعالى لما شرح مافعله فى حق عباده المخلصين وهو الاسراء برسول الله صلى الله عليه
وسلم وايتاء الكتاب لموسى عليه الصلاة والسلام ومافعله فى حق العصاة والمتمردين وهو
تسليط انواع البلاء عليهم كان ذلك تنبيها على ان طاعة الله توجب كل خير وكرامة
ومعصيته توجب كل بلية وغرامة لاجرم اثنى على القرآن فقال ان هذا القرآن يهدى للتى
هى اقوم واعلم ان قوله تعالى دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا يدل على كون هذا الدين
مستقيما وقوله فى هذه الآية للتى هى اقوم يدل على ان هذا الدين اقوم من سائر الاديان

كبيرا ) بحسب الذات وبحسب
التضعيف عشر مرات فصاعدا
(وان الذين لا يؤمنون
بالآخرة ) واحكامها المشروحة
فيه من البعث والحساب والجزاء
وتخصيصها بالذكر من بين سائر
ما كفروا به لكونها معظم ماامروا
بالايمان به ولمراعاة التناسب بين
اعمالهم وجزائها الذى انبأ عنه
قوله عز وجل ( اعتدنا لهم عذابا
اليما ) وهو عذاب جهنم اى اعتدنا
لهم فيما كفروا به وانكروا
وجوده من الآخرة عذابا اليما
وهو ابلغ فى الزجر لما ان اتيان
العذاب من حيث لايحتسب افظع
وافجع والجملة معطوفة على جملة
يبشر باضمار يخبر او على قوله تعالى
ان لهم داخلة معه تحت التبشير
المراد به مجازا مطلق الاخبار
المنتظم للاخبار بالخبر السار
وبالنبأ الضار حقيقة فيكون
ذلك بيانا لهداية القرآن بالترغيب
والترهيب ويجوز كون التبشير
بمعناه والمراد تبشير المؤمنين
ببشارتين ثوابهم وعقاب اعدائهم
وقوله تعالى ( ويدع الانسان
بالشر ) بيان لحال المهدى اثر
بيان حال الهادى واظهار لما
بينهما من التباين والمراد بالانسان
الجنس اسند اليه حال بعض
افراده او حكى عنه حاله فى بعض
احيانه فالمعنى على الاول ان
القرآن يدعو الانسان الى الخير
الذى لا خير

واقول قولنا هذا الشئ اقوم من ذاك انما يصح في شيئين يشتركان في معنى الاستقامة ثم كان حصول معنى الاستقامة في احدى الصورتين اكثر واكمل من حصوله في الصورة الثانية وهذا محال لان المراد من كونه مستقيما كونه حقا وصدقا ودخول التفاوت في كون الشئ حقا وصدقا محال فكان وصفه بأنه اقوم مجازا الا ان لفظ الافعل قد جاء بمعنى الفاعل كقولنا الله اكبر اى الله كبير وقولنا الاشج والناقص اعدلا بنى مروان اى عادلا بنى مروان اويحمل هذا اللفظ على الظاهر المتعارف والله اعلم (البحث الثانى) قوله للتى هى اقوم نعت لموصوف محذوف والتقدير يهدى للملة اوالشريعة اوالطريقة التى هى اقوم الملل والشرائع والطرق ومثل هذه الكناية كثيرة الاستعمال فى القرآن كقوله ادفع بالتى هى احسن اى بالخصلة التى هى احسن اماقوله ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا كبيرا فاعلم انه تعالى وصف القرآن بثلاثة انواع من الصفات (اوليها) انه يهدى للتى هى اقوم وقدمر تفسيره (والصفة الثانية) انه يبشر الذين يعملون الصالحات بالاجر الكبير وذلك لان الصفة الاولى لما دلت على كون القرآن هاديا الى الاعتقاد الاصوب والعمل الاصلح وجب ان يظهر لهذا الصواب والصلاح اثر وذلك هو الاجر الكبير لان الطريق الاقوم لابد وان يفيد الربح الاكبر والنفع الاعظم (والصفة الثالثة) قوله وان الذين لايؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذابا اليما وذلك لان الاعتقاد الاصوب والعمل الاصلح كما يوجب لفاعله النفع الاكمل الاعظم فكذلك تركه يوجب لتاركه الضرر الاعظم الاكمل واعلم ان قوله وان الذين لايؤمنون بالآخرة عطف على قوله ان لهم اجرا كبيرا والمعنى انه تعالى بشر المؤمنين بنوعين من البشارة بثوابهم وبعقاب اعدائهم ونظيره قوله بشرت زيدا انه سيعطى وبأن عدوه سيمنع فان قيل كيف يليق لفظ البشارة بالعذاب قلنا مذكور على سبيل التهكم اويقال انه من باب اطلاق اسم الضدين على الآخر كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها فان قيل هذه الآية واردة فى شرح احوال اليهود وهم ما كانوا ينكرون الايمان بالآخرة فكيف يليق بهذا الموضع قوله وان الذين لايؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذابا اليما قلنا عنه جوابان (احدهما) ان اكثر اليهود ينكرون الثواب والعقاب الجسمانيين (والثانى) ان بعضهم قال لن تمسنا النار الا اياما معدودات فهم فى هذا القول صاروا كالمنكرين للآخرة والله اعلم ※ قوله تعالى (ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا) وفى الآية مباحث (البحث الاول) اعلم ان وجه النظم هو ان الانسان بعد ان انزل الله عليه القرآن وخصه بهذه النعمة العظيمة والكرامة الكاملة قد يعدل عن التمسك بشرائعه والرجوع الى بياناته ويقدم على مالافائدة فيه فقال ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير (البحث الثانى) اختلفوا فى المراد من دعاء الانسان بالشر على اقوال (الاول) المراد منه النضر بن الحرث حيث قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأجاب الله

( دعاءه )

فوقه من الاجر الكبير ويحذره من الشر الذى لاشر وراءه من العذاب الاليم وهو أى بعض منه وهو الكافر يدعو لنفسه بما هو الشر من العذاب المذكور اما بلسانه حقيقة كدأب من قال منهم اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء اوائتنا بعذاب اليم ومن قال فائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين الى غير ذلك مما حكى عنهم واما بأعمالهم السيئة المفضية اليه الموجبة له مجازا كما هو ديدن كلهم (دعاءه بالخير) اى مثل دعائه بالخير المذكور فرضا لاتحقيقا فانه بمعزل من الدعاء به وفيه رمز الى انه اللائق بحاله (وكان الانسان) اى من اسند اليه الدعاء المذكور من افراده (عجولا) يسارع الى طلب مايخطر بباله متعاميا عن ضرره اومبالغا فى العجلة يستعجل العذاب وهو آتيه لامحالة ففيه نوع تهكم به وعلى تقدير حمل الدعاء على اعمالهم تحمل العجولية على اللج والتمادى فى استيجاب العذاب بتلك الاعمال وعلى الثانى ان القرآن يدعو الانسان الى ماهو خير وهو فى بعض احيانه كما عند الغضب يدعه ويدعو الله تعالى لنفسه واهله وماله بما هو شر وكان الانسان بحسب جبلته عجولا ضجرا لايتأنى الى ان يزول عنه مايعتريه روى انه عليه الصلاة

دعاءه وضربت رقبته فكان بعضهم يقول ائتنا بعذاب الله وآخرون يقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين وانما فعلوا ذلك للجهل واعتقاد ان محمدا كاذب فيما يقول (والقول الثانى) المراد انه فى وقت الضجر يلعن نفسه واهله وولده وماله ولو استجيب له فى الشر كما يستجاب له فى الخير لهلك وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم دفع الى سودة بنت زمعة أسيرا فأقبل يئن بالليل فقالت له مالك تئن فشكى الم القد فارخت له من كتافه فلما نامت اخرج يده وهرب فلما اصبح النبى عليه الصلاة والسلام دعا به فاعلم بشأنه فقال عليه الصلاة والسلام اللهم اقطع يدها فرفعت سودة يدها تتوقع ان يقطع الله يدها فقال النبى صلى الله عليه وسلم انى سألت الله ان يجعل دعائى على من لا يستحق عذابا من اهلى رحمة لانى بشر اغضب كما تغضبون فلترد سودة يدها (والقول الثالث) اقول يحتمل ان يكون المراد ان الانسان قد يبالغ فى الدعاء طلبا لشئ يعتقد ان خيره فيه مع ان ذلك الشئ يكون منبع شره وضرره وهو يبالغ فى طلبه لجهله بحال ذلك الشئ وانما يقدم على مثل هذا العمل لكونه عجولا مغترا بظواهر الامور غير متفحص عن حقائقها واسرارها (البحث الرابع) القياس اثبات الواو فى قوله ويدع الا انه حذف فى المصحف من الكتابة لانه لا يظهر فى اللفظ أما لم تحذف فى المعنى لانها فى موضع الرفع ونظيره سندع الزبانية وسوف يؤت الله المؤمنين ويوم يناد المناد فاتغن النذر ولو كان بالواو والياء لكان صوابا هذا كلام الفراء واقول ان هذا يدل على انه سبحانه قد عصم هذا القرآن المجيد عن التحريف والتغيير فان اثبات الياء والواو فى اكثر الفاظ القرآن وعدم اثباتهما فى هذه المواضع المعدودة يدل على ان هذا القرآن نقل كما سمع وان احدا لم يتصرف فيه بمقدار فهمه وقوة عقله ثم قال تعالى وكان الانسان عجولا وفى هذا الانسان قولان (الاول) آدم عليه السلام وذلك لانه لما انتهت الروح الى سرته نظر الى جسده فأعجبه فذهب لينهض فلم يقدر فهو قوله وكان الانسان عجولا (والقول الثانى) انه محمول على الجنس لان احدا من الناس لا يعرى عن عجلة ولو تركها لكان تركها اصلح له فى الدين والدنيا واقول بتقدير ان يكون المراد هو القول الاول كان المقصود عائدا الى القول الثانى لانا اذا حملنا الانسان على آدم عليه الصلاة والسلام كان المعنى ان آدم الذى كان اصل البشر لما كان موصوفا بهذه العجلة وجب ان تكون هذه صفة لازمة للكل فكان المقصود عائدا الى القول الثانى والله اعلم ❋ قوله تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئ فصلناه تفصيلا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى تقرير النظم وجوه (الاول) انه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة ما اوصل الى الخلق من نعم الدين وهو القرآن اتبعه ببيان ما اوصل اليهم من نعم الدنيا فقال وجعلنا الليل والنهار آيتين وكما ان القرآن ممتزج من المحكم والمتشابه فكذلك الدهر مركب من النهار والليل فالمحكم كالنهار والمتشابه كالليل

والسلام دفع الى سودة اسيرا فأرخت كتافه رحمة لانينه بالليل من الم القد فهرب فلما اخبر به النبى عليه الصلاة والسلام قال اللهم اقطع يديها فرفعت سودة يديها تتوقع الاجابة فقال عليه السلام انى سألت الله تعالى ان يجعل دعائى على من لا يستحق من اهلى عذابا رحمة اويدعو بما هو شر وهو يحسبه خيرا وكان الانسان عجولا غير متبصر لا يتدبر فى اموره حق التدبر ليتحقق ما هو خير حقيق بالدعاء به وما هو شر جدير بالاستعاذة منه (وجعلنا الليل والنهار آيتين) شروع فى بيان بعض وجوه ماذكر من الهداية بالارشاد الى مسالك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقية التى كل واحدة منها برهان نير لاريب فيه ومنهاج بين لا يضل من ينتحيه فان الجعل المذكور وماعطف عليه من محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة وان كانت من الهدايات التكوينية لكن الاخبار بذلك من الهدايات القرآنية المنبهة على تلك الهدايات وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودى اذ منه ينسلخ النهار وفيه تظهر غرر الشهور ولو ان الليلة اضيفت الى ماقبلها من النهار لكانت من شهر وصاحبها من شهر آخر ولترتيب غاية آية النهار عليها بلا واسطة اى جعلنا الملوين بهيأتهما

وكان المقصود من التكليف لا يتم الا بذكر المحكم والمتشابه فكذلك الوقت والزمان لا يكمل الانتفاع به الا بالنهار والليل (والوجه الثانى) فى تقرير النظم انه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة ان هذا القرآن يهدى للتى هى اقوم وذلك الاقوم ليس الا ذكر الدلائل الدالة على التوحيد والنبوة لا جرم اردفه بذكر دلائل التوحيد وهو عجائب العالم العلوى والسفلى (الوجه الثالث) انه لما وصف الانسان بكونه عجولا اى منتقلا من صفة الى صفة ومن حالة الى حالة بين ان كل احوال هذا العالم كذلك وهو الانتقال من النور الى الظلمة وبالضد وانتقال نور القمر من الزيادة الى النقصان وبالضد والله اعلم (المسئلة الثانية) فى قوله وجعلنا الليل والنهار آيتين قولان (الاول) ان يكون المراد من الآيتين نفس الليل والنهار والمعنى انه تعالى جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا اما فى الدين فلأن كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير له مع كونهما متعاقبين على الدوام من اقوى الدلائل على انهما غير موجودين لذاتهما بل لابد لهما من فاعل يدبرهما ويقدرهما بالمقادير المخصوصة واما فى الدنيا فلأن مصالح الدنيا لا تتم الا بالليل والنهار فلولا الليل لما حصل السكون والراحة ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف فى وجوه المعاش ثم قال تعالى فمحونا آية الليل وعلى هذا القول تكون الاضافة فى آية الليل والنهار للتبيين والتقدير فمحونا الآية التى هى الليل وجعلنا الآية التى هى نفس النهار مبصرة ونظيره قولنا نفس الشئ وذاته فكذلك آية الليل هى نفس الليل ويقال ايضا دخلت بلاد خراسان اى دخلت البلاد التى هى خراسان فكذلك ههنا (القول الثانى) ان يكون المراد وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر فمحونا آية الليل وهى القمر وفى تفسير محو القمر قولان (الاول) المراد منه ما يظهر فى القمر من الزيادة والنقصان فى النور فيبدو فى اول الامر فى صورة الهلال ثم لا يزال يتزايد نوره حتى يصير بدرا كاملا ثم يأخذ فى الانتقاص قليلا قليلا وذلك هو المحو الى ان يعود الى المحاق (والقول الثانى) المراد من محو القمر الكلف الذى يظهر فى وجهه يروى ان الشمس والقمر كانا سواء فى النور والضوء فأرسل الله جبريل عليه الصلاة والسلام فامر جناحه على وجه القمر فطمس عنه الضوء ومعنى المحو فى اللغة اذهاب الاثر تقول محوته امحوه وانمحى وامتحى اذا ذهب اثره واقول حمل المحو فى هذه الآية على الوجه الاول اولى وذلك لان اللام فى قوله لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب متعلق بما هو مذكور قبل وهو محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة ومحو آية الليل انما يؤثر فى ابتغاء فضل الله اذا حملنا المحو على زيادة نور القمر ونقصانه لان سبب حصول هذه الحالة يختلف بأحوال نور القمر واهل التجارب بينوا ان اختلاف احوال القمر فى مقادير النور له اثر عظيم فى احوال هذا العالم ومصالحه مثل احوال البحار فى المد والجزر ومثل احوال التجربات على ما تذكره الاطباء فى كتبهم وايضا بسبب زيادة نور القمر ونقصانه يحصل الشهور وبسبب معاودة الشهور يحصل

وتعاقبهما واختلافهما فى الطول والقصر على وتيرة عجيبة يحار فى فهمهما العقول آيتين تدلان على ان لهما صانعا حكيما قادرا عليما وتهديان الى ما هدى اليه القرآن الكريم من ملة الاسلام والتوحيد فمحونا آية الليل الاضافة اما بيانية كما فى اضافة العدد الى المعدود اى محونا الآية التى هى الليل وفائدتها تحقيق مضمون الجملة السابقة ومحوها جعلها ممحوة الضوء مطموسته لكن لا بعد ان لم يكن كذلك بل ابداعها على ذلك كما فى قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل اى انشأهما كذلك والفاء تفسيرية لان المحو المذكور وما عطف عليه ليسا مما يحصل عقيب جعل الجديدين آيتين بل هما من جملة ذلك الجعل ومتمماته (وجعلنا آية النهار) اى الآية التى هى النهار على نحو ما مر (مبصرة) اى مضيئة يبصر فيها الاشياء وصفا لها بحال اهلها او مبصرة للناس من ابصره فبصره واما حقيقية وآية الليل والنهار نيراهما ومحو القمر اما خلقه مطموس النور فى نفسه فالفاء كما ذكر واما نقص ما استفاده من الشمس شيئا فشيئا الى المحاق على ما هو معنى المحو والفاء للتعقيب وجعل الشمس مبصرة ابداعها مضيئة بالذات ذات اشعة تظهر بها الاشياء المظلمة (لتبتغوا)

السنون العربية المبنية على رؤية الاهلة كما قال ولتعلموا عدد السنين والحساب فثبت ان حمل المحو على ماذكرناه اولى واقول ايضا لو حملنا المحو على الكلف الحاصل فى وجه القمر فهو ايضا برهان عظيم قاهر على صحة قول المسلمين فى المبدأ والمعاد اما دلالته على صحة قولهم فى المبدأ فلأن جرم القمر جرم بسيط عند الفلاسفة فوجب ان يكون متشابه الصفات فحصول الاحوال المختلفة الحاصلة بسبب المحو يدل على انه ليس بسبب الطبيعة بل لاجل ان الفاعل المختار خصص بعض اجزائه بالنور القوى وبعض اجزائه بالنور الضعيف وذلك يدل على ان مدبر العالم فاعل مختار لا موجب بالذات واحسن ماذكره الفلاسفة فى الاعتذار عنه انه ارتكز فى وجه القمر اجسام قليلة الضوء مثل ارتكاز الكواكب فى اجرام الافلاك فلما كانت تلك الاجرام اقل ضوأ من جرم القمر لاجرم شوهدت تلك الاجرام فى وجه القمر كالكلف فى وجه الانسان وهذا لا يفيد مقصود الخصم لان جرم القمر لما كان متشابه الاجزاء فلم ارتكزت تلك الاجرام الظلمانية فى بعض اجزاء القمر دون سائر الاجزاء وبمثل هذا الطريق يتمسك فى احوال الكواكب وذلك لان الفلك جرم بسيط متشابه الاجزاء فلم يكن حصول جرم الكواكب فى بعض جوانبه اولى من حصوله فى سائر الجوانب وذلك يدل على ان اختصاص ذلك الكوكب بذلك الموضع المعين من الفلك لاجل تخصيص الفاعل المختار وكل هذه الدلائل انما يراد من تقريرها وايرادها التنبيه على ان المؤثر فى العالم فاعل بالاختيار لا موجب بالذات والله اعلم اما قوله وجعلنا آية النهار مبصرة ففيه وجهان (الاول) ان معنى كونها مبصرة أى مضيئة وذلك لان الاضاءة سبب لحصول الابصار فاطلق اسم الابصار على الاضاءة اطلاقا لاسم المسبب على السبب (والثانى) قال ابو عبيدة يقال قد ابصر النهار اذا صار الناس يبصرون فيه كقوله رجل مخبث اذا كان اصحابه خبثاء ورجل مضعف اذا كانت ذراريه ضعافا فكذا قوله والنهار مبصرا أى اهله بصراء واعلم انه تعالى ذكر فى آيات كثيرة منافع الليل والنهار قال وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وقال ايضا جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ثم قال تعالى ولتبتغوا فضلا من ربكم أى لتبصروا كيف تتصرفون فى اعمالكم ولتعلموا عدد السنين والحساب واعلم ان الحساب مبنى على اربع مراتب الساعات والايام والشهور والسنون فالعدد للسنين والحساب لما دون السنين وهى الشهور والايام والساعات وبعد هذه المراتب الاربع لا يحصل الا التكرار كما انهم رتبوا العدد على اربع مراتب الآحاد والعشرات والمئات والالوف وليس بعدها الا التكرار والله اعلم ثم قال وكل شىء فصلناه تفصيلا والمعنى انه تعالى لما ذكر احوال آيتى الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان على التوحيد ومن وجه آخر نعمتان عظيمتان من الله تعالى على اهل الدنيا فلما شرح الله تعالى حالهما وفصل ما فيهما من وجوه الدلالة على الخالق ومن وجوه النعم العظيمة على الخلق كان ذلك

متعلق بقوله تعالى وجعلنا آية النهار كما اشير اليه اى وجعلناها مضيئة لتطلبوا لانفسكم فى بياض النهار (فضلا من ربكم) اى رزقا اذ لا يتسنى ذلك فى الليل وفى التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء والتعرض لصفة الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال شيئا فشيئا دلالة على ان ليس للعبد فى تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب وانما الاعطاء الى الله سبحانه لا بطريق الوجوب عليه بل تفضلا بحكم الربوبية (ولتعلموا) متعلق بكلا الفعلين اعنى محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة لا باحدهما فقط اذ لا يكون ذلك بانفراده مدارا للعلم المذكور اى لتعلموا بتفاوت الجديدين او نيريهما ذاتا من حيث الاظلام والاضاءة مع تعاقبهما او حركاتهما واوضاعهما وسائر احوالهما (عدد السنين) التى يتعلق بها غرض علمى لاقامة مصالح الحكم الدينية والدنيوية (والحساب) اى الحساب المتعلق بما فى ضمنها من الاوقات اى الاشهر والليالى والايام وغير ذلك مما نيط به شىء من المصالح المذكورة ونفس السنة من حيث تحققها مما ينتظمه الحساب وانما الذى تعلق به العد طائفة منها وتعلقه فى ضمن ذلك بكل واحدة منها ليس من الحيثية المذكورة اعنى حيثية تحققها وتحصلها من عدة اشهر قد تحصل

تفصيلا نافعا وبيانا كاملا فلاجرم قال وكل شيء فصلناه تفصيلا أي كل شيء بكم اليه حاجة في مصالح دينكم ودنياكم فقد فصلناه وشرحناه وهو كقوله تعالى مافرطنا في الكتاب من شيء وقوله ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وقوله تدمر كل شيء بأمر ربها وانما ذكر المصدر وهو قوله تفصيلا لاجل تأكيد الكلام وتقريره كأنه قال وفصلناه حقا وفصلناه على الوجه الذي لامزيد عليه والله اعلم * قوله تعالى (وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) اعلم ان في الآية مسائل (المسئلة الاولى) في كيفية النظم وجوه (الاول) انه تعالى لما قال وكل شيء فصلناه تفصيلا كان معناه ان كل مايحتاج اليه من دلائل التوحيد والنبوة والمعاد فقد صار مذكورا وكل مايحتاج اليه من شرح احوال الوعد والوعيد والترغيب والترهيب فقد صار مذكورا واذا كان الامر كذلك فقد ازيحت الاعذار وازيلت العلل فلاجرم كل من ورد عرصة القيامة فقد ألزمناه طائره في عنقه ونقول له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا (الوجه الثاني) انه تعالى لما بين انه أوصل الى الخلق اصناف الاشياء النافعة لهم في الدين والدنيا مثل آيتي الليل والنهار وغيرهما كان منعما عليهم باعظم وجوه النعم وذلك يقتضي وجوب اشتغالهم بخدمته وطاعته فلاجرم كل من ورد عرصة القيامة فانه يكون مسؤلا عن اعماله واقواله (الوجه الثالث) في تقرير النظم انه تعالى لما بين انه ماخلق الخلق الا ليشتغلوا بعبادته كما قال وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون فلما شرح احوال الشمس والقمر والليل والنهار كان المعنى اني انما خلقت هذه الاشياء لتنتفعوا بها فتصيروا متمكنين من الاشتغال بطاعتي وخدمتي واذا كان كذلك فكل من ورد عرصة القيامة سألته انه هل اتى بتلك الخدمة والطاعة او تمرد وعصى وبغى فهذا هو الوجه في تقرير النظم (المسئلة الثانية) في تفسير لفظ الطائر قولان (الاول) ان العرب اذا أرادوا الاقدام على عمل من الاعمال وأرادوا ان يعرفوا ان ذلك العمل يسوقهم الى خير او الى شر اعتبروا احوال الطير وهو انه يطير بنفسه او يحتاج الى ازعاجه واذا طار فهل يطير متيامنا او متياسرا او صاعدا الى الجو الى غير ذلك من الاحوال التي كانوا يعتبرونها ويستدلون بكل واحد منها على احوال الخير والشر والسعادة والنحوسة فلما كثر ذلك منهم سمي الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه ونظيره قوله تعالى في سورة يس قالوا انا تطيرنا بكم الى قوله قالوا طائركم معكم فقوله وكل أنسان ألزمناه طائره في عنقه اي كل انسان الزمناه عمله في عنقه وتدل على صحة هذا الوجه قراءة الحسن ومجاهد الزمناه طيره في عنقه (القول الثاني) قال ابو عبيدة الطائر عند العرب الحظ وهو الذي تسميه الفرس البخت وعلى هذا يجوز ان يكون معنى الطائر ما طار له من خير وشر والتحقيق في هذا الباب انه تعالى خلق الخلق وخص كل واحد منهم بمقدار مخصوص من العقل والعلم والعمر والرزق والسعادة والشقاوة والانسان لايمكنه

(ان يتجاوز)

كل واحد منهما من عدة ايام قد حصل كل منها بطائفة من الساعات مثلا فان ذلك وظيفة الحساب بل من حيث انها فرد من تلك الطائفة المعدودة بعدها اي يفنيها من غير ان يعتبر في ذلك تحصل شيء معين وتحقيقه مامر في سورة يونس من ان الحساب احصاء ماله كمية منفصلة بتكرير امثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص وحكم مستقل كما اشير اليه آنفا والعد احصاؤه بمجرد تكرير امثاله من غير ان يتحصل منه شيء كذلك ولما ان السنين لم يعتبر فيها حد معين له اسم خاص وحكم مستقل اضيف اليها العدد وعلق الحساب بما عداها مما اعتبر فيه تحصل مراتب معينة لها اسام خاصة واحكام مستقلة وتحصل مراتب الاعداد من العشرات والمئات والالوف اعتباري لايجدي في تحصل المعدودات وتقديم العدد على الحساب مع ان الترتيب بين متعلقيهما وجودا وعلما على العكس للتنبيه من اول الامر على ان متعلق الحساب ما في تضاعيف السنين من الاوقات اولان العلم المتعلق بعدد السنين علم اجمالي بما تعلق به الحساب تفصيلا اولان العدد من حيث انه لم يعتبر فيه تحصل شيء آخر منه حسبما ذكر نازل من الحساب المعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من

ان يتجاوز ذلك القدر وان ينحرف عنه بل لابد وان يصل الى ذلك القدر بحسب الكمية والكيفية فتلك الاشياء المقدرة كأنها تطير اليه وتصير اليه فبهذا المعنى لا يبعد ان يعبر عن تلك الاحوال المقدرة بلفظ الطائر فقوله وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه كناية عن ان كل ماقدره الله تعالى ومضى فى علمه حصوله فهو لازم له واصل اليه غير منحرف عنه واعلم ان هذا من ادل الدلائل على ان كل ماقدره الله تعالى للانسان وحكم عليه به فى سابق علمه فهو واجب الوقوع ممتنع العدم وتقريره من وجهين (الاول) ان تقدير الآية وكل انسان الزمناه عمله فى عنقه فبين تعالى ان ذلك العمل لازم له وما كان لازما للشئ كان ممتنع الزوال عنه واجب الحصول له وهو المقصود (والوجه الثانى) انه تعالى اضاف ذلك الالزام الى نفسه لان قوله الزمناه تصريح بان ذلك الالزام انما صدر منه ونظيره قوله تعالى والزمهم كلمة التقوى وهذه الآية دالة على انه لا يظهر فى الابد الا ما حكم الله به فى الازل واليه الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة والله اعلم (المسئلة الثالثة) قوله فى عنقه كناية عن اللزوم كما يقال جعلت هذا فى عنقك اى قلدتك هذا العمل والزمتك الاحتفاظ به ويقال قلدتك كذا وطوقتك كذا اى صرفته اليك والزمته اياك ومنه قلده السلطان كذا اى صارت الولاية فى لزومها له فى موضع القلادة ومكان الطوق ومنه يقال فلان يقلد فلانا اى جعل ذلك الاعتقاد كالقلادة المربوطة على عنقه قال اهل المعانى وانما خص العنق من بين سائر الاعضاء بهذا المعنى لان الذى يكون عليه اما ان يكون خيرا يزينه او شرا يشينه وما يزين يكون كالطوق والحلى والذى يشين فهو كالغل فههنا عمله ان كان من الخيرات كان زينة له وان كان من المعاصى كان كالغل على رقبته ثم قال تعالى ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا قال الحسن يا ابن آدم بسطنا لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وشمالك فاما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك واما الذى عن شمالك فيحفظ سيآتك حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك فى قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة قوله ونخرج له اى من قبره يجوز ان يكون معناه نخرج له ذلك لانه لم ير كتابه فى الدنيا فاذا بعث اظهر له ذلك واخرج من الستر وقرأ يعقوب ويخرج له يوم القيامة كتابا اى يخرج له الطائر اى عمله كتابا منشورا كقوله تعالى واذا الصحف نشرت وقرأ ابن عامر يلقاه من قولهم لقيت فلانا الشئ اى استقبلته به قال تعالى ولقاهم نضرة وسرورا وهو منقول بالتشديد من لقيت الشئ ولقانيه زيد ثم قال تعالى اقرأ كتابك والتقدير يقال له وهذا القائل هو الله تعالى على ألسنة الملائكة اقرأ كتابك قال الحسن يقرؤه اميا كان او غير امى وقال بكر بن عبد الله يؤتى بالمؤمن يوم القيامة بصحيفته وهو يقرؤها وحسناته فى ظهرها يغبطه الناس عليها وسيآته فى جوف صحيفته وهو يقرؤها حتى اذا ظن انها قد اوبقته قال الله تعالى اذهب فقد غفرتها لك فيما بينى وبينك فيعظم سروره ويصير من الذين قال فى حقهم وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة

المركب اولان العلم المتعلق بالاول اقصى المراتب فكان جديرا بالتقديم فى مقام الامتنان والله سبحانه اعلم (وكل شئ) تفتقرون اليه فى المعاش والمعاد سوى ماذكر من جعل الليل والنهار آيتين وما يتبعه من المنافع الدينية والدنيوية وهو منصوب بفعل يفسره قوله تعالى (فصلناه تفصيلا) اى بيناه فى القرآن الكريم بيانا بليغا لا التباس معه كقوله تعالى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ فظهر كونه هاديا للتى هى اقوم ظهورا بينا (وكل انسان) مكلف (الزمناه طائره) اى عمله الصادر عنه باختياره حسبما قدر له كأنه طار اليه من عش الغيب ووكر القدر او ما وقع له فى القسمة الازلية الواقعة حسب استحقاقه فى العلم الازلى من قولهم طار له سهم كذا (فى عنقه) تصوير لشدة اللزوم وكمال الارتباط اى لزمناه عمله بحيث لا يفارقه ابدا بل يلزمه لزوم القلادة او الغل للعنق لا ينفك عنه بحال وقرئ بسكون النون (ونخرج له) بنون العظمة وقد قرئ بالياء مبنيا للفاعل على ان الضمير لله عزوجل وللمفعول والضمير للطائر كما فى قراءة يخرج من الخروج (يوم القيامة) والبعث للحساب (كتابا) مسطورا فيه ماذكر من عمله نقيرا وقطميرا وهو مفعول لنخرج على القراءتين

مستبشرة ثم يقول هاؤم اقرؤا كتابيه واما قوله كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا اى محاسبا
قال الحسن عدل والله فى حقك من جعلك حسيب نفسك قال السدى يقول الكافر
يومئذ انك قضيت انك لست بظلام للعبيد فاجعلنى احاسب نفسى فيقال له اقرأ كتابك كفى
بنفسك اليوم عليك حسيبا والله اعلم (المسئلة الرابعة) قال حكماء الاسلام هذه الآية
فى غاية الشرف وفيها اسرار عجيبة فى ابحاث (فالبحث الاول) انه تعالى جعل فعل العبد
كالطير الذى يطير اليه وذلك لانه تعالى قدر لكل احد فى الازل مقدارا من الخير والشر
فذلك الحكم الذى سبق فى علمه الازلى وحكمه الازلى لابد وان يصل اليه فذلك الحكم
كأنه طائر يطير اليه من الازل الى ذلك الوقت فاذا حضر ذلك الوقت وصل اليه ذلك
الطائر وصولا لاخلاص له البتة ولاانحراف عنه البتة واذا علم الانسان فى كل قول
وفعل ولمحة وفكرة انه كان ذلك بمنزلة طائر طيره الله اليه على منهج معين وطريق معين
وانه لابد وان يصل اليه ذلك الطائر فعند ذلك عرف ان الكفاية الابدية لاتتم الا بالعناية
الازلية (البحث الثانى) ان هذه التقديرات انما تقدرت بالزام الله تعالى وذلك باعتبار انه
تعالى جعل لكل حادث حادثا متقدما عليه لحصول الحادث المتأخر فلما كان وضع هذه
السلسلة من الله لاجرم كان الكل من الله وعند هذا يتخيل الانسان طيورا لانهاية لها
ولاغاية لاعدادها فانه تعالى طيرها من وكر الازل وظلمات عالم الغيب وانها صارت
وطارت طيرانا لابداية له ولاغاية له وكان كل واحد منها متوجها الى ذلك الانسان المعين
فى الوقت المعين بالصفة المعينة وهذا هو المراد من قوله الزمناه طائره فى عنقه (البحث
الثالث) ان التجربة تدل على ان تكرار الاعمال الاختيارية تفيد حدوث الملكة
النفسانية الراسخة فى جوهر النفس ألاترى ان من واظب على تكرار قراءة درس واحد
صار ذلك الدرس محفوظا ومن واظب على عمل واحد مدة مديدة صار ذلك العمل ملكة له
اذا عرفت هذا فنقول لما كان التكرار الكثير يوجب حصول الملكة الراسخة وجب
ان يحصل لكل واحد من تلك الاعمال اثر ما فى جوهر النفس فانا لما رأينا ان عند توالى
القطرات الكثيرة من الماء على الحجر حصلت الثقبة فى الحجر علمنا ان لكل واحد من تلك
القطرات أثراما فى حصول ذلك الثقب وان كان ضعيفا قليلا وان كانت الكتابة ايضا
فى عرف الناس عبارة عن نقوش مخصوصة اصطلح الناس على جعلها معرفات لالفاظ
مخصوصة فعلى هذا دلالة تلك النقوش على تلك المعانى المخصوصة دلالة كائنة جوهرية
واجبة الثبوت ممتنعة الزوال كان الكتاب المشتمل على تلك النقوش اولى باسم الكتاب من
الصحيفة المشتملة على النقوش الدالة بالوضع والاصطلاح واذا عرفت هاتين المقدمتين
فنقول ان كل عمل يصدر من الانسان كثيرا كان او قليلا قويا كان او ضعيفا فانه يحصل منه
لامحالة فى جوهر النفس الانسانية اثر مخصوص فان كان ذلك الاثر اثرا لجذب جوهر
الروح من الخلق الى حضرة الحق كان ذلك من موجبات السعادات والكرامات

الاولين او حال من المفعول
المحذوف الراجع الى الطائر
وعلى الاخرين حال من المستتر
فى الفعل من ضمير الطائر (يلقاه)
اى يلق الانسان او يلقاه الانسان
(منشورا) وهما صفتان للكتاب
او الاول صفة والثانى حال منها
وقرئ يلقاه من لقيته كذا اى يلق
الانسان اياه قال الحسن بسطت
لك صحيفة ووكل بك ملكان
فهما عن يمينك وعن شمالك فاما
الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك
واما الذى عن شمالك فيحفظ
سيآتك حتى اذا مت طويت
صحيفتك وجعلت معك فى قبرك
حتى تخرج لك يوم القيامة (اقرأ
كتابك) أى قائلين لك ذلك عن
قتادة يقرأ ذلك اليوم من لم يكن
فى الدنيا قارئا وقيل المراد
بالكتاب نفسه المنتقشة بآثار اعماله
فان كل عمل يصدر من الانسان
خيرا او شرا يحدث منه فى جوهر
روحه امر مخصوص الا انه يخفى
مادام الروح متعلقا بالبدن
مشتغلا بواردات الحواس
والقوى فاذا انقطعت علاقته
عن البدن قامت قيامته لان
النفس كانت ساكنة مستقرة فى
الجسد وعند ذلك قامت وتوجهت
نحو الصعود الى العالم العلوى
فيزول الغطاء وتنكشف
الاحوال ويظهر على لوح النفس
نقش كل شئ عمله فى مدة عمره
وهذا معنى الكتابة والقراءة (كفى

وان كان ذلك الاثر اثرالجذب الروح من حضرةالحق الى الاشتغال بالخلق كان ذلك من موجبات الشقاوةوالخذلان الاان تلك الآثار تخفى مادام الروح متعلقا بالبدن لان اشتغال الروح بتدبير البدن يمنع من انكشاف هذه الاحوال وتجليها و ظهورها فاذا انقطع تعلق الروح عن تدبير البدن فهنالك تحصل القيامه لقوله عليه الصلاة والسلام من مات فقد قامت قيامته ومعنى كون هذه الحالة قيامة ان النفس الناطقة كأنها كانت ساكنة مستقرة في هذاالجسد السفلي فاذا انقطع ذلك التعلق قامت النفس وتوجهت نحو الصعود الى العالم العلوي فهذا هو المراد من كون هذه الحالة قيامة ثم عند حصول القيامة بهذاالمعنى زال الغطاء وانكشف الوطاء وقيل له فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد وقوله ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا معناه ونخرج له عند حصول هذه القيامة من عمق البدن المظلم كتابا مشتملا على جميع تلك الآثار الحاصلة بسبب الاحوال الدنيوية ويكون هذا الكتاب في هذاالوقت منشورا لان الروح حين كانت في البدن كانت هذه الاحوال فيه مخفية فكانت كالمطوية اما بعد انقطاع التعلق الجسد انى ظهرت هذه الاحوال وجلت وانكشفت فصارت كأنها مكشوفة منشورة بعد ان كانت مطوية وظاهرة بعدان كانت مخفية وعند ذلك تشاهد القوة العقلية جميع تلك الآثار مكتوبة بالكتابة الذاتية في جوهر الروح فيقال له في تلك الحالة اقرأ كتابك ثم يقال له كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا فان تلك الآثار ان كانت من موجبات السعادة حصلت السعادة لامحالة وان كانت من موجبات الشقاوة حصلت الشقاوة لامحالة فهذا تفسير هذه الآية بحسب الاحوال الروحانية واعلم ان الحق ان الاحوال الظاهرة التي وردت فيها الروايات حق وصدق لامرية فيها واحتمال الآية لهذه المعاني الروحانية ظاهر ايضا والمنهج القويم والصراط المستقيم هو الاقرار بالكل والله اعلم بحقائق الامور ❊ قوله تعالى ( من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولاتزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ) في الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) انه تعالى لما قال في الآية الاولى وكل انسان الزمناه طائره في عنقه ومعناه ان كل احد مختص بعمل نفسه عبر عن هذا المعنى بعبارة أخرى اقرب الى الافهام وابعد عن الغلط فقال من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها يعني ان ثواب العمل الصالح مختص بفاعله ولايتعدى منه الى غيره ويتأكد هذا بقوله وان ليس للانسان الاماسعى وان سعيه سوف يرى قال الكعبي الآية دالة على ان العبد متمكن من الخير والشر وانه غير مجبور على عمل بعينه اصلا لان قوله من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها انما يليق بالقادر على الفعل المتمكن منه كيف شاء واراد اما المجبور على احد الطرفين الممنوع من الطرف الثاني فهذا لايليق به ( المسئلة الثانية ) انه تعالى اعاد تقرير ان كل احد مختص باثر عمل نفسه بقوله ولاتزر وازرة وزر اخرى قال الزجاج

بنفسك اليوم عليك حسيبا) اي كفى نفسك والباء زائدة واليوم ظرف لكفى وحسيبا تمييز وعلى صلته لانه بمعنى الحاسب كالصريم بمعنى الصارم من حسب عليه كذا او بمعنى الكافي ووضع موضع الشهيد لانه يكفي المدعي ما أهمه وتذكيره لان ماذكر من الحساب والكفاية مما يتولاه الرجال اولانه مبني على تأويل النفس بالشخص على انها عبارة عن نفس المذكر كقول جبلة بن حريث

يانفس انك باللذات مسرور
فاذكر فهل ينفعنك اليوم تذكير

( من اهتدى فانما يهتدي لنفسه) فذلكة لما تقدم من بيان كون القرآن هاديا لاقوم الطرائق ولزوم الاعمال لاصحابها اي من اهتدي بهدايته وعمل بما في تضاعيفه من الاحكام وانتهى عما نهاه عنه فانما تعود منفعة اهتدائه الى نفسه لاتتخطاه الى غيره ممن لم يهتد (ومن ضل) عن الطريقة التي يهديه اليها (فانما يضل عليها) اي فانما وبال ضلاله عليها الاعلى من عداه ممن لم يباشره حتى يمكن مفارقة العمل صاحبه (ولاتزر وازرة وزر أخرى) تأكيد للجملة الثانية اي لاتحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها ويختل مابين العامل وعمله من التلازم بل انما تحمل كل منها وزرها وهذا

يقال وزر يزر فهو وازر ووزر وزرا وزرة ومعناه اثم يأثم اثما قال وفي تأويل الآية وجهان (الاول) ان المذنب لا يؤاخذ بذنب غيره وايضا غيره لا يؤاخذ بذنبه بل كل احد مختص بذنب نفسه (والثاني) انه لا ينبغي ان يعمل الانسان بالاثم لان غيره عمله كما قال الكفار انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون واعلم ان الناس تمسكوا بهذه الآية في اثبات احكام كثيرة (الحكم الاول) قال الجبائي في الآية دلالة على انه تعالى لا يعذب الاطفال بكفر آبائهم والا لكان الطفل مؤاخذا بذنب ابيه وذلك على خلاف ظاهر هذه الآية (الحكم الثاني) روى ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الميت ليعذب ببكاء اهله فعائشة طعنت في صحة هذا الخبر واحتجت على صحة ذلك الطعن بقوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى فان تعذيب الميت بسبب بكاء اهله اخذ للانسان بجرم غيره وذلك خلاف هذه الآية (الحكم الثالث) قال القاضي دلت هذه الآية على ان الوزر والاثم ليس من فعل الله تعالى وبيانه من وجوه (احدها) انه لو كان كذلك لامتنع ان يؤاخذ العبد به كما لا يؤاخذه بوزر غيره (وثانيها) انه كان يجب ارتفاع الوزر اصلا لان الوازر انما يصح ان يوصف بذلك اذا كان مختارا يمكنه التحرز ولهذا المعنى لا يوصف الصبي بهذا (الحكم الرابع) ان جماعة من قدماء الفقهاء امتنعوا من ضرب الدية على العاقلة وقالوا ان ذلك يقتضي مؤاخذة الانسان بسبب فعل الغير وذلك على مضادة هذه الآية واجيب عنه بان المخطئ ليس بمؤاخذ على ذلك الفعل فكيف يصير غيره مؤاخذا بسبب ذلك الفعل بل ذلك تكليف واقع على سبيل الابتداء من الله تعالى (المسئلة الثالثة) قال اصحابنا وجوب شكر المنعم لا يثبت بالعقل بل بالسمع والدليل عليه قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وجه الاستدلال ان الوجوب لا تتقرر ماهيته الا بترتيب العقاب على الترك ولا عقاب قبل الشرع بحكم هذه الآية فوجب ان لا يتحقق الوجوب قبل الشرع ثم اكدوا هذه الآية بقوله تعالى رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وبقوله ولو انا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى ولقائل ان يقول هذا الاستدلال ضعيف وبيانه من وجهين (الاول) ان نقول لو لم يثبت الوجوب العقلي لم يثبت الوجوب الشرعي البتة وهذا باطل فذاك باطل بيان الملازمة من وجوه (احدها) انه اذا جاء المشرع وادعى كونه نبيا من عند الله تعالى واظهر المعجزة فهل يجب على المستمع استماع قوله والتأمل في معجزاته اولا يجب فان لم يجب فقد بطل القول بالنبوة وان وجب فاما ان يجب بالعقل او بالشرع فان وجب بالعقل فقد ثبت الوجوب العقلي وان وجب بالشرع فهو باطل لان ذلك المشرع اما ان يكون هو ذلك المدعي او غيره والاول باطل لانه يرجع حاصل الكلام الى ان ذلك الرجل يقول الدليل على انه يجب قبول قولي اني اقول انه يجب قبول قولي وهذا اثبات للشيء بنفسه وان كان ذلك الشارع غيره كان

تحقيق لمعنى قوله عز وجل وكل انسان الزمناه طائره في عنقه واما ما يدل عليه قوله تعالى من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وقوله تعالى ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم من حمل الغير وزر الغير وانتفاعه بحسنته وتضرره بسيئته فهو في الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه وتضرر بسيئته فان جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعلمهما العامل لازم له وانما الذي يصل الى من يشفع جزاء شفاعته لا جزاء اصل الحسنة والسيئة وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين وما يحمله المضلون انما هو جزاء الاضلال لا جزاء الضلال وانما خص التأكيد بالجملة الثانية قطعا للاطماع الفارغة حيث كانوا يزعمون انهم ان لم يكونوا على الحق فالتبعة على اسلافهم الذين قلدوهم (وما كنا معذبين) بيان للعناية الربانية اثر بيان اختصاص آثار الهداية والضلال باصحابها وعدم حرمان المهتدي من ثمرات هدايته وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها اي وما صح وما استقام منا بل استحال في سنتنا المبنية على الحكم البالغة او ما كان في حكمنا الماضي

الكلام فيه كما في الاول ولزم اما الدور أو التسلسل وهما محالان ( وثانيها ) ان الشرع اذا جاء واوجب بعض الافعال وحرم بعضها فلا معنى للايجاب والتحريم الا ان يقول لو تركت كذا وفعلت كذا لعاقبتك فنقول اما ان يجب عليه الاحتراز عن العقاب اولا يجب فلو لم يجب عليه الاحتراز عن العقاب لم يتقرر معنى الوجوب البتة وهذا باطل فذاك باطل وان وجب عليه الاحتراز عن العقاب فاما ان يجب بالعقل او بالسمع فان وجب بالعقل فهو المقصود وان وجب بالسمع لم يتقرر معنى هذا الوجوب الا بسبب ترتيب العقاب عليه وحينئذ يعود التقسيم الاول ويلزم التسلسل وهو محال ( وثالثها ) ان مذهب اهل السنة انه يجوز من الله تعالى ان يعفو عن العقاب على ترك الواجب واذا كان كذلك كانت ماهية الوجوب حاصلة مع عدم العقاب فلم يبق الا ان يقال ان ماهية الواجب انما تقرر بسبب حصول الخوف من العقاب وهذا الخوف حاصل بمحض العقل فثبت ان ماهية الوجوب انما تحصل بسبب هذا الخوف وثبت ان هذا الخوف حاصل بمجرد العقل فلزم ان يقال الوجوب حاصل بمحض العقل فان قالوا ماهية الوجوب انما تقرر بسبب حصول الخوف من الذم قلنا انه تعالى اذا عفا فقد سقط الذم فعلى هذا ماهية الوجوب انما تتقرر بسبب حصول الخوف من الذم وذلك حاصل بمحض العقل فثبت بهذه الوجوه ان الوجوب العقلى لا يمكن دفعه واذا ثبت هذا فنقول في الآية قولان ( الاول ) ان نجرى الآية على ظاهرها ونقول العقل هو رسول الله الى الخلق بل هو الرسول الذى لولاه لما تقررت رسالة احد من الانبياء فالعقل هو الرسول الاصلى فكان معنى الآية وما كنا معذبين حتى نبعث رسول العقل ( والثانى ) ان نخصص عموم الآية فنقول المراد وما كنا معذبين في الاعمال التى لا سبيل الى معرفة وجوبها الا بالشرع الا بعد مجىء الشرع وتخصيص العموم وان كان عدولا عن الظاهر الا انه يجب المصير اليه عند قيام الدلائل وقد بينا قيام الدلائل الثلاثة على انا لو نفينا الوجوب العقلى لزمنا نفي الوجوب الشرعى والله اعلم واعلم ان الذى نرتضيه ونذهب اليه ان مجرد العقل سبب في ان يجب علينا فعل ما ينتفع به وترك ما يتضرر به اما مجرد العقل لا يدل على انه يجب على الله تعالى شىء وذلك لانا مجبولون على طلب النفع والاحتراز عن الضرر فلا جرم كان العقل وحده كافيا في الوجوب في حقنا والله تعالى منزه عن طلب النفع والهرب من الضرر فامتنع ان يحكم العقل عليه بوجوب فعل او ترك فعل والله اعلم ❁ قوله تعالى ( واذا أردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا وكم اهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا ) في الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) قوله أمرنا مترفيها في تفسير هذا الامر قولان ( الاول ) ان المراد منه الامر بالفعل ثم ان لفظ الآية لا يدل على انه تعالى بماذا يأمرهم فقال الاكثرون معناه انه تعالى يأمرهم بالطاعات والخيرات ثم انهم يخالفون ذلك الامر ويفسقون وقال صاحب الكشاف ظاهر اللفظ يدل على انه تعالى يأمرهم بالفسق فيفسقون الا ان هذا

وقضائنا السابق ان نعذب احدا من اهل الضلال والاوزار اكتفاء بقضية العقل (حتى نبعث) اليهم ( رسولا ) يهديهم الى الحق ويردعهم عن الضلال ويقيم الحجج ويمهد الشرائع حسبما فى تضاعيف الكتاب المنزل عليه والمراد بالعذاب المنفى اما عذاب الاستئصال كما قاله الشيخ ابو منصور الماتريدى رحمه الله وهو المناسب لما بعده او الجنس الشامل للدنيوى والاخروى وهو من افراده واياما كان فالبعث غاية لعدم صحة وقوعه فى وقته المقدر له لالعدم وقوعه مطلقا كيف لا والاخروى لا يمكن وقوعه عقيب البعث والدنيوى ايضا لا يحصل الا بعد تحقق ما يوجبه من الفسق والعصيان ألا يرى الى قوم نوح كيف تأخر عنهم ما حل بهم زهاء الف سنة وقوله تعالى (واذا اردنا ان نهلك قرية) بيان لكيفية وقوع التعذيب بعد البعثة التى جعلت غاية لعدم صحته وليس المراد بالارادة تحققها بالفعل اذ لا يتخلف عنها المراد ولا الارادة الازلية المتعلقة بوقوع المراد فى وقته المقدر له اذ لا يقارنه الجزاء الآتى بل دنو وقتها كما فى قوله تعالى اتى امر الله اى واذا دنا وقت تعلق ارادتنا باهلاك قرية بان نعذب اهلها بما ذكرنا من عذاب الاستئصال الذى بيناانه لا يصح منا قبل البعثة او بنوع

مجاز ومعناه انه فتح عليهم ابواب الخيرات والراحات فعند ذلك تمردوا وطغوا وبغوا قال والدليل على ان ظاهر اللفظ يقتضى ماذكرناه ان المأمور به انما حذف لان قوله ففسقوا يدل عليه يقال أمرته فقام وأمرته فقرأ لا يفهم منه الا ان المأمور به قيام او قراءة فكذا ههنا لما قال أمرنا مترفيها ففسقوا فيها وجب ان يكون المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا لا يقال يشكل هذا بقولهم أمرته فعصانى او فخالفنى فان هذا لا يفهم منه انى أمرته بالمعصية والمخالفة لانا نقول ان المعصية منافية للامر ومناقضة له فكذلك أمرته ففسق يدل على ان المأمور به شئ غير الفسق لان الفسق عبارة عن الاتيان بضد المأمور به فكونه فسقا ينافى كونه مأمورا به كما ان كونها معصية ينافى كونها مأمورا بها فوجب ان يدل هذا اللفظ على ان المأمور به ليس بفسق وهذا الكلام فى غاية الظهور فلا ادرى لم اصر صاحب الكشاف على قوله مع ظهور فساده فثبت ان الحق ماذكره الكل وهو ان المعنى امرناهم بالاعمال الصالحة وهى الايمان والطاعة والقوم خالفوا ذلك الامر عنادا واقدموا على الفسق (القول الثانى) فى تفسير قوله أمرنا مترفيها اى اكثرنا فساقها قال الواحدى العرب تقول امر القوم اذا كثروا وأمرهم الله اذا كثرهم وآمرهم ايضا بالمد روى الجرمى عن ابى زيد امر الله القوم وآمرهم اى كثرهم واحتج ابو عبيدة على صحة هذه اللغة بقوله صلى الله عليه وسلم خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة والمعنى مهرة قد كثر نسلها يقولون امر الله المهرة اى كثر ولدها ومن الناس من انكر ان يكون امر بمعنى كثر وقالوا امر القوم اذا كثروا وآمرهم الله بالمد اى كثرهم وحملوا قوله عليه الصلاة والسلام مهرة مأمورة على ان المراد كونها مأمورة بتكثير النسل على سبيل الاستعارة واما المترف فمعناه فى اللغة المتنعم الذى قد أبطرته النعمة وسعة العيش ففسقوا فيها اى خرجوا عما امرهم الله فحق عليها القول يريد استوجبت العذاب وهذا كالتفسير لقوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وقوله وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى امها رسولا وقوله ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم واهلها غافلون فلما حكم تعالى فى هذه الآيات انه تعالى لا يهلك قرية حتى يخالفوا أمر الله فلا جرم ذكر ههنا انه يأمرهم فاذا خالفوا الامر فعند ذلك استوجبوا الاهلاك المعبر عنه بقوله فحق عليها القول وقوله فدمرناها تدميرا اى اهلكناها الاهلاك الاستئصال والدمار هلاك على سبيل الاستئصال (المسئلة الثانية) احتج اصحابنا بهذه الآية على صحة مذهبهم من وجوه (الاول) ان ظاهر الآية يدل على انه تعالى اراد ايصال الضرر اليهم ابتداء ثم توسل الى اهلاكهم بهذا الطريق (الثانى) ان ظاهر الآية يدل على انه تعالى انما خص المترفين بذلك الامر لعلمه بأنهم يفسقون وذلك يدل على انه تعالى اراد منهم الفسق (الثالث) انه تعالى قال فحق عليها القول بالتعذيب والكفر ومتى حق عليها القول بذلك امتنع صدور الايمان منهم لان ذلك يستلزم انقلاب خبر الله تعالى الصدق كذبا وذلك محال والمفضى الى المحال محال قال الكعبى ان سائر الآيات دلت

مما ذكرنا شانه من مطلق العذاب اعنى عذاب الاستئصال لما لهم من الظلم والمعاصى دنوا تقتضيه الحكمة من غير ان يكون له حد معين (أمرنا) بواسطة الرسول المبعوث الى اهلها (مترفيها) متنعميها وجباريها وملوكها خصهم بالذكر مع توجه الامر الى الكل لانهم الاصول فى الخطاب والباقى اتباع لهم ولان توجه الامر اليهم آكد وعدم التعرض للمأمور به اما الظهور ان المراد به الحق والخير لان الله لا يأمر بالفحشاء لا سيما بعد ذكر هداية القرآن لما يهدى اليه واما لان المراد وجد منا الامر كما يقال فلان يعطى ويمنع (ففسقوا فيها) اى خرجوا عن الطاعة وتمردوا (فحق عليها القول) اى ثبت وتحقق موجبه بحلول العذاب اثر ماظهر منهم من الفسق والطغيان (فدمرناها) بتدمير اهلها (تدميرا) لا يكتنه كنهه ولا يوصف هذا هو المناسب لما سبق وقيل الامر مجاز عن الحمل على الفسق والتسبب له بأن صب عليهم ما ابطرهم وافضى بهم الى الفسوق وقيل هو بمعنى التكثير يقال أمرت الشئ فأمر اى كثرته فكثر وفى الحديث خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة اى كثيرة النتاج ويعضده قراءة آمرنا وامرنا من الافعال والتفعيل وقد جعلتا من الامارة اى جعلناهم امراء وكل ذلك لا يساعده مقام

على انه تعالى لايبتدئ بالتعذيب والاهلاك لقوله ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وقوله مايفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وقوله وما كنا مهلكي القرى الا واهلها ظالمون فكل هذه الآيات تدل على انه تعالى لايبتدئ بالاضرار وايضا ماقبل هذه الآية يدل على هذا المعنى وهو قوله من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولاتزر وازرة وزر اخرى ومن المحال ان يقع بين آيات القرآن تناقض فثبت ان الآيات التى تلوناها محكمة وكذا الآية التى نحن فى تفسيرها فيجب حمل هذه الآية على تلك الآيات هذا ماقاله الكعبى واعلم ان احسن الناس كلاما فى تأويل هذه الآية على وجه يوافق قول المعتزلة القفال فانه ذكر فيه وجهين (الاول) قال انه تعالى اخبر انه لايعذب احدا بمايعلمه منه مالم يعمل به اى لايجعل علمه حجة على من علم انه ان امره عصاه بل يأمره فاذا ظهر عصيانه للناس فحينئذ يعاقبه فقوله واذا أردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها معناه واذا اردنا امضاء ماسبق من القضاء باهلاك قوم امرنا المتنعمين المتعززين الظانين ان اموالهم واولادهم وانصارهم ترد عنهم بأسنا بالايمان بى والعمل بشرائع دينى على مابلغهم عنى رسولى ففسقوا فحينئذ يحق عليهم القضاء السابق باهلاكهم لظهور معاصيهم فحينئذ دمرناها والحاصل ان المعنى واذا اردنا ان نهلك قرية بسبب علمنا بأنهم لايقدمون الا على المعصية لم نكتف فى تحقيق ذلك الاهلاك بمجرد ذلك العلم بل امرنا مترفيها ففسقوا فاذا ظهر منهم ذلك الفسق فحينئذ نوقع عليهم العذاب الموعود به (والوجه الثانى) فى التأويل ان نقول واذا اردنا ان نهلك قرية بسبب ظهور المعاصى من اهلها لم نعاجلهم بالعذاب فى اول ظهور المعاصى منهم بل امرنا مترفيها بالرجوع عن تلك المعاصى وانما خص المترفين بذلك الامر لان المترف هو المتنعم ومن كثرت نعم الله عليه كان قيامه بالشكر اوجب فاذا امرهم بالتوبة والرجوع مرة بعد اخرى مع انه تعالى لايقطع عنهم تلك النعم بل يزيدها حالا بعد حال فحينئذ يظهر عنادهم وتمردهم وبعدهم عن الرجوع عن الباطل الى الحق فحينئذ يصب الله البلاء عليهم صبا ثم قال القفال وهذان التأويلان راجعان الى ان الله تعالى اخبر عباده انه لايعاجل بالعقوبة امة ظالمة حتى يعذر اليهم غاية الاعذار الذى يقع منه اليأس من ايمانهم كما قال فى قوم نوح ولايلدوا الافاجرا كفارا وقال انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن وقال فى غيرهم فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل فاخبر تعالى اولا انه لايظهر العذاب الابعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام ثم اخبر ثانيا فى هذه الآية انه اذا بعث الرسول ايضا فكذبوا لم يعاجلهم بالعذاب بل يتابع عليهم النصائح والمواعظ فان بقوا مصرين على الذنوب فهنالك ينزل عليهم عذاب الاستئصال وهذا التأويل الذى ذكره القفال فى تطبيق الآية على قول المعتزلة لم يتيسر لاحد من شيوخ المعتزلة مثله واجاب الجبائى بان قال ليس المراد من الآية انه تعالى يريد اهلاكهم قبل ان يعصوا او يستحقوا وذلك لانه ظلم وهو على الله محال بل المراد من الارادة قرب تلك الحالة

الزجر عن الضلال والحث على الاهتداء فان مؤدى ذلك ان طغيانهم منوط بارادة الله سبحانه وانعامه عليهم بنعم وافرة ابطرتهم وحملتهم على الفسق حملا حقيقا بأن يعبر عنه بالامر به (وكم اهلكنا) اى وكثيرا ما اهلكنا (من القرون) بيان لكم وتمييزله والقرن مدة من الزمان يخترم فيها القوم وهى عشرون او ثلاثون او اربعون او ثمانون او مائة وقد أيد ذلك بأنه عليه الصلاة والسلام دعا لرجل فقال عش قرنا فعاش مائة سنة اومائة وعشرون (من بعد نوح) من بعد زمنه عليه الصلاة والسلام كعاد وثمود ومن بعدهم ممن قصت احوالهم فى القرآن العظيم ومن لم تقص وعدم نظم قومه عليه الصلاة والسلام فى تلك القرون المهلكة لظهور امرهم على ان ذكره عليه الصلاة والسلام رمز الى ذكرهم (وكفى بربك) اى كفى ربك (بذنوب عباده خبيرا بصيرا) يحيط بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها وتقديم الخبير لتقدم متعلقه من الاعتقادات والنيات التى هى مبادى الاعمال الظاهرة اولعمومه حيث يتعلق بغير المبصرات ايضا وفيه اشارة الى ان البعث والامر ومايتلوهما من فسقهم ليس لتحصيل العلم بماصدر عنهم من الذنوب فان ذلك حاصل قبل ذلك وانما هو لقطع الاعذار والزام الحجة من كل وجه (من

فكان التقدير واذا قرب وقت اهلاك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها وهو كقول القائل اذا أراد المريض ان يموت ازدادت امراضه شدة واذا أراد التاجر ان يفتقر أتاه الخسران من كل جهة وليس المراد ان المريض يريد ان يموت والتاجر يريد ان يفتقر وانما يعنون انه سيصير كذلك فكذا ههنا واعلم ان جميع الوجوه الثلاثة التى ذكرناها فى التمسك بهذه الآية لاشك ان كلها عدول عن ظاهر اللفظ واما الوجه الثانى والثالث فقد بقى سليما عن الطعن والله اعلم (المسئلة الثالثة) المشهور عند القراء السبعة امرنا مترفيها بالتخفيف غير ممدودة الالف وروى برواية غير مشهورة عن نافع وابن عباس آمرنا بالمد وعن ابى عمرو آمرنا بالتشديد فالمد على التكثير يقال امر القوم بكسر الميم اذا كثروا وآمرهم الله بالمد اى كثرهم الله والتشديد على التسليط اى سلطنا مترفيها ومعناه التخلية وزوال المنع بالقهر والله اعلم اما قوله تعالى وكم اهلكنا من القرون من بعد نوح فاعلم ان المراد ان الطريق الذى ذكرناه هو عادتنا مع الذين يفسقون ويتمردون فيما تقدم من القرون الذين كانوا بعد نوح وهم عاد وثمود وغيرهم ثم انه تعالى خاطب رسوله بما يكون خطابا للغير وردعا وزجرا للكل فقال وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا وفيه بحثان (الاول) انه تعالى عالم بجميع المعلومات راء لجميع المرئيات فلا يخفى عليه شئ من احوال الخلق وثبت انه قادر على كل الممكنات فكان قادرا على ايصال الجزاء الى كل احد بقدر استحقاقه وايضا انه منزه عن العبث والظلم ومجموع هذه الصفات الثلاث اعنى العلم التام والقدرة الكاملة والبراءة عن الظلم بشارة عظيمة لاهل الطاعة وخوف عظيم لاهل الكفر والمعصية (البحث الثانى) قال الفراء لو القيت الباء من قولك بربك جاز وانما يجوز دخول الباء فى المرفوع اذا كان يمدح به صاحبه او يذم كقولك كفاك به واكرم به رجلا وطاب بطعامك طعاما وجاد بثوبك ثوبا اما اذا لم يكن مدحا او ذما لم يجز دخولها فلا يجوز ان يقال قام بأخيك وانت تريد قام اخوك والله اعلم

※قوله تعالى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة اكبر درجات واكبر تفضيلا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال القفال رحمه الله هذه الآية داخلة فى معنى قوله وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه ومعناه ان الكمال فى الدنيا قسمان فمنهم من يريد بالذى يعمله الدنيا ومنافعها والرياسة فيها فهذا يأنف من الانقياد للانبياء عليهم الصلاة والسلام والدخول فى طاعتهم والاجابة لدعوتهم اشفاقا من زوال الرياسة عنه فهذا قد جعل طائر نفسه شؤما لانه فى قبضة الله تعالى فيؤتيه الله فى الدنيا منها قدرا لا كما يشاء ذلك الانسان بل كما يشاء الله الا ان عاقبته جهنم يدخلها فيصلاها بحرها مذموما ملوما مدحورا منفيا مطرودا من رحمة الله تعالى وفى لفظ هذه الآية فوائد (الفائدة الاولى) ان العقاب عبارة عن مضرة مقرونة بالاهانة والذم بشرط

كان يريد) باعماله التى يعملها سواء كان ترتب المراد عليها بطريق الجزاء كاعمال البر او بطريق ترتب المعلولات على العلل كالاسباب او باعمال الآخرة فالمراد بالمريد على الاول الكفرة واكثر الفسقة وعلى الثانى اهل الرياء والنفاق والمهاجر للدنيا والمجاهد لمحض الغنيمة (العاجلة) فقط من غير ان يريد معها الآخرة كما ينبئ عنه الاستمرار المستفاد من زيادة كان ههنا مع الاقتصار على مطلق الارادة فى قسيمه والمراد بالعاجلة الدار الدنيا وبارادتها ارادة مافيها من فنون مطالبها كقوله تعالى ومن كان يريد حرث الدنيا ويجوز ان يراد الحياة العاجلة كقوله عزوجل من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها لكن الاول انسب بقوله (عجلنا له فيها) اى فى تلك العاجلة فان الحيوة واستمرارها من جملة ما عجل له فالانسب بذلك كلمة من كما فى قوله تعالى ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها (مانشاء) اى مانشاء تعجيله له من نعيمها لا كل مايريد (لمن نريد) تعجيل مانشاء له وهو بدل من الضمير فى له باعادة الجار بدل البعض فانه راجع الى الموصول المنبئ عن الكثرة وقرئ لمن يشاء على ان الضمير لله سبحانه وقيل هو لمن فيكون مخصوصا بمن اراد به ذلك وهو واحد من الدهماء وتقييد المعجل والمعجل له بما ذكر من المشيئة والارادة لما

ان تكون دائمة وخالية عن شوب المنفعة فقوله ثم جعلنا له جهنم يصلاها اشارة الى المضرة العظيمة وقوله مذموما اشارة الى الاهانة والذم وقوله مدحورا اشارة الى البعد والطرد عن رحمة الله وهى تفيد كون تلك المضرة خالية عن شوب النفع والرحمة وتفيد كونها دائمة وخالية عن التبدل بالراحة والخلاص (الفائدة الثانية) ان من الجهال من اذا ساعدته الدنيا اغتر بها وظن ان ذلك لاجل كرامته على الله تعالى وانه تعالى بين ان مساعدة الدنيا لاينبغى ان يستدل بها على رضا الله تعالى لان الدنيا قد تحصل مع ان عاقبتها هى المصير الى عذاب الله واهانته فهذا الانسان اعماله تشبه طائر السوء فى لزومه له وكونها سائقة له الى اشد العذاب (الفائدة الثالثة) قوله تعالى لمن نريد يدل على انه لايحصل الفوز بالدنيا لكل احد بل كثير من الكفار والضلال يعرضون عن الدين فى طلب الدنيا ثم يبقون محرومين عن الدنيا وعن الدين وهذا ايضا فيه زجر عظيم لهؤلاء الكفار الضلال الذين يتركون الدين لطلب الدنيا فانه ربما فاتتهم الدنيا فهم الاخسرون اعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا (واما القسم الثانى) وهو قوله تعالى ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فشرط تعالى فيه شروطا ثلاثة (احدها) ان يريد بعمله الآخرة اى ثواب الآخرة فانه ان لم يحصل هذه الارادة وهذه النية لم ينتفع بذلك العمل لقوله تعالى وان ليس للانسان الا ما سعى ولقوله عليه الصلاة والسلام انما الاعمال بالنيات ولان المقصود من الاعمال استنارة القلب بمعرفة الله تعالى ومحبته وهذا لايحصل الا ان نوى بعمله عبودية الله تعالى وطلب طاعته (والشرط الثانى) قوله وسعى لها سعيها وذلك هو ان يكون العمل الذى يتوصل به الى الفوز بثواب الآخرة من الاعمال التى بها ينال ثواب الآخرة ولايكون كذلك الا اذا كان من باب القرب والطاعات وكثير من الناس يتقربون الى الله تعالى باعمال باطلة فان الكفار يتقربون الى الله تعالى بعبادة الاوثان ولهم فيه تأويلان (احدهما) يقولون اله العالم أجل واعظم من ان يقدر الواحد منا على اظهار عبوديته وخدمته فليس لنا هذا القدر والدرجة ولكن غاية قدرنا ان نشتغل بعبودية بعض المقربين من عباد الله تعالى مثل ان نشتغل بعبادة كوكب او عبادة ملك من الملائكة ثم ان الملك والكوكب يشتغلون بعبادة الله تعالى فهؤلاء يتقربون الى الله تعالى بهذا الطريق الا انه لما كان فاسدا فى نفسه لاجرم لم يحصل الانتفاع به (والتأويل الثانى لهم) انهم قالوا نحن اتخذنا هذه التماثيل على صور الانبياء والاولياء ومرادنا من عبادتها ان تصير أولئك الانبياء والاولياء شفعاء لنا عند الله تعالى وهذا الطريق ايضا فاسد وايضا نقل عن الهند انهم يتقربون الى الله تعالى بقتل انفسهم تارة وباحراق انفسهم أخرى ويبالغون فى تعظيم الله تعالى الا انه لما كان الطريق فاسدا لاجرم لم ينتفع به وكذلك القول فى جميع فرق المبطلين الذين يتقربون الى الله تعالى بمذاهبهم الباطلة واقوالهم الفاسدة واعمالهم المنحرفة عن قانون الصدق والصواب

ان الحكمة التى عليها يدور فلك التكوين لاتقتضى وصول كل طالب الى مرامه والاستيفاء كل واصل لما يطلبه بتمامه واما ما يتراءى من قوله تعالى من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون من نيل كل مؤمل لجميع آماله ووصول كل عامل الى نتيجة اعماله فقد اشير الى تحقيق القول فيه فى سورة هود بفضل الله تعالى (ثم جعلنا له) مكان ما عجلنا له (جهنم) ومافيها من اصناف العذاب (يصلاها) يدخلها وهو حال من الضمير المجرور او من جهنم او استئناف (مذموما مدحورا) مطرودا من رحمة الله تعالى وقيل الآية فى المنافقين كانوا يراؤن المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم الا مساهمتهم فى الغنائم ونحوها ويأباه مايقال ان السورة مكية سوى آيات معينة (ومن أراد) بأعماله (الآخرة) الدار الآخرة ومافيها من النعيم المقيم (وسعى لها سعيها) اى السعى اللائق بها وهو الاتيان بما أمر والانتهاء عما نهى لا التقرب بما يخترعون بآرائهم وفائدة اللام اعتبار النية والاخلاص (وهو مؤمن) ايمانا صحيحا لايخالطه شئ قادح فيه وايراد الايمان بالجملة الحالية للدلالة على اشتراط مقارنته لما ذكر فى الصلة (فأولئك) اشارة الى الموصول بعنوان اتصافه بما

(والشرط الثالث) قوله تعالى وهو مؤمن وهذا الشرط معتبر لان الشرط فى كون اعمال البر موجبة للثواب تقدم الايمان فاذا لم يوجد الشرط لم يحصل المشروط ثم انه تعالى اخبر ان عند حصول هذه الشرائط يصير السعى مشكورا والعمل مبرورا واعلم ان الشكر عبارة عن مجموع امور ثلاثة اعتقاد كونه محسنا فى تلك الاعمال والثناء عليه بالقول والاتيان بافعال تدل على كونه معظما عند ذلك الشاكر والله تعالى يعامل المطيعين بهذه الامور الثلاثة فانه تعالى عالم بكونهم محسنين فى تلك الاعمال وانه تعالى يثنى عليهم بكلامه وانه تعالى يعاملهم بمعاملات دالة على كونهم معظمين عند الله تعالى واذا كان مجموع هذه الثلاثة حاصلا كانوا مشكورين على طاعاتهم من قبل الله تعالى ورأيت فى كتب المعتزلة ان جعفر بن حرب حضر عنده واحد من اهل السنة وقال الدليل على ان الايمان حصل بخلق الله تعالى انا نشكر الله على الايمان ولو لم يكن الايمان حاصلا بايجاده لامتنع ان نشكره عليه لان مدح الانسان وشكره على ما ليس من عمله قبيح قال الله تعالى ويحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا فعجز الحاضرون عن الجواب فدخل ثمامة بن الاشرس وقال انما نمدح الله تعالى ونشكره على ما اعطانا من القدرة والعقل وانزال الكتب وايضاح الدلائل والله تعالى يشكرنا على فعل الايمان قال تعالى فأولئك كان سعيهم مشكورا قال فضحك جعفر بن حرب وقال صعب المسئلة فسهلت واعلم ان قولنا مجموع القدرة مع الداعى يوجب الفعل كلام واضح لانه تعالى هو الذى اعطى الموجب التام لحصول الايمان فكان هو المستحق للشكر ولما حصل الايمان للعبد وكان الايمان موجبا للسعادة التامة صار العبد ايضا مشكورا ولا منافاة بين الامرين (المسئلة الثانية) اعلم ان كل من اتى بفعل فاما ان يقصد بذلك الفعل تحصيل خيرات الدنيا او تحصيل خيرات الآخرة او يقصد به مجموعهما او لم يقصد به واحدا منهما هذا هو التقسيم الصحيح اما ان قصد به تحصيل الدنيا فقط او تحصيل الآخرة فقط فالله تعالى ذكر حكم هذين القسمين فى هذه الآية (اما القسم الثالث) فهو ينقسم الى ثلاثة اقسام لانه اما ان يكون طلب الآخرة راجحا او مرجوحا او يكون الطلبان متعادلين * اما القسم الاول وهو ان يكون طلب الآخرة راجحا فهل يكون هذا العمل مقبولا عند الله تعالى فيه بحث يحتمل ان يقال انه غير مقبول لما روى ان النبى صلى الله عليه وسلم حكى عن رب العزة انه قال انا اغنى الاغنياء عن الشرك من عمل عملا اشرك فيه غيرى تركته وشريكه وايضا فطلب رضوان الله اما ان يقال انه كان سببا مستقلا بكونه باعثا على ذلك الفعل اوداعيا اليه واما ان يقال ما كان كذلك فان كان الاول امتنع ان يكون لغيره مدخل فى ذلك البعث والدعاء لان الحكم اذا حصل مسندا الى سبب تام كامل امتنع ان يكون لغيره مدخل فيه وان كان الثانى فحينئذ يكون الحامل على ذلك الفعل والداعى اليه ذلك المجموع وذلك المجموع ليس هو طلب رضوان الله تعالى لان المجموع الحاصل من الشئ ومن غيره يجب كونه مغايرا لكل واحد من جزأيه فهذا



فى حيز الصلة وما فى ذلك من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم والجمعية لمراعاة جانب المعنى ايماء الى ان الاثابة المفهومة من الخبر تقع على وجه الاجتماع اى اولئك الجامعون لما مر من الخصال الحميدة اعنى ارادة الآخرة والسعى الجميل لها والايمان (كان سعيهم مشكورا) مقبولا عند الله تعالى احسن القبول مثابا عليه وفى تعليق المشكورية بالسعى دون قرينيه اشعار بأنه العمدة فيها (كلا) التنوين عوض عن المضاف اليه اى كل واحد من الفريقين لا الفريق الاخير المريد للخير الحقيق بالاسعاف فقط (نمد) اى نزيد مرة بعد مرة بحيث يكون الآنف مددا للسالف وما به الامداد ما عجل لاحد هما من العطايا العاجلة وما اعد للآخر من العطايا الآجلة المشار اليها بمشكورية السعى وانما لم يصرح به تعويلا على ما سبق تصريحا وتلويحا واتكالا على ما لحق عبارة واشارة كما ستقف عليه وقوله تعالى (هؤلاء) بدل من كلا (وهؤلاء) عطف عليه اى نمد هؤلاء المعجل لهم وهؤلاء المشكور سعيهم فان الاشارة متعرضة لذات المشار اليه بما له من العنوان لا للذات فقط كالاضمار ففيه تذكير لما به الامداد وتعيين للمضاف اليه المحذوف دفعا لتوهم كونه افراد الفريق الاخير

القسم الحق بالقسم الذى كان الداعى اليه مغاير الطلب رضوان الله تعالى فوجب ان يكون مقبولا ويمكن ان يقال لما كان طلب الآخرة راجحا على طلب الدنيا تعارض المثل بالمثل فيبقى القدر الزائد داعية خالصة لطلب الآخرة فوجب كونه مقبولا واما اذا كان طلب الدنيا وطلب الآخرة متعادلين اوكان طلب الدنيا راجحا فهذا قد اتفقوا على انه غير مقبول الا انه على كل حال خير مما اذا كان طلب الدنيا خاليا بالكلية عن طلب الآخرة (اما القسم الرابع) وهو ان يقال انه اقدم على ذلك الفعل من غير داع فهذا بناء على ان صدور الفعل من القادر هل يتوقف على حصول الداعى ام لا فالذين يقولون انه متوقف قالوا هذا القسم ممتنع الحصول والذين قالوا انه لا يتوقف قالوا هذا الفعل لا اثر له فى الباطن وهو محرم فى الظاهر لانه عبث والله اعلم ثم قال تعالى كلا اى كل واحد من الفريقين والتنوين عوض من المضاف اليه نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك اى انه تعالى يمد الفريقين بالاموال ويوسع عليهما فى الرزق مثل الاموال والاولاد وغيرهما من اسباب العزوالزينة فى الدنيا لان عطاءنا ليس يضيق عن احد مؤمنا كان اوكافرا لان الكل مخلوقون فى دار العمل فوجب ازاحة العذر وازالة العلة عن الكل وايصال متاع الدنيا الى الكل على القدر الذى يقتضيه الصلاح فبين تعالى ان عطاءه ليس بمحظور اى غير ممنوع يقال حظره يحظره وكل من حال بينك وبين شىء فقد حظره عليك ثم قال تعالى انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وفيه قولان (الاول) المعنى انظر الى عطائنا المباح الى الفريقين فى الدنيا كيف فضلنا بعضهم على بعض فأوصلناه الى مؤمن وقبضناه عن مؤمن آخر واوصلناه الى كافر وقبضناه عن كافر آخر وقد بين تعالى وجه الحكمة فى هذا التفاوت فقال نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا وقال فى آخر سورة الانعام ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ثم قال وللآخرة اكبر درجات واكبر تفضيلا والمعنى ان تفاضل الخلق فى درجات منافع الدنيا محسوس فتفاضلهم فى درجات منافع الآخرة اكبر واعظم فان نسبة التفاضل فى درجات الآخرة الى التفاضل فى درجات الدنيا كنسبة الآخرة الى الدنيا فاذا كان الانسان تشتد رغبته فى طلب فضيلة الدنيا فبأن تقوى رغبته فى طلب فضيلة الآخرة اولى (القول الثانى) ان المراد ان الآخرة اعظم واشرف من الدنيا والمعنى ان المؤمنين يدخلون الجنة والكافرين يدخلون النار فيظهر فضل المؤمنين على الكافرين ونظيره قوله تعالى اصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا واحسن مقيلا

❊ قوله تعالى (لا تجعل مع الله الها آخر فتقعد مذموما مخذولا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى بيان وجه النظم فنقول انه تعالى لما بين ان الناس فريقان منهم يريد بعمله الدنيا فقط وهم اهل العقاب والعذاب ومنهم من يريد به طاعة الله وهم اهل الثواب ثم شرط ذلك بشرائط ثلاثة (اولها) اراد الآخرة (وثانيها) ان يعمل عملا ويسعى

---

وتأكيد للقصر المستفاد من تقديم المفعول وقوله تعالى (من عطاء ربك) اى من معطاه الواسع الذى لا تناهى له متعلق بنمد ومغن عن ذكر ما به الامداد ومنبه على ان الامداد المذكور ليس بطريق الاستيجاب بالسعى والعمل بل بمحض التفضل (وما كان عطاء ربك) اى دنيويا كان او اخرويا وانما اظهر اظهارا لمزيد الاعتناء بشأنه واشعارا بعليته للحكم (محظورا) ممنوعا عمن يريده بل هو فائض على من قدر له بموجب المشيئة المبنية على الحكمة وان وجد منه ما يقتضى الحظر كالكافر وهو فى معنى التعليل لشمول الامداد للفريقين والتعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين للاشعار بمبدأيتها لما ذكر من الامداد وعدم الحظر (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) كيف فى محل النصب بفضلنا على الحالية والمراد توضيح مامر من الامداد وعدم محظورية العطاء بالتنبيه على استحضار مراتب احد العطاءين والاستدلال بها على مراتب الآخر اى انظر بنظر الاعتبار كيف فضلنا بعضهم على بعض فيما امددناهم به من العطايا العاجلة فمن وضيع ورفيع وظالع وضليع ومالك ومملوك وموسر وصعلوك تعرف بذلك مراتب العطايا الآجلة ودرجات تفاضل اهلها على طريقة الاستشهاد بحال الادنى على حال

سعيا موافقا لطلب الآخرة (وثالثها) ان يكون مؤمنا لاجرم فصل فى هذه الآية تلك المجملات فبدأ اولا بشرح حقيقة الايمان واشرف اجزاء الايمان هو التوحيد ونفى الشركاء والاضداد فقال لا تجعل مع الله الها آخر ثم ذكر عقيبه سائر الاعمال التى يكون المقدم عليها والمشتغل بها ساعيا سعيا يليق بطلب الآخرة وصار من الذين سعد طائرهم وحسن بختهم وكملت احوالهم (المسئلة الثانية) قال المفسرون هذا فى الظاهر خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولكن فى المعنى عام لجميع المكلفين كقوله يا أيها النبى اذا طلقتم النساء ويحتمل ايضا ان يكون الخطاب للانسان كأنه قيل أيها الانسان لا تجعل مع الله الها آخر وهذا الاحتمال عندى اولى لانه تعالى عطف عليه قوله وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه الى قوله اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما وهذا لا يليق بالنبى عليه السلام لان ابويه ما بلغا الكبر عنده فعلمنا ان المخاطب بهذا هو نوع الانسان (المسئلة الثالثة) معنى الآية ان من اشرك بالله كان مذموما مخذولا والذى يدل على ان الامر كذلك وجوه * الاول ان المشرك كاذب والكاذب يستوجب الذم والخذلان * الثانى انه لما ثبت بالدليل انه لا اله ولا مدبر ولا مقدر الا الواحد الاحد فعلى هذا التقدير تكون جميع النعم حاصلة من الله تعالى فمن اشرك بالله فقد اضاف بعض تلك النعم الى غير الله تعالى مع ان الحق ان كلها من الله فحينئذ يستحق الذم لان الخالق تعالى استحق الشكر باعطاء تلك النعم فلما جحد كونها من الله فقد قابل احسان الله تعالى بالاساءة والجحود والكفران فاستوجب الذم وانما قلنا انه يستحق الخذلان لانه لما اثبت شريكا لله تعالى استحق ان يفوض امره الى ذلك الشريك فلما كان ذلك الشريك معدوما بقى بلا ناصر ولا حافظ ولا معين وذلك عين الخذلان * الثالث ان الكمال فى الوحدة والنقصان فى الكثرة فمن اثبت الشريك فقد وقع فى جانب النقصان واستوجب الذم والخذلان واعلم انه لما دل لفظ الآية على ان المشرك مذموم مخذول وجب بحكم الآية ان يكون الموحد ممدوحا منصورا والله اعلم (المسئلة الرابعة) القعود المذكور فى قوله فتقعد مذموما مخذولا فيه وجوه (الاول) ان معناه المكث اى فتمكث فى الناس مذموما مخذولا وهذه اللفظة مستعملة فى لسان العرب والفرس فى هذا المعنى فاذا سأل الرجل غيره ما يصنع فلان فى تلك البلدة فيقول المجيب هو قاعد بأسوأ حال معناه المكث سواء كان قائما او جالسا (الثانى) ان من شأن المذموم المخذول ان يقعد نادما متفكرا على ما فرط منه (الثالث) ان المتمكن من تحصيل الخيرات يسعى فى تحصيلها والسعى انما يتأتى بالقيام واما العاجز عن تحصيلها فانه لا يسعى بل يبقى جالسا قاعدا عن الطلب فلما كان القيام على الرجل احد الامور التى بها يتم الفوز بالخيرات وكان القعود والجلوس علامة على عدم تلك المكنة والقدرة لاجرم جعل القيام كناية عن القدرة على تحصيل الخيرات والقعود كناية عن العجز والضعف (المسئلة الخامسة) قال الواحدى قوله فتقعد انتصب لانه وقع بعد الفاء جوابا للنهى وانتصابه باضمار ان كقولك لا تنقطع

الاعلى كما افصح عنه قوله تعالى (وللآخرة أكبر) أى هى وما فيها اكبر من الدنيا وقرئ اكثر (درجات واكبر تفضيلا) لان التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها العالية التى لا يقادر قدرها ولا يكتنه كنهها كيف لا وقد عبر عنه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر هذا ويجوز ان يراد بمابه الامداد العطايا العاجلة فقط ويحمل القصر المذكور على دفع توهم اختصاصها بالفريق الاول فان تخصيص ارادتهم لها ووصولهم اليها بالذكر من غير تعرض لبيان النسبة بينها وبين الفريق الثانى ارادة ووصولا مما يوهم اختصاصها بالاولين فالمعنى كل واحد من الفريقين نمد بالعطايا العاجلة لا من ذكرنا ارادته لها فقط من الفريق الاول من عطاء ربك الواسع وما كان عطاؤه الدنيوى محظورا من احد ممن يريده وممن يريد غيره انظر كيف فضلنا فى ذلك العطاء بعض كل من الفريقين على بعض آخر منهما وللآخرة الآية واعتبار عدم المحظورية بالنسبة الى الفريق الاول تحقيقا لشمول الامداد له كما فعله الجمهور حيث قالوا الاعنه من عاص لعصيانه يقتضى كون القصر لدفع توهم اختصاص الامداد الدنيوى بالفريق الثانى مع أنه لم يسبق فى الكلام ما يوهم ثبوته له فضلا عن ايهام اختصاصه (لا تجعل مع الله الها آخر)

عنا فتجفوك والتقدير لايكن منك انقطاع فيحصل ان تجفوك فما بعد الفاء متعلق بالجملة المتقدمة بحرف الفاء التى هى حرف العطف وانما سماه النحويون جوابا لكونه مشابها للجزاء فى ان الثانى مسبب عن الاول ألا ترى ان المعنى ان انقطعت جفوتك كذلك تقدير الآية ان جعلت مع الله الها آخر قعدت مذموما مخذولا ❊ قوله تعالى ( وقضى ربك ألاتعبدوا الا اياه ) اعلم انه لما ذكر فى الآية الاولى ماهو الركن الاعظم فى الايمان اتبعه بذكر ماهو من شعائر الايمان وشرائطه وهى انواع ( النوع الاول ) ان يكون الانسان مشتغلا بعبادة الله تعالى وان يكون محترزا عن عبادة غير الله تعالى وهذا هو المراد من قوله وقضى ربك ألاتعبدوا الا اياه وفيه بحثان (الاول) القضاء معناه الحكم الجزم البت الذى لايقبل النسخ والدليل عليه ان الواحد منا اذا امر غيره بشئ فانه لايقال انه قضى عليه اما اذا امره امرا جزما وحكم عليه بذلك الحكم على سبيل البت والقطع فههنا يقال قضى عليه ولفظ القضاء فى اصل اللغة يرجع الى اتمام الشئ وانقطاعه وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس انه قال فى هذه الآية كان الاصل ووصى ربك فالتصقت احدى الواوين بالصاد فقرئ وقضى ربك ثم قال ولو كان على القضاء ماعصى الله احد قط لان خلاف قضاء الله ممتنع هكذا رواه عنه الضحاك وسعيد بن جبير وهو قراءة على وعبد الله واعلم ان هذا القول بعيد جدا لانه يفتح باب ان التحريف والتغيير قد تطرق الى القرآن ولو جوزنا ذلك لارتفع الامان عن القرآن وذلك يخرجه عن كونه حجة ولاشك انه طعن عظيم فى الدين (البحث الثانى) قد ذكرنا ان هذه الآية تدل على وجوب عبادة الله تعالى وتدل على المنع عن عبادة غير الله تعالى وهذا هو الحق وذلك لان العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لاتليق الا بمن يصدر عنه نهاية الانعام ونهاية الانعام عبارة عن اعطاء الوجود والحياة والقدرة والشهوة والعقل وقد ثبت بالدلائل ان المعطى لهذه الاشياء هو الله تعالى لاغيره واذا كان المنعم بجميع النعم هو الله لاغيره لاجرم كان المستحق للعبادة هو الله تعالى لاغيره فثبت بالدليل العقلى صحة قوله وقضى ربك ألاتعبدوا الا اياه ❊ قوله تعالى ( وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلاتقل لهما اف ولاتنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ربكم اعلم بما فى نفوسكم ان تكونوا صالحين فانه كان للاوابين غفورا ) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى امر بعبادة نفسه ثم اتبعه بالامر ببر الوالدين وبيان المناسبة بين الامر بعبادة الله تعالى وبين الامر ببر الوالدين من وجوه (الاول) ان السبب الحقيقى لوجود الانسان هو تخليق الله تعالى وايجاده والسبب الظاهرى هو الابوان فأمر بتعظيم السبب الحقيقى ثم اتبعه بالامر بتعظيم السبب الظاهرى ( الوجه الثانى ) ان الموجود اما قديم واما محدث ويجب ان تكون معاملة الانسان مع الاله القديم بالتعظيم والعبودية ومع المحدث باظهار الشفقة

الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والمراد منه امته وهو من باب التهييج والالهاب او لكل احد ممن يصلح للخطاب (فتقعد) بالنصب جوابا للنهى والقعود بمعنى الصيرورة من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة او بمعنى العجز من قعد عنه اى عجز عنه (مذموما مخذولا) خبران او حالان اى جامعا على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين والخذلان من الله تعالى وفيه اشعار بأن الموحد جامع بين المدح والنصرة (وقضى ربك) اى امر امرا مبرما وقرئ وأوصى ربك ووصى ربك ( الاتعبدوا ) اى بأن لاتعبدوا (الا اياه) على ان ان مصدرية ولا نافية او اى لاتعبدوا على انها مفسرة ولا ناهية لان العبادة غاية التعظيم فلاتحق الا لمن له غاية العظمة ونهاية الانعام وهو كالتفصيل للسعى للآخرة (وبالوالدين) اى وبأن تحسنوا بهما او واحسنوا بهما ( احسانا ) لانهما السبب الظاهر للوجود والتعيش (اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما ) اما مركبة من ان الشرطية وما المزيدة لتأكيدها ولذلك دخل الفعل نون التأكيد ومعنى عندك فى كنفك وكفالتك وتقديمه على المفعول مع ان حقه التأخر عنه للتشويق الى وروده فانه مدار تضاعف

وهو المراد من قوله عليه السلام التعظيم لامر الله و الشفقة على خلق الله و احق الخلق
بصرف الشفقة اليه هو الابوان لكثرة انعامهما على الانسان فقوله وقضى ربك
ألا تعبدوا الا اياه اشارة الى التعظيم لامر الله وقوله وبالوالدين احسانا اشارة الى الشفقة
على خلق الله (الوجه الثالث) ان الاشتغال بشكر المنعم واجب ثم المنعم الحقيقى هو الخالق
سبحانه وتعالى وقد يكون احد من المخلوقين منعما عليك وشكره ايضا واجب لقوله عليه
السلام من لم يشكر الناس لم يشكر الله وليس لاحد من الخلائق نعمة على الانسان مثل
ماللوالدين وتقريره من وجوه (احدها) ان الولد قطعة من الوالدين قال عليه السلام
فاطمة بضعة منى (وثانيها) ان شفقة الابوين على الولد عظيمة وجدهما فى ايصال الخير الى
الولد كالامر الطبيعى واحترازهما عن ايصال الضرر اليه كالامر الطبيعى ومتى كانت
الدواعى الى ايصال الخير متوفرة والصوارف عنه زائلة لاجرم كثر ايصال الخير فوجب ان
تكون نعم الوالدين على الولد كثيرة اكثر من كل نعمة تصل من انسان الى انسان (وثالثها)
ان الانسان حال مايكون فى غاية الضعف ونهاية العجز يكون فى انعام الابوين فاصناف
نعمهما فى ذلك الوقت واصلة اليه واصناف رحمة ذلك الولد واصلة الى الوالدين فى ذلك
الوقت ومن المعلوم ان الانعام اذا كان واقعا على هذا الوجه كان موقعه عظيما
(ورابعها) ان ايصال الخير الى الغير قد يكون لداعية ايصال الخير اليه وقد يمتزج بهذا
الغرض سائر الاغراض وايصال الخير الى الولد ليس لهذا الغرض فقط فكان الانعام فيه
أتم واكمل فثبت انه ليس لاحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ماللوالدين على الولد فبدأ
الله تعالى بشكر نعمة الخالق وهو قوله وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه ثم اردفه بشكر نعمة
الوالدين وهو قوله وبالوالدين احسانا والسبب فيه مابينا ان اعظم النعم بعد انعام الاله
الخالق نعمة الوالدين فان قيل الوالدان انما طلبا تحصيل اللذة لنفسهما فلزم منه دخول
الولد فى الوجود وحصوله فى عالم الآفات والمخافات فأى انعام للابوين على الولد حكى
ان واحدا من المتسمين بالحكمة كان يضرب اباه ويقول هو الذى ادخلنى فى عالم
الكون والفساد وعرضنى للموت والفقر والعمى والزمانة وقيل لأبى العلاء المعرى ماذا
نكتب على قبرك قال اكتبوا عليه

هذا جناه ابى على وماجنيت على احد

وقال فى ترك التزوج والولد

وتركت اولادى وهم فى نعمة * العدم التى سبقت نعيم العاجل
ولو انهم ولدوا لعانوا شدة * ترمى بهم فى موبقات الآجل

وقيل للاسكندر استاذك اعظم منة عليك أم والدك فقال الاستاذ اعظم منة لانه تحمل
انواع الشدائد والمحن عند تعليمى ارتعنى فى نور العلم واما الوالد فانه طلب تحصيل لذة
الوقاع لنفسه واخرجنى الى آفات عالم الكون والفساد ومن الكلمات المشهورة المأثورة

الرعاية والاحسان واحدهما
فاعل للفعل وتأخيره عن الظرف
والمفعول لئلا يطول الكلام به
وبما عطف عليه وقرئ يبلغان
فأحدهما بدل من ضمير التثنية
وكلاهما عطف عليه ولا سبيل
الى جعل كلاهما تأكيدا للضمير
وتوحيد ضمير الخطاب فى عندك
وفيما بعده مع ان ماسبق على
الجمع للاحتراز عن التباس المراد
فان المقصود نهى كل احد عن
تأفيف والديه ونهرهما ولو
قوبل الجمع بالجمع اوبالتثنية لم
يحصل هذا المرام (فلاتقل لهما)
اى لواحد منهما حالتى الانفراد
والاجتماع (اف) وهو صوت
ينبئ عن تضجر اواسم فعل هو
أتضجر وقرئ بالكسر بلا تنوين
وبالفتح والضم منونا وغير منون
اى لاتتضجر عما تستقذر منهما
وتستثقل من مؤنهما وبهذا
النهى يفهم النهى عن سائر
مايؤذيهما بدلالة النص وقد
خص بالذكر بعضه اظهارا
للاعتناء بشأنه فقيل (ولا
تنهرهما) اى لاتزجرهما عما لا
يعجبك باغلاظ قيل النهى والنهر
والنهم اخوات (وقل لهما) بدل
التأفيف والنهر (قولا كريما)
ذا كرم اوهو وصف له بوصف
صاحبه اى قولا صادرا عن كرم
ولطف وهو القول الجميل الذى
يقتضيه حسن الادب ويستدعيه
النزول على المروءة مثل ان يقول

(خير)

خيرالآباء من علمك والجواب هب انهما فى اول الامر طلب اللذة الوقاع الا ان الاهتمام بايصال الخيرات وفى دفع الآفات من اول دخوله فى الوجود الى وقت بلوغه الكبر أليس انه اعظم من جميع مايتخيل من جهات الخيرات والمبرات فسقطت هذه الشبهات والله اعلم (المسئلة الثانية) قوله وبالوالدين احسانا قال اهل اللغة تقدير الآية وقضى ربك ألاتعبدوا الااللّه وان تحسنوا او يقال وقضى ألاتعبدوا الااياه واحسنوا بالوالدين احسانا قال صاحب الكشاف ولايجوز ان تتعلق الباء فى وبالوالدين بالاحسان لان المصدر لاتتقدم عليه صلته ثم لم يذكر دليلا على ان المصدر لايجوز ان تتقدم عليه صلته وقال الواحدى فى البسيط الباء فى وبالوالدين من صلة الاحسان وقدمت عليه كما تقول زيدا فامرر وهذا المثال الذى ذكره الواحدى غير مطابق لان المطلوب تقديم صلة المصدر عليه والمثال المذكور ليس كذلك (المسئلة الثالثة) قال القفال لفظ الاحسان قد يوصل بحرف الباء تارة وبحرف الى اخرى وكذلك الاساءة يقال احسنت به واليه واسأت به واليه قال الله تعالى وقد احسن بى وقال القائل

اسيئى بنا اواحسنى لاملومة * لدينا ولامقلية ان تقلت

واقول لفظ الآية مشتمل على قيود كثيرة كل واحد منها يوجب المبالغة فى الاحسان الى الوالدين (احدها) انه تعالى قال فى الآية المتقدمة ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ثم انه تعالى اردفه بهذه الآية المشتملة على الاعمال التى بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة فذكر من جملتها البر بالوالدين وذلك يدل على ان هذه الطاعة من اصول الطاعات التى تفيد سعادة الآخرة (وثانيها) انه تعالى بدأ بذكر الامر بالتوحيد وثنى بطاعة الله تعالى وثلث بالبر بالوالدين وهذه درجة عالية ومبالغة عظيمة فى تعظيم هذه الطاعة (وثالثها) انه تعالى لم يقل واحسانا بالوالدين بل قال وبالوالدين احسانا فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام (ورابعها) انه قال احسانا بلفظ التنكير والتنكير يدل على التعظيم والمعنى وقضى ربك ان تحسنوا الى الوالدين احسانا عظيما كاملا وذلك لانه لما كان احسانهما اليك قد بلغ الغاية العظيمة وجب ان يكون احسانك اليهما كذلك ثم على جميع التقديرات فلا تحصل المكافأة لان انعامهما عليك كان على سبيل الابتداء وفى الامثال المشهورة ان البادى بالبر لايكافأ ثم قال تعالى امايبلغن عندك الكبر أحدهما اوكلاهما وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لفظ اما لفظة مركبة من لفظتين ان وما اما كلمة ان فهى للشرط واما كلمة مافهى ايضا للشرط كقوله تعالى ماننسخ من آية فلما جمع بين هاتين الكلمتين أفاد التأكيد فى معنى الاشتراط الا ان علامة الجزم لم تظهر مع نون التأكيد لان الفعل يبنى مع نون التأكيد وأقول لقائل ان يقول ان نون التأكيد انما يليق بالموضع الذى يكون اللائق به تأكيد ذلك الحكم المذكور وتقريره واثباته على اقوى الوجوه الا ان هذا المعنى لايليق بهذا الموضع لان

يااباه وياأماه كدأب ابراهيم عليه السلام اذقال لأبيه ياأبت مع مابه من الكفر ولا يدعوهما بأسمائهما فانه من الجفاء وسوء الادب وديدن الدعار وسئل الفضيل بن عياض عن برالوالدين فقال ان لا تقوم الى خدمتهما عن كسل وقيل ان لاترفع صوتك عليهما ولاتنظر اليهما شزرا ولا يريامنك مخالفة فى ظاهر ولا باطن وان تترحم عليهما ماعاشا وتدعو لهما اذاماتا وتقوم بخدمة اوداءهما من بعدهما فعن النبى عليه الصلاة والسلام ان من أبرالبر ان يصل الرجل اهل ود أبيه (واخفض لهما جناح الذل) عبارة عن الانة الجانب والتواضع والتذلل لهما فان اعزازهما لايكون الا بذلك فكأنه قيل واخفض لهما جناحك الذليل او جعل لذله جناح كما جعل لبيد فى قوله

وغداة ريح قدكشفت وقرة

اذا صبحت بيد الشمال زمامها

للقرة زماما وللشمال يدا تشبيها له بطائر يخفض جناحه لافراخه تربية لها وشفقة عليها واما جعل خفض الجناح عبارة عن ترك الطيران كما فعله القفال فلا يناسب المقام (من الرحمة) من فرط رحمتك وعطفك عليهما ورفقك لهما لافتقارهما اليوم الى من كان افقر خلق الله تعالى

قول القـائل الشئ اما كذاواما كذافالمطلوب منـه ترديد الحكم بين ذينك الشيـئين المذكورين وهذا الموضع لايليق به التقرير والتأكيد فكيف يليق الجمع بين كلمة اماوبين نون التأكيد وجوابه ان المراد انهـذا الحكم المتقرر المتأكد امان يقع واماان لايقع والله اعلم (المسئلة الثانية) قرأ الاكثرون امايبلغن عنـدك الكبر احدهما او كلاهما وعلى هذا التقدير فقوله يبلغن فعل وفاعله هو قوله احدهما وقوله اوكلاهما عطف عليه كقولك ضرب زيداوعمرو ولو اسندقوله يبلغن الى قوله كلاهما جاز لتقدم الفعل تقول قال رجل وقال رجلان وقالت الرجال وقرأ حمزة والكسائي يبلغان وعلى هذه القراءة فقوله احدهما بدل من الف الضمير الراجع الى الو الدين وكلاهما عطف على احدهما فاعلا او بدلا فان قيل لو قيل امايبلغان كلاهما كان كلاهما توكيدا لا بدلا فلم زعمتم انه بدل قلنا لانه معطوف على مالايصح ان يكون توكيدا للاثنين فانتظم فى حكمه فوجب ان يكون مثله فى كونه بدلا فان قيل لم لايجوز ان يقال قوله احدهما بدل وقوله اوكلاهما توكيد ويكون ذلك عطفا للتوكيد على البدل قلنا العطف يقتضى المشاركة فجعل احدهما بدلا والآخر توكيدا خلاف الاصل والله اعلم (المسئلة الثالثة) قال ابو الهيثم الرازى وابوالفتح الموصلى وابوعلى الجرجانى ان كلا اسم مفرد يفيد معنى التثنية ووزنه فعل ولامه معتل بمنزلة لام حجى ورضى وهى كلمة وضعت على هذه الخلقة يؤكد بها الاثنان خاصة ولاتكون الامضافة والدليل عليه انها لوكانت تثنية لوجب ان يقال فى النصب والخفض مررت بكلى الرجلين بكسر اليـاء كماتقول بين يدى الرجل ومن ثلثى الليل وياصاحبى السجن وطرفى النهار ولمالم يكن الامر كذلك علمنا انهاليست تثنية بل هى لفظة مفردة وضعت للدلالة على التثنية كما ان لفظة كل اسم واحد موضوع للجماعة فاذن اخبرت عن لفظه كما تخبر عن الواحد كقوله تعالى وكلهم آتيه يوم القيامة فردا وكذلك اذا اخبرت عن كلا اخبرت عن واحد فقلت كلا اخوتك كان قائما قال الله تعالى كلتا الجنتين آتت اكلها ولم يقل آتتا والله اعلم (المسئلة الرابعة) قوله يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما معناه انهما يبلغان الى حالة الضعف والعجز فيصير ان عندك فى آخر العمر كما كنت عندهما فى اول العمر واعلم انه تعالى لماذكر هذه الجملة فعند هذا الذكر كلف الانسان فى حق الوالدين بخمسة اشياء (النوع الاول) قوله تعالى فلاتقل لهما أف وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الزجاج فيه سبع لغات كسر الفاء وضمها وفتحها وكل هذه الثلاثة بتنوين وبغير تنوين فهذه ستة واللغة السابعة أفى بالياء قال الاخفش كأنه اضاف هذا القول الى نفسه فقال قولى هذا وذكر ابن الانبارى من لغات هذه اللفظة ثلاثة زائدة على ماذكره الزجاج اف بكسر الالف وفتح الفاء وافه بضم الالف وادخال الهاء واف بضم الالف وتسكين الفاء (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وابن عامر بفتح الفاء من غير تنوين ونافع وحفص بكسر الفاء والتنوين والباقون بكسر الفاء من غير تنوين وكلها لغات وعلى هذا الخلاف

اليهما ولاتكتنف برحمتك الفانية بل ادع الله لهما برحمته الواسعة البـاقية (وقل رب ارحمهما) برحمتك الدنيوية والاخروية التى من جملتهـا الهـداية الى الاسلام فلاينافى ذلك كفرهما (كما ربيـانى) الكاف فى محـل النصب عـلى انه نعت لمصـدر محذوف اى رحمة مثل تربيتهمالى اومثل رحمتهمالى على ان التربية رحمة ويجوز ان يكون لهما الرحمة والتربية معا وقدذكر احدهما فى احد الجانبين والآخر فى الآخر كما يلوح به التعرض لعنوان الربوبية فى مطلع الدعاء كأنه قيل رب ارحمهما ورباهما رحمانى وربيانى (صغيرا) ويجوز ان تكون الكاف للتعليل اى لاجل تربيتهمالى كقوله تعالى واذكروه كما هداكم ولقدبالغ عز وجـل فى التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الاحسان اليهما بتوحيده سبحانه ونظمهما فى سلك القضاء بهما معاثم ضيق الامر فى باب مراعاتهما حتى لم يرخص فى ادنى كلمة تنفلت من المتضجر مع ماله من موجبات الضجر مالا يكاد يدخل تحت الحصر وختمها بأن جعل رحمته التى وسعت كل شئ مشبهة بتربيتهما وعن النبى عليه الصلاة والسلام رضى الله فى رضى الوالـدين وسخطه فى سخطهما

في سورة الانبياء اف لكم و في الاحقاف اف لكما واقول البحث المشكل ههنا انا لما نقلنا عشرة انواع من اللغات في هذه اللفظة فالسبب في انهم تركوا اكثر تلك اللغات في قراءة هذا اللفظ واقتصروا على وجوه قليلة منها (المسئلة الثالثة) ذكروا في تفسير هذه اللفظة وجوها (الاول) قال الفراء تقول العرب جعل فلان يتأفف من ريح وجدها معناه يقول اف اف (الثاني) قال الاصمعي الاف وسخ الاذن والتف وسخ الظفر يقال ذلك عند استقذار الشيء ثم كثر حتى استعملوه عند كل ما يتأذون به (الثالث) قال بعضهم اف معناه قلة وهو مأخوذ من الافيف وهو الشيء القليل وتف اتباع له كقولهم شيطان ليطان خبيث نبيث (الرابع) روى ثعلب عن ابن الاعرابي الاف الضجر (الخامس) قال القتبي اصل هذه الكلمة انه اذا سقط عليك تراب او رماد نفخت فيه لتزيله والصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قولك اف ثم انهم توسعوا فذكروا هذه اللفظة عند كل مكروه يصل اليهم (السادس) قال الزجاج اف معناه النتن وهذا قول مجاهد لانه قال معنى قوله ولا تقل لهما اف اى لا تتقذرهما كما انهما لم يتقذراك حين كنت تخرا وتبول وفي رواية اخرى عن مجاهد انه اذا وجدت منهما رائحة تؤذيك فلا تقل لهما اف (المسئلة الرابعة) قول القائل لا تقل لفلان اف مثل يضرب للمنع من كل مكروه واذية وان خف وقل واختلف الاصوليون في ان دلالة هذا اللفظ على المنع من سائر انواع الايذاء دلالة لفظية او دلالة مفهومة بمقتضى القياس قال بعضهم انها دلالة لفظية لان اهل العرف اذا قالوا لا تقل لفلان اف عنوا به انه لا تتعرض له بنوع من انواع الايذاء والايحاش وجرى هذا مجرى قولهم فلان لا يملك نقيرا ولا قطميرا في انه بحسب العرف يدل على انه لا يملك شيئا * والقول الثاني ان هذا اللفظ انما يدل على المنع من سائر انواع الايذاء بحسب القياس الجلي وتقريره ان الشرع اذا نص على حكم صورة وسكت عن حكم صورة اخرى فاذا اردنا الحاق الصورة المسكوت عن حكمها بالصورة المذكور حكمها فهذا على ثلاثة اقسام (احدها) ان يكون ثبوت ذلك الحكم في محل السكوت اولى من ثبوته في محل الذكر مثل هذه الصورة فان اللفظ انما دل على المنع من التأفيف والضرب اولى بالمنع من التأفيف (وثانيها) ان يكون الحكم في محل السكوت مساويا للحكم في محل الذكر وهذا هو الذي يسميه الاصوليون القياس في معنى الاصل وضربوا لهذا مثلا وهو قوله عليه السلام من اعتق نصيبا له من عبد قوم عليه الباقي فان الحكم في الامة والعبد متساويان (وثالثها) ان يكون الحكم في محل السكوت اخفى من الحكم في محل الذكر وهو اكبر القياسات اذا عرفت هذا فنقول المنع من التأفيف انما يدل على المنع من الضرب بواسطة القياس الجلي الذي يكون من باب الاستدلال بالادنى على الاعلى والدليل عليه ان التأفيف غير الضرب فالمنع من التأفيف لا يكون منعا من الضرب وايضا المنع من التأفيف لا يستلزم المنع من الضرب عقلا لان الملك الكبير اذا اخذ ملكا عظيما كان عدوا له فقد يقول للجلاد اياك

وروى يفعل البار ما يشاء ان يفعل فلن يدخل النار ويفعل العاق ما يشاء ان يفعل فلن يدخل الجنة وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابوى بلغا من الكبر انى الى منهما ما وليا منى في الصغر فهل قضيتهما حقهما قال لا فانهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وانت تفعل ذلك وانت تريد موتهما وروى ان شيخا اتى النبي عليه الصلاة والسلام فقال ان ابني هذا له مال كثير وانه لا ينفق على من ماله فنزل جبريل عليه السلام وقال ان هذا الشيخ قد انشأ في ابنه ابياتا ما قرع سمع بمثلها فاستنشدها فأنشدها الشيخ فقال

غذوتك مولودا ومنتك يافعا
تعل بما اجنى عليك وتنهل
اذا ليلة ضافتك بالسقم لم ابت
لسقمك الا باكيا اتململ
كأنى انا المطروق دونك بالذى
طرقت به دونى وعينى تهمل
فلما بلغت السن والغاية التى
اليها مدى ما كنت فيك اؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة
كأنك انت المنعم المتفضل
فليتك اذ لم ترع حق ابوتى
فعلت كما الجار المجاور يفعل

فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال انت ومالك لابيك (ربكم اعلم بما في نفوسكم) من البر والعقوق (ان تكونوا صالحين) قاصدين للصلاح والبر دون

وان تستخف به او تشافهه بكلمة موحشة لكن اضرب رقبته واذا كان هذا معقولا فى الجملة علمنا ان المنع من التأفيف مغاير للمنع من الضرب وغير مستلزم ايضا للمنع من الضرب عقلا فى الجملة الا انا علمنا فى هذه الصورة ان المقصود من هذا الكلام المبالغة فى تعظيم الوالدين بدليل قوله وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة فكانت دلالة المنع من التأفيف على المنع من الضرب من باب القياس بالادنى على الاعلى والله اعلم ( النوع الثانى ) من الاشياء التى كلف الله تعالى العباد بها فى حق الابوين قوله ولا تنهرهما يقال نهره وانتهره اذا استقبله بكلام يزجره قال تعالى واما السائل فلا تنهر فان قيل المنع من التأفيف يدل على المنع من الانتهار بطريق الاولى فلما قدم المنع من التأفيف كان ذكر المنع من الانتهار بعده عبثا اما لو فرضنا انه قدم المنع من الانتهار ثم اتبعه بالمنع من التأفيف كان مفيدا حسنا لانه يلزم من المنع من الانتهار المنع من التأفيف فما السبب فى رعاية هذا الترتيب قلنا المراد من قوله فلا تقل لهما اف المنع من اظهار الضجر بالقليل او الكثير والمراد من قوله ولا تنهرهما المنع من اظهار المخالفة فى القول على سبيل الرد عليه والتكذيب له (النوع الثالث) قوله تعالى وقل لهما قولا كريما واعلم انه تعالى لما منع الانسان بالآية المتقدمة عن ذكر القول المؤذى الموحش والنهى عن القول المؤذى لا يكون امرا بالقول الطيب لاجرم اردفه بان امره بالقول الحسن والكلام الطيب فقال وقل لهما قولا كريما والمراد منه ان يخاطبه بالكلام المقرون بأمارات التعظيم والاحترام قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو ان يقول له يا ابتاه يا اماه وسئل سعيد بن المسيب عن القول الكريم فقال هو قول العبد المذنب للسيد الفظ وعن عطاء ان يقال هو ان تتكلم معه بشرط ان لا ترفع عليهما صوتك ولا تشد اليهما نظرك وذلك لان هذين الفعلين ينافيان القول الكريم فان قيل ان ابراهيم عليه السلام كان اعظم الناس حلما وكرما وأدبا فكيف قال لابيه يا آزر على قراءة من قرأ واذ قال ابراهيم لابيه آزر بالضم انى أراك وقومك فى ضلال مبين فخاطبه بالاسم وهو ايذاء ثم نسبه ونسب قومه الى الضلال وهو اعظم انواع الايذاء قلنا ان قوله تعالى وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا يدل على ان حق الله تعالى مقدم على حق الابوين فاقدام ابراهيم عليه السلام على ذلك الايذاء انما كان تقديما لحق الله تعالى على حق الابوين (النوع الرابع) قوله واخفض لهما جناح الذل من الرحمة والمقصود منه المبالغة فى التواضع وذكر القفال رحمه الله فى تقريره وجهين (الاول) ان الطائر اذا أراد ضم فرخه اليه للتربية خفض له جناحه ولهذا السبب صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية فكأنه قال للوالد اكفل والديك بان تضمهما الى نفسك كما فعلا ذلك بك حال صغرك (والثانى) ان الطائر اذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحيه واذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحيه فصار خفض الجناح كناية عن فعل التواضع من هذا

العقوق والفساد ( فانه ) تعالى ( كان للاوابين ) اى الرجاعين اليه تعالى عما فرط منهم مما لا يكاد يخلو عنه البشر (غفورا) لما وقع منهم من نوع تقصير او اذية فعلية او قولية وفيه ما لا يخفى من التشديد فى الامر بمراعاة حقوقهما ويجوز ان يكون عاما لكل تائب ويدخل فيه الجانى على ابويه دخولا اوليا (وآت ذا القربى) اى ذا القرابة ( حقه ) توصية بالاقارب اثر التوصية ببر الوالدين ولعل المراد بهم المحارم وبحقهم النفقة كما ينبئ عنه قوله تعالى ( والمسكين وابن السبيل ) فان المأمور به فى حقهما المواساة المالية لا محالة اى وآتهما حقهما مما كان مفترضا بمكة بمنزلة الزكاة وكذا النهى عن التبذير وعن الافراط فى القبض والبسط فان الكل من التصرفات المالية (ولا تبذر تبذيرا) نهى عن صرف المال الى من سواهم ممن لا يستحقه فان التبذير تفريق فى غير موضعه مأخوذ من تفريق حبات والقائها كيف ما كان من غير تعهد لمواقعه لا عن الاكثار فى صرفه اليهم والا لناسبه الاسراف الذى هو تجاوز الحد فى صرفه وقد نهى عنه بقوله تعالى ولا تبسطها وكلاهما مذموم ( ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ) تعليل للنهى عن التبذير ببيان انه يجعل صاحبه ملدوذا فى قرن الشياطين

الوجه فان قيل كيف اضاف الجناح الى الذل والذل لاجناح له قلنا فيه وجهان (الاول) انه اضيف الجناح الى الذل كما يقال حاتم الجود فكما ان المراد هناك حاتم الجواد فكذلك ههنا المراد واخفض لهما جناحك الذليل اى المذلول (والثانى) ان مدار الاستعارة على الخيالات فههنا تخيل للذل جناحا واثبت لذلك الجناح ضعفا تكميلا لامر هذه الاستعارة كما قال لبيد * اذا صبحت بيد الشمال زمامها * فأثبت للشمال يدا ووضع زمامها فى يد الشمال فكذا ههنا وقوله من الرحمة معناه ليكن خفض جناحك لهما بسبب فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما بسبب كبر هما وضعفهما (والنوع الخامس) قوله وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا وفيه مباحث (البحث الاول) قال القفال رحمه الله تعالى انه لم يقتصر فى تعليم البر بالوالدين على تعليم الاقوال بل اضاف اليه تعليم الافعال وهو ان يدعو لهما بالرحمة فيقول رب ارحمهما ولفظ الرحمة جامع لكل الخيرات فى الدين والدنيا ثم يقول كما ربيانى صغيرا يعنى رب افعل بهما هذا النوع من الاحسان كما احسنا الى فى تربيتهما اياى والتربية هى التنمية وهى من قولهم ربا الشئ اذا انتفخ ومنه قوله تعالى فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت (البحث الثانى) اختلف المفسرون فى هذه الآية على ثلاثة اقوال (الاول) انها منسوخة بقوله تعالى ما كان للنبى والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين فلا ينبغى للمسلم ان يستغفر لوالديه اذا كانا مشركين ولا يقول رب ارحمهما (والقول الثانى) ان هذه الآية غير منسوخة ولكنها مخصوصة فى حق المشركين وهذا اولى من القول الاول لان التخصيص اولى من النسخ (والقول الثالث) انه لا نسخ ولا تخصيص لان الوالدين اذا كانا كافرين فله ان يدعو لهما بالهداية والارشاد وان يطلب الرحمة لهما بعد حصول الايمان (البحث الثالث) ظاهر الامر للوجوب فقوله وقل رب ارحمهما امر وظاهر الامر لا يفيد التكرار فيكفى فى العمل بمقتضى هذه الآية ذكر هذا القول مرة واحدة سئل سفيان كم يدعو الانسان لوالديه أفى اليوم مرة اوفى الشهر اوفى السنة فقال نرجو ان يجزئه اذا دعا لهما فى اواخر التشهدات كما ان الله تعالى قال يا أيها الذين امنوا صلوا عليه فكانوا يرون ان التشهد يجزئ عن الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وكما ان الله تعالى قال واذكروا الله فى ايام معدودات فهم يكررون فى ادبار الصلوات ثم قال تعالى ربكم اعلم بما فى نفوسكم ان تكونوا صالحين والمعنى انا قد امرناكم فى هذه الآية باخلاص العبادة لله تعالى وبالاحسان بالوالدين ولا يخفى على الله ما تضمرونه فى انفسكم من الاخلاص فى الطاعة وعدم الاخلاص فيها فاعلموا ان الله تعالى مطلع على ما فى نفوسكم بل هو اعلم بتلك الاحوال منكم بها لان علوم البشر قد يختلط بها السهو والنسيان وعدم الاحاطة بالكل فأما علم الله فنزه عن كل هذه الاحوال واذا كان الامر كذلك كان عالما بكل ما فى قلوبكم والمقصود منه التحذير عن ترك الاخلاص ثم قال تعالى ان تكونوا صالحين اى ان كنتم برآء عن جهات الفساد فى احوال قلوبكم كنتم اوابين اى رجاعين الى

والمراد بالاخوة المماثلة التامة فى كل ما لا خير فيه من صفات السوء التى من جملتها التبذير اى كانوا بما فعلوا من التبذير امثال الشياطين او الصداقة والملازمة اى كانوا اصدقاء هم واتباعهم فيما ذكر من التبذير والصرف فى المعاصى فانهم كانوا ينحرون الابل ويتياسرون عليها ويبذرون اموالهم فى السمعة وسائر ما لا خير فيه من المناهى والملاهى او المقارنة اى قرناءهم فى النار على سبيل الوعيد (وكان الشيطان لربه كفورا) من تتمة التعليل اى مبالغا فى كفران نعمته تعالى لان شأنه ان يصرف جميع ما اعطاه الله تعالى من القوى والقدر الى غير ما خلقت هى له من انواع المعاصى والافساد فى الارض واضلال الناس وحملهم على الكفر بالله وكفران نعمه الفائضة عليهم وصرفها الى غير ما امر الله تعالى به وتخصيص هذا الوصف بالذكر من بين سائر اوصافه القبيحة للايذان بأن التبذير الذى هو عبارة عن صرف نعم الله تعالى الى غير مصرفها من باب الكفران المقابل للشكر الذى هو عبارة عن صرفها الى ما خلقت هى له والتعرض لوصف الربوبية للاشعار بكمال عتوه فان كفران نعمة الرب مع كون الربوبية من اقوى الدواعى الى شكرها غاية الكفران ونهاية الضلال

الله منقطعين اليه في كل الاعمال وسنة الله وحكمه في الاوابين انه غفور لهم يكفر عنهم سيئاتهم والاواب هو الذي من عادته وديدنه الرجوع الى امر الله تعالى والالتجاء الى فضله ولا يلتجئ الى شفاعة شفيع كما يفعله المشركون الذين يعبدون من دون الله جمادا يزعمون انه يشفع لهم ولفظ الاواب على وزن فعال وهو يفيد المداومة والكثرة كقولهم قتال وضراب والمقصود من هذه الآية الاولى لما دلت على وجوب تعظيم الوالدين من كل الوجوه ثم ان الولد قد يظهر منه نادرة مخلة بتعظيمهما فقال ربكم اعلم بما في نفوسكم يعني انه تعالى عالم بأحوال قلوبكم فان كانت تلك الهفوة ليست لاجل العقوق بل ظهرت بمقتضى الجبلة البشرية كانت في محل الغفران والله اعلم * قوله تعالى (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا) اعلم ان هذا هو النوع الرابع من اعمال الخير والطاعة المذكورة في هذه الآيات وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله وآت خطاب مع من فيه قولان (الاول) انه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم فأمره الله ان يؤتي أقاربه الحقوق التي وجبت لهم في الفيء والغنيمة وأوجب عليه ايضا اخراج حق المساكين وابناء السبيل ايضا من هذين المالين (والقول الثاني) انه خطاب للكل والدليل عليه انه معطوف على قوله وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه والمعنى انك بعد فراغك من بر الوالدين يجب ان تشتغل ببر سائر الاقارب الاقرب فالاقرب ثم باصلاح احوال المساكين وابناء السبيل واعلم ان قوله تعالى وآت ذا القربى حقه مجمل وليس فيه بيان ان ذلك الحق ماهو وعند الشافعي رحمه الله انه لا يجب الانفاق الا على الولد والوالدين وقال قوم يجب الانفاق على المحارم بقدر الحاجة واتفقوا على ان من لم يكن من المحارم كأبناء العم فلا حق لهم الا الموادة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة في السراء والضراء اما المسكين وابن السبيل فقد تقدم وصفهما في سورة التوبة في تفسير آية الزكاة ويجب ان يدفع الى المسكين ما يفي بقوته وقوت عياله وان يدفع الى ابن السبيل ما يكفيه من زاده وراحلته الى ان يبلغ مقصده ثم قال تعالى ولا تبذر تبذيرا والتبذير في اللغة افساد المال وانفاقه في السرف قال عثمان بن الاسود كنت اطوف في المساجد مع مجاهد حول الكعبة فرفع رأسه الى ابي قبيس وقال لو ان رجلا انفق مثل هذا في طاعة الله لم يكن من المسرفين ولو انفق درهما واحدا في معصية الله كان من المسرفين وانفق بعضهم نفقة في خير فأكثر فقيل له لا خير في السرف فقال لا سرف في الخير وعن عبد الله بن عمر قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ فقال ماهذا السرف ياسعد فقال أوفي الوضوء سرف قال نعم وان كنت على نهر جار ثم نبه تعالى على قبح التبذير باضافته اياه الى افعال الشياطين فقال ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين والمراد من هذه الاخوة التشبه بهم في هذا الفعل القبيح وذلك لان العرب يسمون الملازم

والطغيان (واما تعرضن عنهم) اى ان اعتراك امر اضطرك الى ان تعرض عن اولئك المستحقين (ابتغاء رحمة من ربك) اى لفقد رزق من ربك اقامة للمسبب مقام السبب فان الفقد سبب للابتغاء (ترجوها) من الله تعالى لتعطيهم وكان عليه السلام اذا سئل شيئا وليس عنده اعرض عن السائل وسكت حياء فأمر بتعهدهم بالقول الجميل لئلا تعتريهم الوحشة بسكوته عليه السلام فقيل (فقل لهم قولا ميسورا) سهلا لينا وعدهم وعدا جميلا من يسر الامر نحو سعد اوقل لهم رزقنا الله واياكم من فضله على انه دعاء لهم بيسر عليهم فقرهم (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط) تمثيلان لمنع الشحيح واسراف المبذر زجرا لهما عنهما وحملا على ما بينهما من الاقتصاد * كلا طرفي قصد الامور ذميم * وحيث كان قبح الشح مقارنا له معلوما من اول الامر روعي ذلك في التصوير بأقبح الصور ولما كان غائلة الاسراف في آخره بين قبحه في اثره فقيل (فتقعد ملوما) اى فتصير ملوما عند الله تعالى وعند الناس وعند نفسك اذا احتجت وندمت على ما فعلت (محسورا) نادما او منقطعا بك لا شيء عندك من حسره السفر اذا بلغ منه وما قيل من انه روى عن جابر

لشئ اخاه فيقولون فلان اخو الكرم والجود واخو السفر اذا كان مواظبا على هذه
الاعمال وقيل قوله اخوان الشياطين اى قرناءهم فى الدنيا والآخرة كما قال ومن يعش
عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وقال تعالى احشروا الذين ظلموا
وازواجهم اى قرناءهم من الشياطين ثم انه تعالى بين صفة الشيطان فقال وكان
الشيطان لربه كفورا ومعنى كون الشيطان كفورا لربه هو انه يستعمل بدنه فى
فى المعاصى والافساد فى الارض والاضلال للناس وكذلك كل من رزقه الله تعالى مالا
اوجاها فصرفه الى غير مرضاة الله تعالى كان كفورا لنعمة الله تعالى والمقصود
ان المبذرين اخوان الشياطين بمعنى كونهم موافقين للشياطين فى الصفة والفعل ثم الشيطان
كفور لربه فيلزم كون المبذر ايضا كفورا لربه وقال بعض العلماء خرجت هذه الآية
على وفق عادة العرب وذلك لانهم كانوا يجمعون الاموال بالنهب والغارة ثم كانوا ينفقونها
فى طلب الخيلاء والتفاخر وكان المشركون من قريش وغيرهم ينفقون اموالهم ليصدوا
الناس عن الاسلام وتوهين اهله واعانة اعدائه فنزلت هذه الآية تنبيها على قبح اعمالهم
فى هذا الباب ثم قال تعالى واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها والمعنى انك
ان اعرضت عن ذى القربى والمسكين وابن السبيل حياء من التصريح بالرد بسبب الفقر
والقلة فقل لهم قولا ميسورا اى سهلا لينا وقوله ابتغاء رحمة من ربك ترجوها كناية
عن الفقر لان فاقد المال يطلب رحمة الله واحسانه فلما كان فقد المال سببا لهذا الطلب
ولهذا الابتغاء اطلق اسم السبب على المسبب فسمى الفقر بابتغاء رحمة الله تعالى والمعنى
ان عند حصول الفقر والقلة لاتترك تعهدهم بالقول الجميل والكلام الحسن بل تعدهم
بالوعد الجميل وتذكر لهم العذر وهو حصول القلة وعدم المال اوتقول لهم الله يسهل
وفى تفسير القول الميسور وجوه (الاول) القول الميسور وهو الرد بالطريق الاحسن
(والثانى) القول الميسور اللين السهل قال الكسائى يسرت ايسر له القول اى لينته له
(والثالث) قال بعضهم القول الميسور مثل قوله قول معروف ومغفرة خير من صدقة
يتبعها اذى قالوا والميسور هو المعروف لان القول المتعارف لايحوج الى تكلف والله
اعلم * قوله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما
محسورا ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيرا بصيرا) اعلم انه تعالى
لما امره بالانفاق فى الآية المتقدمة علمه فى هذه الآية ادب الانفاق واعلم انه تعالى شرح
وصف عباده المؤمنين فى الانفاق فى سورة الفرقان فقال والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم
يقتروا وكان بين ذلك قواما فههنا امر رسوله بمثل ذلك الوصف فقال ولا تجعل يدك مغلولة
الى عنقك اى لاتمسك عن الانفاق بحيث تضيق على نفسك واهلك فى وجوه صلة الرحم
وسبيل الخيرات والمعنى لاتجعل يدك فى انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط
ولا تبسطها كل البسط اى ولا تتوسع فى الانفاق توسعا مفرطا بحيث لايبقى فى يدك شئ

رضى الله عنه انه قال بينا رسول
الله صلى الله عليه وسلم قاعد اذ
أتاه صبى فقال ان امى تستكسيك
درعا فقال عليه السلام من ساعة
الى ساعة فعد الينا فذهب الى امه
فقالت له قل ان امى تستكسيك
الدرع الذى عليك فدخل
صلى الله عليه وسلم داره ونزع
قيصه واعطاه وقعد عريانا
وأذن بلال وانتظروا فلم يخرج
للصلاة فنزلت فيأباه ان السورة
مكية خلا آيات فى آخرها وكذا
ماقيل انه عليه السلام اعطى
الاقرع بن حابس مائة من الابل
وكذا عيينة بن حصن الفزارى
فجاء عباس بن مرداس فأنشأ يقول
اتجعل نهبى ونهب العبيد *
بين عيينة والاقرع
وما كان حصن ولا حابس
يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرئ منهما
ومن تضع اليوم لا يرفع
فقال عليه السلام ياابا بكر اقطع
لسانه عنى اعطه مائة من الابل
وكانوا جميعا من المؤلفة القلوب
فنزلت (ان ربك يبسط الرزق لمن
يشاء ويقدر) تعليل لما مر اى
يوسعه على بعض ويضيقه على
آخرين حسبما تتعلق به مشيئته
التابعة للحكمة فليس مايرهقك
من الاضافة التى تحوجك الى
الاعراض عن السائلين اونفاد
مافى يدك اذا بسطتها كل البسط
الا لمصلحتك (انه كان بعباده خبيرا
بصيرا) تعليل لما سبق اى يعلم

وحاصل الكلام ان الحكماء ذكروا فى كتب الاخلاق ان لكل خلق طرفى افراط وتفريط وهما مذمومان فالبخل افراط فى الامساك والتبذير افراط فى الانفاق وهما مذمومان والخلق الفاضل هو العدل والوسط كما قال تعالى وكذلك جعلناكم امة وسطا ثم قال تعالى فتقعد ملوما محسورا اما تفسير تقعد فقد سبق فى الآية المتقدمة واما كونه ملوما فلأنه يلوم نفسه واصحابه ايضا يلومونه على تضييع المال بالكلية وابقاء الاهل والولد فى الضر والمحنة واما كونه محسورا فقال الفراء تقول العرب للبعير هو محسور اذا انقطع سيره وحسرت الدابة اذا سيرها حتى ينقطع سيرها ومنه قوله تعالى ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير وجمع الحسير حسرى مثل قتلى وصرعى وقال القفال المقصود تشبيه حال من انفق كل ماله ونفقاته بمن انقطع فى سفره بسبب انقطاع مطيته لان ذلك المقدار من المال كأنه مطية يحمل الانسان ويبلغه الى آخر الشهر او السنة كما ان ذلك البعير يحمله ويبلغه الى آخر المنزل فاذا انقطع ذلك البعير بقى فى وسط الطريق عاجزا متحيرا فكذلك اذا انفق الانسان مقدار ما يحتاج اليه فى مدة شهر بقى فى وسط ذلك الشهر عاجزا متحيرا ومن فعل هذا لحقه اللوم من اهله والمحتاجين الى انفاقه عليهم بسبب سوء تدبيره وترك الحزم فى مهمات معاشه ثم قال تعالى ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر والمقصود انه عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم كونه ربا والرب هو الذى يربى المربوب ويقوم باصلاح مهماته ودفع حاجاته على مقدار الصلاح والصواب فيوسع الرزق على البعض ويضيقه على البعض والقدر فى اللغة التضييق ومنه قوله تعالى ومن قدر عليه رزقه وقوله تعالى واما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه اى ضيق وانما وسع على البعض لان ذلك هو الصلاح لهم قال تعالى ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ثم قال تعالى انه كان بعباده خبيرا بصيرا يعنى انه تعالى عالم بأن مصلحة كل انسان فى ان لا يعطيه الا ذلك القدر فالتفاوت فى ارزاق العباد ليس لاجل البخل بل لاجل رعاية المصالح ❊ قوله تعالى (ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطأ كبيرا) هذا هو النوع الخامس من الطاعات المذكورة فى هذه الآيات وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى تقرير النظم وجوه (الاول) انه تعالى لما بين فى الآية الاولى انه هو المتكفل بأرزاق العباد حيث قال ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر اتبعه بقوله ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم (الثانى) انه تعالى لما علم كيفية البر بالوالدين فى الآية المتقدمة علم فى هذه الآية كيفية البر بالاولاد ولهذا قال بعضهم ان الذين يسمون بالابرار انما سموا بذلك لانهم بروا الآباء والابناء وانما وجب بر الآباء مكافأة على ما صدر منهما من انواع البر بالاولاد وانما وجب البر بالاولاد لانهم فى غاية الضعف ولا كافل لهم غير الوالدين (الوجه الثالث) ان امتناع الاولاد من البر بالآباء يوجب خراب العالم لان الآباء اذا علموا ذلك قلت رغبتهم فى تربية الاولاد فيلزم خراب العالم من الوجه الذى قررناه فثبت ان عمارة

سرهم وعلنهم فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم ويجوز ان يراد ان البسط والقبض من امر الله العالم بالسرائر والظواهر الذى بيده خزائن السموات والارض واما العباد فعليهم ان يقتصدوا وان يراد انه تعالى يبسط تارة ويقبض اخرى فاستنوا بسنته فلا تقبضوا كل القبض ولا تبسطوا كل البسط وان يراد انه تعالى يبسط ويقدر حسب مشيئته فلا تبسطوا على من قدر عليه رزقه وأن يكون تمهيدا لقوله (ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق) أى مخافة فقر وقرئ بكسر الخاء كانوا يئدون بناتهم مخافة الفقر فنهوا عن ذلك (نحن نرزقهم واياكم) لا انتم فلا تخافوا الفاقة بناء على علمكم بعجزكم عن تحصيل رزقهم وهو ضمان لرزقهم وتعليل للنهى المذكور بابطال موجبه فى زعمهم وتقديم ضمير الاولاد على المخاطبين على عكس ما وقع فى سورة الانعام للاشعار باصالتهم فى افاضة الرزق او لان الباعث على القتل هناك الاملاق الناجز ولذلك قيل من املاق وههنا الاملاق المتوقع ولذلك قيل خشية املاق فكأنه قيل نرزقهم من غير ان ينتقص من رزقكم شئ فيعتريكم ما تخشونه واياكم ايضا رزقا الى رزقكم (ان قتلهم كان خطأ كبيرا) تعليل آخر ببيان ان المنهى عنه فى نفسه منكر عظيم

العالم انماتحصل اذاحصلت المبرة بين الآباء والاولاد من الجانبين (الوجه الرابع) ان قتل الاولاد ان كان لخوف الفقر فهو سوء ظن بالله وان كان لاجل الغيرة على البنات فهو سعى في تخريب العالم فالاول ضد التعظيم لامر الله تعالى والثانى ضد الشفقة على خلق الله تعالى وكلاهما مذموم والله اعلم (الوجه الخامس) ان قرابة الاولاد قرابة الجزئية والبعضية وهى من اعظم الموجبات للمحبة فلو لم تحصل المحبة دل ذلك على غلظ شديد في الروح وقسوة في القلب وذلك من اعظم الاخلاق الذميمة فرغب الله في الاحسان الى الاولاد ازالة لهذه الخصلة الذميمة (المسئلة الثانية) العرب كانوا يقتلون البنات لعجز البنات عن الكسب وقدرة البنين عليه بسبب اقدامهم على النهب والغارة وايضا كانوا يخافون ان فقرها ينفر كفأها عن الرغبة فيها فيحتاجون الى انكاحها من غير الاكفاء وفى ذلك عار شديد فقال تعالى ولاتقتلوا اولادكم وهذا لفظ عام للذكور والاناث والمعنى ان الموجب للرحمة والشفقة هو كونه ولدا وهذا المعنى وصف مشترك بين الذكور وبين الاناث واما مايخاف من الفقر في البنات فقد يخاف مثله في الذكور في حال الصغر وقد يخاف ايضا في العاجزين من البنين ثم قال تعالى نحن نرزقهم واياكم يعنى الارزاق بيد الله تعالى فكما انه تعالى فتح ابواب الرزق على الرجال فكذلك يفتح ابواب الرزق على النساء (المسئلة الثالثة) الجمهور قرؤا ان قتلهم كان خطأ كبيرا أى اثما كبيرا يقال خطئ يخطأ خطأ مثل اثم يأثم اثما قال تعالى انا كنا خاطئين اى آثمين وقرأ ابن عامر خطأ بالفتح يقال اخطأ يخطئ اخطاء وخطأ اذا اتى بما لاينبغى من غير قصد ويكون الخطأ اسما للمصدر والمعنى على هذه القراءة ان قتلهم ليس بصواب قال القفال رحمه الله وقرأ ابن كثير خطاء بكسر الخاء ممدودة ولعلهما لغتان مثل دفع ودفاع ولبس ولباس ❊قوله تعالى (ولاتقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا) اعلم انه تعالى لما أمر بالاشياء الخمسة التى تقدم ذكرها وحاصلها يرجع الى شيئين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله اتبعها بذكر النهى عن اشياء (اولها) انه تعالى نهى عن الزنا فقال ولاتقربوا الزنا قال القفال اذا قيل للانسان لاتقربوا هذا فهذا آكد من ان يقول له لاتفعله ثم انه تعالى علل هذا النهى بكونه فاحشة وساء سبيلا واعلم ان الناس قد اختلفوا في انه تعالى اذا امر بشئ او نهى عن شئ فهل يصح ان يقال انه تعالى انما امر بذلك الشئ او نهى عنه لوجه عائد اليه أم لا فقال القائلون بتحسين العقل وتقبيحه الامر كذلك وقال المنكرون لتحسين العقل وتقبيحه ليس الامر كذلك احتج القائلون بتحسين العقل وتقبيحه على صحة قولهم بهذه الآية قالوا انه تعالى نهى عن الزنا وعلل ذلك النهى بكونه فاحشة فيمتنع ان يكون كونه فاحشة عبارة عن كونه منهيا عنه والالزم تعليل الشئ بنفسه وهو محال فوجب ان يقال كونه فاحشة وصف حاصل له باعتبار كونه زنا وذلك يدل على ان الاشياء تحسن وتقبح لوجوه عائدة اليها في انفسها ويدل ايضا على ان نهى الله تعالى عنها معلل بوقوعها في انفسها على تلك الوجوه

والخطاء الذنب والاثم يقال خطئ خطأ كاثم اثما وقرئ بالفتح والسكون وبفتحتين بمعناه كالحذر والحذر وقيل بمعنى ضد الصواب وبكسر الخاء والمد وبفتحها ممدودا وبفتحها وحذف الهمزة وبكسرها كذلك (ولا تقربوا الزنا) بمباشرة مباديه القريبة اوالبعيدة فضلا عن مباشرته وانما نهى عن قربانه على خلاف ماسبق ولحق من القتل للمبالغة في النهى عن نفسه ولان قربانه داع الى مباشرته وتوسيط النهى عنه بين النهى عن قتل الاولاد والنهى عن قتل النفس المحرمة على الاطلاق باعتبار انه قتل للاولاد لما انه تضييع للانساب فان من لم يثبت نسبه ميت حكما (انه كان فاحشة) فعلة ظاهرة القبح متجاوزة عن الحد (وساء سبيلا) اى بئس طريقا طريقه فانه غصب الابضاع المؤدى الى اختلال امر الانساب وهيجان الفتن كيف لا وقد قال النبى عليه السلام اذا زنى العبد خرج منه الايمان فكان على رأسه كالظلة فاذا انقطع رجع اليه وقال عليه السلام لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن وعن حذيفة رضى الله عنه انه قال عليه السلام اياكم والزنا فان فيه ست خصال ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة فأما التى في الدنيا فذهاب البهاء ودوام الفقر وقصر العمر واما التى في الآخرة فسخط

وهذا الاستدلال قريب والاولى ان يقال ان كون الشيء في نفسه مصلحة او مفسدة أمر ثابت لذاته لا بالشرع فان تناول الغذاء الموافق مصلحة والضرب المؤلم مفسدة وكونه كذلك أمر ثابت بالعقل لا بالشرع واذا ثبت هذا فنقول تكاليف الله تعالى واقعة على وفق مصالح العالم في المعاش والمعاد فهذا هو الكلام الظاهري وفيه مشكلات هائلة ومباحث عميقة. نسأل الله التوفيق لبلوغ الغاية فيها اذا عرفت هذا فنقول الزنا اشتمل على انواع من المفاسد (اولها) اختلاط الانساب واشتباهها فلا يعرف الانسان ان الولد الذي أتت به الزانية أهو منه او من غيره فلا يقوم بتربيته ولا يستمر في تعهده وذلك يوجب ضياع الاولاد وذلك يوجب انقطاع النسل وخراب العالم (وثانيها) انه اذا لم يوجد سبب شرعي لاجله يكون هذا الرجل اولى بهذه المرأة من غيره لم يبق في حصول ذلك الاختصاص الا التواثب والتقاتل وذلك يفضي الى فتح باب الهرج والمرج والمقاتلة وكم سمعنا وقوع القتل الذريع بسبب اقدام المرأة الواحدة على الزنا (وثالثها) ان المرأة اذا باشرت الزنا وتمرنت عليه يستقذرها كل طبع سليم وكل خاطر مستقيم وحينئذ لا تحصل الالفة والمحبة ولا يتم السكن والازدواج ولذلك فان المرأة اذا اشتهرت بالزنا تنفر عن مقارنتها طباع اكثر الخلق (ورابعها) انه اذا انفتح باب الزنا فحينئذ لا يبقى لرجل اختصاص بأمرأة وكل رجل يمكنه التواثب على كل امرأة شاءت وارادت وحينئذ لا يبقى بين نوع الانسان وبين سائر البهائم فرق في هذا الباب (وخامسها) انه ليس المقصود من المرأة مجرد قضاء الشهوة بل ان تصير شريكة للرجل في ترتيب المنزل واعداد مهماته من المطعوم والمشروب والملبوس وان تكون ربة البيت وحافظة للباب وان تكون قائمة بأمور الاولاد والعبيد وهذه المهمات لا تتم الا اذا كانت مقصورة الهمة على هذا الرجل الواحد منقطعة الطمع عن سائر الرجال وذلك لا يحصل الا بتحريم الزنا وسد هذا الباب بالكلية (وسادسها) ان الوطء يوجب الذل الشديد والدليل عليه ان اعظم انواع الشتم عند الناس ذكر الفاظ الوقاع ولولا ان الوطء يوجب الذل والا لما كان الامر كذلك وايضا فان جميع العقلاء لا يقدمون على الوطء الا في المواضع المستورة وفي الاوقات التي لا يطلع عليهم احد وان جميع العقلاء يستنكفون عن ذكر ازواج بناتهم واخواتهم وامهاتهم لما يقدمون على وطئهن ولولا ان الوطء ذل والا لما كان كذلك واذا ثبت هذا فنقول لما كان الوطء ذلا كان السعي في تقليله موافقا للعقول فاقتصار المرأة الواحدة على الرجل الواحد سعي في تقليل ذلك العمل وايضا ما فيه من الذل يصير مجبورا بالمنافع الحاصلة في النكاح اما الزنا فانه فتح باب لذلك العمل القبيح ولم يصر مجبورا بشيء من المنافع فوجب بقاؤه على اصل المنع والحجر فثبت بما ذكرنا ان العقول السليمة تقضي على الزنا بالقبح واذا ثبت هذا فنقول انه تعالى وصف الزنا بصفات ثلاثة كونه فاحشة ومقتا في آية أخرى وساء سبيلا اما كونه فاحشة فهو اشارة الى اشتماله على فساد الانساب الموجبة لخراب العالم والى اشتماله على التقاتل

الله تعالى وسوء الحساب والخلود في النار (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله) قتلها بان عصمها بالاسلام او بالعهد (الا بالحق) الا باحدى ثلاث كفر بعد ايمان وزنا بعد احصان وقتل نفس معصومة عمدا فالاستثناء مفرغ اي لا تقتلوها بسبب من الاسباب الا بسبب الحق او ملتبسين او ملتبسة بشيء من الاشياء ويجوز ان يكون نعتا لمصدر محذوف اي لا تقتلوها قتلا ما الا قتلا ملتبسا بالحق (ومن قتل مظلوما) بغير حق يوجب قتله او يبيحه للقاتل حتى انه لا يعتبر اباحته لغير القاتل فان من عليه القصاص اذا قتله غير من له القصاص يقتص له ولا يفيده قول الولي انا أمرته بذلك ما لم يكن الامر ظاهرا (فقد جعلنا لوليه) لمن يلي امره من الوارث او السلطان عند عدم الوارث (سلطانا) تسلطا واستيلاء على القاتل يؤاخذه بالقصاص او بالدية حسبما تقتضيه جنايته او حجة غالبة (فلا يسرف) وقرئ لا تسرف (في القتل) اي لا يسرف الولي في امر القتل بأن يتجاوز الحد المشروع بأن يزيد عليه المثلة او بان يقتل غير القاتل من اقاربه او بأن يقتل الاثنين مكان الواحد كما يفعله اهل الجاهلية او بأن يقتل القاتل في مادة الدية وقرئ بصيغة النفي مبالغة في افادة معنى النهي (انه كان منصورا) تعليل للنهي

(والتواثب)

والتواثب على الفروج وهو ايضا يوجب خراب العالم واما المقت فقدذكرنا ان الزانية تصير ممقوتة مكروهة وذلك يوجب عدم حصول السكن والازدواج وان لا يعتمد الانسان عليها في شيء من مهماته ومصالحه واما انه ساء سبيلا فهو ماذكرنا انه لا يبقى فرق بين الانسان وبين البهائم في عدم اختصاص الذكران بالاناث وايضا يبقى ذل هذا العمل وعيبه وعاره على المرأة من غير ان يصير مجبورا بشيء من المنافع فقدذكرنا في قبح الزنا ستة اوجه والله تعالى ذكر الفاظا ثلاثة فحملنا كل واحد من هذه الالفاظ الثلاثة على وجهين من تلك الوجوه الستة والله اعلم بمراده ❊ ثم قال تعالى (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل انه كان منصورا) هذا هو النوع الثاني مما نهى الله عنه في هذه الآية وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لقائل ان يقول ان اكبر الكبائر بعد الكفر بالله القتل فما السبب في ان الله تعالى بدأ اولا بذكر النهي عن الزنا وثانيا بذكر النهي عن القتل وجوابه انا بينا ان فتح باب الزنا يمنع من دخول الانسان في الوجود والقتل عبارة عن ابطال الانسان بعد دخوله في الوجود ودخوله في الوجود مقدم على ابطاله واعدامه بعد وجوده فلهذا السبب ذكر الله تعالى الزنا اولا ثم ذكر القتل ثانيا (المسئلة الثانية) اعلم ان الاصل في القتل هو الحرمة المغلظة والحل انما يثبت بسبب عارضي فلما كان الامر كذلك لا جرم نهى الله عن القتل مطلقا بناء على حكم الاصل ثم استثنى عنه الحالة التي يحصل فيها حل القتل وهو عند حصول الاسباب العرضية فقال الا بالحق فنفتقر ههنا الى بيان ان الاصل في القتل التحريم والذي يدل عليه وجوه (الاول) ان القتل ضرر والاصل في المضار الحرمة لقوله ماجعل عليكم في الدين من حرج ولا يريد بكم العسر ولا ضرر ولا ضرار (الثاني) قوله عليه السلام الآدمي بنيان الرب ملعون من هدم بنيان الرب (الثالث) ان الآدمي خلق للاشتغال بالعبادة لقوله وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون ولقوله عليه السلام حق الله على العباد ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا والاشتغال بالعبادة لا يتم الا عند عدم القتل (الرابع) ان القتل افساد فوجب ان يحرم لقوله تعالى ولا تفسدوا (الخامس) انه اذا تعارض دليل تحريم القتل ودليل اباحته فقد اجمعوا على ان جانب الحرمة راجح ولولا ان مقتضى الاصل هو التحريم والا لكان ذلك ترجيحا للمرجح وهو محال (السادس) انا اذا لم نعرف في الانسان صفة من الصفات الا مجرد كونه انسانا عاقلا حكمنا فيه بتحريم قتله ومالم نعرف شيئا زائدا على كونه انسانا لم نحكم فيه بحل دمه ولولا ان اصل الانسانية يقتضي حرمة القتل والا لما كان كذلك فثبت بهذه الوجوه ان الاصل في القتل هو التحريم وان حله لا يثبت الا باسباب عرضية واذا ثبت هذا فنقول انه تعالى حكم بان الاصل في القتل هو التحريم فقال ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق فقوله ولا تقتلوا نهي وتحريم وقوله حرم الله اعادة لذكر التحريم على سبيل التأكيد ثم استثنى عنه الاسباب العرضية الاتفاقية فقال الا بالحق

والضمير للولي على معنى انه تعالى نصره بأن اوجب له القصاص اوالدية وامر الحكام بمعونته في استيفاء حقه فلا يبغ ماوراء حقه ولا يستزد عليه ولا يخرج من دائرة امر الناصر او للمقتول ظلما على معنى انه تعالى نصره بما ذكر فلا يسرف وليه في شأنه او للذي يقتله الولي ظلما واسرافا ووجه التعليل ظاهر وعن مجاهد ان الضمير في لا يسرف للقاتل الاول ويعضده قراءة فلا تسرفوا والضميران في التعليل عائدان الى الولي او المقتول فالمراد بالاسراف حينئذ اسراف القاتل على نفسه بتعريضه لها للهلاك العاجل والآجل لا الاسراف وتجاوز الحد في القتل اي لا يسرف على نفسه في شأن القتل كما في قوله تعالى قل ياعبادي الذين اسرفوا على انفسهم (ولا تقربوا مال اليتيم) نهي عن قربانه لما ذكر من المبالغة في النهي عن التعرض له ومن افضاء ذلك اليه وللتوسل الى الاستثناء بقوله تعالى (الا بالتي هي احسن) اي الا بالخصلة والطريقة التي هي احسن الخصال والطرائق وهي حفظه واستثماره (حتى يبلغ أشده) غاية لجواز التصرف على الوجه الاحسن المدلول عليه بالاستثناء لا للوجه المذكور فقط (واوفوا بالعهد) سواء جرى بينكم وبين ربكم او بينكم وبين غيركم من الناس والايفاء بالعهد

ثم ههنا طريقان (الاول) ان مجرد قوله الا بالحق مجمل لانه ليس فيه بيان ان ذلك الحق ماهو وكيف هو ثم انه تعالى قال ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا اى فى استيفاء القصاص من القاتل وهذا الكلام يصلح جعله بيانا لذلك المجمل وتقريره كأنه تعالى قال ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق وذلك الحق هو ان من قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فى استيفاء القصاص واذا ثبت هذا وجب ان يكون المراد من الحق هذه الصورة فقط فصار تقدير الآية ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا عند القصاص وعلى هذا التقدير فتكون الآية نصا صريحا فى تحريم القتل الا بهذا السبب الواحد فوجب ان يبقى على الحرمة فيما سوى هذه الصورة الواحدة (والطريق الثانى) ان نقول دلت السنة على ان ذلك الحق هو احد امور ثلاثة وهو قوله عليه السلام لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث كفر بعد ايمان وزنا بعد احصان وقتل نفس بغير حق واعلم ان ذلك الخبر من باب الآحاد فان قلنا ان قوله ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا تفسير لقوله الا بالحق كانت الآية صريحة فى انه لا يحل القتل الا بهذا السبب الواحد فحينئذ يصير هذا الخبر مخصصا لهذه الآية ويصير ذلك فرعا لقولنا انه يجوز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد واما ان قلنا ان قوله ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ليس تفسيرا لقوله الا بالحق فحينئذ يصير هذا الخبر مفسرا للحق المذكور فى الآية وعلى هذا التقدير لا يصير هذا فرعا على مسئلة جواز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد فلتكن هذه الدقيقة معلومة والله اعلم (المسئلة الثالثة) ظاهر هذه الآية انه لا سبب لحل القتل الا قتل المظلوم وظاهر الخبر يقتضى ضم شيئين آخرين اليه وهو الكفر بعد الايمان والزنا بعد الاحصان ودلت آية اخرى على حصول سبب رابع وهو قوله تعالى انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا ان يقتلوا او يصلبوا ودلت آية اخرى على حصول سبب خامس وهو الكفر قال تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وقال واقتلوهم حيث وجدتموهم والفقهاء تكلموا واختلفوا فى اشياء اخرى فمنها ان تارك الصلاة هل يقتل ام لا فعند الشافعى رحمه الله يقتل وعند ابى حنيفة رحمه الله لا يقتل (وثانيها) ان فعل اللواط هل يوجب القتل فعند الشافعى يوجب وعند ابى حنيفة لا يوجب (وثالثها) ان الساحر اذا قال قتلت بسحرى فلانا فعند الشافعى يوجب القتل وعند ابى حنيفة لا يوجب (ورابعها) ان القتل بالمثقل هل يوجب القصاص فعند الشافعى يوجب وعند ابى حنيفة لا يوجب (وخامسها) ان الامتناع من اداء الزكاة هل يوجب القتل ام لا اختلفوا فيه فى زمان ابى بكر (وسادسها) ان اتيان البهيمة هل يوجب القتل فعند اكثر الفقهاء لا يوجب وعند قوم يوجب حجة القائلين بأنه لا يجوز القتل فى هذه الصور هو ان الآية صريحة فى منع القتل على الاطلاق الا لسبب واحد وهو قتل المظلوم ففيما عدا هذا السبب الواحد وجب البقاء على اصل الحرمة ثم قالوا وهذا النص قد تأكد بالدلائل الكثيرة

والوفاء به هو القيام بمقتضاه والمحافظة عليه ولا يكاد يستعمل الا بالباء فرقا بينه وبين الايفاء الحسى كايفاء الكيل والوزن (ان العهد) اظهر فى مقام الاضمار اظهارا لكمال العناية بشأنه اولان المراد مطلق العهد المنتظم للعهد المعهود (كان مسؤلا) اى مسؤلا عنه على حذف الجار وجعل الضمير بعد انقلابه مرفوعا مستكنا فى اسم المفعول كقوله تعالى وذلك يوم مشهود اى مشهود فيه ونظيره ما فى قوله تعالى تلك آيات الكتاب الحكيم على ان أصله الحكيم قائله فحذف المضاف وجعل الضمير مستكنا فى الحكيم بعد انقلابه مرفوعا ويجوز ان يكون تخييلا كأنه يقال للعهد لم نكثت وهلا وفى بك تبكيتا للناكث كما يقال للموؤدة بأى ذنب قتلت (واوفوا الكيل) اى أتموه ولا تخسروه (اذا كلتم) اى وقت كيلكم للمشترين وتقييد الامر بذلك لما ان التطفيف هناك يكون واما وقت الاكتيال على الناس فلا حاجة الى الامر بالتعديل قال تعالى اذا اكتالوا على الناس يستوفون الآية (وزنوا بالقسطاس) وهو القرسطون وقيل كل ميزان صغيرا كان اوكبيرا رومى معرب ولا يقدح ذلك فى عربية القرآن لانتظام المعربات فى سلك الكلم العربية وقرئ بضم القاف (المستقيم) اى العدل السوى

الموجبة لحرمة الدم على الاطلاق فترك العمل بهذه الدلائل لايكون الالمعارض وذلك المعارض امان يكون نصامتواترا اونصا من باب الآحاد اويكون قياسا اماالنص المتواتر ففقود والا لمابقي الخلاف واما النص من باب الآحاد فهو مرجوح بالنسبة الى هذه النصوص المتواترة الكثيرة واماالقياس فلايعارض النص فثبت بمقتضى هذا الاصل القوى القاهر انالاصل فى الدماء الحرمة الافى الصور المعدودة والله اعلم (المسئلة الرابعة) قوله تعالى ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلايسرف فيه بحثان (الاول) انهذه الآية تدل على انه اثبت لولى الدم سلطانا فاما بيان انهذهالسلطنة تحصل فيماذافليس فى قوله فقدجعلنا لوليه سلطانا دلالة عليه ثم ههناطريقان (الاول) انه تعالى لماقال بعده فلايسرف فى القتل عرف انتلك السلطنة انما حصلت فىاستيفاء القتل وهذا ضعيف لاحتمال انيكون المراد ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليهسلطانا فلاينبغى ان يسرف الظالم فىذلك القتل لان ذلك المقتول منصور بواسطة اثبات هذه السلطنة لوليه (والثانى) انتلك السلطنة مجملةثم صارت مفسرةبالآيةوالخبر اماالآية فقوله تعالى فىسورة البقرة ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فىالقتلى الىقوله فن عفىله من اخيه شئ فاتباع بالمعروف واداءاليه باحسان وقد بينا فىتفسير هذهالآيةانها تدل على انالواجب هو كونالمكلف مخيرابين القصاص وبين الديةواماالخبرفهوقوله عليهالسلام يوم الفتح من قتل قتيلا فأهله بين خيرتين اناحبوا قتلوا واناحبوا اخذوا الديةوعلى هذا الطريق فقوله فلايسرف فىالقتل معناه انه لماحصلتله سلطنةاستيفاء القصاص ان شاء وسلطنة استيفاءالدية ان شاء قال بعده فلايسرف فىالقتل معناهان الاولى ان لايقدم على استيفاء القتل وان يكتفى بأخذ الدية او يميل الى العفو وبالجملة فلفظة فى محمولة على الباء والمعنى فلايصير مسرفا بسبب اقدامه على القتل ويصيرمعناه الترغيب فىالعفو والاكتفاء بالدية كاقال وانتعفو اقرب للتقوى (البحث الثانى) ان فىقوله ومنقتلمظلوما ذكر كونه مظلوما بصيغة التنكير وصيغة التنكير على ماعرف تدل على الكمال فالانسان المقتول مالميكن كاملا فى وصف المظلومية لم يدخل تحت هذا النص قال الشافعى رحمهالله قددللنا على ان المسلماذا قتل الذمىلميدخل تحتهذهالآية بدليل انالذمى مشرك والمشرك يحل دمه انما قلنا انه مشرك لقوله تعالى انالله لايغفر انيشرك به ويغفر مادون ذلكلمنيشاء حكم بانماسوى الشركمغفور فىحق البعض فلوكان كفر اليهودى والنصرانى شيئا مغايرا للشرك لوجب انيصير مغفورافىحق بعض الناس بمقتضى هذهالآية فلما لميصر مغفورافىحق احددل على ان كفرهم شرك ولانه تعالى قاللقد كفرالذينقالوا انالله ثالث ثلاثة فهذا التثليث الذى قال به هؤلاء اما انيكون تثليثافىالصفات وهوباطل لانذلك هوالحق وهومذهب اهلالسنةوالجماعة فلايمكن جعله تثليثا للكفر واما انيكون تثليثا فىالذوات وذلك هوالحق ولاشكان

---

ولعلالاكتفاء باستقامته عن الامر بايفاء الوزن لما أنعند استقامته لايتصور الجور غالبا بخلاف الكيل فانه كثيرامايقع التطفيف مع استقامة الآلة كما أنالاكتفاء بايفاء الكيل عن الامر بتعديله لما ان ايفاءه لايتصور بدونتعديل المكيال وقداس بتقويمه ايضا فى قوله تعالى اوفوا الكيل والميزان بالقسط (ذلك) اى ايفاء الكيل والوزنبالميزانالسوى (خير) فى الدنيا اذهوامانةتوجب الرغبة فىمعاملته والذكر الجميل بين الناس (واحسن تأويلا) عاقبة تفعيل منآل اذارجع والمراد مايؤل اليه (ولاتقف) ولاتتبع منقفا أثره اذاتبعه وقرئ ولا تقف منقاف اثره اىقفاه ومنه القافة فى جمع القائف (ماليس لك به علم) اى لاتكن فى اتباع مالاعلم لك بهمنقول اوفعل كمن يتبع مسلكا لايدرى انه يوصله الى مقصده واحتج به منمنع اتباع الظن وجوابه انالمراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند قطعيا كان اوظنيا واستعماله بهذاالمعنى ممالاينكرشيوعه وقيل انه مخصوص بالعقائد وقيل بالرمى وشهادة الزور ويؤيده قوله عليهالصلاةوالسلام من قفامؤمنا بماليس فيه حبسه الله تعالى فى ردغةالخبال حتى يأتى بالمخرج ومنهقول الكميت

القائل به مشرك فثبت ان الذمى مشرك وانما قلنا ان المشرك يجب قتله لقوله تعالى اقتلوا المشركين ومقتضى هذا الدليل اباحة دم الذمى فان لم تثبت الاباحة فلا اقل من حصول شبهة الاباحة واذا ثبت هذا فنقول ثبت انه ليس كاملا فى المظلومية فلم يندرج تحت قوله تعالى ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا واما الحر اذا قتل عبدا فهو داخل تحت هذه الآية الا انا بينا ان قوله كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد يدل على المنع من قتل الحر بالعبد من وجوه كثيرة وتلك الآية اخص من قوله ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا والخاص مقدم على العام فثبت ان هذه الآية لا يجوز التمسك بها فى مسئلة ان موجب العمد هو القصاص ولا فى مسئلة انه يجب قتل المسلم بالذمى ولا فى مسئلة انه يجب قتل الحر بالعبد والله اعلم اما قوله تعالى فلا يسرف فى القتل ففيه مباحث (البحث الاول) فيه وجوه (الاول) المراد هو ان يقتل القاتل وغير القاتل وذلك لان الواحد منهم اذا قتل واحدا من قبيلة شريفة فأولياء ذلك المقتول كانوا يقتلون خلقا من القبيلة الدنيئة فنهى الله تعالى عنه وأمر بالاقتصار على قتل القاتل وحده (الثانى) هو ان لا يرضى بقتل القاتل فان اهل الجاهلية كانوا يقصدون اشراف قبيلة القاتل ثم كانوا يقتلون منهم قوما معينين ويتركون القاتل (والثالث) هو ان لا يكتفى بقتل القاتل بل يمثل به ويقطع اعضاؤه قال القفال ولا يبعد حمله على الكل لان جملة هذه المعانى مشتركة فى كونها اسرافا (البحث الثانى) قرأ الاكثرون فلا يسرف بالياء وفيه وجهان (الاول) التقدير فلا ينبغى ان يسرف الولى فى القتل (الثانى) ان الضمير للقاتل الظالم ابتداء اى فلا ينبغى ان يسرف ذلك الظالم واسرافه عبارة عن اقدامه على ذلك القتل الظلم وقرأ حمزة والكسائى فلا تسرف بالتاء على الخطاب وهذه القراءة تحتمل وجهين (احدهما) ان يكون الخطاب للمبتدئ القاتل ظلما كأنه قيل له لا تسرف ايها الانسان وذلك الاسراف هو اقدامه على ذلك القتل الذى هو ظلم محض والمعنى لا تفعل فانك ان قتلته مظلوما استوفى القصاص منك (والآخر) ان يكون الخطاب للولى فيكون التقدير لا تسرف فى القتل ايها الولى اى اكتف باستيفاء القصاص ولا تطلب الزيادة واما قوله انه كان منصورا ففيه ثلاثة اوجه (الاول) كأنه قيل للظالم المبتدئ بذلك القتل على سبيل الظلم لا تفعل ذلك فان ذلك المقتول يكون منصورا فى الدنيا والآخرة اما نصرته فى الدنيا فبقتل قاتله واما فى الآخرة فبكثرة الثواب له وكثرة العقاب لقاتله (والقول الثانى) ان هذا الولى يكون منصورا فى قتل ذلك القاتل الظالم فليكتف بهذا القدر فانه يكون منصورا فيه ولا ينبغى ان يطمع فى الزيادة منه لان من يكون منصورا من عند الله يحرم عليه طلب الزيادة (والقول الثالث) ان هذا القاتل الظالم ينبغى ان يكتفى باستيفاء القصاص وان لا يطلب الزيادة واعلم ان على القول الاول والثانى ظهر ان المقتول وولى دمه يكونان منصورين من عند الله تعالى وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال قلت

ولا أرمى البرئ بغير ذنب
ولا اقفوا الحواصن ان رمينا

(ان السمع والبصر والفؤاد) وقرئ بفتح الفاء والواو المقلوبة من الهمزة عند ضم الفاء (كل اولئك) اى كل واحد من تلك الاعضاء فأجريت مجرى العقلاء لما كانت مسؤلة عن احوالها شاهدة على اصحابها هذا وان اولاء وان غلب فى العقلاء لكنه من حيث انه اسم جمع لذا الذى يعم القبيلين جاء لغيرهم ايضا قال

ذم المنازل بعد منزلة اللوى
والعيش بعد اولئك الايام

(كان عنه مسؤلا) اى كان كل من تلك الاعضاء مسؤلا عن نفسه على ان اسم كان ضمير يرجع الى كل وكذا الضمير المجرور وقد جوز ان يكون الاسم ضمير القافى بطريق الالتفات اذ الظاهر ان يقال كنت عنه مسؤلا وقيل الجار والمجرور فى محل الرفع قد اسند اليه مسؤلا معللا بأن الجار والمجرور لا يلتبس بالمبتدأ وهو السبب فى منع تقديم الفاعل وما يقوم مقامه ولكن النحاس حكى الاجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل اذا كان جارا ومجرورا ويجوز ان يكون من باب الحذف على شريطة التفسير ويحذف الجار من المفسر ويعود الضمير مستكنا كما ذكرنا فى قوله تعالى يوم مشهود وجوز ان يكون مسؤلا مسندا الى المصدر المدلول

لعلى بن ابى طالب عليه السلام وايم الله ليظهرن عليكم ابن ابى سفيان لان الله تعالى يقول ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا وقال الحسن والله مانصر معاوية على على عليه السلام الا بقول الله تعالى ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا والله اعلم

❊ قوله تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى احسن حتى يبلغ اشده) اعلم ان هذا هو النوع الثالث من الاشياء التى نهى الله عنها فى هذه الآيات واعلم انا ذكرنا ان الزنا يوجب اختلاط الانساب وذلك يوجب منع الاهتمام بتربية الاولاد وذلك يوجب انقطاع النسل وذلك يوجب المنع من دخول الناس فى الوجود واما القتل فهو عبارة عن اعدام الناس بعد دخولهم فى الوجود فثبت ان النهى عن الزنا والنهى عن القتل يرجع حاصله الى النهى عن اتلاف النفوس فلما ذكر الله تعالى ذلك اتبعه بالنهى عن اتلاف الاموال لان اعز الاشياء بعد النفوس الاموال واحق الناس بالنهى عن اتلاف اموالهم هو اليتيم لانه لصغره وضعفه وكمال عجزه يعظم ضرره باتلاف ماله فلهذا السبب خصهم الله تعالى بالنهى عن اتلاف اموالهم فقال ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى احسن ونظيره قوله تعالى ولا تأكلوها اسرافا وبدارا ان يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف وفى تفسير قوله الا بالتى هى احسن وجهان (الاول) الا بالتصرف الذى ينميه ويكثره (الثانى) المراد هو ان تأكل معه اذا احتجت اليه وروى مجاهد عن ابن عباس قال اذا احتاج أكل بالمعروف فاذا ايسر قضاه فان لم يوسر فلا شئ عليه واعلم ان الولى انما تبقى ولايته على اليتيم الى ان يبلغ اشده وهو بلوغ النكاح كما بينه الله تعالى فى آية اخرى وهى قوله وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم اموالهم والمراد بالاشد بلوغه الى حيث يمكنه بسبب عقله ورشده القيام بمصالح ماله وعند ذلك تزول ولاية غيره عنه وذلك حد البلوغ فأما اذا بلغ غير كامل العقل لم تزل الولاية عنه والله اعلم وبلوغ العقل هو ان يكمل عقله وقواه الحسية والحركية والله اعلم ❊ قوله تعالى (واوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤلا واوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير واحسن تأويلا) اعلم انه تعالى أمر بخمسة اشياء اولا ثم اتبعه بالنهى عن ثلاثة اشياء وهو النهى عن الزنا وعن القتل الا بالحق وعن قربان مال اليتيم الا بالتى هى احسن ثم اتبعه بهذه الأوامر الثلاثة فالاول قوله واوفوا بالعهد واعلم ان كل عقد تقدم لاجل توثيق الامر وتوكيده فهو عهد فقوله واوفوا بالعهد نظير لقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اوفوا بالعقود فدخل فى قوله اوفوا بالعقود كل عقد من العقود كعقد البيع والشركة وعقد اليمين والنذر وعقد الصلح وعقد النكاح وحاصل القول فيه ان مقتضى هذه الآية ان كل عقد وعهد جرى بين انسانين فانه يجب عليهما الوفاء بمقتضى ذلك العقد والعهد الا اذا دل دليل منفصل على انه لا يجب الوفاء به فمقتضاه الحكم بصحة كل بيع وقع التراضى به وبصحة كل شركة وقع التراضى بها

---

عليه بالفعل وان يكون فاعله المصدر وهو السؤال وعنه فى محل النصب وسأل ابن جنى اباعلى عن قولهم فيك يرغب وقال لا يرتفع بما بعده فأين المرفوع فقال المصدر اى فيك يرغب الرغبة بمعنى تفعل الرغبة كما فى قولهم يعطى ويمنع اى يفعل الاعطاء والمنع وجوزان يكون اسم كان اوفاعله ضمير كل بحذف المضاف اى كان صاحبه عنه مسؤلا اومسؤلا صاحبه (ولا تمش فى الارض) التقييد لزيادة التقرير والاشعار بأن المشى عليها بما لا يليق بالمرح (مرحا) تكبرا وبطرا واختيالا وهو مصدرا وقع موقع الحال اى ذا مرح اوتمرح مرحا اولاجل المرح وقرئ بالكسر (انك لن تخرق الارض) تعليل للنهى وفيه تهكم بالمختال وايذان بأن ذلك مفاخرة مع الارض وتكبر عليها اى لن تخرق الارض بدوسك وشدة وطأتك وقرئ بضم الراء (ولن تبلغ الجبال) التى هى بعض اجزاء الارض (طولا) حتى يمكن لك ان تتكبر عليها اذ التكبر انما يكون بكثرة القوة وعظم الجثة وكلاهما مفقود وفيه تعريض بما عليه المختال من رفع رأسه ومشيه على صدور قدميه (كل ذلك) اشارة الى ما علم فى تضاعيف ذكر الاوامر والنواهى من الخصال الخمس والعشرين (كان

ويؤكد هذا النص بسائر الآيات الدالة على الوفاء بالعهود والعقود كقوله والموفون بعهدهم اذا عاهدوا . وقوله والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون وقوله واحل الله البيع وقوله ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراض منكم وقوله واشهدوا اذا تبايعتم وقوله عليه السلام لا يحل مال امرئ مسلم الا عن طيبة من نفسه وقوله اذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم يدا بيد وقوله من اشترى شيئا لم يره فهو بالخيار اذا رآه فجميع هذه الآيات والاخبار دالة على ان الاصل فى البيوعات والعهود والعقود الصحة ووجوب الالتزام اذا ثبت هذا فنقول ان وجدنا نصا اخص من هذه النصوص يدل على البطلان والفساد قضينا به تقديما للخاص على العام والا قضينا بالصحة فى الكل واما تخصيص النص بالقياس فقد ابطلناه وبهذا الطريق تصير ابواب المعاملات على طولها واطنابها مضبوطة معلومة بهذه الآية الواحدة ويكون المكلف آمن القلب مطمئن النفس فى العمل لانه لما دلت هذه النصوص على صحتها فليس بعد بيان الله بيان وتصير الشريعة مضبوطة معلومة ثم قال تعالى ان العهد كان مسؤلا وفيه وجوه (احدها) ان يراد صاحب العهد كان مسؤلا فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه كقوله واسأل القرية (وثانيها) ان العهد كان مسؤلا اى مطلوبا يطلب من المعاهد ان لا يضيعه ويفى به (وثالثها) ان يكون هذا تخييلا كأنه يقال للعهد لم نكثت وهلا وفى بك تبكيتا للناكث كما يقال للموؤدة بأى ذنب قتلت وكقوله أأنت قلت للناس اتخذونى وامى الهين الآية فالمخاطبة لعيسى عليه السلام والانكار على غيره (النوع الثانى) من الاوامر المذكورة فى هذه الآية قوله واوفوا الكيل اذا كلتم والمقصود منه اتمام الكيل وذكر الوعيد الشديد فى نقصانه فى قوله ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم اووزنوهم يخسرون (النوع الثالث) من الاوامر المذكورة فى هذه الآية قوله وزنوا بالقسطاس المستقيم فالآية المتقدمة فى اتمام الكيل وهذه الآية فى اتمام الوزن ونظيره قوله تعالى واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان وقوله ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا فى الارض مفسدين واعلم ان التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم فوجب على العاقل الاحتراز منه وانما عظم الوعيد فيه لان جميع الناس محتاجون الى المعاوضات والبيع والشراء وقد يكون الانسان غافلا لا يهتدى الى حفظ ماله فالشارع بالغ فى المنع من التطفيف والنقصان سعيا فى ابقاء الاموال على الملاك ومنعا من تلطيخ النفس بسرقة ذلك المقدار الحقير والقسطاس فى معنى الميزان الا انه فى العرف اكبر منه ولهذا اشتهر فى ألسنة العامة انه القبان وقيل انه بلسان الروم او السريانى والاصح انه لغة العرب وهو مأخوذ من القسط وهو الذى يحصل فيه الاستقامة والاعتدال وبالجملة فمعناه المعتدل الذى لا يميل الى احد الجانبين واجمعوا على جواز اللغتين فيه ضم القاف وكسرها فالكسر قراءة

سيئه) الذى نهى عنه وهى اثنتا عشرة خصلة (عند ربك مكروها) مبغضا غير مرضى اوغير مراد بالارادة الاولية لا غير مراد مطلقا لقيام الادلة القاطعة على ان جميع الاشياء واقعة بارادته سبحانه وهو تتمة لتعليل الامور المنهى عنها جميعا ووصف ذلك بمطلق الكراهة مع ان البعض من الكبائر للايذان بأن مجرد الكراهة عنده تعالى كافية فى وجوب الانتهاء عن ذلك وتوجيه الاشارة الى الكل ثم تعيين البعض دون توجيهها اليه ابتداء لما ان البعض المذكور ليس بمذكور جملة بل على وجه الاختلاط وفيه اشعار بكون ماعداه مرضيا عنده تعالى وانما لم يصرح بذلك ايذانا بالغنى عنه وقيل الاضافة بيانية كما فى آية الليل وآية النهار وقرئ سيئة على انه خبر كان وذلك اشارة الى ما نهى عنه من الامور المذكورة ومكروها بدل من سيئة او صفة لها محمولة على المعنى فانه بمعنى سيا وقد قرئ به او مجرى على موصوف مذكر اى امرا مكروها اومجرى مجرى الاسماء زال عنه معنى الوصفية ويجوز كونه حالا من المستكن فى كان اوفى الظرف على انه صفة سيئة وقرئ سيآته وقرئ شأنه (ذلك) اى الذى تقدم من التكاليف المفصلة (مما اوحى اليك ربك) اى بعض منه

حمزة والكسائى وحفص عن عاصم والباقون بالضم ثم قال تعالى ذلك خير اى الايفاء بالتمام والكمال خير من التطفيف القليل من حيث ان الانسان يتخلص بواسطته عن الذكر القبيح فى الدنيا والعقاب الشديد فى الآخرة واحسن تأويلا والتأويل مايؤل اليه الامر كما قال فى موضع آخر خير مردا خير عقبى خيراً املا وانما حكم الله تعالى بأن عاقبة هذا الامر احسن العواقب لانه فى الدنيا اذا اشتهر بالاحتراز عن التطفيف عول الناس عليه ومالت القلوب اليه وحصل له الاستغناء فى الزمان القليل وكم قدرأينا من الفقراء لما اشتهروا عند الناس بالامانة والاحتراز عن الخيانة اقبلت القلوب عليهم وحصلت الاموال الكثيرة لهم فى المدة القليلة واما فى الآخرة فالفوز بالثواب العظيم والخلاص من العقاب الاليم ❊ قوله تعالى ( ولا تقف ماليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا ) فى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) اعلم انه تعالى لما شرح الاوامر الثلاثة عاد بعده الى ذكر النواهى فنهى عن ثلاثة اشياء اولها قوله ولا تقف ماليس لك به علم قوله تقف مأخوذ من قوله قفوت اثر فلان اقفو قفوا وقفوا اذا اتبعت اثره وسميت قافية الشعر قافية لانها تقفو البيت وسميت القبيلة المشهورة بالقافة لانهم يتبعون آثار اقدام الناس ويستدلون بها على احوال الانسان وقال تعالى ثم قفينا على آثارهم برسلنا وسمى القفا قفا لانه مؤخر بدن الانسان كأنه شئ يتبعه ويقفوه فقوله ولا تقف اى ولا تتبع ولا تقتف مالا علم لك به من قول او فعل وحاصله يرجع الى النهى عن الحكم بمالا يكون معلوما وهذه قضية كلية يندرج تحتها انواع كثيرة وكل واحد من المفسرين حمله على واحد من تلك الانواع وفيه وجوه (الاول) المراد نهى المشركين عن المذاهب التى كانوا يعتقدونها فى الالهيات والنبوات بسبب تقليد اسلافهم لانه تعالى نسبهم فى تلك العقائد الى اتباع الهوى فقال وان هى الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ماانزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وماتهوى الانفس وقال فى انكارهم البعث بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون وحكى عنهم انهم قالوا ان نظن الا ظنا ومانحن بمستيقنين وقال من اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله وقال ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام الآية وقال هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن ( والقول الثانى ) نقل عن محمد بن الحنفية ان المراد منه شهادة الزور وقال ابن عباس لا تشهد الا بمارأته عيناك وسمعته اذناك ووعاه قلبك (والقول الثالث) المراد منه النهى عن القذف ورمى المحصنين والمحصنات بالاكاذيب وكانت عادة العرب جارية بذلك يذكرونها فى الهجاء ويبالغون فيه (والقول الرابع) المراد منه النهى عن الكذب قال قتادة لا تقل سمعت ولم تسمع ورأيت ولم تر وعلمت ولم تعلم (والقول الخامس) ان القفو هو البهت واصله من القفا كأنه قول يقال خلفه وهو فى معنى الغيبة وهو ذكر الرجل فى غيبته بما يسوءه وفى بعض الاخبار من

---

اومن جنسه (من الحكمة) التى هى علم الشرائع اومعرفة الحق لذاته والعمل به اومن الاحكام المحكمة التى لايتطرق اليها النسخ والفساد وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان هذه الآيات الثمانى عشرة كانت فى الواح موسى عليه السلام اولها لاتجعل مع الله الها آخر قال تعالى وكتبنا له فى الالواح من كل شئ موعظة وهى عشر آيات فى التوراة ومن اما متعلقة بأوحى على انها تبعيضية اوابتدائية واما بمحذوف وقع حالا من الموصول اومن ضميره المحذوف فى الصلة اى كائنا من الحكمة واما بدل من الموصول باعادة الجار ( ولا تجعل مع الله الها آخر ) الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والمراد غيره ممن يتصور منه صدور المنهى عنه وقد كرر للتنبيه على ان التوحيد مبدأ الامر ومنتهاه وانه رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم ينفعه علومه وحكمه وان بذ فيها أساطين الحكماء وحك بيافوخه عنان السماء وقد رتب عليه ماهو عائدة الاشراك اولا حيث قيل فتقعد مذموما مخذولا ورتب عليه ههنا نتيجته فى العقبى فقيل ( فتلقى فى جهنم ملوما ) من جهة نفسك ومن جهة غيرك (مدحورا) مبعدا من رحمة الله تعالى وفى ايراد الالقاء مبنيا للمفعول جرى على سنن الكبرياء

قفا مسلما بماليس فيه حبسه الله فى ردغة الخبال واعلم ان اللفظ عام يتناول الكل فلا معنى للتقليد والله اعلم (المسئلة الثانية) احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا القياس لا يفيد الا الظن والظن مغاير للعلم فالحكم فى دين الله بالقياس حكم بغير المعلوم فوجب ان لا يجوز لقوله تعالى ولا تقف ماليس لك به علم اجيب عنه من وجوه (الاول) ان الحكم فى الدين بمجرد الظن جائز باجماع الامة فى صور كثيرة (احدها) ان العمل بالفتوى عمل بالظن وهو جائز (وثانيها) العمل بالشهادة عمل بالظن وانه جائز (وثالثها) الاجتهاد فى طلب القبلة لا يفيد الا الظن وانه جائز (ورابعها) قيم المتلفات واروش الجنايات لا سبيل اليها الا بالظن وانه جائز (وخامسها) الفصد والحجامة وسائر المعالجات بناء على الظن وانه جائز (وسادسها) كون هذه الذبيحة ذبيحة للمسلم مظنون لا معلوم وبناء الحكم عليه جائز (وسابعها) قال تعالى وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلها وحصول ذلك الشقاق مظنون لا معلوم (وثامنها) الحكم على الشخص المعين بكونه مؤمنا مظنون ثم نبنى على هذا الظن احكاما كثيرة مثل حصول التوارث ومثل الدفن فى مقابر المسلمين وغيرهما (وتاسعها) جميع الاعمال المعتبرة فى الدنيا من الاسفار وطلب الارباح والمعاملات الى الآجال المخصوصة والاعتماد على صداقة الاصدقاء وعداوة الاعداء كلها مظنونة وبناء الامر على تلك الظنون جائز (وعاشرها) قال عليه السلام نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر وذلك تصريح بأن الظن معتبر فى هذه الانواع العشرة فبطل قول من يقول انه لا يجوز بناء الامر على الظن (والجواب الثانى) ان الظن قد يسمى بالعلم والدليل عليه قوله تعالى اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله اعلم بايمانهن فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار ومن المعلوم انه انما يمكن العلم بايمانهن بناء على اقرارهن وذلك لا يفيد الا الظن فههنا الله تعالى سمى الظن علما (والجواب الثالث) ان الدليل القاطع لما دل على وجوب العمل بالقياس وكان ذلك الدليل دليلا على انه متى حصل ظن ان حكم الله فى هذه السورة يساوى حكمه فى محل النص فأنتم مكلفون بالعمل على وفق ذلك الظن فههنا الظن وقع فى طريق الحكم فأما ذلك الحكم فهو معلوم متيقن اجاب نفاة القياس عن السؤال الاول فقالوا قوله تعالى ولا تقف ماليس لك به علم عام دخله التخصيص فى الصور العشرة المذكورة فيبقى هذا العموم فيما وراء هذه الصور حجة ثم نقول الفرق بين هذه الصور العشر وبين محل النزاع ان هذه الصور العشر مشتركة فى ان تلك الاحكام احكام مختصة باشخاص معينين فى اوقات معينة فان الواقعة التى يرجع فيها الانسان المعين الى المفتى المعين واقعة متعلقة بذلك الشخص المعين وكذلك القول فى الشهادة وفى طلب القبلة وفى سائر الصور والتنصيص على وقائع الاشخاص المعينين فى الاوقات المعينة يجرى مجرى التنصيص على ما لا نهاية له وذلك متعذر فلهذه الضرورة اكتفينا بالظن اما الاحكام المثبتة بالاقيسة

(فهى)

وازدراء بالمشرك وجعل له من قبيل خشية يأخذها آخذ بكفه فيطرحها فى التنور (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا) خطاب للقائلين بأن الملائكة بنات الله سبحانه والاصفاء بالشئ جعله خالصا والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدم يفسره المذكور اى افضلكم على جنابه فخصكم بأفضل الاولاد على وجه الخلوص وآثر لذاته أخسها وادناها كما فى قوله سبحانه الكم الذكر وله الانثى وقوله تعالى ام له البنات ولكم البنون وقد قصد ههنا بالتعرض لعنوان الربوبية تشديد النكير وتأكيده واشير بذكر الملائكة عليهم السلام وايراد الاناث مكان البنات الى كفرة لهم اخرى وهى وصفهم لهم عليهم السلام بالأنوثة التى هى اخس صفات الحيوان كقوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا (انكم لتقولون) بمقتضى مذهبكم الباطل الذى هو اضافة الولد اليه سبحانه (قولا عظيما) لا يقادر قدره فى استتباع الاثم وخرقه لقضايا العقول بحيث لا يجترئ عليه احد حيث يجعلونه تعالى من قبيل الاجسام المتجانسة السريعة الزوال وليس كمثله شئ وهو الواحد القهار الباقى بذاته ثم تضيفون اليه ما تكرهون من

فهى احكام كلية معتبرة فى وقائع كلية وهى مضبوطة قليلة والتنصيص عليها ممكن ولذلك فان الفقهاء الذين استخرجوا تلك الاحكام بطريق القياس ضبطوها وذكروها فى كتبهم اذا عرفت هذا فنقول التنصيص على الاحكام فى الصور العشر التى ذكرتموها غير ممكن فلا جرم اكتفى الشارع فيها بالظن اما المسائل المثبتة بالطرق القياسية التنصيص عليها ممكن فلم يجز الاكتفاء فيها بالظن فظهر الفرق (واما الجواب الثانى) وهو قولهم الظن قد يسمى علما فنقول هذا باطل فانه يصح ان يقال هذا مظنون وغير معلوم وهذا معلوم وغير مظنون وذلك يدل على حصول المغايرة ثم الذى يدل عليه قوله تعالى قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن نفى العلم واثبات للظن وذلك يدل على حصول المغايرة واما قوله تعالى فان علمتموهن مؤمنات فالمؤمن هو المقر وذلك الاقرار هو العلم (واما الجواب الثالث) فهو ايضا ضعيف لان ذلك الكلام انما يتم لو ثبت ان القياس حجة بدليل قاطع وذلك باطل لان تلك الحجة اما ان تكون عقلية او نقلية والاول باطل لان القياس الذى يفيد الظن لا يجب عقلا ان يكون حجة والدليل عليه انه لا نزاع انه يصح من الشرع ان يقول نهيتكم عن الرجوع الى القياس ولو كان كونه حجة امرا عقليا محضا لامتنع ذلك والثانى ايضا باطل لان الدليل النقلى فى كون القياس حجة انما يكون قطعيا لو كان منقولا نقلا متواترا وكانت دلالته على ثبوت هذا المطلوب دلالة قطعية غير محتملة النقيض ولو حصل مثل هذا الدليل لوصل الى الكل ولعرفه الكل ولارتفع الخلاف وحيث لم يكن كذلك علمنا انه لم يحصل فى هذه المسئلة دليل سمعى قاطع فثبت انه لم يوجد فى اثبات كون القياس حجة دليل قاطع البتة فبطل قولكم كون الحكم المثبت بالقياس حجة معلوم لا مظنون فهذا تمام الكلام فى تقرير هذا الدليل واحسن ما يمكن ان يقال فى الجواب عنه ان التمسك بهذه الآية التى عولتم عليها تمسك بعام مخصوص والتمسك بالعام المخصوص لا يفيد الا الظن فلو دلت هذه الآية على ان التمسك بالظن غير جائز لدلت على ان التمسك بهذه الآية غير جائز فالقول بكون هذه الآية حجة يفضى ثبوته الى نفيه فكان تناقضا فسقط الاستدلال به والله اعلم وللمجيب ان يجيب فيقول نعلم بالتواتر الظاهر من دين محمد صلى الله عليه وسلم ان التمسك بآيات القرآن حجة فى الشريعة ويمكن ان يجاب عن هذا الجواب بأن كون العام المخصوص حجة غير معلوم بالتواتر والله اعلم (المسئلة الثالثة) قوله ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤلا وفيه بحثان (الاول) ان العلوم اما مستفادة من الحواس او من العقول اما القسم الاول فاليه الاشارة بذكر السمع والبصر فان الانسان اذا سمع شيئا ورآه فانه يرويه ويخبر عنه واما القسم الثانى فهو العلوم المستفادة من العقل وهى قسمان البديهية والكسبية والى العلوم العقلية الاشارة بذكر الفؤاد (البحث الثانى) ظاهر الآية يدل على ان هذه الجوارح مسؤلة وفيه وجوه (الاول) ان المراد ان صاحب السمع والبصر والفؤاد هو المسؤل لان السؤال لا يصح الا ممن كان

---

اخس الاولاد وتفضلون عليه أنفسكم بالبنين ثم تصفون الملائكة الذين هم من اشرف الخلائق بالانوثة التى هى اخس اوصاف الحيوان فيالها من ضلة ما اقبحها وكفرة ما اشنعها وافظعها (ولقد صرفنا) هذا المعنى وكررناه (فى هذا القرآن) على وجوه من التصريف فى مواضع منه وانما ترك الضمير تعويلا على الظهور وقرئ بالتخفيف (ليذكروا) ما فيه ويقفوا على بطلان ما يقولونه والالتفات الى الغيبة للايذان باقتضاء الحال ان يعرض عنهم ويحكى للسامعين هناتهم وقرئ بالتخفيف من الذكر بمعنى التذكر ويجوز ان يراد بهذا القرآن ما نطق ببطلان مقالتهم المذكورة من الآيات الكريمة الواردة على اساليب مختلفة ومعنى التصريف فيه جعله مكانا له اى اوقعنا فيه التصريف كقوله *يجرح فى عراقيبها نصلى* وقد جوز ان يراد به ابطال اضافتهم اليه تعالى البنات وانت تعلم ان ابطالها من آثار القرآن ونتائجه (وما يزيدهم) اى والحال انه ما يزيدهم ذلك التصريف البالغ (الا نفورا) عن الحق واعراضا عنه فضلا عن التذكر المؤدى الى معرفة بطلان ما هم عليه من القبائح (قل) فى اظهار بطلان ذلك من جهة اخرى (لو كان معه) تعالى

عاقلا وهذه الجوارح ليست كذلك بل العاقل الفاهم هو الانسان فهو كقوله تعالى
واسأل القرية والمراد اهلها يقال له لم سمعت مالا يحل لك سماعه ولم نظرت الى مالا يحل لك
النظر اليه ولم عزمت على مالا يحل لك العزم عليه (والوجه الثانى) ان تقرير الآية ان
اولئك الاقوام كلهم مسؤلون عن السمع والبصر والفؤاد فيقال لهم استعملتم السمع
فيماذا أفي الطاعة او في المعصية وكذلك القول في بقية الاعضاء وذلك لان هذه الحواس
آلات النفس والنفس كالامير لها والمستعمل لها في مصالحها فان استعملتها النفس في
الخيرات استوجبت الثواب وان استعملتها في المعاصى استحقت العقاب (والوجه
الثالث) انه ثبت بالقرآن انه تعالى يخلق الحياة في الاعضاء ثم انها تشهد على الانسان
والدليل عليه قوله تعالى يوم تشهد عليهم ألسنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون
ولذلك لايبعد ان يخلق الحياة والعقل والنطق في هذه الاعضاء ثم انه تعالى يوجه السؤال
عليها * قوله تعالى (ولا تمش في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال
طولا كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) اعلم ان هذا هو النوع الثانى من الاشياء
التى نهى الله عنها في هذه الآيات وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المرح شدة الفرح
يقال مرح يمرح مرحا فهو مرح والمراد من الآية النهى عن ان يمشى الانسان مشيا
يدل على الكبرياء والعظمة قال الزجاج لاتمش في الارض مختالا فخورا ونظيره قوله تعالى
في سورة الفرقان وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا وقال في سورة لقمان
واقصد في مشيك واغضض من صوتك وقال ايضا فيها ولا تمش في الارض مرحا ان الله
لايحب كل مختال فخور (المسئلة الثانية) قال الاخفش ولو قرئ مرحا بالكسر كان
احسن في القراءة قال الزجاج مرحا مصدر ومرحا اسم الفاعل وكلاهما جائز الا ان
المصدر احسن ههنا واوكد تقول جاء زيد ركضا وراكضا فركضا اوكد لانه يدل على
توكيد الفعل ثم انه تعالى اكد النهى عن الخيلاء والتكبر فقال انك لن تخرق الارض
ولن تبلغ الجبال طولا والمراد من الخرق ههنا نقب الارض ثم ذكروا فيه وجوها (الاول)
ان المشى انما يتم بالارتفاع والانخفاض فكأنه قيل انك حال الانخفاض لاتقدر على
خرق الارض ونقبها وحال الارتفاع لاتقدر على ان تصل الى رؤس الجبال والمراد التنبيه
على كونه ضعيفا عاجزا فلا يليق به التكبر (الثانى) المراد منه ان تحتك الارض التى
لاتقدر على خرقها وفوقك الجبال التى لاتقدر على الوصول اليها فأنت محاط بك من فوقك
وتحتك بنوعين من الجماد وانت اضعف منهما بكثير والضعيف المحصور لايليق به التكبر
فكأنه قيل له تواضع ولا تتكبر فانك خلق ضعيف من خلق الله المحصور بين حجارة وتراب
فلا تفعل فعل المقتدر القوى ثم قال تعالى كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها وفيه
مسائل (المسئلة الاولى) الاكثرون قرؤا سيئه بضم الهاء والهمزة وقرأ نافع وابن كثير
وابو عمرو سيئة منصوبة اما وجه قراءة الاكثرين فظاهر من وجهين (الاول) قال الحسن

(آلهة كما يقولون) اى
المشركون قاطبة وقرئ بالتاء
خطابا لهم من قبل النبى عليه
الصلاة والسلام والكاف في محل
النصب على انها نعت لمصدر
محذوف اى كونا مشابها لما
يقولون والمراد بالمشابهة الموافقة
والمطابقة (اذا لابتغوا) جواب
عن مقالتهم الشنعاء وجزاء
للواى لطلبوا (الى ذى العرش)
اى الى من له الملك والربوبية على
الاطلاق (سبيلا) بالمبالغة
والممانعة كما هو ديدن الملوك
بعضهم مع بعض على طريقة قوله
تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله
لفسدتا وقيل بالتقرب اليه تعالى
كقوله تعالى اولئك الذين
يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة
والاول هو الاظهر الانسب لقوله
(سبحانه) فانه صريح في ان المراد
بيان انه يلزم مما يقولونه محذور
عظيم من حيث لايحتسبون واما
ابتغاء السبيل اليه تعالى بالتقرب
فليس مما يختص بهذا التقرير
ولا هو مما يلزمهم من حيث
لايشعرون بل هو امر يعتقدونه
رأسا اى تنزه بذاته تنزها حقيقا به
(وتعالى) متباعدا (عما يقولون)
من العظيمة التى هى ان يكون
معه آلهة وان يكون له بنات
(علوا) تعاليا كقوله تعالى والله
انبتكم من الارض نباتا (كبيرا)
لاغاية وراءه كيف لا وانه سبحانه
في اقصى غايات الوجود وهو

انه تعالى ذكر قبل هذا اشياء امر ببعضها ونهى عن بعضها فلو حكم على الكل بكونه سيئة لزم كون المأمور به سيئة وذلك لايجوز اما اذا قرأناه بالاضافة كان المعنى ان ما كان من تلك الاشياء المذكورة سيئة فهو مكروه عندالله واستقام الكلام (والوجه الثانى) انا لوحكمنا على كل ماتقدم ذكره بكونه سيئة لوجب ان يقال انها مكروهة وليس الامر كذلك لانه تعالى قال مكروها اما اذا قرأناه بصيغة الاضافة كان المعنى ان سيئ تلك الاقسام يكون مكروها وحينئذ يستقيم الكلام اماقرأة نافع وابن كثير وابى عمرو فيها وجوه (الاول) ان الكلام تم عند قوله ذلك خير واحسن تأويلا ثم ابتدأ وقال ولاتقف ماليس لك به علم ولاتمش فى الارض مرحاثم قال كل ذلك كان سيئة والمراد هذه الاشياء الاخيرة التى نهى الله عنها (والثانى) ان المراد بقوله كل ذلك اى كل مانهى الله عنه فيما تقدم واماقوله مكروها فذكروا فى تصحيحه على هذه القراءة وجوها (الاول) التقدير كل ذلك كان سيئة وكان مكروها (الثانى) قال صاحب الكشاف السيئة فى حكم الاسماء بمنزلة الذنب والاثم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه ولافرق بين من قرأ سيئة ومن قرأ سيئه ألاترى انك تقول الزنا سيئة كماتقول السرقة سيئة فلاتفرق بين اسنادها الى مذكر ومؤنث (الثالث) فيه تقديم وتأخير والتقدير كل ذلك كان مكروها وسيئة عند ربك (الرابع) انه محمول على المعنى لان السيئة هى الذنب وهو مذكر (المسئلة الثانية) قال القاضى دلت هذه الآية على ان هذه الاعمال مكروهة عندالله تعالى والمكروه لايكون مراداله فهذه الاعمال غير مرادة لله تعالى فبطل قول من يقول كل مادخل فى الوجود فهو مرادلله تعالى واذا ثبت انها ليست بارادة الله تعالى وجب ان لاتكون مخلوقة له لانها لو كانت مخلوقة لله تعالى لكانت مرادة له لايقال المراد من كونهامكروهة ان الله تعالى نهى عنها وايضا معنى كونها مكروهة ان الله تعالى كره وقوعها وعلى هذا التقدير فهذا لايمنع ان الله تعالى أراد وجودها لان الجواب عن الاول انه عدول عن الظاهر وايضا فكونها سيئة عند ربك يدل على كونها منهيا عنها فلو حملنا المكروه على النهى لزم التكرار والجواب عن الثانى انه تعالى انما ذكر هذه الآية فى معرض الزجر عن هذه الافعال ولايليق بهذا الموضع ان يقال انه تعالى يكره وقوعها هذا تمام هذا الاستدلال والجواب ان المراد من المكروه المنهى عنه ولابأس بالتكرير لاجل التأكيد والله اعلم (المسئلة الثالثة) قال القاضى دلت هذه الآية على انه تعالى كما انه موصوف بكونه مريدا فكذلك ايضا موصوف بكونه كارها وقال اصحابنا الكراهية فى حقه تعالى محمولة اما على النهى اوعلى ارادة العدم والله اعلم قوله تعالى (ذلك مما اوحى اليك ربك من الحكمة ولاتجعل مع الله الها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا انكم لتقولون قولا عظيما) اعلم انه تعالى جمع فى هذه الآية خمسة وعشرين نوعا من

الوجوب الذاتى وما يقولونه من ان له تعالى شركاء واولادا فى ابعد مراتب العدم اعنى الامتناع لالانه تعالى فى اعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجود لذاته واتخاذ الولد من ادنى مراتبه فانه من خواص مايمتنع بقاؤه كما قيل فان مايقولونه ليس مجرد اتخاذ الولد بل اتخاذه تعالى له وان يكون معه آلهة ولا ريب فى ان ذلك ليس بداخل فى حد الامكان فضلا عن دخوله تحت الوجود وكونه من ادنى مراتب الوجود انما هو بالنسبة الى من شانه ذلك (تسبح) بالفوقانية وقرئ بالتحتانية وقرئ سبحت (له السموات السبع والارض ومن فيهن) من الملائكة والثقلين على ان المراد بالتسبيح معنى منتظم لما ينطق به لسان المقال ولسان الحال بطريق عموم المجاز (وان من شئ) من الاشياء حيوانا كان اونباتا اوجمادا (الايسبح) ملتبسا (بحمده) اى ينزهه تعالى بلسان الحال عما لايليق بذاته الا قدس من لوازم الامكان ولوا حق الحدوث اذما من موجود الاوهو بامكانه وحدوثه يدل دلالة واضحة على ان له صانعا عليما قادرا حكيما واجبا لذاته قطعا للسلسلة (ولكن لاتفقهون تسبيحهم) ايها المشركون لاخلالكم بالنظر الصحيح الذى به يفهم ذلك وقرئ لايفقهون على

التكاليف فأولها قوله ولاتجعل مع الله الها آخر وقوله وقضى ربك ان لاتعبدوا الااياه مشتمل على تكليفين الامر بعبادة الله تعالى والنهى عن عبادة غير الله فكان المجموع ثلاثة وقوله وبالوالدين احسانا هو الرابع ثم ذكر فى شرح ذلك الاحسان خمسة اخرى وهى قوله فلاتقل لهما اف ولاتنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما فيكون المجموع تسعة ثم قال وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل وهو ثلاثة فيكون المجموع اثنى عشر ثم قال ولاتبذر تبذيرا فيصير ثلاثة عشر ثم قال واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا وهو الرابع عشر ثم قال ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك الى آخر الآية وهو الخامس عشر ثم قال ولاتقتلوا اولادكم وهو السادس عشر ثم قال ولاتقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق وهو السابع عشر ثم قال ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا وهو الثامن عشر ثم قال فلايسرف فى القتل وهو التاسع عشر ثم قال واوفوا بالعهد وهو العشرون ثم قال واوفوا الكيل اذا كلتم وهو الحادى والعشرون ثم قال وزنوا بالقسطاس المستقيم وهو الثانى والعشرون ثم قال ولاتقف ماليس لك به علم وهو الثالث والعشرون ثم قال ولاتمش فى الارض مرحا وهو الرابع والعشرون ثم قال ولاتجعل مع الله الها آخر وهو الخامس والعشرون فهذه خمسة وعشرون نوعا من التكاليف بعضها اوامر وبعضها نواه جمعها الله تعالى فى هذه الآيات وجعل فاتحتها قوله ولاتجعل مع الله الها آخر فتقعد مذموما مخذولا وخاتمتها قوله ولاتجعل مع الله الها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا اذا عرفت هذا فنقول ههنا فوائد (الفائدة الاولى) قوله ذلك اشارة الى كل ماتقدم ذكره من التكاليف وسماها حكمة وانما سماها بهذا الاسم لوجوه (احدها) ان حاصلها يرجع الى الامر بالتوحيد وانواع الطاعات والخيرات والاعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة والعقول تدل على صحتها فالآتى بمثل هذه الشريعة لايكون داعيا الى دين الشيطان بل الفطرة الاصلية تشهد بأنه يكون داعيا الى دين الرحمن وتمام تقرير هذا ماذكره فى سورة الشعراء فى قوله هل انبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل افاك اثيم (وثانيها) ان الاحكام المذكورة فى هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية فى جميع الاديان والملل ولاتقبل النسخ والابطال فكانت محكمة وحكمة من هذا الاعتبار (وثالثها) ان الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير لاجل العمل به فالامر بالتوحيد عبارة عن القسم الاول وسائر التكاليف عبارة عن تعليم الخيرات حتى يواظب الانسان عليها ولا ينحرف عنها فثبت ان هذه الاشياء المذكورة فى هذه الآيات عين الحكمة وعن ابن عباس ان هذه الآيات كانت فى الواح موسى عليه الصلاة والسلام (اولها) لاتجعل مع الله الها آخر قال تعالى وكتبنا له فى الالواح من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ (والفائدة الثانية) من فوائد هذه الآية انه تعالى بدأ فى هذه التكاليف بالامر بالتوحيد والنهى

صيغة المبنى للفعول من باب التفعيل (انه كان حليما) ولذلك لم يعاجلكم بالعقوبة مع ما انتم عليه من موجباتها من الاعراض عن التدبر فى الدلائل الواضحة الدالة على التوحيد والانهماك فى الكفر والاشراك (غفورا) لمن تاب منكم (واذا قرأت القرآن) الناطق بالتسبيح والتنزيه ودعوتهم الى العمل بما فيه من التوحيد ورفض الشرك وغير ذلك من الشرائع (جعلنا) بقدرتنا ومشيئتنا المبنية على دواعى الحكم الخفية (بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة) اوثر الموصول على الضمير ذمالهم بما فى حيز الصلة وانما خص بالذكر كفرهم بالآخرة من بين سائر ما كفروا به من التوحيد ونحوه دلالة على انها معظم ما امروا بالايمان به فى القرآن وتمهيدا لما سينقل عنهم من انكار البعث واستعجاله ونحو ذلك (حجابا) يحجبهم من ان يدركوك على ما انت عليه من النبوة ليفقهوا قدرك الجليل ولذلك اجترؤا على تفوه العظيمة التى هى قولهم ان تتبعون الا رجلا مسحورا وحمل الحجاب على ماروى عن اسماء بنت ابى بكر رضى الله عنه من انه لما نزلت سورة تبت اقبلت العوراء ام جميل امرأة ابى لهب وفى يدها فهر والنبى عليه الصلاة والسلام قاعد فى المسجد ومعه ابو بكر

عن الشرك وختمها بعين هذا المعنى والمقصود منه التنبيه على ان اول كل عمل وقول وفكر وذكر يجب ان يكون ذكر التوحيد وآخره يجب ان يكون ذكر التوحيد تنبيها على ان المقصود من جميع التكاليف هو معرفة التوحيد والاستغراق فيه فهذا التكرير حسن موقعه لهذه الفائدة العظيمة ثم انه تعالى ذكر فى الآية الاولى ان الشرك يوجب ان يكون صاحبه مذموما مخذولا وذكر فى الآية الاخيرة ان الشرك يوجب ان يلقى صاحبه فى جهنم ملوما مدحورا فاللوم والخذلان يحصل فى الدنيا والقاؤه فى جهنم يحصل يوم القيامة ويجب علينا ان نذكر الفرق بين المذموم المخذول وبين الملوم المدحور فنقول اما الفرق بين المذموم وبين الملوم فهو ان كونه مذموما معناه ان يذكر له ان الفعل الذى اقدم عليه قبيح ومنكر فهذا معنى كونه مذموما واذا ذكر له ذلك فبعد ذلك يقال له لم فعلت مثل هذا الفعل وما الذى حملك عليه وما استفدت من هذا العمل الا الحاق الضرر بنفسك وهذا هو اللوم فثبت ان اول الامر هو ان يصير مذموما وآخره ان يصير ملوما واما الفرق بين المخذول وبين المدحور فهو ان المخذول عبارة عن الضعيف يقال تخاذلت اعضاؤه اى ضعفت واما المدحور فهو المطرود والطرد عبارة عن الاستخفاف والاهانة قال تعالى ويخلد فيه مهانا فكونه مخذولا عبارة عن ترك اعانته وتفويضه الى نفسه وكونه مدحورا عبارة عن اهانته والاستخفاف به فثبت ان اول الامر ان يصير مخذولا وآخره ان يصير مدحورا والله اعلم بمراده واما قوله أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا فاعلم انه تعالى لما نبه على فساد طريقة من اثبت لله شريكا ونظيرا نبه على طريقة من اثبت له الولد وعلى كمال جهل هذه الفرقة وهى انهم اعتقدوا ان الولد قسمان فأشرف القسمين البنون واخسهما البنات ثم انهم اثبتوا البنين لانفسهم مع علمهم بنهاية عجزهم ونقصهم واثبتوا البنات لله مع علمهم بأن الله تعالى هو الموصوف بالكمال الذى لا نهاية له والجلال الذى لا غاية له وذلك يدل على نهاية جهل القائل بهذا القول ونظيره قوله تعالى أم له البنات ولكم البنون وقوله ألكم الذكر وله الانثى وقوله أفأصفاكم يقال اصفاه بالشئ اذا آثره به ويقال للضياع التى يستخصها السلطان بخاصية الصوافى قال ابو عبيدة فى قوله أفأصفاكم أفخصكم وقال المفضل أخلصكم قال النحويون هذه الهمزة همزة تدل على الانكار على صيغة السؤال عن مذهب ظاهر الفساد لا جواب لصاحبه الا بما فيه أعظم الفضيحة ثم قال تعالى انكم لتقولون قولا عظيما وبيان هذا التعظيم من وجهين (الاول) ان اثبات الولد يقتضى كونه تعالى مركبا من الاجزاء والابعاض وذلك يقدح فى كونه قديما واجب الوجود لذاته وذلك عظيم من القول ومنكر من الكلام (الثانى) ان بتقدير ثبوت الولد فقد جعلتم اشرف القسمين لانفسكم واخس القسمين لله وهذا ايضا جهل عظيم * قوله تعالى (ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم الا نفورا قل لو كان معه آلهة كما تقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا سبحانه وتعالى

رضى الله عنه فلما رآها قال يارسول الله لقد اقبلت هذه واخاف ان تراك قال عليه الصلاة والسلام انها لن ترانى وقرأ قرآنا فوقفت على ابى بكر رضى الله عنه ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يقبله الذوق السليم ولا يساعده النظم الكريم (مستورا) ذا ستر كما فى قولهم سيل مفعم اومستورا عن الحس بمعنى غير حسى او مستورا فى نفسه بحجاب آخر او مستورا كونه حجابا حيث لا يدرون انهم لا يدرون (وجعلنا على قلوبهم اكنة) اغطية كثيرة جمع كنان (ان تفقهوه) مفعول لاجله اى كراهة ان يفقهوه او مفعول لما دل عليه الكلام اى منعناهم ان يقفوا على كنهه ويعرفوا انه من عند الله تعالى (وفى آذانهم وقرا) صمما وثقلا مانعا من سماعه اللائق به وهذه تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشؤن النبى عليه الصلاة والسلام وفرط نبو قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومج اسماعهم له جئ بها بيانا لعدم فقههم للتسبيح لسان المقال اثر بيان عدم فقههم للتسبيح لسان الحال وايذانا بأن هذا التسبيح من الظهور بحيث لا يتصور عدم فهمه الا لمانع قوى يعترى المشاعر فيبطلها وتنبيها على ان حالهم هذا اقبح من حالهم السابق لا حكاية لما قالوا قلوبنا فى اكنة

عما يقولون علوا كبيرا تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شئ الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا ) اعلم ان التصريف في اللغة عبارة عن صرف الشئ من جهة الى جهة نحو تصريف الرياح وتصريف الامور هذا هو الاصل في اللغة ثم جعل لفظ التصريف كناية عن التبيين لان من حاول بيان شئ فانه يصرف كلامه من نوع الى نوع آخر ومن مثال الى مثال آخر ليكمل الايضاح ويقوى البيان فقوله ولقد صرفنا اى بينا ومفعول التصريف محذوف وفيه وجوه ( احدها ) ولقد صرفنا في هذا القرآن ضروبا من كل مثل ( وثانيها ) ان تكون لفظة في زائدة كقوله واصلح لى في ذريتى اى اصلح لى ذريتى اما قوله ليذكروا ففيه مسئلتان ( المسئلة الاولى ) قرأ الجمهور ليذكروا بفتح الذال والكاف وتشديدهما والمعنى ليتذكروا فأدغمت التاء في الذال لقرب مخرجيهما وقرأ حمزة والكسائى ليذكروا ساكنة الذال مضمومة الكاف وفي سورة الفرقان مثله من الذكر قال الواحدى والتذكر ههنا اشبه من الذكر لان المراد منه التدبر والتفكر وليس المراد منه الذكر الذى يحصل بعد النسيان ثم قال واما قراءة حمزة والكسائى ففيها وجهان ( الاول ) ان الذكر قد جاء بمعنى التأمل والتدبر كقوله تعالى خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه والمعنى وافهموا ما فيه ( والثانى ) ان يكون المعنى صرفنا هذه الدلائل في هذا القرآن ليذكروه بألسنتهم فان الذكر باللسان قد يؤدى الى تأثر القلب بمعناه ( المسئلة الثانية ) قال الجبائى قوله ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا يدل على انه تعالى انما انزل هذا القرآن وانما اكثر فيه من ذكر الدلائل لانه تعالى أراد منهم فهمها والايمان بها وهذا يدل على انه تعالى يفعل افعاله لاغراض حكمية ويدل على انه تعالى اراد الايمان من الكل سواء آمنوا او كفروا والله اعلم ثم قال تعالى وما يزيدهم الا نفورا وفيه مسئلتان ( المسئلة الاولى ) قال الاصم شبههم بالدواب النافرة اى ما ازدادوا من الحق الا بعدا وهو كقوله فزادتهم رجسا ( المسئلة الثانية ) احتج اصحابنا بهذه الآية على انه تعالى ما اراد الايمان من الكفار وقالوا انه تعالى عالم بأن تصريف القرآن لا يزيدهم الا نفورا فلو أراد الايمان منهم لما انزل عليهم ما يزيدهم نفرة ونبوة عنه لان الحكيم اذا أراد تحصيل امر من الامور وعلم ان الفعل الفلانى يصير سببا لمزيد النفرة والنبوة عنه فانه عند ما يحاول تحصيل ذلك المقصود يحترز عما يوجب مزيد النفرة والنبوة فلما أخبر تعالى ان هذا التصريف يزيدهم نفورا علمنا انه ما اراد الايمان منهم والله اعلم اما قوله تعالى قل لو كان معه آلهة كما تقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا ففيه مسئلتان ( المسئلة الاولى ) في تفسيره وجهان ( الاول ) ان المراد من قوله اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا هو انا لو فرضنا وجود آلهة مع الله تعالى لغلب بعضهم بعضا وحاصله يرجع الى دليل التمانع وقد شرحناه في سورة الانبياء في تفسير قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فلا فائدة في الاعادة ( والوجه الثانى ) ان الكفار كانوا يقولون ما نعبدهم

مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب كيف لا وقصدهم بذلك انما هو الاخبار بما اعتقدوه في حق القرآن والنبى عليه الصلاة والسلام جهلا وكفرا من اتصافهما بأوصاف مانعة من التصديق والايمان ككون القرآن سحرا وشعرا واساطير وقس عليه حال النبى عليه الصلاة والسلام لا الاخبار بأن هناك امرا وراء ما أدركوه قد حال بينهم وبين ادراكه حائل من قبلهم ولا ريب في أن ذلك المعنى مما لا يكاد يلائم المقام (واذا ذكرت ربك في القرآن وحده) واحدا غير مشفوع به آلهتهم وهو مصدر وقع موقع الحال اصله يحد وحده (ولوا على ادبارهم) اى هربوا ونفروا (نفورا) او ولوا نافرين (نحن اعلم بما يستمعون به) ملتبسين به من اللغو والاستخفاف والهزء بك وبالقرآن يروى انه كان يقوم عن يمينه عليه الصلاة والسلام رجلان من بنى عبد الدار وعن يساره رجلان فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالاشعار ( اذ يستمعون اليك ) ظرف لاعلم وفائدته تأكيد الوعيد بالاخبار بأنه كما يقع الاستماع المزبور منهم يتعلق به العلم لا ان العلم يستفاد هناك من احد وكذا قوله تعالى ( واذ هم نجوى ) لكن لا من حيث تعلقه بما به الاستماع بل بما به التناجى

الا ليقربونا الى الله زلفى فقال الله لو كانت هذه الاصنام كما تقولون من انها تقربكم الى الله زلفى لطلبت لانفسها ايضا قربة الى الله تعالى وسبيلا اليه ولطلبت لانفسها المراتب العالية والدرجات الشريفة من الاحوال الرفيعة فلما لم تقدر ان تتخذ لانفسها سبيلا الى الله فكيف يعقل ان تقربكم الى الله (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير كما يقولون وعما يقولون ويسبح بالياء فى هذه الثلاثة والمعنى كما يقول المشركون من اثبات الالهة من دونه فهو مثل قوله قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون وقرأ حمزة والكسائى كلها بالتاء وقرأ نافع وابن عامر وابوبكر عن عاصم فى الاول بالتاء على الخطاب وفى الثانى والثالث بالياء على الحكاية وقرأ حفص عن عاصم الاولين بالياء والاخير بالتاء وقرأ ابو عمرو الاول والاخير بالتاء والاوسط بالياء ثم قال تعالى سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لما أقام الدليل القاطع على كونه منزها عن الشركاء وعلى ان القول باثبات الالهة قول باطل اردفه بما يدل على تنزيهه عن هذا القول الباطل فقال سبحانه وقد ذكرنا ان التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ثم قال وتعالى والمراد من هذا التعالى الارتفاع وهو العلو وظاهر ان المراد من هذا التعالى ليس هو التعالى فى المكان والجهة لان التعالى عن الشريك والنظير والنقائص والآفات لا يمكن تفسيره بالتعالى بالمكان والجهة فعلمنا ان لفظ التعالى فى حق الله تعالى غير مفسر بالعلو بحسب المكان والجهة (المسئلة الثانية) جعل العلو مصدرا لتعالى فقال تعالى علوا كبيرا وكان يجب ان يقال تعالى تعاليا كبيرا الا ان نظيره قوله تعالى والله انبتكم من الارض نباتا فان قيل ما الفائدة فى وصف ذلك العلو بالكبير قلنا لان المنافاة بين ذاته وصفاته سبحانه وبين ثبوت الصاحبة والولد والشركاء والاضداد والانداد منافاة بلغت فى القوة والكمال الى حيث لا تعقل الزيادة عليها لان المنافاة بين الواجب لذاته والممكن لذاته وبين القديم والمحدث وبين الغنى والمحتاج منافاة لا تعقل الزيادة عليها فلهذا السبب وصف الله تعالى ذلك العلو بالكبير ثم قال تعالى تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اعلم ان الحى المكلف يسبح لله بوجهين (الاول) بالقول كقوله باللسان سبحان الله (والثانى) بدلالة احواله على توحيد الله تعالى وتقديسه وعزته فأما الذى لا يكون مكلفا مثل البهائم ومن لا يكون حيا مثل الجمادات فهى انما تسبح لله تعالى بالطريق الثانى لان التسبيح بالطريق الاول لا يحصل الا مع الفهم والعلم والادراك والنطق وكل ذلك فى الجماد محال فلم يبق حصول التسبيح فى حقه الا بالطريق الثانى واعلم انا لو جوزنا فى الجماد ان يكون عالما متكلما لعجزنا عن الاستدلال بكونه تعالى عالما قادرا على كونه حيا وحينئذ يفسد علينا باب العلم بكونه حيا وذلك كفر فانه يقال اذا جاز فى الجمادات ان تكون عالمة بذات الله تعالى وصفاته وتسبحه مع انها ليست بأحياء فحينئذ لا يلزم من كون الشئ عالما قادرا متكلما كونه حيا فلم يلزم

المدلول عليه بسياق النظم والمعنى نحن اعلم بالذى يستمعون ملتبسين به مما لا خير فيه من الامور المذكورة وبالذى يتناجون به فيما بينهم او الاول ظرف ليستمعون والثانى ليتناجون والمعنى نحن اعلم بما به الاستماع وقت استماعهم من غير تأخير وبما به التناجى وقت تناجيهم ونجوى مرفوع على الخبرية بتقدير المضاف اى ذوو نجوى او هو جمع نجى كقتلى جمع قتيل اى متناجون (اذ يقول الظالمون) بدل من اذهم وفيه دليل على ان ما يتناجون به غير ما يستمعون به وانما وضع الظالمون موضع المضمر اشعارا بأنهم فى ذلك ظالمون مجاوزون للحد اى يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم (ان تتبعون) ما تتبعون ان وجد منكم الاتباع فرضا او ما تتبعون باللغو والهزء (الا رجلا مسحورا) اى سحر فجن او رجلا ذا سحر اى رئة يتنفس اى بشرا مثلكم (انظر كيف ضربوا لك الامثال) اى مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون (فضلوا) فى جميع ذلك عن منهاج المحاجة (فلا يستطيعون سبيلا) الى طعن يمكن ان يقبله احد فيتهافتون ويخبطون ويأتون بما لا يرتاب فى بطلانه احد او الى سبيل الحق والرشاد وفيه من الوعيد وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم

من كونه تعالى عالما قادرا كونه حيا وذلك جهل وكفر لان من المعلوم بالضرورة ان من ليس بحى لم يكن عالما قادرا متكلما هذا هو القول الذى اطبق العلماء المحققون عليه ومن الناس من قال ان الجمادات وانواع النبات والحيوان كلها تسبح لله تعالى واحتجوا على صحة قولهم بأن قالوا دل هذا النص على كونها مسبحة لله تعالى ولا يمكن تفسير هذا التسبيح بكونها دلائل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته لانه تعالى قال ولكن لاتفقهون تسبيحهم فهذا يقتضى ان تسبيح هذه الاشياء غير معلوم لنا ودلالتها على وجود قدرة الله وحكمته معلوم والمعلوم مغاير لما هو غير معلوم فدل على انها تسبح الله تعالى وان تسبيحها غير معلوم لنا فوجب ان يكون التسبيح المذكور فى هذه الآية مغايرا لكونها دالة على وجود قدرة الله لنا وحكمته والجواب عنه من وجوه (الاول) انك اذا أخذت تفاحة واحدة فتلك التفاحة مركبة من عدد كثير من الاجزاء التى لاتتجزأ وكل واحد من تلك الاجزاء دليل تام مستقل على وجود الاله ولكل واحد من تلك الاجزاء التى لاتتجزأ صفات مخصوصة من الطبع والطعم واللون والرائحة والحيز والجهة واختصاص ذلك الجواهر الفرد بتلك الصفة المعينة من الجائزات فلا يحصل ذلك الاختصاص الا بتخصيص مخصص قادر حكيم اذا عرفت هذا فقد ظهر ان كل واحد من اجزاء تلك التفاحة دليل تام على وجود الاله وكل صفة من الصفات القائمة بذلك الجزء الواحد فهو ايضا دليل تام على وجود الاله تعالى ثم عدد تلك الاجزاء غير معلوم واحوال تلك الصفات غير معلومة فلهذا المعنى قال تعالى ولكن لاتفقهون تسبيحهم (والوجه الثانى) هو ان الكفار وان كانوا يقرون بألسنتهم باثبات اله العالم الا انهم ماكانوا يتفكرون فى انواع الدلائل ولهذا المعنى قال تعالى وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون فكان المراد من قوله ولكن لاتفقهون تسبيحهم هذا المعنى (والوجه الثالث) ان القوم وان كانوا مقرين بألسنتهم باثبات اله العالم الا انهم ماكانوا عالمين بكمال قدرته ولذلك فانهم استبعدوا كونه تعالى قادرا على الحشر والنشر فكان المراد ذلك وايضا فانه تعالى قال لمحمد صلى الله عليه وسلم قل لو كان معه آلهة كما تقولون اذاً لابتغوا الى ذى العرش سبيلا فهم ماكانوا عالمين بهذا الدليل فلما ذكر هذا الدليل قال تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن فتسبيح السموات والارض ومن فيهن يشهد بصحة هذا الدليل وقوته وانتم لاتفقهون هذا الدليل ولا تعرفونه بل نقول ان القوم كانوا غافلين عن اكثر دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد فكان المراد من قوله ولكن لاتفقهون تسبيحهم ذلك ومما يدل على ان الامر كما ذكرناه قوله انه كان حليما غفورا فذكر الحليم والغفور ههنا يدل على ان كونهم بحيث لايفقهون ذلك التسبيح جرم عظيم صدر عنهم وهذا انما يكون جرما اذا كان المراد من ذلك التسبيح كونها دالة على كمال قدرة الله تعالى وحكمته ثم انهم لغفلتهم وجهلهم ماعرفوا وجه دلالة تلك الدلائل اما لو حملنا هذا التسبيح

مالايخفى (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا) استفهام انكارى مفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار للبعث بعد مآل الحال الى هذا المآل لما بين غضاضة الحى ويبوسة الرميم من التنافى كأن استحالة الامر من الظهور بحيث لا يقدر المخاطب على التكلم به والرفات مابولغ فى دقه وتفتيته وقال الفراء هو التراب وهو قول مجاهد وقيل هو الحطام واذا متمحضة للظرفية وهو الاظهر والعامل فيها مادل عليه قوله تعالى (أئنا لمبعوثون) لانفسه لان مابعد ان والهمزة واللام لايعمل فيما قبلها وهو نبعث او نعاد وهو المرجع للانكار وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيصه به فانهم منكرون للاحياء بعد الموت وان كان البدن على حاله بل لتقوية الانكار للبعث بتوجيهه اليه فى حالة منافية له وتكرير الهمزة فى قولهم أئنا لتأكيد النكير وتحلية الجملة بان واللام لتأكيد الانكار لا لانكار التأكيد كما عسى يتوهم من ظاهر النظم فان تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما فى مثل قوله تعالى أفلا تعقلون ونظائره على رأى الجمهور فان المعنى عندهم تعقيب الانكار لا لانكار التعقيب كما هو المشهور وليس مدار انكارهم كونهم ثابتين فى المبعوثية بالفعل فى حال كونهم

على ان هذه الجمادات تسبح الله بأقوالها والفاظها لم يكن عدم الفقه لتلك التسبيحات جرما ولاذنبا واذا لم يكن ذلك جرما ولاذنبا لم يكن قوله انه كان حليما غفورا لائقا بهذا الموضع فهذا وجه قوى فى نصرة القول الذى اخترناه واعلم ان القائلين بأن هذه الجمادات والحيوانات تسبح الله بألفاظها اضافوا الى كل حيوان نوعا آخر من التسبيح وقالوا انها اذا ذبحت لم تسبح مع انهم يقولون ان الجمادات تسبح الله فاذا كان كونه جمادا لايمنع من كونه مسبحا فكيف صار ذبح الحيوان مانعاله من التسبيح وقالوا ايضا ان غصن الشجرة اذا كسر لم يسبح واذا كان كونه جمادا لم يمنع من كونه مسبحا فكسره كيف يمنع من ذلك فعلم ان هذه الكلمات ضعيفة والله اعلم (المسئلة الثانية) قوله تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن تصريح باضافة التسبيح الى السموات والارض والى المكلفين الحاصلين فيهن وقد دللنا على ان التسبيح المضاف الى الجمادات ليس الا بمعنى الدلالة على تنزيه الله تعالى واطلاق لفظ التسبيح على هذا المعنى مجاز واما التسبيح الصادر عن المكلفين وهو قولهم سبحان الله فهذا حقيقة فيلزم ان يكون قوله تسبح لفظا واحدا قد استعمل فى الحقيقة والمجاز معا وانه باطل على ماثبت دليله فى اصول الفقه فالاولى ان يحمل هذا التسبيح على الوجه المجازى فى حق الجمادات لافى حق العقلاء لئلا يلزم ذلك المحذور والله اعلم ❊ قوله تعالى (واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفى آذانهم وقرا واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على ادبارهم نفورا نحن اعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذهم نجوى اذ يقول الظالمون ان تتبعون الارجلا مسحورا انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلايستطيعون سبيلا) اعلم انه تعالى لما تكلم فى الآية المتقدمة فى المسائل الالهية تكلم فى هذه الآية فيما يتعلق بتقرير النبوة وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله واذا قرأت القرآن قولان (الاول) ان هذه الآية نزلت فى قوم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأ القرآن على الناس روى انه عليه الصلاة والسلام كان كلما قرأ القرآن قام عن يمينه رجلان وعن يساره آخران من ولد قصى يصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالاشعار وعن اسماء انه صلى الله عليه وسلم كان جالسا ومعه ابو بكر اذ اقبلت امرأة ابى لهب ومعها فهر تريد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى تقول * مذمما أتينا * ودينه قلينا * وامره عصينا * فقال ابو بكر يارسول الله معها فهر اخشاها عليك فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فجاءت فارأت رسول الله عليه الصلاة والسلام وقالت ان قريشا قد علمت انى ابنة سيدها وان صاحبك هجانى فقال ابو بكر لاورب هذا البيت ماهجاك وروى ابن عباس ان اباسفيان والنضر بن الحرث واباجهل وغيرهم كانوا يجالسون النبى صلى الله عليه وسلم ويستمعون الى حديثه فقال النضر يوما ماادرى مايقول محمد غير انى أرى شفتيه تتحرك بشئ وقال ابو سفيان انى لارى

عظاما ورفاتا كما يتراءى من ظاهر الجملة الاسمية بل كونهم بعرضية ذلك واستعدادهم له ومرجعه الى انكار البعث بعد تلك الحالة وفيه من الدلالة على غلوهم فى الكفر وتماديهم فى الضلال مالا مزيد عليه (خلقا جديدا) نصب على المصدر من غير لفظه او الحالية على ان الخلق بمعنى المخلوق (قل) جوابا لهم وتقريبا لما استبعدوه (كونوا حجارة او حديدا او خلقا آخر (مما يكبر فى صدوركم) اى يعظم عندكم عن قبول الحياة لكمال المباينة والمنافاة بينها وبينه فانكم مبعوثون ومعادون لامحالة (فسيقولون من يعيدنا) مع مابيننا وبين الاعادة من مثل هذه المباعدة والمباينة (قل) لهم تحقيقا للحق وازاحة للاستبعاد وارشادا لهم الى طريقة الاستدلال (الذى) اى يعيدكم القادر العظيم الذى (فطركم) اخترعكم (اول مرة) من غير مثال يحتذيه ولااسلوب ينتحيه وكنتم ترابا ماشم رائحة الحياة أليس الذى يقدر على ذلك بقادر على ان يعيد العظام البالية الى حالتها المعهودة بلى انه على كل شئ قدير (فسينغضون اليك رؤسهم) اى سيحركونها نحوك تعجبا وانكارا (ويقولون) استهزاء (متى هو) اى ماذكرته من الاعادة (قل) لهم (عسى ان يكون) ذلك (قريبا)

بعض ما نقوله حقا وقال ابو جهل هو مجنون وقال ابو لهب هو كاهن وقال حويطب بن عبد العزى هو شاعر فنزلت هذه الآية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد تلاوة القرآن قرأ قبلها ثلاث آيات وهي قوله في سورة الكهف انا جعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقرا وفي النحل أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وفي حم الجاثية افرأيت من اتخذ الهه هواه الى آخر الآية فكان الله تعالى يحجبه ببركات هذه الآيات عن عيون المشركين وهو المراد من قوله تعالى جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا وفيه سؤال وهو انه كان يجب ان يقال حجابا ساترا والجواب عنه من وجوه (الاول) ان ذلك الحجاب حجاب يخلقه الله تعالى في عيونهم بحيث يمنعهم ذلك الحجاب عن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم وذلك الحجاب شيء لا يراه احد فكان مستورا ومن هذا الوجه احتج اصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم في انه يجوز ان تكون الحاسة سليمة ويكون المرئي حاضرا مع انه لا يراه ذلك الانسان لاجل ان الله تعالى خلق في عينيه مانعا يمنعه عن رؤيته بهذه الآية قالوا ان النبي صلى الله عليه وسلم كان حاضرا وكانت حواس الكفار سليمة ثم انهم ما كانوا يرونه واخبر الله تعالى ان ذلك انما كان لاجل انه جعل بينه وبينهم حجابا مستورا والحجاب المستور لا معنى له الا المعنى الذي خلقه الله تعالى في عيونهم وكان ذلك المعنى مانعا لهم من ان يروه ويبصروه (والوجه الثاني) في الجواب انه كما يجوز ان يقال لابن وتامر بمعنى ذو لبن وذو تمر فكذلك لا يبعد ان يقال مستورا معناه ذو ستر والدليل عليه قولهم مرطوب اي ذو رطوبة ولا يقال رطبة ويقال مكان مهول اي فيه هول ولا يقال هلت المكان بمعنى جعلت فيه الهول ويقال جارية مغنوجة ذات غنج ولا يقال غنجتها (والوجه الثالث) في الجواب قال الاخفش المستور ههنا بمعنى الساتر فان الفاعل قد يجيء بلفظ المفعول كما يقال انك لمشؤم علينا وميمون وانما هو شائم ويامن لانه من قولهم شأمهم ويمنهم هذا قول الاخفش وتابعه عليه قوم الا ان كثيرا منهم طعن في هذا القول والحق هو الجواب الاول (والقول الثاني) ان معنى الحجاب الطبع الذي على قلوبهم والطبع والمنع الذي منعهم عن ان يدركوا لطائف القرآن ومحاسنه وفوائده فالمراد من الحجاب المستور ذلك الطبع الذي خلقه الله في قلوبهم ثم قال تعالى وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقرا وهذه الآية مذكورة بعينها في سورة الانعام وذكرنا استدلال اصحابنا بها وذكرنا سؤالات المعتزلة ولا بأس باعادة بعضها قال الاصحاب دلت هذه الآية على انه تعالى جعل قلوبهم في الاكنة والاكنة جمع كنان وهو ما ستر الشيء مثل كنان النبل وقوله ان يفقهوه اي لئلا يفقهوه وجعل في آذانهم وقرا ومعلوم انهم كانوا عقلاء سامعين فاهمين فعلمنا ان المراد منعهم عن الايمان ومنعهم عن سماع القرآن بحيث لا يقفون على اسراره ولا يفهمون دقائقه وحقائقه قالت المعتزلة ليس المراد من الآية ما ذكرتم بل المراد منه وجوه اخرى (الاول) قال الجبائي كانوا يطلبون موضعه

نصب على انه خبر ليكون او ظرف على ان كان تامة اي ان يقع في زمان قريب ومحل ان مع ما في حيزها اما نصب على انه خبر لعسى وهي ناقصة واسمها ضمير عائد الى ما عاد اليه هو اي عسى البعث ان يكون قريبا اوعسى البعث يقع في زمان قريب او رفع على انه فاعل لعسى وهي تامة اي عسى كونه قريبا او وقوعه في زمان قريب (يوم يدعوكم) منصوب بفعل مضمر اي اذكروا او على انه بدل من قريبا على انه ظرف او يكون تامة بالاتفاق او ناقصة عند من يجوز اعمال الناقصة في الظروف او بضمير المصدر المستكن في عسى او يكون اعني البعث عند من يجوز اعمال ضمير المصدر كما في قول زهير

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم

فهو ضمير المصدر وقد تعلق به ما بعده من الجار (فتستجيبون) اي يوم يبعثكم فتبعثون وقد استعير لهما الدعاء والاجابة ايذانا بكمال سهولة التأتي وبأن المقصود منهما الاحضار للمحاسبة والجواب (بحمده) حال من ضمير تستجيبون اي منقادين له حامدين لما فعل بكم غير مستعصين او حامدين له تعالى على كمال قدرته عند مشاهدة آثارها ومعاينة احكامها (وتظنون) عطف على

فى الليالى لينتهوا اليه ويؤذونه ويستدلون على مبيته باستماع قراءته فأمنه الله تعالى من شرهم وذكر له انه جعل بينه وبينهم حجابا لايمكنهم الوصول اليه معه وبين انه جعل فى قلوبهم مايشغلهم عن فهم القرآن وفى آذانهم مايمنع من سماع صوته ويجوز ان يكون ذلك مرضا شاغلا يمنعهم عن المصير اليه والتفرغ له لا انه حصل هناك كن للقلب ووقر فى الاذن (الثانى) قال الكعبى ان القوم لشدة امتناعهم عن قبول دلائل محمد صلى الله عليه وسلم صاروا كأنه حصل بينهم وبين تلك الدلائل حجاب مانع وساتر وانما نسب الله تعالى ذلك الحجاب الى نفسه لانه لما خلاهم مع انفسهم وما منعهم عن ذلك الاعراض صارت تلك التخلية كأنها هى السبب لوقوعهم فى تلك الحالة وهذا مثل ان السيد اذا لم يراقب احوال عبده فاذا ساءت سيرته فالسيد يقول انا الذى القيتك فى هذه الحالة بسبب انى خليتك مع رأيك وما راقبت احوالك (الثالث) قال القفال انه تعالى لما خذلهم بمعنى انه لم يفعل الالطاف الداعية لهم الى الايمان صح ان يقال انه فعل الحجاب الساتر واعلم ان هذه الوجوه مع كلمات اخرى ذكرناها فى سورة الانعام وأجبنا عنها فلا فائدة فى الاعادة ثم قال تعالى واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على ادبارهم نفورا واعلم ان المراد ان القوم كانوا عند استماع القرآن على حالتين لانهم اذا سمعوا من القرآن ماليس فيه ذكر الله تعالى بقوا مبهوتين متحيرين لايفهمون منه شيئا واذا سمعوا آية فيها ذكر الله تعالى وذم الشرك بالله ولوا نفورا وتركوا ذلك المجلس وذكر الزجاج فى قوله ولوا على ادبارهم نفورا وجهين (الاول) المصدر والمعنى ولوا نافرين نفورا (والثانى) ان يكون نفورا جمع نافر مثل شهود وشاهد وركوع وراكع وسجود وساجد وقعود وقاعد ثم قال تعالى نحن اعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك اى نحن اعلم بالوجه الذى يستمعون به وهو الهزؤ والتكذيب وبه فى موضع الحال كما تقول مستمعين بالهزؤ واذ يستمعون نصب بأعلم اى اعلم وقت استماعهم بما به يستمعون واذهم نجوى اى وبما يتناجون به اذهم ذو نجوى اذ يقول الظالمون بدل من قوله واذهم نجوى ان تتبعون الا رجلا مسحورا وفيه مباحث (الاول) قال المفسرون امر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا ان يتخذ طعاما ويدعو اليه اشراف قريش من المشركين ففعل على عليه السلام ذلك ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم الى التوحيد وقال قولوا لا اله الا الله حتى تطيعكم العرب وتدين لكم العجم فأبوا عليه ذلك وكانوا عند استماعهم من النبى صلى الله عليه وسلم القرآن والدعوة الى الله تعالى يقولون بينهم متناجين هو ساحر وهو مسحور وما اشبه ذلك من القول فأخبر الله تعالى نبيه بأنهم يقولون ان تتبعون الا رجلا مسحورا فان قيل انهم لم يتبعوا رسول الله فكيف يصح ان يقولوا ان تتبعون الا رجلا مسحورا قلنا معناه انكم ان اتبعتموه فقد اتبعتم رجلا مسحورا والمسحور الذى قد سحر فاختلط عليه عقله وزال عن حد الاستواء هذا هو القول الصحيح وقال بعضهم المسحور هو

تستجيبون اى تطنون عندما ترون ماترون من الامور الهائلة (ان لبثتم) اى مالبثتم فى القبور (الا قليلا) كالذى مر على قرية اوما لبثتم فى الدنيا (وقل لعبادى) اى المؤمنين (يقولوا) عند محاورتهم مع المشركين (التى) اى الكلمة التى (هى احسن) ولا يخاشنوهم كقوله تعالى ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هى احسن (ان الشيطان ينزغ بينهم) اى يفسد ويهيج الشر والمراء ويغرى بعضهم على بعض لتقع بينهم المشاقة والمشارة والمعارة والمضارة فلعل ذلك يؤدى الى تأكد العناد وتمادى الفساد فهو تعليل للامر السابق وقرئ بكسر الزاى (ان الشيطان كان) قدما (للانسان عدوا مبينا) ظاهر العداوة وهو تعليل لما سبق من ان الشيطان ينزغ بينهم (ربكم اعلم بكم ان يشأ يرحمكم) بالتوفيق للايمان (اوان يشأ يعذبكم) بالاماتة على الكفر وهذا تفسير التى هى احسن وما بينهما اعتراض اى قولوا لهم هذه الكلمة ومايشاكلها ولا تصرحوا بأنهم من اهل النار فانه مما يهيجهم على الشر مع ان العاقبة مما لا يعلمه الا الله سبحانه فعسى يهديهم الى الايمان (وما ارسلناك عليهم وكيلا) موكولا اليك امورهم تقسرهم على الايمان وانما ارسلناك بشيرا ونذيرا فدارهم ومر اصحابك.

الذى افسد يقال طعام مسحور اذا افسد عمله وارض مسحورة اصابها من المطر اكثر مما ينبغى فأفسدها وقال ابو عبيدة يريد بشرا ذا سحراى ذارئة قال ابن قتيبة ولا ادرى ماالذى حمله على هذا التفسير المستكره مع ان السلف فسروه بالوجوه الواضحة وقال مجاهد مسحورا اى مخدوعا لان السحر حيلة وخديعة وذلك لان المشركين كانوا يقولون ان محمدا يتعلم من بعض الناس هذه الكلمات واولئك الناس يخدعونه بهذه الكلمات وهذه الحكايات فلذلك قالوا انه مسحور اى مخدوع وايضا كانوا يقولون ان الشيطان يتخيل له فيظن انه ملك فقالوا انه مخدوع من قبل الشيطان ثم قال انظر كيف ضربوا لك الامثال اى كل احد شبهك بشئ آخر فقالوا انه كاهن وساحر وشاعر ومعلم ومجنون فضلوا عن الحق والطريق المستقيم فلا يستطيعون سبيلا الى الهدى والحق ❋ قوله تعالى (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا قل كونوا حجارة او حديدا او خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم اول مرة فسينغضون اليك رؤسهم ويقولون متى هو قل عسى ان يكون قريبا يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا) اعلم انه تعالى لما تكلم اولا فى الالهيات ثم اتبعه بذكر شبهاتهم فى النبوات ذكر فى هذه الآية شبهات القوم فى انكار المعاد والبعث والقيامة وقد ذكرنا كثيرا ان مدار القرآن على المسائل الاربعة وهى الالهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر وايضا ان القوم وصفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكونه مسحورا فاسد العقل فذكروا من جملة ما يدل على فساد عقله انه يدعى ان الانسان بعد ما يصير عظاما ورفاتا فانه يعود حيا عاقلا كما كان فذكروا هذا الكلام رواية عنه لتقرير كونه مختل العقل قال الواحدى رحمه الله الرفت كسر الشئ بيدك تقول رفته ارفته بالكسر كما يرفت المدر والعظم البالى والرفات الاجزاء المتفتتة من كل شئ يكسر ويقال رفت عظام الجزور رفتا اذا كسرها ويقال للتبن الرفت لانه دقاق الزرع قال الاخفش رفت رفتا فهو مرفوت نحو حطم حطما فهو محطوم والرفات والحطام الاسم كالجذاذ والرضاض والفتات فهذا ما يتعلق باللغة اما تقرير شبهة القوم فهى ان الانسان اذا مات جفت اعضاؤه وتناثرت وتفرقت فى حوالى العالم فاختلط بتلك الاجزاء سائر اجزاء العالم اما الاجزاء المائية فى البدن فتختلط بمياه العالم واما الاجزاء الترابية فتخلط بتراب العالم واما الاجزاء الهوائية فتختلط بهواء العالم واما الاجزاء النارية فتختلط بنار العالم واذا صار الامر كذلك فكيف يعقل اجتماعها بأعيانها مرة أخرى وكيف يعقل عود الحياة اليها بأعيانها مرة أخرى فهذا هو تقرير الشبهة والجواب عنها ان هذا الاشكال لا يتم الا بالقدح فى كمال علم الله وفى كمال قدرته اما اذا سلمنا كونه تعالى عالما بجميع الجزئيات فحينئذ هذه الاجزاء وان اختلطت بأجزاء العالم الا انها متمايزة فى علم الله تعالى ولما سلمنا كونه تعالى قادرا على كل الممكنات كان قادرا على اعادة التأليف والتركيب والحياة والعقل الى تلك

بالمدارة والاحتمال وترك المحاقة والمشاقة وذلك قبل نزول آية السيف وقيل نزلت فى عمر رضى الله عنه شتمه رجل فامر بالعفو وقيل افرط اذية المشركين بالمؤمنين فشكوا الى رسول الله صلى الله عليه فنزلت وقيل الكلمة التى هى احسن ان يقولوا يهديكم الله يرحمكم الله (وربك اعلم بمن فى السموات والارض) وتفاصيل احوالهم الظاهرة والكامنة التى بها يستأهلون الاصطفاء والاجتباء فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء ممن يستحقه وهو رد عليهم اذ قالوا بعيد ان يكون يتيم ابى طالب نبيا وان يكون العراة الجوع اصحابه دون ان يكون ذلك من الاكابر والصناديد وذكر من فى السموات لابطال قولهم لولا انزل علينا الملائكة وذكر من فى الارض لرد قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) بالفضائل النفسانية والتنزه عن العلائق الجسمانية لا بكثرة الاموال والاتباع (وآتينا داود زبورا) بيان لحيثية تفضيله عليه الصلاة والسلام فان ذلك ايتاء الزبور لا ايتاء الملك والسلطنة وفيه ايذان بتفضيل النبى عليه الصلاة والسلام فان نعوته الجليلة وكونه خاتم النبيين مسطورة فى الزبور وان المراد بعباد الله

الاجزاء بأعيانها فثبت انا متى سلمنا كمال علم الله وكمال قدرته زالت هذه الشبهة بالكلية اماقوله تعـالى قل كونوا حجارة اوحديدا فالمعنى ان القوم استبعدوا ان يردهم الى حال الحياة بعد ان صاروا عظاما ورفاتا وهي وان كانت صفة منافية لقبول الحياة بحسب الظاهر لكن قدروا انتهاء هذه الاجسام بعد الموت الى صفة اخرى اشد منافاة لقبول الحياة من كونها عظاما ورفاتا مثل ان تصير حجـارة اوحديدا فان المنافاة بين الحجرية والحديدية وبين قبول الحياة اشـد من المنافاة بين العظمية وبين قبول الحياة وذلك ان العظم قدكان جزأ من بدن الحي اما الحجارة والحديد فاكانا البتة موصوفين بالحياة فبتقدير ان تصير ابدان الناس موصوفة بصفة الحجرية والحديدية بعد الموت فان الله تعالى يعيد الحياة اليها ويجعلها حيا عاقلا كما كان والدليل على صحة ذلك ان تلك الاجسام قابلة للحياة والعقل اذلولم يكن هذا القبول حاصلا لماحصل العقل والحياة لها في اول الامر واله العالم عالم بجميع الجزئيات فلاتشتبه عليه اجزاء بدن زيد المطيع بأجزاء بدن عمرو العاصي وقادر على كل الممكنات واذاثبت ان عود الحياة الى تلك الاجزاء ممكن في نفسه وثبت ان اله العالم عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات كان عود الحياة الى تلك الاجزاء ممكنا قطعا سواء صارت عظاما ورفاتا او صارت شيئا ابعد من العظم في قبول الحيات وهي ان تصير حجـارة اوحديدا فهذا تقرير هذا الكلام بالدليل العقلي القاطع وقوله كونوا حجارة اوحديدا ليس المراد منه الامر بل المراد انكم لو كنتم كذلك لما اعجزتم الله تعالى عن الاعادة وذلك كقول القائل للرجل أتطمع في وانا فلان فيقول كن من شئت كن ابن الخليفة فسأطلب منك حقي فان قيل ماالمراد بقوله اوخلقا مما يكبر في صدوركم قلنا المراد كون الحجر والحديد قابلا للحياة امر مسـتبعد فقيل لهم فافرضوا شيئا آخر ابعد عن قبول الحياة من الحجر والحديد بحيث يستبعد عقلكم كونه قابلا للحياة وعلى هذا الوجه فلاحاجة الى ان تعين ذلك الشيء لان المراد ان ابدان الناس وان انتهت بعد موتها الى اي صفة فرضت واي حالة قدرت وان كانت في غاية البعد عن قبول الحياة فان الله تعالى قادر على اعادة الحياة اليها واذا كان المراد من الآية هذا المعنى فلاحاجة الى تعيين ذلك الشيء وقال ابن عباس المراد منه الموت يعني لو صارت ابدانكم نفس الموت فان الله تعالى يعيد الحياة اليها واعلم ان هذا الكلام انما يحسن ذكره على سبيل المبالغة مثل ان يقال لو كنت عين الحياة فالله يميتك ولو كنت عين الغنى فان الله يفقرك فهذا قد ذكر على سبيل المبالغة اما في نفس الامر فهذا محال لان ابدان الناس اجسام والموت عرض والجسم لاينقلب عرضا ثم بتقدير ان ينقلب عرضا فالموت لايقبل الحياة لان احد الضدين يمتنع اتصافه بالضد الآخر وقال مجاهد يعني السماء والارض ثم قال فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم اول مرة والمعنى انه لما قال لهم كونوا حجارة اوحديدا او شيئا ابعد في قبول الحياة من هذين الشيئين فان اعادة الحياة اليه ممكنة فعندذلك قالوا من هذا

الصالحين في قوله تعالى ان الارض يرثها عبادي الصـالحون هو النبي عليه الصلاة والسلام وامته وتعريف الزبور تارة وتنكيره اخرى اما لانه في الاصل فعول بمعنى المفعول كالحلوب اومصدر بمعنـاه كالقبول واما لان المراد آتينا داود زبورا من الزبر او بعضا من الزبور فيه ذكره عليه الصلاة والسلام وقرئ بضم الزاي على انه جمع زبر بمعـنى مزبور ( قل ادعوا الذين زعمتم ) انها آلهة (من دونه) تعالى من الملائكة والمسيح وعزير ( فلا يملكون )فلايستطيعون( كشف الضر عنكم ) بالمرة كالمرض والفقر والقحط ونحو ذلك(ولا تحويلا ) اي ولاتحويله الى غيركم (اولئك الذين يدعون) اي اولئك الآلهة الذين يدعوهم المشركون من المذكـورين ( يبتغون ) يطلبون لانفسهم ( الى ربهم ) ومالك امورهم (الوسيلة) القربة بالطاعة والعبادة (ايهم اقرب) بدل من فاعل يبتغون واي موصولة اي يبتغي من هو اقرب اليه تعالى الوسيلة فكيف بمن دونه اوضمن الابتغـاء معـنى الحرص فكأنه قيل يحرصون ايهم يكون اقرب اليه تعـالى بالطاعة والعبـادة( ويرجون رحمته )بها(ويخافون عذابه ) بتركها كدأب سائر العباد فأين هم من كشف الضر فضـلا عن

الذي يقدر على اعادة الحياة اليه قال تعالى قل يامحمد الذي فطركم اول مرة يعني ان القول بصحة الاعادة فرع على تسليم ان خالق الحيوانات هو الله تعالى فاذا ثبت ذلك فنقول ان تلك الاجسام قابلة للحياة والعقل واله العالم قادر لذاته فلا يبطل علمه وقدرته البتة فالقادر على الابتداء يجب ان يبقى قادرا على الاعادة وهذا كلام تام وبرهان قوى ثم قال تعالى فسينغضون اليك رؤسهم قال الفراء يقال انغض فلان رأسه ينغضه انغاضا اذا حركه الى فوق والى اسفل وسمى الظليم نغضا لانه يحرك رأسه وقال ابو الهيثم يقال للرجل اذا اخبر بشئ فحرك رأسه انكارا له قد انغض رأسه فقوله فسينغضون اليك رؤسهم يعني يحركونها على سبيل التكذيب والاستبعاد ثم قال تعالى ويقولون متى هو واعلم ان هذا السؤال فاسد لانهم حكموا بامتناع الحشر والنشر بناء على الشبهة التي حكيناها ثم ان الله تعالى بين بالبرهان الباهر كونه ممكنا في نفسه فقولهم متى هو كلام لا تعلق له بالبحث الاول فانه لما ثبت بالدليل العقلي كونه ممكن الوجود في نفسه وجب الاعتراف بامكانه فأما انه متى يوجد فذلك لا يمكن اثباته من طريق العقل بل انما يمكن اثباته بالدلائل السمعية فان اخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المعين عرف والا فلا سبيل الى معرفته واعلم انه تعالى بين في القرآن انه لا يطلع احدا من الخلق على وقته المعين فقال ان الله عنده علم الساعة وقال انما علمها عند ربي وقال ان الساعة آتية أكاد اخفيها فلا جرم قال تعالى قل عسى ان يكون قريبا قال المفسرون عسى من الله واجب معناه انه قريب فان قالوا كيف يكون قريبا وقد انقرض ستمائة سنة ولم يظهر قلنا اذا كان مامضى اكثر مما بقي كان الباقي قريبا قليلا ثم قال تعالى يوم يدعوكم وفيه قولان (الاول) انه خطاب مع الكفار بدليل ان ماقبل هذه الآية كله خطاب مع الكفار ثم نقول انتصب يوما على البدل من قوله قريبا والمعنى عسى ان يكون البعث يوم يدعوكم اى بالنداء الذي يسمعكم وهو النفخة الاخيرة كما قال يوم يناد المناد من مكان قريب يقال ان اسرافيل ينادى أيتها الاجساد البالية والعظام النخرة والاجزاء المتفرقة عودى كما كنت بقدرة الله تعالى وباذنه وتكوينه وقال تعالى يوم يدعو الداع الى شئ نكر وقوله فتستجيبون بحمده اى تجيبون والاستجابة موافقة الداعي فيما دعا اليه وهي الاجابة الا ان الاستجابة تقتضى طلب الموافقة فهي اوكد من الاجابة وقوله بحمده قال سعيد بن جبير يخرجون من قبورهم وينقضون التراب عن رؤسهم ويقولون سبحانك وبحمدك فهو قوله فتستجيبون بحمده وقال قتادة بمعرفته وطاعته وتوجيه هذا القول انهم لما أجابوا بالتسبيح والتحميد كان ذلك معرفة منهم وطاعة ولكنهم لا ينفعهم ذلك في ذلك اليوم فلهذا قال المفسرون حمدوا حين لا ينفعهم الحمد وقال اهل المعاني تستجيبون بحمده اى تستجيبون حامدين كما يقال جاء بغضبه اى جاء غضبان وركب الامير بسيفه اى وسيفه معه وقال صاحب الكشاف بحمده حال منهم اى حامدين وهذا مبالغة في انقيادهم للبعث كقولك لمن

(تأمره)

الالهية (ان عذاب ربك كان محذورا) حقيقا بان يحذره كل احد حتى الملائكة والرسل عليهم الصلاة والسلام وهو تعليل لقوله تعالى ويخافون عذابه وتخصيصه بالتعليل لما ان المقام مقام التحذير من العذاب وان بينهم وبين العذاب بونا بعيدا (وان من قرية) بيان لتحتم حلول عذابه تعالى بمن لا يحذره اثر بيان انه حقيق بالحذر وان اساطين الخلق من الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام على حذر من ذلك وكلمة ان نافية ومن استغراقية والمراد بالقرية القرية الكافرة اى مامن قرية من قرى الكفار (الا نحن مهلكوها) اى مخربوها البتة بالخسف بها او باهلاك اهلها بالمرة لما ارتكبوا من عظائم الموبقات المستوجبة لذلك وفي صيغة الفاعل وان كانت بمعنى المستقبل ماليس فيه من الدلالة على التحقق والتقرر وانما قيل (قبل يوم القيامة) لان الاهلاك يومئذ غير مختص بالقرى الكافرة ولا هو بطريق العقوبة وانما هو لانقضاء عمر الدنيا (او معذبوها) اى معذبو اهلها على الاسناد المجازى (عذابا شديدا) لا بالقتل والسبي ونحوهما من البلايا الدنيوية فقط بل بما لا يكتنه كنهه من فنون العقوبات الاخروية ايضا حسبما يفصح عنه اطلاق التعذيب عما قيد به الاهلاك من

تأمره بعمل يشق عليه ستأتى به وانت حامدشا كراى ستنتهى الى حالة تحمدالله وتشكره على انا كتفى منك بذلك العمل وهذا يذكر فى معرض التهديد ثم قال وتظنون ان لبثتم الا قليلا قال ابن عباس يريد بين النفختين الاولى والثانية فانه يزال عنهم العذاب فى ذلك الوقت والدليل عليه قوله فى سورة يس من بعثنا من مرقدنا فظنهم بأن هذا البث قليل عائد الى لبثهم فيما بين النفختين وقال الحسن معناه تقريب وقت البعث فكأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل فهذا يرجع الى استقلال مدة اللبث فى الدنيا وقيل المراد استقلال لبثهم فى عرصة القيامة لانه لما كانت عاقبة امرهم الدخول فى النار استقصروا مدة لبثهم فى برزخ القيامة ( القول الثانى ) ان الكلام مع الكفار تم عند قوله عسى ان يكون قريبا واما قوله يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده فهو خطاب مع المؤمنين لا مع الكافرين لان هذا الكلام هو اللائق بالمؤمنين لانهم يستجيبون لله بحمده ويحمدونه على احسانه اليهم والقول الاول هو المشهور والثانى ظاهر الاحتمال ❊ قوله تعالى (وقل لعبادى يقولوا التى هى احسن ان الشيطان ينزغ بينهم ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا ربكم اعلم بكم ان يشأ يرحمكم او ان يشأ يعذبكم وما ارسلناك عليهم وكيلا وربك اعلم بمن فى السموات والارض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا ) اعلم ان قوله قل لعبادى فيه قولان ( الاول ) ان المراد به المؤمنون وذلك لان لفظ العباد فى اكثر آيات القرآن مختص بالمؤمنين قال تعالى فبشر عبادى الذين يستمعون القول وقال فادخلى فى عبادى وقال عينا يشرب بها عباد الله اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى لما ذكر الحجة اليقينية فى ابطال الشرك وهو قوله لو كان معه آلهة كما تقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا وذكر الحجة اليقينية فى صحة المعاد وهو قوله قل الذى فطركم اول مرة قال فى هذه الآية وقل يا محمد لعبادى اذا أردتم ايراد الحجة على المخالفين فاذكروا تلك الدلائل بالطريق الاحسن وهو ان لا يكون ذكر الحجة مخلوطا بالشتم والسب ونظير هذه الآية قوله ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وقوله ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هى احسن وذلك لان ذكر الحجة لو اختلط به شئ من السب والشتم لقابلوكم بمثله كما قال ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ويزداد الغضب وتتكامل النفرة ويمتنع حصول المقصود اما اذا وقع الاقتصار على ذكر الحجة بالطريق الاحسن الخالى عن الشتم والايذاء اثر فى القلب تأثيرا شديدا فهذا هو المراد من قوله وقل لعبادى يقولوا التى هى احسن ثم انه تعالى نبه على وجه المنفعة فى هذا الطريق فقال ان الشيطان ينزغ بينهم جامعا للفريقين اى متى صارت الحجة مرة ممزوجة بالبذاءة صارت سببا لثوران الفتنة ثم قال ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا والمعنى ان العداوة الحاصلة بين الشيطان وبين الانسان عداوة قديمة قال تعالى حكاية عنه ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم وقال كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر

---

قبلية يوم القيامة كيف لا وكثير من القرى العاتية العاصية قد اخرت عقوباتها الى يوم القيامة (كان ذلك ) الذى ذكر من الاهلاك والتعذيب ( فى الكتاب ) اى اللوح المحفوظ (مسطورا) مكتوبا لم يغادر منه شئ الا بين فيه بكيفياته واسبابه الموجبة له ووقته المضروب له هذا وقد قيل الهلاك للقرى الصالحة والعذاب للطالحة وعن مقاتل وجدت فى كتاب الضحاك بن مزاحم فى تفسيرها اما مكة فيخربها الحبشة وتهلك المدينة بالجوع والبصرة بالغرق والكوفة بالترك والجبال بالصواعق والرواجف واما خراسان فهلاكها ضروب ثم ذكرها بلدا بلدا وقال الحافظ ابو عمرو الدوانى فى كتاب الفتن انه روى عن وهب بن منبه ان الجزيرة آمنة فى الخراب حتى تخرب ارمينية وأرمينية آمنة حتى تخرب مصر ومصر آمنة حتى تخرب الكوفة ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة فاذا كانت الملحمة الكبرى فتحت قسطنطينية على يدى رجل من بنى هاشم وخراب الاندلس من قبل الزنج وخراب افريقية من قبل الاندلس وخراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها وخراب العراق من الجوع وخراب

قال انى برئ منك انى أخاف الله رب العالمين وقال واذ زين لهم الشيطان اعمالهم وقال
لا غالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم الى قوله انى برئ منكم ثم قال تعالى ربكم اعلم
بكم ان يشأ يرحمكم أو ان يشأ يعذبكم واعلم انا انما نتكلم الآن على تقدير ان قوله تعالى
قل لعبادى المراد به المؤمنون وعلى هذا التقدير فقوله ربكم اعلم بكم خطاب مع المؤمنين
والمعنى ان يشأ يرحمكم والمراد بتلك الرحمة الانجاء من كفار مكة وأذاهم او ان يشأ
يعذبكم بتسليطهم عليكم ثم قال وما ارسلناك يا محمد عليهم وكيلا اى حافظا وكفيلا
فاشتغل انت بالدعوة ولا شئ عليك من كفرهم فان شاء الله هدايتهم هداهم والافلا
( القول الثانى ) ان المراد من قوله وقل لعبادى الكفار وذلك لان المقصود من هذه
الآيات الدعوة فلا يبعد فى مثل هذا الموضع ان يخاطبوا بالخطاب الحسن ليصير ذلك
سببا لجذب قلوبهم وميل طباعهم الى قبول الدين الحق فكأنه تعالى قال يا محمد قل
لعبادى الذين أقروا بكونهم عبادا لى يقولوا التى هى احسن وذلك لانا قبل النظر فى
الدلائل والبينات نعلم بالضرورة ان وصف الله تعالى بالتوحيد والبراءة عن الشركاء
والاضداد احسن من اثبات الشركاء والاضداد ووصفه بالقدرة على الحشر والنشر بعد
الموت احسن من وصفه بالعجز عن ذلك وعرفهم انه لا ينبغى لهم ان يصروا على تلك
المذاهب الباطلة تعصبا للاسلاف لان الحامل على مثل هذا التعصب هو الشيطان
والشيطان عدو فلا ينبغى ان يلتفت الى قوله ثم قال لهم ربكم اعلم بكم ان يشأ يرحمكم بأن
يوفقكم للايمان والهداية والمعرفة وان يشأ يمتكم على الكفر فيعذبكم الا ان تلك
المشيئة غائبة عنكم فاجتهدوا انتم فى طلب الدين الحق ولا تصروا على الباطل والجهل لئلا
تصيروا محرومين عن السعادات الابدية والخيرات السرمدية ثم قال لمحمد صلى الله عليه
وسلم وما ارسلناك عليهم وكيلا اى لا تشدد الامر عليهم ولا تغلظ لهم فى القول والمقصود
من كل هذه الكلمات اظهار اللين والرفق لهم عند الدعوة فان ذلك هو الذى يؤثر فى
القلب ويفيد حصول المقصود ثم قال وربك اعلم بمن فى السموات والارض والمعنى انه
لما قال قبل ذلك ربكم اعلم بكم قال بعده ربك اعلم بمن فى السموات والارض بمعنى ان علمه
غير مقصور عليكم ولا على احوالكم بل علمه متعلق بجميع الموجودات والمعدومات
ومتعلق بجميع ذوات الارضين والسموات فيعلم حال كل واحد ويعلم ما يليق به من
المصالح والمفاسد فلهذا السبب فضل بعض النبيين على بعض وآتى موسى التوراة وداود
الزبور وعيسى الانجيل فلم يبعد ايضا ان يؤتى محمدا القرآن ولم يبعد ان يفضله على جميع
الخلق فان قيل ما السبب فى تخصيص داود عليه الصلاة والسلام فى هذا المقام بالذكر
قلنا فيه وجوه (الاول) انه تعالى ذكر انه فضل بعض النبيين على بعض ثم قال وآتينا داود
زبورا يعنى ان داود كان ملكا عظيما ثم انه تعالى لم يذكر ما آتاه من الملك وذكر ما آتاه من
الكتاب تنبيها على ان التفضيل الذى ذكره قبل ذلك المراد منه التفضيل بالعلم والدين

الكوفة من قبل عدو من ورائهم
يحصرهم حتى لا يستطيعون ان
يشربوا من الفرات قطرة وخراب
البصرة من قبل الغرق وخراب
الايلة من قبل عدو يحصرهم برا
وبحرا وخراب الرى من الديلم
وخراب خراسان من قبل التبت
وخراب التبت من قبل الصين
وخراب الهند واليمن من قبل
الجراد والسلطان وخراب مكة
من الحبشة وخراب المدينة من
قبل الجوع وعن ابى هريرة رضى
الله عنه ان النبى عليه الصلاة
والسلام قال آخر قرية من قرى
الاسلام خرابا المدينة وقد اخرجه
العمرى من هذا الوجه وانت
خبير بأن تعميم القرية لا يساعده
السباق ولا السياق ( وما منعنا
ان نرسل بالآيات ) اى الآيات
التى اقترحتها قريش من احياء
الموتى وقلب الصفا ذهبا ونحو
ذلك (الا أن كذب بها الاولون)
استثناء مفرغ من اعم الاشياء اى
وما منعنا ارسالها شئ من الاشياء
الا تكذيب الاولين بها حين
جاءتهم باقتراحهم وعدم ارساله
تعالى بها وان كان بمشيئته المبنية
على الحكم البالغة لا لمنع مانع عن
ذلك من التكذيب اوغيره
لاستحالة العجز عليه تعالى لكن
تكذيبهم المذكور بواسطة
استتباعه لاستئصالهم بحكم
السنة الالهية واستلزامه
لتكذيب الآخرين بحكم

لا بالمال ( الوجه الثانی ) ان السبب فی تخصیصه بالذکر انه تعالی کتب فی الزبور ان محمدا خاتم النبیین وان امته خیر الامم قال تعالی ولقد کتبنا فی الزبور من بعد الذکر ان الارض یرثها عبادی الصالحون وهم محمد وامته فان قیل هلا عرف کما فی قوله ولقد کتبنا فی الزبور قلنا التنکیر ههنا یدل علی تعظیم حاله لان الزبور عبارة عن المزبور فکان معناه الکتاب فکان معنی التنکیر انه کامل فی کونه کتابا ( الوجه الثالث ) ان السبب فیه ان کفار قریش ما کانوا اهل نظر وجدل بل کانوا یرجعون الی الیهود فی استخراج الشبهات والیهود کانوا یقولون انه لا نبی بعد موسی ولا کتاب بعد التوراة فنقض الله تعالی علیهم کلامهم بانزال الزبور علی داود وقرأ حمزة زبورا بضم الزای وذکرنا وجه ذلک فی آخر سورة النساء ❊ قوله تعالی (قل ادعوا الذین زعمتم من دونه فلا یملکون کشف الضر عنکم ولا تحویلا اولئک الذین یدعون یبتغون الی ربهم الوسیلة ایهم اقرب ویرجون رحمته ویخافون عذابه ان عذاب ربک کان محذورا ) اعلم ان المقصود من هذه الآیة الرد علی المشرکین وقد ذکرنا ان المشرکین کانوا یقولون لیس لنا اهلیة ان نشتغل بعبادة الله تعالی فنحن نعبد بعض المقربین من عباد الله وهم الملائکة انهم اتخذوا الذلک الملک الذی عبدوه تمثالا وصورة واشتغلوا بعبادته علی هذا التأویل والله تعالی احتج علی بطلان قولهم فی هذه الآیة فقال قل ادعوا الذین زعمتم من دونه ولیس المراد الاصنام لانه تعالی قال فی صفتهم اولئک الذین یدعون یبتغون الی ربهم الوسیلة وابتغاء الوسیلة الی الله تعالی لا یلیق بالاصنام البتة اذا ثبت هذا فنقول ان قوما عبدوا الملائکة فنزلت هذه الآیة فیهم وقیل انها نزلت فی الذین عبدوا المسیح وعزیرا وقیل ان قوما عبدوا نفرا من الجن فاسلم النفر من الجن وبقی اولئک الناس متمسکین بعبادتهم فنزلت هذه الآیة قال ابن عباس کل موضع فی کتاب الله تعالی ورد فیه لفظ زعم فهو کذب ثم انه تعالی احتج علی فساد مذهب هؤلاء ان الاله المعبود هو الذی یقدر علی ازالة الضرر وایصال المنفعة وهذه الاشیاء التی یعبدونها وهی الملائکة والجن والمسیح وعزیر لا یقدرون علی کشف الضر ولا علی تحصیل النفع فوجب القطع بانها لیست آلهة ولقائل ان یقول هذا الدلیل انما یتم اذا دللتم علی ان الملائکة لا قدرة لها علی کشف الضر ولا علی تحصیل النفع فما الدلیل علی ان الامر کذلک حتی یتم دلیلکم فان قلتم لانا نری ان اولئک الکفار کانوا یتضرعون الیها فلا تحصل الاجابة قلنا معارضة لذلک قد نری ایضا ان المسلمین یتضرعون الی الله تعالی فلا تحصل الاجابة والمسلمون یقولون ان القدر الحاصل من کشف الضر وتحصیل النفع انما یحصل من الله تعالی لا من الملائکة واولئک الکفار یقولون انه یحصل من الملائکة لا من الله تعالی وعلی هذا التقدیر فالدلیل غیر تام والجواب ان الدلیل تام کامل وذلک لان الکفار کانوا مقرین بان الملائکة عباد الله وخالق الملائکة وخالق العالم لا بد وان یکون اقدر من الملائکة واقوی منهم واکمل حالا منهم واذا ثبت

الاشتراک فی العتو والعناد وافضائه الی ان یحل بهم مثل ما حل بهم بحکم الشرکة فی الجریرة لما کان منافیا لارسال ما اقترحوه من الآیات لتعین التکذیب المستدعی للاستئصال المخالف لما جری به قلم القضاء من تأخیر عقوبات هذه الامة الی الآخرة لحکم باهرة من جملتها ما یتوهم من ایمان بعض اعقابهم عبر عن تلک المنافاة بالمنع علی نهج الاستعارة ایذانا بتعاضد مبادی الارسال لا کما زعموا من عدم ارادته تعالی لتأییده علیه الصلاة والسلام بالمعجزات وهو السر فی ایثار الارسال علی الایتاء لما فیه من الاشعار بتداعی الآیات الی النزول لولا ان تمسکها ید التقدیر واسناد هذا المنع الی تکذیب الاولین لا الی علمه تعالی بما سیکون من الآخرین کما فی قوله تعالی ولو علم الله فیهم خیرا لاسمعهم ولو اسمعهم لتولوا وهم معرضون لاقامة الحجة علیهم بابراز الانموذج وللایذان بأن مدار عدم الاجابة الی ایتاء مقترحهم لیس الا صنیعهم ( وآتینا ثمود الناقة ) عطف علی ما یفصح عنه النظم الکریم کأنه قیل وما منعنا ان نرسل بالآیات الا ان کذب بها الاولون حیث آتیناهم ما اقترحوا من الآیات الباهرة فکذبوها وآتینا باقتراحهم ثمود الناقة (مبصرة) علی صیغة الفاعل ای بینة ذات ابصار

هذافنقول كمال قدرة الله تعالى معلوم متفق عليه وكمال قدرة الملائكة غير معلوم ولا متفق عليه بل المتفق عليه ان قدرتهم بالنسبة الى قدرة الله تعالى قليلة حقيرة واذا كان كذلك وجب ان يكون الاشتغال بعبادة الله تعالى اولى من الاشتغال بعبادة الملائكة لان كون الله مستحقا للعبادة معلوم وكون الملائكة كذلك مجهول والاخذ بالمعلوم اولى واما اصحابنا المتكلمون من اهل السنة والجماعة فلهم فى هذا الباب طريقة اخرى وهو انهم يقيمون الحجة العقلية على انه لا موجد الا الله تعالى ولا مخرج لشئ من العدم الى الوجود الا الله تعالى واذا ثبت هذا ثبت انه لا ضار ولا نافع الا الله تعالى فوجب القطع بأنه لا معبود الا الله تعالى وهذه الطريقة لا تتم للمعتزلة لانهم لما جوزوا كون العبد موجدا لافعاله امتنع عليهم الاستدلال على ان الملائكة لا قدرة لها على الاحياء والاماتة وخلق الجسم واذا عجزوا عن ذلك لم يتم لهم هذا الدليل فهذا هو ذكر الدليل القاطع على صحة قوله لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا والتحويل عبارة عن النقل من حال الى حال ومكان الى مكان يقال حوله فتحول ثم قال تعالى اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة وفيه قولان (الاول) قال الفراء قوله يدعون فعل الآدميين العابدين وقوله يبتغون فعل المعبودين ومعناه ان أولئك المعبودين يبتغون الى ربهم الوسيلة فانه لا نزاع ان الملائكة يرجعون الى الله فى طلب المنافع ودفع المضار ويرجون رحمته ويخافون عذابه واذا كان كذلك كانوا موصوفين بالعجز والحاجة والله تعالى اغنى الاغنياء فكان الاشتغال بعبادته اولى فان قالوا لا نسلم ان الملائكة محتاجون الى رحمة الله وخائفون من عذابه فنقول هؤلاء الملائكة اما ان يقال انها واجبة الوجود لذواتها او يقال ممكنة الوجود لذواتها * والاول باطل لان جميع الكفار كانوا معترفين بأن الملائكة عباد الله ومحتاجون اليه واما الثانى فهو يوجب القول بكون الملائكة محتاجين فى ذواتها وفى كمالاتها الى الله تعالى فكان الاشتغال بعبادة الله اولى من الاشتغال بعبادة الملائكة (والقول الثانى) ان قوله اولئك الذين يدعون هم الانبياء الذين ذكرهم الله تعالى بقوله ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وتعلق هذا الكلام بما سبق هو ان الذين عظمت منزلتهم وهم الانبياء لا يعبدون الا الله تعالى ولا يبتغون الوسيلة الا اليه فانتم بالاقتداء بهم احق فلا تعبدوا غير الله تعالى واحتج القائلون بهذا القول على صحته بان قالوا الملائكة لا يعصون الله فلا يخافون عذابه فثبت ان هذا غير لائق بالملائكة وانما هو لائق بالانبياء قلنا الملائكة يخافون عذاب الله لو اقدموا على الذنب والدليل عليه قوله تعالى ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم اما قوله ان عذاب ربك كان محذورا فالمراد ان من حقه ان يحذر فان لم يحذره بعض الناس لجهله فهو لا يخرج من كونه بحيث يجب الحذر عنه * قوله تعالى (وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك فى الكتاب مسطورا) اعلم انه تعالى لما قال ان عذاب

او بصائر يدركها الناس او اسند اليها حال من يشاهد مجازا او جاعلتهم ذوى بصائر من ابصره جعله بصيرا وقرئ على صيغة المفعول وبفتح الميم والصاد وهى نصب على الحالية وقرئ بالرفع على انها خبر مبتدأ محذوف (فظلموا بها) فكفروا بها ظالمين اى لم يكتفوا بمجرد الكفر بها بل فعلوا بها ما فعلوا من العقر او ظلموا انفسهم وعرضوها للهلاك بسبب عقرها ولعل تخصيصها بالذكر لما ان ثمود عرب مثلهم وان لهم من العلم بحالهم ما لا مزيد عليه حيث يشاهدون آثار هلاكهم ورودا وصدورا او لانها من جهة انها حيوان اخرج من الحجر اوضح دليل على تحقق مضمون قوله تعالى قل كونوا حجارة او حديدا (وما نرسل بالآيات) المقترحة (الا تخويفا) لمن ارسلت هى عليهم مما يعقبها من العذاب المستأصل كالطليعة له وحيث لم يخافوا ذلك فعل بهم ما فعل فلا محل للجملة حينئذ من الاعراب ويجوز ان تكون حالا من ضمير ظلموا اى ظلموا بها ولم يخافوا عاقبته والحال ان ما نرسل بالآيات التى هى من جملتها الا تخويفا من العذاب الذى يعقبها فنزل بهم ما نزل (واذ قلنا لك ان ربك احاط بالناس) اى علما كما نقله الامام الثعلبى عن

ربك كان محذورا بين ان كل قرية مع اهلها فلابد وان يرجع حالها الى احد امرين اما الاهلاك واما التعذيب قال مقاتل اما الصالحة فبالموت واما الطالحة فبالعذاب وقيل المراد من قوله وان من قرية قرى الكفار ولابد وان تكون عاقبتها احد امرين اما الاستئصال بالكلية وهو المراد من الاهلاك او بعذاب شديد دون ذلك من قتل كبرائهم وتسليط المسلمين عليهم بالسبي واغتنام الاموال واخذ الجزية ثم بين تعالى ان هذا الحكم حكم مجزوم به واقع فقال كان ذلك فى الكتاب مسطورا ومعناه ظاهر ❊ قوله تعالى ( ومامنعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفا واذ قلنا لك ان ربك احاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التى اريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا ) اعلم انه تعالى لما ذكر الدليل على فساد قول المشركين واتبعه بالوعيد اتبعه بذكر مسئلة النبوة وذلك لان كفار قريش اقترحوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم اظهار معجزات عظيمة قاهرة كما حكى الله عنهم انهم قالوا اولا يأتينا بآية كما ارسل الاولون وقال آخرون المراد ماطلبوه بقولهم لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا وعن سعيد بن جبير ان القوم قالوا انك تزعم انه كان قبلك انبياء فمنهم من سخرت له الريح ومنهم من كان يحيى الموتى فأتنا بشئ من هذه المعجزات فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله ومامنعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون وفى تفسير هذا الجواب وجوه (الاول) المعنى انه تعالى لو اظهر تلك المعجزات القاهرة ثم لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم فحينئذ يصيرون مستحقين لعذاب الاستئصال لكن انزال عذاب الاستئصال على هذه الامة غير جائز لان الله تعالى اعلم ان فيهم من سيؤمن او يؤمن اولادهم فلهذا السبب ما اجابهم الله تعالى الى مطلوبهم وما اظهر تلك المعجزات القاهرة روى ابن عباس ان اهل مكة سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم ان يجعل لهم الصفا ذهبا وان يزيل لهم الجبال حتى يزرعوا تلك الاراضى فطلب الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك من الله تعالى فقال الله تعالى ان شئت فعلت ذلك لكن بشرط انهم ان كفروا اهلكتهم فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لا اريد ذلك بل تتأنى بهم فنزلت هذه الآية ( الوجه الثانى ) فى تفسير هذا الجواب انا لانظهر هذه المعجزات لان آباءكم الذين رأوها لم يؤمنوا بها وانتم مقلدون لهم فلو رأيتموها انتم لم تؤمنوا بها ايضا (الوجه الثالث) ان الاولين شاهدوا هذه المعجزات وكذبوا بها فعلم الله منكم ايضا انكم لو شاهدتموها لكذبتم فكان اظهارها عبثا والعبث لايفعله الحكيم ثم قال تعالى وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وفيه ابحاث (الاول) المعنى ان الآية التى التمسوها هى مثل آية ثمود وقد آتيناها ثمود واضحة بينة ثم كفروا بها فاستحقوا عذاب الاستئصال فكيف نعطيها هؤلاء على سبيل الاقتراح والتحكم على الله تعالى (البحث الثانى) قوله تعالى مبصرة وفيه وجهان (الاول) قال الفراء مبصرة اى

---

ابن عباس رضى الله عنهما فلا يخفى عليه شئ من افعالهم الماضية والمستقبلة من الكفر والتكذيب وفى قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التى اريناك الا فتنة للناس ) الى آخر الآية تنبيه على تحققها بالاستدلال عليها بما صدر عنهم عند مجئ بعض الآيات لاشتراك الكل فى كونها امورا خارقة للعادات منزلة من جانب الله سبحانه لتصديق النبى عليه الصلاة والسلام فتكذيبهم لبعضها مستلزم لتكذيب الباقى كما ان تكذيب الآخرين بغير المقترحة يدل على تكذيبهم بالآيات المقترحة والمراد بالرؤيا ما عاينه عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج من عجائب الارض والسماء حسبما ذكر فى فاتحة السورة الكريمة والتعبير عن ذلك بالرؤيا امالانه لافرق بينها وبين الرؤية ولانها اوقعت بالليل اولان الكفرة قالوا لعلها رؤيا اى وماجعلنا الرؤيا التى اريناكها عيانا مع كونها آية عظيمة وأية آية حقيقة بأن لايتلعثم فى تصديقها احد ممن له ادنى بصيرة الا فتنة افتتن بها الناس حتى ارتد بعضهم ( والشجرة الملعونة فى القرآن ) عطف على الرؤيا والمراد بلعنها فيه لعن طاعمها على الاسناد المجازى او ابعادها عن الرحمة فانها تنبت فى اصل الجحيم فى ابعد

مضيئة قال تعالى والنهار مبصرا اى مضيئا ( الثانى ) مبصرة اى ذات ابصار اى فيها ابصار لمن تأملها يبصر بها رشده ويستدل بها على صدق ذلك الرسول (البحث الثالث) قوله فظلموا بها اى ظلموا انفسهم بتكذيبهم بها وقالا ابن قتيبة ظلموا بها اى جحدوا بأنها من الله تعالى ثم قال تعالى وما نرسل بالآيات الا تخويفا قيل لا آية الا وتتضمن التخويف بها عند التكذيب اما من العذاب المعجل او من عذاب الآخرة فان قيل المقصود الاعظم من اظهار الآيات ان يستدل بها على صدق المدعى فكيف حصر المقصود من اظهارها فى التخويف قلنا المقصود ان مدعى النبوة اذا اظهر الآية فاذا سمع الخلق انه اظهر آية فهم لا يعلمون ان تلك الآية معجزة او مخوفة الا انهم يجوزون كونها معجزة وبتقدير ان تكون معجزة فلو لم يتفكروا فيها ولم يستدلوا بها على الصدق لاستحقوا العقاب الشديد فهذا هو الخوف الذى يحملهم على التفكر والتأمل فى تلك المعجزات فالمراد من قوله وما نرسل بالآيات الا تخويفا هذا الذى ذكرناه والله اعلم * واعلم ان القوم لما طالبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعجزات القاهرة واجاب الله تعالى بأن اظهارها ليس بمصلحة صار ذلك سببا لجرأة أولئك الكفار بالطعن فيه وان يقولوا له لو كنت رسولا حقا من عند الله تعالى لأتيت بهذه المعجزات التى اقترحناها منك كما أتى بها موسى وغيره من الانبياء فعند هذا قوى الله قلبه وبين له انه تعالى ينصره ويؤيده فقال واذ قلنا لك ان ربك احاط بالناس وفيه قولان (الاول) المعنى ان حكمته وقدرته محيطة بالناس فهم فى قبضته وقدرته ومتى كان الامر كذلك فهم لا يقدرون على امر من الامور الا بقضائه وقدره والمقصود كأنه تعالى يقول له ننصرك ونقويك حتى تبلغ رسالتنا وتظهر ديننا قال الحسن حال بينهم وبين ان يقتلوه كما قال تعالى والله يعصمك من الناس ( والقول الثانى ) ان المراد بالناس اهل مكة واحاطة الله بهم هو انه تعالى يفتحها للمؤمنين فكان المعنى واذ بشرناك بان الله احاط باهل مكة بمعنى انه يغلبهم ويقهرهم ويظهر دولتك عليهم ونظيره قوله تعالى سيهزم الجمع ويولون الدبر وقال قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى قوله أحاط بالناس لما كان كل ما يخبر الله عن وقوعه فهو واجب الوقوع فكان من هذا الاعتبار كالواقع فلا جرم قال أحاط بالناس وروى انه لما تزاحف الفريقان يوم بدر ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى العريش مع ابى بكر كان يدعو ويقول اللهم انى أسألك عهدك ووعدك لى ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر ثم قال تعالى وما جعلنا الرؤيا التى اريناك الا فتنة للناس وفى هذه الرؤيا اقوال ( الاول ) ان الله ارى محمدا فى المنام مصارع كفار قريش فحين ورد ماء بدر قال والله كأنى انظر الى مصارع القوم ثم اخذ يقول هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان فلما سمعت قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية وكانوا يستعجلون بما وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم (والقول الثانى) ان المراد رؤياه التى رآها انه يدخل مكة واخبر بذلك اصحابه فلما منع عن البيت الحرام عام الحديبية

(كان)

مكان من الرحمة اى وما جعلنا ها الا فتنة لهم حيث انكروا ذلك وقالوا ان محمدا يزعم ان الجحيم يحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر ولقد ضلوا فى ذلك ضلالا بعيدا حيث كابروا قضية عقولهم فانهم يرون النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد المحماة فلا تضرها ويشاهدون المناديل المتخذة من وبر السمندل تلقى فى النار فلا تؤثر فيها ويرون ان فى كل شجر نارا وقرئ بالرفع على حذف الخبر كأنه قيل والشجرة الملعونة فى القرآن كذلك ( ونخوفهم ) بذلك وبنظائرها من الآيات فان الكل للتخويف وايثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار ( فما يزيدهم ) التخويف ( الا طغيانا كبيرا ) متجاوزا عن الحد فلو انا ارسلنا بما اقترحوه من الآيات لفعلوا بها ما فعلوا بنظائرها وفعل بهم ما فعل بأشياعهم وقد قضينا بتأخير العقوبة العامة لهذه الامة الى الطامة الكبرى هذا هو الذى يستدعيه النظم الكريم وقد حمل اكثر المفسرين الاحاطة على الاحاطة بالقدرة تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما عسى يعتريه من عدم الاجابة الى انزال الآيات التى اقترحوها لان انزالها ليس بمصلحة من نوع حزن من طعن الكفرة حيث كانوا يقولون لو كنت رسولا

كان ذلك فتنة لبعض القوم وقال عمر لابى بكر اليس قد اخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم انا ندخل البيت ونطوف به فقال ابو بكر انه لم يخبر انا نفعل ذلك فى هذه السنة فسنفعل ذلك فى سنة أخرى فلما جاء العام المقبل دخلها وانزل الله تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق اعترضوا على هذين القولين فقالوا هذا لسورة مكية وها تان الواقعتان مدنيتان وهذا السؤال ضعيف لان هاتين الواقعتين مدنيتان اما رؤيتهما فى المنام فلا يبعد حصولها فى مكة (والقول الثالث) قال سعيد ابن المسيب رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى امية ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك وهذا قول ابن عباس فى رواية عطاء والاشكال المذكور عائد فيه لان هذه الآية مكية وما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة منبر ويمكن ان يجاب عنه بأنه لا يبعد ان يرى بمكة ان له بالمدينة منبرا يتداوله بنو امية (والقول الرابع) وهو الاصح وهو قول اكثر المفسرين ان المراد بها ما اراه الله تعالى ليلة الاسراء واختلفوا فى معنى هذه الرؤيا فقال الاكثرون لا فرق بين الرؤية والرؤيا فى اللغة يقال رأيت بعينى رؤية ورؤيا وقال الاقلون هذا يدل على ان قصة الاسراء انما حصلت فى المنام وهذا القول ضعيف باطل على ما قررناه فى اول هذه السورة وقوله الافتنة للناس معناه انه عليه الصلاة والسلام لما ذكر لهم قصة الاسراء كذبوه وكفر به كثير ممن كان آمن به وازداد المخلصون ايمانا فلهذا السبب كان امتحانا ثم قال تعالى والشجرة الملعونة فى القرآن وهذا على التقديم والتأخير والتقدير وما جعلنا الرؤيا التى اريناك والشجرة الملعونة فى القرآن الا فتنة للناس وقيل المعنى والشجرة الملعونة فى القرآن كذلك واختلفوا فى هذه الشجرة فالاكثرون قالوا انها شجرة الزقوم المذكورة فى القرآن فى قوله ان شجرة الزقوم طعام الاثيم وكانت هذه الفتنة فى ذكر هذه الشجرة من وجهين (الاول) ان اباجهل قال زعم صاحبكم بأن نار جهنم تحرق الحجر حيث قال وقودها الناس والحجارة ثم يقول بأن فى النار شجرا والنار تأكل الشجر فكيف تولد فيها الشجر (والثانى) قال ابن الزبعرى ما نعلم الزقوم الا التمر والزبد فتزقوا منه فأنزل الله تعالى حين عجبوا ان يكون فى النار شجر انا جعلناها فتنة للظالمين الآيات فان قيل ليس فى القرآن لعن هذه الشجرة قلنا فيه وجوه (الاول) المراد لعن الكفار الذين يأكلونها (الثانى) العرب تقول لكل طعام مكروه ضار انه ملعون (الثالث) ان اللعن فى اصل اللغة هو التبعيد فلما كانت هذه الشجرة الملعونة فى القرآن مبعدة عن جميع صفات الخير سميت ملعونة (القول الثانى) قال ابن عباس رضى الله عنهما الشجرة بنو امية يعنى الحكم بن ابى العاص قال ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ان ولد مروان يتداولون منبره فقص رؤياه على ابى بكر وعمر وقد خلا فى بيته معهما فلما تفرقوا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم يخبر برؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتد ذلك عليه واتهم عمر فى افشاء سره ثم ظهر ان الحكم كان يتسمع اليهم فنفاه رسول الله صلى الله

حقا لاتيت بهذه المعجزات كما اتى بها موسى وغيره من الانبياء عليهم الصلاة والسلام فكأنه قيل اذكر وقت قولنا لك ان ربك اللطيف بك قد احاط بالناس فهم فى قبضة قدرته لا يقدرون على الخروج من مشيئته فهو يحفظك منهم فلا تهتم بهم وامض لما امرتك به من تبليغ الرسالة الا يرى ان الرؤيا التى اريناك من قبل جعلناها فتنة للناس مورثة للشبهة مع انها ما اورثت ضعفا لامرك وفتورا فى حالك وقد فسر الاحاطة باهلاك قريش يوم بدر وانما عبر عنه بالماضى مع كونه منتظرا حسبما ينبئ عنه قوله تعالى سيهزم الجمع ويولون الدبر وقوله تعالى قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وغير ذلك جريا على عادته سبحانه فى اخباره واولت الرؤيا بما رآه عليه الصلاة والسلام فى المنام من مصارعهم لما روى انه عليه الصلاة والسلام لما ورد ماء بدر قال والله لكأنى انظر الى مصارع القوم وهو يومئ الى الارض هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان فتسامعت به قريش فاستسخروا منه وبما رآه عليه الصلاة والسلام انه سيدخل مكة واخبر به اصحابه فتوجه اليها فصده المشركون عام الحديبية واعتذر عن كون ما ذكر مدنيا بأنه يجوز ان يكون

عليه وسلم قال الواحدى هذه القصة كانت بالمدينة والسورة مكية فيبعد هذا التفسير الا ان يقال هذه الآية مدنية ولم يقل به احد ومما يؤكد هذا التأويل قول عائشة لمروان لعن الله اباك وانت فى صلبه فأنت بعض من لعنه الله (والقول الثالث) ان الشجرة الملعونة فى القرآن هى اليهود لقوله تعالى لعن الذين كفروا فان قال قائل ان القوم لما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم الاتيان بالمعجزات القاهرة فأجاب انه لامصلحة فى اظهارها لانها لو ظهرت ولو تؤمنوا انزل الله عليكم عذاب الاستئصال وذلك غير جائز واى تعلق لهذا الكلام بذكر الرؤيا التى صارت فتنة للناس وبذكر الشجرة التى صارت فتنة للناس قلنا التقدير كأنه قيل انهم لما طلبوا هذه المعجزات ثم انك لم تظهرها صار عدم ظهورها شبهة لهم فى انك لست بصادق فى دعوى النبوة الا ان وقوع هذه الشبهة لايوهن امرك ولايصير سببا لضعف حالك الاترى ان ذكر تلك الرؤيا صار سببا لوقوع الشبهة العظيمة فى القلوب ثم ان قوة تلك الشبهات ما اوجبت ضعفا فى امرك ولافتورا فى اجتماع المحقين عليك فكذلك هذه الشبهة الحاصلة بسبب عدم ظهور هذه المعجزات لاتوجب فتورا فى حالك ولاضعفا فى امرك والله اعلم ثم قال تعالى ونخوفهم فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا والمقصود منه ذكر سبب آخر فى انه تعالى مااظهر المعجزات التى اقترحوها وذلك لان هؤلاء خوفوا بمخاوف الدنيا والآخرة وبشجرة الزقوم فما زادهم هذا التخويف الا طغيانا كبيرا وذلك يدل على قسوة قلوبهم وتماديهم فى الغى والطغيان واذا كان الامر كذلك فبتقدير ان يظهر الله لهم تلك المعجزات التى اقترحوها لم ينتفعوا بها ولايزدادون الا تماديا فى الجهل والعناد واذا كان كذلك وجب فى الحكمة ان لايظهر الله لهم مااقترحوه من الآيات والمعجزات والله اعلم ❊قوله تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس قال أأسجد لمن خلقت طينا قال ارأيتك هذا الذى كرمت على لئن اخرتن الى يوم القيامة لاحتنكن ذريته الا قليلا قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا) فيه مسائل (المسئلة الاولى) فى كيفية النظم وجوه (الاول) اعلم انه تعالى لما ذكر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى محنة عظيمة من قومه واهل زمانه بين ان حال جميع الانبياء مع اهل زمانهم كذلك الاترى ان اول الانبياء هو ادم ثم انه كان فى محنة شديدة من ابليس (الثانى) ان القوم انما نازعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاندوه واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لامرين الكبر والحسد اما الكبر فلان تكبرهم كان يمنعهم من الانقياد واما الحسد فلانهم كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة والدرجة العالية فبين تعالى ان هذا الكبر والحسد هما اللذان حملا ابليس على الخروج من الايمان والدخول فى الكفر فهذه بلية وقديمة محنة عظيمة للخلق (والثالث) انه تعالى لما وصفهم بقوله فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا بين ماهو السبب لحصول هذا الطغيان وهو قول ابليس لاحتنكن ذريته الا قليلا فلاجل هذا المقصود ذكر الله تعالى قصة ابليس

(وادم)

الوحى باهلاكهم وكذا الرؤيا واقعا بمكة وذكر الرؤيا وتعيين المصارع واقعين بعد الهجرة وانت خبير بأنه يلزم منه ان يكون افتتان الناس بذلك واقعا بعد الهجرة وان يكون ازديادهم طغيانا متوقعا غير واقع عند نزول الآية وقد قيل الرؤيا ما رآه عليه الصلاة والسلام فى وقعة بدر من مضمون قوله تعالى اذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو اراكهم كثيرا لفشلتم ولاريب فى ان تلك الرؤيا مع وقوعها فى المدينة ماجعلت فتنة للناس (واذ قلنا للملائكة) تذكير لما جرى منه تعالى من الامر ومن الملائكة من الامتثال والطاعة من غير تردد وتحقيق لمضمون ماسبق من قوله تعالى اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ايهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا ويعلم من حال الملائكة حال غيرهم من عيسى وعزير عليهما السلام فى الطاعة وابتغاء الوسيلة ورجاء الرحمة ومخافة العذاب ومن حال ابليس حال من يعاند الحق ويخالف الامر اى واذكر وقت قولنا لهم (اسجدوا لآدم) تحية وتكريما لماله من الفضائل المستوجبة لذلك (فسجدوا) له من غير تلعثم امتثالا للامر واداء لحقه عليه الصلاة والسلام (الا ابليس) وكان داخلا

وآدم فهذا هو الكلام في كيفية النظم ( المسئلة الثانية ) اعلم ان هذه القصة قد ذكرها الله تعالى في سور سبعة وهي البقرة والاعراف والحجر وهذه السورة والكهف وطه وص والكلام المستقصى فيها قد تقدم في البقرة والاعراف والحجر فلا فائدة في الاعادة ولا بأس بتعديد بعض المسائل ( المسئلة الاولى ) اختلفوا في ان المأمورين بالسجود لآدم أهم جميع الملائكة ام ملائكة الارض على التخصيص فظاهر لفظ الملائكة يفيد العموم الا ان قوله تعالى في آخر سورة الاعراف في صفة ملائكة السموات وله يسجدون يوجب خروج ملائكة السموات عن هذا العموم ( المسئلة الثانية ) ان المراد من هذه السجدة وضع الجبهة على الارض او التحية وعلى التقدير الاول فآدم كان هو المسجود له او يقال كان المسجود له هو الله تعالى وآدم كان قبلة للسجود ( المسئلة الثالثة ) ان ابليس هل هو من الملائكة ام لا وان لم يكن من الملائكة فامر الملائكة بالسجود كيف يتناوله ( المسئلة الرابعة ) هل كان ابليس كافرا من اول الامر او يقال انما كفر في ذلك الوقت ( المسئلة الخامسة ) الملائكة سجدوا لآدم من اول ما كملت حياته او بعد ذلك ( المسئلة السادسة ) شبهة ابليس في الامتناع من السجود أهو قوله أأسجد لمن خلقت طينا اوغيره ( المسئلة السابعة ) دلت هذه الآيات على ان ابليس كان عارفا بربه الا انه وقع في الكفر بسبب الكبر والحسد ومنهم من انكر وقال ما عرف الله البتة ( المسئلة الثامنة ) ما سبب حكمة امهال ابليس وتسليطه على الخلق بالوسوسة * ولنرجع الى التفسير فنقول انه تعالى حكى في هذه الآية عن ابليس نوعا واحدا من العمل ونوعين من القول اما العمل فهو انه لم يسجد لآدم وهو المراد من قوله فسجدوا الا ابليس واما النوعان من القول فأولهما قوله أأسجد لمن خلقت طينا وهذا استفهام بمعنى الانكار معناه ان اصلي اشرف من اصله فوجب ان اكون انا اشرف منه والاشرف يقبح في العقول امره بخدمة الادنى (والنوع الثاني) من كلامه قوله أرأيتك هذا الذي كرمت على قال الزجاج قوله أرأيتك معناه اخبرني وقد استقصينا في تفسير هذه الكلمة في سورة الانعام وقوله هذا الذي كرمت على فيه وجوه (الاول) معناه اخبرني عن هذا الذي فضلته على لم فضلته علي وانا خير منه ثم اختصر الكلام لكونه مفهوما (الثاني) يمكن ان يقال هذا مبتدأ محذوف عنه حرف الاستفهام والذي مع صلته خبر تقديره اخبرني أهذا الذي كرمته علي وذلك على وجه الاستصغار والاستحقار وانما حذف حرف الاستفهام لان حصوله في قوله أرأيتك اغنى عن تكراره (والوجه الثالث) أن يكون هذا مفعول ارأيت لان الكاف جاءت لمجرد الخطاب ولا محل لها كأنه قال على وجه التعجب والانكار أبصرت او علمت هذا الذي كرمت علي بمعنى لو ابصرته او علمته لكان يجب ان لا تكرمه علي هذا هو حقيقة هذه الكلمة ثم قال تعالى حكاية عنه لئن اخرتن الى يوم القيامة لاحتنكن ذريته الا قليلا وفيه مباحث (الاول) قرأ ابن كثير لئن اخرتني الى يوم القيامة

---

في زمرتهم مندرجا تحت الامر بالسجود (قال) اى عند ماوبخ بقوله عز سلطانه يا ابليس مالك ان لا تكون مع الساجدين وقوله مامنعك ان لا تسجد اذ امرتك وقوله مامنعك ان تسجد لما خلقت بيدي كما اشير اليه في سورة الحجر (أأسجد) وانا مخلوق من العنصر العالي ( لمن خلقت طينا) نصب على نزع الخافض اى من طين او حال من الراجع الى الموصول اى خلقته وهو طين اى من نفس الموصول اى أأسجد له واصله طين والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بالموصول لتعليل انكاره بما في حيز الصلة (قال) اى ابليس لكن لا عقيب كلامه المحكي بل بعد الانظار المترتب على استنظاره المتفرع على الامر بخروجه من بين الملأ الاعلى باللعن المؤبد وانما لم يصرح بذلك اكتفاء بما ذكر في مواضع اخر فان توسيط قال بين كلامي اللعين للايذان بعدم اتصال الثاني بالاول وعدم ابتنائه عليه بل على غيره كما في قوله تعالى قال فما خطبكم بعد قوله تعالى قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون ( ارأيتك هذا الذي كرمت على ) الكاف لتأكيد الخطاب لا محل لها من الاعراب وهذا مفعول اول والموصول صفته والثاني محذوف لدلالة الصلة عليه اى اخبرني عن هذا الذي كرمته على بأن

باثبات الياء فى الوصل والوقف وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى بالحذف ونافع وابو عمرو باثباته فى الوصل دون الوقف (البحث الثانى) فى الاحتناك قولان (احدهما) انه عبارة عن الاخذ بالكلية يقال احتنك فلان ماعند فلان من مال اذا استقصاه واخذه بالكلية واحتنك الجراد الزرع اذا اكله بالكلية (والثانى) انه من قول العرب حنك الدابة يحنكها اذا جعل فى حنكها الاسفل حبلا يقودها به قال ابو مسلم الاحتناك افتعال من الحنك كأنه يملكهم كما يملك الفارس فرسه بلجامه فعلى القول الاول معنى الآية لاستأصلنهم بالاغواء وعلى القول الثانى لاقودنهم الى المعاصى كما تقاد الدابة بحبلها (البحث الثالث) قوله الا قليلا هم الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله ان عبادى ليس لك عليهم سلطان فان قيل كيف ظن ابليس هذا الظن الصادق بذرية آدم قلنا فيه وجوه (الاول) انه سمع الملائكة يقولون أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فعرف هذه الاحوال (الثانى) انه وسوس الى آدم فلم يجد له عزما فقال الظاهر ان اولاده يكونون مثله فى ضعف العزم (الثالث) انه عرف انه مركب من قوة بهيمية شهوانية وقوة سبعية غضبية وقوة وهمية شيطانية وقوة عقلية ملكية وعرف ان القوى الثلاثة اعنى الشهوانية والغضبية والوهمية تكون هى المستولية فى اول الخلقة ثم ان القوة العقلية انما تكمل فى آخر الامر ومتى كان الامر كذلك كان ماذكره ابليس لازما واعلم انه تعالى لما حكى عن ابليس ذلك حكى عن نفسه انه تعالى قال له اذهب وهذا ليس من الذهاب الذى هو نقيض المجئ وانما معناه امض لشانك الذى اخترته والمقصود التخلية وتفويض الامر اليه ثم قال فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ونظيره قول موسى عليه الصلاة والسلام فاذهب فان لك فى الحياة ان تقول لامساس فان قيل أليس الاولى ان يقال فان جهنم جزاؤهم جزاء موفورا ليكون هذا الضمير راجعا الى قوله فمن تبعك قلنا فيه وجوه (الاول) التقدير فان جهنم جزاؤهم وجزاؤكم ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل جزاؤكم (والثانى) يجوز ان يكون هذا الخطاب مع الغائبين على طريقة الالتفات (والثالث) انه صلى الله عليه وسلم قال من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة فكل معصية توجد فيحصل لابليس مثل وزر ذلك العامل فلما كان ابليس هو الاصل فى كل المعاصى صار المخاطب بالوعيد هو ابليس ثم قال جزاء موفورا وهذه اللفظة قد تجئ متعديا ولازما اما المتعدى فيقال وفرته افره وفرا وفرة فهو موفور موفر قال زهير

ومن يجعل المعروف من دون عرضه * يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

واللازم كقولك وفر المال يفر وفورا فهو وافر فعلى التقدير الاول يكون المعنى جزاء موفورا موفرا وعلى الثانى يكون المعنى جزاء موفورا وافرا وانتصب قوله جزاء على المصدر ❊ قوله تعالى (واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك

امرتنى بالسجود له لم كرمته على وقيل هذا مبتدأ حذف عنه حرف الاستفهام والموصول مع صلته خبره ومقصوده الاستصغار والاستحقار اى اخبرنى اهذا من كرمته على وقيل معنى ارأيتك اتأملت كأن المتكلم ينبه المخاطب على استحضار مايخاطبه به عقيبه (لئن اخرتن) حيا (الى يوم القيامة) كلام مبتدأ واللام موطئة للقسم وجوابه قوله (لاحتنكن ذريته) اى لاستأصلنهم من قولهم احتنك الجراد الارض اذا جرد ماعليها اكلا اولاقودنهم حيث ماشئت ولاستولين عليهم استيلاء قويا من قولهم حنكت الدابة واحتنكتها اذا جعلت فى حنكها الاسفل حبلا تقودها به وهذا كقوله لازينن لهم فى الارض ولاغوينهم اجمعين وانما علم تسنى ذلك المطلب له تلقيا من جهة الملائكة عليهم الصلاة والسلام اواستنباطا من قولهم اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء اوتوسما من خلقه (الا قليلا) منهم وهم المخلصون الذين عصمهم الله تعالى (قال اذهب) اى امض لشأنك الذى اخترته وهو طرد له وتخلية بينه وبين ماسولت له نفسه (فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم) اى جزاؤك وجزاؤهم فغلب المخاطب على الغائب رعاية

وشاركهم في الاموال والاولاد وعدهم ومايعدهم الشيطان الاغرورا ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ) اعلم ان ابليس لماطلب من الله الامهال الى يوم القيامة لاجل ان يحتنك ذرية آدم فالله تعالى ذكر اشياء ( اولها ) قوله اذهب ومعناه امهلتك هذه المدة ( وثانيها ) قوله تعالى واستفزز من استطعت منهم بصوتك يقال افزه الخوف واستفزه اى ازعجه واستخفه وصوته دعاؤه الى معصية الله تعالى وقيل اراد بصوتك الغناء واللهو واللعب ومعنى صيغة الامر ههنا التهديد كما يقال اجهد جهدك فسترى ماينزل بك ( وثالثها ) واجلب عليهم بخيلك ورجلك وفي قوله واجلب وجوه ( الاول ) قال الفراء انه من الجلبة وهي الصياح وربما قالوا الجلب كما قالوا الغلبة والغلب والشفقة والشفق وقال الليث وابوعبيدة اجلبوا وجلبوا من الصياح ( الثانى ) قال الزجاج في فعل وافعل اجلب على العدو اجلابا اذا جمع عليه الخيول (الثالث) قال ابن السكيت يقال هم يجلبون عليه بمعنى انهم يعينون عليه ( الرابع ) روى ثعلب عن ابن الاعرابى اجلب الرجل على الرجل اذا توعده الشر وجمع عليه الجمع فقوله واجلب عليهم معناه على قول الفراء صح عليهم بخيلك ورجلك وعلى قول الزجاج اجمع عليهم كل ماتقدر عليه من مكايدك وتكون الباء في قوله بخيلك زائدة على هذا القول وعلى قول ابن السكيت معناه اعن عليهم بخيلك ورجلك ومفعول الاجلاب على هذا القول محذوف كأنه يستعين على اغوائهم بخيله ورجله وهذا ايضا يقرب من قول ابن الاعرابى واختلفوا في تفسير الخيل والرجل فروى ابو الضحى عن ابن عباس انه قال كل راكب اوراجل في معصية الله تعالى فهو من خيل ابليس وجنوده ويدخل فيه كل راكب وماش في معصية الله تعالى فعلى هذا التقدير خيله ورجله كل من شاركه في الدعاء الى المعصية ( والقول الثانى ) يحتمل ان يكون لابليس جند من الشياطين بعضهم راكب وبعضهم راجل ( والقول الثالث ) ان المراد منه ضرب المثل كما تقول للرجل المجد في الامر جئتنا بخيلك ورجلك وهذا الوجه أقرب والخيل تقع على الفرسان قال عليه الصلاة والسلام ياخيل الله اركبى وقد تقع على الافراس خاصة والمراد ههنا الاول والرجل جمع راجل كما قالوا تاجر وتجر وصاحب وصحب وراكب وركب وروى حفص عن عاصم ورجلك بكسر الجيم وغيره بالضم قال ابوزيد يقال رجل ورجل بمعنى واحد ومثله حدث وحدث وندس وندس قال ابن الانبارى أخبرنا ثعلب عن الفراء قال يقال رجل ورجل ورجلان بمعنى واحد ( والنوع الرابع ) من الاشياء التى ذكرها الله تعالى لابليس قوله وشاركهم في الاموال والاولاد نقول اما المشاركة في الاموال فهى عبارة عن كل تصرف قبيح في المال سواء كان ذلك القبيح بسبب اخذه من غير حقه اووضعه في غير حقه ويدخل فيه الربا والغصب والسرقة والمعاملات الفاسدة وهكذا قاله القاضى وهو ضبط حسن واما المفسرون فقد ذكروا وجوها قال قتادة المشاركة في الاموال هى ان جعلوا بحيرة وسائبة

الحلق المتبوعية (جزاء موفورا) اى جزاء مكملا من قولهم فر لصاحبك عرضه فرة اى وفر وهو نصب على انه مصدر مؤكد لما في قوله فان جهنم جزاؤكم من معنى تجازون اوللفعل المقدر او حال موطئة لقوله موفورا ( واستفزز ) اى استخفف (من استطعت منهم ) ان تستفزه ( بصوتك ) بدعائك الى الفساد ( واجلب عليهم ) اى صح عليهم من الجلبة وهى الصياح (بخيلك ورجلك) اى بأعوانك وانصارك من راكب وراجل من اهل العيث والفساد قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وقتادة ان له خيلا ورجلا من الجن والانس فما كان من راكب يقاتل في معصية الله تعالى فهو من خيل بليس وما كان من راجل يقاتل في معصية الله تعالى فهو من رجل ابليس والخيل الخيالة ومنه قوله عليه الصلاة والسلام ياخيل الله اركبى والرجل اسم جمع للراجل كالصحب والركب وقرئ بكسر الجيم وهى قراءة حفص على انه فعل بمعنى فاعل كتعب وتاعب وبضمة مثل حدث وحدث وندس وندس ونظائرهما اى بجمعك الراجل ليطابق الخيل وقرئ رجالك ورجالك ويجوز ان يكون استفزازه بصوته واجلابه بخيله ورجله تمثيلا لتسلطه على من يغويه فكأنه مغوار اوقع على قوم

وقال عكرمة هى عبارة عن تبتيكهم آذان الانعام وقيل هى ان جعلوا من اموالهم شيئا لغير الله تعالى كما قال تعالى فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا والاصوب ماقاله القاضى واما المشاركة فى الاولاد فذكروا فيه وجوها (احدها) انها الدعاء الى الزنا وزيف الاصم ذلك بأن قال انه لاذم على الولد ويمكن ان يجاب عنه بأن المراد وشاركهم فى طريق تحصيل الولد وذلك بالدعاء الى الزنا (وثانيها) ان يسموا اولادهم بعبداللات وعبدالعزى (وثالثها) ان يرغبوا اولادهم فى الاديان الباطلة كاليهودية والنصرانية وغيرهما (ورابعها) اقدامهم على قتل الاولاد ووأدهم (وخامسها) ترغيبهم فى حفظ الاشعار المشتملة على الفحش وترغيبهم فى القتل والقتال والحرف الخبيثة الخسيسة والضابط ان يقال ان كل تصرف من المرء فى ولده على وجه يؤدى ذلك الى ارتكاب منكر او قبيح فهو داخل فيه (والنوع الخامس) من الاشياء التى ذكرها الله تعالى لابليس فى هذه الآية قوله وعدهم واعلم انه لما كان مقصود الشيطان الترغيب فى الاعتقاد الباطل والعمل الباطل والتنفير عن الاعتقاد الحق والعمل الحق ومعلوم ان الترغيب فى الشئ لايمكن الا بأن يقرر عنده انه لاضرر البتة فى فعله ومع ذلك فانه يفيد المنافع العظيمة والتنفير عن الشئ لايمكن الا بأن يقرر عنده انه لافائدة فى فعله ومع ذلك فيفيد المضار العظيمة اذا ثبت هذا فنقول ان الشيطان اذا دعا الى المعصية فلابد وان يقرر اولا انه لامضرة فى فعله البتة وذلك انما يمكن اذا قال لامعاد ولاجنة ولانار ولاحياة بعد هذه الحياة فبهذا الطريق يقرر عنده انه لامضرة البتة فى فعل هذه المعاصى واذا فرغ عن هذا المقام قرر عنده ان هذا الفعل يفيد انواعا من اللذة والسرور ولاحياة للانسان فى هذه الدنيا الابه فتفويتها غبن وخسران كما قال الشاعر

خذوا بنصيب من سرور ولذة * فكل وان طال المدى يتصرم

فهذا هو طريق الدعوة الى المعصية واما طريق التنفير عن الطاعة فهو ان يقرر اولا عنده انه لافائدة فيه وتقريره من وجهين (الاول) ان يقول لاجنة ولانار ولاثواب ولاعذاب (والثانى) ان هذه العبادات لافائدة فيها للعابد والمعبود فكانت عبثا محضا فبهذين الطريقين يقرر الشيطان عند الانسان انه لافائدة فيها واذا فرغ عن هذا المقام قال انها توجب التعب والمحنة وذلك اعظم المضار فهذه مجامع تلبيس الشيطان فقوله وعدهم يتناول كل هذه الاقسام قال المفسرون قوله وعدهم اى بأنه لاجنة ولانار وقال آخرون وعدهم بتسويف التوبة وقال آخرون وعدهم بالامانى الباطلة مثل قوله لآدم مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين وقال آخرون وعدهم بشفاعة الاصنام عند الله تعالى وبالانساب الشريفة وايثار العاجل على الآجل وبالجملة فهذه الاقسام كثيرة وكلها داخلة فى الضبط الذى ذكرناه وان اردت الاستقصاء فى هذا الباب فطالع كتاب ذم الغرور من كتب احياء علوم الدين للشيخ الغزالى

فصوت بهم صوتا يزعجهم من اماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم واجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم (وشاركهم فى الاموال) بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام والتصرف فيها على مالاينبغى (والاولاد) بالحث على التوصل اليهم بالاسباب المحرمة والاشراك كتسميتهم بعبدالعزى والتضليل بالحمل على الاديان الزائغة والحرف الذميمة والافعال القبيحة (وعدهم) المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة والاتكال على كرامة الآباء وتأخير التوبة بتطويل الامل (ومايعدهم الشيطان الاغرورا) اعتراض لبيان شأن مواعيده والالتفات الى الغيبة لتقوية معنى الاعتراض مع مافيه من صرف الكلام عن خطابه وبيانه شان للناس ومن الاشعار بعلية شيطنته للغرور وهو تزيين الخطا بما يوهم انه صواب (ان عبادى) الاضافة للتشريف وهم المخلصون وفيه ان من تبعه ليس منهم وان الاضافة لثبوت الحكم فى قوله تعالى (ليس لك عليهم سلطان) اى تسلط وقدرة على اغوائهم كقوله تعالى انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (وكفى بربك وكيلا) لهم يتوكلون عليه ويستمدون به فى الخلاص عن اغوائك والتعرض لوصف

حتى يحيط عقلك بمجامع تلبيس ابليس واعلم ان الله تعالى لما قال وعدهم اردفه بما يكون زاجرا عن قبول وعده فقال وما يعدهم الشيطان الاغرورا والسبب فيه انه انما يدعو الى احد امور ثلاثة قضاء الشهوة وامضاء الغضب وطلب الرياسة وعلو الدرجة ولا يدعو البتة الى معرفة الله تعالى ولا الى خدمته وتلك الاشياء الثلاثة معنوية من وجوه كثيرة (احدها) انها في الحقيقة ليست لذات بل هي خلاص عن الآلام (وثانيها) وان كانت لذات لكنها لذات خسيسة مشترك فيها بين الكلاب والديدان والخنافس وغيرها (وثالثها) انها سريعة الذهاب والانقضاء والانقراض (ورابعها) انها لا تحصل الا بمتاعب كثيرة ومشاق عظيمة (وخامسها) ان لذات البطن والفرج لا تتم الا بمزاولة رطوبات عفنة مستقذرة (وسادسها) انها غير باقية بل يتبعها الموت والهرم والفقر والحسرة على الفوت والخوف من الموت فلما كانت هذه المطالب وان كانت لذيذة بحسب الظاهر الا انها ممزوجة بهذه الآفات العظيمة والمخافات الجسيمة كان الترغيب فيها تغريرا ولهذا المعنى قال تعالى وما يعدهم الشيطان الاغرورا واعلم انه تعالى لما قال له افعل ما تقدر عليه فقال تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وفيه قولان (الاول) ان المراد كل عباد الله من المكلفين وهذا قول ابي علي الجبائي قال والدليل عليه انه تعالى استثنى منه في آيات كثيرة من يتبعه بقوله الا من اتبعك ثم استدل بهذا على انه لا سبيل لابليس وجنوده على تصريع الناس وتخبيط عقولهم وانه لا قدرة له الا على قدر الوسوسة واكد ذلك بقوله تعالى وما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا انفسكم وايضا فلو قدر على هذه الاعمال لكان يجب ان يتخبط اهل الفضل واهل العلم دون سائر الناس ليكون ضرره اعظم ثم قال وانما يزول عقله لا من جهة الشيطان لكن لغلبة الاخلاط الفاسدة ولا يمتنع ان يكون احد اسباب ذلك المرض اعتقاد ان الشيطان يقدم عليه فيغلب الخوف عليه فيحدث ذلك المرض (والقول الثاني) ان المراد بقوله ان عبادي اهل الفضل والعلم والايمان لما بينا فيما تقدم ان لفظ العباد في القرآن مخصوص بأهل الايمان والدليل عليه انه قال في آية اخرى انما سلطانه على الذين يتولونه ثم قال وكفى بربك وكيلا وفيه بحثان (الاول) انه تعالى لما مكن ابليس من ان يأتي بأقصى ما يقدر عليه في باب الوسوسة وكان ذلك سببا لحصول الخوف الشديد في قلب الانسان قال وكفى بربك وكيلا ومعناه ان الشيطان وان كان قادرا فالله تعالى اقدر منه وارحم بعباده من الكل فهو تعالى يدفع عنه كيد الشيطان ويعصمه من اضلاله واغوائه (البحث الثاني) هذه الآية تدل على ان المعصوم من عصمه الله تعالى وان الانسان لا يمكنه ان يحترز بنفسه عن مواقع الضلالة لانه لو كان الاقدام على الحق والاحجام عن الباطل انما يحصل للانسان من نفسه لوجب ان يقال وكفى الانسان نفسه في الاحتراز عن الشيطان فلما لم يقل ذلك بل قال وكفى بربك علمنا ان الكل من الله ولهذا قال المحققون

الربوبية المنبئة عن المالكية المطلقة والتصرف الكلي مع الاضافة الى ضمير ابليس للاشعار بكيفية كفايته تعالى لهم اعني سلب قدرته على اغوائهم (ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر) مبتدأ وخبر والازجاء السوق حالا بعد حال اي هو القادر الحكيم الذي يسوق لمنافعكم الفلك ويجريها في البحر (لتبتغوا من فضله) من رزقه الذي هو فضل من قبله او من الربح الذي هو معطيه ومن مزيدة او تبعيضية وهذا تذكير لبعض النعم التي هي دلائل التوحيد وتمهيد لذكر توحيدهم عند مساس الضر تكملة لما مر من قوله تعالى فلا يملكون الآية (انه كان بكم) ازلا وابدا (رحيما) حيث هيأ لكم ما تحتاجون اليه وسهل عليكم ما يعسر من مباديه وهذا تذييل فيه تعليل لما سبق من الازجاء لابتغاء الفضل وصيغة الرحيم للدلالة على ان المراد بالرحمة الرحمة الدنيوية والنعمة العاجلة المنقسمة الى الجليلة والحقيرة (واذا مسكم الضر في البحر) خوف الغرق فيه (ضل من تدعون) اي ذهب عن خواطركم ما كنتم تدعون من دون الله من الملائكة او المسيح او غيرهم (الا اياه) وحده من غير ان يخطر ببالكم احد منهم وتدعوه لكشفه استقلالا او اشتراكا

لاحول عن معصية الله الابعصمة الله ولاقوة على طاعة الله الابتوفيق الله بقى فى الآية
سؤالان (السؤال الاول) ان ابليس هل كان عالما بأن الذى تكلم معه بقوله واستفزز
من استطعت منهم هو اله العالم اولم يعلم ذلك فان علم ذلك ثم انه تعالى قال فان جهنم جزاؤكم
جزاء موفورا فكيف لم يصر هذا الوعيد الشديد مانعا له من المعصية مع انه سمعه من الله
تعالى من غير واسطة وان لم يعلم ان هذا القائل هو اله العالم فكيف قال أرأيتك هذا الذى
كرمت على والجواب لعله كان شاكا فى الكل اوكان يقول فى كل قسم مايخطر بباله على
سبيل الظن (والسؤال الثانى) ما الحكمة فى أنه تعالى انظره الى يوم القيامة ومكنه من
الوسوسة والحكيم اذا أراد أمرا وعلم ان شيئا من الاشياء يمنع من حصوله فانه لايسعى
فى تحصيل ذلك المانع والجواب امامذهبنا فظاهر فى هذا الباب واما المعتزلة فلهم قولان
قال الجبائى علم الله تعالى ان الذين كفروا عند وسوسة ابليس يكفرون بتقدير ان لايوجد
ابليس واذا كان كذلك لم يكن فى وجوده مزيد مفسدة وقال ابوهاشم لايبعد ان يحصل
من وجوده مزيد مفسدة الاأنه تعالى ابقاه تشديدا للتكليف على الخلق ليستحقوا بسبب
ذلك التشديد مزيد الثواب وهذان الوجهان قدذكرناهما فى سورة الاعراف والحجر
وبالغنا فى الكشف عنهما والله اعلم * قوله تعالى (ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر
لتبتغوا من فضله انه كان بكم رحيما واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الاإياه
فلما نجاكم الى البر اعرضتم وكان الانسان كفورا افأمنتم ان يخسف بكم جانب البر او يرسل
عليكم حاصبا ثم لاتجدوا لكم وكيلا ام امنتم ان يعيدكم فيه تارة اخرى فيرسل عليكم
قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا) اعلم انه تعالى عاد
الى ذكر الدلائل الدالة على قدرته وحكمته ورحمته وقدذكرنا ان المقصود الاعظم
فى هذا الكتاب الكريم تقرير دلائل التوحيد فاذا امتد الكلام فى فصل من الفصول
عاد الكلام بعده الى ذكر دلائل التوحيد والمذكور ههنا الوجوه المستنبطة من
الانعامات فى احوال ركوب البحر (فالنوع الاول) كيفية حركة الفلك على وجه البحر
وهو قوله ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر والازجاء سوق الشئ حالا بعد حال
وقدذكرنا ذلك فى تفسير قوله ببضاعة مزجاة والمعنى ربكم الذى يسير الفلك على وجه البحر
لتبتغوا من فضله فى طلب التجارة انه كان بكم رحيما والخطاب فى قوله ربكم وفى قوله انه
كان بكم عام فى حق الكل والمراد من الرحمة منافع الدنيا ومصالحها (والنوع الثانى) قوله
واذا مسكم الضر فى البحر والمراد من الضر الخوف الشديد كخوف الغرق ضل من
تدعون الااياه والمراد ان الانسان فى تلك الحالة لايتضرع الى الصنم والشمس والقمر
والملك والفلك وانما يتضرع الى الله تعالى فلما نجاكم من الغرق والبحر واخرجكم الى البر
اعرضتم عن الايمان والاخلاص وكان الانسان كفورا لنعم الله بسبب ان عند الشدة
يتمسك بفضله اورحمته وعند الرخاء والراحة يعرض عنه ويتمسك بغيره (والنوع الثالث)

(قوله)

اوضل كل من تدعونه عن
اغاثتكم وانقاذكم ولم يقدر على
ذلك الاالله على الاستثناء المنقطع
(فلما نجاكم) من الغرق واوصلكم
(الى البر اعرضتم) عن التوحيد
اواتسعتم فى كفران النعمة (وكان
الانسان كفورا) تعليل لما
سبق من الاعراض (أفأمنتم)
الهمزة للانكار والفاء للعطف
على محذوف تقديره انجوتم
فامنتم (ان يخسف بكم جانب
البر) الذى هو مأمنكم اى يقلبه
ملتبسا بكم اوبسبب كونكم فيه
وفى زيادة الجانب تنبيه على
تساوى الجوانب والجهات
بالنسبة الى قدرته سبحانه وتعالى
وقهره وسلطانه وقرئ بنون
العظمة (اويرسل عليكم) من
فوقكم وقرئ بالنون (حاصبا)
ريحا ترمى بالحصباء (ثم لاتجدوا
لكم وكيلا) يحفظكم من ذلك
او يصرفه عنكم فانه لاراد لامره
الغالب (ام امنتم ان يعيدكم
فيه) فى البحر اوثرت كلمة فى على
كلمة الى المنبئة عن مجرد الانتهاء
للدلالة على استقرارهم فيه (تارة
اخرى) اسناد الاعادة اليه تعالى
مع ان العود اليه باختيارهم
باعتبار خلق الدواعى الملجئة لهم
الى ذلك وفيه ايماء الى كمال شدة
هول مالاقوه فى التارة الاولى
بحيث لولا الاعادة لما عادوا
(فيرسل عليكم) وانتم فى البحر

قوله أفأمنتم ان نخسف بكم جانب البر قال الليث الخسف والخسوف هو دخول الشئ في الشئ يقال عين خاسفة وهي التي غابت حدقتها في الرأس وعين من الماء خاسفة اى غائرة الماء وخسفت الشمس اى احتجبت وكأنها وقعت تحت حجاب او دخلت في جحر فقوله ان نخسف بكم جانب البر اى نغيبكم في جانب البر وهو الارض وانما قال جانب البر لانه ذكر البحر في الآية الاولى فهو جانب والبر جانب فاخبر الله تعالى انه كما قدر على ان يغيبهم في الماء فهو قادر ايضا على ان يغيبهم في الارض فالغرق تغييب تحت الماء كما ان الخسف تغييب تحت التراب وتقرير الكلام انه تعالى ذكر في الآية الاولى انهم كانوا خائفين من هول البحر فلما نجاهم منه آمنوا فقال هب انكم نجوتم من هول البحر فكيف أمنتم من هول البر فانه تعالى قادر على ان يسلط عليكم آفات البر من جانب التحت او من جانب الفوق اما من جانب التحت فبالخسف واما من جانب الفوق فبامطار الحجارة عليهم وهو المراد من قوله او نرسل عليكم حاصبا فكما لا تتضرعون الا الى الله تعالى عند ركوب البحر فكذلك يجب ان لا تتضرعوا الا اليه في كل الاحوال ومعنى الحصب في اللغة الرمي يقال حصبت احصب حصبا اذا رميت والحصب المرمي ومنه قوله تعالى حصب جهنم اى يلقون فيها ومعنى قوله حاصبا اى عذابا يحصبهم اى يرميهم بحجارة ويقال للريح التي تحمل التراب والحصباء حاصب والسحاب الذي يرمي بالثلج والبرد يسمى حاصبا لانه يرمي بهما رميا وقال الزجاج الحاصب التراب الذي فيه حصباء والحاصب على هذا ذو الحصباء مثل اللابن والتامر وقوله ثم لا تجدوا لكم وكيلا يعني لا تجدوا ناصرا ينصركم ويصونكم من عذاب الله ثم قال ام امنتم ان نعيدكم فيه اى في البحر تارة اخرى وقوله فنرسل عليكم قاصفا من الريح القاصف الكاسر يقال قصف الشئ يقصفه قصفا اذا كسره بشدة والقاصف من الريح التي تكسر الشجر واراد ههنا ريحا شديدة تقصف الفلك وتغرقهم وقوله فنغرقكم بما كفرتم اى بسبب كفركم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا قال الزجاج اى لا تجدوا من يتبعنا بانكار ما نزل بكم بأن يصرفه عنكم وتبيع بمعنى تابع واعلم ان هذه الآية مشتملة على الفاظ خمسة وهي قوله ان نخسف او نرسل او نعيدكم فنرسل فنغرقكم قرأ ابن كثير وابو عمرو جميع هذه الخمسة بالنون والباقون بالياء فمن قرأ بالياء فلان ما قبله على الواحد الغائب وهو قوله الا اياه فلما نجاكم ومن قرأ بالنون فلان هذا البحر من الكلام قد ينقطع بعضه من بعض وهو سهل لان المعنى واحد الا ترى انه قد جاء وجعلناه هدى لبني اسرائيل الا تتخذوا من دوني وكيلا فانتقل من الجمع الى الافراد وكذلك ههنا يجوز ان ينتقل من الغيبة الى الخطاب والمعنى واحد والكل جائز والله اعلم

☼ قوله تعالى ( ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ) اعلم ان المقصود من هذه الآية ذكر نعمة اخرى جليلة رفيعة من نعم الله تعالى على الانسان وهي الاشياء التي بها فضل الانسان على غيره

وقرئ بالنون (فاصفا من الريح) وهي التي لا تمر بشئ الا كسرته وجعلته كالرميم او التي لها قصيف وهو الصوت الشديد كأنها تتقصف اى تتكسر (فيغرقكم) بعد كسر فلككم كما ينبئ عنه عنوان القصف وقرئ بالنون وبالتاء على الاسناد الى ضمير الريح ( بما كفرتم ) بسبب اشراككم او كفرانكم لنعمة الانجاء (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) اى ثائرا يطالبنا بما فعلنا انتصارا منا او دركا للثأر من جهتنا كقوله سبحانه ولا يخاف عقباها ( ولقد كرمنا بني آدم ) قاطبة تكريما شاملا لبرهم وفاجرهم اى كرمناهم بالصورة والقامة المعتدلة والتسلط على ما في الارض والتمتع به والتمكن من الصناعات وغير ذلك مما لا يكاد يحيط به نطاق العبارة ومن جملته ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما من ان كل حيوان يتناول طعامه بفيه الا الانسان فانه يرفعه اليه بيده وما قيل من شركة القرد له في ذلك مبني على عدم الفرق بين اليد والرجل فانه متناول له برجله التي يطأ بها القاذورات لا بيده ( وحملناهم في البر والبحر ) على الدواب والسفن من حملته اذا جعلت له ما يركبه وليس من المخلوقات شئ كذلك وقيل حملناهم فيهما حيث لم نخسف بهم الارض ولم نغرقهم بالماء وانت خبير بان

وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية اربعة انواع (النوع الاول) قوله ولقد كرمنا بني آدم واعلم ان الانسان جوهر مركب من النفس والبدن فالنفس الانسانية اشرف النفوس الموجودة في العالم السفلي وبدنه اشرف الاجسام الموجودة في العالم السفلي وتقرير هذه الفضيلة في النفس الانسانية هي ان النفس الانسانية قواها الاصلية ثلاث وهي الاغتذاء والنمو والتوليد والنفس الحيوانية لها قوتان الحساسة سواء كانت ظاهرة او باطنة والحركة بالاختيار فهذه القوى الخمسة اعني الاغتذاء والنمو والتوليد والحس والحركة حاصلة للنفس الانسانية ثم ان النفس الانسانية مختصة بقوة أخرى وهي القوة العاقلة المدركة لحقائق الاشياء كما هي وهي التي يتجلى فيها نور معرفة الله تعالى ويشرق فيها ضوء كبريائه وهو الذي يطلع على اسرار عالمي الخلق والامر ويحيط بأقسام مخلوقات الله من الارواح والاجسام كما هي وهذه القوة من تلقيح الجواهر القدسية والارواح المجردة الالهية فهذه القوة لا نسبة لها في الشرف والفضل الى تلك القوى الخمسة النباتية والحيوانية واذا كان الامر كذلك ظهر ان النفس الانسانية اشرف النفوس الموجودة في هذا العالم وان اردت ان تعرف فضائل القوة العقلية ونقصانات القوى الجسمية فتأمل ما كتبناه في هذا الكتاب في تفسير قوله تعالى الله نور السموات والارض فانا ذكرنا هناك عشرين وجها في بيان ان القوة العقلية اجل واعلى من القوة الجسمية فلا فائدة في الاعادة واما بيان ان البدن الانساني اشرف اجسام هذا العالم فالمفسرون انما ذكروا في تفسير قوله تعالى ولقد كرمنا بني آدم هذا النوع من الفضائل وذكروا اشياء (احدها) روى ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ولقد كرمنا بني آدم قال كل شيء يأكل بفيه الا ابن آدم فانه يأكل بيديه وقيل ان الرشيد احضرت عنده اطعمة فدعا بالملاعق وعنده ابو يوسف فقال له جاء في التفسير عن جدك في قوله تعالى ولقد كرمنا بني آدم جعلنا لهم اصابع يأكلون بها فرد الملاعق واكل بأصابعه (وثانيها) قال الضحاك بالنطق والتمييز وتحقيق الكلام ان من عرف شيئا فاما ان يعجز عن تعريف غيره كونه عارفا بذلك الشيء او يقدر على هذا التعريف (اما القسم الاول) فهو حال جملة الحيوانات سوى الانسان فانه اذا حصل في باطنها الم او لذة فانها تعجز عن تعريف غيرها تلك الاحوال تعريفا تاما وافيا (واما القسم الثاني) فهو الانسان فانه يمكنه تعريف غيره كل ما عرفه ووقف عليه واحاط به فكونه قادرا على هذا النوع من التعريف هو المراد بكونه ناطقا وبهذا البيان ظهر ان الانسان الاخرس داخل في هذا الوصف لانه وان عجز عن تعريف غيره ما في قلبه بطريق اللسان فانه يمكنه ذلك بطريق الاشارة وبطريق الكتابة وغيرهما ولا يدخل فيه الببغاء لانه وان قدر على تعريفات قليلة فلا قدرة له على تعريف جميع الاحوال على سبيل الكمال والتمام (وثالثها) قال عطاء بامتداد القامة واعلم ان هذا الكلام غير تام لان الاشجار أطول من قامة الانسان بل

الاول هو الانسب بالتكريم اذ جميع الحيوانات كذلك (ورزقناهم من الطيبات) اي فنون النعم وضروب المستلذات مما يحصل بصنعهم وبغير صنعهم (وفضلناهم) في العلوم والادراكات بما ركبنا فيهم من القوى المدركة التي بها يتميز الحق من الباطل والحسن من القبيح (على كثير ممن خلقنا) وهم من عدا الملائكة عليهم الصلاة والسلام (تفضيلا) عظيما فحق عليهم ان يشكروا هذه النعم ولا يكفروها ويستعملوا قواهم في تحصيل العقائد الحقة ويرفضوا ما هم عليه من الشرك الذي لا يقبله احد ممن له ادنى تميز فضلا عمن فضل على من عدا الملأ الاعلى الذين هم العقول المحضة وانما استثنى جنس الملائكة من هذا التفضيل لان علومهم دائمة عارية عن الخطأ والخلل وليس فيه دلالة على افضليتهم بالمعنى المتنازع فيه فان المراد هنا بيان التفضيل في امر مشترك بين جميع افراد البشر صالحها وطالحها ولا يمكن ان يكون ذلك هو الفضل في عظم الدرجة وزيادة القربة عند الله سبحانه ان قيل اي حاجة الى تعيين ما فيه التفضيل بعد بيان ما هو المراد بالمفضلين فان استثناء الملائكة عليهم الصلاة والسلام من تفضيل جميع افراد البشر عليهم لا يستلزم استثناءهم من تفضيل بعض افراده عليهم قلنا

ينبغي ان يشترط فيه شرط وهو طول القامة مع استكمال القوة العقلية والقوى الحسية والحركية (ورابعها) قال بحسن الصورة والدليل عليه قوله تعالى وصوركم فأحسن صوركم لما ذكر الله تعالى خلقة الانسان قال فتبارك الله احسن الخالقين وقال صبغة الله ومن احسن من الله صبغة وان شئت فتأمل عضوا واحدا من اعضاء الانسان وهو العين فخلق الحدقة سوداء ثم احاط بذلك السواد بياض العين ثم احاط بذلك البياض سواد الاشفار ثم احاط بذلك السواد بياض الاجفان ثم خلق فوق بياض الجفن سواد الحاجبين ثم خلق فوق ذلك السواد بياض الجبهة ثم خلق فوق بياض الجبهة سواد الشعر وليكن هذا المثال الواحد انموذجا لك في هذا الباب (وخامسها) قال بعضهم من كرامات الآدمي ان آتاه الله الخط وتحقيق الكلام في هذا الباب ان العلم الذي يقدر الانسان على استنباطه يكون قليلا اما اذا استنبط الانسان علما واودعه في الكتاب وجاء الانسان الثاني واستعان بذلك الكتاب وضم اليه من عند نفسه اشياء اخرى ثم لايزالون يتعاقبون ويضم كل متأخر مباحث كثيرة الى علم المتقدمين كثرت العلوم وقويت الفضائل والمعارف وانتهت المباحث العقلية والمطالب الشرعية الى اقصى الغايات واكمل النهايات ومعلوم ان هذا الباب لايأتي الا بواسطة الخط والكتبة ولهذه الفضيلة الكاملة قال تعالى اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم (وسادسها) ان اجسام هذا العالم اما بسائط واما مركبات اما البسائط فهي الارض والماء والهواء والنار والانسان ينتفع بكل هذه الاربع اما الارض فهي لنا كالام الحاضنة قال تعالى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى وقد سماها الله تعالى بأسماء بالنسبة الينا وهي الفراش والمهد والمهاد واما الماء فانتفاعنا به في الشرب والزراعة والحراثة ظاهر وايضا سخر البحر لنأكل منه لحما طريا ونستخرج منه حلية نلبسها ونرى الفلك مواخر فيه واما الهواء فهو مادة حياتنا ولولا هبوب الرياح لاستولى النتن على هذه المعمورة واما النار فبها طبخ الاغذية والاشربة ونضجها وهي قائمة مقام الشمس والقمر في الليالي المظلمة وهي الدافعة لضرر البرد كما قال الشاعر

ومن يرد في الشتاء فاكهة * فان نار الشتاء فاكهته

وأما المركبات فهي اما الآثار العلوية واما المعادن والنبات واما الحيوان والانسان كالمستولي على هذه الاقسام والمنتفع بها والمستسخر لكل اقسامها فهذا العالم باسره جار مجرى قرية معمورة اوخان معد وجميع منافعها ومصالحها مصروفة الى الانسان والانسان فيه كالرئيس المخدوم والملك المطاع وسائر الحيوانات بالنسبة اليه كالعبيد وكل ذلك يدل على كونه مخصوصا من عند الله بمزيد التكريم والتفضيل والله اعلم (وسابعها) ان المخلوقات تنقسم الى اربعة اقسام الى ماحصلت له القوة العقلية الحكمية ولم تحصل له القوة الشهوانية الطبيعية وهم الملائكة والى مايكون بالعكس

لابد من تعيينه البتة اذ ليس من الافراد الفاجرة للبشر احد يفضل على احد من المخلوقات فيما هو المتنازع فيه اصلا بل هم ادنى من كل دنئ حسبما ينبئ عنه قوله تعالى اولئك كالانعام بل هم اضل وقوله تعالى ان شر الدواب عند الله الذين كفروا (يوم ندعوا) نصب على المفعولية باضمار اذكر او ظرف لما دل عليه قوله تعالى ولا يظلمون وقرئ بالياء على البناء للفاعل وللمفعول ويدعو بقلب الالف واوا على لغة من يقول في افعى افعو وقد جوز كون الواو علامة الجمع كما في قوله تعالى واسروا النجوى اوضميره وكل بدلا منه والنون محذوفة لقلة المبالاة بها فانها ليست الاعلامة الرفع وقد يكتفي بتقديره كما في يدعي (كل اناس) من بني آدم الذين فعلنا بهم في الدنيا مافعلنا من التكريم والتفضيل وهذا شروع في بيان تفاوت احوالهم في الآخرة بحسب احوالهم واعمالهم في الدنيا (بامامهم) اى بمن ائتموا به من نبي اومقدم في الدين او كتاب اودين وقيل بكتاب اعمالهم التي قدموها فيقال يا اصحاب كتاب الخير يااصحاب كتاب الشر او يااهل دين كذا يااهل كتاب كذا وقيل الامام جمع ام كخف وخفاف والحكمة في دعوتهم بأمهاتهم اجلال عيسى عليه السلام

وهم البهائم والى ماخلا عن القسمين وهو النبات والجمادات والى ماحصل النوعان فيه وهو الانسان ولاشك ان الانسان لكونه مستجمعا للقوة العقلية القدسية المحضة وللقوى الشهوانية البهيمية والغضبية والسبعية يكون افضل من البهيمية ومن السبعية ولاشك ايضا انه افضل من الاجسام الخالية عن القوتين مثل النبات والمعادن والجمادات واذا ثبت ذلك ظهر ان الله تعالى فضل الانسان على اكثر اقسام المخلوقات * بقي ههنا بحث في ان الملك افضل ام البشر والمعنى ان الجوهر البسيط الموصوف بالقوة العقلية القدسية المحضة افضل ام البشر المستجمع لهاتين القوتين وذلك بحث آخر (وثامنها) الموجود اما ان يكون ازليا وابديا معا وهو الله سبحانه وتعالى واما ان يكون لا ازليا ولا ابديا وهو عالم الدنيا مع كل مافيه من المعادن والنبات والحيوان وهذا اخس الاقسام واما ان يكون ازليا لا ابديا وهو الممتنع الوجود لان ماثبت قدمه امتنع عدمه واما ان لا يكون ازليا ولكنه يكون ابديا وهو الانسان والملك ولاشك ان هذا القسم اشرف من القسم الثاني والثالث وذلك يقتضي كون الانسان اشرف من اكثر مخلوقات الله تعالى (وتاسعها) العالم العلوى اشرف من العالم السفلي وروح الانسان من جنس الارواح العلوية والجواهر القدسية فليس في موجودات العالم السفلي شيء حصل فيه شيء من العالم العلوى الا الانسان فوجب كون الانسان اشرف موجودات العالم السفلي (وعاشرها) اشرف الموجودات هو الله تعالى واذا كان كذلك فكل موجود كان قربه من الله تعالى اتم وجب ان يكون اشرف لكن اقرب موجودات هذا العالم من الله هو الانسان بسبب ان قلبه مستنير بمعرفة الله تعالى ولسانه مشرف بذكر الله وجوارحه واعضاؤه مكرمة بطاعة الله فوجب الجزم بأن اشرف موجودات هذا العالم السفلي هو الانسان ولماثبت ان الانسان موجود ممكن لذاته والممكن لذاته لا يوجد الا بايجاد الواجب لذاته ثبت ان كل ماحصل للانسان من المراتب العالية والصفات الشريفة فهى انما حصلت باحسان الله تعالى وانعامه فلهذا المعنى قال تعالى ولقد كرمنا بني آدم ومن تمام كرامته على الله تعالى انه تعالى لما خلقه في اول الامر وصف نفسه بأنه اكرم فقال اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ووصف نفسه بالتكريم عند تربيته للانسان فقال ولقد كرمنا بني آدم ووصف نفسه بالكرم في آخر احوال الانسان فقال ياايها الانسان ماغرك بربك الكريم وهذا يدل على انه لانهاية لكرم الله تعالى ولفضله واحسانه مع الانسان والله اعلم (والوجه الحادى عشر) قال بعضهم هذا التكريم معناه انه تعالى خلق آدم بيده وخلق غيره بطريق كن فيكون ومن كان مخلوقا بيد الله كانت العناية به اتم واكمل وكان اكرم واكمل ولما جعلنا من اولاده وجب كون بني آدم اكرم واكمل والله اعلم (النوع الثاني) من المدائح المذكورة في هذه الآية قوله وحملناهم في البر والبحر قال ابن عباس في البر على الخيل والبغال والحمير

(والابل)

وتشريف الحسنين رضى الله عنهما والستر على اولاد الزنا (فمن اوتى) يومئذ من اولئك المدعوين (كتابه) صحيفة اعماله (بيمينه) ابانة لخطر الكتاب المؤتى وتشريفا لصاحبه وتبشيرا له من اول الامر بما في مطاويه (فاولئك) اشارة الى من باعتبار معناه ايذانا بأنهم حزب مجتمعون على شأن جليل اواشعارا بأن قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد كما في حال الايتاء ومافيه من الدلالة على البعد للاشعار برفعة درجاتهم اى اولئك المختصون بتلك الكرامة التى يشعر بها الايتاء المزبور (يقرؤن كتابهم) الذى اوتوه على الوجه المبين بجحا بما سطر فيه من الحسنات المستتبعة لفنون الكرامات (ولايظلمون) اى لاينقصون من اجور اعمالهم المرتسمة في كتبهم بل يؤتونها مضاعفة (فتيلا) اى قدر فتيل وهو القشرة التى في شق النواة اوادنى شيء فان الفتيل مثل في القلة والحقارة (ومن كان) من المدعوين المذكورين (في هذه) الدنيا التى فعل بهم فيها مافعل من فنون التكريم والتفضيل (اعمى) فاقد البصيرة لايهتدى الى رشده ولا يعرف ماأوليناه من نعمة التكرمة والتفضيل فضلا عن شكرها والقيام بحقوقها ولايستعمل

والابل وفي البحر على السفن وهذا أيضا من مؤكدات التكريم المذكور اولا لانه تعالى
سخر هذه الدواب له حتى يركبها ويحمل عليها ويغزو ويقاتل ويذب عن نفسه وكذلك
تسخير الله تعالى المياه والسفن وغيرها ليركبها وينقل عليها ويتكسب بها مما يختص به
ابن آدم كل ذلك مما يدل على ان الانسان في هذا العالم كالرئيس المتبوع والملك المطاع وكل
ماسواه فهو رعيته وتبع له (النوع الثالث) من المدائح قوله ورزقناهم من الطيبات
وذلك لان الاغذية اما حيوانية واما نباتية وكلا القسمين انما يغتذي الانسان منه بألطف
انواعها واشرف اقسامها بعد التنقية التامة والطبخ الكامل والنضج البالغ وذلك مما
لايحصل الا للانسان (النوع الرابع) قوله وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا وههنا
بحثان (البحث الاول) انه قال في اول الآية ولقد كرمنا بني آدم وقال في آخرها وفضلناهم
ولابد من الفرق بين هذا التكريم والتفضيل والالزم التكرار والاقرب ان يقال انه تعالى
فضل الانسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية مثل العقل والنطق والخط
والصورة الحسنة والقامة المديدة ثم انه تعالى عرضه بواسطة ذلك العقل والفهم
لاكتساب العقائد الحقة والاخلاق الفاضلة فالاول هو التكريم والثاني هو التفضيل
(البحث الثاني) انه تعالى لم يقل وفضلناهم على الكل بل قال وفضلناهم على كثير ممن خلقنا
تفضيلا فهذا يدل على انه حصل في مخلوقات الله تعالى شيء لايكون الانسان مفضلا عليه
وكل من اثبت هذا القسم قال انه هو الملائكة فلزم القول بان الانسان ليس افضل من
الملائكة بل الملك افضل من الانسان وهذا القول مذهب ابن عباس واختيار الزجاج
على مارواه الواحدي في البسيط واعلم ان هذا الكلام مشتمل على بحثين (احدهما) ان
الانبياء عليهم السلام افضل ام الملائكة وقد سبق ذكر هذه المسئلة بالاستقصاء في سورة
البقرة في تفسير قوله تعالى واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم (والبحث الثاني) ان عوام
الملائكة وعوام المؤمنين ايهما افضل منهم من قال بتفضيل المؤمنين على الملائكة
واحتجوا عليه بماروى عن زيد بن اسلم انه قال قالت الملائكة ربنا انك اعطيت بني آدم
الدنيا يأكلون فيها ويتنعمون ولم تعطنا ذلك فأعطناذلك في الآخرة فقال وعزتي وجلالي
لااجعل ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان وقال ابوهريرة رضي الله عنه المؤمن
اكرم على الله من الملائكة الذين عنده هكذا اورده الواحدي في البسيط واما القائلون
بان الملك افضل من البشر على الاطلاق فقد عولوا على هذه الآية وهو في الحقيقة تمسك
بدليل الخطاب لان تقرير الدليل ان يقال ان تخصيص الكثير بالذكر يدل على ان الحال
في القليل بالضد وذلك تمسك بدليل الخطاب والله اعلم * قوله تعالى (يوم ندعوا كل اناس
بامامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم ولايظلمون فتيلا ومن كان في هذه اعمى
فهو في الآخرة اعمى واضل سبيلا) اعلم انه تعالى لماذكر انواع كرامات الانسان في الدنيا
ذكر احوال درجاته في الآخرة في هذه الآية وفيها مسائل (المسئلة الاولى) قرئ يدعو

ما اودعناه فيه من العقول
والقوى فيما خلقن له من العلوم
والمعارف الحقة (فهو في
الآخرة) التي عبر عنها بيوم ندعو
(اعمى) كذلك اى لايهتدي الى
ماينجيه ولايظفر بما يجديه لان
العمى الاول موجب للثاني وقد
جوز كون الثاني بمعنى التفضيل
على ان عماه في الآخرة اشد من
عماه في الدنيا ولذلك قرأ أبو عمرو
الاول ممالا والثاني مفخما (واضل
سبيلا) اى من الاعمى لزوال
الاستعداد الممكن وتعطل
الآلات بالكلية وهذا بعينه هو
الذي أوتي كتابه بشماله بدلالة حال
ماسبق من الفريق المقابل له ولعل
العدول عن ذكره بذلك العنوان
مع انه الذي يستدعيه حسن
المقابلة حسبما هو الواقع في سورة
الحاقة وسورة الانشقاق للايذان
بالعلة الموجبة له كما في قوله تعالى
واما ان كان من المكذبين
الضالين بعد قوله تعالى واما ان
كان من اصحاب اليمين وللرمز الى
علة حال الفريق الاول وقد ذكر
في احد الجانبين المسبب وفي
الآخر السبب ودل بالمذكور
في كل منهما على المتروك
في الآخر تعويلا على شهادة
العقل كما في قوله عز وعلا وان
يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا
هو وان يردك بخير فلا راد لفضله
(وان كادوا ليفتنونك) نزلت في
ثقيف اذ قالوا للنبي صلى الله عليه

بالياء والنون ويدعى كل أناس على البناء للمفعول وقرأ الحسن يدعو كل اناس قال الفراء واهل العربية لايعرفون وجها لهذه القراءة المنقولة عن الحسن ولعله قرأيدعى بفتحة ممزوجة بالضم فظن الراوى انه قرأيدعو (المسئلة الثانية) قوله يوم ندعو نصب باضمار اذكر ولا يجوز ان يقال العامل فيه قوله وفضلناهم لانه فعل ماض ويمكن ان يجاب عنه فيقال المراد ونفضلهم بما نعطيهم من الكرامة والثواب (المسئلة الثانية) قوله بامامهم الامام فى اللغة كل من ائتم به قوم كانوا على هدى او ضلالة فالنبى امام امته والخليفة امام رعيته والقرآن امام المسلمين وامام القوم هو الذى يقتدون به فى الصلاة وذكروا فى تفسير الامام ههنا اقوالا (الاول) امامهم نبيهم روى ذلك مرفوعا عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ويكون المعنى انه ينادى يوم القيامة يامة ابراهيم يامة موسى يامة عيسى يامة محمد فيقوم اهل الحق الذين اتبعوا الانبياء فيأخذون كتبهم بايمانهم ثم ينادى يااتباع فرعون يااتباع نمروذ يا اتباع فلان وفلان من رؤساء الضلال واكابر الكفر وعلى هذا القول فالباء فى قوله بامامهم فيه وجهان (الاول) ان يكون التقدير يدعو كل اناس بامامهم تبعا وشيعة لامامهم كما تقول ادعوك باسمك (والثانى) ان يتعلق بمحذوف وذلك المحذوف فى موضع الحال كأنه قيل يدعو كل اناس مختلطين بامامهم اى يدعون وامامهم فيهم نحو ركب بجنوده (والقول الثانى) وهو قول الضحاك وابن زيد بامامهم اى بكتابهم الذى انزل عليهم وعلى هذا التقدير ينادى فى القيامة يااهل القرآن يااهل التوراة يااهل الانجيل (والقول الثالث) قال الحسن بكتابهم الذى فيه اعمالهم وهو قول الربيع وابى العالية والدليل على ان هذا الكتاب يسمى اماما قوله تعالى وكل شئ احصيناه فى امام مبين فسمى الله تعالى هذا الكتاب اماما وتقدير الباء على هذا القول بمعنى مع اى ندعو كل اناس ومعهم كتابهم كقولك اردفه اليه برمته اى ومعه رمته (القول الرابع) قال صاحب الكشاف ومن بدع التفاسير ان الامام جمع ام وان الناس يدعون يوم القيامة بامهاتهم وان الحكمة فى الدعاء بالامهات دون الآباء رعاية حق عيسى واظهار شرف الحسن والحسين وان لايفتضح اولاد الزنا ثم قال صاحب الكشاف وليت شعرى ايهما ابدع اصحة لفظه ام بيان حكمته (والقول الخامس) اقول فى اللفظ احتمال آخر وهو ان انواع الاخلاق الفاضلة والفاسدة كثيرة والمستولى على كل انسان نوع من تلك الاخلاق فنهم من يكون الغالب عليه الغضب ومنهم من يكون الغالب عليه شهوة النقود اوشهوة الضياع ومنهم من يكون الغالب عليه الحقد والحسد وفى جانب الاخلاق الفاضلة منهم من يكون الغالب عليه الفقه او الشجاعة اوالكرم اوطلب العلم والزهد اذا عرفت هذا فنقول الداعى الى الافعال الظاهرة من تلك الاخلاق الباطنة فذلك الخلق الباطن كالامام له والملك المطاع والرئيس المتبوع فيوم القيامة انما يظهر الثواب والعقاب بناء على الافعال الناشئة

وسلم لاندخل فى امرك حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب لانعشر ولانحشر ولانجبى فى صلاتنا وكل ربا لنا فهو لنا وكل ربا علينا فهو موضوع عنا وان تمتعنا باللات سنة وان تحرم وادينا وج كما حرمت مكة فاذا قالت العرب لم فعلت فقل ان الله امرنى بذلك وقيل فى قريش حيث قالوا اجعل لنا آية عذاب آية رحمة وآية رحمة آية عذاب وقالوا لا نمكنك من استلام الحجر حتى تلم بآلهتنا فان مخففة من المشددة وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف واللام هى الفارقة بينها وبين النافية اى ان الشأن قاربوا ان يفتنوك اى يخدعوك فاتنين (عن الذى أوحينا اليك) من اوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا (لتفترى علينا غيره) لتتقول علينا غير الذى اوحينا اليك مما اقترحته ثقيف او قريش حسبما نقل (واذن لاتخذوك خليلا) اى لو اتبعت اهواءهم لكنت لهم وليا وخرجت من ولايتى (ولولا ان ثبتناك) على ما انت عليه من الحق بعصمتنا لك (لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا) من الركون الذى هو ادنى ميل اى لولا تثبيتنا لك لقاربت ان تميل اليهم شيئا يسيرا من الميل اليسير لقوة خدعهم وشدة احتيالهم لكن ادركتك العصمة فمنعتك من ان تقرب من ادنى مراتب الركون اليهم فضلا

من تلك الاخلاق فهذا هو المراد من قوله يوم ندعو كل اناس بامامهم فهذا الاحتمال خطر بالبال والله اعلم بمراده ثم قال تعالى فمن اوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا قال صاحب الكشاف انما قال اولئك لان من اوتى فى معنى الجمع والفتيل القشرة التى فى شق النواة وسمى بهذا الاسم لانه اذا أراد الانسان استخراجه انفتل وهذا يضرب مثلا للشئ الحقير التافه ومثله القطمير والنقير فى ضرب المثل به والمعنى لا ينقصون من الثواب بمقدار فتيل ونظيره قوله ولا يظلمون شيئا فلا يخاف ظلما ولا هضما وروى مجاهد عن ابن عباس انه قال الفتيل هو الوسخ الذى يظهر بفتل الانسان ابهامه بسبابته وهو فعيل من الفتل بمعنى مفتول فان قيل لم خص اصحاب اليمين بقراءة كتابهم مع ان اصحاب الشمال يقرؤنه ايضا قلنا الفرق ان اصحاب الشمال اذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملا على المهلكات العظيمة والقبائح الكاملة والمخازى الشديدة فيستولى الخوف والدهشة على قلوبهم ويثقل لسانهم فيعجزوا عن القراءة واما اصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك لاجرم انهم يقرؤن كتابهم على احسن الوجوه واثبتها ثم لا يكتفون بقراءتهم وحدهم بل يقول القارئ لاهل المحشر هاؤم اقرؤا كتابيه فظهر الفرق والله اعلم ثم قال تعالى ومن كان فى هذه اعمى فهو فى الآخرة اعمى واضل سبيلا وفيه مسئلتان (الاولى) قرأ ابو عمرو وابو بكر عن عاصم ونصر عن الكسائى ومن كان فى هذه اعمى بالامالة والكسر فهو فى الآخرة اعمى بالفتح وقرأ بالفتح والتفخيم فيهما ابن كثير ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم وقرأ حمزة والكسائى وابو بكر عن عاصم فى رواية بالامالة فيهما قال ابو على الفارسى الوجه فى تصحيح قراءة ابى عمرو ان المراد بالاعمى فى الكلمة الاولى كونه فى نفسه اعمى وبهذا التقدير تكون هذه الكلمة تامة فتقبل الامالة واما فى الكلمة الثانية فالمراد من الاعمى افعل التفضيل فكانت بمعنى افعل من وبهذا التقدير لا تكون لفظة اعمى تامة فلم تقبل الامالة والحاصل ان ادخال الامالة فى الاولى دل على انه ليس المراد افعل التفضيل وتركها فى الثانية يدل على ان المراد منها افعل التفضيل والله اعلم (المسئلة الثانية) لاشك انه ليس المراد من قوله تعالى ومن كان فى هذه اعمى فهو فى الآخرة اعمى عمى البصر بل المراد منه عمى القلب اما قوله فهو فى الآخرة اعمى ففيه قولان (الاول) ان المراد منه ايضا عمى القلب وعلى هذا التقدير ففيه وجوه (الاول) قال عكرمة جاء نفر من اهل اليمن الى ابن عباس فسأله رجل عن هذه الآية فقال اقرأ ماقبلها فقرأ ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر الى قوله تفضيلا قال ابن عباس من كان اعمى فى هذه النعم التى قد رأى وعاين فهو فى امر الآخرة التى لم ير ولم يعاين اعمى واضل سبيلا وعلى هذا الوجه فقوله فى هذه اشارة الى النعم المذكورة فى الآيات المتقدمة (وثانيها) روى ابو روق عن الضحاك عن ابن عباس قال من كان فى الدنيا اعمى عما يرى من قدرتى فى خلق السموات والارض والبحار والجبال والناس والدواب فهو عن امر الآخرة اعمى واضل سبيلا

عن نفس الركون وهذا صريح فى انه عليه الصلاة والسلام ماهم باجابتهم مع قوة الداعى اليها ودليل على ان العصمة بتوفيق الله تعالى وعنايته (اذا) لو قاربت ان تركن اليهم ادنى ركنة (لاذقناك ضعف الحيوة وضعف الممات) اى عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ضعف مايعذب به فى الدارين بمثل هذا الفعل غيرك لان خطأ الخطير خطير وكان اصل الكلام عذابا ضعفا فى الحياة وعذابا ضعفا فى الممات بمعنى مضاعفا ثم حذف الموصوف واقيمت الصفة مقامه ثم اضيفت اضافة موصوفها وقيل الضعف من اسماء العذاب وقيل المراد بضعف الحياة عذاب الآخرة وبضعف الممات عذاب القبر (ثم لاتجد لك علينا نصيرا) يدفع عنك العذاب (وان كادوا) الكلام فيه كما فى الاول اى كاد اهل مكة (ليستفزونك) اى ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم (من الارض) اى الارض التى انت فيها وهى ارض مكة (ليخرجوك منها واذا لايلبثون) بالرفع عطفا على خبر كاد وقرئ لايلبثوا بالنصب باعمال اذن على ان الجملة معطوفة على جملة وان كادوا ليستفزونك (خلافك) اى بعدك قال

خلت الديار خلافهم فكأنما بسط الشواطب بينهن حصيرا

اى ولو خرجت لايبقون بعد

وابعد عن تحصيل العلم به وعلى هذا الوجه فقوله فمن كان في هذه اشارة الى الدنيا وعلى هذين القولين فالمراد من كان في الدنيا اعمى القلب عن معرفة هذه النعم والدلائل فبأن يكون في الآخرة اعمى القلب عن معرفة احوال الآخرة اولى فالعمى في المرتين حصل في الدنيا (وثالثها) قال الحسن من كان في الدنيا ضالا كافرا فهو في الآخرة اعمى واضل سبيلا لانه في الدنيا تقبل توبته وفي الآخرة لاتقبل توبته وفي الدنيا يهتدى الى التخلص عن ابواب الآفات وفي الآخرة لايهتدى الى ذلك البتة (ورابعها) انه لايمكن حمل العمى الثاني على الجهل بالله لان اهل الآخرة يعرفون الله بالضرورة فكان المراد منه العمى عن طريق الجنة اى ومن كان في هذه الدنيا اعمى عن معرفة الله فهو في الآخرة اعمى عن طريق الجنة (وخامسها) ان الذين حصل لهم عمى القلب في الدنيا انما حصلت هذه الحالة لهم لشدة حرصهم على تحصيل الدنيا وابتهاجهم بلذاتها وطيباتها فهذه الرغبة تزداد في الآخرة وتعظم هناك حسرتهم على فوات الدنيا وليس معهم شيء من انوار معرفة الله تعالى فيبقون في ظلمة شديدة وحسرة عظيمة فذاك هو المراد من العمى (القول الثاني) ان يحمل العمى الثاني على عمى العين والبصر فمن كان في هذه الدنيا اعمى القلب حشر يوم القيامة اعمى العين والبصر كما قال ونحشره يوم القيامة اعمى قال رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وقال ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما وهذا العمى زيادة في عقوبتهم والله اعلم

❊ قوله تعالى (وان كادوا ليفتنونك عن الذي اوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا اذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا) اعلم انه تعالى لما عدد في الآيات المتقدمة اقسام نعمه على خلقه واتبعها بذكر درجات الخلق في الآخرة وشرح احوال السعداء اردفه بما يجرى مجرى تحذير السعداء من الاغترار بوساوس ارباب الضلال والانخداع بكلامهم المشتمل على المكر والتلبيس فقال وان كادوا ليفتنونك عن الذي اوحينا اليك وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس في رواية عطاء نزلت هذه الآية في وفد ثقيف أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه شططا وقالوا امتعنا باللات سنة وحرم وادينا كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم فكرروا ذلك الالتماس وقالوا انا نحب ان تعرف العرب فضلنا عليهم فان كرهت ماتقول وخشيت ان تقول العرب اعطيتهم مالم تعطنا فقل الله امرني بذلك فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وداخلهم الطمع فصاح عليهم عمر وقال أما ترون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امسك عن الكلام كراهية لما تذكرونه فأنزل الله هذه الآية وروى صاحب الكشاف انهم جاؤا بكاتبهم فكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله الى ثقيف لايعشرون ولايحشرون فقالوا ولايجبون فسكت

خروجك وقرئ خلفك (الا قليلا) الازمانا قليلا وقد كان كذلك فانهم اهلكوا ببدر بعد هجرته عليه الصلاة والسلام وقيل نزلت الآية في اليهود حيث حسدوا مقام النبي عليه الصلاة والسلام بالمدينة فقالوا الشام مقام الانبياء عليهم السلام فان كنت نبيا فالحق بها حتى نؤمن بك فوقع ذلك في قلبه عليه الصلاة والسلام فخرج مرحلة فنزلت فرجع ثم قتل منهم بنو قريظة واجلى بنو النضير بقليل (سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا) نصب على المصدرية اى سن الله تعالى سنة وهي ان يهلك كل امة اخرجت رسولهم من بين اظهرهم فالسنة لله تعالى واضافتها الى الرسل لانها سنت لاجلهم على ماينطق به قوله عزوجل (ولاتجد لسنتنا تحويلا) اى تغييرا (اقم الصلاة لدلوك الشمس) لزوالها كما ينبئ عنه قوله عليه الصلاة والسلام اتاني جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر واشتقاقه من الدلك لان من نظر اليها حينئذ يدلك عينه وقيل لغروبها من دلكت الشمس اى غربت وقيل اصل الدلوك الميل فينتظم كلا المعنيين واللام للتأقيت مثلها في قولك لثلاث خلون (الى غسق الليل) الى اجتماع ظلمته وهو وقت صلاة العشاء وليس المراد اقامتها فيما بين الوقتين على وجه

رسول الله ثم قالوا للكاتب اكتب ولا يجيبون والكاتب ينظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام عمر بن الخطاب وسل سيفه وقال اسعرتم قلب نبينا يا معشر قريش اسعر الله قلوبكم نارا فقالوا لسنا نكلمك انما نكلم محمدا فنزلت هذه الآية واعلم ان هذه القصة انما وقعت بالمدينة فلهذا السبب قالوا ان هذه الآيات مدنية وروى ان قريشا قالوا له اجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة حتى نؤ من بك فنزلت هذه الآية وقال الحسن الكفار اخذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة بمكة قبل الهجرة فقالوا كف يا محمد عن ذم آلهتنا وشتمها فلو كان ذلك حقا كان فلان وفلان بهذا الامر احق منك فوقع فى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يكف عن شتم آلهتهم وعلى هذا التقدير فهذه الآية مكية وعن سعيد بن جبير انه عليه السلام كان يستلم الحجر فتمنعه قريش ويقولون لا ندعك حتى تستلم بآلهتنا فوقع فى نفسه ان نفعل ذلك مع كراهية فنزلت هذه الآية (المسئلة الثانية) قال الزجاج معنى الكلام كادوا يفتنونك ودخلت ان واللام للتأكيد وان مخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة بينها وبين النافية والمعنى ان الشأن قاربوا ان يفتنوك اى يخدعوك فاتنين اصل الفتنة الاختبار يقال فتن الصائغ الذهب اذا ادخله النار وأذابه لتميز جيده من رديئه ثم استعملوه فى كل من ازال الشيء عن حده وجهته فقالوا فتنه فقوله وان كادوا ليفتنونك عن الذى اوحينا اليك اى يزيلونك ويصرفونك عن الذى اوحينا اليك يعنى القرآن والمعنى عن حكمه وذلك لان فى اعطائهم ماسألوا مخالفة لحكم القرآن وقوله لتفترى علينا غيره اى غير ما اوحينا اليك وهو قولهم قل الله امرنى بذلك واذا لاتخذوك خليلا اى لو فعلت ما ارادوا لاتخذوك خليلا واظهروا للناس انك موافق لهم على كفرهم وراض بشركهم ثم قال ولولا أن ثبتناك اى على الحق بعصمتنا اياك لقد كدت تركن اليهم اى تميل اليهم شيئا قليلا وقوله شيئا عبارة عن المصدر اى ركونا قليلا قال ابن عباس يريد حيث سكت عن جوابهم قال قتادة لما نزلت هذه الآية قال النبى صلى الله عليه وسلم اللهم لا تكلنى الى نفسى طرفة عين ثم توعده فى ذلك اشد التوعد فقال اذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات اى ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات يريد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة والضعف عبارة عن ان يضم الى الشيء مثله فان الرجل اذا قال لوكيله اعط فلانا شيئا فاعطاه درهما فقال اضعفه كان المعنى ضم الى ذلك الدرهم مثله اذا عرفت هذا فنقول انما حسن اضمار العذاب فى قوله ضعف الحياة وضعف الممات لما تقدم فى القرآن من وصف العذاب بالضعف فى قوله ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار وقال لكل ضعف ولكن لا تعلمون وحاصل الكلام انك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون اليه همتك لاستحققت بذلك تضعيف العذاب عليك فى الدنيا والآخرة ولصار عذابك مثلى عذاب المشرك فى الدنيا ومثلى عذابه فى الآخرة والسبب فى تضعيف

الاستمرار بل اقامة كل صلاة فى وقتها الذى عين لها ببيان جبريل عليه السلام كما ان اعداد ركعات كل صلاة موكولة الى بيانه عليه السلام ولعل الاكتفاء ببيان المبدأ والمنتهى فى اوقات الصلوات من غير فصل بينها لما ان الانسان فيما بين هذه الاوقات على اليقظة فبعضها متصل ببعض بخلاف اول وقت العشاء والفجر فانه باشتغاله فيما بينهما بالنوم ينقطع احدهما عن الآخر ولذلك فصل وقت الفجر عن سائر الاوقات وقيل المراد بالصلاة صلاة المغرب والتحديد المذكور بيان لمبدئه ومنتهاه واستدل به على امتداد وقته الى غروب الشفق وقوله تعالى (وقرآن الفجر) اى صلاة الفجر نصب عطفا على مفعول اقم او على الاغراء قاله الزجاج وانما سميت قرآنا لانه ركنها كما تسمى ركوعا وسجودا واستدل به على الركنية ولكن لا دلالة له على ذلك لجواز كون مدار التجوز كون القراءة مندوبة فيها نعم لو فسر بالقراءة فى صلاة الفجر لدل الامر باقامتها على الوجوب فيها نصا وفيما عداها دلالة ويجوز ان يكون

هذا العذاب ان اقسام نعم الله تعالى فى حق الانبياء عليهم السلام اكثر فكانت ذنوبهم اعظم فكانت العقوبة المستحقة عليها اكثر ونظيره قوله تعالى يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين فان قيل قال عليه السلام من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة فوجب هذا الحديث انه عليه السلام لو رضى بما قالوه لكان وزره مثل وزر كل احد من اولئك الكفار وعلى هذا التقدير يكون عقابه زائدا على الضعف قلنا اثبات الضعف لايدل على نفى الزائد عليه الا بالبناء على دليل الخطاب وهو حجة ضعيفة ثم قال تعالى ثم لاتجد لك علينا نصيرا يعنى اذا اذقناك العذاب المضاعف لم تجد احدا يخلصك من عذابنا وعقابنا والله اعلم ( المسئلة الثالثة ) احتج الطاعنون فى عصمة الانبياء عليهم السلام بهذه الآية فقالوا هذه الآية تدل على صدور الذنب العظيم عنهم من وجوه ( الاول ) ان الآية دلت على انه عليه السلام قرب من ان يفترى على الله والفرية على الله من اعظم الذنوب ( والثانى ) انها تدل على انه لولا ان الله تعالى ثبته وعصمه لقرب من ان يركن الى دينهم ويميل الى مذهبهم ( والثالث ) انه لولا سبق جرم وجناية والا فلا حاجة الى ذكر هذا الوعيد الشديد والجواب عن الاول ان كاد معناه المقاربة فكان معنى الآية انه قرب وقوعه فى الفتنة وهذا القدر لايدل على الوقوع فى تلك الفتنة فاذا قلنا كاد الامير ان يضرب فلانا لايفهم منه انه ضربه والجواب عن الثانى ان كلمة لولا تفيد انتفاء الشئ لثبوت غيره تقول لولا على لهلك عمر معناه ان وجود على منع من حصول الهلاك لعمر فكذلك ههنا قوله ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم معناه انه حصل تثبيت الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم فكان حصول ذلك التثبيت مانعا من حصول ذلك الركون والجواب عن الثالث ان ذلك التهديد على المعصية لايدل على الاقدام عليها والدليل عليه آيات منها قوله ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ومنها قوله لئن اشركت ليحبطن عملك ومنها قوله ولاتطع الكافرين والمنافقين والله اعلم ( المسئلة الرابعة ) احتج اصحابنا على صحة قولهم بأنه لاعصمة عن المعاصى الا بتوفيق الله تعالى بقوله ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا قالوا انه تعالى بين انه لولا تثبيت الله تعالى له لمال الى طريقة الكفار ولاشك ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان اقوى من غيره فى قوة الدين وصفاء اليقين فلما بين الله تعالى ان بقاءه معصوما عن الكفر والضلال لم يحصل الا باعانة الله تعالى واغاثته كان حصول هذا المعنى فى حق غيره اولى قالت المعتزلة المراد بهذا التثبيت الالطاف الصارفة له عن ذلك وهى ماخطر بباله من ذكر وعده ووعيده ومن ذكر ان كونه نبيا من عند الله تعالى يمنع من ذلك والجواب لاشك ان هذا التثبيت عبارة عن فعل فعله الله يمنع الرسول من الوقوع فى ذلك العمل المحذور فنقول لو لم يوجد المقتضى للاقدام على ذلك العمل المحذور فى حق الرسول لما كان الى ايجاد هذا المانع حاجة وحيث وقعت الحاجة

وقرآن الفجر حثا على تطويل القراءة فى صلاة الفجر (ان قرآن الفجر) اظهر فى مقام الاضمار ابانة لمزيد الاهتمام به ( كان مشهودا ) يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار اوشواهد القدرة من تبدل الضياء بالظلمة والانتباه بالنوم الذى هو اخو الموت اويشهده كثير من المصلين اومن حقه ان يشهده الجم الغفير فالآية على تفسير الدلوك بالزوال جامعة للصلوات الخمس وعلى تفسيره بالغروب لماعدا الظهر والعصر (ومن الليل) قيل هو نصب على الاغراء اى الزم بعض الليل وقيل لايكون المغرى به حرفا ولايجدى نفعا كون معناها التبعيض فان واو مع ليست اسما بالاجماع وان كانت بمعنى الاسم الصريح بل هو منصوب على الظرفية بمضمر اى قم بعض الليل (فتهجد به )اى ازل والق الهجود اى النوم فان صيغة التفعل تجئ للازالة كالتحرج والتحنث والتأثم ونظائرها والضمير المجرور للقرآن من حيث هو لابقيد اضافته الى الفجر اوللبعض المفهوم من قوله تعالى ومن الليل

الى تحصيل هذا المانع علمنا ان المقتضى قدحصل فى حق الرسول صلى الله عليه وسلم وان هذا المانع الذى فعله الله تعالى منع ذلك المقتضى من العمل وهذا لايتم الااذاقلنا ان القدرة مع الداعى توجب الفعل فاذاحصلت داعية اخرى معارضة للداعية الاولى اختل المؤثر فامتنع الفعل ونحن لانريد الاثبات هذا المعنى والله اعلم (المسئلة الخامسة) قال القفال رحمه الله قدذكرنا فى سبب نزول هذه الآية الوجوه المذكورة ويمكن ايضا تأويلها من غير تقييد بسبب يضاف نزولها فيه لان من المعلوم ان المشركين كانوا يسعون فى ابطال امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقصى مايقدرون عليه فتارة كانوا يقولون ان عبدت آلهتنا عبدنا الهك فأنزل الله تعالى قل ياأيها الكافرون لااعبد ماتعبدون وقوله ودوا لوتدهن فيدهنون وعرضوا عليه الاموال الكثيرة والنسوان الجميلة ليترك ادعاء النبوة فأنزل الله تعالى قوله ولاتمدن عينيك ودعوه الى طرد المؤمنين عن نفسه فأنزل الله تعالى قوله ولاتطرد الذين يدعون ربهم فيجوز ان تكون هذه الآيات نزلت فى هذا الباب وذلك انهم قصدوا ان يفتنوه عن دينه وان يزيلوه عن منهجه فبين تعالى انه يثبته على الدين القويم والمنهج المستقيم وعلى هذا الطريق فلاحاجة فى تفسير هذه الآيات الى شئ من تلك الروايات والله اعلم * قوله تعالى (وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها واذا لايلبثون خلافك الاقليلا سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولاتجد لسنتنا تحويلا) فى هذه الآية قولان (الاول) قال قتادة هم اهل مكة هموا باخراج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة ولو فعلوا ذلك ماامهلوا ولكن الله منعهم من اخراجه حتى أمره الله بالخروج ثم انه قل لبثهم بعد خروج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة حتى بعث الله عليهم القتل يوم بدر وهذا قول مجاهد (والقول الثانى) قال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لماهاجر الى المدينة حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم فقالوا ياابا القاسم ان الانبياء انمابعثوا بالشام وهى بلاد مقدسة وكانت مسكن ابراهيم فلو خرجت الى الشام آمنابك واتبعناك وقد علمنا انه لايمنعك من الخروج الاخوف الروم فان كنت رسول الله فالله مانعك منهم فعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على اميال من المدينة قيل بذى الحليفة حتى يجتمع اليه اصحابه ويراه الناس عازما على الخروج الى الشام لحرصه على دخول الناس فى دين الله فنزلت هذه الآية فرجع فالقول الاول اختيار الزجاج وهو الوجه لان السورة مكية فان صح القول الثانى كانت الآية مدنية والارض فى قوله ليستفزونك من الارض على القول الاول مكة وعلى القول الثانى المدينة وكثر فى التنزيل ذكر الارض والمراد منها مكان مخصوص كقوله او ينفوا من الارض يعنى من مواضعهم وقوله فلن ابرح الارض يعنى الارض التى كان قصدها لطلب الميرة فان قيل قال الله تعالى وكأين من قرية هى اشد قوة من قريتك التى اخرجتك يعنى مكة والمراد اهلها فذكر انهم اخرجوه وقال فى هذه الآية وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها فكيف

---

اى تهجد فى ذلك البعض على ان الباء بمعنى فى وقيل منصوب بتهجد اى تهجد بالقرآن بعض الليل على طريقة واياى فارهبون (نافلة لك) فريضة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة خاصة بك دون الامة ولعله هو الوجه فى تأخير ذكرها عن ذكر صلاة الفجر مع تقدم وقتها على وقتها اوتطوعا لكن لالكونها زيادة على الفرائض بل لكونها زيادة له صلى الله عليه وسلم فى الدرجات على ماقال مجاهد والسدى فانه عليه السلام مغفورله ماتقدم من ذنبه وماتأخر فيكون تطوعه زيادة فى درجاته بخلاف من عداه من الامة فان تطوعهم لتكفير ذنوبهم وتدارك الخلل الواقع فى فرائضهم وانتصابها اما على المصدرية بتقدير تنفل او بجعل تهجد بمعناه او بجعل نافلة بمعنى تهجدا فان ذلك عبادة زائدة واما على الحالية من الضمير الراجع الى القرآن اى حال كونها صلاة نافلة واما على المفعولية لتهجد اذا جعل بمعنى صل وجعل الضمير المجرور للبعض اى فصل فى ذلك البعض نافلة لك (عسى ان يبعثك ربك) الذى

الجمع بينهما على قول من قال الارض فى هذه الآية مكة قلنا انهم هموا باخراجه وهو عليه السلام ما خرج بسبب اخراجهم وانما خرج بأمر الله تعالى فزال التناقض ثم قال تعالى واذا لايلبثون خلافك الاقليلا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن كثير وابو عمرو عن عاصم خلفك بفتح الخاء وسكون اللام والباقون خلافك زعم الاخفش ان خلافك فى معنى خلفك وروى ذلك يونس عن عيسى وهذا كقوله بقعدهم خلاف رسول الله وقال الشاعر

عفت الديار خلافهم فكأنما * بسط الشواطب بينهن حصيرا

قال صاحب الكشاف قرئ لايلبثون وفى قراءة ابى لايلبثوا على اعمال اذن فان قيل ماوجه القراءتين قلنا اما السابقة فقد عطف فيها الفعل على الفعل وهو مرفوع لوقوعه خبر كاد والفعل فى خبر كاد واقع موقع الاسم واما قراءة ابى ففيها الجملة برأسها التى هى قوله اذا لايلبثون عطف على جملة قوله وان كادوا ليستفزونك ثم قال تعالى سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا يعنى ان كل قوم اخرجوا نبيهم من ظهرانيهم فسنة الله ان يهلكهم فقوله سنة نصب على المصدر المؤكد اى سننا ذلك سنة فيمن قد ارسلنا قبلك ثم قال ولا تجد لسنتنا تحويلا والمعنى ان ما اجرى الله تعالى به العادة لم يتهيأ لاحد ان يقلب تلك العادة وتمام الكلام فى هذا الباب ان اختصاص كل حادث بوقته المعين وصفته المعينة ليس امرا ثابتا له لذاته والالزم ان يدوم ابدا على تلك الحالة وان لايتميز الشئ عما يماثله فى تلك الصفات بل انما يحصل ذلك الاختصاص بتخصيص المخصص وذلك التخصيص هو انه تعالى يريد تحصيله فى ذلك الوقت ثم تتعلق قدرته بتحصيله فى ذلك الوقت ثم يتعلق علمه بحصوله فى ذلك الوقت ثم نقول هذه الصفات الثلاثة التى هى المؤثرة فى حصول ذلك الاختصاص ان كانت حادثة افتقر حدوثها الى تخصيص آخر ولزم التسلسل وهو محال وان كانت قديمة فالقديم يمتنع تغيره لان ماثبت قدمه امتنع عدمه ولما كان التغير على تلك الصفات المؤثرة فى ذلك الاختصاص ممتنعا كان التغير فى تلك الاشياء المقدرة ممتنعا فثبت بهذا البرهان صحة قوله تعالى ولا تجد لسنتنا تحويلا * قوله تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا وقل رب ادخلنى مدخل صدق واخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى النظم وجوه (الاول) انه تعالى لما قرر امر الالهيات والمعاد والنبوات اردفها بذكر الامر بالطاعات واشرف الطاعات بعد الايمان الصلاة فلهذا السبب امر بها (الثانى) انه تعالى لما قال وان كادوا ليستفزونك من الارض امره تعالى بالاقبال على عبادته لكى ينصره عليهم فكأنه قيل له لاتبال بسعيهم فى اخراجك من بلدتك ولا تلتفت اليهم واشتغل بعبادة الله تعالى وداوم على أداء الصلوات فانه تعالى يدفع مكرهم

يبلغك الى كمالك اللائق بك من بعد الموت الاكبر كما انبعثت من النوم الذى هو الموت الاصغر بالصلاة والعبادة (مقاما) نصب على الظرفية على اضمار فيقيمك او تضمين البعث معنى الاقامة اذ لابد من ان يكون العامل فى مثل هذا الظرف فعلا فيه معنى الاستقرار ويجوز ان يكون حالا بتقدير مضاف اى يبعثك ذا مقام (محمودا) عندك وعند جميع الناس وفيه تهوين لمشقة قيام الليل وروى ابو هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المقام المحمود هو المقام الذى اشفع فيه لامتى وعن ابن عباس رضى الله عنهما مقاما يحمدك فيه الاولون والآخرون وتشرف فيه على جميع الخلائق تسأل فتعطى وتشفع فتشفع ليس احد الاتحت لوائك وعن حذيفة رضى الله عنه يجمع الناس فى صعيد واحد فلا تتكلم فيه نفس فأول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك والشر ليس اليك والمهدى من هديت وعبدك بين يديك وبك واليك لاملجأ ولامنجأ

(وشرهم)

وشرهم عنك ويجعل يدك فوق ايديهم ودينك غالبا على اديانهم ونظيره قوله فى سورة طه فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح واطراف النهار لعلك ترضى وقال ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين (والوجه الثالث) فى تقرير النظم ان اليهود لما قالوا له اذهب الى الشام فانه مسكن الانبياء عزم صلى الله عليه وسلم على الذهاب اليه فكأنه قيل له المعبود واحد فى كل البلاد وما النصرة والدولة الا بتأييده ونصرته فداوم على الصلوات وارجع الى مقرك ومسكنك واذا دخلته ورجعت اليه فقل رب ادخلنى مدخل صدق واخرجنى مخرج صدق واجعل لى فى هذا البلد سلطانا نصيرا فى تقرير دينك واظهار شرعك والله اعلم (المسئلة الثانية) اختلف اهل اللغة والمفسرون فى معنى دلوك الشمس على قولين (احدهما) ان دلوكها غروبها وهذا القول مروى عن جماعة من الصحابة فنقل الواحدى فى البسيط عن على عليه السلام انه قال دلوك الشمس غيوبها وروى زر بن حبيش ان عبدالله بن مسعود قال دلوك الشمس غروبها وروى سعيد بن جبير هذا القول عن ابن عباس وهذا القول اختيار الفراء وابن قتيبة من المتأخرين (والقول الثانى) ان دلوك الشمس هو زوالها عن كبد السماء وهو اختيار الاكثرين من الصحابة والتابعين واحتج القائلون بهذا القول على صحته بوجوه (الحجة الاولى) روى الواحدى فى البسيط عن جابر انه قال طعم عندى رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه ثم خرجوا حين زالت الشمس فقال النبى صلى الله عليه وسلم هذا حين دلكت الشمس (الحجة الثانية) روى صاحب الكشاف عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال أتانى جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت الشمس فصلى بى الظهر (الحجة الثالثة) قال اهل اللغة معنى الدلوك فى كلام العرب الزوال ولذلك قيل للشمس اذا زالت نصف النهار دالكة وقيل لها اذا أفلت دالكة لانها فى الحالتين زائلة هكذا قاله الازهرى وقال القفال اصل الدلوك الميل يقال مالت الشمس للزوال ويقال مالت للغروب اذا عرفت هذا فنقول وجب ان يكون المراد من الدلوك ههنا الزوال عن كبد السماء وذلك لانه تعالى علق اقامة الصلاة بالدلوك والدلوك عبارة عن الميل والزوال فوجب ان يقال انه اول ماحصل الميل والزوال تعلق به هذا الحكم فلما حصل هذا المعنى حال ميلها من كبد السماء وجب ان يتعلق به وجوب الصلاة وذلك يدل على ان المراد من الدلوك فى هذه الآية ميلها عن كبد السماء وهذه حجة قوية فى هذا الباب استنبطتها بناء على مااتفق عليه اهل اللغة ان الدلوك عبارة عن الميل والزوال والله اعلم (الحجة الرابعة) قال الازهرى الاولى حمل الدلوك على الزوال فى نصف النهار والمعنى اقم الصلاة اى ادمها من وقت زوال الشمس الى غسق الليل وعلى هذا التقدير فيدخل فيه الظهر والعصر والمغرب والعشاء ثم قال وقرآن الفجر فاذا حملنا الدلوك على الزوال

منك الا اليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت (وقل رب ادخلنى) اى القبر (مدخل صدق) اى ادخالا مرضيا (واخرجنى) اى منه عند البعث (مخرج صدق) اى اخراجا مرضيا ملقى بالكرامة فهو تلقين للدعاء بما وعده من البعث المقرون بالاقامة المعهودة التى لا كرامة فوقها وقيل المراد ادخال المدينة والاخراج من مكة وتغيير ترتيب الوجود لكون الادخال هو المقصد وقيل ادخاله عليه السلام مكة ظاهرا عليها واخراجه منها آمنا من المشركين وقيل ادخاله الغار واخراجه منه سالما وقيل ادخاله فيما حمله من اعباء الرسالة واخراجه منه مؤديا حقه وقيل ادخاله فى كل مايلابسه من مكان اوامر واخراجه منه وقرئ مدخل ومخرج بالفتح على معنى ادخلنى فأدخل دخولا واخرجنى فأخرج خروجا كقوله

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع
من المال الا مسحت او مجلف

اى لم تدع فلم يبق (واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا) حجة تنصرنى على من يخالفنى او ملكا وعزا

دخلت الصلوات الخمس فى هذه الآية وان حملناه على الغروب لم يدخل فيه الاثلاث
صلوات وهى المغرب والعشاء والفجر وحمل كلام الله تعالى على مايكون اكثر فائدة اولى
فوجب ان يكون المراد من الدلوك الزوال واحتج الفراء على قوله الدلوك هو الغروب
بقول الشاعر

هذا مقام قدمى رباح * وقفت حتى دلكت براح

وبراح اسم الشمس اى حتى غابت واحتج ابن قتيبة بقول ذى الرمة

مصابيح ليست باللواتى يقودها * نجوم ولا افلاكهن الدوالك

واعلم ان هذا الاستدلال ضعيف لان عندنا الدلوك عبارة عن الميل والتغير وهذا المعنى
حاصل فى الغروب فكان الغروب نوعا من انواع الدلوك فكان وقوع لفظ الدلوك على
الغروب لا ينافى وقوعه على الزوال كما ان وقوع لفظ الحيوان على الانسان لا ينافى وقوعه
على الفرس ومنهم من احتج ايضا على صحة هذا القول بأن الدلوك اشتقاقه من الدلك لان
الانسان يدلك عينيه عند النظر اليها وهذا انما يصح فى الوقت الذى يمكن النظر اليها
ومعلوم انها عند كونها فى وسط السماء لا يمكن النظر اليها اما عند قربها من الغروب يمكن
النظر اليها عند ما ينظر الانسان اليها فى ذلك الوقت عينيه فثبت ان لفظ الدلوك
مختص بالغروب والجواب ان الحاجة الى ذلك التبيين عند كونها فى وسط السماء اتم فهذا
الذى ذكرته بأن يدل على ان الدلوك عبارة عن الزوال من وسط السماء اولى والله اعلم
(المسئلة الثالثة) قال الواحدى اللام فى قوله لدلوك الشمس لام الاجل والسبب وذلك
لان الصلاة انما تجب بزوال الشمس فيجب على المصلى اقامتها لاجل دلوك الشمس (المسئلة
الرابعة) قوله الى غسق الليل غسق الليل سواده وظلمته قال الكسائى غسق الليل غسوقا
والغسق الاسم بفتح السين وقال النضر بن شميل غسق الليل دخول اوله واتيته حين غسق
الليل اى حين يختلط ويسد المناظر واصل هذا الحرف من السيلان يقال غسقت العين
تغسق وهو هملان العين بالماء والغاسق السائل ومن هذا يقال لما يسيل من اهل النار
الغساق فمعنى غسق الليل اى انصب بظلامه وذلك ان الظلمة كأنها تنصب على العالم
واما اقوال المفسرين قال ابن جريج قلت لعطاء ما غسق الليل قال اوله حين يدخل وسأل نافع بن
الازرق ابن عباس ما الغسق قال دخول الليل بظلمته وقال الازهرى غسق الليل عند
غيبوبة الشفق عند تراكم الظلمة واشتدادها يقال غسقت العين اذا امتلأت دمعا
وغسقت الجراحة اذا امتلأت دما قال لانا لو حملنا الغسق على هذا المعنى دخلت
الصلوات الاربع فيه وهى الظهر والعصر والمغرب والعشاء ولو حملنا الغسق على ظهور
اول الظلمة لم يدخل فيه الا الظهر والعصر والمغرب فوجب ان يكون الاول اولى واعلم انه
يتفرع على هذين القولين بحث شريف فان فسرنا الغسق بظهور اول الظلمة كان الغسق
عبارة عن اول المغرب وعلى هذا التقدير يكون المذكور فى الآية ثلاث اوقات وقت

ناصرا للاسلام مظهرا له على
الكفر فأجيبت دعوته عليه
السلام بقوله عز وعلا والله
يعصمك من الناس ألا ان حزب
الله هم الغالبون ليظهره على الدين
كله ليستخلفنهم فى الارض (وقل
جاء الحق) اى الاسلام والوحى
الثابت الراسخ (وزهق الباطل)
اى ذهب وهلك الشرك والكفر
وتسويلات الشيطان من زهق
روحه اذا خرج (ان الباطل
كان) كائنا ما كان (كان زهوقا) اى
شأنه ان يكون مضمحلا غير ثابت
وهو عدة كريمة باجابة الدعاء
بالسلطان النصير الذى لقنه عن ابن
مسعود رضى الله عنه انه عليه
السلام دخل مكة يوم الفتح
وحول البيت ثلثمائة وستون
صنما فجعل ينكت بمخصرة
كانت بيده فى عين واحد واحد
ويقول جاء الحق وزهق الباطل
فينكب لوجهه حتى القى
جميعها وبقى صنم خزاعة فوق
الكعبة وكان من صفر فقال
ياعلى ارم به فصعد فرمى به
فكسره (وننزل من القرآن)
وقرئ ننزل من الانزال (ماهو

الزوال ووقت اول المغرب ووقت الفجر وهذا يقتضي ان يكون الزوال وقتا للظهر والعصر فيكون هذا الوقت مشتركا بين هاتين الصلاتين وان يكون اول المغرب وقتا للمغرب والعشاء فيكون هذا الوقت مشتركا ايضا بين هاتين الصلاتين فهذا يقتضي جواز الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء مطلقا الا انه دل الدليل على ان الجمع في الحضر من غير عذر لا يجوز فوجب ان يكون الجمع جائزا بعذر السفر وعذر المطر وغيره اما ان فسرنا الغسق بالظلمة المتراكمة فنقول الظلمة المتراكمة انما تحصل عند غيبوبة الشفق الابيض وكلمة الى لانتهاء الغاية والحكم الممدود الى غاية يكون مشروعا قبل حصول تلك الغاية فوجب جواز اقامة الصلوات كلها قبل غيبوبة الشفق الابيض وهذا انما يصح اذا قلنا انها تجب عند غيبوبة الشفق الاحمر والله اعلم (المسئلة الخامسة) قوله وقرآن الفجر اجمعوا على ان المراد منه صلاة الصبح وانتصابه بالعطف على الصلاة في قوله اقم الصلاة والتقدير اقم الصلاة واقم قرآن الفجر وفيه فوائد (الاولى) ان هذه الآية تدل على ان الصلاة لا تتم الا بالقراءة (الفائدة الثانية) انه تعالى اضاف القرآن الى الفجر والتقدير اقم قرآن الفجر فوجب ان تتعلق القراءة بحصول الفجر وفي اول طلوع الصبح قد حصل الفجر لان الفجر سمي فجرا لانفجار ظلمة الليل عن نور الصباح وظاهر الامر للوجوب فتقتضي هذا اللفظ وجوب اقامة صلاة الفجر من اول طلوعه الا انا اجمعنا على ان هذا الوجوب غير حاصل فوجب ان يبقى الندب لان الوجوب عبارة عن رجحان مانع من الترك فاذا منع مانع من تحقق الوجوب وجب ان يرتفع المنع من الترك وان يبقى اصل الرجحان حتى تقل مخالفة الدليل فثبت ان هذه الآية تقتضي ان اقامة الفجر في اول الوقت افضل وهذا يدل على صحة مذهب الشافعي في ان التغليس افضل من التنوير والله اعلم (الفائدة الثالثة) ان الفقهاء بينوا ان السنة ان تكون القراءة في هذه الصلاة اطول من القراءة في سائر الصلوات فالمقصود من قوله وقرآن الفجر الحث على ان تطويل القراءة في هذه الصلاة مطلوب لان التخصيص بالذكر يدل على كونه اكمل من غيره (الفائدة الرابعة) انه وصف قرآن الفجر بكونه مشهودا قال الجمهور معناه ان ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون في صلاة الصبح خلف الامام تنزل ملائكة النهار عليهم وهم في صلاة الغداة وقبل ان تعرج ملائكة الليل فاذا فرغ الامام من صلاته عرجت ملائكة الليل ومكثت ملائكة النهار ثم ان ملائكة الليل اذا صعدت قالت يارب انا تركنا عبادك يصلون لك وتقول ملائكة النهار ربنا اتينا عبادك وهم يصلون فيقول الله تعالى للملائكة اشهدوا اني قد غفرت لهم واقول هذا ايضا دليل قوي في ان التغليس افضل من التنوير لان الانسان اذا شرع فيها من اول الصبح ففي ذلك الوقت الظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرين ثم اذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار فبهذا الطريق تحضر في هذه الصلاة ملائكة الليل وملائكة النهار اما اذا ابتدأ بهذه

شفاء) لما في الصدور من ادواء الريب واسقام الاوهام (ورحمة للمؤمنين) به العالمين بما في تضاعيفه اي ما هو في تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافي للمرضى ومن بيانية قدمت على المبين اعتناء فان كل القرآن كذلك وعن النبي عليه السلام من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله او تبعيضية لكن لا بمعنى ان بعضه ليس كذلك بل بمعنى انا ننزل منه في كل نوبة ما تستدعي الحكمة نزوله حينئذ فيقع ذلك ممن نزل عليهم بسبب موافقته لاحوالهم الداعية الى نزوله موقع الدواء الشافي المصادف لابانه من المرضى المحتاجين اليه بحسب الحال من غير تقديم ولا تأخير فكل بعض منه متصف بالشفاء لكن لا في كل حين بل عند تنزيله وتحقيق التبعيض باعتبار الشفاء الجسماني كما في الفاتحة وآيات الشفاء لا يساعده قوله سبحانه (ولا يزيد الظالمين الا خسارا) اي لا يزيد القرآن كله او كل بعض منه الكافرين

الصلاة فى وقت التنوير فهناك مابقيت الظلمة فلم يبق فى ذلك الوقت احد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور فثبت ان قوله تعالى انه كان مشهودا دليل قوى على ان التغليس افضل وعندى فى تفسير قوله تعالى انه كان مشهودا احتمال آخر وذلك لانه كلما كانت الحوادث الحادثة اعظم واكمل كان الاستدلال بها على كمال قدرة الله تعالى اكمل فالانسان اذا شرع فى اداء صلاة الصبح من اول هذا الوقت كانت الظلمة القوية باقية فى العالم فاذا امتدت القراءة ففى اثناء هذا الوقت ينقلب العالم من الظلمة الى الضوء والظلمة مناسبة للموت والعدم والضوء مناسب للحياة والوجود وعلى هذا التقدير فالانسان لما قام من منامه فكأنه انتقل من الموت الى الحياة ومن العدم الى الوجود ثم انه مع ذلك يشاهد فى اثناء صلاته انقلاب كلية هذا العالم من الظلمة الى الضوء ومن الموت الى الحياة ومن السكون الى الحركة ومن العدم الى الوجود وهذه الحالة حالة عجيبة تشهد العقول والارواح بأنه لايقدر على هذا التقليب والتحويل والتبديل الا الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقوة الغير المتناهية وحينئذ يستنير العقل بنور هذه المعرفة وتنفتح على العقل والروح أبواب المكاشفات الروحانية الالهية فتصير الصلاة التى هى عبارة عن اعمال الجوارح مشهودا عليها بهذه المكاشفات الالهية المقدسة ولذلك فكل من له ذوق سليم وطبع مستقيم اذا قام من منامه وأدى صلاة الصبح فى اول الوقت واعتبر اختلاف احوال العالم من الظلمة الحاصلة الى النور ومن السكون الى الحركة فانه يجد فى قلبه روحا وراحة ومزيدا فى نور المعرفة وقوة اليقين فهذا هو المراد من قوله ان قرآن الفجر كان مشهودا وظهر ان هذا الاعتبار لايحصل الا عند اداء صلاة الفجر على سبيل التغليس فهذا ماخطر بالبال والله اعلم بمراده وفى الآية احتمال ثالث وهو ان يكون المراد من قوله ان قرآن الفجر كان مشهودا الترغيب فى ان تؤدى هذه الصلاة بالجماعة ويكون المعنى كونها مشهودا بالجماعة الكثيرة ومزيد التحقيق فيه انا بينا ان تأثير هذه الصلاة فى تصفية القلب وفى تنويره اكثر من تأثير سائر الصلوات فاذا حضر جمع من المسلمين فى المسجد لاداء هذه العبادة إستنار قلب كل واحد منهم ثم بسبب ذلك الاجتماع كأنه ينعكس نور معرفة الله تعالى ونور طاعته فى ذلك الوقت من قلب كل واحد الى قلب الآخر فتصير ارواحهم كالمرايا المشرقة المتقابلة اذا وقعت عليها انوار الشمس فانه ينعكس النور من كل واحدة من تلك المرايا الى الاخرى فكذا فى هذه الصورة ولهذا السبب فان كل من له ذوق سليم وادى هذه الصلاة فى هذا الوقت بالجماعة وجد من قلبه فسحة ونورا وراحة ( الفائدة الخامسة ) قوله وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا يحتمل ان يكون السبب فى كونه مشهودا هو ان الانسان لما نام طول الليل فسار كالغافل فى هذه المدة عن مراقبة احوال الدنيا فزالت صورة الحوادث الجسمانية عن لوح خياله وفكره وعقله وصارت هذه الالواح كألواح سطرت فيها نقوش فاسدة ثم غسلت وازيلت تلك النقوش عنها ففى اول

المكذبين الواضعين للاشياء فى غير مواضعها مع كونه فى نفسه شفاء من الاسقام الاخسارا اى هلاكا بكفرهم وتكذيبهم لانقصانا كما قيل فان مابهم من داء الكفر والضلال حقيق بأن يعبر عنه بالهلاك لابالنقصان المنبىء عن حصول بعض مبادى الاسقام فيهم وزيادتهم فى مراتب الهلاك من حيث انهم كلما جددوا الكفر والتكذيب بالآيات النازلة تدريجا ازدادوا بذلك هلاكا وفيه ايماء الى ان ما بالمؤمنين من الشبه والشكوك المعترية لهم فى اثناء الاهتداء والاسترشاد بمنزلة الامراض وما بالكفرة من الجهل والعناد بمنزلة الموت والهلاك واسناد الزيادة المذكورة الى القرآن مع انهم هم المزدادون فى ذلك بسوء صنعهم باعتبار كونه سببا لذلك وفيه تعجيب من امره حيث يكون مدارا للشفاء والهلاك ( واذا انعمنا على الانسان ) بالصحة والنعمة ( اعرض ) عن ذكرنا فضلا عن القيام بموجب الشكر

وقت القيام من المنام صارت الواح عقله وفكره وخياله مطهرة عن النقوش الفاسدة الباطلة فاذا تسارع الانسان فى ذلك الوقت الى عبادة الله تعالى وقراءة الكلمات الدالة على تنزيهه والاقدام على الافعال الدالة على تعظيم الله تعالى انتقش فى لوح عقله وفكره وخياله هذه النقوش الطاهرة المقدسة ثم ان حصول هذه النقوش يمنع من استحكام النقوش الفاسدة وهى النقوش المتولدة من الميل الى الدنيا وشهواتها فبهذا الطريق يترشح الميل الى معرفة الله تعالى ومحبته وطاعته ويضعف الميل الى الدنيا وشهواتها اذا عرفت هذا فنقول هذه الحكمة انما تحصل اذا شرع الانسان فى الصلاة من اول قيامه من النوم عند التغليس وذلك يدل على المقصود واعلم ان اكثر الخلق وقعوا فى امراض القلوب وهى حب الدنيا والحرص والحسد والتفاخر والتكاثر وهذه الدنيا مثل دار المرضى اذا كانت مملوءة من المرضى والانبياء كالاطباء الحاذقين والمريض ربما فقد قوى مرضه فلا يعود الى الصحة الا بمعالجات قوية وربما كان المريض جاهلا فلا ينقاد للطبيب ويخالفه فى اكثر الامر الا ان الطبيب اذا كان مشفقا حاذقا فانه يسعى فى ازالة ذلك المرض بكل طريق يقدر عليه فان لم يقدر على ازالته فانه يسعى فى تقليله وتخفيفه اذا عرفت هذا فنقول مرض حب الدنيا مستول على الخلق ولا علاج له الا بالدعوة الى معرفة الله تعالى وخدمته وطاعته وهذا علاج شاق على النفوس وقل من يقبله وينقاد له لاجرم الانبياء اجتهدوا فى تقليل هذا المرض وحمل الخلق على الشروع فى الطاعة والعبودية من اول وقت القيام من النوم مما ينفع فى ازالة هذا المرض من الوجه الذى قررناه فوجب ان يكون مشروعا والله اعلم بأسرار كلامه اما قوله تعالى ومن الليل فتهجد به نافلة لك فاعلم انه تعالى لما امر بالصلوات الخمس على سبيل الرمز والاشارة اردفه بالحث على صلاة الليل وفيه مباحث (الاول) التهجد عبارة عن صلاة الليل فقوله فتهجد به اى بالقرآن كما قال قم الليل الا قليلا الى قوله ورتل القرآن ترتيلا (البحث الثانى) قال الواحدى الهجود فى اللغة النوم وهو معروف كثير فى الشعر يقال اهجدته وهجدته اى انمته ومنه قول لبيد

*هجدنا فقد طال السرى* كأنه قال نومنا فان السرى قد طال علينا حتى غلبنا النوم وروى ابو عبيد عن ابى عبيدة الهاجد النائم والهاجد المصلى بالليل وروى ثعلب عن ابن الاعرابى مثل هذا القول كأنه قال هجد الرجل اذا صلى من الليل وهجد اذا نام بالليل فعند هؤلاء هذا اللفظ من الاضداد واما الازهرى فانه توسط فى تفسير هذا اللفظ وقال المعروف فى كلام العرب ان الهاجد هو النائم ثم رأينا ان فى الشرع يقال لمن قام من النوم الى الصلاة انه متهجد فوجب ان يحمل هذا على انه سمى متهجدا لالقائه الهجود عن نفسه كما قيل للعابد متحنث لالقائه الحنث عن نفسه وهو الاثم ويقال فلان رجل متحرج ومتأثم ومتحوب اى يلقى الحرج والاثم والحوب عن نفسه واقول فيه احتمال آخر وهو ان الانسان انما يترك لذة النوم ويتحمل مشقة القيام الى الصلاة ليطيب رقاده وهجوده

(ونأى) تباعد عن طاعتنا (بجانبه) النأى بالجانب ان يلوى عن الشئ عطفه ويوليه عرض وجهه فهو تأكيد للاعراض او عبارة عن الاستكبار لانه من ديدن المستكبرين (واذا مسه الشر) من فقر او مرض او نازلة من النوازل وفى اسناد المساس الى الشر بعد اسناد الانعام الى ضمير الجلالة ايذان بأن الخير مراد بالذات والشر ليس كذلك (كان يؤسا) شديد اليأس من روحنا وهذا وصف للجنس باعتبار بعض افراده ممن هو على هذه الصفة ولاينا فيه قوله تعالى واذا مسه الشر فذو دعاء عريض ونظائره فان ذلك شأن بعض آخر منهم وقيل اريد به الوليد بن المغيرة وقرئ ناء اماعلى القلب كما يقال راء فى رأى واما على انه بمعنى نهض (قل كل) اى كل احد منكم وممن هو على خلافكم (يعمل) عمله (على

عندالموت فلما كان غرضه من ترك هذا الهجود ان يصل الى الهجود اللذيذ عند الموت كان هذا القيام طلبا لذلك الهجود فسمى تهجدا لهذا السبب (وفيه وجه ثالث) وهو ماروى ان الحجاج بن عمرو المازنى قال ايحسب احدكم اذا قام من الليل فصلى حتى يصبح انه قد التهجد انما التهجد الصلاة بعد الرقاد ثم صلاة اخرى بعد رقدة ثم صلاة اخرى بعد رقدة هكذا كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا عرفت هذا فنقول كما صلى الانسان طلب هجودا ورقادا فلا يبعد انه سمى تهجدا لهذا السبب (البحث الثالث) قوله من فى قوله ومن الليل لابد له من متعلق والفاء فى قوله فتهجد لابد له من معطوف عليه والتقدير قم من الليل اى فى بعض الليل فتهجد به وقوله به اى بالقرآن والمراد منه الصلاة المشتملة على القرآن (البحث الرابع) معنى النافلة فى اللغة ما كان زيادة على الاصل ذكرناه فى قوله تعالى يسئلونك عن الانفال ومعناها ايضا فى هذه الآية الزيادة وفى تفسير كونها زيادة قولان مبنيان على ان صلاة الليل هل كانت واجبة على النبى صلى الله عليه وسلم ام لا فن الناس من قال انها كانت واجبة عليه ثم نسخت فصارت نافلة اى تطوعا وزيادة على الفرائض وذكر مجاهد والسدى فى تفسير كونها نافلة وجها حسنا قالا انه تعالى غفر للنبى صلى الله عليه وسلم ماتقدم من ذنبه وماتأخر فكل طاعة يأتى بها سوى المكتوبة فانه لايكون تأثيرها فى كفارة الذنوب البتة بل يكون تأثيرها فى زيادة الدرجات وكثرة الثواب وكان المقصود من تلك العبارة زيادة الثواب فلهذا سميت نافلة بخلاف الامة فان لهم ذنوبا محتاجة الى الكفارات فهذه الطاعة محتاجون اليها لتكفير الذنوب والسيآت فثبت ان هذه الطاعات انما تكون زوائد ونوافل فى حق النبى صلى الله عليه وسلم لا فى حق غيره فلهذا السبب قال نافلة لك يعنى انها زوائد ونوافل فى حقك لا فى حق غيرك وتقريره ماذكرناه واما الذين قالوا ان صلاة الليل كانت واجبة على النبى صلى الله عليه وسلم قالوا امعنى كونها نافلة له على التخصيص انها فريضة عليك زائدة على الصلوات الخمس خصصت بها من بين امتك ويمكن نصرة هذا القول بأن قوله فتهجد امر وصيغة الامر للوجوب فوجب كون هذا التهجد واجبا فلو حملنا قوله نافلة لك على عدم الوجوب لزم التعارض وهو خلاف الاصل فوجب ان يكون معنى كونها نافلة له ماذكرناه من كون وجوبها زائدا على وجوب الصلوات الخمس والله اعلم (البحث الخامس) قوله اقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر وان كان ظاهر الامر فيه مختصا بالرسول صلى الله عليه وسلم الا انه فى المعنى عام فى حق الامة والدليل عليه انه قال ومن الليل فتهجد به نافلة لك فبين ان الامر بالتهجد مخصوص بالرسول وهذا يدل على ان الامر بالصلوات الخمس غير مخصوص بالرسول عليه السلام والا لم يكن لتقييد الامر بالتهجد بهذا القيد فائدة اصلا والله اعلم ثم قال تعالى عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا اتفق المفسرون على ان كلمة عسى من الله واجب قال اهل المعانى لان لفظة عسى تفيد

شاكلته) طريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلالة او جوهر روحه واحواله التابعة لمزاج بدنه (فربكم) الذى برأكم على هذه الطبائع المختلفة (اعلم بمن هو اهدى سبيلا) اى اسد طريقا وابين منهاجا وقد فسرت الشاكلة بالطبيعة والعادة والدين (ويسألونك عن الروح) الظاهر ان السؤال كان عن حقيقة الروح الذى هو مدبر البدن الانسانى ومبدأ حياته روى ان اليهود قالوا لقريش سلوه عن اصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح فان أجاب عنها جميعا اوسكت فليس بنبى وان اجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبى فبين لهم القصتين وابهم امر الروح وهو مبهم فى التوراة (قل الروح) اظهر فى مقام الاضمار اظهارا لكمال الاعتناء بشأنه (من امر ربى) كلة من بيانية والامر بمعنى الشأن والاضافة للاختصاص العلمى

الاطماع ومن اطمع انسانا فى شئ ثم حرمه كان عارا والله تعالى اكرم من ان يطمع احدا فى شئ ثم لا يعطيه ذلك وقوله مقاما محمودا فيه بحثان ( البحث الاول ) فى انتصاب قوله محمودا وجهان (الاول) ان يكون انتصابه على الحال من قوله يبعثك اى يبعثك محمودا (والثانى) ان يكون نعتا للمقام وهو ظاهر ( البحث الثانى ) فى تفسير المقام المحمود اقوال (الاول) انه الشفاعة قال الواحدى اجمع المفسرون على انه مقام الشفاعة كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية هو المقام الذى اشفع فيه لامتى واقول اللفظ مشعر به وذلك لان الانسان انما يصير محمودا اذا حمده حامد والحمد انما يكون على الانعام فهذا المقام المحمود يجب ان يكون مقاما انعم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه على قوم فحمدوه على ذلك الانعام وذلك الانعام لا يجوز ان يكون هو تبليغ الدين وتعليم الشرع لان ذلك كان حاصلا فى الحال وقوله عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا تطميع وتطميع الانسان فى الشئ الذى حصل له وعنده فى الحال محال فوجب ان يكون ذلك الانعام الذى لاجله يصير محمودا انعاما سيصل منه بعد ذلك الى الناس وما ذاك الا شفاعته عند الله فدل هذا على ان لفظ الآية وهو قوله عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا يدل على هذا المعنى وايضا التنكير فى قوله مقاما محمودا يدل على انه يحصل للنبى عليه السلام فى ذلك المقام حمد بالغ عظيم كامل ومن المعلوم ان حمد الانسان على سعيه فى التخليص عن العقاب اعظم من حمده فى السعى فى زيادة من الثواب لا حاجة به اليها لان احتياج الانسان الى دفع الآلام العظيمة عن النفس فوق احتياجه الى تحصيل المنافع الزائدة التى لا حاجة به الى تحصيلها واذا ثبت هذا وجب ان يكون المراد من قوله عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا هو الشفاعة فى اسقاط العقاب على ما هو مذهب اهل السنة ولما ثبت ان لفظ الآية مشعر بهذا المعنى اشعارا قويا ثم وردت الاخبار الصحيحة فى تقرير هذا المعنى وجب حمل اللفظ عليه ومما يؤكد هذا الوجه الدعاء المشهور وابعثه المقام المحمود الذى وعدته يغبطه به الاولون والآخرون واتفق الناس على ان المراد منه الشفاعة ( والقول الثانى ) قال حذيفة يجمع الناس فى صعيد فلا تتكلم نفس فأول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك والشر ليس اليك والمهدى من هديت وعبدك بين يديك وبك واليك لا ملجأ ولا منجأ منك الا اليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت فهذا هو المراد من قوله عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا واقول القول الاول اولى لان سعيه فى الشفاعة يفيده اقدام الناس على حمده فيصير محمودا واما ذكر هذا الدعاء فلا يفيد الا الثواب اما الحمد فلا فان قالوا لم لا يجوز ان يقال انه تعالى يحمده على هذا القول قلنا لان الحمد فى اللغة مختص بالثناء المذكور فى مقابلة الانعام فقط فان ورد لفظ الحمد فى غير هذا المعنى فعلى سبيل المجاز ( القول الثالث ) المراد مقام تحمد عاقبته وهذا ايضا ضعيف للوجه الذى ذكرناه فى القول الثانى ( القول الرابع ) قال الواحدى روى ابن مسعود انه

لا الايجادى لاشتراك الكل فيه وفيها من تشريف المضاف ما لا يخفى كما فى الاضافة الثانية من تشريف المضاف اليه اى هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الاسرار الخفية التى لا يكاد يحوم حولها عقول البشر (وما اوتيتم من العلم الا قليلا) لا يمكن تعلقه بأمثال ذلك روى انه صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب قال عليه الصلاة والسلام بل نحن وانتم فقالوا ما اعجب شأنك ساعة تقول ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا وساعة تقول هذا فنزلت ولو ما فى الارض من شجرة اقلام الآية وانما قالوا ذلك لركاكة عقولهم فان الحكمة الانسانية ان يعلم من الخير ما تسعه الطاقة البشرية بل ما نيط به المعاش والمعاد وذلك بالاضافة الى ما لا نهاية له من معلوماته سبحانه قليل ينال به خير كثير فى نفسه او بالنسبة الى

قال يقعد الله محمدا على العرش وعن مجاهد انه قال يجلسه معه على العرش ثم قال
الواحدى وهذا قول رذل موحش فظيع ونص الكتاب ينادى بفساد هذا التفسير
ويدل عليه وجوه ( الاول ) ان البعث ضد الاجلاس يقال بعثت النازل والقاعد فانبعث
ويقال بعث الله الميت اى اقامه من قبره فتفسير البعث بالاجلاس تفسير للضد بالضد
وهو فاسد ( والثانى ) انه تعالى قال مقاما محمودا ولم يقل مقعدا والمقام موضع القيام
لا موضع القعود ( والثالث ) لو كان تعالى جالسا على العرش بحيث يجلس عنده محمد عليه
الصلاة والسلام لكان محدودا متناهيا ومن كان كذلك فهو محدث ( والرابع ) يقال ان
جلوسه مع الله على العرش ليس فيه كثير اعزاز لان هؤلاء الجهال والحمقى يقولون فى كل
اهل الجنة انهم يزورون الله تعالى وانهم يجلسون معه وانه تعالى يسألهم عن احوالهم
التى كانوا فيها فى الدنيا واذا كانت هذه الحالة حاصلة عندهم لكل المؤمنين لم يكن
لتخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بها مزيد شرف ورتبة ( والخامس ) انه اذا قيل السلطان
بعث فلانا فهم منه انه ارسله الى قوم لاصلاح مهماتهم ولا يفهم منه انه اجلسه مع نفسه
فثبت ان هذا القول كلام رذل سقط لا يميل اليه الا انسان قليل العقل عديم الدين والله
اعلم ثم قال تعالى وقل رب ادخلنى مدخل صدق واخرجنى مخرج صدق وفيه مباحث
( البحث الاول ) انا ذكرنا فى تفسير قوله وان كادوا ليستفزونك من الارض قولين
(احدهما) المراد منه سعى كفار مكة فى اخراجه منها (والثانى) المراد منه ان اليهود قالوا له
الاولى لك ان تخرج من المدينة الى الشام ثم انه تعالى قال له أقم الصلاة واشتغل بعبادة
الله تعالى ولا تلتفت الى هؤلاء الجهال فانه تعالى ناصرك ومعينك ثم عاد بعد هذا الكلام
الى شرح تلك الواقعة فان فسرنا تلك الآية ان المراد منها ان كفار مكة ارادوا اخراجه
من مكة كان معنى هذه الآية انه تعالى امره بالهجرة الى المدينة وقال له وقل رب
ادخلنى مدخل صدق وهو المدينة واخرجنى مخرج صدق وهو مكة وهذا قول الحسن
وقتادة وان فسرنا تلك الآية بأن المراد منها ان اليهود حملوه على الخروج من المدينة
والذهاب الى الشام فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ثم امره الله تعالى بأن يرجع
اليها كان المراد انه عليه الصلاة والسلام عند العود الى المدينة قال رب ادخلنى مدخل
صدق وهو المدينة واخرجنى مخرج صدق يعنى اخرجنى منها الى مكة مخرج صدق اى
افتحها لى (والقول الثانى) فى تفسير هذه الآية وهو اكمل مما سبق أن المراد وقل رب
ادخلنى فى الصلاة واخرجنى منها مع الصدق والاخلاص وحضور ذكرك والقيام بلوازم
شكرك ( والقول الثالث ) وهو اكمل مما سبق ان المراد وقل رب ادخلنى فى القيام
بمهمات اداء دينك وشريعتك واخرجنى منها بعد الفراغ منها اخراجا لا يبقى على منها تبعة
وبقية ( والقول الرابع ) وهو اعلى مما سبق وقل رب ادخلنى فى بحار دلائل توحيدك
وتنزيهك وقدسك ثم اخرجنى من الاشتغال بالدليل الى ضياء معرفة المدلول ومن التأمل

الانسان او هو من الابداعيات
الكائنة بمحض الامر التكوينى
من غير تحصل من مادة وتولد
من اصل كاعضاء الجسد حتى يمكن
تعريفه ببعض مباديه وما له انه
من عالم الامر لا من عالم الخلق
وليس هذا من قبيل قوله سبحانه
انما امره اذا أراد شيئا أن يقول
له كن فيكون فان ذلك عبارة عن
سرعة التكوين سواء كان الكائن
من عالم الامر أو من عالم الخلق
وفيه تنبيه على انه مما لا يحيط
بكنهه دائرة ادراك البشر وانما
الممكن هذا القدر الاجمالى
المندرج تحت ما استثنى بقوله
تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا
أى الا علما قليلا تستفيدونه من
طرق الحواس فان تعقل المعارف
النظرية انما هو من احساس
الجزئيات ولذلك قيل من فقد
حسا فقد فقد علما ولعل أكثر
الاشياء لا يدركه الحس ولا شيئا من
أحواله التى يدور عليها معرفة
ذاته وأما حاصل ماذكر على
السؤال عن قدمه

فى آثار حدوث المحدثات الى الاستغراق فى معرفة الاحد الفرد المنزه عن التكثيرات
والتغيرات ( والقول الخامس ) ادخلنى فى كل ماتدخلنى فيه مع الصدق فى عبوديتك
والاستغراق بمعرفتك واخرجنى عن كل ماتخرجنى عنه مع الصدق فى العبودية والمعرفة
والمحبة والمقصود منه ان يكون صدق العبودية حاصلا فى كل دخول وخروج وحركة
وسكون ( والقول السادس ) ادخلنى القبر مدخل صدق واخرجنى منه مخرج صدق
( البحث الثانى ) مدخل بضم الميم مصدر كالادخال يقال ادخلته مدخلا كما قال وقل رب
انزلنى منزلا مباركا ومعنى اضافة المدخل والمخرج الى الصدق مدحهما كأنه سأل الله
تعالى ادخالا حسنا واخراجا حسنا لايرى فيهما مايكره ثم قال تعالى واجعل لى من لدنك
سلطانا نصيرا اى حجة بينة ظاهرة تنصرنى بها على جميع من خالفنى وبالجملة فقد سأل الله
تعالى ان يرزقه التقوية على من خالفه بالحجة وبالقهر والقدرة وقد اجاب الله تعالى دعاءه
واعلمه بانه يعصمه من الناس فقال والله يعصمك من الناس وقال الا ان حزب الله هم
المفلحون وقال ليظهره على الدين كله ولما سأل الله النصرة بين الله له انه اجاب دعاءه فقال
وقل جاء الحق وهو دينه وشرعه وزهق الباطل وهو كل ماسواه من الاديان والشرائع
وزهق بطل واضمحل واصله من زهقت نفسه تزهق اى هلكت وعن ابن مسعود انه دخل
مكة يوم الفتح وحول البيت ثلثمائة وستون صنما فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول جاء الحق
وزهق الباطل فجعل الصنم ينكب على وجهه وقوله ان الباطل كان زهوقا يعنى ان
الباطل وان اتفقت له دولة وصولة الا انها لاتبقى بل تزول على اسرع الوجوه والله اعلم

❊ قوله تعالى ( وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظالمين الا خسارا
واذا أنعمنا على الانسان اعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر كان يؤسا قل كل يعمل
على شاكلته فربكم أعلم بمن هو اهدى سبيلا ) اعلم انه تعالى لما اطنب فى شرح الالهيات
والنبوات والحشر والمعاد والبعث واثبات القضاء والقدر ثم اتبعه بالامر بالصلاة ونبه
على مافيها من الاسرار وانما ذكر كل ذلك فى القرآن اتبعه ببيان كون القرآن شفاء
ورحمة فقال وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة ولفظة من ههنا ليست للتبعيض بل هى
للجنس كقوله فاجتنبوا الرجس من الاوثان والمعنى وننزل من هذا الجنس الذى هو قرآن
ماهو شفاء فجميع القرآن شفاء للمؤمنين واعلم ان القرآن شفاء من الامراض الروحانية
وشفاء ايضا من الامراض الجسمانية اما كونه شفاء من الامراض الروحانية فظاهر
وذلك لان الامراض الرحانية نوعان الاعتقادات الباطلة والاخلاق المذمومة اما
الاعتقادات الباطلة فأشدها فسادا الاعتقادات الفاسدة فى الالهيات والنبوات والمعاد
والقضاء والقدر والقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق فى هذه المطالب وابطال
المذاهب الباطلة فيها ولما كان أقوى الامراض الروحانية هو الخطأ فى هذه المطالب
والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة عما فى هذه المذاهب الباطلة من العيوب الباطنة

وحدوثه وجعل الجواب اخبارا
بحدوثه اى كائن بتكوينه
حادث باحداثه بالامر التكوينى
فمع عدم ملاءمته لحال السائلين
لايساعده التعرض لبيان قلة
علمهم فان ماسألوا عنه ممايفى به
علمهم حينئذ وقد اخبر عنه وقيل
المراد بالروح خلق عظيم روحانى
اعظم من الملك وقيل جبريل عليه
السلام وقيل القرآن ومعنى من
امر ربى من وحيه وكلامه لامن
كلام البشر (ولئن شئنا لنذهبن
بالذى اوحينا اليك) من القرآن
الذى هو شفاء ورحمة للمؤمنين
ومنبع للعلوم التى أوتيتموها
وثبتناك عليه حين كادوا
يفتنونك عنه ولولاء لكدت
تركن اليهم شيئا قليلا وانما عبر
عنه بالموصول تفخيما لشأنه
ووصفا له بما فى حيز الصلة ابتداء
واعلاما بحاله من اول الامر

لاجرم كان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض الروحانى واما الاخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف مافيها من المفاسد والارشاد الى الاخلاق الفاضلة الكاملة والاعمال المحمودة فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض فثبت ان القرآن شفاء من جميع الامراض الروحانية واما كونه شفاء من الامراض الجسمانية فلان التبرك بقراءته يدفع كثيرا من الامراض ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة واصحاب الطلسمات بأن لقراءة الرقى المجهولة والعزائم التى لايفهم منها شيء آثارا عظيمة فى تحصيل المنافع ودفع المفاسد فلأن تكون قراءة هذا القرآن العظيم المشتمل على ذكر جلال الله وكبريائه وتعظيم الملائكة المقربين وتحقير المردة والشياطين سببا لحصول النفع فى الدين والدنيا كان اولى ويتأكد ماذكرنا بماروى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من لم يستشف بالقرآن فلاشفاه الله تعالى واما كونه رحمة للمؤمنين فاعلم انا بينا ان الارواح البشرية مريضة بسبب العقائد الباطلة والاخلاق الفاسدة والقرآن قسمان بعضهما مايفيد الخلاص عن شبهات الضالين وتمويهات المبطلين وهو الشفاء وبعضهما مايفيد تعليم كيفية اكتساب العلوم العالية والاخلاق الفاضلة التى بها يصل الانسان الى جوار رب العالمين والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين وهو الرحمة ولما كان ازالة المرض مقدمة على السعى فى تكميل موجبات الصحة لاجرم بدأ الله تعالى فى هذه الآية بذكر الشفاء ثم أتبعه بذكر الرحمة واعلم انه تعالى لمابين كون القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين بين كونه سببا للخسار والضلال فى حق الظالمين والمراد به المشركون وانما كان كذلك لان سماع القرآن يزيدهم غيظا وغضبا وحقدا وحسدا وهذه الاخلاق الذميمة تدعوهم الى الاعمال الباطلة وتزيد فى تقوية تلك الاخلاق الفاسدة فى جواهر نفوسهم ثم لايزال الخلق الخبيث النفسانى يحمل على الاعمال الفاسدة والاتيان بتلك الاعمال يقوى تلك الاخلاق فبهذا الطريق يصير القرآن سببا لتزايد هؤلاء المشركين الضالين فى درجات الخزى والضلال والفساد والنكال ثم انه تعالى ذكر السبب الاصلى فى وقوع هؤلاء الجاهلين الضالين فى اودية الضلال ومقامات الخزى والنكال وهو حب الدنيا والرغبة فى المال والجاه واعتقادهم ان ذلك انما يحصل بسبب جدهم واجتهادهم فقال واذا أنعمنا على الانسان اعرض ونأى بجانبه وفيه مباحث (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان الانسان ههنا هو الوليد بن المغيرة وهذا بعيد بل المراد ان نوع الانسان من شأنه انه اذا فاز بمقصوده ووصل الى مطلوبه اغتر وصار غافلا عن عبودية الله تعالى متمردا عن طاعة الله كما قال ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى (البحث الثانى) قوله اعرض اى ولى ظهره اى عرضه الى ناحية ونأى بجانبه اى تباعد ومعنى النأى فى اللغة البعد والاعراض عن الشيء ان يوليه عرض وجهه والنأى بالجانب ان يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره واراد الاستكبار لان ذلك عادة المتكبرين وفى قوله نأى قرا آت احداها نأى وهى قراءة العامة

وبأنه ليس من قبيل كلام المخلوق واللام موطئة للقسم ولنذهبن جوابه النائب مناب جزاء الشرط وبذلك حسن حذف مفعول المشيئة والمراد من الذهاب به المحو من المصاحف والصدور وهو ابلغ من الاذهاب عن ابن مسعود رضى الله عنه ان اول ماتفقدون من دينكم الامانة واخر ماتفقدون الصلاة وليصلين قوم ولادين لهم وان هذا القرآن تصبحون يوما ومافيكم منه شيء فقال رجل كيف ذلك وقد أثبتناه فى قلوبنا واثبتناه فى مصاحفنا نعلمه أبناءنا ويعلمه ابناؤنا ابناءهم فقال يسرى عليهم ليلا فيصبح الناس منه فقراء ترفع المصاحف وينزع مافى القلوب ( ثم لاتجد لك به ) اى بالقرآن (علينا وكيلا) من يتوكل علينا استرداده مسطورا محفوظا

( بفتح )

بفتح النون والهمزة وفي حم السجدة مثله وهي اللغة الغالبة والنأي البعد يقال نأى اي
بعد (وثانيها) قراءة ابن عامر ناء وله وجهان تقديم اللام على العين كقولهم راء في رأى
ويجوز ان يكون من ناء بمعنى نهض (وثالثها) قراءة حمزة والكسائي باماله الفتحتين وذلك
لانهم امالوا الهمزة من نأى ثم كسروا النون اتباعا للكسرة مثل رأى (ورابعها) قرأ
ابو عمرو وعاصم في رواية ابي بكر ونصير عن الكسائي وحمزة نأى بفتح النون وكسر الهمزة
على الاصل في فتح النون واماله الهمزة ثم قال تعالى واذا مسه الشر كان يؤسا اي اذا مسه
فقر أو مرض او نازلة من النوازل كان يؤسا شديد اليأس من رحمة الله ولا ييأس من
روح الله الا القوم الكافرون والحاصل انه ان فاز بالنعمة والدولة اغتر بها فنسي ذكر
الله وان بقي في الحرمان عن الدنيا استولى عليه الاسف والحزن ولم يتفرغ لذكر الله تعالى
فهذا المسكين محروم ابدا عن ذكر الله ونظيره قوله تعالى فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه
فأكرمه ونعمه فيقول ربي اكرمني الى قوله ربي اهانني وكذلك قوله ان الانسان خلق
هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا ثم قال تعالى قل كل يعمل على شاكلته
قال الزجاج الشاكلة الطريقة والمذهب والدليل عليه انه يقال هذا طريق ذو شواكل
اي يتشعب منه طرق كثيرة ثم الذي يقوى عندي ان المراد من الآية ذلك قوله تعالى
فربكم اعلم بمن هو اهدى سبيلا وفيه وجه آخر وهو ان المراد ان كل احد يفعل على وفق
ما شاكل جوهر نفسه ومقتضى روحه فان كانت نفسه مشرقة خيرة طاهرة علوية
صدرت عنه افعال فاضلة كريمة وان كانت نفسه نفسا كدرة نذلة خبيثة مضلة ظلمانية
صدرت عنه افعال خسيسة فاسدة واقول العقلاء اختلفوا في ان النفوس الناطقة
البشرية هل هي مختلفة بالماهية ام لا منهم من قال انها مختلفة بالماهية وان اختلاف
افعالها واحوالها لاجل اختلاف جواهرها وماهياتها ومنهم من قال انها متساوية في
الماهية واختلاف افعالها لاجل اختلاف امزجتها والمختار عندي هو القسم الاول
والقرآن مشعر بذلك وذلك لانه تعالى بين في الآية المتقدمة ان القرآن بالنسبة الى
البعض يفيد الشفاء والرحمة وبالنسبة الى اقوام آخرين يفيد الخسار والخزي ثم اتبعه
بقوله قل كل يعمل على شاكلته ومعناه ان اللائق بتلك النفوس الطاهرة ان يظهر فيها
من القرآن آثار الذكاء والكمال وبتلك النفوس الكدرة ان يظهر فيها من القرآن آثار
الخزي والضلال كما ان الشمس تعقد الملح وتلين الدهن وتبيض ثوب القصار وتسود
وجهه وهذا الكلام انما يتم المقصود منه اذا كانت الارواح والنفوس مختلفة
بماهياتها فبعضها مشرقة صافية يظهر فيها من القرآن نور على نور وبعضها كدرة ظلمانية
يظهر فيها من القرآن ضلال على ضلال ونكال على نكال * قوله تعالى (ويسئلونك
عن الروح قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا) اعلم انه تعالى لما ختم
الآية المتقدمة بقوله قل كل يعمل على شاكلته وذكرنا ان المراد منه مشاكلة الارواح

(الا رحمة من ربك) فانها ان
نالتك لعلها تسترده عليك ويجوز
ان يكون الاستثناء منقطعا بمعنى
ولكن رحمة من ربك تركته غير
مذهوب به فيكون امتنانا بابقائه
بعد المنة بتنزيله وترغيبا في
المحافظة على اداء حقوقه وتحذيرا
من ان لا يقدر قدره الجليل
ويفرط في القيام بشكره وهو
اجل النعم واعظمها (ان فضله
كان عليك كبيرا) كارساله
وانزال الكتاب عليك وابقائه في
حفظك وغير ذلك (قل) للذين
لا يعرفون جلالة قدر التنزيل ولا
يفهمون فخامة شانه الجليل بل
يزعمون انه من كلام البشر (لئن
اجتمعت الانس والجن) اي
اتفقوا (على ان يأتوا بمثل هذا
القرآن) المنعوت بما لا تدركه
العقول من النعوت الجليلة في
البلاغة وحسن النظم وكمال
المعنى وتخصيص الثقلين بالذكر

للافعال الصادرة عنها وجب البحث ههنا عن ماهية الروح وحقيقته فلذلك سألوا عن الروح وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) للمفسرين في الروح المذكورة في هذه الآية اقوال اظهرها ان المراد منه الروح الذي هو سبب الحياة روى ان اليهود قالوا لقريش اسألوا محمدا عن ثلاث فان اخبركم باثنين وامسك عن الثالثة فهو نبي اسألوه عن اصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الثلاثة فقال عليه السلام غدا اخبركم ولم يقل ان شاء الله فانقطع عنه الوحي اربعين يوما ثم نزل الوحي بعده ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله ثم فسر لهم قصة اصحاب الكهف وقصة ذي القرنين وابهم قصة الروح ونزل فيه قوله تعالى ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي وبين ان عقول الخلق قاصرة عن معرفة حقيقة الروح فقال وما اوتيتم من العلم الا قليلا ومن الناس من طعن في هذه الرواية من وجوه (اولها) ان الروح ليس اعظم شأنا ولا اعلى مكانا من الله تعالى فاذا كانت معرفة الله تعالى ممكنة بل حاصلة فأي مانع يمنع من معرفة الروح (وثانيها) ان اليهود قالوا ان اجاب عن قصة اصحاب الكهف وقصة ذي القرنين ولم يجب عن الروح فهو نبي وهذا كلام بعيد عن العقل لان قصة اصحاب الكهف وقصة ذي القرنين ليست الا حكاية من الحكايات وذكر الحكاية يمتنع ان يكون دليلا على النبوة وايضا فالحكاية التي يذكرها اما ان تعتبر قبل العلم بنبوته او بعد العلم بنبوته فان كان قبل العلم بنبوته كذبوه فيها وان كان بعد العلم بنبوته فحينئذ صارت نبوته معلومة قبل ذلك فلا فائدة في ذكر هذه الحكاية واما عدم الجواب عن حقيقة الروح فهذا يبعد جعله دليلا على صحة النبوة (وثالثها) ان مسئلة الروح يعرفها اصاغر الفلاسفة واراذل المتكلمين فلو قال الرسول صلى الله عليه وسلم اني لا اعرفها لاورث ذلك ما يوجب التحقير والتنفير فان الجهل بمثل هذه المسئلة يفيد تحقير اي انسان كان فكيف الرسول الذي هو اعلم العلماء وافضل الفضلاء (ورابعها) انه تعالى قال في حقه الرحمن علم القرآن وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما وقال وقل رب زدني علما وقال في صفة القرآن ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين وكان عليه السلام يقول ارنا الاشياء كما هي فمن كان هذا حاله وصفته كيف يليق به ان يقول انا لا اعرف هذه المسئلة مع انها من المسائل المشهوره المذكورة بين جمهور الخلق بل المختار عندنا انهم سألوه عن الروح وانه صلى الله عليه وسلم اجاب عنه على احسن الوجوه وتقريره ان المذكور في الآية انهم سألوه عن الروح والسؤال عن الروح يقع على وجوه كثيرة (احدها) ان يقال ماهية الروح اهو متحيز او حال في المتحيز او موجود غير متحيز ولا حال في المتحيز (وثانيها) ان يقال الروح قديمة او حادثة (وثالثها) ان يقال الارواح هل تبقى بعد موت الاجسام او تفنى (ورابعها) ان يقال ما حقيقة سعادة الارواح وشقاوتها وبالجملة فالمباحث المتعلقة بالروح كثيرة وقوله ويسألونك عن الروح

(ليس)

---

لان المنكر لكونه من عند الله تعالى منهما لا من غيرهما الا ان غيرهما قادر على المعارضة (لا يأتون بمثله) اوثر الاظهار على ايراد الضمير الراجع الى المثل المذكور احترازا عن ان يتوهم ان له مثلا معينا وايذانا بأن المراد نفي الاتيان بمثل ما اي لا يأتون بكلام مماثل له فيما ذكر من الصفات البديعة وفيهم العرب العاربة ارباب البراعة والبيان وهو جواب للقسم الذي ينبئ عنه اللام الموطئة وساد مسد جزاء الشرط ولولاها لكان جوابا له بغير جزم لكون الشرط ماضيا كما في قول زهير

وان اتاه خليل يوم مسألة

يقول لا غائب مالي ولا حرم

وحيث كان المراد بالاجتماع على الاتيان بمثل القرآن مطلق الاتفاق على ذلك سواء كان التصدي للمعارضة من كل واحد

ليس فيه مايدل على انهم عن هذه المسائل سألوا اوعن غيرها الا انه تعالى ذكر له في الجواب عن هذا السؤال قوله قل الروح من امر ربي وهذا الجواب لايليق الا بمسئلتين من المسائل التي ذكرناها احداهما السؤال عن ماهية الروح والثانية عن قدمها وحدوثها ( امالبحث الاول ) فهم قالوا ماحقيقة الروح وماهيته اهو عبارة عن اجسام موجودة في داخل هذا البدن متولدة من امتزاج الطبائع والاخلاط أوهو عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب اوهو عبارة عن عرض آخر قائم بهذه الاجسام اوهو عبارة عن موجود يغاير هذه الاجسام والاعراض فأجاب الله عنه بأنه موجود مغاير لهذه الاجسام ولهذه الاعراض وذلك لان هذه الاجسام اشياء تحدث من امتزاج الاخلاط والعناصر واماالروح فانه ليس كذلك بل هو جوهر بسيط مجرد لايحدث الا بمحدث قوله كن فيكون فقالوا لم كان شيئا مغايرا لهذه الاجسام ولهذه الاعراض فأجاب الله عنه بأنه موجود يحدث بأمر الله وتكوينه وتأثيره في افادة الحياة لهذا الجسد ولايلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة نفيه فان اكثر حقائق الاشياء وماهياتها مجهولة فانانعلم ان السكنجبين له خاصية تقتضي قطع الصفراء فأمااذا اردنا ان نعرف ماهية تلك الخاصية وحقيقتها المخصوصة فذلك غير معلوم فثبت ان اكثر الماهيات والحقائق مجهولة ولم يلزم من كونها مجهولة نفيها فكذلك ههنا وهذا هو المراد من قوله وماأوتيتم من العلم الاقليلا ( وامالبحث الثاني ) فهو ان لفظ الامر قدجاء بمعنى الفعل قال تعالى وماامر فرعون برشيد وقال فلما جاء امرنا اى فعلنا فقوله قل الروح من امر ربي اى من فعل ربي وهذا الجواب يدل على انهم سألوه ان الروح قديمة او حادثة فقال بل هي حادثة وانما حصلت بفعل الله وتكوينه وايجاده ثم احتج على حدوث الروح بقوله وماأوتيتم من العلم الاقليلا يعني ان الارواح في مبدأ الفطرة تكون خالية عن العلوم والمعارف ثم يحصل فيها العلوم والمعارف فهي لاتزال تكون في التغيير من حال الى حال وفي التبديل من نقصان الى الكمال والتغيير والتبديل من امارات الحدوث فقوله قل الروح من امر ربي يدل على انهم سألوه ان الروح هل هي حادثة فأجاب بانها حادثة واقعة بتخليق الله وتكوينه وهو المراد من قوله قل الروح من امر ربي ثم استدل على حدوث الارواح بتغيرها من حال الى حال وهو المراد من قوله وماأوتيتم من العلم الاقليلا فهذا مانقوله في هذا الباب والله اعلم (المسئلة الثانية) في ذكر سائر الاقوال المقولة في نفس الروح المذكورة في هذه الآية اعلم ان الناس ذكروا اقوالا أخرى سوى ماتقدم ذكره ( فالقول الاول ) ان المراد من هذا الروح هو القرآن قالوا وذلك لان الله تعالى سمى القرآن في كثير من الآيات روحا واللائق بالروح المسؤل عنه في هذا الموضع ليس الا القرآن فلابد من تقرير مقامين ( المقام الاول) تسمية الله القرآن بالروح يدل عليه قوله تعالى وكذلك أوحينا اليك روحا من امرنا وقوله ينزل الملائكة بالروح من امره وايضا السبب في تسمية القرآن بالروح ان بالقرآن

منهم على الانفراد اومن المجموع بأن يتألبوا على تلفيق كلام واحد بتلاحق الافكار وتعاضد الانظار قيل ( ولوكان بعضهم لبعض ظهيرا ) اى في تحقيق مايتوخونه من الاتيان بمثله وهو عطف على مقدر اى لايأتون بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيرا لبعض ولو كان الخ وقد حذف المعطوف عليه حذفا مطردا لدلالة المعطوف عليه دلالة واضحة فان الاتيان بمثله حيث انتفى عند التظاهر فلأن ينتفي عند عدمه اولى وعلى هذه النكتة يدور ما في ان ولو الوصليتين من التأكيد كما مر غير مرة ومحله النصب على الحالية حسبما عطف عليه اى لايأتون بمثله على كل حال مفروض ولو في هذه الحال المنافية لعدم

تحصل حياة الارواح والعقول لان به تحصل معرفة الله تعالى ومعرفة ملائكته ومعرفة كتبه ورسله والارواح انما تحيا بهذه المعارف وتمام تقرير هذا الموضع ذكرناه فى تفسير قوله ينزل الملائكة بالروح من امره (واما بيان المقام الثانى) وهو ان الروح اللائق بهذا الموضع هو القرآن لانه تقدمه قوله وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين والذى تأخر عنه قوله ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا اليك الى قوله قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا فلما كان ماقبل هذه الآية فى وصف القرآن ومابعدها كذلك وجب ايضا ان يكون المراد من هذا الروح القرآن حتى تكون آيات القرآن كلها متناسبة متناسقة وذلك لان القوم استعظموا امر القرآن فسألوا انه من جنس الشعر او من جنس الكهانة فأجابهم الله تعالى بأنه ليس من جنس كلام البشر وانما هو كلام ظهر بأمر الله ووحيه وتنزيله فقال قل الروح من امر ربى اى القرآن انما ظهر بأمر ربى وليس من جنس كلام البشر (القول الثانى) ان الروح المسؤل عنه فى هذه الآية ملك من ملائكة السموات وهو اعظمهم قدرا وقوة وهو المراد من قوله تعالى يوم يقوم الروح والملائكة صفا ونقلوا عن على بن ابى طالب رضى الله عنه انه قال هو ملك له سبعون الف وجه لكل وجه سبعون ألف لسان لكل لسان سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها ويخلق الله من كل تسبيحة ملكا يطير مع الملائكة الى يوم القيامة قالوا ولم يخلق الله تعالى خلقا اعظم من الروح غير العرش ولو شاء ان يبتلع السموات السبع والارضين السبع ومن فيهن بلقمة واحدة لفعل ولقائل ان يقول هذا القول ضعيف وبيانه من وجوه (الاول) ان هذا التفصيل لما عرفه على فالنبى أولى ان يكون قد عرفه فلم لم يخبرهم به وايضا ان عليا ما كان ينزل عليه الوحى فهذا التفصيل ما عرفه الا من النبى صلى الله عليه وسلم فلم ذكر النبى صلى الله عليه وسلم ذلك الشرح والبيان لعلى ولم يذكره لغيره (الثانى) ان ذلك الملك ان كان حيوانا واحدا وعاقلا واحدا لم يكن فى تكثير تلك اللغات فائدة وان كان المتكلم بكل واحد من تلك اللغات حيوانا آخر لم يكن ذلك ملكا واحدا بل يكون ذلك مجموع ملائكة (والثالث) ان هذا شئ مجهول الوجود فكيف يسئل عنه اما الروح الذى هو سبب الحياة فهو شئ تتوفر دواعى العقلاء على معرفته فصرف هذا السؤال اليه أولى (والقول الثالث) وهو قول الحسن وقتادة ان هذا الروح جبريل والدليل عليه انه تعالى سمى جبريل بالروح فى قوله نزل به الروح الامين على قلبك وفى قوله فارسلنا اليها روحنا ويؤكد هذا انه تعالى قال قل الروح من أمر ربى وقال جبريل وما نتنزل الا بأمر ربك فسألوا الرسول كيف جبريل فى نفسه وكيف قيامه بتبليغ الوحى اليه (والقول الرابع) قال مجاهد الروح خلق ليسوا من الملائكة على صورة بنى آدم يأكلون ولهم ايد وارجل ورؤس وقال ابو صالح يشبهون الناس وليسوا بالناس ولم اجد فى القرآن ولا فى الاخبار

(الصحيحة)

---

الاتيان به فضلا عن غيرها وفيه حسم لاطماعهم الفارغة فى روم تبديل بعض آياته ببعض ولا مساغ لكون الآية تقريرا لما قبلها من قوله تعالى ثم لا تجد لك به علينا وكيلا كما قيل لكن لا لما قيل من ان الاتيان بمثله اصعب من استرداد عينه ونفى الشئ انما يقرره نفى مادونه لا نفى مافوقه فان اصعبية الاسترداد بغير امره تعالى من الاتيان بمثله مما لا شبهة فيه بل لان الجملة القسمية ليست مسوقة الى النبى صلى الله عليه وسلم بل الى المكابرين من قبله عليه السلام (ولقد صرفنا) كررنا ورددنا على انحاء مختلفة توجب زيادة تقرير وبيان ووكادة رسوخ واطمئنان (للناس فى هذا القرآن) المنعوت بما ذكر من النعوت الفاضلة (من كل مثل)

الصحيحة شيئا يمكن التمسك به في اثبات هذا القول وايضا فهذا شئ مجهول فيبعد صرف هذا السؤال اليه فحاصل ماذكرناه في تفسير الروح المذكورة في هذه الآية هذه الاقوال الخمسة والله اعلم بالصواب (المسئلة الثالثة) في شرح مذاهب الناس في حقيقة الانسان اعلم ان العلم الضروري حاصل بأن ههنا شيئا اليه يشير الانسان بقوله انا واذا قال الانسان علمت وفهمت وابصرت وسمعت وذقت وشممت ولمست وغضبت فالمشار اليه لكل احد بقوله انا اما ان يكون جسما او عرضا او مجموع الجسم والعرض او شيئا مغايرا للجسم والعرض او ماتركب من الجسم والعرض او من ذلك الشئ الثالث فهذا ضبط معقول (اما القسم الاول) وهو ان يقال ان الانسان جسم فذلك الجسم اما ان يكون هو هذه البنية او جسما داخلا في هذه البنية او جسما خارجا عنها اما القائلون بأن الانسان عبارة عن هذه البنية المحسوسة وعن هذا الجسم المحسوس فهم جمهور المتكلمين وهؤلاء يقولون الانسان لايحتاج تعريفه الى ذكر حد اورسم بل الواجب ان يقال الانسان هو الجسم المبنى بهذه البنية المحسوسة واعلم ان هذا القول عندنا باطل وتقريره انهم قالوا الانسان هو هذا الجسم المحسوس فاذا أبطلنا كون الانسان عبارة عن هذا الجسم وابطلنا كون الانسان محسوسا فقد بطل كلامهم بالكلية والذى يدل على انه لايمكن ان يكون الانسان عبارة عن هذا الجسم وجوه (الحجة الاولى) ان العلم البديهي حاصل بأن اجزاء هذه الجثة متبدلة بالزيادة والنقصان تارة بحسب النمو والذبول وتارة بحسب السمن والهزل والعلم الضروري حاصل بأن المتبدل المتغير مغاير للثابت الباقي ويحصل من مجموع هذه المقدمات الثلاثة العلم القطعي بأن الانسان ليس عبارة عن مجموع هذه الجثة (الحجة الثانية) ان الانسان حال مايكون مشتغل الفكر متوجه الهمة نحو امر معين مخصوص فانه في تلك الحالة يكون غافلا عن جميع اجزاء بدنه وعن اعضائه وابعاضه مجموعها ومفصلها وهو في تلك الحالة غير غافل عن نفسه المعينة بدليل انه في تلك الحالة قد يقول غضبت واشتهيت وسمعت كلامك وابصرت وجهك وتاء الضمير كناية عن نفسه فهو في تلك الحالة عالم بنفسه المخصوصة وغافل عن جملة بدنه وعن كل واحد من اعضائه وابعاضه والمعلوم غير ماهو غير معلوم فالانسان يجب ان يكون مغايرا لجملة هذا البدن ولكل واحد من اعضائه وابعاضه (الحجة الثالثة) ان كل احد يحكم عقله باضافة كل واحد من هذه الاعضاء الى نفسه فيقول رأسي وعيني ويدى ورجلي ولساني وقلبي والمضاف غير المضاف اليه فوجب ان يكون الشئ الذى هو الانسان مغايرا لجملة هذا البدن ولكل واحد من هذه الاعضاء فان قالوا قد يقول نفسي وذاتي فيضيف النفس والذات الى نفسه فيلزم ان يكون الشئ وذاته مغايرة لنفسه وهو محال قلنا قد يراد به هذا البدن المخصوص وقد يراد بنفس الشئ وذاته الحقيقة المخصوصة التي يشير اليها كل احد بقوله انا فاذا قال نفسي وذاتي فان كان المراد البدن فعندنا انه مغاير لجوهر الانسان

من كل معنى بديع هو في الحسن والغرابة واستجلاب النفس كالمثل ليتلقوه بالقبول (فأبى اكثر الناس) اوثر الاظهار على الاضمار تأكيدا وتوضيحا (الا كفورا) اى الا جحودا وانما صح الاستثناء من الموجب مع انه لايصح ضربت الا زيدا لانه متأول بالنفي كأنه قيل ماقبل اكثرهم الا كفورا وفيه من المبالغة ماليس في ابوا الايمان لان فيه دلالة على انهم لم يرضوا بخصلة سوى الكفور من الايمان والتوقف في الامر ونحو ذلك وانهم بالغوا في عدم الرضا حتى بلغوا مرتبة الاباء (وقالوا) عند ظهور عجزهم ووضوح مغلوبيتهم بالاعجاز التنزيلي وغيره من المعجزات الباهرة متعللين بما لايمكن في العادة وجوده

امااذا اريد بالنفس و الذات الحقيقة المخصوصه المشار اليها بقوله انافلانسلم ان الانسان يمكنه ان يضيف ذلك الشئ الى نفسه بقوله انسانى و ذلك لانه عين ذاته فكيف يضيفه مرة اخرى الى ذاته (الحجة الرابعة) ان كل دليل يدل على ان الانسان يمتنع ان يكون جسما فهو ايضا يدل على انه يمتنع ان يكون عبارة عن هذا الجسم وسيأتى تقرير تلك الدلائل (الحجة الخامسة) ان الانسان قديكون حيا حال مايكون البدن ميتا فوجب كون الانسان مغايرا لهذا البدن و الدليل على صحة ماذكرناه قوله تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون فهذا النص صريح فى ان أولئك المقتولين احياء والحس يدل على ان هذا الجسد ميت (الحجة السادسة) ان قوله تعالى النار يعرضون عليها غدوا و عشيا و قوله اغرقوا فأدخلوا نارا يدل على ان الانسان يحيا بعد الموت وكذلك قوله عليه الصلاة و السلام انبياء الله لا يموتون ولكن ينقلون من دار الى دار وكذلك قوله عليه السلام القبر روضة من رياض الجنة او حفرة من حفر النار وكذلك قوله عليه الصلاة و السلام من مات فقد قامت قيامته كل هذه النصوص تدل على ان الانسان يبقى بعد موت الجسد وبديهة العقل و الفطرة شاهدان بأن هذا الجسد ميت ولو جوزنا كونه حيا جاز مثله فى جميع الجمادات وذلك عين السفسطة واذا ثبت ان الانسان حى وكان الجسد ميتا لزم ان الانسان شئ غير هذا الجسد (الحجة السابعة) قوله عليه السلام فى خطبة طويلة له حتى اذا حمل الميت على نعشه رفرف روحه فوق النعش ويقول يااهلى وياولدى لاتلعبن بكم الدنيا كما لعبت بى جمعت المال من حله و غير حله فالغنى لغيرى و التبعة على فاحذروا مثل ماحل بى وجه الاستدلال ان النبى صلى الله عليه وسلم صرح بأن حال مايكون الجسد محمولا على النعش بقى هناك شئ ينادى ويقول يااهلى وياولدى جمعت المال من حله وغير حله ومعلوم ان الذى كان الاهل اهلاله وكان جامعا للمال من الحرام و الحلال و الذى بقى فى رقبته الوبال ليس الاذلك الانسان فهذا تصريح بأن فى الوقت الذى كان الجسد ميتا محمولا كان ذلك الانسان حيا باقيا فاهما وذلك تصريح بأن الانسان شئ مغاير لهذا الجسد ولهذا الهيكل (الحجة الثامنة) قوله تعالى ياايتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية و الخطاب بقوله ارجعى انما هو متوجه عليها حال الموت فدل هذا على ان الشئ الذى يرجع الى الله بعد موت الجسد يكون حيا راضيا عن الله ويكون راضيا عنه الله و الذى يكون راضيا ليس الا الانسان فهذا يدل على ان الانسان بقى حيا بعد موت الجسد و الحى غير الميت فالانسان مغاير لهذا الجسد (الحجة التاسعة) قوله تعالى حتى اذا جاء احدكم الموت توفته رسلنا وهم لايفرطون ثم ردوا الى الله مولاهم الحق أثبت كونهم مردودين الى الله الذى هو مولاهم حال كون الجسد ميتا فوجب ان يكون ذلك المردود الى الله مغايرا لذلك الجسد الميت (الحجة العاشرة) نرى جميع فرق الدنيا من الهند و الروم و العرب و العجم وجميع

ولاتقتضى الحكمة وقوعه من الامور كما هو ديدن المبهوت المحجوج (لن نؤمن لك حتى تفجر) وقرئ بالتشديد (لنا من الارض) ارض مكة (ينبوعا) عينا لاينضب ماؤها يفعول من نبع الماء كيعبوب من عب الماء اذا زخر (او تكون لك جنة) اى بستان تستر اشجاره ماتحتها من العرصة (من نخيل وعنب فتفجر الانهار) اى تجريها بقوة (خلالها تفجيرا) كثيرا والمراد اما اجراء الانهار خلالها عند سقيها او ادامة اجرائها كما ينبئ عنه الفاء لاابتداؤه (او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) جمع كسفة كقطعة وقطع لفظا ومعنى وقرئ بالسكون كسدرة وسدر وهى حال من السماء والكاف فى كما فى محل النصب على انه صفة مصدر

ارباب الملل والنحل من اليهود والنصارى والمجوس والمسلمين وسائر فرق العالم وطوائفهم يتصدقون عن موتاهم ويدعون لهم بالخير ويذهبون الى زياراتهم ولولا انهم بعد موت الجسد بقوا احياء لكان التصدق عنهم عبثا والدعاء لهم عبثا ولكان الذهاب الى زياراتهم عبثا فالاطباق على هذه الصدقة وعلى هذا الدعاء وعلى هذه الزيارة يدل على ان فطرتهم الاصلية السليمة شاهدة بأن الانسان شئ غير هذا الجسد وان ذلك الشئ لا يموت بل يموت هذا الجسد (الحجة الحادية عشرة) ان كثيرا من الناس يرى اباه او ابنه بعد موته في المنام ويقول له اذهب الى الموضع الفلانى فان فيه ذهبا دفنته لك وقد يراه فيوصيه بقضاء دين عنه ثم عند اليقظة اذا فتش كان كما رآه فى النوم من غير تفاوت ولولا أن الانسان يبقى بعد الموت لما كان كذلك ولما دل هذا الدليل على ان الانسان يبقى بعد الموت ودل الحس على ان الجسد ميت كان الانسان مغايرا لهذا الجسد الميت (الحجة الثانية عشرة) ان الانسان اذا ضاع عضو من اعضائه مثل ان تقطع يداه او رجلاه او تقلع عيناه او تقطع أذناه الى غيرها من الاعضاء فان ذلك الانسان يجد من قلبه وعقله انه هو عين ذلك الانسان ولم يقع فى عين ذلك الانسان تفاوت حتى انه يقول انا ذلك الانسان الذى كنت موجودا قبل ذلك الا انه يقول انهم قطعوا يدى ورجلى وذلك برهان يقينى على ان ذلك الانسان شئ مغاير لهذه الاعضاء والابعاض وذلك يبطل قول من يقول الانسان عبارة عن هذه البنية المخصوصة (الحجة الثالثة عشرة) ان القرآن والأحاديث يدلان على ان جماعة من اليهود قد مسخهم الله وجعلهم فى صورة القردة والخنازير فنقول ذلك الانسان هل بقى حال ذلك المسخ اولم يبق فان لم يبق كان هذا اماتة لذلك الانسان وخلقا لذلك الخنزير وليس هذا من المسخ فى شئ وان قلنا ان ذلك الانسان بقى حال حصول ذلك المسخ فنقول على ذلك التقدير ذلك الانسان باق وتلك البنية وذلك الهيكل غير باق فوجب ان يكون ذلك الانسان شيئا مغايرا لتلك البنية (الحجة الرابعة عشرة) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى جبريل عليه الصلاة والسلام فى صورة دحية الكلبى وكان يرى ابليس فى صورة الشيخ النجدى فههنا بنية الانسان وهيكله وشكله حاصل مع ان حقيقة الانسان غير حاصلة وهذا يدل على ان الانسان ليس عبارة عن هذه البنية وهذا الهيكل والفرق بين هذه الحجة والتى قبلها انه حصلت صورة هذه البنية مع عدم هذه البنية وهذا الهيكل (الحجة الخامسة عشرة) ان الزانى يزنى بفرجه فيضرب على ظهره فوجب ان يكون الانسان شيئا آخر سوى الفرج وسوى الظهر ويقال ان ذلك الشئ يستعمل الفرج فى عمل والظهر فى عمل آخر فيكون المتلذذ والمتألم هو ذلك الشئ الا انه تحصل تلك اللذة بواسطة ذلك العضو ويتألم بواسطة الضرب على هذا العضو (الحجة السادسة عشرة) انى اذا تكلمت مع زيد وقلت له افعل كذا اولا تفعل كذا فالمخاطب بهذا الخطاب والمأمور والمنهى ليس هو جبهة زيد ولا حدقته ولا انفه ولا فمه

محذوف اى اسقاطا مماثلا لما زعمت يعنون بذلك قوله تعالى اوتسقط عليهم كسفا من السماء (اوتأتى بالله والملائكة قبيلا) اى مقابلا كالعشير والمعاشر او كفيلا يشهد بصحة ماتدعيه وهو حال من الجلالة وحال الملائكة محذوفة لدلالتها عليها اى والملائكة قبلاء كما حذف الخبر فى قوله فانى وقيار بها لغريب او جماعة فيكون حالا من الملائكة (اويكون لك بيت من زخرف) من ذهب وقد قرئ به واصله الزينة (اوترقى فى السماء) اى فى معارجها فحذف المضاف يقال رقى فى السلم وفى الدرجة (ولن نؤمن لرقيك) اى لاجل رقيك فيها وحده اولن نصدق رقيك فيها (حتى تنزل) منها (علينا كتابا) فيه تصديقك (نقرؤه) نحن

ولاشيئامن اعضائه بعينه فوجب ان يكون المأمور والمنهى والمخاطب شيئا مغايرا لهذه الاعضاء وذلك يدل على ان ذلك المأمور والمنهى غير هذا الجسد فان قالوا لم لايجوزان يقال المأمور والمنهى جملة هذا البدن لاشئ من اعضائه وابعاضه قلنا توجه التكليف على الجملة انما يصح لوكانت الجملة فاهمة عالمة فنقول لوكانت الجملة فاهمة عالمة فاما ان يقوم بمجموع البدن علم واحد اويقوم بكل واحد من اجزاء البدن علم على حدة والاول يقتضى قيام العرض بالمحال الكثيرة وهومحال والثانى يقتضى ان يكون كل واحد من اجزاء البدن عالما فاهما مدركا على سبيل الاستقلال وقد بينا ان العلم الضرورى حاصل بأن الجزء المعين من البدن ليس عالما فاهما مدركا بالاستقلال فسقط هذا السؤال ( الحجة السابعة عشرة ) ان الانسان يجب ان يكون عالما والعلم لايحصل الافى القلب فيلزم ان يكون الانسان عبارة عن الشئ الموجود فى القلب واذاثبت هذا بطل القول بأن الانسان عبارة عن هذا الهيكل وهذه الجثة انما قلنا ان الانسان يجب ان يكون عالما لانه فاعل مختار والفاعل المختار هو الذى يفعل بواسطة القلب والاختيار وهما مشروطان بالعلم لان مالايكون مقصودا امتنع القصد الى تكوينه فثبت ان الانسان يجب ان يكون عالما بالاشياء وانما قلنا ان العلم لايوجد الافى القلب للبرهان والقرآن اماالبرهان فلانانجد العلم الضرورى بأنا نجد علومنا من ناحية القلب واماالقرآن فآيات نحو قوله تعالى لهم قلوب لايفقهون بها وقوله كتب فى قلوبهم الايمان وقوله نزل به الروح الامين على قلبك واذا ثبت ان الانسان يجب ان يكون عالما وثبت ان العلم ليس الا فى القلب ثبت ان الانسان شئ فى القلب اوشئ له تعلق بالقلب وعلى التقديرين فانه يبطل قول من يقول الانسان هوهذا الجسد وهذا الهيكل واما البحث الثانى وهو بيان ان الانسان غير محسوس وهو ان حقيقة الانسان شئ مغاير للسطح واللون وكل ماهو مرئى فهو اماالسطح واماالللون وهما مقدمتان قطعيتان وينتج هذا القياس ان حقيقة الانسان غير مرئية ولامحسوسة وهذا برهان يقينى ( المسئلة الرابعة ) فى شرح مذاهب القائلين بأن الانسان جسم موجود فى داخل البدن اعلم ان الاجسام الموجودة فى هذا العالم السفلى اما ان تكون احد العناصر الاربعة اومايكون متولدا من امتزاجها ويمتنع ان يحصل فى البدن الانسانى جسم عنصرى بل لابد وان يكون الحاصل جسما متولد من امتزاجات هذه الاربعة فنقول اما الجسم الذى تغلب عليه الارضية فهو الاعضاء الصلبة الكثيفة كالعظم والغضروف والعصب والوتر والرباط والشحم واللحم والجلد ولم يقل احد من العقلاء الذين قالوا الانسان شئ مغاير لهذا الجسد بأنه عبارة عن عضو معين من هذه الاعضاء وذلك لان هذه الاعضاء كثيفة ثقيلة ظلمانية فلاجرم لم يقل احد من العقلاء بأن الانسان عبارة عن احد هذه الاعضاء واما الجسم الذى تغلب عليه المائية فهو الاخلاط الاربعة ولم يقل احد فى شئ منها انه الانسان الا فى الدم فان منهم من قال انه هو الروح

من غير ان يتلقى من قبلك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال عبد الله ابن ابى امية لن نؤمن لك حتى تتخذ الى السماء سلما ثم ترقى فيه وانا انظر حتى تأتيها وتأتى معك بصك منشور معه اربعة من الملائكة يشهدون انك كما تقول وما كانوا يقصدون بهاتيك الاقتراحات الباطلة الاالعناد واللجاج ولو اوتوا اضعاف مااقترحوا من الآيات مازادهم ذلك الا مكابرة والافقد كان يكفيهم بعض ما شاهدوا من المعجزات التى تخر لها صم الجبال ( قل ) تعجبا من شدة شكيمتهم وتنزيها لساحة السبحات عما لايكاد يليق بها من مثل هذه الاقتراحات الشنيعة التى تكاد السموات يتفطرن منها اوعن طلبك ذلك وتنبيها على بطلان

(بدليل)

بدليل انه اذاخرج لزم الموت اماالجسم الذى تغلب عليه الهوائية و النارية فهوالارواح وهى نوعان (احدهما) اجسام هوائية مخلوطة بالحرارة الغريزية متولدة امافى القلب اوفى الدماغ وقالوا انها هى الروح وانهاهى الانسان ثم اختلفوا فمنهم من يقول الانسان هوالروح الذى فى القلب ومنهم من يقول انه جزء لايتجزأ فى الدماغ ومنهم من يقول الروح عبارة عن اجزاء نارية مختلطة بهذه الارواح القلبية والدماغية وتلك الاجزاء النارية وهى المسماة بالحرارة الغريزية هى الانسان ومن الناس من يقول الروح عبارة عن اجسام نورانية سماوية لطيفة الجوهر على طبيعة ضوء الشمس وهى لاتقبل التحلل والتبدل ولاالتفرق ولا التمزق فاذا تكون البدن وتم استعداده وهو المراد بقوله فاذاسويته نفذت تلك الاجسام الشريفة السماوية الالهية فى داخل اعضاء البدن نفاذالنار فى الفحم ونفاذدهن السمسم فى السمسم ونفاذ ماء الورد فى جسم الورد ونفاذ تلك الاجسام السماوية فى جوهر البدن هوالمراد بقوله ونفخت فيه من روحى ثم ان البدن مادام يبقى سليما قابلا لنفاذ تلك الاجسام الشريفة بقى حيا فاذاتولدت فى البدن اخلاط غليظة منعت الاخلاط الغليظة من سريان تلك الاجسام الشريفة فيها فانفصلت عن هذا البدن فحينئذ يعرض الموت فهذا مذهب قوى شريف يجب التأمل فيه فانه شديد المطابقة لماورد فى الكتب الالهية من احوال الحياة والموت فهذا تفصيل مذاهب القائلين بأن الانسان جسم موجود فى داخل البدن واماان الانسان جسم موجود خارج البدن فلااعرف احدا ذهب الى هذا القول (اماالقسم الثانى) وهو ان يقال الانسان عرض حال فى البدن فهذا لايقول به عاقل لان من المعلوم بالضرورة ان الانسان جوهر لانه موصوف بالعلم والقدرة والتدبير والتصرف ومن كان كذلك كان جوهرا والجوهر لايكون عرضا بل الذى يمكن ان يقول به كل عاقل هو ان الانسان يشترط ان يكون موصوفا باعراض مخصوصة وعلى هذا التقدير فللناس فيه اقوال (القول الاول) ان العناصر الاربعة اذا امتزجت وانكسرت سورة كل واحد منها بسورة الآخر حصلت كيفية معتدلة هى المزاج ومراتب هذا المزاج غير متناهية فبعضها هى الانسانية وبعضها هى الفرسية فالانسانية عبارة عن اجسام موصوفة متولدة عن امتزاجات اجزاء العناصر بمقدار مخصوص هذا قول جمهور الاطباء ومنكرى بقاء النفس وقول ابى الحسين البصرى من المعتزلة (والقول الثانى) ان الانسان عبارة عن اجسام مخصوصة بشرط كونها موصوفة بصفة الحياة والعلم والقدرة والحياة عرض قائم بالجسم وهؤلاء انكروا الروح والنفس وقالوا ليس ههنا الااجسام مؤتلفة موصوفة بهذه الاعراض المخصوصة وهى الحياة والعلم والقدرة وهذامذهب اكثر شيوخ المعتزلة (والقول الثالث) ان الانسان عبارة عن اجسام موصوفة بالحياة والعلم والقدرة والانسان انما يمتاز عن سائر الحيوانات بشكل جسده وهيئة اعضائه واجزائه الاان

ماقالوه (سبحان ربى) وقرئ قال سبحان ربى (هل كنت الا بشرا) لاملكا حتى يتصور منى الرقى فى السماء ونحوه (رسولا) مأمورا من قبل ربى بتبليغ الرسالة من غير ان يكون لى خيرة فى الامر كسائر الرسل وكانوا لايأتون قومهم الا بما يظهره الله على ايديهم حسبما يلائم حال قومهم ولم يكن امر الآيات اليهم ولالهم ان يتحكموا على الله سبحانه بشئ منها وقوله بشرا خبر لكنت ورسولا صفته (ومامنع الناس) اى الذى حكيت اباطيلهم (ان يؤمنوا) مفعول ثان لمنع وقوله (اذجاءهم الهدى) اى الوحى ظرف لمنع او يؤمنوا اى وما منعهم وقت مجئ الوحى المقرون

هذا مشكل فان الملائكة قد يتشبهون بصور الناس فههنا صورة الانسان حاصلة مع عدم الانسانية وفي صورة المسخ معنى الانسانية حاصل مع ان هذه الصورة غير حاصلة فقد بطل اعتبار هذا الشكل في حصول معنى الانسانية طردا وعكسا (اما القسم الثالث) وهو ان يقال الانسان موجود ليس بجسم ولا جسمانية فهو قول اكثر الالهيين من الفلاسفة القائلين ببقاء النفس المثبتين للنفس معادا روحانيا وثوابا وعقابا وحسابا روحانيا وذهب اليه جماعة عظيمة من علماء المسلمين مثل الشيخ ابي القاسم الراغب الاصفهاني والشيخ ابي حامد الغزالي رحمهما الله ومن قدماء المعتزلة معمر بن عباد السلمي ومن الشيعة الملقب عندهم بالشيخ المفيد ومن الكرامية جماعة واعلم ان القائلين باثبات النفس فريقان (الاول) وهم المحققون منهم من قال الانسان عبارة عن هذا الجوهر المخصوص وهذا البدن وعلى هذا التقدير فالانسان غير موجود في داخل العالم ولا في خارجه وغير متصل في داخل العالم ولا في خارجه وغير متصل بالعالم ولا منفصل عنه ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف كما ان اله العالم لا تعلق له بالعالم الاعلى سبيل التصرف والتدبير (والفريق الثاني) الذين قالوا النفس اذا تعلقت بالبدن اتحدت بالبدن فصارت النفس عين البدن والبدن عين النفس ومجموعهما عند الاتحاد هو الانسان فاذا جاء وقت الموت بطل هذا الاتحاد وبقيت النفس وفسد البدن فهذه جملة مذاهب الناس في الانسان وكان ثابت بن قرة يثبت النفس ويقول انها متعلقة بأجسام سماوية نورانية لطيفة غير قابلة للكون والفساد والتفرق والتمزق وان تلك الاجسام تكون سارية في البدن ومادام يبقى ذلك السريان بقيت النفس مدبرة للبدن فاذا انفصلت تلك الاجسام اللطيفة عن جوهر البدن انقطع تعلق النفس عن البدن (المسئلة الخامسة) في دلائل مثبتي النفس من ناحية العقل احتج القوم بوجوه كثيرة بعضها قوي وبعضها ضعيف والوجوه القوية بعضها قطعية وبعضها اقناعية فلنذكر الوجوه القطعية (الحجة الاولى) لاشك ان الانسان جوهر فاما ان يكون جوهرا متحيزا او غير متحيز والاول باطل فتعين الثاني والذي يدل على انه يمتنع ان يكون جوهرا متحيزا انه لو كان كذلك لكان كونه متحيزا غير تلك الذات ولو كان كذلك لكان كل ما علم الانسان ذاته المخصوصة وجب ان يعلم كونه متحيزا بمقدار مخصوص وليس الامر كذلك فوجب ان لا يكون الانسان جوهرا متحيزا فنفتقر في تقرير هذا الدليل الى مقدمات ثلاثة (المقدمة الاولى) لو كان الانسان جوهرا متحيزا لكان كونه متحيزا عين ذاته المخصوصة والدليل عليه انه لو كان تحيزه صفة قائمة لكان ذلك المحل من حيث هو مع قطع النظر عن هذه الصفة اما ان يكون متحيزا اولا يكون والقسمان باطلان فبطل القول بكون التحيز صفة قائمة بالمحل انما قلنا انه يمتنع ان يكون محل التحيز لانه يلزم كون الشيء الواحد متحيزا مرتين ولانه يلزم اجتماع المثلين ولانه ليس جعل احدهما ذاتا والآخر صفة اولى من

بالمعجزات المستدعية للايمان ان يؤمنوا بالقرآن وبنبوتك او مامنعهم ان يؤمنوا بذلك وقت مجيء ما ذكر (الا ان قالوا) في محل الرفع على انه فاعل منع اي الا قولهم (أبعث الله بشرا رسولا) منكرين ان يكون رسول الله تعالى من جنس البشر وليس المراد ان هذا القول صدر عن بعضهم فمنع بعضا آخر منهم بل المانع هو الاعتقاد الشامل للكل المستتبع لهذا القول منهم وانما عبر عنه بالقول ايذانا بأنه مجرد قول يقولونه بأفواههم من غير ان يكون له مفهوم ومصداق وحصر

العكس ولان التحيز الثانى ان كان عين الذات فهو المقصود وان كان صفة لزم التسلسل وهو محال وانما قلنا انه يمتنع ان يكون محل التحيز غير متحيز لان حقيقة التحيز هو الذهاب فى الجهات والامتداد فيها والشئ الذى لايكون متحيزا لم يكن له اختصاص بالجهات وحصوله فيها ليس بتحيز محال فثبت بهذا انه لوكان الانسان جوهرا متحيزا لكان تحيزه غير ذاته المخصوصة (المقدمة الثانية) لوكان تحيز ذاته المخصوصة عين ذاته المخصوصة لكان متى عرف ذاته المخصوصة فقد عرف كونها متحيزة والدليل عليه انه لو صارت ذاته المخصوصة معلومة وصار تحيزه مجهولا لزم اجتماع النفى والاثبات فى الشئ الواحد وهو محال (المقدمة الثالثة) انا قد نعرف ذاتنا حال كوننا جاهلين بالتحيز والامتداد فى الجهاد الثلاثة وذلك ظاهر عند الاختبار والامتحان فان الانسان حال كونه مشتغلا بشئ من المهمات مثل ان يقول لعبده لم فعلت كذا ولم خالفت امرى وانى ابالغ فى تأديبك وضربك فعند مايقول لم خالفت امرى يكون عالما بذاته المخصوصة اذ لو لم يعلم ذاته المخصوصة لامتنع ان يعلم ان ذلك الانسان خالفه ولامتنع ان يخبر عن نفسه بانه على عزم ان يؤدبه ويضربه ففى هذه الحالة يعلم ذاته المخصوصة مع انه فى تلك الحالة لايخطر بباله حقيقة التحيز والامتداد فى الجهات والحصول فى الحيز فثبت بما ذكرنا انه لوكان ذات الانسان جوهرا متحيزا لكان تحيزه عين ذاته المخصوصة ولوكان كذلك لكان كل ما علم ذاته المخصوصة فقد علم التحيز وثبت انه ليس كذلك فيلزم ان يقال ذات الانسان ليس جوهرا متحيزا وذلك هو المطلوب فان قالوا هذا معارض بانه لوكان ذات الانسان جوهرا مجردا لكان كل من عرف ذات نفسه عرف كونه جوهرا مجردا وليس الامر كذلك قلنا الفرق ظاهر لان كونه مجردا معناه انه ليس بمتحيز ولاحال فى المتحيز وهذا السلب ليس عين تلك الذات المخصوصة لان السلب ليس عين الثبوت واذا كان كذلك لم يبعد ان تكون تلك الذات المخصوصة معلومة وان لايكون ذلك السلب معلوما بخلاف كونه متحيزا فانا قد دللنا على ان تقدير كون الانسان جوهرا متحيزا يكون تحيزه عين ذاته المخصوصة وعلى هذا التقدير يمتنع ان تكون ذاته معلومة ويكون تحيزه مجهولا فظهر الفرق (الحجة الثانية) النفس واحدة ومتى كانت واحدة وجب ان تكون مغايرة لهذا البدن ولكل واحد من اجزائه فهذه الحجة مبنية على مقدمات (المقدمة الاولى) هى قولنا النفس واحدة ولنا ههنا مقامان تارة ندعى العلم البديهى فيه واخرى نقيم البرهان على صحته (اما المقام الاول) وهو ادعاء البديهية فنقول المراد من النفس هو الشئ الذى يشير اليه كل احد بقوله انا وكل احد يعلم بالضرورة انه اذا اشار الى ذاته المخصوصة بقوله انا كان ذلك المشار اليه واحدا غير متعدد فان قيل لم لايجوز ان يكون المشار اليه لكل احد بقوله انا وان كان واحدا الا ان ذلك الواحد يكون مركبا من اشياء كثيرة قلنا انه لاحاجة لنا فى هذا المقام الى دفع هذا السؤال بل نقول المشار اليه بقوله انا معلوم بالضرورة انه شئ

المانع من الايمان فيما ذكر مع ان لهم موانع شتى لما انه معظمها اولانه هو المانع بحسب الحال اعنى عند سماع الجواب بقوله تعالى هل كنت الابشرا رسولا اذ هو الذى يتشبثون به حينئذ من غير ان يخطر ببالهم شبهة اخرى من شبههم الواهية وفيه ايذان بكمال عنادهم حيث يشير الى ان الجواب المذكور مع كونه حاسما لمواد شبههم ملجئا الى الايمان يعكسون الامر ويجعلونه مانعا منه (قل) لهم اولا من قبلنا تبيينا للحكمة وتحقيقا للحق المزيح للريب (لوكان) اى لو وجد واستقر (فى الارض) بدل البشر (ملائكة يمشون مطمئنين)

واحد فامان ذلك الواحد هل هو واحد مركب من اشياء كثيرة او هو واحد فى نفسه
واحد فى حقيقته فهذا لاحاجة اليه فى هذا المقام (اما المقام الثانى) وهو مقام الاستدلال
فالذى يدل على وحدة النفس وجوه (الحجة الاولى) ان الغضب حالة نفسانية تحدث عند
ارادة دفع المنافر والشهوة حالة نفسانية تحدث عند طلب الملايم مشروطا بالشعور
بكون الشئ ملايما ومنافرا فالقوة الغضبية التى هى قوة دافعة للمنافر ان لم يكن لها شعور
بكونه منافرا امتنع انبعاثها الدفع ذلك المنافر على سبيل القصد والاختيار لان القصد الى
الجذب تارة والى الدفع أخرى مشروط بالشعور بالشئ فالشئ المحكوم عليه بكونه دافعا
للمنافر على سبيل الاختيار لابد وان يكون له شعور بكونه منافرا فالذى يغضب لابد وان
يكون هو بعينه مدركا فثبت بهذا البرهان اليقينى مباينة حاصلة فى ذوات متباينة (الحجة
الثانية) انا اذا فرضنا جوهرين مستقلين يكون كل واحد منهما مستقلا بفعله الخاص
امتنع ان يصير اشتغال احدهما بفعله الخاص مانعا للآخر من اشتغاله بفعله الخاص
به واذا ثبت هذا فنقول لو كان محل الادراك والفكر جوهرا ومحل الغضب جوهرا
آخر ومحل الشهوة جوهرا ثالثا وجب ان لا يكون اشتغال القوة الغضبية بفعلها مانعا
للقوة الشهوانية من الاشتغال بفعلها ولا بالعكس لكن الثانى باطل فان اشتغال الانسان
بالشهوة وانصبابه اليها يمنعه من الاشتغال بالغضب وانصبابه اليه وبالعكس فعلمنا ان هذه
الامور الثلاثة ليست مبادى مستقلة بل هى صفات مختلفة بجوهر واحد فلاجرم كان
اشتغال ذلك الجوهر باحد هذه الافعال عائقا له عن الاشتغال بالفعل الآخر (الحجة
الثالثة) انا اذا ادركنا اشياء فقد يكون الادراك سببا لحصول الشهوة وقد يصير سببا
لحصول الغضب فلو كان الجوهر المدرك مغايرا للذى يغضب والذى يشتهى فحين ادرك
الجوهر المدرك لم يحصل عند الجوهر المشتهى من ذلك الادراك اثر ولا خبر فوجب ان لا
يترتب على ذلك الادراك لاحصول الشهوة ولاحصول الغضب وحيث حصل هذا
الترتب والاستلزام علمنا ان صاحب الادراك بعينه هو صاحب الشهوة بعينها وصاحب
الغضب بعينه (الحجة الرابعة) ان حقيقة الحيوان انه جسم ذو نفس حساسة متحركة
بالارادة فالنفس لايمكنها ان تتحرك بالارادة الاعند حصول الداعى ولامعنى للداعى
الاالشعور بخير يرغب فى جذبه او بشر يرغب فى دفعه وهذا يقتضى ان يكون المتحرك
بالارادة هو بعينه مدركا للخير والشر والملذ والمؤذى والنافع والضار فثبت بماذكرنا ان
النفس الانسانية شئ واحد فثبت ان ذلك الشئ هو المبصر والسامع والشام والذائق
واللامس والمتخيل والمتفكر والمتذكر والمشتهى والغاضب وهو الموصوف بجميع
الادراكات لكل المدركات وهو الموصوف بجميع الافعال الاختيارية والحركات
الارادية (واما المقدمة الثانية) فى بيان انه لما كانت النفس شيئا واحدا وجب ان لا
تكون النفس فى هذا البدن ولا شيئا من اجزائه فنقول اما بيان انه متى كان الامر

قادرين فيها من غير ان يعرجوا
فى السماء ويعلموا ما يجب ان يعلم
(لنزلنا عليهم من السماء ملكا
رسولا) يهديهم الى الحق
ويرشدهم الى الخير لتمكنهم
من الاجتماع والتلقى منه واما عامة
البشر فهم بمعزل من استحقاق
المفاوضة الملكية كيف لا وهى
منوطة بالتناسب والتجانس
فبعث الملك اليهم مزاحم للحكمة
التى عليها مبنى التكوين
والتشريع واما بعث الملك من
بينهم الى الخواص المختصين
بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة
القدسية المتعلقين بكلا العالمين
الروحانى والجسمانى ليتلقوا من
جانب ويلقوا الى جانب وقوله
تعالى

(كذلك)

كذلك امتنع كون النفس عبارة عن جملة هذا البدن وكذا القوة السامعة وكذا سائر القوى كالتخيل والتذكر والتفكر والعلم بان هذه القوى غير سارية فى جملة اجزاء البدن علم بديهى بل هو من اقوى العلوم البديهية واما بيان انه يمتنع ان تكون النفس جزأ من اجزاء هذا البدن فانا نعلم بالضرورة انه ليس فى البدن جزء واحد هو بعينه موصوف بالابصار والسماع والفكر والذكر بل الذى يتبادر الى الخاطر ان الابصار مخصوص بالعين لا بسائر الاعضاء والسماع مخصوص بالاذن لا بسائر الاعضاء والصوت مخصوص بالحلق لا بسائر الاعضاء وكذلك القول فى سائر الادراكات وسائر الافعال فاما ان يقال انه حصل فى البدن جزء واحد موصوف بكل هذه الادراكات وبكل هذه الافعال فالعلم الضرورى حاصل بانه ليس الامر كذلك فثبت بما ذكرنا ان النفس الانسانية شئ واحد موصوف بجملة هذه الادراكات وبجملة هذه الافعال وثبت بالبديهة ان جملة البدن ليست كذلك وثبت ايضا ان شيئا من اجزاء البدن ليس كذلك فحينئذ يحصل اليقين بان النفس شئ مغاير لهذا البدن ولكل واحد من اجزائه وهو المطلوب ولنقرر هذا البرهان بعبارة اخرى فنقول انا نعلم بالضرورة انا اذا ابصرنا شيئا عرفناه واذا عرفناه اشتهيناه واذا اشتهيناه حركنا ابداننا الى القرب منه فوجب القطع بان الذى ابصر هو الذى عرف وان الذى عرف هو الذى اشتهى وان الذى اشتهى هو الذى تحرك الى القرب منه فيلزم القطع بان المبصر لذلك الشئ والعارف به والمشتهى والمتحرك الى القرب منه شئ واحد اذ لو كان المبصر شيئا والعارف شيئا ثانيا والمشتهى شيئا ثالثا والمتحرك شيئا رابعا لكان الذى ابصر لم يعرف والذى عرف لم يشته والذى اشتهى لم يتحرك ومن المعلوم ان كون الشئ مبصرا لشئ لا يقتضى صيرورة شئ آخر عالما بذلك الشئ وكذلك القول فى سائر المراتب وايضا فانا نعلم بالضرورة ان الرائى للمرئيات لما رآها فقد عرفها ولما عرفها فقد اشتهاها ولما اشتهاها طلبها وحرك الاعضاء الى القرب منها ونعلم ايضا بالضرورة ان الموصوف بهذه الرؤية وبهذا العلم وبهذه الشهوة وبهذا التحرك هو لا غيره وايضا العقلاء قالوا الحيوان لابد ان يكون حساسا متحركا بالارادة فانه ان لم يحس بشئ لم يشعر بكونه ملايما او بكونه منافرا واذا لم يشعر بذلك امتنع كونه مريدا للجذب او الدفع فثبت ان الشئ الذى يكون متحركا بالارادة فانه بعينه يجب ان يكون حساسا فثبت ان المدرك لجميع المدركات يدرك بجميع اصناف الادراكات وان المباشر لجميع التحريكات الاختيارية شئ واحد وايضا فلأنا اذا تكلمنا بكلام نقصد تفهيم الغير معانى تلك الكلمات ثم لما عقلناها اردنا تعريف غيرنا تلك المعانى ولما حصلت هذه الارادة فى قلوبنا حاولنا ادخال تلك الحروف والاصوات فى الوجود لنتوسل بها الى تعريف غيرنا تلك المعانى اذا ثبت هذا فنقول ان كان محل العلم والارادة ومحل تلك الحروف والاصوات جسما واحدا لزم ان يقال ان محل العلوم والارادات هو الحنجرة

ملكا يحتمل ان يكون حالا من رسولا وان يكون موصوفا به وكذلك بشرا فى قوله تعالى أبعث الله بشرا رسولا والاول اولى (قل) لهم ثانيا من جهتك بعد ماقلت لهم من قبلنا ماقلت وبينت لهم ماتقتضيه الحكمة فى البعثة ولم يدفعوا اليه رأسا (كفى بالله) وحده (شهيدا) على انى اديت ماعلى من مواجب الرسالة اكمل اداء وانكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعناد وتوجيه الشهادة الى كونه عليه السلام رسولا باظهار المعجزة على وفق دعواه كما اختير لا يساعده قوله تعالى (بينى وبينكم) ومابعده من التعليل وانما لم يقل بيننا تحقيقا

و اللهاة و اللسان و معلوم انه ليس كذلك و ان قلنا محل العلوم و الارادات هو القلب لزم ايضا ان يكون محل الصوت هو القلب و ذلك ايضا باطل بالضرورة و ان قلنا محل الكلام هو الحنجرة و اللهاة و اللسان و محل العلوم و الارادات هو القلب و محل القدرة هو الاعصاب و الاوتار و العضلات كنا قد وزعنا هذه الامور على هذه الاعضاء المختلفة لكنا ابطلنا ذلك و بينا ان المدرك لجميع المدركات و المحرك لجميع الاعضاء بكل انواع التحريكات يجب ان يكون شيئا واحدا فلم يبق الا ان يقال فى الادراك و القدرة على التحريك شيء سوى هذا البدن و سوى اجزاء هذا البدن و ان هذه الاعضاء جارية مجرى الآلات و الادوات فكما ان الانسان يعقل افعالا مختلفة بواسطة آلات مختلفة فكذلك النفس تبصر بالعين و تسمع بالاذن و تتفكر بالدماغ و تعقل بالقلب فهذه الاعضاء آلات النفس و ادوات لها و النفس جوهر مغاير لها مفارق عنها بالذات متعلق بها تعلق التصرف و التدبير و هذا البرهان برهان شريف يقيني فى ثبوت هذا المطلوب و الله اعلم ( المقدمة الثالثة ) لو كان الانسان عبارة عن هذا الجسد لكان اما ان يقوم بكل واحد من الاجزاء حياة و علم و قدرة على حدة و اما ان يقوم بمجموع الاجزاء حياة و علم و قدرة و القسمان باطلان فبطل القول بكون الانسان عبارة عن هذا الجسد اما بطلان القسم الاول فلانه يقتضى كون كل واحد من اجزاء الجسد حيا عالما قادرا على سبيل الاستقلال فوجب ان لا يكون الانسان الواحد حيوانا واحدا بل احياء عالمين قادرين و حينئذ لا يبقى فرق بين الانسان الواحد و بين اشخاص كثيرين من الناس و ربط بعضهم بالبعض بالتسلسل لكنا نعلم بالضرورة فساد هذا الكلام لانى اجد ذاتى ذاتا واحدة لا حيوانات كثيرين و ايضا فبتقدير ان يكون كل واحد من اجزاء هذا الجسد حيوانا واحدا على حدة فحينئذ لا يكون لكل واحد منهما خبر عن حال صاحبه فلا يمتنع ان يريد هذا ان يتحرك الى هذا الجانب و يريد الجزء الآخر ان يتحرك الى الجانب الآخر فحينئذ يقع التدافع بين اجزاء بدن الانسان الواحد كما يقع بين شخصين و فساد ذلك معلوم بالبديهة و اما بطلان القسم الثانى فلانه يقتضى قيام الصفة الواحدة بالمحال الكثيرة و ذلك معلوم البطلان بالضرورة و لانه لو جاز حلول الصفة الواحدة فى المحال الكثيرة لم يبعد ايضا حصول الجسم الواحد فى الاحياز الكثيرة و لان بتقدير ان تحصل الصفة الواحدة فى المحال المتعددة فحينئذ يكون كل واحد من تلك الاجزاء حيا عاقلا عالما فيتجرد الامر الى كون هذه الجثة الواحدة اناسا كثيرين و لما ظهر فساد القسمين ثبت ان الانسان ليس هو هذه الجثة فان قالوا لم لا يجوز ان تقوم الحياة الواحدة بالجزء الواحد ثم ان تلك الحياة تقتضى صيرورة جملة الاجزاء احياء قلنا هذا باطل لانه لا معنى للحياة الا الحيية و لا معنى للعلم الا العالمية و بتقدير ان نساعد على ان الحياة معنى يوجب الحيية و العلم معنى يوجب العالمية الا انا نقول ان حصل فى مجموع جثة مجموع حياة واحدة

للمفارقة و ابانة للمباينة و شهيدا اما حال او تمييز (انه كان بعباده) من الرسل و المرسل اليهم (خبيرا بصيرا) محيطا بظواهر احوالهم و بواطنها فيجازيهم على ذلك و هو تعليل للكفاية و فيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم و تهديد للكفار ( و من يهد الله ) كلام مبتدأ يفصل ما اشار اليه الكلام السابق من مجازاة العباد اشارة اجمالية اى من يهده الله الى الحق بما جاء من قبله من الهدى (فهو المهتد ) اليه و الى ما يؤدى اليه من الثواب او المهتد الى كل مطلوب (و من يضلل) اى يخلق فيه الضلال بسوء اختياره

(و عالمية )

وعالمية واحدة فقد حصلت الصفة الواحدة في المحال الكثيرة وهو محال وان حصل في كل جزء وجثة حياة على حدة وعالمية على حدة عادماذكرنا من كون الانسان الواحد اناسا كثيرين وهو محال (المقدمة الرابعة) انا لما تأملنا في احوال النفس رأينا احوالها بالضد من احوال الجسم وذلك يدل على ان النفس ليست جسما وتقرير هذه المنافاة من وجوه (الاول) ان كل جسم حصلت فيه صورة فانه لا يقبل صورة أخرى من جنس الصورة الاولى الا بعد زوال الصورة الاولى زوالا تاما مثاله ان الشمع اذا حصل فيه شكل التثليث امتنع ان يحصل فيه شكل التربيع والتدوير الا بعد زوال الشكل الاول عنه ثم انا وجدنا الحال في تصور النفس بصور المعقولات بالضد من ذلك فان النفس التي لم تقبل صورة عقلية البتة يبعد قبولها الشيء من الصور العقلية فاذا قبلت صورة واحدة صار قبولها للصورة الثانية اسهل ثم ان النفس لا تزال تقبل صورة بعد صورة من غير ان تضعف البتة بل كلما كان قبولها للصور اكثر صار قبولها للصور الآتية بعد ذلك اسهل واسرع ولهذا السبب يزداد الانسان فهما وادراكا كلما ازداد تخرجا وارتباطا في العلوم فثبت ان قبول النفس للصور العقلية على خلاف قبول الجسم للصور وذلك يوهم ان النفس ليست بجسم (الثاني) ان المواظبة على الافكار الدقيقة لها اثر في النفس واثر في البدن اما اثرها في النفس فهو تأثيرها في اخراج النفس من القوة الى الفعل في التعقلات والادراكات وكلما كانت الافكار اكثر كان حصول هذه الاحوال اكمل وذلك غاية كمالها ونهاية شرفها وجلالتها واما اثرها في البدن فهو انها توجب استيلاء اليبس على البدن واستيلاء الذبول عليه وهذه الحالة لو استمرت لانتقلت الى الماخوليا وسوق الموت فثبت بما ذكرنا ان هذه الافكار توجب حياة النفس وشرفها وتوجب نقصان البدن وموته فلو كانت النفس هي البدن لصار الشيء الواحد سببا لكماله ونقصانه معا ولحياته وموته معا وانه محال (الثالث) انا اذا شاهدنا انه ربما كان بدن الانسان ضعيفا نحيفا فاذا لاح له نور من الانوار القدسية وتجلى له سر من اسرار عالم الغيب حصل لذلك الانسان جراءة عظيمة وسلطنة قوية ولم يعبأ بحضور اكابر السلاطين ولم يقم لهم وزنا ولولا ان النفس شيء سوى البدن لما كان الامر كذلك (الرابع) ان اصحاب الرياضات والمجاهدات كلما امعنوا في قهر القوى البدنية وتجويع الجسد قويت قواهم الروحانية واشرقت اسرارهم بالمعارف الالهية وكلما امعن الانسان في الاكل والشرب وقضاء الشهوة الجسدانية صار كالبهيمة وبقي محروما عن آثار النطق والعقل والفهم والمعرفة ولولا ان النفس غير البدن لما كان الامر كذلك (الخامس) انا نرى ان النفس تفعل افاعيلها بآلات بدنية فانها تبصر بالعين وتسمع بالاذن وتأخذ باليد وتمشي بالرجل اما اذا آل الامر الى العقل والادراك فانها مستقلة بذاتها في هذا الفعل من غير اعانة شيء من الآلات ولذلك فان الانسان لا يمكنه ان يبصر شيئا اذا غمض عينيه وان لا يسمع

كهؤلاء المعاندين (فلن تجد لهم) أوثر ضمير الجماعة اعتبارا لمعنى من غب ما أوثر في مقابله الافراد نظرا الى لفظها تلويحا بوحدة طريق الحق وقلة سالكيه وتعدد سبل الضلال وكثرة الضلال (اولياء من دونه) من دون الله تعالى اى انصارا يهدونهم الى طريق الحق او الى طريق يوصلهم الى مطالبهم الدنيوية والاخروية او الى طريق النجاة من العذاب الذي يستدعيه ضلالهم على معنى لن تجد لاحد منهم وليا على ما تقتضيه قضية مقابلة الجمع بالجمع من انقسام الآحاد الى الآحاد (ونحشرهم) التفات من الغيبة الى التكلم ايذانا بكمال

صوتا اذا سـدّ اذنيه امالا يمكنه البتة ان يزيل عن قلبه العلم بما كان عالمـا به فعلمنـا ان النفس غنية بذاتها فى العلوم والمعـارف عن شئ من الآلات البدنية فهـذه الوجوه الخمسـة امارات قوية فى ان النفس ليست بجسم وفى المسـئلة الاولى كثير من دلائل المتقدمين ذكرناها فى كتبنا الحكمية فلا فائدة فى الاعادة ( المسـئلة السـادسة ) فى اثبـات ان النفس ليست بجسم من الدلائل السمعيـة ( الحجة الاولى ) قوله تعـالى ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم انفسهم ومعلوم ان احدا من العقلاء لا ينسى هذا الهيكل المشاهد فدل ذلك على ان النفس التى ينساها الانسان عند فرط الجهل شئ آخر غير هذا البدن (الحجة الثانية) قوله تعالى أخرجوا انفسكم وهذا صريح فى ان النفس غير البدن وقد استقصينا فى تفسير هذه فليرجع اليه ( الحجة الثالثة ) انه تعالى ذكر مراتب الخلقة الجسمانية فقال ولقد خلقنا الانسان من سـلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين الى قوله فكسونا العظام لحما ولا شك ان جميع هذه المراتب اختلافات واقعة فى الاحوال الجسمانية ثم انه تعالى لما اراد ان يذكر نفخ الروح قال ثم انشـأناه خلقا آخر وهـذا تصريح بأن ما يتعلق بالروح جنس مغاير لما سبق ذكره من التغيرات الواقعـة فى الاحوال الجسمانية وذلك يدل على ان الروح شئ مغاير للبدن فان قالوا هذه الآية حجة عليكم لانه تعالى قال ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين وكلمة من للتبعيض وهذا يدل على ان الانسـان بعض من ابعاض الطين قلنا كلمة من اصلهـا لابتـداء الغـاية كقولك خرجت من البصرة الى الكوفة فقوله تعالى ولـقد خلقنـا الانسان من سلالة من طين يقتضى ان يكون ابتداء تخليق الانسان حاصلا من هذه السلالة ونحن نقول بموجبه لانه تعالى يسوى المزاج اولا ثم ينفخ فيه الروح فيكون ابتداء تخليقه من السـلالة ( الحجة الرابعة) قوله فاذا سويته ونفخت فيه من روحى ميز تعالى بين البشرية وبين نفخ الروح فالتسوية عبارة عن تخليق الابعاض والاعضاء وتعديل المزاج والاشباح فلمـا ميز نفخ الروح عن تسوية الاعضاء ثم اضاف الروح الى نفسه بقوله من روحى دل ذلك على ان جوهر الروح معنى مغاير لجوهر الجسد ( الحجة الخامسة ) قوله تعالى ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها وهذه الآية صريحـة فى وجود شئ موصوف بالادراك والتحريك معا لان الالهام عبارة عن الادراك واما الفجور والتقوى فهو فعـل وهـذه الآية صريحة فى ان الانسان شئ واحد وهو موصوف بالادراك والتحريك وموصوف ايضا بفعل الفجور تارة وفعل التقوى تارة أخرى ومعلوم ان جملة البدن غير موصوف بهذين الوصفين فلابد من اثبـات جوهر آخر يكون موصوفا بكل هذه الامور ( الحجة السادسة ) قوله تعالى انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا فهـذا تصريح بأن الانسان شئ واحـد وذلك الشئ هو المبتلى بالتكاليف الالهيـة والامور الربانية وهو الموصوف بالسمع والبصر ومجموع البدن ليس كذلك وليس عضو من اعضـاء

الاعتناء بأمر الحشر ( يوم القيامة على وجوههم ) حال من الضمير المنصوب اى كائنين عليها سحبا كقوله تعـالى يوم يسحبون فى النار على وجوههم او مشيا فقد روى انه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يمشون على وجوههم قال ان الذى امشاهم على اقدامهم قادر على ان يمشيهم على وجوههم ( عميا ) حال من الضمير المجرور فى الحال السابقة ( وبكما وصما ) لا يبصرون ما يقر أعينهم ولا ينطقون ما يقبل منهم ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم لما قد كانوا فى الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر ولا ينطقون بالحق ولا يستمعونه ويجوز ان يحشروا

البدن كذلك فالنفس شئ مغاير لجملة البدن ومغاير اجزاء البدن وهو موصوف بكل هذه الصفات واعلم ان الاحاديث الواردة فى صفة الارواح قبل تعلقها بالاجساد وبعد انفصالها من الاجساد كثيرة وكل ذلك يدل على ان النفس شئ غير هذا الجسد والتعجب ممن يقرأ هذه الآيات الكثيرة ويروى هذه الاخبار الكثيرة ثم يقول توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان يعرف الروح وهذا من العجائب والله اعلم (المسئلة السابعة) فى دلالة الآية التى نحن فى تفسيرها على صحة ماذكرناه ان الروح لو كانت جسما منتقلا من حالة الى حالة ومن صفة الى صفة لكان مساويا للبدن فى كونه متولدا من اجسام اتصف بصفات مخصوصة بعد ان كانت موصوفة بصفات اخرى فاذا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح وجب ان يبين انه جسم كان كذا ثم صار كذا حتى صار روحا مثل ماذكر فى كيفية تولد البدن انه كان نطفة ثم علقة ثم مضغة فلما لم يقل ذلك بل قال انه من امر ربى بمعنى انه لا يحدث ولا يدخل فى الوجود الا لاجل ان الله تعالى قال له كن فيكون دل ذلك على انه جوهر ليس من جنس الاجسام بل هو جوهر قدسى مجرد واعلم ان اكثر العارفين المكاشفين من اصحاب الرياضات وارباب المكاشفات والمشاهدات مصرون على هذا القول جازمون بهذا المذهب قال الواسطى خلق الله الارواح من بين الجمال والبهاء فلولا انه سترها لسجدها كل كافر واما بيان ان تعلقه الاول بالقلب ثم بواسطته يصل تأثيره الى جملة الاعضاء فقد شرحناه فى تفسير قوله تعالى نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين واحتج المنكرون بوجوه (الاول) لو كانت مساوية لذات الله فى كونه ليس بجسم ولا عرض لكانت مساوية له فى تمام الماهية وذلك محال (الثانى) قوله تعالى قتل الانسان ما اكفره من اى شئ خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم اماته فأقبره ثم اذا شاء انشره وهذا تصريح بأن الانسان شئ مخلوق من النطفة وانه يموت ويدخل القبر ثم انه تعالى يخرجه من القبر ولو لم يكن الانسان عبارة عن هذه الجثة والا لم تكن الاحوال المذكورة فى هذه الآية صحيحة (الثالث) قوله ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله الى قوله يرزقون فرحين وهذا يدل على ان الروح جسم لان الارزاق والفرح من صفات الاجسام (الجواب عن الاول) ان المساواة فى انه ليس بمتحيز ولا حال فى المتحيز مساواة فى صفة سلبية والمساواة فى الصفة السلبية لا توجب المماثلة واعلم ان جماعة من الجهال يظنون انه لما كان الروح موجودا ليس بمتحيز ولا حال فى المتحيز وجب ان يكون مثلا لله او جزأ لله وذلك جهل فاحش وغلط قبيح وتحقيقه ماذكرناه من ان المساوات فى السلوب لو اوجبت المماثلة لوجب القول باستواء كل المختلفات وان كل ماهيتين مختلفتين فلابد ان يشتركا فى سلب كل ماعداهما عنهما فلتكن هذه الدقيقة معلومة فانها مغلطة عظيمة للجهال (والجواب عن الثانى) انه لما كان الانسان فى العرف او الظاهر عبارة عن هذه الجثة اطلق عليه اسم الانسان فى العرف

بعد الحساب من الموقف الى النار مو فى القوى والحواس وان يحشروا كذلك ثم يعاد اليهم قواهم وحواسهم فان ادراكاتهم بهذه المشاعر فى بعض المواطن مما لاريب فيه (مأواهم جهنم) اما حال او استئناف وكذا قوله تعالى (كلما خبت زدناهم سعيرا) اى كلما سكن لهبها بأن اكلت جلودهم ولحومهم ولم يبق فيهم مايتعلق به النار وتحرقه زدناهم توقدا بأن بدلناهم جلودا غيرها فعادت ملتهبة ومستعرة ولعل ذلك عقوبة لهم على انكارهم الاعادة بعد الفناء بتكريرها مرة بعد اخرى ليروها عيانا حيث لم يعلموها برهانا كما يفصح عنه

(والجواب عن الثالث) ان الرزق المذكور في الآية محمول على مايقوى حالهم ويكمل كمالهم وهو معرفة الله ومحبته بل نقول هذا من أدل الدلائل على صحة قولنا لان ابدانهم قد بليت تحت التراب والله تعالى يقول ان ارواحهم تأوى الى قناديل معلقة تحت العرش وهذا يدل على ان الروح غير البدن وليكن هذا آخر كلامنا في هذا الباب ولنرجع الى علم التفسير * ثم قال تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا وعلى قولنا قد ذكرنا فيه احتمالين اما المفسرون فقالوا ان النبي صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب ام انت معنا فقال عليه الصلاة والسلام بل نحن وانتم لم نؤت من العلم الا قليلا فقالوا ما اعجب شأنك يامحمد ساعة تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وساعة تقول هذا فنزل قوله ولو ان مافي الارض من شجرة اقلام الى آخره وماذكروه ليس بلازم لان الشيء قد يكون قليلا بالنسبة الى شيء كثيرا بالنسبة الى شيء آخر فالعلوم الحاصلة عند الناس قليلة جدا بالنسبة الى علم الله وبالنسبة الى حقائق الاشياء ولكنها كثيرة بالنسبة الى الشهوات الجسمانية واللذات الجسدانية ❊ قوله تعالى (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك ثم لاتجدلك به علينا وكيلا الارحمة من ربك ان فضله كان عليك كبيرا) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما بين في الآية الاولى انه ما آتاهم من العلم الا قليلا بين في هذه الآية انه لو شاء ان يأخذ منهم ذلك القليل ايضا لقدر عليه وذلك بأن يمحو حفظه من القلوب وكتابته من الكتب وهذا وان كان امرا مخالفا للعادة الا انه تعالى قادر عليه (المسئلة الثانية) احتج الكعبي بهذه الآية على ان القرآن مخلوق فقال والذي يقدر على ازالته والذهاب به يستحيل ان يكون قديما بل يجب ان يكون محدثا وهذا الاستدلال بعيد لان المراد بهذا الاذهاب ازالة العلم به عن القلوب وازالة النقوش الدالة عليه عن المصحف وذلك لايوجب كون ذلك المعلوم المدلول محدثا وقوله ثم لاتجدلك به علينا وكيلا اى لاتجد من تتوكل عليه في رد شيء منه ثم قال الارحمة من ربك اى الا ان يرحمك ربك فيرده عليك اويكون على الاستثناء المنقطع بمعنى ولكن رحمة ربك تركته غير مذهوب به وهذا امتنان من الله ببقاء القرآن على انه تعالى من على جميع العلماء بنوعين من المنة (احدهما) تسهيل ذلك العلم عليه (الثاني) ابقاء حفظه عليه وقوله ان فضله كان عليك كبيرا فيه قولان (الاول) المراد ان فضله كان عليك كبيرا بسبب ابقاء العلم والقرآن عليك (الثاني) المراد ان فضله كان عليك كبيرا بسبب انه جعلك سيد ولد آدم وختم بك النبيين واعطاك المقام المحمود فلما كان كذلك لاجرم انعم عليك ايضا بابقاء العلم والقرآن عليك ❊ قوله تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انا في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله بالغنا في بيان اعجاز القرآن

قوله تعالى (ذلك) اى ذلك العذاب (جزاؤهم بأنهم) اى بسبب انهم (كفروا بآياتنا) العقلية والنقلية الدالة على صحة الاعادة دلالة واضحة فذلك مبتدأ وجزاؤهم خبره ويجوز ان يكون مبتدأ ثانيا وبأنهم خبره والجملة خبر الذلك وان يكون جزاؤهم بدلا من ذلك اوبيانا له والخبر هو الظرف (وقالوا) منكرين اشد الانكار (أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) اما مصدر مؤكد من غير لفظه اى لمبعوثون بعثا جديدا واما حال اى مخلوقين مستأنفين (أولم يروا) اى ألم يتفكروا ولم يعلموا

وللناس فيه قولان منهم من قال القرآن معجز في نفسه ومنهم من قال انه ليس في نفسه معجزا الا انه تعالى لما صرف دواعيهم عن الاتيان بمعارضته مع ان تلك الدواعي كانت قوية كانت هذه الصرفة معجزة والمختار عندنا في هذا الباب ان نقول القرآن في نفسه اما ان يكون معجزا او لا يكون فان كان معجزا فقد حصل المطلوب وان لم يكن معجزا بل كانوا قادرين على الاتيان بمعارضته وكانت الدواعي متوفرة على الاتيان بهذه المعارضة وما كان لهم عنها صارف ومانع وعلى هذا التقدير كان الاتيان بمعارضته واجبا لازما فعدم الاتيان بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة يكون نقضا للعادة فيكون معجزا فهذا هو الطريق الذي نختاره في هذا الباب (المسئلة الثانية) لقائل ان يقول هب انه قد ظهر عجز الانسان عن معارضته فكيف عرفتم عجز الجن عن معارضته وايضا فلم لا يجوز ان يقال ان هذا الكلام نظم الجن القوه على محمد صلى الله عليه وسلم وخصوه به على سبيل السعي في اضلال الخلق فعلى هذا انما تعرفون صدق محمد صلى الله عليه وسلم اذا عرفتم ان محمدا صادق في قوله انه ليس من كلام الجن بل هو من كلام الله تعالى فحينئذ يلزم الدور وليس لاحد ان يقول كيف يعقل ان يكون هذا من قول الجن لانا نقول ان هذه الآية دلت على وقوع التحدي مع الجن وانما يحسن هذا التحدي لو كانوا فصحاء بلغاء ومتى كان الامر كذلك كان الاحتمال المذكور قائما أجاب العلماء عن الاول بان عجز البشر عن معارضته يكفي في اثبات كونه معجزا وعن الثاني ان ذلك لو وقع لوجب في حكمة الله ان يظهر ذلك التلبيس وحيث لم يظهر ذلك دل على عدمه وعلى انه تعالى قد أجاب عن هذا السؤال بالاجوبة الشافية الكافية في آخر سورة الشعراء في قوله هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل افاك أثيم وقد شرحنا كيفية هذه الاجوبة هناك فلا فائدة في الاعادة (المسئلة الثالثة) قالت المعتزلة الآية دالة على ان القرآن مخلوق لان التحدي بالقديم محال وهذه المسئلة قد ذكرناها ايضا بالاستقصاء في سورة البقرة فلا فائدة في الاعادة ❊ ثم قال تعالى (ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) وهذا الكلام يحتمل وجوها (احدها) انه وقع التحدي بكل القرآن كما في هذه الآية ووقع التحدي ايضا بعشر سور منه كما في قوله تعالى فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ووقع التحدي بالسورة الواحدة كما في قوله تعالى فأتوا بسورة من مثله ووقع التحدي بكلام من سورة واحدة كما في قوله فليأتوا بحديث مثله فقوله ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل يحتمل ان يكون المراد منه التحدي كما شرحناه ثم انهم مع ظهور عجزهم في جميع هذه المراتب بقوا مصرين على كفرهم (وثانيها) ان يكون المراد من قوله ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل انا اخبرناهم بان الذين بقوا مصرين على الكفر مثل قوم نوح وعاد وثمود كيف ابتلاهم بانواع البلاء وشرحنا هذه الطريقة مرارا واطوارا ثم ان هؤلاء الاقوام يعني اهل مكة لم ينتفعوا بهذا البيان بل بقوا مصرين على الكفر

(ان الله الذي خلق السموات والارض) من غير مادة مع عظمهما (قادر على ان يخلق مثلهم) في الصغر على ان المثل مقحم والمراد بالخلق الاعادة كما عبر عنها بذلك حيث قيل خلقا جديدا (وجعل لهم أجلا لا ريب فيه) عطف على اولم يروا فانه في قوة قد رأوا والمعنى قد علموا ان من قدر على خلق السموات والارض فهو قادر على خلق امثالهم من الانس وجعل لهم ولبعثهم اجلا محققا لا ريب فيه هو يوم القيامة (فأبى الظالمون) وضع موضع الضمير تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوز الحد بالمرة (الا كفورا) اي جحودا (قل لو انتم

(وثالثها) ان يكون المراد انه تعالى ذكر دلائل التوحيد ونفى الشركاء والاضداد فى هذا القرآن مرارا كثيرة وذكر شبهات منكرى النبوة والمعاد مرارا واطوارا واجاب عنها ثم اردفها بذكر الدلائل القاطعة على صحة النبوة والمعاد ثم ان هؤلاء الكفار لم ينتفعوا بسماعها بل بقوا مضرين على الشرك وانكار النبوة ❊ قال تعالى (فأبى اكثر الناس الا كفورا) يريد اكثر اهل مكة الا كفورا اى جحودا للحق وذلك انهم انكروا مالاحاجة الى اظهاره فان قيل كيف جاز فأبى اكثر الناس الا كفورا ولا يجوز ان يقال ضربت الا زيدا قلنا لفظ ابى يفيد النفى كأنه قيل فلم يرضوا الا كفورا ❊ قوله تعالى (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا او يكون لك بيت من زخرف او ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا) اعلم انه تعالى لما بين بالدليل كون القرآن معجزا وظهر هذا المعجز على وفق دعوى محمد صلى الله عليه وسلم فحينئذ تم الدليل على كونه نبيا صادقا لانا نقول ان محمدا ادعى النبوة واظهر المعجز على وفق دعواه وكل من كان كذلك فهو نبى صادق فهذا يدل على ان محمدا صلى الله عليه وسلم صادق وليس من شرط كونه نبيا صادقا تواتر المعجزات الكثيرة وتواليها لانا لو فتحنا هذا الباب للزم ان لا ينتهى الامر فيه الى مقطع وكلما أتى الرسول بمعجز اقترحوا عليه معجزا آخر ولا ينتهى الامر فيه الى حد ينقطع عنده عناد المعاندين وتغلب الجاهلين لانه تعالى حكى عن الكفار انهم بعدان ظهر كون القرآن معجزا التمسوا من الرسول صلى الله عليه وسلم ستة انواع من المعجزات القاهرة كما حكى عن ابن عباس ان رؤساء اهل مكة ارسلوا الى الرسول صلى الله عليه وسلم وهم جلوس عند الكعبة فأتاهم فقالوا يا محمد ان ارض مكة ضيقة فسير جبالها لننتفع فيها وفجر لنا فيها ينبوعا اى نهرا وعيونا نزرع فيها فقال لا أقدر عليه فقال قائل منهم او يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا فقال لا اقدر عليه فقيل او يكون لك بيت من زخرف اى من ذهب فيغنيك عنا فقال لا اقدر عليه فقيل له أما تستطيع ان تأتى قومك بما يسألونك فقال لا استطيع قالوا فاذا كنت لا تستطيع الخير فاستطع الشر فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفا اى قطعا بالعذاب وقوله كما زعمت اشارة الى قوله اذا السماء انشقت اذا السماء انفطرت فقال عبدالله بن امية المخزومى وامه عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا والذى يحلف به لا أومن بك حتى تشد سلما فتصعد فيه ونحن ننظر اليك فتأتى بأربعة من الملائكة يشهدون لك بالرسالة ثم بعد ذلك لا ادرى أنؤمن بك ام لا فهذا شرح هذه القصة كما رواها ابن عباس (المسئلة الثانية) اعلم انهم اقترحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم انواعا من المعجزات (اولها) قولهم حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا قرأ عاصم وحمزة والكسائى تفجر بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم مخففة واختاره ابو حاتم

تملكون خزائن رحمة ربى) خزائن رزقه التى افاضها على كافة الموجودات وانتم مرتفع بفعل يفسره المذكور كقول حاتم ❊لو ذات سوار لطمتنى ❊ وفائدة ذلك المبالغة والدلالة على الاختصاص (اذن لأمسكتم) لبخلتم (خشية الانفاق) مخافة النفاد بالانفاق اذ ليس فى الدنيا احد الا وهو يختار النفع لنفسه ولو آثر غيره بشئ فانما يؤثره لعوض يفوقه فاذن هو بخيل بالاضافة الى جود الله سبحانه (وكان الانسان قتورا) مبالغا فى البخل لان مبنى امره على الحاجة والضنة بما يحتاج اليه وملاحظة العوض بما يبذله (ولقد آتينا موسى

قال لان الينبوع واحد والباقون بالتشديد واختاره ابو عبيدة ولم يختلفوا فى الثانية مشددة لاجل الانهار لانها جمع يقال فجرت الماء فجرا وفجرته تفجيرا فمن ثقل أراد به كثرة الانفجار من الينبوع وهو وان كان واحدا فلكثرة الانفجار فيه يحسن ان يثقل كما تقول ضرب زيد اذا كثر الضرب منه فيكثر فعله وان كان الفاعل واحدا ومن خفف فلأن الينبوع واحد وقوله ينبوعا يعنى عينا ينبع الماء منه تقول نبع الماء ينبع نبعا ونبوعا ونبعا ذكره الفراء قال القوم ازل عنا جبال مكة وفجرلنا الينبوع ليسهل علينا امر الزراعة والحراثة (وثانيها) قولهم اويكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا والتقدير كأنهم قالوا هب انك لاتفجر هذه الانهار لاجلنا ففجرها من اجلك (وثالثها) قولهم اوتسقط السماء كما زعمت علينا كسفا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر كسفا بفتح السين ههنا وفى سائر القرآن بسكونها وقرأ نافع وابو بكر عن عاصم ههنا وفى الروم بفتح السين وفى باقى القرآن بسكونها وقرأ حفص فى سائر القرآن بالفتح الا فى الروم وقرأ ابن كثير وابو عمرو وحمزة والكسائى فى الروم بفتح السين وفى سائر القرآن بسكون السين قال الواحدى رحمه الله كسفا فيه وجهان من القراءة سكون السين وفتحها قال ابوزيد يقال كسفت الثوب اكسفه كسفا اذا قطعته قطعا وقال الليث الكسف قطع العرقوب والكسفة القطعة وقال الفراء سمعت اعرابيا يقول لبزاز اعطنى كسفة يريد قطعة فمن قرأ بسكون السين احتمل قوله وجوها (احدها) قال الفراء ان يكون جمع كسفة مثل دمنة ودمن وسدرة وسدر (وثانيها) قال ابو على اذا كان المصدر الكسف فالكسف الشئ المقطوع كما تقول فى الطحن والطبخ والسقى ويؤكد هذا قوله وان يروا كسفا من السماء ساقطا (وثالثها) قال الزجاج من قرأ كسفا كأنه قال اويسقطها طبقا علينا واشتقاقه من كسفت الشئ اذا غطيته واما فتح السين فهو جمع كسفة مثل قطعة وقطع وسدرة وسدر وهو نصب على الحال فى القراءتين جميعا كأنه قيل اوتسقط السماء علينا مقطعة (المسئلة الثانية) قوله كما زعمت فيه وجوه (الاول) قال عكرمة كما زعمت يامحمد انك نبى فأسقط السماء علينا (الثانى) قال آخرون كما زعمت ان ربك ان شاء فعل (الثالث) يمكن ان يكون المراد ماذكره الله تعالى فى هذه السورة فى قوله أفأمنتم ان نخسف بكم جانب البر اونرسل عليكم حاصبا فقيل اجعل السماء قطعا متفرقة كالحاصب واسقطها علينا (ورابعها) قولهم اوتأتى بالله والملائكة قبيلا وفى لفظ القبيل وجوه (الاول) القبيل بمعنى المقابل كالعشير بمعنى المعاشر وهذا القول منهم يدل على جهلهم حيث لم يعلموا انه لايجوز عليه المقابلة ويقرب منه قوله وحشرنا عليهم كل شئ قبلا (والقول الثانى) ماقال ابن عباس يريد فوجا بعد فوج قال الليث وكل جند من الجن والانس قبيل وذكرنا ذلك فى قوله انه يراكم هو وقبيله (القول الثالث) ان قوله قبيلا معناه ههنا ضامنا وكفيلا قال الزجاج يقال قبلت به اقبل

تسع آيات بينات) واضحات الدلالة على نبوته وصحة ماجاءبه من عندالله وهى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والطوفان والسنون ونقص الثمرات وقيل انفجار الماء من الحجر ونتق الطور على بنى اسرائيل وانفلاق البحر بدل الثلاث الاخيرة ويأباه ان هذه الثلاث لم تكن منزلة اذذاك وان الاولين لاتعلق لهما بفرعون وانما اوتيهما بنو اسرائيل وعن صفوان بن عسال ان يهوديا سأل النبى عليه الصلاة والسلام عنها فقال ان لاتشركوا به شيئا ولاتسرقوا ولاتزنوا ولاتقتلوا النفس التى

كقولك كفلت به اكفل وعلى هذا القول فهو واحد اريد به الجمع كقوله تعالى وحسن اولئك رفيقا (والقول الرابع) قال ابو على معناه المعاينة والدليل عليه قوله تعالى لولا انزل علينا الملائكة او نرى ربنا (وخامسها) قولهم اويكون لك بيت من زخرف قال مجاهد كنا لاندرى ما الزخرف حتى رأيت فى قراءة عبدالله اويكون لك بيت من ذهب قال الزجاج الزخرف الزينة يدل عليه قوله تعالى حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت اى أخذت كمال زينتها ولاشئ فى تحسين البيت وتزيينه كالذهب (وسادسها) قولهم او ترقى فى السماء قال الفراء يقال رقيت وانا ارقى رقى ورقيا وانشد

انت الذى كلفتنى رقى الدرج * على الكلال والمشيب والعرج

وقوله فى السماء اى فى معارج السماء فحذف المضاف يقال رقى السلم ورقى الدرجة ثم قالوا ولن نؤمن لرقيك اى لن نؤمن لاجل رقيك حتى تنزل علينا كتابا من السماء فيه تصديقك قال عبدالله بن امية لن نؤمن حتى تضع على السماء سلما ثم ترقى فيه وانا انظر حتى تأتيها ثم تأتى معك بصك منشور معه اربعة من الملائكة يشهدون لك ان الامر كما تقول ولما حكى الله تعالى عن الكفار اقتراح هذه المعجزات قال لمحمد صلى الله عليه وسلم قل سبحان ربى هل كنت الابشرا رسولا وفيه مباحث (البحث الاول) انه تعالى حكى من قول الكفار قولهم لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الى قوله قل سبحان ربى وكل ذلك كلام القوم وانا لانجد بين تلك الكلمات وبين سائر آيات القرآن تفاوتا فى النظم فصح بهذا صحة ماقاله الكفار لو نشاء لقلنا مثل هذا (والجواب) ان هذا القرآن قليل لايظهر فيه التفاوت بين مراتب الفصاحة والبلاغة فزال هذا السؤال (البحث الثانى) هذه الآيات من ادل الدلائل على ان المجئ والذهاب على الله محال لان كلمة سبحان للتنزيه عما لا ينبغى وقوله سبحان ربى تنزيه لله تعالى عن شئ لايليق به اونسب اليه مما تقدم ذكره وليس فيما تقدم ذكره شئ لايليق بالله الا قولهم او تأتى بالله فدل هذا على ان قوله سبحان ربى تنزيه لله عن الاتيان والمجئ وذلك يدل على فساد قول المشبهة فى ان الله تعالى يجئ ويذهب فان قالوا لم لايجوز ان يكون المراد تنزيه الله تعالى عن ان يتحكم عليه المتحكمون فى اقتراح الاشياء قلنا القوم لم يتحكموا على الله وانما قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم ان كنت نبيا صادقا فاطلب من الله ان يشرفك بهذه المعجزات فالقوم تحكموا على الرسول وماتحكموا على الله فلا يليق حمل قوله سبحان ربى على هذا المعنى فوجب حمله على قولهم او تأتى بالله (البحث الثالث) تقرير هذا الجواب ان يقال اما ان يكون مرادكم من هذا الاقتراح انكم طلبتم الاتيان من عند نفسى بهذه الاشياء او طلبتم منى ان اطلب من الله تعالى اظهارها على يدى لتدل على كونى رسولا حقا من عند الله والاول باطل لانى بشر والبشر لاقدرة له على هذه الاشياء والثانى ايضا باطل لانى قد اتيتكم بمعجزة واحدة وهى القرآن والدلالة على كونها معجزة فطلب هذه المعجزات طلب لما لاحاجة اليه ولاضرورة

(فكان)

حرم الله الا بالحق ولا تسحروا ولاتأكلوا الربا ولا تمشوا ببرئ الى ذى سلطان ليقتله ولاتقذفوا محصنة ولاتفروا من الزحف وعليكم خاصة اليهود ان لاتعدوا فى السبت فقبل اليهودى يده ورجله عليه السلام ولايساعده ايضا ماذكر ولعل جوابه عليه السلام بذلك لما انه الهم للسائل وقبوله لما انه كان فى التوراة مسطورا وقد علم انه ماعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم الا من جهة الوحى (فاسأل بنى اسرائيل) وقرئ فسل اى فقلنا له سلهم من فرعون وقل له ارسل معى بنى اسرائيل او سلهم عن ايمانهم اوعن حال دينهم اوسلهم ان

فكان طلبها يجرى مجرى التعنت والتحكم وانا عبد مأمور ليس لى ان أتحكم على الله فسقط هذا السؤال فثبت ان قوله قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا جواب كاف فى هذا الباب وحاصل الكلام انه سبحانه بين بقوله سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا كونهم على الضلال فى الالهيات وفى النبوات امافى الالهيات فيدل على ضلالهم قوله سبحان ربى اى سبحانه عن ان يكون له اتيان ومجئ وذهاب وامافى النبوات فيدل على ضلالهم قوله هل كنت الا بشرا رسولا وتقريره ماذكرناه ❊ قوله تعالى (ومامنع الناس ان يؤمنوا اذجاءهم الهدى الا ان قالوا أبعث الله بشرا رسولا قل لوكان فى الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم انه كان بعباده خبيرا بصيرا) اعلم انه تعالى لما حكى شبهة القوم فى اقتراح المعجزات الزائدة وأجاب عنها حكى عنهم شبهة اخرى وهى ان القوم استبعدوا ان يبعث الله الى الخلق رسولا من البشر بل اعتقدوا ان الله تعالى لو ارسل رسولا الى الخلق لوجب ان يكون ذلك الرسول من الملائكة فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجوه (الاول) قوله ومامنع الناس ان يؤمنوا اذجاءهم الهدى وتقرير هذا الجواب ان بتقدير ان يبعث الله ملكا رسولا الى الخلق فالخلق انما يؤمنون بكونه رسولا من عندالله لاجل قيام المعجز الدال على صدقه وذلك المعجز هو الذى يهديهم الى معرفة ذلك الملك فى ادعاء رسالة الله تعالى فالمراد من قوله تعالى اذجاءهم الهدى هو المعجز فقط فهذا المعجز سواء ظهر على يد الملك او على يد البشر وجب الاقرار برسالته فثبت ان يكون قولهم بأن الرسول لابد وان يكون من الملائكة تحكما فاسدا وتعنتا باطلا (الوجه الثانى) من الاجوبة التى ذكرها الله فى هذه الآية عن هذه الشبهة هو ان اهل الارض لوكانوا ملائكة لوجب ان يكون رسولهم من الملائكة لان الجنس الى الجنس اميل امالوكان اهل الارض من البشر لوجب ان يكون رسولهم من البشر وهو المراد من قوله لوكان فى الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا (الوجه الثالث) من الاجوبة المذكورة فى هذه الآية قوله قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم وتقريره ان الله تعالى لما اظهر المعجزة على وفق دعواى كان ذلك شهادة من الله تعالى على كونى صادقا ومن شهد الله على صدقه فهو صادق فبعد ذلك قول القائل بأن الرسول يجب ان يكون ملكا لا انسانا تحكم فاسد لايلتفت اليه ولما ذكر الله تعالى هذه الاجوبة الثلاثة اردفها بما يجرى مجرى التهديد والوعيد فقال انه كان بعباده خبيرا بصيرا يعنى يعلم ظواهرهم وبواطنهم ويعلم من قلوبهم انهم لايذكرون هذه الشبهات الالمحض الحسد وحب الرياسة والاستنكاف من الانقياد للحق ❊ قوله تعالى (ومن يهدى الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد لهم اولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا) اعلم انه تعالى

يعاضدوك ويؤيده قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم على صيغة الماضى وقيل الخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام اى فاسألهم عن تلك الآيات لتزداد يقينا وطمأنينة اوليظهر صدقك (اذجاءهم) متعلق بقلنا وبسأل على القراءة المذكورة وبآتينا او بمضمر هو يخبروك او اذكر على تقدير كون الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام (فقال له فرعون) لفاء فصيحة اى فأظهر عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات وبلغه ما ارسل به فقال له فرعون (انى لأظنك ياموسى مسحورا) سحرت فخبط عقلك (قال لقد علمت ما انزل هؤلاء)

لما أجاب عن شبهات القوم فى انكار النبوة واردفها بالوعيد الاجمالى وهو قوله انه كان بعباده خبيرا بصيرا ذكر بعده الوعيد الشديد على سبيل التفصيل اماقوله ومن يهدى الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجدلهم اولياء من دونه فالمقصود تسلية الرسول وهو ان الذين سبق لهم حكم الله بالايمان والهداية وجب ان يصيروا مؤمنين ومن سبق لهم حكم الله بالضلال والجهل استحال ان ينقلبوا عن ذلك الضلال واستحال ان يوجد من يصرفهم عن ذلك الضلال واحتج اصحابنا بهذه الآية على صحة مذهبهم فى الهدى والضلال والمعتزله حملوا هذا الاضلال تارة على الاضلال عن طريق الجنة وتارة على منع الالطاف وتارة على التخلية وعدم التعرض له بالمنع وهذه المباحث قدذكرناها مرارا فلافائدة فى الاعادة اماقوله تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما فان قيل كيف يمكنهم المشى على وجوههم قلنا الجواب من وجهين (الاول) انهم يسحبون على وجوههم قال تعالى يوم يسحبون فى النار على وجوههم (الثانى) روى ابوهريرة قيل يارسول الله كيف يمشون على وجوههم قال ان الذى يمشيهم على اقدامهم قادر على ان يمشيهم على وجوههم قال حكماء الاسلام الكفار ارواحهم شديدة التعلق بالدنيا ولذاتها وليس لها تعلق بعالم الابرار وحضرة الاله سبحانه وتعالى فلما كانت وجوه قلوبهم وارواحهم متوجهة الى الدنيا لاجرم كان حشرهم على وجوههم واماقوله عميا وبكما وصما فاعلم ان واحدا قال لابن عباس رضى الله عنه أليس انه تعالى يقول ورأى المجرمون النار وقال سمعوا لها تغيظا وزفيرا وقال دعوا هنالك ثبورا وقال يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وقال حكاية عن الكفار والله ربنا ما كنا مشركين فثبت بهذه الآيات انهم يرون ويسمعون ويتكلمون فكيف قال ههنا عميا وبكما وصما أجاب ابن عباس وتلامذته عنه من وجوه (الاول) قال ابن عباس عميا لايرون شيئا يسرهم صما لايسمعون شيئا يسرهم بكما لاينطقون بحجة (الثانى) قال فى رواية عطاء عميا عن النظر الى ماجعله الله لاوليائه بكما عن مخاطبة الله ومخاطبة الملائكة المقربين صما عن ثناء الله تعالى على اوليائه (الثالث) قال مقاتل انه حين يقال لهم اخسؤا فيها ولاتكلمون يصيرون عميا بكما صما اماقبل ذلك فهم يرون ويسمعون وينطقون (الرابع) انهم يكونون رائين سامعين ناطقين فى الموقف ولولا ذلك لماقدروا على ان يطالعوا كتبهم ولاان يسمعوا الزام حجة الله عليهم الاانهم اذا أخذوا يذهبون من الموقف الى النار جعلهم الله عميا وبكما وصما (والجواب) ان الآيات السابقة تدل على انهم فى النار يبصرون ويسمعون ويصيحون اماقوله تعالى مأواهم جهنم فظاهر واماقوله كلما خبت زدناهم سعيرا ففيه مباحث (البحث الاول) قال الواحدى الخبو سكون النار يقال خبت النار تخبو اذا سكن لهبها ومعنى خبت سكنت وطفئت يقال فى مصدره الخبو واخبأها المخبئ اخباء اى اخمدها ثم قال زدناهم سعيرا قال ابن قتيبة زدناهم سعيرا اى تلهبا (البحث الثانى) لقائل

يعنى الآيات التى اظهرها (الارب السموات والارض) خالقهما ومدبرهما والتعرض لربوبيته تعالى لهماللايذان بانه لايقدر على ايتاء مثل هاتيك الآيات العظام الا خالقهما ومدبرهما (بصائر) حال من الآيات اى بينات مكشوفات تبصرك صدقى ولكنك تعاند وتكابر نحو وجحدوابها واستيقنتها انفسهم من ضرورة ذلك العلم العلم بأنه عليه الصلاة والسلام على كمال رصانة العقل فضلا عن توهم المسحورية وقرئ علمت على صيغة التكلم اى لقد علمت بيقين ان هذه الآيات الباهرة انزلها الله عز سلطانه

ان يقول انه تعالى لايخفف عنهم العذاب وقوله كلما خبت يدل على ان العذاب يخف فى ذلك الوقت قلنا كلما خبت يقتضى سكون لهب النار امالايدل هذا على انه يخف العذاب فى ذلك الوقت (البحث الثالث) قوله كلما خبت زدناهم سعيرا ظاهره يقتضى وجوب ان تكون الحالة الثانية ازيد من الحالة الاولى واذا كان كذلك كانت الحالة الاولى بالنسبة الى الحالة الثانية تخفيفا (والجواب) الزيادة حصلت فى الحالة الاولى اخف من حصولها فى الحالة الثانية فكان العذاب شديدا ويحتمل ان يقال لما عظم العذاب صار التفاوت الحاصل فى اوقاته غير مشعور به نعوذبالله منه ولما ذكر تعالى انواع هذا الوعيد قال ذلك جزاؤهم بانهم كفروا والباء فى قوله بأنهم كفروا باء السببية وهو حجة لمن يقول العمل علة الجزاء والله اعلم ※ قوله تعالى (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا أولم يروا ان الله الذى خلق السموات والارض قادر على ان يخلق مثلهم وجعل لهم اجلا لاريب فيه فأبى الظالمون الا كفورا) اعلم انه تعالى لما اجاب عن شبهات منكرى النبوة عاد الى حكاية شبهة منكرى الحشر والنشر ليجيب عنها وتلك الشبهة هى ان الانسان بعد ان يصير رفاتا ورميما يبعد ان يعود هو بعينه واجاب الله تعالى عنه بان من قدر على خلق السموات والارض لم يبعد ان يقدر على اعادتهم باعيانهم وفى قوله قادر على ان يخلق مثلهم قولان (الاول) المعنى قادر على ان يخلقهم ثانيا فعبر عن خلقهم ثانيا بلفظ المثل كما يقول المتكلمون ان الاعادة مثل الابتداء (القول الثانى) المراد قادر على ان يخلق عبيدا آخرين يوحدونه ويقرون بكمال حكمته وقدرته ويتركون ذكر هذه الشبهات الفاسدة وعلى هذا التفسير فهو كقوله تعالى ويأت بخلق جديد وقوله ويستبدل قوما غيركم قال الواحدى والقول هو الاول لانه اشبه بماقبله ولمابين الله تعالى بالدليل المذكور ان البعث والقيامة امر ممكن الوجود فى نفسه اردفه بان لوقوعه ودخوله فى الوجود وقتا معلوما عندالله وهو قوله وجعل لهم اجلا لاريب فيه ثم قال تعالى فأبى الظالمون الا كفورا اى بعد هذه الدلائل الظاهرة أبوا الا الكفر والنفور والجحود ※ قوله تعالى (قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربى اذا لامسكتم خشية الانفاق وكان الانسان قتورا) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ان الكفار لما قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا طلبوا اجراء الانهار والعيون فى بلدتهم لتكثر اموالهم وتتسع عليهم معيشتهم فبين الله تعالى لهم انهم لو ملكوا خزائن رحمة الله لبقوا على بخلهم وشحهم ولما اقدموا على ايصال النفع الى احد وعلى هذا التقدير فلا فائدة فى اسعافهم بهذا المطلوب الذى التمسوه فهذا هو الكلام فى وجه النظم والله اعلم (المسئلة الثانية) قوله لو انتم فيه بحث يتعلق بالنحو وبحث آخر يتعلق بعلم البيان (اما البحث النحوى) فهو ان كلمة لو من شأنها ان تختص بالفعل لان كلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره والاسم يدل على الذوات والفعل هو الذى يدل على الآثار والاحوال والمنتفى هو الاحوال والآثار لا الذوات

فكيف يتوهم ان يحوم حولى سحر (وانى لأظنك يافرعون مثبورا) مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر من قولهم ماثبرك عن هذا اى ماصرفك او هالكا ولقد قارع عليه السلام ظنه بظنه وشتان بينهما كيف لا وظن فرعون افك مبين وظنه عليه الصلاة والسلام يتاخم اليقين (فأراد) اى فرعون (ان يستفزهم) اى يستخفهم ويزعجهم (من الارض) ارض مصر او من الارض مطلقا بالقتل كقوله سنقتل ابناءهم ونستحيي نساءهم (فاغرقناه ومن معه جميعا) فعكسنا عليه مكره واستفززناه وقومه بالاغراق (وقلنا من

فثبت ان كلمة لو مختصة بالافعال وأنشدوا قول المتلمس

ولو غير اخوالى ارادوا نقيصتى ❊ نصبت لهم فوق العرانين ماتما

والمعنى لو اراد غير اخوالى (واما البحث المتعلق بعلم البيان) فهو ان التقديم بالذكر يدل على التخصيص فقوله انتم تملكون دلالة على انهم هم المختصون بهذه الحالة الخسيسة والشح الكامل (المسئلة الثالثة) خزائن فضل الله ورحمته غير متناهية فكان المعنى انكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لانهاية لها لبقيتم على الشح وهذا مبالغة عظيمة فى وصفهم بهذا الشئ ثم قال تعالى وكان الانسان قتورا اى بخيلا يقال قتر يقتر قترا واقتر اقتارا وقتر تقتيرا اذا قصر فى الانفاق فان قيل فقد دخل فى الانسان الجواد الكريم فالجواب من وجوه (الاول) ان الاصل فى الانسان البخل لانه خلق محتاجا والمحتاج لابد ان يحب مابه يدفع الحاجة وان يمسكه لنفسه الا انه قد يجود به لاسباب من خارج فثبت ان الاصل فى الانسان البخل (الثانى) ان الانسان انما يبذل لطلب الثناء والحمد وللخروج عن عهدة الواجب فهو فى الحقيقة ماانفق الا ليأخذ العوض فهو فى الحقيقة بخيل (الثالث) ان المراد بهذا الانسان المعهود السابق وهم الذين قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ❊ قوله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسئل بنى اسرائيل اذ جاءهم فقال له فرعون انى لاظنك ياموسى مسحورا قال لقد علمت ماانزل هؤلاء الارب السموات والارض بصائر وانى لأظنك يافرعون مثبورا فاراد ان يستفزهم من الارض فاغرقناه ومن معه جميعا وقلنا من بعده لبنى اسرائيل اسكنوا الارض فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان المقصود من هذا الكلام ايضا الجواب عن قولهم لن نؤمن لك حتى تأتينا بهذه المعجزات القاهرة فقال تعالى انا آتينا موسى معجزات مساوية لهذه الاشياء التى طلبتموها بل أقوى منها واعظم فلو حصل فى علمنا ان جعلها فى زمانكم مصلحة لفعلناها كما فعلنا فى حق موسى فدل هذا على انا انما لم نفعلها فى زمانكم لعلمنا انه لامصلحة فى فعلها (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى ذكر فى القرآن اشياء كثيرة من معجزات موسى عليه الصلاة والسلام (احدها) ان الله تعالى ازال العقدة من لسانه قيل فى التفسير ذهبت العجمة وصار فصيحا (وثانيها) انقلاب العصا حية (وثالثها) تلقف الحية حبالهم وعصيهم مع كثرتها (ورابعها) اليد البيضاء وخمسة أخر وهى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم (والعاشر) شق البحر وهو قوله واذ فرقنا بكم البحر (والحادى عشر) الحجر وهو قوله ان اضرب بعصاك الحجر (والثانى عشر) اظلال الجبل وهو قوله تعالى واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة (والثالث عشر) انزال المن والسلوى عليه وعلى قومه (والرابع عشر والخامس عشر) قوله تعالى ولقد اخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات (والسادس عشر) الطمس على اموالهم من النخل والدقيق والاطعمة

بعده) من اغراقهم (لبنى اسرائيل اسكنوا الارض) التى اراد ان يستفزكم منها (فاذا جاء وعد الآخرة) الكرة الآخرة او الحياة او الساعة او الدار الآخرة اى قيام القيامة (جئنا بكم لفيفا) مختلطين اياكم واياهم ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من اشقيائكم واللفيف الجماعات من قبائل شتى (وبالحق انزلناه وبالحق نزل) اى وماانزلنا القرآن الاملتبسا بالحق المقتضى لانزاله ومانزل الاملتبسا بالحق الذى اشتمل عليه اوماانزلناه من السماء الامحفوظا ومانزل على الرسول الامحفوظا من تخليط الشياطين ولعل المراد بيان عدم اعتراء البطلان له اول الامر وآخره

و الدراهم والدنانير روى ان عمر بن عبدالعزيز سأل محمد بن كعب عن قوله تسع آيات بينات فذكر محمد بن كعب في جملة التسع حل عقدة اللسان و الطمس فقال عمر بن عبدالعزيز هكذا يجب ان يكون الفقيه ثم قال ياغلام أخرج ذلك الجراب فأخرجه فنفضه فاذا فيه بيض مكسور نصفين و جوز مكسور وفول وحمص وعدس كلها حجارة اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى ذكر في القرآن هذه المعجزات الستة عشر لموسى عليه الصلاة والسلام وقال في هذه الآية ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات وتخصيص التسعة بالذكر لايقدح فيه ثبوت الزائد عليه لانا بينا في اصول الفقه ان تخصيص العدد بالذكر لايدل على نفي الزائد بل نقول انما تمسك في هذه المسئلة بهذه الآية ثم نقول اما هذه التسعة فقد اتفقوا على سبعة منها وهي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وبقي الاثنان ولكل واحد من المفسرين قول آخر فيهما ولما لم تكن تلك الاحوال مستندة الى حجة ظنية فضلا عن حجة يقينية لاجرم تركت تلك الروايات وفي تفسير قوله تعالى تسع آيات بينات اقوال أجودها ماروى صفوان بن عسال انه قال ان يهوديا قال لصاحبه اذهب بنا الى هذا النبي نسأله عن تسع آيات فذهبا الى النبي صلى الله عليه وسلم وسألاه عنها فقال هن ان لاتشركوا بالله شيئا ولاتسرقوا ولاتزنوا ولاتقتلوا ولاتسحروا ولاتأكلوا الربا ولاتقذفوا المحصنة ولاتولوا الفرار يوم الزحف وعليكم خاصة اليهود ان لاتعتدوا في السبت فقام اليهود يان فقبلا يديه ورجليه وقالوا نشهد انك نبي ولولا نخاف القتل والاتبعناك (المسئلة الثالثة) قوله فاسأل بني اسرائيل اذجاءهم فيه مباحث (البحث الاول) فيه وجوه (الوجه الاول) انه اعتراض دخل في الكلام والتقدير ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات اذجاء بني اسرائيل فاسألهم وعلى هذا التقدير فليس المطلوب من سؤال بني اسرائيل ان يستفيد هذا العلم منهم بل المقصود ان يظهر لعامة اليهود وعلمائهم صدق ماذكره الرسول فيكون هذا السؤال سؤال استشهاد (والوجه الثاني) ان يكون قوله فاسأل بني اسرائيل اي سلهم عن فرعون وقل له ارسل معي بني اسرائيل (والوجه الثالث) سل بني اسرائيل اي سلهم ان يوافقوك والتمس منهم الايمان والعمل الصالح وعلى هذا التأويل فالتقدير فقلنا له سلهم ان يعاضدوك وتكون قلوبهم وايديهم معك (البحث الثاني) امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بان يسأل بني اسرائيل معناه الذين كانوا موجودين في زمان النبي صلى الله عليه وسلم والذين جاءهم موسى عليه الصلاة والسلام هم الذين كانوا في زمانه الا ان الذين كانوا في زمان محمد صلى الله عليه وسلم لما كانوا اولاد أولئك الذين كانوا في زمان موسى حسنت هذه الكناية ثم اخبر تعالى ان فرعون قال لموسى اني لاظنك ياموسى مسحورا وفي لفظ المسحور وجوه (الاول) قال الفراء انه بمعنى الساحر كالمشؤم والميمون وذكرنا هذا في قوله حجابا مستورا (الثاني) انه مفعول من السحر أي ان الناس سحروك وخبلوك فتقول هذه الكلمات لهذا السبب (الثالث) قال محمد

(وما ارسلناك الا مبشرا) للمطيع بالثواب (ونذيرا) للعاصي من العقاب وهو تحقيق لحقية بعثته عليه الصلاة والسلام اثر تحقيق حقية انزال القرآن (وقرآنا) منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (فرقناه) وقرئ بالتشديد دلالة على كثرة نجومه (لتقرأه على الناس على مكث) على مهل وتثبت فأنه ايسر للحفظ واعون على الفهم وقرئ بالفتح وهو لغة فيه (ونزلناه تنزيلا) حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ويقع من الحوادث والواقعات (قل) للذين كفروا (آمنوا به اولا تؤمنوا) فان ايمانكم به لايزيده كمالا وامتناعكم لا يورثه نقصا (ان الذين أوتوا العلم من قبله) اي العلماء الذين قرؤا الكتب السالفة من قبل تنزيله وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة وتمكنوا من التمييز بين الحق

ابن جرير الطبري معناه اعطيت علم السحر فهذه العجائب التى تأتى بها من ذلك السحر ثم أجابه موسى عليه الصلاة والسلام بقوله لقد علمت ماانزل هؤلاء الارب السموات والارض وفيه مباحث (البحث الاول) قرأ الكسائى علمت بضم التاء اى علمت انها من عند الله فان علمت واقررت والاهلكت والباقون بالفتح وضم التاء قراءة على وفتحها قراءة ابن عباس وكان على رضى الله عنه يقول والله ماعلم عدو الله ولكن موسى هو الذى علم فبلغ ذلك ابن عباس رضى الله عنهما فاحتج بقوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم على ان فرعون وقومه كانوا قد عرفوا صحة امر موسى عليه السلام قال الزجاج الاجود فى القراءة الفتح لان علم فرعون بانها آيات نازلة من عند الله اوكد فى الحجة فاحتجاج موسى عليه الصلاة والسلام على فرعون بعلم فرعون اوكد من الاحتجاج بعلم نفسه وأجاب الناصرون لقراءة على عليه السلام عن دليل ابن عباس فقالوا قوله وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم يدل على انهم استيقنوا شيئاما فأما انهم استيقنوا كون هذه الآيات نازلة من عند الله فليس فى الآية مايدل عليه وأجابوا عن الوجه الثانى بان فرعون قال ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون قال موسى لقد علمت فكأنه نفى ذلك وقال لقد علمت صحة ماأتيت به علما صحيحا علم العقلاء واعلم ان هذه الآيات من عند الله ولاتشك فى ذلك بسبب سفاهتك (البحث الثانى) التقدير ماانزل هؤلاء الآيات ونظيره قوله

والعيش بعد اولئك الاقوام * وقوله بصائر اى حججا بينة كأنها بصائر العقول وتحقيق الكلام ان المعجزة فعل خارق للعادة فعله فاعله لغرض تصديق المدعى ومعجزات موسى عليه الصلاة والسلام كانت موصوفة بهذين الوصفين لانها كانت افعالا خارقة للعادة وصرائح العقول تشهد بأن قلب العصا حية معجزة عظيمة لايقدر عليه الا الله ثم ان تلك الحية تلقفت حبال السحرة وعصيهم على كثرتها ثم عادت عصا كما كانت فاصناف تلك الافعال لايقدر عليها احد الا الله وكذا القول فى فرق البحر واظلال الجبل فثبت ان تلك الاشياء ماانزلها الارب السموات (الصفة الثانية) انه تعالى انما خلقها لتدل على صدق موسى فى دعوة النبوة وهذا هو المراد من قوله ماانزل هؤلاء الارب السموات والارض حال كونها بصائر اى دالة على صدق موسى فى دعواه وهذه الدقائق لايمكن فهمها من القرآن الا بعد اتقان علم الاصول واقول يبعد ان يصير غير علم الاصول العقلى قاهرا فى تفسير كلام الله ثم حكى تعالى ان موسى قال لفرعون وانى لأظنك يافرعون مثبورا واعلم ان فرعون قال لموسى وانى لأظنك ياموسى مسحورا فعارضه موسى وقال له وانى لأظنك يافرعون مثبورا قال الفراء المثبور الملعون المحبوس عن الخير والعرب تقول ماثبرك عن هذا اى مامنعك منه وماصرفك وقال ابو زيد يقال ثبرت فلانا عن الشئ اثبره اى رددته عنه وقال مجاهد وقتادة هالكا وقال الزجاج يقال ثبر الرجل فهو مثبور اذا هلك والثبور الهلاك ومن معروف الكلام فلان يدعو بالويل والثبور عند مصيبة تناوله وقال تعالى دعوا هنالك

(ثبورا)

والباطل والمحق والمبطل ورأوا فيها نعتك ونعت ماانزل اليك (اذا يتلى) اى القرآن (عليهم يخرون للاذقان) اى يسقطون على وجوههم (سجدا) تعظيما لامر الله تعالى اوشكرا لانجاز ماوعد به فى تلك الكتب من بعثتك وتخصيص الاذقان بالذكر للدلالة على كمال التذلل اذ حينئذ يتحقق الخرور عليها وايثار اللام للدلالة على اختصاص الخرور بها كما فى قوله

* فخر صريعا لليدين وللفم *

وهو تعليل لما يفهم من قوله تعالى آمنوا به اولاتؤمنوا من المبالاة بذلك اى لم تؤمنوا به فقد آمن به احسن ايمان من هو خير منكم ويجوز ان يكون تعليلا لقل على سبيل التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل تسل بايمان العلماء عن ايمان الجهلة ولا تكترث

ثبورالاتدعوااليوم ثبورا واحداوادعوا ثبورا كثيرا واعلم ان فرعون لما وصف موسى بكونه مسحورا اجابه موسى بأنك مثبور يعني هذه الآيات ظاهرة وهذه المعجزات قاهرة ولا يرتاب العاقل في انها من عند الله وفي انه تعالى انما اظهرها لاجل تصديق وانت تنكرها فلا يحملك على هذا الانكار الا الحسد والعناد والغي والجهل وحب الدنيا ومن كان كذلك كانت عاقبته الدمار والثبور ثم قال تعالى فأراد ان يستفزهم من الارض يعني أراد فرعون ان يخرجهم يعني موسى وقومه بني اسرائيل ومعنى تفسير الاستفزاز تقدم في هذه السورة من الارض يعني ارض مصر قال الزجاج لا يبعد ان يكون المراد من استفزازهم اخراجهم منها بالقتل او بالتنحية ثم قال فأغرقناه ومن معه جميعا المعنى ما ذكره الله تعالى في قوله ولا يحيق المكر السيئ الا باهله اراد فرعون ان يخرج موسى من ارض مصر لتخلص له تلك البلاد والله تعالى اهلك فرعون وجعل ملك مصر خالصة لموسى ولقومه وقال لبني اسرائيل اسكنوا هذه الارض خالصة لكم خالية من عدوكم قال تعالى فاذا جاء وعد الآخرة يريد القيامة جئنا بكم لفيفا من ههنا وههنا واللفيف الجمع العظيم من اخلاط شتى من الشريف والدنيء والمطيع والعاصي والقوى والضعيف وكل شيء خلطته بشيء آخر فقد لففته ومنه قيل لففت الجيوش اذا ضربت بعضها ببعض وقوله التفت الزحوف ومنه التفت الساق بالساق والمعنى جئنا بكم من قبوركم الى المحشر اخلاطا يعني جميع الخلق المسلم والكافر والبر والفاجر ❊ قوله تعالى (وبالحق انزلناه وبالحق نزل وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا قل آمنوا به اولا تؤمنوا ان الذين اوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) اعلم انه تعالى لما بين ان القرآن معجز قاهر دال على الصدق في قوله قل لئن اجتمعت الانس والجن ثم حكى عن الكفار انهم لم يكتفوا بهذا المعجز بل طلبوا سائر المعجزات ثم اجاب الله بانه لا حاجة الى اظهار سائر المعجزات وبين ذلك بوجوه كثيرة منها ان قوم موسى عليه الصلاة والسلام آتاهم الله تسع آيات بينات فلما جحدوا بها اهلكهم الله فكذا ههنا ثم انه تعالى لو آتى قوم محمد تلك المعجزات التي اقترحوها ثم كفروا بها اوجب انزال عذاب الاستئصال بهم وذلك غير جائز في الحكمة لعلمه تعالى ان منهم من يؤمن والذى لا يؤمن فسيظهر من نسله من يصير مؤمنا ولما تم هذا الجواب عاد الى تعظيم حال القرآن وجلالة درجته فقال وبالحق انزلناه وبالحق نزل والمعنى انه ما اردنا بانزاله الا تقرير الحق والصدق وكما أردنا هذا المعنى فكذلك وقع هذا المعنى وحصل وفي هذه الآية فوائد (الفائدة لاولى) ان الحق هو الثابت الذى لا يزول كما ان الباطل هو الزائل الذاهب وهذا الكتاب الكريم مشتمل على اشياء لا تزول وذلك لانه مشتمل على دلائل التوحيد وصفات الجلال والاكرام وعلى تعظيم الملائكة وتقرير نبوة الانبياء واثبات الحشر والنشر

باعانهم واعراضهم (ويقولون) في سجودهم (سبحان ربنا) عما يفعل الكفرة من التكذيب اوعن خلف وعده (ان كان وعد ربنا لمفعولا) ان مخففة من المثقلة واللام فارقة اى ان الشأن هذا (ويخرون للاذقان يبكون) كرر الخرور للاذقان لاختلاف السبب فان الاول لتعظيم امر الله تعالى او الشكر لانجاز الوعد والثاني لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله (ويزيدهم) اى القرآن بسماعهم (خشوعا) كما يزيدهم علما ويقينا بالله تعالى (قل ادعوا الله اوادعوا الرحمن) نزل حين سمع المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا الله يا رحمن فقالوا انه ينهانا عن عبادة الهين وهو يدعو الها آخر وقالت اليهود انك لتقل ذكر

و القيامة وكل ذلك مما لا يقبل الزوال و مشتمل ايضا على شريعة باقية لا يتطرق اليها النسخ والنقض والتحريف وايضا فهذا الكتاب كتاب تكفل الله بحفظه عن تحريف الزائغين وتبديل الجاهلين كما قال انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون فكان هذا الكتاب حقا من كل الوجوه (الفائدة الثانية) ان قوله وبالحق انزلناه يفيد الحصر ومعناه انه ما انزل لمقصود آخر سوى اظهار الحق وقالت المعتزلة وهذا يدل على انه ما قصد بانزاله اضلال احد من الخلق ولا اغواءه ولا منعه عن دين الله (الفائدة الثالثة) قوله وبالحق انزلناه وبالحق نزل يدل على ان الانزال غير النزول فوجب ان يكون الخلق غير المخلوق وان يكون التكوين غير المكون على ما ذهب اليه قوم (الفائدة الرابعة) قال ابو على الفارسي الباء في قوله وبالحق انزلناه بمعنى مع كما تقول نزل بعدته وخرج بسلاحه والمعنى انزلنا القرآن مع الحق وقوله وبالحق نزل فيه احتمالان (احدهما) ان يكون التقدير نزل بالحق كما تقول نزلت بزيد وعلى هذا التقدير الحق محمد صلى الله عليه وسلم لان القرآن نزل به اى عليه (الثانى) ان تكون بمعنى مع كما قلنا فى قوله وبالحق انزلناه ثم قال تعالى وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا والمقصود ان هؤلاء الجهال الذين يقترحون عليك هذه المعجزات ويتمردون عن قبول دينك لا شئ عليك من كفرهم فانى ما ارسلتك الا مبشرا للمطيعين ونذيرا للجاحدين فان قبلوا الدين الحق انتفعوا به والا فليس عليك من كفرهم شئ ثم قال وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث وفيه مباحث (البحث الاول) ان القوم قالوا هب ان هذا القرآن معجز الا انه بتقدير ان يكون الامر كذلك فكان من الواجب ان ينزله الله عليك دفعة واحدة ليظهر فيه وجه الاعجاز فجعلوا اتيان الرسول بهذا القرآن متفرقا شبهة فى انه يتفكر فى فصل فصل ويقرأه على الناس فأجاب الله عنه بانه انما فرقه ليكون حفظه اسهل وتكون الاحاطة والوقوف على دقائقه وحقائقه اسهل (البحث الثانى) قال سعيد بن جبير نزل القرآن كله ليلة القدر من السماء العليا الى السماء السفلى ثم فصل فى السنين التى نزل فيها قال قتادة كان بين اوله وآخره عشرون سنة والمعنى قطعناه آية آية وسورة سورة ولم ننزله جملة لتقرأه على الناس على مكث بالفتح والضم على مهل وتؤدة اى لا على فورة قال الفراء يقال مكث ومكث يمكث والفتح قراءة عاصم فى قوله فمكث غير بعيد (البحث الثالث) الاختيار عند الائمة فرقناه بالتخفيف وفسره ابو عمرو بيناه قال ابو عبيد التخفيف اعجب الى لان تفسيره بيناه ومن قرأ بالتشديد لم يكن له معنى الا انه انزل متفرقا فالفرق يتضمن التبيين ويؤكده ما روى ثعلب عن ابن الاعرابى انه قال فرقت افرق بين الكلام وفرقت بين الاجسام ويدل عليه ايضا قوله صلى الله عليه وسلم البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ولم يقل يفترقا والتفرق مطاوع التفريق والافتراق مطاوع الفرق ثم قال ونزلناه تنزيلا اى على الحد المذكور والصفة المذكورة ثم قال قل آمنوا به اولا تؤمنوا يخاطب الذين اقترحوا تلك المعجزات العظيمة على وجه التهديد والانكار اى انه تعالى اوضح البينات والدلائل وازاح الاعذار

الرحمن وقد اكثره الله تعالى فى التوراة والمراد على الاول هو التسوية بين اللفظين بأنهما عبارتان عن ذات واحدة وان اختلف الاعتبار والتوحيد انما هو للذات الذى هو المعبود وعلى الثانى انهما سيان فى حسن الاطلاق والافضاء الى المقصود وهو اوفق لقوله تعالى (اياما تدعوا فله الاسماء الحسنى) والدعاء بمعنى التسمية وهو يتعدى الى مفعولين حذف اولهما استغناء عنه واو للتخيير والتنوين فى ايا عوض عن المضاف اليه وما زيدة لتأكيد ما فى اى من الابهام والضمير فى له للمسمى لان التسمية له لا للاسم وكان اصل الكلام اياما تدعوا فهو حسن فوضع موضعه فله الاسماء الحسنى للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه اذ حسن

فاختاروا اماتريدون ثم قال تعالى ان الذين أوتوا العلم من قبله اى من قبل نزول القرآن قال مجاهد هم ناس من اهل الكتاب حين سمعوا ما انزل على محمد صلى الله عليه وسلم خروا سجدا منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبدالله بن سلام ثم قال يخرون للاذقان سجدا وفيه اقوال (القول الاول) قال الزجاج الذقن مجتمع اللحيين وكما يبتدئ الانسان بالخرور الى السجود فاقرب الاشياء من الجبهة الى الارض الذقن (والقول الثانى) ان الاذقان كناية عن اللحى والانسان اذا بالغ عند السجود فى الخضوع والخشوع ربما مسح لحيته على التراب فان اللحية يبالغ فى تنظيفها فاذا عفرها الانسان بالتراب فقد اتى بغاية التعظيم (والقول الثالث) ان الانسان اذا استولى عليه خوف الله تعالى فربما سقط على الارض فى معرض السجود كالمغشى عليه ومتى كان الامر كذلك كان خروره على الذقن فى موضع السجود فقوله يخرون للاذقان كناية عن غاية ولهه وخوفه وخشيته ثم بقى فى الآية سؤالان (السؤال الاول) لم قال يخرون للاذقان سجدا ولم يقل يسجدون والجواب المقصود من ذكر هذا اللفظ مسارعتهم الى ذلك حتى انهم يسقطون (السؤال الثانى) لم قال يخرون للاذقان ولم يقل على الاذقان والجواب العرب تقول اذا خر الرجل فوقع على وجهه خر للذقن والله اعلم ثم قال تعالى ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا والمعنى انهم يقولون فى سجودهم سبحان ربنا اى ينزهونه ويعظمونه ان كان وعد ربنا لمفعولا اى بانزال القرآن وبعث محمد وهذا يدل على ان هؤلاء كانوا من اهل الكتاب لان الوعد ببعثة محمد سبق فى كتابهم فهم كانوا ينتظرون انجاز ذلك الوعد ثم قال ويخرون للاذقان يبكون والفائدة فى هذا التكرير اختلاف الحالين وهما خرورهم للسجود وفى حال كونهم باكين عند استماع القرآن ويدل عليه قوله ويزيدهم خشوعا ويجوز ان يكون تكرار القول دلالة على تكرار الفعل منهم وقوله يبكون معناه الحال ويزيدهم خشوعا اى تواضعا واعلم ان المقصود من هذه الآية تقرير تحقيرهم والازدراء بشأنهم وعدم الاكتراث بهم وبايمانهم وامتناعهم منه وانهم وان لم يؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منهم

☼ قوله تعالى (قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن اياما تدعوا فله الاسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا) قال صاحب الكشاف المراد بهما الاسم لا المسمى والواو للتخيير بمعنى ادعوا الله اوادعوا الرحمن اى سموا بهذا الاسم او بهذا اواذكروا اما هذا واما هذا والتنوين فى أيا عوض عن المضاف اليه وما صلة للابهام المؤكد لما فى اى والتقدير اى هذين الاسمين سميتم وذكرتم فله الاسماء الحسنى والضمير فى قوله فله ليس براجع الى احد الاسمين المذكورين ولكن الى مسماهما وهو ذاته عز وعلا والمعنى اياما تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله فله الاسماء الحسنى لانه اذا حسنت اسماؤه فقد حسن هذا ان الاسمان لانهما منها ومعنى حسن اسماء الله كونها مفيدة لمعانى

جميع اسمائه يستدعى حسن ذينك الاسمين وكونها حسنى لدلالتها على صفات الكمال من الجلال والجمال والاكرام (ولا تجهر بصلاتك) اى بقراءة صلاتك بحيث تسمع المشركين فان ذلك يحملهم على السب واللغو فيها (ولا تخافت بها) اى بقراءتها بحيث لا تسمع من خلفك من المؤمنين (وابتغ بين ذلك) اى بين الجهر والمخافتة على الوجه المذكور (سبيلا) امرا وسطا قصدا فان خير الامور اوساطها والتعبير عن ذلك بالسبيل باعتبار انه امر يتوجه اليه المتوجهون ويؤمه المقتدون ويوصلهم الى المطلوب وروى ان ابا بكر رضى الله تعالى عنه كان يخفت ويقول

التحميد والتقديس وقدسبق الاستقصاء في هذا الباب في آخر سورة الاعراف في تفسير قوله ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها واحتج الجبائي بهذه الآية فقال لوكان تعالى هو الخالق للظلم والجور لصح ان يقال ياظالم وحينئذ يبطل ماثبت في هذه الآية من كون اسمائه بأسرها حسنة (والجواب) انا لانسلم انه لوكان خالقا لافعال العباد لصح وصفه بانه ظالم وجائر كما انه لايلزم من كونه خالقا للحركة والسكون والسواد والبياض ان يقال يامتحرك وياساكن ويا اسود ويا ابيض فان قالوا فيلزم جواز ان يقال ياخالق الظلم والجور قلنا فيلزمكم ان تقولوا ياخالق العذرات والديدان والخنافس وكما انكم تقولون ان ذلك حق في نفس الامر ولكن الادب ان يقال يا خالق السموات والارض فكذا قولنا ههنا ثم قال تعالى ولاتجهر بصلاتك ولاتخافت بها وفيه مباحث (البحث الاول) قوله ولاتجهر بصلاتك فيه اقوال (الاول) روى سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع صوته بالقراءة فاذا سمعه المشركون سبوه وسبوا من جاء به فاوحى الله تعالى اليه ولاتجهر بصلاتك فيسمع المشركون فيسبوا الله عدوا بغير علم ولاتخافت بها فلاتسمع اصحابك وابتغ بين ذلك سبيلا (القول الثاني) روى ان النبي صلى الله عليه وسلم طاف بالليل على دور الصحابة وكان ابو بكر يخفي صوته بالقراءة في صلاته وكان عمر يرفع صوته فلما جاء النهار وجاء ابو بكر وعمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي بكر لم تخفي صوتك فقال اناجي ربي وقد علم حاجتي وقال لعمر لم ترفع صوتك فقال از جر الشيطان واوقظ الوسنان فأمر النبي صلى الله عليه وسلم ابابكر ان يرفع صوته قليلا وعمر ان يخفض صوته قليلا (القول الثالث) معناه ولاتجهر بصلاتك كلها ولاتخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلا بان تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار (والقول الرابع) ان المراد بالصلاة الدعاء وهذا قول عائشة رضي الله عنها وابي هريرة ومجاهد قالت عائشة رضي الله عنها هي في الدعاء وروى هذا مرفوعا ان النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذه الآية انما ذلك في الدعاء والمسئلة لاترفع صوتك فتذكر ذنوبك فيسمع ذلك فتعير بها فالجهر بالدعاء منهي عنه والمبالغة في الاسرار غير جائزة والمستحب من ذلك التوسط وهو ان يسمع نفسه كما روى عن ابن مسعود انه قال لم يخافت من اسمع اذنيه (والقول الخامس) قال الحسن لا تراء بعلانيتها ولاتسيء بسريتها (البحث الثاني) الصلاة عبارة عن مجموع الافعال والاذكار والجهر والمخافتة من عوارض الصوت فالمراد ههنا من الصلوات بعض اجزاء ماهية الصلاة وهو الاذكار والقرآن وهو من باب اطلاق اسم الكل لارادة الجزء (البحث الثالث) يقال خفت صوته يخفت خفتا وخفوتا اذا ضعف وسكن وصوت خفيت اي خفيض ومنه يقال للرجل اذا مات قد خفت اي انقطع كلامه وخفت الزرع اذا ذبل وخفت الرجل يخافت بقراءته اذا لم يبين قراءته برفع الصوت وقد تخافت القوم اذا تساروا بينهم واقول ثبت في كتب الاخلاق ان كلا طرفي الامور ذميم والعدل هو رعاية الوسط ولهذا المعنى مدح الله

اناجي ربي وقد علم حاجتي وعمر رضي الله عنه كان يجهر بها ويقول اطرد الشيطان واوقظ الوسنان فلما نزلت امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ابابكر ان يرفع قليلا وعمر ان يخفض قليلا وقيل المعنى لاتجهر بصلاتك كلها ولاتخافت بها بأسرها وابتغ بين ذلك سبيلا بالمخافتة نهارا والجهر ليلا وقيل بصلاتك بدعائك وذهب قوم الى انها منسوخة بقوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية (وقل الحمد لله لم يتخذ ولدا) كما يزعم اليهود والنصارى وبنو مليح حيث قالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا (ولم يكن له شريك في الملك) اي الالوهية

هذه الامة بقوله وكذلك جعلناكم امة وسطا وقال في مدح المؤمنين والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وامر الله رسوله فقال ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فكذا ههنا نهى عن الطرفين وهو الجهر والمخافتة وامر بالتوسط بينهما فقال وابتغ بين ذلك سبيلا ومنهم من قال الآية منسوخة بقوله ادعوا ربكم تضرعا وخفية وهو بعيد واعلم انه تعالى لما امر ان لا يذكر ولا ينادى الا باسمائه الحسنى علمه كيفية التحميد فقال وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا فذكر ههنا من صفات التنزيه والجلال وهى السلوب ثلاثة انواع من الصفات (النوع الاول) من الصفات انه لم يتخذ ولدا والسبب فيه وجوه (الاول) ان الولد هو الشئ المتولد من جزء من اجزاء شئ آخر فكل من له ولد فهو مركب من الاجزاء والمركب محدث والمحدث محتاج لا يقدر على كمال الانعام فلا يستحق كمال الحمد (الثانى) ان كل من له ولد فانه يمسك جميع النعم لولده فاذا لم يكن له ولد افاض كل تلك النعم على عبيده (الثالث) ان الولد هو الذى يقوم مقام الوالد بعد انقضائه وفنائه فلو كان له ولد لكان منقضيا ومن كان كذلك لم يقدر على كمال الانعام في كل الاوقات فوجب ان لا يستحق الحمد على الاطلاق (والنوع الثانى) من الصفات السلبية قوله ولم يكن له شريك في الملك والسبب في اعتبار هذه الصفة انه لو كان له شريك فحينئذ لا يعرف كونه مستحقا للحمد والشكر (والنوع الثالث) قوله ولم يكن له ولى من الذل والسبب في اعتبار هذه الصفة انه لو جاز عليه ولى من الذل لم يجب شكره لتجويز ان غيره حمله على ذلك الانعام او منعه منه اما اذا كان منزها عن الولد وعن الشريك وكان منزها عن ان يكون له ولى يلى امره كان مستوجبا لاعظم انواع الحمد ومستحقا لاجل اقسام الشكر ثم قال تعالى وكبره تكبيرا ومعناه ان التحميد يجب ان يكون مقرونا بالتكبير ويحتمل انواعا من المعانى (اولها) تكبيره في ذاته وهو ان يعتقد انه واجب الوجوب لذاته وانه غنى عن كل ماسواه (وثانيها) تكبيره في صفاته وذلك من ثلثة اوجه (أولها) ان يعتقد ان كل ما كان صفة له فهو من صفات الجلال والعز والعظمة والكمال وهو منزه عن كل صفات النقائص (وثالثها) ان يعتقد ان كل واحد من تلك الصفات متعلق بما لا نهاية له من المعلومات وقدرته متعلقة بما لا نهاية له من المقدورات والممكنات (ورابعها) ان يعتقد انه كما تقدست ذاته عن الحدوث وتنزهت عن التغير والزوال والتحول والانتقال فكذلك صفاته ازلية قديمة سرمدية منزهة عن التغير والزوال والتحول والانتقال (النوع الثالث) من تكبير الله تكبيره في افعاله وعند هذا تختلف اهل الجبر والقدر فقال اهل السنة انا نحمد الله ونكبره ونعظمه عن ان يجرى في سلطانه شئ لا على وفق حكمه وارادته فالكل واقع بقضاء الله وقدرته ومشيئته وارادته وقالت المعتزلة انا نكبر الله ونعظمه عن ان يكون فاعلا لهذه القبائح والفواحش بل نعتقد ان حكمته تقتضى التنزيه والتقديس عنها وعن ارادتها وسمعت ان الاستاذ ابا اسحق

كما يقوله الثنوية القائلون بتعدد الآلهة (ولم يكن له ولى من الذل) ناصر ومانع منه لاعتزازه به أو لم يوال احدا من اجل مذلة ليدفعها به وفى التعرض فى اثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة ايذان بأن المستحق للحمد من هذه نعوته دون غيره اذ بذلك يتم الكمال والقدرة التامة على الايجاد وما يتفرع عليه من افاضة انواع النعم وما عداه ناقص مملوك نعمة او منعم عليه ولذلك عطف عليه قوله تعالى (وكبره تكبيرا) وفيه تنبيه على ان العبد وان بالغ فى التنزيه والتمجيد واجتهد فى الطاعة والتحميد ينبغى ان يعترف بالقصور فى ذلك روى انه صلى الله عليه وسلم

الاسفرايني كان جالسا في دار الصاحب بن عباد فدخل القاضي عبدالجبار بن احمد الهمداني فلمارآه قال سبحان من تنزه عن الفحشاء فقال الاستاذ ابواسحق سبحان من لايجري في ملكه الامايشاء (النوع الرابع) تكبير الله في احكامه وهوان يعتقدانه ملك مطاع وله الامر والنهي والرفع والخفض وانه لااعتراض لاحدعليه في شيء من احكامه يعز من يشاء ويذل من يشاء (النوع الخامس) تكبير الله في اسمائه وهو ان لايذكر الاباسمائه الحسنى ولايوصف الابصفاته المقدسة العالية المنزهة (النوع السادس) من التكبير هو ان الانسان بعدان يبلغ في التكبير والتعظيم والتنزيه والتقديس مقدار عقله وفهمه وخاطره يعترف ان عقله وفهمه لايفي بمعرفة جلال الله ولسانه لايفي بشكره وجوارحه واعضاؤه لاتفي بخدمته فكبر الله عن ان يكون تكبيره وافيابكنه مجده وعزته وهذا اقصى مايقدرعليه العبد الضعيف من التكبير والتعظيم ونسأل الله تعالى الرحمة قبل الموت وعندالموت وبعدالموت انه الكريم الرحيم وبالله العصمة والتوفيق وحسبنا الله ونعم الوكيل قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة يوم الثلاثاء بين الظهر والعصر يوم العشرين من شهر المحرم في بلدة غزنين سنة احدى وستمائة والحمدلله والصلاة على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

كان اذا افصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية الكريمة وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة بني اسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار في الجنة والقنطار الف اوقية ومائتا اوقية والحمدلله سبحانه وله الكبرياء والعظمة والجبروت

* (سورة الكهف مائة واحدى عشرة آية مكية قال ابن عباس انها مكية غير آيتين منها فيهما ذكر عيينة بن حصن الفزاري وعن قتادة انها مكية وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الاادلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك حين نزلت هي سورة الكهف)*

(سورة الكهف مكية وقيل)
(الاقوله تعالى واصبر نفسك)
(الآية وهي مائة واحدى)
(عشرة آية)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(الحمدلله الذي انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأساشديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا حسنا ماكثين فيه ابدا) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) اما الكلام في حقائق قولنا الحمدلله فقدسبق والذي اقوله ههنا ان التسبيح انما جاء فانما جاء مقدما على التحميد ألا ترى انه يقال سبحان الله والحمدلله اذا عرفت هذا فنقول انه جل جلاله ذكر التسبيح عندما اخبر انه اسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال سبحان الذي اسرى بعبده ليلا وذكر التحميد عندماذكر انه انزل الكتاب على محمد صلى الله عليه وسلم فقال الحمدلله الذي انزل على عبده الكتاب وفيه فوائد (الفائدة الاولى) ان التسبيح اول الامر لانه عبارة عن تنزيه الله عمالاينبغي وهو اشارة الى كونه كاملا في ذاته والتحميد عبارة عن كونه مكملا لغيره ولاشك ان اول الامر هو كونه كاملا في ذاته ونهاية الامر كونه مكملا لغيره فلا جرم وقع الابتداء في الذكر بقولنا سبحان الله ثم نذكر بعده الحمدلله تنبيها على ان مقام التسبيح مبدأ ومقام التحميد نهاية اذاعرفت هذا فنقول ذكر عندالاسراء لفظ التسبيح وعندانزال الكتاب لفظ التحميد وهذا تنبيه على ان الاسراء به اول درجات كماله وانزال الكتاب غاية

(الحمدلله الذي انزل على عبده) محمد صلى الله عليه وسلم (الكتاب) اي الكتاب الكامل الغني عن الوصف

(درجات)

درجات كماله والامر فى الحقيقة كذلك لان الاسراء به الى المعراج يقتضى حصول الكمال له وانزال الكتاب عليه يقتضى كونه مكملا للارواح البشرية ونافلا لها من حضيض البهيمية الى اعلى درجات الملكية ولاشك ان هذا الثانى اكمل وهذا تنبيه على ان اعلى مقامات العباد مقام ان يصير عالما فى ذاته معلما لغيره ولهذا روى فى الخبر انه عليه الصلاة والسلام قال من تعلم وعلم فذاك يدعى عظيما فى السموات (الفائدة الثانية) ان الاسراء عبارة عن رفع ذاته من تحت الى فوق وانزال الكتاب عليه عبارة عن انزال نور الوحى عليه من فوق الى تحت ولاشك ان هذا الثانى اكمل (الفائدة الثالثة) ان منافع الاسراء به كانت مقصورة عليه الاترى انه تعالى قال هنالك لنريه من آياتنا ومنافع انزال الكتاب عليه متعدية الاترى انه قال لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين والفوائد المتعدية افضل من القاصرة (المسئلة الثانية) المشبهة استدلوا بلفظ الاسراء فى السورة المتقدمة وبلفظ الانزال فى هذه السورة على انه تعالى مختص بجهة فوق (والجواب) عنه مذكور بالتمام فى سورة الاعراف فى تفسير قوله تعالى ثم استوى على العرش (المسئلة الثالثة) انزال الكتاب نعمة عليه ونعمة علينا اما كونه نعمة عليه فلانه تعالى اطلعه بواسطة هذا الكتاب الكريم على اسرار علوم التوحيد والتنزيه وصفات الجلال والاكرام واسرار احوال الملائكة والانبياء واحوال القضاء والقدر وتعلق احوال العالم السفلى بأحوال العالم العلوى وتعلق احوال عالم الآخرة بعالم الدنيا وكيفية نزول القضاء من عالم الغيب وكيفية ارتباط عالم الجسمانيات بعالم الروحانيات وتصيير النفس كالمرآة التى يتجلى فيها عالم الملكوت وينكشف فيها قدس اللاهوت فلاشك ان ذلك من اعظم النعم واما كون هذا الكتاب نعمة علينا فلانه مشتمل على التكاليف والاحكام والوعد والوعيد والثواب والعقاب وبالجملة فهو كتاب كامل فى اقصى الدرجات فكل واحد ينتفع به بمقدار طاقته وفهمه فلما كان كذلك وجب على الرسول وعلى جميع امته ان يحمدوا الله عليه فعلمهم الله تعالى كيفية ذلك التحميد فقال الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب ثم انه تعالى وصف الكتاب بوصفين فقال ولم يجعل له عوجا قيما وفيه ابحاث (البحث الاول) انا قد ذكرنا ان الشئ يجب ان يكون كاملا فى ذاته ثم يكون مكملا لغيره ويجب ان يكون تاما فى ذاته ثم يكون فوق التمام بأن يفيض عليه كمال الغير اذا عرفت هذا فنقول فى قوله ولم يجعل له عوجا اشارة الى كونه كاملا فى ذاته وقوله قيما اشارة الى كونه مكملا لغيره لان القيم عبارة عن القائم بمصالح الغير ونظيره قوله فى اول سورة البقرة فى صفة الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين فقوله لاريب فيه اشارة الى كونه فى نفسه بالغا فى الصحة وعدم الاختلال الى حيث يجب على العاقل ان لايرتاب فيه وقوله هدى للمتقين اشارة الى كونه سببا لهداية الخلق واكمال حالهم فقوله ولم يجعل له عوجا قائم مقام قوله لاريب فيه وقوله قيما قائم مقام قوله هدى للمتقين وهذه اسرار

بالكمال المعروف بذلك من بين ( ٦٧٣ ) الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به وهو عبارة عن جميع القرآن اوعن جميع المنزل حينئذ كما مر مرارا وفى وصفه تعالى بالموصول اشعار بعلية مافى حيز الصلة لاستحقاق الحمد وايذان بعظم شان التنزيل الجليل كيف لا وعليه يدور فلك سعادة الدارين وفى التعبير عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالعبد مضافا الى ضمير الجلالة تنبيه على بلوغه عليه الصلاة والسلام الى اعلى معارج العبادة وتشريف له اى تشريف واشعار بأن شأن الرسول ان يكون عبدا للمرسل لا كما زعمت النصارى فى حق عيسى عليه السلام وتأخير المفعول الصريح عن الجار والمجرور مع ان حقه التقديم عليه ليتصل به قوله تعالى (ولم يجعل له عوجا) اى شيئا من العوج بنوع اختلال فى النظم وتناف فى المعنى اوانحراف عن الدعوة الى الحق وهو فى المعانى كالعوج فى الاعيان واما قوله تعالى لاترى فيها عوجا ولا امتا مع كون الجبال من الاعيان فللدلالة على انتفاء مالايدرك من العوج بحاسة البصر بل انما يوقف عليه بالبصيرة بواسطة استعمال المقاييس الهندسية ولما كان ذلك مما لايشعر به بالمشاعر الظاهرة عد من قبيل ما فى المعانى وقيل الفتح فى اعوجاج المنتصب كالعود والحائط والكسر فى اعوجاج غيره عينا كان او معنى (قيما) بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد على ماينبئ عنه مابعده من الانذار والتبشير فيكون وصفا له بالتكميل بعد وصفه بالكمال اوعلى ماقبله من الكتب السماوية شاهدا بصحتها ومهيمنا عليها اومتناهيا فى الاستقامة فيكون تأكيدا لما دل عليه نفى العوج مع افادة كون ذلك من صفاته الذاتية اللازمة له

لطيفة ( البحث الثانى ) قال اهل اللغة العوج فى المعانى كالعوج فى الاعيان والمراد منه وجوه ( احدها ) نفى التناقص عن آياته كما قال ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ( وثانيها ) ان كل ماذكر الله من التوحيد والنبوة والاحكام والتكاليف فهو حق وصدق ولا خلل فى شئ منها البتة (وثالثها) ان الانسان كأنه خرج من عالم الغيب متوجها الى عالم الآخرة والى حضرة جلال الله وهذه الدنيا كأنها رباط بنى على طريق عالم القيامة حتى ان المسافر اذا نزل فيه اشتغل بالمهمات التى يجب رعايتها فى هذا السفر ثم يرتحل منه متوجها الى عالم الآخرة فكل ما دعاه من الدنيا الى الآخرة ومن الجسمانيات الى الروحانيات ومن الخلق الى الحق ومن اللذات الشهوانية الجسدانية الى الاستنارة بالانوار الصمدانية فثبت انه مبرأ عن العوج والانحراف والباطل فلهذا قال تعالى ولم يجعل له عوجا ( الصفة الثانية ) للكتاب وهى قوله قيما قال ابن عباس يريد مستقيما وهذا عندى مشكل لانه لا معنى لنفى الاعوجاج الاحصول الاستقامة فتفسير القيم بالمستقيم يوجب التكرار وانه باطل بل الحق ماذكرناه وان المراد من كونه قيما انه سبب لهداية الخلق وانه يجرى مجرى من يكون قيما للاطفال فالارواح البشرية كالاطفال والقرآن كالقيم الشفيق القائم بمصالحهم ( البحث الثالث ) قال الواحدى جميع اهل اللغة والتفسير قالوا هذا من التقديم والتأخير والتقدير انزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا اقول قد بينا مايدل على فساد هذا الكلام لانا بينا ان قوله ولم يجعل له عوجا يدل على كونه كاملا فى ذاته وقوله قيما يدل على كونه مكملا لغيره وكونه كاملا فى ذاته متقدم بالطبع على كونه مكملا لغيره فثبت بالبرهان العقلى ان الترتيب الصحيح هو الذى ذكره الله تعالى وهو قوله ولم يجعل له عوجا قيما فظهر ان ماذكروه من التقديم والتأخير فاسد يمتنع العقل من الذهاب اليه (البحث الرابع ) اختلف النحويون فى انتصاب قوله قيما وذكروا فيه وجوها ( الاول ) قال صاحب الكشاف لا يجوز جعله حالا من الكتاب لان قوله ولم يجعل له عوجا معطوف على قوله انزل فهو داخل فى حيز الصلة فجعله حالا من الكتاب يوجب الفصل بين الحال وذى الحال ببعض الصلة وانه لا يجوز قال ولما بطل هذا وجب ان ينتصب بمضمر والتقدير ولم يجعل له عوجا وجعله قيما (الوجه الثانى) قال الاصفهانى الذى نرى فيه ان يقال قوله ولم يجعل له عوجا حال وقوله قيما حال اخرى وهما حالان متواليان والتقدير انزل على عبده الكتاب غير مجعول له عوجا قيما ( الوجه الثالث) قال السيد صاحب حل العقد يمكن ان يكون قوله قيما بدلا من قوله ولم يجعل له عوجا لان معنى لم يجعل له عوجا انه جعله مستقيما فكأنه قيل انزل على عبده الكتاب وجعله قيما (الوجه الرابع ) ان يكون حالا من الضمير فى قوله ولم يجعل له عوجا اى حال كونه قائما بمصالح العباد واحكام الدين واعلم انه تعالى لما ذكر انه انزل على عبده هذا الكتاب الموصوف بهذه الصفات المذكورة اردفه ببيان ما لاجله انزله فقال لينذر بأسا شديدا

بمضمر ينبئ عنه نفى العوج تقديره جعله قيما او اما على تقدير كونها حالية فهو على الحالية من الكتاب اذ لا فصل حينئذ بين ابعاض المعطوف عليه بالمعطوف وقرئ قيما (لينذر) متعلق بأنزل والفاعل ضمير الجلالة كما فى الفعلين المعطوفين عليه والاطلاق عن ذكر المفعول الاول للايذان بأن ماسيق له الكلام هو المفعول الثانى وان الاول ظاهر لا حاجة الى ذكره اى انزل الكتاب لينذر بما فيه الذين كفروا به (بأسا) اى عذابا (شديدا من لدنه ) اى صادرا من عنده نازلا من قبله بمقابلة كفرهم وتكذيبهم وقرئ من لدنه بسكون الدال مع اشمام الضمة وكسر النون لالتقاء الساكنين وكسر الهاء للاتباع ( ويبشر ) بالتشديد وقرئ بالتخفيف ( المؤمنين ) اى المصدقين به ( الذين يعملون الصالحات ) الاعمال الصالحة التى بينت فى تضاعيفه وايثار صيغة الاستقبال فى الصلة للاشعار بتجدد الاعمال الصالحة واستمرارها واجراء الموصول على موصوفه المذكور لما ان مدار قبول الاعمال هو الايمان (ان لهم) اى بان لهم بمقابلة ايمانهم واعمالهم المذكورة ( اجرا حسنا ) هو الجنة ومافيها من المثوبات الحسنى (ماكثين) حال من الضمير المجرور فى لهم (فيه) اى فى ذلك الاجر (ابدا) من غير انتهاء اى خالدين فيه وهو نصب على الظرفية لماكثين وتقديم الانذار على التبشير لاظهار كمال العناية بزجر الكفار عماهم عليه

مع مراعاة تقديم التخلية على التحلية وتكرير الانذار بقوله تعالى (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) متعلقا بفرقة خاصة ممن عمه الانذار ( من )

من لدنه وانذر متعدالى مفعولين كقوله انا انذرناكم عذابا قريبا الا انه اقتصر ههنا على احدهما واصله لينذر الذين كفروا بأسا شديدا كما قال فى ضده ويبشر المؤمنين والبأس مأخوذ من قوله تعالى بعذاب بئيس وقد بؤس العذاب وبؤس الرجل بأسا وبأسة وقوله من لدنه اى صادرا من عنده قال الزجاج وفى لدن لغات يقال لدن ولدى ولد والمعنى واحد قال وهى لاتتمكن تمكن عند لانك تقول هذا القول صواب عندى ولا تقول صواب لدنى وتقول عندى مال عظيم والمال غائب عنك ولدنى لما يليك لاغير وقرأ عاصم فى رواية ابى بكر بسكون الدال مع اشمام الضم وكسر النون والهاء وهى لغة بنى كلاب ثم قال تعالى ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا حسنا واعلم ان المقصود من ارسال الرسل انذار المذنبين وبشارة المطيعين ولما كان دفع الضرر اهم عند العقول من ايصال النفع لاجرم قدم الانذار على التبشير فى اللفظ قال صاحب الكشاف وقرئ ويبشر بالتخفيف والتثقيل وقوله ماكثين فيه ابدا يعنى خالدين وهو حال للمؤمنين من قوله ان لهم أجرا قال القاضى الآية دالة على صحة قولنا فى مسائل (احدها) ان القرآن مخلوق وبيانه من وجوه (الاول) انه تعالى وصفه بالانزال والنزول وذلك من صفات المحدثات فان القديم لايجوز عليه التغير (الثانى) وصفه بكونه كتابا والكتب هو الجمع وهو سمى كتابا لكونه مجموعا من الحروف والكلمات وما صح فيه التركيب والتأليف فهو محدث (الثالث) انه تعالى اثبت الحمد لنفسه على انزال الكتاب والحمد انما يستحق على النعمة والنعمة محدثة مخلوقة (الرابع) انه وصف الكتاب بانه غير معوج وبأنه مستقيم والقديم لايمكن وصفه بذلك فثبت انه محدث مخلوق (وثانيها) مسئلة خلق الاعمال فان هذه الآيات تدل على قولنا فى هذه المسئلة من وجوه (الاول) نفس الامر بالحمد لانه لولم يكن للعبد فعل لم ينتفع بالكتاب اذ الانتفاع به انما يحصل اذا قدر على ان يفعل مادل الكتاب على انه يجب فعله ويترك مادل الكتاب على انه يجب تركه وهو انما يفعل ذلك لوكان مستقلا بنفسه اما اذا لم يكن مستقلا بنفسه لم يكن لعوج الكتاب اثر فى اعوجاج فعله ولم يكن لكون الكتاب قيما اثر فى استقامة فعله اما اذا كان العبد قادرا على الفعل مختارا فيه بقى لعوج الكتاب واستقامته اثر فى فعله (والثانى) انه تعالى لوكان انزل بعض الكتاب ليكون سببا لكفر البعض وانزل الباقى ليؤمن البعض الآخر فمن اين ان الكتاب قيم لاعوج فيه لانه لوكان فيه عوج لما زاد على ذلك (والثالث) قوله لينذر وفيه دلالة على انه تعالى اراد منه صلى الله عليه وسلم انذار الكل وتبشير الكل وبتقدير ان يكون خالق الكفر والايمان هو الله تعالى لم يبق للانذار والتبشير معنى لانه تعالى اذا خلق الايمان فيه حصل شاء اولم يشأ واذا خلق الكفر فيه حصل شاء اولم يشأ فبقى الانذار والتبشير على الكفر والايمان جاريا مجرى الانذار والتبشير على كونه طويلا قصيرا واسود وابيض مما لاقدرة له عليه (والرابع) وصفه المؤمنين بأنهم يعملون

السابق من مستحق البأس الشديد للايذان بكمال فظاعة حالهم ( ٦٧٥ ) لغاية شناعة كفرهم وضلالهم اى وينذر من بين سائر الكفرة هؤلاء المتفوهين بمثل هاتيك العظيمة خاصة وهم كفار العرب الذين يقولون الملائكة بنات الله تعالى واليهود القائلون عزير ابن الله والنصارى القائلون المسيح ابن الله وترك اجراء الموصول على الموصوف كما فعل فى قوله تعالى ويبشر المؤمنين للايذان بكفاية ما فى حيز الصلة فى الكفر على اقبح الوجوه وايثار صيغة الماضى فى الصلة للدلالة على تحقق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سبق وجعل المفعول المحذوف فيما سلف عبارة عن هذه الطائفة يؤدى الى خروج سائر اصناف الكفرة عن الانذار والوعيد وتعميم الانذار هناك للمؤمنين ايضا بحمله على معنى مجرد الاخبار بالخبر الضار من غير اعتبار حلول المنذر به على المنذر كما فى قوله تعالى ان انذر الناس وبشر الذين آمنوا يفضى الى خلو النظم الكريم عن الدلالة على حلول البأس الشديد على من عدا هذه الفرقة ويجوز ان يكون الفاعل فى الافعال الثلاثة ضمير الكتاب اوضمير الرسول عليه الصلاة والسلام (مالهم به) اى باتخاذه سبحانه وتعالى ولدا (من علم) مرفوع على الابتداء او الفاعلية لاعتماد الظرف ومن مزيدة لتأكيد النفى والجملة حالية اومستأنفة لبيان حالهم فى مقالهم اى مالهم بذلك شئ من علم أصلا لا لاخلالهم بطريقه مع تحقق المعلوم او امكانه بل لاستحالته فى نفسه (ولا لآبائهم) الذين قلدوهم فتاهوا جميعا فى تيه الجهالة والضلالة اوما لهم علم بما قالوه أهو صواب أم خطأ بل انما قالوه رميا عن عمى وجهالة من غير فكر وروية كما فى قوله تعالى وخرقوا له بنين وبنات بغير علم اوبحقيقة ماقالوه وبعظم

رتبته فى الشناعة كما فى قوله تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ( ٦٧٦ ) لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات يتفطرن منه الآيات وهو الانسب بقوله تعالى (كبرت كلمة ) اى عظمت مقالتهم هذه فى الكفر والافتراء لما فيها من نسبته سبحانه الى مالايكاد يليق بجناب كبريائه والفاعل فى كبرت اما ضمير المقالة المدلول عليها بقالوا وكلمة نصب على التمييز او ضمير مبهم مفسر بما بعده من النكرة المنصوبة تمييزا كبئس رجلا والمخصوص بالذم محذوف تقديره كبرت هى كلمة خارجة من افواههم وقرئ كبرت باسكان الباء مع اشمام الضم وقرئ كلمة بالرفع (تخرج من افواههم) صفة للكلمة مفيدة لاستعظام اجترائهم على التفوه بها واسناد الخروج اليها مع ان الخارج هو الهواء المتكيف بكيفية الصوت الملابسته بها ( ان يقولون ) مايقولون فى ذلك الشان (الا كذبا ) اى الاقولا كذبا لايكاد يدخل تحت امكان الصدق اصلا والضميران لهم ولآبائهم مثل حاله عليه الصلاة والسلام فى شدة الوجد على اعراض القوم وتوليهم عن الايمان بالقرآن وكمال التحسر عليهم بحال من يتوقع منه اهلاك نفسه اثر فوت مايحبه عند مفارقة احبته تأسفا على مفارقتهم وتلهفا على مهاجرتهم فقيل على طريقة التمثيل حملا له عليه الصلاة والسلام على الحذر والاشفاق من ذلك (فلعلك باخع) اى مهلك (نفسك على آثارهم) غما ووجدا على فراقهم وقرئ بالاضافة ( ان لم يؤمنوا بهذا الحديث ) اى القرآن الذى عبر عنه فى صدر السورة بالكتاب وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ماسبق عليه وقرئ بأن المفتوحة اى لان لم يؤمنوا فاعمال باخع بحمله على حكاية حال (فصارت)

الصالحات فان كان ماوقع خلق الله تعالى فلاعمل لهم البتة ( الخامس ) ايجابه لهم الاجر الحسن على ماعملوا فان كان الله تعالى يخلق ذلك فيهم فلا ايجاب ولا استحقاق ( المسئلة الثالثة ) قال قوله لينذر يدل على انه تعالى انما يفعل افعاله لاغراض صحيحة وذلك يبطل قول من يقول ان فعله غير معلل بالغرض واعلم ان هذه الكلمات قد تكررت فى هذا الكتاب فلا فائدة فى الاعادة * قوله تعالى ( وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون الا كذبا فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث اسفا ) فى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) اعلم ان قوله تعالى وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا معطوف على قوله لينذر بأسا شديدا من لدنه والمعطوف يجب كونه مغايرا للمعطوف عليه فالاول عام فى حق كل من استحق العذاب والثانى خاص بمن اثبت لله ولدا وعادة القرآن جارية بأنه اذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيها على كونه اعظم جزئيات ذلك الكلى كقوله تعالى وملائكته وجبريل وميكال فكذا ههنا العطف يدل على ان اقبح انواع الكفر والمعصية اثبات الولد لله تعالى ( المسئلة الثانية ) الذين اثبتوا الولد لله تعالى ثلاث طوائف (احدها ) كفار العرب الذين قالوا الملائكة بنات الله ( وثانيها ) النصارى حيث قالوا المسيح ابن الله ( وثالثها ) اليهود الذين قالوا عزير ابن الله والكلام فى ان اثبات الولد لله كفر عظيم ويلزم منه محالات عظيمة قد ذكرناه فى سورة الانعام فى تفسير قوله تعالى وخرقوا له بنين وبنات بغير علم وتمامه مذكور فى سورة مريم ثم انه تعالى انكر على القائلين باثبات الولد لله تعالى من وجهين (الاول ) قوله مالهم به من علم ولا لآبائهم فان قيل اتخاذ الله ولدا محال فى نفسه فكيف قيل مالهم به من علم قلنا انتفاء العلم بالشئ قد يكون للجهل بالطريق الموصل اليه وقد يكون لانه فى نفسه محال لايمكن تعلق العلم به ونظيره قوله ومن يدع مع الله الها آخر لابرهان له به واعلم ان نفاة القياس تمسكوا بهذه الآية فقالوا هذه الآية تدل على ان القول فى الدين بغير علم باطل والقول بالقياس الظنى قول فى الدين بغير علم فيكون باطلا وتمام تقريره مذكور فى قوله ولا تقف ماليس لك به علم وقوله ولا لآبائهم اى ولا لاحد من اسلافهم وهذا مبالغة فى كون تلك المقالة باطلة فاسدة (النوع الثانى ) ماذكره الله فى ابطاله قوله كبرت كلمة تخرج من افواههم وفيه مباحث ( البحث الاول ) قرئ كبرت كلمة بالنصب على التمييز وبالرفع على الفاعلية قال الواحدى ومعنى التمييز انك اذا قلت كبرت المقالة او الكلمة جاز ان يتوهم انها كبرت كذبا اوجهلا او افتراء فلما قلت كلمة ميزتها من محتملاتها فانتصبت على التمييز والتقدير كبرت الكلمة كلمة فحصل فيه الاضمار اما من رفع فلم يضمر شيئا كما تقول عظم فلان فلذلك قال النحويون والنصب اقوى وابلغ وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما اكبرها كلمة ( البحث الثانى ) قوله كبرت اى كبرت الكلمة والمراد من هذه الكلمة ماحكاه الله تعالى عنهم فى قوله قالوا اتخذ الله ولدا

ماضية لاستحضار الصورة كما فى قوله عز وجل باسط  ذراعيه (أسفا) مفعول له لباخع اى لفرط الحزن والغضب او حال مما فيه من

فصارت مضمرة فى كبرت وسميت كلمة كما يسمون القصيدة كلمة (البحث الثالث) احتج النظام فى اثبات قوله ان الكلام جسم بهذه الآية قال انه تعالى وصف الكلمة بأنها تخرج من افواههم والخروج عبارة عن الحركة والحركة لاتصح الا على الاجسام والجواب ان الحروف والاصوات انما تحدث بسبب خروج النفس عن الحلق فلما كان خروج النفس سببا لحدوث الكلمة اطلق لفظ الخروج على الكلمة (البحث الرابع) قوله تخرج من افواههم يدل على ان هذا الكلام مستكره جدا عند العقل كأنه يقول هذا الذى يقولونه لايحكم به عقلهم وفكرهم البتة لكونه فى غاية الفساد والبطلان فكأنه شىء يجرى به لسانهم على سبيل التقليد لانهم مع انها قولهم عقولهم وفكرهم تأباها وتنفر عنها ثم قال تعالى ان يقولون الا كذبا ومعناه ظاهر واعلم ان الناس قد اختلفوا فى حقيقة الكذب فعندنا انه الخبر الذى لايطابق المخبر عنه سواء اعتقد المخبر انه مطابق ام لا ومن الناس من قال شرط كونه كذبا ان لايطابق المخبر عنه مع علم قائله بأنه غير مطابق وهذا القيد عندنا باطل والدليل عليه هذه الآية فانه تعالى وصف قولهم باثبات الولد لله بكونه كذبا مع ان الكثير منهم يقول ذلك ولايعلم كونه باطلا فعلمنا ان كل خبر لايطابق المخبر عنه فهو كذب سواء علم القائل بكونه مطابقا او لم يعلم ثم قال تعالى فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث اسفا وفيه مباحث (البحث الاول) المقصود منه ان يقال للرسول لايعظم حزنك واسفك بسبب كفرهم فانا بعثناك منذرا ومبشرا فأما تحصيل الايمان فى قلوبهم فلاقدرة لك عليه والغرض تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عنه (البحث الثانى) قال الليث بخع الرجل نفسه اذا قتلها غيظا من شدة وجده بالشىء وقال الاخفش والفراء اصل البخع الجهد يقال بخعت لك نفسى اى جهدتها وفى حديث عائشة رضى الله عنها انها ذكرت عمر فقالت بخع الارض اى جهدها حتى اخذ مافيها من اموال الملوك وقال الكسائى بخعت الارض بالزراعة اذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة وبخع الرجل نفسه اذا نهكها وعلى هذا معنى باخع نفسك اى ناهكها وجاهدها حتى تهلكها ولكن اهل التأويل كلهم قالوا قاتل نفسك ومهلكها والاصل ماذكرناه هكذا قال الواحدى (البحث الثالث) قوله على آثارهم اى من بعدهم يقال مات فلان على اثر فلان اى بعده واصل هذا ان الانسان اذا مات بقيت علاماته وآثاره بعد موته مدة ثم انها تنمحى وتبطل بالكلية فاذا كان موته قريبا من موت الاول كان موته حاصلا حال بقاء آثار الاول فصح ان يقال مات فلان على اثر فلان (البحث الرابع) قوله ان لم يؤمنوا بهذا الحديث المراد بالحديث القرآن قال القاضى وهذا يقتضى وصف القرآن بأنه حديث وذلك يدل على فساد قول من يقول انه قديم وجوابه انه محمول على الالفاظ وهى حادثة (البحث الخامس) قوله اسفا الاسف المبالغة فى الحزن وذكرنا الكلام فيه عند قوله غضبان اسفا فى سورة الاعراف وعند قوله يااسفا على

الضمير اى متأسفا عليهم ويجوز حمل النظم الكريم على الاستعارة التبعية بجعل التشبيه بين اجزاء الطرفين لا بين الهيئتين المنتزعتين منهما كما فى التمثيل وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى ختم الله على قلوبهم (انا جعلنا ما على الارض) استئناف وتعليل لما فى لعل من معنى الاشفاق اى انا جعلنا ما عليها مما عدا من وجه اليه التكليف من الزخارف حيوانا كان او نباتا او معدنا كقوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا (زينة) مفعول ثان للجعل ان حمل على معنى التصيير او حال ان حمل على معنى الابداع واللام فى (لها) اما متعلقة بزينة او بمحذوف هو صفة لها اى كائنة لها اى ليتمتع بها الناظرون من المكلفين وينتفعوا بها نظرا واستدلالا فان الحيات والعقارب من حيث تذكيرهما لعذاب الآخرة من قبيل المنافع بل كل حادث داخل تحت الزينة من حيث دلالته على وجود الصانع ووحدته فان الازواج والاولاد ايضا من زينة الحياة الدنيا بل اعظمها ولايمنع ذلك كونهم من جملة المكلفين فانهم من جهة انتسابهم الى اصحابهم داخلون تحت الزينة ومن جهة كونهم مكلفين داخلون تحت الابتلاء (لنبلوهم) متعلق بجعلنا اى جعلنا ما جعلنا لنعاملهم معاملة من يختبرهم (ايهم احسن عملا) فنجازيهم بالثواب والعقاب حسبما تبين المحسن من المسىء وامتازت طبقات افراد كل من الفريقين حسب امتياز مراتب علومهم المرتبة على انظارهم وتفاوت درجات اعمالهم المتفرعة على ذلك كما قررناه فى مطلع سورة هود واى اما استفهامية مرفوعة

يوسف وفي انتصابه وجوه (الاول) انه نصب على المصدر ودل ماقبله من الكلام على انه يأسف ( الثاني ) يجوز ان يكون مفعولا له اي للاسف كقولك جئتك ابتغاء الخير (والثالث) قال الزجاج اسفا منصوب لانه مصدر في موضع الحال (البحث السادس) الفاء في قوله فلعلك جواب الشرط وهو قوله ان لم يؤمنوا قدم عليه ومعناه التأخير

※ قوله تعالى (انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا وانا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال القاضي وجه النظم كأنه تعالى يقول يا محمد اني خلقت الارض وزينتها اخرجت منها انواع المنافع والمصالح والمقصود من خلقها بما فيها من المنافع ابتلاء الخلق بهذه التكاليف ثم انهم يكفرون ويتمردون ومع ذلك فلا اقطع عنهم مواد هذه النعم فأنت ايضا يا محمد ينبغي ان لا تنتهي في الحزن بسبب كفرهم الى ان تترك الاشتغال بدعوتهم الى الدين الحق (المسئلة الثانية) اختلفوا في تفسير هذه الزينة فقال بعضهم النبات والشجر وضم بعضهم اليه الذهب والفضة والمعادن وضم بعضهم اليه سائر الحيوانات وقال بعضهم بل المراد الناس فهم زينة الارض وبالجملة فليس بالارض الا المواليد الثلاثة وهي المعادن والنبات والحيوان واشرف انواع الحيوان الانسان وقال القاضي الاولى انه لا يدخل في هذه الزينة المكلف لانه تعالى قال انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم فمن يبلوه يجب ان لا يدخل في ذلك فأما سائر النبات والحيوان فانهم يدخلون فيه كدخول سائر ما ينتفع به وقوله زينة لها اي للارض ولا يمتنع ان يكون ما يحسن به الارض زينة للارض كما جعل الله السماء مزينة بزينة الكواكب اما قوله لنبلوهم ايهم احسن عملا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ذهب هشام بن الحكم الى انه تعالى لا يعلم الحوادث الا عند دخولها في الوجود فعلى هذا الابتلاء والامتحان على الله جائز واحتج عليه بانه تعالى لو كان عالما بالجزئيات قبل وقوعها لكان كل ما علم وقوعه واجب الوقوع وكل ما علم عدمه ممتنع الوقوع والا لزم انقلاب علمه جهلا وذلك محال والمفضي الى المحال محال ولو كان ذلك واجبا فالذي علم وقوعه يجب كونه فاعلا له ولا قدرة له على الترك والذي علم عدمه يكون ممتنع الوقوع ولا قدرة له على الفعل وعلى هذا يلزم ان لا يكون الله قادرا على شيء اصلا بل يكون موجبا بالذات وايضا فيلزم ان لا يكون للعبد قدرة لا على الفعل ولا على الترك لان ما علم الله وقوعه امتنع من العبد تركه وما علم الله عدمه امتنع منه فعله فالقول بكونه تعالى عالما بالاشياء قبل وقوعها يقدح في الربوبية وفي العبودية وذلك باطل فثبت انه تعالى انما يعلم الاشياء عند وقوعها وعلى هذا التقدير فالابتلاء والامتحان والاختبار جائز عليه وعند هذا قال يجري قوله تعالى لنبلوهم ايهم احسن عملا على ظاهره واما جمهور علماء الاسلام فقد استبعدوا هذا القول وقالوا انه تعالى من الازل الى الابد عالم بجميع الجزئيات فالابتلاء والامتحان محالان عليه وانما وردت هذه الالفاظ فالمراد انه تعالى

---

بالابتداء واحسن خبرها والجملة في محل النصب معلقة لفعل البلوى لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالسؤال والنظر ولذلك اجرى مجراه بطريق التمثيل او الاستعارة التبعية واما موصولة بمعنى الذي واحسن خبر مبتدأ مضمر والجملة صلة لها وهي في حيز النصب بدل من مفعول لنبلوهم والتقدير لنبلو الذي هو احسن عملا فحينئذ يحتمل ان تكون الضمة في ايهم للبناء كما في قوله عز وجل ثم لننزعن من كل شيعة ايهم اشد على الرحمن عتيا على احد الاقوال لتحقق شرط البناء الذي هو الاضافة لفظا وحذف صدر الصلة وان تكون للاعراب لان ما ذكر شرط لجواز البناء لا لوجوبه وحسن العمل الزهد فيها وعدم الاغترار بها والقناعة باليسير منها وصرفها على ما ينبغي والتأمل في شأنها وجعلها ذريعة الى معرفة خالقها والتمتع بها حسبما اذن له الشرع واداء حقوقها والشكر لها لا لاتخاذها وسيلة الى الشهوات والاغراض الفاسدة كما يفعله الكفرة واصحاب الاهواء وايراد صيغة التفضيل مع ان الابتلاء شامل للفريقين باعتبار اعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح ايضا لا الى الحسن والاحسن فقط للاشعار بأن الغاية الاصلية للجعل المذكور انما هو ظهور كمال احسان المحسنين على ما حقق في تفسير قوله تعالى ليبلوكم ايكم احسن عملا ( وانا لجاعلون) فيما سيأتي عند تناهي عمر الدنيا (ما عليها) من المخلوقات قاطبة بافنائها بالكلية وانما اظهر في مقام الاضمار لزيادة التقرير اولادراج المكلفين فيه (صعيدا) مفعول ثان للجعل والصعيد التراب اووجه الارض قال ابو عبيدة هو المستوى من الارض وقال الزجاج هو الطريق الذي لانبات فيه (جرزا) ترابا لانبات فيه ( يعاملهم )

بعاملهم معاملة لو صدرت تلك المعاملة عن غيره لكان ذلك على سبيل الابتلاء والامتحان وقد ذكرنا هذه المسئلة مرارا كثيرة (المسئلة الثانية) قال القاضي معنى قوله لنبلوهم ايهم احسن عملا هو انه يبلوهم ليبصرهم ايهم اطوع لله واشد استمرارا على خدمته لان من هذا حاله هو الذي يفوز بالجنة فبين تعالى انه كلف لاجل ذلك لا لاجل ان يعصى فدل ذلك على بطلان قول من يقول خلق بعضهم للنار (المسئلة الثالثة) اللام في قوله لنبلوهم تدل ظاهرا على ان افعال الله معللة بالاغراض عند المعتزلة واصحابنا قالوا هذا محال لان التعليل بالغرض انما يصح في حق من لا يمكنه تحصيل ذلك الغرض الا بتلك الواسطة وهذا يقتضى العجز الا بتلك الواسطة وهذا يقتضى العجز وهو على الله محال (المسئلة الرابعة) قال الزجاج ايهم رفع بالابتداء الا ان لفظه لفظ الاستفهام والمعنى لنختبر ونمتحن هذا أحسن عملا أم ذاك ثم قال تعالى وانا لجاعلون ماعليها صعيدا جرزا والمعنى انه تعالى بين انه انما زين الارض لاجل الامتحان والابتلاء لا لاجل ان يبقى الانسان فيها متنعما ابدا لانه يزهد فيها بقوله وانا لجاعلون ماعليها الآية ونظيره قوله كل من عليها فان وقوله فيذرها قاعا الآية وقوله واذا الارض مدت الآية والمعنى انه لابد من المجازاة بعد فناء ماعلى الارض وتخصيص الابطال والاهلاك بما على الارض يوهم بقاء الارض الا ان سائر الآيات دلت على ان الارض ايضا لا تبقى وهو قوله يوم تبدل الارض غير الارض قال ابو عبيدة الصعيد المستوى من الارض وقال الزجاج هو الطريق الذى لانبات فيه وقد ذكرنا تفسير الصعيد في آية التيمم واما الجرز فقال الفراء الجرز الارض التى لانبات عليها يقال جرزت الارض فهى مجروزة وجرزها الجراد والشاء والابل اذا أكلت ماعليها وامرأة جروز اذا كانت اكولا وسيف جراز اذا كان مستأصلا ونظيره قوله تعالى نسوق الماء الى الارض الجرز * قوله تعالى (ام حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا اذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من امرنا رشدا فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ثم بعثناهم لنعلم اى الحزبين احصى لما لبثوا امدا) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان القوم تعجبوا من قصة اصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان فقال تعالى ام حسبت انهم كانوا عجبا من آياتنا فقط فلا تحسبن ذلك فان آياتنا كلها عجب فان من كان قادرا على تخليق السموات والارض ثم يزين الارض بأنواع المعادن والنبات والحيوان ثم يجعلها بعد ذلك صعيدا جرزا خالية عن الكل كيف يستبعدون من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلثمائة سنة واكثر في النوم هذا هو الوجه في تقرير النظم والله اعلم (المسئلة الثانية) قد ذكرنا سبب نزول قصة اصحاب الكهف عند قوله ويسئلونك عن الروح قل الروح من امر ربى وذكر محمد بن اسحق سبب نزول هذه القصة مشروحا فقال كان النضر بن الحرث من شياطين قريش وكان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له

---

جرزت الارض فهى مجروزة اى ذهب نباتها بقحط اوجراد ويقال جرزها الجراد والشاة والابل اذا اكلت ماعليها وهذه الجملة لتكميل مافي السابقة من التعليل والمعنى لاتحزن بما عاينت من القوم من تكذيب ماانزلنا عليك من الكتاب فانا قد جعلنا ماعلى الارض من فنون الاشياء زينة لها لنختبر اعمالهم فنجازيهم بحسبها وانا لمفنون جميع ذلك عن قريب ومجازون لهم بحسب اعمالهم ( ام حسبت ) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد انكار حسبان امته وام منقطعة مقدرة ببل التى هى للانتقال من حديث الى حديث لا للابطال وبهمزة الاستفهام عند الجمهور وببل وحدها عند غيرهم اى بل أحسبت ( ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا ) في بقائهم على الحياة مدة طويلة من الدهر ( من آياتنا ) من بين آياتنا التى من جملتها ماذكرناه من جعل ماعلى الارض زينة لها للحكمة المشار اليها ثم جعل ذلك كله صعيدا جرزا كأن لم تغن بالامس ( عجبا ) اى آية ذات عجب وضعا له موضع المضاف او وصفا لذلك بالمصدر مبالغة وهو خبر لكانوا ومن آياتنا حال منه والمعنى ان قصتهم وان كانت خارقة للعادات ليست بعجيبة بالنسبة الى سائر الآيات التى من جملتها ماذكر من تعاجيب خلق الله تعالى بل هى عندها كالنزر الحقير والكهف الغار الواسع في الجبل والرقيم كلبهم قال امية بن ابى الصلت * وليس بها الا الرقيم مجاورا * وصيد هم والقوم في الكهف همد * وقيل هو لوح رصاصى او حجرى رقمت فيه اسماؤهم وجعل على باب الكهف وقيل هو الوادى

العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها احاديث رستم واسفنديار وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جلس مجلسا ذكر فيه الله وحدث قومه ما اصاب من كان قبلهم من الامم وكان النضر يخلفه فى مجلسه اذا قام فقال انا والله يامعشر قريش احسن حديثا منه فهلوا فأنا احدثكم باحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ثم ان قريشا بعثوه وبعثوا معه عتبة بن ابى معيط الى احبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما سلوهم عن محمد وصفته واخبروهم بقوله فانهم اهل الكتاب الاول وعندهم من العلم ماليس عندنا من علم الانبياء فخرجا حتى قدما الى المدينة فسألوا احبار اليهود عن احوال محمد فقال احبار اليهود سلوه عن ثلاث عن فتية ذهبوا فى الدهر الاول ماكان من امرهم فان حديثهم عجب وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الارض ومغاربها ماكان نبأه وسلوه عن الروح وماهو فان اخبركم فهو نبى والا فهو متقول فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالا قد جئناكم بفصل مابيننا وبين محمد واخبروا بما قاله اليهود فجاؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اخبركم بما سألتم عنه غدا ولم يستثن فانصرفوا عنه ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون خمس عشرة ليلة حتى ارجف اهل مكة به وقالوا وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة ليلة فشق عليه ذلك ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة اصحاب الكهف وفيها معاتبة الله اياه على حزنه عليهم وفيها خبر اولئك الفتية وخبر الرجل الطواف (المسئلة الثالثة) الكهف الغار الواسع فى الجبل فاذا صغر فهو الغار وفى الرقيم اقوال (الاول) روى عكرمة عن ابن عباس انه قال كل القرآن اعلمه الا اربعة غسلين وحنانا والاواه والرقيم (الثانى) روى عكرمة عن ابن عباس انه سئل عن الرقيم فقال زعم كعب انها القرية التى خرجوا منها وهو قول السدى (الثالث) قال سعيد بن جبير ومجاهد الرقيم لوح من حجارة وقيل من رصاص كتب فيه اسماؤهم وقصتهم وشد ذلك اللوح على باب الكهف وهذا قول جميع اهل المعانى والعربية قالوا الرقيم الكتاب والاصل فيه المرقوم ثم نقل الى فعيل والرقم الكتابة ومنه قوله تعالى كتاب مرقوم اى مكتوب قال الفراء الرقيم لوح كان فيه اسماؤهم وصفاتهم ونقلن انه انما سمى رقيما لان اسماءهم كانت مرقومة فيه وقيل الناس رقوا حديثهم نقرا فى جانب الجبل وقوله كانوا من آياتنا عجبا المراد احسبت ان واقعتهم كانت عجيبة فى احوال مخلوقاتنا فلاتحسب ذلك فان تلك الواقعة ليست عجيبة فى جانب مخلوقاتنا والعجب ههنا مصدر سمى المفعول به والتقدير كانوا معجوبا منهم فسموا بالمصدر والمفعول به من هذا يستعمل باسم المصدر ثم قال تعالى اذ أوى الفتية الى الكهف لايجوز ان يكون اذ هنا متعلقا بما قبله على تقدير ام حسبت اذ اوى الفتية لانه كان بين النبى وبينهم مدة طويلة فلم يتعلق الحسبان بذلك الوقت الذى اووا فيه الى الكهف بل يتعلق بمحذوف والتقدير اذكر اذ اوى ومعنى اوى الفتية فى الكهف صاروا اليه وجعلوه مأواهم قال فقالوا

اصحاب الرقيم آخرون وكانوا ثلاثة انطبق عليهم الغار فنجوا بذكر كل منهم احسن عمله على مافصل فى الصحيحين (اذاوى) ظرف لعجبا لا لحسبت او مفعول لاذكر اى حين التجأ (الفتية) أى أصحاب الكهف اوثر الاظهار على الاضمار لتحقيق ما كانوا عليه فى انفسهم من حال الفتوة فانهم كانوا فتية من اشراف الروم ارادهم دقيانوس على الشرك فهربوا منه بدينهم ولان صاحبية الكهف من فروع التجائهم الى الكهف فلايناسب اعتبارها معهم قبل بيانه (الى الكهف) بجبلهم للجلوس واتخذوه مأوى (فقالوا ربنا آتنا من لدنك) من خزائن رحمتك الخاصة المكنونة عن عيون اهل العادات فمن ابتدائية متعلقة بآتنا او بمحذوف وقع حالا من مفعوله الثانى قدمت عليه لكونه نكرة ولو تأخرت لكانت صفة له اى آتنا كائنة من لدنك (رحمة) خاصة تستوجب المغفرة والرزق والامن من الاعداء (وهيئ لنا من امرنا) الذى نحن عليه من مهاجرة الكفار والمثابرة على طاعتك واصل التهيئة احداث هيئة الشئ اى أصلح ورتب وأتمم لنا من امرنا (رشدا) اصابة للطريق الموصل الى المطلوب واهتداء اليه وكلا الجارين متعلق بهيئ لاختلافهما فى المعنى وتقديم المجرورين على المفعول الصريح لاظهار الاعتناء بهما وابراز الرغبة فى المؤخر بتقديم احواله فان تأخير ماحقه التقديم عماهو من احواله المرغبة فيه كما يورث شوق السامع الى وروده ينبئ عن كمال رغبة المتكلم فيه واعتنائه بحصوله لامحالة وكذا الكلام (ربنا)

ربنا آتنا من لدنك رحمة اى رحمة من خزائن رحمتك وجلائل فضلك واحسانك وهى الهداية بالمعرفة والصبر والرزق والامن من الاعداء وقوله من لدنك يدل على عظمة تلك الرحمة وهى التى تكون لائقة بفضل الله تعالى وواسع جوده وهيئ لنا اى اصلح من قولك هيأت الامر فتهيأ من امرنا رشدا الرشد والرشد والرشاد نقيض الضلال وفى تفسير اللفظ وجهان (الاول) التقدير وهيئ لنا امرا ذا رشد حتى نكون بسببه راشدين مهتدين (الثانى) اجعل امرنا رشدا كله كقولك رأيت منك رشدا ثم قال تعالى فضربنا على آذانهم قال المفسرون معناه انمناهم وتقدير الكلام انه تعالى ضرب على آذانهم حجابا يمنع من ان تصل الى اسماعهم الاصوات الموقظة والتقدير ضربنا عليهم حجابا الا انه حذف المفعول الذى هو الحجاب كما يقال بنى على امرأته يريدون بنى عليها القبة ثم انه تعالى بين انه انما ضرب على آذانهم فى الكهف وهو ظرف المكان وقوله سنين عددا ظرف الزمان وفى قوله عددا بحثان (الاول) قال الزجاج ذكر العدد ههنا يفيد كثرة السنين وكذلك كل شئ مما يعد اذا ذكر فيه العدد ووصف به اريد كثرته لانه اذا قل فهم مقداره بدون التعديد اما اذا كثر فهناك يحتاج الى التعديد فاذا قلت اقمت اياما عددا اردت به الكثرة (البحث الثانى) فى انتصاب قوله عددا وجهان (احدهما) نعت لسنين المعنى سنين ذات العدد اى معدودة هذا قول الفراء وقول الزجاج وعلى هذا يجوز فى الآية ضربان من التقدير (احدهما) حذف المضاف (والثانى) تسمية المفعول باسم المصدر قال الزجاج ويجوز ان ينتصب على المصدر المعنى تعد عددا ثم قال تعالى ثم بعثناهم يريد من بعد نومهم يعنى ايقظناهم بعد نومهم وقوله لنعلم اى الحزبين احصى لما لبثوا أمدا فيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله ثم بعثناهم لنعلم اللام لام الغرض فيدل على ان افعال الله معللة بالاغراض وقد سبق الكلام فيه (المسئلة الثانية) ظاهر اللفظ يقتضى انه تعالى انما بعثهم ليحصل له هذا العلم وعند هذا يرجع الى انه تعالى هل يعلم الحوادث قبل وقوعها ام لا فقال هشام لا يعلمها الا عند حدوثها واحتج بهذه الآية والكلام فيه قد سبق ونظائر هذه الآية كثيرة فى القرآن منها ما سبق فى هذه السورة ومنها قوله فى سورة البقرة الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وفى آل عمران ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم وقوله انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم وقوله ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم (المسئلة الثالثة) اى رفع بالابتداء واحصى خبره وهذه الجملة بمجموعها متعلق العلم فلهذا السبب لم يظهر عمل قوله لنعلم فى لفظة اى بل بقيت على ارتفاعها ونظيره قوله اذهب فاعلم ايهم قام قال تعالى سلهم ايهم بذلك زعيم وقوله ثم لننزعن من كل شيعة ايهم اشد على الرحمن عتيا وقرئ ليعلم على فعل ما لم يسم فاعله وفى هذه القراءة فائدتان (احداهما) ان على هذا التقدير لا يلزم اثبات العلم المتجدد لله بل المقصود انا بعثناهم ليحصل هذا العلم لبعض الخلق (والثانية) ان على هذا التقدير يجب ظهور النصب فى لفظة اى لكن لقائل ان يقول الاشكال بعد باق لان ارتفاع

فى تقديم قوله تعالى من لدنك على تقدير تعلقه بآتنا وتقديم لنا (٦٨١) على من امرنا الايذان من اول الامر بكون المسؤل مرغوبا فيه لديهم او اجعل امرنا رشدا كله على ان من تجريدية مثلها فى قولك رأيت منك اسدا (فضربنا على آذانهم) اى انمناهم على طريقة التمثيل المبنى على تشبيه الانامة الثقيلة المانعة عن وصول الاصوات الى الآذان بضرب الحجاب عليها وتخصيص الاذان بالذكر مع اشتراك سائر المشاعر لها فى الحجب عن الشعور عند النوم لما انها المحتاج الى الحجب عادة اذ هى الطريقة للتيقظ غالبا لاسيما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق وقيل الضرب على الآذان كناية عن الانامة الثقيلة وحمله على تعطيلها كما فى قولهم ضرب الامير على يد الرعية اى منعهم من التصرف مع عدم ملاءمته لما سياتى من البعث لا يدل على النوم مع انه المراد قطعا والفاء فى فضربنا كما فى قوله عز وجل فاستجبنا له بعد قوله تعالى اذ نادى فان الضرب المذكور وما ترتب عليه من التقليب ذات اليمين وذات الشمال والبعث وغير ذلك ايتاء رحمة لدنية خافية عن ابصار المتمسكين بالاسباب العادية استجابة لدعوتهم (فى الكهف) ظرف مكان لضربنا (سنين) ظرف زمان له باعتبار بقائه لا لابتدائه (عددا) اى ذوات عدد او تعد عددا على انه مصدر او معدودة على انه بمعنى المفعول ووصف السنين بذلك اما للتكثير وهو الانسب باظهار كمال القدرة او للتقليل وهو الاليق بمقام انكار كون القصة عجبا من بين سائر الآيات العجيبة فان مدة لبثهم كبعض يوم عنده عز وجل (ثم بعثناهم) اى ايقظناهم من تلك النومة الثقيلة الشبيهة بالموت (لنعلم) (٨٦)(را)(خا) بنون العظمة وقرئ بالياء مبنيا للفاعل بطريق الالتفات واياما كان فهو

لفظة اى بالابتداء لا بالاسناد يعلم اليه ولمجيب ان يجيب فيقول انه لا يمتنع اجتماع عاملين على معمول واحد لان العوامل النحوية علامات ومعرفات ولا يمتنع اجتماع المعرفات الكثيرة على الشئ الواحد والله اعلم (المسئلة الرابعة) اختلفوا فى الحزبين فقال عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك فالملوك حزب واصحاب الكهف حزب (والقول الثانى) قال مجاهد الحزبان من هذه الفتية لان اصحاب الكهف لما انتبهوا اختلفوا فى انهم كم ناموا والدليل عليه قوله تعالى قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما او بعض يوم قالوا ربكم اعلم بما لبثتم فالحزبان هما هذان وكان الذين قالوا ربكم اعلم بما لبثتم هم الذين علموا ان لبثهم قد تطاول (القول الثالث) قال الفراء ان طائفتين من المسلمين فى زمان اصحاب الكهف اختلفوا فى مدة لبثهم (المسئلة الخامسة) قال ابو على الفارسى قوله احصى ليس من باب افعل التفضيل لان هذا البناء من غير الثلاثى المجرد ليس بقياس فأما قولهم ما اعطاه للدرهم وما اولاه للمعروف واعدى من الجرب وافلس من ابن المدلق فمن الشواذ والشاذ لا يقاس عليه بل الصواب ان احصى فعل ماض وهو خبر المبتدأ والمبتدأ والخبر مفعول نعلم وامدا مفعول به لاحصى وما فى قوله تعالى لما لبثوا مصدرية والتقدير احصى امدا للبثهم وحاصل الكلام لنعلم اى الحزبين احصى امد ذلك اللبث ونظيره قوله احصاه الله وقوله واحصى كل شئ عددا (المسئلة السادسة) احتج اصحابنا الصوفية بهذه الآية على صحة القول بالكرامات وهو استدلال ظاهر ونذكر هذه المسئلة ههنا على سبيل الاستقصاء فنقول قبل الخوض فى الدليل على جواز الكرامات نفتقر الى تقديم مقدمتين (المقدمة الاولى) فى بيان ان الولى ماهو فنقول ههنا وجهان (الاول) ان يكون فعيلا مبالغة من الفاعل كالعليم والقدير فيكون معناه من توالت طاعاته من غير تخلل معصية (الثانى) ان يكون فعيلا بمعنى مفعول كقتيل وجريح بمعنى مقتول ومجروح وهو الذى يتولى الحق سبحانه حفظه وحراسته على التوالى عن كل انواع المعاصى ويديم توفيقه على الطاعات واعلم ان هذا الاسم مأخوذ من قوله تعالى الله ولى الذين آمنوا وقوله وهو يتولى الصالحين وقوله تعالى انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين وقوله ذلك بأن مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم وقوله انما وليكم الله ورسوله واقول الولى هو القريب فى اللغة فاذا كان العبد قريبا من حضرة الله بسبب كثرة طاعاته وكثرة اخلاصه وكان الرب قريبا منه برحمته وفضله واحسانه فهنالك حصلت الولاية (المقدمة الثانية) اذا ظهر فعل خارق للعادة على الانسان فذلك اما ان يكون مقرونا بالدعوى اولا مع الدعوى والقسم الاول وهو ان يكون مع الدعوى فتلك الدعوى اما ان تكون دعوى الالهية او دعوى النبوة او دعوى الولاية او دعوى السحر وطاعة الشياطين فهذه اربعة اقسام (القسم الاول) ادعاء الالهية وجوز اصحابنا ظهور خوارق العادات على يده من غير معارضة كما نقل ان فرعون كان

به الجزاء كما فى قوله تعالى الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وقوله تعالى وليعلم الله الذين آمنوا ونظائرهما التى يتحقق فيها العلم بتحقق متعلقه قطعا فان تحويل القبلة قد ترتب عليه تحزب الناس الى متبع ومنقلب وكذا مداولة الايام بين الناس ترتب عليه تحزبهم الى الثابت على الايمان والمتزلزل فيه وتعلق بكل من الفريقين العلم الحالى والاظهار والتمييز واما بعث هؤلاء فلم يترتب عليه تفرقهم الى المحصى وغيره حتى يتعلق بهما العلم او الاظهار والتمييز ويتسنى نظم شئ من ذلك فى سلك الغاية وانما الذى ترتب عليه تفرقهم الى مقدر تقديرا غير مصيب ومفوض الى العلم الربانى وليس شئ منهما من الاحصاء فى شئ بل يحمل النظم الكريم على التمثيل المبنى على جعل العلم عبارة عن الاختبار مجازا بطريق اطلاق اسم المسبب على السبب وليس من ضرورة الاختبار صدور الفعل المختبر به عن المختبر قطعا بل قد يكون لاظهار عجزه عنه على سنن التكاليف التعجيزية كقوله تعالى فأت بها من المغرب وهو المراد ههنا فالمعنى بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم ( اى الحزبين ) اى الفريقين المختلفين فى مدة لبثهم بالتقدير والتفويض كما سيأتى ( احصى ) اى ضبط ( لما لبثوا ) اى للبثهم ( امدا ) اى غاية فيظهر لهم عجزهم ويفوضوا ذلك الى العليم الخبير ويتعرفوا حالهم وما صنع الله تعالى بهم من حفظ ابدانهم واديانهم فيزدادوا يقينا بكمال قدرته وعلمه ويستبصروا به امر البعث ويكون ذلك لطفا لمؤمنى زمانهم وآية بينة لكفارهم وقد اقتصر ههنا من تلك الغايات الجليلة على

يدعى الالهية وكانت تظهر خوارق العادات على يده وكما نقل ذلك ايضا فى حق الدجال قال اصحابنا وانما جاز ذلك لان شكله وخلقته تدل على كذبه فظهور الخوارق على يده لا يفضى الى التلبيس (والقسم الثانى) وهو ادعاء النبوة فهذا القسم على قسمين لانه اما ان يكون ذلك المدعى صادقا اوكاذبا فان كان صادقا وجب ظهور الخوارق على يده وهذا متفق عليه بين كل من اقر بصحة نبوة الانبياء وان كان كاذبا لم يجز ظهور الخوارق على يده وبتقدير ان تظهر وجب حصول المعارضة (واما القسم الثالث) وهو ادعاء الولاية والقائلون بكرامات الاولياء اختلفوا فى انه هل يجوز ان يدعى الكرامات ثم انها تحصل على وفق دعواه ام لا (واما القسم الرابع) وهو ادعاء السحر وطاعة الشيطان فعند اصحابنا يجوز ظهور خوارق العادات على يده وعند المعتزلة لا يجوز (واما القسم الثانى) وهو ان تظهر خوارق العادات على يد انسان من غير شئ من الدعاوى فذلك الانسان اما ان يكون صالحا مرضيا عند الله واما ان يكون خبيثا مذنبا والاول هو القول بكرامات الاولياء وقد اتفق اصحابنا على جوازه وانكرها المعتزلة الا ابا الحسين البصرى وصاحبه محمود الخوارزمى (واما القسم الثالث) وهو ان تظهر خوارق العادات على بعض من كان مردودا عن طاعة الله تعالى فهذا هو المسمى بالاستدراج فهذا تفصيل الكلام فى هاتين المقدمتين اذا عرفت ذلك فنقول الذى يدل على جواز كرامات الاولياء القرآن والاخبار والآثار والمعقول اما القرآن فالمعتمد فيه عندنا آيات (الحجة الاولى) قصة مريم عليها السلام وقد شرحناها فى سورة آل عمران فلا نعيدها (الحجة الثانية) قصة اصحاب الكهف وبقاؤهم فى النوم احياء سالمين عن الآفات مدة ثلثمائة سنة وتسع سنين وانه تعالى كان يعصمهم من حر الشمس كما قال وتحسبهم ايقاظا وهم رقود الى قوله وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ومن الناس من تمسك فى هذه المسئلة بقوله تعالى قال الذى عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك وقد بينا ان ذلك الذى كان عنده علم من الكتاب هو سليمان فسقط هذا الاستدلال اجاب القاضى عنه بأن قال لا بد من ان يكون فيهم او فى ذلك الزمان نبى يصير ذلك علما له لما فيه من نقض العادة كسائر المعجزات قلنا انه يستحيل ان تكون هذه الواقعة معجزة لاحد من الانبياء لان اقدامهم على النوم امر غير خارق للعادة حتى يجعل ذلك معجزة لان الناس لا يصدقونه فى هذه الواقعة لانهم لا يعرفون كونهم صادقين فى هذه الدعوى الا اذا بقوا طول هذه المدة وعرفوا ان هؤلاء الذين جاؤا فى هذا الوقت هم الذين ناموا قبل ذلك بثلثمائة سنين وتسع سنين وكل هذه الشرائط لم توجد فامتنع جعل هذه الواقعة معجزة لاحد من الانبياء فلم يبق الا ان تجعل كرامة للاولياء واحسانا اليهم اما الاخبار فكثيرة (الخبر الاول) ما اخرج فى الصحيحين عن ابى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لم يتكلم فى المهد الا ثلاثة عيسى بن مريم عليه السلام وصبى فى زمن جريج الناسك وصبى آخر اما عيسى فقد

بعثناهم بعث من يريد ان يعلم الخ حسبما وقع فى تفسير قوله تعالى وليعلم الله الذين آمنوا على احد الوجوه حيث حمل على معنى فعلنا ذلك فعل من يريد ان يعلم من الثابت على الايمان من غير الثابت اذ ربما يتوهم منه استلزام الارادة لتحقق المراد فيعود المحذور فيصار الى جعل ارادة العلم عبارة عن الاختبار فاختبر واختر هذا وقد قرئ ليعلم مبنيا للمفعول ومبنيا للفاعل من الاعلام على ان المفعول الاول محذوف والجملة المصدرة بأى فى موقع المفعول الثانى فقط ان جعل العلم عرفانيا وفى موقع المفعولين ان جعل يقينيا اى ليعلم الله الناس اى الحزبين احصى الحروري عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما ان احد الحزبين الفتية والآخر الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك وقيل كلاهما من غيرهم والاول هو الاظهر فان اللام للعهد ولا عهد لغيرهم والامد بمعنى المدى كالغاية فى قولهم ابتداء الغاية وانتهاء الغاية وهو مفعول لاحصى والجار والمجرور حال منه قدمت عليه لكونه نكرة وليس معنى احصاء تلك المدة ضبطها من حيث كميتها المتصلة الذاتية فانه لا يسمى احصاء بل ضبطها من حيث كميتها المنفصلة العارضة لها باعتبار قسمتها الى السنين وبلوغها من تلك الحيثية الى مراتب الاعداد على ما يرشدك اليه كون تلك المدة عبارة عما سبق من السنين ويجوز ان يراد بالامد معناه الوضعى بتقدير المضاف اى لزمان لبثهم وبدونه ايضا فان اللبث عبارة عن

الكون المستمر المنطبق على الزمان المذكور فباعتبار الامتداد العارض له بسببه يكون له امد لامحالة لكن ليس المراد به ما يقع غاية

عرفتموه واما جريج فكان رجلا عابدا ببني اسرائيل وكانت له ام فكان يوما يصلي اذا اشتاقت اليه امه فقالت ياجريج فقال يارب الصلاة خير أم رؤيتها ثم صلى فدعته ثانيا فقال مثل ذلك حتى قال ثلاث مرات وكان يصلي ويدعها فاشتد ذلك على امه قالت اللهم لا تمته حتى تريه المومسات وكانت زانية هناك فقالت لهم انا افتن جريجا حتى يزني فأتته فلم تقدر على شيءٔ وكان هناك راع يأوي بالليل الى اصل صومعته فلما اعياها راودت الراعي على نفسها فأتاها فولدت ثم قالت ولدي هذا من جريج فأتاه بنو اسرائيل وكسروا صومعته وشتموه فصلى ودعا ثم نخس الغلام قال ابو هريرة كأني انظر الى النبي صلى الله عليه وسلم حين قال بيده ياغلام من ابوك فقال الراعي فندم القوم على ما كان منهم واعتذروا اليه وقالوا نبني صومعتك من ذهب او فضة فأبى عليهم وبناها كما كانت واما الصبي الآخر فان امرأة كان معها صبي لها ترضعه اذ مر بها شاب جميل ذو شارة حسنة فقالت اللهم اجعل ابني مثل هذا فقال الصبي اللهم لاتجعلني مثله ثم مرت بها امرأة ذكروا انها سرقت وزنت وعوقبت فقالت اللهم لاتجعل ابني مثل هذه فقال الصبي اللهم اجعلني مثلها فقالت له امه في ذلك فقال ان الشاب كان جبارا من الجبابرة فكرهت ان اكون مثله وان هذه قيل انها زنت ولم تزن وقيل انها سرقت ولم تسرق وهي تقول حسبي الله (الخبر الثاني) وهو خبر الغار وهو مشهور في الصحاح عن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم فأواهم المبيت الى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل وسدت عليهم باب الغار فقالوا والله لاينجيكم من هذه الصخرة الا ان تدعوا الله بصالح اعمالكم فقال رجل منهم كان لي ابوان شيخان كبيران وكنت لا اغبق قبلهما فنامافي ظل شجرة يوما فلم ابرح عنهما وحلبت لهما غبوقهما فجئتهما به فوجدتهما نائمين فكرهت ان اوقظهما وكرهت ان اغبق قبلهما فقمت والقدح في يدي انتظر استيقاظهما حتى ظهر الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم ان كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك فأفرج عنا مانحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت انفراجا لايستطيعون الخروج منه ثم قال الآخر كانت لي ابنة عم وكانت احب الناس الي فراودتها عن نفسها فامتنعت حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني واعطيتها مالا عظيما على ان تخلي بيني وبين نفسها فلما قدرت عليها قالت لايجوز ذلك ان تفك الخاتم الا بحقه فتحرجت من ذلك العمل وتركتها وتركت المال معها اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا مانحن فيه فانفرجت الصخرة غير انهم لايستطيعون الخروج منها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال الثالث اللهم اني استأجرت اجراء فأعطيتهم اجورهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت اجرته حتى كثرت منه الاموال فجاءني بعد حين وقال ياعبدالله ادالي أجرتي فقلت له كل ماترى من اجرتك من الابل والغنم والرقيق فقال ياعبدالله اتستهزيءٔ بي فقلت اني لااستهزيءٔ بك فأخذ ذلك كله اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا مانحن

ومنتهى لذلك الكون المستمر باعتبار كميته المتصلة العارضة له ( ٦٨٤ ) بسبب انطباقه على الزمان الممتد بالذات وهو آن انبعاثهم من نومهم فان معرفته من تلك الحيثية لاتخفى على احد ولاتسمى احصاء كما مر بل باعتبار كميته المنفصلة العارضة له بسبب عروضها لزمانه المنطبق هو عليه باعتبار انقسامه الى السنين ووصوله الى مرتبة معينة من مراتب العدد كما حقق في الصورة الاولى والفرق بين الاعتبارين ان ماتعلق به الاحصاء في الصورة السابقة نفس المدة المنقسمة الى السنين فهو مجموع ثلثمائة وتسع سنين وفي الصورة الاخيرة منتهى تلك المدة المنقسمة اليها اعني السنة التاسعة بعد الثلثمائة وتعلق الاحصاء بالامد بالمعنى الاول ظاهر واما تعلقه به بالمعنى الثاني فباعتبار انتظامه لما تحته من مراتب العدد واشتماله عليها هذا على تقدير كون ما في قوله تعالى لما لبثوا مصدرية ويجوز ان تكون موصولة حذف عائدها من الصلة اي الذي لبثوا فيه من الزمان الذي عبر عنه فيما قبل بسنين عددا فالامد بمعناه الوضعي على ماتحققته وقيل اللام مزيدة والموصول مفعول وامدا انصب على التمييز واما ماقيل من ان احصى اسم تفضيل لانه الموافق لما وقع في سائر الآيات الكريمة نحو أيهم احسن عملا ايهم اقرب لكم نفعا الى غير ذلك مما لايحصى ولان كونه فعلا ماضيا يشعر بان غاية البعث هو العلم بالاحصاء المتقدم على البعث لابالاحصاء المتأخر عنه وليس كذلك وادعاء ان مجيءٔ افعل التفضيل من المزيد عليه غير قياسي مدفوع بأنه عند سيبويه قياس مطلقا وعند ابن عصفور فيما ليست همزته النقل ولاريب في ان مانحن فيه من ذلك القبيل وامتناع عمله انما هو في غير التمييز من المعمولات واما ان التمييز (فيه)

فيه فانفرجت الصخرة عن الغار فخرجوا يمشون وهذا حديث حسن صحيح متفق عليه (الخبر الثالث) قوله صلى الله عليه وسلم رب اشعث اغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو اقسم على الله لأبره ولم يفرق بين شئ وشئ فيما يقسم به على الله (الخبر الرابع) روى سعيد بن المسيب عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم بينا رجل يسوق بقرة قد حمل عليها فالتفتت اليه البقرة فقالت انى لم اخلق لهذا وانما خلقت للحرث فقال الناس سبحان الله بقرة تتكلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم آمنت بهذا انا وابو بكر وعمر رضى الله عنهما (الخبر الخامس) عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل يسمع رعدا او صوتا فى السحاب ان اسق حديقة فلان قال فعدوت الى تلك الحديقة فاذا رجل قائم فيها فقلت له ما اسمك قال فلان بن فلان بن فلان قلت فما تصنع بحديقتك هذه اذا صرمتها قال ولم تسأل عن ذلك قلت لانى سمعت صوتا فى السحاب ان اسق حديقة فلان قال اما اذ قلت فانى اجعلها اثلاثا فاجعل لنفسى واهلى ثلثا واجعل للمساكين وابن السبيل ثلثا وانفق عليها ثلثا (اما الآثار) فلنبدأ بما نقل انه ظهر عن الخلفاء الراشدين من الكرامات ثم بما ظهر عن سائر الصحابة اما ابو بكر رضى الله عنه فمن كراماته انه لما حملت جنازته الى باب قبر النبى صلى الله عليه وسلم ونودى السلام عليك يا رسول الله هذا ابو بكر بالباب فاذا الباب قد انفتح واذا بهاتف يهتف من القبر ادخلوا الحبيب الى الحبيب واما عمر رضى الله عنه فقد ظهرت انواع كثيرة من كراماته واحدها ما روى انه بعث جيشا وامر عليهم رجلا يدعى سارية بن الحصين فبينا عمر يوم الجمعة يخطب جعل يصيح فى خطبته وهو على المنبر يا سارية الجبل الجبل قال على بن ابى طالب كرم الله وجهه فكتبت تاريخ تلك الكلمة فقدم رسول مقدم الجيش فقال يا امير المؤمنين غزونا يوم الجمعة فى وقت الخطبة فهزمونا فاذا بانسان يصيح يا سارية الجبل الجبل فاسندنا ظهورنا الى الجبل فهزم الله الكفار وظفرنا بالغنائم العظيمة ببركة ذلك الصوت قلت سمعت بعض المذكرين قال كان ذلك معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه قال لأبى بكر وعمر انتما منى بمنزلة السمع والبصر فلما كان عمر بمنزلة البصر لمحمد صلى الله عليه وسلم لاجرم قدر على ان يرى من ذلك البعد العظيم (الثانى) روى ان نيل مصر كان فى الجاهلية يقف فى كل سنة مرة واحدة وكان لا يجرى حتى يلقى فيه جارية واحدة حسناء فلما جاء الاسلام كتب عمرو بن العاص بهذه الواقعة الى عمر فكتب عمر على خزفة ايها النيل ان كنت تجرى بأمر الله فاجر وان كنت تجرى بأمرك فلا حاجة بنا اليك فألقيت تلك الخزفة فى النيل فجرى ولم يقف بعد ذلك (الثالث) وقعت الزلزلة فى المدينة فضرب عمر الدرة على الارض وقال اسكنى باذن الله فسكنت وما حدثت الزلزلة بالمدينة بعد ذلك (الرابع) وقعت النار فى بعض دور المدينة فكتب عمر على خزفة يا نار اسكنى باذن الله فألقوها فى النار فانطفأت فى الحال (الخامس) روى ان رسول ملك الروم جاء الى عمر فطلب داره

محذوف يدل عليه المذكور اى يحصى للبثوا امدا كما فى قوله واضرب منا بالسيوف القوانسا وحديث الوقوع فى المحذور بلا فائدة مدفوع بما اشير اليه من فائدة الموافقة للنظائر ورفع ما فيه من الاعتساف والخلل بمعزل من السداد لان مؤداه ان يكون المقصود بالاختبار اظهار فضل الحزبين وتمييزه عن الادنى مع تحقق اصل الاحصاء فيهما ومن البين ان لا تحقق له اصلا وان المقصود بالاختبار اظهار عجز الكل عنه رأسا فهو فعل ماض قطعا وتوهم ايذانه بأن غاية البعث هو العلم بالاحصاء المتقدم عليه مردود بأن صيغة الماضى باعتبار حال الحكاية والله تعالى اعلم (نحن نقص عليك) شروع فى تفصيل ما اجمل فيما سلف من قوله تعالى اذ اوى الفتية الخ اى نحن نخبرك بتفاصيل اخبارهم وقد مر بيان اشتقاقه فى مطلع سورة يوسف عليه السلام (نبأهم) النبأ الخبر الذى له شأن وخطر (بالحق) اما صفة لمصدر محذوف اوحال من ضمير نقص اومن نبأهم او صفة له على رأى من يرى حذف الموصول مع بعض صلته اى نقص قصصا ملتبسا بالحق ونقصه ملتبسين به اونقص نبأهم ملتبسا به اونبأهم الملتبس به ونبأهم حسبما ذكره محمد بن اسحق بن يسار انه قد مرج اهل الانجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم فعبدوا الاصنام وذبحوا للطواغيت وكان ممن بالغ فى ذلك وعتا عتوا كبيرا دقيانوس فانه غلا فيه غلوا شديدا فجاس خلال الديار والبلاد بالعيث والفساد وقتل من خالفه من المتمسكين بدين المسيح عليه السلام وكان يتبع الناس فيخيرهم بين القتل وعبادة الاوثان فمن رغب فى الحياة الدنيا الدنية يصنع

فظن ان داره مثل قصور الملوك فقالوا ليس له ذلك وانما هو في الصحراء يضرب اللبن فلما ذهب الى الصحراء رأى عمر رضى الله عنه وضع درته تحت رأسه ونام على التراب فعجب الرسول من ذلك وقال ان اهل الشرق والغرب يخافون من هذا الانسان وهو على هذه الصفة ثم قال في نفسه انى وجدته خاليا فاقتله واخلص الناس منه فلما رفع السيف اخرج الله من الارض اسدين فقصداه فخاف والقى السيف من يده وانتبه عمر ولم ير شيئا فسأله عن الحال فذكر له الواقعة واسلم واقول هذه الوقائع رويت بالآحاد وههنا ما هو معلوم بالتواتر وهو انه مع بعده عن زينة الدنيا واحترازه عن التكلفات والتهويلات ساس المشرق والغرب وقلب الممالك والدول ولو نظرت في كتب التواريخ علمت انه لم يتفق لاحد من اول عهد آدم الى الآن ما تيسر له فانه مع غاية بعده عن التكلفات كيف قدر على تلك السياسات ولاشك ان هذا من اعظم الكرامات واما عثمان رضى الله عنه فروى انس قال سرت في الطريق فرفعت عيني الى امرأة ثم دخلت على عثمان فقال مالى أراكم تدخلون على وآثار الزنا ظاهرة عليكم فقلت أجاء الوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا ولكن فراسة صادقة (الثانى) انه لما طعن بالسيف فأول قطرة من دمه سقطت وقعت على المصحف على قوله تعالى فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم (الثالث) ان جهجاها الغفارى انتزع العصا من يد عثمان وكسرها على ركبته فوقعت الاكلة في ركبته واما على كرم الله وجهه فيروى ان واحدا من محبيه سرق وكان عبدا اسود فأتى به الى على فقال له أسرقت قال نعم فقطع يده فانصرف من عند على عليه السلام فلقيه سلمان الفارسى وابن الكرا فقال ابن الكرا من قطع يدك فقال امير المؤمنين ويعسوب المسلمين وختن الرسول وزوج البتول فقال قطع يدك وتمدحه فقال ولم لا امدحه وقد قطع يدى بحق وخلصنى من النار فسمع سلمان ذلك فأخبر به عليا فدعا الاسود ووضع يده على ساعده وغطاه بمنديل ودعا بدعوات فسمعنا صوتا من السماء ارفع الرداء عن اليد فرفعناه فاذا اليد قد برأت باذن الله تعالى وجميل صنعه اما سائر الصحابة فأحوالهم في هذا الباب كثيرة فنذكر منها شيئا قليلا (الاول) روى محمد بن المنكدر عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ركبت البحر فانكسرت سفينتى التى كنت فيها فركبت لوحا من الواحها فطرحنى اللوح في خيسة فيها اسد فخرج الاسد الى يريدنى فقلت يا أبا الحرث انا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقدم ودلنى على الطريق ثم همهم فظننت انه يودعنى ورجع (الثانى) روى ثابت عن انس ان اسيد بن حضير ورجلا آخر من الانصار تحدثا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة لهما حتى ذهب من الليل زمان ثم خرجا من عنده وكانت الليلة شديدة الظلمة وفي يد كل واحد منهما عصا فأضاءت عصا احدهما لهما حتى مشيا في ضوئها فلما انفرق بينهما الطريق اضاءت للآخر عصاه فمشى في ضوئها حتى بلغ منزله (الثالث) قالوا لخالد بن الوليد ان في عسكرك من يشرب الخمر فركب فرسه ليلة فطاف (بالعسكر)

مايصنع ومن اثر عليها الحياة الابدية قتله وقطع ارابه وغلقها في سور المدينة وابوابها فلما رأى الفتية ذلك وكانوا عظماء اهل مدينتهم وقيل كانوا من خواص الملك قاموا فتضرعوا الى الله عز وجل واشتغلوا بالصلاة والدعاء فبينما هم كذلك اذ دخل عليهم اعوان الجبار فأحضروهم بين يديه فقال لهم ما قال وخيرهم بين القتل وبين عبادة الاوثان فقالوا ان لنا الها ملأ السموات والارض عظمته وجبروته لن ندعو من دونه احدا ولن نقر بما تدعونا اليه ابدا فاقض ما انت قاض فأمر بنزع ما عليهم من الثياب الفاخرة واخرجهم من عنده وخرج هو الى مدينة نينوى لبعض شأنه وامهلهم الى رجوعه ليتأملوا في امرهم فان تبعوه والافعل بهم مافعل بسائر المسلمين فأزمعت الفتية على الفرار بالدين والالتجاء الى الكهف الحصين فأخذ كل منهم من بيت ابيه شيئا فتصدقوا ببعضه وتزودوا بالباقى فأووا الى الكهف فجعلوا يصلون فيه آناء الليل واطراف النهار ويبتهلون الى الله سبحانه بالانين والجؤار وفوضوا امر نفقتهم الى يمليخا فكان اذا اصبح يضع عنده ثيابه الحسان ويلبس لباس المساكين ويدخل المدينة ويشترى مايهمهم ويتجسس مافيها من الاخبار ويعود الى اصحابه فلبثوا على ذلك الى ان قدم الجبار المدينة فطلبهم واحضر آباءهم فاعتذروا بأنهم عصوهم ونهبوا اموالهم وبذروها في الاسواق وفروا الى الجبل فلما رأى يمليخا مارأى من الشر رجع الى اصحابه وهو يبكى ومعه قليل من الزاد فأخبرهم بما شاهده من الهول ففزعوا الى الله عز وجل وخروا له سجدا ثم رفعوا رؤسهم وجلسوا يتحدثون في امرهم فبينما هم كذلك اذ ضرب الله تعالى على آذانهم فناموا ونفقتهم عند رؤسهم

بالعسكر فلقى رجلا على فرس ومعه زق خمر فقال ماهذا قال خل فقال خالد اللهم اجعله خلا فذهب الرجل الى اصحابه فقال اتيتكم بخمر ماشربت العرب مثلها فلما فتحوا فاذا هو خل فقالوا والله ماجئتنا الا بخل فقال هذا والله دعاء خالد بن الوليد (الرابع) الواقعة المشهورة وهى ان خالد بن الوليد اكل كفا من السم على اسم الله وماضره (الخامس) روى ان ابن عمر كان فى بعض اسفاره فلقى جماعة وقفوا على الطريق من خوف السبع فطرد السبع من طريقهم ثم قال انما يسلط على ابن آدم مايخافه ولو انه لم يخف غير الله لما سلط عليه شئ (السادس) روى ان النبى صلى الله عليه وسلم بعث العلاء بن الحضرمى فى غزاة فحال بينهم وبين المطلوب قطعة من البحر فدعا باسم الله الاعظم ومشوا على الماء وفى كتب الصوفية من هذا الباب روايات متجاوزة عن الحد والحصر فمن ارادها طالعها واما الدلائل العقلية القطعية على جواز الكرامات فمن وجوه (الحجة الاولى) ان العبد ولى الله قال الله تعالى ألا ان اولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون والرب ولى العبد قال تعالى الله ولى الذين آمنوا وقال وهو يتولى الصالحين وقال انما وليكم الله ورسوله وقال انت مولانا وقال ذلك بأن الله مولى الذين امنوا فثبت ان الرب ولى العبد وان العبد ولى الرب وايضا الرب حبيب العبد والعبد حبيب الرب قال تعالى يحبهم ويحبونه وقال والذين آمنوا اشد حبا لله وقال ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين واذا ثبت هذا فنقول العبد اذا بلغ فى الطاعة الى حيث يفعل كل ماامره الله وكل مافيه رضاه وترك كل مانهى الله وزجر عنه فكيف يبعد ان يفعل الرب الرحيم الكريم مرة واحدة مايريده العبد بل هو اولى لان العبد مع لؤمه وعجزه لما فعل كل مايريده الله ويأمره به فلان يفعل الرب الرحيم مرة واحدة ماارادة العبد كان اولى ولهذا قال تعالى اوفوا بعهدى اوف بعهدكم (الحجة الثانية) لو امتنع اظهار الكرامة لكان ذلك اما لاجل ان الله ليس اهلا لان يفعل مثل هذا الفعل او لاجل ان المؤمن ليس اهلا لان يعطيه الله هذه العطية (والاول) قدح فى قدرة الله وهو كفر (والثانى) باطل فان معرفة ذات الله وصفاته وافعاله واحكامه واسمائه ومحبة الله وطاعاته والمواظبة على ذكر تقديسه وتمجيده وتهليله اشرف من اعطاء رغيف واحد فى مفازة او تسخير حية او اسد فلما اعطى المعرفة والمحبة والذكر والشكر من غير سؤال فلأن يعطيه رغيفا فى مفازة فأى بعد فيه (الحجة الثالثة) قال النبى صلى الله عليه وسلم حكاية عن رب العزة ماتقرب عبد الى بمثل اداء ما افترضت عليه ولايزال يتقرب الى بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت له سمعا وبصرا ولسانا وقلبا ويدا ورجلا بى يسمع وبى يبصر وبى ينطق وبى يمشى وهذا الخبر يدل على انه لم يبق فى سمعهم نصيب لغير الله ولا فى بصرهم ولا فى سائر اعضائهم اذ لو بقى هناك نصيب لغير الله لما قال انا سمعه وبصره اذا ثبت هذا فنقول لاشك ان هذا المقام اشرف من تسخير الحية والسبع واعطاء الرغيف وعنقود من العنب او شربة من الماء فلما

فخرج دقيانوس فى طلبهم بخيله ورجله (٦٨٧) فوجدوهم قد دخلوا الكهف فامر باخراجهم فلم يطق احد ان يدخله فلما ضاق بهم ذرعا قال قائل منهم اليس لو كنت قدرت عليهم قتلتهم قال بلى قال فابن عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا جوعا وعطشا وليكن كهفهم قبرالهم ففعل ثم كان من شأنهم ماقص الله عز وجل عنهم (انهم فتية) استئناف تحقيقى مبنى على تقدير السؤال من قبل المخاطب والفتية جمع قلة للفتى كالصبية للصبى (آمنوا بربهم) وفيه الالتفات للاشعار بعلية وصف الربوبية لايمانهم ولمراعاة ماصدر عنهم من المقالة حسبما سيحكى عنهم (وزدناهم هدى) بأن ثبتناهم على ماكانوا عليه من الدين واظهرنا لهم مكنونات محاسنه وفيه التفات من الغيبة الى ماعليه سبك النظم سباقا وسياقا من التكلم (وربطنا على قلوبهم) اى قويناها حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الاهل والاوطان والنعيم والاخوان واجترؤا على الصدع بالحق من غير خوف وحذار والرد على دقيانوس الجبار (اذ قاموا) منصوب بربطنا والمراد بقيامهم انتصابهم لاظهار شعار الدين قال مجاهد خرجوا من المدينة فاجتمعوا على غير ميعاد فقال اكبرهم انى لاجد فى نفسى شيئا ان ربى رب السموات والارض فقالوا نحن ايضا كذلك فقاموا جميعا (فقالوا ربنا رب السموات والارض) ضمنوا دعواهم مايحقق فحواها ويقضى بمقتضاها فان ربوبيته عز وجل لهما تقتضى ربوبيته لما فيهما اى اقتضاء وقيل المراد قيامهم بين يدى الجبار من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الاصنام فحينئذ يكون ما سيأتى من قوله تعالى هؤلاء الخ منقطعا عما قبله صادرا عنهم بعد خروجهم من عنده (لن ندعو) لن نعبد ابدا (من دونه الها) معبودا آخر لا استقلالا ولا اشتراكا والعدول عن

ان يقال ربما للتنصيص على رد المخالفين حيث كانوا يسمون اصنامهم آلهة وللاشعار  بان مدار العبادة وصف الالوهية وللايذان

او صل الله برحمته عبده الى هذه الدرجات العالية فاى بعد فى ان يعطيه رغيفا واحدا او شربة ماء فى مفازة (الحجة الرابعة) قال عليه السلام حاكيا عن رب العزة من آذى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة فجعل ايذاء الولى قائما مقام ايذائه وهذا قريب من قوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله وقال وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا وقال ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة فجعل بيعة محمد صلى الله عليه وسلم بيعة مع الله ورضاء محمد صلى الله عليه وسلم رضاء الله وايذاء محمد صلى الله عليه وسلم ايذاء الله فلا جرم كانت درجة محمد صلى الله عليه وسلم اعلى الدرجات الى ابلغ الغايات فكذا ههنا لما قال من آذى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة دل ذلك على انه تعالى جعل ايذاء الولى قائما مقام ايذاء نفسه ويتأكد هذا بالخبر المشهور انه تعالى يقول يوم القيامة مرضت فلم تعدنى استسقيتك فاسقيتنى استطعمتك فالطعمتنى فيقول يارب كيف افعل هذا وانت رب العالمين فيقول ان عبدى فلانا مرض فلم تعده أما علمت انك لو عدته لوجدت ذلك عندى وكذا فى السقى والاطعام فدلت هذه الاخبار على ان اولياء الله يبلغون الى هذه الدرجات فأى بعد فى ان يعطيه الله كسرة خبز او شربة ماء او يسخر له كلبا او وردا (الحجة الخامسة) انا نشاهد فى العرف ان من خصه الملك بالخدمة الخاصة واذن له فى الدخول عليه فى مجلس الانس فقد يخصه ايضا بأن يقدره على ما لا يقدر عليه غيره بل العقل السليم يشهد بأنه متى حصل ذلك القرب فانه يتبعه هذه المناصب فجعل القرب اصلا والمنصب تبعا واعظم الملوك هو رب العالمين فاذا شرف عبدا بأنه اوصله الى عتبات خدمته ودرجات كرامته واوقفه على اسرار معرفته ورفع حجب البعد بينه وبين نفسه واجلسه على بساط قربه فأى بعد فى ان يظهر بعض تلك الكرامات فى هذا العالم مع ان كل هذا العالم بالنسبة الى ذرة من تلك السعادات الروحانية والمعارف الربانية كالعدم المحض (الحجة السادسة) لا شك ان المتولى للافعال هو الروح لا البدن ولا شك ان معرفة الله تعالى للروح كالروح للبدن على ما قررناه فى تفسير قوله تعالى ينزل الملائكة بالروح من امره وقال عليه السلام ابيت عند ربى يطعمنى ويسقينى ولهذا المعنى نرى ان كل من كان اكثر علما بأحوال عالم الغيب كان اقوى قلبا واقل ضعفا ولهذا قال على بن ابى طالب كرم الله وجهه والله ماقلعت باب خيبر بقوة جسدانية ولكن بقوة ربانية وذلك لان عليا كرم الله وجهه فى ذلك الوقت انقطع نظره عن عالم الاجساد واشرقت الملائكة بأنوار عالم الكبرياء فتقوى روحه وتشبه بجواهر الارواح الملكية وتلألأت فيه اضواء عالم القدس والعظمة فلا جرم حصل له من القدرة ما قدر بها على ما لم يقدر عليه غيره وكذلك العبد اذا واظب على الطاعات بلغ الى المقام الذى يقول الله كنت له سمعا وبصرا فاذا صار نور جلال الله سمعا له سمع القريب والبعيد واذا صار ذلك النور بصرا له رأى القريب والبعيد واذا صار ذلك النور يدا له قدر على التصرف

بأن ربوبيته تعالى بطريق الالوهية لا بطريق المالكية المجازية (لقد قلنا اذا شططا) اى قولا ذا شطط اى تجاوز عن الحد او قولا هو عين الشطط على انه وصف بالمصدر مبالغة ثم اقتصر على الوصف مبالغة على مبالغة وحيث كانت العبادة مستلزمة للقول لما انها لا تعرى من الاعتراف بالوهية المعبود والتضرع اليه قيل لقد قلنا واذا جواب وجزاء اى لو دعونا من دونه الها والله لقد قلنا قولا خارجا عن حد العقول مفرطا فى الظلم (هؤلاء) هو مبتدأ وفى اسم الاشارة تحقير لهم (قومنا) عطف بيان له (اتخذوا من دونه آلهة) خبره وفيه معنى الانكار (لولا يأتون) تحضيض فيه معنى الانكار والتعجيز اى هلا يأتون (عليهم) على الوهيتهم او على صحة اتخاذهم لها آلهة (بسلطان بين) بحجة ظاهرة الدلالة على مدعاهم وهو تبكيت لهم والقام حجر (فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا) بنسبة الشريك اليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا والمعنى انه اظلم من كل ظالم وان كان سبك النظم على انكار الاظلمية من غير تعرض لانكار المساواة كما مر تحقيقه فى سورة هود (واذ اعتزلتموهم) اى فارقتموهم فى الاعتقاد واردتم الاعتزال الجسمانى (وما يعبدون الا الله) عطف على الضمير المنصوب وما موصولة او مصدرية اى اذ اعتزلتموهم ومعبوديهم الا الله او وعبادتهم الا عبادة الله وعلى التقديرين فالاستثناء متصل على تقدير كونهم مشركين كاهل مكة ومنقطع على تقدير تمحضهم فى عبادة الاوثان ويجوز كون ما نافية على انه اخبار من الله تعالى عن الفتية بالتوحيد معترض بين اذ وجوابه (فأووا) اى التجئوا (فى)

( الى الكهف ) قال الفراء هو جواب اذ كما  تقول اذ فعلت فافعل كذا وقيل هو دليل على جوابه اي اذ اعتزلتموهم

في الصعب والسهل والبعيد والقريب ( الحجة السابعة ) وهي مبنية على القوانين العقلية الحكمية وهي انا قد بينا ان جوهر الروح ليس من جنس الاجسام الكائنة الفاسدة المتعرضة للتفرق والتمزق بل هو من جنس جواهر الملائكة وسكان عالم السموات ونوع المقدسين المطهرين الا انه لما تعلق بهذا البدن واستغرق في تدبيره صار في ذلك الاستغراق الى حيث نسي الوطن الاول والمسكن المتقدم وصار بالكلية متشبها بهذا الجسم الفاسد فضعفت قوته وذهبت مكنته ولم يقدر على شيء من الافعال اما اذا استأنست بمعرفة الله ومحبته وقل انغماسها في تدبير هذا البدن واشرقت عليها انوار الارواح السماوية العرشية المقدسة وفاضت عليها من تلك الانوار قويت على التصرف في اجسام هذا العالم مثل قوة الارواح الفلكية على هذه الاعمال وذلك هو الكرامات وفيه دقيقة اخرى وهي ان مذهبنا ان الارواح البشرية مختلفة بالماهية ففيها القوية والضعيفة وفيها النورانية والكدرة وفيها الحرة والنذلة والارواح الفلكية ايضا كذلك ألا ترى الى جبريل كيف قال الله في وصفه انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم امين وقال في قوم آخرين من الملائكة وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا فكذا ههنا فاذا اتفق في نفس من النفوس كونها قوية القوة القدسية العنصرية مشرقة الجوهر علوية الطبيعة ثم انضاف اليها انواع الرياضات التي تزيل عن وجهها غبرة عالم الكون والفساد اشرقت وتلألأت وقويت على التصرف في هيولى عالم الكون والفساد باعانة نور معرفة الحضرة الصمدية وتقوية اضواء حضرة الجلال والعزة ولنقبض ههنا عنان البيان فان وراءها اسرارا دقيقة واحوالا عميقة من لم يصل اليها لم يصدق بها ونسأل الله الاعانة على ادراك الخيرات واحتج المنكرون للكرامات بوجوه ( الشبهة الاولى ) وهي التي عليها يعولون وبها يصولون ان ظهور الخارق للعادة جعله الله دليلا على النبوة فلو حصل لغير نبي لبطلت هذه الدلالة لان حصول الدليل مع عدم المدلول يقدح في كونه دليلا وذلك باطل ( الشبهة الثانية ) تمسكوا بقوله عليه السلام حكاية عن الله سبحانه لن يتقرب المتقربون الى بمثل اداء ما افترضت عليهم قالوا هذا يدل على ان التقرب الى الله بأداء الفرائض اعظم من التقرب اليه بأداء النوافل ثم ان المتقرب اليه بأداء الفرائض لا يحصل له شيء من الكرامات فالمتقرب اليه بأداء النوافل اولى ان لا يحصل له ذلك ( الشبهة الثالثة ) تمسكوا بقوله تعالى وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس والقول بان الولي ينتقل من بلد الى بلد بعيد لا على الوجه طعن في هذه الآية وايضا ان محمدا صلى الله عليه وسلم لم يصل من مكة الى المدينة الا في ايام كثيرة مع التعب الشديد فكيف يعقل ان يقال ان الولي ينتقل من بلد نفسه الى الحج في يوم واحد ( الشبهة الرابعة ) قالوا هذا الولي الذي تظهر عليه الكرامات اذا ادعى على انسان درهما فهل نطالبه بالبينة ام لا فان طالبناه بالبينة كان عبثا لان ظهور

اعتزالا اعتقاديا فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا او اذا أردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء الى الكهف (ينشر لكم) يبسط لكم ويوسع عليكم (ربكم) مالك امركم ( من رحمته) في الدارين (ويهيئ لكم) يسهل لكم (من أمركم) الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين (مرفقا) ما ترتفقون وتنتفعون به وقرئ بفتح الميم وكسر الفاء مصدرا كالمرجع وتقديم لكم في الموضعين لما مر مرارا من الايذان من اول الامر بكون المؤخر من منافعهم والتشويق الى وروده (وترى الشمس) بيان لحالهم بعد ما أووا الى الكهف ولم يصرح به ايذانا بعدم الحاجة اليه لظهور جريانهم على موجب الامر به لكونه صادرا عن رأى صائب وتعويلا على ما سلف من قوله سبحانه اذ أوى الفتية الى الكهف وما لحق من اضافة الكهف اليهم وكونهم في فجوة منه والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام او لكل أحد ممن يصلح للخطاب وليس المراد به الاخبار بوقوع الرؤية تحقيقا بل الانباء بكون الكهف بحيث لو رأيته ترى الشمس ( اذا طلعت تزاور) اي تتزاور وتتنحى بحذف احدى التاءين وقرئ بادغام التاء في الزاي وتزور كتحمر وتزوار كتحمار وتزوئر وكلها من الزور وهو الميل (عن كهفهم) الذي أووا اليه فالاضافة لادنى ملابسة (ذات اليمين) اي جهة ذات يمين الكهف عند توجه الداخل الى قعره اي جانبه الذي يلي المغرب فلا يقع عليهم شعاعها فيؤذيهم (واذا غربت) اي تراها عند غروبها ( تقرضهم )  اي تقطعهم من القطيعة والصرم ولا تقربهم (ذات الشمال)

الكرامات عليه يدل على انه لايكذب ومع قيام الدليل القاطع كيف يطلب الدليل الظنى وان لم نطالبه بها فقد تركنا قوله عليه السلام البينة على المدعى فهذا يدل على ان القول بالكرامة باطل ( الشبهة الخامسة ) اذا جاز ظهور الكرامة على بعض الاولياء جاز ظهورها على الباقين فاذا كثرت الكرامات حتى خرقت العادة جرت وفقا للعادة وذلك يقدح فى المعجزة والكرامة (والجواب) عن الشبهة الاولى ان الناس اختلفوا فى انه هل يجوز للولى دعوى الولاية فقال قوم من المحققين ان ذلك لايجوز فعلى هذا القول يكون الفرق بين المعجزات والكرامات ان المعجزة تكون مسبوقة بدعوى النبوة والكرامة لاتكون مسبوقة بدعوى الولاية والسبب فى هذا الفرق ان الانبياء عليهم السلام انما بعثوا الى الخلق ليصيروا دعاة للخلق من الكفر الى الايمان ومن المعصية الى الطاعة فلو لم تظهر دعوى النبوة لم يؤمنوا به واذا لم يؤمنوا به بقوا على الكفر واذا ادعوا النبوة واظهروا المعجزة آمن القوم بهم فاقدام الانبيـاء على دعوى النبوة ليس الغرض منه تعظيم النفس بل المقصود منه اظهار الشفقة على الخلق حتى ينتقلوا من الكفر الى الايمان اما ثبوت الولاية للولى فليس الجهل بها كفرا ولا معرفتها ايمانا فكان دعوى الولاية طلبا لشهوة النفس فعلمنا ان النبى يجب عليه اظهار دعوى النبوة والولى لايجوز له دعوى الولاية فظهر الفرق اما الذين قالوا يجوز للولى دعوى الولاية فقد ذكروا الفرق بين المعجزة والكرامة من وجوه (الاول) ان ظهور الفعل الخارق للعادة يدل على كون ذلك الانسـان مبرأ عن المعصية ثم ان اقترن هذا الفعل بادعاء النبوة دل على كونه صادقا فى دعوى النبوة وان اقترن بادعاء الولاية دل على كونه صادقا فى دعوى الولاية وبهذا الطريق لايكون ظهور الكرامة على الاولياء طعنا فى معجزات الانبياء عليهم السـلام (الثانى) ان النبى صلى الله عليه وسلم يدعى المعجزة ويقطع بها والولى اذا ادعى الكرامة لايقطع بها لان المعجزة يجب ظهورها اما الكرامة لايجب ظهورها (الثالث) انه يجب نفى المعارضة عن المعجزة ولا يجب نفيها عن الكرامة (الرابع) انا لانجوز ظهور الكرامة على الولى عند ادعاء الولاية الا اذا أقر تلك الدعوى بكونه على دين ذلك النبى ومتى كان الامر كذلك صارت تلك الكرامة معجزة لذلك النبى ومؤكدة لرسالته وبهذا التقدير لايكون ظهور الكرامة طاعنا فى نبوة النبى بل يصير مقويا لها (والجواب) عن الشبهة الثانية ان التقرب بالفرائض وحدهـا اكمل من التقرب بالنوافل اما الولى فانمـا يكون وليا اذا كان آتيا بالفرائض والنوافل ولاشك انه يكون حاله اتم من حال من اقتصر على الفرائض فظهر الفرق والجواب عن الشبهة الثالثة ان قوله تعالى وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس محمول على المعهود المتعارف وكرامات الاولياء احوال نادرة فتصير كالمستثناة عن ذلك العموم وهذا هو الجواب عن الشبهة الرابعة وهى التمسك بقوله عليه السلام البينة على المدعى (والجواب) عن الشبهة الخامسة ان

وقوله تعالى (وهم فى فجوة منه) جملة حالية مبينة لكون ذلك امرا بديعا اى تراها تميل عنهم يمينا وشمالا ولاتحوم حولهم مع انهم فى متسع من الكهف معرض لاصابتها لولا ان صرفتها عنهم يد التقدير (ذلك) اى ماصنع الله بهم من تزاور الشمس وقرضها حالتى الطلوع والغروب مع كونهم فى موقع شعاعها (من آيات الله) العجيبة الدالة على كمال علمه وقدرته وحقية التوحيد وكرامة اهله عنده سبحانه وتعالى وهذا قبل أن سد دقيانوس باب الكهف وقيل كان باب الكهف شماليا مستقبل بنات نعش وأقرب المشارق والمغارب الى محاذاته رأس مشرق السرطان ومغربه والشمس اذا كان مدارهـا مداره تطلع مائلة عنه مقابلة لجانبه الأيمن وهو الذى يلى المغرب وتغرب محاذية لجانبه الأيسر فيقع شعاعها على جنبيه وتحلل عفونته وتعدل هواءه ولايقع عليهم فيؤذى اجسادهم ويبلى ثيابهم ولعل ميل الباب الى جانب الغرب كان أكثر ولذلك اوقع التزاور على كهفهم والقرض على أنفسهم فذلك حينئذ اشارة الى ايوائهم الى كهف هذا شأنه واما جعله اشارة الى حفظ الله سبحانه اياهم فى ذلك الكهف تلك المدة الطويلة أو الى اطلاعه سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم على أخبارهم فلا يساعده ايراده فى تضـاعيف القصـة ( من يهد الله ) الى الحـق بالتـوفيق له ( فهو المهتـد ) الذى أصـاب الفلاح والمراد اما الثناء عليهم والشهادة لهم باصابة المطلوب والاخبار بتحقيق ماأملوه من نشر الرحمة وتهيئة المرافق (المطيعين)

أوالتنبيه على انأمثال هذهالآية كثيرة ولكن المنتفع  بها من وفقهالله تعالى للاستبصاربها ( ومن يضلل ) اى يخلق فيه

المطيعين فيهم قلة كما قال تعالى وقليل من عبادى الشكور وكما قال ابليس ولاتجد اكثرهم شاكرين واذاحصلت القلة فيهملم يكن مايظهر عليهم من الكرامات فى الاوقات النادرة قادحافى كونها على خلاف العادة ( المسئلة السابعة ) فى الفرق بين الكرامات والاستدراج اعلم ان من أراد شيئا فأعطاهالله مراده لم يدل ذلك على كون ذلك العبد وجيها عندالله تعالى سواء كانت العطية على وفق العادة اولم تكن على وفق العادة بل قد يكون ذلك اكراما للعبد وقد يكون استدراجا له ولهذا الاستدراج اسماء كثيرة فى القرآن (احدها) الاستدراج قال الله تعالى سنستدرجهم من حيث لايعلمون ومعنى الاستدراج ان يعطيه الله كل مايريده فى الدنيا ليزداد غيه وضلاله وجهله وعناده فيزداد كل يوم بعدا من الله وتحقيقه انه ثبت فى العلوم العقلية ان تكرر الافعال سبب لحصول الملكة الراسخة فاذا مال قلب العبد الى الدنيا ثم اعطاه الله مراده فحينئذ يصل الطالب الى المطلوب وذلك يوجب حصول اللذة وحصول اللذة يزيد فى الميل وحصول الميل يوجب مزيد السعى ولايزال يتأدى كل واحد منهما الى الآخر وتتقوى كل واحدة من هاتين الحالتين درجة فدرجة ومعلوم ان الاشتغال بهذه اللذات العاجلة مانع عن مقامات المكاشفات ودرجات المعارف فلاجرم يزداد بعده عن الله درجة فدرجة الى ان يتكامل فهذا هو الاستدراج (وثانيها) المكر قال تعالى فلايأمن مكرالله الاالقوم الخاسرون ومكروا ومكرالله والله خير الماكرين وقال ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون (وثالثها) الكيد قال تعالى يخادعون الله وهو خادعهم وقال يخادعون الله والذين آمنوا ومايخادعون الا انفسهم (ورابعها) الاملاء قال تعالى ولاتحسبن الذين كفروا انمانملى لهم خير لانفسهم انمانملى لهم ليزدادوا اثما (وخامسها) الاهلاك قال تعالى حتى اذافرحوا بماأوتوا أخذناهم وقال فى فرعون واستكبر هووجنوده فى الارض بغير الحق وظنوا انهم الينا لايرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فظاهر بهذه الآيات ان الايصال الى المرادات لايدل على كمال الدرجات والفوز بالخيرات بقى علينا ان نذكر الفرق بين الكرامات وبين الاستدراجات * فنقول ان صاحب الكرامة لايستأنس بتلك الكرامة بل عند ظهور الكرامة يصير خوفه من الله تعالى اشد وحذره من قهرالله اقوى فانه يخاف ان يكون ذلك من باب الاستدراج واما صاحب الاستدراج فانه يستأنس بذلك الذى يظهر عليه ويظن انه انما وجد تلك الكرامة لانه كان مستحقالها وحينئذ يستحقر غيره ويتكبر عليه ويحصل له أمن من مكرالله وعقابه ولايخاف سوء العاقبة فاذا ظهر شئ من هذه الاحوال على صاحب الكرامة دل ذلك على انها كانت استدراجا لا كرامة فلهذا المعنى قال المحققون اكثر مااتفق من الانقطاع عن حضرة الله انما وقع فى مقام الكرامات فلاجرم ترى المحققين يخافون من الكرامات كما يخافون من انواع البلاء والذى يدل على ان الاستئناس

الضلال لصرف اختياره اليه ( فلن تجدله ) أبدا وان بالغت فى التتبع والاستقصاء ( وليا ) ناصرا ( مرشدا ) يهديه الى ماذكر من الفلاح لاستحالة وجوده فى نفسه لاأنك لاتجده مع وجوده أوامكانه ( وتحسبهم ) بفتح السين وقرئ بكسرها أيضا والخطاب فيه كماسبق ( أيقاظا ) جمع يقظ بكسر القاف وفتحها وهو اليقظان ومدار الحسبان انفتاح عيونهم على هيئة الناظر وقيل كثرة تقلبهم ولايلائمه قوله تعالى وتقلبهم ( وهم رقود ) اى نيام وهو تقرير لما يذكر فيما سلف اعتقادا على ذكره السابق من الضرب على آذانهم ( ونقلبهم ) فى رقدتهم ( ذات اليمين ) نصب على الظرفية أى جهة تلى أيمانهم (وذات الشمال) أى جهة تلى شمائلهم كى لاتأكل الارض مايليها من أبدانهم قال ابن عباس رضى الله عنهما لولم يقلبوا لاكلتهم الارض قيل لهم تقليبتان فى السنة وقيل تقليبة واحدة يوم عاشوراء وقيل فى كل تسع سنين وقرئ يقلبهم على الاسناد الى ضمير الجلالة وتقلبهم على المصدر منصوبا بمضمر ينبئ عنه وتحسبهم اى وترى تقلبهم ( وكلبهم ) قيل هو كلب مروا به فتبعهم فطردوه مرارا فلم يرجع فانطقه الله تعالى فقال لاتخشوا جانبى فانى أحب أحباءالله تعالى فناموا حتى أحرسكم وقيل هو كلب راع قد تبعهم على دينهم ويؤيده قراءة كالبهم اذالظاهر لحوقه بهم وقيل هو كلب صيد احدهم اوزرعه اوغنمه واختلف فى لونه فقيل كان انمر وقيل اصفر وقيل اصهب وقيل غير ذلك وقيل كان اسمه قطمير وقيل ريان وقيل تتوه وقيل قطمور وقيل ثور قال خالدبن معدان ليس فى الجنة من الدواب الاكلب

بالكرامة قاطع عن الطريق وجوه (الحجة الاولى) ان هذا الغرور انما يحصل اذا اعتقد الرجل انه مستحق لهذه الكرامة لان بتقدير ان لا يكون مستحقا لها امتنع حصول الفرح بها بل يجب ان يكون فرحه بكرم المولى وفضله اكبر من فرحه بنفسه فثبت ان الفرح بالكرامة اكثر من فرحه بنفسه وثبت ان الفرح بالكرامة لا يحصل الا اذا اعتقد انه اهل ومستحق لها وهذا عين الجهل لان الملائكة قالوا لا علم لنا الا ما علمتنا وقال تعالى وما قدروا الله حق قدره وايضا قد ثبت بالبرهان اليقيني انه لا حق لاحد من الخلق على الحق فكيف يحصل ظن الاستحقاق (الحجة الثانية) ان الكرامات اشياء مغايرة للحق سبحانه فالفرح بالكرامة فرح بغير الحق والفرح بغير الحق حجاب عن الحق والمحجوب عن الحق كيف يليق به الفرح والسرور (الحجة الثالثة) ان من اعتقد في نفسه انه صار مستحقا للكرامة بسبب عمله حصل لعمله وقع عظيم في قلبه ومن كان لعمله وقع عنده كان جاهلا ولو عرف ربه لعلم ان كل طاعات الخلق في جنب جلال الله تقصير وكل شكرهم في جنب آلائه ونعمائه قصور وكل معارفهم وعلومهم فهي في مقابلة عزته حيرة وجهل *رأيت في بعض الكتب انه قرأ المقرى في مجلس الاستاذ ابي علي الدقاق قوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فقال علامة ان الحق رفع عملك ان لا يبقى عندك فان بقي عملك في نظرك فهو مدفوع وان لم يبق معك فهو مرفوع مقبول (الحجة الرابعة) ان صاحب الكرامة انما وجد الكرامة لاظهار الذل والتواضع في حضرة الله فاذا ترفع وتجبر وتكبر بسبب تلك الكرامات فقد بطل ما به وصل الى الكرامات فهذا طريق ثبوته يؤديه الى عدمه فكان مردودا ولهذا المعنى لما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم مناقب نفسه وفضائلها كان يقول في آخر كل واحد منها ولا فخر يعني لا افتخر بهذه الكرامات وانما افتخر بالمكرم والمعطي (الحجة الخامسة) ان ظاهر الكرامات في حق ابليس وفي حق بلعام كان عظيما ثم قيل لابليس وكان من الكافرين وقيل لبلعام فمثله كمثل الكلب وقيل لعلماء بني اسرائيل مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا وقيل ايضا في حقهم وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم فبين ان وقوعهم في الظلمات والضلالات كان بسبب فرحهم بما اوتوا من العلم والزهد (الحجة السادسة) ان الكرامة غير المكرم وكل ما هو غير المكرم فهو ذليل وكل من تعزز بالذليل فهو ذليل ولهذا المعنى قال الخليل صلوات الله عليه أما اليك فلا فالاستغناء بالفقير فقر والتقوى بالعاجز عجز والاستكمال بالناقص نقصان والفرح بالمحدث بله والاقبال بالكلية على الحق خلاص فثبت ان الفقير اذا ابتهج بالكرامة سقط عن درجته اما اذا كان لا يشاهد في الكرامات الا المكرم ولا في الاعزاز الا المعز ولا في الخلق الا الخالق فهنالك يحق الوصول (الحجة السابعة) ان الافتخار بالنفس وبصفاتها من صفات ابليس وفرعون قال ابليس انا خير منه وقال فرعون أليس لي ملك مصر وكل من

اسم الفاعل وعند الكسائي وهشام وابي جعفر من البصريين يجوز اعماله مطلقا والذراع من المرفق الى رأس الاصبع الوسطى (بالوصيد) اي بموضع الباب من الكهف ( لو اطلعت عليهم ) اي لو عاينتهم وشاهدتهم واصل الاطلاع الاشراف على الشئ بالمعاينة والمشاهدة وقرئ بضم الواو (لوليت منهم فرارا ) هربا مما شاهدت منهم وهو اما نصب على المصدرية من معنى ما قبله اذ التولية والفرار من واد واحد واما على الحالية بجعل المصدر بمعنى الفاعل اى فارا او بجعل الفاعل مصدرا مبالغة كما في قولها * فانما هي اقبال وادبار * واما على انه مفعول له ( ولملئت منهم رعبا ) وقرئ بضم العين اى خوفا يملأ الصدر ويرعبه وهو اما مفعول ثان او تمييز وذلك لما البسهم الله عز وجل من الهيبة والهيئة كانت اعينهم مفتحة كالمستيقظ الذي يريد ان يتكلم وقيل لطول اظفارهم وشعورهم ولا يساعده قولهم لبثنا يوما او بعض يوم وقوله ولا يشعرن بكم أحدا فأن الظاهر من ذلك عدم اختلاف أحوالهم في أنفسهم وقيل لعظم اجرامهم ولعل تأخير هذا من ذكر التولية للايذان باستقلال كل منهما في الترتب على الاطلاع اذ لو روعي ترتيب الوجود لتبادر الى الفهم ترتب المجموع من حيث هو هو عليه وللاشعار بعدم زوال الرعب بالفرار كما هو المعتاد وعن معاوية لما غزا الروم فمر بالكهف قال

لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا اليهم فقال له ابن عباس رضي الله عنهما ليس لك ذلك قد منع الله تعالى من هو خير منك حيث قال (ادعى)

ادعى الالهية او النبوة بالكذب فليس له غرض الا تزيين النفس وتقوية الحرص والعجب ولهذا قال عليه السلام ثلاث مهلكات وختمها بقوله واعجاب المرء بنفسه ( الحجة الثامنة ) انه تعالى قال فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين فلما اعطاه الله العطية الكبرى امره بالاشتغال بخدمة المعطى لا بالفرح بالعطية ( الحجة التاسعة ) ان النبي صلى الله عليه وسلم لما خيره الله بين ان يكون ملكا نبيا وبين ان يكون عبدا نبيا ترك الملك ولاشك ان وجدان الملك الذي يعم المشرق والمغرب من الكرامات بل من المعجزات ثم انه صلى الله عليه وسلم ترك ذلك الملك واختار العبودية لانه اذا كان عبدا كان افتخاره بمولاه واذا كان ملكا كان افتخاره بعبيده فلما اختار العبودية لاجرم جعل السنة التي في التحيات التي رواها ابن مسعود واشهد ان محمدا عبده ورسوله وقيل في المعراج سبحان الذي اسرى بعبده ( الحجة العاشرة ) ان محب المولى غير ومحب ما للمولى غير فمن احب المولى لم يفرح بغير المولى ولم يستأنس بغير المولى فالاستئناس بغير المولى والفرح بغيره يدل على انه ما كان محبا للمولى بل كان محبا للنصيب نفسه ونصيب النفس انما يطلب للنفس فهذا الشخص ما احب الا نفسه وما كان المولى محبوبا له بل جعل المولى وسيلة الى تحصيل ذلك المطلوب والصنم الاكبر هو النفس كما قال تعالى افرأيت من اتخذ الهه هواه فهذا الانسان عابد للصنم الاكبر حتى ان المحققين قالوا لا مضرة في عبادة شيء من الاصنام مثل المضرة الحاصلة في عبادة النفس ولا خوف من عبادة الاصنام كالخوف من الفرح بالكرامات ( الحجة الحادية عشرة ) قوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه وهذا يدل على ان من لم يتق الله ولم يتوكل عليه لم يحصل له شيء من هذه الافعال والاحوال (المسئلة الثامنة) في ان الولي هل يعرف كونه وليا قال الاستاذ ابو بكر بن فورك لا يجوز وقال الاستاذ ابو علي الدقاق وتلميذه ابو القاسم القشيري يجوز وحجة المانعين وجوه ( الحجة الاولى ) لو عرف الرجل كونه وليا لحصل له الامن بدليل قوله تعالى ألا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون لكن حصول الامن غير جائز ويدل عليه وجوه ( احدها ) قوله تعالى فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون واليأس ايضا غير جائز لقوله تعالى انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ولقوله تعالى ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون والمعنى فيه ان الامن لا يحصل الا عند اعتقاد العجز واليأس لا يحصل الا عند اعتقاد البخل واعتقاد العجز والبخل في حق الله كفر فلا جرم كان حصول الامن والقنوط كفرا ( الثاني ) ان الطاعات وان كثرت الا ان قهر الحق اعظم ومع كون القهر غالبا لا يحصل الامن ( الثالث ) ان الامن يقتضي زوال العبودية وترك الخدمة والعبودية يوجب العداوة والامن يقتضي ترك الخوف ( الرابع ) انه تعالى وصف المخلصين بقوله ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين قيل رغبا في ثوابنا ورهبا من عقابنا

لو اطلعت عليهم الآية قال معاوية لا انتهى حتى اعلم علمهم ( ٦٩٣ ) فبعث ناسا وقال لهم اذهبوا فانظروا ففعلوا فلما دخلوا الكهف بعث الله تعالى ريحا فأحرقتهم وقرئ بتشديد اللام على التكثير وبابدال الهمزة ياء مع التخفيف والتشديد ( وكذلك بعثناهم ) اى كما أنمناهم وحفظنا اجسادهم من البلى والتحلل آية دالة على كمال قدرتنا بعثناهم من النوم ( ليتساءلوا بينهم ) اى ليسأل بعضهم بعضا فيترتب عليه ما فصل من الحكم البالغة وجعله غاية للبعث المعلل فيما سبق بالاختيار من حيث انه من احكامه المترتبة عليه والاقتصار على ذكره لاستتباعه لسائر آثاره (قال) استئناف لبيان تساءلهم (قائل منهم) هو رئيسهم واسمه مكسلمينا (كم لبثتم) في منامكم لعله قاله لما رأى من مخالفة حالهم لما هو المعتاد في الجملة ( قالوا ) اى بعضهم (لبثنا يوما او بعض يوم) قيل انما قالوه لما انهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم آخر النهار فقالوا لبثنا يوما فلما رأوا ان الشمس لم تغرب بعد قالوا او بعض يوم وكان ذلك بناء على الظن الغالب فلم يعزوا الى الكذب ( قالوا ) اى بعض آخر منهم بما سنح لهم من الادلة او بالهام من الله سبحانه ( ربكم اعلم بما لبثتم ) اى أنتم لا تعلمون مدة لبثكم وانما يعلمها الله سبحانه وهذا رد منهم على الاولين بأجمل ما يكون من مراعاة حسن الادب وبه يتحقق التحزب الى الحزبين المعهودين فيما سبق وقد قيل القائلون جميعهم ولكن في حالتين ولا يساعده النظم الكريم فان الاستئناف في الحكاية والخطاب في المحكي يقتضي بأن الكلام جار على منهاج المحاورة والمجاوبة والاقبال ثم قالوا ربنا اعلم بما لبثنا ( فابعثوا احدكم بورقكم هذه الى المدينة ) قالوه

اعراضا عن التعمق فى البحث واقبالا على مايهمهم بحسب الحال كاينئ  عنه الغاء والورق الفضة مضروبة اوغير مضروبة

وقيل رغبا فى فضلنا ورهبا من عدلنا وقيل رغبا فى وصالنا ورهبا من فراقنا والاحسن ان يقال رغبا فينا ورهبا منا ( الحجة الثانية ) على ان الولى لايعرف كونه وليا ان الولى انما يصير وليا لاجل ان الحق يحبه لا لاجل انه يحب الحق وكذلك القول فى العدو ثم ان محبة الحق وعداوته سران لايطلع عليهما احد فطاعات العباد ومعاصيهم لا تؤثر فى محبة الحق وعداوته لان الطاعات والمعاصى محدثة وصفات الحق قديمة غير متناهية والمحدث المتناهى لايصير غالبا للقديم غير المتناهى وعلى هذا التقدير فربما كان العبد فى الحال فى عين المعصية الا ان نصيبه من الازل عين المحبة وربما كان العبد فى الحال فى عين الطاعة ولكن نصيبه من الازل عين العداوة وتمام التحقيق ان محبته وعداوته صفة وصفة الحق غير معللة ومن كانت محبته لا لعلة فانه يمتنع ان يصير عدوا بعلة المعصية ومن كانت عداوته لا لعلة يمتنع ان يصير محبا لعلة الطاعة ولما كانت محبة الحق وعداوته سرين لايطلع عليهما لا جرم قال عيسى عليه السلام تعلم ما فى نفسى ولا اعلم ما فى نفسك انك انت علام الغيوب ( الحجة الثالثة ) على ان الولى لايعرف كونه وليا ان الحكم بكونه وليا وبكونه من اهل الثواب والجنة يتوقف على الخاتمة والدليل عليه قوله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ولم يقل من عمل حسنة فله عشر امثالها وهذا يدل على ان استحقاق الثواب مستفاد من الخاتمة لا من اول العمل والذى يؤكد ذلك انه لو مضى عمره فى الكفر ثم اسلم فى آخر الامر كان من اهل الثواب وبالضد وهذا يدل على ان العبرة بالخاتمة لا بأول العمل ولهذا قال تعالى قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف فثبت ان العبرة فى الولاية والعداوة وكونه من اهل الثواب او من اهل العقاب بالخاتمة فظهر ان الخاتمة غير معلومة لأحد فوجب القطع بأن الولى لايعلم كونه وليا اما الذين قالوا ان الولى قد يعرف كونه وليا فقد احتجوا على صحة قولهم بأن الولاية لها ركنان ( احدهما ) كونه فى الظاهر منقادا للشريعة ( الثانى ) كونه فى الباطن مستغرقا فى نور الحقيقة فاذا حصل الامران وعرف الانسان حصولهما عرف لامحالة كونه وليا اما الانقياد فى الظاهر للشريعة فظاهر واما استغراق الباطن فى نور الحقيقة فهو ان يكون فرحه بطاعة الله واستئناسه بذكر الله وان لا يكون له استقرار مع شئ سوى الله ( والجواب ) ان تداخل الاغلاط فى هذا الباب كثيرة غامضة والقضاء عسر والتجربة خطر والجزم غرور ودون الوصول الى عالم الربوبية استار تارة من النيران واخرى من الانوار والله العالم بحقائق الاسرار ولنرجع الى التفسير * قوله تعالى ( نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا ) اعلم انه تعالى ذكر من قبل جملة من واقعتهم ثم قال نحن نقص عليك نبأهم بالحق اى على وجه الصدق

ووصفها باسم الاشارة يشعر بأن القائل ناولها بعض اصحابه ليشترى بها قوت يومهم ذلك وقرئ بسكون الراء وبادغام القاف فى الكاف وبكسر الواو وبسكون الراء مع الادغام وجعلهم لها دليل على ان التزود لاينافى التوكل على الله تعالى ( فلينظر أيها ) اى اهلها ( ازكى ) احل واطيب او اكثر وارخص (طعاما فليأتكم برزق منه) اى من ذلك الازكى طعاما ( وليتلطف ) وليتكلف اللطف فى المعاملة كى لا يغبن او فى الاستخفاء لئلا يعرف (ولا يشعرن بكم احدا ) من اهل المدينة فانه يستدعى شيوع اخباركم اى لا يفعلن مايؤدى الى ذلك فالنهى على الاول تأسيس وعلى الثانى تأكيد للامر بالتلطف ( انهم ) تعليل لما سبق من الامر والنهى اى ليبالغ فى التلطف وعدم الاشعار لانهم ( ان يظهروا عليكم ) اى يطلعوا عليكم او يظفروا بكم والضمير للاهل المقدر فى أيها (يرجموكم) ان ثبتم على ماأنتم عليه ( او يعيدوكم فى ملتهم ) اى يصيروكم اليها ويدخلوكم فيها كرها من العود بمعنى الصيرورة كقوله تعالى او لتعودن فى ملتنا وقيل كانوا اولا على دينهم وايثار كلمة فى على كلمة الى للدلالة على الاستقرار الذى هو اشد شئ عندهم كراهة وتقديم احتمال الرجم على احتمال الاعادة لان الظاهر من حالهم هو الثبات على الدين المؤدى اليه وضمير الخطاب فى المواضع الاربعة للمبالغة فى حمل المبعوث على الاستخفاء وحث الباقين على الاهتمام بالتوصية فان امحاض النصح ادخل فى القبول واهتمام الانسان بشأن نفسه اكثر واوفر (انهم)

انهم فتية آمنوا بربهم كانوا جماعة من الشبان آمنوا بالله ثم قال تعالى فى صفاتهم وربطنا على قلوبهم اى الهمناها الصبر وثبتناها اذ قاموا وفى هذا القيام اقوال (الاول) قال مجاهد كانوا عظماء مدينتهم فخرجوا فاجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد فقال رجل منهم اكبر القوم انى لأجد فى نفسى شيئا ما اظن ان احدا يجده قالوا ما تجد قال اجد فى نفسى ان ربى رب السموات والارض (القول الثانى) انهم قاموا بين يدى ملكهم دقيانوس الجبار وقالوا ربنا رب السموات والارض وذلك لانه كان يدعو الناس الى عبادة الطواغيت فثبت الله هؤلاء الفتية وعصمهم حتى عصوا ذلك الجبار وأقروا بربوبية الله وصرحوا بالبراءة عن الشركاء والانداد (القول الثالث) وهو قول عطاء ومقاتل انهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم وهذا بعيد لان الله استأنف قصتهم بقوله نحن نقص عليك وقوله لقد قلنا اذا شططا معنى الشطط فى اللغة مجاوزة الحد قال الفراء يقال قد أشط فى السوم اذا جاوز الحد ولم يسمع الا اشط يشط اشطاطا وشططا وحكى الزجاج وغيره شط الرجل واشط اذا جاوز الحد ومنه قوله ولا تشطط واصل هذا من قولهم شطت الدار اذا بعدت فالشطط البعد عن الحق وهو ههنا منصوب على المصدر والمعنى لقد قلنا اذا قولا شططا اما قوله هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة هذا من قول اصحاب الكهف ويعنون الذين كانوا فى زمان دقيانوس عبدوا الاصنام لولا يأتون هلا يأتون عليهم بسلطان بين بحجة بينة ومعنى عليهم اى على عبادة الآلهة ومعنى الكلام ان عدم البينة بعدم الدلائل على ذلك لا يدل على عدم المدلول ومن الناس من يحتج بعدم الدليل على عدم المدلول ويستدل على صحة هذه الطريقة بهذه الآية فقال انه تعالى استدل على عدم الشركاء والاضداد بعدم الدليل عليها فثبت ان الاستدلال بعدم الدليل على عدم المدلول طريقة قوية ثم قال فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا يعنى ان الحكم بثبوت الشئ مع عدم الدليل عليه ظلم وافتراء على الله وكذب عليه وهذا من اعظم الدلائل على فساد القول بالتقليد ❊ قوله تعالى (واذ اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) اعلم ان المراد انه قال بعضهم لبعض واذ اعتزلتموهم واعتزلتم الشئ الذى يعبدونه الا الله فانكم لم تعتزلوا عبادة الله فأووا الى الكهف قال الفراء هو جواب اذ كما تقول اذ فعلت كذا فافعل كذا ومعناه اذهبوا اليه واجعلوه مأواكم ينشر لكم ربكم من رحمته اى يبسطها عليكم ويهيئ لكم من أمركم مرفقا قرأ نافع وابن عامر وعاصم فى رواية مرفقا بفتح الميم وكسر الفاء والباقون مرفقا بكسر الميم وفتح الفاء قال الفراء وهما لغتان واشتقاقهما من الارتفاق وكان الكسائى ينكر فى مرفق الانسان الذى فى اليد

( ولن تفلحوا اذا ) اى ان دخلتم فيها ولو بالكره والالجاء لن تفوزوا بخير (ابدا) لا فى الدنيا ولا فى الآخرة وفيه من التشديد فى التحذير مالا يخفى (وكذلك) اى وكما انمناهم وبعثناهم لما من ازديادهم فى مراتب اليقين (اعثرنا) اى اطلعنا الناس (عليهم ليعلموا) اى الذين اعثرناهم عليهم بما عاينوا من احوالهم العجيبة (ان وعد الله) اى وعده بالبعث او موعوده الذى هو البعث أو أن كل وعده أو كل موعوده فيدخل فيه وعده بالبعث أو البعث الموعود دخولا اوليا ( حق ) صادق لا خلف فيه أو ثابت لا مرد له لان نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يبعث (وأن الساعة) اى القيامة التى هى عبارة عن وقت بعث الخلائق جميعا للحساب والجزاء ( لا ريب فيها ) لا شك فى قيامها فان من شاهد أنه جل وعلا توفى نفوسهم وامسكها ثلثمائة سنة وأكثر حافظا أبدانها من التحلل والتفتت ثم ارسلها اليها لا يبقى له شائبة شك فى ان وعده تعالى حق وانه يبعث من فى القبور فيرد اليهم ارواحهم فيحاسبهم ويجزيهم بحسب اعمالهم ( اذ يتنازعون ) ظرف لقوله اعثرنا قدم عليه الغاية اظهارا لكمال العناية بذكرها لا لقوله ليعلموا كما قيل لدلالته على ان التنازع يحدث بعد الاعثار وليس كذلك اى اعثرناهم عليهم حين يتنازعون ( بينهم امرهم ) ليرتفع الخلاف ويتبين الحق قيل المتنازع فيه امر دينهم حيث كانوا مختلفين فى البعث فمن مقر له وجاحد به وقائل يقول ببعث الارواح دون الاجساد وآخر يقول ببعثهما معا قيل كان ملك المدينة حينئذ رجلا صالحا مؤمنا وقد اختلف اهل مملكته فى البعث حسبما فصل فدخل الملك بيته واغلق بابه وليس مسحا وجلس على رماد وسأل

الا كسر الميم وفتح الفاء والفراء يجيزه فى الامر وفى اليد وقيل هما لغتان الا ان الفتح اقيس والكسر اكثر وقيل المرفق ما ارتفقت به والمرفق بالفتح المرافق ثم قال تعالى وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وفيه مباحث.( البحث الاول ) قرأ ابن عامر تزور ساكنة الزاى المعجمة مشددة الراء مثل تحمر وقرأ عاصم وحمزة والكسائى تزاور بالالف والتخفيف والباقون تزاور بالتشديد والالف والكل بمعنى والتزاور هو الميل والانحراف ومنه زاره اذا مال اليه والزور الميل عن الصدق واما التشديد فأصله تتزاور سكنت التاء الثانية وادغمت فى الزاى واما التخفيف فهو تفاعل من الزور واما تزور فهو من الازورار ( البحث الثانى) قوله وترى الشمس اى انت ايها المخاطب ترى الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم وليس المراد ان من خوطب بهذا يرى هذا المعنى ولكن العادة فى المخاطبة تكون على هذا النحو ومعناه انك لو رأيته لرأيته على هذه الصورة ( البحث الثالث) قوله ذات اليمين اى جهة اليمين واصله ان ذات صفة اقيمت مقام الموصوف لانها تأنيث ذو فى قولهم رجل ذو مال وامرأة ذات مال والتقدير كأنه قيل تزاور عن كهفهم جهة ذات اليمين واما قوله واذا غربت تقرضهم ذات الشمال ففيه بحثان ( البحث الاول ) قال الكسائى قرضت المكان اى عدلت عنه وقال ابو عبيد القرض فى اشياء فمنها القطع وكذلك السير فى البلاد اى اذا قطعها تقول لصاحبك هل وردت مكان كذا فيقول المجيب انما قرضته فقوله تقرضهم ذات الشمال اى تعدل عن سمت رؤسهم الى جهة الشمال ( البحث الثانى ) للمفسرين ههنا قولان ( القول الاول ) ان باب ذلك الكهف كان مفتوحا الى جانب الشمال فاذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف واذا غربت كانت على شماله فضوء الشمس ما كان يصل الى داخل الكهف وكان الهواء الطيب والنسيم الموافق يصل اليه والمقصود ان الله تعالى صان اصحاب الكهف من ان يقع عليهم ضوء الشمس والا لفسدت اجسامهم فهى مصونة عن العفونة والفساد ( والقول الثانى ) انه ليس المراد ذلك وانما المراد ان الشمس اذا طلعت منع الله ضوء الشمس من الوقوع وكذا القول حال غروبها وكان ذلك فعلا خارقا للعادة وكرامة عظيمة خص الله بها اصحاب الكهف وهذا قول الزجاج واحتج على صحته بقوله ذلك من آيات الله قال ولو كان الامر كما ذكره اصحاب القول الاول لكان ذلك امرا معتادا مألوفا فلم يكن ذلك من آيات الله واما اذا حملنا الآية على هذا الوجه الثانى كان ذلك كرامة عجيبة فكانت من آيات الله واعلم انه تعالى اخبر بعد ذلك انهم كانوا فى متسع من الكهف ينالهم فيه برد الريح ونسيم الهواء قال وهم فى فجوة منه اى من الكهف والفجوة متسع فى مكان قال ابو عبيدة وجمعها فجوات ومنه الحديث فاذا وجد فجوة نص ثم قال تعالى ذلك من آيات الله وفيه قولان الذين قالوا انه يمنع وصول ضوء الشمس بقدرته قالوا المراد من قوله ذلك اى ذلك التزاور والميل والذين لم يقولوا به قالوا

( المراد )

ربه ان يظهر الحق فالقى الله عز وجل فى نفس رجل من ( ٦٩٦ ) رعيانهم فهدم ما سد به دقيانوس باب الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه فعند ذلك بعثهم الله تعالى فجرى بينهم من التقاول ما جرى روى ان المبعوث لما دخل المدينة اخرج الدرهم ليشترى به الطعام وكان على ضرب دقيانوس فاتهموه بأنه وجد كنزا فذهبوا به الى الملك فقص عليه القصة فقال بعضهم ان آباءنا اخبرونا بأن فتية فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء فانطلق الملك واهل المدينة من مسلم وكافر وابصروهم وكلموهم ثم قالت الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شر الانس والجن ثم رجعوا الى مضاجعهم فماتوا فألقى الملك عليهم ثيابه وجعل لكل منهم تابوتا من ذهب فرآهم فى المنام كارهين للذهب فجعلها من الساج وبنى على باب الكهف مسجدا وقيل لما انتهوا الى الكهف قال لهم الفتى مكانكم حتى ادخل اولا لئلا يفزعوا فدخل فعمى عليهم المدخل فبنوا ثمة مسجدا وقيل المتنازع فيه امر الفتية قبل بعثهم اى اعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم امرهم وما جرى بينهم وبين دقيانوس من الاحوال والاهوال ويتلقون ذلك من الاساطير وافواه الرجال وعلى التقديرين فالفاء فى قوله عز وجل ( فقالوا ) فصيحة اى اعثرناهم عليهم فرأوا ما رأوا فماتوا فقالوا اى قال بعضهم ( ابنوا عليهم ) اى على باب كهفهم ( بنيانا ) لئلا يتطرق اليهم الناس ضنا بتربتهم ومحافظة عليها وقوله تعالى ( ربهم اعلم بهم ) من كلام المتنازعين كأنهم لما رأوا عدم اهتدائهم الى حقيقة حالهم من حيث النسب ومن حيث العدد ومن حيث اللبث فى الكهف قالوا ذلك تفويضا للامر الى علام الغيوب

المراد بقوله ذلك اى ذلك الحفظ الذى حفظهم الله فى ذلك الغار تلك المدة الطويلة من آيات الله الدالة على عجائب قدرته وبدائع حكمته ثم بين تعالى انه كما ان بقاءهم هذه المدة الطويلة مصونا عن الموت والهلاك من تدبيراته ولطفه وكرمه فكذلك رجوعهم اولا عن الكفر ورغبتهم فى الايمان كان باعانة الله ولطفه فقال من يهد الله فهو المهتدى مثل اصحاب الكهف ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا كدقيانوس الكافر واصحابه ومناظرات اهل الجبر والقدر فى هذه الآية معلومة ❊ قوله تعالى (وتحسبهم ايقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا) اعلم ان معنى قوله وتحسبهم على ماذكرناه فى قوله وترى الشمس اى لو رأيتهم لحسبتهم ايقاظا وهو جمع يقظ ويقظان قاله الاخفش وابو عبيدة والزجاج وانشدوا لرؤبة * ووجدوا اخوانهم ايقاظا * ومثله قوله نجدو نجدان وانجاد وهم رقود اى نائمون وهو مصدر سمى المفعول به كما يقال قوم ركوع وقعود وسجود بوصف الجمع بالمصدر ومن قال انه جمع راقد فقد ابعد لانه لم يجمع فاعل على فعول قال الواحدى وانما يحسبون ايقاظا لان اعينهم مفتحة وهم نيام وقال الزجاج لكثرة تقلبهم يظن انهم ايقاظ والدليل عليه قوله تعالى ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال واختلفوا فى مقدار مدة التقليب فعن ابى هريرة رضى الله عنه ان لهم فى كل عام تقليبتين وعن مجاهد يمكثون على ايمانهم تسع سنين ثم يقلبون على شمائلهم فيمكثون رقودا تسع سنين وقيل لهم تقليبة واحدة فى يوم عاشوراء واقول هذه التقديرات لاسبيل للعقل اليها ولفظ القرآن لايدل عليه وماجاء فيه خبر صحيح فكيف يعرف وقال ابن عباس رضى الله عنهما فائدة تقليبهم لئلا تأكل الارض لحومهم ولاتبليهم واقول هذا عجيب لانه تعالى لماقدر على ان يمسك حياتهم مدة ثلثمائة سنة واكثر فلم لايقدر على حفظ اجسادهم ايضا من غير تقليب وقوله ذات منصوبة على الظرف لان المعنى نقلبهم فى ناحية اليمين او على ناحية اليمين كما قلنا فى قوله تزاور عن كهفهم ذات اليمين وقوله وكلبهم باسط ذراعيه قال ابن عباس واكثر المفسرين قالوا انهم هربوا ليلا من ملكهم فروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم ومعه كلبه وقال كعب مروا بكلب فنبح عليهم فطردوه فعاد ففعلوا مرارا فقال لهم الكلب ماتريدون منى لاتخشوا جانبى انا احب احباء الله فناموا حتى احرسكم وقال عبيد ابن عمير كان ذلك كلب صيدهم ومعنى باسط ذراعيه اى يلقيهما على الارض مبسوطتين غير مقبوضتين ومنه الحديث فى الصلاة انه نهى عن افتراش السبع وقال لاتفترش ذراعيك افتراش السبع قوله بالوصيد يعنى فناء الكهف قال الزجاج الوصيد فناء البيت وفناء الدار وجمعه وصائد ووصد وقال يونس والاخفش والفراء الوصيد والاصيد لغتان مثل الوكاف والاكاف وقال السدى الوصيد الباب والكهف لايكون له باب ولاعتبة وانما أراد ان الكلب منه بموضع العتبة من البيت ثم قال لو اطلعت عليهم اى اشرفت

فى الموت والنوم حيث اختلفوا فى انهم ماتوا اوناموا كما فى اول مرة فاذ حينئذ متعلق بقوله تعالى ( قال الذين غلبوا على امرهم ) وهم الملك والمسلمون ( لنتخذن عليهم مسجدا ) وقوله تعالى فقالوا معطوف على يتنازعون وايثار صيغة الماضى للدلالة على ان هذا القول ليس مما يستمر ويتجدد كالتنازع وقيل متعلق باذكر مضمرا واما تعلقه بأعثرنا فيأباه ان اعثارهم ليس فى زمان تنازعهم فيما ذكر بل قبله وجعل وقت التنازع ممتدا يقع فى بعضه الاعثار وفى بعضه التنازع تعسف لايخفى مع انه لامخصص لاضافته الى التنازع وهو مؤخر فى الوقوع ( سيقولون ) الضمير فى الافعال الثلاثة للخائضين فى قصتهم فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام من اهل الكتاب والمسلمين لكن لاعلى وجه اسناد كل منها الى كلهم بل الى بعضهم ( ثلاثة رابعهم كلبهم ) اى هم ثلاثة اشخاص رابعهم اى جاعلهم اربعة بانضمامه اليهم كلبهم قيل قالته اليهود وقيل قاله السيد من نصارى نجران وكان يعقوبيا وقرئ ثلاث بادغام الثاء فى التاء ( ويقولون خمسة سادسهم كلبهم ) قيل قالته النصارى او العاقب منهم وكان نسطوريا ( رجما بالغيب ) رميا بالخبر الخفى الذى لامطلع عليه اوظنا بالغيب من قولهم رجم بالظن اذا ظن وانتصابه على الحالية من الضمير فى الفعلين جميعا اى راجمين او على المصدرية منهما فان الرجم والقول واحد اومن

عليهم يقال اطلعت عليهم اى اشرفت عليهم ويقال اطلعت فلانا على الشئ فاطلع وقوله لو ليت منهم فرارا قال الزجاج قوله فرارا منصوب على المصدر لان معنى وليت منهم فررت ولملئت منهم رعبا اى فزعا وخوفا قيل فى التفسير طالت شعورهم واظفارهم وبقيت اعينهم مفتوحة وهم نيام فلهذا السبب لو رآهم الرائى لهرب منهم مرعوبا وقيل انه تعالى جعلهم بحيث كل من رآهم فزع فزعا شديدا فاما تفصيل سبب الرعب فالله اعلم به وهذا هو الاصح وقوله ولملئت منهم رعبا قرأ نافع وابن كثير لملئت بتشديد اللام والهمزة والباقون بتخفيف اللام وروى عن ابن كثير بالتخفيف والمعنى واحد الا ان فى التشديد مبالغة قال الاخفش الخفيفة اجود فى كلام العرب يقال ملأتنى رعبا ولا يكادون يعرفون ملأتنى ويدل على هذا اكثر استعمالهم كقوله * فيملأ بيتنا اقطا وسمنا * وقول الآخر

ومن مالئ عينيه من شئ غيره * اذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

وقال الآخر * لاتملأ الولد وعرق فيها * وقال الآخر * امتلا الحوض وقال قطنى * وقد جاء التثقيل ايضا وانشدوا للمخبل السعدى

واذ قتل النعمان بالناس محرما * فملئ من عوف بن كعب سلاسله

وقرأ ابن عامر والكسائى رعبا بضم العين فى جميع القرآن والباقون بالاسكان * قوله تعالى (وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما او بعض يوم قالوا ربكم اعلم بما لبثتم فابعثوا احدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر ايها ازكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولايشعرن بكم احدا انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم او يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذا ابدا ) اعلم ان التقدير وكما زدناهم هدى وربطنا على قلوبهم فضربنا على آذانهم وانمناهم وابقيناهم احياء لايأكلون ولايشربون ونقلبهم فكذلك بعثناهم اى احييناهم من تلك النومة التى تشبه الموت ليتساءلوا بينهم تساءل تنازع واختلاف فى مدة لبثهم فان قيل هل يجوز ان يكون الغرض من بعثهم ان يتساءلوا ويتنازعوا قلنا لايبعد ذلك لانهم اذا تساءلوا انكشف لهم من قدرة الله تعالى امور عجيبة واحوال غريبة وذلك الانكشاف امر مطلوب لذاته ثم قال تعالى قال قائل منهم كم لبثتم اى كم مقدار لبثنا فى هذا الكهف قالوا لبثنا يوما او بعض يوم قال المفسرون انهم دخلوا الكهف غدوة وبعثهم الله فى آخر النهار فلذلك قالوا لبثنا يوما فلما رأوا الشمس باقية قالوا او بعض يوم ثم قال تعالى قالوا ربكم اعلم بما لبثتم قال ابن عباس هو رئيسهم يمليخا رد علم ذلك الى الله تعالى لانه لما نظر الى اشعارهم واظفارهم وبشرة وجوههم رأى فيها آثار التغير الشديد فعلم ان مثل ذلك التغير لايحصل الا فى الايام الطويلة ثم قال فابعثوا احدكم بورقكم هذه الى المدينة قرأ ابو عمرو وحمزة وابو بكر عن عاصم بورقكم ساكنة الراء مفتوحة الواو ومنهم من قرأ مكسورة الواو ساكنة الراء وقرأ ابن كثير بورقكم بكسر الراء وادغام القاف فى الكاف وعن ابن محيصن انه كسر الواو واسكن الراء وادغم القاف

نظمه فى سلك الرجم بالغيب وتغيير سبكه بزيادة الواو المفيدة لزيادة وكادة النسبة فيما بين طرفيها لابوحى آخر كما قيل (قل) تحقيقا للحق وردا على الاولين ( ربى اعلم ) اى اقوى علما ( بعدتهم ) بعددهم (مايعلمهم) اى مايعلم عدتهم اومايعلمهم فضلا عن العلم بعدتهم (الاقليل) من الناس قد وفقهم الله تعالى للاستشهاد بتلك الشواهد قال ابن عباس رضى الله عنه حين وقعت الواو انقطعت العدة وعليه مدار قوله رضى الله عنه انا من ذلك القليل ولو كان فى ذلك وحى آخر لما خفى عليه ولما احتاج الى الاستشهاد بالواو ولكان المسلمون اسوته فى العلم بذلك وعن على كرم الله وجهه انهم سبعة نفر اسماؤهم يمليخا ومكشلينيا ومشلينيا هؤلاء اصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان يستشير هؤلاء الستة فى امره والسابع الراعى الذى وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس واسمه كفيشيططيوش ( فلاتمار ) الفاء لتفريع النهى على ماقبله اى اذ قد عرفت جهل اصحاب القولين الاولين فلا تجادلهم ( فيهم ) فى شأن الفتية ( الامراء ظاهرا ) قدر ماتعرض له الوحى من وصفهم بالرجم بالغيب وعدم العلم على الوجه الاجمالى وتفويض العلم الى الله سبحانه من غير تصريح بجهلهم وتفضيح لهم فانه مما يخل بمكارم الاخلاق ( ولا تستفت فيهم ) فى شأنهم ( منهم ) من الخائضين ( احدا ) فان فيما قص عليك لمندوحة عن ذلك

مع انه لاعلم لهم بذلك وقال عطاء الاقليل من اهل الكتاب فالضمائر الثلاثة فى الافعال الثلاثة لهم وماذكر من الشواهد ( فى )

فى الكاف وهذا غير جائز لالتقاء الساكنين على هذه والورق اسم للفضة سواء كانت مضروبة ام لا ويدل عليه ماروى ان عرفجة اتخذ انفا من ورق وفيه لغات ورق وورق وورق مثل كبد وكبد وكبد ذكره القراء والزجاج قال الفراء وكسر الواو اردؤها ويقال ايضا للورق الرقة قال الازهرى اصله ورق مثل صلة وعدة قال المفسرون كانت معهم دراهم عليها صورة الملك الذى كان فى زمانهم يعنى بالمدينة التى يقال لها اليوم طرسوس وهذه الآية تدل على ان السعى فى امساك الزاد امر مهم مشروع وانه لا يبطل التوكل وقوله فلينظر ايها ازكى طعاما قال ابن عباس يريد ما حل من الذبائح لان عامة اهل بلدهم كانوا مجوسا وفيهم قوم يخفون ايمانهم وقال مجاهد كان ملكهم ظالما فقولهم ازكى طعاما يريدون ايها ابعد عن الغصب وقيل ايها اطيب والذ وقيل ايها ارخص قال الزجاج قوله ايها رفع بالابتداء وازكى خبره وطعاما نصب على التمييز وقوله وليتلطف اى يكون ذلك فى سر وكتمان يعنى دخول المدينة وشراء الطعام ولا يشعرن بكم احدا اى لا يخبرن بمكانكم احدا من اهل المدينة انهم ان يظهروا عليكم اى يطلعوا ويشرفوا على مكانكم او على انفسكم من قولهم ظهرت على فلان اذا علوته وظهرت على السطح اذا صرت فوقه ومنه قوله تعالى فأصبحوا ظاهرين اى عالين وكذلك قوله ليظهره على الدين كله اى ليعليه وقوله يرجموكم يقتلوكم والرجم بمعنى القتل كثير فى التنزيل كقوله ولولا رهطك لرجمناك وقوله ان ترجمون واصله الرمى قال الزجاج اى يقتلوكم بالرجم والرجم اخبث انواع القتل وقوله او يعيدوكم فى ملتهم اى يردوكم الى دينهم ولن تفلحوا اذا ابدا اى ان رجعتم الى دينهم لن تسعدوا فى الدنيا ولا فى الآخرة قال الزجاج قوله اذا ابدا يدل على الشرط اى ولن تفلحوا ان رجعتم الى ملتهم ابدا قال القاضى ما على المؤمن الفار بدينه اعظم من هذين فأحدهما فيه هلاك النفس وهو الرجم الذى هو اخبث انواع القتل والآخر هلاك الدين بأن يردوا الى الكفر فان قيل أليس انهم لو اكرهوا على الكفر حتى انهم اظهروا الكفر لم يكن عليهم مضرة فكيف قالوا ولن تفلحوا اذا ابدا قلنا يحتمل ان يكون المراد انهم لو ردوا هؤلاء المسلمين الى الكفر على سبيل الاكراه بقوا مظهرين لذلك الكفر مدة فانه يميل قلبهم الى ذلك الكفر ويصيروا كافرين فى الحقيقة فهذا الاحتمال قائم فكان خوفهم منه والله اعلم ❊ قوله تعالى (وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا ان وعد الله حق وان الساعة لا ريب فيها اذ يتنازعون بينهم امرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم اعلم بهم قال الذين غلبوا على امرهم لنتخذن عليهم مسجدا سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى اعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم احدا) اعلم ان المعنى كما زدناهم هدى وربطنا على قلوبهم وانمناهم وقلبناهم وبعثناهم لما فيها من الحكم الظاهرة فكذلك اعثرنا عليهم اى اطلعنا غيرهم على احوالهم يقال عثرت على كذا اى

واحد ناشئا عن الحكاية مع كون الاخيرين بخلافه ووضوح فى سبب حذف المفعول فى الاثار والمعنى حينئذ واذ قد وقفت على ان كلهم ليسوا على خطأ فى ذلك فلا يجادلهم الاجدالا ظاهرا نطق به الوحى المبين من غير تجهيل لجميعهم فان فيهم مصيبا وان قل والنهى عن الاستفتاء لدفع ماعسى يتوهم من احتمال جوازه او احتمال وقوعه بناء على اصابة بعضهم فالمعنى لا تراجع اليهم فى شأن الفتية ولا تصدق القول الثالث من حيث صدوره عنهم بل من حيث التلقى من الوحى (ولا تقولن لشئ) اى لاجل شئ تعزم عليه (انى فاعل ذلك) الشئ (غدا) اى فيما يستقبل من الزمان مطلقا فيدخل فيه الغد دخولا اوليا فانه نزل حين قالت اليهود لقريش سلوه عن الروح وعن اصحاب الكهف وذى القرنين فسألوه عليه الصلاة والسلام فقال ائتونى غدا اخبركم ولم يستثن فأبطأ عليه الوحى حتى شق عليه وكذبته قريش وما قيل من ان المدلول بالعبارة هو الغد وما بعد ذلك مفهوم بطريق دلالة النص يرده ان ما بعده ليس بمعناه فى مناط النهى فان وسعة المجال دليل القدرة فليتأمل (الا ان يشاء الله) استثناء مفرغ من النهى اى لا تقولن ذلك فى حال من الاحوال الاحال ملابسته بمشيئته تعالى على الوجه المعتاد وهو ان يقال ان شاء الله او فى وقت من الاوقات الا وقت ان يشاء الله ان تقوله لا مطلقا بل مشيئة اذن فان النسيان ايضا بمشيئته تعالى ولا مساغ لتعليقه بفاعل لعدم سداد استثناء اقتران المشيئة بالفعل ومنافاة استثناء اعتراضها النهى وقيل الاستثناء جار مجرى التأبيد كأنه قيل لا تقولنه ابدا

علمته وقالوا ان اصل هذا ان من كان غافلا عن شئ فعثر به نظر اليه فعرفه فكان العثار سببا لحصول العلم والتبين فاطلق اسم السبب على المسبب واختلفوا فى السبب الذى لاجله عرف الناس واقعة اصحاب الكهف على وجهين (الاول) انه طالت شعورهم واظفارهم طولا مخالفا للعادة وظهرت فى بشرة وجوههم آثار عجيبة تدل على ان مدتهم قد طالت طولا خارجا عن العادة (والثانى) ان ذلك الرجل لما ذهب الى السوق ليشترى الطعام واخرج الدراهم لثمن الطعام قال صاحب الطعام هذه النقود غير موجودة فى هذا اليوم وانما كانت موجودة قبل هذا الوقت بمدة طويلة ودهر داهر فلعلك وجدت كنزا واختلف الناس فيه وحملوا ذلك الرجل الى ملك البلد فقال الملك من اين وجدت هذه الدراهم فقال بعت بها امس شيئا من التمر وخرجنا فرارا من الملك دقيانوس فعرف ذلك الملك انه ما وجد كنزا وان الله بعثه بعد موته ثم قال تعالى ليعلموا ان وعد الله حق يعنى انا انما اطلعنا القوم على احوالهم ليعلم القوم ان وعد الله حق بالبعث والحشر والنشر روى ان ملك ذلك الوقت كان ممن ينكر البعث الا انه كان مع كفره منصفا فجعل الله امر الفتية دليلا للملك وقيل بل اختلفت الامة فى ذلك الزمان فقال بعضهم الجسد والروح يبعثان جميعا وقال آخرون الروح تبعث واما الجسد فتأكله الارض ثم ان ذلك الملك كان يتضرع الى الله ان يظهر له آية يستدل بها على ما هو الحق فى هذه المسئلة فأطلعه الله تعالى على امر اصحاب اهل الكهف فاستدل ذلك الملك بواقعتهم على صحة البعث للاجساد لان انتباههم بعد ذلك النوم الطويل يشبه من يموت ثم يبعث فقوله اذ يتنازعون بينهم متعلق باعثرنا اى اعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم واختلفوا فى المراد بهذا التنازع فقيل كانوا يتنازعون فى صحة البعث فالقائلون به استدلوا بهذه الواقعة على صحته وقالوا كما قدر الله على حفظ اجسادهم مدة ثلثمائة سنة وتسع سنين فكذلك يقدر على حشر الاجساد بعد موتها وقيل ان الملك وقومه لما رأوا اصحاب الكهف ووقفوا على احوالهم عاد القوم الى كهفهم فأماتهم الله فعند هذا اختلف الناس فقال قوم انهم نيام كالكرة الاولى وقال آخرون بل الآن ماتوا (والقول الثالث) ان بعضهم قال الاولى ان يسد باب الكهف لئلا يدخل عليهم احد ولا يقف على احوالهم انسان وقال آخرون بل الاولى ان يبنى على باب الكهف مسجد وهذا القول يدل على ان أولئك الاقوام كانوا عارفين بالله معترفين بالعبادة والصلاة (والقول الرابع) ان الكفار قالوا انهم كانوا على ديننا فنتخذ عليهم بنيانا والمسلمون قالوا كانوا على ديننا فنتخذ عليهم مسجدا (والقول الخامس) انهم تنازعوا فى قدر مكثهم (والقول السادس) انهم تنازعوا فى عددهم واسمائهم ثم قال تعالى ربهم اعلم بهم وهذا فيه وجهان (احدهما) انه من كلام المتنازعين كأنهم لما تذاكروا امرهم وتناقلوا الكلام فى اسمائهم واحوالهم ومدة لبثهم فلما لم يهتدوا الى حقيقة ذلك قالوا ربهم اعلم بهم (الثانى) ان هذا من كلام الله تعالى ذكره ردا للخائضين فى حديثهم من اولئك المتنازعين

كقوله تعالى وماكان لنا ان نعود فيها الاان يشاءالله (واذكر ربك) بقولك ان شاءالله متداركاله (اذانسيت) اذافرطمنك نسيان ثم ذكرته وعن ابن عباس رضى الله عنهما ولو بعد سنة ما لم يحنث ولذلك جوز تأخير الاستثناء وعامة الفقهاء على خلافه اذ لو صح ذلك لما تقرر اقرار ولا طلاق ولا عتاق ولم يعلم صدق ولا كذب قال القرطبى هذا فى تدارك التبرك والتخلص عن الاثم واما الاستثناء المغير للحكم فلا يكون الامتصلا ويجوز ان يكون المعنى واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار اذا نسيت الاستثناء مبالغة فى الحث عليه اواذكر ربك وعقابه اذا تركت بعض ما امرك به ليبعثك ذلك على التدارك اواذكره اذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسى وقد حمل على اداء الصلاة المنسية عند ذكرها (وقل عسى ان يهدين ربى) اى يوفقنى (لأقرب من هذا) اى لشئ أقرب واظهر من نبأ اصحاب الكهف من الآيات والدلائل الدالة على نبوتى (رشدا) اى ارشادا للناس ودلالة على ذلك وقد فعل عزوجل ذلك حيث آتاه من البينات ما هو اعظم من ذلك وابين كقصص الانبياء المتباعد ايامهم والحوادث النازلة فى الاعصار المستقبلة الى قيام الساعة اولاقرب رشدا وادنى خيرا من المنسى (ولبثوا فى كهفهم) احياء مضروبا على آذانهم (ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا) وهى جملة مستأنفة مبينة لما اجمل فيما سلف واشير الى عزة مناله وقيل انه حكاية كلام اهل الكتاب فانهم اختلفوا فى مدة لبثهم كما اختلفوا فى عدتهم فقال بعضهم هكذا وبعضهم ثلثمائة وروى عن على رضى الله عنه انه قال عند اهل الكتاب انهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية والله تعالى ذكر السنة القمرية والتفاوت بينهما فى كل

( ثم )

ثم قال تعالى قال الذين غلبوا على امرهم قيل المراد به الملك المسلم وقيل اولياء اصحاب الكهف وقيل رؤساء البلد لنتخذن عليهم مسجدا نعبدالله فيه ونستبقي آثار اصحاب الكهف بسبب ذلك المسجد ثم قال تعالى سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم الضمير في قوله سيقولون عائد الى المتنازعين روى ان السيد والعاقب واصحابهما من اهل نجران كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجرى ذكر اصحاب الكهف فقال السيد وكان يعقوبيا كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم وقال العاقب وكان نسطوريا كانوا خمسة سادسهم كلبهم وقال المسلمون كانوا سبعة وثامنهم كلبهم قال اكثر المفسرين هذا الاخير هو الحق ويدل عليه وجوه (الاول) ان الواو في قوله وثامنهم هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة في نحو قولك جاءني رجل ومعه آخر ومررت بزيد وفي يده سيف ومنه قوله تعالى وما اهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم وفائدتها توكيد ثبوت الصفة للموصوف والدلالة على ان اتصافه بها امر ثابت مستقر فكانت هذه الواو دالة على صدق الذين قالوا انهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم وانهم قالوا قولا متقررا متحققا عن ثبات وعلم وطمأنينة نفس (الوجه الثاني) قالوا انه تعالى خص هذا الموضع بهذا الحرف الزائد وهو الواو فوجب ان تحصل به فائدة زائدة صونا للفظ عن التعطيل وكل من اثبت هذه الفائدة الزائدة قال المراد منها تخصيص هذا القول بالاثبات والتصحيح (الوجه الثالث) انه تعالى اتبع القولين الاولين بقوله رجما بالغيب وتخصيص الشيء بالوصف يدل على ان الحال في الباقي بخلافه فوجب ان يكون المخصوص بالظن الباطل هو القولان الاولان وان يكون القول الثالث مخالفا لهما في كونهما رجما بالظن ( الوجه الرابع ) انه تعالى لما حكى قولهم ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قال بعده قل ربي اعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل فاتباع القولين الاولين بكونهما رجما بالغيب واتباع هذا القول الثالث بقوله قل ربي اعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل يدل على ان هذا القول ممتاز عن القولين الاولين بمزيد القوة والصحة ( الوجه الخامس ) انه تعالى قال ما يعلمهم الا قليل وهذا يقتضي انه حصل العلم بعدتهم لذلك القليل وكل من قال من المسلمين قولا في هذا الباب قالوا انهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم فوجب ان يكون المراد من ذلك القليل هؤلاء الذين قالوا هذا القول * كان علي بن ابي طالب رضي الله عنه يقول كانوا سبعة واسماؤهم هذا يمليخا مكسلمينا مسلثينا وهؤلاء الثلاثة كانوا اصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوس ودبرنوس وسادنوس وكان الملك يستشير هؤلاء الستة في مهماته والسابع هو الراعي الذي وافقهم لما هربوا من ملكهم واسم كلبهم قطمير وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول أنا من اولئك العدد القليل وكان يقول انهم سبعة وثامنهم كلبهم (الوجه السادس) انه تعالى لما قال ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قال قل ربي اعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل والظاهر انه تعالى لما حكى الاقوال فقد حكى كل ما قيل من الحق والباطل لانه

المفرد ومما يحسنه ههنا ان علامة الجمع فيه جبر لما حذف في الواحد ون الاصل في العدد اضافته الى الجمع ( قل الله اعلم بما لبثوا ) اي بالزمان الذي لبثوا فيه ( له غيب السموات والارض ) اي ما غاب فيهما وخفي من احوال اهلهما واللام للاختصاص العلمي دون التكويني فانه غير مختص بالغيب (ابصر به واسمع) دل بصيغة التعجب على ان شان علمه سبحانه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه ادراك المدركين لا يحجبه شيء ولا يحول دونه حائل ولا يتفاوت بالنسبة اليه اللطيف والكثيف والصغير والكبير والخفي والجلي والهاء ضمير الجلالة ومحله الرفع على الفاعلية والباء مزيدة عند سيبويه وكان اصله ابصر اي صار ذا بصر ثم نقل الى صيغة الامر للانشاء فبرز الضمير لعدم لياقة الصيغة له اولزيادة الباء كما في كفى به والنصب على المفعولية عند الاخفش والفاعل ضمير المأمور وهو كل احد والباء مزيدة ان كانت الهمزة للتعدية ومعدية ان كانت للصيرورة ولعل تقديم امر ابصاره تعالى لما ان الذي نحن بصدده من قبيل المبصرات (ما لهم) لاهل السموات والارض (من دونه )تعالى ( من ولي ) يتولى امورهم وينصرهم استقلالا (ولا يشرك في حكمه) في قضائه اوفي علم الغيب(احدا) منهم ولا يجعل له فيه مدخلا وهو كما ترى بلغ في نفي الشريك من ان يقال من ولي ولا شريك وقرئ على صيغة نهي الحاضر على ان الخطاب لكل احد ولما دل انتظام

بعد انه تعالى ذكر الاقوال الباطلة ولم يذكر ماهو الحق فثبت ان جملة الاقوال الحقة والباطلة ليست الاهذه الثلاثة ثم خص الاولين بأنهما رجم بالغيب فوجب ان يكون الحق هو هذا الثالث (الوجه السابع) انه تعالى قال لرسوله فلاتمار فيهم الامراء ظاهرا ولاتستفت فيهم منهم احدا فنعه الله تعالى عن المناظرة معهم وعن استفتائهم فى هذا الباب وهذا انما يكون لو علمه حكم هذه الواقعة وايضا انه تعالى قال مايعلمهم الاقليل وبعد ان يحصل العلم بذلك لغير النبى ولايحصل للنبى فعلمنا ان العلم بهذه الواقعة حصل للنبى عليه السلام والظاهر انه لم يحصل ذلك العلم الابهذا الوحى لان الاصل فيما سواه العدم وان يكون الامر كذلك فكان الحق هو قوله ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم واعلم ان هذه الوجوه وان كان بعضها اضعف من بعض الا انه لما تقوى بعضها ببعض حصل فيه كمال وتمام والله اعلم بقى فى الآية مباحث (البحث الاول) فى الآية حذف والتقدير سيقولون هم ثلاثة فحذف المبتدأ لدلالة الكلام عليه (البحث الثانى) خص القول الاول بسين الاستقبال وهو قوله سيقولون والسبب فيه ان حرف العطف يوجب دخول القولين الآخرين فيه (البحث الثالث) الرجم هو الرمى والغيب ماغاب عن الانسان فقوله رجما بالغيب معناه ان يرمى ماغاب عنه ولايعرفه بالحقيقة يقال فلان يرمى بالكلام رميا اى يتكلم من غير تدبر (البحث الرابع) ذكروا فى فائدة الواو فى قوله وثامنهم كلبهم وجوها (الاول) ماذكرنا انه يدل على ان هذا القول اولى من سائر الاقوال (وثانيها) ان السبعة عند العرب اصل فى المبالغة فى العدد قال تعالى ان تستغفر لهم سبعين مرة واذا كان كذلك فاذا وصلوا الى الثمانية ذكروا لفظا يدل على الاستئناف فقالوا وثمانية فجاء هذا الكلام على هذا القانون قالوا ويدل عليه نظيره فى ثلاث آيات وهى قوله والناهون عن المنكر لان هذا هو العدد الثامن من الاعداد المتقدمة وقوله حتى اذا جاؤها وفتحت ابوابها لان ابواب الجنة ثمانية وابواب النار سبعة وقوله ثيبات وابكارا لان قوله وابكارا هو العدد الثامن مما تقدم والناس يسمون هذه الواو واو الثمانية ومعناه ماذكرناه قال القفال وهذا ليس بشئ والدليل عليه قوله تعالى هو الله الذى لااله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ولم يذكر الواو فى النعت الثامن ثم قال تعالى قل ربى اعلم بعدتهم مايعلمهم الاقليل وهذا هو الحق لان العلم بتفاصيل كائنات العالم والحوادث التى حدثت فى الماضى والمستقبل لاتحصل الاعند الله تعالى والاعند من اخبره الله عنها وقال ابن عباس انا من اولئك القليل قال القاضى ان كان قدعرفه ببيان الرسول صح وان كان قدتعلق فيه بحرف الواو فضعيف ويمكن ان يقال الوجوه السبعة المذكورة وان كانت لاتفيد الجزم الا انها تفيد الظن واعلم انه تعالى لما ذكر هذه القصة اتبعه بأن نهى رسوله عن شيئين عن المراء والاستفتاء اما النهى عن المراء فقوله فلاتمار فيهم الامراء ظاهرا والمراد من المراء الظاهر ان لايكذبهم فى تعيين ذلك العدد بل يقول هذا التعيين لادليل

(عليه)

السلام بالمداومة على دراسته فقال ( واتل مااوحى اليك من كتاب ربك ) ولاتسمع لقولهم ائت بقرآن غير هذا اوبدله (لامبدل لكلماته) لاقادر على تبديله وتغييره غيره (ولن تجد) ابد الدهر وان بالغت فى الطلب (من دونه ملتحدا ) ملجأ تعدل اليه عند الملم ملمة ( واصبر نفسك ) احبسها وثبتها مصاحبة (مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) اى دائبين على الدعاء فى جميع الاوقات وقيل فى طرفى النهار وقرئ بالغدوة على ان ادخال اللام عليها وهى علم فى الاغلب على تأويل التنكير والمراد بهم فقراء المؤمنين مثل صهيب وعمار وخباب ونحوهم رضى الله عنهم وقيل اصحاب الصفة وكانوا نحو سبعمائة رجل قيل انه قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم نح هؤلاء الموالى الذين كان ريحهم ريح الضأن حتى نجالسك كما قال قوم نوح عليه السلام أنؤمن لك واتبعك الارذلون فنزلت والتعبير عنهم بالموصول لتعليل الامر بما فى حيز الصلة من الخصلة الداعية الى ادامة الصحبة ( يريدون ) بدعائهم ذلك ( وجهه ) حال من المستكن فى يدعون اى مريدين لرضاه تعالى وطاعته ( ولاتعد عيناك عنهم) اى لايجاوزهم نظرك الى غيرهم من عداه اى جاوزه واستعماله بعن لتضمينه معنى النبو اولاتصرف عيناك النظر عنهم الى غيرهم من عدوته عن الامر اى صرفته عنه على ان المفعول محذوف لظهوره وقرئ ولاتعد عينيك ولاتعد عينيك من الاعداء والتعدية والمراد نهيه عليه السلام عن الازدراء بهم لرثاثة زيهم طموحا الى زى الاغنياء (تريد زينة الحياة الدنيا ) اى تطلب مجالسة الاشراف والاغنياء واصحاب الدنيا وهى حال من

الكاف على الوجه الاول من القراءة  المشهورة ومن الفاعل على الوجه الثانى منها وضمير تريد للعينين واسناد الارادة اليه

عليه فوجب التوقف وترك القطع ونظيره قوله تعالى ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هى احسن واما النهى عن الاستفتاء فقوله ولا تستفت فيهم منهم احدا وذلك لانه لما ثبت انه ليس عندهم علم فى هذا الباب وجب المنع من استفتائهم واعلم ان نفاة القياس تمسكوا بهذه الآية قالوا لان قوله رجما بالغيب وضع الرجم فيه موضع الظن فكأنه قيل ظنا بالغيب لانهم اكثروا ان يقولوا رجم بالظن مكان قولهم ظن حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين ألا ترى الى قوله * وما هو عنها بالحديث المرجم * اى المظنون هكذا قاله صاحب الكشاف وذلك يدل على ان القول بالظن مذموم عند الله ثم انه تعالى لما ذم هذه الطريقة رتب عليه المنع من استفتاء هؤلاء الظانين فدل ذلك على ان الفتوى بالمظنون غير جائز عند الله وجواب مثبتى القياس عنه قد ذكرناه مرارا * قوله تعالى ( ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى ان يهدين ربى لاقرب من هذا رشدا ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا قل الله اعلم بما لبثوا له غيب السموات والارض ابصر به واسمع ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه احدا ) اعلم ان فى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) قال المفسرون ان القوم لما سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن المسائل الثلاثة قال عليه السلام اجيبكم عنها غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس الوحى خمسة عشر يوما وفى رواية اخرى اربعين يوما ثم نزلت هذه الآية اعترض القاضى على هذا الكلام من وجهين ( الاول ) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عالما بأنه اذا اخبر عن انه سيفعل الفعل الفلانى غدا فربما جاءته الوفاة قبل الغد وربما عاقه عائق آخر عن الاقدام على ذلك الفعل غدا واذا كان كل هذه الامور محتملا فلو لم يقل ان شاء الله ربما خرج الكلام مخالفا لما عليه الوجود وذلك يوجب التنفير عنه وعن كلامه عليه السلام اما اذا قال ان شاء الله كان محترزا عن هذا المحذور واذا كان كذلك كان من البعيد ان يعد بشئ ولم يقل فيه ان شاء الله ( الثانى ) ان هذه الآية مشتملة على فوائد كثيرة واحكام جمة فيبعد قصرها على هذا السبب ويمكن ان يجاب عن الاول انه لا نزاع ان الاولى ان يقول ان شاء الله الا انه ربما اتفق له انه نسى هذا الكلام لسبب من الاسباب فكان ذلك من باب ترك الاولى والافضل وان يجاب عن الثانى ان اشتماله على الفوائد الكثيرة لا يمنع من ان يكون سبب نزوله واحدا منها ( المسئلة الثانية ) قوله الا ان يشاء الله ليس فيه بيان انه شاء الله ماذا وفيه قولان ( الاول ) التقدير ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله ان يأذن لك فى ذلك القول والمعنى انه ليس لك ان تخبر عن نفسك انك تفعل الفعل الفلانى الا اذا أذن الله لك فى ذلك الاخبار ( القول الثانى ) ان يكون التقدير ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا ان تقول ان شاء الله والسبب فى انه لابد من ذكر هذا القول هو ان الانسان اذا قال سأفعل الفعل الفلانى غدا لم يبعد ان يموت قبل مجئ الغد ولم يبعد ايضا لو بقى حيا ان يعوقه عن ذلك الفعل شئ من العوائق فاذا كان لم يقل ان شاء

مجاز وتوحيده للتلازم كما فى قوله
لمن زحلوفة زل * بها العينان تنهل
ومن المستكن فى الفعل على القراءتين لا خبرتين ( ولا تطع ) فى تنحية الفقراء عن مجالسك ( من اغفلنا قلبه ) اى جعلناه غافلا لبطلان استعداده للذكر بالمرة او وجدناه غافلا كقولك اجبنته وابخلته اذا وجدته كذلك او هو من اغفل ابله اى لم نسمه بالذكر ( عن ذكرنا ) كأولئك الذين يدعونك الى طرد الفقراء عن مجلسك فانهم غافلون عن ذكرنا على خلاف ما عليه المؤمنون من الدعاء فى مجامع الاوقات وفيه تنبيه على ان الباعث له على ذلك الدعاء غفلة قلبه عن جناب الله سبحانه وجهته وانهماكه فى الحسيات حتى خفى عليه ان الشرف بحلية النفس لا بزينة الجسد وقرئ اغفلنا قلبه على اسناد الفعل الى القلب اى حسبنا غافلين عن ذكرنا اياه بالمؤاخذة من اغفلته اذا وجدته غافلا ( واتبع هواه وكان امره فرطا ) ضياعا وهلاكا او متقدما للحق والصواب نابذا له وراء ظهره من قولهم فرس فرط اى متقدم للخيل او هو بمعنى الافراط والتفريط فان الغفلة عن ذكره سبحانه تؤدى الى اتباع الهوى المؤدى الى التجاوز والتباعد عن الحق والصواب والتعبير عنهم بالموصول للايذان بعلية ما فى حيز الصلة للنهى عن الاطاعة ( وقل ) لاولئك الغافلين المتبعين هواهم ( الحق من ربكم ) اى ما اوحى الى الحق لا غير كائنا من ربكم او الحق المعهود من جهة ربكم لا من جهتى حتى يتصور فيه التبديل او يمكن التردد فى اتباعه. وقوله تعالى ( فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ) اما من تمام القول المأمور به. والفاء لترتيب ما بعدها

الله صار كاذبا فيذلك الوعد و الكذب منفر وذلك لايليق بالانبياء عليهم السلام فلهذا السبب اوجب عليه ان يقول ان شاء الله حتى ان بتقدير ان يتعذر عليه الوفاء بذلك الموعود لم يصر كاذبا فلم يحصل التنفير (المسئلة الثالثة) اعلم ان مذهب المعتزلة ان الله تعالى يريد الايمان والطاعة من العبد والعبد يريد الكفر والمعصية لنفسه فيقع مراد العبد ولايقع مراد الله فتكون ارادة العبد غالبة وارادة الله تعالى مغلوبة واما عندنا فكل ما اراد الله تعالى فهو واقع فهو تعالى يريد الكفر من الكافر ويريد الايمان من المؤمن وعلى هذا التقدير فارادة الله تعالى غالبة وارادة العبد مغلوبة اذا عرفت هذا فنقول اذا قال العبد لافعلن كذا غدا الاان يشاء الله والله انما يدفع عنه الكذب اذا كانت ارادة الله غالبة على ارادة العبد فان على هذا القول يكون التقدير ان العبد قال انا افعل الفعل الفلاني الااذا كانت ارادة الله بخلافه فأنا على هذا التقدير لاافعل لان ارادة الله غالبة على ارادتي فعند قيام المانع الغالب لااقوى على الفعل اما بتقدير ان تكون ارادة الله تعالى مغلوبة فانها لاتصلح عذرا في هذا الباب لان المغلوب لايمنع الغالب اذا ثبت هذا فنقول اجمعت الامة على انه اذا قال والله لافعلن كذا ثم قال ان شاء الله دافعا للحنث فلا يكون دافعا للحنث الا اذا كانت ارادة الله غالبة فلما حصل دفع الحنث بالاجماع وجب القطع بكون ارادة الله تعالى غالبة وانه لايحصل في الوجود الاما اراده الله واصحابنا اكدوا هذا الكلام في صورة معينة وهو ان الرجل اذا كان له على انسان دين وكان ذلك المديون قادرا على اداء الدين فقال والله لاقضين هذا الدين غدا ثم قال ان شاء الله فاذا جاء الغد ولم يقض هذا الدين لم يحنث وعلى قول المعتزلة انه تعالى يريد منه قضاء الدين وعلى هذا التقدير فقوله ان شاء الله تعلق لذلك الحكم على شرط واقع فوجب ان يحنث ولما اجمعوا على انه لايحنث علمنا ان ذلك انما كان لان الله تعالى ماشاء ذلك الفعل مع ان ذلك الفعل قد امر الله به ورغب فيه وزجر عن الاخلال به وثبت انه تعالى قد ينهى عن الشيء ويريده وقد يأمر بالشيء ولايريده وهو المطلوب فان قيل هب ان الامر كما ذكرتم الا ان كثيرا من الفقهاء قالوا اذا قال الرجل لامرأته انت طالق ان شاء الله لم يقع الطلاق فالسبب فيه قلنا السبب هو انه لما علق وقوع الطلاق على مشيئة الله لم يقع الا اذا عرفنا وقوع الطلاق ولانعرف وقوع الطلاق الا اذا عرفنا اولا حصول هذه المشيئة لكن مشيئة الله تعالى غيب فلا سبيل الى العلم بحصولها الا اذا علمنا ان متعلق المشيئة قد وقع وحصل وهو الطلاق فعلى هذا الطريق لانعرف حصول المشيئة الا اذا عرفنا وقوع الطلاق ولانعرف وقوع الطلاق الا اذا عرفنا وقوع المشيئة فيتوقف العلم بكل واحد منهما على العلم بالآخر وهو دور والدور باطل فلهذا السبب قالوا الطلاق غير واقع (المسئلة الرابعة) احتج القائلون بأن المعدوم شيء بقوله ولاتقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا ان شاء الله قالوا الشيء الذي سيفعله الفاعل غدا سماه الله تعالى في الحال بأنه شيء لقوله

ربك فلا تكونن من الممترين اي عقيب تحقق ان ما اوحي اليك حق لاريب فيه وان ذلك الحق من جهة ربكم فمن شاء ان يؤمن به فليؤمن كسائر المؤمنين ولايتعلل بما لايكاد يصلح للتعلل ومن شاء ان يكفر به فليفعل وفيه من التهديد واظهار الاستغناء عن متابعتهم وعدم المبالاة بهم وبايمانهم وجودا وعدما مالايخفى واما تهديد من جهة الله تعالى والفاء لترتيب مابعدها من التهديد على الامر لاعلى مضمون المأمور به والمعنى قل لهم ذلك وبعد ذلك من شاء ان يؤمن به او ان يصدقك فيه فليؤمن ومن شاء ان يكفر به او يكذبك فيه فليفعل فقوله تعالى (انا اعتدنا) وعيد شديد وتأكيد للتهديد وتعليل لما يفيده من الزجر عن الكفر ولما يفهم من ظاهر التخيير من عدم المبالاة بكفرهم وقلة الاهتمام بزجرهم عنه فان اعداد جزائه من دواعي الاملاء والامهال وعلى الوجه الاول هو تعليل للامر بما ذكر من التخيير التهديدي اي قل لهم ذلك انا اعتدنا ( للظالمين ) اي هيأنا للكافرين بالحق بعد ماجاء من الله سبحانه والتعبير عنهم بالظالمين للتنبيه على ان مشيئة الكفر واختياره تجاوز عن الحد ووضع للشيء في غير موضعه (نارا) عظيمة عجيبة (أحاط بهم) اي يحيط بهم وايثار صيغة الماضي للدلالة على التحقق ( سرادقها ) اي فسطاطها شبه به مايحيط بهم من النار وقيل السرادق الحجرة التي تكون حول الفسطاط وقيل سرادقها دخانها وقيل حائط من نار (وان يستغيثوا) من العطش (يغاثوا بماء كالمهل) كالحديد المذاب وقيل كدردي الزيت (ولاتقولن)

ولاتقولن لشئ ومعلوم ان الشئ الذى سيفعله الفاعل غدا فهو معدوم فى الحال فوجب تسمية المعدوم بأنه شئ والجواب ان هذا الاستدلال لايفيد الا ان المعدوم مسمى بكونه شيئا وعندنا ان السبب فيه ان الذى سيصير شيئا يجوز تسميته بكونه شيئا فى الحال كما أنه قال أتى أمر الله والمراد سيأتى امر الله اما قوله واذكر ربك اذا نسيت ففيه وجهان ( الاول ) انه كلام متعلق بماقبله والتقدير انه اذا نسى ان يقول ان شاء الله فليذكره اذا تذكره وعند هذا اختلفوا فقال ابن عباس رضى الله عنهما لو لم يحصل التذكر الا بعد مدة طويلة ثم ذكر ان شاء الله كفى فى دفع الحنث وعن سعيد بن جبير بعد سنة او شهر او اسبوع او يوم وعن طاوس انه يقدر على الاستثناء فى مجلسه وعن عطاء يستثنى على مقدار حلب الناقة الغزيرة وعند عامة الفقهاء انه لا اثر له فى الاحكام مالم يكن موصولا واحتج ابن عباس بقوله واذكر ربك اذا نسيت لان الظاهر ان المراد من قوله واذكر ربك اذا نسيت هو الذى تقدم ذكره فى قوله الا ان يشاء الله وقوله واذكر ربك غير مختص بوقت معين بل هو يتناول كل الاوقات فوجب ان يجب عليه هذا الذكر فى اى وقت حصل هذا التذكر وكل من قال وجب هذا الذكر قال انه انما وجب لدفع الحنث وذلك يفيد المطلوب واعلم ان استدلال ابن عباس رضى الله عنهما ظاهر فى ان الاستثناء لايجب ان يكون متصلا اما الفقهاء فقالوا انا لو جوزنا ذلك لزم ان لايستقر شئ من العقود والايمان يحكى انه بلغ المنصور ان اباحنيفة رحمه الله خالف ابن عباس فى الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه فقال ابو حنيفة رحمه الله هذا يرجع عليك فانك تأخذ البيعة بالايمان أفترضى ان يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك فاستحسن المنصور كلامه ورضى به واعلم ان حاصل هذا الكلام يرجع الى تخصيص النص بالقياس وفيه مافيه وايضا فلو قال ان شاء الله على سبيل الخفية بلسانه بحيث لايسمعه احد فهو معتبر ودافع للحنث بالاجماع مع ان المحذور الذى ذكرتم حاصل فيه فثبت ان الذى عولوا عليه ليس بقوى والاولى ان يحتجوا فى وجوب كون الاستثناء متصلا بأن الآيات الكثيرة دلت على وجوب الوفاء بالعقد والعهد قال تعالى اوفوا بالعقود وقال واوفوا بالعهد فالآتى بالعهد يجب عليه الوفاء بمقتضاه لاجل هذه الآيات خالفنا هذا الدليل فيما اذا كان متصلا لان الاستثناء مع المستثنى منه كالكلام الواحد بدليل ان لفظ الاستثناء وحده لايفيد شيئا فهو جار مجرى نصف اللفظ الواحد فجملة الكلام كالكلمة الواحدة المفيدة وعلى هذا التقدير فعند ذكر الاستثناء عرفنا انه لم يلزم شئ بخلاف ما اذا كان الاستثناء متصلا فانه حصل الالتزام التام بالكلام فوجب عليه الوفاء بذلك الملتزم والقول الثانى ان قوله واذكر ربك اذا نسيت لاتعلق له بماقبله بل هو كلام مستأنف وعلى هذا القول ففيه وجوه (أحدها) واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار اذا نسيت كلمة الاستثناء والمراد منه الترغيب فى الاهتمام بذكر هذه الكلمة (وثانيها) واذكر ربك اذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسى (وثالثها) حمله بعضهم

---

وهو على طريقة قوله فاعتبوا بالصيلم ( يشوى الوجوه ) اذاقدم ليشرب اشوى الوجه لحرارته عن النبى عليه الصلاة والسلام هو كعكر الزيت فاذا قرب اليه سقطت فروة وجهه (بئس الشراب) ذلك (وساءت) النار ( مرتفقا ) متكأ واصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد وانى ذلك فى النار وانما هو بمقابلة قوله تعالى حسنت مرتفقا (ان الذين آمنوا) فى محل التعليل للحث على الايمان المنفهم من التخيير كأنه قيل وللذين آمنوا ولعل تغيير سبكه للايذان بكمال تنافى مالى الفريقين اى ان الذين آمنوا بالحق الذى اوحى اليك ( وعملوا الصالحات ) حسبما بين فى تضاعيفه (انا لانضيع اجر من احسن عملا ) خبر ان الاولى هى الثانية مع ما فى حيزها والراجع محذوف اى من احسن منهم عملا او مستغنى عنه كما فى قولك نعم الرجل زيد او واقع موقعه الظاهر فان من احسن عملا فى الحقيقة هو الذى آمن وعمل الصالحات ( اولئك ) المنعوتون بالنعوت الجليلة (لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الانهار ) استئناف لبيان الاجر اوهو الخبر وما بينهما اعتراض اوهو خبر بعد خبر (يحلون فيها من اساور من ذهب) من الاولى ابتدائية والثانية بيانية صفة لأساور والتنكير للتفخيم وهو جمع اسورة او اسوار جمع سوار (ويلبسون ثيابا خضرا) خصت الخضرة بثيابهم لانها احسن الالوان واكثرها طراوة (من سندس واستبرق) اى مما رق من الديباج وما غلظ جمع بين النوعين للدلالة على ان فيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين (متكئين فيها على الارائك ) على السرر على ماهو شأن المتنعمين ( نعم الثواب ) ذلك ( وحسنت ) اى الارائك

على اداء الصلاة المنسية عند ذكرها وهذا القول بما فيه من الوجوه الثلاثة بعيد لان تعلق هذا الكلام بما قبله يفيد اتمام الكلام فى هذه القضية وجعله كلاما مستأنفا يوجب صيرورة الكلام مبتدأ منقطعا وذلك لا يجوز ثم قال تعالى وقل عسى ان يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا وفيه وجوه ( الاول ) ان ترك قوله ان شاء الله ليس بحسن وذكره احسن من تركه وقوله لأقرب من هذا رشدا المراد منه ذكر هذه الجملة (الثانى) اذا وعدهم بشئ وقال معه ان شاء الله فيقول عسى ان يهدينى ربى لشئ احسن واكمل مما وعدتكم به ( الثالث ) ان قوله لأقرب من هذا رشدا اشارة الى نبأ اصحاب الكهف ومعناه لعل الله يؤتينى من البينات والدلائل على صحة انى نبى من عند الله صادق القول فى ادعاء النبوة ماهو اعظم فى الدلالة واقرب رشدا من نبأ اصحاب الكهف وقد فعل الله ذلك حيث آتاه من قصص الانبياء والاخبار بالغيوب ماهو اعظم من ذلك واما قوله تعالى ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا قل الله اعلم بما لبثوا له غيب السموات والارض ابصر به واسمع مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه احدا فاعلم ان هذه الآية آخر الآيات المذكورة فى قصة اصحاب الكهف وفى قوله ولبثوا فى كهفهم قولان ( الاول ) ان هذا حكاية كلام القوم والدليل عليه انه تعالى قال سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم وكذا الى ان قال ولبثوا فى كهفهم اى ان أولئك الاقوام قالوا ذلك ويؤكده انه تعالى قال بعده قل الله اعلم بما لبثوا وهذا يشبه الرد على الكلام المذكور قبله ويؤكده ايضا ماروى فى مصحف عبد الله وقالوا ولبثوا فى كهفهم ( والقول الثانى ) ان قوله ولبثوا فى كهفهم هو كلام الله تعالى فانه اخبر عن كمية تلك المدة واما قوله سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم فهو كلام قد تقدم وقد تخلل بينه وبين هذه الآية مايوجب انقطاع احدهما عن الآخر وهو قوله فلا تمار فيهم الامراء ظاهرا وقوله قل الله اعلم بما لبثوا له غيب السموات والارض لايوجب ان ماقبله حكاية وذلك لانه تعالى اراد قل الله اعلم بما لبثوا له غيب السموات والارض فارجعوا الى خبر الله دون مايقوله اهل الكتاب ( المسئلة الثانية ) قرأ حمزة والكسائى ثلثمائة سنين بغير تنوين والباقون بالتنوين وذلك لان قوله سنين عطف بيان لقوله ثلثمائة لانه لما قال ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة لم يعرف انها ايام ام شهور ام سنون فلما قال سنين صار هذا بيانا لقوله ثلثمائة فكان هذا عطف بيان له وقيل هو على التقديم والتأخير اى لبثوا سنين ثلثمائة واما وجه قراءة حمزة فهو ان الواجب فى الاضافة ثلثمائة سنة الا انه يجوز وضع الجمع موضع الواحد فى التمييز كقوله بالاخسرين اعمالا ( المسئلة الثالثة ) قوله وازدادوا تسعا المعنى وازدادوا تسع سنين فان قالوا لم لم يقل ثلثمائة وتسع سنين وما الفائدة فى قوله وازدادوا تسعا قلنا قال بعضهم كانت المدة ثلثمائة سنة من السنين الشمسية وثلثمائة وتسع سنين من القمرية وهذا مشكل لانه لا يصح بالحساب هذا القول ويمكن ان يقال لعلهم لما استكملوا ثلثمائة سنة قرب امرهم من

الى التفصيل والبيان اى اضرب للكافرين والمؤمنين لا من حيث احوالهما المستفادة مما ذكر آنفا من ان للاولين فى الآخرة كذا وللآخرين كذا بل من حيث عصيان الاولين مع تقلبهم فى نعم الله تعالى وطاعة الآخرين مع مكابدتهم مشاق الفقر مثلا حال رجلين مقدرين او محققين هما اخوان من بنى اسرائيل او شريكان كافر اسمه قطروس ومؤمن اسمه يهوذا اقتسما ثمانية آلاف دينار فاشترى الكافر بنصيبه ضياعا وعقارا وصرف المؤمن نصيبه الى وجوه المبار فآل امرهما الى ماحكاه الله تعالى وقيل هما اخوان من بنى مخزوم كافر هو الاسود بن عبد الاسد ومسلم هو ابو سلمة عبد الله ابن عبد الاسد زوج أم سلمة رضى الله عنها اولا ( جعلنا لاحدهما ) وهو الكافر ( جنتين ) بستانين ( من اعناب ) من كروم متنوعة والجملة بتمامها بيان للتمثيل اوصفة لرجلين ( وحففناهما بنخل ) اى جعلنا النخل محيطة بهما مؤزرا بها كرومهما يقال حفه القوم اذا طافوا به وحففته بهم جعلتهم حافين حوله فيزيده الباء مفعولا آخر كقولك غشيته به (وجعلنا بينهما) وسطهما (زرعا) ليكون كل منهما جامعا للاقوات والفواكه متواصل العمارة على الهيئة الرائقة والوضع الانيق (كلتا الجنتين آتت اكلها) ثمرها وبلغت مبلغا صالحا للاكل وقرئ بسكون الكاف وقرئ كل الجنتين آتى اكله ( ولم تظلم منه ) لم تنقص من اكلها ( شيئا ) كما يعهد ذلك فى سائر البساتين فان الثمار غالبا تكثر فى عام وتقل فى آخر وكذا بعض الاشجار ياتى بالثمر فى

الانتباه ثم اتفق ماوجب بقاءهم فى النوم بعد ذلك تسع سنين ثم قال قل الله اعلم بما لبثوا معناه انه تعالى اعلم بمقدار هذه المدة من الناس الذين اختلفوا فيه وانما كان اولى بأن يكون عالما به لانه موجد للسموات والارض ومدبر للعالم واذا كان كذلك كان عالما بغيب السموات والارض فيكون عالما بهذه الواقعة لامحالة ثم قال تعالى ابصر به واسمع وهذه كلمة تذكر فى التعجب والمعنى ماابصره وما اسمعه وقد بالغنا فى تفسير كلمة التعجب فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى فما اصبرهم على النار ثم قال تعالى مالهم من دونه من ولى وفيه وجوه (الاول) مالاصحاب الكهف من دون الله من ولى فانه هو الذى يتولى حفظهم فى ذلك النوم الطويل (الثانى) ليس لهؤلاء المختلفين فى مدة لبث اهل الكهف ولى من دون الله يتولى امرهم ويقيم لهم تدبير انفسهم فاذا كانوا محتاجين الى تدبير الله وحفظه فكيف يعلمون هذه الواقعة من غير اعلامه (الثالث) ان بعض القوم لما ذكروا فى هذا الباب اقوالا على خلاف قول الله فقد استوجبوا العقاب فبين الله انه ليس لهم من دونه ولى يمنع الله من انزال العقاب عليهم ثم قال ولايشرك فى حكمه احدا والمعنى انه تعالى لما حكم ان لبثهم هو هذا المقدار فليس لأحد ان يقول قولا بخلافه والاصل ان الاثنين اذا كانا شريكين فان الاعتراض من كل واحد منهما على صاحبه يكثر ويصير ذلك مانعا لكل واحد منهما من امضاء الامر على وفق مايريده وحاصله يرجع الى قوله تعالى لوكان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فالله تعالى نفى ذلك عن نفسه بقوله تعالى ولايشرك فى حكمه احدا وقرأ ابن عامر ولاتشرك بالتاء والجزم على النهى والخطاب عطفا على قوله ولاتقولن لشئ او على قوله واذكر ربك اذا نسيت والمعنى ولاتسأل احدا عما اخبرك الله به من عدة اصحاب الكهف واقتصر على حكمه وبيانه ولاتشرك احدا فى طلب معرفة تلك الواقعة وقرأ الباقون بالياء والرفع على الخبر والمعنى انه تعالى لايفعل ذلك ( المسئلة الرابعة ) اختلف الناس فى زمان اصحاب الكهف وفى مكانهم اما الزمان الذى حصلوا فيه فقيل انهم كانوا قبل موسى عليه السلام وان موسى ذكرهم فى التوراة ولهذا السبب فان اليهود سألوا عنهم وقيل انهم دخلوا الكهف قبل المسيح واخبر المسيح بخبرهم ثم بعثوا فى الوقت الذى بين عيسى عليه السلام وبين محمد صلى الله عليه وسلم وقيل انهم دخلوا الكهف بعد المسيح وحكى القفال هذا القول عن محمد بن اسحق وقال قوم انهم لم يموتوا ولايموتون الى يوم القيامة واما مكان هذا الكهف فحكى القفال عن محمد بن موسى الخوارزمى المنجم ان الواثق انفذه ليعرف حال اصحاب الكهف الى الروم قال فوجه ملك الروم معى اقواما الى الموضع الذى يقال انهم فيه قال وان الرجل الموكل بذلك الموضع فزعنى من الدخول عليهم قال فدخلت ورأيت الشعور على صدورهم قال وعرفت انه تمويه واحتيال وان الناس كانوا قد عالجوا تلك الجثث بالادوية المجففة لأبدان الموتى لتصونها عن البلى مثل التلطيخ بالصبر وغيره ثم قال القفال والذى عندنا لايعرف ان

بالتخفيف ولعل تأخير ذكر تفجير النهر عن ذكر ايتاء الاكل مع ان الترتيب الخارجى على العكس للايذان باستقلال كل من ايتاء الاكل وتفجير النهر فى تكميل محاسن الجنتين كما فى قصة البقرة ونحوها ولو عكس لانفهم ان المجموع خصلة واحدة بعضها مترتب على بعض فان ايتاء الاكل متفرع على السقى عادة وفيه ايماء الى ان ايتاء الاكل لايتوقف على السقى كقوله تعالى يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار (وكان له) لصاحب الجنتين (ثمر) انواع من المال غير الجنتين من ثمر ماله اذا كثره قال ابن عباس رضى الله عنهما هو جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك وقال مجاهد هو الذهب والفضة خاصة (فقال لصاحبه) المؤمن (وهو) اى القائل (يحاوره) اى صاحبه المؤمن وان جاز العكس اى يراجعه فى الكلام من حار اذا رجع (انا اكثر منك مالا واعز نفرا) حشما واعوانا او اولادا ذكورا لانهم الذين ينفرون معه (ودخل جنته) التى شرحت احوالها وعددها وصفاتها وهيآتها وتوحيدها اما لعدم تعلق الغرض بتعددها واما لاتصال احداهما بالاخرى واما لان الدخول يكون فى واحدة فواحدة (وهو ظالم لنفسه) ضار لها بعجبه وكفره (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من ذكر دخول جنته حال ظلمه لنفسه كأنه قيل فماذا قال اذ ذاك فقيل قال (ما اظن ان تبيد هذه) الجنة اى تفنى (ابدا) لطول امله وتمادى غفلته واغتراره بمهلته ولعله انما

قاله بمقابلة موعظة صاحبه وتذكيره بفناء جنتيه ونهيه عن الاغترار بهما وامره بتحصيل الباقيات الصالحات ( وما اظن

ذلك الموضع هو موضع اصحاب الكهف او موضع آخر و الذى اخبر الله عنه وجب القطع به ولا عبرة بقول اهل الروم ان ذلك الموضع هو موضع اصحاب الكهف وذكر فى الكشاف عن معاوية انه غزا الروم فمر بالكهف فقال لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا اليهم فقال ابن عباس رضى الله عنهما ليس لك ذلك قد منع الله من هو خير منك فقال لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا فقال لابن عباس لا انتهى حتى اعلم حالهم فبعث اناسا فقال لهم اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأحرقتهم واقول العلم بذلك الزمان وبذلك المكان ليس للعقل فيه مجال وانما يستفاد ذلك من نص وذلك مفقود فثبت انه لا سبيل اليه (المسئلة الخامسة) اعلم ان مدار القول باثبات البعث والقيامة على اصول ثلاثة (احدها) انه تعالى قادر على كل الممكنات والثانى انه تعالى عالم بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات (وثالثها) ان كل ما كان ممكن الحصول فى بعض الاوقات كان ممكن الحصول فى سائر الاوقات فاذا ثبت هذه الاصول الثلاثة ثبت القول بامكان البعث والقيامة فكذلك ههنا ثبت انه تعالى عالم قادر على الكل وثبت ان بقاء الانسان حيا فى النوم مدة يوم ممكن فكذلك بقاؤه مدة ثلثمائة سنة يجب ان يكون ممكنا بمعنى ان اله العالم يحفظه ويصونه عن الآفة واما الفلاسفة فانهم يقولون ايضا لا يبعد وقوع اشكال فلكية غريبة توجب فى هيولى عالم الكون والفساد حصول احوال غريبة نادرة واقول هذه السور الثلاثة المتعاقبة اشتمل كل واحد منها على حصول حالة عجيبة نادرة فى هذا العالم فسورة بنى اسرائيل اشتملت على الاسراء بجسد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة الى الشام وهو حالة عجيبة وهذه السورة اشتملت على بقاء القوم فى النوم مدة ثلثمائة سنة وازيد وهو ايضا حالة عجيبة وسورة مريم اشتملت على حدوث الولد لا من الاب وهو ايضا حالة عجيبة والمعتمد فى بيان امكان كل هذه العجائب والغرائب المذكورة فى هذه السور الثلاثة المتوالية هو الطريقة التى ذكرناها ومما يدل على ان هذا المعنى من الممكنات ان أبا على بن سينا ذكر فى باب الزمان من كتاب الشفاء ان ارسطاطاليس الحكيم ذكر انه عرض لقوم من المتألهين حالة شبيهة بحالة اصحاب الكهف ثم قال ابو على ويدل التاريخ على انهم كانوا قبل اصحاب الكهف * قوله تعالى (واتل ما اوحى اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا) اعلم ان من هذه الآية الى قصة موسى والخضر كلام واحد فى قصة واحدة وذلك ان اكابر كفار قريش احتجوا وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان اردت ان نؤمن بك فاطرد من عندك هؤلاء الفقراء الذين آمنوا بك والله تعالى نهاه عن ذلك ومنعه عنه واطنب فى جملة هذه الآيات فى بيان ان الذى اقترحوه والتمسوه مطلوب فاسد واقتراح باطل ثم انه تعالى جعل الاصل فى هذا الباب شيئا واحدا وهو ان يواظب على تلاوة الكتاب الذى اوحاه الله اليه وعلى العمل به وان لا يلتفت الى اقتراح المقترحين وتعنت المتعنتين فقال

الساعة قائمة) كائنة فيما سيأتى (ولئن رددت) بالبعث عند قيامها (٧٠٨) كما تقول (الى ربى لاجدن) يومئذ (خيرا منها) اى من هذه الجنة وقرئ منهما اى من الجنتين (منقلبا) مرجعا وعاقبة ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة اعتقاد انه تعالى انما اولاه ما اولاه فى الدنيا لاستحقاقه الذاتى وكرامته عليه سبحانه ولم يدر ان ذلك استدراج (قال له صاحبه) استئناف كما سبق (وهو يحاوره) جملة حالية كما مر فائدتها التنبيه من اول الامر على ان ما يتلوه كلام معنى بشأنه مسوق للمحاورة (أكفرت) حيث قلت ما اظن الساعة قائمة (بالذى خلقك) اى فى ضمن خلق اصلك (من تراب) فان خلق آدم عليه السلام منه متضمن لخلقه منه لما ان خلق كل فرد من افراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام اذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه بل كانت انموذجا منطويا على فطرة سائر افراد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام من التراب خلقا للكل منه وقيل خلقك منه لانه اصل مادتك اذ به يحصل الغذاء الذى منه تحصل النطفة فتدبر (ثم من نطفة) هى مادتك القريبة فالمخلوق واحد والمبدأ متعدد (ثم سواك رجلا) اى عدلك وكملك انسانا ذكرا او صيرك رجلا والتعبير عنه تعالى بالموصول للاشعار بعلية ما فى حيز الصلة لانكار الكفر والتلويح بدليل البعث الذى نطق به قوله عز من قائل يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب الخ (لكنا هو الله ربى) اصله لكن انا وقد قرئ كذلك فحذفت الهمزة فتلاقت النونان فكان الادغام وهو ضمير الشأن وهو مبتدأ خبره الله ربى وتلك الجملة (واتل)

واتل ماأوحى اليك من كتاب ربك وفى الآية مسئلة وهى ان قوله اتل يتناول القراءة ويتناول الاتباع ايضا فيكون المعنى الزم قراءة الكتاب الذى اوحى اليك والزم العمل به ثم قال لامبدل لكلماته اى يمتنع تطرق التغيير والتبديل اليه وهذه الآية يمكن التمسك بها فى اثبات ان تخصيص النص بالقياس غير جائز لان قوله اتل ماأوحى اليك من كتاب ربك معناه الزم العمل بمقتضى هذا الكتاب وذلك يقتضى وجوب العمل بمقتضى ظاهره فان قيل فيجب ان لايتطرق النسخ اليه قلنا هذا هو مذهب ابى مسلم الاصفهانى فليس يبعد وايضا فالنسخ فى الحقيقة ليس بتبديل لان المنسوخ ثابت فى وقته الى وقت طريان الناسخ فالناسخ كالغاية فكيف يكون تبديلا اما قوله ولن تجد من دونه ملتحدا اتفقوا على ان الملتحد هو الملجأ قال اهل اللغة هو من لحد والحد اذا مال ومنه قوله تعالى لسان الذى يلحدون اليه والملحد المائل عن الدين والمعنى ولن تجد من دونه ملجأ فى البيان والرشاد ❊ قوله تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولاتعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولاتطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطا) اعلم ان اكابر قريش اجتمعوا وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان اردت ان نؤمن بك فاطرد هؤلاء الفقراء من عندك فاذا حضرنا لم يحضروا وتعين لهم وقتا يجتمعون فيه عندك فأنزل الله تعالى ولاتطرد الذين يدعون ربهم الآية فبين فيها انه لايجوز طردهم بل تجالسهم وتوافقهم وتعظم شأنهم ولاتلتفت الى اقوال اولئك الكفار ولاتقيم لهم فى نظرك وزنا سواء غابوا او حضروا وهذه القصة منقطة عما قبلها وكلام مبتدأ مستقل ونظير هذه الآية قد سبق فى سورة الانعام وهو قوله ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ففى تلك الآية نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طردهم وفى هذه الآية امره بمجالستهم والمصابرة معهم فقوله واصبر نفسك اصل الصبر الحبس ومنه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المصبورة وهى البهيمة تحبس فترمى اما قوله مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر بالغدوة بضم الغين والباقون بالغداة وكلاهما لغة (المسئلة الثانية) فى قوله بالغداة والعشى وجوه (الاول) المراد كونهم مواظبين على هذا العمل فى كل الاوقات كقول القائل ليس لفلان عمل بالغداة والعشى الاشتم الناس (الثانى) ان المراد صلاة الفجر والعصر (الثالث) المراد ان الغداة هى الوقت الذى ينتقل الانسان فيه من النوم الى اليقظة وهذا الانتقال شبيه بالانتقال من الموت الى الحياة والعشى هو الوقت الذى ينتقل الانسان فيه من اليقظة الى النوم ومن الحياة الى الموت والانسان العاقل يكون فى هذين الوقتين كثير الذكر لله عظيم الشكر لآلاء الله ونعمائه ثم قال ولاتعد عيناك عنهم يقال عداه اذا جاوزه ومنه قولهم عدا طوره وجاء القوم عدا زيد وانما عدى بلفظة عن لانها تفيد المباعدة فكأنه تعالى نهى عن تلك المباعدة وقرئ ولاتعد عينيك ولاتعد عينيك من اعداه وعداه

خبرا انا والعائد منها اليه الضمير وقرئ باثبات الف انا فى الوصل والوقف جميعا وفى الوقف خاصة وقرئ لكنه بالهاء ولكن بطرح انا ولكن انا لااله الاهو ربى ومدار الاستدراك قوله تعالى أكفرت كأنه قال انت كافر لكنى مؤمن موحد (ولاأشرك بربى احدا) فيه ايذان بأن كفره كان بطريق الاشراك (ولولا اذ دخلت جنتك قلت) اى هلا قلت عند ما دخلتها وتقديم الظرف على المحضض عليه للايذان بتحتم القول فى آن الدخول من غير ريث لا للقصر (ماشاء الله) اى الامر ماشاء الله او ماشاء الله كائن على ان ما موصولة مرفوعة المحل او اى شئ شاء الله كان على انها شرطية منصوبة والجواب محذوف والمراد تحضيضه على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى ان شاء أبقاها وان شاء افناها (لاقوة الابالله) اى هلا قلت ذلك اعترافا بعجزك وبأن ماتيسر لك من عمارتها وتدبير امرها انما هو بمعونته تعالى واقداره عن النبى صلى الله عليه وسلم من رأى شيئا فأعجبه فقال ماشاء الله لاقوة الابالله لم يضره (ان ترن انا اقل منك مالا وولدا) انا اما مؤكد لياء المتكلم او ضمير فصل بين مفعولى الرؤية ان جعلت علمية واقل ثانيهما وحال ان جعلت بصرية فيكون انا حينئذ تأكيدا لاغير لان شرط كونه ضمير فصل توسطه بين المبتدأ والخبر او ما اصله المبتدأ والخبر وقرئ اقل بالرفع خبر الانا والجملة مفعول ثان للرؤية او حال وفى قوله تعالى وولدا نصرة لمن فسر النفر بالولد (فعسى ربى ان يؤتينى خيرا من جنتك) هو جواب الشرط والمعنى ان ترن افقر منك فانا أتوقع من صنع الله سبحانه ان يقلب مابى ومابك من الفقر والغنى فيرزقنى لايمانى جنة خيرا من جنتك ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب جنتك

نفلا بالهمزة وتثقيل الحشو ومنه قوله * فعد عما ترى اذلا ارتجاع له * والمقصود من الآية انه تعالى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ان يزدرى فقراء المؤمنين وان تنبو عيناه عنهم لاجل رغبته فى مجالسة الاغنياء وحسن صورتهم وقوله تريد زينة الحياة الدنيا نصب فى موضع الحال يعنى انك ان فعلت ذلك لم يكن اقدامك عليه الا لرغبتك فى زينة الحياة الدنيا ولما بالغ فى امره بمجالسة الفقراء من المسلمين بالغ فى النهى عن الالتفات الى اقوال الاغنياء والمتكبرين فقال ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج اصحابنا بهذه الآية على انه تعالى هو الذى يخلق الجهل والغفلة فى قلوب الجهال لان قوله اغفلنا يدل على هذا المعنى قالت المعتزلة المراد بقوله تعالى اغفلنا قلبه عن ذكرنا انا وجدنا قلبه غافلا وليس المراد خلق الغفلة فيه والدليل عليه ماروى عن عمرو بن معد يكرب الزبيدى انه قال لبنى سليم قاتلناكم فما اجبناكم وسألناكم فما ابخلناكم وهجوناكم فما افحمناكم اى ما وجدناكم جبناء ولا بخلاء ولا مفحمين ثم نقول حمل اللفظ على هذا المعنى اولى ويدل عليه وجوه (الاول) انه لو كان كذلك لما استحقوا الذم (الثانى) انه تعالى قال بعد هذه الآية فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ولو كان تعالى خلق الغفلة فى قلبه لما صح ذلك (الثالث) لو كان المراد هو انه تعالى جعل قلبه غافلا لوجب ان يقال ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه لان على هذا التقدير يكون ذلك من افعال المطاوعة وهى انما تعطف بالفاء لا بالواو ويقال كسرته فانكسر ودفعته فاندفع ولا يقال وانكسر واندفع (الرابع) قوله تعالى واتبع هواه ولو كان تعالى اغفل فى الحقيقة قلبه لم يجز ان يضاف ذلك الى اتباعه هواه والجواب قوله المراد من قوله اغفلنا اى وجدناه غافلا وليس المراد تحصيل الغفلة فيه قلنا الجواب عنه من وجهين (الاول) ان الاشتراك خلاف الاصل فوجب ان يعتقد ان وزن الافعال حقيقة فى احدهما مجاز فى الآخر وجعله حقيقة فى التكوين مجازا فى الوجدان اولى من العكس وبيانه من وجوه (احدها) ان مجئ بناء الافعال بمعنى التكوين اكثر من مجيئه بمعنى الوجدان والكثرة دليل الرجحان (وثانيها) ان مبادرة الفهم من هذا البناء الى التكوين اكثر من مبادرته الى الوجدان ومبادرة الفهم دليل الرجحان (وثالثها) انا ان جعلناه حقيقة فى التكوين امكن جعله مجازا فى الوجدان لان العلم بالشئ تابع لحصول المعلوم فجعل اللفظ حقيقة فى المتبوع ومجازا فى التبع موافق للمعقول اما لو جعلناه حقيقة فى الوجدان مجازا فى الايجاد لزم جعله حقيقة فى التبع مجازا فى الاصل وانه عكس المعقول فثبت ان الاصل جعل هذا البناء حقيقة فى الايجاد لا فى الوجدان (الوجه الثانى) فى الجواب عن السؤال انا نسلم كون اللفظ مشتركا بالنسبة الى الايجاد والى الوجدان الا انا نقول يجب حمل قوله اغفلنا على ايجاد الغفلة وذلك لان الدليل العقلى دل على انه يمتنع كون العبد موجدا للغفلة فى نفسه والدليل عليه انه اذا حاول ايجاد الغفلة فاما ان يحاول

( ويرسل عليها حسبانا) هو مصدر بمعنى الحساب كالبطلان والغفران اى مقدارا  قدره الله تعالى وحسبه وهو الحكم بتخريبها وقيل عذاب حسبان وهو حساب ما كسبت يداه وقيل مرامى جمع حسبانة وهى الصواعق ومساعدة النظم الكريم فيما سيأتى للاولين اكثر (من السماء فتصبح صعيدا زلقا) مصدر اريد به المفعول مبالغة اى ارضا ملساء يزلق عليها لاستئصال ماعليها من البناء والشجر والنبات (او يصبح) عطف على قوله تعالى فتصبح وعلى الوجه الثالث على يرسل (ماؤها غورا) اى غائرا فى الارض اطلق عليه المصدر مبالغة (فلن تستطيع) ابدا (له) اى للماء الغائر (طلبا) فضلا عن وجدانه ورده (واحيط بثمره) اهلك امواله المعهودة من جنتيه وما فيهما واصله من احاطة العدو وهو عطف على مقدر كأنه قيل فوقع بعض ماتوقع من المحذور واهلك امواله وانما حذف لدلالة السباق والسياق عليه كما فى المعطوف عليه بالفاء الفصيحة (فاصبح يقلب كفيه) ظهر البطن وهو كناية عن الندم كأنه قيل فاصبح يندم (على ما انفق فيها) اى فى عمارتها من المال ولعل تخصيص الندم به دون ما هلك الآن من الجنة لما انه انما يكون على الافعال الاختيارية ولان ما انفق فى عمارتها كان مما يمكن صيانته عن طوارق الحدثان وقد صرفه الى مصالحها رجاء ان يتمتع بها اكثر مما يتمتع به وكان يرى انه لا تنالها ايدى الردى ولذلك قال ما أظن ان تبيد هذه ابدا فلما ظهر له انها مما يعتريه الهلاك ندم على ماصنع بناء على الزعم الفاسد من انفاق ما يمكن ادخاره فى مثل هذا الشئ السريع الزوال (وهى) اى الجنة (ايجاد)

ايجاد مطلق الغفلة او يحاول ايجاد الغفلة عن شئ معين والاول باطل والالم يكن بان
تحصل له الغفلة عن هذا الشئ اولى بان تحصل له الغفلة عن شئ آخر لان الطبيعة المشترك
فيها بين الانواع الكثيرة تكون نسبتها الى كل تلك الانواع على السوية اما الثانى فهو ايضا
باطل لان الغفلة عن كذا عبارة عن غفلة لا تمتاز عن سائر اقسام الغفلات الا بكونها
منتسبة الى ذلك الشئ المعين بعينه فعلى هذا لا يمكنه ان يقصد الى ايجاد الغفلة عن كذا الا
اذا تصور ان تلك الغفلة غفلة عن كذا ولا يمكنه ان يتصور كون تلك الغفلة غفلة عن كذا
الا اذا تصور كذا لان العلم بنسبة امر الى امر آخر مشروط بتصور كل واحد من المنتسبين
فثبت انه لا يمكنه القصد الى ايجاد الغفلة عن كذا الا مع الشعور بكذا لكن الغفلة عن كذا
ضد الشعور بكذا فثبت ان العبد لا يمكنه ايجاد هذه الغفلة الا عند اجتماع الضدين وذلك
محال والموقوف على المحال محال فثبت ان العبد غير قادر على ايجاد الغفلة فوجب ان
يكون خالق الغفلات وموجدها فى العباد هو الله وهذه نكتة قاطعة فى اثبات هذا المطلوب
وعند هذا يظهر ان المراد بقوله تعالى ولا تطع من اغفلنا قلبه هو ايجاد الغفلة لا وجدانها
اما حديث المدح والذم فقد عارضناه مرارا واطوارا بالعلم والداعى اما قوله تعالى بعد
هذه الآية فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فالبحث عنه سيأتى ان شاء الله تعالى اما قوله
ولا تطع من اغفلنا قلبه ولو كان المراد ايجاد الغفلة لوجب ذكر الفاء لا ذكر الواو فنقول هذا
انما يلزم لو كان خلق الغفلة فى القلب من لوازمه حصول اتباع الهوى كما ان الكسر من
لوازمه حصول الانكسار وليس الامر كذلك لانه لا يلزم من حصول الغفلة عن الله حصول
متابعة الهوى لاحتمال ان يصير غافلا عن ذكر الله ومع ذلك فلا يتبع الهوى بل يبقى متوقفا
لا بثا فى مقام الحيرة والدهشة والخوف من الكل فسقط هذا السؤال وذكر القفال فى
تأويل الآية على مذهب المعتزله وجوها أخرى ( فأحدها ) انه تعالى لما صب عليهم الدنيا
صبا وأدى ذلك الى رسوخ الغفلة فى قلوبهم صح على هذا التأويل انه تعالى حصل الغفلة فى
قلوبهم كما فى قوله تعالى فلم يزدهم دعائى الا فرارا ( والوجه الثانى ) ان معنى قوله اغفلنا اى
تركناه غافلا فلم نسمه بسمة اهل الطهارة والتقوى وهو من قولهم بعير غفل اى لا سمة عليه
( وثالثها ) ان المراد من قوله اغفلنا قلبه اى خلاه مع الشيطان ولم يمنع الشيطان منه فيقال
فى الوجه الاول ان فتح باب لذات الدنيا عليه هل يؤثر فى حصول الغفلة فى قلبه او لا يؤثر
فان اثر كان اثر ايصال اللذات اليه سببا لحصول الغفلة فى قلبه وذلك عين القول بانه تعالى
فعل ما يوجب حصول الغفلة فى قلبه وان كان لا تأثير له فى حصول هذه الغفلة بطل اسناده
اليه وقد يقال فى الوجه الثانى ان قوله اغفلنا قلبه بمنزلة قوله سودنا قلبه وبيضنا وجهه
ولا يفيد الا ما ذكرناه ويقال فى الوجه الثالث ان كان لتلك التخلية اثر فى حصول تلك
الغفلة فقد صح قولنا والا بطل استناد تلك الغفلة الى الله تعالى ( المسئلة الثانية ) قوله تعالى
ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه يدل على ان شر احوال الانسان ان يكون

وتخصيص حالها بالذكر دون
النخل والزرع اما لانها العمدة
وهما من متماتها واما لان ذكر
هلاكها مغن عن ذكر هلاك
الباقى لانها حيث هلكت وهى
مشيدة بعروشها فهلاك ما عداها
بالطريق الاولى واما لان الانفاق
فى عمارتها اكثر وقيل ارسل
الله تعالى عليها نارا فاحرقتها
وغار ماؤها ( ويقول ) عطف على
يقلب او حال من ضميره اى وهو
يقول ( ياليتنى لم اشرك بربى
احدا ) كأنه تذكر موعظة اخيه
وعلم انه انما أتى من قبل شركه
فتمنى لو لم يكن مشركا فلم يصبه ما
اصابه قيل ويحتمل ان يكون
ذلك توبة من الشرك وندما على
ما فرط منه ( ولم تكن له ) وقرئ
بالياء التحتانية ( فئة ينصرونه )
يقدرون على نصره بدفع الاهلاك
او على رد المهلك او الاتيان بمثله
وجمع الضمير باعتبار المعنى كما فى
قوله عز وعلا يرونهم مثليهم
( من دون الله ) فانه القادر على
ذلك وحده ( وما كان ) فى نفسه
( منتصرا ) ممتنعا بقوته عن انتقامه
سبحانه ( هنالك ) فى ذلك المقام وفى
تلك الحال ( الولاية لله الحق )
اى النصرة له وحده لا يقدر
عليها احد فهو تقرير لما قبله
او ينصر فيها اولياءه المؤمنين على
الكفرة كما نصر بما فعل بالكافر
اخاه المؤمن ويعضده قوله تعالى
( هو خير ثوابا وخير عقبا ) اى
لاوليائه وقرئ الولاية بكسر
الواو ومعناها الملك والسلطان
اى هنالك السلطان له عز وجل
لا يغلب ولا يمتنع منه او لا يعبد
غيره كقوله تعالى واذا ركبوا فى
الفلك دعوا الله مخلصين له الدين

قلبه خاليا عن ذكر الحق ويكون مملوأ من الهوى الداعي الى الاشتغال بالخلق وتحقيق القول ان ذكر الله نور وذكر غيره ظلمة لان الوجود طبيعة النور والعدم منبع الظلمة والحق تعالى واجب الوجود لذاته فكان النور الحق هو الله وماسوى الله فهو ممكن الوجود لذاته والامكان طبيعة عدمية فكان منبع الظلمة فالقلب اذا اشرق فيه ذكر الله فقد حصل فيه النور والضوء والاشراق واذا توجه القلب الى الخلق فقد حصل فيه الظلم والظلمة بل الظلمات فلهذا السبب اذا اعرض القلب عن الحق واقبل على الخلق فهو الظلمة الخالصة التامة فالاعراض عن الحق هو المراد بقوله اغفلنا قلبه عن ذكرنا والاقبال على الخلق هو المراد بقوله واتبع هواه ( المسئلة الثالثة ) قيل فرطا اى مجاوزا للحد من قولهم فرس فرط اذا كان متقدما للخيل قال الليث الفرط الامر الذي يفرط فيه يقال كل امر فلان فرط وانشد شعرا

لقد كلفتني شططا * وأمرا خائبا فرطا

اى مضيعا فقوله وكان امره فرطا معناه ان الامر الذي يلزمه الحفظ له والاهتمام به وهو امر دينه يكون مخصوصا بايقاع التفريط والتقصير فيه وهذه الحالة صفة من لا ينظر لدينه وانما عمله لدنياه فبين تعالى من حال الغافلين عن ذكر الله التابعين لهواهم انهم مقصرون فى مهماتهم معرضون عما وجب عليهم من التدبر فى الآيات والتحفظ بمهمات الدنيا والآخرة والحاصل انه تعالى وصف أولئك الفقراء بالمواظبة على ذكر الله والاعراض عن غير ذكر الله فقال مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ووصف هؤلاء الاغنياء بالاعراض عن ذكر الله تعالى والاقبال على غير الله وهو قوله اغفلنا قلبه واتبع هواه ثم امر رسوله بمجالسة اولئك والمباعدة عن هؤلاء روى ابو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال كنت جالسا فى عصابة من ضعفاء المهاجرين وان بعضهم ليستتر بعضا من العرى وقارئ يقرأ من القرآن فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماذا كنتم تصنعون قلنا يارسول الله كان واحد يقرأ من كتاب الله ونحن نسمع فقال عليه السلام الحمد لله الذى جعل من امتى من أمرت الى ان اصبر نفسى معهم ثم جلس وسطنا وقال ابشروا ياصعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل الاغنياء بمقدار خمسين الف سنة

❊ قوله تعالى ( وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر انا اعتدنا للظالمين نارا احاط بهم سرادقها وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ) فى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) فى تقرير النظم وجوه ( الاول ) انه تعالى لما أمر رسوله بأن لا يلتفت الى اولئك الاغنياء الذين قالوا ان طردت الفقراء آمنا بك قال بعده وقل الحق من ربكم اى قل لهؤلاء ان هذا الدين الحق انما أتى من عند الله فان قبلتموه عاد النفع اليكم وان لم تقبلوه عاد الضرر اليكم ولا تعلق لذلك بالفقر والغنى والقبح والحسن والخمول والشهرة ( الوجه الثانى ) فى تقرير النظم يمكن ان يكون المراد ان الحق ما جاء من عند الله والحق الذى جاءنى من عنده ان

فيكون تنبيها على ان قوله ياليتني لم اشرك الخ كان عن اضطرار وجزع ( ٧١٢ ) عماد هاه على اسلوب قوله تعالى الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين وقيل هنالك اشارة الى الآخرة كقوله تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وقرئ برفع الحق على انه صفة للولاية وبنصبه على انه مصدر مؤكد وقرئ عقبا بضم القاف وعقبى كرجعى والكل بمعنى العاقبة ( واضرب لهم مثل الحيوة الدنيا ) اى واذكر لهم ما يشبهها فى زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يطمئنوا بها ولا يعكفوا عليها ولا يضربوا عن الآخرة صفحا بالمرة او بين لهم صفتها العجيبة التى هى فى الغرابة كالمثل ( كماء ) استئناف لبيان المثل اى هى كماء ( انزلناه من السماء ) ويجوز كونه مفعولا ثانيا لاضرب على انه بمعنى صير ( فاختلط به ) اشتبك بسببه ( نبات الارض ) فالتف وخالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه او نجع الماء فى النبات حتى روى ورف فيقتضى الظاهر حينئذ فاختلط بنبات الارض وايثار ما عليه النظم الكريم عليه للمبالغة فى الكثرة فان كلا من المختلطين موصوف بصفة صاحبه ( فاصبح ) ذلك النبات الملتف اثر بهجتها ورفيفها ( هشيما ) مهشوما مكسورا ( تذروه الرياح ) تفرقه وقرئ تذريه من اذراه وتذروه الريح وليس المشبه به نفس الماء بل هو الهيئة المنتزعة من الجملة وهى حال النبات المنبت بالماء يكون اخضر وارفا ثم هشيما تطيره الرياح كان لم يغن بالامس ( وكان الله على كل شئ ) من الاشياء التى من جملتها الانشاء والافناء ( مقتدرا ) قادرا على الكمال

اصبر نفسى مع هؤلاء الفقراء و لا اطردهم ولا التفت الى الرؤساء واهل الدنيا ( والوجه الثالث ) فى تقرير النظم ان يكون المراد هو ان الحق الذى جاء من عند الله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وان الله تعالى لم يأذن فى طرد من آمن وعمل صالحا لاجل ان يدخل فى الايمان جمع من الكفار فان قيل أليس ان العقل يقتضى ترجيح الاهم على المهم فطرد اولئك الفقراء لا يوجب الا سقوط حرمتهم وهذا ضرر قليل اما عدم طردهم فانه يوجب بقاء الكفار على الكفر وهذا ضرر عظيم قلنا اما عدم طردهم فانه يوجب بقاء الكفار على الكفر فسلم الا ان من ترك الايمان لاجل الحذر من مجالسة الفقراء فايمانه ليس بايمان بل هو نفاق قبيح فوجب على العاقل ان لا يلتفت الى ايمان من هذا حاله وصفته ( المسئلة الثانية ) قالت المعتزلة قوله تعالى فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر صريح فى ان الامر فى الايمان والكفر والطاعة والمعصية مفوض الى العبد واختياره فمن انكر ذلك فقد خالف صريح القرآن ولقد سألنى بعضهم عن هذه الآية فقلت هذه الآية من اقوى الدلائل على صحة قولنا وذلك لان الآية صريحة فى ان حصول الايمان وحصول الكفر موقوف على حصول مشيئة الايمان وحصول مشيئة الكفر وصريح العقل ايضا يدل له فان الفعل الاختيارى يمتنع حصوله بدون القصد اليه وبدون الاختيار له اذا عرفت هذا فنقول حصول ذلك القصد والاختيار ان كان بقصد آخر يتقدمه واختيار آخر يتقدمه لزم ان يكون كل قصد واختيار مسبوقا بقصد آخر الى غير النهاية وهو محال فوجب انتهاء تلك القصود وتلك الاختيارات الى قصد واختيار يخلقه الله تعالى فى العبد على سبيل الضرورة عند حصول ذلك القصد الضرورى والاختيار الضرورى يوجب الفعل فالانسان شاء اولم يشأ ان لم تحصل فى قلبه تلك المشيئة الجازمة الخالية عن المعارض لم يترتب الفعل واذا حصلت تلك المشيئة الجازمة شاء اولم يشأ يجب ترتب الفعل عليه فلا حصول المشيئة مترتب على حصول الفعل ولا حصول الفعل مترتب على المشيئة فالانسان مضطر فى صورة مختار ولقد قرر الشيخ ابو حامد الغزالى رحمه الله هذا المعنى فى باب التوكل من كتاب احياء علوم الدين فقال فان قلت انى اجد فى نفسى وجدانا ضروريا انى ان شئت الفعل قدرت على الفعل وان شئت الترك قدرت على الترك فالفعل والترك بى لا بغيرى واجاب عنه وقال هب انك تجد من نفسك هذا المعنى ولكن هل تجد من نفسك انك ان شئت مشيئة الفعل حصلت تلك المشيئة وان لم تشأ تلك المشيئة لم تحصل بل العقل يشهد بانه يشاء الفعل لا بسبق مشيئة اخرى على تلك المشيئة واذا شاء الفعل وجب حصول الفعل من غير مكنة واختيار فى هذا المقام فحصول المشيئة فى القلب امر لازم وترتب الفعل على حصول المشيئة ايضا امر لازم وهذا يدل على ان الكل من الله تعالى ( المسئلة الثالثة ) قوله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فيه فوائد ( الفائدة الاولى ) الآية تدل على ان صدور الفعل عن الفاعل بدون القصد والداعى محال ( الفائدة الثانية ) ان

( المال والبنون زينة الحيوة الدنيا ) بيان لشان ما كانوا ( ٧١٣ ) يفتخرون به من محسنات الحياة الدنيا كما قال الاخ الكافر انا اكثر منك مالا واعز نفرا اثر بيان شان نفسها بما مر من المثل وتقديم المال على البنين مع كونهم اعز منه كما فى الآية المحكية آنفا وقوله تعالى وامددناكم باموال وبنين وغير ذلك من الآيات الكريمة لعراقته فيما نيط به من الزينة والامداد وغير ذلك وعمومه بالنسبة الى الافراد والاوقات فانه زينة وممد لكل احد من الآباء والبنين فى كل وقت وحين واما البنون فزينتهم وامدادهم انما يكون بالنسبة الى من بلغ مبلغ الابوة ولان المال مناط لبقاء النفس والبنين لبقاء النوع ولان الحاجة اليه امس من الحاجة اليهم ولانه اقدم منهم فى الوجود ولانه زينة بدونهم من غير عكس فانه من له بنون بلا مال فهو فى ضيق حال ونكال وافراد الزينة مع انها مسندة الى الاثنين لما انها مصدر فى الاصل اطلق على المفعول مبالغة كأنهما نفس الزينة والمعنى ان ما يفتخرون به من المال والبنين شىء يتزين به فى الحياة الدنيا وقد علم شأنها فى سرعة الزوال وقرب الاضمحلال فكيف بما هو من اوصافها التى شأنها ان تزول قبل زوالها ( والباقيات الصالحات ) هى اعمال الخير وقيل هى الصلوات الخمس وقيل سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر وقيل كل ما اريد به وجه الله تعالى وعلى كل تقدير يدخل فيها اعمال فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه دخولا اوليا اما صلاحها فظاهر واما بقاؤها فبقاء عوائدها عند فناء كل ما تطمح اليه النفس من حظوظ الدنيا ( خير ) اى مما نعت شأنه من المال والبنين واخراج  بقاء تلك الاعمال وصلاحها مخرج الصفات المفروغ عنها

صيغة الامر لالمعنى الطلب فى كتاب الله كثيرة ثم نقل عن على بن ابى طالب رضى الله عنه انه قال هذه الصيغة تهديد ووعيد وليست بتخيير ( الفائدة الثالثة ) انها تدل على انه تعالى لا ينتفع بايمان المؤمنين ولا يستضر بكفر الكافرين بل نفع الايمان يعود عليهم وضرر الكفر يعود عليهم كما قال تعالى ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اسأتم فلها واعلم انه تعالى لما وصف الكفر والايمان والباطل والحق اتبعه بذكر الوعيد على الكفر والاعمال الباطلة وبذكر الوعد على الايمان والعمل الصالح اما الوعيد فقوله تعالى انا اعتدنا للظالمين نارا يقول اعتدنا لمن ظلم نفسه ووضع العبادة فى غير موضعها والانفة فى غير محلها فعند ما استحسن بهواه وانف عن قبول الحق لاجل ان الذين قبلوه فقراء ومساكين فهذا كله ظلم ووضع للشئ فى غير موضعه فأخبر تعالى انه اعد لهؤلاء الاقوام نارا وهى الجحيم ثم وصف تعالى تلك النار بصفتين (الصفة الاولى) قوله احاط بهم سرادقها والسرادق هو الحجزة التى تكون حول الفسطاط فأثبت للنار شيئا شبيها بذلك يحيط بهم من جميع الجهات والمراد انه لا مخلص لهم منها ولا فرجة يتفرجون بالنظر الى ما وراءها من غير النار بل هى محيطة بهم من كل الجوانب وقال بعضهم المراد من هذا السرادق الدخان الذى وصفه الله فى قوله انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب وقالوا هذه الاحاطة بهم انما تكون قبل دخولهم النار فيغشاهم هذا الدخان ويحيط بهم كالسرادق حول الفسطاط ( والصفة الثانية ) لهذه النار قوله وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل قيل فى حديث مرفوع انه دردى الزيت وعن ابن مسعود رضى الله عنه انه دخل بيت المال وأخرج نفاثة كانت فيه واوقد عليها النار حتى تلألأت ثم قال هذا هو المهل قال ابو عبيدة والاخفش كل شئ اذبته من ذهب او نحاس او فضة فهو المهل وقيل انه الصديد والقيح وقيل انه ضرب من القطران ثم يحتمل ان تكون هذه الاستغاثة لانهم اذا طلبوا ماء للشرب فيعطون هذا المهل قال تعالى تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية ويحتمل ان يستغيثوا من حر جهنم فيطلبوا ماء يصبونه على انفسهم للتبريد فيعطون هذا الماء قال تعالى حكاية عنهم ان افيضوا علينا من الماء وقال فى آية أخرى سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار فاذا استغاثوا من حر جهنم صب عليهم القطران الذى يعم كل ابدانهم كالقميص وقوله تعالى يغاثوا بماء كالمهل وارد على سبيل الاستهزاء كقوله * تحية بينهم ضرب وجيع * ثم قال تعالى بئس الشراب اى ان الماء الذى هو كالمهل بئس الشراب لان المقصود بشرب الشراب تسكين الحرارة وهذا يبلغ فى احتراق الاجسام مبلغا عظيما ثم قال تعالى وساءت مرتفقا قال قائلون ساءت النار منزلا ومجتمعا للرفقة لان اهل النار يجتمعون رفقاء كأهل الجنة قال تعالى فى صفة اهل الجنة وحسن اولئك رفيقا واما رفقاء النار فهم الكفار والشياطين والمعنى بئس الرفقاء هؤلاء وبئس موضع الترافق النار كما انه نعم الرفقاء اهل الجنة ونعم موضع الرفقاء الجنة وقال آخرون مرتفقا اى متكأ وسمى المرفق مرفقا لانه يتكأ عليه فالاتكاء انما يكون

---

مع ان حقهما ان يكونا مقصودى الافادة لاسيما فى مقابلة اثبات الفناء لما يقابلها من المال والبنين على طريقة قوله تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق للايذان بان بقاءها امر محقق لاحاجة الى بيانه بل لفظ الباقيات اسم لها لا وصف ولذلك لم يذكر الموصوف وانما الذى يحتاج الى التعرض له خيريتها (عند ربك) اى فى الآخرة وهو بيان لما يظهر فيه آثار خيريتها بمنزلة اضافة الزينة الى الحياة الدنيا لا لافضليتها فيها من المال والبنين مع مشاركة الكل فى الاصل اذ لا مشاركة لهما فى الخيرية فى الآخرة (ثوابا) عائدة تعود الى صاحبها ( وخير أملا ) حيث ينال بها صاحبها فى الآخرة كل ما كان يؤمله فى الدنيا واما ما مر من المال والبنين فليس لصاحبه امل يناله وتكرير خير للاشعار باختلاف حيثيتى الخيرية والمبالغة فيها (ويوم نسير الجبال) منصوب بمضمر اى اذكر حين نقلعها من اماكنها ونسيرها فى الجو على هيآتها كما ينبئ عنه قوله تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب او نسير اجزاءها بعد ان نجعلها هباء منبثا والمراد بتذكيره تحذير المشركين مما فيه من الدواهى وقيل هو معطوف على ما قبله من قوله تعالى عند ربك اى الباقيات الصالحات خير عند الله ويوم القيامة وقرئ تسير على صيغة البناء للمفعول من التفعيل جريا على سنن الكبرياء وايذانا بالاستغناء عن الاسناد الى الفاعل لتعينه وقرئ نسير ( وترى الارض ) اى جميع جوانبها والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم اولكل احد ممن يتأتى منه الرؤية وقرئ ترى على صيغة البناء للمفعول (بارزة) اما بروز ما تحت الجبال فظاهر واما ماعداه فكانت الجبال يحول بينه وبين الناظر قبل ذلك فالآن اضحى قاعا صفصفا لا ترى فيها ( للاستراحة )

للاستراحة والمرتفق موضع الاستراحة والله اعلم ❊ قوله تعالى (ان الذين امنوا وعملوا الصالحات انا لانضيع اجر من احسن عملا أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الانهار يحلون فيها من اساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الارائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا) اعلم انه تعالى لما ذكر وعيد المبطلين اردفه بوعد المحقين وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يدل على ان العمل الصالح مغاير للايمان لان العطف يوجب المغايرة (المسئلة الثانية) قوله انا لانضيع اجر من احسن عملا ظاهره يقتضى انه يستوجب المؤمن بحسن عمله على الله اجرا وعند اصحابنا ذلك الاستيجاب حصل بحكم الوعد وعند المعتزلة لذات الفعل وهو باطل لان نعم الله كثيرة وهى موجبة للشكر والعبودية فلا يصير الشكر والعبودية موجبين لثواب آخر لان اداء الواجب لايوجب شيأ آخر (المسئلة الثالثة) نظير قوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات الخ قول الشاعر

ان الخليفة ان الله سربله * سربال ملك به ترجى الخواتيم

كرران تأكيد للاعمال والجزاء عليها (المسئلة الرابعة) اولئك خبر ان وانا لانضيع اعتراض ولك ان تجعل انا لانضيع وأولئك خبرين معا ولك ان تجعل أولئك كلاما مستأنفا بيانا للاجر المبهم واعلم انه تعالى لما اثبت الاجر المبهم اردفه بالتفصيل من وجوه (اولها) صفة مكانهم وهو قوله اولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الانهار والعدن فى اللغة عبارة عن الاقامة فيجوز ان يكون المعنى اولئك لهم جنات اقامة كما يقال هذه دار اقامة ويجوز ان يكون العدن اسما لموضع معين من الجنة وهو وسطها واشرف اماكنها وقد استقصينا فيه فيما تقدم وقوله جنات لفظ جمع فيمكن ان يكون المراد ماقاله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان ويمكن ان يكون المراد ان نصيب كل واحد من المكلفين جنة على حدة وذكر ان من صفات تلك الجنات ان الانهار تجرى من تحتها وذلك لان افضل المساكن فى الدنيا البساتين التى تجرى فيها الانهار (وثانيها) ان لباس اهل الدنيا اما لباس التحلى واما لباس التستر اما لباس التحلى فقال تعالى فى صفته يحلون فيها من اساور من ذهب والمعنى انه يحليهم الله تعالى ذلك او تحليهم الملائكة وقال بعضهم على كل واحد منهم ثلاثة سور سوار من ذهب لاجل هذه الآية وسوار من فضة لقوله تعالى وحلوا اساور من فضة وسوار من لؤلؤ لقوله تعالى ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير واما لباس التستر فقوله ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق والمراد من سندس الآخرة واستبرق الآخرة والاول هو الديباج الرقيق وهو الخز والثانى هو الديباج الصفيق وقيل اصله فارسى معرب وهو استبره اى غليظ فان قيل ماالسبب فى انه تعالى قال فى الحلى يحلون على فعل مالم يسم فاعله وقال فى السندس والاستبرق ويلبسون فاضاف اللبس اليهم قلنا يحتمل ان يكون اللبس اشارة الى مااستوجبوه بعملهم وان يكون الحلى اشارة الى

على البعث الذى ينكره المنكرون وعليه يدور امر الجزاء وكذا الكلام فيما عطف عليه منفيا وموجبا وقيل هو للدلالة على ان حشرهم قبل التسيير والبروز ليعاينوا تلك الاهوال كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك (فلم نغادر) اى لم نترك (منهم احدا) يقال غادره واغدره اذا تركه ومنه الغدر الذى هو ترك الوفاء والغدير الذى هو ماء يتركه السيل فى الارض الغائرة وقرئ بالياء وبالفوقانية على اسناد الفعل الى ضمير الارض كما فى قوله تعالى والقت مافيها وتخلت (وعرضوا على ربك) شبهت حالهم بحال جند عرضوا على السلطان ليأمر فيهم بما يأمر وفى الالتفات الى الغيبة وبناء الفعل للمفعول مع التعرض لعنوان الربوبية والاضافة الى ضميره عليه السلام من تربية المهابة والجرى على سنن الكبرياء واظهار اللطف به عليه السلام مالايخفى (صفا) اى غير متفرقين ولا مختلطين فلا تعرض فيه لوحدة الصف وتعدده وقد ورد فى الحديث الصحيح يجمع الله الاولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفا (لقد جئتمونا) على اضمار القول على وجه يكون حالا من ضمير عرضوا أى مقولا لهم او وقلنا لهم واما كونه عاملا فى يوم نسير كما قيل فبعيد من جزالة التنزيل الجليل كيف لا ويلزم منه ان هذا القول هو المقصود بالاصالة دون سائر القوارع مع انه خاص التعلق بما قبله من العرض والحشر دون تسيير الجبال وبروز الارض (كما خلقناكم) نعت لمصدر مقدر اى مجيئا كائنا

ماتفضل الله عليهم ابتداء من زوائد الكرم ( وثالثها ) كيفية جلوسهم فقال فى صفتها متكئين فيها على الارائك قالوا الارائك جميع اريكة وهى سرير فى حجلة اما السرير وحده فلا يسمى اريكة ولما وصف الله تعالى هذه الاقسام قال نعم الثواب وحسنت مرتفقا والمراد ان يكون هذا فى مقابلة ماتقدم ذكره من قوله وساءت مرتفقا ❊ قوله تعالى ( واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من اعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا كلتا الجنتين آتت اكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا اكثر منك مالا واعز نفرا ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما اظن ان تبيد هذه ابدا وما اظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لاجدن خيرا منها منقلبا قال له صاحبه وهو يحاوره اكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا لكنا هو الله ربى ولا اشرك بربى احدا ولولا اذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة الا بالله ان ترن انا اقل منك مالا وولدا فعسى ربى ان يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا او يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا واحيط بثمره فاصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم اشرك بربى احدا ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا ) اعلم ان المقصود من هذا ان الكفار افتخروا بأموالهم وانصارهم على فقراء المسلمين فبين الله تعالى ان ذلك ممالا يوجب الافتخار لاحتمال ان يصير الفقير غنيا والغنى فقيرا اما الذى يجب حصول المفاخرة به فطاعة الله وعبادته وهى حاصلة لفقراء المؤمنين وبين ذلك بضرب هذا المثل المذكور فى الآية فقال واضرب لهم مثلا رجلين اى مثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين كانا اخوين فى بنى اسرائيل احدهما كافر اسمه براطوس والآخر مؤمن اسمه يهوذا وقيل هما المذكوران فى سورة الصافات فى قوله تعالى قال قائل منهم انى كان لى قرين ورثا من ابيهما ثمانية الاف دينار فأخذ كل واحد منهما النصف فاشترى الكافر ارضا فقال المؤمن اللهم انى اشترى منك ارضا فى الجنة بألف فتصدق به ثم بنى اخوه دارا بألف فقال المؤمن اللهم انى اشترى منك دارا فى الجنة بألف فتصدق به ثم تزوج اخوه امرأة بالف فقال المؤمن اللهم انى جعلت الفا صداقا للحور العين ثم اشترى اخوه خدما وضياعا بالف فقال المؤمن اللهم انى اشتريت منك الولدان بألف فتصدق به ثم اصابه حاجة فجلس لاخيه على طريقه فربه فى حشمه فتعرض له فطرده ووبخه على التصدق بماله وقوله تعالى جعلنا لاحدهما جنتين فاعلم ان الله تعالى وصف تلك الجنة بصفات ( الصفة الاولى ) كونها جنة وسمى البستان جنة لاستتار مايستتر فيها بظل الاشجار واصل الكلمة من الستر والتغطية ( الصفة الثانية ) قوله وحففناهما بنخل اى وجعلنا النخل محيطا بالجنتين نظيره قوله تعالى وترى

---

الاموال والانصار كقوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم (بل زعمتم ان لن نجعل لكم موعدا) اضراب وانتقال من كلام الى كلام كلاهما للتوبيخ والتقريع اى زعمتم فى الدنيا انه لن نجعل لكم ابدا وقتا ننجز فيه ماوعدناه من البعث وما يتبعه وان مخففة من المثقلة فصل بحرف النفى بينهما وبين خبرها لكونه جملة فعلية متصرفة غير دعاء والظرف اما مفعول ثان للجعل وهو بمعنى التصيير والاول هو موعدا او حال من موعدا وهو بمعنى الخلق والابداع (ووضع الكتاب) عطف على عرضوا داخل تحت الامور الهائلة التى اريد تذكيرها بتذكير وقتها اورد فيه ماأورد فى امثاله من صيغة الماضى دلالة على التقرر ايضا اى وضع صحائف الاعمال وايثار الافراد للاكتفاء بالجنس والمراد بوضعها اما وضعها فى ايدى اصحابها يمينا وشمالا واما فى الميزان (فترى المجرمين) قاطبة فيدخل فيهم الكفرة المنكرون للبعث دخولا اوليا (مشفقين) خائفين (مما فيه) من الجرائم والذنوب (ويقولون) عند وقوفهم على ما فى تضاعيفه نقيرا وقطميرا (ياويلتنا) منادين لهلكتهم التى هلكوها من بين الهلكات مستدعين لها ليهلكوا ولايروا هول ما لاقوه اى ياويلتنا احضرى فهذا أوان حضورك (مال هذا الكتاب) اى اى شئ له وقوله تعالى (لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها) اى حواها وضبطها جملة حالية محققة لما فى الجملة الاستفهامية من التعجب او استئنافية مبنية على سؤال نشأ من التعجب كأنه قيل ماشأنه حتى يتعجب منه فقيل لايغادر سيئة صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ( ووجدوا ماعملوا ) فى الدنيا من السيئات اوجزاء ماعملوا ( حاضرا ) مسطورا عتيدا (ولايظلم ربك احدا)

فيكتب مالم يعمل من السيآت اويزيد فى عقابه المستحق فيكون ( ٧١٧ ) اظهار المعدلة القلم الازلى ( واذقلنا للملائكة ) اى اذكر وقت

الملائكة حافين من حول العرش اى واقفين حول العرش محيطين به والحفاف جانب الشئ والاحفة جمع فمعنى قول القائل حف به القوم اى صاروا فى احفته وهى جوانبه قال الشاعر

له لحظات فى حفافى سريره * اذا كرها فيها عقاب ونائل

قال صاحب الكشاف حفوه اذا طافوا به وحففته بهم اى جعلتهم حافين حوله وهو متعد الى مفعول واحد فتزيده الباء مفعولا ثانيا كقوله غشيته وغشيته به قال وهذه الصفة مما يؤثرها الدهاقين فى كرومهم وهى ان يجعلوها محفوفة بالاشجار المثمرة وهو ايضا حسن فى المنظر (الصفة الثالثة) وجعلنا بينهما زرعا المقصود منه امور (احدها) ان تكون تلك الارض جامعة للاقوات والفواكه (وثانيها) ان تكون تلك الارض متسعة الاطراف متباعدة الاكناف ومع ذلك فانها لم يتوسطها ماينقطع بعضها عن بعض (وثالثها) ان مثل هذه الارض تأتى فى كل وقت بمنفعة اخرى وهى ثمرة اخرى فكانت منافعها دارة متواصلة (الصفة الرابعة) قوله تعالى كلتا الجنتين آتت اكلها ولم تظلم منه شيئا كلا اسم مفرد معرفة يؤكد به مذكران معرفتان وكلتا اسم مفرد يؤكد به مؤنثان معرفتان واذا اضيفا الى المظهر كانا بالالف فى الاحوال الثلاثة كقولك جاءنى كلا اخويك ورأيت كلا اخويك ومررت بكلا اخويك وجاءنى كلتا اختيك ورأيت كلتا اختيك ومررت بكلتا اختيك واذا اضيفا الى المضمر كانا فى الرفع بالالف وفى الجر والنصب بالياء وبعضهم يقول مع المضمر بالالف فى الاحوال الثلاثة ايضا وقوله آتت اكلها حمل على اللفظ لان كلتا لفظه لفظ مفرد ولو قيل اتتا على المعنى لجاز وقوله ولم تظلم منه شيئا اى لم تنقص والظلم النقصان يقول الرجل ظلمنى حقى اى نقصنى (الصفة الخامسة) قوله تعالى وفجرنا خلالهما نهرا اى كان النهر يجرى فى داخل تلك الجنتين وفى قراءة يعقوب وفجرنا مخففة وفى قراءة الباقين وفجرنا مشددة والتخفيف هو الاصل لانه نهر واحد والتشديد على المبالغة لان النهر يمتد فيكون كانهار وخلالهما اى وسطهما وبينهما ومنه قوله تعالى ولاوضعوا خلالكم ومنه يقال خللت القوم اى دخلت بين القوم (الصفة السادسة) قوله تعالى وكان له ثمر قرأ عاصم بفتح الثاء والميم فى الموضعين وهو جمع ثمار او ثمرة وقرأ ابو عمرو بضم الثاء وسكون الميم فى الحرفين والباقون بضم الثاء والميم فى الحرفين ذكر اهل اللغة انه بالضم انواع الاموال من الذهب والفضة وغيرهما وبالفتح حمل الشجر قال قطرب كان ابو عمرو بن العلاء يقول الثمر المال والولد وانشد للحرث بن كلدة

ولقد رأيت معاشرا * قدا ثمروا مالا وولدا

وقال النابغة

مهلا فداء لك الاقوام كلهم * ماثمروه من مال ومن ولد

وقوله وكان له ثمر اى انواع من المال من ثمر ماله اذا كثر وعن مجاهد الذهب والفضة

قولنا لهم (اسجدوا لآدم) سجود تحية وتكريم وقد مر تفصيله (فسجدوا) جميعا امتثالا بالامر (الا ابليس) فانه لم يسجد بل ابى واستكبر وقوله تعالى (كان من الجن) كلام مستأنف سيق مساق التعليل لما يفيده استثناء اللعين من الساجدين كأنه قيل ماله لم يسجد فقيل كان اصله جنيا (ففسق عن امر ربه) اى خرج عن طاعته كما ينبئ عنه الفاء او صار فاسقا كافرا بسبب امر الله تعالى اذ لولاه لما ابى والتعرض لوصف الربوبية المنافية للفسق لبيان كمال قبح مافعله والمراد بتذكير قصته تشديد النكير على المتكبرين المفتخرين بانسابهم واموالهم المستنكفين عن الانتظام فى سلك فقراء المؤمنين ببيان ان ذلك من صنيع ابليس وانهم فى ذلك تابعون لتسويله كما ينبئ عنه قوله تعالى (افتتخذونه) الخ فان الهمزة للانكار والتعجيب والفاء للتعقيب اى اعقيب علمكم بصدور تلك القبائح عنه تتخذونه (وذريته) اى اولاده واتباعه جعلوا ذريته مجازا قال قتادة يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وقيل يدخل ذنبه فى دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين (اولياء من دونى) فتستبدلونهم بى فتطيعونهم بدل طاعتى (وهم) اى والحال ان ابليس وذريته (لكم عدو) اى اعداء كما فى قوله تعالى فانهم عدو لى الارب العالمين وقوله تعالى هم العدو وانما فعل به ذلك تشبيها له بالمصادر نحو القبول والولوع وتقييد الاتخاذ بالجملة الحالية لتأكيد الانكار وتشديده فان مضمونها مانع من وقوع الاتخاذ ومناف له قطعا (بئس للظالمين) اى الواضعين للشئ فى غير موضعه (بدلا) من الله سبحانه ابليس وذريته وفى الالتفات

اى كان مع الجنتين اشياء من النقود و لماذكرالله تعالى هذه الصفات قال بعده فقال له صاحبه وهو يحاوره انا اكثر منك مالا واعز نفرا والمعنى ان المسلم كان يحاوره بالوعظ والدعاء الى الايمان بالله وبالبعث والمحاورة مراجعة الكلام من قولهم حاور اذا رجع قال تعالى انه ظن ان لن يحور بلى فذكر تعالى ان عند هذه المحاورة قال الكافر انا اكثر منك مالا واعز نفرا والنفر عشيرة الرجل واصحابه الذين يقومون بالذب عنه وينفرون معه وحاصل الكلام ان الكافر ترفع على المؤمن بجاهه وماله ثم انه أراد ان يظهر لذلك المسلم كثرة ماله فأخبرالله تعالى عن هذه الحالة فقال ودخل جنته وأراه اياها على الحالة الموجبة للبهجة والسرور واخبره بصنوف ما يملكه من المال فان قيل لم افرد الجنة بعد التثنية قلنا المراد انه ليس له جنة ولا نصيب فى الجنة التى وعد المتقون المؤمنون وهذا الذى ملكه فى الدنيا هو جنته لا غير ولم يقصد الجنتين ولا واحدا منهما ثم قال تعالى وهو ظالم لنفسه وهو اعتراض وقع فى اثناء الكلام والمراد التنبيه على انه لما اعتز بتلك النعم وتوسل بها الى الكفران والجحود لقدرته على البعث كان واضعا تلك النعم فى غير موضعها ثم حكى تعالى عن الكافر انه قال وما اظن ان تبيد هذه ابدا وما اظن الساعة قائمة فجمع بين هذين فالاول قطعه بأن تلك الاشياء لا تهلك ولا تبيد ابدا مع انها متغيرة متبدلة فان قيل هب انه شك فى القيامة فكيف قال ما اظن ان تبيد هذه ابدا مع ان الحدس يدل على ان احوال الدنيا بأسرها ذاهبة باطلة غير باقية قلنا المراد انها لا تبيد مدة حياته ووجوده ثم قال ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا اى مرجعا وعاقبة وانتصابه على التمييز ونظيره قوله تعالى ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى وقوله لأوتين مالا وولدا والسبب فى وقوع هذه الشبهة انه تعالى لما اعطاه المال فى الدنيا ظن انه انما اعطاه ذلك لكونه مستحقا له والاستحقاق باق بعد الموت فوجب حصول العطاء والمقدمة الاولى كاذبة فان فتح باب الدنيا على الانسان يكون فى اكثر الامر للاستدراج والتملية قرأ نافع وابن كثير خيرا منهما والمقصود عود الكناية الى الجنتين والباقون منها والمقصود عود الكناية الى الجنة التى دخلها ثم ذكر تعالى جواب المؤمن فقال جل جلاله قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا وفيه بحثان (البحث الاول) ان الانسان الاول قال وما اظن الساعة قائمة وهذا الثانى كفره حيث قال أكفرت بالذى خلقك من تراب وهذا يدل على ان الشاك فى حصول البعث كافر (البحث الثانى) هذا الاستدلال يحتمل وجهين (الاول) يرجع الى الطريقة المذكورة فى القرآن وهو انه تعالى لما قدر على الابتداء وجب ان يقدر على الاعادة فقوله خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا اشارة الى خلق الانسان فى الابتداء (الوجه الثانى) انه لما خلقك هكذا فلم يخلقك عبثا وانما خلقك للعبودية واذا خلقك لهذا المعنى وجب ان يحصل للمطيع ثواب وللمذنب عقاب وتقريره ماذكرناه فى سورة يس ويدل على هذا

الى الغيبة مع وضع الظالمين موضع الضمير من الايذان بكمال السخط ( ٧١٨ ) والاشارة الى مافعلوه ظلم قبيح مالا يخفى ( مااشهدتهم )

استئناف مسوق لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور فى انفسهم بعد بيان الصوارف عن ذلك من خباثة المحتد والفسق والعداوة اى مااحضرت ابليس وذريته (خلق السموات والارض ) حيث خلقتهما قبل خلقهم (ولا خلق انفسهم) اى ولا اشهدت بعضهم خلق بعض كقوله تعالى ولا تقتلوا انفسكم هذا ماأجمع عليه الجمهور حذارا من تفكيك الضميرين ومحافظة على ظاهر لفظ الانفس ولك ان ترجع الضمير الثانى الى الظالمين وتلتزم التفكيك بناء على قود المعنى اليه فان نفى اشهاد الشياطين خلق الذين يتولونهم هو الذى يدور عليه انكار اتخاذهم اولياء بناء على ان ادنى مايصحح التولى حضور الولى خلق المتولى وحيث لا حضور لامصحح للتولى قطعا وامانفى اشهاد بعض الشياطين خلق بعض منهم فليس من مدارية الانكار المذكور فى شىء على ان اشهاد بعضهم خلق ان كان مصححا لتولى الشاهد بناء على دلالته على كماله باعتبار ان له مدخلا فى خلق المشهود فى الجملة فهو مخل بتولى المشهود بناء على قصوره عمن شهد خلقه فلا يكون نفى الاشهاد المذكور متمحضا فى نفى الكمال المصحح للتولى عن الكل وهو المناط للانكار المذكور (وما كنت متخذ المضلين) اى متخذهم وانما وضع موضعه المظهر ذمالهم وتسجيلا عليهم بالاضلال وتأكيدا لماسبق من انكار اتخاذهم اولياء (عضدا) اعوانا فى شأن الخلق او فى شأن من شؤنى حتى يتوهم شركتهم فى التولى بناء على شركة فى بعض احكام الربوبية وفيه تهكم بهم وايذان بكمال ركاكة عقولهم (الوجه)

الوجه قوله ثم سواك رجلا اى هيأك هيئة تعقل و تصلح للتكليف فهل يجوز فى العقل مع هذه الحالة اهماله امرك ثم قال المؤمن لكنا هو الله ربى و فيه بحثان ( البحث الاول ) قال اهل اللغة لكنا اصله لكن انا فحذفت الهمزة و القيت حركتها على نون لكن فاجتمعت النونان فادغمت نون لكن فى النون التى بعدها و مثله * وتقليننى لكن اياك لا اقلى * اى لكن انا لا اقليك و هو فى قوله هو الله ربى ضمير الشان و قوله الله ربى جملة من المبتدأ والخبر واقعة فى معرض الخبر لقوله هو فان قيل قوله لكنا استدراك لماذا قلنا لقوله أكفرت كأنه قال لاخيه أكفرت بالله لكنى مؤمن موحد كما تقول زيد غائب لكن عمرو حاضر (البحث الثانى) قرأ ابن عامر و يعقوب الحضرمى و نافع فى رواية لكنا هو الله ربى فى الوصل بالالف و فى قراءة الباقين لكن هو الله ربى بغير الف و المعنى واحد ثم قال المؤمن ولا اشرك بربى احدا ذكر القفال فيه وجوها ( احدها ) انى لا ارى الفقر و الغنى الا منه فاحمده اذا اعطى و اصبر اذا ابتلى و لا اتكبر عندما ينعم على و لا أرى كثرة المال و الاعوان من نفسى و ذلك لان الكافر لما اعتز بكثرة المال و الجاه فكأنه قد اثبت لله شريكا فى اعطاء العز و الغنى ( وثانيها ) لعل ذلك الكافر مع كونه منكرا للبعث كان عابد صنم فبين هذا المؤمن فساد قوله باثبات الشركاء ( وثالثها ) ان هذا الكافر لما عجز الله عن البعث و الحشر فقد جعله مساويا للخلق فى هذا العجز واذا اثبت المساواة فقد اثبت الشريك ثم قال المؤمن للكافر و لولا اذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة الا بالله فأمره ان يقول هذين الكلامين الاول قوله ماشاء الله و فيه وجهان ( الاول ) ان تكون ما شرطية و يكون الجزاء محذوفا و التقدير اى شئ شاء الله كان (والثانى) ان تكون ما موصولة مرفوعة المحل على انها خبر مبتدأ محذوف و تقديره الامر ماشاء الله و احتج اصحابنا بهذا على ان كل ما أراده الله وقع و كل ما لم يرده لم يقع و هذا يدل على انه ما أراد الله الايمان من الكافر و هو صريح فى ابطال قول المعتزلة أجاب الكعبى عنه بان تأويل قولهم ماشاء مما تولى فعله لا مما هو فعل العباد كما قالوا لا مرد لامر الله لم يرد ما امر به العباد ثم قال لا يمتنع ان يحصل فى سلطانه ما لا يريده كما يحصل فيه مانهى عنه واعلم ان الذى ذكر الكعبى ليس جوابا عن الاستدلال بل هو التزام المخالفة لظاهر النص و قياس الارادة على الامر باطل لان هذا النص دال على انه لا يوجد الا ما اراده الله و ليس فى النصوص ما يدل على انه لا يدخل فى الوجود الا ما امر به فظهر الفرق و اجاب القفال عنه بان قال هلا اذا دخلت بستانك قلت ماشاء الله كقول الانسان هذه الاشياء الموجودة فى هذا البستان ماشاء الله و مثله قوله سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم و هم ثلاثة و قوله و قولوا حطة اى قولوا هذه حطة و اذا كان كذلك كان المراد من هذا الشئ الموجود فى البستان شئ شاء الله تكوينه و على هذا التقدير لم يلزم ان يقال كل ما شاء الله وقع لان هذا الحكم غير عام فى الكل بل مختص بالاشياء المشاهدة فى البستان و هذا التأويل الذى ذكره القفال احسن بكثير مما ذكره

وسخافة آرائهم حيث لا يفهمون هذا الامر الجلى الذى  لا يكاد يشتبه على البله و الصبيان فيحتاجون الى التصريح به و ايثار نفى الاشهاد على نفى شهودهم و نفى اتخاذهم اعوانا على نفى كونهم كذلك للاشعار بأنهم مقهورون تحت قدرته تعالى تابعون لمشيئته و ارادته فيهم و انهم بمعزل من استحقاق الشهود و المعونة من تلقاء انفسهم من غير احضار و اتخاذ و انما قصارى ما يتوهم فى شانهم ان يبلغوا ذلك المبلغ بامر الله عز و جل و لم يكد ذلك يكون و قيل الضمير للمشركين و المعنى ما اشهدتهم خلق ذلك و ما اطلعتهم على اسرار التكوين و ما خصصتهم بفضائل لا يحويها غيرهم حتى يكونوا قدوة للناس فيؤمنوا بايمانهم كما يزعمون فلا يلتفت الى قولهم طمعا فى نصرتهم للدين فانه لا ينبغى لى ان اعتضد بالمضلين و يعضده القراءة بفتح التاء خطابا لرسول الله صلى الله عليه و سلم و المعنى ما صح لك الاعتضاد بهم و وصفهم بالاضلال لتعليل نفى الاتخاذ و قرئ متخذ المضلين على الاصل و قرئ عضدا بضم العين و سكون الضاد و بفتح و سكون بالتخفيف و بضمتين بالاتباع و بفتحتين على انه جمع عاضد كرصد و راصد ( و يوم يقول ) اى الله عز و جل للكافرين توبيخا و تعجيزا و قرئ بنون العظمة ( نادوا شركائى الذين زعمتم ) انهم شفعاؤكم ليشفعوا لكم و المراد بهم كل ما عبد من دونه تعالى و قيل ابليس و ذريته (فدعوهم) اى نادوهم للاغاثة و فيه بيان لكمال اعتنائهم باعانتهم على طريقة الشفاعة اذ معلوم ان لا طريق الى المدافعة (فلم يستجيبوا لهم ) فلم يغيثوهم اذ لا امكان لذلك و فى ايراده مع ظهوره تهكم بهم و ايذان بانهم فى الحماقة بحيث لا يفهمونه الا بالتصريح به ( وجعلنا بينهم ) بين الداعين و المدعوين ( موبقا )

الجبائى والكعبى واقول انه على جوابه لايدفع الاشكال عن المعتزلة لان عمارة ذلك البستان ربما حصلت بالغصوب والظلم الشديد فلا يصح ايضا على قول المعتزلة ان يقال هذا واقع بمشيئة الله اللهم الا ان نقول المراد ان هذه الثمار حصلت بمشيئة الله تعالى الا ان هذا تخصيص لظاهر النص من غير دليل ( والكلام الثانى ) الذى امر المؤمن الكافر بأن يقوله هو قوله لاقوة الا بالله اى لاقوة لاحد على امر من الامور الا باعانة الله واقداره والمقصود انه قال المؤمن للكافر هلا قلت عند دخول جنتك الامر ماشاء الله والكائن ماقدره الله اعترافا بانها وكل خير فيها بمشيئة الله وفضله فأن امرها بيده ان شاء تركها وان شاء خربها وهلا قلت لاقوة الا بالله اقرارا بأن ماقويت به على عمارتها وتدبير امرها فهو بمعونة الله وتأييده لايقوى احد فى بدنه ولا فى ملك يده الا بالله ثم ان المؤمن لما علم الكافر الايمان اجابه عن افتخاره بالمال والنفر فقال ان ترن انا اقل منك مالا وولدا من قرأ اقل بالنصب فقد جعل انا فضلا واقل مفعولا ثانيا ومن قرأ اقل بالرفع جعل قوله انا مبتدأ وقوله اقل خبر والجملة مفعولا ثانيا لترنى واعلم ان ذكر الولد ههنا يدل على ان المراد بالنفر المذكور فى قوله واعز نفرا الاعوان والاولاد كأنه يقول له ان كنت ترانى اقل مالا وولدا وانصارا فى الدنيا الفانية فعسى ربى ان يؤتين خيرا من جنتك امافى الدنيا واما فى الآخرة ويرسل على جنتك حسبانا من السماء اى عذابا وتخريبا والحسبان مصدر كالغفران والبطلان بمعنى الحساب اى مقدارا قدره الله وحسبه وهو الحكم بتخريبها قال الزجاج عذاب حسبان وذلك الحسبان حسبان ما كسبت يداك وقيل حسبانا اى مرامى الواحد منها حسبانة وهى الصواعق فتصبح صعيدا زلقا اى فتصبح جنتك ارضا ملساء لانبات فيها والصعيد وجه الارض زلقا اى تصير بحيث تزلق الرجل عليها زلقا ثم قال اويصبح ماؤها غورا اى يغوص ويسفل فى الارض فلن تستطيع له طلبا اى فيصير بحيث لاتقدر على رده الى موضعه قال اهل اللغة فى قوله ماؤها غورا اى غائرا وهو نعت على لفظ المصدر كما يقال فلان زور وصوم للواحد والجمع والمذكر والمؤنث ويقال نساء نوح اى نوائح ثم اخبر الله تعالى انه حقق ماقدره هذا المؤمن فقال واحيط بثمره وهو عبارة عن اهلاكه بالكلية واصله من احاطة العدو لانه اذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ثم استعمل فى كل اهلاك ومنه قوله الا ان يحاط بكم ومثله قولهم أتى عليه اذا اهلكه من أتى عليهم العدو اذا جاءهم مستعليا عليهم ثم قال تعالى فأصبح يقلب كفيه وهو كناية عن الندم والحسرة فان من عظمت حسرته يصفق احدى يديه على الاخرى وقد يمسح احداهما على الاخرى وانما يفعل هذا ندامة على ماانفق فى الجنة التى وعظه اخوه فيها وعذله وهى خاوية على عروشها اى ساقطة على عروشها فيمكن ان يكون المراد بالعروش عروش الكرم فهذه العروش سقطت ثم سقطت الجدران عليها ويمكن ان يراد من العروش السقوف وهى سقطت على الجدران وحاصل الكلام ان هذه اللفظة كناية عن

هى فى الشدة نفس الهلاك كقول عمر رضى الله عنه لايكن حبك كلفا ولابغضك تلفا وقيل البين الوصل اى وجعلنا تواصلهم فى الدنيا هلاكا فى الآخرة ويجوز ان يكون المراد بالشركاء الملائكة وعزيرا وعيسى عليهم السلام ومريم وبالموبق البرزخ البعيد اى جعلنا بينهم امدا بعيدا يهلك فيه الاشواط لفرط بعده لانهم فى قعر جهنم وهم فى اعلى الجنان (ورأى المجرمون النار) وضع المظهر مقام المضمر تصريحا باجرامهم وذمالهم بذلك (فظنوا) اى فأيقنوا (انهم مواقعوها ) مخالطوها واقعون فيها اوظنوا اذرأوها من مكان بعيد انهم مواقعوها الساعة (ولم يجدوا عنها مصرفا ) انصرافا او معدلا ينصرفون اليه (ولقد صرفنا) اى كررنا واوردنا على وجوه كثيرة من النظم (فى هذا القرآن للناس) لمصلحتهم ومنفعتهم (من كل مثل) من جملته مامر من مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا اومن كل نوع من انواع المعانى البديعة الداعية الى الايمان التى هى فى الغرابة والحسن واستجلاب النفس كالمثل ليتلقوه بالقبول فلم يفعلوا (وكان الانسان) بحسب جبلته (اكثر شئ جدلا) اى اكثر الاشياء التى يتأتى منها الجدل وهو ههنا شدة الخصومة بالباطل والمماراة من الجدل الذى هو الفتل والمجادلة الملاواة لان كلا من المجادلين يلتوى على صاحبه وانتصابه على التمييز والمعنى ان جدله اكثر من جدل كل مجادل ( وما منع الناس ) اى اهل مكة الذين حكيت اباطيلهم (ان يؤمنوا ) بان يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا ماهم فيه من الاشراك ( اذ جاءهم الهدى ) اى القرآن العظيم ( بطلانها )

الهادى الى الايمان بما فيه من فنون المعانى الموجبة له ( ٧٢١ ) (ويستغفروا ربهم ) عما فرط منهم من انواع الذنوب التى من

بطلانها وهلاكها ثم قال تعالى ويقول ياليتنى لم اشرك بربى احدا والمعنى ان المؤمن لما قال لكنا هو الله ربى ولا اشرك بربى احدا فهذا الكافر تذكر كلامه وقال ياليتنى لم اشرك بربى احدا فان قيل هذا الكلام يوهم انه انما هلكت جنته بشؤم شركه وليس الامر كذلك لان انواع البلاء اكثرها انما يقع للمؤمنين قال تعالى ولولا ان يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون وقال النبى صلى الله عليه وسلم خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل وايضا فلما قال ياليتنى لم اشرك بربى احدا فقد ندم على الشرك ورغب فى التوحيد فوجب ان يصير مؤمنا فلم قال بعده ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا والجواب عن السؤال الاول انه لما عظمت حسرته لاجل انه انفق عمره فى تحصيل الدنيا وكان معرضا فى كل عمره عن طلب الدين فلما ضاعت الدنيا بالكلية بقى الحرمان عن الدنيا والدين عليه فلهذا السبب عظمت حسرته والجواب عن السؤال الثانى انه انما ندم على الشرك لاعتقاده انه لو كان موحدا غير مشرك لبقيت عليه جنته فهو انما رغب فى التوحيد والرد عن الشرك لاجل طلب الدنيا فلهذا السبب ما صار توحيده مقبولا عند الله ثم قال تعالى ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وفيه بحثان ( البحث الاول ) قرأ حمزة والكسائى ولم يكن له فئة بالياء لان قوله فئة جمع فاذا تقدم على الكناية جاز التذكير ولانه رعاية للمعنى والباقون بالتاء المنقوطة باثنتين من فوق لان الكناية عائدة الى اللفظة وهى الفئة (البحث الثانى) المراد من قوله ينصرونه من دون الله هو انه ما حصلت له فئة يقدرون على نصرته من دون الله اى هو الله تعالى وحده القادر على نصرته ولا يقدر احد غيره ان ينصره ثم قال تعالى هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا وفيه مسائل ( المسئلة الاولى ) اختلف القراء فى ثلاثة مواضع من هذه الآية (اولها) فى لفظ الولاية ففى قراءة حمزة والكسائى بكسر الواو وفى قراءة الباقين بالفتح وحكى عن ابى عمرو بن العلاء انه قال كسر الواو لحن قال صاحب الكشاف الولاية بالفتح النصرة والتولى وبالكسر السلطان والملك (وثانيها) قرأ ابو عمرو والكسائى قوله الحق بالرفع والتقدير هنالك الولاية الحق لله وقرأ الباقون بالجر صفة لله (وثالثها) قرأ ابن كثير وابو عمرو ونافع والكسائى وابن عامر عقبا بضم القاف وقرأ عاصم وحمزة عقبا بتسكين القاف (المسئلة الثانية) هنالك الولاية لله فيه وجوه (الاول) انه تعالى لما ذكر من قصة الرجلين ما ذكر علمنا ان النصرة والعاقبة المحمودة كانت للمؤمن على الكافر وعرفنا ان الامر هكذا يكون فى حق كل مؤمن وكافر فقال هنالك الولاية لله الحق اى فى مثل ذلك الوقت وفى مثل ذلك المقام تكون الولاية لله يوالى اولياءه فيغلبهم على اعدائه ويفوض امر الكفار اليهم فقوله هنالك اشارة الى الموضع والوقت الذى يريد الله اظهار كرامة اوليائه واذلال اعدائه (والوجه الثانى) فى التأويل ان يكون المعنى فى مثل تلك الحالة

جملتها مجادلتهم للحق بالباطل ( الا ان تأتيهم سنة الاولين ) اى الا طلب اتيان سنتهم او الانتظار اتيانها او الا تقديره فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه وسنتهم الاستئصال ( او يأتيهم العذاب ) اى عذاب الآخرة ( قبلا ) اى انواعا جمع قبيل او عيانا كما فى قراءة قبلا بكسر القاف وفتح الباء وقرئ بفتحتين اى مستقبلا يقال لقيته قبلا وقبلا وقبلا وانتصابه على الحالية من الضمير او العذاب والمعنى ان ما تضمنه القرآن الكريم من الامور المستوجبة للايمان بحيث لو لم يكن مثل هذه الحكمة القوية لما امتنع الناس من الايمان وان كانوا مجبولين على الجدل المفرط ( وما نرسل المرسلين ) الى الامم ملتبسين بحال من الاحوال ( الا ) حال كونهم ( مبشرين ) للمؤمنين بالثواب ( ومنذرين ) للكفرة والعصاة بالعقاب ( ويجادل الذين كفروا بالباطل ) باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات والسؤال عن قصة اصحاب الكهف ونحوها تعنتا ( ليدحضوا به ) اى بالجدال ( الحق ) اى يزيلوه عن مركزه ويبطلوه من ادحاض القدم وهو ازلاقها وهو قولهم للرسل عليهم الصلاة والسلام ما انتم الا بشر مثلنا ولو شاء الله لانزل ملائكة ونحوهما ( واتخذوا آياتى ) التى تخر لها صم الجبال ( وما انذروا ) اى انذروه من القوارع الناعية عليهم العقاب والعذاب او انذارهم ( هزوا ) استهزاء وقرئ بسكون الزاى وهو ما يستهزأ به ( ومن اظلم ممن ذكر بآيات ربه )

وهو القرآن العظيم ( فأعرض عنها ) ولم يتدبرها (٩١)(را)(خا) ولم يتذكر بها وهذا السبك وان كان مدلوله

الشديدة يتولى الله ويلتجئ اليه كل محتاج مضطر يعني ان قوله ياليتني لم اشرك بربي احدا كلمة الجئ اليها ذلك الكافر فقالها جزعا مما ساقه اليه شؤم كفره ولولا ذلك لم يقلها (والوجه الثالث) المعنى هنالك الولاية لله ينصر بها اولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم ويشفي صدورهم من اعدائهم يعني انه تعالى نصر بما فعل بالكافر أخاه المؤمن وصدق قوله في قوله فعسى ربي ان يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء ويعضده قوله هو خير ثوابا وخير عقبا اي لاوليائه (والوجه الرابع) ان قوله هنالك اشارة الى الدار الآخرة اي في تلك الدار الآخرة الولاية لله كقوله لمن الملك اليوم لله ثم قال تعالى هو خير ثوابا اي في الآخرة لمن آمن به والتجأ اليه وخير عقبا اي هو خير عاقبة لمن رجاه وعمل لوجهه وقد ذكرنا انه قرئ عقبا بضم القاف وسكونها وعقبى على فعلى وكلها بمعنى العاقبة * قوله تعالى (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدرا) اعلم ان المقصود اضرب مثلا آخر يدل على حقارة الدنيا وقلة بقائها والكلام متصل بما تقدم من قصة المشركين المتكبرين على فقراء المؤمنين فقال واضرب لهم اي لهؤلاء الذين افتخروا بأموالهم وانصارهم على فقراء المسلمين مثل الحياة الدنيا ثم ذكر المثل فقال كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض وحينئذ يربو ذلك النبات ويهتز ويحسن منظره كما قال تعالى فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت ثم اذا انقطع ذلك مدة جف ذلك النبات وصار هشيما وهو النبت المتكسر المتفتت ومنه قوله هشمت انفه وهشمت الثريد وانشد

عمرو الذي هشم الثريد لاهله * ورجال مكة مسنتون عجاف

واذا صار النبات كذلك طيرته الرياح وذهبت بتلك الاجزاء الى سائر الجوانب وكان الله على كل شئ مقتدرا بتكوينه اولا وتنميته وسطا وابطاله آخرا واحوال الدنيا ايضا كذلك تظهر اولا في غاية الحسن والنضارة ثم تتزايد قليلا قليلا ثم تأخذ في الانحطاط الى ان تنتهي الى الهلاك والفناء ومثل هذا الشئ ليس للعاقل ان يبتهج به والباء في قوله فاختلط به نبات الارض فيه وجوه (الاول) التقدير فاختلط بعض انواع النبات بسائر الانواع بسبب هذا الماء وذلك لان عند نزول المطر يقوى النبات ويختلط بعضه بالبعض ويشتبك بعضه بالبعض ويصير في المنظر في غاية الحسن والزينة (والثاني) فاختلط ذلك الماء بالنبات واختلط ذلك النبات بالماء حتى روى ورف رفيفا وكان حق اللفظ على هذا التفسير فاختلط بنبات الارض ووجه صحته ان كل مختلطين موصوف كل واحد منهما بصفة صاحبه * قوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا) لما بين تعالى ان الدنيا سريعة الانقراض والانقضاء مشرفة على الزوال والبوار والفناء بين تعالى ان المال والبنين زينة الحياة الدنيا والمقصود ادخال هذا الجزء تحت ذلك الكل وسنعقد منه قياس الانتاج وهو ان المال والبنون زينة

الصلة من الاعراض عن القرآن للاشعار بأن ظلم من يجادل فيه ويتخذه هزوا خارج عن الحد (ونسي ماقدمت يداه) اي عمله من الكفر والمعاصي التي من جملتها ماذكر من المجادلة بالباطل والاستهزاء بالحق ولم يتفكر في عاقبتها (انا جعلنا على قلوبهم أكنة) اغطية كثيرة جمع كنان وهو تعليل لاعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم (ان يفقهوه) مفعول لما دل عليه الكلام اي منعناهم ان يفقهوا على كنهه اومفعول له اي كراهة ان يفقهوه (وفي آذانهم) اي جعلنا فيها (وقرا) ثقلا يمنعهم من استماعه (وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا ابدا) اي فلن يكون منهم اهتداء البتة مدة التكليف واذن جزاء للشرط وجواب عن سؤال النبي عليه الصلاة والسلام المدلول عليه بكمال عنايته باسلامهم كانه قال عليه الصلاة والسلام مالي لاادعوهم فقيل ان تدعهم الخ وجمع الضمير الراجع الى الموصول في هذه المواضع الخمسة باعتبار معناه كما ان افراده في المواطن الخمسة المتقدمة باعتبار لفظه (وربك) مبتدأ وقوله تعالى (الغفور) خبره وقوله تعالى (ذو الرحمة) اي الموصوف بها خبر بعد خبر وايراد المغفرة على صيغة المبالغة دون الرحمة للتنبيه على كثرة الذنوب ولان المغفرة ترك الاضرار وهو سبحانه قادر على ترك مالايتناهى من العذاب واما الرحمة فهي فعل وايجاد ولا يدخل تحت الوجود الا ما يتناهى وتقديم الوصف الاول لان التخلية قبل التحلية اولانه اهم بحسب الحال اذ المقام مقام بيان

الحياة الدنيا وكل ما كان من زينة الدنيا فهو سريع الانقضاء والانقراض بلنتج انتاجا بديهيا ان المال والبنين سريعة الانقضاء والانقراض ومن المقتضى البديهى ان ما كان كذلك فانه يقبح بالعاقل أن يفتخر به أو يفرح بسببه أو يقيم له فى نظره وزنا فهذا برهان باهر على فساد قول أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الاموال والاولاد ثم ذكر ما يدل على رجحان أولئك الفقراء على أولئك الكفار من الاغنياء فقال والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا وتقرير هذا الدليل ان خيرات الدنيا منقرضة منقضية وخيرات الآخرة دائمة باقية والدائم الباقى خير من المنقرض المنقضى وهذا معلوم بالضرورة لاسيما اذا ثبت ان خيرات الدنيا خسيسة حقيرة وان خيرات الآخرة عالية رفيعة لان خيرات الدنيا حسية وخيرات الآخرة عقلية والعقلية أشرف من الحسية بكثير بالدلائل المذكورة فى تفسير قوله تعالى الله نور السموات والارض فى بيان ان الادراكات العقلية أفضل من الحسية واذا كان كذلك كان مجموع السعادات العقلية والحسية هى السعادات الاخروية فوجب أن تكون أفضل من السعادات الحسية الدنيوية والله اعلم والمفسرون ذكروا فى الباقيات الصالحات أقوالا قيل انها قولنا سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر وللشيخ الغزالى رحمه الله فى تفسير هذه الكلمات وجه لطيف فقال روى ان من قال سبحان الله حصل له من الثواب عشر مرات فاذا قال والحمد لله صارت عشرين فاذا قال ولا اله الا الله صارت ثلاثين فاذا قال والله أكبر صارت أربعين قال وتحقيق القول فيه ان أعظم مراتب الثواب هو الاستغراق فى معرفة الله وفى محبته فاذا قال سبحان الله فقد عرف كونه سبحانه منزها عن كل ما لا ينبغى فحصول هذا العرفان سعادة عظيمة وبهجة كاملة فاذا قال مع ذلك والحمد لله فقد أقر بأن الحق سبحانه مع كونه منزها عن كل ما لا ينبغى فهو المبدأ لافادة كل ما لا ينبغى ولافاضة كل خير وكمال فقد تضاعف درجات المعرفة فلاجرم قلنا تضاعف الثواب فاذا قال مع ذلك ولا اله الا الله فقد أقر بأن الذى تنزه عن كل ما لا ينبغى فهو المبدأ لكل ما ينبغى وليس فى الوجود موجود هكذا الا واحد فقد صارت مراتب المعرفة ثلاثة فلاجرم صارت درجات الثواب ثلاثة فاذا قال والله أكبر معناه انه أكبر وأعظم من أن يصل العقل الى كنه كبريائه وجلاله فقد صارت مراتب المعرفة أربعة لاجرم صارت درجات الثواب أربعة (والقول الثانى) ان الباقيات الصالحات هى الصلوات الخمس (والقول الثالث) انها الطيب من القول كما قال تعالى وهدوا الى الطيب من القول (والقول الرابع) ان كل عمل وقول دعاك الى الاشتغال بمعرفة الله ومحبته وخدمته فهو الباقيات الصالحات وكل عمل وقول دعاك الى الاشتغال باحوال الخلق فهو خارج عن ذلك وذلك ان كل ما سوى الحق سبحانه فهو فان لذاته هالك لذاته فكان الاشتغال به والالتفات اليه عملا باطلا وسعيا ضائعا أما الحق لذاته فهو الباقى لا يقبل الزوال لاجرم

تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم ( ٧٢٣ ) لها كما يعرب عنه قوله عزوجل ( لو يؤاخذهم ) اى لو يريد مؤاخذتهم (بما كسبوا) من المعاصى التى من جملتها ما حكى عنهم من مجادلتهم بالباطل واعراضهم عن آيات ربهم وعدم المبالاة بما اجترحوا من الموبقات (لعجل لهم العذاب) لاستيجاب اعمالهم لذلك وايثار المؤاخذة المنبئة عن شدة الاخذ بسرعة على التعذيب والعقوبة ونحوهما للايذان بأن النفى المستفاد من مقدم الشرطية متعلق بوصف السرعة كما ينبئ عنه تاليها وايثار صيغة الاستقبال وان كان المعنى على المضى لافادة ان انتفاء تعجيل العذاب لهم بسبب استمرار عدم ارادة المؤاخذة فان المضارع الواقع موقع الماضى يفيد استمرار انتفاء الفعل فيما مضى كما حقق فى موضعه (بل لهم موعد) اسم زمان هو يوم بدر او يوم القيامة والجملة معطوفة على مقدر كأنه قيل لكنهم ليسوا بمؤاخذين بغتة ( لن يجدوا ) البتة ( من دونه موئلا) منجى او ملجأ يقال وأل اى نجا ووأل اليه اى الجأ اليه (وتلك القرى) اى قرى عاد وثمود واضرابها وهى مبتدأ على تقدير المضاف اى واهل تلك القرى خبره قوله تعالى (اهلكناهم) او مفعول مضمر مفسر به (لما ظلموا) اى وقت ظلمهم كما فعلت قريش بما حكى عنهم من القبائح وترك المفعول اما التعميم الظلم او لتنزيله منزلة اللازم اى لما فعلوا الظلم ولما اما حرف كما قال ابن عصفور واما ظرف استعمل للتعليل وليس المراد به الوقت المعين الذى عملوا فيه الظلم بل زمان ممتد من ابتداء الظلم الى آخره ( وجعلنا لمهلكهم) اى عينا لهلاكهم (موعدا) اى وقتا معينا لا محيد لهم عن ذلك وهذا استشهاد على ما فعل بقريش من تعيين الموعد ليتنبهوا لذلك ولا يغتروا

كان الاشتغال بمعرفة الله ومحبته وطاعته هو الذي يبقى بقاء لايزول ولا يفنى ثم قال تعالى خير عند ربك ثوابا وخير أملا أى كل عمل أريد به وجه الله فلا شك ان ما يتعلق به من الثواب وما يتعلق به من الامل يكون خيرا وأفضل لان صاحب تلك الاعمال يؤمل فى الدنيا ثواب الله ونصيبه فى الآخرة ❊ قوله تعالى (ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا) اعلم انه تعالى لما بين خساسة الدنيا وشرف القيامة أردفه بأحوال القيامة فقال ويوم نسير الجبال والمقصود منه الرد على المشركين الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الاموال والاعوان واختلفوا فى الناصب لقوله ويوم نسير الجبال على وجوه (أحدها) أنه يكون التقدير واذكر لهم يوم نسير الجبال عطفا على قوله واضرب لهم مثل الحياة الدنيا (الثانى) انه يكون التقدير ويوم نسير الجبال حصل كذا وكذا يقال لهم لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة لان القول مضمر فى هذا الموضع فكان المعنى انه يقال لهم هذا فى هذا الموضع (الثالث) أن يكون التقدير خير أملا فى يوم نسير الجبال والاول أظهر اذا عرفت هذا فنقول انه ذكر فى الآية من أحوال القيامة أنواعا (النوع الاول) قوله ويوم نسير الجبال وفيه بحثان (البحث الاول) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر تسير على فعل ما لم يسم فاعله الجبال بالرفع باسناد تسير اليه اعتبارا بقوله تعالى واذا الجبال سيرت والباقون نسير باسناد فعل التسيير الى نفسه الجبال بالنصب لكونه مفعول نسير والمعنى نحن نفعل بها ذلك اعتبارا بقوله وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا والمعنى واحد لانها اذا سيرت فمسيرها ليس الا الله سبحانه ونقل صاحب الكشاف قراءة أخرى وهى تسير الجبال باسناد تسير الى الجبال (البحث الثانى) قوله ويوم نسير الجبال ليس فى لفظ الآية ما يدل على انها الى أين تسير فيحتمل أن يقال انه تعالى يسيرها الى الموضع الذى يريده ولم يبين ذلك الموضع لخلقه والحق ان المراد انه تعالى يسيرها الى العدم لقوله تعالى ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ولقوله وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا (والنوع الثانى) من أحوال القيامة قوله تعالى وترى الارض بارزة وفى تفسيره وجوه (أحدها) انه لم يبق على وجهها شئ من العمارات ولا شئ من الجبال ولا شئ من الاشجار فبقيت بارزة ظاهرة ليس عليها ما يسترها وهو المراد من قوله لا ترى فيها عوجا ولا أمتا (وثانيها) ان المراد من كونها بارزة انها أبرزت ما فى بطنها وقذفت الموتى المقبورين فيها فهى بارزة الجوف والبطن فحذف ذكر الجوف ودليله قوله تعالى وألقت ما فيها وتخلت وقوله وأخرجت الارض أثقالها وقوله وبرزوا لله جميعا (وثالثها) ان وجوه الارض كانت مستورة بالجبال والبحار

بتأخر العذاب وقرئ بضم الميم وفتح اللام اى اهلاكهم وبفتحهما ( واذقال موسى ) ( ٧٢٤ ) نصب باضمار فعل اى اذكر وقت قوله عليه السلام ( لفتاه ) وهو يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف عليه السلام سمى فتاه اذ كان يخدمه ويتبعه وقيل كان يتعلم منه ويسمى التلميذ فتى وان كان شيخا ولعل المراد بتذكيره عقيب بيان ان لكل امة موعدا تذكير ما فى القصة من موعد الملاقاة مع ما فيها من سائر المنافع الجليلة (لاأبرح) من برح الناقص كزال يزال اى لا أزال اسير فحذف الخبر اعتمادا على قرينة الحال اذا كان ذلك عند التوجه الى السفر واتكالا على ما يعقبه من قوله ( حتى ابلغ ) فان ذلك غاية تستدعى ذا غاية يؤدي اليها ويجوز ان يكون اصل الكلام لا يبرح مسيرى حاصلا حتى ابلغ فحذف المضاف ويقام المضاف اليه مقامه فينقلب الضمير البارز المجرور المحل مرفوعا مستكنا والفعل من صيغة الغيبة الى التكلم ويجوز ان يكون من برح التام كزال يزول اى لا أفارق ما انا بصدده حتى ابلغ ( مجمع البحرين ) هو ملتقى بحرى فارس والروم مما يلى المشرق وقيل طنجة وقيل هما الكر والرس بارمينية وقيل افريقية وقرئ بكسر الميم كمشرق (او امضى حقبا ) اسير زمانا طويلا اتيقن معه فوات المطلب والحقب الدهر او ثمانون سنة وكان منشأ هذه العزيمة ان موسى عليه السلام لما ظهر على مصر مع بنى اسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط امره الله عز وجل ان يذكر قومه النعمة فقام فيهم خطيبا بخطبة بديعة رقت بها القلوب وذرفت العيون فقالوا له من اعلم الناس قال انا فعتب الله تعالى عليه اذ لم يرد العلم اليه عز وجل فأوحى اليه بل اعلم ( فلما )

فلما افنى الله تعالى الجبال والبحار فقد برزت وجوه تلك البقاع بعد ان كانت مستورة (والنوع الثالث) من احوال القيامة قوله وحشرناهم فلم نغادر منهم احدا والمعنى جمعناهم للحساب فلم نغادر منهم احدا اى لم نترك من الاولين والآخرين احدا الا وجمعناهم لذلك اليوم ونظيره قوله تعالى قل ان الاولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم ومعنى لم نغادر لم نترك يقال غادره واغدره اذا تركه ومنه الغدر ترك الوفاء ومنه الغدير لانه ما تركته السيول ومنه سميت ضفيرة المرأة بالغديرة لانها تجعلها خلفها ولما ذكر الله تعالى حشر الخلق ذكر كيفية عرضهم فقال وعرضوا على ربك صفا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى تفسير الصف وجوه (احدها) انه تعرض الخلق كلهم على الله صفا واحدا ظاهرين بحيث لا يحجب بعضهم بعضا قال القفال ويشبه ان يكون الصف راجعا الى الظهور والبروز ومنه اشتق الصفصف للصحراء (وثانيها) لا يبعد ان يكون الخلق صفوفا يقف بعضهم وراء بعض مثل الصفوف المحيطة بالكعبة التى يكون بعضها خلف بعض وعلى هذا التقدير فالمراد من قوله صفا صفوفا كقوله يخرجكم طفلا اى اطفالا (وثالثها) صفا اى قياما كما قال تعالى فاذكروا اسم الله عليها صواف قالوا قياما (المسئلة الثانية) قالت المشبهة قوله تعالى وجاء ربك والملك صفا صفا يدل على انه تعالى يحضر فى ذلك المكان وتعرض عليه اهل القيامة صفا وكذلك قوله تعالى لقد جئتمونا يدل على انه تعالى يحضر فى ذلك المكان واجيب عنه بأنه تعالى جعل وقوفهم فى الموضع الذى يسألهم فيه عن اعمالهم ويحاسبهم عليها عرضا عليه لا على انه تعالى يحضر فى مكان وعرضوا عليه ليراهم بعد ان لم يكن يراهم ثم قال تعالى لقد جئتمونا كما خلقناكم اول مرة وليس المراد حصول المساواة من كل الوجوه لانهم خلقوا صغارا ولا عقل لهم ولا تكليف عليهم بل المراد انه قال للمشركين المنكرين للبعث المفتخرين فى الدنيا على فقراء المؤمنين بالاموال والانصار لقد جئتمونا كما خلقناكم اول مرة عراة حفاة بغير اموال ولا اعوان ونظيره قوله تعالى لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وقال تعالى افرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا الى قوله ويأتينا فردا ثم قال تعالى بل زعمتم ان لن نجعل لكم موعدا اى كنتم مع التعزز على المؤمنين بالاموال والانصار تنكرون البعث والقيامة فالآن قد تركتم الاموال والانصار فى الدنيا وشاهدتم ان البعث والقيامة حق ثم قال تعالى ووضع الكتاب والمراد انه يوضع فى هذا اليوم كتاب كل انسان فى يده اما فى اليمين او فى الشمال والمراد الجنس وهو صحف الاعمال وترى المجرمين مشفقين مما فيه اى خائفين مما فى الكتاب من اعمالهم الخبيثة وخائفين من ظهور ذلك لاهل الموقف فيفتضحون وبالجملة يحصل لهم خوف العقاب من الحق وخوف الفضيحة عند الخلق ويقولون يا ويلتنا ينادون هلكتهم التى هلكوها خاصة من بين الهلكات مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها وهى عبارة عن

مقدمة ذى القرنين الاكبر وبقى الى ايام موسى وقيل ان موسى عليه السلام سأل ربه اى عبادك احب اليك قال الذى يذكرنى ولا ينسانى قال فأى عبادك اقضى قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى قال فأى عبادك اعلم قال الذى يبتغى علم الناس الى علمه عسى ان يصيب كلمة تدله على هدى او ترده عن ردى فقال ان كان فى عبادك من هو اعلم منى فدلنى عليه قال اعلم منك الخضر قال اين اطلبه قال على ساحل البحر عند الصخرة قال يارب كيف لى به قال تأخذ حوتا فى مكتل فحيثما فقدته فهو هناك فأخذ حوتا فجعله فى مكتل فقال لفتاه اذا فقدت الحوت فأخبرنى فذهبا يمشيان (فلما بلغا) الفاء فصيحة كما اشير اليه (مجمع بينهما) اى مجمع البحرين وبينهما ظرف اضيف اليه اتساعا او بمعنى الوصل (نسيا حوتهما) الذى جعل فقده امارة وجدان المطلوب اى نسيا تفقد امره وما يكون منه وقيل نسى يوشع ان يقدمه وموسى عليه السلام ان يأمره فيه بشئ روى انهما لما بلغا مجمع البحرين وفيه الصخرة وعين الحياة التى لا يصيب ماؤها ميتا الا حيى وضعا رؤسهما على الصخرة فناما فلما اصاب الحوت برد الماء وروحه عاش وقد كانا اكلا منه وكان ذلك بعد ما استيقظ يوشع عليه السلام وقيل توضأ عليه السلام من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش فوقع فى الماء (فاتخذ سبيله فى البحر سربا) مسلكا كالسرب وهو النفق قيل امسك

الله عز وجل جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه معجزة لموسى او للخضر عليهما السلام وانتصاب سربا على انه مفعول ثان

لاتخذ وفي البحر حال منه اومن السبيل ويجوز ان  يتعلق باتخذ (فلما جاوزا) اى مجمع البحرين الذى جعل موعدا للملاقاة

الاحاطة بمعنى لايترك شيئا من المعاصى سواء كانت صغيرة او كبيرة الا وهى مذكورة فى هذا الكتاب ونظيره قوله تعالى وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون وقوله انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون وادخال تاء التأنيث فى الصغيرة والكبيرة على تقدير ان المراد الفعلة الصغيرة والكبيرة الا احصاها الا ضبطها وحصرها قال بعض العلماء ضجوا من الصغائر قبل الكبائر لان تلك الصغائر هى التى جرتهم الى الكبائر فاحترزوا من الصغائر جدا ووجدوا ماعملوا حاضرا فى الصحف عتيدا او جزاء ماعملوا ولا يظلم ربك احدا معناه انه لايكتب عليه مالم يفعل ولا يزيد فى عقابه المستحق ولا يعذب احدا بجرم غيره بقى فى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) قال الجبائى هذه الآية تدل على فساد قول المجبرة فى مسائل (احدها) انه لو عذب عباده من غير فعل صدر منهم لكان ظالما (وثانيها) انه لايعذب الاطفال بغير ذنب (وثالثها) بطلان قولهم لله ان يفعل مايشاء ويعذب من غير بقى جرم لان الخلق خلقه اذ لو كان كذلك لما كان لنفى الظلم عنه معنى لان بتقدير انه اذا فعل اى شئ اراد لم يكن ظلما منه لم يكن لقوله انه لايظلم فائدة فيقال له (اما الجواب) عن الاولين فهو المعارضة بالعلم والداعى واما الجواب عن هذا الثالث فهو انه تعالى قال ما كان لله ان يتخذ من ولد ولم يدل هذا على ان اتخاذ الولد صحيح عليه فكذا ههنا (المسئلة الثانية ) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال يحاسب الناس فى القيامة على ثلاثة * يوسف * وايوب * وسليمان * فيدعو بالمملوك ويقول له ماشغلك عنى فيقول جعلتنى عبدا للآدمى فلم تفرغنى فيدعو يوسف عليه السلام ويقول كان هذا عبدا مثلك فلم يمنعه ذلك عن عبادتى فيؤمر به الى النار ثم يدعو بالمبتلى فاذا قال شغلتنى بالبلاء دعا بأيوب عليه السلام فيقول قد ابتليت هذا بأشد من بلائك فلم يمنعه ذلك عن عبادتى فيؤمر به الى النار ثم يؤتى بالملك فى الدنيا مع ما آتاه الله من الغنى والسعة فيقول ماذا عملت فيما آتيتك فيقول شغلنى الملك عن ذلك فيدعى بسليمان عليه السلام فيقول هذا عبدى سليمان آتيته اكثر ما آتيتك فلم يشغله ذلك عن عبادتى اذهب فلا عذر لك ويؤمر به الى النار وعن معاذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لن يزول قدم العبد يوم القيامة حتى يسئل عن اربع عن جسده فيم ابلاه وعن عمره فيم افناه وعن ماله من اين اكتسبه وفيم انفقه وعن علمه كيف عمل به ( المسئلة الثالثة) دلت الآية على اثبات صغائر وكبائر فى الذنوب وهذا متفق عليه بين المسلمين الا انهم اختلفوا فى تفسيره فقالت المعتزلة الكبيرة مايزيد عقابه على ثواب فاعله والصغيرة ماينقص عقابه عن ثواب فاعله واعلم ان هذا الحد انما يصح لو ثبت ان الفعل يوجب ثوابا وعقابا وذلك عندنا باطل لوجوه كثيرة ذكرناها فى سورة البقرة فى ابطال القول بالاحباط والتكفير بل الحق عندنا ان الطاعات محصورة فى نوعين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله فكل ما كان اقوى فى كونه جهلا بالله كان اعظم فى كونه كبيرة وكل ما كان اقوى فى كونه اضرارا بالغير كان اكثر فى كونه

قيل ادلجا وسار الليلة والغد الى الظهر والقى على موسى عليه السلام الجوع فعند ذلك ( قال لفتاه آتنا غداءنا ) اى مانتغدى به وهو الحوت كما ينبئ عنه الجواب (لقد لقينا من سفرنا هذا) اشارة الى ماسارا بعد مجاوزة الموعد (نصبا) تعبا واعياء قيل لم ينصب ولم يجع قبل ذلك والجملة فى محل التعليل للامر بايتاء الغداء اما باعتبار ان النصب انما يعترى بسبب الضعف الناشئ عن الجوع واما باعتبار ما فى اثناء التغدى من استراحة ما (قال) اى فتاه عليه السلام ( ارأيت اذ اوينا الى الصخرة ) اى التجأنا اليها واقمنا عندها وذكر الايواء اليها مع ان المذكور فيما سبق مرتين بلوغ مجمع البحرين لزيادة تعيين محل الحادثة فان المجمع محل متسع لايمكن تحقيق المراد المذكور بنسبة الحادثة اليه ولتمهيد العذر فان الايواء اليها والنوم عندها ممايؤدى الى النسيان عادة والرؤية مستعارة للمعرفة التامة والمشاهدة الكاملة ومراده بالاستفهام تعجيب موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان مع كون ما شاهده من العظائم التى لاتكاد تنسى وقد جعل فقدانه علامة لوجدان المطلوب وهذا اسلوب معتاد فيما بين الناس يقول احدهم لصاحبه اذا نابه خطب ارأيت مانابنى يريد بذلك تهويله وتعجيب صاحبه منه وانه ممالايعهد وقوعه لا استخباره عن ذلك كما قيل والمفعول محذوف اعتمادا على مايدل عليه من قوله عزوجل ( فانى نسيت الحوت ) وفيه تأكيد للتعجيب وتربية لاستعظام المنسى وايقاع النسيان على اسم الحوت دون ضمير الغداء ( ذنبا )

ذنبا و معصية فهذا هو الضبط ❊ قوله تعالى ( و اذقلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن امر ربه أفتتخذونه و ذريته اولياء من دونى و هم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ماأشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا ورأى المجرمون النار فظنوا انهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا) وفيه مسائل ( المسئلة الاولى ) اعلم ان المقصود من ذكر الآيات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا بأموالهم واعوانهم على فقراء المسلمين وهذه الآية المقصود من ذكرها عين هذا المعنى وذلك لان ابليس انما تكبر على آدم لانه افتخر بأصله ونسبه وقال خلقتنى من نار وخلقته من طين فأنا اشرف منه فى الاصل و النسب فكيف اسجد وكيف أتواضع له وهؤلاء المشركون عاملوا فقراء المسلمين بعين هذه المعاملة فقالوا كيف نجلس مع هؤلاء الفقراء مع انا من انساب شريفة وهم من انساب نازلة ونحن اغنياء وهم فقراء فالله تعالى ذكر هذه القصة ههنا تنبيها على ان هذه الطريقة هى بعينها طريقة ابليس ثم انه تعالى حذر عنها وعن الاقتداء بها فى قوله افتتخذونه وذريته اولياء فهذا هو وجه النظم وهو حسن معتبر وذكر القاضى وجها آخر فقال انه تعالى لما ذكر من قبل امر القيامة ومايجرى عند الحشر ووضع الكتاب وكان تعالى يريد ان يذكرههنا انه ينادى المشركين ويقول لهم اين شركائى الذين زعمتم وكان قد علم تعالى ان ابليس هو الذى يحمل الانسان على اثبات هؤلاء الشركاء لاجرم قدم قصته فى هذه الآية اتماما لذلك الغرض ثم قال القاضى وهذه القصة وان كان تعالى قد كررها فى سور كثيرة الا ان فى كل موضع منها فائدة مجددة ( المسئلة الثانية ) انه تعالى بين فى هذه الآية ان ابليس كان من الجن وللناس فى هذه المسئلة ثلاثة اقوال ( الاول ) انه من الملائكة وكونه من الملائكة لاينافى كونه من الجن ولهم فيه وجوه ( الاول ) ان قبيلة من الملائكة يسمون بذلك لقوله تعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا وجعلوا لله شركاء الجن ( الثانى ) ان الجن سموا جنا للاستتار والملائكة كذلك فهم داخلون فى الجن ( الثالث ) انه كان خازن الجنة ونسب الى الجنة كقولهم كوفى وبصرى وعن سعيد بن جبير انه كان من الجنانين الذين يعملون فى الجنان حى من الملائكة يصوغون حلية اهل الجنة مذ خلقوا رواه القاضى فى تفسيره عن هشام عن سعيد بن جبير ( والقول الثانى ) انه من الجن الذين هم الشياطين والذين خلقوا من نار وهو أبوهم ( والقول الثالث ) قول من قال كان من الملائكة فمسخ وغير وهذه المسئلة قد احكمناها فى سورة البقرة واصل مايدل على انه ليس من الملائكة انه تعالى اثبت له ذرية ونسلا فى هذه الآية وهو قوله أفتتخذونه وذريته اولياء من دونى والملائكة ليس لهم ذرية ولا نسل فوجب ان لايكون ابليس من الملائكة بقى ان يقال ان الله تعالى امر الملائكة بالسجود فلو لم يكن ابليس من الملائكة فكيف تناوله ذلك

---

معانه المأمور باتيانه للتنبيه من اول الامر انه على لبس



من قبيل نسيان المسافر زاده فى المنزل وان ماشاهده ليس من قبيل الاحوال المتعلقة بالغداء من حيث هو غداء وطعام بل من حيث هو حوت كسائر الحيتان مع زيادة اى نسيت ان اذكر لك امره وماشاهدت منه من الامور العجيبة ( وماانسانيه الا الشيطان ) بوسوسته الشاغلة عن ذلك وقوله تعالى ( ان اذكره ) بدل اشتمال من الضمير اى ماانسانى ان اذكره لك وفى تعليق الانساء بضمير الحوت اولا وبذكره له ثانيا على طريق الابدال المنبئ عن تنحية المبدل منه اشارة الى ان متعلق النسيان ايضا ليس نفس الحوت بل ذكر امره وقرئ ان اذكره وايثار ان اذكره على المصدر للمبالغة فأن مدلوله نفس الحدث عند وقوعه والحال وان كانت غريبة لايعهد نسيانها لكنه لما تعود بمشاهدة امثالها عند موسى عليه السلام والفها قل اهتمامه بالمحافظة عليها (واتخذ سبيله فى البحر عجبا) بيان لطرف من امر الحوت منبئ عن طرف آخر منه ومابينهما اعتراض قدم عليه للاعتناء بالاعتذار كأنه قيل حيي واضطرب ووقع فى البحر واتخذ سبيله فيه سبيلا عجبا فعجبا ثانى مفعولى اتخذ والظرف حال من اولهما او ثانيهما او هو المفعول الثانى وعجبا صفة مصدر محذوف اى اتخاذا عجبا وهو كون مسلكه كالطاق والسرب اومصدر فعل محذوف اى اتعجب منه عجبا وقد قيل انه من كلام موسى عليه الصلاة والسلام وليس بذاك (قال ) اى موسى عليه الصلاة والسلام ( ذلك ) الذى ذكرت من امر الحوت (ما كنا نبغ )وقرئ باثبات الياء والضمير العائد الى الموصول محذوف اصله نبغيه اى نطلبه لكونه امارة للفوز بالمرام ( فارتدا ) اى رجعا ( على آثارهما ) طريقهما الذى جا آمنه ( قصصا )

الامر وايضا لو لم يكن من الملائكة فكيف يصح استثناؤه منهم وقد اجبنا عن كل ذلك بالاستقصاء ثم قال تعالى ففسق عن امر ربه وفى ظاهره اشكال لان الفاسق لا يفسق عن امر ربه فلهذا السبب ذكروا فيه وجوها (الاول) قال الفراء ففسق عن امر ربه اى خرج عن طاعته والعرب تقول فسقت الرطبة من قشرها اى خرجت وسميت الفأرة فويسقه لخروجها من جحرها من البابين وقال رؤبة

يهوين فى نجد وغورغائرا * فواسقا عن قصدها جوائرا

(الثانى) حكى الزجاج عن الخليل وسيبويه انه قال لما امر فعصى كان سبب فسقه هو ذلك الامر والمعنى انه لولا ذلك الامر السابق لما حصل الفسق فلاجل هذا المعنى حسن ان يقال فسق عن امر ربه (الثالث) قال قطرب فسق عن امر ربه رده كقوله واسئل القرية واسئل العير قال تعالى أفتتخذونه وذريته اولياء من دونى وهم لكم عدو وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المقصود من هذا الكلام ان ابليس تكبر على آدم وترفع عليه لما ادعى ان اصله اشرف من اصل آدم فوجب ان يكون هو اشرف من آدم فكأنه تعالى قال لأولئك الكافرين الذين افتخروا على فقراء المسلمين بشرف نسبهم وعلو منصبهم انكم فى هذا القول اقتديتم بابليس فى تكبره على آدم فلما علمتم ان ابليس عدو لكم فكيف تقتدون به فى هذه الطريقة المذمومة هذا هو تقرير الكلام فان قيل ان هذا الكلام لا يتم الا باثبات مقدمات (فأولها) اثبات ابليس (وثانيها) اثبات ذرية ابليس (وثالثها) اثبات عداوة بين ابليس وذريته وبين اولاد آدم (ورابعها) ان هذا القول الذى قاله اولئك الكفار اقتدوا فيه بابليس وكل هذه المقدمات الاربعة لا سبيل الى اثباتها الا بقول النبى صلى الله عليه وسلم فالجاهل بصدق النبى جاهل بها اذا عرفت هذا فنقول المخاطبون بهذه الآيات هل عرفوا كون محمد نبيا صادقا او ما عرفوا ذلك فان عرفوا كونه نبيا صادقا قبلوا قوله فى كل ما يقوله فكلما نهاهم النبى محمد صلى الله عليه وسلم عن قول انتهوا عنه وحينئذ فلا حاجة الى قصة ابليس وان لم يعرفوا كونه نبيا جهلوا كل هذه المقدمات الاربعة ولم يعرفوا صحتها فحينئذ لا يكون فى ايرادها عليهم فائدة والجواب ان المشركين كانوا قد سمعوا قصة ابليس وآدم من اهل الكتاب واعتقدوا صحتها وعلموا ان ابليس انما تكبر على آدم بسبب نسبه فاذا اوردنا عليهم هذه القصة كان ذلك زاجرا لهم عما اظهروه مع فقراء المسلمين من التكبر والترفع (المسئلة الثانية) قال الجبائى فى هذه الآية دلالة على انه تعالى لا يريد الكفر ولا يخلقه فى العباد اذ لو أراده وخلقه فيه ثم عاقبه عليه لكان ضرر ابليس اقل من ضرر الله عليهم فكيف يوبخهم بقوله بئس للظالمين بدلا تعالى الله عنه علوا كبيرا بل على هذا المذهب لا ضرر البتة من ابليس بل الضرر كله من الله والجواب المعارضة بالداعى والعلم (المسئلة الثالثة) انما قال للكفار المفتخرين بأنسابهم واموالهم على فقراء المسلمين أفتتخذون ابليس وذريته اولياء من دون الله لان

للتشريف والجمهور على انه الخضر واسمه بليا بن ملكان وقيل اليسع وقيل الياس عليهم الصلاة والسلام (آتيناه رحمة من عندنا) هى الوحى والنبوة كما يشعر به تنكير الرحمة واختصاصها بجناب الكبرياء (وعلمناه من لدنا علما) خاصا لا يكتنه كنهه ولا يقادر قدره وهو علم الغيوب (قال له موسى) استئناف مبنى على سؤال نشأ من السياق كأنه قيل فاذا جرى بينهما من الكلام فقيل قال له موسى (هل اتبعك على ان تعلمن) استئذانا منه فى اتباعه له على وجه التعلم (مما علمت رشدا) اى علما ذا رشد ارشد به فى دينى والرشد اصابة الخير وقرئ بفتحتين وهو مفعول تعلمن ومفعول علمت محذوف وكلاهما منقول من علم المتعدى الى مفعول واحد ويجوز كونه علة لاتبعك او مصدرا باضمار فعله ولا ينافى نبوته وكونه صاحب شريعة ان يتعلم من نبى آخر ما لا تعلق له بأحكام شريعته من اسرار العلوم الخفية ولقد راعى فى سوق الكلام غاية التواضع معه عليهما السلام (قال) اى الخضر (انك لن تستطيع معى صبرا) نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد كأنه مما لا يصح ولا يستقيم وعلله بقوله (وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا) ايذانا بأنه يتولى امورا خفية المدار منكرة الظواهر والرجل الصالح لاسيما صاحب الشريعة لا يتمالك ان يشمئز عند مشاهدتها وفى صحيح البخارى قال الخضر ياموسى انى على علم من علم الله تعالى علمنيه لا تعلمه

الداعى لهم الى ترك دين محمد صلى الله عليه وسلم هو النخوة واظهار العجب فهذا يدل على ان كل من اقدم على عمل او قول بناء على هذا الداعى فهو متبع لابليس حتى ان من كان غرضه فى اظهار العلم والمناظرة التفاخر والتكبر والترفع فهو مقتد بابليس وهو مقام صعب غرق فيه اكثر الخلق فنسأل الله الخلاص منه ثم قال تعالى بئس للظالمين بدلا اى بئس البدل من الله ابليس لمن استبدله به فاطاعه بدل طاعته ثم قال ما اشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اختلفوا فى ان الضمير فى قوله ما اشهدتهم الى من يعود فيه وجوه (احدها) وهو الذى ذهب اليه الاكثرون ان المعنى ما اشهدت الذين اتخذتموهم اولياء خلق السموات والارض ولا اشهدت بعضهم خلق بعض كقوله اقتلوا انفسكم يعنى ما اشهدتهم لاعتضد بهم والدليل عليه قوله وما كنت متخذ المضلين عضدا اى وما كنت متخذهم فوضع الظاهر موضع المضمر بيانا لاضلالهم وقوله عضدا اى اعوانا (وثانيها) وهو اقرب عندى ان الضمير عائد الى الكفار الذين قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم ان لم تطرد من مجلسك هؤلاء الفقراء لم نؤمن بك فكأنه تعالى قال ان هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنت الباطل ما كانوا شركائى فى تدبير العالم بدليل قوله تعالى ما اشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم ولا اعتضدت بهم فى تدبير الدنيا والآخرة بل هم قوم كسائر الخلق فلم اقدموا على هذا الاقتراح الفاسد ونظيره ان من اقترح عليك اقتراحات عظيمة فانك تقول له لست بسلطان البلد ولا ذرية المملكة حتى نقبل منك هذه الاقتراحات الهائلة فلم تقدم عليها والذى يؤكد هذا ان الضمير يجب عوده الى اقرب المذكورات وفى هذه الآية المذكورة الاقرب هو ذكر أولئك الكفار وهو قوله تعالى بئس للظالمين بدلا والمراد بالظالمين اولئك الكفار (وثالثها) ان يكون المراد من قوله ما اشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم كون هؤلاء الكفار جاهلين بما جرى به القلم فى الازل من احوال السعادة والشقاوة فكأنه قيل لهم السعيد من حكم الله بسعادته فى الازل والشقى من حكم الله بشقاوته فى الازل وانتم غافلون عن احوال الازل كأنه تعالى قال ما اشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم واذا جهلتم هذه الحالة فكيف يمكنكم ان تحكموا لانفسكم بالرفعة والعلو والكمال ولغيركم بالدناءة والذل بل ربما صار الامر فى الدنيا والآخرة على العكس فيما حكمتم به (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قرئ وما كنت بالفتح والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى وما صح لك الاعتضاد بهم وما ينبغى لك ان تعتز بهم وقرأ على رضوان الله عليه متخذا المضلين بالتنوين على الاصل وقرأ الحسن عضدا بسكون الضاد ونقل ضمتها الى العين وقرئ عضدا بالفتح وسكون الضاد وعضدا بضمتين وعضدا بفتحتين جمع عاضد كخادم وخدم وراصد ورصد من عضده اذا قواه وأعانه واعلم انه تعالى لما قرر ان القول الذى قالوه فى الافتخار على الفقراء اقتداء بابليس عاد

(ولا اعصى لك امرا) عطف على صابرا اى ستجدنى صابرا وغير عاص وفى وعد هذا الوجد ان من المبالغة ماليس فى الوعد بنفس الصبر وترك العصيان او على ستجدنى فلا محل له من الاعراب والاول هو الاولى لما عرفته ولظهور تعلقه بالاستثناء حينئذ وفيه دليل على ان افعال العباد بمشيئة الله سبحانه وتعالى (قال فان اتبعتنى) اذن له فى الاتباع بعد اللتيا والتى والفاء لتفريع الشرطية على ما مر من التزام موسى عليه الصلاة والسلام للصبر والطاعة (فلا تسألنى عن شئ) تشاهده من افعالى اى لا تفاتحنى بالسؤال عن حكمته فضلا عن المناقشة والاعتراض (حتى احدث لك منه ذكرا) اى حتى ابتدئ ببيانه وفيه ايذان بأن كل ما صدر عنه فله حكمة وغاية حميدة البتة وهذا من ادب المتعلم مع العالم والتابع مع المتبوع وقرئ فلا تسألنى بالنون المثقلة (فانطلقا) اى موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام على الساحل يطلبان السفينة واما يوشع فقد صرفه موسى عليه الصلاة والسلام الى بنى اسرائيل قيل انهما مرا بسفينة فكلما اهلها فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول (حتى اذا ركبا فى السفينة استعمال الركوب فى امثال هذه المواقع بكلمة فى مع تجريده عنها فى مثل قوله عز وجل لتركبوها وزينة على ما يقتضيه تعديته بنفسه لما اشرنا اليه فى قوله تعالى وقال اركبوا فيها لا لما قيل من ان فى

بعده الى التهويل باحوال يوم القيامة فقال ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم وفيه ابحاث (البحث الاول) قرأ حمزة نقول بالنون عطفا على قوله واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم واولياء من دونى وما اشهدتهم خلق السموات والارض وما كنت متخذ المضلين عضدا والباقون قرؤا بالياء (البحث الثانى) واذكر يوم نقول عطفا على قوله واذ قلنا للملائكة اسجدوا (البحث الثالث) المعنى واذكر لهم يا محمد احوالهم واحوال آلهتهم يوم القيامة اذ يقول الله لهم نادوا شركائى اى ادعوا من زعمتم انهم شركائى حيث اهلتموهم للعبادة ادعوهم يشفعوا لكم وينصروكم والمراد بالشركاء الجن فدعوهم ولم يذكر تعالى فى هذه الآية انهم كيف دعوا الشركاء الا انه تعالى بين ذلك فى آية اخرى وهو انهم قالوا انا كنا لكم تبعا فهل انتم مغنون عنا ثم قال تعالى فلم يستجيبوا لهم اى لم يجيبوهم الى مادعوهم اليه ولم يدفعوا عنهم ضررا وما اوصلوا اليهم نفعا ثم قال تعالى وجعلنا بينهم موبقا وفيه وجوه (الاول) قال صاحب الكشاف الموبق المهلك من وبق يبق وبوقا ووبق وبقا اذا هلك واوبقه غيره فيجوز ان يكون مصدرا كالمورد والموعد وتقرير هذا الوجه ان يقال ان هؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة كالملائكة وعيسى دعوا هؤلاء فلم يستجيبوا لهم ثم حيل بينهم وبينهم فأدخل الله تعالى هؤلاء المشركين جهنم وادخل عيسى الجنة وصار الملائكة الى حيث اراد الله من دار الكرامة وحصل بين اولئك الكفار وبين الملائكة وعيسى عليه السلام هذا الموبق وهو ذلك الوادى فى جهنم (الوجه الثانى) قال الحسن موبقا اى عداوة والمعنى عداوة هى فى شدتها هلاك ومنه قوله لايكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا (الوجه الثالث) قال الفراء البين المواصلة اى جعلنا مواصلتهم فى الدنيا هلاكا فى يوم القيامة (الوجه الرابع) الموبق البرزخ البعيد اى جعلنا بين هؤلاء الكفار وبين الملائكة وعيسى برزخا بعيدا يهلك فيه السارى لفرط بعده لانهم فى قعر جهنم وهم فى اعلى الجنان ثم قال تعالى ورأى المجرمون النار فظنوا انهم مواقعوها وفى هذا الظن قولان (الاول) ان الظن ههنا بمعنى العلم واليقين (والثانى) وهو الاقرب ان المعنى ان هؤلاء الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنون انهم مواقعوها فى تلك الساعة من غير تأخير ومهلة لشدة مايسمعون من تغيظها وزفيرها كما قال اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وقوله مواقعوها اى مخالطوها فان مخالطة الشئ لغيره اذا كانت قوية تامة يقال لها مواقعة ثم قال تعالى ولم يجدوا عنها مصرفا اى لم يجدوا عن النار معدلا الى غيرها لان الملائكة تسوقهم اليها ❁ قوله تعالى (ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان اكثر شئ جدلا ومامنع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم الا ان تأتيهم سنة الاولين او يأتيهم العذاب قبلا ومانرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وماانذروا هزوا) اعلم ان اولئك الكفرة لما افتخروا على فقراء المسلمين

(قال) موسى عليه السلام (اخرقتها لتغرق اهلها) من الاغراق وقرئ (۷۳۰) بالتشديد من التغريق وليغرق اهلها من الثلاثى (لقد جئت) أتيت وفعلت (شيئا امرا) اى عظيما هائلا من امر الامر اذا عظم قيل الاصل امرا فخفف (قال) اى الخضر عليه السلام (الم اقل انك لن تستطيع معي صبرا) تذكير لما قاله مناسبة له ولقوله من قبل وتحقيق لمضمونه متضمن للانكار على عدم الوفاء بوعده (قال لاتؤاخذنى بمانسيت) بنسيانى اوبالذى نسيته اوبشئ نسيته وهو وصيته بأن لايسأله عن حكمة ماصدر عنه من الافعال الخفية الاسباب قبل بيانه اراد انه نسى وصيته ولامؤاخذة على الناسى كما ورد فى صحيح البخارى من ان الاول كان من موسى نسيانا واخرج الكلام فى معرض النهى عن المؤاخذة بالنسيان يوهمه انه قد نسى ليبسط عذره فى الانكار وهو من معاريض الكلام التى يتقى بها الكذب مع التوصل الى الغرض اواراد بالنسيان الترك اى لاتؤاخذنى بما تركت من وصيتك اول مرة (ولا ترهقنى) اى لاتغشنى ولاتحملنى (من امرى) وهو اتباعه اياه (عسرا) اى لاتعسر على متابعتك وبسرها على بالاغضاء وترك المناقشة وقرئ عسرا بضمتين (فانطلقا) الفاء فصيحة اى فقبل عذره فخرجا من السفينة فانطلقا (حتى اذا لقيا غلاما فقتله) قيل كان الغلام يلعب مع الغلمان فقتل عنقه وقيل ضرب برأسه الحائط وقيل اضجعه فذبحه بالسكين (قال) اى موسى عليه الصلاة والسلام (اقتلت نفسا زكية) طاهرة من الذنوب وقرئ زاكية (بغير نفس) اى بغير قتل نفس محرمة وتخصيص نفى هذا المبيح بالذكر من بين سائر المبيحات من الكفر بعد الايمان والزنا بعد الاحصان لانه الاقرب الى الوقوع (بكثرة)

بكثرة اموالهم واتباعهم وبين تعالى بالوجوه الكثيرة ان قولهم فاسد وشبهتهم باطلة وذكر فيه المثلين المتقدمين قال بعده ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وهو اشارة الى ماسبق والتصريف يقتضي التكرير والامر كذلك لانه تعالى اجاب عن شبهتهم التى ذكروها من وجوه كثيرة ومع تلك الجوابات الشافية والامثلة المطابقة فهؤلاء الكفار لايتركون المجادلة الباطلة فقال وكان الانسان اكثر شئ جدلا اى اكثر الاشياء التى يتأتى منها الجدل وانتصاب قوله جدلا على التمييز قال بعض المحققين والآية دالة على ان الانبياء عليهم السلام جادلوهم في الدين حتى صاروا هم مجادلين لان المجادلة لاتحصل الا من الطرفين وذلك يدل على ان القول بالتقليد باطل ثم قال ومامنع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم وفيه بحثان ( البحث الاول ) قالت المعتزلة الآية دالة على انه لم يوجد مايمنع من الاقدام على الايمان وذلك يدل على فساد قول من يقول انه حصل المانع قال اصحابنا العلم بانه لايؤمن مضاد لوجود الايمان فاذا كان ذلك العلم قائما كان المانع قائما وايضا حصول الداعي الى الكفر قائم والا لما وجب لان الفعل الاختياري بدون الداعي محال ووجود الداعي الى الكفر مانع من حصول الايمان واذا ثبت هذا ظهر ان المراد مقدار الموانع المحسوسة ( البحث الثاني ) المعنى انه لما جاءهم الهدى وهو الدليل الدال على صحة الاسلام وثبت انه لامانع لهم من الايمان ولا من الاستغفار والتوبة والتخلية حاصلة والاعذار زائلة فلم لم يقدموا على الايمان ثم قال تعالى الا ان تأتيهم سنة الاولين وهو عذاب الاستئصال او يأتيهم العذاب قبلا قرأ حمزة وعاصم والكسائي قبلا بضم القاف والباء جميعا وهو جمع قبيل بمعنى ضروب من العذاب تتواصل مع كونهم احياء وقبل مقابلة وعيانا والباقون قبلا بكسر القاف وفتح الباء اى عيانا ايضا وروى صاحب الكشاف قبلا بفتحتين اى مستقبلا والمعنى انهم لايقدمون على الايمان الا عند نزول عذاب الاستئصال فيهلكوا او ان تتواصل انواع العذاب والبلاء حال بقائهم في الحياة الدنيا واعلم انهم لايقدمون على الايمان الا على هذين الشرطين لان العاقل لايرضى بحصول هذين الامرين الا ان حالهم شبيه بحال من وقف العمل على هذين الشرطين ثم بين تعالى انه انما ارسل الرسل مبشرين بالثواب على الطاعة ومنذرين بالعقاب على المعصية لكي يؤمنوا طوعا وبين مع هذه الاحوال انه يوجد من الكفار المجادلة بالباطل لغرض دحض الحق وهذا يدل على ان الانبياء كانوا يجادلونهم لما بينا ان المجادلة انما تحصل من الجانبين وبين تعالى ايضا انهم اتخذوا ايات الله وهى القرآن وانذارات الانبياء هزوا وكل ذلك يدل على استيلاء الجهل والقسوة قال النحويون مافي قوله وماانذروا يجوز ان تكون موصولة ويكون العائد من الصلة محذوفا ويجوز ان تكون مصدرية بمعنى انذارهم * قوله تعالى (ومن اظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ماقدمت يداه انا جعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقرا وان

نظرا الى حال الغلام ولعل تغيير النظم الكريم بجعل ( ٧٣١ ) ماصدر عن الخضر عليه الصلاة والسلام ههنا من جملة الشرط وابراز ماصدر عن موسى عليه الصلاة والسلام في معرض الجزاء المقصود افادته مع ان الحقيق بذلك انما هو ماصدر عن الخضر عليه الصلاة والسلام من الخوارق البديعة لاستشراف النفس الى ورد خبرها لقلة وقوعها في نفس الامر وندرة وصول خبرها الى الاذهان ولذلك روعيت تلك النكتة في الشرطية الاولى لما ان صدور الخوارق منه عليه الصلاة والسلام خرج بوقوعه مرة مخرج العادة فانصرفت النفس عن ترقبه الى ترقب احوال موسى عليه الصلاة والسلام هل يحافظ على مراعاة شرطه بموجب وعده الاكيد عند مشاهدة خارق آخر اويسارع الى المناقشة كما مر في المرة الاولى فكان المقصود افادة ماصدر عنه عليه الصلاة والسلام ففعل مافعل ولله در شأن التنزيل واما ماقيل من ان القتل اقبح والاعتراض عليه ادخل فكان جديرا بأن يجعل عمدة في الكلام فليس من دفع الشبهة في شئ بل هو مؤيد لها فان كون القتل اقبح من مبادي قلة صدوره عن المؤمن العاقل وندرة وصول خبره الى الاسماع وذلك مما يستدعي جعله مقصودا بالذات وكون الاعتراض عليه ادخل من موجبات كثرة صدوره عن كل عاقل وذلك مما لايقتضي جعله كذلك (لقد جئت شيئا نكرا) قيل معناه انكر من الاول اذ لايمكن تداركه كما يمكن تدارك الاول بالسد ونحوه وقيل الامر اعظم من النكر لان قتل نفس واحدة اهون من اغراق اهل السفينة ( قال الم اقل لك انك لن تستطيع معي صبرا) زيد لك لزيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية وقلة التثبت والصبر لما تكرر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يرعو بالتذكير حتى زاد

تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا ابدا وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا
لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا
وجعلنا لمهلكهم موعدا) اعلم انه تعالى لما حكى عن الكفار جدالهم بالباطل وصفهم بعده
بالصفات الموجبة للخزى والخذلان (الصفة الاولى) قوله ومن اظلم ممن ذكر بآيات ربه
اى لا ظلم اعظم من ترد عليه الآيات والبينات فيعرض عنها وينسى ماقدمت يداه
اى مع اعراضه عن التأمل فى الدلائل والبينات يتناسى ماقدمت يداه من الاعمال المنكرة
والمذاهب الباطلة والمراد من النسيان التشاغل والتغافل عن كفره المتقدم (الصفة
الثانية) انا جعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفى آذانهم وقرا وان تدعهم الى الهدى
فلن يهتدوا اذا ابدا وقد مر تفسير هذه الآية على الاستقصاء فى سورة الانعام والعجب ان
قوله ومن اظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ماقدمت يداه متمسك القدرية وقوله
انا جعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه الى آخر الآية متمسك الجبرية وقلما تجد فى القرآن
آية لاحد هذين الفريقين الا ومعها آية للفريق الآخر والتجربة تكشف عن صدق قولنا
وما ذاك الا امتحان شديد من الله تعالى القاه على عباده ليتميز العلماء الراسخون من المقلدين
ثم قال تعالى وربك الغفور ذو الرحمة الغفور البليغ المغفرة وهو اشارة الى دفع المضار
ذو الرحمة الموصوف بالرحمة وانما ذكر لفظ المبالغة فى المغفرة لا فى الرحمة لان المغفرة ترك
الاضرار وهو تعالى قد ترك مضار لا نهاية لها مع كونه قادرا عليها اما فعل الرحمة فهو متناه
لان ترك مالا نهاية له ممكن اما فعل مالا نهاية له محال ويمكن ان يقال المراد انه يغفر كثيرا
لانه ذو الرحمة ولا حاجة به اليها فيهبها من المحتاجين كثيرا ثم استشهد بترك مؤاخذة اهل
مكة عاجلا من غير امهال مع افراطهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال بل لهم
موعد وهو اما يوم القيامة واما فى الدنيا وهو يوم بدر وسائر ايام الفتح لن يجدوا من دونه
موئلا منجأ ولا ملجأ يقال وأل اذا لجأ ووأل اليه اذا لجأ اليه ثم قال تعالى وتلك القرى يريد
قرى الاولين من ثمود وقوم لوط وغيرهم اشار اليها ليعتبروا وتلك مبتدأ والقرى صفة لان
اسماء الاشارة توصف باصناف الاجناس واهلكناهم خبر والمعنى وتلك اصحاب القرى
اهلكناهم لما ظلموا مثل ظلم اهل مكة وجعلنا لمهلكهم موعدا اى وضربنا لاهلاكهم
وقتا معلوما لا يتأخرون عنه كما ضربنا لاهل مكة يوم بدر والمهلك الاهلاك او وقته وقرئ
لمهلكهم بفتح الميم واللام مفتوحة او مكسورة اى لهلاكهم او وقت هلاكهم والموعد
وقت او مصدر والمراد انا عجلنا هلاكهم ومع ذلك لم ندع ان نضرب له وقتا ليكونوا الى
التوبة اقرب * قوله تعالى (واذ قال موسى لفتاه لا ابرح حتى ابلغ مجمع البحرين او امضى
حقبا فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله سربا فلما جاوزا قال لفتاه آتنا
غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت
وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا قال ذلك ما كنا نبغى فارتدا على

فى النكير فى المرة الثانية (قال) اى موسى عليه الصلاة والسلام (ان سألتك عن شئ ( ٧٣٢ ) بعدها) اى بعد هذه المرة (فلا تصاحبني) وقرئ
من الافعال اى لا تجعلني صاحبك
(قد بلغت من لدنى عذرا) اى
قد اعذرت ووجدت من قبلي
عذرا حيث خالفتك ثلاث
مرات * عن النبى صلى الله عليه
وسلم رحم الله اخى موسى استحيى
فقال ذلك لو لبث مع صاحبه
لابصر اعجب الاعاجيب وقرئ
لدنى بتخفيف النون وقرئ
بسكون الدال كعضد فى عضد
(فانطلقا حتى اذا أتيا اهل قرية)
هى انطاكية وقيل أيلة وهى ابعد
ارض الله من السماء وقيل هى
برقة وقيل بلدة بأندلس * عن
النبى صلى الله عليه وسلم كانوا
اهل قرية لئاما وقيل شر القرى
التى لا يضاف فيها الضيف ولا
يعرف لابن السبيل حقه وقوله
تعالى (استطعما اهلها) فى محل
الجر على انه صفة لقرية ولعل
العدول عن استطعماهم على
ان يكون صفة للاهل لزيادة
تشنيعهم على سوء صنيعهم فان
الاباء من الضيافة وهم اهلها
قاطنون بها اقبح واشنع روى
انهما طافا فى القرية فاستطعماهم
فلم يطعموهما واستضافاهم (فابوا
ان يضيفوهما) بالتشديد وقرئ
بالتخفيف من الاضافة يقال ضافه
اذا كان له ضيفا واضافه وضيفه
انزله وجعله ضيفا له وحقيقة
ضاف مال اليه من ضاف السهم
عن الغرض ونظيره زاره من
الازورار (فوجدا فيها جدارا
يريد ان ينقض) اى يدانى ان يسقط
فاستعيرت الارادة للمشارفة
للدلالة على المبالغة فى ذلك
والانقضاض الاسراع فى السقوط
وهو انفعال من القض يقال
قضضته فانقض ومنه انقضاض
الطير والكوكب لسقوطه بسرعة وقيل هو افعلال من النقض كاحمر من الحمرة وقرئ ان ينقض من النقض وان ينقاص (آثارهما)

آثارهما قصصا) اعلم ان هذا ابتداء قصة ثالثة ذكرها الله تعالى في هذه السورة وهي ان موسى عليه السلام ذهب الى الخضر عليه السلام ليتعلم منه العلم وهذا وان كان كلاما مستقلا في نفسه الا انه يعين على ماهو المقصود في القصتين السابقتين أما نفع هذه القصة في الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الاموال والانصار فهو أن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله وعلو منصبه واستجماع موجبات الشرف التام في حقه ذهب الى الخضر لطلب العلم وتواضع له وذلك يدل على ان التواضع خير من التكبر وأما نفع هذه القصة في قصة أصحاب الكهف فهو أن اليهود قالوا لكفار مكة ان أخبركم محمد عن هذه القصة فهو نبي والا فلا وهذا ليس بشئ لانه لايلزم من كونه نبيا من عند الله تعالى أن يكون عالما بجميع القصص والوقائع كما ان كون موسى عليه السلام نبيا صادقا من عند الله لم يمنع من أمر الله اياه بأن يذهب الى الخضر ليتعلم منه فظهر مما ذكرنا ان هذه القصة قصة مستقلة بنفسها ومع ذلك فهي نافعة في تقرير المقصود في القصتين المتقدمتين (المسئلة الثانية) أكثر العلماء على ان موسى المذكور في هذه الآية هو موسى بن عمران صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة وعن سعيد بن جبير انه قال لابن عباس ان نوفا ابن امرأة كعب يزعم ان الخضر ليس صاحب موسى بن عمران وانما هو صاحب موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب وقيل هو كان نبيا قبل موسى بن عمران فقال ابن عباس كذب عدو الله * واعلم انه كان ليوسف عليه السلام ولدان افرائيم وميشا فولد افرائيم نون وولد نون يوشع بن نون وهو صاحب موسى وولي عهده بعد وفاته وأما ولد ميشا فقيل انه جاءته النبوة قبل موسى بن عمران ويزعم أهل التوراة انه هو الذي طلب هذا العلم ليتعلم والخضر هو الذي خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار وموسى بن ميشا معه هذا هو قول جمهور اليهود واحتج القفال على صحة قولنا ان موسى هذا هو صاحب التوراة قال ان الله تعالى ماذكر موسى في كتابه الا وأراد به صاحب التوراة فاطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف اليه ولو كان المراد شخصا آخر مسمى بموسى غيره لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز وازالة الشبهة كما انه لما كان المشهور في العرف من أبي حنيفة رحمه الله الله هو الرجل المعين فلو ذكرنا هذا الاسم واردنا به رجلا سواه لقيدناه مثل أن نقول قال أبو حنيفة الدينوري * وحجة الذين قالوا موسى هذا غير صاحب التوراة أنه تعالى بعد ان أنزل التوراة عليه وكلمه بلا واسطة وحج خصمه بالمعجزات القاهرة العظيمة التي لم يتفق مثلها لاكثر أكابر الانبياء يبعد أن يبعثه بعد ذلك للتعلم الاستفادة وأجيب عنه بانه لا يبعد ان العالم الكامل في أكثر العلوم يجهل بعض الاشياء فيحتاج في تعلمها الى من دونه وهذا أمر متعارف معلوم (المسئلة الثالثة) اختلفوا في فتى موسى فالاكثرون على انه يوشع بن نون وروى القفال عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول فتاه يوشع بن نون والقول

من انقاضت السن اذا انشقت طولا (فأقامه) قيل مسحه(٧٣٣) بيده فقام وقيل نقضه وبناه وقيل اقامه بعمود عمده به قيل كان سمكه مائة ذراع ( قال لو شئت لاتخذت عليه اجرا) تحريضا له على اخذ الجعل لينتعشا به او تعريضا بأنه فضول لما في لو من النفي كأنه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك الصبر واتخذ افتعل من تخذ بمعنى اخذ كاتبع من تبع وليس من الاخذ عند البصريين وقرئ لتخذت اى لأخذت وقرئ بادغام الذال في التاء ( قال) اى الخضر عليه الصلاة والسلام (هذا فراق بيني وبينك) على اضافة المصدر الى الظرف اتساعا وقد قرئ على الاصل والمشار اليه اما نفس الفراق كما في هذا اخوك او الوقت الحاضر اى هذا الوقت وقت فراق بيني وبينك او السؤال الثالث اى هذا سبب ذلك الفراق حسبما هو الموعود (سأنبئك) السين للتأكيد لعدم تراخي التنبئة (بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) التأويل رجع الشئ الى مآله والمراد به ههنا المآل والعاقبة اذ هو المنبأ به دون التأويل وهو خلاص السفينة من اليد العادية وخلاص ابوى الغلام من شره مع الفوز بالبدل الاحسن واستخراج اليتيمين للكنز وفي جعل صلة الموصول عدم استطاعة موسى عليه الصلاة والسلام للصبر دون ان يقال بتأويل مافعلت اوبتأويل مارأيت ونحوهما نوع تعريض به عليه الصلاة والسلام وعتاب (اما السفينة) التي خرقها (فكانت لمساكين) لضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة وقيل كانت لعشرة اخوة خمسة منهم زمنى وخمسة (يعملون في البحر) واسناد العمل الى الكل حينئذ انما هو بطريق التغليب اولان عمل الوكلاء بمنزلة عمل الموكلين (فأردت ان اعيبها)

الثانى ان فتى موسى أخو يوشع وكان مصاحبا لموسى عليه السلام فى هذا السفر (والقول الثالث) روى عمرو بن عبيد عن الحسن فى قوله واذقال موسى لفتاه لاأبرح قال يعنى عبده قال القفال واللغة تحتمل ذلك روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لايقولن احدكم عبدى وأمتى وليقل فتاى وفتاتى وهذا يدل على انهم كانوا يسمون العبد فتى والامة فتاة (المسئلة الرابعة) قيل ان موسى عليه السلام لما أعطى الالواح وكلمه الله تعالى قال من الذى أفضل منى وأعلم (فقيل) عبد لله يسكن جزائر البحر وهو الخضر (وفى رواية أخرى) ان موسى عليه السلام لما أوتى من العلم ما أوتى ظن أنه لا أحد مثله فاتاه جبريل عليه السلام وهو بساحل البحر قال ياموسى انظر الى هذا الطير الصغير يهوى الى البحر يضرب بمنقاره فيه ثم يرتفع فانت فيما أوتيت من العلم دون قدر مايحمل هذا الطير بمنقاره من البحر قال الاصوليون هذه الرواية ضعيفة لان الانبياء يجب أن يعلموا أن معلومات الله لانهاية لها وأن يعلموا أن معلومات الخلق يجب كونها متناهية وكل قدر متناه فان الزائد عليه ممكن فلا مرتبة من مراتب العلم الا وفوقها مرتبة ولهذا قال تعالى وفوق كل ذى علم عليم واذا كانت هذه المقدمات معلومة فمن المستبعد جدا أن يقطع العاقل بانه لا أحد أعلم منى لاسيما موسى عليه السلام مع علمه الوافر بحقائق الاشياء وشدة براءته عن الاخلاق الذميمة كالعجب والتيه والصلف (والرواية الثالثة) قيل ان موسى عليه السلام سأل ربه أى عبادك أحب اليك قال الذى يذكرنى ولا ينسانى قال فاى عبادك اقضى قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى قال فأى عبادك أعلم قال الذى يبتغى علم الناس الى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى فقال موسى عليه السلام ان كان فى عبادك من هو أعلم منى فادللنى عليه فقال أعلم منك الخضر قال فأين أطلبه قال على الساحل عند الصخرة قال يارب كيف لى به قال تأخذ حوتا فى مكتل فحيث فقدته فهو هناك فقال لفتاه اذا فقدت الحوت فاخبرنى فذهبا يمشيان ورقد موسى واضطرب الحوت وطفر الى البحر فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت فاخبره فتاه بوقوعه فى البحر فرجع من ذلك الموضع الى الموضع الذى طفر الحوت فيه الى البحر فاذا رجل مسجى بثوبه فسلم عليه موسى عليه السلام فقال وأنى بارضك السلام فعرفه نفسه فقال ياموسى أنا على علم علمنى الله لاتعلمه أنت وأنت على علم علمك الله لاأعلمه أنا فلما ركبا السفينة جاء عصفور فوقع على حرفها فنقر فى الماء فقال الخضر ماينقص علمى وعلمك من علم الله مقدار ماأخذ هذا العصفور من البحر أقول نسبة ذلك القدر القليل الذى أخذه ذلك العصفور من ذلك الماء الى كلية ماء البحر نسبة متناه الى متناه ونسبة معلوم جميع المخلوقات الى معلومات الله تعالى نسبة متناه الى غير متناه فاين احدى النسبتين من الاخرى والله العالم بحقائق الامور ونرجع الى التفسير أما قوله تعالى لاأبرح قال الزجاج قوله لاأبرح ليس معناه لاأزول لانه لوكان كذلك لم يقطع أرضا أقول يمكن أن يجاب عنه بان الزوال

اى اجعلها ذات عيب (وكان وراءهم ملك) اي امامهم وقد قرئ به او خلفهم  وكان رجوعهم عليه لامحالة واسمه جلندى بن كركر وقيل منولة بن جلندى الازدى (يأخذ كل سفينة) اى صالحة وقد قرئ كذلك (غصبا) من اصحابها وانتصابه على انه مصدر مبين لنوع الاخذ ولعل تفريع ارادة تعييب السفينة على مسكنة اصحابها قبل بيان خوف الغصب مع ان مدارها كلا الامرين للاعتناء بشأنها اذ هى المحتاجة الى التأويل وللايذان بان الاقوى فى المدارية هو الامر الاول ولذلك لايبالى بتخليص سفن سائر الناس مع تحقق خوف الغصب فى حقهم ايضا ولان فى التأخير فصلا بين السفينة وضميرها مع توهم رجوعه الى الاقرب (واما الغلام) الذى قتلته (فكان ابواه مؤمنين) لم يصرح بكفرانه او بكفره اشعارا بعدم الحاجة الى الذكر لظهوره (فخشينا ان يرهقهما) فخفنا ان يغشى الوالدين المؤمنين (طغيانا) عليهما (وكفرا) لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ويلحق بهما شرو بلاء او يقرن بايمانهما طغيانه وكفره فيجتمع فى بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر اويعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتدا بسببه وانما خشى الخضر عليه الصلاة والسلام منه ذلك لان الله سبحانه اعلمه بحاله واطلعه على سر امره وقرئ فخاف ربك اى كره سبحانه كراهة من خاف سوء عاقبة الامر فغيره ويجوز ان تكون القراءة المشهورة على الحكاية بمعنى فكرهنا كقوله تعالى لأهب لك (فاردنا ان يبدلهما ربهما خيرا) منه بأن يرزقهما بدله ولدا خيرا (منه) وفى التعرض لعنوان الربوبية والاضافة اليهما مالايخفى من الدلالة على ارادة وصول الخير اليهما (زكوة) طهارة من الذنوب (عن)

والاخلاق الرديئة (واقرب رحما) اي رحمة وعطفا ( ٧٣٥ ) قيل ولدت لهما جارية تزوجها نبي فولدت نبيا هدى الله تعالى على يديه امة

عن الشيء عبارة عن تركه والاعراض عنه يقال زال فلان عن طريقته في الجود اي تركها فقوله لا ابرح بمعنى لا ازول عن السير والذهاب بمعنى لا اترك هذا العمل وهذا الفعل واقول المشهور عند الجمهور ان قوله لا ابرح معناه لا ازول والعرب تقول لا ابرح ولا ازال ولا انفك ولا افتأ بمعنى واحد قال القفال وقالوا اصل قولهم لا ابرح من البراح كما ان اصل لا ازال من الزوال يقال زال يزال ويزول كما يقال دام يدام ويدوم ومات يمات ويموت الا ان المستعمل في هذه اللفظة يزال فقوله لا ابرح اي اقيم لان البراح هو العدم فقوله لا ابرح يكون عدما للعدم فيكون ثبوتا فقوله لا ازال ولا ابرح يفيد الدوام والثبات على العمل فان قيل اذا كان قوله لا ابرح بمعنى لا ازال فلا بد من الخبر قلنا حذف الخبر لان الحال والكلام يدلان عليه اما الحال فلانها كانت حال سفر واما الكلام فلان قوله حتى ابلغ مجمع البحرين غاية مضروبة تستدعي شيئا هي غاية له فيكون المعنى لا ابرح اسير حتى ابلغ مجمع البحرين ويحتمل ان يكون المعنى لا ابرح مما انا عليه يعني الزم المسير والطلب ولا اتركه ولا افارقه حتى ابلغ كما تقول لا ابرح المكان واما مجمع البحرين فهو المكان الذي وعد فيه موسى بلقاء الخضر عليهما السلام وهو ملتقى بحري فارس والروم مما يلي المشرق وقيل غيره وليس في اللفظ ما يدل على تعيين هذين البحرين فان صح بالخبر الصحيح شيء فذاك والا فالاولى السكوت عنه ومن الناس من قال البحران موسى والخضر لانهما كانا بحري العلم وقرئ مجمع بكسر الميم ثم قال او امضي حقبا اي اسير زمانا طويلا وقيل الحقب ثمانون سنة وقد تكلمنا في هذا اللفظ في قوله تعالى لابثين فيها احقابا وحاصل الكلام ان الله عز وجل كان اعلم موسى حال هذا العالم وما اعلمه موضعه بعينه فقال موسى عليه السلام لا ازال امضي حتى يجتمع البحران فيصيرا بحرا واحدا او امضي دهرا طويلا حتى اجد هذا العالم وهذا اخبار من موسى بانه وطن نفسه على تحمل التعب الشديد والعناء العظيم في السفر لاجل طلب العلم وذلك تنبيه على ان المتعلم لو سافر من المشرق الى المغرب لطلب مسئلة واحدة لحق له ذلك ثم قال تعالى فلما بلغا مجمع بينهما والمعنى فانطلقا الى ان بلغا مجمع بينهما والضمير في قوله بينهما الى ماذا يعود فيه قولان (الاول) مجمع بينهما اي مجمع البحرين وهو كأنه اشارة الى قول موسى لا ابرح حتى ابلغ مجمع البحرين اي فحقق ما قاله (والقول الثاني) ان المعنى فلما بلغ الموضع الذي يجتمع موسى وصاحبه الذي كان يقصده لان ذلك الموضع الذي وقع فيه نسيان الحوت هو الموضع الذي كان يسكنه الخضر او يسكن بقربه ولاجل هذا المعنى لما رجع موسى وفتاه بعد ان ذكر الحوت صار اليه وهو معنى حسن والمفسرون على القول الاول ثم قال تعالى نسيا حوتهما وفيه مباحث (البحث الاول) الروايات تدل على انه تعالى بين لموسى عليه السلام ان هذا العالم موضعه مجمع البحرين الا انه تعالى جعل انقلاب الحوت حيا علامة على مسكنه المعين كمن يطلب انسانا فيقال له ان موضعه محلة كذا من الري فاذا

من الامم وقيل ولدت سبعين نبيا وقيل ابدلهما ابنا مؤمنا مثلهما وقرئ يبدلهما بالتشديد وقرئ رحما بضم الحاء ايضا وانتصابه على التمييز مثل زكوة (واما الجدار) المعهود (فكان لغلامين يتيمين في المدينة) هي القرية المذكورة فيما سبق ولعل التعبير عنها بالمدينة لاظهار نوع اعتداد بها باعتداد ما فيها من اليتيمين وابيهما الصالح قيل اسماهما اصرم وصريم واسم المقتول جيسور (وكان تحته كنز لهما) من فضة وذهب كما روي مرفوعا والذم على كنزهما في قوله عز وجل والذين يكنزون الذهب والفضة لمن لا يؤدي زكاتهما وسائر حقوقهما وقيل كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها باهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله وقيل صحف فيها علم (وكان ابوهما صالحا) تنبيه على ان سعيه في ذلك كان لصلاحه قيل كان بينهما وبين الاب الذي حفظا فيه سبعة آباء (فاراد ربك) اي مالكك ومدبر امورك ففي اضافة الرب الى ضمير موسى عليه الصلاة والسلام دون ضميرهما تنبيه له عليه الصلاة والسلام على تحتم كمال الانقياد والاستسلام لارادته سبحانه ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبها من الامور المذكورة (ان يبلغا اشدهما) اي حلمهما وكمال رأيهما (ويستخرجا كنزهما) من تحت الجدار ولولا اني اقمته لانقض وخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته وضاع بالكلية

انتهيت الى المحلة فسل فلانا عن داره واين ماذهب بك فاتبعه فانك تصل اليه فكذا ههنا قيل له ان موضعه مجمع البحرين فاذا وصلت اليه رأيت الحوت انقلب حيا وطفر الى البحر فيحتمل انه قيل له فهنالك موضعه ويحتمل انه قيل له فاذهب على موافقة ذهاب ذلك الحوت فانك تجده اذا عرفت هذا فنقول ان موسى وفتاه لما بلغا مجمع بينهما طفرت السمكة الى البحر وسارت وفى كيفية طفرها روايات ايضا قيل ان الفتى كان يغسل السمكة لانها كانت مملحة فطفرت وسارت وقيل ان يوشع توضأ فى ذلك المكان فانتضح الماء على الحوت المالح فعاش ووثب فى الماء وقيل انفجر هنالك عين من الجنة ووصلت قطرات من تلك العين الى السمكة فحييت وطفرت الى البحر فهذا هو الكلام فى صفة الحوت (البحث الثانى) المراد من قوله نسيا حوتهما انهما نسيا كيفية الاستدلال بهذه الحالة المخصوصة على الوصول الى المطلوب فان قيل انقلاب السمكة المالحة حية حالة عجيبة فلما جعل الله حصول هذه الحالة العجيبة دليلا على الوصول الى المطلوب فكيف يعقل حصول النسيان فى هذا المعنى أجاب العلماء عنه بأن يوشع كان قد شاهد المعجزات القاهرة من موسى عليه السلام كثيرا فلم يبق لهذه المعجزة عنده وقع عظيم فجاز حصول النسيان وعندى فيه جواب آخر وهو ان موسى عليه السلام لما استعظم علم نفسه أزال الله عن قلب صاحبه هذا العلم الضرورى تنبيها لموسى عليه السلام على ان العلم لايحصل الا بتعليم الله وحفظه على القلب والخاطر اما قوله فاتخذ سبيله فى البحر سربا ففيه وجوه (الاول) ان يكون التقدير سرب فى البحر سربا الا انه اقيم قوله فاتخذ مقام قوله سرب والسرب هو الذهاب ومنه قوله وسارب بالنهار (الثانى) ان الله تعالى امسك اجراء الماء على البحر وجعله كالطاق والكوة حتى سرى الحوت فيه فلما جاوزا اى موسى وفتاه الموعد المعين وهو الوصول الى الصخرة بسبب النسيان المذكور وذهبا كثيرا وتعبا وجاعا قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال الفتى أرأيت اذ أوينا الى الصخرة الهمزة فى أرأيت همزة الاستفهام ورأيت على معناه الاصلى وقد جاء هذا الكلام على ماهو المتعارف بين الناس فانه اذا حدث لاحدهم امر عجيب قال لصاحبه أرأيت ماحدث لى كذلك ههنا كأنه قال أرأيت ماوقع لى منه اذ أوينا الى الصخرة فحذف مفعول أرأيت لان قوله فانى نسيت الحوت يدل عليه ثم قال وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره وفيه مباحث (البحث الاول) انه اعتراض وقع بين المعطوف والمعطوف عليه والتقدير فانى نسيت الحوت واتخذ سبيله فى البحر عجبا والسبب فى وقوع هذا الاعتراض مايجرى مجرى العذر والعلة لوقوع ذلك النسيان (البحث الثانى) قال الكعبى وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره يدل على انه تعالى ماخلق ذلك النسيان وماأراده والا كانت اضافته الى الله تعالى اوجب من اضافته الى الشيطان لانه تعالى اذا خلقه فيه لم يكن لسعى الشيطان فى وجوده ولا فى عدمه اثر قال القاضى والمراد بالنسيان ان يشتغل قلب الانسان بوساوسه التى هى من فعله دون النسيان الذى يضاد

(رحمة من ربك) مصدر فى موقع الحال اى مرحومين منه عز وجل او مفعول له او مصدر مؤكد لاراد فان ارادة الخير رحمة وقيل متعلق بمضمر اى فعلت مافعلت من الامور التى شاهدتها رحمة من ربك ويعضده اضافة الرب الى ضمير المخاطب دون ضميرهما فيكون قوله عز وعلا (وما فعلته عن امرى) اى عن رأيى واجتهادى تأكيدا لذلك (ذلك) اشارة الى العواقب المنظومة فى سلك البيان ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتها فى الفخامة (تأويل مالم تسطع) اى لم تستطع فحذف التاء للتخفيف (عليه صبرا) من الامور التى رأيته اى مآله وعاقبته فيكون انجازا للتنبئة الموعودة والى البيان نفسه فيكون التأويل بمعناه وعلى كل حال فهو فذلكة لما تقدم وفى جعل الصلة عين مامر تكرير للنكير وتشديد للعتاب *(تنبيه)* اختلفوا فى حياة الخضر عليه الصلاة والسلام فقيل انه حى وسببه انه كان على مقدمة ذى القرنين فلما دخل الظلمات اصاب الخضر عين الحياة فنزل واغتسل منها وشرب من مائها واخطأ ذو القرنين الطريق فعاد قالوا والياس ايضا فى الحياة يلتقيان كل سنة بالموسم وقيل انه ميت لما روى ان النبى عليه الصلاة والسلام صلى العشاء ذات ليلة ثم قال ارأيتكم ليلتكم هذه فان رأس مائة سنة منها لايبقى ممن هو اليوم على ظهر الارض احد ولو كان الخضر حينئذ حيا لما عاش بعد مائة عام روى ان موسى عليه الصلاة والسلام لما اراد ان يفارقه قال له اوصنى قال لاتطلب العلم لتحدث به واطلبه لتعمل به (ويسألونك عن ذى القرنين) هم اليهود سألوه على وجه الامتحان او سأله قريش بتلقينهم وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرارهم على ذلك الى ورود الجواب (الذكر)

الذكر لان ذلك لايصح آن يكون الا من قبل الله تعالى (البحث الثالث) قوله ان اذكره بدل من الهاء في انسانيه اي وما انساني ذكره الا الشيطان ثم قال واتخذ سبيله في البحر عجبا وفيه وجوه (الاول) ان قوله عجبا صفة لمصدر محذوف كأنه قيل واتخذ سبيله في البحر عجبا اتخاذا عجبا ووجه كونه عجبا انقلابه من المكتل وصيرورته حيا والقاء نفسه في البحر على غفلة منهما (الثاني) ان يكون المراد منه ما ذكرنا انه تعالى جعل الماء عليه كالطاق وكالسرب (الثالث) قيل انه تم الكلام عند قوله واتخذ سبيله في البحر ثم قال بعده عجبا والمقصود منه تعجبه من تلك العجيبة التي رآها ومن نسيانه لها وقيل ان قوله عجبا حكاية لتعجب موسى وهو ليس بقوله ثم قال تعالى قال ذلك ما كنا نبغ اي قال موسى ذلك الذي كنا نطلبه لانه امارة الظفر بالمطلوب وهو لقاء الخضر وقوله نبغ اصله نبغي فحذفت الياء طلبا للتخفيف لدلالة الكسرة عليه وكان القياس ان لا يحذف لانهم انما يحذفون الياء في الاسماء وهذا فعل الا انه قد يجوز على ضعف القياس حذفها لانها تحذف مع الساكن الذي يكون بعدها كقولك ما نبغي اليوم فلما حذفت مع الساكن حذفت ايضا مع غير الساكن ثم قال فارتدا على آثارهما اي فرجعا وقوله قصصا فيه وجهان (احدهما) انه مصدر في موضع الحال اي رجعا على آثارهما مقتصين آثارهما (والثاني) ان يكون مصدرا لقوله فارتدا على آثارهما لان معناه فاقتصا على آثارهما وحاصل الكلام انهما لما عرفا انهما تجاوزا عن الموضع الذي يسكن فيه ذلك العالم رجعا وعادا اليه والله أعلم * قوله تعالى

(فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما قال له موسى هل اتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا قال انك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا قال ستجدني ان شاء الله صابرا ولا اعصي لك امرا قال فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى احدث لك منه ذكرا) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله فوجدا عبدا من عبادنا فيه بحثان (البحث الاول) قال الاكثرون ان ذلك العبد كان نبيا واحتجوا عليه بوجوه (الاول) انه تعالى قال آتيناه رحمة من عندنا والرحمة هي النبوة بدليل قوله تعالى اهم يقسمون رحمة ربك وقال وما كنت ترجوا ان يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك والمراد من هذه الرحمة النبوة ولقائل ان يقول نسلم ان النبوة رحمة اما لا يلزم ان يكون كل رحمة نبوة (الحجة الثانية) قوله تعالى وعلمناه من لدنا علما وهذا يقتضي انه تعالى علمه لا بواسطة تعليم معلم ولا ارشاد مرشد وكل من علمه الله لا بواسطة البشر وجب ان يكون نبيا يعلم الامور بالوحي من الله وهذا الاستدلال ضعيف لان العلوم الضرورية تحصل ابتداء من عند الله وذلك لا يدل على النبوة (الحجة الثالثة) ان موسى عليه السلام قال هل اتبعك على ان تعلمني والنبي لا يتبع غير النبي في التعليم وهذا ايضا ضعيف لان النبي لا يتبع غير النبي في العلوم التي باعتبارها صار نبيا اما في غير تلك العلوم فلا (الحجة الرابعة) ان ذلك العبد اظهر الترفع على موسى حيث قال له وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا

وهو ذوالقرنين الاكبر واسمه الاسكندر بن فيلقوس اليوناني وقال ابن اسحق اسمه مرزبان بن مردويه من ولد يافث بن نوح عليه الصلاة والسلام وكان اسود وقيل اسمه عبدالله بن الضحاك وقيل مصعب بن عبدالله ابن فينان بن منصور بن عبدالله بن الازد بن عون بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان وقال السهيلي قيل ان اسمه مرزبان بن مدركة ذكره ابن هشام وهو اول التبابعة وقيل انه افريذون بن النعمان الذي قتل الضحاك وذكر ابو الريحان البيروني في كتابه المسمى بالآثار الباقية عن القرون الخالية ان ذا القرنين هو ابو كرب سمي ابن عير بن افريقيس الحميري وان ملكه بلغ مشارق الارض ومغاربها وهو الذي افتخر به التبع اليماني حيث قال

قد كان ذو القرنين جدي مسلما ملكا علا في الارض غير مفند
بلغ المشارق والمغارب يبتغي اسباب امر من حكيم مرشد

وجعل هذا القول اقرب لان الاذواء كانوا من اليمن كذي المنار وذي نواس وذي النون وذي رعين وذي يزن وذي جدن قال الامام الرازي والاول هو الاظهر لان من بلغ ملكه من السعة والقوة الى الغاية التي نطق بها التنزيل الجليل انما هو الاسكندر اليوناني كما تشهد به كتب التواريخ يروى انه لما مات ابوه جمع ملك الروم بعد ان كان طوائف ثم قصد ملوك العرب وقهرهم ثم امعن حتى انتهى الى البحر الاخضر ثم عاد الى مصر فبنى الاسكندرية

واما موسى فانه اظهر التواضع له حيث قال لا اعصى لك امرا وكل ذلك يدل على ان ذلك العالم كان فوق موسى ومن لا يكون نبيا لا يكون فوق النبي وهذا ايضا ضعيف لانه يجوز ان يكون غير النبي فوق النبي في علوم لا تتوقف نبوته عليها فلم قلتم ان ذلك لا يجوز فان قالوا لانه يوجب التنفير قلنا فارسال موسى الى التعلم منه بعد انزال الله عليه التوراة وتكليمه بغير واسطة يوجب التنفير فان قالوا ان هذا لا يوجب التنفير فكذا القول فيما ذكروه (الحجة الخامسة) احتج الاصم على نبوته بقوله في اثناء القصة وما فعلته عن امرى ومعناه فعلته بوحي الله وهو يدل على النبوة وهذا ايضا دليل ضعيف وضعفه ظاهر (الحجة السادسة) ماروى ان موسى عليه السلام لما وصل اليه قال السلام عليك فقال وعليك السلام يا نبي بني اسرائيل فقال موسى عليه السلام من عرفك هذا قال الذى بعثك الى قالوا وهذا يدل على انه انما عرف ذلك بالوحي والوحي لا يكون الا مع النبوة ولقائل ان يقول لم لا يجوز ان يكون ذلك من باب الكرامات والالهامات (البحث الثاني) قال الاكثرون ان ذلك العبد هو الخضر وقالوا انما سمي بالخضر لانه كان لا يقف موقفا الا اخضر ذلك الموضع قال الجبائي قد ظهرت الرواية ان الخضر انما بعث بعد موسى عليه السلام من بني اسرائيل فان صح ذلك لم يجز ان يكون هذا العبد هو الخضر وايضا فبتقدير ان يكون هذا العبد هو الخضر وقد ثبت انه يجب ان يكون نبيا فهذا يقتضي ان يكون الخضر اعلى شأنا من موسى صاحب التوراة لانا قد بينا ان الالفاظ المذكورة في هذه الآيات تدل على ان ذلك كان يترفع على موسى وكان موسى يظهر التواضع له الا ان كون الخضر اعلى شأنا من موسى غير جائز لان الخضر اما ان يقال انه كان من بني اسرائيل او ما كان من بني اسرائيل فان قلنا انه كان من بني اسرائيل كان من امة موسى لقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام انه قال لفرعون ارسل معنا بني اسرائيل والامة لا تكون اعلى حالا من النبي وان قلنا انه ما كان من بني اسرائيل لم يجز ان يكون افضل من موسى لقوله تعالى لبني اسرائيل واني فضلتكم على العالمين وهذه الكلمات تقوي قول من يقول ان موسى هذا غير موسى صاحب التوراة (المسئلة الثانية) قوله وعلمناه من لدنا علما يفيد ان تلك العلوم حصلت عنده من عند الله من غير واسطة والصوفية سموا العلوم الحاصلة بطريق المكاشفات العلوم اللدنية وللشيخ أبي حامد الغزالي رسالة في اثبات العلوم اللدنية واقول تحقيق الكلام في هذا الباب ان نقول اذا ادركنا امرا من الامور وتصورنا حقيقة من الحقائق فاما ان نحكم عليه بحكم وهو التصديق اولا نحكم وهو التصور وكل واحد من هذين القسمين فاما ان يكون نظريا حاصلا من غير كسب وطلب واما ان يكون كسبيا اما العلوم النظرية فهي تحصل في النفس والعقل من غير كسب وطلب مثل تصورنا الالم واللذة والوجود والعدم ومثل تصديقنا بان النفي والاثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان وان الواحد نصف الاثنين واما العلوم الكسبية فهي التي لا تكون

(حاصلة)

وسماها باسمه ثم دخل الشام وقصد بني اسرائيل وورد بيت المقدس وذبح في مذبحه ثم نعطف الى ارمينية وباب الابواب ودان له العراقيون والقبط والبربر ثم توجه نحو دارا بن دارا وهزمه مرارا الى ان قتله صاحب حرسه واستولى على ممالك الفرس وقصد الهند وفتحه وبنى مدينة سرنديب وغيرها من المدن العظام ثم قصد الصين وغزا الامم البعيدة ورجع الى خراسان وبنى بها مدائن كثيرة ورجع الى العراق ومرض بشهرزور ومات انتهى كلام الامام وروى ان اهل النجوم قالوا له انك لا تموت الا على ارض من حديد وتحت سماء من خشب وكان يدفن كنز كل بلدة فيها ويكتب ذلك بصفته وموضعه فبلغ بابل فرعف وسقط عن دابته فبسطت له دروع فنام عليها فآذته الشمس فاظلوه بترس فنظر فقال هذه ارض من حديد وسماء من خشب فأيقن بالموت فمات وهو ابن الف وستمائة سنة وقيل ثلاثة آلاف سنة قال ابن كثير وهذا غريب واغرب منه ماقاله ابن عساكر من انه بلغني انه عاش ستا وثلاثين سنة او ثنتين وثلاثين سنة وانه كان بعد داود وسليمان عليهما السلام فان ذلك لا ينطبق الا على ذي القرنين الثاني كما سنذكره قلت وكذا ماذكره الامام من قصد بني اسرائيل وورود بيت المقدس والذبح في مذبحه فانه مما لا يكاد يتأتى نسبته الى الاول واختلف في نبوته بعد الاتفاق على اسلامه وولايته فقيل كان نبيا لقوله تعالى انا مكنا له في الارض وظاهره انه متناول للتمكين في الدين

حاصلة فى جوهر النفس ابتداء بل لابد من طريق يتوصل به الى اكتساب تلك العلوم وهذا الطريق على قسمين ( احدهما ) ان يتكلف الانسان تركب تلك العلوم البديهية النظرية حتى يتوصل بتركبها الى استعلام المجهولات وهذا الطريق هو المسمى بالنظر والتفكر والتدبر والتأمل والتروى والاستدلال وهذا النوع من تحصيل العلوم هو الطريق الذى لايتم الابالجهد والطلب ( والنوع الثانى ) ان يسعى الانسان بواسطة الرياضات والمجاهدات فى ان تصير القوى الحسية والخيالية ضعيفة فاذا ضعفت قويت القوة العقلية واشرقت الانوار الالهية فى جوهر العقل وحصلت المعارف وكملت العلوم من غير واسطة سعى وطلب فى التفكر والتأمل وهذا هو المسمى بالعلوم اللدنية اذا عرفت هذا فنقول جواهر النفس الناطقة مختلفة بالماهية فقد تكون النفس نفسا مشرقة نورانية الهية علوية قليلة التعلق بالجواذب البدنية والنوازع الجسمانية فلاجرم كانت ابدا شديدة الاستعداد لقبول الجلايا القدسية والانوار الالهية فلاجرم فاضت عليها من عالم الغيب تلك الانوار على سبيل الكمال والتمام وهذا هو المراد بالعلم اللدنى وهو المراد من قوله آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما واما النفس التى ما بلغت فى صفاء الجوهر واشراق العنصر فهى النفس الناقصة البليدة التى لايمكنها تحصيل المعارف والعلوم الابمتوسط بشرى يحتال فى تعليمه وتعلمه والقسم الاول بالنسبة الى القسم الثانى كالشمس بالنسبة الى الاضواء الجزئية وكالبحر بالنسبة الى الجداول الجزئية وكالروح الاعظم بالنسبة الى الارواح الجزئية فهذا تنبيه قليل على هذا المأخذ ووراءه اسرار لايمكن ذكرها فى هذا الكتاب ثم قال تعالى قال له موسى هل اتبعك على ان تعلمنى مما علمت رشدا وفيه مسئلتان ( المسئلة الاولى ) قرأ ابوعمرو ويعقوب رشدا بفتح الراء والشين وعن ابن عباس رضى الله عنهما بضم الراء والشين والباقون بضم الراء وتسكين الشين قال القفال وهى لغات فى معنى واحد يقال رشد ورشد مثل نكر ونكر كما يقال سقم وسقم وشغل وشغل وبخل وبخل وعدم وعدم وقوله رشدا اى علما ذا رشد قال القفال قوله رشدا يحتمل وجهين ( احدهما ) ان يكون الرشد راجعا الى الخضر اى مما علمك الله وارشدك به ( والثانى ) ان يرجع ذلك الى موسى ويكون المعنى على ان تعلمنى وترشدنى مما علمت ( المسئلة الثانية ) اعلم ان هذه الآيات تدل على ان موسى عليه السلام راعى انواعا كثيرة من الادب واللطف عندما اراد ان يتعلم من الخضر ( فاحدها ) انه جعل نفسه تبعا له لانه قال هل اتبعك ( وثانيها ) انه استأذن فى اثبات هذه التبعية فانه قال هل تأذن لى ان اجعل نفسى تبعا لك وهذا مبالغة عظيمة فى التواضع ( وثالثها ) انه قال على ان تعلمنى وهذا اقرار له على نفسه بالجهل وعلى استاذه بالعلم ( ورابعها ) انه قال مما علمت وصيغة من للتبعيض فطلب منه تعليم بعض ما علمه الله وهذا ايضا مشعر بالتواضع كأنه يقول له لااطلب منك ان تجعلنى مساويا فى العلم لك بل اطلب منك ان تعطينى جزأ من اجزاء

وكماله بالنبوة ولقوله تعالى وآتيناه من كل شئ سببا ومن جملة الاشياء النبوة ولقوله تعالى قلنا ياذا القرنين ونحو ذلك وقيل كان ملكا لما روى ان عمر رضى الله عنه سمع رجلا يقول لآخر ياذا القرنين فقال اللهم اغفر اما رضيتم ان تسموا باسماء الانبياء حتى تسميتم باسماء الملائكة قال ابن كثير والصحيح انه ما كان نبيا ولاملكا وانما كان ملكا صالحا عادلا ملك الاقاليم وقهر اهلها من الملوك وغيرهم ودانت له البلاد وانه كان داعيا الى الله تعالى سائرا فى الخلق بالمعدلة التامة والسلطان المؤيد المنصور وكان الخضر على مقدمة جيشه بمنزلة المستشار الذى هو من الملك بمنزلة الوزير وقد ذكر الازرقى وغيره انه اسلم على يدى ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فطاف معه بالكعبة هو واسمعيل عليهم السلام وروى انه حج ماشيا فلما سمع ابراهيم عليه الصلاة والسلام بقدومه تلقاه ودعاله واوصاه بوصايا ويقال انه اتى بفرس ليركب فقال لاازكب فى بلد فيه الخليل فعند ذلك سخر له السحاب وطوى له الاسباب وبشره ابراهيم عليه الصلاة والسلام بذلك فكانت السحاب تحمله وعساكره وجميع آلاتهم اذا أرادوا غزوة قوم وقال ابو الطفيل سئل عنه على كرم الله وجهها كان نبيا ام ملكا فقال لم يكن نبيا ولاملكا لكن كان عبدا أحب الله فاحبه وناصح الله فناصحه سخر له السحاب ومدله الاسباب واختلف فى وجه تسميته بذى القرنين فقيل لانه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها وقيل لانه ملك

علمك كما يطلب الفقير من الغنى ان يدفع اليه جزأ من اجزاء ماله (وخامسها) ان قوله مما علمت اعتراف بأن الله علمه ذلك العلم (وسادسها) ان قوله رشدا طلب منه الارشاد والهداية والارشاد هو الامر الذى لو لم يحصل لحصلت الغواية والضلال (وسابعها) ان قوله تعلمنى مما علمت معناه انه طلب منه ان يعامله بمثل ما عامله الله به وفيه اشعار بأنه يكون انعامك على عند هذا التعليم شبيها بانعام الله تعالى عليك فى هذا التعليم ولهذا المعنى قيل انا عبد من تعلمت منه حرفا (وثامنها) ان المتابعة عبارة عن الاتيان بمثل فعل الغير لاجل كونه فعلا لذلك الغير فانا اذا قلنا لا اله الا الله فاليهود الذين كانوا قبلنا كانوا يذكرون هذه الكلمة فلا يجب كوننا متبعين لهم فى ذكر هذه الكلمة لانا لا نقول هذه الكلمة لاجل انهم قالوها بل انما نقولها لقيام الدليل على انه يجب ذكرها اما اذا أتينا بهذه الصلوات الخمس على موافقة فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فانما أتينا بها لاجل انه عليه السلام أتى بها لا جرم كنا متابعين فى فعل هذه الصلوات لرسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ثبت هذا فنقول قوله هل اتبعك يدل على انه يأتى بمثل افعال ذلك الاستاذ لمجرد كون ذلك الاستاذ آتيا بها وهذا يدل على ان المتعلم يجب عليه فى اول الامر التسليم وترك المنازعة والاعتراض (وتاسعها) ان قوله اتبعك يدل على طلب متابعته مطلقا فى جميع الامور غير مقيد بشئ دون شئ (وعاشرها) انه ثبت بالاخبار ان الخضر عرف اولا انه نبى بنى اسرائيل وانه هو موسى صاحب التوراة وهو الرجل الذى كلمه الله عز وجل من غير واسطة وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة ثم انه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الانواع الكثيرة من التواضع وذلك يدل على كونه عليه السلام آتيا فى طلب العلم باعظم انواع المبالغة وهذا هو اللائق به لان كل من كانت احاطته بالعلوم اكثر كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة اكثر فكان طلبه لها اشد وكان تعظيمه لارباب العلم اكمل واشد (والحادى عشر) انه قال هل اتبعك على ان تعلمنى فأثبت كونه تبعا له اولا ثم طلب ثانيا ان يعلمه وهذا منه ابتداء بالخدمة ثم فى المرتبة الثانية طلب منه التعليم (والثانى عشر) انه قال هل اتبعك على ان تعلمنى فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئا كأنه قال لا اطلب منك على هذه المتابعة المال والجاه ولا غرض لى الا طلب العلم ثم انه تعالى حكى عن الخضر انه قال انك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان المتعلم على قسمين متعلم ليس عنده شئ من العلم ولم يمارس القيل والقال ولم يتعود التقرير والاعتراض ومتعلم حصل العلوم الكثيرة ومارس الاستدلال والاعتراض ثم انه يريد ان يخالط انسانا اكمل منه ليبلغ درجة التمام والكمال والتعلم فى هذا القسم الثانى شاق شديد وذلك لانه اذا رأى شيئا او سمع كلاما فربما كان ذلك بحسب الظاهر منكرا الا انه كان فى الحقيقة حقا صوابا فهذا المتعلم لاجل أنه ألف القيل والقال وتعود الكلام والجدال

لروم وفارس وقيل الروم والترك وقيل لانه كان فى رأسه اوفى تاجه ما يشبه القرنين وقيل لانه كان له ذؤابتان وقيل لانه كانت صفحتا رأسه من النحاس وقيل لانه دعا الناس الى الله عز وجل فضرب بقرنه الايمن فمات ثم بعثه الله تعالى فضرب بقرنه الايسر فمات ثم بعثه الله تعالى وقيل لانه رأى فى منامه انه صعد الفلك فأخذ بقرنى الشمس وقيل لانه انقرض فى عهده قرنان وقيل لانه سخر له النور والظلمة فاذا سرى يهديه النور من امامه وتحوطه الظلمة من ورائه وقيل لقب به لشجاعته هذا واما ذو القرنين الثانى فقد قال ابن كثير انه الاسكندر بن فيليس بن مصريم بن هرمس بن ميطون بن رومى بن ليطى بن يونان بن يافث بن نونه بن شرخون بن رومية بن نوفط بن نوفيل بن رومى بن الاصفر بن العيز بن العيص بن اسحق بن ابراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام كذا نسبه ابن عساكر المقدونى اليونانى المصرى بانى الاسكندرية الذى يؤرخ بايامه الروم وكان متأخرا عن الاول بدهر طويل اكثر من الفى سنة كان هذا قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلثمائة سنة وكان وزيره ارسطاطاليس الفيلسوف وهو الذى قتل دارا بن دارا واذل ملوك الفرس ووطئ ارضهم ثم قال ابن كثير وانما بينا هذا لان كثيرا من الناس يعتقد انهما واحد وان المذكور فى القرآن العظيم هو هذا المتأخر فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير كيف لا والاول كان عبدا صالحا مؤمنا

(يغتر)

يغتر بظاهره ولاجل عدم كماله لايقف على سره وحقيقته وحينئذ يقدم على النزاع والاعتراض والمجادلة وذلك مما يثقل سماعه على الاستاذ الكامل المتبحر فاذا اتفق مثل هذه الواقعة مرتين أو ثلاثة حصلت النفرة التامة والكراهة الشديدة وهذا هو الذى اشار اليه الخضر بقوله انك لن تستطيع معى صبرا اشارة الى انه ألف الكلام وتعود الاثبات والابطال والاستدلال والاعتراض وقوله وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا اشارة الى كونه غير عالم بحقائق الاشياء كما هى وقد ذكرنا انه متى حصل الامران صعب السكوت وعسر التعليم وانتهى الامر بالآخرة الى النفرة والكراهية وحصول التقاطع والتنافر (المسئلة الثانية) احتج اصحابنا بقوله انك لن تستطيع معى صبرا على ان الاستطاعة لاتحصل قبل الفعل قالوا لو كانت الاستطاعة على الفعل حاصلة قبل حصول الفعل لكانت الاستطاعة على الصبر حاصلة لموسى عليه السلام قبل حصول الصبر فيلزم ان يصير قوله انك لن تستطيع معى صبرا كذبا ولما بطل ذلك علمنا ان الاستطاعة لاتوجد قبل الفعل اجاب الجبائى عنه ان المراد من هذا القول انه يثقل عليه الصبر لانه لايستطيعه يقال فى العرف ان فلانا لايستطيع ان يرى فلانا وأن يجالسه اذا كان يثقل عليه ذلك ونظيره قوله تعالى ما كانوا يستطيعون السمع أى كان يشق عليهم الاستماع فيقال له هذا عدول عن الظاهر من غير دليل وانه لايجوز واقول مما يؤكد هذا الاستدلال الذى ذكره الاصحاب قوله تعالى وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا استبعد حصول الصبر على مالم يقف الانسان على حقيقته ولوكانت الاستطاعة قبل الفعل لكانت القدرة على العلم حاصلة قبل حصول ذلك العلم ولوكان كذلك لما كان حصول الصبر عند عدم ذلك العلم مستبعدا لأن القادر على الفعل لايبعد منه اقدامه على ذلك الفعل ولما حكم الله باستبعاده علمنا ان الاستطاعة لاتحصل قبل الفعل ثم حكى الله تعالى عن موسى انه قال ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا اعصى لك امرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج الطاعنون فى عصمة الله الانبياء بهذه الآية فقالوا ان الخضر قال لموسى انك لن تستطيع معى صبرا وقال موسى ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا اعصى لك امرا وكل واحد من هذين القولين يكذب الآخر فيلزم الحاق الكذب بأحدهما وعلى التقديرين فيلزم صدور الكذب عن الانبياء عليهم السلام والجواب ان يحمل قوله انك لن تستطيع معى صبرا على الاكثر الاغلب وعلى هذا التقدير فلا يلزم ماذكروه (المسئلة الثانية) لفظة ان كان كذا تفيد الشك فقوله ستجدنى ان شاء الله صابرا معناه ستجدنى صابرا ان شاء الله كونى صابرا وهذا يقتضى وقوع الشك فى ان الله هل يريد كونه صابرا ام لا ولاشك ان الصبر فى مقام التوقف واجب فهذا يقتضى ان الله تعالى قد لا يريد من العبد ما اوجبه عليه وهذا يدل على صحة قولنا ان الله تعالى قد يأمر بالشئ مع انه لايريده قالت المعتزلة هذه الكلمة انما تذكر رعاية للادب فيما يريد الانسان ان يفعله فى المستقبل فيقال لهم هذا الادب ان

وملكا عادلا وزيره الخضر عليه السلام  وقد قيل انه كان نبيا واما الثانى فقد كان كافرا وزيره ارسطاطا ليس الفيلسوف وقد كان ما بينهما من الزمان اكثر من الفى سنة فأين هذا من ذاك انتهى قلت المقدونى نسبة الى بلدة من بلاد الروم غربى دار السلطنة السنية قسطنطينية المحمية لازالت مشحونة بالعشائر الدينية بينهما من المسافة مسيرة خمسة عشر يوما او نحو ذلك عند مدينة سيروز اسمها بلغة اليونانيين مقدونيا كانت سرير ملك هذا الاسكندر وهى اليوم بلقع لايقيم بها احد ولكن فيها علائم تحكى كمال عظمها فى عهد عمرانها ونهاية شوكة واليها وسلطانها ولقد مررت بها عند القفول من بعض المغازى السلطانية فعاينت فيها من تعاجيب الآثار ما فيه عبرة لاولى الابصار (قل) لهم فى الجواب (سأتلو عليكم) اى سأذكر لكم (منه) اى من ذى القرنين (ذكرا) اى نبأ مذكورا وحيث كان ذلك بطريق الوحى المتلو حكاية عن جهة الله عز وجل قيل سأتلوه او سأتلو فى شأنه من جهته تعالى ذكرا اى قرآنا والسين للتأكيد والدلالة على التحقق المناسب لمقام تأييده عليه الصلاة والسلام وتصديقه بانجاز وعده اى لااترك التلاوة البتة كما فى قول من قال
سأشكر عمرا ان تراخت منيتى * ايادى لم تمنن وان هى جلت
لا للدلالة على ان التلاوة ستقع فيما يستقبل كما قيل لان هذه الآية مانزلت بانفرادها قبل الوحى بتمام القصة بل موصولة بما بعدها ريثما سألوه عليه الصلاة والسلام عنه وعن الروح وعن اصحاب الكهف فقال لهم عليه الصلاة والسلام أئتونى غدا أخبركم فأبطأ عليه الوحى خمسة عشر يوما او اربعين كما ذكر فيما سلف وقوله عز وجل ( انا مكنا له فى الارض ) شروع فى تلاوة الذكر المعهود حسبما هو المعهود التمكين

صح معناه فقد ثبت المطلوب وان فسد فأى ادب فى ذكر هذا الكلام الباطل (المسئلة الثالثة) قوله تعالى ولا اعصى لك امرا يدل على ان ظاهر الامر يفيد الوجوب لان تارك المأمور به عاص بدلالة هذه الآية والعاصى يستحق العقاب لقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم وهذا يدل على ان ظاهر الامر يفيد الوجوب (المسئلة الرابعة) قول الخضر لموسى عليه السلام وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا نسبة الى قلة العلم والخبر وقول موسى له ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا اعصى لك امرا تواضع شديد واظهار للتحمل التام والتواضع الشديد وكل ذلك يدل على ان الواجب على المتعلم اظهار التواضع باقصى الغايات واما المعلم فان رأى ان فى التغليظ على المتعلم مايفيده نفعا وارشادا الى الخير فالواجب عليه ذكره فان السكوت عنه يوقع المتعلم فى الغرور والنخوة وذلك يمنعه من التعلم ثم قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شئ حتى احدث لك منه ذكرا أى لا تستخبرنى عما تراه منى مما لا تعلم وجهه حتى اكون انا المبتدئ لتعليمك اياه واخبارك به وفى قراءة ابن عامر فلا تسألن محركة اللام مشددة النون بغيرياء وروى عنه لا تسألنى مثقلة مع الياء وهى قراءة نافع وفى قراءة الباقين لا تسألن خفيفة والمعنى واحد ❊ قوله تعالى (فانطلقا حتى اذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق اهلها لقد جئت شيئا امرا قال الم اقل انك لن تستطيع معى صبرا قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من امرى عسرا) اعلم ان موسى وذلك العالم لما تشارطا على الشرط المذكور وسارا فانتهيا الى موضع احتاجا فيه الى ركوب السفينة فركباها واقدم ذلك العالم على خرق السفينة واقول لعله اقدم على خرق جدار السفينة لتصير السفينة بسبب ذلك الخرق معيبة ظاهرة العيب فلا يتسارع الغرق الى اهلها فعند ذلك قال موسى له أخرقتها لتغرق اهلها وفيه بحثان (البحث الاول) قرأ حمزة والكسائى ليغرق اهلها بفتح الياء على اسناد الغرق الى الاهل والباقون لتغرق اهلها على الخطاب والتقدير لتغرق انت اهل هذه السفينة (البحث الثانى) ان موسى عليه السلام لما شاهد ذلك الامر المنكر بحسب الظاهر نسى الشرط المتقدم فلهذا المعنى قال ماقال واحتج الطاعنون فى عصمة الانبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجهين (الاول) انه ثبت بالدليل ان ذلك العالم كان من الانبياء ثم قال موسى عليه السلام اخرقتها لتغرق اهلها فان صدق موسى فى هذا القول دل ذلك على صدور الذنب العظيم عن ذلك النبى وان كذب دل على صدور الكذب عن موسى عليه السلام (الثانى) انه التزم ان لا يعترض على ذلك العالم وجرت العهود المؤكدة لذلك ثم انه خالف تلك العهود وذلك ذنب (والجواب عن الاول) انه لما شاهد موسى عليه السلام منه الامر الخارج عن العادة قال هذا الكلام لا لأجل انه اعتقد فيه انه فعل قبيحا بل لانه احب ان يقف على وجهه وسببه وقد يقال فى الشئ العجيب الذى لا يعرف سببه انه امر يقال امر الامر اذا

فى الوجود وتقاربهما فى المعنى يستعمل كل منهما فى محل الآخر كما فى قوله عز وعلا مكناهم فى الارض مالم نمكن لكم اى جعلناهم قادرين من حيث القوى والاسباب والآلات على انواع التصرفات فيها مالم نجعله لكم من القوة والسعة فى المال والاستظهار بالعدد والاسباب فكأنه قيل مالم نمكنكم فيها اى مالم نجعلكم قادرين على ذلك فيها او مكنالهم فى الارض مالم نمكن لكم وهكذا اذا كان التمكين مأخوذا من المكان بناء على توهم ميمه اصلية كما اشير اليه فى سورة يوسف عليه الصلاة والسلام والمعنى انا جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف فى الارض من حيث التدبير والرأى والاسباب حيث سخر له السحاب ومدله فى الاسباب وبسط له النور وكان الليل والنهار عليه سواء وسهل عليه السير فى الارض وذللت له طرقها (وآتيناه من كل شئ) اراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه (سببا) اى طريقا يوصله اليه وهو كل مايتوصل به الى المقصود من علم او قدرة أو آلة (فأتبع) بالقطع اى فأراد بلوغ المغرب فأتبع (سببا) يوصله اليه ولعل قصد بلوغ المغرب ابتداء لمراعاة الحركة الشمسية وقرئ فاتبع من الافتعال والفرق ان الاول فيه معنى الادراك والاسراع دون الثانى (حتى اذا بلغ مغرب الشمس) اى منتهى الارض من جهة المغرب بحيث لا يتمكن احد من مجاوزته ووقف على حافة البحر المحيط الغربى الذى يقال له اوقيانوس الذى فيه الجزائر المسماة بالخالدات التى هى مبدأ الاطوال على احد القولين

عظم وقال الشاعر * داهية دهياء ( وعن الثانى ) انه فعل بناء على النسيان ثم انه تعالى حكى عن ذلك العالم انه لما خالف الشرط لم يزد على ان قال الم اقل انك لن تستطيع معى صبرا فعند هذا اعتذر موسى عليه السلام بقوله لا تؤاخذنى بما نسيت اراد انه نسى وصيته ولا مؤاخذة على الناسى بشئ ولا ترهقنى من امرى عسرا يقال رهقه اذا غشيه وارهقه اياه اى ولا تغشنى من امرى عسرا وهو اتباعه اياه يعنى ولا تعسر على متابعتك ويسرها على بالاغضاء وترك المناقشة وقرئ عسرا بضمتين * قوله تعالى ( فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا قال الم اقل لك انك لن تستطيع معى صبرا قال ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا ) اعلم ان لفظ الغلام قد يتناول الشاب البالغ بدليل انه يقال رأى الشيخ خير من مشهد الغلام جعل الشيخ نقيضا للغلام وذلك يدل على ان الغلام هو الشاب واصله من الاغتلام وهو شدة الشبق وذلك انما يكون فى الشباب واما تناول هذا اللفظ للصبى الصغير فظاهر وليس فى القرآن كيف لقياه هل كان يلعب مع جمع من الغلمان الصبيان اوكان منفردا وهل كان مسلما اوكان كافرا وهل كان منعزلا وهل كان بالغا اوكان صغيرا وكان اسم الغلام بالصغير اليق وان احتمل الكبير الا ان قوله بغير نفس اليق بالبالغ منه بالصبى لان الصبى لا يقتل وان قتل وايضا فهل قتله بأن حز رأسه اوبان ضرب رأسه بالجدار او بطريق آخر فليس فى لفظ القرآن مايدل على شئ من هذه الاقسام فعند هذا قال موسى عليه السلام أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا وفيه مباحث ( البحث الاول ) قرأ نافع وابن كثير وابو عمرو زاكية بالالف والباقون زكية بغير الف قال الكسائى الزاكية والزكية لغتان ومعناهما الطاهرة وقال ابو عمرو الزاكية التى لم تذنب والزكية التى اذنبت ثم تابت ( البحث الثانى ) ظاهر الآية يدل على ان موسى عليه السلام استبعد ان يقتل النفس الا لاجل القصاص بالنفس وليس الامر كذلك لانه قد يحل دمه بسبب من الاسباب وجوابه ان السبب الاقوى هو ذاك ( البحث الثالث ) النكر اعظم من الامر فى القبح وهذا اشارة الى ان قتل الغلام اقبح من خرق السفينة لان ذلك ما كان اتلافا للنفس لانه كان يمكن ان لا يحصل الغرق اما ههنا حصل الاتلاف قطعا فكان انكر وقيل ان قوله لقد جئت شيئا امرا اى عجبا والنكر اعظم من العجب وقيل النكر ما انكرته العقول ونفرت عنه النفوس فهو ابلغ فى تقبيح الشئ من الامر ومنهم من قال الامر اعظم قال لان خرق السفينة يؤدى الى اتلاف نفوس كثيرة وهذا القتل ليس الا اتلاف شخص واحد وايضا الامر هو الداهية العظيمة فهو ابلغ من النكر وانه تعالى حكى عن ذلك العالم انه ما زاد على ان ذكره ما عاهده عليه فقال الم اقل لك انك لن تستطيع معى صبرا وهذا عين ما ذكره فى المسألة الاولى الا انه زاد ههنا لفظة لك لان هذه اللفظة تؤكد

حمأ تهاوقرئ حامية اى حارة روى ان معاوية رضى الله عنه قرأ حامية وعنده ابن عباس رضى الله عنهما فقال حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمرو بن العاص كيف تقرأ قال كما يقرأ امير المؤمنين ثم وجه الى كعب الاحبار كيف تجد الشمس تغرب قال فى ماء وطين وروى فى ثأط فوافق قول ابن عباس رضى الله عنهما وليس بينهما منافاة قطعية لجواز كون العين جامعة بين الوصفين وكون الياء فى الثانية منقلبة عن الهمزة لانكسار ماقبلها واما رجوع معاوية الى قول ابن عباس رضى الله عنهم بما سمعه من كعب مع ان قراءته ايضا مسموعة قطعا فلكون قراءة ابن عباس رضى الله عنهما قطعية فى مدلولها وقراءته محتملة ولعله لما بلغ ساحل المحيط رآها كذلك اذ ليس فى مطمح بصره غير الماء كما يلوح به قوله تعالى وجدها تغرب ( ووجد عندها ) عند تلك العين ( قوما ) قيل كان لباسهم جلود الوحوش وطعامهم مالفظه البحر وكانوا كفارا فخيره الله جل ذكره بين ان يعذبهم بالقتل وان يدعوهم الى الايمان وذلك قوله تعالى ( قلنا ياذا القرنين اما أن تعذب ) بالقتل من اول الامر ( واما ان تتخذ فيهم حسنا ) اى امرا ذا حسن على حذف المضاف او على طريقة اطلاق المصدر على موصوفه مبالغة وذلك بالدعوة الى الاسلام والارشاد الى الشرائع ومحل ان مع صلته اما الرفع على الابتداء او الخبرية واما النصب على المفعولية اى اما تعذيبك واقع او اما امرك تعذيبك او اما تفعل تعذيبك وهكذا الحال فى الاتخاذ ومن لم يقل بنبوته قال كان ذلك الخطاب بواسطة نبى فى ذلك العصر او كان ذلك الهاما لا وحيا بعد ان كان ذلك التخيير موافقا لشريعة ذلك النبى ( قال ) اى ذو القرنين لذلك النبى او لمن عنده من خواصه بعد ماتلقى امره تعالى مختارا للشق الاخير ( اما من ظلم ) اى نفسه ولم يقبل دعوتى

التوبيخ فعند هذا قال موسى ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى مع العلم بشدة حرصه على مصاحبته وهذا كلام نادم شديد الندامة ثم قال قد بلغت من لدنى عذرا والمراد منه انه يمدحه بهذه الطريقة من حيث احتمله مرتين اولا وثانيا مع قرب المدة وبقى مما يتعلق بالقراءة فى هذه الآية ثلاثة مواضع (الاول) قرأ نافع برواية ورش وقالون وابن عامر وابو بكر عن عاصم نكرا بضم الكاف فى جميع القرآن والباقون ساكنة الكاف حيث كان وهما لغتان (الثانى) الكل قرؤا لا تصاحبنى بالالف الا يعقوب فانه قرأ لا تصحبنى من صحب والمعنى واحد (الثالث) فى لدنى قراآت (الاولى) قراءة نافع وابى بكر فى بعض الروايات عن عاصم من لدنى بتخفيف النون وضم الدال (الثانية) قرأ ابن كثير وابن عامر وابو عمرو وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم لدنى مشددة النون وضم الدال (الثالثة) قرأ ابو بكر عن عاصم بالاشمام وغير اشباع (الرابعة) لدنى بضم اللام وسكون الدال فى بعض الروايات عن عاصم وهذه القراآت كلها لغات فى هذه اللفظة * قوله تعالى (فانطلقا حتى اذا أتيا اهل قرية استطعما اهلها فأبوا ان يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد ان ينقض فاقامه قال لو شئت لاتخذت عليه اجرا قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) اعلم ان تلك القرية هى انطاكية وقيل هى الايلة وههنا سؤالات (الاول) ان الاستطعام ليس من عادة الكرام فكيف اقدم عليه موسى وذلك العالم لان موسى ما كان من عادته عرض الحاجة وطلب الطعام ألا ترى انه تعالى حكى عنه انه قال فى قصة موسى عند ورود ماء مدين رب انى لما انزلت الى من خير فقير (الجواب) ان اقدام الجائع على الاستطعام امر مباح فى كل الشرائع بل ربما وجب ذلك عند خوف الضرر الشديد (السؤال الثانى) لم قال حتى اذا اتيا اهل قرية استطعما اهلها وكان من الواجب ان يقال استطعمامنهم والجواب ان التكرير قد يكون للتأكيد كقول الشاعر

ليت الغراب غداة ينعب دائما * كان الغراب مقطع الاوداج

(السؤال الثالث) ان الضيافة من المندوبات فتركها ترك للمندوب وذلك امر غير منكر فكيف يجوز من موسى عليه السلام مع علو منصبه انه غضب عليهم الغضب الشديد الذى لاجله ترك العهد الذى التزمه مع ذلك العالم فى قوله ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى وايضا مثل هذا الغضب لاجل ترك الاكل فى ليلة واحدة لا يليق بادون الناس فضلا عن كليم الله (الجواب) اما قوله الضيافة من المندوبات قلنا قد تكون من المندوبات وقد تكون من الواجبات بان كان الضيف قد بلغ فى الجوع الى حيث لو لم يأكل لهلك واذا كان التقدير ما ذكرناه لم يكن الغضب الشديد لاجل ترك الاكل يوما فان قالوا ما بلغ فى الجوع الى حد الهلاك بدليل انه قال لو شئت لاتخذت عليه اجرا وكان يطلب على اصلاح ذلك الجدار اجرة ولو كان قد بلغ فى الجوع الى حد الهلاك لما قدر على ذلك العمل فكيف

---

واصر على ما كان عليه من الظلم العظيم الذى هو الشرك فسوف نعذبه بالقتل وعن قتادة انه كان يطبخ من كفر فى القدور ومن آمن اعطاه وكساه (ثم يرد الى ربه) فى الآخرة (فيعذبه) فيها (عذابا نكرا) اى منكرا قطيعا وهو عذاب النار وفيه دلالة ظاهرة على ان الخطاب لم يكن بطريق الوحى اليه وان مقاولته كانت مع النبى اومع من عنده من اهل مشورته (واما من آمن) بموجب دعوتى (وعمل) عملا (صالحا) حسبما يقتضيه الايمان (فله) فى الدارين (جزاء الحسنى) اى فله المثوبة الحسنى اوالفعلة الحسنى او الجنة جزاء على انه مصدر مؤكد لمضمون الجملة قدم على المبتدأ اعتناء به اومنصوب بمضمر اى نجزى بها جزاء والجملة حالية اومعترضة بين المبتدأ والخبر المتقدم عليه اوحال اى مجزيا بها اوتمييز وقرئ منصوبا غير منون على انه سقط تنوينه لالتقاء الساكنين او مرفوعا منونا على انه المبتدأ والحسنى بدله والخبر الجار والمجرور وقيل خير بين القتل والاسر والجواب من باب الاسلوب الحكيم لان ظاهر التخيير بينهما وهم كفار فقال اما الكافر فيراعى فى حقه قوة الاسلام واما المؤمن فلا يتعرض له الا بما يجب ويجوز ان تكون اما واما للتوزيع دون التخيير اى وليكن شأنك اما التعذيب واما الاحسان فالاول لمن بقى على حاله والثانى لمن تاب (وسنقول له من امرنا) اى مما نأمر به (يسرا) اى سهلا متيسرا غير شاق وتقديره ذا يسر او اطلق عليه المصدر مبالغة وقرئ بضمتين (ثم اتبع سببا) اى طريقا راجعا من مغرب الشمس موصلا الى مشرقها (حتى اذا بلغ مطلع الشمس) يعنى الموضع الذى تطلع عليه الشمس اولا من معمورة الارض وقرئ بفتح اللام على تقدير مضاف اى (يصح) مكان طلوع الشمس فانه مصدر قيل بلغه فى اثنتى عشرة سنة وقيل فى اقل من ذلك بناء على ما ذكر من انه سخر له السحاب وطوى له الاسباب

يصح منه طلب الاجرة قلنا لعل ذلك الجوع كان شديدا الا انه مابلغ حد الهلاك ثم قال تعالى فابوا ان يضيفوهما وفيه بحثان (البحث الاول) يضيفوهما يقال ضافه اذا كان له ضيفاو حقيقته مال اليه من ضاف السهم عن الغرض ونظيره زاره من الازورار واضافه وضيفه انزله وجعله ضيفه وعن النبى صلى الله عليه وسلم كانوا اهل قرية لئاما (البحث الثانى) رأيت فى كتب الحكايات ان اهل تلك القرية لما سمعوا نزول هذه الآية استحيوا وجاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمل من الذهب وقالوا يارسول الله نشترى بهذا الذهب ان تجعل الباء تاء حتى تصير القراءة هكذا فأتوا ان يضيفوهما اى أتوا لان يضيفوهما اى كان اتيان اهل تلك القرية اليهما لاجل الضيافة وقالوا غرضنا منه ان يندفع عنا هذا اللؤم فامتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان تغيير هذه النقطة يوجب دخول الكذب فى كلام الله وذلك يوجب القدح فى الالهية فعلمنا ان تغيير النقطة الواحدة من القرآن يوجب بطلان الربوبية والعبودية ثم قال تعالى فوجدا فيها جدارا يريد ان ينقض فأقامه اى فرأيا فى القرية حائطا مائلا فان قيل كيف يجوز وصف الجدار بالارادة مع ان الارادة من صفات الاحياء قلنا هذا اللفظ ورد على سبيل الاستعارة وله نظائر فى الشعر قال

يريد الرمح صدر أبى براء * ويرغب عن دماء بنى عقيل

وانشد الفراء

ان دهرا يلف شملى بجمل * لزمان يهم بالاحسان

وقال الراعى

فى مهمه فلقت به هاماتها * فلق الفؤس اذا اردن نصولا

ونظيره من القرآن قوله تعالى ولما سكت عن موسى الغضب وقوله ان يقول له كن فيكون وقوله قالتا اتينا طائعين وقوله ان ينقض يقال انقض اذا اسرع سقوطه من انقضاض الطائر وهو انفعل مطاوع قضضته وقيل انقض فعل من النقض كاحمر من الحمرة وقرئ ان ينقض من النقض وان ينقاض من انقاضت العين اذا انشقت طولا واما قوله فاقامه قيل نقضه ثم بناه وقيل اقامه بيده وقيل مسحه بيده فقام واستوى وكان ذلك من معجزاته واعلم ان ذلك العالم لما فعل ذلك وكانت الحالة حالة اضطرار وافتقار الى الطعام فلاجل تلك الضرورة نسى موسى ماقاله من قوله ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى فلاجرم قال لو شئت لاتخذت عليه اجرا اى طلبت على عملك اجرة تصرفها الى تحصيل المطعوم وتحصيل سائر المهمات وقرى لتخذت عليه اجرا والتاء فى تخذ اصل كما فى تبع واتخذ افتعل منه كقولنا اتبع من قولنا تبع واعلم ان موسى عليه السلام لما ذكر هذا الكلام قال العالم هذا فراق بينى وبينك وههنا سؤالات (السؤال الاول) قوله هذا اشارة الى ماذا والجواب من وجهين (الاول) ان موسى عليه السلام قد شرط انه ان سأله بعد ذلك

(وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) من اللباس والبناء قيل هم الزنج وعن كعب ان ارضهم لاتمسك الابنية وبها اسراب فاذا طلعت الشمس دخلوا الاسراب اوالبحر فاذا ارتفع النهار خرجوا الى معايشهم وعن بعضهم خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء فقالوا بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم فاذا احدهم يفرش اذنه ويلبس الاخرى ومعى صاحب يعرف لسانهم فقالوا له جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس قال فبينما نحن كذلك اذ سمعنا كهيئة الصلصلة فغشى على ثم افقت وهم يمسحوننى بالدهن فلما طلعت الشمس على الماء اذا هى فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونا سربا لهم فلما ارتفع النهار خرجوا الى البحر يصطادون السمك ويطرحونه فى الشمس فينضج لهم وعن مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس اكثر من جميع اهل الارض (كذلك) اى امر ذى القرنين كما وصفناه لك فى رفعة المحل وبسطة الملك او امره فيهم كامره فى اهل المغرب من التخيير والاختيار ويجوز ان يكون صفة مصدر محذوف لوجد او نجعل او صفة قوم اى على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم الشمس فى الكفر والحكم او سترا مثل ستركم من اللباس والاكنان والجبال وغير ذلك (وقد احطنا بما لديه) من الاسباب والعدد والعدد (خبرا) يعنى ان ذلك من الكثرة بحيث لايحيط به

سؤ الآخر يحصل الفراق حيث قال ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى فلما ذكر هذا
السؤال فارقه ذلك العالم وقال هذا فراق بينى وبينك اى هذا الفراق الموعود (الثانى)
ان يكون قوله هذا اشارة الى السؤال الثالث اى هذا الاعتراض هو سبب الفراق
(السؤال الثانى) مامعنى قوله هذا فراق بينى وبينك (الجواب) معناه هذا فراق حصل
بينى وبينك فأضيف المصدر الى الظرف حكى القفال عن بعض اهل العربية ان البين
هو الوصل لقوله لقد تقطع بينكم فكان المعنى هذا فراق بيننا اى اتصالنا كقول القائل
اخزى الله الكاذب منى ومنك اى احدنا هكذا قاله الزجاج ثم قال العالم لموسى عليه
السلام سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا اى سأخبرك بحكمة هذه المسائل الثلاثة
واصل التأويل راجع الى قولهم آل الامر الى كذا اى صار اليه فاذا قيل ماتأويله
فالمعنى مامصيره ※ قوله تعالى ( اماالسفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت
ان اعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا واما الغلام فكان ابواه مؤمنين
فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا فأردنا ان يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة واقرب رحما
واما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان ابوهما صالحا
فأراد ربك ان يبلغا اشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن امرى ذلك
تأويل مالم تسطع عليه صبرا ) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان هذه المسائل
الثلاثة مشتركة فى شئ واحد وهو ان احكام الانبياء صلوات الله عليهم مبنية على
الظواهر كما قال عليه السلام نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر وهذا العالم
ماكانت احكامه مبنية على ظواهر الامور بل كانت مبنية على الاسباب الحقيقية
الواقعة فى نفس الامر وذلك لان الظاهر انه يحرم التصرف فى اموال الناس وفى
ارواحهم فى المسئلة الاولى وفى الثانية من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف لان
تخريق السفينة تنقيص لملك الانسان من غير سبب ظاهر وقتل الغلام تفويت لنفس
معصومة من غير سبب ظاهر والاقدام على اقامة ذلك الجدار المائل فى المسئلة الثالثة
تحمل التعب والمشقة من غير سبب ظاهر وفى هذه المسائل الثلاثة ليس حكم ذلك العالم
فيها مبنيا على الاسباب الظاهرة المعلومة بل كان ذلك الحكم مبنيا على اسباب معتبرة فى
نفس الامر وهذا يدل على ان ذلك العالم كان قد آتاه الله قوة عقلية قدر بها ان يشرف
على بواطن الامور ويطلع بها على حقائق الاشياء فكانت مرتبة موسى عليه السلام فى
معرفة الشرائع والاحكام بناء الامر على الظواهر وهذا العالم كانت مرتبته الوقوف
على بواطن الاشياء وحقائق الامور والاطلاع على اسرارها الكامنة فبهذا الطريق
ظهر ان مرتبته فى العلم كانت فوق مرتبة موسى عليه السلام اذا عرفت هذا فنقول
المسائل الثلاثة مبنية على حرف واحد وهو ان عند تعارض الضررين يجب تحمل
الادنى لدفع الاعلى فهذا هو الاصل المعتبر فى المسائل الثلاثة ( اما المسئلة الاولى ) فلان

لا علم اللطيف الخبير هذا على الوجه
الاول واما على الوجوه الباقية
فالمراد بما لديه ما يتناول ماجرى
عليه وماصدر عنه وما لاقاه
فتأمل ( ثم اتبع سببا ) اى طريقا
ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب
آخذا من الجنوب الى الشمال (حتى
اذا بلغ بين السدين ) بين الجبلين
اللذين سدما بينهما وهو منقطع
ارض الترك مما يلى المشرق لا
جبلا ارمينية وآذربيجان كما توهم
وقرئ بالضم قيل ماكان من
خلق الله تعالى فهو مضموم وما
كان من عمل الخلق فهو مفتوح
وانتصاب بين على المفعولية لانه
مبلوغ وهو من الظروف التى
تستعمل اسماء ايضا كما ارتفع
فى قوله تعالى لقد تقطع بينكم
وانجر فى قوله تعالى هذا فراق
بينى وبينك (وجد من دونهما) اى
من ورائهما مجاوزا عنهما (قوما)
اى امة من الناس ( لايكادون
يفقهون قولا ) لغرابة لغتهم
وقلة فطنتهم وقرئ من باب
الافعال اى لايفهمون السامع
كلامهم واختلفوا فى انهم من اى
الاقوام فقال الضحاك هم جيل
من الترك وقال السدى الترك
سرية من يأجوج ومأجوج
خرجت فضرب ذو القرنين
السد فبقيت خارجة فجميع
الترك منهم وعن قتادة انهم اثنتان
وعشرون قبيلة سد ذو القرنين
على احدى وعشرين قبيلة منهم
وبقيت واحدة فسموا الترك
لانهم تركوا خارجين قال اهل
التاريخ اولاد نوح عليه السلام
ثلاثة سام وحام ويافث فسام
ابو العرب والعجم

ذلك العالم علم انه لو لم يعب تلك السفينة بالتخريق لغصبها ذلك الملك وفاتت منافعها عن ملاكها بالكلية فوقع التعارض بين ان يخرقها ويعيبها فتبقى مع ذلك على ملاكها وبين ان لايخرقها فيغصبها الملك فتفوت منافعها بالكلية على ملاكها ولاشك ان الضرر الاول أقل فوجب تحمله لدفع الضرر الثانى الذى هو اعظمها ( اما المسئلة الثانية ) فكذلك لان بقاء ذلك الغلام حيا كان مفسدة للوالدين فى دينهم وفى دنياهم ولعله علم بالوحى ان المضار الناشئة من قتل ذلك الغلام اقل من المضار الناشئة بسبب حصول تلك المفاسد للابوين فلهذا السبب اقدم على قتله ( المسئلة الثالثة ) ايضا كذلك لان المشقة الحاصلة بسبب الاقدام على اقامة ذلك الجدار ضررها اقل من سقوطه لانه لو سقط لضاع مال تلك الايتام وفيه ضرر شديد فالحاصل ان ذلك العالم كان مخصوصا بالوقوف على بواطن الاشياء وبالاطلاع على حقائقها كما هى عليها فى انفسها وكان مخصوصا ببناء الاحكام الحقيقية على تلك الاحوال الباطنة واما موسى عليه السلام فما كان كذلك بل كانت احكامه مبنية على ظواهر الامور فلاجرم ظهر التفاوت بينهما فى العلم فان قال قائل فحاصل الكلام انه تعالى اطلعه على بواطن الاشياء وحقائقها فى نفسها وهذا النوع من العلم لايمكن تعلمه وموسى عليه السلام انما ذهب اليه ليتعلم منه العلم فكان من الواجب على ذلك العالم ان يظهر له علما يمكن له تعلمه وهذه المسائل الثلاثة علوم لايمكن تعلمها فما الفائدة فى ذكرها واظهارها والجواب ان العلم بظواهر الاشياء يمكن تحصيله بناء على معرفة الشرائع الظاهرة واما العلم ببواطن الاشياء فانما يمكن تحصيله بناء على تصفية الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب عن العلائق الجسدانية ولهذا المعنى قال تعالى فى صفة علم ذلك العالم وعلمناه من لدنا علما ثم ان موسى عليه السلام لما كملت مرتبته فى علم الشريعة بعثه الله الى هذا العالم ليعلم موسى عليه السلام ان كمال الدرجة فى ان ينتقل الانسان من علوم الشريعة المبنية على الظواهر الى علوم الباطن المبنية على الاشراف على البواطن والتطلع على حقائق الامور (المسئلة الثانية) اعلم ان ذلك العالم أجاب عن المسئلة الاولى بقوله اما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت ان أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا وفيه فوائد (الفائدة الاولى) ان تلك السفينة كانت لأقوام محتاجين متعيشين بها فى البحر والله تعالى سماهم مساكين واعلم ان الشافعى رحمه الله احتج بهذه الآية على ان حال الفقير فى الضر والحاجة اشد من حال المسكين لانه تعالى سماهم مساكين مع انهم كانوا يملكون تلك السفينة (الفائدة الثانية) ان مراد ذلك العالم من هذا الكلام انه ماكان مقصودى من تخريق تلك السفينة تغريق اهلها بل مقصودى ان ذلك الملك الظالم كان يغصب السفن الخالية عن العيوب فجعلت هذه السفينة معيبة لئلا يغصبها ذلك الظالم فان ضرر هذا التخريق اسهل من الضرر الحاصل من ذلك الغصب فان قيل وهل يجوز للاجنبى ان يتصرف فى ملك الغير

والروم وحام ابو الحبشة والزنج والنوبة ويافث ابو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج ( قالوا ) اى بواسطة مترجمهم او بالذات على ان يكون فهم ذى القرنين كلامهم وافهام كلامه اياهم من جملة ما آتاه الله تعالى من الاسباب ( ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج) قد ذكرنا انهما من اولاد يافث بن نوح عليه السلام وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل واختلف فى صفاتهم فقيل فى غاية صغر الجثة وقصر القامة لايزيد قدرهم على شبر واحد وقيل فى نهاية عظم الجسم وطول القامة تبلغ قدودهم نحو مائة وعشرين ذراعا وفيهم من عرضه كذلك وقيل لهم مخالب واضراس كالسباع وهما اسمان اعجميان بدليل منع الصرف وقيل عربيان من اج الظليم اذا اسرع واصلهما الهمزة كما قرأ عاصم وقد قرئ بغير همزة ومنع صرفهما للتعريف والتأنيث ( مفسدون فى الارض ) اى فى ارضنا بالقتل والتخريب واتلاف الزروع وقيل كانوا يخرجون ايام الربيع فلا يتركون اخضر الا اكلوه ولا يابسا الا احتملوه وقيل كانوا يأكلون الناس ايضا ( فهل نجعل لك خرجا) اى جعلا من اموالنا والفاء لتفريع العرض على افسادهم فى الارض وقرئ خراجا وكلاهما واحد كالنول والنوال وقيل الخراج ما على الارض والذمة والخرج المصدر وقيل الخرج ما كان على كل رأس والخراج ما كان على البلد وقيل الخرج ماتبرعت به

لمثل هذا الغرض قلنا هذا مما يختلف احواله بحسب اختلاف الشرائع فلعل هذا المعنى كان جائزا فى تلك الشريعة واما فى شريعتنا فمثل هذا الحكم غير بعيد فانا اذا علمنا ان الذين يقطعون الطريق ويأخذون جميع ملك الانسان فان دفعنا الى قاطع الطريق بعض ذلك المال سلم الباقى فحينئذ يحسن منا ان ندفع بعض مال ذلك الانسان الى قاطع الطريق ليسلم الباقى وكان هذا منا يعد احسانا الى ذلك المالك (الفائدة الثالثة) ان ذلك التخريق وجب ان يكون واقعا على وجه لا تبطل به تلك السفينة بالكلية اذ لو كان كذلك لم يكن الضرر الحاصل من غصبها ابلغ من الضرر الحاصل من تخريقها وحينئذ لم يكن تخريقها جائزا (الفائدة الرابعة) لفظ الوراء فى قوله وكان وراءهم فيه قولان (الاول) ان المراد منه وكان امامهم ملك يأخذ هكذا قاله الفراء ونظيره قوله تعالى من ورائهم جهنم اى امامهم وكذلك قوله تعالى ويذرون وراءهم يوما ثقيلا وتحقيقه ان كل ما غاب عنك فقد توارى عنك وانت متوار عنه فكل ما غاب عنك فهو وراءك وامام الشئ وقدامه اذا كان غائبا عنه متواريا عنه فلم يبعد اطلاق لفظ وراء عليه (والقول الثانى) يحتمل ان يكون الملك كان من وراء الموضع الذى يركب منه صاحبه وكان مرجع السفينة عليه (واما المسئلة الثانية) وهى قتل الغلام فقد أجاب العالم عنها بقوله واما الغلام فكان ابواه مؤمنين قيل ان ذلك الغلام كان بالغا وكان يقطع الطريق ويقدم على الافعال المنكرة وكان ابواه يحتاجان الى دفع شر الناس عنه والتعصب له وتكذيب من يرميه بشئ من المنكرات وكان يصير ذلك سببا لوقوعهما فى الفسق وربما أدى ذلك الفسق الى الكفر وقيل انه كان صبيا الا ان الله تعالى علم منه انه لو صار بالغا لحصلت منه هذه المفاسد وقوله فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا الخشية بمعنى الخوف وغلبة الظن والله تعالى قد أباح له قتل من غلب على ظنه تولد مثل هذا الفساد منه وقوله ان يرهقهما طغيانا فيه قولان (الاول) ان يكون المراد ان ذلك الغلام يحمل ابويه على الطغيان والكفر كقوله ولا ترهقنى من امرى عسرا اى لا تحملنى على عسر وضيق وذلك لان ابويه لاجل حب ذلك الولد يحتاجان الى الذب عنه وربما احتاجا الى موافقته فى تلك الافعال المنكرة (والثانى) ان يكون المعنى ان ذلك الولد كان يعاشرهما معاشرة الطغاة الكفار فان قيل هل يجوز الاقدام على قتل الانسان لمثل هذا الظن قلنا اذا تأكد ذلك الظن بوحى الله جاز ثم قال تعالى فأردنا ان يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة اى اردنا ان يرزقهما الله تعالى ولدا خيرا من هذا الغلام زكاة اى دينا وصلاحا وقيل ان ذكر الزكاة ههنا على مقابلة قول موسى عليه السلام أقتلت نفسا زاكية بغير نفس فقال العالم اردنا ان يرزق الله هذين الابوين خيرا بدلا عن ابنهما هذا ولدا يكون خيرا منه كما ذكرته من الزكاة ويكون المراد من الزكاة الطهارة فكأن موسى عليه السلام قال أقتلت نفسا طاهرة لانها ما وصلت الى حد البلوغ فكانت زاكية طاهرة عن المعاصى فقال العالم ان تلك النفس

(وان)

والخراج ما الزمك اداؤه (على ان تجعل بيننا وبينهم سدا) وقرئ بالضم (قال ما مكنى) بالادغام وقرئ بالفك اى ما مكننى (فيه ربى) وجعلنى فيه مكينا قادرا من الملك والمال وسائر الاسباب (خير) اى مما تريدون ان تبذلوه الى من الخرج فلا حاجة بى اليه (فأعينونى بقوة) اى بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل وبالآلات لابد منها فى البناء والفاء لتفريع الامر بالاعانة على خيرية ما مكنه الله تعالى فيه من مالهم او على عدم قبول خرجهم (اجعل) جواب للامر (بينكم وبينهم) تقديم اضافة الظرف الى ضمير المخاطبين على اضافته الى ضمير يأجوج ومأجوج لاظهار كمال العناية بمصالحهم كما راعوه فى قولهم بيننا وبينهم (ردما) اى حاجزا حصينا وبرزخا متينا وهو اكبر من السد واوثق يقال ثوب مردم اى فيه رقاع وهذا اسعاف بمرامهم فوق ما يرجونه (آتونى زبر الحديد) جمع زبرة كغرف فى غرفة وهى القطعة الكبيرة وهذا لا ينافى رد خراجهم لان المأمور به الايتاء بالثمن او المناولة كما ينبئ عنه القراءة بوصل الهمزة اى جيئونى بزبر الحديد على حذف الباء كما فى امرتك الخير ولان ايتاء الآلة من قبيل الاعانة بالقوة دون الخراج على العمل ولعل تخصيص الامر بالايتاء بها دون سائر الآلات من الصخور والحطب ونحوهما لما ان الحاجة اليها امس اذهى الركن فى السد

وان كانت زاكية طاهرة في الحال الا انه تعالى علم منها انها اذا بلغت اقدمت على الطغيان والكفر فأردنا ان يجعل لهما ولدا اعظم زكاة وطهارة منه وهو الذى يعلم الله منه انه عند البلوغ لا يقدم على شئ من هذه المحظورات ومن قال ان ذلك الغلام كان بالغا قال المراد من صفة نفسه بكونها زاكية انه لم يظهر عليه مايوجب قتله ثم قال واقرب رحما اى يكون هذا البدل اقرب عطفا ورحمة بأبويه بأن يكون أبر بهما واشفق عليهما والرحم الرحمة والعطف روى انه ولدت لهما جارية تزوجها نبي فولدت نبيا هدى الله على يديه امة عظيمة بقى من مباحث هذه الآية موضعان فى القراءة (الاول) قرأ نافع وابو عمرو يبدلهما بفتح الباء وتشديد الدال وكذلك فى التحريم ان يبدله ازواجا وفى القلم عسى ربنا ان يبدلنا والباقون ساكنة الباء خفيفة الدال وهما لغتان ابدل يبدل وبدل يبدل (الثانى) قراءة ابن عامر فى احدى الروايتين عن ابى عمرو رحما بضم الحاء والباقون بسكونها وهما لغتان مثل نكر ونكر وشغل وشغل (واما المسئلة الثالثة) وهى اقامة الجدار فقد اجاب العالم عنها بان الداعى له اليها انه كان تحت ذلك الجدار كنز وكان ذلك ليتيمين فى تلك المدينة وكان ابوهما صالحا ولما كان ذلك الجدار مشرفا على السقوط ولو سقط لضاع ذلك الكنز فأراد الله ابقاء ذلك الكنز على ذينك اليتيمين رعاية لحقهما ورعاية لحق صلاح ابيهما فأمرنى باقامة ذلك الجدار رعاية لهذه المصالح وفى الآية فوائد (الفائدة الاولى) انه تعالى سمى ذلك الموضع قرية حيث قال اذا اتيا اهل قرية وسماه ايضا مدينة حيث قال واما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة (الفائدة الثانية) اختلفوا فى هذا الكنز فقيل انه كان مالا وهذا هو الصحيح لوجهين (الاول) ان المفهوم من لفظ الكنز هو المال (والثانى) ان قوله ويستخرجا كنزهما يدل على ان ذلك الكنز هو المال وقيل انه كان علما بدليل انه قال وكان ابوهما صالحا والرجل الصالح يكون كنزه العلم لا المال اذ كنز المال لايليق بالصلاح بدليل قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم وقيل كان لوحا من ذهب مكتوب فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله (الفائدة الثالثة) قوله وكان أبوهما صالحا يدل على ان صلاح الآباء يفيد العناية بأحوال الابناء وعن جعفر بن محمد كان بين الغلامين وبين الاب الصالح سبعة آباء وعن الحسن بن على انه قال لبعض الخوارج فى كلام جرى بينهما بم حفظ الله مال الغلامين قال بصلاح ابيهما قال فأبى وجدى خير منه قال قد انبأنا الله انكم قوم خصمون وذكروا ايضا ان ذلك الاب الصالح كان الناس يضعون الودائع اليه فيردها اليهم بالسلامة فان قيل اليتيمان هل عرف احد منهما حصول الكنز تحت ذلك الجدار اوما عرف احد منهما فان كان

ووجودهما اعز قيل حفر للاساس حتى بلغ الماء وجعل الاساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم حتى سد ما بين الجبلين الى اعلاهما وكان مائة فرسخ وذلك قوله عز قائلا (حتى اذا ساوى بين الصدفين) اى آتوه اياها فأخذ يبنى شيئا فشيئا حتى اذا جعل ما بين ناحيتى الجبلين من البنيان مساويا لهما فى السمك على النهج المحكى قيل كان ارتفاعه مائتى ذراع وعرضه خمسين ذراعا وقرئ سوى من التسوية وسووى على البناء للمجهول (قال) للعملة (انفخوا) اى بالكيران فى الحديد المبنى ففعلوا (حتى اذا جعله) اى المنفوخ فيه (نارا) اى كالنار فى الحرارة والهيئة واسناد الجعل المذكور الى ذى القرنين مع انه فعل الفعلة للتنبيه على انه العمدة فى ذلك وهم بمنزلة الآلة (قال) للذين يتولون امر النحاس من الاذابة ونحوها (آتونى افرغ عليه قطرا) اى آتونى قطرا اى نحاسا مذابا افرغ عليه قطرا فحذف الاول لدلالة الثانى عليه وقرئ بالوصل اى جيئونى كأنه يستدعيهم للاعانة باليد عند الافراغ واسناد الافراغ الى نفسه للسر الذى وقفت عليه آنفا وكذا الكلام فى قوله تعالى ساوى وقوله تعالى اجعل (فما اسطاعوا) بحذف تاء الافتعال تخفيفا وحذرا عن تلاقى المتقاربين وقرئ بالادغام وفيه جمع بين الساكنين على غير حده وقرئ بقلب السين صادا

الاول امتنع ان يتركوا سقوط ذلك الجدار وان كان الثانى فكيف يمكنهم بعد البلوغ استخراج ذلك الكنز والانتفاع به (الجواب) لعل اليتيمين كانا جاهلين به الاان وصيهما كان عالما به ثم ذلك الوصى غاب واشرف ذلك الجدار فى غيبته على السقوط ولما قرر العالم هذه الجوابات قال رحمة من ربك يعنى انما فعلت هذه الفعال لغرض ان تظهر رحمة الله تعالى لانها بأسرها ترجع الى حرف واحد وهو تحمل الضرر الادنى لدفع الضرر الأعلى كما قررناه ثم قال وما فعلته عن امرى يعنى ما فعلت ما رأيت من هذه الاحوال عن امرى واجتهادى ورأيى وانما فعلته بأمر الله ووحيه لان الاقدام على تنقيص اموال الناس واراقة دمائهم لايجوز الابالوحى والنص القاطع بقى فى الآية سؤال وهوانه قال فأردت ان اعيبها وقال فأردنا ان يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وقال فأراد ربك ان يبلغا اشدهما كيف اختلفت الاضافة فى هذه الارادات الثلاث وهى كلها فى قصة واحدة وفعل واحد (والجواب) انه لما ذكر العيب اضافه الى ارادة نفسه فقال اردت ان اعيبها ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيها على انه من العظماء فى علوم الحكمة فلم يقدم على هذا القتل الا لحكمة عالية ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لاجل صلاح ابيهما اضافه الى الله تعالى لان المتكفل بمصالح الابناء لرعاية حق الآباء ليس الا الله سبحانه وتعالى ❁ قوله تعالى (ويسئلونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا انا مكنا له فى الارض وآتيناه من كل شىء سببا فاتبع سببا) اعلم ان هذا هو القصة الرابعة من القصص المذكورة فى هذه السورة وفيها مسائل (المسئلة الاولى) قد ذكرنا فى اول هذه السورة ان اليهود امروا المشركين ان يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة اصحاب الكهف وعن قصة ذى القرنين وعن الروح فالمراد من قوله ويسئلونك عن ذى القرنين هو ذلك السؤال (المسئلة الثانية) اختلف الناس فى ان ذا القرنين من هو وذكروا فيه اقوالا (الاول) انه هو الاسكندر بن فيلقوس اليونانى قالوا والدليل عليه ان القرآن دل على ان الرجل المسمى بذى القرنين بلغ ملكه الى اقصى المغرب بدليل قوله حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة وايضا بلغ ملكه اقصى المشرق بدليل قوله حتى اذا بلغ مطلع الشمس وايضا بلغ ملكه اقصى الشمال بدليل ان يأجوج ومأجوج قوم من الترك يسكنون فى اقصى الشمال وبدليل ان السد المذكور فى القرآن يقال فى كتب التواريخ انه مبنى فى اقصى الشمال فهذا الانسان المسمى بذى القرنين فى القرآن قد دل القرآن على ان ملكه بلغ اقصى المغرب والمشرق والشمال وهذا هو تمام القدر المعمور من الارض ومثل هذا الملك البسيط لاشك انه على خلاف العادات وما كان كذلك وجب ان يبقى ذكره مخلدا على وجه الدهر وان لا يبقى مخفيا مستترا والملك الذى اشتهر فى كتب التواريخ انه بلغ ملكه الى هذا الحد ليس الا الاسكندر وذلك لانه لما مات ابوه جمع ملوك الروم بعد ان كانوا طوائف ثم جمع

والفاء فصيحة اى فعلوا ما امروا به من ايتاء القطر او الاتيان فأفرغه فاختلط والتصق بعضه ببعض فصار جبلا صلدا فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا ان يعلوه وينقبوه فما استطاعوا (ان يظهروه) اى يعلوه ويرقوا فيه لارتفاعه وملاسته (وما استطاعوا له نقبا) لصلابته وثخانته وهذه معجزة عظيمة لان تلك الزبر الكثيرة اذا أثرت فيها حرارة النار لايقدر الحيوان على ان يحوم حولها فضلا عن النفخ فيها الى ان تكون كالنار او عن افراغ القطر عليها فكأنه سبحانه وتعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن ابدان اولئك المباشرين للاعمال فكان ما كان والله على كل شىء قدير وقيل بناه من الصخور مرتبطا بعضها ببعض بكلاليب من حديد ونحاس مذاب فى تجاويفها بحيث لم يبق هناك فرجة اصلا (قال) اى ذو القرنين لمن عنده من اهل تلك الديار وغيرهم (هذا) اشارة الى السد وقيل الى تمكينه من بنائه والفضل للمتقدم اى هذا الذى ظهر على يدى وحصل بمباشرتى من السد الذى شأنه ما ذكر من المتانة وصعوبة المنال (رحمة) اى اثر رحمة عظيمة عبر عنه بها مبالغة (من ربى) على كافة العباد لاسيما على مجاوريه وفيه ايذان بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة بل هو احسان الهى محض وان ظهر بمباشرتى والتعرض لوصف الربوبية لتربية معنى الرحمة (فاذا جاء

ملوك المغرب وقهرهم وامعن حتى انتهى الى البحر الاخضر ثم عاد الى مصر فبنى الاسكندرية وسماها باسم نفسه ثم دخل الشام وقصد بني اسرائيل وورد بيت المقدس وذبح في مذبحه ثم انعطف الى ارمينية وباب الابواب ودانت له العراقيون والقبط والبربر ثم توجه نحو دارا بن دارا وهزمه مرات الى ان قتله صاحب حرسه فاستولى الاسكندر على ممالك الفرس ثم قصد الهند والصين وغزا الامم البعيدة ورجع الى خراسان وبنى المدن الكثيرة ورجع الى العراق ومرض بشهرزور ومات بها فلما ثبت بالقرآن ان ذا القرنين كان رجلا ملك الارض بالكلية اوما يقرب منها وثبت بعلم التواريخ ان الذي هذا شأنه ماكان الا الاسكندر وجب القطع بأن المراد بذي القرنين هو الاسكندر بن فيلقوس اليوناني ثم ذكروا في سبب تسميته بهذا الاسم وجوها ( الاول ) انه لقب بهذا اللقب لاجل بلوغه قرني الشمس اى مطلعها ومغربها كما لقب ازدشير بن بهمن بطويل اليدين لنفوذ امره حيث أراد ( والثاني ) ان الفرس قالوا ان دارا الاكبر كان قد تزوج بابنة فيلقوس فلما قرب منها وجد منها رائحة منكرة فردها على ابيها فيلقوس وكانت قد حملت منه بالاسكندر فولدت الاسكندر بعد عودها الى ابيها فبقي الاسكندر عند فيلقوس واظهر فيلقوس انه ابنه وهو في الحقيقة ابن دارا الاكبر قالوا والدليل عليه ان الاسكندر لما ادرك دارا بن دارا وبه رمق وضع رأسه في حجره وقال لدارا يا ابي اخبرني عن فعل هذا لانتقم لك منه فهذا ما قاله الفرس قالوا وعلى هذا التقدير فالاسكندر ابوه دارا الاكبر وامه بنت فيلقوس فهو انما تولد من اصلين مختلفين الفرس والروم وهذا الذي قاله الفرس انما ذكروه لانهم ارادوا ان يجعلوه من نسل ملوك العجم حتى لايكون ملك مثله من نسب غير نسب ملوك العجم وهو في الحقيقة كذب وانما قال الاسكندر لدارا يا ابي على سبيل التواضع واكرم دارا بذلك الخطاب ( والقول الثاني ) قال ابو الريحان الهروي المنجم في كتابه الذي سماه بالآثار الباقية عن القرون الخالية قيل ان ذا القرنين هو ابو كرب شمس بن عبير بن افريقش الحميري فانه بلغ ملكه مشارق الارض ومغاربها وهو الذي افتخر به احد الشعراء من حمير حيث قال

قدكان ذو القرنين قبلي مسلما * ملكا علا في الارض غير مفند

بلغ المشارق والمغارب يبتغي * اسباب ملك من كريم سيد

ثم قال ابو الريحان ويشبه ان يكون هذا القول اقرب لان الاذواء كانوا من اليمن وهم الذين لاتخلو اساميهم من ذي كذا كذي النار وذي نواس وذي النون وغير ذلك ( والقول الثالث ) انه كان عبدا صالحا ملكه الله الارض واعطاه العلم والحكمة والبسه الهيبة وان كنا لانعرف انه من هو ثم ذكروا في تسميته بذي القرنين وجوها (الاول) سأل ابن الكوا عليا رضي الله عنه عن ذي القرنين وقال أملك هو ام نبي فقال لاملك ولا نبي كان عبدا صالحا ضرب على قرنه الايمن في طاعة الله فمات ثم بعثه الله فضرب على

وعد ربي ) مصدر بمعنى المفعول وهو يوم القيامة لاخروج يأجوج ومأجوج كما قيل اذ لايساعده النظم الكريم والمراد بمجيئه ماينتظم مجيئه ومجئ مباديه من خروجهم وخروج الدجال ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام ونحو ذلك لادنو وقوعه فقط كما قيل فان بعض الامور التي ستحكى يقع بعد مجيئه حتما ( جعله )اى السد المشار اليه مع متانته ورصانته وفيه من الجزالة ماليس في توجيه الاشارة السابقة الى التمكين المذكور ( دكاء ) اى ارضا مستوية وقرئ دكا اى مدكوكا مسوى بالارض وكل ماانبسط بعد ارتفاع فقد اندك ومنه الجمل الادك اى المنبسط السنام وهذا الجعل وقت مجئ الوعد بمجئ بعض مباديه وفيه بيان لعظم قدرته عز وجل بعد بيان سعة رحمته (وكان وعد ربي) اى وعده المعهود اوكل ماوعد به فيدخل فيه ذلك دخولا اوليا (حقا) ثابتا لامحالة واقعا البتة وهذه الجملة تذييل من ذي القرنين لما ذكره من الجملة الشرطية ومقرر مؤكد لمضمونها وهو آخر ماحكى من قصته وقوله عز وجل (وتركنا بعضهم ) كلام مسوق من جنابه تعالى معطوف على قوله تعالى جعله دكاء ومحقق لمضمونه اى جعلنا بعض الخلائق ( يومئذ ) اى يوم اذ جاء الوعد بمجئ بعض مباديه (يموج في بعض) آخر منهم يضطربون اضطراب امواج البحر ويختلط انسهم وجنهم حيارى من شدة الهول ولعل ذلك قبل النفخة الاولى او تركنا بعض

قرنه الايسر فمات فبعثه الله فسمى بذى القرنين وملك ملكه (الثانى) سمى بذى القرنين لانه انقرض فى وقته قرنان من الناس (الثالث) قيل كان صفحتا رأسه من نحاس (الرابع) كان على رأسه مايشبه القرنين (الخامس) لتاجه قرنان (السادس) عن النبى صلى الله عليه وسلم سمى ذا القرنين لانه طاف قرنى الدنيا يعنى شرقها وغربها (السابع) كان له قرنان اى ضفيرتان (الثامن) ان الله تعالى سخر له النور والظلمة فاذا سرى يهديه النور من امامه وتمده الظلمة من ورائه (التاسع) يجوز ان يلقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشا كأنه ينطح اقرانه (العاشر) رأى فى المنام كأنه صعد الفلك فتعلق بطرفى الشمس وقرنيها وجانبيها فسمى لهذا السبب بذى القرنين (الحادى عشر) سمى بذلك لانه دخل النور والظلمة (والقول الرابع) ان ذا القرنين ملك من الملائكة عن عمر انه سمع رجلا يقول ياذا القرنين فقال اللهم غفرا مارضيتم ان تسموا باسماء الانبياء حتى تسموا باسماء الملائكة فهذا جملة ماقيل فى هذا الباب والقول الاول اظهر لاجل الدليل الذى ذكرناه وهو ان مثل هذا الملك العظيم يجب ان يكون معلوم الحال عند اهل الدنيا والذى هو معلوم الحال بهذا الملك العظيم هو الاسكندر فوجب ان يكون المراد بذى القرنين هو هو الا ان فيه اشكالا قويا وهو انه كان تلميذ ارسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه فتعظيم الله اياه يوجب الحكم بأن مذهب ارسطاطاليس حق وصدق وذلك مما لاسبيل اليه والله اعلم (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى ذى القرنين هل كان من الانبياء ام لا منهم من قال انه كان نبيا واحتجوا عليه بوجوه (الاول) قوله انا مكنا له فى الارض والاولى حمله على التمكين فى الدين والتمكين الكامل فى الدين هو النبوة (الثانى) قوله وآتيناه من كل شئ سببا ومن جملة الاشياء النبوة فمقتضى العموم فى قوله وآتيناه من كل شئ سببا هو انه تعالى آتاه فى النبوة سببا (الثالث) قوله تعالى قلنا ياذا القرنين اما ان تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا والذى يتكلم الله معه لابد وان يكون نبيا ومنهم من قال انه كان عبدا صالحا وما كان نبيا (المسئلة الرابعة) فى دخول السين فى قوله سأتلو معناه انى سأفعل هذا ان وفقنى الله تعالى عليه وانزل فيه وحيا واخبرنى عن كيفية تلك الحال واما قوله تعالى انا مكنا له فى الارض فهذا التمكين يحتمل ان يكون المراد منه التمكين بسبب النبوة ويحتمل ان يكون المراد منه التمكين بسبب الملك من حيث انه ملك مشارق الارض ومغاربها والاول اولى لان التمكين بسبب النبوة اعلى من التمكين بسبب الملك وحمل كلام الله على الوجه الاكمل الافضل اولى ثم قال وآتيناه من كل شئ سببا قالوا السبب فى اصل اللغة عبارة عن الحبل ثم استعير لكل مايتوصل به الى المقصود وهو يتناول العلم والقدرة والآلة فقوله وآتيناه من كل شئ سببا معناه اعطيناه من كل شئ من الامور التى يتوصل بها الى تحصيل ذلك الشئ ثم ان الذين قالوا انه كان نبيا قالوا من جملة الاشياء النبوة فهذه الآية تدل على انه تعالى اعطاه الطريق الذى به يتوصل الى تحصيل النبوة

(والدين)

يأجوج ومأجوج يموج فى بعض آخر منهم حين يخرجون من السد مزدحمين فى البلاد روى انهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس ولا يقدرون ان يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ثم يبعث الله عز وجل نغفا فى اقفائهم فيدخل آذانهم فيموتون موت نفس واحدة فيرسل الله تعالى عليهم طيرا فتلقيهم فى البحر ثم يرسل مطرا يغسل الارض ويطهرها من نتنهم حتى يتركها كالزلفة ثم يوضع فيها البركة وذلك بعد نزول عيسى عليه الصلاة والسلام وقتل الدجال (ونفخ فى الصور) هى النفخة الثانية بقضية الفاء فى قوله تعالى (فجمعناهم) ولعل عدم التعرض لذكر النفخة الاولى لانها داهية عامة ليس فيها حالة مختصة بالكفار ولئلا يقع الفصل بين مايقع فى النشأة الاولى من الاحوال والاهوال وبين مايقع منها فى النشأة الآخرة اى جمعنا الخلائق بعد ماتفرقت اوصالهم وتمزقت اجسادهم فى صعيد واحد للحساب والجزاء (جمعا) اى جمعا عجيبا لايكتنه كنهه (وعرضنا جهنم) اى اظهرناها وابرزناها (يومئذ) اى يوم اذ جمعنا الخلائق كافة (للكافرين) منهم حيث جعلناها بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظا وزفيرا (عرضا) اى عرضا فظيعا هائلا لايقادر قدره وتخصيص العرض بهم مع انها بمرأى من اهل الجمع قاطبة لان ذلك لاجلهم خاصة (الذين كانت اعينهم) وهم فى الدنيا (فى غطاء) كثيف وغشاوة

والذين انكروا كونه نبيا قالوا المراد به وآتيناه من كل شئ يحتاج اليه في اصلاح ملكه سببا الا ان لقائل ان يقول ان تخصيص العموم خلاف الظاهر فلا يصار اليه الا بدليل ثم قال فأتبع سببا ومعناه انه تعالى لما اعطاه من كل شئ سببه فاذا اراد شيئا أتبع سببا يوصله اليه ويقربه منه قرأ نافع وابن كثير وابو عمرو فاتبع بتشديد التاء وكذلك ثم اتبع اى سلك وسار والباقون فاتبع بقطع الالف وسكون التاء مخففة ❊ قوله تعالى (حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا ياذا القرنين اما ان تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا قال اما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا واما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من امرنا يسرا) اعلم ان المعنى انه اراد بلوغ المغرب فاتبع سببا يوصله اليه حتى بلغه اما قوله وجدها تغرب في عين حمئة ففيه مباحث (الاول) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وابو بكر عن عاصم في عين حامية بالالف من غير همزة اى حارة وعن ابى ذر قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال أتدرى يا ابا ذر اين تغرب هذه قلت الله ورسوله اعلم قال فانها تغرب حامية وهى قراءة ابن مسعود وطلحة وابن عامر والباقون حمئة وهى قراءة ابن عباس واتفق ان ابن عباس كان عند معاوية فقرأ معاوية حامية بالف فقال ابن عباس حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرأ قال كما يقرأ امير المؤمنين ثم وجه الى كعب الاحبار كيف تجد الشمس تغرب قال في ماء وطين كذلك نجده في التوراة والحمئة ما فيه ماء وحمأة سوداء واعلم انه لا تنافى بين الحمئة والحامية فجائز ان تكون العين جامعة للوصفين جميعا (البحث الثانى) انه ثبت بالدليل ان الارض كرة وان السماء محيطة بها ولا شك ان الشمس في الفلك وايضا قال ووجد عندها قوما ومعلوم ان جلوس قوم في قرب الشمس غير موجود وايضا الشمس اكبر من الارض بمرات كثيرة فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الارض اذا ثبت هذا فنقول تأويل قوله تغرب في عين حمئة من وجوه (الاول) ان ذا القرنين لما بلغ موضعها في المغرب ولم يبق بعده شئ من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في عين وهدة مظلمة وان لم تكن كذلك في الحقيقة كما ان راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر اذا لم ير الشط وهى في الحقيقة تغيب وراء البحر هذا هو التأويل الذى ذكره ابو على الجبائى في تفسيره (الثانى) ان للجانب الغربى من الارض مساكن يحيط البحر بها فالناظر الى الشمس يتخيل كأنها تغيب في تلك البحار ولا شك ان البحار الغربية قوية السخونة فهى حامية وهى ايضا حمئة لكثرة ما فيها من الحمأة السوداء والماء فقوله تغرب في عين حمئة اشارة الى ان الجنب الغربى من الارض قد احاط به البحر وهو موضع شديد السخونة (الثالث) قال اهل الاخبار ان الشمس تغيب في عين كثيرة الماء والحمأة وهذا في غاية البعد وذلك لانا اذا ارصدنا كسوفا قمريا فاذا اعتبرناه ورأينا ان المغربيين قالوا حصل هذا

غليظة محاطة بذلك من جميع الجوانب (عن ذكرى) عن الآيات المؤدية لاولى الابصار المتدبرين فيها الاذكرى بالتوحيد والتمجيد او كانت اعين بصائرهم في غطاء عن ذكرى على وجه يليق بشأنى اوعن القرآن الكريم (وكانوا) مع ذلك (لا يستطيعون) لفرط تصامهم عن الحق وكمال عداوتهم للرسول عليه الصلاة والسلام (سمعا) استماعا لذكرى وكلامى الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهذا تمثيل لاعراضهم عن الادلة السمعية كما ان الاول تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالابصار والموصول نعت للكافرين اوبدل منه او بيان جئ به لذمهم بما في حيز الصلة وللاشعار بعليته لاصابة ما أصابهم من عرض جهنم لهم فان ذلك انما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عرض لهم في الدنيا من الآيات واعراضهم عنها مع كونها اسبابا منجية عما ابتلوا به في الآخرة (افحسب الذين كفروا) اى كفروا بى كما يعرب عنه قوله تعالى عبادى والحسبان بمعنى الظن وقد قرئ افظن والهمزة للانكار والتوبيخ على معنى انكار الواقع واستقباحه كما في قولك اضربت اباك لا لانكار الوقوع كما في قوله أ اضرب ابى والفاء للعطف على مقدر يفصح عنه الصلة على توجيه الانكار والتوبيخ الى المعطوفين جميعا كما اذا قدر المعطوف عليه في قوله تعالى افلا تعقلون منفيا اى الا تسمعون فلا تعقلون لا الى المعطوف

الكسوف في اول الليل ورأينا المشرقيين قالوا حصل في اول النهار فعلمنا ان اول الليل عند اهل المغرب هو اول النهار الثاني عند اهل المشرق بل ذلك الوقت الذي هو اول الليل عندنا فهو وقت العصر في بلد و وقت الظهر في بلد آخر و وقت الضحوة في بلد ثالث و وقت طلوع الشمس في بلد رابع و نصف الليل في بلد خامس واذا كانت هذه الاحوال معلومة بعد الاستقراء والاعتبار وعلمنا ان الشمس طالعة ظاهرة في كل هذه الاوقات كان الذي يقال انها تغيب في الطين والحمأة كلاما على خلاف اليقين وكلام الله تعالى مبرأ عن هذه التهمة فلم يبق الا ان يصار الى التأويل الذي ذكرناه ثم قال تعالى ووجد عندها قوما الضمير في قوله عندها الى ماذا يعود فيه قولان (الاول) انه عائد الى الشمس ويكون التأنيث للشمس لان الانسان لما تخيل ان الشمس تغرب هناك كان سكان هذا الموضع كأنهم سكنوا بالقرب من الشمس (والقول الثاني) ان يكون الضمير عائدا الى العين الحامية وعلى هذا القول فالتأويل ماذكرناه ثم قال تعالى قلنا ياذا القرنين اما ان تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا وفيه مباحث (الاول) ان قوله تعالى قلنا ياذا القرنين اما ان تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا يدل على انه تعالى تكلم معه من غير واسطة وذلك يدل على انه كان نبيا وحمل هذا اللفظ على ان المراد انه خاطبه على ألسنة بعض الانبياء فهو عدول عن الظاهر (البحث الثاني) قال اهل الاخبار في صفة ذلك الموضع اشياء عجيبة قال ابن جريج هناك مدينة لها اثناعشر الف باب لولا اصوات اهلها سمع الناس وجبة الشمس حين تغيب (البحث الثالث) قوله تعالى قلنا ياذا القرنين اما ان تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا يدل على ان سكان آخر المغرب كانوا كفارا فخير الله ذا القرنين فيهم بين التعذيب لهم ان اقاموا على كفرهم وبين المن عليهم والعفو عنهم وهذا التخيير على معنى الاجتهاد في اصلح الامرين كما خير نبيه عليه السلام بين المن على المشركين وبين قتلهم وقال الاكثرون هذا التعذيب هو القتل واما اتخاذ الحسنى فيهم فهو تركهم احياء ثم قال ذو القرنين اما من ظلم اي ظلم نفسه بالاقامة على الكفر والدليل على ان هذا هو المراد انه ذكر في مقابلته واما من آمن وعمل صالحا ثم قال فسوف نعذبه اي بالقتل في الدنيا ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا اي منكرا فظيعا واما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم جزاء الحسنى بالنصب والتنوين والباقون بالرفع والاضافة فعلى القراءة الاولى يكون التقدير فله الحسنى جزاء كما تقول لك هذا الثوب هبة واما على القراءة الثانية ففي التفسير وجهان (الاول) فله جزاء الفعلة الحسنى والفعلة الحسنى هي الايمان والعمل الصالح (والثاني) ان يكون التقدير فله جزاء المثوبة الحسنى ويكون المعنى فله ذا الجزاء الذي هو المثوبة الحسنى والجزاء موصوف بالمثوبة الحسنى واضافة الموصوف الى الصفة مشهورة كقوله ولدار الآخرة وحق اليقين ثم قال وسنقول له من امرنا يسرا اي لا نأمره بالصعب الشاق ولكن بالسهل الميسر من الزكاة

(والخراج)

فقط كما اذا قدر مثبتا اي اتسمعون فلا تعقلون والمعنى اكفروا بي مع جلالة شأني فحسبوا (ان يتخذوا عبادي من دوني) من الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام وهم تحت سلطاني وملكوتي (اولياء) معبودين ينصرونهم من بأسي وما قيل انها للعطف على ماقبلها من قوله تعالى كانت الخ وكانوا الخ دلالة على ان الحسبان ناشئ من التعامي والتصام وادخل عليهما همزة الانكار ذما عن ذم وقطعا له عن المعطوف عليهما لفظا لامعنى للايذان بالاستقلال المؤكد للذم يأباه ترك الاضمار والتعرض لوصف آخر غير التعامي والتصام على انهما اخرجا مخرج الاحوال الجبلية لهم ولم يذكرا من حيث انهما من افعالهم الاختيارية الحادثة كحسبانهم ليحسن تفريعه عليهما وايضا فانه دين قديم لهم لا يمكن جعله ناشئا عن تصامهم عن كلام الله عز وجل وتخصيص الانكار بحسبانهم المتأخر عن ذلك تعسف لا يخفى وما في حيز صلة ان ساد مسد مفعولي حسب كما في قوله تعالى وحسبوا ان لا تكون فتنة اي افحسبوا انهم يتخذونهم اولياء على معنى ان ذلك ليس من الاتخاذ في شئ لما انه انما يكون من الجانبين وهم عليهم الصلاة والسلام منزهون عن ولايتهم بالمرة لقولهم سبحانك انت ولينا من دونهم وقيل مفعوله الثاني محذوف اي افحسبوا اتخاذهم نافعا لهم والوجه هو الاول لان في هذا تسليما لنفس الاتخاذ واعتدادا به في الجملة وقرئ افحسب الذين كفروا

والخراج وغيرهما وتقديره ذا يسر كقوله قولا ميسورا وقرئ يسرا بضمتين ❊ قوله تعالى (ثم اتبع سببا حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا كذلك وقد احطنا بما لديه خبرا) اعلم انه تعالى لما بين اولا انه قصد اقرب الاماكن المسكونة من مغرب الشمس اتبعه ببيان انه قصد اقرب الاماكن المسكونة من مطلع الشمس فبين الله تعالى انه وجد الشمس تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا وفيه قولان (الاول) انه ليس هناك شجر ولا جبل ولا ابنية تمنع من وقوع شعاع الشمس عليهم فلهذا السبب اذا طلعت الشمس دخلوا فى اسراب واغلة فى الارض او غاصوا فى الماء فيكون عند طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف فى المعاش وعند غروبها يشتغلون بتحصيل مهمات المعاش حالهم بالضد من احوال سائر الخلق (والقول الثانى) ان معناه انه لا ثياب لهم ويكونون كسائر الحيوانات عراة ابدا ويقال فى كتب الهيئة ان حال اكثر الزنج كذلك وحال كل من يسكن البلاد القريبة من خط الاستواء كذلك وذكر فى كتب التفسير ان بعضهم قال سافرت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء القوم فقيل بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم فاذا احدهم يفرش اذنه الواحدة ويلبس الاخرى ولما قرب طلوع الشمس سمعت كهيئة الصلصلة فغشى على ثم افقت وهم يمسحوننى بالدهن فلما طلعت الشمس اذا هى فوق الماء كهيئة الزيت فادخلونا سربا لهم فلما ارتفع النهار جعلوا يصطادون السمك ويطرحونه فى الشمس فينضج ثم قال تعالى كذلك وقد احطنا بما لديه خبرا وفيه وجوه (الاول) اى كذلك فعل ذو القرنين اتبع هذه الاسباب حتى بلغ ما بلغ وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به (والثانى) كذلك جعل امر هؤلاء القوم على ما قد اعلم رسوله عليه السلام فى هذا الذكر (والثالث) كذلك كانت حالته مع اهل المطلع كما كانت مع اهل المغرب قضى فى هؤلاء كما قضى فى اولئك من تعذيب الظالمين والاحسان الى المؤمنين (والرابع) انه تم الكلام عند قوله كذلك والمعنى انه تعالى قال امر هؤلاء القوم كما وجدهم عليه ذو القرنين ثم قال بعده وقد احطنا بما لديه خبرا اى كنا عالمين بأن الامر كذلك ❊ قوله تعالى (ثم اتبع سببا حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا قالوا يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الارض فهل نجعل لك خرجا على ان تجعل بيننا وبينهم سدا قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما) اعلم ان ذا القرنين لما بلغ المشرق والمغرب اتبع سببا آخر وسلك الطريق حتى بلغ بين السدين وقد آتاه الله من العلم والقدرة ما يقوم بهذه الامور وههنا مباحث (الاول) قرأ حمزة والكسائى السدين بضم السين وسدا بفتحها حيث كان وقرأ حفص عن عاصم بالفتح فيهما فى كل القرآن وقرأ نافع وابن عامر وابو بكر عن عاصم بالضم فيهما فى كل القرآن وقرأ ابن كثير وابو عمرو السدين وسدا ههنا بفتح السين فيهما وضمها فى يس

اى افحسبهم وكافيهم ان يتخذوهم اولياء على الابتداء والخبر او الفعل والفاعل فان النعت اذا اعتمد الهمزة ساوى الفعل فى العمل فالهمزة حينئذ بمعنى انكار الوقوع (انا اعتدنا جهنم) اى هيأناها (للكافرين) المعهودين عدل عن الاضمار ذما لهم واشعارا بأن ذلك الاعتاد بسبب كفرهم المتضمن لحسبانهم الباطل (نزلا) اى شيئا يتمتعون به عند ورودهم وهو ما يقام للنزيل اى الضيف مما حضر من الطعام وفيه تخطئة لهم فى حسبانهم وتهكم بهم حيث كان اتخاذهم اياهم اولياء من قبيل اعتاد العتاد واعداد الزاد ليوم المعاد فكأنه قيل انا اعتدنا لهم مكان ما اعدوا لانفسهم من العدة والذخر جهنم عدة وفى ايراد النزل ايماء الى ان لهم وراء جهنم من العذاب ما هو انموذج له وقيل النزل موضع النزول ولذلك فسره ابن عباس رضى الله عنهما بالمثوى (قل هل ننبئكم) الخطاب الثانى للكفرة على وجه التوبيخ والجمع فى صيغة المتكلم لتعيينه من اول الامر وللايذان بمعلومية النبأ للمؤمنين ايضا (بالاخسرين اعمالا) نصب على التمييز والجمع للايذان بتنوعها وهذا بيان لحال الكفرة باعتبار ما صدر عنهم من الاعمال الحسنة فى أنفسها وفى حسبانهم ايضا حيث كانوا معجبين بها واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة آثارها غب بيان حالهم باعتبار اعمالهم السيئة فى انفسها مع كونها حسنة فى حسبانهم (الذين ضل سعيهم) فى اقامة تلك الاعمال اى ضاع وبطل

في الموضعين قال الكسائي هما لغتان وقيل ما كان من صنعة بني آدم فهو السد بفتح السين وما كان من صنع الله فهو السد بضم السين والجمع سدد وهو قول ابي عبيدة وابن الانباري قال صاحب الكشاف السد بالضم فعل بمعنى مفعول اي هو مما فعله الله وخلقه والسد بالفتح مصدر حدث يحدثه الناس ( البحث الثاني ) الاظهر ان موضع السدين في ناحية الشمال وقيل جبلان بين ارمينية وبين أذربيجان وقيل هذا المكان في مقطع ارض الترك وحكى محمد بن جرير الطبري في تاريخه ان صاحب أذربيجان ايام فتحها وجه انسانا اليه من ناحية الخزر فشاهده ووصف انه بنيان رفيع وراء خندق عميق وثيق منيع وذكر ابن خرداذبه في كتاب المسالك والممالك ان الواثق بالله رأى في المنام كأنه فتح هذا الردم فبعث بعد الخدم اليه ليعاينوه فخرجوا من باب الابواب حتى وصلوا اليه وشاهدوه فوصفوا انه بناء من لبن من حديد مشدود بالنحاس المذاب وعليه باب مقفل ثم ان ذلك الانسان لما حاول الرجوع اخرجهم الدليل على البقاع المحاذية لسمرقند قال ابو الريحان مقتضى هذا ان موضعه في الربع الشمالي الغربي من المعمورة والله اعلم بحقيقة الحال ( البحث الثالث ) ان ذا القرنين لما بلغ ما بين السدين وجد من دونهما اي ورائهما مجاوزا عنهما قوما اي امة من الناس لايكادون يفقهون قولا قرأ حمزة والكسائي يفقهون بضم الياء وكسر القاف على معنى لايمكنهم تفهيم غيرهم والباقون بفتح الياء والقاف والمعنى انهم لايعرفون غير لغة انفسهم وما كانوا يفهمون اللسان الذي يتكلم به ذو القرنين ثم قال تعالى قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض فان قيل كيف فهم ذو القرنين منهم هذا الكلام بعد ان وصفهم الله بقوله لايكادون يفقهون قولا والجواب ان نقول كاد فيه قولان (الاول) ان اثباته نفي ونفيه اثبات فقوله لايكادون يفقهون قولا لايدل على انهم لايفهمون شيئا بل يدل على انهم قد يفهمون على مشقة وصعوبة (والقول الثاني) ان كاد معناه المقاربة وعلى هذا القول فقوله لايكادون يفقهون قولا اي لايعلمون وليس لهم قرب من ان يفقهوا وعلى هذا القول فلابد من اضمار وهو ان يقال لايكادون يفهمونه الا بعد تقريب ومشقة من اشارة ونحوها وهذه الآية تصلح ان يحتج بها على صحة القول الاول في تفسير كاد ( البحث الرابع ) في يأجوج ومأجوج قولان ( الاول ) انهما اسمان اعجميان موضوعان بدليل منع الصرف ( والقول الثاني ) انهما مشتقان وقرأ عاصم يأجوج ومأجوج بالهمز وقرأ الباقون ياجوج وماجوج وقرئ في رواية آجوج ومأجوج والقائلون بكون هذين الاسمين مشتقين ذكروا وجوها ( الاول ) قال الكسائي يأجوج مأخوذ من تأجج النار وتلهبها فلسرعتهم في الحركة سموا بذلك ومأجوج من موج البحر (الثاني) ان يأجوج مأخوذ من تأجج الملح وهو شدة ملوحته فلشدتهم من الحركة سموا بذلك (الثالث) قال القتيبي هو مأخوذ من قولهم اج الظليم في مشيه يئج اجا

(اذا هرول)

بالكلية ( في الحيوة الدنيا ) متعلق بالسعي لا بالضلال لان بطلان سعيهم غير مختص بالدنيا قيل المراد بهم اهل الكتابين قاله ابن عباس وسعد بن ابي وقاص ومجاهد رضي الله عنهم ويدخل في الاعمال حينئذ ما عملوه من الاحكام المنسوخة المتعلقة بالعبادات وقيل الرهابنة الذين يحبسون أنفسهم في الصوامع ويحملونها على الرياضات الشاقة ولعله مايعمهم وغيرهم من الكفرة ومحل الموصول الرفع على انه خبر مبتدأ محذوف لانه جواب للسؤال كأنه قيل من هم فقيل الذين الخ وجعله مجرورا على انه نعت للاخسرين او بدل منه اومنصوبا على الذم على ان الجواب ماسيأتي من قوله تعالى اولئك الآية يأباه ان صدره ليس منبئا عن خسران الاعمال وضلال السعي كما يستدعيه مقام الجواب والتفريع الاول وان دل على حبوطها لكنه ساكت عن انباء ماهو العمدة في تحقيق معنى الخسران من الوثوق بترتب الربح واعتقاد النفع فيما صنعوا على ان التفريع الثاني مما يقطع ذلك الاحتمال رأسا اذ لامجال لادراجه تحت الامر بقضية نون العظمة ( وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ) الاحسان الاتيان بالاعمال على الوجه اللائق وهو حسنها الوصفي المستلزم لحسنها الذاتي اي يحسبون انهم يعملون ذلك على الوجه اللائق وذلك لاعجابهم بأعمالهم التي سعوا في اقامتها وكابدوا في تحصيلها والجملة حال من فاعل

اذاهرول وسمعت حفيفه فى عدوه ( الرابع ) قال الخليل الأج حب كالعدس والمج مج الريق فيحتمل ان يكونا مأخوذين منهما واختلفوا فى انهما من اى الاقوام فقيل انهما من الترك وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم ثم من الناس من وصفهم بقصر القامة وصغر الجثة بكون طول احدهم شبرا ومنهم من وصفهم بطول القامة وكبر الجثة واثبتوا لهم مخاليب فى الاظفار واضراسا كأضراس السباع واختلفوا فى كيفية افسادهم فى الارض فقيل كانوا يقتلون الناس وقيل كانوا يأكلون لحوم الناس وقيل كانوا يخرجون ايام الربيع فلا يتركون لهم شيئا اخضر وبالجملة فلفظ الفساد محتمل لكل هذه الاقسام والله اعلم بمراده ثم انه تعالى حكى عن اهل مابين السدين انهم قالوا لذى القرنين فهل نجعل لك خرجا قيل على ان تجعل بيننا وبينهم سدا قرأ حمزة والكسائى خراجا والباقون خرجا قيل الخراج والخرج واحد وقيل هما أمران متغايران وعلى هذا القول اختلفوا قيل الخرج بغير الف هو الجعل لان الناس يخرج كل واحد منهم شيئا منه فيخرج هذا اشياء وهذا اشياء والخراج هو الذى يجبيه السلطان كل سنة وقال الفراء الخراج هو الاسم الاصلى والخرج كالمصدر وقال قطرب الخرج الجزية والخراج فى الارض فقال ذو القرنين مامكنى فيه ربى خير فأعينونى اى ماجعلنى مكينا من المال الكثير واليسار الواسع خير مما تبذلون من الخراج فلا حاجة بى اليه وهو كما قال سليمان عليه السلام فما آتانى الله خير مما آتاكم قرأ ابن كثير مامكننى بنونين على الاظهار والباقون بنون واحدة مشددة على الادغام ثم قال ذو القرنين فأعينونى بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما اى لا حاجة لى فى مالكم ولكن اعينونى برجال وآلة ابنى بها السد وقيل المعنى اعينونى بمال اصرفه الى هذا المهم ولا اطلب المال لاخذه لنفسى والردم هو السد يقال ردمت الباب اى سددته وردمت الثوب رقعته لانه يسد الخرق بالرقعة والردم اكثر من السد من قولهم ثوب مردوم اى وضعت عليه رقاع ❊ قوله تعالى (آتونى زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتونى افرغ عليه قطرا فما اسطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا قال هذا رحمة من ربى فاذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا) اعلم ان زبر الحديد قطعة قال الخليل الزبرة من الحديد القطعة الضخمة قراءة الجميع آتونى بمد الالف الا حمزة فانه قرأ ائتونى من الاتيان وقد روى ذلك عن عاصم والتقدير ائتونى بزبر الحديد ثم حذف الباء كقوله شكرته وشكرت له وكفرته وكفرت له وقوله حتى اذا ساوى بين الصدفين فيه اضمار اى فأتوه بها فوضع تلك الزبر بعضها على بعض حتى صارت بحيث تسد مابين الجبلين الى اعلاهما ثم وضع المنافخ عليها حتى اذا صارت كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمى فالتصق بعضه ببعض وصار جبلا صلدا واعلم ان هذا معجز قاهر لان هذه الزبر الكثيرة اذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر الحيوان على القرب منها والنفخ

ضل اى بطل سعيهم المذكور والحال انهم يحسبون انهم يحسنون فى ذلك وينتفعون بآثاره او من المضاف اليه لكونه فى محل الرفع نحو قوله تعالى مرجعكم جميعا اى بطل سعيهم والحال انهم الخ والفرق بينهما ان المقارن لحال حسبانهم المذكور فى الاول ضلال سعيهم وفى الثانى نفس سعيهم والاول ادخل فى بيان خطئهم ( اولئك ). كلام مستأنف من جنابه تعالى مسوق لتكميل تعريف الاخسرين وتبيين سبب خسرانهم وضلال سعيهم وتعيينهم بحيث ينطبق التعريف على المخاطبين غير داخل تحت الامر اى اولئك المنعوتون بما ذكر من ضلال السعى مع الحسبان المزبور (الذين كفروا بآيات ربهم) بدلائله الداعية الى التوحيد عقلا ونقلا والتعرض لعنوان الربوبية لزيادة تقبيح حالهم فى الكفر المذكور (ولقائه) بالبعث ومايتبعه من امور الآخرة على ماهى عليه (فحبطت) لذلك ( اعمالهم ) المعهودة حبوطا كليا ( فلا نقيم لهم ) اى لأولئك الموصوفين بما مر من حبوط الاعمال وقرئ بالياء ( يوم القيامة وزنا ) اى فنزدريهم ولا نجعل لهم مقدارا واعتبارا لان مداره الاعمال الصالحة وقد حبطت بالمرة وحيث كان هذا الازدراء من عواقب حبوط الاعمال عطف عليه بطريق التفريع واما ماهو من اجزية الكفر فسيجئ بعد ذلك اولا نضع لاجل وزن اعمالهم ميزانا لانه انما يوضع لاهل الحسنات

عليها لايمكن الامع القرب منها فكأنه تعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن ابدان اولئك النافخين عليها قال صاحب الكشاف قيل بعدمابين السدين مائة فرسخ والصد فان بفتحتين جانبا الجبلين لانهما يتصادفان اى يتقابلان وقرئ الصدفين بضمتين والصدفين بضمة وسكون والقطر النحاس المذاب لانه يقطر وقوله قطرا منصوب بقوله افرغ وتقديره آتونى قطرا افرغ عليه قطرا فحذف الاول لدلالة الثانى عليه ثم قال فما اسطاعوا فحذف التاء للخفة لان التاء قريبة المخرج من الطاء وقرئ فمااصطاعوا بقلب السين صادا ان يظهروه ان يعلوه اى ماقدروا على الصعود عليه لاجل ارتفاعه وملاسته ولا على نقبه لاجل صلابته وثخانته ثم قال ذوالقرنين هذارحمة من ربى فقوله هذا اشارة الى السد اى هذا السد نعمة من الله ورحمة على عباده او هذا الاقتدار والتمكين من تسويته فاذا جاء وعد ربى يعنى فاذادنا مجئ القيامة جعل السد دكا اى مدكوكا مسوى بالارض وكل ما انبسط بعد الارتفاع فقد اندك وقرئ دكاء بالمد اى ارضا مستوية وكان وعد ربى حقا وههنا آخر حكاية ذى القرنين ❁ قوله تعالى (وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا الذين كانت اعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لايستطيعون سمعا) اعلم ان الضمير فى قوله بعضهم عائد الى يأجوج ومأجوج وقوله يومئذ فيه وجوه (الاول) ان يوم السد ماج بعضهم فى بعض خلفه لما منعوا من الخروج (الثانى) ان عند الخروج يموج بعضهم فى بعض قيل انهم حين يخرجون من وراء السد يموجون مزدحمين فى البلاد يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ويأكلون لحوم الناس ولايقدرون ان يأتوامكة والمدينة وبيت المقدس ثم يبعث الله عليهم حيوانات فتدخل آذانهم فيموتون (القول الثالث) ان المراد من قوله يومئذ يوم القيامة وكل ذلك محتمل الا ان الاقرب ان المراد الوقت الذى جعل الله ذلك السد دكا فعنده ماج بعضهم فى بعض وبعده نفخ فى الصور وصار ذلك من آيات القيامة والكلام فى الصور قد تقدم وسيجئ من بعد واما عرض جهنم وابرازه حتى يصير مكشوفا بأهواله فذلك يجرى مجرى عقاب الكفار لما يتداخلهم من الغم العظيم وبين تعالى انه يكشفه للكافرين الذين عموا وصموا اما العمى فهو المراد من قوله كانت اعينهم فى غطاء عن ذكرى والمراد منه شدة انصرافهم عن قبول الحق واما الصمم فهو المراد من قوله وكانوا لايستطيعون سمعا يعنى ان حالتهم اعظم من الصمم لان الاصم قديستطيع السمع اذا صيح به وهؤلاء زالت عنهم تلك الاستطاعة واحتج الاصحاب بقوله وكانوا لايستطيعون سمعا على ان الاستطاعة مع الفعل وذلك لانهم لما لم يسمعوا لم يستطيعوا قال القاضى المراد منه نفرتهم عن سماع ذلك الكلام واستثقالهم اياه كقول الرجل لااستطيع النظر الى فلان ❁ قوله تعالى (أفحسب الذين كفروا ان يتخذوا عبادى من دونى اولياء انا اعتدنا جهنم للكافرين نزلا



والسيآت من الموحدين ليتميز به مقادير الطاعات والمعاصى ليترتب عليه التكفير اوعدمه لان ذلك فى الموحدين بطريق الكمية واما الكفر فاحباطه للحسنات بحسب الكيفية دون الكمية فلا يوضع لهم الميزان قطعا (ذلك) بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم اثر بيان مآل اعمالهم المحبطة بذلك اى الامر ذلك وقوله عزوجل (جزاؤهم جهنم) جملة مبينة له اوذلك مبتدأ والجملة خبره والعائد محذوف اى جزاؤهم به او جزاؤهم بدله وجهنم خبره او جزاؤهم خبره وجهنم عطف بيان للخبر (بما كفروا) تصريح بأن ماذكر جزاء لكفرهم المتضمن لسائر القبائح التى انباء عنها قوله تعالى (واتخذوا آياتى ورسلى هزوا) اى مهزوا بهما فانهم لم يقتنعوا بمجرد الكفر بالآيات والرسل بل ارتكبوا مثل تلك العظيمة ايضا (ان الذين آمنوا) بيان بطريق الوعد لمآل الذين اتصفوا باضداد مااتصف به الكفرة اثر بيان مآلهم بطريق الوعيد اى آمنوا بآيات ربهم ولقائه (وعملوا الصالحات) من الاعمال (كانت لهم) فيما سبق من حكم الله تعالى ووعده وفيه ايماء الى ان اثر الرحمة يصل اليهم بمقتضى الرأفة الازلية بخلاف مامر من جعل جهنم للكافرين نزلا فانه بموجب ماحدث من سوء اختيارهم (جنات الفردوس) عن مجاهد ان الفردوس هو البستان بالرومية وقال عكرمة هو الجنة بالحبشية وقال الضحاك

قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا اولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت اعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا ) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما بين من حال الكافرين انهم اعرضوا عن الذكر وعن استماع ماجاء به الرسول اتبعه بقوله أفحسب الذين كفروا ان يتخذوا عبادى من دونى اولياء والمراد أفظنوا انهم ينتفعون بما عبدوه مع اعراضهم عن تدبر الآيات وتمردهم عن قبول امره وامر رسوله وهو استفهام على سبيل التوبيخ (المسئلة الثانية) قرأ ابو بكر ولم يرفعه الى عاصم أفحسب الذين كفروا بسكون السين ورفع الباء وهي من الاحرف التي خالف فيها عاصما وذكر انه قراءة امير المؤمنين على بن ابى طالب وعلى هذا التقدير فقوله حسب مبتدأ ان يتخذوا خبره والمعنى أفكافيهم وحسبهم ان يتخذوا كذا وكذا واما الباقون فقرؤا أفحسب على لفظ الماضى وعلى هذا التقدير ففيه حذف والمعنى أفحسب الذين كفروا اتخاذ عبادى اولياء نافعا (المسئلة الثالثة) في العباد اقوال قيل اراد عيسى والملائكة وقيل هم الشياطين يوالونهم ويطيعونهم وقيل هي الاصنام سماهم عبادا كقوله عباد امثالكم ثم قال تعالى انا اعتدنا جهنم للكافرين نزلا وفى النزل قولان (الاول) قال الزجاج انه المأوى والمنزل (والثانى) انه الذي يقام للنزيل وهو الضيف ونظيره قوله فبشرهم بعذاب اليم ثم ذكر تعالى ما نبه به على جهل القوم فقال قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا قيل انهم هم الرهبان كقوله تعالى عاملة ناصبة وعن مجاهد اهل الكتاب وعن على ان ابن الكواء سأله عنهم فقال هم اهل حروراء والاصل ان يقال هو الذي يأتى بالاعمال يظنها طاعات وهي في انفسها معاصى وان كانت طاعات لكنها لا تقبل منهم لاجل كفرهم فأولئك انما اتوا بتلك الاعمال لرجاء الثواب وانما اتعبوا انفسهم فيها لطلب الاجر والفوز يوم القيامة فاذا لم يفوزوا بمطالبهم بين انهم كانوا ضالين ثم انه تعالى بين صنعهم فقال اولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت اعمالهم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لقاء الله عبارة عن رؤيته بدليل انه يقال لقيت فلانا اى رأيته فان قيل اللقاء عبارة عن الوصول قال تعالى فالتقى الماء على امر قد قدر وذلك في حق الله تعالى محال فوجب حمله على لقاء ثواب الله والجواب ان لفظ اللقاء وان كان في الاصل عبارة عن الوصول والملاقاة الا ان استعماله في الرؤية مجاز ظاهر مشهور والذي يقولونه من المراد منه لقاء ثواب الله فهو لا يتم الا بالاضمار ومن المعلوم ان حمل اللفظ على المجاز المتعارف المشهور اولى من حمله على ما يحتاج معه الى الاضمار (المسئلة الثانية) استدلت المعتزلة بقوله تعالى فحبطت اعمالهم على ان القول بالاحباط والتكفير حق وهذه المسئلة قد ذكرناها بالاستقصاء في سورة البقرة فلا نعيدها ثم قال تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا وفيه

هو الجنة الملتفة الاشجار وقيل هي الجنة التى تنبت ضروبا من النبات وقيل هي الجنة من الكرم خاصة وقيل ما كان غالبه كرما وقال المبرد هو فيما سمعت من العرب الشجر الملتف والاغلب عليه ان يكون من العنب وعن كعب انه ليس في الجنان اعلى من جنة الفردوس وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مسيرة مائة عام والفردوس اعلاها وفيها الانهار الاربعة فاذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فأن فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر انهار الجنة (نزلا) خبر كانت والجار والمجرور متعلق بمحذوف على انه حال من نزلا او على انه بيان او حال من جنات الفردوس والخبر هو الجار والمجرور فأن جعل النزل بمعنى ما يهيأ للنازل فالمعنى كانت لهم ثمار جنات الفردوس نزلا او جعلت نفس الجنات نزلا مبالغة في الاكرام وفيه ايذان بأنها عند ما اعدالله لهم على ماجرى على لسان النبوة من قوله اعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بمنزلة النزل بالنسبة الى الضيافة وان جعل بمعنى المنزل فالمعنى ظاهر (خالدين فيها) نصب على الحالية (لا يبغون عنها حولا) مصدر كالعوج والصغر اى لا يطلبون تحولا عنها اذ لا يتصور ان يكون شئ اعز عندهم وارفع منها حتى تنازعهم اليه انفسهم وتطمح نحوه ابصارهم ويجوز ان يراد نفى التحول

وجوه (الاول) انا نزدرى بهم وليس لهم عندنا وزن ومقدار (الثانى) لانقيم لهم ميزانا لان الميزان انما يوضع لاهل الحسنات والسيئات من الموحدين لتمييز مقدار الطاعات ومقدار السيئات (الثالث) قال القاضى ان من غلبت معاصيه صار ما فى فعله من الطاعة كأن لم يكن فلا يدخل فى الوزن شئ من طاعته وهذا التفسير بناء على قوله بالاحباط والتكفير ثم قال تعالى ذلك جزاؤهم جهنم فقوله ذلك اى ذلك الذى ذكرناه وفصلناه من انواع الوعيد هو جزاؤهم على اعمالهم الباطلة وقوله جهنم عطف بيان لقوله جزاؤهم ثم بين تعالى ان ذلك الجزاء جزاء على مجموع امرين (احدهما) كفرهم (الثانى) انهم اضافوا الى الكفر ان اتخذوا آيات الله واتخذوا رسله هزوا فلم يقتصروا على الرد عليهم وتكذيبهم حتى استهزؤا بهم ❋ قوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما ذكر الوعيد اتبعه بالوعد ولما ذكر فى الكفار ان جهنم نزلهم اتبعه بذكر ما رغب فى الايمان والعمل الصالح فقال ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا (المسئلة الثانية) عطف عمل الصالحات على الايمان والمعطوف مغاير للمعطوف عليه وذلك يدل على ان الاعمال الصالحة مغايرة للايمان (المسئلة الثالثة) عن قتادة الفردوس وسط الجنة وافضلها وعن كعب ليس فى الجنان اعلى من جنة الفردوس وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وعن مجاهد الفردوس هو البستان بالرومية وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مسيرة مائة عام والفردوس اعلاها درجة ومنها الانهار الاربعة والفردوس من فوقها فاذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فان فوقها عرش الرحمن ومنها يتفجر انهار الجنة (المسئلة الرابعة) قال بعضهم انه تعالى جعل الجنة بكليتها نزلا للمؤمنين والكريم اذا اعطى النزل اولا فلابدان يتبعه بالخلعة وليس بعد الجنة بكليتها الارؤية الله فان قالوا اليس انه تعالى جعل فى الاية الاولى جملة جهنم نزلا للكافرين ولم يبق بعد جملة جهنم عذاب آخر فكذلك ههنا جعل جملة الجنة نزلا للمؤمنين مع انه ليس له شئ آخر بعد الجنة والجواب قلنا للكافر بعد حصول جهنم مرتبة اعلى منها وهو كونه محجوبا عن رؤية الله كما قال تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم فجعل الصلاء بالنار متأخرا فى المرتبة عن كونه محجوبا عن الله ثم قال تعالى لا يبغون عنها حولا الحول التحول يقال حال من مكانه حولا كقوله عاد فى حبها عودا يعنى لا مزيد على سعادات الجنة وخيراتها حتى يريد اشياء غيرها وهذا الوصف يدل على غاية الكمال لان الانسان فى الدنيا اذا وصل الى اى درجة كانت فى السعادات فهو طامح الطرف الى ما هو اعلى منه ❋ قوله تعالى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما

وتأكيد الخلود والجملة حال من صاحب خالدين او من ضميره فيه فيكون حالا متداخلة (قل لو كان البحر) اى جنس البحر (مدادا) وهو ما تمد به الدواة من الحبر (لكلمات ربى) لتحرير كلمات علمه وحكمته التى من جملتها ما ذكر من الآيات الداعية الى التوحيد المحذرة من الاشراك (لنفد البحر) مع كثرته ولم يبق منه شئ لتناهيه (قبل ان تنفد) وقرئ بالياء والمعنى من غير ان تنفد (كلمات ربى) لعدم تناهيها فلا دلالة للكلام على نفادها بعد نفاد البحر وفى اضافة الكلمات الى اسم الرب المضاف الى ضميره صلى الله عليه وسلم فى الموضعين من تفخيم المضاف وتشريف المضاف اليه ما لا يخفى واظهار البحر والكلمات فى موضع الاضمار لزيادة التقرير (ولو جئنا) كلام من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن جيء به لتحقيق مضمونه وتصديق مدلوله مع زيادة مبالغة وتأكيد والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة المذكورة عليها دلالة واضحة اى لنفد البحر من غير نفاد كلماته تعالى لو لم نجئ بمثله مددا ولو جئنا بقدرتنا الباهرة (بمثله مددا) عونا وزيادة لان مجموع المتناهيين متناه بل مجموع ما يدخل تحت الوجود من الاجسام لا يكون الا متناهيا لقيام الادلة الناطقة على تناهى الابعاد وقرئ مددا جمع مدة وهى ما يستمده الكاتب وقرئ مدادا (قل) لهم بعد ما بينت لهم شأن كلماته تعالى

الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا)
وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما ذكر فى هذه السورة انواع الدلائل
والبينات وشرح فيها اقاصيص الاولين نبه على كمال حال القرآن فقال قل لو كان البحر
مدادا لكلمات ربى والمداد اسم لما تمد به الدواة من الحبر ولما يمد به السراج من السليط
والمعنى لو كتبت كلمات علم الله وحكمه وكان البحر مدادا لها والمراد بالبحر الجنس لنفد
قبل أن تنفد الكلمات وتقرير الكلام ان البحار كيفما فرضت فى الاتساع والعظمة
فهى متناهية ومعلومات الله غير متناهية والمتناهى لا يفى البتة بغير المتناهى قرأ حمزة
والكسائى ينفد بالياء لتقدم الفعل على الجمع والباقون بالتاء لتأنيث كلمات وروى ان
حيى بن اخطب قال فى كتابكم ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا ثم تقرؤن
وما اوتيتم من العلم الا قليلا فنزلت هذه الآية يعنى ان ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر
كلمات الله (المسئلة الثانية) احتج المخالفون على الطعن فى قول اصحابنا ان كلام الله
تعالى واحد بهذه الآية وقالوا انها صريحة فى اثبات كلمات الله تعالى واصحابنا حملوا
الكلمات على متعلقات علم الله تعالى قال الجبائى وايضا قوله قبل ان تنفد كلمات ربى
يدل على ان كلمات الله تعالى قد تنفد فى الجملة وما ثبت عدمه امتنع قدمه وايضا قال ولو
جئنا بمثله مددا وهذا يدل على انه تعالى قادر على ان يجئ بمثل كلامه والذى يجاء به
يكون محدثا والذى يكون المحدث مثلا له فهو ايضا محدث وجواب اصحابنا ان المراد منه
الالفاظ الدالة على تعلقات تلك الصفة الازلية واعلم انه تعالى لما بين كمال كلام الله امر
محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يسلك طريقة التواضع فقال قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى
اى لا امتياز بينى وبينكم فى شئ من الصفات الا ان الله تعالى اوحى الى انه لا اله الا الله
الواحد الاحد الصمد والآية تدل على مطلوبين (الاول) ان كلمة انما تفيد الحصر
وهى قوله انما الهكم اله واحد (والثانى) ان كون الاله تعالى الها واحدا يمكن اثباته
بالدلائل السمعية وقد قررنا هذين المطلوبين فى سائر السور بالوجوه القوية ثم قال فمن كان
يرجو لقاء ربه والرجاء هو ظن المنافع الواصلة اليه والخوف ظن المضار الواصلة اليه
واصحابنا حملوا لقاء الرب على رؤيته والمعتزلة حملوه على لقاء ثواب الله وهذه المناظرة
قد تقدمت والعجب انه تعالى اورد فى آخر هذه السورة ما يدل على حصول رؤية الله فى
ثلاث آيات (اولها) قوله اولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه (وثانيها) قوله كانت لهم
جنات الفردوس نزلا (وثالثها) قوله فمن كان يرجو لقاء ربه ولا بيان اقوى من ذلك ثم
قال فليعمل عملا صالحا اى من حصل له رجاء لقاء الله فليشتغل بالعمل الصالح ولما كان
العمل الصالح قد يؤتى به لله وقد يؤتى به للرياء والسمعة لا جرم اعتبر فيه قيدان ان يؤتى
به لله وان يكون مبرأ عن جهات الشرك فقال ولا يشرك بعبادة ربه احدا * قيل نزلت
هذه الآية فى جندب بن زهير قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى اعمل العمل لله تعالى

(انما انا بشر مثلكم) لا ادعى الاحاطة
بكلماته التامة (يوحى الى) من تلك
الكلمات (انما الهكم اله واحد)
لا شريك له فى الخلق ولا فى سائر
احكام الالوهية وانما تميزت
عنكم بذلك (فمن كان يرجو لقاء
ربه) الرجاء توقع وصول الخير فى
المستقبل والمراد بلقائه تعالى
كرامته وادخال الماضى على
المستقبل للدلالة على ان اللائق
بحال المؤمن الاستمرار والاستدامة
على رجاء اللقاء اى فمن استمر على
رجاء كرامته تعالى (فليعمل)
لتحصيل تلك الطلبة العزيزة (عملا
صالحا) فى نفسه لائقا بذلك المرجو
كما فعله الذين آمنوا وعملوا
الصالحات (ولا يشرك بعبادة ربه
احدا) اشراكا جليا كما فعله
الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه
ولا اشراكا خفيا كما يفعله اهل
الرياء ومن يطلب به اجرا وايثار
وضع المظهر موضع المضمر فى
الموضعين مع التعرض لعنوان
الربوبية لزيادة التقرير وللاشعار
بعلية العنوان للامر والنهى
ووجوب الامتثال فعلا وتركا
روى ان جندب بن زهير رضى
الله عنه قال لرسول الله صلى الله
عليه وسلم انى لاعمل العمل لله
تعالى فاذا اطلع عليه سرنى فقال
عليه الصلاة والسلام ان الله
لا يقبل ما شورك فيه فنزلت
تصديقا له وروى انه صلى الله
عليه وسلم قال له لك اجران اجر
السر واجر العلانية وذلك اذا
قصد ان يقتدى به وعنه عليه
السلام اتقوا الشرك الاصغر قيل
وما الشرك الاصغر قال الرياء * عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم

فاذا اطلع عليه احد سرني فقال عليه الصلاة و السلام ان الله لا يقبل ما شورك فيه وروى ايضا انه قال له لك اجران اجر السر و اجر العلانية فالرواية الاولى محمولة على ما اذا قصد بعمله الرياء و السمعة و الرواية الثانية محمولة على ما اذا قصد ان يقتدى به و المقام الاول مقام المبتدئين و المقام الثانى مقام الكاملين والحمد لله رب العالمين و الصلاة على سيدنا محمد وآله و صحبه اجمعين قال المصنف رضي الله عنه تم تفسير هذه السورة يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر صفر سنة اثنتين و ستمائة فى بلدة غزنين و نسأل الله اكرم الاكرمين و احم الراحمين ان يخصنا بالمغفرة و الفضل فى يوم الدين انه ذو الفضل العظيم

*(سورة مريم عليها السلام ثمان و تسعون آية مكية)*

*(بسم الله الرحمن الرحيم)*

( كهيعص )قبل الخوض فى القراآت لابد من مقدمات ثلاثة ( المقدمة الاولى ) ان حروف المعجم على نوعين ثنائى وثلاثى وقد جرت عادة العرب ان ينطقوا بالثنائيات مقطوعة ممالة فيقولو با تا ثا وكذلك امثالها وان ينطقوا بالثلاثيات التى فى وسطها الالف مفتوحة مشبعة فيقولوا دال ذال صاد ضاد وكذلك اشكالها اما الزاى وحده من بين حروف المعجم فمعتاد فيه الامران فان من اظهر ياءه فى النطق حتى يصير ثلاثيا لم يمله ومن لم يظهر ياءه فى النطق حتى يشبه الثنائى مهله (اما المقدمة الثانية) ينبغى ان يعلم ان اشباع الفتحة فى جميع المواضع اصل والامالة فرع عليه ولهذا يجوز اشباع كل ممال ولا يجوز امالة كل مشبع من المفتوحات (المقدمة الثالثة ) للقراء فى القراآت المخصوصة بهذا الموضع ثلاثة طرق (احدها) ان يتمسكوا بالاصل وهو اشباع فتحة الهاء والياء (وثانيها) ان يميلوا الهاء والياء (وثالثها) ان يجمعوا بين الاصل والفرع فيقع الاختلاف بين الهاء والياء فيفتحوا احدهما ايهما كان ويكسروا الآخر ولهم فى السبب الموجب لهذا الاختلاف قولان ( الاول ) ان الفتحة المشبعة اصل والامالة فرع مشهور كثير الاستعمال فاشبع احدهما واميل الآخر ليكون جامعا لمراعاة الاصل والفرع وهو احسن من مراعاة احدهما وتضييع الآخر (القول الثانى ) ان الثنائية من حروف المعجم اذا كانت مقطوعة كانت بالامالة واذا كانت موصولة كانت بالاشباع وها ويا فى قوله تعالى كهيعص مقطوعان فى اللفظ موصولان فى الخط فأميل احدهما واشبع الآخر ليكون كلا الجانبين مرعيا جانب القطع اللفظى وجانب الوصل الخطى اذا عرفت هذا فنقول فيه قراآت (احداها ) وهى القراءة المعروفة فيه فتحة الهاء والياء جميعا (وثانيها) كسر الهاء وفتح الياء وهى قراءة ابى عمرو وابن مبادر والقطعى عن ايوب وانما كسروا الهاء دون الياء ليكون فرقا بينه وبين الهاء الذى للتنبيه فانه لا يكسر قط (وثالثها) فتح الهاء وكسر الياء وهو قراءة حمزة واعمش وطلحة والضحاك عن عاصم وانما كسروا الياء دون الهاء لان الياء اخت الكسرة واعطاء الكسرة اختها اولى من اعطائها الى



من قرأ سورة الكهف من اخرها كانت له نورا من قرنه الى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الارض الى السماء وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ عند مضجعه قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى الخ كان له من مضجعه نور يتلألأ الى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم وان كان مضجعه بمكة كان له نورا يتلألأ من مضجعه الى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ الحمد لله سبحانه على نعمه العظام

* (سورة مريم عليها السلام ( مكية الاآية السجدة وهى ) (ثمان او تسع وتسعون آية) *

* ( بسم الله الرحمن الرحيم ) *

( كهيعص ) بامالة الهاء والياء واظهار الدال وقرئ بفتح الهاء وامالة الياء وبتفخيمهما وباخفاء النون قبل الصاد لتقاربهما وقد سلف ان ما لا يكون من هذه الفواتح مفردة ولا موازنة لمفرد فطريق التلفظ بها الحكاية فقط ساكنة الاعجاز على الوقف سواء جعلت اسما للسور او مسرودة على نمط التعديد وان لزمها التقاء الساكنين لكونه مغتفرا فى باب الوقف قطعا فحق هذه الفاتحة الكريمة ان يوقف عليها جريا على الاصل وقرئ بادغام الدال فيما بعدها لتقاربهما فى المخرج فان جعلت اسما للسورة على ما عليه اطباق الاكثر فمحله الرفع اما على انه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير هذا كهيعص اى مسمى به وانما صحت الاشارة اليه مع عدم جريان ذكره لانه باعتبار كونه على جناح الذكر

اجنبية مفتوحة للمناسبة (ورابعها) امالتهما جميعا وهو قراءة الكسائي والمفضل ويحيى عن عاصم والوليد بن اسلم عن ابن عامر والزهري وابن جرير وانما امالوهما للوجهين المذكورين في امالة الهاء وامالة الياء (وخامسها) قراءة الحسن وهي ضم الهاء وفتح الياء وعنه ايضا فتح الهاء وضم الياء وروى صاحب الكشاف عن الحسن بضمهما فقيل له لم تثبت هذه الرواية عن الحسن لانه اورد ابن جني في كتاب المكتسب ان قراءة الحسن ضم احدهما وفتح الآخر لا على التعيين وقال بعضهم انما اقدم الحسن على ضم احدهما لا على التعيين لانه تصور ان عين الفعل في الهاء والياء الف منقلب عن الواو كالدار والمال وذلك لان هذه الالفات وان كانت مجهولة لانها لا اشتقاق لها فانها تحمل على ماهو مشابه لها في اللفظ والالف اذا وقع عينا فالوا جب ان يعتقد انه منقلب عن الواو لان الغالب في اللغة ذلك فلما تصور الحسن ان الف الهاء والياء منقلب عن الواو جعله في حكم الواو وضم ماقبله لان الواو اخت الضمة (وسادسها) هايا باشمامهما شيئا من الضمة (المسئلة الثانية) قرأ ابو جعفر كهيعص بفصل الحروف بعضها من بعض بأدنى سكتة مع اظهار نون العين وباقي القراء يصلون الحروف بعضها ببعض ويخفون النون (المسئلة الثالثة) القراءة المعروفة صاد ذكر بالادغام وعن عاصم ويعقوب بالاظهار (البحث الثاني) المذاهب المذكورة في هذه الفواتح قد تقدمت لكن الذي يختص بهذا الموضع ماروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ان قوله تعالى كهيعص ثناء من الله على نفسه فمن الكاف وصفه بانه كاف ومن الهاء هاد ومن العين عالم ومن الصاد صادق وعن ابن عباس رضي الله عنهما ايضا انه حمل الكاف على الكبير والكريم ويحكى ايضا عنه انه حمل الياء على الكريم مرة وعلى الحكيم اخرى وعن الربيع بن انس في الياء انه من مجير وعن ابن عباس رضي الله عنها في العين انه من عزيز ومن عدل وهذه الاقوال ليست قوية لما بينا انه لا يجوز من الله تعالى ان يودع كتابه مالاتدل عليه اللغة لا بالحقيقة ولا بالمجاز لانا ان جوزنا ذلك فتح علينا قول من يزعم ان لكل ظاهر باطنا واللغة لا تدل على ماذكروه فانه ليست دلالة الكاف على الكافي اولى من دلالته على الكريم او الكبير او على اسم آخر من اسماء الرسول صلى الله عليه وسلم او الملائكة او الجنة او النار فيكون حمله على بعضها دون البعض تحكما لا تدل عليه اللغة اصلا ❊ قوله تعالى (ذكر رحمة ربك عبده زكريا) فيه مسائل (المسئلة الاولى) في لفظة ذكر اربع قرآآت صيغة المصدر او الماضي مخففة او مشددة والامر اما صيغة المصدر فلابد فيها كسر رحمة ربك على الاضافة ثم فيها ثلاثة اوجه (احدها) نصب الدال من عبده والهمزة من زكرياء وهو المشهور (وثانيها) رفعهما والمعنى وتلك الرحمة هي عبده زكرياء عن ابن عامر (وثالثها) بنصب الاول ورفع الثاني والمعنى رحمة ربك عبده وهو زكرياء واما صيغة الماضي بالتشديد فلابد فيها من نصب رحمة واما صيغة الماضي بالتخفيف ففيها وجهان (احدهما) رفع الباء من ربك

صار في حكم الحاضر المشاهد كما يقال هذا مااشترى فلان او على انه مبتدأ خبره (ذكر رحمة ربك) اي المسمى به ذكر رحمة الخ فان ذكرها لما كان مطلع السورة الكريمة ومعظم ماانطوت هي عليه جعلت كأنها نفس ذكرها والاول هو الاولى لان مايجعل عنوانا للموضوع حقه ان يكون معلوم الانتساب اليه عند المخاطب واذلاعلم بالتسمية من قبل فحقها الاخبار بها كما في الوجه الاول وان جعلت مسرودة على نمط التعديد حسبما جنح اليه اهل التحقيق فذكر الخ خبر لمبتدأ محذوف هو ماينبئ عنه تعديد الحروف كأنه قيل المؤلف من جنس هذه الحروف المبسوطة مراد ابه السورة ذكر رحمة الخ او اسم اشارة اشير به اليه تنزيلا لحضور المادة منزلة حضور المؤلف منها اي هذا ذكر رحمة الخ وقيل هو مبتدأ قد حذف خبره اي فيما يتلى عليك ذكرها وقرئ ذكر رحمة ربك على صيغة الماضي من التذكير اي هذا المتلو ذكرها وقرئ ذكر على صيغة الامر والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضميره عليه السلام للايذان بأن تنزيل السورة عليه عليه الصلاة والسلام تكميل له عليه السلام وقوله تعالى (عبده) مفعول لرحمة ربك على انها مفعول لما اضيف اليها وقيل للذكر على انه مصدر اضيف الى فاعله على الاتساع ومعنى ذكر الرحمة بلوغها واصابتها كما يقال ذكرني معروف فلان اي بلغني وقوله عزوعلا (زكريا) بدل منه اوعطف بيان له

والمعنى ذكر ربك عبده زكرياء (وثانيها) نصب الباء من ربك والرفع في عبده زكرياء
وذلك بتقديم المفعول على الفاعل وهاتان القراءتان للكلبي واما صيغة الامر فلابد
من نصب رحمة وهي قراءة ابن عباس واعلم ان على تقدير جعله صيغة المصدر والماضي
يكون التقدير هذا المتلو من القرآن ذكر رحمة ربك (المسئلة الثانية) يحتمل ان يكون
المراد من قوله رحمة ربك اعني عبده زكرياء ثم في كونه رحمة وجهان (احدهما) ان يكون
رحمة على امته لانه هداهم الى الايمان والطاعات (والآخر) ان يكون رحمة على نبينا محمد
صلى الله عليه وسلم وعلى امة محمد لان الله تعالى لما شرح لمحمد صلى الله عليه وسلم طريقه
في الاخلاص والابتهال في جميع الامور الى الله تعالى صار ذلك لفظا داعياله ولامته
الى تلك الطريقة فكان زكرياء رحمة ويحتمل ان يكون المراد ان هذه السورة فيها ذكر
الرحمة التي رحم بها عبده زكرياء * قوله تعالى (اذ نادى ربه نداء خفيا) راعى سنة الله في
اخفاء دعوته لان الجهر والاخفاء عند الله سيان فكان الاخفاء اولى لانه ابعد عن الرياء
وادخل في الاخلاص (وثانيها) اخفاه لئلا يلام على طلب الولد في زمان الشيخوخة
(وثالثها) اسره من مواليه الذين خافهم (ورابعها) خفي صوته لضعفه وهرمه كما جاء في
صفة الشيخ صوته خفات وسمعه تارات فان قيل من شرط النداء الجهر فكيف الجمع بين
كونه نداء وخفيا والجواب من وجهين (الاول) انه اتى بأقصى ماقدر عليه من رفع
الصوت الا ان الصوت كان ضعيفا لنهاية الضعف بسبب الكبر فكان نداء نظرا الى قصده
وخفيا نظرا الى الواقع (الثاني) انه دعا في الصلاة لان الله تعالى اجابه في الصلاة لقوله
تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ان الله يبشرك بيحيى فكون الاجابة في
الصلاة يدل على كون الدعاء في الصلاة فوجب ان يكون النداء فيها خفيا * قوله تعالى
(قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم اكن بدعائك رب شقيا واني خفت
الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب
واجعله رب رضيا) القراءة فيها مسائل (المسئلة الاولى) قرئ وهن بالحركات الثلاث
(المسئلة الثانية) ادغام السين في السين عن ابي عمرو (المسئلة الثالثة) واني خفت
الموالي بفتح الياء وعن الزهري باسكان الياء من الموالي وقرأ عثمان وعلي بن الحسين
ومحمد بن علي وسعيد بن جبير وزيد بن ثابت وابن عباس خفت بفتح الخاء والفاء مشددة
وكسر التاء وهذا يدل على معنيين (احدهما) ان يكون ورائي بمعنى بعدي والمعنى انهم
قلوا وعجزوا عن اقامة الدين بعده فسأل ربه تقويتهم بولي يرزقه (والثاني) ان يكون
بمعنى قدامي والمعنى انهم خفوا قدامه ودرجوا ولم يبق من به تقووا واعتضاد (المسئلة
الرابعة) القراءة المعروفة من ورائي بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة وعن حميد بن مقسم
كذلك لكن بفتح الياء وقرأ ابن كثير وراي كعصاي (المسئلة الخامسة) في يرثني ويرث
وجوه (احدها) القراءة المعروفة بالرفع فيهما صفة (وثانيها) وهي قراءة أبي عمرو

(والكسائي)

(اذ نادى ربه نداء خفيا) ظرف لرحمة ربك وقيل لذكر على انه مضاف الى فاعله اتساعا الا على الوجه الاول لفساد المعنى وقيل هو بدل اشتمال من زكريا كما في قوله واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت ولقد راعى عليه الصلاة والسلام حسن الادب في اخفاء دعائه فانه مع كونه بالنسبة اليه عز وجل كالجهر ادخل في الاخلاص وابعد من الرياء واقرب الى الخلاص عن لائمة الناس على طلب الولد لتوقفه على مباد لايليق به تعاطيها في اوان الكبر والشيخوخة وعن غائلة مواليه الذين كان يخافهم وقيل كان ذلك منه عليه السلام لضعف الهرم قالوا كان سنه حينئذ ستين وقيل خمسا وستين وقيل سبعين وقيل خمسا وسبعين وقيل ثمانين وقيل اكثر منها كما مر في تفسير سورة آل عمران (قال) جملة مفسرة لنادى لا محل لها من الاعراب (رب اني وهن العظم مني) اسناد الوهن الى العظم لما انه عماد البدن ودعام الجسد فاذا اصابه الضعف والرخاوة اصاب كله اولانه اشد اجزائه صلابة وقواما واقلها تأثرا من العلل فاذا وهن كان ماوراءه اوهن وافراده للقصد الى الجنس المنبئ عن شمول الوهن لكل فرد من افراده ومني متعلق بمحذوف هو حال من العظم وقرئ وهن بكسر الهاء وبضمها ايضا وتأكيد الجملة لابراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونها (واشتعل الرأس شيبا) شبه عليه الصلاة والسلام الشيب في البياض والانارة بشواظ النار وانتشاره

الكسائي والزهري والأعمش وطلحة بالجزم فيهاجوابا للدعاء (وثالثها) عن علي ابن ابي طالب وابن عباس وجعفر بن محمد والحسن وقتادة يرثني جزم وارث بوزن فاعل (ورابعها) عن ابن عباس يرثني وأرث من آل يعقوب (وخامسها) عن الجحدري اويرث تصغير وارث على وزن افيعل (اللغة) الوهن ضعف القوة قال في الكشاف شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وانارته وانتشاره في الشعر وفشوه فيه واخذه كل ماخذ كاشتعال النار ثم اخرجه مخرج الاستعارة ثم اسند الاشتعال الى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس واخرج الشيب مميزا ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب انه رأس زكريا فمن ثم فصحت هذه الجملة واما الدعاء فطلب الفعل ومقابله الاجابة كما ان مقابل الامر الطاعة واما اصل التركيب في ولي فيدل على معنى القرب والدنو يقال وليته أليه وليا اي دنوت واوليته ادنيته منه وتباعد مابعده وولي ومنه قول ساعدة * وعدت عوادددون وليك تشعب * وكل مما يليك وجلست مما يليه ومنه الولي وهو المطر الذي يلي الوسمي والولية البرذعة لانها تلي ظهر الدابة وولي اليتيم والقتيل وولي البلد لان من تولى امرا فقد قرب منه وقوله تعالى فول وجهك شطر المسجد الحرام من قولهم ولاه بركنه اي جعله مما يليه واما اولى عني اذا ادبر فهو من باب تثقيل الحشو للسلب وقولهم فلان اولى من فلان اي احق افعل التفضيل من الوالي او الولي كالادنى والاقرب من الداني والقريب وفيه معنى القرب ايضا لان من كان احق بالشيء كان اقرب اليه والمولى اسم لموضع الولي كالمرمى والمبنى اسم لموضع الرمي والبناء واما العاقر فهي التي لاتلد والعقر في اللغة الجرح ومنه اخذ العاقر لانه نقص اصل الخلقة وعقرت الفرس بالسيف اذا ضربت قوائمه واما الآل فهم خاصة الرجل الذي يؤل امرهم اليه ثم قد يؤل امرهم اليه للقرابة تارة وللصحبة اخرى كآل فرعون وللموافقة في الدين كآل النبي صلى الله عليه وسلم واعلم ان زكرياء عليه السلام قدم على السؤال امورا ثلاثة (احدها) كونه ضعيفا (والثاني) ان الله تعالى ماردد عاءه البتة (والثالث) كون المطلوب بالدعاء سببا للمنفعة في الدين ثم بعد تقرير هذه الامور الثلاثة صرح بالسؤال (اما المقام الاول) وهو كونه ضعيفا فأثر الضعف اما ان يظهر في الباطن او في الظاهر والضعف الذي يظهر في الباطن يكون اقوى مما يظهر في الظاهر فلهذا السبب ابتدأ ببيان الضعف الذي في الباطن وهو قوله وهن العظم مني وتقريره هو ان العظام اصلب الاعضاء التي في البدن وجعلت كذلك لمنفعتين (احداهما) لان تكون اساسا وعمدا يعتمد عليها سائر الاعضاء الاخر اذا كانت الاعضاء كلها موضوعة على العظام والحامل يجب ان يكون اقوى من المحمول (والثانية) انه احتيج اليها في بعض المواضع لان تكون جنة يقوى بها ماسواها من الاعضاء بمنزلة قحف الرأس وعظام الصدر وما كان كذلك فيجب ان يكون صلبا ليكون صبورا على ملاقاة الآفات بعيدا من القبول لها اذا ثبت هذا فنقول اذا كان

في الشعر وفشوه فيه واخذه منه كل مأخذ باشتعالها ثم اخرجه مخرج الاستعارة ثم اسند الاشتعال الى محل الشعر ومنبته واخرجه مخرج التمييز واطلق الرأس اكتفاء بما قيد به العظم وفيه من فنون البلاغة وكمال الجزالة مالا يخفى حيث كان الاصل اشتعل شيب رأسي فاسند الاشتعال الى الرأس كما ذكر لافادة شموله لكلها فان وزانه بالنسبة الى الاصل وزان اشتعل بيته نارا بالنسبة الى اشتعل النار في بيته ولزيادة تقريره بالاجمال اولا والتفصيل ثانيا ولمزيد تفخيمه بالتنكير وقرئ بادغام السين في الشين (ولم اكن بدعائك رب شقيا) اي ولم اكن بدعائي اياك خائبا في وقت من اوقات هذا العمر الطويل بل كلما دعوتك استجبت لي والجملة معطوفة على ماقبلها او حال من ضمير المتكلم اذ المعنى واشتعل رأسي شيبا وهذا توسل منه عليه السلام بما سلف منه من الاستجابة عند كل دعوة اثر تمهيد مايستدعي الرحمة ويستجلب الرأفة من كبر السن وضعف الحال فانه تعالى بعد ماعوده بالاجابة دهرا طويلا لايكاد يخيبه ابدا لاسيما عند اضطراره وشدة افتقاره والتعرض في الموضعين لوصف الربوبية المنبئة عن اضافة مافيه صلاح المربوب مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام لاسيما توسيطه بين كان وخبرها لتحريك سلسلة الاجابة بالمبالغة في التضرع ولذلك قيل اذا اراد العبد ان يستجاب له دعاؤه فليدع الله تعالى بما يناسبه من اسمائه وصفاته (واني خفت الموالي)

العظم اصلب الاعضاء فتى وصل الامر الى ضعفها كان ضعف ماعداها مع رخاوتها اولى ولان العظم اذا كان حاملا لسائر الاعضاء كان تطرق الضعف الى الحامل موجبا لتطرقه الى المحمول فلهذا السبب خص العظم بالوهن من بين سائر الاعضاء واما اثر الضعف فى الظاهر فذلك استيلاء الشيب على الرأس فثبت ان هذا الكلام يدل على استيلاء الضعف على الباطن والظاهر وذلك ممايزيد الدعاء توكيدا لما فيه من الارتكان على حول الله وقوته والتبرى عن الاسباب الظاهرة ( المقام الثانى) انه ماكان مردود الدعاء البتة ووجه التوسل به من وجهين (احدهما) ماروى ان محتاجا سأل واحدا من الاكابر وقال انا الذى احسنت الى وقت كذا فقال مرحبا بمن توسل بنا الينا ثم قضى حاجته وذلك انه اذا قبله اولا فلو انه رده ثانيا لكان الرد محبطا للانعام الاول والنعم لايسعى فى احباط انعامه ( والثانى) وهو ان مخالفة العادة شاقة على النفس فاذا تعود الانسان اجابة الدعاء فلو صار مردودا بعد ذلك لكان فى غاية المشقة ولان الجفاء ممن يتوقع منه الانعام يكون اشق فقال زكرياء عليه السلام انك ماردتنى فى اول الامر مع انى ماتعودت لطفك وكنت قوى البدن قوى القلب فلو رددتنى الآن بعد ماعودتنى القبول مع نهاية ضعفى لكان ذلك بالغا الى الغاية القصوى فى الم القلب واعلم ان العرب تقول سعد فلان بحاجته اذا ظفر بها وشقى بها اذا خاب ولم ينلها ومعنى بدعائك اى بدعائى اياك فان الفعل قد يضاف الى الفاعل تارة والى المفعول اخرى ( المقام الثالث ) بيان كون المطلوب منتفعا به فى الدين وهو قوله وانى خفت الموالى من ورائى وفيه ابحاث ( الاول) قال ابن عباس والحسن انى خفت الموالى اى الورثة من بعدى وعن مجاهد العصبة وعن ابى صالح الكلالة وعن الاصم بنو العم وهم الذين يلونه فى النسب وعن ابى مسلم المولى يراد به الناصر وابن العم والمالك والصاحب وهو ههنا من يقوم بميراثه مقام الولد والمختار ان المراد من الموالى الذين يخلفون بعده اما فى السياسة او فى المال الذى كان له او فى القيام بأمر الدين فقد كانت العادة جارية ان كل من كان الى صاحب الشرع اقرب فانه كان متعينا فى الحياة ( الثانى) اختلفوا فى خوفه من الموالى فقال بعضهم خافهم على افساد الدين وقال بعضهم بل خاف ان ينتهى امره اليهم بعد موته فى مال وغيره مع انه عرف من حالهم قصورهم فى العلم والقدرة عن القيام بذلك المنصب وفيه قول ثالث وهو انه يحتمل ان يكون الله تعالى قد اعلمه انه لم يبق من انبياء بنى اسرائيل نبى له اب الا واحد فخاف ان يكون ذلك من بنى عمه اذا لم يكن له ولد فسأل الله تعالى ان يهب له ولدا يكون هو ذلك النبى وذلك يقتضى ان يكون خائفا من امر يهتم بمثله الانبياء وان لم يدل على تفصيل ذلك ولا يمتنع ان زكرياء كان اليه مع النبوة السياسة من جهة الملك وما يتصل بالامامة فخاف منهم بعده على احدهما او عليهما اما قوله وانى خفت فهو وان خرج على لفظ الماضى لكنه يفيد انه فى المستقبل ايضا كذلك يقول الرجل قد خفت ان

عطف على قوله تعالى انى وهن العظم مترتب مضمونه على مضمونه فان ضعف القوى وكبر السن من مبادى خوفه عليه السلام من يلى امره بعد موته ومواليه بنو عمه وكانوا اشرار بنى اسرائيل فخاف ان لايحسنوا خلافته فى أمته ويبدلوا عليهم دينهم وقوله (من ورائى ) اى بعد موتى متعلق بمحذوف ينساق اليه الذهن اى فعل الموالى من بعدى او جور الموالى وقد قرئ كذلك او بما فى الموالى من معنى الولاية اى خفت الذين يلون الامر من ورائى لا بخفت لفساد المعنى وقرئ وراى بالقصر وفتح الياء وقرئ خفت الموالى من ورائى اى قلوا وعجزوا عن القيام بأمور الدين بعدى او خفت الموالى القادرون على اقامة مراسم الملة ومصالح الامة من خف القوم اى ارتحلوا مسرعين اى درجوا قدامى ولم يبق منهم من به تقو واعتضاد فالظرف حينئذ متعلق بخفت ( وكانت امرأتى عاقرا) اى لاتلد من حين شبابها ( فهب لى من لدنك ) كلا الجارين متعلق بهب لاختلاف معنييهما فاللام صلة له ومن لابتداء الغاية مجازا وتقديم الاول لكون مدلوله اهم عنده ويجوز تعلق الثانى بمحذوف وقع حالا من المفعول ولدن فى الاصل ظرف بمعنى اول غاية زمان او مكان اوغيرهما من الذوات وقد مر تفصيله اوائل سورة آل عمران اى اعطنى من محض فضلك الواسع وقدرتك الباهرة بطريق الاختراع

يكون كذا وخشيت ان يكون كذا اى انا خائف لا يريد انه قد زال الخوف عنه وهكذا قوله وكانت امرأتى عاقرا اى انها عاقر فى الحال وذلك لان العاقر لا تحول ولودا فى العادة ففى الاخبار عنه بلفظ الماضى اعلام بتقادم العهد فى ذلك وغرض زكريا من هذا الكلام بيان استبعاد حصول الولد فكان ايراده بلفظ الماضى أقوى والى هذا يرجع الامر فى قوله وانى خفت الموالى من ورائى لانه انما قصد به الاخبار وعن تقادم الخوف ثم استغنى بدلالة الحال وما يوجب مسئلة الوارث واظهار الحاجة عن الاخبار بوجود الخوف فى الحال وايضا فقد يوضع الماضى مكان المستقبل وبالعكس قال الله تعالى واذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس والله اعلم واما قوله من ورائى ففيه قولان (الاول) قال ابو عبيدة اى قدامى وبين يدى وقال آخرون اى بعد موتى وكلاهما محتمل فان قيل كيف خافهم من بعده وكيف علم انهم يبقون بعده فضلا من ان يخاف شرهم قلنا ان ذلك قد يعرف بالامارات والظن وذلك كاف فى حصول الخوف فربما عرف ببعض الامارات استمرارهم على عادتهم فى الفساد والشر واختلف فى تفسير قوله فهب لى من لدنك وليا فالاكثرون على انه طلب الولد وقال آخرون بل طلب من يقوم مقامه ولدا كان او غيره والاقرب هو الاول لثلاثة اوجه (الاول) قوله تعالى فى سورة آل عمران حكاية عنه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة (والثانى) قوله فى هذه السورة هب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب (والثالث) قوله تعالى فى سورة الانبياء وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وهذا يدل على انه سأل الولد لانه قد اخبر فى سورة مريم ان له موالى وانه غير منفرد عن الورثة وهذا وان امكن حمله على وارث يصلح ان يقوم مقامه لكن حمله على الولد اظهر واحتج اصحاب القول الثالث بأنه لما بشر بالولد استعظم على سبيل التعجب فقال انى يكون لى غلام ولو كان دعاؤه لاجل الولد لما استعظم ذلك (الجواب) انه عليه السلام سأل عما يوهب له ابو هب له وهو وامرأته على هيئتهما او يوهب بأن يحولا شابين يكون لمثلهما ولد وهذا يحكى عن الحسن وقال غيره ان قول زكرياء عليه السلام فى الدعاء وكانت امرأتى عاقرا انما هو على معنى مسئلته ولدا من غيرها او منها بأن يصلحها الله للولد فكأنه عليه السلام قال انى ايست ان يكون لى منها ولد فهب لى من لدنك وليا كيف شئت اما بأن تصلحها فيكون الولد منها او بأن تهب لى من غيرها فلما بشر بالغلام سأل ايرزق منها او من غيرها فأخبر بأنه يرزق منها واختلفوا فى المراد بالميراث على وجوه (احدها) ان المراد بالميراث فى الموضعين هو وراثة المال وهذا قول ابن عباس والحسن والضحاك (وثانيها) ان المراد به فى الموضعين وراثة النبوة وهو قول ابى صالح (وثالثها) يرثنى المال ويرث من آل يعقوب النبوة وهو قول السدى ومجاهد والشعبى وروى ايضا عن ابن عباس والحسن والضحاك (ورابعها) يرثنى العلم ويرث من آل يعقوب النبوة وهو مروى عن مجاهد واعلم ان هذه الروايات ترجع الى احد امور خمسة وهى

لا بواسطة الاسباب العادية (وليا) اى ولدا من صلبى وتأخيره عن الجارين لاظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع مع ما فيه من التشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا اخر تبقى النفس مستشرفة له فعند وروده لها يتمكن عندها فضل تمكن ولان فيه نوع طول بما بعده من الوصف فتأخيرهما عن الكل او توسيطهما بين الموصوف والصفة مما لا يليق بجزالة النظم الكريم والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فأن ما ذكره عليه الصلاة والسلام من كبر السن وضعف القوى وعقر المرأة موجب لانقطاع رجائه عليه السلام عن حصول الولد بتوسط الاسباب العادية واستيهابه على الوجه الخارق للعادة ولا يقدح فى ذلك ان يكون هناك داع آخر الى الاقبال على الدعاء المذكور من مشاهدته عليه السلام للخوارق الظاهرة فى حق مريم كما يعرب عنه قوله تعالى هنالك دعا زكريا ربه الآية وعدم ذكره ههنا للتعويل على ذكره هناك كما ان عدم ذكر مقدمة الدعاء هناك للاكتفاء بذكره ههنا فأن الاكتفاء بما ذكر فى موطن عما ترك فى موطن آخر من النكت التنزيلية وقوله تعالى (يرثنى) صفة لوليا وقرئ هو وما عطف عليه بالجزم جوابا للدعاء اى يرثنى من حيث العلم والدين والنبوة فأن الانبياء عليهم الصلاة والسلام لا يورثون المال قال صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركنا صدقة وقيل يرثنى الحبورة وكان عليه السلام حبرا

المال ومنصب الحبورة والعلم والنبوة والسيرة الحسنة ولفظ الارث مستعمل في كلها اما في المال فلقوله تعالى اورثكم ارضهم وديارهم واموالهم واما في العلم فلقوله تعالى ولقد آتينا موسى الهدى واورثنا بني اسرائيل الكتاب وقال عليه السلام العلماء ورثة الانبياء وان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم وقال تعالى ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داود وهذا يحتمل وراثة الملك ووراثة النبوة وقد يقال اورثني هذا غما وحزنا وقد ثبت ان اللفظ محتمل لتلك الوجوه واحتج من حمل اللفظ على وراثة المال بالخبر والمعقول اما الخبر فقوله عليه السلام رحم الله زكريا ما كان له من يرثه وظاهره يدل على ان المراد ارث المال واما المعقول فمن وجهين (الاول) ان العلم والسيرة والنبوة لا تورث بل لا تحصل الا بالاكتساب فوجب حمله على المال (الثاني) انه قال واجعله رب رضيا ولو كان المراد من الارث ارث النبوة لكان قد سأل جعل النبي صلى الله عليه وسلم رضيا وهو غير جائز لان النبي لا يكون الا رضيا معصوما واما قوله عليه السلام انا معشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة فهذا لا يمنع ان يكون خاصا به واحتج من حمله على العلم او المنصب والنبوة بما علم من حال الانبياء ان اهتمامهم لا يشتد بأمر المال كما يشتد بأمر الدين وقيل لعله اوتي من الدنيا ما كان عظيم النفع في الدين فلهذا كان مهتما به اما قوله النبوة كيف تورث قلنا المال انما يقال ورثه الابن بمعنى قام فيه مقام ابيه وحصل له من فائدة التصرف فيه ما حصل لابيه والا فملك المال من قبل الله لا من قبل المورث فكذلك اذا كان المعلوم في الابن ان يصير نبيا بعده فيقوم بأمر الدين بعده جاز ان يقال ورثه اما قوله عليه السلام انا معشر الانبياء فهذا وان جاز حمله على الواحد كما في قوله تعالى انا نحن نزلنا الذكر لكنه مجاز وحقيقته الجمع والعدول عن الحقيقة من غير موجب لا يجوز لاسيما وقد روي قوله انا معشر الانبياء لا نورث والاولى ان يحمل ذلك على كل ما فيه نفع وصلاح في الدين وذلك يتناول النبوة والعلم والسيرة الحسنة والمنصب النافع في الدين والمال الصالح فان كل هذه الامور مما يجوز توفر الدواعي على بقائها ليكون ذلك النفع دائما مستمرا (السابع) اتفق اكثر المفسرين على ان يعقوب ههنا هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام لان زوجة زكرياء هي اخت مريم وكانت من ولد سليمان بن داود من ولد يهوذا بن يعقوب واما زكرياء عليه السلام فهو من ولد هرون أخي موسى عليه السلام وهرون وموسى عليهما السلام من ولد لاوي بن يعقوب بن اسحق وكانت النبوة في سبط يعقوب لانه هو اسرائيل صلى الله عليه وسلم وقال بعض المفسرين ليس المراد من يعقوب ههنا ولد اسحق بن ابراهيم عليه السلام بل يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان وكان آل يعقوب اخوال يحيى بن زكرياء وهذا قول الكلبي ومقاتل وقال الكلبي كان بنو ماثان رؤس بني اسرائيل وملوكهم وكان زكريا رأس الاحبار يومئذ

(فاراد)

﴿ ويرث من آل يعقوب ﴾ يقال ورثه وورث منه لغتان وآل الرجل خاصته الذين يؤل اليه امرهم للقرابة او الصحبة او الموافقة في الدين وكانت زوجة زكريا اخت ام مريم اي ويرث منهم الملك قيل هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام وقال الكلبي ومقاتل هو يعقوب ابن ماثان اخو عمران بن ماثان من نسل سليمان عليه السلام وكان آل يعقوب اخوال يحيي بن زكريا قال الكلبي كان بنو ماثان رؤس بني اسرائيل وملوكهم وكان زكريا رئيس الاحبار يومئذ فأراد ان يرثه ولده حبورته ويرث من بني ماثان ملكهم وقرئ ويرث وارث آل يعقوب على انه حال من المستكن في يرث وقرئ اويرث آل يعقوب بالتصغير ففيه ايماء الى وراثته عليه السلام لما يرثه في حالة صغره وقرئ وارث من آل يعقوب على انه فاعل يرثني على طريقة التجريد اي يرثني به وارث وقيل من للتبعيض اذ لم يكن كل آل يعقوب عليه السلام انبياء ولا علماء ﴿ واجعله رب رضيا ﴾ مرضيا عندك قولا وفعلا وتوسيط رب بين مفعولي اجعل للمبالغة في الاعتناء بشأن ما يستدعيه ﴿ يازكريا ﴾ على ارادة القول اي قال تعالى يازكريا ﴿ انا نبشرك بغلام اسمه يحيي ﴾ لكن لا بأن يخاطبه عليه الصلاة والسلام بذلك بالذات بل بواسطة الملك على ان يحكي له عليه الصلاة والسلام هذه العبارة عنه عز وجل على نهج قوله تعالى قل ياعبادي الذين اسرفوا الآية وقد مر تحقيقه في سورة آل عمران

فاراد ان يرثه ولده حبورته ويرث بني ماثان ملكهم واعلم انهم ذكروا في تفسير الرضى وجوها (احدها) ان المراد واجعله رضيا من الانبياء وذلك لان كلهم مرضيون فالرضى منهم مفضل على جماتهم فائق لهم في كثير من امورهم فاستجاب الله تعالى له ذلك فوهب له سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين لم يعص ولم يهم بمعصية وهذا غاية مايكون به المرء رضيا (وثانيها) المراد بالرضى ان يكون رضيا في امته لا يتلقى بالتكذيب ولا يواجه بالرد (وثالثها) المراد بالرضى ان لا يكون متهما في شيء ولا يوجد فيه مطعن ولا ينسب اليه شيء من المعاصي (ورابعها) ان ابراهيم واسمعيل عليهما السلام قالا في الدعاء ربنا واجعلنا مسلمين لك وكانا في ذلك الوقت مسلمين وكان المراد هناك ثبتنا على هذا او المراد اجعلنا فاضلين من انبيائك المسلمين فكذا ههنا واحتج اصحابنا في مسئلة خلق الافعال بهذه الآية لانه انما يكون رضيا بفعله فلما سأل الله تعالى جعله رضيا دل على ان فعل العبد مخلوق لله تعالى فان قيل المراد منه ان يلطف له بضروب الالطاف فيختار مايصير مرضيا فينسب ذلك الى الله تعالى والجواب من وجهين (الاول) ان جعله رضيا وحملناه على جعل الالطاف وعندها يصير المرء باختياره رضيا لكان ذلك مجازا وهو خلاف الاصل (والثاني) أن جعل تلك الالطاف واجبة على الله تعالى لا يجوز الاخلال به وما كان واجبا لا يجوز طلبه بالدعاء والتضرع * قوله تعالى (يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا) فيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا في من المنادي بقوله يازكريا فالاكثرون على انه هو الله تعالى وذلك لان ماقبل هذه الآية يدل على ان زكريا عليه السلام انما كان يخاطب الله تعالى ويسأله وهو قوله رب اني وهن العظم مني وقوله ولم اكن بدعائك رب شقيا وقوله فهب لي ومابعدها يدل على انه كان يخاطب الله تعالى وهو يقول رب انى يكون لي غلام واذا كان ماقبل هذه الآية ومابعدها خطابا مع الله تعالى وجب ان يكون النداء من الله تعالى والا لفسد النظم ومنهم من قال هذا نداء الملك واحتج عليه بوجهين (الاول) قوله تعالى في سورة آل عمران فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ان الله يبشرك بيحيى (الثاني) ان زكريا عليه السلام قال انى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا قال كذلك قال ربك هو علي هين وهذا لا يجوز ان يكون كلام الله فوجب ان يكون كلام الملك (والجواب) عن الاول انه يحتمل ان يقال حصل النداآن نداء الله ونداء الملائكة (وعن الثاني) انا نبين ان شاء الله تعالى ان قوله قال كذلك قال ربك هو علي هين يمكن ان يكون كلام الله (المسئلة الثانية) فان قيل ان كان الدعاء باذن فامعنى البشارة وان كان بغير اذن فلماذا اقدم عليه والجواب هذا امر يخصه فيجوز ان يسأل بغير اذن ويحتمل انه اذن له فيه ولم يعلم وقته فبشر به (المسئلة الثالثة) اختلف المفسرون في قوله لم نجعل له من قبل سميا على وجهين (احدهما) وهو قول ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة انه لم يسم احد قبله بهذا الاسم (الثاني) ان المراد

وهذا جواب لندائه عليه الصلاة والسلام ووعد باجابة دعائه لكن لا كلا كما هو المتبادر من قوله تعالى فاستجبنا له ووهبنا له يحيى الخ بل بعضا حسبما تقتضيه المشيئة الالهية المبنية على الحكم البالغة فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام وان كانوا مستجابي الدعوة لكنهم ليسوا كذلك في جميع الدعوات الا ترى الى دعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام في حق ابيه والى دعوة النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال وسألته ان لا يذيق بعضهم بأس بعض فنعنيها وقد كان من قضائه عز وعلا ان يهبه يحيى نبيا مرضيا ولا يرثه فاستجيب دعاؤه في الاول دون الثاني حيث قتل قبل موت أبيه عليهما الصلاة والسلام على ما هو المشهور وقيل بقي بعده برهة فلا اشكال حينئذ وفي تعيين اسمه عليه الصلاة والسلام تأكيد للوعد وتشريف له عليه الصلاة والسلام وفي تخصيصه به عليه السلام حسبما يعرب عنه قوله تعالى (لم نجعل له من قبل سميا) اى شريكا له في الاسم حيث لم يسم احد قبله بيحيى مزيد تشريف وتفخيم له عليه الصلاة والسلام فان التسمية بالاسامي البديعة الممتازة عن اسماء سائر الناس تنويه بالمسمى لا محالة وقيل سميا شبيها في الفضل والكمال كما في قوله تعالى هل تعلم له سميا فان المتشاركين في الوصف بمنزلة المتشاركين في الاسم قالوا لم يكن له عليه الصلاة والسلام مثل في انه لم يعص الله تعالى ولم يهم بمعصية قط وانه ولد من شيخ فان وعجوز عاقر وانه كان حصورا فيكون هذا اجمالا لما نزل بعده من قوله تعالى مصدقا بكلمة

بالسمى النظير كما فى قوله هل تعلم له سميا واختلفوا فى ذلك على وجوه (احدها) انه سيد وحصور لم يعص ولم يهم بمعصية كأنه جواب لقوله واجعله رب رضيا فقيل له انا نبشرك بغلام لم نجعل له من قبل شبيها فى الدين ومن كان هكذا فهو فى غاية الرضا وهذا الوجه ضعيف لانه يقتضى تفضيله على الانبياء الذين كانوا قبله كآدم ونوح وابراهيم وموسى وذلك باطل بالاتفاق (وثانيها) ان كل الناس انما يسميهم آباؤهم وامهاتهم بعد دخولهم فى الوجود واما يحيى عليه السلام فان الله تعالى هو الذى سماه قبل دخوله فى الوجود فكان ذلك من خواصه فلم يكن له مثل وشبيه فى هذه الخاصية (وثالثها) انه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر * واعلم ان الوجه الاول أولى وذلك لان حمل السمى على النظير وان كان يفيد المدح والتعظيم ولكنه عدول عن الحقيقة من غير ضرورة وانه لا يجوز واما قول الله تعالى هل تعلم له سميا فهناك انما عدلنا عن الظاهر لانه قال فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا ومعلوم ان مجرد كونه تعالى مسمى بذلك الاسم لا يقتضى وجوب عبادته فلهذه العلة عدلنا عن الظاهر اما ههنا لا ضرورة فى العدول عن الظاهر فوجب اجراؤه عليه ولان فى تفرده بذلك الاسم ضربا من التعظيم لانا نشاهد ان الملك اذا كان له لقب مشهور فان حاشيته لا يتلقبون به بل يتركونه تعظيما له فكذلك ههنا (المسئلة الرابعة) فى انه عليه السلام سمى بيحيى روى الثعلبى فيه وجوها (احدها) عن ابن عباس رضى الله عنهما ان الله تعالى احيا به عقر امه (وثانيها) عن قتادة ان الله تعالى احيا قلبه بالايمان والطاعة والله تعالى سمى المطيع حيا والعاصى ميتا بقوله تعالى اومن كان ميتا فأحييناه وقال اذا دعاكم لما يحييكم (وثالثها) احياؤه بالطاعة حتى لم يعص ولم يهم بمعصية لما روى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن احد الا وقد عصى اوهم الا يحيى بن زكريا فانه لم يهم ولم يعملها (ورابعها) عن ابى القاسم بن حبيب انه استشهد وان الشهداء احياء عند ربهم لقوله تعالى بل احياء عند ربهم (وخامسها) ماقاله عمرو بن عبد الله المقدسى اوحى الله تعالى الى ابراهيم عليه السلام ان قل لسارة وكان اسمها كذلك بأنى مخرج منها عبدا لا يهم بمعصية اسمه حيى فقال هبى له من اسمك حرفا فوهبته حرفا من اسمها فصار يحيى وكان اسمها يسارة فصار اسمها سارة (وسادسها) ان يحيى عليه السلام اول من آمن بعيسى فصار قلبه حيا بذلك الايمان وذلك ان ام يحيى كانت حاملا به فاستقبلها مريم وقد حملت بعيسى فقالت لها ام يحيى يامريم احامل انت فقالت لماذا تقولين فقالت انى ارى مافى بطنى يسجد لما فى بطنك (وسابعها) ان الدين يحيا به لانه انما سأله زكريا لاجل الدين واعلم ان هذه الوجوه ضعيفة لان اسماء الالقاب لا يطلب فيها وجه الاشتقاق ولهذا قال اهل التحقيق اسماء الالقاب قائمة مقام الاشارات وهى لا تفيد فى المسمى صفة البتة * قوله تعالى (قال رب انى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى عتيا وصليا وجثيا

(وبكيا)

من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين والاظهر انه اسم اعجمى وان كان عربيا فهو منقول عن الفعل كيعمر ويعيش قيل سمى به لانه حيى به رحم امه او حيى دين الله تعالى بدعوته (قال) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام حينئذ فقيل قال (رب) ناداه تعالى بالذات مع وصول خطابه تعالى اليه بتوسط الملك للمبالغة فى التضرع والمناجاة والجد فى التبتل اليه تعالى والاحتراز عما عسى يوهم خطابه للملك من توهم ان علمه تعالى بما يصدر عنه متوقف على توسطه كما ان علم البشر بما يصدر عنه سبحانه متوقف على ذلك فى عامة الاوقات (انى يكون لى غلام) كلمة انى بمعنى كيف اومن اين وكان اما تامة وانى واللام متعلقتان بها وتقديم الجار على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق الى ما أخر اى كيف اومن اين يحدث لى غلام ويجوز ان تتعلق اللام بمحذوف وقع حالا من غلام اذ لو تأخر لكان صفة له اى انى يحدث كائنا لى غلام او ناقصة اسمها ظاهر وخبرها اما انى ولى متعلق بمحذوف كما مر اوهو الخبر وأنى نصب على الظرفية وقوله تعالى (وكانت امرأتى عاقرا) حال من ضمير المتكلم بتقدير قد وكذا قوله تعالى (وقد بلغت من الكبر عتيا) حال منه مؤكدة للاستبعاد اثر تأكيد اى كانت امرأتى عاقرا لم تلد فى شبابها وشبابى فكيف وهى الآن عجوز وقد بلغت انا من اجل كبر السن جساوة وقحولا فى المفاصل والعظام او بلغت من مدارج الكبر

وبكيا بكسر العين والصاد والجيم والباء وقرأ حفص عن عاصم بكيا بالضم والباقي بالكسر والباقون جميعا بالضم وقرأ ابن مسعود بفتح العين والصاد من عتيا وصليا وقرأ أبي بن كعب وابن عباس عسيا بالسين غير المعجمة والله اعلم (المسئلة الثانية) في الالفاظ وهي ثلاثة (الاول) الغلام الانسان الذكر في ابتداء شهوته للجماع ومنه اغتلم اذا اشتدت شهوته للجماع ثم يستعمل في التلميذ يقال غلام ثعلب (الثاني) العتي والعسي واحد تقول عتا يعتو عتوا وعتيا فهو عات وعسا يعسو عسوا وعسيا فهو عاس والعاسي هو الذي غيره طول الزمان الى البؤس وليل عات طويل وقيل شديد الظلمة (الثالث) لم يقل عاقرة لان ما كان على فاعل من صفة المؤنث مما لم يكن للمذكر فانه لاتدخل فيه الهاء نحو امرأة عاقر وحائض قال الخليل هذه صفات مذكرة وصف بها المؤنث كما وصفوا المذكر بالمؤنث حين قالوا رجل ملحة وربعة وغلام نفعة (المسئلة الثالثة) في هذه الآية سؤالان (الاول) ان زكريا عليه السلام لم تعجب بقوله انى يكون لى غلام مع انه هو الذى طلب الغلام (السؤال الثاني) ان قوله انى يكون لى غلام لم يكن هذا مذكورا بين امته لانه كان يخفى هذه الامور عن امته فدل على انه ذكره في نفسه وهذا التعجب يدل على كونه شاكا في قدرة الله تعالى على ذلك وذلك كفر وهو غير جائز على الانبياء عليهم السلام (والجواب) عن السؤال الاول اما على قول من قال انه لم يطلب خصوص الولد فالسؤال زائل واما على قول من قال انه طلب الولد فالجواب عنه ان المقصود من قوله انى يكون لى غلام هو التعجب من انه تعالى يجعلهما شابين ثم يرزقهما الولد أو يتركهما شيخين ويرزقهما الولد مع الشيخوخة بطريق الاستعلام لا بطريق التعجب والدليل عليه قوله تعالى وزكريا اذ نادى ربه رب لاتذرني فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى واصلحنا له زوجه وما هذا الاصلاح الا انه اعاد قوة الولادة وقد تقدم تقرير هذا الكلام وذكر السدي في الجواب وجها آخر فقال انه لما سمع النداء بالبشارة جاءه الشيطان فقال ان هذا الصوت ليس من الله تعالى بل هو من الشيطان يسخر منك فلما شك زكريا قال انى يكون لى غلام واعلم ان غرض السدي من هذا ان زكريا عليه السلام لو علم ان المبشر بذلك هو الله تعالى لما جاز له ان يقول ذلك فارتكب هذا وقال بعض المتكلمين هذا باطل قطعا اذ لو جوز الانبياء في بعض ما يرد عن الله تعالى انه من الشيطان لجوزوا في سائره ولزالت الثقة عنهم في الوحي وعنا فيما يوردونه الينا ويمكن ان يجاب عنه بأن هذا الاحتمال قائم في اول الامر وانما يزول بالمعجزة فلعل المعجزة لم تكن حاصلة في هذه الصورة فحصل الشك فيها دون ما عداها والله اعلم والجواب عن السؤال الثاني من وجوه (الاول) ان قوله انا نبشرك بغلام اسمه يحيى ليس نصا في كون ذلك الغلام ولدا له بل يحتمل ان زكريا عليه السلام راعى الادب ولم يقل هذا الغلام هل يكون لى ولد أم لا بل ذكر اسباب تعذر حصول الولد في العادة حتى ان تلك البشارة ان كانت بالولد فالله تعالى يزيل الابهام ويجعل الكلام صريحا فلما ذكر ذلك صرح الله تعالى بكون ذلك الولد منه فكان الغرض من كلام زكريا هذا لا انه كان شاكا

---

ومراتبه ما يسمى عتيا من عتا يعتو واصله عتوو كقعود فاستثقل توالي الضمتين والواوين فكسرت التاء فانقلبت الاولى ياء لسكونها وانكسار ماقبلها ثم قلبت الثانية ايضا لاجتماع الواو والياء وسبق احداهما بالسكون وكسرت العين اتباعا لها لما بعدها وقرئ بضمها ولعل البداءة ههنا بذكر حال امرأته على عكس ما في سورة آل عمران لما انه قد ذكر حاله في تضاعيف دعائه وانما المذكور ههنا بلوغه اقصى مراتب الكبر تتمة لما ذكر قبل واما هنالك فلم يسبق في الدعاء ذكر حاله فلذلك قدمه على ذكر حال امرأته لما ان المسارعة الى بيان قصور شأنه انسب وانما قاله عليه الصلاة والسلام مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله لاسيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في سورة آل عمران استعظاما لقدرة الله تعالى وتعجيبا منها واعتدادا بنعمته تعالى عليه في ذلك باظهار انه من محض لطف الله عز وعلا وفضله مع كونه في نفسه من الامور المستحيلة عادة لا استبعادا له وقيل انما قاله ليجاب بما اجيب به فيزداد المؤمنون ايقانا ويرتدع المبطلون وقيل كان ذلك منه عليه الصلاة والسلام استفهاما عن كيفية حدوثه وقيل بل كان ذلك بطريق الاستبعاد حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنة وكان قد نسي دعاءه وهو بعيد (قال) استئناف كما مر مبني على سؤال نشأ مما سلف والكاف في قوله تعالى (كذلك قال ربك) مقحمة كما في مثلك لايبخل محلها اما النصب على انه مصدر تشبيهي لقال الثاني وذلك اشارة الى مصدره الذى هو عبارة

في قدرة الله تعالى عليه (الثاني) انه ماذكر ذلك للشك لكن على وجه التعظيم لقدرته وهذا كالرجل الذي يرى صاحبه قد وهب الكثير الخطير فيقول اني سمحت نفسك باخراج مثل هذا من ملكك تعظيما وتعجبا (الثالث) ان من شأن من بشر بما يتمناه ان يتولد له فرط السرور به عند اول ما يرد عليه استثبات ذلك الكلام امالان شدة فرحه به توجب ذهوله عن مقتضيات العقل والفكر وهذا كما ان امرأة ابراهيم عليه السلام بعد ان بشرت باسحق قالت أألد وانا عجوز وهذا بعلي شيخا ان هذا لشيء عجيب فازيل تعجبها بقوله أتعجبين من أمر الله واما طلبا للالتذاذ بسماع ذلك الكلام مرة اخرى واما مبالغة في تأكيد التفسير* قوله تعالى (قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في قوله قال كذلك قال ربك هو علي هين وجوه (احدها) ان الكاف رفع اى الامر كذلك تصديقا له ثم ابتدأ قال ربك (وثانيها) نصب بقال وذلك اشارة الى مبهم تفسيره هو علي هين وهو كقوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين (وثالثها) ان المراد لاتعجب فانه كذلك قال ربك لاخلف في قوله ولا غلط ثم قال بعده هو علي هين بدليل خلقتك من قبل ولم تك شيئا (ورابعها) انا ذكرنا ان قوله انى يكون لي غلام معناه تعطيني الغلام بان تجعلني وزوجتي شابين او بان تتركنا على الشيخوخة ومع ذلك تعطينا الولد وقوله كذلك قال ربك اى نهب الولد مع بقائك وبقاء زوجتك على الحالة الحاصلة في الحال (المسئلة الثانية) قرأ الحسن وهو علي هين وهذا لايخرج الا على الوجه الاول اى الامر كما قلت ولكن قال ربك هو مع ذلك علي هين (المسئلة الثالثة) اطلاق لفظ الهين في حق الله تعالى مجاز لان ذلك انما يجوز في حق من يجوز ان يصعب عليه شيء ولكن المراد انه اذا اراد شيئا كان (المسئلة الرابعة) في وجه الاستدلال بقوله تعالى وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا فنقول انه لما خلقه من العدم الصرف والنفي المحض كان قادرا على خلق الذوات والصفات والآثار وأما الآن فخلق الولد من الشيخ والشيخة لايحتاج فيه الا الى تبديل الصفات والقادر على خلق الذوات والصفات والآثار معا اولى ان يكون قادرا على تبديل الصفات واذا اوجده عن عدم فكذا يرزقه الولد بأن يعيد اليه والى صاحبته القوة التي عنها يتولد الماآن اللذان من اجتماعهما يخلق الولد ولذلك قال فاستجبنا له ووهبنا له يحيى واصلحنا له زوجه فهذا وجه الاستدلال (المسئلة الخامسة) الجمهور على ان قوله قال كذلك قال ربك يقتضي ان القائل لذلك ملك مع الاعتراف بأن قوله يازكريا انا نبشرك قول الله تعالى وقوله هو علي هين قول الله تعالى وهذا بعيد لانه اذا كان ماقبل هذا الكلام ومابعده قول الله تعالى فكيف يصح ادراج هذه الالفاظ فيما بين هذين القولين والاولى ان يقال قائل هذا القول أيضا هو الله تعالى كما ان الملك العظيم اذا وعد عبده شيئا عظيما فيقول العبد من أين يحصل لي هذا فيقول ان سلطانك ضمن لك ذلك كأنه ينبه بذلك على ان كونه سلطانا مما يوجب عليه

عن الوعد السابق لا الى قول آخر شبه هذا به وقدمر تحقيقه في تفسير قوله تعالى وكذلك جعلناكم امة وسطا وقوله تعالى (هو علي هين) جملة مقررة للوعد المذكور دالة على انجازه داخلة في حيز قال الاول كأنه قيل قال الله عز وجل مثل ذلك القول البديع قلت اى مثل ذلك الوعد الخارق للعادة وعدت هو علي خاصة هين وان كان في العادة مستحيلا وقرئ وهو علي هين فالجملة حينئذ حال من ربك والياء عبارة عن ضميره كما ستعرفه او اعتراض وعلى كل حال فهي مؤكدة ومقررة لما قبلها ثم أخرج القول الثاني مخرج الالتفات جريا على سنن الكبرياء لتربية المهابة وادخال الروعة كقول الخلفاء امير المؤمنين يرسم لك مكان انا ارسم ثم اسند الى اسم الرب المضاف الى ضميره عليه السلام تشريفا له واشعارا بعلة الحكم فان تذكير جريان احكام ربوبيته تعالى عليه عليه الصلاة والسلام من ايجاده من العدم وتصريفه في اطوار الخلق من حال الى حال شيئا فشيئا الى ان يبلغ كماله اللائق به مما يقلع أساس استبعاده عليه الصلاة والسلام لحصول الموعود ويورثه عليه الصلاة والسلام الاطمئنان بانجازه لامحالة ثم التفت من ضمير الغائب العائد الى الرب الى ياء العظمة ايذانا بأن مدار كونه هينا عليه سبحانه هو القدرة الذاتية لاربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام خاصة وتمهيدا لما يعقبه وقيل ذلك اشارة الى مبهم يفسره قوله تعالى هو علي هين على طريقة قوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء

الوفاء بالوعد فكذا ههنا ❊ قوله تعالى (قال رب اجعل لى آية قال آيتك ان لاتكلم الناس ثلاث ليال سويا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال بعضهم طلب الآية لتحقيق البشارة وهذا بعيد لان بقول الله تعالى قد تحققت البشارة فلا يكون اظهار الآية اقوى فى ذلك من صريح القول وقال آخرون البشارة بالولد وقعت مطلقة فلا يعرف وقتها بمجرد البشارة فطلب الآية ليعرف بها وقت الوقوع وهذا هو الحق (المسئلة الثانية) اتفقوا على ان تلك الآية هى تعذر الكلام عليه فان مجرد السكون مع القدرة على الكلام لايكون معجزة ثم اختلفوا على قولين (احدهما) انه اعتقل لسانه اصلا (والثانى) انه امتنع عليه الكلام مع القوم على وجه المخاطبة مع انه كان متمكنا من ذكر الله ومن قراءة التوراة وهذا القول عندى اصح لان اعتقال اللسان مطلقا قد يكون لمرض وقد يكون من فعل الله فلا يعرف زكريا عليه السلام ان ذلك الاعتقال معجز الا اذا عرف انه ليس لمرض بل لمحض فعل الله تعالى مع سلامة الآلات وهذا مما لاتعرف الا بدليل آخر فتفتقر تلك الدلالة الى دلالة اخرى اما لو اعتقل لسانه عن الكلام مع القوم مع اقتداره على التكلم بذكر الله تعالى وقراءة التوراة علم بالضرورة ان ذلك الاعتقال ليس لعلة ومرض بل هو لمحض فعل الله فيتحقق كونه آية معجزة ومما يقوى ذلك قوله تعلى لى آيتك ان لاتكلم الناس ثلاث ليال سويا خص ذلك بالتكلم مع الناس وهذا يدل بطريق المفهوم انه كان قادرا على التكلم مع غير الناس (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى معنى سويا فقال بعضهم هو صفه لليالى الثلاث وقال اكثر المفسرين هو صفة لزكريا والمعنى آيتك ان لا تكلم الناس فى هذه المدة مع كونك سويا لم يحدث بك مرض ❊ قوله تعالى (فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم ان سبحوا بكرة وعشيا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى فخرج على قومه من المحراب قيل كان له موضع ينفرد فيه بالصلاة والعبادة ثم ينتقل الى قومه فعند ذلك اوحى اليهم وقيل كان موضعا يصلى فيه هو وغيره الا انهم كانوا لايدخلونه للصلاة الا باذنه وانهم اجتمعوا ينتظرون خروجه للاذن فخرج اليهم وهو لايتكلم فأوحى اليهم (المسئلة الثانية) لايجوز ان يكون المراد من قوله اوحى اليهم الكلام لان الكلام كان ممتنعا عليه فكان المراد غير الكلام وهو ان يعرفهم ذلك اما بالاشارة اوبرمز مخصوص اوبكتابة لان كل ذلك يفهم منه المراد فعلوا انه قد كان مابشر به فكما حصل السرور له حصل لهم فظهر لهم اكرام الله تعالى له بالاجابة واعلم ان الاشبه بالآية هو الاشارة لقوله تعالى فى سورة آل عمران ثلاثة ايام الا رمزا والرمز لايكون كناية للكلام (المسئلة الثالثة) اتفق المفسرون على انه اراد بالتسبيح الصلاة وهو جائز فى اللغة يقال سبحة الضحى اى صلاة الضحى وعن عائشة رضى الله عنها فى صلاة الضحى انى لاسبحها اى لا أصليها اذا ثبت هذا فنقول روى عن ابى العالية ان البكرة صلاة الفجر والعشى صلاة العصر ويحتمل ان يكون انما كانوا يصلون معه فى محرابه هاتين الصلاتين فكان يخرج اليهم فيأذن لهم بلسانه فلما اعتقل

مقطوع مصحين ولايخرج هذا الوجه على القراءة بالواو لانها لاتدخل بين المفسر والمفسر واما الرفع على انه خبر مبتدأ محذوف وذلك اشارة الى ماتقدم من وعده تعالى اى قال عز وعلا الامر كما وعدت وهو واقع لامحالة وقوله تعالى قال ربك الخ استئناف مقرر لمضمونه والجملة المحكية على القراءة الثانية معطوفة على المحكية الاولى اوحال من المستكن فى الجار والمجرور وايا ماكان فتوسيط قال بينهما مشعر بمزيد الاعتناء بكل منهما والكلام فى اسناد القول الى الرب ثم الالتفات الى التكلم كالذى مر آنفا وقيل ذلك اشارة الى ماقاله زكريا عليه الصلاة والسلام اى قال تعالى الامر كما قلت تصديقا له فيما حكاه من الحالة المباينة للولادة فى نفسه وفى امرأته وقوله تعالى قال ربك الخ استئناف مسوق لازالة استبعاده بعد تقريره اى قال تعالى هو مع بعده فى نفسه على هين والقراءة الثانية ادخل فى افادة هذا المعنى على ان الواو للعطف واما جعلها للحال فمخل بسداد المعنى لان مآله تقرير صعوبته حال سهولته عليه تعالى مع ان المقصود بيان سهولته عليه سبحانه مع صعوبته فى نفسه وقوله تعالى (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) جملة مستأنفة مقررة لما قبلها والمراد به ابتداء خلق البشر اذ هو الواقع اثر العدم المحض لاما كان بعد ذلك بطريق التوالى المعتاد وانما لم ينسب ذلك الى آدم عليه الصلاة والسلام وهو المخلوق من العدم حقيقة بأن يقال وقد خلقت اباك آدم من قبل ولم يك شيئا مع كفايته فى ازالة الاستبعاد

لسانه خرج اليهم كعادته فأذن لهم بغير كلام والله اعلم * قوله تعالى (يايحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) اعلم انه تعالى وصف يحيى في هذه الآية بصفات تسع (الصفة الاولى) كونه مخاطبا من الله تعالى بقوله يايحيى خذ الكتاب بقوة وفيه مسائل (الاولى) ان قوله يايحيى خذ الكتاب يدل على ان الله تعالى بلغ بيحيى المبلغ الذي يجوز ان يخاطبه بذلك فحذف ذكره لدلالة الكلام عليه (المسئلة الثانية) الكتاب المذكور يحتمل ان يكون هو التوراة التي هي نعمة الله على بني اسرائيل لقوله تعالى ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ويحتمل ان يكون كتابا خص الله به يحيى كما خص الله تعالى الكثير من الانبياء بذلك والاول اولى لان حمل الكلام ههنا على المعهود السابق اولى ولا معهود ههنا الا التوراة (المسئلة الثالثة) قوله بقوة ليس المراد منه القدرة على الاخذ لان ذلك معلوم لكل احد فيجب حمله على معنى يفيد المدح وهو الجد والصبر على القيام بأمر النبوة وحاصلها يرجع الى حصول ملكة تقتضي سهولة الاقدام على المأمور به والاحجام عن المنهي عنه (الصفة الثانية) قوله تعالى وآتيناه الحكم صبيا اعلم ان في الحكم اقوالا (الاول) انه الحكمة ومنه قول الشاعر

واحكم كحكم فتاة الحي اذ نظرت * الى حمام سراع وارد الثمد

وهو الفهم في التوراة والفقه في الدين (والثاني) وهو قول معمر انه العقل روى انه قال ماللعب خلقنا (والثالث) انه النبوة فان الله تعالى احكم عقله في صباه واوحى اليه وذلك لان الله تعالى بعث يحيى وعيسى عليهما السلام وهما صبيان لا كما بعث موسى ومحمدا عليهما السلام وقد بلغا الاشد والاقرب حمله على النبوة لوجهين (الاول) ان الله تعالى ذكر في هذه الآية صفات شرفه ومنقبته ومعلوم ان النبوة اشرف صفات الانسان فذكرها في معرض المدح اولى من ذكر غيرها فوجب ان تكون نبوته مذكورة في هذه الآية ولا لفظ يصلح للدلالة على النبوة الا هذه اللفظة فوجب حملها (الثاني) ان الحكم هو مايصلح لان يحكم به على غيره على الاطلاق وذلك لايكون الا بالنبوة فان قيل كيف يعقل حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا قلنا هذا السائل اما ان يمنع من خرق العادة اولا يمنع منه فان منع منه فقد سد باب النبوات لان بناء الامر فيها على المعجزات ولا معنى لها الا خرق العادات وان لم يمنع فقد زال هذا الاستبعاد فانه ليس استبعاد صيرورة الصبي عاقلا اشد من استبعاد انشقاق القمر وانفلاق البحر (الصفة الثالثة) قوله تعالى وحنانا من لدنا اعلم ان الحنان اصله من الحنين وهو الارتياح والجزع للفراق كما يقال حنين الناقة وهو صوتها اذا اشتاقت الى ولدها ذكر الخليل ذلك وفي الحديث انه عليه السلام كان يصلي الى جذع في المسجد فلما اتخذ له المنبر وتحول اليه حنت تلك الخشبة حتى سمع حنينها فهذا هو الاصل ثم قيل تحنن فلان على فلان اذا تعطف عليه ورحمه وقد اختلف الناس

بقياس حال مابشر به على حاله عليه الصلاة والسلام لتاكيد الاحتجاج وتوضيح منهاج القياس حيث نبه على ان كل فرد من افراد البشر له حظ من انشائه عليه الصلاة والسلام من العدم اذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه بل كانت انموذجا منطويا على فطرة سائر آحاد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان ابداعه عليه الصلاة والسلام على ذلك الوجه ابداعا لكل أحد من فروعه كذلك ولما كان خلقه عليه الصلاة والسلام على هذا النمط السارى الى جميع أفراد ذريته أبدع من أن يكون ذلك مقصورا على نفسه كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور اليه وأدل على عظم قدرته تعالى وكمال علمه وحكمته وكان عدم زكريا حينئذ اظهر عنده واجلى وكان حاله اولى بأن يكون معيارا لحال مابشر به نسب الخلق المذكور اليه كما نسب الخلق والتصوير الى المخاطبين في قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم توفية لمقام الامتنان حقه فكأنه قيل وقد خلقتك من قبل في تضاعيف خلق آدم ولم تكن اذذاك شيئا اصلا بل عدما بحتا ونفيا صرفا هذا واما حمل الشئ على المعتد به اى ولم تكن شيئا معتدا به فيأباه المقام ويرده نظم الكلام وقرئ خلقناك (قال رب اجعل لي آية) اى علامة تدلني على تحقق المسؤل ووقوع الحبل ولم يكن هذا السؤال منه عليه الصلاة والسلام لتأكيد البشارة وتحقيقها كما قيل فان ذلك مما لايليق بمنصب الرسالة انما كان ذلك

في وصف الله بالحنان فاجازه بعضهم وجعله بمعنى الرؤف الرحيم ومنهم من أباه لما يرجع اليه اصل الكلمة قالوا لم يصح الخبر بهذه اللفظة في اسماء الله تعالى اذا عرفت هذا فنقول الحنان هنا فيه وجهان (أحدهما) ان يجعل صفة لله (وثانيهما) ان يجعل صفة ليحيى أما اذا جعلناه صفة لله تعالى فنقول التقدير وآتيناه الحكم حنانا أى رحمة منا ثم ههنا احتمالات (الاول) ان يكون الحنان من الله ليحيى المعنى آتيناه الحكم صبيا ثم قال وحنانا من لدنا أى انما آتيناه الحكم صبيا حنانا من لدنا عليه أى رحمة وزكاة أى وتزكية له وتشريفا له (الثاني) ان يكون الحنان من الله تعالى لزكريا عليه السلام فكأنه تعالى قال انما استجبنا لزكريا دعوته بأن اعطيناه ولدا ثم آتيناه الحكم صبيا وحنانا من لدنا عليه أى على زكرياء فعلنا ذلك وزكاة أى وتزكية له عن ان يصير مردود الدعا (الثالث) ان يكون الحنان من الله تعالى لأمة يحيى عليه السلام كأنه تعالى قال وآتيناه الحكم صبيا وحنانا منا على أمته لعظيم انتفاعهم بهدايته وارشاده أما اذا جعلناه صفة ليحيى عليه السلام ففيه وجوه (الاول) آتيناه الحكم والحنان على عبادنا أى التعطف عليهم وحسن النظر على كافتهم فيما اوليه من الحكم عليهم كما وصف نبيه فقال فبما رحمة من الله لنت لهم وقال حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم ثم اخبر تعالى انه آتاه زكاة ومعناه ان لا تكون شفقته داعية له الى الاخلال بالواجب لان الرأفة واللين ربما اورثا ترك الواجب ألا ترى الى قوله تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله وقال قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة وقال اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم فالمعنى انما جعلنا له التعطف على عباد الله مع الطهارة عن الاخلال بالواجبات ويحتمل آتيناه التعطف على الخلق والطهارة عن المعاصي فلم يعص ولم يهم بمعصية وفي الآية وجه آخر وهو المنقول عن عطاء بن ابى رباح وحنانا من لدنا والمعنى آتيناه الحكم صبيا تعظيما اذ جعلناه نبيا وهو صبي ولا تعظيم اكثر من هذا والدليل عليه ما روى انه مر ورقة بن نوفل على بلال وهو يعذب قد الصق ظهره برمضاء البطحاء ويقول احد احد فقال والذى نفسى بيده لئن قتلتموه لأتخذنه حنانا اى معظما (الصفة الرابعة) قوله وزكاة وفيه وجوه (احدها) ان المراد وآتيناه زكاة اى عملا صالحا زكيا عن ابن عباس وقتادة والضحاك وابن جريج (وثانيها) زكاة لمن قبل منه حتى يكونوا ازكياء عن الحسن (وثالثها) زكيناه بحسن الثناء كما تزكى الشهود الانسان (ورابعها) صدقة تصدق الله بها على ابويه عن الكلبي (وخامسها) بركة ونماء وهو الذى قال عيسى عليه الصلاة والسلام وجعلنى مباركا اينما كنت واعلم ان هذا يدل على ان فعل العبد خلق لله تعالى لانه جعل طهارته وزكاته من الله تعالى وحمله على الالطاف بعيد لانه عدول عن الظاهر (الصفة الخامسة) قوله وكان تقيا وقد عرفت معناه وبالجملة فانه يتضمن غاية المدائح لانه هو الذى يتقى نهى الله فيجتنبه ويتقى امره فلا يهمله واولى الناس بهذا الوصف من لم يعص الله ولا يهم بمعصية

لتعريف وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه وهو امر خفي لا يوقف عليه فاراد ان يطلعه الله تعالى عليه ليتلقى تلك النعمة الجليلة بالشكر من حين حدوثها ولا يؤخره الى ان تظهر ظهورا معتادا وقد مرت الاشارة في تفسير سورة آل عمران الى ان هذا السؤال ينبغي ان يكون بعد ما مضى بعد البشارة برهة من الزمان لما روى ان يحيى كان اكبر من عيسى عليهما الصلاة والسلام بستة اشهر او بثلاث سنين ولا ريب في ان دعاء زكريا عليه الصلاة والسلام كان في صغر مريم لقوله تعالى هنالك دعا زكريا ربه وهي انما ولدت عيسى عليه الصلاة والسلام وهي بنت عشر سنين او بنت ثلاث عشرة سنة والجعل ابداعي واللام متعلقة به وتقديمها على المفعول به لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر او بمحذوف وقع حالا من آية اذ لو تأخر لكان صفة لها وقيل بمعنى التصيير المستدعي لمفعولين اولهما آية وثانيهما الظرف وتقديمه لانه لا مسوغ لكون آية مبتدأ عند انحلال الجملة الى مبتدأ وخبر سوى تقديم الظرف فلا يتغير حالهما بعد ورود الناسخ (قال آيتك ان لا تكلم الناس) اى ان لا تقدر على ان تكلمهم بكلام الناس مع القدرة على الذكر والتسبيح (ثلاث ليال) مع ايامهن للتصريح بها في سورة آل عمران (سويا) حال من فاعل تكلم مفيد لكون انتفاء التكلم بطريق الاضطرار دون الاختيار اى تمنع الكلام فلا تطيق به حال كونك سوى الخلق

وكان يحيى عليه الصلاة والسلام كذلك فان قيل مامعنى وكان تقيا وهذا حين ابتداء تكليفه قلنا انما خاطب الله تعالى بذلك الرسول واخبر عن حاله حيث كان كما اخبر عن نعم الله عليه (الصفة السادسة) قوله وبرا بوالديه وذلك لانه لاعبادة بعد تعظيم الله تعالى مثل تعظيم الوالدين ولهذا السبب قال وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا (الصفة السابعة) قوله ولم يكن جبارا والمراد وصفه بالتواضع ولين الجانب وذلك من صفات المؤمنين كقوله تعالى واخفض جناحك للمؤمنين وقال تعالى ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ولان رأس العبادات معرفة الانسان نفسه بالذل ومعرفة ربه بالعظمة والكمال ومن عرف نفسه بالذل وعرف ربه بالكمال كيف يليق به الترفع والتجبر ولذلك فان ابليس لما تجبر وتمرد صار مبعدا عن رحمة الله تعالى وعن الدين وقيل الجبار هو الذي لا يرى لاحد على نفسه حقا وهو من العظم والذهاب بنفسه عن ان يلزمه قضاء حق احد وقال سفيان في قوله جبارا عصيا انه الذي يقبل على الغضب والدليل عليه قوله تعالى اتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالامس ان تريد الا ان تكون جبارا في الارض وقيل كل من عاقب على غضب نفسه من غير حق فهو جبار لقوله تعالى واذا بطشتم بطشتم جبارين (الصفة الثامنة) قوله عصيا وهو ابلغ من العاصي كما ان العليم ابلغ من العالم (الصفة التاسعة) قوله وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا وفيه اقوال (احدها) قال محمد بن جرير الطبري وسلام عليه اى امان من الله يوم ولد من ان يناله الشيطان كما ينال سائر بني آدم ويوم يموت اى وامان عليه من عذاب القبر يوم يبعث حيا اى ومن عذاب القيامة (وثانيها) قال سفيان بن عيينة اوحش مايكون الخلق في ثلاثة مواطن يوم يولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه ويوم يموت فيرى قوما ماشاهدهم قط ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم فأكرم الله يحيى عليه الصلاة والسلام فخصه بالسلام عليه في هذه المواطن الثلاثة (وثالثها) قال عبد الله بن نفطويه وسلام عليه يوم ولد اى اول مايرى الدنيا ويوم يموت اى اول يوم يرى فيه اول امر الآخرة ويوم يبعث حيا اى اول يوم يرى فيه الجنة والنار وهو يوم القيامة وانما قال حيا تنبيها على كونه من الشهداء لقوله تعالى بل احياء عند ربهم يرزقون (فروع الاول) هذا السلام يمكن ان يكون من الله تعالى وان يكون من الملائكة وعلى التقديرين فدلالة شرفه وفضله لا تختلف لان الملائكة لا يسلمون الا عن امر الله تعالى (الثاني) ليحيى مزية في هذا السلام على ما لسائر الانبياء عليهم السلام كقوله سلام على نوح في العالمين سلام على ابراهيم لانه قال ويوم ولد وليس ذلك لسائر الانبياء عليهم السلام (الثالث) روى ان عيسى عليه السلام قال ليحيى عليه السلام انت افضل مني لان الله تعالى سلم عليك وانا سلمت على نفسي وهذا ليس بقوى لان السلام عيسى على نفسه يجرى مجرى سلام الله على يحيى لان عيسى معصوم لا يفعل الا ما امره الله به (الرابع) السلام عليه يوم ولد ولا بد وان يكون تفضلا من الله تعالى لانه لم يتقدم منه

(مايكون)

سليم الجوارح مابك شائبة بكم ولاخرس (فخرج على قومه من المحراب) اى من المصلى او من الغرفة وكانوا من وراء المحراب ينتظرونه ان يفتح لهم الباب فيدخلوه ويصلوا اذ خرج عليهم متغيرا لونه فانكروه وقالوا مالك (فاوحى اليهم) اى اومأ اليهم لقوله تعالى الا رمزا وقيل كتب على الارض وان في قوله تعالى (ان سبحوا) اما مفسرة لاوحى او مصدرية والمعنى اى صلوا او بأن صلوا (بكرة وعشيا) هما ظرفا زمان للتسبيح عن ابي العالية ان المراد بهما صلاة الفجر وصلاة العصر او تنزهوا ربكم طرفي النهار ولعله كان مأمورا بان يسبح شكرا ويأمر قومه بذلك (يا يحيى) استئناف طوى قبله جمل كثيرة مسارعة الى الانباء بانجاز الوعد الكريم اى قلنا يا يحيى (خذ الكتاب) اى التوراة (بقوة) اى بجد واستظهار بالتوفيق (وآتيناه الحكم صبيا) قال ابن عباس رضي الله عنهما الحكم النبوة استنبأه وهو ابن ثلاث سنين وقيل الحكم الحكمة وفهم التوراة والفقه في الدين روى انه دعاه الصبيان الى اللعب فقال ما للعب خلقنا (وحنانا من لدنا) عطف على الحكم وتنوينه للتفخيم وهو التحنن والاشتياق ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة له مؤكدة لما افاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية اى وآتيناه رحمة عظيمة عليه كائنة من جنابنا اورحمة في قلبه وشفقة على ابويه وغيرهما (وزكوة) اى طهارة من الذنوب اوصدقة تصدقنا به على ابويه او وفقناه للتصدق على الناس

مايكون ذلك جزاء له واما السلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث فى المحشر فقد يجوز أن يكون ثوابا كالمدح والتعظيم والله تعالى اعلم القول فى فوائد هذه القصة (الفائدة الاولى) تعليم آداب الدعاء وهى من جهات (احدها) قوله نداء خفيا وهو يدل على ان أفضل الدعاء ماهذا حاله ويؤكده قوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية ولان رفع الصوت مشعر بالقوة والجلادة واخفاء الصوت مشعر بالضعف والانكسار وعمدة الدعاء الانكسار والتبرى عن حول النفس وقوتها والاعتماد على فضل الله تعالى واحسانه (وثانيها) ان المستحب ان يذكر فى مقدمة الدعاء عجز النفس وضعفها كما فى قوله تعالى عنه وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ثم يذكر كثرة نعم الله على ما فى قوله ولم أكن بدعائك رب شقيا (وثالثها) أن يكون الدعاء لاجل شئ متعلق بالدين لالمحض الدنيا كما قال وانى خفت الموالى من ورائى (ورابعها) أن يكون الدعاء بلفظ يارب على ما فى هذا الموضع (الفائدة الثانية) ظهور درجات زكريا ويحيى عليهما السلام اما زكريا فأمور (احدها) نهاية تضرعه فى نفسه وانقطاعه الى الله تعالى بالكلية (وثانيها) اجابة الله تعالى دعاءه (وثالثها) ان الله تعالى ناداه وبشره أو الملائكة أو حصل الامر ان معا (ورابعها) اعتقال لسانه عن الكلام دون التسبيح (وخامسها) انه يجوز للانبياء عليهم السلام طلب الآيات لقوله رب اجعل لى آية (الفائدة الثالثة) كونه تعالى قادرا على خلق الولد وان كان الابوان فى نهاية الشيخوخة ردا على اهل الطبائع (الفائدة الرابعة) صحة الاستدلال فى الدين لقوله تعالى وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا (الفائدة الخامسة) ان المعدوم ليس بشئ والآية نص فى ذلك فان قيل المراد ولم تك شيئا مذكورا كما فى قوله تعالى هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا قلنا الاضمار خلاف الاصل وللخصم ان يقول الآية تدل على ان الانسان لم يكن شيئا ونحن نقول به لان الانسان عبارة عن جواهر متألفة قامت بها اعراض مخصوصة والجواهر المتألفة الموصوفة بالاعراض المخصوصة غير ثابتة فى العدم انما الثابت هو اعيان تلك الجواهر مفردة غير مركبة وهى ليست بانسان فظهر ان الآية لادلالة فيها على المطلوب (الفائدة السادسة) ان الله تعالى ذكر هذه القصة فى سورة آل عمران وذكرها فى هذا الموضع فلنعتبر حالها فى الموضعين فنقول (الاول) انه تعالى بين فى هذه السورة انه دعا ربه ولم يبين الوقت وبينه فى آل عمران بقوله كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة والمعنى ان زكريا عليه السلام لما رأى خرق العادة فى حق مريم عليها السلام طمع فيه فى حق نفسه فدعا (الثانى) وهو ان الله تعالى صرح فى آل عمران بأن المنادى هو الملائكة لقوله فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب وفى هذه السورة الاظهر أن المنادى بقوله يازكريا انا نبشرك هو الله تعالى وقد بينا انه لامنافاة بين الامرين (الثالث) انه قال فى آل عمران أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر فذكر اولا كبر

---

(وكان تقيا) مطيعا متجنبا عن المعاصى (وبرا بوالديه) عطف على تقيا اى بارا بهما لطيفا بهما محسنا اليهما (ولم يكن جبارا عصيا) متكبرا عاقا لهما او عاصيا لربه (وسلام عليه) من الله عز وجل (يوم ولد) من ان يناله الشيطان بما ينال به بنى آدم (ويوم يموت) من عذاب القبر (ويوم يبعث حيا) من هول القيامة وعذاب النار (واذكر فى الكتاب) كلام مستأنف خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام وأمر بذكر قصة مريم اثر قصة زكريا لما بينهما من كمال الاشتباك والمراد بالكتاب السورة الكريمة لا القرآن اذ هى التى صدرت بقصة زكريا المستتبعة لذكر قصتها وقصص الانبياء المذكورين فيها اى واذكر للناس (مريم) اى نبأها فان الذكر لايتعلق بالاعيان وقوله تعالى (اذ انتبذت) ظرف لذلك المضاف لكن لا على ان يكون المأمور به ذكر نبئها عند انتباذها فقط بل كل ما عطف عليه وحكى بعده بطريق الاستئناف داخل فى حيز الظرف متمم للنبا وقيل بدل اشتمال من مريم على ان المراد بها نبأها فان الظروف مشتملة على مافيها وقيل بدل الكل على ان المراد بالظرف ماوقع فيه وقيل اذ بمعنى ان المصدرية كما فى قولك اكرمتك اذ لم تكرمنى اى لان لم تكرمنى فهو بدل الاشتمال لامحالة وقوله تعالى (من اهلها) متعلق بانتبذت وقوله (مكانا شرقيا) مفعول له باعتبار ما فى ضمنه من معنى الاتيان المترتب وجودا واعتبارا على اصل

نفسه ثم عقر المرأة وهو في هذه السورة قال أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا وجوابه ان الواو لاتقضي الترتيب (الرابع) قال في آل عمران وقد بلغني الكبر وقال ههنا وقد بلغت من الكبر وجوابه ان مابلغك فقد بلغته (الخامس) قال في آل عمران آيتك أن لاتكلم الناس ثلاثة ايام الارمزا وقال ههنا ثلاث ليال سويا وجوابه دلت الآيتان على ان المراد ثلاثة ايام بلياليهن والله أعلم (القصة الثانية) قصة مريم وكيفية ولادة عيسى عليه السلام اعلم انه تعالى انما قدم قصة يحيى على قصة عيسى عليهما السلام لان خلق الولد من شيخين فانيين أقرب الى مناهج العادات من تخليق الولد لامن الاب البتة واحسن الطرق في التعليم والتفهيم الاخذ من الاقرب فالاقرب مترقيا الى الاصعب فالاصعب ❁ قوله تعالى (واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من اهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اذبدل من مريم بدل اشتمال لان الاحيان مشتملة على مافيها وفيه ان المقصود بذكر مريم ذكر وقت هذا الوقوع لهذه القصة العجيبة فيه (المسئلة الثانية) النبذ أصله الطرح والالقاء والانتباذ افتعال منه ومنه فنبذوه وراء ظهورهم وانتبذت تنحت يقال جلس نبذة من الناس ونبذة بضم النون وفتحها أي ناحية وهذا اذا جلس قريبا منك حتى لو نبذت اليه شيئا وصل اليه ونبذت الشيء رميته ومنه النبيذ لانه يطرح في الاناء واصله منبوذ فصرف الى فعيل ومنه قيل للقيط منبوذ لانه يرمى به ومنه النهي عن المنابذة في البيع وهو ان يقول اذا نبذت اليك هذا الثوب او الحصاة فقد وجب البيع اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى اذانتبذت من اهلها مكانا شرقيا معناه تباعدت وانفردت على سرعة الى مكان يلي ناحية الشرق ثم بين تعالى انها مع ذلك اتخذت من دون اهلها حجابا مستورا وظاهر ذلك انها لم تقتصر على ان انفردت الى موضع بل جعلت بينها وبينهم حائلا من حائط او غيره ويحتمل انها جعلت بين نفسها وبينهم سترا وهذا الوجه الثاني اظهر من الاول ثم لابد في احتجابها من ان يكون لغرض صحيح وليس مذكورا واختلف المفسرون فيه على وجوه (الاول) انها لما رأت الحيض تباعدت عن مكانها المعتاد للعبادة لكي تنتظر الطهر فتغتسل وتعود فلما طهرت جاءها جبريل عليه السلام (والثاني) انها طلبت الخلوة لئلا تشتغل عن العبادة (والثالث) قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بشيء يسترها (والرابع) انها كان لها في منزل زوج أختها زكرياء محراب على حدة تسكنه وكان زكريا اذا خرج أغلق عليها فتمنت أن تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها فانفجر السقف لها فخرجت الى المفازة فجلست في المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك (وخامسها) عطشت فخرجت الى المفازة لتستقي واعلم ان كل هذه الوجوه محتمل وليس في اللفظ مايدل على ترجيح واحد منها (المسئلة الثالثة) المكان الشرقي هو الذي يلي شرقي بيت المقدس او شرقي دارها وعن ابن عباس رضي الله عنهما

(انى)

معناه العامل في الجار والمجرور وهو السر في تأخيره عنه اى اعتزلت وانفردت منهم واتت مكانا شرقيا من بيت المقدس اومن دارها لتتخلى هنالك للعبادة وقيل قعدت في مشرفة لتغتسل من الحيض محتجبة بحائط اوبشيء يسترها وذلك قوله تعالى (فاتخذت من دونهم حجابا) وكان موضعها المسجد فاذا حاضت تحولت الى بيت خالتها واذا طهرت عادت الى المسجد فبيناهي في مغتسلها أتاها الملك عليه الصلاة والسلام في صورة آدمي شاب امرد وضيء الوجه جعد الشعر وذلك قوله تعالى (فارسلنا اليها روحنا) اى جبريل عليه الصلاة والسلام عبر عنه بذلك توفية للمقام حقه وقرئ بفتح الراء لكونه سببا لمافيه روح العباد الذى هوعدة المقربين في قوله تعالى فاما ان كان من المقربين فروح وريحان (فتمثل لها بشرا سويا) سوى الخلق كامل البنية لم يفقد من حسان نعوت الآدمية شيئا وقيل تمثل في صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس وذلك لتستأنس بكلامه وتتلقى منه مايلقى اليها من كلماته تعالى اذلو بدا لها على الصورة الملكية لنفرت منه ولم تستطع مفاوضته واما ماقيل من ان ذلك لتهييج شهوتها فتنحدر نطفتها الى رحمها فمع مخالفته لمقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة يكذبه قوله تعالى (قالت انى اعوذ بالرحمن منك) فانه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها شائبة ميل مااليه فضلا عما ذكر من الحالة المترتبة على اقصى مراتب الميل والشهوة نعم كان تمثيله على

ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق لابتلائها وسبر عفتها ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه وذكره تعالى بعنوان الرحمانية للمبالغة في العياذ به تعالى واستجلاب آثار الرحمة الخاصة التي هي العصمة مما دهمها وقوله تعالى (ان كنت تقيا) اى تتقى الله تعالى وتبالى بالاستعاذة به وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة السياق عليه اى فانى عائذة به او فتعوذ بتعوذى او فلا تتعرض لى (قال انما انا رسول ربك) يريد عليه الصلاة والسلام انى لست ممن يتوقع منه ما توهمت من الشر وانما انا رسول ربك الذى استعذت به (لأهب لك غلاما) اى لأكون سببا فى هبته بالنفخ فى الدرع ويجوز ان يكون ذلك حكاية لقوله تعالى ويؤيده القراءة بالياء والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرها لتشريفها وتسليتها والاشعار بعلة الحكم فان هبة الغلام لها من احكام تربيتها وفى بعض المصاحف امرنى ان اهب لك غلاما (زكيا) طاهرا من الذنوب او ناميا على الخير اى مترقيا من سن الى سن على الخير والصلاح (قالت انى يكون لى غلام) كما وصفت (ولم يمسسنى بشر) اى والحال انه لم يباشرنى بالنكاح رجل وانما قيل بشر مبالغة فى بيان تنزهها من مبادى الولادة (ولم اك بغيا) عطف على لم يمسسنى داخل معه فى حكم الحالية مفصح عن كون المساس عبارة عن المباشرة بالنكاح اى ولم اكن فاجرة تبغى الرجال وهى فعول بمعنى الفاعل اصلها بغوى فأدغمت الواو بعد قلبها ياء

انى لاعلم خلق الله لأى شئ اتخذت النصارى المشرق قبلة لقوله تعالى مكانا شرقيا فاتخذوا ميلاد عيسى قبلة (المسئلة الرابعة) انها لما جلست فى ذلك المكان ارسل الله اليها الروح واختلف المفسرون فى هذا الروح فقال الاكثرون انه جبريل عليه السلام وقال ابو مسلم انه الروح الذى تصور فى بطنها بشرا والاول اقرب لان جبريل عليه السلام يسمى روحا قال الله تعالى نزل به الروح الامين على قلبك وسمى روحا لانه روحانى وقيل خلق من الروح وقيل لان الدين يحيا به او سماه الله تعالى بروحه على المجاز محبة له وتقريبا كما تقول لحبيبك روحى وقرأ ابو حيوة روحنا بالفتح لانه سبب لما فيه روح العباد واصابة الروح عند الله الذى هو عدة المتقين فى قوله فاما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم او لانه من المقربين وهم الموعودون بالروح اى مقربنا وذا روحنا واذا ثبت انه يسمى روحا فهو هنا يجب ان يكون المراد به هو لانه قال انما انا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ولا يليق ذلك الا بجبريل عليه السلام واختلفوا فى انه كيف ظهر لها (فالاول) انه ظهر لها على صورة شاب أمرد حسن الوجه سوى الخلق (والثانى) انه ظهر لها على صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس وكل ذلك محتمل ولا دلالة فى اللفظ على التعيين ثم قال وانما تمثل لها فى صورة الانسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه فلو ظهر لها فى صورة الملائكة لنفرت عنه ولم تقدر على استماع كلامه ثم ههنا اشكالات (احدها) وهو انه لو جاز ان يظهر الملك فى صورة انسان معين فحينئذ لا يمكننا القطع بأن هذا الشخص الذى اراه فى الحال هو زيد الذى رأيته بالامس لاحتمال ان الملك او الجنى تمثل فى صورته وفتح هذا الباب يؤدى الى السفسطة لا يقال هذا انما يجوز فى زمان جواز البعثة فاما فى زماننا هذا فلا يجوز لانا نقول هذا الفرق انما يعلم بالدليل فالجاهل بذلك الدليل يجب ان لا يقطع بأن هذا الشخص الذى أراه الآن هو الشخص الذى رأيته بالامس (وثانيها) انه جاء فى الاخبار ان جبريل عليه السلام شخص عظيم جدا فذلك الشخص العظيم كيف صار بدنه فى مقدار جثة الانسان أبأن تساقطت أجزاؤه وتفرقت بنيته فحينئذ لا يبقى جبريل او بأن تداخلت اجزاؤه وذلك يوجب تداخل الاجزاء وهو محال (وثالثها) وهو انا لو جوزنا ان يتمثل جبريل عليه السلام فى صورة الآدمى فلم لا يجوز تمثله فى صورة جسم اصغر من الآدمى حتى الذباب والبق والبعوض ومعلوم ان كل مذهب جر الى ذلك فهو باطل (ورابعها) ان تجويزه يفضى الى القدح فى خبر التواتر فلعل الشخص الذى حارب يوم بدر لم يكن محمدا بل كان شخصا آخر تشبه به وكذا القول فى الكل (والجواب) عن الاول ان ذلك التجويز لازم على الكل لان من اعترف بافتقار العالم الى الصانع المختار فقد قطع بكونه تعالى قادرا على ان يخلق شخصا آخر مثل زيد فى خلقته وتخطيطه واذا جوزنا ذلك فقد لزم الشك فى ان زيدا المشاهد الآن هو الذى شاهدناه بالامس ام لا ومن انكر الصانع المختار واسند الحوادث الى اتصالات الكواكب وتشكلات الفلك لزمه تجويز ان يحدث

اتصال غريب في الافلاك يقتضي حدوث شخص مثل زيد في كل الامور وحينئذ يعود التجويز المذكور (وعن الثاني) انه لا يمتنع ان يكون جبريل عليه السلام له اجزاء اصلية واجزاء فاضلة والاجزاء الاصلية قليلة جدا فحينئذ يكون متمكنا من التشبه بصورة الانسان هذا اذا جعلناه جسمانيا اما اذا جعلناه روحانيا فأي استبعاد في ان يتدرع تارة بالهيكل العظيم واخرى بالهيكل الصغير (وعن الثالث) ان اصل التجويز قائم في العقل وانما عرف فساده بدلائل السمع وهو الجواب عن السؤال الرابع والله اعلم ❊ قوله تعالى (قالت اني اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا) وفيه وجوه (احدها) ارادت ان كان يرجى منك ان تتقي الله ويحصل ذلك بالاستعاذة به فاني عائذة منك وهذا في نهاية الحسن لانها علمت انه لا تؤثر الاستعاذة الا في التقي وهو كقوله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين اي ان شرط الايمان يوجب هذا الا ان الله تعالى يخشى في حال دون حال (وثانيها) ان معناه ما كنت تقيا حيث استحللت النظر الي وخلوت بي (وثالثها) انه كان في ذلك الزمان انسان فاجر اسمه تقي يتبع النساء فظنت مريم عليها السلام ان ذلك الشخص المشاهد هو ذلك التقي والاول هو الوجه ❊ قوله تعالى (قال انما انا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لما علم جبريل خوفها قال انما انا رسول ربك ليزول عنها ذلك الخوف ولكن الخوف لا يزول بمجرد هذا القول بل لابد من دلالة تدل على انه كان جبريل عليه السلام وما كان من الناس فههنا يحتمل ان يكون قد ظهر معجز عرفت به جبريل عليه السلام ويحتمل انها من جهة زكريا عليه السلام عرفت صفة الملائكة فلما قال لها انما انا رسول ربك أظهر لها من باطن جسده ما عرفت انه ملك فيكون ذلك هو العلم وسأل القاضي عبد الجبار في تفسيره نفسه فقال اذا لم تكن نبية عندكم وكان من قولكم ان الله تعالى لم يرسل الى خلقه الا رجالا فكيف يصح ذلك واجاب ان ذلك انما وقع في زمان زكريا عليه السلام وكان رسولا وكل ذلك كان عالما به وهذا ضعيف لان المعجز اذا كان مفعولا للنبي فاقل ما فيه ان يكون عليه السلام عالما به وزكريا ما كان عنده علم بهذه الوقائع فكيف يجوز جعله معجزا له بل الحق ان ذلك اما ان يكون كرامة لمريم او ارهاصا لعيسى عليه السلام (المسئلة الثانية) قرأ ابن عامر ونافع ليهب بياء مفتوحة بعد اللام اي ليهب الله لك والباقون بهمزة مفتوحة بعدها اما قوله لاهب لك ففي مجازه وجهان (الاول) ان الهبة لما جرت على يده بان كان هو الذي نفخ في جيبها بأمر الله تعالى جعل نفسه كأنه هو الذي وهب لها واضافة الفعل الى ما هو سبب له مستعمل قال تعالى في الاصنام انهن أضللن كثيرا من الناس (الثاني) ان جبريل عليه السلام لما بشرها بذلك كانت تلك البشارة الصادقة جارية مجرى الهبة فان قال قائل ما الدليل على ان جبريل عليه السلام لا يقدر على تركيب الاجزاء وخلق الحياة والعقل والنطق فيها والذي يقال فيه ان جبريل عليه السلام جسم والجسم لا يقدر على هذه الاشياء اما انه جسم فلانه محدث وكل محدث اما متحيز او قائم بالمتحيز واما ان الجسم لا يقدر على هذه الاشياء فلانه

في الياء وكسرت الغين للياء وقيل هي فعيل بمعنى الفاعل والا لقيل بغوّ كما يقال فلان نهو عن المنكر وانما لم تلحقه التاء لانه من باب النسب كطالق او بمعنى المفعول اي يبغيها الرجال للفجور بها (قال) اي الملك تقريرا لمقالته وتحقيقا لها (كذلك) اي الامر كما قلت لك وقوله تعالى (قال ربك) الخ استئناف مقرر له اي قال ربك الذي ارسلني اليك (هو) اي ما ذكرت لك من هبة الغلام من غير ان يمسك بشر اصلا (علي) خاصة (هين) وان كان مستحيلا عادة لما اني لا احتاج الى الاسباب والوسايط وقوله تعالى (ولنجعله آية للناس) اما علة لمعلل محذوف اي ولنجعل وهب الغلام آية لهم وبرهانا يستدلون به على كمال قدرتنا نفعل ذلك او معطوف على علة اخرى مضمرة اي لنبين به عظم قدرتنا ولنجعله آية الخ والواو على الاول اعتراضية والالتفات الى نون العظمة لاظهار كمال الجلالة (ورحمة) عظيمة كائنة (منا) عليهم يهتدون بهدايته ويسترشدون بارشاده (وكان) ذلك (امرا مقضيا) محكما قد تعلق به قضاؤنا الازلي او قدر وسطر في اللوح لابد من جريانه عليك البتة او كان امرا حقيقا بان يقضى ويفعل لتضمنه حكما بالغة (فحملته) بأن نفخ جبريل عليه الصلاة والسلام في درعها فدخلت النفخة في جوفها قيل انه عليه الصلاة والسلام رفع درعها فنفخ في جيبه فحملت وقيل نفخ عن بعد فوصل الريح اليها فحملت في الحال وقيل ان النفخة كانت

لوقدرجسم على ذلك لقدر عليه كل جسم لان الاجسام متماثلة وهو ضعيف لان للخصم ان يقول لانسلم ان كل محدث اما متحيز أوقائم به بل ههنا موجودات قائمة بانفسها لامتحيزة ولاقائمة بالمتحيز ولايلزم من كونها كذلك كونها امثالا لذات الله تعالى لان الاشتراك فى الصفات الثبوتية لايقتضى التماثل فكيف فى الصفات السلبية سلمنا كونه جسما فلم قلت الجسم لايقدر عليه قوله الاجسام متماثلة قلنا نعنى به انها متماثلة فى كونها حاصلة فى الاحياز ذاهبة فى الجهات اونعنى به انها متماثلة فى تمام ماهياتها والاول مسلم لكن حصولها فى الاحياز صفات لتلك الذوات والاشتراك فى الصفات لايوجب الاشتراك فى ماهيات الموصوفات سلمنا ان الاجسام متماثلة فلم لايجوز ان يقال ان الله تعالى خص بعضها بهذه القدرة دون البعض حتى انه يصح منهاذلك ولا يصح من البشر ذلك والجواب الحق ان المعتمد فى دفع هذا الاحتمال اجماع الامة فقط والله اعلم (المسئلة الثالثة) الزكى يفيدامورا ثلاثة (الاول) انه الطاهر من الذنوب (والثانى) انه ينمو على التزكية لانه يقال فيمن لاذنب له زكى وفى الزرع النامى زكى (والثالث) النزاهة والطهارة فيمايجب ان يكون عليه ليصح ان يبعث نبيا وقال بعض المتكلمين الاولى ان يحمل على الكل وهو ضعيف لماعرفت فى اصول الفقه ان اللفظ الواحد لايجوز حمله على المعنيين سواءكان حقيقة فيهما اوفى احدهما مجازا وفى الآخر حقيقة (المسئلة الرابعة) سماه زكيامع انه لم يكن له شئ من الدنيا وانت اذانظرت فى سوقك فمن لم يملك شيئافهو شقى عندك وانما الزكى من يملك المال والله يقول كان زكيالان سيرته الفقر وغناه الحكمة والكتاب وانت فانما تسمى بالزكى من كانت سيرته الجهل وطريقته المال ❊ قوله تعالى (قالت انى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم اك بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان امرا مقضيا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انها انما تعجبت مما بشرها جبريل عليه السلام لانها عرفت بالعادة ان الولادة لاتكون الا من رجل والعادات عند اهل المعرفة معتبرة فى الامور وان جوزوا خلاف ذلك فى القدرة فليس فى قولها هذا دلالة على انها لم تعلم انه تعالى قادر على خلق الولد ابتداء وكيف وقد عرفت انه تعالى خلق ابا البشر على هذا الحد ولانها كانت منفردة بالعبادة ومن يكون كذلك لابد من ان يعرف قدرة الله تعالى على ذلك (المسئلة الثانية) لقائل ان يقول قولها ولم يمسسنى بشر يدخل تحته قولها ولم اك بغيا فلما ذا اعادتها ومما يؤكد هذا السؤال ان فى سورة آل عمران قالت رب انى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق مايشاء فلم تذكر البغاء والجواب من وجوه (احدها) انها جعلت المس عبارة عن النكاح الحلال لانه كناية عنه لقوله من قبل ان تمسوهن والزنا ليس كذلك انما يقال فجر بها او ما اشبه ذلك ولايليق به رعايات الكنايات (وثانيها) ان اعادتها لتعظيم حالها كقوله حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فكذا ههنا ان من لم تعرف من النساء بزوج فاغلظ

فى فيها وكانت مدة حملها سبعة اشهر وقيل ثمانية ولم يعش مولود وضع لثمانية اشهر غيره وقيل تسعة اشهر وقيل ثلاث ساعات وقيل ساعة كما حملت وضعته وسنها حينئذ ثلاث عشرة سنة وقيل عشر سنين وقد حاضت حيضتين (فانتبذت به) اى فاعتزلت وهو فى بطنها كما فى قوله ❊ تدوس بنا الجماجم والتريبا ❊ فالجار والمجرور فى حيز النصب على الحالية اى فانتبذت ملتبسة به (مكانا قصيا) بعيدا من اهلها وراء الجبل وقيل اقصى الدار وهو الانسب بقصر مدة الحمل (فأجاءها المخاض) اى فألجاها وهو فى الاصل منقول من جاء لكنه لم يستعمل فى غيره كآتى فى اعطى وقرى المخاض بكسر الميم وكلاهما مصدر مخضت المرأة اذا تحرك الولد فى بطنها للخروج (الى جذع النخلة) لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة وهو مابين العرق والغصن وكانت نخلة يابسة لارأس لها ولاخضرة وكان الوقت شتاء والتعريف اما للجنس او للعهد اذلم يكن ثمة غيرها وكانت كالمعالم عند الناس ولعله تعالى الهمها ذلك ليريها من آياته مايسكن روعتها ويطعمها الرطب الذى هو خرسة النفساء الموافقة لها (قالت ياليتنى مت) بكسر الميم من مات يمات كخفت وقرئ بضمها من مات يموت (قبل هذا) الوقت الذى لقيت فيه مالقيت وانما قالته مع انها كانت تعلم ماجرى بينها وبين جبريل عليه السلام من الوعد الكريم استحياء من الناس وخوفا من لائمتهم اوحذارا من وقوع الناس

احوالها اذا اتت بولد ان تكون زانية فافرد ذكر البغاء بعد دخوله فى الكلام الاول لانه اعظم مافى بابه (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف البغى الفاجرة التى تبغى الرجال وهو فعول عند المبرد بغوى فادغمت الواو فى الياء وقال ابن جنى فى كتاب التمام هو فعيل ولو كان فعولا لقيل بغوا كما قيل نهوا عن المنكر (المسئلة الرابعة) ان جبريل عليه السلام أجابها بقوله قال كذلك قال ربك هو على هين وهو كقوله فى آل عمران كذلك الله يخلق مايشاء اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون لايمتنع عليه فعل مايريد خلقه ولايحتاج فى انشائه الى الآلات والمواد (المسئلة الخامسة) الكناية فى هو على هين وفى قوله ولنجعله آية للناس تحتمل وجهين (الاول) ان تكون راجعة الى الخلق اى ان خلقه على هين ولنجعل خلقه آية للناس اذ ولد من غير ذكر ورحمة منا يرحم عبادنا باظهار هذه الآيات حتى تكون دلائل صدقه ابهر فيكون قبول قوله اقرب (الثانى) ان ترجع الكنايات الى الغلام وذلك لانها لما تعجبت من كيفية وقوع هذا الامر على خلاف العادة علمت ان الله تعالى جاعل ولدها آية على وقوع ذلك الامر الغريب فاما قوله تعالى ورحمة منا فيحتمل ان يكون معطوفا على ولنجعله آية للناس اى فعلنا ذلك ورحمة منا فعلنا ذلك ويحتمل ان يكون معطوفا على الآية اى ولنجعله آية ورحمة فعلنا ذلك (المسئلة السادسة) قوله وكان امرا مقضيا المراد منه انه معلوم لعلم الله تعالى فيمتنع وقوع خلافه لانه لو لم يقع لانقلب علم الله جهلا وهو محال والمفضى الى المحال محال فخلافه محال فوقوعه واجب وايضا فلأن جميع الممكنات منتهية فى سلسلة القضاء والقدر الى واجب الوجود والمنتهى الى الواجب انتهاء واجبا يكون واجب الوجود واذا كان واجب الوجود فلا فائدة فى الحزن والاسف وهذا هو سر قوله عليه السلام من عرف سر الله فى القدر هانت عليه المصائب ❊ قوله تعالى (فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكر الله تعالى امر النفخ فى آيات فقال فنفخنا فيه من روحنا اى فى عيسى عليه السلام كما قال لآدم عليه السلام ونفخت فيه من روحى وقال فنفخنا فيها لان عيسى عليه السلام كان فى بطنها واختلفوا فى النافخ فقال بعضهم كان النفخ من الله تعالى لقوله فنفخنا فيه من روحنا وظاهره يفيد ان النافخ هو الله تعالى لقوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ومقتضى التشبيه حصول المشابهة الا فيما اخرجه الدليل وفى حق آدم النافخ هو الله تعالى لقوله تعالى ونفخت فيه من روحى فكذا ههنا وقال آخرون النافخ هو جبريل عليه السلام لان الظاهر من قول جبريل عليه السلام لأهب لك انه امر ان يكون من قبله حتى يحصل الحمل لمريم عليها السلام فلابد من احالة النفخ اليه ثم اختلفوا فى كيفية ذلك النفخ على قولين (الاول) قول وهب انه نفخ جبريل فى جيبها حتى وصلت الى الرحم (الثانى) فى ذيلها فوصلت الى الفرج (الثالث) قول السدى اخذ بكمها فنفخ فى جنب

(درعها)

فى المعصية بما تكلموا فيهما جريا على سنن الصالحين عند اشتداد الامر عليهم كما روى عن عمر رضى الله عنه انه اخذ تبنة من الارض فقال ياليتنى هذه التبنة ولم اك شيئا وعن بلال انه قال ليت بلالا لم تلده امه (وكنت نسيا) اى شيئا تافها شأنه ان ينسى ولايعتد به اصلا وقرئ بالكسر قيل هما لغتان فى ذلك كالوتر والوتر وقيل هو بالكسر اسم لما ينسى كالنقض اسم لما ينقض وبالفتح مصدر سمى به المفعول مبالغة وقرئ بهما مهموزا من نسأت اللبن اذا صببت عليه الماء فصار مستهلكا فيه وقرئ نسا كعصا (منسيا) لايخطر ببال احد من الناس وهو نعت للمبالغة وقرئ بكسر الميم اتباعا له بالسين (فناداها) اى جبريل عليه السلام (من تحتها) قيل انه كان يقبل الولد وقيل من تحتها اى من مكان اسفل منها تحت الاكمة وقيل من تحت النخلة وقيل ناداها عيسى عليه السلام وقرئ فخاطبها من تحتها بفتح الميم (أن لاتحزنى) على أن ان مفسرة أو بأن لاتحزنى على أنها مصدرية قد حذف عنها الجار (قد جعل ربك تحتك) أى بمكان اسفل منك وقيل تحت أمرك ان أمرت بالجرى جرى وان أمرت بالامساك أمسك (سريا) اى نهرا صغيرا حسبما روى مرفوعا قال ابن عباس رضى الله عنه ان جبريل عليه السلام ضرب برجله الارض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولا وقيل فعله عيسى عليه السلام وقيل كان هناك نهر يابس اجرى الله عز وجل فيه

درعها فدخلت النفخة صدرها فحملت فجاءتها أختها امرأة زكرياء تزورها فالتزمتها فلما التزمتها علمت انها حبلى وذكرت مريم حالها فقالت امرأة زكريا انى وجدت ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك فذلك قوله تعالى مصدقا بكلمة من الله (الرابع) ان النفخة كانت فى فيها فوصلت الى بطنها فحملت فى الحال اذا عرفت هذا ظهر ان فى الكلام حذفا وهو وكان أمرا مقضيا فنفخ فيها فحملته (المسئلة الثانية) قيل حملته وهى بنت ثلاث عشرة سنة وقيل بنت عشرين وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل وليس فى القرآن مايدل على شئ من هذه الاحوال (المسئلة الثانية) فانتبذت به اى اعتزلت وهو فى بطنها كقوله تنبت بالدهن اى تنبت والدهن فيها واختلفوا فى علة الانتباذ على وجوه (احدها) مارواه الثعلبى فى العرائس عن وهب قال ان مريم لما حملت بعيسى عليه السلام كان معها ابن عم لها يقال له يوسف النجار وكانا منطلقين الى المسجد الذى عند جبل صهيون وكان يوسف ومريم يخدمان ذلك المسجد ولايعلم فى اهل زمانهما احد اشد اجتهادا ولاعبادة منهما واول من عرف حمل مريم يوسف فتحير فى امرها فكلما أراد أن يتهمها ذكر صلاحها وعبادتها وانها لم تغب عنه ساعة قط واذا أراد أن يبرئها رأى الذى ظهر بها من الحمل فاول ماتكلم ان قال انه وقع فى نفسى من امرك شئ وقد حرصت على كتمانه فغلبنى ذلك فرأيت ان الكلام فيه أشفى لصدرى فقالت قل قولا جميلا قال أخبرينى يامريم هل ينبت زرع بغير بذر وهل تنبت شجرة من غير غيث وهل يكون ولد من غير ذكر قالت نعم ألم تعلم ان الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر وهذا البذر انما حصل من الزرع الذى انبته من غير بذر ألم تعلم ان الله تعالى انبت الشجرة من غير غيث وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعدما خلق كل واحد منهما على حدة او تقول ان الله تعالى لا يقدر على ان ينبت الشجرة حتى استعان بالماء ولولا ذلك لم يقدر على انباتها فقال يوسف لاأقول هذا ولكنى أقول ان الله قادر على مايشاء فيقول له كن فيكون فقالت له مريم أولم تعلم ان الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولاانثى فعند ذلك زالت التهمة عن قلبه وكان ينوب عنها فى خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل وضيق القلب فلما دنا نفاسها أوحى الله اليها ان اخرجى من ارض قومك لئلا يقتلوا ولدك فاحتملها يوسف الى ارض مصر على حمار له فلما بلغت تلك البلاد ادركها النفاس فألجأها الى اصل نخلة وذلك فى زمان برد فاحتضنتها فوضعت عندها (وثانيها) انها استحيت من زكريا فذهبت الى مكان بعيد لايعلم بها زكريا (وثالثها) انها كانت مشهورة فى بنى اسرائيل بالزهد لنذر أمها وتشاح الانبياء فى تربيتها وتكفل زكريا بها ولان الرزق كان يأتيها من عند الله تعالى فلما كانت فى نهاية الشهرة استحيت من هذه الواقعة فذهبت الى مكان بعيد لايعلم بها زكريا (ورابعها) انها خافت على ولدها لو ولدته فيما بين اظهرهم واعلم ان هذه الوجوه محتملة وليس فى القرآن مايدل على شئ منها (المسئلة الرابعة) اختلفوا فى مدة حملها على وجوه (الاول) قول ابن عباس رضى الله عنهما أنها كانت تسعة اشهر كما فى سائر النساء بدليل ان الله تعالى ذكر مدائحها فى هذا

---

الماء حينئذ كما فعل مثله بالنخلة فانها كانت نخلة يابسة لارأس لها ولاورق فضلا عن الثمر وكان الوقت شتاء فجعل الله لها اذ ذاك رأسا وخوصا وثمرا وقيل كان هناك ماء جار والاول هو الموافق لمقام بيان ظهور الخوارق والمتبادر من النظم الكريم وقيل سريا اى سيدا نبيلا رفيع الشان جليلا وهو عيسى عليه السلام فالتنوين للتفخيم والجملة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى عنه والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرها لتشريفها وتأكيد التعليل وتكميل التسلية (وهزى) هز الشئ تحريكه الى الجهات المتقابلة تحريكا عنيفا متداركا والمراد ههنا ما كان منه بطريق الجذب والدفع لقوله تعالى (اليك) اى الى جهتك والباء فى قوله عز وعلا (بجذع النخلة) صلة للتاكيد كما فى قوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم الخ قال الفراء تقول العرب هزه وهز به واخذ الخطاب واخذ بالخطاب اولالصاق الفعل بمدخولها اى افعلى الهز بجذعها اوهزى الثمرة بهزه وقيل هى متعلقة بمحذوف وقع حالا من مفعول الهز أى هزى اليك الرطب كائنا بجذعها (تساقط) اى تسقط النخلة (عليك) اسقاطا متواترا حسب تواتر الهز وقرئ تسقط ويسقط من الاسقاط بالتاء والياء وتتساقط باظهار التاءين وتساقط بطرح الثانية وتساقط بادغامها فى السين ويساقط بالياء كذلك وتسقط ويسقط من السقوط على ان التاء

في الكل للنخلة والباء للجذع وقوله تعالى (رطبا) على القراآت الثلاث الاول مفعول وعلى الست البواقي تمييز وقوله تعالى (جنيا) صفة له وهو ماقطع قبل يبسه فعيل بمعنى مفعول اى رطبا مجنيا اى صالحا للاجتناء وقيل بمعنى فاعل اى طريا طيبا وقرئ جنيا بكسر الجيم للاتباع ( فكلى واشربى ) اى ذلك الرطب وماء السرى او من الرطب وعصيره ( وقرى عينا ) وطيبى نفسا وارفضى عنها مااحزنك واهمك فانه تعالى قد نزه ساحتك عما اختلج في صدور المتعبدين بالاحكام العادية بأن اظهر لهم من البسائط العنصرية والمركبات النباتية مايخرق العادات التكوينية ويرشدهم الى الوقوف على سريرة أمرك وقرئ وقرى بكسر القاف وهى لغة نجدو اشتقاقه من القرار فان العين اذارأت مايسر النفس سكنت اليه من النظر الى غيره او من القر فان دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة ولذلك يقال قرة العين وسخنة العين للمحبوب والمكروه ( فاماترين من البشر احدا ) اى آدميا كائنا من كان وقرئ ترئن على لغة من يقول لبأت بالحج لمابين الهمزة والياء من التآخي ( فقولى ) له ان استنطقك ( انى نذرت للرحمن صوما ) اى صمتا وقد قرئ كذلك او صياما كان صيامهم بالسكوت ( فلن اكلم اليوم انسيا ) اى بعد ان اخبرتكم بنذرى وانما اكلم الملائكة واناجى ربى وقيل امرت بان تخبر

الموضع فلو كانت عادتها في مدة حملها بخلاف عادات النساء لكان ذلك اولى بالذكر (الثانى) انها كانت ثمانية اشهر ولم يعش مولود وضع لثمانية الا عيسى بن مريم عليه السلام (الثالث) وهو قول عطاء وأبى العالية والضحاك سبعة أشهر (الرابع) انها كانت ستة اشهر (الخامس) ثلاث ساعات حملته في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة (السادس) وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما ايضا كانت مدة الحمل ساعة واحدة ويمكن الاستدلال عليه من وجهين (الاول) قوله تعالى فحملته فانتبذت به فأجاءها المخاض فناداها من تحتها والفاء للتعقيب فدلت هذه الفاآت على ان كل واحد من هذه الاحوال حصل عقيب الآخر من غير فصل وذلك يوجب كون مدة الحمل ساعة واحدة لايقال انتباذها مكانا قصيا كيف يحصل في ساعة واحدة لانا نقول السدى فسره بأنها ذهبت الى اقصى موضع في جانب محرابها (الثانى) ان الله تعالى قال في وصفه ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون فثبت ان عيسى عليه السلام كما قال الله تعالى له كن فيكون وهذا ممالا يتصور فيه مدة الحمل وانما تعقل تلك المدة في حق من يتولد من النطفة (المسئلة الخامسة) قصيا اى بعيدا من اهلها يقال مكان قاص وقصى بمعنى واحد مثل عاص وعصى ثم اختلفوا فقيل اقصى الدار وقيل وراء الجبل وقيل سافرت مع ابن عمها يوسف وقد تقدمت هذه الحكاية (المسئلة السادسة) قال صاحب الكشاف أجاء منقول من جاء الا أن استعماله قد تغير بعد النقل الى معنى الالجاء فانك لاتقول جئت المكان وأجاءنيه زيد كما تقول بلغنيه وابلغنيه والمعنى ان طلقها ألجأها الى جذع النخلة ثم يحتمل انها انما ذهبت الى النخلة طلبا لسهولة الولادة للتشبث بها ويحتمل للتقوية والاستناد اليها ويحتمل للتستربها ممن تخشى منه الغالة اذا رآها ولذلك حكى الله عنها انها تمنت الموت (المسئلة السابعة) قال في الكشاف قرأ ابن كثير في رواية المخاض بالكسر يقال مخضت الحامل مخاضا ومخاضا وهو تمخض الولد في بطنها (المسئلة الثامنة) قال في الكشاف كان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمر ولا خضرة وكان الوقت شتاء والتعريف اما ان يكون من تعريف الاسماء الغالبة كتعريف النجم والصعق كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة مشهور عند الناس فاذا قيل جذع النخلة فهم منه ذلك دون سائره واما ان يكون تعريف الجنس اى الى جذع هذه الشجرة خاصة كأن الله ارشدها الى النخلة ليطعمها منها الرطب الذى هو اشد الاشياء موافقة للنفساء ولان النخلة اقل الاشياء صبرا على البرد ولا تثمر الا عند اللقاح واذا قطعت رأسها لم تثمر فكأنه تعالى قال كما ان الانثى لاتلد الا مع الذكر فكذا النخلة لاتثمر الا عند اللقاح ثم انى اظهر الرطب من غير اللقاح ليدل ذلك على جواز ظهور الولد من غير ذكر (المسئلة التاسعة) لم قالت ياليتنى مت قبل هذا مع انها كانت تعلم ان الله تعالى بعث جبريل اليها وخلق ولدها من نفخ جبريل عليه السلام ووعدها بأن يجعلها وابنها آية للعالمين والجواب من وجهين (الاول) قال وهب

(انساها)

أنساها كربة الغربة وما سمعته من الناس بشارة الملائكة بعيسى عليه السلام ( الثانى ) ان عادة الصالحين اذا وقعوا فى بلاء ان يقولوا ذلك وروى عن ابى بكر انه نظر الى طائر على شجرة فقال طوبى لك ياطائر تقع على الشجر وتأكل من الثمر وددت انى ثمرة ينقرها الطائر وعن عمر انه اخذ تبنة من الارض وقال ليتنى هذه التبنة ياليتنى لم اك شيئا وقال على يوم الجمل ياليتنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة وعن بلال ليت بلالا لم تلده امه فثبت ان هذا الكلام يذكره الصالحون عند اشتداد الامر عليهم ( الثالث ) لعلها قالت ذلك لكى لاتقع المعصية ممن يتكلم فيها والا فهى راضية بمابشرت به ( المسئلة العاشرة ) قال صاحب الكشاف النسى مامن حقه ان يطرح و ينسى كخرقة الطمث ونحوها كالذبح اسم مامن شأنه ان يذبح كقوله وفديناه بذبح عظيم تمنت لوكانت شيئا تافها لايؤبه به ومن حقه ان ينسى فى العادة وقرأ ابن وثاب والاعمش وحمزة نسيا بالفتح والباقون نسيا بالكسر قال الفراء هما لغتان كالوتر والوتر والجسر والجسر وقرأ محمد بن كعب القرظى نسأ بالهمز وهو الحليب المخلوط بالماء ينساه اهله لقلته وقرأ الاعمش منسيا بالكسر على الاتباع كالمغير والمنخر والله اعلم ❊ قوله تعالى ( فناداها من تحتها ان لاتحزنى قدجعل ربك تحتك سريا وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا فامّا ترين من البشر احدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن اكلم اليوم انسيا ) فى الآية مسائل ( المسئلة الاولى ) فناداها من تحتها القراءة المشهورة فناداها وقرأ زر وعلقمة فخاطبها وفى الميم فيها قراءتان فتح الميم وهو المشهور وكسره وهو قراءة نافع وحمزة والكسائى وحفص وفى المنادى ثلاثة اوجه ( الاول ) انه عيسى عليه السلام وهو قول الحسن وسعيد بن جبير ( والثانى ) انه جبريل عليه السلام وانه كان كالقابلة للولد ( والثالث ) ان المنادى على القراءة بالكسر هو الملك وعلى القراءة بالفتح هو عيسى عليه السلام وهو مروى عن ابن عيينة وعاصم والاول اقرب لوجوه ( الاول ) ان قوله فناداها من تحتها بفتح الميم انما يستعمل اذا كان قد علم قبل ذلك ان تحتها احدا والذى علم كونه حاصلا تحتها هو عيسى عليه السلام فوجب حمل اللفظ عليه واما القراءة بكسر الميم فهى لاتقتضى كون المنادى جبريل عليه السلام فقد صح قولنا ( الثانى ) ان ذلك الموضع موضع اللوث والنظر الى العورة وذلك لايليق بالملائكة ( الثالث ) ان قوله فناداها فعل ولابد وان يكون فاعله قد تقدم ذكره ولقد تقدم قبل هذه الآية ذكر جبريل وذكر عيسى عليهما السلام الا ان ذكر عيسى اقرب لقوله تعالى فحملته فانتبذت به والضمير ههنا عائد الى المسيح فكان حمله عليه اولى ( والرابع ) وهو دليل الحسن بن على عليه السلام ان عيسى عليه السلام لولم يكن كلمها لما علمت انه ينطق فما كانت تشير الى عيسى عليه السلام بالكلام فأما من قال المنادى هو عيسى عليه السلام فالمعنى انه تعالى انطقه لها حين وضعته تطييبا لقلبها وازالة للوحشة عنها حتى

ينذرها بالاشارة وهو الاظهر قال الفراء العرب تسمى كل ماوصل الى الانسان كلاما باى طريق وصل مالم يؤكد بالمصدر فاذا أكد لم يكن الاحقيقة الكلام وانما امرت بذلك لكراهة مجادلة السفهاء ومنا قلتهم والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام فانه نص قاطع فى قطع الطعن ( فأتت به قومها ) اى جاءتهم مع ولدها راجعة اليهم عندما طهرت من نفاسها (تحمله) اى حاملة له (قالوا) موبخين لها (يامريم لقد جئت) اى فعلت (شيئا فريا) اى عظيما بديعا منكرا من فرى الجلد اى قطعه او جئت مجيئا عجيبا عبر عنه بالشئ تحقيقا للاستغراب ( ياأخت هرون ) استئناف لتجديد التعيير وتأكيد التوبيخ عنوا به هرون النبى عليه السلام وكانت من اعقاب من كان معه فى طبقة الاخوة وقيل كانت من نسله وكان بينهما الف سنة وقيل هو رجل صالح اوطالح كان فى زمانهم شبهوها به اى كنت عندنا مثله فى الصلاح اوشتموها به (ماكان ابوك امرأسوء وماكانت أمك بغيا) تقرير لكون ماجاءت به فريا منكرا وتنبيه على ان ارتكاب الفواحش من اولاد الصالحين افحش (فأشارت اليه) اى الى عيسى عليه السلام ان كلموه والظاهر أنها حينئذ بينت نذرها وانها بمعزل من محاورة الانس حسبما امرت ففيه دلالة على أن المأمور به بيان نذرها بالاشارة لابالعبارة والجمع بينهما مما لاعهد به (قالوا) منكرين

تشاهد فى اول الامر مابشرها به جبريل عليه السلام من علو شأن ذلك الولد ومن قال المنادى جبريل عليه السلام قال انه ارسل اليها ليناديها بهذه الكلمات كما ارسل اليها فى اول الامر ليكون ذلك تذكيرا لها ماتقدم من اصناف البشارات واما قوله من تحتها فان حملناه على الولد فلا سؤال وان حملناه على الملك ففيه وجهان (الاول) ان يكونا معا فى مكان مستو ويكون هناك مبدأ معين كتلك النخلة ههنا فكل من كان اقرب منها كان فوق وكل من كان ابعد منها كان تحت وفسر الكلبى قوله تعالى اذجاؤكم من فوقكم ومن اسفل منكم بذلك وعلى هذا الوجه قال بعضهم انه ناداها من اقصى الوادى (والثانى) ان يكون موضع احدهما اعلى من موضع الآخر فيكون صاحب العلو فوق صاحب السفل وعلى هذا الوجه روى عن عكرمة انها كانت حين ولدت على مثل رابية وفيه وجه ثالث يحكى عن عكرمة وهو ان جبريل عليه السلام ناداها من تحت النخلة ثم على التقديرات الثلاثة يحتمل ان تكون مريم قد رأته وانها مارأته وليس فى اللفظ مايدل على شئ من ذلك (المسئلة الثانية) اتفق المفسرون الا الحسن وعبدالرحمن بن زيد ان السرى هو النهر والجدول سمى بذلك لان الماء يسرى فيه واما الحسن وابن زيد فجعلا السرى عيسى والسرى هو النبيل الجليل يقال فلان من سروات قومه اى من اشرافهم وروى ان الحسن رجع عنه وروى عن قتادة وغيره ان الحسن تلا هذه الآية وبجنبه حميد بن عبدالرحمن الحميرى قدجعل ربك تحتك سريا فقال ان كان لسريا وان كان لكريما فقال له حميد يا اباسعيد انما هو الجدول فقال له الحسن من ثم تعجبنا مجالستك واحتج من حمله على النهر بوجهين (احدهما) انه سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن السرى فقال هو الجدول (والثانى) ان قوله فكلى واشربى يدل على انه نهر حتى ينضاف الماء الى الرطب فتأكل وتشرب واحتج من حمله على عيسى بوجهين (الاول) ان النهر لايكون تحتها بل الى جانبها ولا يجوز ان يجاب عنه بأن المراد منه انه جعل النهر تحت امرها يجرى بامرها ويقف بأمرها كما فى قوله وهذه الانهار تجرى من تحتى لان هذا حمل للفظ على مجازه ولو حملناه على عيسى عليه السلام لم يحتج الى هذا المجاز (الثانى) انه موافق لقوله تعالى وجعلنا مريم وامه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين والجواب عنه ماتقدم ان المكان المستوى اذا كان فيه مبدأ معين فكل من كان اقرب منه كان فوق وكل من كان ابعد منه كان تحت (فرعان الاول) ان حملنا السرى على النهر ففيه وجهان (احدهما) ان جبريل عليه السلام ضرب برجله فظهر ماء عذب (والثانى) انه كان هناك ماء جار (والاول) اقرب لان قوله قدجعل ربك تحتك سريا مشعر بالحدوث فى ذلك الوقت ولان الله تعالى ذكره تعظيما لشانها وذلك لايثبت الاعلى الوجه الذى قلناه (الثانى) اختلفوا فى ان السرى هو النهر مطلقا وهو قول ابى عبيدة والفراء والنهر الصغير على ماهو قول الاخفش (المسئلة الثالثة) قال القفال الجذع من النخلة هو الاسفل ومادون الرأس الذى عليه

لجوابها (كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) ولم نعهد فيما سلف صبيا يكلمه عاقل وقيل كان لايقاع مضمون الجملة فى زمان ماض مبهم صالح لقريبه وبعيده وهو ههنا لقريبه خاصة بدليل انه مسوق للتعجب وقيل هى زائدة والظرف صلة من وصبيا حال من المستكن فيه اوهى تامة اودائمة كما فى قوله تعالى وكان الله عليما حكيما (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من سياق النظم الكريم كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال عيسى عليه السلام (انى عبدالله) انطقه الله عزوجل بذلك آثرذى أثير تحقيقا للحق وردا على من يزعم ربوبيته قيل كان المستنطق لعيسى زكريا عليهما الصلاة والسلام وعن السدى رضى الله عنه لما اشارت اليه غضبوا وقالوا لسخريتها بنا اشد علينا مما فعلت وروى انه عليه السلام كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع واقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره واشار اليهم بسبابته فقال ماقال الخ وقيل كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان (آتانى الكتاب) اى الانجيل (وجعلنى نبيا وجعلنى (مباركا) نفاعا معلما للخير والتعبير بلفظ الماضى فى الافعال الثلاثة اما باعتبار ما سبق فى القضاء المحتوم او بجعل مافى شرف الوقوع لامحالة واقعا وقيل اكمله الله عقلا واستنبأه طفلا (اينما كنت) اى حيثما كنت (واوصانى بالصلوة) اى أمرنى بها امرا مؤكدا

الثمرة وقال قطرب كل خشبة فى اصل شجرة فهى جذع واما الباء فى قوله بجذع النخلة فزائدة والمعنى هزى اليك اى حركى جذع النخلة قال الفراء العرب تقول هزه وهزبه وخذ الخطام وخذ بالخطام وزوجتك فلانة وبفلانة وقال الاخفش يجوز ان يكون على معنى هزى اليك رطبا بجذع النخلة اى على جذعها اذا عرفت هذا فنقول قد تقدم ان الوقت كان شتاء وان النخلة كانت يابسة واختلفوا فى انه هل اثمر الرطب وهو على حاله او تغير وهل اثمر مع الرطب غيره والظاهر يقتضى انه صار نخلة لقوله بجذع النخلة وانه ما اثمر الا الرطب (المسئلة الرابعة) قال صاحب الكشاف تساقط فيه تسع قرآت تساقط بادغام التاء وتتساقط باظهار التاءين وتساقط بطرح الثانية ويساقط بالياء وادغام التاء وتساقط وتسقط ويسقط وتسقط ويسقط التاء للنخلة والياء للجذع (المسئلة الخامسة) رطبا تمييز او مفعول على حسب القراءة الجنى المأخوذ طريا وعن طلحة بن سليمان جنيا بكسر الجيم للاتباع والمعنى جمعنا لك فى السرى والرطب فائدتين (احداهما) الاكل والشرب (والثانية) سلوة الصدر بكونهما معجزتين فان قال قائل فتلك الافعال الخارقة للعادات لمن قلنا قالت المعتزلة انها كانت معجزة لزكريا وغيره من الانبياء وهذا باطل لان زكرياء عليه السلام ما كان له علم بحالها ومكانها فكيف بتلك المعجزات بل الحق انها كانت كرامات لمريم او ارهاصا لعيسى عليه السلام (المسئلة السادسة) فكلى واشربى وقرى عينا قرئ بكسر القاف لغة نجد ونقول قدم الاكل على الشرب لان احتياج النفساء الى اكل الرطب اشد من احتياجها الى شرب الماء لكثرة ما سال منها من الدماء ثم قال وقرى عينا وههنا سؤال وهو ان مضرة الخوف اشد من مضرة الجوع والعطش والدليل عليه امران (احدهما) ان الخوف الم الروح والجوع الم البدن والم الروح اقوى من الم البدن (والثانى) ماروى انه اجيعت شاة ثم قدم العلف اليها وربط عندها ذئب فبقيت الشاة مدة مديدة لاتتناول العلف مع جوعها الشديد خوفا من الذئب ثم كسرت رجلها وقدم العلف اليها فتناولت العلف مع الم البدن فدلت هذه الحكاية على ان الم الخوف اشد من الم البدن اذا ثبت هذا فنقول فلم قدم الله تعالى فى الحكاية دفع ضرر الجوع والعطش على دفع ضرر الخوف والجواب ان هذا الخوف كان قليلا لان بشارة جبريل عليه السلام كانت قد تقدمت فما كانت تحتاج الى التذكير مرة اخرى (المسئلة السابعة) قال صاحب الكشاف قرأ ترئن بالهمز ابن الرومى عن ابى عمرو وهذا من لغة من يقول لبأت بالحج وحلأت السويق وذلك لتآخ بين الهمز وحروف اللين فى الابدال صوما صمتا وفى مصحف عبدالله صمتا وعن انس بن مالك مثله وقيل صياما الا انهم كانوا لايتكلمون فى صيامهم فعلى هذا كان ذكر الصوم دالا على الصمت وهذا النوع من النذر كان جائزا فى شرعهم وهل يجوز مثل هذا النذر فى شرعنا قال القفال لعله يجوز لان الاحتراز عن كلام الآدميين وتجريد الفكر لذكر الله تعالى قربة ولعله

(والزكوة) زكاة المال ان ملكته او بتطهير النفس عن الرذائل (مادمت حيا) فى الدنيا (وبرا بوالدتى) عطف على مباركا اى جعلنى بارا بها وقرئ بالكسر على انه مصدر وصف به مبالغة او منصوب بمضمر دل عليه اوصانى اى وكلفنى برا ويؤيده القراءة بالكسر والجر عطفا على الصلاة والزكاة والتنكير للتفخيم (ولم يجعلنى جبارا شقيا) عنيدا لله تعالى لفرط تكبره (والسلام على يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيا) كما هو على يحيي على ان التعريف للعهد والاظهر انه للجنس والتعريض باللعن على اعدائه فان اثبات جنس السلام لنفسه تعريض باثبات ضده لاضداده كما فى قوله تعالى والسلام على من اتبع الهدى فانه تعريض بأن العذاب على من كذب وتولى (ذلك) اشارة الى من فصلت نعوته الجليلة وما فيه من معنى البعد للدلالة على علو مرتبته وبعد منزلته وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ونزوله منزلة المشاهد المحسوس (عيسى ابن مريم) لا مايصفه النصارى وهو تكذيب لهم فيما يزعمونه على الاوجه الابلغ والمنهاج البرهانى حيث جعله موصوفا باضداد مايصفونه (قول الحق) بالنصب على انه مصدر مؤكد لقال انى عبدالله الخ وقوله تعالى ذلك عيسى ابن مريم اعتراض مقرر لمضمون ماقبله وقرئ بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف اى هو قول الحق الذى لاريب فيه والاضافة للبيان والضمير للكلام السابق

لايجوز لمافيه من التضييق وتعذيب النفس كنذر القيام في الشمس وروى انه دخل ابو بكر على امرأة قد نذرت انها لا تتكلم فقال ابو بكر ان الاسلام هدم هذا فتكلمي والله اعلم (المسئلة الثامنة) امرها الله تعالى بأن تنذر الصوم لئلا تشرع مع من اتهمها في الكلام لمعنيين (احدهما) ان كلام عيسى عليه السلام اقوى في ازالة التهمة من كلامها وفيه دلالة على ان تفويض الامر الى الافضل اولى (والثاني) كراهة مجادلة السفهاء وفيه أن السكوت عن السفيه واجب ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها (المسئلة التاسعة) اختلفوا في انها هل قالت معهم اني نذرت للرحمن صوما فقال قوم انها ماتكلمت معهم بذلك لانها كانت مأمورة بأن يأتي بهذا النذر عند رؤيتهم فاذا أتت بهذا النذر فلو تكلمت معهم بعد ذلك لوقعت في المناقضة ولكنها امسكت وأومأت برأسها وقال آخرون انها ما نذرت في الحال بل صبرت حتى أتاها القوم فذكرت لهم اني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا وهذه الصيغة وان كانت عامة الا أنها صارت بالقرينة مخصوصة في حق هذا الكلام ❊ قوله تعالى (فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا في انها كيف أتت بالولد على اقوال (الاول) ماروى عن وهب قال أنساها كرب الولادة وما سمعته من الناس ما كان من كلام الملائكة من البشارة بعيسى عليه السلام فلما كلمها جاءها مصداق ذلك فاحتملته واقبلت به الى قومها (الثاني) ماروى عن ابن عباس رضي الله عنهما ان يوسف انتهى بمريم الى غار فأدخلها فيه اربعين يوما حتى طهرت من النفاس ثم اتت به قومها تحمله فكلمها عيسى في الطريق فقال ياأماه ابشري فاني عبد الله ومسيحه وهذان الوجهان محتملان وليس في القرآن ما يدل على التعيين (المسئلة الثانية) الفري البديع وهو من فري الجلد يروى انهم لما رأوها ومعها عيسى عليه السلام قالوا لها لقد جئت شيئا فريا فيحتمل ان يكون المراد شيئا عجيبا خارجا عن العادة من غير تعيير وذم ويحتمل ان يكون مرادهم شيئا عظيما منكرا فيكون ذلك منهم على وجه الذم وهذا اظهر لقولهم بعده يا أخت هرون ما كان ابوك امرأ سوء وما كانت امك بغيا لان هذا القول ظاهره التوبيخ واما هرون ففيه اربعة اقوال (الاول) انه رجل صالح من بني اسرائيل ينسب اليه كل من عرف بالصلاح والمراد انك كنت في الزهد كهرون فكيف صرت هكذا وهو قول قتادة وكعب وابن زيد والمغيرة بن شعبة ذكر ان هرون الصالح تبع جنازته اربعون الفا كلهم يسمون هرون تبركا به وباسمه (الثاني) انه اخو موسى عليه السلام وعن النبي صلى الله عليه وسلم انما عنوا هرون النبي وكانت من اعقابه وانما قيل اخت هرون كما يقال يا اخا همدان أي يا واحدا منهم (الثالث) كان رجلا معلنا بالفسق فنسبت اليه بمعنى التشبيه لا بمعنى النسبة (الرابع) كان لها اخ يسمى هرون من صلحاء



او لتمام القصة وقيل صفة عيسى او بدله او خبر ثان ومعناه كلمة الله وقرئ قال الحق وقول الحق فان القول والقال في معنى واحد (الذي فيه يمترون) اي يشكون او يتنازعون فيقول اليهود ساحر والنصارى ابن الله وقرئ بتاء الخطاب (ما كان لله) اي ما صح وما استقام له تعالى (ان يتخذ من ولد سبحانه) تكذيب للنصارى وتنزيه له تعالى عما بهتوه وقوله تعالى (اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون) تبكيت لهم ببيان ان شأنه تعالى اذا قضى امرا من الامور ان يعلق به ارادته فيكون حينئذ بلا تأخير فمن هذا شأنه كيف يتوهم ان يكون له ولد وقرئ فيكون بالنصب على الجواب وقوله تعالى (وان الله ربي وربكم فاعبدوه) من تمام كلام عيسى عليه السلام قيل هو عطف على قوله اني عبد الله داخل تحت القول وقد قرئ بغير واو وقرئ بفتح الهمزة على حذف اللام اي ولانه تعالى ربي وربكم فاعبدوه كقوله تعالى وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله احدا وقيل معطوف على الصلاة (هذا) اي الذي ذكرته من التوحيد (صراط مستقيم) لا يضل سالكه والفاء في قوله تعالى (فاختلف الاحزاب من بينهم) لترتيب ما بعدها على ما قبلها تنبيها على سوء صنيعهم بجعلهم ما يوجب الاتفاق منشأ للاختلاف فان ما حكي من مقالات عيسى عليه السلام مع كونها نصوصا قاطعة في كونه عبده تعالى

بنى اسرائيل فعيرت به وهذا هو الاقرب لوجهين (الاول) ان الاصل فى الكلام الحقيقة وانما يكون ظاهر الآية محمولا على حقيقتها لو كان لها اخ مسمى بهرون (الثانى) انها اضيفت اليه ووصف ابواها بالصلاح وحينئذ يصير التوبيخ اشد لان من كان حال ابويه واخيه هذه الحالة يكون صدور الذنب عنه افحش (المسئلة الثالثة) القراءة المشهورة ماكان ابوك امرأ سوء وقرأ عمرو بن رجاء التميمى ماكان اباك امرؤ سوء (المسئلة الرابعة) انهم لما بلغوا فى توبيخها سكتت واشارت اليه اى الى عيسى عليه السلام اى هو الذى يجيبكم اذا نا طقتموه وعن السدى لما اشارت اليه غضبوا غضبا شديدا وقالوا لسخريتها بنا اشد من زناها روى انه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع واقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره واشار بسبابته وقيل كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان وقيل ان زكرياء عليه السلام اتاها عند مناظرة اليهود اياها فقال لعيسى عليه السلام انطق بحجتك ان كنت امرت بها فقال عيسى عليه السلام عند ذلك انى عبد الله فان قيل كيف عرفت مريم من حال عيسى عليه السلام انه يتكلم قلنا ان جبريل عليه السلام او عيسى عليه السلام ناداها من تحتها ان لاتحزنى وامرها عند رؤية الناس بالسكوت فصار ذلك كالتنبيه لها على ان المجيب هو عيسى عليه السلام او لعلها عرفت ذلك بالوحى الى زكرياء او لعلها عرفت بالوحى اليها على سبيل الكرامة (بقى ههنا بحثان الاول) قوله كيف نكلم من كان فى المهد صبيا اى حصل فى المهد فكان ههنا بمعنى حصل ووجد وهذا هو الاقرب فى تأويل هذا اللفظ وان كان الناس قد ذكروا وجوها أخر (الثانى) اختلفوا فى المهد فقيل هو حجرها لما روى انها اخذته فى خرقة فأتت به قومها فلما رأوها قالوا لها ماقالوا فأشارت اليه وهو فى حجرها ولم يكن لها منزل معد حتى يعد لها المهد أو المعنى كيف نكلم صبيا سبيله ان ينام فى المهد ❊ قوله تعالى (قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا اينما كنت واوصانى بالصلوة والزكوة مادمت حيا وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا والسلام على يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيا) اعلم انه وصف نفسه بصفات تسع (الصفة الاولى) قوله انى عبد الله وفيه فوائد (الفائدة الاولى) ان الكلام منه فى ذلك الوقت كان سببا للوهم الذى ذهبت اليه النصارى فلاجرم اول ماتكلم انما تكلم بما يرفع ذلك الوهم فقال انى عبد الله وكان ذلك الكلام وان كان موهما من حيث انه صدر عنه فى تلك الحالة ولكن ذلك الوهم يزول ولا يبقى من حيث انه تنصيص على العبودية (الفائدة الثانية) انه لما اقر بالعبودية فان كان صادقا فى مقاله فقد حصل الغرض وان كان كاذبا لم تكن القوة قوة الهية بل قوة شيطانية فعلى التقديرين يبطل كونه الها (الفائدة الثالثة) ان الذى اشتدت الحاجة اليه فى ذلك الوقت انما هو نفى تهمة الزنا عن مريم عليها السلام ثم ان عيسى عليه السلام لم ينص على ذلك وانما نص على اثبات عبودية نفسه كأنه جعل ازالة التهمة عن الله تعالى اولى من ازالة التهمة عن

ورسوله قد اختلفت اليهود والنصارى بالتفريط والافراط او فرق النصارى فقالت النسطورية هو ابن الله وقالت اليعقوبية هو الله هبط الى الارض ثم صعد الى السماء تعالى عن ذلك علوا كبيرا وقالت الملكانية هو عبد الله ونبيه (فويل للذين كفروا) وهم المختلفون عبر عنهم بالموصول ايذانا بكفرهم جميعا واشعارا بعلة الحكم (من مشهد يوم عظيم) اى من شهود يوم عظيم الهول والحساب والجزاء وهو يوم القيامة او من وقت شهوده او من مكان الشهود فيه او من شهادة ذلك اليوم عليهم وهو ان يشهد عليهم الملائكة والانبياء عليهم السلام وألسنتهم وآذانهم وايديهم وارجلهم وسائر آرابهم بالكفر والفسوق او من وقت الشهادة او من مكانها وقيل هو ماشهدوا به فى حق عيسى وامه عليهما السلام (اسمع بهم وابصر) تعجب من حدة سمعهم وابصارهم يومئذ ومعناه ان اسماعهم وابصارهم (يوم يأتوننا) للحساب والجزاء اى يوم القيامة جدير بان يتعجب منهما بعد ان كانوا فى الدنيا صما عميا او تهديد بما سيسمعون ويبصرون يومئذ وقيل امر بأن يسمعهم ويبصرهم مواعيد ذلك اليوم وما يحيق بهم فيه والجار والمجرور على الاول فى موقع الرفع وعلى الثانى فى حيز النصب (لكن الظالمون اليوم) اى فى الدنيا (فى ضلال مبين) لاتدرك غايته حيث اغفلوا الاستماع والنظر بالكلية ووضع الظالمين موضع الضمير

الام فلهذا اول ما تكلم انما تكلم بها ( الفائدة الرابعة ) وهى ان التكلم بازالة هـذه التهمة عن الله تعالى يفيد ازالة التهمة عن الام لان الله سبحانه لايخص الفاجرة بولد فى هذه الدرجة العالية والمرتبة عظيمة واما التكلم بازالة التهمة عن الام لايفيد ازالة التهمة عن الله تعالى فكان الاشتغال بذلك اولى فهذا مجموع مافى هذا اللفظ من الفوائد واعلم ان مذهب النصارى متخبط جدا وقد اتفقوا على انه سبحانه ليس بجسم ولا متحيز ومع ذلك فانا نذكر تقسيما حاصرا يبطل مذهبهم على جميع الوجوه فنقول اما ان يعتقدوا كونه متحيزا اولا فان اعتقدوا كونه متحيزا أبطلنا قولهم باقامة الدلالة على حدوث الاجسام وحينئذ يبطل كل مافرعوا عليه وان اعتقدوا انه ليس بمتحيز فحينئذ يبطل مايقوله بعضهم من ان الكلمة اختلطت بالناسوت اختلاط الماء بالخمر وامتزاج النار بالفحم لان ذلك لايعقل الا فى الاجسام فاذالم يكن جسما استحال ذلك ثم نقول للناس قولان فى الانسان منهم من قال انه هو هذه البنية اوجسم موجود فى داخلها ومنهم من يقول انه جوهر مجرد عن الجسمية والحلول فى الاجسام فنقول هؤلاء النصارى اما ان يعتقدوا ان الله اوصفة من صفاته اتحد ببدن المسيح او بنفسه او يعتقدوا ان الله اوصفة من صفاته حل فى بدن المسيح اوفى نفسه اويقولوا لانقول بالاتحاد ولا بالحلول ولكن نقول انه تعالى اعطاه القدرة على خلق الاجسام والحياة والقدرة وكان لهذا السبب الها أولايقولوا بشئ من ذلك ولكن قالوا انه على سبيل التشريف اتخذه ابنا كما اتخذ ابراهيم على سبيل التشريف خليلا فهذه هى الوجوه المعقولة فى هذا الباب والكل باطل اما القـول الاول بالاتحاد فهو باطل قطعا لان الشيئين اذا اتحدا فهما حال الاتحاد اما ان يكونا موجودين اومعدومين اويكون أحدهما موجودا والآخر معدوما فان كانا موجودين فهما اثنان لاواحد فالاتحاد باطل وان عدما وحصل ثالث فهو ايضا لايكون اتحادا بل يكون قولا بعدم ذينك الشيئين وحصول شئ ثالث وان بقى احدهما وعدم الآخر فالمعدوم يستحيل أن يتحد بالموجود لانه يستحيل ان يقال المعدوم بعينه هو الموجود فظهر من هذا البرهان الباهر ان الاتحاد محال ( واما الحلول ) فلنا فيه مقامان ( الاول ) ان التصديق مسبوق بالتصور فلابد من البحث عن ماهية الحلول حتى يمكننا ان نعلم انه هل يصح على الله تعالى أولايصح وذكروا للحلول تفسيرات ثلاثة ( أحدها ) كون الشئ فى غيره ككون ماء الورد فى الورد والدهن فى السمسم والنار فى الفحم واعلم ان هذا باطل لان هذا انما يصح لوكان الله تعـالى جسمـا وهم وافقونا على أنه ليس بجسم ( وثانيها ) حصوله فى الشئ على مثال حصول اللون فى الجسم فنقول المعقول من هذه التبعية حصول اللون فى ذلك الحيز تبعا لحصول محله فيه وهذا ايضا انمـا يعقل فى حق الاجسـام لا فى حق الله تعالى ( وثالثها ) حصوله فى الشئ على مثال حصول الصفات الاضافية للذوات فنقول هـذا ايضا باطل لان المعقول من هذه التبعية الاحتياج فلوكان

للايذان بأنهم فى ذلك ظالمون لانفسهم ( وانذرهم يوم الحسرة ) اى يوم يتحسر الناس قاطبة اما المسئ فعلى اساءته واما المحسن فعلى قلة احسانه ( اذقضى الامر ) اى فرغ من الحساب وتصـادر الفريقان الى الجنة والنار روى ان النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال حين يجاء بالموت على صورة كبش املح فيـذبح والفريقان ينظرون فينـادى المنادى يااهل الجنة خلود فلا موت وياأهل النـار خلود فلاموت فيزداد اهل الجنة فرحا الى فرح واهل النار غما الى غم واذبدل من يوم الحسرة اوظرف للحسرة فان المصدر المعرف باللام يعمل فى المفعول الصريح عند بعضهم فكيف بالظرف ( وهم فى غفـلة ) اى عما يفعل بهم فى الآخرة ( وهم لا يؤمنون ) وهما جملتـان حاليتـان من الضمير المستتر فى قوله تعـالى فى ضلال مبين اى مستقرون فى ذلك وهم فى تينك الحالتين وما بينهما اعتراض اومن مفعول أنذرهم اى أنذرهم غافلين غير مؤمنين فيكون حالا متضمنة لمعنى التعليل ( انانحن نرث الارض ومن عليها ) لايبقى لأحد غيرنا عليها وعليهم ملك ولاملك او نتوفى الارض ومن عليها بالافناء والاهلاك توفى الوارث لارثه ( والينا يرجعون ) اى يردون للجزاء لاالى غيرنا استقلالا او اشتراكا ( واذكر ) عطف على أنذرهم ( فى الكتاب ) اى فى السورة اوفى القرآن ( ابراهيم ) اى اتل على الناس قصته وبلغها اياهم كقوله

الله تعالى فى شئ بهذا المعنى لكان محتاجا فكان ممكنا فكان مفتقرا الى المؤثر وذلك محال
واذا ثبت انه لايمكن تفسير هذا الحلول بمعنى ملخص يمكن اثباته فى حق الله تعالى امتنع
اثباته ( المقام الثانى ) احتج الاصحاب على نفى الحلول مطلقا بان قالوا لو حل لحل اما مع
وجوب ان يحل او مع جواز ان يحل والقسمان باطلان فالقول بالحلول باطل وانما قلنا
انه لايجوز ان يحل مع وجوب ان يحل لان ذلك يقتضى اما حدوث الله تعالى او قدم المحل
وكلاهما باطلان لانا دللنا على ان الله قديم وعلى ان الجسم محدث ولانه لو حل مع وجوب
ان يحل لكان محتاجا الى المحل والمحتاج الى الغير ممكن لذاته والممكن لذاته لايكون واجبا
لذاته وانما قلنا انه لايجوز ان يحل مع جواز ان يحل لانه لما كانت ذاته واجبة الوجود
لذاتها وحلوله فى المحل امر جائز والموصوف بالوجوب غير ماهو موصوف بالجواز فيلزم
ان يكون حلوله فى المحل امرا زائدا على ذاته وذلك محال لوجهين ( احدهما ) ان حلوله
فى المحل لو كان زائدا على ذاته لكان حلول ذلك الزائد فى محله زائدا على ذاته ولزم
التسلسل وهو محال ( والثانى ) ان حلوله فى ذلك المحل لما كان زائدا على ذاته فاذا حل
فى محل وجب ان يحل فيه صفة محدثة وذلك محال لانه لو كان قابلا للحوادث لكانت تلك
القابلية من لوازم ذاته وكانت حاصلة ازلا وذلك محال لان وجود الحوادث فى الازل
محال فحصول قابليتهـا وجب ان يكون ممتنع الحصول فان قيل لم لايجوز ان يحل مع
وجوب ان يحل لانه يلزم اما حدوث الحال او قدم المحل قلنا لانسلم وجوب احد الامرين
ولم لايجوز ان يقال ان ذاته تقتضى الحلول بشرط وجود المحل ففى الازل ماوجد المحل
فلم يوجد شرط هذا الوجوب فلاجرم لم يجب الحلول وفيما لايزال حصل هذا الشرط
فلاجرم وجب سلمنا انه يلزم اما حدوث الحال او قدم المحل فلم لايجوز قوله انا دللنا على
حدوث الاجسام قلنا لم لايجوز ان يكون محله ليس بجسم ولكنه يكون عقلا او نفسا
او هيولى على ما يثبته بعضهم ودليلكم على حدوث الاجسام لايقتضى حدوث هذه
الاشياء قوله ثانيا لو حل مع وجوب ان يحل لكان محتاجا الى المحل قلنا لانسلم وجوب
احد الامرين بل ههنا احتمالان آخران ( احدهما ) ان العلة وان امتنع انفكاكها عن
المعلول لكنها لاتكون محتاجة الى المعلول فلم لايجوز ان يقال ان ذاته غنية عن ذلك
المحل ولكن ذاته توجب حلول نفسها فى ذلك المعلول فيكون وجوب حلولها فى ذلك المحل
من معلولات ذاته وقد ثبت ان العلة وان استحال انفكاكها عن المعلول لكن ذلك
لايقتضى احتياجها الى المعلول (الثانى) ان يقال انه فى ذاته يكون غنيا عن المحل وعن
الحلول الا ان المحل يوجب لذاته صفة الحلول فالمفتقر الى المحل صفة من صفاته وهى حلوله
فى ذلك المحل فأما ذاته فلا ولايلزم من افتقار صفة من صفاته الاضافية الى الغير افتقار
ذاته الى الغير وذلك لان جميع الصفات الاضافية الحاصلة له مثل كونه اولا وآخرا
ومقارنا ومؤثرا ومعلوما ومذكورا مما لايتحقق الا عند حصول التحيز وكيف لا

تعالى واتل عليهم نبأ ابراهيم فأنهم
ينتمون اليه عليه السلام فعساهم
باستماع قصته يقلعون عما هم فيه
من القبائح ( انه كان صديقا )
ملازما للصدق فى كل مايأتى
ويذر او كثير التصديق لكثرة
ماصدق به من غيوب الله تعالى
وآياته وكتبه ورسله والجملة
استئناف مسوق لتعليل موجب
الامر فأن وصفه عليه السلام
بذلك من دواعى ذكره ( نبيا )
خبر آخر لكان مقيد للاول
مخصص له كما ينبئ عنه قوله تعالى
من النبيين والصديقين الآية اى
كان جامعا بين الصديقية والنبوة
ولعل هذا الترتيب للمبالغة فى
الاحتراز عن توهم تخصيص
الصديقية بالنبوة فأن كل نبى
صديق ( اذ قال ) بدل اشتمال من
ابراهيم ومابينهما اعتراض مقرر
لما قبله او متعلق بكان او بنبيا
وتعليق الذكر بالاوقات مع ان
المقصود تذكير ماوقع فيها من
الحوادث قدمر سره مرارا اى
كان جامعا بين الاثرتين حين قال
(لأبيه ) آزر متلطفا فى الدعوة
مستميلا له ( ياأبت ) اى ياابى فأن
التاء عوض عن ياء الاضافة ولذلك
لايجتمعان وقد قيل ياأبتا لكون
الالف بدلا من الياء ( لم تعبد مالا
يسمع ) ثناءك عليه عند عبادتك
له وجؤارك اليه ( ولايبصر )
خضوعك وخشوعك بين يديه
او لايسمع ولا يبصر شيئا من
المسموعات والمبصرات فيدخل
فى ذلك ماذكر دخولا اوليا
(ولايغنى ) اى لايقدر على ان
يغنى ( عنك شيئا ) فى جانب او
دفع ضر ولقد سلك عليه السلام

والاضافات لابد فى تحققها من امرين سلمنا ذلك فلم لا يجوز ان يحل مع جواز ان يحل قوله يلزم ان يكون حلوله فيه زائدا عليه ويلزم التسلسل قلنا حلوله فى المحل لما كان جائزا كان حلوله فى المحل زائدا عليه اما كون ذلك الحلول حالا فى المحل امر واجب فلا يلزم ان يكون حلول الحلول زائدا عليه فلا يلزم التسلسل قوله ثانيا يلزم ان يصير محل الحوادث قلنا لم لا يجوز ذلك قوله يلزم ان يكون قابلا للحوادث فى الازل قلنا لا شك ان تمكنه من الايجاد ثابت له اما لذاته اولامر ينتهى الى ذاته وكيف كان فيلزم صحة كونه مؤثرا فى الازل فكل ما ذكرتموه فى المؤثرية فنحن نذكره فى القابلية والجواب انا نقرر هذه الدلالة على وجه آخر بحيث تسقط عنها هذه الاسئلة فنقول ذاته اما ان تكون كافية فى اقتضاء هذا الحلول اولا تكون كافية فى ذلك فان كان الاول استحال توقف ذلك الاقتضاء على حصول شرط فيعود ماقلنا انه يلزم اما قدم المحل او حدوث الحال وان كان الثانى كان كونه مقتضيا لذلك الحلول امرا زائدا على ذاته حادثا فيه فعلى التقديرات كلها يلزم من حدوث حلوله فى محل حدوث شيء فيه لكن يستحيل ان يكون قابلا للحوادث والا لزم ان يكون فى الازل قابلا لها وهو محال على مابيناه واما المعارضة بالقدرة فغير واردة لانه تعالى لذاته قادر على الايجاد فى الازل فهو قادر على الايجاد فيما لا يزال فههنا ايضا لو كانت ذاته قابلة للحوادث لكانت فى الازل قابلة لها فحينئذ يلزم المحال المذكور هذا تمام القول فى هذه الادلة ولنا فى ابطال قول النصارى وجوه اخر (احدها) انهم وافقونا على ان ذاته سبحانه وتعالى لم تحل فى ناسوت عيسى عليه السلام بل قالوا الكلمة حلت فيه والمراد من الكلمة العلم فنقول العلم لما حل فى عيسى ففى تلك الحالة اما ان يقال انه بقى فى ذات الله تعالى او ما بقى فيها فان كان الاول لزم حصول الصفة الواحدة فى محلين وذلك غير معقول ولانه لو جاز ان يقال العلم الحاصل فى ذات عيسى عليه السلام هو العلم الحاصل فى ذات الله تعالى بعينه فلم لا يجوز فى حق كل واحد ذلك حتى يكون العلم الحاصل لكل واحد هو العلم الحاصل لذات الله تعالى وان كان الثانى لزم ان يقال ان الله تعالى لم يبق عالما بعد حلول علمه فى عيسى عليه السلام وذلك مما لا يقوله عاقل (وثانيها) مناظرة جرت بينى وبين بعض النصارى فقلت له هل تسلم ان عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول ام لا فان انكرت لزمك ان لا يكون الله تعالى قديما لان دليل وجوده هو العالم فاذا لزم من عدم الدليل عدم المدلول لزم من عدم العالم فى الازل عدم الصانع فى الازل وان سلمت انه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول فنقول اذا جوزت اتحاد كلمة الله تعالى بعيسى او حلولها فيه فكيف عرفت ان كلمة الله تعالى ما دخلت فى زيد وعمرو بل كيف عرفت انها ما حلت فى هذه الهرة وفى هذا الكلب فقال لى ان هذا السؤال لا يليق بك لانا انما اثبتنا ذلك الاتحاد او الحلول بناء على ما ظهر على يد عيسى عليه السلام من احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص فاذا لم نجد شيأ من ذلك على يد غيره فكيف نثبت الاتحاد او الحلول

(فقلت)

فى دعوته احسن منهاج واقوم سبيل واحتج عليه ابدع احتجاج بحسن ادب وخلق جميل لئلا يركب متن المكابرة والعناد ولا ينكب بالكلية عن محجة الرشاد حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل من عالم وجاهل ويأبى الركون اليه فضلا عن عبادته التى هى الغاية القاصية من التعظيم مع انها لا تحق الا لمن له الاستغناء التام والانعام العام الخالق الرازق المحيي المميت المثيب المعاقب ونبه على ان العاقل يجب ان يفعل كل مايفعل لداعية صحيحة وغرض صحيح والشيء لو كان حيا مميزا سميعا بصيرا قادرا على النفع والضر مطيقا بايصال الخير والشر لكن كان ممكنا لاستنكف العقل السليم عن عبادته وان كان اشرف الخلائق لما يراه مثله فى الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة فما ظنك بجماد مصنوع من حجر او شجر ليس له من اوصاف الاحياء عين ولا اثر ثم دعاه الى ان يتبعه ليهديه الى الحق المبين لما انه لم يكن محظوظا من العلم الالهى مستقلا بالنظر السوى مصدرا لدعوته بما مر من الاستمالة والاستعطاف حيث قال (ياأبت انى قد جاءنى من العلم مالم يأتك) ولم يسم اباه بالجهل المفرط وان كان فى اقصاه ولا نفسه بالعلم الفائق وان كان كذلك بل ابرز نفسه فى صورة رفيق له اعرف بأحوال ما سلكاه من الطريق فاستماله برفق حيث قال (فاتبعنى اهدك صراطا سويا) اى مستقيما موصلا

فقلت له اني عرفت من هذا الكلام انك ماعرفت اول الكلام لانك سلمت لي ان عدم الدليل لايدل على عدم المدلول فاذا كان هذا الحلول غير ممتنع في الجملة فاكثر مافي الباب انه وجد مايدل على حصوله في حق عيسى عليه السلام ولم يوجد ذلك الدليل في حق زيد وعمرو ولكن عدم الدليل لايدل على عدم المدلول فلايلزم من عدم ظهور هذه الخوارق على يد زيد وعمرو وعلى السنور والكلب عدم ذلك الحلول فثبت انك مهما جوزت القول بالاتحاد والحلول لزمك تجويز حصول ذلك الاتحاد وذلك الحلول في حق كل واحد بل في حق كل حيوان ونبات ولاشك ان المذهب الذي يسوق قائله الى مثل هذا القول الركيك يكون باطلا قطعا ثم قلت له وكيف دل احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص على ماقلت أليس ان انقلاب العصا ثعبانا أبعد من انقلاب الميت حيا فاذا ظهر ذلك على يد موسى عليه السلام ولم يدل على الهيته فبأن لايدل هذا على الهية عيسى اولى (وثالثها) انانقول دلالة احوال عيسى على العبودية أقوى من دلالتها على الربوبية لانه كان مجتهدا في العبادة والعبادة لاتليق الا بالعبيد فانه كان في نهاية البعد عن الدنيا والاحتراز عن أهلها حتى قالت النصارى ان اليهود قتلوه ومن كان في الضعف هكذا فكيف تليق به الربوبية (ورابعها) المسيح اما ان يكون قديما او محدثا والقول بقدمه باطل لانا نعلم بالضرورة انه ولد وكان طفلا ثم صار شابا وكان يأكل ويشرب ويعرض له مايعرض لسائر البشر وان كان محدثا كان مخلوقا ولامعنى للعبودية الاذلك فان قيل المعنى بالهيته انه حلت صفة الالهية فيه قلنا هب انه كان كذلك لكن الحال هو صفة الاله والمسيح هو المحل والمحل محدث مخلوق فاهو المسيح عبد محدث فكيف يمكن وصفه بالالهية (وخامسها) ان الولد لابد وان يكون من جنس الوالد فان كان لله ولد فلابد وان يكون من جنسه فاذن قد اشتركا من بعض الوجوه فان لم يتميز احدهما عن الآخر بأمرما فكل واحد منهما هو الآخر وان حصل الامتياز فابه الامتياز غير مابه الاشتراك فيلزم وقوع التركيب في ذات الله وكل مركب ممكن فالواجب ممكن هذا خلف محال هذا كله على الاتحاد والحلول (اما الاحتمال الثالث) وهو ان يقال معنى كونه الها انه سبحانه خص نفسه او بدنه بالقدرة على خلق الاجسام والتصرف في هذا العالم فهذا ايضا باطل لان النصارى حكوا عنه الضعف والعجز وان اليهود قتلوه ولوكان قادرا على خلق الاجسام لماقدروا على قتله بل كان هو يقتلهم ويخلق لنفسه عسكرا يذبون عنه (واما الاحتمال الرابع) وهو انه اتخذه ابنا لنفسه على سبيل التشريف فهذا قدقال به قوم من النصارى يقال لهم الارميوسية وليس فيه كثير خطأ الافي اللفظ فهذا جملة الكلام على النصارى وبه ثبت صدق ماحكاه الله تعالى عنه انه قال اني عبدالله (الصفة الثانية) قوله تعالى آتاني الكتاب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلف الناس فيه فالجمهور على انه قال هذا الكلام حال صغره وقال ابوالقاسم

---

الى اسنى المطالب منحيا عن الضلال المؤدي الى مهاوي الردى والمعاطب ثم ثبطه عما كان عليه بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل ببيان انه مع عرائه عن النفع بالمرة مستجلب لضرر عظيم فانه في الحقيقة عبادة الشيطان لمانه الآمر به فقال (ياأبت لاتعبد الشيطان) فان عبادتك للاصنام عبادة له اذ هو الذي يسولها لك ويغريك عليها وقوله (ان الشيطان كان للرحمن عصيا) تعليل لموجب النهي وتأكيد له ببيان انه مستعص على ربك الذي انعم عليك بفنون النعم ولا ريب في ان المطيع للعاصي عاص وكل من هو عاص حقيق بان يسترد منه النعم وينتقم منه والاظهار في موضع الاضمار لزيادة التقرير والاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته لانه ملاكها او لانه نتيجة معاداته لآدم عليه السلام وذريته فتذكيره داع لابيه الى الاحتراز عن موالاته وطاعته والتعرض لعنوان الرحمانية لاظهار كمال شناعة عصيانه وقوله (ياأبت اني اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن) تحذير من سوء عاقبة ما كان عليه من عبادة الشيطان وهو ابتلاؤه بما ابتلي به معبوده من العذاب الفظيع وكلمة من متعلقة بمضمر وقع صفة للعذاب مؤكدة لماافاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية واظهار الرحمن للاشعار بأن وصف الرحمانية لايدفع حلول العذاب كما في قوله عز وجل ماغرك بربك

البلخى انه انما قال ذلك حين كان كالمراهق الذى يفهم وان لم يبلغ حد التكليف اما
الاولون فلهم قولان (احدهما) انه كان فى ذلك الصغر نبيا (الثانى) روى عن عكرمة عن
ابن عباس رضى الله عنهما انه قال المراد بأن حكم وقضى بأنه سيبعثنى من بعد ولما تكلم
بذلك سكت وعاد الى حال الصغر ولما بلغ ثلاثين سنة بعثه الله نبيا واحتج من نص على فساد
القول الاول بأمور (احدها) ان النبى لايكون الا كاملا والصغير ناقص الخلقة بحيث
يعد هذا التحدى من الصغير منفرا بل هو فى التنفير اعظم من ان يكون امرأة (وثانيها)
انه لو كان نبيا فى هذا الصغر لكان كمال عقله مقدما على ادعائه للنبوة اذ النبى لابد وان
يكون كامل العقل لكن كمال عقله فى ذلك الوقت خارق للعادة فيكون المعجز متقدما
على التحدى وانه غير جائز (وثالثها) انه لو كان نبيا فى ذلك الوقت لوجب ان يشتغل ببيان
الاحكام وتعريف الشرائع ولو وقع ذلك لاشتهر ولنقل فحيث لم يحصل ذلك علمنا انه
ما كان نبيا فى ذلك الوقت اجاب الاولون عن الكلام الاول بأن كون الصبى ناقصا ليس
لذاته بل لامر يرجع الى صغر جسمه ونقصان فهمه فاذا أزال الله تعالى هذه الاشياء
لم تحصل النفرة بل تكون الرغبة الى استماع قوله وهو على هذه الصفة اتم وأكمل وعن
الكلام الثانى لم لايجوز ان يقال اكمال عقله وان حصل مقدما على دعواه الا أنه معجزة
لزكريا عليه السلام او يقال انه ارهاص لنبوته او كرامة لمريم عليها السلام وعندنا
الارهاص والكرامات جائزة وعن الكلام الثالث لم لايجوز ان يقال مجرد بعثته اليهم من
غير بيان شئ من الشرائع والاحكام جائز ثم بعد البلوغ اخذ فى شرح تلك الاحكام
فثبت بهذا انه لا امتناع فى كونه نبيا فى ذلك الوقت وقوله اتانى الكتاب يدل على كونه
نبيا فى ذلك الوقت فوجب اجراؤه على ظاهره بخلاف ماقاله عكرمة اما قول ابى القاسم
البلخى فبعيد وذلك لان الحاجة الى كلام عيسى عليه السلام انما كانت عند وقوع
التهمة على مريم عليها السلام (المسئلة الثانية) اختلفوا فى ذلك الكتاب فقال بعضهم
هو التوراة لان الالف واللام فى الكتاب تنصرف للمعهود والكتاب المعهود لهم هو
التوراة وقال ابو مسلم المراد هو الانجيل لان الالف واللام ههنا للجنس اى آتانى من هذا
الجنس وقال قوم المراد هو التوراة والانجيل لان الالف واللام تفيد الاستغراق
(المسئلة الثالثة) اختلفوا فى انه متى آتاه الكتاب ومتى جعله نبيا لان قوله آتانى الكتاب
وجعلنى نبيا يدل على ان ذلك كان قد حصل من قبل امام لاصقا لذلك الكلام او متقدما
عليه بأزمان والظاهر انه من قبل ان كلمهم آتاه الله الكتاب وجعله نبيا وامره بالصلاة
والزكاة وان يدعو الى الله تعالى والى دينه والى ما خص به من الشريعة فقيل هذا الوحى
نزل عليه وهو فى بطن امه وقيل لما انفصل من الام آتاه الله الكتاب والنبوة وانه تكلم
مع امه واخبرها بحاله واخبرها بأنه يكلمهم بما يدل على براءة حالها فلهذا اشارت اليه
بالكلام (الصفة الثالثة) قوله وجعلنى نبيا قال بعضهم اخبر انه نبى ولكنه ما كان

الكريم (فتكون للشيطان وليا)
اى قرينا له فى اللعن المخلد وذكر
الخوف للمجاملة وابراز الاعتناء
بأمره (قال) استئناف مبنى على
سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه
قيل فاذا قال أبوه عند ما سمع منه
عليه السلام هذه النصائح
الواجبة القبول فقيل قال مصرا
على عناده (أراغب انت عن آلهتى
يا ابراهيم) اى أمعرض ومنصرف
انت عنها بتوجيه الانكار الى
نفس الرغبة مع ضرب من التعجب
كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن
العاقل فضلا عن ترغيب الغير
عنها وقوله (لئن لم تنته لأرجمنك)
تهديد وتحذير عما كان عليه من
العظة والتذكير اى والله لئن لم
تنته عما كنت عليه من النهى
عن عبادتها لأرجمنك بالحجارة
وقيل باللسان (واهجرنى) اى
فاحذرنى واتركنى (مليا) اى
زمانا طويلا او مليا بالذهاب
مطيقا به (قال) استئناف كما
سلف (سلام عليك) توديع
ومتاركة على طريقة مقابلة
السيئة بالحسنة اى لا اصيبك
بمكروه بعد ولا اشافهك بما يؤذيك
ولكن (سأستغفر لك ربى) اى
استدعيه ان يغفر لك بأن يوفقك
للتوبة ويهديك الى الايمان كما
يلوح به تعليل قوله تعالى واغفر
لأبى بقوله تعالى انه كان من
الضالين والاستغفار بهذا المعنى
للكافر قبل تبين انه يموت على
الكفر مما لاريب فى جوازه وانما
المحظور استدعاء المغفرة له مع بقائه
على الكفر فانه مما لامساغ له عقلا
ولانقلا واما الاستغفار له بعد

رسولا لانه فى ذلك الوقت ماجاء بالشريعة ومعنى كونه نبيا انه رفيع القدر على الدرجة وهذا ضعيف لان النبى فى عرف الشرع هو الذى خصه الله بالنبوة وبالرسالة خصوصا اذا قرن اليه ذكر الشرع وهو قوله واوصانى بالصلاة والزكاة (الصفة الرابعة) قوله وجعلنى مباركا اينما كنت فلقائل ان يقول كيف جعله مباركا والناس كانوا قبله على الملة الصحيحة فلما جاء صار بعضهم يهودا وبعضهم نصارى قائلين بالتثليث ولم يبق على الحق الا القليل والجواب ذكروا فى تفسير المبارك وجوها (احدها) ان البركة فى اللغة هى الثبات واصله من بروك البعير فمعناه جعلنى ثابتا على دين الله مستقرا عليه (وثانيها) انه انما كان مباركا لانه كان يعلم الناس دينهم ويدعوهم الى طريق الحق فان ضلوا فمن قبل انفسهم لا من قبله وروى الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم قال اسلمت ام عيسى عليهما السلام عيسى الى الكتاب فقالت للمعلم ادفعه اليك على ان لا تضربه فقال له المعلم اكتب فقال اى شئ اكتب فقال اكتب ابجد فرفع عيسى عليه السلام رأسه فقال هل تدرى ما ابجد فعلاه بالدرة ليضربه فقال يامؤدب لا تضربنى ان كنت لا تدرى فاسئلنى فأنا اعلمك الالف من آلاء الله والباء من بهاء الله والجيم من جمال الله والدال من اداء الحق الى الله (وثالثها) البركة الزيادة والعلو فكأنه قال جعلنى فى جميع الاحوال غالبا مفلحا منجحا لانى مادمت ابقى فى الدنيا اكون على الغير مستعليا بالحجة فاذا جاء الوقت المعلوم يكرمنى الله تعالى بالرفع الى السماء (ورابعها) مبارك على الناس بحيث يحصل بسبب دعائى احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص عن قتادة انه رأته امرأة وهو يحيى الموتى ويبرئ الاكمه والابرص فقالت طوبى لبطن حملك وثدى ارضعت به فقال عيسى عليه السلام مجيبا لها طوبى لمن تلا كتاب الله واتبع مافيه ولم يكن جبارا شقيا اما قوله اينما كنت فهو يدل على ان حاله لم يتغير كما قيل انه عاد الى حال الصغر وزوال التكليف (الصفة الخامسة) قوله واوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا فان قيل كيف أمر بالصلاة والزكاة مع انه كان طفلا صغيرا والقلم مرفوع عنه على ماقال صلى الله عليه وسلم رفع القلم عن ثلاث عن الصبى حتى يبلغ الحديث وجوابه من وجهين (الاول) ان قوله واوصانى بالصلاة والزكاة لا يدل على انه تعالى اوصاه بأدائهما فى الحال بل بعد البلوغ فلعل المراد انه تعالى اوصاه بهما وبأدائهما فى الوقت المعين له وهو وقت البلوغ (الثانى) لعل الله تعالى لما انفصل عيسى عن امه صيره بالغا عاقلا تام الاعضاء والخلقة وتحقيقه قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم فكما أنه تعالى خلق آدم تاما كاملا دفعة فكذا القول فى عيسى عليه السلام وهذا القول الثانى أقرب الى الظاهر لقوله مادمت حيا فانه يفيد ان هذا التكليف متوجه عليه فى جميع زمان حياته ولكن لقائل ان يقول لو كان الامر كذلك لكان القوم حين رأوه فقد رأوه شخصا كامل الاعضاء تام الخلقة وصدور الكلام عن مثل هذا الشخص لا يكون عجبا فكان ينبغى ان لا يعجبوا فلعل الاولى ان يقال انه تعالى جعله مع صغر جثته قوى التركيب كامل العقل بحيث

موته على الكفر فلا تأباه قضية العقل وانما الذى يمنعه السمع ألا يرى الى انه عليه السلام قال لعمه ابى طالب لا ازال استغفر لك مالم أنه عنه فنزل قوله تعالى ما كان للنبى والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين الآية والاشتباه فى ان هذا الوعد من ابراهيم عليه السلام وكذا قوله لاستغفرن لك وماترتب عليهما من قوله واغفر لابى الآية انما كان قبل انقطاع رجائه عن ايمانه لعدم تبين امره لقوله تعالى فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه كما مر فى تفسير سورة التوبة واستثناؤه عما يؤتسى به فى قوله تعالى الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك لا يقدح فى جوازه لكن لا لان ذلك كان قبل ورود النهى او لموعدة وعدها اياه كما قيل لما ان النهى انما ورد فى شأن الاستغفار بعد تبين الامر وقد كان استغفاره عليه السلام قبل التبين فلم يتناوله النهى اصلا وان الوعد بالمحظور لا يرفع حظره بل لان المراد بما يؤتسى به مايجب الائتساء به حتما لورود الوعيد على الاعراض عنه بقوله تعالى لقد كان لكم فيهم اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد فاستثناؤه عن ذلك انما يفيد عدم وجوب استدعاء الايمان للكافر المرجو ايمانه لاسيما وقد انقطع ذلك عند ورود الاستثناء وذلك مما لا يتردد فيه احد من العقلاء واما عدم جوازه قبل تبين الامر فلا دلالة للاستثناء عليه قطعا وتوجيه الاستثناء الى العدة بالاستغفار لا الى

كان يمكنه اداء الصلاة والزكاة والآية دالة على ان تكليفه لم يتغير حين كان في الارض وحين رفع الى السماء وحين ينزل مرة اخرى (الصفة السادسة) قوله تعالى وبرابوالدتي اى جعلني برا بوالدتي وهذا يدل على قولنا ان فعل العبد مخلوق لله تعالى لان الآية تدل على ان كونه برا انما حصل بجعل الله وخلقه وحمله على الالطاف عدول عن الظاهر ثم قوله وبرابوالدتي اشارة الى تنزيه امه عن الزنا اذلو كانت زانية لما كان الرسول المعصوم مأمورا بتعظيمها قال صاحب الكشاف جعل ذاته برالفرط بره ونصبه بفعل في معنى اوصاني وهو كلفني لان اوصاني بالصلاة وكلفني بها واحد (الصفة السابعة) قوله ولم يجعلني جبارا شقيا وهذا ايضا يدل على قولنا لانه لما بين انه جعله برا وما جعله جبارا فهذا انما يحسن لو ان الله تعالى جعل غيره جبارا وغير بار بأمه فان الله تعالى لو فعل ذلك بكل احد لم يكن لعيسى عليه السلام مزيد تخصيص بذلك ومعلوم انه عليه السلام انما ذكر ذلك في معرض التخصيص وقوله ولم يجعلني جبارا اى ماجعلني متكبرا بل انا خاضع لاني متواضع لها ولو كنت جبارا لكنت عاصيا شقيا وروى ان عيسى عليه السلام قال قلبي لين وانا صغير في نفسي وعن بعض العلماء لاتجد العاق الا جبارا شقيا وتلا وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا ولا تجد سيء الملكة الا مختالا فخورا وقرأ وما ملكت ايمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا (الصفة الثامنة) هي قوله والسلام على يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال بعضهم لام التعريف في السلام منصرف الى ماتقدم في قصتي يحيى عليه السلام من قوله وسلام عليه اى السلام الموجه اليه في المواطن الثلاثة موجه الى ايضا وقال صاحب الكشاف الصحيح ان يكون هذا التعريف تعريضا باللعن على من اتهم مريم بالزنا وتحقيقه ان اللام للاستغراق فاذا قال والسلام على فكأنه قال وكل السلام على وعلى اتباعي فلم يبق للاعداء الا اللعن ونظيره قول موسى عليه السلام والسلام على من اتبع الهدى بمعنى ان العذاب على من كذب وتولى وكان المقام مقام اللجاج والعناد ويليق به مثل هذا التعريض (المسئلة الثانية) روى بعضهم عن عيسى عليه السلام انه قال ليحيى انت خير مني سلم الله عليك وسلمت على نفسي واجاب الحسن فقال ان تسليمه على نفسه بتسليم الله عليه (المسئلة الثالثة) قال القاضي السلام عبارة عما يحصل به الامان ومنه السلامة في النعم وزوال الآفات فكأنه سأل ربه وطلب منه ما اخبر الله تعالى انه فعله بيحيى ولا بد في الانبياء من ان يكونوا مستجابي الدعوة واعظم احوال الانسان احتياجا الى السلامة هي هذه الاحوال الثلاثة وهي يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث فجميع الاحوال التي يحتاج فيها الى السلامة واجتماع السعادة من قبله تعالى طلبها ليكون مصونا عن الآفات والمخافات في كل الاحوال واعلم ان اليهود والنصارى ينكرون ان عيسى عليه السلام تكلم في زمان الطفولية واحتجوا عليه بأن هذا من الوقائع العجيبة التي تتوفر الدواعي على نقلها فلو

(وجدت)

نفس الاستغفار بقوله واغفر لابي الآية لانها كانت هي الحاملة له عليه السلام عليه وتخصيص تلك العدة بالذكر دون ماوقع ههنا لورودها على نهج التأكيد القسمي واما جعل الاستغفار دائرا عليها وترتيب التبرؤ على تبين الامر فقد مر تحقيقه في تفسير سورة التوبة وقوله (انه كان بي حفيا) اى بليغا في البر والالطاف تعليل لمضمون ماقبله (واعتزلكم) اى اتباعد عنك وعن قومك (وما تدعون من دون الله) بالمهاجرة بديني حيث لم تؤثر فيكم نصائحي (وادعو ربي) اعبده وحده وقد جوز ان يراد به دعاؤه المذكور في تفسير سورة الشعراء ولا يبعد ان يراد به استدعاء الولد ايضا بقوله رب هب لي من الصالحين حسبما يساعده السباق والسياق (عسى ألا اكون بدعاء ربي شقيا) اى خائبا ضائع السعي وفيه تعريض بشقائهم في عبادة آلهتهم وفي تصدير الكلام بعسى من اظهار التواضع ومراعاة حسن الادب والتنبيه على حقيقة الحق من ان الاجابة والاثابة بطريق التفضل منه عز وجل لا بطريق الوجوب وان العبرة بالخاتمة وذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير مالا يخفى (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله) بالمهاجرة الى الشام (وهبنا له اسحق ويعقوب) بدل من فارقهم من اقربائه الكفرة لكن لا عقيب المهاجرة فان المشهور ان الموهوب حينئذ اسمعيل عليه السلام بقوله تعالى فبشرناه بغلام

وجدت لنقلت بالتواتر ولو كان ذلك لعرفه النصارى لاسيما وهم من اشد الناس بحثا عن احواله واشد الناس غلوا فيه حتى زعموا كونه الها ولا شك ان الكلام في الطفولية من المناقب العظيمة والفضائل التامة فلما لم تعرفه النصارى مع شدة الحب وكمال البحث عن احواله علمنا انه لم يوجد ولان اليهود اظهروا اعداوته حال ما اظهر ادعاء النبوة فلو انه عليه السلام تكلم في زمان الطفولية وادعى الرسالة لكانت عداوتهم معه اشد ولكان قصدهم قتله اعظم فحيث لم يحصل شيء من ذلك علمنا انه ما تكلم اما المسلمون فقد احتجوا من جهة العقل على انه تكلم فانه لولا كلامه الذي دلهم على براءة امه من الزنا لما تركوا اقامة الحد على الزنا عليها ففي تركهم لذلك دلالة على انه عليه السلام تكلم في المهد واجابوا عن الشبهة الاولى بأنه ربما كان الحاضرون عند كلامه قليلين فلذلك لم يشتهر وعن الثاني لعل اليهود ما حضروا هناك وما سمعوا كلامه فلذلك لم يشتغلوا بقصد قتله

❊ قوله تعالى (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ما كان لله ان يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم وابن عامر قول الحق بالنصب وعن ابن مسعود قال الحق وقال الله وعن الحسن قول الحق بضم القاف وكذلك في الانعام قوله الحق والقول والقال والقول في معنى واحد كالرهب والرهب والرهب اما ارتفاعه فعلى انه خبر بعد خبر او خبر مبتدأ محذوف واما انتصابه فعلى المدح ان فسر بكلمة الله او على انه مصدر مؤكد لمضمون الجملة كقولك هو عبد الله الحق لا الباطل والله اعلم (المسئلة الثانية) لا شبهة ان المراد بقوله ذلك عيسى ابن مريم الاشارة الى ما تقدم وهو قوله اني عبد الله آتاني الكتاب اي ذلك الموصوف بهذه الصفات هو عيسى ابن مريم وفي قوله عيسى ابن مريم اشارة الى انه ولد هذه المرأة وابنها لا انه ابن الله فأما قوله الحق ففيه وجوه (احدها) وهو ان نفس عيسى عليه السلام هو قول الحق وذلك لان الحق هو اسم الله فلا فرق بين ان نقول عيسى كلمة الله وبين ان نقول عيسى قول الحق (وثانيها) ان يكون المراد ذلك عيسى ابن مريم القول الحق الا انك اضفت الموصوف الى الصفة فهو كقوله ان هذا لهو حق اليقين وفائدة قولك القول الحق تأكيد ما ذكرت اولا من كون عيسى عليه السلام ابن المريم (وثالثها) أن يكون قول الحق خبرا لمبتدأ محذوف كأنه قيل ذلك عيسى ابن مريم ووصفنا له هو قول الحق فكأنه تعالى وصفه اولا ثم ذكر ان هذا الموصوف هو عيسى بن مريم ثم ذكر ان هذا الوصف اجمع هو قول الحق على معنى انه ثابت لا يجوز ان يبطل كما بطل ما يقع منهم من المرية ويكون في معنى ان هذا لهو الحق اليقين فاما امتراؤهم في عيسى عليه السلام فالمذاهب التي حكيناها من قول اليهود والنصارى وقد تقدم ذكر ذلك في سورة آل عمران روى ان عيسى عليه السلام لما رفع حضر اربعة من اكابرهم وعلمائهم فقيل للاول ما تقول في عيسى فقال هو اله والله اله وأمه اله فتابعه على ذلك ناس وهم الاسرائيلية وقيل

---

حليم اثر دعائه بقوله رب هب لي من الصالحين ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله لبيان كمال عظم النعم التي اعطاها الله تعالى اياه بمقابلة من اعتزلهم من الاهل والاقرباء فانهما شجرتا الانبياء لهما اولاد واحفاد اولو شأن خطير وذوو عدد كثير هذا وقد روى انه عليه السلام لما قصد الشام اتى اولا حران وتزوج بسارة وولدت له اسحق وولد لاسحق يعقوب والاول هو الاقرب الاظهر (وكلا) اي كل واحد منهما اومنهم وهو مفعول اول لقوله تعالى (جعلنا نبيا) قدم عليه للتخصيص لكن لا بالنسبة الى من عداهم بل بالنسبة الى بعضهم اي كل واحد منهم جعلنا نبيا لا بعضهم دون بعض (ووهبنا لهم من رحمتنا) هي النبوة وذكرها بعد ذكر جعلهم نبيا للايذان بانها من باب الرحمة وقيل هي المال والاولاد وما بسط لهم من سعة الرزق وقيل هو الكتاب والاظهر انها عامة لكل خير ديني ودنيوي اوتوه مما لم يؤته احد من العالمين (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) يفتخر بهم الناس ويثنون عليهم استجابة لدعوته بقوله واجعل لي لسان صدق في الآخرين والمراد باللسان ما يوجد به من الكلام ولسان العرب لغتهم واضافته الى الصدق ووصفه بالعلو للدلالة على انهم احقاء بما يثنون عليهم وان محامدهم لا تخفى على تباعد الاعصار وتبدل الدول وتحول الملل والنحل (واذكر في الكتاب موسى) قدم ذكره على ذكر اسمعيل

للرابع ماتقول فقال هو عبدالله ورسوله وهو المؤمن المسلم وقال أماتعلمون ان عيسى كان يطعم وينام وان الله تعالى لايجوز عليه ذلك فخصمهم اما قوله ماكان لله ان يتخذ من ولد فهو يحتمل امرين (احدهما) ان ثبوت الولد له محال فقولنا ماكان لله ان يتخذ من ولد كقوله ماكان لله ان يقول لأحد انه ولدي لان هذا الخبر كذب والكذب لايليق بحكمة الله تعالى وكماله فقوله ماكان لله ان يتخذ من ولد كقولنا ماكان لله ان يظلم اى لايليق ذلك بحكمته وكمال الهيته واحتج الجبائي بالآية بناء على هذا التفسير انه ليس لله ان يفعل كل شئ لانه تعالى صرح بأنه ليس له هذا الايجاد اى ليس له هذا الاختيار واجاب اصحابنا عنه بأن الكذب محال على الله تعالى فلا جرم قال ماكان لله ان يتخذ من ولد اما قوله سبحانه اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون ففيه مسائل ( المسئلة الاولى ) انه تعالى لما قال سبحانه ثم قال عقيبه اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون كان كالحجة على تنزيهه عن الولد وبيان ذلك ان الذي يجعل ولدالله اما ان يكون قديما ازليا او يكون محدثا فان كان ازليا فهو محال لانه لو كان واجبا لذاته لكان واجب الوجود اكثر من واحد هذا خلف وان كان ممكنا لذاته كان مفتقرا في وجوده الى الواجب لذاته غنيا لذاته فيكون الممكن محتاجا لذاته فيكون عبدا له لانه لامعنى للعبودية الا ذلك واما ان كان الذي يجعل ولدا يكون محدثا فيكون وجوده بعد عدمه بخلق ذلك القديم وايجاده وهو المراد من قوله اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون فيكون عبدا له لا ولدا له فثبت أنه يستحيل ان يكون لله ولد ( المسئلة الثانية ) احتج الاصحاب بقوله اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون على قدم كلام الله تعالى قالوا لان الآية تدل على انه تعالى اذا أراد احداث شئ قال له كن فيكون فلو كان قوله كن محدثا لافتقر حدوثه الى قول آخر ولزم التسلسل وهو محال فثبت ان قول الله قديم لا محدث واحتج المعتزلة بالآية على حدوث كلام الله تعالى من وجوه ( احدها ) انه تعالى ادخل عليه كلمة اذا وهذه الكلمة دالة على الاستقبال فوجب ان لايحصل القول الا في الاستقبال ( وثانيها ) ان حرف الفاء للتعقيب والفاء في قوله فانما يقول له يدل على تأخر ذلك القول عن ذلك القضاء والمتأخر عن غيره محدث (وثالثها) الفاء في قوله فيكون يدل على حصول ذلك الشئ عقيب ذلك القول من غير فصل فيكون قول الله متقدما على حدوث الحادث تقدما بلا فصل والمتقدم على المحدث تقدما بلا فصل يكون محدثا فقول الله محدث واعلم ان استدلال الفريقين ضعيف اما استدلال الاصحاب فلانه يقتضي ان يكون قوله كن قديما وذلك باطل بالاتفاق واما استدلال المعتزلة فلانه يقتضي ان يكون قول الله تعالى هو المركب من الحروف والاصوات وهو محدث وذلك لانزاع فيه انما المدعى قدم شئ آخر ( المسئلة الثالثة ) من الناس من أجرى الآية على ظاهرها فزعم انه تعالى اذا أحدث شيئا قال له كن وهذا ضعيف لانه اما ان يقول له كن قبل حدوثه او حال

( حدوثه )

لئلا ينفصل عن ذكر يعقوب عليهما السلام ( انه كان مخلصا ) موحدا اخلص عبادته عن الشرك والرياء او اسلم وجهه لله تعالى واخلص نفسه عما سواه وقرئ مخلصا على ان الله تعالى اخلصه ( وكان رسولا نبيا ) ارسله الله تعالى الى الخلق فانبأهم عنه ولذلك قدم رسولا مع كونه اخص واعلى ( وناديناه من جانب الطور الايمن ) الطور جبل بين مصر ومدين والايمن صفة للجانب اى ناديناه من ناحيته اليمنى من اليمين وهى التى تلي يمين موسى عليه السلام او من جانبه الميمون من اليمن ومعنى ندائه منه انه تمثل له الكلام من تلك الجهة (وقربناه نجيا) تقريب تشريف مثل حاله عليه السلام بحال من قربه الملك لمناجاته واصطفاه لمصاحبته ونجيا اى مناجيا حال من احد الضميرين في ناديناه او قربناه وقيل مرتفعا لماروى انه عليه السلام رفع فوق السموات حتى سمع صريف القلم ( ووهبنا له من رحمتنا ) اى من اجل رحمتنا ورأفتنا له او بعض رحمتنا ( اخاه ) اى معاضدة اخيه وموازرته اجابة لدعوته بقوله واجعل لى وزيرا من اهلى هرون اخى لانفسه لانه كان اكبر منه عليهما السلام وهو على الاول مفعول لوهبنا وعلى الثانى بدل وقوله تعالى (هرون) عطف بيان له وقوله تعالى ( نبيا ) حال منه ( واذكر في الكتاب اسمعيل ) فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه لابراز كمال الاعتناء بأمره بايراده مستقلا وقوله تعالى (انه كان صادق

حدوثه فان كان الاول كان ذلك خطابا مع المعدوم وهو عبث وان كان الثانى فهو حال حدوثه قد وجد بالقدرة والارادة فأى تأثير لقوله كن فيه ومن الناس من زعم ان المراد من قوله كن هو التخليق والتكوين وذلك لان القدرة على الشئ غير وتكوين الشئ غير فان الله سبحانه قادر فى الازل وغير مكون فى الازل ولانه الآن قادر على عوالم سوى هذا العالم وغير مكون لها والقادرية غير المكونية والتكوين ليس هو نفس المكون لانا نقول المكون انما حدث لان الله تعالى كونه فأوجده فلو كان التكوين نفس المكون لكان قولنا المكون انما وجد بتكوين الله تعالى نازلا منزلة قولنا المكون انما وجد بنفسه وذلك محال فثبت ان التكوين غير المكون فقوله كن اشارة الى الصفة المسماة بالتكوين وقال آخرون قوله كن عبارة عن نفاذ قدرة الله تعالى ومشيئته فى الممكنات فان وقوعها بتلك القدرة والارادة من غير امتناع واندفاع يجرى مجرى العبد المطيع المسخر المنقاد لاوامر مولاه فعبر الله تعالى عن ذلك المعنى بهذه العبارة على سبيل الاستعارة

❊ قوله تعالى ( وان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم اسمع بهم وابصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين وانذرهم يوم الحسرة اذ قضى الامر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون انا نحن نرث الارض ومن عليها والينا يرجعون ) اعلم ان قوله وان الله ربى وربكم فاعبدوه فيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ المدنيون وابو عمرو بفتح ان ومعناه ولانه ربى وربكم فاعبدوه وقرأ الكوفيون وابو عبيدة بالكسر على الابتداء وفى حرف ابى ان الله بالكسر من غير واو واى بسبب ذلك فاعبدوه (المسئلة الثانية) انه لا يصح ان يقول الله وان الله ربى وربكم فاعبدوه فلابد وان يكون قائل هذا غير الله تعالى وفيه قولان (الاول) التقدير فقل يا محمد ان الله ربى وربكم بعد اظهار البراهين الباهرة فى ان عيسى هو عبد الله (الثانى) قال ابو مسلم الاصفهانى الواو فى وان الله عطف على قول عيسى عليه السلام انى عبد الله آتانى الكتاب كأنه قال انى عبد الله وانه ربى وربكم فاعبدوه وقال وهب بن منبه عهد اليهم حين اخبرهم عن بعثه ومولده ونعته ان الله ربى وربكم اى كلنا عبد الله تعالى (المسئلة الثالثة) قوله وان الله ربى وربكم يدل على ان مدبر الناس ومصلح امورهم هو الله تعالى خلاف قول المنجمين ان مدبر الناس ومصلح امورهم فى السعادة والشقاوة هى الكواكب ويدل ايضا على ان الاله واحد لان لفظ الله اسم علم له سبحانه فلما قال ان الله ربى وربكم اى لارب للمخلوقات سوى الله تعالى وذلك يدل على التوحيد اما قوله فاعبدوه فقد ثبت فى اصول الفقه ان ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بالعلية فههنا الامر بالعبادة وقع مرتبا على ذكر وصف الربوبية فدل على انه انما تلزمنا عبادته سبحانه لكونه ربا لنا وذلك يدل على انه تعالى انما تجب عبادته لكونه منعما على الخلائق بأصول النعم وفروعها ولذلك قال ابراهيم عليه السلام لم تعبد ما لا يسمع

الوعد ) تعليل لموجب الامر وايراده عليه السلام بهذا الوصف لكمال شهرته به وناهيك انه وعد الصبر على الذبح بقوله ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فوفى ( وكان رسولا نبيا ) فيه دلالة على ان الرسول لا يجب ان يكون صاحب شريعة فان اولاد ابراهيم عليه السلام كانوا على شريعته ( وكان يأمر اهله بالصلوة والزكوة ) اشتغالا بالاهم وهو ان يقبل الرجل بالتكميل على نفسه ومن هو اقرب الناس اليه قال تعالى وانذر عشيرتك الاقربين وأمر اهلك بالصلوة قوا انفسكم واهليكم نارا وقصدا الى تكميل الكل بتكميلهم لانهم قدوة يؤتسى بهم وقيل اهله امته فان الانبياء عليهم السلام آباء الامم (وكان عند ربه مرضيا ) لاتصافه بالنعوت الجليلة التى من جملتها ماذكر من خصاله الحميدة (واذكر فى الكتاب ادريس ) وهو سبط شيث وجد ابى نوح فأنه نوح بن لمك بن متوشلخ بن اخنوخ وهو ادريس عليه السلام واشتقاقه من الدرس يرده منع صرفه نعم لا يبعد ان يكون معناه فى تلك اللغة قريبا من ذلك فلقب به لكثرة دراسته روى انه تعالى انزل عليه ثلاثين صحيفة وانه اول من خط بالقلم ونظر فى علم النجوم والحساب (انه كان صديقا) ملازما للصدق فى جميع احواله (نبيا) خبر آخر لكان مخصص للاول اذ ليس كل صديق نبيا (ورفعناه مكانا عليا ) هو شرف النبوة والزلفى عند الله عز وجل وقيل علو الرتبة بالذكر الجميل

اباه من عبادة الاوثان قال لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا يعنى انها لما لم تكن منعمة على العباد لم تجز عبادتها و بهذه الآية ثبت ان الله تعالى لما كان ربا و مربيا لعباده وجبت عبادته فقد ثبت طردا و عكسا تعلق العبادة بكون المعبود منعما اما قوله هذا صراط مستقيم يعنى القول بالتوحيد ونفى الولد والصاحبة صراط مستقيم وانه سمى هذا القول بالصراط المستقيم تشبيها بالطريق لانه المؤدى الجنة اما قوله تعالى فاختلف الاحزاب من بينهم ففى الاحزاب اقوال (الاول) المراد فرق النصارى على مابينا اقسامهم (الثانى) المراد النصارى واليهود فجعله بعضهم ولدا وبعضهم كذابا (الثالث) المراد الكفار الداخل فيهم اليهود والنصارى والكفار الذين كانوا فى زمن محمد صلى الله عليه وسلم واذا قلنا المراد بقوله وان الله ربى وربكم فاعبدوه اى قل يا محمد ان الله ربى وربكم فهذا القول اظهر لانه لاتخصيص فيه وكذا قوله فويل للذين كفروا مؤكد لهذا الاحتمال واما قوله من مشهد يوم عظيم فالمشهد اما أن يكون هو الشهود وما يتعلق به او الشهادة وما يتعلق بها (اما الاول) فيحتمل ان يكون المراد من المشهد نفس شهودهم هول الحساب والجزاء فى القيامة او مكان الشهود فيه وهو الموقف او وقت الشهود واما الشهادة فيحتمل ان يكون المراد شهادة الملائكة والانبياء وشهادة ألسنتهم وايديهم وارجلهم بالكفر وسوء الاعمال وأن يكون مكان الشهادة او وقتها وقيل هو ماقالوه وشهدوا به فى عيسى وامه وانما وصف ذلك المشهد بأنه عظيم لانه لاشئ اعظم مما يشاهد فى ذلك اليوم من محاسبة ومساءلة ولاشئ من المنافع اعظم مما هنالك من الثواب ولا من المضار اعظم مما هنالك من العقاب اما قوله تعالى اسمع بهم وابصر يوم يأتوننا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قالوا التعجب هو استعظام الشئ مع الجهل بسبب عظمه ثم يجوز استعمال لفظ التعجب عند مجرد الاستعظام من غير خفاء السبب او من غير ان يكون للعظم سبب حصول قال الفراء قال سفيان قرأت عند شريح بل عجبت ويسخرون فقال ان الله لايعجب من شئ انما يعجب من لايعلم فذكرت ذلك لابراهيم النخعى فقال ان شريحا شاعر يعجبه علمه وعبدالله اعلم بذلك منه قرأها بل عجبت ويسخرون ومعناه انه صدر من الله تعالى فعل لو صدر مثله عن الخلق لدل على حصول التعجب فى قلوبهم وبهذا التأويل يضاف المكر والاستهزاء الى الله تعالى واذا عرفت هذا فنقول للتعجب صيغتان (احداهما) ما افعله (والثانية) افعل به كقوله تعالى اسمع بهم وابصر والنحويون ذكروا له تأويلات (الاول) قالوا اكرم بزيد اصله اكرم زيد اى صار ذا كرم كاغد البعير اى صار ذاغدة الا انه خرج على لفظ الامر ومعناه الخبر كما خرج على لفظ الخبر ما معناه الامر كقوله تعالى والمطلقات يتربصن بأنفسهن والوالدات يرضعن اولادهن قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا اى يمدله الرحمن مدا وكذا قولهم رحمه الله خبر وان كان معناه الدعاء والباء زائدة (الثانى) ان يقال انه امر لكل احد بأن يجعل زيدا

(كريما)

فى الدنيا كما فى قوله تعالى ورفعنا لك ذكرك وقيل الجنة وقيل السماء السادسة اوالرابعة روى عن كعب وغيره فى سبب رفع ادريس عليه السلام انه سئل ذات يوم فى حاجة فأصابه وهج الشمس فقال يارب انى قد مشيت فيها يوما وقد اصابنى منها ما اصابنى فكيف من يحملها مسيرة خمسمائة عام فى يوم واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها فلما اصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها مالا يعرف فقال يارب ما الذى قضيت فيه قال ان عبدى ادريس سألنى ان اخفف عنك حملها وحرها فاجبته قال يارب اجعل بينى وبينه خلة فأذن الله تعالى له فرفعه الى السماء (اولئك) اشارة الى المذكورين فى السورة الكريمة ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى (الذين انعم الله عليهم) صفته اى انعم عليهم بفنون النعم الدينية والدنيوية حسبما اشير اليه مجملا وقوله تعالى (من النبيين) بيان للموصول وقوله تعالى (من ذرية آدم) بدل منه باعادة الجار ويجوز ان تكون كلمة من فيه للتبعيض لان المنعم عليهم اعم من الانبياء واخص من الذرية (وممن حملنا مع نوح) اى ومن ذرية من حملنا معه خصوصا وهم من عدا ادريس عليه السلام فأن ابراهيم كان من ذرية سام بن نوح (ومن ذرية ابراهيم) وهم الباقون (واسرائيل) عطف على ابراهيم اى ومن ذرية

كريما اى بأن يصفه بالكرم والباء زائدة مثل قوله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ولقد سمعت لبعض الادباء فيه تأويلا ثالثا وهو ان قولك أكرم بزيد يفيد ان زيدا بلغ فى الكرم الى حيث كأنه فى ذاته صار كرما حتى لو أردت جعل غيره كريما فهو الذى يلصقك بمقصودك ويحصل لك غرضك كما ان من قال اكتب بالقلم فمعناه ان القلم هو الذى يلصقك بمقصودك ويحصل لك غرضك (المسئلة الثانية) قوله اسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا فيه ثلاثة أوجه (أحدها) وهو المشهور الاقوى ان معناه ما أسمعهم وما ابصرهم والتعجب على الله تعالى محال كما تقدم وانما المراد ان سماعهم وابصارهم يومئذ جدير بأن يتعجب منهما بعد ما كانوا صما وعميا فى الدنيا وقيل معناه التهديد مما سيسمعون وسيبصرون مما يسوء بصرهم ويصدع قلوبهم (وثانيها) قال القاضى ويحتمل ان يكون المراد اسمع هؤلاء وأبصرهم اى عرفهم حال القوم الذين يأتوننا ليعتبروا وينزجروا (وثالثها) قال الجبائى ويجوز اسمع الناس بهؤلاء وابصرهم بهم ليعرفوا أمرهم وسوء عاقبتهم فينزجروا عن الاتيان بمثل فعلهم اما قوله لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ففيه قولان (الاول) لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين وفى الآخرة يعرفون الحق (والثانى) لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين وهم فى الآخرة فى ضلال عن الجنة بخلاف المؤمنين واما قوله تعالى وانذرهم فلا شبهة فى انه أمر لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم بأن ينذر من فى زمانه فيصلح بأن يجعل هذا كالدلالة على ان قوله فاختلف الاحزاب اراد به اختلاف جميعهم فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم واما الانذار فهو التخويف من العذاب لكى يحذروا من ترك عبادة الله تعالى واما يوم الحسرة فلا شبهة فى انه يوم القيامة من حيث يكثر التحسر من اهل النار وقيل يتحسر ايضا فى الجنة اذا لم يكن من السابقين الواصلين الى الدرجات العالية والاول هو الصحيح لان الحسرة غم وذلك لا يليق بأهل الثواب اما قوله تعالى اذ قضى الامر ففيه وجوه (احدها) اذ قضى الامر ببيان الدلائل وشرح امر الثواب والعقاب (وثانيها) اذ قضى الامر يوم الحسرة بفناء الدنيا وزوال التكليف والاول اقرب لقوله وهم لا يؤمنون فكأنه تعالى بين انه ظهرت الحجج والبينات وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون (وثالثها) روى انه سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن قوله قضى الامر فقال حين يجاء بالموت فى صورة كبش املح فيذبح والفريقان ينظران فيزداد اهل الجنة فرحا على فرح واهل النار غما على غم واعلم ان الموت عرض فلا يجوز ان يصير جسما حيوانيا بل المراد انه لا موت البتة بعد ذلك واما قوله وهم فى غفلة اى عن ذلك اليوم وعن كيفية حسراته وهم لا يؤمنون اى بذلك اليوم ثم قال بعده انا نحن نرث الارض ومن عليها اى هذه الامور تؤل الى ان لا يملك الضر والنفع الا الله تعالى والينا يرجعون اى الى محل حكمنا وقضائنا لانه تعالى منزه عن المكان حتى يكون الرجوع اليه وهذا تخويف عظيم وزجر بليغ للعصاة القصة الثالثة قصة ابراهيم عليه السلام ❋ قوله تعالى (واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان

---

اسرائيل وكان منهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام وفيه دليل على ان اولاد البنات من الذرية (وممن هدينا واجتبينا) اى ومن جملة من هديناهم الى الحق واجتبيناهم للنبوة والكرامة وقوله تعالى (اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) خبر لاولئك ويجوز ان يكون الخبر هو الموصول وهذا استئنافا مسوقا لبيان خشيتهم من الله تعالى واخباتهم له مع ما لهم من علو الرتبة وسمو الطبقة فى شرف النسب وكمال النفس والزلفى من الله عز سلطانه وسجدا وبكيا حالان من ضمير خروا اى ساجدين باكين عن النبى صلى الله عليه وسلم اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا والبكى جمع باك كالسجد جمع ساجد واصله بكوى فاجتمعت الواو والياء وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وادغمت الياء فى الياء وحركت الكاف بالكسر المجانس للياء وقرئ يتلى بالياء التحتانية لان التأنيث غير حقيقى وقرئ بكيا بكسر الباء للاتباع قالوا ينبغى ان يدعو الساجد فى سجدته بما يليق بآيتها فههنا يقول اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم المهديين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك وفى آية الاسراء يقول اللهم اجعلنى من الباكين اليك

صديقا نبيا اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا يا أبت اني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني اهدك صراطا سويا يا ابت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا يا أبت اني اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا )

اعلم ان الغرض من هذه السورة بيان التوحيد والنبوة والحشر والمنكرون للتوحيد هم الذين اثبتوا معبودا سوى الله تعالى وهؤلاء فريقان منهم من اثبت معبودا غير الله حيا عاقلا فاهما وهم النصارى ومنهم من اثبت معبودا غير الله جمادا ليس بحي ولا عاقل ولا فاهم وهم عبدة الاوثان والفريقان وان اشتركا في الضلال الا ان ضلال الفريق الثاني اعظم فلما بين تعالى ضلال الفريق الاول تكلم في ضلال الفريق الثاني وهم عبدة الاوثان فقال واذكر في الكتاب والواو في قوله واذكر عطف على قوله ذكر رحمة ربك عبده زكريا كأنه لما انتهت قصة عيسى وزكريا عليهما السلام قال قد ذكرت حال زكريا فاذكر حال ابراهيم وانما امر بذكره لانه عليه السلام ما كان هو ولا قومه ولا اهل بلدته مشتغلين بالعلم ومطالعة الكتب فاذا اخبر عن هذه القصة كما كانت من غير زيادة ولا نقصان كان ذلك اخبارا عن الغيب ومعجزا قاهرا دالا على نبوته وانما شرع في قصة ابراهيم عليه السلام لوجوه ( احدها ) ان ابراهيم عليه السلام كان اب العرب وكانوا مقرين بعلو شانه وطهارة دينه على ما قال تعالى ملة ابيكم ابراهيم وقال تعالى ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه فكأنه تعالى قال للعرب ان كنتم مقلدين لآبائكم على ما هو قولكم انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون ومعلوم ان اشرف آبائكم واجلهم قدرا هو ابراهيم عليه السلام فقلدوه في ترك عبادة الاوثان وان كنتم من المستدلين فانظروا في هذه الدلائل التي ذكرها ابراهيم عليه السلام لتعرفوا فساد عبادة الاوثان وبالجملة فاتبعوا ابراهيم اما تقليدا واما استدلالا ( وثانيها ) ان كثيرا من الكفار في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون كيف نترك دين ابائنا واجدادنا فذكر الله تعالى قصة ابراهيم عليه السلام وبين انه ترك دين ابيه وابطل قوله بالدليل ورجح متابعة الدليل على متابعة ابيه ليعرف الكفار ان ترجيح جانب الاب على جانب الدليل رد على الاب الاشرف الاكبر الذي هو ابراهيم عليه السلام ( وثالثها ) ان كثيرا من الكفار كانوا يتمسكون بالتقليد وينكرون الاستدلال على ما قال الله تعالى قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وقالوا وجدنا اباءنا لها عابدين فحكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام التمسك بطريقة الاستدلال تنبيها لهؤلاء على سقوط هذه الطريقة ثم قال تعالى في وصف ابراهيم عليه السلام انه كان صديقا نبيا وفي الصديق قولان ( احدهما ) انه مبالغة في كونه صادقا وهو الذي يكون عادته الصدق لان هذا البناء ينبئ عن ذلك يقال رجل خمير وسكير للمولع بهذه الافعال ( والثاني ) انه الذي يكون كثير التصديق بالحق حتى يصير مشهورا به والاول اولى وذلك لان المصدق بالشيء لا يوصف بكونه صديقا الا اذا كان صادقا في ذلك

الخاشعين لك وفي آية تنزيل السجدة يقول اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك واعوذ بك من ان اكون من المستكبرين عن امرك (فخلف من بعدهم خلف ) يقال لعقب الخير خلف بفتح اللام ولعقب الشر خلف بالسكون اي فعقبهم وجاء بعدهم عقب سوء ( اضاعوا الصلاة ) وقرئ الصلوات اي تركوها او اخروها عن وقتها (واتبعوا الشهوات ) من شرب الخمر واستحلال نكاح الاخت من الاب والانهماك في فنون المعاصي وعن علي رضي الله عنه هم من بني المشيد وركب المنظور ولبس المشهور (فسوف يلقون غيا ) اي شرا فان كل شر عند العرب غي وكل خير رشاد كقوله

فمن يلق خيرا يحمد الناس امره
ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

وعن الضحاك جزاء غي كقوله تعالى يلق اثاما اي جزاء اثام اوغيا عن طريق الجنة وقيل غي واد في جهنم تستعيذ منه اوديتها وقوله تعالى ( الا من تاب وآمن وعمل صالحا ) يدل على ان الآية في حق الكفرة (فأولئك ) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة ومافيه من معنى البعد لما مر مرارا اي فأولئك المنعوتون بالتوبة والايمان والعمل الصالح (يدخلون الجنة)

التصديق فيعود الامر الى الاول فان قيل أليس قد قال تعالى والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء قلنا المؤمنون بالله ورسله صادقون في ذلك التصديق واعلم ان النبي يجب ان يكون صادقا في كل ما اخبر عنه لان الله تعالى صدقه ومصدق الله صادق والا لزم الكذب في كلام الله تعالى فيلزم من هذا كون الرسول صادقا في كل مايقول ولان الرسل شهداء الله على الناس على ماقال الله تعالى فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنابك على هؤلاء شهيدا والشهيد انما يقبل قوله اذا لم يكن كاذبا فان قيل فما قولكم في ابراهيم عليه السلام في قوله بل فعله كبيرهم هذا واني سقيم قلنا قد شرحنا في تأويل هذه الآيات بالدلائل الظاهرة ان شيئا من ذلك ليس بكذب فلما ثبت ان كل نبي يجب ان يكون صديقا ولا يجب في كل صديق ان يكون نبيا ظهر بهذا قرب مرتبة الصديق من مرتبة النبي فلهذا انتقل من ذكر كونه صديقا الى ذكر كونه نبيا واما النبي فمعناه كونه رفيع القدر عند الله وعند الناس واي رفعة أعلى من رفعة من جعله الله واسطة بينه وبين عباده وقوله كان صديقا قيل انه صار وقيل ان معناه وجد صديقا نبيا اى كان من اول وجوده الى انتهائه موصوفا بالصدق والصيانة قال صاحب الكشاف هذه الجملة وقعت اعتراضا بين المبدل منه وبدله اعني ابراهيم واذ قال ونظيره قولك رأيت زيدا ونعم الرجل أخاك ويجوز ان يتعلق اذ بكان او بصديقا نبيا اى كان جامعا لخصائص الصديقين والانبياء حين خاطب اباه بتلك المخاطبات اما قوله ياأبت فالتاء عوض من ياء الاضافة ولا يقال ياأبتي لئلا يجمع بين العوض والمعوض عنه وقد يقال ياابتا لكون الالف بدلا من الياء واعلم انه تعالى حكى ان ابراهيم عليه السلام تكلم مع ابيه بأربعة انواع من الكلام (النوع الاول) قوله لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ووصف الاوثان بصفات ثلاثة كل واحدة منها قادحة في الآلهية وبيان ذلك من وجوه (احدها) ان العبادة غاية التعظيم فلا يستحقها الا من له غاية الانعام وهو الاله الذي منه اصول النعم وفروعها على ماقررناه في تفسير قوله وان الله ربي وربكم فاعبدوه وقال كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فأحياكم الآية وكما يعلم بالضرورة انه لا يجوز الاشتغال بشكرها مالم تكن منعمة وجب ان لا يجوز الاشتغال بعبادتها (وثانيها) انها اذا لم تسمع ولم تبصر ولم تميز من يطيعها عمن يعصيها فأي فائدة في عبادتها وهذا ينبهك على ان الاله يجب ان يكون عالما بكل المعلومات حتى يكون العبد آمنا من وقوع الغلط للمعبود (وثالثها) ان الدعاء مخ العبادة فالوثن اذا لم يسمع دعاء الداعي فأي منفعة في عبادته واذا كانت لا تبصر تقرب من يتقرب اليها فأي منفعة في ذلك التقرب (ورابعها) ان السامع المبصر الضار النافع افضل ممن كان عاريا عن كل ذلك والانسان موصوف بهذه الصفات فيكون افضل واكمل من الوثن فكيف يليق بالافضل عبادة الاخس (وخامسها) اذا كانت لا تنفع ولا تضر فلا يرجى منها منفعة ولا يخاف من ضررها فأي فائدة

بموجب الوعد المحتوم وقرئ يدخلون على البناء للمفعول (ولا يظلمون شيئا) اى لا ينقصون من جزاء اعمالهم شيئا او لا ينقصون شيئا من النقص وفيه تنبيه على ان كفرهم السابق لا يضرهم ولا ينقص اجورهم (جنات عدن) بدل من الجنة بدل البعض لاشتمالها عليها وما بينهما اعتراض او نصب على المدح وقرئ بالرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف اى هي او تلك جنات الخ ومبتدأ خبره التي وعد الخ وقرئ جنة عدن نصبا ورفعا وعدن علم لمعنى العدن وهو الاقامة كما ان فينة وسحر وأمس فيمن لم يصرفها اعلام لمعاني الفينة وهي الساعة التي انت فيها والسحر والامس فجرى لذلك مجرى العدن او هو علم لارض الجنة خاصة ولولا ذلك لما ساغ ابدال ما اضيف اليه من الجنة بلا وصف عند غير البصريين ولا وصفه بقوله تعالى (التي وعد الرحمن عباده) وجعله بدلا منه خلاف الظاهر فان الموصول في حكم المشتق وقد نصوا على ان البدل بالمشتق ضعيف والتعرض لعنوان الرحمة للايذان بأن وعدها وانجازه لكمال سعة رحمته تعالى والباء في قوله تعالى (بالغيب) متعلقة بمضمر هو حال من المضمر العائد الى الجنات او من عباده اى وعدها اياهم ملتبسة او ملتبسين بالغيب اى غائبة عنهم غير حاضرة

في عبادتها ( وسادسها ) اذا كانت لاتحفظ انفسها عن الكسر والافساد على ماحكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام انه كسرها وجعلها جذاذا فأى رجاء للغير فيها واعلم انه عاب الوثن من ثلاثة اوجه (احدها) لايسمع ( وثانيها ) لايبصر (وثالثها) لايغنى عنك شيئا كأنه قال له بل الالهية ليست الا لربى فانه يسمع ويجيب دعوة الداعى ويبصر كما قال انني معكما أسمع وأرى ويقضي الحوائج امن يجيب المضطر اذا دعاه واعلم ان قوله ههنا لم تعبد محمول على نفس العبادة واما قوله في المقام الثالث لاتعبد الشيطان لايقال ذلك بل المراد الطاعة لانهم ما كانوا يعبدون الشيطان فوجب حمله على الطاعة ولانا نقول ليس اذا تركنا الظاهر ههنا الدليل وجب ترك الظاهر في المقام الاول بغير دليل فان قيل اما أن يقال ان اباابراهيم كان يعتقد في تلك الاوثان انها آلهة بمعنى انها قادرة مختارة موجدة للناس والحيوانات او يقال انه ما كان يعتقد ذلك بل كان يعتقد انها تماثيل الكواكب والكواكب هي الآلهة المدبرة لهذا العالم فتعظيم تماثيل الكواكب بوجب تعظيم الكواكب اوكان يعتقد ان هذه الاوثان تماثيل اشخاص معظمة عندالله تعالى من البشر فتعظيمها يقتضى كون اولئك الاشخاص شفعاء لهم عند الله تعالى اوكان يعتقد ان تلك الاوثان طلسمات ركبت بحسب اتصالات مخصوصة للكواكب قلما يتفق مثلها وانها مشفع بها اوغير ذلك من الاعذار المنقولة عن عبدة الاوثان فان كان أبوابراهيم من القسم الاول كان في نهاية الجنون لان العلم بأن هذا الخشب المنحوت في هذه الساعة ليس خالقا للسموات والارض من اجلى العلوم الضرورية فالشاك فيه يكون فاقدا لاجلى العلوم الضرورية فكان مجنونا والمجنون لايجوز ايراد الحجة عليه والمناظرة معه وان كان من القسم الثاني فهذه الدلائل لاتقدح في شيء من ذلك لان ذلك المذهب انما يبطل باقامة الدلالة على ان الكواكب ليست احياء ولاقادرة على خلق الاجسام وخلق الحياة ومعلوم ان الدليل المذكور ههنا لايفيد ذلك المطلوب فعلمنا ان هذه الدلالة عديمة الفائدة على كل التقديرات قلنا لانزاع انه لايخفى على العاقل ان الخشبة المنحوتة لاتصلح لخلق العالم وانما مذهبهم هذا على الوجه الثاني وانما اورد ابراهيم عليه السلام هذه الدلالة عليهم لانهم كانوا يعتقدون ان عبادتها تفيد نفعا اما على سبيل الخاصية الحاصلة من الطلسمات او على سبيل ان الكواكب تنفع وتضر فبين ابراهيم عليه السلام انه لامنفعة في طاعتها ولامضرة في الاعراض عنها فوجب ان لاتحسن عبادتها (النوع الثاني) قوله ياابت انى قدجاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى اهدك صراطا سويا ومعناه ظاهر وطمع في التمسك به اهل التعليم واهل التقليد اما اهل التعليم فقالوا انه امره بالاتباع في الدين وما امره بالتمسك بدليل لايستفاد الا من الاتباع واما اهل التقليد فقد تمسكوا به أيضا من هذا الوجه ومن الناس من طعن انه امره بالاتباع لتحصل الهداية فاذن لاتحصل الهداية الا باتباعه ولاتبعية الا اذا اهتدى لقولنا انه لابد من

( اتباعه )

---

اوغائبين عنها الا يرونها وانما آمنوا بها بمجرد الاخبار او بمضمر هو سبب للوعد اى وعدها اياهم بسبب ايمانهم (انه كان وعده) اى موعوده كائنا ما كان فيدخل فيه الجنات الموعودة دخولا اوليا ولما كانت هى مثابة يرجع اليها قيل (مأتيا) اى يأتيه من وعدله لامحالة بغير خلف وقيل هو مفعول بمعنى فاعل وقيل مأتيا اى مفعولا منجزا من اتى اليه احسانا اى فعله ( لايسمعون فيها لغوا ) اى فضول كلام لاطائل تحته وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن اهلها وفيه تنبيه على ان اللغو مما ينبغى ان يجتنب عنه في هذه الدار ما امكن (الاسلاما) استثناء منقطع اى لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم اوتسليم بعضهم على بعض اومتصل بطريق التعليق بالمحال اى لايسمعون لغوا الا سلاما فحيث استحال كون السلام لغوا استحال سماعهم له بالكلية كما في قوله

ولاعيب فيهم غير ان سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب

اوعلى ان معناه الدعاء بالسلامة وهم اغنياء عنه فهو من باب اللغو ظاهرا وانما فائدته الاكرام وقوله تعالى ( ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) وارد على عادة المتنعمين في هذه الدار وقيل المراد دوام رزقهم ودروره والافليس فيها بكرة ولاعشى ( تلك الجنة )

اتباعه فيقع الدور وانه باطل ( والجواب ) عن الاول ان المراد بالهداية بيان الدليل وشرحه وايضاحه فعند هذا عاد السائل فقال انا لاانكر انه لابد من الدلالة ولكني اقول الوقوف على تلك الدلالة لايستفاد الا ممن له نفس كاملة بعيدة عن النقص والخطأ وهي نفس النبي المعصوم او الامام المعصوم فاذا سلمت انه لابد من النبي في هذا المقصود فقد سلمت حصول الغرض اجاب المجيب وقال انا ماسلمت انه لابد في الوقوف على الدلائل من هداية النبي ولكني اقول هذا الطريق اسهل وان ابراهيم عليه السلام دعاه الى الاسهل والجواب عن سؤال الدور ان قوله فاتبعني ليس امر ايجاب بل امر ارشاد ( النوع الثالث ) قوله ياأبت لاتعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا اى لاتطعه لانه عاص لله فنفره بهذه الصفة عن القبول منه لانه اعظم الخصال المنفرة واعلم ان ابراهيم عليه السلام لامعانه في الاخلاص لم يذكر من جنايات الشيطان الا كونه عاصيا لله ولم يذكر معاداته لآدم عليه السلام كأن النظر في عظم ماارتكبه من ذلك العصيان غمى فكره واطبق على ذهنه وايضا فان معصية الله تعالى لاتصدر الا عن ضعيف الرأى ومن كان كذلك كان حقيقا ان لايلتفت الى رأيه ولايجعل لقوله وزن فان قيل ان هذا القول يتوقف على اثبات امور (احدها) اثبات الصانع ( وثانيها) اثبات الشيطان (وثالثها) اثبات ان الشيطان عاص لله ( ورابعها ) انه لما كان عاصيا لم تجز طاعته في شئ من الاشياء ( وخامسها ) ان الاعتقاد الذى كان عليه ذلك الانسان كان مستفادا من طاعة الشيطان ومن شان الدلالة التى تورد على الخصم ان تكون مركبة من مقدمات معلومة مسلمة ولعل ابا ابراهيم كان منازعا في كل هذه المقدمات وكيف والمحكى عنه انه ماكان يثبت الها سوى نمروذ فكيف يسلم وجود الاله الرحمن واذا لم يسلم وجوده فكيف يمكنه تسليم ان الشيطان كان عاصيا للرحمن ثم ان على تسليم ذلك فكيف يسلم الخصم بمجرد هذا الكلام ان مذهبه مقتبس من الشيطان بل لعله يقلب ذلك على خصمه قلنا الحجة المعول عليها في ابطال مذهب آزر هو الذى ذكره اولا من قوله لم تعبد مالايسمع ولايبصر ولايغنى عنك شيئا فاما هذا الكلام فيجرى مجرى التخويف والتحذير الذى يحمله على النظر في تلك الدلالة وعلى هذا التقدير يسقط السؤال ( النوع الرابع ) قوله ياأبت انى اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا قال الفراء معنى أخاف اعلم والاكثرون على انه محمول على ظاهره والقول الاول انما يصح لو كان ابراهيم عليه السلام عالما بأن أباه سيموت على ذلك الكفر وذلك لم يثبت فوجب اجراؤه على ظاهره فانه كان يجوز ان يؤمن فيصير من اهل الثواب ويجوز ان يصر فيموت على الكفر فيكون من اهل العقاب ومن كان كذلك كان خائفا لاقاطعا واعلم ان من يظن وصول الضرر الى غيره فانه لايسمى خائفا الا اذا كان بحيث يلزم من وصول ذلك الضرر اليه تألم قلبه كما يقال انا خائف على ولدى اماقوله فتكون للشيطان وليا فذكروا في الولى

مبتدأ او خبر جئ به لتعظيم شان الجنة وتعيين اهلها فان مافي اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها وعلو رتبتها (التى نورث) اى نورثها ( من عبادنا من كان تقيا ) اى نبقيها عليهم بتقواهم ونمتعهم بها كما يبقى على الوارث مال مورثه ونمتعه به والوراثة اقوى مايستعمل في التملك والاستحقاق من الالفاظ من حيث انها لاتعقب بفسخ ولا استرجاع ولا بطال وقيل يورث المتقون من الجنة المساكن التى كانت لاهل النار لو آمنوا واطاعوا زيادة في كرامتهم وقرئ نورّث بالتشديد ( وما نتنزل الا بأمر ربك ) حكاية لقول جبريل حين استبطأه رسول الله عليهما الصلاة والسلام لما سئل عن اصحاب الكهف وذى القرنين والروح فلم يدر كيف يجيب ورجا أن يوحى اليه فيه فأبطأ عليه اربعين يوما او خمسة عشر فشق ذلك عليه مشقة شديدة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه ثم نزل ببيان ذلك وانزل الله عز وجل هذه الآية وسورة والضحى والتنزل النزول على مهل لانه مطاوع للتنزيل وقد يطلق على مطلق النزول كما يطلق التنزيل على الانزال والمعنى وما نتنزل وقتا غب وقت الا بأمر الله تعالى على ماتقتضيه حكمته وقرئ ومايتنزل بالياء والضمير

وجوها (احدها) انه اذا استوجب عذاب الله كان مع الشيطان في النار والولاية سبب للمعية واطلاق اسم السبب على المسبب مجاز وان لم يجز حمله على الولاية الحقيقية لقوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وقال ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا وحكى عن الشيطان انه يقول لهم انى كفرت بما اشركتمونى من قبل واعلم ان هذا الاشكال انما يتوجه اذا كان المراد من العذاب عذاب الآخرة اما اذا كان المراد منه عذاب الدنيا فالاشكال ساقط (وثانيها) ان يحمل العذاب على الخذلان اى انى اخاف ان يمسك خذلان الله فتصير موالياً للشيطان ويبرأ الله منك على ماقال تعالى ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا (وثالثها) وليا اى تاليا للشيطان تليه كما يسمى المطر الذى يأتى تاليا وليا فان قيل قوله اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا يقتضى ان تكون ولاية الشيطان اسوأ حالا من العذاب نفسه واعظم فما السبب لذلك والجواب ان رضوان الله تعالى اعظم من الثواب على ماقال ورضوان من الله اكبر ذلك هو الفوز العظيم فوجب ان تكون ولاية الشيطان التى هى فى مقابلة رضوان الله اكبر من العذاب نفسه واعظم واعلم أن ابراهيم عليه السلام رتب هذا الكلام فى غاية الحسن لانه نبه أولا على مايدل على المنع من عبادة الاوثان ثم امره باتباعه فى النظر والاستدلال وترك التقليد ثم نبه على ان طاعة الشيطان غير جائزة فى العقول ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الاقدام على مالا ينبغى ثم انه عليه السلام اورد هذا الكلام الحسن مقرونا باللطف والرفق فان قوله فى مقدمة كل كلام ياأبت دليل على شدة الحب والرغبة فى صونه عن العقاب وارشاده الى الصواب وختم الكلام بقوله انى اخاف وذلك يدل على شدة تعلق قلبه بمصالحه وانما فعل ذلك لوجوه (احدها) قضاء لحق الابوة على ماقال تعالى وبالوالدين احسانا والارشاد الى الدين من اعظم انواع الاحسان فاذا انضاف اليه رعاية الادب والرفق كان ذلك نورا على نور (وثانيها) ان الهادى الى الحق لابد وان يكون رفيقا لطيفا يورد الكلام لا على سبيل العنف لان ايراده على سبيل العنف يصير كالسبب فى اعراض المستمع فيكون ذلك فى الحقيقة سعيا فى الاغواء (وثالثها) ماروى ابو هريرة انه قال عليه السلام اوحى الله الى ابراهيم عليه السلام انك خليلى فحسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الابرار فان كلمتى سبقت لمن حسن خلقه ان اظله تحت عرشى وان اسكنه حظيرة قدسى وادنيه من جوارى والله اعلم ❁ قوله تعالى (قال أراغب انت عن آلهتى ياابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا قال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا واعتزلكم وماتدعون من دون الله وادعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا) اعلم ان ابراهيم عليه السلام لما دعا أباه الى التوحيد وذكر الدلالة على فساد عبادة الاوثان واردف تلك الدلالة بالوعظ البليغ واورد كل ذلك مقرونا باللطف والرفق قابله

للوحى (له مابين ايدينا وماخلفنا ومابين ذلك) وهو مانحن فيه من الاماكن والازمنة ولاننتقل من مكان الى مكان ولا نتنزل فى زمان دون زمان الا بأمره ومشيئته (وما كان ربك نسيا) اى تاركا لك يعنى ان عدم النزول لم يكن الا لعدم الامر به لحكمة بالغة فيه ولم يكن لتركه تعالى لك وتوديعه اياك كما زعمت الكفرة وفى اعادة اسم الرب المعرب عن التبليغ الى الكمال اللائق مضافا الى ضميره عليه السلام من تشريفه والاشعار بعلة الحكم مالايخفى وقيل اول الآية حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة مخاطبا بعضهم بعضا بطريق التبجح والابتهاج والمعنى وما نتنزل الجنة الا بأمر الله تعالى ولطفه وهو مالك الامور كلها سالفها ومترقبها وحاضرها فما وجدناه ومانجده من لطفه وفضله وقوله تعالى وما كان ربك نسيا تقرير لقولهم من جهة الله تعالى اى وما كان ناسيا لاعمال العاملين وما وعدهم من الثواب عليها وقوله تعالى (رب السموات والارض ومابينهما) بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى فان من بيده ملكوت السموات والارض وما بينهما كيف يتصور ان يحوم حول ساحة سبحاته الغفلة والنسيان وهو خبر مبتدأ محذوف اوبدل من ربك والفاء فى قوله تعالى

ابوه بجواب يضاد ذلك فقابل حجته بالتقليد فانه لم يذكر فى مقابلة حجته الاقوله أراغب أنت عن آلهتى ياابراهيم فأصر على ادعاء الهيتها جهلا وتقليدا وقابل وعظه بالسفاهة حيث هدده بالضرب والشتم وقابل رفقه فى قوله ياأبت بالعنف حيث لم يقل له يابنى بل قال ياابراهيم وانما حكى الله تعالى ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم ليخفف على قلبه ما كان يصل اليه من أذى المشركين فيعلم ان الجهال منذ كانوا على هذه السيرة المذمومة اماقوله أراغب أنت عن آلهتى ياابراهيم فان كان ذلك على وجه الاستفهام فهو خذلان لانه قد عرف منه ماتكرر منه من وعظه وتنبيهه على الدلالة وهو يفيد انه راغب عن ذلك أشد رغبة فما فائدة هذا القول وان كان ذلك على سبيل التعجب فأى تعجب فى الاعراض عن حجة لافائدة فيها وانما التعجب كله من الاقدام على عبادتها فان الدليل الذى ذكره ابراهيم عليه السلام كما انه يبطل جواز عبادتها فهو يفيد التعجب من ان العاقل كيف يرضى بعبادتها فكان أباه قابل ذلك التعجب الظاهر المبنى على الدليل بتعجب فاسد غير مبنى على دليل وشبهة ولاشك ان هذا التعجب جدير بأن يتعجب منه اماقوله لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى الرجم ههنا قولان (الاول) انه الرجم باللسان وهو الشتم والذم ومنه قوله والذين يرمون المحصنات اى بالشتم ومنه الرجيم اى المرمى باللعن قال مجاهد الرجم فى القرآن كله بمعنى الشتم (والثانى) انه الرجم باليد وعلى هذا التقدير ذكروا وجوها (احدها) لأرجمنك باظهار أمرك للناس ليرجموك ويقتلوك (وثانيها) لأرجمنك بالحجارة لتتباعد عنى (وثالثها) عن المؤرج لأقتلنك بلغة قريش (ورابعها) قال ابو مسلم لأرجمنك المراد منه الرجم بالحجارة الا انه قد يقال ذلك فى معنى الطرد والابعاد اتساعا ويدل على انه اراد الطرد قوله تعالى واهجرنى مليا واعلم ان اصل الرجم هو الرمى بالرجام فحمله عليه اولى فان قيل فما يدل قوله تعالى واهجرنى مليا على ان المراد به الرجم بالشتم قلنا لا وذلك لانه هدده بالرجم ان بقى على قربه منه وامره أن يبعد هربا من ذلك فهو فى معنى قوله واهجرنى مليا (المسئلة الثانية) فى قوله تعالى واهجرنى مليا قولان (احدهما) المراد واهجرنى بالقول (والثانى) بالمفارقة فى الدار والبلد وهى هجرة الرسول والمؤمنين اى تباعد عنى لكى لا اراك وهذا الثانى اقرب الى الظاهر (المسئلة الثالثة) فى قوله مليا قولان (الاول) مليا اى مدة بعيدة مأخوذ من قولهم اتى على فلان ملاوة من الدهر اى زمان بعيد (والثانى) مليا بالذهاب عنى والهجران قبل ان اثخنك بالضرب حتى لا تقدر ان تبرح يقال فلان ملى بكذا اذا كان مطيقا له مضطلعا به (المسئلة الرابعة) عطف اهجرنى على معطوف عليه محذوف يدل عليه لارجمنك اى فاحذرنى واهجرنى لئلا ارجمنك ثم ان ابراهيم عليه السلام لما سمع من أبيه ذلك اجاب بأمرين (احدهما) انه وعده التباعد منه وذلك لان اباه لما امره بالتباعد اظهر الانقياد لذلك الامر وقوله سلام عليك توادع ومتاركة كقوله تعالى لنا اعمالنا

(فاعبده واصطبر لعبادته) لترتيب ما بعدها من موجب الامرين على ما قبلها من كونه تعالى رب السموات والارض ومابينهما وقيل من كونه تعالى غير تارك له عليه السلام اوغير ناس لاعمال العاملين والمعنى فحين عرفته تعالى بما ذكر من الربوبية الكاملة فاعبده الخ فان ايجاب معرفته تعالى كذلك لعبادته مما لاريب فيه اوحين عرفت انه تعالى لاينساك ولا ينسى اعمال العاملين كائنا من كان فأقبل على عبادته واصطبر على مشاقها ولا تحزن بابطاء الوحى وهزء الكفرة فانه يراقبك ويراعيك ويلطف بك فى الدنيا والآخرة وتعدية الاصطبار باللام لا بحرف الاستعلاء كما فى قوله تعالى واصطبر عليها لتضمينه معنى الثبات للعبادة فيما تورد عليه من الشدائد والمشاق كقولك للمبارز اصطبر لقرنك اى اثبت له فيما يورد عليك من شدائده (هل تعلم له سميا) السمى هو الشريك فى الاسم والظاهر ان يراد به ههنا الشريك فى اسم خاص قد عبر عنه تعالى بذلك وهو رب السموات والارض وما بينهما والمراد بانكار العلم ونفيه انكار المعلوم ونفيه على ابلغ وجه وآكده فالجملة تقرير لما افاده الفاء من علية ربوبيته العامة لوجوب عبادته بل لوجوب تخصيصها به تعالى ببيان استقلاله عز وجل

ولكم اعمالكم سلام عليكم لانبتغي الجاهلين واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وهذا دليل على جواز متاركة المنصوح اذا ظهر منه اللجاج وعلى انه تحسن مقابلة الاساءة بالاحسان ويجوز ان يكون قد دعا له بالسلامة استمالة له الا ترى انه وعده بالاستغفار ثم انه لما ودع بقوله سلام عليك ضم الى ذلك مادل به على انه وان بعد عنه فاشفاقه باق عليه كما كان وهو قوله سأستغفر لك ربي واحتج بهذه الآية من طعن في عصمة الانبياء وتقريره ان ابراهيم عليه السلام فعل مالا يجوز لانه استغفر لأبيه وهو كافر والاستغفار للكافر لا يجوز فثبت بمجموع هذه المقدمات ان ابراهيم عليه السلام فعل مالا يجوز انما قلنا انه استغفر لأبيه لقوله تعالى حكاية عن ابراهيم سلام عليك سأستغفر لك ربي وقوله واغفر لأبي انه كان من الضالين وأما ان أباه كان كافرا فذلك بنص القرآن وبالاجماع وأما ان الاستغفار للكافر لا يجوز فلوجهين (الاول) قوله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين (الثاني) قوله في سورة الممتحنة قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم الى قوله لاستغفرن لك وامر الناس الا في هذا الفعل فوجب ان يكون ذلك معصية منه والجواب لانزاع الا في قولكم الاستغفار للكافر لا يجوز فان الكلام عليه من وجوه (احدها) ان القطع على ان الله تعالى يعذب الكافر لا يعرف الا بالسمع فلعل ابراهيم عليه السلام لم يجد في شرعه مايدل على القطع بعذاب الكافر فلاجرم استغفر لأبيه (وثانيها) ان الاستغفار قد يكون بمعنى الاستماحة كما في قوله قل للذين آمنوا يغفروا للذين لايرجون أيام الله والمعنى سأسأل ربي ان لايخزيك بكفرك ما كنت حيا بعذاب الدنيا المعجل (وثالثها) انه عليه السلام انما استغفر لأبيه لانه كان يرجو منه الايمان فلما أيس من ذلك ترك الاستغفار ولعل في شرعه جواز الاستغفار للكافر الذي يرجى منه الايمان والدليل على وقوع هذا الاحتمال قوله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ماتبين لهم انهم اصحاب الجحيم فبين ان المنع من الاستغفار انما يحصل بعد ان يعرفوا انهم من اصحاب الجحيم ثم قال بعد ذلك وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه فدلت الآية على انه وعده بالاستغفار لو آمن فلما لم يؤمن لم يستغفر له بل تبرأ منه فان قيل فاذا كان الامر كذلك فلم منعنا من التأسي به في قوله قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم الى قوله الاقول ابراهيم لأبيه لاستغفرن لك قلنا الآية تدل على انه لايجوز لنا التأسي به في ذلك لكن المنع من التأسي به في ذلك لايدل على ان ذلك كان معصية فان كثيرا من الاشياء هي من خواص رسول الله صلى الله عليه وسلم ولايجوز لنا التأسي به مع أنها كانت مباحة له عليه السلام (ورابعها) لعل هذا الاستغفار كان من باب ترك الاولى وحسنات الابرار سيآت المقربين اماقوله انه كان بي حفيا اى لطيفا رفيقا يقال أحفى فلان في المسئلة بفلان اذا لطف به وبالغ في الرفق ومنه قوله تعالى ان يسألكموها

بذلك الاسم وانتفاء اطلاقه على الغير بالكلية حقا او باطلا وقيل المراد هو الشريك في الاسم الجليل فان المشركين مع غلوهم في المكابرة لم يسموا الصنم بالجلالة اصلا وقيل هو الشريك في اسم الاله والمراد بالتسمية التسمية على الحق فالمعنى هل تعلم شيئا يسمى بالاستحقاق الها واما التسمية على الباطل فهي كلاتسمية وتقرير الجملة لوجوب العبادة حينئذ باعتبار مافي الاسمين الكريمين من الاشعار باستحقاق العبادة فتدبر (ويقول الانسان) المراد به اما الجنس بأسره واسناد القول الى الكل لوجود القول فيما بينهم وان لم يقله الجميع كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل واحد منهم واما البعض المعهود منهم وهم الكفرة او ابي بن خلف فأنه اخذ عظاما بالية ففتها وقال يزعم محمد انا نبعث بعد مانموت ونصير الى هذا الحال اى يقول بطريق الانكار والاستبعاد (أئذا مامت لسوف اخرج حيا) اى ابعث من الارض او من حال الموت وتقديم الظرف وايلاؤه حرف الانكار لما ان المنكر كون مابعد الموت وقت الحياة وانتصابه بفعل دل عليه اخرج لا به فان مابعد اللام لايعمل فيما قبلها وهي ههنا مخلصة

(فيحفكم)

فيحفكم تبخلوا اى وان لطفت المسئلة والمراد انه سبحانه لطفه بى وانعامه على عودنى الاجابة فاذا انا استغفرت لك حصل المراد فكأنه جعله بذلك على يقين انه هو تاب ان يحصل له الغفران (الجواب الثانى) من الجوابين قوله واعتزلكم وما تدعون من دون الله الاعتزال للشئ هو التباعد عنه والمراد انى افارقكم فى المكان وافارقكم فى طريقتكم ايضا وابعد عنكم واتشاغل بعبادة ربى الذى ينفع ويضر والذى خلقنى وانعم على فانكم بعبادة الاصنام سالكون طريقة الهلاك فواجب على مجانبتكم ومعنى قوله عسى ان لا اكون بدعاء ربى شقيا ارجو ان لا اكون كذلك وانما ذكر ذلك على سبيل التواضع كقوله والذى اطمع ان يغفر لى خطيئتى يوم الدين واما قوله شقيا مع ما فيه من التواضع لله ففيه تعريض بشقاوتهم فى دعاء آلهتهم على ماقرره اولا فى قوله لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ❊ قوله تعالى (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا) اعلم انه ماخسر على الله احد فان ابراهيم عليه السلام لما اعتزلهم فى دينهم وفى بلدهم واختار الهجرة الى ربه الى حيث أمره لم يضره ذلك دينا ودنيا بل نفعه فعوضه اولادا انبياء ولا حالة فى الدين والدنيا للبشر ارفع من ان يجعل الله له رسولا الى خلقه ويلزم الخلق طاعته والانقياد له مع مايحصل فيه من عظيم المنزلة فى الآخرة فصار جعله تعالى اياهم انبياء من اعظم النعم فى الدنيا والآخرة ثم بين تعالى انه مع ذلك وهب لهم من رحمته اى وهب لهم مع النبوة ماوهب ويدخل فيه المال والجاه والاتباع والنسل الطاهر والذرية الطيبة ثم قال وجعلنا لهم لسان صدق عليا ولسان الصدق الثناء الحسن وعبر باللسان عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يعطى باليد وهو العطية واستجاب الله دعوته فى قوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين فصيره قدوة حتى ادعاه اهل الاديان كلهم وقال عز وجل ملة ابيكم ابراهيم ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا قال بعضهم ان الخليل اعتزل عن الخلق على ماقال واعتزلكم وما تدعون من دون الله فلا جرم بارك الله فى اولاده فقال ووهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا (وثانيها) انه تبرأ من ابيه فى الله تعالى على ماقال فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لاواه حليم لاجرم ان الله سماه أبا للمسلمين فقال ملة ابيكم ابراهيم (وثالثها) تل ولده للجبين ليذبحه على ماقال فلما اسلما وتله للجبين لاجرم فداه الله تعالى على ماقال وفديناه بذبح عظيم (ورابعها) اسلم نفسه فقال اسلمت لرب العالمين فجعل الله تعالى النار عليه بردا وسلاما فقال قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم (وخامسها) اشفق على هذا الامة فقال ربنا وابعث فيهم رسولا منهم لاجرم اشركه الله تعالى فى الصلوات الخمس كما صليت وباركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم (وسادسها) فى حق سارة فى قوله وابراهيم الذى وفى لاجرم جعل موطئ قدميه مباركا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى (وسابعها)

للتوكيد مجردة من معنى الحال كما خلصت الهمزة واللام للتعويض فى ياالله فساغ اقترانها بحرف الاستقبال وقرئ اذا مامت بهمزة واحدة مكسورة على الخبر (اولا يذكر الانسان) من الذكر الذى يراد به التفكر والاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والاشعار بأن الانسانية من دواعى التفكر فيما جرى عليه من شؤن التكوين المنجية بالقلع عن القول المذكور وهو السر فى اسناده الى الجنس او الى الفرد بذلك العنوان والهمزة للانكار التوبيخى والواو لعطف الجملة المنفية على مقدر يدل عليه يقول اى ايقول ذلك ولا يذكر (انا خلقناه من قبل) اى من قبل الحالة التى هو فيها وهى حالة بقائه (ولم يك شيئا) اى والحال انه لم يكن حينئذ شيئا اصلا فحيث خلقناه وهو فى تلك الحالة المنافية للخلق بالكلية مع كونه ابعد من الوقوع فلأن نبعثه بجمع المواد المتفرقة وايجاد مثل ماكان فيها من الاعراض اولى واظهر فماله لايذكره فيقع فيما يقع فيه من النكير وقرئ يذكر ويتذكر على الاصل (فوربك) اقسامه باسمه عزت اسماؤه مضافا الى ضميره عليه السلام لتحقيق الامر بالاشعار بعليته وتفخيم شأنه عليه الصلاة والسلام ورفع منزلته (لنحشرنهم) لنجمعن القائلين بالسوق الى

عادى كل الخلق فى الله فقال فانهم عدو لى الا رب العالمين لاجرم اتخذه الله خليلا على ماقال واتخذ الله ابراهيم خليلا ليعلم صحة قولنا انه ماخسر على الله احد (القصة الرابعة) قصة موسى عليه السلام ❊ قوله تعالى (واذكر فى الكتاب موسى انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا ووهبنا له من رحمتنا اخاه هرون نبيا) اعلم انه تعالى وصف موسى عليه السلام بأمور (أحدها) انه كان مخلصا فاذا قرئ بفتح اللام فهو من الاصطفاء والاجتباء كان الله تعالى اصطفاه واستخلصه واذا قرئ بالكسر فمعناه اخلص لله فى التوحيد فى العبادة والاخلاص هو القصد فى العبادة الى ان يعبد المعبود بها وحده ومتى ورد القرآن بقراءتين فكل واحدة منهما ثابت مقطوع به فجعل الله تعالى من صفة موسى عليه السلام كلا الامرين (وثانيها) كونه رسولا نبيا ولاشك انهما وصفان مختلفان لكن المعتزلة زعموا كونهما متلازمين فكل رسول نبى وكل نبى رسول ومن الناس من انكر ذلك وقد بينا الكلام فيه فى سورة الحج فى قوله تعالى وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبى (وثالثها) قوله تعالى وناديناه من جانب الطور الايمن من اليمين اى من ناحية اليمين والايمن صفة الطور او الجانب (ورابعها) قوله وقربناه نجيا ولما ذكر كونه رسولا قال وقربناه نجيا وفى قوله قربناه قولان (أحدهما) المراد قرب المكان عن ابى العالية قربه حتى سمع صرير القلم حيث كتبت التوراة فى الالواح (والثانى) قرب المنزلة اى رفعناه قدره وشرفناه بالمناجاة قال القاضى وهذا أقرب لان استعمال القرب فى الله قد صار بالتعارف لايراد به الا المنزلة وعلى هذا الوجه يقال فى العبادة تقرب ويقال فى الملائكة عليهم السلام انهم مقربون واما نجيا فقيل فيه انجيناه من أعدائه وقيل هو من المناجاة فى المخاطبة وهو اولى (وخامسها) قوله ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا قال ابن عباس رضى الله عنهما كان هرون عليه السلام اكبر من موسى عليهما السلام وانما وهب الله نبوته لاشخصه واخوته وذلك اجابة لدعائه فى قوله واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى اشدد به ازرى فأجابه الله تعالى اليه بقوله قد اوتيت سؤلك ياموسى وقوله سنشد عضدك بأخيك (القصة الخامسة) قصة اسمعيل عليه السلام ❊ قوله تعالى (واذكر فى الكتاب اسمعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر اهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا) اعلم ان اسمعيل هذا هو اسمعيل ابن ابراهيم عليهما السلام واعلم ان الله تعالى وصف اسمعيل عليه السلام بأشياء (اولها) قوله انه كان صادق الوعد وهذا الوعد يمكن ان يكون المراد فيما بينه وبين الله تعالى ويمكن ان يكون المراد فيما بينه وبين الناس (اما الاول) فهو ان يكون المراد انه كان لايخالف شيئا مما يؤمر به من طاعة ربه وذلك لان الله تعالى اذا أرسل الملك الى الانبياء وأمرهم بتأدية الشرع فلابد من ظهور وعد منهم يقتضى القيام بذلك ويدل على القيام بسائر

الحشر بعدما اخرجناهم من الارض احياء ففيه اثبات للبعث بالطريق البرهانى على ابلغ وجه وآكده كأنه امر واضح غنى عن التصريح به وانما المحتاج الى البيان مابعد ذلك من الاهوال (والشياطين) معطوف على الضمير المنصوب اومفعول معه روى ان الكفرة يحشرون مع قرنائهم من الشياطين التى كانت تغويهم كل منهم مع شيطانه فى سلسلة وهذا وان كان مختصا بهم لكن ساغ نسبته الى الجنس باعتبار انهم لما حشروا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين فقد حشروا معهم جميعا كما ساغ نسبة القول المحكى اليه مع كون القائل بعض افراده (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) ليرى السعداء ما نجاهم الله تعالى منه فيزدادوا غبطة وسرورا وينال الاشقياء ماادخروا لمعادهم عدة ويزدادوا غيظا من رجوع السعداء عنهم الى دار الثواب وشماتتهم بهم والجثى جمع جاث من جثا اذا قعد على ركبتيه واصله جثوو بواوين فاستثقل اجتماعهما بعد ضمتين فكسرت الثاء للتخفيف فانقلبت الواو الاولى ياء لسكونها وانكسار ماقبلها فاجتمعت واو وياء وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وادغمت فيها الياء الاولى وكسرت الجيم اتباعا لما بعدها وقرئ بضمها

مايخصه من العبادة ( واما الثانى ) فهو انه عليه السلام كان اذا وعد الناس بشئ انجز
وعده فالله تعالى وصفه بهذا الخلق الشريف وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه وعد
صاحباله ان ينتظره فى مكان فانتظره سنة وايضا وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفى به
حيث قال ستجدنى ان شاء الله من الصابرين ويروى ان عيسى عليه السلام قال له رجل
انتظرنى حتى آتيك فقال عيسى عليه السلام نعم وانطلق الرجل ونسى الميعاد فجاء لحاجة
الى ذلك المكان وعيسى عليه السلام هنالك للميعاد وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم
انه واعد رجلا ونسى ذلك الرجل فانتظره من الضحى الى قريب من غروب الشمس وسئل
الشعبى عن الرجل يعد ميعادا الى اى وقت ينتظره فقال ان واعده نهارا فكل النهار وان
واعده ليلا فكل الليل وسئل ابراهيم بن زيد عن ذلك فقال اذا واعدته فى وقت الصلاة
فانتظره الى وقت صلاة اخرى ( وثانيها ) قوله وكان رسولا نبيا وقدم تفسيره ( وثالثها )
قوله وكان يأمر اهله بالصلاة والزكاة والاقرب فى الاهل ان المراد به من يلزمه ان يؤدى
اليه الشرع فيدخل فيه كل امته من حيث لزمه فى جميعهم مايلزم المرء فى اهله خاصة هذا
اذا حمل الامر على المفروض من الصلاة والزكاة فان حمل على الندب فيهما كان المراد
انه كما كان يتهجد بالليل يأمر اهله اى من كان فى داره فى ذلك الوقت بذلك وكان نظره لهم
فى الدين يغلب على شفقته عليهم فى الدنيا بخلاف ماعليه اكثر الناس وقيل كان يبدأ بأهله
فى الامر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم كما قال تعالى وانذر عشيرتك الاقربين
وأمر اهلك بالصلاة واصطبر عليها قوا انفسكم واهليكم نارا وايضا فهم احق ان يتصدق
عليهم فوجب ان يكونوا بالاحسان الدينى اولى فأما الزكاة فعن ابن عباس رضى الله عنهما
انها طاعة الله تعالى والاخلاص فكأنه تأوله على مايزكو به الفاعل عند ربه والظاهر انه
اذا قرنت الزكاة الى الصلاة ان يراد بها الصدقات الواجبة وكان يعرف من خاصة اهله
ان يلزمهم الزكاة فيأمرهم بذلك اويأمرهم ان يتبرعوا بالصدقات على الفقراء ( ورابعها )
قوله وكان عند ربه مرضيا وهو فى نهاية المدح لان المرضى عند الله هو الفائز فى كل طاعاته
بأعلى الدرجات ( القصة السادسة ) قصة ادريس عليه السلام ❊ قوله تعالى ( واذكر فى
الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا ورفعناه مكانا عليا ) اعلم ان ادريس عليه السلام
هو جد ابى نوح عليه السلام وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن اخنوخ قيل سمى ادريس
لكثرة دراسته واسمه اخنوخ ووصفه الله تعالى بأمور ( احدها ) انه كان صديقا ( وثانيها )
انه كان نبيا وقد تقدم القول فيهما ( وثالثها ) قوله ورفعناه مكانا عليا وفيه قولان
( احدهما ) انه من رفعة المنزلة كقوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ورفعنا لك ذكرك
فان الله تعالى شرفه بالنبوة وانزل عليه ثلاثين صحيفة وهو اول من خط بالقلم ونظر فى علم
النجوم والحساب واول من خاط الثياب ولبسها وكانوا يلبسون الجلود ( الثانى ) ان المراد
به الرفعة فى المكان الى موضع عال وهذا اولى لان الرفعة المقرونة بالمكان تكون رفعة

ونصبه على الحالية من الضمير البارز اى لنحضرنهم حول جهنم جاثين على ركبهم لمايدهمهم من هول المطلع اولانه من توابع التواقف للحساب قبل التواصل الى الثواب والعقاب فان اهل الموقف جاثون كما ينطق به قوله تعالى وترى كل امة جاثية على ماهو المعتاد فى مواقف التقاول وان كان المراد بالانسان الكفرة فلعلهم يساقون من الموقف الى شاطئ جهنم جثاة اهانة بهم اولعجزهم عن القيام لما اعتراهم من الشدة ( ثم لننزعن من كل شيعة ) اى من كل امة شاعت دينا من الاديان ( ايهم اشد على الرحمن عتيا ) اى من كان منهم اعصى واعتى فنطرحهم فيها وفى ذكر الاشد تنبيه على انه تعالى يعفو عن بعض من اهل العصيان وعلى تقدير تفسير الانسان بالكفرة فالمعنى انا نميز من كل طائفة منهم اعصاهم فأعصاهم واعتاهم فأعتاهم فنطرحهم فى النار على الترتيب او ندخل كلا منهم طبقتها اللائقة به وايهم مبنى على الضم عند سيبويه لان حقه ان يبنى كسائر الموصولات لكنه اعرب حملا على كل وبعض للزوم الاضافة واذا حذف صدر صلته زاد نقصه فعاد الى حقه ومنصوب المحل بننزعن ولذلك قرئ منصوبا ومرفوع عند غيره بالابتداء على انه استفهامى وخبره أشد والجملة

في المكان لا في الدرجة ثم اختلفوا فقال بعضهم ان الله رفعه الى السماء والى الجنة وهو حى لم يمت وقال آخرون بل رفع الى السماء وقبض روحه سأل ابن عباس رضى الله عنهما كعبا عن قوله ورفعناه مكانا عليا قال جاء خليل له من الملائكة فسأله حتى يكلم ملك الموت حتى يؤخر قبض روحه فحمله ذلك الملك بين جناحيه فصعد به الى السماء فلما كان في السماء الرابعة فاذا ملك الموت يقول بعثت وقيل لى اقبض روح ادريس في السماء الرابعة وانا اقول كيف ذلك وهو في الارض فالتفت ادريس فرآه ملك الموت فقبض روحه هناك واعلم ان الله تعالى انما مدحه بأن رفعه الى السماء لانه جرت العادة ان لا يرفع اليها الا من كان عظيم القدر والمنزلة ولذلك قال في حق الملائكة ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته وههنا آخر القصص ❊ قوله تعالى ( اولئك الذين انعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينا واجتبينا اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا ) اعلم انه تعالى اثنى على كل واحد ممن تقدم ذكره من الانبياء بما يخصه من الثناء ثم جمعهم آخرا فقال اولئك الذين انعم الله عليهم اى بالنبوة وغيرها مما تقدم وصفه واولئك اشارة الى المذكورين في السورة من لدن زكريا الى ادريس ثم جمعهم في كونهم من ذرية آدم ثم خص بعضهم بأنه من ذرية من حمل مع نوح والذى يختص بأنه من ذرية آدم دون من حمل مع نوح هو ادريس عليه السلام فقد كان سابقا على نوح على ماثبت في الاخبار والذين هم من ذرية من حمل مع نوح هو ابراهيم عليه السلام لانه من ولد سام بن نوح واسمعيل واسحق ويعقوب من ذرية ابراهيم ثم خص بعضهم بانهم من ولد اسرائيل اى يعقوب وهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى من قبل الام فرتب الله سبحانه وتعالى احوال الانبياء عليهم السلام الذين ذكرهم على هذا الترتيب منبها بذلك على انهم كما فضلوا باعمالهم فلهم مزيد في الفضل بولادتهم من هؤلاء الانبياء ثم بين انهم ممن هدينا واجتبينا منبها بذلك على انهم اختصوا بهذه المنازل لهداية الله تعالى لهم ولانه اختارهم للرسالة ثم قال اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا تتلى عليهم اى على هؤلاء الانبياء فبين تعالى انهم مع نعم الله عليهم قد بلغوا الحد الذى عند تلاوة آيات الله يخرون سجدا وبكيا خضوعا وخشوعا وحذرا وخوفا والمراد بآيات الله ماخصهم الله تعالى به من الكتب المنزلة عليهم وقال ابو مسلم المراد بالآيات التى فيها ذكر العذاب المنزل بالكفار وهو بعيد لان سائر الآيات التى فيها ذكر الجنة والنار الى غير ذلك اولى ان يسجدوا عنده ويبكوا فيجب حمله على كل آية تتلى مما يتضمن الوعد والوعيد والترغيب والترهيب لان كل ذلك اذا فكر فيه المتفكر صح ان يسجد عنده وان يبكى واختلفوا فقال بعضهم في السجود انه الصلاة وقال بعضهم المراد سجود التلاوة على حسب ماتعبدنا به وقيل المراد الخضوع والخشوع والظاهر يقتضى سجودا مخصوصا عند التلاوة ثم يحتمل ان يكون المراد سجود التلاوة



محكية والتقدير لننزعن من كل شيعة الذين يقال لهم ايهم اشد او معلق عنها لننزعن لتضمنه معنى التمييز اللازم للعلم او مستأنفة والفعل واقع على كل شيعة على زيادة من او على معنى لننزعن بعض كل شيعة كقوله تعالى ووهبنا لهم من رحمتنا وعلى للبيان فيتعلق بمحذوف كأن سائلا قال على من عتوا فقيل على الرحمن او متعلق بافعل وكذا الباء في قوله تعالى (ثم لنحن اعلم بالذين هم اولى بها صليا ) اى هم اولى بصليها او صليهم اولى بالنار وهم المنتزعون ويجوز ان يراد بهم وبأشدهم عتيا رؤساء الشيع فأن عذابهم مضاعف لضلالهم واضلالهم والصلى كالعتى صيغة واعلالا وقرئ بضم الصاد ( وان منكم ) التفات لاظهار مزيد الاعتناء بمضمون الكلام وقيل هو خطاب للناس من غير التفات الى المذكور ويؤيد الاول انه قرئ وان منهم اى مامنكم ايها الانسان ( الا واردها ) اى واصلها وحاضر دونها يمر بها المؤمنون وهى خامدة وتنهار بغيرهم وعن جابر انه صلى الله عليه وسلم سئل عنه فقال اذا دخل اهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض اليس قد وعدنا ربنا ان نرد النار فيقال لهم قد وردتموها وهى خامدة واما قوله تعالى اولئك عنها مبعدون فالمراد به الابعاد عن عذابها

للقرآن ويحتمل انهم عند الخوف كانوا قد تعبدوا بالسجود فيفعلون ذلك لا لاجل ذكر السجود فى الآية قال الزجاج فى بكيا جمع باك مثل شاهد وشهود وقاعد وقعود ثم قال الانسان فى حال خروره لايكون ساجدا فالمراد خروا مقدرين للسجود ومن قال فى بكيا انه مصدر فقد اخطأ لان سجدا جمع ساجد وبكيا معطوف عليه وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وعن صالح المرى قال قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى ياصالح هذه القراءة فأين البكاء وعن ابن عباس رضى الله عنهما اذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فان لم تبك عين احدكم فليبك قلبه وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن نزل بحزن فاقرؤه بحزن وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اغرورقت عين بمائها الاحرم الله على النار جسدها وعن ابى هريرة رضى الله عنه لايلج النار من بكى من خشية الله وقال العلماء يدعو فى سجود التلاوة بما يليق بها فان قرأ آية تنزيل السجدة قال اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك واعوذ بك ان اكون من المستكبرين عن امرك وان قرأ سجدة سبحان قال اللهم اجعلنى من الباكين اليك الخاشعين لك وان قرأ هذه السجدة قال اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم المهتدين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آيات كتابك * قوله تعالى (فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا الامن تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولايظلمون شيئا) اعلم انه تعالى لما وصف هؤلاء الانبياء بصفات المدح ترغيبا لنا فى التأسى بطريقتهم ذكر بعدهم من هو بالضد منهم فقال فخلف من بعدهم خلف وظاهر الكلام ان المراد من بعد هؤلاء الانبياء خلف من اولادهم يقال خلفه اذا اعقبه ثم قيل فى عقب الخير خلف بفتح اللام وفى عقب الشر خلف بالسكون كما قالوا وعد فى ضمان الخير ووعيد فى ضمان الشر وفى الحديث فى الله خلف من كل هالك وفى الشعر للبيد

ذهب الذين يعاش فى اكنافهم * وبقيت فى خلف كجلد الاجرب

ثم وصفهم باضاعة الصلاة واتباع الشهوات فاضاعة الصلاة فى مقابلة قوله خروا سجدا واتباع الشهوات فى مقابلة قوله وبكيا لان بكاءهم يدل على خوفهم واتباع هؤلاء لشهواتهم يدل على عدم الخوف لهم وظاهر قوله اضاعوا الصلاة تركوها لكن تركها قد يكون بأن لاتفعل اصلا وقد يكون بأن لاتفعل فى وقتها وان كان الاظهر هو الاول واما اتباع الشهوات فقال ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمر واستحلوا نكاح الاخت من الاب واحتج بعضهم بقوله الامن تاب وآمن على ان تارك الصلاة كافر واحتج اصحابنا بها فى ان الايمان غير العمل لانه تعالى قال وآمن وعمل صالحا فعطف العمل على الايمان والمعطوف غير المعطوف عليه اجاب الكعبى عنه بانه تعالى فرق بين التوبة والايمان والتوبة من الايمان فكذلك العمل الصالح يكون

وقيل ورودها الجواز على الصراط الممدود عليها (كان) اى ورودهم اياها (على ربك حتما مقضيا) اى امرا محتوما اوجبه الله عز وجل على ذاته وقضى انه لابد من وقوعه البتة وقيل اقسم عليه (ثم ننجى الذين اتقوا) الكفر والمعاصى مما كانوا عليه من حال الجثو على الركب على الوجه الذى سلف فيساقون الى الجنة وقرئ ننجى بالتخفيف وينجى وينجى على البناء للمفعول وقرئ ثمة ننجى بفتح الثاء اى هناك ننجيهم (ونذر الظالمين) بالكفر والمعاصى (فيها جثيا) منهارا بهم كما كانوا قيل فيه دليل على ان المراد بالورود الجثو حواليها وان المؤمنين يفارقون الفجرة بعد تجاثيهم حولها ويلقى الفجرة فيها على هيآتهم وقوله تعالى (واذا تتلى عليهم) الآية الى آخرها حكاية لما قالوا عند سماع الآيات الناعية عليه فظاعة حالهم ووخامة مآلهم اى واذا تتلى على المشركين (آياتنا) التى من جملتها هاتيك الآيات الناطقة بحسن حال المؤمنين وسوء حال الكفرة وقوله تعالى (بينات) اى مرتلات الالفاظ مبينات المعانى بنفسها اوببيان الرسول عليه الصلاة والسلام اوبينات الاعجاز حال مؤكدة من آياتنا (قال الذين كفروا) اى قالوا

من الايمان وان فرق بينهما وهذا الجواب ضعيف لان عطف الايمان على التوبة يقتضى وقوع المغايرة بينهما لان التوبة عزم على الترك والايمان اقرار بالله تعالى وهما متغايران فكذا في هذه الصورة ثم بين تعالى ان من هذه صفته يلقون غيا وذكروا في الغي وجوها (احدها) ان كل شر عند العرب غي وكل خير رشاد قال الشاعر

فمن يلق خيرا يحمد الناس امره * ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

(وثانيها) قال الزجاج يلقون غيا اى يلقون جزاء الغي كقوله تعالى يلق اثاما اى مجازاة الآثام (وثالثها) غيا عن طريق الجنة (ورابعها) الغي واد في جهنم يستعيذ منه اوديتها والوجهان الاولان اقرب فان كان في جهنم موضع يسمى بذلك جاز ولا يخرج من ان يكون المراد ماقدمنا لانه المعقول في اللغة ثم بين سبحانه ان هذا الوعيد فيمن لم يتب واما من تاب وآمن وعمل صالحا فلهم الجنة لا يلحقهم ظلم وههنا سؤالات (الاول) الاستثناء دل على انه لابد من التوبة والايمان والعمل الصالح وليس الامر كذلك لان من تاب عن كفره ولم يدخل وقت الصلاة اوكانت المرأة حائضا فانه لا يجب عليها الصلاة والزكاة ايضا غير واجبة وكذا الصوم فههنا لومات في ذلك الوقت كان من اهل النجاة مع انه لم يصدر عنه عمل فلم يجز توقف الاجر على العمل الصالح والجواب ان هذه الصورة نادرة والمراد منه الغالب (السؤال الثاني) قوله ولا يظلمون شيئا هذا انما يصح لو كان الثواب مستحقا على العمل لانه لو كان الكل بالتفضل لاستحال حصول الظلم لكن من مذهبكم انه لا استحقاق للعبد بعمله الا بالوعد الجواب انه لما اشبهه اجرى على حكمه * قوله تعالى (جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب انه كان وعده مأتيا لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا) اعلم انه تعالى لما ذكر في التائب انه يدخل الجنة وصف الجنة بأمور (احدها) قوله جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب والعدن الاقامة وصفها بالدوام على خلاف حال الجنان في الدنيا التي لا تدوم ولذلك فان حالها لا يتغير في مناظرها فليست كجنان الدنيا التي حالها يختلف في خضرة الورق وظهور النور والثمر وبين تعالى انها وعد الرحمن لعباده واما قوله بالغيب ففيه وجهان (احدهما) انه تعالى وعدها وهي غائبة عنهم غير حاضرة او هم غائبون عنها لا يشاهدونها (والثاني) ان المراد وعد الرحمن للذين يكونون عبادا بالغيب اى الذين يعبدونه في السر بخلاف المنافقين فانهم يعبدونه في الظاهر ولا يعبدونه في السر وهو قول ابي مسلم (والوجه الاول) أقوى لانه تعالى بين ان الوعد منه تعالى وان كان بأمر غائب فهو كأنه مشاهد حاصل فلذلك قال بعده انه كان وعده مأتيا اما قوله مأتيا فقيل انه مفعول بمعنى فاعل والوجه ان الوعد هو الجنة وهم يأتونها قال الزجاج كل ما وصل اليك فقد وصلت اليه وما اتاك فقد اتيته والمقصود من قوله انه كان وعده مأتيا بيان ان الوعد منه تعالى وان كان بأمر غائب فهو كأنه مشاهد وحاصل والمراد تقرير ذلك

ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه على انهم قالوا ماقالوا كافرين بما يتلى عليهم رادين له او قال الذين مردوا منهم على الكفر ومرنوا على العتو والعناد وهم النضر بن الحرث واتباعه الفجرة واللام في قوله تعالى (للذين آمنوا) للتبليغ كما في مثل قوله تعالى وقال لهم نبيهم وقيل لام الاجل كما في قوله تعالى وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ماسبقونا اليه اى قالوا لاجلهم وفي حقهم والاول هو الاولى لان قولهم ليس في حق المؤمنين فقط كما ينطق به قوله تعالى (اى الفريقين) اى المؤمنين والكافرين كأنهم قالوا اينا (خير) نحن او انتم (مقاما) اى مكانا وقرئ بضم الميم اى موضع اقامة ومنزلا (واحسن نديا) اى مجلسا ومجتمعا يروى انهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهونها ويتطيبون ويتزينون بالزين الفاخرة ثم يقولون ذلك لفقراء المؤمنين يريدون بذلك ان خيريتهم حالا واحسنيتهم منالا مما لا يقبل الانكار وان ذلك لكرامتهم على الله سبحانه وزلفاهم عنده اذ هو العيار على الفضل والنقصان والرفعة والضعة وان من ضرورته هوان المؤمنين عليه تعالى لقصور حظهم العاجل وماهذا

في القلوب ( وثانيها) قوله لايسمعون فيها لغوا الاسلاما واللغو من الكلام ما سبيله ان يلغى
و يطرح وهو المنكر من القول ونظيره قوله لاتسمع فيها لاغية وفيه تنبيه ظاهر على
وجوب تجنب اللغو حيث نزه الله تعالى عنه الدار التي لاتكليف فيها وما احسن قوله
واذا مروا باللغو مروا كراما واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا اعمالنا ولكم
أعمالكم سلام عليكم لانبتغي الجاهلين اما قوله الاسلاما ففيه بحثان ( الاول ) ان فيه
اشكالا وهو ان السلام ليس من جنس اللغو فكيف استثنى السلام من اللغو والجواب
عنه من وجوه ( احدها ) ان معنى السلام هو الدعاء بالسلامة واهل الجنة لاحاجة بهم الى
هذا الدعاء فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث لولا مافيه من فائدة الاكرام
(وثانيها) ان يحمل ذلك على الاستثناء المنقطع ( وثالثها ) ان يكون هذا من جنس قول
الشاعر

ولاعيب فيهم غير ان سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

( البحث الثالث ) ان ذلك السلام يحتمل ان يكون من سلام بعضهم على بعض او من تسليم
الملائكة او من تسليم الله تعالى على ماقال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب
سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وقوله سلام قولا من رب رحيم (ورابعها) قوله
تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا وفيه سؤالان ( السؤال الاول ) ان المقصود من هذه
الآيات وصف الجنة بأحوال مستعظمة ووصول الرزق اليهم بكرة وعشيا ليس من الامور
المستعظمة والجواب من وجهين ( الاول ) قال الحسن اراد الله تعالى ان يرغب كل قوم
بما احبوه في الدنيا ولذلك ذكر اساور من الذهب والفضة ولبس الحرير التي كانت عادة
العجم والارائك التي هي الحجال المضروبة على الاسرة وكانت من عادة اشراف العرب
في اليمن ولاشئ كان احب الى العرب من الغداء والعشاء فوعدهم بذلك ( الثاني ) ان
المراد دوام الرزق كما تقول انا عند فلان صباحا ومساء وبكرة وعشيا تريد الدوام
ولاتقصد الوقتين المعلومين ( السؤال الثاني ) قال تعالى لايرون فيها شمسا ولازمهريرا
وقال عليه السلام لاصباح عندربك ولامساء والبكرة والعشي لايوجد ان الاعند
وجود الصباح والمساء ( والجواب ) المراد انهم يأكلون عند مقدار الغداة والعشي الا أنه
ليس في الجنة غدوة وعشي اذلاليل فيها ويحتمل ماقيل انه تعالى جعل لقدر اليوم علامة
يعرفون بها مقادير الغداة والعشي ويحتمل ان يكون المراد لهم رزقهم متى شاؤا كما جرت
العادة في الغداة والعشي ( وخامسها ) قوله تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا
وفيه ابحاث ( الاول ) قوله تلك الجنة هذه الاشارة انما صحت لان الجنة غائبة (وثانيها)
ذكروا في نورث وجوها ( الاول ) نورث استعارة اى نبقي عليه الجنة كما نبقي على الوارث
مال المورث ( الثاني ) ان المراد انا ننقل تلك المنازل ممن لو أطاع لكانت له الى عبادنا الذين
اتقوا ربهم فجعل هذا النقل ارثا قاله الحسن ( الثالث ) ان الاتقياء يلقون ربهم

القياس العقيم والرأى السقيم
الا لكونهم جهلة لايعلمون
الاظاهرا من الحياة الدنيا وذلك
مبلغهم من العلم فرد عليهم ذلك
من جهته تعالى بقوله (وكم اهلكنا
قبلهم من قرن هم احسن اثاثا
ورئيا) اى كثيرا من القرون التى
كانت افضل منهم فيما يفتخرون به
من الحظوظ الدنيوية كعاد وثمود
واضرابهم من الامم العاتية قبل
هؤلاء أهلكناهم بفنون العذاب
ولوكان ما آتيناهم لكرامتهم
علينا لما فعلنا بهم مافعلنا وفيه من
التهديد والوعيد مالايخفى كأنه
قيل فلينتظر هؤلاء ايضا مثل ذلك
فكم مفعول اهلكنا ومن قرن
بيان لابهامها واهل كل عصر
قرن لمن بعدهم لانهم يتقدمونهم
مأخوذ من قرن الدابة وهو
مقدمها وقوله تعالى هم احسن
اثاثا في حيز النصب على انه صفة
لكم واثاثا تمييز النسبة وهو متاع
البيت وقيل هو ما جد منه
والخرثي ماليس منه ورث والرئي
المنظر فعل من الرؤية لما يرى
كالطحن لما يطحن وقرئ ريا على
قلب الهمزة ياء وادغامها او على
انه من الري وهو النعمة والترفه
وقرئ ريئا على القلب وريا
بحذف الهمزة وزيا بالزاى المعجمة
من الزي وهو الجمع فانه عبارة
عن المحاسن المجموعة (قل من كان
في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا)
لما بين عاقبة امر الامم المهلكة

يوم القيامة وقد انقضت اعمالهم وثمراتها باقية وهي الجنة فاذا ادخلهم الجنة فقد اورثهم من تقواهم كما يرث الوارث المال من المتوفى (ورابعها) معنى من كان تقيا من تمسك باتقاء معاصيه وجعله عادته واتقى ترك الواجبات قال القاضي فيه دلالة على ان الجنة يختص بدخولها من كان متقيا والفاسق المرتكب للكبائر لا يوصف بذلك والجواب الآية تدل على أن المتقي يدخلها وليس فيها دلالة على ان غير المتقي لا يدخلها وايضا فصاحب الكبيرة متق عن الكفر ومن صدق عليه انه متق عن الكفر فقد صدق عليه انه متق لان المتقي جزء من مفهوم قولنا المتقي عن الكفر واذا كان صاحب الكبيرة يصدق عليه انه متق وجب ان يدخل تحته فالآية بان تدل على ان صاحب الكبيرة يدخل الجنة اولى من ان تدل على أن لا يدخلها * قوله تعالى (وما نتنزل الا بأمر ربك له ما بين ايدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا رب السموات والارض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) اعلم ان في الآية اشكالا وهو ان قوله تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا كلام الله وقوله وما نتنزل الا بامر ربك كلام غير الله فكيف جاز عطف هذا على ما قبله من غير فصل والجواب انه اذا كانت القرينة ظاهرة لم يقبح كما ان قوله سبحانه اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون هو كلام الله وقوله وان الله ربي وربكم كلام غير الله واحدهما معطوف على الآخر واعلم ان ظاهر قوله تعالى وما نتنزل الا بامر ربك خطاب جماعة لواحد وذلك لا يليق الا بالملائكة الذين ينزلون على الرسول ويحتمل في سببه ما روى ان قريشا بعثت خمسة رهط الى يهود المدينة يسألونهم عن صفة محمد صلى الله عليه وسلم وهل يجدونه في كتابهم فسألوا النصارى فزعموا انهم لا يعرفونه وقالت اليهود نجده في كتابنا وهذا زمانه وقد سألنا رحمن اليمامة عن خصال ثلاث فلم يعرف فاسئلوه عنهن فان اخبركم بخصلتين منهما فاتبعوه فاسئلوه عن فتية اصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح قال فجاؤا فسألوه عن ذلك فلم يدر كيف يجيب فوعدهم ان يجيبهم بعد ذلك ولم يقل ان شاء الله فاحتبس الوحي عنه اربعين يوما وقيل خمسة عشر يوما فشق عليه ذلك مشقة شديدة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه فنزل جبريل عليه السلام فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ابطأت عني حتى ساء ظني واشتقت اليك قال اني كنت اشوق ولكني عبد مأمور اذا بعثت نزلت واذا حبست احتبست فانزل الله تعالى هذه الآية وأنزل قوله ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله وسورة الضحى ثم اكدوا ذلك بقولهم له ما بين أيدينا وما خلفنا اي هو المدبر لنا في كل الاوقات الماضي والمستقبل وما بينهما او الدنيا والآخرة وما بينهما فانه يعلم اصلاح التدبير مستقبلا وماضيا وما بينهما والغرض ان امرنا موكول الى الله تعالى يتصرف فينا بحسب مشيئته وارادته وحكمته لا اعتراض لاحد عليه فيه وقال ابو مسلم قوله وما نتنزل الا بأمر ربك يجوز ان يكون قول اهل الجنة والمراد وما نتنزل الجنة الا بأمر ربك له ما بين ايدينا اي في الجنة مستقبلا وما خلفنا

معما كان لهم من التمتع بفنون الحظوظ العاجلة امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بان يجيب هؤلاء المفتخرين بمآلهم من الحظوظ ببيان مآل امر الفريقين اما على وجه كلي متناول لهم ولغيرهم من المنهمكين في اللذة الفانية المبتهجين بها على ان من على عمومها واما على وجه خاص بهم على انها عبارة عنهم ووصفهم بالتمكن لذمهم والاشعار بعلة الحكم اي من كان مستقرا في الضلالة مغمورا بالجهل والغفلة عن عواقب الامور فليمدد له الرحمن اي يمدله ويمهله بطول العمر واعطاء المال والتمكين من التصرفات واخراجه على صيغة الامر للايذان بان ذلك مما ينبغي ان يفعل بموجب الحكمة لقطع المعاذير كما ينبئ عنه قوله عز وجل اولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر او للاستدراج كما ينطق به قوله تعالى انما نملي لهم ليزدادوا اثما وقيل المراد به الدعاء بالمد والتنفيس واعتبار الاستقرار في الضلالة لما ان المد لا يكون الا للمصرين عليها اذ رب ضال يهديه الله عز وجل والتعرض لعنوان الرحمانية لما ان المد من احكام الرحمة الدنيوية وقوله تعالى (حتى اذا رأوا ما يوعدون) غاية للمد الممتد لا لقول

مما كان في الدنيا وما بين ذلك اى مابين الوقتين وما كان ربك نسيا لشئ مما خلق فيترك اعادته لانه عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة وقوله وما كان ربك نسيا ابتداء كلام منه تعالى في مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم ويتصل به رب السموات والارض اى بل هو رب السموات والارض ومابينهما فاعبده قال القاضي وهذا مخالف للظاهر من وجوه (احدها) ان ظاهر التنزل نزول الملائكة الى الرسول صلى الله عليه وسلم لقوله بأمر ربك وظاهر الامر بحال التكليف اليق (وثانيها) انه خطاب من جماعة لواحد وذلك لا يليق بمخاطبة بعضهم لبعض في الجنة (وثالثها) ان ما في سياقه من قوله وما كان ربك نسيا رب السموات والارض ومابينهما لا يليق الا بحال التكليف ولا يوصف به الرسول صلى الله عليه وسلم فكأنهم قالوا للرسول وما كان ربك يا محمد نسيا يجوز عليه السهو حتى يضرك ابطاؤنا بالتنزل عليك الى مثل ذلك ثم ههنا ابحاث (البحث الاول) قال صاحب الكشاف التنزل على معنيين (احدهما) النزول على مهل (والثاني) بمعنى النزول على الاطلاق والدليل عليه انه مطاوع نزل ونزل يكون بمعنى أنزل وبمعنى التدريج واللائق بمثل هذا الموضع هو النزول على مهل والمراد ان نزولنا في الاحايين وقتا بعد وقت ليس الا بأمر الله تعالى (البحث الثاني) ذكروا في قوله مابين ايدينا وما خلفنا ومابين ذلك وجوها (احدها) له ماقدامنا وما خلفنا من الجهات وما نحن فيه فلا نتمالك ان ننتقل من جهة الى جهة ومن مكان الى مكان الا بأمره ومشيئته فليس لنا ان ننقلب من السماء الى الارض الا بأمره (وثانيها) له مابين أيدينا ماسلف من امر الدنيا وما خلفنا ما يستقبل من امر الآخرة ومابين ذلك مابين النفختين وهو أربعون سنة (وثالثها) مامضى من اعمارنا وماغبر من ذلك والحال التي نحن فيها (ورابعها) ماقبل وجودنا وما بعد فنائنا (وخامسها) الارض التي بين ايدينا اذا نزلنا والسماء التي وراءنا ومابين السماء والارض وعلى كل التقديرات فالمقصود انه المحيط بكل شئ لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة فكيف نقدم على فعل الا بأمره وحكمه (البحث الثالث) قوله وما كان ربك نسيا اى تاركا لك كقوله ماودعك ربك وماقلى اى ما كان امتناع النزول الا لامتناع الامر به ولم يكن ذلك عن ترك الله لك وتوديعه اياك اماقوله رب السموات والارض ومابينهما فالمراد ان من يكون ربا لها أجمع لا يجوز عليه النسيان اذ لابد من ان يمسكها حالا بعد حال والا بطل الامر فيهما او فيمن يتصرف فيهما واحتج اصحابنا بهذه الآية على ان فعل العبد خلق الله تعالى لان فعل العبد حاصل بين السماء والارض والآية دالة على انه رب لكل شئ حصل بينهما قال صاحب الكشاف رب السموات والارض بدل من ربك ويجوز ان يكون خبر مبتدأ محذوف اى هو رب السموات والارض فاعبده واصطبر لعبادته فهو امر للرسول صلى الله عليه وسلم بالعبادة والمصابرة على مشاق التكاليف في الاداء والابلاغ وفيما يخصه من العبادة فان قيل لم لم يقل واصطبر على عبادته

المفتخرين كما قيل اذ ليس فيه امتداد بحسب الذات وهو ظاهر ولا استمرار بحسب التكرار لوقوعه في حيز جواب اذا وجمع الضمير في الفعلين باعتبار معنى من كما ان الافراد في الضميرين الاولين باعتبار لفظها وقوله تعالى (اما العذاب واما الساعة) تفصيل للموعود على سبيل البدل فانه اما العذاب الدنيوي بغلبة المسلمين واستيلائهم عليهم وتعذيبهم اياهم قتلا واسرا واما يوم القيامة وما ينالهم فيه من الخزي والنكال على طريقة منع الخلو دون منع الجمع فان العذاب الاخروي لا ينفك عنهم بحال وقوله تعالى (فسيعلمون) جواب الشرط والجملة محكية بعد حتى اى حتى اذا عاينوا مايوعدون من العذاب الدنيوي والاخروي فقط فسيعلمون حينئذ (من هو شر مكانا) من الفريقين بان يشاهدوا الامر على عكس ما كانوا يقدرونه فيعلمون انهم شر مكانا لا خير مقاما (واضعف جندا) اى فئة وانصارا لا احسن نديا كما كانوا يدعونه وليس المراد ان له ثمة جندا ضعفاء كلا ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا وانما ذكر ذلك ردا لما كانوا يزعمون ان لهم اعوانا من الاعيان وانصارا من الاخيار

بل قال واصطبر لعبادته قلنا لان العبادة جعلت بمنزلة القرن فى قولك للمحارب اصطبر لقرنك اى اثبت له فيما يورد عليك من شداته والمعنى ان العبادة تورد عليك شدائد ومشاق فاثبت لها ولا تهن ولا يضق صدرك من القاء اهل الكتاب اليك الاغاليط عن احتباس الوحى عنك مدة وشماتة المشركين بك اما قوله تعالى هل تعلم له سميا فالظاهر يدل على انه تعالى جعل علة الامر بالعبادة والامر بالمصابرة عليها انه لاسمى له والاقرب هو كونه منعما باصول النعم وفروعها وهى خلق الاجسام والحياة والعقل وغيرها فانه لا يقدر على ذلك احد سواه سبحانه فاذا كان هو قد انعم عليك بغاية الانعام وجب ان تعظمه بغاية التعظيم وهى العبادة ومن الناس من قال المراد انه سبحانه ليس له شريك فى اسمه وبينوا ذلك من وجهين ( الاول ) انهم وان كانوا يطلقون لفظ الاله على الوثن فما أطلقوا لفظ الله على شئ سواه وعن ابن عباس رضى الله عنهما لا يسمى بالرحمن غيره ( الثانى ) هل تعلم من سمى باسمه على الحق دون الباطل لان التسمية على الباطل فى كونها غير معتد بها كلا تسمية والقول الاول هو الصواب والله اعلم ۞ قوله تعالى ( ويقول الانسان أئذا مامت لسوف اخرج حيا أولا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ثم لننزعن من كل شيعة ايهم اشد على الرحمن عتيا ثم لنحن اعلم بالذين هم اولى بها صليا ) اعلم انه تعالى لما امر بالعبادة والمصابرة عليها فكأن سائلا سأل وقال هذه العبادات لا منفعة فيها فى الدنيا واما فى الآخرة فقد انكرها قوم فلابد من ذكر الدلالة على القول بالحشر حتى يظهر ان الاشتغال بالعبادة مفيد فلهذا حكى الله تعالى قول منكرى الحشر فقال ويقول الانسان أئذا مامت لسوف أخرج حيا وانما قالوا ذلك على وجه الانكار والاستبعاد وذكروا فى الانسان وجهين ( احدهما ) ان يكون المراد الجنس بأسره فان قيل كلهم غير قائلين بذلك فكيف يصح هذا القول قلنا الجواب من وجهين ( الاول ) ان هذه المقالة لما كانت موجودة فيما هو من جنسهم صح اسنادها الى جميعهم كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل رجل منهم (والثانى ) ان هذا الاستبعاد موجود ابتداء فى طبع كل احد الا ان بعضهم ترك ذلك الاستبعاد المبنى على محض الطبع بالدلالة القاطعة التى قامت على صحة القول به ( الثانى ) ان المراد بالانسان شخص معين فقيل هو ابو جهل وقيل هو ابى بن خلف وقيل المراد جنس الكفار القائلين بعدم البعث ثم ان الله تعالى اقام الدلالة على صحة البعث بقوله أولا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا والقرآء كلهم على يذكر بالتشديد الا نافعا وابن عامر وعاصما قد خففوا اى أولا يتذكر الانسان انا خلقناه من قبل واذا قرئ أولا يذكر فهو اقرب الى المراد اذ الغرض التفكر والنظر فى انه اذا خلق من قبل لا من شئ فجائز ان يعاد ثانيا قال بعض العلماء لو اجتمع كل الخلائق على ايراد حجة فى البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها اذ لا شك ان الاعادة ثانيا اهون من الايجاد

و يفتخرون بذلك فى الاندية والمحافل (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) كلام مستأنف سيق لبيان حال المهتدين اثر بيان حال الضالين وقيل عطف على فليمدد لانه فى معنى الخبر حسبما عرفته كأنه قيل من كان فى الضلالة يمده الله ويزيد المهتدين هداية كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وقيل عطف على الشرطية المحكية بعد القول كأنه لما بين ان امهال الكافر وتمتيعه بالحياة ليس لفضله عقب ذلك ببيان ان قصور حظ المؤمن منها ليس لنقصه بل لانه تعالى أراد به ماهو خير من ذلك وقوله تعالى ( والباقيات الصالحات خير ) على تقديرى الاستئناف والعطف كلام مستأنف وارد من جهته تعالى لبيان فضل اعمال المهتدين غير داخل فى حيز الكلام الملقن لقوله تعالى (عند ربك) اى الطاعات التى تبقى فوائدها وتدوم عوائدها ومن جملتها ماقيل من الصلوات الخمس وماقيل من قول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر (خير) عند الله تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره لتشريفه عليه السلام ( ثوابا ) اى عائدة مما يتمتع به الكفرة من النعم المخدجة الفانية التى يفتخرون بها لاسيما ومآلها

اولا ونظيره قوله قل يحييها الذى انشأها اول مرة وقوله وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو اهون عليه واحتج اصحابنا بهذه الآية على ان المعدوم ليس بشئ وهو ضعيف لان الانسان عبارة عن مجموع جواهر متألفة قامت بها اعراض وهذا المجموع ما كان شيئا ولكن لم قلت ان كل واحد من تلك الاجزاء ما كان شيئا قبل كونه موجودا فان قيل كيف امر تعالى الانسان بالذكر مع ان الذكر هو العلم بما قد علمه من قبل ثم تخللهما سهو قلنا المراد أولا يتفكر فيعلم خصوصا اذا قرئ أولا يذكر الانسان بالتشديد اما اذا قرئ اولا يذكر بالتخفيف فالمراد أولا يعلم ذلك من حال نفسه لان كل احد يعلم انه لم يكن حيا فى الدنيا ثم صار حيا ثم انه سبحانه لما قرر المطلوب بالدليل اردفه بالتهديد من وجوه (احدها) قوله فوربك لنحشرنهم والشياطين وفائدة القسم امران (احدهما) ان العادة جارية بتأكيد الخبر باليمين (والثانى) ان فى اقسام الله تعالى باسمه مضافا الى اسم رسوله صلى الله عليه وسلم تفخيم لشأنه صلى الله عليه وسلم ورفع منه كما رفع من شأن السماء والارض فى قوله فورب السماء والارض انه لحق والواو فى والشياطين يجوز ان تكون للعطف وان تكون بمعنى مع وهى بمعنى مع اوقع والمعنى انهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين اغووهم يقرن كل كافر مع شيطان فى سلسلة (وثانيها) قوله ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا وهذا الاحضار يكون قبل ادخالهم جهنم ثم انه تعالى يحضرهم على اذل صورة لقوله تعالى جثيا لان البارك على ركبتيه صورته صورة الذليل او صورته صورة العاجز فان قيل هذا المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى وترى كل امة جاثية والسبب فيه جريان العادة ان الناس فى مواقف المطالبات من الملوك يتجاثون على ركبهم لما فى ذلك من الاستنظار والقلق او لما يدهمهم من شدة الامر الذى لا يطيقون معه القيام على ارجلهم واذا كان هذا عاما للكل فكيف يدل على مزيد ذل الكفار قلنا لعل المراد انهم يكونون من وقت الحشر الى وقت الحضور فى الموقف على هذه الحالة وذلك يوجب مزيد الذل فى حقهم (وثالثها) قوله ثم لننزعن من كل شيعة ايهم اشد على الرحمن عتيا والمراد بالشيعة وهى فعلة كفرقة وفئة الطائفة التى شاعت اى تبعت غاويا من الغواة قال تعالى ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا والمراد انه تعالى يحضرهم اولا حول جهنم جثيا ثم يميز البعض من البعض فمن كان اشدهم تمردا فى كفره خص بعذاب اعظم لان عذاب الضال المضل يجب ان يكون فوق عذاب من يضل تبعا لغيره وليس عذاب من يتمرد ويتجبر كعذاب المقلد وليس عذاب من يورد الشبه فى الباطل كعذاب من يقتدى به مع الغفلة قال تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون وقال وليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم فبين تعالى انه ينزع من كل فرقة من كان اشد عتوا واشد تمردا ليعلم ان عذابه اشد ففائدة هذا التمييز التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص باصل العذاب فلذلك قال فى جميعهم ثم لنحن اعلم بالذين هم اولى بها

---

لنعيم المقيم ومآل هذه الحسرة السرمدية والعذاب الاليم كما اشير اليه بقوله تعالى (وخير مردا) اى مرجعا وعاقبة وتكرير الخير لمزيد الاعتناء ببيان الخيرية وتأكيد لها وفى التفضيل مع ان ما للكفرة بمعزل من ان يكون له خيرية فى العاقبة تهكم بهم (افرأيت الذى كفر بآياتنا) اى بآياتنا التى من جملتها آيات البعث نزلت فى العاص بن وائل كان لخباب بن الارت عليه مال فاقتضاه فقال لا حتى تكفر بمحمد قال لا والله لا اكفر به حيا ولا ميتا ولا حين بعثت قال فاذا بعثت جئنى فيكون لى ثمة مال وولد فاعطيك وفى رواية قال لا اكفر به حتى يميتك ثم تبعث فقال انى لميت ثم مبعوث قال نعم قال دعنى حتى اموت وابعث فساوتى مالا وولدا فاقضيك فنزلت فالهمزة للتعجب من حاله والايذان بانها من الغرابة والشناعة بحيث يجب ان ترى ويقضى منها العجب ومن فرق بين الم تر وارأيت بعد بيان اشتراكهما فى الاستعمال لقصد التعجيب بان الاول يعلق بنفس المتعجب منه فيقال الم تر الى الذى صنع كذا بمعنى انظر اليه فتعجب من حاله والثانى يعلق بمثل المتعجب منه فيقال ارأيت مثل الذى صنع كذا بمعنى انه من الغرابة بحيث

صليا ولا يقال اولى الامم اشتراك القوم فى العذاب واختلفوا فى اعراب ايهم فعن الخليل انه مرتفع على الحكاية تقديره لننزعن الذين يقال فيهم ايهم اشد وسيبويه على انه مبنى على الضم لسقوط صدر الجملة التى هى صلة حتى لوجئ به لاعرب وقيل ايهم هو اشد ❁ قوله تعالى (وان منكم الاواردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) واعلم انه تعالى لما قال من قبل فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم قال ثم لنحضرنهم حول جهنم اردفه بقوله وان منكم الاواردها يعنى جهنم واختلفوا فقال بعضهم المراد من تقدم ذكره من الكفار فكنى عنهم اولا كناية الغيبة ثم خاطب خطاب المشافهة قالوا انه لايجوز للمؤمنين ان يردوا النار ويدل عليه امور (احدها) قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون والمبعد عنها لايوصف بانه واردها (والثانى) قوله لايسمعون حسيسها ولو وردوا جهنم لسمعوا حسيسها (وثالثها) قوله وهم من فزع يومئذ آمنون وقال الاكثرون انه عام فى كل مؤمن وكافر لقوله تعالى وان منكم الاواردها فلم يخص وهذا الخطاب مبتدأ مخالف للخطاب الاول ويدل عليه قوله ثم ننجى الذين اتقوا اى من الواردين من اتقى ولايجوز ان يقال ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا الا والكل واردون والاخبار المروية دالة على هذا القول ثم هؤلاء اختلفوا فى تفسير الورود فقال بعضهم الورود الدنو من جهنم وان يصيروا حولها وهو موضع المحاسبة واحتجوا على ان الورود قد يراد به القرب بقوله تعالى فأرسلوا واردهم ومعلوم ان ذلك الوارد ما دخل الماء وقال تعالى ولما ورد ماء مدين وجد عليه امة من الناس يسقون وأراد به القرب ويقال وردت القافلة البلدة وان لم تدخلها فعلى هذا معنى الآية ان الجن والانس يحضرون حول جهنم كان على ربك حتما مقضيا اى واجبا مفروغا منه بحكم الوعيد ثم ننجى اى نبعد الذين اتقوا عن جهنم وهو المراد من قوله تعالى اولئك عنها مبعدون ومما يؤكد هذا القول ماروى انه صلى الله عليه وسلم قال لايدخل النار أحد شهد بدرا والحديبية فقال حفصة أليس الله يقول وان منكم الاواردها فقال عليه السلام فه ثم ننجى الذين اتقوا ولو كان الورود عبارة عن الدخول لكان سؤال حفصة لازما (القول الثانى) ان الورود هو الدخول ويدل عليه الآية والخبر (اما الآية) فقوله تعالى انكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون وقال فأوردهم النار وبئس الورد المورود ويدل عليه قوله تعالى اولئك عنها مبعدون والمبعد هو الذى لولا التبعيد لكان قريبا فهذا انما يحصل لوكانوا فى النار ثم انه تعالى يبعدهم عنها ويدل عليه قوله تعالى ونذر الظالمين فيها جثيا وهذا يدل على انهم يبقون فى ذلك الموضع الذى وردوه وهم انما يبقون فى النار فلابد وان يكونوا قد دخلوا النار (واما الخبر) فهو ان عبد الله بن رواحة قال اخبر الله عن الورود ولم يخبر بالصدور فقال عليه السلام يا ابن رواحة اقرأ مابعدها ثم ننجى الذين اتقوا وذلك يدل على ان ابن رواحة فهم من الورود الدخول والنبى صلى الله

لايرى له مثل فقد حفظ شيا وغابت عنه اشياء وكأنه ذهب عليه قوله عز وجل ارأيت الذى يكذب بالدين والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى انظرت فرأيت الذى كفر بآياتنا الباهرة التى حقهــا ان يؤمن بها كل من يشاهدها (وقال) مستهزئا بها مصدرا لكلامه باليمين الفاجرة والله (لأوتين) فى الآخرة (مالا وولدا) اى انظر اليه فتعجب من حالته البديعة وجراءته الشنيعة هذا هو الذى يستدعيه جزالة النظم الكريم وقد قيل ان ارأيت بمعنى اخبر والفــاء على اصلها والمعنى اخبر بقصة هذا الكافر عقيب حديث أولئك الذين قالوا اى الفريقــين خير مقاما الآية وانت خبير بان المشهور استعمال ارأيت فى معنى اخبرنى بطريق الاستفهام جاريا على اصله او مخرجا الى مايناسبه من المعانى لابطريق الامر بالاخبار لغيره وقرئ ولدا على انه جمع ولد كاسد جمع اسد او على انه لغة فيه كالعرب والعرب وقوله تعالى (اطلع الغيب) رد لكلمته الشنعاء واظهار لبطلانها اثر ماشير اليه بالتعجيب منها اى اقد بلغ من عظمة الشان الى ان ارتقى الى علم الغيب الذى استأثر به العليم الخبير حتى ادعى ان يؤتى فى الآخرة مالا وولدا واقسم عليه

عليه وسلم ماانكر عليه فى ذلك وعن جابر انه سئل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يقول الورود الدخول لايبقى بر ولافاجر الادخلها فتكون على المؤمنين بردا وسلاما حتى ان للناس ضجيجا من بردها والقائلون بهذا القول يقولون المؤمنون يدخلون النار من غير خوف وضرر البتة بل مع الغبطة والسرور وذلك لان الله تعالى اخبر عنهم انهم لايحزنهم الفزع الاكبر ولان الآخرة دار الجزاء لادار التكليف وايصال الغم والحزن انما يجوز فى دار التكليف ولانه صحت الرواية عن رسول الله صلى عليه وسلم ان الملائكة تبشر فى القبر من كان من اهل الثواب بالجنة حتى يرى مكانه فى الجنة ويعلمه وكذلك القول فى حال المعاينة فكيف يجوز ان يردوا القيامة وهم شاكون فى امرهم وانما تؤثر هذه الاحوال فى اهل النار لانهم لايعلمون كونهم من اهل النار والعقاب ثم اختلفوا فى انه كيف يندفع عنهم ضرر النار فقال بعضهم البقعة المسماة بجهنم لايمتنع ان يكون فى خلالها مالانار فيه ويكون من المواضع التى يسلك فيها الى دركات جهنم واذا كان كذلك لم يمتنع ان يدخل الكل فى جهنم فالمؤمنون يكونون فى تلك المواضع الخالية عن النار والكفار يكونون فى وسط النار (وثانيها) ان الله تعالى يخمد النار فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم قال ابن عباس رضى الله عنهما يردونها كأنها اهالة وعن جابر بن عبدالله انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اذا دخل اهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض اليس وعدنا ربنا بأن نرد النار فيقال لهم قد وردتموها وهى خامدة (وثالثها) ان حرارة النار ليست بطبعها فالاجزاء الملاصقة لابدان الكفار يجعلها الله عليهم محرقة مؤذية والاجزاء الملاصقة لابدان المؤمنين يجعلها الله بردا وسلاما عليهم كما فى حق ابراهيم عليه السلام وكما ان الكوز الواحد من الماء كان يشربه القبطى فكان يصير دما ويشربه الاسرائيلى فكان يصير ماء عذبا واعلم انه لابد من احد هذه الوجوه فى الملائكة الموكلين بالعذاب حتى يكونوا فى النار مع المعاقبين فان قيل اذا لم يكن على المؤمنين عذاب فى دخولهم النار فما الفائدة فى ذلك الدخول قلنا فيه وجوه (احدها) ان ذلك مما يزيدهم سرورا اذا علموا الخلاص منه (وثانيها) ان فيه مزيد غم على اهل النار حيث يرون المؤمنين الذين هم اعداؤهم يتخلصون منها وهم يبقون فيها (وثالثها) ان فيه مزيد غم على اهل النار من حيث تظهر فضيحتهم عند المؤمنين بل وعند الاولياء وعند من كان يخوفهم من النار فما كانوا يلتفتون اليه (ورابعها) ان المؤمنين اذا كانوا معهم فى النار يبكتونهم فزاد ذلك غما للكفار وسرور المؤمنين (وخامسها) ان المؤمنين كانوا يخوفونهم بالحشر والنشر ويقيمون عليهم صحة الدلائل فما كانوا يقبلون تلك الدلائل فاذا دخلوا جهنم معهم اظهروا لهم انهم كانوا صادقين فيما قالوا وان المكذبين بالحشر والنشر كانوا كاذبين (وسادسها) انهم اذا شاهدوا ذلك العذاب صار ذلك سببا لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة كما قال الشاعر

---

( ام اتخذ عند الرحمن عهدا ) بذلك فانه لايتوصل الى العلم به الا باحد هذين الطريقين والتعرض لعنوان الرحمانية للاشعار بعلية الرحمة لايتاء مايدعيه وقيل العهد كلمة الشهادة وقيل العمل الصالح فان وعده تعالى بالثواب عليهما كالعهد وهذا مجاراة مع اللعين بحسب منطوق مقاله كما ان كلامه مع خباب كان كذلك وقوله تعالى (كلا) ردع له عن التفوه بتلك العظيمة وتنبيه على خطئه ( سنكتب ما يقول ) اى سنظهر انا كتبنا قوله كقوله

اذا ماانتسبنا لم تلد لى لئيمة

اى يتبين انى لم تلدنى لئيمة او سننتقم منه انتقام من كتب جريمة الجانى وحفظها عليه فان نفس الكتبة لاتكاد تتأخر عن القول لقوله عز وعلا مايلفظ من قول الالديه رقيب عتيد فمبنى الاول تنزيل اظهار الشئ الخفى منزلة احداث الامر المعدوم بجامع ان كلا منهما اخراج من الكمون الى البروز فيكون استعارة تبعية مبنية على تشبيه اظهار الكتابة على رؤس الاشهاد باحداثها ومدار الثانى تسمية الشئ باسم سببه فان كتابة جريمة المجرم سبب لعقوبته قطعا (ونمدله من العذاب مدا) مكان مايدعيه لنفسه من الامداد بالمال والولد اى نطول له من العذاب مايستحقه

*وبضدها تتبين الاشياء* فاما الذين تمسكوا بقوله تعالى اولئك عنها مبعدون فقد بينا انه أحد مايدل على الدخول فى جهنم وايضا فالمراد عن عذابها وكذا قوله لايسمعون حسيسها فان قيل هل ثبت بالاخبار كيفية دخول النار ثم خروج المتقين منها الى الجنة قلنا ثبت بالاخبار ان المحاسبة تكون فى الارض اوحيث كانت الارض ويدل عليه ايضا قوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض وجهنم قريبة من الارض والجنة فى السماء ففى موضع المحاسبة يكون الاجتماع فيدخلون من ذلك الموضع الى جهنم ثم يرفع الله اهل الجنة وينجيهم ويدفع اهل النار فيها * اما قوله كان على ربك حتما مقضيا فالحتم مصدر حتم الامر اذا اوجبه فسمى المحتوم بالحتم كقولهم خلق الله وضرب الامير واحتج من اوجب العقاب عقلا فقال ان قوله كان على ربك حتما مقضيا يدل على وجوب ماجاء من جهة الوعيد والاخبار لان كلمة على للوجوب والذى ثبت بمجرد الاخبار لايسمى واجبا والجواب ان وعد الله تعالى لما استحال تطرق الخلف اليه جرى مجرى الواجب اما قوله ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين قرئ ننجى وننجى وينجى على مالم يسم فاعله قال القاضى الآية دالة على قولنا فى الوعيد لان الله تعالى بين ان الكل يردونها ثم بين صفة من ينجو وهم المتقون والفاسق لايكون متقيا ثم بين تعالى ان من عدا المتقين يذرهم فيها جثيا فثبت ان الفاسق يبقى فى النار أبدا قال ابن عباس المتقى هو الذى اتقى الشرك بقول لا اله الا الله واعلم ان الذى قاله ابن عباس هو الحق الذى يشهد الدليل بصحته وذلك لان من آمن بالله وبرسله صح ان يقال انه متق عن الشرك ومن صدق عليه انه متق عن الشرك صدق عليه انه متق لان المتقى جزء من المتقى عن الشرك ومن صدق عليه المركب صدق عليه المفرد فثبت ان صاحب الكبيرة متق واذا ثبت ذلك وجب ان يخرج من النار لعموم قوله ثم ننجى الذين اتقوا فصارت هذه الآية التى توهموها دليلا من اقوى الدلائل على فساد قولهم قال القاضى وتدل الآية ايضا على فساد قول من يقول ان من المكلفين من لايكون فى الجنة ولا فى النار قلنا هذا ضعيف لان الآية تدل على انه تعالى ينجى الذين اتقوا وليس فيها مايدل على انه ينجيهم الى الجنة ثم هب انها تدل على ذلك ولكن الآية تدل على ان المتقين يكونون فى الجنة والظالمين يبقون فى النار فيبقى ههنا قسم ثالث خارج عن القسمين وهو الذى استوت طاعته ومعصيته فتسقط كل واحدة منهما بالاخرى فيبقى لامطيعا ولاعاصيا فهذا القسم ان بطل فانما يبطل بشئ سوى هذه الآية فلا تكون هذه الآية دالة على الحصر الذى ادعاه ومن المعتزلة من تمسك فى الوعيد بقوله ونذر الظالمين فيها جثيا ولفظ الظالمين لفظ جمع دخل عليه حرف التعريف فيفيد العموم والكلام على التمسك بصيغ العموم قد تقدم مرارا كثيرة فى هذا الكتاب اما قوله جثيا قال صاحب الكشاف قوله ونذر الظالمين فيها جثيا دليل على ان المراد بالورود الجثو حواليها وان المؤمنين يفارقون الكفرة الى الجنة بعد تجاثيهم وتبقى

(الكفرة)

---

او نزيد عذابه ونضاعفه له لكفره وافترائه على الله سبحانه واستهزائه بآياته العظام ولذلك اكد بالمصدر دلالة على فرط الغضب (ونرثه) بموته (مايقول) اى مسمى ما يقول ومصداقه وهو مااوتيه فى الدنيا من المال والولد وفيه ايذان بأنه ليس لما يقوله مصداق موجود سوى ماذكر اى ننزع عنه ماآتيناه (ويأتينا) يوم القيامة (فردا) لايصحبه مال ولا ولد كان له فى الدنيا فضلا ان يؤتى ثمة زائدا وقيل نزوى عنه مازعم انه يناله فى الآخرة ونعطيه من يستحقه ويأباه معنى الارث وقيل المراد بمايقول نفس القول المذكور لامسماه والمعنى انما يقول هذا القول مادام حيا فاذا قبضناه حلنا بينه وبين ان يقوله ويأتينا رافضا له منفردا عنه وانت خبير بان ذلك مبنى على ان صدور القول المذكور عنه بطريق الاعتقاد وانه مستمر على التفوه به راج لوقوع مضمونه ولاريب فى ان ذلك مستحيل ممن كفر بالبعث وانما قال ماقال بطريق الاستهزاء وتعليق اداء دينه بالمحال (واتخذوا من دون الله آلهة) حكاية لجناية عامة للكفرة مستتبعة لضد مايرجون ترتبه عليها اثر حكاية مقالة الكافر المعهود واستتباعها لنقيض مضمونها اى اتخذوا

الكفرة فى مكانهم جاثين * قوله تعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا اى الفريقين خير مقاما واحسن نديا) اعلم انه تعالى لما اقام الحجة على مشركى قريش المنكرين للبعث اتبعه بالوعيد على ما تقدم ذكره عنهم انهم عارضوا حجة الله بكلام فقالوا لو كنتم انتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم فى الدنيا احسن واطيب من حالنا لان الحكيم لا يليق به ان يوقع اولياءه المخلصين فى العذاب والذل واعداءه المعرضين عن خدمته فى العز والراحة ولما كان الامر بالعكس فان الكفار كانوا فى النعمة والراحة والاستعلاء والمؤمنين كانوا فى ذلك الوقت فى الخوف والذل دل على ان الحق ليس مع المؤمنين هذا حاصل شبهتهم فى هذا الباب ونظيره قوله تعالى لو كان خيرا ما سبقونا اليه ويروى انهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون ويتطيبون ويتزينون بالزينة الفاخرة ثم يدعون مفتخرين على فقراء المسلمين انهم اكرم على الله منهم بقى بحثان (الاول) قوله آياتنا بينات يحتمل وجوها (احدها) انها مرتلات الالفاظ مبينات المعانى اما محكمات او متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات او بتبيين الرسول قولا او فعلا (وثانيها) انها ظاهرات الاعجاز تحدى بها فا قدروا على معارضتها (وثالثها) المراد بكونها آيات بينات اى دلائل ظاهرة واضحة لا يتوجه عليها سؤال ولا اعتراض مثل قوله تعالى فى اثبات صحة الحشر اولا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا (البحث الثانى) قرأ ابن كثير مقاما بالضم وهو موضع الاقامة والمنزل والباقون بالفتح وهو موضع القيام والمراد المكان والموضع والندى المجلس يقال ندى وناد والجمع الاندية ومنه قوله وتأتون فى ناديكم المنكر وقال فليدع ناديه ويقال ندوت القوم اندوهم اذا جمعتهم فى المجلس ومنه دار الندوة بمكة وكانت تجتمع القوم ثم اجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله (وكم اهلكنا قبلهم من قرن هم احسن اثاثا ورئيا) وتقرير هذا الجواب ان يقال ان من كان اعظم نعمة منكم فى الدنيا قد اهلكهم الله تعالى وابادهم فلو دل حصول نعم الدنيا للانسان على كونه حبيبا لله تعالى لوجب فى حبيب الله ان لا يوصل اليه غما فى الدنيا ووجب عليه ان لا يهلك احدا من المنعمين فى دار الدنيا وحيث اهلكهم دل اما على فساد المقدمة الاولى وهى ان من وجد الدنيا كان حبيبا لله تعالى او على فساد المقدمة الثانية وهى ان حبيب الله لا يوصل الله اليه غما وعلى كلا التقديرين فيفسد ما ذكرتموه من الشبهة بقى البحث عن تفسير الالفاظ فنقول اهل كل عصر قرن لمن بعدهم لانهم يتقدمونهم وهم أحسن فى محل النصب صفة لكم الا ترى انك لو تركت هم لم يكن لك بد من نصب احسن على الوصفية والاثاث متاع البيت اما رئيا فقرئ على خمسة اوجه لانها اما ان تقرأ بالراء التى ليس فوقها نقطة او بالزاى التى فوقها نقطة فاما الاول فاما ان يجمع بين الهمزة والياء او يكتفى بالياء اما اذا جمع بين الهمزة والياء ففيه وجهان (احدهما) بهمزة ساكنة بعدها ياء وهو المنظر والهيئة فعل بمعنى مفعول من رأيت رئيا (والثانى) ريئا

الاصنام آلهة متجاوزين الله تعالى (ليكونوا لهم عزا) اى ليتعززوا بهم بأن يكونوا لهم وصلة اليه عز وجل وشفعاء عنده (كلا) ردع لهم عن ذلك الاعتقاد الباطل وانكار لوقوع ما علقوا به اطماعهم الفارغة (سيكفرون بعبادتهم) اى ستجحد الآلهة بعبادتهم لها بأن ينطقها الله تعالى وتقول ما عبدتمونا او سينكر الكفرة حين شاهدوا سوء عاقبة كفرهم عبادتهم لها كما فى قوله تعالى والله ربنا ما كنا مشركين ومعنى قوله تعالى (ويكونون عليهم ضدا) على الاول تكون الآلهة التى كانوا يرجون ان تكون لهم عزا ضد العز اى ذلا وهوانا او تكون عونا عليهم وآلة لعذابهم حيث تجعل وقود النار وحصب جهنم او حيث كانت عبادتهم لها سببا لعذابهم واطلاق الضد على العون لما ان عون الرجل يضاد عدوه وينافيه باعانته له عليه وعلى الثانى يكون الكفرة ضدا واعداء للآلهة كافرين بها بعد ان كانوا يحبونها كحب الله ويعبدونها وتوحيد الضد لوحدة المعنى الذى عليه تدور مضادتهم فانهم بذلك كشئ واحد كما فى قوله عليه السلام وهم يد على من سواهم وقرئ كلا بفتح الكاف والتنوين على قلب الالف نونا فى الوقف قلب الف الاطلاق

على القلب كقولهم راء فى رأى اما ان اكتفينا بالياء فتارة بالياء المشددة على قلب الهمزة ياء والادغام او من الرى الذى هو النعمة والترفه من قولهم ريان من النعيم والثانى بالياء على حذف الهمزة رأسا ووجهه ان يخفف المقلوب وهو ريئا بحذف الهمزة والقاء حركتها على الياء الساكنة قبلها واما بالزاى المنقطة من فوق زيا فاشتقاقه من الزى وهو الجمع لان الزى محاسن مجموعة والمعنى احسن من هؤلاء والله اعلم * قوله تعالى (قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا حتى اذا رأوا ما يوعدون اما العذاب واما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا واضعف جندا ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا) اعلم ان هذا هو الجواب الثانى عن تلك الشبهة وتقريره لنفرض ان هذا الضال المتنع فى الدنيا قد مد الله فى اجله وامهله مدة مديدة حتى ينضم الى النعمة العظيمة المدة الطويلة فلابد وان ينتهى الى عذاب فى الدنيا او عذاب فى الآخرة بعد ذلك سيعلمون ان نعم الدنيا ماتنقذهم من ذلك العذاب فقوله فسيعلمون من هو شر مكانا مذكور فى مقابلة قولهم خير مقاما واضعف جندا فى مقابلة قولهم احسن نديا فبين تعالى انهم وان ظنوا فى الحال ان منزلتهم افضل من حيث فضلهم الله تعالى بالمقام والندى فسيعلمون من بعد ان الامر بالضد من ذلك وانهم شر مكانا فانه لا مكان شر من النار والمناقشة فى الحساب واضعف جندا فقد كانوا يظنون وهم فى الدنيا ان اجتماعهم ينفع فاذا رأوا أن لا ناصر لهم فى الآخرة عرفوا عند ذلك انهم كانوا فى الدنيا مبطلين فيما ادعوه * بقى البحث عن الالفاظ وهو من وجوه (احدها) مدله الرحمن اى امهله واملى له فى العمر فاخرج على لفظ الامر ايذانا بوجوب ذلك وانه مفعول لا محالة كالمأمور الممتثل ليقطع معاذير الضال ويقال له يوم القيامة أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وكقولهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما (وثانيها) ان قوله اما العذاب واما الساعة يدل على ان المراد بالعذاب عذاب يحصل قبل يوم القيامة لان قوله واما الساعة المراد منه يوم القيامة ثم العذاب الذى يحصل قبل يوم القيامة يمكن ان يكون هو عذاب القبر ويمكن ان يكون هو العذاب الذى سيكون عند المعاينة لانهم عند ذلك يعلمون مايستحقون ويمكن ايضا ان يكون المراد تغير احوالهم فى الدنيا من العز الى الذل ومن الغنى الى الفقر ومن الصحة الى المرض ومن الأمن الى الخوف ويمكن ان يكون المراد تسليط المؤمنين عليهم ويمكن ايضا ان يكون المراد ما نالهم يوم بدر وكل هذه الوجوه مذكورة واعلم انه تعالى بين بعد ذلك انه كما يعامل الكفار بما ذكره فكذلك يزيد المؤمنين المهتدين هدى واعلم انا نبين امكان ذلك بحسب العقل فنقول انه لايبعد ان يكون بعض انواع الاهتداء مشروطا بالبعض فان حاصل الاهتداء يرجع الى العلم ولا امتناع فى كون بعض العلم مشروطا بالبعض فمن اهتدى بالهداية التى هى الشرط صار بحيث لايمتنع ان يعطى الهداية التى هى المشروط فصح قوله ويزيد الله الذين اهتدوا هدى مثاله الايمان

فى قوله
اقلى اللوم عاذل والعتابن
وقولى ان اصبت لقد اصابن
اوعلى معنى كل هذا الرأى كلا وقرى كلا على اضمار فعل يفسره مابعده اى سيجحدون كلا سيكفرون الخ (الم تر انا ارسلنا الشياطين على الكافرين) تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما نطقت به الآيات الكريمة السالفة وحكته عن هؤلاء الكفرة الغواة والمردة العتاة من فنون القبائح من الاقاويل والافاعيل والتمادى فى الغى والانهماك فى الضلال والافراط فى العناد والتصميم على الكفر من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم والاجماع على مدافعة الحق بعد اتضاحه وانتفاء الشك عنه بالكلية وتنبيه على ان جميع ذلك منهم باضلال الشياطين واغوائهم لا لان له مسوغا ما فى الجملة ومعنى ارسال الشياطين عليهم اما تسليطهم عليهم وتمكينهم من اضلالهم واما تقييضهم لهم وليس المراد تعجيبه عليه السلام من ارسالهم عليهم كما يوهمه تعليق الرؤية به بل مما ذكر من احوال الكفرة من كونها من آثار اغواء الشياطين كما ينبئ عنه قوله تعالى (تؤزهم ازا) فانه اما حال مقدرة من الشياطين او استئناف وقع جوابا عما نشأ من صدر الكلام كأنه قيل ماذا يفعل الشياطين

هدى والاخلاص في الايمان زيادة هدى ولا يمكن تحصيل الاخلاص الا بعد تحصيل الايمان فمن اهتدى بالايمان زاده الله الهداية بالاخلاص هذا اذا اجرينا لفظ الهداية على ظاهره ومن الناس من حمل الزيادة في الهدى على الثواب اى ويزيد الله الذين اهتدوا ثوابا على ذلك الاهتداء ومنهم من فسر هذه الزيادة بالعبادات المترتبة على الايمان قال صاحب الكشاف يزيد معطوف على موضع فليمدد لانه واقع موقع الخبر تقديره من كان في الضلالة يمده الرحمن مدا ويزيد اى يزيد في ضلال الضلال بخذلانه بذلك المد ويزيد المهتدين هداية بتوفيقه ثم انه تعالى بين ان ماعليه المهتدون هو الذى ينفع في العاقبة فقال والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وذلك لان ماعليه المهتدون ضرر قليل متناه يعقبه نفع عظيم غير متناه والذى عليه الضالون نفع قليل متناه يعقبه ضرر عظيم غير متناه وكل احد يعلم بالضرورة ان الاول اولى وبهذا الطريق تسقط الشبهة التى عولوا عليها واختلفوا في المراد بالباقيات الصالحات فقال المحققون انها الايمان والاعمال الصالحة سماها باقية لان نفعها يدوم ولا يبطل ومنهم من قال المراد بها بعض العبادات ولعلهم ذكروا ماهو اعظم ثوابا فبعضهم ذكر الصلوات وبعضهم ذكر التسبيح وروى عن ابى الدرداء قال جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم واخذ عودا يابسا فأزال الورق عنه ثم قال ان قول لا اله الا الله والله اكبر وسبحان الله يحط الخطايا حطا كما يحط ورق هذه الشجرة الريح خذهن ياأبا الدرداء قبل ان يحال بينك وبينهن هن الباقيات الصالحات وهن من كنوز الجنة وكان ابو الدرداء يقول لاعلمن ذلك ولاكثرن منه حتى اذا رآنى جاهل حسب انى مجنون والقول الاول اولى لانه تعالى انما وصفها بالباقيات الصالحات من حيث يدوم ثوابها ولا ينقطع فبعض العبادات وان كان انقص ثوابا من البعض فهى مشتركة في الدوام فهى بأسرها باقية صالحة نظرا الى آثارها التى هى الثواب ثم انه تعالى اخبر انها خير عند ربك ثوابا وخير مردا ولا يجوز أن يقال هذا خير الا والمراد انه خير من غيره فالمراد اذن انها خير مما ظنه الكفار بقولهم خير مقاما واحسن نديا ❊ قوله تعالى ( افرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا سنكتب مايقول ونمد له من العذاب مدا ونرثه مايقول ويأتينا فردا ) اعلم انه تعالى لما ذكر الدلائل أولا على صحة البعث ثم اورد شبهة المنكرين واجاب عنها اورد عنهم الآن ماذكروه على سبيل الاستهزاء طعنا في القول بالحشر فقال أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا قرأ حمزة والكسائى ولدا وهو جمع ولد كأسد في أسد او بمعنى الولد كالعرب في العرب وعن يحيى بن يعمر ولدا بالكسر وعن الحسن نزلت الآية في الوليد بن المغيرة والمشهور انها في العاص بن وائل قال خباب بن الارت كان لى عليه دين فاقتضيته فقال لا والله حتى تكفر بمحمد قلت لا والله لا اكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم لاحيا ولاميتا ولاحين تبعث فقال فانى اذا امت بعثت قلت نعم

بهم حينئذ فقيل تؤزهم اى تغريهم وتهيجهم على المعاصى تهيجا شديدا بانواع الوساوس والتسويلات فان الاز والهز والاستفزاز اخوات معناها شدة الازعاج (فلا تعجل عليهم) اى بأن يهلكوا حسبما تقتضيه جناياتهم ويبيدوا عن آخرهم وتطهر الارض من فسادهم والفاء للاشعار بكون ماقبلها مظنة لوقوع المنهى عنه محوجة الى النهى كما في قوله تعالى ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة وقوله تعالى (انما نعد لهم عدا) تعليل لموجب النهى ببيان اقتراب هلاكهم اى لاتستعجل بهلاكهم فانه لم يبق لهم الا أيام وانفاس نعدها عدا (يوم نحشر المتقين) منصوب على الظرفية بفعل مؤخر قد حذف للاشعار بضيق العبارة عن حصره وشرحه لكمال فظاعة مايقع فيه من الطامة التامة والدواهى العامة كأنه قيل يوم نحشر المتقين اى نجمعهم (الى الرحمن) الى ربهم الذى يغمرهم برحمته الواسعة (وفدا) وافدين عليه كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لكرامتهم وانعامهم (ونسوق المجرمين) كما تساق البهائم (الى جهنم وردا) عطاشا فان من يرد الماء لايورده الا العطش اوكالدواب

قال انی اذابعثت وجئتنی فسیکون لی ثم مال وولد فأعطیك وقیل صاغ حباب له حلیا فاقتضاه فطلب الاجرة فقال انکم تزعمون انکم تبعثون وان فی الجنة ذهبا وفضة وحریرا فانا اقضیك ثم فانی اوتی مالا وولدا حینئذ ثم اجاب الله تعالی عن کلامه بقوله اطلع الغیب ام اتخذ عندالرحمن عهدا قال صاحب الکشاف اطلع الغیب من قولهم اطلع الجبل ای ارتقی الی اعلاه ویقال مرمطلعا لذلك الامر ای غالبا له مالکا له والاختیار فی هذه الکلمة ان نقول أو قد بلغ من عظم شأنه انه ارتقی الی علم الغیب الذی توحد به الواحد القهار والمعنی ان الذی ادعی انه یکون حاصلا له لا یتوصل الیه الا باحد هذین الامرین اما علم الغیب واما عهد من عالم الغیب فبأیهما توصل الیه وقیل فی العهد کلمة الشهادة عن قتادة هل له عمل صالح قدمه فهو یرجو بذلك ما یقول ثم انه سبحانه بین من حاله ضد ماادعاه فقال کلا وهی کلمة ردع وتنبیه علی الخطأ ای هو مخطئ فیما یقوله ویتمناه فان قیل لم قال سنکتب ما یقول بسین التسویف وهو کما قاله کتب من غیر تأخیر قال تعالی مایلفظ من قول الا لدیه رقیب عتید قلنا فیه وجهان (احدهما) سیظهر له ویعلم انا کتبنا (الثانی) ان المتوعد یقول للجانی سوف انتقم منك وان کان فی الحال فی الانتقام ویکون غرضه من هذا الکلام محض التهدید فکذا ههنا اما قوله تعالی ونمد له من العذاب مدا أی نطول له من العذاب مایستأهله ونزیده من العذاب ونضاعف له من المدد یقال مده وأمده بمعنی ویدل علیه قراءة علی بن ابی طالب علیه السلام ونمد له بالضم اما قوله ونرثه مایقول ای یزول عنه ماوعده من مال وولد فلا یعود کما لا یعود الارث الی من خلفه واذا سلب ذلك فی الآخرة یبقی فردا فلذلك قال ویأتینا فردا فلا یصح ان ینفرد فی الآخرة بمال وولد ولقد جئتمونا فرادی کما خلقناکم اول مرة والله أعلم ❊ قوله تعالی (واتخذوا من دون الله آلهة لیکونوا لهم عزا کلا سیکفرون بعبادتهم ویکونون علیهم ضدا ألم تر انا ارسلنا الشیاطین علی الکافرین تؤزهم ازا فلا تعجل علیهم انما نعد لهم عدا یوم نحشر المتقین الی الرحمن وفدا ونسوق المجرمین الی جهنم وردا لا یملکون الشفاعة الا من اتخذ عندالرحمن عهدا) اعلم انه تعالی لما تکلم فی مسئلة الحشر والنشر تکلم الآن فی الرد علی عباد الاصنام فحکی عنهم انهم انما اتخذوا آلهة لانفسهم لیکونوا لهم عزا حیث یکونون لهم عندالله شفعاء وانصارا ینقذونهم من الهلاك ثم اجاب الله تعالی بقوله کلا وهو ردع لهم وانکار لتعززهم بالآلهة وقرأ ابن نهیك کلا سیکفرون بعبادتهم ای کلهم سیکفرون بعبادة هذه الاوثان وفی محتسب ابن جنی کلا بفتح الکاف والتنوین وزعم ان معناه کل هذا الاعتقاد والرأی کلا قال صاحب الکشاف ان صحت هذه الروایة فهی کلا التی هی للردع قلب الواقف علیها الفها نونا کما فی قواریرا واختلفوا فی ان الضمیر فی قوله سیکفرون یعود الی المعبود أو الی العابد فنهم من قال انه یعود الی المعبود ثم قال بعضهم أراد بذلك الملائکة لانهم فی الآخرة یکفرون بعبادتهم

التی ترد الماء تفعل بالفریقین من الافعال مالا یفی ببیانه نطاق المقال وقیل منصوب علی المفعولیة بمضمر مقدم خوطب به النبی صلی الله علیه وسلم ای اذکر لهم بطریق الترغیب والترهیب یوم نحشر الخ وقیل علی الظرفیة لقوله تعالی (لا یملکون الشفاعة) والذی یقتضیه مقام التهویل وتستدعیه جزالة التنزیل ان ینتصب بأحد الوجهین الاولین ویکون هذا استئنافا مبینا لبعض ما فیه من الامور الدالة علی هوله وضمیره عائد الی العباد المدلول علیهم بذکر الفریقین لانحصارهم فیهما وقیل الی المتقین خاصة وقیل الی المجرمین من الکفرة واهل الاسلام والشفاعة علی الاولین مصدر من المبنی للفاعل وعلی الثالث ینبغی ان تکون مصدرا من المبنی للمفعول وقوله تعالی (الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) علی الاول استثناء متصل من لا یملکون ومحل المستثنی اما الرفع علی البدل او النصب علی اصل الاستثناء والمعنی لا یملك العباد ان یشفعوا لغیرهم الا من استعد له بالتحلی بالایمان والتقوی او من امر بذلك من قولهم عهد الامیر الی فلان بکذا اذا أمره به فیکون ترغیبا للناس فی تحصیل الایمان

(ویتبرؤن)

و يتبرؤن منهم و يخاصمونهم وهو المراد من قوله أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون وقال آخرون
ان الله تعالى يحيي الاصنام يوم القيامة حتى يوبخوا عبادهم ويتبرؤا منهم فيكون ذلك
اعظم لحسرتهم ومن الناس من قال الضمير يرجع الى العباد اى ان هؤلاء المشركين يوم
القيامة ينكرون انهم عبدوا الاصنام ثم قال تعالى ثم لم تكن فتنتهم الا ان قالوا والله
ربنا ما كنا مشركين اما قوله ويكونون عليهم ضدا فذكر ذلك فى مقابلة قوله لهم عزا
والمراد ضد العز وهو الذل والهوان اى يكونون عليهم ضدا لما قصدوه وارادوه كأنه
قيل ويكونون عليهم ذلالهم لاعزا او يكونون عليهم عونا والضد العون يقال من
اضدادكم اى من اعوانكم وكان العون يسمى ضدا لانه يضاد عدوك وينافيه باعانته لك
عليه فان قيل ولم وحد قلنا وحد توحيد قوله عليه السلام وهم يد على من سواهم لاتفاق
كلمتهم فانهم كشئ واحد لفرط انتظامهم وتوافقهم ومعنى كون الآلهة عونا عليهم انهم
وقود النار وحصب جهنم ولانهم عذبوا بسبب عبادتها واعلم انه تعالى لما ذكر حال
هؤلاء الكفار مع الاصنام فى الآخرة ذكر بعده حالهم مع الشياطين فى الدنيا فانهم يسئلونهم
و ينقادون لهم فقال انا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم ازا وفيه مسائل
(المسئلة الاولى) احتج الاصحاب بهذه الآية على ان الله تعالى مريد لجميع الكائنات
فقالوا قول القائل ارسلت فلانا على فلان موضوع فى اللغة لافادة انه سلطه عليه لارادة
ان يستولى عليه قال عليه السلام سم الله وارسل كلبك عليه اذا ثبت هذا فقوله انا ارسلنا
الشياطين على الكافرين يفيد انه تعالى سلطهم عليهم لارادة ان يستولوا عليهم وذلك
يفيد المقصود ثم يتأكد هذا بقوله تؤزهم ازا فان معناه انا ارسلنا الشياطين على
الكافرين لتؤزهم ازا ويتأكد بقوله واستفزز من استطعت منهم قال القاضى حقيقة
اللفظ توجب انه تعالى ارسل الشياطين الى الكفار كما ارسل الانبياء بأن حملهم رسالة
يؤدونها اليهم فلا يجوز فى تلك الرسالة الا ما ارسل عليه الشياطين من الاغواء فكان يجب
فى الكافر ان يكونوا بقبولهم من الشياطين مطيعين وذلك كفر من قائله ولان من العجب
تعلق المجبرة بذلك لان عندهم ان ضلال الكفار من قبله تعالى بأن خلق فيهم الكفر وقدر
الكفر فلا تأثير لما يكون من الشيطان واذا بطل حمل اللفظ على ظاهره فلا بد من التأويل
فنحمله على انه تعالى خلى بين الشياطين وبين الكفار وما منعهم من اغوائهم وهذه التخلية
تسمى ارسالا فى سعة اللغة كما اذا لم يمنع الرجل كلبه من دخول بيت جيرانه يقال ارسل
كلبه عليه وان لم يرد اذى الناس وهذه التخلية وان كان فيها تشديد للمحنة عليهم فهم
متمكنون من ان لايقبلوا منهم ويكون ثوابهم على ترك القبول اعظم والدليل عليه
قوله تعالى وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا
انفسكم هذا تمام كلامه ونقول لا نسلم انه لايمكن حمله على ظاهره فان قوله الشياطين
لو ارسلهم الله الى الكفار لكان الكفار مطيعين له بقبول قول الشياطين قلنا الله تعالى

والتقوى المؤدى الى نيل هذه
الرتبة وعلى الثانى استثناء من
الشفاعة على حذف المضاف
والمستثنى منصوب على البدل
اوعلى اصل الاستثناء اى لايملك
المتقون الشفاعة الا شفاعة من
اتخذ العهد بالاسلام فيكون ترغيبا
فى الاسلام وعلى الثالث استثناء
من لايملكون ايضا والمستثنى
مرفوع على البدل اومنصوب
على الاصل والمعنى لايملك
المجرمون ان يشفع لهم الا من
كان منهم مسلما (وقالوا اتخذ
الرحمن ولدا) حكاية لجناية
اليهود والنصارى ومن يزعم
من العرب ان الملائكة بنات الله
سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا
اثر حكاية عبدة الاصنام بطريق
عطف القصة على القصة وقوله
تعالى (لقد جئتم شيئا ادا) رد
لمقالتهم الباطلة وتهويل لامرها
بطريق الالتفات المنبئ عن كمال
السخط وشدة الغضب المفصح عن
غاية التشنيع والتقبيح وتسجيل
عليهم بنهاية الوقاحة والجهل
والجراءة والاد بالكسر والفتح
العظيم المنكر والادة الشدة وادنى
الامر وآدنى اثقلنى وعظم على اى
فعلتم امرا منكرا شديدا لايقادر
قدره فان جاء واتى يستعملان
فى معنى فعل فيعديان تعديته
وقوله تعالى (تكاد السموات)
الخ صفة لادا او

ما ارسل الشياطين الى الكفار بل ارسلها عليهم و الارسال عليهم هو التسليط لارادة أن يصير مستوليا عليه فأين هذا من الارسال اليهم قوله ضلال الكافر من قبل الله تعالى فأى تأثير للشيطان فيه قلنا لم لايجوز ان يقال ان اسماع الشيطان اياه تلك الوسوسة يوجب فى قلبه ذلك الضلال بشرط سلامة فهم السامع لان كلام الشيطان من خلق الله تعالى فيكون ذلك الضلال الحاصل فى قلب الكافر منتسبا الى الشيطان و الى الله تعالى من هذين الوجهين قوله لم لايجوز ان يكون المراد بالارسال التخلية قلنا كما خلى بين الشيطان و الكفرة فقد خلى بينهم و بين الانبياء ثم انه تعالى خص الكافر بأنه أرسل الشيطان عليه فلابد من فائدة زائدة ههنا و لان قوله تؤزهم ازا اى تحركهم تحريكا شديدا كالغرض من ذلك الارسال فوجب ان يكون ذلك الأزمراد الله تعالى و يحصل المقصود منه فهذا ما فى هذا الموضع و الله اعلم ( المسئلة الثانية ) قال ابن عباس تؤزهم أزا أى تزعجهم فى المعاصى ازعاجا نزلت فى المستهزئين بالقرآن و هم خمسة رهط قال صاحب الكشاف الازو الهزو الاستفزاز اخوات فى معنى التهييج و شدة الازعاج أى تغريهم على المعاصى و تحثهم و تهيجهم لها بالوساوس و التسويلات اما قوله تعالى فلا تعجل عليهم انما نعد لهم عدا يقال عجلت عليه بكذا اذا استعجلته به اى لاتعجل عليهم بان يهلكوا او يبيدوا حتى تستريح انت و المسلمون من شرورهم فليس بينك و بين ماتطلب من هلاكهم الا ايام محصورة و انفاس معدودة و نظيره قوله تعالى و لاتستعجل لهم كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا الاساعة من نهار بلاغ عن ابن عباس انه كان اذا قرأها بكى و قال آخر العدد خروج نفسك آخر العدد دخول قبرك آخر العدد فراق اهلك و عن ابن السماك رحمه الله انه كان عند المأمون فقرأها فقال اذا كانت الانفاس بالعدد و لم يكن لها مدد فما اسرع ماتنفد و ذكروا فى قوله نعد لهم عدا وجهين آخرين ( الاول ) نعد انفاسهم و اعمالهم فنجازيهم على قليلها و كثيرها ( و الثانى ) نعد الاوقات الى وقت الاجل المعين لكل احد الذى لايتطرق اليه الزيادة و النقصان ثم بين سبحانه ماسيظهر فى ذلك اليوم من الفصل بين المتقين و بين المجرمين فى كيفية الحشر فقال يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا قال صاحب الكشاف نصب يوم بمضمر اى يوم نحشر و نسوق نفعل بالفريقين مالا يحيط به الوصف او اذكر يوم نحشر و يجوز ان ينتصب بلايملكون عن على عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم و الذى نفسى بيده ان المتقين اذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها اجنحة عليها رحال الذهب ثم تلا هذه الآية و فيها مسائل ( المسئلة الاولى ) قال القاضى هذه الآية احدما يدل على ان اهوال يوم القيامة تختص بالمجرمين لان المتقين من الابتداء يحشرون على هذا النوع من الكرامة فهم آمنون من الخوف فكيف يجوز ان تنالهم الاهوال ( المسئلة الثانية ) المشبهة احتجوا بالآية و قالوا قوله الى الرحمن يفيد ان انتهاء حركتهم يكون عند الرحمن و اهل التوحيد يقولون

استئناف ببيان عظم شأنه فى الشدة والهول وقرئ يكاد بالتذكير ( يتفطرن منه ) يتشققن مرة بعد اخرى من عظم ذلك الامر وقرئ ينفطرن والاول ابلغ لان تفعل مطاوع فعل وانفعل مطاوع فعل ولان اصل التفعل التكلف ( وتنشق الارض ) اى وتكاد تنشق الارض ( وتخر الجبال ) اى تسقط وتهدم وقوله تعالى ( هدا ) مصدر مؤكد لمحذوف هو حال من الجبال اى تهد هدا او مصدر من المبنى للمفعول مؤكد لتخر على غير الصدر لانه حينئذ بمعنى التهدم والخرور كأنه قيل وتخر الجبال خرورا او مصدر بمعنى المفعول منصوب على الحالية اى مهدودة او مفعول له اى لانها تهد و هذا تقرير لكونه ادا والمعنى ان هول تلك الكلمة الشنعاء وعظمها بحيث لو تصورت بصورة محسوسة لم تطق بها هاتيك الاجرام العظام وتفتتت من شدتها اوان فظاعتها فى استجلاب الغضب واستيجاب السخط بحيث لولا حلمه تعالى لخرب العالم و بددت قوائمه غضبا على من تفوه بها ( ان دعوا للرحمن ولدا ) منصوب على حذف اللام المتعلقة بتكاد او مجرور باضمارها اى تكاد السموات يتفطرن والارض تنشق والجبال تخر لأن دعواله

المعنى يوم نحشر المتقين الى محل كرامة الرحمن ( المسئلة الثالثة ) طعن الملحد فيه فقال قوله يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا هذا انما يستقيم ان لو كان الحاشر غير الرحمن اما اذا كان الحاشر هو الرحمن فهذا الكلام لا ينتظم اجاب المسلمون بأن التقدير يوم نحشر المتقين الى كرامة الرحمن اما قوله ونسوق المجرمين الى جهنم وردا فقوله نسوق يدل على انهم يساقون الى النار باهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق الى الماء والورد اسم للعطاش لان من يرد الماء لا يرده الا للعطش وحقيقة الورود السير الى الماء فسمى به الواردون اما قوله لا يملكون الشفاعة اى فليس لهم والظاهر ان المراد شفاعتهم لغيرهم او شفاعة غيرهم لهم فلذلك اختلفوا وقال بعضهم لا يملكون ان يشفعوا لغيرهم كما يملك المؤمنون وقال بعضهم بل المراد لا يملك غيرهم ان يشفعوا لهم وهذا الثانى اولى لان حمل الآية على الاول يجرى مجرى ايضاح الواضحات واذا ثبت ذلك دلت الآية على حصول الشفاعة لاهل الكبائر لانه قال عقيبه الا من اتخذ عند الرحمن عهدا والتقدير ان هؤلاء لا يستحقون ان يشفع لهم غيرهم الا اذا كانوا قد اتخذوا عند الرحمن عهدا التوحيد والنبوة فوجب ان يكون داخلا تحته ومما يؤكد قولنا ما روى ابن مسعود انه عليه السلام قال لاصحابه ذات يوم ايعجز احدكم ان يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدا قالوا وكيف ذلك قال يقول كل صباح ومساء اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انى اعهد اليك بانى اشهد ان لا اله الا انت وحدك لا شريك لك وان محمدا عبدك ورسولك فانك ان تكلنى الى نفسى تقربنى من الشر وتبعدنى من الخير وانى لا اثق الا برحمتك فاجعل لى عهدا توفينيه يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد فاذا قال ذلك طبع الله عليه بطابع ووضع تحت العرش فاذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين لهم عند الرحمن عهد فيدخلون الجنة فظهر بهذا الحديث ان المراد من العهد كلمة الشهادة وظهر وجه دلالة الآية على ان الشفاعة لاهل الكبائر وقال القاضى الآية دالة على مذهبه وقد ظهر ان الآية قوية فى الدلالة على قولنا والله اعلم * قوله تعالى

(وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ان دعوا للرحمن ولدا وما ينبغى للرحمن ان يتخذ ولدا ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا لقد احصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ) اعلم انه تعالى لما رد على عبدة الاوثان عاد الى الرد على من اثبت له ولدا فقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت العرب الملائكة بنات الله والكل داخلون فى هذه الآية ومنهم من خصها بالعرب الذين اثبتوا ان الملائكة بنات الله قالوا لان الرد على النصارى تقدم فى اول السورة اما الآن فانه لما رد على العرب الذين قالوا بعبادة الاوثان تكلم فى افساد قول الذين قالوا بعبادة الملائكة لكونهم بنات الله اما قوله لقد جئتم شيئا ادا فقرئ ادا بالكسر والفتح قال ابن خالويه الاد والاد العجب

سبحانه ولدا وقيل اللام متعلقة بهدا وقيل الجملة بدل من الضمير المجرور فى منه كما فى قوله

* على جوده لضن بالماء حاتم *

وقيل خبر مبتدأ محذوف اى الموجب لذلك ان دعوا الخ وقيل فاعل هدا اى هدها دعاء الولد والاول هو الاولى ودعوا من دعاء بمعنى سمى المتعدى الى مفعولين وقد اقتصر على ثانيهما ليتناول كل ما دعى له ولدا او من دعا بمعنى نسب الذى مطاوعه ادعى الى فلان اى انتسب اليه وقوله تعالى (وما ينبغى للرحمن ان يتخذ ولدا) حال من فاعل قالوا او دعوا مقررة لبطلان مقالتهم واستحالة تحقق مضمونها اى قالوا اتخذ الرحمن ولدا او ان دعوا للرحمن ولدا والحال انه ما يليق به تعالى اتخاذ الولد ولا يتطلب له لو طلب مثلا لاستحالته فى نفسه ووضع الرحمن موضع الضمير للاشعار بعلة الحكم بالتنبيه على ان كل ما سواه تعالى اما نعمة او منعم عليه فكيف يتسنى ان يجانس من هو مبدأ النعم ومولى اصولها وفروعها حتى يتوهم ان يتخذه ولدا وقد صرح به قوله عز قائلا (ان كل من فى السموات والارض) اى ما منهم احد من الملائكة والثقلين (الا آتى الرحمن عبدا) الا وهو مملوك له يأوى اليه بالعبودية والانقياد وقرئ آت

وقيل المنكر العظيم والادة الشدة وادنى الامر وآدنى ثقلني قرئ يتفطرن بالتاء بعد الياء اعني المعجمة من تحتها واختلفوا في يكاد فقرأ بعضهم بالياء المعجمة من تحتها وبعضهم بالتاء من فوق والانفطار من فطره اذا شقه والتفطر من فطره اذا شققه وكرر الفعل فيه وقرأ ابن مسعود يتصدعن وقوله وتخر الجبال هدا اى تهد هدا او مهدودة او مفعول له اى لانها تهدو المعنى انها تتساقط اشد مايكون تساقط البعض على البعض فان قيل من اين يؤثر القول باثبات الولد لله تعالى في انفطار السموات وانشقاق الارض وخرور الجبال قلنا فيه وجوه ( احدها ) ان الله سبحانه وتعالى يقول أفعل هذا بالسموات والارض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبا مني على من تفوه بها لولا حلمي واني لا اعجل بالعقوبة كما قال ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ولئن زالتا ان امسكهما من احد من بعده انه كان حليما غفورا ( وثانيها ) ان يكون استعظاما للكلمة وتهويلا من فظاعتها وتصويرا لاثرها في الدين وهدمها لاركانه وقواعده (وثالثها) ان السموات والارض والجبال تكاد ان تفعل ذلك لو كانت تعقل من غلظ هذا القول وهذا تأويل ابي مسلم ( ورابعها ) ان السموات والارض والجبال كانت سليمة من كل العيوب فلما تكلم بنو آدم بهذا القول ظهرت العيوب فيها اما قوله ان دعوا للرحمن ولدا ففيه مسائل ( المسئلة الاولى ) في اعرابه ثلاثة اوجه ( احدها ) ان يكون مجرورا بدلا من الهاء في منه او منصوبا بتقدير سقوط اللام وافضاء الفعل اى هذا لان دعوا او مرفوعا بأنه فاعل هدا اى هدها دعاء الولد للرحمن والحاصل انه تعالى بين ان سبب تلك الامور العظيمة هذا القول ( المسئلة الثانية ) انما كرر لفظ الرحمن مرات تنبيها على انه سبحانه وتعالى هو الرحمن وحده من قبل ان اصول النعم وفروعها ليست الا منه ( المسئلة الثالثة ) قوله دعوا للرحمن هو من دعا بمعنى سمى المتعدى الى مفعولين فاقتصر على احدهما الذى هو الثاني طلبا للعموم والاحاطة بكل من ادعى له ولدا او من دعا بمعنى نسب الذى هو مطاوعه ما في قوله صلى الله عليه وسلم من ادعى الى غير مواليه قال الشاعر * انا بني نهشل لاندعى لاب * اى لانتسب اليه ثم قال تعالى وماينبغي للرحمن ان يتخذ ولدا اى هو محال اما الولادة المعروفة فلامقال في امتناعها واما التبني فلان الولد لابد وان يكون شبيها بالوالد ولا مشبه لله تعالى ولان اتخاذ الولد انما يكون لاغراض لاتصح في الله من سروره به واستعانته به وذكر جميل وكل ذلك لايليق به ثم قال ان كل من في السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا والمراد انه مامن معبود لهم في السموات والارض من الملائكة والناس الا وهو يأتي الرحمن اى يأوى اليه ويلتجئ الى ربوبيته عبدا منقادا مطيعا خاشعا راجيا كما يفعل العبيد ومنهم من حمله على يوم القيامة خاصة والاول اولى لانه لاتخصيص فيه وقوله لقد أحصاهم وعدهم عدا اى كلهم تحت أمره وتدبيره وقهره وقدرته فهو سبحانه محيط بهم ويعلم مجمل أمورهم وتفاصيلها لايفوته شئ من

الرحمن على الاصل (لقد احصاهم) اى حصرهم واحاط بهم بحيث لايكاد يخرج منهم احد من حيطة علمه وقبضة قدرته وملكوته (وعدهم عدا) اى عد اشخاصهم وانفاسهم وافعالهم وكل شئ عنده بمقدار ( وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) اى كل واحد منهم آت اياه تعالى منفردا من الاتباع والانصار وفي صيغة الفاعل من الدلالة على اتيانهم كذلك البتة ماليس في صيغة المضارع لو قيل يأتيه فاذا كان شأنه تعالى وشأنهم كما ذكر فأنى يتوهم احتمال ان يتخذ شيئا منهم ولدا (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ) لما فصلت قبائح احوال الكفرة عقب ذلك بذكر محاسن احوال المؤمنين ( سيجعل لهم الرحمن ودا ) اى سيحدث لهم في القلوب مودة من غير تعرض منهم لاسبابها سوى مالهم من الايمان والعمل الصالح والتعرض لعنوان الرحمانية لما ان الموعود من آثارها وعن النبي عليه الصلاة والسلام اذا احب الله عبدا يقول لجبريل عليه السلام اني احب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى في أهل السماء ان الله احب فلانا فأحبوه فيحبه اهل السماء ثم يوضع له المحبة في الارض والسين لان السورة مكية وكانوا اذ ذاك ممقوتين بين الكفرة فوعدهم ذلك

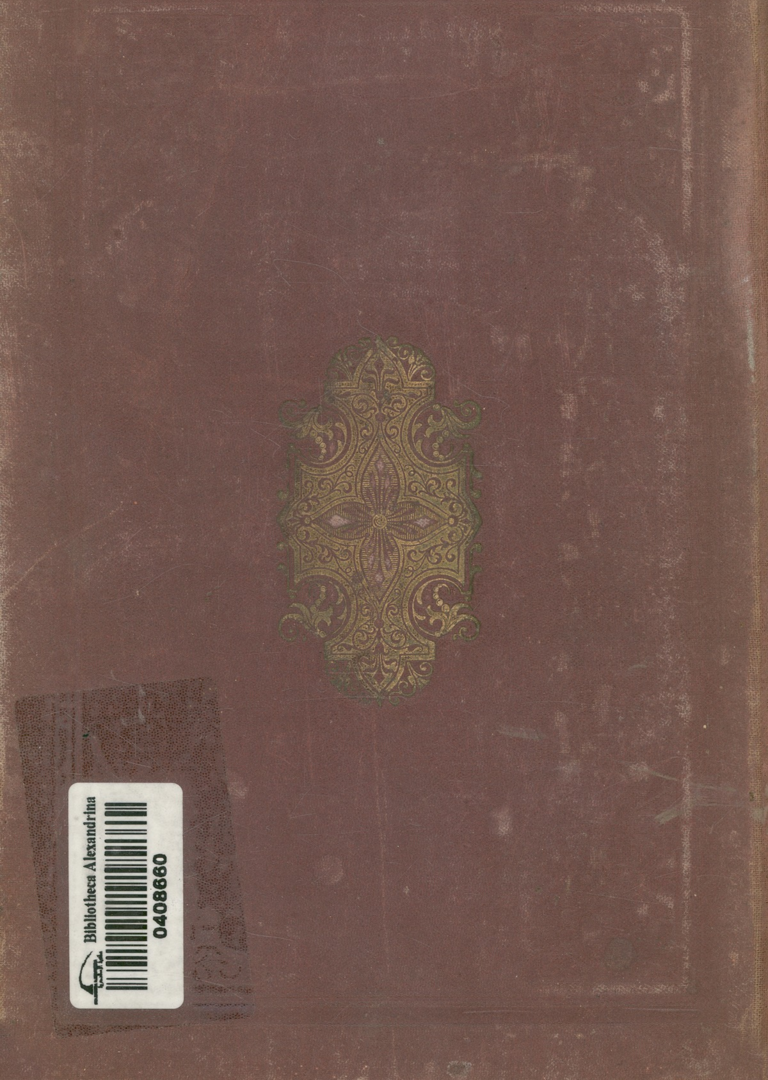
احوالهم وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفردا ليس معه من هؤلاء المشركين أحد
وهم برآء منهم ※ قوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا
فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا وكم اهلكنا قبلهم من قرن هل
تحس منهم من احد او تسمع لهم ركزا) اعلم انه تعالى لما رد على اصناف الكفرة وبالغ في
شرح احوالهم في الدنيا والآخرة ختم السورة بذكر احوال المؤمنين فقال ان الذين
آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا وللمفسرين في قوله ودا قولان (الاول)
وهو قول الجمهور انه تعالى سيحدث لهم في القلوب مودة ويزرعها لهم فيها من غير تودد
منهم ولا تعرض للاسباب التي يكتسب الناس بها مودات القلوب من قرابة او صداقة
او اصطناع معروف او غير ذلك وانما هو اختراع منه تعالى وابتداء تخصيصا لاوليائه
بهذه الكرامة كما قذف في قلوب اعدائهم الرعب والهيبة اعظاما لهم واجلالا لمكانهم
والسين في سيجعل اما لان السورة مكية وكان المؤمنون حينئذ ممقوتين بين الكفرة
فوعدهم الله تعالى ذلك اذا جاء الاسلام واما ان يكون ذلك يوم القيامة يحببهم الى خلقه
بما يعرض من حسناتهم وينشر من ديوان اعمالهم عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه
الآية اذا أحب الله عبدا نادى جبريل قد احببت فلانا فأحبوه فينادي جبريل عليه
السلام بذلك في السماء والارض واذا أبغض عبدا فمثل ذلك وعن كعب قال مكتوب في
التوراة والانجيل لا محبة لاحد في الارض حتى يكون ابتداؤها من الله تعالى ينزلها على
اهل السماء ثم على اهل الارض وتصديق ذلك في القرآن قوله سيجعل لهم الرحمن ودا
(القول الثاني) وهو اختيار ابي مسلم معنى سيجعل لهم الرحمن ودا اي يهب لهم ما يحبون
والود والمحبة سواء يقال آتيت فلانا محبته وجعل لهم ما يحبون وجعلت له وده ومن
كلامهم يود لو كان كذا وودت ان لو كان كذا اي احببت ومعناه سيعطيهم الرحمن
ودهم اي محبوبهم في الجنة (والقول الاول) اولى لان حمل المحبة على المحبوب مجاز
ولانا ذكرنا ان الرسول صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وفسرها بذلك فكان ذلك اولى
وقال ابو مسلم بل القول الثاني اولى لوجوه (احدها) كيف يصح القول الاول مع علمنا
بأن المسلم المتقي يبغضه الكفار وقد يبغضه كثير من المسلمين (وثانيها) ان مثل هذه المحبة
قد تحصل للكفار والفساق اكثر فكيف يمكن جعله انعاما في حق المؤمنين (وثالثها) ان
محبتهم في قلوبهم من فعلهم لأن الله تعالى فعله فكان حمل الآية على اعطاء المنافع
الاخروية اولى والجواب عن الاول ان المراد يجعل لهم الرحمن محبة عند الملائكة
والانبياء وروى عنه عليه السلام انه حكى عن ربه عزوجل انه قال اذا ذكرني عبدي
المؤمن في نفسه ذكرته في نفسي واذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ أطيب منهم وافضل وهذا
هو الجواب عن الكلام الثاني لان الكافر والفاسق ليس كذلك والجواب عن الثالث
انه محمول على فعل الالطاف وخلق داعية اكرامه في قلوبهم اما قوله تعالى فانما يسرناه

ثم انجزه حين ربا الاسلام او لان
الموعود في القيامة حين تعرض
حسناتهم على رؤس الاشهاد
فينزع ما في صدورهم من الغل
الذي كان في الدنيا ولعل افراد
هذا بالوعد من بين ما سيؤتون
يوم القيامة من الكرامات السنية
لما ان الكفرة سيقع بينهم يومئذ
تباغض وتضاد وتقاطع وتلاعن
(فانما يسرناه) اي القرآن
(بلسانك) بأن انزلناه على لغتك
والباء بمعنى على وقيل ضمن
التيسير معنى الانزال اي يسرنا
القرآن منزلين له بلغتك والفاء
لتعليل امر ينساق اليه النظم
الكريم كأنه قيل بعد ايحاء
السورة الكريمة بلغ هذا المنزل
او بشر به وانذر فانما يسرناه
بلسانك العربي المبين (لتبشر به
المتقين) اي الصائرين الى التقوى
بامتثال ما فيه من الامر والنهي
(وتنذر به قوما لدا) لا يؤمنون به
لجاجا وعنادا واللد جمع الالد
وهو الشديد الخصومة اللجوج
المعاند وقوله تعالى (وكم اهلكنا
قبلهم من قرن) وعد لرسول الله
صلى الله عليه وسلم في ضمن وعيد
الكفرة بالاهلاك وحث له عليه
الصلاة والسلام على الانذار أي
قرنا كثيرا اهلكنا قبل هؤلاء
المعاندين وقوله تعالى (هل تحس
منهم من احد) استئناف مقرر
لمضمون ما قبله اي هل تشعر باحد

بلسانك لتبشر به المتقين فهو كلام مستأنف بين به عظيم موقع هذه السورة لما فيها من التوحيد والنبوة والحشر والنشر والرد على فرق الضالين المبطلين فبين تعالى انه يسر ذلك بلسانه ليبشر به وينذر ولولا انه تعالى نقل قصصهم الى اللغة العربية لما تيسر ذلك على الرسول صلى الله عليه وسلم فاما أن القرآن يتضمن تبشير المتقين وانذار من خرج منهم فبين لكنه تعالى لما ذكر انه يبشر به المتقين ذكر في مقابلته من هو في مخالفة التقوى ابلغ وابلغهم الالد الذي يتمسك بالباطل ويجادل فيه ويتسدد وهو معنى لدا ثم انه تعالى ختم السورة بموعظة بليغة فقال وكم اهلكنا من قرن لانهم اذا تأملوا وعلموا انه لابد من زوال الدنيا والانتهاء الى الموت خافوا ذلك وخافوا ايضا سوء العاقبة في الآخرة فكانوا فيها الى الحذر من المعاصي اقرب ثم اكد تعالى ذلك فقال هل تحس منهم من احد لان الرسول عليه السلام اذا لم يحس منهم احدا برؤية او ادراك او وجدان ولا يسمع لهم ركزا وهو الصوت الخفي ومنه ركز الرمح اذا غيب طرفه في الارض والركاز المال المدفون دل ذلك على انقراضهم وفنائهم بالكلية والاقرب في قوله اهلكنا ان المراد به الانقراض بالموت وان كان من المفسرين من حمله على العذاب المعجل في الدنيا والله اعلم بالصواب واليه المرجع والمآب والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامي وعلى آله وصحبه وسلم

تم الجزء الخامس ويليه الجزء السادس اوله سورة طه عليه السلام

منهم وترى (او تسمع لهم ركزا) اى صوتا خفيا واصل الركز هو الخفاء ومنه ركز الرمح اذا غيب طرفه في الارض والركاز المال المدفون لخفي والمعنى اهلكناهم بالكلية واستأصلناهم بحيث لا يرى منهم احد ولا يسمع منهم صوت خفي * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة مريم اعطى عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ويحيى وعيسى ومريم وسائر الانبياء المذكورين فيها وبعدد من دعا الله تعالى في الدنيا ومن لم يدع الله تعالى


Bibliotheca Alexandrina
0408660